

تفسير الكبير للرحمن  
في تفسير كلام القرآن

تأليف  
العلامة الشيخ  
عبد الرحمن بن ناصر السعدي  
وقدم له

فضيلة الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل  
فضيلة الشيخ محمد صالح العثيمين

اعتنى به تحقيقاً ومطابطة

عبد الرحمن بن معلا اللويحي

طبعة جديدة ومنقحة عن نسخ خطية مع زيادات  
تطبع لأول مرة

مكتبة العبيكان

# تفسير الكبرياء الحبيب

## في تفسير كلام المثنان

تأليف

العلامة الشيخ

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

١٣٧٧ هـ - ١٣٧٦ هـ بحمد الله تعالى

وتتم له

فضيلة الشيخ محمد صالح العثيمين

فضيلة الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عجيل

اعتنى به تحقيقاً ومقابلة

عبد الرحمن بن معاذ التويحي

الطبعة الأولى  
١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م

حقوق الطبع محفوظة للناشر

**مكتبة العبيكان**

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة.

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩









## المقدمات

مقدمة فضيلة الشيخ: عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل.

مقدمة فضيلة الشيخ: محمد بن صالح العثيمين.

مقدمة الحق.





## مقدمة

صاحب الفضيلة الشيخ: عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً.  
أما بعد:

فإن الله بحكمته ورحمته أنزل كتابه تبياناً لكل شيء، وجعله هدى وبرهاناً لهذه الأمة، ويسره للذكر والتلاوة والهداية بجميع أنواعها ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ أنزله بلسان عربي مبين، وتكفل بحفظه وإبلاغه لجميع البشر، وقبض له من العلماء من يفسرونه، ويبلغونه للناس ألفاظه ومعانيه، لتتم بذلك الهداية وتقوم به الحججة. وقد أكثر العلماء من التأليف في تفسير القرآن العظيم كل بما أوتي من علم، فمنهم من يفسر القرآن بالقرآن، ومنهم من يفسره بالأخبار والآثار، ومنهم من يفسره من حيث اللغة العربية بأنواعها، ومنهم من يعتني بآيات الأحكام إلى غير ذلك.

وقد كان لشيخنا العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي - رحمه الله - من ذلك حظ وافر وذلك بتفسيره المسمى: (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) حيث جاء هذا التفسير سهل العبارة، واضح الإشارة، وصاغه على نمط بديع بعبارات قريبة لا خفاء فيها ولا غموض، فهو يعتني بإيضاح المعنى المقصود من الآية بكلام مختصر مفيد، مستوعب لجميع ما تضمنته الآية من معنى أو حكم سواء من منطوقها أو مفهومها، دون إطالة أو استطراد أو ذكر قصص أو إسرائيلييات، أو حكاية أقوال تخرج عن المقصود، أو ذكر أنواع الإعراب إلا في النادر الذي يتوقف عليه المعنى، بل يركز على المعنى المقصود من الآية بعبارة واضحة يفهمها كل من يقرؤها مهما كان مستواه العلمي فهو في الحقيقة سهل محتسب يفهم معناه من مجرد تلاوة لفظه، وقد اهتم بتريخ العقيدة السلفية، والتوجه إلى الله، واستنباط الأحكام الشرعية، والقواعد الأصولية، والفوائد الفقهية إلى غير ذلك من الفوائد الأخرى التي لا توجد في غير تفسيره مع اهتمامه بتفسير آيات الصفات بمقتضى عقيدة السلف خلافاً لما يؤولها بعض المفسرين.

وقد منّ الله عليّ فسمعت منه بعض تفسيره شفهاً في حلقات الدروس في مسجد الجامع بعنيزة، كما أنني ممن أشار عليه بطبعه فطبع الجزء الخامس فقط في حياته عام ١٣٧٥هـ في المطبعة السلفية بمصر، وبعد ذلك تشاورنا في طبع بقية، وساهمت في ذلك أيام كنت قاضياً في عنيزة فطبع باقيه بعد وفاته في عامي ٧٦ و ٧٧، وبعد تمام طبعه تداوله الناس بالقراءة والتدريس، ودرسه لإخواننا وأبنائنا الطلاب وحصل بذلك خير كثير وقرأه أئمة المساجد على جماعاتهم لوضوح عباراته. وقد طبع بعد ذلك طبعات أخرى لا يخلو كل منها من ملاحظة أو مواخذة.

ولما صارت طبعاته بهذه المثابة مع حاجة الناس إليه سمت همة ابنتنا الشيخة الفاضلة: عبد الرحمن بن معلا اللويحي الأستاذ بكلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية إلى طبعه على هامش المصحف الموجه كل جزء (٢٠) صفحة مراعيّاً في كل صفحة وضع ما يتعلق بتفسيرها. وقد عرض عليّ النماذج الأولى لهذه الطبعة فأعجبني، وسررت بها جداً مؤملاً أن تكون هذه الطبعة خير معين على فهم كتاب الله تعالى، والاعتناء به تلاوة وحفظاً وفهماً، لأنه بهذا الصنيع يقرب الاستفادة لتالي القرآن لسهولة

التناول وسرعة الرجوع إلى تفسير الآية من نفس الصفحة بدلاً من الرجوع إليها من كتب التفسير البعيدة. كما أنه سيعتني بتصحيح الأصل وجودة الطبع، فأسال الله أن يشكر للابن الشيخ عبد الرحمن بن مملا اللويحق هذا الصنيع المبارك وأن يجزيه أفضل الجزاء وأن ينفع بهذه الطبعة كما نفع بسابقاتها وأن يجزي كل من ساهم في إخراج هذا المشروع النافع أفضل الجزاء وأن يتغمد الجميع ومؤلف التفسير برحمته إنه جواد كريم وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

حرر في ١٤١٦ / ٩ / ٢٧ هـ

وكتبه الفقير إلى الله

عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل

رئيس الهيئة الدائمة بمجلس القضاء الأعلى سابقاً

وعضو بمجلس القضاء الأعلى (متقاعد)

## مقدمة

## صاحب الفضيلة الشيخ: محمد بن صالح العثيمين

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن تفسير شيخنا عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى المسمى (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) من أحسن التفاسير حيث كان له ميزات كثيرة:

منها سهولة العبارة ووضوحها حيث يفهمها الراسخ في العلم ومن دونه.

ومنها تجنب الحشو والتطويل الذي لا فائدة منه إلا إضاعة وقت القارئ وتبليبل فكره.

ومنها تجنب ذكر الخلاف إلا أن يكون الخلاف قوياً تدعو الحاجة إلى ذكره وهذه ميزة مهمة بالنسبة للقارئ حتى يثبت فهمه على شيء واحد.

ومنها السير على منهج السلف في آيات الصفات فلا تحريف ولا تأويل يخالف مراد الله بكلامه فهو عمدة في تقرير العقيدة.

ومنها دقة الاستنباط فيما تدل عليه الآيات من الفوائد والأحكام والحكم وهذا يظهر جلياً في بعض الآيات كآية الرضوء في سورة المائدة حيث استنبط منها خمسين حكماً وكما في قصة داود وسليمان في سورة ص.

ومنها أنه كتاب تفسير وتربية على الأخلاق الفاضلة كما يتبين في تفسير قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین﴾

ومن أجل هذا أشير على كل مرید لاقتناء كتب التفسير أن لا تخلو مكتبته من هذا التفسير القيم.

وأسأل الله تعالى أن ينفع به مؤلفه وقارئه إنه كريم جواد وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان.

كتبه محمد الصالح العثيمين

في ١٥ / رمضان ١٤١٦ هـ





## مقدمة المحقق

الحمد لله نعمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإن إنزال القرآن الكريم على هذه الأمة منة عظيمة؛ لأنه سبيل الهداية، وطريق السلامة من الضلال والغواية: ﴿فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً﴾.

ولكن الاستفادة الحقة من هذا الكتاب الكريم تكون بدوام الصلة به علماً وعملاً، تلاوة وتدبراً، وفهماً: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾ ومن سبيل ذلك التدبر، والفهم: النظر فيما كتب أهل العلم في تفسير القرآن العظيم؛ فإن من كمال حفظ الله عز وجل لهذا الذكر الحكيم أن قبض له جهابذة فهموا مراد الله عن الله وعن رسوله ﷺ فألقوا في ذلك كتباً بسطوا فيها ألفاظ القرآن، وأبانوا ما يعسر فهمه، وفصلوا ما جاء فيه من القواعد والكليات، ودفقوا التعارضات المتوهمة، وبيّنوا مراجع الضمان، وعينوا المعاني المرادة إذا احتمل الكلام أوجهاً متعددة وكانوا طرائق قديداً في عنايتهم بهذا الكتاب العظيم حتى جاء شيخ مشايخنا العلامة: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي رحمه الله فجعل جل عنايته بالمعاني التي هي المراد الأعظم، فكان كتابه فتحاً في هذا العلم؛ إذ أوقف القارئ على المراد، وأعانته على تدبر التنزيل، دون أن يقف به على المشغلات الصارفات عن ذلك كالبحوث اللغوية الصرفة، والإسرائيليات ونحوها، وليس ذلك عن قصور إذ لا يبلغ هذا المبلغ من القدرة على تسهيل المعاني، وبيان المراد إلا من ملك من علوم الآلة، وسعة الاطلاع على كتب التفسير ما يؤهله للقيام بهذه المهمة العظيمة.

ولقد من الله عليّ بالعناية بهذا التفسير، ومحبة صاحبه رحمه الله وقراءة التفسير وإقرائه، والنصح بقراءته، ومن الله عليّ بالعناية بطبعه في مجلد واحد يهدم الحواجز النفسية الصادة عن قراءته في مجلداته السبعة التي كان عليها في أشهر طبعاته السابقة، وكان الهم منصرفاً إلى ذلك، ولم يكن الذهن ملتفتاً إلى طبعات الكتاب وما فيها من أخطاء حتى هاتفتني بعض أفاضل طلبة العلم من المشايخ الكرام كان منهم: فضيلة الدكتور: عبد الرزاق بن الشيخ عبد المحسن العباد البدر، وفضيلة الدكتور: خالد بن عثمان السبت، حيث جرت مهاتفات معهما ومقابلة للشيخ: عبد الرزاق كانت فاتحة خير للاهتمام بالتفسير وينسخه المخطوطة، وطبعاته فتبين أن في الطبعات عواراً كثيراً، وأن التفسير لم يخرج حتى الآن على الصورة التي تركها الشيخ - رحمه الله - وبيان ذلك يحتاج إلى تفصيل تاريخي لكتابة الشيخ لهذا التفسير، وما وقع من طباعته، فرأيت أن أعرض الأمر مفصلاً في هذه المقدمة حتى يستبين الأمر للقارئ الكريم، ويرى ما يمكن أن يفعله الكتبيون والناشرون في الكتب.

تأليف الشيخ للتفسير:

بدأ الشيخ - رحمه الله - تأليفه لهذا التفسير المبارك في عام ١٣٤٢هـ وأنه في عام ١٣٤٤هـ.

وبهذا يظهر أنه قد بدأه وله من العمر خمسة وثلاثون عاماً وأتمه وله من العمر سبعة وثلاثون عاماً.

والذي يقرأ التفسير يحسب أنه لا يمكن لمن كان في هذا السن أن يكتبه إذ يمثل كتابة عالمٍ ناضج متمكن من العلم وآلاته، واسع الاطلاع ﴿وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾.

وقد كتب نسخة واحدة ثم أمر من ينسخ له نسخة أخرى، وبالتتبع والسؤال يبدو لي أنه لم يُنسخ من التفسير إلا هاتان النسختان: نسخة الشيخ - رحمه الله - والنسخة التي أمر النساخ بنسخها.

وابتغاء توضيح الأمر أبين تفاصيل متعلقة بهاتين النسختين مع وصف لهما:

#### النسخة الأولى:

هذه النسخة هي التي كانت في حوزة الشيخ وملكه، وهي في جملتها كما سيظهر بخط الشيخ - رحمه الله - وهذا وصف لها:

تتكون هذه النسخة من تسعة أجزاء، جعلها الشيخ رحمه الله في تسعة مجلدات:

#### المجلد الأول:

وقد كتب على غلافه (المجلد الأول من تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، من منن الله على عبده، وابن عبده، وابن أمته: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي)<sup>(١)</sup> وفوقها بخط الشيخ - رحمه الله - وبحرف صغير (هذه التسمية مأخوذة من قوله: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ وقوله: ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جنتنا بالحق وأحسن تفسيراً﴾ وفي وسط الصفحة ويخط الشيخ أيضاً: «شرعت في هذا التفسير المبارك غرة شهر ( )»<sup>(٢)</sup> سنة ١٣٤٢هـ أرجو الله أن يتمه بنعمته.

وهذا المجلد بخط الشيخ - رحمه الله - وعليه هوامش وتعديلات بخطه أيضاً، ويقع في (١٥٠) صفحة، في كل صفحة (٣٠) سطراً تقريباً أوله المقدمة، ثم تفسير الفاتحة إلى تفسير قوله تعالى: ﴿والله ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم﴾ الآية (١٢٩) من سورة آل عمران.

#### المجلد الثاني:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (١٩٢) صفحة في كل صفحة (٣٠) سطراً تقريباً، أوله تفسير الآية (١٣٠) من سورة آل عمران وهي قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعكم تفلحون﴾ وآخره: آخر تفسير سورة الأنعام.

#### المجلد الثالث:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (٢١٤) صفحة في كل صفحة (٢٥) سطراً تقريباً أوله أول تفسير سورة الأعراف، وآخره آخر تفسير سورة هود.

#### المجلد الرابع:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (١٢٩) صفحة في كل صفحة (٢٦) سطراً تقريباً أوله أول تفسير سورة يوسف، وآخره آخر تفسير سورة الإسراء.

(١) يلاحظ أن هذه العبارة كتبت على طرة كل مجلد بعد ذكر رقمه، مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ، ففي طرة المجلد الثاني جاءت العبارة هكذا: (المجلد الثاني من تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن لجامعه: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي غفر الله له ولوالديه وللمسلمين... أمين) وفي المجلد الثالث: (المجلد الثالث من تيسير الرحمن في تفسير القرآن لجامعة الفقير إلى الله: عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي).

(٢) الكلمة غير واضحة في الأصل والذي يبدو أنه شهر صفر أو محرم لأن الشيخ أمم هذا الجزء في نهاية شهر ربيع الأول.

**المجلد الخامس:**

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (٢٢٩) صفحة في كل صفحة (٢٨) سطراً تقريباً، أوله تفسير سورة الكهف وآخره آخر تفسير سورة النمل.

**المجلد السادس:**

وهذا المجلد بخط الشيخ: محمد بن منصور بن إبراهيم بن زامل - رحمه الله - أتم كتابته في ٢٤ رجب سنة (١٣٤٥هـ) وهو خط جميل، ولكنه كثير الأخطاء، ويفصل بين جزئي الكلمة في سطرين، ويكثر هذا منه مما يريك القارى.

وعلى هذا الجزء هوامش وتعديلات بخط الشيخ عبد الرحمن بن سعدي - رحمه الله - ويقع في (١٤٢) صفحة في كل صفحة (٢٩) سطراً تقريباً، أوله تفسير سورة القصص، وآخره آخر تفسير سورة الصافات.

**المجلد السابع:**

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (١٥٣) صفحة في كل صفحة (٢٨) سطراً تقريباً، أوله: تفسير سورة (ص) وآخره: آخر تفسير سورة الفتح.

**المجلد الثامن:**

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (١٤٦) صفحة في كل صفحة (٢٩) سطراً، أوله أول تفسير سورة الحجرات، وآخره آخر تفسير سورة القيامة.

**المجلد التاسع:**

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (٥٠) صفحة في كل صفحة (٣٠) سطراً تقريباً، أوله تفسير سورة الإنسان، وآخره آخر تفسير سورة الناس.

**النسخة الثانية:****المجلد الأول:**

وقد كتب عليه: (المجلد الأول من تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن لمعلقه الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر السعدي غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين) وهكذا كتبت هذه العبارة أو قريباً منها باختلاف يسير على طرة كل مجلد.

وفي وسط الصفحة ما يلي: (تنبيه: اعلم أن طريقتي في هذا التفسير أنني أذكر عند كل آية ما يحضرني من معانيها، ولا أكتفي بذكر ما يتعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلق بالمواضع اللاحقة؛ لأن الله وصف هذا الكتاب أنه «ثاني» تشني فيه الأخبار، والقصص، والأحكام، وجميع المواضع النافعة، لحكم عظيمة، وأمر بتدبره جميعه؛ لما في ذلك من زيادة العلوم والمعارف، وصلاح الظاهر والباطن، وإصلاح الأمور كلها).

وكثير من هذا المجلد بخط الشيخ - رحمه الله - إلا الصفحات ما بين الصفحة (٣٦) والصفحة (٩٦) فهي بخط مغاير لخط الشيخ - رحمه الله - وبداية المجلد ونهايته كالنسخة الأولى.

**المجلد الثاني:**

وهو بخط الشيخ علي الحسن العلي الحسن البريكاني، وبداية المجلد ونهايته مثل النسخة الأولى، وللشيخ

عبد الرحمن السعدي رحمه الله عليه تصويبات مما يدل على أنه قرأه ويقع في (١٧٧) صفحة في كل صفحة (٣١) سطراً تقريباً.

#### المجلد الثالث:

وقد نسخ هذا المجلد ناسخان بدأ الأول بنسخ اثني عشرة صفحة ولكن خطه سقيم، وأخطاه كثيرة ولذلك كتب الشيخ رحمه الله بخطه على الصفحة الثانية: (الصحائف الأولى من هذا الجزء خطها سقيم، الأمل الثاني فيها عند تصحيحها) ثم نسخت الصحائف التالية إلى آخر الجزء بخط مغاير أمثل من الخط الأول، ولم يكتب على هذا الجزء اسماً للناسخين.

ويقع هذا الجزء في (١٥٢) صفحة كل صفحة (٣١) سطراً. وبداية المجلد ونهايته كمثيله في النسخة الأولى.

#### المجلد الرابع:

وهذا الجزء بخط الشيخ سليمان الحمد السام وللشيخ عبد الرحمن السعدي عليه بعض تصويبات بخط يده رحمه الله ويقع في (١٠٣) صفحات في كل صفحة (٢٨) سطراً وبداية المجلد ونهايته كما في النسخة الأولى.

#### المجلد الخامس:

وهذا المجلد هو الذي بحث به الشيخ رحمه الله للطباعة أول الأمر.

وكتب الشيخ بخط يده المقدمة التي طبعت مع هذا الجزء أول ما طبع، وهي مقدمة أثبتتها في هامش هذه الطبعة عند أول تفسير سورة الكهف، وهذا المجلد نقل عن خط الشيخ المؤلف رحمه الله وليس عليه اسم كاتبه، وقد ألحق الشيخ رحمه الله به أصول من أصول التفسير، وتفسير ألفاظ عامة يكثر في القرآن ورودها ويحتاج إلى معرفتها) وهي بخط الشيخ رحمه الله وقد جعلتها ملحقاً بهذه الطبعة في آخر التفسير.

وفي آخر الجزء فهرس لمحتوياته، ثم نقل للخطاب الموجه من الشيخ رحمه الله إلى الشيخ محمد نصيف رحمه الله وقد أرخ في ٢١/٢ / ١٣٧٤ هـ ونص الخطاب تجده في هذه المقدمة وعدد صفحات هذا المجلد (٢١٤) صفحة في كل صفحة من صفحات هذا الجزء (٣٠) سطراً، أوله تفسير سورة الكهف، وآخره آخر تفسير سورة النمل ثم بعدها أصول من أصول التفسير وتفسير الأسماء الحسنى.

#### المجلد السادس:

وهذا المجلد بخط الشيخ رحمه الله وبدايته من أول سورة القصص ونهايته بنهاية تفسير سورة الصافات. وعدد صفحات هذا الجزء (١٥٤) صفحة في كل صفحة ما بين ( ٢٥. ٢٨) سطراً وبدايته ونهايته كمثيله في النسخة الأخرى.

#### المجلد السابع:

وهو بخط الشيخ: سليمان بن حمد العبد الله السام رحمه الله وعدد صفحات هذا الجزء (١٢٢) صفحة في كل صفحة (٢٢) سطراً، وبداية الجزء ونهايته كمثيله في النسخة الأخرى.

#### المجلد الثامن:

وهو بخط الشيخ رحمه الله وعدد صفحات هذا الجزء (٢٠١) صفحة.

ويبدأ من أول تفسير سورة الحجرات وينتهي بتفسير سورة الناس.

وبهذا فإن هذه النسخة تحتوي على ثمانية أجزاء بينما النسخة الأخرى على تسعة أجزاء.



هذا عن نسخ التفسير المخطوطة وأما طباعته فقد كانت فاتحتها طباعة الجزء الخامس منه، إذ بعث الشيخ رحمه الله إلى الشيخ محمد نصيف رحمه الله برسالة مدونة في خاتمة المجلد الخامس من النسخة (ب) مؤرخة في ٣٠/٢/١٣٧٤هـ. وقد نقلت من خط الشيخ بخط مغاير هذا نصها: بسم الله الرحمن الرحيم، حضرة محترم المقام الشيخ محمد نصيف حفظه الله أمين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. سبق جواب كتابكم الآمل وصوله، ثم إننا نكلفكم حيث أرسلت لكم تفسيرنا الكبير المجلد الخامس منه وقع النظر على الاختصار على طبعه فجعنا له مقدمة وختمناه بأصول وكتليات من أصول وكتليات التفسير، ونريد أن يطبع منه خمسة آلاف نسخة، وأحببت أن يكون الاختيار لجنابكم في اختيار من يتولى طبعه، إما محب الدين الخطيب أو الشيخ حامد أو من ترجح وتحنه على العناية التامة فيه، ولو زاد علينا المصرف، وقد وصيت الشيخ: عبد الله المحمد العوهلي يسلم لكم كل الذي تطلبون لأجل طبعه وأرجو الله أن يثيبكم الثواب الجزيل، ويشكر مساعيتك ويجزيك عنا أفضل الجزاء فأنت طال عمرك عوض النفس في كل شيء والله الموفق والسلام.

محبيك<sup>(١)</sup> عبد الرحمن الناصر السعدي

وتنبه الطابع على طبع خاتمة

الأصول وكتليات التفسير للحاجة الشديدة إليها

وقد أبان الشيخ - رحمه الله - عن مقصوده من أفراد هذا الجزء بالطباعة في المقدمة التي كتبها لهذا الجزء<sup>(٢)</sup> فقال: وقد تكرر علي السؤال من كثير من الأصحاب في نشر تفسيرنا هذا جميعه وألحوا لما يرونه من الفائدة الكبيرة فاعتذرت بأن ذلك يصعب جداً؛ لأنه مبسوط، وأيضاً في هذه الأوقات قلت رغبات الناس في الكتب المطولة، لذلك أحببت إجابتهم لنشر بعض ما طلبوا وهو الاختصار على جزء واحد من أجزاء هذا التفسير، ووقع الاختيار على الجزء الأوسط من سورة الكهف إلى آخر النمل فما لا يحصل جميعه لا يترك جميعه). وقد طبع هذا المجلد عام ١٣٧٥هـ، ثم بعث الشيخ - رحمه الله - ببقية أجزاء الكتاب للشيخ محب الدين الخطيب - رحمه الله - فأنتم طباعة الكتاب كله، فطبع الكتاب في عام ١٣٧٦هـ، وقبل وفاته بشهر تقريباً بعث إلى شيخنا عبد الله بن عقيل رسالة قال فيها: (التفسير مثل ما ذكرت لك، وصلني منه الجزء الأول عدة ملازم من زمان، وبعد ذلك ما جاءنا عنه خبر)<sup>(٣)</sup> وبعدها بعشرة أيام بعث برسالة أخرى قال فيها: (أفيدكم وصلني ملازم أيضاً من الجزء الثاني، وبقية الجزء الأول من التفسير، ويذكر الشيخ نصيف أنهم إن شاء الله مجتهدون في إنجازهم، يسر الله ذلك وسهله)<sup>(٤)</sup>. وبهذا يتبين أن الشيخ رحمه الله لم ير الكتاب كاملاً ويبدو أنه لم يبد ملاحظات على ما طبع منه، إذ توفي بعد رسالته السابقة بشهر تقريباً.

\* \* \*

وتتميز هذه الطبعة أولاً بالسبق الزمني فإنها أول الطباعات، وهي أصل جميع الطباعات السابقة فليس هناك طبعة إلا وكان أصلها عائداً إلى هذه الطبعة. وهي بذلك أسلم من غيرها، وأقل في الأخطاء والتصحيحات والتحريفات، وهذا لا يعني جودتها، وموافقتها للأصل، إذ ثم ملاحظ لا بد من بيانها:

(١) تصحفت الكلمة في النسخة إلى: (محمد)، لأن الخطاب فيما يظهر منقول عن كتابة الشيخ - رحمه الله - فهو بخط مغاير لخط .

(٢) انظر نص المقدمة عند أول تفسير سورة الكهف من هذه الطبعة.

(٣) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة (٢٩٦).

(٤) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة (٢٩٨).

## الملحظ الأول:

التصرف في طريقة الشيخ في تفسير الآيات، حيث يعمد الشيخ - رحمه الله - إلى ذكر الآيات أحياناً، وأحياناً يقول إلخ القصة، إذا كانت قصة من القصص وأحياناً يورد كلاماً في سياق التفسير لا يقصد به ذكر الآية فغير المصححون ذلك فيقومون بإيراد الآيات كاملة، ويغيرون كلامه ويشطبون في المخطوطة، ويضعون الآية أو الآيات بدلاً منه.

## ومن أمثلة ذلك:

إن الشيخ رحمه الله أورد قصة قارون هكذا: (إن قارون كان من قوم موسى فبنى عليهم) إلى آخر القصة فشطب المصححون على قوله: (إلى آخر القصة)، وأوردوا الآيات كاملة، وهي في هامش النسخة بخط المصحح.

وكذا عند إيراد قصة لوط في سورة العنكبوت حيث أورد الآيات من قوله تعالى: ﴿ولوطاً إذ قال لقومه﴾ إلى قوله: ﴿قال رب انصرنني على القوم المفسدين﴾ فأتموا الآيات إلى قوله: ﴿ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون﴾ وهي في هامش النسخة بخط المصحح.

## الملحظ الثاني:

التصرف في تقسيم الكتاب، حيث قسم الشيخ التفسير إلى ثمانية أجزاء في إحدى النسخ وتسعة في الأخرى، وكانت النسخة التي اعتمدت عليها المطبعة السلفية في ثمانية أجزاء ينتهي الأول منها بنهاية تفسير قوله تعالى: ﴿والله ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم﴾ في سورة آل عمران (١٢٩) فجعلوا نهاية الجزء بنهاية تفسير سورة آل عمران، وكتبوا في نهاية الجزء (تم المجلد الأول من تيسير الرحيم الرحمن في تفسير القرآن عن نسخة مؤلفه العلامة الجليل الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ويليه المجلد الثاني وأوله تفسير سورة النساء، والحمد لله رب العالمين)<sup>(١)</sup> وليس الأمر كما قالوا بل تقسيم النسخة التي اعتمدها على خلاف ما ذكروا.

## الملحظ الثالث:

الزيادات، لقد زاد القائمون على هذه الطبعة في التفسير زيادات وإن كانت يسيرة إلا أنه لم يتم الإشارة إليها لا في المقدمة، ولا في مواضع الزيادات فمن ذلك:

١- زيادة رقم الجزء من أجزاء القرآن الكريم قبل بدايته فقبل بداية الجزء الثالث كتبوا عنواناً في وسط الصفحة (الجزء الثالث)<sup>(٢)</sup> وكذا عند الجزء الرابع وليس في النسخة المخطوطة شيء من ذلك، ولم يشيروا إلى كونها ليست من كلام الشيخ رحمه الله.

٢- زيادة جملة: (قوله تعالى) أو: (قال تعالى) في مواضع كثيرة ومن أمثلة ذلك زيادتها في أول سورة النساء مع أن عادة الشيخ - رحمه الله - أن يبدأ الكلام بذكر الآيات المفسرة بعد البسمة<sup>(٣)</sup>.

٣- زيادة قوله من ديارهم، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم﴾ الآية، حيث قال الشيخ: (فقرض عليهم أن لا يسفك بعضهم دم بعض، ولا يخرج بعضهم بعضاً وإذا وجدوا أسيراً منهم وجب عليهم فداؤه) فزادوا جملة من ديارهم فصار النص

(١) (٢٨٨/١).

(٢) (١٤٩/١).

(٣) المخطوطة ب (٢٣/٢) وطبعة السلفية (٣/٢).

هكذا: (ولا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم).

٤- ومن أمثلة ذلك قال رحمه الله: (أي (و) أرسلنا (إلى مدين) القبيلة المعروفة المشهورة (شعياً) فأمرهم). فعدل النص حتى صار بزيادته هكذا: (أي: (و): أرسلنا (إلى مدين) القبيلة المعروفة المشهورة أخاهم شعياً الذي أمرهم).

ويعدّها بقليل قال الشيخ (فكذبوه) فأخذهم عذاب الله فعذلت فصارت (فكذبوه فأخذتهم الرجفة) أي: عذاب الله<sup>(١)</sup>.

وهذا كثيراً جداً، وبعض التصرف تصرف مقبول في الأصل؛ للحاجة إليه، أو لخطأ في سياق الكلام، إما يعود الضمير المذكور على مؤنث أو نحو ذلك، وإما ينقص أو نحوه، ولكن هذا التصرف وإن كان مقبولاً في الأصل إلا إنه لم يبنه عليه، ولم يشر المصحح إلى شيء من التغيير.

الملحظ الرابع:

التصحیح في بعض الجمل تصحيحاً خاطئاً - بل ظاهر الخطأ - ومن ذلك:

١- قال الشيخ رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾: ﴿لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ بأن كان عنه مسافة قصر فأكثر، أو بعيداً عنه عرفاً، فهذا الذي يجب عليه الهدى).

وقد جاء التعديل عجياً من المعجب حيث غيرت عنه إلى عند أو كلمة (عرفاً) إلى (عرفات) فجاء النص هكذا: (بأن كان عند مسافة قصر فأكثر أو بعيداً عند عرفات فهذا الذي يجب عليه الهدى)<sup>(٢)</sup>.

وقد تتابعت كل الطباعات مقلدة هذا الخطأ.

٢- ومن التعديل ما يكون بدون مسوغ ظاهر أو بمسوغ من وجهة نظر المصحح دون إشارة للتعديل ومثال ذلك:

قال الشيخ رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا﴾ الآية، وأنتم تعرفونه منذ نشأ بينكم لا يكتب ولا يقرأ فأتاكم بكتاب زعم أنه من عند الله. غيرت كلمة زعم إلى: (أخبركم أنه من عند الله)<sup>(٣)</sup>.

الملحظ الخامس:

بعض الأخطاء الظاهرة مثل:

قال الشيخ رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾.

(فالشرك لا يغفره الله إلا بالتوبة) هكذا في المخطوطتين وجاء في طبعة السلفية (فالشرك لا يغفره الله بالتوبة)<sup>(٤)</sup> وهذا خطأ شنيع، وعلى ذلك تتابعت الطباعات<sup>(٥)</sup>.

\*\*\*

وبعد ظهور هذه الطبعة بسنين طبع التفسير طبعة أخرى عن طريق المؤسسة السعيدية، التي كلفت الأستاذ

(١) ينظر الطبعة السلفية (١٣/٦)، والمخطوطة ب (٣٣/٦).

(٢) المخطوطة ب (٨٢)، طبعة السلفية، (١١٧/١).

(٣) انظر ص ٢٨ من المخطوط (ب) من الطبعة السلفية (٢٧/١).

(٤) (١٣٨/١).

(٥) ينظر طبعة النجار (٢٨٧/١).

محمد زهري النجار بتصحيح الكتاب، والنجار يوصف بأنه من علماء الأزهر، وله بعض الأعمال الأخرى كتصحيحه لكتاب الأم للشافعي، وهذه الطبعة طبعة تميزت بأنها أضحت الطبعة المعتمدة لسائر طبعات التفسير بعدها بل اعتمدت طبعها الرئاسة العامة للإفتاء والدعوة والإرشاد في المملكة العربية السعودية، وقد كان ذلك لإحسانهم الظن في المؤسسة ومصححها، ولقد تبين لي جملة من الملاحظ تظهر عوار تلك الطبعة أذكر هنا جملة منها:

#### الملحظ الأول:

اعتماد هذه الطبعة اعتماداً كلياً على الطبعة السلفية، دون الإشارة إلى ذلك في مقدمة الطبعة، وهذا الاعتماد جعل الملاحظ المذكورة سابقاً على الطبعة السلفية تصدق على هذه الطبعة أيضاً، بل قد زادت طبعة النجار الأمر فجمعت إلى ذلك ملاحظ أخرى أشد وأخطر، ولو أن الطبعة السلفية صورت بدل أن يعهد بتصحيحها إلى النجار لكان الأمر أهون.

#### الملحظ الثاني:

#### التصرف في مواقع الآيات من التفسير:

لقد جرت عادة الشيخ - رحمه الله - أن يبدأ فيذكر الآيات التي يريد تفسيرها كاملة ثم يشرع في تفسيرها مجزأة عقب ذلك، وفي بعض الأحيان يقوم رحمه الله بذكر الآيات إذا كانت قصصاً للأنبياء فيقول إلى آخر القصة، وفي أحيان قليلة يغفل ذكر الآيات كاملة فيشرع في تفسيرها مباشرة، وعلى ذلك يجري سياق التفسير، ولكن النجار عمد إلى جعل الآيات في أعلى الصفحة، وجعل بينها وبين التفسير خطأً ثم حذف الآيات في التفسير، ومن هنا يأتي اضطراب السياق في بعض الأحيان فيضطر إلى حذف بعض الكلمات أو الإضافة أو نحو ذلك.

#### الملحظ الثالث:

#### التصرف بالزيادة:

إن من أعجب ما عمل النجار أن زاد في التفسير ففي بعض المواضع ترك الشيخ - رحمه الله - تفسير بعض الآيات سهواً، فيقوم النجار بتفسيرها من عنده.

وفي مواضع أخرى تكون النسخة التي اعتمدت عليها الطبعة السلفية ناقصة؛ لأن الناسخ تجاوز الآيات فيقوم النجار من قبله بتفسير هذه الآيات. وهذه المواضع كثيرة جداً تصل في بعض المواقع إلى صفحات، وفي بعضها إلى أسطر، وفي أخرى إلى كلمات، وهذه أمثلة لها:

١- سقط من النسخة الخطية (ب) تفسير الآية (٢٠٧) من سورة البقرة وهي قول الله عز وجل: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد﴾ وبناء على سقوطها من النسخة سقطت من الطبعة السلفية فجاء النجار ففسر الآية من عنده، وبدأ بمعاني المفردات، ورجع إلى جملة مراجع؛ كالفاموس والصحاح، وتفسير ابن كثير، ولم يشر إلى أن الكلام من كلامه، وليس من كلام الشيخ - رحمه الله - وقد وقع هذا في صفحتين ونصف من طبعته ابتداء من منتصف الصفحة (٢٥٢) من المجلد الأول إلى نهاية ص (٢٥٤)، والقارى للكلام يعلم أنه ليس من كلام الشيخ - رحمه الله - لأن الشيخ لا ينقل من مصادر، وإنما يفسر بما فتح الله عليه كما قرر ذلك في أول الكتاب.

٢- ومن الزيادات الطويلة التي زادها النجار زيادته في تفسير الآيات رقم (١٠٥ - ١٠٧) من سورة الأنعام حيث تجاوزها الشيخ فلم يفسرها ففسرها النجار في الصفحات ذوات الأرقام (٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢) من

الجزء الثاني، ولم يشر إلى التصرف، وظاهر من أسلوبه أنه ليس أسلوب الشيخ حيث أتى ببعض الإعرابات والمعاني اللفظية ثم ذكر المعنى الإجمالي. ومن عجيب أمره أنه في الصفحة (٤٤٩) تصرف تصرفاً يسيراً بأن قدم كلمة على أخرى، وأشار في الهامش إلى ذلك التصرف، ولم يشر إلى تصرفه بزيادة ثلاث صفحات.

٣- في تفسير الآيتين (٥٠، ٥١) من سورة الحج سبق قلم الشيخ - رحمه الله - إلى الآية رقم ٥٦ فجمع بينهما وبين هذه الآية فكتب ﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك أصحاب الجحيم﴾، ثم فسر الآية على وفق ما كتب، فعمد النجار إلى تغيير التفسير والزيادة زيادة طويلة يصل مجموعها إلى صفحة ونصف الصفحة تقريباً<sup>(١)</sup> ولم يشر إلى شيء من التعديل.

٤- ومن الزيادات العجيبة أن الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله - أورد قوله سبحانه: ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين﴾ من الآية رقم (٢٩) من سورة الدخان، في سياق تفسيره للآية رقم (٤١) من سورة المؤمنون، مستشهداً بها، ولكن يبدو أن النجار ظنها من السورة نفسها ففسرها تفسيراً من عند نفسه ونسبها إلى الشيخ، ولم يعلق، ولم يبين أنه من كلامه، وهذه الزيادة تقع في صفحة تقريباً<sup>(٢)</sup>.

ومن عجيب حاله أنه يعلق أحياناً في الهامش على زياداته وكأنها تعليق على كلام الشيخ رحمه الله<sup>(٣)</sup>.

#### الملحظ الرابع:

#### الحواشي والتعقيبات:

لقد قام النجار بتعقب الشيخ رحمه الله في مواضع كثيرة من التفسير ووضع هامش لتلك التعقيبات فتعدى مهمته، وتجاوز طوره، فراح يعلق على هذا التفسير القيم بأراء بعدت عن الصواب، وجانب الحق في أجلى معانيه مما شوه به هذا الكتاب، وأساء إلى المؤلف، وغش القراء، وأضل الناشئة كما أنه اعترض على المؤلف، ورد أقواله بأراء من عنده لم يوفق فيها إلى الحق والصواب، مع أنه ليس من حقه ذلك، ولا من مهمته أن يعترض على المؤلف فيما اختاره، وإنما مهمته هي تحقيق النص وتصحيحه<sup>(٤)</sup>.

(والذي في أول الكتاب من هذه التعقيبات اعتراضات بسيطة على عبارة، أو لفظة أو نحوها، أما الذي في وسطه وآخره فهي اعتراضات وخيمة تحريف لكلام الله، وغلو في الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وتنقص للعلماء وكذب عليهم)<sup>(٥)</sup>.

ولقد كان في معظم تعليقاته متهماً للشيخ وأسلوبه وهذه بعض تعبيراته التي تظهر ذلك قال: (والعبارة قلقة كما ترى)<sup>(٦)</sup>، (العبارة مبهمة تحتاج إلى إيضاح)<sup>(٧)</sup>، (العبارة فيها شيء من الاضطراب فالأوضح أن يقال)<sup>(٨)</sup>، (وفي العبارة غموض كما ترى)<sup>(٩)</sup>.

(١) انظر طبعة النجار ٣٠٨/٥، ٣٠٩، وقارنه بما في هذه الطبعة.

(٢) ينظر طبعة النجار (٣٥٠/٥).

(٣) ينظر طبعة النجار (٢٥٤/١).

(٤) الشيخ محمد سليمان البسام: كشف الستار عن تلفيق وتعليق النجار على تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي (٧).

(٥) المصدر السابق (٩).

(٦) (١٠٤/١).

(٧) (١٥٩/١).

(٨) (٢٤٠/١).

(٩) (٣٤٦/١).

ولقد أبان الشيخ محمد بن سليمان البسام عوار تلك التعقبات بياناً شافياً في رسالة مستقلة عنوانها: (كشف الستار عن تفتيق وتعليق النجار على تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي).

وذكر أمثلة كثيرة دالة على أخطاء النجار فيما زعمه من أخطاء وقع فيها الشيخ - رحمه الله - وأكتفي بالإحالة على تلك الرسالة الماتعة، ففيها نقد علمي قوي لأخطاء ظاهرة وقع فيها النجار وأشير هنا إلى ثلاث تعقبات فقط أبين من خلالها شيئاً يسيراً من سوء صنيع النجار، وأما التعقبات التي تحتاج إلى نقد علمي فأحيل فيها إلى رسالة الشيخ محمد البسام.

١ - وقوع النجار في الخطأ ثم تخطئة الشيخ رحمه الله به:

قال الشيخ - رحمه الله - في تفسيره قوله تعالى: ﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره﴾ «أي نكاحاً صحيحاً ويوطأها؛ لأن النكاح الشرعي لا يكون إلا صحيحاً، ويدخل فيه العقد والوطء، وهذا بالاتفاق) هكذا في النسختين وفي الطبعة السلفية التي اعتمد عليها النجار، ولكنه أسقط (إلا) فصارت العبارة: «لأن النكاح الشرعي لا يكون صحيحاً» وهذا فعله، وليس فعل الشيخ - رحمه الله - ثم قال النجار في الهامش قوله: «لأن النكاح الشرعي الخ» في العبارة اضطراب، والصواب أن يقال: «لأن النكاح الشرعي الصحيح، يدخل فيه العقد والوطء بإجماع العلماء» فأخطأ النجار ثم خطأ الشيخ، وعدل خطأ الشيخ بزعمه.

٢ - إقحام تعليقات لا محل لها فمن ذلك. قال الشيخ - رحمه الله - «والظلم الذي بين العبد وربّه فيما دون الشرك تحت المشيئة والحكمة». قال النجار: (وفي هذا المعنى قال صاحب جوهره التوحيد:

ومن يمت ولم يثبت من ذنبه فأمره مفروض لسربه»

٣ - الاستدراك في غير محله: قال الشيخ - رحمه الله - «فالشكر فيه بقاء النعمة الموجودة وزيادة في النعم المفقودة». قال في الهامش قوله: «فالشكر فيه بقاء النعم... الخ» عبر العلماء عن هذا المعنى بقولهم: «الشكر قيد للموجود، وصيد للمفقود»<sup>(١)</sup> فكانه خطأ الشيخ في اختيار اللفظ وليس هذا بخطأ بل الأمر واسع في اختيار اللفظ المناسب.

الملحظ الخامس:

### سوء توزيع النص

حيث قام بإعادة توزيع النص إلى فقرات وعمد إلى أن تكون تلك الفقرات قصيرة جداً وعليه فقد فرق أجزاء الجملة بين الأسطر، وقطع الكلام عن سياقه إذ نجد فعل الشرط في سطر وجوابه في آخر، والمعلول في سطر وتعليقه في آخر، ولذلك تضخم التفسير جداً مع أن صفحاته يمكن أن تكون أقل من ذلك بكثير، والله أعلم بالهدف من وراء ذلك التضخيم.

\*\*\*

إن هذه الملاحظ ليست إلا أمثلة دالة على أن عمل النجار لم يكن عملاً أميناً على هذا التفسير.

وبمجممل هذا العرض يتضح أن التفسير لم يخرج بصورته التي كتبها الشيخ - رحمه الله - إذ جميع الطبعات كانت نسخاً مكرورة عن طبعة النجار، التي اعتمد فيها صاحبها على الطبعة السلفية، والطبعة السلفية اعتمدت على النسخة الثانية التي لم تكن بخط الشيخ وكان فيها بعض النقص وبعض التحريف من النسخ.

ولما كان الأمر بهذه الصورة التي تظهر الحاجة الماسة إلى إخراج هذا التفسير المبارك إخراجاً علمياً مصححاً كما أراده الشيخ رحمه الله فقد عمدت إلى العمل ثلاث سنين في هذا الكتاب راجياً أن يكون العمل

سأداً للثلثة ومبرئاً للذمة.

العمل الذي قمت به:

لقد منّ الله علي بأمر لم يتوفر لمن اعتنى بهذا التفسير من قبل وهو الحصول على النسخة (أ) التي كانت بحوزة الشيخ - رحمه الله - وتحت نظره ومحل عنايته إلى أن توفي، وهي في الجملة أسلم من النسخة (ب) التي كانت أصل جميع الطبعات، ولما بدأت في العمل كان الهدف الذي سميت إليه جاهداً هو: إخراج التفسير كما كتبه الشيخ - رحمه الله - دون تعديل أو تبديل، أو زيادة أو نقص، وعلى ذلك قمت بما يلي:

أولاً: نسخ التفسير كما هو ويتضمن ذلك: إثبات الآيات المفسرة كما كتبها الشيخ - رحمه الله - فحين يورد الآيات كاملة، أو ردها كاملة كما فعل، وحين يورد جزءاً منها ويقول: إلخ القصة، أثبتتها على هذا الوجه، وحين تفترق النسختان أطبق قواعد المقابلة التي سأبينها لاحقاً بحول الله، وقد راعيت في النسخ ما يلي:

١- توزيع النص توزيعاً جيداً، بحيث يكون تقسيم فقرات الكلام وأجزائه متصلاً بمعانية، واجتهدت ألا أقطع السياق الواحد بين فقرتين مختلفتين، وأن أبدأ تفسير الآية أو الآيات من أول السطر.

٢- ترقيم الآيات المفسرة في بداية تفسيرها، وهذا لم يكن من عمل الشيخ - رحمه الله - ولكن وجدته مهماً لأجل سهولة معرفة مواضع الآيات.

٣- تصحيح بعض الأخطاء الإملائية الظاهرة التي لا تخفى على الشيخ - رحمه الله - ولكنها سبق قلم.

ولقد حرصت على عدم التدخل في التفسير والتعديل فيه بأي وجه من الوجوه إلا في ثلاث حالات:

الأولى: أن يكون الخطأ في الآيات فهنا أثبت الصواب ولا ألقت إلى الخطأ، ولكن في بعض الأحيان يحدث أن يكون قلم الشيخ سبق إلى آيات في غير السورة، أو في السورة نفسها، وليست في ذلك الموضع، ثم يفسر الآيات التي كتب، فأثبت الصواب في الآيات، وأبقي التفسير كما هو، وأشير إلى ما عملت في الهامش.

الثانية: أن يكون الخطأ ظاهراً، ولا يمكن أن يقبل به المؤلف - رحمه الله - فهنا أثبت التعديل الذي أراه صواباً، وأشير في الهامش إلى ما في الأصل من خطأ، أو سبق قلم.

الثالثة: أن يكون التعديل طفيفاً كأن يكون تعديلاً في ضمير فيقول: (خالقهما) والصواب (خالقها) أو العكس أو يقول (التي) والصواب (الذي) ونحو ذلك، فهنا أصوب الكلام، وأشير في أحيان يسيرة إلى ما عملت، خاصة وأن الشيخ - رحمه الله -: (كان سريع الكتابة، ويكتب بخط دقيق، وبدون نظارة، لكنه على قاعدة صحيحة)<sup>(١)</sup> وكانت جل عنايته بالمعاني، ولذلك قال في رسالة للشيخ عبد الله بن عقيل - حفظه الله - (فحسن الإملاء والجري مع المعاني أولى من اعتبار حسن الخط، فذاك أهميته بالنسبة لحسن الإنشاء قليلة).<sup>(٢)</sup>

ثانياً - المقابلة:

وابتغاء توضيح الأمر أبين ما قمت به في نقاط:

أولاً: اعتمدت النسخة (أ) وجعلتها أصلاً لأمور:

الأول: أن معظمها بخط الشيخ - رحمه الله -.

والثاني: أنها النسخة التي كانت بيد الشيخ - رحمه الله - إلى حين وفاته.

(١) الشيخ عبد الله بن عقيل: الأجوبة النافعة (المقدمة) (٧).

(٢) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة (٦٧).

الثالث: أنها سالمة من التعديل والشطب اللذين وقعا من النساخ أو الطابعين أو المصححين بعكس النسخة (ب) فإن هذه النسخة سلمت للمطبعة السلفية، فكان المصححون للطبعة يعدلون عليها ويشطبون، بل تجد على هوامشها أسماء (عمال الصف) فنجد اسم (محمود) أو فلان منهم وذلك لتوزيع العمل عليهم، بينما النسخة (أ) لم تمسها الأيدي بشطب أو تعديل.

الرابع: سلامة هذه النسخة من الخروم والنقص لأن معظمها بخط الشيخ - رحمه الله - بينما النسخة (ب) كتب معظمها بخطوط النساخ فوقع فيها بعض النقص والخروم.

الخامس: أنها أجود كثيراً من النسخة الأخرى في إملائها بينما تجد في النسخة (ب) أخطاء ظاهرة.

ثانياً: يلاحظ أنني ذكرت في وصف النسختين أن معظم النسخة الأولى كان بخط الشيخ - رحمه الله - وأن النسخة الثانية في جملتها بخطوط النساخ وهذا توضيح تفاوت الكتابة على التفصيل مع بيان ما قمت به حيال ذلك التفاوت:

١- أجزاء كانت في النسختين بخط الشيخ - رحمه الله - وذلك مثل كثير من المجلد الأول، والمجلد الثامن، والتاسع، وفي هذه الأجزاء يلاحظ وجود الاشكالات الآتية:

( أ ) أن الشيخ - رحمه الله - في المجلد فسر الآيات من قوله تعالى: ﴿حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾ سورة البقرة، الآية: ٢٣٨، إلى نهاية تفسير قوله تعالى: ﴿وَلله ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم﴾ سورة آل عمران، الآية: ١٢٩ تفسيراً جديداً فليس ما في النسختين متوافقاً بل هو متغاير من حيث الألفاظ والصياغة والأسلوب وكان الشيخ - رحمه الله - كتب ذلك مرتين، ولم يكن هناك احتمال لأن يكون الكلام ليس بكلامه، لأن ما في النسختين بخطه - رحمه الله - وروح الكلام وأسلوبه هو ذات أسلوب الشيخ - رحمه الله - وقد قلبت النظر بين خيارات عدة، وكان ما استقر الرأي عليه أن أجعل في صلب التفسير ما كان في النسخة ( أ ) وهي النسخة التي توفي الشيخ - رحمه الله - وهي في بيته، وأما ما في النسخة (ب) وهو المطبوع في طبعات الكتاب السابقة فقد جعلته في ملحق في آخر التفسير.

(ب) أن الشيخ - رحمه الله - في المجلد الثامن من بداية سورة الحجرات وحتى نهاية التفسير نسخ التفسير بخطه نسخة ثانية، ولكنه كان يعدل في الألفاظ ويزيد في الكلمات وينقص منها، ولذلك تفاوت حجم المقابلة بين بعض أجزاء الكتاب بشكل واضح، حيث تجد فروقاً كبيرة بين النسختين في أجزاء ولا تجد إلا اليسير من الفروق في أجزاء أخرى.

(ج) أن بعض الأجزاء كانت في النسخة (أ) بغير خط الشيخ - رحمه الله - وفي النسخة (ب) بخط الشيخ - رحمه الله - كما في المجلد السادس وهنا كثرت الأخطاء في النسخة (أ) وقلت في (ب) فاستفدت من (ب) في المقابلة وجعلت جل اعتمادي عليها إذ هي أصح لولا ما عابها من تعديلات مصححي المطبعة السلفية عليها.

ثالثاً: الزيادات: جاءت زيادات في إحدى النسختين عن الأخرى وقد جعلت الزيادات بين قوسين مركنين [ ] وهي على ثلاثة أنواع:

الأول: الزيادات التي في الأصل على (ب) وقد جعلتها بين قوسين مركنين، دون إشارة في الهامش إلى شيء.

الثاني: الزيادات التي في (ب) وقد جعلتها بين قوسين مركنين، وأشارت إلى الزيادة في الهامش بقولي: زيادة في ب، وهذا النوع من الزيادات يكثر في الأجزاء التي كانت بخط الشيخ - رحمه الله - في النسختين كليهما.



الثالث: الزيادات التي جعلتها لاقتضاء السياق وعدم استقامته بدونها فقد جعلتها بين قوسين مركنين وأشرت إلى الزيادة في الهامش بقولي: (زيادة يقتضيها السياق).

وبعد، فيلاحظ إنني لم أثبت تخريج الأحاديث في الكتاب، لأن ما في الكتاب من الأحاديث ليس بالكثير، ومعظم ما نقل - رحمه الله - هو من صحيح البخاري ومسلم، كما لم أفهرس فهرسة تفصيلية، لأن الفهرسة التي يمكن أن يستفاد منها هي الفهرسة الموضوعية للفوائد الإيمانية، والتربوية، والسلوكية، والعلمية، ونحوها التي في الكتاب، وإذا نظرنا إلى الفهرسة بهذا الاعتبار فإن الكتاب يحتاج إلى فهرسة كبيرة وطويلة جداً يمكن الاستغناء عنها بقراءة الكتاب لمزيد الاستفادة، وأما الفهارس التفصيلية للآيات والأحاديث والأعلام أو القبائل... ونحوها، فإن طبيعة التفسير لا تدل على الحاجة لذلك، وإن عمل على هذا التفسير فإنما هذا العمل نوع من التزويد والتكثُر لا حاجة له.

\*\*\*

وبعد فهذا الجهد الذي بذلت وهو جهد استغرق ثلاثة أعوام قرأت فيها التفسير قراءة مقابلة ثلاث مرات واجتهدت في إخراج التفسير على أتم الوجوه - قدر الإمكان - وما كان لي أن أصل إلى هذا لولا فضل الله عز وجل فله الحمد أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

ثم الشكر من بعد لمن كان عوناً لي في إخراج هذا التفسير بأي وجه من أوجه العون وأخص بالذكر صاحبي الفضيلة العالمين الجليلين الشيخ محمد بن صالح العنيمين، والشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل. وفضيلة والدي الكريم الشيخ معلا اللويحق، والمشايخ الفضلاء الدكتور عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر الذي أعانني على الحصول على النسخة الثانية (ب) لمخطوط التفسير، وأبدى من جميل الملاحظات ما كان عوناً لي على ضبط العمل، والدكتور خالد السبت، الذي كانت مهاتفاته بداية حفز لإعادة العمل في التفسير، والشيخ صالح الهيدان، والشيخ عبد الرحمن الراجحي، والشيخ محمد الخضير، والاخوة الذين عملوا معي في المقابلة فأمضوا وقتاً طويلاً في سبيل ذلك، وبذلوا جهداً لا أنساه في إعانتي الشيخ إدريس حامد محمد، والشيخ تراوري مامادوا، والأخ فيصل بن طلع المطيري فلجميع مني الشكر والعرفان والدعاء بالتوفيق والتسديد.

وأسأل الله المغفرة عما وقع من تقصير، واستمد منه العون فهو وحده المستعان.  
والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه.

وكتب

عبد الرحمن بن معلا اللويحق المطيري

بعد عشاء ليلة الثامن والعشرين

من شهر ذي القعدة عام ١٤١٩ هـ



## تنبيه

اعلم أن طريقي في هذا التفسير أني أذكر عند كل آية ما يحضرني من معانيها، ولا أكتفي بذكر ما تعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلق بالمواضع اللاحقة؛ لأن الله وصف هذا الكتاب أنه (مثنى) نثنى فيه الأخبار والقصص والأحكام، وجميع المواضع النافعة لحكم عظيمة، وأمر بتدبره جميعه، لما في ذلك من زيادة العلوم والمعارف وصلاح الظاهر والباطن، وإصلاح الأمور كلها<sup>(١)</sup>.

---

(١) هذا التنبيه جعله الشيخ - رحمه الله - على غلاف المجلد الأول فصدرت به التفسير كما فعل - رحمه الله - .



## مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل على عبده الفرقان الفارق بين الحلال والحرام، والسعداء والأشقياء، والحق والباطل.

وجعله برحمته هدىً للناس عموماً، وللمتقين خصوصاً، من ضلال الكفر والمعاصي والجهل، إلى نور الإيمان والتقوى والعلم، وأنزله شفاءً للصدور من أمراض الشبهات والشهوات، ويحصل به اليقين والعلم في المطالب العاليات، وشفاء للأبدان من أمراضها وعللها وآلامها وسقمها<sup>(١)</sup>. وأخبر أنه لا ريب فيه ولا شك بوجه من الوجوه، وذلك لاشتماله على الحق العظيم في أخباره، وأوامره، ونواهيه، وأنزله مباركاً، فيه الخير الكثير، والعلم الغزير، والأسرار البديعة، والمطالب الرفيعة، فكل بركة وسعادة تنال في الدنيا والآخرة، فسببها الاهتداء به واتباعه، وأخبر أنه مصدق ومهيمن على الكتب السابقة، فما يشهد له فهو الحق، وما رده فهو المردود، لأنه تضمنها وزاد عليها، وقال تعالى فيه: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾، فهو هادٍ لدار السلام، مبيِّن لطريق الوصول إليها، وحاثٌ عليها، كاشف عن الطريق الموصلة إلى دار الآلام ومحذّر عنها، وقال تعالى مخبراً عنه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ اتِّبَاعُ الذِّكْرِ الَّذِي أُتِيَ بِهِ فَالْحَقُّ بِهِ رِشْدٌ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ وَشَاءَ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي كَتَبَ عَلَيْكُمْ وَيَأْتِيَ بِكُمُ الصَّالِحِينَ﴾، فبين آياته أكمل تبين، وأتقنها أي إتقان، وفصلها بتبيين<sup>(٢)</sup> الحق من الباطل والرشد من الضلال، تفصيلاً كاشفاً للبس، لكونه صادراً من حكيم خبير، فلا يخبر إلا بالصدق والحق واليقين، ولا يأمر إلا بالعدل والإحسان والبر، ولا ينهى إلا عن المضار الدينية والدنيوية.

وأقسم تعالى بالقرآن ووصفه بأنه «مجيد»، والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها، وذلك لسعة معاني القرآن وعظمتها، ووصفه بأنه «ذو الذكر» أي: يُتذكر به العلوم الإلهية والأخلاق الجميلة والأعمال الصالحة، ويتعظ به من يخشى.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فأنزله<sup>(٣)</sup> بهذا اللسان لتعقله وتفهمه، وأمرنا بتدبره، والتفكير فيه، والاستنباط لعلومه، وما ذاك إلا لأن تدبره مفتاح كل خير، محصل للعلوم والأسرار. فله الحمد والشكر والثناء، الذي جعل كتابه هدى وشفاء ورحمة ونوراً، وتبصرة وتذكرة، وبركة، وهدى ويشرى للمسلمين.

فإذا علم هذا، علم افتقار كل مكلف لمعرفة معانيه والاهتداء بها.

وكان حقيقاً بالعبد أن يبذل جهده، ويستفرغ وسعه في تعلمه وتفهمه بأقرب الطرق الموصلة إلى ذلك.

وقد كثرت تفاسير الأئمة رحمهم الله لكتاب الله، فمن مطوّل خارج في أكثر بحوثه عن المقصود، ومن مُقْصِرٍ، يقتصر على حل بعض الألفاظ اللغوية. [بقطع النظر عن المراد]<sup>(٤)</sup>.

(١) في ب: وأسقامها.

(٢) في ب: وأنزله.

(٣) في ب: بتمييز.

(٤) زيادة من هامش ب، مشطوبة من أ.

وكان الذي ينبغي في ذلك، أن يجعل المعنى هو المقصود، واللفظ وسيلة إليه. فينظر في سياق الكلام، وما سبق لأجله، ويقابل بينه وبين نظيره في موضع آخر؛ ويعرف أنه سبق لهداية الخلق كلهم، عالمهم وجاهلهم، حضريهم وبدويهم، فالنظر لسياق الآيات مع العلم بأحوال الرسول وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله، من أعظم ما يُعين على معرفته وفهم المراد منه، خصوصاً إذا انضم إلى ذلك معرفة علوم العربية على اختلاف أنواعها.

فمن وفق لذلك، لم يبق عليه إلا الإقبال على تدبره وتفهمه وكثرة التفكير في ألفاظه ومعانيه ولوازمها، وما تتضمنه، وما تدل عليه منطوقاً ومفهوماً، فإذا بذل وسعه في ذلك، فالرب أكرم من عبده، فلا بد أن يفتح عليه من علومه أموراً لا تدخل تحت كسبه.

ولما منَّ الباري عليَّ وعلى إخواني بالاشتغال بكتابه العزيز بحسب الحال اللاتقة [بنا] أحببت أن أرسم من تفسير كتاب الله ما تيسر، وما منَّ به الله علينا، ليكون تذكراً للمحصلين، وآلة للمستبصرين، ومعوذة للسالكين، ولأقبيه خوف الضياع، ولم يكن قصدي في ذلك إلا أن يكون المعنى هو المقصود، ولم أشتغل في حل الألفاظ والعقود، للمعنى الذي ذكرت، ولأن المفسرين قد كفوا من بعدهم، فجزاهم الله عن المسلمين خيراً.

والله أرجو، وعليه أعتد، أن يسر ما قصدت، ويذل ما أردت، فإنه إن لم يسره الله، فلا تسبيل إلى حصوله، وإن لم يعن عليه، فلا طريق إلى نيل العبد مأموله.

وأسأله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يتفع به النفع العميم، إنه جواد كريم. اللهم صل على محمد وآله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً.

فوائد مهمة تتعلق بتفسير القرآن من  
بدائع الفوائد  
لابن القيم رحمه الله تعالى<sup>(١)</sup>

[قال: فصل] الثكرة في سياق النهي تُعم، مستفاد من قوله تعالى: ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾ ﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين﴾، وفي الاستفهام من قوله تعالى: ﴿هل تعلم له سمياً﴾، وفي الشرط من قوله: ﴿فإما تزيين من البشر أحداً﴾، ﴿وإن أحد من المشركين استجارك﴾ وفي النهي من قوله تعالى: ﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾.

وفي سياق الإثبات، بعموم العلة والمقتضى كقوله: ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾. وإذا أضيف إليها «كل» نحو ﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾، ومن عمومها بعموم المقتضى ﴿ونفس وما سواها﴾.

### فصل

ويستفاد عموم المفرد المحلى باللام من قوله: ﴿إن الإنسان لفي خسر﴾ وقوله: ﴿ويقول الكافر﴾ وعموم المفرد المضاف من قوله: ﴿وصدقت بكلمات ربها وكتبه﴾ (وكتابه)<sup>(٢)</sup>.

وقوله: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾ والمراد جميع الكتب التي أحصيت فيها أعمالهم، وعموم الجمع المحلى باللام من قوله: ﴿وإذا الرُّسل أُنْتدت﴾، وقوله: ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم﴾، وقوله تعالى: ﴿إن المسلمين والمسلمات﴾ إلى آخرها. والمضاف من قوله: ﴿كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾.

وعموم أدوات الشرط من قوله تعالى: ﴿فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾، وقوله: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾، [وقال] ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾، وقوله ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت﴾، وقوله: ﴿وحيشاً كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾، وقوله: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم﴾، وقوله: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ هذا إذا كان الجواب طلباً مثل هاتين الآيتين.

فإن كان خبراً ماضياً، لم يلزم العموم، كقوله: ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها﴾ ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله﴾.

وإن كان مستقبلاً، فالترمزوا رد العموم، كقوله تعالى: ﴿وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾.

وقوله: ﴿وإذا مرؤا بهم يتغامزون﴾ وقوله: ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون﴾.

وقد لا يعم، كقوله تعالى: ﴿وإذا رأيتهم تُعجِبك أجسامهم﴾.

(١) جاءت هذه الفوائد في: أ بعد تفسير سورة الفاتحة، وقد كتب الشيخ - رحمه الله - في هامش النسخة: (حق هذه المقدمة أن تقدم على الفاتحة).

(٢) كتبت الكلمة مرتين مرة بالإنفراد، ومرة بالجمع، وجاء في هامش ما نصه: (قرأ أهل البصرة وحفص وكتبه). وقرأ الآخرون (وكتابه) على الترجيد.

## فصل

ويستفاد كون الأمر المطلق للوجوب، من ذمّه لمن خالفه، وتسميته إياه عاصياً، وترتيبه عليه العقاب بالعاجل أو الآجل.

ويستفاد كون النهي للتحريم، من ذمّه لمن ارتكبه، وتسميته عاصياً، وترتيبه العقاب على فعله.  
ويستفاد الوجوب بالأمر تارة، وبالتصريح بالإيجاب والفرض والكتّاب، ولفظة «على»، ولفظة: حق على العباد وعلى المؤمنين.

ويستفاد التحريم من النهي، والتصريح بالتحريم والحظر، والوعيد على الفعل، وذم الفاعل، وإيجاب الكفارة بالفعل.

وقوله: «لا ينبغي» فإنها في لغة القرآن والرسول للممتنع عقلاً وشرعاً.  
ولفظه «ما كان لهم كذا وكذا» و«لم يكن لهم»، وترتيب الحدّ على الفعل، ولفظة «لا يحل» و«لا يصلح»، ووصف الفعل بأنه فساد، وأنه من تزيين الشيطان وعمله، وأن الله تعالى لا يحبه ولا يرضاه لعباده، ولا يزيكي فاعله ولا يكلمه ولا ينظر إليه ونحو ذلك.

وتستفاد الإباحة من الإذن والتخيير، والأمر بعد الحظر، ونفي الجناح والحرّج والإثم والمؤاخذه، والإخبار بأنه يعفو عنه، والإقرار على فعله في زمن الوحي، وبالإنكار على من حرّم الشيء، والإخبار بأنه خلق لنا كذا وجعله لنا، وامتنانه علينا به، وإخباره عن فعل من قبلنا، غير ذام لهم عليه.  
فإن اقترن بإخباره مدح، دلّ على رجحانه استحباباً أو وجوباً.

## فصل

وكل فعل عظّمه الله ورسوله، أو مدحه، أو مدح فاعله لأجله، أو فرح به، أو أحبّه، أو أحبّ فاعله، أو رضي به، أو رضي عن فاعله، أو وصفه بالطيب، أو البركة، أو الحُسن، أو نصبه سبباً لمحبهته أو لثواب عاجل أو آجل<sup>(١)</sup>، أو نصبه سبباً لذكره لعبده، أو لشكره له، أو لهديته إياه، أو لإرضاء فاعله، أو وصف فاعله<sup>(٢)</sup> بالطيب، أو وصف الفعل بأنه معروف، أو نفي الحُزن والخوف عن فاعله، أو وعده بالأمن، أو نصبه سبباً لولايته، أو أخير عن دعاء الرسل بحصوله، أو وصفه بكونه قربة، أو أقسم به أو بناعله، كالقسم بخيل المجاهدين وإغارتها<sup>(٣)</sup>، أو ضحك الرب جل جلاله من فاعله، أو عجب به، فهو دليل على مشروعيته المشتركة بين الوجوب والتدب.

## فصل

وكل فعل طلب الشارع تركه، أو ذم فاعله، أو عيب عليه، أو مقت فاعله، أو لعنه، أو نفي محبته إياه، أو محبة فاعله، أو نفي الرضا به، أو الرضا عن فاعله، أو شبه فاعله بالبهائم أو الشياطين، أو جعله مانعاً من الهدى، أو وصفه بسوء أو كراهة، أو استعاذ الأنبياء منه أو أبغضوه، أو جعل سبباً لنفي الفلاح، أو لعذاب عاجل أو آجل، أو لذم أو لوم، أو ضلالة أو معصية، أو وصفه بخبيث<sup>(٤)</sup>، أو رجس، أو نجس، أو بكونه فسقاً أو إثمياً، أو سبباً لإثم أو رجس، أو لعن أو غضب، أو زوال نعمة، أو حلول نقمة، أو حد من الحدود، أو قسوة، أو خزي، أو ارتهان نفس، أو لعداوة الله أو محاربهته، أو الاستهزاء به وسخريته، أو جعله سبباً لنسيانه لفاعله، أو وصف نفسه بالصبر عليه، أو الصفع أو الحلم عنه، أو دعا إلى التوبة منه، أو وصف فاعله بخيث أو احتقار، أو نسه إلى الشيطان وترتيبه، أو تولي الشيطان لفاعله، أو وصفه بصفة ذم، مثل كونه ظلماً أو بغياً، أو عدواناً أو إثمياً، أو تبرأ الأنبياء منه أو من فاعله، أو شكوا

(١) في ب: أو لثوابه عاجلاً أو آجلاً.

(٣) في ب: وإثارتها.

(٢) في ب: فاعليه.

(٤) في ب: بالخبيث.



إلى الله من فاعله، أو جأهروا فاعله بالعداوة، أو نصب سبباً لخبيبة فاعله عاجلاً أو آجلاً، أو رتب عليه حرمان الجنة، أو وصف فاعله بأنه عدو لله أو الله عدوه، أو أعلم فاعله بحرب من الله ورسوله، أو حمل فاعله إثم غيره، أو قيل فيه «لا ينبغي هذا» أو «لا يصلح» أو أمر بالتقوى عند السؤال عنه، أو أمر بفعل يضاده، أو هجر فاعله، أو تلاعن فاعلوه في الآخرة، أو تبرأ بعضهم من بعض، أو وصف فاعله بالضلالة، أو أنه «ليس من الله في شيء» أو أنه ليس من الرسول وأصحابه، أو قرّن بمحرم ظاهر التحريم في الحكم والخبر عنهما<sup>(١)</sup> بخبر واحد، أو جعل اجتنابه سبباً للفلاح، أو جعل سبباً لإيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين، أو قيل لفاعله «هل أنت متنبئ» أو نهى الأنبياء عن الدعاء لفاعله، أو رتب عليه إبعاد، أو طرد، أو لفظة «قتل من فعله»، أو «قاتل الله من فعله»، أو أخبر أن فاعله «لا يكلمه الله يوم القيامة، ولا ينظر إليه، ولا يزيكبه»، أو أن الله لا يصلح عمله، ولا يهدي كيده، أو أن فاعله لا يفلح، ولا يكون يوم القيامة من الشهداء ولا من الشفعاء، أو أن الله يغار من فعله، أو نبه على وجه المفسدة فيه، أو أخبر أنه لا يقبل من فاعله صرفاً ولا عدلاً، أو أخبر أن من فعله فيض له الشيطان فهو له قرين، أو جعل الفعل سبباً لإزاغة الله قلب فاعله، أو صرفه عن آياته وفهم آياته، أو سؤال الله سبحانه عن علة الفعل «لم فعل» نحو: «لم تصدقون عن سبيل الله من آمن»، «لم تأتون الحق بالباطل»، «ما منعك أن تسجد»، «لم تقولون ما لا تفعلون» ما لم يقترب به جواب من المسؤول<sup>(٢)</sup> فإذا قرن به جواب، كان بحسب جوابه.

فهذا ونحوه، يدل على المنع من الفعل، ودلالته على التحريم أطرد من دلالته على مجرد الكراهة. وأما لفظة يكرهه الله ورسوله، أو مكروهه، فأكثر ما يستعمل في المحرم، وقد يستعمل في كراهة التنزيه.

وأما لفظة «وأما أنا فلا أفعل» فالتحقق<sup>(٣)</sup> منه الكراهة كقوله: «أما أنا فلا أكل مكتناً». وأما لفظة «ما يكون لك» و «ما يكون لنا» فاطرد استعمالها في المحرم، نحو «ما يكون لك أن تكبر فيها»، «ما يكون لنا أن نعود فيها»، «ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق».

### فصل

وتستفاد الإباحة من لفظ الإحلال، ورفع الجناح، والإذن، والحفو، و «إن شئت فافعل» و «إن شئت فلا تفعل»، ومن الامتنان بما في الأعيان من المنافع، وما يتعلق بها من الأفعال، نحو: «ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين» ونحو «وبالنجم هم يهتدون». ومن السكوت عن التحريم، ومن الإقرار على الفعل في زمن الوحي.

### فائدة

التعجب كما يدل على محبة الله تعالى للفعل نحو «عجب ربك من شاب ليست له صبرة» ونحوه، قد يدل على بغض الفعل كقوله: «وإن تعجب فمعجب قولهم» وقوله: «بل عجب ويسخرون». وقوله: «وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله». وقد يدل على امتناع الحكم، وعدم حسنه، كقوله: «كيف يكون للمشركين عهد عند الله». ويدل على حسن المنع منه قدرأ، وأنه لا يليق به فعله، كقوله تعالى: «كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم».

(١) في ب: عنه.

(٢) في ب: فالتحقق.

(٣) في ب: من السؤال.

(٤) كذا في ب، وفي أ: بعد.

## فائدة

نفي التساوي في كتاب الله، قد يأتي بين الفعلين، كقوله تعالى: ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر﴾ الآية.

وقد يأتي بين الفاعلين كقوله: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله﴾.

وقد يأتي بين الجزائين كقوله: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾.

وقد جمع الله بين الثلاثة في آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور﴾ الآيات.

## فائدة

في ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور: التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقدير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبه للعقل، كنسبة المحسوس إلى الحس.

وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر، وإبطال أمر.

## فائدة

السياق يرشد إلى بيان المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم<sup>(١)</sup> احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته، فانظر إلى قوله: ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ كيف تجد سياقه يدل على أنه الدليل الحقيق.

## فائدة

إخبار الرب عن المحسوس الواقع له عدة فوائد: منها: أن يكون توطئة وتقدمة لإبطال ما بعده. ومنها: أن يكون مرعظة وتذكرة. ومنها: أن يكون شاهداً على ما أخبر به من توحيده، وصدق رسوله، وإحياء الموتى. ومنها: أن يذكر في معرض الامتنان. ومنها: أن يذكر في معرض اللوم والتوبيخ. ومنها: أن يذكر في معرض المدح والذم. ومنها: أن يذكر في معرض الإخبار عن اطلاع الرب عليه. وغير ذلك من الفوائد. انتهى كلامه رحمه الله، وهو في غاية النفاة، والاشتمال على كثير من القواعد والضوابط المتعلقة بتفسير القرآن، فجزاه الله خيراً.

قلت: وقد اشتمل القرآن على عدة علوم قد ثبتت فيه وأعيدت:

فمنها: ضرب الأمثال، وقد ذكر ابن القيم فيما تقدم فوائدها.

ومنها ذكر صفات أهل السعادة والشقاوة، وفي ذلك فوائد عديدة:

(١) في ب: نظر إلى.

منها: أن الأوصاف التي يوصف بها أهل الخير، تدل على محبة الله ورضاه وأنها محمودة، والصفات التي يوصف بها أهل الشر، تدل على بغض الله لها وأنها مذمومة.

ومنها: ما يكرم الله به أوليائه من الثناء الحسن بين عباده، فهو ثواب معجل، ويهين به أعداءه من الأوصاف القبيحة، فيكون عقاباً معجلاً.

ومنها: أن فيه حثاً للنفوس على الاقتداء بأهل الخير ومناقستهم، وتنشيط العمال على الأعمال ببيان من عملها من أولياء الله.

وفيه الترهيب من أفعال أهل الشر، وتبخيص المعاصي التي أثرت مع عاملها ما أثرت.

ومنها: الاعتبار بصفات أهل الخير والشر، وأن مَنْ فعل مثل فعلهم ناله ما نالهم.

وقد حثّ تعالى على الاعتبار، في غير موضع من كتابه. وحقيقته: العبور من شيء إلى شيء، وقياس الشيء على نظيره.

ومنها: أن العبد إذا رأى<sup>(١)</sup> أعمال أهل الخير وعجزه عن القيام بها، أوجب له ذلك الإزراء على نفسه واحتقارها، وهذا هو عين صلاحه، كما أن رؤيته نفسه بعين الإعجاب والتكبر هو عين فساده، إلى غير ذلك من الفوائد.

ومنها: ذكر صفات الله وأسمائه وأفعاله، وتقديسه عن النقائص، وفي ذلك فوائد عظيمة:

منها: أن هذا العلم - وهو العلم المتملق بالله تعالى - أشرف العلوم وأجلها على الإطلاق.

فالاشتغال بفهمه والبحث التام عنه، اشتغال بأعلى المطالب، وحصوله للعبد من أشرف المواب.

ومنها: أن معرفة الله تعالى تدعو إلى محبته وخشيته، وخوفه ورجائه، وإخلاص العمل له، وهذا عين سعادة العبد، ولا سبيل إلى معرفة الله، إلا بمعرفة أسمائه وصفاته، والتفقه في فهم معانيها.

وقد اشتمل القرآن من ذلك على ما لم يشتمل عليه غيره، من تفاصيل ذلك وتوضيحها، والتعرف بها إلى عباده، وتعريفهم لنفسه كي يعرفوه.

ومنها: أن الله خلق الخلق ليعبده ويعرفوه، فهذا هو الغاية المطلوبة منهم، فالاشتغال بذلك اشتغال بما خلق له العبد، وتركه وتضييعه إهمال لما خلق له. وقبيح بعيد، لم تُزل نعم الله عليه متواترة، وفضله عليه عظيم من كل وجه، أن يكون جاهلاً بربه معرضاً عن معرفته.

ومنها: أن أحد أركان الإيمان، بل أفضلها وأصلها الإيمان بالله، وليس الإيمان بمجرد قوله: «أمنت بالله» من غير معرفته بربه.

بل حقيقة الإيمان، أن يعرف الرب الذي يؤمن به، ويبذل جهده في معرفة أسمائه وصفاته، حتى يبلغ درجة اليقين، وبحسب معرفته بربه يكون إيمانه، فكلما ازداد معرفة بربه ازداد إيمانه وكلما نقص، نقص.

وأقرب طريق يوصله إلى ذلك، تدبر صفاته وأسمائه من القرآن.

والطريق في ذلك، إذا مر به اسم من أسماء الله، أثبت<sup>(٢)</sup> له ذلك المعنى وكمالته وعمومه، ونزهه<sup>(٣)</sup> عما يضاد ذلك.

ومنها: أن العلم به تعالى أصل الأشياء كلها، حتى إن المعارف به حقيقة المعرفة، يستدل بما عرف من صفاته وأفعاله على ما يفعله، وعلى ما يشرعه من الأحكام، لأنه لا يفعل إلا ما هو مقتضى أسمائه وصفاته، فأفعاله دائرة

(١) في ب: أن يثبت.

(٢) في ب: وينزه.

بين العدل والفضل والحكمة.

وكذلك لا يشرع ما يشرعه من الأحكام، إلا على حسب ما اقتضاه حمده وحكمته وفضله وعدله.

فأخباره كلها حق وصدق، وأوامره ونواهيه عدل وحكمة.

وهذا العلم أعظم وأشهر من أن ينه عليه لوضوحه:

وكيف يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

ومنها: ذكر الأنبياء والمرسلين، وما أرسلوا به، وما جرى لهم مع أمهم. وفي ذلك عدة فوائد:

منها: أن من تمام الإيمان بهم معرفتهم بصفاتهم وسيرهم وأحوالهم. وكلما كان المؤمن بذلك أعرف، كان أعظم إيماناً بهم، ومحبة لهم، وتعظيماً لهم، وتعزيراً وتوقيراً.

ومنها: أن من بعض حقوقهم علينا - خصوصاً النبي محمد ﷺ - معرفتهم ومحبتهم محبة صادقة، ولا سبيل لذلك إلا بمعرفة أحوالهم.

ومنها: أن معرفة الأنبياء موجبة لشكر الله تعالى على ما من به على المؤمنين، إذ بعث فيهم رسولاً منهم يزيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، بعد أن كانوا في ضلال مبين.

ومنها: أن الرسل هم المرغوبون للمؤمنين، الذين ما نال المؤمنون<sup>(١)</sup> مثقال ذرة من الخير، ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر، إلا على أيديهم ويسبيهم.

فصيح بالمؤمن أن يجهل حالة مربيّه ومزكّيه ومعلمه.

وإذا كان من المستنكر جهل الإنسان بحال أبيه ومباعدته لذلك، فكيف بحالة الرسول، الذي هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو أبوهم الحقيقي، الذي حقه مقدم على سائر الحقوق بعد حق الله تعالى!!؟

ومنها: أن في معرفة ما جرى لهم وجرى عليهم، تحصيل للمؤمن<sup>(٢)</sup> الأسوة والقدوة، وتخفيف عنه كثير من المقلقات والمزعجات، لأنها مهما بلغت من الثقل والشدة، فلا تصل إلى بعض ما جرى على الأنبياء. قال تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾.

ومن أعظم الاقتداء بهم، الاقتداء بتعليماتهم، وكيفية إلقاء العلم على حسب مراتب الخلق، والصبر على التعليم، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وبهذا وأمثاله كان العلماء ورثة الأنبياء.

ومن فوائد معرفة الرسول ﷺ، معرفة الآيات القرآنية المنزلّة عليه ونهيم المعنى. والمراد منها موقوف على معرفة أحوال الرسول، وسيرته مع قومه وأصحابه وغيرهم من الناس، فإن الأزمنة والأمكنة والأشخاص تختلف اختلافاً كثيراً.

فلو أراد إنسان<sup>(٣)</sup> أن يصرف همه لمعرفة معاني القرآن من دون معرفة منه لذلك، لحصل من الغلط على الله وعلى رسوله، وعلى مراد الله من كلامه، شيء كثير.

وهذا إنما يعرفه من عرف ما في أكثر التفسير من الأغلاط القبيحة التي ينزه عنها كلام الله<sup>(٤)</sup>، وغير

(١) كذا في ب، وفي أ: المؤمن.

(٢) في ب: للمؤمنين.

(٣) في ب: الإنسان.

(٤) في ب جاءت الجملة هكذا (ما في كثير من التفسير من الأغلاط التي ينزه عنها كلام الله) وقد شطبت هذه الجملة، وكتب الشيخ - رحمه الله - في الهامش بدلاً منها ما يلي (كيف كثر حمل مراد الله ورسوله على العرف الحادث فوق الغلط الكثير).

ذلك من الفوائد المفيدة والنتائج السديدة.

ومن علوم القرآن: الأمر والنهي الموجه لهذه الأمة وغيرها، وهذا هو المقصود منهم، وفي معرفة ذلك عدة فوائد:

منها: أن الله تعالى حث على معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، وذم من لم يعرف ذلك. ومن أعظم ما يجب معرفة حدوده؛ الأوامر والنواهي التي كلفنا بها، وألزمنا بالقيام بها وتعلمها وتعليمها.

ولا سبيل إلى امتثالها، [أو اجتنابها،<sup>(١)</sup>] إلا بمعرفتها، ليتأتى فعلها [أو تركها]<sup>(٢)</sup> وذلك أن المكلف إذا أمر بأمر، وجب عليه أولاً معرفة ما هو الذي أمر به، وما يدخل به وما لا يدخل.

فإذا عرف ذلك استعان بالله، واجتهد في امتثاله بحسب القدرة والإمكان.

وكذلك إذا نهي عن أمر من الأمور، وجب عليه معرفة ذلك النهي وحقيقته، ثم يبذل جهده مستعيناً بربه على تركه، امتثالاً لأمر الله، واجتناباً لنهيه، وامتثال الأمر، واجتناب النهي، كل منهما واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. فعرفت أن العلم بها قبل العمل، ومتقدم عليه.

ومنها: أن الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يمكن حصولها وتحصيلها إلا بعد معرفة الخير ليدعو له، ومعرفة المعروف ليأمر به، ومعرفة المنكر لينهى عنه، والقرآن مشتمل على ذلك أعظم اشتمال، ومتضمن له أكمل تضمن.

ومن علوم القرآن أحوال اليوم الآخر، وهو ما يكون بعد الموت مما أخبر به الله في كتابه، أو أخبر به رسوله من أموال الموت، والقبر والموقف، والجنة والنار، وفي العلم بذلك فوائد كثيرة:

منها: أن الإيمان باليوم الآخر، أحد أركان الإيمان الستة، التي لا يصح الإيمان بدونها، وكلما ازدادت معرفته بتفاصيله، ازداد إيمانه<sup>(٣)</sup>.

ومنها: أن العلم بذلك<sup>(٤)</sup> حقيقة المعرفة، يفتح للإنسان باب الخوف والرجاء، اللذين إن خلا القلب منهما خرب كل الخراب، وإن عمر بهما أوجب له الخوف الانكفاف عن المعاصي، والرجاء تيسير الطاعة وتسهيلها، ولا يتم ذلك إلا بمعرفة تفاصيل الأمور التي يخاف منها وتحذر؛ كأحوال القبر وشدته، وأحوال الموقف الهائلة، وصفات النار المظلمة.

وبمعرفة تفاصيل الجنة وما فيها من النعيم المقيم، والحيرة والسرور، ونعيم القلب والروح والبدن، فيحدث بسبب ذلك الاشتياق الداعي للاجتهاد في السعي للمحجوب المطلوب، بكل ما يقدر عليه.

ومنها: أنه يعرف بذلك فضل الله وعدله، في المجازاة على الأعمال الصالحة، والسيئة، الموجب لكمال حمده والثناء عليه بما هو أهله.

وعلى قدر علم العبد بتفاصيل الثواب والعقاب، يعرف بذلك فضل الله وعدله وحكمته.

ومن علوم القرآن: مجادلة المبطلين، ودفع شبه الظالمين، وإقامة البراهين العقلية الموافقة للأدلة العقلية.

وهذا الفن من علوم القرآن من خواص العلماء الربانيين، والجهازة الراسخين، والعقلاء المستبصرين، وقد اشتمل القرآن من الأدلة العقلية، والقواطع البرهانية، ما لو جمع ما عند جميع

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) زيادة من هامش ب.

(٣) في ب: إيمان العبد به.

(٤) في ب: أن معرفة ذلك.

المتكلمين من حق، لكان بالنسبة إليه كثرة عصفور بالنسبة لماء البحر؛ ذلك بأن القرآن هو الحق، وقد اشتمل على الحق والصدق والعدل والميزان العادل والقسط والصلاح والفلاح، فإن ذكر التوحيد والشرك، وأمر بالأول ونهى عن الثاني، أقام من البراهين القاطعة على صحة التوحيد وحسنه وتعيينه طريقاً للنجاة، وقبح الشرك وبطلانه، وكونه هو الطريق للهلاك، ما يجعل ذلك للبصيرة كالشمس في نحر الظهيرة.

وإن أمر بالأوامر الشرعية، وحث على الآداب ومكارم الأخلاق، رأيت ينبه العقول النيرة على ما اشتملت عليه من المصالح الضرورية، التي يحتاجونها في معاشهم ومعادهم، ما يجزم بأنه<sup>(١)</sup> لا أحسن منها، وأن حكمته تقتضي الأمر بها أشد اقتضاء.

وإن نهى عن المحارم والقبائح والخبائث، أخبر بما في ضمنها من الفساد والضرر، والشر الحاصل بتناولها، وأن نعمة الله عليهم بتحريمها عليهم وتزويجهم عنها، وتكريمهم وتعليق أقدارهم عن التلبس بها فوق كل نعمة، فالمأمورات مشتملات<sup>(٢)</sup> على الصلاح، والمحرمات مشتملات<sup>(٣)</sup> على المفساد.

وإن شرع في الحجاج للمبطلين، وتزييف شبه المشبهين، وبطلان مذاهب الضالين، فقل ما شئت من إحقاق حق، ودمغ باطل، وإرشاد ضال، وإقامة الحجة على المعاند، وبيان أن الباطل لا يقوم لأقل شيء من الحق، بل هو على اسمه باطل لا حقيقة له، إن هي إلا أسماء يسمون بها الباطل إذا جردت، تبين هباء مثوراً.

ورأيت يسوق البراهين العقلية، بأوضح عبارة وأجزها وأسلمها من الاعتراض والنقض والخفاء، فيجمع بين الدليل العقلي والنقلي في كلمة واحدة، إيجازاً غير مخل بالمطلوب، وتارة يفصل ذلك، ويسرد من البراهين ما يكفي بعضه بالبيان. فله الحمد والشكر.

فهذه مقدمة نافعة، إن شاء الله، ينبغي استقراؤها في [كل] موارد، والتنبه لكل ما يرد من هذه المطالب على وجه التفصيل، فمن استعملها في كل ما يرد عليه من الآيات، انتفع بها نفعاً عظيماً. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

(٣) في ب: مشتملة.

(١) كذا في ب، وفي أ: به أنه.

(٢) في ب: مشتملة.

## تفسير الفاتحة وهي مكية

﴿١ - ٧﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ \* مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ \* إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ \* اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ \* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ \* غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ \* وَلَا الضَّالِّينَ﴾ أي: أبتدىء بكل اسم لله تعالى، لأن لفظ «اسم» مفرد مضاف، فيعم جميع الأسماء [الحسنی]، ﴿الله﴾: هو المألوه المعبود، المستحق لإفراده بالعبادة لما اتصف به من صفات الألوهية، وهي صفات الكمال، ﴿الرحمن الرحيم﴾: اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي، وكتبتها للمتقين التبعين لأنبيائه ورسله، فهو لأهلهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم فلهم نصيب منها.

واعلم أن من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة وأئمتها، الإيمان بأسماء الله وصفاته، وأحكام الصفات، فيؤمنون مثلاً بأنه رحمن رحيم، ذو الرحمة التي اتصف بها، المتعلقة بالرحوم، فالنعم كلها أثر من آثار رحته، وهكذا في سائر الأسماء. يقال في العليم: إنه عليم ذو علم يعلم [به] كل شيء، قدير ذو قدرة يقدر على كل شيء.

﴿الحمد لله﴾: [هو] الثناء على الله بصفات الكمال، وأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل، فله الحمد الكامل بجميع الوجوه. ﴿رب العالمين﴾ الرب: هو الربوبية لجميع العالمين - وهم من سوى الله - بخلقهم لهم، وإعداده لهم الآلات، وإتعامه عليهم بالنعم العظيمة، التي لو فقدوها لم يمكن لهم البقاء، فما بهم من نعمة فمنه تعالى. وتربيته تعالى خلقه نوعان: عامة وخاصة.

فالعامة: هي خلقه للمخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم، التي فيها بقاؤهم في الدنيا.

والخاصة: تربيته لأوليائه، فيربيهم بالإيمان، ويفقههم له، ويكمله لهم، ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه، وحقيقتها: تربية التوفيق لكل خير، والعصمة عن كل شر، ولعل هذا [المعنى] هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب، فإن مطالبهم كلها داخلية تحت ربوبيته الخاصة.

فدل قوله: ﴿رب العالمين﴾ على انفراده بالخلق والتدبير والنعم، وكمال غناه، وتعام فقر العالمين إليه، بكل وجه واعتبار.

﴿مالك يوم الدين﴾ المالك: هو من اتصف بصفة الملك التي من آثارها أنه يأمر وينهى، ويشيب ويعاقب، ويتصرف بمماليكه بجميع أنواع التصرفات، وأضاف للملك يوم الدين، وهو يوم القيامة، يوم يُدان الناس فيه بأعمالهم خيرا وشرها، لأن في ذلك اليوم يظهر للخلق تمام الظهور كمال ملكه وعدله وحكمته، وانقطاع أملاك الخلائق، حتى [إنه] يستوي في ذلك اليوم الملوك والرعايا والعبيد والأحرار، كلهم مذعنون لعظمته خاضعون لعزته، منتظرون لمجازاته، راجون ثوابه، خائفون من عقابه، فلذلك خصّه بالذكر، وإلا فهو المالك يوم الدين وغيره من الأيام.

وقوله: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ أي: نخضك وحدك بالعبادة والاستعانة، لأن تقديم المعمول يفيد الحصر، وهو إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه، فكأنه يقول: نعبدك، ولا نعبد غيرك، ونستعين بك، ولا نستعين بغيرك.

وقدم<sup>(٢)</sup> العبادة على الاستعانة، من باب تقديم العام على الخاص، واهتماما بتقديم حقه تعالى على حق عبده،

و «العبادة»: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، و «الاستعانة»: هي الاعتماد على الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك.

والقيام بعبادة الله والاستعانة به هو الوسيلة للسعادة الأبدية، والنجاة من جميع الشورر، فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بهما، وإنما تكون العبادة عبادة مقصوداً بها وجه الله، فهذهن الأمرين تكون عبادة، وذكر «الاستعانة» بعد «العبادة» مع دخولها فيها، لاحتياج العبد في جميع عبادته إلى الاستعانة بالله تعالى، فإنه إن لم يعنه الله، لم يحصل له ما يريد من فعل الأوامر واجتناب التواهي.

ثم قال تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ أي: دلنا وأرشدنا ووفقنا للصراط المستقيم، وهو الطريق الواضح الموصل إلى الله وإلى جنته، وهو معرفة الحق والعمل به، فاهدنا إلى الصراط واهدنا في الصراط، فالهداية إلى الصراط: لزوم دين الإسلام، وترك ما سواه من الأديان، والهداية في الصراط تشمل الهداية لجميع التفاصيل الدينية علماً وعملاً. فهذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد، ولهذا وجب على الإنسان أن يدعو الله به في كل ركعة من صلاته، لضرورته إلى ذلك.

وهذا الصراط المستقيم هو: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ﴿غير﴾ صراط ﴿المغضوب عليهم﴾ الذين عرفوا الحق وتركوه كاليهود ونحوهم، وغير صراط ﴿الضالين﴾ الذين تركوا الحق على جهل وضلال، كالنصارى ونحوهم.

فهذه السورة على إيجازها، قد

(٢) في ب: وتقديم.

(١) في ب: فله.

وقوله: ﴿ذلك الكتاب﴾ أي: هذا الكتاب العظيم الذي هو الكتاب على الحقيقة، المشتمل على ما لم تشتمل عليه كتب المتقدمين والمتأخرين من العلم العظيم، والحق المبين، ف﴿لا رب فيه﴾ ولا شك بوجوده من الوجوه، ونفي الرّيب عنه يستلزم ضده، إذ ضدّ الرّيب والشك اليقين، فهذا الكتاب مشتمل على علم اليقين المزيل للشك والرّيب، وهذه قاعدة مفيدة أن النفي المقصود به المدح لا بد أن يكون متضمناً لضده، وهو الكمال، لأن النفي عدم، والعدم المحض لا مدح فيه.

احتوت على ما لم تحتم عليه سورة من سور القرآن، فتضمنت أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية يؤخذ من قوله: ﴿رب العالمين﴾، وتوحيد الإلهية، وهو إفراد الله بالعبادة، يؤخذ من لفظ: ﴿الله﴾ ومن قوله: ﴿إياك نعبد﴾، وتوحيد الأسماء والصفات، وهو إثبات صفات الكمال لله تعالى، التي أنبتها لنفسه، وأنبتها له رسوله من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تشبيه، وقد دل على ذلك لفظ ﴿الحمد﴾ كما تقدم. وتضمنت إثبات النبوة في قوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ لأن ذلك ممتنع بدون الرسالة.

فلما اشتمل على اليقين وكانت الهداية لا تحصل إلا باليقين قال: ﴿هدى للمتقين﴾، والهدى: ما تحصل به الهداية من الضلالة والشبه، وما به الهداية إلى سلوك الطرق النافعة، وقال: ﴿هدى﴾ وحذف المعمول، فلم يقل هدى للمتقين، لإرادة العموم، وأنه هدى لجميع مصالح الدارين، فهو مرشد للعباد في المسائل الأصولية والفروعية، ومبين للحق من الباطل، والصحيح من الضعيف، ومبين لهم كيف يسلكون الطرق النافعة لهم في دنياهم وأخرامهم.

وإثبات الجزاء على الأعمال في قوله: ﴿مالك يوم الدين﴾، وأنّ الجزاء يكون بالعدل، لأن الدين معناه الجزاء بالعدل. وتضمنت إثبات القدر، وأن العبد فاعل حقيقة، خلافاً للقدرية والجبرية. بل تضمنت الردّ على جميع أهل البدع (والضلال) في قوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ لأنه معرفة الحق والعمل به، وكل مبتدع [وضال] فهو مخالف لذلك. وتضمنت إخلاص الدّين لله تعالى عبادة واستعانة في قوله: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ فالحمد لله رب العالمين.

### تفسير سورة البقرة وهي مدنية

﴿١-٥﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الم \* ذلك الكتاب لا رب فيه هدى للمتقين \* الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينتفون \* والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون \* أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون \* تقدم الكلام على البسملة، وأما الحروف المقطعة في أوائل السور، فالأسلم فيها السكوت عن التعرض لمناها، [من غير مستند شرعي] مع الجزم بأن الله تعالى لم يُزلها عبثاً بل لحكمة لا نعلمها.

وقال في موضع آخر: ﴿هدى للناس﴾ فعلم، وفي هذا الموضع وغيره ﴿هدى للمتقين﴾ لأنه في نفسه هدى لجميع الخلق، فالأشقياء لم يرفعوا به رأساً، ولم يقبلوا هدى الله، فقامت عليهم به الحجة، ولم ينتفعوا به لشقايتهم، وأما المتقون الذين أتوا بالسبب الأكبر لحصول الهداية وهو التقوى، التي حقيقتها: اتخاذ ما بقي سخط الله وعذابه بامتنال أوامره واجتناب النواهي، فاهتدوا به، وانتفعوا غاية الانتفاع، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾ فالمتقون هم المنتفعون بالآيات القرآنية والآيات الكونية.

ولأن الهداية نوعان: هداية البيان، وهداية التوفيق، فالمتقون حصلت لهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ \* مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ \* إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ \* اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ \* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ \*

### سورة التوحيد

الهدايان، وغيرهم لم تحصل لهم هداية التوفيق، وهداية البيان بدون توفيق للعمل بها ليست هداية حقيقية [تامة].

ثم وصف المتقين بالعقائد والأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، لتضمن التقوى لذلك، فقال: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾، حقيقة الإيمان: هو التصديق الثام بما أخبرت به الرسل، المتضمن لانقياد الجوارح، وليس الشأن في الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحواس، فإنه لا يتميز بها المسلم من الكافر، إنما الشأن في الإيمان بالغيب، الذي لم نره ولم نشاهده، وإنما نؤمن به بخبر الله وخبر رسوله، فهذا الإيمان الذي يميز به المسلم من الكافر، لأنه تصديق مجرد لله ورسله، فالؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر به رسوله، سواء شاهده أم لم يشاهده، وسواء فهمه وعقله أم لم يتد إليه عقله وفهمه، بخلاف الزنادقة المكذبين للأموور الغيبية؛ لأن عقولهم القاصرة المقصورة لم تتد إليها، فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، ففسدت عقولهم، ومزجت أحلامهم، وزكت عقول المؤمنين الصديقين المهتدين هدى الله.

ويدخل في الإيمان بالغيب [الإيمان] بجمع ما أخبر الله به من الغيوب الماضية والمستقبلية، وأحوال الآخرة، وحقائق أوصاف الله وكيفيتها، [وما أخبرت به الرسل من



إخوانهم .

وفي قوله: ﴿رَزَقْنَاهُمْ﴾ إشارة إلى أن هذه الأموال التي بين أيديكم، ليست حاصلة بقوتكم وملكتكم، وإنما

هي رزق الله الذي خولكم، وأنتم به عليكم، فكما أنعم عليكم وفضلكم على كثير من عباده، فاشكروه بإخراج بعض ما أنعم به عليكم، وواسوا إخوانكم المعدمين .

وكثيراً ما يجمع تعالى بين الصلاة والزكاة في القرآن، لأن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة

والنفقة متضمنة للإحسان على عبده، فنون سعادة العبد إخلاصه للمعبود، وسعيه في نفع الخلق، كما أن عنوان شقاوة العبد عدم هذين الأمرين منه، فلا إخلاص ولا إحسان .

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن والسنة، قال تعالى:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ فالتقون يؤمنون بجميع ما جاء به الرسول، ولا يفرقون بين بعض ما أنزل إليه، فيؤمنون ببعضه، ولا يؤمنون ببعضه، إما بجحده أو تأويله على غير مراد الله ورسوله، كما يفعل ذلك من يفعله من البيتدعة، الذين يؤولون النصوص الدالة على خلاف قولهم، بما حاصله عدم التصديق بمعناها، وإن صدقوا بلفظها فلم يؤمنوا بها إيماناً حقيقياً .

وقوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يشمل الإيمان بالكتب<sup>(١)</sup> السابقة، ويتضمن الإيمان بالكتب الإيمان بالرسول وبما اشتملت عليه، خصوصاً التوراة والإنجيل والزيور، وهذه خاصة المؤمنين يؤمنون بجميع الكتب السماوية<sup>(٢)</sup>، وبجميع الرسل فلا يفرقون بين أحد منهم .

ثم قال: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، و «الآخرة»: اسم لما يكون بعد الموت، وحضه [بالذكر] بعد العموم، لأن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان

(٥) في ب: فهي صلاة .

(٣) في ب: بجميع الكتب .

(٤) في ب: بالكتب السماوية كلها .

ذلك [فيؤمنون بصفات الله ووجودها، ويتيقنونها وإن لم يفهموا كيفيتها .

ثم قال: «ويقيمون الصلاة» لم يقل: يفعلون الصلاة، أو يأتون بالصلاة، لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة، فإقامة الصلاة، إقامتها ظاهراً بإتمام أركانها وواجباتها وشروطها، وإقامتها باطنياً<sup>(١)</sup> بإقامة روحها، وهو حضور القلب فيها، وتدبر ما يقوله ويفعله منها، فهذه الصلاة هي التي قال الله فيها: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ وهي التي يترتب عليها الثواب، فلا ثواب للإنسان<sup>(٢)</sup> من صلاته إلا ما عقل منها، ويدخل في الصلاة فرائضها ونوافلها .

ثم قال: ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾، يدخل فيه النفقات الواجبة كالزكاة، والنفقة على الزوجات والأقارب والماليك، ونحو ذلك، والنفقات المستحبة بجميع طرق الخير، ولم يذكر المنفق عليه، لكثرة أسبابه وتنوع أهله، ولأن النفقة من حيث هي قرية إلى الله، وأتى ب «من» الدالة على التبويض، لينبههم أنه لم يرد منهم إلا جزءاً يسيراً من أموالهم، غير ضار لهم ولا مُثقل، بل ينتفعون هم بإنفاقه، وينتفع به

(١) كذا في ب، وفي أ: واطنهما .

(٢) في ب: للعبد .

يضر المؤمنين أن أظهر المنافقون الإيمان، فسلمت بذلك أموالهم وحقت دماؤهم، وصار كيدهم في نحورهم، وحصل لهم بذلك الحزني والفضيحة في الدنيا، والحزن المستمر بسبب ما يحصل للمؤمنين من القوة والنصرة.

ثم في الآخرة لهم العذاب الأليم الموجه الفجع، بسبب كذبهم وكفرهم وفجورهم، والحال أنهم من جهلهم وحمقتهم لا يشعرون بذلك.

وقوله: ﴿في قلوبهم مرض﴾ والمراد بالمرض هنا: مرض الشك والشبهات والنفاق، لأن القلب يعرض له مرضان يجرّجانه عن صحته واعتداله: مرض الشبهات الباطلة، ومرض الشهوات المردية، فالكفر والنفاق والشكوك والبدع، كلها من مرض الشبهات، والزنا ومحبة الفواحش [والمعاصي وفعلها من مرض الشهوات، كما قال تعالى: ﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾ وهي شهوة الزنا، والمعاق من عوفي من هذين المرضين، فحصل له اليقين والإيمان، والصبر عن كل معصية، فزُلّ في أبواب العافية.

وفي قوله عن المنافقين: ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً﴾ بيان لحكمته تعالى في تقدير المعاصي على العاصين، وأنه بسبب ذنوبهم السابقة، يبتليهم بالمعاصي اللاحقة الموجبة لعقوباتها كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ وقال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ وقال تعالى: ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ فعقوبة المعصية المعصية بعدها، كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، قال تعالى: ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾.

خاصم فجره.

وأما النفاق الاعتقادي المخرج عن دائرة الإسلام، فهو الذي وصف الله به المنافقين في هذه السورة وغيرها، ولم يكن النفاق موجوداً قبل هجرة الرسول ﷺ [من مكة] إلى المدينة، وبعد أن هاجر، فلما كانت وقعة بدر<sup>(١)</sup> وأظهر الله المؤمنين وأعزهم، ذل<sup>(٢)</sup> من في المدينة عن لم يسلم، فأظهر بعضهم الإسلام خوفاً وخداعة، ولتحقق دماؤهم، وتسلم أموالهم، فكانوا بين أظهر المسلمين في الظاهر أنهم منهم، وفي الحقيقة ليسوا منهم.

فمن لطف الله بالمؤمنين أن جلاّ أحوالهم ووصفهم بأوصاف يتميزون بها، لئلا يترجمهم المؤمنون، وليتصموا أيضاً عن كثير من فجورهم [قال تعالى]: ﴿يخذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم﴾ فوصفهم الله بأصل النفاق، فقال: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ فإنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فأكذبهم الله بقوله: ﴿وما هم بمؤمنين﴾ لأن الإيمان الحقيقي ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما هذا خداعة لله ولعباده المؤمنين.

والمخادعة: أن يُظهر المخادع لمن يخادعه شيئاً ويُبطن خلافه، لكي يتمكن من مقصوده عن بخادع، فهؤلاء المنافقون سلكوا مع الله وعباده هذا المسلك، فعاد خداعهم على أنفسهم، فإن<sup>(٣)</sup> هذا من المعائب؛ لأن المخادع إما أن يُنتج خداعه ويحصل ما يريد<sup>(٤)</sup>، أو يسلم لا لهُ ولا عليه، وهؤلاء عاد خداعهم عليهم، وكأنهم<sup>(٥)</sup> يعملون ما يعملون من المكر لإهلاك أنفسهم وإضرارها وكيدها؛ لأن الله تعالى لا يتضرر بخداعهم، [شيئاً] وعباده المؤمنون لا يضرهم كيدهم شيئاً، فلا

الدعوة إلا إقامة الحجّة عليهم، وكان في هذا قطعاً لطمع الرسول ﷺ في إيمانهم، وأنتك لا تبأس عليهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات.

ثم ذكر الموانع المانعة لهم من الإيمان، فقال: ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم﴾ أي: طبع عليها بطابع لا يدخلها الإيمان، ولا يتغذ فيها، فلا يُؤمن ما يقعهم، ولا يسمعون ما يفيدهم.

﴿وعلى أبصارهم غشاوة﴾ أي: غشاء وغطاء وأكثت تمنعها عن النظر الذي يقعهم، وهذه طرق العلم والخير قد سدت عليهم، فلا مطمع فيهم، ولا خير يُرجى عندهم، وإنما منعوا ذلك، وسدت عنهم أبواب الإيمان بسبب كفرهم وجحودهم ومعاندتهم بعدما تبين لهم الحق، كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ وهذا عقاب عاجل.

ثم ذكر العقاب الآجل، فقال: ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ وهو عذاب النار، وسخط الجبار المستمر الدائم.

ثم قال تعالى في وصف المنافقين الذين ظاهرهم الإسلام وباطنهم الكفر، فقال:

﴿٨ - ١٠﴾ ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون \* في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾ وأعلم أن النفاق هو: إظهار الخير وإبطان الشر، ويدخل في هذا التعريف النفاق الاعتقادي والنفاق العملي، فالنفاق العملي كالذي ذكر النبي ﷺ في قوله: ﴿آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان﴾، وفي رواية: «وإذا

(٦) في ب: وذلك أن.

(٤) في ب: ويحصل له مقصوده.

(٥) في ب: عاد خداعهم على أنفسهم.

فكانهم.

(١) في ب: ولا بعد الهجرة حتى كانت

وقعة بدر.

(٢) في ب: فذل.

(٣) في ب: وهذا.

﴿١١-١٢﴾ ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون﴾ \* ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾ أي: إذا نبه هؤلاء المنافقون عن الإفساد في الأرض، وهو العمل بالكفر والمعاصي، ومنه إظهار سرائر المؤمنين لعدوهم وموالاتهم للكافرين ﴿قالوا إنما نحن مصلحون﴾ فجمعوا بين العمل بالفساد في الأرض، وإظهارهم أنه ليس بإفساد بل هو إصلاح، قلباً للحقائق وجمعاً بين فعل الباطل واعتقاده حقاً، وهذا أعظم جناية ممن يعمل بالعصية، مع اعتقاد أنها معصية<sup>(١)</sup>، فهذا أقرب للسلامة، وأرجى لرجوعه.

ولما كان في قولهم: ﴿إنما نحن مصلحون﴾ حصرٌ للإصلاح في جانبهم. وفي ضمة أن المؤمنين ليسوا من أهل الإصلاح - قلبت الله عليهم دعواهم بقوله: ﴿ألا إنهم هم المفسدون﴾ فإنه لا أعظم فساداً<sup>(٢)</sup> ممن كفر بآيات الله، وصد عن سبيل الله، وخذل داع الله وأوليائه، ووالى المحاربين لله ورسوله، وزعم مع ذلك أن هذا إصلاح، فهل بعد هذا الفساد فساداً؟! ولكن لا يعلمون علماً ينفعهم، وإن كانوا قد علموا بذلك علماً تقوم به عليهم حجة الله، وإنما كان العمل بالمعاصي في الأرض إفساداً، لأنه يتضمن فساداً<sup>(٣)</sup> ما على وجه الأرض من الحبوب والثمار والأشجار والنبات، بما<sup>(٤)</sup> يحصل فيها من الأفات بسبب<sup>(٥)</sup> المعاصي، ولأن الإصلاح في الأرض أن تعمّر بطاعة الله والإيمان به، لهذا خلق الله الخلق، وأسكنهم في الأرض، وأدّر لهم<sup>(٦)</sup> الأرزاق، ليستعينوا بها على طاعته [وعبادته]، فإذا عمل فيها بضده، كان سعيها بالفساد فيها،

وإخراباً لها عما خلقت له .

﴿١٣﴾ ﴿وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء إلا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾ أي: إذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن الناس، أي: كإيمان الصحابة رضي الله عنهم، وهو الإيمان بالقلب واللسان، قالوا يزعمهم الباطل: أنؤمن كما آمن السفهاء؟ يعنون - قبحهم الله - الصحابة رضي الله عنهم، يزعمهم<sup>(٧)</sup> أن سفههم أرجب لهم الإيمان، وترك الأوطان، ومعاداة الكفار، والعقل عندهم يقتضي ضد ذلك، فسبوهم إلى السفه؛ وفي ضمة<sup>(٨)</sup> أنهم هم العقلاء أرباب الحجة والنهي.

فردّ الله ذلك عليهم، وأخبر أنهم هم السفهاء على الحقيقة، لأن حقيقة السفه<sup>(٩)</sup>: جهل الإنسان بمصالح نفسه، وسعيه فيما يضرها، وهذه الصفة منطبقة عليهم وصادقة عليهم، كما أن العقل والحجاء، معرفة الإنسان بمصالح نفسه، والسعي فيما ينفعه وأفي<sup>(١٠)</sup> دفع ما يضره، وهذه الصفة منطبقة على الصحابة والمؤمنين وصادقة عليهم، فالعبارة بالأوصاف والبرهان، لا بالدعوى المجردة والأقوال الفارغة.

ثم قال تعالى: ﴿١٤-١٥﴾ ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤون﴾ \* الله يستهزيء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾ هذا من قولهم بالسنتهم ما ليس في قلوبهم، [وذلك] أنهم إذا اجتمعوا بالمؤمنين أظهروا أنهم على طريقتهم وأنهم معهم، فإذا خلوا إلى شياطينهم - أي: رؤسائهم وكبرائهم في الشر - قالوا: إنا معكم في الحقيقة، وإنما نحن

مستهزؤون بالمؤمنين بإظهارنا لهم أننا على طريقتهم، فهذه حالهم الباطنة والظاهرة، ولا يجيب المكر السيء إلا بأهله.

قال تعالى: ﴿الله يستهزيء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾ وهذا جزاء لهم على استهزائهم بعباده، فمن استهزأه بهم أن زين لهم ما كانوا فيه من الشقاء والحالة الخبيثة، حتى ظنوا أنهم مع المؤمنين لما لم يسلم الله المؤمنين عليهم، ومن استهزأه بهم يوم القيامة أنه يعطيهم مع المؤمنين نوراً ظاهراً، فإذا مشى المؤمنون بتورهم طغيء نور المنافقين، ونقوا في الظلمة بعد النور متحيرين، فما أعظم اليأس بعد الطمع، ﴿ينادونهم ألم نكن معكم﴾ قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وترصدتم وارتبتم الآية.

قوله: ﴿ويمدهم﴾ أي: يزيدهم ﴿في طغيانهم﴾ أي: فجورهم وكفرهم، ﴿يعمهون﴾ أي: حاثرون مترددون، وهذا من استهزائه تعالى بهم.

ثم قال تعالى كاشفاً عن حقيقة أحوالهم:

﴿١٦﴾ ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾ أولئك، أي: المنافقون الموصوفون بتلك الصفات ﴿الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ أي: رغبوا في الضلالة رغبة المشتري بالسلعة، التي من رغبته فيها يبذل فيها الأثمان<sup>(١١)</sup> النفيسة، وهذا من أحسن الأمثلة، فإنه جعل الضلالة التي هي غاية الشر كالسلعة، وجعل الهدى الذي هو غاية الصلاح بمنزلة الثمن، فبذلوا الهدى رغبةً عنه بالضلالة، رغبة فيها، فهذه تجارتهم، فيس التجارة، وبس الصفقة صفقتهم<sup>(١٢)</sup>.

(٩) كذا في ب، وفي أ: الفقة.

(١٠) في ب: الأموال.

(١١) في ب: وهذه صفقتهم فيس الصفقة.

(٥) في ب: التي سبها.

(٦) في ب: عليهم.

(٧) في ب: لزعمهم.

(٨) في ب: وفي ضمن ذلك.

(١) ممن يعمل بالمعاصي مع اعتقاد تحريمها.

(٢) كذا في ب، وفي أ: فساداً.

(٣) في ب: لأنه سبب فساد.

(٤) في ب: لما.





صحيح، وهما متلازمان، فمن أتى بالعبادة كاملة كان من المتقين ومن كان من المتقين، حصلت له النجاة من عذاب الله وسخطه ثم قال تعالى:

﴿٢٣ - ٢٤﴾ «وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين \* فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين» وهذا دليل عقلي على صدق رسول الله ﷺ وصحة ما جاء به، فقال:

﴿وإن كنتم﴾ معشر المغاندين للرسول، الرادين دعوته، الزاعمين كذبه في شك واشتباه مما نزلنا على عبدنا، هل هو حق أو غيره؟ فهناها أمر نصف، فيه الفصلة بينكم وبينه، وهو أنه بشر مثلكم، ليس بأفصحكم ولا بأعلمكم<sup>(٤)</sup>، وأنتم تعرفونه منذ نشأ بينكم لا يكتب ولا يقرأ، فاتاكم بكتاب زعم أنه من عند الله، وقلتم أنتم أنه تقوله وافتراه، فإن كان الأمر كما تقولون، فأتوا بسورة من مثله، واستعينوا بمن تفقدون عليه من أعوانكم وشهادتكم، فإن هذا أمر يسير عليكم، خصوصاً وأنتم أهل الفصاحة والخطابة والعداوة العظيمة للرسول، فإن جئتم بسورة من مثله، فهو كما زعمتم، وإن لم تأتوا بسورة من مثله وعجزتم غاية العجز، ولن تأتوا بسورة من مثله، ولكن هذا التقييم<sup>(٥)</sup> على وجه الإنصاف والتنزل معكم، فهذا آية كبرى ودليل واضح [جلي] على صدقه وصدق ما جاء به، فيتعين عليكم اتباعه، وافتقار النار التي بلغت في الحرارة العظيمة [والشدة]، أن كانت وقودها الناس والحجارة، ليست كنار الدنيا التي إنما تتقد

﴿وأنزل من السماء ماء﴾ والسماء: [هو] كل ما علا فوقك فهو سماه، ولهذا قال الفسرون: المراد بالسماء هاهنا: السحاب، فأنزل منه تعالى ماء، ﴿فأخرج به من الشمرات﴾ كالحبوب والشمار من نخيل وفواكه [وزروع] وغيرها، ﴿ورزقاً لكم﴾ به ترتزقون وتقتون، وتعيشون وتفكهنون.

﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾ أي: نظراء وأشباهاً من المخلوقين، فتعبدونهم كما تعبدون الله، وهم مثلكم مخلوقون مرزوقون مدبرون، لا يملكون مثقال حبة في السماء ولا في الأرض، ولا ينفعونكم ولا يضرون، ﴿وأنتم تعلمون﴾ أن الله ليس له شريك، ولا نظير، لا في الخلق والرزق والتدبير، ولا في العبادة<sup>(٦)</sup>، فكيف تعبدون معه آلهة أخرى مع علمكم بذلك؟ هذا من أعجب العجب، وأصفه السفه.

وهذه الآية جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه، وبيان الدليل الباهر على وجوب عبادته، وبيان عبادته من سواه، وهو [ذكر] توحيد الربوبية المتضمن لانفراده بالخلق والرزق والتدبير، فإذا كان كل أحد مقراً بأنه ليس له شريك في ذلك، فكذلك فليكن إقراره بأن [الله] لا شريك له في العبادة، وهذا أوضح دليل عقلي على وحدانية الباري، وعلان الشرك.

وقوله تعالى: ﴿لملكم تتقون﴾ يحتمل أن المعنى: أنكم إذا عبدتم الله وحده، اتقيتم بذلك سخطه وعذابه، لأنكم أتيتم بالسبب الدافع لذلك، ويحتمل أن يكون المعنى: أنكم إذا عبدتم الله، صرتم من المتقين الموصوفين بالتقوى، وكلا المعنيين

ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون \* الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴿ هذا أمر عام لكل<sup>(١)</sup> الناس، بأمر عام، وهو العبادة الجامعة لامثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وتصديق خبره، فأمرهم تعالى بما خلقهم له، قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾.

ثم استدلل على وجوب عبادته وحده، بأنه ربكم الذي رباكم بأصناف النعم، فخلقكم بعد العدم، وخلق الذين من قبلكم، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، فجعل لكم الأرض فراشاً تستقرون عليها، وتنفعون بالآبنية والزراعة والحراثة، والسلوك من عمل إلى عمل، وغير ذلك من أنواع<sup>(٢)</sup> الانتفاع بها، وجعل السماء بناءً لمسكنكم، وأودع فيها من المنافع ما هو من ضروراتكم وحاجاتكم كالشمس والقمر والنجوم.

(١) في ب: لجميع.

(٢) في ب: وجوه.

(٣) في ب: ولا في الأوهية والكمال.

(٤) هكذا في أ، وفي ب: نطع قوله (بأفصحكم ولا بأعلمكم) وفي هامش النسخة بخط المؤلف جملة أخرى هي (من جنس آخر) فتكون الجملة هكذا (ليس من جنس آخر).

(٥) هكذا وردت الكلمة في هامش أ، وهي ليست في ب، ويبدو أن المراد وهذا العرض.



بأفضل الأسباب .

ويتحiron، فيزدادون كفراً إلى كفرهم، كما ازداد المؤمنون إيماناً على إيمانهم، ولهذا قال: ﴿يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً﴾ فهذه حال المؤمن والكافر عند نزول الآيات القرآنية . قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَذُكِّرُوا بِهَا فَرِحُوا فَرِحَتِمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ \* وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ فلا أعظم نعمة على العباد من نزول الآيات القرآنية، ومع هذا تكون لقوم محنة وحيرة [وضلالة] وزيادة شر إلى خيرهم، فسبحان من قاوت بين عباده، وانفرد بالهداية والإضلال .

ثم ذكر حكمته في إضلال من يضلهم وأن ذلك عدل منه تعالى<sup>(١)</sup> فقال: ﴿وَمَا يَضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعة الله؛ المعاندين لرسول الله؛ الذين صار الفسق وصفهم، فلا يبعثون به بدلاً، فاقترض حكمته تعالى إضلالهم لعدم صلاحيتهم للهدى، كما اقتضت حكمته وفضله هداية من اتصف بالإيمان وتحل بالأعمال الصالحة .

والفسق نوعان: نوع يخرج من الدين، وهو الفسق المقتضي للخروج من الإيمان، كالمذكور في هذه الآية ونحوها، ونوع غير مخرج عن الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَأ فَنِيئُوا﴾ [الآية] .

ثم وصف الفاسقين، فقال: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ وهذا يعم العهد الذي بينهم وبينه<sup>(٢)</sup>؛ والذي بينهم وبين عباده<sup>(٣)</sup>؛ الذي أكده عليهم بالمواثيق الثقيلة والإلزامات، فلا يبالون بتلك المواثيق، بل ينقضونها ويتركون أوامره، ويرتكبون نواهيه، وينقضون العهود التي بينهم وبين الخلق .

وفيه استحباب بشارة المؤمنين وتنشيطهم على الأعمال بذكر جزائها [وثمراتها]، فإنها بذلك تخف وتسهل، وأعظم بشرى حاصلة للإنسان لتوفيقه للإيمان والعمل الصالح، فذلك أول البشارة وأصلها، ومن بعده البشـرى عند الموت، ومن بعده الوصول إلى هذا النعيم المقيم، نسأل الله أن يجعلنا منهم<sup>(٤)</sup> .

﴿٢٦٦ - ٢٧﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً أَيُّ مَثَلٍ كَانَ بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ لاشتمال الأمثال على الحكمة، وإيضاح الحق، والله لا يستحیی من الحق، وكان في هذا جواباً لمن أنكـر ضرب الأمثال في الأشياء الخفيفة، واعتراض على الله في ذلك، فليس في ذلك محمل اعتراض، بل هو من تعليم الله لعباده ورحمته بهم، فيجب أن تتلقى بالقبول والشكر، ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ فَيَتَّبِعُونَهَا، وَيَتَفَكَّرُونَ فِيهَا فَيَنْعَلَمُوا مَا اشتملت عليه على وجه التفصيل، ازداد بذلك علمهم وإيمانهم، وإلا علموا أنها حق، وما اشتملت عليه حق، وإن خفي عليهم وجه الحق فيها لعلمهم بأن الله لم يضرها عبثاً، بل لحكمة بالغة ونعمة سابعة .

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ فيعترضون



العيب الفلاني؛ ليشمل جميع أنواع التطهير، فهن مطهرات الأخلاق، مطهرات الخلق، مطهرات اللسان، مطهرات الأبصار، فأخلاقهن أنهن عُرِبَ متحبيبات إلى أزواجهن بالخلق الحسن، وحسن التبعل والأدب القوي والفعلي، ومطهر خلقهن من الحيض والنفاس والنتي، والبول والغائط، والمخاط والبصاق، والرائحة الكريهة، ومطهرات الخلق أيضاً بكمال الجمال، فليس فيهن عيب، ولا دمامة خلق، بل هن خيرات حسان، مطهرات اللسان والطرف، قاصرات طرفهن على أزواجهن، وقاصرات الستهن عن كل كلام فيج .

ففي هذه الآية الكريمة، ذكر المَبْشُر والمَبْشُرَة، والمَبْشُر، هو لهذه البشارة، فالمَبْشُر: هو الرسول ﷺ ومن قام مقامه من أمته، والمَبْشُر: هم المؤمنون العاملون الصالحات، والمَبْشُرَة: هي الجنات الموصوفات بتلك الصفات، والسبب الموصل لذلك هو الإيمان والعمل الصالح، فلا سبيل إلى الوصول إلى هذه البشارة إلا بهما، وهذا أعظم بشارة حاصلة على يد أفضل الخلق،

(٣) في ب: وبين ربهم .

(٤) في ب: الخلق .

(١) في ب: نسأل الله من فضله .

(٢) في ب: ثم ذكر حكمته وعدله في

إضلال من يضل .

﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ وهذا يدخل فيه أشياء كثيرة، فإن الله أمرنا أن نصل ما بيننا وبينه بالإيمان به والقيام بعبوديته، وما بيننا وبين رسوله بالإيمان به ومحبهه وتعزيره والقيام بحقوقه، وما بيننا وبين الوالدين والأقارب والأصحاب، وسائر الخلق بالقيام بتلك الحقوق<sup>(١)</sup> التي أمر الله أن نصلها.

فأما المؤمنون فوصلوا ما أمر الله به أن يوصل من هذه الحقوق؛ وقاموا بها أتم القيام، وأما الفاسقون فقطعوا ما وينذوها وراء ظهورهم محتاضين عنها بالفسق والقطيعة، والعمل بالمعاصي، وهو: الإنساف في الأرض.

ذ ﴿أولئك﴾ أي: من هذه صفته ﴿هم الخاسرون﴾ في الدنيا والآخرة، فحصر الخسارة فيهم، لأن خسارتهم عام في كل أحوالهم، ليس لهم نوع من الربح؛ لأن كل عمل صالح شرطه الإيمان، فمن لا إيمان له لا عمل له، وهذا الخسار هو خسار الكفر، وأما الخسار الذي قد يكون كفراً، وقد يكون معصية، وقد يكون تفریطاً في ترك مستحب، المذكور في قوله تعالى: ﴿إن الإنسان لفي خسر﴾ فهذا عام لكل مخلوق، إلا من اتصف بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، وحقيقته فوات الخير الذي [كان] العبد يصدد تحصيله وهو تحت إمكانه.

﴿٢٨﴾ ثم قال تعالى: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾ هذا استفهام بمعنى التعجب والتوبيخ والإنكار، أي: كيف يحصل منكم الكفر بالله الذي خلقكم من العدم؛ وأنعم عليكم بأصناف النعم، ثم يميتكم عند استكمال آجالكم، ويجازيكم في القبور، ثم يحييكم بعد البعث والنشور، ثم إليه ترجعون،

فيجازيكم الجزاء الأوفى، فإذا كنتم في تصرفه وتدبيره ويزه، وتحت أوامره الدينية، ومن بعد ذلك تحت دينه الجزائي، أفيليق بكم أن تكفروا به، وهل هذا إلا جهل عظيم وسفه وحماسة؟<sup>(٢)</sup> بل الذي يليق بكم أن تؤمنوا به وتتقوه وتشكروه، وتحافوا عذابه وترجوا ثوابه.

﴿٢٩﴾ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً؛ أي: خلق لكم برأبكم ورحمة، جميع ما على الأرض، للارتفاع والاستمتاع والاعتبار.

وفي هذه الآية العظيمة<sup>(٣)</sup> دليل على أن الأصل في الأشياء الإباحة والطهارة، لأنها سبقت في معرض الامتنان، يخرج بذلك الحباثت، فإن [تحريمها أيضاً] يؤخذ من فحوى الآية، ومعرفة المقصود منها، وأنه خلقها لتفعتها، فما فيه ضرر فهو خارج من ذلك، ومن تمام نعمته منعنا من الحباثت تنزيهاً لنا.

وقوله: ﴿ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات﴾ وهو بكل شيء عليم.

﴿استوى﴾: ترد في القرآن على ثلاثة معاني: فتارة لا تعدي بالحرف، فيكون معناها الكمال والتمام، كما في قوله عن موسى: ﴿ولما بلغ أشده واستوى﴾ وتارة تكون بمعنى «علا» و «ارتفع»، وذلك إذا عديت بـ «على» كما في قوله تعالى: ﴿ثم استوى على العرش﴾<sup>(٤)</sup>، «لئن استوا على ظهوره» وتارة تكون بمعنى «قصد» كما إذا عديت بـ «إلى» كما في هذه الآية، أي: لما خلق تعالى الأرض قصد إلى خلق السماوات ﴿فسواهن سبع سماوات﴾ فخلقها وأحكمها وأتقنها، وهو بكل شيء عليم. ذ ﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها﴾، و ﴿يعلم ما تسرون وما تعلنون﴾ يعلم السر

وأخفى. وكثيراً ما يقرب بين خلقه للمخلوق وإثبات علمه كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿ألا يعلم من خلقه وهو اللطيف الخبير﴾ لأن خلقه للمخلوقات أدل دليل على علمه وحكمته وقدرته.

﴿٣٠ - ٣٤﴾ ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون \* وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين \* قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم \* قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبذرون وما كنتم تكتمون \* وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾ هذا شروع في ذكر فضل آدم عليه السلام أبي البشر<sup>(٥)</sup>، أن الله حين أراد خلقه أخبر الملائكة بذلك، وأن الله مستخلفه في الأرض، فقالت الملائكة عليهم السلام: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ بالمعاصي ﴿ويسفك الدماء﴾ [و] هذا تخصيص بعد تعميم، لبيان [شدة] مفسدة القتل، وهذا يحسب ظنهم أن الخليفة المجمعول في الأرض سيحدث منه ذلك، فنزهوا الباري عن ذلك، وعظموه، وأخبروا أنهم قائمون بعبادة الله على وجه خال من المفسدة، فقالوا: ﴿ونحن نسبح بحمدك﴾ أي: ننزهك التنزيه اللائق بحمدك وجلالك، و«نقدس لك» يحتمل أن معناها: ونقدسك، فتكون اللام مفيدة للتخصيص والإخلاص، ويحتمل أن يكون: ونقدس لك أنفسنا، أي:

(٥) في ب: هذا شروع في ابتداء خلق آدم عليه السلام أبي البشر وفضله.

(٤) في ب: أورد آية أخرى هي: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾.

(١) في ب: بحقوقهم.

(٢) في ب: وسفه كبير، بل.

(٣) في ب: الكريمة.



نظهرها بالأخلاق الجميلة، كمحبة الله وخشيته وتعظيمه، ونظهرها من الأخلاق الرذيلة.

قال الله تعالى للملائكة: ﴿إني أعلم﴾ من هذا الخليفة ﴿ما لا تعلمون﴾؛ لأن كلامكم بحسب ما ظننتم، وأنا عالم بالظواهر والسرائر، وأعلم أن الخير الحاصل بخلق هذا الخليفة أضعاف أضعاف ما في ضمن ذلك من الشر، فلو لم يكن في ذلك إلا أن الله تعالى أراد أن يجتبي منهم الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين، ولتظهر آياته خلقه، ويحصل من العبوديات التي لم تكن تحصل بدون خلق هذا الخليفة كالجهاد وغيره، ويظهر ما كمن في غرائر بني آدم<sup>(١)</sup> من الخير والشر بالامتحان، وليتبين عدوه من وليه، وحزبه من حربه، ويظهر ما كمن في نفس إبليس من الشر الذي انطوى عليه واتصف به، فهذه حكم عظيمة يكفي بعضها في ذلك.

ثم لما كان قول الملائكة عليهم السلام، فيه إشارة إلى فضلهم على الخليفة الذي يجعله الله في الأرض، أراد الله تعالى أن يبين لهم من فضل آدم ما يعرفون به فضله، وكمال حكمة الله وعلمه، ف ﴿علم آدم الأسماء كلها﴾ أي: أسماء الأشياء، ومن هو مسمى بها، فعلمه الاسم والمسمى، أي: الألفاظ والمعاني، حتى المكبر من الأسماء كالقصعة، والمصغر كالقصيمة.

﴿ثم عرضهم﴾ أي: عرض المسميات ﴿على الملائكة﴾ امتحاناً لهم، هل يعرفونها أم لا؟  
﴿فقال أنبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾ في قولكم وظنكم، أنكم أفضل من هذا الخليفة.  
﴿قالوا سبحانك﴾ أي: تُزْهِدُكَ عن الاعتراض منا عليك ومخالفة أمرك، ﴿لا علم لنا﴾ بوجه من الوجوه، ﴿إلا ما علمتنا﴾ إياه، فضلاً منك وجوداً،

﴿إنك أنت المعلم الحكيم﴾ المعلم الذي أحاط علماً بكل شيء، فلا يغيب عنه ولا يعزب مثقال ذرة في السموات والأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر. الحكيم: من له الحكمة التامة التي لا يخرج عنها مخلوق، ولا يشذ عنها مأمور، فما خلق شيئاً إلا للحكمة، ولا أمر بشيء إلا للحكمة، والحكمة: وضع الشيء في موضعه اللائق به، فأقروا واعترفوا بعلم الله وحكمته، وقصورهم عن معرفة أدنى شيء، واعترافهم بفضل الله عليهم، وتعليمه إياهم ما لا يعلمون.

فحيث قال الله: ﴿يا آدم أنبئهم بأسمائهم﴾ أي: أسماء المسميات التي عرضها الله على الملائكة فعجزوا عنها. ﴿فلما أنبأهم بأسمائهم﴾ تين للملائكة فضل آدم عليهم، وحكمة الباري وعلمه في استخلاف هذا الخليفة، ﴿قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض﴾ وهو ما غاب عنا فلم نشاهده، فإذا كان عالماً بالغيب، فالشهادة من باب أولى، ﴿وأعلم ما تبءون﴾ أي: تظهرون ﴿وما كنتم تكتمون﴾.

ثم أمرهم تعالى بالسجود لآدم، إكراماً له وتعظيماً، وعبودية لله تعالى، فامتثلوا أمر الله وبادروا كلهم بالسجود، ﴿إلا إبليس أبى﴾ امتنع عن السجود، واستكبر عن أمر الله وعل آدم، قال: ﴿أأسجد لمن خلقت طيناً﴾ وهذا الإباء منه والاستكبار نتيجة الكفر الذي هو منطوق عليه، فتبينت حيث شذ عداوته لله ولآدم، وكفره واستكباره.

وفي هذه الآيات من العبر والآيات إثبات الكلام لله تعالى، وأنه لم يزل متكلماً يقول ما شاء ويتكلم بما شاء، وأنه عليم حكيم، وفيه أن العبد إذا خفيت عليه حكمة الله في بعض المخلوقات والأمورات فالواجب عليه التسليم، وإتباع عقله، والإقرار لله بالحكمة، وفيه اعتناء الله بشأن الملائكة، وإحسانه بهم، بتعليمهم ما

جهلوا، وتبينهم على ما لم يعلموه. وفيه فضيلة العلم من وجوه:

منها: أن الله تعرف للملائكة بعلمه وحكمته، ومنها: أن الله عزّهم بفضل آدم بالعلم، وأنه أفضل صفة تكون في العبد، ومنها: أن الله أمرهم بالسجود لآدم إكراماً له لما بان فضل علمه، ومنها: أن الامتحان للغير، إذا عجزوا عما امتحنوا به، ثم عرفه صاحب الفضيلة، فهو أكمل مما عرفه ابتداءً، ومنها: الاعتبار بحال أبوي الإنس والجن، وبيان فضل آدم، وإفضال الله عليه، وعداوة إبليس له، إلى غير ذلك من العبر.

﴿٣٥-٣٦﴾ ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كان فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ لما خلق الله آدم وفضله، أتم نعمته عليه بأن خلق منه زوجة ليسكن إليها ويستأنس بها، وأمرها بسكنى الجنة والأكل منها ﴿رغداً﴾ أي: واسعاً هنيئاً، ﴿حيث شئتما﴾ أي: من أي أصناف الثمار والفواكه، وقال الله له: ﴿إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى﴾ \* وأنت لا نظماً فيها ولا تضحى﴾.

﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ نوع من أنواع شجر الجنة الله أعلم بها، وإنما نهاهما عنها امتحاناً وإبتلاءً ﴿أو لحكمة غير معلومة لنا﴾<sup>(٢)</sup>، ﴿فتكونا من الظالمين﴾ دل على أن النهي للتحريم، لأنه رتب عليه الظلم.

فلم يزل عدوهما يوسوس لهما، ويزين لهما تناول ما نهي عنه، حتى أزلهما، أي: حملهما على الزلل بتزيينه، ﴿وقاسمهما﴾ بالله ﴿إني لكما لمن الناصحين﴾ فاغترابه وأطاعاه، فأخرجهما مما كانا فيه من النعيم والرغد، وأهبطوا إلى دار الشعب والنصب والمجاهدة.

(٢) زيادة من هامش ب.

(١) في ب: المكلفين.

أتى من بعدهم، فأمرهم بأمر عام، فقال: ﴿اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ وهو يشمل سائر النعم التي سيذكر في هذه السورة بعضها، والمراد بذكرها بالقلب اعترافاً، وباللسان ثناءً، وبالجوارح باستعمالها فيما يحبه ويرضيه.

﴿وأوفوا بعهدي﴾ وهو ما عهده إليهم من الإيمان به وبرسوله وإقامة شرعه، ﴿أوف بعهدي﴾ وهو المجازاة على ذلك.

والمراد بذلك: ما ذكره الله في قوله: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نبياً، وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة﴾ [وأتيتهم الزكاة وأمنتم برسلي] إلى قوله: ﴿فقد ضل سواء السبيل﴾.

ثم أمرهم بالسبب الحامل لهم على الرفاه بعهده، وهو الرهبة منه تعالى، وخشيته وحده، فإن من خشية أوجبت له خشية امتثال أمره واجتباب نبيه.

ثم أمرهم بالأمر الخاص الذي لا يتم إيمانهم، ولا يصح إلا به، فقال: ﴿وآمنوا بما أنزلت﴾ وهو القرآن الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فأمرهم بالإيمان به واتباعه، ويستلزم ذلك الإيمان بمن أنزل عليه، وذكر الداعي لإيمانهم به، فقال: ﴿مصدقاً لما معكم﴾ أي: موافقاً له لا مخالفاً ولا مناقضاً، فإذا كان موافقاً لما معكم من الكتب غير مخالف لها، فلا مانع لكم من الإيمان به، لأنه جاء بما جاءت به المرسلون، فأنتم أولى من آمن به وصدق به، لكونكم أهل الكتب والعلم.

وأيضاً فإن في قوله: ﴿مصدقاً لما معكم﴾ إشارة إلى أنك إن لم تؤمنوا به، عاد ذلك عليكم بتكذيب ما معكم، لأن ما جاء به هو الذي جاء به موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء، فتكذيبكم له تكذيب لما معكم.

وأيضاً فإن في الكتب التي بأيديكم صفة هذا النبي الذي جاء بهذا القرآن والبشارة به، فإن لم تؤمنوا به كذبتم ببعض ما أنزل إليكم، ومن كذب

والاجتناب للنهي، ﴿فلا خوف عليكم ولا هم يحزنون﴾.

وفي الآية الأخرى: ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾.

فرتب على اتباع هذه أربعة أشياء: نفي الخوف والحزن، والفرق بينهما أن المكروه إن كان قد مضى أحدث الحزن، وإن كان منتظراً أحدث الخوف، فنتفاهما عن اتباع هداي، وإذا اتفيا حصل ضدما وهو الأمن التام، وكذلك نفي الضلال والشقاء عن اتباع هداي وإذا اتفيا ثبت ضدما، وهو الهدى والسعادة، فمن اتبع هداي، حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخرية والهدى، وانفنى عنه كل مكروه من الخوف والحزن والضلال والشقاء، فحصل له المرغوب واندفع عنه المرهوب، وهذا عكس من لم يتبع هداي فكفر به وكذب بآياته.

ف: ﴿أولئك أصحاب النار﴾ أي: الملامزون لها ملازمة الصاحب لصاحبه، والغريم لغريمه، ﴿هم فيها خالدون﴾ لا يخرجون منها، ولا يفتر عنهم العذاب ولا هم ينصرون.

وفي هذه الآيات وما أشبهها، انقسام الخلق من الجن والإنس إلى أهل السعادة وأهل الشقاة، وفيها صفات الفريقين والأعمال المرجوة لذلك، وأن الجن كالإنس في الثواب والعقاب، كما أنهم مثلهم في الأمر والنهي.

ثم شرع تعالى يذكر بني إسرائيل نعمة عليهم وإحسانه، فقال:

﴿٤٠ - ٤٣﴾ ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدي وإياي فارهبون﴾ \* وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافرين ولا تشكروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون \* ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون \* وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين﴾ \* ﴿يا بني إسرائيل﴾ المراد بإسرائيل: يعقوب عليه السلام، والخطاب مع فرق بني إسرائيل، الذين بالمدينة وما حولها، ويدخل فيهم من

﴿بعضكم لبعض عدو﴾ أي: آدم وذريته أعداء لإبليس وذريته، ومن العلوم أن العدو يحد ويمتهد في ضرر عدوه ويصالح الشر إليه بكل طريق، وأحرماته الخير بكل طريق، ففي ضمن هذا، تحذير بني آدم من الشيطان، كما قال تعالى: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ \* أفنتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً.

ثم ذكر منتهى الإهباط إلى الأرض، فقال: ﴿ولكم في الأرض مستقر﴾ أي: مسكن وقرار، ﴿ومتاع إلى حين﴾ انقضاء آجالكم، ثم تنتقلون منها للدار التي خلقت لها، وخلقت لكم، ففيها أن مدة هذه الحياة مؤقتة عارضة، ليست مسكناً حقيقياً، وإنما هي معبر يتزود منها لتلك الدار، ولا تعمر للاستقرار.

﴿٣٧﴾ ﴿فتلقى آدم﴾ أي: تلقف وتلقن، وألهمه الله ﴿من ربه كلمات﴾ وهي قوله: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ الآية، فاعترف بذنبه وسأل الله مغفرته ﴿فتاب﴾ الله ﴿عليه﴾ ورحمه ﴿إنه هو التواب﴾ لمن تاب إليه وأتاب.

وتوبته نوعان: توفيقه أولاً، ثم قبوله للتوبة إذا اجتمعت شروطها ثانياً.

﴿الرحيم﴾ بعباده، ومن رحمته بهم أن وفقهم للتوبة وعفا عنهم وصفح.

﴿٣٨ - ٣٩﴾ ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ \* والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ كثر الإهباط ليرتب عليه ما ذكر وهو قوله: ﴿فإما يأتينكم مني هدى﴾ أي: أي وقت وزمان جاءكم مني - يا معشر الثقلين - هدى، أي: رسول وكتاب يهديكم لما يقربكم مني، ويدنيكم من رضائي، ﴿فمن تبع هداي﴾ منكم، بأن آمن برسلي وكتبي واهتدى بهم، وذلك بتصديق جميع أخبار الرسل والكتب، والامتثال للأمر

بعض ما أنزل إليه فقد كذب بجميعه، كما أن من كفر برسولٍ، فقد كذب الرسل جميعهم .

فلما أمرهم بالإيمان به، نهاهم وحذرهم من ضده وهو الكفر به، فقال: ﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾ أي: بالرسول والقرآن .

وفي قوله: ﴿أول كافر به﴾ أبلغ من قوله: ﴿ولا تكفروا به﴾ لأنهم إذا كانوا أول كافر به، كان فيه مبادرتهم إلى الكفر به، عكس ما ينبغي منهم، وصار عليهم إثمهم وإثم من اقتدى بهم من بعدهم .

ثم ذكر المانع لهم من الإيمان، وهو اختيار العرض الأدنى على السعادة الأبدية، فقال: ﴿ولا تشنروا بأياتي مثناً قليلاً﴾ وهو ما يحصل لهم من المناصب والمآكل، التي يتوهمون انقطاعها إن آمنوا بالله ورسوله، فاشتروها بأيات الله واستحوها وآثروها .

﴿وإياي﴾ أي: لا غيري ﴿فأتقون﴾ فإنكم إذا اتقيتم الله وحده، أوجبت لكم تقواه تقديم الإيمان بأياته على الثمن القليل، كما أنكم إذا اخترتم الثمن القليل، فهو دليل على ترحل التقوى من قلوبكم .

ثم قال: ﴿ولا تلبسوا﴾ أي: تخلطوا ﴿الحق بالباطل وتكتموا الحق﴾ فنهاهم عن شيئين، عن خلط الحق بالباطل وتكتمان بيان الحق؛ لأن المقصود من أهل الكتب والعلم، تمييز الحق من الباطل وإظهار الحق، ليهتدي بذلك المهتدون، ويرجع الضالون، وتقوم الحججة على المعاندين؛ لأن الله فصل آياته وأوضح بيناته، ليميز الحق من الباطل، ولتستبين سبيل المهتدين من سبيل المنحرفين، فمن عمل بهذا من أهل العلم فهو من خلفاء الرسل وهداة الأمم .

ومن لبس الحق بالباطل، فلم يميز هذا من هذا مع علمه بذلك، وتكتم الحق الذي يعلمه، وأمر بإظهاره، فهو

من دعا جهنم، لأن الناس لا يقتدوا في أمر دينهم بغير علمائهم، فاخاروا لأنفسكم إحدى الخالتين .

ثم قال: ﴿واقموا الصلاة﴾ أي: ظاهراً وباطناً ﴿وآتوا الزكاة﴾ مستحقيها، ﴿واركعوا مع الرাকعين﴾ أي: صلوا مع المصلين، فإنكم إذا فعلتم ذلك مع الإيمان برسول الله وآيات الله، فقد جمعتم بين الأعمال الظاهرة والباطنة، وبين الإخلاص للمعبود والإحسان إلى عبيده، وبين العبادات القلبية والبدنية والمالية .

وقوله: ﴿واركعوا مع الراكعين﴾ أي: صلوا مع المصلين، ففيه الأمر بالجماعة للصلاة ووجوبها، وفيه أن الركوع ركن من أركان الصلاة لأنه عبر عن الصلاة بالركوع، والتعبير عن العبادة بجزئها يدل على فرضيته فيها .

﴿٤٤﴾ ﴿اتأمروا الناس بالبر﴾ أي: بالإيمان والخير ﴿وتنصون أنفسكم﴾ أي: تتركونها عن أمرها بذلك، والحال: ﴿وأنتم تنلون الكتاب أفلا تعقلون﴾ وأسئ العقول<sup>(١)</sup> عقلاً لأنه يعقل به ما ينفعه من الخير، وينعقل به عما يضره، وذلك أن العقل يحث صاحبه أن يكون أول فاعل لما يأمر به، وأول تارك لما ينهى عنه، فمن أمر غيره بالخير ولم يفعله، أو نهاه عن الشر فلم يتركه، دل على عدم عقله وجهله، خصوصاً إذا كان عالماً بذلك، قد قامت عليه الحججة .

وهذه الآية وإن كانت نزلت في سبب بني إسرائيل، فهي عامة لكل أحد، لقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ وليس في الآية أن الإنسان إذا لم يقم بما أمر به أنه يترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لأنها دلت على التوبيخ بالنسبة إلى الواجبين، وإلا فمن المعلوم أن على الإنسان واجبين: أمر غيره ونهيه، وأمر نفسه ونهيتها، فترك

أحدهما لا يكون رخصة في ترك الآخر، فإن الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين، والنقص الكامل أن يتركهما، وأما قيامه بأحدهما دون الآخر، فليس في رتبة الأول، وهو دون الآخر، وأيضاً فإن النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعله، فاقنداؤهم بالأفعال أبلغ من اقتنائهم بالأقوال المجردة .

﴿٤٥-٤٨﴾ ﴿واستمعوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ الذين يظنون أنهم ملقوا ربهم وأنهم إليه راجعون \* يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين \* واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون \* أمرهم الله أن يستعينوا في أمورهم كلها بالصبر بجميع أنواعه، وهو الصبر على طاعة الله حتى يؤديها، والصبر عن معصية الله حتى يتركها، والصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها، فبالصبر وحبس النفس على ما أمر الله بالصبر عليه معونة عظيمة على كل أمر من الأمور، ومن يتصبر يصبره الله، وكذلك الصلاة التي هي ميزان الإيمان، وتنتهي عن الفحشاء والمنكر، يستعان بها على كل أمر من الأمور ﴿وإنها﴾ أي: الصلاة ﴿لكبيرة﴾ أي: شاقة ﴿إلا على الخاشعين﴾ فإنها سهلة عليهم خفيفة؛ لأن الخشوع وخشية الله ورجاء ما عنده يوجب له فعلها، منشرحاً صدره لترقبه للثواب، وخشيته من العقاب، بخلاف من لم يكن كذلك، فإنه لا داعي له بدعوه إليها، وإذا فعلها صارت من أثقل الأشياء عليه .

والخشوع هو: خضوع القلب وطمأنينته وسكونه لله تعالى، وانكساره بين يديه ذلاً وافتقاراً، وإيماناً به وبقائه .



لنا مما تنبت الأرض من بقلها ﴿أي: نباتها الذي ليس بشجر يقوم على ساقه، ﴿وقثانها﴾ وهو الخيار ﴿وفومها﴾ أي: ثومها، والعنص والبصل معروف، قال لهم موسى ﴿أستبدلون الذي هو أدنى﴾ وهو الأطمعة المذكورة، ﴿بالتذي هو خير﴾ وهو المن والسلوى، فهذا غير لائق بكم، فإن هذه الأطمعة التي طلبتم، أي مصر هي طتموه وجدتموها، وأما طعامكم الذي من الله به عليكم، فهو خير الأطمعة وأشرفها، فكيف تطالبون به بدلاً؟

ولا كان الذي جرى منهم فيه أكبر دليل على قلة صبرهم واحتقارهم لأوامر الله ونعمه، جازاهم من جنس عملهم، فقال: ﴿وضربت عليهم الذلة﴾ التي تشاهد على ظاهر أبدانهم ﴿والمسكنة﴾ بقلوبهم، فلم تكن أنفسهم عزيزة، ولا لهم همم عالية، بل أنفسهم أنفس مهينة، ومهمهم أردأ الهمم، ﴿وبأؤوا بغضب من الله﴾ أي: لم تكن غنيمتهم التي رجعوا بها وفازوا، إلا أن رجعوا بسخطه عليهم، قبست الغنيمة غنيمتهم، وبنت الحالة حالتهم.

﴿ذلك﴾ الذي استحقوا به غضبه ﴿بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله﴾ الدالات على الحق الموضحة لهم، فلما كفروا بها عاقبهم بغضبه عليهم، وبما كانوا ﴿يقتلون النبيين بغير الحق﴾

وقوله: ﴿بغير الحق﴾ زيادة شناعة، وإلا فمن العلوم أن قتل النبي لا يكون بحق، لكن لثلا يظن جهلهم وعدم علمهم.

﴿ذلك بما عصوا﴾ بأن ارتكبوا معاصي الله ﴿وكانوا يمتدون﴾ على عباد الله، فإن المعاصي يجر بعضها بعضاً، فالغفلة ينشأ عنها الذنب الصغير، ثم ينشأ عنه الذنب الكبير، ثم ينشأ عنها أنواع البدع والكفر وغير ذلك، فسأل الله العافية من كل بلاء.

واعلم أن الخطاب في هذه الآيات لأمة بني إسرائيل الذين كانوا موجودين وقت نزول القرآن، وهذه الأفعال

فبدلوا لأنهم لم يكونوا كلهم بدلوا ﴿قولاً غير الذي قيل لهم﴾ فقالوا بدل حطة: حبة في حنطة، استهانة بأمر الله واستهزاء، وإذا بدلوا القول مع خفته فتبديلهم للفعل من باب أولى وأحرى، ولهذا دخلوا يزحفون على أديبارهم، ولما كان هذا الطغيان أكبر سبب لوقوع عقوبة الله بهم، قال: ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا﴾ منهم ﴿رجزاً﴾ أي: عذاباً ﴿من السماء﴾ بسبب فسقهم وبغيهم.

﴿٦٠﴾ ﴿وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ استسقى أي: طلب لهم ماء يشربون منه، ﴿فقلنا اضرب بعصاك الحجر﴾ إما حجر مخصوص معلوم عنده، وإما اسم جنس، ﴿فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا﴾ وقبائل بني إسرائيل اثنتا عشرة قبيلة، ﴿قد علم كل أناس﴾ منهم ﴿مشربهم﴾ أي: عملهم الذي يشربون عليه من هذه الأعين، فلا يزاحم بعضهم بعضاً، بل يشربونه متعنين لا متكدرين، ولهذا قال: ﴿كلوا واشربوا من رزق الله﴾ أي: الذي أتاكم من غير سعي ولا تعب، ﴿ولا تعثوا في الأرض﴾ أي: تخربوا على وجه الإفساد.

﴿٦١﴾ ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك فخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثانها وفومها وعنصها وبصلها قال أئستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وبأؤوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ أي: واذكروا، إذ قلتم لموسى على وجه التمثل لنعم الله والاحتقار لها: ﴿لن نصبر على طعام واحد﴾ أي: جنس من الطعام، وإن كان كما تقدم أنواعاً، لكنها لا تتغير، ﴿فادع لنا ربك فخرج



ويقضيتهم ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ أي: رزقاً لا يحصل نظيره لأهل المدن المترفين، فلم يشكروا هذه النعم، واستمروا على قساوة القلوب وكثرة الذنوب.

﴿وما ظلمونا﴾ يعني بتلك الأفعال المخالفة لأوامرنا لأن الله لا تضره معصية العاصين، كما لا تنفعه طاعات الطائعين، ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ فيعود ضرره عليهم.

﴿٥٨ - ٥٩﴾ ﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين﴾ فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون، وهذا أيضاً من نعمته عليهم بعد معصيتهم إياه، فأمرهم بدخول قرية تكون لهم عزاً ووطناً وسكناً، ويحصل لهم الرزق الرغد، وأن يكون دخولهم على وجه خاضعين لله فيه بالفعل، وهو دخول الباب ﴿سجداً﴾ أي: خاضعين دليلين، وبالقول وهو أن يقولوا: ﴿حطة﴾ أي: أن يحط عنهم خطاياهم بسؤالهم إياه مغفرة.

﴿نغفر لكم خطاياكم﴾ بسؤالكم المغفرة، ﴿وسنزيد المحسنين﴾ بأعمالهم، أي: جزاء عاجلاً وآجلاً، ﴿فبدل الذين ظلموا﴾ منهم، ولم يقل



وكان من الواجب المبادرة إلى امتثال أمره وعدم الاعتراض عليه، ولكنهم أبوا إلا الاعتراض، فقالوا: «أتخذنا هزواً» فقال نبي الله: «أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين» فإن الجاهل هو الذي يتكلم بالكلام الذي لا فائدة فيه، وهو الذي يستهزئ بالناس، وأما العاقل فيرى أن من أكبر العيوب المزرية بالدين والعقل، استهزائه بمن هو آدمي مثله، وإن كان قد فضل عليه، تفضيله يقتضي منه الشكر لربه والرحمة لعباده. فلما قال لهم موسى ذلك، علموا أن ذلك صدق، فقالوا: «ادع لنا ربك يبين لنا ما هي» أي: ما سنها؟ «قال إنه يقول: إنها بقرة لا فارض» أي: كبيرة «ولا بكر» أي: صغيرة «عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون» واطركوا التشديد والتعنت.

وكان من الواجب المبادرة إلى امتثال أمره وعدم الاعتراض عليه، ولكنهم أبوا إلا الاعتراض، فقالوا: «أتخذنا هزواً» فقال نبي الله: «أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين» فإن الجاهل هو الذي يتكلم بالكلام الذي لا فائدة فيه، وهو الذي يستهزئ بالناس، وأما العاقل فيرى أن من أكبر العيوب المزرية بالدين والعقل، استهزائه بمن هو آدمي مثله، وإن كان قد فضل عليه، تفضيله يقتضي منه الشكر لربه والرحمة لعباده. فلما قال لهم موسى ذلك، علموا أن ذلك صدق، فقالوا: «ادع لنا ربك يبين لنا ما هي» أي: ما سنها؟ «قال إنه يقول: إنها بقرة لا فارض» أي: كبيرة «ولا بكر» أي: صغيرة «عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون» واطركوا التشديد والتعنت.

وقوله: «أو أشد قسوة» أي: إنها لا تقصر عن قسوة الأحجار، وليست «أو» بمعنى «بل». ثم ذكر فضيلة الأحجار على قلوبهم، فقال: «وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله» فهذه الأمور فضلت قلوبكم، ثم توعدكم تعالى أشد الوعيد، فقال: «وما الله بغافل عما تعملون» بل هو عالم بها حافظ لصغيرها وكبيرها، وسيجازيكم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

واعلم أن كثيراً من المفسرين رحمهم الله قد أكثروا في حشو تفاسيرهم من قصص بني إسرائيل، ونزلوا عليها الآيات القرآنية، وجعلوها تفسيراً لكتاب الله، محتجين بقوله ﷺ: «حدثنا عن بني إسرائيل ولا حرج».

والذي أرى أنه وإن جاز نقل أحاديثهم على وجه تكون مفردة غير مقرونة، ولا منزلة على كتاب الله، فإنه لا يجوز جعلها تفسيراً لكتاب الله قطعاً إذا لم تصح عن رسول الله ﷺ، وذلك أن مرتبتها كما قال ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب

وكان من الواجب المبادرة إلى امتثال أمره وعدم الاعتراض عليه، ولكنهم أبوا إلا الاعتراض، فقالوا: «أتخذنا هزواً» فقال نبي الله: «أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين» فإن الجاهل هو الذي يتكلم بالكلام الذي لا فائدة فيه، وهو الذي يستهزئ بالناس، وأما العاقل فيرى أن من أكبر العيوب المزرية بالدين والعقل، استهزائه بمن هو آدمي مثله، وإن كان قد فضل عليه، تفضيله يقتضي منه الشكر لربه والرحمة لعباده. فلما قال لهم موسى ذلك، علموا أن ذلك صدق، فقالوا: «ادع لنا ربك يبين لنا ما هي» أي: ما سنها؟ «قال إنه يقول: إنها بقرة لا فارض» أي: كبيرة «ولا بكر» أي: صغيرة «عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون» واطركوا التشديد والتعنت.

«قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها، قال إنه يقول: إنها بقرة صفراء فاقع لونها» أي: شديد «تسر الناظرين» من حسنها.

«قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا» فلم نتهد إلى ما تريد «وإننا إن شاء الله لمهتدون» قال إنه يقول: إنها بقرة لا ذلول» أي: مذللة بالعمل، «تسقي الأرض» بالحراثة، «ولا تسقي الحرت» أي: ليست بساقية، «مسلمة» من العيوب أو من العمل «لاشبه فيها» أي: لا لون فيها غير لونها الموصوف المتقدم.

«قالوا الآن جئت بالحق» أي: بالبيان الواضح، وهذا من جهلهم، وإلا فقد جاءهم بالحق أول مرة، فلو أنهم اعترضوا أي: بقرة لحصل المقصود، ولكنهم شددوا بكثرة الأسئلة فشد الله عليهم، ولو لم يقولوا «إن شاء الله» لم يتدوا أيضاً إليها، «فذبوها» أي: البقرة التي وصفت بتلك الصفات «وما كادوا يفعلون» بسبب التعنت الذي جرى منهم.

فلما ذبحوها، قلنا لهم اضربوا



٦٧ - ٧٤ ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَنْتُمْ تَشْتَكُونَ هَذَا هَذَا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ ﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةٌ لَا تَشِيءُ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبِّحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فآدَارْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ خَرَجَ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهَ بَعْضُهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أَي: وَادْكُرُوا مَا جَرَى لَكُمْ مَعَ مُوسَى، حِينَ قَتَلْتُمْ فَنَيْلًا وَادَارْتُمْ فِيهِ، أَي: تَدَافَعْتُمْ وَاخْتَلَفْتُمْ فِي قَاتِلِهِ، حَتَّى تَفَاقَمَ الْأَمْرَ بَيْنَكُمْ وَكَادَ - لَوْلَا تَبْيِينُ اللَّهِ لَكُمْ - يَحْدُثُ بَيْنَكُمْ شَرٌّ كَبِيرٌ، فَقَالَ لَكُمْ مُوسَى فِي تَبْيِينِ الْقَاتِلِ: أَذْبَحُوا بَقْرَةً

٦٧ - ٧٤ ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَنْتُمْ تَشْتَكُونَ هَذَا هَذَا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ ﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةٌ لَا تَشِيءُ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبِّحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فآدَارْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ خَرَجَ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهَ بَعْضُهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أَي: وَادْكُرُوا مَا جَرَى لَكُمْ مَعَ مُوسَى، حِينَ قَتَلْتُمْ فَنَيْلًا وَادَارْتُمْ فِيهِ، أَي: تَدَافَعْتُمْ وَاخْتَلَفْتُمْ فِي قَاتِلِهِ، حَتَّى تَفَاقَمَ الْأَمْرَ بَيْنَكُمْ وَكَادَ - لَوْلَا تَبْيِينُ اللَّهِ لَكُمْ - يَحْدُثُ بَيْنَكُمْ شَرٌّ كَبِيرٌ، فَقَالَ لَكُمْ مُوسَى فِي تَبْيِينِ الْقَاتِلِ: أَذْبَحُوا بَقْرَةً







عباده، أن يكون الإنسان نزيهاً في أقواله وأفعاله، غير فاحش ولا بذي ولا شاتم، ولا محاصم، بل يكون حسن الخلق، واسع الحلم، مجاملاً لكل أحد، صبوراً على ما يناله من أذى الخلق، امتثالاً لأمر الله ورجاءاً لثوابه.

ثم أمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، لما تقدم أن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة متضمنة للإحسان إلى العبيد.

﴿ثم﴾ بعد هذا الأمر لكم بهذه الأوامر الحسنة التي إذا نظر إليها البصير العاقل، عرف أن من إحسان الله إلى عباده أن أمرهم بها، وتفضل بها عليهم، وأخذ الموائيق عليكم ﴿توليتهم﴾ على وجه الإعراض، لأن المتولي قد يتولى وله نية رجوع إلى ما تولى عنه، وهؤلاء ليس لهم رغبة ولا رجوع في هذه الأوامر، فنعوذ بالله من الخذلان.

وقوله: ﴿إلا قليلاً منكم﴾ هذا استثناء لثلاث يوهم أنهم تولوا كلهم، فأخبر أن قليلاً منهم عصمهم الله وثبتهم.

﴿٨٤ - ٨٦﴾ ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون﴾ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوك أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون \* أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون﴾ وهذا الفعل المذكور في هذه الآية فعل للذين كانوا في زمن السوحي بالمدينة، وذلك أن الأوس والخزرج - وهم الأنصار - كانوا قبل مبعث النبي ﷺ مشركين، وكانوا

يقتلون على عادة الجاهلية، فنزلت عليهم الفرق الثلاث من فرق اليهود: بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، فكل فرقة منهم حالفت فرقة من أهل المدينة.

فكانوا إذا اقتتلوا أعان اليهودي حليفه على مقاتليه الذين تعينهم<sup>(١)</sup> الفرقة الأخرى من اليهود، فيقتل اليهودي اليهودي، ويخرجه من دياره إذا حصل جلاء ونهب، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها، وكان قد حصل أسارى بين الطائفتين فدى بعضهم بعضاً.

والأمور الثلاثة كلها قد فرضت عليهم، ففرض عليهم أن لا يسفك بعضهم دم بعض، ولا يخرج بعضهم بعضاً، وإذا وجدوا أسيراً منهم وجب عليهم فداؤه، فعملوا بالأخير وتركوا الأولين، فأنكر الله عليهم ذلك، فقال: ﴿أنتؤمنون ببعض الكتاب﴾ وهو فداء الأسير، ﴿وتكفرون ببعض﴾ وهو القتل والإخراج.

وفيها أكبر دليل على أن الإيمان يقتضي فعل الأوامر واجتناب النواهي، وأن المأمورات من الإيمان، قال تعالى: ﴿فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا﴾ وقد وقع ذلك فأخزاهم الله، وسلط رسوله عليهم، فقتل من قتل، ورسى من رسى منهم، وأجل من أجل.

﴿ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب﴾ أي: أعظمه ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾

ثم أخبر تعالى عن السبب الذي أوجب لهم الكفر ببعض الكتاب والإيمان ببعضه، فقال: ﴿أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة﴾ توهموا أنهم إن لم يعينوا حلفاءهم حصل لهم عار، فاختروا النار على العار، فلماذا قال: ﴿فلا يخفف عنهم العذاب﴾ بل هو باق على شدته، ولا يحصل لهم راحة بوقت من الأوقات، ﴿ولا هم ينصرون﴾ أي:

يدفع عنهم مكروه. ﴿٨٧﴾ ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وقيننا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البيّنات وأبدناه بروح القدس أنكلما جاءكم رسول بما لا تهوي أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾ يمتن تعالى على بني إسرائيل أن أرسل إليهم كلمه موسى وآتاه التوراة، ثم تابع من بعده بالرسل الذين يحكمون بالتوراة، إلى أن ختم أنبياءهم بعيسى ابن مريم عليهم السلام، وآتاه من الآيات البيّنات ما يؤمن على مثله البشر، ﴿وأبدناه بروح القدس﴾ أي: قواه الله بروح القدس.

قال أكثر المفسرين: إنه جبريل عليه السلام، وقيل: إنه الإيمان الذي يؤيد الله به عباده.

ثم مع هذه النعم التي لا يقدر قدرها، لما أتوكم ﴿بمما لا تهوي أنفسكم استكبرتم﴾ عن الإيمان بهم، ﴿ففريقاً﴾ منهم ﴿كذبتم وفريقاً تقتلون﴾ فقدمتم الهوى على الهدى، وآثرتم الدنيا على الآخرة، وفيها من التويخ والتشديد ما لا يخفى.

﴿٨٨﴾ ﴿وقالوا قلوبنا غلّف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون﴾ أي: اعتدروا عن الإيمان لما دعوتهم إليه، يا أيها الرسول، بأن قلوبهم غلّف، أي: عليها غلاف وأغطية، فلا تفقه ما تقول، يعني فيكون لهم - بزعمهم - عذر لعدم العلم، وهذا كذب منهم، فلماذا قال تعالى: ﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾ أي: أنهم مطرودون ملعونون بسبب كفرهم، فقليلاً المؤمن منهم، أو قليلاً إيمانهم، وكفرهم هو الكثير.

﴿٨٩ - ٩٠﴾ ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾ بسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤوا

واستجابة، ﴿قالوا: سمعنا وعصينا﴾ أي: صارت هذه حالتهم ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل﴾ أي: صبغ حب العجل وحب عبادته في قلوبهم، وتشرّبها<sup>(١)</sup> بسبب كفرهم.

﴿قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾ أي: أنتم تدعون الإيمان وتمتدحون بالذين الحق، وأنتم قتلتم أنبياء الله، واتخذتم العجل الهيا من دون الله لما غاب عنكم موسى، نبي الله، ولم تقبلوا أوامره ونواهيه إلا بعد التهديد ورفع الطور فوقكم، فالتزمت بالقول وتقضت بالفعل، فما هذا الإيمان الذي ادعيتهم، وما هذا الدين؟

فإن كان هذا إيماناً على زعمكم، فبئس الإيمان الداعي صاحبه إلى الطغيان والكفر برسول الله، وكثرة العصيان، وقد عهد أن الإيمان الصحيح يأمر صاحبه بكل خير، وينهاه عن كل شر، فوضح بهذا كذبهم، وتبين تناقضهم.

﴿٩٤ - ٩٦﴾ ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين \* ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين \* ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون﴾ أي: ﴿قل﴾ لهم على وجه تصحيح دعواهم: ﴿إن كانت لكم الدار الآخرة﴾ يعني الجنة ﴿خالصة من دون الناس﴾ كما زعمتم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة، فإن كنتم صادقين بهذه الدعوى ﴿فتمنوا الموت﴾ وهذا نوع مباهلة بينهم وبين رسول الله ﷺ

وليس بعد هذا الإلحاح والمضايقه لهم بعد العناد منهم، إلا أحد أمرين: إما أن يؤمنوا بالله ورسوله، وإما أن يباهلوا على ما هم عليه بأمر يسير

وزعم الإيمان ببعضها دون بعض، فهذا ليس بإيمان، بل هو الكفر بعينه ولهذا قال تعالى: ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً، أولئك هم الكافرون حقاً﴾.

ولهذا ردّ عليهم تبارك وتعالى هنا رداً شافياً، وألزمهم إلزاماً لا محيد لهم عنه، فردّ عليهم بكفرهم بالقرآن بأمرين، فقال: ﴿وهو الحق﴾ فإذا كان هو الحق في جميع ما اشتمل عليه من الإخبارات والأوامر والنواهي، وهو من عند ربهم، فالكفر به بعد ذلك كفر بالله، وكفر بالحق الذي أنزله.

ثم قال: ﴿مصدقاً لما معهم﴾ أي: موافقاً له في كل ما دل عليه من الحق ومهيماً عليه.

فلم تؤمنون بما أنزل عليكم، وتكفرون بنظيره؟ هل هذا إلا تعصّب واتباع للهوى لا للهدى؟

وأيضاً فإن كون القرآن مصدقاً لما معهم، يقتضي أنه حجة لهم على صدق ما في أيديهم من الكتب، فلا سبيل لهم إلى إنباتها إلا به، فإذا كفروا به وجحدوه، صاروا بمنزلة من ادعى دعوى بحجة وبينه ليس له غيرها، ولا تتم دعواه إلا بسلامة بيته، ثم يأتي هو لبيته وحجته فيقدح فيها ويكذب بها، أليس هذا من الحماقة والجنون؟ فكان كفرهم بالقرآن كفرة بما في أيديهم ونقضاً له.

ثم نقض عليهم تعالى دعواهم الإيمان بما أنزل إليهم بقوله: ﴿قل﴾ لهم: ﴿فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين \* ولقد جاءكم موسى بالبينات﴾ أي: بالأدلة الواضحات المبينة للحق ﴿ثم اتخذتم العجل من بعده﴾ أي: بعد حجته ﴿وأنتم ظالمون﴾ في ذلك ليس لكم عذر.

﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور، خلنوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا﴾ أي: سماع قبول وطاعة

بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين﴾ أي: ولما جاءهم كتاب من عند الله على يد أفضل المخلوق وخاتم الأنبياء، المشتمل على تصديق ما معهم من التوراة، وقد علموا به وتيقنوه، حتى إنهم كانوا إذا وقع<sup>(٢)</sup> بينهم وبين المشركين في الجاهلية حروب، استنصروا بهذا النبي، وتوعدوهم بخروجه، وأنهم يقاتلون المشركين معه، فلما جاءهم هذا الكتاب والنبي الذي غرّفوا كفروا به، بغياً وحسداً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، فلعنهم الله وغضب عليهم غضباً بعد غضب، لكثرة كفرهم وتوالي شكهم وشركهم.

ولهم في الآخرة عذاب مهين، أي: مؤلم موجه، وهو صلي الجحيم، وفوت النعيم المقيم، فبئس الحال حالهم، وبئس ما استعاضوا واستبدلوا من الإيمان بالله وكتبه ورسله، الكفر به وكتبته وبرسله، مع علمهم وتيقنهم، فيكون أعظم لعذابهم.

﴿٩١ - ٩٣﴾ ﴿وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين \* ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون \* وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خلنوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل يكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾ أي: وإذا أمر اليهود بالإيمان بما أنزل الله على رسوله وهو القرآن، استكبروا وعتوا، و﴿قالوا نؤمن بما أنزل علينا، ويكفرون بما وراءه﴾ أي: بما سواه من الكتب، مع أن الواجب أن يؤمن بما أنزل الله مطلقاً، سواء أنزل عليهم أو على غيرهم، وهذا هو الإيمان النافع، الإيمان بما أنزل الله على جميع رسل الله. وأما التفريق بين الرسل والكتب،

(١) في ب: على أنهم إذا كان وقع. (٢) في ب: وشربها.



حجة .

استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة .

﴿ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾ علماً يشمر العمل ما فعلوه .

﴿١٠٤ - ١٠٥﴾ ﴿يا أيها الذين

آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرونا

واسمعوا وللكافرين عذاب أليم \* ما

يود الذين كفروا من أهل الكتاب

ولا المشركين أن يتزل عليكم من خير

من ربكم والله يتخص برحمته من يشاء

والله ذو الفضل العظيم﴾ كان المسلمون

يقولون حين خطابهم للرسول عند

تعلمهم أمر الدين : ﴿راعنا﴾ أي : راع

أحوالنا، فيصدقون بها معنى صحيحاً،

وكان اليهود يريدون بها معنى فاسداً،

فانتهزوا الفرصة، فصاروا يخاطبون

الرسول بذلك، ويقصدون المعنى

الفاسد، فنهى الله المؤمنين عن هذه

الكلمة سداً لهذا الباب، فنهى النبي عن

الجانز إذا كان وسيلة إلى محرم، وفيه

الأدب واستعمال الألفاظ، التي

لا تحتمل إلا الحسن، وعدم الفحش،

وترك الألفاظ القبيحة، أو التي فيها

نوع تشويش أو احتمال لأمر غير

لائق، فأمرهم بلفظة لا تحتمل إلا

الحسن، فقال : ﴿وقولوا انظرونا﴾ فإنها

كافية يحصل بها المقصود من غير

محدور، ﴿واسمعوا﴾ لم يذكر المسموع

ليعلم ما أمر باستماعه، فيدخل فيه

سماع القرآن، وسماع السنة التي هي

الحكمة لفظاً ومعنى واستجابة، وفيه

الأدب والطاعة .

ثم توعد الكافرين بالعذاب المؤلم

الروجع، وأخبر عن عداوة اليهود

والشركين للمؤمنين، أنهم ما يودون

﴿أن يتزل عليكم من خير﴾ أي :

لا قليلاً ولا كثيراً ﴿من ربكم﴾ حسداً

منهم، ويفضاً لكم أن تحتصم

بفضله، فإنه ﴿ذو الفضل العظيم﴾

ومن فضله عليكم إنزال الكتاب على

رسولكم، ليزكيكم ويعلمكم الكتاب

والحكمة، ويعلمكم ما لم تكونوا

تعلمون، فله الحمد والمئة .

﴿١٠٦ - ١٠٧﴾ ﴿ما ننسخ من آية

أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم

فهؤلاء اليهود يتبعون السحر الذي تعلمه الشياطين، والسحر الذي يعلمه الملكان، فتركوا علم الأنبياء والمرسلين وأقبلوا على علم الشياطين، وكلّ يصبو إلى ما يناسبه .

ثم ذكر مفساد السحر، فقال :

﴿فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين

المرء وزوجه﴾ ومع أن محبة الزوجين

لا تقاس بمحبة غيرهما، لأن الله قال

في حقهما : ﴿وجعل بينكم مودة

ورحمة﴾ وفي هذا دليل على أن السحر

له حقيقة، وأنه يضر بإذن الله، أي :

بإرادة الله، والإذن نوعان : إذن

قدري، وهو المتعلق بمشيئة الله، كما

في هذه الآية، وإذن شرعي كما في

قوله تعالى في الآية السابقة : ﴿فإنه نزله

على قلبك بإذن الله﴾ وفي هذه الآية

وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت في

قوة التأثير، فإنها تابعة للقضاء والقدر

ليست مستقلة في التأثير، ولم يخالف

في هذا الأصل أحد من فرق الأمة غير

مستقلة غير تابعة للمشيئة، فأخرجوها

عن قدرة الله، فخالقوا كتاب الله

وسنة رسوله وإجماع الصحابة

والتابعين .

ثم ذكر أن علم السحر مضرة

محضة، ليس فيه منفعة لا دنيوية ولا

ديوية كما يوجد بعض المنافع الدنيوية

في بعض المعاصي، كما قال تعالى في

الحمر والميسر : ﴿قل فيهما إثم كبير

ومنافع للناس وإثمهما أكبر من

نفعهما﴾ فهذا السحر مضرة محضة،

فليس له داع أصلاً، فالنهيات كلها إما

مضرة محضة، أو شرها أكبر من

خيرها .

كما أن الأمور إما مصلحة

محضة، أو خيرها أكثر من شرها .

﴿ولقد علموا﴾ أي : اليهود ﴿لمن

اشتراه﴾ أي : رغب في السحر رغبة

المشتري في السلعة .

﴿ماله في الآخرة من خلاق﴾

نصيب، بل هو موجب للعقوبة، فلم

يكن فعلهم إياه جهلاً، ولكنهم



بالذل للعبيد، ومن ترك الحق ابتلى بالباطل .

كذلك هؤلاء اليهود لما نبذوا

كتاب الله اتبعوا ما تتلو الشياطين

وتخلف من السحر على ملك سليمان

حيث أخرجت الشياطين للناس

السحر، وزعموا أن سليمان عليه

السلام كان يستعمله، وبه حصل له

الملك العظيم .

وهم كذبة في ذلك، فلم يستعمله

سليمان، بل نزهه الصادق في قوله :

﴿وما كفر سليمان﴾ أي : بتعلم

السحر، فلم يتعلمه، ﴿ولكن

الشياطين كفروا﴾ بذلك .

﴿يعلمون الناس السحر﴾ من

إضلالهم وحرصهم على إغواء بني

آدم، وكذلك اتبع اليهود السحر الذي

أنزل على الملكين الكائنين بأرض بابل

من أرض العراق، أنزل عليهما السحر

امتحاناً وابتلاءً من الله لعباده فيعلمانهم

السحر .

﴿وما يعلمان من أحد حتى﴾

ينصحاء، و ﴿يقولا إنما نحن فتنة فلا

تكفر﴾ أي : لا تتعلم السحر فإنه

كفر، فينهيه عن السحر، وبخبرانه عن

مرتبته، فتعليم الشياطين للسحر على

وجه التدليس والإضلال، ونسبته

وتروجه إلى من برأه الله منه وهو

سليمان عليه السلام . وتعليم الملكين

امتحاناً مع نصحبهما لتلا يكون لهم





فلا بد أن يتاله قسطه، وهذا من الآيات العظيمة، أخبر بها الباري قبل وقوعها، فوفعت كما أخبر. واستدل العلماء بالآية الكريمة، على أنه لا يجوز تمكين الكفار من دخول المساجد.

لهم خزفي في الدنيا أي: فضيحة كما تقدم، ولهم في الآخرة عذاب عظيم.

وإذا كان لا أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، فلا أعظم إيماناً ممن سعى في عمارة المساجد بالعمارة الحسية والمعنوية، كما قال تعالى: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾.

بل قد أمر الله تعالى برفع بيوته وتعميمها وتكريمها، فقال تعالى: ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه﴾.

وللمساجد أحكام كثيرة، يرجع حاصلها إلى مضمون هذه الآيات الكريمة.

﴿١١٥﴾ ﴿و الله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم﴾ أي: ﴿و الله المشرق والمغرب﴾، خصّهما بالذكر، لأهما محل الآيات العظيمة، فهما مطالع الأنوار ومغاريها، فإذا كان مالكا لها، كان مالكا لكل الجهات.

﴿فأينما تولوا﴾ وجوهكم من الجهات، إذا كان توليكم إياها بأمره، إما أن يأمركم باستقبال الكعبة بعد أن كنتم مأمورين باستقبال بيت المقدس، أو تؤمرون بالصلاة في السفر على الراحلة ونحوها، فإن القبلة حيثما توجه العبد أو تشبه القبلة، فيتحرى الصلاة إليها، ثم يتبين له الخطأ، أو يكون معذوراً بصلب أو مرض ونحو ذلك، فهذه الأمور، إما أن يكون العبد فيها معذوراً أو مأموراً.

وبكل حال، فما استقبل جهة من الجهات، خارجة عن ملك ربه ﴿فثم وجه الله إن الله واسع عليم﴾، فيه

بعضاً، كما فعل الأميون من مشركي العرب وغيرهم.

فكل فرقة تضلل الفرقة الأخرى، ويحكم الله في الآخرة بين المختلفين بحكمه العدل، الذي أخبر به عباده، فإنه <sup>(١)</sup> لا فوز ولا نجاة إلا لمن صدق جميع الأنبياء والمرسلين، وامثل أوامر ربه واجتنب نواهي، ومن عداهم فهو هالك.

﴿١١٤﴾ ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزفي ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ أي: لا أحد أظلم وأشد جرمًا، ممن منع مساجد الله عن ذكر الله فيها، وإقامة الصلاة وغيرها من أنواع الطاعات.

﴿وسعى﴾ أي: اجتهد وبذل وسعه، ﴿في خرابها﴾ الحسي والمعنوي، فالخراب الحسي: هدمها وتخريبها وتقديرها، والخراب المعنوي: منع الذاكرين لاسم الله فيها، وهذا عام لكل من اتصف بهذه الصفة، فيدخل في ذلك أصحاب الفيل وقريش حين صدوا رسول الله عنها عام الحديبية، والنصارى حين أخربوا بيت المقدس، وغيرهم من أنواع الظلمة الساعين في خرابها، محادة لله، ومشافة. فجازاهم الله، بأن منعهم دخولها شرعاً وقدرًا، إلا خائفين ذليلين، فلما أخافوا عباد الله، أخافهم الله، فالمشركون الذين صدوا رسوله، لم يلبث رسول الله ﷺ إلا يسيراً، حتى أذن الله له في فتح مكة ومنع المشركين من قربان بيته، فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾.

وأصحاب الفيل، قد ذكر الله ما جرى عليهم، والنصارى، سلب الله عليهم المؤمنين فأجلوهم عنه. وهكذا كل من اتصف بوصفهم،

لكان لا فرق بينهما، فالبرهان هو الذي يصدق دعاوى أو يكذبها، ولما لم يكن بأيديهم برهان علم كذبهم بتلك الدعوى.

ثم ذكر تعالى البرهان الجلي العام لكل أحد، فقال: ﴿بلى﴾ أي: ليس بأمانيكم ودعاويكم، ولكن ﴿من أسلم وجهه لله﴾ أي: أخلص لله أعماله، متوجهاً إليه بقلبه، ﴿وهو﴾ مع إخلاصه ﴿محسن﴾ في عبادة ربه، بأن عبده بشرعه، فأولئك هم أهل الجنة وحدهم.

فلهم أجرهم عند ربهم وهو الجنة بما اشتملت عليه من النعيم، ﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ فحصل لهم المرغوب، ونجوا من المرهوب.

ويقوم منها أن من ليس كذلك، فهو من أهل النار الهالكين، فلا نجاة إلا لأهل الإخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول.

﴿١١٣﴾ ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يفتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ وذلك أنه بلغ بأهل الكتاب الهوى والحسد إلى أن بعضهم ضلل بعضاً، وكفر بعضهم

(١) كذا في ب، وفي أ: وأنه.

الأول: في نفس إرساله، والثاني: في سيرته، وهدية ودله، والثالث: في معرفة ما جاء به من القرآن والسنة.

فالأول والثاني قد دخلا في قوله: ﴿إنا أرسلناك﴾، والثالث دخل في قوله: ﴿بالحق﴾.

وبيان الأمر الأول وهو - نفس إرساله - أنه قد علم حالة أهل الأرض قبل بعثته ﷺ، وما كانوا عليه من عبادة الأوثان والثيران، والصليان، وتبليهم للأديان، حتى كانوا في ظلمة من الكفر، قد عمتهم وشملتهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، قد انقضوا قبيل البعثة.

وقد علم أن الله تعالى لم يخلق خلقه سدى، ولم يتركهم هملاً، لأنه حكيم عليم، قدير رحيم، فمن حكمته ورحمته بعباده أن أرسل إليهم هذا الرسول العظيم، يأمرهم بعبادة الرحمن وحده لا شريك له، فيمحو رد رسالته يعرف العاقل صدقه، وهو آية كبيرة على أنه رسول الله وأما الثاني: فمن عرف النبي ﷺ معرفة تامة، وعرف سيرته وهدية قبل البعثة، ونشوءه على أكمل الخصال، ثم من بعد ذلك قد ازدادت مكارمه وأخلاقه العظيمة الباهرة للناظرين، فمن عرفها وسير أحواله، عَرَفَ أنها لا تكون إلا أخلاق الأنبياء الكاملين، لأن الله تعالى جعل الأوصاف أكبر دليل على معرفة أصحابها وصدقهم وكذبهم.

وأما الثالث: فهو معرفة ما جاء به ﷺ من الشرع العظيم، والقرآن الكريم المشتمل على الإخبارات الصادقة، والأوامر الحسنة، والنهي عن كل قبيح، والمعجزات الباهرة، فجميع الآيات تدخل في هذه الثلاثة.

قوله: ﴿بشيراً﴾ أي: لمن أطاعك بالسعادة الدنيوية والأخروية، ﴿نذيراً﴾ لمن عصاك بالشقاوة والهلاك الدنيوي والأخروي.

﴿ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾ أي: لست مسؤولاً عنهم، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب.

﴿١٢٠﴾ ﴿ولن ترضى عنك اليهود

﴿وقوموا لله قانتين﴾.

ثم قال: ﴿بديع السماوات والأرض﴾، أي: خالقيهما على وجه قد أتقنهما وأحسنهما على غير مثال سبق.

﴿وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾، فلا يستعصى عليه، ولا يمتنع منه.

﴿١١٨ - ١١٩﴾ ﴿وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يؤقتون﴾ ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾، أي: قال الجاهلة من أهل الكتاب وغيرهم: هلا يكلمنا، كما كلم الرسل. ﴿أو تأتينا آية﴾، يعنون آيات الاقتراح، التي يقترحونها بقولهم الفاسدة، وآرائهم الكاسدة، التي تجرأوا بها على الخالق، واستكبروا على رسله كقولهم: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾، ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك﴾ الآية وقالوا: ﴿لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً، أو يلقى إليه كنز، أو تكون له جنة﴾، الآيات وقوله: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تمجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾، الآيات.

فهذا دأبهم مع رسلهم، يطلبون آيات التعنت، لا آيات الاسترشاد، ولم يكن قصدهم تبين الحق، فإن الرسل قد جاؤوا من الآيات، بما يؤمن بعمله البشر، ولهذا قال تعالى: ﴿قد بينا الآيات لقوم يؤقتون﴾.

فكل موقن، فقد عرف من آيات الله الباهرة، وبراهينه الظاهرة، ما حصل له به اليقين، واندفع عنه كل شك وريب.

ثم ذكر تعالى بعض آية موجزة مختصرة جامعة للآيات الدالة على صدقه ﷺ، وصحة ما جاء به، فقال: ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً﴾، فهذا مشتمل على الآيات التي جاء بها، وهي ترجع إلى ثلاثة أمور:

إثبات الوجه لله تعالى، على الوجه اللائق به تعالى، وأن لله وجهاً لا تشبهه الوجوه، وهو - تعالى - واسع الفضل والصفات عظيمها، عليم بسر أتركه وبياتكم.

فمن سعته وعلمه، وسع لكم الأمر، وقبل منكم المأمور، فله الحمد والشكر.

﴿١١٦ - ١١٧﴾ ﴿وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون﴾ \* بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾، ﴿وقالوا﴾ أي: اليهود والنصارى والمشركون، وكل من قال ذلك: ﴿اتخذ الله ولداً﴾، فنبوه إلى ما لا يليق بجلاله، وأسأوا كل الإساءة، وظلموا أنفسهم.

وهو - تعالى - صابر على ذلك منهم، قد حلم عليهم، وعافاهم، ورزقهم مع تقصصهم إياه.

﴿سبحانه﴾، أي: تنزهه وتقدس عن كل ما وصفه به المشركون والظالمون مما لا يليق بجلاله. فسبحان من له الكمال المطلق، من جميع الوجوه، الذي لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه.

ومع رده لقولهم، أقام الحجة والبرهان على تنزيهه عن ذلك، فقال: ﴿بل له ما في السموات والأرض﴾، أي: جميعهم ملكه وعبيده، يتصرف فيهم تصرف المالك بالممالك، وهم قانتون له مسخرون تحت تدبيره، فإذا كانوا كلهم عبيده، مفترقين إليه، وهو غني عنهم، فكيف يكون منهم أحد، يكون له ولداً، والولد لا بد أن يكون من جنس والده، لأنه جزء منه.

والله تعالى المالك القاهر، وأنتم المملوكون المقهورون، وهو الغني وأنتم الفقراء، فكيف مع هذا، يكون له ولد؟ هذا من أبطل الباطل وأسمجه.

والقنوت نوعان: قنوت عام، وهو قنوت الخلق كلهم، تحت تدبير الخالق، وخاص: وهو قنوت العبادة.

فالنوع الأول كما في هذه الآية، والنوع الثاني: كما في قوله تعالى:



جانب عظيم من الإيمان والأعمال الصالحة، والأخلاق الجميلة، والشمائل السديدة، والمحبة التامة، والحشية والإنابة، فأين الظلم وهذا المقام؟

ودل مفهوم الآية أن غير الظالم سينال الإمامة، ولكن مع إتيانه بأسبابها.

ثم ذكر تعالى، نموذجاً باقياً دالاً على إمامة إبراهيم، وهو هذا البيت الحرام الذي جعل قصده ركناً من أركان الإسلام، حاطاً للذنوب والآثام.

وفيه من آثار الخليل وذريته، ما عرف به إمامته، وتذكرت به حالته، فقال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: مرجعاً يشوبون إليه، لحصول منافهم الدينية والدنيوية، يترددون إليه ولا يقضون منه وطراً، ﴿وَ﴾ جعله ﴿أُمَّةً﴾ بأمن به كل أحد، حتى الوحش، وحتى الجمادات كالأشجار.

ولهذا كانوا في الجاهلية - على شركهم - يحترمونه أشد الاحترام، ويجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم فلا يبيحه، فلما جاء الإسلام زاده حرمة وتعظيماً وتشريفاً وتكريماً.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: مرجعاً يشوبون إليه، لحصول منافهم الدينية والدنيوية، يترددون إليه ولا يقضون منه وطراً، ﴿وَ﴾ جعله ﴿أُمَّةً﴾ بأمن به كل أحد، حتى الوحش، وحتى الجمادات كالأشجار. ولهذا كانوا في الجاهلية - على شركهم - يحترمونه أشد الاحترام، ويجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم فلا يبيحه، فلما جاء الإسلام زاده حرمة وتعظيماً وتشريفاً وتكريماً.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: مرجعاً يشوبون إليه، لحصول منافهم الدينية والدنيوية، يترددون إليه ولا يقضون منه وطراً، ﴿وَ﴾ جعله ﴿أُمَّةً﴾ بأمن به كل أحد، حتى الوحش، وحتى الجمادات كالأشجار.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: مرجعاً يشوبون إليه، لحصول منافهم الدينية والدنيوية، يترددون إليه ولا يقضون منه وطراً، ﴿وَ﴾ جعله ﴿أُمَّةً﴾ بأمن به كل أحد، حتى الوحش، وحتى الجمادات كالأشجار.

إبراهيم ربه بكلمات فأتهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين \* وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمتاً اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والماكفين والركع السجود \* يخبر تعالى عن عبده وخليله إبراهيم عليه السلام، المتفق على إمامته وجلالته، الذي كل من طوائف أهل الكتاب تدعيه، بل وكذلك المشركون: أن الله ابتلاه وامتحنه بكلمات، أي: بأوامر ونواهي، كما هي عادة الله في ابتلائه لعباده، ليتبين الكاذب الذي لا يثبت عند الابتلاء والامتحان، من الصادق الذي ترتفع درجته، ويزيد قدره ويزكو عمله، ويخلص ذممه، وكان من أجلهم في هذا المقام الخليل عليه السلام.

فأتم ما ابتلاه الله به وأكملة ووفاه، فشكر الله له ذلك، ولم يزل الله شكوراً، فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي: يقتدون بك في الهدى، ويمشون خلفك إلى سعادتهم الأبدية، ويحصل لك الشناء الدائم والأجر الجزيل، والتعظيم من كل أحد.

وهذه - لعمر الله - أفضل درجة تنافس فيها المنافسون، وأعلى مقام شمر إليه العاملون، وأكمل حالة حصلها أولو العزم من المرسلين وأتباعهم، من كل صديق متبع لهم، داع إلى الله وإلى سبيله.

فلما اغتبط إبراهيم بهذا المقام وأدرك هذا، طلب ذلك لذريته لتعلو درجته ودرجة ذريته، وهذا أيضاً من إمامته ونصحه لعباد الله، ومحبه أن يكثر فيهم المرشدون، فله عظمة هذه الهمم العالية والمقامات السامية.

فأجابه الرحيم اللطيف، وأخبر بالمانع من نيل هذا المقام، فقال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا ينال الإمامة في الدين من ظلم نفسه وضرها، وحط قدرها، لمنافاة الظلم لهذا المقام، فإنه مقام آتته الصبر واليقين، ونتيجته أن يكون صاحبه على

ولا التصارى حتى تنع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير \* يخبر تعالى رسوله أنه لا يرضى منه اليهود ولا النصرارى إلا باتباعه دينهم، لأنهم دعاء إلى الدين الذي هم عليه، ويزعمون أنه الهدى، فقل لهم: ﴿إِن هُدَى اللَّهُ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ هو الهدى.

وأما ما أتم عليه فهو الهوى، بدليل قوله: ﴿وَلئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير﴾.

فهذا فيه النهي العظيم عن اتباع أهواء اليهود والنصرارى، والتشبه بهم فيما يختص به دينهم، والخطاب وإن كان لرسول الله ﷺ فإن أمته داخلة في ذلك، لأن الاعتبار بعموم المعنى لا بخصوص المخاطب، كما أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ثم قال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُم الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين \* واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون \*.

يخبر تعالى أن الذين آتاهم الكتاب ومن عليهم به منة مطلقه، أنهم يتلونه حق تلاوته \* أي: يتبعونه حق اتباعه، والتلاوة: الاتباع، فيحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ويعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، وهؤلاء هم السعداء من أهل الكتاب، الذين عرفوا نعمة الله وشكروها، وآمنوا بكل الرسل، ولم يفرقوا بين أحد منهم.

فهؤلاء هم المؤمنون حقاً، لا من قال منهم: ﴿نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه﴾.

ولهذا توعدهم بقوله: ﴿ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون﴾ وقد تقدم تفسير الآية التي بعدها.

﴿١٢٤ - ١٢٥﴾ ﴿وَإِذْ ابْتَلَى

والأقذار، ليكون ﴿للطائفين﴾ فيه  
 ﴿والعاكفين والركع السجود﴾ أي:  
 المصلين، قدم الطواف لاختصاصه  
 بالمسجد [الحرام]، ثم الاعتكاف لأن  
 من شرطه المسجد مطلقاً، ثم الصلاة  
 مع أنها أفضل، لهذا المعنى.  
 وأضاف الباري البيت إليه لفرائد،  
 منها: أن ذلك يقتضي شدة اهتمام  
 إبراهيم وإسماعيل بتطهيره، لكونه  
 بيت الله، فيسذلان جهدهما،  
 ويستفرغان وسعهما في ذلك.  
 ومنها: أن الإضافة تقتضي  
 التشريف والإكرام، ففي ضمنها أمر  
 عباده بتعظيمه وتكريمه.

ومنها: أن هذه الإضافة هي السبب  
 الجاذب للقلوب إليه.  
 ﴿١٢٦﴾ ﴿وإذ قال إبراهيم رب  
 اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من  
 الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر  
 قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره  
 إلى عذاب النار وبئس المصير﴾ أي: وإذ  
 دعا إبراهيم لهذا البيت، أن يجعله الله  
 بلداً آمناً، ويرزق أهله من أنواع  
 الثمرات، ثم قيد عليه السلام هذا  
 الدعاء للمؤمنين تأديباً مع الله، إذ كان  
 دعاؤه الأول فيه الإطلاق، فجاء  
 الجواب فيه مقيداً بغير الظالم.

فلما دعا لهم بالورق وقيدته  
 بالمؤمن، وكان رزق الله شاملاً للمؤمن  
 والكافر والعاصي والطائع، قال تعالى:  
 ﴿ومن كفر﴾ أي: أرزقهم كلهم،  
 مسلمهم وكافرهم، أما المسلم فيستعين  
 بالرزق على عبادة الله، ثم ينتقل منه إلى  
 نعيم الجنة، وأما الكافر فيتمتع فيها  
 قليلاً ﴿ثم أضطره﴾ أي: أجسه  
 وأخرجه مكرهاً ﴿إلى عذاب النار  
 وبئس المصير﴾.

﴿١٢٧ - ١٢٩﴾ ﴿وإذ يرفق  
 إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل  
 ربنا تقبل منا إنك أنت السميع  
 العليم﴾ ربنا واجعلنا مسلمين لك  
 ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا  
 مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب

الرحيم \* ربنا وابعث فيهم رسولا  
 منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم  
 الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت  
 العزيز الحكيم﴾ أي: وأذكر إبراهيم  
 وإسماعيل في حالة رفعهما القواعد من  
 البيت الأساس، واستمرارهما على هذا  
 العمل العظيم، وكيف كانت حالهما  
 من الخوف والرجاء، حتى إنهما مع  
 هذا العمل دعوا الله أن يتقبل منهما  
 عملهما، حتى يحصل <sup>(١)</sup> فيه النفع  
 العميم. ودعوا لأنفسهما، وذريتهما  
 بالإسلام، الذي حققته خضوع  
 القلب، وانقياده لربه المتضمن لانقياد  
 الجوارح. ﴿وأرنا مناسكنا﴾ أي:

علمناها على وجه الإراءة والمشاهدة،  
 ليكون أبلغ. يحتمل أن يكون المراد  
 بالمناسك: أعمال الحج كلها، كما يدل  
 عليه السياق والمقام، ويحتمل أن يكون  
 المراد ما هو أعم من ذلك وهو الدين  
 كله والعبادات كلها، كما يدل عليه  
 عموم اللفظ، لأن النسك: التعبد،  
 ولكن غلب على متعبدات الحج تغليباً  
 عرفياً، فيكون حاصل دعائهما يرجع  
 إلى التوفيق للعلم النافع، والعمل  
 الصالح، ولما كان العبد - مهما كان -  
 لا بد أن يعتريه التقصير ويحتاج إلى  
 التوبة، قالاً: ﴿وتب علينا إنك أنت  
 التواب الرحيم﴾.

﴿ربنا وابعث فيهم﴾ أي: في ذريتنا  
 ﴿رسولاً منهم﴾ ليكون أرفع  
 لدرجتهم، ولينقادوا له، وليعرفوه  
 حقيقة المعرفة. ﴿يتلو عليهم آياتك﴾  
 لفظاً وحفظاً وتحفيظاً، ﴿ويعلمهم  
 الكتاب والحكمة﴾ معنى.

﴿ويزكيهم﴾ بالتربية على الأعمال  
 الصالحة، والتبري من الأعمال الردية  
 التي لا تزكو النفوس <sup>(٢)</sup> معها ﴿إنك  
 أنت العزيز﴾ أي: القاهر لكل شيء،  
 الذي لا يمتنع على قوته شيء  
 ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء  
 مواضعها، فيعزتك وحكمتك ابعث  
 فيهم هذا الرسول، فاستجاب الله لهما  
 فبعث الله هذا الرسول الكريم، الذي

﴿ما نسخ من آية أولئها ناسخ بغيرها أولئها  
 آية الله أن الله على كل شيء قدير﴾ ﴿الزمن أن  
 الله له ملكة السموات والأرض وما لكم من دون  
 الله من ولي ولا نصير﴾ ﴿أم يريدون أن تشركوا  
 كتابهم من عند ربهم ومن يسئل الصغر بالإيمان  
 فقه حبل سواة السبيل﴾ ﴿وذكروا أهل الكتاب  
 لربهم ويذكروا بعبادتهم ككسفة لآ حسنة أبعد  
 أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فأغروا وأندبروا  
 حتى بان الله بأسهم أن الله على كل شيء قدير﴾  
 ﴿وأشركوا الصلوة وآثاراً الزكوة وما شؤوا أن  
 ينزخهم من عند ربهم ربك الله بما تعملون بغير  
 حساب﴾ ﴿وقالوا لن نطع الحجة إلا من كان معنا  
 فذلك آياتهم على ما كانوا يفترون﴾ ﴿كثيراً  
 من آياتهم على من آمن منهم وهم يحسبوا أنهم  
 عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾

رحم الله به ذريتهما خاصة، وسائر  
 الخلق عامة، ولهذا قال عليه الصلاة  
 والسلام: «أنا دعوة أبي إبراهيم».

ولما عظم الله إبراهيم هذا التعظيم،  
 وأخبر عن صفاته الكاملة، قال تعالى:  
 ﴿١٣٠ - ١٣٤﴾ ﴿ومن يرغب عن  
 ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد  
 اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن  
 الصالحين﴾ إذ قال له ربه أسلم قال  
 أسلمت لرب العالمين \* ووصى بها  
 إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله  
 اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم  
 مسلمون \* أم كنتم شهاداء إذ حضر  
 يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون  
 من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك  
 إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً  
 ونحن له مسلمون \* تلك أمة قد خلت  
 لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا  
 تسألون عما كانوا يعملون﴾.

أي: ما يرغب عن ملة إبراهيم \*  
 بعدما عرف من فضله إلا من سفه  
 نفسه \* أي: جهلها وامتعتها ورضي  
 لها بالدون، وباعها بصفقة المغبون،  
 كما أنه لا أرشد وأكمل، ممن رغب  
 في ملة إبراهيم، ثم أخبر عن حاله في  
 الدنيا والآخرة، فقال: ﴿ولقد  
 اصطفيناه في الدنيا﴾ أي: اخترناه  
 ووقفناه للأعمال، التي صار بها من

(١) في ب: حتى يجعل. (٢) في ب: النفس.



المصطفين الأخيار .

﴿وانه في الآخرة لمن الصالحين﴾  
الذين لهم أعلى الدرجات .

﴿إذ قال له ربه أسلم قال﴾ امتثالاً  
لربه ﴿أسلمت لرب العالمين﴾ إخلاصاً  
وتوحيداً، ومحبة وإنابة، فكان  
التوحيد لله نعتة .

ثم ورثه في ذريته ووصاهم به،  
وجعلها كلمة باقية في عقبه وتوارثت  
فيهم، حتى وصلت ليعقوب فوضي  
بها بنيه، فأنتم . يا بني يعقوب - قد  
وصاكم أبوكم بالخصوص، فيجب  
عليكم كمال الانقياد واتباع خاتم  
الأنبياء، قال: ﴿يا بني إن الله اصطفى  
لكم الدين﴾ أي: اختاره وتخييره لكم  
رحمة بكم، وإحساناً إليكم، فقوموا به  
واتصفاوا بشرائعه، وانصبفوا بأخلاقه،  
حتى تستمروا على ذلك فلا يأتبكم  
الموت إلا وأنتم عليه، لأن من عاش  
على شيء مات عليه، ومن مات على  
شيء بعث عليه .

ولما كان اليهود يزعمون أنهم على  
ملة إبراهيم، ومن بعده يعقوب، قال  
تعالى منكراً عليهم: ﴿أم كنتم شهداء﴾  
أي: حضوراً ﴿إذ حضر يعقوب  
الموت﴾ أي: مقدماته وأسبابه، فقال  
لبنيه على وجه الاختيار، ولتقر عينه في  
حياته بامتثالهم ما وصاهم به: ﴿ما

تعبدون من بعدي؟ فأجابوه بما قرأت  
به عينه، فقالوا: ﴿نعبد إلهك وإله  
آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً  
واحداً﴾ فلا تشرك به شيئاً، ولا تعدل  
به أحداً، ﴿ونحن له مسلمون﴾  
فجمعوا بين التوحيد والعمل .

ومن المعلوم أنهم لم يحضروا  
يعقوب، لأنهم لم يوجدوا بعد، فإذا لم  
يحضروا، فقد أصر الله عنه أنه وصى  
بنيه بالحنيفية لا باليهودية .

ثم قال تعالى: ﴿تلك أمة قد  
خلت﴾ أي: مضت ﴿لها ما كسبت  
ولكم ما كسبتم﴾ أي: كل له عمله،  
وكل سيجازي بما فعله، لا يؤخذ<sup>(١)</sup>  
أحد بذنب أحد، ولا ينفع أحد إلا  
إيمانه وتقواه فاشتغالكم بهم وادعائكم  
أنكم على ملتهم، والرضا بمجرد  
القول، أمر فارغ لا حقيقة له، بل  
الواجب عليكم أن تنظروا حالتكم التي  
أنتم عليها، هل تصلح للنجاة أم لا؟

﴿١٣٥﴾ ﴿وقالوا كونوا هوداً أو  
نصارى عهدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً  
وما كان من المشركين﴾ أي: دعا كل  
من اليهود والنصارى المسلمين إلى  
الدخول في دينهم، زاعمين أنهم هم  
المهتدون وغيرهم ضال .

قل له<sup>(٢)</sup> حنيفياً جواباً شافياً: ﴿بل﴾  
نشئ ﴿ملة إبراهيم حنيفاً﴾ أي: مقلداً  
على الله، معرضاً عما سواه، قائماً  
بالتوحيد، تاركاً للمشرك والتنديد .

فهذا الذي في اتباعه الهداية، وفي  
الإعراض عن ملته الكفر والغواية .

﴿١٣٦﴾ ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل  
إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل  
وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي  
موسى وعيسى وما أوتي النبيون من  
ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له  
مسلمون﴾ هذه الآية الكريمة قد  
اشتملت على جميع ما يجب الإيمان به .

واعلم أن الإيمان الذي هو تصديق  
القلب التام بهذه الأصول، وإقراره  
المتضمن لأعمال القلوب والجوارح،  
وهو بهذا الاعتبار يدخل فيه الإسلام،

وتدخل فيه الأعمال الصالحة كلها،  
فهي من الإيمان وأثر من آثاره، فحيث  
أطلق الإيمان دخل فيه ما ذكر،  
وكذلك الإسلام، إذا أطلق دخل فيه  
الإيمان، فإذا قرن بينهما، كان الإيمان  
اسماً لما في القلب من الإقرار  
والتصديق، والإسلام اسماً للأعمال  
الظاهرة وكذلك إذا جمع بين الإيمان  
والأعمال الصالحة . فقلوله تعالى:  
﴿قولوا﴾ أي: بالستكم متواطئة عليها  
قلوبكم، وهذا هو القول التام المترتب  
عليه الثواب والجزاء، فكما أن النطق  
باللسان بدون اعتقاد القلب، نفاق  
وكفر، فالقول الخالي من العمل عمل  
القلب عديم التأثير، قليل الفائدة، وإن  
كان العبد يؤجر عليه، إذا كان خيراً  
ومعه أصل الإيمان، لكن فرق بين  
القول المجرد والمقرن به عمل القلب .

وفي قوله: ﴿قولوا﴾ إشارة إلى  
الإعلان بالعقيدة، والصدع بها  
والدعوة لها، إذ هي أصل الدين  
وأساسه .

وفي قوله: ﴿آمنا﴾ ونحوه مما فيه  
صدور الفعل منسوباً إلى جميع الأمة  
إشارة إلى أنه يجب على الأمة، الاعتماد  
بجبل الله جميعاً والحث على الائتلاف،  
حتى يكون داعيهم واحداً، وعملهم  
متحداً، وفي ضمنه النهي عن  
الافتراق، وفيه أن المؤمنين كالجسد  
الواحد .

وفي قوله: ﴿قولوا آمنا بالله﴾ الخ،  
دلالة على جواز إضافة الإنسان إلى نفسه  
الإيمان على وجه التقييد، بل على  
وجوب ذلك، بخلاف قوله: ﴿أنا  
مؤمن﴾ ونحوه، فإنه لا يقال إلا مقروناً  
بالاستثناء بالمشيئة لما فيه من تركية  
النفس، والشهادة على نفسه بالإيمان .

فقلوله: ﴿آمنا بالله﴾ أي: بأنه  
موجود، واحد أحد، متصف بكل  
صفة كمال، منزه عن كل نقص  
وعيب، مستحق لإفراذه بالعبادة كلها،  
وعدم الإشراك به في شيء منها، بوجه  
من الوجوه .

(٢) في ب: قال له .

(١) في ب: لا يؤاخذ .

شفاق فيسفيكمهم الله وهو السميع العليم ﴿أي: فإن آمن أهل الكتاب﴾ بمثل ما آمنتم به - يا معشر

المؤمنين - من جميع الرسل وجميع الكتب، الذين أول من دخل فيهم، وأولى خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ والقرآن، وأسلموا لله وحده، ولم يفرقوا بين أحد من رسل الله ﴿فقد اهتدوا﴾ للصرط المستقيم، الموصل لجنات النعيم، أي: فلا سبيل لهم إلى الهداية إلا بهذا الإيمان، لا كما زعموا بقولهم: «كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا» فزعموا أن الهداية خاصة بما كانوا عليه، والهدى هو العلم بالحق والعمل به، وضده الضلال عن العلم والضلال عن العمل بعد العلم، وهو الشقاق الذي كانوا عليه، لما تولوا وأعرضوا، فالشاق هو الذي يكون في شق، والله ورسوله في شق، ويلزم من المشاقفة المحادة، والعداوة البليغة، التي من لوازمها بذل ما يقدرون عليه من أذية الرسول، فلهذا وعد الله رسوله أن يكفيه إياهم، لأنه السميع لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، العليم بما بين أيديهم، وما خلفهم، بالغييب والشهادة، بالظواهر والبواطن، فإذا كان كذلك، فكفك الله شرهم.

وقد أنجز الله لرسوله وعده، وسلطه عليهم حتى قتل بعضهم، وسبى بعضهم، وأجل بعضهم، وشردهم كل مشرد.

ففيه معجزة من معجزات القرآن، وهو الإخبار بالشيء قبل وقوعه، فوقع طبق ما أخبر.

﴿١٣٨﴾ ﴿صيفة الله ومن أحسن من الله صيفة ونحن له عابدون﴾ أي: الزموا صيفة الله، وهو دينه، وقوموا به قيباً تاماً بجميع أعماله الظاهرة والباطنة، وجميع عقائده في جميع الأوقات، حتى يكون لكم صيفة وصفة من صفاتكم، فإذا كان صفة من صفاتكم، أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره، طوعاً واختياراً ومحبة، وصار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبح التام

عليهم الكتب، ويرسل إليهم الرسل، فلا تقتضي ربوبيته تركهم سدئ ولا هملًا.

وإذا كان ما أوتي النبيون إنما هو من ربهم، ففيه الفرق بين الأنبياء وبين من يدعي النبوة، وأنه يحصل الفرق بينهم بمجرد معرفة ما يدعون إليه، فالرسل لا يدعون إلا للخير، ولا ينهون إلا عن كل شر، وكل واحد منهم يصدق الآخر ويشهد له بالحق، من غير تحالف ولا تناقض لكونه من عند ربهم ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾.

وهذا بخلاف من ادعى النبوة، فلا بد أن يتناقضوا في أخبارهم وأوامرهم ونواهيهم، كما يعلم ذلك من سير أحوال الجميع وعرف ما يدعون إليه.

فلما بين تعالى جميع ما يؤمن به، عموماً وخصوصاً، وكان القول لا يغني عن العمل، قال: ﴿ونحن له مسلمون﴾ أي: خاضعون لعظمته، متفادون لعبادته بباطننا وظاهرنا، مخلصون له العبادة بدليل تقديم المعمول، وهو ﴿له﴾ على العامل، وهو ﴿مسلمون﴾.

فقد اشتملت هذه الآية الكريمة - على إيجازها واختصارها - على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، واشتملت على الإيمان بجميع الرسل وجميع الكتب، وعلى التخصيص الدال على الفضل بعد التعميم، وعلى التصديق بالقلب واللسان والجوارح والإخلاص لله في ذلك، وعلى الفرق بين الرسل الصادقين، ومن ادعى النبوة من الكاذبين، وعلى تعليم الباري عباده كيف يقولون، ورحمته وإحسانه عليهم بالنعمة الدينية المتصلة بسعادة الدنيا والآخرة، فسبحان من جعل كتابه تبياناً لكل شيء، وهدياً ورحمة لقوم يؤمنون.

﴿١٣٧﴾ ﴿فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في

﴿وما أنزل إلينا﴾ يشمل القرآن والسنة لقوله تعالى: ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾ فدخل فيه الإيمان بما تضمنته كتاب الله وستة رسوله، من صفات الباري، وصفات رسله، واليوم الآخر، والغيوب الماضية والمستقبلية، والإيمان بما تضمنته ذلك من الأحكام الشرعية الأمرية، وأحكام الجزاء وغير ذلك.

﴿وما أنزل إلى إبراهيم﴾ إلى آخر الآية، فيه الإيمان بجميع الكتب المنزلة على جميع الأنبياء، والإيمان بالأنبياء عموماً، وخصوصاً ما نص عليه في الآية لشرافهم، وإتيانهم بالشرائع الكبار فالواجب في الإيمان بالأنبياء والكتب أن يؤمن بهم على وجه العموم والشمول، ثم ما عرف منهم بالتفصيل، وجب الإيمان به مفصلاً.

وقوله: ﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾ أي: بل تؤمن بهم كلهم، هذه خاصية المسلمين التي انفردوا بها عن كل من يدعي أنه على دين.

فاليهود والنصارى والصابئون وغيرهم - وإن زعموا أنهم يؤمنون بما يؤمنون به من الرسل والكتب - فإنهم يكفرون بغيره، فيفرقون بين الرسل والكتب، بعضها يؤمنون به، وبعضها يكفرون به، وينقض تكذيبهم تصديقهم، فإن الرسول الذي زعموا أنهم قد آمنوا به، قد صدق سائر الرسل وخصوصاً محمد ﷺ، فإذا كذبوا محمداً، فقد كذبوا رسولهم فيما أخبرهم به، فيكون كفراً برسولهم.

وفي قوله: ﴿وما أوتي النبيون من ربهم﴾ دلالة على أن عطية الدين هي العطية الحقيقية المتصلة بالسعادة الدنيوية والأخروية. لم يأمرنا أن نؤمن بما أوتي الأنبياء من الملك والمال ونحو ذلك، بل أمرنا أن نؤمن بما أعطوا من الكتب والشرائع.

وفيه أن الأنبياء مبلغون عن الله، ووسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ دينه، ليس لهم من الأمر شيء.

وفي قوله: ﴿من ربهم﴾ إشارة إلى أنه من كمال ربوبيته لعباده أن ينزل

أنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما بغافل عما تعملون ﴿١٣٨﴾ وهذه دعوى أخرى منهم، وعاجزة في رسل الله، زعموا أنهم أولى بهؤلاء الرسل المذكورين من المسلمين.

فرد الله عليهم بقوله: ﴿أنتم أعلم أم الله﴾ فالله يقول: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾ وهم يقولون: بل كان يهودياً أو نصرانياً.

فإما أن يكونوا هم الصادقين العاملين، أو يكون الله تعالى هو الصادق العالم بذلك، فأحد الأمرين متعين لا محالة، وصورة الجواب مبهم، وهو في غاية الوضوح والبيان، حتى إنه من وضوحه لم يحتاج أن يقول بل الله أعلم وهو أصدق، ونحو ذلك، لانجلائه لكل أحد، كما إذا قيل: الليل أنور، أم النهار؟ والنار أحر أم الماء؟ والشرك أحسن أم التوحيد؟ ونحو ذلك.

وهذا يعرفه كل من له أدنى عقل، حتى إنهم بأنفسهم يعرفون ذلك، ويعرفون أن إبراهيم وغيره من الأنبياء لم يكونوا هوداً ولا نصارى، فكتموا هذا العلم وهذه الشهادة، فلماذا كان ظلمهم أعظم الظلم. ولهذا قال تعالى: ﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾ فهي شهادة عندهم، مودعة من الله، لا من الخلق، فيقتضي الاهتمام بإقامتها، فكتموها وأظهروا ضدها، جمعوا بين كتم الحق وعدم النطق به، وإظهار الباطل والدعوة إليه، أليس هذا أعظم الظلم؟ بل والله، وسيعاقبهم عليه أشد العقوبة، فلماذا قال: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ بل قد أحصى أعمالهم وعدّها وادّخر لهم جزاءها، فبئس الجزاء جزاؤهم، وبئس النار مثوى للظالمين، وهذه طريقة القرآن في ذكر العلم والقدرة، عقب الآيات المتضمنة للأعمال التي يجازى عليها.

فيعيد ذلك الوعد والرعيد،

وقال: ﴿ونحن له عابدون﴾ فوصفهم باسم الفاعل الدال على الثبوت والاستقرار ليدل على اتصافهم بذلك وكونه صار صيغة لهم ملازماً.

﴿١٣٩﴾ ﴿قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون﴾ المحاجة: هي المجادلة بين اثنين فأكثر، تتعلق في المسائل الخلافية، حتى يكون كل من الخصمين يريد نصرة قوله وإبطال قول خصمه، فكل واحد منهما يجتهد في إقامة الحجة على ذلك، والمطلوب منها أن تكون بالتي هي أحسن، بأقرب طريق يرد الضال إلى الحق، ويقدم الحجة على المعاند، ويوضح الحق ويبين الباطل، فإن خرجت عن هذه الأمور، كانت ممرارة ومخاصمة لا خير فيها، وأحدثت من الشر ما أحدثت، فكان أهل الكتاب يزعمون أنهم أولى بالله من المسلمين، وهذا مجرد دعوى تقتدر على برهان ودليل. فإذا كان رب الجميع واحداً، ليس رباً لكم دوننا، وكل منا ومنكم له عمله، فاستوتنا نحن وإياكم بذلك، فهذا لا يوجب أن يكون أحد الفريقين أولى بالله من غيره؛ لأن التفريق مع الاشتراك في الشيء من غير فرق مؤثر دعوى باطلة، وتفرقت بين متماثلين، ومكابرة ظاهرة، وإنما يحصل التفضيل بإخلاص الأعمال الصالحة لله وحده، وهذه الحالة وصف المؤمنين وحدهم، فتعين أنهم أولى بالله من غيرهم؛ لأن الإخلاص هو الطريق إلى الخلاص، فهذا هو الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بالأوصاف الحقيقية التي يسلمها أهل العقول، ولا يتنازع فيها إلا كل مكابر جهول، ففي هذه الآية إرشاد لطيف لطريق المحاجة، وأن الأمور مبنية على الجمع بين المتماثلين، والفرق بين المختلفين.

﴿١٤٠﴾ ﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل

للثوب الذي صار له صفة، فحصلت لكم السعادة الدنيوية والأخروية، لحد الدين على مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ومعالي الأمور، فلماذا قال - على سبيل التمجيب المتقرر للعقول الزكية -: ﴿ومن أحسن من الله صيغة﴾ أي: لا أحسن صيغة من صيغته<sup>(١)</sup>.

وإذا أردت أن تعرف نموذجاً يبين لك الفرق بين صيغة الله وبين غيرها من الصيغ، ففس الشيء بضده، فكيف ترى في عبد آمن بربه إيماناً صحيحاً، أثر معه خضوع القلب وانقياد الجوارح، فلم يزل يتحنى بكل وصف حسن، وفعل جميل، وخلق كامل، ونعت جليل، ويتخلى من كل وصف قبيح، ورذيلة وعيب، فوضّفه: الصدق في قوله وفعله، والصبر والحلم، والعفة، والشجاعة، والإحسان القولي والفعل، ومحبة الله وخشيته، وخوفه ورجاؤه، فحاله الإخلاص للمعبود، والإحسان لعبده، ففسه بعبد كفر بربه وشرد عنه، وأقبل على غيره من المخلوقين فانصف بالصفات القبيحة، من الكفر، والشرك، والكذب، والخيانة، والمكر، والخداع، وعدم العفة، والإساءة إلى الخلق في أقواله وأفعاله، فلا إخلاص للمعبود، ولا إحسان إلى عبده.

فإنه يظهر لك الفرق العظيم بينهما، ويتبين لك أنه لا أحسن صيغة من صيغة الله، وفي ضمنه أنه لا أقبح صيغة ممن انصيح بغير دينه.

وفي قوله: ﴿ونحن له عابدون﴾ بيان لهذه الصيغة، وهي القيام بهذين الأصلين: الإخلاص والتسابعة، لأن «العبادة»: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال، والأقوال الظاهرة والباطنة، ولا تكون كذلك حتى يشرعها الله على لسان رسوله، والإخلاص: أن يقصد العبد وجه الله وحده في تلك الأعمال، فتقديم المعمول يؤذن بالحرص.

(١) كذا في ب، وفي أ: من صيغته.

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ أي: عدلاً خياراً، وما عدا الوسط فأطراف داخلية تحت الخطر، فجعل الله هذه الأمة وسطاً في كل أمور الدين، وسطاً في الأنبياء، بين من غلا فيهم كالنصارى، وبين من جفاهم كاليهود، بأن آمنوا بهم كلهم على الوجه اللائق بذلك، ووسطاً في الشريعة لا تشديدات اليهود وأصارهم، ولا تهاون النصارى.

وفي باب الطهارة والمطاعم، لا كاليهود الذين لا تصح لهم صلاة إلا في بيعهم وكنائسهم، ولا يظهروهم الماء من النجاسات، وقد حرمت عليهم طيبات عقوبة لهم، ولا كالنصارى الذين لا ينجسون شيئاً، ولا يجرمون شيئاً، بل أباحوا ما دب ودرج.

بل طهارتهم أكمل طهارة وأتمها، وأباح الله لهم الطيبات من المطاعم والمشارب والملابس والنكاح، وحرّم عليهم الخبائث من ذلك، فلهذه الأمة من الدين أكمله، ومن الأخلاق أجملها، ومن الأعمال أفضلها.

وهبهم الله من العلم والحلم والعدل والإحسان، ما لم يهبه لأمة سواهم، فلذلك كانوا «أمة وسطاً» [كاملين] ليكونوا «شهداء على الناس» بسبب عدالتهم وحكمهم بالقسط، يحكمون على الناس من سائر أهل الأديان، ولا يحكم عليهم غيرهم، فما شهدت له هذه الأمة بالقبول فهو مقبول، وما شهدت له بالرد فهو مردود، فإن قيل: كيف يقبل حكمهم على غيرهم، والحال أن كل شخصين غير مقبول قول بعضهم على بعض؟ قيل: إنما لم يقبل قول أحد الشخصين لوجود التهمة، فأما إذا انتفت التهمة، وحصلت العدالة التامة كما في هذه الأمة، فإنما المقصود الحكم بالعدل والحق، وشرط ذلك العلم والعدل، وهما موجودان في هذه الأمة، فقبل قولها.

فإن شكك في فضلها، وطلب مركزاً لها فهو أكمل الخلق نبياً ﷺ، فلماذا قال تعالى: ﴿ويكون الرسول

مصدر هذا الكلام، فالعاقل لا يبالي باعتراض السفه، ولا يلقي له ذهنه. ودلت الآية على أنه لا يعترض على أحكام الله إلا سفه جاهل معاند، وأما الرشيد المؤمن العاقل، فيتلقى أحكام ربه بالقبول والانقياد والتسليم، كما قال تعالى: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾ الآية، ﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا﴾ وقد كان في قوله «السفهاء» ما يغني عن رد قولهم وعدم المبالاة به.

ولكنه تعالى مع هذا لم يترك هذه الشبهة، حتى أزالها وكشفها عما سيعرض لبعض القلوب من الاعتراض، فقال تعالى: ﴿قل﴾ لهم مجيباً: «الله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم» أي: فإذا كان المشرق والمغرب ملكاً لله، ليس جهة من الجهات خارجة عن ملكه، ومع هذا يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ومنه هدايتكم إلى هذه القبلة التي هي من ملة أبيكم إبراهيم، فلاي: شيء يعترض المعارض بتوليتكم قبلة داخلية تحت ملك الله، لم تستقبلوا جهة ليست ملكاً له؟ فهذا يوجب التسليم لأمره بمجرد ذلك، فكيف وهو من فضل الله عليكم، وهدايته وإحسانه أن هداكم لذلك، فالمعارض عليكم، معترض على فضل الله حسداً لكم وبتغياً.

ولما كان قوله: ﴿يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ والمطلق يحمل على المقيد، فإن الهداية والضلال لهما أسباب أوجبتها حكمة الله وعدله، وقد أخبر في غير موضع من كتابه بأسباب الهداية، التي إذا أتى بها العبد حصل له الهدى، كما قال تعالى: ﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام﴾ ذكر في هذه الآية السبب الموجب لهداية هذه الأمة مطلقاً بجميع أنواع الهداية، ومنه الله عليها، فقال:

والترغيب والترهيب، ويفيد أيضاً ذكر الأسماء الحسنی بعد الأحكام، أن الأمر الديني والجزائي أثر من آثارها، وموجب من موجباتها، وهي مقتضية له.

﴿١٤١﴾ ثم قال تعالى: ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ تقدم تفسيرها، وكررها لقطع التعلق بالخلوقين، وأن المعول عليه ما اتصف به الإنسان، لا عمل أسلافه وآبائه، فالنفع الحقيقي بالأعمال، لا بالانتساب المجرّد للرجال.

﴿١٤٢ - ١٤٣﴾ ﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل الله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم \* وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ قد اشتملت الآية الأولى على: معجزة، وتسليّة، وتطمين قلوب المؤمنين، واعتراض، وجوابه من ثلاثة أوجه، وصفة المعارض، وصفة المسلم لحكم الله ودينه.

فأخبر تعالى أنه سيعترض السفهاء من الناس وهم الذين لا يعرفون مصالح أنفسهم، بل يضيعونها ويبيعونها بأبخس ثمن، وهم اليهود والنصارى، ومن أشبههم من المعارضين على أحكام الله وشرائعه، وذلك أن المسلمين كانوا مأمورين باستقبال بيت المقدس مدة مقامهم بمكة، ثم بعد الهجرة إلى المدينة، نحو سنة ونصف - لما لله تعالى في ذلك من الحكم التي سيشير إلى بعضها، وكانت حكمته تقتضي أمرهم باستقبال الكعبة، فأخبرهم أنه لا بد أن يقول السفهاء من الناس: ﴿ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها﴾ وهي استقبال بيت المقدس، أي: أي شيء صرفهم عنه؟ وفي ذلك الاعتراض على حكم الله وشرعه وفضله وإحسانه، فسلاهم وأخبر بوقوعه، وأنه إنما يقع ممن اتصف بالسفه قليل العقل والحلم والديانة، فلا تبالوا بهم، إذ قد علم

عليكم شهيداً

ومن شهادة هذه الأمة على غيرهم أنه إذا كان يوم القيامة وسأل الله المرسلين عن تبليغهم، والأمم المكذبة عن ذلك، وأنكروا أن الأنبياء بلغتهم، استشهدت الأنبياء بهذه الأمة، وزكاهما نبيها.

وفي الآية دليل على أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة، وأنهم معصومون عن الخطأ، لإطلاق قوله: ﴿وسطاً﴾ فلو قدر اتفاقهم على الخطأ لم يكونوا وسطاً إلا في بعض الأمور، ولقوله: ﴿ولتكونوا شهداء على الناس﴾ يقتضي أنهم إذا شهدوا على حكم أن الله أحله أو حرمه أو أوجبه، فإنها معصومة في ذلك. وفيها اشتراط العدالة في الحكم والشهادة والفتيا، ونحو ذلك.

﴿١٤٣﴾ يقول تعالى: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ يقول تعالى: ﴿وما جعلنا القبلة التي كتبت عليها﴾ وهي استقبال بيت المقدس أولاً ﴿إلا لنعلم﴾ أي: علماً يتعلق به الثواب والعقاب، وإلا فهو تعالى عالم بكل الأمور قبل وجودها.

ولكن هذا العلم لا يعلق عليه ثواباً ولا عقاباً، لتمام عدله وإقامة الحجة على عباده، بل إذا وجدت أعمالهم ترتب عليها الثواب والعقاب، أي: شرعنا تلك القبلة لنعلم ونمتحن ﴿من يتبع الرسول﴾ ويؤمن به، فيتبعه على كل حال، لأنه عبد مأمور مدير، ولأنه قد أخبرت الكتب المتقدمة أنه يستقبل الكعبة، فالنصف الذي مقصوده الحق، مما يزيده ذلك إيماناً وطاعة للرسول.

وأما من انقلب على عقبيه، وأعرض عن الحق واتبع هواه، فإنه يزداد كفراً إلى كفره، وحبيرة إلى حيرته، ويدلي بالحجة الباطلة، المبنية على شبهة لا حقيقة لها.

﴿وإن كانت﴾ أي: صرفك عنها

﴿لكبيرة﴾ أي: شاقة ﴿إلا على الذين هدى الله﴾ فصرفوا بذلك نعمة الله عليهم، وشكروا وأقروا له بالإحسان حيث وجههم إلى هذا البيت العظيم، الذي فضله على سائر الأرض، وجعل قصده ركناً من أركان الإسلام، وهادماً للذنوب والآثام، فلهذا خف عليهم ذلك، وشق على من سواهم.

ثم قال تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ أي: ما ينبغي له ولا يليق به تعالى، بل هي من الممتنعات عليه، فأخبر أنه تمتع عليه ومستحيل أن يضيع إيمانكم، وفي هذا بشارة عظيمة لمن آمن بالله عليهم بالإسلام والإيمان، بأن الله سيحفظ عليهم إيمانهم فلا يضيعه، وحفظه نوعان:

حفظ عن الضياع والبطلان بعصمته لهم عن كل مفسد ومزيل له ومنقص من المحن الملققة، والأهواء الصاعدة، وحفظ له بثمنيته لهم، وتوفيقهم لما يزداد به إيمانهم، ويتم به إيقانهم، فكما ابتدأكم بأن هداكم للإيمان، فسيحفظه لكم، ويتم نعمته بتثمينته وتنمية أجره وثوابه، وحفظه من كل مكدر، بل إذا وجدت المحن التي المقصود منها تبيين المؤمن الصادق من الكاذب، فإنها تمحص المؤمنين وتظهر صدقهم، وكأن في هذا احترازاً عما يقال إن قوله: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه﴾ قد يكون سبباً لترك بعض المؤمنين إيمانهم، فدفع هذا الوهم بقوله: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ بتقديره لهذه المحنة أو غيرها.

ودخل في ذلك من مات من المؤمنين قبل تحويل الكعبة، فإن الله لا يضيع إيمانهم، لكونهم امتثلوا أمر الله وطاعة رسوله في وقتها، وطاعة الله امتثال أمره في كل وقت بحسب ذلك، وفي هذه الآية دليل لذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان تدخل فيه أعمال الجوارح.

وقوله: ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ أي: شديد الرحمة بهم

عظيمها، فمن رأفته ورحمته بهم أن يتم عليهم نعمته التي ابتدأهم بها، وأن يميز عنهم من دخل في الإيمان بلسانه دون قلبه، وأن امتحنهم امتحاناً زاد به إيمانهم، وارتفعت به درجاتهم، وأن وجههم إلى أشرف البيوت، وأجلها.

﴿١٤٤﴾ ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون﴾ يقول الله لنبيه: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾ أي: كثرة تردده في جميع جهاته، شوقاً وانتظاراً لنزول الوحي باستقبال الكعبة، وقال: ﴿وجهك﴾ ولم يقل: «بصرك» لزيادة اهتمامه، ولأن تقلب الوجه مستلزم لتقلب البصر.

﴿فلنولينك﴾ أي: نوجهك لولايتنا إياك، ﴿قبلة ترضاها﴾ أي: تمحبها وهي الكعبة، وفي هذا بيان لفضله وشرفه ﷺ، حيث إن الله تعالى يسارع في رضاه، ثم صرح له باستقبالها فقال: ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ والوجه: ما أقبل من بدن الإنسان، ﴿وحينما كنتم﴾ أي: من بر وبحر، شرق وغرب، جنوب وشمال ﴿فولوا وجوهكم شطره﴾ أي: جهته.

ففيها اشتراط استقبال الكعبة للمصلوات كلها، فرضها ونفلها، وأنه إن أمكن استقبال عينها، وإلا فيكفي شطرها وجهتها، وأن الالتفات بالبدن مبطل للصلاة، لأن الأمر بالشئ نهي عن ضده، ولما ذكر تعالى فيما تقدم المعارضين على ذلك من أهل الكتاب وغيرهم، وذكر جوابهم، ذكر هنا أن أهل الكتاب والعلم منهم يعلمون أنك في ذلك على حق وأمر، لما يجدونه في كتبهم، فيعترضون عناداً وبنياً، فإذا كانوا يعلمون بخطئهم فلا تبالوا بذلك، فإن الإنسان إنما يغمه اعتراض من اعترض عليه، إذا كان الأمر مشتبهاً، وكان ممكناً أن يكون معه صواب.

فأما إذا تبين أن الصواب والحق مع المعترض عليه، وأن المعترض معاند، عارف ببطلان قوله، فإنه لا محل للمبالاة، بل ينتظر بالمعترض العقوبة الدنيوية والأخروية، فلهذا قال تعالى: ﴿وما الله بغافل عما يعملون﴾ بل يحفظ عليهم أعمالهم، ويميزهم عليها، وفيها وعيد للمعترضين، وتسلية للمؤمنين.

﴿١٤٥﴾ «ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذ لمن الظالمين» كان النبي ﷺ من كمال حرصه على هداية الخلق يبذل لهم غاية ما يقدر عليه من النصيحة، ويتلطف بهدايتهم، ويحزن إذا لم يتقادوا لأمر الله، فكان من الكفار من تمرد عن أمر الله واستكبر على رسل الله، وترك الهدى عمداً وعدواناً، فمنهم: اليهود والنصارى، أهل الكتاب الأول، الذين كفروا بمحمد ﷺ عن يقين لا عن جهل، فلهذا أخبره الله تعالى أنك لو «أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية» أي: بكل برهان ودليل يوضح قولك، ويبين ما تدعو إليه، «ما تبعوا قبلتك» أي: ما تبعوك، لأن اتباع القبلة دليل على اتباعه، ولأن السبب هو شأن القبلة، وإنما كان الأمر كذلك لأنهم معاندون، عرفوا الحق وتركوه، فالآيات إنما تغيد ويتفجع بها من يطلب الحق وهو مشتبه عليه، فتوضح له الآيات البينات، وأما من جزم بعدم اتباع الحق فلا حيلة فيه.

وأيضاً فإن اختلافهم فيما بينهم حاصل، وبعضهم غير تابع قبلة بعض، فليس بغريب منهم مع ذلك أن لا يتبعوا قبلك يا محمد، وهم الأعداء حقيقة الحسدة، وقوله: «وما أنت بتابع قبلتهم» أبلغ من قوله: «ولا تتبع» لأن ذلك يتضمن أنه ﷺ اتصف بمخالفتهم، فلا يمكن وقوع

ذلك منه، ولم يقل: «ولو أتوا بكل آية» لأنهم لا دليل لهم على قولهم. وكذلك إذا تبين الحق بأدلة يقينية، لم يلزم الإتيان بأجوبة الشبه الواردة عليه، لأنه لا حذل لها، ولأنه يعلم ببطلانها، للمعلم بأن كل ما ناق الحق الواضح فهو باطل، فيكون حل الشبه من باب التبرع.

«ولئن اتبعت أهواءهم» إنما قال: «أهواءهم» ولم يقل «دينهم» لأن ما هم عليه مجرد أهوية<sup>(١)</sup> نفس، حتى هم في قلوبهم يعلمون أنه ليس بدين، ومن ترك الدين اتبع الهوى ولا محالة، قال تعالى: «أفأريت من اتخذ إلهه هواه».

«من بعد ما جاءك من العلم» بأنك على الحق، وهم على الباطل، «إنك إذا» أي: إن اتبعتهم، فهذا احتراز لئلا تفصل هذه الجملة عما قبلها، ولو في الأنهام، «لمن الظالمين» أي: داخل فيهم، ومندرج في جملتهم، وأي: ظلم أعظم من ظلم من علم الحق والباطل، فأثر الباطل على الحق، وهذا وإن كان الخطاب له ﷺ، فإن أمره داخله في ذلك، وأيضاً فإذا كان هو ﷺ لو فعل ذلك - وحاشاه - صار ظالماً مع علو مرتبته، وكثرة حسناته<sup>(٢)</sup>، فغيره من باب أولى وأحرى.

﴿١٤٦ - ١٤٧﴾ ثم قال تعالى: «الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون» الحق من ربك فلا تكونن من الممترين» يخبر تعالى أن أهل الكتاب قد نقرر عندهم وعرفوا أن محمداً رسول الله، وأن ما جاء به حق وصدق، وتيقنوا ذلك كما تيقنوا أبناءهم بحيث لا يشبهون عليهم غيرهم، فمعرفةهم بمحمد ﷺ، وصلت إلى حد لا يشكون فيه ولا يمترون، لكن فريقاً منهم - وهم أكثرهم - الذين كفروا به، كتموا هذه الشهادة مع تيقنها، وهم يعلمون «ومن أظلم ممن

وإن ترضقك تلك اليهود ولا الضمير ممن تبع بأهواءهم بل إن هدى الله هؤلاء الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴿١٤٦﴾ ﴿١٤٧﴾ ﴿١٤٨﴾ ﴿١٤٩﴾ ﴿١٥٠﴾ ﴿١٥١﴾ ﴿١٥٢﴾ ﴿١٥٣﴾ ﴿١٥٤﴾ ﴿١٥٥﴾ ﴿١٥٦﴾ ﴿١٥٧﴾ ﴿١٥٨﴾ ﴿١٥٩﴾ ﴿١٦٠﴾ ﴿١٦١﴾ ﴿١٦٢﴾ ﴿١٦٣﴾ ﴿١٦٤﴾ ﴿١٦٥﴾ ﴿١٦٦﴾ ﴿١٦٧﴾ ﴿١٦٨﴾ ﴿١٦٩﴾ ﴿١٧٠﴾ ﴿١٧١﴾ ﴿١٧٢﴾ ﴿١٧٣﴾ ﴿١٧٤﴾ ﴿١٧٥﴾ ﴿١٧٦﴾ ﴿١٧٧﴾ ﴿١٧٨﴾ ﴿١٧٩﴾ ﴿١٨٠﴾ ﴿١٨١﴾ ﴿١٨٢﴾ ﴿١٨٣﴾ ﴿١٨٤﴾ ﴿١٨٥﴾ ﴿١٨٦﴾ ﴿١٨٧﴾ ﴿١٨٨﴾ ﴿١٨٩﴾ ﴿١٩٠﴾ ﴿١٩١﴾ ﴿١٩٢﴾ ﴿١٩٣﴾ ﴿١٩٤﴾ ﴿١٩٥﴾ ﴿١٩٦﴾ ﴿١٩٧﴾ ﴿١٩٨﴾ ﴿١٩٩﴾ ﴿٢٠٠﴾ ﴿٢٠١﴾ ﴿٢٠٢﴾ ﴿٢٠٣﴾ ﴿٢٠٤﴾ ﴿٢٠٥﴾ ﴿٢٠٦﴾ ﴿٢٠٧﴾ ﴿٢٠٨﴾ ﴿٢٠٩﴾ ﴿٢١٠﴾ ﴿٢١١﴾ ﴿٢١٢﴾ ﴿٢١٣﴾ ﴿٢١٤﴾ ﴿٢١٥﴾ ﴿٢١٦﴾ ﴿٢١٧﴾ ﴿٢١٨﴾ ﴿٢١٩﴾ ﴿٢٢٠﴾ ﴿٢٢١﴾ ﴿٢٢٢﴾ ﴿٢٢٣﴾ ﴿٢٢٤﴾ ﴿٢٢٥﴾ ﴿٢٢٦﴾ ﴿٢٢٧﴾ ﴿٢٢٨﴾ ﴿٢٢٩﴾ ﴿٢٣٠﴾ ﴿٢٣١﴾ ﴿٢٣٢﴾ ﴿٢٣٣﴾ ﴿٢٣٤﴾ ﴿٢٣٥﴾ ﴿٢٣٦﴾ ﴿٢٣٧﴾ ﴿٢٣٨﴾ ﴿٢٣٩﴾ ﴿٢٤٠﴾ ﴿٢٤١﴾ ﴿٢٤٢﴾ ﴿٢٤٣﴾ ﴿٢٤٤﴾ ﴿٢٤٥﴾ ﴿٢٤٦﴾ ﴿٢٤٧﴾ ﴿٢٤٨﴾ ﴿٢٤٩﴾ ﴿٢٥٠﴾ ﴿٢٥١﴾ ﴿٢٥٢﴾ ﴿٢٥٣﴾ ﴿٢٥٤﴾ ﴿٢٥٥﴾ ﴿٢٥٦﴾ ﴿٢٥٧﴾ ﴿٢٥٨﴾ ﴿٢٥٩﴾ ﴿٢٦٠﴾ ﴿٢٦١﴾ ﴿٢٦٢﴾ ﴿٢٦٣﴾ ﴿٢٦٤﴾ ﴿٢٦٥﴾ ﴿٢٦٦﴾ ﴿٢٦٧﴾ ﴿٢٦٨﴾ ﴿٢٦٩﴾ ﴿٢٧٠﴾ ﴿٢٧١﴾ ﴿٢٧٢﴾ ﴿٢٧٣﴾ ﴿٢٧٤﴾ ﴿٢٧٥﴾ ﴿٢٧٦﴾ ﴿٢٧٧﴾ ﴿٢٧٨﴾ ﴿٢٧٩﴾ ﴿٢٨٠﴾ ﴿٢٨١﴾ ﴿٢٨٢﴾ ﴿٢٨٣﴾ ﴿٢٨٤﴾ ﴿٢٨٥﴾ ﴿٢٨٦﴾ ﴿٢٨٧﴾ ﴿٢٨٨﴾ ﴿٢٨٩﴾ ﴿٢٩٠﴾ ﴿٢٩١﴾ ﴿٢٩٢﴾ ﴿٢٩٣﴾ ﴿٢٩٤﴾ ﴿٢٩٥﴾ ﴿٢٩٦﴾ ﴿٢٩٧﴾ ﴿٢٩٨﴾ ﴿٢٩٩﴾ ﴿٣٠٠﴾ ﴿٣٠١﴾ ﴿٣٠٢﴾ ﴿٣٠٣﴾ ﴿٣٠٤﴾ ﴿٣٠٥﴾ ﴿٣٠٦﴾ ﴿٣٠٧﴾ ﴿٣٠٨﴾ ﴿٣٠٩﴾ ﴿٣١٠﴾ ﴿٣١١﴾ ﴿٣١٢﴾ ﴿٣١٣﴾ ﴿٣١٤﴾ ﴿٣١٥﴾ ﴿٣١٦﴾ ﴿٣١٧﴾ ﴿٣١٨﴾ ﴿٣١٩﴾ ﴿٣٢٠﴾ ﴿٣٢١﴾ ﴿٣٢٢﴾ ﴿٣٢٣﴾ ﴿٣٢٤﴾ ﴿٣٢٥﴾ ﴿٣٢٦﴾ ﴿٣٢٧﴾ ﴿٣٢٨﴾ ﴿٣٢٩﴾ ﴿٣٣٠﴾ ﴿٣٣١﴾ ﴿٣٣٢﴾ ﴿٣٣٣﴾ ﴿٣٣٤﴾ ﴿٣٣٥﴾ ﴿٣٣٦﴾ ﴿٣٣٧﴾ ﴿٣٣٨﴾ ﴿٣٣٩﴾ ﴿٣٤٠﴾ ﴿٣٤١﴾ ﴿٣٤٢﴾ ﴿٣٤٣﴾ ﴿٣٤٤﴾ ﴿٣٤٥﴾ ﴿٣٤٦﴾ ﴿٣٤٧﴾ ﴿٣٤٨﴾ ﴿٣٤٩﴾ ﴿٣٥٠﴾ ﴿٣٥١﴾ ﴿٣٥٢﴾ ﴿٣٥٣﴾ ﴿٣٥٤﴾ ﴿٣٥٥﴾ ﴿٣٥٦﴾ ﴿٣٥٧﴾ ﴿٣٥٨﴾ ﴿٣٥٩﴾ ﴿٣٦٠﴾ ﴿٣٦١﴾ ﴿٣٦٢﴾ ﴿٣٦٣﴾ ﴿٣٦٤﴾ ﴿٣٦٥﴾ ﴿٣٦٦﴾ ﴿٣٦٧﴾ ﴿٣٦٨﴾ ﴿٣٦٩﴾ ﴿٣٧٠﴾ ﴿٣٧١﴾ ﴿٣٧٢﴾ ﴿٣٧٣﴾ ﴿٣٧٤﴾ ﴿٣٧٥﴾ ﴿٣٧٦﴾ ﴿٣٧٧﴾ ﴿٣٧٨﴾ ﴿٣٧٩﴾ ﴿٣٨٠﴾ ﴿٣٨١﴾ ﴿٣٨٢﴾ ﴿٣٨٣﴾ ﴿٣٨٤﴾ ﴿٣٨٥﴾ ﴿٣٨٦﴾ ﴿٣٨٧﴾ ﴿٣٨٨﴾ ﴿٣٨٩﴾ ﴿٣٩٠﴾ ﴿٣٩١﴾ ﴿٣٩٢﴾ ﴿٣٩٣﴾ ﴿٣٩٤﴾ ﴿٣٩٥﴾ ﴿٣٩٦﴾ ﴿٣٩٧﴾ ﴿٣٩٨﴾ ﴿٣٩٩﴾ ﴿٤٠٠﴾ ﴿٤٠١﴾ ﴿٤٠٢﴾ ﴿٤٠٣﴾ ﴿٤٠٤﴾ ﴿٤٠٥﴾ ﴿٤٠٦﴾ ﴿٤٠٧﴾ ﴿٤٠٨﴾ ﴿٤٠٩﴾ ﴿٤١٠﴾ ﴿٤١١﴾ ﴿٤١٢﴾ ﴿٤١٣﴾ ﴿٤١٤﴾ ﴿٤١٥﴾ ﴿٤١٦﴾ ﴿٤١٧﴾ ﴿٤١٨﴾ ﴿٤١٩﴾ ﴿٤٢٠﴾ ﴿٤٢١﴾ ﴿٤٢٢﴾ ﴿٤٢٣﴾ ﴿٤٢٤﴾ ﴿٤٢٥﴾ ﴿٤٢٦﴾ ﴿٤٢٧﴾ ﴿٤٢٨﴾ ﴿٤٢٩﴾ ﴿٤٣٠﴾ ﴿٤٣١﴾ ﴿٤٣٢﴾ ﴿٤٣٣﴾ ﴿٤٣٤﴾ ﴿٤٣٥﴾ ﴿٤٣٦﴾ ﴿٤٣٧﴾ ﴿٤٣٨﴾ ﴿٤٣٩﴾ ﴿٤٤٠﴾ ﴿٤٤١﴾ ﴿٤٤٢﴾ ﴿٤٤٣﴾ ﴿٤٤٤﴾ ﴿٤٤٥﴾ ﴿٤٤٦﴾ ﴿٤٤٧﴾ ﴿٤٤٨﴾ ﴿٤٤٩﴾ ﴿٤٥٠﴾ ﴿٤٥١﴾ ﴿٤٥٢﴾ ﴿٤٥٣﴾ ﴿٤٥٤﴾ ﴿٤٥٥﴾ ﴿٤٥٦﴾ ﴿٤٥٧﴾ ﴿٤٥٨﴾ ﴿٤٥٩﴾ ﴿٤٦٠﴾ ﴿٤٦١﴾ ﴿٤٦٢﴾ ﴿٤٦٣﴾ ﴿٤٦٤﴾ ﴿٤٦٥﴾ ﴿٤٦٦﴾ ﴿٤٦٧﴾ ﴿٤٦٨﴾ ﴿٤٦٩﴾ ﴿٤٧٠﴾ ﴿٤٧١﴾ ﴿٤٧٢﴾ ﴿٤٧٣﴾ ﴿٤٧٤﴾ ﴿٤٧٥﴾ ﴿٤٧٦﴾ ﴿٤٧٧﴾ ﴿٤٧٨﴾ ﴿٤٧٩﴾ ﴿٤٨٠﴾ ﴿٤٨١﴾ ﴿٤٨٢﴾ ﴿٤٨٣﴾ ﴿٤٨٤﴾ ﴿٤٨٥﴾ ﴿٤٨٦﴾ ﴿٤٨٧﴾ ﴿٤٨٨﴾ ﴿٤٨٩﴾ ﴿٤٩٠﴾ ﴿٤٩١﴾ ﴿٤٩٢﴾ ﴿٤٩٣﴾ ﴿٤٩٤﴾ ﴿٤٩٥﴾ ﴿٤٩٦﴾ ﴿٤٩٧﴾ ﴿٤٩٨﴾ ﴿٤٩٩﴾ ﴿٥٠٠﴾ ﴿٥٠١﴾ ﴿٥٠٢﴾ ﴿٥٠٣﴾ ﴿٥٠٤﴾ ﴿٥٠٥﴾ ﴿٥٠٦﴾ ﴿٥٠٧﴾ ﴿٥٠٨﴾ ﴿٥٠٩﴾ ﴿٥١٠﴾ ﴿٥١١﴾ ﴿٥١٢﴾ ﴿٥١٣﴾ ﴿٥١٤﴾ ﴿٥١٥﴾ ﴿٥١٦﴾ ﴿٥١٧﴾ ﴿٥١٨﴾ ﴿٥١٩﴾ ﴿٥٢٠﴾ ﴿٥٢١﴾ ﴿٥٢٢﴾ ﴿٥٢٣﴾ ﴿٥٢٤﴾ ﴿٥٢٥﴾ ﴿٥٢٦﴾ ﴿٥٢٧﴾ ﴿٥٢٨﴾ ﴿٥٢٩﴾ ﴿٥٣٠﴾ ﴿٥٣١﴾ ﴿٥٣٢﴾ ﴿٥٣٣﴾ ﴿٥٣٤﴾ ﴿٥٣٥﴾ ﴿٥٣٦﴾ ﴿٥٣٧﴾ ﴿٥٣٨﴾ ﴿٥٣٩﴾ ﴿٥٤٠﴾ ﴿٥٤١﴾ ﴿٥٤٢﴾ ﴿٥٤٣﴾ ﴿٥٤٤﴾ ﴿٥٤٥﴾ ﴿٥٤٦﴾ ﴿٥٤٧﴾ ﴿٥٤٨﴾ ﴿٥٤٩﴾ ﴿٥٥٠﴾ ﴿٥٥١﴾ ﴿٥٥٢﴾ ﴿٥٥٣﴾ ﴿٥٥٤﴾ ﴿٥٥٥﴾ ﴿٥٥٦﴾ ﴿٥٥٧﴾ ﴿٥٥٨﴾ ﴿٥٥٩﴾ ﴿٥٦٠﴾ ﴿٥٦١﴾ ﴿٥٦٢﴾ ﴿٥٦٣﴾ ﴿٥٦٤﴾ ﴿٥٦٥﴾ ﴿٥٦٦﴾ ﴿٥٦٧﴾ ﴿٥٦٨﴾ ﴿٥٦٩﴾ ﴿٥٧٠﴾ ﴿٥٧١﴾ ﴿٥٧٢﴾ ﴿٥٧٣﴾ ﴿٥٧٤﴾ ﴿٥٧٥﴾ ﴿٥٧٦﴾ ﴿٥٧٧﴾ ﴿٥٧٨﴾ ﴿٥٧٩﴾ ﴿٥٨٠﴾ ﴿٥٨١﴾ ﴿٥٨٢﴾ ﴿٥٨٣﴾ ﴿٥٨٤﴾ ﴿٥٨٥﴾ ﴿٥٨٦﴾ ﴿٥٨٧﴾ ﴿٥٨٨﴾ ﴿٥٨٩﴾ ﴿٥٩٠﴾ ﴿٥٩١﴾ ﴿٥٩٢﴾ ﴿٥٩٣﴾ ﴿٥٩٤﴾ ﴿٥٩٥﴾ ﴿٥٩٦﴾ ﴿٥٩٧﴾ ﴿٥٩٨﴾ ﴿٥٩٩﴾ ﴿٦٠٠﴾ ﴿٦٠١﴾ ﴿٦٠٢﴾ ﴿٦٠٣﴾ ﴿٦٠٤﴾ ﴿٦٠٥﴾ ﴿٦٠٦﴾ ﴿٦٠٧﴾ ﴿٦٠٨﴾ ﴿٦٠٩﴾ ﴿٦١٠﴾ ﴿٦١١﴾ ﴿٦١٢﴾ ﴿٦١٣﴾ ﴿٦١٤﴾ ﴿٦١٥﴾ ﴿٦١٦﴾ ﴿٦١٧﴾ ﴿٦١٨﴾ ﴿٦١٩﴾ ﴿٦٢٠﴾ ﴿٦٢١﴾ ﴿٦٢٢﴾ ﴿٦٢٣﴾ ﴿٦٢٤﴾ ﴿٦٢٥﴾ ﴿٦٢٦﴾ ﴿٦٢٧﴾ ﴿٦٢٨﴾ ﴿٦٢٩﴾ ﴿٦٣٠﴾ ﴿٦٣١﴾ ﴿٦٣٢﴾ ﴿٦٣٣﴾ ﴿٦٣٤﴾ ﴿٦٣٥﴾ ﴿٦٣٦﴾ ﴿٦٣٧﴾ ﴿٦٣٨﴾ ﴿٦٣٩﴾ ﴿٦٤٠﴾ ﴿٦٤١﴾ ﴿٦٤٢﴾ ﴿٦٤٣﴾ ﴿٦٤٤﴾ ﴿٦٤٥﴾ ﴿٦٤٦﴾ ﴿٦٤٧﴾ ﴿٦٤٨﴾ ﴿٦٤٩﴾ ﴿٦٥٠﴾ ﴿٦٥١﴾ ﴿٦٥٢﴾ ﴿٦٥٣﴾ ﴿٦٥٤﴾ ﴿٦٥٥﴾ ﴿٦٥٦﴾ ﴿٦٥٧﴾ ﴿٦٥٨﴾ ﴿٦٥٩﴾ ﴿٦٦٠﴾ ﴿٦٦١﴾ ﴿٦٦٢﴾ ﴿٦٦٣﴾ ﴿٦٦٤﴾ ﴿٦٦٥﴾ ﴿٦٦٦﴾ ﴿٦٦٧﴾ ﴿٦٦٨﴾ ﴿٦٦٩﴾ ﴿٦٧٠﴾ ﴿٦٧١﴾ ﴿٦٧٢﴾ ﴿٦٧٣﴾ ﴿٦٧٤﴾ ﴿٦٧٥﴾ ﴿٦٧٦﴾ ﴿٦٧٧﴾ ﴿٦٧٨﴾ ﴿٦٧٩﴾ ﴿٦٨٠﴾ ﴿٦٨١﴾ ﴿٦٨٢﴾ ﴿٦٨٣﴾ ﴿٦٨٤﴾ ﴿٦٨٥﴾ ﴿٦٨٦﴾ ﴿٦٨٧﴾ ﴿٦٨٨﴾ ﴿٦٨٩﴾ ﴿٦٩٠﴾ ﴿٦٩١﴾ ﴿٦٩٢﴾ ﴿٦٩٣﴾ ﴿٦٩٤﴾ ﴿٦٩٥﴾ ﴿٦٩٦﴾ ﴿٦٩٧﴾ ﴿٦٩٨﴾ ﴿٦٩٩﴾ ﴿٧٠٠﴾ ﴿٧٠١﴾ ﴿٧٠٢﴾ ﴿٧٠٣﴾ ﴿٧٠٤﴾ ﴿٧٠٥﴾ ﴿٧٠٦﴾ ﴿٧٠٧﴾ ﴿٧٠٨﴾ ﴿٧٠٩﴾ ﴿٧١٠﴾ ﴿٧١١﴾ ﴿٧١٢﴾ ﴿٧١٣﴾ ﴿٧١٤﴾ ﴿٧١٥﴾ ﴿٧١٦﴾ ﴿٧١٧﴾ ﴿٧١٨﴾ ﴿٧١٩﴾ ﴿٧٢٠﴾ ﴿٧٢١﴾ ﴿٧٢٢﴾ ﴿٧٢٣﴾ ﴿٧٢٤﴾ ﴿٧٢٥﴾ ﴿٧٢٦﴾ ﴿٧٢٧﴾ ﴿٧٢٨﴾ ﴿٧٢٩﴾ ﴿٧٣٠﴾ ﴿٧٣١﴾ ﴿٧٣٢﴾ ﴿٧٣٣﴾ ﴿٧٣٤﴾ ﴿٧٣٥﴾ ﴿٧٣٦﴾ ﴿٧٣٧﴾ ﴿٧٣٨﴾ ﴿٧٣٩﴾ ﴿٧٤٠﴾ ﴿٧٤١﴾ ﴿٧٤٢﴾ ﴿٧٤٣﴾ ﴿٧٤٤﴾ ﴿٧٤٥﴾ ﴿٧٤٦﴾ ﴿٧٤٧﴾ ﴿٧٤٨﴾ ﴿٧٤٩﴾ ﴿٧٥٠﴾ ﴿٧٥١﴾ ﴿٧٥٢﴾ ﴿٧٥٣﴾ ﴿٧٥٤﴾ ﴿٧٥٥﴾ ﴿٧٥٦﴾ ﴿٧٥٧﴾ ﴿٧٥٨﴾ ﴿٧٥٩﴾ ﴿٧٦٠﴾ ﴿٧٦١﴾ ﴿٧٦٢﴾ ﴿٧٦٣﴾ ﴿٧٦٤﴾ ﴿٧٦٥﴾ ﴿٧٦٦﴾ ﴿٧٦٧﴾ ﴿٧٦٨﴾ ﴿٧٦٩﴾ ﴿٧٧٠﴾ ﴿٧٧١﴾ ﴿٧٧٢﴾ ﴿٧٧٣﴾ ﴿٧٧٤﴾ ﴿٧٧٥﴾ ﴿٧٧٦﴾ ﴿٧٧٧﴾ ﴿٧٧٨﴾ ﴿٧٧٩﴾ ﴿٧٨٠﴾ ﴿٧٨١﴾ ﴿٧٨٢﴾ ﴿٧٨٣﴾ ﴿٧٨٤﴾ ﴿٧٨٥﴾ ﴿٧٨٦﴾ ﴿٧٨٧﴾ ﴿٧٨٨﴾ ﴿٧٨٩﴾ ﴿٧٩٠﴾ ﴿٧٩١﴾ ﴿٧٩٢﴾ ﴿٧٩٣﴾ ﴿٧٩٤﴾ ﴿٧٩٥﴾ ﴿٧٩٦﴾ ﴿٧٩٧﴾ ﴿٧٩٨﴾ ﴿٧٩٩﴾ ﴿٨٠٠﴾ ﴿٨٠١﴾ ﴿٨٠٢﴾ ﴿٨٠٣﴾ ﴿٨٠٤﴾ ﴿٨٠٥﴾ ﴿٨٠٦﴾ ﴿٨٠٧﴾ ﴿٨٠٨﴾ ﴿٨٠٩﴾ ﴿٨١٠﴾ ﴿٨١١﴾ ﴿٨١٢﴾ ﴿٨١٣﴾ ﴿٨١٤﴾ ﴿٨١٥﴾ ﴿٨١٦﴾ ﴿٨١٧﴾ ﴿٨١٨﴾ ﴿٨١٩﴾ ﴿٨٢٠﴾ ﴿٨٢١﴾ ﴿٨٢٢﴾ ﴿٨٢٣﴾ ﴿٨٢٤﴾ ﴿٨٢٥﴾ ﴿٨٢٦﴾ ﴿٨٢٧﴾ ﴿٨٢٨﴾ ﴿٨٢٩﴾ ﴿٨٣٠﴾ ﴿٨٣١﴾ ﴿٨٣٢﴾ ﴿٨٣٣﴾ ﴿٨٣٤﴾ ﴿٨٣٥﴾ ﴿٨٣٦﴾ ﴿٨٣٧﴾ ﴿٨٣٨﴾ ﴿٨٣٩﴾ ﴿٨٤٠﴾ ﴿٨٤١﴾ ﴿٨٤٢﴾ ﴿٨٤٣﴾ ﴿٨٤٤﴾ ﴿٨٤٥﴾ ﴿٨٤٦﴾ ﴿٨٤٧﴾ ﴿٨٤٨﴾ ﴿٨٤٩﴾ ﴿٨٥٠﴾ ﴿٨٥١﴾ ﴿٨٥٢﴾ ﴿٨٥٣﴾ ﴿٨٥٤﴾ ﴿٨٥٥﴾ ﴿٨٥٦﴾ ﴿٨٥٧﴾ ﴿٨٥٨﴾ ﴿٨٥٩﴾ ﴿٨٦٠﴾ ﴿٨٦١﴾ ﴿٨٦٢﴾ ﴿٨٦٣﴾ ﴿٨٦٤﴾ ﴿٨٦٥﴾ ﴿٨٦٦﴾ ﴿٨٦٧﴾ ﴿٨٦٨﴾ ﴿٨٦٩﴾ ﴿٨٧٠﴾ ﴿٨٧١﴾ ﴿٨٧٢﴾ ﴿٨٧٣﴾ ﴿٨٧٤﴾ ﴿٨٧٥﴾ ﴿٨٧٦﴾ ﴿٨٧٧﴾ ﴿٨٧٨﴾ ﴿٨٧٩﴾ ﴿٨٨٠﴾ ﴿٨٨١﴾ ﴿٨٨٢﴾ ﴿٨٨٣﴾ ﴿٨٨٤﴾ ﴿٨٨٥﴾ ﴿٨٨٦﴾ ﴿٨٨٧﴾ ﴿٨٨٨﴾ ﴿٨٨٩﴾ ﴿٨٩٠﴾ ﴿٨٩١﴾ ﴿٨٩٢﴾ ﴿٨٩٣﴾ ﴿٨٩٤﴾ ﴿٨٩٥﴾ ﴿٨٩٦﴾ ﴿٨٩٧﴾ ﴿٨٩٨﴾ ﴿٨٩٩﴾ ﴿٩٠٠﴾ ﴿٩٠١﴾ ﴿٩٠٢﴾ ﴿٩٠٣﴾ ﴿٩٠٤﴾ ﴿٩٠٥﴾ ﴿٩٠٦﴾ ﴿٩٠٧﴾ ﴿٩٠٨﴾ ﴿٩٠٩﴾ ﴿٩١٠﴾ ﴿٩١١﴾ ﴿٩١٢﴾ ﴿٩١٣﴾ ﴿٩١٤﴾ ﴿٩١٥﴾ ﴿٩١٦﴾ ﴿٩١٧﴾ ﴿٩١٨﴾ ﴿٩١٩﴾ ﴿٩٢٠﴾ ﴿٩٢١﴾ ﴿٩٢٢﴾ ﴿٩٢٣﴾ ﴿٩٢٤﴾ ﴿٩٢٥﴾ ﴿٩٢٦﴾ ﴿٩٢٧﴾ ﴿٩٢٨﴾ ﴿٩٢٩﴾ ﴿٩٣٠﴾ ﴿٩٣١﴾ ﴿٩٣٢﴾ ﴿٩٣٣﴾ ﴿٩٣٤﴾ ﴿٩٣٥﴾ ﴿٩٣٦﴾ ﴿٩٣٧﴾ ﴿٩٣٨﴾ ﴿٩٣٩﴾ ﴿٩٤٠﴾ ﴿٩٤١﴾ ﴿٩٤٢﴾ ﴿٩٤٣﴾ ﴿٩٤٤﴾ ﴿٩٤٥﴾ ﴿٩٤٦﴾ ﴿٩٤٧﴾ ﴿٩٤٨﴾ ﴿٩٤٩﴾ ﴿٩٥٠﴾ ﴿٩٥١﴾ ﴿٩٥٢﴾ ﴿٩٥٣﴾ ﴿٩٥٤﴾ ﴿٩٥٥﴾ ﴿٩٥٦﴾ ﴿٩٥٧﴾ ﴿٩٥٨﴾ ﴿٩٥٩﴾ ﴿٩٦٠﴾ ﴿٩٦١﴾ ﴿٩٦٢﴾ ﴿٩٦٣﴾ ﴿٩٦٤﴾ ﴿٩٦٥﴾ ﴿٩٦٦﴾ ﴿٩٦٧﴾ ﴿٩٦٨﴾ ﴿٩٦٩﴾ ﴿٩٧٠﴾ ﴿٩٧١﴾ ﴿٩٧٢﴾ ﴿٩٧٣﴾ ﴿٩٧٤﴾ ﴿٩٧٥﴾ ﴿٩٧٦﴾ ﴿٩٧٧﴾ ﴿٩٧٨﴾ ﴿٩٧٩﴾ ﴿٩٨٠﴾ ﴿٩٨١﴾ ﴿٩٨٢﴾ ﴿٩٨٣﴾ ﴿٩٨٤﴾ ﴿٩٨٥﴾ ﴿٩٨٦﴾ ﴿٩٨٧﴾ ﴿٩٨٨﴾ ﴿٩٨٩﴾ ﴿٩٩٠﴾ ﴿٩٩١﴾ ﴿٩٩٢﴾ ﴿٩٩٣﴾ ﴿٩٩٤﴾ ﴿٩٩٥﴾ ﴿٩٩٦﴾ ﴿٩٩٧﴾ ﴿٩٩٨﴾ ﴿٩٩٩﴾ ﴿١٠٠٠﴾





لا علم ولا عمل، فكل علم أو عمل نالته هذه الأمة فعل يده ﷺ وبسيبه كان، فهذه النعم هي أصول النعم على الإطلاق، ولهي أكبر نعم ينعم بها على عباده، فوظيفتهم شكر الله عليها والقيام بها، فلهذا قال تعالى: ﴿فأذكروني أذكركم﴾ فأمر تعالى بذكره، ووعد عليه أفضل جزاء، وهو ذكره لمن ذكره، كما قال تعالى على لسان رسوله: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم».

وذكر الله تعالى أفضل ما نواظراً عليه القلب واللسان، وهو الذكر الذي يثمر معرفة الله ومحبه وكثرة ثوابه، والذكر هو رأس الشكر، فلهذا أمر به خصوصاً، ثم من بعده أمر بالشكر عموماً، فقال: ﴿واشكروا لي﴾ أي: على ما أنعمت عليكم بهذه النعم، ودفعت عنكم صنوف النقم، والشكر يكون بالقلب إقراراً بالنعم واعترافاً، وباللسان ذكراً وتثناءً، وبالجوارح طاعة لله وانقياداً لأمره واجتناباً لنهيهِ، فالشكر فيه بقاء النعمة الموجودة، وزيادة في النعم المفقودة، قال تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ وفي الإتيان بالأمر بالشكر، بعد النعم الدينية، من العلم وتزكية الأخلاق والتوفيق للأعمال، بيان أنها أكبر نعم، بل هي النعم الحقيقية التي تدوم إذا زال غيرها، وأنه ينبغي لمن وفقوا لعلم أو عمل، أن يشكروا الله على ذلك، ليزيدهم من فضله، وليندفع عنهم الإعجاب، فيشتغلوا بالشكر.

ولما كان الشكر ضد الكفر، نهي عن ضده، فقال: ﴿ولا تكفروا﴾ المراد بالكفر هانها ما يقابل الشكر، فهو كفر النعم وجحدها وعدم القيام بها، ويحتمل أن يكون المعنى عاماً، فيكون الكفر أنواعاً كثيرة، أعظمه الكفر بالله، ثم أنواع المعاصي على اختلاف أنواعها وأجناسها من الشرك فما دونه.

﴿١٥٣﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع

اتضح الحق اتضحاً ظاهراً، فله الحمد على ذلك.

﴿١٥١ - ١٥٢﴾ ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً ينلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ \* فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾ يقول تعالى: إن إنعامنا عليكم باستقبال الكعبة وإتمامها بالشرائع والنعم المثمرة، ليس ذلك بدع من إحساننا، ولا بأوله، بل أنعمنا عليكم بأصول النعم وتمناتها، فأبلغها إرسالنا إليكم هذا الرسول الكريم منكم، تعرفون نسبه وصدقه وأمانته وكماله ونصحه.

﴿ينلو عليكم آياتنا﴾ وهذا يعم الآيات القرآنية وغيرها، فهو ينلو عليكم الآيات الميينة للحق من الباطل، والهدى من الضلال، التي دلتكم أولاً على توحيد الله وكماله، ثم على صدق رسوله ووجوب الإيمان به، ثم على جميع ما أخبر به من المعاد والغيوب، حتى حصل لكم الهداية التامة والعلم اليقيني.

﴿ويزكيكم﴾ أي: يطهر أخلاقكم ونفوسكم، بتربيتها على الأخلاق الجميلة، وتنزيهاها عن الأخلاق الرذيلة، وذلك كتزكيتهم من الشرك إلى التوحيد، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن الخيانة إلى الأمانة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق، ومن التباغض والتهاجر والتقاطع إلى التحاب والتواصل والتوادد، وغير ذلك من أنواع التزكية.

﴿ويعلمكم الكتاب﴾ أي: القرآن، ألفاظه ومعانيه، ﴿والحكمة﴾ قيل: هي السنة، وقيل: الحكمة: معرفة أسرار الشريعة والفقه فيها، وتنزيل الأمور منازلها.

فيكون - على هذا - تعليم السنة داخلاً في تعليم الكتاب، لأن السنة تبين القرآن وتفسره، وتعبّر عنه، ﴿ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ لأنهم كانوا قبل بعثته في ضلال بين،

ومنها: أنه رد فيه جميع الاحتجاجات الباطلة التي أوردتها أهل العناد، وأبطلها بشبهة شبهة كما تقدم توضيحها، ومنها: أنه قطع الأطماع من اتباع الرسول قبلة أهل الكتاب، ومنها قوله: ﴿وإنه للحق من ربك﴾ فمجرد إخبار الصادق العظيم كاف شاف، ولكن مع هذا قال: ﴿وإنه للحق من ربك﴾.

ومنها: أنه أخبر - وهو العالم بالخفيات - أن أهل الكتاب متقرر عندهم صحة هذا الأمر، ولكنهم يكتفون هذه الشهادة مع العلم.

ولما كان توليته لنا إلى استقبال القبلة نعمة عظيمة، وكان لطفه بهذه الأمة ورحمته لم يزل يتزايد، وكلما شرع لهم شريعة فهي نعمة عظيمة، قال: ﴿ولأنتم نعمتي عليكم﴾.

فأصل النعمة الهداية لدينه، بإرسال رسوله وإنزال كتابه، ثم بعد ذلك، النعم المتممات لهذا الأصل، لا تعد كثرة ولا تحصر، منذ بعث الله رسوله إلى أن قرب رحيله من الدنيا، وقد أعطاه الله من الأحوال والنعم، وأعطى أمته، ما أنتم به نعمته عليه وعليهم، وأنزل الله عليه: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾.

فله الحمد على فضله، الذي لا نبليغ له عدداً، فضلاً عن القيام بشكره، ﴿ولعلمكم بهتدون﴾ أي: تعلمون الحق وتعملون به، فالله تبارك وتعالى - من رحمته - بالعباد، قد يسر لهم أسباب الهداية غاية التيسير، ونبههم على سلوك طرقها، وبينها لهم أتم تبين حتى إن من جملة ذلك أنه يقيض للحق المعاندين له فيجادلون فيه، فيتضح بذلك الحق، وتظهر آياته وأعلامه، ويتضح بطلان الباطل، وأنه لا حقيقة له، ولولا قيامه في مقابلة الحق، لربما لم يتبين حاله لأكثر الخلق، ويضدها تنبين الأشياء، فلولا الليل ما عرف فضل النهار، ولولا القبيح ما عرف فضل الحسن، ولولا الظلمة ما عرف منفعة النور، ولولا الباطل ما

يرزقون \* فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذي لم يَلْحَقُوا بِهِم من خلفهم أأخوف عليهم ولا هم يَحْزَنُونَ \* يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين \*.

فهل أعظم من هذه الحياة التضمنة للقرب من الله تعالى، وتمتعهم برزقه البدني من المكولات والمشروبات اللذيذة، والرزق الروحي، وهو الفرح والاستبشار<sup>(١)</sup>، وزوال كل خوف وحزن، وهذه حياة برزخية أكمل من الحياة الدنيا، بل قد أخبر النبي ﷺ أن أرواح الشهداء في أجواف طيور<sup>(٢)</sup> خضمر ترد أنهار الجنة، وتأكُل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل معلقة بالعرش. وفي هذه الآية أعظم حث على الجهاد في سبيل الله وملازمة الصبر عليه، فلو شعر العباد بما للمقتولين في سبيل الله من الثواب لم يتخلف عنه أحد، ولكن عدم العلم يقيني التام هو الذي فتر العزائم، وزاد نوم النائم، وأفات الأجر العظيمة والغنائم، لم لا يكون كذلك والله تعالى قد: «اشتري من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون».

فوالله لو كان للإنسان ألف نفس تذهب نفساً فنفساً في سبيل الله، لم يكن عظيماً في جانب هذا الأجر العظيم، ولهذا لا يتمنى الشهداء بعدما عاينوا من نواب الله وحسن جزائه إلا أن يردوا إلى الدنيا حتى يقتلوا في سبيله مرة بعد مرة.

وفي الآية دليل على نعيم البرزخ وعذابه، كما تكاثرت بذلك النصوص.

﴿١٥٥ - ١٥٧﴾ «ولنبلوكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والشمرات وبشر الصابرين \* الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون \* أولئك

في قوله تعالى: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ وهذه عامة للخلق.

وأمر تعالى بالاستعانة بالصلاة لأن الصلاة هي عماد الدين ونور المؤمنين، وهي الصلة بين العبد وبين ربه، فإذا كانت صلاة العبد صلاة كاملة، مجتمعاً فيها ما يلزم فيها وما يسن، وحصل فيها حضور القلب الذي هو لبها، فصار العبد إذا دخل فيها استشعر دخوله على ربه، ووقوفه بين يديه موقف العبد الخادم التأدب، مستحضراً لكل ما يقوله وما يفعله، مستغرقاً بسناجاة ربه ودعائه لا جرم أن هذه الصلاة، من أكبر المعونة على جميع الأمور، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولأن هذا الحضور الذي يكون في الصلاة، يوجب للعبد في قلبه وصفاً، وداعياً يدعوه إلى امتثال أوامر ربه واجتناب نواهيه، هذه هي الصلاة التي أمر الله أن نستعين بها على كل شيء.

﴿١٥٤﴾ «ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون» لما ذكر تبارك وتعالى الأمر بالاستعانة بالصبر على جميع الأمور<sup>(٣)</sup>، ذكر نموذجاً مما يستعان بالصبر عليه، وهو الجهاد في سبيله، وهو أفضل الطاعات البدنية وأشقها على النفوس لمشقتها في نفسه، ولكونه مؤدياً للقتل وعدم الحياة، التي إنما يرغب الراغبون في هذه الدنيا لحصول الحياة ولوآزمها، فكل ما يتصرفون به فإنه سعي لها، ودفع لما يضاهاها.

ومن المعلوم أن المحبوب لا يتركه العاقل إلا لمحبوب أعلى منه وأعظم، فأخبر تعالى: أن من قتل في سبيله، بأن قاتل في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه الظاهر، لا لغير ذلك من الأغراض، فإنه لم تفتت الحياة المحبوبة، بل حصل له حياة أعظم وأكمل مما نظنون وتحسبون.

فالشهداء «أحياء عند ربهم

الصابرين» أمر الله تعالى المؤمنين بالاستعانة على أمورهم الدينية والدنيوية «بالصبر والصلاة» فالصبر هو: حبس النفس وكفها على ما تكره، فهو ثلاثة أقسام: صبرها على طاعة الله حتى تؤديها، وعن معصية الله حتى تستركها، وعلى أقدار الله المؤلمة فلا تتسخطها، فالصبر هو المعونة العظيمة على كل أمر، فلا سبيل لغير الصابر أن يدرك مطلوبه، خصوصاً الطاعات الشاقة المستمرة، فإنها مفتقرة أشد الافتقار إلى تحمل الصبر، وتجرع المرارة الشاقة، فإذا لازم صاحبها الصبر فاز بالنجاح، وإن رده المكروه والمشقة عن الصبر والملازمة عليها، لم يدرك شيئاً وحصل على الحرمان، وكذلك المعصية التي تشتد دواعي النفس ونوازعها إليها وهي في محل قدرة العبد، فهذه لا يمكن تركها إلا بصبر عظيم وكف لدواعي قلبه ونوازعها لله تعالى، واستعانة بالله على العصمة منها، فإنها من الفتن الكبار. وكذلك البلاء الشاق خصوصاً إن استمر، فهذا تضعف معه القوى النفسانية والجسدية، ويوجد مفتضاها وهو التسخط، إن لم يقارمها صاحبها بالصبر لله والتوكل عليه، واللجأ إليه والافتقار على الدوام.

فعلمت أن الصبر محتاج إليه العبد، بل مضطر في كل حالة من أحواله، فلماذا أمر الله تعالى به، وأخبر أنه «مع الصابرين» أي: مع من كان الصبر لهم خلقاً وصفة، وملكة بمعونته وتوفيقه وتسديده، فهانت عليهم بذلك المشاق والمكاره، وسهل عليهم كل عظيم، وزالت عنهم كل صعوبة، وهذه معية خاصة تقتضي محبة ومعونته ونصره وقربه، وهذه «مقبة عظيمة»<sup>(٤)</sup> للصابرين، فلو لم يكن للصابرين فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعية من الله لكفى بها فضلاً وشرافاً، وأما المعية العامة فهي معية العلم والقدرة، كما

(٣) في ب: وهو الاستبشار.

(٤) في ب: طير.

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) في ب: الأحوال.

من الله والعقوبة والضلال والخسار، فما أعظم الفرق بين الفريقين وما أقل تعب الصابرين، وأعظم عناء الجازعين، فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطئ النفوس على المصائب قبل وقوعها، لتخف وتسهل إذا وقعت، وبيان ما تقابل به إذا وقعت وهو الصبر، وبيان ما يعين على الصبر، وما للصابر من الأجر، ويعلم حال غير الصابر بقصد حال الصابر .

وأن هذا الابتلاء والامتحان سنة الله التي قد خلقت، ولن نجد لسنة الله تبديلاً، وبيان أنواع المصائب .

﴿١٥٨﴾ ﴿إِنَّ الصِّفَا وَالْمُرُوَّةَ مِنْ شِعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جَنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ يَجِبُ تَعَالَى أَنْ الصِّفَا وَالْمُرُوَّةَ وَهُمَا مَعْرُوفَانِ ﴿مَنْ شِعَائِرِ اللَّهِ﴾ أَي: أَعْلَامُ دِينِهِ الظَّاهِرَةِ، الَّتِي تَعْبُدُ اللَّهَ بِهَا عِبَادِهِ، وَإِذَا كَانَا مِنْ شِعَائِرِ اللَّهِ، فَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِتَعْظِيمِ شِعَائِرِهِ فَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَعْظُمِ شِعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ فَدَلَّ بِمَجْمُوعِ النَّصِّينِ أَنَّهُمَا مِنْ شِعَائِرِ اللَّهِ، وَأَنَّ تَعْظِيمَ شِعَائِرِهِ مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ .

والتقوى واجبة على كل مكلف، وذلك يدل على أن السمي بهما فرض لازم للحج والعمرة كما عليه الجمهور، ودلت عليه الأحاديث النبوية وفعله النبي ﷺ، وقال: «خذوا عني مناسككم» .

﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ، فَلَا جَنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾ هَذَا دَفْعٌ لِرُوحِهِمْ مِنْ تَوْهَمِ تَخَرُّجِ الْمُسْلِمِينَ عَنِ الطَّوَافِ بَيْنَهُمَا، لِكُوتِهِمَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَعْبُدُ عِنْدَهُمَا الْأَصْنَامَ، فَتَفْتِي تَعَالَى الْجَنَاحَ لِدَفْعِ هَذَا الْوَهْمِ، لِأَنَّهُ غَيْرُ لَازِمٍ .

ودل تقيد نفي الجناح فيمن تطوف بهما في الحج والعمرة، أنه لا يتطوع بالسمي مفرداً إلا مع انضمامه لحج أو

التسخط قولاً وفعلًا، واحتسب أجرها عند الله، وعلم أن ما يدركه من الأجر بصره أعظم من المصيبة التي حصلت له، بل المصيبة تكون نعمة في حقه، لأنها صارت طريقاً لحصول ما هو خير له وأنفع منها، فقد امتثل أمر الله وفاز بالشواب، فلماذا قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ أَي: بِشْرِهِمْ بِأَنَّهُمْ يَرْفُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ، فَالصَّابِرُونَ هُمُ الَّذِينَ فَازُوا بِالبِشَارَةِ العَظِيمَةِ وَالمُنْحَةِ الجَسِيمَةِ، ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا هِيَ كُلٌّ مَا يَأْتِي الْقُلُوبَ أَوِ الْبَدَنَ أَوْ الْبُيُوتَ مَا تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ .

﴿قَالُوا إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِنا مَدِينًا لَوَ كُنَّا مِنَ الْمَدِينَةِ﴾ أَي: مَمْلُوكُونَ لِلَّهِ، مَدْبُورُونَ تَحْتَ أَمْرِهِ وَتَصْرِيفِهِ، فَلَيْسَ لَنَا مِنْ أَنْفُسِنَا وَأُمُورِنَا شَيْءٌ، فَإِذَا ابْتَلَانَا بِشَيْءٍ مِنْهَا فَقَدْ تَصَرَّفَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ بِمَمَالِيكِهِ وَأُمُورِهِمْ، فَلَا اعْتِرَاضَ عَلَيْهِ، بَلْ مِنْ كِمَالِ عِبُودِيَةِ الْعَبْدِ عِلْمُهُ بِأَنَّ وَقُوعَ الْبَلِيَّةِ مِنَ الْمَالِكِ الْحَكِيمِ الَّذِي أَرْحَمُ بَعِيدُهُ مِنْ نَفْسِهِ، فَيُرْجَبُ لَهُ ذَلِكَ الرِّضَا عَنِ اللَّهِ، وَالشُّكْرُ لَهُ عَلَى تَدْبِيرِهِ، لِما هُوَ خَيْرٌ لِعَبْدِهِ وَإِنْ لَمْ يَشْعُرْ بِذَلِكَ، وَمَعَ أَنَّ مَمْلُوكُونَ لِلَّهِ، فَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ يَوْمَ الْمَعَادِ، فَمَجَازٌ كُلُّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ، فَإِنَّ صَبْرَنَا وَاحْتِسَابَنَا وَجَدْنَا أَجْرَنَا مَوْفُورًا عِنْدَهُ، وَإِنْ جَزَعْنَا وَسَخَطْنَا لَمْ يَكُنْ حِطْنًا إِلَّا السَّخَطُ وَفَوَاتِ الْأَجْرِ، فَكُونِ الْعَبْدَ لِلَّهِ وَرَاجِعًا إِلَيْهِ مِنْ أَقْوَى أَسْبَابِ الصَّبْرِ .

﴿أُولَئِكَ﴾ الْمُوصَفُونَ بِالصَّبْرِ الْمَذْكُورِ ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أَي: ثَنَاءٌ وَتَنْوِيهِ بِحَالِهِمْ ﴿وَرِيحَةٌ﴾ عَظِيمَةٌ، وَمِنْ رِيحَتِهِ إِيَابُهُمْ أَنْ وَفَقَهُمْ لِلصَّبْرِ الَّذِي يَتَالَوْنَ بِهِ كِمَالِ الْأَجْرِ، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمَهْتَدُونَ﴾ الَّذِينَ عَرَفُوا الْحَقَّ، وَهُوَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ عَلَمُهُمْ بِأَنَّهُمْ لِلَّهِ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَعَمَلُوا بِهِ وَهُوَ هُنَا صَبْرُهُمْ لِلَّهِ .

وَدَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ يَصْبِرْ فَلَهُ ضِدٌّ مَا لَهُمْ، فَحَصَلَ لَهُ الذَّمُّ

عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرِيحَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمَهْتَدُونَ﴾ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَدْرَأَنَّ يَبْتَلِي عِبَادَهُ بِالْمَحْنِ، لِيَتَبَيَّنَ الصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ، وَالْجَازِعُ مِنَ الصَّابِرِ، وَهَذِهِ سُنَّتُهُ تَعَالَى فِي عِبَادِهِ؛ لِأَنَّ السَّرَاءَ لَوْ اسْتَمَرَّتْ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ وَلَمْ يَحْصُلْ مَعَهَا مَحْنَةٌ لِحَصْلِ الْإِخْتِلَافِ الَّذِي هُوَ فُسَادٌ وَحِكْمَةُ اللَّهِ تَقْتَضِي تَمْيِيزَ أَهْلِ الْخَيْرِ مِنْ أَهْلِ الشَّرِّ. هَذِهِ فَائِدَةُ الْمَحْنِ، لَا إِزَالَةَ مَا مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْإِيمَانِ، وَلَا رُدَّهُمْ عَنِ دِينِهِمْ، فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَضْعَعَ إِيْمَانَ الْمُؤْمِنِينَ، فَأَخْبَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ سَيَبْتَلِي عِبَادَهُ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ ﴿مِنَ الْأَعْدَاءِ﴾ وَالجُوعِ ﴿أَي: بِشَيْءٍ يَسِيرٍ مِنْهُمَا؛ لِأَنَّهُ لَوْ ابْتَلَاهُمْ بِالْخَوْفِ كُلَّهُ أَوْ الْجُوعَ لَهَلَكُوا، وَالْمَحْنُ تَمَحُّصٌ لَا تَهْلُكُ .

﴿وَنَقْصٌ مِنَ الْأَمْوَالِ﴾ وَهَذَا يَشْمَلُ جَمِيعَ النَّقْصِ الْمُعْتَرِي لِلْأَمْوَالِ مِنْ جَوَائِحِ سَمَاوِيَّةٍ، وَغَرَقٍ وَضِياعٍ، وَأَخْذِ الظُّلْمَةِ لِلْأَمْوَالِ، مِنْ الْمَلُوكِ الظُّلْمَةِ وَقَطَاعِ الطَّرِيقِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ .

﴿وَالْأَنْفُسِ﴾ أَي: ذَهَابِ الْأَحْبَابِ مِنَ الْأَوْلَادِ وَالْأَقْرَابِ وَالْأَصْحَابِ، وَمِنْ أَنْوَاعِ الْأَمْرَاضِ فِي بَدَنِ الْعَبْدِ، أَوْ بَدَنِ مَنْ يَجِبُ عَلَيْهِ، ﴿وَالشُّمَرَاتِ﴾ أَي: الْحَبِيبِ، وَثَمَارِ النَّخِيلِ، وَالْأَشْجَارِ كُلِّهَا، وَالْخَضِرِ؛ يَبْرُدُ أَوْ يَبْرَدُ، أَوْ حَرِّقُ، أَوْ آفَةٌ سَمَاوِيَّةٌ مِنْ جَرَادٍ<sup>(١)</sup> وَنَحْوِهِ .

فهذه الأمور لا بد أن تقع، لأن العليم الخبير أخبر بها، فوقعت كما أخبر، فإذا وقعت انقسم الناس قسمين: جازعين وصابرين، فالجازع حصلت له المصائب، فوات المحبوب وهو وجود هذه المصيبة، وفوات ما هو أعظم منها، وهو الأجر بامثال أمر الله بالصبر، ففاز بالخسارة والحرامان، ونقص ما معه من الإيمان، وفاته الصبر والرضا والشكران، وحصل له [السخط الدال على شدة نقصان .

وأما من وفقه الله للصبر عند وجود هذه المصائب، فحبس نفسه عن

(١) كذا في ب، معدلة في الهامش وفي

مشاقق الله، يبين الله الآيات للناس ويوضحها وهذا يطمسها ويعميها<sup>(١)</sup>، فهذا عليه هذا الوعيد الشديد.

﴿إلا الذين تابوا﴾ أي: رجعوا عما هم عليه من الذنوب ندماً واقتلاعاً، وعزموا على عدم المعاودة، ﴿وأصلحوا﴾ ما فسد من أعمالهم، فلا يكفي ترك القبيح حتى يحصل فعل الحسن.

ولا يكفي ذلك في الكاتم أيضاً، حتى يبين ما كتمه، ويبيد ضد ما أخفى، فهذا يتوب الله عليه، لأن توبة الله غير محبوب عنها، فمن أتى بسبب التوبة تاب الله عليه، لأنه ﴿التواب﴾ أي: الرجوع على عباده بالعفو والصفح بعد الذنب إذا تابوا، وبالإحسان والتعظيم بعد المنع إذا رجعوا، ﴿الرحيم﴾ الذي اتصف بالرحمة العظيمة التي وسعت كل شيء، ومن رحمته أن وفقهم للتوبة والإنابة فتابوا وأتابوا، ثم رحيم بأن قبل ذلك منهم لطفاً وكرماً، هذا حكم الثابت من الذنب.

وأما من كفر واستمر على كفره حتى مات ولم يرجع إلى ربه، ولم ينب إليه ولم ينب عن قريب، فأولئك ﴿عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ لأنه لما صار كفرهم وصفاً ثابتاً، صارت اللعنة عليهم وصفاً ثابتاً لا تزول، لأن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدمًا، ﴿خالدين فيها﴾ أي: في اللعنة أو في العذاب والمعناني<sup>(٢)</sup> متلازمان.

﴿لا يخفف عنهم العذاب﴾ بل عذابهم دائم شديد مستمر، ﴿ولا هم ينظرون﴾ أي: يمهلون، لأن وقت الإمهال هو الدنيا قد مضى، ولم يبق لهم غير فيحتدرون.

﴿١٦٣﴾ ﴿واللهم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾ يخبر تعالى - وهو أصدق القائلين - أنه ﴿إله واحد﴾ أي: متوحد منفرد في ذاته، وأسمائه وصفاته وأفعاله، فليس له

ومع أنه شاكر فهو عليم بمن يستحق الثواب الكامل، بحسب نيته وإيمانه وتقواه، من ليس كذلك، عليم بأعمال العباد فلا يضيعها، بل يجودها أوفر ما كانت، على حسب نياتهم التي اطلع عليها العليم الحكيم.

﴿١٦٢ - ١٥٩﴾ ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ \* إلا الذين تابوا وأصلحوا ويتوبوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم \* إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين \* خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾ هذه الآية وإن كانت نازلة في أهل الكتاب، وما كتموا من شأن الرسول ﷺ وصفاته، فإن حكمها عام لكل من اتصف بكتمان ما أنزل الله ﴿من البينات﴾ الدالات على الحق الظهيرات له، ﴿والهدى﴾ وهو العلم الذي تحصل به الهداية إلى الصراط المستقيم، ويتبين به طريق أهل النعيم من طريق أهل الجحيم، فإن الله أخذ الميثاق على أهل العلم بأن يبينوا للناس ما من الله به عليهم من علم الكتاب ولا يكتمونه، فمن نبذ ذلك وجمع بين المفسدين: كتم ما أنزل الله، والغش لعباد الله، فأولئك ﴿يلعنهم الله﴾ أي: يلعنهم ويطردهم عن قربه ورحمته.

﴿ويلعنهم اللاعنون﴾ وهم جميع الخليقة، فتقع عليهم اللعنة من جميع الخليقة، لسعيهم في غش الخلق وفساد أديانهم، وإبعادهم من رحمة الله، فنجسوا من جنس عملهم، كما أن معلم الناس الخير يصلي الله عليه وملائكته، حتى الحوت في جوف الماء، لسعيه في مصلحة الخلق وإصلاح أديانهم، وقربهم من رحمة الله، فنجسوا من جنس عمله، فالكاتم لما أنزله الله، مضاد لأمر الله

عمره، بخلاف الطواف بالبيت فإنه يشرع مع العمرة والحج، وهو عبادة مفردة.

فأما السعي والوقوف بعرفة ومزدلفة ورمي الجمار، فإنها تتبع النسك، فلو فعلت غير تابعة للنسك كانت بدعة، لأن البدعة نوعان: نوع يتعبد لله بعبادة لم يشرعها أصلاً، ونوع يتعبد له بعبادة قد شرعها على صفة مخصوصة، فتفعل على غير تلك الصفة وهذا منه.

وقوله: ﴿ومن تطوع﴾ أي: فعل طاعة مخلصاً بها لله تعالى ﴿خيراً﴾ من حج، وعمرة، وطواف، وصلاة، وصوم وغير ذلك ﴿فهو خير له﴾ فدل هذا على أنه كلما ازداد العبد من طاعة الله، ازداد خيره وكماله ودرجته عند الله، لزيادة إيمانه.

ودل تقييد التطوع بالخير، أن من تطوع بالبدع التي لم يشرعها الله ولا رسوله، أنه لا يحصل له إلا العناء، وليس بخير له، بل قد يكون شراً له إن كان متعمداً عالماً بعدم مشروعية العمل.

﴿فإن الله شاكر عليم﴾ الشاكر والشكور من أسماء الله تعالى، الذي يقبل من عباده اليسير من العمل، ويمجزيهم عليه العظيم من الأجر، الذي إذا قام عبده بأوامره وامتنل طاعته، أعانه على ذلك، وأثنى عليه ومدحه، وجازاه في قلبه نوراً وإيماناً وسعة، وفي بدنه قوةً ونشاطاً، وفي جميع أحواله زيادة بركة ونماء، وفي أعماله زيادة توفيق.

ثم بعد ذلك يقدم على الثواب الأجل عند ربه كاملاً موفراً، لم تنقصه هذه الأمور.

ومن شكره لعبده، أن من ترك شيئاً لله أعاضه خيراً منه، ومن تقرب منه شيئاً تقرب منه ذراعاً، ومن تقرب منه ذراعاً تقرب منه باعاً، ومن أتاه يمشي أتاه هرولة، ومن عامله ربح عليه أضعافاً مضاعفة.

(٢) في ب: وهما متلازمان.

(١) في ب: وهذا يسمى في طمسها





يتمنونها، حقاً وغيظاً على المتبوعين لما تروؤا منهم والذنب ذنبهم، فرأس المتبوعين على الشر إيليس، ومع هذا يقول لأتباعه لما قضى الأمر: ﴿إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾.

﴿١٦٨ - ١٧٠﴾ ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون \* وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما أفئنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يتدون﴾ هذا خطاب للناس كلهم، مؤمنهم وكافرهم، فامتس عليهم بأن أمرهم أن يأكلوا من جميع ما في الأرض، من حبوب وثمار وفواكه وحيوانات، حالة كونها ﴿حلالاً﴾ أي: محلاً لكم تناوله، ليس بغصب ولا سرقة، ولا محصلاً بمعاملة محرمة أو على وجه محرم، أو معيناً على محرم.

﴿طيباً﴾ أي: ليس بخبيث كاللينة والدم ولحم الخنزير، والخبائث كلها، ففي هذه الآية دليل على أن الأصل في الأعيان الإباحة، أكلاً وانتفاعاً، وأن المحرم نوعان: إما محرم لذاته، وهو الخبيث الذي هو ضد الطيب، وإما محرم لما عرض له، وهو المحرم لتعلق حق الله، أو حق عباده به، وهو ضد الحلال.

وفيه دليل على أن الأكل بقدر ما يقيم البنية واجب، يأثم تاركه لظاهر الأمر، ولما أمرهم باتباع ما أمرهم به - إذ هو عين صلاحهم - نهاهم عن اتباع ﴿خطوات الشيطان﴾ أي: طرقه التي يأمر بها، وهي جميع المعاصي من كفر ونسوق وظلم، ويدخل في ذلك تحريم السوائب والحام، ونحو ذلك، ويدخل فيه أيضاً تناول المأكولات المحرمة، ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ أي: ظاهر العداوة، فلا يريد بأمركم إلا غشكم،

ضعفها وعجزها، لا كما اشتبه عليهم في الدنيا وظنوا أن لها من الأمر شيئاً، وأنها تقرهم إليه وتوصلهم إليه، فخاب ظنهم وبطل سعيهم، وحق عليهم شدة العذاب، ولم تدفع عنهم أندادهم شيئاً، ولم تغن عنهم مثقال ذرة من النفع، بل يحصل لهم الضرر منها من حيث ظنوا نفعها.

وتبرأ المتبوعون من التابعين، وتقطعت بينهم الوصل التي كانت في الدنيا، لأنها كانت لغير الله، وعلى غير أمر الله، ومتعلقة بالباطل الذي لا حقيقة له، فاضمحل أعمالهم وتلاشت أحوالهم، وتبين لهم أنهم كانوا كاذبين، وأن أعمالهم التي يؤملون نفعها وحصول نتيجتها انقلبت عليهم حسرة وتندامة، وأنهم خالدون في النار لا يخرجون منها أبداً، فهل بعد هذا الخسران خسران؟ ذلك بأنهم اتبعوا الباطل، فعملوا العمل الباطل ورجوا غير مرجو، وتعلقوا بغير متعلق، فبطلت الأعمال ببطلان متعلقها، ولما بطلت وقعت الحسرة بما فاتهم من الأمل فيها، فضررتهم غاية الضرر، وهذا بخلاف من تعلق بالله الملك الحق البين، وأخلص العمل لوجهه ورجا نفعه، فهذا قد وضع الحق في موضعه، فكانت أعماله حقاً لتعلقها بالحق، فجاز بنتيجة عمله، ووجد جزاءه عند ربّه غير منقطع، كما قال تعالى: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم﴾ \* والذين آمنوا وعملوا الصالحات وأمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم \* ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾.

وحيث يتمنى التابعون أن يردوا إلى الدنيا فينتبرؤوا من متبوعيههم، بأن يتركوا الشرك بالله ويقبلوا على إخلاص العمل لله، وهيئات، فات الأمر، وليس الوقت وقت إسهال وإنظار، ومع هذا فهم كذبة، فلو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وإنما هو قول يقولونه وأما

مع الله، لا يسوونهم بالله في الخلق والرزق والتدبير، وإنما يسوونهم به في العبادة، فيعبدهم ليقربوهم إليه، وفي قوله: ﴿اتخذوا﴾ دليل على أنه ليس لله ند وإنما المشركون جعلوا بعض المخلوقات أنداداً له، تسمية مجردة، ولفظاً فارغاً من المعنى، كما قال تعالى: ﴿وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض أم بظاهر من القول﴾.

﴿إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن﴾ فالخلق ليس ندأ لله لأن الله هو الخالق وغيره مخلوق، والرّب الرزاق ومن عداه مرزوق، والله هو الغني وأنتم الفقراء، وهو الكامل من كل الوجه، والعبيد ناقصون من جميع الوجوه، والله هو النافع الضار، والمخلوق ليس له من النفع والضرر والأمر شيء، فعلم علماً يقيناً بطلان قول من اتخذ من دون الله آلهة وأنداداً، سواء كان ملكاً أو نبياً أو صالحاً أو صتماً أو غير ذلك، وأن الله هو المستحق للمحبة الكاملة والذل التام، فهذا مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿والذين آمنوا أشد حياءً لله﴾ أي: من أهل الأنداد لأندادهم، لأنهم أخلصوا محبتهم له، وهؤلاء أشركوا بها، ولأنهم أحبوا من يستحق المحبة على الحقيقة، الذي محبته هي عين صلاح العبد وسعادته وفوزه، والمشركون أحبوا من لا يستحق من الحب شيئاً، ومحبته عين شقاء العبد وفساده، وتشتت أمره.

فلهذا توعدهم الله بقوله: ﴿ولو يرى الذين ظلموا﴾ باتخاذ الأنداد والالتقياد لغير رب العباد وظلموا الخلق بصددهم عن سبيل الله، وسمعيهم فيما يضرهم.

﴿إذ يبرون العذاب﴾ أي: يوم القيامة عياناً بأبصارهم، ﴿أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب﴾ أي: تعلموا علماً جازماً أن القوة والقدرة لله كلها، وأن أندادهم ليس فيها من القوة شيء، فيتبين لهم في ذلك اليوم



وأن تكونوا من أصحاب السعير، فلم يكتف ربنا بنهينا عن اتباع خطواته، حتى أخبرنا - وهو أصدق القائلين - بعداوته الداعية للحذر منه، ثم لم يكتف بذلك، حتى أخبرنا بتفصيل ما يأمر به، وأنه أقيح الأشياء وأعظمها مفسدة، فقال: ﴿إنما يأمركم بالسوء﴾ أي: الشر الذي يسوء صاحبه، فيدخل في ذلك جميع المعاصي، فيكون قوله: ﴿والفحشاء﴾ من باب عطف الخاص على العام، لأن الفحشاء من المعاصي، ما تناهى قبحه، كالزنا وشرب الخمر، والقتل، والقذف، واليخبل، ونحو ذلك مما يستفحشه من له عقل، ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ فيدخل في ذلك القول على الله بلا علم، في شرعه وقدره، فمن وصف الله بغير ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، أو نفى عنه ما أثبتته لنفسه، أو أثبت له ما نفاه عن نفسه، فقد قال على الله بلا علم، ومن زعم أن الله نداء، وأوثاناً تقرب من عبدها من الله، فقد قال على الله بلا علم، ومن قال: إن الله أحل كذا أو حرم كذا، أو أمر بكذا، أو نهى عن كذا، بغير بصيرة، فقد قال على الله بلا علم، ومن قال: إن الله خلق هذا النصف من المخلوقات للعلنة الفلانية بلا برهان له بذلك، فقد قال على الله بلا علم، ومن أعظم القول على الله بلا علم، أن يتأول المتأول كلامه أو كلام رسوله على معانٍ اصطلاح عليها طائفة من طوائف الضلال، ثم يقول: إن الله أرادها، فالقول على الله بلا علم من أكبر المحرمات وأشمسها وأكبر طرق الشيطان التي يدعو إليها، فهذه طرق الشيطان التي يدعو إليها هو وجنوده، ويبدلون مكرهم وخذاعهم على إغواء الخلق بما يقدرون عليه.

وأما الله تعالى فإنه يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، فيلنظر العبد نفسه مع أي: الداعيين هو، ومن أي: الحزبين؟ أتتبع داعي الله الذي يريد لك الخير والسعادة الدنيوية

والسبب الموجب لذلك كله أنه ليس لهم عقل صحيح، بل هم أسفه السفهاء، وأجهل الجهلاء.

فهل يستريب العاقل أن من دعي إلى الرشاد، وذيد عن الفساد، ونهى عن اقتحام العذاب، وأمر بما فيه صلاحه وفلاحه وفوزه ونعيمه، فعصى الناصح وتولى عن أمر ربه، واقتحم النار على بصيرة، واتبع الباطل ونبذ الحق. أن هذا ليس له مسكة من عقل، وأنه لو انصف بالمر والخذعة والدهاء أنه من أسفه السفهاء.

﴿١٧٢ - ١٧٣﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم﴾ هذا أمر للمؤمنين خاصة بعد الأمر العام، وذلك أنهم هم المتفعون على الحقيقة بالأوامر والنواهي بسبب إيمانهم، فأمرهم بأكل الطيبات من الرزق، والشكر لله على إنعامه باستعمالها بطاعته، والتقوي بها على ما يوصل إليه، فأمرهم بما أمر به المرسلين في قوله: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾ فالشكر في هذه الآية هو العمل الصالح، وهنا لم يقل «حلالاً» لأن المؤمن أباح الله له الطيبات من الرزق خالصة من التبعة، ولأن إيمانه يحجزه عن تناول ما ليس له.

وقوله: ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ أي: فاشكروه، فدل على أن من لم يشكر الله فلم يعبده وحده، كما أن من شكره فقد عبده وأتى بما أمر به، ويدل أيضاً على أن أكل الطيب سبب للعمل الصالح وقبوله، والأمر بالشكر عقيب النعم؛ لأن الشكر يحفظ النعم الموجودة، ويحلب النعم المفقودة، كما أن الكفر ينفر النعم المفقودة ويزيل النعم الموجودة.

ولما ذكر تعالى إباحة الطيبات ذكر تحريم الخبائث، فقال: ﴿إنما حرم

والأخرية، الذي كل الفلاح بطاعته، وكل الفوز في خدمته، وجميع الأرباح في معاملته المنعم بالتنعم الظاهرة والباطنة، الذي لا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر، أم تتبج داعي الشيطان الذي هو عدو الإنسان، الذي يريد لك الشر، ويسعى بجهدته على إهلاكك في الدنيا والآخرة؟ الذي كل الشر في طاعته، وكل الخسران في ولايته، الذي لا يأمر إلا بشر، ولا ينهى إلا عن خير. ثم أخبر تعالى عن حال المشركين؛ إذا أمروا باتباع ما أنزل الله على رسوله - مما تقدم وصفه - رغبوا عن ذلك، وقالوا: ﴿بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾ فافتخروا بتقليد الآباء، وزهدوا في الإيمان بالأنبياء، ومع هذا قباؤهم أجهل الناس وأشدهم ضلالاً، وهذه شبيهة لرد الحق واهية، فهذا دليل على إعراضهم عن الحق ورغبتهم عنه، وعدم إنصافهم، فلو هدوا لرشدهم وحسن قصدهم، لكان الحق هو القصد، ومن جعل الحق قصده، ووازن بينه وبين غيره، تبين له الحق قطعاً، واتبعه إن كان منصفاً.

ثم قال [تعالى]: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً، صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾.

لما تبين تعالى عدم انقيادهم لما جاء به الرسل، وردهم لذلك بالتقليد، علم من ذلك أنهم غير قابلين للحق ولا مستجيبين له، بل كان معلوماً لكل أحد أنهم لن يزولوا عن عنادهم، أخير تعالى أن مثلهم عند دعاء الداعي لهم إلى الإيمان كمثل البهائم التي ينعق لها راعيها، وليس لها علم بما يقول داعيها ومناديها، فهم يسمعون مجرد الصوت الذي تقوم به عليهم الحجج، ولكنهم لا يفقهونه فقهاً يتفهمهم، فلماذا كانوا صمًا لا يسمعون الحق سماع فهم وقبول، عمياً لا ينظرون نظر اعتبار، بكما فلا ينظفون بما فيه خير لهم.

والعذاب على المغفرة، فهؤلاء لا يصلح لهم إلا النار، فكيف يصبرون عليها، وأنتى لهم الجلد عليها؟! **﴿ذلك﴾** المذكور، وهو مجازاته بالعدل ومنعه أسباب الهداية، عن أبائها واختار سواها.

**﴿بأن الله نزل الكتاب بالحق﴾** ومن الحق مجازة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

وأيضاً ففي قوله: **﴿نزل الكتاب بالحق﴾** ما يدل على أن الله أنزله لهداية خلقه، وتبيين الحق من الباطل، والهدى من الضلال، فمن صرفه عن مقصوده فهو حقيق بأن يجازى بأعظم العقوبة.

**﴿وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد﴾** أي: وإن الذين اختلفوا في الكتاب، فأمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، أو الذين حرفوه وصرفوه على أهوائهم ومراداتهم **﴿لفي شقاق﴾** أي: محادة، **﴿بعيد﴾** عن الحق لأنهم قد خالفوا الكتاب الذي جاء بالحق الموجب للاتفاق وعدم التناقض، فمرح أمرهم، وكثر شقاقهم، وترتب على ذلك افتراقهم، بخلاف أهل الكتاب الذين آمنوا به وحكموه في كل شيء، فإنهم اتفقوا وارتفقوا بالمحبة والاجتماع عليه.

وقد تضمنت هذه الآيات الوعيد للكافرين لما أنزل الله، المؤثرين عليه عرض الدنيا بالعذاب والسخط، وأن الله لا يطهرهم بالتوفيق ولا بالمغفرة، وذكر السبب في ذلك بإيثارهم الضلالة على الهدى، فترتب على ذلك اختيار العذاب على المغفرة. ثم توجع لهم بشدة صبرهم على النار، لعملهم بالأسباب التي يعلمون أنها موصلة لها، وأن الكتاب مشتمل على الحق الموجب للاتفاق عليه وعدم الافتراق، وأن كل من خالفه فهو في غاية البعد عن الحق، والمنزاعة

ربما لا يستقصي تمام الاستقصاء في تحقيقها. أخبر تعالى أنه غفور، فيغفر له ما أخطأ فيه في هذه الحال، خصوصاً وقد غلبته الضرورة، وأذهبت حواسه المشقة.

وفي هذه الآية دليل على القاعدة المشهورة: **«الضرورات تبيح المحظورات»**، فكل محظور اضطر له الإنسان، فقد أباحه له الملك الرحمن **﴿فله الحمد والشكر أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً﴾**.

**﴿١٧٤ - ١٧٦﴾** **﴿إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترتون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾** أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار \* ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد **﴿هذا وعيد شديد لمن كتم ما أنزل الله على رسله، من العلم الذي أخذ الله الميثاق على أهله، أن يبينوه للناس ولا يكتُموه، فمن تعرض عنه بالخطام الدنيوي ونبذ أمر الله، فأولئك﴾** **﴿ما يأكلون في بطونهم إلا النار﴾** لأن هذا الثمن الذي اكتسبوه، إنما حصل لهم بأببح المكاسب وأعظم المحرمات، فكان جزاؤهم من جنس عملهم، **﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة﴾** بل قد سخط عليهم وأعرض عنهم، فهذا أعظم عليهم من عذاب النار، **﴿ولا يزكيهم﴾** أي: لا يطهرهم من الأخلاق الرذيلة، وليس لهم أعمال تصلح للمدح والرضا الجزاء عليها، وإنما لم يزكهم لأنهم فعلوا أسباب عدم التزكية التي أعظم أسبابها العمل بكتاب الله، والاهتداء به، والدعوة إليه، فهؤلاء نبذوا كتاب الله وأعرضوا عنه، واختاروا الضلالة على الهدى،

عليكم الميتة **﴿وهي ما مات بغير تذكية شرعية، لأن الميتة خبيثة مضرّة لرداءتها في نفسها، ولأن الأغلب أن تكون عن مرض، فيكون زيادة ضرر﴾**، واستثنى الشارع من هذا العموم ميتة الجراد وسمك البحر، فإنه حلال طيب.

**﴿والدم﴾** أي: المسفوح كما قيد في الآية الأخرى.

**﴿وما أهل به لغير الله﴾** أي: ذبح لغير الله، كالذي يذبح للأصنام والأوثان من الأحجار، والقبور ونحوها، وهذا المذكور غير حاصر للمحرمات، جيء به لبيان أجناس الحباث المدلول عليها بمفهوم قوله: **﴿طيبات﴾** فعموم المحرمات تستفاد من الآية السابقة، من قوله: **﴿حلالاً طيباً﴾** كما تقدم.

وإنما حرّم علينا هذه الحباث ونحوها، لطفاً بنا وتنزيهاً عن المضر، ومع هذا **﴿فمن اضطر﴾** أي: ألجئ إلى المحرّم بسجوع وعدم، أو إكراه، **﴿غير باع﴾** أي: غير طالب للمحرم مع قدرته على الحلال، أو مع عدم جوعه، **﴿ولا عاد﴾** أي: متجاوز الحد في تناول ما أبيح له اضطراراً، فمن اضطر وهو غير قادر على الحلال، وأكل بقدر الضرورة فلا يزيد عليها، فلا إثم **﴿أي: جناح﴾** عليه، وإذا ارتفع الجناح **﴿١﴾** رجع الأمر إلى ما كان عليه، والإنسان بهذه الحالة مأمور بالأكل، بل منهي أن يلقي بيده إلى التهلكة، وأن يقتل نفسه.

فيجب إذاً عليه الأكل، ويأثم إن ترك الأكل حتى مات، فيكون قاتلاً لنفسه، وهذه الإباحة والتوسعة من رحمته تعالى بعباده، فلهاذا ختمها بهذين الاسمين الكريمين المناسبين غاية المناسبة، فقال: **﴿إن الله غفور رحيم﴾**.

ولما كان الحبل مشروطاً بهذين الشرطين، وكان الإنسان في هذه الحالة

(١) في ب: مرض.

(٢) في أ: (وإذا ارتفع الجناح) وفوق كلمة الجناح كلمة (الإثم) وفي ب، وردت الجملة هكذا (وإذا ارتفع الإثم).

والمخاصمة، والله أعلم.

﴿١٧٧﴾ ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والوفون بمعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾ يقول تعالى: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾ أي: ليس هذا هو البر المقصود من العباد، فيكون كثرة البحث فيه والجدال من العناء الذي ليس تحته إلا الشقاق والخلاف، وهذا نظير قوله ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» ونحو ذلك.

﴿ولكن البر من آمن بالله﴾ أي: بأنه إله واحد، موصوف بكل صفة كمال، متره عن كل نقص.

﴿واليوم الآخر﴾ وهو كل ما أخبر الله به في كتابه أو أخبر به الرسول مما يكون بعد الموت.

﴿والملائكة﴾ الذين وصفهم الله لنا في كتابه، ووصفهم رسوله ﷺ، ﴿والكتاب﴾ أي: جنس الكتب التي أنزلها الله على رسله، وأعظمها القرآن، فيؤمن بما تضمنه من الأخبار والأحكام، ﴿والنبيين﴾ عموماً، خصوصاً خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ.

﴿وآتى المال﴾ وهو كل ما يتموله الإنسان من مال، قليلاً كان أو كثيراً، أي: أعطى المال ﴿على حبه﴾ أي: حب المال، بين به أن المال محبوب للنفوس، فلا يكاد يخرجه العبد.

فمن أخرجه مع حبه له تقريباً إلى الله تعالى، كان هذا برهاناً لإيمانه، ومن إيتاء المال على حبه أن يتصدق وهو صحيح شحيح، يأمل الغنى، ويحشى الفقر، وكذلك إذا كانت الصدقة عن قلة كانت أفضل، لأنه في هذه الحال

يجب إمساكه، لما ينوهم من العدم والفقر.

وكذلك إخراج النفيس من المال، وما يجبه من ماله كما قال تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ فكل هؤلاء ممن آتى المال على حبه.

ثم ذكر المتفق عليهم، وهم أولى الناس ببيزك وإحسانك. من الأقارب الذين تتوجع لمصائبهم، وتفرح بسرورهم، الذين يتناصرون ويتعاطلون، فمن أحسن البر وأوفقه تعاهد الأقارب بالإحسان المثلّي والقوي، على حسب قربهم وحاجتهم.

ومن يتامى الذين لا كاسب لهم، وليس لهم قوة يستغنون بها، وهذا من رحمته [تعالى] بالعباد، الدالة على أنه تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده، فالله قد أوصى العباد، وفرض عليهم في أموالهم الإحسان إلى من فُقد آباؤهم ليصيروا كمن لم يفقد والديه، ولأن الحزاء من جنس العمل، فمن رحم يتيم غيره رُحِمَ يتيمه.

﴿والمساكين﴾ وهم الذين أسكنتهم الحاجة وأذلهم الفقر، فلم يحق على الأغنياء بما يدفع مسكنتهم أو يخففها، بما يقدرون عليه وبما يتيسر، ﴿وابن السبيل﴾: وهو الغريب المقطع به في غير بلده، فحث الله عباده على إعطائه من المال ما يعينه على سفره، لكونه مظنة الحاجة، وكثرة المصارف، فعلى من أنعم الله عليه بوطنه وراحته وخوله من نعمته، أن يرحم أخاه الغريب الذي بهذه الصفة على حسب استطاعته، ولو بتزويده أو إعطائه آلة لسفره، أو دفع ما ينوبه من المظالم وغيرها.

﴿والمسائلين﴾ أي: الذين تعرض لهم حاجة من الحوائج توجب السؤال، كمن ابتلي بأرض جنانية، أو ضريبة عليه من ولاة الأمور، أو يسأل الناس لتعمير المصالح العامة، كالمساجد والمدارس والقناطر، ونحو ذلك، فهذا له حق وإن كان غنياً ﴿وفي الرقاب﴾ فيدخل فيه العتق والإعانة

عليه، وبذل مال للمساكين ليوفي سيده، وفداء الأسرى عند الكفار أو عند الظلمة.

﴿وأقام الصلاة وآتى الزكاة﴾ قد تقدم مراراً أن الله تعالى يقرب بين الصلاة والزكاة، لكونهما أفضل العبادات وأكمل القربات، عبادات قلبية وبدنية ومالية، وبهما يوزن الإيمان، ويعرف ما مع صاحبه من الإيقان.

﴿والموفون بمعهدهم إذا عاهدوا﴾ والعهد: هو الالتزام بالزام الله أو لزام العبد لنفسه. فدخل في ذلك حقوق الله كلها، لكون الله ألزم بها عباده والتزموها، ودخلوا تحت عهدها، ووجب عليهم أداؤها، وحقوق العباد التي أوجها الله عليهم، والحقوق التي التزمها العبد كالأيمان والتدور، ونحو ذلك.

﴿والصابرين في البأساء﴾ أي: الفقر؛ لأن الفقير يحتاج إلى الصبر من وجوه كثيرة، لكونه يحصل له من الآلام القلبية والبدنية المستمرة ما لا يحصل لغيره.

فإن تنعم الأغنياء بما لا يقدر عليه تألم، وإن جاع أو جاعت عياله تألم، وإن أكل طعاماً غير موافق لهواه تألم، وإن عري أو كاد تألم، وإن نظر إلى ما بين يديه وما يتوهمه من المستقبل الذي يستعد له تألم، وإن أصابه البرد الذي لا يقدر على دفعه تألم.

فكل هذه ونحوها مصائب يؤمر بالصبر عليها والاحتساب، ورجاء الثواب من الله عليها.

﴿والضراء﴾ أي: المرض على اختلاف أنواعه، من حمى وقروح ورياح ووجع عضو، حتى الضرس والإصبع ونحو ذلك، فإنه يحتاج إلى الصبر على ذلك؛ لأن النفس تضعف والبدن يألم، وذلك في غاية المشقة على النفوس، خصوصاً مع تطاول ذلك، فإنه يؤمر بالصبر احتساباً لثواب الله [تعالى].





بعد العفو ﴿فله عذاب أليم﴾. أي: في الآخرة، وأما قتله وعدمه فيؤخذ مما تقدم، لأنه قتل مكافأ له، فيجب قتله بذلك.

وأما من فسر العذاب الأليم بالقتل، فإن الآية تدل على أنه يتعين قتله، ولا يجوز العفو عنه، وبذلك قال بعض العلماء والصحيح الأول، لأن جنائه لا تزيد على جنابة غيره.

ثم بين تعالى حكمته العظيمة في مشروعية القصاص، فقال: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ أي: نتحقق بذلك الدماء، وتنقمع به الأشقياء، لأن من عرف أنه مقتول إذا قتل، لا يكاد يصدر منه القتل، وإذا روي القاتل مقتولاً اندعر بذلك غيره، وانزجر، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل، لم يحصل اتكفاف الشر الذي يحصل بالقتل، وهكذا سائر الحدود الشرعية، فيها من النكابة والانتزاع ما يدل على حكمة الحكيم الغفار، ونكر الحياة لإفادة التعظيم والتكثير.

ولما كان هذا الحكم لا يعرف حقيقته إلا أهل العقول الكاملة، والألباب الثقيلة، خصهم بالخطاب دون غيرهم، وهذا يدل على أن الله تعالى يجب من عباده أن يعملوا أفكارهم

وعقولهم، في تدبر ما في أحكامه من الحكم، والمصالح الدالة على كماله، وكمال حكمته وحده، وعدله ورحمته الواسعة، وأن من كان بهذه المثابة فقد استحق المدح بأنه من ذوي الألباب الذين وجه إليهم الخطاب، وناداهم رب الأرباب، وكفى بذلك فضلاً وشرفاً لقوم يقولون.

وقوله: ﴿لعلكم تتقون﴾ وذلك أن من عرف ربه وعرف ما في دينه وشرعه من الأسرار العظيمة والحكم البديعة والآيات الرفيعة، أوجب له ذلك أن يتفاد لأمر الله، ويعظم معاصيه فيتركها، فيستحق بذلك أن يكون من المتقين.

﴿١٨٠ - ١٨٢﴾ ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم \* فمن خاف من موص جناً أو إثمياً فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم \* أي: فرض الله عليكم يا معشر المؤمنين ﴿إذا حضر أحدكم الموت﴾ أي: أسبابه، كالمرض المشرف على الهلاك، وحضور أسباب المهالك، وكان قد ﴿ترك خيراً﴾ [أي: مالاً] وهو المال الكثير عرفاً، فعليه أن يوصي لوالديه وأقرب الناس إليه بالمعروف، على قدر حاله من غير سرف ولا اقتصار على الأبعد دون الأقرب، بل يرتبهم على القرب والحاجة، ولهذا أتى فيه بأفعل التفضيل.

وقوله: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ دل على وجوب ذلك، لأن الحق هو الثابت، وقد جعله الله من موجبات التقوى.

واعلم أن جمهور المفسرين يرون أن هذه الآية منسوخة بأية الموارث وبعضهم يرى أنها في الوالدين والأقربين غير الوارثين، مع أنه لم يدل على التخصيص بذلك دليل، والأحسن

في هذا أن يقال: إن هذه الوصية للوالدين والأقربين مجملة، ردها الله تعالى إلى العرف الجاري.

ثم إن الله تعالى قدر للوالدين الوارثين وغيرهما من الأقارب الوارثين هذا المعروف في آيات الموارث بعد أن كان مجملاً، وبقي الحكم فيمن لم يرثوا من الوالدين المشنوعين من الإرث وغيرهما ممن حجب بشخص أو وصف، فإن الإنسان مأمور بالوصية لهؤلاء، وهم أحق الناس بیره، وهذا القول تتفق عليه الأمة، ويحصل به الجمع بين القولين المتقدمين، لأن كلاً من القائلين بهما كل منهم لحظ ملحظاً، واختلف المورد.

فهذا الجمع يحصل الاتفاق والجمع بين الآيات، لأنه <sup>(١)</sup> مهما أمكن الجمع كان أحسن من ادعاء النسخ، الذي لم يدل عليه دليل صحيح.

ولما كان الموصي قد يستنع من الوصية، لما يتوهمه أن من بعده قد يدل ما وصى به، قال تعالى: ﴿فمن بدله﴾ أي: الإيضاء للمذكورين أو غيرهم ﴿بعدما سمعه﴾ [أي: بعدما عقله، وعرف طرقة وتنفيذه، فإنما إثمه على الذين يبدلونه] وإلا فالموصي وقع أجره على الله، وإنما الإثم على المبدل المتغير.

﴿إن الله سميع﴾ يسمع سائر الأصوات، ومنه سماعه لقالة الموصي ووصيته، فينبغي له أن يراقب من يسمعه ويسره، وأن لا يجوز في وصيته، ﴿عليم﴾ ينه، وعليم يعمل الموصى إليه، فإذا اجتهد الموصي وعلم الله من نيته ذلك، أثنابه ولو أخطأ، وفيه التحذير للموصى إليه من التبديل، فإن الله عليم به، مطلع على ما فعله، فليحذر من الله، هذا حكم الوصية العادلة، وأما الوصية التي فيها حيف وجنح وإثم، فينبغي لمن حضر الموصي وقت الوصية بها، أن ينصحه بما هو الأحسن والأعدل، وأن ينهه

عن الجور والجنف، وهو الميل بها عن خطاً، من غير تعمد، والإثم: وهو التعمد لذلك.

فإن لم يفعل ذلك، فينبغي له أن يصلح بين الموصى إليهم، ويتوصل إلى العدل بينهم على وجه التراضي والمصالحة، ووعظهم بتبrette ذمة ميتهم، فهذا قد فعل معروفًا عظيمًا، وليس عليه إثم، كما على مبدل الوصية الجائزة، ولهذا قال: ﴿إن الله غفور﴾ أي: يغفر جميع الزلات، ويصفح عن التبعات لمن تاب إليه، ومنه مغفرته لمن غص من نفسه وترك بعض حقه لأخيه، لأن من سامح ساعه الله، غفور لميتهم الجائر في وصيته إذا احتسوا بمساعه بعضهم بعضاً لأجل براءة ذمته، رحيم بعباده، حيث شرع لهم كل أمر به يتراحمون ويتعاطفون، فدللت هذه الآيات على الحث على الوصية، وعلى بيان من هي له، وعلى وعيد المبدل للوصية العادلة، والترغيب في الإصلاح في الوصية الجائزة.

﴿١٨٣ - ١٨٥﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ \* أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون \* شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على هداكم ولعلكم تشكرون﴾ \* يجبر تعال بما من به على عباده، بأنه فرض عليهم الصيام، كما فرضه على الأمم السابقة، لأنه من الشرائع والأوامر التي هي مصلحة للخلق في كل زمان.

وفيه تنشيط لهذه الأمة بأنه ينبغي

لكم أن تنافسوا غيركم في تكميل الأعمال، والمسارة إلى صالح الخصال، وأنه ليس من الأمور الثقيلة التي اختصت بها.

ثم ذكر تعالى حكمته في مشروعية الصيام، فقال: ﴿لعلكم تتقون﴾ فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى، لأن فيه أمثال أمر الله واجتتاب نهي.

فما اشتمل عليه من التقوى: أن الصائم يترك ما حرم الله عليه من الأكل والشرب والجماع ونحوها، التي تميل إليها نفسه، متقرباً بذلك إلى الله، راجياً بتركها ثوابه، فهذا من التقوى.

ومنها: أن الصائم يدرّب نفسه على مراقبة الله تعالى، فيترك ما تهوى نفسه مع قدرته عليه، لعلمه باطلاع الله عليه، ومنها: أن الصيام يضيق عماري الشيطان، فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فالصيام يصفه نفوذه، وتقل منه المعاصي، ومنها: أن الصائم في الغالب تكثر طاعته، والطاعات من خصال التقوى، ومنها: أن الغني إذا ذاق ألم الجوع أو جب له ذلك مواساة الفقراء المعدمين، وهذا من خصال التقوى.

ولما ذكر أنه فرض عليهم الصيام، أخبر أنه أيام معدودات، أي: قليلة في غاية السهولة.

ثم سهل تسهيلاً آخر، فقال: ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾ وذلك للمشقة في الغالب، رخص الله لهما في الفطر.

ولما كان لا بد من حصول مصلحة الصيام لكل مؤمن، أمرهما أن يقضياه في أيام أخر إذا زال المرض، وانقضى السفر، وحصلت الراحة.

وفي قوله: ﴿فعدة من أيام﴾ فيه دليل على أنه يقضي عدد أيام رمضان، كاملاً كان أو ناقصاً وعلى أنه يجوز أن يقضي أياماً قصيرة باردة، عن أيام طويلة حارة كالعكس.

وقوله: ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾

أي: يطيقون الصيام فدية﴾ عن كل يوم يفطرونه ﴿طعام مسكين﴾ وهذا في ابتداء فرض الصيام، لما كانوا غير معتادين للصيام، وكان فرضه حتماً فيه مشقة عليهم، درجهم الرب الحكيم بأسهل طريق، وخير المطبق للصوم بين أن يصوم وهو أفضل أو يطعم، ولهذا قال: ﴿وأن تصوموا خير لكم﴾

ثم بعد ذلك جعل الصيام حتماً على المطيق، وغير المطيق يفطر ويقضيه في أيام أخر [وقبل]: ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾ أي: يتكلفونه، ويشق عليهم مشقة غير محتملة كالشيخ الكبير فدية عن كل يوم مسكين<sup>(١)</sup>، وهذا هو الصحيح<sup>(٢)</sup>.

﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ أي: الصوم المفروض عليكم هو شهر رمضان، الشهر العظيم الذي قد حصل لكم فيه من الله الفضل العظيم، وهو القرآن الكريم، المشتمل على الهداية لمصالحكم الدينية والدنيوية، وتبيين الحق بأوضح بيان، والفرقان بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وأهل السعادة وأهل الشقاوة.

فحقيق بشهر هذا فضله، وهذا إحسان الله عليكم فيه أن يكون موسماً للعباد مفروضاً فيه الصيام.

فلما قرره وبين فضيلته، وحكمة الله تعالى في تخصيصه، قال: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ هذا فيه تعيين الصيام على القادر الصحيح الحاضر.

ولما كان النسخ للتخيير بين الصيام والفتاء خاصة، أعاد الرخصة للمريض والمسافر، لئلا يتوهم أن الرخصة أيضاً منسوخة، [فقال]: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ أي: يريد الله تعالى أن ييسر عليكم الطرق الموصلة إلى رضوانه أعظم تيسير، ويسهلها أشد<sup>(٣)</sup> تسهيل، ولهذا كان جميع ما أمر الله به عباده في غاية

(٣) في ب: أبلغ تسهيل.

(٢) زيادة من هامش ب.

(١) ظاهراً أن المراد عن كل يوم طعام

السهولة في أصله .

وإذا حصلت بعض العوارض المرجية لثقله سهله تسهلاً آخر، إما بإسقاطه، أو تخفيفه بأنواع التخفيفات . وهذه جملة لا يمكن تفصيلها لأن تفاصيلها جميع الشرعيات، ويدخل فيها جميع الرخص والتخفيفات .

﴿والتكملتوا العدة﴾ وهذا - والله أعلم - لثلاث يتوهم متوهم أن صيام رمضان يحصل المقصود منه ببعضه، رفع هذا الرهيم بالأمر بتكميل عدته، ويشكر الله [تعالى] عند إتمامه على توفيقه وتسهيله وتبينه لعباده، وبالتكبير عند انقضائه، ويدخل في ذلك التكبير عند رؤية هلال شوال إلى فراغ خطبة العيد .

﴿١٨٦﴾ ﴿وإذا سألت عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ هذا جواب سؤال، سأل النبي ﷺ بعض أصحابه فقالوا: يا رسول الله، أقریب ربنا فتناجیه، أم بعيد فننادیه؟ فنزل: ﴿وإذا سألت عبادي عني فإني قريب﴾ لأنه تعالى الرقيب الشهيد، المطلع على السر وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فهو قريب أيضاً من داعيه بالإجابة، ولهذا قال: ﴿أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ والدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة .

والقرب نوعان: قرب بعلمه من كل خلقه، وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق .

فمن دعا ربه بقلب حاضر ودعاء مشروع، ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء، كأكل الحرام ونحوه، فإن الله قد وعده بالإجابة، وخصوصاً إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء، وهي الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية، والإيمان به الموجب للاستجابة، فلهذا قال: ﴿فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ أي: يحصل لهم الرشاد

الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة، ويزول عنهم الغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة . ولأن الإيمان بالله والاستجابة لأمره سبب لحصول العلم، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾ .

﴿١٨٧﴾ ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروههن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروههن وأنتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾ كان في أول فرض الصيام، يحرم على المسلمين في الليل بعد النوم الأكل والشرب والجماع، فحصلت المشقة لبعضهم، فخفف الله تعالى عنهم ذلك، وأباح في ليالي الصيام كلها الأكل والشرب والجماع، سواء نام أو لم ينام، لكونهم يختانون أنفسهم بترك بعض ما أمروا به .

﴿فتاب﴾ الله ﴿عليكم﴾ بأن وسع لكم أمراً كان - لولا توسعته - موجياً للإثم ﴿وعفا عنكم﴾ ما سلف من التخون .

﴿فالآن﴾ بعد هذه الرخصة والسعة من الله ﴿باشروههن﴾ وطأ وقبلة ولمساً وغير ذلك .

﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ أي: اتوا في مباشرتكم لزوجاتكم التقرب إلى الله تعالى والمقصود الأعظم من الوطء، وهو حصول الذرية واعفاف فرجه وفرج زوجته، وحصول مقاصد النكاح .

ومما كتب الله لكم ليلة القدر، الموافقة لليالي صيام رمضان، فلا يبنّي لكم أن تشتغلوا بهذه اللذة عنها

وتضيعوها، فاللذة مدركة، وليلة القدر إذا فاتت لم تدرك .

﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾ هذا غاية للأكل والشرب والجماع، وفيه أنه إذا أكل ونحوه شاكراً في طلوع الفجر فلا بأس عليه .

وفيه: دليل على استحباب السحور للأمر، وأنه يستحب تأخيره أخذاً من معنى رخصة الله وتسهيله على العباد . وفيه: أيضاً دليل على أنه يجوز أن يدركه الفجر وهو جنب من الجماع قبل أن يغتسل، ويصح صيامه، لأن لازم إباحة الجماع إلى طلوع الفجر، أن يدركه الفجر وهو جنب، ولازم الحق حتى .

﴿ثم﴾ إذا طلع الفجر ﴿أثموا الصيام﴾ أي: الإسباك عن المفطرات ﴿إلى الليل﴾ وهو غروب الشمس ولما كان إباحة الوطء في ليالي الصيام ليست إباحتها<sup>(١)</sup> عامة لكل أحد، فإن المعتكف لا يحل له ذلك، استثناء بقوله: ﴿ولا تباشروههن وأنتم عاكفون في المساجد﴾ أي: وأنتم متصفون بذلك، ودلت الآية على مشروعية الاعتكاف، وهو لزوم المسجد لطاعة الله [تعالى]، وانقطاعاً إليه، وأن الاعتكاف لا يصح إلا في مسجد .

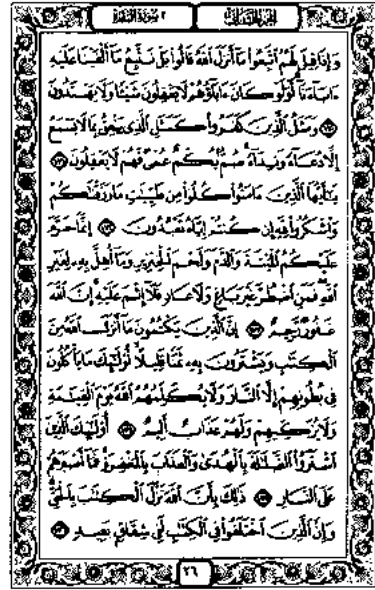
ويستفاد من تعريف المساجد، أنها المساجد المعروفة عندهم، وهي التي تقام فيها الصلوات الخمس .

وفيه أن الوطء من مفسدات الاعتكاف .

﴿تلك﴾ المذكورات - وهو تحريم الأكل والشرب والجماع ونحوه من المفطرات في الصيام، وتحريم الفطر على غير المعتذر، وتحريم الوطء على المعتكف، ونحو ذلك من المحرمات ﴿حدود الله﴾ التي حددها لعباده، ونهاهم عنها، فقال: ﴿فلا تقربوها﴾ أبلغ من قوله: ﴿فلا تفعلوها﴾ لأن القربان، يشمل النهي عن فعل المحرم بنفسه، والنهي عن وسائله الموصلة







فلا بد أن يحصل له المقصود بعون الملك المعبود .

﴿واتقوا الله﴾ هذا هو البر الذي أمر الله به، وهو لزوم تقواه على الدوام، بامتنثال أوامره واجتنب نواهيها، فإنه سبب للفلاح الذي هو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المهوب، فمن لم يتق الله تعالى لم يكن له سبيل إلى الفلاح، ومن اتقاه فاز بالفلاح والنجاح .

﴿١٩٠ - ١٩٣﴾ \* وقتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعدوا إن الله لا يحب المعتدين \* واقتلوهم حيث تقتضونهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم \* وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾

هذه الآيات، تتضمن الأمر بالقتال في سبيل الله، وهذا كان بعد الهجرة إلى المدينة، لما قورى المسلمون للقتال أمرهم الله به، بعدما كانوا مأمورين بكف أيديهم، وفي تخصيص القتال

(١) في ب: ويستدل في هذه .  
(٢) كذا في ب، وفي أ: بالشهر الحرام .

﴿في سبيل الله﴾ حث على الإخلاص، ونهي عن الاقتتال في الفتن بين المسلمين .

﴿الذين يقاتلونكم﴾ أي: الذين هم مستعدون لقتالكم، وهم الكلفون الرجال، غير الشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال .

والنهي عن الاعتداء يشمل أنواع الاعتداء كلها، من قتل من لا يقاتل من النساء والمجانين والأطفال والرهبان ونحوهم، والتمثيل بالقتل، وقتل الحيوانات، وقطع الأشجار [ونحوها] لغير مصلحة تعود للمسلمين .

ومن الاعتداء مقاتلة من تقبل منهم الجزية إذا بذلوا، فإن ذلك لا يجوز .

﴿واقتلوهم حيث تقتضونهم﴾ هذا أمر بقتالهم أينما وجدوا، في كل وقت، وفي كل زمان، قتال مدافعة، وقتال مهاجمة ثم استتى من هذا العموم قتالهم ﴿عند المسجد الحرام﴾ وأنه لا يجوز إلا أن يبدؤوا بالقتال، فإنهم يقاتلون جزاء لهم على اعتدائهم، وهذا مستمر في كل وقت، حتى ينتهوا عن كفرهم فيسلموا، فإن الله يتوب عليهم، ولو حصل منهم ما حصل من الكفر بالله والشرك في المسجد الحرام، وصد الرسول والمؤمنين عنه، وهذا من رحمته وكرمه بعباده .

ولما كان القتال عند المسجد الحرام يتوهم أنه مفسدة في هذا البلد الحرام، أخطر تعالى أن المفسدة بالفتنة عنده بالشرك والصد عن دينه، أشد من مفسدة القتل، فليس عليكم - أيها المسلمون - حرج في قتالهم . ويستدل بهذه الآية على القاعدة المشهورة، وهي: أنه يرتكب أخف المفسدين لدفع أعلاهما .

ثم ذكر تعالى المقصود من القتال في سبيله، وأنه ليس المقصود به سفك دماء الكفار وأخذ أموالهم، ولكن المقصود به أن ﴿يكون الدين لله﴾ تعالى فيظهر دين الله [تعالى]، على سائر الأديان،

ويدفع كل ما يعارضه من الشرك وغيره، وهو المراد بالفتنة، فإذا حصل هذا المقصود فلا قتل ولا قتال، ﴿فإن انتهوا﴾ عن قتالكم عند المسجد الحرام ﴿فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ أي: فليس عليهم منكم اعتداء إلا من ظلم منهم، فإنه يستحق العقاب بقدر ظلمه .

﴿١٩٤﴾ \* الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾ يقول تعالى: ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام﴾ يحتمل أن يكون المراد به ما وقع من صد المشركين للنبي ﷺ وأصحابه عام الحديبية عن الدخول لمكة، وقاضوهم على دخولها من قابل، وكان الصد والقضاء في شهر حرام، وهو ذو القعدة، فيكون هذا الصحابة بتمام نسكهم وكماله .

ويحتمل أن يكون المعنى: إنكم إن قاتلتموهم في الشهر الحرام فقد قاتلوكم فيه، وهم المعتدون، فليس عليكم في ذلك حرج وعلى هذا فيكون قوله: ﴿والحرمات قصاص﴾ من باب عطف العام على الخاص، أي: كل شيء يحترم من شهر حرام، أو بلد حرام، أو إحرام، أو ما هو أعم من ذلك، جميع ما أمر الشرع باحترامه، فمن تجرأ عليها فإنه يقتص منه، فمن قاتل في الشهر الحرام قوتل، ومن هتك البلد الحرام أخذ منه الحد ولم يكن له حرمة، ومن قتل مكافئاً له قتل به، ومن جرحه أو قطع عضواً منه اقتص منه، ومن أخذ مال غيره المحترم أخذ منه بدله، ولكن هل لصاحب الحق أن يأخذ من ماله بقدر حقه أم لا؟ خلاف بين العلماء، الراجح من ذلك أنه إن كان سبب الحق ظاهراً كالضيف إذا لم يقره غيره، والزوجة والقريب إذا امتنع من تجب عليه النفقة، [من الإنفاق عليه] فإنه يجوز أخذه من ماله .

قال:

﴿١٩٦﴾ ﴿وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفَدِّبْهُ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نَسْكَ فَإِذَا أُمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يستدل بقوله [تعالى]: ﴿وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ﴾ على أمور: أحدها: وجوب الحج والعمرة، وفرضيتهما.

الثاني: وجوب إتمامهما بأركانهما وواجباتهما التي قد دل عليها فعل النبي ﷺ وقوله: «خذوا عني مناسككم».

الثالث: أن فيه حجة لمن قال بوجوب العمرة.

الرابع: أن الحج والعمرة يجب إتمامهما بالشروع فيهما، ولو كانا نفلًا.

الخامس: الأمر بإتقانهما وإحسانهما، وهذا قدر زائد على فعل ما يلزم لهما.

السادس: وفيه الأمر بإخلاصهما لله تعالى.

السابع: أنه لا يخرج المحرم بهما بشيء من الأشياء حتى يكملهما، إلا بما استثناه الله وهو الحصر، فلهاذا قال: ﴿فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ﴾ أي: منعتم من الوصول إلى البيت لتكاملهما، بمرض أو ضلالة أو عدو، ونحو ذلك من أنواع الحصر، الذي هو المنع.

﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي: فاذبحوا ما استيسر من الهدى، وهو سبع بدنة، أو سبع بقرة، أو شاة يذبحها المحصر، ويحلق ويحل من إحرامه بسبب الحصر، كما فعل النبي ﷺ وأصحابه لما صدحهم

لهلاك البدن أو الروح، وفعل ما هو سبب موصل إلى تلف النفس أو الروح، فيدخل تحت ذلك أمور كثيرة، فمن ذلك ترك الجهاد في سبيل الله أو النفقة فيه، الموجب لتسلط الأعداء، ومن ذلك تغيير الإنسان بنفسه في مقاتلة أو سفر مخوف، أو محل مبيحة أو حيات، أو يصعد شجراً أو بنياناً خطراً، أو يدخل تحت شيء فيه خطر، ونحو ذلك، فهذا ونحوه ممن ألقى يده إلى التهلكة.

ومن الإلقاء باليد إلى التهلكة<sup>(١)</sup> الإقامة على معاصي الله، والياس من التوبة، ومنها ترك ما أمر الله به من الفرائض، التي تركها هلاك للروح والدين.

ولما كانت النفقة في سبيل الله نوعاً من أنواع الإحسان، أمر بالإحسان عموماً، فقال: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان، لأنه لم يقيد بشيء دون شيء، فيدخل فيه الإحسان بالمال كما تقدم.

ويدخل فيه الإحسان بالجاء بالشفاعات ونحو ذلك، ويدخل في ذلك الإحسان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم العلم النافع، ويدخل في ذلك قضاء حوائج الناس من تفریح كرباتهم وإزالة شداتهم، وعبادة مرضاهم، وتشجيع جنائزهم، وإرشاد ضالهم، وإعانة من يعمل عملاً، والعمل لمن لا يحسن العمل، ونحو ذلك مما هو من الإحسان الذي أمر الله به، ويدخل في الإحسان أيضاً الإحسان في عبادة الله تعالى، وهو كما ذكر النبي ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

فمن اتصف بهذه الصفات، كان من الذين قال الله فيهم: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وكان الله معه يسده ويرشده ويعينه على كل أموره.

ولما فرغ تعالى من [ذكر] أحكام الصيام فالجهاد، ذكر أحكام الحج

وإن كان السبب خفياً كمن جحد دين غيره، أو خانه في ودعية، أو سرق منه ونحو ذلك، فإنه لا يجوز له أن يأخذ من ماله مقابلة له، جمعاً بين الأدلة، ولهذا قال تعالى تأكيداً وتقوية لما تقدم: ﴿فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ هذا تفسير لصفة المقاصة، وأنها هي الماثلة في مقابلة المعتدي.

ولما كانت النفوس في الغالب لا تقف على حدها إذا رخص لها في المعاقبة لطلبها التثفي، أمر تعالى بلزوم تقواه، التي هي الوقوف عند حدوده وعدم تجاوزها، وأخبر تعالى أنه ﴿مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: بالمعروف، والنصر، والتأييد، والتوفيق.

ومن كان الله معه حصل له السعادة الأبدية، ومن لم يلزم التقوى تخلى عنه وليه وخذله، فوكله إلى نفسه، فصار هلاكه أقرب إليه من حبل الوريد.

﴿١٩٥﴾ ﴿وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ يأمر تعالى عباده بالنفقة في سبيله، وهو إخراج الأموال في الطرق الموصلة إلى الله، وهي كل طرق الخير من صدقة على مسكين، أو قريب، أو إنفاق على من تحب مؤنته.

وأعظم ذلك وأول ما دخل في ذلك الإنفاق في الجهاد في سبيل الله، فإن النفقة فيه جهاد بالمال، وهو فرض كالجهاد بالبدن، وفيها من المصالح العظيمة الإعانة على تقوية المسلمين، وعلى توهية الشرك وأهله، وعلى إقامة دين الله وإعزازه، فالجهاد في سبيل الله لا يقوم إلا على ساق النفقة، فالنفقة له كالروح، لا يمكن وجوده بدونها، وفي ترك الإنفاق في سبيل الله إيصال للجهاد، وتسلط للأعداء، وشدّة تكاليفهم، فيكون قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ كالتحليل لذلك، والإلقاء باليد إلى التهلكة يرجع إلى أمرين: ترك ما أمر به العبد، إذا كان تركه موجباً أو مقارباً

المشركون عام الحديبية، فإن لم يجد الهدي، فليصم بدله عشرة أيام كما في المتمتع، ثم يحل.

ثم قال تعالى: ﴿ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله﴾ وهذا من معظورات الإحرام، إزالة الشعر بخلق أو غيره، لأن المعنى واحد، من الرأس أو من البدن، لأن المقصود من ذلك حصول الشمت والمنع من الترفه بإزالته، وهو موجود في بقية الشعر.

وقاس كثير من العلماء على إزالة الشعر تقليب الأظفار بجامع الترفه، ويستمر المنع بما ذكر حتى يبلغ الهدي محله، وهو يوم النحر، والأفضل أن يكون الحلق بعد النحر، كما تدل عليه الآية.

ويستدل بهذه الآية على أن المتمتع إذا ساق الهدي لم يتحلل من عمرته قبل يوم النحر، فإذا طاف وسعى للعمرة أحرم بالحج، ولم يكن له إحلال بسبب سوق الهدي، وإنما منع تبارك وتعالى من ذلك لما فيه من الذل والخضوع لله والانكسار له، والتواضع الذي هو عين مصلحة العبد، وليس عليه في ذلك من ضرر، فإذا حصل الضرر بأن كان به أذى من مرض يتفتح بخلق رأسه له، أو قروح، أو قمل ونحو ذلك، فإنه يحل له أن يخلق رأسه، ولكن يكون عليه فدية من صيام ثلاثة أيام، أو صدقة على ستة مساكين<sup>(١)</sup>، أو نسك ما يجزئ في أضحية، فهو محير، والنسك أفضل، فالصدقة، فالصيام.

ومثل هذا كل ما كان في معنى ذلك من تقليب الأظفار، أو تغطية الرأس، أو لبس المخيط، أو التطيب، فإنه يجوز عند الضرورة، مع وجوب الفدية المذكورة لأن القصد من الجميع إزالة ما به يترفع.

ثم قال تعالى: ﴿فإذا أمتتم﴾ أي: بأن قدرتم على البيت من غير مانع عدو وغيره ﴿فمن تمتع بالعمرة إلى الحج﴾ بأن توصل بها إليه، وانقطع بتمتعه بعد الفراغ منها.

﴿فما استيسر من الهدي﴾ أي: فعليه ما تيسر من الهدي، وهو ما يجزئ في أضحية، وهذا دم نسك، مقابلة لحصول النسكين له في سفرة واحدة، ولإنعام الله عليه بحصول الانتفاع بالتمتع بعد فراغ العمرة وقبل الشروع في الحج، ومثلها القران لحصول النسكين له.

وبدل مفهوم الآية على أن المفرد للحج ليس عليه هدي، ودلت الآية على جواز بل فضيلة التمتع، وعلى جواز فعلها في أشهر الحج.

﴿فمن لم يجد﴾ أي: الهدي أو ثمنه ﴿فصيام ثلاثة أيام في الحج﴾ أول جوازها من حين الإحرام بالعمرة، وآخرها ثلاثة أيام بعد النحر، أيام رمي الجمار، والبيت - منى - ولكن الأفضل منها أن يصوم السابع والثامن والتاسع، ﴿وسبعة إذا رجتم﴾ أي: فرغتم من أعمال الحج، فيجوز فعلها في مكة وفي الطريق، وعند وصوله إلى أهله.

﴿ذلك﴾ المذكور من وجوب الهدي على المتمتع ﴿لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ بأن كان عنه مسافة قصر فأكثر، أو بعيداً عنه عرفاً، فهذا الذي يجب عليه الهدي لحصول النسكين له في سفر واحد، وأما من كان أهله من حاضري المسجد الحرام، فليس عليه هدي لعدم الموجب لذلك.

﴿واتسقوا الله﴾ أي: في جميع أموركم، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ومن ذلك امتثالكم لهذه الأمور، واجتناب هذه المحظورات المذكورة في هذه الآية.

﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ أي: لمن عصاه، وهذا هو الموجب للتعقوب، فإن من خاف عقاب الله، انكف عما يوجب العقاب، كما أن من رجا ثواب الله عمل لما يوصله إلى الثواب، وأما من لم يخف العقاب ولم يرج الثواب، اقتحم المحارم ونجراً على ترك الواجبات.

﴿١٩٧﴾ ﴿الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب﴾ يخبر تعالى أن ﴿الحج﴾ واقع في أشهر معلومات عند المخاطبين، مشهورات بحيث لا تحتاج إلى تخصيص، كما احتاج الصيام إلى تعيين شهره، وكما بين تعالى أوقات الصلوات الخمس.

وأما الحج فقد كان من ملة إبراهيم التي لم تزل مستمرة في ذريته، معروفة بينهم.

والمراد بالأشهر المعلومات عند جمهور العلماء: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة، فهي التي يقع فيها الإحرام بالحج غالباً.

﴿فمن فرض فيهن الحج﴾ أي: أحرم به، لأن الشروع فيه يصيره فرضاً ولو كان تفلأ.

واستدل بهذه الآية الشافعي ومن تابعه على أنه لا يجوز الإحرام بالحج قبل أشهره، قلت: لو قيل: إن فيها دلالة لقول الجمهور بصحة الإحرام [بالحج] قبل أشهره لكان قريباً، فإن قوله: ﴿فمن فرض فيهن الحج﴾ دليل على أن الفرض قد يقع في الأشهر المذكورة، وقد لا يقع فيها، وإلا لم يقيد.

وقوله: ﴿فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾ أي: يجب أن تعظموا الإحرام بالحج، وخصوصاً الواقع في أشهره، وتصونوه عن كل ما يفسده أو ينقصه من الرفث، وهو الجماع ومقدماته الفعلية والقولية، خصوصاً عند النساء بحضرتين.

والفسوق وهو: جميع المعاصي، ومنها محظورات الإحرام.

والجدال وهو: الماراة والمنازعة والمخاصمة، لكونها تثير الشر، وتوقع العداوة.

والمقصود من الحج: الذل





الأول حقيق بالقبول والتوفيق لأعمال آخر.

ثم أخبر تعالى عن أحوال الخلق، وأن الجميع يسألونه مطالبهم، ويستدفعونه ما بضرهم، ولكن مقاصدهم تختلف، فمنهم: ﴿من يقول ربنا آتانا في الدنيا﴾ أي: يسأله من مطالب الدنيا ما هو من شهوته، وليس له في الآخرة من نصيب لرغبته عنها، وقصر همته على الدنيا، ومنهم من يدعو الله للمصلحة الدارين، ويفتقر إليه في مهمات دينه ودنياه، وكل من هؤلاء وهؤلاء لهم نصيب من كسبهم وعملهم، وسيجازيهم تعالى على حسب أعمالهم وهماهم ونياتهم، جزاء دائراً بين العدل والفضل، يحمد عليه أكمل حمد وأتمه، وفي هذه الآية دليل على أن الله يحب دعوة كل داع، مسلماً أو كافراً أو فاسقاً، ولكن ليست إجابته دعاء من دعاه دليلاً على محبته له وقربه منه، إلا في مطالب الآخرة ومهمات الدين.

والحسنة المطلوبة في الدنيا يدخل فيها كل ما يحسن وقمه عند العبد، من رزق هنيء واسع حلال، وزوجة صالحة، وولد تقربه العين، وراحة، وعلم نافع، وعمل صالح، ونحو ذلك من المطالب المحيوية والمباحة.

وحسنة الآخرة هي السلامة من العقوبات في القبر والموقف، والنار،

وحصول رضا الله، والفوز بالنعيم القويم، والقرب من الرب الرحيم، فصار هذا الدعاء أجمع دعاء وأكملها، وأولاه بالإيثار، ولهذا كان النبي ﷺ يكثر من الدعاء به، ويحث عليه.

﴿٢٠٣﴾ ﴿واذكروا الله في أيام معدودات فمن تمسجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾ يأمر تعالى بذكره في الأيام المعدودات، وهي أيام التشريق الثلاثة بعد العيد، لمزيتها وشرفها، وكون بقية أحكام المناسك تفعل بها، ولكون الناس أضيافاً لله فيها، ولهذا حرم صيامها، فللمذكر فيها مزية ليست لغيرها، ولهذا قال النبي ﷺ: ﴿أيام التشريق، أيام أكل وشرب، وذكر الله﴾.

ويدخل في ذكر الله فيها ذكره عند رمي الجمار، وعند الذبح، والذكر المقيد عقب الفرائض، بل قال بعض العلماء: إنه يستحب فيها التكبير المطلق كالعشر، وليس ببعيد.

﴿فمن تمسجل في يومين﴾ أي: خرج من «منى» ونفر منها قبل غروب شمس اليوم الثاني ﴿فلا إثم عليه، ومن تأخر﴾ بأن بات بها ليلة الثالث ورمى من الغد ﴿فلا إثم عليه﴾ وهذا تخفيف من الله [تعالى] على عباده في إباحة كلا الأمرين، ولكن من المعلوم أنه إذا أبيع كلا الأمرين، فالتأخر أفضل لأنه أكثر عبادة.

ولما كان نفي الحرج قد يفهم منه نفي الحرج في ذلك المذكور وفي غيره، والحاصل أن الحرج منفي عن المتقدم والمتأخر فقط بقوله: ﴿لمن اتقى﴾ أي: اتقى الله في جميع أموره وأحواله الخج، فمن اتقى الله في كل شيء، حصل له نفي الحرج في كل شيء، ومن اتقاه في شيء دون شيء، كان الجزاء من جنس العمل.

﴿واتقوا الله﴾ بامتنثال أوامره واجتناب معاصيه، ﴿واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾ فمجازيكم بأعمالكم، فمن اتقاه وجد جزاء التقوى عنده،

ومن لم يتقه عاقبه أشد العقوبة، فالعلم بالجزاء من أعظم الدواعي لتقوى الله، فلماذا حث تعالى على العلم بذلك.

﴿٢٠٤ - ٢٠٦﴾ ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام﴾ وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾.

لما أمر تعالى بالاكثار من ذكره، وخصوصاً في الأوقات الفاضلة الذي هو خير ومصلحة وبر، أخبر تعالى بحال من يتكلم بلسانه ويخالف فعله قوله، فالكلام إما أن يرفع الإنسان أو يخفضه، فقال: ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا﴾ أي: إذا تكلم راق كلامه السامع، وإذا نطق ظننته يتكلم بكلام نافع، ويؤكد ما يقول بأنه ﴿يشهد الله على ما في قلبه﴾ بأن يخبر أن الله يعلم أن ما في قلبه موافق لما نطق به، وهو كاذب في ذلك، لأنه يخالف قوله فعله.

فلو كان صادقاً لتوافق القول والفعل، كحال المؤمن غير المنافق، فلماذا قال: ﴿وهو ألد الخصام﴾ أي: إذا خاصته، وجدت فيه من اللدد والصعوبة والتعصب، وما يترتب على ذلك ما هو من مقابح الصفات، ليس كأخلاق المؤمنين الذين جعلوا السهولة مركبهم، والانقياد للحق وظيفتهم، والسماحة سجيبتهم.

﴿وإذا تولى﴾ هذا الذي يعجبك قوله إذا حضر عندك ﴿سعى في الأرض ليفسد فيها﴾ أي: يجتهد على أعمال المعاصي التي هي إفساد في الأرض ﴿ويهلك﴾ بالحرث والنسل ﴿فالزروع والشمار والمواشي تتلف وتنقص وتقل بركتها، بسبب العمل في المعاصي، ﴿والله لا يحب الفساد﴾ وإذا كان لا يحب الفساد فهو يبغض العبد المتسد في الأرض غاية البغض، وإن قال بلسانه قولاً حسناً.

وذلك أن الله تعالى يطوي السموات والأرض، وتنتثر الكواكب، وتكور الشمس والقمر، وتنزل الملائكة الكرام فتحيط بالخلائق، وينزل الباري [تبارك] تعالى: ﴿في ظلل من الغمام﴾ ليفصل بين عباده بالقضاء العادل.

فتوضع الموازين، وتنتثر الدواوين، وتبيض وجوه أهل السعادة، وتسود وجوه أهل الشقاوة، ويتميز أهل الخير من أهل الشر، وكل يجازي بعمله، فهناك بعض الظالم على يديه إذا علم حقيقة ما هو عليه.

وهذه الآية وما أشبهها دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، المثبتين للصفات الاختيارية، كالاتواء والنزول والمجيء، ونحو ذلك من الصفات التي أخبر بها تعالى عن نفسه، أو أخبر بها عنه رسوله ﷺ، فيثبتونها على وجه

يليق بجلال الله وعظمته، من غير تشبيه ولا تحريف، خلافاً للمحطلة على اختلاف أنواعهم، من الجهمية والمعتزلة والأشعرية، ونحوهم، ممن ينفي هذه الصفات، ويتأول لأجلها

الآيات بتأويلات ما أنزل الله عليها من سلطان، بل حقيقتها القدر في بيان الله وبيان رسوله، والزعم بأن كلامهم هو الذي تحصل به الهداية في هذا الباب، فهؤلاء ليس معهم دليل نقلي، بل ولا دليل عقلي، أما النقلي

فقد اعترفوا أن النصوص الواردة في الكتاب والسنة، ظاهرها بل صريحها، دال على مذهب أهل السنة والجماعة، وأنها تحتاج لدلالاتها على مذهبهم الباطل، أن تخرج عن ظاهرها، ويزاد فيها وينقص، وهذا كما ترى لا يرتضيه من في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

وأما العقل فليس في العقل ما يدل على نفي هذه الصفات، بل العقل دل على أن الفاعل أكمل من الذي لا يقدر

فإن زلتم من بعد ما جاء تكلم البيئات فاعلموا أن الله عزير حكيم ﴿هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين أن يدخلوا﴾ في السلم كافة ﴿أي: في جميع شرائع الدين، ولا يتركوا منها شيئاً، وأن لا يكونوا ممن اتخذوا إلهة هواء، وإن وافق الأمر المشروع هواء فعله، وإن خالفه تركه، بل الواجب أن يكون الهوى تبعاً للدين، وأن يفعل كل ما يقدر عليه من أفعال الخير، وما يعجز عنه، يلتزمه وينويه، فيدركه نيته.

ولما كان الدخول في السلم كافة لا يمكن ولا يتصور إلا بمخالفة طرق الشيطان، قال: ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي: في العمل بمعاصي الله ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ والعدو المبين لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء وما به الضرر عليكم.

ولما كان العبد لا بد أن يقع منه خلل وزلل، قال تعالى: ﴿فإن زلتم من بعد ما جاء تكلم البيئات﴾ أي: على علم ويقين ﴿فاعلموا أن الله عزير حكيم﴾.

وفيه من الوعيد الشديد والتخويف ما يوجب ترك الزلل، فإن العزيز القاهر<sup>(٢١)</sup> الحكيم إذا عصاه العاصي قهره بقوته، وعذبه بمقتضى حكمته، فإن من حكمته تعذيب العصاة والجناة.

﴿٢١٠﴾ ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور﴾ وهذا فيه من الوعيد الشديد والتهديد ما تنخلع له القلوب، يقول تعالى: هل ينتظر الساعون في الضاد في الأرض، المتبعون لخطوات الشيطان، التابذون لأمر الله، إلا يوم الجزاء بالأعمال، الذي قد حشي من الأهوال والشدائد والفظائع ما يقلقل قلوب الظالمين، ويحق به الجزاء السيء على المفسدين،

ففي هذه الآية دليل على أن الأقوال التي تصدر من الأشخاص ليست دليلاً على صدق ولا كذب، ولا بسر ولا فجور، حتى يوجد العمل المصدق لها المزمي لها، وأنه يتبغى اختبار أحوال الشهود، والمحقق والمبطل من الناس بسير أعمالهم، والنظر لقرائن أحوالهم، وأن لا يغتر بتموهيههم وتزكيتهم أنفسهم.

ثم ذكر أن هذا المفسد في الأرض بمعاصي الله، إذا أمر بتقوى الله تكبر وأنف، و﴿أخذته العزة بالإثم﴾ فيجمع بين العمل بالمعاصي والكبر على الناصحين.

﴿فحسبه جهنم﴾ التي هي دار العاصين والتكبرين، ﴿وليش المهاد﴾ أي: المستقر والمسكن عذاب دائم، وهم لا ينقطع، ويأس مستمر، لا يخفف عنهم العذاب ولا يرجون الشواب، جزاء لجناباتهم ومقابلة لأعمالهم، فعباداً بالله من أحوالهم.

﴿٢٠٧﴾ ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد﴾ هؤلاء هم الموفقون الذين باعوا أنفسهم وأرخصوها وبذلوا طلباً لمرضاة الله ورجاء ثوابه، فهم بذلوا الثمن للمليء الوفي الرؤوف بالعباد، الذي من رأفته ورحمته أن وفقهم لذلك، وقد وعد الرفاء بذلك، فقال:

﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ إلى آخر الآية. وفي هذه الآية أخبر أنهم اشتروا أنفسهم وبذلوا، وأخبر برأفة الموجهة لتحصيل ما طلبوا، وبذل ما به رغبوا، فلا تسأل بعد هذا عن ما يحصل لهم من الكريم، وما ينالهم من الفوز والتكريم<sup>(٢٢)</sup>.

﴿٢٠٨ - ٢٠٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين \*

(١) في ب: والتكبر.

(٢) من أول الآية إلى هنا ساقط من ب، وقد قام النجار بتفسير الآية من عند نفسه انظر طبعة النجار (١/٢٥٢ - ٢٥٤) ولم يبين أن هذا ليس من كلام الشيخ - رحمه الله -.

(٣) في ب: العزيز الغمام.

حساب ﴿ فالرزق الدنيوي يحصل للمؤمن والكافر، وأما رزق القلوب من العلم والإيمان، وعبة الله وخشيته ورجائه، ونحو ذلك، فلا يعطيها إلا من يجب .

﴿ ٢١٣ ﴾ ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴿ (أي: كان الناس) [أي: كانوا مجتمعين على الهدى، وذلك عشرة قرون بعد نوح عليه السلام، فلما اختلفوا في الدين فكفر فريق منهم وبقي الفريق الآخر على الدين، وحصل النزاع وبعث الله الرسل ليفصلوا بين الخلائق ويقوموا الحجج عليهم، وقيل بل كانوا<sup>(١)</sup> مجتمعين على الكفر والضلال والشقاء، ليس لهم نور ولا إيمان، فرحمهم الله تعالى بإرسال الرسل إليهم ﴿ مبشرين ﴾ من أطاع الله بشمرات الطاعات، من الرزق والقوة في البدن والقلب والحياة الطيبة، وأعلى ذلك الفوز برضوان الله والجنة .

﴿ ومنذرين ﴾ من عصى الله بشمرات المعصية، من حرمان الرزق، والضعف والإهانة، والحياة الضيقة، وأشد ذلك سخط الله والنار .

﴿ وأنزل معهم الكتاب بالحق ﴾ وهو الإخبارات الصادقة والأوامر العادلة، فكل ما اشتملت عليه الكتب، فهو حق يفصل بين المختلفين في الأصول والفروع، وهذا هو الواجب عند الاختلاف والتنازع، أن يرد الاختلاف إلى الله وإلى رسوله، ولولا أن في كتابه وسنة رسوله فصل النزاع لما أمر بالرد إليهما .

ولما ذكر نعمته العظيمة بإنزال الكتب على أهل الكتاب، وكان هذا

تعالى كفر النعمة تبديلاً لها، لأن من أنعم الله عليه بنعمة دينية أو دنيوية فلم يشكرها ولم يقم بواجبها، اضمحلت عنه وذهبت، وتبدلت بالكفر والمعاصي، فصار الكفر بدل النعمة، وأما من شكر الله تعالى وقام بحقها، فإنها تثبت وتستمر، ويزيده الله منها .

﴿ ٢١٢ ﴾ ﴿ زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴿ يجير تعالى أن الذين كفروا بالله وبآياته ورسله ولم يتقادوا لشرعه، أنهم زين لهم الحياة الدنيا، فزينت في أعينهم وقلوبهم، فرضوا بها واطمأنوا بها، وصارت أهواؤهم وإراداتهم وأعمالهم كلها لها، فأقبلوا عليها، وأكسبوا على تحصيلها، وعظموها وعظموا من شاركهم في صنيعهم، واحتقروا المؤمنين واستهزأوا بهم، وقالوا: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا؟

وهذا من ضعف عقولهم ونظرهم القاصر، فإن الدنيا دار ابتلاء وامتحان، وسيحصل الشقاء فيها لأهل الإيمان والكفران، بل المؤمن في الدنيا وإن ناله مكروه، فإنه يصبر ويحسب، فيخفف الله عنه بإيمانه وصبره ما لا يكون لغيره .

وإنما الشأن كل الشأن والتفضيل الحقيقي في الدار الآقية، فلهذا قال تعالى: ﴿ والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة ﴾ فيكون التقون في أعلى الدرجات، متمتعين بأنواع النعيم والسرور والبهجة والمحور .

والكفار تحتهم في أسفل الدرجات، معذبين بأنواع العذاب والإهانة والشقاء السرمدى الذي لا ينتهى له، ففي هذه الآية تسلية للمؤمنين، ونعي على الكافرين . ولما كانت الأرزاق الدنيوية والأخروية لا تحصل إلا بتقدير الله، ولن تنال إلا بمشيئة الله، قال تعالى: ﴿ والله يرزق من يشاء بغير

على الفعل، وأن فعله تعالى المتعلق بنفسه والمتعلق بخلقه هو كمال، فإن زعموا أن إثباتها يدل على التشبيه بخلقه، قيل لهم: الكلام على الصفات يتبع الكلام على الذات، فكما أن الله ذاتاً لا تشبهها الذات، فله صفات لا تشبهها الصفات، فصفاته تبع لذاته، وصفات خلقه تبع لذواتهم، فليس في إثباتها ما يقتضي التشبيه بوجه .

ويقال أيضاً لمن أثبت بعض الصفات ونفى بعضاً، أو أثبت الأسماء دون الصفات: إما أن تثبت الجميع كما أثبت الله لنفسه وأثبت رسوله، وإما أن تنفي الجميع وتكون منكراً لرب العالمين، وأما إثباتك بعض ذلك ونفيك لبعضه، فهذا تناقض، ففرق بين ما أثبتته وما نفيت، ولن تجد إلى الفرق سبيلاً، فإن قلت: ما أثبتته لا يقتضي تشبيهاً، قال لك أهل السنة: والإثبات لما نفيت لا يقتضي تشبيهاً، فإن قلت: لا أعقل من الذي نفيت إلا التشبيه، قال لك النفاة: ونحن لا نعقل من الذي أثبتته إلا التشبيه، فما أجبت به النفاة، أجابك به أهل السنة، لما نفيت .

والحاصل أن من نفى شيئاً وأثبت شيئاً بما دل الكتاب والسنة على إثباته، فهو متناقض، لا يثبت له دليل شرعي ولا عقلي، بل قد خالف المعقول والمتقول .

﴿ ٢١١ ﴾ ﴿ سل بني إسرائيل كما آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمه الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب ﴿ يقول تعالى: ﴿ سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ﴾ تدل على الحق وعلى صدق الرسل، فتيقنوها وعرفوها، فلم يقوموا بشكر هذه النعمة التي تقتضي القيام بها .

بل كفروا بها وبدلوا نعمة الله كفوفاً، فلهذا استحقوا أن ينزل الله عليهم عقابه ويحرمهم من ثوابه، وسمى الله

(١) . زيادة في هامش ب، لم يحدد محلها، وبالنظر إلى السياق يظهر أن الأقرب أن هذا محلها، ولهذا وليتنق الكلام يكون آخره هكذا (وقيل بل كانوا مجتمعين على الكفر) ويكون قوله: (أي كان الناس) مكرراً.





مع أقداره، سواء سرتكم أو ساءتكم .  
ولما كان الأمر بالقتال لو لم يقيد  
لشمل الأشهر الحرم وغيرها، استثنى  
تعال القتال في الأشهر الحرم، فقال :

﴿٢١٧﴾ «يسألونك عن الشهر  
الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد  
عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام  
 وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة  
 أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم  
 حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا  
 ومن يردتكم عن دينه فيميت وهو  
 كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا  
 والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها  
 خالدون»

وأخر جوههم «منه» ولم يمكنهم من  
الوصول إليه، مع أن هذا البيت سواء  
العاكف فيه والباد، فهذه الأمور كل  
واحد منها «أكبر من القتل» في الشهر  
الحرام، فكيف وقد اجتمعت فيهم؟!  
فعلم أنهم فسفة ظلمة في تعبيرهم  
المؤمنين .

ثم أخبر تعالى أنهم لن يزالوا يقاتلون  
المؤمنين، وليس غرضهم في أموالهم  
وقتلهم، إنما غرضهم أن يرجعوه  
عن دينهم، ويكونوا كفاراً بعد  
إيمانهم، حتى يكونوا من أصحاب  
السمير، فهم باذلون قدرتهم في ذلك  
ساعون بما أمكنهم، «ويأبى الله إلا  
أن يتم نوره ولو كره الكافرون» .

وهذا الرصف عام لكل الكفار،  
لا يزالون يقاتلون غيرهم حتى يردوهم  
عن دينهم، وخصوصاً أهل الكتاب من  
اليهود والنصارى، الذين بذلوا  
الجمعيات، ونشروا الدعاة، وبثروا  
الأطباء، وبنوا المدارس لجذب الأمم  
إلى دينهم، وتدخيلهم عليهم كل ما  
يمكنهم من الشبه التي تشككهم في  
دينهم .

ولكن المرجو من الله تعالى، الذي  
من على المؤمنين بالإسلام، واختار لهم  
دينه القيم، وأكمل لهم دينه، أن يتم  
عليهم نعمته بالقيام به أتم القيام، وأن  
يخذل كل من أراد أن يطفىء نوره،  
ويجعل كيدهم في نحورهم، وينصر  
دينه، ويعلي كلمته .

وتكون هذه الآية صادقة على هؤلاء  
الموجودين من الكفار، كما صدقت  
على من قبلهم: «إن الذين كفروا  
ينفقون أموالهم ليصدوا عن  
سبيل الله، فسيقفونها ثم تكون عليهم  
حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى  
جهنم يحشرون» .

الجماهير على أن تحريم القتال في  
الأشهر الحرم منسوخ بالأمر بقتال  
المشركين حيشماً وجدوا، وقال بعض  
المفسرين: إنه لم ينسخ، لأن المطلق  
عمول على المقيد، وهذه الآية مقيدة،  
لعموم الأمر بالقتال مطلقاً؛ ولأن من  
جملة مزية الأشهر الحرم، بل أكبر  
مزايها تحريم القتال فيها، وهذا إنما  
هو في قتال الابتدء، وأما قتال الدفع،  
فإنه يجوز في الأشهر الحرم، كما يجوز  
في البلد الحرام .

ولما كانت هذه الآية نازلة بسبب ما  
حصل لسرية عبد الله بن جحش،  
وقتلهم عمرو بن الحضرمي، وأخذهم  
أموالهم، وكان ذلك - على ما قيل -  
في شهر رجب، غيرهم المشركون  
بالقتال بالأشهر الحرم، وكانوا في  
تعبيرهم ظالمين، إذ فيهم من القبايح ما  
بعضه أعظم مما عيروا به المسلمين، قال  
تعالى في بيان ما فيهم: «وصد عن  
سبيل الله» أي: صد المشركين من  
يريد الإيمان بالله وبرسوله، وفتنتهم  
من آمن به، وسعيهم في ردهم عن  
دينهم، وكفرهم الحاصل في الشهر  
الحرام والبلد الحرام، الذي هو بمجرد  
كاف في الشر، فكيف وقد كان في  
شهر حرام وبلد حرام؟! «وإخراج  
أهله» أي: أهل المسجد الحرام، وهم  
النبي ﷺ وأصحابه، لأنهم أحق به من  
المشركين، وهم عماره على الحقيقة،



المسلمون وقبوا، أمرهم الله تعالى  
بالقتال، وأخبر أنه مكروه للنفوس لما  
فيه من التعب والمشقة، وحصول أنواع  
المخاوف والتعرض للمتألف، ومع هذا  
فهو خير محض، لما فيه من الثواب  
العظيم، والتحرز من العقاب الأليم،  
والنصر على الأعداء والظفر بالفتانم،  
وغير ذلك مما هو مرب، على ما فيه من  
الكرامة «وعسى أن نحوباً شيئاً وهو شر  
لكم» وذلك مثل القعود عن الجهاد  
لطلب الراحة، فإنه شر، لأنه يعقب  
الخذلان وتسلط الأعداء على الإسلام  
وأهله، وحصول الذل والهوان وفوات  
الأجر العظيم وحصول العقاب .

وهذه الآيات عامة مطردة في أن  
أفعال الخير التي تكرها النفوس لما فيها  
من المشقة أنها خير بلا شك، وأن أفعال  
الشر التي تحب النفوس لما تنورها فيها  
من الراحة واللذة فهي شر بلا شك .

وأما أحوال الدنيا فليس الأمر  
مطرداً، ولكن الغالب على العبد المؤمن  
أنه إذا أحب أمراً من الأمور،  
فقيض الله [له] من الأسباب ما يصرفه  
عنه أنه خير له، فالأوفق له في ذلك أن  
يشكر الله، ويجعل الخير في الواقع،  
لأنه يعلم أن الله تعالى أرحم بالمعبود من  
نفسه، وأقدر على مصلحة عبده منه،  
وأعلم بمصلحته منه، كما قال  
[تعالى]: «والله يعلم وأنتم  
لا تعلمون» فاللائق بكم أن تتمشوا





كل أحد بحسبه، من غني وفقير ومتوسط، كل له قدرة على إنفاق ما عفا من ماله، ولو شق غمرة.

ولهذا أمر الله رسوله ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس وصدقاتهم، ولا يكلّفهم ما يشق عليهم. ذلك بأن الله تعالى لم يأمرنا بما أمرنا به حاجة منه لنا أو تكليفاً لنا [بما يشق<sup>(١)</sup>]، بل أمرنا بما فيه سعادتنا، وما يسهل علينا، وما به النفع لنا وإخواننا، فيستحق على ذلك أتم الحمد.

ولما بين تعالى هذا البيان الشافي، وأطلع العباد على أسرار شرعه، قال: ﴿كذلك بين الله لكم الآيات﴾ أي: الدالات على الحق، المحصلات للعلم النافع والفرقان، ﴿لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة﴾ أي: لكي تستعملوا أفكاركم في أسرار شرعه، وتعرفوا أن أوامره فيها مصالح الدنيا والآخرة، وأيضاً لكي تتفكروا في الدنيا وسرعة انقضائها، فترفضوها، وفي الآخرة وبقاتها، وأنها دار الجزاء فتعمروها.

﴿٢٢٠﴾ ﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم﴾ لما نزل قوله تعالى: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون

في بطونهم ناراً، وسيصلون سعيراً﴾ شق ذلك على المسلمين، وعزلوا طعامهم عن طعام اليتامى خوفاً على أنفسهم من تناولها، ولو في هذه الحالة التي جرت العادة بالمشاركة فيها، وسألوا النبي ﷺ عن ذلك، فأخبرهم تعالى أن المقصود إصلاح أموال اليتامى بحفظها وصيانتها والأجر فيها، وأن خلطتهم بإيهاهم في طعام أو غيره جائز على وجه لا يضر باليتامى، لأنهم إخوانكم، ومن شأن الأخ مخالطة أخيه، والرجوع في ذلك إلى النسبة والعمل، فمن علم الله من نيته أنه مصلح لليتامى، وليس له طمع في ماله، فلو دخل عليه شيء من غير قصد لم يكن عليه بأس، ومن علم الله من نيته أن قصده بالمخالطة التوصل إلى أكلها وتناولها، فذلك الذي خرج وأتم، و«الوسائل لها أحكام المقاصد».

وفي هذه الآية دليل على جواز أنواع المخالطات في المآكل والمشرب، والمعقود وغيرها، وهذه الرخصة لطف من الله [تعالى] وإحسان، وتوسعة على المؤمنين، وإلا فـ ﴿لو شاء الله لأعنتكم﴾ أي: شق عليكم بعدم الرخصة بذلك فخرجتم، وشق عليكم وأثمتهم، ﴿إن الله عزيز﴾ أي: له القوة الكاملة والقهر لكل شيء، ولكنه مع ذلك ﴿حكيم﴾ لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته الكاملة وعنايته التامة، فعزته لا تنافي حكمته، فلا يقال: إنه ما شاء فعل، وافق الحكمة أو خالفها، بل يقال: إن أفعاله وكذلك أحكامه تابعة لحكمته، فلا يخلق شيئاً عبثاً، بل لا بد له من حكمة عرفناها أم لم نعرفها، وكذلك لم يشرع لعباده شيئاً مجرداً عن الحكمة، فلا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة، لتتام حكمته ورحته.

﴿٢٢١﴾ ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنن ولا مة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين

حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون﴾ ﴿ولا تنكحوا﴾ النساء ﴿المشركات﴾ ما دمن على شركهن ﴿حتى يؤمنن﴾؛ لأن المومنة ولو بلغت من الدمامة ما بلغت خير من المشركة ولو بلغت من الحسن ما بلغت، وهذه عامة في جميع النساء المشركات، وخصصتها آية المائدة في إباحة نساء أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب﴾.

﴿ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا﴾ وهذا عام لا تخصيص فيه. ثم ذكر تعالى الحكمة في تحريم نكاح المسلم أو المسلمة لمن خالفهما في الدين، فقال: ﴿أولئك يدعون إلى النار﴾ أي: في أقوالهم أو أفعالهم وأحوالهم، فمخالطتهم على خطر منهم، والخطر ليس من الأخطار الدنيوية، إنما هو الشقاء الأبدي.

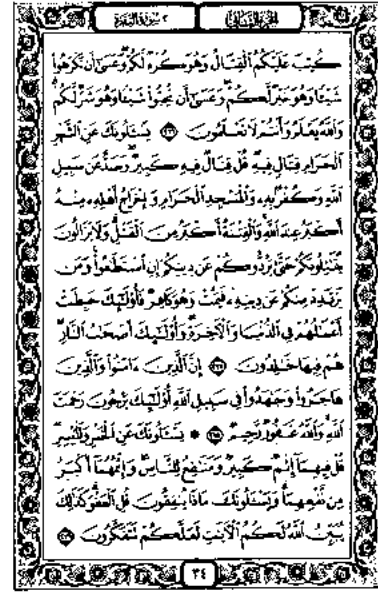
ويستفاد من تعليل الآية، النهي عن مخالطة كل مشرك ومبتدع، لأنه إذا لم يميز التزوج مع<sup>(١)</sup> أن فيه مصالح كثيرة فاخلطت المجردة من باب أولى، وخصوصاً الخلطة التي فيها ارتفاع الشرك ونحوه على المسلم، كالخدمة ونحوها.

وفي قوله: ﴿ولا تنكحوا المشركين﴾ دليل على اعتبار الولي [في النكاح].

﴿والله يدعو إلى الجنة والمغفرة﴾ أي: يدعو عباده لتحصيل الجنة والمغفرة التي من آثارها دفع العقوبات، وذلك بالدعوة إلى أسبابها من الأعمال الصالحة، والتوبة النصوح، والعلم النافع، والعمل الصالح.

﴿وبين آياته﴾ أي: أحكامه وحكمها ﴿لنناس لعلهم يتذكرون﴾ فيوجب لهم ذلك التذكير لما نسوه، وعلم ما جهلوه، والامتثال لما ضيعوه.





مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم ﴿٢٠٤﴾ أي:

النساء اللاتي طلقهن أزواجهن **﴿يتربصن بأنفسهن﴾** أي: ينتظرن ويعتددن مدة **﴿ثلاثة قروء﴾** أي: حيض، أو أطهار، على اختلاف العلماء في المراد بذلك، مع أن الصحيح أن القراء الحيض، ولهذه العدة عدة حكم، منها: العلم ببراءة الرحم، إذا تكررت عليها ثلاثة الأقرء، علم أنه ليس في رحمها حمل، فلا يفضي إلى اختلاط الأنساب، ولهذا أوجب تعالى عليهن الإخبار عن **﴿ما خلق الله في أرحامهن﴾** وحرم عليهن كتمان ذلك من حمل أو حيض، لأن كتمان ذلك يفضي إلى مفساد كثيرة، فكتيمان الحمل موجب أن تلحقه بغير من هو له، رغبة فيه واستمجالاً لانقضاء العدة، فإذا لحقته بغير أبيه، حصل من قطع الرحم والإرث واحتجاب محارمه وأقاربه عنه، وربما تزوج ذوات محارمه، وحصل في مقابلة ذلك إلحاقه بغير أبيه، وثبوت توابع ذلك من الإرث منه وله، ومن جعل أقارب الملحق به أقارب له، وفي ذلك من الشر والفساد ما لا يعلمه إلا رب العباد، ولو لم يكن في ذلك إلا إقامتها مع من نكاحها باطل في حقه، وفيه الإصرار على الكبيرة العظيمة وهي الزنا، لكفى بذلك شراً.

وأمّا كتمان الحيض، بأن استعجلت وأخبرت به وهي كاذبة، ففيه من انقطاع حق الزوج عنها وإباحتها لغيره، وما يتفرع عن ذلك من الشر كما ذكرنا، وإن كذبت وأخبرت بعدم وجود الحيض لتطول العدة فتأخذ منه نفقة غير واجبة عليه، بل هي سحت عليها محرمة من جهتين:

من كونها لا تستحقه، ومن كونها نسيتها إلى حكم الشرع وهي كاذبة، وربما راجعها بعد انقضاء العدة، فيكون ذلك سفاحاً لكونها أجنبية عنه، فلهدا قال تعالى: **﴿ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر﴾**

وطه زوجته مطلقاً، أو مقيداً، بأقل من أربعة أشهر أو أكثر.

فمن آلى من زوجته خاصة، فإن كان لدون أربعة أشهر، فهذا مثل سائر الأيمان، إن حثت كتم، وإن أتم يمته فلا شيء عليه، وليس لزوجته عليه سبيل، لأنه ملكه أربعة أشهر.

وإن كان أبداً أو مدة تزيد على أربعة أشهر، ضربت له مدة أربعة أشهر من يمته إذا طلبت زوجته ذلك، لأنه حق لها، فإذا تمت أمر بالقيئة وهو الوطء، فإن وطئها فلا شيء عليه إلا كفارة اليمين، وإن امتنع أجبر على الطلاق، فإن امتنع طلق عليه الحاكم.

ولكن القبيحة والرجوع إلى زوجته أحب إلى الله تعالى، ولهذا قال: **﴿فإن فاؤوا﴾** أي: رجعوا إلى ما حلفوا على تركه، وهو الوطء. **﴿فإن الله غفور﴾** يخفر لهم ما حصل منهم من الحلف بسبب رجوعهم. **﴿رحيم﴾**

جعل لأيمانهم كفارة وتخله، ولم يجعلها لازمة لهم غير قابلة للانفكاك، ورحيم بهم أيضاً، حيث فاؤوا إلى زوجاتهم وحنوا عليهن ورحموهن.

**﴿وإن عزموا الطلاق﴾** أي: امتنعوا من القيئة، فكان ذلك دليلاً على رغبتهم عنهن، وعدم إرادتهم لأزواجهن، وهذا لا يكون إلا عزمًا على الطلاق، فإن حصل هذا الحث الواجب منه مباشرة، وإلا أجبره الحاكم عليه أو قام به.

**﴿فإن الله سميع عليم﴾** فيه وعيد وتهديد لمن يخلف هذا الحلف، ويقصد بذلك المضارة والمشاقة.

ويستدل بهذه الآية على أن الإيلاء خاص بالزوجة، لقوله: **﴿من نسأهم﴾** وعلى وجوب الوطء في كل أربعة أشهر مرة، لأنه بعد الأربعة، يجبر إما على الوطء، أو على الطلاق، ولا يكون ذلك إلا لتركه واجباً.

**﴿٢٢٨﴾** **﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر ويمولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً ولهن**

والنسيات، ومنه سماعه لأقوال الخالفين، وعلمه بمقاصدهم هل هي خير أم شر، وفي ضمن ذلك التحذير من مجازاته، وأن أعمالكم ونياتكم قد استقر علمها عنده.

**﴿٢٢٥﴾** ثم قال تعالى: **﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم، ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم، والله غفور حلیم﴾**

أي: لا يؤاخذكم بما يجري على ألسنتكم من الأيمان اللغوية التي يتكلم بها العبد من غير قصد منه ولا كسب قلب، ولكنها جرت على لسانه، كقول الرجل في عرض كلامه: **﴿لا والله﴾**، و **﴿بلى والله﴾**، وكحلفه على أمر ماض يظن صدق نفسه، وإنما المؤاخذة على ما قصده القلب.

وفي هذا دليل على اعتبار المقاصد في الأقوال، كما هي معتبرة في الأفعال.

**﴿والله غفور﴾** لمن تاب إليه، **﴿حلیم﴾** بمن عصاه، حيث لم يعاجله بالعقوبة، بل حلم عنه وستره، وصفح مع قدرته عليه وكونه بين يديه.

**﴿٢٢٦ - ٢٢٧﴾** **﴿للذين يؤلون من نسأهم تربص أربعة أشهر فإن فاؤوا فإن الله غفور رحيم﴾** وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم وهذا من الأيمان الخاصة بالزوجة، في أمر خاص، وهو حلف الزوج على ترك

ذلك أبداً، فيحصل عليها من الضرر ما الله به عليم، فأخبر تعالى أن **«الطلاق»** أي: الذي تحصل به الرجعة **«مرتان»** ليتمكن الزوج إن لم يرد المضارة من ارتجاعها، ويراجع رأيه في هذه المدة، وأما ما فوقها فليس محلاً لذلك، لأن من زاد على الشنتين فإما متجرىء على المحرم، أو ليس له رغبة في إمسакها، بل قصده المضارة، فلماذا أمر تعالى الزوج أن يمسك زوجته **«بمصرف»** أي: عشرة حسنة، ويجري مجرى أمثاله مع زوجاتهم، وهذا هو الأرجح، وإلا يسرحها ويفارقها **«بإحسان»** ومن الإحسان أن لا يأخذ على فراقه لها شيئاً من مالها، لأنه ظلم، وأخذ للمال في غير مقابلة بشيء، فلماذا قال: **«ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله»** وهي المخالعة بالمعروف، بأن كرهت الزوجة زوجها لخلقها أو خلقه أو نقص دينه، وخافت أن لا تطيع الله فيه، **«فإن خفتن أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما اقتدت به»**؛ لأنه عوض لتحصيل مقصودهما من الفرقة، وفي هذا مشروعية الخلع، إذا وجدت هذه الحكمة.

ذلك أبداً، فيحصل عليها من الضرر ما الله به عليم، فأخبر تعالى أن **«الطلاق»** أي: الذي تحصل به الرجعة **«مرتان»** ليتمكن الزوج إن لم يرد المضارة من ارتجاعها، ويراجع رأيه في هذه المدة، وأما ما فوقها فليس محلاً لذلك، لأن من زاد على الشنتين فإما متجرىء على المحرم، أو ليس له رغبة في إمسакها، بل قصده المضارة، فلماذا أمر تعالى الزوج أن يمسك زوجته **«بمصرف»** أي: عشرة حسنة، ويجري مجرى أمثاله مع زوجاتهم، وهذا هو الأرجح، وإلا يسرحها ويفارقها **«بإحسان»** ومن الإحسان أن لا يأخذ على فراقه لها شيئاً من مالها، لأنه ظلم، وأخذ للمال في غير مقابلة بشيء، فلماذا قال: **«ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله»** وهي المخالعة بالمعروف، بأن كرهت الزوجة زوجها لخلقها أو خلقه أو نقص دينه، وخافت أن لا تطيع الله فيه، **«فإن خفتن أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما اقتدت به»**؛ لأنه عوض لتحصيل مقصودهما من الفرقة، وفي هذا مشروعية الخلع، إذا وجدت هذه الحكمة.

ذلك أبداً، فيحصل عليها من الضرر ما الله به عليم، فأخبر تعالى أن **«الطلاق»** أي: الذي تحصل به الرجعة **«مرتان»** ليتمكن الزوج إن لم يرد المضارة من ارتجاعها، ويراجع رأيه في هذه المدة، وأما ما فوقها فليس محلاً لذلك، لأن من زاد على الشنتين فإما متجرىء على المحرم، أو ليس له رغبة في إمسакها، بل قصده المضارة، فلماذا أمر تعالى الزوج أن يمسك زوجته **«بمصرف»** أي: عشرة حسنة، ويجري مجرى أمثاله مع زوجاتهم، وهذا هو الأرجح، وإلا يسرحها ويفارقها **«بإحسان»** ومن الإحسان أن لا يأخذ على فراقه لها شيئاً من مالها، لأنه ظلم، وأخذ للمال في غير مقابلة بشيء، فلماذا قال: **«ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله»** وهي المخالعة بالمعروف، بأن كرهت الزوجة زوجها لخلقها أو خلقه أو نقص دينه، وخافت أن لا تطيع الله فيه، **«فإن خفتن أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما اقتدت به»**؛ لأنه عوض لتحصيل مقصودهما من الفرقة، وفي هذا مشروعية الخلع، إذا وجدت هذه الحكمة.

ذلك أبداً، فيحصل عليها من الضرر ما الله به عليم، فأخبر تعالى أن **«الطلاق»** أي: الذي تحصل به الرجعة **«مرتان»** ليتمكن الزوج إن لم يرد المضارة من ارتجاعها، ويراجع رأيه في هذه المدة، وأما ما فوقها فليس محلاً لذلك، لأن من زاد على الشنتين فإما متجرىء على المحرم، أو ليس له رغبة في إمسакها، بل قصده المضارة، فلماذا أمر تعالى الزوج أن يمسك زوجته **«بمصرف»** أي: عشرة حسنة، ويجري مجرى أمثاله مع زوجاتهم، وهذا هو الأرجح، وإلا يسرحها ويفارقها **«بإحسان»** ومن الإحسان أن لا يأخذ على فراقه لها شيئاً من مالها، لأنه ظلم، وأخذ للمال في غير مقابلة بشيء، فلماذا قال: **«ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله»** وهي المخالعة بالمعروف، بأن كرهت الزوجة زوجها لخلقها أو خلقه أو نقص دينه، وخافت أن لا تطيع الله فيه، **«فإن خفتن أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما اقتدت به»**؛ لأنه عوض لتحصيل مقصودهما من الفرقة، وفي هذا مشروعية الخلع، إذا وجدت هذه الحكمة.

ذلك أبداً، فيحصل عليها من الضرر ما الله به عليم، فأخبر تعالى أن **«الطلاق»** أي: الذي تحصل به الرجعة **«مرتان»** ليتمكن الزوج إن لم يرد المضارة من ارتجاعها، ويراجع رأيه في هذه المدة، وأما ما فوقها فليس محلاً لذلك، لأن من زاد على الشنتين فإما متجرىء على المحرم، أو ليس له رغبة في إمسакها، بل قصده المضارة، فلماذا أمر تعالى الزوج أن يمسك زوجته **«بمصرف»** أي: عشرة حسنة، ويجري مجرى أمثاله مع زوجاتهم، وهذا هو الأرجح، وإلا يسرحها ويفارقها **«بإحسان»** ومن الإحسان أن لا يأخذ على فراقه لها شيئاً من مالها، لأنه ظلم، وأخذ للمال في غير مقابلة بشيء، فلماذا قال: **«ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله»** وهي المخالعة بالمعروف، بأن كرهت الزوجة زوجها لخلقها أو خلقه أو نقص دينه، وخافت أن لا تطيع الله فيه، **«فإن خفتن أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما اقتدت به»**؛ لأنه عوض لتحصيل مقصودهما من الفرقة، وفي هذا مشروعية الخلع، إذا وجدت هذه الحكمة.

ذلك أبداً، فيحصل عليها من الضرر ما الله به عليم، فأخبر تعالى أن **«الطلاق»** أي: الذي تحصل به الرجعة **«مرتان»** ليتمكن الزوج إن لم يرد المضارة من ارتجاعها، ويراجع رأيه في هذه المدة، وأما ما فوقها فليس محلاً لذلك، لأن من زاد على الشنتين فإما متجرىء على المحرم، أو ليس له رغبة في إمسакها، بل قصده المضارة، فلماذا أمر تعالى الزوج أن يمسك زوجته **«بمصرف»** أي: عشرة حسنة، ويجري مجرى أمثاله مع زوجاتهم، وهذا هو الأرجح، وإلا يسرحها ويفارقها **«بإحسان»** ومن الإحسان أن لا يأخذ على فراقه لها شيئاً من مالها، لأنه ظلم، وأخذ للمال في غير مقابلة بشيء، فلماذا قال: **«ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله»** وهي المخالعة بالمعروف، بأن كرهت الزوجة زوجها لخلقها أو خلقه أو نقص دينه، وخافت أن لا تطيع الله فيه، **«فإن خفتن أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما اقتدت به»**؛ لأنه عوض لتحصيل مقصودهما من الفرقة، وفي هذا مشروعية الخلع، إذا وجدت هذه الحكمة.

إلى المعروف، وهو: العادة الجارية في ذلك البلد، وذلك الزمان من مثلها لثله، ويختلف ذلك باختلاف الأزمنة والأمكنة، والأحوال، والأشخاص، والعوائد.

وفي هذا دليل على أن النفقة والكسوة والمعاشرة والمسكن وكذلك الوطء - الكل يرجع إلى المعروف، فهذا موجب العقد المطلق.

وأما مع الشرط، فعلى شرطهما، إلا شرطاً أحل حراماً أو حرم حلالاً.

**«وللرجال عليهن درجة»** أي: رتبة ورياسة، وزيادة حق عليها، كما قال تعالى: **«الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم»**.

ومتصب النبوة والقضاء، والإمامة الصغرى والكبرى، وسائر الولايات مختص بالرجال، وله ضعف ما لها في كثير من الأمور، كاليراث ونحوه.

**«والله عزيز حكيم»** أي: له العزة القاهرة والسلطان العظيم، الذي دانت له جميع الأشياء، ولكنه مع عزته حكيم في تصرفه.

ويخرج من عموم هذه الآية الخوامل، فعدتبن وضع الحمل، واللاتي لم يدخل بهن فليس لهن عدة، والإمامة فعدتبن حيضتان، كما هو قول الصحابة رضي الله عنهم، وسياق الآيات<sup>(١)</sup> يدل على أن المراد بها الحرمة.

**«٢٢٩»** **«الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتن ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما اقتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون»** كان الطلاق في الجاهلية، واستمر أول الإسلام، يُطلق الرجل زوجته بلا نهاية، فكان إذا أراد مضارتها طلقها، فإذا شارفت انقضاء عدتها راجعها، ثم طلقها، وصنع بها مثل

فصدور الكتمان منهن دليل على عدم إيمانهن بالله واليوم الآخر، وإلا فلو آمن بالله واليوم الآخر، وعرفن أنهن مجزيات عن أعمالهن، لم يصدر منهن شيء من ذلك.

وفي ذلك دليل على قبول خبر المرأة عما تخبر به عن نفسها، من الأمر الذي لا يطلع عليه غيرها، كالحيض والحمل ونحوه<sup>(٢)</sup>.

ثم قال تعالى: **«وبيعولتهن أحق بردهن في ذلك»** أي: لأزواجهن ما دامت متربصة في تلك العدة، أن يردوهن إلى نكاحهن **«إن أرادوا إصلاحاً»** أي: رغبة وألفة ومودة.

ومفهوم الآية أنهم إن لم يريدوا الإصلاح فليسوا بأحق بردهن، فلا يحل لهم أن يراجعوهن لقصد المضارة لها، وتطويل العدة عليها، وهل يملك ذلك مع هذا القصد؟ فيه قولان.

الجمهور على أنه يملك ذلك مع التحريم، والصحيح أنه إذا لم يرد الإصلاح لا يملك ذلك، كما هو ظاهر الآية الكريمة، وهذه حكمة أخرى في هذا التبرص، وهي: أنه ربما أن زوجها ندم على فراقه لها، فجعلت له هذه المدة، ليتروى بها ويقطع نظره.

وهذا يدل على محبته تعالى للألفة بين الزوجين، وكرهته للفراق، كما قال النبي ﷺ: **«أبغض الحلال إلى الله الطلاق»**، وهذا خاص في الطلاق الرجعي، وأما الطلاق البائن فليس يبطل بأحق برجعته، بل إن تراضيا على التراجع فلا بد من عقد جديد مجتمع الشروط.

ثم قال تعالى: **«ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف»** أي: وللنساء على بيعولتهن من الحقوق والواجبات التي عليهن لأزواجهن من الحقوق اللازمة والمستحبة.

ومرجع الحقوق بين الزوجين يرجع

به ومعياً في مصلحته .

﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾  
عموماً، باللسان ثناءً وهدأً، وبالقلب  
اعترافاً وإقراراً، وبالأركان بصرفها في  
طاعة الله، ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ  
الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ أي: السنة، اللذين  
بين لكم بهما طرق الخير ورغبكم فيها،  
وطرق الشر وحذركم إياها، وعزقكم  
نفسه ووقائمه في أولياته وأعدائه،  
وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون .

وقيل: المراد بالحكمة أسرار  
الشريعة، فالكتاب فيه الحكم،  
والحكمة فيها بيان حكمة الله في أوامره  
ونواهيه، وكلا المعنيين صحيح، ولهذا  
قال: ﴿يعظكم به﴾ أي: بما أنزل  
عليكم، وهذا مما يقوي أن المراد  
بالحكمة أسرار الشريعة، لأن الموعظة  
ببيان الحكم والحكمة، والترغيب أو  
الترهيب، فالحكم به يزول الجهل .  
والحكمة مع الترغيب يوجب الرغبة،  
والحكمة مع الترهيب يوجب الرهبة .

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع أموركم  
﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾  
فلهذا بين لكم هذه الأحكام بغاية  
الإيقان والإحكام، التي هي جارية مع  
المصالح في كل زمان ومكان [قله  
الحمد والمثناة] .

﴿٢٣٢﴾ ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيُفِنْ  
أَجْلِهِنَّ فَلَا تَعْضِلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ  
أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ  
ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ  
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ أَمْرٌ أَرْسَلْنَاكُمْ  
بِهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ هذا  
خطاب لأولياء المرأة المطلقة دون  
الثلاث، إذا خرجت من العدة، وأراد  
زوجها أن ينكحها ورضيت بذلك، فلا  
يجوز لوليها من أب وغيره أن يعضلها،  
أي: يمنعها من التزوج به حقاً عليه  
وغضبياً، واشتمتاً لما فعل من الطلاق  
الأول .

وذكر أن من كان يؤمن بالله واليوم  
الآخر فإيمانه يمنعه من العضل، فإن  
ذلك أركي لكم وأظهر وأطيب مما يظن

الأمور، خصوصاً الولايات الصغار  
والكبار، نظر في نفسه<sup>(١)</sup>، فإن رأى  
من نفسه قوة على ذلك ووثق بها، أقدم  
ولا أحجم .

ولما بين الله تعالى هذه الأحكام  
العظيمة، قال: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾  
أي: شرائعه التي حددها وبينها  
ووضحها .

﴿بَيْنَهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم هم  
المتتبعون بها، التافعون لغيرهم .

وفي هذا من فضيلة أهل العلم ما  
لا يخفى، لأن الله تعالى جعل تبيينه  
لحدوده خاصاً بهم، وأنهم المقصودون  
بذلك، وفيه أن الله تعالى يجب من  
عباده، معرفة حدود ما أنزل على  
رسوله والتفقه بها .

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ  
النِّسَاءَ﴾ أي: طلاقاً رجعياً بواحدة أو  
ثنتين .

﴿فَلْيُفِنْ أَجْلِهِنَّ﴾ أي: قاربن  
انقضاء عدتهن .

﴿فَأَسْكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ  
سَرَّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: إما أن  
تراجعهن ونيتم القيام بحقوقهن، أو  
تتركونهن بلا رجعة ولا إضرار، ولهذا  
قال: ﴿وَلَا تَمْسُكُوهُنَّ ضُرَاراً﴾ أي:  
مضارة بهن ﴿لَتَمْتَدُوا﴾ في فعلكم هذا  
الحلال، إلى الحرام؛ فالحلال: الإمساك  
بمعروف<sup>(٢)</sup>، والحرام: المضارة،  
﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ ولو  
كان الحق يعود للمخلوق فالضرر عائد  
إلى من أراد الضرر .

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ لما  
بين تعالى حدوده غاية التبيين، وكان  
المقصود العلم بها والعمل، والوقوف  
معها وعدم مجاوزتها، لأنه تعالى لم  
ينزلها عبثاً، بل أنزلها بالحق والصدق  
والجد، نهى عن اتخاذها هزواً، أي:  
لعياً بها، وهو التجرد عليها، وعدم  
الامتثال لواجبها، مثل استعمال  
المضارة في الإمساك أو الفراق، أو كثرة  
الطلاق، أو جمع الثلاث، والله من  
رحمته جعل له واحدة بعد واحدة، رفقاً

تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره  
فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يترابعا  
إن ظنا أن يقبما حدود الله وتلك  
حدود الله بينتها لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ \* وإذا  
طلقتن النساء قبلن أجلهن فأسكوهن  
بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا  
تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومن يفعل  
ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا  
آيات الله هزواً واذكروا نعمة الله  
عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب  
والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا  
أن الله بكل شيء عليم \* يقول تعالى:  
﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ أي: المطلقة الثالثة ﴿فَلَا  
تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾  
أي: نكاحاً صحيحاً ويطؤها، لأن  
النكاح الشرعي لا يكون إلا صحيحاً،  
ويدخل فيه العقد والوطء، وهذا  
بالاتفاق .

ويشترط<sup>(١)</sup> أن يكون نكاح الثاني  
نكاح رغبة، فإن قصد به تحليلها للأول  
فليس بنكاح، ولا يفيد التحليل، ولا  
يفيد وطء السيد لأنه ليس بزواج، فإذا  
تزوجها الثاني رغباً ووطئها ثم فارقها  
وانقضت عدتها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾  
أي: على الزوج الأول والزوجة ﴿أَنْ  
يَتَرَاجَعَا﴾ أي: يجيدا عقداً جديداً  
بينهما، لإضافته التراجع إليهما، فدل  
على اعتبار التراضي .

ولكن يشترط في التراجع أن يظنا  
﴿أَنْ يَقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ بأن يقوم كل  
منهما بحق صاحبه، وذلك إذا ندما  
على عشرتهما السابقة الموجبة للفراق،  
وعزما أن يبدلاها بعشرة حسنة، فهنا  
لا جناح عليهما في التراجع .

ومفهوم الآية الكريمة أنهما إن لم  
يظنا أن يقبما حدود الله، بأن غلب  
على ظنهما أن الحلال السابقة باتية،  
والعشرة السيئة غير زائلة أن عليهما في  
ذلك جناحاً، لأن جميع الأمور إن لم يقم  
فيها أمر الله، ويسلك بها طاعته، لم  
يجل الإقدام عليها .

وفي هذا دلالة على أنه ينبغي  
للإنسان إذا أراد أن يدخل في أمر من

(١) في ب: ويعين .

(٢) في ب: أن ينظر .

(٣) في ب: بالمعروف .











اليها، ولما كان الإنسان ربما ترومه أنه إذا أنفق افتقر دفع تعالى هذه الوهم بقوله: ﴿وَالله يقبض ويبسط﴾ أي: يوسع الرزق على من يشاء ويقبضه عن من يشاء، فالتصرف كله بيديه ومدار الأمور راجع إليه، فالإمساك لا يبسط الرزق، والإنفاق لا يقبضه، ومع ذلك فالإنفاق غير ضائع على أهله، بل لهم يوم يجدون ما قدموه كاملاً موفراً مضاعفاً، فلهاذا قال ﴿وإليه ترجعون﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

ففي هذه الآيات دليل على أن الأسباب لا تنفع مع القضاء والقدر، وخصوصاً الأسباب التي تتركها أوامر الله. وفيها: الآية العظيمة بإحياء الموتى أعياناً في هذه الدار. وفيها: الأمر بالقتال والنفقة في سبيل الله، وذكر الأسباب الداعية لذلك الحاشية عليه، من تسميته قرضاً، ومضاعفته، وأن الله يقبض ويبسط وإليه ترجعون.

﴿٢٤٦ - ٢٤٨﴾ ﴿ألم تدر إلى الملائكة﴾

من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلون قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليهم بالظالمين \* وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليهم \* وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سَكِينَةٌ من ربكم وبقيّة مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين \* يقبض تعالى على نبيه قصة الملائ من بني إسرائيل وهم الأشراف والرؤساء، وخص الملائ بالذكر، لأنهم في العادة هم الذين يبحثون عن مصالحهم ليتفقوا فينتبههم غيرهم على ما يرونه، وذلك أنهم أتوا إلى نبي لهم بعد موسى عليه السلام

فقالوا له ﴿ابعث لنا ملكاً﴾ أي: عين لنا ملكاً ﴿نقاتل في سبيل الله﴾ ليجتمع متفرقنا ويقاوم بنا عدونا، ولعلمهم في ذلك الوقت ليس لهم رئيس يجمعهم، كما جرت عادة القبائل أصحاب البيوت، كل بيت لا يرضى أن يكون من البيت الآخر رئيس، فالتمسوا من نبيهم تعيين ملك يرضى الطرفين ويكون تعيينه خاصاً لعوائدهم، وكانت أنبياء بني إسرائيل تسوسهم، كلما مات نبي خلفه نبي آخر، فلما قالوا لنبيهم تلك المقالة ﴿قال﴾ لهم نبيهم ﴿هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلون﴾ أي: لعلمكم تطلبون شيئاً وهو إذا كتب عليكم لا تقومون به، فعرض عليهم العافية فلم يقبلوها، واعتمدوا على عزمهم ونيتهم، فقالوا: ﴿وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾ أي: أي شيء يمنعنا من القتال وقد ألقانا إليه، بأن أخرجنا من أوطاننا وسبيت ذراريها، فهذا موجب لكوننا نقاتل ولو لم يكتب علينا، فكيف مع أنه فرض علينا وقد حصل ما حصل، ولهذا لما لم تكن نياتهم حسنة ولم يقو تولكلهم على ربهم ﴿فلما كتب عليهم القتال تولوا﴾ فجنبوا عن قتال الأعداء وضعفوا عن المصادمة، وزال ما كانوا عزموا عليه، واستولوا على أكثرهم الخور واللين ﴿إلا قليلاً منهم﴾ فعصمهم الله ونبتهم وقوى قلوبهم فالتزموا أمر الله ووطنوا أنفسهم على مقارعة أعدائهم، فحازوا شرف الدنيا والآخرة، وأما أكثرهم فظلموا أنفسهم وتركوا أمر الله، فلهاذا قال: ﴿والله عليهم بالظالمين﴾ وقال لهم نبيهم ﴿عجيباً لطلبتهم﴾ إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً فكان هذا تعييناً من الله الواجب عليهم فيه القبول والانتقاد وترك الاعتراض، ولكن أبوا إلا أن يعترضوا، فقالوا: ﴿أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال﴾ أي: كيف يكون ملكاً وهو دوننا في الشرف والنسب ونحن أحق بالملك منه. ومع هذا فهو

للدو فضل ﴿أي: عظيم﴾ على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴿فلا تزيدهم النعمة شكراً﴾ بل ربما استعانوا بنعم الله على معاصيه، وقليل منهم الشكور الذي يعرف النعمة ويقربها ويصرفها في طاعة المنعم، ثم أمر تعالى بالقتال في سبيله، وهو قتال الأعداء الكفار لإعلاء كلمة الله ونصر دينه، فقال: ﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾ أي: فأحسنوا نياتكم واقصدوا بذلك وجه الله، واعلموا أنه لا يفيدكم القعود عن القتال شيئاً، ولو ظننتم أن في القعود حياتكم وبقاءكم، فليس الأمر كذلك، ولهذا ذكر القصة السابقة توطئة لهذا الأمر، فكما لم يفتح الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت خروجهم، بل أتاهم ما حذروا من غير أن يحتسبوا، فاعلموا أنكم كذلك، ولما كان القتال في سبيل الله لا يتم إلا بالنفقة وبذل الأموال في ذلك، أمر تعالى بالإنفاق في سبيله ورغب فيه، وسماه قرضاً فقال: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ فينطق ما يسر من أمواله في طرق الخيرات، خصوصاً في الجهاد، والحسن هو الحلال المقصود به وجه الله تعالى، ﴿فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾. الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، بحسب حالة المتفق ونيتة ونفع نفقته والحاجة

فقير ليس عنده ما يقوم به الملك من الأموال، وهذا بئس منهم على ظن فاسد، وهو أن الملك ونحوه من الولايات مستلزم لشرف النسب وكثرة المال، ولم يعلموا أن الصفات الحقيقية التي توجب التقديم مقدمة عليها، فهذا قال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ فلزمكم الانقياد لذلك ﴿وَرَزَاهُ اللَّهُ بَسْطَةَ فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ أي: فضله عليكم بالعلم والجسم، أي: بقوة الرأي: والجسم اللذين يهما تتم أمور الملك، لأنه إذا تم رأيه وقوي على تنفيذ ما يقتضيه الرأي: المصيب، حصل بذلك الكمال، ومتى فاته واحد من الأمرين اختل عليه الأمر، فلو كان قروي البدن مع ضعف الرأي، حصل في الملك خرق وقهر ومخالفة للمشروع، قوة على غير حكمة، ولو كان عالماً بالأمر وليس له قوة على تنفيذها لم يفده الرأي: الذي لا ينفذه شيئاً ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ الفضل كثير الكرم، لا يخص برحمة وبره العام أحداً عن أحد، ولا شريفاً عن وضيع، ولكنه مع ذلك ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق الفضل فيضعه فيه، فأزال بهذا الكلام ما في قلوبهم من كل ريب وشك وشبهة لتبينه أن أسباب الملك متوفرة فيه، وأن فضل الله يؤتية من يشاء من عباده، ليس له راد، ولا لإحسانه صاد، ثم ذكر لهم نبيهم أيضاً آية حسية يشاهدونها وهي إتيان التابوت الذي قد فقدوه زماناً طويلاً وفي ذلك التابوت سكنية تسكن بها قلوبهم، وتطمئن لها خواطرمهم، وفيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون، فأنت به الملائكة حاملة له وهم يرونه عياناً.

﴿٢٤٩ - ٢٥٢﴾ ﴿فَلَمَّا فَصَلَ

طالوت بالجود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشرى منه إلا قليلاً منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملائكة الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع

الصابرين \* ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين \* فهزم موهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه بما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين \* تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين \* أي: لما تملك طالوت بني إسرائيل واستقر له الملك تجهزوا لقتال عدوهم، فلما فصل طالوت بجنود بني إسرائيل وكانوا عدداً كثيراً وجماً غفيراً، امتحنهم بأمر الله ليتين الثابت المطمئن من ليس كذلك فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ فهو عاص ولا يتبعنا لعدم صبره وثباته ولمعصيته ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ﴾ أي: لم يشرب منه فإنه مني ﴿إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ فلا جناح عليه في ذلك، ولعل الله أن يجعل فيها بركة فتكفيه، وفي هذا الابتلاء ما يدل على أن الماء قد قل عليهم ليتحقق الامتحان، فعصى أكثرهم وشربوا من النهر الشرب المنهي عنه، ورجعوا على أعقابهم ونكصوا عن قتال عدوهم وكان في عدم صبرهم عن الماء ساعة واحدة أكبر دليل على عدم صبرهم على القتال الذي سيتناول وتحصل فيه المشقة الكبيرة، وكان في رجوعهم عن باقي العسكر ما يزداد به الثابتون توكلاً على الله، وتضرعاً واستكانة وتبرؤاً من حولهم وقوتهم، وزيادة صبر لقتلهم وكثرة عدوهم، فلماذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ﴾ أي: النهر هروا \* أي: طالوت والذين آمنوا معه \* وهم الذين أطاعوا أمر الله ولم يشربوا من النهر الشرب المنهي عنه فرأوا. . . قتلهم وكثرة أعدائهم، قالوا أي: قال كثير منهم \* لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده \* لكثرتهم وعددهم وغدهم \* قال الذين يظنون أنهم ملائكة الله \* أي: يستيقنون ذلك، وهم أهل الإيمان الثابت واليقين الراسخ، مثبتين لباقيهم ومطمئنين لخواطرمهم، وأميرين

حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُخَوِّفُونَ نَفْسَكُمْ بِهَا وَلَكُمْ عَلَيْكُمْ أَنْ تَقْرُبُوا عَلَيْكُمْ إِسْخَاءً إِتِيسَارًا وَلَا شِئْشَاءً أَتِيسَارًا فَكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ وَوَدَّعُوا وَجْهَ رَبِّكُمْ إِذْتِمَارًا ﴿٢٤٩﴾ ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ إِذْ يَبْتَليهم بِالنَّهَرِ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَصَلَّى طَالُوتُ فَتَظَاهَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَجَاءَ ثَلَاثِينَ إِلَّا ابْنَ الْعِمْرَانَ الَّذِي لَمْ يَتَمَطَّ فَاذْنَبَهُ رَبُّهُ فَأَنْبَأَهُ اللَّهُ بِمَا جَاءَ قَوْمَهُ فَأَتَتُمُوهُ فَذُكِرُوا فَطَسَّ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٢٥٠﴾ ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَخْرِبْنَا مِنْهُمْ وَأَغْنِنَا عَنْهُمْ وَجْعَلْ لَنَا عَلَيْهِمْ أَدْبَارًا مَثَلَتِ السَّيْفَ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿٢٥١﴾ ﴿فَجَاوَزَهُمْ هَارُونَ إِذْ يَبْتَليهم بِالنَّهَرِ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَصَلَّى طَالُوتُ فَتَظَاهَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَجَاءَ ثَلَاثِينَ إِلَّا ابْنَ الْعِمْرَانَ الَّذِي لَمْ يَتَمَطَّ فَاذْنَبَهُ رَبُّهُ فَأَنْبَأَهُ اللَّهُ بِمَا جَاءَ قَوْمَهُ فَأَتَتُمُوهُ فَذُكِرُوا فَطَسَّ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٢٥٢﴾

لهم بالصبر \* كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله \* أي: بإرادته ومشيئته فالأمر لله تعالى، والعزير من أعزه الله، والدليل من أذله الله، فلا تغني الكثرة مع خذلانه، ولا تضرب القلة مع نصره، ﴿والله مع الصابرين﴾ بالنصر والمعونة والتوفيق، فأعظم جالب لمعونة الله صبر العبد لله، فوعدت موعدته في قلوبهم وأثرت معهم، ولهذا لما برزوا لجالوت وجنوده ﴿قالوا﴾ جميعهم ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً﴾ أي: قو قلوبنا، وأوزعنا الصبر، وثبت أقدامنا عن التزلزل والفرار، وانصرنا على القوم الكافرين. من هاهنا تعلم أن جالوت وجنوده كانوا كفاراً، فاستجاب الله لهم ذلك الدعاء لإتيانهم بالأسباب الموجبة لذلك، ونصرهم عليهم \* فهزم موهم بإذن الله، وقتل داود \* عليه السلام، وكان مع جنود طالوت، ﴿جالوت﴾ أي: بإشراف قتل ملك الكفار بيده لشجاعته وقوته وصبره ﴿وآتاه الله﴾ أي: أتى الله داود الملك والحكمة \* أي: من عليه بتملكه على بني إسرائيل مع الحكمة، وهي النبوة المشتملة على الشرع العظيم والصراف المستقيم، ولهذا قال ﴿وعلمه بما يشاء﴾ من العلوم الشرعية والعلوم السياسية، فجمع الله له الملك والنبوة، وقد كان من قبله من الأنبياء يكون الملك



لغيرهم، فلما نصرهم الله تعالى اطمأنوا في ديارهم وعبدوا الله آمين مطمئنين لخدان أعدائهم وتمكينهم من الأرض، وهذا كله من آثار الجهاد في سبيله، فلو لم يكن لم يحصل ذلك فلماذا قال تعالى: ﴿ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ أي: لولا أنه يدفع بمن يقاتل في سبيله كيد الفجار وتكالب الكفار لفسدت الأرض باستيلاء الكفار عليها وإقامتهم شعائر الكفر ومنعهم من عبادة الله تعالى، وإظهار دينه ﴿ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ حيث شرع لهم الجهاد الذي فيه سعادتهم والمدافعة عنهم ومكنتهم من الأرض بأسباب يعلمونها، وأسباب لا يعلمونها، ثم قال تعالى ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق﴾ أي: بالصدق الذي لا ريب فيها المتضمن للاعتبار والاستبصار وبيان حقائق الأمور ﴿وإنك لمن المرسلين﴾ فهذه شهادة من الله لرسوله برسالته التي من جملة أدلتها ما قصه الله عليه من أخبار الأمم السالفة والأنبياء وأتباعهم وأعدائهم التي لولا خير الله إياه لما كان عنده بذلك علم بل لم يكن في قومه من عنده شيء من هذه الأمور، فدل أنه رسول الله حقاً ونبية صدقاً الذي بعثه بالحق ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

وفي هذه القصة من الآيات والعرير ما يتذكر به أولو الألباب، فمنها: أن اجتماع أهل الكلمة والحل والعقد وبحثهم في الطريق الذي تستقيم به أمورهم وفهمه، ثم العمل به، أكبر سبب لإرتقائهم وحصول مقصودهم، كما وقع لهؤلاء الملاحين راجعوا نبيهم في تعيين ملك تجتمع به كلمتهم ويلم متصرفهم، وتحصل له الطاعة منهم، ومنها: أن الحق كلما عورض وأوردت عليه الشبه ازداد وضوحاً وتميز وحصل به اليقين التام كما جرى لهؤلاء، لما اعترضوا على استحقاق طالوت للملك أجيوا بأجوبة حصل بها الإقناع وزوال الشبه والريب. ومنها: أن العلم والرأي: مع القوة المنفذة بهما كمال الولايات، وبفقدهما أو فقد أحدهما نقصانها وضررها. ومنها: أن الاتكال على النفس سبب الفشل والخذلان، والاستعانة بالله والصبر والالتجاء إليه سبب النصر، فالأول كما في قولهم لنبيهم ﴿وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾ فكأنه نتيجة ذلك أنه لما كتب عليهم القتال تولوا، والثاني في قوله: ﴿وما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾ فهزموهم بإذن الله. ومنها: أن من حكمة الله تعالى تمييز الخبيث من الطيب، والصادق من الكاذب، والصابر من الجبان، وأنه لم يكن ليذر العباد على ما هم عليه من الاختلاط وعدم التمييز. ومنها: أن من رحمة وستنه الجارية أن يدفع ضرر الكفار والمنافقين بالمؤمنين للمقاتلين، وأنه لولا ذلك لفسدت الأرض باستيلاء الكفر وشماثه عليها، ثم قال تعالى:

﴿٢٥٣﴾ ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو

شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾ يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض بما خصهم من بين سائر الناس بإيجانه وإرسالهم إلى الناس، ودعاتهم الخلق إلى الله، ثم فضل بعضهم على بعض بما أودع فيهم من الأوصاف الحميدة والأفعال السديدة والنفع العام، فمنهم من كلمه الله كموسى بن عمران خصه بالكلام، ومنهم من رفعه على سائرهم درجات كنبينا ﷺ الذي اجتمع فيه من الفضائل ما تفرق في غيره، وجمع الله له من المناقب ما فاق به الأولين والآخرين ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات﴾ الدالات على نبوته وأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴿وأيدناه بروح القدس﴾ أي: بالإيمان واليقين الذي أيد به الله وقواه على ما أمر به، وقيل أيد به جبريل عليه السلام يلازمه في أحواله ﴿ولو شاء الله ما اقتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات﴾ الموجبة للاجتماع على الإيمان ﴿ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر﴾ فكان موجب هذا الاختلاف التفرق والمعادة والمقاتلة، ومع هذا فلو شاء الله بعد هذا الاختلاف ما اقتتلوا، فدل ذلك على أن مشيئة الله نافذة غالبية للأسباب، وإنما تنفع الأسباب مع عدم معارضة المشيئة، فإذا وجدت اضمحل كل سبب، وزال كل موجب، فلماذا قال ﴿ولكن الله يفعل ما يريد﴾ فأرادته غالبية ومشيئته نافذة، وفي هذا ونحوه دلالة على أن الله تعالى لم يزل يفعل ما اقتضته مشيئته وحكمته، ومن جملة ما يفعله ما أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسوله ﷺ من الاستواء والنزول والأقوال، والأفعال التي يعبرون عنها بالأفعال الاختيارية. فائدة: كما يجب على المكلف معرفته بربه، فيجب عليه معرفته برسله، ما يجب لهم ويمتنع عليهم ويجوز في حقهم، ويؤخذ جميع ذلك مما وصفهم الله به في آيات متعددة، منها: أنهم رجال لا نساء، من أهل

فالشفاة كلها لله تعالى، ولكنه تعالى إذا أراد أن يرحم من يشاء من عباده أي لمن أراد أن يكرمه من عباده أن يشفع فيه، لا يستدئ الشافع قبل الإذن، ثم قال ﴿يعلم ما بين أيديهم﴾ أي: ما مضى من جميع الأمور ﴿وما خلفهم﴾ أي: ما يستقبل منها، فعلمه تعالى محيط بتفاصيل الأمور، متقدمها ومتأخرها، بالظواهر والباطن، بالغيب والشهادة، والعباد ليس لهم من الأمر شيء ولا من العلم مثقال ذرة إلا ما علمهم تعالى، ولهذا قال: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض﴾ وهذا يدل على كمال عظمته وسعة سلطانه، إذا كان هذه حالة الكرسي أنه يسع السموات والأرض على عظمتها وعظمة من فيهما، والكرسي ليس أكبر مخلوقات الله تعالى، بل هنا ما هو أعظم منه وهو العرش، وما لا يعلمه إلا هو، وفي عظمة هذه المخلوقات تحير الأفكار وتكل الأبصار، وتقلقل الجبال وتكع عنها فحول الرجال، فكيف بعظمة خالقها ومبدعها، والذي أودع فيها من الحكم والأسرار ما أودع، والذي قد أمسك السموات والأرض أن تزولا من غير تعب ولا نصب، فهذا قال: ﴿ولا يؤوده﴾ أي: يثقله ﴿حفظهما وهو العلي﴾ بذاته فوق عرشه، العلي بغيره لجميع المخلوقات، العلي بقدره لكمال صفاته ﴿العظيم﴾ الذي تتضائل عند عظمته جبروت الجبابرة، وتصغر في جانب جلاله أنوف الملوك القاهرة، فسبحان من له العظمة العظيمة والكبرياء الجسيمة والقهر والغلبة لكل شيء، فقد اشتملت هذه الآية على توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وعلى إحاطة ملكه وإحاطة علمه وسعة سلطانه وجلاله ومجده، وعظمته وكبريائه وعلوه على جميع مخلوقاته، فهذه الآية بمفردها عقيدة في أسماء الله وصفاته، متضمنة لجميع الأسماء الحسنى والصفات العلى، ثم قال تعالى:

والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم ﴿ هذه الآية الكريمة أعظم آيات القرآن وأفضلها وأجلها، وذلك لما اشتملت عليه من الأمور العظيمة والصفات الكريمة، فلماذا كثرت الأحاديث في الترغيب في قراءتها وجمالها ورداً للإنسان في أوقاته صباحاً ومساءً وعند نومه وأدبار الصلوات المكتوبات، فأخبر تعالى عن نفسه الكريمة بأنه ﴿لا إله إلا هو﴾ أي: لا معبود بحق سواه، فهو الإله الحق الذي تتعين أن تكون جميع أنواع العبادة والطاعة والتأله له تعالى، لكماله وكمال صفاته وعظيم نعمه، ولكون العبد مستحقاً أن يكون عبداً لربه، ممثلاً لأوامره مجتنباً لنواهيه، وكل ما سوى الله تعالى باطل، لعبادة ما سواه باطلة، لكون ما سوى الله مخلوقاً ناقصاً مدبراً فقيراً من جميع الوجوه، فلم يستحق شيئاً من أنواع العبادة، وقوله: ﴿الحي القيوم﴾ هذان الاسمان الكريمان يدلان على سائر الأسماء الحسنى دلالة مطابقة وتضمناً ولزوماً، فالحي من له الحياة الكاملة المستلزمة لجميع صفات الذات، كالسمع والبصر والعلم والقدرة، ونحو ذلك، والقيوم: هو الذي قام بنفسه وقام بغيره، وذلك مستلزم لجميع الأفعال التي تصف بها رب العالمين من فعله ما يشاء من الاستواء والنزول والكلام والقول والخلق والرزق والإماتة والإحياء، وسائر أنواع التدبير، كل ذلك داخل في قيومية الباري، ولهذا قال بعض المحققين: إنهما الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب، وإذا سئل به أعطى، ومن تمام حياته وقيوميته أنه ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ والسنة النعاس ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ أي: هو المالك وما سواه مملوك وهو الخالق الرازق المدبر وغيره مخلوق مرزوق مدير لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض فهذا قال: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ أي: لا أحد يشفع عنده بدون إذنه،

القرى لا من أهل البوادي، وأنهم مصطفىون مختارون، جمع الله لهم من الصفات الحميدة ما به الاصطفاء والاختيار، وأنهم سالون من كل ما يقدح في رسالتهم من كذب وخيانة وكتمان وعيوب مزرية، وأنهم لا يقرون على خطأ فيما يتعلق بالرسالة والتكليف، وأن الله تعالى خصهم بوحيه، فلهذا وجب الإيمان بهم وطاعتهم ومن لم يؤمن بهم فهو كافر، ومن قدح في واحد منهم أو سبه فهو كافر يتحتم قتله، ودلائل هذه الجمل كثيرة، من تدبر القرآن تبين له الحق، ثم قال تعالى:

﴿٢٥٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون﴾ وهذا من لطف الله بعباده أن أمرهم بتقديم شيء مما رزقهم الله، من صدقة واجبة ومستحبة، ليكون لهم ذخراً وأجرأ موفراً في يوم يحتاج فيه العاملون إلى مثقال ذرة من الخير، فلا بيع فيه ولو اقتدى الإنسان نفسه بملء الأرض ذهباً ليفتدي به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منه، ولم ينفعه خليل ولا صديق لا بوجهة ولا بشفاة، وهو اليوم الذي ينجر الميطلون ويحصل الخزي على الظالمين، وهم الذين وضعوا الشيء في غير موضعه، فتركوا الواجب من حق الله وحق عباده وتعدوا الحلال إلى الحرام، وأعظم أنواع الظلم الكفر بالله الذي هو وضع العبادة التي يتعين أن تكون لله فيصرفها الكافر إلى مخلوق مثله، فلهذا قال تعالى: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ وهذا من باب الحصر، أي: الذين ثبت لهم الظلم التام، كما قال تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾. ثم قال تعالى:

﴿٢٥٥﴾ ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات

وخص منه الإحياء والإماتة لكونهما أعظم أنواع التدابير، ولأن الإحياء مبدأ الحياة الدنيا والإماتة مبدأ ما يكون في الآخرة، فقال ذلك المحاج: ﴿أنا أحيي وأميت﴾ ولم يقل أنا الذي أحيي وأميت، لأنه لم يدع الاستقلال بالتصرف، وإنما زعم أنه يفعل كفعل الله ويصنع صنعه، فزعم أنه يقتل شخصاً فيكون قد أماته، ويستبقي شخصاً فيكون قد أحياه، فلما رآه إبراهيم يغالط في مجادلتك ويتكلم بشيء لا يصلح أن يكون شبهة فضلاً عن كونه حجة، اطرده معه في الدليل فقال إبراهيم ﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق﴾ أي: عياناً يفريه كل أحد حتى ذلك الكافر ﴿فأتت بها من المغرب﴾ وهذا الإزام له بطرد دليله إن كان صادقاً في دعواه، فلما قال له أمراً لا قوة له في شبهة تشوش دليبه، ولا قادحاً بقدر في سبيله ﴿بهت الذي كفر﴾ أي: تحير فلم يرجع إليه جواباً وانقطعت حجته وسقطت شبهته، وهذه حالة المبتل المعاند الذي يريد أن يقاوم الحق ويغالبه، فإنه مغلوب مقهور، فلذلك قال تعالى: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ بل يبقهم على كفرهم وضلالهم، وهم الذين اختاروا لأنفسهم ذلك، وإلا فلو كان قصدهم الحق والهداية لهداهم إليه ويسر لهم أسباب الوصول إليه، ففي هذه الآية برهان قاطع على تفرد الرب بالخلق والتدبير، ويلزم من ذلك أن يفرد بالعبادة والإنابة والتوكل عليه في جميع الأحوال، قال ابن القيم رحمه الله: وفي هذه المناظرة نكتة لطيفة جداً، وهي أن شرك العالم إنما هو مستند إلى عبادة الكواكب والقبور، ثم صورت الأصنام على صورتها، فتضمن الدليلان اللذان استدلت بهما إبراهيم إبطال إلهية تلك جملة بأن الله وحده هو الذي يحيي ويميت، ولا يصلح الحي الذي يموت للإلهية لا في حال حياته ولا بعد موته، فإن له رياً قادراً قاهراً متصرفاً فيه إحياء وإماتة، ومن كان كذلك فكيف يكون إلهاً حتى يتخذ الصنم على

منهما بحسب ما علمه منهم من الخير والشر، وهذا هو الغاية لمن استمسك بالمرءة الوثقى ولم لم يستمسك بها، ثم ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك فقال: ﴿الله ولي الذين آمنوا﴾ وهذا يشمل ولايتهم لربهم، بأن تولوه فلا يفتون عنه بدلاً ولا يشركون به أحداً، قد اتخذوه حبيباً وولياً، ووالوا أوليائه وعادوا أعداءه، فتولاهم بلطفه ومن عليهم بإحسانه، فأخرجهم من ظلمات الكفر والمعاصي والجهل إلى نور الإيمان والطاعة والعلم، وكان جزاؤهم على هذا أن سلمهم من ظلمات القبر والحشر والقيامة إلى النعيم المقيم والراحة والفسحة والسرور ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت﴾ فتولوا الشيطان وحزبه، واتخذوه من دون الله ولياً ووالوه وتركوا ولاية ربهم وسيدهم، فسلبهم عليهم عقوبة لهم فكانوا يؤززونهم إلى المعاصي أژاً، ويزعجونهم إلى الشر إزعاجاً، فيخرجونهم من نور الإيمان والعلم والطاعة إلى ظلمة الكفر والجهل والمعاصي، فكان جزاؤهم على ذلك أن حرموا الخيرات، وفاتهم النعيم والبهجة والمسرات، وكانوا من حزب الشيطان وأوليائه في دار الخسرة، فلهذا قال تعالى: ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

﴿٢٥٨﴾ ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ يقول تعالى: ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه﴾ أي: إلى جرائته ومجاهلته وعناده ومجاذبته فيما لا يقبل التشكيك، وما حمله على ذلك إلا ﴿أن آتاه الله الملك﴾ فطنى وبغى ورأى نفسه مترئساً على رعيته، فحمله ذلك على أن حاج إبراهيم في ربوبية الله فزعم أنه يفعل كما يفعل الله، فقال إبراهيم ﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾ أي: هو المنفرد بأنواع التصرف،

﴿٢٥٦-٢٥٧﴾ ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ يخبر تعالى أنه لا إكراه في الدين لعدم الحاجة إلى الإكراه عليه، لأن الإكراه لا يكون إلا على أمر خفية أعلامه، غامضة آثاره، أو أمر في غاية الكراهة للنفوس، وأما هذا الدين القويم والصرراط المستقيم فقد تبينت أعلامه للعقول، وظهرت طرقه، وتبين أمره، وعرف الرشد من الغي، فالمرء إذا نظر أدنى نظر إليه أثره واختاره، وأما من كان سيئ القصد فاسد الإرادة، خبيث النفس يرى الحق فيختار عليه الباطل، ويبصر الحسن فيميل إلى القبيح، فهذا ليس له حاجة في إكراهه على الدين، لعدم النتيجة والفائدة فيه، والمكروه ليس إيمانه صحيحاً، ولا تدل الآية الكريمة على ترك قتال الكفار المحاربين، وإنما فيها أن حقيقة الدين من حيث هو موجب لقبوله لكل منصف فصدقه اتباع الحق، وأما القتال وعدمه فلم تتعرض له، وإنما يؤخذ فرض القتال من نصوص أخر، ولكن يستدل في الآية الكريمة على قبول الجزية من غير أهل الكتاب، كما هو قول كثير من العلماء، فمن يكفر بالطاغوت فيترك عبادة ما سوى الله وطاعة الشيطان، ويؤمن بالله إيماناً تاماً أوجب له عبادة ربه وطاعته ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ أي: بالدين القويم الذي ثبتت قواعده ورسخت أركانه، وكان التمسك به على ثقة من أمره، لكونه استمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها﴾ وأما من عكس القضية فكفر بالله وأمن بالطاغوت، فقد أطلق هذه العروة الوثقى التي بها العصمة والنجاة، واستمسك بكل باطل مآله إلى الجحيم ﴿والله سميع عليم﴾ فيجازي كلا

صورتها، ويعبد من دونه، وكذلك الكواكب أظهرها وأكبرها للحسن هذه الشمس وهي مربوبة مدبرة مسخرة، لا تصرف لها بنفسها بوجه ما، بل ربهما وخالقها سبحانه يأتي بها من مشرقها فتتقاد لأمره ومشيئته، فهي مربوبة مسخرة مدبرة، لا إله يعبد من دون الله. «من مفتاح دار السعادة»، ثم قال تعالى:

﴿٢٥٩﴾ «أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مئة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مئة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم ينسنه وانظر إلى حمارك ولنجعملك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير» وهذا أيضاً دليل آخر على توحيد الله بالخلق والتدبير والإماتة والإحياء، فقال: «أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها» أي: قد باد أهلها وقتي سكانها وسقطت حيطانها على عروشها، فلم يبق بها أنيس بل بقيت موحشة من أهلها مقفرة، فوقف عليها ذلك الرجل متعجباً ﴿قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها﴾ استبعاداً لذلك وجهلاً بمقدرة الله تعالى، فلما أراد الله به خيراً أراه آية في نفسه وفي حماره، وكان معه طعام وشراب، ﴿فأماته الله مئة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم﴾ استقصاراً لتلك المدة التي مات فيها لكونه قد زالت معرفته وحواسه وكان عهد حاله قبل موته، فقبل له ﴿بل لبثت مئة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم ينسنه﴾ أي: لم يتغير بل بقي على حاله على تطاول السنين واختلاف الأوقات عليه، ففيه أكبر دليل على قدرته حيث أبقاه وحفظه عن التغير والفساد، مع أن الطعام والشراب من أسرع الأشياء فساداً ﴿وانظر إلى حمارك﴾ وكان قد مات وتمزق لحمه وجلده وانتشرت عظامه، وتفرقت أوصاله ﴿ولنجعملك آية

للناس﴾ على قدرة الله وبعثه الأموات من قبورهم، لتكون أنموذجاً محسوساً مشاهداً بالأبصار، فيعلموا بذلك صحة ما أخبرت به الرسل ﴿وانظر إلى العظام كيف ننشزها﴾ أي: ندخل بعضها في بعض، ونركب بعضها ببعض ﴿ثم نكسوها لحماً﴾ فنظر إليها عياناً كما وصفها الله تعالى، ﴿فلما تبين له﴾ ذلك وعلم قدرة الله تعالى ﴿قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ والظاهر من سياق الآية أن هذا رجل منكر للبعث أراد الله به خيراً، وأن يجعله آية ودليلاً للناس لثلاثة أوجه أحدها قوله ﴿أنى يحيي هذه الله بعد موتها﴾ ولو كان نبياً أو عبداً صالحاً لم يقل ذلك، والثاني: أن الله أراه آية في طعامه وشرابه وحماره ونفسه ليراه بعينه فيقر بما أنكره، ولم يذكر في الآية أن القرية المذكورة عمرت وعادت إلى حالتها، ولا في السياق ما يدل على ذلك، ولا في ذلك كثير فائدة، ما الفائدة الدالة على إحياء الله للموتى في قرية خربت ثم رجع إليها أهلها أو غيرهم فعمروها؟! وإنما الدليل الحقيقي في إحيائه وإحياء حماره وإبقاء طعامه وشرابه بحاله، والثالث في قوله: ﴿فلما تبين له﴾ أي: تبين له أمر كان يجهله ويخفى عليه، فعلم بذلك صحة ما ذكرناه، والله أعلم. ثم قال تعالى:

﴿٢٦٠﴾ «وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم» وهذا فيه أيضاً أعظم دلالة حسية على قدرة الله وإحيائه الموتى للبعث والجزاء، فأخبر تعالى عن خليله إبراهيم أنه سأله أن يريه ببصره كيف يحيي الموتى، لأنه قد تبين ذلك بخبر الله تعالى، ولكنه أحب أن يشاهده عياناً ليحصل له مرتبة عين اليقين، فلماذا قال الله له ﴿أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ وذلك أنه

قَلَّمَ صَلِّ مَا أُوْتِيَ بِالْحُسُوِّ قَالَ رَبِّ إِنَّكَ تُخَوِّدُنِي وَمَنْ تُشَاءُ اللَّهُ لَا يَعْصِيهِ أَحَدٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقْوَاهُ فَيَسِّرْ لَكُمْ أَسْبَابَ الرِّزْقِ وَيُعْزِزْ لَكُمْ الرِّزْقَ وَلَا يَمْسَسْكُمْ غَمًّا فَذَكَرُوا مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٦٦﴾

بتوارد الأدلية اليقينية عما يزداد به الإيمان ويكمل به الإيقان ويسعى في نيته أولوا العرفان، فقال له ربه ﴿فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك﴾ أي: ضمهن ليكون ذلك بمرأى منك ومشاهدة وعلى يديك. ﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً﴾ أي: مزهفن، اخلط أجزاءهن ببعضها ببعض، واجعل على كل جبل، أي: من الجبال التي في القرب منه، جزء من تلك الأجزاء ﴿ثم ادعهن يأتينك سعياً﴾ أي: تحصل لهن حياة كاملة، ويأتينك في هذه القوة وسرعة الطيران، ففعل إبراهيم عليه السلام ذلك وحصل له ما أراد وهذا من ملكوت السماوات والأرض الذي أراه الله إياه في قوله ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين﴾ ثم قال: ﴿واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ أي: ذو قوة عظيمة سخر بها المخلوقات، فلم يستعص عليه شيء منها، بل هي منقادة لعزته خاضعة لجلاله، ومع ذلك فأفعاله تعالى تابعة لحكمته، لا يفعل شيئاً عبثاً، ثم قال تعالى:

﴿٢٦١﴾ «مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم» هذا بيان للمضاعفة التي ذكرها الله في









بالتفكير وحث عليه، فقال: ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾.

﴿٢٦٧ - ٢٦٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذبه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد﴾ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالنفقة من طيبات ما يسر لهم من المكاسب، وما أخرج لهم من الأرض فكما من عليكم بتسهيل تحصيله فانفقوا منه شكراً لله وأداء لبعض حقوق إخوانكم عليكم، وتطهيراً لأموالكم، وأقصدوا في تلك النفقة الطيب الذي تجربونه لأنفسكم، ولا تيمموا الرديء الذي لا ترغبونه ولا تأخذونه إلا على وجه الإغماض والمساحة ﴿واعلموا أن الله غني حميد﴾ فهو غني عنكم ونفع صدقاتكم وأعمالكم عائد إليكم، ومع هذا فهو حديد على ما يأمركم به من الأوامر الحميدة والخصال السديدة، فعليكم أن تمثلوا أوامره لأنها قوت القلوب وحياة النفوس ونعيم الأرواح، وإياكم أن تتبعوا عدوكم الشيطان الذي يأمركم بالإمساك، ويخوفكم بالفقر والحاجة إذا أنفقتم، وليس هذا نصحاً لكم، بل

هذا غاية الفش ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ بل أطيعوا ربكم الذي يأمركم بالنفقة على وجه يسهل عليكم ولا يضركم، ومع هذا فهو ﴿يعدكم مغفرة﴾ لذنوبكم وتطهيراً لعبوبكم ﴿وفضلاً﴾ وإحساناً إليكم في الدنيا والآخرة، من الخلف العاجل، وانسراح الصدر ونعيم القلب والروح والقبور، وحصول ثوابها وتوفيتها يوم القيامة، وليس هذا عظيماً عليه لأنه ﴿واسع﴾ الفضل عظيم الإحسان ﴿عليم﴾ بما يصدر منكم من النفقات قليلها وكثيرها، سرها وعلتها، فيجازيكم عليها من سعته وفضله وإحسانه، فلينظر العبد نفسه إلى أي: الداعيين يميل، فقد تضمنت هاتان الآيتان أموراً عظيمة منها: الخث على الإنفاق، ومنها: بيان الأسباب الموجبة لذلك، ومنها: وجوب الزكاة من النفقدين وعروض التجارة كلها، لأنها داخلة في قوله: ﴿من طيبات ما كسبتم﴾ ومنها: وجوب الزكاة في الخارج من الأرض من الحبوب والثمار والمعادن، ومنها: أن الزكاة على من له الزرع والثمر لا على صاحب الأرض، لقوله ﴿أخرجنا لكم﴾ فمن أخرجت له وجبت عليه ومنها: أن الأموال المئدة للاقتناء من العقارات والأواني ونحوها ليس فيها زكاة، وكذلك الديون والغصوب ونحوها إذا كانت مجهولة، أو عند من لا يقدر ربحها على استخراجها منه، ليس فيها زكاة، لأن الله أوجب النفقة من الأموال التي يحصل فيها النماء الخارج من الأرض، وأموال التجارة مواساة من نماتها، وأما الأموال التي غير معدة لذلك ولا مقدوراً عليها فليس فيها هذا المعنى، ومنها: أن الرديء ينهى عن إخراجه ولا يجزىء في الزكاة ثم قال تعالى:

﴿٢٦٩﴾ ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب﴾ لما أمر تعالى بهذه الأوامر العظيمة المشتملة على الأسرار والحكم وكان ذلك لا يحصل لكل أحد، بل لمن من عليه وآتاه الله الحكمة، وهي العلم النافع والعمل الصالح ومعرفة أسرار الشرائع وحكمها، وإن من آتاه الله الحكمة فقد آتاه خيراً كثيراً وأي: خير أعظم من خير فيه سعادة الدارين والنجاة من شقاوتها! وفيه التخصيص بهذا الفضل وكونه من ورثة الأنبياء، فكمال العبد متوقف على الحكمة، إذ كماله بتكميل قوته العلمية والعملية فتكميل قوته العلمية بمعرفة الحق ومعرفة المقصود به، وتكميل قوته العملية بالعمل بالخير وترك الشر، وبذلك يتمكن من الإصابة بالقول والعمل وتنزيل الأمور منازلها في نفسه وفي غيره، وبدون ذلك لا يمكنه ذلك، ولما كان الله تعالى قد فطر عباده على عبادته ومحبة الخير والقصد للحق، فبعث الله الرسل مذكرين لهم بما ركز في فطرتهم وعقولهم، ومفصلين لهم ما لم يعرفوه، انقسم الناس قسمين قسم أجابوا دعوتهم فتذكروا ما ينفعهم ففعلوه، وما يضرهم فتركوه، وهؤلاء هم أولو الألباب الكاملة، والعقول التامة، وقسم لم يستجيبوا لدعوتهم، بل أجابوا ما عرض لفطرتهم من الفساد، وتركوا طاعة رب العباد، فهؤلاء ليسوا من أولي الألباب، فلماذا قال تعالى: ﴿وما يذكر إلا أولو الألباب﴾

﴿٢٧٠﴾ ﴿وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار﴾ وهذا فيه المجازاة على النفقات، وأجبتها ومستحبتها، قليلها وكثيرها، التي أمر الله بها، والنذور التي أزمها المكلف نفسه، وإن الله تعالى يعلمها فلا يخفى عليه منها شيء، ويعلم ما صدرت عنه، هل هو الإخلاص أو غيره، فإن صدرت عن إخلاص وطلب لمرضاة الله جازى عليها بالفضل العظيم والشواب الجسيم، وإن لم ينفق العبد ما وجب عليه من النفقات ولم يوف ما أوجه على نفسه من المنذورات، أو قصد بذلك رضى المخلوقات، فإنه ظالم قد وضع الشيء في غير موضعه، واستحق





قال الله تعالى راداً عليهم ومبيناً حكمته العظيمة ﴿وأحل الله البيع﴾ أي: لما فيه من عموم المصلحة وشدة الحاجة وحصول الضرر بتحريمه، وهذا أصل في حل جميع أنواع التصرفات الكسبية حتى يرد ما يدل على المنع ﴿وحرم الربا﴾ لما فيه من الظلم وسوء العاقبة، والربا نوعان: ربا نسيئة كبيع الربا بما يشاركه في العلة نسيئة، ومنه جعل ما في الذممة رأس مال، وسلم، وربا فضل، وهو بيع ما يجري فيه الربا بجنسه متفاضلاً، وكلاهما محرم بالكتاب والسنة، والإجماع على ربا النسيئة، وشذ من أباح ربا الفضل وخالف النصوص المستفيضة، بل الربا من كبائر الذنوب وموبقاتها ﴿فمن جاءه موعظة من ربه﴾ أي: وعظ وتذكير وترهيب عن تعاطي الربا على يد من قبضه الله لموعظته رحمة من الله بالموعوظ، وإقامة للحجة عليه ﴿فانتهى﴾ عن فعله والنزجر عن تعاطيه ﴿فله ما سلف﴾ أي: ما تقدم من المعاملات التي فعلها قبل أن تبلغه الموعظة جزء لقبوله للنصيحة، دل مفهوم الآية أن من لم ينته جوزي بالأول والآخر ﴿وأمره إلى الله﴾ في مجازاته وفيما يستقبل من أموره ﴿ومن عاد﴾ إلى تعاطي الربا ولم تنفمه الموعظة، بل أصر على ذلك ﴿فأولئك أصحاب النار﴾ هم فيها خالدون ﴿اختلف العلماء رحمهم الله في نصوص الوعيد التي ظاهرها تخليد أهل الكبائر من الذنوب التي دون الشرك بالله، والأحسن فيها أن يقال هذه الأمور التي رتب الله عليها الخلود في النار موجبات ومقتضيات لذلك، ولكن الموجب إن لم يوجد ما يمنعه ترتب عليه مقتضاه، وقد علم بالكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة أن التوحيد والإيمان مانع من الخلود في النار، فلو لا ما مع الإنسان من التوحيد لصار عمله صالحاً للخلود فيها بقطع النظر عن كفره، ثم قال تعالى: ﴿يمحق الله الربا﴾ أي: يذهب ويذهب بركته ذاتاً ووصفاً، فيكون سبباً لوقوع الآفات فيه ونزع البركة عنه، وإن أنفق

منه لم يؤجر عليه بل يكون زاداً له إلى النار ﴿ويربي الصدقات﴾ أي: يميها وينزل البركة في المال الذي أخرجت منه وينمي أجر صاحبها وهذا لأن الجزء من جنس العمل، فإن المرابي قد ظلم الناس وأخذ أموالهم على وجه غير شرعي، فجوزي بذهاب ماله، والمحسن إليهم بأنواع الإحسان ربه أكرم منه، فيحسن عليه كما أحسن على عباده ﴿والله لا يحب كل كفار﴾ لنعم الله، لا يؤدي ما أوجب عليه من الصدقات، ولا يسلم منه ومن شره عباد الله ﴿أليم﴾ أي: قد فعل ما هو سبب لإثمه وعقوبته. لما ذكر أكلة الربا وكان من المعلوم أنهم لو كانوا مؤمنين إيماناً ينفعهم لم يصدر منهم ما صدر ذكر حالة المؤمنين وأجرهم، وخاطبهم بالإيمان، ونهاهم عن أكل الربا إن كانوا مؤمنين، وهؤلاء هم الذين يقبلون موعظة ربه وينقادون لأمره، وأمرهم أن يتقوه، ومن جملة تقواه أن يذروا ما بقي من الربا أي: المعاملات الحاضرة الموجودة، وأما ما سلف، فمن اتعظ عفا الله عنه ما سلف، وأما من لم ينزجر بموعظة الله ولم يقبل نصيحته فإنه مشاق لربه محارب له، وهو عاجز ضعيف ليس له بدان في معارضة العزيز الحكيم الذي يمهل للظالم ولا يحمله حتى إذا أخذه، أخذه أخذ عزيز مقتدر ﴿وإن تبتم﴾ عن الربا ﴿فلكم رؤوس أموالكم﴾ أي: أنزلوا عليها ﴿لا تظلمون﴾ من عاملتموه بأخذ الزيادة التي هي الربا ﴿ولا تظلمون﴾ بنقص رؤوس أموالكم ﴿وإن كان﴾ اللذين ﴿ذو عسرة﴾ لا يجد وفاء ﴿فإنظره إلى مسيرة﴾ وهذا واجب عليه أن ينظره حتى يجد ما يوفي به ﴿وإن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ إما بإسقاطها أو بعضها.

﴿وانتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ وهذه الآية من آخر ما نزل من القرآن، وجعلت خاتمة لهذه الأحكام والأوامر والنواهي، لأن فيها الوعد على الخير، والوعيد على فعل

الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون \* يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين \* فإن لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون \* وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون \* واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون \* يجبر تعالى عن أكلة الربا وسوء مالكهم وشدة منقلبهم، أنهم لا يقومون من قبورهم ليوم نشورهم ﴿إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾ أي: يصرعه الشيطان بالجنون، فيقومون من قبورهم حيارى سكارى مضطربين، متوقعين لعظيم النكال وعسر الويال، فكما تقلبت عقولهم و ﴿قالوا إنما البيع مثل الربا﴾ وهذا لا يكون إلا من جاهل عظيم جهله، أو متجاهل عظيم عناده، جازاهم الله من جنس أحوالهم فصارت أحوالهم أحوال المجانين، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿لا يقومون﴾ إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ﴿أنه لما انسلبت عقولهم في طلب المكاسب الربوية خفت أحلامهم وضعفت أراؤهم، وصاروا في هيتهم وحركاتهم يشبهون المجانين في عدم انتظامها وانسلاخ العقل الأدبي عنهم،

الشر، وأن من علم أنه راجع إلى الله فمجازيه على الصغير والكبير والجلي والحفي، وأن الله لا يظلمه مثقال ذرة، أوجب له الرغبة والرغبة، وبدون حلول العلم في ذلك في القلب لا سبيل إلى ذلك.

﴿٢٨٢﴾ يا أيها الذين آمنوا إذا تدانيتهم يدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تساموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أسقط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن فعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم ﴿هذه آية الدين، وهي أطول آيات القرآن، وقد اشتملت على أحكام عظيمة جليلة المنفعة والمقدار، أحدها: أنه تجوز جميع أنواع المدائبات من سلم وغيره، لأن الله أخير عن المدابنة التي عليها المؤمنون إخبار مقرر لها ذكراً أحكامها، وذلك يدل على الجواز، الثاني والثالث أنه لا بد للمسلم من أجل وأنه لا بد أن يكون معيناً معلوماً فلا يصح حالاً ولا إلى أجل مجهول، الرابع: الأمر بكتابة جميع عقود المدائبات إما وجوباً وإما استحباباً لشدة الحاجة إلى كتابتها، لأنها بدون الكتابة يدخلها من الغلط والنسيان والمنازعة والشاحرة شر عظيم، الخامس: أمر الكاتب أن يكتب، السادس أن يكون عدلاً في نفسه لأجل

اعتبار كتابته، لأن الفاسق لا يعتبر قوله ولا كتابته، السابع أنه يجب عليه العدل بينهما، فلا يميل لأحدهما لقرباية أو صداقة أو غير ذلك، الثامن: أن يكون الكاتب عارفاً بكتابة الوثائق وما يلزم فيها كل واحد منهما، وما يحصل به التوثق، لأنه لا سبيل إلى العدل إلا بذلك، وهذا مأخوذ من قوله: ﴿وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾ التاسع: أنه إذا وجدت وثيقة بخط المعروف بالعدالة المذكورة يعمل بها، ولو كان هو والشهود قد ماتوا، العاشر قوله: ﴿ولا يأب كاتب أن يكتب﴾ أي: لا يمتنع من من الله عليه بتعليمه الكتابة أن يكتب بين المتدائنين، فكما أحسن الله إليه بتعليمه، فليحسن إلى عباد الله المحتاجين إلى كتابته، ولا يمتنع من الكتابة لهم، الحادي عشر: أمر الكاتب أن لا يكتب إلا ما أملاه من عليه الحق، الثاني عشر: أن الذي يمل من المتعاقدين من عليه الدين، الثالث عشر: أمره أن يبين جميع الحق الذي عليه ولا يبخس منه شيئاً، الرابع عشر: أن إقرار الإنسان على نفسه مقبول، لأن الله أمر من عليه الحق أن يمل على الكاتب، فإذا كتب إقراره بذلك ثبت موجه ومضمونه، وهو ما أقر به على نفسه، ولو ادعى بعد ذلك غلطاً أو سهواً، الخامس عشر: أن من عليه حقاً من الحقوق التي البيئية<sup>(١)</sup> على مقدارها وصفتها من كثرة وقلة وتعجيل وتأجيل، أن قوله هو المقبول دون قول من له الحق، لأنه تعالى لم ينه عن بخس الحق الذي عليه، إلا أن قوله مقبول على ما يقوله من مقدار الحق وصفته، السادس عشر أنه يحرم على من عليه حق من الحقوق أن يبخس وينقص شيئاً من مقداره، أو طيبه وحسنه، أو أجله أو غير ذلك من توابعه ولو احقه، السابع عشر أن من لا يقدر على إملاء الحق لصفره أو سفهه أو خرسه، أو نحو ذلك، فإنه ينوب وليه منابه في الإملاء والإقرار، الثامن عشر: أنه

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَسَعَتِهمُ الذُّبَابُ  
يَسْتَعْجِلُ الْمَيِّتَ مِنَ الرِّبَا وَيَقُولُ يَا رَبِّ انقِصْ رِيبِي  
يَسْئَلُ الرِّبَا وَأَعْلَى اللَّهُ السَّيِّئُ وَمَنْ رِيبِي رِيبِي  
يَنْزِلُ رَبِّيهِ كَانَتْ لَهُ مَا سَكَتَ وَأَمْرُهُ إِلَى الْوَيْلِ مَا كَانَتْ  
أَسْتَحْسِبُ النَّارَ مِنْهُمَا خَلِيدًا ﴿٤٧﴾ يَسْئَلُ اللَّهَ الرِّبَا  
وَيَسْئَلُ الْمَيِّتَ وَاللَّهُ لَا يَجِيءُ كُلَّ كَسْفٍ رَبِّيهِ ﴿٤٨﴾ إِنَّ  
الرِّبَا وَالسَّوْءَ عَمَلًا وَالسَّلْبَ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَا  
الرِّبَا لَمْ يَنْزِلْ عَلَيْهِمْ عَذَابٌ زَيْبٌ وَلَا حَرْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا  
هُمْ مُنْجُونَ ﴿٤٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا  
مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ ﴿٥٠﴾ إِن كُنْتُمْ  
فَاتَرْتَابُوا بِرِيبِكُمْ أَفَرَضْتُمْ أَنْ يُضْرَبَ بِكُمُ الْعَصَا  
أَمْ لَكُمْ أُذُنُ لَيْسَ لَكُمْ أُذُنٌ وَلَا آلَافُ عُيُونٍ ﴿٥١﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ  
عَسَرْتُمْ فَيَسِّرْ إِلَى يَسْرٍ وَإِنْ فَضَّلْتُمْ أَلْهَمَ إِنْ  
كُنْتُمْ تُحِبُّونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْتُمْ تَرَوْنَ سُحُورَ رِيبِكُمْ يَوْمَ  
أَقُومُ رَبِّي سَعَلَ تَبَسًا مَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٥٣﴾

يلزم الولي من العدل ما يلزم من عليه الحق من العدل، وعدم البخس لقوله ﴿بالعدل﴾ التاسع عشر: أنه يشترط عدالة الولي، لأن الإملاء بالعدل المذكور لا يكون من فاسق، العشرون: ثبوت الولاية في الأموال، الحادي والعشرون: أن الحق يكون على الصغير والسفيه والمجنون والضعيف، لا على وليهم، الثاني والعشرون: أن إقرار الصغير والسفيه والسفيه والمجنون والمعتهر ونحوهم وتصرفهم غير صحيح، لأن الله جعل الإملاء لوليهم، ولم يجعل لهم منه شيئاً لطفاً بهم ورحمة، خوفاً من تلاف أموالهم، الثالث والعشرون: صحة تصرف الولي في مال من ذكر، الرابع والعشرون: فيه مشروعية كون الإنسان يتعلم الأمور التي يتوثق بها المتدائنين كل واحد من صاحبه، لأن المقصود من ذلك التوثق والعدل، وما لا يتم المشروع إلا به فهو مشروع، الخامس والعشرون أن تعلم الكتابة مشروع، بل هو فرض كفاية، لأن الله أمر بكتابة الديون وغيرها، ولا يحصل ذلك إلا بالتعلم، السادس والعشرون: أنه مأمور بالإشهاد على العقود، وذلك على وجه التدب، لأن المقصود من ذلك الإرشاد إلى ما يحفظ الحقوق، فهو عائد لمصلحة المكلفين، نعم إن كان

(١) الكلمة غير واضحة في الأصل، وأقرب ما يكون أنها على ما أثبت والله أعلم.



إليه لعدم الكاتب فيه ، هذا كله إذا كان صاحب الحق يجب أن يتوثق لحقه ، فما كان صاحب الحق آمناً من غريمه وأحب أن يعامله من دون رهن فعلى من عليه الحق أن يؤدي إليه كاملاً غير ظالم له ولا باخس حقه **﴿وليتق الله ربه﴾** في أداء الحق ويمارزي من أحسن به الظن بالإحسان **﴿ولا تكتسبوا الشهادة﴾** لأن الحق مبني عليها لا يثبت بدونها ، فكتمها من أعظم الذنوب ، لأنه يتترك ما وجب عليه من الخبر الصدق ويخبر بضده وهو الكذب ، ويترتب على ذلك قوات حق من له الحق ، ولهذا قال تعالى : **﴿ومن يكتسبها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم﴾** وقد اشتملت هذه الأحكام الحسنة التي أرشد الله عباده إليها على حكم عظيمة ومصالح عميمة دلت على أن الخلق لو اهتموا بإرشاد الله لصلحت دنياهم مع صلاح دينهم ، لاشتمالها على العدل والمصلحة ، وحفظ الحقوق وقطع المشاجرات والمنازعات ، وانتظام أمر المعاش ، فله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه لا تحصي ثناء عليه .

**﴿٢٨٥﴾** **﴿أمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾** يخبر تعالى عن إيمان الرسول والمؤمنين معه ، وانقيادهم وطاعتهم وسؤالهم مع ذلك المغفرة ، فأخبر أنهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وهذا يتضمن الإيمان بجميع ما أخبر الله به عن نفسه ، وأخبرت به عنه رسله من صفات كماله ونعوت جلاله على وجه الإجمال والتفصيل ، وتنزيهه عن التمثيل والتعطيل وعن جميع صفات النقص ، ويتضمن الإيمان بالملائكة الذين نصت عليهم الشرائع جملة وتفصيلاً ، وعلى الإيمان بجميع الرسل والكتب ، أي : بكل ما أخبرت به الرسل وتضمنته الكتب من الأخبار والأوامر والنواهي ، وأنهم لا يفرقون بين أحد من رسله ، بل يؤمنون بجميعهم ، لأنهم وسائط بين الله وبين عباده ، فالكفر ببعضهم كفر بجميعهم بل كفر بالله **﴿وقالوا سمعنا﴾** ما أمرتنا به ونهيئنا **﴿وأطعنا﴾** لك في ذلك ، ولم يكونوا ممن قالوا سمعنا وعصينا ، ولما كان العبد لا بد أن يحصل منه تقصير في حقوق الله تعالى وهو محتاج إلى مغفرته على الدوام ، قالوا **﴿غفرانك﴾** أي : نسألك مغفرة لما صدر منا من التقصير والذنوب ، ومحو ما اتصفنا به من العيوب **﴿وإليك المصير﴾** أي : المرجع لجميع الخلائق فتجزئهم بما عملوا من خير وشر .

**﴿٢٨٤﴾** **﴿الله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير﴾** هذا إخبار من الله أنه له ما في السموات وما في الأرض ، الجميع خلقهم ورزقهم وديرهم لمصالحهم الدينية والدنيوية ، فكانوا ملكاً له وعبيداً ، لا يملكون لأنفسهم شراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، وهو ربهم ومالكهم الذي يتصرف فيهم بحكمته وعدله وإحسانه ، وقد أمرهم وأعلنوه ، **﴿فيغفر لمن يشاء﴾** وهو لمن أتى بأسباب المغفرة ، ويعذب من يشاء بذنبه الذي لم يحصل له ما يكفره **﴿والله على كل شيء قدير﴾** لا يعجزه شيء ، بل كل الخلق طوع قهره ومشئته وتقديره وجزائه .

**﴿٢٨٦﴾** **﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾** لما نزل قوله تعالى **﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾** شق ذلك على المسلمين لما توهموا أن ما يقع في القلب من الأمور اللازمة والعارضة المستقرة وغيرها

﴿وإن كسرت على سقر وأرعدوا كما يرفعون مؤمنة  
 فإن أين يصركم ربنا على الذين أنشئنا لنتعلم  
 منهم ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا  
 ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا  
 واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على  
 القوم الكافرين﴾

مؤاخذون به ، فأخبرهم بهذه الآية أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها أي : أمراً تسعه طاقتها ، ولا يكلفها وشق عليها ، كما قال تعالى **﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾** فأصل الأوامر والنواهي ليست من الأمور التي تشق على النفوس ، بل هي غذاء للأرواح ودواء للأبدان ، وحماية عن الضرر ، فالله تعالى أمر العباد بما أمرهم به رحمة وإحساناً ، ومع هذا إذا حصل بعض الأعدار التي هي مظنة المشقة حصل التخفيف والتسهيل ، إما بإسقاطه عن المكلف ، أو إسقاط بعضه كما في التخفيف عن المريض والمسافر وغيرهم ، ثم أخبر تعالى أن لكل نفس ما كسبت من الخير ، وعليها ما اكتسبت من الشر ، فلا تزر وازرة وزر أخرى ولا تذهب حسنات العبد لغيره ، وفي الإنثيان بد **﴿كسب﴾** في الخير الدال على أن عمل الخير يحصل للإنسان بأدنى سعي منه بل بمجرد نية القلب وأتى بد **﴿اكتسب﴾** في عمل الشر للدلالة على أن عمل الشر لا يكتب على الإنسان حتى يعمله ويحصل سعيه ، ولما أخبر تعالى عن إيمان الرسول والمؤمنين ، معه وأن كل عامل سيجازى بعمله ، وكان الإنسان عرضة للتقصير والخطأ والنسيان ، وأخبر أنه لا يكلفنا إلا ما نطبق وتسعه قوتنا ، أخبر عن دعاء المؤمنين بذلك ، وقد أخبر النبي ﷺ





فانتشرت إليه جميع مخلوقاته في الإيجاد والإعداد والإمداد، فهو الذي قام بتدبير الخلائق وتصريفهم، تدبير لأجسام وللقلوب والأرواح، ومن قيامه تعالى بعباده ورحمته بهم أن نزل على رسوله محمد ﷺ الكتاب، الذي هو أجل الكتب وأعظمها المشتمل على الحق في إخباره وأوامره ونواهيه، فما أخبر به صدق، وما حكم به فهو العدل، وأنزله بالحق ليقوم الخلق بعبادة ربهم ويتعلموا كتابه مصداقاً لما بين يديه من الكتب السابقة، فهو الزكي لها، فما شهد له فهو المقبول، وما رده فهو المردود، وهو المطابق لها في جميع المطالب التي اتفق عليها المرسلون، وهي شاهدة له بالصدق، فأهل الكتاب لا يمكنهم التصديق بكتبهم إن لم يؤمنوا به، فإن كفرهم به ينقض إيمانهم بكتبهم، ثم قال تعالى ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ﴾ أي: على موسى ﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾ على عيسى ﴿مَنْ قَبْلُ﴾ أنزال القرآن ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ الظاهر أن هذا راجع لكل ما تقدم، أي: أنزل الله القرآن والتوراة والإنجيل هدى للناس من الضلال، فمن قبل هدى الله فهو المهتدي، ومن لم يقبل ذلك بقي على ضلاله ﴿وَأَنْزَلَ الضَّرْقَانَ﴾ أي: الحجج والبيانات والبراهين القاطعات الدالة على جميع المقاصد والمطالب، وكذلك فصل وفسر ما يحتاج إليه الخلق حتى بقيت الأحكام جليلة ظاهرة، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة لمن لم يؤمن به وبآياته، فهذا قال ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: بعد ما بينها ووضحها وأزاح العليل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لا يُقَدَّرُ قدره ولا يدرك وصفه ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ قَوِيٌّ لَا يَعْجِزُهُ شَيْءٌ﴾ ذو انتقام ﴿مَنْ عَصَا﴾ إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهذا فيه تقرير إحاطة علمه بالمعلومات كلها، جليها وخفيها، ظاهرها وباطنها، ومن جملة ذلك الأجنه في البطون التي لا يدركها بصر المخلوقين، ولا ينالها علمهم، وهو تعالى يدبرها بالطف تدبير، ويقدرها بكل تقدير، فهذا قال

ربنا وملئنا والهناء الذي لم نزل ولا ينك إيانا منذ أوجدتنا وأنشأتنا فنعلمك دارة علينا متصلة عدد الأوقات، ثم أنعمت علينا بالنعمة العظيمة والمنحة الجسيمة، وهي نعمة الإسلام التي جميع النعم تبع لها، ففسألك يا ربنا ومولانا تمام نعمتك بأن تنصرننا على القوم الكافرين، الذين كفروا بك وبرسلك، وقاوموا أهل دينك ونبذوا أمرك، فانصرننا عليهم بالحجة والبيان والسيوف والسنان، بأن تمكن لنا في الأرض وتغذلهم وترزقنا الإيمان والأعمال التي يحصل بها النصر، والحمد لله رب العالمين. ثم تفسير سورة البقرة بعون الله وتوفيقه وصلى الله على محمد وسلم.

**تفسير سورة آل عمران وهي مدنية**

نزل صدرها إلى بضع وثمانين آية في مخاصمة النصارى وإبطال مذهبهم ودعوتهم إلى الدخول في الدين الحق دين الإسلام كما نزل صدر البقرة في محاجة اليهود كما تقدم.

﴿١-٦﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ الم ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ نزل عليك الكتاب بالحق مصداقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل ﴿من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان﴾ إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام ﴿إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴿افتتحها تبارك وتعالى بالإخبار بالوحيته، وأنه الإله الذي لا إله إلا هو الذي لا ينبغي التأله والتعبد إلا لوجهه، فكل معبود سواه فهو باطل، والله هو الإله الحق المتصف بصفات الألوهية التي مرجعها إلى الحياة والقيومية، فالحي من له الحياة العظيمة الكاملة المستلزمة لجميع الصفات التي لا تتم ولا تكمل الحياة إلا بها كالسمع والبصر والقدرة والقوة والعظمة والبقاء والدوام والعز الذي لا يرام ﴿القيوم﴾ الذي قام بنفسه فاستغنى عن جميع مخلوقاته، وقام بغيره

أن الله قال: قد عملت. إجابة لهذا الدعاء، فقال ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ والفرق بينهما: أن النسيان: ذهول القلب عن ما أمر به فيتروكه نسياناً، والخطأ: أن يقصد شيئاً يجوز له قصده ثم يقع فعله على ما لا يجوز له فعله: فهذا قد عفا الله عن هذه الأمة ما يقع بهما رحمة بهم وإحساناً، فعلى هذا من صلى في ثوب مغمس، أو نجس، أو قد نسي نجاسة على بدنه، أو تكلم في الصلاة ناسياً، أو فعل مفسطراً ناسياً، أو فعل محظوراً من محظورات الإحرام التي ليس فيها إتلاف ناسياً، فإنه معفو عنه، وكذلك لا ينجث من فعل المحلوف عليه ناسياً، وكذلك لو أخطأ فأتلف نفساً أو مالا فليس عليه إثم، وإنما الضمان مرتب على مجرد الإتلاف، وكذلك المواضع التي تجب فيها التسمية إذا تركها الإنسان ناسياً لم يضر. ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً﴾ أي: تكاليف مشقة ﴿كما حملته على الذين من قبلنا﴾ وقد فعل تعالى فإن الله خفف عن هذه الأمة في الأوامر من الطهارات وأحوال العبادات ما لم يخففه على غيرها ﴿ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به﴾ وقد فعل وله الحمد ﴿واعف عنا واعرّف لنا وارحمنا﴾ فالعفو والمغفرة يحصل بهما دفع المكارة والشروع، والرحمة يحصل بها صلاح الأمور ﴿أنت مولانا﴾ أي:

والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، فهكذا يقال في سائر الصفات لمن سأل عن كيفيتها أن يقال كما قال الإمام مالك، تلك الصفة معلومة، وكيفيتها مجهولة، والإيمان بها واجب، والسؤال عنها بدعة، وقد أخبرنا الله بها ولم يخبرنا بكيفيتها، فيجب علينا الوقوف على ما حد لنا، فأهل الزيغ يتبعون هذه الأمور المشتبهات تعرضاً لما لا يعني، وتكلفاً لما لا سبيل لهم إلى علمه، لأنه لا يعلمها إلا الله، وأما الراسخون في العلم فيؤمنون بها ويكفون المعنى إلى الله فيسلمون ويسلمون، وإن أريد بالتأويل التفسير والكشف والإيضاح، كان الصواب عطف ﴿الراسخون﴾ على ﴿الله﴾ فيكون الله قد أخبر أن تفسير التشابه ورده إلى المحكم وإزالة ما فيه من الشبهة لا يعلمها إلا هو تعالى والراسخون في العلم يعلمون أيضاً، فيؤمنون بها ويردونها للمحكم ويقولون ﴿كل﴾ من المحكم والتشابه ﴿من عند ربنا﴾ وما كان من عنده فليس فيه تعارض ولا تناقض بل هو متفق بصدق بعضه بعضاً ويشهد بعضه لبعض<sup>(١)</sup>، وفيه تنبيه على الأصل الكبير، وهو أنهم إذا علموا أن جميعه من عند الله، وأشكل عليهم مجمل التشابه، علموا يقيناً أنه مردود إلى المحكم، وإن لم يفهموا وجه ذلك. ولما رغب تعالى في التسليم والإيمان بأحكامه وزجر عن اتباع التشابه قال ﴿وما يذكر﴾ أي: ينعت بمواعظ الله ويقبل نصحه وتعليمه إلا ﴿أولوا الألباب﴾ أي: أهل العقول الرزينة لب العالم وخالصة بني آدم يصل التذكير إلى عقولهم، فيتذكرون ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه، وأما من عذاهم فهم القشور الذي لا حاصل له ولا نتيجة تحته، لا ينفعهم الزجر والتذكير لخلوهم من العقول النافعة.

يلتبس معناها على كثير من الأذهان: لكون دلالتها مجملة، أو يتبادر إلى بعض الأفهام غير المراد منها، فالخاصل أن منها آيات بيّنة واضحة لكل أحد، وهي الأكثر التي يرجع إليها، ومنه آيات تشكل على بعض الناس، فالواجب في هذا أن يرد التشابه إلى المحكم والخفي إلى الجلي، فهذه الطريق يصدق بعضها بعضاً ولا يحصل فيه مناقضة ولا معارضة، ولكن الناس انقسموا إلى فرقتين ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ﴾ أي: ميل عن الاستقامة بأن فسدت مقاصدهم، وصار قصدهم الغي والضلال وانحرفت قلوبهم عن طريق الهدى والرشاد ﴿فيستبعون ما تشابه منه﴾ أي: يتركون المحكم الواضح ويذهبون إلى التشابه، ويعكسون الأمر فيحملون المحكم على التشابه ﴿ابتغاء الفتنة﴾ لمن يدعونهم لقولهم، فإن التشابه تحصل به الفتنة بسبب الاشتباه الواقع فيه، وإلا فالمحكم الصريح ليس محلاً للفتنة، لوضوح الحق فيه لمن قصده اتباعه، وقوله ﴿وابتغاء تأويله﴾ وما يعلم تأويله إلا الله ﴿للمفسرين في الوقوف على﴾ الله ﴿من قوله﴾ ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ قولان، جمهورهم يقفون عندها، وبعضهم يعطف عليها ﴿والراسخون في العلم﴾ وذلك كله محتمل، فإن التأويل إن أريد به علم حقيقة الشيء، ولكنه كان الصواب الوقوف على ﴿إلا الله﴾ لأن التشابه الذي استأثر الله بعلمه كنهه وحقيقته، نحو حقائق صفات الله وكيفيتها، وحقائق أوصاف ما يكون في اليوم الآخر ونحو ذلك، فهذه لا يعلمها إلا الله، ولا يجوز التعرض للوقوف عليها، لأنه تعرض لما لا يمكن معرفته، كما سئل الإمام مالك رحمه الله عن قوله ﴿الرحمن على العرش﴾ [استوى<sup>(٢)</sup>] فقال السائل: كيف استوى؟ فقال مالك: الاستواء معلوم،

﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾ من كامل الخلق ونواقسه، وحسن وقبح، وذكر وأنى ﴿لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ تضمنت هذه الآيات تقرير إلهية الله وتعيينها، وإبطال إلهية ما سواه، وفي ضمن ذلك رد على النصارى الذين يزعمون إلهية عيسى ابن مريم عليه السلام، وتضمنت إثبات حياته الكاملة وقبوميته الثابتة، المتضمنتين جميع الصفات المقدسة كما تقدم، وإثبات الشرائع الكبار، وأنها رحمة وهداية للناس، وتقسيم الناس إلى مهتد وغيره، وعقوبة من لم يهتد بها، وتقرير سعة علم الباري ونفوذ مشيئته وحكمته.

﴿٧-٩﴾ ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب﴾ منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيؤمنون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون أمانا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾ ﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم لا يرعب فيه إن الله لا يخلف الميعاد﴾ القرآن العظيم كله محكم كما قال تعالى ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ فهو مشتمل على غاية الإنقاذ والإحكام والعدل والإحسان ﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ وكله متشابه في الحسن والبلاغة وتصديق بعضه لبعضه ومطابقتها لفظاً ومعنى، وأما الإحكام والتشابه المذكور في هذه الآية فإن القرآن كما ذكره الله ﴿منه آيات محكمات﴾ أي: واضحات الدلالة، ليس فيها شبهة ولا إشكال ﴿هن أم الكتاب﴾ أي: أصله الذي يرجع إليه كل متشابه، وهي معظمه وأكثره، ﴿و﴾ منه آيات ﴿أخر متشابهات﴾ أي:

(١) سقطت كلمة استوى من الأصل وأضفتها؛ لأنها موضع الشاهد.

(٢) في هامش الأصل زيادة نصها: (وفي تنبيه على الأصل الكبير وهو أنهم إذا علموا أن جميعه من عند الله، وأشكل عليهم مجمل التشابه علموا يقيناً أنه مردود إلى المحكم وإن لم يفهموا وجه ذلك). ولم يبين لي محلها إلا أن الأثر بها هنا.

ثم أخير تعالى عن الراسخين في العلم أنهم يدعون ويقولون ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ أي: لا تملها عن الحق جهلاً وعناداً منا، بل اجعلنا مستقيمين هادين مهتدين، فثبتنا على هدايتك وعافنا بما<sup>(١)</sup> ابتليت به الزائغين ﴿وهب لنا من لدنك رحمة﴾ أي: عظيمة توفقتنا بها للخيرات وتعصمتنا بها من المنكرات ﴿إنك أنت الوهاب﴾ أي: واسع العطايا والهبات، كثير الإحسان الذي عم جودك جميع البريات.

﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إنك لا تخلف الميعاد﴾ فمجازيهم بأعمالهم حسناتها وسيئها، وقد أنشئ الله تعالى على الراسخين في العلم سبع صفات هي عنوان سعادة العبد: إحداها: العلم الذي هو الطريق الموصل إلى الله، المبين لأحكامه وشرائعه، الثانية: الرسوخ في العلم وهذا قدر زائد على مجرد العلم، فإن الراسخ في العلم يقتضي أن يكون عالماً محققاً، وعارفاً مدققاً، قد علمه الله ظاهر العلم وباطنه، فرسخ قدمه في أسرار الشريعة علماً وحالاً وعملاً، الثالثة: أنه وصفهم بالإيمان بجميع كتابه وردّ تشابيه إلى محكمه، بقوله ﴿يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾ الرابعة: أنهم سألوا الله العفو والعافية مما ابتلي به الزائغون النحرفون، الخامسة: اعترافهم بمنة الله عليهم بالهداية وذلك قوله ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ السادسة: أنهم مع هذا سألوه رحمة المتضمنة حصول كل خير واندفاع كل شر، وتوسلوا إليه باسمه الوهاب، السابعة: أنه أخير عن إيمانهم وإيقانهم بيوم القيامة وخوفهم منه، وهذا هو الموجب للعمل الرادع عن الزلل، ثم قال تعالى:

﴿١٠-١٣﴾ ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار﴾ كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا

(١) في الأصل: ممن، ولعل الثواب ما أثبت.

بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب \* قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد \* قد كان لكم آية في فتين النقتان فتقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثلهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾ يخبر تعالى أن الكفار به وبرسله، الجاحدين بدينه وكتابه، قد استحقوا العقاب وشلة العذاب بكفرهم وذنوبهم وأنه لا يغني عنهم مالهم ولا أولادهم شيئاً، وإن كانوا في الدنيا يستدفعون بذلك النكبات التي ترد عليهم، ويقولون ﴿نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين﴾ فيوم القيامة يبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴿وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن﴾ وليس للأولاد والأموال قدر عند الله، إنما ينفع العبد إيمانه بالله وأعماله الصالحة، كما قال تعالى ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون﴾ وأخبر هنا أن الكفار هم وقود النار، أي: حطبها، الملازمون لها دائماً أبداً، وهذه الحال التي ذكر الله تعالى أنها لا تغني الأموال وأولاد عن الكفار شيئاً، سنته الجارية في الأمم السابقة، كما جرى لفرعون ومن قبله ومن بعدهم من الفراعنة العنتاة الطغاة أرباب الأموال والجنود لما كذبوا بآيات الله وجحدوا ما جاءت به الرسل وعاندوا، أخذهم الله بذنوبهم عدلاً منه لا ظلماً والله شديد العقاب على من أتى بأسباب العقاب وهو الكفر والذنوب على اختلاف أنواعها وتعدد مراتبها، ثم قال تعالى ﴿قل﴾ يا محمد ﴿للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد﴾ وفي هذا إشارة للمؤمنين بالنصر والغلبة وتحذير للكفار، وقد وقع كما أخير تعالى، فنصر الله المؤمنين على أعدائهم من كفار المشركين واليهود

﴿١٤-١٧﴾ ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب \* قل أؤنبكم بخير من ذلكم للذين اتقوا



من الصفات الجميلة والأفعال الجميلة، والقدرة والقهر، وغير ذلك من الصفات التي تعرف بالأدلة السمعية والعقلية، فمن عرف ذلك حق المعرفة عرف أن العبادة لا تليق ولا تحسن إلا بالرب العظيم الذي له الكمال كله، والمجد كله، والحمد كله، والقدرة كلها، والكبرياء كلها، لا بالمخلوقات المذّبرات الناقصات الصم البكم الذين لا يعقلون، ومن الأدلة العقلية على ذلك ما شاهده العباد بأبصارهم من قديم الزمان وحديثه، من الإكرام لأهل التوحيد، والإهانة والعقوبة لأهل الشرك، وما ذلك إلا لأن التوحيد جعله الله موصلاً إلى كل خير دافعاً لكل شر ديني ودنيوي، وجعل الشرك به والكفر سبباً للعقوبات الدينية والدنيوية، ولهذا إذا ذكر تعالى قصص الرسل مع أمم المظلمين والمعاصين، وأخبر عن عقوبات المعاصين ونجاة الرسل ومن تبعهم، قال عقب كل قصة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّأَيِّ لَعِبَةٍ يُعْتَبِرُ بِهَا الْمُعْتَبِرُونَ﴾ فيعلمون أن توحيد الله هو الموجب للنجاة، وتركه هو الموجب للهلاك، فهذه من الأدلة الكبار العقلية، النقليّة الدالة على هذا الأصل العظيم، وقد أكثر الله منها في كتابه وصرّحها ونوعها ليحيى من حي عن بيته، ويهلك من هلك عن بيته فله الحمد والشكر والثناء.

ولما قرر أنه الإله الحق المعبود، بين العبادة والدين الذي يتعين أن يعبد به ويدان له، وهو الإسلام الذي هو الاستسلام لله بتوحيده وطاعته التي دعت إليها رسله، وحث عليها كتبه، وهو الذي لا يقبل من أحد دين سواه، وهو متضمن للإخلاص له في الحب والخوف والرجاء والإنابة والدعاء ومتابعة رسوله في ذلك، وهذا هو دين الرسل كلهم، وكل من تابعهم فهو على طريقهم، وإنما اختلف أهل الكتاب بعد ما جاءتهم كتبهم تحتهم على الاجتماع على دين الله، بغياً بينهم، وظلماً وعدواناً من أنفسهم، وإلا فقد جاءهم السبب الأكبر الموجب أن يتبعوا

بالقسط ﴿أي: لم يزل متصفاً بالقسط في أفعاله وتدبيره بين عباده، فهو على صراط مستقيم في ما أمر به ونهى عنه، وفيما خلقه وقدره، ثم أعاد تقرير توحيدهم فقال ﴿لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾. واعلم أن هذا الأصل الذي هو توحيد الله وإفراجه بالعبودية قد دلت عليه الأدلة النقلية والأدلة العقلية، حتى صار لذوي البصائر أجلى من الشمس، فاما الأدلة النقلية فكل ما في كتاب الله وسنة رسوله، من الأمر به وتقريره، ومحبة أهله وبغض من لم يقم به وعقوباتهم، وذم الشرك وأهله، فهو من الأدلة النقلية على ذلك، حتى كاد القرآن أن يكون كله أدلة عليه، وأما الأدلة العقلية التي تدرك بمجرد فكر العقل وتصوره للأمر فقد أرشد القرآن إليها ونبه على كثير منها، فمن أعظمها: الاعتراف بربوبية الله، فإن من عرف أنه هو الخالق الرازق المديّر لجميع الأمور أنتج له ذلك أنه هو المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ولما كان هذا من أوضح الأشياء وأعظمها أكثر الله تعالى من الاستدلال به في كتابه. ومن الأدلة العقلية على أن الله هو الذي يؤله دون غيره انفراده بالنعم ودفع النعم، فإن من عرف أن النعم الظاهرة والباطنة القليلة والكثيرة كلها من الله، وأنه ما من نعمة ولا شدة ولا كربة إلا وهو الذي ينفرد بدفعها وإن أحداً من الخلق لا يملك لنفسه - فضلاً عن غيره - جلب نعمة ولا دفع نعمة، يتقن أن عبودية ما سوى الله من أبطل الباطل وأن العبودية لا تنبغي إلا لمن انفرّد بجلب المصالح ودفع المضار، فلهذا أكثر الله في كتابه من التنبيه على هذا الدليل جداً، ومن الأدلة العقلية أيضاً على ذلك: ما أخبر به تعالى عن المعبودات التي عبدت من دونه، بأنها لا تملك نفعاً ولا ضرراً، ولا تنصر غيرها ولا تنصر نفسها، وسلبها الأسماع والأبصار، وأنها على فرض سماعها لا تغني شيئاً، وغير ذلك من الصفات الدالة على نقصها غاية النقص، وما أخبر به عن نفسه العظيمة



المرجع في جميع الأمور الدينية خصوصاً في أعظم الأمور وأجلها وأشرفها وهو التوحيد، فكلهم من أولهم إلى آخرهم قد اتفقوا على ذلك ودعوا إليه وبيّنوا للناس الطرق الموصلة إليه، فوجب على الخلق التزام هذا الأمر المشهود عليه والعمل به، وفي هذا دليل على أن أشرف الأمور علم التوحيد لأن الله شهد به بنفسه وأشهد عليه خواص خلقه، والشهادة لا تكون إلا عن علم ويقين، بمنزلة المشاهدة للبصر، ففيه دليل على أن من لم يصل في علم التوحيد إلى هذه الحالة فليس من أولي العلم. وفي هذه الآية دليل على شرف العلم من وجوه كثيرة، منها: أن الله خصهم بالشهادة على أعظم مشهود عليه دون الناس، ومنها: أن الله قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وكفى بذلك فضلاً، ومنها: أنه جعلهم أولي العلم، فأضافهم إلى العلم، إذ هم القائمون به المتصفون بصفته، ومنها: أنه تعالى جعلهم شهداء وحجة على الناس، وأثّر الناس العمل بالأمر المشهود به، فيكونون هم السبب في ذلك، فيكون كل من عمل بذلك نالهم من أجره، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ومنها: أن إلهاده تعالى أهل العلم يتضمن ذلك تزكيتهم وتعديلهم وأنهم آمناء على ما استرعاهم عليه، ولما قرر توحيدهم قرر عدله، فقال: ﴿فانصرت





أعظم دليل على قدرة الله، وأن جميع الأشياء مسخرة مدبرة لا تملك من التدبير شيئاً، فخلقته تعالى الأضداد، والصد من ضده بيان أنها مفهورة وترزق من تشاء بغير حساب\* أي: ترزق من تشاء رزقاً واسعاً من حيث لا يحسب ولا يكتسب، ثم قال تعالى:

﴿٢٨ - ٣٠﴾ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير\* قل إن تحفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض والله على كل شيء قدير\* يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد\*. وهذا نهى من الله تعالى للمؤمنين عن موالات الكافرين بالحببة والنصرة والاستعانة بهم على أمر من أمور المسلمين، وتوعد على ذلك فقال: \*ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء\* أي: فقد انقطع عن الله، وليس له في دين الله نصيب، لأن موالات الكافرين لا تجتمع مع الإيمان، لأن الإيمان يأمر بموالات الله وموالات أوليائه المؤمنين المتعاونين على إقامة دين الله وجهاد أعدائه، قال تعالى: \*والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض\* فمن وإلى الكافرين من دون المؤمنين الذين يريدون أن يطفؤا نور الله ويفتوا أوليائه خرج من حزب المؤمنين، وصار من حزب الكافرين، قال تعالى: \*ومن يتولهم منكم فإنه منهم\* وفي هذه الآية دليل على الابتعاد عن الكفار وعن معاشرتهم وصدافتهم، والميل إليهم

واتفاقهم، وإعدادهم الآلات التي يقدرها عليها والصبر وعدم التنازع، قال الله تعالى: \*وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم\* الآية فأخبر أن الإيمان والعمل الصالح سبب للاستخلاف المذكور، وقال تعالى: \*هو الذي أيدك بنصرته وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم\* الآية وقال تعالى: \*ويا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين\* فأخبر أن اتلاف قلوب المؤمنين وثباتهم وعدم تنازعهم سبب للنصر على الأعداء، وأنت إذا استقرت الدول الإسلامية وجدت السبب الأعظم في زوال ملكها ترك الدين والتفرق الذي أطمع فيهم الأعداء وجعل بأسهم بينهم، ثم قال تعالى: \*وتعز من تشاء\* بطاعتك \*وتذل من تشاء\* بمعصيتك \*إنك على كل شيء قدير\* لا يمتنع عليك أمر من الأمور بل الأشياء كلها طوع مشيئتك وقدرتك \*تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل\* أي: تدخل هذا على هذا، وهذا على هذا، فينشأ عن ذلك من الفصول والضيء والنور والشمس والظل والسكون وقدرة الله وعظمته وحكمته ورحمته \*وتخرج الحي من الميت\* كالفرخ من البيضة، وكالشجر من النوى، وكالزرع من بذره، وكالمؤمن من الكافر \*وتخرج الميت من الحي\* كالبيضة من الطائر وكالنوى من الشجر، وكالحب من الزرع، وكالكافر من المؤمن، وهذا

الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب\* يقول الله لنبيه ﷺ: \*قل اللهم مالك الملك\* أي: أنت الملك المالك لجميع الممالك، فصفة الملك المطلق لك، والمملكة كلها علموها وسفليها لك والتصريف والتدبير كله لك، ثم فصل بعض التصاريف التي انفرد الباري تعالى بها، فقال: \*تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وفيه الإشارة إلى أن الله تعالى سينزع الملك من الأكاسرة والقياصرة ومن تبعهم ويؤتية أمة محمد، وقد فعل والله الحمد، فحصول الملك ونزعه تبع لمشيئة الله تعالى، ولا ينافي ذلك ما أجرى الله به سنته من الأسباب الكونية والدينية التي هي سبب بقاء الملك وحصوله وسبب زواله، فإنها كلها بمشيئة الله لا يوجد سبب يستقل بشيء، بل الأسباب كلها تابعة للقضاء والقدر، ومن الأسباب التي جعلها الله سبباً لحصول الملك الإيمان والعمل الصالح، التي منها اجتماع المسلمين

(١) جاء في هامش النسخة ما يلي: (قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «المنهاج»: وأما قوله: ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾ قال مجاهد: لا لصانعة، والتقاة ليست بأن أكذب وأقول بلساني ما ليس في قلبي، فإن هذا نفاق، ولكن أفعل ما أقدر عليه كما في «الصحیح» عن النبي ﷺ: «من رأى منكم منكراً أخط، فالؤمن إذا كان بين الكفار والفجار لم يكن عليه أن يجاهدكم بيده مع عجزه، ولكن إن أمكنه بلسانه وإلا فقلبه، مع أنه لا يكذب ويقول بلسانه ما ليس في قلبه، إما أن يظهر دينه وإما أن يكتمه، وهو مع هذا لا يوافقهم على دينهم بل كل غايته أن يكون كمؤمن آل فرعون وامرأة فرعون، وهو لم يكن موافقاً لهم على جميع دينهم، ولا كان يكذب. ولا يقول بلسانه ما ليس في قلبه، بل كان يكتم إيمانه، وكتمان الدين شيء وإظهار الدين الباطل شيء آخر، فهذا لم يبعه الله إلا لمن أكره الخ.

يكون إيمانهم وحبهم لله، وما نقص من ذلك نقص.

﴿٣٢﴾ ﴿٣٢﴾ قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴿٣٢﴾ وهذا أمر من الله تعالى لعباده بأعم الأوامر، وهو طاعته وطاعة رسوله التي يدخل بها الإيمان والتوحيد، وما هو من فروع ذلك من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، بل يدخل في طاعته وطاعة رسوله اجتناب ما نهى عنه، لأن اجتنابه امتثالاً لأمر الله هو من طاعته، فمن أطاع الله ورسوله، فأولئك هم المفلحون ﴿٣٢﴾ فإن تولوا ﴿٣٢﴾ أي: أعرضوا عن طاعة الله ورسوله فليس ثم أمرٌ يرجعون إليه إلا الكفر وطاعة كل شيطان مرید ﴿٣٢﴾ كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضلّه ويهديه إلى عذاب السعير ﴿٣٢﴾ فلماذا قال: ﴿٣٢﴾ فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴿٣٢﴾ بل يخصهم ويمقتهم ويعاقبهم أشد العقوبة، وكان في هذه الآية الكريمة بياناً وتفسيراً لاتباع رسوله، وأن ذلك بطاعة الله وطاعة رسوله، هذا هو الاتباع الحقيقي، ثم قال تعالى:

﴿٣٣-٣٧﴾ ﴿٣٣﴾ إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ﴿٣٣﴾ ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم ﴿٣٣﴾ إذ قالت امرأة عمران رب إنني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم ﴿٣٣﴾ فلما وضعتها قالت رب إنني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴿٣٣﴾ فتقبلها ربهما بقبول حسن وأنتهت نياتاً حسناً وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أتئي لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴿٣٣﴾ يخبر تعالى باختيار من اختاره من أوليائه وأصفياه وأحبابه، فأخبر أنه اصطفى آدم، أي: اختاره على سائر المخلوقات، فخلق به يده ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له، وأسكنه جنته، وأعطاه من العلم

الله ﴿٣٣﴾ يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ﴿٣٣﴾ ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ﴿٣٣﴾ يا ويلنا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ﴿٣٣﴾ حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشركين نفس القرين ﴿٣٣﴾ فوالله لترك كل شهوة ولذة وإن عسر تركها على النفس في هذه الدار أيسر من معاناة تلك الشدائد واحتمال تلك الفضائح، ولكن العبد من ظلمه وجهله لا ينظر إلا الأمر الحاضر، فليس له عقل كامل يلحظ به عواقب الأمور فيقدم على ما ينفعه عاجلاً وأجلاً، ويحجم عن ما يضره عاجلاً وأجلاً، ثم أعاد تعالى تحذيرنا نفسه رافة بنا ورحمة لثلاث يطول علينا الأمد فتقسو قلوبنا، وليجمع لنا بين التزغيب الموجب للرجاء والعمل الصالح، والترهيب الموجب للخوف وترك الذنوب، فقال ﴿٣٣﴾ ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد ﴿٣٣﴾ فسأله أن يمن علينا بالخذر منه على الدوام، حتى لا نعمل ما يسخطه ويغضبه.

﴿٣١﴾ ﴿٣١﴾ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴿٣١﴾ وهذه الآية فيها وجوب محبة الله، وعلاماتها، ونتيجتها، وثمراتها، فقال ﴿٣١﴾ قل إن كنتم تحبون الله ﴿٣١﴾ أي: ادعيتم هذه المرتبة العالية، والرتبة التي ليس فوقها رتبة فلا يكفي فيها مجرد الدعوى، بل لابد من الصدق فيها، وعلامة الصدق اتباع رسول الله ﷺ في جميع أحواله، في أقواله وأفعاله، في أصول الدين وفروعه، في الظاهر والباطن، فمن اتبع الرسول دل على صدق دعواه محبة الله تعالى، وأحبه الله وغفر له ذنبه، ورحمه وسدده في جميع حركاته وسكناته، ومن لم يتبع الرسول فليس محباً لله تعالى، لأن محبته لله توجب له اتباع رسوله، فما لم يوجد ذلك دل على عدمها وأنه كاذب إن ادعاهها، مع أنها على تقدير وجودها غير نافعة بدون شرطها، وهذه الآية يوزن جميع الخلق، فعلى حسب حظهم من اتباع الرسول

والركون إليهم، وأنه لا يجوز أن يولى كافر ولاية من ولايات المسلمين، ولا يستعان به على الأمور التي هي مصالح لعموم المسلمين. قال الله تعالى: ﴿٣١﴾ إلا أن تنقوا منهم نقاة ﴿٣١﴾ أي: تخافوهم على أنفسكم فيحل لكم أن تفعلوا ما تعصمون به دماءكم من النقية باللسان وإظهار ما به تحصل النقية. ثم قال تعالى: ﴿٣١﴾ ويحذركم الله نفسه ﴿٣١﴾ فلا تتعرضوا لسخطه بارتكاب معاصيه فيعاقبكم على ذلك ﴿٣١﴾ وإلى الله المصير ﴿٣١﴾ أي: مرجع العباد ليوم التناد، فيحصى أعمالهم ويحاسبهم عليها ويجازيم، فيأياكم أن تفعلوا من الأعمال القباح ما تستحقون به العقوبة، واعملوا ما به يحصل الأجر والثوبة، ثم أخبر عن سعة علمه لما في النفوس خصوصاً، ولما في السماء والأرض عموماً، وعن كمال قدرته، ففيه إرشاد إلى تطهير القلوب واستحضار علم الله كل وقت فيستحي العبد من ربه أن يرى قلبه محلاً لكل فكر رديء، بل يشغل أفكاره فيما يقرب إلى الله من تدبر آية من كتاب، أو سنة من أحاديث رسول الله، أو تصور ويبحث في علم ينفعه، أو تفكر في مخلوقات الله ونعمه، أو نصح لعباد الله، وفي ضمن أخبار الله عن علمه وقدرته الإخبار بما هو لازم ذلك من المجازاة على الأعمال، ومحل ذلك يوم القيامة، فهو الذي توفي به النفوس بأعمالها فلماذا قال ﴿٣١﴾ يوم تعد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴿٣١﴾ أي: كاملاً موفراً لم ينقص مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿٣١﴾ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴿٣١﴾ والخير: اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله من الأعمال الصالحة صغيرها وكبيرها، كما أن السوء اسم جامع لكل ما يسخط الله من الأعمال السيئة صغيرها وكبيرها ﴿٣١﴾ وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ﴿٣١﴾ أي: مسافة بعيدة، لعظم أسفها وشدّة حزنها، فليحذر العبد من أعمال السوء التي لا بد أن يجزن عليها أشد الحزن، وليتركها وقت الإمكان قبل أن يقول ﴿٣١﴾ يا حسرتنا على ما فرطت في جنب



والحلم والفضل ما فاق به سائر المخلوقات، ولهذا فضل بنيه، فقال تعالى: ﴿ولقد كرمتنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾.

واصطفى نوحاً فجعله أول رسول إلى أهل الأرض حين عبدت الأوثان، ووقفه من الصبر والاحتمال والشكر والدعوة إلى الله في جميع الأوقات ما أوجب اصطفاؤه واجتياؤه، وأغرق الله أهل الأرض بدعوته، ونجاه ومن<sup>(١)</sup> معه في الفلك المشحون، وجعل ذريته هم الباقين، وترك عليه ثناء يذكر في جميع الأحيان والأزمان.

واصطفى آل إبراهيم وهو إبراهيم خليل الرحمن الذي اختصه الله بخلته، وبذل نفسه للتيار وولده للقربان وماله للمضيفان، ودعا إلى ربه ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، وجعله الله أسوة يقتدي به من بعده، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، ويدخل في آل إبراهيم جميع الأنبياء الذين بمثوا من بعده لأهم من ذريته، وقد خصهم بأنواع الفضائل ما كانوا به صفوة على العالمين، ومنهم سيد ولد آدم نبينا محمد ﷺ فإن الله تعالى جمع فيه من الكمال ما تفرق في غيره، وفاق ﷺ الأولين والآخرين، فكان سيد المرسلين المصطفى من ولد إبراهيم

واصطفى الله آل عمران وهو والد مريم بنت عمران، أو والد موسى بن عمران عليه السلام، فهذه البيوت التي ذكرها الله هي صفوته من العالمين، وتسلسل الصلاح والتوفيق بذرياتهم، فلماذا قال تعالى ﴿ذرية بعضها من بعض﴾ أي: حصل التناسب والتشابه بينهم في الخلق والأخلاق الجميلة، كما قال تعالى لما ذكر جملة من الأنبياء الداخلين في ضمن هذه البيوت الكبار ﴿ومن آياتهم وإخوانهم وذرياتهم واجتبتناهم وهديناهم إلى صراط

مستقيم﴾ ﴿والله سميع عليم﴾ يعلم من يستحق الاصطفاء فيصطفيه ومن لا يستحق ذلك فيخذله ويرديه، ودل هذا على أن هؤلاء اختارهم لما علم من أحوالهم الموجبة لذلك فضلاً منه وكرماً، ومن الفائدة والحكمة في قصة علينا أخبار هؤلاء الأصفياء أن نجيبهم ونقتدي بهم، ونسأل الله أن يوفقنا لما وفقهم، وأن لا نزال نزوي<sup>(٢)</sup> أنفسنا بتأخرنا عنهم وعدم اتصافنا بأوصافهم ومزاياهم الجميلة، وهذا أيضاً من لطفه بهم، وإظهاره الثناء عليهم في الأولين والآخرين، والتنويه بشرفهم، فله ما أعظم جوده وكرمه وأكثر فوائده معاملته، لو لم يكن لهم من الشرف إلا أن أذكاهم مخلدة ومناقبهم مؤيدة لكنى بذلك فضلاً، ولما ذكر فضائل هذه البيوت الكريمة ذكر ما جرى لمريم والدة عيسى وكيف لطف الله بها في تربيته ونشأته، فقال: ﴿إذ قالت امرأة عمران﴾ أي: والدة مريم لما حملت ﴿رب إنى نذرت لك ما في بطني محرراً﴾ أي: جعلت ما في بطني خالصاً لوجهك، محرراً لخدمتك وخدمة بيتك ﴿فتقبل مني﴾ هذا العمل المبارك ﴿إنك أنت السميع العليم﴾ تسمع دعائي وتعلم نيتي وقصدي، هذا وهى في البطن قبل وضعها ﴿فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى﴾ كأنها تشوفت أن يكون ذكراً ليكون أقدر على الخدمة وأعظم موقفاً، ففي كلامها [نوع]<sup>(٣)</sup> عذر من ربها، فقال الله: ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ أي: لا يحتاج إلى إعلامها، بل علمه متعلق بها قبل أن تعلم أمها ما هي ﴿وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتها مريم﴾ فيه دلالة على تفضيل الذكر على الأنثى، وعلى التسمية وقت الولادة، وعلى أن للام تسمية الولد إذا لم يكره الأب ﴿وإنى أميذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾ دعت لها ولذريتها أن يعيذهم الله من الشيطان الرجيم

﴿٣٨ - ٤١﴾ ﴿هنالك دعا زكريا

ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء \* فتادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحسوراً ونبياً من الصالحين \* قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأى عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء \* قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار﴾ أي: دعا زكريا عليه السلام ربه أن يرزقه ذرية طيبة، أي: طاهرة الأخلاق، طيبة الآداب، لتكمل النعمة الدينية والدنيوية بهم، فاستجاب له

(٢) الكلمة غير واضحة في الأصل ويبدو

- والله أعلم - أنها كما أثبت.

(١) في الأصل: ومن.

(٢) في الأصل: نزدي.





فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون \* فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين \* وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفئهم أجورهم والله لا يحب الظالمين \* ذلك نلتوه عليكم من الآيات والذكر الحكيم \* يخبر تعالى أن الملائكة بشرت مريم عليها السلام بأعظم بشارة، وهو كلمة الله عبده ورسوله عيسى ابن مريم، سمي كلمة الله لأنه كان بالكلمة من الله، لأن حاله خارجة عن الأسباب، وجعله الله من آياته وعجائب مخلوقاته، فأرسل الله جبريل عليه السلام إلى مريم، ففتح في جيب درعها فولجت فيها تلك النسخة الذكية من ذلك الملك الزكي، فأنشأ الله منها تلك الروح الزكية، فكان روحانياً نشأ من مادة روحانية، فلهذا سمي روح الله \* ووجيهاً في الدنيا والآخرة \* أي: له الوجاهة العظيمة في الدنيا، جعله الله أحد أولي العزم من المرسلين أصحاب الشرائع الكبار والأتباع، ونشر الله له من الذكر ما ملأ ما بين المشرق والمغرب، وفي الآخرة وجيهاً عند الله يشفع أسوة إخوانه من النبيين والمرسلين، ويظهر فضله على أكثر العالمين، فلهذا كان من المقربين إلى الله، أقرب الخلق إلى ربه، بل هو عليه السلام من سادات المقربين \* ويكلم الناس في المهدي وكهلا \* وهذا غير

التكليم المعتاد، بل المراد يكلم الناس بما فيه صلاحهم وفلاحهم، وهو تكليم المرسلين، ففي هذا إرساله ودعوته الخلق إلى ربه، وفي تكليمهم في المهدي عظمة من آيات الله يتنوع بها المؤمنون، وتكون حجة على المعاندين، أنه رسول رب العالمين، وأنه عبد الله، وليكون نعمة وبراءة لوالدته مما رميت به \* ومن الصالحين \* أي: يمن عليه بالصلاح، من من عليهم، ويدخله في جملتهم، وفي هذا عدة بشارات لمريم مع ما تضمن من التنويه بذكر المسيح عليه السلام \* قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر \* والولد في العادة لا يكون إلا من مس البشر، وهذا استغراب منها، لا شك في قدرة الله تعالى: \* قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون \* فأخبرها أن هذا أمر خارق للعادة، خلقه من يقول لكل أمر أراد: \* كن فيكون، فمن يقين ذلك زال عنه الاستغراب والتعجب، ومن حكمة الباري تعالى أن تدرج بأخبار العباد من الغريب إلى ما هو أغرب منه، فذكر وجود يحيى بن زكريا بين أبيوين أحدهما كبير والآخر عاقراً، ثم ذكر أغرب من ذلك وأعجب، وهو وجود عيسى عليه السلام من أم بلا أب ليدل عباده أنه الفعال لما يريد وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ثم أخبر تعالى عن منته العظيمة على عبده ورسوله عيسى عليه السلام، فقال \* ويعلمه الكتاب \* يتمثل أن يكون المراد جنس الكتاب، فيكون ذكر التوراة والإنجيل تخصيصاً لهما، لشرفهما وفضلهما واحتوائهما على الأحكام والشرائع التي يحكم بها أنبياء بني إسرائيل والتعليم، لذلك يدخل فيه تعليم ألفاظه ومعانيه، ويحتمل أن يكون المراد بقوله \* ويعلمه الكتاب \* أي: الكتابة، لأن الكتابة من أعظم نعم الله على عباده ولهذا امتن تعالى على عباده بتعليمهم بالقلم في أول سورة أنزلها فقال \* اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم \*

والمراد بالحكمة معرفة أسرار الشرع، ووضع الأشياء مواضعها، فيكون ذلك امتناناً على عيسى عليه السلام بتعليمه الكتابة والعلم والحكمة، وهذا هو الكمال للإنسان في نفسه، ثم ذكر له كمالاً آخر وفضلاً زائداً على ما أعطاه الله من الفضائل، فقال \* ورسولاً إلى بني إسرائيل \* فأرسله الله إلى هذا الشعب الفاضل الذين هم أفضل العالمين في زمانهم يدعوهم إلى الله، وأقام له من الآيات ما دلهم أنه رسول الله حقاً ونبية صدقاً ولهذا قال \* أنى قد جئتكم بأية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين طيراً، أي: أصوره على شكل الطير \* فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله \* أي: طيرأله روح نظير بإذن الله \* وأبرئ الأكمه \* وهو الذي يولد أعمى \* والأبرص \* بإذن الله \* وأحيى الموتى بإذن الله وأنشكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين \* أي: آية أعظم من جعل الجماد حيواناً، وإبراء ذوي العاهات النسي لا قدرة للأطباء في معالجتها، وإحياء الموتى، والإخبار بالأمور الغيبية، فكل واحدة من هذه الأمور آية عظيمة بمفردها، فكيف بها إذا اجتمعت وصدق بعضها بعضها؟ فإنها موجبة للإيقان وداعية للإيمان \* ومصدقاً لما بين يدي من التوراة \* أي: أتيت بجنس ما جاءت به التوراة وما جاء به موسى عليه السلام، وعلامة الصادق أن يكون خيره من جنس خير الصادقين، يخبر بالصدق، ويأمر بالعدل من غير تحالف ولا تناقض، بخلاف من ادعى دعوى كاذبة، خصوصاً أعظم الدعاوى وهي دعوى النبوة، فالكاذب فيها لا بد أن يظهر لكل أحد كذب صاحبها وتناقضه ومخالفته لأخبار الصادقين وموافقته لأخبار الكاذبين، هذا موجب السنن الماضية والحكمة الإلهية والرحمة الربانية بعباده، إذ لا يشبه الصادق بالكاذب في دعوى النبوة أبداً، بخلاف بعض الأمور الجزئية، فإنه قد يشبه فيها الصادق بالكاذب، وأما النبوة فإنه

عيسى من اليهود، حتى بعث الله نبينا محمداً ﷺ فكان المسلمون هم المتبعين لعيسى حقيقة، فأيدهم الله ونصرهم على اليهود والنصارى وسائر الكفار، وإنما يحصل في بعض الأزمان إدالة الكفار من النصارى وغيرهم على المسلمين، حكمة من الله وعقوبة على تركهم لاتباع الرسول ﷺ ﴿ثم إلي مرجعكم﴾ أي: مصير الخلائق كلها ﴿فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾ كل يدعي أن الحق معه وأنه المصيب وغيره مخطئ، وهذا مجرد دعاوى تحتاج إلى برهان، ثم أخبر عن حكمه بينهم بالقسط والعدل، فقال ﴿فأما الذين كفروا﴾ أي: بالله وآياته ورسله ﴿فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة﴾ أما عذاب الدنيا، فهو ما أصابهم الله به من القسوراع والعقوبات المشاهدة والقتل والذل، وغير ذلك مما هو نموذج من عذاب الآخرة، وأما عذاب الآخرة فهو الطامة الكبرى والمصيبة العظمى، ألا وهو عذاب النار وغضب الجبار وحرمانهم ثواب الأبرار ﴿وما لهم من ناصرين﴾ ينصرونهم من عذاب الله، لا من زعموا أنهم شعفاء لهم عند الله، ولا ما اتخذوهم أولياء من دونه، ولا أصدقائهم وأقربانهم، ولا أنفسهم ينصرون، ﴿وأما الذين آمنوا﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وغير ذلك مما أمر الله بالإيمان به ﴿وعملوا الصالحات﴾ القلبية والقولية والبدنية التي جاءت بشرعها المرسلون، وقصدوا بها رضا رب العالمين ﴿فيؤتيهم أجورهم﴾ دل ذلك على أنه يحصل لهم في الدنيا ثواب لأعمالهم من الإكرام والإعزاز والنصر والحياة الطيبة، وإنما توفية الأجور يوم القيامة، يجردون ما قدموه من الخيرات محضاً موفراً، فيعطي منهم كل عامل أجر عمله ويزيدهم من فضله وكرمه ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ بل يبغضهم ويحل عليهم سخطه وعذابه ﴿ذلك نزلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم﴾ وهذا منة عظيمة على رسوله

الأنصار ﴿نحن أنصار الله﴾ أي: انتدبوا معه وقاموا بذلك، وقالوا: ﴿أمتنا بالله﴾ ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ أي: الشهادة النافعة، وهي الشهادة بتوحيد الله وتصديق رسوله مع القيام بذلك، فلما قاموا مع عيسى بنصر دين الله وإقامة شرعه أمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة، فاقترنت الطائفتان فأيد الله الذين آمنوا بنصره على عدوهم فأصبحوا ظاهرين، فهذا قال تعالى هنا ﴿ومكروا﴾ أي: الكفار بإعادة قتل نبيي الله وإطفاء نوره ﴿ومكر الله﴾ بهم جزاء لهم على مكروهم ﴿والله خير الماكرين﴾ رد الله كيدهم في نحورهم، فانقلبوا خاسرين ﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا﴾ فرفع الله عبده ورسوله عيسى إليه، وألقي شبهه على غيره، فأخذوا من ألقى شبهه عليه فقتلوه وصلبوه، وياؤوا بالإثم العظيم بينهم أنه رسول الله، قال الله ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾ وفي هذه الآية دليل على علو الله تعالى واستوائه على عرشه حقيقة، كما دلت على ذلك النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تلقاها أهل السنة بالقبول والإيمان والتسليم، وكان الله عزيزاً قوياً قاهراً، ومن عزته أن كف بني إسرائيل بعد عزمهم الجازم وعدم المانع لهم عن قتل عيسى عليه السلام، كما قال تعالى ﴿وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جنتهم بالبيات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين﴾ حكيم يضع الأشياء مواضعها، وله أعظم حكمة في إلقاء الشبه على بني إسرائيل، فوقعوا في الشبه كما قال تعالى ﴿وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً﴾ ثم قال تعالى: ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ وتقدم أن الله أيد المؤمنين منهم على الكافرين، ثم إن النصارى المنتسبين لعيسى عليه السلام لم يزالوا قاهرين لليهود لكون النصارى أقرب إلى اتباع

يترتب عليها هداية الخلق أو ضلالهم وسعادتهم وشقاؤهم، ومعلوم أن الصادق فيها من أكمل الخلق، والكاذب فيها من أخس الخلق وأكذبهم وأظلمهم، فحكمة الله ورحمته بعباده أن يكون بينهما من الفروق ما يتبين لكل من له عقل، ثم أخبر عيسى عليه السلام أن شريعة الإنجيل شريعة فيها سهولة ويسرة فقال ﴿ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾ فدل ذلك على أن أكثر أحكام التوراة لم ينسخها الإنجيل بل كان متمماً لها ومقررراً ﴿وجئتكم بأية من ربكم﴾ تدل على صدقي ووجوب اتباعي، وهي ما تقدم من الآيات، والمقصود من ذلك كله قوله ﴿فاتفقوا بالله﴾ بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه وأطيعوني فإن طاعة الرسول طاعة لله ﴿إن الله ربي وربكم فاعبدوه﴾ استدل بتوحيد الربوبية الذي يقر به كل أحد على توحيد الإلهية الذي ينكره المشركون، فكما أن الله هو الذي خلقنا ورزقنا وأنعم علينا نعماً ظاهرة وباطنة، فليكن هو معبودنا الذي نألهم بالحب والخوف والرجاء والدعاء والاستعانة وجميع أنواع العبادة، وفي هذا رد على النصارى القائلين بأن عيسى إله أو ابن الله، وهذا إقراره عليه السلام بأنه عبد مبدئ مخلوق، كما قال ﴿إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ وقال تعالى: ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته﴾ إلى قوله ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾ وقوله ﴿هذا﴾ أي: عبادة الله وتقواه وطاعة رسوله ﴿صراط مستقيم﴾ موصل إلى الله وإلى جنته، وما عدا ذلك فهي طرق موصلة إلى الجحيم، ﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر﴾ أي: رأى منهم عدم الانقياد له، وقالوا هذا سحر مبين، وهو ما يقتله وسعوا في ذلك ﴿قال من أنصاري إلى الله﴾ من يعاونني ويقوم معي بنصرة دين الله ﴿قال الحواريون﴾ وهم

محمد ﷺ وعلى أمته، حيث أنزل عليهم هذا الذكر الحكيم، المحكم المثقن، المفصل للأحكام والحلال والحرام وإخبار الأنبياء الأقدمين، وما أجرى الله على أيديهم من الآيات البيّنات والمعجزات الباهرات، فهذا القرآن يقص علينا كل ما ينفعنا من الأخبار والأحكام، فيحصل فيها العلم والعبرة وتثبيت القواد ما هو من أعظم رحمة رب العباد، ثم قال تعالى:

﴿٥٩﴾ - ﴿٦٠﴾ ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ الحق من ربك فلا تكن من الممتريين ﴿يخبر تعالى محتجاً على النصراري الزاعمين بعيسى عليه السلام ما ليس له بحق، بخير برهان ولا شبهة، بل بزعمهم أنه ليس له والد استحق بذلك أن يكون ابن الله أو شريكاً لله في الربوبية، وهذا ليس بشبهة فضلاً أن يكون حجة، لأن خلقه كذلك من آيات الله الدالة على تفرده الله بالخلق والتدبير وأن جميع الأسباب طوع مشيئة وتبع لإرادته، فهو على تقيض قولهم أدل، وعلى أن أحداً لا يستحق المشاركة لله بوجه من الوجوه أولى، ومع هذا فآدم عليه السلام خلقه الله من تراب لا من أب ولا أم، فإذا كان ذلك لا يوجب لأدم ما زعمه النصراري في المسيح، فالمسيح المخلوق من أم بلا أب من باب أولى وأخرى، فإن صح ادعاء البتوة والإلهية في المسيح، فادعواؤها في آدم من باب أولى وأخرى، فلهذا قال تعالى ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ الحق من ربك ﴿أي: هذا الذي أخبرناك به من شأن المسيح عليه السلام هو الحق الذي في أعلى رتب الصدق، لكونه من ربك الذي من جملة تربيته الخاصة لك ولأمتك أن قصص عليكم ما قصص من أخبار الأنبياء عليهم السلام ﴿فلا تكن من الممتريين﴾ أي: الشاكين في شيء مما أخبرك به ربك، وفي هذه الآية وما

بعدها دليل على قاعدة شريفة وهو أن ما قامت الأدلة على أنه حق وجزم به العبد من مسائل العقائد وغيرها، فإنه يجب أن يجزم بأن كل ما عارضه فهو باطل، وكل شبهة تورده عليه فهي فاسدة، سواء قدر العبد على حلها أم لا، فلا يوجب له عجزه عن حلها القدرح فيما علمه، لأن ما خالف الحق فهو باطل، قال تعالى ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ وبهذه القاعدة الشرعية تنحل عن الإنسان إشكالات كثيرة يوردها المتكلمون ويرتبها المنطقيون، إن حلها الإنسان فهو تبرع منه، وإلا فوظيفته أن يبين الحق بأدلته ويدعو إليه.

﴿٦١﴾ - ﴿٦٣﴾ ﴿فمن حآجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا ونفوسكم ثم نبهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ \* إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهُو العزيز الحكيم \* فإن تولوا فإن الله عليهم بالفسدين ﴿أي: ﴿فمن حآجك في عيسى عليه السلام وزعم أنه فوق منزلة العبودية، بل رفعه فوق منزلته﴾ من بعد ما جاءك من العلم﴾ بأنه عبد الله ورسوله وبينت لمن جادلك ما عندك من الأدلة الدالة على أنه عبد أنعم الله عليه، دل على عناد من لم يتبعك في هذا العلم اليقيني، فلم يبق في مجادلته فائدة تستفيدها ولا يستفيدها هو، لأن الحق قد تبين، فجداله فيه جدال معاند مشاق لله ورسوله، قصده اتباع هواه، لا اتباع ما أنزل الله، فهذا ليس فيه حيلة، فأمر الله نبيه أن ينتقل إلى مباحثته وملاحمته، فبدعون الله ويتهلون إليه أن يجعل لعنته وعقوبته على الكاذب من الفريقين، هو وأحب الناس إليه من الأولاد والأبناء والنساء، فدعاهم النبي ﷺ إلى ذلك فتولوا وأعرضوا ونكلوا، وعلموا أنهم إن لاعتوه رجعوا إلى أهلبيهم وأولادهم فلم يجحدوا أهلاً ولا مالا وعوجلوا

بالعقوبة، فرضوا بدينهم مع جزمهم ببطلانه، وهذا غاية الفساد والعناد، فلهذا قال تعالى ﴿فإن تولوا فإن الله عليهم بالفسدين﴾ فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة، وأخبر تعالى ﴿إن هذا﴾ الذي قصه الله على عباده هو ﴿القصص الحق﴾ وكل قصص يقص عليهم مما يخالفه ويتناقضه فهو باطل ﴿وما من إله إلا الله﴾ فهو المألوه المعبود حقاً الذي لا تنغي العبادة إلا له، ولا يستحق غيره مثقال ذرة من العبادة ﴿وإن الله لهُو العزيز﴾ الذي قهر كل شيء وخضع له كل شيء ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، وله الحكمة السامة في ابتلاء المؤمنين بالكافرين، يقاتلونهم ويجاهلونهم ويجاهدونهم بالقول والفعل<sup>(١)</sup>

﴿٦٤﴾ ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ أي: قل لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾ أي: هلموا نجتمع عليها وهي الكلمة التي اتفق عليها الأنبياء والمرسلون، ولم يخالفها إلا المعاندون والضالون، ليست مختصة بأحدنا دون الآخر، بل مشتركة بيننا وبينكم، وهذا من العدل في المقال والإنصاف في الجدل، ثم فسرها بقوله ﴿ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً﴾ فنسرد الله بالعبادة ونخصه بالحب والخوف والرجاء ولا نشرك به نبياً ولا ملكاً ولا ولياً ولا صنماً ولا وثناً ولا حيراناً ولا جاداً ﴿ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾ بل تكون الطاعة كلها لله ولرسوله، فلا تطيع المخلوقين في معصية الخالق، لأن ذلك جعل للمخلوقين في منزلة الربوبية، فإذا دعي أهل الكتاب أو غيرهم إلى ذلك، فإن أجابوا كانوا مثلكم، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، وإن تولوا فهم معاندون متبعون أهواءهم فاشهدوهم

(١) في تفسير هذه الآيات تقديم وتأخير سير فقد آخر تفسير قوله: ﴿وما من إله إلا الله﴾ وقد أقيمتها على ما هي عليه.





الدال على الحق على المعنى الفاسد، مع علمهم بذلك .

﴿٧٩ - ٨٠﴾ «ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون \* ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أياً أمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون» وهذه الآية نزلت رداً لمن قال من أهل الكتاب للنبي ﷺ لما أمرهم بالإيمان به ودعاهم إلى طاعته: «ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله» فهذا من أهل المحال صدره من أحد من الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام، لأن هذا أقيح الأوامر على الإطلاق، والأنبياء أكمل الخلق على الإطلاق، فأوامرهم تكون مناسبة لأحوالهم، فلا يأمرون إلا بماحالي الأمور وهم أعظم الناس نبياً عن الأمور القبيحة، فهذا قال «ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون» أي: ولكن يأمرهم بأن يكونوا ربانيين، أي: علماء حكماء حلما معلمين للناس ومربيهم، بصغار العلم قبل كباره، عاملين بذلك، فهم يأمرون بالعلم والعمل والتعليم التي هي مدار السعادة، ويقوات شيء منها يحصل النقص والخلل، والباء في قوله «بما كنتم تعلمون» الخ، بآه السببية، أي: بسبب تعليمكم لغيركم التضمن لعلمكم ودرسكم لكتاب الله وسنة نبيه، التي يدرسها يرسخ العلم ويقوى، تكونون ربانيين «ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً» وهذا تعميم بعد تخصيص، أي: لا يأمركم بعبادة نفسه ولا بعبادة أحد من الخلق من الملائكة والنبيين وغيرهم «أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون» هذا ما لا يكون ولا يتصور أن يصدر من أحد

التجريء على الأموال المحترمة، كانوا هم المحبوبين لله، المثقين الذين أعدت لهم الجنة، وكانوا أفضل خلق الله وأجلهم، بخلاف الذين يقولون ليس علينا في الأميين سبيل، فإنهم داخلون في قوله: «إن الذين يشترون بعهد الله وإيمانهم ثمناً قليلاً» ويدخل في ذلك كل من أخذ شيئاً من الدنيا في مقابلة ما تركه من حق الله أو حق عباده، وكذلك من حلف على يمين يقطع بها مال معصوم فهو داخل في هذه الآية، فهؤلاء «لا خلاق لهم في الآخرة» أي: لا نصيب لهم من الخير «ولا يكلمهم الله» يوم القيامة غضباً عليهم وسخطاً، لتقديمهم هوى أنفسهم على رضا ربهم «ولا يزكيبهم» ولا يزيل عيوبهم «ولهم عذاب اليم» أي: مرجع للقلوب والأبدان، وهو عذاب السخط والحجاب، وعذاب جهنم، نسال الله العافية .

﴿٧٨﴾ «وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون» يخبر تعالى أن من أهل الكتاب فريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب، أي: يميلونه ويحرفونه عن المقصود به، وهذا يشمل البلي والتحريف لألفاظه ومعانيه، وذلك أن المقصود من الكتاب حفظ ألفاظه وعدم تغييرها، وفهم المراد منها وإفهامه، وهؤلاء عكسوا القضية وأفهموا غير المراد من الكتاب، إما تريضاً وإما تصريحاً، فالتعريض في قوله «لتحسبوه من الكتاب» أي: يلوون ألسنتهم ويوهونكم أنه هو المراد من كتاب الله، وليس هو المراد، والتصريح في قوله: «ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون» وهذا أعظم جرماً ممن يقول على الله بلا علم، هؤلاء يقولون على الله الكذب فيجمعون بين نفي المعنى الحق، وإثبات المعنى الباطل، وتنزيل اللفظ

يأخذ السكتب يرتطمون العن بالظيل وتكون العن  
وأنت تعلمون ﴿٧٩﴾ «وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون»  
﴿٨٠﴾ «وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون»  
﴿٨١﴾ «وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون»  
﴿٨٢﴾ «وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون»

من الله عليه بالنسوة، فمن قلدح في أحد منهم بشيء من ذلك فقد ارتكب إثماً عظيماً وكفراً وخيماً .

﴿٨١ - ٨٢﴾ «وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون»  
﴿٨٢﴾ «وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون»  
﴿٨٣﴾ «وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون»  
﴿٨٤﴾ «وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون»  
﴿٨٥﴾ «وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون»  
﴿٨٦﴾ «وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون»  
﴿٨٧﴾ «وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون»  
﴿٨٨﴾ «وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون»  
﴿٨٩﴾ «وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون»  
﴿٩٠﴾ «وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون»  
﴿٩١﴾ «وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون»  
﴿٩٢﴾ «وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون»  
﴿٩٣﴾ «وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون»  
﴿٩٤﴾ «وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون»  
﴿٩٥﴾ «وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون»  
﴿٩٦﴾ «وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون»  
﴿٩٧﴾ «وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون»  
﴿٩٨﴾ «وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون»  
﴿٩٩﴾ «وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون»  
﴿١٠٠﴾ «وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون»



ينظرون ﴿٩٠﴾ أي: لا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا لحظة، لا بإزالته أو إزالة بعض شدته، ﴿ولا هم ينظرون﴾ أي: يمهلون، لأن زمن الإمهال قد مضى، وقد أعذر الله منهم وعمرهم ما يتذكر فيه من تذكر، فلو كان فيهم خير لوجد، ولو ردوا العبادوا لما نهوا عنه.

﴿٩٠ - ٩١﴾ ﴿إن الذين كفروا

بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون \* إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به أولئك لهم عذاب اليم وما لهم من ناصرين ﴿يخبر تعالى أن من كفر بعد إيمانه، ثم ازداد كفراً إلى كفره بتماديه في الغي والضلال، واستمراره على ترك الرشيد والهدى، أنه لا تقبل

توبتهم، أي: لا يوفقون لتوبة تقبل بل يمدهم الله في طغيانهم يعمهون، قال تعالى ﴿وتقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لو يؤمنوا به أول مرة﴾ ﴿فلما زغوا أزواج الله قلوبهم﴾ فالسيئات ينتج بعضها بعضاً، وخصوصاً لمن أقدم على الكفر العظيم وترك الصراط المستقيم، وقد قامت عليه الحجة ووضح الله له الآيات والبراهين، فهذا هو الذي سعى في قطع أسباب رحمة ربه عنه، وهو الذي سد على نفسه باب التوبة، ولهذا حصر الضلال في هذا الصنف، فقال ﴿وأولئك هم الضالون﴾ وأي: ضلال أعظم من ضلال من ترك الطريق عن بصيرة، وهؤلاء الكفرة إذا استمروا على كفرهم إلى الممات تعين هلاكهم وشقاؤهم الأبدي، ولم ينفعهم شيء، فلو أنفق أحدهم ملء الأرض ذهباً ليفتدي به من عذاب الله ما نفعه ذلك، بل لا يزالون في العذاب الأليم، لا شافع لهم ولا ناصر ولا مغني ولا مجير ينقذهم من عذاب الله فأيسوا من كل خير، وجزموا على الخلود الدائم في العقاب والسخط، فعياداً بالله من حالهم.

﴿٨٤﴾ ﴿قل آمنا بالله وما أنزل

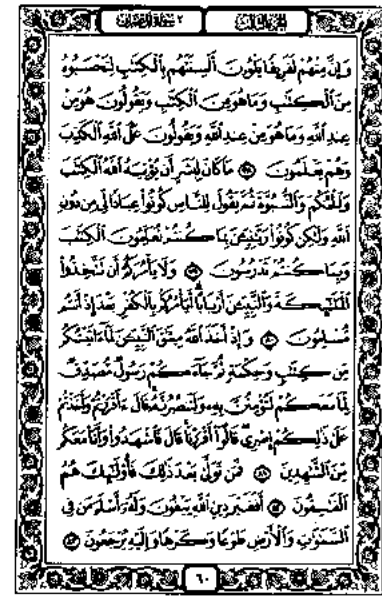
علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴿تقدم نظير هذه الآية في سورة البقرة، ثم قال تعالى.

﴿٨٥﴾ ﴿ومن يتبع غير الإسلام

ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴿أي: من يدين لله بغير دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده، فعمله مردود غير مقبول، لأن دين الإسلام هو المتضمن للاستسلام لله، إخلاصاً وانقياداً لرسله فما لم يأت به العبد لم يأت بسبب النجاة من عذاب الله والفرج بشوايه، وكل دين سواه فباطل، ثم قال تعالى:

﴿٨٦ - ٨٨﴾ ﴿كيسف يهدي الله

قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين \* أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين \* خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ﴿هذا من باب الاستبعاد، أي: من الأمر البعيد أن يهدي الله قوماً اختاروا الكفر والضلال بعدما آمنوا وشهدوا أن الرسول حق بما جاءهم به من الآيات البينات والبراهين القاطعات ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ فهؤلاء ظلموا وتركوا الحق بعدما عرفوه، واتبعوا الباطل مع علمهم ببطلانه ظلماً وغيياً واتباعاً لأهوائهم، فهؤلاء لا يوفقون للهداية، لأن الذي يرجى أن يهدي هو الذي لم يعرف الحق وهو حريص على التماسه، فهذا بالحري أن يبسر الله له أسباب الهداية ويصونه من أسباب الغواية، ثم أخبر عن عقوبة هؤلاء المعاندين الظالمين الدنيوية والأخروية، فقال ﴿أرلئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين \* خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم



﴿قالوا أقرنا﴾ أي: قبلنا ما أمرتنا به على الراس والعين ﴿قال﴾ الله لهم: ﴿فاشهدوا﴾ على أنفسكم وعلى أممكم بذلك، قال ﴿وأنا معكم من الشاهدين \* فمن تولى بعد ذلك العهد والميثاق المؤكد بالشهادة من الله ومن رسله ﴿فاولئك هم الفاسقون﴾ فعل هذا كل من ادعى أنه من أتباع الأنبياء كاليهود والنصارى ومن تبعهم، فقد تولوا عن هذا الميثاق الغليظ، واستحقوا الفسق الموجب للخلود في النار إن لم يؤمنوا بمحمد ﷺ.

﴿٨٣﴾ ﴿أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ﴿أي: أطلب الطالبون ويرغب الراغبون في غير دين الله؟ لا يحسن هذا ولا يليق، لأنه لا أحسن ديناً من دين الله ﴿وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً﴾ أي: الخلق كلهم متقادون بتسخيره مستسلمون له طوعاً واختياراً، وهم المؤمنون المسلمون المتقادون لعبادة ربه، وكرهاً وهم سائر الخلق، حتى الكافرون مستسلمون لفضائه وقدره لا خروج لهم عنه، ولا امتناع لهم منه، وإليه مرجع الخلاق كلها، فيحكم بينهم ويجازيهم بحكمه الدائر بين الفضل والعدل.

﴿٩٢﴾ ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ هذا حث من الله لعباده على الإنفاق في طرق الخيرات، فقال ﴿لَنْ تَنَالُوا﴾ أي: تدرکوا وتبلغوا البر الذي هو كل خير من أنواع الطاعات وأنواع الثوبات الموصلة لصاحبه إلى الجنة، ﴿حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أي: من أموالكم النفيسة التي تحبها نفوسكم، فإنكم إذا قدمت حبة الله على حبة الأموال فبذلتتموها في مرضاته، دل ذلك على إيمانكم الصادق وبر قلوبكم ويقين تقواكم، فيدخل في ذلك إنفاق نفائس الأموال، والإنفاق في حال حاجة المنفق إلى ما أنفقه، والإنفاق في حال الصحة، ودلت الآية أن العبد بحسب إنفاقه للمحوبات يكون بره، وأنه ينقص من بره بحسب ما نقص من ذلك، ولما كان الإنفاق على أي: وجه كان مثاباً عليه العبد، سواء كان قليلاً أو كثيراً، محبوباً للنفس أم لا، وكان قوله ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ مما يوهم أن إنفاق غير هذا المقيد غير نافع، احتترز تعالى عن هذا الوهم بقوله ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فلا يضيق عليكم، بل يشيكم عليه على حسب نياتكم ونفعه.

﴿٩٣ - ٩٥﴾ ﴿كُلِ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَاَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون \* قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين \* وهذا رد على اليهود بزعمهم الباطل أن النسخ غير جائز، فكفروا بعيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم، لأنهما قد أتيا بما يخالف بعض أحكام التوراة بالتحليل والتحرير فمن تمام الإنصاف في المجادلة لإلزامهم بما في كتابهم التوراة من أن جميع أنواع الأطعمة محلة لبني

إسرائيل ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ﴾ وهو يعقوب عليه السلام ﴿عَلَى نَفْسِهِ﴾ أي: من غير تحرير من الله تعالى، بل حرمه على نفسه لما أصابه عرق الشنا نذر لئن شفاه الله تعالى ليحرم أحب الأطعمة عليه، فحرم فيما يذكرون لحوم الإبل والبانها وتبعه بنوه على ذلك قبل نزول التوراة، ثم نزل في التوراة أشياء من المحرمات غير ما حرم إسرائيل مما كان حلالاً لهم طيباً، كما قال تعالى ﴿فَبَطَلْهُمْ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ وأمر الله رسوله إن أنكروا ذلك أن يأمرهم بإحضار التوراة، فاستمروا بعد هذا على الظلم والعدا، فلماذا قال تعالى ﴿فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وأي: ظلم أعظم من ظلم من يدعى إلى تحكيم كتابه فيمتنع من ذلك عناداً وتكبراً وغيراً، وهذا من أعظم الأدلة على صحة نبوة نبينا محمد ﷺ وقيام الآيات البيئات المتنوعات على صدقه وصدق من نبأه وأخبره بما أخبره به من الأمور التي لا يعلمها إلا بإخبار ربه له بها، فلماذا قال تعالى ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ أي: فيما أخبر به وحكم، وهذا أمر من الله لرسوله ولئن يتبعه أن يقولوا بألسنتهم: صدق الله، معتقدين بذلك في قلوبهم عن أدلة يقينية، مقيمين هذه الشهادة على من أنكروها، ومن هنا تعلم أن أعظم الناس تصديقاً لله أعظمهم علماً والعقلية، ثم أمرهم باتباع ملة أبيهم إبراهيم عليه السلام بالتوحيد وترك الشرك الذي هو مدار السعادة، وترك حصول الشقارة، وفي هذا دليل على أن اليهود وغيرهم ممن ليس على ملة إبراهيم مشركون غير موحدين، ولما أمرهم باتباع ملة إبراهيم في التوحيد وترك الشرك أمرهم باتباعه بتعظيم بيته الحرام بالحج وغيره، فقال:

﴿٩٦ - ٩٧﴾ ﴿إِنْ أُولَ بَيْتٍ وَضَع

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَاَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ \* قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين \* وهذا رد على اليهود بزعمهم الباطل أن النسخ غير جائز، فكفروا بعيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم، لأنهما قد أتيا بما يخالف بعض أحكام التوراة بالتحليل والتحرير فمن تمام الإنصاف في المجادلة لإلزامهم بما في كتابهم التوراة من أن جميع أنواع الأطعمة محلة لبني إسرائيل ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ﴾ وهو يعقوب عليه السلام ﴿عَلَى نَفْسِهِ﴾ أي: من غير تحرير من الله تعالى، بل حرمه على نفسه لما أصابه عرق الشنا نذر لئن شفاه الله تعالى ليحرم أحب الأطعمة عليه، فحرم فيما يذكرون لحوم الإبل والبانها وتبعه بنوه على ذلك قبل نزول التوراة، ثم نزل في التوراة أشياء من المحرمات غير ما حرم إسرائيل مما كان حلالاً لهم طيباً، كما قال تعالى ﴿فَبَطَلْهُمْ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ وأمر الله رسوله إن أنكروا ذلك أن يأمرهم بإحضار التوراة، فاستمروا بعد هذا على الظلم والعدا، فلماذا قال تعالى ﴿فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وأي: ظلم أعظم من ظلم من يدعى إلى تحكيم كتابه فيمتنع من ذلك عناداً وتكبراً وغيراً، وهذا من أعظم الأدلة على صحة نبوة نبينا محمد ﷺ وقيام الآيات البيئات المتنوعات على صدقه وصدق من نبأه وأخبره بما أخبره به من الأمور التي لا يعلمها إلا بإخبار ربه له بها، فلماذا قال تعالى ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ أي: فيما أخبر به وحكم، وهذا أمر من الله لرسوله ولئن يتبعه أن يقولوا بألسنتهم: صدق الله، معتقدين بذلك في قلوبهم عن أدلة يقينية، مقيمين هذه الشهادة على من أنكروها، ومن هنا تعلم أن أعظم الناس تصديقاً لله أعظمهم علماً والعقلية، ثم أمرهم باتباع ملة أبيهم إبراهيم عليه السلام بالتوحيد وترك الشرك الذي هو مدار السعادة، وترك حصول الشقارة، وفي هذا دليل على أن اليهود وغيرهم ممن ليس على ملة إبراهيم مشركون غير موحدين، ولما أمرهم باتباع ملة إبراهيم في التوحيد وترك الشرك أمرهم باتباعه بتعظيم بيته الحرام بالحج وغيره، فقال:

للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين \* فيه آيات بيئات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين \* يخبر تعالى عن شرف هذا البيت الحرام، وأنه أول بيت وضع الله للناس، يتعبدون فيه لربهم فتغفر أوزارهم، وتقال عشارهم، ويحصل لهم به من الطاعات والقرابات ما يتالون به رضى ربهم والفوز بنوابه والنجاة من عقابه، ولهذا قال: ﴿مباركاً﴾ أي: فيه البركة الكثيرة في المنافع الدينية والدنيوية كما قال تعالى ﴿ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ وهدى للعالمين \* والهدى نوعان: هدى في المعرفة، وهدى في العمل، فالهدى في العمل ظاهر، وهو ما جعل الله فيه من أنواع التعبدات المختصة به، وأما هدى العلم فبما يحصل لهم بسببه من العلم بالحق بسبب الآيات البيئات التي ذكر الله تعالى في قوله ﴿فيه آيات بيئات﴾ أي: أدلة واضحات، وبراهين قاطعات على أنواع من العلوم الإلهية والمطالب العالية، كالأدلة على توحيدته ورحمته وحكمته وعظمته وجلاله وكمال علمه وسعة جوده، وما من به على أوليائه وأنبيائه، فمن الآيات



هذا الفرض العظيم .

وتأمل سر البدل في الآية المقتضي لذكر الإسناد مرتين ، مرة بإسناده إلى عموم الناس ، ومرة بإسناده إلى خصوص المستطيعين ، وهذا من فوائد البدل تقوية المعنى وتأكيده بتكرار الإسناد ولهذا كان في نية تكرار العامل وإعادته .

ثم تأمل ما في الآية من الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال ، وكيف تضمن ذلك إيراد الكلام في صورتين وختلتين ، اعتناء به وتأكيده لشأنه ، ثم تأمل كيف افتتح هذا الإيجاب بذكر محاسن البيت وعظم شأنه بما تدعوا النفوس إلى قصده وحججه وإن لم يطلب ذلك منها ، فقال : ﴿ إن أول بيت ﴾ الخ ، فوصفه بخمس صفات : أحدها كونه أسبق بيوت العالم وضع في الأرض ، الثاني : أنه مبارك ، والبركة كثرة الخير ودوامه ، وليس في بيوت العالم أبرك منه ولا أكثر خيراً ولا أدم ولا أنفع للخلائق ، الثالث : أنه هدى ، ووصفه بالمصدر نفسه مبالغة ، حتى كأنه نفس الهدى ، الرابع ما تضمن من الآيات البيئات التي تزيد على أربعين آية ، الخامس : الأمن الحاصل لداخله ، وفي وصفه بهذه الصفات دون إيجاب قصده ما بيعت النفوس على حجه وإن شطت بالزائرئين الديار وتناوت بهم الأقطار ، ثم أتبع ذلك بصريح الوجوب المؤكد بتلك التأكيدات ، وهذا يدل على الإعتناء منه سبحانه لهذا البيت العظيم ، والتنويه بذكره ، والتعظيم لشأنه ، والرفعة من قدره ، ولو لم يكن له شرف إلا إضافته إياه إلى نفسه بقوله ﴿ وطهر بيته ﴾ لكفى بهذه الإضافة فضلاً وشرفاً ، وهذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب العالمين إليه ، وسلبت نفوسهم حباله وشوقاً إلى رؤيته ، فهذه المثابة للمحبين يشوبون إليه ولا يقضون منه وطراً أبداً ، كلما ازدادوا له زيارة ازدادوا له حباً وإليه اشتياقاً ، فلا الوصال يشفيهم ولا البعاد يسلمهم ، كما قيل :

يقدمون في كلامهم ما هم به أهم وبيانه أعني هذا تقرير السهلي ، وهذا بعيد جداً بل الصواب في متعلق الجار والمجرور وجه آخر أحسن من هذين ، ولا يليق بالآية سواء ، وهو الوجوب المفهوم من قوله « على الناس » ، أي : يجب لله على الناس الحج ، فهو حق واجب لله ، وأما تعليقه بالسبيل وجعله حالاً منها ، ففي غاية البعد فتأمل ، ولا يكاد يخطر بالبال من الآية ، وهذا كما تقول : لله عليك الصلاة والزكاة والصيام .

ومن فوائد الآية وأسرارها أنه سبحانه إذا ذكر ما يوجه ويحرمه يذكره بلفظ الأمر والنهي ، وهو الأكثر ، ويلفظ الإيجاب والكتابة والتحرير نحو ﴿ كتب عليكم الصيام ﴾ ﴿ حرمت عليكم الميتة ﴾ ﴿ قل تعالوا آتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ وفي الحج أتى بهذا اللفظ الدال على تأكد الوجوب من عشرة أوجه ، أحدها أنه قدم اسمه تعالى وأدخل عليه لام الاستحقاق والاختصاص ثم ذكر من أوجه عليهم بصيغة العموم الداخلة عليها حرف على أبدل منه أهل الاستطاعة ، ثم نكر السبيل في سياق الشرط إيذاناً بأنه يجب الحج على أي : سبيل تيسرت ، من قوت أو مال ، فعلق الوجوب بحصول ما يسمى سبيلاً ، ثم أتبع ذلك بأعظم التهديد بالكفر فقال ﴿ ومن كفر ﴾ أي :

لعدم إلتزامه هذا الواجب وتركه ثم عظم الشأن وأكد الوعيد بإخباره ما يستغنى به عنه ، والله تعالى هو الغني الحميد ، ولا حاجة به إلى حج أحد ، وإنما في ذكر استغنائاه عنه هنا من الإعلام بمقته له وسخطه عليه وإعراضه بوجهه عنه ما هو أعظم التهديد وأبلغه ، ثم أكد ذلك بذكر اسم « العالمين » عموماً ، ولم يقل : فإن الله غني عنه ، لأنه إذا كان غنياً عن العالمين كلهم فله الغنى الكامل التام من كل وجه بكل اعتبار ، فكان أدل لعظم مقته لتارك حقه الذي أوجه عليه ، ثم أكد هذا المعنى بأداة « إن » الدالة على التأكيد ، فهذه عشرة أوجه تقتضي تأكد

باب « يعجبني ضرب زيد عمراً » وفيما يفصل فيه بين المصدر وفاعله المضاف إليه بالمفعول والظرف حمل على المكتوب المرجوح ، وهي قراءة ابن عامر ( قتل أولادهم شركائهم ) ، فلا يصار إليه . وإذا ثبت أن « من » بدل بعض من كل وجب أن يكون في الكلام ضمير يعود إلى « الناس » كأنه قيل : من استطاع منهم ، وحذف هذا الضمير في أكثر الكلام لا يحسن ، وحسنه هاهنا أمور منها : أن « من » واقعة على من لا يعقل ، كالاسم البدل منه فارتبطت به ، ومنها : أنها موصولة بما هو أخص من الاسم الأول ، ولو كانت الصلة أعم لفتح حذف الضمير العائد ، ومثال ذلك إذا قلت : رأيت إخوانك من ذهب إلى السوق منهم ، كان قبيحاً ، لأن الذهاب إلى السوق أعم من الإخوة ، وكذلك لو قلت : البس الثياب ما حسن وجمل ، يريد منها ، ولم يذكر الضمير كان أبعد في الجواز ، لأن لفظ ما حسن أعم من الثياب .

وباب البعض من الكل أن يكون أخص من البدل منه ، فإذا كان أعم وأضفته إلى ضمير أو فيدته بضمير يعود إلى الأول ارتفع العموم وبقي الخصوص ، وبما حسن حذف المضاف في هذه أيضاً مع ما تقدم طول الكلام بالصلة والموصول .

وأما المجرور من قوله « لله » فيحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون في موضع من سبيل ، كأنه نعت نكرة قدم عليها ، لأنه لو تأخر لكان في موضع النعت لسبيل ، والثاني : أن يكون متعلقاً بسبيل ، فإن قلت : كيف يتعلق به وليس فيه معنى الفعل ؟ قيل : السبيل لما كان عبارة هاهنا عن الموصل إلى البيت من قوت وزاد وتحومها ، كان فيه رائحة الفعل ، ولم يقصد به السبيل الذي هو الطريق ، فصالح تعلق المجرور به ، واقتضى حسن التنظيم وإعجاز اللفظ تقديم المجرور وإن كان موضعه التأخير ، لأنه ضمير يعود على البيت ، والبيت هو المقصود به الاعتناء ، وهم

أطوف به والنفس بعد مشوقة إليه وهل بعد الطواف تداوي وأنتم منه الركن أطلب بردهما بقلبي من شوق ومن هيمان فوالله ما ازداد إلا أصبابه ولا القلب إلا كثرة الخفقان فباجنة المأوى وبإغاية النسي وبإمسياتي من دون كل أمان أبت غلبات الشوق لإلتقربا إليك فصالي بالبعاد يدان وما كان صدى عنك صدماللة ولي شاهد من مفلتي ولسان دعوت اصطباري عنك بعدك والبكا فلبى البكا والصبر عنك عصاني وقد زعموا أن المحب إذا نأى سبيل هواه بعد طول زمان ولو كان هذا الزعم حقاً لكان ذا دواء الهوى في الناس كل زمان بلى إنه يبلى والهوى على حاله<sup>(١)</sup> لم يبسه اللوران<sup>(٢)</sup> وهذا محب قاده الشوق والهوى بنخير زمام قائد وعنان أتاك على بعد الزاير ولورونت مطيته جاءت به القدمان انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

﴿٩٨ - ١٠١﴾ قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون \* قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون \* يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين \* وكيف تكفرون بعد إيمانكم بآيات الله وفيكم

رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم ﴿١٠١﴾ يوبخ تعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى على كفرهم بآيات الله التي أنزلها الله على رسله، التي جعلها رحمة لعباده يبتدون بها إليه، ويستدلون بها على جميع المطالب المهمة والعلوم النافعة، فهؤلاء الكفرة جمعوا بين الكفر بها وصد من آمن بالله عنها وتحريفها وتحويلها عما جعلت له، وهم شاهدون بذلك عاملون بأن ما فعلوه أعظم الكفر الموجب لأعظم العقوبة ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾ فلماذا توعدهم هنا بقوله: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ بل يحيط بأعمالكم<sup>(٣)</sup>

ونياتكم ومكركم السيء، فمجازيكم عليه أشد الجزاء لما توعدهم ووبخهم عطف برحمته وجوده وإحسانه وحذر عباده المؤمنين منهم لئلا يمكروا بهم من حيث لا يشعرون، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ وذلك لحسدكم وبغيهم عليكم، وشدة حرصهم على ردكم عن دينكم، كما قال تعالى: ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾ ثم ذكر تعالى السبب الأعظم والموجب الأكبر لشيء المؤمنين على إيمانهم، وعدم تزلزلهم عن إيمانهم، وأن ذلك من أبعاد الأشياء، فقال: ﴿وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله﴾ أي: الرسول بين أظهركم يتلو عليكم آيات ربكم كل وقت، وهي الآيات البينات التي توجب القطع بموجبه والجزم بمقتضاها وعدم الشك

فيما دلت عليه بوجه من الوجوه، خصوصاً والمبين لها أفضل الخلق وأعلمهم وأفصحهم وأنصحهم وأرأفهم بالمؤمنين، الحريص على هداية الخلق وإرشادهم بكل طريق يقدر عليه، فصلوات الله وسلامه عليه، فلقد نصح وبلغ البلاغ المبين، فلم يبق في نفوس القائلين مقالا ولم يترك لجانل في طلب الخير مجالاً، ثم أخبر أن من اعتصم به فتوكل عليه وامتنع بقوته ورحمته عن كل شر، واستعان به على كل خسر ﴿فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾ موصل له إلى غاية المرغوب، لأنه جمع بين اتباع الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله وبين الاعتصام بالله.

﴿١٠٢ - ١٠٣﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾

من الله لعباده المؤمنين أن يتقوه حق تقواه، وأن يستمروا على ذلك ويشتروا عليه ويستقيموا إلى الممات، فإن من عاش على شيء مات عليه، فمن كان في حال صحته ونشاطه وإمكانه مداوماً لتقوى ربه وطاعته، منيباً إليه على الدوام، ثبته الله عند موته وورثه حسن الخاتمة، وتقوى الله حق تقواه كما قال ابن مسعود: وهو أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، وهذه الآية بيان لما يستحقه تعالى من التقوى، وأما ما يجب على العبد منها، فكما قال تعالى: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ وتفاصيل التقوى المتعلقة بالقلب والجوارح كثيرة جداً، يجمعها

(١) في الهامش كتب: أي الهوى.

(٢) في الهامش: (لعل صواب هذا البيت قوله:

بلى إنه يبلى المحب وإنه

وبمراجعة بدائع الفوائد (٤٦/٢) تبين أن البيت كما يلي:

بلى إنه يبلى التصبر والهوى

(٣) في الأصل: بأعمالهم ولعل الصواب ما أثبت.

على حاله لم يبسه اللوران

على حاله لم يبسه اللوران





والسرور والنعيم والحبور الذي ظهرت آثاره على وجوههم كما قال تعالى: ﴿وَلِقَاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ نضرة في وجوههم وسروراً في قلوبهم، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جِزَاءً سِئَةً بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ كَأَنَّمَا أَغْشَيْتَ وُجُوهَهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مَظْلَمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آسَدُوا وَجُوهَهُمْ﴾ فيقال لهم على وجه التوبيخ والتعريض: ﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي: كيف آثرتُم الكفر والضلال على الإيمان والهدى؟ وكيف تركتم سبيل الرشاد وسلكتُم طريق الغي؟ ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فليس يلقى بكم إلا النار، ولا تستحقون إلا الخزي والفضيحة والعار ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ﴾ فيهنؤون أكمل تهنئة ويبشرون أعظم بشارة، وذلك أنهم يبشرون بدخول الجنات ورضى ربهم ورحمته ﴿فَنَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وإذا كانوا خالدين في الرحمة، فالجنة أثر من آثار رحمته تعالى، فهم خالدون فيها بما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم، في جوار أرحم الراحمين، لما بين الله لرسوله ﷺ الأحكام الأمرية والأحكام الجزائية قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْلُوهَا﴾ أي: نقصها ﴿عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ لأن أوامره ونواهيه مشتتة على الحكمة والرحمة وثوابها وعقابها، كذلك مشتت

على الحكمة والرحمة والعدل الخالي من الظلم، ولهذا قال: ﴿وَمَا اللَّهُ بِرَبِّدٍ ظَلَمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ نفى إرادته ظلمهم فضلاً عن كونه يفعل ذلك فلا ينقص أحداً شيئاً من حسناته، ولا يزيد في ظلم الظالمين، بل يجازيهم بأعمالهم فقط، ثم قال تعالى:

﴿١٠٩﴾ ﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي: هو المالك لما في السماوات وما في الأرض، الذي خلقهم ورزقهم ويتصرف فيهم بقدره وقضائه، وفي شرعه وأمره، وإليه يرجعون يوم القيامة فيجازيهم بأعمالهم حسنهما وسيئهما.

﴿١١٠ - ١١٢﴾ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ \* لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون \* ضربت عليهم الذلة أينما نفقوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون \* يمدح تعالى هذه الأمة ويخبر أنها خير الأمم التي أخرجها الله للناس، وذلك بتكميلهم لأنفسهم بالإيمان المستلزم للقيام بكل ما أمر الله به، وبتكميلهم لغيرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المتضمن دعوة الخلق إلى الله وجهادهم على ذلك وبذل المستطاع في ردهم عن ضلالهم وغيهم وعصيانهم، فهذا كانوا خير أمة أخرجت للناس، لما كانت الآية السابقة وهي قوله: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أمراً منه تعالى لهذه الأمة، والأمر قد يمثلته المأمور ويقوم به، وقد لا يقوم به، أخبر في هذه الآية أن الأمة قد قامت بما أمرها الله بالقيام به، وامتلئت أمر ربها واستحقت الفضل على سائر الأمم ﴿ولو آمن أهل الكتاب

لكان خيراً لهم﴾ وفي هذا من دعوته بلطف الخطاب ما يدعوهم إلى الإيمان، ولكن لم يؤمن منهم إلا قليل، وأكثرهم الفاسقون الخارجون عن طاعة الله المعادون لأوليائه الله بأنواع العداوة، ولكن من لطف الله بعباده المؤمنين أنه رد كيدهم في نحورهم، فليس على المؤمنين منهم ضرر في أديانهم ولا أبدانهم، وإنما غاية ما يصلون إليه من الأذى أذية الكلام التي لا سبيل إلى السلامة منها من كل معادي، فلو قاتلوا المؤمنين لولوا الأدبار فراراً ثم تستمر هزيمتهم ويدوم ذلهم ولا هم ينصرون في وقت من الأوقات، ولهذا أخبر تعالى أنه عاقبهم بالذلة في بواطنهم والمسكنة على ظواهرهم، فلا يستقرون ولا يطعمنون ﴿إلا بحبل﴾ أي: عهد ﴿من الله وحبل من الناس﴾ فلا يكون اليهود إلا تحت أحكام المسلمين وعهدهم، تؤخذ منهم الجزية ويستذلون، أو تحت أحكام النصارى وقد ﴿باؤوا﴾ مع ذلك ﴿بغضب من الله﴾ وهذا أعظم العقوبات، والسبب الذي أوصلهم إلى هذه الحال ذكره الله بقوله: ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله التي أنزلها الله على رسوله محمد ﷺ الموجبة لليقين والإيمان، فكفروا بها بغياً وعناداً﴾ ﴿ويقتلون الأنبياء بغير حق﴾ أي: يقابلون أنبياء الله الذين يحضنون إليهم أعظم إحسان بأشر مقابلة، وهو القتل، فهل بعد هذه الجراءة والجنابة شيء أعظم منها، وذلك كله بسبب عصيانهم واعتدائهم، فهو الذي جرأهم على الكفر بالله وقتل أنبياء الله، ثم قال تعالى:

﴿١١٣ - ١١٥﴾ ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ \* يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين \* وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين \* لما بين تعالى الفرقة الفاسقة من أهل الكتاب وبين أفعالهم وعقوباتهم،

بين هاهنا الأمة المستقيمة، وبين أفعالها وثوابها، فأخبر أنهم لا يستون عندده، بل بينهم من الفرق ما لا يمكن وصفه، فأما تلك الطائفة الفاسقة فقد مضى وصفهم، وأما هؤلاء المؤمنون، فقال تعالى منهم ﴿أمة قائمة﴾ أي: مستقيمة على دين الله، قائمة بما ألزمها الله به من الأمور، ومن ذلك قيامها بالصلاة ﴿يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ وهذا بيان لصلاتهم في أوقات الليل وطول تهجدهم وتلاوتهم لكتاب ربهم وإيثارهم الخضوع والركوع والسجود له ﴿يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ أي: كإيمان المؤمنين إيماناً يوجب لهم الإيمان بكل نبي أرسله، وكل كتاب أنزله الله، وخص الإيمان باليوم الآخر لأن الإيمان الحقيقي باليوم الآخر يثبت المؤمن به على ما يقربه إلى الله، ويثاب عليه في ذلك اليوم، وترك كل ما يعاقب عليه في ذلك اليوم ﴿ويأسرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ فحصل منهم تكميل أنفسهم بالإيمان ولوازمه، وتكميل غيرهم بأمرهم بكل خير، ونهيهم عن كل شر، ومن ذلك حثهم أهل دينهم وغيرهم على الإيمان بمحمد ﷺ، ثم وصفهم بالهمم العالية ﴿و﴾ أنهم ﴿يسارعون في الخيرات﴾ أي: يبادرون إليها فيتزورون الفرصة فيها، ويفعلونها في أول وقت إمكانها، وذلك من شدة رغبتهم في الخير ومعرفتهم بفوائده وحسن عوائده، فهؤلاء الذين وصفهم الله بهذه الصفات الجميلة والأفعال الجليلة ﴿من الصالحين﴾ الذين يدخلهم الله في رحمته ويتغمدهم بغفرانه وينيلهم من فضله وإحسانه، وأنهم مهما فعلوا ﴿من خير﴾ قليلاً كان أو كثيراً ﴿فلن يكفروا﴾ أي: لن يجرموا ويفوتوا أجره، بل يشيهم الله على ذلك أكمل ثواب، ولكن الأعمال ثوابها تبع لما يقوم بقلب صاحبها من الإيمان والتقوى، فلماذا قال ﴿والله عليم بالمتقين﴾ كما قال تعالى: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾.

﴿١١٦ - ١١٧﴾ إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون \* مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ربح فيها صرّ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون \* يخبر تعالى أن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، أي: لا تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله، ولا تعدي عليهم شيئاً من ثواب الله، كما قال تعالى: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً﴾ بل تكون أموالهم وأولادهم زادا لهم إلى النار، وحجة عليهم في زيادة نعم الله عليهم، تقتضي منهم شكرها، ويعاقبون على عدم القيام بها وعلى كفرها، ولهذا قال: ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾

ثم ضرب مثلاً ما ينفقه الكفار من أموالهم التي يصدون بها عن سبيل الله ويستعينون بها على إطفاء نور الله، بأنها تبطل وتضمحل، كمن زرع زرعاً يربو نتيجه ويؤمل إدراك ريعه، بينما هو كذلك إذ أصابته ريح فيها صر، أي: برد شديد محرق، فأهلكته زرعها، ولم يحصل له إلا التعب والعناء وزيادة الأسف، فكذلك هؤلاء الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فيسفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون﴾ وما ظلمهم الله ﴿بإطال أعمالهم﴾ ولكن كانوا ﴿أنفسهم يظلمون﴾ حيث كفروا بآيات الله وكذبوا رسوله وحرصوا على إطفاء نور الله، هذه الأمور هي التي أحبطت أعمالهم وذهبت بأموالهم، ثم قال تعالى:

﴿١١٨ - ١٢٠﴾ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً وظناً ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون \* ها أنتم أولاء تحبونهم

﴿١١٦ - ١١٧﴾ إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون \* مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ربح فيها صرّ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون \* يخبر تعالى أن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، أي: لا تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله، ولا تعدي عليهم شيئاً من ثواب الله، كما قال تعالى: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً﴾ بل تكون أموالهم وأولادهم زادا لهم إلى النار، وحجة عليهم في زيادة نعم الله عليهم، تقتضي منهم شكرها، ويعاقبون على عدم القيام بها وعلى كفرها، ولهذا قال: ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾

ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور \* إن تمسكتم حسنة نسوهم وإن تصيبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط \* ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يتخذوا بطانة من المنافقين من أهل الكتاب وغيرهم يظهر عنهم على سرائرهم أو يولونهم بعض الأعمال الإسلامية وذلك أنهم هم الأعداء الذين امتلأت قلوبهم من العداوة والبغضاء فظهرت على أفواههم ﴿وما تخفي صدورهم أكبر﴾ مما يسمع منهم فلماذا ﴿لا يألونكم خبالاً﴾ أي: لا يقصرون في حصول الضرر عليكم والمشقة وعمل الأسباب التي فيها ضرركم ومساعدة الأعداء عليكم قال الله للمؤمنين ﴿قد بينا لكم الآيات﴾ التي فيها مصالحكم الدينية والدنيوية ﴿لعلكم تعقلون﴾ فتعرفونها وتفرقون بين الصديق والعدو، فليس كل أحد يجعل بطانة، وإنما العاقل من إذا ابتلي بمخالطة العدو أن تكون مخالطة في ظاهره ولا يطلع له من باطنه على شيء ولو تعلق له وأقسم أنه من أوليائه قال الله مهيباً للمؤمنين على الحذر من هؤلاء المنافقين من أهل الكتاب، وميناً شدة عداوتهم ﴿ها أنتم





المؤمنون ﴿١٢٧﴾. هذه الآيات نزلت في وقعة «أحد»، وقصتها مشهورة في السير والتواريخ، ولعل الحكمة في ذكرها في هذا الموضع، وأدخل في أثنائها وقعة «بدر» لما أن الله تعال قد وعد المؤمنين أنهم إذا صبروا واتقوا نصرهم، ورد كيد الأعداء عنهم، وكان هذا حكماً عاماً ووعداً صادقاً لا يتخلف مع الإتيان بشرطه، فذكر نموذجاً من هذا في هاتين القصصتين، وأن الله نصر المؤمنين في «بدر» لما صبروا واتقوا، وأدال عليهم العدو لما صدر من بعضهم من الإخلال بالتقوى ما صدر، ومن حكمة الجمع بين القصتين أن الله يحب من عباده إذا أصابهم ما يكرهون أن يتذكروا ما يجوبون، فيخف عنهم البلاء ويشكروا الله على نعمه العظيمة التي إذا قوبلت بما ينالهم من المكروه الذي هو في الحقيقة خير لهم، كان المكروه بالنسبة إلى المحبوب نزرأ يسيراً، وقد أشار تعال إلى هذه الحكمة في قوله ﴿أولاً أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها﴾ وحاصل قضية «أحد» وإجمالها أن المشركين لما رجع فلهم من «بدر» إلى مكة، وذلك في سنة اثنتين من الهجرة، استعدوا بكل ما يقدرون عليه من العدد بالأموال والرجال والعُدَد، حتى اجتمع عندهم من ذلك ما جزموا بحصول غرضهم وشفاء غيظهم، ثم وجهوا من مكة للمدينة في ثلاثة آلاف مقاتل، حتى نزلوا قرب المدينة، فخرج النبي ﷺ إليهم هو وأصحابه بعد المراجعة والمشاورة حتى استقر رأيهم على الخروج، وخرج في ألف، فلما ساروا قليلاً رجع عبد الله بن أبي المنافق بثلاث الجيش عن هو على مثل طريقته، وهمت طائفتان من المؤمنين أن يرجعوا وهم بنو سلمة وبنو حارثة فنبههم الله، فلما وصلوا إلى أحد رتبهم النبي ﷺ في مواضعهم وأسندوا ظهورهم إلى أحد، ورتب النبي ﷺ خمسين رجلاً من أصحابه في خلة في جبل «أحد» وأمرهم أن يلزموا مكائهم ولا يبرحوا منه ليأمنوا أن يأتيهم أحد من ظهورهم، فلما التقى المسلمون

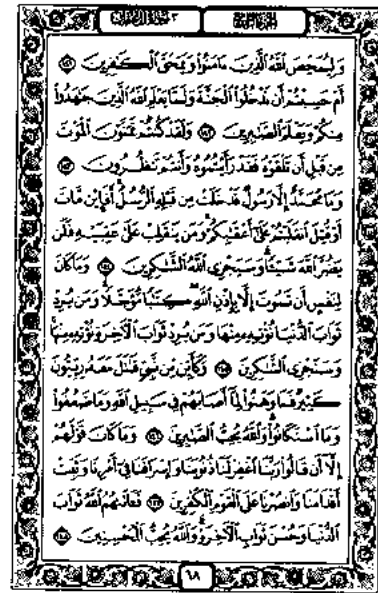
والمشركون انهزم المشركون هزيمة قبيحة وخلفوا معسكرهم خلف ظهورهم، واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، فلما راهم الرماة الذين جعلهم النبي ﷺ في الجبل، قال بعضهم لبعض: الغنيمة الغنيمة، ما يقعدنا هاهنا والمشركون قد انهزموا، ووعظهم أميرهم عبد الله بن جبير عن المعصية فلم يلتفتوا إليه، فلما أخلوا موضعهم فلم يبق فيه إلا نفر يسير، منهم أميرهم عبد الله بن جبير، جاءت خيل المشركين من ذلك الموضع واستدبرت المسلمين وقاتلت ساقتهم، فجال المسلمون جولة ابتلاهم الله بها وكفر بها عنهم، وأذاقهم فيها عقوبة المخالفة، فحصل ما حصل من قتل من قتل منهم، ثم إنهم انحازوا إلى رأس جبل «أحد» وكف الله عنهم أيدي المشركين وانكسروا إلى بلادهم، ودخل رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة قال الله تعال ﴿وإذ غدوت من أهلك﴾ والغدو هاهنا مطلق الخروج، ليس المراد به الخروج في أول النهار، لأن النبي ﷺ وأصحابه لم يخرجوا إلا بعدما صلوا الجمعة ﴿نبؤى المؤمنين مقاعد للقتال﴾ أي: تنزلهم وترتبهم كل في مقعده اللائق به، وفيها أعظم مدح للنبي ﷺ حيث هو الذي يبأشر تدبيرهم وإقامتهم في مقاعد القتال، وما ذاك إلا لكمال علمه ورأيه، وسداد نظره وعلو همته، حيث يبأشر هذه الأمور بنفسه وشجاعته الكاملة صلوات الله وسلامه عليه ﴿والله سميع﴾ لجميع المسموعات، ومنه أنه يسمع ما يقول المؤمنون والمنافقون كل يتكلم بحسب ما في قلبه ﴿عليهم﴾ بنيات العبيد، فيجازيهم عليها أتم الجزاء، وأيضاً فالله سميع عليهم بكم، يكلؤكم، ويتولى تدبير أموركم، ويؤيدكم بنصره كما قال تعال لموسى وهارون ﴿إني معكما أسمع وأرى﴾ ومن لطفه بهم وإحسانه إليهم أنه، لما ﴿همت طائفتان﴾ من المؤمنين بالفشل وهم بنو سلمة وبنو حارثة كما تقدم ثبتهما الله تعال نعمة عليهما وعلى سائر المؤمنين، فلهذا قال

أولاً تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله ﴿أي: جنس الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه وهم لا يؤمنون بكتابكم، بل إذا لقوكم أظهروا لكم الإيمان﴾ وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل ﴿وهي أطراف الأصابع من شدة غيظهم عليكم﴾ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور ﴿وهذا فيه بشارة للمؤمنين أن هؤلاء الذين قصدوا ضرركم لا يضررون إلا أنفسهم، وإن غيظهم لا يقدرتون على تنفيذه، بل لا يزالون معذبين به حتى يموتوا فيتنقلوا من عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة.

﴿إن تمسككم حسنة﴾ كالنصر على الأعداء وحصول الفتح والغنائم ﴿تسؤم﴾ أي: تخفهم وتخزهم ﴿وإن تصيبكم سنة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط﴾ فإذا أتيتم بالأسباب التي وعد الله عليها النصر - وهي الصبر والتقوى - لم يضركم مكرهم، بل يجعل الله مكرهم في نحورهم لأنه محيط بهم علمه وقدرته فلا منفذ لهم عن ذلك ولا يخفى عليهم منهم شيء.

﴿١٢١ - ١٢٢﴾ ﴿وإذ غدوت من أهلك نبؤى المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليهم﴾ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل





بالأنبياء أو غيرهم من الصالحين وغيرهم، وأن هذا شرك في العبادة، نقص في العقل، يتركون من الأمر كله له ويدعون من لا يملك من الأمر مشقال ذرة، إن هذا لهو الضلال البعيد، وتأمل كيف لما ذكر تعالى توبته عليهم أسند الفعل إليه، ولم يذكر منهم سبباً موجباً لذلك، ليدل ذلك على أن النعمة محض فضله على عبده، من غير سبق سبب من العبد ولا وسيلة، ولما ذكر العذاب ذكر معه ظلمهم، ورتبه على العذاب بالفاء المفيدة للسببية، فقال ﴿أو يعذبهم فأنهم ظالمون﴾ ليدل ذلك على كمال عدل الله وحكمته، حيث وضع العقوبة موضعها، ولم يظلم عبده بل العبد هو الذي ظلم نفسه، ولما نفى عن رسوله أنه ليس له من الأمر شيء قرر من الأمر له فقال ﴿والله ما في السماوات وما في الأرض﴾ من الملائكة والإنس والجن والحيوانات والأفلاك والجمادات كلها، وجميع ما في السماوات والأرض، الكل ملك لله مخلوقون مدبرون متصرف فيهم تصرف الممالك، فليس لهم مشقال ذرة من الملك، وإذا كانوا كذلك فهم دائرون بين مغفرته وتعذبه فيغفر لمن يشاء بأن يهديه للإسلام فيغفر شركه ويمن عليه بترك العصيان فيغفر له ذنبه، ﴿ويعذب من يشاء﴾ بأن يكله إلى نفسه الجاهلة الظالمة المتقضية لعمل الشر فيعمل الشر ويعذبه على ذلك، ثم ختم الآية باسمين كريمين دالين على سعة رحمته وعموم مغفرته وسعة إحسانه وعميم إحسانه، فقال ﴿والله غفور رحيم﴾ ففيها أعظم بشارة بأن رحمته غلبت غضبه، ومغفرته غلبت مؤاخذته، فالآية فيها الإخبار عن حالة الخلق وأن منهم من يغفر الله له ومنهم من يعذبه، فلم يحتمها باسمين أحدهما دال على الرحمة، والثاني دال على النقمة، بل ختمها باسمين كليهما يدل على الرحمة، فله تعالى رحمة وإحسان سيرحم بها عباده لا تحطرب ببال بشر، ولا يدرك لها وصف، فنسأله تعالى أن يتغمدنا ويدخلنا برحمته في عباده الصالحين. تم

من يشاء والله غفور رحيم﴾ لما جرى يوم «أحد» ما جرى، وجرى على النبي ﷺ مصائب، رفع الله بها درجته، فشح رأسه وكسرت ربايعته، قال «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم» وجعل يدعو على رؤساء من المشركين مثل أبي سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، أنزل الله تعالى على رسوله نبياً له عن الدعاء عليهم باللعنة والطرده عن رحمة الله ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ إنما عليك البلاغ وإرشاد الخلق والحرص على مصالحهم، وإنما الأمر لله تعالى هو الذي يدبر الأمور، ويهدي من يشاء ويضل من يشاء، فلا تدع عليهم بل أمرهم راجع إلى ربهم، إن اقتضت حكمته ورحمته أن يتوب عليهم ويمن عليهم بالإسلام فعل، وإن اقتضت حكمته إيقاعهم على كفرهم وعدم هدايتهم، فإنيهم هم الذين ظلموا أنفسهم وضروها وتسببوا بذلك، فعل، وقد تاب الله على هؤلاء المعينين وغيرهم، فهداهم للإسلام رضي الله عنهم، وفي هذه الآية ما يدل على أن اختيار الله غالب على اختيار العباد، وأن العبد وإن ارتفعت درجته وعلا قدره قد يختار شيئاً وتكون الخيرة والمصلحة في غيره، وأن الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء فغيره من باب أولى، ففيها أعظم رد على من تعلق

السفر الأول من هذا التفسير المبارك يسر من الله وإعانة فله الحمد والشكر والثناء وأسأله المزيد من فضله وكرمه وإحسانه، ويليه المجلد الثاني، أوله قول الباري جل جلاله يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة الآية وذلك في تسع وعشرين من شهر ربيع الأول من سنة ١٣٤٣ ثالث وأربعين وثلاث مئة وألف من الهجرة النبوية وصلى الله على محمد وسلم تسليماً كثيراً يقلم جامع عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي غفر الله له ولوالديه وإخوانه المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

المجلد الثاني من تفسير الكرم الصافي في تفسير كلام الرحمن لجامعه الفقير إلى الله: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي غفر الله له ولوالديه والمسلمين أمين.

### بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نعمته ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهدهم الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً كثيراً قال تعالى:

﴿١٣٠ - ١٣٦﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفةً واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ \* واتقوا النار التي أعدت للكافرين \* وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون \* وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين \* الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين \* والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون \* أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنت تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين﴾

تقدم في مقدمة هذا التفسير أن العبد ينبغي له مراعاة الأوامر والنواهي





الخالق<sup>(١)</sup>

فسرها النبي ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وأما الإحسان إلى المخلوق، فهو إيصال النفع الديني والدنيوي إليهم، ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم، فيدخل في ذلك أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليم جاهلهم، ووعظ غافلهم، والنصيحة لعامتهم وخاصتهم، والسمي في جمع كلمتهم، وإيصال الصدقات والتفقات الواجبة والمستحبة إليهم، على اختلاف أحوالهم وتباين أوصافهم، فيدخل في ذلك بذل السدي وكف الأذى، واحتمال الأذى، كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات، فمن قام بهذه الأمور، فقد قام بحق الله وحق عبده.

ثم ذكر اعتذارهم لربهم من جنائياتهم وذنوبهم، فقال: «والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم» أي: صدر منهم أعمال [سيئة]<sup>(٢)</sup> كبيرة، أو ما دون ذلك، يبادروا إلى التوبة والاستخفاف، وذكروا ربهم، وما توعد به العصاة ووعده المتقين، فسألوه المغفرة لذنوبهم، والستر لعيوبهم، مع إقلاعهم عنها وندمهم عليها، فلماذا

قال: «ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعملون»

﴿أولئك﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿جزاؤهم مغفرة من ربهم﴾ تزيل عنهم كل محذور، ﴿وجنات تجري من تحتها الأنهار﴾ فيها من النعيم المقيم، والبهجة والسرور والبهاء، والخير والسرور، والقصور والمنازل الأنيقة العاليات، والأشجار المثمرة البهية، والأنهار الجارية في تلك المساكن الطيبات، ﴿خالدين فيها﴾ ولا يغير ما هم فيه من النعيم، ﴿ونعم أجر العاملين﴾ عملوا لله قليلاً فاجروا كثيراً فـ «عند الصباح يحمد القوم السري»، وعند الجزاء يجيد العامل أجره كاملاً موفراً.

وهذه الآيات الكريمة من أدلة أهل السنة والجماعة، على أن الأعمال تدخل في الإيمان، خلافاً للمرجئة، ووجه الدلالة إنما يتم بذكر الآية، التي في سورة الحديد، نظير هذه الآيات، وهي قوله تعالى: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله﴾ فلم يذكر فيها إلا لفظ الإيمان به وبرسوله، وهنا قال: ﴿أعدت للمتقين﴾. ثم وصف المتقين بهذه الأعمال المالية والبدينية، فدل على أن هؤلاء المتقين الموصوفين بهذه الصفات هم أولئك المؤمنون.

﴿ثم قال تعالى: ﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الكاذبين﴾ هذا بيان للناس وهدى للمتقين﴾

وهذه الآية الكريمة من أدلة أهل السنة والجماعة، على أن الأعمال تدخل في الإيمان، خلافاً للمرجئة، ووجه الدلالة إنما يتم بذكر الآية، التي في سورة الحديد، نظير هذه الآيات، وهي قوله تعالى: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله﴾ فلم يذكر فيها إلا لفظ الإيمان به وبرسوله، وهنا قال: ﴿أعدت للمتقين﴾. ثم وصف المتقين بهذه الأعمال المالية والبدينية، فدل على أن هؤلاء المتقين الموصوفين بهذه الصفات هم أولئك المؤمنون.

﴿ثم قال تعالى: ﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الكاذبين﴾ هذا بيان للناس وهدى للمتقين﴾

وهذه الآية الكريمة من أدلة أهل السنة والجماعة، على أن الأعمال تدخل في الإيمان، خلافاً للمرجئة، ووجه الدلالة إنما يتم بذكر الآية، التي في سورة الحديد، نظير هذه الآيات، وهي قوله تعالى: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله﴾ فلم يذكر فيها إلا لفظ الإيمان به وبرسوله، وهنا قال: ﴿أعدت للمتقين﴾. ثم وصف المتقين بهذه الأعمال المالية والبدينية، فدل على أن هؤلاء المتقين الموصوفين بهذه الصفات هم أولئك المؤمنون.

ثم وبخهم تعالى على عدم صبرهم بأمر كانوا يتمنونونه ويودون حصوله، فقال: ﴿ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه﴾ وذلك أن كثيراً من الصحابة رضي الله عنهم عن فاته بدر يتمنون أن يحضرهم الله مشهداً يبذلون فيه جهدهم، قال الله [تعالى] لهم: ﴿فقد رأيتموه﴾ أي: رأيتم ما تمنيتم بأعينكم ﴿وأنتم تنظرون﴾ فما بالكم وترك الصبر؟ هذه حالة لا تليق ولا تحسن، خصوصاً لمن تمنى ذلك، وحصل له ما تمنى، فإن الواجب عليه بذل الجهد، واستفراغ الوسع في ذلك.

وفي هذه الآية دليل على أنه لا يكره تمنى الشهادة، ووجه الدلالة أن الله تعالى أقرهم على أمنيتهم، ولم ينكر عليهم، وإنما أنكر عليهم عدم العمل بمقتضاها، والله أعلم.

﴿١٤٤ - ١٤٥﴾ ثم قال تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين \* وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسيجزي الشاكرين﴾

يقول تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ أي: ليس بيدع من الرسل، بل هو من جنس الرسل الذين قبله، وظيفتهم تبليغ رسالات ربهم وتنفيذ أوامره، ليسوا بمخلدلين، وليس بقاؤهم شرطاً في امتثال أوامر الله، بل الواجب على الأمم عبادة ربهم في كل وقت وبكل حال، ولهذا قال: ﴿أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ بترك ما جاءكم به من إيمان أو جهاد، أو غير ذلك.

قال [الله] تعالى: ﴿ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً﴾ إنما يضر نفسه، وإلا فالله تعالى غني عنه، وسيقيم دينه، ويحز عباده المؤمنين، فلما وبخ تعالى من انقلب على عقبيه، مدح من ثبت مع رسوله، وامثال أمره، فقال: ﴿وسيجزي الله

من أرفع المنازل، ولا سبيل لنيلها إلا بما يحصل من وجود أسبابها، فهذا من رحمته بعباده المؤمنين، أن قيض لهم من الأسباب ما تكرهه النفوس، لينيلهم ما يجرون من المنازل العالية والنعيم المقيم، ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ الذين ظلموا أنفسهم، وتقاعدوا عن القتال في سبيله، وكان في هذا تعريضاً بدم المنافقين، وأنهم ميفضون لله، ولهذا تبطهم عن القتال في سبيله.

﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة، ولكن كره الله اتباعهم فشطهم وقيل أقدوا مع القاعدين﴾.

﴿وليمحص الله الذين آمنوا﴾ وهذا أيضاً من الحكم أن الله يمحص بذلك المؤمنين من ذنوبهم وعيوبهم، يدل ذلك على أن الشهادة والقتال في سبيل الله يكفر الذنوب، ويزيل العيوب، وليمحص الله أيضاً المؤمنين من غيرهم من المنافقين، فيتخلصون منهم، ويعرفون المؤمن من المنافق، ومن الحكم أيضاً أنه يقدر ذلك، ليمحق الكافرين، أي: ليكون سبباً لمحققهم واستئصالهم بالعقوبة، فإنهم إذا انتصروا، بغوا، وازدادوا طغياناً إلى طغيانهم، يستحقون به المعالجة بالعقوبة، رحمة بعباده المؤمنين.

ثم قال تعالى: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ استفهام إنكاري، أي: لا تظنوا، ولا تحطروا ببالكم أن تدخلوا الجنة من دون مشقة واحتمال المكاره في سبيل الله وابتغاء مرضاته، فإن الجنة أعلى المطالب، وأفضل ما به يتنافس المتنافسون، وكلما عظم المطلوب عظمت وسيلته، والعمل الموصول إليه، فلا يوصل إلى الراحة إلا بترك الراحة، ولا يدرك النعيم إلا بترك النعيم، ولكن مكاره الدنيا التي تصيب العبد في سبيل الله عند توطين النفس لها، وغريرتها عليها ومعرفة ما تؤول إليه، تغلب عند أبواب البصائر منحا يسرون بها، ولا يباليون بها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

لعباده المؤمنين، ومقرباً لعزائمهم، ومنهضاً لهممهم: ﴿ولا تمنوا ولا تحزنوا﴾ أي: ولا تنهوا وتضعفوا في أبدانكم، ولا تحزنوا في قلوبكم، عندما أصابتكم المصيبة، وابتليتكم بهذه البلوى، فإن الحزن في القلوب، والوهن على الأبدان، زيادة مصيبة عليكم، وعون لعدوكم عليكم، بل شجعوا قلوبكم وصبروها، وادفعوا عنها الحزن وتصلبوا على قتال عدوكم، وذكر تعالى أنه لا ينبغي ولا يليق بهم الوهن والحزن، وهم الأعلون في الإيمان، ورجاء نصر الله وثوابه، فالؤمن المتيقن ما وعده الله من الثواب الدنيوي والآخروي لا ينبغي منه ذلك، ولهذا قال [تعالى]: ﴿وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾.

ثم سلأهم بما حصل لهم من الهزيمة، وبين الحكم العظيمة المترتبة على ذلك، فقال: ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾ فأنتم وإياهم قد تساوت في القرح، ولكنكم ترجون من الله ما لا يرجون كما قال تعالى: ﴿إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون، وترجون من الله ما لا يرجون﴾.

ومن الحكم في ذلك أن هذه الدار يعطي الله منها المؤمن والكافر، والبر والفاجر، فيداول الله الأيام بين الناس، يوم لهذه الطائفة، ويوم للطائفة الأخرى؛ لأن هذه الدار الدنيا منقضية فانية، وهذا بخلاف الدار الآخرة، فإنها خالصة للذين آمنوا.

﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾ هذا أيضاً من الحكم أنه يبتلي الله عباده بالهزيمة والابتلاء، ليبين المؤمن من المنافق؛ لأنه لو استمر النصر للمؤمنين في جميع الوقائع لدخل في الإسلام من لا يريد، فإذا حصل في بعض الوقائع بعض أنواع الابتلاء، تبين المؤمن حقيقة الذي يرغب في الإسلام، في الضراء والسرء، واليسر والعسر، ممن ليس كذلك.

﴿ويخذ منكم شهداء﴾ وهذا أيضاً من بعض الحكم، لأن الشهادة عند الله

والغنيمة، «وحسن ثواب الآخرة» وهو الفوز برضا ربهم، والنعيم المقيم الذي قد سلم من جميع المنكذات، وما ذاك إلا أنهم أحسنوا له الأعمال، فجازاهم بأحسن الجزاء، فلهذا قال: «والله يحب المحسنين» في عبادة الخالق ومعاملة الخلق، ومن الإحسان أن يفعل عند جهاد الأعداء، كفعل هؤلاء الموصوفين<sup>(١)</sup>.

﴿١٤٩ - ١٥١﴾ ثم قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إن طغيبوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين \* بل الله مولاكم وهو خير الناصرين \* سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأوأهم النار وبئس مثوى الظالمين».

وهذا نهي من الله للمؤمنين أن يطيعوا الكافرين من المنافقين والمشركين، فإنهم إن أطاعوهم لم يريدوا لهم إلا الشر، وهم [قصدهم]<sup>(٢)</sup> ردهم إلى الكفر الذي عاقبه الخيبة والخسران.

ثم أخبر أنه مولاهم وناصرهم، ففيه إخبار لهم بذلك، وبشارة بأنه سيتولى أمورهم بلطفه، ويعصمهم من أنواع الشرور.

وفي ضمن ذلك الحث لهم على اتقائه وحده ولياً وناصراً من دون كل أحد، فمن ولايته ونصره لهم أنه وعدمه أنه سيلقي في قلوب أعدائهم من الكافرين الرعب، وهو الخوف العظيم الذي يمتنهم من كثير من مقاصدهم، وقد فعل تعالى.

وذلك أن المشركين - بعدما انصرفوا من وقعة «أحد» - تشاوروا بينهم، وقالوا: كيف ننصرف، بعد أن قتلنا منهم من قتلنا، وهزمتناهم ولما نتأصلهم؟ فهموا بذلك، فألقى الله الرعب في قلوبهم، فانصرفوا خائبين، ولا شك أن هذا من أعظم النصر، لأنه قد تقدم أن نصر الله لعباده المؤمنين لا يخرج عن أحد أمرين: إما أن يقطع

﴿١٤٦ - ١٤٨﴾ «وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين \* وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين \* فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين» هذا تسلية للمؤمنين، وحث على الاقتداء بهم، والفعل كفعالهم، وأن هذا أمر قد كان متقدماً، لم تنزل سنة الله جارية بذلك، فقال: «وكأين من نبي» أي: وكم من نبي «قاتل معه ربيون كثير» أي: جماعات كثيرون من أتباعهم، الذين قد ربتهم الأنبياء بالإيمان والأعمال الصالحة، فأصابهم قتل وجراح وغير ذلك.

«فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا» أي: ما ضعفت قلوبهم، ولا وهنت أبدانهم، ولا استكانوا، أي: ذلوا لعدوهم، بل صبروا وثبتوا، وشجعوا أنفسهم، ولهذا قال: «والله يحب الصابرين».

ثم ذكر قولهم واستنصرهم لربهم، فقال: «وما كان قولهم» أي: في تلك المواطن الصعبة «إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا» والإسراف: هو مجاوزة الحد إلى ما حرم، علموا أن الذنوب والإسراف من أعظم أسباب الخذلان، وأن التخلى منها من أسباب النصر، فسألوا ربهم مغفرتها.

ثم إنهم لم يتكلموا على ما بذلوا جهدهم به من الصبر، بل اعتمدوا على الله، وسألوه أن يثبت أقدامهم عند ملاقات الأعداء الكافرين، وأن ينصرهم عليهم، فجمعوا بين الصبر وترك ضده، والتوبة والاستغفار، والاستنصار بربهم، لا جرم أن الله نصرهم، وجعل لهم العاقبة في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: «فاتاهم الله ثواب الدنيا» من النصر والظفر

الشاكرين» والشكر لا يكون إلا بالقيام بعبودية الله تعالى في كل حال. وفي هذه الآية الكريمة إرشاد من الله تعالى لعباده أن يكونوا بحالة لا يزعزعهم عن إيمانهم أو عن بعض لوازمه، فقد رتب ولو عظم، وما ذاك إلا بالاستعداد في كل أمر من أمور الدين بعدة أناس من أهل الكفاءة فيه، إذا فقد أحدهم قام به غيره، وأن يكون عموم المؤمنين قصدهم إقامة دين الله، والجهاد عنه، بحسب الإمكان، لا يكون لهم قصد في رئيس دون رئيس، فهذه الحال يستتب لهم أمرهم، وتستقيم أمورهم.

وفي هذه الآية أيضاً أعظم دليل على فضيلة الصديق الأكبر أبي بكر، وأصحابه الذين قاتلوا المرتدين بعد رسول الله ﷺ، لأنهم هم سادات الشاكرين.

ثم أخبر تعالى أن النفوس جميعها متعلقة بأجالاتها بإذن الله وقدره وقضائه، فمن ختم عليه بالقدر أن يموت، مات ولو بغير سبب، ومن أراد بقاءه، فلو أتى<sup>(٣)</sup> من الأسباب كل سبب، لم يضره ذلك قبل بلوغ أجله، وذلك أن الله قضاه وقدره وكتبه إلى أجل مسمى: «إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون».

ثم أخبر تعالى أنه يعطي الناس من ثواب الدنيا والآخرة ما تعلق به إراداتهم، فقال: «ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها».

قال الله تعالى: «تلاً نمد مؤلأه وهؤلأه من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً \* انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً».

«وسنجزي الشاكرين» ولم يذكر جزاءهم ليدل ذلك على كثرتهم وعظمتهم، وليعلم أن الجزاء على قدر الشكر، قلة وكثرة وحسناً.







من سلطان.  
قال تعالى: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ ثم أخبر أنه عفا عنهم بعدما فعلوا ما يوجب المؤاخذه، وإلا فلو واخذهم لاستأصلهم.

﴿إن الله غفور﴾ للمذنبين الخطائين بما يفقههم له من التوبة والاستغفار، والمصائب المكفرة، ﴿حليم﴾ لا يعاجل من عصاه، بل يسأني به، ويدعوه إلى الإنابة إليه، والإقبال عليه.

ثم إن تاب وأتاب قبل منه، وصيره كأنه لم يجر منه ذنب، ولم يصدر منه عيب، فله الحمد على إحسانه.

﴿١٥٦ - ١٥٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير﴾ \* ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون \* ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحضرون﴾ ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يشابهوا الكافرين، الذين لا يؤمنون بربهم، ولا بقضائه وقدره، من المنافقين وغيرهم.

ينهاهم عن مشابهتهم في كل شيء، وفي هذا الأمر الخاص وهو أنهم يقولون لإخوانهم في الدين أو في النسب: ﴿إذا ضربوا في الأرض﴾ أي: سافروا للتجارة ﴿أو كانوا غزى﴾ أي: غزاة، ثم جرى عليهم قتل أو موت، يعارضون القدر ويقولون: ﴿لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا﴾ وهذا كذب منهم، فقد قال تعالى: ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾ ولكن هذا التكذيب لم يقدمه، إلا أن الله يجعل هذا القول، وهذه العقيدة حسرة في قلوبهم، فتزداد مصيبتهم، وأما المؤمنون بالله فإنهم يعلمون أن ذلك بقدر الله، فيؤمنون ويسلمون،

يشمل الأمر القلبي، والأمر الشرعي، فجميع الأشياء بقضاء الله وقدره، وعاقبة النصر والظفر لأوليائه وأهل طاعته، وإن جرى عليهم ما جرى.

﴿يخفون﴾ يعني المنافقين ﴿في أنفسهم ما لا يبدون لك﴾ ثم بين الأمر الذي يخفونه، فقال: ﴿يقولون لو كان لنا من الأمر شيء﴾ أي: لو كان لنا في هذه الواقعة رأي؛ ومشورة ﴿ما قتلنا هاهنا﴾ وهذا إنكار منهم وتكذيب بقدر الله، وتسفيه منهم لرأي:

رسول الله ﷺ، ورأي: أصحابه، وتزكية منهم لأنفسهم، فرد الله عليهم بقوله: ﴿قل لو كنتم في بيوتكم﴾ التي هي أبعد شيء عن مظان القتل ﴿لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾ فالأسباب - وإن عظمت - إنما تنفع إذا لم يعارضها القدر والقضاء، فإذا عارضها القدر لم تنفع شيئاً، بل لا بد أن يمضي الله ما كتب في اللوح المحفوظ من الموت والحياة، ﴿وليبستلي الله ما في صدوركم﴾ أي: يختبر ما فيها من نفاق وإيمان وضعف إيمان، ﴿وليمحص ما في قلوبكم﴾ من وساوس الشيطان، وما تأثر عنها من الصفات غير الحميدة.

﴿والله عليهم بذات الصدور﴾ أي: بما فيها وما أكنته، فاقتضى علمه وحكمته أن قدر من الأسباب، ما به تظهر حُجَبَات الصدور ومرائر الأمور.

﴿١٥٥﴾ ثم قال تعالى: ﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم﴾ يخبر تعالى عن حال الذين انهزموا يوم «أحد» وما الذي أوجب لهم الفرار، وأنه من تسويل الشيطان، وأنه تسلط عليهم بعض ذنوبهم. فهم الذين أدخلوه على أنفسهم، ومكنوه بما فعلوا من المعاصي، لأنها مركبة ومدخله، فلو اعتصموا بطاعة ربه لما كان له عليهم

تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم﴾ يعني: أنه قدر ذلك الغم والمصيبة عليكم، لكي تتوطن نفوسكم، وتحزنوا على الصبر على المصيبات، ويخف عليكم تحمل المشقات: ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم الذي أصابكم﴾ أمانة ناعسا يغشى طائفة منكم.

ولا شك أن هذا رحمة بهم، وإحسان وتشببت لقلوبهم، وزيادة طمأنينة؛ لأن الخائف لا يأتيه النعاس لما في قلبه من الخوف، فإذا زال الخوف عن القلب أمكن أن يأتيه النعاس.

وهذه الطائفة التي أنعم الله عليها بالنعاس هم المؤمنون الذين ليس لهم هم إلا إقامة دين الله، ورضا الله ورسوله، ومصالحة إخوانهم المسلمين.

وأما الطائفة الأخرى الذين «قد أهنتهم أنفسهم» فليس لهم هم في غيرها، لنفاقهم أو ضعف إيمانهم، فلهمذا لم يصيبهم من النعاس ما أصاب غيرهم ﴿يقولون هل لنا من الأمر من شيء﴾ وهذا استفهام إنكاري، أي: ما لنا من الأمر - أي: النصر والظهور - شيء، فأساءوا الظن بربهم وبدينه ونبيه، وظنوا أن الله لا يتم أمر رسوله، وأن هذه الهزيمة هي الفصلة والقاضية على دين الله، قال الله في جوابهم: ﴿قل إن الأمر كله لله﴾ الأمر

فيهدي الله قلوبهم ويثبتها، ويجفف بذلك عنهم المصيبة.

قال الله رداً عليهم: ﴿والله يجيبي ويميت أي: هو المفرد﴾ بذلك، فلا يعني حذر عن قدر.

﴿والله بما تعملون بصير﴾ فيجازيكم بأعمالكم وتكذيبكم.

ثم أخبر تعالى أن القتل في سبيله أو الموت فيه، ليس فيه نقص ولا محذور، وإنما هو مما ينبغي أن يتنافس فيه المتنافسون، لأنه سبب مفض وموصل إلى مغفرة الله ورحمته، وذلك خير مما يجمع أهل الدنيا من دنياهم، وأن الخلق أيضاً إذا ماتوا أو قتلوا بأي حالة كانت، فإنما مرجعهم إلى الله، ومآلهم إليه، فيجازي كلأ بعمله، فأين الفرار إلا إلى الله، وما للخلق عاصم إلا الاعتصام بحبل الله!!!

﴿١٥٩﴾ ﴿فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾ أي: برحمة الله لك ولأصحابك، من الله عليك أن ألت<sup>(٢)</sup> لهم جانبك، وخفضت لهم جناحك، وترقت عليهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك، وامتثلوا أمرك.

﴿ولو كنت فظاً﴾ أي: سيء الخلق  
﴿غليظ القلب﴾ أي: قاسيه،  
﴿لانفضوا من حولك﴾ لأن هذا ينفرهم ويغضهم لمن قام به هذا الخلق السيء.

فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين، تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص، فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول،

فكيف بغيره!؟

أليس من أوجب الواجبات، وأهم المهمات، الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما يعاملهم به ﷺ، من اللين وحسن الخلق والتأليف، امتثالاً لأمر الله، وجذباً لعباد الله لدين الله.

ثم أمره الله تعالى بأن يعفو عنهم ما صدر منهم من التفسير في حقه ﷺ، ويستغفر لهم في التفسير في حق الله، فيجمع بين العفو والإحسان.

﴿وشاورهم في الأمر﴾ أي: الأمور التي تحتاج إلى استشارة ونظر وفكر، فإن في الاستشارة من الفوائد والمصالح الدينية والدينية ما لا يمكن حصره:

منها: أن المشاركة من العبادات المقرب بها إلى الله.

ومنها: أن فيها تسميحاً لخواطرهم، وإزالة لما يصير في القلوب عند الحوادث، فإن من له الأمر على الناس - إذا جمع أهل الرأي: والفضل وشاورهم في حادثة من الحوادث - اطمأنت نفوسهم وأحبه، وعلموا أنه ليس بمستبد<sup>(٣)</sup> عليهم، وإنما ينظر إلى المصلحة الكلية العامة للجميع، فبدلوا جهدهم ومقدورهم في طاعته، لعلمهم بسعيه في مصالح العموم، بخلاف من ليس كذلك، فإنهم لا يكادون يحبونه محبة صادقة، ولا يطيعونه وإن أطاعوه فطاعة غير تامة.

ومنها: أن في الاستشارة تنور الأفكار، بسبب إعمالها فيما وضعت له، فصار في ذلك زيادة للعقول.

ومنها: ما تنتجها الاستشارة من الرأي: التصيب، فإن المشاور لا يكاد يخطئ في فعله، وإن أخطأ أو لم يتم له مطلوب، فليس بملوم، فإذا كان الله يقول لرسوله ﷺ - وهو أكمل الناس عقلاً، وأحزهم علماً، وأفضلهم رأياً -: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ فكيف بغيره!؟

تَشَاوَرُوا بَيْنَهُمْ فَرَأَوْهُ مُصَلًّى فَاسْتَمْتَعُوا بِصَوْتِهِ وَقَالُوا اللَّهُ مَوْلَاكُمْ فَرَدُّوا إِلَيْكُمْ وَإِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا حَقِيقَتَهُ فَذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥٩﴾

ثم قال تعالى: ﴿فإذا عزمت﴾ أي: على أمر من الأمور بعد الاستشارة فيه، إن كان يحتاج إلى استشارة ﴿فتوكل على الله﴾ أي: اعتمد على حول الله وقوته، متبرئاً من حولك وموتك، ﴿إن الله يحب المتوكلين﴾ عليه، اللاجئين إليه.

﴿١٦٠﴾ ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي: إن يمددكم الله بنصره ومعونته ﴿فلا غالب لكم﴾ فلو اجتمع عليكم من في أقطارها وما عندهم من العدد والعُدَد، لأن الله لا مغالب له، وقد قهر العباد وأخذ بنواصيهم، فلا تحرك دابة إلا بإذنه، ولا تسكن إلا بإذنه.

﴿وإن يخذلكم﴾ ويكلكم إلى أنفسكم ﴿فمن ذا الذي ينصركم من بعده﴾ فلا بد أن تتخذوا ولو أعانكم جميع الخلق.

وفي<sup>(٤)</sup> ضمن ذلك الأمر بالاستئصال بالله والاعتماد عليه، والبراءة من الحول والقوة، ولهذا قال: ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ تقديم المعمول يؤذن بالحصص، أي: على الله

(١) في ب: المفرد. (٢) في الأصل: (لت). (٣) في ب: يستبد. (٤) في ب: وقد.

حسب عمله، والله تعالى بصير بأعمالهم، لا يخفى عليه منها شيء، بل قد علمها، وأثبتها في اللوح المحفوظ، ووكل ملائكته الأسماء الكرام، أن يكتبوها ويحفظوها، ويضبطونها.

﴿١٦٤﴾ ﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ هذه المنة التي امتن الله بها على عباده، أكبر النعم، بل أصلها، وهي الامتنان عليهم بهذا الرسول الكريم الذي أنقذهم الله به من الضلالة، وعصمهم به من الهلكة، فقال: ﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم﴾ يعرفون نسبه، وحاله، ولسانه، من قومهم وقبيلتهم، ناصحاً لهم، مشفقاً عليهم، يتلو عليهم آيات الله، يعلمهم ألفاظها ومعانيها.

﴿ويزكيهم﴾ من الشرك، والمعاصي، والرذائل، وسائر مساويء الأخلاق.

و ﴿يعلمهم الكتاب﴾ إما جنس الكتاب الذي هو القرآن، فيكون قوله: ﴿يتلو عليهم آياته﴾ المراد به الآيات الكونية، أو المراد بالكتاب - هنا - الكتابة، فيكون قد امتن عليهم، بتعليم الكتاب والكتابة، التي بها تدرك العلوم وتحفظ، ﴿والحكمة﴾ هي: السنة، التي هي شقيقة القرآن، أو وضع الأشياء مواضعها، ومعرفة أسرار الشريعة.

فجمع لهم بين تعليم الأحكام، وما به تفضد الأحكام، وما به تدرك فوائدها وثمراتها، ففأفوا بهذه الأمور العظيمة جميع المخلوقين، وكانوا من العلماء الربانيين، ﴿وإن كانوا من قبل﴾ بعنة هذا الرسول ﴿لفي ضلال مبين﴾ لا يعرفون الطريق الموصل إلى ربهم، ولا ما يزكي النفوس ويطهرها، بل ما زين لهم جهلهم فعلوه، ولو ناقض

أعدائهم، لأن معرفته بنبوتهم، مستلزم لدفع ذلك، ولذلك أتى بصيغة يمتنع معها وجود الفعل منهم، فقال: ﴿وما كان لنبي أن يغل﴾ أي: يمتنع ذلك ويستحيل على من اختارهم الله لنبوته.

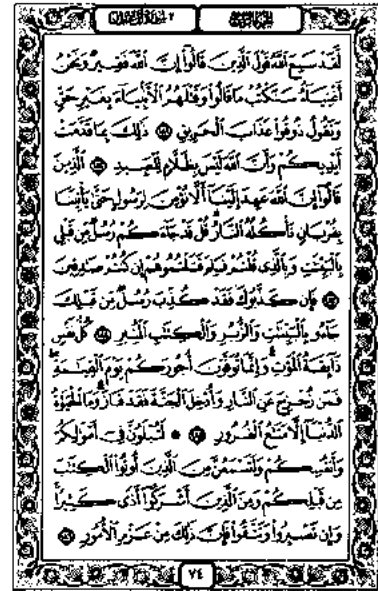
ثم ذكر الوعيد على من غل، فقال: ﴿ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة﴾ أي: يأت به حامله على ظهره، حيواناً كان أو متاعاً، أو غير ذلك، ليعذب به يوم القيامة، ﴿ثم توفى كل نفس ما كسبت﴾ الغال وغيره، كل يوفى أجره ووزره على مقدار كسبه، ﴿وهم لا يظلمون﴾ أي: لا يزداد في سيئاتهم، ولا يعضمون شيئاً من حسناتهم، وتأمل حسن هذا الاحتراز في هذه الآية الكريمة.

لما ذكر عقوبة الغال، وأنه يأتي يوم القيامة بما غله، ولما أراد أن يذكر ترفيته وجزاءه، وكان الاقتصار على الغال يومه - بالمفهوم - أن غيره من أنواع العاملين قد لا يوفون - أتى بلفظ عام جامع له ولغيره.

﴿١٦٢﴾ - ﴿١٦٣﴾ ﴿أفمن اتبع رضوان الله كمن بآء بسخط من الله وماواه جهنم وبئس المصير﴾ هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون ﴿يخبر تعالى أنه لا يستوي من كان قصده رضوان ربه، والعمل على ما يرضيه، كمن ليس كذلك، ممن هو مكب على المعاصي، مسخط لربه، هذان لا يستويان في حكم الله، وحكمة الله، وفي فطر عباد الله.

﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً، لا يستويان﴾ ولهذا قال هنا: ﴿هم درجات عند الله﴾ أي: كل هؤلاء متفاوتون في درجاتهم ومنازلهم بحسب تفاوتهم في أعمالهم.

فالتبعون لرضوان الله يسمعون في نيل الدرجات العاليات، والمنازل والغرفات، فيعطاهم الله من فضله وجوده على قدر أعمالهم، والمتبعون لمساخط الله يسمعون في الشزول في الدركات إلى أسفل سافلين، كل على



توكلوا لا على غيره، لأنه قد علم أنه هو الناصر وحده، فالاعتماد عليه توحيد محصل للمقصود، والاعتماد على غيره شرك غير نافع لصاحبه، بل ضار.

وفي هذه الآية الأمر بالتركل على الله وحده، وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله.

﴿١٦١﴾ ﴿وما كان لنبي أن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ الغلول هو: الكتمان من الغنيمة، [والحيانة في كل مال يتولاه الإنسان]<sup>(١)</sup> وهو محرم إجماعاً، بل هو من الكبائر، كما تدل عليه هذه الآية الكريمة وغيرها من النصوص، فأخبر الله تعالى أنه ما ينبغي ولا يليق بنبي أن يغل، لأن الغللول - كما علمت - من أعظم الذنوب وأشر العيوب. وقد صان الله تعالى أنبياءه عن كل ما يندسهم ويقدح فيهم، وجعلهم أفضل العالمين أخلاقاً، وأظهرهم نفوساً، وأزكاهم وأطيبهم، ونزههم عن كل عيب، وجعلهم محل رسالته، ومعدن حكيمته ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾.

فبمجرد علم العبد بالواحد منهم، يجزم سلامتهم من كل أمر يقدح فيهم، ولا يحتاج إلى دليل على ما قيل فيهم من

ذلك عقول العالين.

﴿١٦٥-١٦٨﴾ أولاً أصابتكم

مصيبة قد أصبتم مثلها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير \* وما أصابكم يوم التقى الجمعان فيأذن الله وليعلم المؤمنين \* وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو تعلم قتالاً لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون \* الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادروا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين \* هذا تسلية من الله تعال لعباده المؤمنين، حين أصابهم ما أصابهم يوم الأحد، وقتل منهم نحو سبعين، فقال الله: إنكم \* قد أصبتم \* من المشركين \* مثلها \* يوم بدر فقتلتم سبعين من كبارهم وأسرتهم سبعين، فليهن الأمر ولتخفف المصيبة عليكم، مع أنكم لا تستوون أنتم وهم، فإن قتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار.

﴿قلتم أنى هذا﴾ أي: من أين أصابنا ما أصابنا وهزمتنا؟ ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ حين تنازعتم وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، فعودوا على أنفسكم باللوم، واحذروا من الأسباب المردية.

﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ فإياكم وسوء الظن بالله، فإنه قادر على نصركم، ولكن له أتم الحكمة في ابتلائكم ومصيبتكم. ﴿ذلك ولو يشاء الله، لانتصر منهم، ولكن ليلو بعضهم ببعض﴾.

ثم أخبر أن ما أصابهم يوم التقى الجمعان، جمع المسلمين وجمع المشركين في «أحد» من القتل والهزيمة، أنه بإذنه وقضائه وقدره، لا مرد له ولا يد من وقوعه. والأمر القدري - إذا نفذ، لم يبق إلا التسليم له، وأنه قدره لحكم عظيمة وفوائد جسيمة، وأنه ليتبين بذلك المؤمن من المنافق، الذين لما أمروا

﴿وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله﴾ أي: ذنباً عن دين الله، وحماية له وطلباً لمرضاة الله، أو ادفعوا عن عارمكم وبلدكم، إن لم يكن لكم نية صالحة، فأبوا ذلك واعتذروا بأن ﴿قالوا لو تعلم قتالاً لاتبعناكم﴾ أي: لو تعلم أنكم بصير بينكم وبينهم قتال لاتبعناكم، وهم كذبة في هذا. قد علموا وتيقنوا وعلم كل أحد أن هؤلاء المشركين، قد ملئوا من الحنق والغیظ على المؤمنين بما أصابوا منهم، وأنهم قد بذلوا أموالهم، وجعوا ما يقدرون عليه من الرجال والعدد، وأقبلوا في جيش عظيم قاصدين المؤمنين في بلدهم، متحرفين على قتالهم، فمن كانت هذه حالهم، كيف يتصور أنهم لا يصير بينهم وبين المؤمنين قتال؟ خصوصاً وقد خرج المسلمون من المدينة وبرزوا لهم، هذا من المستحيل، ولكن المنافقين ظنوا أن هذا العذر، يروج على المؤمنين، قال تعال: ﴿هم للكفر يومئذ﴾ أي: في تلك الحال التي تركوا فيها الخروج مع المؤمنين \* أقرب منهم للإيمان، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم وهذه خاصة المنافقين، يظهرون بكلامهم وفعالهم ما يبيطون ضده في قلوبهم وسرائرهم.

ومنه قولهم: ﴿لو تعلم قتالاً لاتبعناكم﴾ فإنهم قد علموا وقوع القتال. ويستدل بهذه الآية على قاعدة «ارتكاب أخف المفسدين لدفع أعلاهما، وفعل أدنى المصلحتين، للعجز عن أعلاهما؛ [لأن المنافقين أمروا أن يقاتلوا للدين، فإن لم يفعلوا فللمدافعة عن العيال والأوطان]» ﴿والله أعلم بما يكتمون﴾ فيديه لعباده المؤمنين، ويعاقبهم عليه.

ثم قال تعال: ﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا﴾ أي: جمعوا بين التخلف عن الجهاد، وبين الاعتراض والتكذيب بقضاء الله

وَلَمَّا لَمْ يَنْصُرُوا رَسُولَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ الَّذِينَ عَلَيْهِمُ الذِّمَّةُ وَاللَّهُ مُبْتَلِيهِمْ فَصَبَرُوا عَلَيْهِمْ وَخَشَوْا رَبَّهُمْ كَلَّامًا يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرَكَةِ وَالْمَرْءُ بِمَا كَرَّمَ وَيَدْعُ إِلَيْهِ ضَالٌّ عَظِيمٌ ﴿١٦٥﴾ وَأُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِثْمَ اللَّهِ وَيُبْغُونَ الْإِثْمَ عَلَى الْمَوْتِمَا وَكَانَ اللَّهُ عَاقِبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿١٦٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٦٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٦٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٧٠﴾

وقدره، قال الله رداً عليهم: ﴿قل فادروا﴾ أي: ادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين إنهم لو أطاعوكم ما قتلوا، لا تقدرتون على ذلك ولا تستطيعونه.

وفي هذه الآيات دليل على أن العبد قد يكون فيه خصلة كفر وخصلة إيمان، وقد يكون إلى أحدهما أقرب منه إلى الأخرى.

﴿١٦٩-١٧١﴾ ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم إلا خوف عليهم ولا هم يحزنون \* يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴿هذه الآيات الكريمة﴾ فيها فضيلة ﴿الشهداء وكرامتهم، وما من الله عليهم به من فضله وإحسانه، وفي ضمنها تسلية الأحياء عن قتلاهم وتعزيتهم، وتشبيطهم للقتال في سبيل الله والتعرض للشهادة، فقال: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله﴾ أي: في جهاد أعداء الدين، قاصدين بذلك إعلاء كلمة الله ﴿أمواتاً﴾ أي: لا يخطر ببالك وحبانك أنهم ماتوا وفقدوا، وذهبت عنهم لذة الحياة الدنيا والتمتع بزهرتها،

حيث من عليهم بالتوفيق للخروج بهذه الحالة والاتكال على ربهم، ثم إنه قد كتب لهم أجر غزاة نامة، فبسبب إحسانهم بطاعة ربهم، وتفواهم عن معصيته، لهم أجر عظيم، وهذا فضل الله عليهم ثم قال تعالى: ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه﴾ أي: إن ترهيب من رهب من المشركين، وقال: إنهم جمعوا لكم، داع من دعاء الشيطان، يخوف أولياءه الذين عدم إيمانهم، أو ضعف. ﴿فلا تخافوهم﴾ فلا تخافوا المشركين أولياء الشيطان، فإن نواصيهم بيد الله، لا يتصرفون إلا بقدره، بل خافوا الله الذي ينصر أولياءه الخائفين منه<sup>(١)</sup> المستجيبين لدعوته.

وفي هذه الآية وجوب الخوف من الله وحده، وأنه من لوازم الإيمان، فعل قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله، والخوف المحمود: ما حجز العبد عن محارم الله.

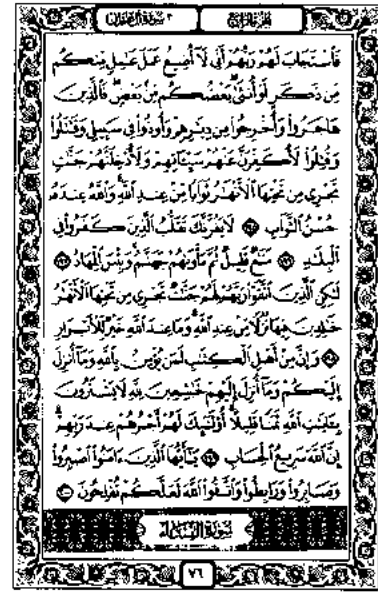
﴿١٧٦ - ١٧٧﴾ ﴿ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئاً يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة ولهم عذاب عظيم﴾ إن الذين اشترؤا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب اليم<sup>(٢)</sup> كان النبي ﷺ حريصاً على الخلق، مجتهداً في هدايتهم، وكان يحزن إذا لم يتدوا، قال الله تعالى: ﴿ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ من شدة رغبتهم فيه، وحرصهم عليه ﴿إنهم لن يضروا الله شيئاً﴾ فالله ناصر دينه، ومؤيد رسوله، ومنفذ أمره من دونهم، فلا تبالهم ولا تحفل بهم، إنما يضرون ويسعون في ضرر أنفسهم، بفوات الإيمان في الدنيا، وحصول العذاب اليم في الآخرة، من هوانهم على الله وسقوطهم من عينه، وإرادته أن لا يجعل لهم نصيباً في الآخرة من ثوابه. خذلهم فلم يوفقهم لما وفق له

به، وهو: نعمة ربهم، وفضله، وإحسانه، ﴿وأن الله لا يضيع أجر المؤمن﴾ بل ينميهم ويشكره، ويزيده من فضله، ما لا يصل إليه سعيهم.

وفي هذه الآيات إثبات نعيم البرزخ، وأن الشهداء في أعلى مكان عند ربهم، وفيه تلاقي أرواح أهل الخير، وزيارة بعضهم بعضاً، وتشير بعضهم بعضاً.

﴿١٧٢ - ١٧٥﴾ ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرع للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم﴾ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴿لما رجع النبي ﷺ من أحد﴾ إلى المدينة، وسمع أن أبا سفيان ومن معه من المشركين قد هموا بالرجوع إلى المدينة، ندب أصحابه إلى الخروج، فخرجوا - على ما بهم من الجراح - استجابة لله وللرسول، وطاعة لله ولرسوله، فوصلوا إلى أحرأ الأسد، وجاءهم من جاءهم وقال لهم: ﴿إن الناس قد جمعوا لكم﴾ وهووا باستصالكم، تخويفاً لهم وترهيباً، فلم يزددهم ذلك إلا إيماناً بالله واتكالاً عليه.

﴿وقالوا حسبنا الله﴾ أي: كافينا كل ما أمتنا ﴿ونعم الوكيل﴾ المفروض إليه تدبير عبادته، والقائم بمصالحهم. ﴿فانقلبوا﴾ أي: رجعوا ﴿بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء﴾ وجاء الخبر المشركين أن الرسول وأصحابه قد خرجوا إليكم، وندم من تخلف منهم، فألقى الله الرعب في قلوبهم، واستروا راجعين إلى مكة، ورجع المؤمنون بنعمة من الله وفضل،



الذي يحذر من فواته، من حين عن القتال، وزهد في الشهادة. ﴿بل﴾ قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه المتنافسون. فهم ﴿أحياء عند ربهم﴾ في دار كرامته.

ولفظ: ﴿عند ربهم﴾ يقتضي علو درجتهم، وقرابهم من ربهم، ﴿يرزقون﴾ من أنواع النعيم الذي لا يعلم وصفه، إلا من أنعم به عليهم، ومع هذا ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ أي: منتبطين بذلك، قد فرحت به عيونهم، وفرحت به نفوسهم، وذلك لحسنه وكثرته، وعظمته، وكمال اللذة في الوصول إليه، وعدم المنغص، فجمع الله لهم بين نعيم البدن بالرزق، ونعيم القلب والروح بالفرح بما آتاهم من فضله: فتم لهم<sup>(١)</sup> النعيم والسرور، وجعلوا ﴿يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم﴾ أي: يبشربعضهم بعضاً، بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم، وأنهم سيتألمون ما تألموا، ﴿ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي: يستبشرون بزوال المحذور عنهم وعن إخوانهم المستلزم كمال السرور، ﴿يستبشرون بنعمة من الله وفضل﴾ أي: يبشربعضهم بعضاً، بأعظم مهنا

(١) في النسختين: فتم له.

(٢) في النسختين: الخائفين له، ولعل الأقرب ما أثبت.

أوليائه ومن أراد به خيراً، عدلاً منه وحكمة، لعلمه بأنهم غير زاكين على الهدى، ولا قابليين للرشاد، لفساد أخلاقهم وسوء قصدهم.

ثم أخبر أن الذين اختاروا الكفر على الإيمان، ورغبوا فيه رغبة من يذل ما يجب من المال، في شراء ما يجب من السلع ﴿لن يضرروا الله شيئاً﴾ بل ضرر فعلهم يعود على أنفسهم، ولهذا قال: ﴿ولهم عذاب أليم﴾ وكيف يضررون الله شيئاً، وهم قد زهدوا أشد الزهد في الإيمان، ورغبوا كل الرغبة بالكفر بالرحمن؟! فإله غني عنهم، وقد قبض لدينه من عباده الأبرار الأذكيا سواهم، وأعدله - ممن ارتضاه لتصوته - أهل البصائر والعقول، وذوي الألباب من الرجال الفحول، قال الله تعالى: ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا بئى عليهم يخرون للأذقان سجداً﴾ الآيات.

﴿١٧٨﴾ ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيراً لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين﴾ أي: ولا يظن الذين كفروا ببرهم ونايدوا دينه، وحاربوا رسوله أن تركنا إياهم في هذه الدنيا، وعدم استئصالنا لهم، وإملاءنا لهم خيراً لأنفسهم، ومحبة منا لهم.

كلا، ليس الأمر كما زعموا، وإنما ذلك لشر يريد الله بهم، وزيادة عذاب وعقوبة إلى عذابهم، ولهذا قال: ﴿إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين﴾: فإله تعالى يميل للظالم، حتى يزداد طغيانه، ويترادف كفرانه، حتى إذا أخذه أخذه<sup>(١)</sup> أخذ عزيز مقتدر، فليحذر الظالمون من الإسهال، ولا يظنوا أن يفوتوا الكبير المتعال.

﴿١٧٩﴾ ﴿ما كان الله ليزل المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فأمنا بالله ورسوله وإن تؤمنوا

وتتقوا فلکم اجر عظیم﴾ أي: ما كان في حكمة الله أن يترك المؤمنين على ما أنتم عليه من الاختلاط وعدم التمييز<sup>(٢)</sup>، حتى يميز الخبيث من الطيب، والمؤمن من المنافق، والصادق من الكاذب.

ولم يكن في حكمته أيضاً أن يطلع عباده على الغيب الذي يعلمه من عباده، فاقضت حكمته الباهرة أن يبئى عباده، ويفتنهم بما به يتميز الخبيث من الطيب، من أنواع الابتلاء والامتحان، فأرسل [الله] رسله، وأمر بطاعتهم، والانقياد لهم، والإيمان بهم، ووعدهم على الإيمان والتقوى الأجر العظيم.

فانقسم الناس بحسب اتباعهم للرسول قسمين: مطيعين وعاصين، ومؤمنين ومنافقين، ومسلمين وكافرين، ليرتب على ذلك الثواب والعقاب، وليظهر عدله وفضله، وحكمته خلقه.

﴿١٨٠﴾ ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة والله ميراث السماوات والأرض والله بما تعملون خبير﴾ أي: لا يظن الذين يبخلون، أي: يمتنعون ما عندهم مما آتاهم الله من فضله، من المال والجاه والعلم، وغير ذلك مما منحهم الله، وأحسن إليهم به، وأمرهم ببذل ما لا يضرهم منه لعباده، فبخلوا بذلك، وأمسكوه، وضنوا به على عباد الله، وظنوا أنه خير لهم، بل هو شر لهم، في دينهم ودنياهم، وعاجلهم وأجلهم ﴿سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾ أي: يجعل ما بخلوا به طوقاً في أعناقهم، يعذبون به كما ورد في الحديث الصحيح، ﴿إن البخیل یمثل له ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع، له زبيبتان، يأخذن بلمهزمتيه يقول: أنا مالک، أنا کسرتک﴾. وتلا رسول الله ﷺ مصداق ذلك، هذه

بما كان الله ليزل المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فأمنا بالله ورسوله وإن تؤمنوا وتتقوا فلکم اجر عظیم﴾ أي: ما كان في حكمة الله أن يترك المؤمنين على ما أنتم عليه من الاختلاط وعدم التمييز<sup>(٢)</sup>، حتى يميز الخبيث من الطيب، والمؤمن من المنافق، والصادق من الكاذب.

الآية. فهؤلاء حسبوا أن بخلهم نافعهم، ومجد عليهم، فانقلب عليهم الأمر، وصار من أعظم مضارهم، وسبب عقابهم.

﴿الله ميراث السماوات والأرض﴾ أي: هو تعالى مالك الملك، وترد جميع الأملاك إلى مالكها، وينقلب العباد من الدنيا ما معهم درهم ولا دينار، ولا غير ذلك من المال.

قال تعالى: ﴿إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون﴾ وتأمل كيف ذكر السبب الابتدائي والسبب الغائي، الموجب كل واحد منهما أن لا يبخل العبد بما أعطاه الله.

أخبر أولاً: أن الذي عنده وفي يده فضل من الله ونعمة، ليس ملكاً للعبيد، بل لولا فضل الله عليه وإحسانه، لم يصل إليه منه شيء، فمنعه لذلك منع لفضل الله وإحسانه؛ ولأن إحسانه موجب للإحسان إلى عبيده كما قال تعالى: ﴿وأحسن كما أحسن الله إليك﴾.

فمن تحقق أن ما بيده، فضل من الله، لم يمنع الفضل الذي لا يضره، بل ينفعه في قلبه وماله، وزيادة إيمانه، وحفظه من الآفات.

ثم ذكر ثانياً: أن هذا الذي بيد

(٢) في ب: التمييز.

(١) في ب: ثم أخذه.







يستطع فعل جنب، وأهمهم ﴿يتفكرون﴾ في خلق السماوات والأرض ﴿أي﴾ ليستدلوا بها على المقصود منها، ودل هذا على أن التفكير عبادة من صفات أولياء الله العارفين، فإذا تفكروا بها، عرفوا أن الله لم يخلقها عبثاً، يقولون: ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك﴾ عن كل ما لا يليق بجلالك، بل خلقتها بالحق وللحق، مشتملة على الحق.

﴿ففتنا عذاب النار﴾ بأن تعصنا من السيئات، وتوقفنا للأعمال الصالحات، لننال بذلك النجاة من النار.

ويتضمن ذلك سؤال الجنة، لأنهم إذا وقاهم الله عذاب النار حصلت لهم الجنة، ولكن لما قام الخوف بقلوبهم، دعوا الله بأهم الأمور عندهم، ﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أجزيت﴾ أي: لحصوله على السخط من الله، ومن ملائكته، وأوليائه، ووقوع القضيحة التي لا نجاة منها، ولا منقذ منها، ولهذا قال: ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ يتخذونهم من عذابه، وفيه دلالة على أنهم دخلوها بظلمهم.

﴿ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان﴾ وهو محمد ﷺ، أي: يدعو الناس إليه، ويرغبهم فيه، في أصوله وفروعه.

﴿فآمننا﴾ أي: أجبناه مبادرة، وسارعنا إليه، وفي هذا إخبار منهم بمنة الله عليهم، وتبجح بنعمته، وتوسل إليه بذلك، أن يخفر ذنوبهم ويكفر سيئاتهم، لأن الحسنات يذهبن السيئات، والذي منَّ عليهم بالإيمان، سيمن عليهم بالأمان التام.

﴿وتوفنا مع الأبرار﴾ يتضمن هذا الدعاء التوفيق لفعل الخير، وترك الشر، الذي به يكون العبد من الأبرار، والاستمرار عليه، والثبات إلى المات.

ولما ذكروا توفيق الله إياهم للإيمان، وتوسلهم به إلى تمام النعمة، سأله التواب على ذلك، وأن ينجز لهم ما وعدهم به على السنة رسله من النصر، والظهور في الدنيا، ومن الفوز

عذاب النار \* ربنا إنك من تدخل النار فقد أجزيت وما للظالمين من أنصار \* ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمننا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار \* ربنا وآتينا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد \* إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الألباب \* وفي ضمن ذلك حث العباد على التفكير فيها، والتبصر بآياتها، وتدبر خلقها، وأهم قوله: ﴿آيات﴾ ولم يقل: ﴿على المطلب الفلاني﴾ إشارة لكثرتها وعمومها، وذلك لأن فيها من الآيات المحيية ما

يبهر الناظرين، ويقنع المتفكرين، ويجذب أفتدة الصادقين، وينبه العقول النيرة على جميع المطلب الإلهية، فأما تفصيل ما اشتملت عليه، فلا يمكن لمخلوق أن يحصره، ويحيط ببعضه، وفي الجملة فما فيها من العظمة والسعة، وانتظام السير والحركة، يدل على عظمة خالقها، وعظمة سلطانه وشمول قدرته. وما فيها من الأحكام والإتقان، وبديع الصنع، ولطائف الفعل، يدل على حكمة الله ووضع الأشياء مواضعها، وسعة علمه. وما فيها من المنافع للخلق، يدل على سعة رحمة الله، وعموم فضله، وشمول بره، ووجوب شكره.

وكل ذلك يدل على تعلق القلب بخالقها ومبدعها، وبذل الجهد في مرضاته، وأن لا يشرك به سواه، فمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

وخص الله بالآيات أولي الألباب، وهم أهل العقول؛ لأنهم هم المنتفعون بها، الناظرون إليها بعقولهم لا بأبصارهم.

ثم وصف أولي الألباب بأنهم ﴿يذكرون الله﴾ في جميع أحوالهم: ﴿قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾ وهذا يشمل جميع أنواع الذكر بالقول والقلب، ويدخل في ذلك الصلاة قائماً، فإن لم يستطع فقاعداً، فإن لم



أنه محق وغيره مبطل، كما هو الواقع من أهل البعد.

ودلت الآية بمفهومها على أن من أحب أن يحمده ويثنى عليه بما فعله من الخير واتباع الحق، إذا لم يكن قصده بذلك الرياء والسمعة، أنه غير مذموم، بل هذا من الأمور المطلوبة، التي أخبر الله أنه يجزي بها المحسنين له الأعمال والأقوال، وأنه جازى بها خواص خلقه، وسألوا منه، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ وقال: ﴿سلام على نوح في العالمين، إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ وقد قال عباد الرحمن: ﴿واجعلنا للمتقين إماماً﴾ وهي من نعم الباري على عبده، ومنته التي تحتاج إلى الشكر.

﴿١٨٩﴾ ﴿ولله ملك السماوات والأرض والله على كل شيء قدير﴾ أي: هو المالك للسماوات والأرض وما فيهما، من سائر أصناف الخلق، المتصرف فيهم بكمال القدرة، وبديع الصنعة، فلا يمنع عليه منهم أحد، ولا يعجزه أحد.

﴿١٩٠ - ١٩٤﴾ ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الألباب \* الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا

برضوان الله وجنته في الآخرة، فإنه تعالى لا يخلف الميعاد، فأجاب الله دعاءهم، وقيل تضرعهم، فلماذا قال: ﴿١٩٥﴾ «فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوطانهم في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفروا عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب»، أي: أجاب الله دعاءهم، دعاء العبادة، ودعاء الطلب، وقال: إنني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر وأنثى، فالجميع سيقولون ثواب أعمالهم كاملاً موقراً، «بعضكم من بعض» أي: كلكم على حد سواء في الثواب والعقاب، «فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوطانهم في سبيلي وقاتلوا وقتلوا» فجمعوا بين الإيمان والهجرة، ومفارقة المحبوبات من الأوطان والأموال، طلباً لرضا ربهم، وجاهدوا في سبيل الله.

﴿١٩٥﴾ «فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوطانهم في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفروا عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب»، أي: أجاب الله دعاءهم، دعاء العبادة، ودعاء الطلب، وقال: إنني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر وأنثى، فالجميع سيقولون ثواب أعمالهم كاملاً موقراً، «بعضكم من بعض» أي: كلكم على حد سواء في الثواب والعقاب، «فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوطانهم في سبيلي وقاتلوا وقتلوا» فجمعوا بين الإيمان والهجرة، ومفارقة المحبوبات من الأوطان والأموال، طلباً لرضا ربهم، وجاهدوا في سبيل الله.

﴿١٩٦﴾ «والله عنده حسن الثواب» مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فمن أراد ذلك، فليطلبه من الله بطاعته والتقرب إليه، بما يقدر عليه العبد. ﴿١٩٧﴾ «لا يفرنك تغلب الذين كفروا في البلاد \* متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد \* لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزل من عند الله وما عند الله خير للأبرار» وهذه الآية المقصود منها التسلية عما يحصل للذين كفروا من متاع الدنيا، وتنعيمهم فيها، وتغلبهم في البلاد بأنواع التجارات والمكاسب واللذات،

﴿١٩٨﴾ «لا يفرنك تغلب الذين كفروا في البلاد \* متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد \* لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزل من عند الله وما عند الله خير للأبرار» وهذه الآية المقصود منها التسلية عما يحصل للذين كفروا من متاع الدنيا، وتنعيمهم فيها، وتغلبهم في البلاد بأنواع التجارات والمكاسب واللذات،

﴿١٩٩﴾ «والله عنده حسن الثواب» مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فمن أراد ذلك، فليطلبه من الله بطاعته والتقرب إليه، بما يقدر عليه العبد. ﴿٢٠٠﴾ «وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب \* يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا وربطوا وثاقوا الله لعلكم تفلحون» أي: وإن من أهل الكتاب طائفة موفقة للخير، يؤمنون بالله، ويؤمنون بما أنزل إليكم وما أنزل إليهم، وهذا الإيمان النافع لا كمن يؤمن ببعض الرسل والكتب، ويكفر ببعض.

ولهذا - لما كان إيمانهم عاماً حقيقياً - صار نافعاً، فأحدث لهم خشية الله، وخضوعهم لجلاله الموجب للانتقياد لأوامره ونواهيه، والوقوف عند حدوده.

وهؤلاء أهل الكتاب والعلم على الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ ومن قام خشيتهم لله، أنهم «لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً». فلا يقدمون

فإن أولئك أسبق إلى ذلك مسكات روج وباتيم  
 إنهم يظنوا فلا تأخذوا منه شيئاً أنظرون  
 بئس ما أتتكم منكم \* وصحيفة تأشرونكم وقد  
 أنزلنا منكم إلى نبي وأنزلنا منكم منكم  
 عطف \* ولا تسيءوا ما كنتم آباءكم يسيئون  
 النساء إلا ما قد سلف إنهم سكت فحيتى ومشا  
 وسكة سبيلاً \* حرمت عليكم أمهاتكم وآبائكم  
 وأمهاتكم وعمهاتكم وأمهاتكم وبناكم  
 ذلك الأثني وأمهاتكم التي أنزلنا عليكم  
 وأمرتكم بركن الرضا وأمهاتكم بئس ما كنتم  
 وتبئس ما كنتم في منبر ربكم من ربكم  
 التي أنزلنا منكم إن ربكم رؤوف رحيم  
 حرام عليكم وتكفلوا بكم آل أبيكم  
 من أمهاتكم وأبائكم من أمهاتكم  
 إلا ما قد سلف إن الله حكيم غفور رحيم

٨١

الدنيا على الدين كما فعل أهل الانحراف الذين يكتفون ما أنزل الله ويشترون به ثمناً قليلاً، وأما هؤلاء فعرفوا الأمر على الحقيقة، وعلموا أن من أعظم الخسران، الرضا بالدون عن الدين، والوقوف مع بعض حظوظ النفس السفلية، وترك الحق الذي هو أكبر حظ وفوز في الدنيا والآخرة، فاتروا الحق وبيئوه، ودعوا إليه، وحذروا عن الباطل، فاتأبه الله على ذلك بأن وعدهم الأجر الجزيل، والثواب الجميل، وأخبرهم بقربه، وأنه سريع الحساب، فلا يستطيعون ما وعدهم الله، لأن ما هو آت محقق حصوله، فهو قريب.

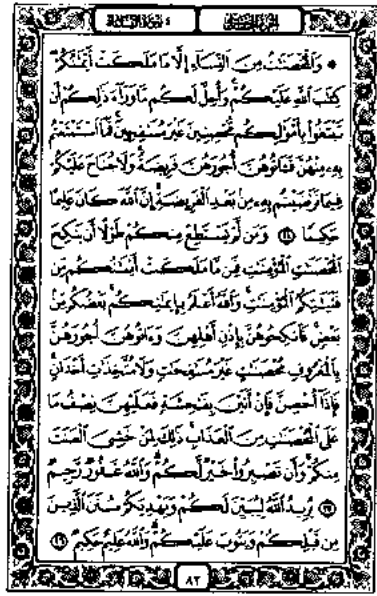
ثم حض المؤمنين على ما يوصلهم إلى الفلاح - وهو: الفوز والسعادة والنجاح، وأن الطريق الموصول إلى ذلك لزوم الصبر، الذي هو حبس النفس على ما تكرهه، من ترك المعاصي، ومن الصبر على المصائب، وعلى الأوامر الثقيلة على النفوس، فأمرهم بالصبر على جميع ذلك.

والمصابرة أي<sup>(١)</sup>: الملازمة والاستمرار على ذلك، على الدوام، ومقاومة الأعداء في جميع الأحوال.

والرابطة: وهي<sup>(٢)</sup> لزوم المحل

(١) في ب: هي.

(٢) في النسختين وهو، ولعل الصواب ما أثبت.



الذي يخاف من وصول العدو منه، وأن يراقبوا أعداءهم، ويمنعوهم من الوصول إلى مفاصلهم، لعلهم يفلحون: يفوزون بالمحرب الديني والديني والأخروي، وينجون من المكروه كذلك.

فعلم من هذا أنه لا سبيل إلى الفلاح بدون الصبر والمصابرة والمراقبة المذكورات، فلم يفلح من أفلح إلا بها، ولم يفت أحداً الفلاح إلا بالإحلال بها أو ببعضها.

والله موفق ولا حول ولا قوة إلا به.

تم تفسير سورة آل عمران والحمد لله على نعمته، ونسأله تمام النعمة.

**تفسير سورة النساء وهي مدنية**

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَكُمْ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ افتتح تعالى هذه السورة بالأمر بتقواه، والحث على عبادته، والأمر بصلة الأرحام، والحث

على ذلك. ويبيِّن السبب الداعي الموجب لكل من ذلك، وأن الموجب لتقواه لأنه ﴿ربكم الذي خلقكم﴾ ورزقكم، ورباكم بنعمه العظيمة، التي من جعلتها خلقكم ﴿من نفس واحدة وخلق منها زوجها﴾ ليناسبها، فيسكن إليها، وتم بذلك النعمة، ويحصل به السرور، وكذلك من الموجب الداعي لتقواه تساؤلكم به وتعظيمكم، حتى إنكم إذا أردتم قضاء حاجاتكم ومأزبكم، تولستم لها بالسؤال بالله. فيقول من يريد ذلك لغيره: أسألك بالله أن تفعل الأمر الفلاني؛ لعلمه بما قام في قلبه من تعظيم الله الداعي أن لا يرد من سأله بالله، فكما عظمتموه بذلك فلتعظموه بعبادته وتقواه.

وكذلك الإخبار بأنه رقيب، أي: مطلع على العباد في حال حركاتهم وسكونهم، وسرهم وعلنهم، وجميع أحوالهم، مراقباً لهم فيما مما يوجب مراقبته، وشدة الحياء منه، بلزوم تقواه.

وفي الإخبار بأنه خلقهم من نفس واحدة، وأنه بهم في أنظار الأرض، مع رجوعهم إلى أصل واحد - ليعطف بعضهم على بعض، ويرقق بعضهم على بعض. وقرن الأمر بتقواه بالأمر ببر الأرحام والنهي عن قطيعتها، ليؤكد هذا الحق، وأنه كما يلزم القيام بحق الله، كذلك يجب القيام بحقوق الخلق، خصوصاً الأقربين منهم، بل القيام بحقوقهم هو من حق الله الذي أمر الله به، وتأمل كيف افتتح هذه السورة بالأمر بالقوى، وصلة الأرحام والأزواج عموماً، ثم بعد ذلك فصل هذه الأمور أتم تفصيلاً، من أول السورة إلى آخرها. فكانها مبنية على هذه الأمور المذكورة، مفصلة لما أجل منها، موضحة لما أبهم.

وفي قوله: ﴿وخلق منها زوجها﴾ تنبيه على مراعاة حق الأزواج

والزوجات والمقيام به، لكون الزوجات مخلوقات من الأزواج، فبينهم وبينهن أقرب نسب وأشد اتصال، وأقرب علاقة.

وقوله تعالى: ﴿وآتوا اليتامى أموالهم ولا تبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالكم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً﴾، هذا أول ما أوصى به من حقوق الخلق في هذه السورة. وهم اليتامى الذين فقدوا آباءهم الكافلين<sup>(١)</sup> لهم، وهم صغار ضعاف لا يقومون بمصالحهم.

فأمر الرؤوف الرحيم عباده أن يحسنوا إليهم، وأن لا يقربوا أموالهم إلا بالتي هي أحسن، وأن يؤتوهم أموالهم إذا بلغوا ورشدوا، كاملة موفرة، وأن لا ﴿تبدلوا الخبيث﴾ الذي هو أكل مال اليتيم بغير حق. ﴿بالطيب﴾ وهو الحلال الذي ما فيه حرج ولا تبعة. ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾ أي: مع أموالكم، ففيه تنبيه لقبح أكل مالهم بهذه الحالة، التي قد استغنى بها الإنسان بما جعل الله له من الرزق في ماله. فمن تجرأ على هذه الحالة، فقد أتى ﴿حوباً كبيراً﴾ أي: إنمأ عظيماً، ووزراً جسيماً.

ومن استبدل الخبيث بالطيب أن يأخذ الولي من مال اليتيم النفيس، ويجعل بدله من ماله الخسيس. وفيه الولاية على اليتيم، لأن من لازم إنشاء اليتيم ماله، ثبوت ولاية الولي على ماله.

وفي الأمر بإصلاح مال اليتيم، لأن تمام إنشائه ماله حفظه، والقيام به بما يصلحه وينميه، وعدم تعريضه للمخاوف والأخطار.

﴿٣ - ٤﴾ ﴿وإن خفتن ألا نقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتن ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعملوا﴾ وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء

(١) في ب: وأوتى.  
(٢) كذا في ب، وفي أ: الذين فقدت آباؤهم الكافلون.

منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً ﴿ أي : وإن خفتم ألا تعدلوا في يتامى النساء اللاتي تحت حجوركم وولايتكم، وخفتم أن لا تقوموا بحققن لعدم محبتكم إياهن، فاعدلوا إلى غيرهن، وانكحوا ما طاب لكم من النساء ﴾ أي : ما وقع عليهن اختياركم، من ذوات الدين، والمال، والجسمال، والحسب، والنسب، وغير ذلك من الصفات الداعية لنكاحهن، فاختاروا على نظركم، ومن أحسن ما يختار من ذلك صفة الدين، كما قال النبي ﷺ : «تُنكح المرأة لأربع : لمالها، ولجمالها، ولحسبها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يمينك» .

وفي هذه الآية - أنه ينبغي للإنسان أن يختار قبل النكاح، بل وقد أباح له الشارع النظر إلى من يريد تزوجها، ليكون على بصيرة من أمره. ثم ذكر العدد الذي أباحه من النساء فقال : «مثنى وثلاث ورباع» أي : من أحب أن يأخذ ثنتين فليفعل، أو ثلاثاً فليفعل، أو أربعاً فليفعل، ولا يزيد عليها، لأن الآية سبقت لبيان الامتنان، فلا يجوز الزيادة على غير ما سمى الله تعالى إجماعاً .

وذلك لأن الرجل قد لا تندفع شهرته بالواحدة، فأببح له واحدة بعد واحدة، حتى يبلغ أربعاً، لأن في الأربع غنية لكل أحد، إلا ما ندر، ومع هذا فإنما يباح له ذلك إذا أمن على نفسه الجور والظلم، ووثق بالقيام بحقوقهن .

فإن خاف شيئاً من هذا، فليقتصر على واحدة، أو على ملك يمينه . فإنه لا يجب عليه القسم، في ملك اليمين . ﴿ ذلك ﴾ أي : الاقتصار على واحدة، أو ما ملكت اليمين «أدنى ألا تعولوا» أي : نظلموا .

وفي هذا أن تعرض العبد للامر الذي يخاف منه الجور والظلم، وعدم القيام بالواجب - ولو كان مباحاً - أنه لا ينبغي له أن يتعرض له، بل يلزم السعة والعافية، فإن العافية خير ما أعطي العبد .

ولما كان كثير من الناس يظلمون النساء، ويضمونهن حقوقهن، خصوصاً الصداق الذي يكون شيئاً كثيراً، ودفعة واحدة، يشق دفعه للزوجة، أمرهم وحشهم على إيتاء النساء «صدقاتهن» أي : مهرهن «نحلة» أي : عن طيب نفس، وحال طمأنينة، فلا تطلوهن أو تبخسوا منهن شيئاً . وفيه : أن المهر يدفع إلى المرأة إذا كانت مكلفة، وأنها تملكه بالعقد، لأنه أضافه إليها، والإضافة تقتضي التملك .

﴿ فإن طبن لكم عن شيء منه ﴾ أي : من الصداق «نفساً» بأن سمحن لكم عن رضا واختيار بإسقاط شيء منه، أو تأخيرها أو المعاوضة عنه . ﴿ فكلوه هنيئاً مريئاً ﴾ أي : لا حرج عليكم في ذلك ولا تبعة .

وفيه دليل على أن للمرأة التصرف في مالها - ولو بالتبصر - إذا كانت رشيدة، فإن لم تكن كذلك، فليس لعطيتها حكم، وأنه ليس لوليها من الصداق شيء، غير ما طابت به .

وفي قوله : «فانكحوا ما طاب لكم من النساء» دليل على أن نكاح الخبيثة غير مأموره، بل منهي عنه، كالمشركة، وكالفاجرة، كما قال تعالى : ﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ﴾ وقال : ﴿ الزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك ﴾ .

﴿ ٥ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولا تؤنوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً ﴾ السفهاء، جمع «سفيه»، وهو من لا يحسن التصرف في المال، إما لعدم عقله كالجنون والمعنوه، ونحوهما، وإما لعدم رشده كالصغير وغير الرشيد . فنهى الله الأولياء أن يؤتوا هؤلاء أموالهم، خشية إفسادها وإتلافها، لأن الله جعل الأموال قياماً لعباده في مصالح دينهم ودنياهم، وهؤلاء لا يحسنون القيام عليها وحفظها، فأمر الولي أن لا يؤتاهم إياها بل يرزقهم منها ويكسوهم، وببذل منها ما يتعلق

وَأَذْرِبْهُ أَنْ تَوْتَّ عَلَيْهِمْ ذَرْبُ اللَّهِ الَّذِينَ يَمُنُونَ  
الْمُؤْتُونَ أَنْ يَقُولُوا تَيْلَاطِطِطًا ﴿ وَيُذْخِرُ اللَّهُ الَّذِينَ  
عَنْكَرُوا حُرْقِيقَ الْإِنْسَانِ مَيْمِنًا ﴿ بِنَاهَا الَّذِينَ  
بَانُوا لَا تَأْسُرُوا الْوَيْلَ لَكُمْ بِنَاهَا الَّذِينَ  
أَنْ تَكُونَ بِعَيْنِ عَن تَرَامِينِ بِنَاهَا الَّذِينَ  
إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿ وَتَنْ تَقُولُ ذَلِكَ  
عُدْرًا وَتَلْمِظُوا مَنُوقَ تَهْلِيلِهِ وَأَنْ تَكُونَ ذَلِكَ عَلَى  
بِنَاهَا ﴿ إِنْ تَحْبِرُوا كَيْفَ تَرَامِينُ عَنْهُ لَكُنْزٌ  
عَنْكَرُوا بِنَاهَا وَتَلْمِظُوا مَنُوقَ تَهْلِيلِهِ ﴿  
وَلَا تَسْتَوُوا مَأْمُولًا لِّلَّهِ بِمَنْ تَسْتَكْفِرُونَ عَلَى عَسْرِ الْبَالِ  
فِيمَنْ بِنَاهَا كَسْرًا وَاللَّيْلَةَ تَهْلِيلًا وَمَنْ تَكُونُ  
مَقُولًا وَالَّذِينَ تَقُولُ إِنَّ اللَّهَ سَكَتَ بِكُلِّ شَيْءٍ  
عَلَيْهَا ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَرَامِينُ أَنْ تَكُونَ  
وَالَّذِينَ تَكُونُ وَالَّذِينَ عَدَدُوا بِنَاهَا قَارُونَ  
بِنَاهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى عَسْرِ عَوْنِيًّا ﴿

بضروراتهم وحاجاتهم الدينية والدنيوية، وأن يقولوا لهم قولاً معروفاً، بأن يعدوهم - إذا طلبوها - أنهم سيدفعونها لهم بعد رشدهم، ونحو ذلك، ويلطفوا لهم في الأقوال جبراً لخواطهم .

وفي إضافته تعالى الأموال إلى الأولياء، إشارة إلى أنه يجب عليهم أن يعملوا في أموال السفهاء ما يفعلونه في أموالهم، من الحفظ والتصرف وعدم التعريض للأخطار . وفي الآية دليل على أن نفقة المجنون والصغير والسفيه في مالهم، إذا كان لهم مال، لقوله : ﴿ وارزقوهم فيها واكسوهم ﴾ .

وفيه دليل على أن قول الولي مقبول فيما يدعيه من النفقة المكنة والكسوة؛ لأن الله جعله مؤتمناً على مالهم، فلزم قبول قول الأمين .

﴿ ٦ ﴾ ﴿ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تاكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ومن كان غنياً فليستغفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً ﴾ الابتلاء : هو الاختبار والامتحان . وذلك بأن يدفع لليتيم المقارب للرشد، الممكن رشده، شيئاً من ماله، ويتصرف فيه التصرف اللائق بحاله، فيتبين بذلك رشده من سبفه . فإن



استمر غير محسن للتصرف، لم يدفع إليه ماله، بل هو باق على سفهه، ولو بلغ عمراً كثيراً.

فإن تبين رشده وصلاحه في ماله وبلغ النكاح ﴿فادفعوا إليهم أموالهم﴾ كاملة موفرة. ﴿ولا تأكلوها إسرافاً﴾ أي: مجاوزة للحد الحلال الذي أباحه الله لكم من أموالكم، إلى الحرام الذي حرمه الله عليكم من أموالهم.

﴿وبداراً أن يكبروا﴾ أي: ولا تأكلوها في حال صغرهم، التي لا يمكنهم فيها أخذها منكم، ولا منعكم من أكلها، تبادرون بذلك أن يكبروا، فيأخذوها منكم ويمتنعوا منها.

وهذا من الأمور الواقعة من كثير من الأولياء، الذين ليس عندهم خوف من الله، ولا رحمة ومحبة للمولى عليهم، يرون هذه الحال، حال فرصة، فيغتتمونها ويتعجلون ما حرم الله عليهم، فنهى الله تعالى عن هذه الحالة بخصوصها.

﴿٧﴾ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً﴾ كان العرب في الجاهلية - من جبروتهم<sup>(١)</sup> وقسوتهم،

لا يورثون الضعفاء، كالنساء والصبيان، ويجعلون الميراث للرجال الأقوياء، لأنهم - بزعمهم - أهل الحرب والقتال، والنهب والسلب، فأراد الرب الرحيم الحكيم أن يشرع لعباده شرعاً، يستوي فيه رجالهم ونسأؤهم، وأقويأؤهم وضعفاؤهم. وقدم بين يدي ذلك أمراً مجملًا، لتوطن على ذلك النفوس.

فيأتي التفصيل بعد الإجمال، قد تنسفت له النفوس، وزالت الوحشة التي منشؤها العادات القبيحة، فقال: ﴿للرجال نصيب﴾ أي: قسط وحصصة ﴿مما ترك﴾ أي: خلف ﴿الوالدان﴾ أي: الأب والأم ﴿والأقربون﴾ عموم بعد خصوص ﴿وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾

فكانه قيل: هل ذلك النصيب راجع إلى العرف والعادة، وأن يرضخوا لهم ما يشاؤون؟ أو شيئاً مقدراً؟ فقال تعالى: ﴿نصيباً مفروضاً﴾ أي: قد قدره العليم الحكيم. وسيأتي - إن شاء الله - تقدير ذلك.

وأيضاً فهاتنا توهم آخر، لعل أحداً يتوهم أن النساء والولدان ليس لهم نصيب إلا من المال الكثير، فآزال ذلك بقوله: ﴿مما قل منه أو كثر﴾ فتبارك الله أحسن الحاكمين.

﴿٨﴾ وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾ وهذا من أحكام الله الحسنة الجليلة الجارية للقلوب، فقال: ﴿وإذا حضر القسمة﴾ أي: قسمة الموارث ﴿أولو القربى﴾ أي: الأعراب غير الوارثين، بقريته قوله: ﴿القسمة﴾ لأن الوارثين من القسوم عليهم. و﴿اليتامى والمساكين﴾ أي: المستحقون من الفقراء.

﴿فارزقوهم منه﴾ أي: أعطوهم ما تيسر من هذا المال الذي جاءكم بغير كد ولا تعب، ولا عناء ولا نصب، فإن نفوسهم متشوفة إليه، وقلوبهم

متطلعة، فاجبروا خواطرمهم بما لا يضرهم وهو نافعهم.

ويؤخذ من المعنى أن كل من له تطلع وتشوف إلى ما حضر بين يدي الإنسان، ينبغي له أن يعطيه منه ما يسر، كما كان النبي ﷺ يقول: «إذا جاء أحدكم خادمه بطعامه فليجلسه معه، فإن لم يجلسه معه، فليناوله لقمة أو لقتين» أو كما قال.

وكان الصحابة رضي الله عنهم - إذا بدأت باكورة أشجارهم - أتوا بها رسول الله ﷺ، فبرك عليها، ونظر إلى أصغر وليد عنده فأعطاه ذلك، علماً منه بشدة تشوفه لذلك، وهذا كله مع إمكان الإعطاء، فإن لم يمكن ذلك - لكونه حق سفهاء، أو ثم أهم من ذلك - فليقولوا لهم قولاً معروفاً يردوهم<sup>(٢)</sup> رداً جميلاً، بقول حسن غير فاحش ولا قبيح.

﴿٩﴾ - ﴿١٠﴾ ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً﴾ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾ قيل: إن هذا خطاب لمن يحضر من حضره الموت وأجف في وصيته، أن يأمره بالعدل في وصيته والمساواة فيها، بدليل قوله: ﴿وليقولوا قولاً سديداً﴾ أي: سداداً، موافقاً للقسط والمعروف. وأنهم يأمرون من يريد الوصية على أولاده، بما يجون معاملة أولادهم بعدهم.

وقيل: إن المراد بذلك أولياء السفهاء من المجانين والصغار والضعاف، أن يعاملوهم في مصالحهم الدينية والدنيوية بما يجون أن يعامل به من بعدهم من ذريتهم الضعاف. ﴿فليتقوا الله﴾ في ولايتهم لغيرهم، أي: يعاملوهم بما فيه تقوى الله، من عدم إهانتهم، والقيام عليهم، وإلزامهم لتقوى الله.

ولما أمرهم بذلك، زجرهم عن أكل أموال اليتامى، وتوعد على ذلك أشد

(٢) في ب: يردوهم.

(١) في النسخين: جبروتهم.





ومثل ذلك بنت الابن، مع بنات الابن اللاتي أنزل منها.

وتدل الآية أنه متى استغرق البنات أو بنات الابن الثلثين، أنه يسقط من دونهن من بنات الابن، لأن الله لم يفرض لهن إلا الثلثين، وقد تم. فلو لم يسقطن، لزم من ذلك أن يفرض لهن أزيد من الثلثين، وهو خلاف النص. وكل هذه الأحكام مجمع عليها بين العلماء، والله الحمد.

ودل قوله: ﴿عما ترك﴾ أن الوارثين يرون كل ما خلف الميت، من عقار، وأثاث، وذهب وفضة، وغير ذلك، حتى الدية التي لم تجب إلا بعد موته، وحتى الديون التي في الذمم<sup>(١)</sup>.

ثم ذكر ميراث الأبوين فقال: ﴿ولأبويه﴾ أي: أبوه وأمه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد؛ أي: ولد صلب أو ولد ابن، ذكراً كان أو أنثى، واحداً أو متعدداً. فأما الأم فلا تزيد على السدس مع أحد من الأولاد.

وأما الأب فمع الذكور منهم، لا يستحق أزيد من السدس، فإن كان

الولد أنثى أو إنثاء، ولم يبق بعد الفرض شيء - كأبوين وابنتين - لم يبق له تعصيب. وإن بقي بعد فرض البنت أو البنات شيء، أخذ الأب السدس فرضاً، والباقي تعصيباً، لأننا لحقنا الفروض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر، وهو أولى من الأخ والعمة، وغيرهما.

﴿فإن لم يكن له ولد، وورثه أبواه، فلائمه الثلث﴾ أي: والباقي للأب، لأنه أضاف المال إلى الأب والأم، إضافة واحدة، ثم قدر نصيب الأم، فدل ذلك، على أن الباقي للأب.

وعلم من ذلك أن الأب مع عدم الأولاد لا فرض له، بل يرث تعصيباً المال كله، أو ما أبقث الفروض، لكن لو وجد مع الأبوين أحد الزوجين - ويعبر عنهما بالمعمرتين - فإن الزوج أو الزوجة يأخذ فرضه، ثم تأخذ الأم ثلث الباقي والأب الباقي.

وقد دل على ذلك قوله: ﴿ورثه أبواه، فلائمه الثلث﴾ أي: ثلث ما ورثه الأبوان. وهو في هاتين الصورتين، إما سدس في زوج وأم وأب، وإما ربع في زوجة وأم وأب. فلم تدل الآية على إرث الأم، ثلث المال كاملاً، مع عدم الأولاد حتى يقال: إن هاتين الصورتين قد استثنيتا من هذا.

ويوضح ذلك أن الذي يأخذه الزوج أو الزوجة بمنزلة ما يأخذه الغرماء، فيكون من رأس المال، والباقي بين الأبوين.

ولأننا لو أعطينا الأم ثلث المال، لزم زيادتها على الأب في مسألة الزوج، أو أخذ الأب في مسألة الزوجة زيادة عنها نصف السدس، وهذا لا نظير له، فإن المجهود مساواتها للاب، أو أخذه ضعف ما تأخذه الأم.

﴿فإن كان له إخوة فلائمه السدس﴾ أشقاء، أو لأب، أو لأم، ذكوراً كانوا

أو إنثاء، وارثين أو محجوبين بالأب، أو الجد [لكن قد يقال: ليس ظاهر قوله: ﴿فإن كان له إخوة﴾ شاملاً لجميع الوارثين بدليل عدم تناولها للمحجوب بالنصف، فعلى هذا لا يحجبها عن الثلث من الإخوة إلا الإخوة الوارثون. ويؤيده أن الحكمة في حجبهما لها عن الثلث لأجل أن يتوفر لهم شيء من المال، وهو معدوم، والله أعلم<sup>(٢)</sup>، ولكن بشرط كونهم اثنين فأكثر، وبشكل على ذلك إتيان لفظ «الإخوة» بلفظ الجمع. وأجيب عن ذلك بأن المقصود مجرد التعدد لا الجمع، ويصدق ذلك باثنين.

وقد يطلق الجمع ويراد به الاثنان، كما في قوله تعالى عن داود وسليمان: ﴿وكننا لحكمهم شاهدين﴾ وقال في الإخوة للأم: ﴿وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث﴾

فأطلق لفظ الجمع والمراد اثنان فأكثر بالإجماع. فعلى هذا لو خلف أم وأباً وإخوة، كان للأم السدس، والباقي للاب، فحجبوها عن الثلث، مع حجب الأب إياهم [إلا على الاحتمال الآخر فإن للأم الثلث والباقي للاب]<sup>(٣)</sup>.

ثم قال تعالى: ﴿من بعد وصية يوصي بها أو دين﴾ أي: هذه الفروض والأوصياء والموارث، إنما ترد وتستحق بعد نزع الديون التي على الميت لله أو للآدميين، وبعد الوصايا التي قد أوصى الميت بها بعد موته، فالباقي عن ذلك، هو التركة الذي يستحقه الورثة.

وقدم الوصية مع أنها مؤخره عن الدين للاهتمام بشأنها، لكون إجرائها شاقاً على الورثة، وإلا فالديون مقدمة عليها، وتكون من رأس المال.

(١) في ب: الذمة.

(٢) زيادة من هامش ب وهناك زيادة أخرى في هامش أ وإن لم يبين محلها، لكنها ذات صلة بهذا الموضوع وهي قوله: (ورعد شيخ الإسلام إذا كان الإخوة غير وارثين فإنهم لا يحجبون الأم) وبعد كلمة الأم كلمة غير واضحة في الأصل.

(٣) زيادة من هامش ب.

وأما الوصية فإنها تصح من الثلث فأقل، للاجنبي الذي هو غير وارث. وأما غير ذلك فلا ينفذ إلا بإجازة الورثة، قال تعالى: ﴿أبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾.

فلورد تقدير الإرث إلى عقولكم واختياركم لحصل من الضرر ما الله به عليم، لنقص العقول وعدم معرفتها بما هو اللائق الأحسن، في كل زمان ومكان. فلا يدرون أي: الأولاد أو الوالدين أنفع لهم وأقرب، لحصول مقاصدهم الدينية والدنيوية.

﴿فريضة من الله إن الله كان عليماً حكيماً﴾ أي: فرضها الله الذي قد أحاط بكل شيء علماً، وأحكم ما شرعه، وقدر ما قدره على أحسن تقدير، لا تستطيع العقول أن تقترح مثل أحكامه الصالحة الموافقة لكل زمان ومكان وحال.

ثم قال تعالى: ﴿ولكم﴾ أيها الأزواج ﴿نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلنكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين، ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين﴾.

ويدخل في مسمى الولد المشروط وجوده أو عدمه، ولد الصلب أو ولد الابن الذكر والأنثى، الواحد والتمدد، الذي من الزوج أو من غيره، ويخرج عنه ولد البنات إجمالاً.

ثم قال تعالى: ﴿وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت﴾ أي: من أم، كما هي في بعض القراءات. وأجمع العلماء على أن المراد بالإخوة هنا الإخوة للأم، فإذا كان يورث كلالة أي: ليس للميت والد ولا ولد أي: لا أب ولا جد ولا ابن ولا ابن ابن ولا بنت، ولا بنت ابن وإن نزلوا. وهذه هي الكلالة، كما فسرها

بذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقد حصل على ذلك الاتفاق، والله الحمد.

﴿فلكل واحد منهما﴾ أي: من الأخ والأخت ﴿السدس﴾ فإن كانوا أكثر من ذلك أي: من واحد ﴿فهم شركاء في الثلث﴾ أي: لا يزيدون على الثلث ولو زادوا عن اثنين. ودل قوله: ﴿فهم شركاء في الثلث﴾ أن ذكرهم وأنشأهم سواء، لأن لفظ «الشريك»<sup>(١)</sup> يقتضي التسوية.

ودل لفظ «الكلالة» على أن الفروع وإن نزلوا، والأصول الذكور وإن علوا، يسقطون أولاد الأم، لأن الله لم يورثهم إلا في الكلالة، فلو لم يكن يورث كلالة، لم يرثوا منه شيئاً اتفاقاً.

ودل قوله: ﴿فهم شركاء في الثلث﴾ أن الإخوة الأشقاء يسقطون في المسألة السماة بالحمارية. وهي: زوج، وأم، وإخوة لأم، وإخوة أشقاء. للزوج النصف. وللأم الثلث، وللإخوة للأم الثلث، ويسقط الأشقاء، لأن الله أضاف الثلث للإخوة من الأم، فلو شاركهم الأشقاء لكان جمعاً لما فرّق الله حكمه. وأيضاً فإن الإخوة للأم أصحاب فروض، والأشقاء عصباء. وقد قال النبي ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر». وأهل الفروض هم الذين قدر الله أنصباؤهم، ففي هذه المسألة لا يبقى بعدهم شيء، يسقط الأشقاء، وهذا هو الصواب في ذلك.

وأما ميراث الإخوة والأخوات الأشقاء أو لأب، فمذكور في قوله: ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ الآية.

فالأخت الواحدة شقيقة أو لأب لها النصف، والثنتان لهما الثلثان، والشقيقة الواحدة مع الأخت للأب، أو الأخوات، تأخذ النصف والباقي

أولئك الذين أنعم الله عليهم إنهم يفتنون الله عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقد حصل على ذلك الاتفاق، والله الحمد. ﴿فلكل واحد منهما﴾ أي: من الأخ والأخت ﴿السدس﴾ فإن كانوا أكثر من ذلك أي: من واحد ﴿فهم شركاء في الثلث﴾ أي: لا يزيدون على الثلث ولو زادوا عن اثنين. ودل قوله: ﴿فهم شركاء في الثلث﴾ أن ذكرهم وأنشأهم سواء، لأن لفظ «الشريك»<sup>(١)</sup> يقتضي التسوية. ودل لفظ «الكلالة» على أن الفروع وإن نزلوا، والأصول الذكور وإن علوا، يسقطون أولاد الأم، لأن الله لم يورثهم إلا في الكلالة، فلو لم يكن يورث كلالة، لم يرثوا منه شيئاً اتفاقاً. ودل قوله: ﴿فهم شركاء في الثلث﴾ أن الإخوة الأشقاء يسقطون في المسألة السماة بالحمارية. وهي: زوج، وأم، وإخوة لأم، وإخوة أشقاء. للزوج النصف. وللأم الثلث، وللإخوة للأم الثلث، ويسقط الأشقاء، لأن الله أضاف الثلث للإخوة من الأم، فلو شاركهم الأشقاء لكان جمعاً لما فرّق الله حكمه. وأيضاً فإن الإخوة للأم أصحاب فروض، والأشقاء عصباء. وقد قال النبي ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر». وأهل الفروض هم الذين قدر الله أنصباؤهم، ففي هذه المسألة لا يبقى بعدهم شيء، يسقط الأشقاء، وهذا هو الصواب في ذلك. وأما ميراث الإخوة والأخوات الأشقاء أو لأب، فمذكور في قوله: ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ الآية. فالأخت الواحدة شقيقة أو لأب لها النصف، والثنتان لهما الثلثان، والشقيقة الواحدة مع الأخت للأب، أو الأخوات، تأخذ النصف والباقي

من الثلثين للأخت أو الأخوات لأب<sup>(٢)</sup>، وهو السدس تكملة الثلثين. وإذا استغرقت الشقيقات الثلثين سقط الأخوات للأب كما تقدم في البنات وبنات الابن. وإن كان الإخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين.

فإن قيل: فهل يستفاد حكم ميراث القتال، والرقيق، والمخالف في الدين، والبعض، والخنثى، والجد مع الإخوة لغير أم، والعمول، والرد، وذوي الأرحام، وبقيّة العصباء، والأخوات لغير أم، مع البنات أو بنات الابن من القرآن أم لا؟

قيل: نعم، فيه تنبيهات وإشارات دقيقة يحسر فهمها على غير التأمل، تدل على جميع المذكورات. فأما (القتال) والمخالف في الدين) فيعرف أنهما غير وارثين من بيان الحكمة الإلهية في توزيع المال على الورثة، بحسب قربهم ونفعهم الديني والدنيوي.

وقد أشار تعالى إلى هذه الحكمة بقوله: ﴿لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً﴾. وقد علم أن القتال قد سعى لمورثه<sup>(٣)</sup> بأعظم الضرر، فلا ينهض ما فيه من موجب الإرث، أن يقاوم ضرر القتل الذي هو ضد النفع الذي

(١) في ب: الشريك.

(٢) في النسختين أخوات الأب، والصواب: والله أعلم. وما أثبتته، وظاهر أنه سبق قلم.

(٣) في الأصل: لموروثه.





رتب عليه الإرث. فعلم من ذلك أن القتل أكبر مانع يمنع الميراث، ويقطع الرحم الذي قال الله فيه: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾. مع أنه قد استقرت القاعدة الشرعية أن من استعجل شيئاً قبل أوانه عوقب بحرمانه.

وبهذا ونحوه يعرف أن المخالف لدين الموروث لا يرث له، وذلك أنه قد تعارض الموجب الذي هو اتصال النسب الموجب للإرث، والمانع الذي هو المخالفة في الدين، الموجبة للمباينة من كل وجه، فقري المانع، ومنع موجب الإرث الذي هو النسب، فلم يعمل الموجب لقيام المانع. يوضح ذلك أن الله تعالى قد جعل حقوق المسلمين أولى من حقوق الأقارب الكفار الدنيوية، فإذا مات المسلم انتقل ماله إلى من هو أولى وأحق به. فيكون قوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾، إذا تفقت أديانهم، وأما مع تباينهم، فالأخوة الدينية مقدمة على الأخوة النسبية المجردة.

قال ابن القيم في «جلاء الأنهام»: «وتأمل هذا المعنى في آية الموارث، وتعليقه سبحانه التوارث فيها بلفظ الزوجة، دون المرأة، كما في قوله

تعالى: ﴿ولكم نصف ما ترك أزواجكم﴾. إيداناً بأن هذا التوارث إنما وقع بالزوجية المقتضية للتشاكل والتناسب، والمؤمن والكافر لا تشاكل بينهما ولا تناسب، فلا يقع بينهما التوارث. وأسرار مفردات القرآن ومركيباته فوق عقول العالمين»<sup>(١)</sup> انتهى.

وأما (الرفيقتي) فإنه لا يرث ولا يرث، أما كونه لا يرث فواضح، لأنه ليس له مال يرث عنه، بل كل ما معه فهو لسيده. وأما كونه لا يرث، فلأنه لا يملك، فإنه لو ملك لكان لسيده، وهو أجنبي من الميت، فيكون مثل قوله تعالى: ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ - ﴿ولكم نصف ما ترك أزواجكم﴾ - «فلكل واحد منهما السدس» ونحوها، لمن يتأتى منه التملك، فأما الرقيق فلا يتأتى منه ذلك، فعلم أنه لا ميراث له. وأما من بعضه حر وبعضه رقيق، فإنه تتبعض أحكامه. فما فيه من الحرية يستحق بها ما رتبته الله في الموارث، لكون ما فيه من الحرية قابلاً للتملك، وما فيه من الرق فليس يقابل لذلك، فإذا يكون البعض يرث ويورث، ويجب بقدر ما فيه من الحرية. وإذا كان العبد يكون محموداً مذموماً، مثاباً ومعاقباً، بقدر ما فيه من موجبات ذلك، فهذا كذلك. وأما (الختى) فلا تجلو إما أن يكون واضحاً ذكوريته أو أنوثيته، أو مشكلاً. فإن كان واضحاً فالأمر فيه واضح.

إن كان ذكراً فله حكم الذكور، ويشمله النص الوارد فيهم. وإن كان أنثى فله حكم الإناث، ويشملها النص الوارد فيهن. وإن كان مشكلاً، فإن كان الذكر والأنثى لا يختلف إرثهما - كالأخوة للإمام - فالأمر فيه واضح، وإن كان يختلف إرثه بتقدير ذكوريته وبتقدير أنوثيته، ولم يبق لنا طريق إلى العلم بذلك، لم نعطه أكثر التقديرين،

لاحتمال ظلم من معه من الورثة، ولم نعطه الأقل، لا احتمال ظلمنا له. فوجب التوسط بين الأمرين، وسلوك العدل الطريقتين، قال تعالى: ﴿عدلوا هو أقرب للتقوى﴾ وليس لنا طريق إلى العدل في مثل هذا أكثر من هذا الطريق المذكور. و﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ فاتفقوا الله ما استطعتم.

وأما (ميراث الجد) مع الإخوة الأشقاء أو لأب، وهل يرثون معه أم لا؟ فقد دل كتاب الله على قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأن الجد يحجب الإخوة أشقاء أو لأب أو لأم، كما يحجبهم الأب.

وبيان ذلك: أن الجد أب في غير موضع من القرآن، كقوله تعالى: ﴿إذ حضر يعقوب الموت، إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسحاق﴾ الآية. وقال يوسف عليه السلام: ﴿واتبعن ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب﴾. فسمى الله الجد وجد الأب أباً. فدل ذلك على أن الجد بمنزلة الأب، يرث ما يرثه الأب، ويحجب من يحجبه.

وإذا كان العلماء قد أجمعوا على أن الجد حكمه حكم الأب عند عدمه في ميراثه مع الأولاد وغيرهم، من بني الإخوة والأعمام وبنينهم، وسائر أحكام<sup>(٢)</sup> الموارث، فينبغي أيضاً أن يكون حكمه حكمه في حجب الإخوة لغير أم.

وإذا كان ابن الابن بمنزلة ابن الصلب، فلم لا يكون الجد بمنزلة الأب؟ وإذا كان جد الأب مع ابن الأخ، قد اتفق العلماء على أنه يحجبه. فلم لا يحجب جد الميت أخاه؟ فليس مع من يرث الإخوة مع الجد، نص ولا إشارة، ولا تنبيه ولا قياس صحيح.

وأما مسائل (القول) فإنه يستفاد حكمها من القرآن، وذلك أن الله تعالى قد فرض وقدر لأهل الموارث أنصبا،

(٢) كذا في ب، وفي أ: الأحكام.

(١) في ب: الماقلين.





على حقه، يدخل في هذا التعدي، مع قوله ﷺ: «لا وصية لوارث». ثم ذكر طاعة الله ورسوله ومعصيتهما عموماً، ليدخل في العموم لزوم حدوده في الفرائض، أو ترك ذلك، فقال: «ومن يطع الله ورسوله» بامتثال أمرها الذي أعظمه طاعتها في التوحيد، ثم الأوامر على اختلاف درجاتها، واجتناب نهيمها الذي أعظمه الشرك بالله، ثم المعاصي على اختلاف طبقاتها «يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها». فمن أدى الأوامر، واجتنب التواهي، فلا بد له من دخول الجنة والنجاة من النار. «وذلك الفوز العظيم» الذي حصل به النجاة من سخطه وعذابه، والفوز بشوابه ورضوانه بالتعميم المقيم الذي لا يصفه الواصفون.

«ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين» ويدخل في اسم المعصية الكفر فما دورته من المعاصي، فلا يكون فيها شبهة للخوارج القائلين بكفر أهل المعاصي فإن الله تعالى رتب دخول الجنة على طاعته وطاعة رسوله. ورتب دخول النار على معصيته ومعصية رسوله، فمن أطاعه طاعة تامة دخل الجنة بلا عذاب.

ومن عصى الله ورسوله معصية تامة، يدخل فيها الشرك فما دورته،

دخل النار وحلده فيها، ومن اجتمع فيه معصية وطاعة، كان فيه من موجب الثواب والعقاب بحسب ما فيه من الطاعة والمعصية. وقد دلت النصوص المتواترة على أن الموحدين الذين معهم طاعة التوحيد، غير مخلدين في النار، فما معهم من التوحيد مانع لهم من الخلود فيها.

### ﴿١٥ - ١٦﴾ «واللاتي يأتين

الفاحشة من نساءكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً \* واللذان يأتيانا منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا صنكم فاعرضوا عنهما إن الله كان تواباً رحيماً» أي: النساء «اللاتي يأتين الفاحشة» أي: الزنا، ووصفها بالفاحشة لشاعتها وقبحها.

### «فاستشهدوا عليهن أربعة منكم»

أي: من رجالكم المؤمنين العدول. «فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت» أي: احبسوهن عن الخروج الموجب للريبة، وأيضاً فإن الحبس من جملة العقوبات «حتى يتوفاهن الموت» أي: هذا منتهى الحبس. «أو يجعل الله لهن سبيلاً» أي: طريقاً غير الحبس في البيوت، وهذه الآية ليست منسوخة، وإنما هي مغيية إلى ذلك الوقت، فكان الأمر في أول الإسلام كذلك، حتى جعل الله لهن سبيلاً، وهو رجم المحصن وجلد غير المحصن.

### «و» كذلك «اللذان يأتيانها» أي:

الفاحشة «منكم» من الرجال والنساء «فآذوهما» بالقول والتوبيخ والتعير، والضرب الرادع عن هذه الفاحشة، فعلى هذا يكون الرجال إذا فعلوا الفاحشة يؤذون، والنساء يحبسن ويؤذين.

فالحبس غايته إلى الموت، والأذية نهايتها إلى التوبة والإصلاح، ولهذا قال: «فإن تابا» أي: رجعا عن الذنب الذي فعلاه وندما عليه، وعزما على أن لا يعودا «وأصلحا» العمل الدال على صدق التوبة «فأعرضوا عنهما» أي: عن آذاهما «إن الله كان

تواباً رحيماً» أي: كثير التوبة على المذنبين الخطائين، عظيم الرحمة والإحسان، الذي - من إحسانه - وفقهم للتوبة وقبلها منهم، وسامحهم عن ما صدر منهم.

ويؤخذ من هاتين الآيتين أن بينة الزنا، لا بد أن تكون أربعة رجال مؤمنين، ومن باب أولى وأحرى اشتراط عدالتهم؛ لأن الله تعالى شدد في أمر هذه الفاحشة، سترأ لعباده، حتى إنه لا يقبل فيها النساء مفردات، ولا مع الرجال، ولا ما دون أربعة.

ولا بد من التصريح بالشهادة، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة، وتوسىء إلى هذه الآية لما قال: «فاستشهدوا عليهن أربعة منكم». لم يكتف بذلك حتى قال: «فإن شهدوا» أي: لا بد من شهادة صريحة عن أمر يشاهد عياناً، من غير تعريض ولا كناية.

ويؤخذ منهما أن الأذية بالقول والفعل والحبس، قد شرع الله تعزيراً لجنس المعصية الذي يحصل به الزجر.

### ﴿١٧ - ١٨﴾ «إنما التوبة على الله

للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً \* وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك اعتدنا لهم عذاباً أليماً» توبة الله على عباده نوعان: توفيق منه للتوبة، وقبول لها بعد وجودها من العبد، فأخبر هنا - أن التوبة المستحقة على الله حق أحقه على نفسه، كراماً منه وجوداً، لمن عمل السوء، أي: المعاصي «بجهالة» أي: جهالة منه بعاقبتها، وإيجابها لسخط الله وعقابه، وجهل منه بنظر الله ومراقبته له، وجهل منه بما تزول إليه من نقص الإيمان أو إعدامه، فكل عاص لله، فهو جاهل بهذا الاعتبار، وإن كان عالماً بالتحريم. بل العلم بالتحريم شرط لكونها معصية معاقب عليها. «ثم يتوبون من قريب» بمحتمل أن يكون المعنى: ثم

ختم الآية الأولى بقوله: ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾.

فمن علمه أنه يعلم صادق التوبة وكاذبها، فيجازي كلاهما بحسب ما يستحق بحكمته، ومن حكمته أن يوفق للتوبة، ويخذل من اقتضت حكمته وعدله عدم توقيفه. والله أعلم.

﴿١٩ - ٢١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تمضوهن لشهوهوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾ \* وإن أردتم استبدال زوج

يتوبون قبل معاينة الموت، فإن الله يقبل توبة العبد إذا تاب قبل معاينة الموت والعذاب قطعاً. وأما بعد حضور الموت، فلا يقبل من العاصين توبة، ولا من الكفار رجوع، كما قال تعالى عن فرعون: ﴿حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده، وكفرنا بما كنا به مشركين. فلم يك ينفهم إيمانهم، لما رأوا بأسنا، سنة الله التي قد خلت في عباده﴾.

وقال هنا: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات﴾ أي: المعاصي فيما دون الكفر.

﴿حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن، ولا الذين يموتون وهم كفار، أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾ وذلك أن التوبة في هذه الحال توبة اضطرار لا تنفع صاحبها، إنما تنفع توبة الاختيار. ويحتمل<sup>(١)</sup> أن يكون معنى قوله: «من قريب» أي: قريب من فعلهم للذنب الموجب للتوبة، فيكون المعنى: أن من يادر إلى الإقلاع من حين صدور الذنب، وأتاب إلى الله وندم عليه فإن الله يتوب عليه، بخلاف من استمر على ذنوبه<sup>(٢)</sup>، وأصر على عيوبه، حتى صارت فيه صفات راسخة، فإنه يعسر عليه إيجاد التوبة التامة.

والغالب أنه لا يوفق للتوبة، ولا ييسر لأسبابها، كالذي يعمل السوء على علم تام<sup>(٣)</sup> ويقين، وتهاون<sup>(٤)</sup> بنظر الله إليه، فإنه سد<sup>(٥)</sup> على نفسه باب الرحمة.

نعم قد يوفق الله عبده المصر على الذنوب عن عمد ويقين لتوبة<sup>(٦)</sup> تامة<sup>(٧)</sup>، [التي] يمحوها ما سلف من سيئاته، وما تقدم من جنائياته، ولكن الرحمة والتوفيق للأول أقرب، ولهذا

وهذا يشمل المعاشرة القولية والفعلية، فعلى الزوج أن يعاشر زوجته بالمعروف، من الصحة الجميلة، وكف الأذى، وبذل الإحسان، وحسن المعاملة، ويدخل في ذلك النفقة والكسوة ونحوهما، فيجب على الزوج لزوجه المعروف من مثله لمثلها في ذلك الزمان والمكان، وهذا يتفاوت بتفاوت الأحوال.

﴿فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾ أي: ينبغي لكم - أيها الأزواج - أن تمسكوا بزوجاتكم مع الكراهة لهن، فإن في ذلك خيراً كثيراً. من ذلك امتثال أمر الله، وقبول وصيته التي فيها سعادة الدنيا والآخرة.

ومنها أن إجباره نفسه - مع عدم محبة لها - فيه مجاهدة النفس، والتخلق بالأخلاق الجميلة. وربما أن الكراهة تزول وتخلفها المحبة، كما هو الواقع في ذلك. وربما رزق منها ولداً صالحاً، نفع والديه في الدنيا والآخرة. وهذا كله مع الإمكان في الإمساك وعدم المحذور.

فإن كان لا بد من الفراق، وليس ثم قال: ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾

ثم قال: ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾

قوله ﴿عاشروهن بالمعروف﴾ هذا ما عدا ما ذكرنا من قوله ﴿عاشروهن بالمعروف﴾. ﴿عاشروهن بالمعروف﴾ أي: يعاشروهن بما يحبون من المعروف، وما يكرهون من المنكر، وما يوجب لهم الخير، وما يوجب لهم الشر. ﴿عاشروهن بالمعروف﴾ أي: يعاشروهن بما يحبون من المعروف، وما يكرهون من المنكر، وما يوجب لهم الخير، وما يوجب لهم الشر. ﴿عاشروهن بالمعروف﴾ أي: يعاشروهن بما يحبون من المعروف، وما يكرهون من المنكر، وما يوجب لهم الخير، وما يوجب لهم الشر.

وهذا يشمل المعاشرة القولية والفعلية، فعلى الزوج أن يعاشر زوجته بالمعروف، من الصحة الجميلة، وكف الأذى، وبذل الإحسان، وحسن المعاملة، ويدخل في ذلك النفقة والكسوة ونحوهما، فيجب على الزوج لزوجه المعروف من مثله لمثلها في ذلك الزمان والمكان، وهذا يتفاوت بتفاوت الأحوال.

﴿فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾ أي: ينبغي لكم - أيها الأزواج - أن تمسكوا بزوجاتكم مع الكراهة لهن، فإن في ذلك خيراً كثيراً. من ذلك امتثال أمر الله، وقبول وصيته التي فيها سعادة الدنيا والآخرة.

ومنها أن إجباره نفسه - مع عدم محبة لها - فيه مجاهدة النفس، والتخلق بالأخلاق الجميلة. وربما أن الكراهة تزول وتخلفها المحبة، كما هو الواقع في ذلك. وربما رزق منها ولداً صالحاً، نفع والديه في الدنيا والآخرة. وهذا كله مع الإمكان في الإمساك وعدم المحذور.

فإن كان لا بد من الفراق، وليس

(٥) في ب: يسد.

(٦) في ب: للتوبة.

(٧) في ب: النافعة.

(٢) في ب: ذنوبه.

(٣) في ب: قائم.

(٤) في ب: متهاون.

(١) في هامش أ [ويؤيد هذا الاحتمال

أن الله قال: ﴿إنما التوبة على الله﴾

الحاضرة ولم يقل: إنما يتوب الله،



الغالب، لا مفهوم له، فإن الربيبة تحرم ولو لم تكن في حجره، ولكن للتقييد بذلك فائدتان:

إحداها: فيه التنبيه على الحكمة في تحريم الربيبة، وأنها كانت بمنزلة البنت فمن المستقيم إياحتها.

والثانية: فيه دلالة على جواز الخلوة بالربيبة، وأنها بمنزلة من هي في حجره من بناته ونحوهن. والله أعلم.

وأما المحرمات بالجمع، فقد ذكر الله الجمع بين الأختين وحرمته. وحرم النبي ﷺ الجمع بين المرأة وعمتها، أو خالتها، فكل امرأتين بينهما رحم محرم، لو قدر إحداها ذكراً والأخرى أنثى، حرمت عليه، فإنه يحرم الجمع بينهما، وذلك لما في ذلك من أسباب التقاطع بين الأرحام.

ومن المحرمات في النكاح المحصنات من النساء. أي: ذوات الأزواج. فإنه يحرم نكاحهن ما دمن في ذمة الزوج، حتى تطلق وتنقضي عندها. **﴿إلا ما ملكت أيمانكم﴾** أي: بالسبي، فإذا سببت الكافرة ذات الزوج حلت للمسلمين، بعد أن تستبرأ. وأما إذا بيعت الأمة المزوجة أو وهبت، فإنه لا يفسخ نكاحها لأن المالك الثاني نزل منزلة الأول، ولقصة بريدة حين خبزها النبي ﷺ.

وقوله: **﴿كتاب الله عليكم﴾** أي: الزموه واهتدوا به، فإن فيه الشفاء والنور، وفيه تفصيل الحلال من الحرام.

ودخل في قوله: **﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾** كل ما لم يذكر في هذه الآية، فإنه حلال طيب. فالحرام محصور، والحلال ليس له حد ولا حصر، لطفاً من الله ورحمة، وتيسيراً للعباد.

وقوله: **﴿أن تبغوا بأموالكم﴾** أي: تطلبوا من وقع عليه نظركم واختياركم، من اللاتي أباحهن الله لكم حالة كونكم **﴿محصنين﴾** أي: مستعفين عن الزنا، ومعفين نساءكم.

**﴿غير مسافحين﴾** والسفح: سفح الماء في الحلال والحرام، فإن الفاعل لذلك لا يحصن زوجته، لكونه وضع شهرته في الحرام، فتضعف داعيته للحلال، فلا يبقى محصناً لزوجته. وفيها دلالة على أنه لا يزوج غير العفيف، لقوله تعالى: **﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة، والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك﴾**.

**﴿نما استمتعن به منهن﴾** أي: ممن تزوجتموها **﴿فأتوهن أجورهن﴾** أي: الأجور في مقابلة الاستمتاع. ولهذا إذا دخل الزوج بزوجه تقرر عليه صداقها، **﴿فريضة﴾** أي: إتيانكم إياهن أجورهن، فرض فرضه الله عليكم، ليس بمنزلة التبرع الذي إن شاء أمضاه وإن شاء رده. أو معنى قوله فريضة: أي: مقدرة قد قدرتموها، فوجبت عليكم، فلا تنقصوا منها شيئاً.

**﴿ولا جناح عليكم فيما تراضيتن به من بعد الفريضة﴾** أي: بزيادة من الزوج، أو إسقاط من الزوجة عن رضا وطيب نفس [هذا قول كثير من المفسرين، وقال كثير منهم: إنها نزلت في متعة النساء التي كانت حلالاً في أول الإسلام، ثم حرمها النبي ﷺ، وأنه يזمر بتوقفتها، وأجرها، ثم إذا انقضى الأمد الذي بينهما فتراضيا بعد الفريضة فلا حرج عليهما، والله أعلم<sup>(١)</sup>.

**﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾** أي: كامل العلم واسع، كامل الحكمة. فمن علمه وحكمته شرع لكم هذه الشرائع، وحد لكم هذه الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام.

**﴿٢٥﴾** ثم قال تعالى: **﴿ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات**

أخذان فإذا أحصن فإن أتين بقاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم﴾ أي: ومن لم يستطع الطول الذي هو المهر لنكاح المحصنات، أي: الخرائر المؤمنات، وخاف على نفسه العنت، أي: الزنا أو المشقة الكثيرة، فيجوز له نكاح الإماء المملوكات المؤمنات. وهذا بحسب ما يظهر، وإلا فإله أعلم بالمؤمن الصادق من غيره، فأمر الدنيا مبنية على ظواهر الأمور، وأحكام الآخرة مبنية على ما في البواطن.

**﴿فانكحوهن﴾** أي: المملوكات **﴿بإذن أهلهن﴾** أي: سيدهن، واحداً، أو متعدداً.

**﴿وآتوهن أجورهن بالمعروف﴾** أي: ولو كن إماء، فإنه كما يجب المهر للحر، فكذلك يجب للأمة. ولكن لا يجوز نكاح الإماء إلا إذا كن **﴿محصنات﴾** أي: عفيفات عن الزنا **﴿غير مسافحات﴾** أي: زانيات علانية **﴿ولا متخذات أخذان﴾** أي: أخلاء في السر.

فالحاصل أنه لا يجوز للحر المسلم نكاح أمة، إلا بأربعة شروط ذكرها الله: الإيمان بهن، والعفة ظاهراً وباطناً، وعدم استطاعة طول الحر، وخوف العنت، فإذا تمت هذه الشروط جاز له نكاحهن.

ومع هذا فالصبر عن نكاحهن أفضل، لما فيه من تعريض الأولاد للرق، ولما فيه من الدناءة والعيب. وهذا إذا أمكن الصبر، فإن لم يمكن الصبر عن المحرم إلا بنكاحهن وجب ذلك. ولهذا قال: **﴿وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم﴾**

وقوله: **﴿فإذا أحصن﴾** أي: تزوجن أو أسلمن، أي: الإماء **﴿فعليهن نصف ما على المحصنات﴾** أي: الخرائر **﴿من العذاب﴾** وذلك الذي يمكن تصفيفه، وهو

وإحسانه الشامل، وعلمه وحكمته يضعف الإنسان من جميع الوجوه، ضعف البنية، وضعف الإرادة وضعف العزيمة، وضعف الإيمان، وضعف الصبر، فناسب ذلك، أن يخفف الله عنه، ما يضعف عنه وما لا يطيقه إيمانه وصبره وقوته.

﴿٢٩٩ - ٣٠﴾ «يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً» يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً وكان ذلك على الله يسيراً» ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل، وهذا يشمل أكلها بالفصوب والسرقات، وأخذها بالقمار والمكاسب الرديئة. بل لعله يدخل في ذلك أكل مال نفسك على وجه البطر والإسراف، لأن هذا من الباطل وليس من الحق.

ثم إنه - لا حرام أكلها بالباطل - أباح لهم أكلها بالتجارات والمكاسب الخالية من الموانع، المشتملة على الشروط من التراضي وغيره.

﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ أي: لا يقتل بعضهم بعضاً، ولا يقتل الإنسان نفسه. ويدخل في ذلك الإلقاء بالنفس إلى التهلكة، وفعل الأخطار المفضية إلى التلف والهلاك. ﴿إن الله كان بكم رحيماً﴾ ومن رحمته، أن صان نفوسكم وأموالكم، وهاكم عن إضاعته وإتلافها، ورتب على ذلك ما رتبته من الحدود.

وتأمل هذا الإيجاز والجمع في قوله: ﴿لا تأكلوا أموالكم﴾ ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ كيف شمل أموال غيرك ومال نفسك، وقتل نفسك وقتل غيرك، بعبارة أخصر من قوله: ﴿لا يأكل بعضهم مال بعض﴾ ولا يقتل بعضهم بعضاً مع قصور هذه العبارة على مال الغير، ونفس الغير فقط.

مع أن إضافة الأموال والأنفس إلى

بسبب ما يسر الله عليكم، فهذا من توبته على عباده.

ومن توبته عليهم أنهم إذا أذنبوا فتح لهم أبواب الرحمة، وأوزع قلوبهم الإنابة إليه، والتذلل بين يديه، ثم يتوب عليهم بقبول ما وفقهم له. فله الحمد والشكر على ذلك.

وقوله: ﴿والله عليم حكيم﴾ أي: كامل الحكمة، فمن علمه أن علمكم ما لم تكونوا تعلمون، ومنها هذه الأشياء والحدود. ومن حكمته أنه يتوب على من اقتضت حكمته ورحمته التوبة عليه، ويخذل من اقتضت حكمته وعدله من لا يصلح للتوبة.

وقوله: ﴿والله يريد أن يشوب عليكم﴾ أي: توبة تلم شعثكم، وتجمع متفرقكم، وتقرب بعيدكم.

﴿ويريد الذين يشمون الشهوات﴾ أي: يميلون معها حيث مالت، ويقدمونها على ما فيه رضا محبوبهم، ويعبدون أهواءهم، من أصناف الكفرة والعاصين، المقدمين لأهوانهم على طاعة ربهم، فهؤلاء يريدون «أن يميلوا ميلاً عظيماً» أي: [أن] تنحرفوا عن الصراط المستقيم، إلى صراط الم غضوب عليهم والضالين.

يريدون أن يصرفوكم عن طاعة الرحمن إلى طاعة الشيطان، وعن التزام حدود من السعادة كلها في امتثال أوامره، إلى من الشقاوة كلها في اتباعه. فإذا عرفتم أن الله تعالى يأمركم بما فيه صلاحكم وفلاحكم وسعادتكم، وأن هؤلاء المشبعين لشهواتهم يأمرونكم بما فيه غاية الخسار والشقاء، فاختراروا لأنفسكم أولى الداعين، ونحروا أحسن الطريقتين.

﴿يريد الله أن يخفف عنكم﴾ أي: بسهولة ما أمركم به و [ما] نهاكم عنه، ثم مع حصول المشقة في بعض الشرائع، أباح لكم ما تقتضيه حاجتكم، كالميتة والدم ونحوهما للمضطر، وكتزوج الأمة للحر بتلك الشروط السابقة. وذلك لرحمته التامة

الجلد، فيكون عليهن خمسون جلدة. وأما الرجم فليس على الإماء رجم، لأنه لا يتنصف، فعلى القول الأول إذا لم يتزوجن فليس عليهن حد، إنما عليهن تعزير يردعهن عن فعل الفاحشة.

وعلى القول الثاني: إن الإماء غير المسلمات، إذا فعلن فاحشة أيضاً عزرن.

وختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين «الغفور والرحيم» لكون هذه الأحكام رحمة بالعباد، وكرماً وإحساناً إليهم، فلم يضيق عليهم، بل وسع غاية السعة.

ولعل في ذكر المغفرة بعد ذكر الحد إشارة إلى أن الحدود كفارات، يغفر الله بها ذنوب عباده، كما ورد بذلك الحديث. وحكم العبد الذكر في الحد المذكور حكم الأمة لعدم الفارق بينهما.

﴿٢٦ - ٢٨﴾ ﴿يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم﴾ \* والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً \* يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً \* يخبر تعالى بمنته العظيمة، ومنحته الجسيمة، وحسن تربيته لعباده المؤمنين، وسهولة دينه، فقال: ﴿يريد الله ليبين لكم﴾ أي: جميع ما تحتاجون إلى بيانه من الحق والباطل، والحلال والحرام، ﴿ويريدكم سنن الذين من قبلكم﴾ أي: الذين أنعم الله عليهم من النبيين وأتباعهم، في سيرهم الحميدة، وأفعالهم السديدة، وشمائلهم الكاملة، وتوفيقهم التام. فلذلك نفذ ما أراه، ووضح لكم، وبين بياناً ما بيّن لمن قبلكم، وهداكم هداية عظيمة في العلم والعمل.

﴿ويتوب عليكم﴾ أي: يلطف بكم في أحوالكم وما شرعه لكم، حتى تمكنوا<sup>(١)</sup> من الوقوف على ما حده الله، والاكتفاء بما أحله، فتقل ذنوبكم







### ٣٤٤ ﴿الرجال قوامون على

النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيراً يخبر تعالى ﴿أن الرجال قوامون على النساء﴾ ، أي : قوامون عليهن بالزمان بحقوق الله تعالى، من المحافظة على فرائضه، وكفهن عن المناسد، والرجال عليهم أن يلزموهن بذلك، وقوامون عليهن أيضاً بالإنفاق عليهن، والكسوة والسكن، ثم ذكر السبب الموجب لقيام الرجال على النساء، فقال : ﴿بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾ أي : بسبب فضل الرجال على النساء، وإفضالهم عليهن، فتفضيل الرجال على النساء من وجوه متعددة : من كون الولايات مختصة بالرجال، والنبوة، والرسالة، واختصاصهم بكثير من العبادات كالجهاد والأعياد والجمع . وبما خصهم الله به من العقل والرزانة والصبر والجلد الذي ليس للنساء مثله . وكذلك خصهم بالنفقات على الزوجات، بل وكثير من النفقات

يختص بها الرجال، ويتميزون عن النساء .

ولعل هذا سر قوله : ﴿بما أنفقوا﴾ وحذف المفعول، ليدل على عموم النفقة . فعلم من هذا كله أن الرجل كالوالي والسيد لامرأته، وهي عنده عانية أسيرة خادمة، فوظيفته أن يقوم بما استرعاه الله به .

ووظيفتها : القيام بطاعة ربها، وطاعة زوجها، فلهاذا قال : ﴿فالصالحات قانتات﴾ أي : مطيعات لله تعالى ﴿حافظات للغيب﴾ أي : مطيعات لأزواجهن حتى في الغيب، تحفظ بعلمها بنفسها وماله، وذلك بحفظ الله لهن، وتوفيقه لهن، لا من أنفسهن، فإن النفس إشارة بالسوء، ولكن من توكل على الله، كفا ما أمهه من أمر دينه ودنياه .

ثم قال : ﴿واللاتي تخافون نشوزهن﴾ أي : ارتفاعهن عن طاعة أزواجهن، فإنه يؤديها بالأسهل فالأسهل، ﴿فعظوهن﴾ أي : ببيان حكم الله في طاعة الزوج ومعصيته، والترغيب في الطاعة، والترهيب من معصيته، فإن انتهت فذلك المطلوب، وإلا فيهجرها الزوج في المضجع، بأن لا يضاجعها، ولا يجامعها بمقدار ما يحصل به المقصود، وإلا ضربها ضرباً غير مبرح، فإن حصل المقصود بواحد من هذه الأمور وأطعنكم ﴿فلا تبغوا عليهن سبيلاً﴾ أي : فقد حصل لكم ما تحبون، فاتركوا معاتبتها على الأمور الماضية، والتنقيب عن العيوب التي يضر ذكرها، ويحدث بسببه الشر .

﴿إن الله كان علياً كبيراً﴾ أي : له العلو المطلق، بسبب الوجوه والاعتبارات، علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر، الكبير الذي لا أكبر منه ولا أجل ولا أعظم، كبير الذات والصفات .

﴿٣٥﴾ ﴿وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من

أهلها إن يزيد إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً﴾ أي : وإن خفتم الشقاق بين الزوجين، والمباعدة والمجانبة، حتى يكون كل منهما في شق، ﴿فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها﴾ أي : رجلين مكلفين، مسلمين عدلين عاقلين، يعرفان ما بين الزوجين، ويعرفان الجمع والتفريق .

وهذا مستفاد من لفظ «الحكم» لأنه لا يصلح حكماً، إلا من اتصف بتلك الصفات . فينظران ما ينتم كل منهما على صاحبه، ثم يلزمان كلا منهما ما يجب، فإن لم يستطع أحدهما ذلك، فثق الزوج الآخر بالرضا بما تسر من الرزق والخلق، ومهما أمكنهما الجمع والإصلاح فلا يعدلا عنه .

فإن وصلت الحال إلى أنه لا يمكن اجتماعهما وإصلاحهما، إلا على وجه المادة والمقاطعة، ومعصية الله، ورأياً أن التفريق بينهما أصلح، فرقا بينهما . ولا يشترط رضا الزوج، كما يدل عليه، أن الله سماها حكمتين، والحكم يحكم، ولو<sup>(١)</sup> لم يرض المحكوم عليه، ولهذا قال : ﴿إن يريدوا إصلاً يوفق الله بينهما﴾ أي : بسبب الرأي : اليمين والكلام الذي يهدب القلوب، ويؤلف بين القريتين .

﴿إن الله كان عليماً خبيراً﴾ أي : عالماً بجمع الظواهر والبواطن، مطلعاً على خفايا الأمور وأسرارها . فمن علمه وخبره أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة، والشرائع الجميلة .

﴿٣٦ - ٣٨﴾ ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار بالجنب وابن السبيل وما ملكت يمينكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً﴾ الذين يسخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعدتنا للكافرين عذاباً مهيناً \* والذين ينفقون أموالهم رثاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر

قال: ﴿إن الله لا يحب من كان مختالاً﴾ أي: معجباً بنفسه، متكبراً على الخلق. ﴿فخوراً﴾ يثني على نفسه ويمدحها، على وجه الفخر والبطر على عباد الله. فهؤلاء ما بهم من الاختيال والفخر، يمنعمهم من القيام بالحقوق. ولهذا ذمهم بذلك، بقوله: ﴿الذين يبخلون﴾ أي: يمنعون ما عليهم من الحقوق الواجبة، ﴿ويأمرون الناس بالبخل﴾ بأقوالهم وأفعالهم، ﴿ويكتمون ما آتاهم الله من فضله﴾ أي: من العلم الذي يهدي به الضالون ويسترشد به الجاهلون، فيكتمونه عنهم، ويظهرون لهم من الباطل ما يحول بينهم وبين الحق. فجمعوا بين البخل بالمال، والبخل بالعلم، وبين السعي في خسارة أنفسهم وخسارة غيرهم، وهذه هي صفات الكافرين، فلماذا قال تعالى: ﴿وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾ أي: كما تكبروا على عباد الله، ومنعوا حقوقه وتسبوا في منع غيرهم، من البخل وعدم الاهتداء، أهانهم بالعذاب الأليم، والحزني الدائم. فعياًذاً بك اللهم من كل سوء.

ثم أخبر عن النفقة الصادرة، عن رياء وسمعة، وعدم إيمان به، فقال: ﴿والذين ينفقون أموالهم رياء الناس﴾ أي: ليروهم ويمدحوهم، ويعظموهم، ﴿ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ أي: ليس إنفاقهم صادراً عن إخلاص وإيمان بالله، ورجاء ثوابه. أي: فهذا من خطوات الشيطان وأعماله التي يدعو حزبه إليها، ليكونوا من أصحاب السعير. وصدرت منهم بسبب مقارنته لهم وأزهم إليها، فلماذا قال: ﴿ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً﴾ أي: يشس المقارن والصاحب الذي يريد إهلاك من قارنه، ويسعى فيه أشد السعي.

فكما أن من بخل بما آتاه الله،

خلتهم، وبدفع فاقتهم، والحض على ذلك، والقيام بما يمكن منه.

﴿والجار ذي القربى﴾ أي: الجار القريب الذي له حقان، حق الجوار وحق القرابة، فله على جاره حق وإحسان راجع إلى العرف. وكذلك ﴿الجار الجنب﴾ أي: الذي ليس له قرابة. وكلما كان الجار أقرب باباً، كان أكد حقاً، فينبغي للجار أن يتعاهد جاره بالهدية والصدقة، والدعوة، واللطفة بالأقوال والأفعال، وعدم أذيته بقول أو فعل.

﴿والصاحب بالجنب﴾ قيل: الرفيق بالسفر، وقيل: الزوجة، وقيل: الصاحب مطلقاً، ولعله أولى، فإنه يشمل الصاحب في الحضر والسفر، ويشمل الزوجة.

فعل الصاحب لصاحبه، حق زائد على مجرد إسلامه، من مساعدته على أمور دينه ودينه، والنصح له؛ والوفاء معه في اليسر والعسر، والنشاط والمكره، وأن يحب له ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، وكلما زادت الصحة تأكد الحق وزاد.

﴿وابن السبيل﴾ وهو: الغريب الذي احتاج في بلد الغربة أو لم يحتج، فله حق على المسلمين لشدة حاجته، وكونه في غير وطنه، بتبليغه إلى مقصوده، أو بعض مقصوده [وبإكرامه وتأيينه]<sup>(٢)</sup>.

﴿وما ملكت أيمانكم﴾ أي: من الأدمين والبهائم، بالقيام بكفائتهم وعدم تحميلهم ما يشق عليهم وإعانتهم على ما يتحملون، وتأديبهم لما فيه مصلحتهم. فمن قام بهذه الأمور فهو الخاضع لربه، المتواضع لعباد الله، المتقاد لأمر الله وشرعه، الذي يستحق الثواب الجزيل والثناء الجميل، ومن لم يقم بذلك فإنه عبد معرض عن ربه، غير منقاد لأوامره، ولا متواضع للخلق، بل هو متكبر على عباد الله، معجب بنفسه، فخور بقوله، ولهذا

ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً﴾ يأمر تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له، وهو الدخول تحت رق عبوديته، والانقياد لأوامره ونواهي، محبة وذلاً وإخلاصاً له، في جميع العبادات الظاهرة والباطنة.

وينهى عن الشرك به شيئاً، لا شركاً أصغر ولا أكبر، لا ملكاً ولا نبياً ولا ولياً ولا غيرهم من المخلوقين، الذين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، بل الواجب التحعين إخلاص العبادة لمن له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وله التدبير الكامل الذي لا يشركه ولا يعينه عليه أحد. ثم بعد ما أمر بعبادته والقيام بحقه، أمر بالقيام بحقوق العباد، الأقرب فالأقرب. فقال: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي: أحسنوا إليهم بالقول الكريم، والخطاب اللطيف والفعل الجميل، بطاعة أمرهما، واجتناب تنههما، والإنفاق عليهما، وإكرام من له تعلق بهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا بهما. وللإحسان ضدان، الإساءة، وعدم الإحسان. وكلاهما منهي عنه.

﴿وبذي القربى﴾ أيضاً إحساناً، ويشمل ذلك جميع الأقارب، قربوا أو بعدوا، بأن يحسن إليهم بالقول والفعل، وأن لا يقطع برحمه بقوله أو فعله.

﴿واليتامى﴾ أي: الذين فقدوا آباءهم<sup>(١)</sup> وهم صغار، فلهم حق على المسلمين، سواء كانوا أقارب أو غيرهم، بكفالتهم، وبرهم، وجبر خواطرهم، وتأديبهم، وتربيتهم أحسن تربية، في مصالح دينهم ودينهم.

﴿والمساكين﴾ وهم الذين أسكتهم الحاجة والفقر، فلم يحصلوا على كفايتهم، ولا كفاية من يمولون. فأمر الله تعالى بالإحسان إليهم، بسد

(١) كذا في ب، وفي أ: الذين فقد آباؤهم.

(٢) زيادة من هامش ب.

وكنتم ما منَّ به الله عليه عاصي آثم يخالف لربه، فكذلك من أنفق وتعبَّد لغير الله، فإنه آثم عاصي لربه، مستوجب للعقوبة، لأن الله إنما أمر بطاعته وامتنال أمره، على وجه الإخلاص، كما قال تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ فهذا العمل المقبول الذي يستحق صاحبه المدح والثواب، فلماذا حث تعالى عليه بقوله:

﴿٢٩٩﴾ ﴿وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليماً﴾ أي: أي شيء عليهم، وأي: حرج ومشقة تلحقهم، لو حصل منهم الإيمان بالله، الذي هو الإخلاص، وأنفقوا من أموالهم التي رزقهم الله وأنعم بها عليهم، فجمعوا بين الإخلاص والإنفاق، ولما كان الإخلاص سرّاً بين العبد وبين ربه، لا يطلع عليه إلا الله، أخبر تعالى بعلمه بجميع الأحوال فقال:

﴿٤٠ - ٤٢﴾ ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً \* يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتبون الله حديثاً﴾ يخبر تعالى عن كمال عدله وفضله، وتنزهه عما يضاد ذلك من الظلم القليل والكثير، فقال: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ أي: ينقصها من حسنات عبده، أو يزيداها في سيئاته، كما قال تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾.

﴿وإن تك حسنة يضاعفها﴾ أي: إلى عشرة أمثالها، إلى أكثر من ذلك، بحسب حالها ونفعها، وحال صاحبها، إخلاصاً ومحبة وكمالاً.

﴿ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾ أي: زيادة على ثواب العمل بنفسه، من التوفيق لأعمال آخر، وإعطاء البر الكثير والخير الغزير.

ثم قال تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من

كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ أي: كيف تكون تلك الأحوال، وكيف يكون ذلك الحكم العظيم، الذي جمع أن من حكم به كامل العلم، كامل العدل، كامل الحكمة، بشهادة أركى الخلق، وهم الرسل على أممهم، مع إقرار المحكوم عليه؟! فهذا - والله - الحكم الذي هو أعم الأحكام وأعدلها وأعظمها.

وهناك يبقى المحكوم عليهم مقربين له لكمال الفضل والعدل، والحمد والشأن. وهناك يسعد أقوام بالفوز والفلاح والعز والنجاح. ويشقى أقوام بالخزي والفضيحة والعذاب المهين.

ولهذا قال: ﴿يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول﴾ أي: جمعوا بين الكفر بالله وبرسوله، ومعصية الرسول ﴿لو تسوى بهم الأرض﴾ أي: تتلعمهم ويكونون تراباً وعدماً، كما قال تعالى: ﴿ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾.

﴿ولا يكتبون الله حديثاً﴾ أي: بل يقررون له بما عملوا، وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. يومئذ يوفيهم الله جزاءهم الحق، ويعلمون أن الله هو الحق المبين.

فأما ما ورد من أن الكفار يكتبون كفرهم وجحودهم، فإن ذلك يكون في بعض مواضع القيامة، حين يظنون أن جحودهم مغن عنهم من عذاب الله، فإذا عرفوا الحقائق، وشهدت عليهم جوارحهم، حينئذ ينجلي الأمر، ولا يبقى للكتمان موضع، ولا نفع ولا فائدة.

﴿٤٣﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفواً غفوراً﴾ ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يقربوا الصلاة وهم سكارى، حتى يعلموا ما

يقولون، وهذا شامل لقربان مواضع الصلاة كالمسجد، فإنه لا يمكن السكران من دخوله. وشامل لنفس الصلاة، فإنه لا يجوز للسكران صلاة ولا عبادة، لاختلاط عقله، وعدم علمه بما يقول، ولهذا حذت تعالى ذلك وغيته إلى وجود العلم، بما يقول السكران. وهذه الآية الكريمة منسوخة بتحريم الخمر مطلقاً، فإن الخمر - في أول الأمر - كان غير محرم، ثم إن الله تعالى عرض لعباده بتحريمه، بقوله: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيها إثم كبير ومنافع للناس، وإثمها أكبر من نفعها﴾.

ثم إنه تعالى نهاهم عن الخمر عند حضور الصلاة، كما في هذه الآية، ثم إنه تعالى حرمه على الإطلاق في جميع الأوقات في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه﴾ الآية.

ومع هذا فإنه يشتد تحريمه وقت حضور الصلاة، لتضمنه هذه المفسدة العظيمة، بعد حصول مقصود الصلاة الذي هو روحها ولبها، وهو الخشوع وحضور القلب، فإن الخمر يسكر القلب، ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة، ويؤخذ من المعنى منع الدخول في الصلاة في حال النعاس المفرط، الذي لا يشعر صاحبه بما يقول ويفعل، بل لعل فيه إشارة إلى أنه ينبغي لمن أراد الصلاة أن يقطع عنه كل شاغل يشغل فكره، كمدافعة الأخبثين، والتوقى لطعام ونحوه، كما ورد في ذلك الحديث الصحيح.

ثم قال: ﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل﴾ أي: لا تقربوا الصلاة حالة كون أحدكم جنباً، إلا في هذه الحال، وهو عابر السبيل، أي: تمررون في المسجد ولا تمسكون فيه، ﴿حتى تغسلوا﴾ أي: فإذا اغتسلتم، فهو غاية المنع من قربان الصلاة للجنب، فيحل للجنب المرور في المسجد فقط.

﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم

النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا ﴿ فأباح التيمم للمريض مطلقاً مع وجود الماء وعدمه، والعللة المرض الذي يشق معه استعمال الماء، وكذلك السفر فإنه مظنة فقد الماء، فإذا فقدته المسافر أو وجد ما يتعلق بحاجة من شرب ونحوه، جاز له التيمم.

وكذلك إذا أحدث الإنسان ببول أو غائط أو ملامسة النساء، فإنه يُباح له التيمم إذا لم يجد الماء، حضراً وسفراً، كما يدل على ذلك عموم الآية. والحاصل: أن الله تعالى أباح التيمم في حالتين:

حالة عدم الماء، وهذا مطلقاً في الحضرة والسفر. وحال المشقة باستعماله بمرض ونحوه.

واختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿أو لامستم النساء﴾ هل المراد بذلك الجماع، فتكون الآية نصاً في جواز التيمم للجنب، كما تكاثرت بذلك الأحاديث الصحيحة؟ أو المراد بذلك مجرد اللمس باليد، ويقيد ذلك بما إذا كان مظنة خروج المذي، وهو المس الذي يكون لشهوة، فتكون الآية دالة على نقض الوضوء بذلك؟

واستدل الفقهاء بقوله: ﴿فلم تجدوا ماء﴾ بوجود طلب الماء عند دخول الوقت، قالوا: لأنه لا يقال: ﴿لم يجد﴾ لمن لم يطلب، بل لا يكون ذلك إلا بعد الطلب، واستدل بذلك أيضاً على أن الماء المتغير بشيء من الطاهرات يجوز بل يتعمن التطهر به لدخوله في قوله: ﴿فلم تجدوا ماء﴾ وهذا ماء. ونوزع في ذلك بأنه ماء غير مطلق، وفي ذلك نظر.

وفي هذه الآية الكريمة مشروعية هذا الحكم العظيم الذي امتن به الله على هذه الأمة، وهو مشروعية التيمم، وقد أجمع على ذلك العلماء والله الحمد، وأن التيمم يكون بالصعيد الطيب، وهو كل ما تصاعد على وجه الأرض، سواء كان له غبار أم لا، ويحتمل أن يختص ذلك بذبي الغبار، لأن الله قال: ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾ وما لا غبار له لا يمسح به.

وقوله: ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم﴾ هذا عمل المسح في التيمم: الوجه جميعه، واليدان إلى الكوعين، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة، ويستحب أن يكون ذلك بوضوء واحدة، كما دل على ذلك حديث عمار، وفيه أن تيمم الجنب كتيمم غيره، بالوجه واليدين.

**قاعدة**

اعلم أن قواعد الطب تدور على ثلاث قواعد: حفظ الصحة عن المؤذيات، والاستفراغ منها، والحمية عنها. وقد نبه تعالى عليها في كتابه العزيز.

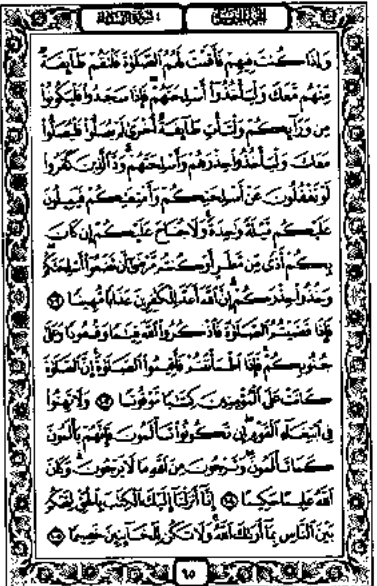
أما حفظ الصحة والحمية عن المؤذي، فقد أمر بالأكل والشرب وعدم الإسراف في ذلك، وأباح للمسافر والمريض الفطر، حفظاً لصحتهما، باستعمال ما يصلح البدن على وجه العدل، وحماية للمريض عما يضره.

وأما استفراغ المؤذي، فقد أباح تعالى للمحرم المتأذي برأسه أن يعلقه لإزالة الأبخرة المحتقنة فيه، ففيه تنبيه على استفراغ ما هو أولى منها، من البول والغائط والقيء والمني والدم، وغير ذلك، نبه على ذلك ابن القيم رحمه الله تعالى.

وفي الآية وجوب تعميم مسح الوجه واليدين، وأنه يجوز التيمم ولو لم يضح الوقت، وأنه لا يجاطب بطلب الماء إلا بعد وجود سبب الوجوب والله أعلم.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿إن الله كان عفواً غفوراً﴾ أي: كثير العفو والمغفرة لعباده المؤمنين، بتيسير ما أمرهم به، وتسهيله غاية التسهيل، بحيث لا يشق على العبد امتثاله، فيحرج بذلك.

ومن عفو ومغفرته أن رحم هذه الأمة بشرع طهارة التراب بدل الماء، عند تعذر استعماله. ومن عفو ومغفرته أن فتح للمذنبين باب التوبة والإنابة ودعاهم إليه، ووعدهم بمغفرة ذنوبهم. ومن عفو ومغفرته، أن المؤمن لو أتاه بقراب الأرض خطايا ثم



لقيه لا يشرك به شيئاً، لأنه بقرابها مغفرة.

﴿٤٤ - ٤٦﴾ ﴿لم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يشترتون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل \* والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً \* من الذين هادوا يعرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا لئلا يأستتھم وطعنا في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ هذا ذم لمن ﴿أتوا نصيباً من الكتاب﴾ وفي ضمنه تحذير عباده عن الاعتزاز بهم، والوقوع في أشراكهم، فأخبر أنهم، في أنفسهم ﴿يشترتون الضلالة﴾ أي: يحبونها محبة عظيمة، ويؤثرونها بإثار من يبذل المال الكثير في طلب ما يجبه، فيؤثرون الضلال على الهدى، والكفر على الإيمان، والشقاء على السعادة، ومع هذا ﴿يريدون أن تضلوا السبيل﴾.

فهم حريصون على إضلالكم غاية الحرص، باذلون جهدهم في ذلك، ولكن لما كان الله ولي عباده المؤمنين وناصرهم، بين لهم ما اشتعلوا عليه من الضلال والإضلال، ولهذا قال: ﴿وكفى بالله ولياً﴾ أي: يتولى أحوال عباده، ويلطف بهم في جميع أمورهم،



ويسر لهم ما به سعادتهم وفلاحهم. **﴿وكفى بالله نصيراً﴾** ينصرهم على أعدائهم، ويبين لهم ما يجذرون منهم ويعينهم عليهم. فولايته تعالى فيها حصول الخير، ونصره فيه زوال الشر.

ثم بين كيفية ضلالهم وعنادهم، وإيثارهم الباطل على الحق فقال: **﴿من الذين هادوا﴾** أي: اليهود، وهم علماء الضلال منهم.

**﴿يعرفون الكلم عن مواضعه﴾** إما بتغيير اللفظ أو المعنى، أو هما جميعاً. فمن تحريفهم تنزيل الصفات التي ذكرت في كتبهم، التي لا تنطبق ولا تصدق إلا على محمد ﷺ على أنه غير مراد بها، ولا مقصود بها، بل أريد بها غيره، وكتماهم ذلك.

فهذا حالهم في العلم أشر حال، قلبوا فيه الحقائق، ونزلوا الحق على الباطل، وجحدوا لذلك الحق، وأما حالهم في العمل والانقياد فإنهم **﴿يقولون سمعنا وعصينا﴾** أي: سمعنا قولك وعصينا أمرك، وهذا غاية الكفر والعناد، والشرود عن الانقياد، وكذلك يخاطبون الرسول ﷺ بأقبح خطاب وأبعده عن الأدب، فيقولون: **﴿اسمع غير مسمع﴾** قصدهم: اسمع منا غير مسمع ما تحب، بل سمع ما تكره، **﴿وراعنا﴾** قصدهم بذلك

الرعونة، بالعيب القبيح، ويظنون أن اللفظ - لما كان محتماً لغير ما أرادوا من الأمور - أنه يروج على الله وعلى رسوله، فتوصلوا بذلك اللفظ الذي يلون به السنهم إلى الطعن في الدين، والعيب للرسول، ويصرحون بذلك فيما بينهم، فلماذا قال: **﴿ليأ بالسنهم وطعنا في الدين﴾**

ثم أرشدهم إلى ما هو خير لهم من ذلك فقال: **﴿ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم﴾**. وذلك لما تضمنته هذا الكلام من حسن الخطاب والأدب اللائق في مخاطبة الرسول، والدخول تحت طاعة الله والانقياد لأمره، وحسن التلطف في طلبهم العلم، بسماع سؤالهم، والاعتناء بأمرهم، فهذا هو الذي ينبغي لهم سلوكه. ولكن لما كانت طيائهم غير زكية، أعرضوا عن ذلك، وطردهم الله، بكفرهم وعنادهم، ولهذا قال: **﴿ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾**

**﴿٤٧﴾** **﴿يا أيها الذين آمنوا﴾** الكتاب آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً، يأمر تعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى، أن يؤمنوا بالرسول محمد ﷺ وما أتى الله عليه من القرآن العظيم، المهيمن على غيره من الكتب السابقة الذي قد صدقها، فإنها أخبرت به فلما وقع المخبر به كان تصديقاً لذلك الخبر.

وأيضاً فإنهم إن لم يؤمنوا بهذا القرآن، فإنهم لم يؤمنوا بما في أيديهم من الكتب، لأن كتب الله يصدق بعضها بعضاً، ويوافق بعضها بعضاً. فدعوى الإيمان ببعضها دون بعض، دعوى باطلة، لا يمكن صدقها.

وفي قوله: **﴿آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم﴾** حث لهم، وأنهم ينبغي أن

يكونوا قبل غيرهم مبادرين إليه، بسبب ما أتم الله عليهم به من العلم، والكتاب الذي يوجب أن يكون ما عليهم أعظم من غيرهم، ولهذا توعدهم على عدم الإيمان فقال: **﴿من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها﴾** وهذا جزء من جنس ما عملوا، كما تركوا الحق، وأثروا الباطل، وقلبوا الحقائق، فجعلوا الباطل حقاً والحق باطلاً، جوزوا من جنس ذلك بطمس وجوههم كما طمسوا الحق، وردها على أدبارها، بأن تجعل في أفئدتهم، وهذا أشنع ما يكون **﴿أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت﴾** بأن يطردهم من رحمته، ويعاقبهم بجعلهم قردة، كما فعل بإخوانهم الذين اعتدوا في السبت، **﴿فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾**. وكان أمر الله مفعولاً، كقوله: **﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾**.

**﴿٤٨﴾** **﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾** يخبر تعالى: أنه لا يغفر لمن أشرك به أحداً من المخلوقين، ويغفر ما دون الشرك <sup>(١)</sup> من الذنوب، صغائرها وكبائرها، وذلك عند مشيئته مغفرة ذلك، إذا اقتضت حكمته مغفرته.

فالذنوب التي دون الشرك قد جعل الله لغفرتها أسباباً كثيرة، كالحسنات الماحية، والمصائب المكفرة في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة، وكدعاء المؤمنين بعضهم لبعض، وشفاعة الشافعين. ومن فوق ذلك كله رحمته التي أحق بها أهل الإيمان والتوحيد.

وهذا بخلاف الشرك فإن الشرك قد سد على نفسه أبواب المغفرة، وأغلق دونه أبواب الرحمة، فلا تنفعه الطاعات من دون التوحيد، ولا تفيده المصائب شيئاً وما لهم يوم القيامة **﴿من شافعين﴾** ولا صديق حميم.

ولهذا قال تعالى: **﴿ومن يشرك بالله**











﴿فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾  
 أي: لتاب عليهم بمغفرته ظلمهم، ورحمهم بقبول التوبة والتوفيق لها، والشراب عليها، وهذا المجيء إلى الرسول ﷺ مختص بحياته؛ لأن السياق يدل على ذلك، لكون الاستغفار من الرسول لا يكون إلا في حياته، وأما بعد موته فإنه لا يطلب منه شيء، بل ذلك شرك.

ثم أقسم تعالى بنفسه الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله فيما شجر بينهم، أي: في كل شيء يحصل فيه اختلاف، بخلاف مسائل الإجماع، فإنها لا تكون إلا مستندة للكتاب والسنة، ثم لا يكفي هذا التحكيم حتى ينتفي الخرج من قلوبهم والضيق، وكونهم يحكمونه على وجه الإغماض، ثم لا يكفي ذلك<sup>(١)</sup> حتى يسلموا لحكمه تسليماً، بانسراح صدر، وطمأنينة نفس، وانقياد بالظاهر والباطن.

فالتحكيم في مقام الإسلام، وانتهاء الخرج في مقام الإيمان، والتسليم في مقام الإحسان. فمن استكمل هذه المراتب وكملها، فقد استكمل مراتب الدين كلها. فمن ترك هذا التحكيم المذكور غير ملتزم له فهو كافر، ومن

تركة، مع التزامه فله حكم أمثاله من العاصين.

﴿٦٦ - ٦٨﴾ ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تبييناً \* وإذا لأتيناهم من لدنا أجرأ عظيماً \* ولهديناهم صراطاً مستقيماً﴾  
 يخبر تعالى أنه لو كتب على عباده الأوامر الشاقة على النفوس من قتل النفوس، والخروج من الديار، لم يفعلها إلا القليل منهم والشارد، فليحمدوا ربهم وليشكروه على تيسير ما أمرهم به من الأوامر التي تسهل على كل أحد، ولا يشق فعلها، وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي أن يلحظ العبد ضد ما هو فيه من المكروهات، لتخف عليه العبادات، ويزداد هدواً وشكراً لربه.

ثم أخبر أنهم لو فعلوا ما يوعظون به، أي: ما وظف عليهم في كل وقت بحسبه، فبدلوا همهم، ووفروا نفوسهم للقيام به وتكمله، ولم تطمع نفوسهم لما لم يصلوا إليه، ولم يكونوا بصدده، وهذا هو الذي ينبغي للعبد، أن ينظر إلى الحالة التي يلزمه القيام بها فيكملها، ثم يتدرج شيئاً فشيئاً، حتى يصل إلى ما قدر له من العلم والعمل في أمر الدين والدنيا، وهذا بخلاف من طمحت نفسه إلى أمر لم يصل إليه ولم يؤمر به بعد، فإنه لا يكاد يصل إلى ذلك بسبب تفریق الهمة، وحصول الكسل وعدم النشاط.

ثم رتب ما يحصل لهم على فعل ما يوعظون به، وهو أربعة أمور:

(أحدها) الخيرية في قوله: ﴿لكن كان خيراً لهم﴾ أي: لكانوا من الأخيار المتصفين بأوصافهم، من أفعال الخير، التي أمروا بها، أي: وانتفى عنهم بذلك صفة الأشرار، لأن ثبوت الشيء يستلزم نفي ضده.

(الثاني) حصول التثبيت والثبات وزيادته، فإن الله يثبت الذين آمنوا بسبب ما قاموا به من الإيمان، الذي

هو القيام بما وعظوا به، فيثبتهم في الحياة الدنيا، عند ورود الفتن في الأوامر والنواهي والمصائب، فيحصل لهم ثبات يوفقون لفعل الأوامر وترك الزواجر، التي تقتضي النفس فعلها، وعند حلول المصائب، التي يكرها العبد. فيوفق للتثبيت بالتوفيق للصبر أو للرضا أو للشكر.

فينزل عليه معونة من الله للقيام بذلك، ويحصل له الثبات على الدين، عند الموت وفي القبر.

وأيضاً فإن العبد القائم بما أمر به، لا يزال يتمرن على الأوامر الشرعية حتى يألفها، ويشتاق إليها وإلى أمثالها، فيكون ذلك معونة له على الثبات على الطاعات.

(الثالث): قوله: ﴿وإذا لأتيناهم من لدنا أجرأ عظيماً﴾ أي: في العاجل والآجل، الذي يكون للروح والقلب والبدن، ومن النعيم المقيم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

(الرابع) الهداية إلى صراط مستقيم. وهذا عموم بعد خصوص، لشرف الهداية إلى الصراط المستقيم، من كونها متضمنة للعلم بالحق، وعيته وإشارته والعمل به، وتوقف السعادة والفلاح على ذلك، فمن هدى إلى صراط مستقيم، فقد وفق لكل خير، واندفع عنه كل شر وضير.

﴿٦٩ - ٧٠﴾ ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً \* ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليمًا﴾ أي: كل من أطاع الله ورسوله على حسب حاله، وقد الواجب عليه من ذكره وأنشئ وصغير وكبير، ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾ أي: النعمة العظيمة التي تقتضي الكمال والفلاح والسعادة، ﴿من النبيين﴾ الذين فضلهم الله بوحيه، واختصهم بتفضيلهم، بإرسالهم إلى الخلق،





فلهذا أمر هؤلاء بالإخلاص، والخروج في سبيله، فقال: ﴿فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة﴾. هذا أحد الأقوال في هذه الآية، وهو أصحها.

وقيل: إن معناه: فليقاتل في سبيل الله المؤمنون الكاملو الإيمان، الصادقون في إيمانهم ﴿الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة﴾ أي: يبيعون الدنيا رغبة عنها، بالآخرة رغبة فيها.

فإن هؤلاء هم الذين يوجه إليهم الخطاب، لأنهم الذين قد أعدوا أنفسهم ووطنوها على جهاد الأعداء، لما معهم من الإيمان التام المقتضي لذلك.

وأما أولئك المتناقلون، فلا يعياً بهم، خرجوا أو عدوا، فيكون هذا نظير قوله تعالى: ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا، إن الذين أتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً﴾ إلى آخر الآيات. وقوله:

﴿فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾. وقيل: إن معنى الآية: فليقاتل المقاتل والمجاهد للكفار، الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، فيكون على هذا الوجه «الذين» في محل نصب على المعنوية.

﴿ومن يقاتل في سبيل الله﴾ بأن يكون جهاداً، قد أمر الله به ورسوله، ويكون العبد مخلصاً لله فيه قاصداً

وجه الله. ﴿فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ زيادة في إيمانه ودينه، وغنمة، وثناء حسناً، وثواب المحاهدين في سبيل الله الذين أعد الله لهم في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿٧٥﴾ ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾ هذا حث من الله لعباده المؤمنين، وتوبيخ لهم على القتال في سبيله، وأن ذلك قد تعين عليهم، وتوجه اللوم العظيم عليهم بتركه فقال: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله﴾ والحال أن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يتدنون سيلاً، ومع هذا فقد نالهم أعظم الظلم من أعدائهم، فهم يدعون الله أن يخرجهم من هذه القرية الظالم أهلها لأنفسهم بالكفر والشرك وللمؤمنين بالأذى والصد عن سبيل الله، ومنعهم من الدعوة لدينهم والهجرة.

ويدعون الله أن يجعل لهم ولياً ونصيراً، يستنقذهم من هذه القرية الظالم أهلها، فصار جهادكم على هذا الوجه من باب القتال، والذب عن عيلاتكم وأولادكم ومخارمكم، لا من باب الجهاد الذي هو الطمع في الكفار، فإنه وإن كان فيه فضل عظيم، ويلام المتخلف عنه أعظم لوم، فالجهاد الذي فيه استنقاذ المستضعفين منكم أعظم أجراً، وأكبر فائدة بحيث يكون من باب دفع الأعداء.

﴿٧٦﴾ ثم قال: ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾.

هذا إخبار من الله بأن المؤمنين يقاتلون في سبيله ﴿والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾ الذي هو الشيطان. في ضمن ذلك عدة فوائد:

منها: أنه بحسب إيمان العبد يكون جهاده في سبيل الله، وإخلاصه ومتابعته. فالجهاد في سبيل الله من آثار الإيمان ومقتضياته ولوآممه، كما أن القتال في سبيل الطاغوت من شعب الكفر ومقتضياته.

ومنها: أن الذي يقاتل في سبيل الله ينبغي له ويمحس منه من الصبر والجلد ما لا يقوم به غيره، فإذا كان أولياء الشيطان يصبرون ويقاتلون وهم على باطل، فأهل الحق أولى بذلك، كما قال تعالى في هذا المعنى: ﴿إن تكونوا تآلمون فإنهم يألمون كما تآلمون، وترجون من الله ما لا يرجون﴾ الآية.

ومنها: أن الذي يقاتل في سبيل الله معتمد على ركن وثيق، وهو الحق، والتوكل على الله. فصاحب القوة والركن الوثيق، يطلب منه من الصبر والشبات والنشاط ما لا يطلب ممن يقاتل عن الباطل، الذي لا حقيقة له ولا عاقبة حميدة. فلهذا قال تعالى: ﴿فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾.

والكيد: سلوك الطرق الخفية في ضرر العدو، فالشيطان وإن بلغ مكروه مهما بلغ فإنه في غاية الضعف، الذي لا يقوم لأذى شيء من الحق، ولا لكيد الله لعباده المؤمنين.

﴿٧٧ - ٧٨﴾ ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن أنقى ولا تظلمون فيلأ \* أين ما تكونوا يدر ككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ كان المسلمون - إذ كانوا بمكة - مأمورين بالصلاة والزكاة، أي: مواساة الفقراء، لا الزكاة المعروفة ذات النصب والشروط، فإنها لم تفرض إلا بالمدينة، ولم يؤمروا بجهاد الأعداء، لعدة فوائد:

منها: أن من حكمة الباري تعالى أن يشرع لعباده الشرائع على وجه لا يشق





وفضله، وأخبرهم أن المعاصي مانعة من فضله، فإذا فعلها العبد فلا يلومن إلا نفسه فإنه المانع لنفسه، عن وصول فضل الله وبه.

ثم أخبر عن عموم رسالة رسوله محمد ﷺ فقال: «وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً» على أنك رسول الله حقاً بما أيدك بنصره، والمعجزات الباهرة، والبراهين الساطعة، فهي أكبر شهادة على الإطلاق، كما قال تعالى: «قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم» فإذا علم أن الله تعالى، كامل العلم، تام القدرة، عظيم الحكمة، وقد أيد الله رسوله بما أيده، ونصره نصراً عظيماً، تيقن بذلك أنه رسول الله، وإلا فلو تقول عليه بعض الأقاويل، لاخذ منه باليمين، ثم لقطع منه الوتين.

﴿٨٠ - ٨١﴾ «من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً» ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً» أي: كل من أطاع رسول الله في أمره ونواهيه فقد أطاع الله تعالى، لكونه لا يأمر ولا ينهى إلا بأمر الله، وشرعه، ووجهه وتنزيهه، وفي هذا عصمة الرسول ﷺ لأن الله أمر بطاعته مطلقاً، فلولا أنه معصوم في كل ما يبلغ عن الله، لم يأمر بطاعته مطلقاً، ويمدح على ذلك.

وهذا من الحقوق المشتركة، فإن الحقوق ثلاثة: حق الله تعالى، لا يكون لأحد من الخلق، وهو عبادة الله والرغبة إليه، وتوابع ذلك. وقسم غتص بالرسول، وهو التعزير والتوقير والنصرة. وقسم مشترك، وهو الإيمان بالله ورسوله، ومحبتهم وطاعتهم كما جمع الله بين هذه الحقوق في قوله: «لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً».

ولا بد أن تكون طاعة الله ورسوله ظاهراً وباطناً، في الحضرة والمغيب. فأما من يظهر في الحضرة الطاعة والالتزام، فإذا خلا بنفسه أو أبناء جنسه، ترك الطاعة وأقبل على ضدها، فإن الطاعة التي أظهرها غير نافعة ولا مفيدة، وقد أشبه من قال الله فيهم: «ويقولون طاعة» أي: يظهرن الطاعة إذا كانوا عندك. «فإذا برزوا من عندك» أي: خرجوا وخلوا في حالة لا يطلع فيها عليهم. «بيت طائفة منهم غير الذي تقول» أي: بيتوا ودبروا غير طاعتك ولا ثم إلا المعصية.

وفي قوله: «بيت طائفة منهم غير الذي تقول» دليل على أن الأمر الذي استقروا عليه غير الطاعة؛ لأن التبيت تدبير الأمر ليلاً على وجه يستقر عليه الرأي، ثم توعدهم على ما فعلوا فقال: «والله يكتب ما يبيتون» أي: يحفظه عليهم، وسيجازيم عليه أتم الجزاء، فقيه وعيد لهم.

وفي قوله: «فما أرسلناك عليهم حفيظاً» أي: تحفظ أعمالهم وأحوالهم، بل أرسلناك مبلغاً وميماً وناصحاً، وقد أديت وظيفتك، ووجب أجرك على الله، سواء اهتدوا أم لم يهتدوا. كما قال تعالى: «فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر» الآية.

وقدره وخلقه. «فما لهؤلاء القوم» أي: الصادر منهم تلك المقالة الباطلة. «لا يكادون يفقهون حديثاً» أي: لا يفهمون حديثاً بالكلية، ولا يقربون من فهمه، أو لا يفهمون منه إلا فهماً ضعيفاً، وعلى كل فهو ذم لهم وتوبيخ على عدم فهمهم وفقههم عن الله وعن رسوله، وذلك بسبب كفرهم وإعراضهم.

وفي ضمن ذلك مدح من يفهم عن الله وعن رسوله، والحث على ذلك، وعلى الأسباب المعنية على ذلك، من الإقبال على كلامهما وتدبيره، وسلوك الطرق الموصلة إليه. فلو فقهوا عن الله لعلموا أن الخير والشر والحسنات والسيئات كلها بقضاء الله وقدره، لا يخرج منها شيء عن ذلك. وأن الرسل عليهم الصلاة والسلام، لا يكونون سبباً لشر يحدث، هم ولا ما جازوا به، لأنهم بعثوا بصلاح الدنيا والآخرة والدين.

ثم قال تعالى: «وما أصابك من حسنة» أي: في الدين والدنيا «فمِنَ اللَّهِ» هو الذي من بها ويسرها بتيسير أمسيابها. «وما أصابك من سيئة» في الدين والدنيا «فمن نفسك» أي: بذنوبك وكسبك، وما يعفو الله عنه أكثر. فالله تعالى قد فتح لعباده أبواب إحسانه، وأمرهم بالدخول لبره

﴿٨٠﴾ «من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً» ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً» أي: كل من أطاع رسول الله في أمره ونواهيه فقد أطاع الله تعالى، لكونه لا يأمر ولا ينهى إلا بأمر الله، وشرعه، ووجهه وتنزيهه، وفي هذا عصمة الرسول ﷺ لأن الله أمر بطاعته مطلقاً، فلولا أنه معصوم في كل ما يبلغ عن الله، لم يأمر بطاعته مطلقاً، ويمدح على ذلك.

ذلك، فإن تدبر كتاب الله مفتاح للعلوم والمعارف، وبه يستنتج كل خير وتستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب، وترسخ شجرته.

فإنه يعرف بالرب المعبود، وما له من صفات الكمال وما ينزه عنه من سمات النقص، ويعرف الطريق الموصلة إليه، وصفة أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرف العدو الذي هو العدو على الحقيقة، والطريق الموصلة إلى العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب.

وكلما ازداد العبد تأملاً فيه، ازداد علماً وعملاً وبصيرة، لذلك أمر الله بذلك، وحث عليه، وأخبر أنه [هو] المقصود بإنزال القرآن، كما قال تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته، وليتذكر أولو الألباب﴾ وقال تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾.

ومن فوائد التدبر لكتاب الله: أنه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقين، والعلم بأنه كلام الله، لأنه يراه يصدق بعضه بعضاً، ويوافق بعضه بعضاً. فترى الحكم والقصة والإخبارات تعاد في القرآن في عدة مواضع، كلها متوافقة متصادقة، لا ينقض بعضها بعضاً، فبذلك يعلم كمال القرآن، وأنه من عند مَنْ أحاط علمه بجميع الأمور، فلذلك قال تعالى: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا﴾ أي: فلما كان من عند الله لم يكن فيه اختلاف أصلاً.

﴿٨٣﴾ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردهو إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً ﴿هذا تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق. وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة، والمصالح العامة ما يتعلق بالأمن، وسرور المؤمنين، أو بالخوف الذي فيه

مصيبة عليهم، أن يشبثوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخسر، بل يردونه إلى الرسول، وإلى أولي الأمر منهم، أهل الرأي: والعلم والنصح، والعقل والرزانة، الذين يعرفون الأمور، ويعرفون المصالح وضدها.

فإن رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطاً للمؤمنين وسروراً لهم وتحرزاً من أعدائهم، فعلوا ذلك. وإن رأوا أنه ليس فيه مصلحة<sup>(١)</sup>، أو فيه مصلحة ولكن مضرته تزيد على مصلحته، لم يذيعوه، ولهذا قال: ﴿لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ أي: يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة، وعلومهم الرشيدة.

وفي هذا دليل لقاعدة أدبية، وهي أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور، ينبغي أن يؤول مَنْ هو أهل لذلك، ويجعل إلى أهله، ولا يتقدم بين أيديهم، فإنه أقرب إلى الصواب وأحرى للسلامة من الخطأ. وفيه النهي عن العجلة والتسرع لنشر الأمور من حين سماعها، والأمر بالتأمل قبل الكلام والنظر فيه، هل هو مصلحة، فيقدم عليه الإنسان، أم لا؟ فيحجم عنه؟

ثم قال تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ أي: في توفيقكم وتأييكم، وتعليمكم ما لم تكونوا تعلمون، ﴿لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً﴾ لأن الإنسان بطبعه ظالم جاهل، فلا تأمره نفسه إلا بالشر. فإذا لحا إلى ربه واعتصم به، واجتهد في ذلك، لطف به ربه ووفقه لكل خير، وعصمه من الشيطان الرجيم.

﴿٨٤﴾ فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرص المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً ﴿هذه الحالة أفضل أحوال العبد، أن يجتهد في نفسه على امتثال أمر الله من الجهاد وغيره، ويعرض غيره عليه، وقد يعدم في العبد الأمران أو أحدهما، فلماذا قال

بأهل البيت لأهلوا به ويستعملوا شرايهم  
إلى أن أرى السبوح يسي من ربه رسول الله  
ألقى إلى من رزق منه فتدبروا القرآن  
تلكم أنتم خير السمع من الله الذي  
أنكرت له من أنساب السكون ومن الأرض  
والوحيلا أن يستعملت السبوح أن  
يكون عبادوا ولا لله منة الكفوت  
يستعملون سبوحهم ويستعملون سبوحهم  
إليهم ﴿فأما الذين آمنوا وحرصوا على الدين  
فليس فيهم جورهم ولا يهينهم ربنا الذين  
استنبطوا ما أنت تكفرون أنهم منكم تلك السبوح  
يجدون لهم من دون الله وركبوا الآخرة  
فبما أنتم من الذين آمنوا وحرصوا على الدين  
فأما الذين آمنوا وحرصوا على الدين فليس فيهم  
جورهم ولا يهينهم ربنا الذين استنبطوا ما أنت  
تكفرون أنهم منكم تلك السبوح

لرسوله: ﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك﴾ أي: ليس لك<sup>(٢)</sup> قدرة على غير نفسك، فلن تكلف بفعل غيرك.

﴿وحرص المؤمنين﴾ على القتال، وهذا يشمل كل أمر يحصل به نشاط المؤمنين وقوة قلوبهم، من تقويتهم، والإخبار بضعف الأعداء، وفشلهم، وبما أعد الله للمقاتلين من الثواب، وما على المتخلفين من العقاب، فهذا وأمثاله كله يدخل في التحريض على القتال.

﴿عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا﴾ أي: بقتالكم في سبيل الله، وتحريض بعضكم بعضاً. ﴿والله أشد بأساً﴾ أي: قوة وعزة ﴿وأشد تنكيلاً﴾ بالمذنب في نفسه وتنكيلاً لغيره، فلو شاء تحال لانصر من الكفار بقوته ولم يجعل لهم بآية.

ولكن من حكمته يبلو بعض عباده ببعض، ليقوم سوق الجهاد، ويحصل الإيمان النافع، إيمان الاختيار، لا إيمان الاضطرار والقهر الذي لا يفيد شيئاً.

﴿٨٥﴾ من يشفع شفاعتة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعتة سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شيء مقبلاً ﴿المراد بالشفاعة هنا:

(١) في ب: ما فيه مصلحة.

(٢) في النسخين: ليس عليك.

وآخركم في مقام واحد.

في «يوم القيامة لا ريب فيه» أي: لا شك ولا شبهة بوجه من الوجوه، بالدليل العقلي والدليل السمعي، فالدليل العقلي ما نشاهده من إحياء الأرض بعد موتها، ومن وجود النشأة الأولى التي وقوع الثانية أولى منها بالإمكان، ومن الحكمة التي يجزم بأن الله لم يخلق خلقه عبثاً، يميون ثم يموتون، وأما الدليل السمعي، فهو إخبار أصدق الصادقين بذلك، بل إقسامه عليه، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ كذلك أمر رسوله ﷺ أن يقسم عليه في غير موضع من القرآن، كقوله تعالى: ﴿رَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

وفي قوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ إخبار بأن حديثه وأخباره وأقواله في أعلى مراتب الصدق، بل أعلاها. فكل ما قيل في العقائد [والعلوم] (١) والأعمال ما يناقض ما أخبر الله به، فهو باطل لما نقضته للخبر الصادق اليقيني، فلا يمكن أن يكون حقاً.

﴿٨٨ - ٩١﴾ ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةً وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلًا﴾ ﴿وَقَالُوا لَتَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَابُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وُليَاءَ وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاؤُوكُمْ حَصْرَتِ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقَاتِلُوكُمْ أَوْ يِقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمَّ بِقَاتِلُوكُمْ وَالْقَوَالِيكُمْ السَّلْمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ ﴿سَجِدُونَ آخِرِينَ يَرِيدُونَ أَنْ يُبْسُوَكُمْ وَيَأْمُرُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رَدُّوا إِلَىٰ الْفِتْنَةِ

ويؤخذ من الآية الكريمة الحث على ابتداء السلام والتحية، من وجهين: أحدهما: أن الله أمر بردها بأحسن منها، أو مثلها، وذلك يستلزم أن التحية مطلوبة شرعاً.

الثاني: ما يستفاد من أفعل التفضيل، وهو «أحسن» الدال على مشاركة التحية وردّها بالحسن، كما هو الأصل في ذلك.

ويستثنى من عموم الآية الكريمة من حيا بحال غير مأمور بها، كـ «على» مشتغل بقراءة، أو استماع خطبة، أو مصطل ونحو ذلك، فإنه لا يطلب إجابة تحيته، وكذلك يستثنى من ذلك من أمر الشارع بهجره، وعدم تحيته، وهو العاصي غير الثائب الذي يرتدع بالهجر، فإنه يهجر ولا يحيا، ولا ترد تحيته، وذلك لمعارضته المصلحة الكبرى.

ويدخل في رد التحية كل تحية اعتادها الناس، وهي غير معظورة شرعاً، فإنه مأمور بردها أو أحسن منها، ثم أوعد تعالى وتوعد على فعل الحسنات والسيئات بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ فيحفظ على العباد أعمالهم، حسننها وسيئها، صغيرها وكبيرها، ثم يجازيهم بما اقتضاه فضله وعدله وحكمه المحمود.

﴿٨٧﴾ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ يخبر تعالى، عن انفراذه بالوحدانية، وأنه لا معبود ولا مالوه إلا هو، لكماله في ذاته وأوصافه، ولكونه المنفرد بالخلق والتدبير، والنعم الظاهرة والباطنة.

وذلك يستلزم الأمر بعبادته، والتقرب إليه بجميع أنواع العبودية. لكونه المستحق لذلك وحده، والمجازي للعباد بما قاموا به من عبوديته أو تركوه منها، ولذلك أُنسِم على وقوع عمل الجزاء وهو يوم القيامة، فقال: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ أي: أولكم



المعاونة على أمر من الأمور، فمن شفع غيره وقام معه على أمر من أمور الخير - ومنه الشفاعة للمظلومين لمن ظلمهم - كان له نصيب من شفاعته، بحسب سعيه وعمله ونفعه، ولا ينقص من أجر الأصيل والباشر شيء، ومن عاون غيره على أمر من الشر، كان عليه كفل من الإثم بحسب ما قام به وعاون عليه. ففي هذا الحث العظيم على التعاون على البر والتقوى، والزجر العظيم عن التعاون على الإثم والعدوان وقرر ذلك بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ أي: شاهداً حفيظاً، حسيباً على هذه الأعمال، فيجازي كل ما يستحقه.

﴿٨٦﴾ ﴿وَإِذَا حُبِبْتُمْ تَحِيَةً فَحَيُّوا بِأَحْسَنِهَا أَوْ رَدُّوْهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ التحية هي اللفظ الصادر من أحد المتلاقيين، على وجه الإكرام والدعاء، وما يقترن بذلك اللفظ من البشاشة ونحوها.

وأعلى أنواع التحية ما ورد به الشرع، من السلام ابتداءً ورداً. فأمر تعالى المؤمنين أنهم إذا حياوا بأي تحية كانت، أن يردوها بأحسن منها لفظاً وبشاشة، أو مثلها في ذلك. ومفهوم ذلك النهي عن عدم الرد بالكلية، أو ردها بدونها.

فرقتين أمر بتركهم وحتم [على] ذلك، إحداهما<sup>(١)</sup> من يصل إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق بترك القتال، فينضم إليهم، فيكون له حكمهم في حقن الدم والمال.

والفرقة الثانية قوم «حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم» أي: بقرا، لا تسمح أنفسهم بقتالكم، ولا بقتال قومهم، وأحبوا ترك قتال الفريقين، فهؤلاء أيضاً أمر بتركهم، وذكر الحكمة بذلك في قوله: «ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم» فإن الأمور الممكنة ثلاثة أقسام:

إما أن يكونوا معكم ويقاتلوا أعداءكم، وهذا متعذر من هؤلاء، فدار الأمر بين قتالكم مع قومهم، وبين ترك قتال الفريقين، وهو أهون الأمرين عليكم، والله قادر على تسليطهم عليكم، فاقبلوا العاقبة، واحذوا ربكم الذي كف أيديهم عنكم مع التمكن من ذلك.

فهؤلاء «إن اهتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً»

الفرقة الثالثة: قوم يريدون مصلحة أنفسهم، بقطع النظر عن احترامكم، وهم الذين قال الله فيهم: «ستجدون آخرين» أي: من هؤلاء المنافقين. «يريدون أن يأمنوكم» أي: خوفاً منكم «ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها» أي: لا يزالون مقيمين على كفرهم ونفاقهم، وكلما عرض لهم عارض من عوارض الفتن، أعماهم ونكسهم على رؤوسهم، وازداد كفرهم ونفاقهم، وهؤلاء في الصورة كالفرقة الثانية، وفي الحقيقة مخالفة لها.

فإن الفرقة الثانية تركوا قتال المؤمنين

أركسوا فيها فإن لم يمتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث نقتلهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً»

المراد بالمتنافقين المذكورين في هذه الآيات: المنافقون المظهرون إسلامهم، ولم يهاجروا مع كفرهم، وكان قد وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم فيهم اشتباه، فبعضهم تخرج عن قتالهم، وقطع مواليتهم بسبب ما أظهروه من الإيمان، وبعضهم علم أحوالهم بقرائن أفعالهم، فحكم بكفرهم، فأخبرهم الله تعالى أنه لا ينبغي لكم أن تشبهوا فيهم ولا تشكروا، بل أمرهم واضح غير مشكل، إنهم منافقون قد تكرر كفرهم، وودوا مع ذلك كفرهم، وأن تكونوا مثلهم. فإذا تحققتم ذلك منهم «فلا تتخذوا منهم أولياء» وهذا يستلزم عدم محبتهم، لأن الولاية فرع المحبة.

ويستلزم أيضاً بغضهم وعداوتهم، لأن النهي عن الشيء أمر بضده، وهذا الأمر موقت بهجرتهم، فإذا هاجروا جرى عليهم ما جرى على المسلمين، كما كان النبي ﷺ يجري أحكام الإسلام لكل من كان معه وهاجر إليه، رسوا كان مؤمناً حقيقة أو ظاهر الإيمان.

وأهم إن لم يهاجروا وتولوا عنها «فخذوهم واقتلوهم وجدثوهم» أي: في أي وقت، وأي محل كان، وهذا من جملة الأدلة الدالة، على نسخ القتال في الأشهر الحرم، كما هو قول جمهور العلماء، والمتنازعون يقولون: هذه نصوص مطلقة، محمولة على تقييد التحريم في الأشهر الحرم.

ثم إن الله استثنى من قتال هؤلاء المنافقين ثلاث فرق:

احتراماً لهم، لا خوفاً على أنفسهم، وأما هذه الفرقة فتركوه خوفاً لا احتراماً، بل لو وجدوا فرصة في قتال المؤمنين، فإنهم مستعدون<sup>(٢)</sup> لانتهازها، فهؤلاء إن لم يتبين منهم، ويتضح اتساحاً عظيماً اعتزال المؤمنين وترك قتالهم، فإنهم يقاتلون، ولهذا قال: «فإن لم يمتزلوكم ويلقوا إليكم السلم» أي: المسألة والمواعدة «ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث نقتلهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً» أي: حجة بينة واضحة، لكونهم معتدين ظالمين لكم تاركين للمسألة، فلا يلومون إلا أنفسهم.

«٩٢» «وما كان المؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله، وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً» هذه الصيغة من صيغ الامتناع، أي: يمتنع ويستحيل، أن يصدر من مؤمن قتل مؤمن، أي: متعمداً، وفي هذا الإخبار بشدة تحريمه، وأنه منافي للإيمان أشد منافاة، وإنما يصدر ذلك إما من كافر، أو من فاسق قد نقص إيمانه نقصاً عظيماً، ويخشى عليه ما هو أكبر من ذلك، فإن الإيمان الصحيح يمنع المؤمن من قتل أخيه الذي قد عقد الله بينه وبينه الأخوة الإيمانية، التي من مقتضاها محبته وموالاته، وإزالة ما يعرض لأخيه من الأذى، وأي: أذى أشد من القتل؟

وهذا يصدق قوله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب

(١) في هامش أ: (وقد ثبت في الصحيحين من حديث زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ، خرج إلى أحد، فوجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين: فرقة تقول: نقلهم، وفرقة تقول: لا فأنزل الله: «فما لكم في المنافقين فئتين» فقال رسول الله ﷺ: «إنها طيبة، وإنها تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الحديد». وليس هناك علامة تدل على محل هذه الزيادة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: أحدها.

(٣) في ب: سيفدون.



بعضكم رقاب بعض. فعملم أن القتل من الكفر العملي، وأكبر الكبائر بعد الشرك بالله.

ولما كان قوله: ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً﴾ لفظاً عاماً لجميع الأحوال، وأنه لا يصدر منه قتل أخيه بوجه من الوجوه، استثنى تعالى قتل الخطأ فقال: ﴿إلا خطأ﴾ فإن الخطأ الذي لا يقصد القتل غير آثم، ولا متجربى على محارم الله، ولكنه لما كان قد فعل فعلاً شنيعاً، وصورته كافية في قبحة، وإن لم يقصده أمر تعالى بالكفارة والدية فقال: ﴿ومن قتل مؤمناً خطأ﴾ سواء كان القاتل ذكراً أو أنثى، حرّاً أو عبداً، صغيراً أو كبيراً، عاقلاً أو مجنوناً، مسلماً أو كافراً، كما يفيد لفظ «مَنْ» الدالة على العموم، وهذا من أسرار الإتيان بـ «مَنْ» في هذا الموضع، فإن سياق الكلام يقتضي أن يقول: فإن قتله، ولكن هذا لفظ لا يشمل ما تشمله «مَنْ».

وسواء كان المقتول ذكراً أو أنثى، صغيراً أو كبيراً، كما يفيد التكرير في سياق الشرط، فإن على القاتل «تحرير رقبة مؤمنة» كفارة لذلك، تكون في ماله، ويشمل ذلك الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والصحيح والمعيب، في قول بعض العلماء.

ولكن الحكمة تقتضي أن لا يجزى عتق المعيب في الكفارة؛ لأن المقصود بالعتق نفع العتق، وملكه منافع نفسه، فإذا كان يضيع بعتقه، ويقاؤه في الرق أنفع له، فإنه لا يجزى عتقه، مع أن في قوله: ﴿تحرير رقبة﴾ ما يدل على ذلك؛ فإن التحرير: تخليص مَنْ استحققت منافعه لغيره أن تكون له، فإذا لم يكن فيه منافع، لم يتصور وجود التحرير. فتأمل ذلك، فإنه واضح.

وأما الدية فإنها تجب على عاقلة القاتل في الخطأ وشبه العمد.

﴿مسلمة إلى أهل﴾ جبراً لقلوبهم، والمراد بأهل هنا هم ورثته، فإن الورثة يرثون ما ترك الميت، فالدية داخلة فيما

ترك، وللدية تفاصيل كثيرة مذكورة في كتب الفقه.

وقوله: ﴿لأن يصدقوا﴾ أي: يتصدق ورثة القاتل بالعفو عن الدية، فإنها تسقط، وفي ذلك حث لهم على العفو، لأن الله سماها صدقة، والصدقة مطلوبة في كل وقت. ﴿فإن كان﴾ المقتول ﴿من قوم عدو لكم﴾ أي: من كفار حربيين ﴿وهو مؤمن﴾ فتحريص رقبة مؤمنة﴾ أي: وليس عليكم لأهله دية، لعدم احترامهم في دمايتهم وأموالهم.

﴿وإن كان﴾ المقتول ﴿من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة﴾ وذلك لاحترام أهله بما لهم من العهد والميثاق.

﴿فمن لم يجد﴾ الرقبة ولا ثمنها، بأن كان معسراً بذلك، ليس عنده ما يفضل عن مؤنته وحوادثه الأصلية شيء يفي بالرقبة، ﴿فصيام شهرين متتابعين﴾ أي: لا يفطر بينهما من غير عذر، فإن أفطر لعذر، فإن العذر لا يقطع التتابع، كالمرض والحيف ونحوهما. وإن كان لغير عذر، انقطع التتابع، ووجب عليه استئناف الصوم.

﴿توبة من الله﴾ أي: هذه الكفارة التي أوجبها الله على القاتل توبة من الله على عباده، ورحمة بهم، وتكفير لما عساه أن يحصل منهم من تقصير وعدم احتراز، كما هو واقع كثيراً للقاتل خطأ.

﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾ أي: كامل العلم كامل الحكمة، لا يخفى عليه مشاقل ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، في أي: وقت كان وأي: محل كان.

ولا يخرج عن حكمته من المخلوقات والشرائع شيء، بل كل ما خلقه وشرعه، فهو متضمن لغاية الحكمة، ومن علمه وحكمته أن أوجب على القاتل كفارة مناسبة لما

صدر منه، فإنه تسبب لإعدام نفس محترمة، وأخرجها من الوجود إلى العدم، فناسب أن يعق رقبة ويخرجها من رق العبودية للخلق إلى الحرية التامة، فإن لم يجد هذه الرقبة صام شهرين متتابعين، فأخرج نفسه من رق الشهوات واللذات الحسية القاطعة للعبد عن سعادته الأبدية إلى التمسك لله تعالى بتركها تقريباً إلى الله.

ومدها تعالى بهذه المدة الكثيرة الشاقة في عددها، ووجوب التتابع فيها، ولم يشرع الإطعام في هذا الموضع لعدم المناسبة. بخلاف الظهار، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ومن حكمته أن أوجب في القتل الدية، ولو كان خطأ، لتكون رادعة وكافة عن كثير من القتل، باستعمال الأسباب العاصمة عن ذلك.

ومن حكمته أن وجبت على العاقلة في قتل الخطأ، بإجماع العلماء، لكون القاتل لم يذنب فيشق عليه أن يجعل هذه الدية الباهظة، فتناسب أن يقوم بذلك من بينه وبينهم المعاونة والناصرة، والمساعدة على تحصيل المصالح وكف المفسد [ولعل ذلك من أسباب منعهم من يعقلون عنه من القتل حذراً من تحميلهم<sup>(١)</sup>، ويخف عنهم<sup>(٢)</sup> بسبب توزيعه عليهم بقدر أحوالهم وطاقاتهم، وخففت أيضاً بتأجيلها عليهم ثلاث سنين.

ومن حكمته وعلمه أن جبر أهل القاتل عن مصيبتهم، بالدية التي أوجبها على أولياء القاتل.

﴿٩٣﴾ ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً﴾ تقدم أن الله أخبر أنه لا يصدر قتل المؤمن من المؤمن، وأن القتل من الكفر العملي، وذكر هنا وعيد القاتل عمداً، وعيدا ترجف له القلوب، وتتصدع له الأفتنة، وتزعج منه أولو العقول.

فلم يرد في أنواع الكبائر أعظم من هذا الوعيد، بل ولا مثله، ألا وهو

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) في ب: عليهم.

مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتيبوا إن الله كان بما تعملون خبيراً ﴿٩٤﴾ بأمر تعالى عباده المؤمنين إذا خرجوا جهاداً في سبيله، وابتغاء مرضاته أن يتبينوا ويتبينوا في جميع أمورهم المشبهة.

فإن الأمور قسماً: واضحة وغير واضحة.

فالواضحة البينة لا تحتاج إلى تثبيت وتبين، لأن ذلك تحصيل حاصل.

وأما الأمور المشككة غير الواضحة، فإن الإنسان يحتاج إلى التثبيت فيها والتبين، ليعرف هل يقدم عليها أم لا؟

فإن التثبيت في هذه الأمور يحصل

فيه من الفوائد الكثيرة، والكف لشورير عظيمة، ما به يعرف دين العبد وعقله

ورزاقته، بخلاف المستعجل للأمر في بدايتها<sup>(١)</sup>، قبل أن يتبين له حكمها،

فإن ذلك يؤدي إلى ما لا ينبغي، كما

جرى لهؤلاء الذين عاتبهم الله في

الآية، لما لم يتثبتوا وقتلوا من سلم

عليهم، وكان معه غنيمة له أو مال

غيره، ظناً أنه يستكفي بذلك قتلهم،

وكان هذا خطأ في نفس الأمر، فلماذا

عاتبهم بقوله: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى

إليك السلام لست مؤمناً تبتغون عرض

الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة﴾

أي: فلا يحملنكم العرض الفاني

القليل، على ارتكاب ما لا ينبغي

فيفوتكم ما عند الله من الثواب الجزيل

الباقى، فما عند الله خير وأبقى.

وفي هذا إشارة إلى أن العبد ينبغي له

إذا رأى دواعي نفسه مائلة إلى حالة له

فيها هوى، وهي مضرة له أن يذكرها

ما أعد الله لمن نهي نفسه عن هواها،

وقدم مرضاة الله على رضا نفسه، فإن

في ذلك ترغيباً للنفس في امتثال

أمر الله، وإن شق ذلك عليها.

ثم قال تعالى مذكراً لهم بحالهم

الأولى، قبل هدايتهم إلى الإسلام:

﴿كذلك كنتم من قبل فمن الله

عليكم﴾ أي: فكما هداكم بعد

ضلالكم، فكذلك يهدي غيركم،

وهو مقتضى الحكمة السارية في الوجود، وبه ارتباط الأسباب ومسبباتها، خلقاً وأمرأ، وقد جعل الله سبحانه لكل ضدّاً يذافعه ويقاومه، ويكون الحكم للأغلب منهما.

فالقوة مفتضية للصحة والعافية،

وفساد الأخلاط وبغيها مانع من عمل

الطبيعية، وفعل القوة، والحكم للغالب

منهما، وكذلك قوى الأدوية والأمراض.

والعبد يكون فيه مقتض للصحة، ومقتض للعطب، وأحدهما

يمنع كمال تأثير الآخر ويقاومه، فإذا

ترجح عليه وقهره، كان التأثير له.

ومن هنا يعلم انقسام الخلق إلى مَنْ

يدخل الجنة ولا يدخل النار،

وعكسه، ومَنْ يدخل النار ثم يخرج

منها، ويكون مكته فيها بحسب ما فيه

من مقتضى المكث في سرعة الخروج

وبطئه. ومَنْ له بصيرة متورة يرى بها

كل ما أخبر الله به في كتابه، من أمر

المعاد وتفصيله، حتى كأنه يشاهده

رأى: عين.

ويعلم أن هذا هو مقتضى إلهيته

سبحانه، وربوبيته، وعزته، وحكمته،

وأنه يستحيل عليه خلاف ذلك، ونسبة

ذلك إليه نسبة ما لا يليق به إليه،

فيكون نسبة ذلك إلى بصيرته، كنسبة

الشمس والنجوم إلى بصره.

وهذا يقين الإيمان، وهو الذي

يحرق السيئات، كما تحرق النار

الخطب، وصاحب هذا المقام من

الإيمان يستحيل إصراره على السيئات،

وإن وقعت منه وكثرت، فإن ما معه

من نور الإيمان يأمره بتجديد التوبة كل

وقت بالرجوع إلى الله في عدد أنفاسه،

وهذا من أحب الخلق إلى الله. انتهى

كلامه، قدس الله روحه، وجزاه عن

الإسلام والمسلمين خيراً.

﴿٩٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا

ضربتم في سبيل الله فتيبوا ولا تقولوا

لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً

تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله

الإخبار بأن جزاء جهنم، أي: فهذا الذنب العظيم قد انتهض وحده أن يجازى صاحبه بجهنم، بما فيها من العذاب العظيم، والخزي المهين، وسخط الجبار وفوات الفوز والفلاح، وحصول الخيبة والخسار. فعباداً بالله من كل سبب يبعد عن رحمته.

وهذا الوعيد له حكم أمثاله من نصوص الوعيد، على بعض الكبار والمعاصي بالخلود في النار، أو حرمان الجنة.

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في تأويلها، مع اتفاقهم على بطلان قول الخوارج والمعتزلة الذين يخلدونهم في النار ولو كانوا موحدين. والصواب في تأويلها ما قاله الإمام المحقق: شمس الدين بن القيم رحمه الله في «المدارج» فإنه قال - بعدما ذكر تأويلات الأئمة في ذلك وانتقدها فقال:

وقالت فرقة: هذه النصوص وأمثالها ما ذكر فيه المقتضى للعقوبة، ولا يلزم من وجود مقتضى الحكم وجوده، فإن الحكم إنما يتم بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه.

وغاية هذه النصوص الإعلام بأن كذا سبب للعقوبة ومقتض لها، وقد قام الدليل على ذكر الموانع، فبعضها بالإجماع، وبعضها بالنص. فالتوبة مانع بالإجماع، والتوحيد مانع بالنصوص المتواترة التي لا مدق لها والحسنات العظيمة الماحية مانعة، والمصائب الكبار المكفرة مانعة، وإقامة الحدود في الدنيا مانع بالنص، ولا سبيل إلى تعطيل هذه النصوص، فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين.

ومن هنا قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات، اعتباراً بمقتضى العقاب ومانعه، وإعمالاً لأرجحها.

قالوا: وعلى هذا بناء مصالح الدارين ومفاسدها. وعلى هذا بناء الأحكام الشرعية، والأحكام القدرية،

وكما أن الهداية حصلت لكم شيئاً فثيبناً، فكذلك غيركم.

نظر الكامل لحاله الأول الناقصة، ومعاملته لمن كان على مثلها، بمقتضى ما يعرف من حاله الأول، ودعاؤه له بالحكمة والموعظة الحسنة - من أكبر الأسباب لنفعه وانتفاعه، ولهذا أعاد الأمر بالثيبين فقال: ﴿ثيبينوا﴾.

فإذا كان مَنْ خرج للجهاد في سبيل الله، ومجاهدة أعداء الله، وقد استعد بأنواع الاستعداد للإيقاع بهم، مأموراً بالثيبين لمن ألقى إليه السلام، وكانت القرينة قوية، في أنه إنما سلم تَعَوِذاً من القتل، وخوفاً على نفسه - فإن ذلك يدل على الأمر بالثيبين والتثبت في كل الأحوال التي يقع فيها نوع اشتباه، فيثبت فيها العبد، حتى يتضح له الأمر ويبين الرشد والصواب.

﴿إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ فيجازي كل ما عمله ونواه، بحسب ما علمه من أحوال عباده ونياتهم.

﴿٩٥ - ٩٦﴾ ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً \* درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي: لا يستوي مَنْ جاهد من المؤمنين بنفسه وماله، ومَنْ لم يخرج للجهاد ولم يقاتل أعداء الله، ففيه الحث على الخروج للجهاد، والترغيب في ذلك، والترهيب من التكامل والقفود عنه من غير عذر.

وأما أهل الضرر كالمريض والأعمى والأعرج، والذي لا يجد ما يتجهز به، فإنهم ليسوا بمنزلة القاعدين من غير عذر، فمن كان من أولي الضرر راضياً بقعوده، لا يتنوي الخروج في سبيل الله لولا [وجود] المانع، ولا يحدث نفسه بذلك، فإنه بمنزلة القاعد لغير عذر.

ومن كان عازماً على الخروج في

سبيل الله لولا وجود المانع، يتمنى ذلك ويحدث به نفسه، فإنه بمنزلة مَنْ خرج للجهاد، لأن النية الجازمة إذا اقترنت بها مقدورها من القول أو الفعل ينزل صاحبها منزلة الفاعل.

ثم صرح تعالى بتفضيل المجاهدين على القاعدين بالدرجة، أي: الرفعة، وهذا تفضيل على وجه الإجمال، ثم صرح بذلك على وجه التفصيل، ووعدهم بالمغفرة الصادرة من ربهم، والرحمة التي تشتمل على حصول كل خير، واندفاع كل شر.

والدرجات التي فصلها النبي ﷺ بالحديث الثابت عنه في «الصححين»، أن في الجنة مئة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله.

وهذا الشراب الذي رتبته الله على الجهاد، نظير الذي في سورة الصف في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم﴾ إلى آخر السورة.

وتأمل حسن هذا الانتقال، من حالة إلى أعلى منها، فإنه نفى التسوية أولاً بين المجاهد وغيره، ثم صرح بتفضيل المجاهد على القاعد بدرجة، ثم انتقل إلى تفضيله بالمغفرة والرحمة والدرجات.

وهذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها عند التفضيل والمدح، أو النزول من حالة إلى ما دونها، عند القدح والذم - أحسن لفظاً، وأوقع في النفس.

وكذلك إذا فضل تعالى شيئاً على شيء، وكل منهما له فضل، احترز بذكر الفضل الجامع للأمرين، لئلا يتوهم أحد دم الفضل عليه كما قال هنا: ﴿وكلا وعد الله الحسنى﴾.

وكما [قال تعالى] في الآيات المذكورة في الصف في قوله: ﴿ويشر

المؤمنين﴾. وكما في قوله تعالى: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل﴾ أي: من لم يكن كذلك. ثم قال: ﴿وكلا وعد الله الحسنى﴾ وكما قال تعالى: ﴿ففهناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً﴾ فينبغي لمن بحث في التفضيل بين الأشخاص والطوائف والأعمال، أن يتفطن لهذه النكتة.

وكذلك لو تكلم في ذم الأشخاص والمقالات، ذكر ما تجتمع فيه عند تفضيل بعضها على بعض، لئلا يتوهم أن المفضل قد حصل له الكمال. كما إذا قيل: النصارى خير من المجوس، فليقل مع ذلك: وكل منهما كافر.

والقتل أشنع من الزنا، وكل منهما معصية كبيرة، حرمها الله ورسوله وزجر عنها.

ولما وعد المجاهدين بالمغفرة والرحمة الصادقين عن اسميه الكريمين ﴿الفقور الرحيم﴾ ختم هذه الآية بهما فقال: ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾.

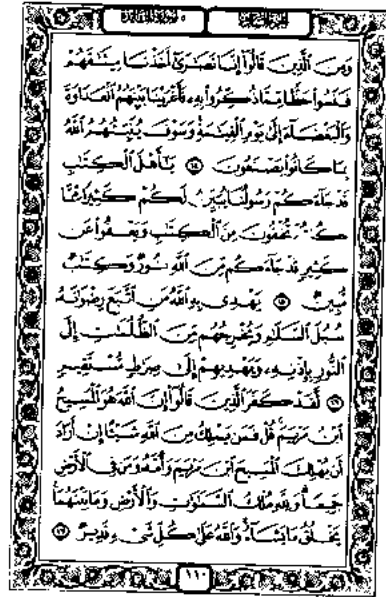
﴿٩٧ - ٩٩﴾ ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً \* إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً \* فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً﴾ هذا الوعيد الشديد لمن ترك الهجرة مع قدرته عليها حتى مات، فإن الملائكة الذين يقبضون روحه، يوبخونه بهذا التوبيخ العظيم، ويقولون لهم: ﴿فيم كنتم﴾ أي: على أي حال كنتم؟ وبأي شيء تميزتم عن المشركين؟ بل كثرتم سوادهم، وربما ظاهرتموهم على المؤمنين، وفاتكم الخير الكثير والجهاد مع رسوله والكون مع المسلمين ومعاونتهم على أعدائهم.

﴿قالوا كنا مستضعفين في الأرض﴾ أي: ضعفاء مقهورين مظلومين، ليس لنا قدرة على الهجرة. وهم غير صادقين في ذلك، لأن الله وبخهم









من أعظم مقويات القلب .

ومنها : أن الذكر لله تعالى مع الصبر والشبات سبب للفلاح والظفر بالأعداء ، كما قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾ . فأمر بالاكثار منه في هذه الحال إلى غير ذلك من الحكم .

وقوله : ﴿فإذا اطمانتم فاقبموا الصلاة﴾ أي : إذا أنتمت من الخوف، واطمأنت قلوبكم وأبدانكم، فأتموا صلاتكم على الوجه الأكمل ، ظاهراً وباطناً ، بأركانها وشروطها، وخشوعها، وسائر مكملاتها .

﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ أي : مفروضاً في وقته، فدل ذلك على فرضيتها، وأن لها وقتاً لا تصح إلا به ، وهو هذه الأوقات التي قد تقرر عند المسلمين، صغيرهم وكبيرهم ، عالمهم وجاهلهم ، وأخذوا ذلك عن نبيهم محمد ﷺ بقوله : «صلوا كما رأيتموني أصلي» .

ودل قوله : ﴿على المؤمنين﴾ على أن الصلاة ميزان الإيمان ، وعلى حسب إيمان العبد تكون صلاته ، وتتم وتكمل ، ويدل ذلك على أن الكفار وإن كانوا ملتزمين لأحكام المسلمين كأهل الذمة - أنهم لا يخاطبون بفروع الدين كالصلاة، ولا يؤمرون بها، بل ولا تصح منهم ما داموا على كفرهم، وإن

كانوا يعاقبون عليها، وعلى سائر الأحكام في الآخرة .

﴿١٠٤﴾ ﴿ولا تمتروا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألون فإنتهم يألون كما تألون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً﴾ أي : لا تضعفوا ولا تكسلوا في ابتغاء عدوكم من الكفار، أي : في جهادهم والرابطة على ذلك ، فإن وهن القلب مستعد لو هن البدن ، وذلك يضعف عن مقاومة الأعداء . بل كونوا أقرباء نشيطين في قتالهم .

ثم ذكر ما يقوي قلوب المؤمنين ، فذكر شيئين :

الأول : أن ما يصيبكم من الألم والتعب والجراح ونحو ذلك ، فإنه يصيب أعداءكم ، فليس من المرءة الإنسانية والشهامة الإسلامية أن تكونوا أضعف منهم ، وأنتم وإياهم قد تساوت فيما يوجب ذلك ، لأن العادة الجارية لا يضعف إلا من تالت عليه الآلام وانتصر عليه الأعداء على الدوام ، لا من يبدل مرة ، ويدال عليه أخرى .

الأمر الثاني : أنكم ترجون من الله ما لا يرجون ، فترجون الفوز بشوابه والنجاة من عقابه ، بل خواص المؤمنين لهم مقاصد عالية ، وآمال رفيعة ، من نصر دين الله ، وإقامة شرعه ، واتساع دائرة الإسلام ، وهداية الضالين ، وقمع أعداء الدين ، فهذه الأمور توجب للمؤمن المصدق زيادة القوة ، وتضاعف النشاط والشجاعة التامة ؛ لأن من يقاتل ويصبر على نيل عزه الدنيوي إن ناله ، ليس كمن يقاتل لنيل السعادة الدنيوية والأخروية ، والفوز برضوان الله وجنته ، فسبحان من قاتل بين العباد ، وفرق بينهم بعلمه وحكمته ، ولهذا قال : ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾ كامل العلم ، كامل الحكمة .

﴿١٠٥ - ١١٣﴾ ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً﴾ واستغفر الله إن الله كان غفوراً

رحيماً \* ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أتيماً \* يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً \* هأنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً \* ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً \* ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً \* ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً \* ولولا فضل الله عليكم ورحمته لمهت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً﴾ تجبر تعالى ، أنه أنزل على عبده ورسوله الكتاب بالحق ، أي : محفوظاً في إنزاله من الشياطين ، أن يتطرق إليه منهم باطل بل نزل بالحق ، ومشتتلاً أيضاً على الحق فأخبره صدق ، وأمره ونواهيه عدل ﴿وعتت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾ وأخبر أنه أنزله ليحكم بين الناس .

وفي الآية الأخرى : ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ . فيحتمل أن هذه الآية في الحكم بين الناس ، في مسائل النزاع والاختلاف ، وتلك في تبيين جميع الدين ، وأصوله وفروعه ، ويحتمل أن الآيتين كليهما ، معناهما واحد ، فيكون الحكم بين الناس هنا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأعراض والأموال وسائر الحقوق وفي العقائد ، وفي جميع مسائل الأحكام .

وقوله : ﴿بما أراك الله﴾ أي : لا بهواك ، بل بما علمك الله وألهمك ، كقوله تعالى : ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾ . وفي هذا دليل على عصمته ﷺ فيما يبلغ عن الله من جميع الأحكام

وما أنت تركت أمره كسلاً وتقرباً، فما النفع الذي انتفعت به؟ وماذا فاتك من ثواب الآخرة؟ وماذا ترتب على هذا الشرك من الشقاء والحرام والخيبة والخسران؟

وكذلك إذا دعت نفسه إلى ما تشتهي من الشهوات المحرمة، قال لها: هبك فعلت ما اشتيت، فإن لذته تقضي، ويعقبها من الهموم والغموم والخسرات، وفوات الثواب وحصول العقاب - ما بعضه يكفي العاقل في الإحجام عنها.

وهذا من أعظم ما ينفع العبد تدبره، وهو خاصة العقل الحقيقي. بخلاف الذي<sup>(٤)</sup> يدعي العقل، وليس كذلك، فإنه بجهله وظلمه يؤثر اللذة الحاضرة، والراحة الراحة، ولو ترتب عليها ما ترتب. والله المستعان.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ أي: مَنْ تَجَرَأَ عَلَى الْمَعَاصِي وَاقْتَحَمَ عَلَى الْإِثْمِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرَ اللَّهَ اسْتِغْفَاراً تَاماً، يَسْتَلْزِمُ الْإِقْرَارَ بِالذَّنْبِ وَالسُّنْدَمَ عَلَيْهِ، وَالْإِقْلَاعَ، وَالْعَزْمَ عَلَى أَنْ لَا يَعُودَ. فَهَذَا قَدْ وَعَدَهُ مَنْ لَا يَخْلَفُ الْمِيحَادَ، بِالْمَغْفَرَةِ وَالرَّحْمَةِ.

فيغفر له ما صدر منه من الذنب، ويزيل عنه ما ترتب عليه من النقص والعيب، ويعيد إليه ما تقدم من الأعمال الصالحة، ويوقفه فيما يستقبله من عمره، ولا يجعل ذنبه حائلاً عن توفيقه، لأنه قد غفره وإذا غفره، غفر ما يترتب عليه.

واعلم أن عمل السوء عند الإطلاق يشمل سائر المعاصي، الصغيرة والكبيرة، وسمي «سوءاً» لكونه يسوء عامله بعقوبته، ولكونه في نفسه سيئاً غير حسن.

وكذلك ظلم النفس عند الإطلاق يشمل ظلمها بالشرك فما دونه. ولكن

مخافة الله، فيحرصون بالطرق المباحة والمحرمة على عدم الفضيحة عند الناس، وهم مع ذلك قد بارزوا الله بالعظام، ولم يبالوا بنظره واطلاعه عليهم.

وهو معهم بالعلم في جميع أحوالهم، خصوصاً في حال تيبثهم ما لا يرضيه من القول، من تبرة الجاني، ورمي البريء بالجناية، والسمي في ذلك للرسول ﷺ، ليفعل ما يتوه.

فقد جمعوا بين عدة جنایات، ولم يراقبوا رب الأرض والسموات، المطلع على سرائرهم وضمايرهم، ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ عَظِماً﴾ أي: قد أحاط بذلك علماً، ومع هذا لم يعاجلهم بالعقوبة، بل استأنى بهم، وعرض عليهم التوبة وحذرهم من الإصرار على ذنبيهم، الموجب للعقوبة البليغة.

﴿ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً﴾ أي: هبكم جادلتم عنهم في هذه الحياة الدنيا، ودفع عنهم جدالكم بعض ما تحذرون<sup>(٥)</sup> من العار والفضيحة عند الخلق، فماذا يغني عنهم ويتفهمهم؟ وَمَنْ يَجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ تَتَوَجَّهَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، وَتَشْهَدَ عَلَيْهِمُ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ؟ ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾.

فَمَنْ يَجَادِلِ عَنْهُمْ، مَنْ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، وَمَنْ أَقَامَ عَلَيْهِمُ مِنَ الشُّهُودِ مَا لَا يُمْكِنُ مَعَهُ الْإِنْكَارُ؟ وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ إِرْشَادٌ<sup>(٦)</sup> إِلَى الْقَابِلَةِ بَيْنَ مَا يَتَوَهَّمُ مِنْ مَصَالِحِ الدُّنْيَا الْمُرْتَبِئَةِ عَلَى تَرْكِ أَوْامِرِ اللَّهِ، أَوْ فِعْلِ مَنَاهِيهِ، وَبَيْنَ مَا يَفُوتُ مِنْ ثَوَابِ الْآخِرَةِ، أَوْ يَحْصُلُ مِنْ عَقُوبَاتِهَا.

فيقول مَنْ أمرته نفسه بترك أمر الله

وغيرها، وأنه يشترط في الحاكم<sup>(١)</sup> العلم والعدل، لقوله: ﴿يَسْأَلُكَ اللَّهُ لِمَ أَتَيْتَ بِهَا مَا لَا خَبْرَ لَكَ بِهَا﴾ ولم يقل: بما رأيت. ورتب أيضاً الحكم بين الناس على معرفة الكتاب، ولما أمر الله بالحكم بين الناس المتضمن للعدل والقسط، ناه عن الجور والظلم الذي هو ضد العدل، فقال: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلخَائِثِينَ خَصِيماً﴾ أي: لا تخاصم عن مَنْ عرفت خيانتها، من مدع ما ليس له، أو منكر حقاً عليه، سواء علم ذلك أو ظنه. ففي هذا دليل على تحريم الخصومة في باطل، والسياسة عن الميطل في الخصومات الدينية والحقوق الدنيوية.

ويدل مفهوم الآية على جواز الدخول في نيابة الخصومة لمن لم يعرف منه ظلم.

﴿واستغفر الله﴾ مما صدر منك، إن صدر.

﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾ أي: يغفر الذنب العظيم لمن استغفره وتاب إليه وأتاب، ويوقفه للعمل الصالح بعد ذلك، الموجب لثوابه وزوال عقابه.

﴿ولا تجادل عن الذين يخافون أنفسهم﴾. «الاختيان» و«الحيانة» بمعنى الجناية والظلم والإثم، وهذا يشمل النهي عن المجادلة، عن مَنْ أَذْنِبَ وَتَوَجَّهَ عَلَيْهِ عَقُوبَةٌ، مِنْ حَدِّ أَوْ تَمْزِيرٍ، فَإِنَّهُ لَا يَجَادِلُ عَنْهُ بِدَفْعِ مَا صَدَرَ مِنْهُ مِنَ الْحَيَانَةِ، أَوْ بِلَفْعِ مَا تَرْتَبُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْعُقُوبَةِ الشَّرْعِيَّةِ. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَاناً أَثِيماً﴾ أي: كثير الحيانة والإثم، وإذا انتفى الحب ثبت ضده، وهو البغض، وهذا كالتعليل، للنهي المتقدم.

ثم ذكر عن هؤلاء الخائنين أنهم ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول﴾ وهذا من ضعف الإيمان، ونقصان اليقين، أن تكون مخافة الخلق عندهم أعظم من

(١) في أ: الحكم.

(٢) في ب: ما يحذرون.

(٣) في ب: الإرشاد.

(٤) في ب: من.



تذكيراً وتبيناً لتلك الواقعة، وتحذيراً  
لرَسُول ﷺ من المخاصمة عن  
الحائنين، فإن المخاصمة عن المبتل من  
الضلال، فإن الضلال نوعان:

ضلال في العلم، وهو الجهل  
بالحق، وضلال في العمل، وهو  
العمل بغير ما يجب. فحفظ الله رسوله  
عن هذا النوع من الضلال [كما حفظه  
عن الضلال في الأعمال] (١).

وأخبر أن كيدهم ومكرهم يعود على  
أنفسهم، كحالة كل مكر، فقال:  
﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ لكون ذلك  
المكر، وذلك التحيل، لم يحصل لهم فيه  
مقصودهم، ولم يحصل لهم (٢) إلا  
الخبية والحرمات والإثم والخسران.  
وهذه (٣) نعمة كبيرة على رسوله ﷺ،  
يتضمن النعمة بالعمل، وهو التوفيق  
لفعل ما يجب، والعصمة له عن كل  
محرّم.

ثم ذكر نعمته عليه بالعلم فقال:  
﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾  
أي: أنزل عليك هذا القرآن العظيم،  
والذكر الحكيم، الذي فيه تبيان كل  
شيء، وعلم الأولين والآخرين.

والحكمة: إما السُنّة التي قد قال  
فيها بعض السلف: إن السُنّة تنزل عليه  
كما ينزل القرآن.

وإما معرفة أسرار الشريعة الزائدة  
على معرفة أحكامها، وتنزيل الأشياء  
منزلها، وترتيب كل شيء بحسبه.

﴿وعلمك ما لم تكن تعلم﴾ وهذا  
يشمل جميع ما علمه الله تعالى.  
فإنه ﷺ كما وصفه الله قبل النبوة  
بقوله: ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا  
الإيمان﴾ ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾.

ثم لم يزل يوحى الله إليه ويعلمه  
ويكمله، حتى ارتقى مقاماً من العلم  
يتعذر وصوله على الأولين والآخرين،

له ويوفقه للتوبة.

وإن صدر منه يتجرته على المحارم،  
استخفافاً بنظر ربه، وتجاوزاً بعقابه،  
فإن هذا بعيد من المغفرة، بعيد من  
التوفيق للتوبة.

ثم قال: ﴿ومن يكسب خطيئة﴾  
أي: ذنباً كبيراً ﴿أو إثماً﴾ ما دون  
ذلك. ﴿ثم يرم به﴾ أن يتهم بذنبه  
﴿بريثاً﴾ من ذلك الذنب، وإن كان  
مذنباً. ﴿فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً﴾  
أي: فقد حمل فوق ظهره بهتاناً للبريء  
وإثماً ظاهراً بئناً، وهذا يدل على أن  
ذلك من كبائر الذنوب وموبقاتها، فإنه  
قد جمع عدة مفسدات: كسب الخطيئة  
والإثم، ثم زعم من لم يفعلها بفعلها،  
ثم الكذب الشنيع، بتبرئة نفسه واتهام  
البريء، ثم ما يترتب على ذلك، من  
العقوبة الدنيوية، تندفع عمن وجبت  
عليه، وتقام على من لا يستحقها.

ثم ما يترتب على ذلك أيضاً من  
كلام الناس في البريء، إلى غير ذلك  
من المقاسد التي نسأل الله العافية منها،  
ومن كل شر.

ثم ذكر منته على رسوله بحفظه  
وعصمته عن أراد أن يضلّه فقال:  
﴿ولو لا فضل الله عليك ورحمته لهمت  
طائفة منهم أن يضلوك﴾. وذلك أن  
هذه الآيات الكريمة قد ذكر  
المفسرون، أن سبب نزولها: أن أهل  
بيت سرقوا في المدينة، فلما أطلع على  
سرقتهم خافوا الفضيحة، وأخذوا  
سرقتهم فرموا بها بيت من هو بريء من  
ذلك.

واستعان السارق بقومه أن يأتوا  
رسول الله ﷺ، ويطلبوا منه أن يبرئهم  
صاحبهم على رؤوس الناس، وقالوا:  
إنه لم يسرق، وإنما الذي سرق من  
وجدت السرقة ببيته، وهو البريء.  
فهم رسول الله ﷺ أن يسرىء  
صاحبهم، فأنزل الله هذه الآيات

عند اقتران أحدهما بالآخر، قد يفسر  
كل واحد منهما بما يناسبه، فيفسر  
عمل السوء هنا بالظلم الذي يسوء  
الناس، وهو ظلمهم في دمائهم  
وأموالهم وأعراضهم.

ويفسر ظلم النفس بالظلم  
والمعاصي التي بين الله وبين عبده،  
وسمي ظلم النفس ظلماً لأن نفس  
العبد ليست ملكاً له، يتصرف فيها بما  
يشاء، وإنما هي ملك لله تعالى، قد  
جعلها أمانة عند العبد، وأمره أن  
يقيمها على طريق العدل، بالزواجر  
للمصراط المستقيم، علماً وعملاً،  
فيسعى في تعليمها ما أمر به، ويسعى  
في العمل بما يجب، فسميه في غير هذا  
الطريق ظلم لنفسه وخيانة، وعدول بها  
عن العدل، الذي ضده الجور والظلم.

ثم قال: ﴿ومن يكسب إثماً فإنما  
يكسبه على نفسه﴾ وهذا يشمل كل ما  
يؤثم من صغير وكبير، فمن كسب  
سيئة فإن عقوبتها الدنيوية والأخرية  
على نفسه، لا تتعداها إلى غيرها، كما  
قال تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر  
أخرى﴾ لكن إذا ظهرت السيئات فلم  
تنكر، عمت عقوبتها، وشمل إثمها،  
فلا تخرج أيضاً عن حكم هذه الآية  
الكريمة، لأن من ترك الإنكار الواجب  
فقد كسب سيئة.

وفي هذا بيان عدل الله وحكمته،  
أنه لا يعاقب أحداً بذنب أحد، ولا  
يعاقب أحداً أكثر من العقوبة الناشئة  
عن ذنبه، ولهذا قال: ﴿وكان الله  
علماً حكيماً﴾ أي: له العلم الكامل،  
والحكمة التامة.

ومن علمه وحكمته أنه يعلم الذنب  
وما صدر منه، والسبب الداعي لفعله،  
والعقوبة المترتبة على فعله، ويعلم حالة  
المتذنب، أنه إن صدر منه الذنب، بغلبة  
دواعي نفسه الأتارة بالسوء، مع إنابته  
إلى ربه في كثير من أوقاته، أنه سيغفر

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) في النسختين: له، وقد غيرتها للتوافق مع ما سبق من الضمائر.

(٣) في النسختين: وهذا.

فكان أعلم الخلق على الإطلاق، وأجمعهم لصفات الكمال، وأكملهم فيها، ولهذا قال: ﴿وكان فضل الله عليك عظيماً﴾ فضله على الرسول محمد ﷺ أعظم من فضله على كل خلق<sup>(١)</sup>.

وأجناس الفضل الذي قد فضله الله به، لا يمكن استقصاؤها<sup>(٢)</sup> ولا يتيسر إحصاؤها<sup>(٣)</sup>.

﴿١١٤﴾ لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴿١﴾ أي: لا خير في كثير مما يتناجى به الناس ويتخاطبون، وإذا لم يكن فيه خير، فإما لا فائدة فيه كفضول الكلام المباح، وإما شر ومضرة محضة، كالكلام المحرم بجميع أنواعه.

ثم استثنى تعالى فقال: ﴿إلا من أمر بصدقة﴾ من مال أو علم، أو أي: نفع كان، بل لعله يدخل فيه العبادات المقاصرة، كالسبيح والتحميد، ونحوه، كما قال النبي ﷺ: ﴿إن بكل تسيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تهليل صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة﴾ الحديث.

﴿أو معروف﴾ وهو الإحسان والطاعة، وكل ما عرف في الشرع والعقل حسنه، وإذا أطلق الأمر بالمعروف من غير أن يقرن بالنهاي عن المنكر دخل فيه النهي عن المنكر، وذلك لأن ترك المنهيات من المعروف، وأيضاً لا يتم فعل الخير إلا بترك الشر.

وأما عند الاقتران، فيفسر المعروف بفعل المأمور، والمنكر بترك المنهي. ﴿أو إصلاح بين الناس﴾ والإصلاح لا يكون إلا بين متنازعين متخاصمين، والنزاع والخصام والتخاصب، يوجب من الشر والفرقة ما لا يمكن حصره،

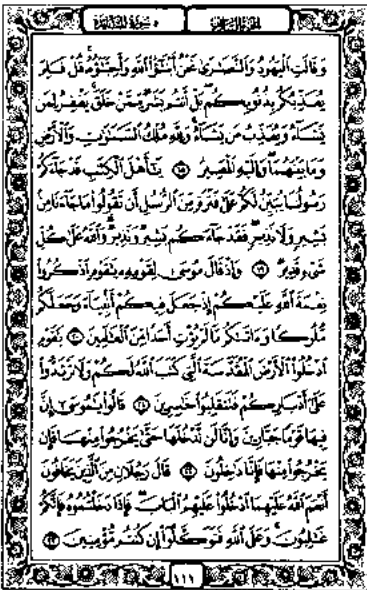
فلذلك حث الشارع على الإصلاح بين الناس في الدماء والأموال والأعراض، بل وفي الأديان، كما قال تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾. وقال تعالى: ﴿وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿والصلح خير﴾ والساعي في الإصلاح بين الناس أفضل من القانت بالصلاة والصيام والصدقة، والصلح لا بد أن يصلح الله سعيه وعمله.

كما أن الساعي في الإفساد لا يصلح الله عمله، ولا يتم له مقصوده كما قال تعالى: ﴿إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾. فهذه الأشياء حيثما فعلت فهي خير، كما دل على ذلك الاستثناء.

ولكن كمال الأجر وتمامه بحسب النية والإخلاص، ولهذا قال: ﴿ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾، فهذا يعني أن يقصد وجه الله تعالى، ويخلص العمل لله في كل وقت، وفي كل جزء من أجزاء الخير، ليحصل له بذلك الأجر العظيم، وليتعود الإخلاص، فيكون من المخلصين، ولينتم له الأجر، سواء تم مقصوده أم لا، لأن النية حصلت، واقترن بها ما يمكن من العمل.

﴿١١٥-١١٦﴾ ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾ \* إن الله لا يغير أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴿١﴾ أي: ومن يخالف الرسول ﷺ ويعانده فيما جاء به ﴿من بعد ما تبين له الهدى﴾ بالدلائل القرآنية



والبراهين النبوية.

﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾

وسبيلهم هو طريقهم في عقائدهم وأعمالهم ﴿نوله ما تولى﴾ أي: تتركه وما اختاره لنفسه، ونخذه فلا نوقفه للخير، لكونه رأى الحق وعلمه وتركه، فجزاؤه من الله عدلاً أن يقيه في ضلاله حائراً، ويزداد ضلالاً إلى ضلاله.

كما قال تعالى: ﴿فلما زاغوا

أزاع الله قلوبهم﴾ وقال تعالى:

﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم

يؤمنوا به أول مرة﴾. وبدل مفهومها،

على أن من لم يشاقق الرسول، ويتبع

غير سبيل المؤمنين، بأن كان قصده

وجه الله، واتباع رسوله، ولزوم جماعة

المسلمين، ثم صدر منه من الذنوب أو

الهم بها، ما هو من مقتضيات

النفوس، وغلبات الطباع، فإن الله

لا يوليئه نفسه وشيطانه، بل يتداركه

بلطفه، ويمن عليه بحفظه، ويعصمه

من السوء، كما قال تعالى عن يوسف

عليه السلام: ﴿كذلك لنصرف عنه

السوء والفحشاء إنه من عبادنا

المخلصين﴾ أي: بسبب إخلاصه

صرفنا عنه السوء، وكذلك كل

(١) في ب: الخلق.

(٢) في السخين: استقصاؤه، وقد عدلت في ب: ولعل الصواب ما أثبت.

(٣) في السخين: إحصاؤه، وقد عدلت في ب، ولعل الصواب ما أثبت.

والرسول ﴿ يفهم منها أن ما لم يتنازعوا فيه، بل اتفقوا عليه، أنهم غير مأثورين برده إلى الكتاب والسنة، وذلك لا يكون إلا موافقاً للكتاب والسنة، فلا يكون مخالفاً.

فهذه الأدلة ونحوها تفيد القطع، أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة، ولهذا بين الله فيح ضلال المشركين بقوله:

﴿ ١١٧ - ١٢١ ﴾ ﴿ إن يدعون من دونه إلا إنثاء وإن يدعون إلا شيطانياً مريداً \* لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً \* ولا أضلنهم ولا منيهم ولا أمرتهم فليتكنن آذان الأنعام ولأمرتهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً \* يمدهم ويمنيهم وما يمدهم الشيطان إلا غروراً \* أولئك مأواهم جهنم لا يجردون عنها محصباً ﴾

أي: ما يدعو هؤلاء المشركون من دون الله إلا إنثاءً، أي: أرثاناً، وأصناماً، مسميات بأسماء الإناث، كـ «العزى» و «مناة» ونحوهما، ومن المعلوم أن الاسم ذال على المسمى. فإذا كانت أسماءها أسماء مؤنثة ناقصة، دل ذلك على نقص المسميات بتلك الأسماء، وفقدتها لصفات الكمال، كما أخبر الله تعالى في غير موضع من كتابه، أنها لا تخلق ولا ترزق، ولا تدفع عن عابديها، بل ولا عن نفسها؛ نفعاً ولا ضرراً، ولا تنصر أنفسها عن يريدها بسوء، وليس لها أسماع ولا أبصار ولا أفتدة، فكيف يُعبد من هذا وصفه، ويُتبرك الإخلاص لمن له الأسماء المحسنة والصفات العليا والحمد والكمال، والمجد، والجلال، والعز، والجمال، والرحمة، والبر، والإحسان، والانفراد بالخلق والتدبير، والحكمة العظيمة في الأمر والتقدير؟! هل هذا إلا من أتبع القبيح، الدال على نقص صاحبه، ويلوغه من الحسة والدناءة أدنى ما يتصوره متصور، أو يصفه واصف؟!

الغنى، والفقر من جميع الوجوه. وأما ما دون الشرك من الذنوب والمعاصي، فهو تحت المشيئة، إن شاء الله غفره برحمته وحكمته، وإن شاء عذب عليه، وعاقب بعدله وحكمته، وقد استدلل بهذه الآية الكريمة، على أن إجماع هذه الأمة حجة، وأنها معصومة من الخطأ.

وجه ذلك: أن الله توعد من خالف سبيل المؤمنين بالخذلان والنار، و«سبيل المؤمنين» مفرد مضاف، يشمل سائر ما المؤمنون عليه من العقائد والأعمال.

فإذا اتفقوا على إيجاب شيء، أو استحبابه، أو تحريمه، أو كراهته، أو إباحته - فهذا سبيلهم، فمن خالفهم في شيء من ذلك بعد انعقاد إجماعهم عليه، فقد اتبع غير سبيلهم. ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾.

وجه الدلالة منها: أن الله تعالى أخبر أن المؤمنين من هذه الأمة لا يأمرون إلا بالمعروف، فإذا اتفقوا على إيجاب شيء، أو استحبابه، فهو مما أمروا به، فيتعين بنص الآية أن يكون معروفاً، ولا شيء بعد المعروف غير المنكر، وكذلك إذا اتفقوا على النهي عن شيء، فهو مما نهوا عنه، فلا يكون إلا منكراً، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ﴾. فأخبر تعالى أن هذه الأمة جعلها الله وسطاً، أي: عدلاً خياراً، ليكونوا شهداء على الناس، أي: في كل شيء، فإذا شهدوا على حكمه بأن الله أمر به أو نهى عنه أو أباحه، فإن شهادتهم معصومة، لكونهم عالمين بما شهدوا به، عادلين في شهادتهم، فلو كان الأمر بخلاف ذلك لم يكونوا عادلين في شهادتهم، ولا عالمين بها.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ فإن تنازعتم في شيء، فردوه إلى الله



مخلص، كما يدل عليه عموم التعليل. وقوله: ﴿ وتصله جهنم ﴾ أي: نعذبه فيها عذاباً عظيماً. ﴿ وساءت مصيراً ﴾ أي: مرجعاً له ومآلاً.

وهذا الوعيد المرتب<sup>(١)</sup> على الشفاق، ومخالفة المؤمنين، مراتب لا يخصصها إلا الله، بحسب حالة الذنب صغراً وكبيراً فمئة ما يجلد في النار ويوجب جميع الخذلان. ومنه ما هو دون ذلك، فلعل الآية الثانية كالتفصيل لهذا المطلق.

وهو: أن الشرك لا يغفره الله تعالى، لتضمنه القدح في رب العالمين وفي وحدانيته، وتسوية المخلوق الذي لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً، بمن هو مالك النفع والضرر، الذي ما من نعمة إلا منه، ولا يدفع النقم إلا هو، الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، والغنى التام بجميع وجوه الاعتبار.

فمن أعظم الظلم وأبعد الضلال، عدم إخلاص العبادة لمن هذا شأنه وعظمته، وصرف شيء منها للمخلوق، الذي ليس له من صفات الكمال شيء، ولا له من صفات الغنى شيء، بل ليس له إلا العدم. عدم الوجود، وعدم الكمال، وعدم

(١) في ب: المترتب.

ومع ذلك<sup>(١)</sup> فعبادتهم إنما صورتها فقط لهذه الأوثان الناقصة . وبالحقيقة ما عبدوا غير الشيطان، الذي هو عدوهم، الذي يريد إهلاكهم، ويسعى في ذلك بكل ما يقدر عليه، الذي هو في غاية البعد من الله، لعنه الله وأبعده عن رحمته، فكما أبعده الله من رحمته، يسعى في إبعاد العباد عن رحمة الله. ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ ولهذا أخبر الله عن سعيه في إغواء العباد، وتزيين الشر لهم والفساد، وأنه قال لربه مقسماً: ﴿لأخلفن من عبادك نصيباً مفروضاً﴾ أي: مقدراً. علم اللعين أنه لا يقدر على إغواء جميع عباد الله، وأن عباد الله المخلصين ليس له عليهم سلطان، وإنما سلطانه على من تولاه، وأثر طاعته على طاعة مولاه.

وأقسم في موضع آخر ليخبرنيهم ﴿لأغويئهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلصين﴾. فهذا الذي ظنه الخبيث وجزم به، أخبر الله تعالى بوقوعه بقوله: ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين﴾.

وهذا النصيب المفروض الذي أقسم الله إنه يتخذهم<sup>(٢)</sup>، ذكر ما يريد بهم، وما يقصده لهم بقوله: ﴿ولأضلنهم﴾ أي: عن الصراط المستقيم، ضلالاً في العلم، وضلالاً في العمل.

﴿ولأمنيهم﴾ أي: مع الإضلال، لأمنيهم أن ينالوا ما ناله المهتدون. وهذا هو الغرور بعينه، فلم يقتصر على مجرد إضلالهم حتى زين لهم ما هم فيه من الضلال. وهذا زيادة شر إلى شرهم، حيث عملوا أعمال أهل النار الموجبة للعقوبة، وحسبوا أنها موجبة للجنة، واعتبر ذلك باليهود والنصارى ونحوهم، فإنهم كما حكى الله عنهم، ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، تلك أمانيهم﴾ ﴿وكذلك زيننا لكل أمة عملهم﴾ ﴿قل

هل ننسبكم بالأخسرين أعمالاً. الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ الآية.

وقال تعالى عن المنافقين إنهم يقولون يوم القيامة للمؤمنين: ﴿ألم تكن معكم؟ قالوا: بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور﴾.

وقوله: ﴿ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام﴾ أي: بتقطيع آذانها، وذلك كالبحيرة، والسائبة والوصيلة، والحام، فإنه ببعض ذلك على جمعه. وهذا نوع من الإضلال يقتضي تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله، ويتحقق بذلك من الاعتقادات الفاسدة والأحكام الجائرة، ما هو من أكبر الضلال. ﴿ولأمرنهم فليغيرن خلق الله﴾ وهذا يتناول تغيير الخلقة الظاهرة بالوشم، والوشر، والتنص، والتفلج للحسن، ونحو ذلك، مما أغواهم به الشيطان فغيروا خلقة الرحمن.

وذلك يتضمن التسخط من خلقته، والقدح في حكمته، واعتقاد أن ما يصنعون بأيديهم أحسن من خلقة الرحمن، وعدم الرضا بتقديره وتديبه، ويتناول أيضاً تغيير الخلقة الباطنة. فإن الله تعالى خلق عباده حنفاء، مفطورين على قبول الحق وإيثاره، فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن هذا الخلق الجميل، وزينت لهم الشر والشرك، والكفر والفسوق والعصيان.

فإن كل مولود يولد على الفطرة، ولكن أبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، ونحو ذلك مما يغيرون به ما فطر الله عليه العباد، من توحيده، وحيه ومعرفته، فافتستهم الشياطين في هذا الموضوع اقتراس السبع والذئاب للغنم المنفردة.

لولا لطف الله وكرمه بعباده المخلصين، لجرى عليهم ما جرى على

هؤلاء المفتونين، وهذا الذي جرى عليهم من توليهم عن ربهم وفاطرهم<sup>(٣)</sup>، وتوليهم لعدوهم المريد لهم الشر من كل وجه، فخسروا الدنيا والآخرة، ورجعوا بالخبية والصفقة الخاسرة، ولهذا قال: ﴿ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسرانا مبيناً﴾ وأي: خسار أبين وأعظم ممن خسرت دينه ودينه، وأوقفته معاصيه وخطاياها؟! فحصل له الشقاء الأبدي، وفاته النعيم السرمدى.

كما أن من تولي مولاه وأثر رضاه، ربح كل الربح، وأفلح كل الفلاح، وفاز بسعادة الدارين، وأصبح قدير العين، فلا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، اللهم تولنا فيمن توليت، وعافنا فيمن عافيت.

ثم قال: ﴿يعدهم ويمنيهم﴾ أي: يعد الشيطان من يسعى في إضلالهم. والوعد يشمل حتى الوعيد كما قال تعالى: ﴿الشيطان يعدكم الفقر﴾. فإنه يعدهم إذا أنفقوا في سبيل الله افتقروا، ويخوفهم إذا جاهدوا بالقتل وغيره، كما قال تعالى: ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه﴾ الآية. ويخوفهم عند إشار مرضاة الله بكل ما يمكن وما لا يمكن، مما يدخله في عقولهم، حتى يكسلوا عن فعل الخير، وكذلك يمنيهم الأماني الباطلة التي هي عند التحقيق كالسراب الذي لا حقيقة له، ولهذا قال: ﴿وما يعدهم الشيطان إلا غروراً، أولئك مأواهم جهنم﴾ أي: من انقاد للشيطان، وأعرض عن ربه، وصار من أتباع إبليس وحزبه، مستقرهم النار. ﴿ولا يجنون عنها محيصاً﴾ أي: مخلصاً ولا ملجأ، بل هم خالدون فيها أبد الآباد.

﴿١٢٢﴾ ولما بين مآل الأشقياء أولياء الشيطان، ذكر مآل السعداء أوليائه فقال: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، وعند الله حقاً، ومن أصدق من الله

(١) في ب: ومع هذا.

(٢) في النسخين: إنهم يتخذهم.

(٣) كذا في ب وفي أ: وفاطرهم.

دون توبة جوزي بالخلود في العذاب الأليم .

ومَنْ كان عمله صالحاً، وهو مستقيم في غالب أحواله، وإنما يصدر منه بعض الأحيان بعض الذنوب الصغار، فما يصيبه من الهم والغم، والأذى، و [بعض] <sup>(١٢٢)</sup> الآلام، في بدنه، أو قلبه، أو حبيبه، أو ماله، ونحو ذلك - فإنها مكفرات للذنوب، وهي مما يجزي به على عمله، قبضها الله لطفاً بعباده، وبين هذين الحالتين مراتب كثيرة .

وهذا الجزاء على عمل السوء العام، مخصوص في غير التائبين، فإن التائب من الذنب كَمَنْ لا ذنب له، كما دلت على ذلك النصوص .

وقوله: ﴿ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ لإزالة بعض ما لعله يتوهم أن مَنْ استحق المجازاة على عمله، قد يكون له ولي، أو ناصر، أو شافع، يدفع عنه ما استحقه، فأخبر تعالى بانتفاء ذلك، فليس له ولي يحصل له المطلوب، ولا نصير يدفع عنه المرهوب، إلا ربه ومليكه .

﴿ومَنْ يعمل من الصالحات﴾ دخل في ذلك سائر الأعمال القلبية والبدنية، ودخل أيضاً كل عامل من إنس أو جن، صغير أو كبير، ذكر أو أنثى . ولهذا قال: ﴿من ذكر أو أنثى وهو مؤمن﴾ وهذا شرط لجميع الأعمال، لا تكون صالحة، ولا تقبل، ولا يترتب عليها الثواب، ولا يندفع بها العقاب، إلا بالإيمان .

فالأعمال بدون الإيمان، كأغصان شجرة قطع أصلها، وكنية بني على موج الماء، فالإيمان هو الأصل والأساس والقاعدة التي يبنى عليه كل شيء، وهذا القيد ينبغي التفتن له في كل عمل أطلاق، فإنه مقيد به .

﴿فأولئك﴾ أي: الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، ﴿يدخلون

وحديثه في الصدق أعلى ما يكون، ولهذا لما كان كلامه صدقاً، وخبره حقاً كان ما يدل عليه مطابقة، وتضمناً، وملازمة، كل ذلك مراد من كلامه، وكذلك كلام رسوله ﷺ لكونه لا يخبر إلا بأمره ولا ينطق إلا عن وجهه .

﴿١٢٣ - ١٢٤﴾ ﴿ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ \* ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نصيراً﴾ أي: ﴿ليس﴾ الأمر والنجاة والتزكية ﴿بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب﴾ . والأمانى: أحاديث النفس المجردة عن العمل، المقترون بها دعوى مجردة، لو عورضت بمثلها لكانت من جنسها . وهذا عام في كل أمر، فكيف بأمر الإيمان والسعادة الأبدية؟!

فإن أمانى أهل الكتاب قد أخبر الله بها، أنهم قالوا: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيتهم﴾ وغيرهم ممن ليس ينتسب لكتاب ولا رسول من باب أولى وأحرى .

وكذلك أدخل الله في ذلك مَنْ ينتسب إلى الإسلام لكمال العدل والإنصاف، فإن مجرد الانتساب إلى أي: دين كان، لا يفيد شيئاً إن لم يأت الإنسان ببرهان على صحة دعواه .

فالأعمال تصدق الدعوى أو تكذبها، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ يعمل سوءاً يجز به﴾ وهذا شامل لجميع العاملين، لأن السوء شامل، لأي: ذنب كان <sup>(١٢٣)</sup>، من صغائر الذنوب وكبائرها، وشامل أيضاً لكل جزاء، قليل أو كثير، دنيوي أو أخروي .

والناس في هذا المقام درجات لا يعلمها إلا الله، فمستقبل ومستكثر، فمَنْ كان عمله كله سوءاً، وذلك لا يكون إلا كافراً . فإذا مات من

قبلاً <sup>(١٢٤)</sup> أي: ﴿أمسوا﴾ بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، على الوجه الذي أمروا به، علماً وتصديقاً وإقراراً . ﴿وعملوا الصالحات﴾ الناشئة عن الإيمان .

وهذا يشمل سائر المأمورات، من واجب ومستحب، الذي على القلب، والذي على اللسان، والذي على بقية الجوارح . كل له من الثواب المرتب على ذلك بحسب حاله ومقامه، وتكميله للإيمان والعمل الصالح .

وفوته ما رتب على ذلك بحسب ما أدخل به من الإيمان والعمل، وذلك بحسب ما علم من حكمة الله ورحمته، وكذلك وعده الصادق الذي يعرف من تتبع كتاب الله وسنة رسوله .

ولهذا ذكر الثواب المرتب على ذلك بقوله: ﴿سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من أنواع المأكول والمشرب اللذيذة، والمناظر العجيبة، والأزواج الحسنة، والقصور والغرف المزخرفة، والأشجار المتعدية، والفواكه المستغربة، والأصوات الشجية، والنعيم السابغة، وتزاور الإخوان، وتذكرهم ما كان منهم في رياض الجنان وأعلى من ذلك كله وأجل رضوان الله عليهم، وتمتع الأرواح بقربه، والعيون برؤيته، والأسماع بخطابه، الذي ينسيهم كل نعيم وسرور، ولولا الشبات من الله لهم لطاروا وماتوا من الفرح والحبور، فله ما أحل ذلك النعيم، وما أعلى ما أنالهم الرب الكريم، وماذا حصل لهم من كل خير وبهجة لا يصفه الواصفون، وتقام ذلك وكماله الخلود الدائم في تلك المنازل العاليات، ولهذا قال: ﴿خالدين فيها أبداً، وعد الله حقاً، ومَنْ أصدق من الله قبلاً﴾ .

فصدق الله العظيم الذي بلغ قوله

(١) في ب: أورد الآية كاملة، بينما في أ، انحصر على أولها .

(٢) كذا في ب، وفي أ: لأي سوء كان .

(٣) زيادة من هامش: ب .

الجنة المشتملة على ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ﴿ولا يظلمون نقيراً﴾ أي: لا قليلاً ولا كثيراً عما عملوه من الخير، بل يجردونه كاملاً موفراً، مضاعفاً أضعافاً كثيرة.

﴿١٢٥﴾ ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ أي: لا أحد أحسن من دين من جمع بين الإخلاص للمعبود، وهو إسلام الوجه لله، الدال على استسلام القلب وتوجهه وإنابته وإخلاصه، وتوجه الوجه وسائر الأعضاء لله.

﴿وهو﴾ مع هذا الإخلاص والاستسلام ﴿محسن﴾ أي: متبع لشريعة الله التي أرسل بها رسوله، وأنزل كتبه، وجعلها طريقاً لخواص خلقه وأتباعهم.

﴿واتبع ملة إبراهيم﴾ أي: دينه وشرعه ﴿حنيفاً﴾ أي: مائلاً عن الشرك إلى التوحيد، وعن التوجه للمخلوق إلى الإقبال على الخالق، ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ والخلة أعلى أنواع المحبة، وهذه المرتبة حصلت للمخليلين محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وأما المحبة من الله، فهي لمعوم المؤمنين، وإنما اتخذ الله إبراهيم خليلاً، لأنه وفى بما أمر به وقام بما ابتلى به، فجعله الله إماماً للناس، واتخذ خليلاً، ونوه بذكره في العالمين.

﴿١٢٦﴾ ﴿والله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطاً﴾ وهذه الآية الكريمة فيها بيان إحاطة الله تعالى بجميع الأشياء، فأخبر أن له ﴿ما في السماوات وما في الأرض﴾ أي: الجميع ملكه وعبيده، فهم المملوكون، وهو المالك المنفرد بتدبيرهم، وقد أحاط علمه بجميع المعلومات، وبصره بجميع المبصرات، وشمه بجميع المسموعات، ونفذت مشيئته وقدرته بجميع الموجودات، ووسعت رحمته أهل الأرض والسماوات، وقهر بعزه وقهره كل مخلوق، ودانت له جميع الأشياء.

﴿١٢٧﴾ ﴿ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتوهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكوهن والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط وما فعلوا من خير فإن الله كان به عليماً﴾ الاستفتاء: طلب السائل من المسؤول بيان الحكم الشرعي في ذلك المسؤول عنه. فأخبر عن المؤمنين أنهم يستفتون الرسول ﷺ، في حكم النساء التعلق بهم فتوى الله هذه الفتوى بنفسه، فقال: ﴿قل الله يفتيكم فيهن﴾ فاعملوا على ما أفتاكم به في جميع شؤون النساء، من القيام بحقوقهن وترك ظلمهن عموماً وخصوصاً.

وهذا أمر عام يشمل جميع ما شرع الله أمراً ونهياً، في حق النساء الزوجات وغيرهن، الصغار والكبار، ثم خص - بعد التعميم - الرخصة بالضعاف من يتامى والولدان، اهتماماً بهم، وزجراً عن التفریط في حقوقهم، فقال: ﴿وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء﴾ أي: ويفتيكم أيضاً بما يتلى عليكم في الكتاب في شأن يتامى من النساء.

﴿اللاتي لا تؤتوهن ما كتب لهن﴾ وهذا إخبار عن الحالة الموجودة الواقعة في ذلك الوقت، فإن اليتيمة إذا كانت تحت ولاية الرجل، بخسها حقها وظلمها، إما بأكل مالها الذي لها أو بعضه، أو منعها من التزوج لينتفع بمالها، خوفاً من استخراجها من يده إن زوجها، أو يأخذ من مهرها الذي تنزوج به بشرط أو غيره، هذا إذا كان راغباً عنها، أو يرغب فيها وهي ذات جمال ومال، ولا يقسط في مهرها، بل يعطيها دون ما تستحق، فكل هذا ظلم يدخل تحت هذا النص، ولهذا قال: ﴿وترغبون أن تنكوهن﴾ أي: ترغبون عن نكاحهن، أو في نكاحهن كما ذكرنا تمثيلاً.

﴿والمستضعفين من الولدان﴾ أي: ويفتيكم في المستضعفين من الولدان الصغار، أن تعطوهم حقهم من الميراث

وغيره، وأن لا تستولوا على أموالهم على وجه الظلم والاستبداد. ﴿وأن تقوموا لليتامى بالقسط﴾ أي: بالعدل التام، وهذا يشمل القيام عليهم بإلزامهم أمر الله وما أوجبه على عباده، فيكون الأولياء مكلفين بذلك، يلزمونهم بما أوجبه الله.

ويشمل القيام عليهم في مصالحهم الدنيوية، بتنمية أموالهم، وطلب الأخط لهم فيها، وأن لا يقربوها إلا بالتي هي أحسن، وكذلك لا يجابون فيهم صديقاً ولا غيره، في تزوج وغيره، على وجه الهضم لحقوقهم. وهذا من رحمته تعالى بعباده، حيث حث غاية الحث على القيام بمصالح مَنْ لا يقوم بمصلحة نفسه، لضعفه وقد أليه.

ثم حث على الإحسان عموماً، فقال: ﴿وما فعلوا من خير﴾ لليتامى ولغيرهم، سواء كان الخير متمدياً أو لازماً، ﴿فإن الله كان به عليماً﴾ أي: قد أحاط علمه بعمل العاملين للخير، قلة وكثرة، حسناً وصد، فيجازي كلا بحسب عمله.

﴿١٢٨﴾ ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ أي: إذا خافت المرأة نشوز زوجها، أي: ترفعه عنها، وعدم رغبت فيها وإعراضه عنها، فالأحسن في هذه الحالة أن يصلحا بينهما صلحاً، بأن تسمح المرأة عن بعض حقوقها اللازمة لزوجها، على وجه تبقى مع زوجها، إما أن ترضى بأقل من الواجب لها من النفقة، أو الكسوة، أو المسكن، أو القسم، بأن تسقط حقها منه، أو تهب يومها وليلتها لزوجها أو لضرتها.

فإذا اتفقا على هذه الحالة، فلا جناح ولا بأس عليهما فيها، لا عليها ولا على الزوج، فيجوز حينئذ لزوجها البقاء معها على هذه الحال، وهي خير من الفرقة، ولهذا قال: ﴿والصلح

خير\* ويؤخذ من عموم هذا اللفظ والمعنى أن الصلح بين من بينهما حق أو منازعة في جميع الأشياء، أنه خير من استقصاء كل منهما على كل حقه، لما فيها من الإصلاح وبقاء الألفة، والاتصاف بصفة السماح.

وهو جائز في جميع الأشياء، إلا إذا أحل حراماً أو حرم حلالاً، فإنه لا يكون صلحاً، وإنما يكون جوراً. واعلم أن كل حكم من الأحكام لا يتم ولا يكمل، إلا بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه، فمن ذلك هذا الحكم الكبير الذي هو الصلح، فذكر تعالى المقتضى لذلك، ونبه على أنه خير، والخير كل عاقل يطلبه ويرغب فيه، فإن كان - مع ذلك - قد أمر الله به وحث عليه ازداد المؤمن طلباً له ورغبة فيه.

وذكر المانع بقوله: ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ أي: جبلت النفوس على الشح، وهو: عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان، والحرص على الحق الذي له، فالنفوس مجبولة على ذلك طبعاً، أي: فينبغي لكم أن تحرصوا على قلع هذا الخلق الذي من نفوسكم، وتستبدلوا به ضده، وهو السماحة، وهو بذل الحق الذي عليكم، والافتقار ببعض الحق الذي لك.

فمتى وفق الإنسان لهذا الخلق الحسن، سهل حيثئذ عليه الصلح بينه وبين خصمه ومعامله، وتسهلت الطريق للوصول إلى المطلوب. بخلاف من لم يجهد في إزالة الشح من نفسه، فإنه يعسر عليه الصلح والمواقفة، لأنه لا يرضيه إلا جميع ماله، ولا يرضى أن يؤدي ما عليه، فإن كان خصمه مثله اشتد الأمر.

ثم قال: ﴿وإن تحسنوا وتتقوا﴾ أي: تحسنوا في عبادة الخالق، بأن يعبد العبد ربه كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراه، وتحسنوا إلى المخلوقين بجميع طرق الإحسان، من نفع بمال، أو علم، أو جاهد، أو غير ذلك. ﴿وتتقوا﴾ الله بفعل جميع الأمور، وترك جميع المحظور. أو تحسنوا بفعل

المأمور، وتتقوا بترك المحظور\* فإن الله كان بما تعملون خبيراً\* قد أحاط به علماً وخبراً، بظاهره وبباطنه، فيحفظه لكم، ويجازيكم عليه أتم الجزاء.

﴿١٢٩﴾ ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً﴾ يخبر تعالى: أن الأزواج لا يستطيعون، وليس في قدرهم العدل التام بين النساء، وذلك لأن العدل يستلزم وجود المحبة على السواء، والداعي على السواء، والميل في القلب إليهن على السواء، ثم العمل بمقتضى ذلك. وهذا متعذر غير ممكن، فلذلك عفا الله عما لا يستطيع، ونهى عما هو ممكن بقوله: ﴿فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة﴾ أي: لا تميلوا ميلاً كثيراً بحيث لا تؤدون حقوقهن الواجبة، بل افعلوا ما هو باستطاعتكم من العدل.

فالنفقة والكسوة والقسم ونحوها، عليكم أن تعدلوا بينهن فيها، بخلاف الحب، والوطة ونحو ذلك، فإن الزوجة إذا ترك زوجها ما يجب لها، صارت كالمعلقة التي لا زوج لها فتستريح وتستعد للزوج، ولا ذات زوج يقوم بحقوقها.

﴿وإن تصلحوا﴾ ما بينكم وبين زوجاتكم، بإجبار أنفسكم على فعل ما لا تنهوا أنفسكم، احتساباً وقياماً بحق الزوجة، وتصلحوا أيضاً فيما بينكم وبين الناس، وتصلحوا أيضاً بين الناس، فيما تنازعوا فيه، وهذا يستلزم الحث على كل طريق يوصل إلى الصلح مطلقاً كما تقدم.

﴿وتتقوا﴾ الله بفعل المأمور وترك المحظور، والصبر على المقدور. ﴿فإن الله كان غفوراً رحيماً﴾ يغفر ما صدر منكم من الذنوب والتقصير في الحق الواجب، ويرحمكم كما عطفتم على أزواجكم ورحمتوهن.

﴿١٣٠﴾ ﴿وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته وكان الله واسعاً حكيماً﴾ هذه الحالة الثالثة بين الزوجين، إذا

تعذر الاتفاق فإنه لا بأس بالفراق، فقال: ﴿وإن يتفرقا﴾ أي: بطلاق، أو فسخ، أو خلع، أو غير ذلك ﴿يغن الله كلاً﴾ من الزوجين ﴿من سعته﴾ أي: من فضله وإحسانه الواسع الشامل. فيغني الزوج بزوجة خير له منها، ويغنيها من فضله وإن انقطع نصيبها من زوجها، فإن رزقها على التكفل بأرزاق جميع الخلق، القائم بمصالحهم، ولعل الله يرزقها زوجها خيراً منه، ﴿وكان الله واسعاً﴾ أي: كثير الفضل، واسع الرحمة، وصلت رحمته وإحسانه إلى حيث وصل إليه علمه.

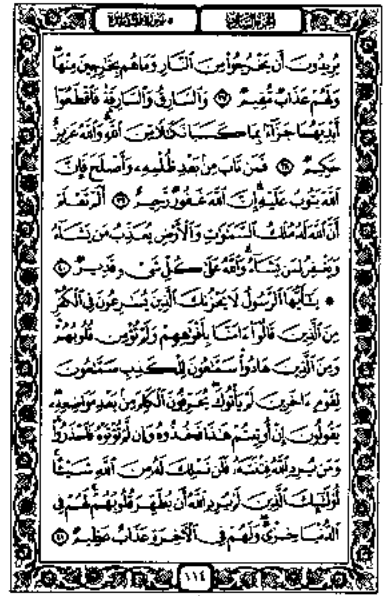
ولكنه مع ذلك ﴿حكيماً﴾ أي: يعطي بحكمة، ويمنع لحكمة. فإذا اقتضت حكمته منع بعض عبادته من إحسانه، بسبب من العبد لا يستحق معه الإحسان حرمة عدلاً وحكمة.

﴿١٣١ - ١٣٢﴾ ﴿و الله ما في السموات وما في الأرض ولقد وصينا الذين أتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله وإن تكفروا فإن الله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً﴾ \* والله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً\* يخبر تعالى عن عموم ملكه العظيم الواسع، المستلزم تدبيره بجميع أنواع التدبير، وتصرفه بأنواع التصريف قدرًا وشرعاً، فتصرفه الشرعي أن وصى الأولين والآخرين أهل الكتب السابقة واللاحقة بالتنقيح المتضمنة للأمر والنهي، وتشريع الأحكام، والمجازاة لمن قام بهذه الوصية بالثواب، والمعاقبة لمن أهملها وضيعها باليأس العذاب.

ولهذا قال: ﴿وإن تكفروا﴾ بأن تركوا تقوى الله، وتشركوا بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً، فإنكم لا تضررون بذلك إلا أنفسكم، ولا تضررون الله شيئاً، ولا تنقصون ملكه، وله عبيد خير منكم وأعظم، وأكثر مطيعون له خاضعون لأمره. ولهذا رتب على ذلك قوله: ﴿وإن تكفروا فإن الله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً﴾ له الجود الكامل والإحسان







خفيها وجليها، وفي هذا تهديد شديد للذي يلوي أو يعرض. ومن باب أولى وأحرى الذي يحكم بالباطل، أو يشهد بالزور، لأنه أعظم جرماً، لأن الأولين تركوا الحق، وهذا ترك الحق وقام بالباطل.

﴿١٣٦﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبله﴾  
 ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً  
 اعلم أن الأمر إما أن يوجه إلى من لم يدخل في الشيء ولم يتصف بشيء منه، فهذا يكون أمره بالدخول فيه، وذلك كأمر من ليس بمؤمن بالإيمان، كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبله﴾  
 اعلم أن الأمر إما أن يوجه إلى من دخل في الشيء، فهذا يكون أمره بالبقاء فيه، وذلك كأمر من ليس بمؤمن بالإيمان، كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبله﴾

وإما أن يوجه إلى من دخل في الشيء، فهذا يكون أمره ليصحح ما وجد منه ويحصل ما لم يوجد، ومنه ما ذكره الله في هذه الآية من أمر المؤمنين بالإيمان، فإن ذلك يقتضي أمرهم بما يصحح إيمانهم، من الإخلاص والصدق، وتجنب المفسدات والتوبة من جميع المنقصات.

ويقتضي أيضاً الأمر بما لم يوجد من المؤمن، من علوم الإيمان وأعماله، فإنه كلما وصل إليه نص، وفهم معناه واعتقده، فإن ذلك من الإيمان المأمور به. وكذلك سائر الأعمال الظاهرة والباطنة، كلها من الإيمان، كما دلت على ذلك النصوص الكثيرة، وأجمع عليه سلف الأمة.

ثم الاستمرار على ذلك والشبات عليه إلى المسات كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ وأمر هنا بالإيمان به وبرسوله، وبالقرآن وبالكتب المتقدمة، فهذا كله من الإيمان الواجب، الذي لا يكون العبد مؤمناً إلا به، إجمالاً فيما لم يصل إليه تفصيله، وتفصيلاً فيما علم من ذلك بالتفصيل، فمن آمن هذا الإيمان المأمور به، فقد اهتدى وأنجح. ﴿ومن

يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾. وأي: ضلال أبعد من ضلال من ترك طريق الهدى المستقيم، وسلك الطريق الموصلة له إلى العذاب الأليم!!

واعلم أن الكفر بشيء من هذه المذكورات كالكفر بجميعها، لتلازمها وامتناع وجود الإيمان ببعضها دون بعض، ثم قال:

﴿١٣٧﴾ ﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً﴾ أي: من تكرر منه الكفر بعد الإيمان، فاهتدى ثم ضل، وأبصر ثم عمي، وآمن ثم كفر واستمر على كفره، وازداد منه، فإنه بعيد من التوفيق والهداية لأقوم الطريق، وبعيد من المغفرة، لكونه أتى بأعظم مانع يمنعه من حصولها. فإن كفره، يكون عقوبة وطبعاً، لا يزول كما قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾. وتقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة. ودلت الآية: أنهم إن لم يزدادوا كفراً، بل رجعوا إلى الإيمان، وتركوا ما هم عليه من الكفران، فإن الله يغفر لهم، ولو تكررت منهم الردة. وإذا كان هذا الحكم في الكفر، فغيره من المعاصي التي دونه من باب أولى أن العبد لو تكررت منه، ثم عاد إلى التوبة، عاد الله له بالمغفرة.

﴿١٣٨ - ١٣٩﴾ ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً﴾ الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتنون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً ﴿بشر المشركين في الخبير، وتستعمل في الشربقيد، كما في هذه الآية. يقول تعالى: ﴿بشر المنافقين﴾ أي: الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، بأقبح بشارة وأسوأها، وهو العذاب الأليم، وذلك بسبب محبتهم الكفار وموالاتهم ونصرتهم، وتركهم لموالاة المؤمنين، فأى: شيء ملهم على ذلك؟ أيتنون عندهم العزة؟

وهذا هو الواقع من أحوال

وعمل إرادته، وأن يزيل عن نفسه كل مانع وعائق يعوقه عن إرادة القسط أو العمل به.

وأعظم عائق لذلك اتباع الهوى، ولهذا نبه تعالى على إزالة هذا المانع بقوله: ﴿فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾ أي: فلا تتبعوا شهوات أنفسكم المعارضة للحق، فإنكم إن اتبعتموها عدلتم عن الصواب، ولم توفقوا للعدل، فإن الهوى إما أن يعمي بصيرة صاحبه حتى يرى الحق باطلاً والباطل حقاً، وإما أن يعرف الحق ويتركه لأجل هواه، فمن سلم من هوى نفسه، وفق للحق، وهدى إلى الصراط المستقيم.

ولما بين أن الواجب القيام بالقسط، نهى عن ما يصاد ذلك، وهو في اللسان عن الحق في الشهادات وغيرها، وتحريف النطق عن الصواب المقصود من كل وجه، أو من بعض الوجوه، ويدخل في ذلك تحريف الشهادة وعدم تكميلها، أو تأويل الشاهد على أمر آخر، فإن هذا، من اللي، لأنه الانحراف عن الحق.

﴿أو تعرضوا﴾ أي: تتركوا القسط المنوط بكم، كترك الشاهد لشهادته وترك الحاكم حكمه، الذي يجب عليه القيام به.

﴿فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ أي: محيط بما فعلتم، يعلم أعمالكم





متشاقلين لها، متبرمين من فعلها، والكسل لا يكون إلا من فقد الرغبة من قلوبهم، فلولا أن قلوبهم فارغة من الرغبة إلى الله وإلى ما عنده، عادة للإيمان، لم يصدر منهم الكسل، ﴿يراؤون الناس﴾ أي: هذا الذي انطوت عليه سرائرهم، وهذا مصدر أعمالهم، مراعاة الناس، يقصدون رؤية الناس وتعظيمهم واحترامهم، ولا يخلصون الله فلهذا

﴿لا يذكرون الله إلا قليلاً﴾ لا امتلاء قلوبهم من الرياء، فإن ذكر الله تعالى وملازمته، لا يكون إلا من مؤمن محتل قلبه بمحبة الله وعظمته.

﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾ أي: مترددين بين فريق المؤمنين وفريق الكافرين. فلا من المؤمنين ظاهراً وباطناً، ولا من الكافرين ظاهراً وباطناً. أعطوا باطنهم للكافرين، وظاهرهم للمؤمنين، وهذا أعظم ضلال يقدر. ولهذا قال: ﴿ومن يضل الله فلن نجد له سبيلاً﴾ أي: لن نجد طريقاً لهديته، ولا وسيلة لتوك غوايته، لأنه انغلق عنه باب الرحمة، وصار بدله كل نقمة.

فهذه الأوصاف المذمومة، تدل بتبنيها على أن المؤمنين متصفون بضدها، من الصدق ظاهراً وباطناً والإخلاص، وأنهم لا يجهل ما عندهم، ونشاطهم في صلاتهم وعباداتهم، وكثرة ذكركم الله تعالى. وأنهم قد هداهم الله ووقفهم للضراط المستقيم. فليعرض العاقل نفسه على هذين الأمرين، وليختار أيهما أولى به، وبالله<sup>(١)</sup> المستعان.

﴿١٤٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن نجعلوا الله عليكم سلطاناً مبيناً﴾ لما ذكر أن من صفات المنافقين اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، نهى عباده المؤمنين أن يتصفوا بهذه الحالة القبيحة، وأن يشابهوا المنافقين، فإن ذلك موجب لأن

﴿تجعلوا الله عليكم سلطاناً مبيناً﴾ أي: حجة واضحة على عقوبتكم، فإنه قد أنذرتنا وحذرتنا منها، وأخبرتنا بما فيها من المفاسد، فسلوكها بعد هذا موجب للعقاب.

وفي هذه الآية دليل على كمال عدل الله، وأن الله لا يعذب أحداً؛ قبل قيام الحجة عليه، وفيها التحذير من المعاصي؛ فإن فاعلها يجعل الله عليه سلطاناً مبيناً.

﴿١٤٥ - ١٤٧﴾ ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً﴾ إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً \* ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً \* يخبر تعالى عن مآل المنافقين، أنهم في أسفل الدركات من العذاب، وأشر الحالات من العقاب.

فهم تحت سائر الكفار، لأنهم شاركوهم بالكفر بالله ومعاداة رسله، وزادوا عليهم المكر والخديعة، والتمكن من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين، على وجه لا يشغره ولا يحس. ورتبوا على ذلك جريان أحكام الإسلام عليهم، واستحقاق ما لا يستحقونه، فبذلك ونحوه استحقوا أشد العذاب، وليس لهم منقذ من عذابه، ولا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه، وهذا عام لكل منافق، إلا من آمن بالله عليهم بالتوبة من السيئات.

﴿وأصلحوا﴾ له الظواهر والبواطن ﴿واعتصموا بالله﴾ والتجأوا إليه، في جلب منافعهم ودفع المضار عنهم.

﴿وأخلصوا دينهم﴾ الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان ﴿الله﴾. فقصدا وجه الله بأعمالهم الظاهرة والباطنة، وسلموا من الرياء والنفاق، فمن اتصف بهذه الصفات ﴿فأولئك مع المؤمنين﴾ أي: في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة. ﴿وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيماً﴾ لا يعلم كنهه

بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضل الله فلن نجد له سبيلاً \* يخبر تعالى عن المنافقين بما كانوا عليه، من قبيح الصفات، وشنائع السمات، وأن طريقتهم مخادعة الله تعالى، أي: بما أظهره من الإيمان، وأبطنه من الكفران، ظنوا أنه يروج على الله ولا يعلمه ولا يبديه لعباده، والحال أن الله خادعهم، فمجرد وجود هذه الحال منهم، ومشيهم عليها، خداع لأنفسهم. وأي: خداع أعظم ممن يسمى سعيًا يعود عليه بالهوان والذل والحرمان!!؟

ويدل بمجردة على نقص عقل صاحبه، حيث جمع بين المعصية، ورأها حسنة، وظننا من العقل والمكر، فلله ما يصنع الجهل والخذلان بصاحبه!! ومن خداعه لهم يوم القيامة ما ذكره الله في قوله: ﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم﴾ إلى آخر الآيات.

ومن صفاتهم أنهم ﴿إذا قاموا إلى الصلاة﴾ - إن قاموا - التي هي أكبر الطاعات العملية، ﴿قاموا كسالى﴾

إليه، فلماذا قال: ﴿فَإِنْ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا﴾ أي: يعفو عن زلات عباده وذنوبهم العظيمة، فيسدل عليهم ستره، ثم يعاملهم بعفوه التام الصادر عن قدرته.

وفي هذه الآية إرشاد إلى التفقه في معاني أسماء الله وصفاته، وأن الخلق والأمر صادر عنها، وهي مقتضية له، ولهذا يعمل الأحكام بالأسماء الحسنى، كما في هذه الآية.

لما ذكر عمل الخير والعفو عن المسيء رتب على ذلك، بأن أحالنا على معرفة أسمائه، وأن ذلك يغنينا عن ذكر ثوابها الخاص.

﴿١٥٠ - ١٥٢﴾ ﴿إِنَّ السَّيِّئِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْ يَبْعَثُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَتَقَدَّرُونَ بِبَعْضِ الْكُفْرِ الَّذِي كَفَرُوا بِذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أولئك هم الكافرون حقاً وأعدتنا للكافرين عذاباً مهيباً \* والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يغفروا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيتهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً \*.

هنا قسمان قد وضحا لكل أحد: مؤمن بالله ورسوله كلهم وكتبه، وكافر بذلك كله.

ويبقى قسم ثالث: وهو الذي يزعم أنه يؤمن ببعض الرسل دون بعض، وأن هذا سبيل ينجي من عذاب الله، إن هذا إلا مجرد أمان. فإن هؤلاء يريدون التفريق بين الله وبين رسوله.

فإن من تولى الله حقيقة تولى جميع رسوله، لأن ذلك من تمام تولى، ومن عادى أحداً من رسوله فقد عادى الله، وعادى جميع رسوله كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ﴾ الآيات.

وكذلك من كفر برسول فقد كفر بجميع الرسل، بل بالرسول الذي يزعم أنه به مؤمن، ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ وذلك لتلا يتوهم أن مرتبتهم متوسطة بين الإيمان والكفر.

ووجه كونهم كافرين - حتى بما

بعقابكم، بل العاصي لا يضر إلا نفسه، كما أن عمل المطيع لنفسه.

والشكر هو خضوع القلب، واعتراؤه بنعمة الله، وثناء اللسان على المشكور، وعمل الجوارح بطاعته، وأن لا يستعين بنعمه على معاصيه.

﴿١٤٨ - ١٤٩﴾ ﴿لَا يَجِبُ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَاءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ \* إن تبدوا خيراً أو تحفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفواً قديراً \* يخبر تعالى أنه لا يجب الجهر بالسوء من القول، أي: يبغي ذلك ويمقتنه ويعاقب عليه، ويشمل ذلك جميع الأقوال السيئة التي تسوء وتحزن، كالشتم والتفذ والسب ونحو ذلك، فإن ذلك كله من المنهي عنه الذي يبغيضه الله.

ويدل مفهومها أنه يجب الحسن من القول كالذكر والكلام الطيب اللين.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ أي: فإنه يجوز له أن يدعو على من ظلمه، ويتشكى<sup>(٢)</sup> منه، ويجهر بالسوء لمن جهر له به، من غير أن يكذب عليه، ولا يزيد على مظلمته، ولا يتعدى بشتمه غير ظالمه، ومع ذلك فعفوه، وعدم مقابله أولى، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.

﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ ولما كانت الآية قد اشتملت على الكلام السيء والحسن والباح، أخبر تعالى أنه سمع، فيسمع أقوالكم، فاحذروا أن تتكلموا بما يغيض ربكم فيعاقبكم على ذلك.

وفيه أيضاً ترغيب على القول الحسن ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بنياتكم ومصدر أقوالكم. ثم قال تعالى: ﴿إِنْ تَبَدَّوْا خَيْرًا أَوْ تَحَفَّوْا﴾ وهذا يشمل كل خير قول وفعل، ظاهر وباطن، من واجب ومستحب.

﴿أَوْ تَعَفَّوْا عَنِ سُوءٍ﴾ أي: عمن ساءكم في أيدانكم وأموالكم وأعراضكم، فتسمحوا عنه، فإن الجزء من جنس العمل. فمَنْ عَفَا لِلَّهِ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَحْسَنَ أَحْسَنَ اللَّهُ

إِلَّا اللَّهَ، عَمَّا لَعِنَ رَأَتْ، وَلَا أذُنَ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ.

وتأمل كيف خص الاعتصام والإخلاص بالذكر، مع دخولهما في قوله: ﴿وَأَصْلِحُوا﴾ لأن الاعتصام والإخلاص من جملة الإصلاح، لشدة الحاجة إليهما، خصوصاً في هذا المقام الحرج الذي تمكن من القلوب النفاق، فلا يزيله إلا شدة الاعتصام بالله، ودوام اللجأ والافتقار إليه في دفعه، وكون الإخلاص منافياً لكل المشافاة للنفاق، فذكرهما لفضلهما وتوقف الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما، ولشدة الحاجة في هذا المقام إليهما.

وتأمل كيف لما ذكر أن هؤلاء مع المؤمنين لم يقل: وسوف يؤتيتهم أجراً عظيماً، مع أن السياق فيهم. بل قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لأن هذه القاعدة الشريفة - لم يزل الله يبدئ فيها ويعيد، إذا كان السياق في بعض الجزئيات، وأراد أن يرتب<sup>(١)</sup> عليه ثواباً أو عقاباً وكان ذلك مشتركاً بينه وبين الجنس الداخِل فيه، رتب الثواب في مقابلة الحكم العام الذي تندرج تحته تلك القضية وغيرها، ولتلا يتوهم اختصاص الحكم بالأمر الجزئي، فهذا من أسرار القرآن البديعة، فالتائب من التالفين، مع المؤمنين وله ثوابهم.

ثم أخبر تعالى عن كمال غناه، وسعة حلمه، ورحمته وإحسانه، فقال: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَنْتُمْ﴾ والحال أن الله شاکر عليم. يعطي المتحملين لأجله الأثقال الدائنين في الأعمال جزيل الثواب وواسع الإحسان. وَمَنْ تَرَكَ شَيْئاً لَلَّهِ أَعْطَاهُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ.

ومع هذا يعلم ظاهركم وباطنكم، وأعمالكم وما تصدر عنه من إخلاص وصدق، وضد ذلك. وهو يريد منكم التوبة والإنابة والرجوع إليه، فإذا أنبتم إليه، فأني: شيء يفعل بعذابكم؟ فإنه لا يتشفي بعذابكم، ولا ينتفع

(٢) في ب: ويشتكى.

(١) في ب: يترتب.

زعموا الإيمان به - أن كل دليل دلهم على الإيمان بمن آمنوا به موجود هو أو مثله، أو ما فوقه للنبي الذي كفروا به، وكل شبهة يزعمون أنهم يقدحون بها في النبي الذي كفروا به موجود مثلها أو أعظم منها فيمن آمنوا به.

فلم يبق بعد ذلك إلا التشهي والهوى ومجرد الدعوى التي يمكن كل أحد أن يقابلها بمثلها، ولما ذكر أن هؤلاء هم الكافرون حقاً، ذكر عقاباً شاملاً لهم ولكل كافر، فقال: ﴿واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾ كما تكبروا عن الإيمان بالله، أهانهم بالعذاب الأليم المخزي.

﴿والذين آمنوا بالله ورسوله﴾ وهذا يتضمن الإيمان بكل ما أخبر الله به عن نفسه، وبكل ما جاءت به الرسل من الأخبار والأحكام. ﴿ولم يفرقوا بين أحدٍ﴾ من رسله، بل آمنوا بهم كلهم، فهذا هو الإيمان الحقيقي، واليقين المبني على البرهان.

﴿أولئك سوف يؤتوهم أجورهم﴾ أي: جزاء إيمانهم، وما ترتب عليه من عمل صالح، وقول حسن، وخلق جميل، كل على حسب حاله. ولعل هذا هو السر في إضافة الأجور إليهم، ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ يغفر السيئات ويتقبل الحسنات.

﴿١٥٣ - ١٦١﴾ ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرننا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءهم البينات فمفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً﴾ ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ فيما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلظ بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ ويكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم

وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً﴾ بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ فيظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ويصدهم عن سبيل الله كثيراً﴾ وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل واعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً﴾ هذا السؤال الصادر من أهل الكتاب للرسول محمد ﷺ على وجه العناد والافتراء، وجعلهم هذا السؤال يتوقف عليه تصديقهم أو تكذيبهم. وهو أنهم سألوه أن ينزل عليهم القرآن جملة واحدة كما نزلت التوراة والإنجيل، وهذا غاية الظلم منهم والجهل، فإن الرسول بشر عبد مدبر، ليس في يده من الأمر شيء، بل الأمر كله لله، وهو الذي يرسل وينزل ما يشاء على عباده، كما قال تعالى عن الرسول، لما ذكر الآيات التي فيها اقتراح المشركين على محمد ﷺ، ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾.

وكذلك جعلهم الفارق بين الحق والباطل مجرد إنزال الكتاب جملة أو مفرقاً، مجرد دعوى لا دليل عليها، ولا مناسبة، بل ولا شبهة، فمن أين يوجد في نبوة أحد من الأنبياء أن الرسول الذي يأتيكم بكتاب نزل مفرقاً فلا تؤمنوا به ولا تصدقوه؟

بل نزول هذا القرآن مفرقاً بحسب الأحوال، مما يدل على عظيمته واعتناء الله بمن أنزل عليه، كما قال تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً. ولا يأتونك بمثل إلا جنتناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾.

فلما ذكر اعتراضهم الفاسد أخبر أنه ليس بغريب من أمرهم، بل سبق لهم من المقدمات القبيحة ما هو أعظم مما سلكوه مع الرسول الذي يزعمون أنهم آمنوا به، من سؤالهم له رؤية الله

عياناً، واتخاذهم العجل لها يعبدونه، من بعد ما رأوا من الآيات بأبصارهم ما لم يره غيرهم.

ومن امتناعهم من قبول أحكام كتابهم وهو التوراة، حتى رفع الطور من فوق رؤوسهم، وهددوا أنهم إن لم يؤمنوا أسقط عليهم، فقبلوا ذلك على وجه الإغماض، والإيمان الشبيه بالإيمان الضروري.

ومن امتناعهم من دخول أبواب القرية التي أمروا بدخولها سجداً مستغفرين، فخالفوا القول والفعل. ومن اعتداء من اعتدى منهم في السبت، فعاقبهم الله تلك العقوبة الشنيعة.

وبأخذ الميثاق الغليظ عليهم، فتبذوه وراء ظهورهم، وكفروا بآيات الله، وقتلوا رسله بغير حق. ومن قولهم: أنهم قتلوا المسيح عيسى وصلبوه، والحال أنهم ما قتلوه وما صلبوه، بل شبه لهم غيره، قتلوا غيره وصلبوه.

وادعائهم أن قلوبهم غلظ لا تفقه ما تقول لهم ولا تفهمه، ويصدهم الناس عن سبيل الله، فصدوهم عن الحق، ودعوهم إلى ما هم عليه من الضلال والغي. وبأخذهم السحت والربا مع نبي الله لهم عنه، والتشديد فيه.

فالذين فعلوا هذه الأفاعيل، لا يستنكر عليهم أن يسألوا الرسول محمداً أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، وهذه الطريقة من أحسن الطرق لمحاكاة الخصم المبطل، وهو أنه إذا صدر منه من الاعتراض الباطل ما جعله شبهة له ولغيره في رد الحق، أن يبين من حاله الخبيثة وأفعاله الشنيعة، ما هو من أفتح ما صدر منه، ليعلم كل أحد أن هذا الاعتراض من ذلك الوادي الخسيس، وأن له مقدمات يجعل هذا معها.

وكذلك كل اعتراض يحترضون به على نبوة محمد ﷺ يمكن أن يقابل بعثله، أو ما هو أقوى منه في نبوة من يدعون إيمانهم به، ليكتفى بذلك شرهم، وينقمع باطلهم، وكل حجة سلكوها في تقريرهم لنبوة من آمنوا

به ، فإنها ونظيرها وما هو أقوى منها ، دالة ومقررة لنبوة محمد ﷺ .  
ولما كان المراد من تعدد ما عدد الله من قبائحهم هذه المقابلة ، لم يسطها في هذا الموضع ، بل أشار إليها ، وأحال على مواضعها ، وقد بسطها في غير هذا الموضع في المحل اللائق بسطها .

وقوله : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾ .  
يحتمل أن الضمير هنا في قوله : ﴿ قبل موته ﴾ يعود إلى أهل الكتاب ، فيكون على هذا كل كتابي يحضره الموت ، ويعاين الأمر حقيقة ، فإنه يؤمن بعيسى عليه السلام ، ولكنه إيمان لا يقع ، إيمان اضطرار ، فيكون مضمون هذا التهديد لهم والوعيد ، وأن لا يستمروا على هذه الحال التي سيندمون عليها قبل مماتهم ، فكيف يكون حالهم يوم حشرهم وقيامهم !!  
ويحتمل أن الضمير في قوله : ﴿ قبل موته ﴾ راجع إلى عيسى عليه السلام ، فيكون المعنى : وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بالمسيح عليه السلام قبل موت المسيح ، وذلك يكون عند اقتراب الساعة وظهور علاماتها الكبار .

فإنه تكاثرت الأحاديث الصحيحة في نزوله عليه السلام في آخر هذه الأمة . يقتل الدجال ، ويضع الجزية ، ويؤمن به أهل الكتاب مع المؤمنين . ويوم القيامة يكون عيسى عليهم شهيداً ، يشهد عليهم بأعمالهم ، وهل هي موافقة لشرع الله أم لا ؟  
وحيث لا يشهد إلا بطلان كل ما هم عليه ، مما هو مخالف لشرعة القرآن ولما دعاهم إليه محمد ﷺ ، علمنا بذلك ، لعلمنا بكمال عدالة المسيح عليه السلام وصدقه ، وأنه لا يشهد إلا بالحق ، إلا أن ما جاء به محمد ﷺ هو الحق ، وما عداه فهو ضلال وباطل .

ثم أخبر تعالى أنه حرم على أهل الكتاب كثيراً من الطيبات التي كانت حلالاً عليهم وهذا تحريم عقوبة ، بسبب ظلمهم واعتدائهم ، وصددهم الناس عن سبيل الله ، ومنعهم إياهم من الهدى ، وبأخذهم الربا وقد تنوا

عنه ، فمتعوا المحتاجين عن يبايعونه عن العدل ، فعاقبهم الله من جنس فعلهم ، فمنعهم من كثير من الطيبات التي كانوا بصدد حلها ، لكونها طيبة ، وأما التحريم الذي على هذه الأمة ، فإنه تحريم تنزيه لهم عن الحثايات التي تضرهم في دينهم ودينامهم .

﴿ ١٦٢ ﴾ ﴿ لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنوتهم أجراً عظيماً ﴾ .  
لما ذكر معايب أهل الكتاب ، ذكر المدحيين منهم ، فقال : ﴿ لكن الراسخون في العلم ﴾ . أي : الذين ثبت العلم في قلوبهم ، ورسخ الإيقان في أفئدتهم ، فأنمر لهم الإيمان التام العام ﴿ بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴾ .

وأنمر لهم الأعمال الصالحة ، من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، اللذين هما أفضل الأعمال ، وقد اشتملتا على الإخلاص للمعبد ، والإحسان إلى العبيد . وآمنوا باليوم الآخر فخافوا الوعيد ورجوا الوعد .

﴿ أولئك سنوتهم أجراً عظيماً ﴾ .  
لأنهم جمعوا بين العلم والإيمان ، والعمل الصالح ، والإيمان بالكتب والرسل السابقة واللاحقة .

﴿ ١٦٣ - ١٦٥ ﴾ ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً ﴾ .  
ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً \* رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ .  
يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله من الشرع العظيم والأخبار الصادقة ما أوحى إلى هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وفي هذا عدة فوائد :

منها : أن محمداً ﷺ ليس ببدع من الرسل ، بل أرسل الله قبله من المرسلين



العدد الكثير والجسم الغفير ، فاستغراب رسالته لا وجه له إلا الجهل أو العناد .

ومنها : أنه أوحى إليه كما أوحى إليهم من الأصول والعدل الذي اتفقوا عليه ، وأن بعضهم يصدق بعضاً ، ويوافق بعضهم بعضاً .

ومنها : أنه من جنس هؤلاء الرسل ، فليعتبره المعتبر بإخترانه المرسلين ، فدعوته دعوتهم ؛ وأخلاقهم متفقة ؛ ومصدرهم واحد ؛ وغايتهم واحدة ، فلم يقرنه بالمجهولين ؛ ولا بالكذابين ، ولا بالملوك الظالمين .

ومنها : أن في ذكر هؤلاء الرسل وتعدادهم ، من التنويه بهم ، والشناء الصادق عليهم ، وشرح أحوالهم ، مما يزداد به المؤمن إيماناً بهم ، وعبية لهم ، واقتداء بهديهم ، واستئناساً بسنتهم ، ومعرفة بحقوقهم ، ويكون ذلك مصداقاً لقوله : ﴿ سلام على نوح في العالمين ﴾ . ﴿ سلام على إبراهيم ﴾ . ﴿ سلام على موسى وهارون ﴾ . ﴿ سلام على إيل ياسين ، إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ .

فكل محسن له من الشاء الحسن بين الأنام بحسب إحسانه . والرسل - خصوصاً هؤلاء المسمون - في المرتبة العليا من الإحسان .

ولما ذكر اشتراكهم بوحية ، ذكر تخصيص بعضهم ، فذكر أنه أتى داود الزبور ، وهو الكتاب المعروف ، المزبور



طريقاً \* إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً ﴿١٦٥﴾ لما أخبر عن رسالة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وأخبر برسالة خاتمهم محمد، وشهد بها وشهدت ملائكته - لزم من ذلك، ثبوت الأمر المقرر والمشهود به، فوجب تصديقهم، والإيمان بهم واتباعهم.

ثم توعد من كفر بهم فقال: ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله﴾ أي: جمعوا بين الكفر بأنفسهم، وصددهم الناس عن سبيل الله. وهؤلاء هم أئمة الكفر ودعاة الضلال ﴿قد ضلوا ضلالاً بعيداً﴾. وأي: ضلال أعظم من ضلال من ضل بنفسه وأضل غيره، فباء بالإثميين، ورجع بالحساريتين، وفاتته الهدياتان، ولهذا قال: ﴿إن الذين كفروا وظلموا﴾ وهذا الظلم هو زيادة على كفرهم، وإلا فالكفر عند إطلاق الظلم يدخل فيه.

والمراد بالظلم هنا أعمال الكفر والاستغراق فيه، فهؤلاء بعيدون من المغفرة والهداية للصلراط المستقيم. ولهذا قال: ﴿لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً إلا طريق جهنم﴾. وإنما تعذرت المغفرة لهم والهداية، لأنهم استمروا في طغيانهم، وازدادوا في كفرانهم<sup>(١)</sup>، فطبع على قلوبهم وأسدت عليهم طرق الهداية بما كسبوا ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾.

﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ أي: لا يبالي الله بهم ولا يعذبهم، لأنهم لا يصلحون للخير، ولا يليق بهم إلا الحالة التي اختاروها لأنفسهم.

﴿١٧٠﴾ ﴿يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فأمسوا خيراً لكم وإن تكفروا فإن الله ما في السماوات والأرض وكان الله عليماً حكيماً﴾ يأمر تعالى جميع الناس أن يؤمنوا بعبده ورسوله محمد ﷺ. وذكر السبب الموجب للإيمان به، والفائدة من الإيمان به، والمفصرة من عدم الإيمان به، فالسبب الموجب هو إخباره

الحمد وله الشكر. ونسأله كما ابتدأ علينا نعمته بإرسالهم، أن يتمها بالتوفيق لسلك طريقهم، إنه جواد كريم.

﴿١٦٦﴾ ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً﴾ لما ذكر أن الله أوحى إلى رسوله محمد ﷺ كما أوحى إلى إخوانه من المرسلين، أخبر هنا بشهادته تعالى على رسالته وصحة ما جاء به، وأنه ﴿أنزله بعلمه﴾ يحتمل أن يكون المراد أنزله مشتملاً على علمه، أي: فيه من العلوم الإلهية والأحكام الشرعية والأخبار الغيبية، ما هو من علم الله تعالى الذي علم به عباده.

ويحتمل أن يكون المراد: أنزله صادراً عن علمه، ويكون في ذلك إشارة وتنبية على وجه شهادته، وأن المعنى: إذا كان تعالى أنزل هذا القرآن المشتمل على الأوامر والنواهي، وهو يعلم ذلك، ويعلم حالة الذي أنزله عليه، وأنه دعا الناس إليه، فمن أجابه وصدقه كان وليه، ومن كذبه وعاداه كان عدوه واستباح ماله ودمه، والله تعالى يمكنه، ويوالي نصره، ويحجب دعواته، ويخذل أعداءه وينصر أوليائه، فهل توجد شهادة أعظم من هذه الشهادة وأكبر؟! ولا يمكن القدح في هذه الشهادة، إلا بعد القدح بعلم الله وقدرته وحكمته، وإخباره تعالى بشهادة الملائكة على ما أنزل على رسوله، لكمال إيمانهم ولجلالة هذا المشهود عليه.

فإن الأمور العظيمة لا يستشهد عليها إلا الخواص، كما قال تعالى في الشهادة على التوحيد: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ وكفى بالله شهيداً.

﴿١٦٧ - ١٦٩﴾ ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً﴾ \* إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم

الذي خص الله به داود عليه السلام لفضله وشرفه، وأنه كلم موسى تكليماً، أي: مشافهة منه إليه، لا بواسطة، حتى اشتهر بهذا عند العالمين، فيقال: «موسى كلمه الرحمن».

وذكر أن الرسل منهم من قصه الله على رسوله، ومنهم من لم يقصصه عليه، وهذا يدل على كثرتهم وأن الله أرسلهم مبشرين لمن أطاع الله واتباعهم، بالسعادة الدنيوية والأخروية، ومنذرين من عصي الله وخالفهم بشقاوة الدارين، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل فيقولوا: ﴿ما جاءنا من بشير ولا نذير﴾. فقد جاءكم بشير ونذير.

فلم يبق للمخلوق على الله حجة لإرساله الرسل تترى، يبينون لهم أمر دينهم، ومراضي ربهم ومساخطه، وطرق الجنة وطرق النار، فمن كفر منهم بعد ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

وهذا من كمال عزته تعالى وحكمته، أن أرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وذلك أيضاً من فضله وإحسانه، حيث كان الناس مضطرين إلى الأنبياء أعظم ضرورة تقدر، فأزال هذا الاضطراب، فله

فنفخ في فرج مريم عليها السلام، فحملت بإذن الله، بعيسى عليه السلام.

فلما بين حقيقة عيسى عليه السلام، أمر أهل الكتاب بالإيمان به وبرسله، ونهاهم أن يجعلوا الله ثالث ثلاثة، فهداهم أحدهم عيسى، والثاني مريم، فهذه مقالة النصارى فبحهم الله.

فأمرهم أن ينتهوا، وأخبر أن ذلك خير لهم، لأنه الذي يتعين أنه سبيل النجاة، وما سواه فهو طريق الهلاك، ثم نزه نفسه عن الشريك والولد، فقال: ﴿إنما الله إله واحد﴾ أي: هو المنفرد بالألوهية، الذي لا تنبغي العبادة إلا له. ﴿مسيحانه﴾ أي: تنزهه وتقدس ﴿أن يكون له ولد﴾ لأن ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ فالكل مملوكون له، مفتقرون إليه، فمحال أن يكون له شريك منهم أو ولد.

ولا أخبر أنه المالك للعالم العلوي والسفلي، أخبر أنه قائم بمصالحهم الدنيوية والأخروية وحافظها، ومجازيم عليها تعال.

﴿١٧٢ - ١٧٣﴾ ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً \* فأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيوفئهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فنعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾

لما ذكر تعالى غلو النصارى في عيسى عليه السلام، وذكر أنه عبده ورسوله، ذكر هنا أنه لا يستنكف عن عبادة ربه، أي: لا يمتنع عنها رغبة عنها لا هو ﴿ولا الملائكة المقربون﴾. فزهدهم عن الاستنكاف، وتزويدهم عن الاستكبار من باب أولى، ونقي الشيء فيه إثبات ضده.

أي: فعيسى والملائكة المقربون، قد رغبوا في عبادة ربه، وأجبروا وسعوا فيها بما يليق بأحوالهم، فأوجب لهم ذلك الشرف العظيم، والقوز العظيم،

الهداية والغواية، الحكيم في وضع الهداية والغواية موضعهما.

﴿١٧١﴾ ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته أنفاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله كيلاً﴾ ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو في الدين، وهو مجاوزة الحد والقدر المشروع، إلى ما ليس بمشروع. وذلك كقول النصارى في غلوهم بعيسى عليه السلام، ورفعوا عن مقام النبوة والرسالة إلى مقام الربوبية الذي لا يليق بغير الله، فكما أن التقصير والتفريط من المنهات، فالغلو كذلك، ولهذا قال: ﴿ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾ وهذا الكلام يتضمن ثلاثة أشياء:

أمرين منهي عنهما، وهما قول الكذب على الله، والقول بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله، وشرعه ورسله، والثالث: مأمور به وهو قول الحق في هذه الأمور.

ولما كانت هذه قاعدة عامة كلية، وكان السياق في شأن عيسى عليه السلام نصّاً على قول الحق فيه، المخالف لطريقة اليهودية والنصرانية فقال: ﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾ أي: غاية المسيح عليه السلام ومنتهى ما يصل إليه من مراتب الكمال، أعلى حالة تكون للمخلوقين، وهي درجة الرسالة التي هي أعلى الدرجات، وأجل المثويات.

وأنه ﴿كلمته﴾ التي ﴿أنفاها إلى مريم﴾ أي: كلمة تكلم الله بها فكان بها عيسى، ولم يكن تلك الكلمة، وإنما كان بها، وهذا من باب إضافة التشريف والتكريم.

وكذلك قوله: ﴿وروح منه﴾ أي: من الأرواح التي خلقها، وكمثلها بالصفات الفاضلة والأخلاق الكاملة، أرسل الله روحه جبريل عليه السلام،

بأنه جاءهم بالحق. أي: فمجيئه نفسه حق، وما جاء به من الشرع حق، فإن العاقل يعرف أن بقاء الخلق في جهلهم يعمهون، وفي كفرهم يترددون، والرسالة قد انقطعت عنهم، غير لائق بحكمة الله ورحمته، فمن حكمته ورحمته العظيمة نفس إرسال الرسول إليهم، ليعرفهم الهدى من الضلال، والغي من الرشد، فمجرد النظر في رسالته دليل قاطع على صحة نبوته.

وكذلك النظر إلى ما جاء به من الشرع العظيم والصرط المستقيم. فإن فيه من الإخبار بالغيوب الماضية والمستقبلية، والخبر عن الله وعن اليوم الآخر - ما لا يعرف إلا بالوحي والرسالة. وما فيه من الأمر بكل خير وصلاح، ورشد، وعدل، وإحسان، وصدق، وبر، وصلة، وحسن خلق، ومن النهي عن الشر والفساد، والبغي والظلم، وسوء الخلق، والكذب والعقوق، مما يقطع به أنه من عند الله.

وكلما ازداد به العبد بصيرة، ازداد إيمانه ويقينه، فهذا السبب الداعي للإيمان.

وأما الفائدة في الإيمان، فأخبر أنه خير لكم والخير ضد الشر. فالإيمان خير للمؤمنين، في أديانهم وقلوبهم وأرواحهم، وديانهم وأخراهم. وذلك لما يترتب عليه من المصالح والفوائد، فكل ثواب عاجل وأجل، فمن ثمرات الإيمان، فالنصر والهدى والعلم، والعمل الصالح، والسرور والأفراح، والجنة وما اشتملت عليه، من النعيم كل ذلك مسبب عن الإيمان.

كما أن الشقاء الدنيوي والأخروي من عدم الإيمان أو نقصه. وأما مضرة عدم الإيمان به ﷺ، فيعرف بضد ما يترتب على الإيمان به. وأن العبد لا يضر إلا نفسه، والله تعالى غني عنه، لا تضره معصية العاصين، ولهذا قال: ﴿فإن لله ما في السموات والأرض﴾ أي: الجميع خلقه وملكه، وتحت تدبيره وتصريفه ﴿وكان الله عليماً﴾ بكل شيء ﴿حكيماً﴾ في خلقه وأمره. فهو العليم بمن يستحق



فلم يستكفوا أن يكونوا عبداً لربوبيته ولا لإلهيته، بل يرون افتقارهم لذلك فوق كل افتقار.

ولا يظن أن رفع عيسى أو غيره من الخلق، فوق مرتبته التي أنزله الله فيها، وترفعه عن العبادة كمالاً، بل هو النقص بعينه، وهو محل الذم والعقاب، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَسْتَكْفِرْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَيْهِ جِئِمًا﴾ أي: فسيحشر الخلق كلهم إليه، المستكفنين والمستكبرين، وعباده المؤمنين، فيحكم بينهم بحكمه العدل، وجزائه الفصل.

ثم فصل حكمه فيهم فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان بالمأمور به، وعمل الصالحات من واجبات ومستحبات، من حقوق الله وحقوق عباده.

﴿فَيُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي: الأجور التي رتبها على الأعمال، كل بحسب إيمانه وعمله.

﴿وَيُزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من الثواب الذي لم تنله أعمالهم، ولم تصل إليه أفعالهم، ولم يحط على قلوبهم. ودخل في ذلك كل ما في الجنة من المأكول والمشرب، والمناسكح، والمناسطر، والسرور، ونعيم القلب والروح، ونعيم البدن، بل يدخل في ذلك كل خير ديني ودنيوي رتب على الإيمان والعمل الصالح.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾ أي: عن عبادة الله تعالى ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهو سحق الله وغضبه، والنار الموقدة التي تطلع على الأئدة.

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: لا يجدون أحداً من الخلق يتولاهم فيحصل لهم المطلوب، ولا مَنْ ينصرهم فيدفع عنهم المرهوب، بل قد تحل عنهم أرحم الراحمين، وتركهم في عذابهم خالدين، وما حكم به تعالى فلا راد لحكمه، ولا مغير لقضائه.

﴿١٧٤ - ١٧٥﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بِرَهْمَانٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ فأما الذين آمنوا بالله

واعتمصوا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً﴾ يعنى تعالى على سائر الناس بما أوصل إليهم من البراهين القاطعة والأنوار الساطعة، ويقسم عليهم الحجة، ويوضح لهم المحجة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بِرَهْمَانٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: حجج قاطعة على الحق نبيه وتوضحه، وتبين ضده.

وهذا يشمل الأدلة العقلية والتقليدية، الآيات الأفقية والنفسية ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾.

وفي قوله: ﴿مَنْ رَبِّكُمْ﴾ ما يدل على شرف هذا البرهان وعظمته، حيث كان من ربكم الذي رباكم الترتبية الدينية والدنيوية، فمن تربيتكم لكم التي يحمد عليها ويشكر، أن أوصل إليكم البينات، ليهديكم بها إلى الصراط المستقيم، والوصول إلى جنات النعيم.

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ وهو هذا القرآن العظيم، الذي قد اشتمل على علوم الأولين والآخرين، والأخبار الصادقة النافعة، والأمر بكل عدل وإحسان وخير، والنهي عن كل ظلم وشر، فالناس في ظلمة إن لم يستضيئوا بأنواره، وفي شقاء عظيم إن لم يقبضوا من خيره.

ولكن انقسم الناس - بحسب الإيمان بالقرآن، والانتفاع به - قسمين:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ﴾ أي: اعترفوا بوجوده، واتصافه بكل وصف كامل، وتنزيهه من كل نقص وعيب. ﴿واعتمصوا به﴾ أي: لجأوا إلى الله واعتمدوا عليه، وتبرؤوا من حولهم وقوتهم، واستعانوا بربهم. ﴿فسيدخلهم في رحمة منه وفضل﴾ أي: فسيتمتعهم بالرحمة الخاصة، فيوقفهم للخيرات، ويجزل لهم الثوابات، ويدفع عنهم البليات والمكروهات.

﴿ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً﴾ أي: يوقفهم للعلم والعمل، معرفة الحق والعمل به.

أي: وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْتَصِمْ بِهِ وَيَتَمَسَّكْ بِكِتَابِهِ، منعهم من رحمته، وحرهم من فضله، وحل بينهم وبين أنفسهم، فلم يبتدوا، بل ضلوا ضلالاً مبيناً، عقوبة لهم على تركهم الإيمان، فحصلت لهم الحية والحرمات، نسأله تعالى العفو والعافية والمعافاة.

﴿١٧٦﴾ ﴿يَسْتَفْشِنُونَكَ قُلِ اللهُ يَفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَرَفْتُمْ هَلْكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانُ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلَ حِظِّ الْأُنثِيَيْنِ بَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضْلُوا وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أخبر تعالى أن الناس استغنوا رسوله ﷺ أي: في الكلاله بدليل قوله: ﴿قُلِ اللهُ يَفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ وهي الميت يموت وليس له ولد صلب ولا ولد ابن، ولا أب، ولا جد، ولهذا قال: ﴿إِنْ أَرَفْتُمْ هَلْكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي: لا ذكر ولا أنثى، لا ولد صلب ولا ولد ابن.

وكذلك ليس له والد، بدليل أنه ورث فيه الإخوة، والأخوات بالإجماع لا يرثون مع الوالد، فإذا هلك وليس له ولد، ولا والد ﴿وله أخت﴾ أي: شقيقة أو لأب، لا لأم، فإنه قد تقدم حكمها. ﴿فلها نصف ما ترك﴾ أي: نصف متروكات أخيها، من نفود وعقار وأثاث، وغير ذلك، وذلك من بعد الدين والوصية كما تقدم.

﴿وهو﴾ أي: أخوها الشقيق، أو الذي للأب ﴿يرثها إن لم يكن لها ولد﴾ ولم يقدر له إرثاً لأنه عاصب، فيأخذ مالها كله، إن لم يكن صاحب فرض ولا عاصب يشاركه، أو ما أبقت الفروض.

﴿فإن كانتا﴾ أي: الأختان ﴿اثنتين﴾ أي: فما فوق ﴿فلهما الثلثان مما ترك، وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء﴾ أي: اجتمع الذكور من الإخوة لغير أم مع الإناث ﴿فللذكر مثل حظ الأنثيين﴾ فيسقط فرض الإناث وبعضهن إخوتهن.

﴿يبين الله لكم أن تضلوا﴾ أي:

يبين لكم أحكامه التي تحتاجونها، ويوضحها ويشرحها لكم، فضلاً منه وإحساناً لكي تهتدوا ببيانه، وتعملوا بأحكامه، ولئلا تضلوا عن الصراط المستقيم بسبب جهلكم وعدم علمكم. ﴿والله بكل شيء عليم﴾ أي: عالم بالغيب والشهادة، والأمور الماضية والمستقبل، ويعلم حاجتكم إلى بيانه وتعليمه، فيعلمكم من علمه الذي ينفعكم على الدوام في جميع الأزمنة والأمكنة.

آخر تفسير سورة النساء  
فله الحمد والشكر

### تفسير سورة المائدة وهي مدنية

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحْلَتْ لَكُمْ بِهِمَةَ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا بَنَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ حَلَى الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حَرَمٌ إِنْ اللَّهُ يَحْكُمُ مَا يَرِيدُ﴾ هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالوفاء بالعقود، أي: بإكمالها، وإتمامها، وعدم نقضها ونقصها. وهذا شامل للعقود التي بين العبد وبين ربه، من التزام عبيديته، والقيام بها أتم قيام، وعدم الانتقاص من حقوقها شيئاً، والتي بينه وبين الرسول بطاعته واتباعه، والتي بينه وبين الوالدين والأقارب، ببرهم وصلتهم، وعدم قطعهم.

والتي بينه وبين أصحابه من القيام بحقوق الصحبة في الغنى والفقر، والبسر والعسر، والتي بينه وبين الخلق من عقود المعاملات، كالبيع والإجارة، ونحوهما، وعقود التبرعات كالهبة ونحوها، بل والقيام بحقوق المسلمين التي عقدها الله بينهم في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ بالتناصر على الحق، والتعاون عليه والتألف بين المسلمين وعدم التقاطع. فهذا الأمر شامل لأصول الدين

وفروعه، فكلها داخله في العقود التي أمر الله بالقيام بها. (١)  
ثم قال ممتناً على عباده: ﴿أُحْلَتْ لَكُمْ﴾ أي: لأجلكم، رحمة بكم ﴿بهيمة الأنعام﴾ من الإبل والبقر والغنم، بل ربما دخل في ذلك الوحشي منها، والظباء وحر الوحش، ونحوها من الصيد.

واستدل بعض الصحابة بهذه الآية على إباحة الجنين الذي يموت في بطن أمه بعدما تذيح.

﴿إِلَّا مَا بَنَى عَلَيْكُمْ﴾ تحريمه منها في قوله: ﴿حَرَمْتُ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ﴾ إلى آخر الآية. فإن هذه المذكورات وإن كانت من بهيمة الأنعام فإنها محرمة.

ولما كانت إباحة بهيمة الأنعام عامة في جميع الأحوال والأوقات، استثني منها الصيد في حال الإحرام فقال: ﴿غَيْرَ حَلَى الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حَرَمٌ﴾ أي: أُحْلَتْ لَكُمْ بِهِمَةَ الْأَنْعَامِ فِي كُلِّ حَالٍ، إِلَّا حَيْثُ كُنْتُمْ مُتَصَفِّينَ بِأَنْكُمُ غَيْرَ حَلَى الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حَرَمٌ، أَي: مُتَجَرِّؤُونَ عَلَى قَتْلِهِ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ، وَفِي الْحَرَمِ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَجِلُّ لَكُمْ إِذَا كَانَ صَيْدًا، كَالظَّبْيِ وَنَحْوِهِ.

والصيد هو الحيوان المأكول المتوحش.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ أي: فمهما أَرَادَهُ تَعَالَى حُكْمٌ بِهِ حُكْمًا مُوَافِقًا لِحُكْمَتِهِ، كَمَا أَمَرَكُمُ بِالْوَفَاءِ بِالْعُقُودِ لِخُصُولِ مَصَالِحِكُمْ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ عَنْكُمْ. وَأُحْلَ لَكُمْ بِهِمَةَ الْأَنْعَامِ رَحْمَةً بِكُمْ، وَحَرَمَ عَلَيْكُمْ مَا اسْتَنَى مِنْهَا مِنْ ذَوَاتِ الْعِمَارِضِ، مِنَ الْمَيْتَةِ وَنَحْوِهَا، صَوْنًا لَكُمْ وَاحْتِرَامًا، وَمَنْ صَيَدَ الْإِحْرَامَ احْتِرَامًا لِلْإِحْرَامِ وَإِعْظَامًا.

﴿٢﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشُّهُرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَتَفَوَّنَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ

وَأَنْتُمْ حَرَمٌ إِنْ اللَّهُ يَحْكُمُ مَا يَرِيدُ﴾ هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالوفاء بالعقود، أي: بإكمالها، وإتمامها، وعدم نقضها ونقصها. وهذا شامل للعقود التي بين العبد وبين ربه، من التزام عبيديته، والقيام بها أتم قيام، وعدم الانتقاص من حقوقها شيئاً، والتي بينه وبين الرسول بطاعته واتباعه، والتي بينه وبين الوالدين والأقارب، ببرهم وصلتهم، وعدم قطعهم. والتي بينه وبين أصحابه من القيام بحقوق الصحبة في الغنى والفقر، والبسر والعسر، والتي بينه وبين الخلق من عقود المعاملات، كالبيع والإجارة، ونحوهما، وعقود التبرعات كالهبة ونحوها، بل والقيام بحقوق المسلمين التي عقدها الله بينهم في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ بالتناصر على الحق، والتعاون عليه والتألف بين المسلمين وعدم التقاطع. فهذا الأمر شامل لأصول الدين وفروعه، فكلها داخله في العقود التي أمر الله بالقيام بها. (١)  
ثم قال ممتناً على عباده: ﴿أُحْلَتْ لَكُمْ﴾ أي: لأجلكم، رحمة بكم ﴿بهيمة الأنعام﴾ من الإبل والبقر والغنم، بل ربما دخل في ذلك الوحشي منها، والظباء وحر الوحش، ونحوها من الصيد. واستدل بعض الصحابة بهذه الآية على إباحة الجنين الذي يموت في بطن أمه بعدما تذيح. ﴿إِلَّا مَا بَنَى عَلَيْكُمْ﴾ تحريمه منها في قوله: ﴿حَرَمْتُ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ﴾ إلى آخر الآية. فإن هذه المذكورات وإن كانت من بهيمة الأنعام فإنها محرمة.

شأن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ أي: محرمانه التي أمركم بتعظيمها، وعدم فعلها والنهي يشمل النهي عن فعلها، والنهي عن اعتقاد حلها؛ فهو يشمل النهي، عن فعل القبيح، وعن اعتقاده.

ويدخل في ذلك النهي عن محرمان الإحرام، ومحرمان الحرم. ويدخل في ذلك ما نص عليه بقوله: ﴿وَلَا الشُّهُرَ الْحَرَامَ﴾ أي: لا تنتهكوه بالقتال فيه وغيره من أنواع الظلم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حَرَمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ فَلَا تَظْلَمُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ﴾.

والجمهور من العلماء على أن القتال في الأشهر الحرم منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحَرَامُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ وغير ذلك من العمومات التي فيها الأمر بقتال الكفار مطلقاً، والوعيد في التخلف عن قتالهم مطلقاً.

(١) في هامش أما نصه: (ويستدل بهذه الآية أن الأصل في العقود والشروط الإباحة، وأنها تنعقد بما دل عليها من قول أو فعل

أي: لا يحملتكم بغض قوم وعداوتهم واعتداؤهم عليكم، حيث صدوكم عن المسجد على الاعتداء عليهم، طلباً للاشتفاء منهم، فإن العبد عليه أن يلتزم أمر الله، ويسلك طريق العدل، ولو جني عليه أو ظلم واعتدى عليه، فلا يحمل له أن يكذب على من كذب عليه، أو يخون من خانه.

﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ أي: ليعن بعضكم بعضاً على البر - وهو: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأعمال الظاهرة والباطنة، من حقوق الله وحقوق آدميين.

والتقوى في هذا الموضع: اسم جامع لترك كل ما يكرهه الله ورسوله، من الأعمال الظاهرة والباطنة. وكل خصلة من خصال الخير المأمور بفعلها، أو خصلة من خصال الشر المأمور بتركها، فإن العبد مأمور بفعلها بنفسه، وبمعاونة غيره من إخوانه المؤمنين عليها، بكل قول يبعث عليها وينشط لها، وبكل فعل كذلك.

﴿ولا تعاونوا على الإثم﴾ وهو التجسس على المعاصي التي يأثم صاحبها، ويخرج. ﴿والمعدوان﴾ وهو التعدي على الخلق في دعاتهم وأعراضهم، فكل معصية وظلم يجب على العبد، كف نفسه عنه، ثم إعانة غيره على تركه.

﴿واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ على من عصاه وتجراً على محارمه، فاحذروا المحارم لئلا يحمل بكم عقابه العاجل والأجل.

﴿٣﴾ ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخقة والموقودة والشرية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكبت وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق﴾ هذا الذي حولنا الله عليه في قوله: ﴿إلا ما ينزل عليكم﴾.

واعلم أن الله تبارك وتعالى لا يجرم ما يجرم إلا صيانة لعباده، وحماية لهم من الضرر الموجود في المحرمات، وقد بين للعباد ذلك وقد لا بين.

فأخبر أنه حرم ﴿الميتة﴾ والمراد

﴿ولا القلائد﴾ هذا نوع خاص من أنواع الهدى، وهو الهدى الذي يفشل له فلاند أو عرى، فيجعل في أعناقهم إظهاراً لشعائر الله، وحمللاً للناس على الانتداء، وتعلماً لهم للسنة، وليعرف أنه هدى فيحترم، ولهذا كان تقليد الهدى من السنن والشعائر السنونة.

﴿ولا أمين البيت الحرام﴾ أي: قاصدين له يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً. أي: من قصد هذا البيت الحرام، وقصده فضل الله بالتجارة والمكاسب المباحة، أو قصده رضوان الله بحجه وعمرته والطواف به، والصلاة، وغيرها من أنواع العبادات، فلا تتعرضوا له بسوء، ولا تهينوه، بل أكرموا، وعظموا الوافدين الزائرين لبيت ربكم.

ودخل في هذا الأمر الأمر بتأمين الطرق الموصلة إلى بيت الله، وجعل القاصدين له مطمئنين مستريحين، غير خائفين على أنفسهم من القتل فما دونه، ولا على أموالهم من المكس والنهب ونحو ذلك.

وهذه الآية الكريمة مخصوصة بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ فالمشرك لا يمكن من الدخول إلى الحرم.

والتخصيص في هذه الآية بالتهدي عن التعرض لمن قصد البيت ابتغاء فضل الله أو رضوانه - يدل على أن من قصده ليلحد فيه بالمعاصي، فإن من تمام احترام الحرم ضد من هذه حاله عن الإفساد ببيت الله، كما قال تعالى: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾.

ولما نهاهم عن الصيد في حال الإحرام قال: ﴿وإذا حللتم من قاصطادوا﴾ أي: إذا حللتم من الإحرام بالحج والعمرة، وخرجتم من الحرم حل لكم الاضطهاد، وزال ذلك التحريم. والأمر بعد التحريم يرد الأشياء إلى ما كانت عليه من قبل.

﴿ولا يجرمكم شئان قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا﴾



وبأن النبي ﷺ قاتل أهل الطائف في ذي القعدة، وهو من الأشهر الحرم.

وقال آخرون: إن النهي عن القتال في الأشهر الحرم غير منسوخ لهذه الآية وغيرها، مما فيه النهي عن ذلك بخصوصه، وحملوا النصوص المطلقة الواردة على ذلك، وقالوا: المطلق يحمل على المقيد.

وفصل بعضهم فقال: لا يجوز ابتداء القتال في الأشهر الحرم، وأما استدامته وتكميله إذا كان أوله في غيرها، فإنه يجوز.

وحملوا قتال النبي ﷺ لأهل الطائف على ذلك، لأن أول قتالهم في «حنين» في «شوال». وكل هذا في القتال الذي ليس المقصود منه الدفع.

فأما قتال الدفع إذا ابتداء الكفار المسلمين بالقتال، فإنه يجوز للمسلمين القتال، دفعاً عن أنفسهم في الشهر الحرم وغيره بإجماع العلماء.

وقوله: ﴿ولا الهدى ولا القلائد﴾

أي: ولا تحملوا الهدى الذي يهدى إلى بيت الله في حج أو عمرة، أو غيرها من نعم وغيرها، فلا تصدوه عن الوصول إلى محله، ولا تأخذوه بسرقة أو غيرها، ولا تقصروا به، أو تحملوه ما لا يطيق، خوفاً من تلفه قبل وصوله إلى محله، بل عظموه وعظموا من جاء به.

نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم ﴿١﴾

واليوم المشار إليه يوم عرفة، إذ أتى الله دينه، ونصر عبده ورسوله، واتخذ أهل الشرك اتخذاً بليغاً، بعدما كانوا حريصين على رد المؤمنين عن دينهم، طامعين في ذلك.

فلما رأوا عز الإسلام وانتصاره وظهوره، يشسوا كل اليأس من المؤمنين، أن يرجعوا إلى دينهم، وصاروا يخافون منهم ويخشون، ولهذا في هذه السنة التي حج فيها النبي ﷺ سنة عشر حجة الوداع - لم يحج فيها مشرك، ولم يطف بالبيت عريان.

ولهذا قال: ﴿فلا تخشوهم واخشون﴾ أي: فلا تخشوا المشركين، واخشوا الله الذي نصركم عليهم وخذلهم، ورد كيدهم في نحورهم.

﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ بتمام النصر، وتكميل الشرائع الظاهرة والباطنة، الأصول والفروع، ولهذا كان الكتاب والسنة كافيين كل الكفاية، في أحكام الدين أصوله وفروعه.

فكل متكلف يزعم أنه لا بد للناس في معرفة عقائدهم وأحكامهم إلى علوم غير علم الكتاب والسنة، من علم الكلام وغيره، فهو جاهل، مبطل في دعواه، قد زعم أن الدين لا يكمل إلا بما قاله ودعا إليه، وهذا من أعظم الظلم والتجهيل لله ولرسوله.

﴿وأتممت عليكم نعمتي﴾ الظاهرة والباطنة ﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ أي: اخترته واصطفيته لكم ديناً، كما ارتضيتكم له، فقرموا به شكراً لربكم، واحمدوا الذي منَّ عليكم بأفضل الأديان وأشرفها وأكملها.

﴿فمن اضطر﴾ أي: الجائء الضرورة إلى أكل شيء من المحرمات

وقوله: ﴿إلا ما ذكيتم﴾ راجع لهذه المسائل، من منخقة، وموقودة، ومتردية، ونطيحة، وأكيلة سبيح، إذا ذكيت وفيها حياة مستقرة لتتحقق الذكاة فيها، ولهذا قال الفقهاء: «لو أبان السبيح أو غيره حشوتها، أو قطع حلقومها، كان وجود حياتها كعدمه، لعدم فائدة الذكاة فيها، أو بعضهم لم يعتبر فيها إلا وجود الحياة فإذا ذكأها وفيها حياة حلت ولو كانت ميانة الحشوة وهو ظاهر الآية الكريمة»<sup>(١)</sup>.

﴿وأن تستقسموا بالأزلام﴾ أي: وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام. ومعنى الاستقسام: طلب ما يقسم لكم ويقدر بها، وهي قِداح ثلاثة كانت تستعمل في الجاهلية، مكتوب على أحدها «افعل» وعلى الثاني «لا تفعل» والثالث غفل لا كتابة فيه.

إذا هم أحدهم بسفر أو عرس أو نحوهما، أجال تلك القِداح التساوية في الجرم، ثم أخرج واحداً منها، فإن خرج المكتوب عليه «افعل» مضى في أمره، وإن ظهر المكتوب عليه «لا تفعل» لم يفعل ولم يمض في شأنه، وإن ظهر الآخر الذي لا شيء عليه، أعادها حتى يخرج أحد القِدحين فيعمل به.

فحرمه<sup>(٢)</sup> الله عليهم الذي في هذه الصورة وما يشبهه، وعوضهم عنه بالاستخارة لربهم في جميع أمورهم.

﴿ذلكم فسق﴾ الإشارة لكل ما تقدم من المحرمات، التي حرمها الله صيانة لعباده، وأنها فسق، أي: خروج عن طاعته إلى طاعة الشيطان.

ثم امتنَّ على عباده بقوله:

﴿٣﴾ ﴿اليوم ينس النبي كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم

بالميتة: ما فقدت حياته بغير ذكاة شرعية، فإنها تحرم لضرها، وهو احتقان الدم في جوفها ولحمها المضرب بآكلها. وكثيراً ما تموت بعلة تكون سبباً لهلاكها، فتضرب بالآكل. ويستثنى من ذلك ميتة الجراد والسماك، فإنه حلال.

﴿والدم﴾ أي: المسفوح، كما قيد في الآية الأخرى. ﴿ولحم الخنزير﴾ وذلك شامل لجميع أجزائه، وإنما نص الله عليه من بين سائر الحياض من السباع، لأن طائفة من أهل الكتاب من النصراني يزعمون أن الله أحله لهم. أي: فلا تغفروا بهم، بل هو محرم من جملة الحياض.

﴿وما أهل لغبير الله به﴾ أي: ذكر عليه اسم غير الله تعالى، من الأصنام والأولياء والكواكب وغير ذلك من المخلوقين. فكما أن ذكر الله تعالى يطيب الذبيحة، فذكر اسم غيره عليها، يفيدها خبثاً معنوياً، لأنه شرك بالله تعالى.

﴿والمنخقة﴾ أي: الميتة يخفق، بيد أو حبل، أو ادخالها رأسها بشيء ضيق، فتعجز عن إخراجها حتى تموت.

﴿والموقودة﴾ أي: الميتة بسبب الضرب بعمص أو حصى أو خشبة، أو هدم شيء عليها، بقصد أو بغير قصد.

﴿والمتردية﴾ أي: الساقطة من علو، كجبل أو جدار أو سطح ونحوه، فتموت بذلك.

﴿والنطيحة﴾ وهي التي تنطحها غيرها فتموت.

﴿وما أكل السبع﴾ من ذئب أو أسد أو نمر، أو من الطيور التي تفترس الصيد، فإنها إذا ماتت بسبب أكل السبع، فإنها لا تحل.

(١) كذا في ب، وفي أ: كعدمه.

(٢) كذا في التسخين، ولعل الأقرب: فحرم.

السابقة، في قوله: ﴿حرمت عليكم المدينة﴾ ﴿في مخصصة﴾ أي: جماعة ﴿غير متجانف﴾ أي: مائل ﴿لائم﴾ بأن لا يأكل حتى يضطر، ولا يزيد في الأكل على كفايته ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ حيث أباح له الأكل في هذه الحال، ورحمه بما يقيم به بنيتة من غير نقص يلحقه في دينه.

﴿٤﴾ ﴿يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله إن الله سريع الحساب﴾ يقول تعالى لنبه محمد ﷺ: ﴿يسألونك ماذا أحل لهم﴾ من الأطعمة؟ ﴿قل أحل لكم الطيبات﴾ وهي كل ما فيه نفع أو لذة، من غير ضرر بالبدن ولا بالعقل، فدخل في ذلك جميع الحبوب والثمار التي في القرى والبراري، ودخل في ذلك جميع حيوانات البحر وجميع حيوانات البر، إلا ما استثناه الشارع، كالسباع والخبائث منها.

ولهذا دلت الآية بمفهومها على تحريم الخبائث، كما صرح به في قوله تعالى: ﴿ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾.

﴿وما علمتم من الجوارح﴾ أي: أحل لكم ما علمتم من الجوارح إلى آخر الآية. دلت هذه الآية على أمور:

أحدها: لطف الله بعباده ورحمته لهم، حيث وسع عليهم طرق الحلال، وأباح لهم ما لم يذكره مما صادته الجوارح، والمراد بالجوارح: الكلاب، والفهود، والصقور، ونحو ذلك، مما يصيد بنابه أو بمخلبه.

الثاني: أنه يشترط أن تكون معلمة، بما يعد في العرف تعليماً، بأن يسترسل إذا أرسل، ويتزجر إذا زجر، وإذا أمسك لم يأكل، ولهذا قال: ﴿تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أسكن عليكم﴾ أي: أسكن من الصيد لأجلكم.

وما أكل منه الجارح فإنه لا يعلم أنه أمسكه على صاحبه، ولعله أن يكون أمسكه على نفسه.

الثالث: اشتراط أن يجرحه الكلب أو الطير ونحوهما، لقوله: ﴿من الجوارح﴾ مع ما تقدم من تحريم المنخفة. فلو خنقه الكلب أو غيره، أو قتله بثقله لم يبيح [هذا بناء على أن الجوارح اللاتي يجرحن الصيد بأنبيها أو مخالبيها، والمشهور أن الجوارح بمعنى الكوااسب أي: المحصلات للصيد والمدركات لها فلا يكون فيها على هذا دلالة - والله أعلم -] ﴿١١﴾.

الرابع: جواز اقتناء كلب الصيد، كما ورد في الحديث الصحيح، مع أن اقتناء الكلب محرم، لأن من لازم إباحتها صيده وتعليمه جواز اقتنائه.

الخامس: طهارة ما أصابه فم الكلب من الصيد، لأن الله أباحه ولم يذكر له غسلًا، فدل على طهارته.

السادس: فيه فضيلة العلم، وأن الجارح المعلم - بسبب العلم - يباح صيده، والجاهل بالتعليم لا يباح صيده.

السابع: أن الاشتغال بتعليم الكلب أو الطير أو نحوهما، ليس مذموماً، وليس من العبث والباطل. بل هو أمر مقصود، لأنه وسيلة لحل صيده والانتفاع به.

الثامن: فيه حجة لمن أباح بيع كلب الصيد، قال: لأنه قد لا يحصل له إلا بذلك.

التاسع: فيه اشتراط التسمية عند إرسال الجارح، وأنه إن لم يسم الله متعمداً، لم يبيح ما قتل الجارح.

العاشر: أنه يجوز أكل ما صاده الجارح، سواء قتله الجارح أم لا. وأنه إن أدركه صاحبه، وفيه حياة مستقرة فإنه لا يباح إلا بها.

ثم حث تعالى على تقواه، وحذر من إثيان الحساب في يوم القيامة، وأن ذلك أمر قد دنا واقترب، فقال: ﴿واتقوا الله إن الله سريع الحساب﴾

﴿٥﴾ ﴿اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا أتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ كرر تعالى إحلال الطيبات لبيان الامتنان، ودعوة للعباد إلى شكره والإكثار من ذكره، حيث أباح لهم ما تدعوهم الحاجة إليه، ويحصل لهم الانتفاع به من الطيبات.

﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم﴾ أي: ذبائح اليهود والنصارى حلال لكم - يا معشر المسلمين - دون باقي الكفار، فإن ذبائحهم لا تحل للمسلمين، وذلك لأن أهل الكتاب يتسبون إلى الأنبياء والكتب.

وقد اتفق الرسل كلهم على تحريم الذبح لغير الله، لأنه شرك، فاليهود والنصارى يتدينون بتحريم الذبح لغير الله، فلذلك أبيحت ذبائحهم دون غيرهم. والدليل على أن المراد بطعامهم ذبائحهم، أن الطعام الذي ليس من الذبائح كالحبوب والثمار ليس لأهل الكتاب فيه خصوصية، بل يباح ذلك ولو كان من طعام غيرهم.

وأيضاً فإنه أضاف الطعام إليهم. فدل ذلك، على أنه كان طعاماً، بسبب ذبحهم. ولا يقال: إن ذلك للتمليك، وأن المراد: الطعام الذي يملكون. لأن هذا، لا يباح على وجه الغصب، ولا من المسلمين.

﴿وطعامكم﴾ أي: أهل المسلمون ﴿حل لهم﴾ أي: يحل لكم أن تطعموهم إياه ﴿وأحل لكم المحصنات﴾ أي: الحرائر العفيفات ﴿ومن المؤمنات﴾ والحرائر العفيفات ﴿من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ أي: من اليهود والنصارى.

وهذا مخصص لقوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾





لأن الله إنما أباحه مع عدم الماء .  
الرابع والثلاثون : أنه إذا دخل  
الوقت وليس معه ماء ، فإنه يلزمه طلبه  
في رحله وفيما قرب منه ، لأنه لا يقال  
«لم يجد» لمن لم يطلب .

الخامس والثلاثون : أن من وجد ماء  
لا يكفي بعض طهارته ، فإنه يلزمه  
استعماله ، ثم يتيمم بعد ذلك .

السادس والثلاثون : أن الماء المتغير  
بالبطاهرات ، مقدم على التيمم ، أي :  
يكون طهوراً ، لأن الماء المتغير ماء ،  
فيدخل في قوله : «فلم تجدوا ماء» .

السابع والثلاثون : أنه لا بد من نية  
التيمم لقوله : «فتيمموا» أي :  
اقصدوا .

الثامن والثلاثون : أنه يكفي التيمم  
بكل ما تصاعد على وجه الأرض من  
تراب وغيره . فيكون على هذا ، قوله :  
«فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه»  
إما من باب التغليب ، وأن الغالب أن  
يكون له غبار يمسح منه ويعلق بالوجه  
واليدين ، وإما أن يكون إرشاداً  
للأفضل ، وأنه إذا أمكن التراب الذي  
فيه غبار فهو أولى .

التاسع والثلاثون : أنه لا يصح  
التيمم بالتراب النجس ، لأنه لا يكون  
طيباً بل خبيثاً .

الأربعون : أنه يمسح في التيمم  
الوجه واليدان فقط ، دون بقية  
الأعضاء .

الحادي والأربعون : أن قوله :  
«بوجوهكم» شامل لجميع الوجه وأنه  
يعممه<sup>(١)</sup> بالمسح ، إلا أنه معضو عن  
إدخال التراب في الفم والأنف ، وفيما  
تحت الشعور ، ولو خفيفة .

الثاني والأربعون : أن اليدين  
تمسحان إلى الكوعين فقط ، لأن اليدين  
عند الإطلاق كذلك .

فلو كان يشترط إيصال المسح إلى  
الذراعين لقيده الله بذلك ، كما فيده  
في الوضوء .

العشرون : أنه يجب تعميم الغسل  
للبدن ، لأن الله أضاف التطهر للبدن ،  
ولم يخصه بشيء دون شيء .

الحادي والعشرون : الأمر بغسل  
ظاهر الشعر وباطنه في الجنابة .

الثاني والعشرون : أنه يدرج الحدث  
الأصغر في الحدث الأكبر ، ويكفي من  
هما عليه أن ينوي ، ثم يعمم بدنه ،  
لأن الله لم يذكر إلا التطهر ، ولم يذكر  
أنه يعيد الوضوء .

الثالث والعشرون : أن الجنب  
يصدق على من أنزل المنى يقظة أو  
مناماً ، أو جامع ولو لم ينزل .

الرابع والعشرون : أن من ذكر أنه  
احتلم ولم يجد بللاً ، فإنه لا غسل  
عليه ، لأنه لم يتحقق منه الجنابة .

الخامس والعشرون : ذكر منه الله  
تعالى على العباد ، بمشروعية التيمم .

السادس والعشرون : أن من أسباب  
جواز التيمم وجود المرض الذي يضره  
غسله بالماء ، فيجوز له التيمم .

السابع والعشرون : أن من جملة  
أسباب جوازه ، السفر والإتيان من  
البول والغائط إذا عدم الماء ، فالمرض  
يجوز التيمم مع وجود الماء لحصول  
التضرر به ، وبقاها يجوزه لعدم للماء  
ولو كان في الحضر .

الثامن والعشرون : أن الخارج من  
السبيلين من بول وغائط ، ينقض  
الوضوء .

التاسع والعشرون : استدل بها من  
قال : لا ينقض الوضوء إلا هذان  
الأمران ، فلا ينقض بلمس الفرج  
ولا بغيره .

الثلاثون : استحباب التكنية عما  
يستقدر التلطف به<sup>(٢)</sup> ، لقوله تعالى :  
«أو جاء أحد منكم من الغائط»

الحادي والثلاثون : أن لس المرأة  
بلذة وشهوة ناقض للوضوء .

الثاني والثلاثون : اشتراط عدم الماء  
لصحة التيمم .

الثالث والثلاثون : أنه مع وجود  
الماء ولو في الصلاة ، يبطل التيمم

الخفين ، على قراءة الجمر في  
«وأرجلكم» .

وتكون كل من القراءتين ، محمولة  
على معنى ، فعل قراءة النصب فيها ،  
غسلهما إن كانتا مكشوفتين ، وعلى  
قراءة الجمر فيها ، مسحهما إذا كانتا  
مستورتين بالخف .

السادس عشر : الأمر بالترتيب في  
الوضوء ، لأن الله تعالى ذكرها مرتبة .  
ولأنه أدخل مسحاً - وهو الرأس -  
بين مغسولين ، ولا يعلم لذلك فائدة  
غير الترتيب .

السابع عشر : أن الترتيب مخصوص  
بالأعضاء الأربعة المسميات في هذه  
الآية .

وأما الترتيب بين المضمضة  
والاستنشاق والوجه ، أو بين اليمنى  
واليسرى من اليدين والرجلين ، فإن  
ذلك غير واجب ، بل يستحب تقديم  
المضمضة والاستنشاق على غسل  
الوجه ، وتقديم اليمنى على اليسرى من  
اليدين والرجلين ، وتقديم مسح الرأس  
على مسح الأذنين .

الثامن عشر : الأمر بتجديد الوضوء  
عند كل صلاة ، لتوجد صورة المأمور  
به .

التاسع عشر : الأمر بالغسل من  
الجنابة .

(٣) زيادة من هامش : ب .

(٢) في ب : بعمه .

(١) كذا في ب ، وفي أ : فيه .

الثالث والأربعون: أن الآية عامة في جواز التيمم، لجميع الأحداث كلها، الحدث الأكبر والأصغر، بل ولنجاسة البدن، لأن الله جعلها بدلا عن طهارة الماء، وأطلق في الآية فلم يقيد [وقد يقال أن نجاسة البدن لا تدخل في حكم التيمم لأن السياق في الأحداث وهو قول جمهور العلماء]<sup>(١)</sup>.

الرابع والأربعون: أن محل التيمم في الحدث الأصغر والأكبر واحد، وهو الوجه واليدان.

الخامس والأربعون: أنه لو نوى من عليه حدثان التيمم عنهما، فإنه يجزىء أخذاً من عموم الآية وإطلاقها.

السادس والأربعون: أنه يكفي المسح بأي: شيء كان، يده أو غيرها، لأن الله قال: ﴿فامسحوا﴾ ولم يذكر المسوح به، فدل على جوازه بكل شيء.

السابع والأربعون: اشتراط الترتيب في طهارة التيمم، كما يشترط ذلك في الوضوء، ولأن الله بدأ بمسح الوجه قبل مسح اليدين.

الثامن والأربعون: أن الله تعالى - فيما شرعه لنا من الأحكام - لم يجعل علينا في ذلك من حرج ولا مشقة ولا عسر، وإنما هو رحمة منه بعباده ليظهرهم، وليتم نعمته عليهم.

وهذا هو التاسع والأربعون: أن طهارة الظاهر بالماء والتراب، تكهيل لظهارة الباطن بالتوحيد، والتوبة النصوح.

الخصون: أن طهارة التيمم، وإن لم يكن فيها نظافة وطهارة تدرك بالحس والمشاهدة، فإن فيها طهارة معنوية ناشئة عن امتثال أمر الله تعالى.

الحادي والخصون: أنه ينبغي للعبد أن يتدبر الحكم والأسرار في شرائع الله، في الطهارة وغيرها ليزداد معرفة وعلماً، ويزداد شكراً لله ومحبة له، على ما شرع من الأحكام النبي توصل العبد إلى المنازل العالية الرفيعة.

﴿٧٧﴾ ﴿واذكروا نعمة الله عليكم

وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور﴾ يأمر تعالى عباده بذكر نعمه الدينية والدنيوية، بقلوبهم وألسنتهم. فإن في استدامة ذكرها داعياً لشكر الله تعالى ومحبته، وامتلاء القلب من إحسانه.

وفيه زوال للعجب من النفس بالنعم الدينية، وزيادة لفضل الله وإحسانه.

﴿وميثاقه﴾ أي: واذكروا ميثاقه ﴿الذي واثقكم به﴾ أي: عهده الذي أخذه عليكم.

وليس المراد بذلك أنهم لفظوا ونطقوا بالمعهد والميثاق، وإنما المراد بذلك أنهم بإيمانهم بالله ورسوله قد التزموا طاعتها، ولهذا قال: ﴿إذ قلتم سمعنا وأطعنا﴾ أي: سمعنا ما دعوتنا به من آياتك القرآنية والكونية، سمع فهم وإذعان وانقياد. وأطعنا ما أمرتنا به بما لا مشال، وما نهيتنا عنه بالاجتناب. وهذا شامل لجميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة.

وأن المؤمنين يذكرون في ذلك عهد الله وميثاقه عليهم، وتكون منهم على بال، ويجرصون على أداء ما أمروا به كاملاً غير ناقص.

﴿واتقوا الله﴾ في جميع أحوالكم ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ أي: بما تنطوي عليه من الأفكار والأسرار والخواطر. فاحذروا أن يطلع من قلوبكم على أمر لا يرضاه، أو يصدر منكم ما يكرهه، واعصروا قلوبكم بمعرفته وعيبته والنصح لعباده. فإنكم - إن كنتم كذلك - غفر لكم السيئات، وضاعف لكم الحسنات، لعلكم بصلاح قلوبكم.

﴿٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ أي: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ بما أمروا بالإيمان به، قوموا بلازم إيمانكم، بأن تكونوا قوامين لله شهداء بالقسط، بأن تنشط للقيام بالقسط حرركاتكم الظاهرة

والباطنة وأن يكون ذلك القيام لله وحده، لا لغرض من الأغراض الدنيوية، وأن تكونوا قاصدين للقسط، الذي هو العدل، لا الإفراط ولا التفريط، في أقوالكم ولا أفعالكم، وقوموا بذلك على القريب والبعيد، والصديق والعدو.

﴿ولا يجرمنكم﴾ أي: يحملنكم بغض ﴿قوم على ألا تعدلوا﴾ كما يفعله من لا عدل عنده ولا قسط، بل كما تشهدون لوليكم، فاشهدوا عليه، وكما تشهدون على عدوكم فاشهدوا له، ولو كان كافراً أو مبتدعاً، فإنه يجب العدل فيه، وقبول ما يأتي به من الحق، لأنه حق لا لأنه قاله، ولا يرد الحق لأجل قوله، فإن هذا ظلم للحق.

﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ أي: كلما حرصتم على العدل واجتهدتم في العمل به، كان ذلك أقرب لتقوى قلوبكم، فإن تم العدل كملت التقوى.

﴿إن الله خبير بما تعملون﴾ فجازيكم بأعمالكم، خيرها وشرها، صغيرها وكبيرها، جزاء عاجلاً، وأجلاً.

﴿٩ - ١٠﴾ ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ أي: ﴿وعد الله﴾ الذي لا يخلف الميعاد وهو أصدق القائلين - المؤمنين به ويكتبه ورسله واليوم الآخر، ﴿وعملوا الصالحات﴾ من واجبات ومستحبات - بالمغفرة لذنوبهم، بالعتق عنها وعن عواقبها، وبالاجر العظيم الذي لا يعلم عظمه إلا الله تعالى.

﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾.

﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ الدالة على الحق البين، فكذبوا بها بعدما أبانت الحقائق. ﴿أولئك أصحاب الجحيم﴾ الملازمون لها ملازمة صاحب لصاحبه.

﴿١١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا



نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يسطوا  
إليكُم أيديهم فكف أيديهم عنكم  
واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿١٢﴾  
يذكر تعالى عبادة المؤمنين بتعمه  
العظيمة، ويحثهم على تذكرها بالقلب  
واللسان، وأنهم - كما أنهم يعدون  
قتلهم لأعدائهم، وأخذ أموالهم  
ويلادهم وسبيهم نعمة - فليعدوا أيضاً  
إنعامه عليهم بكف أيديهم عنهم، ورد  
كيدهم في نحورهم نعمة. فإنهم  
الأعداء قد هموا بأمر، وظنوا أنهم  
قادرون عليه.

فإذا لم يدركوا بالمؤمنين مقصودهم،  
فهو نصر من الله لعباده المؤمنين يتبني  
لهم أن يشكروا الله على ذلك،  
ويعدوه ويذكروه، وهذا يشمل كل  
من هم بالمؤمنين بشر، من كافر ومنافق  
وباغ، كف الله شره عن المسلمين، فإنه  
داخل في هذه الآية.

ثم أمرهم بما يستعينون به على  
الانتصار على عدوهم، وعلى جميع  
أمورهم، فقال: ﴿وعلى الله فليتوكل  
المؤمنون﴾ أي: يعتمدوا عليه في جلب  
مصلحتهم الدينية والدنيوية، وتبرؤوا  
من حولهم وقوتهم، ويثقوا بالله تعالى  
في حصول ما يريدون. وعلى حسب  
إيمان العبد يكون توكله، وهو من  
واجبات القلب المتفق عليها.

﴿١٢ - ١٣﴾ ﴿ولقد أخذ الله  
ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني  
عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن  
أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم  
برسلي وعززتموهم وأقرضتم الله قرضاً  
حسناً لا تكفرون عنكم سيئاتكم  
ولادخلنكم جنات تجري من تحتها  
الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد  
ضل سواء السبيل \* فيما نقضهم  
ميثاقهم لعنتهم وجعلنا قلوبهم قاسية  
يجرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً  
 مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة  
منهم إلا قليلاً منهم فاحف عنهم  
واصفح إن الله يحب المحسنين﴾ يجبر  
تعالى أنه أخذ على بني إسرائيل الميثاق  
الثقيل المؤكد، وذكر صفة الميثاق  
وأجرهم إن قاموا به، وإثمهم إن لم

يقوموا به، ثم ذكر أنهم ما قاموا به،  
وذكر ما عاقبهم به، فقال: ﴿ولقد  
أخذ الله ميثاق بني إسرائيل﴾ أي:  
عهدهم المؤكد الغليظ، ﴿وبعثنا منهم  
اثني عشر نقيباً﴾ أي: رئيساً وعريفاً  
على من تحته، ليكون ناظراً عليهم،  
حاثاً لهم على القيام بما أمروا به،  
مطالباً بدهورهم.

﴿وقال الله﴾ للنبياء الذين تحملوا  
من الأعباء ما تحملوا: ﴿إني معكم﴾  
أي: بالعون والنصر، فإن المونة بقدر  
المؤنة.

ثم ذكر ما واثقهم عليه فقال: ﴿لئن  
أقمتم الصلاة﴾ ظاهراً وباطناً، بالإتيان  
بما يلزم وينبغي فيها، والمداومة على  
ذلك ﴿وآتيتم الزكاة﴾ لمستحقيها  
﴿وآمنتم برسلي﴾ جميعهم، الذين  
أفضلهم وأكملهم محمد ﷺ،  
﴿وعززتموهم﴾ أي: عظمتهم،  
وأديتم ما يجب لهم من الاحترام  
والطاعة ﴿وأقرضتم الله قرضاً حسناً﴾  
وهو الصدقة والإحسان، الصادر عن  
الصدق والإخلاص وطيب المكسب،  
فلذا قمتم بذلك ﴿لا تكفرون عنكم  
سيئاتكم ولادخلنكم جنات تجري من  
تحتها الأنهار﴾. فجمع لهم بين حصول  
المحبوب بالجنة وما فيها من النعيم،  
واندفاع المكروه بتكفير السيئات، ودفع  
ما يترتب عليها من العقوبات.

﴿فمن كفر بعد ذلك﴾ العهد  
والميثاق المؤكد بالإيمان، والالتزامات  
المقرون بالترغيب بذكر ثوابه.

﴿فقد ضل سواء السبيل﴾ أي: عن  
عمد وعلم، فيستحق ما يستحقه  
الضالون من حرمان الثواب، وحصول  
العقاب. فكأنه قيل: ليت شعري ماذا  
فعلوا؟ وهل ففوا بما عاهدوا الله  
عليه، أم تكفروا؟

فبين أنهم نقضوا ذلك فقال: ﴿فما  
نقضهم ميثاقهم﴾ أي: بسببه عاقبناهم  
بعده عقوبات:

الأولى: ﴿لعنناهم﴾ أي:  
طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا، حيث  
أغلقوا على أنفسهم أبواب الرحمة، ولم  
يقوموا بالعهد الذي أخذ عليهم، الذي

هو سببها الأعظم.

الثانية: قوله: ﴿وجعلنا قلوبهم  
قاسية﴾ أي: غليظة لا تجدي فيها  
المواعظ، ولا تنفعها الآيات والنذر،  
فلا يرغبهم تشويق، ولا يزعجهم  
تحذير، وهذا من أعظم العقوبات على  
العبد، أن يكون قلبه بهذه الصفة التي  
لا يفيده الهدى والخير إلا شراً.

الثالثة: أنهم ﴿يجرفون الكلم عن  
مواضعه﴾ أي: ابتلوا بالتخسير  
والتبديل، فيجعلون للكلم الذي  
أراد الله معنى غير ما أَرادَه الله ولا  
رسوله.

الرابعة: أنهم ﴿نسوا حظاً مما ذكروا  
به﴾ فإنهم ذكروا بالتوراة، وبما  
أنزل الله على موسى، فنسوا حظاً منه،  
وهذا شامل لنسيان علمه، وأنهم نسوه  
وضاع عنهم، ولم يوجد كثير مما  
أساهم الله إياه عقوبة منه لهم.

وشامل لنسيان العمل الذي هو  
الترك، فلم يوفقوا للقيام بما أمروا به،  
ويستدل بهذا على أهل الكتاب  
بإنكارهم بعض الذي قد ذكر في  
كتابهم، أو وقع في زمانهم، أنه مما  
نسوه.

الخامسة: الخيانة المستمرة التي  
﴿لا تزال تطلع على خائنة منهم﴾ أي:  
خيانة الله لعباده المؤمنين.

ومن أعظم الخيانة منهم، كتمهم  
﴿عن﴾ من يعظهم ويحسن فيهم الظن  
الحق، وإيقاظهم على كفرهم، فهذه  
خيانة عظيمة. وهذه الخصال الذميمة،  
حاصلة لكل من اتصف بصفاتهم.

فكل من لم يقم بما أمر الله به،  
وأخذ به عليه الالتزام، كان له نصيب  
من اللعنة وقسوة القلب، والابتلاء  
بتحريف الكلم، وأنه لا يوفق  
للصواب، ونسيان حظ مما ذكر به،  
وأنه لا بد أن يبتلى بالخيانة، نسأل الله  
العافية.

وسمى الله تعالى ما ذكروا به حظاً،  
لأنه هو أعظم الحظوظ، وما عداه فإنما  
هي حظوظ دنيوية، كما قال تعالى:  
﴿فخرج على قومه في زينته قال الذين  
يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما





﴿٢٠ - ٢٦﴾ «وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين \* يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة إلى آخر القصة<sup>(١)</sup>. لما امتن الله على موسى وقومه بنجاتهم من فرعون وقومه وأسرمهم واستعبادهم، ذهبوا قاصدين لأوطانهم ومساكنهم، وهي بيت المقدس وما حواله، وقاربوا وصول بيت المقدس، وكان الله قد فرض عليهم جهاد عدوهم ليخرجوه من ديارهم. فوعظهم موسى عليه السلام؛ وذكرهم ليقدموا على الجهاد فقال لهم: «اذكروا نعمة الله عليكم»

«اذكروا نعمة الله عليكم» بقلوبكم وألستكم. فإن ذكرها داع إلى محبته تعالى ومنشط على العبادة، «إذ جعل فيكم أنبياء» يدعونكم إلى الهدى، ويحذرونكم من الردى ويحثونكم على سعادتكم الأبدية، ويعلمونكم ما لم تكونوا تعلمون «وجعلكم ملوكاً» تملكون أمركم، بحيث إنه زال عنكم استعباد عدوكم لكم، فكنتم تملكون أمركم، وتتمكنون من إقامة دينكم.

«وآتاكم» من النعم الدينية والدينيوية «ما لم يؤت أحداً من العالمين» فإنهم في ذلك الزمان خيرة الخلق، وأكرمهم على الله تعالى. وقد أنعم عليهم نعم ما كانت لغيرهم، فذكرهم بالنعم الدينية والدينيوية، الداعي ذلك لإيمانهم وثباته، وثباتهم على الجهاد، وإقدامهم عليه، ولهذا قال: «يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة» أي: المطهرة «التي كتب الله لكم».

فأخبرهم خيراً تطمئن به أنفسهم، إن كانوا مؤمنين مصدقين بخبر الله، وأنه قد كتب الله لهم دخولها، وانتصارهم على عدوهم.

«ولا ترتدوا» أي: ترجعوا «على أدباركم، فتنقلبوا خاسرين» قد

من مذهبهم إلا مذهب النصارى في المسيح. قال الله ردأ عليهم حيث ادعوا بلا برهان: «قل فلم يعذبكم بذنوبكم؟» فلو كنتم أحبابه ما عذبكم [لكون الله لا يجب إلا من قام بمراضيه<sup>(٢)</sup>].

«بل أنتم بشر من خلق» تجري عليكم أحكام العدل والفضل «يفخر لمن يشاء ويعذب من يشاء» إذا أتوا بأسباب المنفرة أو أسباب العذاب، «والله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير» أي: فأى شيء خضكم هذه الفضيلة، وأنتم من جملة الممالك ومن جملة من يرجع إلى الله في الدار الآخرة، فيجازيكم بأعمالكم.

﴿١٩﴾ «يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير» يدعو تبارك وتعالى أهل الكتاب - بسبب ما من عليهم من كتابه - أن يؤمنوا برسوله محمد ﷺ، ويشكروا الله تعالى الذي أرسله إليهم على حين «فترة من الرسل» وشدة حاجة إليه.

وهذا مما يدعو إلى الإيمان به، وأنه بين لهم جميع المطالب الإلهية والأحكام الشرعية.

وقد قطع الله بذلك حججهم، لئلا يقولوا: «ما جاءنا من بشير ولا نذير»، فقد جاءكم بشير ونذير» يشير بالثواب العاجل والآجل، وبالأعمال الموجبة لذلك، وصفة العاملين بها. وينذر بالعقاب العاجل والآجل، وبالأعمال الموجبة لذلك، وصفة العاملين بها.

«والله على كل شيء قدير» انقادت الأشياء طوعاً وإذعاناً لقدرة، فلا يستعصي عليه شيء منها، ومن قدرته أن أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وأنه يثيب من أطاعهم ويعاقب من عصاهم.

ولا قدرة لهم على ذلك - دل على بطلان الإلهية من لا يمتنع من الإهلاك، ولا في قوته شيء من التفكك.

ومن الأدلة أن «الله» وحده «ملك السموات والأرض» يتصرف فيهم بحكمه الكوني والشرعي والجزائي، وهم مملوكون مدبرون، فهل يليق أن يكون المملوك العبد الفقير، إلهاً معبوداً غنياً من كل وجه؟ هذا من أعظم المحال.

ولا وجه لاستغرابهم لخلق المسيح عيسى ابن مريم من غير أب، فإن الله «يخلق ما يشاء» إن شاء من أب وأم، كسائر بني آدم، وإن شاء من أب بلا أم، كحواء. وإن شاء من أم بلا أب، كعيسى. وإن شاء من غير أب ولا أم [كآدم]<sup>(٣)</sup>.

فنوع خلقته تعالى بمشيئته النافذة، التي لا يستعصي عليها شيء، ولهذا قال: «والله على كل شيء قدير».

ومن مقالات اليهود والنصارى أن كلا منهما ادعى دعوى باطلة، يزكون بها أنفسهم، بأن قال كل منهما: «نحن أبناء الله وأحباؤه».

والأين في لغتهم هو الحبيب، ولم يريدوا البتة الحقيقية، فإن هذا ليس

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) زيادة من هامش ب.

(٣) في ب: كتب الآيات إلى قوله: «فلا تأس على القوم الفاسقين».



وأنه ينبغي لك أن تتقي الله وتخافه .  
 معه داع يدعوه إلى التبيين ، وأنه لا يقدم على القتل إلا بحق ، فلما تجرأ على قتل النفس التي لم تستحق القتل ، علم أنه لا فرق عنده بين هذا المقتول وبين غيره ، وإنما ذلك بحسب ما تدعوه إليه نفسه الأتامة بالسوء . فتجرؤ على قتله ، كأنه قتل الناس جميعاً .  
 وكذلك من أحيا نفساً أي : استبقى أحداً ، فلم يقتله مع دعاء نفسه له إلى قتله ، فمنعه خوف الله تعالى من قتله ، فهذا كأنه أحيا الناس جميعاً ، لأن ما معه من الخوف يمنعه من قتل من لا يستحق القتل .  
 ودلت الآية على أن القتل يجوز بأحد أمرين :

«ومن سنَّ سُنَّةَ سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» .  
 ولهذا ورد في الحديث الصحيح أنه «ما من نفس تقتل إلا كان على ابن آدم الأول شطر من دمها ، لأنه أول من سنَّ القتل» . فلما قتل أخاه لم يدر كيف يصنع به ؛ لأنه أول ميت مات من بني آدم «فبعث الله غراباً يبحث في الأرض» أي : يثيها ليدفن غراباً آخر ميتاً . «ليريه» بذلك «كيف يوارى سوءة أخيه» أي : بدنه ، لأن بدن الميت يكون عورة «فأصبح من النادمين» وهكذا عاقبة المعاصي الندامة والحسرة .  
 ﴿٣٢﴾ «من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ولقد جاءهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون» يقول تعالى : «من أجل ذلك» الذي ذكرناه في قصة ابني آدم ، وقتل أحدهما أخاه ، وسنَّه القتل لمن بعده ، وأن القتل عاقبته وخيمة وخسارة في الدنيا والآخرة ، «كتبنا على بني إسرائيل» أهل الكتب السماوية «أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض» أي : بغير حق «فكأنما قتل الناس جميعاً» ؛ لأنه ليس

بموجب الله أن يرضى قتل ما إذا أوجرت أو لا يرضى  
 إنك أنت على الشريب ﴿٣١﴾ إذ قال الله بغيري من  
 أنكرت يرضى عليك وعلى ذلك إذ أنت روح  
 القدس منكروا الناس في التمدد كما إذا علمت  
 المسكتب واللعنة والقرينة والإيمان  
 رب الدين كرسية الطير يرضى شفع بها فكيف  
 يرضى ويؤمن باللعنة والركب يرضى كذا  
 لتوفى يرضى وإذا حسنتك وت إرضى من  
 جنهم بالركب فقال الرب كرسوا عنهم في هذا  
 سخرت ﴿٣٢﴾ فذبحوا إلى الخورقة لأن  
 يدوير يرضى قالوا ما كنا نعلمنا أننا  
 إذ قال الخورقة بغيري من كرسى على  
 أن يرضى علينا مائة من النساء قال أنكرنا  
 مؤمنين ﴿٣٣﴾ قالوا أريد أن نأخذ  
 وتعلم أن مددنا وتكون علينا من الشهور

المذكورة .

﴿إذ قريبا قرباناً﴾ أي : أخرج كل منهما شيئاً من ماله لقصده التقرب إلى الله ، «فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر» ، بأن علم ذلك بخبر من السماء ، أو بالعادة السابقة في الأمم ، أن علامة تقبل الله للقربان ، أن تنزل نار من السماء فتحرقه .

﴿قال﴾ الابن ، الذي لم يتقبل منه للآخر حسداً وبعياً «لاقتلنك» . فقال له الآخر - مترفعاً له في ذلك - «إنما يتقبل الله من المتقين» فأي : ذنب لي وجناية توجب لك أن تقتلني ؟ إلا أني اتقيت الله تعالى ، الذي تقواه واجبة على وعليك ، وعلى كل أحد ، وأصح الأقوال في تفسير المتقين هنا ، أي : المتقين لله في ذلك العمل ، بأن يكون عملهم خالصاً لوجه الله ، متبعين فيه لسنة رسول الله ﷺ

ثم قال له محسراً أنه لا يريد أن يتعرض لقتله ، لا ابتداء ولا مدافعة فقال : «لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ، ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك» وليس ذلك جناً مني ولا عجزاً . وإنما ذلك لأن «أخاف الله رب العالمين» والخائف لله لا يقدم<sup>(١)</sup> على الذنوب ، خصوصاً الذنوب الكبار . وفي هذا تحذير لمن يريد القتل ،





للكذب أكالون للسحت فإن جاؤك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين \* وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين \* إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشوا ولا تنشروا بأياتي تمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴿

منه، وذلك أن يكون المال محرزاً، فلو كان غير محرز لم يكن ذلك سرقة شرعية .

ومن الحكمة أيضاً أن لا تقطع اليد في الشيء النزر التافه، فلما كان لا بد من التقدير، كان التقدير الشرعي مخصصاً للكتاب .

والحكمة في قطع اليد في السرقة، أن ذلك حفظ للأموال، واحتياط لها، وليقطع العضو الذي صدرت منه الجنابة، فإن عاد السارق قطعت رجله اليسرى، فإن عاد، فقبل: تقطع يده اليسرى، ثم رجله اليمنى، وقيل: يجس حتى يموت .

وقوله: ﴿جزاء بما كسباً﴾ أي: ذلك القطع جزء للسارق بما سرقه من أموال الناس .

﴿نكالا من الله﴾ أي: تنكيلاً وترهيباً للسارق ولغيره، ليرتدع السراق - إذا علموا - أنهم سيقطعون إذا سرقوا .

﴿والله عزيز حكيم﴾ أي: عز وحكم فقطع السارق .

﴿فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح، فإن الله يتوب عليه، إن الله غفور رحيم﴾ فيغفر لمن تاب فترك الذنوب، وأصلح الأعمال والعيوب . وذلك أن الله ﷻ ملك السماوات والأرض، يتصرف فيهما بما شاء من التصاريف القدرية والشرعية، والمغفرة والعقوبة، بحسب ما اقتضته حكمته ورحمته الواسعة ومبغرفته .

﴿٤١ - ٤٤﴾ ﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمناً بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم توتوه فاحذروا ومن يرد الله فنته فلن تمك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يظهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم \* سماعون

الرسول ﷺ من شدة حرصه على الخلق يشد حزنه لمن يظهر الإيمان، ثم يرجع إلى الكفر، فأرشدته الله تعالى، إلى أنه لا يأسى ولا يحزن على أمثال هؤلاء . فإن هؤلاء لا في العير ولا في النفير . إن حضروا لم ينفعوا، وإن غابوا لم يفقدوا، ولهذا قال مبيناً للسبب الموجب لعدم الحزن عليهم - فقال: ﴿من الذين قالوا آمناً بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾ فإن الذين يؤسى ويحزن عليهم، من كان معدوداً من المؤمنين، وهم المؤمنون ظاهراً وباطناً، وحاشا أن يرجع هؤلاء عن دينهم ويرتدوا، فإن الإيمان - إذا خالطت بشاشته القلوب - لم يعدل به صاحبه غيره، ولم يبيح به بدلاً .

﴿ومن الذين هادوا﴾ أي: اليهود ﴿سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك﴾ أي: مستجيبيون ومقلدون لرؤسائهم، المبني أمرهم على الكذب والضلال والغي . وهؤلاء الرؤساء المتبعون ﴿لم يأتوك﴾ بل أعرضوا عنك، وفرحوا بما عندهم من الباطل وهو تحريف الكلم عن مواضعه، أي: جلب معانٍ للالفاظ ما أرادها الله ولا قصدتها، لإضلال الخلق ولدفع الحق، فهؤلاء المنقادون للدعاة إلى الضلال، المتبعين للمحال، الذين يأتون بكل كذب، لا عقول لهم ولا

فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم \* فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم \* ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير ﴿السارق: هو من أخذ مال غيره المحترم خفية، بغير رضا . وهو من كباثر الذنوب الموجبة لترتب العقوبة الشنيعة، وهو قطع اليد اليمنى، كما هو في قراءة بعض الصحابة .

وحد اليد عند الإطلاق من الكوع، فإذا سرق قطعت يده من الكوع، وحسنت في زيت لتتسد العروق فيقف الدم، ولكن السنة قيدت عموم هذه الآية من عدة أوجه :

منها: الحرز، فإنه لا بد أن تكون السرقة من حرز، وحرز كل مال: ما يحفظ به عادة . فلو سرق من غير حرز فلا قطع عليه .

ومنها: أنه لا بد أن يكون المسروق نصاباً، وهو ربع دينار، أو ثلاثة دراهم، أو ما يساوي أحدها، فلو سرق دون ذلك فلا قطع عليه .

ولعل هذا يؤخذ من لفظ السرقة ومعناها، فإن لفظ «السرقة» أخذ الشيء على وجه لا يمكن الاحتراز

(١) في ب: الله . (٢) كذا في ب، وفي أ: الذي .







هذه ما أشبهها من الأطراف التي يمكن الاقتصاد منها بدون حيف .

﴿والجروح قصاص﴾ والاقتصاد : أن يفعل به كما فعل . فمن جرح غيره عمداً اقتص من الجراح جرحاً مثل جرحه للمجروح ، حداً ، وموضعاً ، وطولاً ، وعرضاً وعمقاً ، وليعلم أن شرع من قبلنا شرع لنا ، ما لم يرد شرعنا بخلافه .

﴿فمن تصدق به﴾ أي : بالقصاص في النفس ، وما دونها من الأطراف والجروح ، بأن عفا عن جنى ، وثبت له الحق قبله .

﴿فهو كفارة له﴾ أي : كفارة للجاني ، لأن الأدمي عفا عن حقه . والله تعالى أحق وأولى بالعفو عن حقه ، وكفارة أيضاً عن العافي ، فإنه كما عفا عن جنى عليه ، أو على من يتعلق به ، فإن الله يعفو عن زلاته وجنباياته .

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ قال ابن عباس : كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق ، فهو ظلم أكبر ، عند استحلاله ، وعظيمة كبيرة عند فعله غير مستحل له .

﴿٤٦ - ٤٧﴾ ﴿وقضينا على آتاهم عيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصداقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين﴾ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ أي : وأتبعنا هؤلاء الأنبياء والمرسلين ، الذين يحكمون بالتوراة بعيدنا ورسولنا عيسى ابن مريم ، روح الله وكلمته التي القاها إلى مريم .

بعنه الله مصدقاً لما بين يديه من التوراة ، فهو شاهد موسى ولما جاء به من التوراة بالحق والصدق ، ومؤيد لدعوته ، وحاكم بشريعته ، وموافق له في أكثر الأمور الشرعية . وقد يكون عيسى عليه السلام أخف في بعض الأحكام ، كما قال تعالى عنه

الباطل ، لأجل متاع الدنيا القليل ، وهذه الآفات إذا سلم منها العالم فهو من توفيقه وسعادته ، بأن يكون همه الاجتهاد في العلم والتعليم ، ويعلم أن الله قد استحفظه ما<sup>(١)</sup> أودعه من العلم واستشهده عليه ، وأن يكون خائفاً من ربه ، ولا يمنعه خوف الناس وخشيتهم من القيام بما هو لازم له ، وأن لا يؤثر الدنيا على الدين .

كما أن علامة شقاوة العالم أن يكون مغدلاً للبطالة ، غير قائم بما أمر به ، ولا مبال بما استحفظ عليه ، قد أهمله وأضاعه ، قد باع الدين بالدنيا ، قد ارتشى في أحكامه ، وأخذ المال على فتاويه ، ولم يعلم عباد الله إلا بأجرة وجعالة .

فهذا قد من الله عليه بمنة عظيمة ، كفرها ودفن حظاً جسيماً ، محرماً منه وغيره ، فنسألك اللهم علماً نافعاً ، وعملاً متقبلاً ، وأن ترزقنا العفو والعافية من كل بلاء يا كريم .

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله﴾ من الحق المبين ، وحكم الباطل الذي يعلمه ، لغرض من أغراضه الفاسدة ﴿فأولئك هم الكافرون﴾ فالحكم بغير ما أنزل الله من أعمال أهل الكفر ، وقد يكون كفراً ينقل عن الملة ، وذلك إذا اعتقد حله وجوازه . وقد يكون كبيرة من كبائر الذنوب ، ومن أعمال الكفر قد اسحق من فعله العذاب الشديد .

﴿٤٥﴾ ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ هذه الأحكام من جملة الأحكام التي في التوراة ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار . إن الله أوجب عليهم فيها أن النفس - إذا قتلت - تقتل بالنفس بشرط العمد والمكافأة ، والعين تقلع بالعين ، والأذن تؤخذ بالأذن ، والسن ينزع بالسن . ومثل

وذلك الحكم الصادر منهم الموافق للحق ﴿بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء﴾ أي : بسبب أن الله استحفظهم على كتابه ، وجعلهم أمناء عليه ، وهو أمانة عندهم ، أوجب عليهم حفظه من الزيادة والنقصان والكتمان ، وتعليمه لمن لا يعلمه . وهم شهداء عليه ، بحيث إنهم المرجوع إليهم فيه ، وفيما اشتبه على الناس منه ، فإله تعالى قد حل أهل العلم ، ما لم يحمله الجهال ، فيجب عليهم القيام بأعباء ما حملوا .

وأن لا يقتدوا بالجهال ، بالإخلاق إلى البطالة والكسل ، وأن لا يقتصروا على مجرد العبادات القاصرة ، من أنواع الذكر ، والصلاة ، والزكاة ، والحج ، والصوم ، ونحو ذلك من الأمور ، التي إذا قام بها غير أهل العلم سلموا ونجوا .

وأما أهل العلم فكما أنهم مطالبون بالقيام بما عليهم أنفسهم ، فإنهم مطالبون أن يعلموا الناس وينبهرهم على ما يحتاجون إليه من أمور دينهم ، خصوصاً الأمور الأصولية والتي يكثر وقوعها وأن لا يخشوا الناس بل يخشون ربهم ، ولهذا قال : ﴿فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾ فتكتمون الحق ، وتظهرون

(١) في ب : بما .

أنه قال لبني إسرائيل: ﴿ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾.

﴿وآتياء الإنجيل﴾ الكتاب العظيم المنتم للتوراة. ﴿فيه هدى ونور﴾ يهدي إلى الصراط المستقيم، ويبين الحق من الباطل. ﴿ومصدقاً لما بين يديه من التوراة﴾ بتبنيها والشهادة لها والموافقة. ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾ فإنهم الذين يتفقون بالهدى، ويتعظون بالمواظع، ويرتدعون عما لا يليق.

﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه﴾ أي: يلزمهم التقيد بكتابتهم، ولا يجوز لهم العدول عنه. ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾.

﴿٤٨ - ٥٠﴾ ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجمعكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما أتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون﴾ أفحكم الجاهلية يغنون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ يقول تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب﴾ الذي هو القرآن العظيم، أفضل الكتب وأجلها.

﴿بالحق﴾ أي: إنزالاً بالحق، ومشتقاً على الحق في أخباره وأوامره ونواهي. ﴿مصدقاً لما بين يديه من الكتاب﴾ لأنه شهد لها ووافقها، وطابقت أخباره أخبارها، وشرائعه الكبار شرائعها، وأخبرت به، فصار وجوده مصداقاً لخبرها.

﴿ومهيمناً عليه﴾ أي: مشتقاً على ما اشتملت عليه الكتب السابقة، وزيادة في المطالب الإلهية والأخلاق النفسية. فهو الكتاب الذي تتبع كل

حق جاءت به الكتب فأمر به، وحث عليه، وأكثر من الطرق الموصلة إليه. وهو الكتاب الذي فيه نيا السابقين واللاحقين، وهو الكتاب الذي فيه الحكم والحكمة، والأحكام الذي عرضت عليه الكتب السابقة، فما شهد له بالصدق فهو المقبول، وما شهد له بالرد فهو مردود، قد دخله التحريف والتبديل، وإلا فلو كان من عند الله، لم يخالفه.

﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾ من الحكم الشرعي الذي أنزله الله عليك. ﴿ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق﴾ أي: لا تجعل اتباع أهوائهم الفاسدة المعارضة للحق بدلاً عما جاءك من الحق فتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

﴿لكل جعلنا منكم﴾ أيها الأمم جعلنا ﴿شرعة ومنهاجاً﴾ أي: سبيلاً وسنة، وهذه الشرائع التي تختلف باختلاف الأمم، هي التي تتغير بحسب تغير الأزمنة والأحوال، وكلها ترجع إلى العدل في وقت شرعتها، وأما الأصول الكبار التي هي مصلحة وحكمة في كل زمان، فإنها لا تختلف، فتشع في جميع الشرائع. ﴿ولو شاء الله لجمعكم أمة واحدة﴾ تبعاً لشرعية واحدة، لا يختلف متأخرها و[لا] ومقدمها.

﴿ولكن ليبلوكم فيما أتاكم﴾ فيختبركم وينظر كيف تعملون، ويتلى كل أمة بحسب ما تقتضيه حكمتها، ويؤتي كل أحد ما يليق به، وليحصل التنافس بين الأمم فكل أمة تحرص على سبق غيرها، ولهذا قال: ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ أي: بادروا إليها وأكملوها، فإن الخيرات الشاملة لكل فرض ومستحب، من حقوق الله وحقوق عباده، لا يصير فاعلها سابقاً لغيره مستولياً على الأمر، إلا بأمرين:

المبادرة إليها، وانتهاز الفرصة حين يهيء وقتها ويعرض عارضها، والاجتهاد في أدائها كاملة على الوجه المأمور به. ويستدل بهذه الآية، على المبادرة لأداء الصلاة وغيرها في أول

وقتها، وعلى أنه ينبغي أن لا يقتصر العبد على مجرد ما يجزيه في الصلاة وغيرها من العبادات من الأمور الساجية، بل ينبغي أن يأتي بالمستحبات، التي يقدر عليها لتتم وتكمل، ويحصل بها السبق.

﴿إلى الله مرجعكم جميعاً﴾ الأمم السابقة واللاحقة، كلهم سيجمعهم الله ليوم لا ريب فيه. ﴿فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ من الشرائع والأعمال، فينبئ أهل الحق والعمل الصالح، ويعاقب أهل الباطل والعمل السيء.

﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله﴾ هذه الآية هي التي قيل: إنها ناسخة لقوله: ﴿فاحكم بينهم﴾ أو أعرض عنهم.

والصحيح: أنها ليست بناسخة، وأن تلك الآية تدل على أنه ﷺ خير بين الحكم بينهم وبين عدمه، وذلك لعدم قصدهم بالتحاكم للحق. وهذه الآية تدل على أنه إذا حكم، فإنه يحكم بينهم بما أنزل الله من الكتاب والسنة، وهو القسط الذي تقدم أن الله قال: ﴿وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط﴾ ودل هذا على بيان القسط، وأن مادته هو ما شرعه الله من الأحكام، فإنها المشتمة على غاية العدل والقسط، وما خالف ذلك فهو جور وظلم.

﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ كرر النهي عن اتباع أهوائهم لشدة التحذير منها. ولأن ذلك في مقام الحكم والفتوى، وهو أوسع، وهذا في مقام الحكم وحده، وكلاهما يلزم فيه أن لا يتبع أهواءهم المخالفة للحق، ولهذا قال: ﴿واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾ أي: إياك والاعتزاز بهم، وأن يفتنوك فيصدوك عن بعض ما أنزل [الله] إليك، فصار اتباع أهوائهم سبباً موصلاً إلى ترك الحق الواجب، والفرض اتباعه.

﴿فإن تولوا﴾ عن اتباعك واتباع الحق ﴿فاعلم﴾ أن ذلك عقوبة عليهم وأن الله يريد ﴿أن يصيبهم ببعض

فثوبهم ﴿فإن للذنوب عقوبات عاجلة وأجلة، ومن أعظم العقوبات أن يتلى العبد ويزين له ترك اتباع الرسول، وذلك لفسقه.

﴿وإن كثيراً من الناس لفاسقون﴾ أي: طبيعتهم الفسق والخروج عن طاعة الله واتباع رسوله.

﴿أنفحك الجاهلية يبغون﴾ أي: أفيطلبون بتوليهم وإعراضهم عنك حكم الجاهلية، وهو كل حكم خالف ما أنزل الله على رسوله. فلا ثم إلا حكم الله ورسوله أو حكم الجاهلية. فتمنّ أعرض عن الأول ابتلي بالثاني المبني على الجهل والظلم والغي، ولهذا أضافه الله للجاهلية، وأما حكم الله تعالى فمبني على العلم، والمعدل والقسط، والنور والهدى.

﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ فالوقن هو الذي يعرف الفرق بين الحكيم ويميز - بإيقانه - ما في حكم الله من الحسن والبهاء، وأنه يتعين - عقلاً وشرعاً - اتباعه.

واليقين، هو العلم التام الموجب للعمل.

﴿٥١- ٥٢﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منهم فإنه منهم إن الله لا يبدي القوم الظالمين \* فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم ناديين \* ويقول الذين آمنوا هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين﴾ يرشد تعالى عباده المؤمنين حين بين لهم أحوال اليهود والنصارى وصفاتهم غير الحسنة، أن لا يتخذوهم أولياء. فإن بعضهم أولياء بعض يتناصرون فيما بينهم ويكفونون يداً على من سواهم، فأنتم لا تتخذوهم أولياء، فإنهم الأعداء على الحقيقة ولا يبالون

بضركم، بل لا يدخرون من جهودهم شيئاً على إضلالكم، فلا يتولاهم إلا من هو مثلهم، ولهذا قال: ﴿ومن يتولهم منهم فإنه منهم﴾ لأن التولي التام يوجب الانتقال إلى دينهم. والتولي القليل يدعو إلى الكثير، ثم يتدرج شيئاً فشيئاً، حتى يكون العبد منهم.

﴿إن الله لا يبدي القوم الظالمين﴾ أي: الذين وصفهم الظلم، وإليه يرجعون، وعليه يعولون. فلو جنتهم بكل آية ما تبعوك، ولا انقادوا لك. ولما نبى الله المؤمنين عن توليهم، أخبر أن من يدعي الإيمان طائفة توليهم، فقال: ﴿فترى الذين في قلوبهم مرض﴾ أي: شك ونفاق، وضعف إيمان، يقولون: إن تولينا إياهم للحاجة، فإننا نخشى أن تصيبنا دائرة﴾ أي: تكون الدائرة لليهود والنصارى، فإذا كانت الدائرة لهم، فإذا لنا معهم يد يكافؤونا عنها، وهذا سوء ظن منهم بالإسلام، قال تعالى - رداً لظنهم السيء -: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَّ الْفَتْحَ﴾ الذي يعز الله به الإسلام على اليهود والنصارى، ويقهرهم المسلمون ﴿أو أمر من عنده﴾ يأس به المنافقون من ظفر الكافرين من اليهود وغيرهم ﴿فيصبحوا على ما أسروا﴾ أي: أضمرنا ﴿في أنفسهم ناديين﴾ على ما كان منهم وضرهم بلا نفع حصل لهم، فحصل الفتح الذي نصر الله به الإسلام والمسلمين، وأذل به الكفر والكافرين، فندموا وحصل لهم من الغم ما الله به عليم.

﴿ويقول الذين آمنوا﴾ متعجبين من حال هؤلاء الذين في قلوبهم مرض: ﴿أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم﴾ أي: حلفوا وأكدوا حلفهم، وغلظوه بأنواع التأكيدات: إنهم لمعكم في الإيمان، وما يلزمه من النصرة والمحبة والموالاة، ظهر ما أضمره، وتبين ما أسروه، وصار كيدهم الذي كادوه، وظنهم الذي ظنوه بالإسلام وأهله - باطلاً،

فبطل كيدهم وبطلت أعمالهم﴾ في الدنيا ﴿فأصبحوا خاسرين﴾ حيث فاتهم مقصودهم، وحضرهم الشقاء والعذاب.

﴿٥٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾ يخبر تعالى أنه الغني عن العالمين، وأنه من يرتد عن دينه فلن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه. وأن الله عبداً لمخلصين، ورجالاً صادقين، قد تكفل الرحمن الرحيم بهدياتهم، ووعد بالإتيان بهم، وأنهم أكمل الخلق أوصافاً، وأقوامهم نفوساً، وأحسنهم أخلاقاً، أجل صفاتهم أن الله يحبهم ويحبونه. ﴿فإن محبة الله للعبد هي أجل نعمة أنعم بها عليه، وأفضل فضيلة، تفضل الله بها عليه، وإذا أحب الله عبداً يسر له الأسباب، وهون عليه كل عسير، ووفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات، وأقبل بقلوب عباده إليه بالمحبة والوداد.

ومن لوازم محبة العبد لربه، أنه لا بد أن يتصف بمتابعة الرسول ﷺ ظاهراً وباطناً، في أقواله وأعماله وجميع أحواله، كما قال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبكم الله﴾. كما أن من لازم<sup>(١)</sup> محبة الله للعبد، أن يكثر العبد من التقرب إلى الله بالفرائض والتواضع، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح عن الله: ﴿وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، ولا يزال [عبدي] يتقرب إلي بالتواضع حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألتني لآعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه﴾.

ومن لوازم محبة الله معرفته تعالى، والإكثار من ذكره، فإن المحبة بدون معرفة بالله ناقصة جداً، بل غير موجودة وإن وجدت دعواها، ومن أحب الله أكثر من ذكره، وإذا أحب الله عبداً قبل منه اليسير من العمل، وغفر له الكثير من الزلل.

ومن صفاتهم أنهم ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ فهم للمؤمنين أذلة من محبتهم لهم، ونصحهم لهم، ولينهم ورفقهم وورافتهم، ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم، وقرب الشيء الذي يطلب منهم وعلى الكافرين بالله، المعاندين لآياته، المكذبين لرسله - أعزة قد

اجتمعت همهم وعزائمهم على معاداتهم، وبذلوا جهدهم في كل سبب يحصل به الانتصار عليهم، قال تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾ وقال تعالى: ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ فالغلظة والشدة على أعداء الله مما يقرب العبد إلى الله، ويوافق العبد ربه في سخطه عليهم، ولا تمنع الغلظة عليهم والشدة دعوتهم إلى الدين الإسلامي والتي هي أحسن. فتجتمع الغلظة عليهم، واللين في دعوتهم، وكلا الأمرين من مصلحتهم ونفعه عائد إليهم.

﴿يجاهدون في سبيل الله﴾ بأموالهم وأنفسهم، بأقوالهم وأفعالهم. ﴿ولا يخافون لومة لائم﴾ بل يقدمون رضائهم والخوف من لومه على لوم المخلوقين، وهذا يدل على قوة همهم وعزائمهم، فإن ضعيف القلب ضعيف الهمة، تنتقض عزيمته عند لوم اللاتمين، وتفترق قوته عند عذل العاذلين. وفي قلوبهم تعبد لغير الله، بحسب ما فيها من مراعاة الخلق وتقديم رضاهم ولومهم على أمر الله، فلا يسلم القلب من التعبد لغير الله، حتى لا يخاف في الله لومة لائم.

ولما مدحهم تعالى بما من به عليهم من الصفات الجليلة والمناقب العالية، المستلزمة لما لم يذكر من أفعال الخير - أخبر أن هذا من فضله عليهم وإحسانه لئلا يعجبوا بأنفسهم، وليشكروا الذي من عليهم بذلك ليزيدهم من فضله، وليلعلم غيرهم أن فضل الله تعالى ليس عليه حجاب، فقال: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾ أي: واسع الفضل والإحسان، جزيل المنن، قد عمت رحمته كل شيء، ويوسع على أوليائه من فضله، ما لا يكون لغيرهم، ولكنه عليم بمن يستحق الفضل فيعطيه، فالله أعلم حيث يجعل رسالته أصلاً وفرعاً.

﴿٥٥ - ٥٦﴾ ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾ لما نهى عن ولاية الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم، وذكر مال توليهم أنه الحسran المبين، أخبر تعالى من يجب ويتعين توليه، وذكر فائدة ذلك ومصلحته فقال: ﴿إنما وليكم الله ورسوله﴾. فولاية الله تدرك بالإيمان والتقوى. فكل من كان مؤمناً تقياً كان لله ولياً، ومن كان ولياً لله فهو ولي لرسوله، ومن تولي الله ورسوله كان تمام ذلك تولي من تولاه، وهم المؤمنون الذين قاموا بالإيمان ظاهراً وباطناً، وأخلصوا للمعبود، بإقامتهم الصلاة بشروطها وفروضها ومكملاتها، وأحسنوا للمخلوق، وبذلوا الزكاة من أموالهم لمستحقها منهم.

وقوله: ﴿وهم راكعون﴾ أي: خاضعون لله ذليلون. فإداة الحصر في قوله: ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾ تدل على أنه يجب قصر الولاية على المذكورين، والتبري من ولاية غيرهم.

ثم ذكر فائدة هذه الولاية فقال: ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا

بَلِّغُوا لَهُمْ بَلَاتًا يُبَيِّنُ لَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٥٥﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٦٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٦١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٦٢﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٦٥﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٦٩﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٧٥﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٧٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٧٩﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٨٢﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٨٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٨٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٨٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٨٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٨٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٨٩﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٩٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٩١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٩٢﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٩٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٩٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٩٥﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٩٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٩٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٩٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿٩٩﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿١٠٠﴾

فإن حزب الله هم الغالبون﴾ أي: فإنه من الحزب المصافين إلى الله إضافة عبودية وولاية، وحزبه هم الغالبون الذين لهم العاقبة في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وإن جنودنا لهم الغالبون﴾.

وهذه بشارة عظيمة لمن قام بأمر الله وصار من حزبه وجنده، أن له الغلبة، وإن أديل عليه في بعض الأحيان لحكمة يريد بها الله تعالى، فأخر أمره، الغلبة والانتصار، ومن أصدق من الله قبلاً.

﴿٥٧ - ٥٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ وإذا ناديتهم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾ ينهى عباده المؤمنين عن اتقاد أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن سائر الكفار أولياءه يمجورهم ويتولونهم، ويبعدون لهم أسرار المؤمنين، ويعاونونهم على بعض أمورهم التي تضر الإسلام والمسلمين، وأن ما مهمهم من الإيمان يوجب عليهم ترك موالاتهم، ويحشهم على معاداتهم، وكذلك التزامهم لتقوى الله التي هي امتثال أوامره واجتناب زواجره مما

وهذا النوع من باب استعمال أفعال التفضيل في غير بابه وكذلك قوله: ﴿وأضل عن سواء السبيل﴾ أي: وأبعد عن قصد السبيل.

﴿وإذا جاؤكم قالوا آمنا﴾ نفاقاً ومكراً ﴿و﴾ هم ﴿قد دخلوا﴾ مشتملين على الكفر ﴿وهم قد خرجوا به﴾ فمدخلهم ومخرجهم بالكفر - وهم يزعمون أنهم مؤمنون، فهل أشر من هؤلاء وأقبح حالا منهم!!!

﴿والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾ فيجازيم بأعمالهم خيرا وشرها.

ثم استمر تعالى بعدد معائبهم، انتصاراً لقدحهم في عبادة المؤمنين، فقال: ﴿وترى كثيراً منهم﴾ أي: من اليهود ﴿يسارعون في الإنم والعدوان﴾ أي: يحرصون، ويبادرون المعاصي المتعلقة في حق الخالق والعدوان على المخلوقين.

﴿وأكلهم السحت﴾ الذي هو الحرام. فلم يكف بمجرد الإخبار أنهم يفعلون ذلك، حتى أخبر أنهم يسارعون فيه، وهذا يدل على خبثهم وشرهم، وأن أنفسهم مجبولة على حب المعاصي والظلم. هذا وهم يدعون لأنفسهم المقامات العالية. ﴿لبئس ما كانوا يعملون﴾ وهذا في غاية الذم لهم والقدح فيهم.

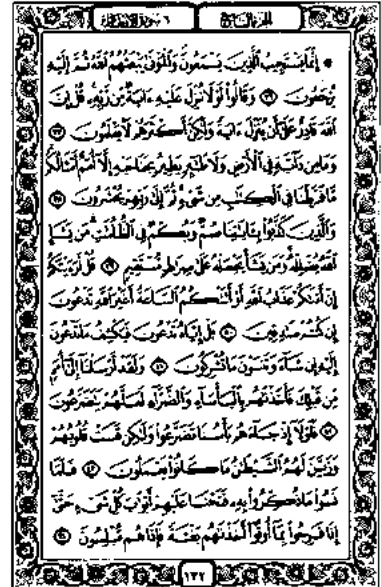
﴿لولا بناهاهم الربانيون والأخبار عن قولهم الإنم وأكلهم السحت﴾ أي: هلا بناهاهم العلماء المتصدون لنفع الناس، الذين آمن الله عليهم بالعلم والحكمة - عن المعاصي التي تصدر منهم، ليزول ما عندهم من الجهل، وتقوم حجة الله عليهم، فإن العلماء عليهم أمر الناس ونهيهم، وأن يبينوا لهم الطريق الشرعي، ويرغبوهم في الخير ويرهبوهم من الشر ﴿لبئس ما كانوا يصنعون﴾

﴿٦٤ - ٦٦﴾ «وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما

عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل \* وإذا جاؤكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون \* وترى كثيراً منهم يسارعون في الإنم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون \* لولا بناهاهم الربانيون والأخبار عن قولهم الإنم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون \* أي: ﴿قل﴾ يا أيها الرسول: ﴿يا أهل الكتاب﴾ ملزماً لهم، إن دين الإسلام هو الدين الحق، وإن قدحهم فيه قدح بامر ينبغي المدح عليه: ﴿هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون﴾ أي: هل لنا عندكم من العيب إلا إيماننا بالله، وكتبته السابقة واللاحقة، وبأنبيائه المتقدمين والتأخرين، وبأننا نجزم أن من لم يؤمن كهذا الإيمان فإنه كافر فاسق؟

فهل تنقمون منا بهذا الذي هو أوجب الراجبات على جميع المكلفين!!! ومع هذا فأكثركم فاسقون، أي: خارجون عن طاعة الله، متجرئون على معاصيه، فأولى لكم - أيها الفاسقون - السكوت، فلو كان عيبكم وأنتم سالون من الفسق، وهيئات ذلك - لكان الشر أخف من قدحكم فيما مع فسقكم.

ولما كان قدحهم في المؤمنين يقتضي أنهم يعتقدون أنهم على شر، قال تعالى: ﴿قل﴾ لهم مغبراً عن شناعة ما كانوا عليه: ﴿هل أنبتكم بشر من ذلك﴾ الذي نعمتم فيه علينا، مع التنزل معكم. ﴿من لعنة الله﴾ أي: أبعده عن رحمة ﴿وغضب عليه﴾ وعاقبه في الدنيا والآخرة ﴿وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت﴾ وهو الشيطان، وكل ما عُبد من دون الله فهو طاغوت. ﴿ولئك﴾ المذكورون بهذه الخصال الفبيحة ﴿شر مكاناً﴾ من المؤمنين الذين رحمة الله قريب منهم، ورضي الله عنهم وأثنى عليهم في الدنيا والآخرة، لأنهم اخلصوا له الدين.



تدعوهم إلى معادتهم، وكذلك ما كان عليه المشركون والكفار المخالفون للمسلمين، من قدحهم في دين المسلمين، واتخاذهم إياه هزواً ولعباً، واحتقاره واستصغاره، خصوصاً الصلاة التي هي أظهر شعائر المسلمين، وأجل عباداتهم، إنهم إذا نادوا إليها اتخذوها هزواً ولعباً، وذلك لعدم عقلهم وجهلهم العظيم، وإلا فلو كان لهم عقول لخضعوا لها، ولعلموا أنها أكبر من جميع الفضائل التي تنصف بها النفوس.

فإذا علمتم - أيها المؤمنون - حال الكفار وشدة معادتهم لكم ولدينكم، فمن لم يعادهم بعد هذا دل على أن الإسلام عنده رخيص، وأنه لا يبالي بمن قدح فيه أو قدح بالكفر والضلال، وأنه ليس عنده من الرومة والإنسانية شيء.

فكيف تدعي لنفسك ديناً قبيحاً، وأنه الدين الحق وما سواء باطل، وترضى بموالاة من اتخذ هزواً ولعباً، وسخر به وبأهله، من أهل الجهل والحقم!؟

وهذا فيه من التهيج على عداوتهم ما هو معلوم لكل من له أدنى مفهوم.

﴿٥٩ - ٦٣﴾ ﴿قل﴾ يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون \* قل هل أنبتكم بشر من ذلك مثوية عند الله من لعنه الله وغضب





القرآن والتوراة والإنجيل، أن سعادتهم ونجاتهم في طريق واحد، وأصل واحد، وهو الإيمان بالله واليوم الآخر [والعمل الصالح] (١). فمن آمن منهم بالله واليوم الآخر، فله النجاة، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه من الأمور المخوفة، ولا هم يحزنون على ما خلفوا منها. وهذا الحكم المذكور يشمل سائر الأزمنة.

﴿٧٠ - ٧١﴾ ﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلاً كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون﴾ وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وطمعوا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وطمعوا كثير

منهم والله بصير بما يعملون﴾ يقول تعالى: ﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل أي: عهدهم الثقيل بالإيمان بالله، والقيام بواجباته التي تقدم الكلام عليها في قوله: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾ إلى آخر الآيات ﴿وأرسلنا إليهم رسلاً﴾ يتوالون عليهم بالدعوة، ويتعاهدونهم بالإرشاد، ولكن ذلك لم ينجع فيهم، ولم يفد ﴿كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم﴾ من الحق كذبوه وعاندوه، وعاملوه أتبع المعاملة ﴿فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون، وحسبوا أن لا تكون فتنة﴾ أي: ظنوا أن معصيتهم وتكذيبهم لا يجير عليهم عذاباً ولا عقوبة، فاستمروا على باطلهم. ﴿فعموا وطمعوا﴾ عن الحق ﴿ثم نعتشهم﴾ و﴿تاب الله عليهم﴾ حين تابوا إليه وأنابوا ﴿ثم﴾ لم يستمروا على ذلك حتى انقلب أكثرهم إلى الحال النقيحة. ﴿فعموا وطمعوا كثير منهم﴾ بهذا الوصف، والغليل استمروا على توبتهم وإيمانهم. ﴿والله بصير بما يعملون﴾ فيجازي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿٧٢ - ٧٥﴾ ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي

﴿وان لم تفعل﴾ أي: لم تبلغ ما أنزل إليك من ربك ﴿فما بلغت رسالته﴾ أي: فما امتثل أمره.

﴿والله يعصمك من الناس﴾ هذه حماية وعصمة من الله لرسوله من الناس، وأنه ينبغي أن يكون حرصك على التعليم والتبليغ، ولا يشك عنك خوف من المخلوقين فإن نواصيهم بيد الله وقد تكفل بعصمتك، فأنت إنما عليك البلاغ المبين، فمن اعتدى فلنفسه، وأما الكافرون الذين لا قصد لهم إلا اتباع أهوائهم فإن الله لا يهديهم ولا يوفقههم للخير، بسبب كفرهم.

﴿٦٨﴾ ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً فلا تأس على القوم الكافرين﴾ أي: قل لأهل الكتاب، منادياً على ضلالهم، ومعلنأً باطلهم: ﴿لستم على شيء﴾ من الأمور الدينية، فإنكم لا بالقرآن ومحمد أمتمم، ولا بنبِيِّكم وكتابكم صدقتم، ولا بحق محسنتم، ولا على أصل اعتمادتم ﴿حتى تقيموا التوراة والإنجيل﴾ أي: تجعلوهما قائمين بالإيمان بهما واتباعهما، والتمسك بكل ما يدعوان إليه.

﴿و﴾ تقيموا ﴿ما أنزل إليكم من ربكم﴾ الذي رباكم، وأنعم عليكم، وجعل أجل إنعامه، إنزال الكتب إليكم. فالواجب عليكم، أن تقوموا بشكر الله، وتلتزموا أحكام الله، وتقوموا بما حملتم من أمانة الله وعهده.

﴿وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً، فلا تأس على القوم الكافرين﴾

﴿٦٩﴾ ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ يجير تعالى عن أهل الكتب (١)، من أهل

الرزق، ولا مطر عليهم السماء، وأنت لهم الأرض كما قال تعالى: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾.

﴿منهم﴾ أي: من أهل الكتاب ﴿أمة مقتصد﴾ أي: عاملة بالتوراة والإنجيل، عملاً غير قوي ولا نشيط، وكثير منهم ساء ما يعملون﴾ أي: والمسيء منهم الكثير. وأما السابقون منهم فقليل ما هم.

﴿٦٧﴾ ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾ هذا أمر من الله لرسوله محمد ﷺ بأعظم الأوامر وأجلها، وهو التبليغ لما أنزل الله إليه، ويدخل في هذا كل أمر تلقته الأمة عنه ﷺ من العقائد والأعمال والأقوال، والأحكام الشرعية والمطالب الإلهية. فيبلغ ﷺ أكمل تبليغ، ودعاً وأندز وبشر، وبشراً، وعلم الجاهال الأميين حتى صاروا من العلماء الربانيين، وبلغ بقوله وفعله وكتبه ورسله. فلم يبق خيراً إلا دل أمته عليه، ولا شر إلا حذرهما عنه، وشهد له بالتبليغ أفاضل الأمة من الصحابة، فمن بعدهم من أئمة الدين ورجال المسلمين.

(٢) زيادة من هامش ب.

(١) في ب: الكتاب.

وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار \* لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم \* أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم \* ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون \* يخبر تعالى عن كفر النصرارى بقولهم: **﴿إن الله هو المسيح ابن مريم﴾** بشبهة أنه خرج من أم بلا أب، وخالف اليهود من الخلقة الإلهية، والحال أنه عليه الصلاة والسلام قد كذبهم في هذه الدعوى، وقال لهم: **﴿يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم﴾** فأثبت لنفسه العبودية التامة، ولربه الربوبية الشاملة لكل مخلوق.

وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار \* لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم \* أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم \* ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون \* يخبر تعالى عن كفر النصرارى بقولهم: **﴿إن الله هو المسيح ابن مريم﴾** بشبهة أنه خرج من أم بلا أب، وخالف اليهود من الخلقة الإلهية، والحال أنه عليه الصلاة والسلام قد كذبهم في هذه الدعوى، وقال لهم: **﴿يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم﴾** فأثبت لنفسه العبودية التامة، ولربه الربوبية الشاملة لكل مخلوق.

بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص، منفرد بالخلق والتدبير، ما بالخلق من نعمته إلا منه. فكيف يجعل معه إله غيره؟! تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص، منفرد بالخلق والتدبير، ما بالخلق من نعمته إلا منه. فكيف يجعل معه إله غيره؟! تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص، منفرد بالخلق والتدبير، ما بالخلق من نعمته إلا منه. فكيف يجعل معه إله غيره؟! تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص، منفرد بالخلق والتدبير، ما بالخلق من نعمته إلا منه. فكيف يجعل معه إله غيره؟! تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص، منفرد بالخلق والتدبير، ما بالخلق من نعمته إلا منه. فكيف يجعل معه إله غيره؟! تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص، منفرد بالخلق والتدبير، ما بالخلق من نعمته إلا منه. فكيف يجعل معه إله غيره؟! تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص، منفرد بالخلق والتدبير، ما بالخلق من نعمته إلا منه. فكيف يجعل معه إله غيره؟! تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص، منفرد بالخلق والتدبير، ما بالخلق من نعمته إلا منه. فكيف يجعل معه إله غيره؟! تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص، منفرد بالخلق والتدبير، ما بالخلق من نعمته إلا منه. فكيف يجعل معه إله غيره؟! تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص، منفرد بالخلق والتدبير، ما بالخلق من نعمته إلا منه. فكيف يجعل معه إله غيره؟! تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص، منفرد بالخلق والتدبير، ما بالخلق من نعمته إلا منه. فكيف يجعل معه إله غيره؟! تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص، منفرد بالخلق والتدبير، ما بالخلق من نعمته إلا منه. فكيف يجعل معه إله غيره؟! تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص، منفرد بالخلق والتدبير، ما بالخلق من نعمته إلا منه. فكيف يجعل معه إله غيره؟! تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.



سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون \* ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون ﴿ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق﴾ أي: لا تتجاوزوا وتعدوا الحق إلى الباطل، وذلك كقولهم في المسيح، ما تقدم حكايته عنهم.

وكتلواهم في بعض المشايخ، اتباعاً لـ ﴿أهواء قوم قد ضلوا من قبل﴾ أي: تقدم ضلالهم.

﴿وأضلوا كثيراً﴾ من الناس بدعوتهم إياهم إلى الدين، الذين هم عليه. ﴿وضلوا عن سواء السبيل﴾ أي: قصد الطريق، فجمعوا بين الضلال والإضلال، وهؤلاء هم أئمة الضلال الذين حذر الله عنهم وعن اتباع أهوائهم المردية، وآرائهم المضلة، ثم قال تعالى: ﴿لمن الذين كفروا من بني إسرائيل﴾ أي: طردوا وأبعدوا عن رحمة الله ﴿على لسان داود وعيسى ابن مريم﴾ أي: بشهادتهما وإقرارهما، بأن الحجة قد قامت عليهم، وعاندوها.

﴿ذلك﴾ الكفر واللعن ﴿بما عصوا﴾ وكانوا يمتدنون ﴿أي: بمعصيتهم لله، وظلمهم لعباد الله، صار سبباً لكفرهم وبعدهم عن رحمة الله، فإن للذنوب والظلم عقوبات.

ومن معاصيهم التي أحلت بهم المثالات، وأوقعت بهم العقوبات أنهم: ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾ أي: كانوا يفعلون المنكر، ولا ينهون بعضهم بعضاً، فيشترك بذلك المباشر وغيره، الذي سكت عن النهي عن المنكر مع قدرته على ذلك.

وذلك يدل على تجاوزهم بأمر الله، وأن معصيته خفيفة عليهم، فلو كان لديهم تعظيم لربهم لغاروا لمحارمه، ولغضبوا لغضبه، وإنما كان السكوت عن المنكر - مع القدرة - موجيباً للعقوبة، لما فيه من المفاصد العظيمة: منها: أن مجرد السكوت، فعل

معصية، وإن لم يباشرها الساكت. فإنه - كما يجب اجتناب المعصية - فإنه يجب الإنكار على من فعل المعصية.

ومنها: ما تقدم أنه يدل على التهاون بالمعاصي، وقلة الاكتراث بها.

ومنها: أن ذلك يجري العصاة والفسقة على الإكثار من المعاصي إذا لم يردعوا عنها، فيزداد الشر، وتعظم المصيبة الدينية والدنيوية، ويكون لهم الشوكة والظهور، ثم بعد ذلك يضعف أهل الخير عن مقاومة أهل الشر، حتى لا يقدر على ما كانوا يقدرون عليه أولاً.

ومنها: أن - في ترك<sup>(١)</sup> الإنكار للمنكر - يندرس العلم، ويكثر الجهل، فإن المعصية - مع تكررها وصدورها من كثير من الأشخاص، وعدم إنكار أهل الدين والعلم لها - يظن أنها ليست بمعصية، وربما ظن الجاهل أنها عبادة مستحسنة، وأبي: مفسدة أعظم من اعتقاد ما حرم الله، حلالاً؟ وانقلاب الحقائق على النفوس ورؤية الباطل حقاً؟!!

ومنها: أن السكوت<sup>(٢)</sup> على معصية المعاصين، ربما تزينت المعصية في صدور الناس، واقتدى بعضهم ببعض، فالإنسان مولع بالاقتداء بأضراجه وبني جنسه، ومنها ومنها.

فلما كان السكوت عن الإنكار بهذه المثابة، نص الله تعالى أن بني إسرائيل الكفار منهم لعنهم بمعاصيهم واعتدائهم، وخص من ذلك هذا المنكر العظيم.

﴿لبئس ما كانوا يفعلون﴾ ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا ﴿بالحجة والمؤالة والنصرة.

﴿لبئس ما قدمت لهم أنفسهم﴾ هذه البضاعة الكاسدة، والصفقة الخاسرة، وهي سخط الله الذي يسخط لسخطه كل شيء، والخلود الدائم في العذاب العظيم، فقد ظلمتهم أنفسهم حيث قدمت لهم هذا النزول غير الكريم، وقد ظلموا أنفسهم إذ فوتوا

التعظيم المقيم.

﴿ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء﴾. فإن الإيمان بالله وبالنبي وما أنزل إليه، يوجب على العبد مؤالاة ربه، ومؤالاة أوليائه، ومعادة من كفر به وعاداه، وأوضع في معاصيه، فشرط ولاية الله والإيمان به، أن لا يتخذ أعداءه الله أولياء، وهؤلاء لم يوجد منهم الشرط، فدل على انتفاء المشروط. ﴿ولكن كثيراً منهم فاسقون﴾ أي: خارجون عن طاعة الله والإيمان به وبالنبي. ومن فسقهم مؤالاة أعداء الله.

ثم قال تعالى:

﴿٨٢ - ٨٦﴾ ﴿لتجدن أشد الناس

عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون \* وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آتانا فآتينا مع الشاهدين \* وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونقطع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين \* فأتاهم الله بما قالوا جناناً مجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين \* والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾.

يقول تعالى في بيان أقرب الطائفتين إلى المسلمين، وإلى ولايتهم ومحبتهم، وأبعدهم من ذلك: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾. فهؤلاء الطائفتان على الإطلاق أعظم الناس معاداة للإسلام والمسلمين، وأكثرهم سعيًا في إيصال الضرر إليهم، وذلك لشدة بغضهم لهم، بغياً وحسداً وعناداً وكفراً.

﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾ وذكر تعالى لذلك عدة أسباب:

منها: أن ﴿منهم قسيسين ورهباناً﴾ أي: علماء متزهدين، وعبياداً في

(١) كذا في ب، وفي أ: أن في ترك. (٢) كذا في ب، وفي أ: السكوت.

الصوامع متعبدين . والمعلم مع الزهد وكذلك العبادة مما يلطف القلب ويرققه، ويزيل عنه ما فيه من الجفاء والغلظة، فلذلك لا يوجد فيهم غلظة اليهود، وشدة المشركين .

ومنها : ﴿أنهم لا يستكبرون﴾ أي : ليس فيهم تكبر ولا عتو عن الانقياد للحق، وذلك موجب لقرئهم من المسلمين ومن محبتهم، فإن المتواضع أقرب إلى الخير من المستكبر .

ومنها : ﴿إنهم إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول﴾ محمد ﷺ، أشر ذلك في قلوبهم وخشعوا له، وفاضت أعينهم بسبب ما سمعوا من الحق الذي تيقنوه، فلذلك آمنوا وأقرأوه فقالوا : ﴿ربنا آمنا فاكبتنا مع الشاهدين﴾ وهم أمة محمد ﷺ، يشهدون لله بالتوحيد، ولرسله بالرسالة وصحة ما جاؤوا به، ويشهدون على الأمم السابقة بالتصديق والتكذيب .

وهم عدول، شهادتهم مقبولة، كما قال تعالى : ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ .

فكانهم لبموا على إيمانهم ومسارعهم فيه، فقالوا : ﴿وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾ أي : وما الذي يمنعنا من الإيمان بالله، والحال أنه قد جاءنا الحق من ربنا، الذي لا يقبل الشك والريب، ونحن إذا آمنا واتبعنا الحق طمعنا أن يدخلنا الله الجنة مع القوم الصالحين، فأبي : مانع يمنعنا؟ أليس ذلك موجباً للمسارعة والانقياد للإيمان وعدم التخلف عنه .

قال الله تعالى : ﴿فأناهم الله بما قالوا﴾ أي : بما تفوهوا به من الإيمان ونطقوا به من التصديق بالحق ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار خالدون فيها، وذلك جزاء المحسنين﴾ . وهذه الآيات نزلت في النصاري الذين آمنوا بمحمد ﷺ، كالنجاشي وغيره ممن آمن منهم . وكذلك لا يزال يوجد فيهم

من يختار دين الإسلام، ويتبين له بطلان ما كانوا عليه، وهم أقرب من اليهود والمشركين إلى دين الإسلام .

ولما ذكر ثواب المحسنين، ذكر عقاب المسيئين قال : ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ لأنهم<sup>(١)</sup> كفروا بالله، وكذبوا بآياته الميتة للحق .

﴿٨٧ - ٨٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تمنوا إن الله لا يحب المعتدين \* وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾ يقول تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ من المطاعم والمشارب، فإنها نعم أنعم الله بها عليكم، فاحذوهم إذ أحلها لكم، واشكروهم ولا تردوا نعمته بكفرها أو عدم قبولها، أو اعتقاد تحريمها، فتجمعون بذلك بين القول على الله الكذب، وكفر النعمة، واعتقاد الحلال الطيب حراماً خبيثاً، فإن هذا من الاعتداء .

والله قد نهى عن الاعتداء فقال : ﴿ولا تمتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ بل ينخسهم ويمقتهم ويمعاقبهم على ذلك .

ثم أمر بضد ما عليه المشركون، الذين يحرمون ما أحل الله فقال : ﴿وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً﴾ أي : كلوا من رزقه الذي ساقه إليكم، بما يسره من الأسباب، إذا كان حلالاً لا سرقة ولا غصباً ولا غير ذلك من أنواع الأموال التي تؤخذ بغير حق، وكان أيضاً طيباً، وهو الذي لا خبث فيه، فخرج بذلك الخبيث من السباع والحيثات .

﴿واتقوا الله﴾ في امتثال أوامره، واجتناب نواهيه . ﴿الذي أنتم به مؤمنون﴾ فإن إيمانكم بالله يوجب عليكم تقواه ومرعاة حقه، فإنه لا يتم إلا بذلك . ودلت الآية الكريمة على أنه إذا حرم حلالاً عليه، من طعام

وشراب، وسرية وأمة، ونحو ذلك، فإنه لا يكون حراماً بتحريمه، لكن لو فعله فعليه كفارة يمين، كما قال تعالى : ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾ الآية . إلا أن تحريم الزوجة فيه كفارة ظهار، ويدخل في هذه الآية أنه لا ينبغي للإنسان أن يتجنب الطيبات ويحرمها نفسه، بل يتناولها مستعيناً بها على طاعة ربه .

﴿٨٩﴾ ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾<sup>(٢)</sup> أي : في أيمانكم التي صدرت على وجه اللغو، وهي الأيمان التي حلف بها المقسم من غير نية ولا قصد، أو عقدها يظن صدق نفسه، فإن بخلاف ذلك . ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾ أي : بما عزمتم عليه، وعقدت عليه قلوبكم . كما قال في الآية الأخرى : ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ ﴿فكفارته﴾ أي : كفارة اليمين الذي عقدتموها بقصدكم ﴿إطعام عشرة مساكين﴾ .

وذلك الإطعام ﴿من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم﴾ أي : كسوة عشرة مساكين، والكسوة هي التي تجزيء في الصلاة . ﴿أو تحرير رقبة﴾ أي : عتق رقبة مؤمنة كما قيدت في غير هذا الموضع، فمتى فعل واحداً من هذه الثلاثة فقد انحلت يمينه . ﴿فمن لم يجد﴾ واحداً من هذه الثلاثة ﴿فصيام ثلاثة أيام ذلك﴾ المذكور ﴿كفارة أيمانكم إذا حلفتم﴾ تكفروها وتمحوها وتمنع من الإثم .

﴿واحفظوا أيمانكم﴾ عن الحلف بالله كاذباً، وعن كثرة الأيمان، واحفظوها إذا حلفتم عن الحنث فيها، إلا إذا كان الحنث خيراً، فتمام الحفظ : أن يفعل الحنث، ولا يكون يمينه عرضة لذلك الحنث .

﴿كذلك بين الله لكم آياته﴾ المبينة للحلال من الحرام، الموضحة للأحكام . ﴿لعلكم تشكرون﴾ الله حيث علمكم ما لم تكونوا تعلمون . فعمل العباد شكر الله تعالى على ما من به

(٢) في ب كنب الآية كاملة .

(١) كذا في ب، وفي أ : لأنه .

عليهم، من معرفة الأحكام الشرعية ونيتها.

﴿٩٠-٩١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾ يذم تعالى هذه الأشياء القبيحة، ويخير أنها من عمل الشيطان، وأنها رجس. ﴿فاجتنبوه﴾ أي: اتركوه. ﴿لعلكم تفلحون﴾ فإن الفلاح لا يتم إلا بترك ما حرم الله، خصوصاً هذه الفواحش المذكورة وهي الخمر وهي: كل ما خامر العقل أي: غطاه بسكوه والميسر، وهو: جميع المغالبات التي فيها عوض من الجانبين، كالمراهنة ونحوها، والأنصاب، التي هي: الأصنام والأنداد ونحوها، مما ينصب ويعبد من دون الله، والأزلام التي يستقسمون بها، فهذه الأربعة نهى الله عنها وزجر، وأخبر عن مفسادها الداعية إلى تركها واجتنابها. فمنها: أنها رجس، أي: خبث، نجس معنى، وإن لم تكن نجسة حياً.

والأمور الخبيثة مما ينبغي اجتنابها وعذم التدنس بأوضاعها.

ومنها: أنها من عمل الشيطان، الذي هو أعدى الأعداء للإنسان.

ومن المعلوم أن العدو يحذر منه، وتحذر مصايد وأعماله، خصوصاً الأعمال التي يعملها ليقع فيها عدوه، فإنها فيها هلاكه، فالخمر كل الخمر البعد عن عمل العدو المبين، والحذر منها، والخوف من الوقوع فيها.

ومنها: أنه لا يمكن الفلاح للعبد إلا باجتنابها، فإن الفلاح هو: الفوز بالمطلوب المحبوب، والنجاة من المهروب، وهذه الأمور مانعة من الفلاح ومعوقة له.

ومنها: أن هذه موجبة للعداوة والبغضاء بين الناس، والشيطان حريص على بثها، خصوصاً الخمر

والميسر، ليقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء.

فإن في الخمر من اتغلاب العقل وذهاب حجاءه، ما يدعو إلى البغضاء بينه وبين إخوانه المؤمنين، خصوصاً إذا اقتربن بذلك من السباب ما هو من لوازم شارب الخمر، فإنه ربما أوصل إلى القتل. وما في الميسر من غلبة أحدهما للآخر، وأخذ ماله الكثير في غير مقابلة، ما هو من أكبر الأسباب للعداوة والبغضاء.

ومنها: أن هذه الأشياء تصد القلب، ويتبعه البدن عن ذكر الله وعن الصلاة، اللذين خلق لهما العبد، وبهما سعادته، فالخمر والميسر، يصدانه عن ذلك أعظم صد، ويشغل قلبه، ويذهل له في الاشتغال بهما، حتى يمضي عليه مدة طويلة وهو لا يدري أين هو.

فأي: معصية أعظم وأقبح من معصية تدنس صاحبها، وتجعله من أهل الخبث، وتوقعه في أعمال الشيطان وشبائه، فيتقاد له كما يتقاد البهيمة الذليلة لراعيتها، وتحول بين العبد وبين فلاحه، وتوقع العداوة والبغضاء بين المؤمنين، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة!! فهل فوق هذه المفسد شيء أكبر منها!!

ولهذا عرض تعالى على العقول السليمة النهي عنها، عرضاً بقوله: ﴿فهل أنتم منتهون﴾. لأن العاقل - إذا نظر إلى بعض تلك المفسد - انزجر عنها وكف نفسه، ولم يحتج إلى وعظ كثير ولا زجر بليغ.

﴿٩٢﴾ ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾ طاعة الله وطاعة رسوله واحدة، فمن أطاع الله فقد أطاع الرسول، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله. وذلك شامل للقيام بما أمر الله به ورسوله من الأعمال، والأقوال الظاهرة والباطنة، الواجبة والمستحبة، المتعلقة بحقوق الله وحقوق خلقه، والانتهاه عما نهى الله ورسوله عنه كذلك.

وهذا الأمر أعم الأوامر، فإنه كما ترى يدخل فيه كل أمر ونهي، ظاهر وباطن، وقوله: ﴿واحذروا﴾ أي: من معصية الله ومعصية رسوله، فإن في ذلك الشر والخسران المبين. ﴿فإن توليتم﴾ عما أمرتم به ونهيتم عنه. ﴿فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾ وقد أدى ذلك. فإن اهتديتم فلأنفسكم، وإن أسأتم فعليها، والله هو الذي يحاسبكم، والرسول قد أدى ما عليه وما حمل به.

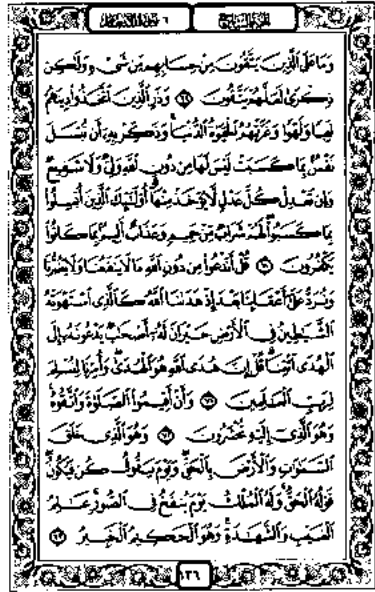
﴿٩٣﴾ ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسبوا والله يحب المحسنين﴾ لما نزل تحريم الخمر والنهي الأكيد والتشديد فيه، غمى أناس من المؤمنين أن يعلموا حال إخوانهم الذين ماتوا على الإسلام قبل تحريم الخمر وهم يشربونها.

فأنزل الله هذه الآية، وأخبر تعالى أنه ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح﴾ أي: حرج وإثم ﴿فيما طعموا﴾ من الخمر والميسر قبل تحريمهما.

ولما كان نفي الجناح يشمل المذكورات وغيرها، قيد ذلك بقوله: ﴿إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي: بشرط أنهم تاركون للمعاصي، مؤمنون بالله إيماناً صحيحاً، موجباً لهم عمل الصالحات، ثم استمروا على ذلك. وإلا فقد يتصف العبد بذلك في وقت دون آخر. فلا يكفي حتى يكون كذلك حتى يأتيه أجله، ويدوم على إحسانه، فإن الله يحب المحسنين في عبادة الخالق، المحسنين في نفع العبيد، ويدخل في هذه الآية الكريمة، من طعم المحرم، أو فعل غيره بعد التحريم، ثم اعترف بذنبه وتاب إلى الله، واتقى وآمن وعمل صالحاً، فإن الله يغفر له، ويرفع عنه الإثم في ذلك.

﴿٩٤-٩٦﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا ليلونكم الله بشيء من الصيد تناله





﴿١٠٠﴾ ﴿قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولي الأبواب لعلمكم تغفلون﴾ أي: ﴿قل﴾ للناس محذراً عن الشر ومرغباً في الخير: ﴿لا يستوي الخبيث والطيب﴾ من كل شيء، فلا يستوي الإيمان والكفر، ولا الطاعة والمعصية، ولا أهل الجنة وأهل النار، ولا الأعمال الطيبة، ولا المال الحرام بالمال الحلال.

﴿ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾ فإنه لا ينفع صاحبه شيئاً، بل يضره في دينه ودنياه.

﴿فاتقوا الله يا أولي الأبواب لعلمكم تغفلون﴾ فأمر أولي الأبواب، أي: أهل العقول الوافية، والآراء الكاملة. فإن الله تعالى يوجه إليهم الخطاب وهم الذين يؤبه لهم، ويرجى أن يكون فيهم خير.

ثم أخبر أن الفلاح متوقف على التقوى التي هي موافقة الله في أمره ونهيه، فمن اتقاه أفلح كل الفلاح، ومن ترك تقواه حصل له الخسران وفاته الأرباح.

﴿١٠١ - ١٠٢﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفاً والله غفور رحيم﴾ قد سألتهم قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين ﴿ينهى عباده المؤمنين عن سؤال الأشياء التي إذا بينت لهم ساءتهم وأحزنتهم، وذلك كسؤال بعض المسلمين لرسول الله ﷺ عن آياتهم، وعن حالهم في الجنة أو النار، فهذا ربما أنه لو بين للسائل لم يكن له فيه خير، وكسؤالهم للأمر غير الواقعة.

وكالسؤال الذي يترتب عليه تشديدات في الشرع ربما أخرجت الأمة، وكالسؤال عما لا يعني، فهذه الأسئلة، وما أشبهها هي المنهي عنها، وأما السؤال الذي لا يترتب عليه شيء

ويجتمع فيه من كل فج عميق جميع أجناس المسلمين، فيتعارفون ويستعين بعضهم ببعض، ويتشاررون على المصالح العامة، وتتعدق بينهم الروابط في مصالحهم الدينية والدنيوية.

قال تعالى: ﴿ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ ومن أجل كون البيت قياماً للناس قال من قال من العلماء: إن حج بيت الله فرض كفاية في كل سنة. فلو ترك الناس حجه لأثم كل قادر، بل لو ترك الناس حجه لزال ما به قوامهم، وقامت القيامة.

وقوله: ﴿والهدي والقلائد﴾ أي: وكذلك جعل الهدي والقلائد - التي هي أشرف أنواع الهدي - قياماً للناس، يتصفون بها ويتباون عليهما. ﴿ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض، وأن الله بكل شيء عليم﴾.

فمن علمه أن جعل لكم هذا البيت الحرام، لما يعلمه من مصالحكم الدينية والدنيوية.

﴿اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم﴾ أي: ليكون هذان العلمان موجودين في قلوبكم على وجه الجزم واليقين، تعلمون أنه شديد العقاب العاجل والأجل على من عصاه، وأنه غفور رحيم لمن تاب إليه وأطاعه. فيثمر لكم هذا العلم الخوف من عقابه، والرجاء لمغفرته وثوابه، وتعملون على ما يقتضيه الخوف والرجاء.

ثم قال تعالى: ﴿ما على الرسول إلا البلاغ﴾ وقد بلغ كما أمر، وقام بوظيفته وما سوى ذلك، فليس له من الأمر شيء. ﴿والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾ فيجازيكم بما يعلمه تعالى منكم.

لكم أنه لأجل انتفاعكم وانتفاع رفعتكم الذين يسبرون معكم. ﴿وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً﴾. ويؤخذ من لفظ «الصيد» أنه لا بد أن يكون وحشياً، لأن الإنسي ليس بصيد. ومأكولاً، فإن غير المأكول لا يصاد ولا يطلق عليه اسم الصيد. ﴿واتقوا الله الذي إليه تحشرون﴾ أي: اتقوه بفعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، واستعينوا على تقواه بعلمكم أنكم إليه تحشرون. فيجازيكم، هل قمتم بتقواه فيثيبكم الثواب الجزيل، أم لم تقوموا بها فيعاقبكم؟

﴿٩٧ - ٩٩﴾ ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم﴾ اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم \* ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴿يجر تعالى أنه جعل ﴿الكعبة البيت الحرام قياماً للناس﴾. يقوم بالقيام بتعظيمه دينهم ودنياهم، فبذلك يتم إسلامهم، وبه تحط أوزارهم، وتحصل لهم - بقصد - العطايا الجزيلة، والإحسان الكثير، وبسببه تنفق الأموال، وتنضم<sup>(١)</sup> - من أجله - الأهوال.

(١) في ب: وتنضم.





خانا ﴿فَأَخْرَانِ يَقْرُمَانِ مَقَامَهُمَا مِنْ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ﴾ .

أي : فليقم رجلا من أولياء الميت، وليكونا من أقرب الأولياء إليه . ﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾ أي : أنهما كذبا، وغيرا وخاسا . ﴿وَمَا اعْتَدِينَا إِنَّا إِذَا لَمْ نَظَلْمَا وَاعْتَدِينَا، وَشَهِدْنَا بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ .

قال الله تعالى في بيان حكمة تلك الشهادة وتأكيدها، وردها على أولياء الميت حين تظهر من الشاهدين الحياة : ﴿ذَلِكَ أَدْنَى﴾ أي : أقرب ﴿أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾ حين تؤكد عليهما تلك التأكيدات . ﴿أَوْ يَخْفَاؤُا أَنْ تَرُدَّ آيْمَانُ بَعْدَ آيْمَانِهِمْ﴾ أي : أن لا تقبل آيماهم، ثم ترد على أولياء الميت .

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي : الذين وصفهم الفسق، فلا يريدون الهدى والقصد إلى الصراط المستقيم .

وحاصل هذا، أن الميت - إذا حضره الموت في سفر ونحوه، مما هو مظنة قلة الشهود المعتبرين - أنه ينبغي أن يوصي شاهدين مسلمين عدلين - فإن لم يجد إلا شاهدين كافرين، جاز أن يوصي إليهما، ولكن لأجل كفرهما فإن الأولياء إذا ارتابوا بهما فليتهم يخلفونهما<sup>(١)</sup> بعد الصلاة، أنهما ما خانا، ولا كذبا، ولا غيرا، ولا بدلا، فييران بذلك من حق يتوجه إليهما .

فإن لم يصدقهما ووجدوا قرينة تدل على كذب الشاهدين، فإن شاء أولياء الميت، فليقم منهم اثنان، فيقسمان بالله : لشهادتهما أحق من شهادة الشاهدين الأولين، وأنهما خاسا وكذبا، فيستحقون منهما ما يدعون . وهذه الآيات الكريمة نزلت في قصة «تيمم الداري» و «عدي بن بده» المشهورة حين أوصى لهما العدوي، والله أعلم .

ويستدل بالآيات الكريمت على

عدة أحكام : منها : أن الوصية مشروعة، وأنه ينبغي لمن حضره الموت أن يوصي . ومنها : أنها معتبرة، ولو كان الإنسان وصل إلى مقدمات الموت وعلاماته، ما دام عقله ثابتا . ومنها : أن شهادة الوصية لا بد فيها من اثنين عدلين . ومنها : أن شهادة الكافرين في هذه الوصية ونحوها مقبولة لوجرد الضرورة، وهذا مذهب الإمام أحمد . وزعم كثير من أهل العلم : أن هذا الحكم منسوخ، وهذه دعوى لا دليل عليها .

ومنها : أنه ربما استفيد من تلميح الحكم ومعناه، أن شهادة الكفار - عند عدم غيرهم، حتى في غير هذه المسألة - مقبولة، كما ذهب إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية . ومنها : جواز سفر المسلم مع الكافر إذا لم يكن محذور . ومنها : جواز السفر للتجارة . ومنها : أن الشاهدين - إذا ارتيب

منهما، ولم تبد قرينة تدل على خيانتها، وأراد الأولياء - أن يؤكدوا عليهم اليمين، ويحبسوها من بعد الصلاة، فيقسمان بصفة ما ذكر الله تعالى .

ومنها : أنه إذا لم تحصل تهمة ولا ريب لم يكن حاجة إلى حبسهما، وتأكد اليمين عليهما .

ومنها : تعظيم أمر الشهادة حيث أضافها تعالى إلى نفسه، وأنه يجب الاعتناء بها والقيام بها بالقسط .

ومنها : أنه يجوز امتحان الشاهدين عند الريبة منهما، وتفريقهما لينظر عن شهادتهما .

ومنها : أنه إذا وجدت القرائن الدالة على كذب الوصيين في هذه المسألة - قام اثنان من أولياء الميت فأقسما بالله : أن آيماتنا أصدق من آيماهما، ولقد خانا وكذبا . ثم يدفع إليهما ما ادعياه، فتكون

يكتب وصيته، ويشهد عليها اثنين ذوي عدل عن تعبير شهادتهما .

﴿أَوْ أَخْرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي : من غير أهل دينكم، من اليهود أو النصارى أو غيرهم، وذلك عند الحاجة والضرورة وعدم غيرها من المسلمين .

﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي : سافرتن فيها ﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ أي : فأشهدوها، ولم يأمر بشهادتهما إلا لأن قولهما في تلك الحال مقبول، ويؤكد عليهما، بأن يحبسا ﴿مَنْ بَعْدَ الصَّلَاةِ﴾ التي يعظمونها .

﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ أي : فليقسمان بالله، ﴿أَنْهُمَا صَدَقَا، وَمَا غَيَّرَا وَلَا بَدَّلَا، هَذَا﴾ إذا ارتبتم ﴿فِي شَهَادَتِهِمَا، فَإِنْ صَدَقْتُمُوهُمَا، فَلَا حَاجَةَ إِلَى الْقَسْمِ بِذَلِكَ .

ويقولان : ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ﴾ أي : بأيماننا ﴿ثَمَنًا﴾ بأن نكذب فيها، لأجل عرض من الدنيا . ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ فلا نزاعه لأجل قربه منا ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ بل نؤديها على ما سمعناها ﴿إِنَّا إِذَا﴾ أي : إن كتمناها ﴿لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ .

﴿فَإِنْ عَشَرَ عَلَىٰ أَتَمًّا﴾ أي : الشاهدين ﴿اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ بأن وجد من القرائن ما يدل على كذبهما وأنهما

(١) في السمختين : يخلفونهم .

القرينة - مع إيمانها - قائمة مقام البينة.

﴿١٠٩ - ١١٠﴾ «يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجتبم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب \* إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أبدت بك بروح القدس تكلم الناس في المهدي وكهلاً وإذ علمتكم الكتاب والحكمة والشفرة

والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتبرئ الأكمة والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جتتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين\* يخبر تعالى عن يوم القيامة وما فيه من الأهوال العظام، وأن الله يجمع به جميع الرسل فيسألهم: «ماذا أجتبم» أي: ماذا أجابتكم به أمكم.

ذ «قالوا لا علم لنا» وإنما العلم لك باربنا، فأنت أعلم منا. «إنك أنت علام الغيوب» أي: تعلم الأمور الغائبة والحاضرة.

«إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك» أي: اذكرها بقلبك ولسانك، وقم بواجبها شكراً لربك، حيث أنعم عليك نعماً ما أنعم بها على غيرك.

«إذ أبدت بك بروح القدس» أي: إذ قويتك بالروح والوحي، الذي طهرك وزكك، وصار لك قوة على القيام بأمر الله والدعوة إلى سبيله. «إن المراد «بروح القدس» جبريل عليه السلام، وأن الله أعانه به وبملازمته له، وتبنته في المواطن المشقة.

«تكلم الناس في المهدي وكهلاً» المراد بالتكليم هنا، غير التكليم المعهود الذي هو مجرد الكلام، وإنما المراد بذلك التكليم الذي ينتفع به المتكلم والمخاطب، وهو الدعوة إلى الله.

ولعيسى عليه السلام من ذلك، ما لإخوانه من أولي العزم من المرسلين، من التكليم في حال الكهولة، بالرأسالة والدعوة إلى الخير، والنهي عن الشر، وامتاز عنهم بأنه كلم الناس في المهدي، فقال: «إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً، وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً» الآية.

«وإذ علمتكم الكتاب والحكمة» فالكتاب يشمل الكتب السابقة، وخصوصاً التوراة، فإنه من أعلم أنبياء بني إسرائيل - بعد موسى - بها. ويشمل الإنجيل الذي أنزله الله عليه.

والحكمة هي: معرفة أسرار الشرح وفوائده وحكمه، وحسن الدعوة والتعليم، ومراعاة ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي.

«وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير» أي: طيراً مصوراً لا روح فيه. فتنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وتبرئ الأكمة الذي لا بصر له ولا عين. «والأبرص بإذني، وإذ تخرج الموتى بإذني» فهذه آيات بينات، ومعجزات باهرات، يعجز عنها الأطباء وغيرهم، أيد الله بها عيسى وقوى بها دعوته.

«وإذ كففت بني إسرائيل عنك، إذ جتتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم» لما جاءهم الحق مؤيداً بالبينات الموجبة للإيمان به. «إن هذا إلا سحر مبين». وهموا بعيسى أن يقتلوه، وسعوا في ذلك، فكف الله أيديهم عنه، وحفظه منهم وعصمه.

فهذه من امتن الله بها على عبده ورسوله عيسى ابن مريم، ودعاه إلى شكرها والقيام بها، فقام بها عليه السلام أتم القيام، وصبر كما صبر إخوانه من أولي العزم.

﴿١١١ - ١٢٠﴾ «وإذ أوحيت إلى الخواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا

(١) في ب أكمل الآيات إلى قوله: (وهو على كل شيء قدير).

(٢) هكذا في الأصل والمراد بين وهو كما قال الله تعالى حكاية لقول عيسى ابن مريم للخواريين.



آمنوا» إلى آخر الآيات (١) أي: واذكر نعمتي عليك إذ بسرت لك أتباعاً وأعاوناً. فأوحيت إلى الخواريين أي: ألهمتهم، وأوزعت قلوبهم الإيمان بي وبرسولي، أو أوحيت إليهم على لسانك، أي: أمرتهم بالوحي الذي جاءك من عند الله، فأجابوا لذلك وانقادوا، وقالوا: آمنا بالله، واشهد بأننا مسلمون، فجمعوا بين الإسلام الظاهر، والانقياد بالأعمال الصالحة، والإيمان الباطن المخرج لصاحبه من النفاق ومن ضعف الإيمان.

والخواريون هم: الأنصار، كما قال تعالى كما قال عيسى ابن مريم (٢) للخواريين: «مَنْ أنصاري إلى الله؟ قال الخواريون: نحن أنصار الله».

«إذ قال الخواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء» أي: مائدة فيها طعام، وهذا ليس منهم عن شك في قدرة الله، واستطاعته على ذلك. وإنما ذلك من باب العرض والأدب منهم.

ولما كان سؤال آيات الاقتراح متافياً للانقياد للحق، وكان هذا الكلام الصادر من الخواريين ربما أوهم ذلك، وعظّمهم عيسى عليه السلام فقال:





﴿اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا آية منك﴾ أي: يكون وقت نزولها عيداً وموسماً، يتذكر به هذه الآية العظيمة، فتحفظ ولا تنسى على مرور الأوقات وتكرر السنين.

كما جعل الله تعالى أعياد المسلمين ومناسكهم مذكراً لآياته، ومنبهاً على سنن المرسلين وطرقهم القويمة، وفضلته وإحسانه عليهم. ﴿وارزقنا وأنت خير الرازقين﴾ أي: اجعلها لنا رزقاً، فسأل عيسى عليه السلام نزولها وأن تكون لهاتين المصلحتين، ومصالحة الدين بأن تكون آية باقية، ومصالحة الدنيا، وهي أن تكون رزقاً.

﴿قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم، فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين﴾ لأنه شاهد الآية الباهرة وكفر عناداً وظلماً، فاستحق العذاب الأليم والعقاب الشديد. واعلم أن الله تعالى وعد أنه سينزلها، وتوعدهم - إن كفروا - بهذا الوعيد، ولم يذكر أنه أنزلها، فيحتمل أنه لم ينزلها بسبب أنهم لم يمتثلوا ذلك، ويدل على ذلك، أنه لم يذكر في الإنجيل الذي بأيدي النصارى، ولا له وجود. ويحتمل أنها نزلت كما وعد الله، والله لا يخلف الميعاد، ويكون عدم ذكرها في الأناجيل التي بأيديهم من الحظ الذي ذكروا به فسوه.

أر أنه لم يذكر في الإنجيل أصلاً، وإنما ذلك كان متوارثاً بينهم، ينقله الخلف عن السلف، فانتفى الله بذلك عن ذكره في الإنجيل، ويدل على هذا المعنى قوله: ﴿ونكون عليها من الشاهدين﴾ والله أعلم بحقيقة الحال.

﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾. وهذا توبيخ للنصارى الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة،

فيقول الله هذا الكلام لعيسى. فيتبرأ عيسى ويقول: ﴿سبحانك﴾ عن هذا الكلام القبيح، وعملاً لا يليق بك.

﴿ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ أي: ما ينبغي لي، ولا يليق أن أقول شيئاً ليس من أوصافي ولا من حقوقي، فإنه ليس أحد من المخلوقين، لا الملائكة المقربون ولا الأنبياء المرسلون ولا غيرهم له حق ولا استحقاق لتمام الإلهية وإنما الجميع عباد، مدبرون، وخلق مسخرون، وفقراء عاجزون ﴿إن كنت قلته فقد علمته، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾ فأنت أعلم بما صدر مني و﴿أنت علام الغيوب﴾ وهذا من كمال أدب المسيح عليه الصلاة والسلام: في خطابه لربه، فلم يقل عليه السلام: ﴿لم أقل شيئاً من ذلك﴾، وإنما أخبر بكلام ينفي عن نفسه أن يقول كل مقالة تنافي منصبه الشريف، وأن هذا من الأمور المحالة، ونزه ربه عن ذلك أتم تنزيهه، ورد العلم إلى عالم الغيب والشهادة.

ثم صرح بذكر ما أمر به بني إسرائيل، فقال: ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به﴾ فأنا عبد متبع لأمرك، لا متجربى على عظمتك، ﴿أن اعبدا الله ربي وربكم﴾ أي: ما أمرتهم إلا بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له، المتضمن للنهي عن اتخاذي وأمي إلهين من دون الله، ويبان أي عبد مريب، فكما أنه ربكم فهو ربي.

﴿وكنتم عليهم شهوداً ما دمت فيهم﴾ أشهد على من قام بهذا الأمر، ممن لم يقم به. ﴿فلما توفيتي كنت أنت الرقيب عليهم﴾ أي: المطلع على سرائرهم وضمائرهم. ﴿وأنت على كل شيء شهيد﴾ علماً وسمعاً وبصراً، فعلمك قد أحاط بالعلومات، وسمعك بالسموعات، وبصرك بالمبصرات، فأنت الذي تجازي عبادك بما تعلمه فيهم من خير وشر.

﴿اتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ فإن المؤمن يحمل ما معه من الإيمان على ملازمة التقوى، وأن ينقاد لأمر الله، ولا يطلب من آيات الاقتراح التي لا يدري ما يكون بعدها شيئاً.

فأخبر الحواريون أنهم ليس مقصودهم هذا المعنى، وإنما لهم مقاصد صالحة، ولأجل الحاجة إلى ذلك فـ ﴿قالوا نريد أن نأكل منها﴾ وهذا دليل على أنهم محتاجون لها، ﴿وتطمئن قلوبنا﴾ بالإيمان حين ترى الآيات العيانية، فيكون <sup>(١)</sup> الإيمان عين اليقين، كما كان قبل ذلك علم اليقين. كما سأل الخليل عليه الصلاة والسلام ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ﴿قال أؤمّن تؤمّن؟ قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾. فالعبد محتاج إلى زيادة العلم واليقين والإيمان كل وقت، ولهذا قال: ﴿ونعلم أن قد صدقتنا﴾ أي: نعلم صدق ما جئت به، أنه حق وصدق، ﴿ونكون عليها من الشاهدين﴾ فتكون مصلحة لمن بعدنا، نشهدها لك، فتقوم الحاجة، ويحصل زيادة البرهان بذلك.

فلما سمع عيسى عليه الصلاة والسلام ذلك، وعلم مقصودهم، أجابهم إلى طلبهم في ذلك، فقال:

(١) في ب: حتى يكون.

ويعلم ما تكسبون ﴿٤﴾ أي: وهو المألوه المعبود في السماوات وفي الأرض، فأهل السماء والأرض، متعبدون لربهم خاضعون لعظمته، مستكينون لعزه وجلاله، لللائكة المقربون، والأنبياء والمرسلون، والصدِّيقون والشهداء والصالحون.

وهو تعالى يعلم سرِّكم وجهركم ويعلم ما تكسبون، فأحذروا معاصيه وارغبوا في الأعمال التي تقربكم منه، وتدينكم من رحمته، واحذروا من كل عمل يبعدهم منه ومن رحمته.

﴿٤ - ٦﴾ ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين﴾ \* فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أبناء ما كانوا به يستهزؤون \* ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴿٦﴾ هذا إخبار منه تعالى عن إعراض المشركين، وشدة تكذيبهم وعداوتهم، وأنها لا تنفع فيهم الآيات حتى تحمل بهم المثلات، فقال: ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم﴾ الدالة على الحق دلالة قاطعة، الداعية لهم إلى اتباعه وقبوله ﴿إلا كانوا عنها معرضين﴾ لا يلقون لها بالاً، ولا يصحون لها سمعاً، قد انصرفت قلوبهم إلى غيرها، ولولها أذبارهم.

﴿فقد كذبوا بالحق لما جاءهم﴾ والحق حقه أن يتبع، ويشكر الله على تيسيره لهم، وإتيانهم به، فقابلوه بصد ما يجب مقابلته به فاستحقوا العقاب الشديد ﴿فسوف يأتيهم أبناء ما كانوا به يستهزؤون﴾ أي: فسوف يرون ما استهزؤوا به، أنه الحق والصدق، وبين الله للمكذِّبين كذبهم وافتراءهم، وكانوا يستهزؤون بالبعث والجنة والنار، فإذا كان يوم القيامة قيل للمكذِّبين: ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾.

وقال تعالى: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى

والجلال عموماً، وعلى هذه المذكورات خصوصاً. فحمد نفسه على خلقه السماوات والأرض، الدالة على كمال قدرته، وسعة علمه ورحمته، وعموم حكمته، وانفراذه بالخلق والتدبير، وعلى جعله الظلمات والنور، وذلك شامل للحسي من ذلك كالليل والنهار والشمس والقمر. والمعنوي كظلمات الجهل والشك، والشرك والمعصية، والغفلة، ونور العلم والإيمان واليقين والطاعة، وهذا كله يدل دلالة قاطعة أنه تعالى هو المستحق للعبادة وإخلاص الدين له، ومع هذا الدليل ووضوح البرهان ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ أي يعدلون به سواء، يسوونهم به في العبادة والتعظيم، مع أنهم لم يساواوا الله في شيء من الكمال، وهم فقراء عاجزون ناقصون من كل وجه.

﴿هو الذي خلقكم من طين﴾ وذلك بخلق مادتكم وأبيكم آدم عليه السلام. ﴿ثم قضى أجلاً﴾ أي: ضرب لمدة إقامتكم في هذه الدار أجلاً، تتمتعون به وتمتحنون، وتبتلون بما يرسل إليهم به رسله.

﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ ويعمركم ما ينذكر فيه من تذكر. ﴿وأجل مسمى عنده﴾ وهي: الدار الآخرة، التي ينتقل العباد إليها من هذه الدار، فيجازيهم بأعمالهم من خير وشر.

﴿ثم﴾ مع هذا البيان التام وقطع الحجة ﴿أنتم تمترون﴾ أي: تشكون في وعد الله ووعيده، ووقوع الجزاء يوم القيامة.

وذكر الله الظلمات بالجمع، لكثرة موادها وتنوع طرقها. ووحيد النور لكون الصراط الموصلة إلى الله واحدة لا تعدد فيها، وهي: الصراط المتضمنة للعلم بالحق والعمل به، كما قال تعالى: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾.

﴿٣﴾ ﴿وهو الله في السماوات وفي الأرض يعلم سرِّكم وجهركم

﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ وأنت أرحم بهم من أنفسهم وأعلم بأحوالهم، فلولا أنهم عباد متمدرون لم تعذبهم. ﴿وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ أي: فمغفرتك صادرة عن غم عزة وقدره، لا كمن يغفر ويعفو عن عجز وعدم قدرة.

الحكيم حيث كان من مقتضى حكمتك أن تغفر لمن أتى بأسباب المغفرة.

﴿قال الله﴾ مبيناً لحال عباده يوم القيامة، ومن الفائز منهم ومن الهالك، ومن الشقي ومن السعيد، ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ والصادقون هم الذين استقامت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم على الصراط المستقيم والهدى القويم، فيوم القيامة يجدون ثمرة ذلك الصدق، إذا أحلهم الله في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ولهذا قال: ﴿لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم﴾ والكاذبون بضدهم، سيجدون ضرر كذبهم وافتراءهم، وثمره أعمالهم الفاسدة.

﴿الله ملك السماوات والأرض﴾ لأنه الخالق لهما والمدبر لذلك بحكمه القدري، وحكمه الشرعي، وحكمه الجزائي، ولهذا قال: ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ فلا يعجزه شيء، بل جميع الأشياء منقادة لمشيئته، ومسخرة بأمره.

ثم تفسير سورة المائدة بفضل من الله وإحسان، والحمد لله رب العالمين

### تفسير سورة الأنعام وهي مكية

﴿١ - ٢﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون ﴿هذا إخبار عن حمده والثناء عليه بصفات الكمال، ونعوت العظمة

وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون \* ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين \* ثم أمرهم أن يعتبروا بالأمم السالفة فقال:

﴿الم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن \* أي: كم تتابع إهلاكنا للأمم المكذبين، وأمهلتناهم قبل ذلك الإهلاك، بأن \*مكناهم في الأرض ما لم تمكن \* لهؤلاء من الأموال والبنين والرفاهية.

﴿وأرسلنا السماء عليهم مدراراً، وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم \* فبنت لهم بذلك ما شاء الله من زروع وثمار، يتمتعون بها، ويتناولون منها ما يشتهون، فلم يشكروا الله على نعمه، بل أقبلوا على الشهوات، وألهتهم أنواع اللذات، فجاءتهم رسلمهم بالبينات فلم يصدقوها، بل ردوها وكذبوها فأهلكهم الله بذنوبهم وأنشأ \* من بعدهم قرناً آخرين \*.

فهذه سُنَّة الله ودأبه في الأمم السابقين واللاحقين، فاعتبروا بمن قص الله عليكم بأنهم.

﴿٧-٩﴾ ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين \* وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون \* ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ هذا إخبار من الله لرسوله عن شدة عناد الكافرين، وأنه ليس تكذيبهم لقصور فيما جنتهم به، ولا لجهل منهم بذلك، وإنما ذلك ظلم وبغي، لا حيلة لكم فيه، فقال: ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم﴾ ويقنوه ﴿لقال الذين كفروا﴾ ظلماً وعلواً ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾.

فأي: بينة أعظم من هذه البينة، وهذا قولهم الشنيع فيها، حيث كابروا المحسوس الذي لا يمكن من له أدنى مسكة من عقله دفعه!!؟

﴿وقالوا﴾ أيضاً تعنتاً مبتئياً على الجهل، وعدم العلم بالمعقول، ﴿لولا

أنزل عليه ملك﴾ أي: هلا أنزل مع محمد ملك، يعاونه ويساعده على ما هو عليه بزعمهم أنه بشر، وأن رسالة الله، لا تكون إلا على أيدي الملائكة.

قال الله في بيان رحته ولطفه بعباده، حيث أرسل إليهم بشراً منهم يكون الإيمان بما جاء به عن علم وبصيرة وغيب. ﴿ولو أنزلنا ملكاً﴾ برسالتنا، لكان الإيمان لا يصدر عن معرفة بالحق، ولكان إيماناً بالشهادة الذي لا ينتفع شيئاً وحده، هذا إن آمنوا، والغالب أنهم لا يؤمنون بهذه الحالة، فإذا لم يؤمنوا قضي الأمر بتعجيل الهلاك عليهم وعدم إنظارهم، لأن هذه سُنَّة الله فيمن طلب الآيات المقترحة فلم يؤمن بها، فأرسل الرسول البشري إليهم بالآيات البينات، التي يعلم الله أنها أصلح للعباد وأرفق بهم، مع إمهال الله للكافرين والمكذبين، خير لهم وأنفع، فطلبهم لإنزال الملك شر لهم لو كانوا يعلمون، ومع ذلك فالملك لو أنزل عليهم، وأرسل، لم يطيقوا التلقي عنه، ولا احتملوا ذلك، ولا أطاقتهم قواهم الغانية.

﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً﴾ لأن الحكمة لا تقتضي سوى ذلك. ﴿وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ أي: ولكان الأمر مختلطاً عليهم وملبوساً وذلك بسبب ما لبسوه على أنفسهم، فإهم بنوا أمرهم على هذه القاعدة التي فيها اللبس، وبها عدم بيان الحق.

فلما جاءهم الحق بطرقه الصحيحة، وقواعده التي هي قواعده، لم يكن ذلك هداية لهم، إذا اهتدى بذلك غيرهم، والذنب ذنبهم، حيث أغلقوا على أنفسهم باب الهدى، وفتحوا أبواب الضلال.

﴿١٠-١١﴾ ﴿ولقد استهزىء برسلم من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون \* قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ يقول تعالى - مسلياً لرسوله، ومصبراً ومنتهداً أعداءه

ومتوعداً. ﴿ولقد استهزىء برسلم من قبلك﴾ لما جاؤوا أمهم بالبينات كذبوهم واستهزؤوا بهم وبما جاؤوا به. فأهلكهم الله بذلك الكفر والتكذيب، ووفى لهم من العذاب أكمل نصيب. ﴿فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون﴾ فاحذروا - أيها المكذبون - أن تستمروا على تكذيبكم، فيصيبكم ما أصابهم.

فإن شككتكم في ذلك أو ارتبتم، فسروا في الأرض ثم انظروا، كيف كان عاقبة المكذبين، فلن تجدوا إلا قوماً مهلكين، وأممًا في الثلاث تالفين، قد أوحشت منهم المنازل، وعدم من تلك الربوع كل متمتع بالسرور نازل، أبادهم الملك الجبار، وكان بناؤهم عبرة لأولي الأبصار. وهذا السير المأمور به سير القلوب والأبدان، الذي يتولد منه الاعتبار. وأما مجرد النظر من غير اعتبار، فإن ذلك لا يفيد شيئاً.

﴿قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾ يقول تعالى لنبية ﷺ: ﴿قل﴾ لهؤلاء المشركين بالله، مقررراً لهم وملزماً بالتوحيد: ﴿لمن ما في السماوات والأرض﴾ أي: من الخالق لذلك، المالك له التصرف فيه؟

﴿قل﴾ لهم: ﴿الله﴾ وهم مقررون بذلك لا ينكروته، أفلا حين اعترفوا بانفراد الله بالملك والتدبير، أن يعترفوا له بالإخلاص والتوحيد!!؟

وقوله: ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾ أي: العالم العلوي والسفلي تحت ملكه وتدبيره، وهو تعالى قد بسط عليهم رحته وإحسانه، وتغمدهم برحمته وامتنانه، وكتب على نفسه كتاباً أن رحته تغلب غضبه، وأن العطاء أحب إليه من المنع، وأن الله قد فتح لجميع العباد أبواب الرحمة، إن لم يغلقوا عليهم أبوابها بذنوبهم، ودعاهم إليها إن لم تمنعهم من طلبها معاصيهم وعبوبهم، وقوله: ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾ وهذا قسم منه،

وهو أصدق المخبرين، وقد أقام على ذلك من الحجج البينة والبراهين، ما يجعله حق اليقين، ولكن أبي الظالمون إلا جحوداً، وأنكروا قدرة الله على بعث الخلائق، فأرضعوا في معاصيه، وتجرؤوا على الكفر به، فخسروا دنياهم وأخراهم، ولهذا قال: ﴿الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾

﴿١٣ - ٢٠﴾ ﴿وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم﴾ \* قل أغير الله اتخذ ولياً فاطر السماوات والأرض وهو يظنم ولا يظنم قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين \* قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم \* من يصرف عنه يومئذ رجه وذلك الفوز المبين \* وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير \* وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير \* قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحى إلي هذا القرآن لأتذكركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وأنتي بريء عما يشركون \* الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون \* اعلم أن هذه السورة الكريمة قد اشتملت على تقرير التوحيد بكل دليل عقلي ونقلي، بل كادت أن تكون كلها في شأن التوحيد ومجادلة المشركين بالله المكذبين لرسوله.

فهذه الآيات ذكر الله فيها ما يبين به الهدى، ويتقمع به الشرك. فذكر أن ﴿له﴾ تعالى ﴿ما سكن في الليل والنهار﴾ وذلك هو المخلوقات كلها، من آدميها وحيثها، وملائكتها، وحيواناتها وجماداتها، فالكل خلق مدبرون، وعبيد مسخرون لربهم العظيم القاهر المالك، فهل يصح في عقل ونقل أن يعبد من هؤلاء الممالك، الذي لا نفع عنده ولا ضرر؟ ويترك الإخلاص للخالق المدبر المالك، الضار النافع؟! أم العقول السليمة والفطر المستقيمة تدعو

إلى إخلاص العبادة، والحب والخوف، والرجاء لله رب العالمين؟! ﴿السميع﴾ لجميع الأصوات على اختلاف اللغات بتفطن الحاجات. ﴿العليم﴾ بما كان، وما يكون، وما لم يكن، لو كان كيف كان يكون، المطلع على الظواهر والبواطن؟!

﴿قل﴾ لهؤلاء المشركين بالله: ﴿أغير الله اتخذ ولياً﴾ من هؤلاء المخلوقات العاجزة يتولاني وينصرني؟! فلا اتخذ من دونه تعالى ولياً لأنه فاطر السماوات والأرض، أي: خالقهما ومدبرهما. ﴿وهو يظنم ولا يظنم﴾ أي: وهو الرزاق لجميع الخلق، من غير حاجة منه تعالى إليهم، فكيف يليق أن اتخذ ولياً غير الخالق الرزاق، الغني الحميد؟! ﴿قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم﴾ لله بالتوحيد، وانقاد له بالطاعة، لأنني أولى من غيري بامتثال أوامر ربي.

﴿ولا تكونن من المشركين﴾ أي: ونهيت أيضاً عن أن أكون من المشركين، لا في اعتقادهم ولا في مجالستهم، ولا في الاجتماع بهم، فهذا أفرض الفروض علي، وأوجب الواجبات.

﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ فإن المعصية في الشرك توجب الخلود في النار، وسخط الخبار، وذلك اليوم هو اليوم الذي يخاف عذابه، ويحذر عقابه؛ لأنه من صرف عنه العذاب يومئذ فهو المرحوم، ومن نجا فيه فهو الفائز حقاً، كما أن من لم ينسج منه فهو الهالك الشقي.

ومن أدلة توحيده، أنه تعالى المنفرد بكشف الضراء، وجلب الخير والسرراء، ولهذا قال: ﴿وإن يمسسك الله بضر﴾ من فقر، أو مرض، أو عسر، أو غم، أو هم أو نحوه. ﴿فلا كاشف له إلا هو، وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير﴾. فإذا كان وحده النافع الضار، فهو الذي يستحق أن يفرد بالعبودية



والإلهية.

﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ فلا يتصرف منهم متصرف، ولا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن إلا بمشيئته، وليس للملوك وغيرهم الخروج عن ملكه وسلطانه، بل هم مدبرون مقهورون، فإذا كان هو القاهر وغيره مقهوراً، كان هو المستحق للعبادة.

﴿وهو الحكيم﴾ فيما أمر به ونهى، وأتاب وعاقب، وفيما خلق وقدر. ﴿الخبير﴾ المطلع على السرائر والضمائر وخفايا الأمور، وهذا كله من أدلة التوحيد.

﴿قل﴾ لهم - لما بينا لهم الهدى، وأوضحنا لهم المسالك -: ﴿أي شيء أكبر شهادة﴾ على هذا الأصل العظيم ﴿قل الله﴾ أكبر شهادة، فهو ﴿شهيد بيني وبينكم﴾ فلا أعظم منه شهادة ولا أكبر، وهو يشهد لي بإقراره وفعله، فيقرني على ما قلت لكم، كما قال تعالى: ﴿ولو نقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين﴾ فإله حكيم قدير، فلا يليق بحكمته وقدرته أن يقر كاذباً عليه، زاعماً أن الله أرسله ولم يرسله، وأن الله أمره بدعوة الخلق ولم يأمره، وأن الله أباح له دماء من خالفه وأموالهم ونساءهم، وهو مع ذلك يصدق بإقراره وفعله، فيؤيده على ما

ظلماً وعناداً ممن كان فيه أحد الوصفين، فكيف لو اجتمعاً افتراء الكذب على الله، أو التكذيب بآياته، التي جاءت بها المرسلون، فإن هذا أظلم الناس، والظالم لا يفلح أبداً.

ويدخل في هذا كل من كذب على الله، بادعاء<sup>(٢)</sup> الشريك له والعوين، أو [زعم] أنه ينبغي أن يعبد غيره أو اتخذ له صاحبة أو ولداً، وكل من رد الحق الذي جاءت به الرسل أو من قام مقامهم.

﴿٢٢ - ٢٤﴾ «ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للمؤمنين أشركوا أم لا أشركوا؟» ثم لم تكن فنتنهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين \* انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون \* يخبر تعالى عن مآل أهل الشرك يوم القيامة، وأنهم يسألون ويوبخون فيقال لهم: «أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون؟» أي: إن الله ليس له شريك، وإنما ذلك على وجه الزعم منهم والافتراء \* ثم لم تكن فنتنهم أي: لم يكن جوابهم حين يفتنون لشركهم وحلفهم أنهم ما كانوا مشركين \* انظر \* متعجباً منهم ومن أحوالهم \* كيف كذبوا على أنفسهم \* أي: كذبوا كذباً عاد بالخسار على أنفسهم وضرهم - والله - غاية الضر \* وضل عنهم ما كانوا يفترون \* من الشركاء الذين زعموهم مع الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿٢٥﴾ «ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاؤوك بمجادلونك يقولون الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين \* أي: ومن هؤلاء المشركين قوم يحملهم بعض الأوقات، وبعض الدواعي إلى الاستماع لما تقول، ولكنه استماع خال من قصد الحق واتباعه، ولهذا لا يتفقون بذلك الاستماع لعدم

الذين مرجحت عقولهم وأديانهم، وفسدت آراؤهم وأخلاقهم، وأضحكوا على أنفسهم العقلاء.

بل خالفوا بشهادة فطرتهم، وتناقضت أقوالهم على إثبات أن مع الله آلهة أخرى، مع أنه لا يقوم على ما قالوه<sup>(١)</sup> أدنى شبهة فضلاً عن الحجج، واختر لنفسك أي: الشهادتين إن كنت تعقل، ونحن نختار لأنفسنا ما اختاره الله لنبيه، الذي أمرنا الله بالافتداء به، فقال: «قل إنما هو إله واحد» أي: منفرد لا يستحق العبودية والإلهية سواه، كما أنه المنفرد بالخلق والتدبير.

«وإني بريء مما تشركون» به من الأوثان والأنداد، وكل ما أشرك به مع الله. فهذا حقيقة التوحيد، إثبات الإلهية لله ونفيها عما عداه.

لما بين شهادته وشهادة رسوله على التوحيد، وشهادة المشركين الذين لا علم لديهم على ضده، ذكر أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى \* يعرفونه \* أي: يعرفون صحة التوحيد \* كما يعرفون أبناءهم \* أي: لا شك عندهم فيه بوجه، كما أنهم لا يشتبهون بأولادهم، خصوصاً البين الملازمين في الغالب لأبائهم.

ويجتمل أن الضير عائد إلى الرسول محمد ﷺ، وأن أهل الكتاب لا يشتبهون بصحة رسالته ولا يمترون بها، لما عندهم من البشارات به، ونعوته التي تنطبق عليه ولا تصلح لغيره، والمعيان متلازمان.

قوله: «الذين خسروا أنفسهم» أي: فوتوها ما خلقت له من الإيمان والتوحيد، وحرموها الفضل من الملك المجيد \* فهم لا يؤمنون \* فإذا لم يوجد الإيمان منهم، فلا تسأل عن الخسار والشرف، الذي يحصل لهم.

﴿٢٦﴾ «ومن أظلم ممن اقترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون» أي: لا أعظم



قال بالمعجزات الباهرة والآيات الظاهرة، وينصره ويخذل من خالفه وعاداه، فأبي: شهادة أكبر من هذه الشهادة!!

وقوله: «وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ» أي: وأوحى الله إلي هذا القرآن الكريم لمنفعتكم ومصلحتكم، لأنذركم به من العقاب الأليم. والندارة إنما تكون بذكر ما ينذروهم به من الترغيب، والترهيب، وبيان الأعمال والأقوال، الظاهرة والباطنة، التي من قام بها فقد قبل الندارة، فهذا القرآن فيه الندارة لكم أيها المخاطبون، وكل من بلغه القرآن إلى يوم القيامة، فإن فيه بيان كل ما يحتاج إليه من المطالب الإلهية.

لما بين تعالى شهادته التي هي أكبر الشهادات على توحيد، قال: قل لهؤلاء المعارضين لخبر الله، والمكذبين لرسوله: «أنتنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى، قل لا أشهد» أي: إن شهدوا، فلا تشهد معهم.

فوازن بين شهادة أصدق القائلين ورب العالمين، وشهادة أركى الخلق المؤيدة بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة على توحيد الله وحده لا شريك له، وشهادة أهل الشرك

(٢) كذا في ب، وفي أ: الدعاء.

(١) في ب على ما خلفوه.

إرادتهم للخير ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة﴾ أي: أغطية وأغشية، لئلا يفقهوا كلام الله، فصان كلامه عن أمثال هؤلاء. ﴿وفي آذانهم﴾ جعلنا ﴿وقرأ﴾ أي: صمما، فلا يستمعون ما يفهم.

﴿وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾ وهذا غاية الظلم والعناد، أن الآيات البينات الدالة على الحق، لا ينقادون لها، ولا يصدقون بها، بل يجادلون بالباطل الحق ليدحضوه.

ولهذا قال: ﴿حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي: مأخوذ من صحف الأولين المسطورة، التي ليست عن الله ولا عن رسله. وهذا من كفرهم، وإلا فكيف يكون هذا الكتاب الخاوي لأنباء السابقين واللاحقين، والحفائض التي جاءت بها الأنبياء والمرسلون، والحق، والقسط، والعدل التام من كل وجه، أساطير الأولين؟

﴿٢٦﴾ ﴿وهم ينهون عنه ويتأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ وهم: أي: المشركون بالله، المكذوبون لرسوله، يجمعون بين الضلال والإضلال، ينهون الناس عن اتباع الحق، ويحذرونهم منه، ويبعدون بأنفسهم عنه، ولن يضروا الله ولا عباده المؤمنين بفعلهم هذا شيئاً. ﴿إن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ بذلك.

﴿٢٧ - ٢٩﴾ ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا تردنا ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾ بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴿يقول تعال - تخبراً عن حال المشركين يوم القيامة، وإحضارهم النار: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار﴾ ليوبخوا ويرفعوا، لرأيت أمراً هائلاً وحالاً مفضعة. ولرأيتهم كيف أقروا على أنفسهم بالكفر والفسوق، وتمنوا أن لو بردوا إلى الدنيا. ﴿فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من

المؤمنين﴾ بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل. فإنهم كانوا يخفون في أنفسهم أنهم كانوا كاذبين، ويبدو في قلوبهم في كثير من الأوقات. ولكن الأغراض الفاسدة صدهم عن ذلك، وصرفت قلوبهم عن الخير، وهم كذبة في هذه الأمنية، وإنما قصدهم أن يدفعوا بها عن أنفسهم العذاب.

﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾

﴿وقالوا﴾ منكرين للبعث ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا﴾ أي: ما حقيقة الحال والأمر وما المقصود من إيماننا، إلا الحياة الدنيا وحدها. ﴿وما نحن بمبعوثين﴾

﴿٣٠﴾ ﴿ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى ورينا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ أي: ﴿ولو ترى﴾ الكافرين ﴿إذ وقفوا على ربهم﴾ لرأيت أمراً عظيماً، وهولاً جسيماً، ﴿قال﴾ لهم موبخاً ومقرعاً: ﴿أليس هذا﴾ الذي ترون من العذاب ﴿بالحق؟﴾ قالوا: بلى ورينا، فأقروا واعترفوا حيث لا يفهم ذلك، ﴿قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾

﴿٣١﴾ ﴿قد خسر الذين كذبوا بقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون﴾ أي: قد خاب وخسر وحرم الخير كله، من كذب بقاء الله، فأوجب له هذا التكذيب، الاجترار على المحرمات، واقتراف الموبقات ﴿حتى إذا جاءتهم الساعة﴾ وهم على أشبح حال وأسوئته، فأظهروا غاية الندم. و ﴿قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها﴾ ولكن هذا تحسر ذهب وقته، ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون﴾. فإن وزرهم وزر يثقلهم ولا يقدرين على التخلص منه، ولهذا خلدوا في النار، واستحقوا التأبيد في غضب الجبار.

﴿٣٢﴾ ﴿وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٤٢﴾  
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٤٣﴾  
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٤٤﴾  
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٤٥﴾  
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٤٦﴾  
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٤٧﴾  
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٤٨﴾  
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٤٩﴾  
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٥٠﴾  
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٥١﴾  
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٥٢﴾  
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٥٣﴾  
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٥٤﴾  
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٥٥﴾  
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٥٦﴾  
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٥٧﴾  
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٥٨﴾  
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٥٩﴾  
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٦٠﴾

أفلا تعقلون﴾ هذه حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة، أما حقيقة الدنيا فإنها لعب ولهو، لعب في الأبدان، ولهو في القلوب، فالقلوب لها والهة، والنفوس لها عاشقة، والهموم فيها متعلقة، والاشتغال بها كلعب الصبيان.

وأما الآخرة فإنها ﴿خير للمؤمنين﴾ يتقون ﴿في ذاتها وصفاتها، ويقانها ودوامها، وفيها ما تشتهي النفس وتلذذ الأعين، من نعيم القلوب والأرواح، وكثرة السرور والأفراح، ولكنها ليست لكل أحد، وإنما هي للمتقين الذين يفعلون وأمر الله، ويتركون نواهيه وزواجره ﴿أفلا تعقلون﴾ أي: أفلا يكون لكم عقول، بها تدركون، أي: الدارين أحق بالإشارة.

﴿٣٣ - ٣٥﴾ ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون﴾ في أنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴿ولقد كذبت رسلاً من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبي المرسلين﴾ وإن كان كبير عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبغني نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾ أي: قد نعلم أن الذي يقول المكذبون فيك يحزنك ويسؤك، ولم

فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً، أو تأتي باله والملائكة قبلاً ﴿الآيات﴾ .

﴿قل﴾ عجيباً لقولهم: ﴿إن الله قادر على أن ينزل آية﴾ فليس في قدرته قصور عن ذلك، كيف وجميع الأشياء مقدرة لعزته، مدعته لسلطانه؟!

ولكن أكثر الناس لا يعلمون فهم لجهلهم وعدم علمهم يطلبون ما هو شر لهم من الآيات، التي لو جاءتهم فلم يؤمنوا بها، لعوجلوا بالعقاب، كما هي سنة الله التي لا تبدل لها، ومع هذا فإن كان قصدهم الآيات التي تبين لهم الحق، وتوضح السبيل، فقد أتى

محمد ﷺ بكل آية قاطعة، وحجة ساطعة، دالة على ما جاء به من الحق، بحيث يتمكن العبد في كل مسألة من مسائل الدين، أن يجد فيما جاء به عدة أدلة عقلية ونقلية، بحيث لا تبقى في القلوب أدنى شك وارتياب، فتبارك الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، وأيده بالآيات البينات ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيى عن بينة، وإن الله لسميع عليم.

﴿٣٨﴾ ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾ أي: جميع الحيوانات الأرضية واليهوائية، من البهائم والوحوش والطيور، كلها أمم أمثالكم خلقناها كما خلقناكم، ورزقناها كما رزقناكم، ونفدت فيها مشيئتنا وقدرتنا كما كانت نافذة فيكم.

﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ أي: ما أهملنا ولا أغفلنا في اللوح المحفوظ شيئاً من الأشياء، بل جميع الأشياء، صغيرها وكبيرها، مثبتة في اللوح المحفوظ على ما هي عليه، فتقع جميع الحوادث طبق ما جرى به القلم.

وفي هذه الآية دليل على أن الكتاب الأول قد حوى جميع الكائنات، وهذا أحد مراتب القضاء والقدر، فإنها أربع مراتب:

الهدى ﴿ ولكن حكمته تعالى اقتضت أنهم يبقون على الضلال. ﴿فلا تكونن من الجاهلين﴾ الذين لا يعرفون حقائق الأمور، ولا ينزلونها على منازلها.

﴿٣٦ - ٣٧﴾ ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى بيعتهم الله ثم إليه يرجعون﴾ وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿إنما يستجيب لدعوتك ويلبي رسالتك وينقاد لأمرك ونهيك﴾ الذين يسمعون﴾ بقلوبهم ما ينفعهم، وهم أولو الأسباب والأسماع.

والمراد بالسمع هنا: سماع القلب والاستجابة، وإلا فمجرد سماع الأذن، يشترك فيه البر والفاجر. فكل المكلفين قد قامت عليهم حجة الله تعالى باستماع آياته، فلم يبق لهم عذر في عدم القبول.

﴿والموتى بيعتهم الله ثم إليه يرجعون﴾ يحتمل أن المعنى مقابل للمعنى المذكور. أي: إنما يستجيب لك أحياء القلوب، وأما أموات القلوب الذين لا يشعرون بسعادتهم، ولا يحسون بما ينجيهم، فإنهم لا يستجيبون لك ولا ينقادون، وموعدهم القيامة، بيعتهم الله ثم إليه يرجعون، ويحتمل أن المراد بالآية على ظاهرها، وأن الله تعالى يقرر المعاد، وأنه سيبعث الأموات يوم القيامة ثم ينبئهم بما كانوا يعملون.

ويكون هذا متضمناً للترغيب في الاستجابة لله ورسوله، والترهيب من عدم ذلك.

﴿وقالوا﴾ أي: المكذبون بالرسول تمتناً وعناداً: ﴿لولا نزل عليه آية من ربه﴾ يعنون بذلك آيات الاقتراح، التي يقترحونها بعقولهم الفاسدة وأرائهم الكاسدة.

كقولهم: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب،



تأمرك بما أمرناك به من الصبر إلا لتحصل لك المنازل العالية والأحوال الغالية. فلا تظن أن قولهم صادر عن اشتباه في أمرك وشك فيك﴾ فإنهم لا يكذبونك﴾ لأنهم يعرفون صدقك ومدخلك ومخرجك، وجميع أحوالك، حتى إنهم كانوا يسمونه قبل البعثة الأمين. ﴿ولكن الظالمين بأيات الله يحسدون﴾ أي: فإن تكذيبهم لأيات الله التي جعلها الله على يدك<sup>(١)</sup>.

﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا﴾ فاصبر كما صبروا، تظفر كما تظفروا، ﴿ولقد جاءك من نبي المرسلين﴾ ما به يبث فؤادك، ويطمئن به قلبك.

﴿وإن كان كبير عليك إعراضهم﴾ أي: شق عليك من حرصك عليهم ومحبتك لإيمانهم، فابذل وسعك في ذلك، فليس في مقدورك أن تهدي من لم يرد الله هدايته.

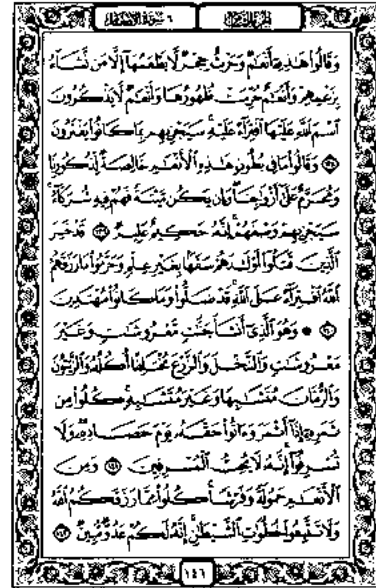
﴿فإن استطعت أن تبني نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية﴾ أي: فافعل ذلك، فإنه لا يفيدهم شيئاً، وهذا قطع لطمعه في هدايته أشباه هؤلاء المعاندين.

﴿ولو شاء الله لجمعهم على

(١) السياق يقضي أن يأتي بخبر إن ومقصود الشيخ - رحمه الله - فإن تكذيبهم... جحود منهم لما علموه حقاً.







نصرف الآيات ﴿أي﴾: تنوعها، ونأتي بها من كل فن، ولنتبين الحق، وتبين سبيل المجرمين. ﴿ثم هم﴾ مع هذا البيان التام ﴿يصدفون﴾ عن آيات الله ويعرضون عنها.

﴿قل أرأيتم﴾ ﴿أي﴾: أخبروني ﴿إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة﴾ ﴿أي﴾: مفاجأة أو قد تقدم أمامه مقدمات، تعلمون بها وقوعه ﴿هل يهلك إلا القوم الظالمون﴾ الذين صاروا سبباً لوقوع العذاب بهم، يظلمهم وعنادهم. فاحذروا أن تقيموا عمل الظلم، فإنه الهلاك الأبدي، والشقاء السرمدي.

﴿٤٨ - ٤٩﴾ ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ \* والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون، يذكر تعالى زبدة ما أرسل به المرسلين، أنه البشارة والنذارة، وذلك مستلزم لبیان المبشر والمبشر به، والأعمال التي إذا عملها العبد حصلت له البشارة. والمُنذَرُ والمُنذَرُ به، والأعمال التي من عملها حقت عليه النذارة.

ولكن الناس انقسموا - بحسب إجابتهم لدعوتهم وعدمها - إلى قسمين:

﴿فمن آمن وأصلح﴾ ﴿أي﴾: آمن

بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وأصلح إيمانه وأعماله ونيته ﴿فلا خوف عليهم﴾ فيما يستقبل ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما مضى.

﴿والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب﴾ ﴿أي﴾: ينالهم ويذوقونه ﴿بما كانوا يفسقون﴾.

﴿٥٠﴾ ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك إلا ما يوحى إلي قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ؛ المقترحين<sup>(١)</sup> عليه الآيات، أو القائلين له: إنما تدعوننا لتتخذك إلهاً مع الله: ﴿لا أقول لكم عندي خزائن الله﴾ ﴿أي﴾: مفاتيح رزقه ورحمته. ﴿ولا أعلم الغيب﴾ وإنما ذلك كله عند الله فهو الذي ما يفتح للناس من رحمة فلا تمسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده، وهو وحده عالم الغيب والشهادة. فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول.

﴿ولا أقول لكم إنى ملك﴾ فأكون نافذ التصرف قوياً، فلست أدعي فوق منزلي التي أنزلني الله بها. ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إلي﴾ ﴿أي﴾: هذا غاييتي ومنتهى أمري وأعلاه، إن أتبع إلا ما يوحى إلي، فأعمل به في نفسي، وأدعو الخلق كلهم إلى ذلك.

فيأذا عرفت منزلي، فلاي: شيء يبحث الباحث معي، أو يطلب مني أمراً لست أدعيه، وهل يلزم الإنسان بغير ما هو بصدده؟

ولأي: شيء إذا دعوتكم، بما أوحى إلي أن تلتزموني أني أدعي لنفسي غير مرتبتي، وهل هذا، إلا ظلم منكم وعناد وتمرد؟ قل لهم في بيان الفرق بين من قبل دعوتي وانقاد لما أوحى إلي، وبين من لم يكن كذلك ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون﴾ فتنزّلون الأشياء منازلها، وتحتارون ما هو أولى بالاختيار والإيثار؟

﴿٥١ - ٥٥﴾ ﴿وأُنذِر به الذين الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلمهم يتقون﴾ \* ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغفلة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين \* وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين \* وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم \* وكذلك تفصل الآيات ولنتبين سبيل المجرمين﴾ هذا القرآن نذارة للخلق كلهم، ولكن إنما يتنفع به ﴿الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم﴾

فهم متيقنون للانتقال من هذه الدار إلى دار القرار، فلذلك يستصحبون ما ينفعهم ويدعون ما يضرهم. ليس لهم من دونه ﴿أي﴾: من دون الله ﴿ولي ولا شفيع﴾ ﴿أي﴾: لا من يتولى أمرهم فيحصل لهم المطلوب ويدفع عنهم المحذور، ولا من يشفع لهم، لأن الخلق كلهم ليس لهم من الأمر شيء. ﴿لعلمهم يتقون﴾ الله بامتثال أوامره، واجتتاب نواهيه، فإن الإنذار موجب لذلك، وسبب من أسبابه.

﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغفلة والعشي يريدون وجهه﴾ ﴿أي﴾: لا تطرد عنك وعن مجالستك أهل العبادة والإخلاص، رغبة في مجالسة غيرهم، من الملازمين لدعاء ربهم، دعاء العبادة بالذكر والصلاة ونحوها، ودعاء المسألة في أول النهار وآخره، وهم قاصدون بذلك وجه الله، ليس لهم من الأغراض سوى ذلك الغرض الجليل، فهؤلاء ليسوا مستحقين للطرد والإعراض عنهم، بل هم مستحقون لمواظبتهم ومحببتهم، وإدانتهم وتقريبهم، لأنهم الصفوة من الخلق وإن كانوا فقراء، الأجزاء في الحقيقة وإن كانوا

(١) زاد هنا في طبعة السلفية قبل كلمة المقترحين: (أن يخاطب) المقترحين.

عند الناس أذلاء .

﴿ ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء ﴾ أي : كل له حساب ، وله عمله الحسن وعمله القبيح . ﴿ فطردهم فنكون من الظالمين ﴾ وقد امتثل ﷺ هذا الأمر أشد امتثال ، فكان إذا جلس الفقراء من المؤمنين صبر نفسه معهم ، وأحسن معاملتهم ، وألان لهم جانبه ، وحسن خلقه ، وقربهم منه ، بل كانوا هم أكثر أهل مجلسه رضي الله عنهم .

وكان سبب نزول هذه الآيات ، أن أناساً [ من قريش ، أو ] من أجلاف العرب قالوا للنبي ﷺ : إن أردت أن نؤمن لك ونتبعك ، فاطرد فلاناً وفلاناً ، أناساً من فقراء الصحابة ، فإننا نستحي أن ترانا العرب جالسين مع هؤلاء الفقراء ، فحمله حبه لإسلامهم واتباعهم له ، فحدثته نفسه بذلك . فعاتبه الله بهذه الآيات ونحوها .

﴿ وكذلك فتننا بعضهم ببعض ، ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ﴾ أي : هذا من ابتلاء الله لعباده ، حيث جعل بعضهم غنياً ، وبعضهم فقيراً ، وبعضهم شريفاً ، وبعضهم وضيعاً ، فإذا من الله بالإيمان على الفقير أو الوضيع ؛ كان ذلك محل عنة للغني والشريف فإن كان قصده الحق واتباعه آمن وأسلم ، ولم يمنعه من ذلك مشاركة الذي يراه دونه بالغنى أو الشرف ، وإن لم يكن صادقاً في طلب الحق ، كانت هذه عقبة ترده عن اتباع الحق .

وقالوا عتقيرين لمن يرونهم دونهم : ﴿ أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ﴾ . فمنعهم هذا من اتباع الحق ، لعدم زكائهم ، قال الله مجيباً لكلامهم المضمن الاعتراض على الله في هداية هؤلاء ، وعدم هدايتهم هم . ﴿ اليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ الذين يعرفون النعمة ، ويقرون بها ، ويقومون بما تقتضيه من العمل الصالح ، فيضع فضله ومنته عليهم ، دون من ليس

بشاكر ، فإن الله تعالى حكيم لا يضع فضله عند من ليس له بأهل ، وهؤلاء المعترضون بهذا الوصف ، بخلاف من من الله عليهم بالإيمان من الفقراء وغيرهم فإنهم هم الشاكرون . ولما نهى الله رسوله عن طرد المؤمنين القانتين ، أمره بمقابلتهم بالإكرام والإعظام ، والتبجيل والاحترام ، فقال : ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ﴾ أي : وإذا جاءك المؤمنون ، فحيهم ورحب بهم ولقهم منك تحية وسلام ، وبشرهم بما ينشط عزائمهم ومهمهم ، من رحمة الله وسعة جوده وإحسانه ، وحنهم على كل سبب وطريق يوصل لذلك .

ورهبهم من الإقامة على الذنوب ، وأمرهم بالتوبة من المعاصي لينالوا مغفرة ربهم وجوده ، ولهذا قال : ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح ﴾ أي : فلا بد مع ترك الذنوب والإقلاع والندم عليها ، من إصلاح العمل وأداء ما أوجب الله ، وإصلاح ما فسد من الأعمال الظاهرة والباطنة .

فإذا وجد ذلك كله ﴿ فإنه غفور رحيم ﴾ أي : صب عليهم من مغفرته ورحمته ، بحسب ما قاموا به مما أمرهم به .

﴿ وكذلك نفصل الآيات ﴾ أي : نوضحها وتبينها ، ونميز بين طريق الهدى من الضلال ، والغنى والرشاد ، لهتدي بذلك المهتدون ، وتبين الحق الذي ينبغي سلوكه . ﴿ ولتستبين سبيل المجرمين ﴾ الموصلة إلى سخط الله وعذابه ، فإن سبيل المجرمين إذا استبان وتوضحت أمكن اجتنابها والبعد منها ، بخلاف ما لو كانت مشتبهة ملتبسة ، فإنه لا يحصل هذا المقصود الجليل .

﴿ ٥٦ - ٥٨ ﴾ ﴿ قل إني نهييت أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا وما أنا

من المهتدين ﴾ \* قل إني على بينة من ربي وكذبتم به ما عندي ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله بقصص الحق وهو خير الفاصلين ﴾ \* قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بين وبينكم والله أعلم بالظالمين ﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ قل ﴾ لهؤلاء المشركين الذين يدعون مع الله الهة أخرى : ﴿ إني نهييت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ﴾ من الأنداد والأوثان التي لا تملك نفعاً ولا ضرراً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، فإن هذا باطل ، وليس لكم فيه حجة بل ولا شبهة ، إلا اتباع الهوى الذي اتبعه أعظم الضلال ، ولهذا قال : ﴿ قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا ﴾ أي : إن اتبعت أهواءكم ﴿ وما أنا من المهتدين ﴾ بوجه من الوجوه ، وأما ما أنا عليه من توحيد الله وإخلاص العمل له ، فإنه هو الحق الذي تقوم عليه البراهين والأدلة القاطمة .

وأنا ﴿ على بينة من ربي ﴾ أي : على يقين مبين ، بصحة وبطلان ما عداه ، وهذه شهادة من الرسول جازمة لا تقبل التردد ، وهو أعدل الشهود من الخلق على الإطلاق . فصدق بها المؤمنون ، وتبين لهم من صحتها وصدقها ، بحسب ما من الله به عليهم .

﴿ ولو ﴾ لكنكم أيها المشركون - ﴿ كذبتم به ﴾ وهو لا يستحق هذا منكم ، ولا يليق به إلا التصديق ، وإذا استمررتم <sup>(١)</sup> على تكذيبكم ، فاعلموا أن العذاب واقع بكم لا محالة ، وهو عند الله ، هو الذي ينزله عليكم إذا شاء وكيف شاء ، وإن استعجلتم به فليس بيدي من الأمر شيء ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ فكما أنه هو الذي حكم بالحكم الشرعي ، فأمر ونهى ، فإنه سيحكم بالحكم الجزائي ، فيثيب ويعاقب ، بحسب ما تقتضيه حكمته . فالاعتراض على حكمه مطلقاً مدفوع ، وقد أوضح السبيل وقصص على عباده

العامه، فليسوا يملكون من الأمر شيئاً، ولا يتحركون ولا يسكنون إلا بإذنه، ومع ذلك فقد وكل بالعباد حفظة من الملائكة، يحفظون العبد ويحفظون عليه ما عمل، كما قال تعالى: ﴿وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين. يعلمون ما تفعلون﴾. ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ فهذا حفظه لهم في حال الحياة.

﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا﴾ أي: الملائكة الموكلون بقبض الأرواح ﴿وهم لا يفرطون﴾ في ذلك، فلا يزيدون ساعة مما قدر الله وقضاه ولا ينقصون، ولا ينفذون من ذلك إلا بحسب المراسيم الإلهية والتقادير الربانية.

﴿ثم﴾ بعد الموت والحياة البرزخية وما فيها من الخير والشر ﴿ردوا إلى الله مولاهم الحق﴾ أي: الذي تولاهم بحكمه القدرى، فنفذ فيهم ما شاء من أنواع التدبير، ثم تولاهم بأمره ونهيه، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، ثم ردوا إليه ليتولى الحكم فيهم بالجزاء، ويتببهم على ما عملوا من الخيرات، ويعاقبهم على الشرور والسيئات، ولهذا قال: ﴿إلا له الحكم﴾ وحده لا شريك له ﴿وهو أسرع الحاسين﴾ لكمال علمه وحفظه لأعمالهم، بما أثبتته في اللوح المحفوظ، ثم أثبتته ملائكته في الكتاب الذي بأيديهم، فإذا كان تعالى هو المنفرد بالخلق والتدبير، وهو القاهر فوق عباده، وقد اعثنى بهم كل الاعتناء في جميع أحوالهم، وهو الذي له الحكم القدرى، والحكم الشرعى، والحكم الجزائى، فأين للمشركين العدول عن من هذا وصفه ونعته، إلى عبادة من ليس له من الأمر شيء، ولا عنده مثقال ذرة من النفع، ولا له قدرة وإرادة؟!

أما والله لو علموا حلم الله عليهم وعفوه ورحمته بهم، وهم يبارزون بالشرك والكفران، ويتجرؤون على عظمتهم بالإفك والبهتان، وهو يعاقبهم

عليها، وبعض هذا المذكور يبهز عقول العقلاء، ويذهل أفئدة النبلاء، فدل هذا على عظمة الرب العظيم وسعته في أوصافه كلها.

وأن الخلق - من أولسهم إلى آخرهم - لو اجتمعوا على أن يحيطوا ببعض صفاته، لم يكن لهم قدرة ولا وسع في ذلك، فتبارك الرب العظيم، الواسع، العليم، الحميد المجيد، الشهيد، المحيط.

وجل من إله لا يحصى أحد شئاه عليه، بل هو كما أتنى على نفسه، وفوق ما يشي عليه عباده، فهذه الآية، دلت على علمه المحيط بجميع الأشياء، وكتابه المحيط بجميع الحوادث.

﴿٦٠ - ٦٢﴾ ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينشقكم بما كنتم تعملون﴾ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون \* ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾ هذا كله تقرير لالوهيته، واحتجاج على المشركين به، وبيان أنه تعالى المستحق للحب والتعظيم، والإجلال والإكرام، فأخبر أنه وحده المنفرد بتدبير عباده، في يقظتهم ومنامهم، وأنه يتوفاهم بالليل وفاة النوم، فتهدأ حركاتهم، وتستريح أبدانهم، ويبعثهم في اليقظة من نومهم، لينصرفوا في مصالحهم الدينية والدنيوية وهو - تعالى - يعلم ما جرحوا وما كسبوا من تلك الأعمال.

ثم لا يزال تعالى هكذا يتصرف فيهم، حتى يستوفوا أجلهم. فيقضى بهذا التدبير أجل مسمى، وهو: أجل الحياة، وأجل آخر فيما بعد ذلك، وهو البعث بعد الموت، ولهذا قال: ﴿ثم إليه مرجعكم﴾ لا إلى غيره ﴿ثم ينشقكم بما كنتم تعملون﴾ من خير وشر.

﴿وهو﴾ تعالى ﴿القاهر فوق عباده﴾ ينفذ فيهم إرادته الشاملة ومشيئته

الحق قصاً، قطع به معاذيرهم، وانقطعت له حججهم، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة ﴿وهو خير الفاصلين﴾ بين عباده في الدنيا والآخرة، فيفصل بينهم فصلاً يحمد به عليه، حتى من قضي عليه، ووجه الحق نحوه.

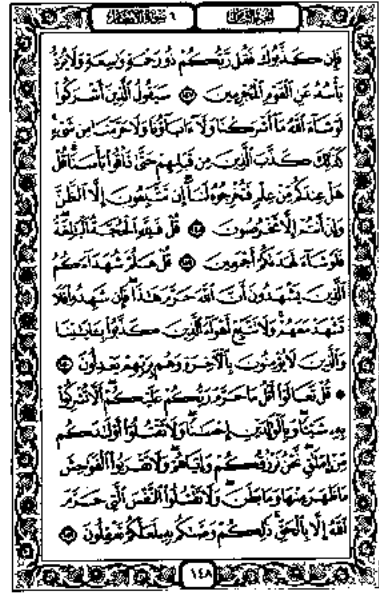
﴿قل﴾ للمستعجلين بالعذاب، جهلاً وعناداً وظلماً، ﴿لو أن عندى ما تستمجلون به لقضى الأمر بيني وبينكم﴾ فأوقعتهم بكم ولا خير لكم في ذلك، ولكن الأمر عند الخليم الصبور، الذي يعصيه العاصون، ويتجرأ عليه المتجرؤون، وهو يعاقبهم ويرزقهم ويسدي عليهم نعمه الظاهرة والباطنة. ﴿والله أعلم بالظالمين﴾ لا يخفى عليه من أحوالهم شيء، فيمهلهم ولا يمهلهم.

﴿٥٩﴾ ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ هذه الآية العظيمة من أعظم الآيات تفصيلاً لعلمه المحيط، وأنه شامل للغيب كلها، التي يطلع منها ما شاء من خلقه. وكثير منها طوى علمه عن الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، فضلاً عن غيرهم من العالمين، وأنه يعلم ما في البراري والقفار من الحيوانات والأشجار، والرمال والخصى والتراب، وما في البحار من حيواناتها ومعادنها وصيدها، وغير ذلك مما تحتويه أرجاؤها، ويشتمل عليه ماؤها.

﴿وما تسقط من ورقة﴾ من أشجار البر والبحر، والبلدان والقفار، والدنيا والآخرة، إلا يعلمها. ﴿ولا حبة في ظلمات الأرض﴾ من حبوب شمار والزروع، وحبوب البذور التي يبذرها الخلق؛ ويبذر النوايت البرية التي ينشئ منها أصناف النباتات.

﴿ولا رطب ولا يابس﴾ هذا عموم بعد خصوص ﴿إلا في كتاب مبين﴾ وهو اللوح المحفوظ قد حواها واشتمل





ولغير الله فهو لعب، فهذا أمر الله تعالى أن يترك ويجذر، ولا يغتر به، وتنتظر حاله، ويجذر من فعالة، ولا يغتر بتعويقه عما يقرب إلى الله.

﴿وذكر به﴾ أي: ذكر بالقرآن ما ينفع العباد، أمراً، وتفصيلاً، وتحسيناً له، بذكر ما فيه من أوصاف الحسن، وما يضر العباد نبياً عنه، وتفصيلاً لأنواعه، وبيان ما فيه من الأوصاف القبيحة الشنيعة الداعية لتركه، وكل هذا لئلا تبسل نفس بما كسبت، أي: قبل احتحام العبد للذنوب وتجتره على علام الغيوب، واستمرارها على ذلك المروء، فذكرها، وعظها، لترتدع وترتجز وتكف عن فعلها.

﴿وورد على أعقابنا بعد إذ هادنا الله﴾ أي: ونقلب بعد هداية الله لنا إلى الضلال، ومن الرشد إلى الغي، ومن الصراط الموصل إلى جنات النعيم، إلى الطرق التي تفضي بسالكها إلى العذاب الأليم، فهذه حال لا يرتضيها ذورشد، وصاحبها ﴿كالذي استهوته الشياطين في الأرض﴾ أي: أضلته وتيهته عن طريقه ومنهجه، الموصل له إلى مقصده. فبقي حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى والشياطين يدعونه إلى الردى، فبقي بين الداعيين حائراً وهذه حال الناس كلهم، إلا من عصمه الله تعالى، فإنهم يجدون فيهم جوازب ودواعي متعارضة، دواعي الرسالة والعقل الصحيح، والفتنة المستقيمة ﴿يدعونه إلى الهدى﴾ والصمود إلى أعلى عليين.

﴿٧١ - ٧٣﴾ ﴿قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هادنا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى اثننا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين \* وأن أقيموا الصلاة واتقوا وهو الذي إليه تحشرون \* وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب

وفي هذا دليل على أنه ينبغي أن يستعمل المذكر من الكلام ما يكون أقرب إلى حصول مقصود التقوى. وفيه دليل على أنه إذا كان التذكير والوعظ مما يزيد الموعوظ شراً إلى شره، إلى أن تركه هو الواجب<sup>(١)</sup>، لأنه إذا ناقض المقصود، كان تركه مقصوداً.

﴿٧٠﴾ ﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أسبلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم انتهى حره، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم \* وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾.

﴿٧٠﴾ ﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أسبلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾ المقصود من العباد أن يخلصوا لله الدين، بأن يعبدوه وحده لا شريك له، ويبدلوا مقدورهم في مرضاته ومحابه. وذلك متضمن لإقبال القلب على الله وتوجهه إليه، وكون سعي العبد ناقصاً، وجدلاً لا هزلاً، وإخلاصاً لوجه الله لا رياء وسمعة، هذا هو الدين الحقيقي الذي يقال له دين، فأما من زعم أنه على الحق، وأنه صاحب دين وتقوى، وقد اتخذ دينه لعباً ولهواً. بأن لها قلبه عن محبة الله ومعرفته، وأقبل على كل ما يضره، ولها في باطله، ولعب فيه ببدنه، لأن العمل والسعي إذا كان

﴿٧١﴾ ﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أسبلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم انتهى حره، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم \* وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾.

﴿٧١﴾ ﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أسبلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم انتهى حره، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم \* وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾.

﴿٧٠﴾ ﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أسبلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم انتهى حره، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم \* وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾.

﴿٧٠﴾ ﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أسبلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم انتهى حره، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم \* وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾.

﴿٧٠﴾ ﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أسبلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم انتهى حره، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم \* وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾.

﴿٧٠﴾ ﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أسبلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم انتهى حره، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم \* وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾.

(٤) كذا في ب، وفي أ: داعي.

(٣) كذا في ب، وفي أ: داع.

(١) في ب: كان تركه هو الواجب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: دواع.

التي شرعها الله على لسان رسوله، وما عداه فهو ضلال وردى وهلاك. **﴿وأمرنا لنسلم لرب العالمين﴾** بأن نقاد لتوحيد، ونستسلم لأوامره ونواهي، وتدخل تحت رق عبوديته، فإن هذا أفضل نعمة أنعم الله بها على العباد، وأكمل تربية أوصلها إليهم.

**﴿وأن أقيموا الصلاة﴾** أي: وأمرنا أن نقيم الصلاة بآركانها وشروطها وسننها ومكملاتها. **﴿واقوه﴾** بفعل ما أمر به، واجتناب ما عنته نهي. **﴿وهو الذي إليه تحشرون﴾** أي: تجمعون ليوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم خيرا وشرا.

**﴿وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق﴾** ليأمر العباد ويتهام، ويشبههم ويعاقبهم، **﴿ويوم يقول كن فيكون قوله الحق﴾** الذي لا مربة فيه ولا مشوية، ولا يقول شيئا عبثاً **﴿وله الملك يوم ينفخ في الصور﴾** أي: يوم القيامة، خضه بالذكر - مع أنه مالك كل شيء - لأنه تنقطع فيه الأملاك، فلا يبقى ملك إلا الله الواحد القهار. **﴿عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير﴾** الذي له الحكمة التامة، والنعمة السابعة، والإحسان العظيم، والعلم المحيط بالسرائر والبطون والحفايا، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

**﴿٧٤ - ٨٣﴾** **﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه أزر أنتخذ أصناماً آلهة إنى أراك وقومك في ضلال مبين﴾** وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين **﴿إلى آخر القصة﴾**. يقول تعالى: **﴿وإذ ذكر قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، مثباً عليه ومعظماً في حال دعوته إلى التوحيد، ونبيه عن الشرك، إذ قال لأبيه ﴿أزر أنتخذ أصناماً آلهة﴾** أي: لا تنفع ولا تضر وليس لها من الأمر شيء، **﴿إني أراك وقومك في ضلال مبين﴾** حيث عبدتم من لا يستحق من

العبادة شيئاً، وتركتم عبادة خالقكم، ورازقكم ومدبركم. **﴿وكذلك﴾** حين وفقناه للتوحيد والدعوة إليه **﴿نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض﴾** أي: ليرى بصيرته ما اشتملت عليه من الألفة القاطعة، والبراهين الساطعة **﴿وليكون من الموقنين﴾** فإنه بحسب قيام الأدلة يحصل له الإيقان، والعلم التام بجميع المطالب.

**﴿فلما جن عليه الليل﴾** أي: أظلم **﴿رأى كوكباً﴾** لعله من الكواكب المضيئة، لأن تخصيصه بالذكر يدل على زيادته عن غيره، ولهذا - والله أعلم - قال من قال: إنه الزهرة.

**﴿قال هذا ري﴾** أي: على وجه التنزل مع الخصم، أي: هذا ري، فهلم نظر، هل يستحق الربوبية؟ وهل يقوم لنا دليل على ذلك؟ فإنه لا ينبغي لعاقل أن يتخذ إلهه هواه بغير حجة ولا برهان.

**﴿فلما أفل﴾** أي: غاب ذلك الكوكب **﴿قال لا أحب الآفلين﴾** أي: الذي يغيب ويختفي عمن عبده، فإن المعبود لا بد أن يكون قائماً بمصالح من عبده، ومدبراً له في جميع شؤونه، فأما الذي يمضي وقت كثير وهو غائب، فمن أين يستحق العبادة؟! وهل اتخذه إلهاً إلا من أسفه السفه، وأبطل الباطل؟! **﴿فلما رأى القمر بازغاً﴾** أي: طالعاً، ورأى زيادته على نور الكواكب ومخالفته لها **﴿قال هذا ري﴾** تنزلاً. **﴿فلما أفل قال: لئن لم يهدني ربى لأكونن من القوم الضالين﴾** فافتقر غاية الانتظار إلى هداية ربه، وعلم أنه إن لم يده الله فلا هادي له، وإن لم يعنه على طاعته فلا معين له.

**﴿فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ري هذا أكبر﴾** من الكوكب ومن القمر. **﴿فلما أفلت﴾** تقرر حيثئذ الهدى، واضمحل الردى **﴿قال يا**

وَلَا تَشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئاً إِنَّ إِلَهَهُ الْوَاحِدُ الْحَقُّ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ لَهُ أَلِفٌ لِفَاءٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَسْمَعُونَ دَعْوَةَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ لِيُؤْمِنُوا أَنَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ يُصْعَقُونَ ﴿١٧٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَسْمَعُونَ دَعْوَةَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ لِيُؤْمِنُوا أَنَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ يُصْعَقُونَ ﴿١٧٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَسْمَعُونَ دَعْوَةَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ لِيُؤْمِنُوا أَنَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ يُصْعَقُونَ ﴿١٧٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَسْمَعُونَ دَعْوَةَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ لِيُؤْمِنُوا أَنَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ يُصْعَقُونَ ﴿١٨٠﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَسْمَعُونَ دَعْوَةَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ لِيُؤْمِنُوا أَنَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ يُصْعَقُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَسْمَعُونَ دَعْوَةَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ لِيُؤْمِنُوا أَنَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ يُصْعَقُونَ ﴿١٨٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَسْمَعُونَ دَعْوَةَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ لِيُؤْمِنُوا أَنَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ يُصْعَقُونَ ﴿١٨٣﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَسْمَعُونَ دَعْوَةَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ لِيُؤْمِنُوا أَنَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ يُصْعَقُونَ ﴿١٨٤﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَسْمَعُونَ دَعْوَةَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ لِيُؤْمِنُوا أَنَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ يُصْعَقُونَ ﴿١٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَسْمَعُونَ دَعْوَةَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ لِيُؤْمِنُوا أَنَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ يُصْعَقُونَ ﴿١٨٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَسْمَعُونَ دَعْوَةَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ لِيُؤْمِنُوا أَنَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ يُصْعَقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَسْمَعُونَ دَعْوَةَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ لِيُؤْمِنُوا أَنَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ يُصْعَقُونَ ﴿١٨٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَسْمَعُونَ دَعْوَةَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ لِيُؤْمِنُوا أَنَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ يُصْعَقُونَ ﴿١٨٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَسْمَعُونَ دَعْوَةَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ لِيُؤْمِنُوا أَنَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ يُصْعَقُونَ ﴿١٩٠﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَسْمَعُونَ دَعْوَةَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ لِيُؤْمِنُوا أَنَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ يُصْعَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَسْمَعُونَ دَعْوَةَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ لِيُؤْمِنُوا أَنَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ يُصْعَقُونَ ﴿١٩٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَسْمَعُونَ دَعْوَةَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ لِيُؤْمِنُوا أَنَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ يُصْعَقُونَ ﴿١٩٣﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَسْمَعُونَ دَعْوَةَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ لِيُؤْمِنُوا أَنَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ يُصْعَقُونَ ﴿١٩٤﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَسْمَعُونَ دَعْوَةَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ لِيُؤْمِنُوا أَنَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ يُصْعَقُونَ ﴿١٩٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَسْمَعُونَ دَعْوَةَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ لِيُؤْمِنُوا أَنَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ يُصْعَقُونَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَسْمَعُونَ دَعْوَةَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ لِيُؤْمِنُوا أَنَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ يُصْعَقُونَ ﴿١٩٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَسْمَعُونَ دَعْوَةَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ لِيُؤْمِنُوا أَنَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ يُصْعَقُونَ ﴿١٩٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَسْمَعُونَ دَعْوَةَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ لِيُؤْمِنُوا أَنَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ يُصْعَقُونَ ﴿١٩٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَسْمَعُونَ دَعْوَةَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ لِيُؤْمِنُوا أَنَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ يُصْعَقُونَ ﴿٢٠٠﴾

قوم إني بريء مما تشركون **﴿** حيث قام البرهان الصادق الواضح على بطلانه.

**﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً﴾** أي: لله وحده، مقبلاً عليه، معرضاً عن من سواه. **﴿وما أنا من المشركين﴾** فتنبراً من الشرك، وأذعن بالتوحيد، وأقام على ذلك البرهان [وهذا الذي ذكرنا في تفسير هذه الآيات هو الصواب، وهو أن المقام مقام مناظرة من إبراهيم لقومه وبين بطلان إلهية هذه الأجرام العلوية وغيرها. وأما من قال إنه مقام نظر في حال طفولته فليس عليه دليل<sup>(١)</sup>.

**﴿وحاجه قومه قال: أتأجوني في الله وقد هدان﴾** أي فائدة لمحاجة من<sup>(٢)</sup> لم يتبين له الهدى؟ فأما من هداه الله، ووصل إلى أعلى درجات اليقين، فإنه - هو بنفسه - يدعو الناس إلى ما هو عليه.

**﴿ولا أخاف ما تشركون به﴾** فإنها لن تضرنني، ولن تمنع عني من النفع شيئاً. **﴿إلا أن يشاء ربى شيئاً وسع ربى كل شيء علماً﴾** أفلا تتذكرون **﴿فتعلمون أنه وحده المعبود المستحق للعبودية.**

**﴿وكيف أخاف ما أشركتم﴾** وحالها حال العجز وعدم النفع، **﴿ولا**

(١) زيادة من هامش: ب وهي بخط الشيخ - رحمه الله -.

(٢) كذا في ب، وفي أ: المحاجة لمن.



تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً، أي: إلا بمجرد اتباع الهوى. ﴿فأي: الفريقيين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون﴾.

قال الله تعالى فاصلاً بين الفريقيين ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا﴾ أي: لم يخلطوا ﴿إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ الأمن من المخاوف والعذاب والشقاء، والهداية إلى الصراط المستقيم، فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقاً، لا بشرك ولا بمعاصي، حصل لهم الأمن التام والهداية التامة. وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده ولكنهم يعملون السيئات، حصل لهم أصل الهداية وأصل الأمن، وإن لم يحصل لهم كمالها. ومفهوم الآية الكريمة، أن الذين لم يحصل لهم الأمان، لم يحصل لهم هداية ولا أمن، بل حظهم الضلال والشقاء.

ولما حكم لإبراهيم عليه السلام، بما بين به من البراهين القاطعة قال: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾ أي: علا بها عليهم، وفلجهم بها.

﴿ترفع درجات من نشاء﴾ كما رفعنا درجات إبراهيم عليه السلام في الدنيا والآخرة، فإن العلم يرفع الله به صاحبه فوق العباد درجات. خصوصاً

العالم العامل المعلم، فإنه يجعله الله إماماً للناس بحسب حاله، ترمق أفعاله، وتقتفى آثاره، ويستضاء بنوره، ويمشى بعلمه في ظلمة ديورته.

قال تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾.

﴿إن ربك حكيم عليم﴾ فلا يضع العلم والحكمة، إلا في المحل اللائق بها، وهو أعلم بذلك المحل وبما ينبغي له.

﴿٨٤ - ٩٠﴾ ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك

نجزي المحسنين \* وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين \* وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين \* ومن آياتهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبتناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم \* ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون \* أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين \* أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكري للعالمين \* ما ذكر الله تعالى عبده وخليفه إبراهيم عليه السلام، وذكر ما من الله عليه به من العلم والدعوة والصبر، ذكر ما أكرمه الله به من الذرية الصالحة، والنسل الطيب. وأن الله جعل صفوة الخلق من نسله، وأعظم هذه المنقبة والكرامة الجسيمة، التي لا يدرك لها نظير فقال: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب﴾ ابنه، الذي هو إسرائيل، أبو الشعب الذي فضله الله على

العالمين.

﴿كلاً﴾ منهما ﴿هدينا﴾ الصراط المستقيم في علمه وعمله.

﴿ونوحاً هدينا﴾ ﴿من قبل﴾

وهديته<sup>(١)</sup> من أنواع الهدايا الخاصة التي لم تحصل إلا لأفراد من العالم؛ وهم أولو العزم من الرسل الذي هو أحدهم.

﴿ومن ذريته﴾ يحتمل أن الضمير عائد إلى نوح، لأنه أقرب مذكور، ولأن الله ذكر مع من ذكر لوطاً، وهو من ذرية نوح، لا من ذرية إبراهيم لأنه ابن أخيه.

ويحتمل أن الضمير يعود إلى إبراهيم، لأن السياق في مدحه والشناء عليه، ولوط - وإن لم يكن من ذريته - فإنه ممن آمن على يده، فكان منقبة الخليل وفضيلته بذلك، أبلغ من كونه مجرد ابن له.

﴿داود وسليمان﴾ بن داود

﴿وأيوب ويوسف﴾ بن يعقوب. ﴿وموسى وهارون﴾ ابني عمران، وكذلك كما أصلحنا ذرية إبراهيم الخليل، لأنه أحسن في عبادة ربه، وأحسن في نفع الخلق ﴿كذلك نجزي المحسنين﴾ بأن نجعل لهم من الشناء الصدق، والذرية الصالحة بحسب إحسانهم.

﴿وزكريا ويحيى﴾ ابنة ﴿وعيسى﴾ ابن مريم. ﴿وإلياس كل﴾ من هؤلاء ﴿من الصالحين﴾ في أخلاقهم وأعمالهم وعلومهم، بل هم سادة الصالحين وقادتهم وأمتهم.

﴿وإسماعيل﴾ بن إبراهيم أبو الشعب الذي هو أفضل الشعوب، وهو الشعب العربي، ووالد سيد ولد آدم محمد ﷺ. ﴿ويونس﴾ بن متى ﴿ولوطاً﴾ بن هاران، أخي إبراهيم. ﴿وكلاً﴾ من هؤلاء الأنبياء والمرسلين ﴿فضلنا على العالمين﴾ لأن درجات الفضائل أربع - وهي التي ذكرها الله بقوله: ﴿ومن يقطع الله الرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾ فهؤلاء من الدرجة العليا، بل هم أفضل الرسل على الإطلاق، فالرسل الذين قصهم الله

(١) في ب: أعلى أنواع.







أنه يقدر على ما يقدر الله عليه، ويجاري الله في أحكامه، ويشرع من الشرائع كما شرعه الله، ويدخل في هذا كل من يزعم أنه يقدر على معارضة القرآن، وأنه في إمكانه أن يأتي بمثله. وأي: ظلم أعظم من دعوى الفقير العاجز بالذات، الناقص من كل وجه، مشاركة القوي الغني الذي له الكمال المطلق، من جميع الوجوه، في ذاته وأسمائه وصفاته؟!!

ولما ذم الظالمين ذكر ما أعد لهم من العقوبة في حال الاحتضار، ويوم القيامة، فقال: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت﴾ أي: شدائده واهواله الفظيعة، وكرهه الشنيعة - لرأيت أمراً هائلاً، وحالة لا يقدر الواصف أن يصفها.

﴿والملائكة باسطو أيديهم﴾ إلى أولئك الظالمين المحتضرين بالضرب والعذاب، يقولون لهم عند منازعة أرواحهم وقلقها، وتعصيا للخروج من الأبدان: ﴿أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون﴾ أي: العذاب الشديد الذي يبينكم ويدلكم، والجزاء من جنس العمل، فإن هذا العذاب ﴿بما كنتم تقولون على الله غير الحق﴾ من كذبكم عليه، وردكم للحق، الذي جاءت به الرسل. ﴿وكنتم عن آياته تستكبرون﴾ أي: تترفعون عن الانقياد لها، والاستسلام لأحكامها. وفي هذا دليل على عذاب البرزخ ونعيمه، فإن هذا الخطاب والعذاب الموجه إليهم، إنما هو عند الاحتضار وقبيل الموت وبعده.

وفيه دليل على أن الروح جسم يدخل ويخرج، ويخاطب، ويساكن الجسد ويفارقه، فهذه حالهم في البرزخ.

وأما يوم القيامة فإنهم إذا وردوها، ووردوها مفلسين فرادى بلا أهل ولا مال ولا أولاد ولا جنود ولا أنصار، كما خلقهم الله أول مرة، عارين من كل شيء.

فإن الأشياء، إنما تتمول وتحصل بعد ذلك بأسبابها التي هي أسبابها،

وفي ذلك اليوم تنقطع جميع الأمور التي كانت مع العبد في الدنيا، سوى العمل الصالح والعمل السيئ، الذي هو مادة الدار الآخرة، الذي تنشأ عنه، ويكون حسنهما وقبحهما، وسرورها وغمومها، وعذابها ونعيمها، بحسب الأعمال. فهي التي تنفع أو تضر، وتسوء أو تسر، وما سواها من الأهل والولد، والمال والأنصار، فعوارى خارجية، وأوصاف زائلة، وأحوال حائلة، ولهذا قال تعالى:

﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركنم ما حولناكم﴾ أي: أعطيناكم وأنعمنا به عليكم ﴿وراء ظهوركم﴾ لا بغنون عنكم شيئاً ﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء﴾

فإن المشركين يشركون بالله، ويعبدون معه الملائكة والأنبياء والصالحين، وغيرهم، وهم كلهم لله، ولكنهم يعملون لهذه المخلوقات نصيباً من أنفسهم، وشركة في عبادتهم، وهذا زعم منهم وظلم، فإن الجميع عبيد لله، والله مالكهم، والمستحق لعبادتهم. فشرركم في العبادة، وصرفها لبعض العبيد، تنزيل لهم منزلة الخالق المالك، فيوبخون يوم القيامة ويقال لهم هذه المقالة.

﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء، لقد تقطع بينكم﴾ أي: تقطعت الروصل والأسباب بينكم وبين شركائكم، من الشفاعة وغيرها، فلم تنفع ولم تجد شيئاً. ﴿ووضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾ من الريح والأمن، والسعادة والنجاة، التي زينها لكم الشيطان وحسنها في قلوبكم، فنطقت بها ألسنتكم. واغتررتكم بهذا الزعم الباطل الذي لا حقيقة له، حين تبين لكم نقيض ما كنتم تزعمون، وظهر أنكم الخاسرون لأنفسكم وأهليكم وأموالكم.

﴿٩٥ - ٩٨﴾ ﴿إن الله فائق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ذكركم الله فأنسى

ما أنزل الله ولو نرى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسهم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون \* ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركنم ما حولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾ يقول تعالى: لا أحد أعظم ظلماً ولا أكبر جرماً ممن كذب [على] الله، بأن نسب إلى الله قولاً أو حكماً وهو تعالى بريء منه، وإنما كان هذا أظلم الخلق، لأن فيه من الكذب وتغيير الأديان أصولها وفروعها، ونسبة ذلك إلى الله - ما هو من أكبر المفاسد.

ويدخل في ذلك ادعاء النبوة، وأن الله يوحى إليه وهو كاذب في ذلك، فإنه - مع كذبه على الله، وجرأته على عظمته وسلطانه - يوجب على الخلق أن يتبعوه، ويجاهدوهم على ذلك، ويستحل دماء من خالفه وأموالهم.

ويدخل في هذه الآية كل من ادعى النبوة، كمشيئة الكذاب والأسود العتسي والمختار، وغيرهم عن اتصف بهذا الوصف.

﴿ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله﴾ أي: ومن أظلم ممن زعم،

﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر﴾ حين تشبه عليكم المسالك، ويتحير في سيره السالك، فجعل الله النجوم هداية للخلق إلى السبل، التي يحتاجون إلى سلوكها لمصالحهم وتجاراتهم وأسفارهم.

منها: نجوم لا تزال تُرى، ولا تسير عن محلها، ومنها ما هو مستمر السير، يعرف سيره أهل المعرفة بذلك، ويعرفون به الجهات والأوقات.

ودلت هذه الآية ونحوها على مشروعية تعلم سير الكواكب ومحالها الذي يسمى علم التنجيم، فإنه لا تتم الهداية ولا تمكن إلا بذلك.

﴿قد فصلنا الآيات﴾ أي: بينها، ووضحناها، وميزنا كل جنس ونوع منها عن الآخر، بحيث صارت آيات الله بادية ظاهرة. ﴿لقوم يعلمون﴾ أي: لأهل العلم والمعرفة، فإنهم الذين يوجه إليهم الخطاب، ويطلب منهم الجواب، بخلاف أهل الجهل والجفاء، المعرضين عن آيات الله وعن العلم الذي جاءت به الرسل، فإن البيان لا يفيدهم شيئاً، والتفصيل لا يزيل عنهم ملتبساً، والإيضاح لا يكشف لهم مشكلاً.

﴿وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة﴾ وهو آدم عليه السلام. أنشأ الله منه هذا العنصر الآدمي؛ الذي قد سلا الأرض. ولم يزل في زيادة ونمو، الذي قد تفاوتت في أخلاقه وخلقه وأوصافه تفاوتاً لا يمكن ضبطه، ولا يدرك وصفه، وجعل الله لهم مستقراً؛ أي: منتهى ينتهون إليه، وغاية يساقون إليها، وهي دار القرار التي لا مستقر وراءها، ولا نهاية فوقها، فهذه الدار هي التي خلق الخلق لسكنائها، وأوجدوا في الدنيا ليسعوا في أسياها، التي تنشأ عليها وتعمرها، وأودعهم الله في أصلاب آبانهم وأرحام أمهاتهم، ثم في دار الدنيا، ثم في البرزخ، كل ذلك على وجه الوديعة، التي لا تستقر

ولما ذكر تعالى، مادة خلق الأقوات، ذكر منه بتهيئة المساكن، وخلق كل ما يحتاج إليه العباد، من الضياء والظلمة، وما يترتب على ذلك من أنواع المنافع والمصالح فقال: ﴿فالق الإصباح﴾ أي: كما أنه فلق الحب والنوى، كذلك هو فلق ظلمة الليل الداجي، الشامل لما على وجه الأرض، بضياء الصبح الذي يفلقه شيئاً فشيئاً، حتى تذهب ظلمة الليل كلها، ويخلفها الضياء والنور العام، الذي يتصرف به الخلق في مصالحهم ومعاشهم، ومنافع دينهم ودنياهم.

ولما كان الخلق محتاجين إلى السكون والاستقرار والراحة، التي لا تتم بوجود النهار والنور ﴿جعل﴾ الله ﴿الليل سكناً﴾ يسكن فيه الآدميون إلى دورهم وتمامهم، والأنعام إلى مأواها، والطيور إلى أوكارها، فتأخذ نصيبها من الراحة، ثم يزيل الله ذلك، بالضياء، وهكذا أبداً إلى يوم القيامة ﴿و﴾ جعل تعالى ﴿الشمس والقمر حسيباناً﴾ يهما تعرف الأزمنة والأوقات، فتتضبط بذلك أوقات العبادات، وأجال المعاملات، ويعرف بها مدة ما مضى من الأوقات التي لولا وجود الشمس والقمر وتناوبهما واختلافهما - لما عرف ذلك عامة الناس، واشتركوا في علمه، بل كان لا يعرفه إلا أفراد من الناس بعد الاجتهاد، وبذلك يفوت من المصالح الضرورية ما يفوت.

﴿ذلك﴾ التقدير المذكور ﴿تقدير العزيز العليم﴾ الذي من عزته انقادت له هذه المخلوقات العظيمة، فجرت مذلة مسخرة بأسره، بحيث لا تعدى ما حده الله لها، ولا تتقدم عنه ولا تتأخر ﴿العليم﴾ الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والأوائل والأواخر.

ومن الأدلة العقلية على إحاطة علمه، تسخير هذه المخلوقات العظيمة، على تقدير نظام بديع، تحير العقول في حسنه وكماله وموافقته للمصالح والحكم.

تؤفكون \* فلق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسيباناً ذلك تقدير العزيز العليم \* وهو الذي جعل لكم النجوم لتتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون \* وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ﴿يجري تعالى عن كماله، وعظمة سلطانه، وقوة اقتداره، وسعة رحمته، وعموم كرمه، وشدة عنايته بخلقه، فقال: ﴿إن الله فلق الحب﴾ شامل لسائر الحبوب التي يباشر الناس زرعها، والتي لا يباشرونها، كالحبوب التي يبثها الله في البراري والقفار، فيفلق الحبوب عن الزروع والنوابت، على اختلاف أنواعها وأشكالها ومنافعها، ويقلق النوى عن الأشجار من النخيل والفواكه، وغير ذلك. فيتضع الخلق من الآدميين والأنعام والدواب. ويرتعون فيما فلق الله من الحب والنوى، ويقناتون وينتفعون بجميع أنواع المنافع التي جعلها الله في ذلك. ويربهم الله من بره وإحسانه ما يبهر العقول، ويذهل الفحول، ويربهم من بدائع صنعته وكمال حكمته، ما به يعرفونه ويوحّدونه، ويعلمون أنه هو الحق، وأن عبادة ما سواه باطلة.

﴿يخرج الحي من الميت﴾ كما يخرج من النبي حيواناً، ومن البيضة فرخاً، ومن الحب والنوى زرعاً وشجراً.

﴿ويخرج الميت﴾ وهو الذي لا نمو فيه، أو لا روح ﴿من الحي﴾ كما يخرج من الأشجار والزروع، النوى والحب، ويخرج من الطائر بيضاً، ونحو ذلك.

﴿ذلكم﴾ الذي فعل ما فعل، وانفرد بخلق هذه الأشياء وتدبيرها ﴿الله﴾ ربكم أي: الذي له الألوهية والعبادة على خلقه أجمعين، وهو الذي ربى جميع العالمين بنعمه، وغذاهم بكرمه. ﴿فأنى تؤفكون﴾ أي: فأنى تصرفون، وتصدون عن عبادة من هذا شأنه، إلى عبادة من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة، ولا نشوراً!!!

ولا تثبت، بل ينتقل منها حتى يوصل إلى الدار، التي هي المستقر، وأما هذه الدار فإنها مستودع وعمر وقد فصلنا الآيات لقوم يفقهون عن الله آياته، ويفهمون عنه حججه وبياناته.

﴿٩٩﴾ وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أصناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير مشتباه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون وهذا من أعظم منته العظيمة، التي يضطر إليها الخلق من الآدميين وغيرهم، وهو أنه أنزل من السماء ماء متتابعاً وقت حاجة الناس إليه، فأثبت الله به كل شيء مما يأكل الناس والأنعام، فترتع الخلق بفضل الله، وانبتوا برزقه، وفرحوا بإحسانه، وزال عنهم الجذب واليأس والقحط، ففرحت القلوب، وأسفرت الوجوه، وحصل للعباد من رحمة الرحمن الرحيم، ما به يتمتعون وبه يرتعون، ما يوجب لهم أن يبذلوا جهدهم في شكر من أسدى النعم، وعبادته والإنابة إليه، والمحبة له.

ولما ذكر عموم ما ينبت بالماء، من أنواع الأشجار والنبات، ذكر الزرع والنخل، لكثرة نفعهما وكونهما قوتاً لأكثر الناس فقال: ﴿فأخرجنا منه خضراً نخرج منه﴾ أي: من ذلك النبات الخضراً، ﴿حباً متراكباً﴾ بعضه فوق بعض، من بر وشعير، وذرة، وأرز، وغير ذلك من أصناف الزروع، وفي وصفه بأنه متراكب، إشارة إلى أن حيوته متعددة، وجميعها تستمد من مادة واحدة، وهي لا تختلط، بل هي متفرقة الحبوب، مجتمعة الأصول، وإشارة أيضاً إلى كثرتها، وشمول ريعها وغلثها، ليبقى أصل البذر، ويبقى بقية كثيرة للأكل والادخار.

﴿ومن النخل﴾ أخرج الله ﴿من﴾ طلعها وهو الكفرى، والوعاء قبل ظهور القنو منه، فيخرج من ذلك الوعاء قنوان دانية﴾ أي: قريبة سهلة

التناول، متدلّية على من أرادها، بحيث لا يعسر تناول من النخل وإن طالت، فإنه يوجد فيها كَرَبٌ ومرابي يسهل صمودها.

﴿و﴾ أخرج تعالى بالماء ﴿جنات من أصناب والزيتون والرمان﴾ فهذه من الأشجار الكثيرة النفع، العظيمة الوقع، فلذلك خصصها الله بالذكر بعد أن عمّ جميع الأشجار والتواب.

وقوله: ﴿مشتبهاً وغير مشتباه﴾ يحتمل أن يرجع إلى الرمان والزيتون، أي: مشتبهاً في شجره وورقه، غير مشتباه في ثمره.

ويحتمل أن يرجع ذلك إلى سائر الأشجار والفواكه، وأن بعضها مشتباه، يشبه بعضه بعضاً، ويتقارب في بعض أوصافه، وبعضها لا مشابهة بينه وبين غيره، والكل ينتفع به العباد، ويتفكّهون، ويقتاتون ويعتبرون، ولهذا أمر تعالى بالاعتبار به، فقال: ﴿انظروا﴾ نظر فكر واعتبار ﴿إلى ثمره﴾ أي: الأشجار كلها، خصوصاً: النخل إذا أثمر.

﴿وينعه﴾ أي: انظروا إليه وقت إطلاعه، ووقت نضجه وإيناعه، فإن في ذلك عبراً وآيات يستدل بها على رحمة الله، وسعة إحسانه وجوده وكمال اقتداره وعنايته بعباده.

ولكن ليس كل أحد يعتبر وتفكر، وليس كل من تفكر أدرك المعنى المقصود، ولهذا قيد تعالى الانتفاع بالآيات بالمؤمنين، فقال: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ فإن المؤمنين يحملهم ما معهم من الإيمان، على العمل بمقتضياته ولوآزمه، التي منها التفكر في آيات الله، والاستنتاج منها ما يراد منها، وما تدل عليه عقلاً وفطرة وشرعاً.

﴿١٠٠ - ١٠٤﴾ ﴿وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون﴾ بديع السماوات والأرض أتى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم﴾ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو

خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل \* لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير \* قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ﴾ يخبر تعالى: أنه مع إحسانه لعباده وتعرفه إليهم بآياته البينات، وحججه الواضحات - أن المشركين به من قريش وغيرهم، جعلوا له شركاء يدعونهم ويعبدونهم من الجن والملائكة، الذين هم خلق من خلق الله، ليس فيهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء، فجعلوها شركاء لمن له الخلق والأمر، وهو المنعم بسائر أصناف النعم، الدافع لجميع النقم، وكذلك «خرق المشركون» أي: اتفكروا وافتروا من تلقاء أنفسهم الله، بين وبنات بغير علم منهم، ومن أظلم ممن قال على الله بلا علم، وافتري عليه أشنع النقص، الذي يجب تنزيه الله عنه؟!!

ولهذا نزه نفسه عما افتراه عليه المشركون، فقال: ﴿سبحانه وتعالى عما يصفون﴾ فإنه تعالى الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل نقص وأفة وعيب.

﴿بديع السماوات والأرض﴾ أي: خالقهما، ومقتن صنعتهما، على غير مثال سبق، بأحسن خلق ونظام وهما، لا تقترح عقول أولي الألباب مثله، وليس له في خلقهما مشارك.

﴿أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة﴾ أي: كيف يكون لله الولد، وهو الإله السيد الصمد، الذي لا صاحبة له، أي: لا زوجة، وهو الغني عن مخلوقاته، وكلها فقيرة إليه، مضطرة في جميع أحوالها إليه، والولد لا بد أن يكون من جنس والده، والله خالق كل شيء وليس شيء من المخلوقات مشابهاً لله بوجه من الوجوه.

ولما ذكر عموم خلقه للأشياء، ذكر إحاطة علمه بها، فقال: ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ وفي ذكر العلم بعد الخلق، إشارة إلى الدليل العقلي إلى

نبوت علمه، وهو هذه المخلوقات، وما اشتملت عليه من النظام التام، والخلق الباهر فإن في ذلك دلالة على سعة علم الخالق، وكمال حكمته، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ وكما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ ذلكم الذي خلق ما خلق، وقدر ما قدر.

﴿الله ريبكم﴾ أي: المألوه المعبود، الذي يستحق نهاية الذل، ونهاية الحب، الرب الذي ربي جميع الخلق بالتعظيم، وصرف عنهم صنوف التعمير. ﴿لا إله إلا هو خالقت كل شيء فاعبدوه﴾ أي: إذا استقر وثبت أنه الله الذي لا إله إلا هو، فاصرفوا له جميع أنواع العبادة، وأخلصوها لله، واقصدوا بها وجهه. فإن هذا هو المقصود من الخلق الذي خلقوا لأجله ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾.

﴿وهو على كل شيء وكيل﴾ أي: جميع الأشياء تحت وكالة الله وتدبيره، خلقاً وتديباً وتصرفاً. ومن العلوم أن الأمر المتصرف فيه يكون استقامته وتماه وكمال انتظامه، بحسب حال الوكيل عليه. ووكالته تعالى على الأشياء ليست من جنس وكالة الخلق، فإن وكالتهم وكالة نيابة، والوكيل فيها، تابع لوكله. وأما الباري تبارك وتعالى، فوكالته من نفسه لنفسه، متضمنة لكمال العلم، وحسن التدبير والإحسان فيه والعدل، فلا يمكن لأحد، أن يستدرك على الله، ولا يرى في خلقه خللاً ولا فطوراً، ولا قي تدبيره نقصاً وعبثاً.

ومن وكالته أنه تعالى، توكل ببيان دينه، وحفظه عن الزيولات والمغريات، وأنه تولى حفظ المؤمنين وعصمتهم عما يزيل إيمانهم ودينهم. ﴿لا تدركه الأبصار﴾ لعظمته

وجلاله وكماله، أي: لا تحيط به الأبصار، وإن كانت تراه وتزح بالنظر إلى وجهه الكريم، فنفي الإدراك لا ينفي الرؤية، بل يثبتها بالفهوم فإنه إذا نفى الإدراك الذي هو أخص أوصاف الرؤية، دل على أن الرؤية ثابتة.

فإنه لو أراد نفي الرؤية، لقال: ﴿لا تراه الأبصار﴾ ونحو ذلك، فلم أنه ليس في الآية حجة لذهب المعطلة، الذين ينفون رؤية ربهم في الآخرة، بل فيها ما يدل على نقض قولهم.

﴿وهو يدرك الأبصار﴾ أي: هو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، وسمع، بجميع الأصوات الظاهرة والخفية، وبصره، بجميع المصبرات، صفارها وكبارها، ولهذا قال: ﴿وهو اللطيف الخبير﴾ الذي لطف علمه وخبرته، ودق حتى أدرك السرائر والحفايا، والخبيا والبواطن.

ومن لطفه أنه يسوق عبده إلى مصالح دينه، ويوصلها إليه بالطرق التي لا يشعر بها العبد، ولا يسعى فيها، ويوصله إلى السعادة الأبدية، والفلاح السرمدية، من حيث لا يحتسب، حتى إنه يقدر عليه الأمور التي يكرهها العبد ويتألم منها، ويدعو الله أن يزيلها، لعلمه أن دينه أصلح، وأن كماله متوقف عليها، فسبحان اللطيف لما يشاء، الرحيم بالمؤمنين.

﴿قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ﴾ لما بين تعالى من الآيات البيّنات، والأدلة الواضحات، الدالة على الحق في جميع المطالب والمقاصد، نبه العباد عليها، وأخبر أن هدايتهم وضدها لأنفسهم، فقال: ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم﴾ أي: آيات تبين الحق، وتجعله للقلب بمنزلة الشمس للأبصار، لما اشتملت عليه من

فَلَا تَلْقَا عِلْمًا أَشَدَّ مِنْ رُؤْيَاكَ وَرُؤْيَاكَ تَسْتَوِيكَ مِنَ الْحَسْبِ ﴿١٠٨﴾ قَالَ فَعَلِمُوا أَنَّ كَرَامَتَهُمْ عِنْدَ رُبِّكَ وَأَنَّ رُؤْيَاكَ تَسْتَوِيكَ مِنَ الْحَسْبِ ﴿١٠٩﴾ قَالَ فَعَلِمُوا أَنَّ كَرَامَتَهُمْ عِنْدَ رُبِّكَ وَأَنَّ رُؤْيَاكَ تَسْتَوِيكَ مِنَ الْحَسْبِ ﴿١١٠﴾ قَالَ فَعَلِمُوا أَنَّ كَرَامَتَهُمْ عِنْدَ رُبِّكَ وَأَنَّ رُؤْيَاكَ تَسْتَوِيكَ مِنَ الْحَسْبِ ﴿١١١﴾ قَالَ فَعَلِمُوا أَنَّ كَرَامَتَهُمْ عِنْدَ رُبِّكَ وَأَنَّ رُؤْيَاكَ تَسْتَوِيكَ مِنَ الْحَسْبِ ﴿١١٢﴾ قَالَ فَعَلِمُوا أَنَّ كَرَامَتَهُمْ عِنْدَ رُبِّكَ وَأَنَّ رُؤْيَاكَ تَسْتَوِيكَ مِنَ الْحَسْبِ ﴿١١٣﴾ قَالَ فَعَلِمُوا أَنَّ كَرَامَتَهُمْ عِنْدَ رُبِّكَ وَأَنَّ رُؤْيَاكَ تَسْتَوِيكَ مِنَ الْحَسْبِ ﴿١١٤﴾ قَالَ فَعَلِمُوا أَنَّ كَرَامَتَهُمْ عِنْدَ رُبِّكَ وَأَنَّ رُؤْيَاكَ تَسْتَوِيكَ مِنَ الْحَسْبِ ﴿١١٥﴾ قَالَ فَعَلِمُوا أَنَّ كَرَامَتَهُمْ عِنْدَ رُبِّكَ وَأَنَّ رُؤْيَاكَ تَسْتَوِيكَ مِنَ الْحَسْبِ ﴿١١٦﴾ قَالَ فَعَلِمُوا أَنَّ كَرَامَتَهُمْ عِنْدَ رُبِّكَ وَأَنَّ رُؤْيَاكَ تَسْتَوِيكَ مِنَ الْحَسْبِ ﴿١١٧﴾ قَالَ فَعَلِمُوا أَنَّ كَرَامَتَهُمْ عِنْدَ رُبِّكَ وَأَنَّ رُؤْيَاكَ تَسْتَوِيكَ مِنَ الْحَسْبِ ﴿١١٨﴾ قَالَ فَعَلِمُوا أَنَّ كَرَامَتَهُمْ عِنْدَ رُبِّكَ وَأَنَّ رُؤْيَاكَ تَسْتَوِيكَ مِنَ الْحَسْبِ ﴿١١٩﴾ قَالَ فَعَلِمُوا أَنَّ كَرَامَتَهُمْ عِنْدَ رُبِّكَ وَأَنَّ رُؤْيَاكَ تَسْتَوِيكَ مِنَ الْحَسْبِ ﴿١٢٠﴾

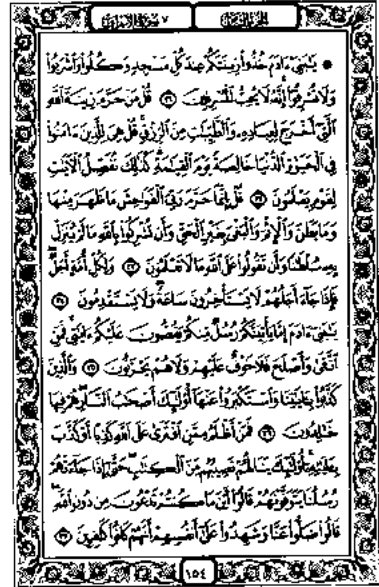
فصاحة اللفظ، وبيانه، ووضوحه، ومطابقتها للمعاني الجليلة، والحقائق الجميلة، لأنها صادرة من الرب الذي ربي خلقه بصنوف نعمه الظاهرة والباطنة، التي من أفضلها وأجلها تبين الآيات، وتوضح المشكلات.

﴿ومن أبصر﴾ بتلك الآيات مواقع العبرة، وعمل بمقتضاها، فلنفسه فإن الله هو الغني الحميد. ﴿ومن عمي﴾ بأن بصره، فلم يتبصر، وزجره، فلم يتزجر، وبين له الحق، فما اتقاه له ولا تواضع، فإنما عماء مضرت عليه.

﴿وما أنا﴾ أيها الرسول ﴿عليكم بحفيظ﴾ أحفظ أعمالكم وأراقبها على الدوام، إنما على البلاغ المبين وقد أدبته، وبلغت ما أنزل الله إلي، فهذه وظيفتي، وما عدا ذلك فليست موظفاً فيه (١).

﴿١٠٨﴾ ﴿ولا نسوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون﴾ ينهى الله المؤمنين عن أمر كان جائزاً، بل مشروفاً في الأصل، وهو سب آلهة المشركين، التي اتخذت أوثاناً وآلهة

(١) انتقل الشيخ - رحمه الله - بعد تفسير هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿ولا نسوا...﴾ فلم يفسر الآيات من قوله تعالى: (وكذلك نصرف الآيات) إلى قوله: (وما أنت عليهم بوكيل) ذات الأرقام (١٠٥ - ١٠٧) فقام التجار بتفسيرها دون الإشارة إلى أنها ليست من كلام الشيخ - رحمه الله - انظر طبعة التجار (٢/ ٤٥٠ - ٤٥٢).



لهم الباب فلم يدخلوا، وبين لهم الطريق فلم يسلكوا، فبعد ذلك إذا حرموا التوفيق كان مناسباً لأحوالهم.

وكذلك تعليقهم الإيمان بإرادتهم ومشيئتهم وحدهم، وعدم الاعتماد على الله من أكبر الغلط، فإنهم لو جاءتهم الآيات العظيمة، من تنزيل الملائكة إليهم يشهدون للرسول بالرسالة، وتكليم الموتى، وبعثهم بعد موتهم، وحشر كل شيء إليهم حتى يكلمهم<sup>(١)</sup> «قبلاً» ومشاهدة ومباشرة، بصدق ما جاء به الرسول ما حصل منهم الإيمان، إذا لم يشأ الله إيمانهم ولكن أكثرهم يجهلون. فلذلك رتبوا إيمانهم، على مجرد إتيان الآيات، وإنما العقل والعلم أن يكون العبد مقصوده اتباع الحق، ويطلبه بالطرق التي بينها الله، ويعمل بذلك، ويستعين به في اتباعه، ولا يتكل على نفسه وحوله وقوته، ولا يطلب من الآيات الاقتراحية ما لا فائدة فيه.

﴿١١٢ - ١١٣﴾ «وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون \* ولتصفي إليهم أثلة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقرفوا ما هم مقترفون» يقول تعالى - مسلياً لرسوله محمد ﷺ - «وكما جعلنا لك أعداء يردون دعوتك، ويحاربونك ويحسدونك، فهذه سنتنا، أن نجعل لكل نبي نرسله إلى الخلق أعداء، من شياطين الإنس والجن، يقومون بضد ما جاءت به الرسل.

﴿يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾ أي: يزين بعضهم لبعض الأمر الذي يدعون إليه من الباطل، ويزخرفون له العبارات حتى يجعلوه في أحسن صورة، ليفتر به السفهاء، وينقاد له الأغبياء الذين لا يفهمون الحقائق، ولا يفقهون المعاني، بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة، والعبارات الموهمة، فيعتقدون الحق

ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون» أي: وأنهم المشركون المكذبون للرسول محمد ﷺ. «بالله جهد إيمانهم» أي: قسماً اجتهدوا فيه وأكدوه. «لئن جاءتهم آية» تدل على صدق محمد ﷺ

﴿ليؤمنن بها﴾ وهذا الكلام الذي صدر منهم لم يكن قصدهم فيه الرشاد، وإنما قصدهم، دفع الاعتراض عليهم، ورد ما جاء به الرسول قطعاً، فإن الله أيد رسوله ﷺ بالآيات البينات، والأدلة الواضحات، التي - عند الالتفات لها - لا تبقى أدنى شبهة ولا إشكال في صحة ما جاء به، فطلبهم - بعد ذلك - للآيات من باب التعتن، الذي لا يلزم إجابته، بل قد يكون المنع من إجابتهم أصلح لهم، فإن الله جرت سنته في عبادته، أن المقترحين للآيات على رسلهم، إذا جاءتهم فلم يؤمنوا بها - أنه يعاجلهم بالعقوبة، ولهذا قال: ﴿قل إنما الآيات عند الله﴾ أي: هو الذي يرسلها إذا شاء، ويمنعها إذا شاء، ليس لي من الأمر شيء، فطلبكم مني الآيات ظلم، وطلب ما لا أملك، وإنما توجهون إلي توضيح ما جنتكم به وتصديقه، وقد حصل، ومع ذلك فليس معلوماً، أنهم إذا جاءتهم الآيات يؤمنون ويصدقون، بل الغالب من هذه حاله أنه لا يؤمن، ولهذا قال:

﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾

﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ أي: ونعاقبهم إذا لم يؤمنوا أول مرة بآتيهم فيه الداعي، وتقوم عليهم الحجة، بتقليب القلوب، والخيلولة بينهم وبين الإيمان، وعدم التوفيق لسلوك الصراط المستقيم.

وهذا من عدل الله وحكمته بعباده، فإنهم الذين جنوا على أنفسهم، وفتح

مع الله، التي يتقرب إلى الله بإهانتها وسها.

ولكن لما كان هذا السب طريقاً إلى سب المشركين لرب العالمين، الذي يجب تنزيه جنابه العظيم عن كل عيب، وأفة، وسب، وقدح - نهي الله عن سب آلهة المشركين، لأنهم يحسون لدينهم، ويتعصبون له. لأن كل أمة زين الله لهم عملهم، فرأوه حسناً وذوياً عنه، ودافعوا بكل طريق، حتى إنهم ليسبون الله رب العالمين، الذي رسخت عظمتهم في قلوب الأبرار والفجار، إذا سب المسلمون آلهتهم.

ولكن الخلق كلهم مرجعهم ومآلهم إلى الله يوم القيامة، يعرضون عليه، وتعرض أعمالهم، فيبينهم بما كانوا يعملون، من خير وشر.

وفي هذه الآية الكريمة دليل للقاعدة الشرعية وهي أن الوسائل تعتبر بالأمر التي توصل إليها، وأن وسائل المحرم ولو كانت جائزة تكون محرمة، إذا كانت تقضي إلى الشر.

﴿١٠٩ - ١١١﴾ «ووأقسموا بالله جهد إيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون \* ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون \*

عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ محذراً عن طاعة أكثر الناس: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾ فإن أكثرهم قد انحرفوا في آديانهم وأعمالهم وعلومهم. فأديانهم فاسدة، وأعمالهم تبع لأهوائهم، وعلومهم ليس فيها تحقيق، ولا إيصال لسواء الطريق.

بل غابتهم أنهم يتبعون الظن الذي لا يغني عن الحق شيئاً، ويتخصصون في القول على الله ما لا يعلمون، ومن كان بهذه المثابة، فحري أن يحذر الله منه عباده، ويصف لهم أحوالهم؛ لأن هذا - وإن كان خطاباً للنبي ﷺ - فإن أمته أسوة له في سائر الأحكام التي ليست من خصائصه.

والله تعالى أصدق قبيلاً، وأصدق حديثاً، و ﴿هو أعلم من يضل عن سبيله﴾ وأعلم بمن يهتدي ويهدي. فيجب عليكم - أيها المؤمنون - أن تتبعوا نصائحه وأوامره ونواهيه لأنه أعلم بمصالحكم، وأرحم بكم من أنفسكم.

ودلت هذه الآية على أنه لا يستدل على الحق بكثرة أهله، ولا يدل قلة السالكين لأمر من الأمور أن يكون غير حق، بل الواقع بخلاف ذلك، فإن أهل الحق هم الأقلون عدداً، الأعظمون - عند الله - قدراً وأجراً، بل الواجب أن يستدل على الحق والباطل، بالطرق الموصلة إليه.

﴿١١٨ - ١١٩﴾ ﴿فكلموا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم مؤمنين﴾ وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فضل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه وإن كثيراً يضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بمقتضى الإيمان، وأنهم، إن كانوا مؤمنين، فليأكلوا مما ذكر اسم الله عليه من بهيمة الأنعام، وغيرها من الحيوانات المحللة، ويعتقدوا حلها،

حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً والذين آتيناكم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممتريين \* وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم﴾ أي: قل يا أيها الرسول ﴿أفغير الله أتبعي حكماً﴾ أحاكم إليه، وأتقيد بأوامره ونواهيه. فإن غير الله محكوم عليه، لا حاكم. وكل تدبير وحكم للمخلوق فإنه مشتمل على النقص والعيب والجور، وإنما الذي يجب أن يتخذ حاكماً، فهو الله وحده لا شريك له، الذي له الخلق والأمر.

﴿الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً﴾ أي: موضحاً فيه الحلال والحرام، والأحكام الشرعية، وأصول الدين وفروعه، الذي لا بيان فوق بيانه، ولا برهان أجل من برهانه، ولا أحسن منه حكماً، ولا أقوم قبيلاً، لأن أحكامه مشتملة على الحكمة والرحمة.

وأهل الكتب السابقة من اليهود والنصارى، يعترفون بذلك ﴿ويعلمون أنه منزل من ربك بالحق﴾ ولهذا توأطأت الإخبارات ﴿فلا﴾ تشكن في ذلك ولا ﴿تكونن من الممتريين﴾.

ثم وصف تفصيلها فقال: ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾ أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأمر والنهي. فلا أصدق من أخبار الله التي أودعها هذا الكتاب العزيز، ولا أعدل من أوامره ونواهيه ﴿لا مبدل لكلماته﴾ [حيث حفظها وأحكامها بأعلى أنواع الصدق وبغاية الحق، فلا يمكن تغييرها ولا اقتراح أحسن منها]<sup>(١)</sup>.

﴿وهو السميع﴾ لسائر الأصوات، باختلاف اللغات على تفنن الحاجات. ﴿العليم﴾ الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والماضي والمستقبل.

﴿١١٦ - ١١٧﴾ ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾ إن ربك هو أعلم من يضل

باطلاً والباطل حقاً، ولهذا قال تعالى: ﴿ولتصغى إليه﴾ أي: ولتميل إلى ذلك الكلام المزخرف ﴿أفشد الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ لأن عدم إيمانهم باليوم الآخر وعدم عقولهم النافعة، يحملهم على ذلك، ﴿وليرضوه﴾ بعد أن يصغوا إليه فيصغون إليه أولاً، فإذا سالوا إليه ورأوا تلك العبارات المستحسنة رضوه، وزين في قلوبهم، وصار عقيدة راسخة، وصفة لازمة، ثم ينتج من ذلك، أن يعترفوا من الأعمال والأقوال ما هم مقترفون، أي: يأتون من الكذب بالقول والفعل، ما هو من لوازم تلك العقائد القبيحة، فهذه حال المغترين، بشياطين الإنس والجن، المستجيبين لدعوتهم، وأما أهل الإيمان بالآخرة، وأولو العقول الوافية والألباب الرزينة، فإنهم لا يعترفون بتلك العبارات، ولا تخلبهم تلك التسمويات، بل همتهم مصروفة إلى معرفة الحقائق، فينظرون إلى المعاني التي يدعو إليها الدعوة، فإن كانت حقاً قبلوها وانقادوا لها، ولو كسيت عبارات ردية، وألفاظاً غير وافية، وإن كانت باطلاً، ردوها على من قالها، كائناً من كان، ولو البست من العبارات المستحسنة، ما هو أرق من الحرير.

ومن حكمة الله تعالى في جعله للأنبياء أعداء، وللباطل أنصاراً قائمين بالدعوة إليه، أن يحصل لعباده الابتلاء والامتحان، ليتميز الصادق من الكاذب، والعاقل من الجاهل، والبصير من الأعمى.

ومن حكمته أن في ذلك بياناً للحق، وتوضيحاً له، فإن الحق يستنير ويتضح إذا قام الباطل يصارعه ويقاومه. فإنه - حينئذ - يتبين من أدلة الحق، وشواهد الدالة على صدقه وحقيقته، ومن فساد الباطل وبطلانه، ما هو من أكبر المطالب التي يتنافس فيه المتنافسون.

﴿١١٤ - ١١٥﴾ ﴿أفغير الله أتبعي

فإن المشركين - حين سمعوا تحريم الله ورسوله الميتة، وتحليله للمذكاة، وكانوا يستحلون أكل الميتة - قالوا - معاندة لله ورسوله، ومجادلة بغير حجة وبرهان - أتأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله؟ يعنون بذلك: الميتة.

وهذا رأي: فاسد، لا يستند على حجة ولا دليل، بل يستند إلى آرائهم الفاسدة التي لو كان الحق تبعاً لها لفسدت السماوات والأرض، ومُن فيهن.

فتبياً لمن قدم هذه العقول على شرع الله وأحكامه، الموافقة للمصالح العامة والمنافع الخاصة. ولا يستغرب هذا منهم، فإن هذه الآراء وأشباهاها صادرة عن وحي أولياتهم من الشياطين، الذين يريدون أن يضلوا الخلق عن دينهم، ويدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير.

﴿وإن أطعمتموهم﴾ في شركهم وتحليلهم الحرام، وتحريمهم الحلال ﴿إنكم لمشركون﴾ لأنكم اتخذتموهم أولياء من دون الله، ووافقتموهم على ما به فارقوا المسلمين، فلذلك كان طريقكم طريقهم.

ودلت هذه الآية الكريمة على أن ما يقع في القلوب من الإلهامات والكشوف، التي يكثر وقوعها عند الصوفية ونحوهم، لا تدل - بمجرد ما على أنها حق، ولا تصدق حتى تعرض على كتاب الله وسنة رسوله.

فإن شهدا لها بالقبول قبلت، وإن ناقضتهما ردت، وإن لم يعلم شيء من ذلك، توقف فيها ولم تصدق ولم تكذب، لأن الوحي والإلهام يكون من الرحمن، ويكون من الشيطان، فلا بد من التمييز بينهما والفرقان، وعدم التفريق بين الأمرين حصل من الغلط والضلال، ما لا يحصيه إلا الله.

﴿١٢٢ - ١٢٤﴾ ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما

الأمياء المتعلقة بحقوق الله وحقوق عباده. فهنيئاً الله عباده عن اعتراف الإثم الظاهر والباطن، أي: السر والعلانية، المتعلقة بالبدن والجوارح، والمتعلقة بالقلب، ولا يتم للعبد ترك المعاصي الظاهرة والباطنة إلا بعد معرفتها والبحث عنها، فيكون البحث عنها، ومعرفة معاصي القلب والبدن، والعلم بذلك واجباً متعيناً على المكلف.

وكثير من الناس، تحفى عليه كثير من المعاصي، خصوصاً معاصي القلب، كالكبر والعجب والرياء، ونحو ذلك، حتى إنه يكون به كثير منها، وهو لا يحس به ولا يشعر، وهذا من الإعراض عن العلم وعدم البصيرة.

ثم أخبر تعالى أن الذين يكسبون الإثم الظاهر والباطن، سيجزون على حسب كسبهم، وعلى قدر ذنوبهم، قلت أو كثرت، وهذا الجزء يكون في الآخرة، وقد يكون في الدنيا، يعاقب العبد، فيخفف عنه بذلك من سيئاته.

﴿١٢١﴾ ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أولياتهم ليجادلوكم وإن أطعمتموهم إنكم لمشركون﴾ ويدخل تحت هذا المنهي عنه ما ذكر عليه اسم غير الله، كالذي يذبح للأصنام وألتهم، فإن هذا مما أهل لغير الله به، المحرم بالنص عليه خصوصاً.

ويدخل في ذلك متروك التسمية مما ذبح لله، كالضحايا والهدايا، أو للحم والأكل، إذا كان الذابح متعمداً ترك التسمية عند كثير من العلماء.

ويخرج من هذا العموم الناسي بالنصوص الأخرى، الدالة على رفع الحرج عنه، ويدخل في هذه الآية ما مات بغير ذكاة من الميتات، فإنها مما لم يذكر اسم الله عليه.

ونص الله عليها بخصوصها في قوله: ﴿حرمت عليكم الميتة﴾ ولعلها سبب نزول الآية، لقوله: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أولياتهم ليجادلوكم﴾ بغير علم.

ولا يفعلوا كما تفعله الجاهلية، من تحريم كثير من الحلال، ابتداءً من عند أنفسهم، وإضلالاً من شياطينهم، فذكر الله أن علامة المؤمن مخالفة أهل الجاهلية، في هذه العادة الذميمة، المتضمنة لتغيير شرع الله، وأنه أي شيء يمنعهم من أكل ما ذكر اسم الله عليه، وقد فضل الله لعباده ما حرم عليهم، وبينه ووضحه؟ فلم يبق فيه إشكال ولا شبهة توجب أن يمتنع من أكل بعض الحلال، خوفاً من الرقوع في الحرام، ودلت الآية الكريمة على أن الأصل في الأشياء والأطعمة، الإباحة، وأنه إذا لم يرد الشرع بتحريم شيء منها، فإنه باق على الإباحة، فما سكت الله عنه فهو حلال، لأن الحرام قد فضله الله فما لم يفصله الله، فليس بحرام.

ومع ذلك فالحرام الذي قد فضله الله وأوضحه، قد أباحه عند الضرورة والمخضمة، كما قال تعالى: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾ إلى أن قال: ﴿فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم﴾.

ثم حذر عن كثير من الناس، فقال: ﴿وإن كثيراً يضلون بأهوائهم﴾ أي: بمجرد ما تهوى أنفسهم ﴿بغير علم﴾ ولا حجة. فليحذر العبد من أمثال هؤلاء، وعلامتهم - كما وصفهم الله لعباده - أن دعوتهم غير مبنية على برهان، ولا لهم حجة شرعية، وإنما يوجد لهم شبهة، بحسب أهوائهم الفاسدة، وآرائهم القاصرة، فهؤلاء معتدون على شرع الله وعلى عباده، والله لا يحب المعتدين، بخلاف الهادين المهتدين، فإنهم يدعون إلى الحق والهدى، ويؤيدون دعوتهم بالحجج العقلية والنقلية، ولا يتبعون في دعوتهم إلا رضا ربهم والقرب منه.

﴿١٢٠﴾ ﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون﴾ المراد بالإثم: جميع المعاصي التي تؤثم العبد، أي: توقعه في الإثم والحرج، من





لهم اعتذاراً، وأما أولياؤهم من الإنس فأبدوا عذراً غير مقبول، فقالوا: ﴿ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾ أي: تمتع كل من الجنّي والإنسي بصاحبه، وانتفع به.

فالجنّي يستمتع بطاعة الإنسي له، وعبادته وتعظيمه، واستعاذته به. والإنسي يستمتع بنيل أغراضه، ويلوغيه بسبب خدمة الجنّي له بعض شهواته، فإن الإنسي يعبد الجنّي، فيخدمه الجنّي، ويحصل له منه بعض الخواص الدنيوية، أي: حصل منا من الذنوب ما حصل، ولا يمكن رد ذلك، ﴿وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا﴾ أي: وقد وصلنا المحل الذي تجازي فيه بالأعمال، فافعل بنا الآن ما تشاء، واحكم فينا بما تريد، فقد انقطعت حاجتنا ولم يبق لنا عذر، والأمر أمرك، والحكم حكمك. وكان في هذا الكلام منهم نوع تضرع وترقق، ولكن في غير أوانه. ولهذا حكم فيهم بحكمه العادل، الذي لا جور فيه، فقال: ﴿النار مثواكم خالدين فيها﴾.

ولما كان هذا الحكم من مقتضى حكمته وعلمه، ختم الآية بقوله: ﴿إن ربك حكيم عليم﴾ فكما أن علمه وسع الأشياء كلها وعمتها، فحكمته الغائية شملت الأشياء وعمتها ووسعتها.

﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون﴾ أي: وكما ولينا الجن المردة وسلطانهم على إضلال أوليائهم من الإنس وعقدنا بينهم عقد الموالاة والموافقة، بسبب كسبهم وسعيهم بذلك.

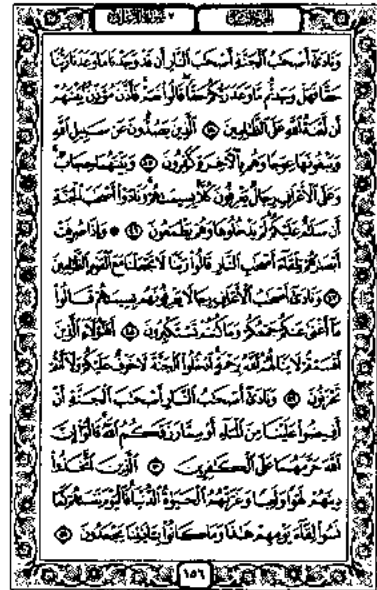
كذلك من سنتنا أن نولي كل ظالم ظالماً مثله، يؤزه إلى الشر ويحتم عليه، ويزهده في الخير وينفره عنه، وذلك من عقوبات الله العظيمة الشنيع أثرها، البليغ خطرها.

والذنب ذنب الظالم، فهو الذي أدخل الضرر على نفسه، وعلى نفسه جنى ﴿وماربك بظلام للعبيد﴾. ومن ذلك أن العباد إذا كثر ظلمهم وفسادهم، ومنعهم الحقنق الواجبة، وولى عليهم ظلمة يسومونهم سوء

مولاه واتبع هواه، فإنه سلط عليه الشيطان فتولاه، فأفسد عليه دينه ودنياه.

﴿١٢٨ - ١٣٥﴾ ﴿ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم \* وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون \* يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين \* ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون \* ولكل درجات بما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون \* وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين \* إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين \* قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون﴾ يقول تعالى: ﴿ويوم يحشرهم جميعاً﴾ أي: جميع الثقلين، من الإنس والجن، من ضل منهم، ومن أضل غيره، فيقول موبخاً للجن الذين أضلوا الإنس، وزينوا لهم الشر، وأزوههم إلى المعاصي: ﴿يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس﴾ أي: من إضلالهم وصددهم عن سبيل الله، فكيف أقدمتم على محارمي، وتجراتم على معاندة رسلي؟ وقمتم محاررين لله، ساعين في صد عباد الله عن سبيله إلى سبيل الجحيم؟

فالיום حقت عليكم لعنتي، ووجبت لكم نقمتي، وسنزيدكم من العذاب بحسب كفركم، وإضلالكم لغيركم. وليس لكم عذر به تعتذرون، ولا ملجأ إليه تلجأون، ولا شافع يشفع ولا دعاء يسمع، فلا تسأل حينئذ، عما يحمل بهم من النكال والحزى والويل، ولهذا لم يذكر الله



تفسيره للمعري

﴿١٢٦ - ١٢٧﴾ ﴿وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون \* لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون﴾ أي: معتدلاً، موصلاً إلى الله وإلى دار كرامته، قد بينت أحكامه، وفضلت شرائعه، وميز الخير من الشر. ولكن هذا التفصيل والبيان ليس لكل أحد، إنما هو ﴿لقوم يذكرون﴾ فإنهم الذين علموا، فانتفعوا بعلمهم، وأعد الله لهم الجزء الجزيل، والأجر الجميل، فلهم دار السلام عند ربهم، وسميت الجنة دار السلام، لسلامتها من كل عيب وأفة وكدر، وهم وهم، وغير ذلك من المنغصات، ويلزم من ذلك أن يكون نعيمها في غاية الكمال، ونهاية التمام، بحيث لا يقدر على وصفه الواصفون، ولا يتمنى فوقه المتمنون، من نعيم الروح والقلب والبدن، ولهم فيها ما تشتهيhe الأنفس، وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون.

﴿وهو وليهم﴾ الذي تول تدبيرهم وتربيتهم، ولطف بهم في جميع أمورهم، وأعانتهم على طاعته، ويسر لهم كل سبب موصل إلى محبته، وإنما تولاهم بسبب أعمالهم الصالحة، ومقدماتهم التي قصدوا بها رضا مولاهم، بخلاف من أعرض عن





فقال: ﴿وهو الذي أنشأ جنات﴾ أي: بساتين، فيها أنواع الأشجار المتنوعة، والنباتات المختلفة.

﴿ومعروشات وغير معروشات﴾ أي: بعض تلك الجنات، مجعول له عرش، تنتشر عليه الأشجار، ويعاونها في النهوض عن الأرض. وبعضها خال من العروش، تثبت على ساق، أو تنفرض في الأرض، وفي هذا تنبيه على كثرة منافعها وخيراتها، وأنه تعالى علم العباد كيف يعمرشونها وينموها.

﴿و﴾ أنشأ تعالى ﴿النخل والزرع﴾ مختلفاً أكله﴾ أي: كله في محل واحد، ويشرب من ماء واحد، ويفضل الله بعضه على بعض في الأكل.

وخص تعالى النخل والزرع على اختلاف أنواعه لكثرة منافعها، ولكونها هي القوت لأكثر الخلق. ﴿و﴾ أنشأ تعالى ﴿الزيتون والرمان متشابهاً﴾ في شجره ﴿وغير متشابه﴾ في ثمره وطعمه. كأنه قيل: لأي شيء أنشأ الله هذه الجنات، وما عطف عليها؟ فأخبر أنه أنشأها لمنافع العباد فقال: ﴿كلوا من ثمره﴾ أي: النخل والزرع ﴿إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده﴾ أي: أعطوا حق الزرع، وهو الزكاة ذات الأنصبة المقدرة في الشرع، أمرهم أن يعطوها يوم حصادها، وذلك لأن حصاد الزرع بمنزلة حولان الحول، لأنه الوقت الذي تتشوف إليه نفوس الفقراء، ويسهل حينئذ إخراجها على أهل الزرع، ويكون الأمر فيها ظاهراً لمن أخرجها، حتى يتميز المخرج ممن لا يخرج.

وقوله: ﴿ولا تسرفوا﴾ يعم النهي عن الإسراف في الأكل، وهو مجاوزة الحد والعادة، وأن يأكل صاحب الزرع أكلاً يضر بالزكاة، والإسراف في إخراج حق الزرع بحيث يخرج فوق الواجب عليه، ويضر نفسه أو عائلته أو غرماءه، فكل هذا من الإسراف الذي نهى الله عنه، الذي لا يحبه الله بل يبغضه ويمقت عليه. وفي هذه الآية دليل على وجوب

بعض الأنعام ويعينها - محرماً ما في بطنها على الإناث دون الذكور، فيقولون: ﴿ما في بطن هذه الأنعام خالصة لذكورنا﴾ أي: حلال لهم، لا يشاركون فيها النساء، ﴿ومحرم على أزواجنا﴾ أي: نسائنا، هذا إذا ولد حياً، وإن يكن ما [في] بطنها يولد ميتاً، فهم فيه شركاء، أي: فهو حلال للذكور والإناث.

﴿سيجزيهم﴾ الله ﴿وصفهم﴾ حيث وصفوا ما أحله الله بأنه حرام، ووصفوا الحرام بالحلال، فناقضوا شرع الله وخالفوه، ونسبوا ذلك إلى الله: ﴿إنه حكيم﴾ حيث أمهل لهم، ومكنهم بما هم فيه من الضلال. ﴿عليم﴾ بهم، لا تخفى عليه خافية، وهو تعالى يعلم بهم وبما قالوه عليه وافتروه، وهو يعافهم ويرزقهم جل جلاله.

﴿١٤٠﴾ ثم بين خسارتهم وسفاهة عقولهم فقال: ﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم﴾ أي: خسروا دينهم وأولادهم وعقولهم، وصار وصفهم - بعد العقول الرزينة - السفه المردي والضلال.

﴿وحرماً ما رزقهم الله﴾ أي: ما جعله رحمة لهم، وساقه رزقاً لهم. فردوا كرامة ربهم، ولم يكتفوا بذلك، بل وصفوها بأنها حرام، وهي من أجل الحلال.

وكل هذا ﴿افتراء على الله﴾ أي: كذباً يكذب به كل معاند كفار. ﴿قد ضلوا وما كانوا مهتدين﴾ أي: قد ضلوا ضلالاً بعيداً، ولم يكونوا مهتدين في شيء من أمورهم.

﴿١٤١﴾ ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا﴾ إنه لا يجب للمسرفين ﴿لما ذكر تعالى تصرف المشركين في كثير مما أحله الله لهم من الحروث والأنعام، ذكر تبارك وتعالى نعمته عليهم بذلك، ووظيفتهم اللازمة عليهم في الحروث والأنعام

الذي أرسلنا نبياً وآتوا ما لم يحيطوا به من فضل رحمتنا ﴿١٤٢﴾ ﴿ومن الأنعام حولة وفرساً كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ \* ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل الذكور حرام أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبؤوني بعملم إن كنتم صادقين \* ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل الذكور حرام أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضلل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم

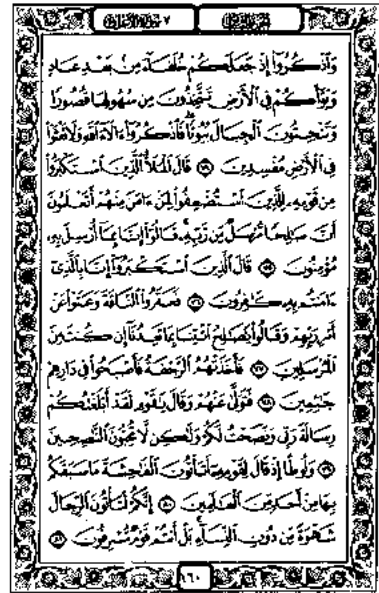
١٥٩

الزكاة في الشمار، وأنه لا حول لها، بل حولها حصادها في الزرع، وجداذ النخل، وأنه لا تتكرر فيها الزكاة، لو مكثت عند العبد أحوالاً كثيرة، إذا كانت لغير التجارة، لأن الله لم يأمر بالإخراج منه إلا وقت حصاده.

وأنه لو أصابها آفة قبل ذلك بغير تفريط من صاحب الزرع والشمر، أنه لا يضمونها، وأنه يجوز الأكل من النخل والزرع قبل إخراج الزكاة منه، وأنه لا يحسب ذلك من الزكاة، بل يركى المال الذي يبقى بعده.

وقد كان النبي ﷺ يبعث خالصاً يفرص للناس ثمارهم، وأمره أن يدع لأهلها الثلث، أو الربع، بحسب ما يعثرها من الأكل وغيره من أهلها وغيرهم.

﴿١٤٢ - ١٤٤﴾ ﴿ومن الأنعام حولة وفرساً كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ \* ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل الذكور حرام أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبؤوني بعملم إن كنتم صادقين \* ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل الذكور حرام أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضلل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم



ولا الإناث الخالص من الصنفين .

غير الظلم والجور والافتراء على الله .

﴿١٤٥ - ١٤٦﴾ ﴿قل لا أجد في ما أوحى إليّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم﴾ وعمل الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حلت ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزئناهم ببنيهم وإنما لصادقون

لما ذكر تعالى ذم المشركين على ما حرموا من الحلال ونسبوه إلى الله، وأبطل قولهم . أمر تعالى رسوله أن يبين للناس ما حرمه الله عليهم، ليعلموا أن ما عدا ذلك حلال، من نسب تحريمه إلى الله فهو كاذب مبطل، لأن التحريم لا يكون إلا من عند الله على لسان رسوله، وقد قال لرسوله: ﴿قل لا أجد فيما أوحى إليّ محرماً على طاعم﴾ أي: محرماً أكله، بقطع النظر عن تحريم الانتفاع بغير الأكل وعدمه .

﴿إلا أن يكون ميتة﴾ والميتة: ما مات بغير ذكاة شرعية، فإن ذلك لا يجزئ . كما قال تعالى: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾ .

﴿أو دماً مسفوحاً﴾ وهو الدم الذي يخرج من الذبيحة عند ذكاتها، فإنه الدم الذي يضر احتباسه في البدن، فإذا خرج من البدن زال الضرر بأكل اللحم، ومفهوم هذا اللفظ، أن الدم الذي يبقى في اللحم والعروق بعد الذبح، أنه حلال طاهر .

﴿أو لحم خنزير فإنه رجس﴾ أي: فإن هذه الأشياء الثلاثة رجس، أي: خبث نجس مضر، حرمه الله لطفاً بكم، ونزاهة لكم عن مقارنة الخبثات .

﴿أو﴾ إلا أن يكون ﴿فسقاً أهل لغير الله به﴾ أي: إلا أن تكون الذبيحة مذبوحة لغير الله، من الأوثان والآلهة التي يعبدها المشركون، فإن هذا من الفسق الذي هو الخروج عن طاعة الله إلى معصيته، أي: ومع هذا، فهذه الأشياء المحرمات، من اضطر إليها، أي: حملته الحاجة والضرورة إلى أكل

بقي إذا كان الرحم مشتملاً على ذكر وأنثى، أو على مجهول فقال: ﴿أم﴾ تحرمون ﴿ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾ أي: أنثى الضأن وأنثى المعز، من غير فرق بين ذكر وأنثى، فليست تقولون أيضاً بهذا القول .

فإذا كنتم لا تقولون بأحد هذه الأقوال الثلاثة، التي حصرت الأقسام الممكنة في ذلك، فليلى أي: شيء تذهبون؟

﴿نيؤوي بعلم إن كنتم صادقين﴾ في قولكم ودعواكم، ومن المعلوم أنهم لا يمكنهم أن يقولوا قولاً سائغاً في العقل، إلا واحداً من هذه الأمور الثلاثة . وهم لا يقولون بشيء منها . إنما يقولون: إن بعض الأنعام التي يصطلحون عليها اصطلاحات من عند أنفسهم، حرام على الإناث دون الذكور، أو محرمة في وقت من الأوقات، أو نحو ذلك من الأقوال، التي يعلم علماً لا شك فيه أن مصدرها من الجهل المركب، والعقول المختلفة المنحرفة، والآراء الفاسدة، وأن الله ما أنزل - بما قالوه - من سلطان، ولا لهم عليه حجة ولا برهان .

ثم ذكر في الإبل والبقر مثل ذلك . فلما بين بطلان قولهم ونساده، قال لهم قولاً لا حيلة لهم في الخروج من تبعته، إلا في اتباع شرع الله . ﴿أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله﴾ أي: لم يبق عليكم إلا دعوى، لا سبيل لكم إلى صدقها وصحتها . وهي أن تقولوا: إن الله وضأننا بذلك، وأوحى إلينا كما أوحى إلى رسله، بل أوحى إلينا وحياً مخالفاً لما دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب، وهذا افتراء لا يجهله أحد، ولهذا قال: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم﴾ أي: مع كذبه وافتراءه على الله، قصده بذلك، إضلال عباد الله عن سبيل الله، بغير بيّنة منه ولا برهان، ولا عقل ولا نقل . ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ الذين لا إرادة لهم في

الظالمين﴾ أي: ﴿و﴾ خلق وأنشأ ﴿من الأنعام حولة وفرساً﴾ أي: بعضها تحملون عليه وتركبونه، وبعضها لا تصلح للحمل والركوب عليها لصغرها كالفصلان ونحوها، وهي الفرش، فهي من جهة الحمل والركوب تنقسم إلى هذين القسمين .

وأما من جهة الأكل وأنواع الانتفاع، فإنها كلها تؤكل وينتفع بها . ولهذا قال: ﴿كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي: طرقة وأعماله التي من جعلتها أن تحرموا بعض ما رزقكم الله . ﴿إنه لكم عدو بين﴾ فلا يأمركم إلا بما فيه مضرركم وشقاؤكم الأبدى .

وهذه الأنعام التي امتن الله بها على عباده، وجعلها كلها حلالاً طيباً، فصلها بأنها: ﴿ثمانية أزواج من الضأن الثنين﴾ ذكر وأنثى ﴿ومن المعز الثنين﴾ كذلك، فهذه أربعة، كلها داخلة فيما أحل الله، لا فرق بين شيء منها، فقل لهؤلاء المتكلفين، الذين يحرمون منها شيئاً دون شيء، أو يحرمون بعضها على الإناث دون الذكور، ملزماً لهم بعدم وجود الفرق بين ما أباحوا منها وحرموا ﴿الذكريين﴾ من الضأن والمعز ﴿حرم﴾ الله، فليست تقولون بذلك وتطردونه، ﴿أم الأنثيين﴾ حرم الله من الضأن والمعز، فليس هذا قولكم، لا تحريم الذكور الخالص،

شيء منها، بأن لم يكن عنده شيء وخاف على نفسه التلف ﴿غير باغ ولا عاد﴾ أي: ﴿غير باغ﴾ أي: مرید لأكلها، من غير اضطراب ولا متعدي، أي: متجاوز للحد، بأن يأكل زيادة عن حاجته. ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم﴾ أي: قاله قد سماع من كان بهذه الحال.

واختلف العلماء ورحمهم الله في هذا الحصر المذكور في هذه الآية، مع أن ثم محررات لم تذكر فيها، كالسباع وكل ذي مخلب من الطير ونحو ذلك، فقال بعضهم: إن هذه الآية نازلة قبل تحريم ما زاد على ما ذكر فيها، فلا يتنافى هذا الحصر المذكور فيها التحريم المتأخر بعد ذلك؛ لأنه لم يجده فيما أوحى إليه في ذلك الوقت، وقال بعضهم: إن هذه الآية مشتملة على سائر المحرمات، بعضها صريحاً، وبعضها يؤخذ من المعنى وعموم العلة.

فإن قوله تعالى في تعليل الميتة والدم ولحم الخنزير، أو الأخير منها فقط: ﴿فإنه رجس﴾ وصف شامل لكل محرّم، فإن المحرمات كلها رجس وخبث، وهي من الخبائث المستقرة التي حرّمها الله على عباده، صيانة لهم وتكرمة عن مباشرة الخبيث الرجس.

ويؤخذ تفاصيل الرجس المحرم من السنة، فإنها تفسر القرآن، وتبين المقصود منه، فإذا كان الله تعالى لم يحرم من المطاعم إلا ما ذكر، والتحريم لا يكون مصدره إلا شرع الله - دل ذلك على أن المشركين، الذين حرموا ما رزقهم الله مفترّون على الله، متقولون عليه ما لم يقل.

وفي الآية احتمال قوي، لولا أن الله ذكر فيها الخنزير، وهو أن السياق في نقض أقوال المشركين المتقدمة، في تحريمهم لما أحله الله وخوضهم بذلك، بحسب ما سولت لهم أنفسهم، وذلك في بهيمة الأنعام خاصة، وليس منها محرّم إلا ما ذكر في الآية: الميتة منها، وما أهل لتغير الله

به، وما سوى ذلك فحلال. ولعل مناسبة ذكر الخنزير هنا على هذا الاحتمال، أن بعض الجهال قد يدخله في بهيمة الأنعام، وأنه نوع من أنواع الغنم، كما قد يتوهمه جهلة النصراري وأشباههم، فيمنونها كما ينمون المواشي، ويستحلونها، ولا يفرقون بينها وبين الأنعام، فهذا المحرم على هذه الأمة كله<sup>(١)</sup> من باب التنزيه لهم والصيانة.

وأما ما حرم على أهل الكتاب، فبعضه طيب ولكنه حرم عليهم عقوبة لهم ولهذا، قال: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر﴾ وذلك كالإبل وما أشبهها وحرّمنا عليهم.

﴿من البقر والغنم﴾ بعض أجزائها، وهو: ﴿شحومهما﴾ وليس المحرم جميع الشحوم منها، بل شحم الألية والشرب، ولهذا استثنى الشحم الحلال من ذلك، فقال: ﴿إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا﴾ أي: الشحم المخالط للأمعاء ﴿أو ما اختلط بعظم﴾.

﴿ذلك﴾ التحريم على اليهود ﴿جزيناهم ببغيهم﴾ أي: ظلمهم وتعديهم في حقوق الله وحقوق عباده، فحرم الله عليهم هذه الأشياء عقوبة لهم ونكالاً. ﴿وإننا لصادقون﴾ في كل ما نقول ونفعل ونحكم به، ومن أصدق من الله حديثاً، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون.

﴿١٤٧﴾ ﴿فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين﴾ أي: فإن كذبك هؤلاء المشركون، فاستمر على دعوتهم، بالترغيب والترهيب، وأخبرهم بأن الله ﴿ذو رحمة واسعة﴾ أي: عامة شاملة [لجميع] للمخلوقات كلها، فسارعوا إلى رحمة بأسبابها، التي رأسها وأسها ومادتها تصديق محمد ﷺ فيما جاء به.

﴿ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين﴾ أي: الذين كثر إجرامهم

وذنوبهم، فاحذروا الجرائم الموصلة لبأس الله، التي أعظمها ورأسها تكذيب محمد ﷺ

﴿١٤٨ - ١٤٩﴾ ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تنبؤون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون﴾ قل فقله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ هذا إخبار من الله أن المشركين سيحتجون على شركهم وتحريمهم ما أحل الله بالقضاء والقدر، ويجعلون مشيئة الله الشاملة لكل شيء من الخير والشر، حجة لهم في دفع اللوم عنهم.

وقد قالوا ما أخبر الله أنهم سيقولونه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء﴾ الآية.

فأخبر تعالى أن هذه الحجة لم تنزل الأسم المكدبة تدفع بها عنهم دعوة الرسل ويحتجون بها، فلم تجد فيهم شيئاً ولم تنفعهم، فلم يزل هذا ذابهم حتى أهلكتهم الله وأذاقهم بأسه.

فلو كانت حجة صحيحة، لدفعت عنهم العقاب، ولما أحل الله بهم العذاب، لأنه لا يحمل بأسه إلا بمن استحقه، فعلم أنها حجة فاسدة، وشبهة كاسدة من عدة أوجه:

منها: ما ذكر الله من أنها لو كانت صحيحة لم تحمل بهم العقوبة.

ومنها: أن الحجة لا بد أن تكون حجة مستندة إلى العلم والبرهان، فأما إذ كانت مستندة إلى مجرد الظن والخرص الذي لا يُعني من الحق شيئاً، فإنها باطلة، ولهذا قال: ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا﴾

كان لهم علم - وهم خصوم ألداء - لأخروجه، فلما لم يخرجوه علم أنه لا علم عندهم. ﴿إن تنبؤون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون﴾ ومن بنى حججه على الخرص والظن، فهو مبطل

خاسر، فكيف إذا بناها على البغي والعناد والشر والفساد؟

ومنها: أن الحججة لله البالغة، التي لم تبق لأحد عذراً، التي اتفقت عليها الأنبياء والمرسلون، والكتب الإلهية، والآثار النبوية، والعقول الصحيحة، والفطر المستقيمة، والأخلاق القويمية، فعلم بذلك أن كل ما خالف هذه الأدلة<sup>(١)</sup> القاطعة باطل، لأن نقيض الحق لا يكون إلا باطلاً.

ومنها: أن الله تعالى أعطى كل مخلوق قدرة وإرادة يتمكن بها من فعل ما كُلف به، فلا أوجب الله على أحد ما لا يقدر على فعله، ولا حرم على أحد ما لا يتمكن على تركه، فالاحتجاج بعد هذا بالقضاء والقدر، ظلم محض وعناد صرف.

ومنها: أن الله تعالى لم يجبر العباد على أفعالهم، بل جعل أفعالهم تبعاً لاختيارهم، فإن شأوا ففعلوا، وإن شأوا كفوا. وهذا أمر مشاهد لا ينكره إلا من كابر وأنكر المحسوسات، فإن كل أحد يفرق بين الحركة الاختيارية والحركة القسرية، وإن كان الجميع داخلاً في مشيئة الله، ومندرجاً تحت إرادته.

ومنها: أن المحتجين على المعاصي بالقضاء والقدر يتناقضون في ذلك، فإنهم لا يمكنهم أن يطردوا ذلك، بل لو أساء إليهم مسيء يضر أو أخذ مال أو نحو ذلك، واحتج بالقضاء والقدر، لما قبلوا منه هذا الاحتجاج، ولغضبوا من ذلك أشد الغضب.

فيا عجباً كيف يجنحون به على معاصي الله ومساخطه، ولا يرضون من أحد أن يجنح به في مقابلة مساخطهم!!

ومنها: أن احتجاجهم بالقضاء والقدر ليس مقصوداً، ويعلمون أنه ليس بحجة، وإنما المقصود منه دفع الحق، ويرون أن الحق بمنزلة الصائل، فهم يدفعونه بكل ما يخطر ببالهم من

الكلام وإن كانوا يعتقدونه خطأ<sup>(٢)</sup>.

﴿١٥٠﴾ ﴿قل هللم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم يربم يعدلون﴾ أي: قل لمن حرم ما أحل الله، ونسب ذلك إلى الله: أحضروا شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا، فإذا قيل لهم هذا الكلام، فهم بين أمرين:

إما: أن لا يحضروا أحداً يشهد بهذا، فتكون دعوهم إذا باطلة، خلية من الشهود والبرهان.

وإما: أن يحضروا أحداً يشهد لهم بذلك، ولا يمكن أن يشهد بهذا إلا كل أفتك أثيم غير مقبول الشهادة، وليس هذا من الأمور التي يصح أن يشهد بها العدول؛ ولهذا قال تعالى - ناهياً نبيه وأتباعه عن هذه الشهادة - ﴿فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم يربم يعدلون﴾ أي: يسوون به غيره من الأنداد والأوتان.

فإذا كانوا كافرين باليوم الآخر غير موحدين لله، كانت أهويتهم مناسبة لعقيدتهم، وكانت دائرة بين الشرك والتكذيب بالحق، فحري بهوى هذا شأنه، أن ينهى الله خيار خلفه عن اتباعه، وعن الشهادة مع أربابه، وعلم حينئذ أن تحريمهم لما أحل الله صادر عن تلك الأهواء المضلة.

﴿١٥١ - ١٥٣﴾ ﴿قل تعالوا أتت ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف

نفساً إلا وسمها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون \* وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قل﴾ لهؤلاء الذين حزموا ما أحل الله: ﴿تعالوا أتت ما حرم ربكم عليكم﴾ تحريماً عاماً شاملاً لكل أحد، محتويًا على سائر المحرمات، من المأكول والمشرب والأقوال والأفعال. ﴿ألا تشركوا به شيئاً﴾ أي: لا قليلاً ولا كثيراً.

وحقيقة الشرك بالله: أن يعبد المخلوق كما يعبد الله، أو يعظم كما يعظم الله، أو يصرف له نوع من خصائص الربوبية والإلهية، وإذا ترك العبد الشرك كله صار موحدًا، مخلصاً لله في جميع أحواله، فهذا حق الله على عباده، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً.

ثم بدأ يؤكد الحقوق بعد حقه فقال: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ من الأقوال الكريمة الحسنة، والأفعال الجميلة المستحسنة، فكل قول وفعل يحصل به منفعة للوالدين أو سرور لهما، فإن ذلك من الإحسان، وإذا وجد الإحسان انتفى العقوق.

﴿ولا تقتلوا أولادكم﴾ من ذكور وإناث ﴿من إملاق﴾ أي: بسبب الفقر وضيقكم من رزقهم، كما كان ذلك موجوداً في الجاهلية القاسية الظالمة، وإذا كانوا متبهين عن قتلهم في هذه الحال وهم أولادهم، فنههم عن قتلهم لغير موجب، أو قتل أولاد غيرهم من باب أولى وأحرى.

﴿نحن نرزقكم وإياهم﴾ أي: قد تكفلنا برزق الجميع، فليست الذين ترزقون أولادكم، بل ولا أنفسكم، فليس عليكم منهم ضيق. ﴿ولا تقربوا الفواحش﴾ وهي: الذنوب العظام المستفحشة، ﴿ما ظهر منها وما بطن﴾

(١) في ب: الآية.

(٢) في ب: من الكلام المصيب عندهم والمخطئ.





الإطلاق، لا يدخل فيهم سائر الطوائف، لا المجوس ولا غيرهم.

وفيه: ما كان عليه الجاهلية قبل نزول القرآن، من الجهل العظيم وعدم العلم بما عند أهل الكتاب، الذين عندهم مادة العلم وغفلتهم عن دراسة كتبهم.

﴿١٥٨﴾ ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً قل انظروا إنا منتظرون﴾ بقول تعالى: هل ينظر هؤلاء الذين استمر ظلمهم وعنادهم، ﴿إلا أن تأتيهم﴾ مقدمات العذاب، ومقدمات الآخرة بأن تأتيهم ﴿الملائكة﴾ لقبض أرواحهم، فإنهم إذا وصلوا إلى تلك الحال لم يتفهم الإيمان ولا صالح الأعمال. ﴿أو يأتي ربك﴾ لفصل القضاء بين العباد، وبجائزة المحسنين والمسيئين. ﴿أو يأتي بعض آيات ربك﴾ الدالة على قرب الساعة.

﴿يوم يأتي بعض آيات ربك﴾ الخارقة للعادة، التي يعلم بها أن الساعة قد دنت، وأن القيامة قد اقتربت. ﴿لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً﴾ أي: إذا وجد بعض آيات الله لم ينفع الكافر إيمانه أن آمن، ولا المؤمن المقصر أن يزداد خيره بعد ذلك، بل ينفعه ما كان معه من الإيمان قبل ذلك، وما كان له من الخير المرجو قبل أن يأتي بعض الآيات.

والحكمة في هذا ظاهرة، فإنه إنما كان الإيمان ينفع إذا كان إيماناً بالغيب، وكان اختياراً من العبد، فأما إذا وجدت الآيات صار الأمر شهادة، ولم يبق للإيمان فائدة، لأنه يشبه الإيمان الضروري، كإيمان الغريق والحريق ونحوهما، ممن إذا رأى الموت أقبل عمّا هو فيه، كما قال تعالى: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده، وكفرنا بما كنا به مشركين. فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا، سئة الله التي قد خلت في عبادهم﴾.

فأكبر سبب لنيل رحمة الله اتباع هذا الكتاب علماً وعملاً.

﴿أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين﴾ أي: أنزلنا إليكم هذا الكتاب المبارك قطعاً لحجتكم، وخشية أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا، أي: اليهود والنصارى.

﴿وإن كنا عن دراستهم لغافلين﴾ أي: تقولون لم تنزل علينا كتاباً، والكتب التي أنزلتها على الطائفتين ليس لنا بها علم ولا معرفة، فأنزلنا إليكم كتاباً، لم ينزل من السماء كتاب أجمع ولا أوضح ولا أبين منه.

﴿أو تقولوا لو أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم﴾ أي: إما أن تعتذروا بعدم وصول أصل الهداية إليكم، وإما أن تعتذروا، [بعدم] بكمالها وتامها، فحصل لكم بكتابكم أصل الهداية وكمالها، ولهذا قال: ﴿فقد جاءكم بيته من ربكم﴾ وهذا اسم جنس يدخل فيه كل ما يبين الحق ﴿وهدى﴾ من الضلالة ﴿ورحمة﴾ أي: سعادة لكم في دينكم ودنياكم، فهذا يوجب لكم الانقياد لأحكامه والإيمان بأخباره، وأن من لم يرفع به رأساً وكذب به، فإنه أظلم الظالمين، ولهذا قال: ﴿فمن أظلم ممن كذب بايات الله وصدق عنها﴾ أي: أعرض ونأى بجانبه.

﴿ستجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب﴾ أي: العذاب الذي يسوء صاحبه ويشق عليه. ﴿بما كانوا يصدفون﴾ لأنفسهم ولغيرهم، جزء لهم على عملهم السيئ. ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾.

وفي هذه الآيات دليل على أن علم القرآن أجل العلوم وأبركها وأوسعها، وأنه به تحصل الهداية إلى الصراط المستقيم، هداية تامة لا يحتاج معها إلى تحريض المتكلمين، ولا إلى أفكار المتفلسفين، ولا لغير ذلك من علوم الأولين والآخرين.

وأن المعروف أنه لم ينزل جنس الكتاب إلا على الطائفتين، [من] اليهود والنصارى، فهم أهل الكتاب عند



من أمة موسى، فإن الله أنعم على المحسنين منهم بنعم لا تحصى. من جملتها وتمامها إنزال التوراة عليهم. فتمت عليهم نعمة الله، ووجب عليهم القيام بشكرها.

﴿وتفصيلاً لكل شيء﴾ يحتاجون إلى تفصيله، من الحلال والحرام، والأمر والنهي، والعقائد ونحوها. ﴿وهدى ورحمة﴾ أي: يهديهم إلى الخير، ويعرفهم بالنشر، في الأصول والفروع. ﴿ورحمة﴾ يحصل به لهم السعادة والرحمة والخير الكثير. ﴿لعلهم﴾ بسبب إنزالنا الكتاب والبيات عليهم ﴿بلقاء ربهم يؤمنون﴾ فإنه اشتمل من الأدلة القاطعة على البعث والجزاء بالأعمال، ما يوجب لهم الإيمان بقاء ربهم والاستعداد له.

﴿وهذا﴾ القرآن العظيم، والذكر الحكيم. ﴿كتاب أنزلناه مبارك﴾ أي: فيه الخير الكثير والعلم الغزير، وهو الذي تستمد منه سائر العلوم، وتستخرج منه البركات، فما من خير إلا وقد دعا إليه ورغب فيه، وذكر الحكم والمصالح التي تحت عليه، وما من شر، إلا وقد نهى عنه وحذر منه، وذكر الأسباب المنفرة عن فعله وعواقبها الرخيصة ﴿فاتبعوه﴾ فيما يأمر به ويهوى، وابتوا أصول دينكم وفروعه عليه ﴿واتقوا﴾ الله تعالى أن تخالفوا له أمراً ﴿لعلكم﴾ إن اتبعتموه ﴿ترحمون﴾

أديان أهل الانحراف، كاليهود والنصارى والمشركون.

وهذا عموم، ثم خصص من ذلك أشرف العبادات فقال: ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحبي، وذلك لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ودلائلها على عجة الله تعالى، وإخلاص الدين له، والتقرب إليه بالقلب واللسان والجوارح، وبالذبح الذي هو بذل ما تحبه النفس من المال، لما هو أحب إليها وهو الله تعالى.

ومن أخلص في صلاته ونسكه، استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر أعماله. وقوله: ﴿ومحبي ومماتي﴾ أي: ما أتيت في حياتي، وما يجريه الله علي، وما يقدر علي في مماتي الجميع ﴿الله رب العالمين لا شريك له﴾ في العبادة، كما أنه ليس له شريك في الملك والتسيير، وليس هنا الإخلاص لله ابتداءً مني، وبدعاً أتيت من تلقاء نفسي، بل ﴿بذلك أمرت﴾ أمراً حتماً، لا أخرج من التبعة إلا بامتثالهم ﴿وأنا أول المسلمين﴾ من هذه الأمة.

﴿قل أغير الله﴾ من المخلوقين ﴿أبغى رباً﴾ أي: أبغس ذلك ويليق بي، أن أتحذ غيره مريباً ومدبراً والله رب كل شيء، فالخلق كلهم داخلون تحت ربوبيته، متقادون لأمره؟!!

فتعين علي وعلى غيري، أن يتخذ الله رباً، ويرضى به، والأ يتعلق بأحد من المربوبين الفقراء العاجزين.

ثم رغب ورهب بذكر<sup>(١)</sup> الجزاء فقال: ﴿ولا تكسب كل نفس﴾ من خير وشراً ﴿إلا عليها﴾ كما قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾.

﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ بل كل عليه وزر نفسه، وإن كان أحد قد تسبب في ضلال غيره ووزره، فإن عليه وزر السبب من غير أن ينقص من وزر المباشر شيء.

﴿ثم إلى ربكم مرجعكم﴾ يوم

بالاجتماع والائتلاف، وينتهي عن التفرق والاختلاف في أهل الدين، وفي سائر مسائله الأصولية والفروعية. وأمره أن يتبرأ عن فرقوا دينهم فقال: ﴿لست منهم في شيء﴾ أي: لست منهم وليسوا منك، لأنهم خالفوك وعاندوك ﴿إنما أمرهم إلى الله﴾ يردون إليه فيجازيهم بأعمالهم ﴿ثم ينبتهم بما كانوا يفعلون﴾.

ثم ذكر صفة الجزاء فقال: ﴿من جاء بالحسنة﴾ القولية والفعلية، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله أو حق خلقه ﴿فله عشر أمثالها﴾ هذا أقل ما يكون من التضعيف.

﴿ومن جاء بالسئنة فلا يجزى إلا مثلها﴾ وهذا من تمام عدله تعالى وإحسانه، وأنه لا يظلم مثقال ذرة، ولهذا قال: ﴿وهم لا يظلمون﴾.

﴿١٦١ - ١٦٥﴾ ﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيمياً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ قل إن صلاتي ونسكي ومحبي ومماتي لله رب العالمين ﴿لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾ قل أغير الله أبغى رباً وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾

تعالى نبيه ﷺ أن يقول ويعلم بما هو عليه من الهداية إلى الصراط المستقيم: الدين المعتدل المتضمن للعقائد النافعة والأعمال الصالحة، والأمر بكل حسن، والنهي عن كل قبيح، الذي عليه الأنبياء والمرسلون، خصوصاً إمام الختفاء، ووالد من بعث من بعد مرتبه من الأنبياء، خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهو الدين الخنيف المائل عن كل دين غير مستقيم، من

وقد تكاثرت الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أن المراد ببعض آيات الله، طلوع الشمس من مغربها، وأن الناس إذا رأوها آمنوا، فلم يفهم إيمانهم، ويغلق حينئذ باب التوبة. ولما كان هذا وعيداً للمكذبين بالرسول ﷺ منتظراً، وهم ينتظرون بالنسبي ﷺ وأتباعه قوارع الدهر ومصائب الأمور، قال: ﴿قل انتظروا إنا منتظرون﴾ فستعلمون أينما أحق بالأمن.

وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة في إثبات الأفعال الاختيارية لله تعالى، كالأستواء والنزول، والإتيان لله تبارك وتعالى، من غير تشبيه له بصفات المخلوقين.

وفي الكتاب والسنة من هذا شيء كثير، وفيه أن من جملة أشرط الساعة طلوع الشمس من مغربها. وأن الله تعالى حكيم قد جرت عادته وسنته، أن الإيمان إنما ينفع إذا كان اختيارياً لا اضطرارياً، كما تقدم.

وأن الإنسان يكتسب الخير بإيمانه. فالطاعة والبر والتقوى إنما تنفع وتتمو إذا كان مع العبد الإيمان. فإذا خلا القلب من الإيمان لم ينفعه شيء من ذلك.

﴿١٥٩ - ١٦٠﴾ ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبتهم بما كانوا يفعلون﴾ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسئنة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴿يتوعد تعالى الذين فرقوا دينهم، أي: شتتوه وتفرقوا فيه، وكل أخذ لنفسه نصيباً من الأسماء التي لا تنفيذ الإنسان في دينه شيئاً، كاليهودية والنصرانية والمجوسية. أو لا يكمل بها إيمانه، بأن يأخذ من الشريعة شيئاً ويجعله دينه، ويدع مثله، أو ما هو أولى منه، كما هو حال أهل الفرقة من أهل البدع والضلال والمفرقين للأمة. ودلت الآية الكريمة أن الدين يأمر

القيامة ﴿فنبشكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ من خير وشر، ويجازيكم على ذلك، أوفى الجزاء.

﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ أي: يخلّف بعضكم بعضاً، واستخلفكم الله في الأرض، وسخر لكم جميع ما فيها، وابتلاككم، لينظر كيف تعملون.

﴿ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾ في القوة والعافية، والرزق والخلق والخلق. ﴿ليلبؤكم فيما آتاكم﴾ ففأوتت أعمالكم. ﴿إن ربك سريع العقاب﴾ لمن عصاه وكذب بآياته ﴿ورأه لغفور رحيم﴾ لمن آمن به وعمل صالحاً، وتاب من الموبقات.

آخر تفسير سورة الأنعام، فله الحمد والثناء وصلّى الله وسلم على نبينا محمد [وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين] (١).

المعجم الثالث من تفسير الرحمن في تفسير القرآن لجامع الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر السعدي.

بسم الله الرحمن الرحيم

### تفسير سورة الأعراف مكية

﴿٧ - ١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم المص﴾ كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون﴾ وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون ﴿فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾ فلنسالن الذين أرسل إليهم ولنسالن المرسلين ﴿فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين﴾ يقول تعالى لرسوله

محمد ﷺ مبيناً له عظمة القرآن: ﴿كتاب أنزل إليك﴾ أي: كتاب جليل حوى كل ما يحتاج إليه العباد، وجميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، محكماً مفصلاً ﴿فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ أي: ضيق وشك واشتباه، بل لتعلم أنه تنزيل من حكيم حميد ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ وأنه أصدق الكلام فلينشرح له صدرك، ولنطمئن به نفسك، ولتصدق بأوامره ونواهيه، ولا تحش لائماً ومعارضاً.

﴿لتنذره﴾ الخلق، فتعظهم وتذكرهم، فتقوم الحجّة على المعاندين. ﴿و﴾ ليكون ﴿ذكرى للمؤمنين﴾ كما قال تعالى: ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ يتذكرون به الصراط المستقيم، وأعماله الظاهرة والباطنة، وما يحول بين العبد وبين سلوكه.

ثم خاطب الله العباد، وألفتهم إلى الكتاب فقال: ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم﴾ أي: الكتاب الذي أريد إنزاله لأجلكم، وهو ﴿من ربكم﴾ الذي يريد أن يتم تربيته لكم، فأنزل عليكم هذا الكتاب الذي، إن اتبعتموه كملت تربيتكم، وقمت عليكم النعمة، وهديتم لأحسن الأعمال والأخلاق ومعاليها ﴿ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾ أي: تتولونهم وتتبعون أهواءهم، وتتركون لأجلها الحق.

﴿قليلاً ما تذكرون﴾ فلو تذكروتم وعرفتم المصلحة، لما أترتم الضار على النافع، والعدو على الولي.

ثم حذرهم عقوباته للأمم الذين كذبوا ما جاءهم به رسلهم، لئلا يشابهوهم (٢) فقال: ﴿وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا﴾ أي: عذابنا الشديد ﴿بياتاً أو هم قائلون﴾ أي: في

حين غفلتهم، وعلى غرتهم غافلون، لم يحظر الهلاك على قلوبهم. فحين جاءهم العذاب لم يدفعوه عن أنفسهم، ولا أغتت عنهم آلتهم التي كانوا يبرجونهم، ولا أنكروا ما كانوا يفعلونه من الظلم والمعاصي.

﴿فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾ كما قال تعالى: ﴿وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين﴾ فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون ﴿لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترقتم فيه مساكنكم لعلمكم تسألون﴾ قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴿فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين﴾.

وقوله: ﴿فلنسالن الذين أرسل إليهم﴾ أي: لنسالن الأمم الذين أرسل الله إليهم المرسلين، عما أجابوا به رسلهم ﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبت المرسلين﴾ الآيات.

﴿ولنسالن المرسلين﴾ عن تبليغهم لرسالات ربهم، وعما أجابتهم به أعمهم.

﴿فلنقصن عليهم﴾ أي: على الخلق كلهم ما عملوا ﴿بعلم﴾ منه تعالى لأعمالهم ﴿وما كنا غائبين﴾ في وقت من الأوقات، كما قال تعالى: ﴿أحصاه الله ونسوه﴾ وقال تعالى: ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين﴾.

﴿٨ - ٩﴾ ثم ذكر الجزاء على الأعمال، فقال: ﴿والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون﴾ ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴿أي: والوزن يوم القيامة يكون بالعدل والقياس، الذي لا جور

(١) زيادة من ب، وقد جاء بعدها قول الناسخ: (وكان الفراغ من كتابته في يوم الجمعة الموافق خمس وعشرين من جمادى الآخرة، سنة ١٣٤٥هـ، بقلم الفقير إلى ربه المنان: علي الحسن العلي الحسن البريكاني، وقد نسخته على نسخة المؤلف غفر الله له وأثابه على ذلك الثواب الجزيل، وجزاه الله عتاً وعن جميع المسلمين أفضل الجزاء في دار الجزاء، وأدخله الله برحمته فسيح الجنان، ووقانا وإياه عذاب النيران بفضلته وكرمه، إنه قريب مجيب، وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين آمين ثم آمين يا رب العالمين).

(٢) في ب: فلا يشابهوهم.

فيه ولا ظلم بروجه. ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ بأن رجحت كفة حسناته على سيئاته ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ أي: الساجدون من المكروه، المدركون للمحبوب الذين حصل لهم الريح العظيم، والسعادة الدائمة.

﴿ومن خفت موازينه﴾ بأن رجحت سيئاته، وصار الحكم لها، ﴿فأولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ إذ فاتهم التميم المقيم، وحصل لهم العذاب الأليم ﴿بما كانوا بأيامنا يظلمون﴾ فلم يتقادروا لها كما يجب عليهم ذلك.

﴿١٠﴾ ﴿ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معاش قليلاً ما تشكرون﴾ يقول تعالى عمثاً على عباده بذكر المسكن والمعيشة: ﴿ولقد مكناكم في الأرض﴾ أي: هيأناها لكم، بحيث تتمكنون من البناء عليها وحرثها، ووجوه الانتفاع بها ﴿وجعلنا لكم فيها معاش﴾ مما يخرج من الأشجار والنبات، ومعادن الأرض، وأنواع الصنائع والتجارات، فإنه هو الذي هيأها وسخر أسبابها.

﴿قليلاً ما تشكرون﴾ الله، الذي أنعم عليكم بأصناف النعم، وصرف عنكم النقم.

﴿١١ - ١٥﴾ ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا﴾ إلا إيليس لم يكن من الساجدين \* قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين \* قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين \* قال أنظرنى إلى يوم يعثون \* قال إنك من المنظرين﴾ يقول تعالى مخاطباً لبني آدم: ﴿ولقد خلقناكم﴾ بخلق أصلكم ومادتك التي منها خرجتم: أبيكم آدم عليه السلام ﴿ثم صورناكم﴾ في أحسن صورة وأحسن تقويم، وعلمه الله تعالى ما به تكمل صورته الباطنة، أسماء كل شيء.

ثم أمر الملائكة الكرام أن يسجدوا لآدم، إكراماً واحتراماً، وإظهاراً

﴿١٠﴾ ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا﴾ إلا إيليس لم يكن من الساجدين \* قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين \* قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين \* قال أنظرنى إلى يوم يعثون \* قال إنك من المنظرين﴾ يقول تعالى مخاطباً لبني آدم: ﴿ولقد خلقناكم﴾ بخلق أصلكم ومادتك التي منها خرجتم: أبيكم آدم عليه السلام ﴿ثم صورناكم﴾ في أحسن صورة وأحسن تقويم، وعلمه الله تعالى ما به تكمل صورته الباطنة، أسماء كل شيء.

وأشرفهم.

﴿فاخرج إنك من الصاغرين﴾ أي: الهانئين الأذلين، جزاء على كبره وعجبه بالإهانة والذل.

فلما أعلن عدو الله بعدارة الله، وعداوة آدم وذريته، سأل الله النظرة والإمهال إلى يوم البعث، ليتمكن من إغواء ما يقدر عليه من بني آدم، ولما كانت حكمة الله مقتضية لابتلاء العباد واختبارهم، ليثبت الصادق من الكاذب، ومن يطيعه ممن يطيع عدوه، أجابه لما سأل، فقال: ﴿إنك من المنظرين﴾.

﴿١٦ - ١٧﴾ ﴿قال فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ ثم لا تيناهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولا نجد أكثرهم شاكركين﴾ أي: قال إيليس - لما أبلس وأبس من رحمة الله - ﴿فبما أغويتني لأقعدن لهم﴾ أي: للخلق ﴿صراطك المستقيم﴾ أي: لالزم من الصراط ولأسمى غاية جهدي على صد الناس عنه وعدم سلوكهم إياه.

﴿ثم لا تيناهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم﴾ أي: من جميع الجهات والجوانب، ومن كل طريق يتمكن فيه من إدراك بعض مقصوده فيهم.

ومنها: أن قوله: ﴿أنا خير منه﴾ بمجرد ما كافي لنقص إيليس الخيبيث. فإنه برهن على نقصه بإعجابه بنفسه وتكبره، والقول على الله بلا علم. وأي: نقص أعظم من هذا!!!

ومنها: أنه كذب في تفصيل مادة النار على مادة الطين والتراب، فإن مادة الطين فيها الخشوع والسكون والرزانة، ومنها تظهر بركات الأرض من الأشجار وأنواع النبات، على اختلاف أجناسه وأنواعه، وأما النار ففيها الحفة والطيش والإحراق.

ولهذا لما جرى من إيليس ما جرى، انحط من مرتبته العالية إلى أسفل السافلين، فقال الله له: ﴿فاهبط منها﴾ أي: من الجنة ﴿فما يكون لك أن تتكبر فيها﴾ لأنها دار الطيبين الطاهرين، فلا تليق بأخيخ خلق الله

عوراتهما، ولما ظهرت عوراتهما خجلا وجعلا يخصفان على عوراتهما من أوراق شجر الجنة، ليستترا بذلك. ﴿وناداهما ربهما﴾ وهما بتلك الحال موبخاً ومعاتباً: ﴿ألم أنهما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين﴾ فلم اقترفتما النهي، وأطعتما عدوكما؟ فحيثذا من الله عليهما بالتوبة وقبولها، فاعترفا بالذنب، وسألا من الله مغفرته فقالا: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ أي: قد فعلنا الذنب، الذي نبتنا عنه، وضرينا أنفسنا باقتراف الذنب، وقد فعلنا سبب الخسار إن لم تغفر لنا، بمحو أثر الذنب وعقوبته، وترحمنا بقبول التوبة والمعافاة من أمثال هذه الخطايا. فغفر الله لهما ذلك ﴿وعصى آدم ربه فصرى. ثم اجتبه ربه فتاب عليه وهدى﴾.

هذا وإبليس مستمر على طغيانه، غير مقلع من عصيانه، فمن أشبه آدم بالاعتراف وسؤال المغفرة والندم والإقلاع - إذا صدرت منه الذنوب - اجتبه الله وهداه.

ومن أشبه إبليس - إذا صدر منه الذنب، لا يزال يزداد من المعاصي - فإنه لا يزداد من الله إلا بعداً.

﴿٢٥ - ٢٦﴾ ﴿قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون﴾ أي: لما أهبط الله آدم وزوجته وذريتهما إلى الأرض، أخبرها بحال إقامتهم فيها، وأنه جعل لهم فيها حياة يتلوهما الموت، مشحونة بالامتحان والابتلاء، وأنهم لا يزالون فيها، يرسل إليهم رسله، ويتزل عليهم كتبه، حتى يأتيهم الموت، فيدفنون فيها، ثم إذا استكملوا بعثهم الله وأخرجهم منها إلى الدار التي هي الدار حقيقة، التي هي دار المقامة.

ثم امتن عليهم بما يسر لهم من اللباس الضروري، واللباس الذي

﴿١٩ - ٢٢﴾ ﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ فوسوس لهما الشيطان ليصدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين \* وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين \* فدلها بغير ورر فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين \* قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ أي:

أمر الله تعالى آدم وزوجته حواء، التي أنعم الله بها عليه ليسكن إليها، أن يأكلا من الجنة حيث شاءا، ويتمتعا فيها بما أرادا، إلا أنه عين لهما شجرة، ونهاهما عن أكلها، والله أعلم ما هي، وليس في تعيينها فائدة لنا. وحزم عليهما أكلها، بدليل قوله: ﴿فتكونا من الظالمين﴾ فلم يزالا عمتلين لأمر الله، حتى تغلغل إليهما عدوهما إبليس بمكره، فوسوس لهما وسوسة خدعها بها، وموه عليهما وقال: ﴿ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين﴾ أي: من جنس الملائكة ﴿أو تكونا من الخالدين﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾ ومع قوله هذا أقسم لهما بالله ﴿إني لكما لمن الناصحين﴾ أي: من جملة الناصحين حيث قلت لكما ما قلت، فاغتررا بذلك، وغلبت الشهوة في تلك الحال على العقل.

﴿فدلها﴾ أي: نزلها عن ربيتهما العالية، التي هي البعد عن الذنوب والمعاصي إلى التلوث بأوضارها، فأدما على أكلها.

﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما﴾ أي: ظهرت عورة كل منهما بعدما كانت مستورة، فصار العري الباطن من التقوى في هذه الحال أثر في اللباس الظاهر، حتى اتخلع فظهرت



ولما علم الخبيث أنهم ضعفاء قد تغلب الغفلة على كثير منهم، وكان جازماً يبذل مجهوده على إغوائهم، ظن وصدق ظنه فقال: ﴿ولا تحمد أكثرهم شاكرين﴾ فإن القيام بالشكر من سلوك الصراط المستقيم، وهو يريد صدهم عنه، وعدم قيامهم به، قال تعالى: ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾.

وإنما نبهنا الله على ما قال وعزم على فعله، لناخذ منه حذرنا ونستعد لعدونا، ونحترز منه بعلمنا، بالطرق التي يأتي منها، ومداخله التي ينفذ منها، فله تعالى علينا بذلك أكمل نعمة.

﴿١٨﴾ ﴿قال اخرج منها مذموماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين﴾ أي: قال الله لإبليس لما قال ما قال: ﴿اخرج منها﴾ خروج صغار واحتقار، لا خروج إكرام بل ﴿مذموماً﴾ أي: مذموماً ﴿مدحوراً﴾ مبعداً عن الله وعن رحمته وعن كل خير.

﴿لأملأن جهنم﴾ منكم ﴿أجمعين﴾ وهذا قسم منه تعالى أن النار دار العصاة، لا بد أن يملأها من إبليس وأتباعه من الجن والإنس.

ثم حذر آدم شره وفتنه فقال:





بالعدل والإخلاص، وفيه دليل على أن الهداية بفضل الله ومنه، وأن الضلالة بخذلانه للمعبد، إذا تولى - بجهله وظلمه - الشيطان، وتسبب لنفسه بالضلال، وأن من حسب أنه مهتد وهو ضال، أنه لا عذر له، لأنه متمكن من الهدى، وإنما أنه حسانه من ظلمه بترك الطريق الموصل إلى الهدى.

﴿٣١﴾ ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾ يقول تعالى - بعدما أنزل على بني آدم لباساً يوارى سواهم وريشاً: ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ أي: استروا عورتكم عند الصلاة كلها، فرضها ونفلها، فإن سترها زينة للبدن، كما أن كشفها يدع البدن قبيحاً مشوهاً.

ويحتمل أن المراد بالزينة هنا ما فوق ذلك من اللباس التنظيف الحسن، ففي هذا الأمر بستر العورة في الصلاة، وباستعمال التجميل فيها، ونظافة السترة من الأذناس والأنجاس.

ثم قال: ﴿وكلوا واشربوا﴾ أي: بما رزقكم الله من الطيبات ﴿ولا تسرفوا﴾ في ذلك، والإسراف إما أن يكون بالزيادة على القدر الكافي والشرف في المأكولات الذي يضر بالجسم، وإما أن يكون بزيادة الترفه والتثوق في المآكل والمشرب واللباس، وإما بتجاوز

### الحلال إلى الحرام.

﴿إنه لا يحب المسرفين﴾ فإن السرف يبغضه الله، ويضر بدن الإنسان ومعيشته، حتى إنه ربما أدت به الحال إلى أن يعجز عما يجب عليه من النفقات، ففي هذه الآية الكريمة الأمر بتناول الأكل والشرب، والنهي عن تركهما، وعن الإسراف فيهما.

﴿٣٢ - ٣٣﴾ ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعملون﴾ يقول تعالى منكرأ على من تعنت، وحرم ما أحل الله من الطيبات ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده﴾ من أنواع اللباس على اختلاف أصنافه، والطيبات من الرزق، من مأكول ومشرب بجميع أنواعه، أي: من هذا الذي يقدم على تحريم ما أنعم الله بها على العباد، ومن ذا الذي يضيق عليهم ما وسعه الله!!

وهذا التوسيع من الله لعباده بالطيبات، جعله لهم ليستعينوا به على عبادته، فلم يحه إلا لعباده المؤمنين، ولهذا قال: ﴿قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾ أي: لا تبة عليهم فيها.

ومفهوم الآية أن من لم يؤمن بالله، بل استعان بها على معاصيه، فلنأ غير خالصة له ولا مباحة، بل يعاقب عليها وعلى التمتع بها، ويسأل عن التمتع يوم القيامة.

﴿كذلك نفصل الآيات﴾ أي: نوضحها ونبينها ﴿لقوم يعلمون﴾ لأنهم الذين ينتفمون بما فصله الله من الآيات، ويعلمون أنها من عند الله، فيعملونها ويفهمونها.

ثم ذكر المحرمات التي حرمها الله في كل شريعة من الشرائع فقال: ﴿قل إنما حرم ربى الفواحش﴾ أي: الذنوب

الكبار التي تستفحش وتستفحج لشناعتها وقبحها، وذلك كالزنا واللواط ونحوهما.

وقوله: ﴿ما ظهر منها وما بطن﴾ أي: الفواحش التي تتعلق بحركات البدن، والتي تتعلق بحركات القلوب، كالكبر والمعجب والرياء والنفاق، ونحو ذلك، ﴿والإثم والبغى بغير الحق﴾ أي: الذنوب التي تؤثم وتوجب العقوبة في حقوق الله، والبغى على الناس في دمايتهم وأموالهم وأعراضهم، فدخل في هذا الذنوب المتعلقة بحق الله، والمتعلقة بحق العباد.

﴿وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾ أي: حجة، بل أنزل الحجة والبرهان على التوحيد. والشرك هو أن يشرك مع الله في عبادته أحد من الخلق، وربما دخل في هذا الشرك الأصغر كالرياء، والحلف بغير الله، ونحو ذلك.

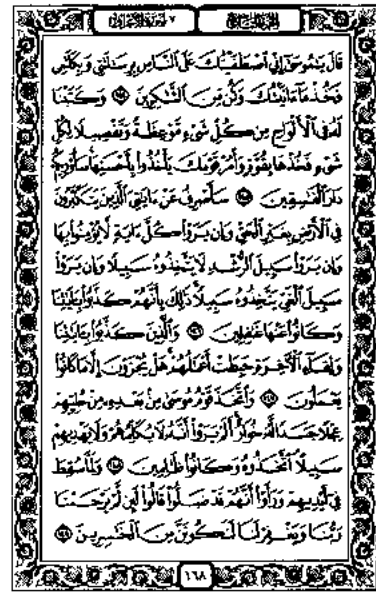
﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه، فكل هذه قد حرمها الله، ونهى العباد عن تعاطيها، لما فيها من المفاسد الخاصة والعامة، ولما فيها من الظلم والتجري على الله، والاستطالة على عباد الله، وتغيير دين الله وشرعه.

﴿٣٤﴾ ﴿ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ أي: وقد أخرج الله بني آدم إلى الأرض، وأسكنهم فيها، وجعل لهم أجلاً مسمى لا تتقدم أمة من الأمم على وقتها المسمى، ولا تتأخر، لا الأمم المجتمعة ولا أفرادها.

﴿٣٥ - ٣٦﴾ ﴿يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ لما أخرج الله بني آدم من الجنة، ابتلاهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب عليهم يقصون عليهم آيات الله ويبينون لهم







ومأواه النار» وقال هنا ﴿وكذلك نجزي المجرمين﴾ أي: الذين كثر إجرامهم واشتد طغيانهم.

﴿لهم من جهنم مهاد﴾ أي: فراش من تحتهم ﴿ومن فوقهم غواش﴾ أي: ظلل من العذاب، تغشاهم. ﴿وكذلك نجزي الظالمين﴾ لأنفسهم، جزاء وفاقا، وما ربك بظلام للعبيد.

﴿٤٢ - ٤٣﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفساً إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴿لما ذكر الله تعالى عقاب العاصين الظالمين، ذكر ثواب المطيعين فقال: ﴿والذين آمنوا﴾ بقلوبهم ﴿وعملوا الصالحات﴾ بجوارحهم، فجمعوا بين الإيمان والعمل، بين الأعمال الظاهرة والأعمال الباطنة، بين فعل الواجبات وترك المحرمات، ولما كان قوله: ﴿وعملوا الصالحات﴾ لفظاً عاماً يشمل جميع الصالحات الواجبة والمستحبة، وقد يكون بعضها غير مقدور للعبد، قال تعالى: ﴿لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾ أي: بمقدار ما تسعه طاقتها، ولا يعسر على قدرتها، فعليها في هذه

الحال أن تقضي الله بحسب استطاعتها، وإذا عجزت عن بعض الواجبات التي يقدر عليها غيرها سقطت عنها، كما قال تعالى: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ ﴿لا يكلف الله نفساً إلا ما

آتاها﴾ ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ فلا واجب مع العجز، ولا محرم مع الضرورة.

﴿أولئك﴾ أي: المتصفون بالإيمان والعمل الصالح ﴿أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ أي: لا يحولون عنها ولا يبغون بها بدلاً، لأنهم يرون فيها من أنواع اللذات وأصناف المشتهيات ما تقف عنده الغايات، ولا يطلب أعلى

منه. ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ وهذا من كرمه وإحسانه على أهل الجنة، أن الغل الذي كان موجوداً في قلوبهم، والتنافس الذي بينهم، أن الله يقلعه ويزيله حتى يكونوا إخواناً متحابين، وأخلاء متصافين.

قال تعالى: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سمر متقابلين﴾ ويخلق الله لهم من الكرامة ما به يحصل لكل واحد منهم الغبطة والسرور، ويرى أنه لا فوق ما هو فيه من النعيم نعيم، فهذا يأمنون من التحاسد والتباغض، لأنه قد فقدت أسبابه.

وقوله: ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ أي: ينجرونها تفجيراً، حيث شاؤوا، وأيسن أرادوا، إن شاءوا في خلال القصور، أو في تلك الغرف العاليات، أو في رياض الجنات، من تحت تلك الحدائق الزاهرات أنهار تجري في غير أخدود، وخيرات ليس لها حد محدود ﴿و﴾ لهذا لما رأوا ما أنعم الله عليهم وأكرمهم به ﴿قالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾ بأن من علينا وأوحى إلى قلوبنا، فأمنت به، وانقادت للأعمال الموصلة إلى هذه الدار، وحفظ الله علينا إيماننا وأعمالنا، حتى أوصلنا بها إلى هذه الدار، فنعم الرب الكريم، الذي ابتدأنا بالنعيم، وأسدى من النعم

الظاهرة والباطنة ما لا يحصى المحصور، ولا يعده العادون، ﴿وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾ أي: ليس في نفوسنا قابلية للهدى، لولا أنه تعالى من بهدياته واتباع رسله.

﴿لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ أي: حين كانوا يتمتعون بالنعيم الذي أخبرت به الرسل، وصار حق يقين لهم بعد أن كان علم يقين لهم، لقد تحققنا، ورأينا ما وعدتنا به الرسل، وأن جميع ما جازوا به حق اليقين، لا مرة فيه ولا إشكال، ﴿ونودوا﴾ تهنئة لهم وإكراماً، وتحية واحتراماً، ﴿أن تلکم الجنة أورثتموها﴾ أي: كنتم الوارثين لها، وصارت إقطاعاً لكم، إذ كان إقطاع الكفار النار، أورثتموها ﴿بما كنتم تعملون﴾.

قال بعض السلف: أهل الجنة نجوا من النار بعفو الله، وأدخلوا الجنة برحمة الله، واقتسموا المنازل وورثوها بالأعمال الصالحة، وهي من رحمته، بل من أعلى أنواع رحمته.

﴿٤٤ - ٤٥﴾ ﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين﴾ الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون ﴿يقول تعالى لما ذكر استفرار كل من الفريقين في الدارين، ووجدوا ما أخبرت به الرسل ونطقت به الكتب، من الشواب والعقاب، أن أهل الجنة نادوا أصحاب النار بأن قالوا: ﴿أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً﴾ حين وعدنا على الإيمان والعمل الصالح الجنة، فأدخلناها، وأرانا ما وصفه لنا ﴿فهل وجدتم ما وعد ربكم﴾ على الكفر والمعاصي ﴿حقاً قالوا نعم﴾ قد وجدناه حقاً، فتبين للمخلق كلهم، بياناً لا شك فيه، صدق وعد الله، ومن أصدق من الله قبلاً، وذهبت عنهم الشكوك والشبه، وصار الأمر حق اليقين، وفرح المؤمنون بوعد الله واغتبطوا، وأيس الكفار من الخير، وأقروا على

أنفسهم بأنهم مستحقون للعذاب .

﴿فَأَنْتُمْ مُؤَذَّنُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي : بين أهل النار وأهل الجنة ، بأن قال ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ أي : بعده وإقصاؤه عن كل خير ﴿عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ إذ فتح الله لهم أبواب رحمته ، فصدفوا أنفسهم عنها ظلماً ، وصددوا عن سبيل الله بأنفسهم ، وصددوا غيرهم ، فضلوا وأضلوا .

والله تعالى يريد أن تكون مستقيمة ، ويعتدل سير السالكين إليه ، ﴿و﴾ هؤلاء يريدونها ﴿عُوجًا﴾ منحرفة صادة عن سواء السبيل ، ﴿وهم بالآخرة كافرون﴾ وهذا الذي أوجب لهم الانحراف عن الصراط ، والإقبال على شهوات النفوس المحرمة ، عدم إيمانهم بالبعث ، وعدم خوفهم من العقاب ورجائهم للثواب ، ومفهوم هذا النداء أن رحمة الله على المؤمنين ويره شامل لهم ، وإحسانه متواتر عليهم .

﴿٤٦ - ٤٩﴾ ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهَمَّ يَضْمَعُونَ﴾ وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا نجعلنا مع القوم الظالمين \* ونادى أصحاب الأعراف رجلاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون \* أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة أدخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون \* أي : وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار حجاب يقال له : ﴿الأعراف﴾ لا من الجنة ولا من النار ، يشرف على الدارين ، وينظر من عليه حال الفريقين ، وعلى هذا الحجاب رجال يعرفون كلًّا من أهل الجنة والنار بسيماهم ، أي : علاماتهم ، التي بها يعرفون ويميزون ، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوهم ﴿أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي : لا يدخلوا الجنة ، ولكنهم

يطعمون في دخولها ، ولم يجعل الله الطمع في قلوبهم إلا لما يريد بهم من كرامته .

﴿وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار﴾ ورأوا منظرًا شنيعاً ، وهولاً فظيماً ﴿قالوا ربنا لا نجعلنا مع القوم الظالمين﴾ فأهل الجنة [إذا رأهم أهل الأعراف] ﴿يطعمون أن يكونوا معهم في الجنة ، ويحيونهم ويسلمون عليهم ، وعند انصراف أبصارهم بغير اختيارهم لأهل النار ، يستجيرون بالله من حالهم هذا على وجه العموم .

ثم ذكر الخصوص بعد العموم فقال : ﴿ونادى أصحاب الأعراف رجلاً يعرفونهم بسيماهم﴾ وهم من أهل النار ، وقد كانوا في الدنيا لهم أبهة وشرف ، وأموال وأولاد ، فقال لهم أصحاب الأعراف ، حين رأوهم منفردين في العذاب ، بلا ناصر ولا معيذ : ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ في الدنيا ، الذي تستدفعون به المكاره ، وتتوسلون به إلى مطالبكم في الدنيا ، فالיום اضمحل ، ولا أغنى عنكم شيئاً ، وكذلك ، أي شيء نفعكم استكباركم على الحق وعلى من جاء به وعلى من اتبعه ، ثم أشاروا لهم إلى أناس من أهل الجنة كانوا في الدنيا فقراء ضعفاء يستهزئ بهم أهل النار ، فقالوا لأهل النار : ﴿أهؤلاء﴾ الذين أدخلهم الله الجنة ﴿الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة﴾ احتقاراً لهم وازدراء وإعجاباً بأنفسكم ، قد حنثتم في إيمانكم ، وبدل لكم من الله ما لم يكن لكم في حساب ، ﴿ادخلوا الجنة﴾ بما كنتم تعملون ، أي : قيل لهؤلاء الضعفاء إكراماً واحتراماً أدخلوا الجنة بأعمالكم الصالحة ﴿لا خوف عليكم﴾ فيما يستقبل من المكاره ﴿ولا أنتم تحزنون﴾ على ما مضى ، بل آمنون مطمئنون فرحون بكل خير .

وهذا كقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ وإذا مروا بهم يتغامزون

إلى أن قال : ﴿فالיום الذين آمنوا من الكفار يضحكون﴾ على الأرائك ينظرون﴾ واختلف أهل العلم والمفسرون ، من هم أصحاب الأعراف ، وما أعمالهم ؟

والصحيح في ذلك ، أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، فلا رجحت سيئاتهم فدخلوا النار ، ولا رجحت حسناتهم فدخلوا الجنة ، فصاروا في الأعراف ما شاء الله ، ثم إن الله تعالى يدخلهم برحمته الجنة ، فإن رحمته تسبق وتغلب غضبه ، ورحمته وسعت كل شيء .

﴿٥٠ - ٥٣﴾ ﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين﴾ الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرزه الحياة الدنيا فالיום ننسأهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يمحذون \* ولقد جئناهم بكتاب فضلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون \* هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسلنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون \* أي : ينادى أصحاب النار أصحاب الجنة ، حين يبلغ منهم العذاب كل مبلغ ، وحين يحسهم الجوع المفرط والظما الموجه ، يستغيثون بهم ، فيقولون : ﴿أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله﴾ من الطعام ، فأجابهم أهل الجنة بقولهم : ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا﴾ أي : ماء الجنة وطعامها ﴿على الكافرين﴾ وذلك جزاء لهم على كفرهم بآيات الله ، واتخاذهم دينهم الذي أمروا أن يستقيموا عليه ، ووعدوا بالجزاء الجزيل عليه .

﴿لهواً ولعباً﴾ أي : لهت قلوبهم وأعرضت عنه ، ولعبوا واتخذوه سخرياً ، أو أنهم جعلوا بدل دينهم اللهو واللعب ، واستعاضوا بذلك عن

الدين القيم .

﴿وعزتهم الحياة الدنيا﴾ بزينتها وزخرفها وكثرة دعواتها، فاطمأنوا إليها ورضوا بها وفرحوا، وأعرضوا عن الآخرة ونسوها .

﴿فاليوم نساهم﴾ أي : نتركهم في العذاب ﴿كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ فكأنهم لم يخلقوا إلا للدنيا، وليس أمامهم عرض ولا جزاء .

﴿وما كانوا بآياتنا يمحذون﴾ والحال أن جحودهم هذا لا عن قصور في آيات الله وبيناته، بل قد ﴿جنناهم﴾ بكتاب فصلناه ﴿أي : بينا فيه جميع المطالب التي يحتاج إليها الخلق﴾ على علم ﴿من الله بأحوال العباد في كل زمان ومكان، وما يصلح لهم وما لا يصلح، ليس تفصيله تفصيل غير عام بالأمر، فتجهله بعض الأحوال، فيحكم حكماً غير مناسب، بل تفصيل من أحاط علمه بكل شيء، ووسعت رحمته كل شيء .

﴿هدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ أي : تحصل للمؤمنين بهذا الكتاب الهداية من الضلال، وبيان الحق والباطل، والغي والرشد، ويحصل أيضاً لهم به الرحمة، وهي : الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، فينتفي عنهم بذلك الضلال والشقاء .

وهؤلاء الذين حق عليهم العذاب، لم يؤمنوا بهذا الكتاب العظيم، ولا اتقادوا لأوامره ونواهيه، فلم يبق فيهم حيلة إلا استحقاقهم أن يحل بهم ما أخبر به القرآن .

ولهذا قال : ﴿هل ينظرون إلا تأويله﴾ أي : وقوع ما أخبر به، كما قال يوسف عليه السلام حين وقعت رؤياه : ﴿هذا تأويل رؤيائي من قبل﴾ .

﴿يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل﴾ متندمين متأسفين على ما مضى منهم، متشفعين في مغفرة ذنوبهم . مقرين بما أخبرت به الرسل : ﴿قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد﴾ إلى الدنيا ﴿فنعمل غير الذي كنا نعمل﴾ وقد فات الوقت عن الرجوع إلى الدنيا .

﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ .

وسؤالهم الرجوع إلى الدنيا، ليعملوا غير عملهم كذب منهم، مقصودهم به دفع ما حل بهم، قال تعالى : ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ .

﴿قد خسروا أنفسهم﴾ حين فوتوا الأرباح، وسلكوا بها سبيل الهلاك، وليس ذلك كخسران الأموال والأثاث أو الأولاد، إنما هذا خسران لا جبران لمصابه، ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ في الدنيا مما تمنيهم أنفسهم به، ويعددهم به الشيطان، قدموا على ما لم يكن لهم في حساب، وتبين لهم باطلهم وضلالهم، وصدق ما جاءتهم به الرسل .

﴿٥٤﴾ ﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغطي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾ يقول تعالى مبيئاً أنه الرب المعبود وحده لا شريك له : ﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض﴾ وما فيهما على عظمهما وسعتهما، وإحكامهما وإتقانها، وبديع خلقهما .

﴿في ستة أيام﴾ أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، فلما قضاها وأودع فيهما من أمره ما أودع ﴿استوى﴾ تبارك وتعالى ﴿على العرش﴾ العظيم الذي يسع السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، استوى استواء يليق بجلاله وعظمته وسلطانه، فاستوى على العرش، واحتوى على الملك، ودبر الممالك، وأجرى عليهم أحكامه الكونية، وأحكامه الدينية، ولهذا قال : ﴿يغشي الليل المظلم﴾ النهار ﴿المضيء﴾، فيظلم ما على وجه الأرض، ويسكن الأمميون، وتأوي المخلوقات إلى مساكنها، ويستريحون من التعب والذهاب والإياب الذي حصل لهم في النهار .

﴿يطلبه حثيثاً﴾ كلما جاء الليل ذهب النهار، وكلما جاء النهار ذهب

الليل، وهكذا أبداً على الدوام، حتى يطوي الله هذا العالم، وينقل العباد إلى دار غير هذه الدار .

﴿والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره﴾ أي : بتسخيره وتدييره، الدال على ماله من أوصاف الكمال، فخلقها وعظمها دال على كمال قدرته، وما فيها من الأحكام والانتظام والإتقان دال على كمال حكمته، وما فيها من المنافع والمصالح الضرورية وما دونها دال على سعة رحمته وذلك دال على سعة علمه، وأنه الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له .

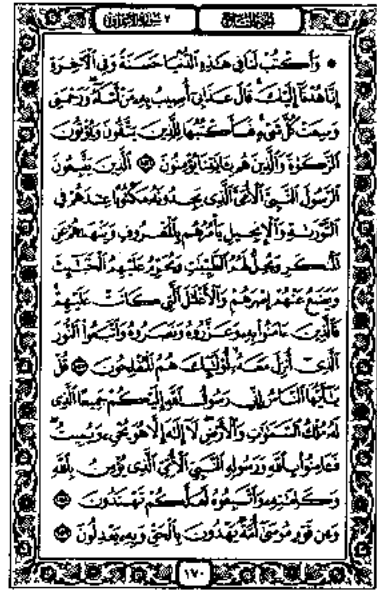
﴿ألا له الخلق والأمر﴾ أي : له الخلق الذي صدرت عنه جميع المخلوقات علويها وسفليها، أعينها وأوصافها وأفعالها، والأمر المتضمن للشرائع والنبوات، فالخلق : يتضمن أحكامه الكونية القدرية، والأمر : يتضمن أحكامه الدينية الشرعية، وثم أحكام الجزاء، وذلك يكون في دار البقاء، ﴿تبارك الله﴾ أي : عظم وتعالى وكثر خيره وإحسانه، فتبارك في نفسه لعظمة أوصافه وكمالها، وبارك في غيره بإحلال الخير الجزيل والبر الكثير، فكل بركة في الكون، فمن آثار رحمته، ولهذا قال : ﴿تبارك الله رب العالمين﴾ .

ولما ذكر من عظمته وجلاله ما يدل ذوي الأبواب على أنه وحده، المعبود المقصود في الخواتج كلها، أمر بما يترتب على ذلك، فقال :

﴿٥٥ - ٥٦﴾ ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين﴾ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمئناً إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴿الدعاء يدخل فيه دعاء المسألة، ودعاء العبادة، فأمر بدعائه﴾ تضرعاً ﴿أي : إلحاحاً في المسألة، ودؤوباً في العبادة﴾ وخفية ﴿أي : لا جهراً وعلانية يخاف منها الرياء، بل خفية وإخلاصاً لله تعالى﴾ .

﴿إنه لا يحب المعتدين﴾ أي : المتجاوزين للحد في كل الأمور، ومن الاعتداء كون العبد يسأل الله مسائل





ومعتقد واحد، فقال عن نوح - أول المرسلين - ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ يدعوهم إلى عبادة الله وحده، حين كانوا يعبدون الأوثان ﴿فقال﴾ لهم: ﴿يا قوم اعبدوا الله﴾ أي: وحده ﴿مالكم من إله غيره﴾ لأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، وما سواه مخلوق مدبر، ليس له من الأمر شيء، ثم خوفهم إن لم يطعوه عذاب الله، فقال: ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ وهذا من نصحه عليه الصلاة والسلام وشفقته عليهم، حيث خاف عليهم العذاب الأبدي، والشفاء السرمدي، كإخوانه من المرسلين الذين يشفقون على الخلق أعظم من شفقة آبائهم وأمهاتهم، فلما قال لهم هذه المقالة، ردوا عليه أتبع رد.

﴿٦٠﴾ قال الملا من قومه ﴿أي: الرؤساء الأغنياء التبعون الذين قد جرت العادة باستكبارهم على الحق، وعدم انقيادهم للرسول﴾، ﴿إنا لنراك في ضلال مبين﴾ فلم يفهمهم - فبهجهم الله - أنهم لم ينقادوا له، بل استكبروا عن الانقياد له، وقدحوا فيه أعظم قدح، ونسبوه إلى الضلال، ولم يكتفوا بمجرد الضلال حتى جعلوه ضلالاً مبيئاً، واضحاً لكل أحد. وهذا من أعظم أنواع التكابرة، التي

لا تروج على أضعف الناس عقلاً، وإنما هذا الوصف منطبق على قوم نوح، الذين جاؤوا إلى أصنام قد صوروها ونحتوها بأيديهم، من الجمادات التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تغني عنهم شيئاً، فنزلوها منزلة فاطر السموات، وصرفوا لها ما أمكنهم من أنواع القربات، فلولا أن لهم أذهاناً تقوم بها حجة الله عليهم لحكم عليهم بأن المجاتين أهدى منهم، بل هم أهدى منهم وأعقل، فرد نوح عليهم رداً لطيفاً، وترقق لهم لعلمهم ينقادون له فقال: ﴿يا قوم ليس بي ضلالة﴾ أي: لست ضالاً في مسألة من المسائل بوجه من الوجوه، وإنما أنا هاد مهتد، بل هدايته عليه الصلاة والسلام من جنس هداية إخوانه أولي العزم من المرسلين، أعلى أنواع الهدايات وأكملها وأتمها، وهي هداية الرسالة التامة الكاملة، ولهذا قال: ﴿ولكني رسول من رب العالمين﴾ أي: ربي وربكم ورب جميع الخلق، الذي ربي جميع الخلق بأنواع التربية، الذي من أعظم تربيته أن أرسل إلى عباده رسلاً تأمرهم بالأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والعقائد الحسنة وتنهاهم عن أضدادها، ولهذا قال: ﴿أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم﴾ أي: وظيفتي تليفيكم، ببيان توحيد وأوامره ونواهيه، على وجه النصيحة لكم والشفقة عليكم، ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ فالذي يتعين أن تطيعوني وتنقادوا لأمري إن كنتم تعلمون، ﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم﴾ أي: كيف تعجبون من حالة لا ينبغي العجب منها، وهو أنه جاءكم التذكير والموعظة والنصيحة، على يد رجل منكم، تعرفون حقيقته وصدقه وحاله!!!

فهذه الحال من عناية الله بكم وبره وإحسانه الذي يتلقى بالقبول والشكر، وقوله: ﴿لينذركم ولتنتقوا، ولعلكم ترحون﴾ أي: لينذركم العذاب

الأيام، وتفعلوا الأسباب المنجية من استعمال تقوى الله ظاهراً وباطناً، وبذلك تحصل عليهم وتنزل رحمة الله الواسعة، فلم يفد فيهم، ولا نجح ﴿فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك﴾ أي: السفينة التي أمر الله نوحاً عليه الصلاة والسلام بصنعها، وأوحى إليه أن يجعل من كل صنف من الحيوانات، زوجين اثنين وأهله ومن آمن معه، فحملهم فيها ونجاهم الله بها.

﴿واغرقتنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمن﴾ عن الهدى، أبصروا الحق، وأراهم الله - على يد نوح - من الآيات البينات، ما بهم يؤمن أولوا الألباب، فسخرها منه، واستهزؤا به وكفروا.

﴿٦٥ - ٧٢﴾ ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً﴾ إلى آخر القصة<sup>(١)</sup>. أي: ﴿ور﴾ أرسلنا ﴿إلى عاد﴾ الأولى، الذين كانوا في أرض اليمن ﴿أخاهم﴾ في النسب ﴿هوداً﴾ عليه السلام، يدعوهم إلى التوحيد وينهاهم عن الشرك والظن في الأرض.

ذ ﴿قال﴾ لهم: ﴿يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون﴾ سخطه وعذابه، إن أقمتم على ما أنتم عليه، فلم يستجيبوا ولا انقادوا.

ذ ﴿قال الملا الذين كفروا من قومه﴾ وادين لدعوته، فادحين في رأيه: ﴿إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين﴾ أي: ما نراك إلا سفيهاً غير رشيد، ويغلب على ظننا أنك من جملة الكاذبين، وقد انقلبت عليهم الحقيقة، واستحكمت عمامهم حيث رموا نبيهم عليه السلام بما هم متصفون به، وهو أبعد الناس عنه، فإنيهم السفهاء حقاً الكاذبون.

وأي سفة أعظم ممن قابل أحق الحق بالرد والإنكار، وتكبر عن الانقياد للمرشدين والنصحاء، وانقاد قلبه وقاله لكل شيطان مريد، ووضع العبادة في غير موضعها، فعبد من



وحرصت على هدايتكم، واجتهدت في سلوككم الصراط المستقيم والدين القويم. ﴿ولكن لا تحبون الناصحين﴾ بل رددتم قول النصحاء، وأطعتم كل شيطان رجيم.

واعلم أن كثيراً من المفسرين يذكرون في هذه القصة أن الناقة قد خرجت من صخرة صماء ملساء اقترحوها على صالح، وأنها تمخضت تمخض الحامل، فخرجت الناقة وهم ينظرون، وأن لها فصيصاً حين عقروها، رعى ثلاث رغبات، وانفلق له الجبل ودخل فيه، وأن صالحاً عليه السلام قال لهم: آية نزول العذاب بكم، أن تصبحوا في اليوم الأول من الأيام الثلاثة ووجوهكم مصفرة، واليوم الثاني: محمرة، والثالث: مسودة، فكان كما قال.

وكل هذا من الإسرائيليات التي لا ينبغي نقلها في تفسير كتاب الله، وليس في القرآن ما يدل على شيء منها بوجه من الوجوه، بل لو كانت صحيحة لذكرها الله تعالى، لأن فيها من العجائب والعبير والآيات ما لا يهمله تعالى ويذكره، حتى يأتي من طريق من لا يوثق بنقله، بل القرآن يكذب بعض هذه المذكورات، فإن صالحاً قال لهم: ﴿تمتموا في داركم ثلاثة أيام﴾ أي: تمنعوا وتلذذوا بهذا الوقت القصير جداً، فإنه ليس لكم من المتاع واللذة سوى هذا، وأي: لذة وتمتع لن وعدهم نبيهم وقوع العذاب، وذكر لهم وقوع مقدماته، فوعدت يوماً فيوماً على وجه يعمهم ويشملهم [احمرار وجوههم، واصفرارهم واسودادها من العذاب] (١).

هل هذا إلا مناقض للقرآن، ومضاد له؟! فالقرآن فيه الكفاية والهداية عن ما سواه.

نعم لو صح شيء عن رسول الله ﷺ ما لا يناقض كتاب الله، فعلى الرأس والعين، وهو مما أمر القرآن بتابعه ﴿وما أتاكم

أي: نعمه، وما خولكم من الفضل والرزق والقوة، ﴿ولا تعشوا في الأرض مفسدين﴾ أي: لا تخربوا الأرض بالفساد والمعاصي، فإن المعاصي تدع الديار العامرة بلاقع، وقد أخلت ديارهم منهم، وأبقت مساكنهم موحشة بعدهم.

﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه﴾ أي: الرؤساء والأشراف الذين تكبروا عن الحق، ﴿للمذين استضعفوا﴾ ولما كان المستضعفون ليسوا كلهم مؤمنين، قالوا ﴿لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه﴾ أي: أهو صادق أم كاذب؟

فقال المستضعفون: ﴿إنا بما أرسل به مؤمنون﴾ من توحيد الله والخير عنه وأمره ونبيه.

﴿قال الذين استكبروا: إنا بالذي آمنتم به كافرون﴾ حملهم الكبر أن لا ينقادوا للحق الذي انقاد له الضعفاء.

﴿فعقروا الناقة﴾ التي توعدهم إن مسوها بسوء أن يصيبهم عذاب اليم، ﴿وعصوا عن أمر ربهم﴾ أي: قسوا عنه، واستكبروا عن أمره الذي من عنا عنه أذاقه العذاب الشديد. لا جرم أحل الله بهم من النكاح ما لم يحل بغيرهم ﴿وقالوا﴾ مع هذه الأفعال متجرئين على الله، متعجزين له، غير مباليين بما فعلوا، بل مفتخرين بها: ﴿يا صالح اثنا بما تعدنا﴾ إن كنت من الصادقين من العذاب، فقال: ﴿تمتموا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾.

﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ على ركبهم، قد أبدعهم الله، وقطع دابرهم، ﴿فتولى عنهم﴾ صالح عليه السلام حين أحل الله بهم العذاب، ﴿وقال﴾ مخاطباً لهم توبيخاً وعتاباً، بعدما أهلكهم الله: ﴿يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم﴾ أي: جميع ما أرسلني الله به إليكم، قد أبلغتكم به



إلى الله تعالى إضافة تشریف، لكم فيها آية عظيمة. وقد ذكر وجه الآية في قوله: ﴿لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾. وكان عندهم بشر كبيرة، وهي المعروفة بشر الناقة، يتناوبونها هم والناقة، للناقة يوم تشرها ويشربون اللبن من ضرعها، ولهم يوم يردونها، وتصدر الناقة عنهم.

وقال لهم نبيهم صالح عليه السلام: ﴿قدروها تاكل في أرض الله﴾ فلا عليكم من مؤنتها شيء، ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ أي: بعقر أو غيره، ﴿فياخذكم عذاب اليم﴾.

﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء﴾ في الأرض تتمعون بها وتدركون مطالبكم ﴿من بعد عاد﴾ الذين أهلكهم الله، وجعلكم خلفاء من بعدهم، ﴿وبوآدم في الأرض﴾ أي: مكن لكم فيها، وسهل لكم الأسباب الموصلة إلى ما تريدون وتبتغون ﴿تنخلون من سهولها قصوراً﴾ أي: الأراضي السهلة التي ليست بجبال، تنخلون فيها القصور العالية والأبنية الحصينة، وتنتحون الجبال بيوتاً، كما هو مشاهد إلى الآن من أعمالهم التي في الجبال، من المساكن والحجر ونحوها، وهي باقية ما بقيت الجبال، ﴿فاذكروا آلاء الله﴾

سلط عليكم عدواً يبتأحكم ولا فرقكم في الأرض، بل أنعم عليكم باجتماعكم، وإدراج الأرزاق وكثرة النسل.

﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾ فإنكم لا تجدون في جموعهم إلا الشتات، ولا في ربوعهم إلا الوحشة والانبثات ولم يورثوا ذكراً حسناً، بل أتبعوا في هذه الدنيا لعنة، ويوم القيامة أشد خزيًا وقصحة.

﴿وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا وهم الجمهور منهم﴾ فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴿فينصر المحق، ويوقع العقوبة على المبطل.

﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه﴾ وهم الأشراف والكبراء منهم الذين اتبعوا أهواءهم ولهاوا بلذاتهم، فلما أتاهم الحق ورأوه غير موافق لأهوائهم الرديئة، ردوه واستكبروا عنه، فقالوا لئيبهم شعيب ومن معه من المؤمنين المستضعفين: ﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا﴾ استعملوا قوتهم السبعية، في مقابلة الحق، ولم يراعوا ديناً ولا ذمة ولا حقاً، وإنما راعوا واتبوا أهواءهم وعقولهم السفهية التي دلتهم على هذا القول الفاسد، فقالوا: إما أن ترجع أنت ومن معك إلى ديننا أو لنخرجنك من قريتنا.

ف «شعيب» عليه الصلاة والسلام كان يدعوهم طامعاً في إيمانهم، والآن لم يسلم من شرهم، حتى توعده إن لم يتابعهم - بالجللاء عن وطنه، الذي هو ومن معه أحق به منهم.

ف «قال» لهم شعيب عليه الصلاة والسلام متعجباً من قولهم: ﴿أو لو كنا كارهين﴾ أي: أتابعكم على دينكم وملتكم الباطلة، ولو كنا كارهين لها لعلمنا ببطلانها، فإنما يدعى إليها من له نوع رغبة فيها، أما من يعلن بالتهي عنها، والتشنيع على من اتبعها فكيف

﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾ أي: حجارة حارة شديدة، من سجيل، وجعل الله عاليها سافلها، ﴿فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ الهلاك والحزي الدائم.

﴿٨٥-٩٣﴾ ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾... إلى آخر القصة<sup>(٢)</sup> أي: ﴿و﴾ أرسلنا إلى القبيلة المعروفة بمدين أخاهم ﴿في النسب﴾ شعيباً يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويأمرهم بإيفاء المكياك والميزان، وأن لا يبغضوا الناس أشياءهم، وأن لا يفتنوا في الأرض مفسدين، بالأكثار من عمل المعاصي، ولهذا قال: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴿فإن ترك المعاصي امتثالاً لأمر الله وتقرباً إليه خير، وأنفع للعبد من ارتكابها الموجب لسخط الجبار، وعذاب النار.

﴿ولا تقعدوا﴾ للناس ﴿بكل صراط﴾ أي: طريق من الطرق التي يكثر سلوكها، تحذرون الناس منها و «توعدون» من سلوكها و «تصدون» عن سبيل الله ﴿من أراد الاهتداء به و «تيسفوها عوجاً﴾ أي: تبغون سبيل الله تكون موجة، وتميلونها اتباعاً لأهوائكم، وقد كان الواجب عليكم وعلى غيركم الاحترام والتعظيم للسبيل التي نصبها الله لعباده ليسلكوها إلى مرضاته ودار كرامته، ورحمهم بها أعظم رحمة، وتصدون لنصرتها والدعوة إليها، والذب عنها، لا أن تكونوا أنتم قطاع طريقها، الصادين الناس عنها، فإن هذا كفر لنعمة الله ومحادثة الله، وجعل أقوم الطرق وأعدلها مائلة، وتشتمون على من سلكها.

﴿واذكروا﴾ نعمة الله عليكم ﴿إذ كنتم قليلاً فكثركم﴾ أي: نماكم بما أنعم عليكم من الزوجات والنسل، والصحة، وأنه ما ابتلاكم بوباء أو أمراض من الأمراض المقللة لكم، ولا

الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾. وقد تقدم أنه لا يجوز تفسير كتاب الله بالأخبار الإسرائيلية، ولو على تجويز الرواية عنهم بالأمر التي لا يجوز بكذبها، فإن معاني كتاب الله يقينية، وتلك أمور لا تصدق ولا تكذب، فلا يمكن اتفاقهما.

﴿٨٠-٨٤﴾ ﴿ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ إلى آخر القصة<sup>(١)</sup>. أي: ﴿و﴾ اذكر عبدنا ﴿لوطاً﴾ عليه الصلاة والسلام، إذ أرسلناه إلى قومه يأمرهم بعبادة الله وحده، وينهاهم عن الفاحشة التي ما سبقكم بها أحد من العالمين، فقال: ﴿أتأتون الفاحشة﴾ أي: الخصلة التي بلغت - في العظم والشناعة - إلى أن استخرقت أنواع الفحش، ﴿ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ فكونها فاحشة من أشنع الأشياء، وكونهم ابتدعوها وابتكروها، وسنوها لمن بعدهم، من أشنع ما يكون أيضاً.

ثم بيّنها بقوله: ﴿إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾ أي: كيف تذرون النساء اللاتي خلقهن الله لكم، وفيهن المستمتع الموافق للشهوة والبطرة، وتقبلون على أدبار الرجال، التي هي غاية ما يكون في الشناعة والخبيث، محلٌ تخرج منه الأنتان والأخبث، التي يستحى من ذكرها فضلاً عن ملامستها وقربها، ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ أي: متجاوزون لما حده الله متجربون على محارمه.

﴿وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتهم إنهم أناس يتطهرون﴾ أي: يتزهون عن فعل الفاحشة. ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾.

﴿فأنجيناه وأهلكنا أولئك من الغابرين﴾ أي: الباقين المعذبين، أمره الله أن يسري بأهلكه ليلاً، فإن العذاب مصيب قومه فسرى بهم، إلا امرأته أصابها ما أصابهم.

(٢) في ب: أورد الآيات كاملة.

(١) في ب: أورد الآيات كاملة.



يدعى إليها!!

﴿قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها﴾ أي: شهدوا علينا أننا إن عدنا فيها بعدما نجانا الله منها وأنقذنا من شرها، أننا كاذبون مفترون على الله الكذب، فإننا نعلم أنه لا أعظم افتراء ممن جعل الله شريكاً، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يتخذ ولداً ولا صاحبة، ولا شريكاً في الملك.

﴿وما يكون لنا أن نعود فيها﴾ أي: يمتنع على مثلنا أن نعود فيها، فإن هذا من المحال، فأيسهم عليه الصلاة والسلام من كونه يوافقهم من وجوه متعددة، من جهة أنهم كارهون لها مبعوضون لما هم عليه من الشرك. ومن جهة أنه جعل ما هم عليه كذباً، وأشهدهم أنه إن اتبعهم ومن معه فإنهم كاذبون.

ومنها: اعترافهم بمنة الله عليهم إذ أنقذهم الله منها.

ومنها: أن عودهم فيها - بعدما هدام الله - من المحالات، بالنظر إلى حالتهم الراهنة، وما في قلوبهم من تعظيم الله تعالى والاعتراف له بالعبودية، وأنه الإله وحده الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، وأن ألهة المشركين أبطل الباطل، وأعمل المحال.

وحيث إن الله من عليهم بعقول يعرفون بها الحق والباطل، والهدى والضلال.

وأما من حيث النظر إلى مشيئة الله وإرادته النافذة في خلقه، التي لا خروج لأحد عنها، ولو تواترت الأسباب وتوافقت القوى، فإنهم لا يحكمون على أنفسهم أنهم سيفعلون شيئاً أو يتركونه، ولهذا استثنى ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا﴾ أي: فلا يمكننا ولا غيرنا الخروج عن مشيئته التابعة لعلمه وحكمته، وقد ﴿وسع ربنا كل شيء علماً﴾ فيعلم ما يصلح للعباد وما

يدبرهم عليه. ﴿على الله توكلنا﴾ أي: اعتمدنا أنه سيثبتنا على الصراط المستقيم، وأن يعصمنا من جميع طرق الجحيم، فإن من توكل على الله كفاه، ويسر له أمر دينه ودنياه.

﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾ أي: انصر المظلوم وصاحب الحق، على الظالم المعاند للحق ﴿وأنت خير الفاعلين﴾ وفتحته تعال لعباده نوعان: فتح العلم، بتبيين الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ومن هو من المستقيمين على الصراط، ممن هو منحرف عنه.

والنوع الثاني: فتحه بالجزاء وإيقاع العقوبة على الظالمين، والنجاة والإكرام للصلحين، فسألوا الله أن يفتح بينهم وبين قومهم بالحق والعدل، وأن يريهم من آياته وعبره، ما يكون فاصلاً بين الفريقين.

﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ محذرين عن اتباع شعيب، ﴿لئن اتبعت شعيباً إنكم إذا لخاسرون﴾ هذا ما سولت لهم أنفسهم أن الخسارة والشقاء في اتباع الرشد والهدى، ولم يدروا أن الخسارة كل الخسارة في لزوم ما هم عليه من الضلال والأضلال، وقد علموا ذلك حين وقع بهم النكال.

﴿فأخذتهم الرجفة﴾ أي: الزلزلة الشديدة ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ أي: صرعى ميتين هامدين، قال تعالى ناعياً حالهم ﴿الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها﴾ أي: كأنهم ما أقاموا في ديارهم، وكانهم ما تمتعوا في عرصاتها، ولا تفتشوا في ظلالها، ولا غنوا في مسارج أنهارها، ولا أكلوا من ثمار أشجارها، حين فاجأهم العذاب، فنقلهم من مورد اللهو واللعب واللذات، إلى مستقر الحزن والشقاء والعقاب والدركات ولهذا قال: ﴿الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين﴾ أي: الخسار محصور فيهم، لأنهم خسروا دينهم وأنفسهم وأهلهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران

المبين، لا من قالوا لهم: ﴿لئن اتبعت شعيباً إنكم إذا لخاسرون﴾،

فحين هلكوا تولى عنهم نبيهم شعيب عليه الصلاة والسلام ﴿وقال﴾ معاتباً وموبخاً ومخاطباً بعد موعم: ﴿يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي﴾ أي: أرسلتها إليكم، وبينتها حتى بلغت منكم أقصى ما يمكن أن تصل إليه، وخالطت أفئدتكم ﴿ونصحت لكم﴾ فلم تقبلوا نصحي، ولا انقذتم لإرشادي، بل فسقتم وطغيتم.

﴿فكيف آسى على قوم كافرين﴾ أي: فكيف أحزن على قوم لا خير فيهم، أتاهم الخير فردوه ولم يقبلوه، ولا يليق بهم إلا الشر، فهؤلاء غير حقيقين أن يجزن عليهم، بل يفرح بإهلاكهم ومخقتهم، فعياداً بك اللهم من الخزي والفضيحة، وأي: شقاء وعقوبة أبلغ من أن يصلوا إلى حالة يتبرأ منهم أنصح الخلق لهم!!

﴿٩٤ - ٩٥﴾ ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون﴾ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بفتنة وهم لا يشعرون﴾ يقول تعالى: ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي﴾ يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن ما هم فيه من الشر، فلم ينقادوا له: إلا ابتلاهم الله ﴿بالبأساء والضراء﴾ أي: بالفقر والمرض وأنواع البلايا. ﴿لعلهم﴾ إذا أصابتهم، أخضعت نفوسهم فتضرعوا إلى الله واستكانوا للحق. ﴿ثم﴾ إذا لم يند فيهم، واستمر استكبارهم، وازداد طغيانهم. ﴿بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾ فأدّر عليهم الأرزاق، وعاق أبدانهم، ورفع عنهم البلاء ﴿حتى عفوا﴾ أي: كشروا، وكثرت أرزاقهم وانبسطوا في نعمة الله وفضله، ونسوا ما سر عليهم من البلاء. ﴿وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء﴾ أي: هذه عادة جارئة لم تزل موجودة في الأولين واللاحقين، تارة





﴿فإذا هي ثعبان مبين﴾ أي: حية ظاهرة تسمى، وهم يشاهدونها.

﴿ونزع يده﴾ من جيبيه ﴿فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ من غير سوء، فهاتان آيتان كبيرتان دالتان على صحة ما جاء به موسى وصدقته، وأنه رسول رب العالمين، ولكن الذين لا يؤمنون لو جاءتهم كل آية لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم، فلهذا ﴿قال للمؤمن قوم فرعون﴾ حين يهرهم ما رأوا من الآيات، ولم يؤمنوا، وطلبوا لها التاويلات الفاسدة: ﴿إن هذا لساحر عليم﴾ أي: ماهر في سحره، ثم خوفوا ضعفاء الأحلام وسفهاء العقول، بأنه ﴿يريد﴾ موسى بفعله هذا ﴿أن يخرجكم من أرضكم﴾ أي: يريد أن يجليكم<sup>(١)</sup> عن أوطانكم ﴿فماذا تأمرون﴾ أي: إنهم تشاوروا فيما بينهم ما يفعلون بموسى، وما يتدفع به ضرره بزعمهم عنهم، فإن ما جاء به إن لم يقابل بما يطله ويدحضه، وإلا دخل في عقول أكثر الناس، فحينئذ اتعقد رأيهم إلى أن قالوا الفرعونون: ﴿أرجة وأخاه﴾ أي: احبسهما وأهلهما، وابتعت في المداين أناساً يمشرون أهل المملكة ويأتون بكل سحار عليم، أي: يجيئون بالسحرة المهرة، ليقابلوا ما جاء به موسى، فقالوا: يا موسى اجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى.

﴿قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى﴾ فتولى فرعون فجمع كيدته ثم أتى ﴿وقال هنا:﴾ وجاء السحرة فرعون ﴿طالبين منه الجزاء إن غلبوا﴾ ﴿قالوا:﴾ إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين<sup>(٢)</sup> ؟ ﴿قال فرعون:﴾ نعم ﴿لكم أجر﴾ وإنكم لمن المقربين ﴿فوعدهم الأجر والتقريب، وعلو المنزلة عنده، ليجتهدوا ويبدلوا وسعهم وطاقاتهم في مغالبة موسى، فلما حضروا مع موسى بحضرة الخلق العظيم ﴿قالوا﴾ على وجه التأيي وعدم

بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملائته إلى آخر قصته<sup>(٣)</sup>. أي: ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل موسى الكليم، الإمام العظيم، والرسول الكريم، إلى قوم عناة جبارة، وهم فرعون وملئه، من أشرفهم وكبرائهم، فأراهم من آيات الله العظيمة ما لم يشاهد له نظير ﴿فظلموا بها﴾ بأن لم ينقادوا لحقها الذي من لم ينقله فهو ظالم، بل استكبروا عنها ﴿فانظر كيف كان عقابة الفاسدين﴾ كيف أهلكهم الله، وأتبعهم الذم واللعة في الدنيا ويوم القيامة، بش الرشد المرفود، وهذا مجمل فصله بقوله: ﴿وقال موسى﴾ حين جاء إلى فرعون يدعو إلى الإيمان ﴿يا فرعون إني رسول من رب العالمين﴾ أي: إني رسول من مرسل عظيم، وهو رب العالمين، الشامل للعالم العلوي والسفلي، مربي جميع خلقه بأنواع التدابير الإلهية، التي من جملتها أنه لا يتركهم سدى، بل يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، وهو الذي لا يقدر أحد أن يتجرأ عليه، ويدعي أنه أرسله ولم يرسله.

فإذا كان هذا شأنه، وأنا قد اختارني واصطفاني لرسالته، فحقيق علي أن لا أكذب عليه، ولا أقول عليه إلا الحق، فإني لو قلت غير ذلك لعاجلني بالعقوبة، وأخذني أخذ عزيز مقتدر. فهذا موجب لأن ينقادوا له ويتبعوه، خصوصاً وقد جاءهم ببينة من الله واضحة على صحة ما جاء به من الحق، فوجب عليهم أن يعملوا بمقصود رسالته، ولها مقصودان عظيمان: إيمانهم به، واتباعهم له، وإرسال بني إسرائيل الشعب الذي فضله الله على العالمين، أولاد الأنبياء، وسلسلة يعقوب عليه السلام، الذي موسى عليه الصلاة والسلام واحد منهم.

فقال له فرعون: ﴿إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين﴾ فأتى موسى ﴿عصاه﴾ في الأرض

للإيمان، جزاء لهم على ردهم الحق، كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لو يؤمنوا به أول مرة، ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾.

كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين عقوبة من. وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم.

﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد﴾ أي: وما وجدنا لأكثر الأمم الذين أرسل الله إليهم الرسل من عهد، أي: من ثبات والتزام لوصية الله التي أوصى بها جميع العالمين، ولا انقادوا لأوامره التي ساقها إليهم على السنة رسله.

﴿وإن وجدنا أكثرهم لفاستقين﴾ أي: خارجين عن طاعة الله، متبعين لأهوائهم بغير هدى من الله، فالله تعالى امتحن العباد بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وأمرهم باتباع عهده وهداه، فلم يمثل لأمره إلا القليل من الناس، الذين سبقت لهم من الله سابقة السعادة.

وأما أكثر الخلق فأعرضوا عن الهدى، واستكبروا عما جاءت به الرسل، فأحل الله بهم من عقوباته المتنوعة ما أحل.

﴿١٠٣ - ١٧١﴾ ثم بعثنا من

(١) في ب: أورد الآيات كاملة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: يريد ليجليكم من.

المبالاة بما جاء به موسى: ﴿يا موسى إما أن تلقني﴾ ما معك ﴿وإما أن تكون نحن الملقين﴾ ف ﴿قال﴾ موسى: ﴿القوا﴾ لأجل أن يرى الناس ما معهم وما مع موسى.

﴿فلما القوا﴾ حبالهم وعصيهم، إذا هي من سحرهم كأنها حيات تسعى، ف ﴿سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤوا بسحر عظيم﴾ لم يوجد له نظير من السحر.

﴿وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك﴾ فألقها ﴿فإذا هي﴾ حية تسعى، ف ﴿تلقف﴾ جميع ﴿ما﴾ بأنفكون ﴿أي﴾ يكذبون به ويموهون.

﴿فوقع الحق﴾ أي: تبين وظهر، واستعلن في ذلك المجمع، ﴿ويطل ما كانوا يعملون﴾ فقلبوا هنالك ﴿أي﴾ في ذلك المقام ﴿وانقلبوا صاغرين﴾ أي: حقيرين قد اضمحل باطلهم، وتلاشى سحرهم، ولم يحصل لهم المقصود الذي ظنوا حصوله.

وأعظم من تبين له الحق العظيم أهل الصنف والسحر، الذين يعرفون من أنواع السحر وجزئياته ما لا يعرفه غيرهم، فعرفوا أن هذه آية عظيمة من آيات الله لا يدان لأحد بها.

﴿والقي السحرة ساجدين﴾ قالوا آمنا برب العالمين ﴿رب موسى وهارون﴾ أي: وصدقنا بما بعث به موسى من الآيات البينات.

ف ﴿قال﴾ لهم ﴿فرعون﴾ متهدداً على الإيمان: ﴿أنتم به قبل أن أذن لكم﴾ كان الحبيث حاكماً مستبداً على الأبدان والأحوال، قد تقرر عنده وعندهم أن قوله هو المطاع، وأمره نافذ فيهم، ولا خروج لأحد عن قوله وحكمه، وبهذه الحالة تنحط الأمم، وتضعف عقولها ونفوذها، وتعجز عن المدافعة عن حقوقها، ولهذا قال الله عنه: ﴿استخف قومه فأطاعوه﴾ وقال هنا: ﴿أنتم به قبل أن أذن لكم﴾ أي: فهذا سوء أدب منكم وتجور على.

ثم مره على قومه وقال: ﴿إن هذا لمر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها﴾ أي: إن موسى كبيركم الذي علمكم السحر، فتواطأتم أنتم وهو على أن تغلبوا له، فيظهر فتبعوه، ثم يتبعكم الناس أو جمهورهم، فتخرجوا منها أهلها.

وهذا كذب يعلم هو ومن سير الأحوال، أن موسى عليه الصلاة والسلام لم يجتمع بأحد منهم، وأنهم جمعوا على نظر فرعون ورسله، وأن ما جاء به موسى آية إلهية، وأن السحرة قد بذلوا مجهودهم في مغالبة موسى، حتى عجزوا وتبين لهم الحق، فاتبوه.

ثم توعدهم فرعون بقوله: ﴿سوف تعلمون﴾ ما أحل بكم من العقوبة، ﴿لأنظعن أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ زعم الحبيث أنهم مفسدون في الأرض، وسيصنع بهم ما يصنع بالفسدين، من تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، أي: اليد اليمنى والرجل اليسرى. ﴿ثم لأصلبنتكم﴾ في جذوع النخل، لتختزوا بزعمه ﴿أجمعين﴾ أي: لا أفعل هذا الفعل بأحد دون أحد، بل كلكم سيدوق هذا العذاب، فقال السحرة الذين آمنوا لفرعون حين تهددهم: ﴿إننا إلى ربنا منتقلون﴾ أي: فلا نبالي بعقوبتك، فالله خير وأبقى، فاقض ما أنت قاض.

﴿وما تنقم منا﴾ أي: وما تعيب منا على إنكارك علينا وتوعدك لنا؟ فليس لنا ذنب ﴿إلا أن آمننا﴾ [بآيات] ربنا ﴿لما جاءتنا﴾<sup>(١)</sup> فإن كان هذا ذنباً يعاب عليه، ويستحق صاحبه العقوبة، فهو ذنباً.

ثم دعوا الله أن يشيتهم ويصبرهم فقالوا: ﴿ربنا أفرغ﴾ أي: أفض ﴿علينا صبراً﴾ أي: عظيماً، كما يدل عليه التنكير، لأن هذه حنة عظيمة، تؤدي إلى ذهاب النفس، فيحتاج فيها من الصبر إلى شيء كثير، ليثبت الفؤاد، ويطمئن المؤمن على إيمانه،

ويزول عنه الانزعاج الكثير. ﴿وتوفنا مسلمين﴾ أي: متقادين لأمرك، متبعين لرسولك، والظاهر أنه أوقع بهم ما توعدهم عليه، وأن الله تعالى ثبتهم على الإيمان.

هذا وفرعون وملاؤه وعامتهم المتبعون للسلا، قد استكبروا عن آيات الله، وجحدوا بها ظلماً وعلواً، وقالوا لفرعون مهيجين له على الإيقاع بموسى، وزاعمين أن ما جاءه باطل وفساد: ﴿أتأمر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض﴾ بالدعوة إلى الله، وإلى مكارم الأخلاق وعماسن الأعمال، التي هي الصلاح في الأرض، وما هم عليه هو الفساد، ولكن الظالمين لا يباليون بما يقولون.

﴿ويذرك وأهلك﴾ أي: يدعك أنت وأهلك، وينهى عنك، ويصد الناس عن اتباعك.

ف ﴿قال﴾ فرعون مجيباً لهم، بأنه سيدع بني إسرائيل مع موسى بحالة لا يسمون فيها، ويأمن<sup>(٢)</sup> فرعون وقومه - بزعمه - من ضرهم: ﴿ستقبل أبناءهم ونسحبي نساءهم﴾ أي: نستقبينهم فلا نقلهن، فإذا فعلنا ذلك أمنا من كرتهم، وكنا مستخدمين لباقيتهم، ومسخرين لهم على ما نشاء من الأعمال ﴿وإننا فوقهم قاهرون﴾ لا خروج لهم عن حكمنا ولا قدرة، وهذا نهاية الجبروت من فرعون والعتو والقسوة.

ف ﴿قال موسى لقومه﴾ موصياً لهم في هذه الحالة، - التي لا يقدرון معها على شيء، ولا مقاومة - بالمقاومة الإلهية، والاستعانة الربانية: ﴿استعينوا بالله﴾ أي: اعتمدوا عليه في جلب ما ينفعكم، ودفع ما يضركم، وثقوا بالله أنه سيمت أمركم ﴿واصبروا﴾ أي: الزموا الصبر على ما يحل بكم، منتظرين للفرج.

﴿إن الأرض لله﴾ ليست لفرعون ولا لقومه حتى يتحكموا فيها ﴿ببورثها

(١) زيادة من هامش ب، وهي في أ: أمنا ربنا.

(٢) كنا في ب، وفي أ: ويؤمن.

من يشاء من عباده ﴿أي: يداولها بين الناس على حسب مشيئته وحكمته، ولكن العاقبة للمتقين، فإنهم - وإن امتحنوا مدة ابتلاء من الله وحكمة، فإن النصر لهم، ﴿والعاقبة﴾ الحميدة لهم على قومهم وهذه وظيفة العبد، أنه عند القدرة، أن يفعل من الأسباب الدافعة عنه أذى الغير، ما يقدر عليه، وعند العجز، أن يصبر ويستعين بالله، ويتظر الفرج.

﴿قالوا﴾ لموسى متضجرين من طول ما مكثوا في عذاب فرعون، وأذيته: ﴿أوذينا من قبل أن تأتينا﴾ فإنهم يسومونا سوء العذاب، يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا ﴿ومن بعد ما جئتنا﴾ كذلك ﴿قال﴾ لهم موسى مرجياً ﴿لهم﴾<sup>(١)</sup> الفرج والخلاص من شرهم: ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض﴾ أي: يمكنكم فيها، ويجعل لكم التدبير فيها ﴿فينظر كيف تعملون﴾ هل تشكرون أم تكفرون؟. وهذا وعد أنجزه الله لما جاء الوقت الذي أراد الله.

﴿١٣٠﴾ قال الله تعالى في بيان ما عامل به آل فرعون في هذه اللمدة الأخيرة، أنها على عادته وستته في الأمم، أن يأخذهم بالبأساء والضراء، لعلهم يضرعون. الآيات:

﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالستين﴾ أي: بالدهور والجذب، ﴿ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون﴾ أي: يتعظون أن ما حل بهم وأصابهم معاتبة من الله لهم، لعلهم يرجعون عن كفرهم، فلم ينجع فيهم ولا أفاد، بل استمروا على الظلم والفساد.

﴿فإذا جاءهم الحسنة﴾ أي: الخصب وإدراك الرزق ﴿قالوا لنا هذه﴾ أي: نحن مستحقون لها، فلم يشكروا الله عليها ﴿وإن نصيبهم سيئة﴾ أي: قحط وجذب ﴿يطيروا بموسى ومن معه﴾ أي: يقولوا: إنما جاءنا بسبب مجيء موسى، واتباع بني إسرائيل له.

قال الله تعالى: ﴿ألا إنما طأثرهم عند الله﴾ أي: بفضائه وقدرته، ليس كما قالوا، بل إن ذنوبهم وكفرهم هو السبب في ذلك، بل ﴿أكشركم لا يعلمون﴾ أي: فلذلك قالوا ما قالوا.

﴿وقالوا﴾ مبينين لموسى أنهم لا يزالون، ولا يزولون عن باطلهم: ﴿مهما تأتينا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾ أي: قد تقرر عندنا أنك ساحر، فمهما جئت بآية جزمنا أنها سحر، فلا نؤمن لك ولا نصدق، وهذا غاية ما يكون من العناد، أن يبلغ بالكافرين إلى أن تستوي عندهم الحالات، سواء نزلت عليهم الآيات أم لم تنزل.

﴿فأرسلنا عليهم الطوفان﴾ أي: الماء الكثير الذي أغرق أشجارهم وزروعهم، وأضر بهم ضرراً كثيراً ﴿والجراد﴾ فأكل ثمارهم، وزروعهم، ونباتهم ﴿والقمل﴾ قيل: إنه الدبابة، أي: صغار الجراد، والظاهر أنه القمل المعروف ﴿والضفادع﴾ فملات أوعيتهم، وأقلقتهم، وأذتهم أذية شديدة ﴿والدم﴾ إما أن يكون الرعاف، أو كما قال كثير من المفسرين، أن ماءهم الذي يشربون انقلب دماً، فكانوا لا يشربون إلا دماً، ولا يطبخون إلا بدم.

﴿آيات مفصلات﴾ أي: أدلة وبيئات على أنهم كانوا كاذبين ظالمين، وعلى أن ما جاء به موسى حق وصدق ﴿فاستكبروا﴾ لما رأوا الآيات ﴿وكانوا﴾ في سابق أمرهم ﴿قوماً مجرمين﴾ فلذلك عاقبهم الله تعالى، بأن أبغاهم على النبي والضلال.

﴿ولما وقع عليهم الرجز﴾ أي: العذاب، يحتمل أن المراد به: الطاعون، كما قاله كثير من المفسرين، ويحتمل أن يراد به ما تقدم من الآيات: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، فإنها رجز وعذاب، وأنهم كلما أصابهم واحد منها ﴿قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما

عهد عندك﴾ أي: تشفعوا بموسى بما عهد الله عنده من الوحي والشرع، ﴿لئن كشفت عنا الرجز، لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل﴾ وهم في ذلك كذبة، لا قصد لهم إلا زوال ما حل بهم من العذاب، وظنوا إذا رفع لا يصيبهم غيره.

﴿فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه﴾ أي: إلى مدة قدر الله بقاءهم إليها، وليس كشفاً مؤبداً، وإنما هو مؤقت، ﴿إذا هم ينكثون﴾ العهد الذي عاهدوا عليه موسى، ووعدوه بالإيمان به، وإرسال بني إسرائيل، فلا آمنوا به ولا أرسلوا معه بني إسرائيل، بل استمروا على كفرهم بعمهون، وعلى تعذيب بني إسرائيل دائنين.

﴿فانتقمنا منهم﴾ أي: حين جاء الوقت الموقت لهلاكهم، أمر الله موسى أن يسري ببني إسرائيل ليلاً، وأخبره أن فرعون سيستمعهم هو وجنوده ﴿فأرسل فرعون في المدائن حاشرين﴾ يجمعون الناس ليعبوا بني إسرائيل، وقالوا لهم: ﴿إن هؤلاء لشرذمة قليلون﴾ وإنما لنا لغناظلون \* وإنا لجميع حاذرون \* فأخرجناهم من جنات وعيون \* وكنوز ومقام كريم \* كذلك وأورثناها بني إسرائيل \* فاتبعوهم مشرقين \* فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون \* قال كلا إن معي ربي سيهدين \* فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم \* وأزلفنا ثم الآخرين \* وأنجينا موسى ومن معه أجمعين \* ثم أغرقنا الآخرين.

وقال هنا: ﴿فأعزقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾ أي: بسبب تكذيبهم بآيات الله وإعراضهم عما دلت عليه من الحق.

﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون﴾ في الأرض، أي: بني إسرائيل الذين كانوا خدمة لآل

فرعون، يسومونهم سوء العذاب  
أورثهم الله مشارق الأرض  
ومغربها والمراد بالأرض هاهنا،  
أرض مصر التي كانوا فيها  
مستضعفين، أذلين، أي: ملكهم الله  
جميعها، ومكنهم فيها التي باركنا فيها  
﴿وقت كلمة ربك الحسنی على بني  
إسرائيل بما صبروا﴾ حين قال لهم  
موسى: ﴿استعينوا بالله واصبروا، إن  
الأرض لله يورثها من يشاء من عباده  
والعاقبة للمتقين﴾.

﴿ودمرنا ما كان يصنع فرعون  
وقومه من الأبنية الهائلة، والمساكن  
المزخرفة﴾ وما كانوا يعرشون ﴿فنتلك  
بيوتهم خاوية بما ظلموا، إن في ذلك  
لآية لقوم يعلمون﴾

﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾  
بعدهما أنجاهم الله من عدوهم فرعون  
وقومه، وأهلكهم الله، وبنو إسرائيل  
ينظرون.

﴿فأتوا﴾ أي: مروا ﴿على قوم  
يعكفون على أصنام لهم﴾ أي: يقيمون  
عندها ويتبركون بها، ويعبدونها.  
﴿قالوا﴾ من جهلهم وسفههم لبيهم  
موسى بعدما أراههم الله من الآيات ما  
أراههم ﴿يا موسى اجعل لنا إلهاً كما  
لهم آلهة﴾ أي: اشرع لنا أن نتخذ  
أصناماً آلهة كما اتخذها هؤلاء.

﴿قال﴾ لهم موسى: ﴿إنكم قوم  
تجهلون﴾ وأي جهل أعظم من جهل  
من جهل ربه وخالفه وأراد أن يسوي به  
غيره، ممن لا يملك نفعاً ولا ضرراً،  
ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً؟! ولهذا  
قال لهم موسى: ﴿إن هؤلاء متبر ما  
هم فيه وباطل ما كانوا يعملون﴾ لأن  
دعاهم إياها باطل، وهي باطلة  
بنفسها، فالعمل باطل وغايته باطلة.

﴿قال أعير الله أنبيكم إلهاً﴾ أي:  
أطلب لكم إلهاً غير الله المألوه،  
الكامل في ذاته وصفاته وأفعاله.  
﴿وهو فضلكم على العالمين﴾  
أن تقابلوا فضله وتفضيله بالشكر،  
وذلك بإفراده وحده بالعبادة، والكفر

بما يدعى من دونه.

ثم ذكرهم ما امتن الله به عليهم  
فقال: ﴿وإذ أنجيناكم من آل فرعون﴾  
أي: من فرعون وأله ﴿يسومونكم  
سوء العذاب﴾ أي: يوجهون إليكم  
من العذاب أسوأ، وهو أنهم كانوا  
﴿يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم  
وفي ذلكم﴾ النجاة من عذابهم ﴿بلاء  
من ربكم عظيم﴾ أي: نعمة جلية،  
ومنحة جزيلة، أو: وفي ذلك العذاب  
الصادر منهم لكم بلاء من ربكم عليكم  
عظيم، فلما ذكرهم موسى وعظهم  
انتهوا عن ذلك. ولما آتم الله نعمته  
عليهم بالنجاة من عدوهم، وتمكينهم  
في الأرض، أراد تبارك وتعالى أن يتم  
نعمته عليهم، بإنزال الكتاب الذي فيه  
الأحكام الشرعية، والعقائد المرضية،  
فواعد موسى ثلاثين ليلة، وأتمها  
بعشر، فصارت أربعين ليلة، ليستعد  
موسى، وينتهي لأمره الله، ويكون  
لنزولها موقع كبير لديهم، وتشوق إلى  
إنزالها.

ولما ذهب موسى إلى ميقات ربه قال  
لهارون موصياً له على بني إسرائيل من  
حرصه عليهم وشفقته: ﴿اخلفني في  
قومي﴾ أي: كن خليفتي فيهم،  
واعمل فيهم بما كنت أعمل،  
﴿وأصلح﴾ أي: اتبع طريق الصلاح  
﴿ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ وهم الذين  
يعملون بالمعاصي.

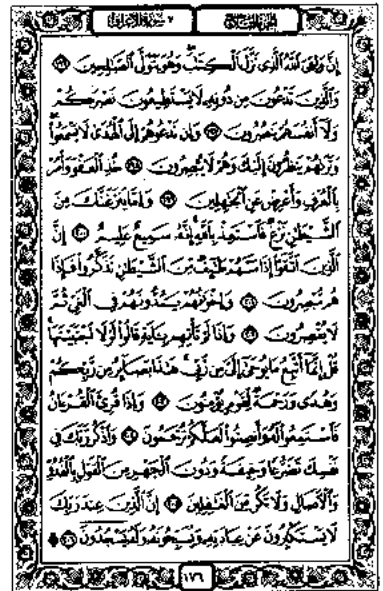
﴿ولما جاء موسى لميقاتنا﴾ الذي  
وقتنا له لإنزال الكتاب ﴿وكلمه ربه﴾  
بما كلمه من وجه وأمره ونبيه، تشوق  
إلى رؤية الله، ونزعت نفسه لذلك،  
حباً لربه ومودة لرؤيته.

﴿قال رب أرني أنظر إليك قال﴾  
الله ﴿لن تراني﴾ أي: لن تقدر الآن على  
رؤيتي، فإن الله تبارك وتعالى أنشأ  
الخلق في هذه الدار على نشأة لا  
يقدرون بها، ولا يشيئون لرؤية الله،  
وليس في هذا دليل على أنهم لا يرونه  
في الجنة، فإنه قد دلت النصوص  
القرآنية والأحاديث النبوية على أن أهل

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْآيَاتِ الْكُوفِرِ فَتَسَاءَلُوا أَهْلَ الْأَيْمَانِ عَنْكُمْ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا سَمِعُوا بِشَيْءٍ كُفِّرُوا بِهِ وَلَا يَتَّبِعُونَ أُمَّةً مِّنْهُنَّ مَّا يَكُونُ لَهَا عَاقِبَةٌ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا لَفِي سَبِيلِ اللَّهِ لَمُهَيَّبِينَ سِيقًا لِّذَلِكَ يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ أَجْرًا كَثِيرًا بَلَّغْنَا آيَاتِنَا إِلَيْكَ وَأَنزَلْنَاهَا قُرْآنًا مَّعْرُومًا﴾

الجنة يرون ربهم تبارك وتعالى،  
ويتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم،  
وأنه ينشهم نشأة كاملة، يقدرون معها  
على رؤية الله تعالى، ولهذا رتب الله  
الرؤية في هذه الآية على ثبوت الجبل،  
فقال - مقنعاً لموسى في عدم إجابته  
للرؤية - ﴿ولكن انظر إلى الجبل فإن  
استقر مكانه﴾ إذا تجلَّى الله له ﴿فسوف  
ترآه﴾.

﴿فلما تجلَّى ربه للجبل﴾ الأصم  
الغليظ ﴿جعله دكاً﴾ أي: انهال مثل  
الرمل، انزعاجاً من رؤية الله وعدم  
ثبوتها لها<sup>(١)</sup>، ﴿وحز موسى﴾ حين  
رأى ما رأى ﴿صعقاً﴾ فتين له حيث  
أنه إذا لم يثبت الجبل لرؤية الله،  
فموسى أولى أن لا يثبت لذلك،  
واستغفر ربه لما صدر منه من السؤال،  
الذي لم يوافق موضعاً ﴿والذالك﴾<sup>(٢)</sup>  
﴿قال سبحانك﴾ أي: تنزيهاً لك،  
وتعظيماً عما لا يليق بجلالك ﴿ثبت  
إليك﴾ من جميع الذنوب، وسوء  
الأدب معك ﴿وأنأ أول المؤمنين﴾ أي:  
جدد عليه الصلاة والسلام إيمانه، بما  
كمل الله له مما كان يجمله قبل ذلك،  
فلما منعه الله من رؤيته - بعدما كان  
متشوقاً إليها - أعطاه خيراً كثيراً فقال:  
﴿يا موسى إني اصطفيتك على الناس﴾  
أي: اخترتك واجتبيتك وفضلتك



وخصصناك بفضائل عظيمة، ومناف  
جيلة، ﴿برسالاتي﴾ التي لا أجعلها،  
ولا أخص بها إلا أفضل الخلق.

﴿وبكلامي﴾ إياك من غير واسطة،  
وهذه فضيلة اختص بها موسى الكليم،  
وعرف بها من بين إخوانه من  
المرسلين، ﴿فخذ ما آتيتك﴾ من  
النعم، وخذ ما آتيتك من الأمر والنهي  
بانسراح صدر، وتلقه بالقبول  
والانقياد، ﴿وكن من الشاكرين﴾ لله  
على ما خصك وفضلك.

﴿وكتبتنا له في الألواح من كل  
شيء﴾ يحتاج إليه العباد ﴿موعظة﴾  
ترغب النفوس في أفعال الخير،  
وترويه من أفعال الشر، ﴿وتفصيلاً  
لكل شيء﴾ من الأحكام الشرعية،  
والعقائد والأخلاق والآداب ﴿فخذها  
بقوة﴾ أي: بجد واجتهاد على إقامتها،  
﴿وامر قومك يأخذوا بأحسنها﴾ وهي  
الأوامر الواجبة والمستحبة، فإنها  
أحسنها، وفي هذا دليل على أن  
أوامر الله - في كل شريعة كاملة -  
عادلة حسنة.

﴿سأريكم دار الفاسقين﴾ بعدما  
أهلكهم الله، وأبقى ديارهم عبرة  
بعدهم، يعتبر بها المؤمنون الموفقون  
المتواضعون، وأما غيرهم، فقال  
عنهم: ﴿سأصرف عن آياتي﴾ أي: عن  
الاعتبار في الآيات الأفقية والنفسية،  
والفهم آيات الكتاب ﴿الذين يتكبرون

في الأرض بغير الحق﴾ أي: يتكبرون  
على عباد الله وعلى الحق، وعلى من  
جاء به، فمن كان بهذه الصفة،  
حرمه الله خيراً كثيراً وخذله، ولم يفقه  
من آيات الله ما ينتفع به، بل ربما  
انقلبت عليه الحقائق، واستحسن  
القيح.

﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾  
لإعراضهم واعتراضهم، ومعادتهم لله  
ورسوله، ﴿وإن يروا سبيل الرشدة﴾  
أي: الهدى والاستقامة، وهو الصراط  
المرسل إلى الله، وإلى دار كرامته.

﴿لا يتخذوه﴾ أي: لا يسلكوه ولا  
يرغبوا فيه ﴿وإن يروا سبيل الغي﴾  
أي: الغواية الموصل لصاحبه إلى دار  
الشقاء ﴿يتخذوه سبيلاً﴾ والسبب في  
انحرافهم هذا الانحراف ﴿ذلك بأنهم  
كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾  
فردهم آيات الله، وغفلتهم عما يراد  
بها واحتقارهم لها - هو الذي أوجب  
لهم من سلوك طريق الغي، وترك  
طريق الرشاد ما أوجب.

﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾ العظيمة  
الدالة على صحة ما أرسلنا به رسلنا.  
﴿ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم﴾ لأنها  
على غير أساس، وقد فقد شرطها وهو  
الإيمان بآيات الله، والتصديق بجزائه  
﴿هل يجزون﴾ في بطلان أعمالهم  
وحصول ضد مقصودهم ﴿إلا ما كانوا  
يعملون﴾ فإن أعمال من لا يؤمن  
باليوم الآخر، لا يرجو فيها ثواباً،  
وليس لها غاية تنتهي إليه، فلذلك  
اضمحلت وبطلت ﴿واخذ قوم موسى  
من بعده من حليلهم عجلاً جسداً﴾  
صاغه السامري وألقى عليه قبضة من  
أثر الرسول فصار ﴿له خوار﴾  
وصوت، فعبده واتخذوه إلهاً.

وقال ﴿هذا إلهكم وإله موسى  
فمنسي﴾ موسى، وذهب بطلبه، وهذا  
من سفههم، وقلة بصيرتهم، كيف  
اشتبه عليهم رب الأرض والسموات،  
بعجل من أنقص المخلوقات!!  
ولهذا قال مبيناً أنه ليس فيه من  
الصفات الذاتية ولا الفعلية، ما يوجب  
أن يكون إلهاً ﴿أم يروا أنه

لا يكلمهم﴾ أي: وعدم الكلام نقص  
عظيم، فهم أكمل حالة من هذا  
الحيوان أو الجماد، الذي لا يتكلم  
﴿ولا يهديهم سبيلاً﴾ أي: لا يدلهم  
طريقاً دينياً، ولا يحصل لهم مصلحة  
دينية، لأن من الثقرر في العقول  
والفطر، أن اتخاذه لا يتكلم ولا يقع  
ولا يضر من أبطل الباطل، وأسمع  
السفه، ولهذا قال: ﴿اتخذوه وكانوا  
ظالمين﴾ حيث وضعوا العبادة في غير  
موضعها، وأشركوا بالله ما لم ينزل به  
سلطاناً، وفيها دليل على أن من أنكر  
كلام الله، فقد أنكر خصائص  
إلهية الله تعالى، لأن الله ذكر أن عدم  
الكلام دليل على عدم صلاحية الذي  
لا يتكلم للإلهية.

﴿ولما﴾ رجع موسى إلى قومه،  
فوجدهم على هذه الحال، وأخبرهم  
بضلالهم ندما و ﴿سقط في أيديهم﴾  
أي: من الهم والندم على فعلهم،  
﴿ورأوا أنهم قد ضلوا﴾ فتنصلوا،  
إلى الله وتضرعوا و ﴿قالوا: لئن لم  
يرحمنا ربنا﴾ فبدلنا عليه، ويرزقنا  
عبادته، ويوفقنا لصالح الأعمال،  
﴿وينفرتنا﴾ ما صدر منا من عبادة  
العجل ﴿لنتكونن من الخاسرين﴾ الذين  
خسروا الدنيا والآخرة.

﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان  
أسفا﴾ أي: تمتلأ غضباً وغياً عليهم،  
لتمام غيرته عليه الصلاة والسلام،  
وكمال نصحه وشفقته، ﴿قال بسما  
خلفتموني من بعدي﴾ أي: بس الحاله  
التي خلفتموني بها من بعد ذهابي  
عنكم، فإنها حالة تفضي إلى الهلاك  
الأبدي، والشقاء سرمدي.

﴿أصحلتكم أمر ربكم﴾ حيث  
وعدكم بإنزال الكتاب. فبادرتم -  
برأيكم الفاسد - إلى هذه الخصلة  
القيحة ﴿والقى الألواح﴾ أي: رامها  
من الغضب ﴿وأخذ برأس أخيه﴾  
هارون ولحيت ﴿بجرحه إليه﴾ وقال له:  
﴿ما منعك إذ رأيتهم ضلوا، أن لا  
تتبعن أفعصيت أمري﴾ لك بقولي:  
﴿اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع  
سبيل المفسدين﴾ ف ﴿قال يا ابن أم لا







والناجون من شرهما، لأنهم أتوا بأكبر أسباب الفلاح.

وأما من لم يؤمن بهذا النبي الأمي، ويعززه وينصره، ولم يتبع النور الذي أنزل معه، فأولئك هم الخاسرون.

ولما دعا أهل التوراة من بني إسرائيل إلى اتباعه، وكان ربما توهم متوهم أن الحكم مقصور عليهم، أتى بما يدل على العموم فقال: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ أي: عريبيكم، وعجميكم، أهل الكتاب منكم، وغيرهم.

﴿الذي له ملك السماوات والأرض﴾ يتصرف فيهما بأحكامه الكونية والتدابير السلطانية، وبأحكامه الشرعية الدينية التي من جعلتها: أن أرسل إليكم رسولا عظيماً يدعوكم إلى الله وإلى دار كرامته، ويحذركم من كل ما يباعدكم منه، ومن دار كرامته.

﴿لا إله إلا هو﴾ أي: لا معبود بحق إلا الله وحده لا شريك له، ولا تعرف عبادته إلا من طريق رسله، ﴿يحيي ويميت﴾ أي: من جملة تدابيره: الإحياء والإماتة، التي لا يشاركه فيها أحد، الذي جعل الموت جسراً ومعبراً يعبر منه إلى دار البقاء، التي من آمن بها صدق الرسول محمداً ﷺ قطعاً.

﴿فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي﴾ إيماناً في القلب، متضمناً لأعمال القلوب والجوارح ﴿الذي يؤمن بالله وكلماته﴾ أي: آمنوا بهذا الرسول المستقيم في عقائده وأعماله، ﴿واتبعوه لعلكم تهتدون﴾ في مصالحكم الدينية والدنيوية، فإنكم إذا لم تتبعوه ضللتهم ضلالاً بعيداً.

﴿١٥٩﴾ ﴿ومن قوم موسى أمة﴾ أي: جماعة ﴿يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ أي: يهدون به الناس في تعليمهم إياهم وفتواهم لهم، ويعدلون به بينهم في الحكم بينهم، بقضايهم، كما قال تعالى: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ وفي هذا فضيلة لأمة موسى عليه الصلاة والسلام، وأن الله تعالى

وأن الإيمان بالنبي محمد ﷺ شرط في دخولهم في الإيمان، وأن المؤمنين به المتبعين، هم أهل الرحمة المطلقة، التي كتبها الله لهم، ووصفه بالأمي لأنه من العرب الأمة الأمية، التي لا تقرأ ولا تكتب، وليس عندها قبل القرآن كتاب.

﴿الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ باسمه وصفته، التي من أعظمها وأجلها، ما يدعو إليه وينهى عنه. وأنه ﴿يأمرهم بالمعروف﴾ وهو كل ما عرف حسنه وصلاحه ونفعه.

﴿وينهاهم عن المنكر﴾ وهو: كل ما عرف قبحه في العقول والفطري، فيأمرهم بالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وصلية الأرحام، وير السوالدين، والإحسان إلى الجار والمملوك، ويذل النفع لسائر الخلق، والصدق، والعفاف، والبر، والتضيعة، وما أشبه ذلك، وينهى عن الشرك بالله، وقتل النفوس بغير حق، والزنا، وشرب ما يسكر العقل، والظلم لسائر الخلق، والكذب، والفجور، ونحو ذلك.

فأعظم دليل يدل على أنه رسول الله، ما دعا إليه وأمر به، ونهى عنه، وأحل وحرمه، فإنه ﴿يجعل لهم الطيبات﴾ من المطاعم والمشارب، والمناجح.

﴿ويحرم عليهم الخبائث﴾ من المطاعم والمشارب والمناجح، والأفعال والأعمال.

﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ أي: ومن وصفه أن دينه سهل سمح ميسر، لا إصر فيه ولا أغلال، ولا مشقات ولا تكاليف تقال.

﴿فوالذين آمنوا به وعزروه﴾ أي: عظموه ورجلوه ﴿ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه﴾ وهو القرآن، الذي يستضاء به في ظلمات الشرك والجهالات، ويقنتى به إذا تعارضت المقالات، ﴿أولئك هم المفلحون﴾ الظافرون بخير الدنيا والآخرة،

ذوهم، وقال موسى في تمام دعائه: ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة﴾ من علم نافع، ورزق واسع، وعمل صالح.

﴿وفي الآخرة﴾ حسنة وهي ما أعد الله لأوليائه الصالحين من الثواب.

﴿إننا هدنا إليك﴾ أي: رجعنا مفرين بتقصيرنا، مبينين في جميع أمورنا ﴿قال﴾ الله تعالى: ﴿عذابي أصيب به من أشاء﴾ ممن كان شقياً، متعرضاً لأسبابه، ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ من العالم العلوي والسفلي، البر والفاجر، المؤمن والكافر، فلا مخلوق إلا وقد وصلت إليه رحمة الله، وغمره فضله وإحسانه، ولكن الرحمة الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة، ليست لكل أحد، ولهذا قال عنها: ﴿فسأكتبها للذين يتقون﴾ المعاصي، صغارها وكبارها.

﴿ويؤتون الزكاة﴾ السواجبة مستحقيها ﴿والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ ومن تمام الإيمان بآيات الله معرفة معناها، والعمل بمقتضاها، ومن ذلك اتباع النبي ﷺ ظاهراً وباطناً، في أصول الدين وفروعه.

﴿١٥٧﴾ ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي﴾ احتراز عن سائر الأنبياء، فإن المقصود بهذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ والسياق في أحوال بني إسرائيل





بالمظالمين، وهو لم يذكر أنهم ظالمون، فدل على أن العقوبة خاصة بالمعتدين في السبت، ولأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن الآخرين، فافتقروا بإنكار أولئك، ولأنهم أنكروا عليهم

بقولهم: ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً﴾ فأبدوا من غضبهم عليهم، ما يقتضي أنهم كارهون أشد الكراهة لفعلهم، وأن الله سيعاقبهم أشد العقوبة.

﴿١٦٦﴾ ﴿فلما عتوا عما نهوا عنه﴾ أي: فسوا فلم يلبثوا ولا تعظوا، ﴿فلنا لهم﴾ قولا فديراً: ﴿كونوا قردة خاسئين﴾ فانتقلوا

بإذن الله قردة، وأبعدهم الله من رحمته، ثم ذكر ضرب الذلة والصغار على من بقي منهم فقال: ﴿وإذ تأذن ربك﴾ أي: أعلم إعلاماً صريحاً: ﴿ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾ أي: يبيئهم ويذلهم.

﴿إن ربك لسريع العقاب﴾ لمن عصاه، حتى إنه يجعل له العقوبة في الدنيا. ﴿وإنه لغفور رحيم﴾ لمن تاب إليه وأتاب، ويغفر له الذنوب، ويستتر عليه العيوب، ويرحمه بأن يتقبل منه الطاعات، ويشيبه عليها بأنواع الثواب، وقد فعل الله بهم ما أوعدهم به، فلا يزالون في ذل وإهانة تحت حكم غيرهم، لا تقوم لهم راية، ولا ينصر لهم علم.

﴿١٦٨﴾ ﴿وقطعناهم في الأرض أمماً﴾ أي: فرقناهم ومزقناهم في الأرض بعدما كانوا مجتمعين، ﴿منهم الصالحون﴾ القاتمون بحقوق الله وحقوق عباده، ﴿ومنهم دون ذلك﴾ أي: دون الصلاح، إما مقتصدون، وإما ظالمون لأنفسهم، ﴿وبلوناهم﴾ على عادتنا وسنتنا، ﴿بالحسنات والسيئات﴾ أي: بالسر واليسر.

﴿لعلهم يرجعون﴾ عما هم عليه مقيمون من الردى، يراجعون ما خلقوا له من الهدى، فلم يزالوا بين صالح وطالح ومقتصد، حتى خلف من

بإذن الله قردة، وأبعدهم الله من رحمته، ثم ذكر ضرب الذلة والصغار على من بقي منهم فقال: ﴿وإذ تأذن ربك﴾ أي: أعلم إعلاماً صريحاً: ﴿ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾ أي: يبيئهم ويذلهم.

﴿إن ربك لسريع العقاب﴾ لمن عصاه، حتى إنه يجعل له العقوبة في الدنيا. ﴿وإنه لغفور رحيم﴾ لمن تاب إليه وأتاب، ويغفر له الذنوب، ويستتر عليه العيوب، ويرحمه بأن يتقبل منه الطاعات، ويشيبه عليها بأنواع الثواب، وقد فعل الله بهم ما أوعدهم به، فلا يزالون في ذل وإهانة تحت حكم غيرهم، لا تقوم لهم راية، ولا ينصر لهم علم.

﴿١٦٨﴾ ﴿وقطعناهم في الأرض أمماً﴾ أي: فرقناهم ومزقناهم في الأرض بعدما كانوا مجتمعين، ﴿منهم الصالحون﴾ القاتمون بحقوق الله وحقوق عباده، ﴿ومنهم دون ذلك﴾ أي: دون الصلاح، إما مقتصدون، وإما ظالمون لأنفسهم، ﴿وبلوناهم﴾ على عادتنا وسنتنا، ﴿بالحسنات والسيئات﴾ أي: بالسر واليسر.

﴿لعلهم يرجعون﴾ عما هم عليه مقيمون من الردى، يراجعون ما خلقوا له من الهدى، فلم يزالوا بين صالح وطالح ومقتصد، حتى خلف من

بإذن الله قردة، وأبعدهم الله من رحمته، ثم ذكر ضرب الذلة والصغار على من بقي منهم فقال: ﴿وإذ تأذن ربك﴾ أي: أعلم إعلاماً صريحاً: ﴿ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾ أي: يبيئهم ويذلهم.

وعظ من اقتحم محارم الله، ولم يصغ للنصيح، بل استمر على اعتدائه وطغيانه، فإنه لا بد أن يعاقبهم الله، إما بهلاك أو عذاب شديد.

فقال الواعظون: نعظهم وننهاهم ﴿معدرة إلى ربكم﴾ أي: لنعذر فيهم. ﴿ولعلهم يتقون﴾ أي: يتركون ما هم فيه من العصية، فلا نياس من هدايتهم، فربما نجح فيهم الوعظ، وأثر فيهم اللوم.

وهذا المقصود الأعظم من إنكار المنكر ليكون معدرة، وإقامة حجة على المأمور المنهي، ولعل الله أن يهديه فيعمل بمقتضى ذلك الأمر والنهي.

﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ أي: تركوا ما ذكروا به، واستمروا على غيهم واعتدائهم.

﴿أنجينا﴾ من العذاب ﴿الذين يتهون عن سوء﴾ وهكذا سنة الله في عباده، أن العقوبة إذا نزلت نجا منها الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر.

﴿وأخذنا الذين ظلموا﴾ وهم الذين اعتدوا في السبت ﴿بعذاب ينس﴾ أي: شديد ﴿بما كانوا يفسقون﴾

وأما الفرقة الأخرى التي قالت للناجين: ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم﴾ فاختلف المفسرون في نجاتهم وهلاكهم، والظاهر أنهم كانوا من الناجين، لأن الله خص الهلاك

بالكتاب ﴿ أي : يتسكون به علماء وعملاً، فيعملون ما فيه من الأحكام والأخبار التي علمها أشرف العلوم. ويعملون بما فيها من الأوامر التي هي فرة العيون وسرور القلوب، وأفسراح الأرواح، وصلاح الدنيا والآخرة.

ومن أعظم ما يجب التمسك به من الأمور إقامة الصلاة، ظاهراً وباطناً، ولهذا خصها الله بالذكر لفضلها وشرفها، وكونها ميزان الإيمان، وإقامتها داعية لإقامة غيرها من العبادات.

ولما كان عملهم كله إصلاحاً، قال تعالى: ﴿إننا لا نضع أجر المصلحين﴾ في أقوالهم وأعمالهم ونياتهم، مصلحين لأنفسهم ولغيرهم. وهذه الآية وما أشبهها دلّت على أن الله بعث رسوله عليهم الصلاة والسلام بالصلاح لا بالفساد، وبالنافع لا بالمضار، وأنهم بعثوا بصلاح الدارين، فكل من كان أصلح، كان أقرب إلى اتباعهم.

﴿١٧١﴾ ثم قال تعالى: ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم﴾ حين امتنعوا من قبول ما في التوراة.

فألزمهم الله العمل ونتق فوق رؤوسهم الجبل، فصار فوقهم ﴿كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم﴾ وقيل لهم: ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ أي: بجد واجتهاد.

﴿وإذكروا ما فيه﴾ دراسة ومباحثة، واتصافاً بالعمل به ﴿لعلكم تتقون﴾ إذا فعلتم ذلك.

﴿١٧٢﴾ ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون وكذلك نفضل لعلهم يرجعون﴾ يقول تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم﴾ أي: أخرج من أصلابهم وجعلهم يتناسلون ويتوالدون

قرناً بعد قرن.

﴿و﴾ حين أخرجهم من بطون أمهاتهم وأصلاب آبائهم ﴿أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم﴾ أي: قرهم بإثبات ربوبيته، بما أودعه في فطرهم من الإقرار، بأنه ربهم وخالقهم ومليكمهم.

قالوا: بلى قد أقرنا بذلك، فإن الله تعال فطر عباده على الدين الحنيف القيم.

فكل أحد فهو مفظور على ذلك، ولكن الفطرة قد تغير وتبدل بما يطرأ عليها من العقائد الفاسدة، ولهذا ﴿قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾

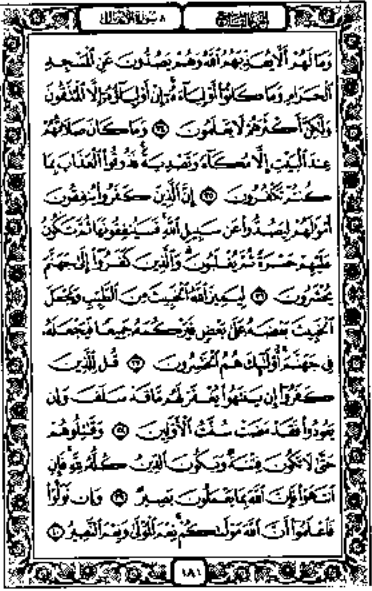
أي: إنما امتحناكم حتى أقرتم بما تقرر عنكم، من أن الله تعال ربكم، خشية أن تنكروا يوم القيامة، فلا تقروا بشيء من ذلك، وتزعمون أن حجة الله ما قامت عليكم، ولا عندكم بها علم، بل أنتم غافلون عنها لاهون.

فاليوم قد انقطعت حججتكم، وثبتت الحجة البالغة لله عليكم، أو تحتجون أيضاً بحجة أخرى، فتقولون: ﴿إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم﴾ فحذونا حذوهم، وتبعناهم في باطلهم.

﴿أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾ فقد أودع الله في فطركم ما يدلکم على أن ما مع آبائكم باطل، وأن الحق ما جاءت به الرسل، وهذا يقاوم ما وجدتم عليه آباءكم، ويعلو عليه.

نعم قد يعرض للعبد من أقوال آياته الضالين ومذاهبهم الفاسدة ما يظنه هو الحق، وما ذاك إلا لإعراضه، عن حجج الله وبياناته وآياته الألفية والنفسية، فأعراضه عن ذلك، وإقباله على ما قاله المبطلون، ربما صيره بحالة يفضل بها الباطل على الحق، هذا هو الصواب في تفسير هذه الآيات.

وقد قيل: إن هذا يوم أخذ الله الميثاق على ذرية آدم، حين استخرجهم من ظهره وأشهدهم على أنفسهم، فشهدوا بذلك، فاحتج عليهم بما أقروا



به في ذلك الوقت على ظلمهم في كفرهم، وعنادهم في الدنيا والآخرة، ولكن ليس في الآية ما يدل على هذا، ولا له مناسبة، ولا تقتضيه حكمة الله تعال، والواقع شاهد بذلك.

فإن هذا العهد والميثاق، الذي ذكروا، أنه حين أخرج الله ذرية آدم من ظهره، حين كانوا في عالم كالذر، لا يذكره أحد، ولا يحظر ببال آدمي، فكيف يمتح الله عليهم بأمر ليس عندهم به خبر، ولا له عين ولا أثر؟! ولهذا لما كان هذا أمراً واضحاً جلياً، قال تعال: ﴿وكذلك نفضل الآيات﴾ أي: نبينا ونوضحها، ﴿ولعلمهم يرجعون﴾ إلى ما أودع الله في فطرهم، وإلى ما عاهدوا الله عليه، فيرتدعون عن القبائح.

﴿١٧٥﴾ ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثل كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فانقصص القصص لعلهم يتفكرون ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون﴾ يقول تعال لنبينا ﷺ: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا﴾



أي: علمناه علم كتاب الله، فصار العالم الكبير والخير التحرير.

﴿فانسَلخ منها، فأتبعه الشيطان﴾  
 أي: انسَلخ من الاتصاف الحقيقي بالعلم بآيات الله، فإن العلم بذلك، يصير صاحبه متصفاً بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ويرقى إلى أعلى الدرجات وأرفع المقامات، فترك هذا كتاب الله وراء ظهره، ونبد الأخلاق التي يأمر بها الكتاب، وخلعها كما يخلع اللباس.

فلما انسَلخ منها أتبعه الشيطان، أي: تسلط عليه حين خرج من الحصن الحصين، وصار إلى أسفل سافلين، فأزله إلى المعاصي أزلاً. ﴿فكان من الغاوين﴾ بعد أن كان من البراشدين المرشدين، وهذا لأن الله تعالى خذله ووكله إلى نفسه، فللهذا قال تعالى: ﴿ولو شئنا لرفعناه بها﴾ بأن نوقفه للعمل بها، فيرتفع في الدنيا والآخرة، فيتحصن من أعدائه.

﴿ولكنه﴾ فعل ما يقتضي الخذلان، فأخذل إلى الأرض، أي: إلى الشهوات السفلية، والمقاصد الدنيوية، ﴿وأتبع هواه﴾ وترك طاعة مولاه، ﴿فمثله﴾ في شدة حرصه على الدنيا وانقطاع قلبه إليها، ﴿كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ أي: لا يزال لاهثاً في كل حال، وهذا لا يزال

حريصاً حرصاً قاطعاً قلبه، لا يسد فاقته شيء من الدنيا.

﴿ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ بعد أن ساقها الله إليهم، فلم ينقادوا لها، بل كذبوا بها وردوها، لهوائهم على الله، واتباعهم لهوائهم، بغير هدى من الله.

﴿فانقص القصص لنقصهم يتفكرون﴾ في ضرب الأمثال، وفي العبر والآيات، فإذا تفكروا وعلموا، وإذا علموا عملوا.

﴿١٧٧﴾ ﴿ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون﴾ أي: ساء وقبح، مثل من كذب بآيات الله، وظلم نفسه بأنواع المعاصي، فإن مثلهم مثل السوء، وهذا الذي أتاه الله آياته، يحتمل أن المراد به شخص معين، قد كان منه ما ذكره الله فقص الله قصته تنبيهاً للعباد. ويحتمل أن المراد بذلك أنه اسم جنس، وأنه شامل لكل من أتاه الله آياته فانسَلخ منها.

وفي هذه الآيات الترغيب في العمل بالعلم، وأن ذلك رفعة من الله لصاحبه، وعصمة من الشيطان، والترهيب من عدم العمل به، وأنه نزول إلى أسفل سافلين، وتسليط للشيطان عليه، وفيه أن اتباع الهوى، وإخلاق العبد إلى الشهوات، يكون سبباً للخذلان.

﴿١٧٨﴾ ثم قال تعالى مبيناً أنه المنفرد بالهداية والإضلال: ﴿من يهد الله﴾ بأن يوفقه للخيرات، ويعصمه من المكروهات، ويعلمه ما لم يكن يعلم ﴿فهو المهتدي﴾ حقاً لأنه أثر هدايته تعالى، ﴿ومن يضلل﴾ فيخذله ولا يوفقه للخير ﴿فأولئك هم الخاسرون﴾ لأنفسهم وأهلهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المين.

﴿١٧٩﴾ ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم أذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ تعالى مبيناً كثرة الغاوين الضالين،

المتبعين إبليس اللعين: ﴿ولقد ذرأنا﴾ أي: أنشأنا ويشتنا ﴿لجهنم كثيراً من الجن والإنس﴾ صارت البهائم أحسن حالة منهم.

﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ أي: لا يصل إليها فقه ولا علم، إلا مجرد قيام الحاجة.

﴿ولهم أعين لا يبصرون بها﴾ ما يفقههم، بل فقدوا منفعتها وفائدتها.

﴿ولهم أذان لا يسمعون بها﴾ سماعاً يصل معناه إلى قلوبهم.

﴿أولئك﴾ الذين بهذه الأوصاف القبيحة ﴿كالأنعام﴾ أي: البهائم، التي فقدت العقول، وهؤلاء أتروا ما يفنى على ما يبقى، فسلبوا خاصية العقل.

﴿بل هم أضل﴾ من البهائم، فإن الأنعام مستعملة فيما خلقت له، ولها أذهان تدرك بها، مضرتها من منفعتها، فلذلك كانت أحسن حالاً منهم. ﴿أولئك هم الغافلون﴾ الذين غفلوا عن نفع الأشياء، غفلوا عن الإيمان بالله وطاعته وذكره.

خلقت لهم الأفتدة والأسماع والأبصار، لتكون عوناً لهم على القيام بأوامر الله وحقوقه، فاستعانوا بها على ضد هذا القصور.

فهؤلاء حقيقون بأن يكونوا ممن ذرأ الله لجهنم وخلقهم لها، فخلقهم للنار، وبأعمال أهلها يعملون.

وأما من استعمل هذه الجوارح في عبادة الله، وانصيح قلبه بالإيمان بالله وعبئته، ولم يغفل عن الله، فهؤلاء أهل الجنة، وبأعمال أهل الجنة يعملون.

﴿١٨٠﴾ ﴿والله الأسماء الحسنی فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾ هذا بيان لعظيم جلاله وسعة أوصافه، بأن له الأسماء الحسنی، أي: له كل اسم حسن، وضابطه: أنه كل اسم دال على صفة كمال عظيمة، وبذلك كانت حسنی، فإنها لو دلت على غير صفة، بل كانت علماً محضاً لم تكن حسنی، وكذلك لو دلت على صفة ليست بصفة كمال، بل إما صفة نقص أو صفة

أتمها، ولا من العقل والرأي: إلا ما فاق به العالمين، ولا يدعو إلا لكل خير، ولا ينهى إلا عن كل شر.

أفيهذا يا أولي الألباب من جنة!!؟ أم هو الإمام العظيم والناصح المبين، والماجد الكريم، والرؤوف الرحيم!!؟ ولهذا قال: ﴿إن هو إلا نذير مبين﴾ أي: يدعو الخلق إلى ما ينجيهم من العذاب، ويحصل لهم الثواب.

﴿١٨٥﴾ ﴿أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض﴾ فإنهم إذا نظروا إليها وجدوها أدلة دالة على توحيد ربها، وعلى ماله من صفات الكمال.

﴿١٨٢﴾ ﴿والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأمل لهم إن كيدي متين أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ من يضل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ أي: والذين كذبوا بآيات الله الدالة على صحة ما جاء به محمد ﷺ من الهدى فرددوها ولم يقبلوها. ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ بأن يدر لهم الأرزاق. ﴿وأمل لهم﴾ أي: أمهلهم حتى يظنوا أنهم لا يؤخذون ولا يعاقبون، فيزدادون كفراً وطغياناً، وشرّاً إلى شرهم، وبذلك تزيد عقوبتهم، ويتضاعف عذابهم، فيضرون أنفسهم من حيث لا يشعرون، ولهذا قال: ﴿إن كيدي متين﴾ أي: قوي بليغ.

وقوله: ﴿وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم﴾ أي: لينظروا في خصوص حالهم، وينظروا لأنفسهم قبل أن يقترب أجلهم، ويفجأهم الموت وهم في غفلة معرضون، فلا يتمكنون حينئذ من استدراك الفارط.

﴿فبأي: حديث بعده يؤمنون﴾ أي: إذا لم يؤمنوا بهذا الكتاب الجليل، فبأي: حديث يؤمنون به!!؟ أكتب الكذب والضلال؟ أم بحديث كل مفتر دجال؟

ولكن الضال لا حيلة فيه، ولا سبيل إلى هديته، ولهذا قال تعالى: ﴿من يضل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ أي: متحيرين<sup>(١)</sup> يترددون، لا يخرجون منه ولا يتبدون إلى حق.

﴿١٨٧﴾ ﴿يسألونك عن الساعة إيانا مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في

﴿وبه يعدلون﴾ بين الناس في أحكامهم إذا حكموا في الأمور والدماء والحقوق والمقاتلات، وغير ذلك، وهؤلاء هم أئمة الهدى، ومصابيح الدجا، وهم الذين أنعم الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وهم الصديقون الذين مرتبتهم تلي مرتبة الرسالة، وهم في أنفسهم مراتب متفاوتة كل بحسب حاله وعلو منزلته، فسبحان من يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

ومن تمام كونها «حسنى» أنه لا يدعى إلا بها، ولذلك قال: ﴿فادعوه بها﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة، فيدعى في كل مطلوب بما يناسب ذلك المطلوب، فيقول الداعي مثلاً: اللهم اغفر لي وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم، وتب علي يا تواب، وارزقني يا رزاق، والطف بي يا لطيف ونحو ذلك.

وقوله: ﴿وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾ أي: عقوبة وعذاباً على إلحادهم في أسمائه، وحقيقة الإلحاد الميل بها عما جعلت له، إما بأن يسمى بها من لا يستحقها، كتسمية المشركين بها لألتهم، وإما بنفي معانيها وتحريفها، وأن يجعل لها معنى ما أرادته الله ولا رسوله، وإما أن يشبه بها غيرها، فالواجب أن يحذر الإلحاد فيها، ويحذر الملحدون فيها، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ «أن الله سعة وتسمين اسماً، من أحصاها دخل الجنة».

منقسمة إلى المدح والقدح، لم تكن حسنى، فكل اسم من أسمائه دال على جميع الصفة التي اشتقت منها، مستغرق لجميع معناها.

وذلك نحو «العظيم» الدال على أن له علماً محيطاً عاماً لجميع الأشياء، فلا يخرج عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

و«الرحيم» الدال على أن له رحمة عظيمة واسعة لكل شيء.

و«الكافير» الدال على أن له قدرة عامة، لا يعجزها شيء، ونحو ذلك.

وقوله: ﴿وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾ أي: عقوبة وعذاباً على إلحادهم في أسمائه، وحقيقة الإلحاد الميل بها عما جعلت له، إما بأن يسمى بها من لا يستحقها، كتسمية المشركين بها لألتهم، وإما بنفي معانيها وتحريفها، وأن يجعل لها معنى ما أرادته الله ولا رسوله، وإما أن يشبه بها غيرها، فالواجب أن يحذر الإلحاد فيها، ويحذر الملحدون فيها، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ «أن الله سعة وتسمين اسماً، من أحصاها دخل الجنة».

﴿١٨١﴾ ﴿وقوله: ﴿ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ أي: ومن جملة من خلقنا أمة فاضلة كاملة في نفسها، مكملة لغيرها، يهدون أنفسهم وغيرهم بالحق، فيعلمون الحق ويعملون به، ويعلمونه، ويدعون إليه وإلى العمل به.

﴿١٨٤﴾ ﴿أولم يتفكروا ما بصاحبهم﴾ محمد ﷺ ﴿من جنة﴾ أي: أولم يعملوا أفكارهم، وينظروا هل في صاحبهم الذي يعرفونه ولا يخفى عليهم من حاله شيء، هل هو مجنون؟ فلينظروا في أخلاقه وهديه، ودلته وصفاته، وينظروا في ما دعا إليه، فلا يجدون فيه من الصفات إلا أكملها، ولا من الأخلاق إلا

نفعه ﷺ، الذي فاق نفع الآباء والأمهات، والأخلاء والإخوان بما حث العباد على كل خير، وحذرهم عن كل شر، وبينه لهم غاية البيان والإيضاح.

﴿١٨٩﴾ ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربها لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين﴾ فلما آتاها صالحاً جعل له شركاء فيما آتاها فتعالى الله عما يشركون ﴿أشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يُخلَقون﴾ ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أَدَعَوْتُهُمْ أم أنتم صامتون﴾ أي: ﴿هو الذي خلقكم﴾ أيها الرجال والنساء، المنتشرون في الأرض على كثرتكم وتفردكم. ﴿من نفس واحدة﴾ وهو آدم أبو البشر ﷺ

﴿وجعل منها زوجها﴾ أي: خلق من آدم زوجته حواء لأجل أن يسكن إليها لأنها إذا كانت منه حصل بينهما من المناسبة والموافقة ما يقتضي سكون أحدهما إلى الآخر، فانقاد كل منهما إلى صاحبه بزمam الشهوة.

﴿فلما تغشاها﴾ أي: تجملها مجامعاً لها قدر الباري أن يوجد من تلك الشهوة وذلك الجماع النسل، [وحيثاً<sup>(١)</sup>] حملت حملاً خفيفاً، وذلك في ابتداء الحمل، لا تمس به الأنثى، ولا يتقلها.

﴿فلما﴾ استمرت به و ﴿أثقلت﴾ به حين كبر في بطنها، فحيثاً صار في قلوبها الشفقة على الولد، وعلى خروجه حياً صحيحاً، سالماً لا آفة فيه<sup>(٢)</sup> [كذلك]، فدعوا الله ربها لئن آتيتنا ولدًا صالحاً﴾ أي: صالح

ويدعون ما يجب عليهم من العلم، ثم يذهبون إلى ما لا سبيل لأحد أن يدركه، ولا هم مظلون بعلمه.

﴿١٨٨﴾ ﴿قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا﴾ فلما يفتقر مدبر، لا يأتيني خير إلا من الله، ولا يدفع عني الشر إلا هو، وليس لي من العلم إلا ما علمني الله تعالى.

﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء﴾ أي: لفعلت الأسباب التي أعلم أنها تنتج لي المصالح والمنافع، ولخذرت من كل ما يفضي إلى سوء ومكره، لعلمي بالأشياء قبل كونها، وعلمي بما تفضي إليه.

ولكني - لعدم علمي - قد ينالني ما ينالني من السوء، وقد يفوتني ما يفوتني من مصالح الدنيا ومنافعها، فهذا أدل دليل على أني لا أعلم لي بالغيب.

﴿إن أنا إلا نذير﴾ أنذر العقوبات الدينية والدنيوية والأخرية، وأبين الأعمال المقضية إلى ذلك، وأحذر منها.

﴿وبشير﴾ بالشواب العاجل والأجل، ببيان الأعمال الموصلة إليه والترغيب فيها، ولكن ليس كل أحد يقبل هذه البشارة والنذارة، وإنما يتنفع بذلك ويقبله المؤمنون، وهذه الآيات الكريمات، مبنية جهل من يقصد النبي ﷺ ويدعوه لحصول نفع أو دفع ضرر.

فإنه ليس بيده شيء من الأمر، ولا يتنفع من لم يتنفعه الله، ولا يدفع الضرر عن من لم يدفعه الله عنه، ولا له من العلم إلا ما علمه الله تعالى، وإنما يتنفع من قبل ما أرسل به من البشارة والنذارة، وعمل بذلك، فهذا

السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا﴾ إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴿يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ﴾: ﴿يسألونك﴾ أي: المكذوبون لك، المعتنون ﴿عن الساعة﴾ أيان مرساها﴾ أي: متى وقتها الذي نحى به، ومتى نحل بالخلق؟

﴿قل إنما علمها عند ربي﴾ أي: إنه تعالى غنص بعلمها، ﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾ أي: لا يظهرها لوقتها الذي قدر أن تقوم فيه إلا هو.

﴿نقلت في السموات والأرض﴾ أي: خفي علمها على أهل السموات والأرض، واشتد أمرها أيضاً عليهم، فهم من الساعة مشفقون.

﴿لا تأتكم إلا بغتة﴾ أي: فجأة من حيث لا تشعرون، لم يستعدوا لها، ولم يتهيؤوا لقيامها.

﴿يسألونك كأنك حفي عنها﴾ أي: هم حريصون على سؤالك عن الساعة، كأنك مستحف عن السؤال عنها، ولم يعلموا أنك - لكمال علمك بربك، وما ينفع السؤال عنه - غير مبال بالسؤال عنها، ولا حريص على ذلك، فليهم لا يقتدون بك، ويكفون عن الاستحفاء عن هذا السؤال الخالي من المصلحة المتعذر علمه، فإنه لا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب. وهي من الأمور التي أخفاها الله عن الخلق، لكمال حكمته وسعة علمه.

﴿قل إنما علمها عند الله، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ فلذلك حرصوا على ما لا ينبغي الحرص عليه، وخصوصاً مثل حال هؤلاء الذين يتركون السؤال عن الأهم،







الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون \* وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون ﴿

أي: أي وقت، وفي أي حال ﴿ينزعنك من الشيطان نزغ﴾ أي: تحس منه بوسوسة وتسيط عن الخير، أو حث على الشر وإيعاز إليه. ﴿فاستعد بالله﴾ أي: الشجى واعتصم بالله، واحتم بحماه فإنه ﴿سميع﴾ لما تقول. ﴿عليم﴾ بنيتك وضعفك، وقوة التجانك له، فسيحملك من فتنته، ويقيك من وسوسته، كما قال تعالى ﴿قل أعوذ برب الناس﴾ إلى آخر السورة.

ولما كان العبد لا بد أن يغفل وينال منه الشيطان، الذي لا يزال مرابطاً ينتظر غرته وغفلته، ذكر تعال علامة المتقين من الغافلين، وأن المتقي إذا أحس بذنب، ومسه طائف من الشيطان، فأذنب بفعل محرم أو ترك واجب - تذكر من أي: باب أي، ومن أي: مدخل دخل الشيطان عليه، وتذكر ما أوجب الله عليه، وما عليه من لوازم الإيمان، فأبصر واستغفر الله تعالى، واستدرك ما فرط منه بالتوبة النصوح والحسنات الكثيرة، فرد شيطانه خاسئاً حسيراً، قد أسد عليه كل ما أدركه منه.

وأما إخوان الشياطين وأوليائهم، فإنهم إذا وقعوا في الذنوب، لا يزالون يمدونهم في الغي ذنباً بعد ذنب، ولا يقصرون عن ذلك، فالشياطين لا تقصر عنهم بالإغواء، لأنها طمعت فيهم حين رأتهم سلسي القياد لها، وهم لا يقصرون عن فعل الشر.

﴿٢٠٣﴾ ﴿وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتنبتنا قل إنما اتبع ما يوحى إلي من ربي هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ أي: لا يزال هؤلاء المكذبون لك في تعنت وعناد،

لرسول الله ﷺ، فنحسبهم ينظرون إليك يا رسول الله نظر اعتبار يتبين به الصادق من الكاذب، ولكنهم لا يبصرون حقيقتك وما يتوسمه المترسومون فيك من الجمال والكمال والصدق.

﴿١٩٩﴾ ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ هذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم، فالذي ينبغي أن يعامل به الناس، أن يأخذ العفو، أي: ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق، فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم، بل يشكر من كل أحد ما قبله به، من قول وفعل جميل، أو ما هو دون ذلك، ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض طرفه عن نقصهم، ولا يتكبر على الصغير لصغره، ولا ناقص العقل لنقصه، ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بما تقتضيه الحال وتشرح له صدورهم.

﴿وأمر بالعرف﴾ أي: بكل قول حسن وفعل جميل، وخلق كامل للمقرب والبعيد، فأجعل ما يأتي إلى الناس منك، إما تعليم علم، أو حث على خسر، من صلة رحم، أو بزر والدين، أو إصلاح بين الناس، أو نصيحة نافعة، أو رأي: مصيب، أو معارضة على بر وتفوى، أو زجر عن قبيح، أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية أو دنيوية، ولما كان لا بد من أدية الجاهل، أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل، بالإعراض عنه وعدم مقابله بجهله، فمن أذاك بقوله أو فعله لا تؤذه، ومن حرمك لا تحرمه، ومن قطعك فصله، ومن ظلمك فاعدل فيه.

وأما ما ينبغي أن يعامل به العبد شياطين الإنس والجن، فقال تعالى: ﴿٢٠٠﴾ ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعد بالله إنه سميع عليم﴾ إن

لا يسمعون وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴿ وهذا أيضاً في بيان عدم استحقاق هذه الأصنام التي يعبدونها من دون الله لشيء من العبادة، لأنها ليس لها استطاعة ولا اقتدار في نصر أنفسهم، ولا في نصر عابديها، وليس لها قوة العقل والاستجابة، فلو دعوتها إلى الهدى لم تهتد، وهي صور لا حياة فيها، فتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون حقيقة، لأنهم صوروها على صور الحيوانات من الأدميين أو غيرهم، وجعلوا لها أوصاراً وأعضاء، فإذا رأيتها قلت: هذه حية، فإذا تأملتها عرفت أنها جمادات لا حراك بها، ولا حياة، فبأي: رأي اتخذها المشركون الهة مع الله؟ ولأي: مصلحة أو نفع عكفوا عندها وتقربوا لها بأنواع العبادات؟

فإذا عرف هذا، عرف أن المشركين وآلهتهم التي يعبدوها، ولو اجتمعوا وأرادوا أن يكييدوا من تولاها فاطر الأرض والسموات، منتولي أحوال عباده الصالحين، لم يقدروا على كيده بمنقال ذرة من الشر، لكمال عجزهم وعجزها، وكمال قوة الله واقتداره، وقوة من احتسى بجلاله وتوكل عليه.

وقيل: إن معنى قوله: ﴿وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾ أن الضمير يعود إلى المشركين المكذبين

لقد ربيتهذا الرّب عرفتك فإني كنت حاكماً لله عز وجل أنزلت  
 ينصرونه وبالذين ﴿٢٠٦﴾ وألف بيت قلوبهم أو ألفت  
 ما في الأضراسي مما أتت آياتهم قلوبهم ولكن الله أكف  
 بينهم الله بصيرة مستجيبة ﴿٢٠٧﴾ يكلمها النبي مستجيبة لله  
 ومن أعتادون المؤمنين ﴿٢٠٨﴾ قالها النبي حزين  
 المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابراً  
 نضربوا المشركين وإن يكن منكم يائة فليؤا المشركين  
 الذين كفروا بالله يومئذ لا يحسنون ﴿٢٠٩﴾ الذين كفروا  
 بالله عداً وعدواً وإن يكمنوا فإن يكمنوا يكمنوا بالله  
 صابراً فليؤا المشركين وإن يكن منكم ألف فليؤا المشركين  
 الذين كفروا بالله يومئذ لا يحسنون ﴿٢١٠﴾ ما سئل النبي أن يكفر  
 بأحد منكم حتى يبين له الأجر من ذلك أو ينهه عن ذلك  
 يريد الأجر والله خير بما يرى ﴿٢١١﴾ ولا يحسنون الله  
 سئل منكم عن رجل فرغ من خطبة ﴿٢١٢﴾ فخطبوا  
 تحت من خلفه وألقوا الله إن الله عز وجل ﴿٢١٣﴾

والحبيبة في الاشتغال به، وهذه من الآداب التي ينبغي للعبد أن يراعها حق رعايتها، وهي الإكثار من ذكر الله أثناء الليل والنهار، خصوصاً طرّف في النهار، مخلصاً خاشعاً متضرعاً، متذللاً، ساكناً، وتواطئ عليه قلبه ولسانه، بأدب ووقار، وإقبال على الدعاء والذكر، وإحضار له بقلبه وعدم غفلة، فإن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه.

ثم ذكر تعالى أن له عباداً مستديمين لعبادته، ملازمين لخدمته وهم الملائكة، فلتعلموا أن الله لا يريد أن ينكر بعبادته من قلة، ولا ليتعزز بها من ذلة، وإنما يريد نفع أنفسكم، وأن تريحوا عليه أضعاف أضعاف ما عملتم، فقال: ﴿إن الذين عند ربك من الملائكة القريبين، وحلة العرش والكروبيين﴾ لا يستكبرون عن عبادته بل يذعنون لها وينقادون لأوامر ربهم ﴿ويسبحونه﴾ الليل والنهار لا يفترون.

﴿وله﴾ وحده لا شريك له ﴿يسجدون﴾ فليقتد العباد بهؤلاء الملائكة الكرام، وليداوموا [على] عبادة الملك العلام.

تم تفسير سورة الأعراف  
 والله الحمد والشكر والثناء  
 وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم

ولو جاءهم الآيات الدالة على الهدى والرشاد، فإذا جنتهم بشيء من الآيات الدالة على صدقك لم يقادوا.

﴿وإذا لم تأتهم آية﴾ من آيات الاقتراح التي يعينونها ﴿قالوا لولا اجتبيتها﴾ أي: هلا اخترت الآية، فصارت الآية الفلانية، أو المعجزة الفلانية كأنك أنت المنزل للآيات، المدير لجميع المخلوقات، ولم يعلموا أنه ليس لك من الأمر شيء، أو أن المعنى: لولا اخترتها من نفسك.

ومن أؤكد ما يؤمر به مستمع القرآن، أن يستمع له وينصت في الصلاة الجهرية إذا قرأ إمامه، فإنه مأمور بالإنصات، حتى إن أكثر العلماء يقولون: إن اشتغاله بالإنصات، أولى من فرائض الفاتحة وغيرها.

﴿قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي﴾ فأنا عبد متبع مدبر، والله تعالي هو الذي ينزل الآيات ويرسلها على حسب ما اقتضاه حده وطلبته حكمته البالغة، فإن أردتم آية لا تضمحل على تعاقب الأوقات، وحجة لا تبطل في جميع الآتات، فهذا القرآن العظيم والذكر الحكيم ﴿بصائر من ربكم﴾ يستبصر به في جميع المطالب الإلهية والمقاصد الإنسانية، وهو الدليل والمدلول فمن تفكر فيه وتدبره، علم أنه تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبه قامت الحجة على كل من بلغه، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون، وإلا فمن آمن، فهو ﴿هدى﴾ له من الضلال ﴿ورحمة﴾ له من الشقاء، فالؤمن مهتد بالقرآن، متبع له، سعيد في دنياه وآخره.

﴿٢٠٥ - ٢٠٦﴾ ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالخشو والأصال ولا تكن من الغافلين﴾ إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ﴿الذكر﴾ الله تعالى يكون بالقلب، ويكون باللسان، ويكون بهما، وهو أكمل أنواع الذكر وأحواله، فأمر الله عبده ورسوله محمداً أصلاً، وغيره تبعاً بذكر ربه، في نفسه، أي: مخلصاً خالياً.

﴿تضرعاً﴾ أي: متضرعاً بلسانك، مكرراً لأنواع الذكر، ﴿وخيفة﴾ في قلبك بأن تكون خائفاً من الله، ووجل القلب منه، خوفاً أن يكون عملك غير مقبول، وعلامة الخوف أن يسعى ويجتهد في تكميل العمل وإصلاحه، والنصح به.

وأما من لم يؤمن به، فإنه ضال شقي في الدنيا والآخرة.

﴿٢٠٤﴾ ﴿وإذا قرء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾ هذا الأمر عام في كل من سمع كتاب الله يتلى، فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات، والفرق بين الاستماع والإنصات، أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه.

وأما الاستماع له، فهو أن يلقى سمعه، ويحضر قلبه ويتدبر ما يستمع، فإن من لازم على هذين الأمرين حين

فرائض ونوافل، بأعمالها الظاهرة والباطنة، كحضور القلب فيها، الذي هو روح الصلاة ولبها، ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ النفقات الواجبة، كالزكوات، والكفارات، والنفقة على الزوجات والأقارب، وما ملكت أيامهم، والمستحبة كالصدقة في جميع طرق الخير.

﴿أولئك﴾ الذي اتصفوا بتلك الصفات ﴿هم المؤمنون حقاً﴾ لأنهم جمعوا بين الإسلام والإيمان، بين الأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، بين العلم والعمل، بين أداء حقوق الله وحقوق عباده.

وقدم تعالى أعمال القلوب، لأنها أصل لأعمال الجوارح وأفضل منها، وفيها دليل على أن الإيمان، يزيد وينقص، فيزيد بفعل الطاعة وينقص بضعها.

وأنه ينبغي للعبد أن يتعاهد إيمانه وينمي، وإن أولى ما يحصل به ذلك تدبر كتاب الله تعالى والتأمل لمعانيه. ثم ذكر ثواب المؤمنين حقاً فقال: ﴿لهم درجات عند ربهم﴾ أي: عالية بحسب علو أعمالهم ﴿ومغفرة﴾ لذنوبهم ﴿ورزق كريم﴾ وهو ما أعد الله لهم في دار كرامته، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ودل هذا على أن من لم يصل إلى درجتهم في الإيمان - وإن دخل الجنة - فلن يتال ما نالوا من كرامة الله التامة.

﴿هـ - ٨﴾ ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾ يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴿وإذ يمدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين﴾ ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴿قدم تعالى - أمام هذه الغزوة الكبرى المباركة - الصفات التي على المؤمنين أن يقوموا بها، لأن من قام

أصلحوا ما بينكم من التشاحن والتقاطع والتدابير، بالتوادد والتحاب والتواصل. فبذلك تجتمع كلمتكم، ويوزل ما يحصل - بسبب التقاطع - من التخاصم، والتشاجر والتنازع.

ويدخل في إصلاح ذات البين تحسين الخلق لهم، والعفو عن المسيئين منهم فإنه بذلك يزول كثير مما يكون في القلوب من البغضاء والتدابير، والأمر الجامع لذلك كله قوله: ﴿وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾ فإن الإيمان يدعو إلى طاعة الله ورسوله، كما أن من لم يطع الله ورسوله فليس بمؤمن.

ومن نقصت طاعته لله ورسوله، فذلك لنقص إيمانه، ولما كان الإيمان قسماً: إيماناً كاملاً يترتب عليه المدح والثناء، والفوز التام، وإيماناً دون ذلك ذكر الإيمان الكامل فقال: ﴿إنما المؤمنون﴾ الألف واللام للاستغراق لشرائع الإيمان.

﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ أي: خافت ورهبت، فأرجبت لهم خشية الله تعالى الانكفاف عن المحارم، فإن خوف الله تعالى أكبر علاماته أن يحجز صاحبه عن الذنوب.

﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾ ووجه ذلك أنهم يلقون له السمع ويحضرون قلوبهم لتدبره فعند ذلك يزيد إيمانهم، لأن التدبر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى كانوا يجهلون، أو يتذكرون ما كانوا نسوه، أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير، واشتياقاً إلى كرامة ربهم، أو وجلاً من العقوبات، وازدجاراً عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان.

﴿وعلى ربهم﴾ وحده لا شريك له ﴿يتوكلون﴾ أي: يعتمدون في قلوبهم على ربهم في جلب مصالحهم ودفع مضارهم الدينية والدنيوية، ويشقون بأن الله تعالى سيفعل ذلك.

والتوكل هو الحامل للأعمال كلها، فلا توجد ولا تكمل إلا به.

﴿الذين يقيمون الصلاة﴾ من



### تفسير سورة الأنفال وهي مدنية

﴿١ - ٤﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ﴿الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾ أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴿الأنفال هي الغنائم التي ينفلها الله لهذه الأمة من أموال الكفار، وكانت هذه الآيات في هذه السورة قد نزلت في قصة «بلدر» أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون من المشركين، فحصل بين بعض المسلمين فيها نزاع، فسألوا رسول الله ﷺ عنها، فأنزل الله: ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ كيف تقسم وعلى من تقسم؟

﴿قل﴾ لهم: الأنفال لله ورسوله يضعانها حيث شاء، فلا اعتراض لكم على حكم الله ورسوله، بل عليكم إذا حكم الله ورسوله أن ترضوا بحكمتها، وتسلموا الأمر لهما، وذلك داخل في قوله: ﴿فاتقوا الله﴾ بامتثال أوامره واجتنب نواهيه. ﴿وأصلحوا ذات بينكم﴾ أي:

﴿إن الله عزيز﴾ لا يغالبه مغالب، بل هو القهار، الذي يجذل من بلغوا من الكثرة وقوة العدد والآلات ما بلغوا. ﴿حكيم﴾ حيث قدر الأمور بأسبابها، ووضع الأشياء مواضعها.

ووبن نصره واستجابته لدعائكم أن أنزل عليكم نعاماً ﴿يفشيكم﴾ [أي] فيذهب ما في قلوبكم من الخوف والوجل، ويكون ﴿أمنة﴾ لكم وعلامة على النصر والطمأنينة.

ومن ذلك: أنه أنزل عليكم من السماء مطراً ليطهركم به من الحدث والخبث، ويطهركم به من وساوس الشيطان ورجزه.

﴿وليربط على قلوبكم﴾ أي: يشبثها فإن ثبات القلب، أصل ثبات البدن، ﴿ويثبت به الأقدام﴾ فإن الأرض كانت سهلة دهمه فلما نزل عليها المطر تلبت، وثبتت به الأقدام.

ومن ذلك: أن الله أوحى إلى الملائكة ﴿أني معكم﴾ بالعون والنصر والتأييد، ﴿فثبتوا الذين آمنوا﴾ أي: ألقوا في قلوبهم، وألهموهم الجراءة على عدوهم، ورغبوهم في الجهاد وفضله.

﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ الذي هو أعظم جند لكم عليهم، فإن الله إذا ثبت المؤمنين وألقى الرعب في قلوب الكافرين، لم يقدر الكافرون على الشبث لهم، ومنحهم الله أكتافهم.

﴿فاضربوا فوق الأعناق﴾ أي: على الرقاب واضربوا منهم كل بنان. أي: مفصل.

وهذا خطاب، إما للملائكة الذين أوحى الله إليهم أن يثبتوا الذين آمنوا، فيكون في ذلك دليل أنهم باثروا القتال يوم بدر، أو للمؤمنين يشجعهم الله، ويعلمهم كيف يقتلون المشركين، وأنهم لا يرحمونهم، وذلك لأنهم شاقوا الله ورسوله أي: حاربوهما وبارزوهما بالعداوة. ﴿ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب﴾ ومن عقابه

بالتفجير، فأحبوا العير لقله ذات يد المسلمين، ولأنها غير ذات شوكة، ولكن الله تعالى أحب لهم وأراد أمراً أعلى مما أحبوا.

أراد أن يظفروا بالتفجير الذي خرج فيه كبراء المشركين وصناديدهم، ﴿ويريد الله أن يحق الحق بكلماته﴾ فينصر أهله ﴿ويقطع دابر الكافرين﴾ أي: يستأصل أهل الباطل، ويُرِي عباده من نصره للحق أمراً لم يكن يحظر بهالهم.

﴿ليحق الحق﴾ بما يظهر من الشواهد والبراهين على صحته وصدقه، ﴿ويظلل الباطل﴾ بما يفيم من الأدلة والشواهد على بطلانه ﴿ولو كره المجرمون﴾ فلا يبالي الله بهم.

﴿٩ - ١٤﴾ ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾ وما جعله الله إلا بشري ولتظمنن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم \* إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام \* إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان \* ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب \* ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار﴾ أي: اذكروا نعمة الله عليكم، لما قارب التفاؤكم بعودكم، استغثتم بربكم، وطلبتم منه أن يعينكم وينصركم ﴿فاستجاب لكم﴾ وأعانكم بعدة أمور:

منها: أن الله أمدكم ﴿بألف من الملائكة مردفين﴾ أي: يردف بعضهم بعضاً، ﴿وما جعله الله﴾ أي: إنزال الملائكة ﴿إلا بشري﴾ أي: لتستبشر بذلك نفوسكم، ﴿ولتظمنن به قلوبكم﴾ وإلا فالنصر بيد الله، ليس بكثرة عدد ولا عُدو.

بها استقامت أحواله وصلحت أعماله، التي من أكبرها الجهاد في سبيله.

فكما أن إيمانهم هو الإيمان الحقيقي، وجزاءهم هو الحق الذي وعدهم الله به، كذلك أخرج الله رسوله ﷺ من بيته إلى لقاء المشركين في «بدر» بالحق الذي يجب على الله تعالى، وقد قدره وقضاه.

وإن كان المؤمنون لم يحظر بهالهم في ذلك الخروج أنه يكون بينهم وبين عدوهم قتال.

فحين تبين لهم أن ذلك واقع، جعل فريق من المؤمنين يجادلون النبي ﷺ في ذلك، ويكرهون لقاء عدوهم، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون.

والحال أن هذا لا ينبغي منهم، خصوصاً بعدما تبين لهم أن خروجهم بالحق، ومما أمر الله به ورضيه، فبهذه الحال ليس للجدال محل [فيها]، لأن الجدال محل وفائدته عند اشتباه الحق والتهباس الأمر، فأما إذا وضع ويان، فليس إلا الانقياد والإذعان.

هذا وكثير من المؤمنين لم يجز منهم من هذه المجادلة شيء، ولا كرهوا لقاء عدوهم، وكذلك الذين عاتبهم الله، انفادوا للجهاد أشد الانقياد، وثبتهم الله، وقبض لهم من الأسباب ما تظمنن به قلوبهم كما سيأتي ذكر بعضها.

وكان أصل خروجهم يتعرضون لعير خرجت مع أبي سفيان بن حرب لقريش إلى الشام، قافلة كبيرة، فلما سمعوا يرجوعها من الشام، ندب النبي ﷺ الناس، فخرج معه ثلاث مئة، وبضعة عشر رجلاً، معهم سبعون بعييراً، يمتقبون عليها، ويحملون عليها متاعهم، فسمعت بخبرهم قریش، فخرجوا لمنع عيرهم، في عدد كثير وغدة وافرة من السلاح والخيل والرجال، يبلغ عددهم قريباً من الألف.

فوعد الله المؤمنين إحدى الطائفتين، إما أن يظفروا بالعير، أو

تسليط أوليائه على أعدائه وتقتيلهم .  
**﴿ذلكم﴾** الحذاب المذكور  
**﴿فدوقوه﴾** أي المشاققون لله ورسوله  
 عذاباً معجلاً ، **﴿وأن للكافرين عذاب**  
**النار﴾** .

وفي هذه القصة من آيات الله  
 العظيمة ما يدل على أن ما جاء به  
 محمد ﷺ رسول الله حقاً .  
 منها : أن الله وعدهم وعداً ،  
 فأنجزهموه .

ومنها : ما قال الله تعالى : **﴿قد كان**  
**لكم آية في فتنتي الثقتا فنة نقاتل في**  
**سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم**  
**رأي العين﴾** الآية .

ومنها : إجابة دعوة الله للمؤمنين لما  
 استغاثوه بما ذكره من الأسباب ، وفيها  
 الاعتناء العظيم بحال عباده المؤمنين ،  
 وتقييض الأسباب التي بها ثبت  
 إيمانهم ، وثبت أقدامهم ، وزال عنهم  
 المكروه والوساوس الشيطانية .

ومنها : أن من لطف الله بعبده أن  
 يسهل عليه طاعته ، ويسرها بأسباب  
 داخلية وخارجية .

**﴿١٥ - ١٦﴾** **﴿يا أيها الذين آمنوا**  
**إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم**  
**الأبدان \* ومن يولهم يومئذ دبره إلا**  
**متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء**  
**بغضب من الله وماواه جهنم وبئس**  
**المصير﴾** يأمر تعالى عباده المؤمنين  
 بالشجاعة الإيمانية ، والقوة في أمره ،  
 والسعي في جلب الأسباب القوية  
 للقلوب والأبدان ، ونهاهم عن الفرار  
 إذا التقى الزحفان ، فقال : **﴿يا أيها**  
**الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا**  
**زحفاً﴾** أي : في صف القتال ،  
 وتزاحف الرجال ، واقترب بعضهم  
 من بعض ، **﴿فلا تولوهم الأبدان﴾** بل  
 اثبتوا لقتالهم ، واصبروا على جلادهم ،  
 فإن في ذلك نصرة لدين الله ، وقوة  
 لقلوب المؤمنين ، وإرهاقاً للكافرين .

**﴿ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً**  
**لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء﴾** أي :  
 رجع **﴿بغضب من الله وماواه﴾** أي :  
 مقره **﴿جهنم وبئس المصير﴾**  
 وهذا يدل على أن الفرار من الزحف

من غير عذر من أكبر الكبائر ، كما  
 وردت بذلك الأحاديث الصحيحة  
 وكما نص هنا على وعيده بهذا الوعيد  
 الشديد .

ومفهوم الآية : أن المتحرف للقتال ،  
 وهو الذي يتحرف من جهة إلى أخرى ،  
 ليكون أمكن له في القتال ، وأنكى  
 لعدوه ، فإنه لا بأس بذلك ، لأنه لم  
 يول دبره فأراً ، وإنما ولى دبره ليستعلي  
 على عدوه ، أو يأتيه من محل يصيب فيه  
 غرته ، أو ليخدعه بذلك ، أو غير ذلك  
 من مقاصد المحاربين ، وأن التحيز إلى  
 فئة تمنعه وتعيه على قتال الكفار ، فإن  
 ذلك جائز ، فإن كانت الفئسة في  
 العسكر ، فالأمر في هذا واضح ، وإن  
 كانت الفئسة في غير محل المعركة كانهزام  
 المسلمين بين يدي الكافرين والتجاهتهم  
 إلى بلد من بلدان المسلمين أو إلى عسكر  
 آخر من عسكر المسلمين ، فقد ورد من  
 آثار الصحابة ما يدل على أن هذا جائز ،  
 ولعل هذا يقيد بما إذا ظن المسلمون أن  
 الانهزام أحد عاقبة ، وأبقى عليهم .

أما إذا ظنوا غلبتهم للكفار في  
 ثباتهم لقتالهم ، فيبعد - في هذه  
 الحال - أن تكون من الأحوال المرخص  
 فيها ، لأنه - على هذا - لا يتصور  
 الفرار المنهي عنه ، وهذه الآية مطلقة ،  
 وسياق في آخر السورة تقييدها بالعدد .

**﴿١٧ - ١٩﴾** **﴿فلم تقتلوهم ولكن**  
**الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله**  
**رمى وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً إن**  
**الله سميع عليم \* ذلكم وأن الله موهن**  
**كيد الكافرين \* إن تستفتحوا فقد**  
**جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم**  
**وإن تعودوا نعد ولن تغني عنكم فتكم**  
**شيئاً ولو كثرتم وأن الله مع المؤمنين﴾**  
**يقول تعالى - لما انهزم المشركون يوم**  
**بدر ، وقتلهم المسلمون - ﴿فلم**  
**تقتلوهم﴾** بحولكم وقوتكم  
**﴿ولكن الله قتلهم﴾** حيث أعانكم على  
 ذلك بما تقدم ذكره .

**﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله**  
**رمى﴾** وذلك أن النبي ﷺ وقت القتال  
 دخل العريش وجعل يدعو الله ،  
 ويناشده في نصرته ، ثم خرج منه ،

فأخذ حفنة من تراب ، فرماها في  
 وجوه المشركين ، فأوصلها الله إلى  
 وجوههم ، فما بقي منهم واحد إلا وقد  
 أصاب وجهه ، ورمه وعينه منها ،  
 فحينئذ انكسر حدهم ، وفر زندهم ،  
 وبان فيهم الفشل والضعف ، فأنهزموا .

يقول تعالى لنبيه : **لست بقوتك -**  
**حين رميت التراب - أوصلته إلى**  
**أعينهم ، وإنما أوصلناه إليهم بقوتنا**  
**واقْتدارنا ، ﴿وليبلي المؤمنين منه بلاء**  
**حسناً﴾** أي : إن الله تعالى قادر على  
 انتصار المؤمنين من الكافرين ، من دون  
 مباشرة قتال ، ولكن الله أراد أن  
 يمنح المؤمنين ، ويوصلهم بالجهاد إلى  
 أعلى الدرجات ، وأرفع المقامات ،  
 ويعطيهم أجراً حسناً وثواباً جزيلاً .

**﴿إن الله سميع عليم﴾** يسمع تعالى  
 ما أسر به العبد وما أعلن ، ويعلم ما في  
 قلبه من النيات الصالحة وضدها ،  
 فيقدر على العباد أقداراً موافقة لعلمه  
 وحكمته ومصالحة عباده ، ويميزي كلا  
 بحسب نيته وعمله .

**﴿١٨﴾** **﴿ذلكم﴾** النصر من الله  
 لكم **﴿وأن الله موهن كيد الكافرين﴾**  
 أي : مضعف كل مكر وكيد يكيّدون به  
 الإسلام وأهله ، وجاعل مكرهم عيفاً  
 بهم .

**﴿١٩﴾** **﴿إن تستفتحوا﴾** أيها  
 المشركون ، أي : تطلبوا من الله أن  
 يوقع بأسه وعذابه على المعتدين  
 الظالمين .

**﴿فقد جاءكم الفتح﴾** حين  
 أوقع الله بكم من عقابه ، ما كان نكالاً  
 لكم وعبرة للمتقين **﴿وإن تنتهوا﴾** عن  
 الاستفتاح **﴿فهو خير﴾** لأنه ربما  
 أمهلتكم ، ولم يجعل لكم النعمة . **﴿وإن**  
**تعودوا﴾** إلى الاستفتاح وقتال  
 حزب الله المؤمنين **﴿نعد﴾** في نصرهم  
 عليكم .

**﴿ولن تغني عنكم فتكم﴾** أي :  
 أعوانكم وأنصاركم ، الذين تحاربون  
 وتقاتلون ، معتمدين عليهم ، شيئاً  
 وأن الله مع المؤمنين .

ومن كان الله معه فهو منصور وإن  
 كان ضعيفاً قليلاً عدده ، وهذه المعية



الرابع: الأجر العظيم والشواب الجزيل لمن اتقاه وآثر رضاه على هوى نفسه. ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾

﴿٣٠﴾ ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ أي: ﴿و﴾ اذكر أيها الرسول، ما من الله به<sup>(١)</sup> عليك. ﴿إذ يمكر بك الذين كفروا﴾ حين تشاور المشركون في دار الندوة فيما يصنعون بالنبي ﷺ، إما أن يثبتوه عندهم بالحبس ويوثقوه.

﴿وإما أن يقتلوه فيستريحوا - بزعمهم - من شره.

﴿وإما أن يخرجوه ويحلبوه من ديارهم.

فكلُّ أحدى من هذه الآراء رأياً رآه، فاتفق رأيهم على رأي: رآه شريهم أبو جهل لعنه الله، وهو أن يأخذوا من كل قبيلة من قبائل فريش فتي ويعطوه سيفاً صارماً، ويقتله الجميع قتلة رجل واحد، ليتفرق دمه في القبائل فيرضى بنو هاشم<sup>(٢)</sup> أيديته، فلا يقدرون على مقاومة سائر<sup>(٣)</sup> فريش، فترصدوا للنبي ﷺ في الليل ليوقعوا به إذا قام من فراشه.

فجاءه الوحي من السماء، وخرج عليهم، فذُرَّ على رؤوسهم التراب وخرج، وأعمى الله أبصارهم عنه، حتى إذا استبطؤوه جاءهم آت وقال: خيبكم الله، قد خرج محمد وذُرَّ على رؤوسكم التراب.

فنفذ كل منهم التراب عن رأسه، ومنع الله رسوله منهم، وأذن له في الهجرة إلى المدينة، فهاجر إليها، وأيده الله بأصحابه المهاجرين والأنصار، ولم يزل أمره يعلو حتى دخل مكة عنوة، وقهر أهلها، فأذعنوا له وصاروا تحت حكمه، بعد أن خرج

الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً، فمن أدى الأمانة استحق من الله الشواب الجزيل، ومن لم يؤدها بل خانها استحق العقاب الويل، وصار خائناً لله وللرسول ولأمانته، منقصاً لنفسه بكونه اتصفت نفسه بأخص الصفات، وأقبح الشيات، وهي الخيانة مفوتاً لها أكمل الصفات وأتمها، وهي الأمانة.

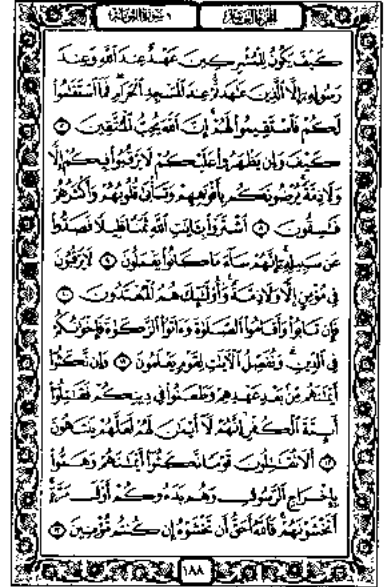
ولما كان العبد محتجناً بأمراله وأولاده، فربما حله محبة<sup>(٤)</sup> ذلك على تقديم هوى نفسه على أداء أمانته، أخبر الله تعالى أن الأموال والأولاد فتنة يتبلى الله بهما عباده، وأنها عارية ستزود لمن أعطهاها، وترد لمن استودعها ﴿وأن الله عنده أجر عظيم﴾

فإن كان لكم عقل ورأي، فأثروا فضله العظيم على لذة صغيرة فانية مضمحلة، فالعادل يوازن بين الأشياء، ويؤثر أولها بالإبشار، وأحقها بالتقديم.

﴿٢٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إن اتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم﴾ امتثال العبد لتقوى ربه عنوان السعادة، وعلامة الضلال، وقد رتب الله على التقوى من خير الدنيا والآخرة شيئاً كثيراً، فذكر هنا أن من اتقى الله حصل له أربعة أشياء، كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها:

الأول: الفرقان: وهو العلم والهدى الذي يفرق به صاحبه بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والحلال والحرام، وأهل السعادة من أهل الشقاوة.

الثاني والثالث: تكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وكل واحد منهما داخل في الآخر عند الإطلاق وعند الاجتماع. يفسر تكفير السيئات بالذنوب الصغائر، ومغفرة الذنوب بتكفير الكبائر.



يتخطفكم الناس فأواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون﴾ يقول تعالى مبتدئاً على عباده في نصرهم بعد الذلة، وتكثيرهم بعد القلة، وإغنائهم بعد العيلة.

﴿واذكروا إذا أنتم قليل مستضعفون في الأرض﴾ أي: مقهورون تحت حكم غيركم ﴿تخافون أن يتخطفكم الناس﴾ أي: يأخذونكم.

﴿فأواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات﴾ فجعل لكم بلداً تأرون إليه، وانتصر من أعدائكم على أيديكم، وغنمتم من أموالهم ما كنتم به أغنياء.

﴿لعلكم تشكرون﴾ الله على منته العظيمة وإحسانه التام، بأن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً.

﴿٢٧ - ٢٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يودوا ما اتمنهم الله عليه من أوامره ونواهيها، فإن الأمانة قد عرضها الله على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها

(١) في ب: محبة.

(٢) في النسختين: ما من الله بك عليك.

(٣) في ب: جميع.

مستخفياً منهم، خائفاً على نفسه. فسبحان اللطيف بعبد الذي لا يغالبه مغالب.

﴿٣١ - ٣٤﴾ وقوله: ﴿وإذا نزل عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ \* وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم \* وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون \* وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياء إن أُوليائِهِ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿يقول تعالى في بيان عناد المكذبين للرسول ﷺ﴾: ﴿وإذا نزل عليهم آياتنا﴾ الدالة على صدق ما جاء به الرسول.

﴿قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ وهذا من عنادهم وظلمهم، وإلا فقد تحداهم الله أن يأتوا بسورة من مثله، ويدعوا من استطاعوا من دون الله، فلم يقدرُوا على ذلك، وتبين عجزهم.

فهذا القول الصادر من هذا القائل مجرد دعوى، كذبه الواقع، وقد علم أنه ﷺ أمي لا يقرأ ولا يكتب، ولا رحل ليدرس من أخبار الأولين، فأثنى بهذا الكتاب الجليل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

﴿وإذا قالوا اللهم إن كان هذا الذي يدعوا إليه محمد ﴿هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ قالوه على وجه الجزم منهم بإطلمهم، والجهل بما ينبغي من الخطاب.

فلو أنهم إذ أقاموا على باطلهم من الشبه والتعميمات ما أوجب لهم أن يكونوا على بصيرة ويقيم منة، قالوا لمن ناظرهم وادعى أن الحق معه: إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له، لكان أولى لهم وأستر لظلمهم.

فمد قالوا: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك الآية، علم بمجرد قولهم أنهم السفهاء الأغبياء، الجهلة الظالمون، فلو عاجلهم الله بالعقاب لما أبقى منهم بقية، ولكنه تعالى دفع عنهم العذاب بسبب وجود الرسول بين أظهرهم، فقال: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ فوجوده ﷺ بين أظهرهم أمة لهم من العذاب.

وكانوا مع قولهم هذه المقالة التي يظهرونها على رؤوس الأشهاد، يدرون يقبحها، فكانوا يخافون من وقوعها فيهم، فيستغفرون الله تعالى فلهاذا قال تعالى: ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾.

فهذا مانع يمنع من وقوع العذاب بهم، بعدما انعقدت أسبابه، ثم قال: ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله﴾ أي: أي شيء يمنعه من عذاب الله، وقد فعلوا ما يوجب ذلك، وهو صد الناس عن المسجد الحرام، خصوصاً صدهم النبي ﷺ وأصحابه، الذين هم أولى به منهم، ولهذا قال: ﴿وما كانوا﴾ أي: المشركون ﴿أولياء﴾. يحتمل أن الضمير يعود إلى الله، أي: أولياء الله. ويحتمل أن يعود إلى المسجد الحرام، أي: وما كانوا أولى به من غيرهم. إن أُوليائِهِ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وهم الذين آمنوا بالله ورسوله، وأفردوا الله بالتوحيد والعبادة، وأخلصوا له الدين، ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ فلذلك ادعوا لأنفسهم أمراً غيرهم أولى به.

﴿٣٥﴾ ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ يعني أن الله تعالى إنما جعل بيته الحرام ليقام فيه دينه، وتخلص له فيه العبادة، فالؤمنون هم الذين قاموا بهذا الأمر، وأما هؤلاء المشركون الذي يصدون عنه، فما كان صلاتهم فيه التي هي أكبر أنواع العبادات ﴿إلا مكاء وتصدية﴾ أي: صفيراً وتصفيقاً، فعل الجهلة الأغبياء، الذين ليس في قلوبهم تعظيم لربهم، ولا معرفة بحقوقه، ولا احترام

﴿٣٦ - ٣٧﴾ ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فيسئفون بها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون \* ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بمضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون﴾ يقول تعالى مبيناً لعداوة المشركين وكيدهم ومكرهم، ومبارزتهم لله ورسوله، وسعيهم في إطفاء نوره وإخاد كلمته، وأن وبال مكرهم سيعود عليهم، ولا يبين المكر السيئ إلا بأهله، فقال: ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن

تَنبِيْهُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَصْطَلِحُونَ فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكْفُرُ عَنْهُمْ وَإِنَّ لَهُمُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَصْطَلِحُونَ فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكْفُرُ عَنْهُمْ وَإِنَّ لَهُمُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَصْطَلِحُونَ فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكْفُرُ عَنْهُمْ وَإِنَّ لَهُمُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَصْطَلِحُونَ فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكْفُرُ عَنْهُمْ وَإِنَّ لَهُمُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَصْطَلِحُونَ فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكْفُرُ عَنْهُمْ وَإِنَّ لَهُمُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَصْطَلِحُونَ فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكْفُرُ عَنْهُمْ وَإِنَّ لَهُمُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَصْطَلِحُونَ فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكْفُرُ عَنْهُمْ وَإِنَّ لَهُمُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٤٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَصْطَلِحُونَ فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكْفُرُ عَنْهُمْ وَإِنَّ لَهُمُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٤٣﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَصْطَلِحُونَ فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكْفُرُ عَنْهُمْ وَإِنَّ لَهُمُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٤٤﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَصْطَلِحُونَ فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكْفُرُ عَنْهُمْ وَإِنَّ لَهُمُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٤٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَصْطَلِحُونَ فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكْفُرُ عَنْهُمْ وَإِنَّ لَهُمُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَصْطَلِحُونَ فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكْفُرُ عَنْهُمْ وَإِنَّ لَهُمُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٤٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَصْطَلِحُونَ فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكْفُرُ عَنْهُمْ وَإِنَّ لَهُمُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَصْطَلِحُونَ فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكْفُرُ عَنْهُمْ وَإِنَّ لَهُمُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٤٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَصْطَلِحُونَ فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكْفُرُ عَنْهُمْ وَإِنَّ لَهُمُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَصْطَلِحُونَ فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكْفُرُ عَنْهُمْ وَإِنَّ لَهُمُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٥١﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَصْطَلِحُونَ فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكْفُرُ عَنْهُمْ وَإِنَّ لَهُمُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٥٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَصْطَلِحُونَ فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكْفُرُ عَنْهُمْ وَإِنَّ لَهُمُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٥٣﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَصْطَلِحُونَ فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكْفُرُ عَنْهُمْ وَإِنَّ لَهُمُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٥٤﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَصْطَلِحُونَ فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكْفُرُ عَنْهُمْ وَإِنَّ لَهُمُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٥٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَصْطَلِحُونَ فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكْفُرُ عَنْهُمْ وَإِنَّ لَهُمُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَصْطَلِحُونَ فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكْفُرُ عَنْهُمْ وَإِنَّ لَهُمُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَصْطَلِحُونَ فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكْفُرُ عَنْهُمْ وَإِنَّ لَهُمُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَصْطَلِحُونَ فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكْفُرُ عَنْهُمْ وَإِنَّ لَهُمُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَصْطَلِحُونَ فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكْفُرُ عَنْهُمْ وَإِنَّ لَهُمُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٦٠﴾

لأفضل القناع وأشرفها، فإذا كانت هذه صلاتهم فيه، فكيف ببقية العبادات!!!

فبأي شيء كانوا أولى بهذا البيت من المؤمنين الذين هم في صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون، إلى آخر ما وصفهم الله به من الصفات الحميدة، والأفعال السديدة.

لا جرم أورتهم الله بيته الحرام، ومكنهم منه، وقال لهم بعدما مكن لهم فيه ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ وقال هنا: ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾

﴿٣٦ - ٣٧﴾ ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فيسئفون بها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون \* ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بمضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون﴾ يقول تعالى مبيناً لعداوة المشركين وكيدهم ومكرهم، ومبارزتهم لله ورسوله، وسعيهم في إطفاء نوره وإخاد كلمته، وأن وبال مكرهم سيعود عليهم، ولا يبين المكر السيئ إلا بأهله، فقال: ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن





تبع للمصلحة وهذا هو الأولى<sup>(١)</sup> وجعل الله أداء الخمس على وجهه شرطاً للإيمان، فقال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عِبْدِنَا يَوْمَ الْقُرْآنِ﴾ وهو يوم «بدر» الذي فرق الله به بين الحق والباطل، وأظهر الحق وأبطل الباطل.

﴿يَوْمَ اتَّقَىٰ الْجَمْعَانِ﴾ جمع المسلمين، وجمع الكافرين، أي: إن كان إيمانكم بالله، وبالحق الذي أنزله الله على رسوله يوم الفرقان، الذي حصل فيه من الآيات والبراهين ما دل على أن ما جاء به هو الحق. ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يغالبه أحد إلا غلبه.

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْمَعْدُودَةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بمعدوة الوادي القريبة من المدينة، وهم معدوته أي: جانبه البعيدة من المدينة، فقد جمعكم واد واحد.

﴿وَالرَّكِبِ﴾ الذي خرجتم لطلبه، وأراد الله غيره ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ مما يلي ساحل البحر.

﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ أنتم وإياهم على هذا الوصف وبهذه الحال ﴿لَا تَخْتَلِفْتُمْ فِي الْمِيَادِ﴾ أي: لا بد من تقدم أو تأخر، أو اختيار منزل، أو غير ذلك، مما يعرض لكم أو لهم، يصدقكم عن ميعادكم<sup>(٢)</sup>.

﴿وَلَكِنْ﴾ الله جمعكم على هذه الحال ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: مقدراً في الأزل، لا بد من وقوعه.

﴿لِيَهْلِكَ مِنْ هَلَكٍ عَنِ بَيْتِنَا﴾ أي: ليكون حجة وبينة للمعاندين، فيختار الكفر على بصيرة وجزم ببطلانه، فلا يبقى له عذر عند الله.

﴿وَيُجِيبَا مِنْ حَيٍّ عَنِ بَيْتِنَا﴾ أي: يزداد المؤمن بصيرة ويقيناً، بما أرى الله الطائفتين من أدلة الحق وبراهينه، ما هو تذكرة لأولي الأبواب.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لجميع الأصوات، باختلاف اللغات،

على تفنن الحاجات، عليم بالطواهر والضمان والسرائر، والغيب والشهادة.

﴿٤٣ - ٤٤﴾ ﴿إِذْ يَبْرِكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكُم كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ وَلِنُتَازِعَنَّ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ \* وإذ يبركهم في أذنتهم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم ليقتضي الله أمراً كان مفعولاً وولى الله ترجع الأمور \* وكان الله قد أرى رسوله المشركين في الرؤيا عدداً قليلاً، فبشر بذلك أصحابه، فاطمأن قلوبهم وثبتت أفئدتهم.

ولو أراكم الله إياهم كثيراً فأخبرت بذلك أصحابك ﴿لَفَشَلْتُمْ وَلِنُتَازِعَنَّ فِي الْأَمْرِ﴾ فمنكم من يرى الإقدام على قتالهم، ومنكم من لا يرى ذلك فوقع من الاختلاف والتنازع ما يوجب الفشل.

﴿وَلَكِنْ اللَّهُ سَلَّمَ﴾ فلطف<sup>(٣)</sup> بكم ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما فيها من ثبات وجزع، وصدق وكذب، فعلم الله من قلوبكم ما صار سبباً للطفه وإحسانه بكم، وصدق الله رؤيا رسوله، فأرى الله المؤمنين عدوهم، قليلاً في أعينهم، ويقللكم - يا معشر المؤمنين - في أعينهم، فكل من الطائفتين ترى الأخرى قليلة، لتقدم كل منهما على الأخرى.

﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ من نصر المؤمنين وخذلان الكافرين وقتل قاداتهم ورؤساء الضلال منهم، ولم يبق منهم أحد له اسم يذكر، فيتيسر بعد ذلك انتيادهم إذا دعوا إلى الإسلام، فصار أيضاً لطفاً بالباقيين، الذين مرَّ الله عليهم بالإسلام.

﴿وَاللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورَ﴾ أي: جميع أمور الخلائق ترجع إلى الله، فيميز الخبيث من الطيب، ويحكم في الخلائق بحكمه العادل، الذي لا جور فيه ولا ظلم.

﴿٤٥ - ٤٩﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ لَقِيتُمْ فِئَةً قَاتِلُوا إِذْ كُرِهُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا

لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ \* وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فِيهِ فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ \* وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ حَمِيمٌ \* وَإِذْ زَيْنُ لَهْمُ الشَّيْطَانِ أَصْحَابُ لَهْمٍ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ \* إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرْهُوَاءَ دِينِهِمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ أي: طائفة من الكفار تقاتلكم.

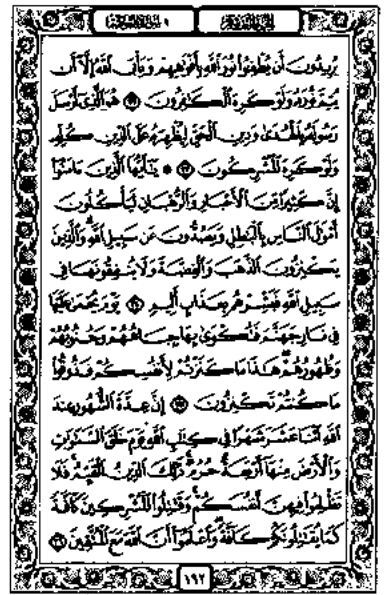
﴿فَاتَّبِعُوا﴾ لقاتلها، واستعملوا الصبر وحسن النفس على هذه الطاعة الكبيرة، التي عاقبتها العز والنصر. واستمعينا على ذلك بالإكثار من ذكر الله ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ أي: تدركون ما تطلبون من الانتصار على أعدائكم، فالصبر والثبات والإكثار من ذكر الله من أكبر الأسباب للنصر.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في استعمال ما أمراه، والمشى خلف ذلك في جميع الأحوال.

(٣) في ب: أي: لطف.

(٢) في ب: عن ميعادهم.

(١) زيادة من هامش ب.



﴿ولا تنازعوا﴾ تنازعاً يوجب نشئت القلوب وتفرقها، ﴿فتفشلوا﴾ أي: تمجبنا ﴿وتذهب بريحكم﴾ أي: تنحل عزائمكم، وتفرق قوتكم، ويرفع ما وعدتم به من النصر على طاعة الله ورسوله.

﴿واصبروا﴾ نفوسكم على طاعة الله ﴿إن الله مع الصابرين﴾ بالعون والنصر والتأييد، واخشعوا لربكم واخضعوا له.

﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله﴾ أي: هذا مقصدهم الذي خرجوا إليه، وهذا الذي أبرزهم من ديارهم لقصص الأشر والبطر في الأرض، وليأرمهم الناس ويفخروا لديهم.

والمقصود الأعظم أنهم خرجوا ليصدوا عن سبيل الله من أراد سلوكه، ﴿والله بما يعملون محيط﴾ فلذلك أخبركم بمقاصدهم، وحذرهم أن تشبهوا بهم، فإنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

فليكن قصدكم في خروجكم وجه الله تعالى وإعلاء دين الله، والصد عن الطرق الموصلة إلى سخط الله وعقابه، وجذب الناس إلى سبيل الله القويم الموصل لجنات النعيم. ﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم﴾

حسنها في قلوبهم وخدعهم. ﴿وقال لا غالب لكم اليوم من الناس﴾ فإنكم في غدٍ وعدوٍ وهينة لا يقاومكم فيها محمد ومن معه.

﴿وإني جار لكم﴾ من أن يأتيكم أحد من تخشون غائته، لأن إبليس قد تبدي لقريش في صورة سراقه بن مالك بن جعشم المدلجي، وكانوا يخافون من بني مدلج لعداوة كانت بينهم.

فقال لهم الشيطان: أنا جار لكم، فاطمأنت نفوسهم وأتوا على حرد قادرين.

﴿فلما تراءت الفئتان﴾ المسلمون والكافرون، فرأى الشيطان جبريل عليه السلام يزع الملائكة خاف خوفاً شديداً و﴿نكص على عقبيه﴾ أي: ولي مدبراً، ﴿وقال﴾ لمن خدعهم وغرهم: ﴿إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون﴾ أي: أرى الملائكة الذين لا يدان لأحد بقتالهم.

﴿إني أخاف الله﴾ أي: أخاف أن يعاجلني بالعقوبة في الدنيا ﴿والله شديد العقاب﴾.

ومن المحتمل أن يكون الشيطان، قد سول لهم، ووسوس في صدورهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، وأنه جار لهم، فلما أوردتهم مواردهم، نكص عنهم، وتبرأ منهم، كما قال تعالى: ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر، فلما كفر قال: إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين﴾ فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدتين فيها وذلك جزاء الظالمين.

﴿إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض﴾ أي: شك وشبهة، من ضعفاء الإيمان، للمؤمنين حين أقدموا - مع قلتهم - على قتال المشركين مع كثرتهم.

﴿غرر هؤلاء دينهم﴾ أي: أوردتهم الدين الذي هم عليه هذه الموارد التي لا يدان لهم بها، ولا استطاعة لهم بها، يقولونه احتقاراً لهم واستخفافاً لعقولهم، وهم - والله - الأخفأة عقولاً، الضعفاء أحلاماً.

فإن الإيمان يوجب لصاحبه الإقدام على الأمور الهائلة التي لا يقدم عليها الجيوش العظام، فإن المؤمن المتوكل على الله، الذي يعلم أنه ما من حول ولا قوة ولا استطاعة لأحد إلا بالله تعالى، وأن الخلق لو اجتمعوا كلهم على نفع شخص بمثقال ذرة لم ينفعوه، ولو اجتمعوا على أن يضره لم يضره إلا بشيء قد كتبه الله عليه، وعلم أنه على الحق، وأن الله تعالى حكيم رحيم في كل ما قدره وقضاه، فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من قوة وكثرة، وكان واقعاً بربه، مطمئن القلب لا فرعاً ولا جباناً، ولهذا قال: ﴿ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز﴾ لا يغالب قوته قوة، ﴿حكيم﴾ فيما قضاه وأجره.

﴿٥٠ - ٥٢﴾ ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأديارهم وضوفوا عذاب الحريق﴾ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للمعبد. ﴿كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب﴾ يقول تعالى: ولو ترى الذين كفروا بآيات الله حين توفاهم الملائكة الموكلون يقبض أرواحهم وقد اشتد بهم القلق وعظم كربهم، و﴿الملائكة يضربون وجوههم وأديارهم﴾ يقولون لهم: أخرجوا أنفسكم، ونفوسهم متمتعة مستعصية على الخروج، لعلمها ما أمامها من العذاب الأليم.

ولهذا قال: ﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾ أي: العذاب الشديد المحرق، ذلك العذاب حصل لكم، غير ظلم ولا جور من ربكم، وإنما هو بما قدمت أيديكم من المعاصي التي أثرت لكم ما أثرت، وهذه سنة الله في الأولين والآخرين، فإن دأب هؤلاء المكذبين أي: سنتهم وما أجرى الله عليهم من الهلاك بذنوبهم.

﴿كذاب آل فرعون والذين من قبلهم﴾ من الأمم الكاذبة ﴿كفروا بآيات الله فأخذهم الله﴾ بالعقاب ﴿بذنوبهم﴾، إن الله قوي شديد العقاب، لا يعجزه أحد يريد أخذه

﴿ما من ذابة إلا هو آخذ ناصيتها﴾ .

﴿٥٣ - ٥٤﴾ ﴿ذلك بأن الله لم يك

مغفراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم﴾ \* كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين ﴿ذلك﴾ العذاب الذي أوقعه الله بالأمم المكذبتين<sup>(١)</sup>، وأزال عنهم ما هم فيه من النعم والنعم، بسبب ذنوبهم وتغييرهم ما بأنفسهم، فإن الله لم يك مغفراً نعمة أنعمها على قوم من نعم الدين والدنيا، بل يبقئها ويزيدهم منها، إن ازدادوا له شكراً، ﴿حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ من الطاعة إلى العصية فيكفروا نعمة الله ويبدلوا كفراً، فيسلبهم إياها ويغيرها عليهم كما غيروا ما بأنفسهم .

و الله الحكمة في ذلك والعدل والإحسان إلى<sup>(٢)</sup> عباده، حيث لم يعاقبهم إلا بظلمهم، وحيث جذب قلوب أوليائه إليه، بما يذيق العباد من النكال إذا خالفوا أمره .

﴿وأن الله سميع عليم﴾ يسمع جميع ما نطق به الناطقون، سواء من أسر القول ومن جهر به، ويعلم ما تنطوي عليه الضمائر، وتخفيه المسراتر، فيجري على عباده من الأقدار ما اقتضاه علمه وجرت به ميثيته .

﴿كذاب آل فرعون﴾ أي : فرعون وقومه ﴿والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم﴾ حين جاءتهم ﴿فأهلكناهم بذنوبهم﴾ كل بحسب جرمه .

﴿وأغرقنا آل فرعون وكل﴾ من المهلكين المعذبين ﴿كانوا ظالمين﴾ لأنفسهم، ساعين في هلاكها، لم يظلمهم الله، ولا أخذهم بغير جرم اقترفوه، فليحذر المخاطبون أن يشابهوهم في الظلم، فيحل الله بهم من عقابه ما أحل بأولئك الفاسقين .

﴿٥٥ - ٥٧﴾ ﴿إن شر الدواب

عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون﴾ \* الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون ﴿فإما تنقضت في الحرب فشرذ بهم من خلفهم لعلهم يذكرون﴾ هؤلاء الذين جمعوا هذه الخصال الثلاث : الكفر، وعدم الإيمان، والخيانة، بحيث لا يثبتون على عهد عاهدوه ولا قول قالوه، هم شر الدواب عند الله فهم شر من الحمير والكلاب وغيرها، لأن الخير معدوم منهم، والشر متوقع فيهم، فإذا هب هؤلاء وعقهم هو المتعين، لئلا يسري داؤهم لغيرهم، ولهذا قال :

﴿فإما تنقضت في الحرب﴾ أي : تجذبهم في حال المحاربة، بحيث لا يكون لهم عهد وميثاق .

﴿فشرذ بهم من خلفهم﴾ أي : نكل بهم غيرهم، وأوقع بهم من العقوبة ما يصيرون إليه<sup>(٣)</sup> عبرة لمن بعدهم ﴿لعلهم﴾ أي : من خلفهم ﴿يذكرون﴾ صنيعهم، لئلا يصيبهم ما أصابهم، وهذه من فوائد العقوبات والحدود المرتبة على المعاصي، أنها سبب لازدجار من لم يعمل المعاصي، بل وزجراً لمن عملها أن لا يعاودها .

و دل تقييد هذه العقوبة في الحرب أن الكافر - ولو كان كثير الخيانة سريع الخدر - أنه إذا أعطي عهداً لا يجوز خيانه وعقوبته .

﴿٥٨﴾ ﴿وإنما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين﴾ أي : وإذا كان بينك وبين قوم عهد وميثاق على ترك القتال فحلفت منهم خيانة، بأن ظهر من قرائن أحوالهم ما يدل على خيانتهم من غير تصريح منهم بالخيانة .

﴿فانبذ إليهم﴾ عهدهم، أي : ارمه عليهم، وأخبرهم أنه لا عهد بينك

وبينهم ﴿على سواء﴾ أي : حتى يستوي علمك وعلمهم بذلك، ولا يحل لك أن تغدرهم، أو تسعى في شيء مما منعه موجب العهد، حتى تخبرهم بذلك .

﴿إن الله لا يحب الخائنين﴾ بل يبخسهم أشد البخس، فلا بد من أمر بين يبرتكم من الخيانة .

و دلَّت الآية على أنه إذا وجدت الخيانة المحققة<sup>(٤)</sup> منهم لم يجز أن ينذر إليهم عهدهم، لأنه لم يخف منهم، بل علم ذلك، ولعدم الفائدة ولقوله : ﴿على سواء﴾ وهنا قد كان معلوماً عند الجميع غدرهم .

و دل مفهومها أيضاً أنه إذا لم يخف منهم خيانة، بأن لم يوجد منهم ما يدل على ذلك، أنه لا يجوز نذر العهد إليهم، بل يجب الوفاء إلى أن تتم مدته .

﴿٥٩﴾ ﴿ولا يحسن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون﴾ أي : لا يحسب الكافرون برهبهم المكذوبين بآياته، أنهم سبقوا الله وفاتوه، فإنهم لا يعجزونه، والله لهم بالمرصاد .

وله تعالى الحكمة البالغة في إمهالهم وعدم معاجلتهم بالعقوبة، التي من جللتها ابتلاء عباده المؤمنين وامتحانهم، وتزودهم من طاعته ومراضيه، ما يصلون به إلى المنازل العالية، واتصافهم بأخلاق وصفات لم يكونوا بغيره بالفيها، فلهاذا قال لعباده المؤمنين :

﴿٦٠﴾ ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ أي : ﴿وأعدوا﴾ لأعدائكم الكفار الساعين في هلاككم وإبطال دينكم، ﴿ما استطعتم من قوة﴾ أي : كل ما تقدرون عليه من القوة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة

(١) في ب : المكذبة .

(٢) كذا في ب، وفي أ : على .

(٣) زيادة يقتضها السياق ليست في النسخين .

(٤) في ب : المحققة .

سماوية، وهو النصر منه الذي لا يقاومه شيء، ومعونة المؤمنين بأن قيصهم لنصرك.

﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ فاجتمعوا واتشلفوا، وازدادت قوتهم بسبب اجتماعهم، ولم يكن هذا بسعي أحد، ولا بقوة غير قوة الله، فلما أنفقت ما في الأرض جميعاً من ذهب وفضة وغيرهما لتأليفهم بعد تلك النفرة والفرقة الشديدة ﴿مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ لأنه لا يقدر على تقليب القلوب إلا الله تعالى.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ومن عزته أن ألف بين قلوبهم، وجمعها بعد الفرقة كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْبِرْتُمْ بِنِعْمَةِ إِخْوَانِكُمْ، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ أي: كافيك ﴿وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وكافي أتباعك من المؤمنين، وهذا وعد من الله لعباده المؤمنين المتبعين لرسوله، بالكفاية والنصرة على الأعداء.

فإذا أتوا بالسبب الذي هو الإيمان والاتباع، فلا بد أن يكفيهم ما أهمهم من أمور الدين والدنيا، وإنما تتخلف الكفاية بتخلف شرطها.

﴿٦٥ - ٦٦﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِثْقَالَ مِثْقَالٍ مِنْكُمْ مَنَ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ \* الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مِثْقَالَ مِثْقَالٍ مِنْكُمْ أَلْفَ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ أي: حثهم وأنهمهم إليه بكل ما يقوي عزائمهم ويشطهمهمهم، من الترغيب في الجهاد ومقارعة الأعداء، والترهيب من ضد ذلك، وذكر فضائل

فاجتج لها وتوكل على الله إنه هو المسيح العليم \* وإن يريدوا أن يخذلوك فإنَّ حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين \* وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم \* يا أيها النبي حسبك الله ومن أتبعك من المؤمنين﴾ يقول تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا بِأَيْ: الْكُفَّارِ الْمُحَارِبِينَ، أَيْ: مَا لَوْ﴾ \* أَيْ: الصلح وترك القتال.

﴿فاجتج لها وتوكل على الله﴾ أي: أجههم إلى ما طلبوا متوكلاً على ربك، فإن في ذلك فوائد كثيرة.

منها: أن طلب العافية مطلوب كل وقت، فإذا كانوا هم المبتدئين في ذلك، كان أولى لإجابتهم.

ومنها: أن في ذلك إجماعاً لقواكم، واستعداداً منكم لقتالهم في وقت آخر، إن احتيج لذلك.

ومنها: أنكم إذا أصلحتهم وأمن بعضكم بعضاً، وتمكن كل من معرفة ما عليه الآخر، فإن الإسلام يعلم ولا يعلم عليه، فكل من له عقل وبصيرة إذا كان معه إنصاف فلا بد أن يؤثره على غيره من الأديان، لحسنه في أوامره ونواهيه، وحسنه في معاملته للخلق والعدل فيهم، وأنه لا جور فيه ولا ظلم بوجه، فحينئذ يكثر الراغبون فيه والمتبعون له، فصار هذا السلم عوناً للمسلمين على الكافرين، ولا يخاف من السلم إلا خصلة واحدة، وهي أن يكون الكفار قصدهم بذلك خدع المسلمين، وانتهاز الفرصة فيهم، فأخبرهم الله أنه حسبهم وكافيتهم خداعهم، وأن ذلك يعود عليهم ضرره، فسقال: ﴿وَإِنْ يَرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ أي: كافيك ما يؤذيك، وهو القائم بمصالحك ومهماتك، فقد سبق [لك] من كفايته لك ونصره ما يعطش به قلبك.

فلـ ﴿هُوَ الَّذِي أُبْدِكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أحانك بمعونة

ونحو ذلك، مما يعين على قتالهم، فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات، والبنادق، والطائرات الجوية، والمراكب البرية والبحرية، والحصون والقلاع والخنادق، وآلات الدفاع، والرأي: والسياسة التي بها يتقدم المسلمون ويندفع عنهم به شر أعدائهم، وتعلم الرُّمي، والشجاعة والتدبير.

ولهذا قال النبي ﷺ: «ألا إن القوة الرُّميُّ» ومن ذلك: الاستعداد بالمراكب المحتاج إليها عند القتال، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ رِبَاطَ الْخَيْلِ تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وهذه العملة موجودة فيها في ذلك الزمان، وهي إرهاب الأعداء، والحكم يدور مع علته.

فإذا كان شيء موجوداً<sup>(١)</sup> أكثر إرهاباً منها، كالسيارات البرية والهوائية، المعدة للقتال التي تكون النكاية فيها أشد، كانت مأموراً بالاستعداد بها، والسعي لتحصيلها، حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلم الصناعة، وجب ذلك، لأن ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب.

وقوله: ﴿تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ عن تعلمون أنهم أعداؤكم. ﴿وَأَخْرَجِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ﴾ ممن سيقاتلونكم بعد هذا الوقت الذي يخاطبهم الله به ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ فلذلك أمرهم بالاستعداد لهم، ومن أعظم ما يعين على قتالهم بذل النفقات المالية في جهاد الكفار.

ولهذا قال تعالى مرغباً في ذلك: ﴿وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قليلاً كان أو كثيراً ﴿يُوفِّ إِلَيْكُمْ﴾ أجره يوم القيامة مضاعفاً أضعافاً كثيرة، حتى إن النفقة في سبيل الله، تضاعف إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

﴿وَأَنْتُمْ لَا تظَلَمُونَ﴾ أي: لا تغفرون من أجرها وثوابها شيئاً.

﴿٦٦ - ٦٧﴾ ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلْسَّلْمِ

(١) في النسختين: إذا كان موجوداً شيئاً.

الشجاعة والصبير، وما يترتب على ذلك من خير الدنيا والآخرة، وذكر مضار الجبن، وأنه من الأخلاق الرذيلة المنقصة للدين والمروعة، وأن الشجاعة بالمؤمنين أولى من غيرهم ﴿إن تكونوا تألون فإنهم يألون كما تألون وترجون من الله ما لا يرجون﴾.

﴿إن يكن منكم﴾ أيها المؤمنون ﴿عشرون صابرون يغلبوا مئتين وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا﴾ يكون الواحد نسبة عشرة من الكفار، وذلك بأن الكفار ﴿قوم لا يفقهون﴾ أي: لا علم عندهم بما أعد الله للمجاهدين في سبيله، فهم يقاتلون لأجل العلو في الأرض والفساد فيها، وأنتم تفقهون المقصود من القتال، أنه لإعلاء كلمة الله وإظهار دينه، والذب عن كتاب الله، وحصول الفوز الأكبر عند الله، وهذه كلها دواعٍ للشجاعة والصبير والإقدام على القتال.

ثم إن هذا الحكم خففه الله على العباد، فقال: ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً﴾ لذلك اقتضت رحمته وحكمته التخفيف، ﴿فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين﴾ بعونه وتأييده.

وهذه الآيات صورتها بصورة الإخبار عن المؤمنين، بأنهم إذا بلغوا هذا المقدار المعين يغلبون ذلك المقدار المعين في مقابلته من الكفار، وأن الله يمتن عليهم بما جعل فيهم من الشجاعة الإيمانية.

ولكن معناها وحقيقتها الأمر وأن الله أمر المؤمنين - في أول الأمر - أن الواحد لا يجوز له أن يفر من العشرة، والعشرة من المئة، والمئة من الألف.

ثم إن الله خفف ذلك، فصار لا يجوز فرار المسلمين من مثلهم من الكفار، فإن زادوا على مثلهم جاز لهم الفرار، ولكن يرد على هذا أمران:

أحدهما أنها بصورة الخبر، والأصل في الخبر أن يكون على باب، وأن المقصود بذلك الامتنان والإخبار بالواقع.

والثاني: تقييد ذلك العدد أن يكونوا صابرين بأن يكونوا متدربين على الصبر.

ومفهوم هذا أنهم إذا لم يكونوا صابرين، فإنه يجوز لهم الفرار، ولو أقل من مثلهم إذا غلب على ظنهم الضرر<sup>(١)</sup>، كما تقتضيه الحكمة الإلهية.

ويجاب عن الأول بأن قوله: ﴿الآن خفف الله عنكم﴾ إلى آخرها، دليل على أن هذا أمر<sup>(٢)</sup> لازم وأمر محتم، ثم إن الله خففه إلى ذلك العدد، فهذا ظاهر في أنه أمر، وإن كان في صيغة الخبر.

وقد يقال: إن في إتيانه بلفظ الخبر، نكتة بدعية لا توجد فيه إذا كان بلفظ الأمر، وهي تقوية لقلوب المؤمنين، والبخارة بأنهم سيغلبون الكافرين.

ويجاب عن الثاني: أن المقصود بتقييد ذلك بالصابرين، أنه حث على الصبر، وأنه ينبغي منكم أن تفعلوا الأسباب الموجبة لذلك فإذا فعلوها صارت الأسباب الإيمانية والأسباب المادية مباشرة بحصول ما أخبر الله به من النصر لهذا العدد القليل<sup>(٣)</sup>.

﴿٦٧ - ٦٩﴾ ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم \* لولا كتاب من الله سبق لمنسكم فيما أخذتم عذاب عظيم \* فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم﴾ هذه معاتبة من الله لرسوله وللمؤمنين يوم «يدر» إذ أسروا المشركين وأبقوهم لأجل الفداء، وكان رأي: أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في هذه الحال، قتلهم واستصالحهم.

فقال تعالى: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ أي:

إِنَّمَا النَّبِيُّ رَسُولٌ يُرْسَلُ بِاللَّهِ  
كَمَا رُسِلْتُمْ أَن تَقُولُوا مَا نَالُوا الْفَيْدَ  
مِنَ اللَّهِ فِيمَا نَالُوا فَسَبِّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ  
وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ  
وَأَتُوا الزَّكَاةَ وَارْتَمِكُوا عَلَيْكُمْ  
رِجَالَكُمُ اسْتِغْنَاءً لِّلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ  
آمَنُوا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٧﴾  
وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ  
وَأَتُوا الزَّكَاةَ وَارْتَمِكُوا عَلَيْكُمْ  
رِجَالَكُمُ اسْتِغْنَاءً لِّلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ  
آمَنُوا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٨﴾  
وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ  
وَأَتُوا الزَّكَاةَ وَارْتَمِكُوا عَلَيْكُمْ  
رِجَالَكُمُ اسْتِغْنَاءً لِّلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ  
آمَنُوا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٩﴾

ما ينبغي ولا يليق به إذا قاتل الكفار الذين يريدون أن يطفئوا نور الله ويسعوا لإخاد دينه، وأن لا يبقى على وجه الأرض من يعبد الله، أن يتسرع إلى أسرهم وإبقتهم لأجل الفداء الذي يحصل منهم، وهو عرض قليل بالنسبة إلى المصلحة المقتضية لإبادتهم وإبطال شرهم، فما دام لهم شر وصوله، فالأوفق أن لا يؤسروا.

فإذا أئخسروا، وبطل شرهم، واطمحل أمرهم، فحشيد لا بأس بأخذ الأسرى منهم وإبقتهم.

يقول تعالى: ﴿تريدون﴾ بأخذكم الفداء وإبقتهم ﴿عرض الحياة الدنيا﴾ أي: لا لمصلحة تعود إلى دينكم.

﴿والله يريد الآخرة﴾ بإعزاز دينه، ونصر أوليائه، وجعل كلمتهم عالية فوق غيرهم، فبأمركم بما يوصل إلى ذلك.

﴿والله عزيز حكيم﴾ أي: كامل العزة، لو شاء أن ينتصر من الكفار من دون قتال لفضل، لكنه حكيم، يبتي بعضكم بعض.

﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ به القضاء والقدر، أنه قد أحل لكم الغنائم، وأن الله رفع عنكم - أيها الأمة - العذاب ﴿لمنسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾ وفي الحديث: «لنزل

(١) زيادة من هامش ب. (٢) في ب: الأمر. (٣) زيادة من هامش ب.

المال، بأن يبسر لكم من فضله، خيراً وأكثر<sup>(١)</sup> مما أخذ منكم.

﴿ويغفر لكم﴾ ذنوبكم، ويدخلكم

الجنة

أنجز الله وعده للعباس وغيره، فحصل له - بعد ذلك - من المال شيء كثير، حتى إنه مرة لما قدم على النبي ﷺ مال كثير، أتاه العباس فأمره أن يأخذ منه بثوبه ما يطيق حمله، فأخذ منه ما كاد أن يعجز عن حمله.

﴿وإن يريدوا خيانتك﴾ في السعي

لحربك ومناذبتك، ﴿فقد خانوا الله من

قبل فأمكن منهم﴾ فليحذروا خيانتك،

فإنه تعالى قادر عليهم وهم تحت

قبضته، ﴿والله عليم حكيم﴾ أي:

عليم بكل شيء، حكيم يضع الأشياء

مواضعها، ومن علمه وحكمته أن

شرع لكم هذه الأحكام الجميلة

الجميلة، وأن تكفل<sup>(٢)</sup> بكفائتكم شأن

الأسرى وشركهم إن أرادوا خيانة.

﴿٧٢﴾ ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا

وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في

سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك

بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم

يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء

حتى يهاجروا وإن استنصروكم في

الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم

وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير﴾

هذا عقد موالة ومحبة، عقدها الله بين

المهاجرين الذين آمنوا وهاجروا في

سبيل الله، وتركوا أوطانهم لله لأجل

الجهاد في سبيل الله، وبين الأنصار

الذين آووا رسول الله ﷺ وأصحابه

وأعانوهم في ديارهم وأموالهم

وأنفسهم، فهؤلاء بعضهم أولياء

بعض، لكمال إيمانهم وتمام اتصال

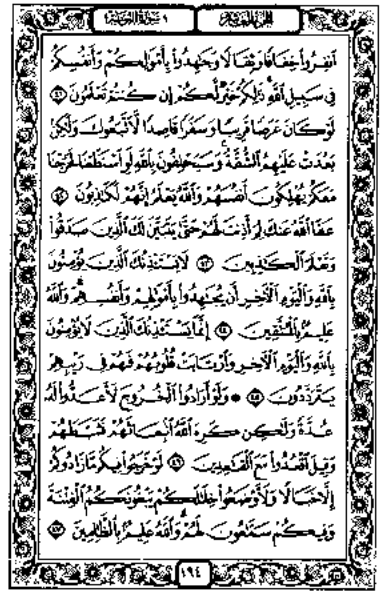
بعضهم ببعض.

﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم

من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا﴾

فإنهم قطعوا ولايتكم بانفصالهم عنكم

في وقت شدة الحاجة إلى الرجال، فلما



عذاب يوم بدر، ما نجا منه إلا عمر.

﴿فكفروا بما غنمتم حلالاً طيباً﴾

وهذا من لطفه تعالى بهذه الأمة، أن

أحل لها الغنائم ولم يجعلها لأمة قبلها.

﴿واتقوا الله﴾ في جميع أموركم

ولازموها، شكراً لنعم الله عليكم،

﴿إن الله غفور﴾ يغفر لمن تاب إليه جميع

الذنوب، ويغفر لمن لم يشرك به شيئاً

جميع المعاصي.

﴿رحيم﴾ بكم، حيث أباح لكم

الغنائم وجعلها حلالاً طيباً.

﴿٧٠ - ٧١﴾ ﴿يا أيها النبي قل لمن

في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في

قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم

ويغفر لكم والله غفور رحيم \* وإن

يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل

فأمكن منهم والله عليم حكيم﴾ وهذه

نزلت في أسارى يوم بدر، وكان في

جملتهم العباس عم رسول الله ﷺ،

فلما طلب منه الفداء، ادعى أنه مسلم

قبل ذلك، فلم يسقطوا عنه الفداء،

فأنزل الله تعالى جبراً لحاظه ومن كان

على مثل حاله.

﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من

الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً

يؤتكم خيراً مما أخذ منكم﴾ أي: من

وقوله تعالى: ﴿إلا على قوم بينكم

وبينهم ميثاق﴾ أي: عهد بترك القتال،

فإنهم إذا أراد المؤمنون التمييزون الذين

لم يهاجروا قتالهم، فلا تعينوهم

عليهم، لأجل ما بينكم وبينهم من

الميثاق.

﴿والله بما تعملون بصير﴾ يعلم ما

أنتم عليه من الأحوال، فيشرع لكم من

الأحكام ما يليق بكم.

﴿٧٣﴾ ﴿والذين كفروا بعضهم

أولياء بعض إلا فعلوه تكن فتنة في

الأرض وفساد كبير﴾ لما عقد الولاية

بين المؤمنين، أخبر أن الكفار حيث

جمعهم الكفر فبعضهم أولياء

لبعض<sup>(٣)</sup>، فلا يواليهم إلا كافر

مثلهم.

وقوله: ﴿إلا فعلوه﴾ أي: موالة

المؤمنين ومعاداة الكافرين، بأن

واليتموهم كلهم أو عاديتموهم كلهم،

أو واليتهم الكافرين وعاديتم المؤمنين.

﴿تكن فتنة في الأرض وفساد

كبير﴾ فإنه يحصل بذلك من الشر ما

لا ينحصر من اختلاط الحق بالباطل،

والمؤمن بالكافر، وعدم كثير من

العبادات الكبار، كالجهاد والهجرة،

وغير ذلك من مقاصد الشرع والدين

التي تقوت إذا لم يتخذ المؤمنون وحدهم

أولياء بعضهم لبعض.

﴿٧٤ - ٧٥﴾ ﴿والذين آمنوا

وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله

والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون

حقاً لهم مغفرة ورزق كريم \* والذين

آمنا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم

فأولئك منكم وأولو الأرحام بعضهم

أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل

(٣) في ب: بعض.

(٢) في ب: وقد تكفل.

(١) في ب: كثيراً.

**تفسير سورة براءة**  
**ويقال: سورة التوبة،**  
**وهي مدنية**

شيء عليهم ﴿ الآيات السابقة في ذكر عقد الموالاة بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار .

وهذه الآيات في بيان مدحهم وشوابهم ، فقال : ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك﴾ أي : المؤمنون من المهاجرين والأنصار ﴿هم المؤمنون حقاً﴾ لأنهم صدقوا إيمانهم بما قاموا به من الهجرة والنصرة والموالاة بعضهم لبعض ، وجاهدهم لأعدائهم من الكفار والمنافقين .

﴿لهم مغفرة﴾ من الله تحمى بها سيئاتهم ، وتضمحل بها ذلالتهم ، ﴿و﴾ لهم ﴿رزق كريم﴾ أي : خير كثير من الرب الكريم في جنات النعيم .

وربما حصل لهم من الشواب المعجل ما تقر به أعينهم ، وتطمئن به قلوبهم ، وكذلك من جاء بعد هؤلاء المهاجرين والأنصار ، ممن اتبعهم بإحسان فأسن وهاجر وجاهد في سبيل الله . ﴿فأولئك منكم﴾ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم <sup>(١)</sup> .

فهذه الموالاة الإيمانية - وقد كانت في أول الإسلام - لها وقع كبير وشأن عظيم ، حتى إن النبي ﷺ أخى بين المهاجرين والأنصار أخوة خاصة ، غير الأخوة الإيمانية العامة ، وحتى كانوا يتوارثون بها ، فأنزل الله ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ فلا يرثه إلا أقاربه من العصبات وأصحاب الفروض ، فإن لم يكونوا ، فأقرب قرباته من ذوي الأرحام ، كما دل عليه عموم هذه الآية الكريمة ، وقوله : ﴿في كتاب الله﴾ أي : في حكمه وشرعه .

﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ ومنه ما يعلمه من أحوالكم التي تجري من شرائعها الدينية عليكم ما يناسبها .

تم تفسير سورة الأنفال والله الحمد

﴿١ - ٢﴾ ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين \* فيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين﴾ أي : هذه براءة من الله ومن رسوله إلى جميع المشركين المعاهدين ، أن لهم أربعة أشهر يسبحون في الأرض على اختيارهم ، آمنين من المؤمنين ، وبعد الأربعة الأشهر فلا عهد لهم ولا ميثاق .

وهذا لمن كان له عهد مطلق غير مقدر ، أو مقدر بأربعة أشهر فأقل ، أما من كان له عهد مقدر بزيادة على أربعة أشهر ، فإنه يتعين أن يتم له عهده إذا لم يخف منه خيانة ، ولم يبدأ بنقض العهد .

ثم أنذر المعاهدين في مدة عهدهم ، أنهم وإن كانوا آمنين ، فإنهم لن يعجزوا الله ولن يفوتوه ، وأنه من استمر منهم على شركه فإن الله لا بد أن يخزيه ، فكان هذا مما يجلبهم إلى الدخول في الإسلام ، إلا من عاند وأصر ولم يبال بوعيد الله له .

﴿٣﴾ ﴿وإذ أن من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم﴾ هذا ما وعد الله به المؤمنين ، من نصر دينه وإعلاء كلمته ، وخذلان أعدائهم من المشركين الذين أخرجوا الرسول ومن معه من مكة ، من بيت الله الحرام ، وأجلوهم ، مما لهم انتسلط عليه من أرض الحجاز .

نصر الله رسوله والمؤمنين حتى افتتح مكة ، وأذل المشركين ، وصار للمؤمنين الحكم والغلبة على تلك الديار .

فَكَرِهْنَا إِلَهُكُمْ مِنْ قَبْلِ وَكَرِهْنَا إِلَهُكُمْ الْأَمْشِرَةَ  
جَاءَ النَّوْءَ وَطَعْنَا أَيْمُونَهُمْ كَكْرَهُونَ  
وَمَنْ يَكْفُرْ بِنِعْمَتِ اللَّهِ فَلَا تَحْسِبْ الْآيَاتِ الْفَيْسَةَ  
سَلُّوا أَيْدِيَكُمْ حِمْلَةَ لِحْيَتِكُمْ إِلَى الْكُفْرَانِ  
إِنْ شِئْتُمْ حِمْلَةَ حِمْلَتِكُمْ وَلَا تُحْسِبْكُمْ مُؤْمِنِينَ  
يَعْمَلُونَ أَفْعَالِكُمْ أَنْتُمْ كَانْتُمْ قَبْلَ تَقْوَى الْوَقْفِ وَتُحْرَمُونَ  
قُلْ حَيْبُكُمْ إِلَّا مَا كَسَبْتُمْ اللَّهُكَ هُوَ مَوْلَانَا  
وَعَلَّ اللَّهُ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْ قُلْ هَذَا تَوَكُّؤُنَا  
بِئْسَ الْآيَاتِ مَا تَعْبُدُونَ تَعْبُدُونَ الْغُيُوبَ وَمَنْ يُغِيبْ  
غُيُوبَهُ أَفَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ قُلْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ  
بِمَا تَكْفُرُونَ قُلْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا تَكْفُرُونَ  
قُلْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا تَكْفُرُونَ قُلْ أَلَيْسَ اللَّهُ  
بِأَعْلَمَ بِمَا تَكْفُرُونَ قُلْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا  
تَكْفُرُونَ قُلْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا تَكْفُرُونَ

فأمر النبي <sup>(٢)</sup> مؤذنه أن يؤذن يوم الحج الأكبر ، وهو يوم النحر ، وقت اجتماع الناس مسلمهم وكافرهم ، من جميع جزيرة العرب ، أن يؤذن بأن الله بريء ورسوله من المشركين ، فليس لهم عنده عهد وميثاق ، فإنما وجدوا قتلوا ، وقيل لهم : لا تقربوا المسجد الحرام بعد عامكم هذا ، وكان ذلك سنة تسع من الهجرة .

وحج بالناس أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وأذن ببراءة - يوم النحر - ابن عم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

ثم رغب تعالى المشركين بالتوبة ، ورهبهم من الاستمرار على الشرك فقال : ﴿فإن تبتم فهو خير لكم ، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله﴾ .

أي : فاتتبه ، بل أنتم في قبضته ، قادر أن يسلط عليكم عباده المؤمنين .

﴿وبشر الذين كفروا بعذاب أليم﴾ أي : مؤلم مفضح في الدنيا بالقتل والأسر والجلاء ، وفي الآخرة بالنار وبس القرار .

﴿٤﴾ ﴿وإلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم

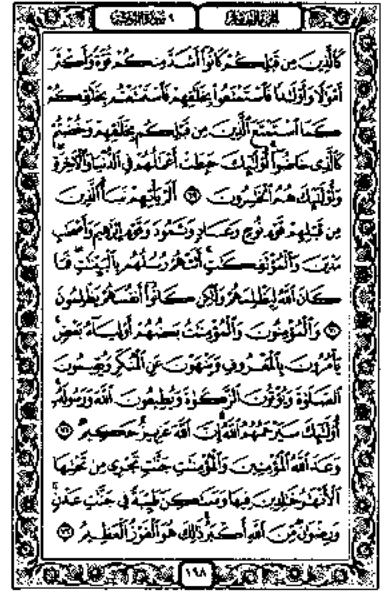
(١) كذا في ب ، وفي أ : له ما لكم وعليه ما عليكم .

(٢) كذا في ب ، وفي أ : الله .









يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خير بما تعملون ﴿١٧٨﴾ يقول تعالى لعباده المؤمنين بعدما أمرهم بالجهاد: ﴿أم حسبتم أن تتركوا﴾ من دون ابتلاء وامتحان، وأمر بما يبين به الصادق والكاذب.

﴿ولما يعلم الله الذين جاهلوا منكم﴾ أي: علماً يظهر عما في القوة إلى الخارج، ليترتب عليه الثواب والعقاب، فيعلم الذين يجاهدون في سبيله لإعلاء كلمته ﴿ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة﴾ أي: ولياً من الكافرين، بل يتخذون الله ورسوله والمؤمنين أولياء.

فشرح الله الجهاد ليحصل به هذا المقصود الأعظم، وهو أن يتميز الصادقون الذين لا يتحيزون إلا لدين الله، من الكاذبين الذين يزعمون الإيمان وهم يتخذون الولائج والأولياء من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين.

﴿والله خير بما تعملون﴾ أي: يعلم ما يصير منكم ويصدر، فيبتليكم بما يظهر به حقيقة ما أنتم عليه، ويميزكم على أعمالكم خيراً وشرها.

﴿١٧٧ - ١٨﴾ ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون﴾ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعمسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴿يقول تعالى﴾: ﴿ما كان للمشركين﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق للمشركين أن يعمروا مساجد الله بالصلاة، وغيرها من أنواع الطاعات، والحال أنهم شاهدون ومقرون على أنفسهم بالكفر بشهادة حالهم وفطرتهم، وعلم كثير منهم على الكفر والباطل.

فإذا كانوا ﴿شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾ وعدم الإيمان الذي هو شرط لقبول الأعمال، فكيف يزعمون أنهم عمارة مساجد الله، والأصل منهم

مفقود، والأعمال منهم باطلة!!؟ ولهذا قال: ﴿أولئك حبطت أعمالهم﴾ أي: بطلت وضلت ﴿وفي النار هم خالدون﴾

ثم ذكر من هم عمارة مساجد الله فقال: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة الواجبة والمستحبة، بالقيام بالظاهر منها والباطن.

﴿وأتى الزكاة﴾ لأهلها ﴿ولم يخش إلا الله﴾ أي: قصر خشيته على ربه، فكف عما حرم الله، ولم يقصر بحقوق الله الواجبة.

فوصفهم بالإيمان النافع، وبالقيام بالأعمال الصالحة التي أتمها الصلاة والزكاة، وبخشية الله التي هي أصل كل خير، فهؤلاء عمارة المساجد على الحقيقة وأهلها الذين هم أهلها.

﴿فعمسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾ و«عمسى» من الله واجبة. وأما من لم يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، ولا عنده خشية لله، فهذا ليس من عمارة مساجد الله، ولا من أهلها الذين هم أهلها، وإن زعم ذلك وادعاه.

﴿١٩ - ٢٢﴾ ﴿أجملتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون ﴿يشروهم بهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم﴾ خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم ﴿لما اختلف بعض المسلمين، أو بعض المسلمين وبعض المشركين، في تفضيل عمارة المسجد الحرام، بالبناء والصلاة والعبادة فيه وسقاية الحاج، على الإيمان بالله والجهاد في سبيله، أخبر الله تعالى بالتفاوت بينهما، فقال: ﴿أجملتم سقاية الحاج﴾ أي: سقيهم الماء من زمزم كما هو المعروف إذا أطلق هذا الاسم، أنه المراد ﴿وعمارة المسجد

الفوائد، وكل هذا حث وانهاض للمؤمنين على قتالهم، فقال: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم﴾ بالقتل ﴿ويغزهم﴾ إذا نصركم الله عليهم، وهم الأعداء الذين يطلب خزيهم ويمرص عليه، ﴿وينصركم عليهم﴾ هذا وعد من الله وبشارة قد أنجزها.

﴿ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم﴾ فإن في قلوبهم من الخنق والغيظ عليهم ما يكون قتالهم وقتلهم شفاء لما في قلوب المؤمنين من الغم والهجم، إذ يرون هؤلاء الأعداء محاربين لله ورسوله، ساعين في إطفاء نور الله، وزوالا للغيظ الذي في قلوبهم، وهذا يدل على محبة الله لعباده المؤمنين، واعتنائه بأحوالهم، حتى إنه جعل - من جملة المقاصد الشرعية - شفاء ما في صدورهم وذهاب غيظهم.

ثم قال: ﴿ويشوب الله على من يشاء﴾ من هؤلاء المحاربين، بأن يوقفهم للدخول في الإسلام، ويؤزقه في قلوبهم، ويكرهه إليهم الكفر والفسوق والعصيان.

﴿والله عليم حكيم﴾ يضع الأشياء مواضعها، ويعلم من يصلح للإيمان فيهديه، ومن لا يصلح فيبقه في غيه وطغيانه.

﴿١٦﴾ ﴿أم حسبتم أن تتركوا﴾ ولم يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم

الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر  
وجاهد في سبيل الله لا يستون  
عند الله.

فالجهاد والإيمان بالله أفضل من  
سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام  
بدرجات كثيرة، لأن الإيمان أصل  
الدين، وبه تقبل الأعمال وتزكو  
الخصال.

وأما الجهاد في سبيل الله فهو ذروة  
سنام الدين، الذي به يحفظ الدين  
الإسلامي ويتسع، وينصر الحق ويخذل  
الباطل.

وأما عمارة المسجد الحرام وسقاية  
الحاج، فهي وإن كانت أعمالاً صالحة،  
فهي متوقفة على الإيمان، وليس فيها  
من المصالح ما في الإيمان والجهاد،  
فلذلك قال: ﴿لا يستون عند الله  
وإنه لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي:  
الذين وصفهم الظلم، الذين  
لا يصلحون لقبول شيء من الخير، بل  
لا يليق بهم إلا الشر.

ثم صرح بالفضل فقال: ﴿الذين  
آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله  
بأموالهم﴾ بالنتفة في الجهاد وتجهيز  
الغزاة ﴿وأنفُسهم﴾ بالخروج بالنفس  
﴿أعظم درجة عند الله وأولئك هم  
الفائزون﴾ أي: لا يفوز بالمطلوب  
ولا ينجو من المهوب، إلا من اتصف  
بصفاتهم، وتخلق بأخلاقهم.

﴿ييسرهم ربه﴾ جوداً منه، وكرماً  
وبراً بهم، واعتناء وحمية لهم، ﴿برحة  
منه﴾ أزال بها عنهم الشرور، وأوصل  
إليهم ﴿جهاً كل خير﴾ و﴿رضواناً﴾ منه  
تعالى عليهم، الذي هو أكبر نعيم الجنة  
وأجله، فيحل عليهم رضوانه،  
فلا يسخط عليهم أبداً.

﴿وجنات لهم فيها نعيم مقيم﴾ من  
كل ما اشتتهه الأنفس، وتلد الأعين،  
عما لا يعلم وصفه ومقداره إلا الله  
تعالى، الذي منه أن الله أعد  
للمجاهدين في سبيله مئة درجة، ما  
بين كل درجتين كما بين السماء  
والأرض، ولو اجتمع الخلق في درجة

واحدة منها لوسعتم.  
﴿خالدين فيها أبداً﴾ لا ينتقلون  
عنها، ولا يبغون عنها جِزْواً،  
﴿إن الله عنده أجر عظيم﴾  
لا تستغرب كثرة على فضل الله،  
ولا يتعجب من عظمه وحسنه على من  
يقول للشيء كن فيكون.

﴿٢٣ - ٢٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا  
لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن  
استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم  
منكم فأولئك هم الظالمون﴾ \* قل إن  
كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم  
أزواجكم وعشيرتكم وأسواقكم  
أقرب فتموها وتجارة تخشون كسادها  
ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله  
ورسوله وجهاد في سبيله فترضوا حتى  
يأتي الله بأسره والله لا يهدي القوم  
الفاسقين﴾ يقول تعالى: ﴿يا أيها الذين  
آمنوا﴾ اعملوا بمقتضى الإيمان، بأن  
توالوا من قام به، وتعادوا من لم يقم  
به.

و ﴿لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم﴾  
الذين هم أقرب الناس إليكم، وغيرهم  
من باب أول وأخرى، فلا تتخذوهم  
﴿أولياء إن استحبوا﴾ أي: اختاروا  
على وجه الرضا والمحبة ﴿الكفر على  
الإيمان﴾.

﴿ومن يتولهم منكم فأولئك هم  
الظالمون﴾ لأنهم تجرؤوا على  
معاصي الله، واتخذوا أعداء الله  
أولياء، وأصل الولاية: المحبة  
والنصرة، وذلك أن اتخاذهم أولياء  
موجب لتقديم طاعتهم على طاعة الله،  
ومحبتهم على محبة الله ورسوله.

ولهذا ذكر السبب الموجب لذلك،  
وهو أن محبة الله ورسوله، يتعين  
تقديمهما على محبة كل شيء، وجعل  
جميع الأشياء تابعة لهما، فقال: ﴿قل  
إن كان آباؤكم﴾ ومثلهم الأمهات  
﴿وأبناؤكم وإخوانكم﴾ في النسب  
والعشرة<sup>(١)</sup> ﴿وأزواجكم وعشيرتكم﴾  
أي: قراباتكم عموماً ﴿وأسواقكم  
أقربتموها﴾ أي: اكتسبتموها وتعتم

في تحصيلها، خصها بالذكر، لأنها  
أرغب عند أهلها، وصاحبها أشد  
حرصاً عليها ممن تأتيه الأموال من غير  
تعب ولا كد.

﴿وتجارة تخشون كسادها﴾ أي:  
رخصها ونقصها، وهذا شامل لجميع  
أنواع التجارات والمكاسب من عروض  
التجارات، من الأثمان، والأواني،  
والأسلحة، والأمتعة، والخبواب،  
والحروث، والأنعام، وغير ذلك.

﴿ومساكن ترضونها﴾ من حسنها  
وزخرفتها وموافقتها لأهوائكم، فإن  
كانت هذه الأشياء ﴿أحب إليكم  
من الله ورسوله وجهاد في سبيله﴾  
فأنتم فسقة ظلمة.

﴿فترضوا﴾ أي: انتظروا ما يحل  
بكم من العقاب ﴿حتى يأتي الله بأمره﴾  
الذي لا مرد له.

﴿وإنه لا يهدي القوم الفاسقين﴾  
أي: الخارجين عن طاعة الله، المقدمين  
على محبة الله شيئاً من المذكورات.

وهذه الآية الكريمة أعظم دليل على  
وجوب محبة الله ورسوله، وعلى  
تقديمهما على محبة كل شيء، وعلى  
الوعيد الشديد والمقت الأكيد، على من  
كان شيء من هذه المذكورات أحب إليه  
من الله ورسوله وجهاد في سبيله.

وعلمة ذلك أنه إذا عرض عليه  
أمران، أحدهما يحبه الله ورسوله،  
وليس لنفسه فيه هوى، والآخر تحبه  
نفسه وتشتهيه، ولكنه يُفَوِّتُ عليه  
محبوباً لله ورسوله، أو ينقصه، فإنه إن  
قدم ما تهواه نفسه، على ما يحبه الله،  
دل ذلك على أنه ظالم تارك لما يجب  
عليه.

﴿٢٥ - ٢٧﴾ ﴿لقد نصركم الله في  
مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم  
كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضائق  
عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم  
مدبرين﴾ \* ثم أنزل الله سكينته على  
رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم  
تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء  
الكافرين \* ثم يتوب الله من بعد ذلك

لا في الصلاح، فعليكم أن تطهروا أشرف البيوت وأظهرها عنهم.

﴿فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ وهو سنة تسع من الهجرة، حين حج بالناس أبو بكر الصديق، وبعث النبي ﷺ ابن عمه علياً، أن يؤذن يوم الحج الأكبر بـ «براءة»، فتأدى أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

وليس المراد هنا نجاسة البدن، فإن الكافر خضيره طاهر البدن، بدليل أن الله تعالى أباح وطء الكتابية ومباشرتها، ولم يأمر بغسل ما أصاب<sup>(١)</sup> منها.

والمسلمون ما زالوا يباشرون أبدان الكفار، ولم ينقل عنهم أنهم تقذروا منها، تقذروهم من النجاسات، وإنما المراد كما تقدم نجاستهم المعنوية، بالشرك، فكما أن التوحيد والإيمان، طهارة، فالشرك نجاسة.

وقوله: ﴿وإن خفتم﴾

﴿عيلة﴾ أي: فقراً وحاجة، من منع المشركين من قربان المسجد الحرام، بأن تنقطع الأسباب التي بينكم وبينهم من الأمور الدنيوية، ﴿فسوف يغنيكم الله من فضله﴾ فليس الرزق مقصوراً على باب واحد، ومحل واحد، بل لا ينغلق باب إلا وفتح غيره أبواب كثيرة، فإن فضل الله واسع، وجوده عظيم، خصوصاً لمن ترك شيئاً لوجهه الكريم، فإن الله أكرم الأكرمين.

وقد أنجز الله وعده، فإن الله أغنى المسلمين من فضله، وبسط لهم من الأرزاق ما كانوا من أكبر الأغنياء والملوك.

وقوله: ﴿إن شاء﴾ تعليق للإغناء بالمشيئة، لأن الغنى في الدنيا ليس من لوازم الإيمان، ولا يدل على محبة الله، فلهذا علقة الله بالمشيئة، فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والدين إلا من يحب.

﴿إن الله عليم حكيم﴾ أي: علمه

وسعتها، ﴿ثم وليتم مدبرين﴾ أي: منزهين.

﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ والسكينة ما يجعله الله في القلوب وقت القلائل والزلازل والمفطعات، مما يثبتها ويسكنها ويجعلها مطمئنة، وهي من نعم الله العظيمة على العباد.

﴿وانزل جنوداً لم تروها﴾ وهم الملائكة، أنزلهم الله معونة للمسلمين يوم حنين، يشنونهم ويبشرونهم بالنصر.

﴿وعذب الذين كفروا﴾ بالهزيمة والقتل، واستيلاء المسلمين على نساءهم وأولادهم وأموالهم.

﴿وذلك جزاء الكافرين﴾ يعذبهم الله في الدنيا، ثم يردهم في الآخرة إلى عذاب غليظ.

﴿ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء﴾ فتاب الله على كثير ممن كانت الوقعة عليهم، وأتوا إلى النبي ﷺ مسلمين تائبين، فرد عليهم نساءهم وأولادهم.

﴿والله غفور رحيم﴾ أي: ذو مغفرة واسعة، ورحمة عامة، يعفو عن الذنوب العظيمة للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة والطاعة، والصفح عن جرائمهم وقبول توباتهم، فلا يمس أحد من مغفرته ورحمته، ولو فعل من الذنوب والإجرام ما فعل.

﴿٢٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم﴾ يقول تعالى: ﴿يا أيها

الذين آمنوا إنما المشركون﴾ بالله الذين عبدوا معه غيره ﴿نجس﴾ أي: خيئاه في عقائدهم وأعمالهم، وأي: نجاسة أبلغ من كان يعبد مع الله آلهة لا تنفع ولا تضر، ولا تغني عنه شيئاً!!!

وأعمالهم ما بين محاربة الله، وصد عن سبيل الله، ونصر للباطل، ورد للحق، وعمل بالفساد في الأرض

على من يشاء والله غفور رحيم﴾ يمتن تعالى على عباده المؤمنين، بنصره إياهم في مواطن كثيرة من مواطن اللقاء، ومواضع الحروب والهيجه، حتى في يوم «حنين» الذي اشتدت عليهم فيه الأزمة، ورأوا من التخاذل والفرار، ما ضاقت عليهم به الأرض على رحبتها وسعتها.

وذلك أن النبي ﷺ لما فتح مكة، سمع أن هوازن اجتمعوا للحربة، فسار إليهم ﷺ في أصحابه الذين فتحوا مكة، ويمن أسلم من الطلقاء أهل مكة، فكانوا اثني عشر ألفاً، والمشركون أربعة آلاف، فأعجب بعض المسلمين بكثرتهم، وقال بعضهم: لن تغلب اليوم من قلة.

فلما التقوا هم وهوازن، حملوا على المسلمين حلة واحدة، فانهزموا لا يلوي أحد على أحد، ولم يبق مع رسول الله ﷺ إلا نحو مئة رجل، ثبتوا معه، وجعلوا يقاتلون المشركين، وجعل النبي ﷺ يركض بغلته نحو المشركين ويقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب».

ولما رأى من المسلمين ما رأى، أمر العباس بن عبد المطلب أن ينادي في الأنصار وبقية المسلمين، وكان رفيع الصوت، فناداهم: يا أصحاب السمرة، يا أهل سورة البقرة.

فلما سمعوا صوته، عطفوا عطفة رجل واحد، فاجتلدوا مع المشركين، فهزم الله المشركين هزيمة شنيعة، واستولوا على معسكرهم ونساءهم وأموالهم.

وذلك قوله تعالى: ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين﴾ وهو اسم للمكان الذي كانت فيه الرقعة بين مكة والطائف.

﴿إذ أصحبتكم كثرتم فلم تغن عنكم شيئاً﴾ أي: لم تفدكم شيئاً، قليلاً ولا كثيراً ﴿وضاقت عليكم الأرض﴾ بما أصابكم من الهم والغم حين انهزمتكم ﴿بما رحبت﴾ أي: على رحبتها

(١) الجملة غير واضحة في أ، وأقرب ما تكون أنها: (ولم يأمر أن يتنسل مما أصاب).

واسع، يعلم من يلقى به الغنى، ومن لا يلقى، ويضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها.

وتدل الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ أن المشركين بعدما كانوا هم الملوك والرؤساء بالبيت، ثم صار بعد الفتح الحكم لرسول الله والمؤمنين، مع إقامتهم في البيت، ومكة المكرمة، ثم نزلت هذه الآية.

ولامات النبي ﷺ أمر أن يجلووا من الحجاز، فلا يبقى فيها دينان، وكل هذا لأجل بُغْد كل كافر عن المسجد الحرام، فيدخل في قوله ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾

﴿٢٩٩﴾ ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ هذه الآية أمر بقتال الكفار من اليهود والنصارى من ﴿الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ إيماناً صحيحاً يصدقونه بأفعالهم وأعمالهم. ولا يحرمون ما حرم الله، فلا يتعمون شرعه في تحريم المحرمات، ﴿ولا يدينون دين الحق﴾ أي: لا يدينون بالدين الصحيح، وإن زعموا أنهم على دين، فإنه دين غير الحق، لأنه ما بين دين مبديل، وهو الذي لم يشرعه الله أصلاً، وإما دين منسوخ قد شرعه الله، ثم غيره بشريعة محمد ﷺ، فيبقى التمسك به بعد النسخ غير جائز.

فأمره بقتال هؤلاء وحث على ذلك، لأنهم يدعون إلى ما هم عليه، ويحصل الضرر الكثير منهم للناس، بسبب أنهم أهل كتاب.

وغنى ذلك القتال ﴿حتى يعطوا الجزية﴾ أي: المال الذي يكون جزاء لترك المسلمين قتالهم، وإقامتهم آمنين على أنفسهم وأموالهم بين أظهر المسلمين، يؤخذ منهم كل عام، كل

على حسب حاله، من غني وفقير ومتوسط، كما فعل ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وغيره من أمراء المؤمنين.

وقوله: ﴿عن يد﴾ أي: حتى يبذلوها<sup>(١)</sup> في حال ذلهم، وعدم اقتدارهم، ويعطونها بأيديهم، فلا يرسلون بها خادماً ولا غيره، بل لا تقبل إلا من أيديهم، وهم صاغرون.

فإذا كانوا بهذه الحال، وسألوا المسلمين أن يقروهم بالجزية، وهم تحت أحكام المسلمين وقهرهم، وحال الأمن من شرهم وفتنتهم، واستسلموا للشروط التي أجزاها عليهم المسلمون مما ينفي عزمهم وتكبرهم، وتوجب ذلهم وصغارهم، وجب على الإمام أو نائبه أن يعقدها لهم.

والإيمان لم يفوا، ولم يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، لم يميز إقرارهم بالجزية، بل يقاتلون حتى يسلموا. واستدل بهذه الآية الجمهور الذين يقولون: لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب، لأن الله لم يذكر أخذ الجزية إلا منهم.

وأما غيرهم فلم يذكر إلا قتالهم حتى يسلموا، وألحق بأهل الكتاب في أخذ الجزية وإقرارهم في ديار المسلمين، المجوس، فإن النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر، ثم أخذها أمير المؤمنين عمر من الفرس المجوس. وقيل: إن الجزية تؤخذ من سائر الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، لأن هذه الآية نزلت بعد الفراغ من قتال العرب المشركين، والشروع في قتال أهل الكتاب ونحوهم، فيكون هذا القيد إخباراً بالواقع، لا مفهوم له.

ويدل على هذا أن المجوس أخذت منهم الجزية وليسوا أهل كتاب، ولأنه قد نواتر عن المسلمين من الصحابة ومن بعدهم أنهم يدعون من يقاتلونهم إلى إحدى ثلاث: إما الإسلام، أو أداء الجزية، أو السيف، من غير فرق بين

كَيْلِهَا لِيَوْمِ جَبَدٍ وَلِلْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَنْ يَلْمِزْهُمْ فَهُمْ لَكُمُوعٌ كَثِيرَةٌ يَتْرَكُونَهَا لِلْأَبْرَارِ وَمَنْ يَفْرَقْ بَيْنَهُمْ فَسَعْيُكَ عَمَلٌ صَالِحٌ وَإِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَكِيمٌ ﴿٣٣٠﴾

كتابي وغيره. ﴿٣٠ - ٣٣﴾ وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون \* اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا لها واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون \* يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون \* هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون \* لما أمر تعالى بقتال أهل الكتاب، ذكر من أقوالهم الخبيثة، ما سيجح المؤمنين الذين يغارون لربهم ولدينه على قتالهم، والاجتهاد وبذل الوسع فيه فقال: ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾ وهذه المقالة وإن لم تكن مقالة لعامتهم فقد قالها فرقة منهم، فيدل ذلك على أن في اليهود من الخبيث والشر ما أوصلهم إلى أن قالوا هذه المقالة التي تهمروا فيها على الله، وتقصوا عظمته وجلاله.

وقد قيل: إن سبب ادعائهم في عزير، أنه ابن الله، أنه لما سلب الله الملوك<sup>(١)</sup> على بني إسرائيل، ومزقهم كل ممزق، وقتلوا حملة التوراة، وجدوا

(١) كذا في ب، وفي أ: يبذلونها. (٢) في ب: أنه لنا تسلط الملوك.

وإبطاله، فإن سميهم لا يضر الحق شيئاً.

ثم بين تعالى هذا النور الذي قد تكفل بإتمامه وحفظه فقال: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى﴾ الذي هو العلم النافع ﴿ودين الحق﴾ الذي هو العمل الصالح فكان ما بعث الله به محمداً ﷺ مشتتلاً على بيان الحق من الباطل في أسماء الله وأوصافه وأفعاله، وفي أحكامه وأخباره، والأمر بكل مصلحة نافعة للقلوب، والأرواح والأبدان من إخلاص الدين لله وحده، وعبادة الله وعاشن الشيم، والأعمال الصالحة والآداب النافعة، والنهي عن كل ما يصاد ذلك ويناقضه من الأخلاق والأعمال السيئة المفسدة للقلوب والأبدان والدنيا والآخرة.

فأرسله الله بالهدى ودين الحق ﴿ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ أي: ليعليه على سائر الأديان بالحجة والبرهان، والسيف والسنان، وإن كره المشركون ذلك، وبغواله الغوائل، ومكروا مكروهم، فإن المكر السيئ لا يضر إلا صاحبه، فوعد الله لا بد أن يتجزه، وما ضمنه لا بد أن يقوم به.

﴿٣٤ - ٣٥﴾ يا أيها الذين آمنوا

إن كثيراً من الأخبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فيشروهم بعذاب أليم \* يوم يحصى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴿ هذا تحذير من الله تعالى لعباده المؤمنين عن كثير من الأخبار والرهبان، أي: العلماء والعباد الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، أي: بغير حق، ويصدون عن سبيل الله، فإنهم إذا كانت لهم رواتب من أموال الناس، أو يذل الناس لهم من أموالهم، فإنه لأجل علمهم وعبادتهم، ولأجل هداهم وهدايتهم، وهؤلاء يأخذونها

حرم الله فيحلوته، ويحرمون لهم ما أحل الله فيحرمونه، ويشرعون لهم من الشرائع والأقوال المنافية لدين الرسل فيتبعونهم عليها.

وكانوا أيضاً يغفلون في مشايخهم وعبادهم ويعظمونهم، ويتخذون قبورهم أوثاناً تعبد من دون الله، وتقصد بالذبايح والدعاء والاستغاثة.

﴿والمسيح ابن مريم﴾ اتخذوه إلهاً من دون الله، وإحلال أنهم خالفوا في ذلك أمر الله لهم على السنة رسله فما ﴿أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو﴾ فيخلصون له العبادة والطاعة، ويخصونه بالمحبة والدعاء، فنبذوا أمر الله وأشركوا به ما لم ينزل به سلطاناً.

﴿سبحانه﴾ وتعالى ﴿عما يشركون﴾ أي: تنزهه وتقدس، وتعالى عظمته عن شركهم وافترائهم، فإنهم ينتقصونه في ذلك، ويصفونه بما لا يليق بجلاله، والله تعالى العالی في أوصافه وأفعاله عن كل ما نسب إليه، بما ينافي كماله المقدس.

فلما تبين أنه لا حجة لهم على ما قالوه، ولا برهان لما أصْلوه، وإنما هو مجرد قول قالوه وافتراء افتروه، أخبر أنهم ﴿يريدون﴾ بهذا ﴿أن يطفئوا نور الله بأفواههم﴾.

ونور الله: دينه الذي أرسل به الرسل، وأنزل به الكتب، وسماه الله نوراً، لأنه يستنار به في ظلمات الجهل والأديان الباطلة، فإنه علم بالحق، وعمل بالحق، وما عداه فإنه بضده، فهو لاء اليهود والنصارى ومن ضاهوه من المشركين، يريدون أن يطفئوا نور الله بمجرد أقوالهم، التي ليس عليها دليل أصلاً.

﴿ويأين الله إلا أن يتم نوره﴾ لأنه النور الباهر، الذي لا يمكن لجميع الخلق لو اجتمعوا على إطفائه أن يطفئوه، والذي أنزله جميع نواصي العباد بيده، وقد تكفل بحفظه من كل من يريد به سوء، ولهذا قال: ﴿ويأين الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ وسعوا ما أمكنهم في رده



عزيراً بعد ذلك حافظاً لها أو لأكثرها، فأملأها عليهم من حفظه، واستسخوها، فادعوا فيه هذه الدعوى الشنيعة.

﴿وقالت النصارى المسيح عيسى ابن مريم﴾ ابن الله ﴿قال الله تعالى ذلك﴾ القول الذي قالوه ﴿قولهم بأفواههم﴾ لم يقيموا عليه حجة ولا برهاناً.

ومن كان لا يسالي بما يقول، لا يستغرب عليه أي: قول يقوله، فإنه لا دين ولا عقل يحجزه عما يريد من الكلام.

ولهذا قال: ﴿يضاهتون﴾ أي: يشابهون في قولهم هذا ﴿قول الذين كفروا من قبل﴾ أي: قول المشركين الذين يقولون: ﴿الملائكة بنات الله﴾ نشأبت قلوبهم، فنشأبت أقوالهم في البطلان.

﴿قاتلهم الله أتى يؤفكون﴾ أي: كيف يصرفون عن الحق الصرف الواضح المبين، إلى القول الباطل المبين.

وهذا - وإن كان يستغرب على أمة كبيرة كثيرة أن تتفق على قول - يدل على بطلانه أدنى تفكر وتسلط للعقل عليه، فإن لذلك سبباً وهو أنهم: ﴿اتخذوا أخبارهم﴾ وهم علماءهم ﴿ورهبانهم﴾ أي: العبَّاد المتجردين للعبادة.

﴿أرباباً من دون الله﴾ يخلون لهم ما

ويصدون الناس عن سبيل الله، فيكون أخذهم لها على هذا الوجه سحتاً وظلماً، فإن الناس ما بذلوا لهم من أموالهم إلا ليدلوهم إلى الطريق المستقيم.

ومن أخذهم لأموال الناس بغير حق، أن يعطوهم ليفتوهم أو يحكموا لهم بغير ما أنزل الله، فهؤلاء الأخبار والريان، ليحذر منهم هاتان الحالتان: أخذهم لأموال الناس بغير حق، وصددهم الناس عن سبيل الله.

﴿والذين يكتزون الذهب والفضة﴾ أي: يمسكونها ﴿ولا ينفقونها في سبيل الله﴾ أي: طرق الخير الموصلة إلى الله، وهذا هو الكنز المحرم، أن يمسكها عن النفقة الواجبة، كأن يمنع منها الزكاة أو النفقات الواجبة للزوجات أو الأتارب، أو النفقة في سبيل الله إذا وجبت.

﴿فيشرهم بعذاب اليم﴾ ثم فسره بقوله: ﴿يوم يحمى عليها﴾ أي: على أموالهم، ﴿في نار جهنم﴾ فيحمى كل دينار أو درهم على حدة.

﴿فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم﴾ في يوم القيامة كلما بردت أعيدت في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ويقال لهم ترويضاً ولوماً: ﴿هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكزون﴾ فما ظلمكم ولكنكم ظلمتم أنفسكم وعذبتموها بهذا الكثر.

وذكر الله في هاتين الآيتين انحراف الإنسان في ماله، وذلك بأحد أمرين:

إما أن ينفقه في الباطل الذي لا يجدي عليه نفعاً، بل لا يناله منه إلا الضرر المحض، وذلك كإخراج الأموال في المعاصي والشهوات التي لا تعين على طاعة الله، وإخراجها للصد عن سبيل الله.

وإما أن يمسك ماله عن إخراجها في

الواجبات و «النهي عن الشيء»، أمر بضده.

﴿٣٦﴾ وقوله: ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين﴾ يقول تعالى: ﴿إن عدة الشهور عند الله﴾ أي: في قضائه وقدره ﴿اثنا عشر شهراً﴾ وهي هذه الشهور المعروفة ﴿في كتاب الله﴾ أي: في حكمه القدري، ﴿يوم خلق الله السماوات والأرض﴾ وأجرى ليها ونهارها، وقدر أوقاتها فقسما على هذه الشهور الاثني عشر [شهراً].

﴿منها أربعة حرم﴾: وهي: رجب الفرد، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وسميت حرماً لزيادة حرمتها، وتحريم القتال فيها.

﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ يحتمل أن الضمير يعود إلى الاثني عشر شهراً، وأن الله تعالى بين أنه جعلها مقادير للعباد، وأن تعمر بطاعته، ويشكر الله تعالى على سيئته بها، وتقيضها لمصالح العباد، فلتحذروا من ظلم أنفسكم فيها.

ويحتمل أن الضمير يعود إلى الأربعة الحرم، وأن هذا نهي لهم عن الظلم فيها، خصوصاً مع النهي عن الظلم كل وقت، لزيادة تحريمها، وكون الظلم فيها أشد منه في غيرها.

ومن ذلك النهي عن القتال فيها، على قول من قال: إن القتال في الأشهر الحرم<sup>(١)</sup> لم ينسخ تحريمه عملاً بالتنصيص العامة في تحريم القتال فيها.

ومنهم من قال: إن تحريم القتال

فيها منسوخ، أخذاً بعموم نحو قوله تعالى ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ أي: قاتلوا جميع أنواع المشركين والكافرين برب العالمين.

ولا تخصوا أحداً منهم بالقتال دون أحد، بل اجعلوهم كلهم لكم أعداء كما كانوا هم معكم كذلك، قد اتخذوا أهل الإيمان أعداء لهم، لا يألونهم من الشر شيئاً.

ويحتمل أن ﴿كافة﴾ حال من الراو فيكون معنى هذا: وقاتلوا جميعكم المشركين، فيكون فيها وجوب التغير على جميع المؤمنين.

وقد نسخت على هذا الاحتمال بقوله: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ الآية. ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ بمعونه ونصره وتأيدته، فلتحرصوا على استعمال تقوى الله في سرهم وعلنتكم، والقيام بطاعته، خصوصاً عند قتال الكفار، فإنه في هذه الحال، ربما ترك المؤمن العمل بالتقوى في معاملة الكفار الأعداء المحاربين.

﴿٣٧﴾ ﴿إنما النسبيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواظبوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ النسبيء: هو ما كان أهل الجاهلية يستعملونه في الأشهر الحرم، وكان من جملة بدعهم الباطلة، أنهم لما رأوا احتياجهم للقتال في بعض أوقات الأشهر الحرم، رأوا - بأرائهم الفاسدة - أن يحافظوا على عدة الأشهر الحرم، التي حرم الله القتال فيها، وأن يؤخروا بعض الأشهر الحرم، أو يقدموه، ويجعلوا مكانه من أشهر الحل ما أرادوا، فإذا جعلوه مكانه أحلوا



عصى الله تعالى وأرتكب لنهيهِ، ولم يساعد على نصر دين الله، ولا ذب عن كتاب الله وشرعه، ولا أعان إخوانه المسلمين على عدوهم الذي يريد أن يستأصلهم ويمحق دينهم، وربما اقتدى به غيره من ضعفاء الإيمان، بل ربما قُت في أعضاد من قاموا بجهاد أعداء الله، فحقيق بمن هذا حاله أن يتوعده الله بالوعيد الشديد، فقال:

﴿إِلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم﴾ ثم لا يكونوا أمثالكم ﴿ولا تضره شيئاً﴾ فإنه تعالى متكفل بنصر دينه وإعلاء كلمته، فسواء امتثلتم لأمر الله، أو ألقيتموه وراءكم ظهرياً.

﴿والله على كل شيء قدير﴾ لا يعجزه شيء أرادته، ولا يغالبه أحد.

﴿٤٠﴾ ﴿إِلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم﴾ أي: إلا تنصروا رسوله محمداً ﷺ، فالله غني عنكم، لا تضره شيئاً، فقد نصره في أقل ما يكون وأذله ﴿إذ أخرجه الذين كفروا﴾ من مكة لما هموا بقتله، وسعوا في ذلك، وحرصوا أشد الحرص، فالتجؤوه إلى أن يخرج.

﴿ثاني اثنين﴾ أي: هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه ﴿إذ هما في الغار﴾ أي: لما هربا من مكة، لجأ إلى غار ثور<sup>(١)</sup> في أسفل مكة، فمكثا فيه ليبرد عنهما الطلب.

فهما في تلك الحالة الحرجة الشديدة المشقة، حين انتشر الأعداء من كل جانب يطلبونهما لقتلوهما، فأنزل الله عليهما من نصره ما لا يحظر على البال.

﴿إذ يقول النبي ﷺ ﴿لصاحبه﴾ أي بكر لما حزن واشتد قلقه،

قليلاً، والمعيشة عسرة، فحصل من بعض المسلمين من الثاقل ما أوجب أن يعاتبهم الله تعالى عليه ويستنهضهم، فقال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ ألا تعملون بمقتضى الإيمان، وداعي<sup>(٢)</sup> اليقين من المبادرة لأمر الله، والمصارعة إلى رضاه، وجهاد أعدائه والنصرة لدينكم، ذ ﴿وما لكم إذا قيل لكم اتفروا في سبيل الله أثاقلتم إلى الأرض﴾ أي: تكاسلتم، وملتم إلى الأرض والدعة والسكون فيها.

﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾ أي: ما حالكم إلا حال من رضي بالدنيا وسعى لها ولم يبال بالآخرة، فكأنه ما آمن بها.

﴿فما متاع الحياة الدنيا﴾ التي مالت بكم، وقدمتموها على الآخرة ﴿إلا قليل﴾ أفليس قد جعل الله لكم عقولاً تزنون بها الأمور، وأيها أحمق بالإيتار؟

أفليست الدنيا - من أولها إلى آخرها - لا نسبة لها في الآخرة. فما مقدار عمر الإنسان القصير جداً من الدنيا حتى يجعله الغاية التي لا غاية وراءها، فيجعل سعيه وكده وهمه وإرادته لا يتعدى حياته الدنيا القصيرة المملوءة بالأكدار، المشحونة بالآخطار.

فبأي: رأي رأيتم إثارها على الدار الآخرة الجامعة لكل نعم، التي فيها ما تشتهيها الأنفس وتلد الأعين، وأنتم فيها خالدون، فوالله ما أثر الدنيا على الآخرة من وقر الإيمان في قلبه، ولا من جزل رأيه، ولا من عُد من أولي الأبواب، ثم توعدهم على عدم النفي فقال:

﴿إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً﴾ في الدنيا والآخرة، فإن عدم النفي في حال الاستنفار من كبائر الذنوب الموجبة لأشد العقاب، لما فيها من المضار الشديدة، فإن المتخلف قد

القتال فيه، وجعلوا الشهر الحلال حراماً، فهذا - كما أخبر الله عنهم - أنه زيادة في كفرهم وضلالهم، لما فيه من المحاذير.

منها: أنهم ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، وجعلوه بمنزلة شرع الله ودينه، والله ورسوله يريثان منه.

ومنها: أنهم قلبوا الدين، فجعلوا الحلال حراماً، والحرام حلالاً.

ومنها: أنهم سوَّهوا على الله بزعمهم وعلى عباده، ولبسوا عليهم دينهم، واستعملوا الخداع والحيلة في دين الله.

ومنها: أن الموائد المخالفة للشرع مع الاستمرار عليها، يزول قبحها عن النفوس، وربما ظن أنها عوائد حسنة، فحصل من الغلط والضلال ما حصل، ولهذا قال: ﴿يضل به الذين كفروا يملونه عاماً ويخربونه عاماً ليواطؤوا عدة ما حرم الله﴾ أي: ليوافقوها في العدد، فيحلوا ما حرم الله.

﴿زين لهم سوء أعمالهم﴾ أي: زينت لهم الشياطين الأعمال السيئة، فرأوها حسنة، بسبب العقيدة الزينة في قلوبهم.

﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ أي: الذين انصغ الكفر والتكذيب في قلوبهم، فلو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا.

﴿٣٨-٣٩﴾ قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم اتفروا في سبيل الله أثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾ \* إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضره شيئاً والله على كل شيء قدير﴾ اعلم أن كثيراً من هذه السورة الكريمة نزلت في غزوة تبوك، إذ ندب النبي ﷺ المسلمين إلى غزوة الروم، وكان الوقت حاراً، والبرد

(١) في ب، ودواعي.

(٢) في أ: (إلى غار حراء)، وفي ب: عدلت إلى: (غار ثور) وهو الصحيح فيبدو - والله أعلم - أنه سبق قلم.

﴿لا تحزن إن الله معنا﴾ بعونه ونصره وتأييده.

﴿فأنزل الله سكينته عليه﴾ أي: الثبات والطمأنينة والسكون المثبتة للنفوس، ولهذا لما قلن صاحبه سكنه وقال: ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾.

﴿وأبده بجنود لم نروها﴾ وهي الملائكة الكرام، الذين جعلهم الله حرماً له، ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى﴾ أي: الساقطة المخذولة، فإن الذين كفروا قد كانوا على حرد قادرين، في ظنهم على قتل الرسول ﷺ وأخذه، حنقين عليه، فعملوا غاية مجهودهم في ذلك، فخذلهم الله ولم يتم لهم مقصودهم، بل ولا أدركوا شيئاً منه.

ونصر الله رسوله بدفعه عنه، وهذا هو النصر المذكور في هذا الموضع، فإن النصر على قسمين: نصر المسلمين إذا طمعوا في عدوهم بأن يتم الله لهم ما طلبوا وقصدوا، ويستولوا على عدوهم ويظهروا عليهم.

والثاني نصر المستضعف الذي طمع فيه عدوه القادر، فنصر الله إياه أن يرد عنه عدوه، ويدافع عنه، ولعل هذا النصر أنفع النصرين، ونصر الله رسوله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين من هذا النوع.

وقوله: ﴿وكلمة الله هي العليا﴾ أي: كلماته القدرية وكلماته الدينية، هي العالية على كلمة غيره، التي من جملتها قوله: ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ ﴿وان جندنا لهم الغالبون﴾ فدين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان، بالحجج الواضحة، والآيات الباهرة والسلطان الناصر.

﴿والله عزيز﴾ لا يغالبه مغالب، ولا يضوته هارب، ﴿حكيم﴾ يضع الأشياء مواضعها، ويؤخر نصر حزبه إلى وقت آخر اقتضته الحكمة الإلهية.

وفي هذه الآية الكريمة فضيلة أبي بكر الصديق بخصيصة لم تكن لغيره من هذه الأمة، وهي الفوز بهذه المنقبة

الجليلة، والصحة الجميلة، وقد أجمع المسلمون على أنه هو المراد بهذه الآية الكريمة، ولهذا عدوا من أنكروا صحة أبي بكر للنبي ﷺ كافرين، لأنه منكر للقرآن الذي صرح بها.

وفيها فضيلة السكينة، وأنها من تمام نعمة الله على العبد في أوقات الشدائد والمخاوف التي تطيش بها الأفتدة، وأنها تكون على حسب معرفة العبد بربه، وثقته بوعده الصادق، وبحسب إيمانه وشجاعته.

وفيها: أن الحزن قد يعرض لخواص عباد الله الصديقين، مع أن الأولى - إذا نزل بالعبد - أن يسعى في ذهابه عنه، فإنه مضعف للقلب، موهن للزيمة.

﴿٤١ - ٤٢﴾ ﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ \* لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلّفون بالله لو استطعنا يخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون﴾ يقول تعالى لعباده المؤمنين - مهيباً لهم على التغير في سبيله فقال: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ أي: في العسر واليسر، والمنشط والمكره، والحر والبرد، وفي جميع الأحوال.

﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ أي: ابذلوا جهدكم في ذلك، واستفرغوا وسعكم في المال والنفس، وفي هذا دليل على أنه - كما يجب الجهاد في النفس - يجب الجهاد في المال، حيث اقتضت الحاجة ودعت لذلك.

ثم قال: ﴿ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي: الجهاد في النفس والمال، خير لكم من التقاعد عن ذلك، لأن فيه رضا الله تعالى، والفوز بالدرجات العاليات عنده، والنصر لدين الله، والدخول في جملة جنده وحزبه.

لو كان خروجهم لطلب العرض القريب، أي: منفعة دنيوية سهلة

التناول ﴿وكان السفر﴾ سفراً قاصداً ﴿أي: قريباً سهلاً﴾ ﴿لاتبعوك﴾ لعدم المشقة الكثيرة، ﴿ولكن بعدت عليهم الشقة﴾ أي: طال عليهم المسافة، وصعب عليهم السفر، فلذلك تناقلوا عنك، وليس هذا من أمارات العبودية، بل العبد حقيقة هو المتعبد لربه في كل حال، القائم بالعبادة السهلة والشاقة، فهذا العبد لله على كل حال.

﴿وسيحلّفون بالله لو استطعنا يخرجنا معكم﴾ أي: سيحلّفون أن تخلفهم عن الخروج، أن لهم أعذراً، وأنهم لا يستطيعون ذلك.

﴿يهلكون أنفسهم﴾ بالقعود والكذب والإخبار بغير الواقع، ﴿والله يعلم إنهم لكاذبون﴾.

وهذا العتاب إنما هو للمنافقين، الذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، وأبدوا من الأعدار الكاذبة ما أبدوا، فعفا النبي ﷺ عنهم بمجرد اعتذارهم، من غير أن يمتحنهم، فيتبين له الصادق من الكاذب، ولهذا عاتبه الله على هذه السارعة إلى عذرهم فقال:

﴿٤٣ - ٤٥﴾ ﴿عفا الله عنكم لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾ \* لا يستنذك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين \* إنما يستأنذك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يشرددون﴾ يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿عفا الله عنك﴾ أي: ساهك وغفر لك ما أجزيت.

﴿لم أذنت لهم﴾ في التخلف ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾ بأن تمتحنهم، ليتبين لك الصادق من الكاذب، فتعذر من يستحق العذر من لا يستحق ذلك.

ثم أخبر أن المؤمنين بالله واليوم الآخر، لا يستأذنون في ترك الجهاد بأموالهم وأنفسهم، لأن ما معهم من الرغبة في الخير والإيمان، يحملهم على الجهاد من غير أن يحشهم عليه حاش،

فضلاً عن كونهم يستأذنون في تركه من غير عذر .

﴿ والله عليم بالثقلين ﴾ فيجازيهم على ما قاموا به من تقواه، ومن علمه بالثقلين، أنه أخير، أن من علاماتهم أنهم لا يستأذنون في ترك الجهاد .

﴿ إنما يستأذئك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم ﴾ أي: ليس لهم إيمان تام، ولا يقين صادق، فلذلك قُلت رغبتهم في الخير، وجبنوا عن القتال، واحتاجوا أن يستأذنوا في ترك القتال . ﴿ فهم في ربهم يترددون ﴾ أي: لا يزالون في الشك والحيرة .

﴿ ٤٦ - ٤٨ ﴾ ﴿ ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبئائهم فثبطهم وقيل اقتدوا مع القاعدین \* لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم بيغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين \* لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ﴾ يقول تعالى مبيناً أن المتخلفين من المنافقين قد ظهر منهم من القرائن ما يبين أنهم ما قصدوا الخروج للجهاد بالكلية، وأن أعدائهم التي اعتدروها باطلة، فإن العذر هو المانع الذي يمنع إذا بذل العبد وسعه، وسعى في أسباب الخروج، ثم منعه مانع شرعي، فهذا الذي يعذر .

﴿ و ﴾ أما هؤلاء المنافقون قد ﴿ لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ﴾ أي: لاستعدوا وعملوا ما يمكنهم من الأسباب، ولكن لما لم يعدوا له عدة، علم أنهم ما أرادوا الخروج .

﴿ ولكن كره الله انبئائهم ﴾ معكم في الخروج للغزو ﴿ فثبطهم ﴾ قدراً وقضاء، وإن كان قد أمرهم وحثهم على الخروج، وجعلهم مقتدرين عليه، ولكن بحكمته ما أراد إعانتهم، بل خذلهم وثبطهم ﴿ وقيل اقتدوا مع القاعدین ﴾ من النساء والمعدورين .

ثم ذكر الحكمة في ذلك فقال: ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ﴾ أي: نقصاً .

﴿ ولأوضعوا خلالكم ﴾ أي: وأسعوا في الفتنة والشر بينكم، وفرقوا جماعتكم المجتمعين، ﴿ بيغونكم الفتنة ﴾ أي: هم حريصون على فتنتكم وإلقاء العداوة بينكم .

﴿ وفيكم ﴾ أناس ضعفاء العقول ﴿ سماعون لهم ﴾ أي: مستجيبون لدعوتهم يغترون بهم، فإذا كانوا هم حريصين على خذلانكم، وإلقاء الشر بينكم، وتشبيطكم عن أعدائكم، وفيكم من يقبل منهم ويستصحهم . فما طنك بالشر الحاصل من خروجهم مع المؤمنين، والنقص الكثير منهم، فله أتم الحكمة حيث ثبطهم ومنعهم من الخروج مع عباده المؤمنين رحمة بهم، ولطفاً من أن يداخلهم ما لا يفهم بل يضرهم .

﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ فيعلم عباده كيف يجذرونهم، ويبين لهم من المفساد الناشئة من مخالطتهم .

ثم ذكر أنه قد سبق لهم سوابق في الشر فقال:

﴿ لقد ابتغوا الفتنة من قبل ﴾ أي: حين هاجرتهم إلى المدينة، بذلوا الجهد، ﴿ وقلبوا لك الأمور ﴾ أي: أداروا الأفكار، وأعملوا الخيل في إيصال دعوتكم وخذلان دينكم، ولم يقصروا في ذلك، ﴿ حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ﴾ فبطل كيدهم واضمحل باطلهم، فحقيق بمثل هؤلاء أن يجذر الله عباده المؤمنين منهم، وأن لا يبالي المؤمنون بتخلفهم عنهم .

﴿ ٤٩ ﴾ ﴿ ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين من يستأذن في التخلف، ويعتذر بعذر آخر عجيب، فيقول: ﴿ ائذن لي ﴾ في التخلف ﴿ ولا تفتني ﴾ في الخروج، فإني إذا خرجت، فرأيت نساء بني الأصفر لا أصير عنهن، كما قال ذلك الجلد بن قيس . ومقصوده - قبحه الله - الرياء والفتاق بأن مقصودي مقصود حسن، فإن في خروجي فتنة وتعرضاً للشر، وفي عدم خروجي عافية وكفا عن

الشر .

قال الله تعالى مبيناً كذب هذا القول: ﴿ ألا في الفتنة سقطوا ﴾ فإنه على تقدير صدق هذا القائل في قصده، [فإن] في التخلف مفسدة كبرى وفتنة عظيمة محففة، وهي معصية الله ومعصية رسوله، والتجريء على الإثم الكبير، والوزر العظيم، وأما الخروج فمفسدة قليلة بالنسبة للتخلف، وهي متوهمة، مع أن هذا القائل قصده التخلف لا غير، ولهذا توعدهم الله بقوله: ﴿ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ ليس لهم عنها مفر ولا مناص، ولا فكاك ولا خلاص .

﴿ ٥٠ - ٥١ ﴾ ﴿ إن نصيبك حسنة سؤهم وإن نصيبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمراً من قبل ويتولوا وهم فرحون \* قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ يقول تعالى مبيناً أن المنافقين هم الأعداء حقاً، المخضرون للدين صرفاً: ﴿ إن نصيبك حسنة ﴾ كنصر وإدالة على العدو ﴿ تسؤهم ﴾ أي: تحزهم وتغمهم .

﴿ وإن نصيبك مصيبة ﴾ كإدالة العدو عليك ﴿ يقولوا ﴾ متبجحين بسلامتهم من الحضور معك .

﴿ قد أخذنا أمراً من قبل ﴾ أي: قد حذرنا وعلمنا بما ينجمنا من الوقوع في مثل هذه المصيبة .

﴿ ويتولوا وهم فرحون ﴾ فيفرحون بمصيبتك، وبعدم مشاركتهم إياك فيها . قال تعالى راداً عليهم في ذلك ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾ أي: قدره وأجره في اللوح المحفوظ . ﴿ هو مولانا ﴾ أي: متولي أمورنا الدينية والدنيوية، فعلينا الرضا بأقداره وليس في أيدينا من الأمر شيء .

﴿ وعلى الله ﴾ وحده ﴿ فليتوكل المؤمنون ﴾ أي: يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم ودفع المضار عنهم، ويتقوا به في تحصيل مطلوبهم، فلا خاب من توكل عليه، وأما من توكل على غيره، فإنه مخذول غير مدرك لما أمل .

﴿ ٥٢ ﴾ ﴿ قل هل تر بصون بنا إلا





أي: كافيًا الله، ففرضي بما قسمه لنا، وليؤملوا فضله وإحسانه إليهم بأن يقولوا: ﴿سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون﴾ أي: متضرعون في جلب منافعنا ودفق مضارنا، لسلموا من النفاق ولهدوا إلى الإيمان والأحوال العالية، ثم بين تعالى كيفية قسمة الصدقات الواجبة فقال:

﴿٦٠﴾ ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾ يقول تعالى: ﴿إنما الصدقات﴾ أي: الزكوات الواجبة، بدليل أن الصدقة المستحبة لكل أحد، لا ينحصر بها أحد دون أحد.

أي: إنما الصدقات لهؤلاء المذكورين دون من عداهم، لأنه حصرها فيهم، وهم ثمانية أصناف.

الأول والثاني: الفقراء والمساكين، وهم في هذا الموضع صنفان متفاوتان، فالفقير أشد حاجة من المسكين، لأن الله بدأ بهم، ولا يبدأ إلا بالأهم فالأهم، ففسر الفقير بأنه الذي لا يجد شيئاً، أو يجد بعض كفايته دون نصفها.

والمسكين: الذي يجد نصفها فأكثر،

ولا يجد تمام كفايته، لأنه لو وجدها لكان غنياً، فيعطون من الزكاة ما يزول به فقرهم ومسكتهم.

والثالث: العاملون على الزكاة، وهم كل من له عمل وشغل فيها، من حافظ لها، أو جاب لها من أهلها، أو راع، أو حامل لها، أو كاتب، أو نحو ذلك، فيعطون لأجل عمالتهم، وهي أجرة لأعمالهم فيها.

والرابع: المؤلفة قلوبهم، المؤلف قلبه: هو السيد الطاع في قومه، ممن يرجى إسلامه، أو يخشى شره أو يرجى ببعيثة قوة إيمانه، أو إسلام نظيره، أو جبايتها ممن لا يعطيها، فيعطى ما يحصل به التآلف والمصلحة.

الخامس: الرقاب، وهم المكاتبون الذين قد اشتروا أنفسهم من ساداتهم، فهم يسعون في تحصيل ما يفك رقابهم، فيعانون على ذلك من الزكاة، وفك الرقبة المسلمة التي في حبس الكفار داخل في هذا، بل أولى، ويدخل في هذا أنه يجوز أن يعتق منها الرقاب استقلالاً، لدخوله في قوله: ﴿وفي الرقاب﴾.

السادس: الغارمون، وهم قسمان:

أحدهما: الغارمون لإصلاح ذات البين، وهو أن يكون بين طائفتين من الناس شر وفتنة، فيتوسط الرجل للإصلاح بينهم بما يبدله لأحدهم أو لهم كلهم، فجعل له نصيب من الزكاة، ليكون أنشط له وأقوى لعزيمه، فيعطى ولو كان غنياً.

والثاني: من غرم لنفسه ثم أصغر، فإنه يعطى ما يؤقفي به دينه.

والسابع: الغازي في سبيل الله، وهم الغزاة المتطوعة، الذين لا ديوان لهم، فيعطون من الزكاة ما يعينهم على غزوهم، من ثمن سلاح أو دابة، أو نفقة له ولعِياله، ليتوفر على الجهاد ويطمئن قلبه.

وقال كثير من الفقهاء: إن نضرغ

القادر على الكسب لطلب العلم، أعطي من الزكاة، لأن العلم داخل في الجهاد في سبيل الله.

وقالوا أيضاً: يجوز أن يعطى منها الفقير لحج فرضه، [وفيه نظراً<sup>(١)</sup>]

والثامن: ابن السبيل، وهو الغريب المنقطع به في غير بلده، فيعطى من الزكاة ما يوصله إلى بلده، فهؤلاء الأصناف الثمانية الذين تدفع إليهم الزكاة وحدهم.

﴿فريضة من الله﴾ فرضها وفقرها، تابعة لعلمه وحكمه ﴿والله عليم حكيم﴾ واعلم أن هذه الأصناف الثمانية، ترجع إلى أمرين:

أحدهما: من يعطى لحاجته ونفعه، كالفقير والمسكين ونحوهما.

والثاني: من يعطى للحاجة إليه وانتفاع الإسلام به، فأوجب الله هذه الخصة في أموال الأغنياء، لسد الحاجات الخاصة والعامة للإسلام والمسلمين، فلو أعطى الأغنياء زكاة أموالهم على الوجه الشرعي، لم يبق فقير من المسلمين، ولحصل من الأموال ما يسد الشغور، ويجاهد به الكفار وتحصل به جميع المصالح الدينية.

﴿٦١ - ٦٣﴾ ﴿ومنهم الذين

يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم \* يخلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين \* ألم يعلموا أنه من مجاد الله ورسوله فإن له نار جهنم خالداً فيها ذلك الخزي العظيم﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين ﴿الذين يؤذون النبي﴾ بالأقوال الرديئة، والعييب له ولدينه، ﴿ويقولون هو أذن﴾ أي: لا يبالون بما يقولون من الأذى للنبي، ويقولون: إذا بلغه عنا بعض ذلك، جئنا نعتذر إليه، فيقبل منا، لأنه أذن، أي: يقبل كل ما يقال له، لا يميز بين صادق وكاذب،

(١) زيادة من هامش: ب.



والمناققات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم ﴿ يقول تعالى: ﴿ المنافقون والمناققات بعضهم من بعض ﴾ لأنهم اشتركوا في النفاق، فاشتركوا في تولى بعضهم بعضاً، وفي هذا قطع للمؤمنين من ولايتهم .

ثم ذكر وصف المنافقين العام، الذي لا يخرج منه صغير منهم ولا كبير، فقال: ﴿ يأمرون بالمنكر ﴾ وهو الكفر والنسوق والمعصيان .

﴿ وينهون عن المعروف ﴾ وهو الإيمان، والأخلاق الفاضلة، والأعمال الصالحة، والآداب الحسنة . ﴿ ويقبضون أيديهم ﴾ عن الصدقة وطرق الإحسان، فوصفهم بالبخل .

﴿ نسوا الله ﴾ فلا يذكرونه إلا قليلاً، ﴿ فنسيهم ﴾ من رحمته، فلا يوقفهم لخير، ولا يدخلهم الجنة، بل يتركهم في الدرك الأسفل من النار، خالدين فيها مخلدين .

﴿ إن المنافقين هم الفاسقون ﴾ حصر الفسق فيهم، لأن فسقهم أعظم من فسق غيرهم، بدليل أن عذابهم أشد من عذاب غيرهم، وأن المؤمنين قد ابتلوا بهم، إذ كانوا بين أظهرهم، والاحتراز منهم شديد .

﴿ وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم ﴾ جمع المنافقين والكفار في النار، واللعنة والخلود في ذلك، لاجتماعهم في الدنيا على الكفر، والمعادة لله ورسوله والكفر بآياته .

﴿ ٦٩ - ٧٠ ﴾ ﴿ كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقتهم فاستمتعتم بخلاقتكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقتهم وخضتم كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون ﴾ ألم يأتيهم نبي الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين



دينه ورسله، والاستهزاء بشيء من ذلك مناف لهذا الأصل، ومناقض له أشد المناقضة .

ولهذا لما جاؤوا إلى الرسول يعتذرون بهذه المقالة، والرسول لا يزيدهم على قوله: ﴿ آياته وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون ﴾ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم .

وقوله: ﴿ إن نعمة عن طائفة منكم ﴾ لتوبتهم واستغفارهم وندمهم، ﴿ نعمة طائفة ﴾ منكم ﴿ بأنهم ﴾ بسبب أنهم ﴿ كانوا مجرمين ﴾ مقيمين على كفرهم ونفاقهم .

وفي هذه الآيات دليل على أن من أسر سريرة، خصوصاً السريرة التي يمكر فيها بدينه، ويستهزئ به وبآياته ورسوله، أن الله تعالى يظهرها ويفضح صاحبها، ويعاقبه أشد العقوبة .

وأن من استهزأ بشيء من كتاب الله أو سنة رسوله الثابتة عنه، أو سخر بذلك، أو تنقصه، أو استهزأ بالرسول أو تنقصه، أنه كافر بالله العظيم، وأن التوبة مقبولة في كل ذنب وإن كان عظيماً .

﴿ ٦٧ - ٦٨ ﴾ ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون ﴾ وعد الله المنافقين







ثم عرض عليهم التوبة فقال: ﴿فإن يتوبوا يك خيراً لهم﴾ لأن التوبة أصل لسعادة الدنيا والآخرة.

﴿وإن يتولوا﴾ عن التوبة والإنابة يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة ﴿في الدنيا بما ينالهم من الغم والحزن على نصرة الله لدينه، وإعزاز نبيه، وعدم حصولهم على مطلوبهم، وفي الآخرة في عذاب السعير.

﴿وما لهم في الأرض من ولي﴾ يتولى أمورهم، ويحصل لهم المطلوب ﴿ولا نصير﴾ يدفع عنهم المكروه، وإذا انقطعوا من ولاية الله تعالى، فمَن أصناف الشر والحسran، والشقاء والحمران.

﴿٧٥-٧٨﴾ ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين﴾ فلما آتاهم من فضله بخلوها به وتولوا وهم معرضون ﴿فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام

الغيبوب ﴿أي: ومن هؤلاء المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه ﴿لئن آتانا من فضله﴾ من الدنيا فيسطها لنا ووسعها ﴿لنصدقن ولنكونن من الصالحين﴾ فنصل الرحم، ونفري الضيف، ونعين على نوابس الحق، ونفعل الأفعال الحسنة الصالحة.

﴿فلما آتاهم من فضله﴾ لم يفوا بما قالوا، بل ﴿بخلوها به وتولوا﴾ عن الطاعة والانقياد ﴿وهم معرضون﴾ أي: غير ملتفتين إلى الخير.

فلما لم يفوا بما عاهدوا الله عليه، عاقبهم ﴿فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم﴾ مستمراً ﴿إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾.

فليحذر المؤمن من هذا الوصف الشنيع، أن يعاهد ربه، إن حصل مقصوده الفلاني ليفعلن كذا وكذا، ثم لا يفني بذلك، فإنه ربما عاقبه الله بالنفاق كما عاقب هؤلاء.

وقد قال النبي ﷺ في الحديث الثابت في الصحيحين: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف».

فهذا المنافق الذي وعند الله وعاهده، لئن أعطاه الله من فضله، ليصدقن وليكونن من الصالحين، حدث كذب، وعاهد فعدر، ووعده فأخلف.

ولهذا توعد من صدر منهم هذا الصنيع بقوله: ﴿ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب﴾ وسيجازيهم على ما عملوا من الأعمال التي يعلمها الله تعالى، وهذه الآيات نزلت في رجل من المنافقين يقال له: «ثعلبة» جاء إلى النبي ﷺ وسأله أن يدعو الله له، أن يعطيه الله من فضله، وأنه إن أعطاه ليصدقن، ويصل الرحم، ويعين على

النوابس، فدعا له النبي ﷺ، فكان له غنم، فلم تزل تتنامى حتى خرج بها عن المدينة، فكان لا يحضر إلا بعض الصلوات الخمس، ثم أبعد، فكان لا يحضر إلا صلاة الجمعة، ثم كثرت فأبعد بها، فكان لا يحضر جمعة ولا جماعة.

ففقده النبي ﷺ فأخبر بحاله، فبعث من يأخذ الصدقات من أهلها، فمروا على ثعلبة، فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، فلما لم يعطهم جاؤوا فأخبروا بذلك النبي ﷺ فقال: «يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة» ثلاثاً.

فلما نزلت هذه الآية فيه، وفي أمثاله، ذهب بها بعض أهله فبلغه إيها، فجاه بزكاته، فلم يقبلها النبي ﷺ، ثم جاء بها لبي بكر بعد وفاة النبي ﷺ فلم يقبلها، ثم جاء بها بعد أبي بكر لعمر فلم يقبلها، فيقال: إنه هلك في زمن عثمان<sup>(١)</sup>.

﴿٧٩-٨٠﴾ ﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجهدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم﴾ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴿وهذا أيضاً من مخازي المنافقين، فكانوا - قبحهم الله - لا يدعون شيئاً من أمور الإسلام والمسلمين يرون لهم مقالاً، إلا قالوا وطعنوا بغياً وعدواناً، فلما حث الله ورسوله على الصدقة، بادر المسلمون إلى ذلك، وينذوا من أموالهم كل على حسب حاله، منهم الكثير، ومنهم القليل، فيلمزون الكثير منهم، بأن قصده بنفقته الرياء والسمعة، وقالوا

(١) قصة ثعلبة هذه ذكرها كثير من المفسرين، وقد ضعتها جهايزة أهل الحديث كابن حزم، والبيهقي، والقرطبي، والهيشي، والمعراقي، وابن حجر، والسيوطي والتماري وغيرهم - رحمهم الله -، وبينوا أن في إسنادها علي بن يزيد، وهو ضعيف كما أن من رواها: معان بن رفاعه، والقاسم بن عبد الرحمن وهما ضعيفان، وذكر ابن حزم تضعيفها من جهة منها أيضاً. بنظر المحلى: (٢٠٨/١١)، والإصابة: ترجمة ثعلبة، ومجمع الزوائد (٣٢/٧)، والجامع لأحكام القرآن (٢١٠/٨)، وفيض القدير (٤/٢٥٧)، وفتح الباري (٨/٣)، ولباب النقول للسيوطي (١٢١) وتخريج الإحياء للمعالي (٣/٣٣٨).

من الإيمان، ولما يرجون من فضل الله وإحسانه وبره وامتنانه .

﴿وقالوا﴾ أي : المنافقون ﴿لا تنفروا في الحر﴾ أي : قالوا : إن النفير مشقة علينا بسبب الحر ، فقدموا راحة قصيرة منقضية على الراحة الأبدية التامة .

وحذروا من الحر الذي بقي منه الظلال ، ويذهب البكر<sup>(١)</sup> والأصال ، على الحر الشديد الذي لا يقادر قدره ، وهو النار الحامية .

ولهذا قال : ﴿قل نار جهنم أشد حرأ لو كانوا يفقهون﴾ لما أتروا ما يقنى على ما يبقى ، ولما فروا من الشقة الخفيفة المنقضية ، إلى المشقة الشديدة الدائمة .

قال الله تعالى : ﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً﴾ أي : فليمتعوا في هذه الدار المنقضية ، ويفرحوا بلذاتها ، ويلهوا بلمعها ، فسيكون كثيراً في عذاب أليم ﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾ من الكفر والنفاق ، وعدم الانقياد لأوامر ربهم .

﴿فإن رجلكم الله إلى طائفة منهم﴾ وهم الذين تخلفوا من غير عذر ، ولم يحزنوا على تخلفهم ﴿فاستأذنونك للخروج﴾ لغبر هذه العزوة ، إذا رأوا السهولة . ﴿فقل﴾ لهم عقوبة ﴿لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدوا﴾ فسيقتلوا مع الخالفين ﴿يقول تعالى مبيناً تبجح المنافقين يتخلفهم وعدم ميالاتهم بذلك ، الدال على عدم الإيمان ، واختيار الكفر على الإيمان .

﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله﴾ وهذا قدر زائد على مجرد التخلف ، فإن هذا تخلف محرم ، وزيادة رضا بفعل المعصية ، وتبجح به .

﴿وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ وهذا بخلاف المؤمنين الذين إذا تخلفوا - ولو لعذر - حزنوا على تخلفهم وتأسفوا غاية الأسف ، ويمحون أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، لما في قلوبهم

جزاؤهم أن سخر الله منهم ، ولهم عذاب أليم .

﴿٨٠﴾ ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة﴾ على وجه المبالغة ، وإلا فلا مفهوم لها .

﴿فلن يغفر الله لهم﴾ كما قال في الآية الأخرى : ﴿سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم﴾ ثم ذكر السبب المانع لمغفرة الله لهم فقال : ﴿ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله﴾ والكافر لا ينفعه الاستغفار ولا العمل ما دام كافراً .

﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي : الذين صار الفسق لهم وصفاً ، بحيث لا يختارون عليه سواء ولا يغيرون به بدلاً ، يأتيهم الحق الواضح فيردونه ، فيعاقبهم الله تعالى بأن لا يوفقهم له بعد ذلك .

﴿٨١ - ٨٣﴾ ﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرأ لو كانوا يفقهون﴾ فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً ﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾ فإن رجلكم الله إلى طائفة منهم فاستأذنونك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدوا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين ﴿يقول تعالى مبيناً تبجح المنافقين يتخلفهم وعدم ميالاتهم بذلك ، الدال على عدم الإيمان ، واختيار الكفر على الإيمان .

﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله﴾ وهذا قدر زائد على مجرد التخلف ، فإن هذا تخلف محرم ، وزيادة رضا بفعل المعصية ، وتبجح به .

﴿وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ وهذا بخلاف المؤمنين الذين إذا تخلفوا - ولو لعذر - حزنوا على تخلفهم وتأسفوا غاية الأسف ، ويمحون أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، لما في قلوبهم

للمقل الفقير : إن الله غني عن صدقة هذا ، فأنزل الله تعالى : ﴿الذين يلمزون﴾ أي : يعيبون ويطنعون ﴿المطوعين من المؤمنين في الصدقات﴾ فيقولون : مراؤون ، قصدهم الفخر والرياء .

﴿و﴾ يلمزون ﴿الذين لا يجدون إلا جهدهم﴾ فيخرجون ما استطاعوا ويقولون : الله غني عن صدقاتهم ﴿يسخرون منهم﴾ .

فقابلهم الله على صنيعهم بأن ﴿سخر الله منهم ولهم عذاب أليم﴾ فإنهم جمعوا في كلامهم هذا بين عدة محاذير .

منها : تتبعهم لأحوال المؤمنين ، وحرصهم على أن يجدوا مقالاً يقولونه فيهم ، والله يقول : ﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم﴾ .

ومنها : طعنهم بالمؤمنين لأجل إيمانهم ، كفر بالله تعالى وبغض للدين . ومنها : أن اللمز محرم ، بل هو من كباير الذنوب في أمور الدنيا ، وأما اللمز في أمر الطاعة ، فأقبح وأقبح .

ومنها : أن من أطاع الله وتطوع بخصلة من خصال الخير ، فإن الذي ينبغي [هوا] إيمانه وتنشيطه على عمله ، وهؤلاء قصدوا تثيبتهم بما قالوا فيهم وعابوهم عليه .

ومنها : أن حكمهم على من أنفق مالا كثيراً بأنه مراء ، غلط فاحش ، وحكم على الغيب ، ورجم بالظن ، وأي : شر أكبر من هذا!!!

ومنها : أن قولهم لصاحب الصدقة القليلة : ﴿الله غني عن صدقة هذا﴾ ، كلام مقصوده باطل ، فإن الله غني عن صدقة المنصدق بالقليل والكثير ، بل وغني عن أهل السماوات والأرض ، ولكنه تعالى أمر العباد بما هم مفتقرون إليه ، فالله - وإن كان غنياً عنهم - فهم فقراء إليه ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾ وفي هذا القول من التثبيط عن الخير ما هو ظاهر بين ، ولهذا كان

ذلك توبيخاً لهم، وعاراً عليهم ونكالاً أن يفعل أحد كفعالهم.

﴿٨٤﴾ ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون﴾ يقول تعالى: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً﴾ من المنافقين ﴿ولا تقم على قبره﴾ بعد الدفن لتدعوه له، فإن صلته ووقوفه على قبورهم شفاععة منه لهم، وهم لا تنفع فيهم الشفاععة.

﴿إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون﴾ ومن كان كافراً ومات على ذلك، فما تنفعه شفاعة الشافعين، وفي ذلك عبرة لغيرهم، وزجر ونكال لهم، وهكذا كل من علم منه الكفر والتفارق، فإنه لا يصل عليه.

وفي هذه الآية دليل على مشروعية الصلاة على المؤمنين، والوقوف عند قبورهم للنداء لهم، كما كان النبي ﷺ يفعل ذلك في المؤمنين، فإن تفيد النهي بالمنافقين يدل على أنه قد كان متقراً في المؤمنين.

﴿٨٥﴾ ﴿ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ أي: لا تغتر بما أعطاهم الله في الدنيا من الأموال والأولاد، فليس ذلك لكرامتهم عليه، وإنما ذلك إهانة منه لهم. ﴿إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا﴾.

فيتعبون في تحصيلها، ويخافون من زوالها، ولا يتهتئونها.

بل لا يزالون يعانون الشدائد والمشاق فيها، ولنهيهم عن الله والدار الآخرة، حتى ينتقلوا من الدنيا ﴿وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ قد سلبهم حبها عن كل شيء، فماتوا وقلوبهم بها متعلقة، وأفندتهم عليها متحرقة.

﴿٨٦-٨٧﴾ ﴿وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنتك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين﴾ رضوا بأن يكونوا مع

الحوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾ يقول تعالى: في بيان استمرار المنافقين على التناقل عن الطاعات، وأنها لا تؤثر فيهم السور والآيات: ﴿وإذا أنزلت سورة﴾ يؤمرون فيها بالإيمان بالله والجهاد في سبيل الله. ﴿استأذنتك أولوا الطول منهم﴾ يعني: أولي الغنى والأموال، الذين لا عذر لهم، وقد أمدهم الله بأموال وبنين، أفلا يشكرون الله ويمجدونه، ويقومون بما أوجبه عليهم، وسهل عليهم أمره، ولكن أبوا إلا التكاسل والاستئذان في القعود ﴿وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين﴾.

﴿٨٧﴾ قال تعالى: ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾ أي: كيف رضوا لأنفسهم أن يكونوا مع النساء المتخلفات عن الجهاد، هل معهم فقه أو عقل دلهم على ذلك؟ أم طبع الله على قلوبهم فلا تعي الخير، ولا يكون فيها إرادة لفعل ما فيه الخير والفلاح؟ فهم لا يفقهون مصالحهم، فلو فقهوا حقيقة الفقه، لم يرضوا لأنفسهم بهذه الحال التي تحطهم عن منازل الرجال.

﴿٨٨-٨٩﴾ ﴿لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون﴾ أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم﴾

تخلف هؤلاء المنافقون عن الجهاد، فآله سبغني عنهم، والله عباد وخواص من خلقه اختصهم بفضله يقومون بهذا الأمر، وهم ﴿الرسول﴾ محمد ﷺ ﴿والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ غير متناقلين ولا كسليين، بل هم فرحون مستبشرون، ﴿وأولئك لهم الخيرات﴾ الكثيرة في الدنيا والآخرة، ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ الذين ظفروا بأعلى المطالب وأكمل الرغائب.

﴿أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم﴾ فتباً لمن لم يرغب بما رغبوا فيه، وخسر دينه ودينه وأخراه، وهذا

تفسير قوله تعالى: ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا بسلى عليهم يحسرون للآذان سجداً﴾.

وقوله: ﴿فإن يكفروا هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾.

﴿٩٠-٩٣﴾ ﴿وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا الله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم﴾ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون﴾ إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون﴾ يقول تعالى: ﴿وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم﴾ أي: جاء الذين تمسأونوا، وقصروا منهم في الخروج لأجل أن يؤذن لهم في ترك الجهاد، غير مباليين في الاعتذار لجفائهم وعدم حياتهم، وإتيانهم بسبب ما معهم من الإيمان الضعيف.

وأما الذين كذبوا الله ورسوله منهم، فقعدوا وتركوا الاعتذار بالكلية، ويحتمل أن معنى قوله: ﴿المعذرون﴾ أي: الذين لهم عذر، أتوا إلى رسول الله ﷺ ليعذرهم، ومن عادته أن يعذر من له عذر.

﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾ في دعواهم الإيمان، المقتضي للخروج، وعدم عملهم بذلك، ثم ترعدهم بقوله: ﴿سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ في الدنيا والآخرة.

لما ذكر المعتذرين، وكانوا على قسمين، قسم معذور في الشرع، وقسم غير معذور، ذكر ذلك بقوله:

﴿ليس على الضعفاء﴾ في أبدانهم وأبصارهم، الذين لا قوة لهم على الخروج والقتال. ﴿ولا على المرضى﴾

وهذا شامل لجميع أنواع المرض الذي<sup>(١)</sup> لا يقدر صاحبه معه على الخروج والجهاد، من عرج، وعمى، وحى، وذات الجنب، والفالج، وغير ذلك.

﴿ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون﴾ أي: لا يجدون زاداً، ولا راحلة يتلفون بها في سفرهم، فهؤلاء ليس عليهم حرج، بشرط أن ينصحوا الله ورسوله، بأن يكونوا صادقي الإيمان، وأن يكون من نيتهم وعزمهم أنهم لو قدروا لجاهدوا، وأن يفعلوا ما يقدرون عليه من الحث والترغيب والتشجيع على الجهاد.

﴿ما على المحسنين من سبيل﴾ أي: من سبيل يكون عليهم فيه تبعة، فإنهم - بإحسانهم فيما عليهم من حقوق الله وحقوق العباد - أسقطوا توجه اللوم عليهم، وإذا أحسن العبد فيما يقدر عليه، سقط عنه ما لا يقدر عليه.

ويستدل بهذه الآية على قاعدة وهي: أن من أحسن على غيره، في نفسه<sup>(٢)</sup> أو في ماله، ونحو ذلك، ثم ترتب على إحسانه نقص أو تلف، أنه غير ضامن لأنه محسن، ولا سبيل على المحسنين، كما أنه يدل على أن غير المحسن - وهو المسيء - كالفرط، أن عليه الضمان.

﴿والله غفور رحيم﴾ من مغفرته ورحته، عفا عن العاجزين، وأتابهم بنيتهم الجازمة ثواب القاديرين الفاعلين.

﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم﴾ فلم يصادفوا عندك شيئاً ﴿قلت﴾ لهم معتذراً: ﴿لا أجد ما أحلكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون﴾ فإنهم عاجزون باذلون لأنفسهم، وقد صدر منهم من الحزن والشقة ما ذكره الله عنهم.

فهؤلاء لا حرج عليهم، وإذا سقط الحرج عنهم، عاد الأمر إلى أصله،

وهو أن من نوى الخير، واقترب بنيتة الجازمة سئياً فيما يقدر عليه، ثم لم يقدر، فإنه ينزل منزلة الفاعل التام.

﴿إنما السبيل﴾ يتوجه واللوم يتناول الذين<sup>(٣)</sup> يستأذنونك وهم أغنياء قادرين على الخروج لا عذر لهم، فهؤلاء ﴿رضوا﴾ لأنفسهم ومن دينهم ﴿بأن يكونوا مع الخوالم﴾ كالنساء والأطفال ونحوهم.

﴿و﴾ إنما رضوا بهذه الحال لأن الله طبع على قلوبهم أي: ختم عليها، فلا يدخلها خير، ولا يحسون بمصالحهم الدنيوية والذنيوية، ﴿فهم لا يعلمون﴾ عقوبة لهم على ما اقترفوا.

﴿٩٤ - ٩٦﴾ ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعت إليهم فقل لا تعتذروا لن تؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجسٌ ومأواهم جهنم جزاءً بما كانوا يكسبون﴾ يخلصون لكم لترضوا عنهم فإن رضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ لما ذكر تحلف المنافقين الأغنياء، وأنهم لا عذر لهم، أخبر أنهم سـ ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعت إليهم﴾ من غزاتكم.

﴿قل﴾ لهم ﴿لا تعتذروا لن تؤمن لكم﴾ أي: لن نصدقكم في اعتذاركم الكاذب.

﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾ وهو الصادق في قيله، فلم يبق للاعتذار فائدة، لأنهم يعتذرون بخلاف ما أخبر الله عنهم، ومحال أن يكونوا صادقين فيما يخالف خبر الله الذي هو أعلى مراتب الصدق.

﴿وسيرى الله عملكم ورسوله﴾ في الدنيا، لأن العمل هو ميزان الصدق من الكذب، وأما مجرد الأفعال، فلا دلالة فيها على شيء من ذلك.

﴿ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ من خير وشر، ويجازيكم بعدله أو يفضله، من غير أن يظلمكم مقال ذرة.

واعلم أن المسيء المذنب له ثلاث حالات: إما [أن] يقبل قوله وعذره، ظاهراً وباطناً، ويعفى عنه بحيث يبقى كأنه لم يذنب. فهذه الحالة هي المذكورة هنا في حق المنافقين، أن عذرهم غير مقبول، وأنه قد تقررت أحوالهم الخبيثة وأعمالهم السيئة، وإما أن يعاقبوا بالمعقوبة والتعزير الفعلي على ذنبهم، وإما أن يعرض عنهم، ولا يقابلوا بما فعلوا بالمعقوبة الفعلية، وهذه الحال الثالثة هي التي أمر الله بها في حق المنافقين، ولهذا قال: ﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم﴾ أي: لا توسخوهم، ولا تجلدوهم أو تقتلوهم.

﴿إنهم رجس﴾ أي: إنهم قذر خبيثاء، ليسوا بأهل لأن يبالي بهم، وليس التوبيخ والمعقوبة مفيداً فيهم، ﴿و﴾ تكفيهم عقوبة جهنم جزاء بما كانوا يكسبون.

وقوله: ﴿يخلصون لكم لترضوا عنهم﴾ أي: ولهم أيضاً هذا المقصد الآخر منكم، غير مجرد الإعراض، بل يجيبون أن رضوا عنهم، كأنهم ما فعلوا شيئاً.

﴿فإن رضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ أي: فلا ينبغي لكم - أيها المؤمنون - أن ترضوا عن من لم يرض الله عنه، بل عليكم أن توافقوا ريبكم في رضاه وغبه.

وتأمل كيف قال: ﴿فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ ولم يقل: ﴿فإن الله لا يرضى عنهم﴾ ليدل ذلك على أن باب التوبة مفتوح، وأنهم مهما تابوا هم أو غيرهم، فإن الله

(٣) في ب واللوم يتأكد على الذين.

(٢) زيادة من هامش ب.

(١) في السخيتين: التي.

يتوب عليهم ويرضى عنهم .

وأما ما داموا فاسقين، فإن الله لا يرضى عليهم، لوجود المانع من رضاه، وهو خروجه عن ما رضىه الله لهم من الإيمان والطاعة، إلى ما يغضبه من الشرك والتفاني والمعاصي .

وحاصل ما ذكره الله أن المنافقين المتخلفين عن الجهاد من غير عذر، إذا اعتذروا للمؤمنين، وزعموا أن لهم أعذاراً في تخلفهم، فإن المنافقين يريدون بذلك أن تعرضوا عنهم، وترضوا وتقبلوا عذرهم، فأما قبول العذر منهم والرضا عنهم، فلا حياً ولا كرامة لهم .

وأما الإعراض عنهم، فيعرض المؤمنون عنهم، إعراضهم عن الأمور الرديئة الرجس، وفي هذه الآيات، إثبات الكلام لله تعالى في قوله: ﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾ وإثبات الأفعال الاختيارية لله، الواقعة بمشيئته تعالى، وقدرته في هذا، وفي قوله: ﴿وسيرى الله عملكم ورسوله﴾ أخير أنه سيراه بعد وقوعه، وفيها إثبات الرضا لله عن المحسنين، والغضب والسخط على الفاسقين .

﴿٩٧ - ٩٩﴾ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليهم حكيم \* ومن الأعراب من يتخذ ما يتفق مفرماً ويتبرص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم \* ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما يفتق قريبات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم \* يقول تعالى: ﴿الأعراب﴾ وهم سكان البادية والبراري أشد كفراً ونفاقاً من الحاضرة الذين فيهم كفر ونفاق، وذلك لأسباب كثيرة:

منها: أنهم بعيدون عن معرفة الشرائع الدينية والأعمال والأحكام، فهم آخرون وأجدر ألا يعلموا حدود

ما أنزل الله على رسوله من أصول الإيمان وأحكام الأوامر والنواهي، بخلاف الحاضرة، فإنهم أقرب لأن يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، فيحدث لهم - بسبب هذا العلم - تصورات حسنة، وإرادات للخير، الذي يعلمون، ما لا يكون في البادية .

وفيهم من لطافة الطبع والانقياد للداعي ما ليس في البادية، وبجالسون أهل الإيمان، وبخالطوهم أكثر من أهل البادية، فلذلك كانوا آخري للخير من أهل البادية، وإن كان في البادية والحاضرة، كفار ومتنافقون، ففي البادية أشد وأغلظ مما في الحاضرة . ومن ذلك أن الأعراب أحرص على الأموال وأشح فيها .

﴿٩٨﴾ فمنهم من يتخذ ما يتفق من الزكاة والتفقه في سبيل الله وغير ذلك، مفرماً أي: يراها خسارة ونقصاً، لا يحتسب فيها، ولا يريد بها وجه الله، ولا يكاد يؤديها إلا كرهاً . ويتبرص بكم الدوائر أي: من عدوتهم للمؤمنين ويغضهم لهم، أنهم يودون وينتظرون فيهم دوائر الدهر، وفجائع الزمان، وهذا سينعكس عليهم، فعليهم دائرة السوء .

وأما المؤمنون فلهم الدائرة الحسنة، على أعدائهم، ولهم العقبي الحسنة، والله سميع عليم يعلم نيات العباد، وما صدرت عنه الأعمال من إخلاص وغيره .

وليس الأعراب كلهم مذمومين، بل منهم من يؤمن بالله واليوم الآخر، فيسلم بذلك من الكفر والتفاني ويعمل بمقتضى الإيمان .

﴿ويتخذ ما يتفق قريبات عند الله﴾ أي: يحتسب نفقته، ويقصد بها وجه الله تعالى والقرب منه \* ويجعلها وسيلة لصلوات الرسول \* أي: دعائه لهم، وتبريكه عليهم، قال تعالى مبيناً لنفع صلوات الرسول: ﴿ألا إنها قربة لهم﴾ تقربهم إلى الله، وتبني

أموالهم وتحل فيها البركة .

﴿سيدخلهم الله في رحمته﴾ في جملة عباد الصالحين إنه غفور رحيم، فيغفر السيئات العظيمة لمن تاب إليه، ويعم عبادته برحمته، التي وسعت كل شيء، ويخص عبادته المؤمنين برحمة يوفقههم فيها إلى الخيرات، ويحميهم فيها من المخالفات، ويجزل لهم فيها أنواع الثوبات .

وفي هذه الآية دليل على أن الأعراب كأهل الحاضرة، منهم المدح ومنهم المذموم، فلم يذمهم الله على مجرد تبريهم وباديتهم، إنما ذمهم على ترك أوامر الله، وأنهم في مظنة ذلك .

ومنها: أن الكفر والتفاني يزيد وينقص ويتغلظ ويخف بحسب الأحوال .

ومنها: فضيلة العلم، وأن فاقده أقرب إلى الشر من يعرفه، لأن الله ذم الأعراب، وأخبر أنهم أشد كفراً ونفاقاً، وذكر السبب الموجب لذلك، وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله .

ومنها: أن العلم النافع الذي هو أنفع العلوم، معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، من أصول الدين وفروعه، كمعرفة حدود الإيمان، والإسلام، والإحسان، والتقوى، والفلاح، والطاعة، والبر، والصلة، والإحسان، والكفر، والتفاني، والفسوق، والعصيان، والزنا، والخمر، والربا، ونحو ذلك . فإن في معرفتها يتمكن من فعلها - إن كانت مأموراً بها<sup>(١)</sup>، أو تركها إن كانت محظورة - ومن الأمر بها أو النهي عنها .

ومنها: أنه ينبغي للمؤمن أن يؤدي ما عليه من الحقوق، من شرح الصدر، مطمئن النفس، ويحرص أن تكون مغتماً، ولا تكون مفرماً .

﴿١٠٠﴾ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين أتبعوهم

بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴿ السابقون هم الذين سبقوا هذه الأمة ويدروها إلى الإيمان والهجرة والجهاد، وإقامة دين الله .

﴿من المهاجرين﴾ ﴿الذين، أخرجوا من ديارهم وأموالهم، يتفنون فضلاً من الله ورضواناً، ويتصرون الله ورسوله، أولئك هم الصادقون﴾ .

﴿و﴾ من ﴿الأنصار﴾ ﴿الذين تبوءوا الدار والإيمان، [من قبلهم] يحبون من هاجر إليهم، ولا يجيدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ .

﴿والذين اتبعوهم بإحسان﴾ بالاعتقادات والأقوال والأعمال، فهؤلاء هم الذين سلموا من الذم، وحصل لهم نهاية المدح، وأفضل الكرامات من الله .

﴿رضي الله عنهم﴾ ورضاه تعالى أكبر من نعيم الجنة، ﴿ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار﴾ الجارية التي تساق إلى سفى الجنان، والحدائق الزاهية الزاهرة، والرياض الناضرة .

﴿خالدين فيها أبداً﴾ لا يغيثون عنها حولاً، ولا يطلبون منها بدلاً، لأنهم مهما تمنوه أدركوه، ومهما أزدوه، وجدوه .

﴿ذلك الفوز العظيم﴾ الذي حصل لهم فيه، كل محبوب للنفوس، ولذة للأرواح، ونعيم للقلوب، وشهرة للأبدان، واندفع عنهم كل محذور .

﴿١٠١﴾ ﴿ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعلمهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾ يقول تعالى: ﴿ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة أيضاً منافقون﴾ ﴿مردوا على النفاق﴾ أي: تمزقوا عليه، واستمروا وازدادوا فيه طغياناً .

﴿لا تعلمهم﴾ بأعيانهم فتعاقبهم، أو تعاملهم بمقتضى نفاقهم، لما لله في ذلك من الحكمة الباهرة .

﴿نحن نعلمهم سنعلمهم مرتين﴾ يحتمل أن التثنية على بابها، وأن عذابهم عذاب في الدنيا، وعذاب في الآخرة . ففي الدنيا ما ينالهم من الهم والحزن<sup>(١)</sup>، والكراهة لما يصيب المؤمنين من الفتح والنصر، وفي الآخرة عذاب النار وبنس القرار .

ويحتمل أن المراد سنغلظ عليهم العذاب، ونضاعفه عليهم ونكرهه .

﴿١٠٢ - ١٠٣﴾ ﴿وأخسرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم﴾ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم﴾ يقول تعالى: ﴿وأخرون﴾ من بالمدينة ومن حولها، بل ومن سائر البلاد الإسلامية، ﴿اعترفوا بذنوبهم﴾ أي: أقرروا بها، وندموا عليها، وسعوا في التوبة منها، والتطهر من أدرانها .

﴿خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾ ولا يكون العمل صالحاً إلا إذا كان مع العبد أصل التوحيد والإيمان، المخرج عن الكفر والشرك، الذي هو شرط لكل عمل صالح، فهؤلاء خلطوا الأعمال الصالحة، بالأعمال السيئة، من التجرد على بعض المحرمات، والتقصير في بعض الواجبات، مع الاعتراف بذلك والرجاء بأن يغفر الله لهم، فهؤلاء ﴿عسى الله أن يتوب عليهم﴾ وتوبته على عبده نوعان:

الأول: التوفيق للتوبة . والثاني: قبولها بعد وقوعها منهم .

﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي: وصفه المغفرة والرحمة، اللتان لا يخلو مخلوق منهما، بل لا بقاء للعالم العلوي والسفلي إلا بهما، فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة .

﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً﴾ .

ومن مغفرته أن المفسرين على أنفسهم الذين قطعوا أعمارهم بالأعمال السيئة، إذا تابوا إليه وأنابوا ولو قبيل مواعدهم بأقل القليل، فإنه يعفو عنهم، ويتجاوز عن سيئاتهم، فهذه الآية دللت<sup>(٢)</sup> على أن المخلط المعترف التادم، الذي لم يتب توبة نصوحاً، أنه تحت الخوف والرجاء، وهو إلى السلامة أقرب .

وأما المخلط الذي لم يعترف ويندم على ما مضى منه، بل لا يزال مصراً على الذنوب، فإنه يخاف عليه أشد الخوف .

قال تعالى لرسوله ومن قام مقامه، أمره بما يطهر المؤمنين، ويتمم إيمانهم: ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ وهي الزكاة المفروضة، ﴿تطهرهم وتزكيهم بها﴾ أي: تطهرهم من الذنوب والأخلاق الرذيلة .

﴿وتزكيهم﴾ أي: تنميتهم، وتزيد في أخلاقهم الحسنة، وأعمالهم الصالحة، وتزيد في ثوابهم الدنيوي والأخروي، وتتمي أموالهم .

﴿وصل عليهم﴾ أي: ادع لهم، أي: للمؤمنين عموماً، وخصوصاً عندما يدفعون إليك زكاة أموالهم .

﴿إن صلاتك سكن لهم﴾ أي: طمأنينة لقلوبهم، واستبشار لهم، ﴿والله سميع لدعانك، سمع إجابة وقبول .

﴿عليم﴾ بأحوال العباد ونياتهم، فيجازي كل عامل بعمله، وعلى قدر نيته، فكان النبي ﷺ يمثل لأمر الله، ويأمرهم بالصدقة، ويبعث عماله لجاتها، فإذا أتاه أحد بصدقة دعاه وبرك .

ففي هذه الآية دلالة على وجوب الزكاة في جميع الأموال، وهذا إذا كانت للتجارة ظاهرة، فإنها أموال

تتمى ويكتسب بها، فمن العدل أن يواسى منها الفقراء، بأداء ما أوجب الله فيها من الزكاة.

وما عدا أموال التجارة، فإن كان المال ينمى، كالحبوب، والشمار، والماشية المتخذة للنماء والدر والنسل، فإنها تحبب فيها الزكاة، وإلا لم تحبب فيها، لأنها إذا كانت للفقيرة، لم تكن بمنزلة الأموال التي يتخذها الإنسان في العادة مالا يتحول، ويطلب منه المقاصد المالية، وإنما صرف عن المالية بالفتية ونحوها.

وفيها: أن العبد لا يمكنه أن يتطهر ويتزكى حتى يخرج زكاة ماله، وأنه لا يكفرها شيء سوى أدائها، لأن الزكاة والتطهير متوقف على إخراجها. وفيها: استحباب الدعاء من الإمام أو نائبه لمن أدى زكاته بالبركة، وأن ذلك ينبغي أن يكون جهراً، بحيث يسمعه المتصدق فيسكن إليه.

ويؤخذ من المعنى، أنه ينبغي إدخال السرور على المؤمن بالكلام اللين، والدعاء له، ونحو ذلك مما يكون فيه طمأنينة، وسكون لقلبه.

وأنه ينبغي تشييط من أنفق نفقة وعمل عملاً صالحاً بالدعاء له والثناء، ونحو ذلك.

﴿١٠٤﴾ ﴿لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوْبَةُ عَنْ عِبَادِهِ﴾ أي: أما علموا سعة رحمة الله وعموم كرمه وأنه يقبل التوبة عن عبادهم ﴿التائبين من أي: ذنب كان، بل يفرح تعالى بتوبة عبده إذا تاب أعظم فرح بقدر.

﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ منهم، أي: يقبلها ويأخذها بيمينه، فيريها لأحدهم كما يري الرجل فلوله، حتى تكون التمرة الواحدة كالجبل العظيم، فكيف بما هو أكبر وأكثر من ذلك.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوْبَةُ﴾ أي: كثير التوبة على التائبين، فمن تاب إليه تاب عليه، ولو تكررت منه [المعصية<sup>(١)</sup>] مراراً. ولا يحمل الله من التوبة على

عباده، حتى يملوا هم، ويأبوا إلا النفار والشرود عن بابه، وموالاتهم عدوهم.

﴿الرحيم﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، وكتبها للذين يتقون، ويؤتون الزكاة، ويؤمنون بآياته، ويتبعون رسوله.

﴿١٠٥﴾ ﴿وَقُلْ اعْمَلُوا فَسِرِّي اللَّهُ عَمَلِكُمْ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسْتَرْدُونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿وقل﴾ لهؤلاء المنافقين: ﴿اعملوا﴾ ما ترون من الأعمال، واستمروا على باطلكم، فلا تحسبوا أن ذلك سيخفى.

﴿فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ أي: لا بد أن يتبين عملكم ويتضح، و﴿ستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ من خير وشر، ففي هذا التهديد والرعيد الشديد على من استمر على باطله وطمعانه وغيه وعصيانه.

ويحتمل أن المعنى: أنكم مهما عملتم من خير أو شر، فإن الله مطلع عليكم، وسيطلع رسوله وعباده المؤمنين على أعمالكم ولو كانت باطنة.

﴿١٠٦﴾ ﴿وَأَخْرَجُوا مَرَجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِنَّمَا يَعْظِبُهُمْ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: ﴿وأخرجوا﴾ من المخلفين مؤخرون ﴿لأمر الله﴾ إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ﴿ففي هذا﴾ التخويف الشديد للمتخلفين، والحث لهم على التوبة والندم.

﴿والله عليم﴾ بأحوال العباد ونياتهم ﴿حكيم﴾ يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، فإن اقتضت حكمته أن يغفر لهم ويتوب عليهم غفر لهم وتاب عليهم، وإن اقتضت حكمته أن يخذلهم ولا يوفقهم للتوبة، فعل ذلك.

﴿١٠٧- ١١٠﴾ ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضُرَّاراً وَكُفَّراً تَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلِ وَلِيُحْلِفْنَ إِنْ أُرْدْنَا إِلَّا

الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون \* لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين \* أقمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين \* لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم \* كان أناس من المنافقين من أهل قباء اتخذوا مسجداً إلى جنب مسجد قباء، يريدون به المضارة والمشاقفة بين المؤمنين، ويعمدونه لمن يرجونه من المحاربين لله ورسوله، يكون لهم حصناً عند الاحتياج إليه، فبين تعالى خزيم، وأظهر سرهم فقال: ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً﴾ أي: مضارة للمؤمنين ولمسجدهم الذي يجتمعون فيه ﴿وكفراً﴾ أي: قصدهم فيه الكفر، إذا قصد غيرهم الإيمان.

﴿وتفريقاً بين المؤمنين﴾ أي: ليتشعبوا ويتفرقوا ويختلفوا، ﴿وارصاداً﴾ أي: إعداداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ﴿أي: إعانة للمحاربين لله ورسوله، الذين تقدم حرابهم واشتدت عداوتهم، وذلك كأبي عامر الراهب، الذي كان من أهل المدينة، فلما قدم النبي ﷺ وهاجر إلى المدينة، كفر به، وكان متعبداً في الجاهلية، فذهب إلى المشركين يستعين بهم على حرب رسول الله ﷺ.

فلما لم يدرك مطلوبه عندهم ذهب إلى قبصر يزعمه أنه ينصره، فهلك اللعين في الطريق، وكان على وعد وعلافة، هو والمنافقون. فكان مما أعدوا له مسجد الضرار، فنزل الوحي بذلك، فبعث إليه النبي ﷺ من يهدمه ويحرقه، فهدم وحرق، وصار بعد ذلك مزبلة.

قال تعالى بعدما بين من مقاصدهم

الفاصلة في ذلك المسجد **«وليحلفن إن أردنا»** في بنائنا إياه **«إلا الحسنى»** أي: الإحسان إلى الضعيف، والعاجز والضرير.

**«والله يشهد إنهم لكاذبون»** شهادة الله عليهم أصدق من حلفهم.

**«لا تقم فيه أبداً»** أي: لا تصل في ذلك المسجد الذي بني ضاراً أبداً، فالله ينجبك عنه، ولست بمضطر إليه.

**«لمسجد أسس على التقوى من أول يوم»** ظهر فيه الإسلام في «قباء»، وهو مسجد «قباء»، أسس على إخلاص الدين لله، وإقامة ذكره وشعائره دينه، وكان قديماً في هذا عربياً فيه، فهذا المسجد الفاضل **«أحق»** أن تقوم فيه **«وتتعبد، وتذكر الله تعالى فهو فاضل، وأهله فضلاء، ولهذا مدحهم الله بقوله: «فيه رجال يحبون أن يتطهروا»** من الذنوب، ويتطهروا من الأوساخ، والنجاسات والأحداث.

ومن المعلوم أن من أحب شيئاً لا بد أن يسعى له ويجهده فيما يجب، فلا بد أنهم كانوا حريصين على التطهر من الذنوب والأوساخ والأحداث، ولهذا كانوا ممن سبق إسلامه، وكانوا مقيمين للصلاة، محافظين على الجهاد مع رسول الله ﷺ، وإقامة شرائع الدين، ومن كانوا يتحززون من مخالفة الله ورسوله.

وسألهم النبي ﷺ بعدما نزلت هذه الآية في مدحهم عن طهارتهم، فأخبروه أنهم يتبعون الحجارة الماء، فحمدهم على صيغهم.

**«والله يحب المطهرين»** الطهارة المعنوية، كالتنزه من الشرك والأخلاق الرذيلة، والطهارة الحسية كإزالة الأنجاس ورفع الأحداث.

ثم فاضل بين المساجد بحسب مقاصد أهلها وموافقها لرضاه فقال: **«أمن أسس بنيانه على تقوى من الله»** أي: على نية صالحة وإخلاص **«ورضوان»** بأن كان موافقاً لأمره،

فجمع في عمله بين الإخلاص والمتابعة، **«خير أم من أسس بنيانه على شفا»** أي: على طرف **«جرف هار»** أي: بال، قد تداعى للانهدام، **«فأنهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين»** لما فيه مصالح دينهم ودنياهم.

**«لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم»** أي: شكاً وريباً ماكثراً في قلوبهم، **«إلا أن تقطع قلوبهم»** بأن يندموا غاية الندم ويتوبوا إلى ربهم، ويخافوه غاية الخوف، فيذلك يعفو الله عنهم، وإلا فبنيانهم لا يزيدهم إلا ريباً إلى ربهم، ونفاقاً إلى نفاقهم.

**«والله عليم»** بجميع الأشياء، ظاهرها وباطنها، خفيها وجليها، وبما أسره العباد، وأعلنه.

**«حكيم»** لا يفعل ولا يخلق ولا يأمر ولا ينهى، إلا ما اقتضته الحكمة وأمر به فله الحمد<sup>(١)</sup>.

وفي هذه الآيات فوائد عدة: منها: أن اتخاذ المسجد الذي يقصد به الضرر لمسجد آخر بقربه، أنه محرم، وأنه يجب هدم مسجد الضرار، الذي اطلع على مقصود أصحابه.

ومنها: أن العمل وإن كان فاضلاً تغييره النية، فيقلب منهاياً عنه، كما قلبت نية أصحاب مسجد الضرار عملهم إلى ما ترى.

ومنها: أن كل حالة يحصل بها التفريق بين المؤمنين، فإنها من المعاصي التي يتعين تركها وإزالتها.

كما أن كل حالة يحصل بها جمع المؤمنين واتلافهم، يتعين اتباعها والأمر بها والحث عليها، لأن الله علل اتخاذهم لمسجد الضرار بهذا المقصد الموجب للنهي عنه، كما يوجب ذلك الكفر والمحادرة لله ورسوله.

ومنها: النهي عن الصلاة في أماكن المعصية، والبعد عنها، وعن قربها.

ومنها: أن المعصية تؤثر في البقاع، كما أثرت معصية المنافقين في مسجد الضرار، ونهي عن القيام فيه، وكذلك

الطاعة تؤثر في الأماكن كما أثرت في مسجد «قباء» حتى قال الله فيه: **«لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه»**

ولهذا كان لمسجد قباء من الفضل ما ليس لغيره، حتى كان ﷺ يزور قباء كل سبت يصلي فيه، وحث على الصلاة فيه.

ومنها: أنه يستفاد من هذه التعاليل المذكورة في الآية، أربع قواعد مهمة، وهي:

كل عمل فيه مضارة لمسلم، أو فيه معصية لله، فإن المعاصي من فروع الكفر، أو فيه تفريق بين المؤمنين، أو فيه معاونة لمن عادى الله ورسوله، فإنه محرم ممنوع منه، وعكسه بعكسه.

ومنها: أن الأعمال الحسية الناشئة عن معصية الله لا تزال معدة لفاعلها عن الله بمنزلة الإصرار على المعصية حتى يزيلها ويتوب منها توبة تامة بحيث يتقطع قلبه من الندم والحسرات.

ومنها: أنه إذا كان مسجد قباء مسجداً أسس على التقوى، فمسجد النبي ﷺ الذي أسسه بيده المباركة وعمل فيه واختاره الله له من باب أولى وأحرى.

ومنها: أن العمل المبني على الإخلاص والمتابعة، هو العمل المؤسس على التقوى، الموصل لعامله إلى جنات النعيم.

والعمل المبني على سوء القصد وعلى البِدَع والضلال، هو العمل المؤسس على شفا جرف هار، فأنهار به في نار جهنم، والله لا يهدي القوم الظالمين.

**«١١١»** **«إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمْ الْجَنَّةُ يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم»** يجبر تعالى خيراً صدقاً، ويعد وعداً حقاً بمبايعة



عظيمة، ومعاوضة جسيمة، وهو أنه ﴿اشترى﴾ بنفسه الكريمة ﴿من المؤمنين أنفسهم وأموالهم﴾ فهي المثلن والسلة المبيعة.

﴿بأن لهم الجنة﴾ التي فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين من أنواع اللذات، والأفراح، والمسرات، والخور الحسان، والمنازل الأنيقات.

وصفة العقد المبيعة، بأن يبذلوا لله نفوسهم وأموالهم في جهاد أعدائه، لإعلاء كلمته وإظهار دينه ﴿فيقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون﴾ فهذا العقد المبيعة، قد صدرت من الله مؤكدة بأنواع التأكيدات.

﴿وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن﴾ التي هي أشرف الكتب التي طرقت العالم، وأعلماها، وأكملها، وجاء بها أكمل الرسل أولو العزم، وكلها اتفقت على هذا الوعد الصادق.

﴿ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا﴾ أيها المؤمنون القائمون بما وعدكم الله، ﴿ببيعكم الذي يابتم به﴾ أي: لتفرحوا بذلك، وليبشر بعضكم بعضاً، ويحث بعضكم بعضاً.

﴿وذلك هو الفوز العظيم﴾ الذي لا فوز أكبر منه ولا أجل، لأنه يتضمن السعادة الأبدية، والنعيم القيم، والرضا من الله الذي هو أكبر من نعيم الجنات، وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفة، فانظر إلى المشتري من هو؟ وهو الله جل جلاله، وإلى العرض، وهو أكبر الأعراس وأجلها، جنات النعيم، وإلى الثمن المبذول فيها، وهو النفس، والمال، الذي هو أحب الأشياء للإنسان.

ولل من جرى على يديه عقد هذا التبايع، وهو أشرف الرسل، وبأي: كتاب رقم، وهي كتب الله الكبار المنزلة على أفضل الخلق.

﴿١١٢﴾ السائجون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر

المؤمنين ﴿كأنه قيل: من هم المؤمنون الذين لهم البشارة من الله بدخول الجنات ونيل الكرامات؟ فقال: هم التائبون﴾ أي: الملازمون للتوبة في جميع الأوقات عن جميع السيئات.

﴿العابدون﴾ أي: المتصفون بالعبودية لله، والاستمرار على طاعته من أداء الواجبات والمستحبات في كل وقت، فبذلك يكون العبد من العابدين.

﴿الحامدون﴾ الله في السراء والضراء، واليسر والعسر، المعترفون بما لله عليهم من النعم الظاهرة والباطنة، المثنون على الله بذكرها ويذكره في آناه الليل وآناه النهار.

﴿السائحون﴾ فسرت السياحة بالصيام، أو السياحة في طلب العلم، وفسرت بسياحة القلب في معرفة الله ومحبه، والإنابة إليه على الدوام، والصحيح أن المراد بالسياحة: السفر في القربيات، كالخج، والعمرة، والجهاد، وطلب العلم، وصلة الأقارب، ونحو ذلك.

﴿الراكعون الساجدون﴾ أي: المكثرون من الصلاة المشتملة على الركوع والسجود.

﴿الأمرون بالمعروف﴾ ويدخل فيه جميع الواجبات والمستحبات.

﴿والناهون عن المنكر﴾ وهي جميع ما نهى الله ورسوله عنه.

﴿والحافظون لحدود الله﴾ بتعلمهم حدود ما أنزل الله على رسوله، وما يدخل في الأوامر والنواهي والأحكام، وما لا يدخل، الملازمون لها فعلاً وتركاً.

﴿وبشرك المؤمنين﴾ لم يذكر ما يشركهم به، ليعم جميع ما رتب على الإيمان من ثواب الدنيا والدين والآخرة، فالبشارة متناولة لكل مؤمن.

وأما مقدارها وصفتها فإنها بحسب حال المؤمن، وإيمانهم، قوة، وضعفاً، وعملاً بمقتضاه.

﴿١١٣-١١٤﴾ ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين

ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم﴾ يعني: ما يليق ولا يحسن للنبي وللمؤمنين به ﴿أن يستغفروا للمشركين﴾ أي: لمن كفر به وعبد معه غيره ﴿ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾ فإن الاستغفار لهم في هذه الحال غلط غير مفيد، فلا يليق بالنبي والمؤمنين، لأنهم إذا ماتوا على الشرك، أو علم أنهم يموتون عليه، فقد حقت عليهم كلمة العذاب، ووجب عليهم الخلود في النار، ولم تنفع فيهم شفاعة الشافعين، ولا استغفار المستغفرين.

وأيضاً فإن النبي والذين آمنوا معه، عليهم أن يوافقوا ربه في رضاه ورضاه، ويوالوا من وآله الله، ويمعادوا من عاداه الله، والاستغفار منهم لمن تبين أنه من أصحاب النار مناف لذلك، مناقض له، ولئن وجد الاستغفار من خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام لأبيه فإنه ﴿عن موعدة وعدها إياه﴾ في قوله:

ربي إنه كان بي حفيماً ﴿وذلك قبل أن يعلم عاقبة آية.

فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله، سيمرت على الكفر، ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير ﴿تبرأ منه﴾ موافقة لربه وتادياً معه.

﴿إن إبراهيم لأواه﴾ أي: رجحان إلى الله في جميع الأمور، كثير الذكر والدعاء والاستغفار والإنابة إلى ربه.

﴿حليم﴾ أي: ذو رحمة بالخلق، وصفح عما يصدر منهم إليه من الزلات، لا يستغزه جهل الجاهلين، ولا يقابل الجاني عليه بجرمه، فأبوه قال له: ﴿لأرجنك﴾ وهو يقول له: ﴿سلام عليك سأستغفر لك ربي﴾.

فعليكم أن تقتدوا وتتبعوا ملة إبراهيم في كل شيء. ﴿إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك﴾ كما نهىكم الله عليها وعلى غيرها، ولهذا قال:

﴿١١٥-١١٦﴾ ﴿ومسا كان الله

أمر مزعج، بلغ من الشدة والمشقة ما لا يمكن التعبير عنه، وذلك لأهم قدموا رضا الله ورضاه رسوله على كل شيء.

﴿وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه﴾ أي: تيقنوا وعرفوا بحالهم، أنه لا ينجي من الشدائد ويلجأ إليه، إلا الله وحده لا شريك له، فانقطع تعلقهم بالمخلوقين، وتعلقوا بالله ربهم، وفروا منه إليه، فمكثوا بهذه الشدة نحو حسين ليلة.

﴿ثم تاب عليهم﴾ أي: أذن في توبتهم ووقفهم لها ﴿ليتوبوا﴾ أي: لتقع منهم، فيتوب الله عليهم، ﴿إن الله هو التواب﴾ أي: كثير التوبة والعفو، والخفيران عن الزلات والعصيان، ﴿الرحيم﴾ وصفه الرحمة العظيمة التي لا تزال تنزل على العباد في كل وقت وحين، في جميع اللحظات، ما تقوم به أمورهم الدينية والدنيوية.

وفي هذه الآيات دليل على أن توبة الله على العبد أجل الغايات، وأعلى النهايات، فإن الله جعلها نهاية خواص عبادته، وامتّن عليهم بها، حين عملوا الأعمال التي يحبها ويرضاها.

ومنها: لطف الله بهم وتبّيتهم في إيمانهم عند الشدائد والنوازل المزعجة. ومنها: أن العبادة الشاقة على النفس، لها فضل ومزية ليست لغيرها، وكلما عظمت المشقة عظم الأجر.

ومنها: أن توبة الله على عبده بحسب ندمه وأسفه الشديد، وأن من لا يبالي بالذنوب ولا يخرج إذا فعله، فإن توبته مدخولة، وإن زعم أنها مقبولة.

ومنها: أن علامة الخير وزوال الشدة، إذا تعلق القلب بالله تعالى تعلقاً تاماً، وانقطع عن المخلوقين.

ومنها: أن من لطف الله بالثلاثة، أن رسمهم بوسم، ليس بعار عليهم فقال: ﴿خلفوا﴾ إشارة إلى أن المؤمنين

الأرض بما رحبت وضافت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم﴾ يخبر تعالى أنه من لطفه وإحسانه ﴿تاب على النبي﴾ محمد ﷺ ﴿والمهاجرين والأنصار﴾ فغفر لهم الزلات، ووفر لهم الحسنات، ورفاههم إلى أعلى الدرجات، وذلك بسبب قيامهم بالأعمال الصعبة الشاقات، ولهذا قال: ﴿الذين اتبعوه في ساعة العسرة﴾ أي: خرجوا معه لقتال الأعداء في وقعة تبوك<sup>(١)</sup> وكانت في حر شديد، وضيق من الزاد والركوب، وكثرة عدو، مما يدعو إلى التخلف.

فاستعانوا الله تعالى، وقاموا بذلك من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم﴾ أي: تنقلب قلوبهم، ويميلوا إلى الدعة والسكون، ولكن الله ثبتهم وأيدهم وقواهم. وزيغ القلب هو انحرافه عن الصراط المستقيم، فإن كان الانحراف في أصل الدين كان كضراً، وإن كان في شرائعه كان بحسب تلك الشريعة التي زاغ عنها، إما قصر عن فعلها، أو فعلها على غير الوجه الشرعي.

وقوله: ﴿ثم تاب عليهم﴾ أي: قبل توبتهم ﴿إنه بهم رؤوف رحيم﴾ ومن رأفته ورحمته أن منّ عليهم بالتوبة، وقبلها منهم وتبّتهم عليها.

﴿و﴾ كذلك لقد تاب الله على

الثلاثة الذين خلفوا﴾ عن الخروج مع المسلمين في تلك الغزوة، وهم: «كعب بن مالك» وصاحبه، وفتنتهم مشهورة معروفة في الصحاح والسنن.

﴿حتى إذا﴾ حزنوا حزناً عظيماً،

﴿وضافت عليهم الأرض بما رحبت﴾ أي: على سعتها ورحبها ﴿وضافت عليهم أنفسهم﴾ التي هي أحب إليهم من كل شيء، فضاقت عليهم الفضاء الواسع، والمحجوب الذي لم تجر العادة بالضيق منه، وذلك لا يكون إلا من

ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون إن الله بكل شيء عليم \* إن الله له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ يعني أن الله تعالى إذا منّ على قوم بالهداية، وأمرهم بسلوك الصراط المستقيم، فإنه تعالى يتمم عليهم إحسانه، ويبين لهم جميع ما يحتاجون إليه، وتدعو إليه ضرورتهم، فلا يتركهم ضالين، جاهلين بأمر دينهم، ففي هذا دليل على كمال رحمته، وأن شريعته وافية بجميع ما يحتاجه العباد في أصول الدين وفروعه.

ويحتمل أن المراد بذلك ﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون﴾ فإذا بين لهم ما يتقون فلم ينقادوا له، عاقبتهم بالإضلال جزاء لهم على ردهم الحق المبين، والأول أولى.

﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ فلكمال علمه وعمره علمكم ما لم تكونوا تعلمون، وبين لكم ما به تنتعمون.

﴿إن الله له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت﴾ أي: هو المالك لذلك، المدير لعباده بالإحياء والإماتة وأنواع التدابير الإلهية، فإذا كان لا يخل بتدبيره القدري فكيف يخل بتدبيره الديني المتعلق بالهتة، ويترك عباده سدى مهملين، أو يدعهم ضالين جاهلين، وهو أعظم توليه لعباده!!!

فلهذا قال: ﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ أي: ولي يتولاكم بجلب المنافع لكم، أو ﴿نصير﴾ يدفع عنكم المضار.

﴿١١٧ - ١١٨﴾ ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم﴾ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم

عدوهم، فإنه يحصل عليهم المشقة بذلك، وتفوت به كثير من الصالح الأخرى، ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم﴾ أي: من البلدان، والقبائل، والأفخاذ ﴿طائفة﴾ تحصل بها الكفاية والمقصود لكان أول.

ثم نه على أن في إقامة المقيمين منهم وعدم خروجهم مصالح لو خرجوا لفاتنتهم، فقال: ﴿ليتفقها﴾ أي: القاعدون ﴿في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم﴾ أي: ليتعلموا العلم الشرعي، ويعلموا معانيه، ويفقهوا أسرارها، ويعلموا غيرهم، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

ففي هذا فضيلة العلم، وخصوصاً الفقه في الدين، وأنه أهم الأمور، وأن من تعلم علماً، فعليه نشره وبثه في العباد، ونصيحتهم فيه فإن انتشار العلم عن العالم، من بركته وأجره الذي ينمي له.

وأما اقتصار العالم على نفسه، وعدم دعوته إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وترك تعليم الجهال ما لا يعلمون، فأى: منفعة حصلت للمسلمين منه؟ وأي: نتيجة نتجت من علمه؟ وغايته أن يموت، فيموت علمه وثمرته، وهذا غاية الحرمان، لمن آتاه الله علماً ومنحه فهماً.

وفي هذه الآية أيضاً دليل وإرشاد وتبني لطيف، لفائدة مهمة، وهي: أن المسلمين ينبغي لهم أن يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة من يقوم بها، ويوفر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلى غيرها، لتقوم مصالحهم، وتم منافعهم، ولتكون وجهة جميعهم، ونهاية ما يقصدون قصداً واحداً، وهو قيام مصلحة دينهم وديارهم، ولو تفرقت الطرق وتعددت المشارب، فالأعمال متباينة، والقصد واحد، وهذه من الحكمة العامة النافعة في جميع الأمور.

﴿١٢٣﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم

وراحتها، وسكونه ﴿عن نفسه﴾ الكريمة الزكية، بل النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فعل كل مسلم أن يفدي النبي ﷺ بنفسه ويقدمه عليها، فعلامة تعظيم الرسول ﷺ ومحبته والإيمان التام به، أن لا يتخلفوا عنه، ثم ذكر الثواب الحامل على الخروج، فقال: ﴿ذلك بأنهم﴾ أي: المجاهدين في سبيل الله ﴿لا يصيبهم ظمأ ولا نصب﴾ أي: تعب ومشقة ﴿ولا مخمصة في سبيل الله﴾ أي: مجاعة.

﴿ولا يظؤون موطئاً يغيظ الكفار﴾ من الخوض لديارهم والاستيلاء على أوطانهم، ﴿ولا ينالون من عدو نيلاً﴾ كالظفر بجيش أو سرية أو الغنيمة لال ﴿إلا كتب لهم به عمل صالح﴾ لأن هذه آثار ناشئة عن أعمالهم.

﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ الذين أحسنوا في مبادرتهم إلى أمر الله، وقيامهم بما عليهم من حقه وحق خلقه، فهذه الأعمال آثار من آثار عملهم.

ثم قال: ﴿ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً﴾ في ذهابهم إلى عدوهم ﴿إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾.

ومن ذلك هذه الأعمال، إذا أخلصوا فيها لله، ونصحوها فيها، ففي هذه الآيات أشد ترغيب وتشويق للنفوس إلى الخروج إلى الجهاد في سبيل الله، والاحساب لما يصيبهم فيه من المشقات، وأن ذلك لهم رفعة درجات، وأن الآثار الثرية على عمل العبد له فيها أجر كبير.

﴿١٢٢﴾ ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾ يقول تعالى: - منبها لعبادة المؤمنين على ما ينبغي لهم - ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ أي: جميعاً لقتال

خلفوهم، [أو خلفوا عن من بُت في قبول عدوهم أو في رده] <sup>(١)</sup> وأنهم لم يكن تخلفهم رغبة عن الخير، ولهذا لم يقل: ﴿تخلفوا﴾.

ومنها: أن الله تعالى منَّ عليهم بالصدق، ولهذا أمر بالاعتداء بهم فقال:

﴿١١٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ أي: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ بالله، وبما أمر الله بالإيمان به، قوموا بما يقتضيه الإيمان، وهو القيام بتقوى الله تعالى، واجتناب ما نهى الله عنه والبعد عنه.

﴿وكونوا مع الصادقين﴾ في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، الذين أقوالهم صدق، وأعمالهم، وأحوالهم لا تكون إلا صدقاً خلية من الكسل والفتور، سالمة من المقاصد السيئة، شاملة على الإخلاص والنية الصالحة، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة.

قال الله تعالى: ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ الآية.

﴿١٢٠ - ١٢١﴾ ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يظؤون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ \* ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾ يقول تعالى - حاثاً لأهل المدينة المنورة من المهاجرين، والأنصار، ومن حولهم من الأعراب، الذين أسلموا فحسن إسلامهم -: ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله﴾ أي: ما ينبغي لهم ذلك، ولا يلبس بأحوالهم.

﴿ولا يرغبوا بأنفسهم﴾ في بقائها

غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ﴿ وهذا أيضاً إرشاد آخر، بعدما أرشدهم إلى التدبير فيمن يباشر القتال، أرشدهم إلى أنهم يبذلون بالأقرب فالأقرب من الكفار، والغلظة عليهم، والشدة في القتال، والشجاعة والثبات.

﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ أي: ولكن لديكم علم أن المعونة من الله تنزل بحسب التقوى، فلازموا على تقوى الله، يُعِزِّكُمْ وينصركم على عدوكم.

وهذا العموم في قوله: ﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ مخصوص بما إذا كانت المصلحة في قتال غير الذين يلوننا، وأنواع المصالح كثيرة جداً.

﴿١٢٤ - ١٢٦﴾ ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون \* وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون \* أولاً يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون﴾ يقول تعالى: مبيناً حال المنافقين، وحال المؤمنين عند نزول القرآن، وتفاوت ما بين الفريقين فقال: ﴿وإذا ما أنزلت سورة﴾ فيها الأمر والنهي، والخبر عن نفسه الكريمة، وعن الأمور الغائبة، والحث على الجهاد.

﴿فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً﴾ أي: حصل الاستفهام لمن حصل له الإيمان بها من الطائفتين.

قال تعالى - مبيناً الحال الواقعة -: ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً﴾ بالعلم بها، وفهمها واعتقادها، والعمل بها، والرغبة في فعل الخير، والاكتماف عن فعل الشر.

﴿وهم يستبشرون﴾ أي: يبشر بعضهم بعضاً بما من الله عليهم من آياته، والتوفيق لفهمها والعمل بها. وهذا دال على انتشار صدورهم لآيات الله، وطمأنينة قلوبهم، وسرعة

انقيادهم لما تحثهم عليه.

﴿وأما الذين في قلوبهم مرض﴾ أي: شك ونفاق ﴿فزادهم رجساً إلى رجسهم﴾ أي: مرضاً إلى مرضهم، وشكاً إلى شكهم، من حيث إنهم كفروا بها وعاندوها وأعرضوا عنها، فازداد لذلك مرضهم، وترامى بهم إلى الهلاك ﴿و﴾ الطبع على قلوبهم، حتى ﴿ماتوا وهم كافرون﴾.

وهذا عقوبة لهم، لأنهم كفروا بآيات الله وعصوا رسوله، فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه.

قال تعالى - موبخاً لهم على إقامتهم على ما هم عليه من الكفر والنفاق -: ﴿أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين﴾ بما يصيبهم من البلايا والأمراض، وبما يتبلون من الأوامر الإلهية التي يراد بها اختبارهم.

﴿ثم لا يتوبون﴾ عما هم عليه من ﴿ولا هم يذكرون﴾ ما ينفعهم، فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه.

فالله تعالى يبتليهم - كما هي سنته في سائر الأمم - بالسراء والضراء وبالأوامر والنواهي ليرجعوا إليه، ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون.

وفي هذه الآيات دليل على أن الإيمان يزيد وينقص، وأنه ينبغي للمؤمن أن يتفقد إيمانه ويتعاهده، فيجده وينمي، ليكون دائماً في صعود.

﴿١٢٧﴾ وقوله: ﴿وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾ يعني: أن المنافقين الذين يجذرون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم، إذا نزلت سورة ليؤمنوا بها، ويعملوا بمضمونها ﴿نظر بعضهم إلى بعض﴾ جازمين على ترك العمل بها، ينتظرون الفرصة في الاختفاء عن أعين المؤمنين، ويقولون: ﴿هل يراكم من أحد ثم انصرفوا﴾



متسلسلين، وانقلبوا معرضين، فجازاهم الله بحقوبة من جنس عملهم، فكما انصرفوا عن العمل ﴿صرف الله قلوبهم﴾ أي: صدعا عن الحق وحذلهما.

﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾ فقهاً ينفعهم، فإنهم لو فقهوا، لكانوا إذا نزلت سورة آمنوا بها، وانقادوا لأمرها.

والمقصود من هذا بيان شدة نفورهم عن الجهاد وغيره من شرائع الإيمان، كما قال تعالى عنهم: ﴿فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر الغشي عليه من الموت﴾.

﴿١٢٨ - ١٢٩﴾ ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم \* فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾ يمتن [تعالى] على عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبي الأمي الذي من أنفسهم، يعرفون حاله، ويتمكنون من الأخذ عنه، ولا يأنفون عن الانقياد له، وهو ﴿صالحهم في غاية النصح لهم، والسعي في مصالحهم.

﴿عزيز عليه ما عنتم﴾ أي: يشق عليه الأمر الذي يشق عليكم ويعتكم.

### تفسير سورة يونس مكية

ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون \* إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقا إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون \* يقول تعالى مبينا لربوبيته والهيته وعظمته: ﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام﴾ مع أنه قادر على خلقها في لحظة واحدة، ولكن لما له في ذلك من الحكمة الإلهية، ولأنه رفيق في أفعاله.

ومن جملة حكمته فيها، أنه خلقها بالحق وللحق، ليعرف بأسمائه وصفاته ويفرد بالعبادة.

﴿ثم﴾ بعد خلق السماوات والأرض ﴿استوى على العرش﴾ استواء يليق بعظمته.

﴿يدبر الأمر﴾ في العالم العلوي والسفلي، من الإمامة والإحياء، وإنزال الأرزاق، ومداولة الأيام بين الناس، وكشف الضر عن المضروبين، وإجابة سؤال السائلين.

فأنواع التدابير نازلة منه وصاعدة إليه، وجميع الخلق مدعون لِعِزِّهِ، خاضعون لعظمته وسلطانه.

﴿ما من شئع إلا من بعد إذنه﴾ فلا يقدم أحد منهم على الشفاعة، ولو كان أفضل الخلق، حتى يأذن الله ولا يسأذن، إلا لمن ارتضى، ولا يرتضى إلا أهل الإخلاص والتوحيد له.

﴿ذلكم﴾ الذي هذا شأنه ﴿الله ربكم﴾ أي: هو الله الذي له وصف الإلهية الجامعة لصفات الكمال، ووصف الربوبية الجامع لصفات الأفعال.

﴿فاعبدوه﴾ أي: أفردوه بجميع ما تقدرون عليه من أنواع العبودية، أفلا تذكرون \* الأدلة الدالة على أنه وحده المعبود المحمود، ذو الجلال والإكرام.

فلما ذكر حكمه القدري وهو التدبير العام، وحكمه الديني وهو

﴿١ - ٢﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ آيات الكتاب الحكيم \* آكان للناس عجايب أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا هذا لساحر مبين \* يقول تعالى: ﴿المر تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ وهو هذا القرآن، المشتمل على الحكمة والأحكام، الدالة آياته على الحقائق الإيمانية والأوامر والنواهي الشرعية، الذي على جميع الأمة تلغيبه بالرضا والقبول والانتقاد.

ومع هذا فأعرض أكثرهم فهم لا يعلمون، فتعجبوا ﴿أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس﴾ عذاب الله، وخوفهم نقم الله، وذكرهم بآيات الله.

﴿وبشر الذين آمنوا﴾ إيمانا صادقا ﴿أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾ أي: لهم جزاء موفور<sup>(١)</sup>، وثواب مذكور عند ربهم بما قدموه وأسلموه من الأعمال الصالحة الصادقة.

فتعجب الكافرون من هذا الرجل العظيم تعجبا حملهم على الكفر به، ف ﴿قال الكافرون﴾ عنه: ﴿إن هذا لساحر مبين﴾ أي: بين السحر، لا يخفى بزعمهم على أحد، وهذا من سفههم وعنادهم، فإنهم تعجبوا من أمر ليس مما يتعجب منه ويستغرب، وإنما يتعجب من جهالتهم وعدم معرفتهم بمصالحهم.

كيف لم يؤمنوا بهذا الرسول الكريم، الذي بعثه الله من أنفسهم، يعرفونه حق المعرفة، فردوا دعوته، وحرصوا على إبطال دينه، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

﴿٣ - ٤﴾ ﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شئع إلا من بعد إذنه ذلكم الله

﴿حريص عليكم﴾ فيحب لكم الخير، ويسعى جهده في إيصاله إليكم، ويمرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشر، ويسعى جهده في تنفيركم عنه. ﴿بالؤمنين رؤوف رحيم﴾ أي: شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم.

ولهذا كان حقه مقدما على سائر حقوق الخلق، وواجب على الأمة الإيمان به، وتعظيمه، وتعزيه، وتوقيره ﴿فإن﴾ آمنوا، فذلك حظهم وتوفيقهم، وإن ﴿نولوا﴾ عن الإيمان والعمل، فامض على سبيلك، ولا تزل في دعوتك، وقل ﴿حسبي الله﴾ أي: الله كافي في جميع ما أمشي، ﴿لا إله إلا هو﴾ أي: لا معبود بحق سواه.

﴿عليه توكلت﴾ أي: اعتمدت ووثقت به، في جلب ما ينفع، ودفع ما يضر، ﴿وهو رب العرش العظيم﴾ الذي هو أعظم المخلوقات. وإذا كان رب العرش العظيم، الذي وسع المخلوقات، إن ربنا لما دونه من باب أولى وأحرى.

ثم تفسير سورة التوبة يعون الله ومنه فله الحمد أولا وآخرا وظاهرا وباطنا



شرعه، الذي مضمونه ومقصوده عبادة وحده لا شريك له، ذكر الحكم الجزائي، وهو مجازاته على الأعمال بعد الموت، فقال: ﴿إليه مرجعكم جميعاً﴾ أي: سيجمعكم بعد موتكم ليقات يوم معلوم.

﴿إنه يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ فالقادر على ابتداء الخلق قادر على إعادته، والذي يرى ابتداءه بالخلق، ثم ينكر إعادته للخلق، فهو فاقد العقل منكر لأحد المثليين مع إثبات ما هو أولى منه، فهذا دليل عقلي واضح على المعاد. ثم ذكر الدليل النقلى فقال:

﴿وعد الله حقاً﴾ أي: وعده صادق لا بد من إتمامه.

﴿ليجزى الذين آمنوا﴾ بقلوبهم بما أمرهم الله بالإيمان به.

﴿وعملوا الصالحات﴾ بجوارحهم، من واجبات ومستحبات، ﴿بالقسط﴾

أي: بإيمانهم وأعمالهم، جزاء قد بينه لعباده، وأخبر أنه لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴿والذين كفروا﴾ بآيات الله وكذبوا رسل الله.

﴿لهم شراب من حميم﴾ أي: ماء حار، يشوي الوجوه، ويقطع الأمعاء.

﴿وعذاب أليم﴾ من سائر أصناف العذاب ﴿بما كانوا يكفرون﴾ أي:

بسبب كفرهم وظلمهم، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون.

﴿٥-٦﴾ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون \* إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض آيات لقوم يتقون \* لما قرر ربوبيته والهيته، ذكر الأدلة العقلية الأفقية

الدالة على ذلك وعلى كماله، في أسمائه وصفاته، من الشمس والقمر،

والسماوات والأرض وجميع ما خلق فيها من سائر أصناف المخلوقات،

وأخبر أنها آيات ﴿لقوم يعلمون﴾ و﴿لقوم يتقون﴾.

فإن العلم يهدي إلى معرفة الدلالة فيها، وكيفية استنباط الدليل<sup>(١)</sup> على أقرب وجه، والتقوى تحدث في القلب الرغبة في الخير، والرغبة من الشر، الناشئين عن الأدلة والبراهين، وعن العلم واليقين.

وحاصل ذلك أن مجرد خلق هذه المخلوقات بهذه الصفة، ذال على كمال

قدرة الله تعالى، وعلمه، وحياته، وقيوميته، وما فيها من الإحكام

والإتقان والإبداع والحسن، ذال على كمال حكمة الله، وحسن خلقه وسعة

علمه. وما فيها من أنواع المنافع والمصالح - كجعل الشمس ضياء،

والقمر نوراً، يحصل بهما من النفع الضروري وغيره ما يحصل - يدل ذلك

على رحمة الله تعالى واعتنائه بعباده وسعة بره وإحسانه، وما فيها من

التخصيصات ذال على مشيئة الله وإرادته النافذة.

وذلك ذال على أنه وحده المعبود المحبوب المحمود، ذو الجلال والإكرام

والأوصاف العظام، الذي لا تنبغي الرغبة والرغبة إلا إليه، ولا يصرف

خالص الدعاء إلا له، لا لغيره من المخلوقات الربوبيات، المفتقرات

إلى الله في جميع شؤونها. وفي هذه الآيات الحث والترغيب

على التفكير في مخلوقات الله، والنظر فيها بعين الاعتبار، فإن بذلك تفتح

البصيرة، ويزداد الإيمان والعقل، وتقوى القرينة، وفي إهمال ذلك،

تعاون بما أمر الله به، وإغلاق لزيادة الإيمان، وجود للذهن والقرينة.

﴿٧-٨﴾ ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا﴾ والذين هم عن آياتنا غافلون \* أولئك

ماوهم النار بما كانوا يكسبون﴾ يقول تعالى: ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا﴾

أي: لا يطمعون بلقاء الله، الذي هو أكبر ما طمع فيه الطامعون، وأعلى ما

أمله المؤمنون، بل أعرضوا عن ذلك، وربما كذبوا به ﴿ورضوا بالحياة الدنيا﴾

بدلاً عن الآخرة.

﴿واطمأننوا بها﴾ أي: ركنوا إليها، وجعلوها غاية مرامهم<sup>(٢)</sup> ونهاية

فقدتهم، فسعوا لها وأكبوا على لذاتها وشهواتها، بأي: طريق حصلت

حصولها، ومن أي: وجه لاحت ابتدروها، قد صرفوا إرادتهم ونياتهم

وأفكارهم وأعمالهم إليها. فكانهم خلقوا للبقاء فيها، وكأنها

ليست دار عمر، يتزود منها المسافرون إلى الدار الباقية التي إليها يرحل

الأولون والآخرون، وإلى نعيمها ولذاتها شمر الموفقون.

﴿والذين هم عن آياتنا غافلون﴾ فلا ينتفعون بالآيات القرآنية،

ولا بالآيات الأفقية والنفسية، والإعراض عن الدليل مستلزم

للإعراض والغفلة، عن المدلول المقصود.

﴿أولئك﴾ الذين هذا وصفهم ﴿ماوهم النار﴾ أي: مقرهم

ومسكنهم التي لا يرحلون عنها. ﴿بما كانوا يكسبون﴾ من الكفر

والشرك وأنواع المعاصي، فلما ذكر عقابهم ذكر ثواب المطيعين، فقال:

﴿٩-١٠﴾ ﴿إن الذين آمنوا و عملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم

تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم \* دعواهم فيها سبحانك اللهم

والحمد لله رب العالمين﴾ يقول تعالى: ﴿إن الذين آمنوا و عملوا الصالحات﴾

أي: جمعوا بين الإيمان، والقيام بموجبه ومقتضاه من الأعمال

الصالحة، المشتملة على أعمال القلوب وأعمال الجوارح، على وجه الإخلاص

والتابعة. ﴿يهدىهم ربهم بإيمانهم﴾ أي:

يسبب ما معهم من الإيمان يشيهم الله أعظم الثواب، وهو الهداية، فيعلمهم

ما ينفعهم، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في

آياته، ويهديهم في هذه الدار إلى

﴿١٣ - ١٤﴾ ﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا يؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين﴾ \* ثم جعلناكم خلافت في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴿يخبر تعالى أنه أهلك الأمم الماضية بظلمهم وكفرهم، بعدما جاءتهم البينات على أيدي الرسل نبيين الحق فلم ينقادوا لها ولم يؤمنوا. فأحل بهم عقابه الذي لا يرد عن كل مجرم متجرىء على محارم الله، وهذه سنته في جميع الأمم.

﴿ثم جعلناكم﴾ أيها المخاطبون ﴿خلافت في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون﴾ فإن أنتم اعتبرتكم واتعظتم بمن قبلكم واتبعتم آيات الله وصدقتم رسله، نجوتم في الدنيا والآخرة.

﴿وإن فعلتم كفعل الظالمين قبلكم، أحل بكم ما أحل بهم، ومن أنذر فقد أعذر.

﴿١٥ - ١٧﴾ ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ \* قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون﴾ \* فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون﴾ يذكر تعالى تعنت المكذابين لرسوله محمد ﷺ، وأنهم إذا تتلى عليهم آيات الله القرآنية المبينة للحق، أعرضوا عنها، وطلبوا وجوه التعنت فقالوا، جراءة منهم وظلماً: ﴿إئت بقرآن غير هذا أو بدله﴾ فقبحهم الله، ما أجرأهم على الله، وأشدهم ظلماً ورداً لآياته.

﴿فإذا كان الرسول العظيم يأمره الله أن يقول لهم: ﴿قل ما يكون لي﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق ﴿أن أبدله من تلقاء نفسي﴾ فإني رسول محض، ليس لي من الأمر شيء، ﴿إن أتبع إلا ما يوحى

ذلك، كما يجعل لهم الخير إذا أتوا بأسبابه﴾ لقضي إليهم أجلهم﴾ أي: لمحقنتهم العقوبة، ولكنه تعالى يمهلهم ولا يمهلهم، ويعفو عن كثير من حقوقه، فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة.

ويدخل في هذا أن العبد إذا غضب على أولاده أو أهله أو ماله، ربما دعا عليهم دعوة لو قبلت منه لهلكوا، ولأضره ذلك غاية الضرر، ولكنه تعالى حلیم حكيم.

وقوله: ﴿فنذر الذين لا يرجون لقاءنا﴾ أي: لا يؤمنون بالآخرة، فلذلك لا يستعدون لها، ولا يعملون ما ينبغيهم من عذاب الله، ﴿في طغيانهم﴾ أي: باطلهم، الذي جاوزوا به الحق والحذر.

﴿يعمّهون﴾ يترددون حائرين، لا يبتدون السبيل ولا يوفقون لأقوم دليل، وذلك عقوبة لهم<sup>(١)</sup> على ظلمهم، وكفرهم بآيات الله.

﴿١٢﴾ ﴿وإذا مسّ الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون﴾ وهذا إخبار عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنه إذا مسه ضر، من مرض أو مصيبة، اجتهد في الدعاء، وسأل الله في جميع أحواله، قائماً وقاعداً ومضطجعاً، وألح في الدعاء ليكشف الله عنه ضره.

﴿فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره﴾ أي: استمر في غفلته معرضاً عن ربه، كأنه ما جاءه ضره، فكشفه الله عنه، فأبى: ظلم أعظم من هذا الظلم!! يطلب من الله قضاء غرضه، فإذا أتاه إياه لم ينظر إلى حق ربه، وكأنه ليس عليه لله حق. وهذا تزيين من الشيطان، زين له ما كان مستهجننا مستقبحاً في العقول والفطر.

﴿كذلك زين للمسرفين﴾ أي: ﴿ما كانوا يعملون﴾.

الصرط المستقيم وفي الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم، ولهذا قال: ﴿نجري من تحتهم الأنهار﴾ الجارية على الدوام ﴿في جنات النعيم﴾ أضافها الله إلى النعيم، لاشتمالها على النعيم التام، نعيم القلب بالفرح والسرور والبهجة والخبور، وروية الرحمن وسماع كلامه، والاعتباط برضاه وقربه، ولقاء الأحبة والإخوان، والتمتع بالاجتماع بهم، وسماع الأصوات المطربات، والنعيمات المشجيات، والمناسخ المفروحات. ونعيم البدن بأنواع المأكول والمشرب، والمناسخ، ونحو ذلك، مما لا تعلمه النفوس، ولا خطر ببال أحد، أو قدر أن يصفه الواصفون.

﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم﴾ أي: عبادتهم فيها الله، وأهلها نسيح الله وتنزيه له عن النقائص، وأخرها تجميد الله، فالتكاليف سقطت عنهم في دار الجزاء، وإنما بقي لهم أكمل اللذات، الذي هو أذ عليهم من المأكول اللذيذة، ألا وهو ذكر الله الذي تطمئن به القلوب، وتفرح به الأرواح، وهو لهم بمنزلة النفس، من دون كلفة ومشقة.

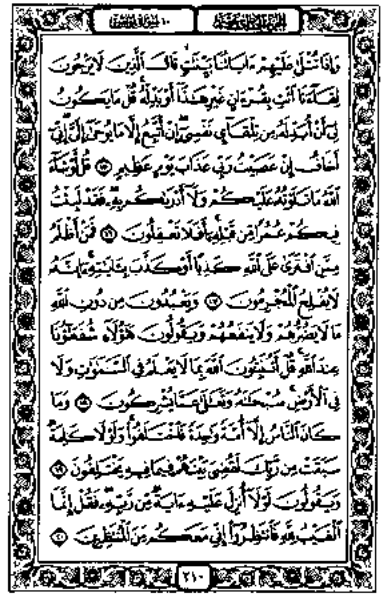
﴿و﴾ أما ﴿تحييتهم﴾ فيما بينهم عند التلاقي والتزاور، فهو السلام، أي: كلام سالم من اللغو والإثم، موصوف بأنه ﴿سلام﴾ وقد قيل في تفسير قوله: ﴿دعواهم فيها سبحانك﴾ إلى آخر الآية، أن أهل الجنة - إذا احتاجوا إلى الطعام والشراب ونحوهما - قالوا سبحانك اللهم، فأحضر لهم في الحال.

﴿فإذا فرغوا قالوا: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾

﴿١١﴾ ﴿ولو يجعل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون﴾ وهذا من لطفه وإحسانه بعباده، أنه لو عجل لهم الشر إذا أتوا بأسبابه، وبادرهم بالعقوبة على







﴿ويسقولون﴾ أي: المكذبون المتعنتون، ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ يعنون: آيات الاقتراح التي يعينونها كقولهم: ﴿لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً﴾ الآيات.

وكقولهم: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ الآيات.

﴿فقل﴾ لهم إذا طلبوا منك آية ﴿إنما الغيب لله﴾ أي: هو المحيط علماً بأحوال العباد، فيدبرهم بما يقتضيه علمه فيهم وحكمته البديعة، وليس لأحد تدبير في حكم ولا دليل، ولا غاية ولا تعليل.

﴿فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ أي: كل ينتظر بصاحبه ما هو أهل له، فانظروا لمن تكون العاقبة.

﴿٢١﴾ ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا قل الله أسرع مكراً إنا رسلنا يكتبون ما تمكرون﴾ يقول تعالى: ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم﴾ كالصحة بعد المرض، والغنى بعد الفقر، والأمن بعد الخوف، نسوا ما أصابهم من الضراء، ولم يشكروا الله على الرخاء والرحمة، بل استمروا في طغيانهم ومكرهم. ولهذا قال: ﴿إذا لهم مكر في

آياتنا﴾ أي: يسعون بالباطل ليطلوا به الحق.

﴿قل الله أسرع مكراً﴾ فإن المكر السيء لا يجيق إلا بأهله، فمقصودهم منعكس عليهم، ولم يسلموا من النجاة، بل تكتب الملائكة عليهم ما يعملون، ويحصىه الله عليهم، ثم يجازيهم [الله] عليه أوفر الجزاء.

﴿٢٢ - ٢٣﴾ ﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ فلما

أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيتكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إننا مرجعكم فنتبتكم بما كنتم تعملون﴾ لما ذكر تعالى القاعدة العامة في أحوال الناس عند إصابة الرحمة لهم يعد الضراء، والبسر بعد العسر، ذكر حالة تؤيد ذلك وهي حالهم في البحر عند اشتداده، والخوف من عواقبه، فقال: ﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر﴾ بما يسر لكم من الأسباب المسيرة<sup>(١)</sup> لكم فيها، وهداكم إليها.

﴿حتى إذا كنتم في الفلك﴾ أي: السفن البحرية ﴿وجرين بهم بريح طيبة﴾ موافقة لما يهونه من غير انزعاج ولا مشقة.

﴿وفرحوا بها﴾ واطمأنوا إليها، فبينما هم كذلك، إذ ﴿جاءتها ريح عاصف﴾ شديدة الهبوب ﴿وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم﴾ أي: عرفوا أنه الهلاك، فانقطع

حيثئذ تعلقهم بالمخلوقين، وعرفوا أنه لا ينجيهم من هذه الشدة إلا الله وحده، فدعوه مخلصين له الدين ووعدوا من أنفسهم على وجه الإلزام، فقالوا: ﴿لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق﴾ أي:

نسوا تلك الشدة وذلك الدعاء، وما ألزموه أنفسهم، فأشركوا بالله، من اعترفوا بأنه لا ينجيهم من الشدائد، ولا يدفع عنهم المضايق، فهلا أخلصوا لله العبادة في الرخاء، كما أخلصوه في الشدة؟!!

ولكن هذا البغي يعود وباله عليهم، ولهذا قال: ﴿يا أيها الناس إنما بغيتكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا﴾ أي: غاية ما تؤملون بغيكم وشروءكم عن الإخلاص لله، أن تنالوا شيئاً من حطام الدنيا وجاهها النزر اليسير الذي سيتفضي سريعاً، ويمضي جميعاً، ثم تتقلون عنه بالرجم.

﴿ثم إننا مرجعكم﴾ في يوم القيامة ﴿فنتبتكم بما كنتم تعملون﴾ وفي هذا غاية التحذير لهم عن الاستمرار على عملهم.

﴿٢٤﴾ ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفضل الآيات لقوم يتفكرون﴾ وهذا المثل من أحسن الأمثلة، وهو مطابق لحالة الدنيا، فإن لذاتها وشهواتها وجاهها ونحو ذلك يزهو لصاحبه إن زها وقتاً قصيراً، فإذا استكمل وتم اضمحل، وزال عن صاحبه، أو زال صاحبه عنه، فأصبح صفر اليدين منها، ممتلئ القلب من همها وحزنها وحسرتها.

فذلك ﴿كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض﴾ أي: نبت فيها من كل صنف، وزوج بهيج ﴿فما يأكل الناس﴾ كالحبوب والثمار ﴿وما تأكل﴾ الأنعام كالأصناف، والكلاب المختلفة الأصناف.

﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت﴾ أي: تزخرقت في منظرها، واكتستت في زينتها، فصارت بهجة للناظرين، ونزهة للمتفرجين، وآية

للمتصيرين، فصرت ترى لها منظراً عجيباً ما بين أخضر، وأصفر، وأبيض وغيره.

﴿وطن أهلها أنهم قادرون عليها﴾ أي: حصل معهم طمع بأن ذلك سيستمر ويدوم، لوقوف إرادتهم عنده، وانتهاء مطالبهم فيه.

فبينما هم في تلك الحالة ﴿أناها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجمعناها حصيداً كأن لم نغن بالأمس﴾ أي: كأنها ما كانت فهذه حالة الدنيا، سواء بسواء.

﴿كذلك نفضل الآيات﴾ أي: نبينها ونوضحها، بتقريب المعاني إلى الأذهان، وضرب الأمثال ﴿لنقوم يتفكرون﴾ أي: يعملون أفكارهم فيما يفهمهم.

وأما الغافل المعرض، فهذا لا تتفعه الآيات، ولا يزيل عنه الشك البيان، ولما ذكر الله حال الدنيا وحاصل نعيمها، شقّق إلى الدار الباقية، فقال:

﴿٢٥ - ٢٦﴾ ﴿والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون.

عمّ تعالى عباده بالدعوة إلى دار السلام والحث على ذلك والترغيب، وخص بالهداية من شاء استخلاصه واصطفاه، فهذا فضله وإحسانه، والله يختص برحمته من يشاء، وذلك عدله وحكمته، وليس لأحد عليه حجة بعد البيان والرسل، وسمى الله الجنة دار السلام لسلامتها من جميع الآفات والتفانص، وذلك لكمال نعيمها وتمامه وبقائه، وحسنه من كل وجه.

ولما دعا إلى دار السلام، كان النفوس تشوقت إلى الأعمال الموجبة

لها الموصلة إليها، فأخبر عنها بقوله: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ أي: للذين أحسنوا في عبادة الخالق، بأن عبده على وجه المراقبة والتسبيحة في عبوديته، وقاموا بما قدروا عليه منها، وأحسنوا إلى عباد الله بما يقدر عليهم من الإحسان القولي والفعل، من بذل الإحسان المالي، والإحسان البدني، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهلين، ونصيحة المعرضين، وغير ذلك من وجوه البر والإحسان.

فهؤلاء الذين أحسنوا لهم ﴿الحسنى﴾ وهي الجنة الكاملة في حسناتها وزيادة وهي النظر إلى وجه الله الكريم وسماع كلامه، والفوز برضاه والبهجة بقربه، فبهذا حصل لهم أعلى ما يتمناه المتمنون، ويسأله السائلون.

ثم ذكر اندفاع المحذور عنهم فقال: ﴿ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة﴾ أي: لا ينالهم مكروه بوجه من السجود، لأن المكروه إذا وقع بالإنسان، تبين ذلك في وجهه، وتغير وتكدر.

وأما هؤلاء - فهم كما<sup>(١)</sup> قال الله عنهم - ﴿تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾ أولئك أصحاب الجنة ﴿اللازمون لها﴾ هم فيها خالدون، لا يمحسون ولا يزولون، ولا يتغيرون.

﴿٢٧﴾ ﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ لما ذكر أصحاب الجنة ذكر أصحاب النار، فذكر أن بضاعتهم التي اكتسبوها في الدنيا هي الأعمال السيئة المسخطة لله، من أنواع الكفر والتكذيب، وأصناف المعاصي، فجزاؤهم سيئة مثلها، أي:

(٢) في ب: في وجوههم.

وَأَنَّا أَتَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِن دُونِ غَيْرِ لَنَقُولَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ لَو كُنْتُمْ تَرْضَوْنَ مَا يَكْفُرُونَ ﴿٢٥﴾ هُوَ الَّذِي بَشَّرْنَا الْآرَاءَ الْغَيْرِ الْخَيْرِينَ بِالْحَقِّ وَكُنْتُمْ بِهِ كَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَعَلَّمَ قُلُوبَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٢٧﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ فَتَتْلُوهُ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُ وَيَتَّبِعُونَ آيَاتِنَا لِيُحْيُوا النَّفْسَ الَّتِي حَيَّرْنَا وَإِن كُنْتُمْ لَمَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ النَّاسَ فَمَا لَهُمْ إِن كُنْتُمْ تَوَدُّونَ إِذْ يُخْرِجُوكُم مِّنْ دِينِكُمْ وَأَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ النَّاسَ فَمَا لَهُمْ إِن كُنْتُمْ تَوَدُّونَ إِذْ يُخْرِجُوكُم مِّنْ دِينِكُمْ وَأَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ النَّاسَ فَمَا لَهُمْ إِن كُنْتُمْ تَوَدُّونَ إِذْ يُخْرِجُوكُم مِّنْ دِينِكُمْ وَأَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ النَّاسَ فَمَا لَهُمْ إِن كُنْتُمْ تَوَدُّونَ إِذْ يُخْرِجُوكُم مِّنْ دِينِكُمْ وَأَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ النَّاسَ فَمَا لَهُمْ إِن كُنْتُمْ تَوَدُّونَ إِذْ يُخْرِجُوكُم مِّنْ دِينِكُمْ وَأَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ النَّاسَ فَمَا لَهُمْ إِن كُنْتُمْ تَوَدُّونَ إِذْ يُخْرِجُوكُم مِّنْ دِينِكُمْ وَأَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ النَّاسَ فَمَا لَهُمْ إِن كُنْتُمْ تَوَدُّونَ إِذْ يُخْرِجُوكُم مِّنْ دِينِكُمْ وَأَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ النَّاسَ فَمَا لَهُمْ إِن كُنْتُمْ تَوَدُّونَ إِذْ يُخْرِجُوكُم مِّنْ دِينِكُمْ وَأَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ ﴿٣٦﴾ وَإِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ النَّاسَ فَمَا لَهُمْ إِن كُنْتُمْ تَوَدُّونَ إِذْ يُخْرِجُوكُم مِّنْ دِينِكُمْ وَأَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَإِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ النَّاسَ فَمَا لَهُمْ إِن كُنْتُمْ تَوَدُّونَ إِذْ يُخْرِجُوكُم مِّنْ دِينِكُمْ وَأَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ ﴿٣٨﴾ وَإِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ النَّاسَ فَمَا لَهُمْ إِن كُنْتُمْ تَوَدُّونَ إِذْ يُخْرِجُوكُم مِّنْ دِينِكُمْ وَأَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ وَإِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ النَّاسَ فَمَا لَهُمْ إِن كُنْتُمْ تَوَدُّونَ إِذْ يُخْرِجُوكُم مِّنْ دِينِكُمْ وَأَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ ﴿٤٠﴾

جزاء يسوؤهم بحسب ما عملوا من السيئات على اختلاف أحوالهم.

﴿وترهقهم﴾ أي: تغشاهم ﴿ذلة﴾ في قلوبهم وخوف من عذاب الله، لا يدفعه عنهم دافع ولا يعصمهم منه عاصم، وتسري تلك الذلة الباطنة إلى ظاهرهم، فتكون سوداً في الوجوه<sup>(٢)</sup>.

﴿كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ فكلم بين الفريقين من الفرق، وما بعد ما بينهما من التفاوت!؟

﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ إلى ربها ناظرة ﴿وجوه يومئذ باسرة﴾ نظن أن يفعل بها فاقرة ﴿وجوه يومئذ مسفرة﴾ ضاحكة مستبشرة ﴿وجوه يومئذ عليها غبرة﴾ ترهقها قتره ﴿أولئك هم الكفرة الفجرة﴾.

﴿٢٨ - ٣٠﴾ ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون﴾ فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴿هنالك نبليو كل نفس ما أسلفت وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا

(١) في ب: فكما.



فالملائكة الكرام والأنبياء والأولياء ونحوهم يتبرؤون عن عبدهم يوم القيامة ويتصلون من دعائهم إليهم إلى عبادتهم وهم الصادقون البارون في ذلك، فحينئذ يتحسر المشركون حسرة لا يمكن وصفها، ويعلمون مقدار ما قدموا من الأعمال، وما أسلفوا من رديء الخصال، ويتبين لهم يومئذ أنهم كانوا كاذبين، وأنهم مفترون على الله، قد ضلت عبادتهم، واضمحلت معبوداتهم، وتقطعت بهم الأسباب والوسائل.

ولهذا قال تعالى: ﴿هنالك أي: في ذلك اليوم﴾ تبلو كل نفس ما أسلفت أي: تنفد أعمالها وكسبها، وتتبعه بالجزاء، وتجازى بحسبه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وضل عنهم ما كانوا يفترون من قولهم بصحة ما هم عليه من الشرك وأن ما يعبدون من دون الله تنفعهم وتدفع عنهم العذاب.

﴿٣١ - ٣٣﴾ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون \* فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأتى تصرفون \* كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون \* أي: ﴿قل﴾ لهؤلاء الذين أشركوا بالله، ما لم ينزل به سلطاناً - محتجاً عليهم بما أقرأوا به من توحيد الربوبية، على ما أنكروه من توحيد الإلهية - ﴿من يرزقكم من السماء والأرض﴾ بإنزال الأرزاق من السماء، وإخراج أنواعها من الأرض، وتيسير أسبابها فيها؟

﴿أم من يملك السمع والأبصار﴾ أي: من هو الذي خلقهما وهو مالكهما؟، وخصهما بالذكر من باب التنبيه على المفضل بالمفاضل، ولكمال شرفهما ونفعهما. ﴿ومن يخرج الحي من الميت﴾

كإخراج أنواع الأشجار والنبات من الحبوب والنوى، وإخراج المؤمن من الكافر، والطائر من البيضة، ونحو ذلك، ﴿ويخرج الميت من الحي﴾ عكس هذه المذكورات، ﴿ومن يدبر الأمر﴾ في العالم العلوي والسفلي، وهذا شامل لجميع أنواع التدابير الإلهية، فإنك إذا سألتهم عن ذلك ﴿سيقولون الله﴾ لأنهم يعترفون بجميع ذلك، وأن الله لا شريك له في شيء من المذكورات.

﴿فقل﴾ لهم إلزاماً بالحجة ﴿أفلا تتقون﴾ الله فتخلصون له العبادة وحده لا شريك له، وتخلصون ما تعبدون من دونه من الأنداد والأوثان.

﴿فذلكم﴾ الذي وصف نفسه بما وصفها به ﴿الله ربكم﴾ أي: المألوه المعبود المحمود، الربى جميع الخلق بالنعم وهو: ﴿الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾.

فإنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير لجميع الأشياء، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو، ذو الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العظيمة والجلال والإكرام.

﴿فأتى تصرفون﴾ عن عبادة من هذا وصفه، إلى عبادة الذي ليس له من وجوده إلا العدم، ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

فليس له من الملك مثقال ذرة، ولا شركة له بوجه من الوجوه، ولا يشفع عند الله إلا بإذنه، فتباً لمن أشرك به، ووبخاً لمن كفر به، لقد عدمو عقولهم بعد أن عدمو أديانهم، بل فقدوا دينهم وأخراهم.

ولهذا قال تعالى ﴿اعلم﴾ كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون ﴿بعد ما أراهم﴾ (١) الله من الآيات البينات والبراهين النيرات ما فيه عبرة لأولى الألباب، وموعظة للمتقين وهدى للعالمين.

يفترون﴾ يقول تعالى: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً﴾ أي: نجتمع جميع الخلائق ليعاد يوم معلوم، ونحضر المشركين، وما كانوا يعبدون من دون الله.

﴿ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم﴾ أي: الزموا مكانكم ليقع التحاكم والفصل بينكم وبينهم. ﴿فزيلنا بينهم﴾ أي: فرقنا بينهم، البعد البدني والقلبي، وحصلت بينهم العداوة الشديدة، بعد أن بذلوا لهم في الدنيا خالص المحبة ووضو الروداد، فانقلبت تلك المحبة والولاية بغضاً وعداوة.

وتبرأ شركاؤهم منهم وقالوا: ﴿ما كنتم إيانا تعبدون﴾ فإننا ننزه الله أن يكون له شريك أو نديد. ﴿فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين﴾ ما أمرناكم بها، ولا دعوناكم لذلك، وإنما عبدتم من دعاكم إلى ذلك، وهو الشيطان كما قال تعالى: ﴿ألم أهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾.

وقال: ﴿ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون.

(١) في ب: بعد أن أراهم.

العالمين، لعاجله بالعقوبة ويادره بالنكال .

﴿ولكن﴾ الله أنزل هذا الكتاب رحمة للعالمين، وحجة على العباد أجمعين .

أنزله ﴿تصديق الذي بين يديه﴾ من كتب الله السماوية، بأن وافقها وصدقها بما شهدت به، وبشرت بزوله، فوقع كما أخبرت .

﴿وتفصيل الكتاب﴾ للحلال والحرام، والأحكام الدينية والقدرية، والإخبارات الصادقة .

﴿لا ريب فيه من رب العالمين﴾ أي: لا شك ولا مرية فيه بوجه من الوجوه، بل هو الحق اليقين: تنزيل من رب العالمين الذي ربى جميع الخلق بنعمه .

ومن أعظم أنواع تربيته أن أنزل عليهم هذا الكتاب الذي فيه مصالحهم الدينية والدنيوية، المشتمل على مكارم الأخلاق وعامس الأعمال .

﴿أم يقولون﴾ أي: المكذبون به عناداً وبنياً: ﴿افتراه﴾ محمد على الله، واختلقه، ﴿قل﴾ لهم - ملزماً لهم بشيء - إن قدروا عليه، أمكن ما أدعوه، وإلا كان قولهم باطلاً .

﴿فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ يعاونكم على الإتيان بسورة مثله، وهذا محال، ولو كان ممكناً لادعوا قدرتهم على ذلك، ولأتوا بمثله .

ولكن لما بان عجزهم تبين أن ما قالوه باطل، لا حظ له من الحجة، والذي حملهم على التكذيب بالقرآن المشتمل على الحق الذي لا حق فوقه، أنهم لم يحيطوا به علماً .

فلو أحاطوا به علماً وفهموه حق فهمه، لأدعوا بالتصديق به، وكذلك إلى الآن لم يأثم تأويله الذي وعدهم أن ينزل بهم العذاب ويحل بهم النكال،

وهذا التكذيب الصادر منهم من جنس تكذيب من قبلهم، ولهذا قال: ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين وهو الهلاك

الشیطان للإنسان، أقيح البهتان، وأصل الضلال، حتى اعتقد ذلك وألفه وظنه حقاً، وهو لا شيء .

ولهذا قال: وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء أي: ما يتبعون في الحقيقة شركاء الله، فإنه ليس لله شريك أصلاً عقلاً ولا نقلاً، وإنما يتبعون الظن و ﴿إن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ فسموها آلهة وعبودها مع الله، ﴿إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ .

﴿إن الله عليم بما يفعلون﴾ وسيجازيهم على ذلك بالعقوبة البليغة .

﴿٣٧ - ٤١﴾ ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾ أم

يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين \* بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة

الظالمين \* ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وريك أعلم بالفسدين \* وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾ يقول تعالى: ﴿وما

كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله﴾ أي: غير ممكن ولا متصور، أن يفترى هذا القرآن على الله تعالى، لأنه الكتاب العظيم الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم

حميد﴾ وهو الكتاب الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وهو كتاب الله الذي تكلم به

[رب العالمين]، فكيف يقدر أحد من الخلق أن يتكلم بمثله، أو بما يقاربه، والكلام تابع لعظمة المتكلم ووصفه؟!!

فإن كان أحد يماثل الله في عظمته وأوصاف كماله، أمكن أن يأتي بمثل هذا القرآن، ولو تنزلنا على الفرض والتقدير، فتقول له أحد على رب

﴿٣٤ - ٣٦﴾ ﴿قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى

تؤفكون \* قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدي فما لكم كيف تحكمون \* وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغني من الحق شيئاً إن الله

عليم بما يفعلون﴾ يقول تعالى - مبيناً عجز آلهة المشركين وعدم انصافها بما يوجب اتخاذها آلهة مع الله -: ﴿قل

هل من شركائكم من يبدأ الخلق﴾ أي: يبتدئه ﴿ثم يعيده﴾ وهذا استفهام بمعنى النفي والتقرير، أي: ما منهم أحد يبدأ الخلق ثم يعيده، وهي أضعف من ذلك وأعجز، ﴿قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ من غير مشارك ولا معاون له على ذلك .

﴿فأنى تؤفكون﴾ أي: تصرفون، وتحرفون عن عبادة المنفرد بالابتداء، والإعادة إلى عبادة من لا يخلق شيئاً وهم مخلوقون .

﴿قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق﴾ ببيان وإرشاده أو بالهامه وتوفيقه .

﴿قل الله﴾ وحده ﴿يهدي للحق﴾ بالأدلة والبراهين، وبالإلهام والتوفيق، والإعانة إلى سلوك أقوم طريق .

﴿أمن لا يهدي﴾ أي: لا يهتدي ﴿إلا أن يهدي﴾ لعدم علمه ولضلاله، وهي شركاؤهم التي لا تهتدي

ولا تهتدي إلا أن تهتدي ﴿فما لكم كيف تحكمون﴾ أي: أتى شيء جعلكم تحكمون هذا الحكم الباطل، بصحة عبادة أحد مع الله، بعد ظهور الحجة والبرهان أنه لا يستحق العبادة إلا الله وحده .

إذا تبين أنه ليس في آلهتهم التي يعبدون مع الله أوصافاً معنوية ولا أوصافاً فعلية، تقتضي أن تعبد

مع الله، بل هي متصفة بالنقائص الموجبة لبطلان إلهيتها، فلاي: شيء جعلت مع الله آلهة؟ فالجواب: أن هذا من تزوين

إلى الصراط المستقيم والدين القويم، حيث فاتهم النعيم، واستحقوا دخول النار.

﴿٤٦﴾ ﴿وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفيتك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون﴾ أي: لا تحزن أيها الرسول على هؤلاء المكذبين، ولا تستعجل لهم، فإنهم لا بد أن يصيبهم الذي نعدهم من العذاب.

﴿٤٧﴾ ﴿إما في الدنيا ففراه بعينك، وتقر به نفسك.

﴿٤٨﴾ ﴿وإما في الآخرة بعد الوفاة، فإن مرجعهم إلى الله، وسينتهم بما كانوا يعملون، أحصاه الله ونسوه، والله على كل شيء شهيد، ففيه الوعيد الشديد لهم، والتسلي للرسول الذي كذبه قومه وعاندوه.

﴿٤٧-٤٩﴾ ﴿ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين \* قل لا أملك لنفسي ضرراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ يقول تعالى: ﴿ولكل أمة﴾ من الأمم الماضية ﴿رسول﴾ يدعوهم إلى توحيد الله ودينه.

﴿٤٩﴾ ﴿فإذا جاءهم﴾ ﴿رسولهم﴾ بالآيات، صدقه بعضهم وكذبه آخرون، فيقضي الله بينهم بالقسط بنجاة المؤمنين، وإهلاك المكذبين ﴿وهم لا يظلمون﴾ بأن يعذبوا قبل إرسال الرسول وبيان الحجة، أو يعذبوا بغير جرمهم، فليحذر المكذبون لك من مشابهة الأمم المهلكين، فيحل بهم ما حل بأولئك.

ولا يستطيعوا العقوبة ويقولوا: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ فإن هذا ظلم منهم، حيث طلبوه من النبي ﷺ، فإنه ليس له من الأمر شيء، وإنما عليه البلاغ والبيان للناس.

الذي لا يعقل للكلام، فهؤلاء المكذبون، كذلك تمتع إسماعك إياهم إسماعاً يتصفون به.

وأما إسماع الحجة، فقد سمعوا ما تقوم عليهم به حجة الله البالغة، فهذا طريق عظيم من طرق العلم قد انسد عليهم، وهو طريق السموات المتعلقة بالخبر.

ثم ذكر انسداد الطريق الثاني، وهو: طريق النظر فقال: ﴿ومنهم من ينظر إليك﴾ فلا يفيدته نظره إليك، ولا سير أحوالك شيئاً، فكما أنك لا تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون، فكذلك لا تهدي هؤلاء.

فإذا فسدت عقولهم وأسماعهم وأبصارهم التي هي الطرق الموصلة إلى العلم ومعرفة الحقائق، فأين الطريق الموصول لهم إلى الحق؟

وذلك قوله: ﴿ومنهم من ينظر إليك﴾ الآية، أن النظر إلى حالة النبي ﷺ وهديه وأخلاقه وأعماله وما يدعو إليه من أعظم الأدلة على صدقه وصحة ما جاء به، وأنه يكفي البصير عن غيره من الأدلة.

وقوله: ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً﴾ فلا يزيد في سيناتهم، ولا ينقص من حسناتهم.

﴿ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾ يبينهم الحق فلا يقبلونه، فيعاقبهم الله بعد ذلك بالطبع على قلوبهم، والختتم على أسماعهم وأبصارهم.

﴿٤٥﴾ ﴿ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذبوا بقاء الله وما كانوا مهتدين﴾ يخبر تعالى عن سرعة انقضاء الدنيا، وأن الله تعالى إذا حشر الناس وجمعهم ليوم لا ريب فيه، كأنهم ما لبثوا إلا ساعة من نهار، وكأنه ما مر عليهم نعيم ولا بؤس، وهم يتعارفون بينهم، كحالهم في الدنيا، ففي هذا اليوم يريح المتقون، ويحشر الذين كذبوا بقاء الله وما كانوا مهتدين

الذي لم يبق منهم أحدًا. فليحذر هؤلاء أن يستمروا على تكذيبهم، فيحل بهم ما أحل بالأمم المكذبين والقرون المهلكين.

وفي هذا دليل على الثبوت في الأمور، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يبادر بقبول شيء أو رده قبل أن يحيط به علماً.

﴿ومنهم من يؤمن به﴾ أي: بالقرآن وما جاء به، ﴿ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين﴾ وهم الذين لا يؤمنون به على وجه العناد والظلم والفساد، فيسجازيهم على فسادهم بأشد العذاب.

﴿وإن كذبوك﴾ فاستمر على دعوتك، وليس عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء، لكل عمله. ﴿فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾ كما قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾.

﴿٤٢-٤٤﴾ ﴿ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون﴾ ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون \* إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾ يخبر تعالى عن بعض المكذبين للرسول ولما جاء ﴿و﴾ أن ﴿منهم من يستمعون﴾ إلى النبي ﷺ وقت قرأته للوحي، لا على وجه الاسترشاد، بل على وجه التفرج والتكذيب وتطلب العثرات، وهذا استماع غير نافع ولا مجد على أهله خيراً، لا جرم انسد عليهم باب التوفيق، وحرموهم من فائدة الاستماع، ولهذا قال: ﴿أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون﴾ وهذا الاستفهام بمعنى النفي المقرر، أي: لا تسمع الصم الذين لا يستمعون القول ولو جهرت به، وخصوصاً إذا كان عقلهم معدوماً. فإذا كان من المحال إسماع الأصم





لسخط الله، المنتضية لعقابه وتحذركم عنها ببيان آثارها ومفاسدها.

«وشفاء لما في الصدور» وهو هذا القرآن، شفاء لما في الصدور من أمراض الشهوات الصادة عن الانقياد للشرع وأمراض الشبهات، القادحة في العلم اليقيني، فإن ما فيه من المواظ والتروغيب والتترهيب، والوعيد والرعيه، مما يوجب للعبد الرغبة والرهبه.

وإذا وجدت فيه الرغبة في الخير، والرهبه من الشر، ونمتا على تكرر ما يرد إليها من معاني القرآن، أوجب ذلك تقديم مراد الله على مراد النفس، وصار ما يرضي الله أحب إلى العبد من شهوة نفسه.

وكذلك ما فيه من البراهين والأدلة التي صرّفها الله غاية التصريف، وبينها أحسن بيان، مما يزيل الشبه القادحة في الحق، ويصل به القلب إلى أعلى درجات اليقين.

وإذا صح القلب من مرضه، ورفل بأثواب العافية، تبعته الجوارح كلها، فأنها تصلح بصلاحه، وتفسد بفساده، «وهدي ورحمة للمؤمنين» فالهدي هو العلم بالحق والعمل به.

والرحمة هي ما يحصل من الخير والإحسان، والشواب العاجل

والأجل، لمن اهتدى به، فالهدي أجل الوسائل، والرحمة أكمل المقاصد والרגائب، ولكن لا يهتدي به، ولا يكون رحمة إلا في حق المؤمنين.

وإذا حصل الهدي وحلت الرحمة الناشئة عنه، حصلت السعادة والفلاح، والربح والنجاح، والفرح والسرور.

ولذلك أمر تعالى بالفرح بذلك فقال: «قل بفضل الله» الذي هو القرآن، الذي هو أعظم نعمة ومنه، وفضل تفضل الله به على عباده «ورحمته» الدين والإيمان، وعبادة الله ومحبه ومعرفته. «فيذلك» فليفرحوا هو خير مما يجمعون» من متاع الدنيا ولذاتها.

فنعمة الدين المتصلة بسعادة الدارين، لا نسبة بينها وبين جميع ما في الدنيا، مما هو مضمحل زائل عن قريب.

وإنما أمر الله تعالى بالفرح بفضلته ورحمته، لأن ذلك مما يوجب اتساق النفس ونشاطها وشكرها لله تعالى، وقوتها، وشدة الرغبة في العلم والإيمان الداعي للازدياد منهما، وهذا فرح محمود، بخلاف الفرح بشهوات الدنيا ولذاتها، أو الفرح بالباطل، فإن هذا مذموم كما قال تعالى عن أقوم قارون له: «لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين».

وكما قال تعالى في الذين فرحوا بما عندهم من الباطل الناقض لما جاءت به الرسل: «فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم».

«٥٩ - ٦٠» «قل أرايتم ما أنزل الله لکم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل الله أذن لکم أم علی الله تفترون» وما ظن الذين یفترون علی الله الکذب یوم القيامة إن الله لذو فضل علی الناس ولكن أكثرهم لا يشکرون» یقول تعالی - منکرأ علی المشرکین الذین ابتدعوا

تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم (١) -: «قل أرايتم ما أنزل الله لکم من رزق» يعني أنواع الحيوانات المحللة، التي جعلها الله رزقاً لهم ورحمة في حقهم. قل لهم - موبخاً على هذا القول الفاسد -: «الله أذن لکم أم علی الله تفترون» ومن المعلوم أن الله لم یأذن لهم فعلم أنهم مفترون.

«وما ظن الذین یفترون علی الله الکذب یوم القيامة» أن یفعل الله بهم من النکال، ويحل بهم من العقاب، قال تعالی: «ویوم القيامة ترى الذین کذبوا علی الله وجوههم مسودة».

«إن الله لذو فضل علی الناس» كثير، وذو إحسان جزيل، ولكن أكثر الناس لا يشکرون، إما أن لا یقوموا بشکرها، وإما أن یستعینوا بها علی معاصیه، وإما أن یحرموا منها، ویردوا ما من الله به علی عباده، وقلیل منهم الشاکر الذی یعترف بالنعمة، ویثني بها علی الله ويستعين بها علی طاعته.

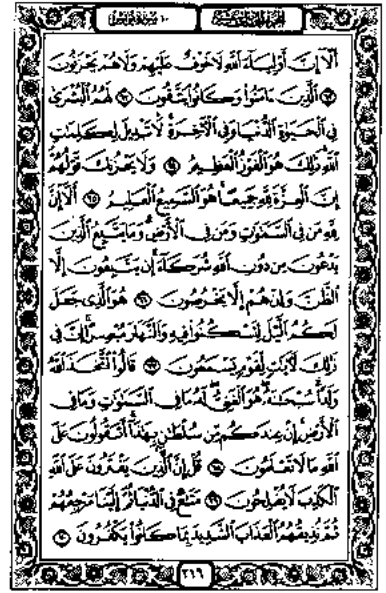
ويستدل هذه الآية علی أن الأصل فی جمیع الأطعمه الحل، إلا ما ورد الشرع بتحريمه، لأن الله أنکر علی من حرم الرزق الذی أنزله لعیاده.

«٦١» «وما تكون فی شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا علیکم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فی الأرض وفي السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فی کتاب مبین» ینجز تعالی عن عموم مشاهدته واطلاعه علی جمیع أحوال العباد فی حركاتهم وسكناتهم، وفي ضمن هذا الدعوة لمراقبته علی الدوام فقال: «وما تكون فی شأن» أي: حال من أحوالک الدینیة والدنیویة. «وما تتلو منه من قرآن» أي: وما تتلو من القرآن الذی أوحاه الله إلیک.

«ولا تعملون من عمل» صغیر أو کبیر «إلا كنا علیکم شهوداً إذ تفيضون فیہ» أي: وقت شرورکم فیہ واستمرازم علی العمل به.







وانك وهتان .

فإن كانوا صادقين في أنها شركاء لله، فليظهروا من أوصافها ما تستحق به مثقال ذرة من العبادة، فلن يستطيعوا، فهل منهم أحد يخلق شيئاً أو يرزق، أو يملك شيئاً من المخلوقات، أو يدبر الليل والنهار الذي جعله الله قياماً للناس؟

و «هو الذي جعل لكم الليل لتسكتوا فيه» في النوم والراحة بسبب الظلمة، التي تغطي وجه الأرض، فلو استمر الضياء لما قرأوا ولما سكتوا.

«و» جعل الله «النهار مبصراً» أي: مضيئاً، يبصر به الخلق، فيتصرفون في معاشهم، ومصالح دينهم وديانهم.

«إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون» عن الله سمع فهم وقبول واسترشاد، لا سمع تعنت وعناد، فإن في ذلك لآيات لقوم يسمعون، يستدلون بها على أنه وحده المعبود وأنه الإله الحق، وأن إلهية ما سواه باطلة، وأنه الرؤوف الرحيم العليم الحكيم.

«٦٨ - ٧٠» قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني له ما في السماوات وما في الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون \* قل إن الذين يفترون على الله الكذب

لا يفلحون \* متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون» يقول تعالى غيباً عن بهت المشركين لرب العالمين «قالوا اتخذ الله ولداً» فنزه نفسه عن ذلك بقوله: «سبحانه» أي: تنزه عما يقول الظالمون في نسبة النقصان إليه علواً كبيراً، ثم برهن على ذلك بعدة براهين:

أحدها: قوله: «هو الغني» أي: الغنى منحصر فيه، وأنواع الغنى مستغرقة فيه، فهو الغني الذي له الغنى التام بكل وجه واعتبار من جميع الوجوه، فإذا كان غنياً من كل وجه، فلا ي: شيء يتخذ الولد؟

أخاطبة منه إلى الولد، فهذا مناف لغناه فلا يتخذ أحد ولداً إلا لنقص في غناه.

البرهان الثاني، قوله: «له ما في السماوات وما في الأرض» وهذه كلمة جامعة عامة لا يخرج عنها موجود من أهل السماوات والأرض، الجميع مخلوقون عبيد مالك.

ومن المعلوم أن هذا الوصف العام ينافي أن يكون له منهم ولد، فإن الولد من جنس والده، لا يكون مخلوقاً ولا مخلوكاً. فملكيته لما في السماوات والأرض عموماً تنافي الولادة.

البرهان الثالث، قوله: «إن عندكم من سلطان بهذا» أي: هل عندكم من حجة وبرهان يدل على أن الله ولداً، فلو كان لهم دليل لأبدوه، فلما تخذاهم وعجزهم عن إقامة الدليل، علم بطلان ما قالوه. وأن ذلك قول بلا علم، ولهذا قال: «أتقولون على الله ما لا تعلمون» فإن هذا من أعظم المحرمات.

«قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون» أي: لا يتألون مطلوبهم، ولا يحصل لهم مقصودهم، وإنما يتمتعون في كفرهم وكذبهم في الدنيا قليلاً، ثم ينتقلون إلى الله ويرجعون إليه، فيذيقهم العذاب

الشديد بما كانوا يكفرون. «وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون».

«٧١ - ٧٣» «واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبير عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون \* فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين \* فكذبوه فنجيناها ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقتنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين» يقول تعالى لنبيه: «واتل على قومك نبأ نوح» في دعوته لقومه، حين دعاهم إلى الله مدة طويلة، فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلم يزداهم دعاؤه إياهم إلا طغياناً، فتملأوا منه وسموا، وهو عليه الصلاة والسلام غير متكامل، ولا متوان في دعوتهم، فقال لهم: «يا قوم إن كان كبير عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله» أي: إن كان مقامي عندكم وتذكيري إياكم ما ينفعكم<sup>(١)</sup> «بآيات الله» الأدلة الواضحة البينة، قد شق عليكم وعظم لديكم، وأردتم أن تتألون بسوء أو تردوا الحق. «فعل الله توكلت» أي: اعتمدت على الله في دفع كل شر يراد بي، وبما أذعر إلي، فهذا جندي وعذني. وأنتم فاتوا بما قدرتم عليه، من أنواع العذد والعُدُد.

«فأجمعوا أمركم» كلكم، بحيث لا يتخلف منكم أحد، ولا تدخروا<sup>(٢)</sup> من مجهودكم شيئاً.

«و» أحضروا «شركاءكم» الذي كنتم تعبدونهم وتوألونهم من دون الله رب العالمين.

«ثم لا يكن أمركم عليكم غمة» أي: مشتتياً خفياً، بل ليكن ذلك ظاهراً علانية.

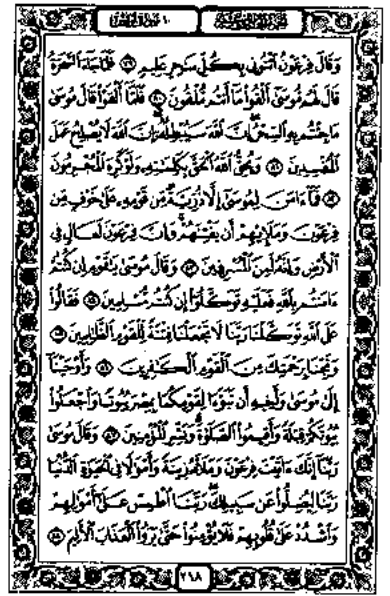
«ثم اقضوا إلي» أي: اقضوا علي بالعقوبة والسوء الذي في إمكانكم، «ولا تنظرون» أي: لا تمهلون ساعة

في تهاونهم، ولا تنظرون ساعة في تهاونهم، ولا تدخرون.

(١) في النسختين: ما يقفهم.

(٢) في النسختين: ما يقفهم.





وهذا لا يمتنع به من عرف الحقائق وميز بين الأمور، فإن الحجج لا تدفع إلا بالحجج والبراهين.

وأما من جاء بالحق فرد قوله بأمثال هذه الأمور، فإنها تدل على عجز موردها عن الإتيان بما يرد القول الذي جاءه به خصمه، لأنه لو كان له حجة لأوردتها، ولم يلجأ إلى قوله: قصدك كذا، أو مرادك كذا، سواء كان صادقاً في قوله وإخباره عن قصد خصمه أم كاذباً، مع أن موسى عليه الصلاة والسلام كل من عرف حاله وما يدعو إليه، عرف أنه ليس له قصد في العلو في الأرض، وإنما قصده كقصد إخوانه المرسلين، هداية الخلق وإرشادهم لما فيه نفعهم.

ولكن حقيقة الأمر كما نظموا به بقولهم: ﴿وما نحن لكما بمؤمنين﴾ أي: تكبراً وعناداً، لا لبطان ما جاء به موسى وهارون، ولا لاشتباه فيه، ولا لغير ذلك من المعاني، سوى الظلم والعدوان، وإرادة العلو الذي رماوا به موسى وهارون.

﴿٧٩﴾ ﴿وقال فرعون﴾ معارضاً للحق الذي جاء به موسى ومغالطاً<sup>(١)</sup> لملكه وقومه: ﴿أنتوني بكل ساحر عليم﴾ أي: ماهر بالسحر، متقن له. فأرسل في مدائن مصر من أتاه بأنواع السحرة، على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم.

﴿فلما جاء السحرة﴾ للمغالبة مع موسى<sup>(٢)</sup> ﴿قال لهم موسى القوا ما أنتم ملقون﴾ أي: أي: شيء أردتم لا أعين لكم شيئاً، وذلك لأنه جازم بغلبته، غير مبال بهم وبما جاؤوا به.

﴿فلما ألقوا﴾ حبالهم وعصيهم، إذا هي كأنها حيات تسعى، فـ ﴿قال موسى ما جئتم به السحر﴾ أي: هذا السحر الحقيقي العظيم، ولكن مع عظمته ﴿إن الله سبطله﴾، إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾ فإنهم يريدون بذلك نصر الباطل على الحق، وأي: فساد أعظم من هذا؟!!

وهكذا كل مفسد عمل عملاً، واحتال كيداً، أو أتى بمكر، فإن عمله سيظل ويضمحل، وإن حصل لعمله روجان في وقت ما، فإن ماله الاضمحلال والمحق.

وأما المصلحون الذين قصدهم بأعمالهم وجه الله تعالى، وهي أعمال ووسائل نافعة مأمور بها، فإن الله يصلح أعمالهم ويرقيها، وينبها على الدوام، فالقوى موسى عصاه، فتلف جميع ما صنعوا، فبطل سحرمهم، واضمحل باطلهم.

﴿٨٢﴾ ﴿ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون﴾ فالقوى السحرة سجدوا حين تبين لهم الحق. فتوعدهم فرعون بالصلب، وتقطع الأيدي والأرجل، فلم يبالوا بذلك وثبتوا على إيمانهم.

وأما فرعون وملؤه وأتباعهم، فلم يؤمن منهم أحد، بل استمروا في طغيانهم يعمهون.

ولهذا قال: ﴿فما آمن موسى إلا ذرية من قومه﴾ أي: شباب من بني إسرائيل صبروا على الخوف، لما ثبت في قلوبهم الإيمان.

﴿على خوف من فرعون وملانهم أن يفتنهم﴾ عن دينهم ﴿وإن فرعون لعال في الأرض﴾ أي: له الفهر والغلبة فيها، فحقيق بهم أن يخافوا من بطشه.

﴿و﴾ خصوصاً ﴿إنه﴾ كان ﴿لن المسرفين﴾ أي: المتجاوزين للحد في البغي والعدوان.

والحكمة - والله أعلم - بكونه ما آمن موسى إلا ذرية من قومه، أن الذرية والشباب أقبل للحق، وأسرع له انقياداً، بخلاف الشيوخ ونحوهم، ممن تربى على الكفر فإنهم - بسبب ما مكث في قلوبهم من العقائد الفاسدة - أبعد من الحق من غيرهم.

﴿٨٤﴾ ﴿وقال موسى﴾ موصياً لقومه بالصبر، ومذكراً لهم ما يستعينون به على ذلك فقال: ﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله﴾ فقوموا بوظيفة

المبين. ولهذا ﴿قال﴾ لهم ﴿موسى﴾ - موبخاً لهم عن ردهم الحق الذي لا يرده إلا أظلم الناس -: ﴿أنتقولون للحق لما جاءكم﴾ أي: أنتقولون إنه سحر مبين.

﴿أسحر هذا﴾ أي: فانظروا وصفه وما اشتمل عليه، فبمجرد ذلك يجزم بأنه الحق. ﴿ولا يفلح الساحرون﴾ لا في الدنيا ولا في الآخرة، فانظروا لمن تكون له العاقبة، ولن له الفلاح وعلى يديه النجاح. وقد علموا بعد ذلك وظهر لكل أحد أن موسى عليه السلام هو الذي أفلح وفاز بظفر الدنيا والآخرة.

﴿٧٨﴾ ﴿قالوا﴾ لموسى رادين لقوله بما لا يرده: ﴿أجئتنا لنفلتنا عما وجدنا عليه آباءنا﴾ أي: أجئتنا لنصلنا عما وجدنا عليه آباءنا من الشرك وعبادة غير الله، وتأمرونا بأن نعبد الله وحده لا شريك له؟ فاجعلوا قول آبائهم الضالين حجة، يردون بها الحق الذي جاءهم به موسى عليه السلام.

وقولهم<sup>(١)</sup>: ﴿وتكون لكمما الكبرياء في الأرض﴾ أي: وجئتمونا لتكونوا أنتم الرؤساء، ولتخرجونا من أرضنا. وهذا نموه منهم، وترويح على جهالهم، وتبيح لعوامهم على معادة موسى وعدم الإيمان به.

(٣) في ب: للمغالبة لموسى.

(٢) في ب: ومغالبا.

(١) في ب: وقوله.

الإيمان .

﴿فعلبه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾  
أي : اعتمدوا عليه ، والجؤوا إليه واستصروه .

﴿٨٥﴾ ﴿فقالوا﴾ ممثلين لذلك  
﴿على الله توكلنا ربنا لا نجعلنا فتنه  
للقوم الظالمين﴾ أي : لا تسلطهم علينا  
فيفتنونا ، أو يغلبونا فيفتنوننا بذلك ،  
ويقولون : لو كانوا على حق لما غلبوا .

﴿٨٦﴾ ﴿ونحنا برحمتك من القوم  
الكافرين﴾ لنسلم من شرهم ، ولنقيم  
[على] ديننا على وجه نتكمن به من إقامة  
شرائعهم ، وإظهاره من غير معارض ولا  
منازع .

﴿٨٧﴾ ﴿وأوحينا إلى موسى  
وأخيه﴾ حين اشتد الأمر على قومهما  
من فرعون وقومه ، وحرصوا على  
فتنهم عن دينهم .

﴿أن نبوأ القومكما بمصر بيوتاً﴾  
أي : مروهم أن يجعلوا لهم بيوتاً  
يتكئون [به] من الاستخفاف فيها .  
﴿واجعلوا بيوتكم قبلة﴾ أي :  
اجعلوها محلاً تصلون فيها ، حيث  
عجزتم عن إقامة الصلاة في الكنائس  
والبيع العامة .

﴿واقبموا الصلاة﴾ فإنها معونة على  
جميع الأمور ، ويشتر المؤمنون بالانصر  
والتأييد وإظهار دينهم ، فإن مع العسر  
يسراً ، إن مع العسر يسراً ، وحين اشتد  
الكرب وضاق الأمر ، فرّجه الله  
وروسعه ، فلما رأى موسى القسوة  
والإعراض من فرعون وملئه<sup>(١)</sup> ، دعا  
عليهم وأمن هارون على دعائه ، فقال :

﴿٨٨﴾ ﴿ربنا إنك أتيت فرعون  
وملأه زينة﴾ يتزينون بها من أنواع الخلي  
والثياب ، والبيوت المزخرفة ، والراكب  
الفاخرة ، والخدم ، ﴿وأموالاً﴾ عظيمة  
﴿في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن  
سبيلك﴾ أي : إن أموالهم لم يستعينوا  
بها إلا على الإضلال في سبيلك ،  
فيضلون ويضلون .

﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾ أي :

أتلغها عليهم : إما بالهلاك ، وإما  
بجعلها حجارة غير منفع بها .  
﴿واشدد على قلوبهم﴾ أي : قسها  
﴿فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب  
الاليم﴾ .

قال ذلك غضباً عليهم ، حيث  
تجرؤوا على معارم الله ، وأفسدوا  
عباد الله ، وصدوا عن سبيله ، ولكمال  
معرفة تربيته ، بأن الله سيعاقبهم على ما  
فعلوا ، بإغلاق باب الإيمان عليهم .

﴿٨٩﴾ ﴿قال﴾ الله تعالى ﴿قد  
أجيبت دعوتكما﴾ هذا دليل على أن  
موسى [كان] يدعو ، وهارون يؤمن  
على دعائه ، وأن الذي يؤمن يكون  
شريكاً للداعي في ذلك الدعاء .

﴿فاستقما﴾ على دينكما ، واستمرا  
على دعوتكما ، ﴿ولا تتبعان سبيل  
الذين لا يعلمون﴾ أي : لا تتبعان  
سبيل الجهال الضلال ، المتحرفين عن  
الصراط المستقيم ، المتبعين لطرق  
الجحيم ، فأمر الله موسى أن يسري  
ببني إسرائيل ليلاً ، وأخبره أنهم  
يُتبعون ، وأرسل فرعون في المداثر  
حاشرين يقولون : ﴿إن هؤلاء﴾ أي :  
موسى وقومه : ﴿لشرذمة قليلون﴾  
وإنهم لنا لغانظون \* وإنا لجميع  
حاذرون﴾ .

فجمع جنوده قاصيهم ودانيهم ،  
فأتبعهم بجنوده ، بغياً وعدواً ، أي :  
خروجهم باغين على موسى وقومه ،  
ومعتدين في الأرض ، وإذا اشتد البغي  
واستحكم الذنب فانظر العقوبة .

﴿٩٠﴾ ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل  
البحر﴾ وذلك أن الله أوحى إلى موسى  
لما وصل البحر ، أن يضربه بعصاه  
فضربه ، فانفلق اثني عشر طريقاً ،  
وسلكه بنو إسرائيل ، وساق فرعون  
وجنوده خلفه<sup>(٢)</sup> داخلين .

فلما استكمل موسى وقومه  
خارجين من البحر ، وفرعون وجنوده  
داخلين فيه ، أمر الله البحر فالتطم على  
فرعون وجنوده ، فأغرقهم ، وبنو



إسرائيل ينظرون .

حتى إذا أدرك فرعون الغرق ،  
وجزم بهلاكه ﴿قال﴾ أمنت أنه لا إله إلا  
الذي أمنت به بنو إسرائيل ﴿وهو الله  
الإله الحق الذي لا إله إلا هو﴾ وأنا  
من المسلمين ﴿أي : النقادين  
لدين الله ، ولما جاء به موسى .

﴿٩١﴾ قال الله تعالى - مبيناً أن  
هذا الإيمان في هذه الحالة غير نافع  
له - : ﴿الآن﴾ تؤمن ، وتقر  
برسول الله ﴿وقد عصيت قبل﴾ أي :  
بارزت بالمعاصي ، والكفر والتكذيب  
﴿وكنت من المفسدين﴾ فلا ينفعك  
الإيمان كما جرت عادة الله ، أن  
الكفار إذا وصلوا إلى هذه الحالة  
الاضطرارية أنه لا ينفعهم إيمانهم ،  
لأن إيمانهم صار إيماناً مشاهداً لإيمان  
من ورد القيامة ، والذي ينفع إنما هو  
الإيمان بالغيب .

﴿٩٢﴾ ﴿فاليوم نجيك بدنك  
لتكون لمن خلفك آية﴾ قال المنسرون :  
إن بني إسرائيل لما في قلوبهم من  
الربح العظيم من فرعون ، كأنهم لم  
يصدقوا بإغراقه ، وشكوا في ذلك ،  
فأمر الله البحر أن يلقيه على نجوة  
مرفعة بيده ، ليكون لهم عبرة وآية .

﴿وإن كثيراً من الناس عن آياتنا

(١) في النسخين : وملئهم ، ولعل الصواب ما أثبت .

(٢) في أ : وجنودهم خلفهم ، وفي ب عدلت إلى : وجنوده خلفه .



تدرکہا أفہامنا .

قال الله تعالى: ﴿وإن یونس لمن المرسلین﴾ إلى قوله: ﴿فأرسلناه إلى مئة ألف أو یزیدون﴾ فأموتوا فمتعناهم إلى حين﴾ ولعل الحکمة فی ذلك أن غیرهم من المهلکین، لوردوا لعادوا لما نہوا عنه .

وأما قوم یونس فإن الله علم أن إیمانهم سببتم، لبل قد استمر فعلاً وثبتوا علیہ<sup>(١)</sup> والله أعلم .

﴿٩٩ - ١٠٠﴾ ﴿ولوشاء ربک لأمن من فی الأرض کلهم جیعاً أفأنت تکره الناس حتی یكونوا مؤمنین﴾ وما کان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ویجعل الرجس علی الذین لا یعقلون﴾ یقول تعالیٰ لنبیہ محمد ﷺ: ﴿ولوشاء ربک لأمن من فی الأرض کلهم جیعاً﴾ بأن یلهمهم الإیمان، ویوزع قلوبهم للتقوی، فقدرته صالحة لذلك، ولكنه اقتضت حکمته أن کان بعضهم مؤمنین وبعضهم کافرین .

﴿أفأنت تکره الناس حتی یكونوا مؤمنین﴾ أي: لا تقدر علی ذلك، ولیس فی إمكانک، ولا قدرة لغير الله<sup>(٢)</sup> [علی<sup>(٣)</sup>] شیء من ذلك .

﴿وما کان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله﴾ أي: بإرادته ومشيئته وإذنه القدري الشرعی، فمن کان من الخلق قابلاً لذلك، یزکو عنده الإیمان، وفقه وهده .

﴿ویجعل الرجس﴾ أي: الشر والضلال ﴿علی الذین لا یعقلون﴾ عنی الله وأمره ونواهیہ، ولا یلقون بالاً لصلواته ومواعظه .

﴿١٠١ - ١٠٣﴾ ﴿قل انظروا ماذا فی السماوات والأرض وما تغنی الآيات والنذر عن قوم لا یؤمنون﴾ فهل ینتظرون إلا مثل آیام الذین خلوا من قبلهم قل فانظروا إني معکم من المنتظرین﴾ ثم ننحی رسلنا والذین

وأسماعهم وأبصارهم فلا یؤمنوا حتی یروا العذاب الألیم الذی وعدوا به . فحیث یعلمون حق البقین أن ما هم علیه هو الضلال، وأن ما جاءهم به الرسل هو الحق . ولكن فی وقت لا یجدي علیهم إیمانهم شیئاً، فیومئذ لا ینفع الذین ظلموا معذرتهم ولا هم ینتصرون، وأما الآيات فلإنها تنفع من له قلب، أو ألقى السمع وهو شهید .

﴿٩٨﴾ ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إیمانها إلا قوم یونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي فی الحياة الدنیا ومتعناهم إلى حين﴾ یقول تعالیٰ: ﴿فلولا كانت قرية﴾ من قرى المكذبین ﴿آمنت﴾ حين رأت العذاب ﴿فنفعها إیمانها﴾ أي: لم یکن منهم أحد انتفع بإیمانہ حين رأى العذاب، كما قال تعالیٰ عن فرعون ما تقدم قریباً، لما قال: ﴿آمنت أنه لا إله إلا الذی آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمین﴾ قلیل له ﴿الآن وقد عصیت قبل وکنت من المفسدین .

وكما قال تعالیٰ: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده، وكفرنا بما كنا به مشرکین﴾ فلم یك ینفعهم إیمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلقت فی عباده .

وقال تعالیٰ: ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعونی﴾ لعلی أعمل صالحاً فیما ترکت کلاباً .

والحکمة فی هذا ظاهرة، فإن الإیمان الاضطرابی لیس بإیمان حقیقة، ولو صرف عنه العذاب والأمر الذی اضطره إلى الإیمان، لرجع إلى الکفران .

وقوله: ﴿إلا قوم یونس لما آمنوا﴾ بعدما رأوا العذاب، ﴿كشفنا عنهم عذاب الخزي فی الحياة الدنیا ومتعناهم إلى حين﴾ فهم مستثنون من العموم السابق، ولا بد لذلك من حکمة لعالم الغیب والشهادة لم تصل إلینا، ولم

أهم دهرية منحلون عن جمیع أدیان الرسل، وإنما انتسبوا للذین السیحي ترویحاً للکهم، وقویماً لباطلهم، كما یعرف ذلك من عرف أحوالهم البینة الظاهرة .

وقوله: ﴿لقد جاءك الحق﴾ أي: الذی لا شک فیہ بوجه من الوجوه ولهذا قال: ﴿من ربک فلا تكونن من المترین﴾ کقوله تعالیٰ: ﴿کتاب أنزل إلیک فلا یکن فی صدرك حرج منه﴾ .

﴿٩٥﴾ ﴿ولا تكونن من الذین کذبوا آیات الله فتکون من الخاسرین﴾ وحاصل هذا أن الله نهي عن شیئين: الشک فی هذا القرآن والامتراء فیہ .

وأشد من ذلك التکذیب به، وهو آیات الله البینات التي لا تقبل التکذیب بوجه، ورتب علی هذا الخسار، وهو عدم الربح أصلاً، وذلك بفوات الثواب فی الدنیا والآخرة، وحصول العقاب فی الدنیا والآخرة، والنهي عن الشيء أمر بضده، فیکون أمراً بالتصديق التام بالقرآن، وطمانیة القلب إلیه، والإقبال علیہ علماً وعملاً .

فیذلك یكون العید من الرابحین الذین أدرکوا أجل المطالب، وأفضل الرغائب وأتم المناقب، وانتفى عنهم الخسار .

﴿٩٦ - ٩٧﴾ ﴿إن الذین حقت علیهم كلمة ربک لا یؤمنون﴾ ولو جاءهم کل آية حتی یروا العذاب الألیم﴾ یقول تعالیٰ: ﴿إن الذین حقت علیهم كلمة ربک﴾ أي: إنهم من الضالین الغاوین أهل النار، لا بد أن یصیروا إلى ما قدره الله وقضاه، فلا یؤمنون ولو جاءهم کل آية، فلا تزیدهم الآيات إلا طغیاناً وغیاً إلى غیهم .

وما ظلمهم الله، ولكن ظلموا أنفسهم بردهم للحق لما جاءهم أول مرة، فعاقبهم الله بأن طبع علی قلوبهم

(١) زیادة من هامش ب .

(٢) فی النسخین: غیر الله، وكان لا بد من زیادة اللام لتستقیم العبارة .

(٣) زیادة یقتضیها السابق .

للعباد، فإنه النافع الضار، المعطي المانع، الذي إذ من يضر، كفقير ومرضى، ونحوها ﴿فلا كاشف له إلا هو﴾ لأن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوا بشيء، لم ينفعوا إلا بما كتبه الله، ولو اجتمعوا على أن يضروا أحداً لم يقدرُوا على شيء من ضرره، إذا لم يردّه الله، ولهذا قال: ﴿وإن يردك بخير فلا راد لفضله﴾ أي: لا يقدر أحد من الخلق، أن يرد فضله وإحسانه، كما قال تعالى: ﴿وما يفتح الله للناس من رحمة، فلا يمسك لها، وما يمسك فلا يرسل له من بعده﴾.

﴿يصب به من يشاء من عباده﴾ أي: يختص برحمته من شاء من خلقه، والله ذو الفضل العظيم، ﴿وهو الغفور﴾ لجميع الزلات، الذي يوفق عبده لأسباب مغفرته، ثم إذا فعلها العبد، غفر الله ذنوبه كبارها وصغارها.

﴿الرحيم﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، ووصل جوده إلى جميع الموجودات، بحيث لا تستغني عن إحسانه طرفة عين، فإذا عرف العبد بالدليل القاطع أن الله هو المنفرد بالنعم، وكشف النقم، وكشف السيئات والكرابات، وأن أحداً من الخلق، ليس بيده من هذا شيء إلا ما أجراه الله على يده، جزم بأن الله هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل.

ولهذا - لما بين الدليل الواضح قال بعده -

﴿١٠٨ - ١٠٩﴾ ﴿قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل﴾ واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴿أي: قل﴾ يا أيها الرسول، لما تبين البرهان ﴿يا أيها الناس قد جاءكم الحق

محمد ﷺ سيد المرسلين، وإمام المتقين وخير الموقنين: ﴿قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني﴾ أي: في ريب واشتباه، فإنني لست في شك منه، بل لدي العلم اليقيني أنه الحق، وأن ما تدعون من دون الله باطل، ولي على ذلك الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة، ولهذا قال: ﴿فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله﴾ من الأنداد والأصنام وغيرها، لأنها لا تخلق ولا ترزق، ولا تدبر شيئاً من الأمور، وإنما هي مخلوقة مسخرة، ليس فيها ما يقتضي عبادتها.

﴿ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم﴾ أي: هو الله الذي خلقكم، وهو الذي يميتهكم ثم يمسككم ليجازيكم بأعمالكم، فهو الذي يستحق أن يعبد ويصل له ويخضع ويسجد.

﴿وأمرت أن أكون من المؤمنين﴾ وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ﴿أي: أخلص أعمالك الظاهرة والباطنة لله، وأقم جميع شرائع الدين حنيفاً، أي: مقبلاً على الله، معرضاً عما سواه، ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ لا في حالهم، ولا تكن معهم.

﴿١٠٦﴾ ﴿ولا تدع من دون الله مالا ينفك ولا يضر﴾ وهذا وصف لكل مخلوق، أنه لا ينفع ولا يضر، وإنما النافع الضار هو الله تعالى.

﴿فإن فعلت﴾ بأن<sup>(١)</sup> دعوت من دون الله مالا ينفك ولا يضر ﴿فإنك إذا من الظالمين﴾ أي: الضارين أنفسهم بإهلاكها، وهذا الظلم هو الشرك كما قال تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ فإذا كان خير الخلق، لو دعا مع الله غيره، لكان من الظالمين المشركين فكيف بغيره!!؟

﴿١٠٧﴾ ﴿وإن يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم﴾ هذا من أعظم الأدلة على أن الله وحده المستحق

آمنوا كذلك حقاً علينا نتج المؤمنين ﴿يدعو تعالى عباده إلى النظر لما في السماوات والأرض، والمراد بذلك نظر الفكر والاعتبار والتأمل، لما فيها وما تحوي عليه، والاستبصار، فإن في ذلك آيات لقوم يؤمنون، وعبراً لقوم يوقنون، تدل على أن الله وحده المعبود المحمود، ذو الجلال والإكرام، والأسماء والصفات العظام.

﴿وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ فإنهم لا يتفكرون بالآيات لإعراضهم وعنادهم.

﴿فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلم﴾ أي: فهل ينتظر هؤلاء الذين لا يؤمنون بآيات الله بعد وضوحها، إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلم﴾ أي: من الهلاك والعقاب، فإنهم صنعوا كصنيعهم، وسنة الله جارية في الأولين والآخرين.

﴿قل فانتظروا إنى معكم من المنتظرين﴾ فستعلمون لمن تكون له العقوبة الحسنة، والنجاة في الدنيا والآخرة، وليست إلا للرمسل وأتباعهم.

ولهذا قال: ﴿ثم نتجي رسلنا والذين آمنوا﴾ من مكابره الدنيا والآخرة وشدائدها.

﴿كذلك حقاً علينا﴾ أوجبناه على أنفسنا ﴿نتجي المؤمنين﴾ وهذا من دفعه عن المؤمنين فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، فإنه - بحسب ما مع العبد من الإيمان - تحصل له النجاة من المكابره.

﴿١٠٤ - ١٠٦﴾ ﴿قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين﴾ وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين ﴿ولا تدع من دون الله مالا ينفك ولا يضر﴾ فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين ﴿يقول تعالى لنبيه

**تفسير سورة هود عليه الصلاة والسلام، [وهي] مكية**

من ربيكم ﴿أي: الخبير الصادق المؤيد بالبراهين، الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه، وهو واصل إليكم من ربيكم الذي من أعظم تربيته لكم، أن أنزل إليكم هذا القرآن الذي فيه تبيان لكل شيء، وفيه من أنواع الأحكام والمطالب الإلهية والأخلاق المرضية، ما فيه أعظم تربية لكم، وإحسان منه إليكم، فقد تبيين الرشد من الغي ولم يبق لأحد شبهة.

﴿فمن اهتدى بهدي الله بأن علم الحق ونفهمه، وآثره على غيره، فلنفسه والله تعالى غني عن عباده، وإنما ثمرة أعمالهم راجعة إليهم.

﴿ومن ضل عن الهدى بأن أعرض عن العلم بالحق، أو عن العمل به، فإنما يضل عليها﴾ ولا يضر الله شيئاً، فلا يضر إلا نفسه.

﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾ فأحفظ أعمالكم وأحاسبكم عليها، وإنما أنا لكم نذير مبين، والله عليكم وكيل. فانظروا لأنفسكم ما دمتم في مدة الإمهال.

﴿واتبع أيها الرسول﴾ ما يوحى إليك ﴿علماً وعملاً وحالاً، ودعوة إليه، وصابراً﴾ على ذلك، فإن هذا أعلى أنواع الصبر، وإن عاقبته حيدة، فلا تكسل ولا تضجر، بل دم على ذلك وثابت، ﴿حتى يحكم الله بينك وبين من كذبت﴾ وهو خير الحاكمين ﴿فإن حكمه مشتمل على العدل التام والقسط الذي يمدد عليه.

وقد امتثل ﴿أمر ربه، وثبت على الصراط المستقيم، حتى أظهر الله دينه على سائر الأديان، ونصره على أعدائه بالسيف والسنان، بعدما نصره [الله] عليهم بالحجة والبرهان، فله الحمد، والشانه الحسن، كما ينبغي لجلاله وعظمته وكماله وسعة إحسانه.

تم تفسير سورة يونس والحمد لله رب العالمين

﴿١-٤﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ \* الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير \* ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير \* وأن استغفروا ربيكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير \* إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير ﴿يقول تعالى: هذا﴾ كتاب عظيم، ونزل كريم، ﴿أحكمت آياته﴾ أي: أتقنت وأحسننت، صادقة أخبارها، عادلة أوامرها ونواهيها، فصيحة أفاظه بية معانيه.

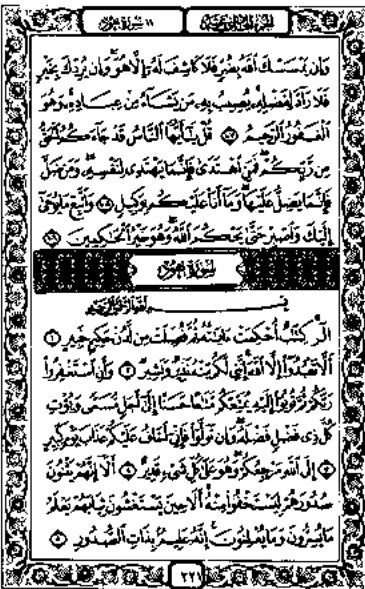
﴿ثم فصلت﴾ أي: ميزت وبينت بياناً في أعلى أنواع البيان، ﴿من لدن حكيم﴾ يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، لا يأمر ولا ينهى إلا بما تقتضيه حكمته، ﴿خبير﴾ مطلع على الظواهر والبواطن.

﴿٢﴾ ﴿فإذا كان إحكامه وتفصيله من عند الله الحكيم الخبير، فلا تسأل بعد هذا عن عظمته وجلالته واشتماله على كمال الحكمة وسعة الرحمة. وإنما أنزل الله كتابه لـ ﴿الأتعبدوا إلا الله﴾ أي: لأجل إخلاص الدين كله لله، وأن لا يشرك به أحد من خلقه.

﴿إنني لكم﴾ أيها الناس ﴿منه﴾ أي: من الله ربيكم ﴿نذير﴾ لمن تجرأ على المعاصي بعقاب الدنيا والآخرة، ﴿وبشير﴾ للمطيعين لله بثواب الدنيا والآخرة.

﴿٣﴾ ﴿وأن استغفروا ربيكم﴾ عن ما صدر منكم من الذنوب ﴿ثم توبوا إليه﴾ فيما تستقبلون من أعماركم بالرجوع إليه، بالإتابة والرجوع عما يكرهه الله إلى ما يحبه ويرضاه.

ثم ذكر ما يترتب على الاستغفار والتوبة فقال: ﴿يمتعكم متاعاً حسناً﴾ أي: يعطيكم من رزقه ما تتمتعون به



وتنتفون.

﴿إلى أجل مسمى﴾ أي: إلى وقت وفاتكم ﴿ويؤت﴾ منكم ﴿كل ذي فضل فضله﴾ أي: يعطي أهل الإحسان والبر من فضله وبره، ما هو جزاء لإحسانهم، من حصول ما يحبون، ودفع ما يكرهون.

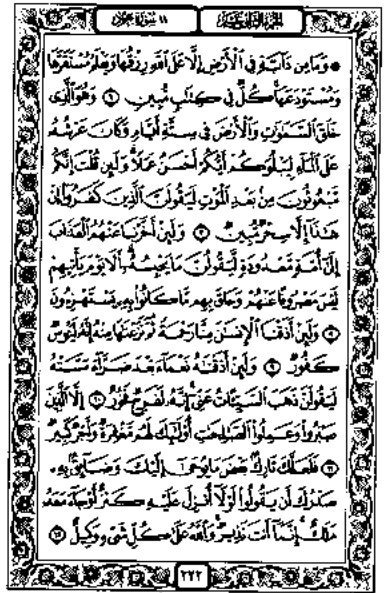
﴿وإن تولوا﴾ عن ما دعوتكم إليه، بل أعرضتم عنه، وربما كذبتم به ﴿فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾ وهو يوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، فيجازيهم بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وفي قوله: ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ كالدليل على إحياء الله الموتى، فإنه قدير على كل شيء<sup>(١)</sup>، ومن جملة الأشياء إحياء الموتى، وقد أخبر بذلك وهو أصدق القائلين، فيجب وقوع ذلك عقلاً وتقليلاً.

﴿٥﴾ ﴿ألا إنهم يشنون صدورهم ليستخفوا منه إلا حين يستغفون لثابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين، وشدة ضلالهم، أنهم ﴿يشنون صدورهم﴾ أي: يميلونها ﴿ليستخفوا﴾ من الله، ففتح صدورهم

(١) في ب: فإنه على كل شيء قدير.





حاجبة لعلم الله بأحوالهم، وبصره لهيئاتهم.

قال تعالى - مبيناً خطاهم في هذا الظن - ﴿ألا حين يستفتون نبيهم﴾ أي: يتفطنون بها، يعلمهم في تلك الحال، التي هي من أخفى الأشياء.

بل ﴿يعلم ما يسرون﴾ من الأقوال والأفعال ﴿وما يعلنون﴾ منها، بل ما هو أبلغ من ذلك، وهو: ﴿إنه عليهم بذات الصدور﴾ أي: بما فيها من الإرادات، والوساوس، والأفكار التي لم ينطقوا بها، سرا ولا جهراً، فكيف تخفى عليه حالكم، إذا نتميم صدوركم لتستخفوا منه.

ويحتمل أن المعنى في هذا أن الله يذكر إعراض المكذبين للرسول الغافلين عن دعوته، أنهم - من شدة إعراضهم - يشنون صدورهم، أي: يحدودبون حين يرون الرسول ﷺ لتلا يراهم ويسمعهم دعوته، ويعظهم بما ينفعهم، فهل فوق هذا الإعراض شيء؟! ١١٩

ثم توعدهم بعلمه تعالى بجميع أحوالهم، وأنهم لا يخفون عليه، وسيجازيهم بصنيعهم.

﴿٦﴾ ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾ أي:

جميع ما دب على وجه الأرض، من آدمي، أو حيوان بري أو بحري، فالله تعالى قد تكفل بأرزاقهم وأقواتهم، فرزقها<sup>(١)</sup> على الله.

﴿ويعلم مستقرها ومستودعها﴾ أي: يعلم مستقر هذه الدواب، وهو: المكان الذي تقيم فيه وتستقر فيه، وتأوي إليه، ومستودعها: المكان الذي تنتقل إليه في ذهابها وبجيشها، وعوارض أحوالها.

﴿كل﴾ من تفاصيل أحوالها ﴿في كتاب مبين﴾ أي: في اللوح المحفوظ المحتوي على جميع الحوادث الواقعة، والتي تقع في السماوات والأرض. الجميع قد أحاط بها علم الله، وجرى بها قلمه، ونفذت فيها مشيئته، ووسعها رزقه، فلتطمئن القلوب إلى كفاية من تكفل بأرزاقها، وأحاط علماً بذواتها، وصفاتها.

﴿٧-٨﴾ ﴿وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليلوكم أنكم أحسن عملاً ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين \* ولئن أخرجنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يجسه الأ يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم وحق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ يخبر تعالى أنه ﴿خلق السماوات والأرض في ستة أيام﴾ أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ﴿و﴾ حين خلق السماوات والأرض ﴿كان عرشه على الماء﴾ فوق السماء السابعة.

فبعد أن خلق السماوات والأرض استوى عليه، يدبر الأمور، ويصرفها كيف شاء من الأحكام القدرية، والأحكام الشرعية. ولهذا قال: ﴿ليلوكم أنكم أحسن عملاً﴾ أي: ليمتحنكم، إذ خلق لكم ما فني السماوات والأرض بأمره ونهيه، فينظر أنكم أحسن عملاً.

قال الفضيل بن عياض رحمه الله:

﴿أخلصه وأصوبه﴾. قيل يا أبا علي: ﴿ما أخلصه وأصوبه؟﴾

فقال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً، لم يقبل.

وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً.

والخالص: أن يكون لوجه الله، والصواب: أن يكون متبعاً فيه الشرع والسنة، وهذا كما قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾.

وقال تعالى: ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر بينهما، لتعلموا أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾ فالله تعالى خلق الخلق لعبادته ومعرفته بأسمائه وصفاته، وأمرهم بذلك، فمن انقاد، وأدى ما أمر به، فهو من الفلاحين، ومن أعرض عن ذلك، فأولئك هم الخاسرون، ولا بد أن يجمعهم في دار يجازيهم فيها على ما أمرهم به ونهاهم.

ولهذا ذكر الله تكذيب المشركين بالجزء، فقال: ﴿ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾.

أي: ولئن قلت لهؤلاء وأخبرتهم بالبعث بعد الموت، لم يصدقوك، بل كذبوك أشد التكذيب<sup>(٢)</sup>، وقدحوا فيما جئت به، وقالوا: ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾ ألا وهو الحق المبين.

﴿ولئن أخرجنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة﴾ أي: إلى وقت مقدر فيباطووه، لقالوا من جهلهم وظلمهم ﴿ما يجسه﴾ ومضمون هذا تكذيبهم به، فإنهم يستدلون بعدم وقوعه بهم عاجلاً على كذب الرسول المخبر بوقوع العذاب، فما أبعد هذا الاستدلال!!

﴿ألا يوم يأتيهم﴾ العذاب ﴿ليس مصروفا عنهم﴾ فيتمكنون من النظر في أمرهم.

﴿وحق بهم﴾ أي: نزل ﴿ما كانوا

(٢) كذا في ب، وفي أ: أشد الكذب.

(١) في ب: فرزقهم.

به يستهزؤون ﴿ من العذاب، حيث تهاونوا به، حتى جزموا بكذب من جاء به.﴾

﴿٩٠ - ٩١﴾ ﴿ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور ﴿ ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السبآت عني إنه لفرح فخور ﴿ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير﴾ يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان، أنه جاهل ظالم بأن الله إذا أذاقه منه رحمة كالصحة والرزق، والأولاد، ونحو ذلك، ثم نزعها منه، فإنه يستسلم لليأس، ويتقاد للفنوط، فلا يرجو ثواب الله، ولا يحظر بباله أن الله سيردها أو مثلها، أو خيراً منها عليه.

وأنه إذا أذاقه رحمة من بعد ضراء مسته، أنه يفرح ويبطر، ويظن أنه سيدوم له ذلك الخير، ويقول: ﴿ذهب السبآت عني، إنه لفرح فخور﴾ أي فرح<sup>(١)</sup> بما أوتي مما يوافق هوى نفسه، فخور بنعم الله على عباده، وذلك يحمله على الأشر والبطر والإعجاب بالنفس، والتكبر على الخلق، واحتقارهم وازدراءهم، وأي عيب أشد من هذا!!

وهذه طبيعة الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه الله وأخرجه من هذا الخلق الذميمة إلى ضده، وهم الذين صبروا أنفُسهم عند الضراء فلم ييأسوا، وعند السراء فلم يبطنوا، وعملوا الصالحات من واجبات ومستحبات.

﴿ أولئك لهم مغفرة ﴿ لذنوبهم، يزول بها عنهم كل محذور. ﴿ وأجر كبير﴾ وهو الفوز بجنت النعيم، التي فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين.

﴿١٢٠ - ١٢١﴾ ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن

دعوته، فإن كنتم صادقين، فأتوا بعشر سور مثله مفتريات.

﴿فإن لم يستجيبوا لكم﴾ على شيء من ذلكم ﴿فاعلموا أنما أنزل بعلم الله﴾ [من عند الله<sup>(٢)</sup>] لقيام الدليل والمقتضي، وانتفاء المعارض.

﴿وأن لا إله إلا هو﴾ أي: واعلموا أنه لا إله إلا هو أي: هو وحده المستحق للألوهية والعبادة، ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ أي: منقادون لألوهيته، مستسلمون لعبوديته، وفي هذه الآيات إرشاد إلى أنه لا ينبغي للداعي إلى الله أن يصدده اعتراض المعترضين، ولا قدح القادحين.

خصوصاً إذا كان القدح لا مستند له، ولا يقدح فيما دعا إليه، وأنه لا يضيق صدره، بل يطمن بذلك، ماضياً على أمره، مقبلاً على شأنه، وأنه لا يجب إجابة اقتراحات المقترحين للأدلة التي يجتازونها. بل يكفي إقامة الدليل السالم عن المعارض، على جميع المسائل والمطالب. وفيها أن هذا القرآن، معجز بنفسه، لا يقدر أحد

من البشر أن يأتي بمثله، ولا بعشر سور من مثله، بل ولا بسورة من مثله، لأن الأعداء البلغاء الفصحاء، تحداهم الله بذلك، فلم يعارضوه، لعلمهم أنهم لا قدرة فيهم على ذلك.

وفيها: أن بما يطلب فيه العلم، ولا يكفي غلبة الظن، علم القرآن، وعلم التوحيد، لقوله تعالى: ﴿فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو﴾.

﴿١٥٥ - ١٦٠﴾ ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ﴿ أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾ يقول تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها﴾ أي: كل إرادته مقصورة على الحياة الدنيا، وعلى زينتها

يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴿ فلم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون﴾ يقول تعالى - مسلماً لتبني محمد ﷺ عن تكذيب المكذبين -: ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز﴾ أي: لا ينبغي هذا لثلك، أن قولهم يؤثر فيك، ويصدق عما أنت عليه، فتترك بعض ما يوحى إليك، ويضيق صدرك لتعتهم بقولهم: ﴿لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك﴾ فإن هذا القول ناشئ من تعنت، وظلم، وعناد، وضلال، وجهل بمواقع الحجج والأدلة، فامض على أمرك، ولا تصدك هذه الأقوال الركيكة التي لا تصدر إلا من سفیه ولا يضيق لذلك صدرك.

فهل أوردوا عليك حجة لا تستطيع حلها؟ أم قدحوا ببعض ما جئت به قدحاً، يؤثر فيه وينقص قدره، فيضيق صدرك لذلك!!

أم عليك حسابهم، ومطالبهم بعبادتهم جبراً؟ ﴿إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل﴾ فهو الوكيل عليهم، يحفظ أعمالهم ويجازيهم بها أتم الجزاء.

﴿أم يقولون افتراه﴾ أي: افتري محمد هذا القرآن؟

فأجابهم بقوله: ﴿قل﴾ لهم ﴿فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ أنه قد افتراه<sup>(٣)</sup>، فإنه لا فرق بينكم وبينه في الفصاحة والبلاغة، وأنتم الأعداء حقاً، الحريصون بغاية ما يمكنكم على إبطال

(١) في ب: يفرح.

(٢) في ب: أي: أنه قد افتراه.

(٣) في ب: ﴿فاعلموا أنما أنزل بعلم الله﴾ [من عند الله] والجملة الأخيرة قد شطبت في أ.

ويدخل في هذا كل من كذب على الله، بنسبة الشريك له، أو وصفه بما لا يليق بجلاله، أو الإخبار عنه، بما لم يقل، أو ادعاء النبوة، أو غير ذلك من الكذب على الله، فهؤلاء أعظم الناس ظلماً ﴿أولئك يعرضون على ربهم﴾ ليجازيهم بظلمهم، فعندما يحكم عليهم بالعقاب الشديد يقول ﴿الشهداء﴾ أي: الذين شهدوا عليهم بافترائهم وكذبهم: ﴿هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين﴾ أي: لعنة لا تنقطع، لأن ظلمهم صار وصفاً لهم ملازماً، لا يقبل التخفيف.

ثم وصف ظلمهم فقال: ﴿الذين يصدون عن سبيل الله﴾ فصدوا بأنفسهم عن سبيل الله، وهي سبيل الرسل التي دعوا الناس إليها، وصدوا غيرهم عنها، فصاروا أئمة يدعون إلى النار.

﴿ويبغونها﴾ أي: سبيل الله ﴿عوجاً﴾ أي: يبتعدون في ميلها، وتشبيهاً، وتهجينها، لتصير عند الناس غير مستقيمة، فيحسنون الباطل ويقبحون الحق، فبجحهم الله ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾.

﴿أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض﴾ أي: ليسوا فائتين الله، لأنهم تحت قبضته وفي سلطانه.

﴿وما كان لهم من دون الله من أولياء﴾ فيدفعون عنهم المكروه، أو يحصلون لهم ما ينفعهم، بل تقطعت بهم الأسباب.

﴿يضاعف لهم العذاب﴾ أي: يغلظ ويزاد، لأنهم ضلوا بأنفسهم وأضلوا غيرهم.

﴿ما كانوا يستطيعون السمع﴾ أي: من بغضهم للحق ونفورهم عنه، ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا آيات الله سماعاً ينتفعون به ﴿فما لهم عن التذكرة معرضين﴾ كأنهم هم مستنفرة ﴿فرت من قسورة﴾ ﴿وما كانوا يبصرون﴾ أي: ينظرون نظر

أوحاه الله وشرعه، وعلم يعقله حسنه، فازداد بذلك إيماناً إلى إيمانه. ﴿و﴾ ثم شاهد ثالث وهو ﴿كتاب موسى﴾ التوراة التي جعلها الله ﴿إماماً﴾ للناس ﴿ورحمة﴾ لهم، يشهد لهذا القرآن بالصدق، ويرافقه فيما جاء به من الحق.

أي: أضمن كان بهذا الوصف قد تواردت عليه شواهد الإيمان، وقامت لديه أدلة اليقين، كمن هو في الظلمات والجهالات ليس بخارج منها؟! لا يستوون عند الله، ولا عند عباد الله، ﴿أولئك﴾ أي: الذين وفقوا لقيام الأدلة عندهم، ﴿يؤمنون﴾ بالقرآن حقيقة، فيشر لهم إيمانهم كل خير في الدنيا والآخرة.

﴿ومن يكفر به﴾ أي: القرآن ﴿من الأحزاب﴾ أي: سائر طوائف أهل الأرض، المتحزبية على رد الحق، ﴿فالنار موعده﴾ لا بد من وروده إليها ﴿فلا تك في مرية منه﴾ أي: في أدنى شك ﴿إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ إما جهلاً منهم وضلالاً، وإما ظلاماً وعناداً وبغياً، وإلا فمن كان قصده حسناً وفهمه مستقيماً، فلا بد أن يؤمن به، لأنه يرى ما يدعوه إلى الإيمان من كل وجه.

﴿١٨ - ٢٢﴾ ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً يعرضون على ربهم ويقول الشهداء هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين﴾ الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون \* أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون \* أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون \* لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون ﴿يغير تعال أنه لا أحد﴾ أظلم ممن افترى على الله كذباً

من النساء والبتين والقناطير المقنطرة، من الذهب، والفضة، والحجيل المسومة، والأعام والحرث. قد صرف رغبته وسعيه وعمله في هذه الأشياء، ولم يجعل لدار القرار من إرادته شيئاً، فهذا لا يكون إلا كافراً، لأنه لو كان مؤمناً، لكان ما معه من الإيمان يمنعه أن تكون جميع إرادته للدار الدنيا، بل نفس إيمانه وما تيسر له من الأعمال أثر من آثار إرادته الدار الآخرة.

ولكن هذا الشقي، الذي كأنه خلق للدنيا وحدها ﴿توف إليهم أعمالهم فيها﴾ أي: تعطيه ما قسم لهم في أم الكتاب من ثواب الدنيا. ﴿وهم فيها لا يبخسون﴾ أي: لا ينقصون شيئاً مما قدر لهم، ولكن هذا منتهى نعيمهم.

﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار﴾ خالدون فيها أبداً، لا يُقْتَر عنهم العذاب، وقد حرموا جزيل الثواب.

﴿وحبط ما صنعوا فيها﴾ أي: في الدنيا، أي: بطل واضمحل ما عملوه مما يكيّدون به الحق وأهله، وما عملوه من أعمال الخبير التي لا أساس لها، ولا وجود لشرطها، وهو الإيمان.

﴿١٧﴾ ﴿أضمن كان على بيته من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ يذكر تعال حال رسوله محمد ﷺ ومن قام مقامه من ورثته القاتمين بدينه، وحججه الموقنين بذلك، وأنهم لا يوصف بهم غيرهم ولا يكون أحد مثلهم، فقال: ﴿أضمن كان على بيته من ربه﴾ بالوحي الذي أنزل<sup>(١)</sup> الله فيه المسائل المهمة، ودلائلها الظاهرة، فتيقن تلك البينة.

﴿ويتلوه﴾ أي: يتلو هذه البينة والبرهان برهان آخر ﴿شاهد منه﴾ وهو شاهد الفطرة المستقيمة، والعقل الصحيح، حين شهد حقيقة ما



السلام بقوله: ﴿إنما يأتيكم به الله إن شاء﴾ أي: إن اقتضت مشيئة وحكمة أن ينزله بكم، فعل ذلك. ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ لله، وأنا ليس بيدي من الأمر شيء.

﴿ولا يفتعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم﴾ أي: إن إرادة الله غالبية، فإنه إذا أراد أن يغويكم لردكم الحق، فلو حرصت غاية مجهودي، ونصحت لكم أتم النصح - وهو قد فعل عليه السلام - فليس ذلك بنافع لكم شيئاً، ﴿هو ربكم﴾ بفعل بكم ما يشاء، ويحكم فيكم بما يريد ﴿واليه ترجعون﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

﴿أم يقولون افتراه﴾ هذا الضمير محتمل أن يعود إلى نوح كما كان السياق في قصته مع قومه، وأن المعنى أن قومه يقولون: افتري على الله كذباً، وكذب بالوحى الذي يزعم أنه من الله، وأن الله أمره أن يقول: ﴿قل إن افتريته فعلي إجرامي وأنا بريء مما تجرمون﴾ أي: كل عليه وزره ﴿ولا تنزر وأزره وزر أخرى﴾.

ويحتمل أن يكون عائداً إلى النبي محمد ﷺ، وتكون هذه الآية معترضة في أثناء قصة نوح وقومه، لأنها من الأمور التي لا يعلمها إلا الأنبياء، فلما شرع الله في قصتها على رسوله، وكانت من جملة الآيات الدالة على صدقه ورسالته، ذكر تكذيب قومه له مع البيان التام، فقال: ﴿أم يقولون افتراه﴾ أي: هذا القرآن اختلقه محمد من تلقاء نفسه، أي: فهذا من أعجب الأقوال وأبطلها، فإنهم يعلمون أنه لم يقرأ ولم يكتب، ولم يرحل عنهم لدراسة على أهل الكتب، فجاء بهذا الكتاب الذي تحدهم أن يأتوا بسورة من مثله.

فإذا زعموا - مع هذا - أنه افتراه، علم أنهم معاندون، ولم يبق فائدة في حجاجهم، بل اللائق في هذه الحال الإعراض عنهم، ولهذا قال: ﴿قل إن افتريته فعلي إجرامي﴾ أي: ذنبي

والأصلح، وتدبرون الأمور.

﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك﴾ أي: غاييتي أني رسول الله إليكم، أبشركم وأنذركم، وأما ما عدا ذلك فليس بيدي من الأمر شيء، فليست خزائن الله عندي أدبرها أنا، وأعطي من أنشاء وأحرم من أنشاء، ﴿ولا أعلم الغيب﴾ فأخبركم بسر أتركه ويواطئكم ﴿ولا أقول إني ملك﴾ والمعنى: أني لا أدعي رتبة فوق رتبتي، ولا منزلة سوى المنزلة التي أنزلني الله بها، ولا أحكم على الناس بظني.

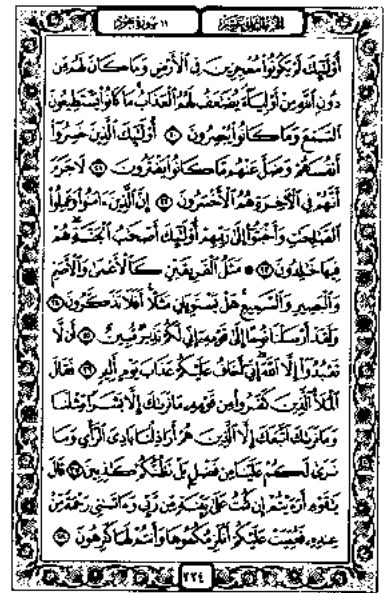
﴿ولا أقول للذين تزددني أهنيكم﴾ أي: ضعفاء المؤمنين الذين يحتقرهم الملا الذين كفروا ﴿لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم﴾ فإن كانوا صادقين في إيمانهم فلهم الخير الكثير، وإن كانوا غير ذلك فحسابهم على الله.

﴿إن إذا﴾ أي: إن قلت لكم شيئاً مما تقدم ﴿لن الظالمين﴾ وهذا تأسيس منه عليه الصلاة والسلام لقومه، أن ينبذ فقراء المؤمنين أو بمقتهم، وتفتيح لقومه بالطرق المقتة للمنصف.

فلما رآه لا ينكف عما كان عليه من دعوتهم، ولم يدركوا منه مطلوبهم ﴿قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالتنا فأتنا بما تعدنا﴾ من العذاب ﴿إن كنت من الصادقين﴾ فما أجعلهم وأضلهم، حيث قالوا هذه المقالة لنبيهم الناصح.

فهلا قالوا إن كانوا صادقين: يا نوح قد نصحتنا وأشقت علينا، ودعوتنا إلى أمر لم يبين لنا فتريد منك أن نبيته لنا لنتنقاد لك، وإلا فانت مشكور في نصحك. لكان هذا الجواب المنصف، الذي قد دعي إلى أمر خفي عليه، ولكنهم في قولهم كاذبون، وعلى نبيهم متجرؤون. ولم يردوا ما قاله بأدنى شبهة، فضلاً عن أن يردوه بحجة.

ولهذا عدلوا - من جهلهم وظلمهم - إلى الاستعجال بالعذاب، وتعجيز الله، ولهذا أجابهم نوح عليه



وافترأكم علينا صادقاً لنا عما كنا عليه. وإنما غايته أن يكون صادقاً لكم أنتم، وموجباً لعدم انقيادكم للحق، الذي تزعمون أنه باطل، فإذا وصلت الحال إلى هذه الغاية، فلا نفدر على إكراهكم على ما أمر الله، ولا إلزامكم ما نفرتم عنه، ولهذا قال: ﴿أنزلكموها وأنتم لها كارهون﴾ ويا قوم لا أسألكم عليه﴾ أي: على دعوتي إياكم ﴿مألاً﴾ فتمستثقلون الغرم.

﴿إن أجري إلا على الله﴾ وكانهم طلبوا منه طرد المؤمنين الضعفاء، فقال لهم: ﴿وما أنا بطارده الذين آمنوا﴾ أي: ما ينبغي لي ولا يليق بي ذلك، بل أتلقاهم بالرحب والإكرام، والإعزاز والإعظام ﴿إنهم ملاقوا ربهم﴾ فمبئهم على إيمانهم وتقواهم بجنات النعيم.

﴿ولكنني أراكم قوماً تجهلون﴾ حيث تأمروني بطرد أولياء الله وإبعادهم عني، وحيث رددتم الحق لأنهم أتباعه، وحيث استدلتهم على بطلان الحق بقولكم إني بشر مثلكم وإنه ليس لنا عليكم من فضل.

﴿ويا قوم من ينصروني من الله إن طردتهم﴾ أي: من يعني من عذابه، فإن طردهم موجب للعذاب والنكال الذي لا يمنعه من دون الله مانع.

﴿أفلا تذكرون﴾ ما هو الأنفع لكم



إن آمنوا زادهم قوة إلى قوتهم .

﴿ولا تولوا﴾ عنه، أي: عن ربكم  
﴿مجرمين﴾ أي: مستكبرين عن  
عبادته، متحرفين على محارمه .

ف ﴿قالوا﴾ رادين لقوله: ﴿يا هود  
ما جئتنا ببينة﴾ إن كان قصدهم بالبينة  
البينة التي يقترحونها، فهذه غير لازمة  
للحق، بل اللازم أن يأتي النبي بأية تدل  
على صحة ما جاء به، وإن كان قصدهم  
أنه لم يأتيهم ببينة تشهد لما قاله بالصحة،  
فقد كذبوا في ذلك، فإنه ما جاء نبي  
لقومه إلا ويحث الله على يديه من  
الآيات ما يؤمن على مثله البشر .

ولو لم يكن له آية، إلا دعوته بإهم  
لإخلاص الدين لله وحده لا شريك  
له، والأمر بكل عمل صالح وخلق  
جميل، والنهي عن كل خلق ذميم من  
الشرك بالله، والفواحش والظلم،  
وأشياء المنكرات، مع ما هو مشتمل  
عليه هود عليه السلام من الصفات التي  
لا تكون إلا لخير الخلق وأصدقهم،  
لكفى بها آيات وأدلة على صدقه .

بل أهل العقول وأولو الألباب،  
يرون أن هذه الآية أكبر من مجرد  
الخوارق التي يراها بعض الناس، هي  
المعجزات فقط . ومن آياته وبياناته الدالة  
على صدقه، أنه شخص واحد، ليس له  
أنصار ولا أعوان، وهو يصرخ في  
قومه ويناديهم، ويمعجزهم، ويقول  
لهم: ﴿إني نوكلت على الله ربي  
وربكم﴾ .

﴿إني أشهد الله وأشهدوا أي بريء  
عما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم  
لا تنظرون﴾ وهم الأعداء الذين لهم  
السطوة والغلبة، ويريدون إطفاء ما  
معه من النور، بأي: طريق كان وهو  
غير مكثرت منهم، ولا مبال بهم،  
وهم عاجزون لا يفقدون أن ينالوه  
بشيء من السوء، إن في ذلك لآيات  
لقوم يعقلون .

وقولهم: ﴿وما نحن بتاركي آلهتنا

فاحمد الله واشكروه، واصبر على ما  
أنت عليه من الدين القويم، والصراف  
المستقيم والدعوة إلى الله ﴿إن العاقبة  
للمتقين﴾ الذين يتقون الشرك وسائر  
المعاصي، فستكون لك العاقبة على  
قومك، كما كانت لنوح على قومه .

﴿٥٠ - ٦٠﴾ ﴿وإلى عاد أخاهم  
هوداً﴾ إلى آخر القصة<sup>(١)</sup> . أي: ﴿وإلى  
أرسلنا﴾ إلى عاد ﴿وهم القبيلة المعروفة  
في الأحقاف، من أرض اليمن،  
﴿أخاهم﴾ في النسب ﴿هوداً﴾  
ليتمكنوا من الأخذ عنه والعلم  
بصدقه .

ف ﴿قال﴾ لهم ﴿يا قوم اعبدوا الله  
مالكم من إله غيره إن أنتم لأمفترون﴾  
أي: أمرهم بعبادة الله وحده، ونهاهم  
عما هم عليه من عبادة غير الله،  
وأخبرهم أنهم قد افترضوا على الله  
الكذب في عبادتهم لغيره، وتجويزهم  
لذلك، ووضح لهم وجوب  
عبادة الله، وفساد عبادة ما سواه .

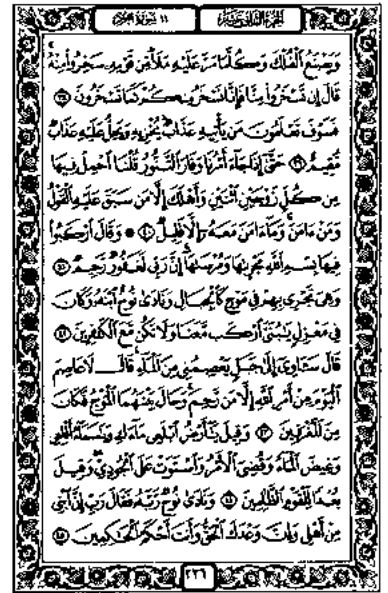
ثم ذكر عدم المانع لهم من الانقياد  
فقال: ﴿يا قوم لا أسألكم عليه أجراً﴾  
أي: غرامة من أموالكم على ما  
دعوتكم إليه، فتقولوا: هذا يريد أن  
يأخذ أموالنا، وإنما أذعوكم وأعلمكم  
مجاناً .

﴿إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا  
تعقلون﴾ ما أذعوكم إليه، وأنه موجب  
لقبوله، منتفب المانع عن رده .

﴿ويا قوم استغفروا ربكم﴾ عما  
مضى منكم ﴿ثم توبوا إليه﴾ فيسأ  
تستقبلونه بالتوبة النصوح والإنابة  
إلى الله تعالى .

فإنكم إذا فعلتم ذلك ﴿يرسل  
السماء عليكم مدرراً﴾ بكثرة الأمطار  
التي تخصب بها الأرض، ويكثر  
خيرها .

﴿ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾ فإنهم  
كانوا من أقوى الناس، ولهذا قالوا:  
﴿من أشد منا قوة؟﴾، فوعدهم أنهم



فبالغفرة والرحمة ينجو العبد من أن  
يكون من الخاسرين، ودل هذا على أن  
نوحاً عليه السلام لم يكن عنده علم بأن  
سؤاله لربه في نجاة ابنه محرم، داخل  
في قوله ﴿ولا تخاطبني في الذين  
ظلموا إنهم مفرون﴾ بل تعارض عنده  
الأمران، وظن دخوله في قوله:  
﴿وأهلك﴾ .

ويعد ذلك تبيين له أنه داخل في  
النهي عن الدعاء لهم والمراجعة فيهم .

﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا  
وبركات عليك وعلى أمم ممن معك﴾  
من الأميين وغيرهم من الأزواج التي  
حملها معه، فبارك الله في الجميع،  
حتى ملأوا أقطار الأرض ونواحيها .

﴿وأمم ستمتعهم﴾ في الدنيا ﴿ثم  
يمسهم منا عذاب اليم﴾ أي: هذا  
الإنجاء ليس بمانع لنا من أن كفر  
بعد ذلك أحللتنا به العقاب، وإن متعوا  
قليلاً، فسؤخذون بعد ذلك .

قال الله لنبيه محمد ﷺ بعدما قص  
عليه هذه القصة البسطة التي  
لا يعلمها إلا من من عليه برسالاته .

﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك  
ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل  
هذا﴾ فيقولوا: إنه كان يعلمها .

(١) في ب: ذكر الآيات كاملة إلى قوله تعالى: ﴿ألا بعداً لعاد قوم هود﴾ .

عن قولك ﴿أي: لا نترك عبادة آلهتنا لمجرد قولك الذي ما أقمتم عليه بيعة بزعمهم، ﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾ وهذا تأييس منهم لتبنيهم هود عليه السلام في إيمانهم، وأنهم لا يزالون في كفرهم يعمهون.

﴿إن نقول﴾ فيك ﴿إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾ أي: أصابتك بخيال وجنون فصرت تهذي بما لا يعقل. فسبحان من طبع على قلوب الظالمين، كيف جعلوا أصدق الخلق الذي جاء بأحق الحق، بهذه المرتبة التي يستحي العاقل من حكايتها عنهم لولا أن الله حكاهما عنهم.

ولهذا بين هود عليه الصلاة والسلام أنه واثق غاية الوثوق أنه لا يصيبه منهم، ولا من آلهتهم أدى فقال: ﴿إني أشهد الله وأشهدوا نبي بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً﴾ أي: اطلبوا لي الضرر كلكم، بكل طريق تتمكنون بها مني ﴿ثم لا نظرون﴾ أي: لا تهملوني.

﴿إني توكلت على الله﴾ أي: اعتمدت في أمري كله على الله ﴿وربي وربكم﴾ أي: هو خالق الجميع، ومدبرنا وإياكم، وهو الذي ربانا.

﴿ما من دابة إلا هو أخذ بناصيتها﴾ فلا تتحرك ولا تسكن إلا بإذنه، فلو اجتمعتم جميعاً على الإيقاع بي، والله لم يسلطكم علي، لم تقدروا على ذلك، فإن سلطكم، فلحكمة أرادها.

﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾ أي: على عدل، وقسط، وحكمة، وحمد في قضائه وقدره، في شرعه وأمره، وفي جزائه وثوابه وعقابه، لا تخرج أفعاله عن الصراط المستقيم، التي يحمد ويشئ عليه بها.

﴿فإن تولوا﴾ عما دعوتكم إليه ﴿فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم﴾ فلم يبق علي تبعه من شأنكم. ﴿ويستخلف ربي قوماً غيركم﴾

يقومون بعبادته ولا يشركون به شيئاً ﴿ولا تضرونه شيئاً﴾ فإن ضرركم إنما يعود عليكم، فאלه لا تضره معصية العاصين، ولا تنفعه طاعة المطيعين<sup>(١)</sup> ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾ [إن ربي على كل شيء حفيظ].

﴿ولما جاء أمرنا﴾ أي: عذابنا بإرسال الريح العقيم، التي ما نذر من شيء أنت عليه إلا جعلته كالريم.

﴿نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا وننجيناهم من عذاب غليظ﴾ أي: عظيم شديد، أحله الله بعباد، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم.

﴿وتلك عاد﴾ الذين أوقع الله بهم ما أوقع بظلم منهم لأنهم ﴿جحدوا بآيات ربهم﴾ ولهذا قالوا لهود: ﴿ما جئتنا ببينة﴾ فتبين بهذا أنهم متيقنون لدعوته، وإنما عاندوا وجحدوا ﴿وعصوا رسله﴾ لأن من عصى رسولاً فقد عصى جميع المرسلين، لأن دعوتهم واحدة.

﴿واتبعوا أمر كل جبار﴾ أي: متسلط على عباد الله بالجبروت، ﴿عنيد﴾ أي: معاند آيات الله، فعصوا كل ناصح ومشفق عليهم، واتبعوا كل غاش لهم يريد إهلاكهم لا جرم أهلكهم الله.

﴿وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة﴾ فكل وقت وجيل، إلا ولأبنائهم القبيحة وأخبارهم الشنيعة، ذكر يذكرون به، وذم يلحفهم ﴿ويوم القيامة﴾ لهم أيضاً لعنة ﴿إلا إن عاداً كفروا ربهم﴾ أي: جحدوا من خلفهم ورزقهم ورباهم. ﴿إلا بعداً لعاد قوم هود﴾ أي: أبعدهم الله عن كل خير وقربهم من كل شر.

﴿٦١ - ٦٨﴾ ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾ إلى آخر قصتهم<sup>(٢)</sup>، أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى ثمود﴾ وهم: عاد الثانية، العروقرن الذين يسكنون



الحجر، ووادي القرى، ﴿أخاهم﴾ في النسب ﴿صالحاً﴾ عبد الله ورسوله ﷺ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده، ف ﴿قال يا قوم اعبدوا الله﴾ أي: وحده، وأخلصوا له الدين ﴿ما لكم من إله غيره﴾ لا من أهل السماء، ولا من أهل الأرض.

﴿هو أنشأكم من الأرض﴾ أي: خلقكم فيها ﴿واستمرمكم فيها﴾ استخلفكم فيها، وأنعم عليكم بالنعيم الظاهرة والباطنة، ومكنكم في الأرض تبون وتفرسون وتزرعون، وتحثون ما شئتم، وتنتفعون بمنافعها، وتستغلون مصالحها، فكما أنه لا شريك له في جميع ذلك، فلا تشركو به في عبادته.

﴿فاستغفروه﴾ مما صدر منكم من الكفر والشرك والمعاصي، وأقلعوا عنها، ﴿ثم توبوا إليه﴾ أي: ارجعوا إليه بالتوبة النصوح والإنابة، ﴿إن ربي قريب مجيب﴾ أي: قريب عن دعاء دعاء مسألة، أو دعاء عبادة، يجيبه بإعطائه سؤله، وقبول عبادته، وإثابته عليها، أجل الثواب، واعلم أن قربه تعالى نوعان: عام، وخاص، فالقرب العام: قربه بعلمه من جميع الخلق، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿ونحن

(١) في ب: الطائين.

(٢) في ب: ذكر الآيات كاملة إلى قوله تعالى: ﴿إلا بعداً لثمود﴾.





أقرب إليه من جبل الوريد، والقرب الخاص: قربه من عابديه وسائليه ومحببه، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿واسجد واقترب﴾.

وفي هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع﴾، وهذا النوع، قرب يقتضي إطفائه تعالى، وإجابته لدعواتهم، وتحقيقه لمراداتهم، ولهذا يقرن باسمه «القريب» اسمه «النجيب».

فلما أمرهم بتبهيهم صالح عليه السلام، ورغبهم في الإخلاص لله وحده، ردوا عليه دعوته، وقابلوه أشنع المقابلة.

﴿قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا﴾ أي: قد كنا نرجوك ونؤمل فيك العقل والنفع، وهذا شهادة منهم لتبهيهم صالح أنه ما زال معروفاً بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأنه من خيار قومه.

ولكنه لما جاءهم بهذا الأمر الذي لا يوافق أهواءهم الفاسدة، قالوا هذه المقالة التي مضمونها أنك [قد] كنت كاملاً، والان أخلفت ظننا فيك، وصرت بحالة لا يرجى منك خير.

وذنبه ما قالوه عنه، وهو قولهم: ﴿أنتهاننا أن نعبد ما يعبد آباؤنا﴾

وبزعمهم أن هذا من أعظم الفدح في صالح، كيف قدح في عقولهم وعقول آبائهم الضالين، وكيف ينهاهم عن عبادة من لا ينفع ولا يضر، ولا يغني شيئاً من الأحجار والأشجار وتحوها.

وأمرهم بإخلاص الدين لله ربهم الذي لم تنزل نعمه عليهم تنزي، وإحسانه عليهم دائماً ينزل، الذي ما بهم من نعمة إلا منه، ولا يدفع عنهم السيئات إلا هو.

﴿وإننا لنفي شك مما تدعوننا إليه مريب﴾ أي: ما زلنا شاكين فيما دعوتنا إليه شكاً مؤثراً في قلوبنا الريب. وبزعمهم أنهم لو علموا صحة ما دعاهم إليه لاتبعوه، وهم كذبة في ذلك، ولهذا بين كذبهم في قوله: ﴿قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي﴾ أي: برهان يقين مني ﴿وأتاني منه رحمة﴾ أي: من علي برسائه ووحيه، أي: أفأتابعكم على ما أنتم عليه وما تدعونني إليه؟

﴿فمن ينصرن من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير﴾ أي: غير خسار وتيباب وضرر ﴿ويما قوم هذه ناقة الله لكم آية﴾ لها شرب من البشر يوماً، ثم يشربون كلهم من ضرعها، ولهم شرب يوم معلوم.

﴿فذرورها تاكل في أرض الله﴾ أي: ليس عليكم من مؤنتها وعلفها شيء، ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ أي: بمقرها ﴿فياخذكم عذاب قريب، فمقرورها فقال لهم صالح: ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾ بل لا يدمن وقوعه.

﴿فلما جاء أمرنا﴾ بوقوع العذاب ﴿نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ﴾ أي: نجيناهم من العذاب والخزي والفضيحة. ﴿إن ربك هو القوي العزيز﴾ ومن قوته وعزته أن أمهلك الأمم الطاغية، ونجى الرسل وأتباعهم، ﴿واخذ الذين ظلموا الصيحة﴾ العظيمة فقطعت

قلوبهم، ﴿فأصبحوا في ديارهم جائسين﴾ أي: خاملين لا حراك لهم.

﴿كان لم يفتنوا فيها﴾ أي: كأنهم لما جاءهم العذاب ما تمتعوا في ديارهم ولا أنسوا بها<sup>(١)</sup>، ولا تمتعوا بها يوماً من الدهر، قد فارتهم النعيم، وتناولهم العذاب السرمدي الذي لا يتقطع، الذي كأنه لم يزل.

﴿ألا إن ثمود كفروا بربهم﴾ أي: جحدوه بعد أن جاءتهم الآية المبصرة، ﴿ألا بعداً لثمود﴾ فما أشقاهم وأذلهم، نستجير بالله من عذاب الدنيا وخزيها.

﴿٦٩ - ٨٣﴾ ﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى﴾ إلى آخر القصة<sup>(٢)</sup> أي: ﴿ولقد جاءت رسلنا﴾ من الملائكة الكرام، رسلنا ﴿إبراهيم﴾ الخليل ﴿بالبشرى﴾ أي: بالبشارة بالولد، حين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، وأمرهم أن يمروا على إبراهيم، فيبشروه بإسحاق، فلما دخلوا عليه ﴿قالوا سلاماً قال سلام﴾ أي: سلموا عليه، ورد عليهم السلام.

ففي هذا مشروعية السلام، وأنه لم يزل من ملة إبراهيم عليه السلام، وأن السلام قبل الكلام، وأنه ينبغي أن يكون الرد أبلغ من الابتداء، لأن سلامهم بالجملة الفعلية الدالة على التجدد، ورده بالجملة الاسمية، الدالة على الثبوت والاستمرار، وبينهما فرق كبير كما هو معلوم في علم العربية.

﴿فما لبث﴾ إبراهيم لما دخلوا عليه ﴿أن جاء بمجمل حنينذ﴾ أي: بادر لبيته، فاستحضر لأضيافه عجللاً مشرباً على الرضف سميئاً، فقربه إليهم فقال: ألا ناكلون؟

﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه﴾ أي: إلى تلك الضيافة ﴿نكرهم وأوجس منهم خيفة﴾ وظن أنهم أتوه بشر ومكروه، وذلك قبل أن يعرف أمرهم.

(١) في ب: فيها.

(٢) في ب: أكمل الآيات إلي قوله تعالى: ﴿وما هي من الظالمين ببيد﴾.

ف قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط أي : إنا رسل الله، أرسلنا الله إلى إهلاك قوم لوط .

وامرأة إبراهيم قائمة فخدم أضيافه فضحكت حين سمعت بحالهم وما أرسلوا به، تعجبا .

فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب فتعجبت من ذلك وقالت يا ويلتي ألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا فهذان مانعان من وجود الولد إنا هذا لشيء عجب .

قالوا أتعجبين من أمر الله فإن أمره لا عجب فيه، لنفوذ مشيئته التامة في كل شيء، فلا يستغرب على قدرته شيء، وخصوصاً فيما يدبره ويضفيه لأهل هذا البيت المبارك .

رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت أي : لا تزال رحمته وإحسانه وبركاته، وهي : الزيادة من خيره وإحسانه، وحلول الخير الإلهي على العبد عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد أي : حميد الصفات، لأن صفاته صفات كمال، حميد الأفعال لأن أفعاله إحسان، وجود، وبر، وحكمة، وعدل، وقسط .

مجيد، والمجد : هو عظمة الصفات وسعتها، فله صفات الكمال، وله من كل صفة كمال أكملها وأتمها وأعمها .

فلما ذهب عن إبراهيم الروح الذي أصابه من خيفة أضيافه وجاءته البشري بالولد التفت حينئذ إلى مجادلة الرسل في إهلاك قوم لوط، وقال لهم : إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها، لتنجينه وأهله إلا امرأته .

إن إبراهيم لحليم أي : ذو خلق حسن وسعة صدر وعدم غضب عند جهل الجاهلين .

أواه أي : متضرع إلى الله في جميع الأوقات، منيب أي : رجحاً إلى الله بمعرفته ومحبه، والإقبال عليه، والإعراض عن سواه، فلذلك كان يجادل عن حتم الله هلاكهم .

فقيل له : يا إبراهيم أعرض عن

هذا الجدال فإنه قد جاء أمر ربك بهلاكهم وإنيهم أتيتهم عذاب مردود فلا فائدة في جدالك .

ولما جاءت رسلنا أي : الملائكة الذين صدروا من إبراهيم لما أتوا لوطاً سيء بهم أي : شق عليه مجيئهم، وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب أي : شديد حرج، لأنه علم أن قومه لا يتزكونهم، لأنهم في صور شباب جرد مرد، في غاية الكمال والجمال، ولهذا وقع ما خطر بباله .

ف وجاءه قومه يهرعون إليه أي : يسرعون ويبادرون، يريدون أضيافه بالفاحشة، التي كانوا يعملونها، ولهذا قال : ومن قبل كانوا يعلمون السيئات أي : الفاحشة التي ما سبقهم عليها أحد من العالمين .

قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم من أضيافني [وهذا كما عرض لسليمان عليه السلام على المرأتين أن يشق الولد المختصم فيه لاستخراج الحق ولعلمه أن بناته ممنوع منالهن ولا حق لهم فيهن والمقصود الأعظم دفع هذه الفاحشة الكبرى] فأتقوا الله ولا تحزبون في ضيقي أي : إما أن تراعوا تقوى الله، وإما أن تراعوني في ضيقي، ولا تحزبون عندهم .

أليس منكم رجل رشيد فينهاكم ويزجركم، وهذا دليل على مروجهم واتحلالهم من الخير والمروءة .

ف قالوا له : لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد أي : لا نريد إلا الرجال، ولا لنا رغبة في النساء .

فاشدد قلبك لوط عليه الصلاة والسلام، وقال لو أن لي بكم قوة أو أوي إلى ركن شديد كقبيلة مانعة لنتعتمك .

وهذا بحسب الأسباب المحسوسة، وإلا فإنه يأتوي إلى أقوى الأركان وهو الله، الذي لا يقوم لقوته أحد، ولهذا لما بلغ الأمر منتهاه واشتد الكرب .

قال ربه إنه يشاء أن يصرفنا عن قومك ونهنيهم راحة فمن تصرفنا عن قومك إن عصيت أمرنا يدي غير تغيير ونكفره حكيم فأنه الله العليم الخبير فذروها ما أسفل من أرض الله ولا تتمشا بسوء فإندك عذاب قريب فصاروا فقالوا تتشاورين ذاك لئلا تأتيك ذلك وتدعوا كذب فالتجاسة لهم فبئس ما أسلموا إليه فاستوا منهم واتبعوا زينهم فبئس أن ذلك هو القوي القوي وأخذ اليتيم ظموا الصلحة وأسوأوا بديهم جثومك لأن رسلنا وما آتوا من آياتنا كذبة وإنهم لا يؤمنون ولقد جئتكم برسالة كريم فإنتهوا سلكوا سلككم أن لا يكذبوا بينكم فأتوا أولادهم لأهل البيت فحزوا وأحزوا من بعدهم فبئس ما أتواكم من آياتنا أن لا تؤمنوا بها ولقد جئتكم بالبينات فكذبك فتنزلنا من السماء مطرًا من ماء فإنتهوا

قالوا له : إنا رسل ربك أي : أخبروه بحالهم ليطمئن قلبه، لن يصلوا إليك بسوء .

ثم قال جبريل بجناحه، فطمس أعينهم، فانطلقوا يتواعدون لوطاً بمجيء الصبح، وأمر الملائكة لوطاً أن يسري بأهله بقطع من الليل أي : بجانب منه قبل الفجر بكثير، ليتمكنوا من البعد عن قوتهم .

ولا يلتفت منكم أحد أي : بادروا بالخروج، وليكن همكم النجاة ولا تلتفتوا إلى ما وراءكم .

إلا امرأتك إنه مصيبتها من العذاب ما أصابكم لأنها تشارك قومها في الإثم، فتدلمهم على أضياف لوط إذ نزل به أضياف .

إن موعدهم الصبح فكان لوطاً استعجل ذلك، فقيل له : اليس الصبح بقريب فلما جاء أمرنا بنزول العذاب وإحلاله فيهم حملنا ديارهم عالياً ساقطها أي : قلبناها عليهم وأمطرنا عليها حجارة من سجيل أي : من حجارة النار الشديدة الحرارة منضود أي : متتابعة تتبع من شد عن القرية .

سومة عند ربك أي : معلمة، عليها علامة العذاب والغضب، وما هي من الظالمين الذين يشابهون لفعل



وهذا القول الذي أخرجه بصيغة التهكم، وأن الأمر بعكسه، ليس كما ظنوه، بل الأمر كما قالوه. إن صلاته تأمره أن يهاهم عما كان يعبد آباؤهم الضالون، وأن يفعلوا في أموالهم ما يشاقون، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأي: فحشاء ومنكر أكبر من عبادة غير الله، ومن منع حقوق عباد الله، أو سرقها بالمكاييل والموازين، وهو عليه الصلاة والسلام الحليم الرشيد.

﴿قال﴾ لهم شعيب: ﴿يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي﴾ أي: يقين وطمأنينة في صحة ما جئت به، ﴿ورزقني منه رزقاً حسناً﴾ أي: أعطاني الله من أصناف المال ما أعطاني.

﴿و﴾ أنا لا أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴿فلمست أريد أن أنهاكم عن البخس في المكيال والميزان، وأفعله أنا، وحتى تنطق إليّ التهمة في ذلك. بل ما أنهاكم عن أمر إلا وأنا أول مبتدئ لتركة.

﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت﴾ أي: ليس لي من المقاصد إلا أن تصلح أحوالكم وتستقيم منافعكم، وليس لي من المقاصد الخاصة لي وحدي شيء بحسب استطاعتي.

ولما كان هذا فيه نوع تزكية للنفس، دفع هذا بقوله: ﴿وما توفيني إلا بالله﴾ أي: وما يحصل لي من التوفيق لفعل الخير والانفكاك عن الشر إلا بالله تعالى، لا بحولي ولا بقوتي.

﴿عليه توكلت﴾ أي: اعتمدت في أموري ووثقت في كفايته، ﴿وإليه أنيب﴾ في أداء ما أمرني به من أنواع العبادات، وفي [هذا] التقرب إليه بسائر أفعال الخيرات.

وهذين الأمرين تستقيم أحوال العبد، وهما الاستعانة بربه والإنابة إليه، كما قال تعالى: ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ وقال: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾.

أشياءهم ﴿أي: لا تنقصوا من أشياء الناس، فتسرقوها بأخذها بنقص المكيال والميزان.

﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ فإن الاستمرار على المعاصي، يفسد الأديان، والمقائد، والدين، والدنيا، ويهلك الحرث والنسل.

﴿بقيت الله خير لكم﴾ أي: يكفيكم ما أبقي الله لكم من الخير، وما هو لكم، فلا تظمعوها في أمر لكم عنه غنية، وهو ضار لكم جداً.

﴿إن كنتم مؤمنين﴾ فاعملوا بمقتضى الإيمان، ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ أي: لست بحافظ لأعمالكم ووكيل عليها، وإنما الذي يحفظها الله تعالى، وأما فأبلغكم ما أرسلت به.

﴿قالوا يا شعيب أصلحك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا﴾ أي: قالوا ذلك على وجه التهكم بنبيهم، والاستبعاد لإجابتهم له.

ومعنى كلامهم: أنه لا موجب لنهيك لنا، إلا أنك تصلي لله وتتعبد له، أفإن كنت كذلك، أفوجب لنا أن نترك ما يعبد آباؤنا، لقول ليس عليه دليل إلا أنه موافق لك، فكيف نتبعك ونترك آباءنا الأقدمين أولى العقول والألباب!؟

وكذلك لا يوجب قولك لنا: ﴿أن نفضل في أموالنا﴾ ما قلت لنا من وفاء الكيل والميزان، وأداء الحقوق الواجبة فيها، بل لا نزال نفعل فيها ما شئنا لأنها أموالنا، فليس لك فيها تصرف.

ولهذا قالوا: في تهكمهم: ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾ أي: أنت الذي الحلم والوقار لك خلق، والرشد لك سجية، فلا يصدر عنك إلا رشد، ولا تأمر إلا برشد، ولا تنهى إلا عن غي، أي: ليس الأمر كذلك.

وقصدهم أنه مرصوف بعكس هذين الوصفين: بالسفه والغواية. أي: أن المعنى: كيف تكون أنت الحليم الرشيد، وآباؤنا هم السفهاء الغاؤون!؟

قوم لوط ﴿ببعيد﴾ فليحذر العباد أن يفعلوا كفعالهم لئلا يصيبهم ما أصابهم.

﴿٨٤ - ٩٥﴾ ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾ إلى آخر القصة<sup>(١)</sup> أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى مدين﴾ القبيلة المعروفة الذين يسكنون مدين، في أدنى فلسطين ﴿أخاهم﴾ في النسب ﴿شعيباً﴾ لأنهم يعرفونه، وليتمكنوا من الأخذ عنه.

فـ ﴿قال﴾ لهم: ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ أي: اخلصوا له العبادة، فإهم كانوا يشركون به، وكانوا - مع شركهم - يبخسون المكيال والميزان، ولهذا نهاهم عن ذلك فقال: ﴿ولا تنقصوا المكيال والميزان﴾ بل أوفوا الكيل والميزان بالقسط.

﴿إني أراكم بخير﴾ أي: بتعمة كثيرة وصحة، وكثرة أموال وبنين، فاشكروا الله على ما أعطاكم، ولا تكفروا نعمة الله فيزيلها عنكم.

﴿وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾ أي: عذاباً يحيط بكم، ولا يبقى منكم باقية.

﴿ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط﴾ أي: بالعدل الذي ترضون أن تعطوه، ﴿ولا تبخسوا الناس

(١) في ب: أكمل الآيات إلى قوله تعالى: ﴿ألا بعداً لمدن كما بعدت ثمود﴾.

«ويا قوم لا يجيرتكم شقاقي» أي : لا تحملتكم مخالفتي ومشاقتي «أن يصيبكم» من العقوبات «مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم بعيد» لا في الدار ولا في الزمان .  
 «واستغفروا ربكم» عما اقترفتُم من الذنوب «ثم توبوا إليه» فيما يستقبل من أعمالكم بالتوبة النصوح، والإتابة إليه بطاعته، وترك مخالفت .  
 «إن ربي رحيم ودود» لمن تاب وأناب، يرحمه فيغفر له، ويتقبل توبته ويحبه، ومعنى الودود من أسمائه تعالى، أنه يحب عباده المؤمنين ويحبونه، فهو «فعل» بمعنى «فاعل» وبمعنى «مفعول» .

أنا أم أنتم، وقد علموا ذلك حين وقع عليهم العذاب .  
 «وارتقبوا» ما يجلب «إني معكم رقيب» ما يجلب بكم .  
 «ولما جاء أمرنا» بإهلاك قوم شعيب «نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين» لا تسمع لهم صوتاً، ولا ترى منهم حركة «كان لم يغنوا فيها» أي : كأنهم ما أقاموا في ديارهم، ولا تنعموا فيها حين أتاهم العذاب .  
 «الآن بعداً لدين» إذ أهلكها الله وأخزاهما «كما بددت ثمود» أي : قد اشتركت هاتان القبيلتان في السحق والبعد والهلاك .

فَلَمَّا جَاءَ أُمَّرًا جَعَلْنَا عَلَيْهِمْ آسَافًا وَأَسْفَلَ عَلَيْهِمْ  
 جَكَرًا رَبِّينَ بِرَجِيلٍ مَّعْزُورٍ ﴿١٠٠﴾ ثَمُودَ عِنْدَ نَبَاتِ حَمَا  
 وَرَبِّكَ الظَّالِمِينَ كَيِّدٍ ﴿١٠١﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا  
 قُسْبِيًّا قَالُوا يَا نَقُورُ اعْبُدِي وَآلَهُ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ عِزٌّ  
 وَلَا تَنْصُرُوا الْحَكِيمَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَئِنْ آتَيْنَاهُم مَّاءً  
 قَالُوا لَمَاءٌ مَّشْحُونٌ عَلَّاهُم مَّاءٌ مَّحِيطٌ ﴿١٠٢﴾ وَتَذَكَّرَ  
 أَنْوَارًا الْحَكِيمَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَئِنْ آتَيْنَاهُم مَّاءً  
 أَشْهَبَهُمْ وَلَا تَذَكَّرُوا فِي الْأَرْضِ مُضَيِّبِينَ ﴿١٠٣﴾ بَقِيَّتُ  
 آفَهُمْ خَيْرٌ لِّأَكْثَرِهِمْ كَسَبُوا ذُنُوبَهُمْ وَإِنَّمَا آتَانَا عِلْمَهُمْ  
 بِحَقِّ طَرَفٍ ﴿١٠٤﴾ قَالُوا لَنَنْصُرُنَّكَ اللَّهُ لَنَدْرُوكَ إِن لَّمْ  
 تَنْصُرْنَا بِمَا كُنَّا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا يَا قَوْمِ  
 لَدَيْكُمْ آيَاتُ الْكُرْآنِ ﴿١٠٦﴾ قَالُوا يَا قَوْمِ إِنَّا بَشَرٌ  
 مِّثْلُكُمْ وَمَا آتَاكُمْ مِنْ آيَاتِنَا إِلَّا لِمَنْ نَشَاءُ  
 إِنَّمَا نَحْنُ عَاكِفُونَ فِي الْمَلَائِكَةِ وَالْإِنْسِ  
 مَا تَسْتَفْتُونَ وَمَا نُرِيدُ بِاللَّهِ عِبَادَةً وَلَا نُشْرِكُ  
 بِهِ شَيْئًا سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٠٧﴾

التكالب على الأسباب المحرمة من المحق، وضد البركة .

ومنها : أن ذلك من لوازم الإيمان وآثاره، فإنه رتب العمل به على وجود الإيمان، فدل على أنه إذا لم يوجد العمل للإيمان ناقص أو معلوم .

ومنها : أن الصلاة لم تنزل مشروعة للأنبياء المتقدمين، وأنها من أفضل الأعمال، حتى إنه متقرر عند الكفار فضلها، وتقديمها على سائر الأعمال، وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي ميزان للإيمان وشرائعه، فبإقامتها تكمل أحوال العبد، وبعدم إقامتها تختل أحواله الدينية .

ومنها : أن المال الذي يرزقه الله للإنسان - وإن كان الله قد خوله إياه - فليس له أن يصنع فيه ما يشاء، فإنه أمانة عنده، عليه أن يقيم حق الله فيه بأداء ما فيه من الحقوق، والامتناع من المكاسب التي حرمها الله ورسوله، لا كما يزعمه الكفار ومن أشبههم، أن أموالهم لهم أن يصنعوا فيها ما يشاؤون ويحتارون، سواء وافق حكم الله أو خالفه .

ومنها : أن من تكلمة دعوة الداعي وتمامها أن يكون أول مبادر لما يأمر غيره به، وأول منته عما ينهى غيره عنه، كما قال شعيب عليه السلام : «وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه» ولقوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا ليم

وشعيب عليه السلام كان يسمى خطيب الأنبياء، لحسن مراجعته لقومه، وفي قصته من الفوائد والعبير شيء كثير .

منها : أن الكفار كما يعاقبون ويخاطبون بأصل الإسلام، فكذلك بشرائعه وفروعه، لأن شعيباً دعا قومه إلى التوحيد، وإلى إيفاء المكيات والميزان، وجعل الوعيد مرتباً على مجموع ذلك .

ومنها : أن نقص المكاييل والموازين من كبائر الذنوب، وتحشى العقوبة العاجلة على من تعاطى ذلك، وأن ذلك من سرقة أموال الناس، وإذا كان سرقتهم في المكاييل والموازين موجبة للوعيد، فسرتهم - على وجه القهر والغلبة - من باب أولى وأحرى .

ومنها : أن الجزء من جنس العمل، فمن يخس أموال الناس يريد زيادة ماله، عوقب بنقيض ذلك، وكان سبباً لزوال الخير الذي عنده من الرزق لقوله : «إني أراكم بخير» أي : فلا تسيروا إلى زواله بفعلكم .

ومنها : أن على العبد أن يقنع بما آتاه الله ويقنع بالخالل عن الحرام وبالمكاسب المباحة عن المكاسب المحرمة، وأن ذلك خير له لقوله : «يقبى الله خير لكم» ففي ذلك من البركة وزيادة الرزق ما ليس في

«قالوا يا شعيب ما تفقه كثيراً مما تقول» أي : تضجروا من نصائحه ومواعظه لهم، فقالوا : «ما نفقه كثيراً مما تقول» وذلك لبغضهم لما يقول، ونفرتهم عنه .

«وإنا لنراك فينا ضعيفاً» أي : في نفسك لست من الكبار والرؤساء بل من المستضعفين، «ولولا رهطك» أي : جماعتك وقبيلتك «لرجفناك وما أنت علينا بعزيز» أي : ليس لك قدر في صدورنا، ولا احترام في أنفسنا، وإنما احترمنا قبيلتك بتركنا إياك .

ف «قال» لهم مترقفاً لهم : «يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله» أي : كيف ترأعوني لأجل رهطي، ولا ترأعوني لله، فصار رهطي أعز عليكم من الله .

«واتخذتموه وراءكم ظهرياً» أي : نبذتم أمر الله وراء ظهوركم، ولم تبالوا به ولا خفتم منه .

«إن ربي بما تعملون محيط» لا يخفى عليه من أعمالكم مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فسيجازيكم على ما عملتم أتم الجزاء .

«و» لما أعيوه وعجز عنهم قال : «يا قوم اصملوا على مكاتكم» أي : على حالتكم ودينكم .

«إني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه» ويجلب عليه عذاب مقيم



بينه، ظهرت ظهور الشمس، ﴿إلى فرعون وملته﴾ أي: أشرف قومه لأنهم المتبوعون وغيرهم تبع لهم، فلم يتفادوا لما مع موسى من الآيات التي أراهم إياها كما تقدم بسطها في سورة الأعراف، ولكنهم ﴿فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد﴾ بل هو ضال غاي، لا يأمر إلا بما هو ضرر محض، لا جرم - لما اتبعه قومه - أرداهم وأهلكهم.

﴿يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبس الورد المورود﴾ \* وأتبعوا في هذه ﴿أي: في الدنيا﴾ لعنة ويوم القيامة ﴿أي: يلعنهم الله وملانكته والناس أجمعون في الدنيا والآخرة.

﴿بس الرقد المرفود﴾ أي: بس ما اجتمع لهم، وترادف عليهم من عذاب الله، ولعنة الدنيا والآخرة.

ولما ذكر قصص هؤلاء الأمم مع رسلهم، قال الله تعالى لرسوله: ﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك﴾ لتنتز به، ويكون آية على رسالتك، وموعظة وذكرى للمؤمنين.

﴿منها قائم﴾ لم يتلف، بل بقي من آثار ديارهم ما يدل عليهم، ﴿و﴾ منها ﴿حصيد﴾ قد تهدمت مساكنهم، واضمحلت منازلهم، فلم يبق لها أثر، ﴿وما ظلمناهم﴾ بأخذهم بأنواع العقوبات، ﴿ولكن ظلموا أنفسهم﴾ بالشرك والكفر والعتاد.

﴿فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك﴾ وهكذا كل من التجأ إلى غير الله، لم ينفعه ذلك عند نزول الشدائد.

﴿وما زادهم غير تنبيي﴾ أي: خسار ودمار، بالفسد مما خطر بآلهم. ﴿١٠٢﴾ \* وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴿أي: يقصمهم بالعذاب ويبيدهم، ولا ينفعهم ما كانوا يدعون من دون الله من شيء.

﴿إن في ذلك للذكر من أخذه

كما أنه ينفي ذكر ما أكرم الله به أهل التقوى عند الترغيب والحث على التقوى.

ومنها: أن الثابت من الذنب كما يسمح له عن ذنبه، ويعفى عنه فإن الله تعالى يحب ويوده، ولا عبرة بقول من يقول: ﴿إن الثابت إذا تاب، فحسبه أن يغفر له، ويعود عليه العفو، وأما عود الورد والحب فإنه لا يعود.﴾ فإن الله قال: ﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود﴾.

ومنها: أن الله يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة، قد يعلمون بعضها وقد لا يعلمون شيئاً منها، وربما دفع عنهم بسبب قبيلتهم، أو أهل وطنهم الكفار، كما دفع الله عن شعيب رجم قومه بسبب رهطه، وأن هذه الروابط التي يحصل بها الدفع عن الإسلام والمسلمين، لا بأس بالسعي فيها، بل ربما تعين ذلك، لأن الإصلاح مطلوب على حسب القدرة والإمكان.

فعل هذا لو ساعد المسلمون الذين تحت ولاية الكفار، وعملوا على جعل الولاية جمهورية يتمكن فيها الأفراد والشعوب من حقوقهم الدينية والدنيوية، لكان أولى من استسلامهم لدولة تقضي على حقوقهم الدينية والدنيوية، وتحرص على إبادتها، وجعلهم عتلة وخذماً لهم.

نعم إن أمكن أن تكون الدولة للمسلمين وهم الحكام، فهو المتعين، ولكن لعدم إمكان هذه المرتبة، فالمرتبة التي فيها دفع ووقاية للدين والدنيا مقدمة، والله أعلم.

﴿٩٦ - ١٠١﴾ \* وقوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين﴾ إلى آخر القصة<sup>(١)</sup>. يقول تعالى: ﴿ولقد أرسلنا موسى﴾ بن عمران ﴿بآياتنا﴾ الدالة على صدق ما جاء به، كالعصا واليد ونحوهما من الآيات التي أجراها الله على يدي موسى عليه السلام.

﴿وسلطان مبين﴾ أي: حجة ظاهرة

تقولون ما لا تفعلون \* كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون \*.

ومنها: أن وظيفة الرسل وستهم وملتهم، إرادة الإصلاح بحسب القدرة والإمكان، فيأتون بتحصيل المصالح وتكميلها، أو بتحصيل ما يقدر عليه منها، ويدفع المفسد وتقليلها، ويراعون المصالح العامة على المصالح الخاصة.

وحقيقة المصلحة هي التي تصلح بها أحوال العباد، وتستقيم بها أمورهم الدينية والدنيوية.

ومنها: أن من قام بما يقدر عليه من الإصلاح، لم يكن ملوماً ولا مذموماً في عدم فعله ما لا يقدر عليه، فعلى العبد أن يقيم من الإصلاح في نفسه وفي غيره ما يقدر عليه.

ومنها: أن العبد ينبغي له أن لا يتكل على نفسه طرفه عين، بل لا يزال مستعيناً بربه متوكلاً عليه، سائلاً له التوفيق، وإذا حصل له شيء من التوفيق، فلينسبه لوليه ومسلبيه، ولا يعجب بنفسه لقوله: ﴿وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾.

ومنها: التهيب بأخذات الأمم وما جرى عليهم، وأنه ينبغي أن تذكر القصص التي فيها إيقاع العقوبات بالمجرمين في سياق الوعظ والزجر.

للمظالمين بأنواع العقوبات، ﴿لآية لمن خاف عذاب الآخرة﴾ أي: لعبرة ودليلاً على أن أهل الظلم والإجرام لهم العقوبة الدنيوية، والعقوبة الأخروية، ثم انتقل من هذا إلى وصف الآخرة، فقال: ﴿ذلك يوم مجموع له الناس﴾ أي: جمعوا لأجل ذلك اليوم للمجازاة، ويظهر لهم من عظمة الله وسلطانه وعدله العظيم ما به يعرفونه حق المعرفة.

﴿وذلك يوم مشهود﴾ أي: يشهده الله وملائكته وجميع المخلوقين، ﴿وما تؤخره﴾ أي: إتيان يوم القيامة ﴿إلا لأجل معدود﴾ إذا انقضى أجل الدنيا وما قدر الله فيها من الخلق، فحيثما ينقلهم إلى الدار الآخرة، ويجري عليهم أحكامه الجزائية، كما أجرى عليهم في الدنيا أحكامه الشرعية.

﴿يوم يأت﴾ ذلك اليوم، ويجتمع الخلق ﴿لا تكلم نفس إلا بإذنه﴾ حتى الأبياء والملائكة الكرام، لا يشفعون إلا بإذنه، ﴿فمنهم﴾ أي: الخلق ﴿شقي وسعيد﴾ فالأشقياء هم الذين كفروا بالله وكذبوا رسله وعصوا أمره، والسعداء هم: المؤمنون الثقون.

وأما جزأهم ﴿فأما الذين شقوا﴾ أي: حصلت لهم الشقاوة والحزني والفضيحة، ﴿ففي النار﴾ منغمسون في عذابها، مستند عليهم عقابها، ﴿لهم فيها﴾ من شدة ما هم فيه ﴿زفير وشهيق﴾ وهو أشنع الأصوات وأقبحها.

﴿خالدين فيها﴾ أي: في النار التي هذا عذابها ﴿ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك﴾ أي: خالدين فيها أبداً إلا المدة التي شاء الله أن لا يكونوا فيها، وذلك قبل دخولها، كما قاله جمهور المفسرين، فالاستثناء على هذا راجع إلى ما قبل دخولها، فهم خالدون فيها جميع الأزمان، سوى الزمن الذي قبل الدخول فيها.

﴿إن ربك فعال لما يريد﴾ فكل ما أراد فعله واقتضته حكمته فعله تبارك وتعالى، لا يرده أحد عن مراده.

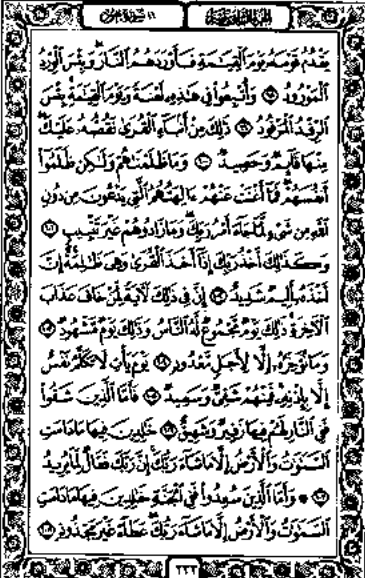
﴿وأما الذين سعدوا﴾ أي: حصلت لهم السعادة، والفلاح والفوز، ﴿ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك﴾ ثم أكد ذلك بقوله: ﴿عطاء غير مجدود﴾ أي: ما أعطاهم الله من التميم المقيم واللذة العالية، فإنه دائم مستمر، غير منقطع بوقت من الأوقات، نسأل الله الكريم من فضله.

﴿١٠٩﴾ ﴿فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل وإننا لموفوهم نصيبهم غير منقوص﴾ يقول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء المشركون، أي: لا تشك في حالهم، وأن ما هم عليه باطل، فليس لهم عليه دليل شرعي ولا عقلي، وإنما دليلهم وشبهتهم أنهم ﴿ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل﴾.

ومن المعلوم أن هذا ليس بشبهة، فضلاً عن أن يكون دليلاً، لأن أقوال ما عدا الأنبياء يحتج لها لا يحتج بها، خصوصاً أمثال هؤلاء الضالين الذين كثر خطاهم وفساد أقوالهم في أصول الدين، فإن أقوالهم وإن اتفقوا عليها، فإنها خطأ وضلال.

﴿وإننا لموفوهم نصيبهم غير منقوص﴾ أي: لا بد أن ينالهم نصيبهم من الدنيا، مما كتب لهم وإن كثر ذلك النصيب، أوراق في عينك، فإنه لا يدل على صلاح حالهم، فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والدين الصحيح إلا من يحب. والحاصل أنه لا يغتر باتفاق الضالين على قول الضالين من آباؤهم الأقدمين، ولا على ما خولهم الله وآتاهم من الدنيا.

﴿١١٠ - ١١٣﴾ ﴿ولقد أتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وإنهم لفي



شك منه مريب \* وإن كلا لما لوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير \* فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير \* ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تتصرون \* يخبر تعالى أنه أتى موسى الكتاب الذي هو الشورى، الموجب للاتفاق على أوامره ونواهيه، والاجتماع، ولكن مع هذا فإن المنتسبين إليه اختلفوا فيه اختلافاً أضر بعقائدهم وبيامعتهم الدينية.

﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ بتأخيرهم وعدم معاجلتهم بالعذاب ﴿لقضي بينهم﴾ بإحلال العقوبة بالظالم، ولكنه تعالى اقتضت حكمته أن أخر القضاء بينهم إلى يوم القيامة، وبقوا في شك منه مريب.

وإذا كانت هذه حالهم مع كتابهم فمع القرآن الذي أوحاه الله إليك غير مستغرب من طائفة اليهود، أن لا يؤمنوا به، وأن يكونوا في شك منه مريب.

﴿وإن كلا لما لوفينهم ربك أعمالهم﴾ أي: لا بد أن الله يقضي بينهم <sup>(١)</sup> يوم القيامة بحكمه العدل فيجازي كلا بما يستحقه.

(١) في ب: لا بد أن يقضي الله بينهم.



﴿إنه بما يعملون﴾ من خير وشر ﴿خبير﴾ فلا يخفى عليه شيء من أعمالهم دقيقها وجليلها.

ثم لما أخبر بعدم استقامتهم التي أوجبت اختلافهم وافتراقهم، أمر نبيه محمداً ﷺ ومن معه من المؤمنين أن يستقيموا كما أمروا، فيسلكوا ما شرعه الله من الشرائع، ويعتقدوا ما أخبر الله به من العقائد الصحيحة، ولا يزيغوا عن ذلك يمينة ولا يسرة، ويدوموا على ذلك، ولا يطغوا بأن يتجاوزوا ما حده الله لهم من الاستقامة.

وقوله: ﴿إنه بما تعملون بصير﴾ أي: لا يخفى عليه من أعمالكم شيء، وسيحازيكم عليها، ففيه ترغيب لسلك الاستقامة وترهيب من ضدها، ولهذا حذرهم عن الميل إلى من تعدى الاستقامة فقال: ﴿ولا تتركوا﴾ أي: لا تميلوا ﴿إلى الذين ظلموا﴾ فإنكم إذا ملتهم وإفتموهم على ظلمهم، أو رضيتهم ما هم عليه من الظلم ﴿فتمسك النار﴾ إن فعلتم ذلك ﴿وما لكم من دون الله من أولياء﴾ يمنعونكم من عذاب الله، ولا يحصلون لكم شيئاً من ثواب الله.

﴿ثم لا تنصرون﴾ أي: لا يدفع عنكم العذاب إذا مسكم، ففي هذه الآية التحذير من الركون إلى كل ظالم، والمراد بالركون الميل والاتصام إليه بظلمه وموافقته على ذلك، والرضا بما هو عليه من الظلم.

وإذا كان هذا الوعيد في الركون إلى الظلمة، فكيف حال الظلمة بأنفسهم؟! نسأل الله العافية من الظلم.

﴿١١٤ - ١١٥﴾ ﴿واقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين﴾ واصرر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴿يا أمرتكم الصلاة﴾ أي: الصلاة كاملة ﴿طرفي النهار﴾ أوله وآخره، ويدخل في هذا صلاة الفجر، وصلات الظهر والعصر، ﴿وزلفاً من الليل﴾ ويدخل في ذلك صلاة المغرب والعشاء، ويتناول ذلك قيام الليل، فإنها مما تزلف العبد وتقربه إلى الله تعالى.

﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ أي: فهذه الصلوات الخمس، وما أحق بها من التطوعات من أكبر الحسنات، وهي: مع أنها حسنات تقرب إلى الله وتوجب الثواب، فإنها تذهب السيئات وتمحوها، والمراد بذلك الصغائر، كما قيدتها الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ مثل قوله: ﴿الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر﴾، بل كما قيدتها الآية التي في سورة النساء، وهي قوله تعالى: ﴿إن تجنبتوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً﴾.

ذلك لعل الإشارة لكل ما تقدم من لزوم الاستقامة على الصراط المستقيم وعدم مجاوزته وتعديه، وعدم الركون إلى الذين ظلموا، والأمر بإقامة

الصلاة، وبيان أن الحسنات يذهبن السيئات، الجميع ﴿ذكرى للذاكرين﴾ يفهمون بها ما أمرهم الله به ونهاهم، ويمثلون لتلك الأوامر الحسنة المثمرة للخيرات، الدافعة للشور والسيئات، ولكن تلك الأمور تحتاج إلى مجاهدة النفس والصبر عليها، ولهذا قال:

﴿واصبر﴾ أي: احبس نفسك على طاعة الله، وعن معصيته، وإلزامها لذلك، واستمر ولا تنجزر.

﴿فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ بل يتقبل الله عنهم أحسن الذي عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون، وفي هذا ترغيب عظيم للزوم الصبر، بتشويق النفس الضعيفة إلى ثواب الله كلما ونت وفترت.

﴿١١٦﴾ ﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين﴾ لما ذكر تعالى إهلاك الأمم المكذبة للرسول، وأن أكثرهم منحرفون، حتى أهل الكتب الإلهية وذلك كله يقضي على الأديان بالذهاب والاضمحلال، ذكر أنه لولا أنه جعل في القرون الماضية بقايا من أهل الخير يدعون إلى الهدى، وينهون عن الفساد والردى، فحصل من نفعهم ما بقيت به الأديان، ولكنهم قليلون جداً.

وغاية الأمر أنهم نجوا باتباعهم المرسلين، وقيامهم بما قاموا به من دينهم، ويكون حجة الله أجراها على أيديهم، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة<sup>(١)</sup>.

﴿و﴾ لكن ﴿اتباع الذين ظلموا ما أترفوا فيه﴾ أي: اتبعوا ما هم فيه من النعيم والترف، ولم يغيروا به بدلاً.

﴿وكانوا مجرمين﴾ أي: ظالمين باتباعهم ما أترفوا فيه، فلذلك حق عليهم العقاب، واستأصلهم العذاب. وفي هذا حث لهذه الأمة أن يكون

(١) جاء في هامش ما نصه: (والمعروف في تفسيرها غير هذا المعنى الذي ذكر هنا، وهو أن هذا بمعنى النبي، أي: إنه لم يكن في القرون السالفة أو لو بقية... الخ، إلا قليلاً ممن أنجينا منهم) أي: لكن بقي قليل بهذه الصفة، وهو قريب من المعنى الذي ذكرنا لكن ما ذكرنا في الأصل... ثم لم يضح باقي الكلام لإصابته بالليل، وهو يسير.

فيهم بقايا مصلحون لما أفسد الناس، قائلون بدين الله، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويصبرونهم من العمى.

وهذه الحالة أعلى حالة يرغب فيها الراغبون، وصاحبها يكون إماماً في الدين، إذا جعل عمله خالصاً لرب العالمين.

﴿١١٧﴾ ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾ أي: وما كان الله ليهلك أهل القرى بظلم منه لهم، والحال أنهم مصلحون، أي: مقيمون على الصلاح، مستمرون عليه، فما كان الله ليهلكهم إلا إذا ظلموا وقامت عليهم حجة الله.

ويحتمل أن المعنى: وما كان ربك ليهلك القرى بظلمهم السابق، إذا رجعوا وأصلحوا عملهم، فإن الله يعفو عنهم، ويمحو ما تقدم من ظلمهم.

﴿١١٨-١١٩﴾ ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين﴾ إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴿يخبر تعالى أنه لو شاء جعل الناس كلهم أمة واحدة على الدين الإسلامي، فإن مشيئته غير قاصرة، ولا يعنت عليه شيء، ولكنه اقتضت حكمته أن لا يزالون مختلفين مخالفين للضراط المستقيم، متبعين للسبيل الموصلة إلى النار، كل يرى الحق فيما قاله، والضلال في قول غيره.

﴿إلا من رحم ربك﴾ فهداهم إلى العلم بالحق والعمل به والاتفاق عليه، فهو لاء سبقت لهم سابقة السعادة، وتداركتهم العناية الربانية والتوفيق الإلهي.

وأما من عداهم فهم غذولون موكولون إلى أنفسهم.

وقوله: ﴿ولذلك خلقهم﴾ أي: اقتضت حكمته أنه خلقهم، ليكون منهم السعداء والأشقياء، والمتفقون والمختلفون، والفريق الذين هدى الله،

والفريق الذين حفت عليهم الضلالة، ليتبين للعباد عدله وحكمته، وليظهر ما كمن في الطباع البشرية من الخير والشر، وليقوم سوق الجهاد والعبادات التي لا تتم ولا تستقيم إلا بالامتحان والابتلاء.

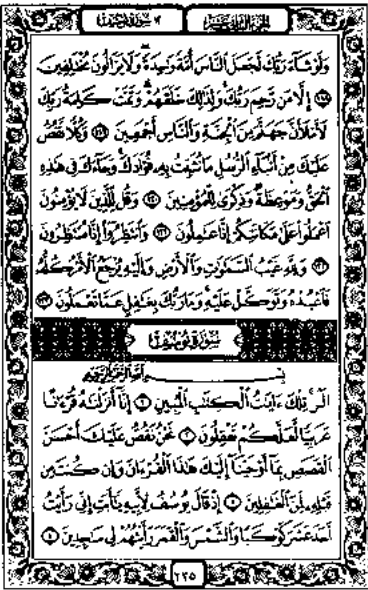
﴿١٢٠﴾ لأنه ﴿تمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ فلا بد أن يسر للنار أهلاً، يعملون بأعمالها الموصلة إليها.

﴿١٢٠-١٢٣﴾ ﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾ وقيل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون ﴿وانظروا إنا منتظرون﴾ \* والله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴿لما ذكر في هذه السورة من أخبار الأنبياء ما ذكر، ذكر الحكمة في ذكر ذلك، فقال: ﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾ أي: قلبك ليطمئن ويثبت، ويصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، فإن النفوس تأنس بالافتداء، وتنشط على الأعمال، وتريد المنافسة لغيرها، ويتأيد الحق بذكر شواهد، وكثرة من قام به.

﴿وجاءك في هذه﴾ السورة ﴿الحق﴾ اليقين، فلا شك فيه بوجه من الوجوه، فالعلم بذلك من العلم بالحق الذي هو أكبر فضائل النفوس.

﴿وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾ أي: يتعظون به، فيرتدعون عن الأمور المكروهة، ويتذكرون الأمور المحبوبة لله فيعملونها.

وأما من ليس من أهل الإيمان فلا تنفعهم المواعظ وأنواع التذكير، ولهذا قال: ﴿وقل للذين لا يؤمنون﴾ بعدما قامت عليهم الآيات، ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ أي: حالتكم التي أنتم



عليها ﴿إنا عاملون﴾ على ما كنا عليه ﴿وانظروا﴾ ما يحل بنا ﴿إنا منتظرون﴾ ما يحل بكم.

وقد فصل الله بين الفريقين، وأرى عباده نصره لعباده المؤمنين، وقمعه لأعداء الله المكذبين.

﴿والله غيب السماوات والأرض﴾ أي: ما غاب فيهما من الخفايا، والأمور الغيبية.

﴿والله يرجع الأمر كله﴾ من الأعمال والعمال، فيميز الخبيث من الطيب ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ أي: قم بعبادته، وهي جميع ما أمر الله به مما تقدر عليه، وتوكل على الله في ذلك.

﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ من الخير والشر، بل قد أحاط علمه بذلك، وجرى به قلمه، وسيجري عليه حكمه وجزاؤه.

تم تفسير سورة هود والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وسلم [وكان الفراغ من نسخه في يوم السبت في ٢١ من شهر ربيع الآخر ١٣٤٧هـ]

المجدد الربيع من تيسير التكرير الرحمن في تفسير كلام العرب الصنمان لجامعه الفخري السيد عبد الرحمن بن ناصر السعدي غفر الله له ولوالديه واجمع المسلمين أمين



لأبيه ﴿ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام ﴾: ﴿ يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ﴾ فكانت هذه الرؤيا مقدمة لما وصل إليه يوسف عليه السلام من الارتفاع في الدنيا والآخرة.

وهكذا إذا أراد الله أمراً من الأمور العظام قدم بين يديه مقدمة، توظفه له، وتسهلها لأمره، واستعداداً لما يرد على العبد من المشاق، لطفاً بعبد، وإحساناً إليه، فأولها يعقوب بأن الشمس: أمه، والقمر: أبوه، والكواكب: إخوته، وأنه ستتقلب به الأحوال إلى أن يصير إلى حال ينجحون له، ويسجدون له إكراماً وإعظاماً، وأن ذلك لا يكون إلا بأسباب تتقدمه من اجتناب الله له، واصطفائه له، وإتمام نعمته عليه بالعمل والتعمير في الأرض.

وأن هذه النعمة ستشمل آل يعقوب، الذين سجدوا له وصاروا تبعاً له فيها، ولهذا قال:

﴿ وكذلك يحسبك ربك ﴾ أي: يصطفيك ويختارك بما يمنُّ به عليك من الأوصاف الجليلة والمناقب الجميلة، ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ أي: من تعبير الرؤيا، وبيان ما تؤول إليه الأحاديث الصادقة، كالكتب السماوية ونحوها، ﴿ ويتم نعمته عليك ﴾ في الدنيا والآخرة، بأن يؤتيك في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، ﴿ كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ﴾ حيث أنعم الله عليهما، بنعم عظيمة واسعة، دينية، ودينية.

﴿ إن ربك عليم حكيم ﴾ أي: علمه محيط بالأشياء، وبما أحتوت عليه ضمائر العباد من البر وغيره، فيعطي كل ما تقتضيه حكمته وحده، فإنه حكيم يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها.

ولما بان تعبيرها ليوسف، قال له أبوه:

﴿ يا بني لا نقصص رؤياك على

عبارتها ورواق معانيها، ﴿ بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ أي: بما اشتمل عليه هذا القرآن الذي أوحيناه إليك، وفضلناك به على سائر الأنبياء، وذلك محض من الله وإحسان.

﴿ وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ أي: ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان قبل أن يوحى الله إليك، ولكن جعلناه نوراً تهدي به من نشاء من عبادنا.

ولما مدح ما اشتمل عليه هذا القرآن من القصص، وأنها أحسن القصص على الإطلاق، فلا يوجد من القصص في شيء من الكتب مثل هذا القرآن، ذكر قصة يوسف، وأبيه وإخوته، القصة العجيبة الحسنة، فقال:

﴿ ٤ - ٦ ﴾ ﴿ إذ قال يوسف لأبيه

يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين \* قال يا بني لا نقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين \* وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم \* وأعلم أن الله ذكر أنه يقص على رسوله أحسن القصص في هذا الكتاب، ثم ذكر هذه القصة وبسطها، وذكر ما جرى فيها، فعلم بذلك أنها قصة تامة كاملة حسنة، فمن أراد أن يكملها أو يحسنها بما يذكر في الإسرائيليات التي لا يعرف لها سند ولا ناقل وأغلبها كذب، فهو مستدرِك على الله، ومكمل لشيء يزعم أنه ناقص، وحسبك بأمر ينتهي إلى هذا الحد قبحاً، فإن تضعيف هذه السورة قد ملئت في كثير من التفسير، من الأكاذيب والأمور الشنيعة المناقضة لما قصه الله تعالى بشيء كثير.

فعل العبد أن يفهم عن الله ما قصه، ويدع ما سوى ذلك مما ليس عن النبي ﷺ، ينقل.

ف قوله تعالى: ﴿ إذ قال يوسف



### تفسير سورة يوسف بن يعقوب عليهما الصلاة والسلام وهي مكية

﴿ ١ - ٣ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم الر تلك آيات الكتاب المبين \* إن أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون \* نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴿ يجبر تعالى أن آيات القرآن هي ﴿ آيات الكتاب المبين ﴾ أي: البين الواضحة الفاظه ومعانيه، ومن بيانه ويضاحه:

أنه أنزله باللسان العربي، أشرف الألسنة، وأبينها، المبين لكل ما يحتاجه الناس من الحقائق النافعة<sup>(١)</sup> وكل هذا الإيضاح والتبيين ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أي: لتعقلوا حدوده وأصوله وفروعه، وأوامره ونواهيه.

فيذا عقلتم ذلك بإيقانكم، واتصفت قلوبكم بمعرفتها، أثمر ذلك عمل الجوارح والانتقياد إليه، و ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أي: تزداد عقولكم بتكرر المعاني الشريفة العالية، على أذهانكم، فتنتقلون من حال إلى أحوال أعلى منها وأكمل.

﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ وذلك لصدقها وسلاسة

(١) زيادة من هامش: ب.

إخوتك فيكيدوا لك كيداً﴾ أي : حسداً من عند أنفسهم، أن تكون أنت الرئيس الشريف عليهم.

﴿١٠﴾ قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين﴾ أي : **قال قائل** من إخوة يوسف الذين أرادوا قتله أو تبيعيده: **لا تقتلوا يوسف** فإن قتله أعظم إثماً وأشنع، والمقصود يحصل بتبيعيده عن أبيه من غير قتل، ولكن توصلوا إلى تبيعيده بأن تلقوه **في غيابة الجب** وتتوعدوه على أنه لا يجير بشأنكم، بل على أنه عبد مملوك أبق منكم، لأجل أن يلتقطه بعض السيارة الذين يريدون مكاناً بعيداً، فيحفظون فيه.

﴿٧-٩﴾ لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين \* إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين \* اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين \* يقول تعالى: ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات﴾ أي: عبرة وأدلة على كثير من المطالب الحسنة، **للسائلين** أي: لكل من سأل عنها بلسان الحال أو بلسان المقال، فإن السائلين هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر، وأما المعرضون فلا ينتفعون بالآيات، ولا في القصص والبيئات.

وهذا القائل أحسنهم رأياً في يوسف، وأبرهم وأتقاهم في هذه القضية، فإن بعض الشر أهون من بعض، والضرر الخفيف يدفع به الضرر الثقيل، فلما اتفقوا على هذا الرأي.

﴿١١-١٤﴾ قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون \* أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون \* قال إني ليجزني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون \* قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون﴾ أي: قال إخوة يوسف، متوصلين إلى مقصدهم لأبيهم: **يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون** أي: لأي شيء يدخلك الخوف منا على يوسف، من غير سب ولا موجب؟ **﴿و﴾ الحال** إنا له لناصحون أي: مشفقون عليه، نود له ما نود لأنفسنا، وهذا يدل على أن يعقوب عليه السلام لا يترك يوسف يذهب مع إخوته للبرية ونحوها.

﴿١٥-١٨﴾ فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا إليه لتبينهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون \* وجاءوا آباءهم عشاء يكبون \* قالوا يا أبانا إنا ذهنا نستيق وتركتنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين \* وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ أي: لما ذهب إخوة يوسف بيوسف بعد ما أذن له أبوه، وعزموا على أن يجعلوه في غيابة الجب، كما قال قائلهم السابق ذكره، وكانوا قادرين على ما أجمعوا عليه، فنفذوا فيه قدرتهم، والقوه في

﴿١٥﴾ فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا إليه لتبينهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون \* وجاءوا آباءهم عشاء يكبون \* قالوا يا أبانا إنا ذهنا نستيق وتركتنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين \* وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ أي: لما ذهب إخوة يوسف بيوسف بعد ما أذن له أبوه، وعزموا على أن يجعلوه في غيابة الجب، كما قال قائلهم السابق ذكره، وكانوا قادرين على ما أجمعوا عليه، فنفذوا فيه قدرتهم، والقوه في

فقدما العزم على التوبة قبل صدور الذنب منهم تسهلاً لفعله، وإزالة لشاعته، وتنشيطاً من بعضهم لبعض.



تذهبوا به﴾ أي: مجرد ذهابكم به يجزني ويشق علي، لأنني لا أقدر على فراقه، ولو مدة يسيرة، فهذا مانع من إرساله **﴿و﴾ مانع ثان**، وهو أن **﴿أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون﴾** أي: في حال غفلتكم عنه، لأنه صغير لا ينتع من الذئب.

**﴿قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة﴾** أي: جماعة، حريصون على حفظه، **﴿إنا إذا لخاسرون﴾** أي: لا خير فينا ولا نفع يرجى منا إن أكله الذئب وغلبنا عليه.

فلما مهدوا لأبيهم الأسباب الداعية لإرساله، وعدم الموانع، سمع حيثئذ بإرساله معهم لأجل أنه.

﴿١٥-١٨﴾ فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا إليه لتبينهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون \* وجاءوا آباءهم عشاء يكبون \* قالوا يا أبانا إنا ذهنا نستيق وتركتنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين \* وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ أي: لما ذهب إخوة يوسف بيوسف بعد ما أذن له أبوه، وعزموا على أن يجعلوه في غيابة الجب، كما قال قائلهم السابق ذكره، وكانوا قادرين على ما أجمعوا عليه، فنفذوا فيه قدرتهم، والقوه في



الجب، ثم إن الله لطف به بأن أوحى إليه وهو في تلك الحال الخرجة، **﴿لننبئنههم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾** أي: سيكون منك معاناة لهم، وإخبار عن أمرهم هذا، وهم لا يشعرون بذلك الأمر، ففيه بشارة له، بأنه سينجو مما وقع فيه، وأن الله سيجمعه بأهله وإخوته على وجه العز والتكبير له في الأرض.

**﴿وجاؤوا أباهم عشاءً يبكون﴾** ليكون إتيانهم متأخراً عن عادتهم، زيكاً لهم دليلاً لهم، وقريئة على صدقهم، فقالوا - متعذرين <sup>(١)</sup> - **﴿يُعذّر كاذب - يا أبانا إنا ذهبنا نستيق إما على الأقدام، أو بالرمي والنضال، وتركتنا يوسف عند متاعنا، توفيراً له وراحة، فأكله الذئب﴾** في حال غيبتنا عنه في استباقنا، **﴿وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾** أي: تعذرنا بهذا العذر، والظاهر أنك لا تصدقنا لما في قلبك من الحزن على يوسف، والرقة الشديدة عليه.

ولكن عدم تصديقك إيانا، لا ينعنا أن نتعذر بالعذر الحقيقي، وكل هذا تأكيد لعذرهم، **﴿و﴾** مما أكدوا به قولهم، أنهم **﴿جاؤوا على قميصه بدم كذب﴾** زعموا أنه دم يوسف حين أكله الذئب، فلم يصدقهم

أبوهم بذلك، و **﴿قال﴾**: **﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً﴾** أي: زينت لكم أنفسكم أمراً قبيحاً في التفرقة بيني وبينه، لأنه رأى من القرائن والأحوال **﴿ومن رؤيا يوسف التي قصها عليه﴾** <sup>(٢)</sup> ما دله على ما قال.

**﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾** أي: أما أنا فوظيفتي سأحرص على القيام بها، وهي أن أصبر على هذه المحنة صبراً جليلاً، سالماً من السخط والشكوى إلى الخلق، وأستعين الله على ذلك، لا على حولي وقوتي، فوعد من نفسه هذا الأمر وشكى إلى خالقه في قوله: **﴿إنما أشكو بشيٍ وحزني إلى الله﴾** لأن الشكوى إلى الخالق لا تنافي الصبر الجميل، لأن النبي إذا وعد وفي.

**﴿١٩ - ٢٠﴾** **﴿وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فتأدب لدوه قال يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون﴾** وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين **﴿أي: مكث يوسف في الجب ما مكث، حتى جاءت سيارة﴾** أي: قافلة تريد مصر، **﴿فأرسلوا واردهم﴾** أي: فرطهم ومقدمهم، الذي يعس لهم المياه، ويسبرها ويستعد لهم بتهيئة الحياض ونحو ذلك، **﴿فتأدب﴾** ذلك النوارد **﴿لدوه﴾** فتعلق فيه يوسف عليه السلام وخرج، **﴿قال يا بشرى هذا غلام﴾** أي: استبشر وقال: هذا غلام نفيس، **﴿وأسروه بضاعة﴾** وكان إخوته قريباً منه، فاشتره السيارة منهم، **﴿بشمن بخس﴾** أي: قليل جداً، فسره بقوله: **﴿دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين﴾**.

لأنه لم يكن لهم قصد إلا تغييبه وإبعاده عن أبيه، ولم يكن لهم قصد في أخذ ثمنه، والمعنى في هذا: أن السيارة لما وجدوه، عزموا أن يسبزو أمره، ويجعلوه من جملة بضائعهم التي معهم، حتى جاءهم إخوته فزعموا أنه عبد أبين

منهم، فاشتروه منهم بذلك الثمن، واستوتقوا منهم فيه لثلاثا يرب، والله أعلم.

**﴿٢١﴾** **﴿وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولذا وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولتعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾** أي: لما ذهب به السيارة إلى مصر وباعوه بها، فاشتره عزيز مصر، فلما اشتراه، أعجب به، ووصى عليه امرأته وقال: **﴿أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولذا﴾** أي: إما ينفعنا كمنع العبيد بأنواع الخدم، وإما أن نستمتع فيه استمتاعنا بأولادنا، ولعل ذلك أنه لم يكن لهما ولد، **﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض﴾** أي: كما يسرنا أن يشتريه عزيز مصر، ويكرمه هذا الإكرام، جعلنا هذا مقدمة لتعنيته في الأرض من هذا الطريق.

**﴿ولتعلمه من تأويل الأحاديث﴾** إذا بقي لا شغل له ولا هم له سوى العلم صار ذلك من أسباب تعلمه علماً كثيراً، من علم الأحكام، وعلم التعبير، وغير ذلك، **﴿والله غالب على أمره﴾** أي: أمره تعالى نافذ، لا يبطله مبطل، ولا يغلبه مغالب، **﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾** فلذلك يجري منهم ويصدر ما يصدر، في مغالبة أحكام الله القدريّة، وهم أعجز وأضعف من ذلك.

**﴿٢٢﴾** **﴿ولما بلغ أشده آتيته حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين﴾** أي: **﴿لما بلغ﴾** يوسف **﴿أشده﴾** أي: كمال قوته العنوية والحسية، وصلاح لأن يتحمل الأحوال الثقيلة، من النبوة والرسالة، **﴿آتيته حكماً وعلماً﴾** أي: جعلناه نبياً رسولاً، وعالماً ربانياً، **﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾** في عبادة الخالق ببذل الجهد والنصح فيها، وللى عباد الله يبذل النفع والإحسان إليهم، نؤتيهم من جملة الجزاء على إحسانهم

(١) في ب: عدلت إلى (متعذرين). (٢) زيادة من هامش: ب.

علماً نافعاً .

ودل هذا، على أن يوسف وثق مقام الإحسان، فأعطاه الله الحكم بين الناس، والعلم الكثير والتبوة .

﴿٢٣ - ٢٩﴾ \* «ورأوته النبي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون \* ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين \* واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألقيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم \* قال هي وراودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين \* وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين \* فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم \* يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين \* هذه المحنة العظيمة أعظم على يوسف من محنة إخوته، وصبره عليها أعظم أجراً، لأنه صبر اختياراً مع وجود الدواعي الكثيرة، لوقوع الفعل، فقدم محبة الله عليها، وأما محنته بإخوته، فصبره صبر اضطرار، بمنزلة الأمراض والمكاره التي تصيب العبد بغير اختياره وليس له ملجأ إلا الصبر عليها، طائعاً أو كارهاً، وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام بقي مكرماً في بيت العزيز، وكان له من الجمال والكمال والبهاء ما أوجب ذلك، أن «راودته التي هو في بيتها عن نفسه» أي: هو غلامها، وتحت تدبيرها، والمسكن واحد، يتسر إيقاع الأمر المكروه من غير إشعار أحد، ولا إحساس بشر .

﴿و﴾ زادت المصيبة، بأن «غلقت الأبواب» وصار المحل خالياً، وهما أمتان من دخول أحد عليهما، بسبب تخليق الأبواب، وقد دعت إلى نفسها «وقالت: هيت لك» أي: افعل الأمر المكروه وأقبل إلي، ومع هذا، فهو

غريب، لا يحتشم مثله ما يحتشمه إذا كان في وطنه وبين معارفه، وهو أسير تحت يدها، وهي سيده، وفيها من الجمال ما يدعو إلى ما هنالك، وهو شاب عذب، وقد توعدته، إن لم يفعل ما تأمره به بالسجن، أو العذاب الأليم .

فصبر عن معصية الله، مع وجود الداعي القوي فيه، لأنه قد همَّ فيها بما تركه الله، وقدم مراد الله على مراد النفس الأمارة بالسوء، ورأى من برهان ربه - وهو ما معه من العلم والإيمان، الموجب لشرك كل ما حرم الله - ما أوجب له السعد والانتكاف، عن هذه المعصية الكبيرة، و «قال: معاذ الله» أي: أعوذ بالله أن أفعل هذا الفعل القبيح، لأنه مما يسخط الله ويبعد منه، ولأنه خيانة في حق سيدي الذي أكرم مثواي .

فلا يليق بي أن أقبله في أهله بأقبح مقابلة، وهذا من أعظم الظلم، والظالم لا يفلح، والحاصل أنه جعل الموانع له من هذا الفعل تقوى الله، ومراعاة حق سيده الذي أكرمه، وصيانة نفسه عن الظلم الذي لا يفلح من تعاطاه، وكذلك ما من الله عليه من برهان الإيمان الذي في قلبه، يقتضي منه امتثال الأوامر، واجتناب الزواجر، والجامع لذلك كله أن الله صرف عنه السوء والفحشاء، لأنه من عباده المخلصين له في عباداتهم، الذين أخلصهم الله واختارهم، واختصهم لنفسه، وأسدى عليهم من النعم، وصرف عنهم من المكاره ما كانوا به من خيار خلقه .

ولما امتنع من إجابة طلبها بعد المراودة الشديدة، ذهب ليهرب عنها ويبادر إلى الخروج من الباب ليتخلص، ويهرب من الفتنة، فبادرته إليه، وتعلقت بثوبه، فشقت قميصه، فلما وصلا إلى الباب في تلك الحال، ألقيا سيدها، أي: زوجها لدى الباب، فرأى أمراً شق عليه، فبادرت إلى الكذب، أن المراودة قد كانت من يوسف، وقالت: «ما جزاء من أراد

بأهلك سوءاً» ولم تقل «من فعل بأهلك سوءاً» تبرة لها وتبرة له أيضاً من الفعل .

وإتما النزاع عند الإراودة والمراودة، «إلا أن يسجن أو عذاب أليم» أي: أو يعذب عذاباً أليماً .

فبرأ نفسه مما رمته به، وقال: «هي راودتني عن نفسي» فحيثما احتملت الحال صدق كل واحد منهما ولم يعلم أيهما .

ولكن الله تعالى جعل للسحق والصدق علامات وأمارات تدل عليه، قد يعلمها العباد وقد لا يعلمونها، فمضى الله في هذه القضية بمعرفة الصادق منهما، تبرة لنبية وصفيه يوسف عليه السلام، فانبعث شاهد من أهل بيتها، يشهد بقرينة من وجدت معه، فهو الصادق، فقال: «إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين» لأن ذلك يدل على أنه هو المقبل عليها، المراد لها المعالج، وأنها أرادت أن تدفعه عنها، فشقت قميصه من هذا الجانب .

«وإن كان قميصه قد من دبر، فكذبت وهو من الصادقين» لأن ذلك يدل على هروبه منها، وأنها هي التي طلبته فشقت قميصه من هذا الجانب، «فلما رأى قميصه قد من دبر» عرف بذلك صدق يوسف وبراءته، وأنها هي الكاذبة .

فقال لها سيدها: «إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم» وهل أعظم من هذا الكيد، الذي برأت به نفسها مما أرادت وفعلت، ورمت به نبي الله يوسف عليه السلام، ثم إن سيدها لما تحقق الأمر، قال ليوسف: «يوسف أعرض عن هذا» أي: اترك الكلام فيه وتناسه ولا تذكره لأحد، طلباً للستر على أهله، «واستغفري» أي: أيتها المرأة «لذنبك إنك كنت من الخاطئين» فأمر يوسف بالإعراض، وهي بالاستغفار والتوبة .

﴿٣٠ - ٣٥﴾ «وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا لנראה في ضلال

﴿فاستجاب له ربه﴾ حين دعاه ﴿فصرف عنه كيدهن﴾ قلم تزل تراوده وتستعين عليه بما تقدر عليه من الوسائل، حتى أُنسها، وصرف الله عنه كيدها، ﴿إنه هو السميع﴾ لدعاء الداعي ﴿العليم﴾ بينته الصالحة، وبَيَّنَّته الضعيفة القنضية لإمداده بمعمونه ولطفه، فهذا ما نجى الله به يوسف من هذه الفتنة الملمة والمحنة الشديدة، وأما أسياده فإنه لما اشتهر الخبر ويان، وصار الناس فيها بين عاذر ولائم وقادح.

﴿بدا لهم﴾ أي: ظهر لهم ﴿من بعد ما رأوا الآيات﴾ الدالة على براءته، ﴿ليسجنه حتى حين﴾ أي: لينقطع بذلك الخبر ويتناساه الناس، فإن الشيء إذا شاع لم يزل يذكر ويشاع مع وجود أسبابه، فإذا عدمت أسبابه نُسي، فرأوا أن هذا مصلحة لهم، فأدخلوه في السجن.

﴿٣٦ - ٤٠﴾ ﴿ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراي أعصر خراً وقال الآخر إني أراي أهل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبتنا بتأويله إنا نراك من المحسنين﴾ قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربِّي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ﴿ واتبعتم ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴿ يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴿ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿ أي: ﴿و﴾ لما دخل يوسف السجن، كان في جملة من ﴿دخل معه السجن فتيان﴾ أي: شابان، فرأى كل واحد منهما رؤيا، فقصها على يوسف ليبرها، ف ﴿قال أحدهما: إني أراي أعصر خراً، وقال الآخر: إني أراي أهل فوق رأسي خبزاً﴾ وذلك الخبر ﴿تأكل الطير منه

﴿وقالت﴾ ليوسف: ﴿اخرج عليهن﴾ في حالة جماله وبهائه.

﴿فلما رأته أكبرنه﴾ أي: أعظمه في صدورهن، ورأين منظراً فائقاً لم يشاهدن مثله، ﴿وقطعن﴾ من الدهش ﴿أيديهن﴾ بتلك السكاكين اللاتي معهن، ﴿وقلن﴾ حاش لله ﴿أي: تنزيهاً لله﴾ ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم، ﴿وذلك أن يوسف أعطني من الجمال الفائق والنور والبهاء، ما كان به آية للناظرين، وعبرة للمتأملين.

فلما تقرر عندهن جمال يوسف الظاهر، وأعجبهن غاية، وظهر منهن من العذر لامرأة العزيز، شيء كثير - أرادت أن تزيين جماله الباطن بالعفة التامة فقالت معلنة لذلك ومبيته لحيه الشديد غير مبالية، ولأن اللوم انقطع عنها من النسوة: ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾ أي: امتنع وهي مقيمة على مراودته، لم تردها مرود الأوقات إلا قلقاً ومحبة وشوقاً لوصاله وتوقاً.

ولهذا قالت له بحضرتها: ﴿ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين﴾ لتلجئه بهذا الوعيد إلى حصول مقصودها منه، فعند ذلك اعتصم يوسف بربه، واستعان به على كيدهن و ﴿قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه﴾ وهذا يدل على أن النسوة، جعلن يشرن على يوسف في مطاوعة سيدهن، وجعلن يكدرته في ذلك.

فاستحب السجن والعذاب الديني على لذة حاضرة توجب العذاب الشديد، ﴿وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن﴾ أي: أمل إليهن، فإني ضعيف عاجز، إن لم تدفع عني سوء، ﴿وأكن﴾ إن صبوت إليهن ﴿من الجاهلين﴾ فإن هذا جهل، لأنه أثر لذة قليلة منغصة، على لذات متتابعات وشهوات متنوعة في جنات النعيم، ومن أثر هذا على هذا، فمن أجهل منه!! فإن العلم والعقل يدعو إلى تقديم أعظم المصلحتين وأعظم اللذتين، ويؤثر ما كان عمود العقاب.

مبين ﴿ فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعدت لهن متكناً وأتت كل واحدة منهن سكيناً وقالت اخرج عليهن فلما رأته أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ﴿ قالت فذلكم الذي لمثني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ﴿ فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ﴾ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين﴾ يعني: أن الخبر اشتهر وشاع في البلد، وتحدث به النسوة فجعلن يلتمها، ويقلن: ﴿امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حياً﴾ أي: هذا أمر مستفح، هي امرأة كبيرة القدر، وزوجها كبير القدر، ومع هذا لم تزل تراود فتاها الذي تحت يدها وفي خدمتها عن نفسه، ومع هذا فإن حبه قد بلغ من قلبها مبلغاً عظيماً.

﴿قد شغفها حياً﴾ أي: وصل حبه إلى شغاف قلبها، وهو باطنه وسويداؤه، وهذا أعظم ما يكون من الحب، ﴿إنا لنراها في ضلال مبين﴾ حيث وجدت منها هذه الحالة التي لا تنبغي منها، وهي حالة تحط قدرها وتضعه عند الناس، وكان هذا القول منهن مكرراً، ليس المقصود به مجرد اللوم لها والقدح فيها، وإنما أردن أن يتوصلن بهذا الكلام إلى رؤية يوسف الذي فتنت به امرأة العزيز لتحتق امرأة العزيز، وتزيين إياه ليعذرنا، ولهذا سماه مكرراً، فقال: ﴿فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن﴾ تدعوهن إلى منزلها للضيافة.

﴿وأعدت لهن متكناً﴾ أي: محلاً مهياً بأنواع العرش والوسائد، وما يقصد بذلك من المآكل اللذيذة، وكان في جملة ما أتت به وأحضرت في تلك الضيافة طعام يحتاج إلى سكين، إما أترج، أو غيره، ﴿وأتت كل واحدة منهن سكيناً﴾ ليقطن فيها ذلك الطعام





يوسف عن نفسه ﴿ فهل رأيتم منه ما يريب؟ ﴾ .

فَتَوَاتَنَ وَ ﴿ قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ﴾ أي : لا قليل ولا كثير، فحينئذ زال السب الذي تبتني عليه التهمة، ولم يبق إلا ما عند امرأة العزيز، ف ﴿ قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق ﴾ أي : تمحض وبين، بعد ما كنا ندخل معه من سوء والتهمة، ما أوجب له السجن <sup>(١)</sup> . ﴿ إنا رآه من سوءه عن نفسه، وإنه لمن الصادقين ﴾ في أقواله وبراهمه، ﴿ ذلك ﴾ الإقرار الذي أقررت [أنى راودت يوسف]، ﴿ ليعلم أنى لم آخه باليسب ﴾ .

يحتمل أن مرادها بذلك زوجها أي : ليعلم أي حين أقررت أنى راودت يوسف، أنى لم آخه بالخبث، أي : لم يجر منى إلا بمجرد المرادة، ولم أفسد عليه فراشه، ويحتمل أن المراد بذلك ذلك ليعلم يوسف حين أقررت أنى أنا الذي راودته، وأنه صادق أنى لم آخه في حال غيبته عني، ﴿ وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾ فإن كل خائن، لا بد أن تعود خيائته ومكره على نفسه، ولا بد أن يتبين أمره .

ثم لما كان في هذا الكلام نوع تزكية لنفسها، وأنه لم يجر منها ذنب في شأن يوسف، استدركت فقالت ﴿ وما أبرئ نفسي ﴾ أي : من المرادة والهيم، والحرص الشديد، والكيد في ذلك، ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ أي : لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء، أي : الفاحشة، وسائر الذنوب، فإنها مركب الشيطان، ومنها يدخل على الإنسان ﴿ إلا ما رحم ربي ﴾ فنجاه من نفسه الأمارة، حتى صارت نفسه مطمئنة إلى ربها، متقادة لداعي الهدى، متعاضية عن داعي الردى، فذلك ليس من النفس، بل من فضل الله ورحمته بعبد .

﴿ إن ربي غفور رحيم ﴾ أي : هو غفور لمن تجرأ على الذنوب والمعاصي، إذا تاب وأناب، ﴿ رحيم ﴾ يقبول توبته، وتوفيقه للأعمال الصالحة، وهذا هو الصواب أن هذا من قول امرأة العزيز، لا من قول يوسف، فإن السياق في كلامها، ويوسف إذ ذاك في

الشداد، أن العام الذي يليها يزول به شدتها، ومن المعلوم أنه لا يزول الجذب المستمر سبع سنين متواليات، إلا بعام مخصب جداً، وإلا لما كان للتقدير فائدة، فلما رجع الرسول إلى الملك والناس، وأخبرهم بتأويل يوسف للرؤيا، عجبوا من ذلك، وفرحوا بها أشد الفرح .

﴿ ٥٠ - ٥٧ ﴾ ﴿ وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي يكيدهن عليم ﴾ قال ما خطيكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴿ ذلك ليعلم أنى لم آخه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾ وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم ﴿ وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴿ يقول تعالى : ﴿ وقال الملك ﴾ لمن عنده ائتوني به ﴾ أي : بيوسف عليه السلام، بأن يخرجه من السجن ويحضره إليه، فلما جاء يوسف الرسول وأمره بالحضور عند الملك، امتنع عن المبادرة إلى الخروج، حتى تتبين براءته التامة، وهذا من صبره وعقله ورأيه التام .

ف ﴿ قال ﴾ للرسول : ﴿ ارجع إلى ربك ﴾ يعني به الملك، ﴿ فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴾ أي : أسأله ما شأنهن وقصتهن، فإن أمرهن ظاهر متضح ﴿ إن ربي يكيدهن عليم ﴾ فأحضرهن الملك، وقال : ﴿ ما خطيكن ﴾ أي : شأنكن ﴿ إذ راودتن

فعبير يوسف، السبع البقرات السمان والسبع السنبلات الخضراء، بأنهن سبع سنين مخصبات، والسبع البقرات العجاف والسبع السنبلات اليابسات، بأنهن سنين مجدبات، ولعل وجه ذلك - والله أعلم - أن الخصب والجذب لما كان الحرث ميباً عليه، وأنه إذا حصل الخصب قويت الزروع والحرث، وحسن منظرها، وكثرت غلالها، والجذب بالعكس من ذلك . وكانت البقر هي التي تحرث عليها الأرض، وتسقى عليها الحرث في الغالب، والسنبلات هي أعظم الأقوات وأفضلها، غيرها بذلك لوجود المناسبة، فجمع لهم في تأويلها بين التعبير والإشارة لما يفعلونه، ويستعدون به من التدبير في سني الخصب، إلى سني الجذب فقال : ﴿ تزرعون سبع سنين دأباً ﴾ أي : متتابعات .

﴿ فما حصدم ﴾ من تلك الزروع ﴿ فنزوه ﴾ أي : اتركوه ﴿ في سنبله ﴾ لأنه أبقى له وأبعد عن الالتفات إليه ﴿ إلا قليلاً مما تأكلون ﴾ أي : دبروا أيضاً أكلكم في هذه السنين الخصبية، وليكن قليلاً، ليكثر ما تدخرون ويعظم نفعه ووقعه .

﴿ ثم يأتي من بعد ذلك ﴾ أي : بعد تلك السنين السبع المخصبات، ﴿ سبع شداد ﴾ أي : مجدبات جداً ﴿ يأكلن ما قدمتم لهن ﴾ أي : يأكلن جميع ما ادخرتموه ولو كان كثيراً، ﴿ إلا قليلاً مما تحصنون ﴾ أي : تمتعونه من التقديم لهن .

﴿ ثم يأتي من بعد ذلك ﴾ أي : بعد السبع الشداد ﴿ عام فيه يغان الناس وفيه يعصرون ﴾ أي : فيه تكثر الأمطار والسيول، وتكثر الغلات، وتزيد على أقواتهم، حتى إنهم يعصرون العنب ونحوه زيادة على أكلهم، ولعل استدلاله على وجود هذا العام المخصب، مع أنه غير مصرح به في رؤيا الملك، لأنه فهم من التقدير <sup>(١)</sup> بالسبع

(٢) كذا في ب وفي أ: لسجن يوسف .

(١) في ب: التعبير .



السجن لم يحضر .

فلما تحقق الملك والناس براءة يوسف الثامة ، أرسل إليه الملك وقال : ﴿ اتنوني به أستخلصه لنفسي ﴾ أي : أجعله خصيصاً لي ومقرباً لدي فأتوه به مكرماً محترماً ، ﴿ فلما كلمه ﴾ أعجبه كلامه ، وزاد موقعه عنده فقال له : ﴿ إنك اليوم لدينا ﴾ أي : عندنا ﴿ مكين أمين ﴾ أي : متمكن ، أمين على الأسرار ، ف ﴿ قال ﴾ يوسف طلباً للمصلحة العامة : ﴿ اجعلني على خزائن الأرض ﴾ أي : على خزائن جبايات الأرض وغلالها ، وكيلاً حافظاً مديراً .

﴿ إنني حفيظ عليم ﴾ أي : حفيظ للذي أتوا له ، فلا يضيع منه شيء في غير عمله ، وضابط للداخل والخارج ، عليم بكيفية التدبير والإعطاء والمنع ، والتصرف في جميع أنواع التصرفات ، وليس ذلك حرصاً من يوسف على الولاية ، وإنما هو رغبة منه في النفع العام ، وقد عرف من نفسه من الكفاءة والأمانة والحفظ ما لم يكونوا يعرفونه .

فلذلك طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض ، فجعله الملك على خزائن الأرض وولاه إياها ، قال تعالى : ﴿ وكذلك ﴾ أي : بهذه الأسباب والمقدمات المذكورة ، ﴿ مكنا يوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ في عيش رغد ، ونعمة واسعة ، وجاء عريض ، ﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ﴾ أي : هذا من رحمة الله بيوسف التي أصابه بها وقدرها له ، وليست مقصورة على نعمة الدنيا .

﴿ ولا نضيق أجر المحسنين ﴾ ويوسف عليه السلام من سادات المحسنين ، فله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ، ولهذا قال : ﴿ ولأجر الآخرة خير ﴾ من أجر الدنيا ﴿ للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ أي : لمن جمع بين التقوى والإيمان ، فبالتقوى تترك الأمور المحرمة من كبائر الذنوب وصغائرها ، وبالإيمان التام يحصل تصديق القلب ، بما أمر الله بالتصديق به ، وتتبعه أعمال القلوب وأعمال

الجوارح ، من الواجبات والمستحبات .

﴿ ٥٨ - ٦٨ ﴾ ﴿ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ﴾ ولما جهّزهم بجهازهم قال اتنوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ﴾ فإن لم تأتونني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ﴾ قالوا ستراد عنه أباه وإنا لفاعلون ﴾ وقال لفتياناه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون ﴾ فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون ﴾ قال هل آمنكم عليه إلا

كما آمنكم على أخيه من قبل الله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ﴾ ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير ﴾ قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأمنني به إلا أن يحاط بكم فلما أتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل ﴾ وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون ﴾ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوه ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أي : لما تولى يوسف عليه السلام خزائن الأرض ، دبرها أحسن تدبير ، فزرع في أرض مصر جميعها في السنين المخصبة زروعاً هائلة ، واتخذ لها المحلات الكبار ، وجبا من الأطعمة شيئاً كثيراً وحفظه ، وضبطه ضبطاً تاماً ، فلما دخلت السنون المجدية ، وسرى الجذب حتى وصل إلى فلسطين ، التي يقيم فيها يعقوب وبنوه ، فأرسل يعقوب بنيه لأجل الميرة إلى مصر ، ﴿ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ﴾ أي : لم يعرفوه .

﴿ ولما جهّزهم بجهازهم ﴾ أي : كال

لهم كما كان يكيل لغيرهم ، وكان من تدبيره الحسن أنه لا يكيل لكل واحد أكثر من حمل بعير ، وكان قد سألهم عن حالهم ، فأخبروه أن لهم أخاً عند أبيه ، وهو بنيامين .

ف ﴿ قال ﴾ لهم : ﴿ اتنوني بأخ لكم من أبيكم ﴾ ثم رغبهم في الإتيان به فقال : ﴿ ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ﴾ في الضيافة والإكرام . ثم رهبهم بعدم الإتيان به ، فقال : ﴿ فإن لم تأتونني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ﴾ وذلك لعلهم باضطرابهم إلى الإتيان إليه ، وأن ذلك يحملهم على الإتيان به .

ف ﴿ قالوا ستراد عنه أباه ﴾ دل هذا على أن يعقوب عليه السلام كان مولعاً به لا يصبر عنه ، وكان يتسل به بعد يوسف ، فلذلك احتاج إلى مرادة في بعثه معهم ﴿ وإنا لفاعلون ﴾ لما أمرتنا به .

﴿ وقال ﴾ يوسف ﴿ لفتياناه الذين في خدمته : ﴿ اجعلوا بضاعتهم ﴾ أي : الثمن الذي اشتروا به من الميرة .

﴿ في رحالهم لعلهم يعرفونها ﴾ أي : بضاعتهم إذا رآوها بعد ذلك في رحالهم ، ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ لأجل التحرج من أخذها على ما قبيل ، والظاهر أنه أراد أن يرغبهم في إحسانه إليهم بالكيل لهم كيلاً وافياً ، ثم إعادة بضاعتهم إليهم على وجه لا يحسون بها ، ولا يشعرون لما يأتي ، فإن الإحسان يوجب للإنسان تمام الوفاء للمحسن .

﴿ فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا : يا أبانا منع منا الكيل ﴾ أي : إن لم ترسل معنا أخانا ، ﴿ فأرسل معنا أخانا نكتل ﴾ أي : ليكون ذلك سبباً لكيلنا ، ثم التزموا له بحفظه ، فقالوا : ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ من أن يعرض له ما يكره ، ﴿ قال ﴾ لهم يعقوب عليه السلام : ﴿ هل آمنكم عليه إلا كما آمنتم على أخيه من قبل ﴾ أي : تقدم منكم التزام أكثر من هذا في حفظ يوسف ، ومع هذا لم تفوا بما عقدتم من التأكيد ، فلا أتق بالتزامكم وحفظكم ، وإنما أتق

بإله تعالى.

قضاؤه، والأمر أمره، فما قضاه وحكم به لا بد أن يقع، ﴿عليه توكلت﴾ أي: اعتمدت على الله، لا على ما وصيتكم به من السبب، ﴿وعليه فليتوكل المتوكلون﴾ فإن بالتوكل يحصل كل مطلوب، ويندفع كل مرهوب.

﴿فإله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين﴾ أي: يعلم حالي، وأرجو أن يرحمني، فيحفظه ويرده علي، وكأنه في هذا الكلام قد لان لإرساله معهم، ثم إنهم ﴿لما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم﴾ هذا دليل على أنه قد كان معلوماً عندهم أن يوسف قد ردها عليهم بالقصد، وأنه أراد أن يملكهم إياها، ف ﴿قالوا﴾ لأبيهم - ترغيباً في إرسال أخيه معهم -: ﴿يا أبانا ما نبغى﴾ أي: أي: شيء نطلب بعد هذا الإكرام الجميل، حيث وفق لنا الكيل، ورد علينا بضاعتنا على الوجه الحسن، المتضمن للإخلاص ومكارم الأخلاق؟

﴿ولما﴾ ذهبوا و﴿دخلوا من حيث أمرهم أبوه﴾ ما كان ذلك الفعل يفتني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وهو موجب الشفقة والمحبة للأولاد، فحصل له في ذلك نوع طمأنينة، وقضاء لما في خاطره.

﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا﴾ أي: إذا ذهبنا بأخي صار سبباً لكيله لنا، فمرنا<sup>(١)</sup> أهلنا، وأتينا<sup>(٢)</sup> لهم، بما هم مضطرون إليه من القوت، وونحفظ أماننا ونزداد كيل بعير﴾ بإرساله معنا، فإنه يكيل لكل واحد حمل بعير، ﴿ذلك كيل يسير﴾ أي: سهل لا ينالك ضرر، لأن المدة لا تطول، والمصلحة قد تبين.

وليس هذا قصوراً في علمه، فإنه من الرسل الكرام والعلماء الربانيين، ولهذا قال عنه: ﴿وإنه لدو علم﴾ أي: لصاحب علم عظيم ﴿لما علمناه﴾ أي: لتعلمينا إياه، لا بحوله وقوته أدركه، بل بفضل الله وتعليمه، ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ عواقب الأمور ودقائق الأشياء وكذلك أهل العلم منهم، يخفى عليهم من العلم وأحكامه ولو ازمه شيء كثير.

ف ﴿قال﴾ لهم يعقوب: ﴿لئن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله﴾ أي: عهداً ثقيلاً، وتحلفون بالله ﴿لتأتيني به إلا أن يحاط بكم﴾ أي: إلا أن يأتيكم أمر لا قبيل لكم به، ولا تقدرتون دفعه، ﴿فلما أتوه موثقهم﴾ على ما قال وأراد ﴿قال﴾ الله على ما نقول وكيل ﴿أي: تكفينا شهادته علينا وحفظه وكفاهته، ثم لما أرسله معهم وصاهم إذا هم قدموا مصر، أن لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة﴾ وذلك أنه خاف عليهم العين، لكثرتهم وبعاء منظرهم، لكونهم أبناء<sup>(٣)</sup> رجل واحد، وهذا سبب.

﴿٦٩ - ٧٩﴾ ﴿ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه﴾ قال إني أنا أخوك فلا تبتس بما كانوا يعملون ﴿فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون﴾ قالوا ونفقد صواع الملك ولئن جاء به حل بعير وأنا به زعيم ﴿قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين﴾ قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ﴿قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين﴾ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم ﴿قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم

﴿و﴾ إلا ف ﴿ما أغني عنكم من الله من شيء﴾ فالقدر لا بد أن يكون، ﴿إن الحكم إلا لله﴾ أي: القضاء

قَاتِلَا أُمَّتَكَ لَمَلِكٍ وَمَا تَعَزَّ بِتَأْوِيلِ الْأَحْقَامِ عَلَيْهِ. ﴿٦٩﴾  
وَقَالَ أَبُو بَرٍّ جَاءَتْهُمُ الرَّاكِبَةُ بِمَدِينَةٍ أَنَا أُنْتَكِرُ بِأَيُّهَا  
عَاسِرِينَ ﴿٧٠﴾ وَرُؤْسُهَا الْبَيْتُ الَّذِي أَنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ  
يَكُونُ بِأَحْقَامُهُمْ سَبْعِينَ مِائَةً وَسَبْعِينَ سَلْبَانِ خَيْرٌ وَلَمْ  
يَلْتَمِسْ لِمَلِكٍ لِيُجِزْ إِلَيْكَ الْبَيْتَ لِمَا تَكُونُ ﴿٧١﴾ قَالَ تَزَعَزَعُ  
سَبْعِينَ مِائَةً فَاصْصِمْ بِمَدِينَةٍ فِي سَبْعِينَ مِائَةً  
تَزَعَزَعُ ﴿٧٢﴾ وَرُؤْسُهَا بَرٌّ جَاءَتْهُمُ سَبْعِينَ مِائَةً  
مِائَةً مِائَةً لِيُجِزْ إِلَيْكَ الْبَيْتَ لِمَا تَكُونُ ﴿٧٣﴾ وَرُؤْسُهَا  
عَاسِرِينَ مِائَةً مِائَةً مِائَةً مِائَةً مِائَةً مِائَةً مِائَةً  
يَدْرُسُ مِائَةً مِائَةً مِائَةً مِائَةً مِائَةً مِائَةً مِائَةً  
الَّتِي ظَلَمَ لِيَوْمَ رَأَيْتَ رَجُلًا يَكْفُرُ بِكَ ﴿٧٤﴾ قَالَ  
مَاتَ الْكَلْبُ الَّذِي كَفَرْتُ بِرُؤْسِهَا وَرُؤْسُهَا مِائَةً مِائَةً  
مِائَةً مِائَةً مِائَةً مِائَةً مِائَةً مِائَةً مِائَةً مِائَةً  
الَّتِي كَفَرْتُ بِرُؤْسِهَا وَرُؤْسُهَا مِائَةً مِائَةً مِائَةً مِائَةً  
لِيَوْمَ رَأَيْتَ رَجُلًا يَكْفُرُ بِكَ ﴿٧٥﴾

بيدها لهم قال أنتم شرُّ مكانا والله أعلم بما تصفون ﴿قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين﴾ قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون ﴿أي: لما دخل إخوة يوسف على يوسف ﴿آوى إليه أخاه﴾ أي: شقيقه وهو بنيامين، الذي أمرهم بالإتيان به ﴿واضمه إليه، واختصه من بين إخوته، وأخبره بحقيقة الحال، و ﴿قال﴾ إني أنا أخوك فلا تبتس ﴿أي: لا تحزن﴾ بما كانوا يعملون ﴿فإن العاقبة خير لنا، ثم خبره بما يريد أن يصنع ويتحيل لبقائه عنده إلى أن ينتهي الأمر. ﴿فلما جهزهم بجهازهم﴾ أي: كان لكل واحد من إخوته، ومن جملتهم أخوه هذا، ﴿جعل السقاية﴾ وهو: الإناء الذي يشرب به، ويكال فيه ﴿في رحل أخيه ثم أوعوا مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون﴾ ولعل هذا المؤذن لم يعلم بحقيقة الحال، ﴿قالوا﴾ أي: إخوة يوسف ﴿وأقبلوا عليهم﴾ لإبعاد التهمة، فإن السارق ليس له هم إلا البعد والانطلاق عمن سرق منه، لتسلم لهم سرقته، وهؤلاء جاءوا مقبلين إليهم، ليس لهم هم إلا

(١) في ب: فمير. (٢) في ب: وناتي. (٣) كذا في ب، وفي أ: ابن.

وجدنا متاعنا عنده ﴿أي﴾: هذا ظلم منا، لو أخذنا البريء بذنوب من وجدنا متاعنا عنده، ولم يقل «من سرق» كل هذا تحرز من الكذب، ﴿إننا إذا﴾ أي: إن أخذنا غير من وجد في رحله ﴿لظالمون﴾ حيث وضعنا العقوبة في غير موضعها.

﴿٨٠ - ٨٣﴾ فلما استياسوا منه خلصوا نجياً قال كبيرهم ألم تعلموا أن أبياكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين \* ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين \* وأسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون \* قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن ياتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم ﴿أي﴾: فلما استياس إخوة يوسف من يوسف أن يسمح لهم بأخيهم ﴿خلصوا نجياً﴾ أي: اجتمعوا وحدهم، ليس معهم غيرهم، وجعلوا يتناجون فيما بينهم، ف ﴿قال كبيرهم ألم تعلموا أن أبياكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله﴾ في حفظه، وأنكم تأتون به إلا أن يحاط بكم ﴿ومن قبل ما فرطتم في يوسف﴾ فاجتمع عليكم الأمران، تفرطكم في يوسف السابق، وعدم إتيانكم بأخيه باللاحق، فليس لي وجه أواجه به أي.

﴿فلن أبرح الأرض﴾ أي: سأقيم في هذه الأرض ولا أزال بها ﴿حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي﴾ أي: يقدر لي المخرجي وحدي، أو مع أخي ﴿وهو خير الحاكمين﴾ ثم وصاهم بما يقولون لأبيهم، فقال: ﴿ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق﴾ أي: وأخذ بسرقتي، ولم يحصل لنا أن نأتيك به، مع ما بذلنا من الجهد في ذلك. والحال أنا ما شهدنا بشيء لم نعلمه، وإنما شهدنا بما علمنا، لأننا رأينا الصواع استخراج من رحله، ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾ أي: لو كنا نعلم الغيب لما حرصنا وبذلنا المجهود في

يظن أنها فعلت بالصدق، فلما لم يجد في أوعيتهم شيئاً ﴿استخرجها من وعاء أخيه﴾ ولم يقل «وحدها»، أو سرقها أخوه، مراعاة للحقيقة الواقعة.

فحينئذ تم ليوسف ما أراد من بقاء أخيه عنده، على وجه لا يشعر به إخوته، قال تعالى: ﴿كذلك كدنا ليوسف﴾ أي: يسرنا له هذا الكيد، الذي توصل به إلى أمر غير مذموم ﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾ لأنه ليس من دينه أن يملك السارق، وإنما له عندهم جزاء آخر، فلو ردت الحكومة إلى دين الملك، لم يتمكن يوسف من إبقاء أخيه عنده، ولكنه جعل الحكم منهم، لينم له ما أراد.

قال تعالى: ﴿نرفع درجات من نشاء﴾ بالعلم النافع، ومعرفة الطرق الموصلة إلى مقصدها، كما رفعنا درجات يوسف، ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾ فكل عالم، فوقه من هو أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى عالم الغيب والشهادة، فلما رأى إخوة يوسف ما رأوا ﴿قالوا إن يسرق﴾ هذا الأخ، فليس هذا غريباً منه، ﴿فقد سرق أخ له من قبل﴾ يعنون: يوسف عليه السلام، ومقصودهم تبرئة أنفسهم وأن هذا وأخاه قد يصدر منهما ما يصدر من السرقة، وهما ليسا شقيقين لنا.

وفي هذا من الغضب عليهما ما فيه، ولهذا: أسرها يوسف في نفسه ﴿ولم يبدئها لهم﴾ أي: لم يقابلهم على ما قالوه بما يكرهون، بل كظم الغيظ، وأسز الأمر في نفسه، و ﴿قال﴾ في نفسه ﴿أنتم شرم مكانا﴾ حيث ذممتونا بما أنتم على أشر منه، ﴿والله أعلم بما تصفون﴾ منا، من وصفنا بالسرقة، يعلم الله أنا براء منها، ثم سلخوا معه مسلك التملق، لعله يسمح لهم بأخيهم.

ف ﴿قالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً﴾ أي: وإنه لا يصر عنه، وسيشق عليه فراقه، ﴿فخذ أحدنا مكانه إننا نراك من المحسنين﴾ فأحسن إلينا وإلى أبينا بذلك، ف ﴿قال﴾ يوسف ﴿معاذ الله أن تأخذ إلا من



إزالة التهمة التي رموا بها عنهم، فقالوا في هذه الحال: ﴿ماذا تفقدون﴾ ولم يقولوا: ﴿ما الذي سرقنا﴾ لجزمهم بأنهم براء من السرقة، ﴿قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير﴾ أي: أجرة له على وجدانه ﴿وأناب به زعيم﴾ أي: كفيل، وهذا يقوله المؤذن المتفقد.

﴿قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض﴾ بجميع أنواع المعاصي، ﴿وما كنا سارقين﴾ فإن السرقة من أكبر أنواع الفساد في الأرض، وإنما أقسموا على علمهم أنهم ليسوا مفسدين ولا سارقين، لأنهم عرفوا أنهم سببوا من أحوالهم ما يدلهم على عفتهم وورعهم، وأن هذا الأمر لا يقع منهم بعلم من اتهمهم، وهذا أبلغ في نفي التهمة، من أن لو قالوا: ﴿تالله لم نفسد في الأرض ولم نسرق﴾.

﴿قالوا فما جزاؤه﴾ أي: جزاء هذا الفعل ﴿إن كنتم كاذبين﴾ بأن كان معكم؟ ﴿قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو﴾ أي: الموجود في رحله ﴿جزاؤه﴾ بأن يملكه صاحب السرقة، وكان هذا في دينهم أن السارق إذا ثبتت عليه السرقة كان ملكاً لصاحب المال المسروق، ولهذا قالوا: ﴿كذلك نجزي الظالمين﴾.

﴿فبدأ المقتش﴾ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، وذلك لتزول الريبة التي

ذهابه معنا، ولما أعطيناك عهدنا وموآثقتنا، فلم نظن أن الأمر سيبلغ ما بلغ، **﴿وأسأل﴾** إن شككت في قولنا **﴿القرية التي كنا فيها والعبير التي أقبلنا فيها﴾** فقد اطلعوا على ما أخبرناك به **﴿وإننا لصادقون﴾** لم نكذب ولم نغير ولم نبدل، بل هذا الواقع.

فلما رجعوا إلى أبيهم وأخبروه بهذا الخبر، اشتد حزنه وتضاعف كمده، واتهمهم أيضاً في هذه القضية، كما اتهمهم في الأولى، و**﴿قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل﴾** أي: ألبأ في ذلك إلى الصبر الجميل، الذي لا يصحبه تسخط ولا جزع، ولا شكوى للمخلوق، ثم لجأ إلى حصول الفرج لما رأى أن الأمر اشتد، والكرية انتهت فقال: **﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً﴾** أي: يوسف وبنيامين، وأخوهم الكبير الذي أقام في مصر.

**﴿إنه هو العليم﴾** الذي يعلم حالي، واحتياجي إلى تفرجه ومسنته، واضطراري إلى إحسانه، **﴿الحكيم﴾** الذي جعل لكل شيء قدراً، ولكل أمر منتهى، بحسب ما اقتضته حكمته الربانية.

**﴿٨٤ - ٨٦﴾** وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم \* قالوا تالله نفثت نذرك يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين \* قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون \* أي: وتولى يعقوب عليه الصلاة والسلام عن أولاده بعدما أخبروه هذا الخبر، واشتد به الأسف والأسى، وابيضت عيناه من الحزن الذي في قلبه، والكمد الذي أوجب له كثرة البكاء، حيث ابيضت عيناه من ذلك.

**﴿فهو كظيم﴾** أي: ممتلئ القلب من الحزن الشديد، **﴿وقال يا أسفى على يوسف﴾** أي: ظهر منه ما كمن من الهم القديم والشوق المقيم، وذكرته هذه المصيبة الخفيفة بالنسبة للأولى، المصيبة الأولى، فقال له أولاده متعجبين من حاله: **﴿تالله نفثت نذرك يوسف﴾** أي: لا تزال تذكر يوسف في جميع

أحوالك، **﴿حتى تكون حرضاً﴾** أي: فانياً لا حراك فيك ولا قدرة على الكلام.

**﴿أو تكون من الهالكين﴾** أي: لا تترك ذكره مع قدرتك على ذكره أبداً، **﴿قال﴾** يعقوب **﴿إنما أشكو بثي﴾** أي: ما أبت من الكلام **﴿وحزني﴾** الذي في قلبي **﴿إلى الله﴾** وحده، لا إليكم ولا إلى غيركم من المخلوق، فقولوا ما شئتم **﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾** من أنه سيردهم عليّ ويقر عيني بالاجتماع بهم.

**﴿٨٧ - ٨٨﴾** **﴿يا بني اذهبوا فتحسبوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾** فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز منا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين \* أي: قال يعقوب عليه السلام لبنيه: **﴿يا بني اذهبوا فتحسبوا من يوسف وأخيه﴾** أي: احرصوا واجتهدوا على التفتيش عنهما **﴿ولا تيأسوا من روح الله﴾** فإن الرجاء يوجب للعبد السعي والاجتهاد فيما رجاه، والإياس: يوجب له التناقل والتباطؤ، وأولى ما رجا العباد، فضل الله وإحسانه ورحمته وروحه، **﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾** فإنهم لكفرهم يستبعدون رحمته، ورحمته بعيدة منهم، فلا تشبهوا بالكافرين.

ودل هذا على أنه بحسب إيمان العبد يكون رجاؤه لرحمة الله وروحه، فذهبوا **﴿فلما دخلوا عليه﴾** أي: على يوسف **﴿قالوا﴾** متضرعين إليه: **﴿يا أيها العزيز منا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا﴾** أي: قد اضطررنا نحن وأهلنا **﴿وجئنا ببضاعة مزجاة﴾** أي: مدفوعة مرغوب عنها لفلقتها، وعدم وقوعها الموقوع، **﴿فأوف لنا الكيل﴾** أي: مع عدم وفاء العرض، وتصدق علينا بالزيادة عن الواجب. **﴿إن الله يجزي المتصدقين﴾** بثواب الدنيا والآخرة.

فلما انتهى الأمر، وبلغ أشده، رق لهم يوسف رقة شديدة، وعرفهم بنفسه، وعاتبهم.

**﴿٨٩ - ٩٢﴾** **﴿قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون﴾** قالوا أنك أنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين \* قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين \* قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين \* **﴿قال﴾** هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه **﴿أما يوسف فظاهر فعلمه فيه، وأما أخوه، فعلمه والله أعلم قولهم:﴾** **﴿إن يرق فقد سرق أخ له من قبل﴾** أو أن الحادث الذي فرق بينه وبين أبيه، هم السبب فيه، والأصل الموجب له، **﴿إذ أنتم جاهلون﴾** وهذا نوع اعتذار لهم بجهلهم، أو توبيخ لهم إذ فعلوا فعل الجاهلين، مع أنه لا ينبغي ولا يليق منهم.

فعرفوا أن الذي خاطبهم هو يوسف، فقالوا: **﴿أإنك لأنت يوسف؟﴾** قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا **﴿بالإيمان والتقوى والتمكين في الدنيا، وذلك بسبب الصبر والتقوى،﴾** **﴿إنه من يتق ويصبر﴾** أي: يتقي فعل ما حرم الله، ويصبر على الآلام والمصائب، وعلى الأوامر بامتثالها **﴿فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾** فإن هذا من الإحسان، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

**﴿قالوا تالله لقد آثرك الله علينا﴾** أي: فضلك علينا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأسأنا إليك غاية الإساءة، وحرصنا على إيصال الأذى إليك، والتبعيد لك عن أبيك، فأثرك الله تعالى ومكنت بما تريد **﴿وإن كنا لخاطئين﴾** وهذا غاية الاعتراف منهم بالجرم الحاصل منهم على يوسف.

**﴿قال﴾** لهم يوسف عليه السلام، كرماً وجوداً:

﴿ لا تشرب عليكم اليوم ﴾ أي : لا أشرّب عليكم ولا الومكم ﴿ يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين ﴾ فسمح لهم سماحاً تاماً ، من غير تعيير لهم على ذكر الذنب السابق ، ودعا لهم بالمغفرة والرحمة ، وهذا نهاية الإحسان الذي لا يتأتى إلا من خواص الخلق وخيار المصطفين .

﴿ ٩٣ - ٩٨ ﴾ ﴿ اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً و أتوني بأهلكم أجمعين ﴾ \* ولما فصلت العير قال أبوهم إنني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون \* قالوا والله إنك لفي ضلالك القديم \* فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم إنني أعلم من الله ما لا تعلمون \* قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين \* قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم ﴾ أي : قال يوسف عليه السلام لإخوته : اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً بصيراً \* لأن كل داء يداوى بضده ، فهذا القميص - لما كان فيه أثر ريح يوسف ، الذي أودع قلب أبيه من الحزن والشوق ما الله به عليم - أراد أن يشمه ، فترجع إليه روحه ، وتراجع إليه نفسه ، ويرجع إليه بصره ، والله في ذلك حكم وأسرار ، لا يطلع عليها العباد ، وقد اطلع يوسف من ذلك على هذا الأمر .

﴿ و أتوني بأهلكم أجمعين ﴾ أي : أولادكم وعشيرتكم وتوابعكم كلهم ، ليحصل تمام اللقاء ، ويحول عنكم نكد المعيشة ، وضنك الرزق . ﴿ ولما فصلت العير ﴾ عن أرض مصر مقبلة إلى أرض فلسطين ، سُمَّ يعقوب ريح القميص ، فقال : ﴿ إنني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ﴾ أي : تسخرون مني ، وتزعمون أن هذا الكلام صدر مني من غير شعور ، لأنه رأى منهم من التعجب من حاله ما أرجب له هذا القول ، فوقع ما ظنه بهم فقالوا :

﴿ تالله إنك لفي ضلالك القديم ﴾ أي : لا تنزل تائهاً في بحر الحب لا تدري ما تقول .

﴿ فلما أن جاء البشير ﴾ الاجتماع بيوسف وإخوته وأبيه ، ﴿ اللقاء ﴾ أي : القميص ﴿ على وجهه فارتد بصيراً ﴾ أي : رجع على حاله الأولى بصيراً ، بعد أن ابضت عيناه من الحزن ، فقال لمن حضره من أولاده وأهله الذين كانوا يفندون رأيه ، ويتمجبون منه منتصراً عليهم ، متجباً بنعمة الله عليه : ﴿ ألم أقل لكم إنني أعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ حيث كنت مترجياً للقاء يوسف ، مترقباً لزوال الهم والغم والحزن .

﴿ فأقروا بذنوبهم ونجموا بذلك و ﴾ قالوا : يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين ﴾ حيث فعلنا معك ما فعلنا .

﴿ ذ ﴾ قال ﴿ مجيباً لطلبهم ، ومسرعاً لإجابتهم : ﴿ سوف أستغفر لكم ربي ، إنه هو الغفور الرحيم ﴾ أي : ورجائي به أن يغفر لكم ويرحمكم ، ويتغمدكم برحمته ، وقد قيل : إنه آخر الاستغفار لهم إلى وقت السحر الفاضل ، ليكون أنتم للاستغفار ، وأقرب للإجابة .

﴿ ٩٩ - ١٠٠ ﴾ ﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمين ﴾ ﴿ ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ﴾ أي : ﴿ فلما ﴾ تجهز يعقوب وأولاده وأهلهم أجمعون ، وارتحلوا من بلادهم قاصدين الوصول إلى يوسف في مصر وسكنائها ، فلما وصلوا إليه ، و ﴿ دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه ﴾ أي : ضمهما إليه ، واختصهما بقربه ، وأبدى لهما من البر والإكرام <sup>(١)</sup> والتبجيل والإعظام شيئاً

عظيماً ، ﴿ وقال ﴾ لجميع أهله : ﴿ ادخلوا مصر إن شاء الله آمين ﴾ من جميع المكاره والمخاوف ، فدخلوا في هذه الحال السارة ، وزال عنهم النصب ونكد المعيشة ، وحصل السرور والبهجة .

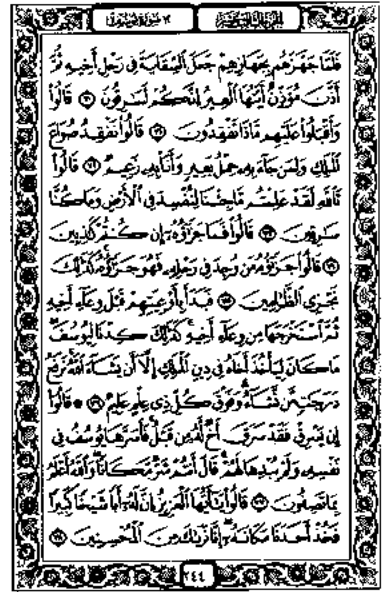
﴿ ورفع أبويه على العرش ﴾ أي : على سرير الملك ، وجلس العزيز ، ﴿ وخروا له سجداً ﴾ أي : أبوه ، وأمه وإخوته ، سجوداً على وجه التعظيم والتبجيل والإكرام ، ﴿ وقال ﴾ لما رأى هذه الحال ، ورأى سجودهم له : ﴿ يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل ﴾ حين رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين ، فهذا وقوعها الذي آلت إليه ووصلت ﴿ قد جعلها ربي حقاً ﴾ فلم يجعلها أضغاث أحلام .

﴿ وقد أحسن بي ﴾ إحساناً جسيماً ﴿ إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو ﴾ وهذا من لطفه وحسن خطابه عليه السلام ، حيث ذكر حاله في السجن ، ولم يذكر حاله في الجب ، لتمام عفوه عن إخوته ، وأنه لا يذكر ذلك الذنب ، وأن إتيانكم من البداية من إحسان الله إلي .

فلم يقل : جاء بكم من الجوع والنصب ، ولا قال : ﴿ أحسن بكم ﴾ بل قال ﴿ أحسن بي ﴾ جعل الإحسان عائداً إليه ، فتبارك من يختص برحمته من يشاء من عباده ، ويبب لهم من لدنه رحمة إنه هو الوهاب ، ﴿ من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي ﴾ فلم يقل ﴿ نزغ الشيطان إخوتي ﴾ بل كان الذنب والجهل صدر من الطرفين ، فالحمد لله الذي أخزى الشيطان ودحره ، وجمعنا بعد تلك الفرقة الشاقة .

﴿ إن ربي لطيف لما يشاء ﴾ يوصل برة وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر ، ويوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها ، ﴿ إنه هو العليم ﴾ الذي يعلم ظواهر الأمور وبواطنها ، وسرائر العباد وضمائرهم ، ﴿ الحكيم ﴾ في وضعه الأشياء مواضعها ، وسوقه





الشدة منهم على الرسل .

في قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴿ غير ما تقدم في مطاوعها من الفوائد .

حتى إن الرسل - على كمال يقينهم، وشدة تصديقهم بوعد الله ووعيده - ربما أنه يخظر بقلوبهم نوع من الإياس، ونوع من ضعف العلم والتصديق، فإذا بلغ الأمر هذه الحال ﴿ جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ﴾ وهم الرسل وأتباعهم، ﴿ ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ﴾ أي: ولا يرد عذابنا، عن اجترم، ونجراً على الله ﴿ فما لهم من قوة ولا ناصر ﴾ .

﴿ لقد كان في قصصهم ﴾ أي: قصص الأنبياء والرسل مع قومهم، ﴿ عبرة لأولي الألباب ﴾ أي: يعتبرون بها، أهل الخير وأهل الشر، وأن من فعل مثل فعلهم ناله ما نالهم من كرامة أو إهانة، ويعتبرون بها أيضاً، ما لله من صفات الكمال والحكمة العظيمة، وأنه الله الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له .

وقوله: ﴿ ما كان حديثاً يفترى ﴾ أي: ما كان هذا القرآن الذي قص الله به عليكم من أنباء الغيب ما قص من الأحاديث المتفردة المختلفة، ﴿ ولكن ﴾ كان تصديق الذي بين يديه ﴿ من الكتب السابقة، يوافقها ويشهد لها بالصحة، ﴿ وتفصيل كل شيء ﴾ يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه، ومن الأدلة والبراهين .

﴿ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ فإنهم - بسبب ما يحصل لهم به من العلم بالحق وإيثاره - يحصل لهم الهدى، وبما يحصل لهم من الثواب العاجل والأجل تحصل لهم الرحمة .

### فصل

في ذكر شيء من العبر والفوائد التي اشتملت عليها هذه القصة العظيمة التي قال الله في أولها ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ وقال ﴿ لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين ﴾ وقال في آخرها ﴿ لقد كان

الذين هم أكمل عقولاً، وأصح آراء، وليتبن أمرهم ويتضح شأنهم .

﴿ أفلم يسبروا في الأرض ﴾ إذا لم يصدقوا لقولك، ﴿ فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ كيف أهلكتهم الله بتكذيبهم، فاحذروا أن تقيموا على ما أقاموا عليه، فيصيكم ما أصابهم، ﴿ ولدار الآخرة ﴾ أي: الجنة وما فيها من النعيم المقيم، ﴿ خير للذين اتقوا ﴾ الله في امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإن نعيم الدنيا منقوص منك، منقطع، ونعيم الآخرة تام كامل، لا يفنى أبداً، بل هو على الدوام في تزايد وتواصل، ﴿ عطاء غير مجدود ﴾ أفلا تعقلون ﴿ أي: أفلا تكون لكم عقول تؤيّر الذي هو خير على الأذن .

﴿ ١١٠ - ١١١ ﴾ ﴿ حنسى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ﴾ \* لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴿ يحير تعالى: أنه يرسل الرسل الكرام، فيكذبهم القوم المجرمون اللثام، وأن الله تعالى يمهلهم ليرجعوا إلى الحق، ولا يزال الله يمهلهم حتى إنه تصل الحال إلى غاية

ومن لازم ذلك أن يكون مجتبي مفضلاً في العلم والفضائل الموجبة لذلك، ولذلك قال له أبوه: ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل

الأحاديث ﴿ ومن المناسبة في رؤيا الفتيين، أنه أول رؤيا، الذي رأى أنه يعصر خراً، أن الذي يعصر في العادة، يكون خادماً لغيره، والعصر يقصد لغيره، فلذلك أوله بما يوول إليه، أنه يسقي ربه، وذلك متضمن لخروجه من السجن .

وأول الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تاكل الطير منه، بأن جلدة رأسه ولحمه، وما في ذلك من المخ، أنه هو الذي يحمله، وأنه سيبرز للطيور، بمحل تتمكن من الأكل من رأسه، فرأى من حاله أنه سيقتل ويصلب بعد موته فيبرز للطيور فتأكل من رأسه، وذلك لا يكون إلا بالصلب بعد القتل .

وأول رؤيا الملك للملك للبقرات والسنبلات، بالسنين المخصصة، والسنين المجدبة، ووجه المناسبة أن الملك، به ترتبط أحوال الرعية ومصالحها، وبصلاحه نصلح، وبفساده تفسد، وكذلك السنون بها صلاح أحوال الرعية، واستقامة أمر المعاش أو عدمه .

وأما البقر فإنها تحرث الأرض عليها، ويستقى عليها الماء، وإذا أخضبت السنة سمئت، وإذا أجدبت صارت عجافاً، وكذلك السنابل في الخصب، تكثر وتخضر، وفي الجذب تقل ونبيس وهي أفضل غلال الأرض .

ومنها: ما فيها من الأدلة على صحة نبوة محمد ﷺ، حيث قص على قومه هذه القصة الطويلة، وهو لم يقرأ كتب الأولين ولا دارس أحدأ .

يراه قومه بين أظهرهم صباحاً ومساءً، وهو أمي لا يحط ولا يقرأ، وهي موافقة، لما في الكتب السابقة، وما كان لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون .

ومنها: أنه ينبغي البعد عن أسباب الشر، وكتمان ما تخشى مضرته، لقول يعقوب ليوسف ﴿ يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا ﴾

ومنها: أنه يجوز ذكر الإنسان بما يكره على وجه التصيحة لغيره لقوله: ﴿ فيكيدوا لك كيدا ﴾ .

ومنها: أن نعمة الله على العبد، نعمة على من يتعلق به من أهل بيته وأقاربه وأصحابه، وأنه ربما شملتهم، وحصل لهم ما حصل له بسببه، كما قال يعقوب في تفسيره لرؤيا يوسف ﴿ وكذلك يجنيبك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب ﴾ ولما تمت النعمة على يوسف، حصل لآل يعقوب من العز والتمكين في الأرض والسرور والغبطة ما حصل بسبب يوسف .

ومنها: أن العدل مطلوب في كل الأمور، لا في معاملة السلطان رعيته ولا فيما دونه، حتى في معاملة الوالد لأولاده، في المحبة والإيثار وغيره، وأن في الإخلال بذلك يجتث عليه الأمر، وتفسد الأحوال، ولهذا، لما قدم يعقوب يوسف في المحبة وآثره على إخوته، جرى منهم ما جرى على أنفسهم، وعلى أبيهم وأخيه .

ومنها: الحذر من شؤم الذنوب، وأن الذنب الواحد يستتبع ذنوباً متعددة، ولا يتم لفاعله إلا بعدة جرائم، فإخوة يوسف لما أرادوا التفرقة بينه وبين أبيه، احتالوا لذلك بأنواع من الخيل، وكذبوا عدة مرات، وزوروا على أبيهم في القميص والدم الذي فيه، وفي إتيانهم عشاء ببيكون، ولا تستبعد أنه قد كثر البحث فيها في تلك المدة، بل لعل ذلك اتصل إلى أن اجتمعوا بيوسف، وكلما صار البحث، حصل من الإخبار بالكذب، والافتراء ما حصل، وهذا شؤم الذنب، وأثاره التابعة والسابقة واللاحقة .

ومنها: أن العبرة في حال العبد بكمال النهاية، لا بنقص البداية، فإن أولاد يعقوب عليه السلام جرى منهم ما جرى في أول الأمر، مما هو أكبر أسباب النقص واللوم، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح، والسماح التام من يوسف ومن أبيهم، والدعاء



لهم بالمغفرة والرحمة، وإذا سمح العبد عن حقه، فله خير الراحمين .

ولهذا - في أصح الأقوال - أنهم كانوا أنبياء لقوله تعالى: ﴿ وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأصفياء ﴾ وهم أولاد يعقوب الاثنا عشر وذريتهم، وما يدل على ذلك أن في رؤيا يوسف، أنه رآهم كواكب نيرة، والكواكب فيها النور والهداية الذي من صفات الأنبياء، فإن لم يكونوا أنبياء فإنهم علماء هداة .

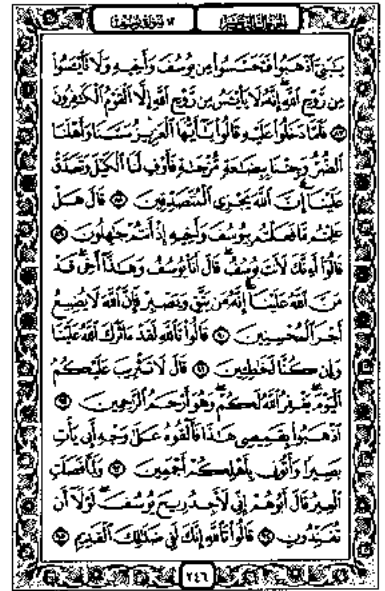
ومنها: ما من الله به على يوسف عليه الصلاة والسلام من العلم والحلم، ومكارم الأخلاق، والدعوة إلى الله وإلى دينه، وعضوه عن إخوته الخاطئين عفواً بادرهم به، وتم ذلك بأنه لا يثرب عليهم ولا يعيرهم به .

ثم بره العظيم بأبويه، وإحسانه لإخوته، بل لعموم الخلق .

ومنها: أن بعض الشر أهون من بعض، وارتكاب أخف الضررين أولى من ارتكاب أعظمهما، فإن إخوة يوسف، لما اتفقوا على قتل يوسف أو إلقاءه في البئر، وقال قائل منهم: ﴿ لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب ﴾ كان قوله أحسن منهم وأخف، ويسببه خف عن إخوته الإثم الكبير .

ومنها: أن الشيء إذا تداولته الأيدي وصار من جملة الأموال، ولم يعلم أنه كان على غير وجه الشرع، أنه





لا اثم على من باشره ببيع أو شراء، أو خدمة أو انتفاع أو استحمال، فإن يوسف عليه السلام باعه إخوته بعبء حراماً، لا يجوز، ثم ذهب به السيارة إلى مصر فباعوه بها، وبقي عند سيده غلاماً رقيقاً، وسماه الله شراً<sup>(١)</sup>، وكان عندهم بمنزلة الغلام الرقيق المكرم.

ومنها: الحذر من الخلوة بالنساء التي يخشى منهن الفتنة، والحذر أيضاً من المحبة التي يخشى ضررها، فإن امرأة العزيز جرى منها ما جرى، بسبب توخدها بيوسف، وحبها الشديد له، الذي ما تركها حتى راودته تلك المرادة، ثم كذبت عليه، فسجن بسببها مدة طويلة.

ومنها: أن الهمُّ الذي همُّ به يوسف بالمرأة، ثم تركه الله، مما يُقرِّبه إلى الله زلفى، لأن الهمَّ داعٍ من دواعي النفس الأمارة بالسوء، وهو طبيعة لأغلب الخلق، فلما قابل بينه وبين محبة الله وخشيته، غلبت محبة الله وخشيته داعي النفس والهوى، فكان ممن ﴿خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى﴾ ومن السبعة الذين يظلمهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، أحدهم: «رجل دعته امرأة ذات

منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله» وإنما الهم الذي يلام عليه العبد، الهم الذي يساكنه، ويصير عزمًا، ربما اقترن به الفعل.

ومنها: أن من دخل الإيمان قلبه، وكان خالصاً لله في جميع أموره فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه، وصدق إخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزء لإيمانه وإخلاصه لقوله: ﴿وهم بها لولا أن رأى برهان ربه، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾ على قراءة من قرأها بكسر اللام، ومن قرأها بالفتح، فإنه من إخلاص الله إياه، وهو متضمن لإخلاصه هو بنفسه، فلما أخلص عمله لله أخلصه الله، وخلصه من السوء والفحشاء.

ومنها: أنه ينبغي للعبد إذا رأى محلاً فيه فتنة وأسباب معصية، أن يفر منه ويهرب غاية ما يمكنه، ليتمكن من التخلص من المعصية، لأن يوسف عليه السلام - لما راودته التي هو في بيتها - فر هارباً، يطلب الباب ليتخلص من شرها، ومنها: أن القرائن يعمل بها عند الاشتباه، فلو تخاصم رجل وامرأته في شيء من أواني الدار، فما يصلح للرجل فإنه للرجل، وما يصلح للمرأة فهو لها، إذا لم يكن بينه، وكذا لو تنازع نجار وحداد في آلة حرفتهما من غير بينة، والعمل بالقافة في الأشياء والأثر، من هذا الباب، فإن شاهد يوسف شهد بالقرينة، وحكم بها في قد القميص، واستدل بقده من دبره على صدق يوسف وكذبه.

ومما يدل على هذه القاعدة، أنه استدل بوجود الصواع في رحل أخيه على الحكم عليه بالسرقة، من غير بينة شهادة ولا إقرار، فعل هذا إذا وجد المسروق في يد السارق، خصوصاً إذا كان معروفاً بالسرقة، فإنه يحكم عليه بالسرقة، وهذا أبلغ من الشهادة،

وكذلك وجود الرجل يتقياً الخمر، أو وجود المرأة التي لا زوج لها ولا سيد حاملاً فإنه يقام بذلك الحد، ما لم يقم مانع منه، ولهذا سمي الله هذا الحاكم شاهداً فقال: ﴿وشهد شاهد من أهلها﴾.

ومنها: ما عليه يوسف من الجمال الظاهر والباطن، فإن جماله الظاهر، أوجب للمرأة التي هو في بيتها ما أوجب، وللنساء اللاتي جمعتهن حين لئها على ذلك أن تقطن أيديهن وقلن ﴿ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم﴾ وأما جماله الباطن، فهو العفة العظيمة عن المعصية، مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوعها، وشهادة امرأة العزيز والنسوة بعد ذلك ببرائه، ولهذا قالت امرأة العزيز: ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾ وقالت بعد ذلك: ﴿الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين﴾ وقالت النسوة: ﴿حاش الله ما علمنا عليه من سوء﴾.

ومنها: أن يوسف عليه السلام اختار السجن على المعصية، فهكذا ينبغي للعبد إذا ابتلي بين أمرين - إما فعل معصية، وإما عقوبة دنيوية - أن يختار العقوبة الدنيوية على موافقة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة، ولهذا من علامات الإيمان، أن يكره العبد أن يعود في الكفر، بعد أن أنقله الله منه، كما يكره أن يلقى في النار.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى الله، ويحتمى بحماه عند وجود أسباب المعصية، ويتبرأ من حوله وقوته، لقول يوسف عليه السلام: ﴿والا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين﴾.

ومنها: أن العلم والعقل يدعوان صاحبهما إلى الخير، وينهيانه عن الشر، وأن الجهل يدعو صاحبه إلى موافقة هوى النفس، وإن كان معصية ضاراً لصاحبه.

(١) كذا في أ، وفي ب: سيداً، ويبدو والله أعلم أن مراد الشيخ - رحمه الله - أن الله قال: (وشروه) فسمى الله فعلهم شراء مع كونه حراماً.

يوسف عليه السلام قد قال، ووصى أحد الفتیین أن يذكره عند ربه، فلم يذكره ونسي، فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف أرسلوا ذلك الفتى، وجاءه سائلاً مستفتياً عن تلك الرؤيا، فلم يعنفه يوسف، ولا وبخه، لتركه ذكره بل أجابه عن سؤاله جواباً تاماً من كل وجه.

ومنها: أنه ينبغي للمسؤول أن يدل السائل على أمر يفعه مما يتعلق بسؤاله، ويرشده إلى الطريق التي ينتفع بها في دينه ودنياه، فإن هذا من كمال نصحه وفتنته، وحسن إرشاده، فإن يوسف عليه السلام لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك، بل دلهم - مع ذلك - على ما يصنعون في تلك السنين المخصبات من كثرة الزرع، وكثرة جبايته.

ومنها: أنه لا يلام الإنسان على السعي في دفع التهمة عن نفسه، وطلب البراءة لها، بل يحمده على ذلك، كما امتنع يوسف عن الخروج من السجن حتى تتبين لهم براءته بحال النسوة اللاتي قطعن أيديهن، ومنها:

ومنها: أنه يبدأ بالأهم فالأهم، وأنه إذا سئل الفتى، وكان السائل حاجته في غير سؤاله أشد أنه ينبغي له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله، فإن هذا علامة على نصح المعلم وفتنته، وحسن إرشاده وتعليمه، فإن يوسف - لما سأله الفتیان عن الرؤيا - قدم لهما قبل تعبيرها دعوتهما إلى الله وحده لا شريك له.

ومنها: أن من وقع في مكروه وشدة، لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه، أو الإخبار بحاله، وأن هذا لا يكون شكوى للمخلوق، فإن هذا من الأمور العادية التي جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض، ولهذا قال يوسف للذي ظن أنه ناج من الفتيين: ﴿اذكروني عند ربك﴾.

ومنها: أنه ينبغي ويتأكد على المعلم استعمال الإخلاص التام في تعليمه وأن لا يجعل تعليمه وسيلة لمعاوضة أحد في مال أو جاه أو نفع، وأن لا يمتنع من التعليم، أو لا ينصح فيه، إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم، فإن

ومنها: أنه كما على العبد عبودية لله في الرخاء، فعليه عبودية في الشدة، فـ «يوسف» عليه السلام لم يزل يدعو إلى الله، فلما دخل السجن، استمر على ذلك، ودعا الفتیین إلى التوحيد، ونهاهما عن الشرك، ومن قطنته عليه السلام أنه لما رأى فيهما قابلية لدعوته، حيث ظنا فيه الظن الحسن وقال له: ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ وأتياه لأن يعبر لهما رؤياهما، فأرهما متشوفين لتعبيرها عنده - رأى ذلك فرصة فانتهزها، فدعاهما إلى الله تعالى قبل أن يعبر رؤياهما ليكون أنجح لمقصوده، وأقرب لحصول مطلوبه، وبين لهما أولاً، أن الذي أوصله إلى الحال التي رأياها فيها من الكمال والعلم، إيمانه وتوحيده، وتركه ملة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، وهذا دعاء لهما بالحال، ثم دعاهما بالمقال، وبين فساد الشرك وبرهن عليه، وحقبة التوحيد وبرهن عليه.

ومنها: أنه يبدأ بالأهم فالأهم، وأنه إذا سئل الفتى، وكان السائل حاجته في غير سؤاله أشد أنه ينبغي له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله، فإن هذا علامة على نصح المعلم وفتنته، وحسن إرشاده وتعليمه، فإن يوسف - لما سأله الفتیان عن الرؤيا - قدم لهما قبل تعبيرها دعوتهما إلى الله وحده لا شريك له.

ومنها: أن من وقع في مكروه وشدة، لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه، أو الإخبار بحاله، وأن هذا لا يكون شكوى للمخلوق، فإن هذا من الأمور العادية التي جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض، ولهذا قال يوسف للذي ظن أنه ناج من الفتيين: ﴿اذكروني عند ربك﴾.

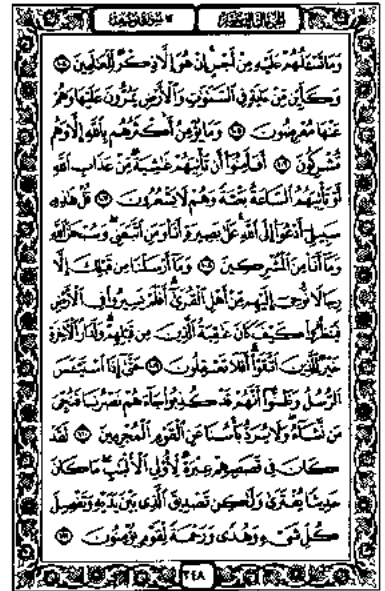
ومنها: أنه ينبغي ويتأكد على المعلم استعمال الإخلاص التام في تعليمه وأن لا يجعل تعليمه وسيلة لمعاوضة أحد في مال أو جاه أو نفع، وأن لا يمتنع من التعليم، أو لا ينصح فيه، إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم، فإن



مصلحة، ولم يقصد به العبد الرياء، وسلم من الكذب، لقول يوسف: ﴿اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾ وكذلك لا تدم الولاية، إذا كان المتولي فيها يقوم بما يقدر عليه من حقوق الله وحقوق عباده، وأنه لا بأس بطلبها، إذا كان أعظم كفاءة من غيره، وإنما الذي يذم، إذا لم يكن فيه كفاية، أو كان موجوداً غيره مثله، أو أعلى منه، أو لم يرد بها إقامة أمر الله، فهذه الأمور، ينهى عن طلبها، والتعرض لها.

ومنها: أن الله واسع الجود والكرم، يجود على عبده بخير الدنيا والآخرة، وأن خير الآخرة له سببان: الإيمان والتقوى، وأنه خير من ثواب الدنيا وملكها، وأن العبد ينبغي له أن يدعو نفسه، ويشوقها لثواب الله، ولا يدعها تحزن إذا رأت أهل الدنيا ولذاتها، وهي غير قادرة عليها، بل يسئليها بثواب الله الأخروي، وفضله العظيم لقوله تعالى: ﴿ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾.

ومنها: أن جباية الأرزاق - إذا أريد بها التوسعة على الناس من غير ضرر يلحقهم - لا بأس بها، لأن يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة في السنين المخصبات، للاستعداد للسنين المجعبة، وأن هذا غير مناقض للتوكل على الله، بل يتوكل العبد على الله،



ويعمل بالأسياب التي تنفعه في دينه ودنياه.

ومنها: حسن تدبير يوسف لما تولى خزائن الأرض، حتى كثرت عندهم الغلات جداً حتى صار أهل الأنظار يفسدون مصر لطلب الميرة منها، لعلمهم بوفورها فيها، وحتى إنه كان لا يكيل لأحد إلا مقدار الحاجة الخاصة أو أقل، لا يزيد كل قادم على كيل بعير وحمله.

ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن المرسلين، وإكرام الضيف لقول يوسف لإخوته «ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين».

ومنها: أن سوء الظن مع وجود القرائن الدالة عليه غير ممنوع ولا محرم، فإن يعقوب قال لأولاده - بعدما امتنع من إرسال يوسف معهم حتى عاجلوه أشد المعالجة، ثم قال لهم بعد ما أتوه، وزعموا أن الذئب أكله «بل سولت لكم أنفسكم أمراً» وقال لهم في الأخ الآخر: «هل أنتم على إلا كما أنتم على أخيه من قبل» ثم لما احتبس يوسف عنده، وجاء إخوته لأبيهم قال لهم: «بل سولت لكم أنفسكم أمراً» فهم في الأخيرة - وإن لم يكونوا مفترطين - فقد جرى منهم ما أوجب لأبيهم أن قال ما قال، من غير

إثم عليه ولا حرج.

ومنها: أن استعمال الأسباب الدافعة للعين أو غيرها من المكاره، أو الرفاعة لها بعد نزولها، غير ممنوع، بل جائز، وإن كان لا يقع شيء إلا بقضاء وقدر، فإن الأسباب أيضاً من القضاء والقدر، لأمر يعقوب حيث قال لبنيه: «يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة».

ومنها: جواز استعمال المكاييد التي يتوصل بها إلى الحقوق، وأن العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما يحمد عليه العبد، وإنما المنوع، التحيل على إسقاط واجب، أو فعل محرم.

ومنها: أنه ينبغي لمن أراد أن يوهم غيره، بأمر لا يجب أن يطلع عليه، أن يستعمل المعارض القولية والفعلية المانعة له من الكذب، كما فعل يوسف حيث ألقى الصواع في رحل أخيه، ثم استخرجها منه، موهماً أنه سارق، وليس فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته، وقال بعد ذلك: «معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده» ولم يقل «من سرق متاعنا» وكذلك لم يقل «إنا وجدنا متاعنا عنده» بل أتى بكلام عام يصلح له ولغيره، وليس في ذلك محذور، وإنما فيه إيهام أنه سارق ليحصل المقصود الحاضر، وأنه يبقى عند أخيه<sup>(١)</sup>، وقد زال عن الأخ هذا الإيهام بعد ما تبين الحال.

ومنها: أنه لا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علمه، وتحققه إما بمشاهدة أو خبر من يثق به، وتطمئن إليه النفس لقولهم: «وما شهدنا إلا بما علمنا».

ومنها: هذه المحنة العظيمة التي امتحن الله بها نبيه وصفيه يعقوب عليه السلام، حيث قضى بالتفريق بينه وبين ابنه يوسف، الذي لا يقدر على فراقه ساعة واحدة، ويمزونه ذلك أشد الحزن، فحصل التفريق بينه وبينه مدة طويلة، لا تقصر عن خمسة عشر سنة،

ويعقوب لم يفارق الحزن قلبه في هذه المدة «وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم» ثم ازداد به الأمر شدة، حين صار الفراق بينه وبين ابته الثاني شقيق يوسف، وهذا وهو صابر لأمر الله، محتسب الأجر من الله، قد وعد من نفسه الصبر الجميل، ولا شك أنه وفي بما وعده به، ولا ينافي ذلك، قوله: «إنما أشكو بثي وحزني إلى الله» فإن الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر، وإنما الذي ينافيه، الشكوى إلى المخلوقين.

ومنها: أن الفرج مع الكرب؛ وأن مع العسر يسراً، فإنه لما طال الحزن على يعقوب واشتد به إلى أنه ما يكون، ثم حصل الاضطراب لآل يعقوب ومسهم الضر، أذن الله حينئذ بالفرج، فحصل التلاقي في أشد الأوقات إليه حاجة واضطراباً، فتم بذلك الأجر وحصل السرور، وعلم من ذلك أن الله يتبلى أوليائه بالشدة والرخاء، والعسر واليسر ليتمحن صبرهم وشكرهم، ويزداد - بذلك - إيمانهم ويقينهم وعرفاتهم.

ومنها: جواز إخبار الإنسان بما يجد، وما هو فيه من مرض أو فقر ونحوهما، على غير وجه التسخط، لأن إخوة يوسف قالوا: «يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر» ولم ينكر عليهم يوسف.

ومنها: فضيلة التقوى والصبر، وأن كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر، وأن عاقبة أهلها أحسن العواقب، لقوله: «قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين».

ومنها: أنه ينبغي لمن أنعم الله عليه بنعمة بعد شدة وفقر وسوء حال، أن يعترف بنعمة الله عليه، وأن لا يزال ذاكراً حاله الأولى، ليحدث لذلك شكراً كلما ذكرها، لقول يوسف عليه السلام: «وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو»

(١) لعل المراد والله أعلم: (وأن يبقى عنده أخوه).

ومنها: لطف الله العظيم بيوسف، حيث نقله في تلك الأحوال، وأوصل إليه الشدائد والمحن، ليوصله بها إلى أعلى الغايات ورفع الدرجات.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يتملق إلى الله دائماً في تثبيت إيمانه، ويعمل الأسباب الموجبة لذلك، ويسأل الله حسن الخاتمة، وتمام النعمة لقول يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وأحقني بالصالحين﴾.

فهذا ما يسر الله من الفوائد والعبر في هذه القصة المباركة، ولا بد أن يظهر للمتدبر المتفكر غير ذلك.

فنسأله تعالى علماً نافعاً وعملاً متقبلاً، إنه جواد كريم.

تم تفسير سورة يوسف وأبيه وإخوته عليهم الصلاة والسلام، والحمد لله رب العالمين

### تفسير سورة الرعد، وهي مدنية، وقيل: مكية

﴿١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم المر تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ يخبر تعالى أن هذا القرآن هو آيات الكتاب الدالة على كل ما يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه، وأن الذي أنزل إلى الرسول من ربه هو الحق المبين، لأن أخباره صدق، وأوامره ونواهيه عدل، مؤيدة بالأدلة والبراهين القاطعة، فمن أقبل عليه وعلى علمه، كان من أهل العلم بالحق، الذي يوجب لهم علمهم، العمل بما أحب الله.

﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ بهذا القرآن، إما جهلاً وإعراضاً عنه وعدم اهتمام به، وإما عناداً وظلماً، فلذلك أكثر الناس غير منتفعين به، لعدم السبب الموجب للانتفاع.

﴿٢﴾ ﴿والله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل

يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾ وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل النمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لتقوم بتفكرون﴾ وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ يخبر تعالى عن انفراده بالخلق والتدبير، والعظمة والسلطان الدال على أنه وحده المعبود، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، فقال: ﴿الله الذي رفع السماوات﴾ على عظمها واتساعها بقدرته العظيمة، ﴿بغير عمد ترونها﴾ أي: ليس لها عمد من تحتها، فإنه لو كان لها عمد، لرأيتموها، ﴿ثم﴾ بعد ما خلق السماوات والأرض ﴿استوى على العرش﴾ العرش العظيم الذي هو أعلى المخلوقات، استواء يليق بجلاله ويناسب كماله.

﴿وسخر الشمس والقمر﴾ لمصالح العباد ومصالح مواشيهم وثمارهم، ﴿كل﴾ من الشمس والقمر ﴿يجري﴾ بتدبير العزيز العليم، ﴿لأجل مسمى﴾ سير منتظم، لا يفتران ولا ينيان، حتى يجيء الأجل المسمى وهو طغي الله هذا العالم، ونقلهم إلى الدار الآخرة التي هي دار القرار، فعند ذلك يطوي الله السماوات، ويبدلها، ويغير الأرض ويبدلها. فتكور الشمس والقمر، ويجمع بينهما، فيلقيان في النار، ليرى من عبدهما أنهما غير أهل للعبادة؛ فيتحسر بذلك أشد الحسرة، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين.

وقوله: ﴿يدبر الأمر يفصل الآيات﴾ هذا جمع بين الخلق والأمر، أي: قد استوى الله العظيم على سرير الملك، يدبر الأمور في العالم العلوي والسفلي، فيخلق ويرزق، ويغني ويفقر، ويرفع أقواماً ويضع آخرين، ويعز ويذل، ويخفض ويرفع، ويقبل العثرات، ويفرج الكربات، وينفذ

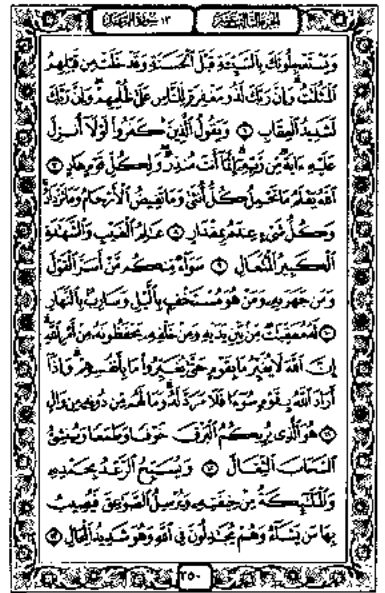


الأقدار في أوقاتها التي سبق بها علمه، وجرى بها قلمه، ويرسل ملائكته الكرام لتدبير ما جعلهم على تدبيره.

وينزل الكتب الإلهية على رسله، ويبين ما يحتاج إليه العباد من الشرائع والأوامر والنواهي، ويفصلها غاية التفصيل بيناتها وإيضاحها وتمييزها، ﴿لعلكم﴾ بسبب ما أخرج لكم من الآيات الأفقية، والآيات القرآنية، ﴿بلقاء ربكم توقنون﴾ فإن كثرة الأدلة وبيانها ووضوحها، من أسباب حصول اليقين في جميع الأمور الإلهية، خصوصاً في العقائد الكبار، كالبعث والنشور والإخراج من القبور.

وأيضاً فقد علم أن الله تعالى حكيم لا يخلق الخلق سدى، ولا يتركهم عبثاً، فكما أنه أرسل رسله وأنزل كتبه لأمر العباد ونبيهم، فلا بد أن ينقلهم إلى دار يحمل فيهم جزاؤه، فيجازي المحسنين بأحسن الجزاء، ويجازي المسيئين بإساءتهم.

﴿وهو الذي مد الأرض﴾ أي: خلقها للعباد، ووسعها، وبارك فيها، ومهدها للعباد، وأودع فيها من مصالحهم ما أودع، ﴿وجعل فيها رواسي﴾ أي: جبلاً عظيماً، لتلاقيهم بالخلق، فإنه لولا الجبال لمادت بأهلها، لأنها على تيار ماء، لا ثبوت لها ولا استقرار إلا بالجبال الرواسي، التي جعلها الله أوتاداً لها.



قولهم وتكذيبهم للبعث، فإن ذلك من العجائب، فإن الذي توضح له الآيات، ويرى من الأدلة القاطعة على البعث ما لا يقبل الشك والريب، ثم ينكر ذلك، فإن قوله من العجائب ولكن ذلك لا يستغرب على الذين كفروا بربهم ﴿٦﴾ ووجدوا وحدانيته، وهي أظهر الأشياء وأجلاها، ﴿وأولئك الأغلال﴾ المانعة لهم من الهدى ﴿في أعناقهم﴾ حيث دعوا إلى الإيمان فلم يؤمنوا، وعرض عليهم الهدى فلم يتنذوا، فقلبت قلوبهم وأفندتهم عقوبة على أنهم لم يؤمنوا به أول مرة، ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ لا يخرجون منها أبداً.

﴿٦﴾ ﴿ويستمجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلثات وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب﴾ يخبر تعالى عن جهل المكذبين لرسوله، المشركين به، الذين وعظوا فلم يتعظوا، وأقيمت عليهم الأدلة فلم ينفادوا لها، بل جاهدوا بالإنكار، واستدلوا بحلم الله [الواحد القهار عنهم، وعدم معاجلتهم بذنوبهم، أنهم على حق، وجعلوا يستمجلون الرسول بالعذاب، ويقول قائلهم: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك، فأمطر علينا حجارة من السماء، أو اتنا بعذاب اليم﴾.

﴿٧﴾ ﴿الحال أنه قد خلت من قبلهم المثلثات﴾ أي: وقائع الله وأيامه في الأمم المكذبين، أفلا يتفكرون في حالهم ويتركون جهلهم، ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾ أي: لا يزال خيره إليهم، وإحسانه وبره وعفوه نازلاً إلى العباد، وهم لا يزال شرمهم<sup>(١)</sup> وعصيانهم إليه صاعداً.

يعصونه فيدعوههم إلى بابه، ويمرهم، فلا يحرمهم خيره وإحسانه، فإن تابوا إليه فهو حبيبهم، لأنه يحب التوابين، ويجب التطهرين وإن لم يتوبوا فهو طبيبهم، يبتيهم بالمصائب،

الأشجار ﴿من أعتاب وزرع ونخيل﴾ وغير ذلك، والنخيل التي بعضها ﴿صنوان﴾ أي: عدة أشجار في أصل واحد، ﴿وغير صنوان﴾ بأن كان كل شجرة على حدثها، والجميع ﴿يسقى بماء واحد﴾ وأرضه واحدة ﴿ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾ لونا، وطعماً، ونفعاً، ولذة؛ فهذه أرض طيبة تنبت الكلا والعشب الكثير، والأشجار والزروع، وهذه أرض تلاحظها لا تنبت كلا ولا تمسك ماء وهذه تمسك الماء، ولا تنبت الكلا، وهذه تنبت الزروع والأشجار، ولا تنبت الكلا، وهذه الثمرة حلوة، وهذه مرة، وهذه بين ذلك.

فهل هذا التنوع في ذاتها وطبيعتها؟ أم ذلك تقدير العزيز الرحيم؟ ﴿إن في ذلك آيات لقوم يعقلون﴾ أي: لقوم لهم عقول تهديهم إلى ما ينفعهم، وتقودهم إلى ما يرشدهم ويعقلون عن الله وصاياه وأوامره ونواهيه، وأما أهل الإعراض، وأهل البلادة فهم في ظلماتهم يعمهون، وفي غيهم يترددون، لا يهتدون إلى ربهم سبيلاً ولا يعون له قبيلاً.

﴿٥﴾ ﴿وإن تعجب فمعجب قولهم إذا كنا تراباً أإنا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ يحتمل أن معنى قوله ﴿وإن تعجب﴾ من عظمة الله تعالى وكثرة أدلة توحيده، فإن العجب - مع هذا - إنكار المكذبين، وتكذيبهم بالبعث، وقولهم ﴿إذا كنا تراباً أإنا لفي خلق جديد﴾ أي: هذا بعيد في غاية الامتناع بزعمهم، أنهم بعد ما كانوا تراباً، أن الله يعيدهم، فلهم - من جهلهم - قاسوا قدرة الخالق بقدرة المخلوق.

فلما رأوا هذا ممحماً في قدرة المخلوق، ظنوا أنه ممحماً على قدرة الخالق، ونسوا أن الله خلقهم أول مرة ولم يكونوا شيئاً. ويحتمل أن معناه: وإن تعجب من

﴿و﴾ جعل فيها «أهباراً» تسمى الأدميين وبهائمهم وحروثهم، فأخرج بها من الأشجار والزروع والشمار خيراً كثيراً، ولهذا قال: ﴿ومن كل الشرات جعل فيها زوجين اثنين﴾ أي: صنفين مما يحتاج إليه العباد.

﴿يفشي الليل النهار﴾ فتظلم الآفاق، فيسكن كل حيوان إلى مأواه، ويستريحون من التعب والنصب في النهار، ثم إذا قضوا مأربهم من النوم، غشى النهار الليل، فإذا هم مصبحون منتشرون في مصالحهم وأعمالهم في النهار.

﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾.

﴿إن في ذلك آيات﴾ على المطالب الإلهية ﴿للقوم يتفكرون﴾ فيها، وينظرون فيها نظر اعتبار دالة على أن الذي خلقها وديرها وصرفها، هو الله الذي لا إله إلا هو، ولا معبود سواه، وأنه عالم الغيب والشهادة، الرحمن الرحيم، وأنه القادر على كل شيء، الحكيم في كل شيء، المحمود على ما خلقه وأمر به تبارك وتعالى.

ومن الآيات على كمال قدرته وبديع صنعته، أن جعل ﴿في الأرض قطع متجاورات وجنات﴾ فيها أنواع

ليظهرهم من المعاييب **﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾** إنه هو الغفور الرحيم .

**﴿وان ربك لشديد العقاب﴾** على من لم يزل مصراً على الذنوب، قد أبى التوبة والاستغفار والاتجاه إلى العزيز الغفار، فليحذر العباد من عقوباته بأهل الجرائم، فإن أخذه ألم شديد .

**﴿٧﴾** ويقولون الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكل قوم هاد **﴿أي: ويقترح الكفار عليك من الآيات، التي يعينونها ويقولون: ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾** ويعلمون هذا القول منهم، عذراً لهم في عدم الإجابة إلى الرسول، والحال أنه منذر ليس له من الأمر شيء، والله هو الذي ينزل الآيات .

وقد أيده بالأدلة البينات التي لا تخفى على أولي الألباب، وبها يتندي من قصده الحق، وأما الكافر الذي - من ظلمه وجهله - يقترح على الله الآيات، فهذا اقتراح منه باطل وكذب وافتراء <sup>(١)</sup>.

فإنه لو جاءته أي: آية كانت لم يؤمن ولم ينقد، لأنه لم يمتنع من الإيمان، لعدم ما يدل على صحته، وإنما ذلك لهوى نفسه، واتباع شهوته، **﴿ولكل قوم هاد﴾** أي: داع يدعوهم إلى الهدى من الرسل وأتباعهم، ومعهم من الأدلة والبراهين ما يدل على صحة ما معهم من الهدى .

**﴿٨ - ١١﴾** **﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار﴾** عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال \* سواء منكم من أسر القبول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار \* له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله **﴿أي: يحفظون بدنه وروحه من كل من يريده بسوء، ويحفظون عليه أعماله، وهم ملازمون له دائماً، فكما أن علم الله محيط به، فالله قد أرسل هؤلاء الحفظة على العباد، بحيث لا تخفى أحوالهم ولا أعمالهم، ولا ينسى منها شيء، ﴿إن الله لا يغير ما بقوم﴾** من النعمة والإحسان ورغد العيش **﴿حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾** بأن ينتقلوا من الإيمان إلى الكفر، ومن الطاعة إلى المعصية، أو من شكر نعم الله إلى البطر بها، فيسلبهم الله عند ذلك إياها .

وسعة اطلاعه، وإحاطته بكل شيء، فقال: **﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى﴾** من بني آدم وغيرهم، **﴿وما تغيض الأرحام﴾** أي: تنقص مما فيها، إما أن يهلك الحمل، أو يتضاءل أو يضمحل، **﴿وما تزداد﴾** الأرحام وتكبر الأجنة التي فيها، **﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾** لا يتقدم عليه ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص إلا بما تقتضيه حكمته وعلمه .

فإنه **﴿عالم الغيب والشهادة الكبير﴾** في ذاته وأسمائه وصفاته **﴿المتعال﴾** على جميع خلقه، بذاته وقدره وقهره . **﴿سواء منكم﴾** في علمه وسمعه، وبصره .

**﴿من أسر القبول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل﴾** أي: مستخف بمكان خفي فيه، **﴿وسارب بالنهار﴾** أي: داخل سره في النهار، والسرب هو ما يختفي فيه الإنسان، إما جوف بيته، أو غار، أو مغارة، أو نحو ذلك .

**﴿١١﴾** **﴿له﴾** أي: للإنسان **﴿معقبات﴾** من الملائكة، يتعاقبون في الليل والنهار .

**﴿من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾** أي: يحفظون بدنه وروحه من كل من يريده بسوء، ويحفظون عليه أعماله، وهم ملازمون له دائماً، فكما أن علم الله محيط به، فالله قد أرسل هؤلاء الحفظة على العباد، بحيث لا تخفى أحوالهم ولا أعمالهم، ولا ينسى منها شيء، **﴿إن الله لا يغير ما بقوم﴾** من النعمة والإحسان ورغد العيش **﴿حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾** بأن ينتقلوا من الإيمان إلى الكفر، ومن الطاعة إلى المعصية، أو من شكر نعم الله إلى البطر بها، فيسلبهم الله عند ذلك إياها . وكذلك إذا غير العباد ما بأنفسهم من المعصية، فانتقلوا إلى طاعة الله، غير الله عليهم ما كانوا فيه من الشقاء إلى الخير والسرور والغبطة والرحمة، **﴿وإذا أراد الله بقوم سوء﴾** أي: عذاباً

لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ذُنُوبِهِمْ لَابِسِينَ لَكِن لَمْ يَسْأَلُوا اللَّهَ يَتَّقُوا ﴿١٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ذُنُوبِهِمْ لَابِسِينَ لَكِن لَمْ يَسْأَلُوا اللَّهَ يَتَّقُوا ﴿١٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ذُنُوبِهِمْ لَابِسِينَ لَكِن لَمْ يَسْأَلُوا اللَّهَ يَتَّقُوا ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ذُنُوبِهِمْ لَابِسِينَ لَكِن لَمْ يَسْأَلُوا اللَّهَ يَتَّقُوا ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ذُنُوبِهِمْ لَابِسِينَ لَكِن لَمْ يَسْأَلُوا اللَّهَ يَتَّقُوا ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ذُنُوبِهِمْ لَابِسِينَ لَكِن لَمْ يَسْأَلُوا اللَّهَ يَتَّقُوا ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ذُنُوبِهِمْ لَابِسِينَ لَكِن لَمْ يَسْأَلُوا اللَّهَ يَتَّقُوا ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ذُنُوبِهِمْ لَابِسِينَ لَكِن لَمْ يَسْأَلُوا اللَّهَ يَتَّقُوا ﴿٢٠﴾

وشدة، وأمرأ يكرهونه، فإن إرادته لا بد أن تنفذ فيهم .

**﴿١٢﴾** **﴿إنه﴾** لا مرد له **﴿ولا أحد يمنعهم منه،﴾** وما لهم من دونه من وال **﴿يتولى أمورهم، فيجلب لهم المحبوب، ويدفع عنهم المكروه، فليحذروا من الإقامة على ما يكره الله، خشية أن يعجل بهم من العقاب ما لا يرد عن القوم المجرمين .**

**﴿١٣ - ١٤﴾** **﴿هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينسئ السحاب الشقال﴾** ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال **﴿يقول تعالى: ﴿هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾** أي: يخاف منه الصواعق والهدم، وأنواع الضرر، على بعض الثمار ونحوها، ويطمع في خيره ونفعه، **﴿وينسئ السحاب الشقال﴾** بالمطر الغزير الذي به نفع العباد والبلاد .

**﴿ويسبح الرعد بحمده﴾** وهو الصوت، الذي يسمع من السحاب المزجج للعباد، فهو خاضع لربه مسبح بحمده، **﴿و﴾** تسبح **﴿الملائكة من خيفته﴾** أي: خشعاً لربهم، خائفين من سطوته، **﴿ويرسل الصواعق﴾** وهي هذه النار التي تخرج من السحاب،

(١) كذا في ب، وفي أ: وافتراء.



عليهم من كل باب \* سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار\* يقول تعالى: مفرقاً بين أهل العلم والعمل وبين ضدهم: ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق﴾ فهم ذلك وعمل به. ﴿كمن هو أعمى﴾ لا يعلم الحق ولا يعمل به، فبينهما من الفرق، كما بين السماء والأرض، فحقيق بالعبد أن يتذكر ويتفكر، أي الغريفيين أحسن حالاً وخير مآلاً، فيؤثر طريقها، ويسلك خلف فريقها، ولكن ما كل أحد يتذكر ما ينفعه ويضره.

﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾ أي: أولو العقول الرزينة، والآراء الكاملة، الذين هم لب العالم، وصفوة بني آدم، فإن سألت عن وصفهم، فلا تجد أحسن من وصف الله لهم بقوله:

﴿الذين يوفون بعهد الله﴾ الذي عهده إليهم، والذي عاهدهم عليه من القيام بحقوقه كاملة موفرة، فالوفاء بها توفيتها حقها من التتميم لها، والنصح فيها، ﴿و﴾ من تمام الوفاء بها أنهم ﴿لا ينقضون الميثاق﴾ أي: العهد الذي عاهدوا عليه الله، فدخل في ذلك جميع المواثيق والعهود والأيمان والتذور، التي يعقدها العباد. فلا يكون العبد من أولي الألباب الذين لهم الثواب العظيم، إلا بأدائها كاملة، وعدم نقضها وبخسها.

﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾ وهذا عام في كل ما أمر الله بحصوله، من الإيمان به وبرسوله، ومحبه وحبه رسول، والالتقاد لعبادته وحده لا شريك له، ولطاعة رسوله.

ويصلون آباءهم وأمهاتهم، ببرهم بالقرن والفضل، وعدم عقوبتهم، ويصلون الأقارب والأرحام، بالإحسان إليهم قولاً وفعلاً. ويصلون ما بينهم وبين الأزواج والأصحاب والماليك، بأداء حقهم كاملاً موفراً، من الحقوق الدينية والدنيوية.

والسبب الذي يجعل العبد أصلاً ما أمر الله به أن يوصل، خشية الله وخوف يوم الحساب، ولهذا قال: ﴿ويخشون ربهم﴾ أي: يخافونه،

ثوابه، وغير مستجيب، فذكر عقابه فقال: ﴿للذين استجابوا لربهم﴾ أي: انقادت قلوبهم للعلم والإيمان، وجوارحهم للأمر والنهي، وصاروا موافقين لربهم فيما يريد منهم، فلهم ﴿الحسنى﴾ أي: الحالة الحسنة، والثواب الحسن.

فلهم من الصفات أجلها، ومن المناقب أفضلها ومن الثواب العاجل والآجل ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿والذين لم يستجيبوا له﴾ بعد ما ضرب لهم الأمثال، وبين لهم الحق، لهم الحالة غير الحسنة، ذ ﴿لو أن لهم ما في الأرض جميعاً﴾ من ذهب وفضة وغيرها، ﴿ومثله معه لافتدوا به﴾ من عذاب يوم القيامة، ما تقبل منهم، وأتى لهم ذلك!!!

﴿أولئك لهم سوء الحساب﴾ وهو الحساب الذي يأتي على كل ما أسلفوه من عمل سيئ، وما ضيعوه من حقوق الله وحقوق عباده قد كتب ذلك وسطر عليهم، وقالوا: ﴿يا ويلتنا مال هذا الكتاب، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾ ﴿و﴾ بعد هذا الحساب السيئ ﴿مأواهم جهنم﴾ الجامعة لكل عذاب، من الجوع الشديد، والعطش الوجيع، والنار الحامية، والزقوم، والزمهرير، والضريع، وجميع ما ذكره الله من أصناف العذاب، ﴿وبئس المهاد﴾ أي: المقر والمسكن مسكنهم.

﴿١٩ - ٢٤﴾ ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى﴾ إنما يتذكر أولو الألباب \* الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق \* والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب \* والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويلذون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار \* جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون

﴿١٧﴾ ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً وما يؤقنون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال﴾ شبه تعالى الهدى الذي أنزله على رسوله حياة القلوب والأرواح، بالماء الذي أنزله حياة الأشباح، وشبه ما في الهدى من النفع العام الكثير الذي يضطر إليه العباد، بما في المظر من النفع العام الضروري، وشبه القلوب الخاملة للهدى وتفاوتها بالأودية التي تسيل فيها السيول، فوادٍ كبير يسع ماء كثيراً، كقلب كبير يسع علماً كثيراً، ووادٍ صغير يأخذ ماء قليلاً، كقلب صغير، يسع علماً قليلاً، وهكذا.

وشبه ما يكون في القلوب من الشهوات والشبهات عند وصول الحق إليها، بالزبد الذي يعلو الماء، ويعلو ما يؤقن عليه النار من الحلية التي يراد تخليصها وسبكها، وأنها لا تزال فوق الماء طافية مكبرة له، حتى تذهب وتضمحل، ويبقى ما ينفع الناس من الماء الصافي والحلية الخالصة.

كذلك الشبهات والشهوات، لا يزال القلب يكرهها، ويجهدها بالبراهين الصادقة، والإرادات الجازمة، حتى تذهب وتضمحل ويبقى القلب خالصاً صافياً، ليس فيه إلا ما ينفع الناس من العلم بالحق وإيثاره، والرغبة فيه، فالباطل يذهب ويمحقه الحق إن الباطل كان زهوقاً وقال هنا: ﴿كذلك يضرب الله الأمثال﴾ ليتضح الحق من الباطل والهدى من الضلال.

﴿١٨﴾ ﴿للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد﴾ لما بين تعالى الحق من الباطل، ذكر أن الناس على قسمين: مستجيب لربه، فذكر



فيمنعهم خوفهم منه، ومن القدوم عليه يوم الحساب، أن يتجرؤوا على معاصي الله، أو يقصروا في شيء مما أمر الله به، خوفاً من العقاب ورجاء للثواب.

﴿والذين صبروا﴾ على المأمورات بالامتنال، وعن المنهيات بالانكفاف عنها والبعد منها، وعلى أقدار الله المؤلة بعدم تسخطها.

ولكن بشرط أن يكون ذلك الصبر ﴿ابتغاء وجه ربه﴾ لا لغير ذلك من المقاصد والأغراض الفاسدة، فإن هذا الصبر النافع الذي يحبس به العبد نفسه، طلياً لرضا ربه، ورجاء للمقرب منه، والحظوة بشوابه، وهو الصبر الذي من خصائص أهل الإيمان، وأما الصبر المشترك الذي غايته التجلد، ومنتهاه الفخر، فهذا يصدر من البر والفاجر، والمؤمن والكافر، فليس هو المدح على الحقيقة.

﴿وأقاموا الصلاة﴾ بأركانها، وشروطها ومكملاتها، ظاهراً وباطناً، ﴿وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية﴾ دخل في ذلك النفقات الواجبة كالزكوات والكفارات، والنفقات المستحبة، وأنهم ينفقون حيث دعت الحاجة إلى النفقة، سراً وعلانية، ﴿ويدرؤن بالحسنة السيئة﴾ أي: من أساء إليهم بقول أو فعل، لم يقابلوه بفعله، بل قابلوه بالإحسان إليه.

فيعطون من حرمهم، ويعفون عن ظلمهم، ويصلون من قطعهم، ويمسنون إلى من أساء إليهم، وإذا كانوا يقابلون المسيء بالإحسان، فما ظنك بغير المسيء؟!.

﴿أولئك﴾ الذين وصفت صفاتهم الجليلة ومناقبهم الجميلة ﴿لهم عقبى الدار﴾ فسر ما بقوله: ﴿جنات عدن﴾ أي: إقامة لا يزولون عنها، ولا يبغون عنها جواً، لأنهم لا يرون فوقها غاية لما اشتملت عليه من التعميم والسرور، الذي تنتهي إليه المطالب والغايات.

ومن غم نعيمهم وقرة أعينهم، أنهم ﴿يدخلونها ومن صلح من آبائهم﴾ من

الذكور والإناث ﴿وأزواجهم﴾ أي: الزوج أو الزوجة وكذلك النظراء والأشباه، والأصحاب والأحاب، فإنهم من أزواجهم وذرياتهم، ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب﴾ يهتوونهم بالسلامة، وكرامة الله لهم ويقولون: ﴿سلام عليكم﴾ أي: حلت عليكم السلامة والتحية من الله وحصلت لكم، وذلك متضمن لزوال كل مكروه، ومستلزم لحصول كل محبوب.

﴿بما صبرتم﴾ أي: صبركم هو الذي أوصلكم إلى هذه المنازل العالية، والجنان العالية، ﴿فتنم عقبى الدار﴾.

فحقيق بمن نصح نفسه وكان لها عنده قيمة، أن يجاهدها، لعلها تأخذ من أوصاف أولى الألباب بنصيب، لعلها تحظى بهذه الدار، التي هي منية النفوس، وسرور الأرواح الجامعة لجميع اللذات والأفراح، فلمثلها فيعمل العاملون، وفيها فليتنافس المتنافسون.

﴿٢٥﴾ ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ لما ذكر حال أهل الجنة، ذكر أن أهل النار بعكس ما وصفهم به، فقال عنهم: ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾ أي: من بعد ما أكد عليهم على أيدى رسله، وغلظه عليهم، فلم يقابلوه بالانقياد والتسليم، بل قابلوه بالإعراض والنقض، ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ فلم يصلوا ما بينهم وبين ربه بالإيمان والعمل الصالح، ولا وصلوا الأرحام ولا أدوا الحقوق، بل أفسدوا في الأرض بالكفر والمعاصي، والصد عن سبيل الله، وابتغائها عوجاً، ﴿أولئك لهم اللعنة﴾ أي: البعد والذم، من الله وملائكته وعباده المؤمنين، ﴿ولهم سوء الدار﴾ وهي: الجحيم، بما فيها من العذاب الأليم.

﴿٢٦﴾ ﴿الله ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة

الدنيا في الآخرة إلا متاع﴾ أي: هو وحده يوسع الرزق ويبسطه على من يشاء، ويقدره ويضيقه على من يشاء، ﴿وفرحوا﴾ أي: الكفار ﴿بالحياة الدنيا﴾ فرحاً، أوجب لهم أن يطمنوا بها، ويغفلوا عن الآخرة، وذلك لنقصان عقولهم، ﴿وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع﴾ أي: شيء حقير، يتمتع به قليلاً، ويفارق أهله وأصحابه، ويعقبهم ويلا طويلاً.

﴿٢٧ - ٢٩﴾ ﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب﴾ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم طوبى وحسن صاب﴾ يخبر تعالى أن الذين كفروا بآيات الله، يتعتنون على رسول الله، ويقترحون ويقولون: ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ وبزعمهم أنها لو جاءت لأمنوا، فأجابهم الله بقوله: ﴿قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب﴾ أي: طلب رضوانه، فليست الهداية والضلال بأيديهم، حتى يعملوا ذلك متوقفاً على الآيات، ومع ذلك فهم كاذبون، ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى، وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله، ولكن أكثرهم يجهلون﴾.

ولا يلزم أن يأتي الرسول بالآية التي يعينونها ويقترحونها، بل إذا جاءهم بآية تبين ما جاء به من الحق، كفى ذلك، وحصل المقصود، وكان أنفع لهم من طلبهم الآيات التي يعينونها، فإنها لو جاءتهم طبق ما اقترحوا، فلم يؤمنوا بها لعاجلهم العذاب، ثم ذكر تعالى علامة المؤمنين فقال:

﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾ أي: يزول قلقها واضطرابها، وتحضرها أفرحها ولذاتها.

﴿ألا يذكر الله تطمئن القلوب﴾ أي: حقيق بها، وخرئاً أن لا تطمئن لشيء سوى ذكره، فإنه لا شيء ألد

للقلوب ولا أشهى ولا أحلى من عبة خالقها، والأنس به ومعرفته، وعلى قدر معرفتها بالله ومحبتها له، يكون ذكرها له، هذا على القول بأن ذكر الله، ذكر العبد لربه، من تسبيح وتهليل وتكبير وغير ذلك.

وقيل: إن المراد بذكر الله كتابه الذي أنزله ذكرى للمؤمنين، فعل هذا معنى طمأنينة القلوب بذكر الله: أنها حين تعرف معاني القرآن وأحكامه نظمتم لها، فإنها تدل على الحق المبين المؤيد بالأدلة والبراهين، وبذلك تطمئن القلوب، فإنها لا تطمئن إلا باليقين والعلم، وذلك في كتاب الله، مضمون على أتم الوجوه وأكملها، وأما ما سواه من الكتب التي لا ترجع إليه، فلا تطمئن بها، بل لا تزال قلقة من تعارض الأدلة وتضاد الأحكام.

﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ وهذا إنما يعرفه من خير كتاب الله وتدبره، وتدبر غيره من أنواع العلوم، فإنه يجد بينها وبينه فرقاً عظيماً، ثم قال تعالى: ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي: آمنوا بقلوبهم بالله وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وصدقوا هذا الإيمان بالأعمال الصالحة، أعمال القلوب كمحبة الله وخشيته ورجائه، وأعمال الجوارح كالصلاة ونحوها، ﴿طوبى لهم وحسن مآب﴾ أي: لهم حالة طيبة، ومرجع حسن.

﴿٣١﴾ ﴿ولو أن قرأتاً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعاً أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد﴾ يقول تعالى مبيّناً فضل القرآن الكريم على سائر الكتب المنزلة: ﴿ولو أن قرأتاً﴾ من الكتب الإلهية ﴿سيرت به الجبال﴾ عن أماكنها ﴿أو قطعت به الأرض﴾ جناناً وأنهاراً ﴿أو كلم به الموتى﴾ لكان هذا القرآن. ﴿بل لله الأمر جميعاً﴾ فيأتي بالآيات التي تقتضيها حكمته، فما بال المكذبين يفترحون من الآيات ما يفترحون؟ فهل لهم أو لغيرهم من الأمر شيء؟.

وذلك بما ينالون من رضوان الله وكرامته في الدنيا والآخرة، وأن لهم كمال الراحة وتمام الطمأنينة، ومن جملة ذلك شجرة طوبى التي في الجنة، التي يسير الراكب في ظلها مئة عام ما يقطعها، كما وردت بها الأحاديث الصحيحة.

﴿٣٠﴾ ﴿كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أُمم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب﴾ يقول تعالى لتنبية محمد ﷺ ﴿كذلك أرسلناك﴾ إلى قومك تدعوهم إلى الهدى، ﴿قد خلت

من قبلها أُمم﴾ أرسلنا فيهم رسلنا، فلست ببعد من الرسل حتى يستنكروا رسالتك، ولست تقول من تلقاء نفسك، بل تتلو عليهم آيات الله التي أوحاها الله إليك، التي تطهر القلوب وتركي النفوس.

والحال أن قومك يكفرون بالرحمن، فلم يقابلوا رحمته وإحسانه - التي أعظمها أن أرسلناك إليهم رسولاً، وأنزلنا عليك كتاباً - بالقبول والشكر، وأنزلنا بها بالإنكار والرد، أفلا يعتبرون بمن خلا من قبلهم من القرون المكذبة، كيف أخذهم الله بذنوبهم، ﴿قل هو ربي لا إله إلا هو﴾ وهذا متضمن للتوحيدين، توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية.

فهو ربي الذي رباني بنعمه منذ أوجدني، وهو إلهي الذي ﴿عليه توكلت﴾ في جميع أموري ﴿وإليه متاب﴾ أي: أرجع في جميع عباداتي وفي حاجاتي.

﴿٣١﴾ ﴿ولو أن قرأتاً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعاً أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد﴾ يقول تعالى مبيّناً فضل القرآن الكريم على سائر الكتب المنزلة: ﴿ولو أن قرأتاً﴾ من الكتب الإلهية ﴿سيرت به الجبال﴾ عن أماكنها ﴿أو قطعت به الأرض﴾ جناناً وأنهاراً ﴿أو كلم به الموتى﴾ لكان هذا القرآن. ﴿بل لله الأمر جميعاً﴾ فيأتي بالآيات التي تقتضيها حكمته، فما بال المكذبين يفترحون من الآيات ما يفترحون؟ فهل لهم أو لغيرهم من الأمر شيء؟.



القوارع التي تصيبهم في ديارهم، أو تحل قريباً منها، وهم مصرون على كفرهم ﴿حتى يأتي وعد الله﴾ الذي وعدهم به، لنزول العذاب المتصل الذي لا يمسكن رفعه، ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ وهذا تهديد لهم وتخويف من نزول ما وعدهم الله به على كفرهم وعنادهم وظلمهم.

﴿٣٢﴾ ﴿ولقد استهزى برسول من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب﴾ يقول تعالى لرسوله - مبيّناً له ومسلماً - ﴿ولقد استهزى برسول من قبلك﴾ فلست أول رسول كذب وأوذي ﴿فأمليت للذين كفروا﴾ برسلمهم، أي: أمهلتهم مدة حتى ظنوا أنهم غير معذبين. ﴿ثم أخذتهم﴾ بأنواع العذاب ﴿فكيف كان عقاب﴾ كلان عقاباً شديداً وعذاباً أليماً، فلا يغتر هؤلاء الذين كذبوك واستهزؤوا بك بإمهالتنا، فلمهم أسوة فيمن قبلهم من الأمم، فليحذروا أن يفعل بهم كما فعل بأولئك.

﴿٣٣ - ٣٤﴾ ﴿أتمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض أم بظواهر من القول بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضلل الله فما له من هاد \* لهم عذاب في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله

وعربياً ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا واثق ﴿٣١﴾ أي: ولقد أنزلنا هذا القرآن والكتاب حكماً عربياً، أي: حكماً متقناً، بأوضح الألسنة وأفصح اللغات، لتلايق فيه شك واشتباه، وليوجب أن يتبع وحده، ولا يدهان فيه، ولا يتبع ما يصاده ويناقضه من أهواء الذين لا يعلمون.

ولهذا توعده رسوله - مع أنه معصوم - ليؤمن عليه بعصمته، ولتكون أمته أسوته في الأحكام، فقال: ﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم﴾ البيِّن الذي ينهاك عن اتباع أهوائهم، ﴿مالك من الله من ولي﴾ يتولاك فيحصل لك الأمر المحبوب، ﴿ولا واثق﴾ يتيقن من الأمر المكروه.

﴿٣٨ - ٣٩﴾ ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب﴾ يحمو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴿٣٩﴾ أي: لست أول رسول أرسل إلى الناس حتى يستغربوا رسالتك، ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية﴾ فلا يعيبك أعداؤك بأن يكون لك أزواج وذرية، كما كان لإخوانك المرسلين، فلا ي: شيء يقدحون فيك بذلك وهم يعلمون أن الرسل قبلك كذلك؛ إلا لأجل أغراضهم الفاسدة وأهوائهم؟، وإن طلبوا منك آية اقترحوها فليس لك من الأمر شيء.

﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله﴾ والله لا يأذن فيها إلا في وقتها الذي قدره وقضاه، ﴿لكل أجل كتاب﴾ لا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه، فليس استعجالهم بالآيات أو بالعذاب موجباً لأن يقدم الله ما كتب أنه يؤخر، مع أنه تعالى فعال لما يريد.

﴿يحمو الله ما يشاء﴾ من الأقدار ﴿ويثبت﴾ ما يشاء منها، وهذا المحو والتغيير في غير ما سبق به علمه وكتبه قلمه، فإن هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير، لأن ذلك محال على الله،

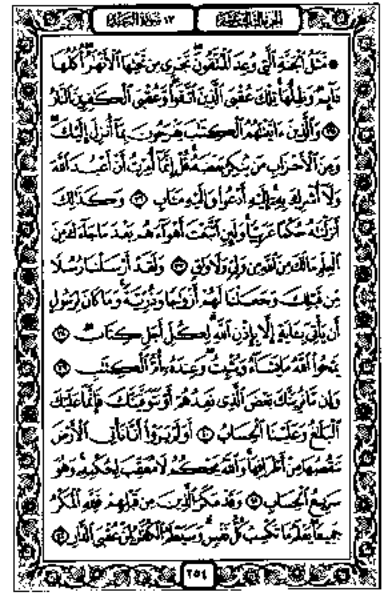
ولعذاب الآخرة أشق ﴿٣٢﴾ من عذاب الدنيا لشدته ودوامه، ﴿وما لهم من الله من واثق﴾ يسيبهم من عذاب الله، فعذابه إذا وجهه إليهم لا مانع منه.

﴿٣٥﴾ ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار﴾ يقول تعالى: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ الذين تركوا ما نهاهم الله عنه، ولم يفصروا فيما أمرهم به، أي: صفتها وحققتها ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ أنهار العسل، وأنهار الخمر، وأنهار اللبن، وأنهار الماء التي تجري في غير أخدود، فتسقي تلك البساتين والأشجار، فتحمل من جميع أنواع الثمار.

﴿أكلها دائم وظلها﴾ دائم أيضاً، ﴿تلك عقبى الذين اتقوا﴾ أي: عاقبتهم ومآلهم التي إليها يصيرون ﴿وعقبى الكافرين النار﴾ فكم بين الفريقين من الفرق الميِّن!!

﴿٣٦﴾ ﴿والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبٌ﴾ يقول تعالى: ﴿والذين آتيناهم الكتاب﴾ أي: مثلاً عليهم به وبمعرفته، ﴿يفرحون بما أنزل إليك﴾ فيؤمنون به ويصدقونه، ويفرحون بموافقة الكتب بعضها لبعض، وتصديق بعضها بعضاً، وهذه حال من آمن من أهل الكتابيين، ﴿ومن الأحزاب من ينكر بعضه﴾ أي: ومن طوائف الكفار المنحرفين عن الحق، من ينكر بعض هذا القرآن ولا يصدق.

﴿فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها﴾ إنما أنت يا محمد منذر تدعو إلى الله، ﴿قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به﴾ أي: بإخلاص الدين لله وحده، ﴿إليه أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبٌ﴾ أي: مرجعي الذي أرجع به إليه، فيجازيني بما قمت به من الدعوة إلى دينه، والقيام بما أمرت به. ﴿٣٧﴾ ﴿وكذلك أنزلناه حكماً



من واثق ﴿٣٣﴾ يقول تعالى: ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ بالجزاء العاجل والآجل، بالعدل والقسط، وهو الله تبارك وتعالى كمن ليس كذلك؟

ولهذا قال: ﴿وجعلوا لله شركاء﴾ وهو الله الأحد الفرد الصمد، الذي لا شريك له، ولا بُدَّ ولا نظير، ﴿قل﴾ لهم إن كانوا صادقين: ﴿سموهم﴾ لتعلم حالهم، ﴿أم تبتونهم بما لا يعلم في الأرض﴾ فإنه إذا كان عالم الغيب والشهادة، وهو لا يعلم له شريكاً، علم بذلك بطلان دعوى الشريك له، وأنكم بمنزلة الذي يُعَلِّمُ الله أن له شريكاً، وهو لا يعلمه، وهذا أبطل ما يكون، ولهذا قال: ﴿أم بظاهر من القول﴾ أي: غاية ما يمكن من دعوى الشريك له تعالى، أنه بظاهر أقوالكم.

وأما في الحقيقة، فلا إله إلا الله، وليس أحد من الخلق يستحق شيئاً من العبادة، ولكن ﴿زين للذين كفروا مكرهم﴾ الذي مكروه، وهو كفرهم وشركهم، وتكذيبهم لآيات الله، ﴿وصدوا عن السبيل﴾ أي: عن الطريق المستقيمة الموصلة إلى الله وإلى دار كرامته، ﴿ومن يضل الله فما له من هاد﴾ لأنه ليس لأحد من الأمر شيء.

﴿لهم عذاب في الحياة الدنيا

أن يقع في علمه نقص أو خلل، ولهذا قال: ﴿وعنده أم الكتاب﴾ أي: اللوح المحفوظ الذي ترجع إليه سائر الأشياء، فهو أصلها، وهي فروع له وشعب.

فالتغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب، كأعمال اليوم والليلة التي تكتبها الملائكة، ويجعل الله لشبوتها أسباباً، ولحواها أسباباً، لا تتعدى تلك الأسباب، ما رسم في اللوح المحفوظ، كما جعل الله البر والصلة والإحسان من أسباب طول العمر وسعة الرزق، وكما جعل المعاصي سبباً لحق بركة الرزق والعمر، وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب سبباً للسلامة. وجعل التعرض لذلك، سبباً للمعطب، فهو الذي يدبر الأمور بحسب قدرته وإرادته، وما يدبره منها لا يخالف ما قد علمه وكتبه في اللوح المحفوظ.

﴿٤٠ - ٤١﴾ ﴿وإن ما نرى منك بعض الذي نعدهم أو نتوفيك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ \* أولم يروا أنا تأتي الأرض نقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب \* يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : لا تعجل عليهم بإصابتهم ما يوردون به من العذاب، فهم إن استمروا على طغيانهم وكرههم، فلا بد أن يصيبهم ما وعدوا به، ﴿إما ترينك﴾ إياه في الدنيا، فتقر بذلك عينك، ﴿أو نتوفيك﴾ قبل إصابتهم، فليس ذلك سفلاً لك ﴿فإنما عليك البلاغ﴾ والتبيين للخلق.

﴿وعلى الحساب﴾ فنحاسب الخلق على ما قاموا به، مما عليهم، وضيعوه، وتسيهم أو نعامهم.

ثم قال متروعداً للمكذبين: ﴿أو لم يروا أنا تأتي الأرض نقصها من أطرافها﴾ قيل بإهلاك المكذبين واستئصال الظالمين، وقيل: بفتح بلدان المشركين، ونقصهم في أموالهم وأبدانهم، وقيل غير ذلك من الأقوال. والظاهر - والله أعلم - أن المراد

بذلك، أن أراضي هؤلاء المكذبين جعل الله يفتحها ويحتجها، ويجعل القوارع بأطرافها، تنبيهاً لهم قبل أن يفتحها ما لا يبرده أحد، ولهذا قال: ﴿والله يحكم لا معقب لحكمه﴾ ويدخل في هذا حكمه الشرعي والقنري والجزائي.

فهذه الأحكام التي يحكم الله فيها، توجد في غاية الحكمة والإتقان، لا خلل فيها ولا نقص، بل هي مبنية على القسط والعدل والحمد، فلا يتعقبها أحد ولا سبيل إلى القدرح فيها، بخلاف حكم غيره، فإنه قد يوافق الصواب، وقد لا يوافق، وهو سريع الحساب \* أي: فلا يستعجلوا بالعذاب، فإن كل ما هو آت، فهو قريب.

﴿٤٢ - ٤٣﴾ ﴿وقد مكر الذين من قبلهم فله المكر جميعاً يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار﴾ \* ويقول الذين كفروا لست مرسلًا قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب \* يقول تعالى: ﴿وقد مكر الذين من قبلهم﴾ برسلمهم، وبالخلق الذي جاءت به الرسل، فلم يغن عنهم مكرهم، ولم يصنعوا شيئاً، فإنهم يحاربون الله ويمارزونهم ﴿فلله المكر جميعاً﴾ أي: لا يقدر أحد أن يمكر مكرًا إلا بإذنه، وتحت قضائه وقدره، فإذا كانوا يمكرون بدينه، فإن مكرهم سيعود عليهم بالحقية والندم، فإن الله ﴿يعلم ما تكسب كل نفس﴾ أي: همومها وإراداتها وأعمالها الظاهرة والباطنة.

والمكر لا بد أن يكون من كسبها، فلا يخفى على الله مكرهم، فيمتنع أن يمكروا مكرًا يضر الحق وأهله، ويفيدهم شيئاً، ﴿وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار﴾ أي: ألهم أو لرسله؟ ومن المعلوم أن العقاب للمتقين، لا للكفر وأعماله.

﴿ويقول الذين كفروا لست مرسلًا﴾ أي: يكذبونك، ويكذبون ما أرسلت به، ﴿قل﴾ لهم - إن طلبوا

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ سَأَصْحَبُكَ اللَّهُ وَنَبِيِّنَّ وَنَتَكْتَفَى بِنُورِهِ إِنَّ نَارَ اللَّهِ كَأْسٍ مُنْجٍ لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَالَهُمْ حَتَّى تَسْتَرْضِعُوا لَهُمْ وَيَسْتَفِيضُونَ فِيهِمْ فَرَأَوْهُمُ كَالسَّيْفِ الْمُنْجِي الَّذِي كَفَرُوا بِهِمْ فَاسْتَفْتَاهُ فِيهِمْ فَنَقَصَهُمْ فِيهِمْ ۝٤٢ ۝٤٣ ۝٤٤ ۝٤٥ ۝٤٦ ۝٤٧ ۝٤٨ ۝٤٩ ۝٥٠ ۝٥١ ۝٥٢ ۝٥٣ ۝٥٤ ۝٥٥ ۝٥٦ ۝٥٧ ۝٥٨ ۝٥٩ ۝٦٠ ۝٦١ ۝٦٢ ۝٦٣ ۝٦٤ ۝٦٥ ۝٦٦ ۝٦٧ ۝٦٨ ۝٦٩ ۝٧٠ ۝٧١ ۝٧٢ ۝٧٣ ۝٧٤ ۝٧٥ ۝٧٦ ۝٧٧ ۝٧٨ ۝٧٩ ۝٨٠ ۝٨١ ۝٨٢ ۝٨٣ ۝٨٤ ۝٨٥ ۝٨٦ ۝٨٧ ۝٨٨ ۝٨٩ ۝٩٠ ۝٩١ ۝٩٢ ۝٩٣ ۝٩٤ ۝٩٥ ۝٩٦ ۝٩٧ ۝٩٨ ۝٩٩ ۝١٠٠

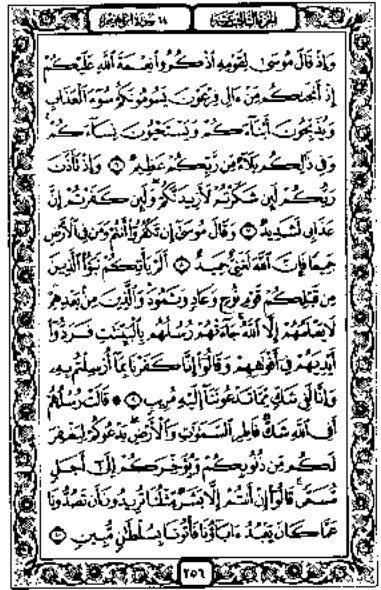
على ذلك شهيداً: ﴿كفى بالله شهيداً بيني وبينكم﴾ وشهادته بقوله وفعله وإقراره، أما قوله فيما أوحاه الله إلى أصدق خلقه، مما ثبت به رسالته.

وأما فعله فلأن الله تعالى أيد رسوله، ونصره نصرًا خارجاً عن قدرته وقدره أصحابه وأتباعه، وهذا شهادة منه له بالفعل والتأييد.

وأما إقراره، فإنه أخبر الرسول عنه أنه رسول، وأنه أمر الناس باتباعه، فمن اتبعه فله رضوان الله وكرامته، ومن لم يتبعه فله النار والسخط، وحل له ماله ودمه، والله يقره على ذلك، فلو تقول عليه بعض الأقاويل لعاجله بالعبوة.

﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ وهذا شامل لكل علماء أهل الكتابين، فإنهم يشهدون للرسول، من آمن، واتباع الحق، صرح بتلك الشهادة التي عليه، ومن كتم ذلك، فإخبار الله عنه أن عنده شهادة، أبلغ من خبره، ولو لم يكن عنده شهادة، لرد استشهاده بالبرهان، فسكوته يدل على أن عنده شهادة مكتومة.

وإنما أمر الله باستشهاد أهل الكتاب، لأنهم أهل هذا الشأن، وكل أمر إنما يستشهد فيه أهله، ومن هم أعلم به من غيرهم، بخلاف من هو أجنبي عنه، كالألميين من مشركي العرب وغيرهم، فلا فائدة في



استشهادهم لعدم خبرتهم ومعرفتهم - والله أعلم.

تم تفسير سورة الرعد،  
والحمد لله رب العالمين

**تفسير سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهي مكية**

﴿١ - ٣﴾ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إني صراط العزيز الحميد \* الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ويويل للكافرين من عذاب شديد \* الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويغفونها عوجاً أولئك في ضلال بعيد \* يخبر تعالى أنه أنزل كتابه على رسوله محمد ﷺ لنفع الخلق، ليخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر والأخلاق السيئة وأنواع المعاصي، إلى نور العلم والإيمان والأخلاق الحسنة، وقوله: ﴿بإذن ربهم﴾ أي: لا يحصل منهم المراد المحبوب لله، إلا بإرادة من الله ومعونة، ففيه حث للعباد على الاستعانة بربهم.

ثم فسر النور الذي يهديهم إليه هذا الكتاب، فقال: ﴿إلى صراط العزيز الحميد﴾ أي: الموصل إليه وإلى دار كرامته، المشتمل على العلم بالحق والعمل به، وفي ذكر «العزيز

الحميد» بعد ذكر الصراط الموصل إليه إشارة إلى أن من سلكه فهو عزيز بعز الله، قوي، ولو لم يكن له أنصار إلا الله، محمود في أموره، حسن العاقبة.

وليدل ذلك على أن صراط الله، من أكبر الأدلة على ما لله من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وأن الذي نصبه لعباده، عزيز السلطان، حميد في أقواله وأفعاله وأحكامه، وأنه مألوه معبود بالعبادات التي هي منازل الصراط المستقيم، وأنه كما أن له ملك السموات والأرض خلقاً ورزقاً وتديراً، فله الحكم على عباده بأحكامه الدينية، لأنهم ملكه، ولا يليق به أن يتركهم سدى، فلما بين الدليل والبرهان، توعد من لم ينقد لذلك، فقال: ﴿وويل للكافرين من عذاب شديد﴾ لا يقدر قدره، ولا يوصف أمره، ثم وصفهم بأنهم «الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة» فرضوا بها واطمأنوا، وغفلوا عن الدار الآخرة.

﴿ويصدون﴾ الناس عن سبيل الله التي نصبها لعباده، وبينها في كتبه وعلى السنة رسله، فهؤلاء قد نابذوا مولاهم بالمعاداة والمحاربة، ﴿ويغفونها﴾ أي: سبيل الله ﴿عوجاً﴾ أي: يحرضون على تهجينها وتقييها، للتفتير عنها، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

﴿أولئك﴾ الذين ذكر وصفهم ﴿في ضلال بعيد﴾ لأنهم ضلوا وأضلوا، وشاقوا الله ورسوله وحاربهما، فأبى: ضلال أبعد من هذا!، وأما أهل الإيمان فبعكس هؤلاء، يؤمنون بالله وآياته، ويستحبون الآخرة على الدنيا، ويدعون إلى سبيل الله ويمسنونها مهما أمكنهم، ويبينون استقامتها.

﴿٤﴾ ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيفضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم﴾ وهذا من لطفه بعباده، أنه ما أرسل رسولا إلا بلسان قومه، ليبين لهم ما يحتاجون إليه، ويتمكنون من

تعلم ما أتى به، بخلاف ما لو كانوا على غير لسانهم، فإنهم يحتاجون إلى أن يتعلموا تلك اللغة التي يتكلم بها، ثم يفهمون عنه، فإذا بين لهم الرسول ما أمروا به، ونهوا عنه، وقامت عليهم حجة الله ﴿فيضل الله من يشاء﴾ من لم ينقد للهدى، ويهدي من يشاء عن اختصاصه برحمته.

﴿وهو العزيز الحكيم﴾ الذي - من عزته - أنه انفراد بالهداية والإضلال، وتقليب القلوب إلى ما شاء، ومن حكمته أنه لا يضع هدايته ولا إضلاله إلا بالمحل اللائق به.

ويستدل بهذه الآية الكريمة على أن علوم الحرية الموصلة إلى تبيين كلامه وكلام رسوله أمور مطلوبة بحوية الله، لأنه لا يتم معرفة ما أنزل على رسوله إلا بها.

إلا إذا كان الناس بحالة لا يحتاجون إليها، وذلك إذا غرثوا على العربية، ونشأ عليها صغيرهم، وصارت طبيعة لهم، فحيشد قد اكتشفوا المؤنة، وصلحوا لأن يتلقوا عن الله وعن رسوله ابتداء، كما تلقى عنهم الصحابة رضي الله عنهم.

﴿٥ - ٨﴾ ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور \* وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم \* وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد \* وقال موسى إن تكفروا أتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حديد \* يخبر تعالى: أنه أرسل موسى بآياته العظيمة الدالة على صدق ما جاء به وصحته، وأمره بما أمر الله به رسوله محمداً ﷺ، بل وبما أمره به جميع الرسل قومهم، ﴿أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور﴾ أي: ظلمات الجهل والكفر وفروعه، إلى نور العلم والإيمان وتوابعه، وذكرهم

بلسان قومه ليبين لهم فيفضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم﴾ وهذا من لطفه بعباده، أنه ما أرسل رسولا إلا بلسان قومه، ليبين لهم ما يحتاجون إليه، ويتمكنون من

بأيام الله ﴿ أي : بنعمته عليهم ، وإحسانه إليهم وبأيامه في الأمم المكذبين ، ووقائعهم بالكافرين ، ليذكروا نعمه ، وليحذروا عقابه ، ﴿ إن في ذلك ﴾ أي : في أيام الله على العباد صبار لكل صبار شكور ﴿ أي : صبار في الضراء والعسر والضيق ، شكور على السراء والنعمة .

فإنه يستدل بأيامه على كمال قدرته وعميم إحسانه ، ونظام عدله وحكمته ، ولهذا امتثل موسى عليه السلام أمر ربه ، فذكرهم نعم الله فقال : ﴿ اذكروا نعمة الله عليكم ﴾ أي : بقلوبكم وألسنتكم . ﴿ إذ أنجاهم من آل فرعون يسومونكم ﴾ أي : يولونكم ﴿ سوء العذاب ﴾ أي : أشده ، وفسر ذلك بقوله : ﴿ ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴾ أي : يمتحنون فلا يقتلونهم ، ﴿ وفي ذلك ﴾ الإنجاه ﴿ بلاء من ربكم عظيم ﴾ أي : نعمة عظيمة ، أو وفي ذلكم العذاب الذي ابتليتم به من فرعون وملئه ابتلاء من الله عظيم لكم ، لينظر هل تصبرون أم لا ؟

وقال لهم حاثاً على شكر نعم الله : ﴿ وإذ تأذن ربكم ﴾ أي : أعلم ووعد ، ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ من نعمي ﴿ ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾ ومن ذلك أن يزيل عنهم النعمة التي أنعم بها عليهم . والشكر : هو اعتراف القلب بنعم الله ، والشناء على الله بها ، وصرفها في مرضاة الله تعالى . وكفر النعمة ضد ذلك .

﴿ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فلن تضروا الله شيئاً ﴾ فإن الله لغني حميد ﴿ فالطاعات لا تزيد في ملكه ، والمعاصي لا تنقصه ، وهو كامل الغنى ، حميد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، ليس له من الصفات إلا كل صفة حمد وكمال ، ولا من الأسماء إلا كل اسم حسن ، ولا من الأفعال إلا كل فعل جميل .

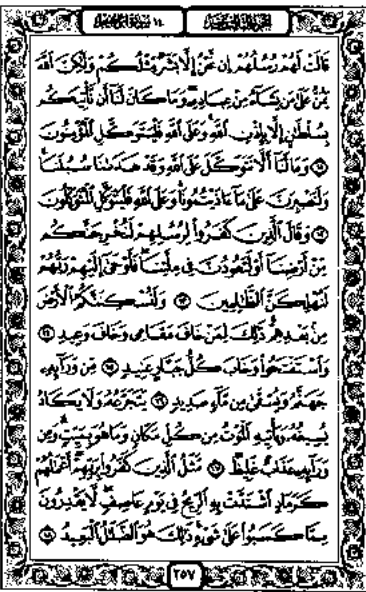
﴿ ٩ - ١٢ ﴾ ﴿ ألم يأتكم نبي الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءهم من رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في

أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلناهم به وإنا لنفي شك مما تدعوننا إليه مريب \* قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فاتنونا بسلطان مبين \* قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمشي على من يشاء من عباده وما كان لنا أن تأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون \* ومالنا إلا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آتيتونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴿ يقول تعالى عرفاً عباده ما أحله بالأمم المكذبة حين جاءتهم الرسل ، فكذبوهم ، فعاقبهم بالعقاب العاجل الذي رآه الناس وسموه فقال : ﴿ ألم يأتكم نبي الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود ﴾ وقد ذكر الله قصصهم في كتابه وسطها ، ﴿ والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ﴾ من كثرتهم ، وكون أخبارهم اندرست .

فهؤلاء كلهم ﴿ جاءهم رسلهم بالبينات ﴾ أي : بالأدلة الدالة على صدق ما جاؤوا به ، فلم يرسل الله رسولاً إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر ، فحين أتتهم رسلهم بالبينات لم ينقادوا لها ، بل استكبروا عنها ، ﴿ فردوا أيديهم في أفواههم ﴾ أي : لم يؤمنوا بما جاؤوا به ، ولم يتفوهوا بشيء مما يدل على الإيمان كقوله ﴿ جعلوا أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت ﴾ .

﴿ وقالوا ﴾ صريحاً لرسلهم : ﴿ إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لنفي شك مما تدعوننا إليه مريب ﴾ أي : مروع في الريبة ، وقد كذبوا في ذلك وظلموا .

ولهذا ﴿ قالت ﴾ لهم ﴿ رسلهم أفي الله شك ﴾ أي : فإنه أظهر الأشياء وأجلاها ، فمن شك في الله ﴿ فاطر السماوات والأرض ﴾ الذي وجود الأشياء مستند إلى وجوده ، لم يكن عنده ثقة بشيء من المعلومات ، حتى الأمور



المحسوسة ، ولهذا خاطبتهم الرسل خطاب من لا يشك فيه ولا يصلح الريب فيه ﴿ يدعوكم ﴾ إلى منافعتكم ومصالحكم ﴿ ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ أي : ليبيكم على الاستجابة لدعوته بالثواب العاجل والأجل ، فلم يدعم لينتفع بعبادتكم ، بل النفع عائد إليكم .

فردوا على رسلهم رد السفهاء الجاهلين ﴿ وقالوا ﴾ لهم : ﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ أي : فكيف تفضلوننا بالنبوة والرسالة ، ﴿ تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ﴾ فكيف نترك رأي : الآباء وسيرتهم لرأيكم ؟ وكيف نطيعكم وأنتم بشر مثلنا ؟

﴿ فاتنونا بسلطان مبين ﴾ أي : بحجة وبينة ظاهرة ، ومرادهم بينة يقترحونها هم ، وإلا فقد تقدم أن رسلهم جاءتهم بالبينات .

﴿ قالت لهم رسلهم ﴾ مجيبين عن اقتراحهم واعتراضهم : ﴿ إن نحن إلا بشر مثلكم ﴾ أي : صحيح وحقيقة ، أننا بشر مثلكم ، ﴿ ولكن ﴾ ليس في ذلك ما يدفع ما جئنا به من الحق ، فإن ﴿ الله يمشي على من يشاء من عباده ﴾ فإذا من الله علينا بوحيه ورسالته ، فلذلك فضله وإحسانه ، وليس لأحد أن يحجر على الله فضله ويمنعه من تفضله .

فانظروا ما جئناكم به ، فإن كان حقاً فاقبلوه ، وإن كان غير ذلك فردوه

ذلك، وعدم مللهم، ذكر منتهى ما وصلت بهم الحال مع قومهم فقال: ﴿وقال الذين كفروا لرسولهم﴾ متوعدين لهم - ﴿لنخرجنكم من أرضنا أو لنعودن في ملتنا﴾ وهذا أبلغ ما يكون من الرد، وليس بعد هذا فيهم مطمع، لأنه ما كفاهم أن أعرضوا عن الهدى، بل توعدهم بالإخراج من ديارهم ونسبوا إلى أنفسهم، وزعموا أن الرسل لا حق لهم فيها، وهذا من أعظم الظلم، فإن الله أخرج عباده إلى الأرض وأمرهم بعبادته، وسخر لهم الأرض وما عليها يستعينون بها على عبادة.

فمن استعان بذلك على عبادة الله، حل له ذلك وخرج من التبعة، ومن استعان بذلك على الكفر وأنواع المعاصي، لم يكن ذلك خالصاً له، ولم يحل له، فعلم أن أعداء الرسل في الحقيقة ليس لهم شيء من الأرض التي توعدها الرسل بإخراجهم منها. وإن رجعنا إلى مجرد العادة فإن الرسل من جملة أهل بلادهم، وأفراد منهم، فلا شيء يمنعهم حقاً لهم صريحاً واضحاً؟ هل هذا إلا من عدم الدين والمروءة بالكلية؟

ولهذا لما انتهى مكرهم بالرسول إلى هذه الحال، ما بقي حيثش إلا أن يمضى الله أمره، وينصر أوليائه، ﴿فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين﴾ بأنواع العقوبات.

﴿ولنسكننكم الأرض من بعدهم﴾ ذلك أي: العاقبة الحسنة التي جعلها الله للرسول ومن تبعهم جزاء ﴿لن خاف مقامي﴾ عليه في الدنيا، وراقب الله مراقبة من يعلم أنه يراه، ﴿وخاف وعيد﴾ أي: ما توعدت به من عصاني، فأوجب له ذلك الانكفاف عما يكرهه الله، والمبادرة إلى ما يحبه الله.

﴿واستفتحوا﴾ أي: الكفار، أي: هم الذين طلبوا واستعجلوا فتح الله وفرقانه بين أوليائه وأعدائه، فجاءهم ما استفتحوا به، وإلا فالله حلیم

عليهم الصلاة والسلام لقومهم، بآية عظيمة، وهو أن قومهم - في الغالب - لهم القهر والغلبة عليهم، فتحنتهم رسولهم بأنهم متوكلون على الله، في دفع كيدكم ومكركم، وجازمون بكفائته إياهم، وقد كفاهم الله شرهم مع حرصهم على إنلافهم وإطفاء ما معهم من الحق، فيكون هذا كقول نوح لقومه: ﴿يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري فأجعبوا﴾ فعل الله توكلت، فأجعبوا أمركم وشركاءكم، ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة، ثم اقضوا إلي ولا تنظرون﴾ الآيات.

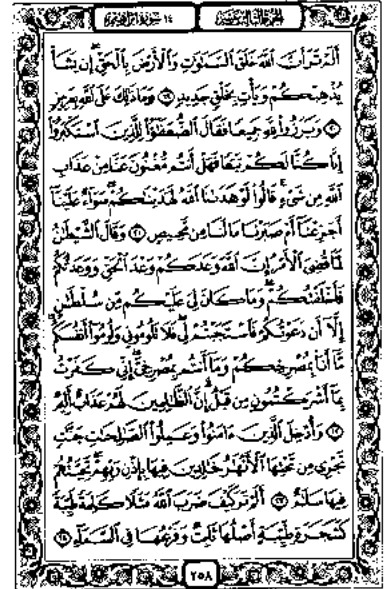
وقول هود عليه السلام قال: ﴿إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون﴾.

﴿ولنصبرن على ما آذيتونا﴾ أي: ولنستمرن على دعوتكم ووعظكم وتذكيركم، ولا نبالي بما يأتينا منكم من الأذى، فإننا سنوطن أنفسنا على ما ينالنا منكم من الأذى، احتساباً للأجر، ونصحاً لكم، لعل الله أن يهديكم مع كثرة التذكير.

﴿وعلى الله﴾ وحده لا على غيره ﴿فليتوكل المتوكلون﴾ فإن التوكل عليه مفتاح لكل خير.

واعلم أن الرسل عليهم الصلاة والسلام توكلهم في أعلى المطالب وأشرف المراتب، وهي التوكل على الله في إقامة دينه ونصره، وهداية عبئده، وإزالة الضلال عنهم، وهذا أكمل ما يكون من التوكل.

﴿١٣ - ١٧﴾ ﴿وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجنكم من أرضنا أو لنعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين﴾ \* ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد \* واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد \* من ورثه جهنم ويسقى من ماء صديد \* يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بهيت ومن ورثه عذاب غليظ﴾ ما ذكر دعوة الرسل لقومهم ودوامهم على



ولا تجعلوا حالنا حجة لكم على رد ما جئناكم به، وقولكم: ﴿فأنتونا سلطان ميين﴾ فإن هذا ليس بأيدينا، وليس لنا من الأمر شيء.

﴿وما كان لنا أن نأتيكم سلطان إلا بإذن الله﴾ فهو الذي إن شاء جاءكم به، وإن شاء لم يأتكم به، وهو لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته ورحمته، ﴿وعلى الله﴾ لا على غيره ﴿فليتوكل المؤمنون﴾ فيعتمدون عليه في جلب مصالحهم ودفع مضارهم، لعلمهم بتمام كفايته وكمال قدرته، وعميم إحسانه، ويتقون به في تيسير ذلك، وبحسب ما معهم من الإيمان يكون توكلهم.

فعلم بهذا وجوب التوكل، وأنه من لوازم الإيمان، ومن العبادات الكبار التي يحبها الله ويرضاها، لتوقف سائر العبادات عليه، ﴿وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا﴾.

أي: أي شيء يمنعنا من التوكل على الله، والحال أننا على الحق والهدى، ومن كان على الحق والهدى، فإن هداية يوجب له تمام التوكل، وكذلك ما يعلم من أن الله متكفل بمعونة المهتدي وكفايته، يدعو إلى ذلك، بخلاف من لم يكن على الحق والهدى، فإنه ليس ضامناً على الله، فإن حاله مناقضة لحال التوكل.

وفي هذا كإشارة من الرسل

لا يعاجل من عصاه بالعقوبة،  
«وخاب كل جبار عنيد» أي: خسر  
في الدنيا والآخرة من تجبر على الله  
وعلى الحق وعلى عباد الله، واستكبر  
في الأرض، وعاند الرسل وشاقهم.

«من ورثه جهنم» أي: جهنم لهذا  
الجبار العنيد بالمرصاد، فلا بد له من  
ورودها، فيذاق حيثشذ العذاب  
الشديد، «ويسقى من ماء صديد» في  
لونه وطعمه ورائحته الخبيثة، وهو في  
غاية الحرارة.

«ينجرعه» من العطش الشديد  
«ولا يكاد يسيفه» فإنه إذا قرب إلى  
وجهه شواه، وإذا وصل إلى بطنه قطع  
ما أتى عليه من الأمعاء، «ويأتيه الموت  
من كل مكان وما هو بميت» أي: يأتيه  
العذاب الشديد من كل نوع من أنواع  
العذاب، وكل نوع منه من شدته يبلغ  
إلى الموت، ولكن الله قضى أن  
لا يموتوا كما قال تعالى: «لا يقضى  
عليهم فيموتوا ولا يحقق عنهم من  
عذابها كذلك نجزي كل كفور» وهم  
يصرخون فيها.

«ومن ورثه» أي: الجبار العنيد  
«عذاب غليظ» أي: قوي شديد،  
لا يعلم وصفه وشدته إلا الله تعالى.

«١٨» «مثل الذين كفروا بربهم  
أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم  
عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء  
ذلك هو الضلال البعيد» يجبر تعالى عن  
أعمال الكفار التي عملوها: إما أن  
المراد بها الأعمال التي عملوها لله،  
بأنها في ذهابها وبطلانها واضمحلالها  
كاضمحلال الرماد، الذي هو أدق  
الاشياء وأخفها، إذا اشتدت به الريح  
في يوم عاصف شديد الهبوب، فإنه  
لا يبقى منه شيئاً، ولا يقدر منه على  
شيء يذهب ويضمحل، فكذلك  
أعمال الكفار «لا يقدرون مما كسبوا  
على شيء» ولا على مثقال ذرة منه،  
لأنه مبني على الكفر والتكذيب.

«ذلك هو الضلال البعيد» حيث  
بطل سعيهم، واضمححل عملهم، وإما  
أن المراد بذلك أعمال الكفار التي  
عملوها ليكيدوا بها الحق، فإنهم

يسعون ويكدحون في ذلك، ومكرهم  
عائد عليهم، ولن يضروا الله ورسله  
وجننه وما معهم من الحق شيئاً.

«١٩ - ٢١» «ألم تر أن الله خلق  
السموات والأرض بالحق إن يشأ  
يذهبكم ويأت بخلق جديد \* وما ذلك  
على الله بعزيز \* وبرزوا لله جميعاً فقال  
الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم  
تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله  
من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم  
سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من  
محيص \* ينه تعالى عباده بأنه «خلق  
السموات والأرض بالحق» أي:

ليعبده الخلق ويعرفوه، ويأمرهم  
وينهاهم، وليستدلوها وما فيها  
على ماله من صفات الكمال، وليعلموا  
أن الذي خلق السموات والأرض -  
على عظمهما وسعتهما - قادر على أن  
يعيدهم خلقاً جديداً، ليجازيهم  
بإحسانهم وإساءتهم، وأن قدرته  
ومشيئته لا تقصر عن ذلك، ولهذا  
قال: «إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق  
جديد»

يحتمل أن المعنى: إن يشأ يذهبكم  
ويأت بقوم غيركم، يكونون أطوع لله  
منكم، ويحتمل أن المراد أنه: إن يشأ  
يفنيكم ثم يعيدهم بالبعث خلقاً  
جديداً، ويدل على هذا الاحتمال ما  
ذكره بعده من أحوال القيامة.

«وما ذلك على الله بعزيز» أي:  
بممتنع بل هو سهل عليه جداً، «ما  
خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة»  
«وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو  
أهون عليه».

«وبرزوا» أي: الخلائق لله  
جميعاً حين ينتفخ في الصور،  
فيخرجون من الأجداث إلى ربهم،  
فيقفون في أرض مستوية قاع  
صفصف، لا ترى فيها عرجاً  
ولا أمتاً، ويرزون له لا يخفى [عليه]  
منهم خافية، فإذا برزوا صاروا  
يتحاجون، وكل يدفع عن نفسه،  
ويدافع ما يقدر عليه، ولكن أتى لهم  
ذلك؟

فيقول «الضعفاء» أي: التاهمون



والمقلدون «الذين استكبروا» وهم:  
المتبوعون الذين هم قادة في الضلال:  
«إنا كنا لكم تبعا» أي: في الدنيا،  
أمرتمونا بالضلال، وزينتموه لنا  
فأغويناكم، «فهل أنتم مغنون عنا من  
عذاب الله من شيء» أي: ولو مثقال  
ذرة، «قالوا» أي: المتبوعون  
والرؤساء «أغويناكم كما غوينا»  
و «لو هدانا الله لهديناكم» فلا يعني  
أحد أحداً، «سواء علينا أجزعنا» من  
العذاب «أم صبرنا» عليه، «ما لنا من  
محيص» أي: من ملجأ نلجأ إليه،  
ولا مهرب لنا من عذاب الله.

«٢٢ - ٢٣» «وقال الشيطان لما  
قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق  
ووعدتكم فأخلفتم وما كان لي عليكم  
من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي  
فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا  
بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني  
كفرت بما أشركتمون من قبل إن  
الظالمين لهم عذاب أليم \* وأدخل  
الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات  
 تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن  
ربهم تحببتهم فيها سلام» أي: «وقال  
الشيطان» الذي هو سبب لكل شريق  
ووقع في العالم، غطاباً لأهل النار  
ومتبرئاً منهم «لما قضى الأمر» ودخل  
أهل الجنة الجنة وأهل النار النار.  
«إن الله وعدكم وعد الحق» على السنة  
رسله، فلم تطيعوه، فلو أطمعتموه



بإذن ربها ﴿ فكذلك شجرة الإيمان، أصلها ثابت في قلب المؤمن، علماً واعتقاداً. وفرعها من الكلم الطيب، والعمل الصالح، والأخلاق المرضية، والآداب الحسنة، في السماء دائماً، يصعد إلى الله منه من الأعمال والأقوال التي تخرجها شجرة الإيمان، ما ينتفع به المؤمن وينفع غيره، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴾ ما أمرهم به ونهاهم عنه، فإن في ضرب الأمثال تقريباً للمعاني المعقولة من الأمثال المحسوسة، ويتبين المعنى الذي أراد الله غاية البيان، وتوضح غاية الوضوح، وهذا من رحمة وحسن تعليمه. فله أتم الحمد وأكمله وأعمه، فهذه صفة كلمة التوحيد وثباتها، في قلب المؤمن.

ثم ذكر ضدّها وهي كلمة الكفر وفروعها، فقال: ﴿ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة﴾ المأكّل والمطعم، وهي: شجرة الحنظل ونحوها، ﴿اجتشت﴾ هذه الشجرة ﴿من فوق الأرض ما لها من قرار﴾ أي: من ثبوت، فلا عروق تمسكها، ولا ثمرة صالحة، تنتجها، بل إن وجد فيها ثمرة، فهي ثمرة خبيثة، كذلك كلمة الكفر والمعاصي، ليس لها ثبوت نافع في القلب، ولا تنمر إلا كل قول خبيث وعمل خبيث، يستضر به صاحبه ولا ينتفع، فلا يصعد إلى الله منه عمل صالح، ولا ينفع نفسه ولا ينتفع به غيره.

﴿٢٧﴾ ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾ يخبر تعالى أنه يثبت عباده المؤمنين، أي: الذين قاموا بما عليهم من إيمان القلب التام، الذي يستلزم أعمال الجوارح ويشمرها، فيثبتهم الله في الحياة الدنيا، عند ورود الشبهات بالهداية إلى اليقين، وعند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة، على تقديم ما يحبه الله على هوى النفس ومراداتها.

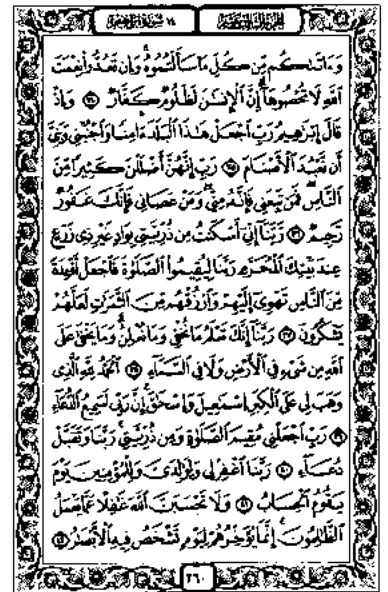
ويكفر بشركهم ﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾.

واعلم أن الله ذكر في هذه الآية أنه ليس له سلطان، وقال في آية أخرى ﴿إنما سلطانه على الذين يتولونه، والذين هم به مشركون﴾ فالسلطان الذي نفاه عنه هو سلطان المحجة والدليل، فليس له حجة أصلاً على ما يدعو إليه، وإنما نهاية ذلك أن يقيم لهم من الشبه والتزيينات ما به يتجروون على المعاصي.

وأما السلطان الذي أثبتته، فهو التسلط بالأغراء على المعاصي لأوليائه يؤرّمهم إلى المعاصي أژأ، وهم الذين سلطوه على أنفسهم بمولاته والالتحاق بحزبه، ولهذا ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون.

ولما ذكر عقاب الظالمين ذكر ثواب الطائعين فقال: ﴿وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي: قاموا بالدين، قولاً، وعملاً، واعتقاداً، ﴿جنت تجري من تحتها الأنهار﴾ فيها من اللذات والشهوات، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿خالدين فيها بإذن ربهم﴾ أي: لا يحولهم وقوتهم بل بحول الله وقوته ﴿مخبتهم فيها سلام﴾ أي: يجيئ بعضهم بعضاً بالسلام، والتحية، والكلام الطيب.

﴿٢٤ - ٢٦﴾ ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء \* تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون \* ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار﴾ يقول تعالى: ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة﴾ وهي شهادة أن لا إله إلا الله، وفروعها، ﴿كشجرة طيبة﴾ وهي النخلة ﴿أصلها ثابت﴾ في الأرض ﴿وفرعها﴾ منتشر ﴿في السماء﴾ وهي كثيرة النفع دائماً، ﴿تؤتي أكلها﴾ أي: ثمرتها ﴿كل حين



لأدرتكم الفوز العظيم، ﴿ووعدتكم الخير﴾ فأخلفتكم﴾ أي: لم يحصل ولن يحصل لكم ما منيتكم به من الأماني الباطلة.

﴿وما كان لي عليكم من سلطان﴾ أي: من حجة على تأييد قولي، ﴿إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾ أي: هذا نهاية ما عندي، أي دعوتكم إلى مرادي وزينته لكم، فاستجبتم لي اتباعاً لأهوائكم وشهواتكم، فإذا كانت الحال بهذه الصورة ﴿فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾ فأنتم السبب، وعليكم المدار في موجب العقاب، ﴿ما أنا بمصرخكم﴾ أي: بمينيتكم من الشدة التي أنتم بها ﴿وما أنتم بمصرخي﴾ كل له قسط من العذاب.

﴿إن كفرت بما أشركتمون من قبل﴾ أي: تبرأت من جعلكم لي شريكاً مع الله، فلست شريكاً لله، ولا تحب طاعتي، ﴿إن الظالمين لأنفسهم بطاعة الشيطان﴾ لهم عذاب اليم ﴿خالدين فيه أبداً﴾.

وهذا من لطف الله بعباده، أن حذرهم من طاعة الشيطان، وأخبر بمدخله التي يدخل منها على الإنسان ومقاصده فيه، وأنه يقصد أن يدخله النيران، وهنا بين لنا أنه إذا دخل النار وحزبه<sup>(١)</sup>، أنه يبرأ منهم هذه البراءة،

(١) في ب: وجنّه.

﴿وسخر لكم الأنهار﴾ لتسقي حروثكم وأشجاركم، وتشربوا منها.

﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين﴾ لا يفتران، ولا يئبان، يسعيان لمصالحكم، من حساب أزممتكم ومصالح أبدانكم، وحيواناتكم، وزروعكم، وثماركم، ﴿وسخر لكم الليل﴾ لتسكنوا فيه ﴿والنهار﴾ مبصراً، لتبتغوا من فضله.

﴿وأتاكم من كل ما سألتموه﴾ أي: أعطاكم من كل ما تعلقت به أمانيتكم وحاجتكم، مما تسألونه إياه بلسان الحال، أو بلسان المقال، من أتعام، وآلات، وصناعات وغير ذلك، ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ فضلاً عن قيامكم بشكرها ﴿إن الإنسان لظلوم كفار﴾ أي: هذه طبيعة الإنسان من حيث هو ظالم متجربى على المعاصي، مقصر في حقوق ربه، كفّار لنعم الله، لا يشكرها ولا يعترف بها، إلا من هداه الله فشكر نعمه، وعرف حق ربه وقام به.

ففي هذه الآيات من أصناف نعم الله على العباد شيء عظيم، مجمل ومفصل، يدعو الله به العباد إلى القيام بشكره وذكره، ويحثهم على ذلك، ويرغبهم في سؤاله ودعائه، أثناء الليل والنهار، كما أن نعمه تتكرر عليهم في جميع الأوقات.

﴿٣٥﴾ ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً﴾ أي: ﴿و﴾ اذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام في هذه الحالة الجميلة، إذ قال: ﴿رب اجعل هذا البلد﴾ أي: الحرم ﴿آمناً﴾ فاستجاب الله دعاءه شرعاً وقدرأ، فحرمه الله في الشرع، ويسّر من أسباب حرمة قدرأ ما هو معلوم، حتى إنه لم يُرَدَّ ظالم بسوءه إلا قسمه الله كما فعل بأصحاب القليل وغيرهم.

ولما دعا له بالأمن، دعا له ولبنيه بالأمن فقال: ﴿واجنبي وبني أن نعبد الأصنام﴾ أي: اجعلني وإياهم، جانباً بعيداً عن عبادتها، والإمام بها، ثم ذكر الموجب لحوقه عليه وعلى بنيه، بكثرة من افتتن وأبتلي بعبادتها، فقال:

﴿تمتعوا﴾ بكفركم وضلالكم قليلاً، فليس ذلك بنافعكم ﴿فإن مصيركم إلى النار﴾ أي: مآلكم ومقركم ومأواكم فيها وبئس المصير.

﴿٣١﴾ ﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلاق﴾ أي: قل لعبادي المؤمنين أمراً لهم بما فيه غاية صلاحهم، وأن ينتهزوا الفرصة، قبل أن لا يمكنهم ذلك: ﴿يقيموا الصلاة﴾ ظاهراً وباطناً ﴿وينفقوا مما رزقناهم﴾ أي: من النعم التي أنعمنا بها عليهم، قليلاً أو كثيراً ﴿سراً وعلانية﴾ وهذا يشمل النفقة الواجبة، كالزكاة ونفقة من تحب [عليه] نفقته، والمستحبة كالصدقات ونحوها.

﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلاق﴾ أي: لا يتبع فيه شيء، ولا سبيل إلى استدراك ما فات، لا بمعاوضة بيع وشراء، ولا ببهة خليل وصدق، فكل امرئ له شأن يغنيه، فليقدم العبد لنفسه، ولينظر ما قدمه لغد، ولينفق أعماله ويحاسب نفسه، قبل الحساب الأكبر.

﴿٣٢ - ٣٤﴾ ﴿الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار﴾ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ﴿وأتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ إن الإنسان لظلوم كفار ﴿يغير تعالى: أنه وحده﴾ الذي خلق السماوات والأرض ﴿على اتساعها وعظمتها، وأنزل من السماء ماء﴾ وهو: المطر الذي ينزله الله من السحاب، ﴿فأخرج﴾ بذلك الماء ﴿من الثمرات﴾ المختلفة الأنواع ﴿رزقاً لكم﴾ ورزقاً لأنعامكم ﴿وسخر لكم الفلك﴾ أي:

السفن والمراكب، ﴿لتجري في البحر بأمره﴾ فهو الذي يسّر لكم صنعتها، وأقدركم عليها، وحفظها على تيار الماء لتحملكم، وتحمل تجارتكم وأمتعتكم إلى بلد تقصدونه.

وفي الآخرة عند الموت بالثبات على الدين الإسلامي، والخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سؤال الملكين، للجواب الصحيح، إذا قيل للميت «من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟» هدهم للجواب الصحيح، بأن يقول المؤمن: «الله ربي، والإسلام ديني، ومحمد نبي».

﴿ويضل الله الظالمين﴾ عن الصواب في الدنيا والآخرة، وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم، وفي هذه الآية دلالة على فتنة القبر وعذابه، ونعيمه، كما تواترت بذلك النصوص عن النبي ﷺ في الفتنة وصفنها، ونييم القبر وعذابه.

﴿٢٨ - ٣٠﴾ ﴿لم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار﴾ جهنم يصلونها وبئس القرار ﴿وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار﴾ يقول تعالى - مبيناً حال المكذبين لرسوله من كفار قريش، وما آل إليه أمرهم: ﴿لم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً﴾ ونعمة الله هي إرسال محمد ﷺ إليهم، يدعوهم إلى إدراك الخيرات في الدنيا والآخرة، وإلى النجاة من شرور الدنيا والآخرة، فبدلوا هذه النعمة بردها، والكفر بها والضد عنها بأنفسهم.

﴿و﴾ صدّهم غيرهم حتى ﴿أحلوا قومهم دار البوار﴾ وهي النار، حيث تسبوا الإضلالهم، فصاروا وبالاً على قومهم، من حيث يظن نفعهم، ومن ذلك أنهم زينوا لهم الخروج يوم «بدر» ليحاربوا الله ورسوله، فجري عليهم ما جرى، وقتل كثير من كبارهم وصناديدهم في تلك الوقعة.

﴿جهنم يصلونها﴾ أي: يحيط بهم حرها من جميع جوانبهم ﴿وبئس القرار﴾.

﴿وجعلوا لله أنداداً﴾ أي: نظراء وشركاء ﴿ليضلوا عن سبيله﴾ أي: ليضلوا العباد عن سبيل الله، بسبب ما جعلوا لله من الأنداد، ودعوههم إلى عبادتها، ﴿قل﴾ لهم متوعداً:



وكذبكم فيما تدعون، ﴿٥٠﴾ ليس عليكم قاصِرٌ في الدنيا من أجل الآيات البيّنات، بل ﴿سكتكم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم﴾ من أنواع العقوبات؟ وكيف أحل الله بهم العقوبات، حين كذبوا بالآيات البيّنات، وضرّبنا لكم الأمثال الواضحة التي لا تدع أدنى شك في القلب إلا أزالته، فلم تنفع فيكم تلك الآيات، بل أمرضتم ودمتم على باطلكم، حتى صار ما صار، ووصلتم إلى هذا اليوم الذي لا ينفع فيه اعتذار من اعتذر باطّال.

﴿وقد مكروا﴾ أي: المكذبون للرسول ﴿مكروهم﴾ الذي وصلت إرادتهم، وقدر لهم عليه، ﴿وعند الله مكروهم﴾ أي: هو غيظ به علماً وقدره، فإنه عاد مكروهم عليهم ﴿ولا يجزي المكر السيئ إلا بأهله﴾.

﴿وإن كان مكروهم لتزول من الجبال﴾ أي: ولقد كان مكر الكفار المكذّبين للرسول بالحق، وبمن جاء به - من عظمه - لتزول الجبال الراسيات بسببه عن أماكنها، أي: ﴿مكروا مكراً كُباراً﴾ لا يقادر قدره ولكن الله رد كيدهم في نحورهم.

ويدخل في هذا كل من مكر من المخالفين للرسول، لينصر باطلاً، أو يبطل حقاً، والقصد أن مكروهم لم يغن عنهم شيئاً، ولم يضرّوا الله شيئاً، وإنما ضرّوا أنفسهم.

﴿٤٧ - ٥٢﴾ ﴿فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام﴾ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ﴿وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد﴾ سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ﴿ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب﴾ هذا بلاغ للناس ولينبذوا به وليعلموا أنّما هو إله واحد وليذكر أولو الألباب ﴿يقول تعالى﴾ ﴿فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله﴾ بنجاتهم، ونجاة أتباعهم وسعادتهم، وإهلاك أعدائهم وخذلانهم في الدنيا، وعقابهم في

الأخرة، فهذا لا بد من وقوعه، لأنه وعد به الصادق قولاً، على السنة أصدق خلفه، وهم الرسل، وهذا أعلى ما يكون من الأخبار، خصوصاً وهو مطابق للحكمة الإلهية، والسنن الربانية، وللمعقول الصحيحة، والله تعالى لا يعجزه شيء، فإنه ﴿عزيز ذو انتقام﴾.

أي: إذا أراد أن ينتقم من أحد، فإنه لا يفوته ولا يعجزه، وذلك في يوم القيامة، ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾ تبدل غير السموات، وهذا التبديل تبديل صفات، لا تبديل ذات، فإن الأرض يوم القيامة تسوى وتمد كمد الأديم، ويلقى ما على ظهرها من جبل ومعلم، فتصير قاعاً صافصفاً، لا ترى فيه عوجاً ولا أمّتا، وتكون السماء كالمهل، من شدة أهوال ذلك اليوم، ثم يطويها الله تعالى بيمينه.

﴿وبرزوا﴾ أي: الخلائق من قبورهم إلى يوم بعثهم، ونشورهم في محل لا يخفى منهم على الله شيء، ﴿الله الواحد القهار﴾ أي: المتفرد بعظمته وأسمائه وصفاته وأفعاله العظيمة، وقهره لكل العوالم، فكلها تحت تصرفه وتديبره، فلا يتحرك منها متحرك ولا يسكن ساكن إلا بإذنه.

﴿وترى المجرمين﴾ أي: الذين وصفهم الإجمام، وكثرة الذنوب، في ذلك اليوم ﴿مقرنين في الأصفاد﴾ أي: يسلسل كل أهل عمل من المجرمين بسلاسل من نار، فيقادون إلى العذاب في أذل صورة وأشنعها وأبشعها.

﴿سرابيلهم﴾ أي: ثيابهم ﴿من قطران﴾ وذلك لشدة اشتعال النار فيهم وحرارتها، وتنت ريحها، ﴿وتغشى وجوههم﴾ التي هي أشرف ما في أبدانهم ﴿النار﴾ أي: تحيط بها، وتصلها من كل جانب، وغير الوجوه من باب أولى وأحرى، وليس هذا ظمناً من الله لهم، وإنما هو جزاء لما قدموا وكسبوا، ولهذا قال تعالى: ﴿ليجزى الله كل نفس ما كسبت﴾ من

مطويين ثيابهم ووسيلهم لأزمتكم إليهم ولا ينفعهم فيها ﴿ويذوقون عذابهم﴾ وأذوقوا الناس يوم يأتيهم الحساب ﴿يقول الأبرار﴾ طافوا الأرض أجمعاً إلى أهل قريش ﴿يحيى﴾ وتوكلت وتشييع الرسول أذكركم كوا أنفسكم من قبل ما لكم من ذنوبكم ﴿وتحسبن أن الله لا يتنبأ﴾ طافوا الأرض من ربوبيك للآخرة ﴿سكننا يومئذ ربنا الحكم الأمثال﴾ وقد مكروا مكروهم وعند الله مكروهم فإن حكاية مكروهم أولو الألباب ﴿فلا تحسبن أن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام﴾ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴿ويبرزوا إلى الوعيد القهار﴾ وترى للنجرات يومئذ مقرنين في الأصفاد ﴿سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار﴾ ليجزي الله كل نفس ما كسبت ﴿إله الله سريع الحساب﴾ هذا القرآن المبين ولينبذوا به ﴿وليعلموا أنّما هو إله واحد﴾ وليذكر أولو الألباب ﴿يقول تعالى﴾ ﴿فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله﴾ بنجاتهم، ونجاة أتباعهم وسعادتهم، وإهلاك أعدائهم وخذلانهم في الدنيا، وعقابهم في

خير وشرب العدل والقسط، الذي لا جور فيه بوجه من الوجوه.

﴿إن الله سريع الحساب﴾ كقوله تعالى: ﴿اقرب للناس حسابه﴾ وهم في غفلة معرضون ﴿ويحتمل أن معناه: سريع المحاسبة، فيحاسب الخلق في ساعة واحدة، كما يبرزهم ويديرهم بأنواع التدابير في لحظة واحدة، لا يشغله شأن عن شأن، وليس ذلك بعسير عليه﴾.

فلما بين البيان المبين في هذا القرآن، قال في مدحه:

﴿هذا بلاغ للناس﴾ أي: يتبلغون به، ويتزودون إلى الوصول إلى أعلى المقامات وأفضل الكرامات، لما اشتمل عليه من الأصول والفروع، وجميع العلوم التي يحتاجها العباد.

﴿ولينذروا به﴾ لما فيه من الترهيب من أعمال الشر، وما أعد الله لأهلها من العقاب، ﴿وليعلموا أنّما هو إله واحد﴾ حيث صرف فيه من الأدلة والبراهين على ألوهيته ووحدانيته، ما صار ذلك حق اليقين، ﴿وليذكر أولو الألباب﴾ أي: العقول الكاملة، ما ينفعهم في فعلونه، وما يضرهم فيتركونه، وبذلك صاروا أولي الألباب والبصائر.

إذ بالقرآن ازدادت معارفهم وآراؤهم، وتورت أفكارهم لما أخذه غصاً طرياً، فإنه لا يدعو إلا إلى أعلى



الأخلاق والأعمال وأفضلها، ولا يستدل على ذلك إلا بأقوى الأدلة وأبينها.

وهذه القاعدة إذا تدرج بها العبد الذكي، لم يزل في صعود ورفي على الدوام في كل خصلة حميدة. والحمد لله رب العالمين.

تم تفسير سورة إبراهيم الخليل  
عليه الصلاة والسلام

### تفسير سورة الحجر وهي مكية

١- ٥ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ الرقيم الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبین \* ربما يؤذ الذين كفروا لو كانوا مسلمين \* ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون \* وما أهلكتنا من قرية إلا وأهلها وما معلوم \* ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون \* يقول تعالى معظماً لكتابه، مادحاً له: ﴿تلك آيات الكتاب﴾ أي: الآيات الدالة على أحسن المعاني، وأفضل المطالب، ﴿وقرآن مبین﴾ للحقائق بأحسن لفظ وأوضحه وأدله على المقصود، وهذا مما يوجب على الخلق الانقياد إليه، والتسليم لحكمه وتلقيه بالقبول والفرح والسرور. فأما من قابل هذه النعمة العظيمة بردها والكفر بها، فإنه من المكذبين الضالين، الذين سيأتي عليهم وقت

يتمنون أنهم مسلمون، أي: مفادون لأحكامه، وذلك حين ينكشف الغطاء، وتظهر أوائل الآخرة، ومقدمات الموت، فإنهم في أحوال الآخرة كلها يتمنون أنهم مسلمون، وقد فات وقت الإمكان، ولكنهم في هذه الدنيا مغترون.

ذ ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا﴾ بلذاتهم ﴿ويلههم الأمل﴾ أي: يؤملون البقاء في الدنيا، فيلههم عن الآخرة، ﴿فسوف يعلمون﴾ أن ما هم عليه باطل، وأن أعمالهم ذهبت خساراً عليهم، ولا يختروا بإمهال الله تعالى، فإن هذه سته في الأمم.

﴿وما أهلكتنا من قرية﴾ كانت مستحقة للعذاب ﴿إلا وأهلها كتاب معلوم﴾ مقدر لإهلاكها.

﴿ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾ وإلا فالذنوب لا بد من وقوع أثرها، وإن تأخر.

٦- ٩ ﴿وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ لوما تأتينا باللائكة إن كنت من الصادقين \* ما ننزل اللائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين \* إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ أي: وقال المكذبون لمحمد ﷺ استهزاء وسخرية: ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر﴾ على زعمك ﴿إنك لمجنون﴾ إذ نظن أنا مستبعمك، ونترك ما وجدنا عليه آباءنا لجرد قولك.

﴿لو ما تأتينا باللائكة﴾ يشهدون لك بصحة ما جئت به ﴿إن كنت من الصادقين﴾ فلما لم تأت باللائكة فلست بصادق، وهذا من أعظم الظلم والجهل.

أما الظلم فظاهر، فإن هذا مجردو على الله وتعنت بتعيين الآيات التي لم يجترها، وحصل المقصود والبرهان بدونها من الآيات الكثيرة، الدالة على صحة ما جاء به، وأما الجهل، فإنهم جهلوا مصلحتهم من مضرتهم، فليس في إنزال اللائكة خير لهم، بل لا ينزل الله اللائكة إلا بالحق الذي لا إمهال على من لم يتبعه وينقله.

﴿وما كانوا إذا﴾ أي: حين تنزل اللائكة، إن لم يؤمنوا، ولن يؤمنوا بـ ﴿منظرين﴾ أي: بممهلين، فصار طلبهم لإنزال اللائكة تعجيباً لأنفسهم بالهلاك والدمار، فإن الإيمان ليس في أيديهم، وإنما هو بيد الله، ﴿ولو أننا نزلنا إليهم اللائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله، ولكن أكثرهم يجهلون﴾ ويكفيهم من الآيات إن كانوا صادقين، هذا القرآن العظيم ولهذا قال هنا:

﴿إنا نحن نزلنا الذكر﴾ أي: القرآن الذي فيه ذكرى لكل شيء، من المسائل والدلائل الواضحة، وفيه بتذكر من أراد التذكر، ﴿وإنا له لحافظون﴾ أي: في حال إنزاله، وبعد إنزاله، ففي حال إنزاله حافظون له من استراق كل شيطان رجيم، وبعد إنزاله أودعه الله في قلب رسوله، واستودعه فيها ثم في قلوب أمته، وحفظ الله أفاضه من التغيير فيها وزيادة والنقص، ومعانيه من التبديل، فلا يحرف حرف معنى من معانيه، إلا ويقض الله له من بين الحق المبين، وهذا من أعظم آيات الله ونعمه على عباده المؤمنين، ومن حفظه أن الله يحفظ أهله من أعدائهم، ولا يسلط عليهم عدواً يجتاحهم.

١٠- ١٣ ﴿ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين﴾ وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن \* كذلك نسلكه في قلوب المجرمين \* لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين﴾ يقول تعالى لئيبه إذ كذبه المشركون: لم يزل هذا دأب الأمم الخالية والقرون الماضية: ﴿ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين﴾ أي: فرقمهم وجماعتهم، رسلاً.

﴿وما يأتيهم من رسول﴾ يدعوهم إلى الحق والهدى ﴿إلا كانوا به يستهزؤن﴾ كذلك نسلكه﴾ أي: تدخل التكذيب ﴿في قلوب المجرمين﴾ أي: الذين وصفهم الظلم والبيهت، عاقبتهم لما اشتبهت قلوبهم بالكفر والتكذيب، تشابهت معاملتهم

لأنبيائهم ورسلمهم بالاستهزاء والسخرية وعدم الإيمان، ولهذا قال: ﴿لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين﴾ أي: عادة الله فيهم، بإهلاك من لم يؤمن بآيات الله.

﴿١٤ - ١٥﴾ ﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون﴾ \* لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾ أي: ولو جاءتهم كل آية عظيمة، لم يؤمنوا وكابروا ﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء﴾ فصاروا يعرجون فيه، ويشاهدونه عياناً بأنفسهم، لقالوا من ظلمهم وعنادهم، منكرين لهذه الآية: ﴿إنما سكرت أبصارنا﴾ أي: أصابها سكر وغشاوة، حتى رأينا ما لم نر، ﴿بل نحن قوم مسحورون﴾ أي: ليس هذا بحقيقة، بل هذا سحر، وقوم وصلت بهم الحال إلى هذا الإنكار، فأنهم لا مطعم فيهم ولا رجاء، ثم ذكر الآيات الدالات على ما جاءت به الرسل من الحق فقال:

﴿١٦ - ٢٠﴾ ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين﴾ \* وحفظناها من كل شيطان رجيم﴾ \* إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين﴾ \* والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي﴾ \* وأنبتنا فيها من كل شيء موزون﴾ \* وجعلنا لكم فيها معاش ومن لستم له برازقين﴾ يقول تعالى - مبيناً كمال اقتداره ورحمته بخلقه -: ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً﴾ أي: نجوماً كالأبراج والأعلام العظام يتدى بها في ظلمات البر والبحر، ﴿وزيناها للناظرين﴾ فإنه لو لا النجوم لما كان للسماء هذا المنظر البهي والهيبة العجيبة، وهذا مما يدعو الناظرين إلى التأمل فيها، والنظر في معانيها والاستدلال بها على بارئها.

﴿وحفظناها من كل شيطان رجيم﴾ إذا استرق السمع، أتبعته الشهب الثواقب، فبقيت السماء، ظاهرها جمللاً بالنجوم النيرات، وباطنها محروساً ممنوعاً من الآفات.

﴿إلا من استرق السمع﴾ أي: في بعض الأوقات، قد يسترق بعض الشياطين السمع بخفية واختلاس، ﴿فأتبعه شهاب مبين﴾ أي: بين منبر، يقتله أو ينبله.

فربما أدركه الشهاب قبل أن يوصلها الشيطان إلى وليه، فيقطع خبر السماء عن الأرض، وربما ألقاها إلى وليه قبل أن يدركه الشهاب، فيضئها ويكذب معها مئة كذبة، ويستدل بتلك الكلمة التي سمعت من السماء.

﴿والأرض مددناها﴾ أي: وسعناها سعة يتمكن الآدميون والحيوانات كلها على الامتداد بأرجائها، والتناول من أرزاقها، والسكون في نواحيها.

﴿والقينا فيها رواسي﴾ أي: جبلاً عظيماً، تحفظ الأرض بإذن الله أن تميد، وتثبتها أن تزول ﴿وأنبتنا فيها من كل شيء موزون﴾ أي: نافع متقوم يضطر إليه العباد والبلاد، ما بين نخيل وأعناب، وأصناف الأشجار، وأنواع النبات.

﴿وجعلنا لكم فيها معاش﴾ من الحرث، ومن الماشية، ومن أنواع المكاسب والحرث. ﴿ومن لستم له برازقين﴾ أي: أنعمنا عليكم بعبيد وإماء وأنعام، لنفعمكم ومصالحكم، وليس عليكم رزقها، بل خولكم الله إياها وتكفل بأرزاقها.

﴿٢١﴾ ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ أي: جميع الأرزاق وأصناف الأقدار، لا يملكها أحد إلا الله، فخزائنها بيده، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، بحسب حكمته ورحمته الواسعة، ﴿وما ننزله﴾ أي: المقدر من كل شيء، من مطر وغيره، ﴿إلا بقدر معلوم﴾ فلا يزيد على ما قدره الله، ولا ينقص منه.

﴿٢٢﴾ ﴿وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين﴾ أي: وسخرنا



الرياح، رباح الرحمة تلعف السحاب، كما يلقح الذكر الأنثى، فينشأ عن ذلك الماء بإذن الله، فيسقيه الله العباد ومواسيهم وأرضهم، ويبقى في الأرض مدخراً لحاجاتهم وضروراتهم ما هو مقتضى قدرته ورحمته، ﴿وما أنتم له بخازنين﴾ أي: لا قدرة لكم على خزنه وادخاره، ولكن الله يخزنه لكم، ويسلكه ينابيع في الأرض، رحمة بكم وإحساناً إليكم.

﴿٢٣ - ٢٥﴾ ﴿وإننا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون﴾ \* ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾ \* وإن ريك هو يحشرهم إنه حكيم عليم﴾ أي: هو وحده لا شريك له، الذي يبيي الخلق من العدم، بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ويميتهم لأجلهم التي قدرها ﴿ونحن الوارثون﴾ كقوله: ﴿إننا نحن نورث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون﴾ \* وليس ذلك بعزیز ولا تمتنع على الله، فإنه تعالى يعلم المستقدمين من الخلق والمستأخرين منهم، ويعلم ما تنقص الأرض منهم، وما تفرق من أجزائهم، وهو الذي قدرته لا يعجزها معجز، فيعيد عباده خلقاً جديداً ويحشرهم إليه.

﴿إنه حكيم﴾ يضع الأشياء

ذلك امتحان وإبتلاء من الله له وللعباد، ليتبين الصادق الذي يطيع مولاة دون عدوه من ليس كذلك، ولذلك حذرنا منه غاية التحذير، وشرح لنا ما يريد منا .

﴿قال رب بما أغويتني لأزين لهم في الأرض﴾ أي : أزين لهم الدنيا، وأدعوهم إلى إشارها على الأخرى، حتى يكونوا متقادين لكل معصية .

﴿ولأغوينهم أجمعين﴾ أي : أصدهم كلهم عن الصراط المستقيم، ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ أي : الذين أخلصتهم واجتبتهم، لإخلاصهم، وإيمانهم، وتوكلهم .

قال الله تعالى : ﴿هذا صراط عليّ مستقيم﴾ أي : معتدل موصل إلى، وإلى دار كرامتي .

﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ غيّلهم به إلى ما تشاء من أنواع الضلالات، بسبب عبوديتهم لربهم وانقيادهم لأوامره، أعانهم الله وعصمهم من الشيطان .

﴿إلا من اتبعك﴾ فرضي بولايتك وطاعتك، بدلاً من طاعة الرحمن، ﴿من الغاوين﴾ والغاوي : ضد الراشد، فهو الذي عرف الحق وتركه، والضال : الذي تركه من غير علم منه به .

﴿وإن جهنم لموعدهم أجمعين﴾ أي : إبليس وجنوده، ﴿لها سبعة أبواب﴾ كل باب أسفل من الآخر، ﴿لكل باب منهم﴾ أي : من أتباع إبليس ﴿جزء مقسوم﴾ بحسب أعمالهم، قال الله تعالى : ﴿فككبوا فيها هم والغاؤون، وجنود إبليس أجمعون﴾ .

ولما ذكر تعالى ما أعد لأعدائه أتباع إبليس من النكال والعذاب الشديد، ذكر ما أعد لأولياؤه من الفضل العظيم، والنعيم المقيم فقال :

﴿٤٥ - ٥٠﴾ ﴿إنّ للمتقين في جنات وعيون﴾ ادخلوها بسلام آمين \* ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين \* لا يمسّهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين \* نبيء عبادي أنّي أنا الغفور الرحيم \* وأنّ

إبليس، وفي ضمن ذلك التحذير لنا من شره وفتنته، فقال تعالى : ﴿ولقد خلقنا الإنسان﴾ أي : آدم عليه السلام ﴿من صلصال من حمأ مسنون﴾ أي : من طين قد يبس، بعدما خر، حتى صار له صلصلة وصوت، كصوت الفخار، والحمأ المسنون : الطين المتغير لونه وريحه من طول مكته .

﴿والجان﴾ وهو : أبو الجن أي : إبليس ﴿خلقناه من قبل﴾ خلق آدم ﴿من نار السموم﴾ أي : من النار الشديدة الحرارة، فلما أراد الله خلق آدم قال للملائكة :

﴿إني خالق بشرأ من صلصال من حمأ مسنون فإذا سويتهم﴾ جسداً تاماً ﴿ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ فامتثلوا أمر ربهم .

﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾ تأكيد بعد تأكيد، ليدل على أنه لم يتخلف منهم أحد، وذلك تعظيماً لأمر الله، وإكراماً لأدم حيث علم ما لم يعلموا .

﴿إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين﴾ وهذه أول عداوته لأدم وذريته، قال الله : ﴿يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين؟ قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون﴾ فاستكبر على أمر الله، وأبدى العداوة لأدم وذريته، وأعجب بمنصره، وقال : أنا خير من آدم .

﴿قال﴾ الله معاقباً له على كفره واستكباره ﴿فاخرج منها فإنك رجيم﴾ أي : مطرود مبعث من كل خير، ﴿وإن عليك اللعنة﴾ أي : الذم والعيب، والبعد عن رحمة الله ﴿إلى يوم الدين﴾ فسيها وما أشبهها، دليل على أنه سيستمر على كفره وبعده من الخير .

﴿قال رب فانظرنى﴾ أي : أهلنتي ﴿إلى يوم يبعثون﴾ قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾ وليس إجابة الله لدعائه كرامة في حقه، وإنما



مواضعها، وينزلها منازلها، ويجازي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر .

﴿٢٦ - ٤٤﴾ ﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون﴾ \* والجان خلقناه من قبل من نار السموم \* وإذا قال ربك للملائكة إني خالق بشرأ من صلصال من حمأ مسنون \* فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين \* فسجد الملائكة كلهم أجمعون \* إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين \* قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين \* قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون \* قال فاخرج منها فإنك رجيم \* وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين \* قال رب فانظرنى إلى يوم يبعثون \* قال فإنك من المنظرين \* إلى يوم الوقت المعلوم \* قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين \* إلا عبادك منهم المخلصين \* قال هذا صراط عليّ مستقيم \* إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين \* وإن جهنم لموعدهم أجمعين \* لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم \* يذكر تعالى نعمته وإحسانه على أبنائه آدم عليه السلام، وما جرى من عدوه





والكرب، فامثل أمر ربه وسرى بأهله ليلاً فنجوا، وأما أهل القرية ﴿فأخذتهم الصبيحة مشرقين﴾ أي: وقت شروق الشمس، حين كانت العقوبة عليهم أشد، ﴿فجعلنا عاليها سافلها﴾ أي: قلبنا عليهم مدينتهم، ﴿وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل﴾ تنبع فيها من شذ من البلد منهم.

﴿إن في ذلك لآية للمتوسمين﴾ أي: التاملين المتفكرين، الذين لهم فكر وروية وفراصة، يفهمون بها ما أريد بذلك، من أن من تجرأ على معاصي الله، خصوصاً هذه الفاحشة العظيمة، وأن الله سيعاقبهم بأشنع العقوبات، كما تجرؤوا على أشنع السيئات.

﴿وإنها﴾ أي: مدينة قوم لوط ﴿لسبيل مقيم﴾ للسالكين، يعرفه كل من تردد في تلك الديار ﴿إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾ وفي هذه القصة من العبر: عنائه تعالى بخليله إبراهيم، فإن لوطاً عليه السلام من أتباعه، ومن آمن به فكانه تلميذه، فحين أراد الله إهلاك قوم لوط حين استحقوا ذلك، أمر رسله أن يمرروا على إبراهيم عليه السلام كي يبشروه بالولد ويجبروه بما بعثوا له، حتى إنه جادلهم عليه السلام في إهلاكهم، حتى أقنعوه، فطابت نفسه.

وكذلك لوط عليه السلام، لما كانوا أهل وطنه، فربما أخذته الرقة عليهم والرأفة بهم، فقدر الله من الأسباب ما به يشتد غيظه وحنقه عليهم، حتى استبيطاً إهلاكهم لما قيل له: ﴿إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب﴾ ومنها: أن الله تعالى إذا أراد أن يهلك قرية، [أزاد] شرهم وطغيانهم، فإذا انتهى، أوقع بهم من العقوبات ما يستحقونه.

﴿٧٨ - ٧٩﴾ ﴿وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين﴾ فانتقمنا منهم وإنهما لبيمام ميين. وهؤلاء هم قوم شعيب، نعمتهم الله وأضافهم إلى الأيكة، وهو البستان كثير الأشجار، ليذكر نعمته عليهم، وأنهم ما قاموا بها، بل جاءهم

لهم لوط ﴿إنكم قوم منكرون﴾ أي: لا أعرفكم ولا أدري من أنتم.

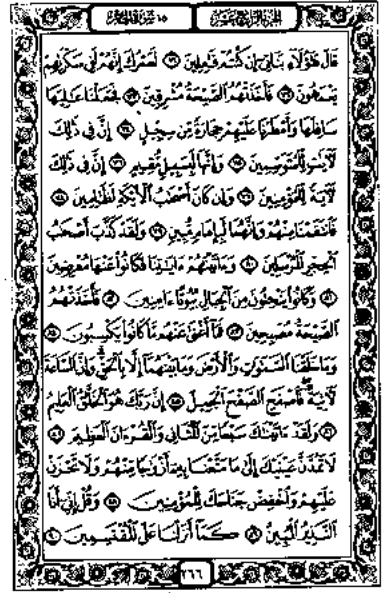
﴿قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون﴾ أي: جئناك بعذابهم الذي كانوا يشكون فيه، ويكذبونك حين تعددهم به، ﴿وأنتيناك بالحق﴾ الذي ليس بالهزل ﴿وإننا لصادقون﴾ فيما قلنا لك.

﴿فأسر بأهلك بقطع من الليل﴾ أي: في أثنائه حين تنام الميون، ولا يدري أحد عن مسراك، ﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ أي: بل يادروا وأسرعوا، ﴿وامضوا حيث تؤمرون﴾ كان معهم دليلاً يدلهم إلى أين يتوجهون ﴿وقضينا إليه ذلك﴾ أي: أخبرناه خيراً لا مثوية فيه ﴿أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾ أي: سيصبحهم العذاب الذي يجتاحهم ويستأصلهم، ﴿وجاء أهل المدينة﴾ أي: المدينة التي فيها لوط ﴿يستبشرون﴾ أي: يبشرون بعضهم بعضاً، بأضياف لوط وصباحة وجوههم واقتدارهم عليهم، وذلك لقصدتهم فعل الفاحشة فيهم، فجاءوا حتى وصلوا إلى بيت لوط، فجعلوا يعالجون لوطاً على أضيافه، ولوط يستعذ منهم ويقول:

﴿إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون واتقوا الله ولا تحزنوا﴾ أي: راقبوا الله أول ذلك، وإن كان ليس فيكم خوف من الله، فلا تفضحون في أضيافي، وتنتهكوا منهم الأمر الشنيع.

﴿قالوا﴾ له جواباً عن قوله ولا تحزنوا فقط: ﴿أول ننهك عن المالمين﴾ أن تضيفهم، فنحن قد أنفرتناك، ومن أنفرتك أعذر، ف ﴿قال﴾ لهم لوط من شدة الأمر الذي أصابه: ﴿هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين﴾ فلم يباليوا بقوله، ولهذا قال الله لرسوله محمد ﷺ ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ وهذه السكره، هي سكرة حجة الفاحشة التي لا يبالون معها بعذل ولا لوم.

فلما بينت له الرسل حالهم، زال عن لوط ما كان يجده من الضيق



ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون \* وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين \* وجاء أهل المدينة يستبشرون \* قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون \* واتقوا الله ولا تحزنوا \* قالوا أول ننهك عن المالمين \* قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين \* لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون \* فأخذتهم الصبيحة مشرقين \* فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل \* إن في ذلك لآيات للمتوسمين \* وإنها لسبيل مقيم \* إن في ذلك لآية للمؤمنين \* أي: ﴿قال﴾ الخليل عليه السلام للملائكة: ﴿فما خطبكم أيها المرسلون﴾ أي: ما شأنكم، ولأي: شيء أرسلتم؟

﴿قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾ أي: كثر فسادهم، وعظم شرهم، لنعذبهم ونعاقبهم، ﴿إلا آل لوط﴾ أي: إلا لوطاً، وأهله ﴿إلا أمراته قدرنا إنها لمن الغابرين﴾ أي: الباقيات بالعذاب، وأما لوط فسنخرجهن وأهله، ونتجنهن منها، فجعل إبراهيم يجادل الرسل في إهلاكهم، ويراجعهم، فقيل له: ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتاهم عذاب غير مردود﴾ فذهبوا منه.

﴿فلما جاء آل لوط المرسلون قال﴾

نبيهم شعيب، فدعاهم إلى التوحيد وترك ظلم الناس في المكابيل والموازين، وعالجهم على ذلك أشد المعالجة فاستمروا على ظلمهم في حق الخالق، وفي حق الخلق، ولهذا رصفهم هنا بالظلم، ﴿فانتقمنا منهم﴾ فأخذهم عذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم. ﴿وإنهما﴾ أي: ديار قوم لوط وأصحاب الأيكة ﴿لبيامم ميين﴾ أي: لبطريق واضح، يمر بهم المسافرون كل وقت، فبيّن من آثارهم ما هو مشاهد بالابصار، فيعتبر بذلك أولو الألباب.

﴿٨٠ - ٨٤﴾ ﴿ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين﴾ وأتيانهم آياتنا فكانوا عنها معرضين \* وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين \* فأخذتهم الصيحة مصبحين \* فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون \* يخبر تعالى عن أهل الحجر، وهم قوم صالح الذين يسكنون الحجر المعروف في أرض الحجاز، أنهم كذبوا المرسلين، أي: كذبوا صالحاً، ومن كذب رسولاً فقد كذب سائر الرسل، لانفاق دعوتهم، وليس تكذيب بعضهم لشخصه، بل لما جاء به من الحق الذي اشترك جميع الرسل بالإتيان به، ﴿وأتيانهم آياتنا﴾ الدالة على صحة ما جاءهم به صالح من الحق، التي من جملتها تلك الناقة، التي هي من آيات الله العظيمة.

﴿فكانوا عنها معرضين﴾ كبراً وتعجباً على الله، ﴿وكانوا﴾ من كثرة إتمام الله عليهم ﴿ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين﴾ من المخاوف، مطمئنين في ديارهم، فلو شكروا النعمة وصدقوا نبيهم صالحاً عليه السلام، لأدّر الله عليهم الأرزاق، ولأكرمهم بأنواع من الثواب العاجل والأجل، ولكنهم - لما كذبوا وعقروا الناقة، وعتوا عن أمر ربهم، وقالوا: ﴿يا صالح اتتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾.

﴿فأخذتهم الصيحة مصبحين﴾ فتقطعت قلوبهم في أجوافهم، وأصبحوا في دارهم جائمين هلكن،

مع ما يتبع ذلك من الخزي واللعنة المستمرة ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ لأن أمر الله إذا جاء، لا يبرده كثرة جنود، ولا قوة أنصار، ولا غزارة أموال.

﴿٨٥ - ٨٦﴾ ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لأتية فاصح الصفح الجميل﴾ إن ربك هو الخلاق العليم ﴿أي: ما خلقناها عبثاً وباطلاً كما يظن ذلك أعداء الله، بل ما خلقناها﴾ إلا بالحق ﴿الذي منه، أن يكونا بما فيهما داليتين على كمال خالقهما، واقتداره، وسعة رحمته وحكمته، وعلمه المحيط، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وحده لا شريك له، ﴿وإن الساعة لأتية﴾ لا ريب فيها ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس﴾ ﴿فاصفح الصفح الجميل﴾ وهو الصفح الذي لا أذية فيه، بل يقابل إساءة المسيء بالإحسان، وذنبه بالغفران، لتثال من ربك جزيل الأجر والثواب، فلإن كل ما هو أت فهو قريب، وقد ظهر لي معنى أحسن مما ذكرت هنا.

وهو: أن الأمر به هو الصفح الجميل، أي: الحسن الذي قد سلم من الحقد والأذية القولية والفعلية، دون الصفح الذي ليس بجميل، وهو الصفح في غير عمله، فلا يصفح حيث اقتضى المقام العقوبة، كعقوبة المعتدين الظالمين الذين لا يشفع فيهم إلا العقوبة، وهذا هو المعنى.

﴿إن ربك هو الخلاق﴾ لكل مخلوق ﴿العليم﴾ بكل شيء، فلا يعجزه أحد من جميع ما أحاط به علمه، وجرى عليه خلقه، وذلك سائر الموجودات.

﴿٨٧ - ٩٣﴾ ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾ لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين \* وقل إني أنا النذير المبين \* الذين كما أنزلنا على المقتسمين \* الذين جعلوا القرآن عضين \* قوريبك

الذين جعلوا القرآن عضين \* قوريبك لست أنتهم  
لعمري \* وما أنا بآمين \* ما أتيتهم من قبلي من نذير  
عن النبيين \* إنا كنا لك المنذرين \* الذين  
يسئلون مع الله إني أسألكم عن نبيكم \* ولقد علم  
أنه يبعث من بعده نبياً مقبولاً \* فصح من قولك وكن  
بمن السجود \* وأحمد ربك الذي أنزلنا القرآن \*  
﴿سورة القصص﴾

﴿سورة القصص﴾  
﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾  
﴿قوريبك لست أنتهم﴾  
﴿لعمري﴾  
﴿وما أنا بآمين﴾  
﴿ما أتيتهم من قبلي من نذير﴾  
﴿عن النبيين﴾  
﴿إنا كنا لك المنذرين﴾  
﴿الذين يسئلون مع الله إني أسألكم عن نبيكم﴾  
﴿ولقد علم أنه يبعث من بعده نبياً مقبولاً﴾  
﴿فصح من قولك وكن بمن السجود﴾  
﴿وأحمد ربك الذي أنزلنا القرآن﴾

لستأنهم أجمعين \* عما كانوا يعملون﴾ يقول تعالى ممتناً على رسوله: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني﴾ ومن - على الصحيح - السور السبع الطوال: البقرة، و آل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، مع التوبة. أو أنها فاتحة الكتاب لأنها سبع آيات، فيكون عطف الكتاب العام على الخاص، لكثرة ما في المثاني من التوحيد، وعلوم الغيب، والأحكام الجلية، وتبينتها فيها.

وعلى القول بأن الفاتحة هي السبع المثاني، معناه: أنها سبع آيات، تنبئ في كل ركعة، وإذا كان الله قد أعطاه القرآن العظيم مع السبع المثاني، كان قد أعطاه أفضل ما يتنافس فيه المنافسون، وأعظم ما فرح به المؤمنون، ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾ ولذلك قال بعده:

﴿لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾ أي: لا تعجب إعجاباً يملكك على إشغال ففكر بشهوات الدنيا التي تمنع بها الترفون، واغتر بها الجاهلون، وأسئقن بما آتاك الله من المثاني والقرآن العظيم، ﴿ولا تحزن عليهم﴾ فإنهم لا خير فيهم يُرجى، ولا نفع يُرتقب.

فلك في المؤمنين عنهم أحسن





وتضطرب بالخلق، فيتمكونون من حوث الأرض والبناء والسير عليها، ومن رحمة تعالى أن جعل فيها أنهاراً، يسوقها من أرض بعيدة إلى أرض مضطرة إليها لسقيهم وسقي مواشيهم وحروثهم، وأنهاراً على وجه الأرض، وأنهاراً في بطنها يستخرجونها بحفرها، حتى يصلوا إليها فيستخرجونها بما سخر الله لهم من الدوالي والآلات ونحوها، ومن رحمة أن جعل في الأرض سبلاً، أي: طرقاً توصل إلى الديار المتناحية، **﴿لعلكم تهتدون﴾** مشبكية بالجيال متسلسلة فيها، وقد جعل الله فيما بينها منافذ ومسالك للسالكين.

**﴿١٧ - ٢٣﴾** **﴿أفمن يخلق﴾** كمن لا يخلق أفلا تذكرون \* وإن عملوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم \* والله يعلم ما تسرون وما تعلنون \* والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون \* أموات غير أحياء وما يشعرون أيماناً يبعثون \* إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالأخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون \* لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين \* لما ذكر تعالى ما خلقه من المخلوقات العظيمة، وما أنعم به من النعم العميمة، ذكر أنه لا يشبهه أحد ولا كفه له ولا ندله، فقال: **﴿أفمن يخلق﴾** جميع المخلوقات، وهو الفعال لما يريد **﴿كمن لا يخلق﴾** شيئاً، لا قليلاً ولا كثيراً، **﴿أفلا تذكرون﴾** فتعرفون أن المنفرد بالخلق أحق بالعبادة كلها، فكما أنه واحد في خلقه وتديره، فإنه واحد في إلهيته وتوحيده وعبادته.

وكما أنه ليس له مشارك إذ أنشأكم وأنشأ غيركم، فلا تجعلوا له أنداداً في عبادته، بل اخلصوا له الدين، **﴿وإن تعدوا نعمة الله﴾** عدداً مجرداً عن الشكر **﴿لا تحصوها﴾** فضلاً عن كونكم تشكرونها، فإن نعمه الظاهرة والباطنة على العباد بعدد الأنفاس واللحظات،

**﴿١٣﴾** **﴿وما ذرأ لكم في الأرض﴾** مختلفاً ألوانه إن في ذلك آية لقوم يذكرون \* أي: فيما ذرأ الله ونشر للعباد، من كل ما على وجه الأرض، من حيوان، وأشجار، ونبات، وغير ذلك، مما يختلف ألوانه، ويختلف منافعه، آية على كمال قدرة الله، وعميم إحسانه، وسعة بره، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، **﴿للقوم يذكرون﴾** أي: يستحضرون في ذكركم ما ينفعهم من العلم النافع، ويتأملون ما دعاهم الله إلى التأمل فيه، حتى يتذكروا بذلك ما هو دليل عليه.

**﴿١٤﴾** **﴿وهو الذي سخر البحر﴾** لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون \* أي: هو وحده لا شريك له **﴿الذي سخر البحر﴾** وهياً لمنافعكم المتنوعة، **﴿لتأكلوا منه لحماً طرياً﴾** وهو السمك والحوت الذي يصطادونه منه، **﴿وتستخرجوا منه حلية تلبسونها﴾** فتزيدكم جمالاً وحسناً إلى حسنكم، **﴿وترى الفلك﴾** أي: السفن والراكب **﴿مواخر فيه﴾** أي: تمخر البحر العجاج الهائل بمقدمها، حتى تسلك فيه من قطر إلى آخر، تحمل المسافرين وأرزاقهم وأمتعتهم وتجاراتهم التي يطلبون بها الأرزاق وفضل الله عليهم.

**﴿ولعلكم تشكرون﴾** الذي يسر لكم هذه الأشياء وهياًها، وتشنون على الله الذي من بها، فله تعالى الحمد والشكر والثناء، حيث أعطى العباد من مصالحهم ومنافعهم فوق ما يطلبون، وأعلى مما يبتغون، وآناهم من كل ما سألوه، لا نحصي ثناء عليه، بل هو كما أتى على نفسه.

**﴿١٥ - ١٦﴾** **﴿والقى في الأرض﴾** رواسباً أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون \* وعلامات وبالنجم هم يهتدون \* أي: **﴿والقى﴾** الله تعالى لأجل عباده **﴿في الأرض رواسباً﴾** وهي: الجبال العظام لثلاث تميد بهم



غزيراً منه يشربون، وتشرب مواشيهم، ويسقون منه حروثهم، فتخرج لهم الثمرات الكثيرة والنعم الغزيرة.

**﴿١٢﴾** **﴿وسخر لكم الليل والنهار﴾** والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك آيات لقوم يعقلون \* أي: سخر لكم هذه الأشياء لمنافعكم وأنواع مصالحكم، بحيث لا تستغنون عنها أبداً، فبالليل تسكنون وتنامون وتستريحون، وبالنهار تنتشرون في معاشكم ومنافع دينكم ودنياكم، وبالشمس والقمر، من الضياء، والنور، والإشراق، وإصلاح الأشجار والشمس، والنبات، وتخفيف الرطوبات، وإزالة البرودة الضارة للأرض وللأبدان، وغير ذلك من الضروريات والحاجيات، التابعة لوجود الشمس والقمر.

وفيها وفي النجوم، من الزينة للسماء والهداية، في ظلمات البر والبحر، ومعرفة الأوقات، وحساب الأزمنة، ما تتنوع دلالاتها، وتتصرف آياتها، ولهذا جمعها في قوله **﴿إن في ذلك آيات لقوم يعقلون﴾** أي: لمن لهم عقول يستعملونها في التدبر والتفكير، فيما هي مهياة له مستعدة، تعقل ما تراه وتسمعه، لا كتنظر الغافلين الذين حظهم من النظر حظ الهائم التي لا عقل لها.

من جميع أصناف النعم، مما يعرف العباد، ومما لا يعرفون، وما يدفع عنهم من النعم فأكثر من أن تحصى، **﴿إن الله لغفور رحيم﴾** يرضى منكم باليسير من الشكر مع إنعامه الكثير.

وكما أن رحمته واسعة، وجوده عميم، ومغفرته شاملة للعباد، فعلمه محيط بهم، **﴿يعلم ما تسرون وما تعلنون﴾** بخلاف من عبد من دونه، فإنهم **﴿لا يخلقون شيئاً﴾** قليلاً ولا كثيراً **﴿وهم يخلقون﴾** فكيف يخلقون شيئاً مع افتقارهم في إيجادهم إلى الله تعالى!!

ومع هذا، ليس فيهم من أوصاف الكمال شيء، لا علم، ولا غيره، **﴿أموات غير أحياء﴾** فلا تسمع، ولا تبصر، ولا تعقل شيئاً، **﴿أفتتخذ هذه آلهة من دون رب العالمين، فتبأ لعقول المشركين ما أضلها وأفسدها، حيث ضلت في أظهر الأشياء فساداً، وسورا بين الناقص من جميع الوجوه، فلا أوصاف كمال، ولا شيء من الأفعال، وبين الكامل من جميع الوجوه الذي له كل صفة كمال، وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها، فله العلم المحيط بكل الأشياء، والقدرة العامة، والرحمة الواسعة التي ملأت جميع العوالم، والحمد والمجد والكبرياء والمظنة، التي لا يقدر أحد من الخلق أن يحيط ببعض أوصافه، ولهذا قال:**

**﴿إلهكم إله واحد﴾** وهو الله الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

فأهل الإيمان والعقول، أجلته قلوبهم وعظمتهم، وأحبته حباً عظيماً، وصرفوا له كل ما استطاعوا من القربات البدنية والمالية، وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، وأثروا عليه بأسمائه الحسنى، وصفاته وأفعاله المقدسة، **﴿فالدليل لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة﴾** لهذا الأمر العظيم الذي لا ينكره إلا أعظم الخلق جهلاً وعناداً، وهو توحيد الله **﴿وهم مستكبرون﴾** عن عبادته.

**﴿لا جرم﴾** أي: حقاً لا بد

**﴿أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾** من الأعمال القبيحة **﴿إنه لا يحب المستكبرين﴾** بل يبغضهم أشد البغض، وسيجازيهم من جنس عملهم **﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾**.

**﴿٢٤ - ٢٩﴾** **﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين﴾** ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم إلا ساء ما يوزون \* قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون \* ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم قال الذين أتوتوا العلم إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين \* الذين تنوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا السلام ما كنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون \* فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فليس ثوى المتكبرين \* يقول تعالى - مخبراً عن شدة تكذيب المشركين بآيات الله: **﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم﴾** أي: إذا سئلوا عن القرآن والوحي الذي هو أكبر نعمة أنعم الله بها على العباد، فماذا قولكم به؟ وهل تشكرون هذه النعمة وتعتفون بها، أم تكفرون وتعادنون؟

فيكون جوابهم أتبح جواب وأسجبه، فيقولون عنه: إنه **﴿أساطير الأولين﴾** أي: كذب اختلقه محمد على الله، وما هو إلا قصص الأولين التي يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل، منها الصدق ومنها الكذب، فقالوا هذه المقالة، ودعوا أتباعهم إليها، وحملوا وزرهم ووزر من اتقاد لهم إلى يوم القيامة.

وقوله: **﴿ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾** أي: من أوزار المقلدين الذين لا علم عندهم إلا ما دعواهم إليه، فيحملون إثم ما دعواهم إليه، وأما الذين يعلمون، فكل مستقبل بجرمه، لأنه عرف ما عرفوا **﴿ألا ساء ما يوزون﴾** أي: بنس ما حملوا من



الوزر المتفعل لظهورهم، من وزرهم ووزر من أضلوه.

**﴿قد مكر الذين من قبلهم﴾** برسلهم، واحتالوا بأنواع الخيل على رد ما جاؤهم به، وبنوا من مكرهم، فصوراً هائلة، **﴿فأتى الله بنيانهم من القواعد﴾** أي: جاءها الأمر من أساسها وقاعدتها، **﴿فخر عليهم السقف من فوقهم﴾** فصار ما بنوه عذاباً عذبوا به، **﴿وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾** وذلك أنهم ظنوا أن هذا البنيان سينفهم ويقبهم العذاب، فصار عذابهم فيما بنوه وأضلوه.

وهذا من أحسن الأمثال في إبطال الله مكر أعدائه. فإنهم فكروا وكدبوا، وجعلوا لهم أصولاً وقواعد من الباطل يرجعون إليها، ويردون بها ما جاءت [به] الرسل، واحتالوا أيضاً على إيقاع المكروه والضرر بالرسل ومن تبعهم، فصار مكرهم وتبالا عليهم، فصار تدبيرهم فيه تدميرهم، وذلك لأن مكرهم سيئ **﴿ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله﴾** هذا في الدنيا، وللعذاب الآخرة أخزى، ولهذا قال: **﴿ثم يوم القيامة يخزيهم﴾** أي: يفضحهم على رؤوس الخلائق، ويبين لهم كذبهم وافتراءهم على الله.

**﴿ويقول أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم﴾** أي: تحاربون

لديهم، ولهذا يعطي الله أهل الجنة كل ما تمنوه عليه، حتى إنه يذكُرهم أشياء من النعيم لم تحظر على قلوبهم.

فتبارك الذي لا نهاية لكرمه، ولا حد لجوده، الذي ليس كمثل شيء في صفات ذاته، وصفات أفعاله، وأثار تلك النعمت، وعظمة الملك والملكوت، وكذلك يجزي الله المتقين لسخط الله وعذابه، بأداء ما أوجبه عليهم من الفروض والواجبات، المتعلقة بالقلب والبدن واللسان، من حقه وحق عباده، وترك ما نهاهم الله عنه.

﴿الذين تتوفاهم الملائكة﴾ مستميرين على تقواهم ﴿طيبين﴾ أي: طاهرين مطهرين من كل نقص وذنس يتطرق إليهم، ويحل في إيمانهم، فطابت قلوبهم بمعرفة الله وعبته، وألستهم بذكره والثناء عليه، وجوارحهم بطاعته والإقبال عليه، ﴿يقولون سلام عليكم﴾ أي: التحية الكاملة حاصلة لكم، والسلامة من كل آفة.

وقد سلمتم من كل ما تكرهون ﴿ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ من الإيمان بالله والانقياد لأمره، فإن العمل هو السبب والمادة والأصل في دخول الجنة والنجاة من النار، وذلك العمل حصل لهم برحمة الله ومنته عليهم، لا بحولهم وقوتهم.

﴿٣٣ - ٣٤﴾ ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك كذلك فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ فأصابهم سيئات ما عملوا وحقق بهم ما كانوا به يستهزؤون ﴿يقول تعالى: هل ينتظر هؤلاء الذين جاءتهم الآيات فلم يؤمنوا، وذكُرُوا فلم يتذكروا، إلا أن تأتيهم الملائكة﴾ لقبض أرواحهم ﴿أو يأتي أمر ربك﴾ بالعذاب الذي سيحل بهم، فإنهم قد استحقوا لوقوعه فيهم، ﴿كذلك فعل الذين من قبلهم﴾ كذبوا وكفروا، ثم لم يؤمنوا حتى نزل بهم العذاب.

﴿وما ظلمهم الله﴾ إذ عذبهم، ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ فإنها

لا يدخلون النار حتى يعترفوا بذنوبهم.

﴿فادخلوا أبواب جهنم﴾ كل أهل عمل يدخلون من الباب اللائق بحالهم، ﴿فليس مثوى المتكبرين﴾ نار جهنم، فإنها مثوى الحسرة والندم، ومنزل الشقاء والألم، ومحل الهموم والغموم، وموضع السخط من الحي القيوم، لا يُفْتَرُ عنهم من عذابها، ولا يرفع عنهم يوماً من أيام عقابها، قد أعرض عنهم الرب الرحيم، وأذاهم العذاب العظيم.

﴿٣٠ - ٣٢﴾ ﴿وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين﴾ جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاؤون كذلك يجزي الله المتقين \* الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴿لما ذكر الله قيل المكذبين بما أنزل الله، ذكر ما قاله المتقون، وأنهم اعترفوا وأقروا بأن ما أنزله الله نعمة عظيمة، وخير عظيم امتن الله به على العباد، فقبلوا تلك النعمة، وتلقوها بالقبول والانقياد، وشكروا الله عليها، فعملوها، وعملوا لها ﴿للذين أحسنوا﴾ في عبادة الله تعالى، وأحسنوا إلى عباد الله، فلهم ﴿في هذه الدنيا حسنة﴾ رزق واسع، وعيشة هنية، وطمأنينة قلب، وأمن وسرور.

﴿ولدار الآخرة خير﴾ من هذه الدار، وما فيها من أنواع اللذات والمشتهيات، فإن هذه نعيمها قليل، محشو بالأفات منقطع، بخلاف نعيم الآخرة، ولهذا قال: ﴿ولنعم دار المتقين﴾

﴿جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاؤون﴾ أي: مهما تمنته أنفسهم، وتعلقت به إرادتهم، حصل لهم على أكمل الوجوه وأتمها، فلا يمكن أن يطلبوا نوعاً من أنواع النعيم الذي فيه لذة القلوب وسرور الأرواح، إلا وهو حاضر



وتعدادون الله وحزبه لأجلهم، وتزعمون أنهم شركاء الله، فإذا سألهم هذا السؤال، لم يكن لهم جواب إلا الإقرار بضلالهم، أو الاعتراف بعنادهم فيقولون ﴿ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ قال الذين أتوا العلم ﴿أي: العلماء الربانيين﴾ إن الحزبي اليوم ﴿أي: يوم القيامة﴾ هو السوء ﴿أي: العذاب على الكافرين﴾

وفي هذا فضيلة أهل العلم، وأنهم الناطقون بالحق في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهداء، وأن لقولهم اعتباراً عند الله وعند خلقه، ثم ذكر ما يفعل بهم عند الوفاة وفي القيامة فقال:

﴿الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾ أي: تتوفاهم في هذه الحال التي كثر فيها ظلمهم وعَثْمُهم، وقد علم ما يلقى الظلمة في ذلك المقام، من أنواع العذاب والحزى والإهانة.

﴿فألقوا السلم﴾ أي: استسلموا، وأنكروا ما كانوا يعبدونهم من دون الله وقالوا: ﴿ما كنا نعمل من سوء﴾ فيقال لهم: ﴿بلى﴾ كنتم تعملون السوء، ف ﴿إن الله عليم بما كنتم تعملون﴾ فلا يفيدكم الجحود شيئاً، وهذا في بعض مواقف القيامة، يتكرون ما كانوا عليه في الدنيا ظناً أنه ينفعهم، فإذا شهدت عليهم جوارحهم، وتبين ما كانوا عليه أقروا واعترفوا، ولهذا

مخلوقة لعبادة الله، ليكون مآلها إلى كرامة الله، فظلموها وتركوا ما خلقت له، وعرضوها للإهانة الدائمة والشقاء الملازم.

﴿فأصابهم سيئات ما عملوا﴾ أي: عقوبات أعمالهم وآثارها، ﴿وحواق بهم﴾ أي: نزل ﴿ما كانوا به يستهزؤون﴾ فإنهم كانوا إذا أخبرتهم رسلهم بالعذاب استهزؤوا به، وسخروا عن أخبر به، فحل بهم ذلك الأمر الذي سخروا منه.

﴿٣٥﴾ ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾ أي: احتج المشركون على شركهم بمشيئة الله، وأن الله لو شاء ما أشركوا، ولا حرموا شيئاً من [الأنعام] التي أحلها كالبحيرة والوصيلة والحام، ونحوها، من دونه، وهذه حجة باطلة، فإنها لو كانت حقاً ما عاقب الله الذين من قبلهم حيث أشركوا به، فعاقبهم أشد العقاب. فلو كان يجب ذلك منهم لما عذبهم، وليس قصدهم بذلك إلا رد الحق الذي جاءت به الرسل، وإلا فعندهم علم أنه لا حجة لهم على الله.

فإن الله أمرهم ونهاهم، ومكنهم من <sup>(١)</sup> القيام بما كلفهم، وجعل لهم قوة ومشيئة تصدر عنها أفعالهم. فاحتجاجهم بالفناء والقدر من أبطال الباطل، هذا وكل أحد يعلم بالحس، قدرة الإنسان على كل فعل يريد، من غير أن يتنازع منازع، فجمعوا بين تكذيب الله وتكذيب رسله، وتكذيب الأمور العقلية والحسية، ﴿فهمل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾ أي: البين الظاهر، الذي يصل إلى القلوب، ولا يبقى لأحد على الله حجة، فإذا بلغتهم الرسل أمر ربهم ونهيه، واحتجوا عليهم بالقدر، فليس للرسل

من الأم شيء، وإنما حسابهم على الله عز وجل.

﴿٣٦-٣٧﴾ ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين ﴿يخبر تعالى أن حجته قامت على جميع الأمم، وأنه ما من أمة متقدمة أو متأخرة إلا وبعث الله فيها رسولا، وكلهم متفقون على دعوة واحدة ودين واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له﴾ أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴿فانقسمت الأمم بحسب استجابتها للدعوة الرسل وعدمها قسمين﴾ فمنهم من هدى الله ﴿فاتبعوا المرسلين علماً وعملاً﴾ ومنهم من حقت عليه الضلالة ﴿فاتبع سبيل الغي﴾.

﴿فسيروا في الأرض﴾ بأبدانكم وقلوبكم ﴿فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ فإنكم سترون من ذلك العجائب، فلا تجدون مكذباً إلا كان عاقبته الهلاك.

﴿إن تحرص على هداهم﴾ وتبذل جهدك في ذلك ﴿فإن الله لا يهدي من يضل﴾ ولو فعل كل سبب لم يهده إلا الله، ﴿وما لهم من ناصرين﴾ ينصرونهم من عذاب الله ويقونهم بأسه.

﴿٣٨-٤٠﴾ ﴿واقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ يخبر تعالى عن المشركين المكذبين لرسوله، أنهم ﴿اقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ أي:

يُكْفَرُوا بِمَا نَنْشُرُهُمْ فَتَشْتَرُونَ فَأَمْزَجَ اللَّهُ فِيهِمْ كَيْدَهُمْ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ الْكَلِيمَاتِ الَّتِي لَا يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُبَدِّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ إِلَهُكُمُ اللَّهُ فَاسْتَجِيبُوا لَهُمْ نَدَائِهِمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَلَا تَتَّبِعُوا هَمَزَ الْأَعْيُنِ عَلَىٰ قُدْرَةِ اللَّهِ فَتُفَكِرَ فِيهَا فَتَذَٰبُ ﴿٣٨﴾ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا تَوَلَّوْا بِلُحُوبِكُمْ وَلَا تَنْصُرُوا نَفْسًا مِّنْكُمْ وَلَا آخَرَ وَلَا تَحْسَبُوا بِسُلُوكِكُمْ أَلَّا تَكُونُوا فِي أَعْيُنِ اللَّهِ مَكِيدِينَ ﴿٣٩﴾ وَلَا تَتَّبِعُوا هَمَزَ الْأَعْيُنِ عَلَىٰ قُدْرَةِ اللَّهِ فَتُفَكِرَ فِيهَا فَتَذَٰبُ ﴿٤٠﴾ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ إِلَهُكُمُ اللَّهُ فَاسْتَجِيبُوا لَهُمْ نَدَائِهِمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا تَتَّبِعُوا هَمَزَ الْأَعْيُنِ عَلَىٰ قُدْرَةِ اللَّهِ فَتُفَكِرَ فِيهَا فَتَذَٰبُ ﴿٤٢﴾

حلّفوا أيماناً مؤكدة مغلظة على تكذيب الله، وأن الله لا يبعث الأموات، ولا يقدر على إحيائهم بعد أن كانوا تراباً، قال تعالى مكذباً لهم: ﴿بلى﴾ سيبعثهم ويجمعهم، ليوم لا ريب فيه ﴿وعداً عليه حقاً﴾ لا يخلفه ولا يغيره ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ ومن جهلهم العظيم إنكارهم للبعث والجزاء، ثم ذكر الحكمة في الجزاء والبعث، فقال: ﴿ليبين لهم الذي يختلفون فيه﴾ من المسائل الكبار والصغار، فيبين حقائقها ويوضحها.

﴿وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين﴾ حين يرون أعمالهم حشرات عليهم، وما نفعتهم آلهتهم التي يدعون مع الله من شيء لما جاء أمر ربك، وحين يرون ما يعبدون خطياً لجهنم، ونكود الشمس والقمر، وتناثر النجوم، ويتضح لمن يعبدها أنها عبيد مسخرات، وأنها مفترقات إلى الله في جميع الحالات، وليس ذلك على الله بصعب ولا شديد، فإنه إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، من غير منازعة ولا امتناع، بل يكون على طبق ما أراه وشاء.

﴿٤١-٤٢﴾ ﴿والذين هاجروا

(١) كذا في ب، وفي أ: على.



من التبعة، فدل على أن الله اتتمنهم على وحيه وتنزيله، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم، والاتصاف بصفات الكمال.

وأفضل أهل الذكر أهل هذا القرآن العظيم، فإنهم أهل الذكر على الحقيقة، وأولى من غيرهم بهذا الاسم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ أي: القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم، الظاهرة والباطنة، ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ وهذا شامل لتبيين ألفاظه، وتبيين معانيه، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيه، فيستخرجون من كنوزه وعلموه بحسب استعدادهم، وإقبالهم عليه.

﴿٤٥ - ٤٧﴾ ﴿فَأَمَّنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أو يأخذهم في قلبهم فما هم بمعجزين \* أو يأخذهم على تخوف فإن ريبكم لرؤوف رحيم \* هذا تخويف من الله تعالى لأهل الكفر والتكذيب وأنواع المعاصي، من أن يأخذهم بالعذاب على غرة وهم لا يشعرون، إما أن يأخذهم العذاب من فوقهم، أو من أسفل منهم بالخسف وغيره، وإما في حال تقلبهم وشغلهم، وعدم خطور العذاب ببالهم، وإما في حال تخوفهم من العذاب، فليسوا بمعجزين لله، في حالة من هذه الأحوال، بل هم تحت قبضته ونواصيهم بيده.

ولكنه رؤوف رحيم، لا يعاجل المعاصين بالعقوبة، بل يمهلهم ويعافيتهم ويرزقهم وهم يؤذونه ويؤذون أوليائه، ومع هذا يفتح لهم<sup>(١)</sup> أبواب التوبة، ويدعوهم إلى الإقلاع من السيئات التي تضرهم، ويعدهم بذلك أفضل الكرامات، ومغفرة ما صدر منهم من الذنوب، فليستح المجرم من ربه أن تكون نعم الله عليه نازلة في جميع اللحظات<sup>(٢)</sup>، ومعاصيه

بما عند الله من الأجر والثواب لمن آمن به وهاجر في سبيله، لم يتخلف عن ذلك أحد.

ثم ذكر وصف أوليائه فقال: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على أوامر الله وعن نواهيه، وعلى أقدار الله المؤلمة، وعلى الأذى فيه والمحن ﴿وَعَصَى رِبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يعتمدون عليه في تنفيذ محابته، لا على أنفسهم. وبذلك تنجح أمورهم، وتستقيم أحوالهم، فإن الصبر والتوكل ملاك الأمور كلها، فما فات أحداً شيء من الخير إلا لعدم صبره، وبذل جهده فيما أريد منه، أو لعدم توكله واعتماده على الله.

﴿٤٣ - ٤٤﴾ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ بالبينات والذبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ أي: لست ببدع من الرسل، فلم نرسل قبلك ملائكة، بل رجالاً كاملين لا نساء، ﴿نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ من الشرائع والأحكام ما هو من فضله وإحسانه على العبيد، من غير أن يأتوا شيء من قبل أنفسهم، ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ أي: لا تعلمون نبي الأولين، وشككتكم هل بعث الله رجالاً؟

فاسألوا أهل العلم بذلك، الذين نزلت عليهم الزبر والبينات، فعلموها وفهموها، فإنهم كلهم قد تقرروا عندهم، أن الله ما بعث إلا رجالاً يوحى إليهم من أمر القري، وعموم هذه الآية فيها مدح أهل العلم، وأن أعلى أنواعه العلم بكتاب الله المنزل.

فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم، حيث أمر بسؤالهم، وأن بذلك يخرج الجاهل



في الله من بعد ما ظلموا لنبوتهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون \* الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون \* يحبر تعالى بفضل المؤمنين المتحنين \* الذين هاجروا في الله \* أي: في سبيله وابتغاء مرضاته \* من بعد ما ظلموا \* بالأذى والمحنة من قومهم، الذين يفتنونهم ليردوهم إلى الكفر والشرك، فتركوا الأوطان والخلان، وانتقلوا عنها لأجل طاعة الرحمن، فذكر لهم نوابين، ثواباً عاجلاً في الدنيا من الرزق الواسع والعيش الهنيء، الذي أراه عيانتاً، بعدما هاجروا، وانتصروا على أعدائهم، وافتتحوا البلدان، وغنموا منها الغنائم العظيمة، فتمولوا، وآتاهم الله في الدنيا حسنة.

﴿ولأجر الآخرة﴾ الذي وعدهم الله على لسان رسوله ﴿أكبر﴾ من أجر الدنيا، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم \* خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم \* وقوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كان لهم علم ويقين

صاعدة إلى ربه في كل الأوقات، ولتعلم أن الله يمهّل ولا يهمل، وأنه إذا أخذ العاصي أخذه أخذ عزيز مقتدر، فليثب إليه وليزجج في جميع أموره إليه، فإنه رؤوف رحيم.

فالبدار البدار إلى رحمة الواسعة وبه العميم، وسلوك الطرق الموصلة إلى فضل الرب الرحيم، ألا وهي تقواه والعمل بما يحبه ويرضاه.

﴿٤٨ - ٥٠﴾ ﴿أولم يسروا إلى ما خلق الله من شيء ينفي ظلالة عن اليمين والشمال سجداً لله وهم داخرون﴾ \* والله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون \* يخافون ربهم من فوقهم ويضعلون ما يؤمرون \* يقول تعالى: ﴿أولم يروا﴾ أي: الشاكرون في توحيد ربهم وعظمتهم وكماله، ﴿إلى ما خلق الله من شيء﴾ أي: إلى جميع مخلوقاته، وكيف تنفياً أظلمتها، ﴿عن اليمين﴾ وعن الشمال سجداً لله \* أي: كلها ساجدة لربها، خاضعة لعظمتهم وجلاله، ﴿وهم داخرون﴾ أي: ذليلون تحت التسخير والتدبير والقهر، ما منهم أحد إلا وناصيته بيد الله، وتدبيره عنده.

﴿وإن يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة﴾ من الحيوانات الناطقة والصامتة، ﴿والملائكة﴾ الكرام، خصهم بعد العموم لفضلهم وشرفهم وكثرة عبادتهم، ولهذا قال: ﴿وهم لا يستكبرون﴾ أي: عن عبادته، على كثرتهم، وعظمة أخلاقهم وقوتهم، كما قال تعالى: ﴿لئن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون﴾.

﴿بخافون ربهم من فوقهم﴾ لما مدحهم بكثرة الطاعة والخضوع لله، مدحهم بالخوف من الله الذي هو فوقهم بالذات والقهر، وكمال الأوصاف، فهم أدلاء تحت قهره.

﴿ويضعلون ما يؤمرون﴾ أي: مهمناً أمرهم الله تعالى امتثلوا لأمره، طوعاً واختياراً، وسجود المخلوقات لله تعالى قسماً: سجود اضطرار، ودلالة على

ماله من صفات الكمال، وهذا عام لكل مخلوق، من مؤمن وكافر، وبر وفاجر، وحيوان ناطق وغيره، وسجود اختيار يختص بأوليائه وعباده المؤمنين، من الملائكة وغيرهم [من المخلوقات].

﴿٥١ - ٥٥﴾ ﴿وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فيلبي فارهبون﴾ \* وله ما في السماوات والأرض وله الدين واصباً أفغير الله تتقون \* وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون \* ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون \* ليكفروا بما آتيناهم فتمتموا فسوف تعلمون﴾ \* يأمر تعالى بعبادته وحده لا شريك له، ويستدل على ذلك بانفراده بالنعمة والوحدانية فقال: و ﴿لا تتخذوا إلهين اثنين﴾ أي: تجعلون له شريكاً في إلهيته، وهو ﴿إنما هو إله واحد﴾ متوحد في الأوصاف العظيمة، متفرد بالأفعال كلها.

فكما أنه الواحد في ذاته، وأسمائه ونوعته وأفعاله، فليترحمه في عبادته، ولهذا قال: ﴿فيلبي فارهبون﴾ أي: خافوني، وامتثلوا أمري، واجتنبوا نهيي، من غير أن تشركوا بي شيئاً من المخلوقات، فإنها كلها لله تعالى مملوكة.

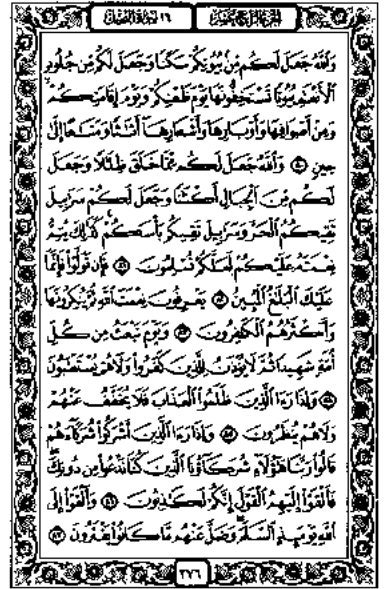
﴿وله ما في السماوات والأرض وله الدين واصباً﴾ أي: الدين، والعبادة، والذل في جميع الأوقات، لله وحده، على الخلق أن يخلصوه لله، وينصبغوا بعبوديته.

﴿أفغير الله تتقون﴾ من أهل الأرض أو أهل السماوات، فإنهم لا يملكون لكم ضرراً ولا نفعاً، والله المتفرد بالنعمة والإحسان، ﴿وما بكم من نعمة﴾ ظاهرة وباطنة ﴿فمن الله﴾ لا أحد يشركه فيها، ﴿ثم إذا مسكم الضر﴾ من فقر ومرض وشدة ﴿فإليه تجأرون﴾ أي: تضرعون بالدعاء والتضرع، لعلكم أنه لا يدفع الضر والشدة إلا هو، فالذي أنفرد بإعطائكم ما تحبون، وصرف ما تكرهون، هو



الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده. ولكن كثيراً من الناس، يظلمون أنفسهم، ويحسدون نعمة الله عليهم إذا نجاهم من الشدة فصاروا في حال الرخاء، أشركوا به بعض مخلوقاته الفقيرة، ولهذا قال: ﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ أي: أعطيناهم، حيث نجيناهم من الشدة، وخلصناهم من المشقة، ﴿فتمتموا﴾ في دنياكم قليلاً ﴿فسوف تعلمون﴾ عاقبة كفركم.

﴿٥٦ - ٦٠﴾ ﴿ويعملون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم تالله لتسألن عما كنتم تفترون﴾ \* ويعلمون الله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون \* وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم \* يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب الأساء ما يحكمون \* للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء والله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم \* يجبر تعال عن جهل المشركين وظلمهم وافتراءهم على الله الكذب، وأنهم يجعلون لأصنامهم التي لا تعلم ولا تنفع ولا تضر - نصيباً مما رزقهم الله وأنعم به عليهم، فاستعانوا برزقه على الشرك به، وتقربوا به إلى أصنام منحوتة، كما قال تعالى: ﴿وجعلوا لله شركاً مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم



يرضون أن يكون عبيدهم - وهم مخلوقون من جنسهم - شركاء لهم فيما رزقهم الله، فكيف يجعلون له شركاء من عبده؟!!

﴿٥٠﴾ هم مع هذه الإساءة العظيمة ﴿تُصَفُّ السُّنْتَهُمُ الْكُذْبُ أَنْ لَهُمُ الْحَسَنَى﴾ أي: أن لهم الحالة الحسنة في الدنيا والآخرة، رد عليهم بقوله: ﴿لَا جِزْمَ أَنْ لَهُمُ النَّارُ وَأَنْهُمْ مُفْرَطُونَ﴾ مقدمون إليها، ماكثون فيها، غير خارجين منها أبداً.

بين تعالى لرسوله ﷺ أنه ليس هو أول رسول كُذِبَ فقال [تعالى]: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ رسلاً يدعوهم إلى التوحيد، فكذبوا الرسل، والشيطان أعمالهم ﴿فَكَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ وزعموا أن ما هم عليه، هو الحق المنجي من كل مكروه، وأن ما دعت إليه الرسل فهو بخلاف ذلك، فلما زين لهم الشيطان أعمالهم، صار وليهم في الدنيا، فأطاعوه واتبعوه، وتولوه.

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وهم لكم عدو ينس للظالمين بدلاً ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة، حيث تولوا عن ولاية الرحمن، ورضوا بولاية الشيطان، فاستحقوا لذلك عذاب الهوان.

﴿٦٥﴾ ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ عن الله مواعظه وتذكيره، فيستدلون بذلك على أنه وحده المعبود، الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، لأنه النعم بإنزال المطر وإنبات جميع أصناف النبات، وعلى أنه على كل شيء قدير، وأن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الأموات، وأن الذي نشر هذا الإحسان لذو رحمة واسعة، وجود عظيم.

﴿٦٦ - ٦٧﴾ ﴿وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ نَسُواكُمْ مِمَّا فِي بَطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدُمٍ لَبِئْسَ خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسناً إن في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾

ولما كان هذا من أمثال السوء التي نسبتها إليه أعداؤه المشركون، قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مِثْلُ السُّوءِ﴾ أي: المثل الناقص والعيب التام، ﴿وَاللَّهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ وهو كل صفة كمال، وكل كمال في الوجود، فالله أحق به، من غير أن يستلزم ذلك نقصاً بوجه، وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه، وهو التعظيم والإجلال والمحبة والإنابة والمعرفة.

﴿وهو العزيز﴾ الذي قهر جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقات بأسرها، ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فلا يأمر ولا يفعل، إلا ما يحمد عليه ويثنى على كماله فيه.

﴿٦١﴾ ﴿وَلَوْ يَوَازِئُكَ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ لما ذكر تعالى ما افتراه الظالمون عليه، ذكر كمال حلمه وصبره فقال: ﴿وَلَوْ يَوَازِئُكَ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ﴾ من غير زيادة ولا نقص، ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي: لأهلك المباشرين للمعصية وغيرهم، من أنواع الدواب والحيسوانات، فإن شؤم المعاصي يهلك به الحرث والنسل.

﴿ولكن يؤخرهم﴾ عن تعجيل العقوبة عليهم إلى أجل مسمى، وهو يوم القيامة ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ فليحذروا ما داموا في وقت الإمهال، قبل أن يجيء الوقت الذي لا إمهال فيه.

﴿٦٢ - ٦٣﴾ ﴿وَيَجْعَلُونَ اللَّهُ مَا يَكْرَهُونَ وَتُصَفُّ السُّنْتَهُمُ الْكُذْبُ أَنْ لَهُمُ الْحَسَنَى لَا جِزْمَ أَنْ لَهُمُ النَّارُ وَأَنْهُمْ مُفْرَطُونَ﴾ تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم﴾ يخبر تعالى أن المشركين ﴿يَجْعَلُونَ اللَّهُ مَا يَكْرَهُونَ﴾ من النبات، ومن الأوصاف القبيحة، وهو الشرك، بصرف شيء من العبادات إلى بعض المخلوقات التي هي عبيد الله، فكما أنهم يكرهون، ولا

وهذا لشركائنا، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ﴿الآية﴾، ﴿لنستأين عما كنتم تفترون﴾ ويقال: ﴿الله أذن لكم أم على الله تفترون﴾ وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ﴿فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة﴾.

﴿ويجعلون لله البنات﴾ حيث قالوا عن الملائكة العبيد المقربين: إنهم بنات الله، ﴿ولهم ما يشتهون﴾ أي: لأنفسهم الذكور، حتى إنهم يكرهون البنات كراهة شديدة، فكان أحدهم ﴿إذا بشر بالأنثى ظل وجهه مسوداً﴾ من الغم الذي أصابه ﴿وهو كظيم﴾ أي: كاظم على الحزن والأسف إذ بشر بأنثى، وحتى إنه يفتضح عند أبناء جنسه، ويتوارى منهم من سوء ما بشر به.

ثم يعمل فكره ورأيه الفاسد فيما يصنع بتلك البنت التي بشر بها ﴿أيمسكه على هون﴾ أي: يتركها من غير قتل على إهانة وذل ﴿أم يدسه في التراب﴾ أي: يدفنها وهي حية، وهو الواؤ الذي ذم الله به المشركين، ﴿ألا ساء ما يحكمون﴾ إذ وصفوا الله بما لا يليق بجلاله، من نسبة الولد إليه.

ثم لم يكفهم هذا، حتى نسبوا له أزدًا القسمين، وهو الإناث، اللاتي يأنفرن بأنفسهم عنها ويكرهونها، فكيف ينسبونها لله تعالى؟! فينس الحكم حكمهم.

أي: ﴿إن لكم في الأنعام﴾ التي سخرها الله لتفانفكم ﴿المعبرة﴾ تستدلون بها على كمال قدرة الله وسعة إحسانه، حيث أسقاكم من بطونها المشتعلة على الفرث والدم، فأخرج من بين ذلك لبناً خالصاً من الكدر سائغاً للشاربين، ولأنه يسقي ويفذي، فهل هذه إلا قدرة إلهية لا أمر طبيعي.

فأي: شيء في الطبيعة يقلب العلف الذي تأكله البهيمة، والشراب الذي تشربه من الماء العذب والملح، لبناً خالصاً سائغاً للشاربين؟

وجعل تعالى لعباده من ثمرات النخيل والأعناب منافع للعباد ومصالح، من أنواع الرزق الحسن الذي يأكله العباد، طرياً ونضيجاً، وحاضراً ومدخراً، وطعاماً وشراباً يتخذ من عصيرها وتبيذها، ومن السكر الذي كان حلالاً قديماً، ثم إن الله نسخ جل المسكرات، وأعاض عنها بالطيبات من الأنبذة، وأنواع الأشربة اللذيذة الجاحة.

﴿إن في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾ عن الله كمال اقتداره، حيث أخرجها من أشجار شبيهة بالخطب، فصارت ثمرة لذيدة وفاكهة طيبة، وعلى شمول رحته، حيث عم<sup>(١)</sup> بها عباده ويسرها لهم، وأنه الإله المعبود وحده، حيث إنه المنفرد بذلك.

﴿٦٨ - ٦٩﴾ ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر وما يمرشون﴾ ثم كل من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً تخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾ في خلق هذه النحلة الصغيرة، التي هداها الله هذه الهداية العجيبة، ويسر لها المراعي، ثم الرجوع إلى بيوتها التي أصلحتها بتعليم الله لها وهديته لها، ثم يخرج من بطونها هذا العسل اللذيذ، مختلف الألوان بحسب اختلاف أرضها

ومراعها، فيه شفاء للناس من أمراض عديدة. فهذا دليل على كمال عناية الله تعالى، وتعام لطفه بعباده، وأنه الذي لا ينبغي أن يجب غيره ويدعى سواه.

﴿٧٠﴾ ﴿والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئاً إن الله عليم قدير﴾ يخبر تعالى أنه الذي خلق العباد ونقلهم في الخلقة، طوراً بعد طور، ثم بعد أن يستكملوا آجالهم، يتوفاهم، ومنهم من يعمره حتى ﴿يرد إلى أرذل العمر﴾ أي: أخسه الذي يبلغ به الإنسان إلى ضعف القوى الظاهرة والباطنة، حتى العقل الذي هو جوهر الإنسان، يزيد ضعفه حتى إنه ينسى ما كان يعلمه، ويصير عقله كعقل الصبي، ولهذا قال: ﴿لكيلا يعلم بعد علم شيئاً، إن الله عليم قدير﴾ أي: قد أحاط علمه وقدرته بجميع الأشياء، ومن ذلك ما ينقل به الآدمي من أطوار الخلقة، خلقاً بعد خلق، كما قال تعالى: ﴿الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾.

﴿٧١﴾ ﴿والله فضل بعضكم على بعض في الرزق فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبينعمة الله يبحدون﴾ وهذا من أدلة توحيد، وقبح الشرك به، يقول تعالى: ﴿كما أنكم مشتركون بأنكم مخلوقون مرزوقون، إلا أنه تعالى﴾ ﴿فضل بعضكم على بعض في الرزق﴾ فجعل منكم أحراراً لهم مال وثروة، ومنكم أرقاء لهم، لا يملكون شيئاً من الدنيا، فكما أن سادتهم الذين فضلهم الله عليهم بالرزق ليسوا ﴿برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء﴾ ويرون هذا من الأمور المستنعة، فكذلك من أشركتم بها مع الله، فإنها عبيد ليس لها من الملك مقال ذرة، فكيف تجعلونها شركاء لله تعالى!؟

هل هذا إلا من أعظم الظلم، والجحود لنعم الله؟! ولهذا قال: ﴿أفبينعمة الله يبحدون﴾ فلو أقروا بالنعمة ونسبوا إلى من أولاهها، لما أشركوا به أحداً.

﴿٧٢﴾ ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون﴾ يخبر تعالى عن شئبه العظيمة على عباده، حيث جعل لهم أزواجاً ليسكنوا إليها، وجعل لهم من أزواجهم أولاداً تقر بهم أعينهم ويخدمونهم، ويقضون حوائجهم، ويستشفون بهم من وجوه كثيرة، ورزقهم من الطيبات، من جميع المأكول والمشرب، والنعم الظاهرة التي لا يقدر العباد أن يحصوها.

﴿أفالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون﴾ أي: أيؤمنون بالباطل الذي لم يكن شيئاً مذكوراً، ثم أوجده الله، وليس له من وجوده سوى العدم، فلا تخلق، ولا ترزق، ولا تدبر من الأمر شيئاً، وهذا عام لكل ما عبد من دون الله، فإنها باطلة، فكيف يتخذها المشركون من دون الله!؟

﴿وبنعمه الله هم يكفرون﴾ يبحدون، ويستعجبون بها على معاصي الله والكفر به، هل هذا إلا من أظلم الظلم، وأفجر الفجور، وأسفه السفه!؟

﴿٧٣ - ٧٦﴾ ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السماوات والأرض شيئاً ولا يستطيعون﴾ فلا تضربوا الله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون \* ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو يتفك منه سرا وجهراً هل يستون الحمد لله بلى أكثرهم لا يعلمون \* وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه

إياها، وجعل ينميتها فيهم شيئاً فشيئاً إلى أن يصل كل أحد إلى الحالة اللانقطة به، وذلك لأجل أن يشكروا الله، باستعمال ما أعطاهم من هذه الجوارح في طاعة الله، فمن استعملها في غير ذلك كانت حجة عليه، وقابل النعمة بأقبح المقابلة.

﴿٧٩﴾ ﴿ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ أي: لأنهم المنتفعون بآيات الله، المتفكرون فيما جعلت آية عليه، وأما غيرهم فإن نظرهم نظر لهُوٍ وغفلة، ووجه الآية فيها أن الله تعالى خلقها بخلقه تصلح للطيران، ثم سخر لها هذا الهواء اللطيف ثم أودع فيها من قوة الحركة وما قدرت به على ذلك، وذلك دليل على كمال حكمته وعلمه الواسع وعنايته الربانية بجميع مخلوقاته وكمال اقتداره، تبارك الله رب العالمين.

﴿٨٠ - ٨٣﴾ ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين﴾ \* والله جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سراويل تقيكم الحر وسراويل تقيكم بأسكم كذلك ينم نعمته عليكم لعلكم تسلمون \* فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين \* يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون \* يذكر تعالى عباده نعمه، ويستدعي منهم شكرها والاعتراف بها فقال: ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً﴾ في الدور والقصور ونحوها، تُكثِّكُم من الحر والبرد وتستركم، أنتم وأولادكم وأمتعتكم، وتتخذون فيها الغرف<sup>(١)</sup> والبيوت التي هي لأنواع منافعكم ومصالحكم، وفيها حفظ لأموالكم وحرمتكم، وغير ذلك من الفوائد المشاهدة، ﴿وجعل لكم من جلود

العلم لم يتجرؤوا على الشرك العظيم. والمثل الثاني مثل ﴿رجلين أحدهما أبكم﴾ لا يسمع ولا ينطق و ﴿لا يقدر على شيء﴾ لا قليل ولا كثير ﴿وهو كل على مولاه﴾ أي: يخدمه مولاه، ولا يستطيع هو أن يخدم نفسه، فهو ناقص من كل وجه، فهل يستوي هذا ومن كان يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم، فأقواله عدل، وأفعاله مستقيمة، فكما أنهما لا يتويان، فلا يستوي من عبد من دون الله وهو لا يقدر على شيء من مصالحه، فلولا قيام الله بها لم يستطع شيئاً منها، لا يكون كفواً ونذاً لمن لا يقول إلا الحق، ولا يفعل إلا ما يحمد عليه.

﴿٧٧﴾ ﴿والله غيب السماوات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير﴾ أي: هو تعالى المنفرد بغيب السماوات والأرض، فلا يعلم الخفايا والباطن والأسرار إلا هو، ومن ذلك علم الساعة، فلا يدري أحد متى تأتي إلا الله، فإذا جاءت وتجلت، لم تكن ﴿إلا كلمح البصر أو هو أقرب﴾ من ذلك، فيقوم الناس من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم، وتفوت الفرص لمن يريد الإمهال، ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ فلا يستغرب على قدرته الشاملة إحياءه للموتى.

﴿٧٨﴾ ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾ أي: هو المنفرد بهذه النعم حيث ﴿أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً﴾ ولا تقدر على شيء ثم إنه ﴿جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ خص هذه الأعضاء الثلاثة لشرفها وفضلها، ولأنها مفتاح لكل علم، فلا وصل للعبد علم إلا من أحد هذه الأبواب الثلاثة، وإلا فسائر الأعضاء والقوى الظاهرة والباطنة، هو الذي أعطاهم

لا يأتي بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم، أنهم يعبدون من دونه آلهة اتخذوها شركاء لله، والحال أنهم لا يملكون لهم رزقاً من السماوات والأرض، فلا ينزلون مطراً ولا رزقاً، ولا ينبتون من نبات الأرض شيئاً، ولا يملكون مثقال ذرة في السماوات والأرض، ولا يستطيعون لو أرادوا، فإن غير المالك للشيء ربما كان له قوة واقتدار على ما يتبع من يتصل به، وهؤلاء لا يملكون ولا يقدر.

فهذه صفة آلهتهم، كيف جعلوها مع الله، وشبهوها بمالك الأرض والسماوات، الذي له الملك كله، والحمد كله، والقوة كلها!!

ولهذا قال: ﴿فلا تضربوا الله الأمثال﴾ المتضمنة للتسوية بينه وبين خلقه ﴿إن الله يعلم وأنت لا تعلمون﴾ فعلياً أن لا تقول عليه بلا علم، وأن نسبح ما ضرب العليم من الأمثال، فلماذا ضرب تعالى مثلياً له ولمن يعبد من دونه، أحدهما عبد مملوك، أي: رقيق لا يملك نفسه، ولا يملك من المال والدينا شيئاً، والثاني حرٌ غنيٌ قد رزقه الله منه رزقاً حسناً، من جميع أصناف المال وهو كريم محب للإحسان، فهو يتفق منه سرّاً وجهراً، هل يستوي هذا وذاك؟! لا يتويان مع أنهما مخلوقان، غير محال استواؤهما.

فإذا كانا لا يتويان، فكيف يستوي المخلوق العبد الذي ليس له ملك ولا قدرة، ولا استطاعة، بل هو فقير من جميع الوجوه، بالرب الخالق المالك لجميع الممالك، القادر على كل شيء!!

ولهذا حمد نفسه، واختص بالحمد بأنواعه، فقال: ﴿الحمد لله﴾ فكأنه قيل: إذا كان الأمر كذلك فلم سؤى المشركون آلهتهم بالله؟ قال: ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ فلو علموا حقيقة



مستحب، وذلك كنفخ الناس بالمال والبدن والعلم، وغير ذلك من أنواع النفع، حتى إنه يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان الهميم المأكول وغيره.

وخص الله إيتاء ذي القربى - وإن كان داخلاً في العموم - لتأكيد حقهم، وتعين صلتهم وبرهم، والحرص على ذلك.

ويدخل في ذلك جميع الأقارب، قريبيهم وبعيدهم، لكن كل ما كان أقرب كان أحق بالبر.

وقوله: ﴿وينهى عن الفحشاء﴾ وهو كل ذنب عظيم استفحشته الشرائع والفطر، كالشرك بالله، والقتل بغير حق، والزنا، والسرقة، والعجب، والكبر، واحتقار الخلق، وغير ذلك من الفواحش.

ويدخل في المنكر كل ذنب ومعصية متعلق بحق الله تعالى.

وبالغني كل عدوان على الخلق، في الدماء والأموال والأعراض.

فصارت هذه الآية جامعة لجميع الأمور والمنهيات، لم يبق شيء إلا دخل فيها، فهذه قاعدة ترجع إليها على عدل أو إحسان أو إيتاء ذي القربى، فهي بما أمر الله به.

وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغى، فهي بما نهى الله عنه. وبها يعلم حسن ما أمر الله به، وقبح ما نهى عنه، وبها يعتبر ما عند الناس من الأفعال، وترد إليها سائر الأحوال، فتبارك من جعل في كلامه، الهدى، والشفاء، والنور، والفرقان بين جميع الأشياء.

ولهذا قال: ﴿يعظكم﴾ به أي: بما بينه لكم في كتابه، بأمركم بما فيه غاية صلاحكم، ونهيكم عما فيه مضرتمكم. ﴿لعلكم تذكرون﴾ ما يعظكم به، فتفهمونه وتعلقونه، فإنكم إذا تذكروته وعقلتموه، عملتم بمقتضاه، سعدتم سعادة لا شقاوة معها.

فلما أمر بما هو واجب في أصل الشرع، أمر برفاه ما أوجبه العبد على نفسه فقال:

الخير والبر بحسب ثبوتها في القلب، وحتى إنه تعالى يجمع في اللفظ القليل الواضح معاني كثيرة، يكون اللفظ لها كالفائدة والأساس، واعتبر هذا بالآية التي بعد هذه الآية، وما فيها من أنواع الأوامر والنواهي التي لا تحصى، فلما كان هذا القرآن تبياناً لكل شيء، صار حجة الله على العباد كلهم. فانقطعت به حجة الظالمين، وانقطع به المسلمون، فصار هدى لهم يستندون به إلى أمر دينهم ودنياهم، ورحمة ينالون به كل خير في الدنيا والآخرة. فالله يهدي ما نالوه به من علم نافع، وعمل صالح، والرحمة ما ترتب على ذلك من ثواب الدنيا والآخرة، كصلاح القلب وبره وطمانينته، وتمام العقل الذي لا يتم إلا بتربيته على معانيه، التي هي أجل المعاني وأعلىها، والأعمال الكريمة والأخلاق الفاضلة، والرزق الواسع، والنصر على الأعداء بالقول والفعل، ونيل رضا الله تعالى، وكرامته العظيمة التي لا يعلم ما فيها من النعيم المقيم إلا الرب الرحيم.

﴿٩٠﴾ ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون﴾ فالعدل الذي أمر الله به، يشمل العدل في حقه، وفي حق عباده، فالعدل في ذلك، أداء الحقوق كاملة موفرة بأن يؤدي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية، والمركبة منهما، في حقه وحق عباده، ويعامل الخلق بالعدل التام، فيؤدي كل مال ما عليه تحت ولايته، سواء في ذلك ولاية الإمامة الكبرى، وولاية القضاء، ونواب الخليفة ونواب القاضي.

والعدل هو ما فرضه الله عليهم في كتابه، وعلى لسان رسوله، وأمرهم بسلوكة، ومن العدل في المعاملات، أن تعاملهم في عقود البيع والشراء وسائر المعاضبات، بإيفاء جميع ما عليك، فلا تبخس لهم حقاً، ولا تغشهم، ولا تتحدعهم وتظلمهم. فالعدل واجب، والإحسان فضيلة



شهاداً على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴿ لما ذكر فيما تقدم أنه يعث في كل أمة شهيداً ﴾ ذكر ذلك أيضاً هنا، وخص منهم هذا الرسول الكريم فقال: ﴿وجئنا بك شهيداً على هؤلاء﴾ أي: على أمتك، تشهد عليهم بالخير والشر، وهذا من كمال عدل الله تعالى، أن كل رسول يشهد على أمته، لأنه أعظم اطلاعاً من غيره على أعمال أمته، وأعدل وأشفق من أن يشهد عليهم إلا بما يستحقون.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾.

وقال تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ﴿وقوله: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾ في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين، وكل ما يحتاج إليه العباد، فهو مبين فيه أتم تبين، بالفاظ واضحة، ومعان جلية، حتى إنه تعالى يثني فيه الأمور الكبار، التي يحتاج القلب لمرورها عليه كل وقت، واعداتها في كل ساعة، ويعيدها ويبدئها بالفاظ مختلفة وأدلة متنوعة، لتستقر في القلوب فتثمر من

﴿٩١- ٩٢﴾ **﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون﴾** \* ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة إنما يلوكم الله به ولبيّن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون .

وهذا يشمل جميع ما عاهد العبد عليه ربه، من العبادات والنذور والأيمان التي عقدها، إذا كان الوفاء بها برأ، ويشمل أيضاً ما تعاهد عليه هو وغيره، كالعهود بين المتعاقدين، وكالوعد الذي يعده العبد لغيره، ويؤكد على نفسه، فعليه في جميع ذلك الوفاء وتميمها مع القدرة، ولهذا نهى الله عن نقضها فقال: **﴿ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها﴾** بمقدها على اسم الله تعالى: **﴿وقد جعلتم الله عليكم﴾** أيها المتعاقدان **﴿كفيلاً﴾** فلا يحل لكم أن لا تحكموا ما جعلتم الله عليكم كفيلاً، فيكون ذلك ترك تعظيم لله واستهانة به، وقد رضي الآخر منك باليمين، والتوكيد الذي جعلت الله فيه كفيلاً. فكما اتصمتك وأحسن ظنه فيك، فلتف له بما قلت وأكدته.

**﴿إن الله يعلم ما تفعلون﴾** يجازي كل عامل بعمله، على حسب نيته ومقصده.

**﴿ولا تكونوا﴾** في نقضكم للعهود بأسوأ الأمثال وأقبحها وأدله على سفه متعاطيها، وذلك **﴿كالتي﴾** تغزل غزلاً قوياً، فإذا استحکم وتم ما أريد منه نقضته فجعلته **﴿أنكاثاً﴾** فتعبت على الغزل، ثم على النقض، ولم تستفد سوى الخيبة والعناء، وسفاهة العقل، ونقص الرأي، فكذلك من نقض ما عاهد عليه، فهو ظالم جاهل سفيه، ناقص الدين والمروءة.

وقول: **﴿تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة﴾**

أي: لا تنبغي هذه الحالة منكم، تعقدون الأيمان المؤكدة، وتنتظرون فيها الفرص، فإذا كان العاقد لها ضعيفاً غير قادر على الآخر، أمها، لا لتعظيم العقد واليمين، بل لعجزه. وإن كان قوياً، يرى مصلحته الدنيوية في نقضها، نقضها غير مبال بعهد الله ويمينه.

كل ذلك دوراناً مع أهوية النفوس، وتقديمها لها على مراد الله منكم، وعلى المروءة الإنسانية، والأخلاق المرصية، لأجل أن تكون أمة أكثر عدداً وقوة من الأخرى.

وهذا ابتلاء من الله وامتحان بينتلكم الله به حيث قبض من أسباب المحن الذي يمتحن به الصادق الوفي من الفاجر الشقي.

**﴿وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون﴾** فيجازي كلا بما عمل، ويغزي الغادر.

**﴿٩٣﴾** **﴿ولو شاء الله لبعلکم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولنسالن عما كنتم تعملون﴾** أي: **﴿لو شاء الله﴾** لجمع الناس على الهدى وجعلهم **﴿أمة واحدة﴾** ولكنه تعالى المنفرد بالهداية والإضلال، وهدايته وإضلاله من أفعاله التابعة لحلمه وحكمته، يعطي الهداية من يستحقها فضلاً، ويمنعها من لا يستحقها عدلاً. **﴿ولنسالن عما كنتم تعملون﴾** من خير وشر، فيجازيكم عليها أتم الجزاء وأعدله.

**﴿٩٤﴾** **﴿ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم﴾** أي: **﴿ولا تتخذوا أيمانكم﴾** وعهودكم ومواثيقكم تبعاً لأهوائكم، متى شئتم وقيتم بها، ومتى شئتم نقضتموها، فإنكم إذا فعلتم ذلك، تزل أقدامكم بعد ثبوتها على الصراط المستقيم. **﴿وتذوقوا السوء﴾** أي: العذاب الذي يسوءكم ويحزنكم **﴿بما صددتم عن سبيل الله﴾** حيث ضللتكم وأضلتكم غيركم **﴿ولكم عذاب عظيم﴾** مضاعف.

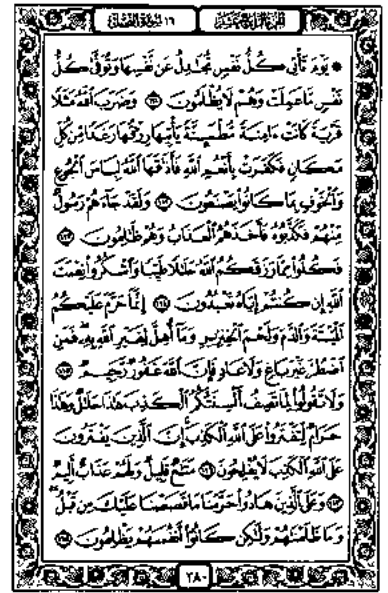
وَلَمَّا نَسُوا اللَّهَ يَتَوَلَّوْا آيَاتِنَا كَمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ  
الَّذِي يُبْعِدُونَ وَلَوْ أَنَّ جِبْرِيْلَ نَزَّلَ الْكِتَابَ  
بِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَإِذَا الْبُرُجُ  
لَا يُبْعَثُونَ كَذَّبْتُمْ عَنْهَا كَذِبًا  
كَبِيرًا ﴿٩٢﴾ وَإِذَا الْبُرُجُ  
لَا يُبْعَثُونَ كَذَّبْتُمْ عَنْهَا كَذِبًا  
كَبِيرًا ﴿٩٣﴾ وَإِذَا الْبُرُجُ  
لَا يُبْعَثُونَ كَذَّبْتُمْ عَنْهَا كَذِبًا  
كَبِيرًا ﴿٩٤﴾ وَإِذَا الْبُرُجُ  
لَا يُبْعَثُونَ كَذَّبْتُمْ عَنْهَا كَذِبًا  
كَبِيرًا ﴿٩٥﴾ وَإِذَا الْبُرُجُ  
لَا يُبْعَثُونَ كَذَّبْتُمْ عَنْهَا كَذِبًا  
كَبِيرًا ﴿٩٦﴾ وَإِذَا الْبُرُجُ  
لَا يُبْعَثُونَ كَذَّبْتُمْ عَنْهَا كَذِبًا  
كَبِيرًا ﴿٩٧﴾ وَإِذَا الْبُرُجُ  
لَا يُبْعَثُونَ كَذَّبْتُمْ عَنْهَا كَذِبًا  
كَبِيرًا ﴿٩٨﴾ وَإِذَا الْبُرُجُ  
لَا يُبْعَثُونَ كَذَّبْتُمْ عَنْهَا كَذِبًا  
كَبِيرًا ﴿٩٩﴾ وَإِذَا الْبُرُجُ  
لَا يُبْعَثُونَ كَذَّبْتُمْ عَنْهَا كَذِبًا  
كَبِيرًا ﴿١٠٠﴾

**﴿٩٥- ٩٧﴾** **﴿ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون﴾** ما عندكم يفد وما عند الله باقي ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون \* من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون \* يحذر تعالى عياده من نقض العهود والأيمان، لأجل متاع الدنيا وحطامها، فقال:

**﴿ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً﴾** نتالونه بالنقض وعدم الوفاء **﴿إنما عند الله﴾** من الثواب العاجل والأجل لمن أثار رضاه، وأوفى بما عاهد عليه الله **﴿هو خير لكم﴾** من حطام الدنيا الزائلة **﴿إن كنتم تعلمون﴾**.

فأثروا ما يبقى على ما يفنى، فإن الذي عندكم ولو كثر جداً، لا بد أن **﴿يفنى﴾** ويفنى، **﴿وما عند الله باق﴾** يبقائه، لا يفنى ولا يزول، فليس يعاقل من أثار الفاني الخسيس على الباقي النفيس، وهذا كقوله تعالى: **﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا \* والآخرة خير وأبقى﴾** **﴿وما عند الله خير للآبرار﴾** وفي هذا الحث والترغيب على الزهد في الدنيا. خصوصاً الزهد المتعين، وهو الزهد فيما يكون ضرراً على العبد، ويوجب له الاشتغال عما أوجب الله عليه، وتقديمه على





التصديق الجازم المثمر لأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات، فمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فلنحبيبه حياة طيبة﴾ وذلك بطمأنينة قلبه، وسكون نفسه، وعدم التفاتة لما يشوش عليه قلبه، ويرزقه الله رزقاً حلالاً طيباً، من حيث لا يحسب. ﴿ولنجزيهم﴾ في الآخرة ﴿أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ من أصناف اللذات، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فيؤتبه الله في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة.

﴿٩٨ - ١٠٠﴾ ﴿فإذا قرأت القرآن فاستمع بالله من الشيطان الرجيم﴾ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون \* إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴿ أي: فإذا أردت القراءة لكتاب الله، الذي هو أشرف الكتب وأجلها، وفيه صلاح القلوب، والعلوم الكثيرة، فإن الشيطان أحرص ما يكون على العبد عند شروعه في الأمور الفاضلة، فيسعى في صرفه عن مقاصدها ومعانيها.

فالطريق إلى السلامة من شره الالتجاء إلى الله، والاستعاذة به من شره، فيقول القاري: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» متدبراً لمعناها، معتمداً بقلبه على الله في صرفه عنه، مجتهداً في دفع وساوسه وأفكاره الرديئة، مجتهداً على السبب الأقوى في دفعه، وهو التحلي بحلية الإيمان والتوكل.

فإن الشيطان ﴿ليس له سلطان﴾ أي: تسلط ﴿على الذين آمنوا وعلى ربهم﴾ وحده لا شريك له ﴿يتوكلون﴾ فيدفع الله عن المؤمنين المتوكلين عليه شر الشيطان، ولا يبقى له عليهم سبيل.

و ﴿إنما سلطانه﴾ أي: تسلطه ﴿على الذين يتولونه﴾ أي: يجعلونه لهم ولياً، وذلك بتخليهم عن

ولاية الله، ودخولهم في طاعة الشيطان وانضمامهم لحزبه، فهم الذين جعلوا له ولاية على أنفسهم، فأرهم إلى المعاصي أژاً، وقادهم إلى النار قوداً.

﴿١٠١ - ١٠٢﴾ ﴿وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون﴾ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشراً للمسلمين ﴿ يذكر تعالى أن المكذبين بهذا القرآن، يتتبعون ما يروونه حجة لهم، وهو أن الله تعالى هو الحاكم الحكيم، الذي يشرع الأحكام، ويبدل حكماً مكان آخر، لحكمته ورحمته، فإذا رآه كذلك، قدحوا في الرسول وبما جاء به، و ﴿قالوا إنما أنت مفتر﴾ قال الله تعالى: ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ فهم جهال لا علم لهم بربهم ولا بشره، ومن المعلوم أن قدح الجاهل بلا علم لا عبرة به، فإن القدح في الشيء فرع عن العلم به، وما يشتمل عليه مما يوجب المدح أو القدح.

ولهذا ذكر تعالى حكمته في ذلك فقال: ﴿قل نزله روح القدس﴾ وهو جبريل الرسول المقدس المنزه عن كل عيب وخيانة وآفة.

﴿بالحق﴾ أي: نزوله بالحق، وهو مشتمل على الحق في أخباره، وأوامره ونواهي، فلا سبيل لأحد أن يقدح فيه قدحاً صحيحاً، لأنه إذا علم أنه الحق، علم أن ما عارضه وناقضه باطل.

﴿ليثبت الذين آمنوا﴾ عند نزول آياته وتواردها عليهم، وقتاً بعد وقت، فلا يزال الحق يصل إلى قلوبهم شيئاً فشيئاً، حتى يكون إيمانهم أثبت من الجبال الرواسي، وأيضاً فإنهم يعلمون أنه الحق، وإذا شرع حكماً لمن الأحكام] ثم نسخه، علموا أنه أبدله بما هو مثله، أو خير منه لهم، وأن نسخه هو المناسب للحكمة الربانية، والمناسبة العقلية.

﴿وهدى وبشراً للمسلمين﴾ أي: يهديهم إلى حقائق الأشياء، ويبين لهم

حق الله، فإن هذا الزهد واجب.

ومن الدواعي للزهد أن يقابل العبد لذات الدنيا وشهواتها بخيرات الآخرة، فإنه يجد من الفرق والتفاوت ما يدعوه إلى إيثار أعلى الأمرين لو ليس الزهد المددح هو الانقطاع للعبادات القاصرة كالصلاة والصيام والذكر، ونحوها، بل لا يكون العبد زاهداً زهداً صحيحاً حتى يقوم بما يقدر عليه من الأوامر الشرعية الظاهرة والباطنة، ومن الدعوة إلى الله وإلى دينه بالقول والفعل، فالزهد الحقيقي هو الزهد فيما لا ينفع في الدين والدنيا، والرغبة والسعي في كل ما ينفع<sup>(١)</sup>.

﴿ولنجزي الذين صبروا﴾ على طاعة الله، وعن معصيته، وطمخوا نفوسهم عن الشهوات الدنيوية المضرة بدينهم ﴿أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ الحسنه بعشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ولهذا ذكر جزاء العاملين في الدنيا والآخرة، فقال:

﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن﴾ فإن الإيمان شرط في صحة الأعمال الصالحة وقبولها، بل لا تسمى أعمالاً صالحة، إلا بالإيمان، والإيمان مقتض لها، فإنه

(٢) زيادة من هامش: ب.

(١) زيادة من هامش: ب.

الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ويشرهم أن لهم أجراً حسناً، ماكتن فيه أبداً. وأيضاً فإنه كلما نزل شيئاً فشيئاً، كان أعظم هداية وبشارة لهم مما لو أتاهم جملة واحدة، وتفرق الفكر فيه، بل ينزل الله حكماً وبشارة، [أكثر] فإذا فهموه وعقلوه وعرفوا المراد منه، وترووا منه، أنزل نظيره وهكذا. ولذلك بلغ الصحابة رضي الله عنهم به مبلغاً عظيماً، وتغيرت أخلاقهم وطبائعهم، وانتقلوا إلى أخلاق وعوائد وأعمال، فاقوا بها الأولين والآخرين.

وكان أعلى وأولى لمن بعدهم، أن يتربوا بعلمه، ويتخلقوا بأخلاقه، ويستضيؤوا بنوره في ظلمات النفي والجهالات، ويعجلوه إمامهم في جميع الحالات، فبذلك تستقيم أمورهم الدينية والدنيوية.

﴿١٠٣ - ١٠٥﴾ ﴿ولقد تعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾ إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم ﴿إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون﴾ يخبر تعالى عن قيل المشركين المكذبين لرسوله ﴿أنهم يقولون إنما يعلمه﴾ هذا الكتاب الذي جاء به ﴿بشر﴾ وذلك البشر، الذي يشيرون إليه أعجمي اللسان ﴿وهذا﴾ القرآن ﴿لسان عربي مبين﴾ هل هذا القول ممكن؟ أو له حظ من الاحتمال؟ ولكن الكاذب يكذب ولا يفكر فيما يؤول إليه كذبه، فيكون في قوله من التناقض والفساد ما يوجب رده بمجرد تصوره.

﴿إن الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾ الدالة دلالة صريحة على الحق المبين، فيردونها ولا يقبلونها. ﴿لا يهديهم الله﴾ حيث جاءهم الهدى، فردوه، فموقبوا بحرمانه، وخذلان الله لهم. ﴿ولهم﴾ في الآخرة ﴿عذاب أليم﴾.

﴿إنما يفتري الكذب﴾ أي: إنما يصدر افتراء الكذب من الذين

لا يؤمنون بآيات الله﴾ كالمعاندين لرسوله من بعد ما جاءتهم البينات. ﴿وأولئك هم الكاذبون﴾ أي: الكذب منحصر فيهم وعليهم أولى بأن يطلق من غيرهم. وأما محمد ﷺ المؤمن بآيات الله، الخاضع لربه، فمحال أن يكذب على الله، ويتقول عليه ما لم يقل، فأعداؤه رموه بالكذب الذي هو وصفهم، فأظهر الله خزيهم وبين فضائحهم، فله تعالى الحمد.

﴿١٠٦ - ١٠٩﴾ ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم﴾ ذلك بأنهم استحوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون﴾ لا جرم أنهم في الآخرة هم الحاسرون ﴿يخبر تعالى عن شناعة حال﴾ من كفر بالله من بعد إيمانه ﴿فعمي بعد ما أبصر، ورجع إلى الضلال بعد ما اهتدى، وشرح صدره بالكفر، راضياً به مطمئناً، أن لهم الغضب الشديد من الرب الرحيم، الذي إذا غضب لم يقم لغضبه شيء، وغضب عليهم كل شيء.﴾ ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ أي: في غاية الشدة، مع أنه دائم أبداً.

﴿ذلك بأنهم استحوا الحياة الدنيا على الآخرة﴾ حيث ارتدوا على أدبارهم، طمعاً في شيء من حطام الدنيا، ورغبة فيه، وزهداً في خير الآخرة، فلما اختاروا الكفر على الإيمان، منعهم الله الهداية، فلم يهدم، لأن الكفر وصفهم، فطبع على قلوبهم فلا يدخلها خير، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فلا ينفذ منها ما ينفعهم، ويصل إلى قلوبهم. فشملتهم الغفلة، وأحاط بهم الخذلان، وحرمو رحمة الله التي وسعت كل شيء، وذلك أنها أتتهم فردوها، وعرضت عليهم فلم يقبلوها.

﴿لا جرم أنهم في الآخرة هم

الحاسرون﴾ الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهلهم يوم القيامة، وفاتهم النعيم المقيم، وحصلوا على العذاب الأليم.

وهذا بخلاف من أكره على الكفر وأجبر عليه، وقلبه مطمئن بالإيمان، راغب فيه، فإنه لا حرج عليه ولا إثم، ويجوز له النطق بكلمة الكفر عند الإكراه عليها.

ودل ذلك، على أن كلام المكرة على الطلاق، أو العتاق، أو البيع، أو الشراء، أو سائر العقود، أنه لا عبية به، ولا يترتب عليه حكم شرعي، لأنه إذا لم يعاقب على كلمة الكفر إذا أكره عليها، فغيرها من باب أولى وأحرى.

﴿١١٠ - ١١١﴾ ﴿ثم إن ربك للذنين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴿أي: ثم إن ربك الذي ربي عباده المخلصين بلطفه وإحسانه لغفور رحيم لمن هاجر في سبيله، وحل دياره وأمواله، طلباً لمرضاة الله، وفترت على دينه ليرجع إلى الكفر، فثبت على الإيمان، وتخلص ما معه من اليقين، ثم جاهد أعداء الله ليدخلهم في دين الله، بلسانه ويده، وصبر على هذه العبادات الشاقة، على أكثر الناس.

فهذه أكبر الأسباب التي تنالها أعظم العطايا، وأفضل المواهب، وهي مغفرة الله للذنوب صغارها وكبارها، المتضمن ذلك زوال كل أمر مكروه، ورحمته العظيمة التي بها صلحت أحوالهم واستقامت أمور دينهم ودنياهم، فلهم الرحمة من الله في يوم القيامة حين ﴿تأتي كل نفس تجادل عن نفسها﴾ كل يقول نفسي نفسي لا يمه سوى نفسه، ففي ذلك اليوم يفتقر العبد إلى حصول مقال ذرة من الخير.

﴿وتوفى كل نفس ما عملت﴾ من خير وشر ﴿وهم لا يظلمون﴾ فلا يزد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم. ﴿فاليوم لا تغلم نفس شيئاً ولا تجزون

إلا ما كنتم تعملون ﴿١١٢﴾.

﴿١١٢ - ١١٣﴾ ﴿وَضُرِبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرِيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَةً بَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَانُهَا لَإِلَهِهِ لَبَّاسٌ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ \* وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ وهذه القرية هي مكة المشرفة، التي كانت آمنة مطمئنة، لا يهاج فيها أحد، وتحترمها الجاهلية الجاهلاء، حتى إن أحدهم يحد قاتل أبيه وأخيه، فلا يهيجه مع شدة الحمية فيهم والندرة العربية، فحصل لها من الأمن التام ما لم يحصل لسواها، وكذلك الرزق الواسع.

كانت بلدة ليس فيها زرع ولا شجر، ولكن يسر الله لها الرزق يأتيها من كل مكان، فجاءهم رسول منهم يعرفون أمانته وصدقه، يدعوهم إلى أكمل الأمور، وينهاهم عن الأمور السيئة، فكذبوه وكفروا بنعمة الله عليهم، فأذاهم الله ضد ما كانوا فيه، وألبسهم لباس الجوع الذي هو ضد الرغد، والخوف الذي هو ضد الأمن، وذلك بسبب صنيعهم وكفرهم وعدم شكرهم ﴿وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾.

﴿١١٤ - ١١٨﴾ ﴿فَكُلُّوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ \* إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ \* وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذْبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَنفِتُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يَفْلَحُونَ \* مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ \* وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا قُصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلٍ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يأمر تعالى عباده بأكل ما رزقهم الله من الحيوانات والحبوب والثمار، وغيرها. ﴿حلالاً طيباً﴾ أي: حالة كونها متصفة

بهذين الوصفين، بحيث لا تكون مما حرم الله، أو أضرأ عن غضب ونحوه. فتمتعوا بما خلق الله لكم من غير إسراف ولا تعسُد. ﴿واشكروا نعمة الله﴾ بالاعتراف بها بالقلب، والشناء على الله بها، وصرقها في طاعة الله. ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ أي: إن كنتم مخلصين له العبادة، فلا تشكروا إلا إياه، ولا تنسوا أنفسكم.

﴿إنما حرم عليكم﴾ الأشياء المضرّة تنزيهاً لكم، وذلك كـ: ﴿الميتة﴾ ويدخل في ذلك كل ما كان موته على غير ذكاة مشروعة، ويستثنى من ذلك، ميتة الجراد والسملك.

﴿والدم﴾ المسفوح، وأما ما يبقى في العروق واللحم فلا يضر. ﴿ولحم الخنزير﴾ لظارته وخبئه، وذلك شامل للحمه وشحمه وجميع أجزائه. ﴿وما أهل لغير الله به﴾ كالذي يذبح للأصنام والقبور وتحوها، لأنه مقصود به الشرك.

﴿فمن اضطر﴾ إلى شيء من المحرمات - بأن حملته الضرورة، وخاف إن لم يأكل أن يهلك - فلا جناح عليه إذا لم يكن باغياً أو عادياً، أي: إذا لم يرد أكل المحرم، وهو غير مضطر، ولا متعد الحلال إلى الحرام، أو متجاوز لما زاد على قدر الضرورة، فهذا الذي حرمه الله من المباحات.

﴿١١٦﴾ ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذْبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ أي: لا تحرموا وتحللوا من تلقاء أنفسكم، كذباً وافتراء على الله وتقولاً عليه.

﴿لتفتروا على الله الكذب، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾ لا في الدنيا، ولا في الآخرة، ولا بد أن يظهر الله خزيمهم وإن تمتعوا في الدنيا، فإنه ﴿متاع قليل﴾ ومصيرهم إلى النار ﴿ولهم عذاب أليم﴾.

فإنه تعالى ما حرم علينا إلا

الخبثات، فضلاً منه، وصيانة عن كل مستقذر.

وأما الذين هادوا فحرم الله عليهم طيبات أحلت لهم بسبب ظلمهم عقوبة لهم، كما قصه في سورة الأنعام في قوله: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم، ذلك جزيناهم ببغيهم وإننا لصادقون﴾.

﴿١١٩﴾ ﴿ثُمَّ إِنْ رِبْكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهذا حصر منه لعباده على التوبة، ودعوة لهم إلى الإنابة، فأخبر أن من عمل سوءاً بجهالة، بعاقبة ما تجني عليه، ولو كان متممداً للذنب، فإنه لا بد أن ينقص ما في قلبه من العلم وقت مقارفة الذنب. فإذا تاب وأصلح، بأن ترك الذنب وندم عليه<sup>(١)</sup> وأصلح أعماله، فإن الله يغفر له ويرحمه، ويتقبل توبته ويعيده إلى حالته الأولى، أو أعلى منها.

﴿١٢٠ - ١٢٣﴾ ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ \* شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ \* وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ \* ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يثير تعالى عما فضل به خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وخصه به من الفضائل العالية والثناء الكاملة فقال:

﴿إن إبراهيم كان أمة﴾ أي: إماماً جامعاً لخصال الخير، هادياً مهتدياً. ﴿قانتاً لله﴾ أي: مديماً لطاعة ربه، مخلصاً للدين. ﴿حنيفاً﴾: مقبلاً على الله بالمحبة، والإنابة، والعبودية، معرضاً عن سواه. ﴿ولم يك من المشركين﴾ في قوله وعمله، وجميع أحواله، لأنه إمام الموحدين الخفاء.

﴿شاكراً لأنعمه﴾ أي: آتاه الله في الدنيا حسنة، وأنعم عليه بنعم ظاهرة

وباطنة، فقام بشكرها، فكان نتيجة هذه الخصال الفاضلة أن «اجتنابه» ربه، واختصه بخلته وجعله من صفوة خلقه، وخيار عباده المقربين.

«وهذاه إلى صراط مستقيم» في علمه وعمله، فعلم بالحق وأثره على غيره.

«وأتيناه في الدنيا حسنة» رزقاً واسعاً، وزوجة حسنة، وذرية صالحين، وأخلاقاً مرضية «لأنه في الآخرة لمن الصالحين» الذين لهم المنازل العالية، والقرب العظيم من الله تعالى.

ومن أعظم فضائله أن الله أوحى لسيد الخلق وأكملهم، أن يتبع ملة إبراهيم، ويقتدي به هو وأنت.

﴿١٢٤﴾ «إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون».

يقول تعالى: «إنما جعل السبت» أي: فرضاً «على الذين اختلفوا فيه» حين ضلوا عن يوم الجمعة، وهم اليهود، فصار اختلافهم سبباً لأن يجب عليهم في السبت احترامه وتعظيمه، وإلا فالفضيلة الحقيقية ليوم الجمعة، الذي هدى الله هذه الأمة إليه.

«وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون» فبين لهم الحق من البطل، والمستحق للثواب عن استحق العقاب<sup>(١)</sup>.

﴿١٢٥﴾ «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين» أي: ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم، إلى سبيل ربك المستقيم، المشتمل على العلم النافع، والعمل الصالح «بالحكمة» أي: كل أحد على

حسب حاله وفهمه وقبوله وانقياده. ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل، والبداة بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين، فإن انقاد بالحكمة، وإلا فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة، وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب.

إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها، والنواهي من المضار وتعدادها، وإما بذكر إكرام من قام بدين الله، وإهانة من لم يقم به.

وإما بذكر ما أعد الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل، وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل، فإن كان [المدعو] يرى أن ما هو عليه حق. أو كان داعية إلى الباطل، فيجادل بالتي هي أحسن، وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلاً وتقللاً.

ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يحتقدها، فإنه أقرب إلى حصول المقصود، وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشائمة تذهب بمقصودها، ولا تحصل الفائدة منها، بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها.

وقوله: «إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله» علم السبب الذي أداه إلى الضلال، وعلم أعماله المترتبة على ضلاله، وسيجازه عليها.

«وهو أعلم بالمهتدين» علم أنهم يصلحون للهداية، فهداهم، ثم من عليهم فاجتاهم.

﴿١٢٦ - ١٢٨﴾ «وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صيرتم لهو خيراً للصابرين \* وأصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون \* إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون» يقول تعالى - مبيحاً للعدل، وتادباً للفضل والإحسان «وإن عاقبتهم» من أساء إليكم بالقول والفعل «فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به» من غير زيادة منكم، على

تَدْرَأُ أَنْ تَرْبِكَ لِلرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ الشُّعْرَ بِمَهْرٍ تَدْرَأُ وَأَنْ تَسُدَّ كَلِمَاتٍ وَأَنْ تَدْرَأُ مِنْ رَبِّكَ مِنْ عَذَابِهَا أَلَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ  
إِنَّ رَبَّكَ يَبْهَرُكَ كَمَا أَنْتَ تَبْهَرُ النَّاسَ وَيَا أَرْبَابَ الَّذِينَ كَفَرُوا  
تَسْجُدُوا لِلشُّعْرِ لِحَبْتِهِ وَمَعَهُدَاتِ الْمَرْبُورِ شَرِيحِ  
وَأَيَّتُكُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَآخِرَةً لَنْ أَعْرِضَ عَنْ  
الْقَائِلِينَ ﴿١٢٦﴾ ذُرِّيَّتًا إِنَّكَ أَنْ تَتَّعِدَ الْبَرِيَّةَ حَيْثَا  
وَتَسْكُنَ مِنَ الَّذِينَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّمَا جَعَلَ السَّكَنَ عَلَى الَّذِينَ  
أَخْتَلَفُوا فِيهِ وَأَنْ رَبَّكَ لَبَدُءٌ يُنْزِلُ مَا أَكْفَرُوا  
بِهِ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٢٨﴾ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ  
وَالْمَعْرُوفِ وَتَعَدَّى حَسَنَةً وَمَعْدَى كَلِمَةٍ أَنْ يَأْتِيَنَّكَ  
هُوَ عَذَابٌ مِنْ سَبِيلِهِ أَلَمْ يَأْتِ الْفِتْنَةَ  
وَلَنْ يَأْتِيَنَّكَ عَذَابٌ يَمْشِي وَتَرْجُوهُمُ أَنْ يَكُونَ  
لَهُمْ حُرْمٌ كَمَا كُنْتُمْ لَهُمْ حُرْمًا قَبْلُ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ  
لَمْ يَخْشَوْا عَلَيْكُمْ وَلَا تَخَوْا فِي حُرْمِهِمْ خِلَافَةَ  
﴿١٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ

ما أجراه معكم. «ولئن صيرتم» عن المعاقبة، وعفوتهم عن جرمهم، «لهو خبير للصابرين» من الاستيفاء، وما عند الله خير لكم، وأحسن عاقبة، كما قال تعالى: «فمن عفا وأصلح فأجره على الله» ثم أمر رسوله بالصبر على دعوة الخلق إلى الله، والاستعانة بالله على ذلك، وعدم الاتكال على النفس، فقال: «وأصبر وما صبرك إلا بالله» هو الذي يعينك عليه ويشتك. «ولا تحزن عليهم» إذا دعوتهم، فلم تر منهم قبولاً لدعوتك، فإن الحزن لا يجدي عليك شيئاً. «ولا تك في ضيق» أي: شدة وحرج، «مما يمكرون» فإن مكرهم عائد إليهم، وأنت من المتقين المحسنين. والله مع المتقين المحسنين، بعونه، وتوفيقه وتسديده، وهم الذين اتقوا الكفر والمعاصي، وأحسنوا في عبادة الله، بأن عبدوا الله كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم، والإحسان إلى الخلق يبذل النفع لهم من كل وجه. نسأل الله أن يجعلنا من المتقين المحسنين. ثم تفسير سورة التحل والحمد لله

(١) في ب: العذاب.

نفس المسجد، وأن الإسراء بروحه وجسده معاً، وإلا لم يكن في ذلك آية كبرى، ومنقبة عظيمة.

وقد تكاثرت الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في الإسراء، وذكر تفاصيل ما رأى، وأنه أسري به إلى بيت المقدس، ثم عرج به من هناك، إلى السماوات، حتى وصل إلى ما فوق السماوات العلى، ورأى الجنة والنار، والأنبياء على مراتبهم، وفرض الله عليه الصلوات خمسين، ثم ما زال يراجع ربه بإشارة موسى الكليم، حتى صارت خمساً بالفعل، وخمسين بالأجر والشواب، وحاز من المفاخر تلك الليلة، هو وأمته، مالا يعلم مقداره إلا الله عز وجل.

وذكره هنا وفي مقام الإنزال للقرآن، ومقام التحدي بصفة العبودية، لأنه نال هذه المقامات الكبار، بتكميله لعبودية ربه.

وقوله: ﴿الذي باركنا حوله﴾ أي: بكثرة الأشجار والأنهار، والخصب الدائم.

ومن بركته، تفضيله على غيره من المساجد، سوى المسجد الحرام، ومسجد المدينة، وأنه يطلب شد الرحل إليه للعبادة والصلاة فيه، وأن الله اختصه محلاً لكثير من أنبيائه وأصفياه.

﴿٢- ٨﴾ ﴿وأتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلاً﴾ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً \* وقضينا إلى نوح إنه كان عبداً شكوراً \* وفيه التنويه بالثناء على نوح عليه السلام، بقيامه بشكر الله، واتصافه بذلك، والحث لذريته أن يقتدوا به في شكره ويتابعوه عليه، وأن يتذكروا نعمة الله عليهم، إذ <sup>(١)</sup> أبقاهم واستخلفهم في الأرض، وأغرق غيرهم.

﴿وقضينا إلى بني إسرائيل﴾ أي: تقدمنا وعهدنا إليهم، وأخبرناهم في كتابهم، أنهم لا بد أن يقع منهم إفساد في الأرض مرتين يعمل المعاصي، والبطر لنعم الله، والعلو في الأرض والتكبر فيها، وأنه إذا وقع واحدة منهما، سلط الله عليهم الأعداء، وانتقم منهم، وهذا تحذير لهم وإنذار، لعلهم يرجعون فيتذكرون.

﴿فيذا جاء وعد أولاهما﴾ أي: أولى المرتين اللتين يفسدون فيهما. أي: إذا وقع منهم ذلك الفساد ﴿بعثنا عليكم﴾ بعثنا قديراً، وسلطنا عليكم تسليطاً كونياً جزائياً ﴿عباداً لنا أولي بأس شديد﴾ أي: ذوي شجاعة وعدد وعدة

نفس المسجد، وأن الإسراء بروحه وجسده معاً، وإلا لم يكن في ذلك آية كبرى، ومنقبة عظيمة.

وقد تكاثرت الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في الإسراء، وذكر تفاصيل ما رأى، وأنه أسري به إلى بيت المقدس، ثم عرج به من هناك، إلى السماوات، حتى وصل إلى ما فوق السماوات العلى، ورأى الجنة والنار، والأنبياء على مراتبهم، وفرض الله عليه الصلوات خمسين، ثم ما زال يراجع ربه بإشارة موسى الكليم، حتى صارت خمساً بالفعل، وخمسين بالأجر والشواب، وحاز من المفاخر تلك الليلة، هو وأمته، مالا يعلم مقداره إلا الله عز وجل.

وذكره هنا وفي مقام الإنزال للقرآن، ومقام التحدي بصفة العبودية، لأنه نال هذه المقامات الكبار، بتكميله لعبودية ربه.

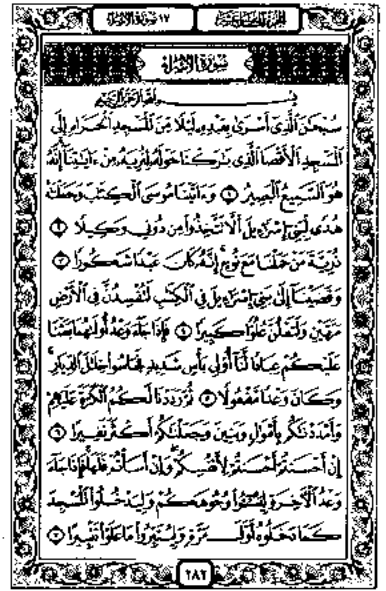
وقوله: ﴿الذي باركنا حوله﴾ أي: بكثرة الأشجار والأنهار، والخصب الدائم.

ومن بركته، تفضيله على غيره من المساجد، سوى المسجد الحرام، ومسجد المدينة، وأنه يطلب شد الرحل إليه للعبادة والصلاة فيه، وأن الله اختصه محلاً لكثير من أنبيائه وأصفياه.

﴿٢- ٨﴾ ﴿وأتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلاً﴾ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً \* وقضينا إلى نوح إنه كان عبداً شكوراً \* وفيه التنويه بالثناء على نوح عليه السلام، بقيامه بشكر الله، واتصافه بذلك، والحث لذريته أن يقتدوا به في شكره ويتابعوه عليه، وأن يتذكروا نعمة الله عليهم، إذ <sup>(١)</sup> أبقاهم واستخلفهم في الأرض، وأغرق غيرهم.

﴿وقضينا إلى بني إسرائيل﴾ أي: تقدمنا وعهدنا إليهم، وأخبرناهم في كتابهم، أنهم لا بد أن يقع منهم إفساد في الأرض مرتين يعمل المعاصي، والبطر لنعم الله، والعلو في الأرض والتكبر فيها، وأنه إذا وقع واحدة منهما، سلط الله عليهم الأعداء، وانتقم منهم، وهذا تحذير لهم وإنذار، لعلهم يرجعون فيتذكرون.

﴿فيذا جاء وعد أولاهما﴾ أي: أولى المرتين اللتين يفسدون فيهما. أي: إذا وقع منهم ذلك الفساد ﴿بعثنا عليكم﴾ بعثنا قديراً، وسلطنا عليكم تسليطاً كونياً جزائياً ﴿عباداً لنا أولي بأس شديد﴾ أي: ذوي شجاعة وعدد وعدة



### تفسير سورة بني إسرائيل وهي مكية

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴿ينزله تعالى نفسه المقدسة ويعظمها، لأن له الأفعال العظيمة والمنن الجسيمة، التي من جملتها أن أسرى بعبده﴾ ورسوله محمد ﷺ، ﴿من المسجد الحرام﴾ الذي هو أجل المساجد على الإطلاق ﴿إلى المسجد الأقصى﴾ الذي هو من المساجد الفاضلة، وهو محل الأنبياء.

فأسري به في ليلة واحدة إلى مسافة بعيدة جداً، ورجع في ليلته، وأراه الله من آياته، ما ازداد به هدى وبصيرة وثباتاً وفرقاناً، وهذا من اعتنائه تعالى به ولطفه، حيث يسره لليسرى في جميع أموره، وخوّله نعماً فاق بها الأولين والأخريين، وظاهر الآية أن الإسراء كان في أول الليل، وأنه من نفس المسجد الحرام، لكن ثبت في الصحيح، أنه أسري به من بيت أم هانئ، فعل هذا، تكون الفضيلة في المسجد الحرام لسائر الحرم، فكله تنضاعف فيه العبادة كتضاعفها في





واستدل بهذه الآية على أن أهل الفسقات، وأطفال المشركين، لا يعذبهم الله حتى يبعث إليهم رسولا، لأنه منزه عن الظلم.

﴿١٦ - ١٧﴾ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً \* وكم أهلكتنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً \* يخبر تعالى أنه إذا أراد أن يهلك قرية من القرى الظالمة، ويستأصلها بالعذاب، أمر مترفيها أمراً قديراً، ففسقوا فيها، واشتد طغيانهم، ﴿فحق عليها القول﴾ أي: كلمة العذاب التي لا مرد لها ﴿فدمرناها تدميراً﴾.

﴿ومن أراد الآخرة﴾ فرضيها وأثرها على الدنيا ﴿وسمى لها سعيها﴾ الذي دعت إليه الكتب السماوية، والآثار النبوية، فعمل بذلك على قدر إمكانه ﴿وهو مؤمن﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

﴿فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾ أي: مقبولاً ثمناً، مدخراً لهم أجرهم وثوابهم عند ربهم.

ومع هذا، فلا يفوتهم نصيبهم من الدنيا، فكلا يمدد الله منها، لأنه عطاؤه وإحسانه. ﴿وما كان عطاء ربك محظوراً﴾ أي: ممنوعاً من أحد، بل جميع الخلق راتعون بفضلته وإحسانه.

﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض﴾ في الدنيا، بسعة الأرزاق وقتلتها، والبسر والعسر، والعلم والجهل، والعقل والسهف، وغير ذلك من الأمور التي فضل الله العباد بعضهم على بعض بها.

﴿وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾ فلا نسبة لتنعيم الدنيا ولذاتها إلى الآخرة بوجه من الوجوه.

فكف بين من هو في الغرف العاليات، واللذات المتنوعات، والسرور والخيرات والأفراح، من هو يتقلب في الجحيم، ويعذب بالعذاب الأليم، وقد حل عليه سخط الرب الرحيم، وكل من الدارين بين أهلها من التفاوت مالا يمكن أحداً عدّه.

﴿٢٢﴾ ﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً﴾ أي: لا تعتقد أن أحداً من المخلوقين يستحق شيئاً من العبادة، ولا تشرك بالله أحداً منهم، فإن ذلك داع للذم والخذلان، فالله وملائكته ورسله، قد نها عن الشرك، ودعوا من عمله أشد الذم، ورتبوا عليه من الأسماء المذمومة، والأوصاف المقبوحة، ما كان به متعاطيه، أشتع الخلق وصفاً، وأقبحهم نعتاً.

وله من الخذلان في أمر دينه ودنياه، بحسب ما تركه من التعلق بربه، فمن تعلق بغيره فهو مخذول، وقد وكل إلى من تعلق به، ولا أحد من الخلق ينفع

وهؤلاء أمم كثيرة أبادهم الله بالعذاب، من بعد قوم نوح، كعاد، وثمود، وقوم لوط، وغيرهم ممن عاقبهم الله لما كثر بغيهم، واشتد كفرهم، أنزل [الله] بهم عقابه العظيم.

﴿وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً﴾ فلا يخافوا منه ظملاً، وأنه يعاقبهم على ما عملوه.

﴿١٨ - ٢١﴾ ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً﴾ \* ومن أراد الآخرة وسمى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً \* كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً \* انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾ يخبر تعالى أن ﴿من كان يريد الدنيا﴾ العاجلة ﴿المنقضية الزائلة، فعمل لها وسمى، ونسي المبتدأ والمنتهى، أن الله يُعجل له من حظاها ومتاعها ما يشاؤه ويريده، مما كتب [الله] له في اللوح المحفوظ، ولكنه متاع غير نافع ولا دائم له.

ثم يجعل له في الآخرة ﴿جهنم﴾ يصلاها﴾ أي: يباشر عذابها، ﴿مذموماً مدحوراً﴾ أي: في حالة الخزي والفضيحة والذم من الله ومن خلقه، والبعد عن رحمة الله، فيجمع له بين العذاب والفضيحة.

﴿١٣ - ١٤﴾ ﴿وكل إنسان أرمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ وهذا إخبار عن كمال عدله، أن كل إنسان يلزمه طائره في عنقه، أي: ما عمل من خير وشر، يجعله الله ملازماً له، لا يتعداه إلى غيره، فلا يحاسب بعمل غيره، ولا يحاسب غيره بعمله.

﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾ فيه ما عمله من الخير والشر حاضرأ، صغيره وكبيره، ويقال له: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾.

وهذا من أعظم العدل والإنصاف، أن يقال للعبد: حاسب نفسك، ويعترف بما عليه من الحق المرجب للعقاب.

﴿١٥﴾ ﴿من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ أي: هداية كل أحد وضلاله لنفسه، لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يدفع عنه مثقال ذرة من الشر، والله تعالى أعدل العادلين، لا يعذب أحداً حتى تقوم عليه الحجة بالرسالة، ثم يعاند الحجة.

وأما من انقاد للحجة، أو لم تبلغه حجة الله تعالى، فإن الله تعالى لا يعذبه.

والإكرام، الواجب والمستنون، وذلك الحق، يتفاوت بتفاوت الأحوال، والأقارب، والحاجة وعدمها، والأزمنة.

﴿والمسكين﴾ آتة حقه من الزكاة ومن غيرها، لتزول مسكنته، ﴿وابن السبيل﴾ وهو الغريب المنقطع به عن بلده، فيعطى الجميع من المال، على وجه لا يضر المعطي، ولا يكون زائداً على المقدار اللائق، فإن ذلك تبذير، وقد نهى الله عنه وأخبر:

﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾ لأن الشيطان لا يدعو إلا إلى كل خصلة ذميمة، فيدعو الإنسان إلى البخل والإمساك، فإذا عصاه، دعاه إلى الإسراف والتبذير. والله تعالى، إنما يأمر بأعدل الأمور وأتسطها ويمدح عليه، كما في قوله عن عباد الرحمن الأبرار، ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾.

وقال هنا: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾ كناية عن شدة الإمساك والبخل. ﴿ولا تبسطها كل البسط﴾ فتتفق فيما لا ينبغي، أو زيادة على ما ينبغي.

﴿فتقعد﴾ إن فعلت ذلك ﴿ملوماً﴾ أي: تلام على ما فعلت ﴿محسوراً﴾ أي: حاسر اليد فارغها، فلا بقي ما في يدك من المال ولا خلفه مدح وثناء.

وهذا الأمر بإيتاء ذي القربى، مع القدرة والغنى، فأما مع العدم، أو تعمس النفقة الحاضرة، فأمر تعالى أن يُزَوِّراً رداً جليلاً فقال: ﴿وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها﴾ أي: تعرض عن إعطائهم إلى وقت آخر، ترجو فيه من الله تيسير الأمر.

﴿فقل لهم قولاً ميسوراً﴾ أي: لطيفاً يرفق، ووعد بالجميل، عند سئوح الفرصة واعتذار بعدم الإمكان في الوقت الحاضر، لينقلبوا عنك مطمئنة خواطرهم، كما قال تعالى: ﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى﴾.

وهذا أيضاً من لطف الله تعالى

﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾ أي: تواضع لهما، ذلاً لهما ورحمة، واحتساباً للأجر، لا لأجل الخوف منهما، أو الرجاء لما لهما، ونحو ذلك من المقاصد التي لا يضر عليها العبد.

﴿وقل رب ارحهما﴾ أي: ادع لهما بالرحمة أحياء وأمواتاً، جزاء على تربيتكما إياك صغيراً.

وفهم من هذا، أنه كلما ازدادت التربية ازداد الحق، وكذلك من تولي تربية الإنسان في دينه ودنياه، تربية صالحة غير الأبوين، فإن له على من رباها حق التربية.

﴿٢٥﴾ ﴿ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً﴾ أي: ربكم تعالى مطلع على ما أكنته سرائركم من خير وشر، وهو لا ينظر إلى أعمالكم وأبدانكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وما فيها من الخير والشر.

﴿إن تكونوا صالحين﴾ بأن تكون إراداتكم ومقاصدكم دائرة على مرضاة الله، ورغبتكم فيما يقربكم إليه، وليس في قلوبكم إرادات مستقرة لغير الله.

﴿فإنه كان للأوابين﴾ أي: الرجاعين إليه في جميع الأوقات ﴿غفوراً﴾ فمن اطلع الله على قلبه، وعلم أنه ليس فيه إلا الإجابة إليه ومحبة وعبدة ما يقرب إليه، فإنه، وإن جرى منه في بعض الأوقات ما هو مقتضى الطباع البشرية، فإن الله يعفو عنه، ويعفّر له الأمور العارضة غير المستقرة.

﴿٢٦ - ٣٠﴾ ﴿وأت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً﴾ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً \* وإما تعرض عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً \* ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً \* إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بيناه خبيراً بصيراً \* يقول تعالى: ﴿وأت ذا القربى حقه﴾ من البسر

أحدًا إلا بإذن الله، وكما أن من جعل مع الله الهاً آخر له الذم والخذلان، فمن وحده، وأخلص دينه لله، وتعلق به دون غيره، فإنه محمود معان في جميع أحواله.

﴿٢٣ - ٢٤﴾ ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً﴾ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحهما كما ربياني صغيراً ﴿لأنه تعالى عن الشرك به، أمر بالتوحيد، فقال: ﴿وقضى ربك﴾ قضاء دينياً، وأمر أمراً شرعياً ﴿أن لا تعبدوا﴾ أحدًا من أهل الأرض والسموات الأحياء والأموات.

﴿إلا إياه﴾ لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي له كل صفة كمال، وله من تلك الصفة أعظمها، على وجه لا يشبهه أحد من خلقه، وهو المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، الدافع لجميع النقم، الخالق، الرازق، المدبر لجميع الأمور، فهو المتفرد بذلك كله، وغيره ليس له من ذلك شيء.

ثم ذكر بعد حقه القيام بحق الوالدين، فقال: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي: أحسنوا إليهما بجميع وجوه الإحسان، القولي والفعلي، لأنهما سبب وجود العبد، ولهما من المحبة للولد والإحسان إليه، والقرب، ما يقتضي تأكيد الحق ووجوب البر.

﴿إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما﴾ أي: إذا وصل إلى هذا السن، الذي تضعف فيه قواهما، ويحتاجان من اللطف والإحسان ما هو معروف. ﴿فلا تقل لهما أف﴾ وهذا أدنى مراتب الأذى، نيه به على ما سواه، والمعنى لا تؤذها أدنى أذى.

﴿ولا تنهرهما﴾ أي: تزجرهما، وتتكلم لهما كلاماً خشناً، ﴿وقل لهما قولاً كريماً﴾ بلفظ يجبانه، وتأدب وتلطف بكلام لين حسن يلد على قلوبهما، وتطمئن به نفوسهما، وذلك يختلف باختلاف الأحوال والموائد والأزمان.



رشداً فادفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴿٢٣٠﴾ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ﴿٢٣١﴾ الَّذِي عَاهَدْتُمْ عَلَىٰ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَالَّذِي عَاهَدْتُمُ الْخَلْقَ عَلَيْهِ. ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ أَي: مَسْئُولِينَ عَنِ الْوَفَاءِ بِهِ وَعَدَمِهِ، فَإِنْ وَفَيْتُمْ، فَلَكُمْ الشُّوَابُ الْجَزِيلَ، وَإِنْ لَمْ تَسُوا<sup>(١)</sup>، فَعَلَيْكُمْ الْإِثْمُ الْعَظِيمُ.

﴿٢٣٥﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٢٣٦﴾ وَهَذَا أَمْرٌ بِالْعَدْلِ وَإِيْفَاءِ الْكَيْلِ وَالْمَوَازِينِ بِالْقِسْطِ، مِنْ غَيْرِ بَخْسٍ وَلَا نَقْصٍ، وَيُؤْخَذُ مِنْ عَمُومِ الْمَعْنَى، النَّهْيِ عَنِ كُلِّ غَشٍّ فِي ثَمَنِ أَوْ مِثْمَنِ أَوْ مَعْقُودٍ عَلَيْهِ، وَالْأَمْرُ بِالصَّحِّحِ وَالصَّدَقِ فِي الْمَاعِلَةِ.

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ مِنْ عَدَمِهِ ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أَي: أَحْسَنُ عَاقِبَةٍ، بِهِ يَسْلَمُ الْعَبْدُ مِنَ التَّبَعَاتِ، وَبِهِ تَنْزِلُ الْبَرَكَةُ.

﴿٢٣٦﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ

عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٢٣٧﴾ أَي: وَلَا تَتَّبِعْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، بَلْ تُنَبِّئْ فِي كُلِّ مَا تَقُولُهُ وَتَفْعَلُهُ، فَلَا تَنْظُرْ ذَلِكَ يَذْهَبُ لَا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ، ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ فَحَقِيقٌ بِالْعَبْدِ الَّذِي يَعْرِفُ أَنَّهُ مَسْئُولٌ عَمَّا قَالَهُ وَفَعَلَهُ، وَعَمَّا اسْتَعْمَلَ بِهِ جَوَارِحَهُ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ لِعِبَادَتِهِ، أَنْ يُبَدِّدَ لِلسُّؤَالِ جَوَابًا، وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِاسْتِعْمَالِهَا بِعِبَادَةِ اللَّهِ، وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ، وَكِفَايَةِ عَمَّا يَكْرَهُهُ اللَّهُ تَعَالَى.

﴿٣٧ - ٣٩﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طَوْلًا ﴿٣٨﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٩﴾ ذَلِكَ عَمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْمَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ تَتَلَفَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴿٤٠﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أَي: كِبْرًا وَتِيهًا وَبَطْرًا، مُتَكِبِرًا عَلَى الْحَقِّ، وَمْتَعَاظِمًا عَلَى الْخَلْقِ.

﴿إِنَّكَ﴾ فِي فِعْلِكَ ذَلِكَ ﴿لَنْ تَخْرِقَ

﴿٢٣٣﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٢٣٤﴾ وَهَذَا شَامِلٌ لِكُلِّ نَفْسٍ ﴿حَرَّمَ اللَّهُ﴾ قَتْلَهَا مِنْ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ، وَذَكَرَ وَأَنْشَى، وَحَرَّ وَعَبَدَ، وَمَسَلَمَ وَكَافَرَ لَهُ عَهْدَ.

﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كَالنَّفْسِ بِالنَّفْسِ، وَالزَّانِي الْمَحْصَنَ، وَالتَّارِكَ لِذِينِهِ الْمَفَارِقَ لِلْجَمَاعَةِ، وَالبَاغِي فِي حَالِ بَغْيِهِ إِذَا لَمْ يَنْدَفِعْ إِلَّا بِالْقَتْلِ.

﴿وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا﴾ أَي: بِغَيْرِ حَقٍّ ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ﴾ وَهُوَ أَقْرَبُ عَصَابَتِهِ وَوَرِثَتِهِ إِلَيْهِ ﴿سُلْطَانًا﴾ أَي: حِجَّةٌ ظَاهِرَةٌ عَلَى الْقِصَاصِ مِنَ الْقَاتِلِ، وَجَعَلْنَا لَهُ أَيْضًا تَسْلُطًا قَدْرِيًّا عَلَى ذَلِكَ، وَذَلِكَ حِينَ تَجْتَمِعُ الشَّرُوطُ الْمَوْجِبَةُ لِلْقِصَاصِ، كَالْعَمْدِ الْعَدْوَانِ، وَالْمَكَافَأَةِ.

﴿فَلَا يَسْرِفُ﴾ الْوَلِيُّ ﴿فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ وَالْإِسْرَافُ مَجَاوِزَةُ الْحُدُودِ، إِمَّا أَنْ يُمَثِّلَ بِالْقَاتِلِ، أَوْ يَقْتُلَهُ بِغَيْرِ مَا قَتَلَ بِهِ، أَوْ يَقْتُلَ غَيْرَ الْقَاتِلِ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ إِلَى أَنَّ الْحَقَّ فِي الْقَتْلِ لِلْوَلِيِّ، فَلَا يَقْتَصُّ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَإِنْ عَفَا سَقَطَ الْقِصَاصُ.

وَأَنْ وَلِيَ الْمُقْتُولِ، يَعْنِيهِ اللَّهُ عَلَى الْقَاتِلِ وَمَنْ أَعَانَهُ حَتَّى يَتِمَّ مِنْ قَتْلِهِ.

﴿٢٤٤﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٢٤٥﴾ وَهَذَا مِنْ لَطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ تَعَالَى بِالْيَتِيمِ، الَّذِي فَقَدَ الْوَالِدَ وَهُوَ صَغِيرٌ، غَيْرُ عَارِفٍ بِمَصْلَحَةِ نَفْسِهِ، وَلَا قَائِمٍ بِهَا، أَنْ أَمْرَ أَوْلِيَاءِهِ بِحِفْظِهِ وَحِفْظِ مَالِهِ وَإِصْلَاحِهِ، وَأَنْ لَا يَقْرَبُوهُ ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ مِنَ التَّجَارَةِ فِيهِ، وَعَدَمِ تَعْرِيفِهِ لِلْأَخْطَارِ، وَالْحَرَصِ عَلَى تَنْمِيَّتِهِ، وَذَلِكَ مَمْتَدٌّ إِلَى أَنْ «يَبْلُغَ» الْيَتِيمَ «أَشُدَّهُ» أَي: بُلُوغَهُ، وَعَقْلَهُ، وَرَشْدَهُ، فإِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ، زَالَتْ عَنْهُ الْوَلَايَةُ، وَصَارَ وَلِي نَفْسِهِ، وَدَفَعَ إِلَيْهِ مَالَهُ.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ أَنْتُمْ مِنْهُمْ

بِالْعِبَادِ، أَمْرَهُمْ بِالنَّظَرِ الرَّحْمَةَ وَالرِّزْقَ مِنْهُ، لِأَنَّ النَّظَرَ ذَلِكَ عِبَادَةٌ، وَكَذَلِكَ وَغَدُّهُمْ بِالصَّدَقَةِ وَالْمَعْرُوفِ عِنْدَ التَّيَسُّرِ، عِبَادَةٌ حَاضِرَةٌ، لِأَنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ الْحَسَنَةَ حَسَنَةً، وَلِهَذَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَنْوِي فِعْلَ مَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ، لِيُثَابَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَعَلَّ اللَّهُ يَسِّرُهُ لَهُ [بِسَبَبِ رَجَائِهِ]<sup>(٢)</sup>.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَيَقْدِرُهُ وَيَضِيقُهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ حِكْمَةً مِنْهُ، ﴿إِنَّهُ كَانَ يَعْبَادُهُ خَيْرِيًّا بَصِيرًا﴾ فَيَجْزِيهِمْ عَلَى مَا يَعْلَمُهُ صَالِحًا لَهُمْ، وَيُدْبِرُهُمْ، بِلَطْفِهِ وَكِرَمِهِ.

﴿٢٤١﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خَطِئًا كَبِيرًا ﴿٢٤٢﴾ وَهَذَا مِنْ رَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ، حَيْثُ كَانَ أَرْحَمَ بِهِمْ مِنَ الْوَالِدِيِّمِ، فَتَنَهَى الْوَالِدِينَ أَنْ يَقْتُلُوا أَوْلَادَهُمْ خَوْفًا مِنَ الْفَقْرِ وَالْإِمْلَاقِ، وَتَكْفُلَ بِرِزْقِ الْجَمِيعِ.

وَأَخْبَرَ أَنْ قَتْلَهُمْ كَانَ خَطِيئًا كَبِيرًا، أَي: مِنْ أَعْظَمِ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ، لِزَوَالِ الرَّحْمَةِ مِنَ الْقَلْبِ، وَالْعَقُوقِ الْعَظِيمِ وَالتَّجْرِيقِ عَلَى قَتْلِ الْأَطْفَالِ، الَّذِينَ لَمْ يَجْرُ مِنْهُمْ ذَنْبٌ وَلَا مَعْصِيَةٌ.

﴿٢٤٢﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجِيَّ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٤٣﴾ وَالنَّهْيُ عَنِ قَرْبَانِهِ أَبْلَغُ مِنَ النَّهْيِ عَنِ مَجْرَدِ فِعْلِهِ، لِأَنَّ ذَلِكَ يَشْمَلُ النَّهْيَ عَنِ جَمِيعِ مَقْدَمَاتِهِ وَدَوَاعِيهِ، فَإِنَّ: «مَنْ حَامَ حَوْلَ الْحِمَىٰ يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ»، خُصُوصًا هَذَا الْأَمْرَ، الَّذِي فِي كَثِيرٍ مِنَ النَّفُوسِ أَقْوَى دَاعٍ إِلَيْهِ.

وَرُوصَ اللَّهُ الزَّوْجِيَّ وَقَبِيحَهُ بِأَنَّهُ «كَانَ فَاحِشَةً» أَي: إِثْمًا يَسْتَفْحِشُ فِي الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ وَالْفِطْرِ، لِتَضَمُّنِهِ التَّجْرِيَّ عَلَى الْحَرَمَةِ فِي حَقِّ اللَّهِ، وَحَقِّ الْمَرْأَةِ، وَحَقِّ أَهْلِهَا، أَوْ زَوْجِهَا، وَإِفْسَادِ الْفِرَاشِ، وَاخْتِلَاطِ الْأَنْسَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَامِدِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أَي: بِئْسَ السَّبِيلُ، سَبِيلٌ مِنْ تَجَرٍّ عَلَى هَذَا الذَّنْبِ الْعَظِيمِ.

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) في ب: تفعلوا.





يكون معه آلهة، فقد ضل من قال ذلك ضلالاً ميبئاً، وظلم ظلماً كبيراً. لقد تضاءلت لعظمته المخلوقات العظيمة، وصغرت لدى كبريائه السماوات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهن ﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه﴾. وافتقر إليه العالم العلوي والسفلي، فقرأ ذاتياً، لا ينفك عن أحد منهم في وقت من الأوقات. هذا الفقر بجميع وجوهه، فقر من جهة الخلق والرزق والتدبير، وفقر من جهة الاضطرار، إلى أن يكون معبودهم ومحبوبهم، الذي إليه يتقربون، وإليه في كل حال يفزعون، ولهذا قال: ﴿تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا من حيوان ناطق وغير ناطق، ومن أشجار ونبات وجامد وحَيٍّ وميت﴾ إلا يسبح بحمده بلسان الحال، ولسان المقال. ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ أي: تسبيح باقي المخلوقات التي على غير لغتكم بل يحيط بها علام الغيوب. ﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾ يعاجل بالعقوبة من قال فيه قولاً تكاد السماوات والأرض تنفطر منه وتخز له الجبال ولكنه أمهلهم، وأنم عليهم،

وعافاهم، ورزقهم، ودعاهم إلى بابه ليتوبوا من هذا الذنب العظيم، ليعطيهم الثواب الجزيل، ويغفر لهم ذنبيهم، فلولا حلمه ومغفرته، لسقطت السماوات على الأرض، ولما ترك على ظهرها من دابة.

﴿٤٥ - ٤٨﴾ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً \* وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقلاً وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على آذانهم نفوراً \* نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوي إذ يقول الظالمون إن تنبؤنا إلا رجلاً مسحوراً \* انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً \* يخبر تعالى عن عقوبته للمكذبين بالحق الذين ردوه وأعرضوا عنه، أنه يحول بينهم وبين الإيمان، فقال:

﴿وإذا قرأت القرآن﴾ الذي فيه الوعظ والتذكير، والهدى والإيمان، والخير والعلم الكثير.

﴿جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً﴾ يسترهم عن فهمه حقيقة، وعن التحقق بحقائقه والانقياد لما يدعو إليه من الخير.

﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة﴾ أي: أعظية وأغشية، لا يفقهون معها القرآن، بل يسمعون سماعاً تقوم به عليهم الحجة، ﴿وفي آذانهم وقراً﴾ أي: صمما عن سماعه، ﴿وإذا ذكرت ربك في القرآن﴾ داعياً لتوحيده، ناهياً عن الشرك به. ﴿ولوا على آذانهم نفوراً﴾ من شدة بغضهم له، ومحببتهم لما هم عليه من الباطل، كما قال تعالى: ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾.

﴿نحن أعلم بما يستمعون به﴾ أي: إنما منعناهم من الانتفاع عند سماع القرآن، لأننا نعلم أن مقاصدهم سيئة،

يريدون أن يعشروا على أقل شيء ليقدموا به، وليس استماعهم لأجل الاسترشاد وقبول الحق، وإنما هم معتمدون على عدم اتباعه، ومن كان بهذه الحالة، لم يفده الاستماع شيئاً، ولهذا قال: ﴿إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوي﴾ أي: متناجين ﴿إذ يقول الظالمون﴾ في مناجاتهم: ﴿إن ننبؤنا إلا رجلاً مسحوراً﴾ فإذا كانت هذه مناجاتهم الظالمة فيما بينهم، وقد بنوها على أنه مسحور، فهم جازمون أنهم غير معتبرين لما قال، وأنه يهذي، لا يدري ما يقول.

قال تعالى: ﴿انظر﴾ متعجباً ﴿كيف ضربوا لك الأمثال﴾ التي هي أضل الأمثال، وأبعدها عن الصواب ﴿فضلوا﴾ في ذلك، أو فصارت سبباً لضلالهم، لأنهم بنوا عليها أمرهم، والمبني على فاسد أفسد منه.

﴿فلا يستطيعون سبيلاً﴾ أي: لا يبتدون أي اهتداء، فنصيبهم الضلال المحض، والظلم الضرف.

﴿٤٩ - ٥٢﴾ ﴿وقالوا إذا كنا عظاماً ورفاتاً إنا لمبعوثون خلقاً جديداً \* قل كونوا حجارة أو حديداً \* أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من بعدنا قل الذي فطركم أول مرة فسيفضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً \* يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً﴾ يخبر تعالى عن قول المنكرين للبعث، وتكذيبهم به، واستبعادهم بقولهم: ﴿إذا كنا عظاماً ورفاتاً﴾ أي: أجساداً بالية، ﴿إنا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾ أي: لا يكون ذلك، وهو محال بزعمهم، فجهلوا أشد الجهل، حيث كذبوا رسل الله، وجحدوا آيات الله، وقاسوا قدرة خالق السماوات والأرض بقدرتهم الضعيفة العاجزة، فلما رأوا أن هذا تمتنع عليهم لا يقدر عليهم، جعلوا قدرة الله كذلك. فسبحان من جعل خلقاً من خلقه،

(١) سبق قلم الشيخ - رحمه الله - إلى آية أخرى فكتب: فلا يهتلون وعلى ذلك فترها، فأقبت التفسير كما هو، وصوت الآية.

من قِيلَها، فبذلك يطيعون ربهم، ويستقيم أمرهم، ويهدون لرشدهم.

﴿ربكم أعلم بكم﴾ من أنفسكم، فلذلك لا يريد لكم إلا ما هو الخير، ولا يأمركم إلا بما فيه مصلحة لكم، وقد تريدون شيئاً خيراً في عكسه.

﴿إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم﴾ فيوفى من شاء لأسباب الرحمة، ويخذل من شاء، فيضل عنها، فيستحق العذاب.

﴿وما أرسلناك عليهم وكيلاً﴾ تدبر أمرهم، وتقوم بمجازاتهم، وإنما الله هو الوكيل، وأنت مبلغ هاد إلى صراط مستقيم.

﴿وربك أعلم بمن في السموات والأرض﴾ من جميع أصناف الخلائق، فيعطي كل منهم ما يستحقه تقتضيه حكمته، ويفضل بعضهم على بعض في جميع الخصال، الحسنة والمعنوية، كما فضل بعض النبيين المشتركين بوجهه على بعض بالفضائل والخصائص الراجعة إلى ما تُنْ به عليهم، من الأرصاف المدسوحة، والأخلاق المرضية، والأعمال الصالحة، وكثرة الأتياع، ونزول الكتب على بعضهم، المشتملة على الأحكام الشرعية والعقائد المرضية، كما أنزل على داود زبوراً، وهو الكتاب المعروف.

إذا كان تعالى قد فضل بعضهم على بعض، وأتى بعضهم كتاباً، فلم ينكر المكذوبون لمحمد ﷺ ما أنزله الله عليه وما فضله به من النبوة والكتاب.

﴿٥٦ - ٥٧﴾ ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً﴾ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أتيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً﴾ يقول تعالى: ﴿قل﴾ للمشركين بالله الذين اتخذوا من دونه أنداداً يعبدونهم كما يعبدون الله، ويدعونهم كما يدعونه، ملزماً لهم بتصحيح ما زعموه واعتقدوه إن كانوا صادقين:

﴿ادعوا الذين زعمتم﴾ آلهة من دون الله فانظروا هل ينفعونكم، أو

سرعة وقوعه، وأن الذي مر عليكم من النعيم كأنه ما كان.

فهذا الذي يقول عنه المنكرون: ﴿متى هو؟﴾ يندمون غاية الندم عند وروده، ويقال لهم: ﴿هذا الذي كنتم به تكذبون﴾.

﴿٥٣ - ٥٥﴾ ﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً﴾ ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم وما أرسلناك عليهم وكيلاً﴾ وربك أعلم بمن في السموات والأرض ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبوراً﴾ وهذا من لطفه بعباده، حيث أمرهم بأحسن الأخلاق والأعمال والأقوال، الموجبة للسعادة في الدنيا والآخرة، فقال:

﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن﴾ وهذا أمر بكل كلام يقرب إلى الله، من قراءة، وذكر، وعلم، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وكلام حسن لطيف مع الخلق على اختلاف مراتبهم ومنازلهم، وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين، فإنه يؤمر بإيثار أحسنهما إن لم يمكن الجمع بينهما.

والقول الحسن داع لكل خلق جميل، وعمل صالح، فإن من ملك لسانه، ملك جميع أمره.

وقوله: ﴿إن الشيطان ينزغ بينهم﴾ أي: يسمي بين العباد بما يفسد عليهم دينهم ودنياهم.

فدواء هذا، أن لا يطيعوه في الأقوال غير الحسنة التي يدعوهم إليها، وأن يلتفتوا فيما بينهم، لينقمع الشيطان الذي ينزغ بينهم، فإنه عدوهم الحقيقي الذي ينبغي لهم أن يجاربهوه، فإنه يدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير﴾.

وأما إخوانهم، فإنهم وإن نزغ الشيطان فيما بينهم، وسمى في العداوة، فإن الحزم كل الحزم، السعي في ضد عدوهم، وأن يجمعوا أنفسهم الأمانة بالسوء، التي يدخل الشيطان

يزعمون أنهم أولو العقول والألباب، مثلاً في جهل أظهر الأشياء وأجلاها، وأوضحها براهين وأعلها، ليرى عباده أنه ما تُم إلا توفيقه وإعانتة، أو الهلاك والضلال.

﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾.

ولهذا أمر رسوله ﷺ أن يقول لهؤلاء المنكرين للبعث استبعاداً:

﴿قل كونوا حجارة أو حديداً﴾ أو خلقاً مما يكبر﴾ أي: يعظم ﴿في صدوركم﴾ لتسلموا بذلك على زعمكم، من أن تالكم قدرة الله، أو تنفذ فيكم مشيئته، فإنكم غير معجزى الله، في أي: حالة تكونون، وعلى أي: وصف تتحولون، وليس لكم في أنفسكم تدبير في حالة الحياة وبعد الممات.

فدعوا التدبير والتصريف لمن هو على كل شيء قدير، وبكل شيء محيط. ﴿فيقولون﴾ حين تقييم عليهم الحجية في البعث: ﴿من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة﴾ فكما فطركم، ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، فإنه سيعيدكم خلقاً جديداً ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾.

﴿فستبغضون إليكم رؤوسهم﴾ أي: يهزونها، إنكاراً وتعجباً مما قلت، ﴿ويقولون متى هو﴾ أي: متى وقت البعث الذي تزعمه على قولك؟ لا إقراراً منهم لأصل البعث، بل ذلك سقفة منهم، وتعجيز. ﴿قل عسى أن يكون قريباً﴾ فليس في تعيين وقته فائدة، وإنما الفائدة والمدار على تقريره والإقرار به وإثباته، وإلا فكل ما هو أت فإنه قريب.

﴿يوم يدعوكم﴾ للبعث والنشور، وينفخ في الصور، ﴿فتستجيبون بحمده﴾ أي: تتقادون لأمره، ولا تستمعون عليه. وقوله: ﴿بحمده﴾ أي: هو الحمود تعالى على ما يفعله ويجزي به العباد، إذا جمعهم ليوم التناد. ﴿وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً﴾ من

لا يحصل إلا بها، بل المقصود منها التخويف والترهيب، ليرتدعوا عن ما هم عليه.

﴿وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس﴾ علماء وقدره، فليس لهم ملجأ يلجؤون إليه، ولا ملاذ يلوذون به عنه، وهذا كاف لمن له عقل في الانكشاف عما يكرهه الله الذي أحاط بالناس.

﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة﴾ أكثر المفسرين على أنها في ليلة الإسراء.

﴿والشجرة الملعونة﴾ التي ذكرت في القرآن ﴿وهي شجرة الزقوم، التي تنبت في أصل الجحيم.

والمنع، إذا كان هذان الأمران، قد صارا فتنة للناس حتى استلج الكفار بكفرهم، وازداد شرهم، وبعض من كان إيمانه ضعيفاً، رجع عنه بسبب أن ما أخبرهم به من الأمور التي كانت ليلة الإسراء، ومن الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، كان خارقاً للعادة.

والإخبار بوجود شجرة تنبت في أصل الجحيم أيضاً، من الخوارق، فهذا الذي أوجب لهم التكذيب، فكيف لو شاهدوا الآيات العظيمة والخوارق الجسيمة!!!

أليس ذلك أولى أن يزداد بسببه شرهم؟! فلذلك رحمهم الله وصرفها عنهم، ومن هنا تعلم أن عدم التصريح في الكتاب والسنة، بذكر الأمور العظيمة التي حدثت في الأزمنة المتأخرة، أولى وأحسن، لأن الأمور التي لم يشاهد الناس لها نظيراً، ربما لا تقبلها عقولهم لو أخبروا بها قبل وقوعها، فيكون ذلك ريباً في قلوب بعض المؤمنين، ومانعاً يمنع من لم يدخل الإسلام، ومنفراً عنه. بل ذكر الله ألقاظاً عامة، تتناول جميع ما يكون.

﴿ونخوفهم﴾ بالآيات ﴿فما يزيدهم﴾ التخويف ﴿إلا طغياناً كبيراً﴾ وهذا أبلغ ما يكون في التملي بالشر ومحبتة، وبغض الخير وعدم

كلها لله، والنصح فيها، وإيقاعها على أكمل الوجوه المقدور عليها، فمن زعم أنه يجب الله بغير ذلك، فهو كاذب.

﴿٥٨﴾ ﴿وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾ أي: ما من قرية من القرى المكذبة للرسل، إلا لا بد أن يصيبهم هلاك قبل يوم القيامة، أو عذاب شديد، كتاب كتبه الله، وقضاء أمره، لا بد من وقوعه، فليبادر المكذبون بالإجابة إلى الله وتصديق رسله، قبل أن تتم عليهم كلمة العذاب، ويحقر عليهم القول.

﴿٥٩ - ٦٠﴾ ﴿وما نمعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وأتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً﴾ \* وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً﴾ يذكر تعال رحمة بعدم إنزاله الآيات التي يقترح بها المكذبون، وأنه ما منعه أن يرسلها إلا خوف من تكذيبهم لها، فإذا كذبوا بها، عاجلهم العقاب، وحل بهم من غير تأخير، كما فعل بالاولين الذين كذبوا بها.

ومن أعظم الآيات، الآية التي أرسلها الله إلى ثمود، وهي الناقة العظيمة الباهرة، التي كانت تصدر عنها جميع القبيلة بأجمعها، ومع ذلك كذبوا بها، فأصابهم ما قص الله علينا في كتابه، وهؤلاء كذلك، لو جاءتهم الآيات الكبار لم يؤمنوا، فإنه ما منعهم من الإيمان خفاء ما جاء به الرسول واشتياؤه، هل هو حق أو باطل؟ فإنه قد جاء من البراهين الكثيرة، ما دل على صحة ما جاء به، الموجب لهداية من طلب الهداية، فغيرها مثلها، فلا بد أن يسلكوا بها ما سلكوا بغيرها، فترك إنزالها والحالة هذه، خير لهم وأنفع.

وقوله: ﴿وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً﴾ أي: لم يكن القصد بها أن تكون داعية وموجبة للإيمان، الذي

يدفعون عنكم الضر، فإنهم ﴿يملكون كشف الضر عنكم﴾ من مرض، أو فقر، أو شدة، ونحو ذلك، فلا يدفعونه بالكلية، ﴿ولا﴾ يملكون أيضاً تخويله من شخص إلى آخر، ومن شدة إلى ما دونها.

فإذا كانوا بهذه الصفة فلاي: شيء تدعوهم من دون الله؟ فإنهم لا كمال لهم، ولا فعال نافعة، فاتخاذهم نقص في الدين والعقل، وسفه في الرأي.

ومن العجيب، أن السفسه عند الاعتياد والممارسة، وتلقيه عن الآباء الضالين بالقبول، براه صاحبه هو الرأي: السديد، والعقل المفيد.

ويرى إخلاص الدين لله الواحد الأحد، الكامل المنعم بجميع النعم الظاهرة والباطنة، هو السفسه، والأمر المتعجب منه، كما قال المشركون: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾.

ثم أخبر أيضاً، أن الذين يعبدونهم من دون الله، في شغل شاغل عنهم، باهتمامهم بالافتقار إلى الله، وابتغاء الوسيلة إليه، فقال:

﴿أولئك الذين يدعون﴾ من الأنبياء والصالحين والملائكة ﴿يتفنون إلى ربهم الوسيلة أيم أقرب﴾ أي: يتنافسون في القرب من ربهم، ويبدلون ما يقدر عليهم من الأعمال الصالحة المقرية إلى الله تعال وإلى رحمته، ويخافون عذابه، فيجتنبون كل ما يوصل إلى العذاب.

﴿إن عذاب ربك كان محذوراً﴾ أي: هو الذي ينبغي شدة الخنز منه والتوفي من أسبابه.

وهذه الأمور الثلاثة، الخوف والرجاء والمحبة، التي وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده، هي الأصل والمادة في كل خير.

فمن تمت له، تمت له أموره، وإذا خلا القلب منها، ترحلت عنه الحيرت، وأحاطت به الشرور.

وعلامه المحبة ما ذكره الله، أن يجتهد العبد في كل عمل يقربه إلى الله وينافس في قربه بإخلاص الأعمال

الانقياد له .

﴿٦١ - ٦٥﴾ «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أسجد لمن خلقت طيناً \* قال أربك هذا الذي كرمت علي لئن أشرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً \* قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً \* واستغزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً \* إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً \* بينه تارك وتعالى عباده على شدة عداوة الشيطان، وحرصه على إضلالهم، وأنه لما خلق الله آدم، استكبر عن السجود له، و﴿قال﴾ متكبراً: «أسجد لمن خلقت طيناً﴾ أي: من طين، ويزعمه أنه خير منه، لأنه خلق من نار. وقد تقدم فساد هذا القياس الباطل من عدة أوجه .

فلما تبين لإبليس تفضيل الله لآدم ﴿قال﴾ مخاطباً لله: «أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أشرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته﴾ أي: لأستاصلنهم بالإضلال، ولاغوينهم «إلا قليلاً﴾ عرف الخبيث، أنه لا بد أن يكون منهم من يعاديه ويعصيه .

فقال الله له: «اذهب فمن تبعك منهم﴾ واختارك على ربه ووليه الحق، ﴿فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً﴾ أي: مدخراً لكم، موفراً جزاء على أعمالكم .

ثم أمره الله أن يفعل كل ما يقدر عليه من إضلالهم، فقال: «واستغزز من استطعت منهم بصوتك \* ويدخل في هذا كل داع إلى المعصية .

﴿وأجلب عليهم بخيلك ورجلك﴾ ويدخل فيه كل راكب وماش في معصية الله، فهو من خيل الشيطان ورجله .

والقصد أن الله ابتلى العباد بهذا العدو المبين، الداعي لهم إلى معصية الله، بأقواله وأفعاله .  
 ﴿وشاركهم في الأموال والأولاد﴾ وذلك شامل لكل معصية تعلقت بأموالهم وأولادهم، من منع الزكاة والكفارات والحقوق الواجبة، وعدم تأديب الأولاد وتربيتهم على الخير وترك الشر، وأخذ الأموال بخير حقها، أو وضعها بغير حقها، أو استعمال المكاسب الرديئة .

بل ذكر كثير من المفسرين، أنه يدخل في مشاركة الشيطان في الأموال والأولاد، ترك التسمية عند الطعام والشراب والجماع، وأنه إذا لم يسم الله في ذلك، شارك فيه الشيطان، كما ورد فيه الحديث .

﴿وعدهم﴾ الوعود<sup>(١)</sup> المزخرفة التي لا حقيقة لها، ولهذا قال: «وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾ أي: باطلاً مضمحلاً، كأن يزين لهم المعاصي والعقائد الفاسدة، ويعدهم عليها الأجر، لأنهم يظنون أنهم على الحق، وقال تعالى: «الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً﴾ .

ولما أخبر عما يريد الشيطان أن يفعل بالعباد، وذكر ما يعتصم به من فتنته، وهو عبودية الله، والقيام بالإيمان والتوكل، فقال:

﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ أي: تسلط وإغواء، بل الله يدفع عنهم - بقيامهم بعبوديته - كل شر، ويحفظهم من الشيطان الرجيم، ويقوم بكفائتهم . «وكفى بربك وكيلاً﴾ لمن توكل عليه، وأدى ما أمر به .

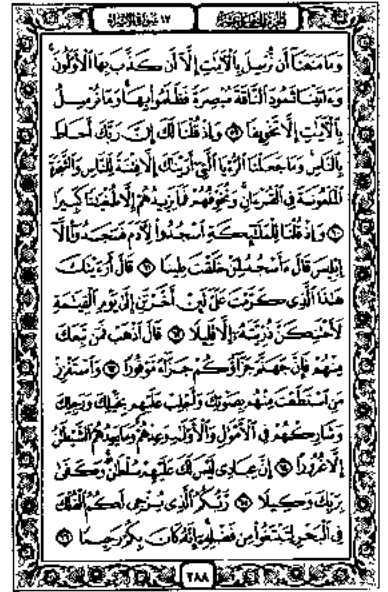
﴿٦٦ - ٦٩﴾ «ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيماً \* وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أمرضتم وكان الإنسان كفوراً \* أنا أنتمم أن يحسف

﴿٦٧﴾ ﴿ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيماً \* وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أمرضتم وكان الإنسان كفوراً \* أنا أنتمم أن يحسف

بكم جانب البر أو يرسل عليكم حصياً ثم لا تجدوا لكم وكيلاً \* أم أنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً﴾ يذكر تعالى نعمته على العباد، بما سخر لهم من الفلك، والسفن والراكب، والأهمهم كيفية صنعتها، وسخر لها البحر المنتظم، يحملها على ظهره، لينتفع العباد بها في الركوب والحمل للأمتعة والتجارة . وهذا من رحمته بعباده، فإنه لم يزل بهم رحيماً رؤوفاً، يؤتيهم من كل ما تعلقت به إرادتهم ومانعهم .

ومن رحمته الدالة على أنه وحده المعبود دون ما سواه، أنهم إذا مسهم الضر في البحر فخافوا من الهلاك لتراكم الأمواج، ضل عنهم ما كانوا يدعون من دون الله في حال الرخاء من الأحياء والأموات، فكأنهم لم يكونوا يدعونهم في وقت من الأوقات لعلمهم أنهم ضعفاء عاجزون عن كشف الضر، وصرخوا بدعوة فاطر الأرض والسموات الذي تستغيث به في شدائدنا جميع المخلوقات، وأخلصوا له الدعاء والتضرع في هذه الحال .  
 فلما كشف الله عنهم الضر،

(١) في النسخين: الأوعاد .



البحر. **فتيلاً** \* ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً \* يخبر تعال عن حال الخلق يوم القيامة، وأنه يدعو كل أناس، معهم إمامهم وهاديهم إلى الرشيد، وهم الرسل ونوابهم، فتعرض كل أمة، ويحضرها رسولهم الذي دعاهم، وتعرض أعمالهم على الكتاب الذي يدعو إليه الرسول، هل هي موافقة له أم لا؟ فيقسمون بهذا قسمين:

﴿٧٠﴾ **«ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً»** وهذا من كرمه عليهم وإحسانه، الذي لا يقادر قدره، حيث كرم بني آدم بجميع وجوه الإكرام، فكرمهم بالعلم والعقل، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وجعل منهم الأولياء والأصفياء، وأنعم عليهم بالنعمة الظاهرة والباطنة.

﴿وحملناهم في البر﴾ على الركاب، من الإبل، والبغال، والحمير، والراكب البرية. ﴿وفي﴾ في البحر ﴿في السفن والراكب﴾ وورزقناهم من الطيبات من المأكول والمشرب، والملابس، والمنافع. فما من طيب تتعلق به حوائجهم، إلا وقد أكرمهم الله به، ويسره لهم غاية التيسير.

﴿وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾ بما خصهم به من المناقب، وفضلهم به من الفضائل، التي ليست لغيرهم من أنواع المخلوقات.

أفلا يقومون بشكر من أولى النعم ودفع النقم، ولا تحجبهم النعم عن المنعم فيشتغلوا بها عن عبادة ربهم، بل ربما استعانوا بها على معاصيه.

﴿٧١ - ٧٢﴾ **«يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقروا بكتابهم ولا يظلمون**

ونجاهم إلى البر، نسوا ما كانوا يدعون إليه من قبل وأشركوا به، من لا ينفع ولا يضر، ولا يعطي ولا يمنع، وأعرضوا عن الإخلاص لربهم ومليكهم، وهذا من جهل الإنسان وكفره، فإن الإنسان كفور للنعم، إلا من هدى الله، فمن عليه بالعقل السليم، واهتدى إلى الصراط المستقيم، فإنه يعلم، أن الذي يكشف الشدائد، وينجي من الأحوال، هو الذي يستحق أن يقرد وتخلص له سائر الأعمال، في الشدة والرخاء، واليسر والعسر.

وأما من خذل، ووكل إلى عقله الضعيف، فإنه لم يلحظ وقت الشدة إلا مصلحته الحاضرة، وإنجاهه في تلك الحال.

فلما حصلت له النجاة، وزالت عنه المشقة، ظن بجعله أنه قد أعجز الله، ولم ينظر بقلبه شيء من العواقب الدنيوية، فضلاً عن أمور الآخرة.

ولهذا ذكروهم الله ذلك بقوله: **«أنأمتنم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً»** أي: فهو على كل شيء قدير، إن شاء أنزل عليكم عذاباً، من أسفل منكم بالخسف، أو من فوقكم بالحاصب، وهو العذاب الذي يخصصهم، فيصبحوا هالكين، فلا تظنوا أن الهلاك لا يكون إلا في





أحد، وإنما ذلك للمؤمنين به، المصدقين بآياته، العالمين به، وأما الظالمون بعدم التصديق به أو عدم العمل به، فلا تزيدهم آياته إلا خساراً، إذ به تقوم عليهم الجحمة، فالشفاء الذي تضمنه القرآن عام لشفاء القلوب، من الشبه، والجهالة، والآراء الفاسدة، والانحراف السني، والقصود السيئة<sup>(١)</sup>.

فإنه مشتمل على العلم اليقيني، الذي تزول به كل شبهة وجهالة، والوعظ والتذكير، الذي يزول به كل شهوة تخالف أمر الله، وشفاء الأبدان من آلامها وأسقامها.

وأما الرحمة، فإن ما فيه من الأسباب والوسائل التي يبحث عليها، مثل فعلها العبد فاز بالرحمة والسعادة الأبدية، والثواب العاجل والآجل.

﴿٨٣﴾ ﴿وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يؤسأ﴾ هذه طبيعة الإنسان من حيث هو، إلا من هداه الله، فإن الإنسان - عند إنعام الله عليه - يفرح بالنعم ويظهر بها، ويحرض وينأى بجانبه عن ربه، فلا يشكره ولا يذكره.

﴿وإذا مسه الشر﴾ الكمرض ونحوه ﴿كان يؤسأ﴾ من الخير، قد قطع عن ربه رجاءه، وظن أن ما هو فيه دائم أبداً.

وأما من هداه الله، فإنه عند النعم يخضع لربه، ويشكر نعمته، وعند الضرر يتضرع، ويرجو من الله عافيته، وإزالة ما وقع فيه، وبذلك يخف عليه البلاء.

﴿٨٤﴾ ﴿قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً﴾ أي: ﴿قل كل﴾ من الناس ﴿يعمل على شاكلته﴾ أي: على ما يليق به من الأحوال، إن كان من الصفوة الأبرار، لم يشاكلهم إلا عملهم لرب العالمين. ومن كان من غيرهم من المخذولين، لم يتناسبهم إلا العمل للمخلوقين، ولم

غيرك، وليكثر ثوابك، وتنال بذلك المقام المحمود، وهو المقام الذي يحمد فيه الأولون والآخرون، مقام الشفاعة العظمى، حين يستشفع الخلاق بأدم، ثم بنوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، وكلهم يعتمر ويتأخر عنها، حتى يستشفعوا بسيد ولد آدم، ليرببهم الله من هم الموقف وكربه، فيشفع عند ربه فيشفعه، ويقيم مقاماً يغطيه به الأولون والآخرون، وتكون له المنة على جميع الخلق.

وقوله: ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق﴾ أي: اجعل مدخلي ومخارجي كلها في طاعتك وعلى مرضاتك، وذلك لتضمنها الإخلاص وموافقة الأمر. ﴿واجعل لي من لَدُنْكَ سلطاناً نصيراً﴾ أي: حجة ظاهرة، وبرهاناً قاطعاً على جميع ما أتته وأذره.

وهذا أعلى حالة ينزلها الله العبد، أن تكون أحواله كلها خيراً، ومقربة له إلى ربه، وأن يكون له - على كل حالة من أحواله - دليلاً ظاهراً، وذلك متضمن للعلم النافع، والعمل الصالح، للعلم بالمسائل والدلائل.

وقوله: ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل﴾ والحق هو ما أوحاه الله إلى رسوله محمد ﷺ، فأمره الله أن يقول ويعلمن، قد جاء الحق الذي لا يقوم له شيء، وزهق الباطل أي: اضمحل وتلاشى.

﴿إن الباطل كان زهوقاً﴾ أي: هذا وصف الباطل، ولكنه قد يكون له صولة وروجان إذا لم يقابله الحق، فعند مجيء الحق يضمحل الباطل، فلا يبقى له حراك.

ولهذا لا يروج الباطل إلا في الأزمان والأمكنة الخالية من العلم بآيات الله وبيناته.

﴿٨٢﴾ وقوله: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾ فالقرآن مشتمل على الشفاء والرحمة، وليس ذلك لكل



الليل وملائكة النهار.

ففي هذه الآية، ذكر الأوقات الخمسة، للصلوات المكتوبات، وأن الصلوات الموقعة فيها فرائض، لتخصيصها بالأمم.

وفيهما: أن الوقت شرط لصحة الصلاة، وأنه سبب لوجوبها، لأن الله أمر بإقامتها لهذه الأوقات.

وأن الظاهر والمصرح بيمينان، والمغرب والعشاء كذلك، للعدز، لأن الله جمع وقتها جميعاً.

وفيه: فضيلة صلاة الفجر، وفضيلة إطالة القراءة فيها، وأن القراءة فيها ركن، لأن العبادة إذا سميت ببعض أجزائها، دل على فرضية ذلك.

وقوله: ﴿ومن الليل فتهجد به﴾ أي: صل به في سائر أوقاته. ﴿نافلة لك﴾ أي: لتكون صلاة الليل زيادة لك في علو القدر، ورفع الدرجات، بخلاف غيرك، فإنها تكون كفارة لسيئاته.

ويحتمل أن يكون المعنى: أن الصلوات الخمس فرض عليك وعلى المؤمنين، بخلاف صلاة الليل، فإنها فرض عليك بالخصوص، لكرامتك على الله، أن جعل وظيفتك أكثر من



لا يبصرون ولا ينطقون .

﴿ ماوأهم ﴾ أي : مقرهم ودارهم  
﴿ جهنم ﴾ التي جمعت كل هم وغم  
وعذاب .

﴿ كلما خبت ﴾ أي تهيأت  
للاتطفاء ﴿ زدناهم سميراً ﴾ أي :  
سمرناها بهم لا يفتر عنهم العذاب ،  
ولا يقضى عليهم فيموتوا ، ولا يخفف  
عنهم من عذابها ، ولم يظلمهم الله  
تعالى ، بل جازاهم بما كفروا بآياته  
وأنكروا البعث الذي أخبرت به الرسل  
ونطقت به الكتب وعجزوا ربهم  
وأنكروا تمام قدرته .

﴿ وقالوا إذا كنا عظاماً ورفاتاً أينما  
ليبعوثون خلقاً جديداً ﴾ أي : لا يكون  
هذا لأنه في غاية البعد عند عقولهم  
الفاصلة .

﴿ أولم يروا أن الله الذي خلق  
السموات والأرض ﴾ وهي أكبر من  
خلق الناس . ﴿ قادر على أن يخلق  
مثلهم ﴾ بل ، إنه على ذلك قدير .

﴿ ولكن قد جعل ﴾ لذلك  
﴿ أجلاً لا ريب فيه ﴾ ولا شك ، وإلا فلو  
شاء لجاءهم به بغتة ، ومع إقامة الحجج  
والأدلة على البعث .

﴿ فأبى الظالمون إلا كفوراً ﴾ ظلماً  
منهم وافتراء .

﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة  
ربي ﴾ التي لا تنفذ ولا تبسّد . ﴿ إذا  
لأسكنتم خشية الإنفاق ﴾ أي : خشية  
أن ينفد ما تنفقون منه ، مع أنه من  
المحال أن تنفذ خزائن الله ، ولكن  
الإنسان مطبوع على الشح والبخل .

﴿ ١٠١ - ١٠٤ ﴾ ﴿ ولقد آتينا  
موسى تسع آيات بينات فاسأل بني  
إسرائيل إذا جاءهم فقال له فرعون إني  
لأظنك يا موسى مسحوراً ﴾ قال لقد  
علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب  
السموات والأرض بصائر وإني لأظنك  
با فرعون مشبوراً ﴾ فأراد أن يستفزهم

وهذا السبب الذي منع أكثر الناس  
من الإيمان ، حيث كانت الرسل التي  
ترسل إليهم من جنسهم بشراً .  
وهذا من رحمة بهم ، أن أرسل إليهم  
بشراً منهم ، فإنهم لا يطبقون التلقي من  
الملائكة .

فلو ﴿ كان في الأرض ملائكة  
يمشون مطمئنين ﴾ يثبتون على رؤية  
الملائكة والتلقي عنهم ، ﴿ لنزلنا عليهم  
من السماء ملكاً رسولاً ﴾ ليمكنهم  
التلقي عنه .

﴿ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم  
إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴾ فمن  
شهادته لرسوله ما أيده به من  
المعجزات ، وما أنزله عليه من الآيات ،  
ونصره على من عاداه وناوأه .

فلو تقول عليه بعض الأقاويل ،  
لأخذ منه باليمين ، ثم لقطع منه  
الويتن ، فإنه خبير بصير ، لا تخفى عليه  
من أحوال العباد خافية .

﴿ ٩٧ - ١٠٠ ﴾ ﴿ ومن يهد الله فهو  
المهتد ومن يضل فلن تجد لهم أولياء  
من دونه ونحشرهم يوم القيامة على  
وجوههم عمياً وبكماً وصماً ماوأهم  
جهنم كلما خبت زدناهم سميراً \*  
ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا  
إذا كنا عظاماً ورفاتاً أينما ليعموتون خلقاً  
جديداً \* أولم يروا أن الله الذي خلق  
السموات والأرض قادر على أن يخلق  
مثلهم وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه  
فأبى الظالمون إلا كفوراً \* قل لو أنتم  
تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأسكنتم  
خشية الإنفاق وكان الإنسان قتوراً \*  
يخسر تعالى أنه المنفرد بالهداية  
والإضلال ، فمن يهده ، فييسره  
لليسر ويخيه العسر ، فهو المهتدي  
على الحقيقة ، ومن يضلله ، فيخذله ،  
ويكفه إلى نفسه ، فلا هادي له من  
دون الله ، وليس له وني ينصره من  
عذاب الله ، حين يحشرهم الله على  
وجوههم خزياً وإهانة ، عمياً وبكماً ،



جميع النعم ، وجعلوا يتعننون عليه  
[باقتراح] آيات غير آياته ، يخترعونها  
من تلقاء أنفسهم الظالمة الجاهلة .

فيقولون لرسول الله ﷺ الذي أتى  
بهذا القرآن المشتمل على كل برهان  
وآية : ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من  
الأرض ينبوعاً ﴾ أي : أنهاراً جارية .  
﴿ أو تكون لك جنة من نخيل  
وعنب ﴾ فتستغني بها عن المشي في  
الأسواق والذهاب والمجيء .

﴿ أو تسقط السماء كما زعمت  
علينا كسفاً ﴾ أي : قطعاً من العذاب ،  
﴿ أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ﴾ أي :  
جعباً ، أو مقابلة ومعانبة ، يشهدون لك  
بما جئت به .

﴿ أو يكون لك بيت من زخرف ﴾  
أي : مزخرف بالذهب وغيره ﴿ أو  
ترقى في السماء ﴾ رقباً حسياً ، ﴿ و ﴾  
مع هذا ف ﴿ لن نؤمن لربك حتى تنزل  
علينا كتاباً نقرؤه ﴾ .

ولما كانت هذه تمنعات وتعجزيات ،  
وكلام أسفه الناس وأظلمهم ، المتضمنة  
لرد الحق وسوء الأدب مع الله ، وأن  
الرسول ﷺ هو الذي يأتي بالآيات ،  
أمره الله أن ينزهه فقال : ﴿ قل سبحان  
ربي ﴾ عما تقولون علواً كبيراً ،  
وسبحانه أن تكون أحكامه وآياته تابعة  
لأهوائهم الفاسدة ، وآرائهم الضالة .

﴿ هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ ليس  
بيدي شيء من الأمر .

من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعاً \*  
 وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا  
 الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم  
 لفيضاً أي: لست أيها الرسول المؤيد  
 بالآيات، أول رسول كذبه الناس،  
 فلقد أرسلنا قبلك موسى بن عمران  
 الكليم، إلى فرعون وقومه، وآتيناها  
 تسع آيات بينات كل واحدة منها  
 تكفي لمن قصده اتباع الحق، كالحية،  
 والعصا، والطوفان، والجراد،  
 والقمل، والضفادع، والدم، والزجر،  
 وقلق البحر.

فإن شككت في شيء من ذلك  
 فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له  
 فرعون مع هذه الآيات إني لأظنك  
 يا موسى مسحوراً .

ذ قال له موسى لقد علمت  
 يا فرعون ما أنزل هؤلاء الآيات  
 إلا رب السموات والأرض بصائر  
 منه لعباده، فليس قولك هذا بالحقيقة،  
 وإنما قلت ذلك ترويحاً على قومك،  
 واستخفافاً لهم .

وإني لأظنك يا فرعون مشهوراً  
 أي: محموقاً، ملقى في العذاب، لك  
 الويل والدم واللعة .

فأراد فرعون أن يستفزه من  
 الأرض أن يجليهم ويخرجهم منها .  
 فأغرقناه ومن معه جميعاً وأورثنا بني  
 إسرائيل أرضهم وديارهم .

ولهذا قال: «وقلنا من بعده لبني  
 إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد  
 الآخرة جئنا بكم لفيضاً أي: جميعاً،  
 ليجازي كل عامل بعمله .

﴿١٠٥﴾ «وبالحق أنزلناه بالحق

نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً  
 أي: وبالحق أنزلنا هذا القرآن الكريم،  
 لأمر العباد ونهيهم، وثوابهم وعقابهم،  
 «وبالحق نزل» أي: بالصدق والعدل  
 والحفظ من كل شيطان رجيم «وما  
 أرسلناك إلا مبشراً» من أطاع الله

بالثواب العاجل والآجل «ونذيراً»  
 عصى الله بالعقاب العاجل والآجل،  
 ويلزم من ذلك بيان ما بشر به وأنذر .

﴿١٠٦ - ١٠٩﴾ «وقرأنا فرقناه  
 لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه  
 تنزيلاً \* قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن  
 الذين أوتوا العلم من قبله إذا ينزل  
 عليهم يخرون للأذقان سجداً \*  
 ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا  
 لمفعولاً \* ويخرون للأذقان بكون  
 يزيدهم خشوعاً» أي: وأنزلنا هذا  
 القرآن مفزقاً، فارقاً بين الهدى  
 والضلال، والحق والباطل . «لتقرأه  
 على الناس على مكث» أي: على مهل،  
 ليتدبروه ويتفكروا في معانيه،  
 ويستخرجوا علومه .

«ونزلناه تنزيلاً» أي: شيئاً فشيئاً،  
 مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة .  
 «ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق  
 وأحسن تفسيراً» فإذ تبين أنه الحق،  
 الذي لا شك فيه ولا ريب، بوجه من  
 الوجوه ذ:

﴿قل﴾: لمن كذب به وأعرض  
 عنه: «آمنوا به أو لا تؤمنوا»  
 فليس لله حاجة فيكم، ولستم بضاربه  
 شيئاً، وإنما ضرر ذلك عليكم،  
 فإن الله عباداً غيركم، وهم الذين  
 آتاهم الله العلم النافع: «إذا ينزل  
 عليهم يخرون للأذقان سجداً» أي:  
 يأترون به غاية التأثر، ويخضعون له .

«ويقولون سبحان ربنا» عما  
 لا يليق بجلاله، مما نسب إليه  
 المشركون . «إن كان وعد ربنا»  
 بالبعث والجزاء بالأعمال «لمفعولاً»  
 لا خُلف فيه ولا شك .

«ويخرون للأذقان» أي: على  
 وجوههم «يبكون ويزيدهم» القرآن  
 «خشوعاً» .

وهؤلاء كالذين من الله عليهم من  
 مؤمني أهل الكتاب كعبد الله بن سلام  
 وغيره، ممن آمن<sup>(١)</sup> في وقت  
 النبي ﷺ، وبعد ذلك .



﴿١١٠ - ١١١﴾ «قل ادعوا الله أو  
 ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء  
 الحسنى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت  
 بها وابتغ بين ذلك سبيلاً وقل الحمد لله  
 الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك  
 الملك ولم يكن له ولي من الدل وكبيره  
 تكبيراً» يقول تعالى لعباده:

«ادعوا الله أو ادعوا الرحمن» أي:  
 أيما شئتم . «أيأ ما تدعوا فله الأسماء  
 الحسنى» أي: ليس له اسم غير  
 حسن، حتى ينهى عن دعائه به، بل  
 أي: اسم دعوتوه به، حصل به  
 المقصود، والذي ينبغي أن يدعى في  
 كل مطلوب، بما يناسب ذلك الاسم .

«ولا تجهر بصلاتك» أي:  
 قراءتك «ولا تخافت بها» فإن في كل  
 من الأمرين عذوراً . أما الجهر، فإن  
 المشركين المكذبين به إذا سمعوه سبوه،  
 وسبوا من جاء به .

وأما المخافتة، فإنه لا يحصل  
 المقصود لمن أراد استماعه مع الإخفاء .  
 «وابتغ بين ذلك» أي: بين الجهر  
 والإخفات «سبيلاً» أي: توسط فيما  
 بينهما .

«وقل الحمد لله الذي» له الكمال  
 والشناء والحمد والمجد من جميع  
 الوجوه، المنزه عن كل آفة ونقص .



﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ .

﴿وكبره تكبيراً﴾ أي : عظمه وأجله بالإخبار بأوصافه العظيمة، وبالثناء عليه، بأسمائه الحسنى، وبتمجيده بأفعاله المقدسة، وبتعظيمه وإجلاله بعبادته وحده لا شريك له، وإخلاص الدين كله له .

تم تفسير سورة الإسراء والله الحمد والثناء الحسن على يد جامعه عبد الرحمن ابن ناصر بن عبد الله بن سعد بن غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين وصلى الله على محمد وسلم تسليماً وذلك في ٧ جمادى الأولى ١٣٤٤ .

المجلد الخامس من تفسير التكميل الرحمن من تفسير كلام الشان لجامعه التفسير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر السعدي<sup>(١)</sup>

**تفسير سورة الكهف وهي مكية**

﴿١٦ - ٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً \* قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً \* ما كشفت فيه أبداً \* وينذر

الذين قالوا اتخذ الله ولداً \* ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً \* فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً الحمد لله هو الثناء عليه بصفاته، التي هي كلها صفات كمال، وبنعمه الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، وأجل نعمه على الإطلاق، إنزاله الكتاب العظيم على عبده ورسوله، محمد ﷺ فحمد نفسه، وفي ضمنه إرشاد العباد ليحمدوه على إرسال الرسول إليهم، وإنزال الكتاب عليهم، ثم وصف هذا الكتاب بوصفين مشتملين، على أنه الكامل من جميع الوجوه، وهما نفي العروج عنه، وإثبات أنه قيم مستقيم، فنفي العروج يقتضي أنه ليس في أخباره كذب، ولا في أوامره ونواهيه ظلم ولا عبث، وإثبات الاستقامة يقتضي أنه لا يخبر ولا يأمر إلا بأجمل الإخبارات، وهي الأخبار، التي تملأ القلوب معرفة وإيماناً وعقلاً، كالإخبار بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ومنها الغيوب المتقدمة والمتأخرة، وأن أوامره ونواهيه تزكي النفوس،

﴿الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك﴾ بل الملك كله لله الواحد القهار، فالعالم العلوي والسفلي، كلهم مملوكون لله، ليس لأحد من الملك شيء .

﴿ولم يكن له ولي من الدن﴾ أي : لا يتولى أحداً من خلقه ليتعزز به ويعاونه، فإنه الغني الحميد، الذي لا يحتاج إلى أحد من المخلوقات، في الأرض ولا في السماوات، ولكنه يتخذ أولياء إحساناً منه إليهم ورحمة بهم

(١) كان الشيخ - رحمه الله - قد طلب في ١٣٧٤ / ٢ / ٣١ من الشيخ محمد نصيف - رحمه الله - أن يختار من يتولى طباعة خسة الآف نسخة من المجلد الخامس من التفسير، وذكر محب الدين الخطيب والشيخ حامد الفقي - رحمهما الله - بعث الشيخ محمد نصيف - رحمه الله - بالكتاب إلى الأستاذ: محب الدين الخطيب لطباعته، وطبع بالفعل عام ١٣٧٥هـ، وقد جعل الشيخ - رحمه الله - لهذا الجزء مقدمة، واتبعه بخاتمة فيها أصول وكتابات من أصول وكتابات التفسير، وهذه هي مقدمة الشيخ لهذا الجزء، وأما الخاتمة فقد جعلتها في آخر التفسير، قال - رحمه الله -:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله، وأصلي وأسلم على محمد وآله وصحبه . أما بعد فلما كان علم التفسير للقرآن أشرف العلوم على الإطلاق وأهمها وأحقها بتحقيق معانيه وفهم مبانيه، لكونه تنزيلاً من حكيم حميد أنزله هدى ورحمة للعباد وتبيناً لكل شيء وتفصيلاً لكل ما يحتاجونه في دينهم ودنياهم وأخراهم، وكان من خاصة علم القرآن أن فهم بعضه ولطائفه منه يعين على فهم جميعه، لأن القرآن من أوله إلى آخره يدور على تقرير الأصول النافعة والحقائق والشرائع الكبار والأحكام الحسنة والعقائد الصحيحة، ويوجه العباد إلى كل خير ويحذرهم من كل شر، ويعيد تقرير هذه الأمور ويبيدها بأساليب متنوعة وتصاريف مناسبة في غاية اليسر والسهولة والإحكام والحسن الذي لا مزيد عليه . وقد تكرر عليّ السؤال من كثير من الأصحاب في نشر تفسيرنا هذا جميعه وألحوا لما يرونه من الفائدة الكبيرة، فاعتذرت بأن ذلك يصعب جداً لأنه مبسوط، وأيضاً في هذه الأوقات قلت رغبات الناس في الكتب المطولة، لذلك أحببت إجابتهم لنشر بعض ما طلبوا وهو الاقتصار على جزء واحد من أجزاء هذا التفسير، ووقع الاختيار على الجزء الأوسط من سورة الكهف إلى آخر النمل، فما لا يحصل جميعه لا يترك جميعه . وأرجو الله وأسأله أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه، نافعاً لنا ولإخواننا، وأن يمدنا بعونه وعنايته وتوفيقه إنه جواد كريم رءوف رحيم . وأتبعته بكتابات وأصول من كتابات التفسير لاستدراك ما لعله يفوت القارئ. في غير هذا الجزء، فإن الأصول والكتابات تبني عليها الفروع والجزئيات، ويحصل بها من النفع والفائدة على اختصارها ما لا يحصل في الكلام الطويل، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(٢) في ب: مقيم .

وتطهرها وتنميتها وتكملها، لاشتمالها على كمال العدل والقسط، والإخلاص، والعبودية لله رب العالمين وحده لا شريك له. وحقيق بكتاب موصوف بما ذكر، أن يمدد الله نفسه على إنزاله، وأن يتمدح إلى عباده به.

وقوله: ﴿لينذر بأساً شديداً من لدنه﴾ أي: لينذر بهذا القرآن الكريم عقابه الذي عنده، أي: قدره وقضاه، على من خالف أمره، وهذا يشمل عقاب الدنيا وعقاب الآخرة، وهذا أيضاً من نعمه، أن خوف عباده، وأنذرهم ما يضرهم ويهلكهم.

كما قال تعالى - لما ذكر في هذا القرآن وصف النار - قال: ﴿ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون﴾. فمن رحمة بعباده، أن قبض العقوبات الغليظة على من خالف أمره، وبينها لهم، وبين الأسباب الموصلة إليها.

﴿ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً﴾ أي: وأنزل الله على عبده الكتاب، ليبشر المؤمنين به، ويرسله، وكتبه، الذين كمل إيمانهم، فأوجب لهم عمل الصالحات، وهي الأعمال الصالحة، من واجب ومستحب، التي جمعت الإخلاص والتابعة، ﴿أن لهم أجراً حسناً﴾ وهو الثواب الذي رتبته الله على الإيمان والعمل الصالح، وأعظمه وأجله، الفوز برضا الله ودخول الجنة، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وفي وصفه بالحسن، دلالة على أنه لا مكدر فيه ولا منغص بوجه من الوجوه، إذ لو وجد فيه شيء من ذلك، لم يكن حسنة تاماً، ومع ذلك فهذا الأجر الحسن ﴿ما كثر فيه أبداً﴾ لا يزول عنهم، ولا يزولون عنه، بل نعيمهم في كل وقت متزايد، وفي ذكر التبشير ما يقتضي ذكر الأعمال الموجبة

للمبشر به، وهو أن هذا القرآن قد اشتمل على كل عمل صالح، موصل لما تستبشر به النفوس، وتفرح به الأرواح.

﴿ويبشر الذين قالوا انخذ الله ولداً﴾ من اليهود والنصارى والمشركين، الذين قالوا هذه المقالة الشنيعة، فإنهم لم يقولوها عن علم ولا يقين، لا علم منهم، ولا علم من آباؤهم الذين قلدهم واتبعوهم، بل إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس، ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم﴾ أي: عظمت شناعتها واشتدت عقوبتها، وأي: شناعة أعظم من وصفه بالاتخاذ للولد<sup>(١)</sup> الذي يقتضي نقصه، ومشاركة غيره له في خصائص الربوبية والإلهية، والكذب عليه؟! ﴿فمن أظلم من افترى على الله كذباً﴾ ولهذا قال هنا: ﴿إن يقولون إلا كذباً﴾ أي: كذباً محضاً ما فيه من الصدق شيء، وتأمل كيف أبطل هذا القول بالتدرج، والانتقال من شيء إلى أبطل منه، فأخبر أولاً: أنه ﴿ما لهم به من علم ولا لإبائهم﴾ والقول على الله بلا علم، لا شك في منعه وبطلانه، ثم أخبر ثانياً، أنه قول قبيح شنيع فقال: ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم﴾ ثم ذكر ثالثاً مرتبته من القبح، وهو الكذب المتنافي للصدق.

ولما كان النبي ﷺ حريصاً على هداية الخلق، ساعياً في ذلك أعظم السعي، فكان ﷺ يفرح ويسر بهداية المهتدين، ويمزن ويأسف على المكذبين الضالين، شفقة منه ﷺ عليهم، ورحمة بهم، أرشده الله أن لا يشغل نفسه بالأسف على هؤلاء، الذين لا يؤمنون بهذا القرآن، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لعلك باخع نفسك أن لا تكونوا مؤمنين﴾ وقال: ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ وهنا قال ﴿فلعلك باخع نفسك﴾ أي: مهلكها غمّاً وأسفاً عليهم، وذلك أن أجرك قد وجب على الله، وهؤلاء لو

وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا ظَلَمُوا إِنَّهُم غَفِلُونَ ﴿١٨﴾  
 وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا ظَلَمُوا إِنَّهُم غَفِلُونَ ﴿١٩﴾  
 وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا ظَلَمُوا إِنَّهُم غَفِلُونَ ﴿٢٠﴾  
 وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا ظَلَمُوا إِنَّهُم غَفِلُونَ ﴿٢١﴾  
 وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا ظَلَمُوا إِنَّهُم غَفِلُونَ ﴿٢٢﴾  
 وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا ظَلَمُوا إِنَّهُم غَفِلُونَ ﴿٢٣﴾  
 وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا ظَلَمُوا إِنَّهُم غَفِلُونَ ﴿٢٤﴾  
 وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا ظَلَمُوا إِنَّهُم غَفِلُونَ ﴿٢٥﴾  
 وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا ظَلَمُوا إِنَّهُم غَفِلُونَ ﴿٢٦﴾  
 وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا ظَلَمُوا إِنَّهُم غَفِلُونَ ﴿٢٧﴾  
 وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا ظَلَمُوا إِنَّهُم غَفِلُونَ ﴿٢٨﴾  
 وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا ظَلَمُوا إِنَّهُم غَفِلُونَ ﴿٢٩﴾  
 وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا ظَلَمُوا إِنَّهُم غَفِلُونَ ﴿٣٠﴾

علم الله فهم خير أهداهم، ولكنه علم أنهم لا يصلحون إلا للنار، فلذلك خذلهم فلم يهدوا، فاشغالك نفسك غمّاً وأسفاً عليهم، ليس فيه فائدة لك. وفي هذه الآية ونحوها عبرة، فإن المأمور بدعاء الخلق إلى الله، عليه التبليغ والسعي بكل سبب يوصل إلى الهداية، وسد طرق الضلال والغواية بغاية ما يمكنه، مع التوكل على الله في ذلك، فإن اهتدوا فيها ونعمت، وإلا فلا يحزن ولا يأسف، فإن ذلك مضعف للنفس، هادم للقوى، ليس له فيه فائدة، بل يمضي على فعله الذي كلف به وتوجه إليه، وما عدا ذلك، فهو خارج عن قدرته، وإذا كان النبي ﷺ يقول الله له: ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾ وموسى عليه السلام يقول: ﴿رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي﴾ الآية، فمن عداهم، من باب أولى وأحرى، قال تعالى: ﴿فذكر إنما أنت مذكر \* لست عليهم بمسيطر﴾.

﴿٧-٨﴾ ﴿إننا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾ و﴿إننا لجاعلون ما عليها صعيداً جرماً﴾ يخبر تعالى: أنه جعل جميع ما على وجه الأرض، من مأكّل لذيدة، ومشارب، ومساكل<sup>(١)</sup> طيبة،

(١) كذا في ب، وفي أ: الولد. (٢) في ب: وملابس.



﴿وربطنا على قلوبهم﴾ أي: صبرناهم وثبتناهم، وجعلنا قلوبهم مطمئنة في تلك الحالة المزعجة، وهذا من لطفه تعالى بهم وبيره، أن وفقهم للإيمان والهدى، والصبر والثبات، والطمأنينة.

﴿إذ قاموا فقالوا فأوأوا ربنا رب السموات والأرض﴾ أي: الذي خلقنا ورزقنا، ودبرنا وربانا، هو خالق السموات والأرض، المفرد بخلق هذه المخلوقات العظيمة، لا تلك الأوثان والأصنام، التي لا تخلق ولا تزرق، ولا تملك نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فاستدلوا بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية، ولهذا قالوا: ﴿لن ندعو من دونه إلها﴾ أي: من سائر المخلوقات ﴿لقد قلنا إذ﴾ أي: إن دعونا معه آلهة، بعد ما علمنا أنه الرب الإله، الذي لا تجوز ولا تنبغي العبادة إلا له ﴿شططاً﴾ أي: ميلاً عظيماً عن الحق، وطريقاً بعيدة عن الصواب، فجمعوا بين الإقرار بتوحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، والتزام ذلك، وبيان أنه الحق وما سواه باطل، وهذا دليل على كمال معرفتهم بربهم، وزيادة الهدى من الله لهم.

﴿١٥﴾ ﴿هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ لما ذكروا ما من الله به عليهم من الإيمان والهدى، التفتوا<sup>(١)</sup> إلى ما كان عليه قومهم، من اتخاذ الآلهة من دون الله، فمقتوهم، وبينوا أنهم ليسوا على يقين من أمرهم، بل هم في غاية الجهل والضلال فقالوا: ﴿لولا يأتون عليهم بسلطان بين﴾ أي: بحجة وبرهان، على ما هم عليه من الباطل، ولا يستطيعون سبيلاً إلى ذلك، وإنما ذلك افتراء منهم على الله وكذب عليه، وهذا أعظم الظلم، ولهذا قال: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾.

﴿١٦﴾ ﴿وإذ اعتزلتموهم وما

يعبدون إلا الله فأوأوا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً﴾ أي: قال بعضهم لبعض، إذ حصل لكم اعتزال قومكم في أجسامكم وأديانكم، فلم يبق إلا النجاء من شرهم، والتسبب بالأسباب المقضية لذلك، لأنهم لا سبيل لهم إلى قتالهم، ولا بقتانهم<sup>(٢)</sup> بين أظهرهم، وهم على غير دينهم، ﴿فأوأوا إلى الكهف﴾ أي: انضموا إليه واختفوا فيه ﴿ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً﴾ وفيما تقدم، أخبر أنهم دعوه بقولهم: ﴿ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً﴾ فجمعوا بين التبري من حولهم وقوتهم، والالتجاء إلى الله في صلاح أمرهم، ودعائه بذلك، وبين الثقة بالله أنه سيفعل ذلك، لا جرم أن الله نشر لهم من رحمته، وهياً لهم من أمرهم مرفقاً، فحفظ أديانهم وأبدانهم، وجعلهم من آياته على خلقه، ونشر لهم من الثناء الحسن، ما هو من رحمته بهم، ويسر لهم كل سبب، حتى المحل الذي ناموا فيه، كان على غاية ما يمكن من الصيانة، ولهذا قال:

﴿١٧- ١٨﴾ ﴿وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً \* وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملت منهم رعباً﴾ أي: حفظهم الله من الشمس فيسر لهم غاراً إذا طلعت الشمس تميل عنه يميناً، وعند غروبها تميل عنه شمالاً، فلا ينالهم حرها فتفسد أبدانهم بها، ﴿وهم في فجوة منه﴾ أي: من الكهف أي: مكان متسع، وذلك ليصرفهم الهراء والنسيم، ويحول عنهم الوحش والتأذي بالمكان الضيق، خصوصاً مع طول

المكث، وذلك من آيات الله الدالة على قدرته ورحمته بهم، وإجابة دعائهم وهدايتهم حتى في هذه الأمور، ولهذا قال: ﴿من يهد الله فهو المهتد﴾ أي: لا سبيل إلى نيل الهداية إلا من الله، فهو الهادي المرشد لصالح الدارين، ﴿ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾ أي: لا تجد من يتولاه ويدبره، على ما فيه صلاحه، ولا يرشده إلى الخير والصلاح، لأن الله قد حكم عليه بالضلال، ولا راد لحكمه.

﴿وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود﴾ أي: تحسبهم أيها الناظر إليهم [كأنهم]<sup>(٣)</sup> أيقاظ، والحال أنهم نيام، قال المفسرون: وذلك لأن أعينهم مفتوحة، لئلا تفسد، فالناظر إليهم يحسبهم أيقاظاً، وهم رقود، ﴿ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال﴾ وهذا أيضاً من حفظه لأبدانهم، لأن الأرض من طبيعتها أكل الأجسام المتصلة بها، فكان من قدر الله، أن قلبهم على جنوبهم يميناً وشمالاً، بقدر ما لا تفسد الأرض أجسامهم، والله تعالى قادر على حفظهم من الأرض، من غير تقليب، ولكنه تعالى حكيم، أراد أن تجري سنته في الكون، ويربط الأسباب بمسبباتها.

﴿وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد﴾ أي: الكلب الذي كان مع أصحاب الكهف، أصابه ما أصابهم من النوم وقت حراسته، فكان باسطاً ذراعيه بالوصيد، أي: الباب، أو فئانه، هذا حفظهم من الأرض. وأما حفظهم من الآدميين، فأخبر أنه محاهم بالرعب، الذي نشره الله عليهم، فلو اطلع عليهم أحد، لامتلا قلبه رعباً، وولى منهم فراراً، وهذا الذي أوجب أن يبقوا كل هذه المدة الطويلة، وهم لم يعثر عليهم أحد، مع قربهم من المدينة جداً، والدليل على قربهم، أنهم لما استيقظوا، أرسلوا أحدهم يشتري لهم طعاماً من المدينة، وبقوا في انتظاره، فدل ذلك على شدة قربهم منها.

(١) في ب: والتقوى وهو تصحيف.

(٢) في النسخين: ولا بقاؤهم.

(٣) في النسخين: كأنه.



أطلع الناس على حال أهل الكهف، وذلك - والله أعلم - بعدما استيقظوا، وبعثوا أحدهم يشتري لهم طعاماً، وأمروه بالاستخفاء والإخفاء، فأراد الله أمراً فيه صلاح للناس، وزيادة أجر لهم، وهو أن الناس رأوا منهم آية من آيات الله، المشاهدة بالعيان، على أن وعد الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا بُدْ، بعدما كانوا يتنازعون بينهم أمرهم، فمن مثبت للوعد والجزاء، ومن ناف لذللك، فجعل قصتهم زيادة بصيرة ويقين للمؤمنين، وحجة على الجاحدين، وصار لهم أجر هذه القضية، وشهر الله أمرهم، ورفع قدرهم حتى عظمهم الذين اطلعوا عليهم.

و ﴿قالوا ابنوا عليهم بنياناً﴾ الله أعلم بحالهم ومآلهم، وقال من غلب على أمرهم، وهم الذين لهم الأمر:

﴿لنتخذن عليهم مسجداً﴾ أي: نعبد الله تعالى فيه، ونتذكر به أحوالهم، وما جرى لهم، وهذه الحالة محظورة، نهي عنها النبي ﷺ، وذم فاعليها، ولا يدل ذكرها هنا على عدم ذمها، فإن السياق في شأن تعظيم أهل الكهف والشناء عليهم، وأن هؤلاء وصلت بهم الحال إلى أن قالوا: ابنوا عليهم مسجداً، بعد خوف أهل الكهف الشديد من قومهم، وحذرهم من الاطلاع عليهم، فوصلت الحال إلى ما ترى.

وفي هذه القصة، دليل على أن من فؤاديه من الفتن سلمه الله منها. وأن من حرص على العافية عافاه الله ومن أوى إلى الله، آواه الله، وجعله هداية لغيره، ومن تحمل الذل في سبيله وابتغاء مرضاته، كان آخر أمره وعاقبه العز العظيم من حيث لا يحتسب ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾.

﴿٢٢﴾ ﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً

الرجم بالحجارة، فيقتلونهم أشنع قتلة، لحققتهم عليهم وعلى دينهم، وإما أن يفتنوه عن دينهم، ويردوهم في ملتهم، وفي هذه الحال، لا يفلحون أبداً، بل يحسرون في دينهم وديارهم وأخزاهم، وقد دلت هاتان الآيتان على عدة فوائد:

منها: الحث على العلم، وعل المباحثة فيه، لكون الله بعثهم لأجل ذلك.

ومنها: الأدب فيمن اشتبه عليه العلم، أن يرده إلى عالمه، وأن يقف عند حده.

ومنها: صحة الوكالة في البيع والشراء، وصحة الشركة في ذلك.

ومنها: جواز أكل الطيبات، والمطاعم اللذيذة، إذا لم تخرج إلى حد الإسراف النهي عنه لقوله: ﴿فلينظر أيها أركمى طعاماً فليأتكم برزق منه﴾. وخصوصاً إذا كان الإنسان لا يلائمه إلا ذلك ولعل هذا عمدة كثير من المفسرين، القائلين بأن هؤلاء أولاد ملوك، لكونهم أمره بأركمى الأطعمة، التي جرت عادة الأغنياء الكبار بتناولها.

ومنها: الحث على التحرز، والاستخفاء، والبعد عن مواقع الفتن في الدين، واستعمال الكتمان في ذلك على الإنسان وعلى إخوانه في الدين.

ومنها: شدة رغبة هؤلاء الفتية في الدين، وفرارهم من كل فتنة، في دينهم، وتركهم أوطانهم في الله.

ومنها: ذكر ما اشتمل عليه الشر من المضار والمفاسد، الداعية لبغضه، وتركه، وأن هذه الطريقة، هي طريقة المؤمنين المتقدمين والمتأخرين، لقولهم: ﴿ولن نفلحوا إذا أبدا﴾

﴿٢١﴾ ﴿وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ريبهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً﴾ يخبر الله تعالى، أنه

﴿١٩﴾ - ﴿٢٠﴾ ﴿وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبينا يوماً أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أركمى طعاماً فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشمرن بكم أحداً \* إنهم إن يظهروا عليكم يرموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدا﴾ يقول تعالى: ﴿وكذلك بعثناهم﴾ أي: من نومهم الطويل ﴿ليتساءلوا بينهم﴾ أي: ليتباحثوا للوقوف على الحقيقة من مدة لبثهم.

﴿قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبينا يوماً أو بعض يوم﴾ وهذا مبني على ظن القائل، وكأنهم وقع عندهم اشتباه في طول مدتهم، فهذا ﴿قالوا ربكم أعلم بما لبثتم﴾. فردوا العلم إلى المحيط علمه بكل شيء، جملة وتفصيلاً، ولعل الله تعالى - بعد ذلك - أطلعهم على مدة لبثهم، لأنه بعثهم ليتساءلوا بينهم، وأخبر أنهم تساءلوا، وتكلموا بمبلغ ما عندهم، وصار آخر أمرهم الاشتباه، فلا بد أن يكون قد أخبرهم يقيناً، علمنا ذلك من حكمته في بعثهم، وأنه لا يفعل ذلك عبثاً. ومن رحمة بمن طلب علم الحقيقة في الأمور المطلوب علمها، وسعى لذلك ما أمكنه، فإن الله يوضح له ذلك، وبما ذكر فيما بعده من قوله: ﴿وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها﴾ فلولا أنه حصل العلم بحالهم، لم يكونوا دليلاً على ما ذكر، ثم إنهم لما تساءلوا بينهم، وجرى منهم ما أخبر الله به، أرسلوا أحدهم بورقهم، أي: بالدرهم، التي كانت معهم، ليشتري لهم طعاماً يأكلونه، من المدينة التي خرجوا منها، وأمروه أن يتخير من الطعام أركمى، أي: أطيبه وألذّه، وأن يتلطف في ذهابه وشرائه وإيابه، وأن يحتفي في ذلك، ويخفي حال إخوانه، ولا يشمرن بهم أحداً. وذكروا المحذور من اطلاع غيرهم عليهم، وظهورهم عليهم، أنهم بين أمرين، إما



لهواه، حيث ما اشتتهت نفسه فعله، وسعى في إدراكه، ولو كان فيه هلاكه وخسرانه، فهو قد اتخذ إلهه هواه، كما قال تعالى: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم﴾ الآية.

﴿وكان أمره﴾ أي: مصالح دينه ﴿فرطاً﴾ أي: ضائعة معطلة.

فهذا قد نهى الله عن طاعته، لأن طاعته تدعو إلى الاقتداء به، ولأنه لا يدعو إلا ما هو متصف به، ودلت الآية على أن الذي ينبغي أن يطاع، ويكون إماماً للناس، من امتلا قلبه بمحبة الله، وفاض ذلك على لسانه، فلهج بذكر الله، واتبع مرضي ربه، فقدمها على هواه، فحفظ بذلك ما حفظ من وقته، وصلحت أحواله، واستقامت أفعاله، ودعا الناس إلى ما من الله به عليه، فحقيق بذلك، أن يتبع ويعمل إماماً، والصبر المذكور في هذه الآية، هو الصبر على طاعة الله، الذي هو أعلى أنواع الصبر، وبتمامه تتم باقي الأقسام. وفي الآية، استحباب الذكر والدعاء والعبادة طرفة النهار، لأن الله مدحهم بفعله، وكل فعل مدح الله فاعله، دل ذلك على أن الله يجبه، وإذا كان يجبه فإنه يأمر به، ويرغب فيه.

﴿٢٩ - ٣١﴾ ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفعاً﴾ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضع أجر من أحسن عملاً ﴿أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحملون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفعاً﴾ أي: قل للناس يا محمد: هذا الحق من ربكم، أي: قد تبين الهدى من الضلال، والرشد من الغي، وصفات أهل السعادة، وصفات أهل الشقاوة، وذلك بما بينه الله على لسان رسوله، فإذا بان واتضح، ولم يبق فيه شبهة

التغير والتبديل، فلو كانت ناقصة، لمرض لها ذلك أو شيء منه، وفي هذا تعظيم للقرآن، في ضمنه الترغيب على الإقبال عليه.

﴿ولن نجد من دونه ملتحداً﴾ أي: لن نجد من دون ربك ملجأ تلجأ إليه، ولا معاداً تعوذ به، فإذا تعين أنه وحده الملجأ في كل الأمور، تعين أن يكون هو المألوه المعبود المرغوب إليه، في السراء والضراء، المفتقر إليه في جميع الأحوال، المسؤول في جميع المطالب.

﴿٢٨﴾ ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً﴾ يأمر تعالى نبيه محمداً ﷺ، وغيره أسوته في الأوامر والنواهي - أن يصبر نفسه مع المؤمنين العباد النبيين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴿أي: أول النهار وآخره يريدون بذلك وجه الله، فوصفهم بالعبادة والإخلاص فيها، ففيها الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على صحبتهم، ومخالطتهم وإن كانوا فقراء فإن في صحبتهم من الفوائد ما لا يحصى.

﴿ولا تعد عينك عنهم﴾ أي: لا تجاوزهم بصرك، وترفع عنهم نظرك.

﴿تريد زينة الحياة الدنيا﴾ فإن هذا ضار غير نافع، قاطع عن المصالح الدينية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب بالدنيا، فتصير الأفكار والهواجس فيها، وتزول من القلب الرغبة في الآخرة، فإن زينة الدنيا تروق للناظر، وتسحر العقل، فيغفل القلب عن ذكر الله، ويُغفل على اللذات والشهوات، فيضيع وقته، وينفرط أمره، فيخسر الخسارة الأبدية، والسندامة السرمدية، ولهذا قال: ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا﴾ غفل عن الله، فعاقبه بأن أغفله عن ذكره.

﴿واتبع هواه﴾ أي: صار تبعاً



انفراده بالولاية العامة والخاصة، فهو الولي الذي يتولى تدبير جميع الكون، الولي لعبادة المؤمنين، يخرجهم من الظلمات إلى النور وييسرهم لليسرى، ويحبسهم العسرى، ولهذا قال: ﴿ما لهم من دونه من ولي﴾. أي: هو الذي تولى أصحاب الكهف، بلطفه وكرمه، ولم يكلمهم إلى أحد من الخلق.

﴿ولا يشرك في حكمه أحداً﴾ وهذا يشمل الحكم الكوني القدرى، والحكم الشرعي الديني، فإنه الحاكم في خلقه، قضاء وقدر، وخلقا وتديراً، والحاكم فيهم بأمره ونهيه، وثوابه وعقابه. ولما أخبر أنه تعالى له غيب السماوات والأرض، فليس لمخلوق إليها طريق، إلا من الطريق التي يجبر بها عباده، وكان هذا القرآن، قد اشتمل على كثير من الغيوب، أمر تعالى بالإقبال عليه فقال:

﴿٢٧﴾ ﴿واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن نجد من دونه ملتحداً﴾ التلاوة: هي الاتباع، أي: اتبع ما أوحى الله إليك بمعرفة معانيه وفهمها، وتصديق أخباره، وامتنال أوامره ونواهي، فإنه الكتاب الجليل، الذي لا مبدل لكلماته، أي: لا تغير ولا تبدل لصدقها وعدلها، ويلوغها من الحسن فوق كل غاية ﴿ومتت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾ فلتمامها، استحبال عليها

ودلت الآية الكريمة وما أشبهها، على أن الحلية عامة للذكور والإناث، كما ورد في الأحاديث الصحيحة لأنه أطلقها في قوله ﴿يَجْلُونَ﴾ وكذلك الحرير ونحوه.

﴿٣٢ - ٣٤﴾ ﴿واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً﴾ كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلالهما نهراً \* وكان له ثمر \* يقول تعالى لنبيه ﷺ: اضرب للناس مثل هذين الرجلين، الشاكر لنعمة الله، والكافر لها، وما صدر من كل منهما، من الأقوال والأفعال، وما حصل بسبب ذلك من العقاب العاجل والأجل، والثواب، ليعتبروا بحالهما، ويتعظوا بما حصل عليهما، وليس معرفة أعيان الرجلين، وفي أي: زمان أو مكان هما فيه فائدة أو نتيجة، فالنتيجة تحصل من قصتهما فقط، والتعرض لما سوى ذلك من التكلف. فأحد هذين الرجلين الكافر لنعمة الله الجليلة، جعل الله له جنتين، أي: بستانين حسنين، من أعناب.

﴿وحففناهما بنخل﴾ أي: في هاتين الجنتين من كل الثمرات، وخصوصاً أشرف الأشجار، العنب والنخل، فالعنب في وسطها، والنخل قد حف بذلك، ودار به، فحصل فيه من حسن المنظر وبهائه، وبروز الشجر والنخل للشمس والرياح، التي تكمل بها الثمار، وتنضج وتتجوهر، ومع ذلك جعل بين تلك الأشجار زرعاً، فلم يبق عليهما إلا أن يقال: كيف ثمار هاتين الجنتين؟ وهل لهما ماء يكفيهما؟ فأخبر تعالى أن كلا من الجنتين آتت أكلها، أي: ثمرها وزرعها ضعفين، أي: متضاعفاً ﴿و﴾ أنها ﴿لم تظلم منه شيئاً﴾ أي: لم تنقص من أكلها أدنى شيء، ومع ذلك، فالأنهار في جوانبها سارحة، كثيرة غزيرة.

﴿وكان له﴾ أي: لذلك الرجل ﴿ثمر﴾ أي: عظيم كما يفيد التثنية، أي: قد استكملت جنتاه ثمارها،

وشره، وعمل الصالحات من الواجبات والمستحبات ﴿إننا لا نضيع أجر من أحسن عملاً﴾ وإحسان العمل: أن يريد العبد العمل لوجه الله، متبعاً في ذلك شرع الله. فهذا العمل لا يضيعه الله، ولا شيئاً منه، بل يحفظه للعاملين، ويوفيهم من الأجر، بحسب عملهم وفضله وإحسانه، وذكر أجرهم بقوله:

﴿أولئك لهم جنات تجري من تحتهم الأنهار يحملون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك﴾. أي: أولئك الموصوفون بالإيمان والعمل الصالح، لهم الجنات العاليات التي قد كثرت أشجارها، فأجنت من فيها، وكثرت أنهارها، فصارت تجري من تحت تلك الأشجار الأنيفة، والمنازل الرفيعة، وحلبتهم فيها الذهب، ولباسهم فيها الحرير الأخضر من السندس، وهو الخليط من الديباج، والإستبرق، وهو ما راق منه. متكئين فيها على الأرائك، وهي السرر المزينة، المجدلة بالثياب الفاخرة، فإنها لا تسمى أريكة حتى تكون كذلك، وفي اتكائهم على الأرائك، ما يدل على كمال الراحة، وزوال النصب والتعب، وكون الخدم يسعون عليهم بما يشتهون، وتمام ذلك الخلود الدائم والإقامة الأبدية، فهذه الدار الجليلة ﴿نعم الثواب﴾ للعاملين ﴿وحسنت مرتفعاً﴾ يرتفعون بها، ويتمتعون بما فيها، مما تشبهه الأنفس وتلذذ العين، من الخيرة والسرور، والفرح الدائم، واللذات المتواترة، والنعم المتوافرة، وأي: مرتفع أحسن من دار، أدنى أهلها يسير في ملكه ونعيمه وقصوره ويساتيه ألقي سنة، ولا يرى فوق ما هو فيه من النعيم، قد أعطي جميع أمانيه ومطالبه، وزيد من المطالب، ما قصرت عنه الأمانى، ومع ذلك، فنعيمهم على الدوام متزايد في أوصافه وحسنه، فنسأل الله الكريم، أن لا يجرمنا خيراً ما عنده من الإحسان، بشرّ ما عندنا من التقصير والعصيان.

﴿فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر﴾ أي: لم يبق إلا سلوك أحد الطريقتين، بحسب توفيق العبد، وعدم توفيقه، وقد أعطاه الله مشيئة بها يقدر على الإيمان والكفر، والخير والشر، فمن آمن فقد وفق للصواب، ومن كفر فقد قامت عليه الحجة، وليس بمكره على الإيمان، كما قال تعالى ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ وليس في قوله: ﴿فمن شاء فليؤمن﴾ ومن شاء فليكفر﴾ الإذن في كلا الأمرين، وإنما ذلك تهديد ووعيد لمن اختار الكفر بعد البيان التام، كما ليس فيها ترك قتال الكافرين. ثم ذكر تعالى مآل الفريقين فقال: ﴿إننا اعتدنا للظالمين﴾ بالكفر والفسوق والعصيان ﴿ناراً أحاط بهم سرادقها﴾ أي: سورها المحيط بها، فليس لهم منفذ ولا طريق ولا مخلص منها، تصلاهم النار الحامية.

﴿وإن يستغيثوا﴾ أي: يطلبوا الشراب، ليطفىء ما نزل بهم من العطش الشديد.

﴿يغاثوا بماء كالمهل﴾ أي: كالرصاص المذاب، أو كعكر الزيت، من شدة حرارته.

﴿يشوي الوجوه﴾ أي: فكيف بالأعضاء والبطون، كما قال تعالى ﴿يصهر به ما في بطونهم والجلود﴾ ولهم مقامع من حديد.

﴿بئس الشراب﴾ الذي يراد ليطفىء العطش، ويدفع بعض العذاب، فيكون زيادة في عذابهم، وشدة عقابهم.

﴿وساءت﴾ النار ﴿مرتفعاً﴾ وهذا ذم لحالة النار، أنها ساءت المحل، الذي يرتفق به، فإنها ليس فيها ارتفاق، وإنما فيها العذاب العظيم الشاق، الذي لا يُقْتَر عنهم ساعة، وهم فيه مبلسون، قد أيسوا من كل خير، ونسبهم الرحيم في العذاب كما نسوه ثم ذكر الفريق الثاني فقال: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي: جمعوا بين الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره

وَأَرْجَحْتُ أشجارهما، ولم تعرض لهما آفة أو نقص، فهذا غاية منتهى زينة الدنيا في الحرث، ولهذا اغتر هذا الرجل بهما، وتبجح وافتخر، ونسي آخرته.

﴿٣٤ - ٣٦﴾ فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً \* ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبديد هذه أبداً \* وما أظن الساعة قائمة ولن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً \* أي: فقال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن، وهما يتحاوران، أي: يتراجعان بينهما في بعض الماجريات المعتادة، مفتخراً عليه:

﴿أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً﴾ فخر بكثرة ماله، وعزة أنصاره من عبيد، وخدم، وأقارب، وهذا جهل منه، وإلا فأي: افتخار بأمر خارجي ليس فيه فضيلة نفسية، ولا صفة معنوية، وإنما هو بمنزلة فخر الصبي بالأماني، التي لا حقائق تحتها، ثم لم يكفه هذا الافتخار على صاحبه، حتى حكم بجهله وظلمه، وظن لما دخل جنته، ف ﴿قال ما أظن أن تبديد﴾ أي: تنقطع وتضمحل ﴿هذه أبداً﴾ فاطمان إلى هذه الدنيا، ورضي بها، وأنكر البعث، فقال: ﴿وما أظن الساعة قائمة ولن رددت إلى ربي﴾ على ضرب المثل ﴿لأجدن خيراً منها منقلباً﴾ أي: ليعطيني خيراً من هاتين الجنتين، وهذا لا يخلو من أمرين: إما أن يكون عالماً بحقيقة الحال، فيكون كلامه هذا على وجه التهكم والاستهزاء فيكون زيادة كفر إلى كفره، وإما أن يكون هذا ظنه في الحقيقة، فيكون من أجهل الناس، وأبخسهم حظاً من العقل، فأي: تلازم بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة، حتى يظن بجهله أن من أعطني في الدنيا أعطي في الآخرة، بل الغالب أن الله تعالى يزوي الدنيا عن أوليائه وأصفيائه، ويوسعها على أعدائه، الذين ليس لهم في الآخرة نصيب، والظاهر أنه يعلم حقيقة الحال، ولكنه

قال هذا الكلام على وجه التهكم والاستهزاء، بدليل قوله: ﴿ودخل جنته وهو ظالم لنفسه﴾ فإثبات أن وصفه الظلم، في حال دخوله، الذي جرى منه، من القول ما جرى، يدل على تمرده وعناده.

﴿٣٧ - ٣٩﴾ قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً \* لكننا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً \* ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله﴾ أي: قال له صاحبه المؤمن، ناصحاً له، ومذكراً له حاله الأولى، التي أوجده الله فيها في الدنيا ﴿من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً﴾ فهو الذي أنعم عليك بنعمة الإيجاد والإمداد، وواصل عليك النعم، ونقلك من طور إلى طور، حتى سواك رجلاً، كامل الأعضاء والجوارح المحسوسة والمعقولة، وبذلك بشر لك الأسباب، وهياً لك ما هياً من نعم الدنيا، فلم تحصل لك الدنيا بحولك وقوتك، بل بفضل الله تعالى عليك، فكيف يليق بك أن تكفر بالله الذي خلقك من تراب، ثم من نطفة ثم سواك رجلاً، وتجدد<sup>(١)</sup> نعمته، وتزعم أنه لا يبعثك، وإن بعثك أنه يعطيك خيراً من جنتك؟! هذا مما لا ينبغي ولا يليق. ولهذا لما رأى صاحبه المؤمن حاله واستمراره على كفره وطغيانه، قال مخبراً عن نفسه، على وجه الشكر لربه، والإعلان بدينه، عند ورود المجادلات والشبه: ﴿لكننا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً﴾ فأقر بربوبيته لربه، وانفراده فيها، والتزم<sup>(٢)</sup> طاعته وعبادته، وأنه لا يشرك به أحداً من المخلوقين، ثم أخبره أن نعمة الله عليه بالإيمان والإسلام، ولو مع قلة ماله وولده، أنها هي النعمة الحقيقية، وأن ما عداها مفرغ للزوال والعقوبة عليه والنكال، فقال:

﴿٣٩ - ٤٤﴾ ﴿إن ترن أنا أقل منك مالاً وولداً \* فمسي ربي أن يؤتين خيراً

من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً \* أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً \* وأحيط بشمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً \* ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً \* هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقاباً.

أي: قال للكافر صاحبه المؤمن: أنت - وإن فخرت علي بكثرة مالك وولديك، ورأيتني أقل منك مالاً وولداً - فإن ما عند الله، خير وأبقى، وما يرجي من خيره وإحسانه، أفضل من جميع الدنيا، التي يتنافس فيها المتنافسون.

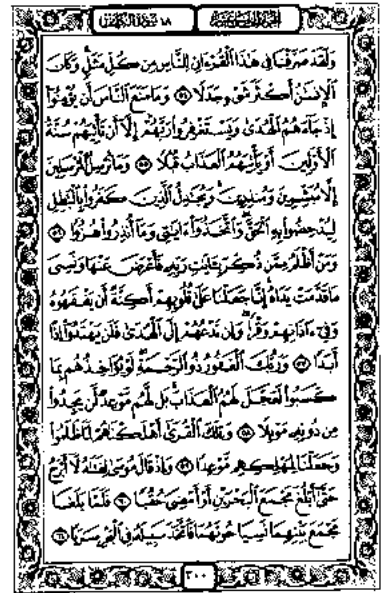
﴿فمسي ربي أن يؤتين خيراً من جنتك ويرسل عليها﴾ أي: على جنتك التي طغيت بها وغرتك ﴿حسباناً من السماء﴾ أي: عذاباً، بمطر عظيم أو غيره، ﴿فتصبح﴾ بسبب ذلك ﴿صعيداً زلقاً﴾ أي: قد اقتلعت أشجارها، وتلفت ثمارها، وغرق زرعها، وزال نفعها، ﴿أو يصبح ماؤها﴾ الذي مادتها منه ﴿غوراً﴾ أي: غائراً في الأرض ﴿فلن تستطيع له طلباً﴾ أي: غائراً لا يستطيع الوصول إليه بالمعاول ولا بغيرها، وإنما دعا على جنته المؤمن غضباً لربه، لكونها غرته وأطغته، واطمان إليها، لعله ينيب، ويراجع رشده، ويبصر في أمره.

فاستجاب الله دعاءه ﴿وأحيط بشمره﴾ أي: أصابه عذاب أحاط به، واستهلكه، فلم يبق منه شيء، والإحاطة بالشمري يستلزم تلف جميع أشجاره، وثمارها، وزرعه، فندم كل الندامة، واشتد لذلك أسفه، ﴿فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها﴾ أي: على كثرة نفقاته الدنيوية عليها، حيث اضمحلت وتلاشت، فلم يبق لها عوض، وندم أيضاً على شركه،

(١) في ب: وتجهل.

(٢) في ب: والتزام.





المال والبنون ونوع يبقى وينفع صاحبه على الدوام، وهي الباقيات الصالحات. ﴿٤٧ - ٤٩﴾ ويوم نستير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً \* وعرضوا على ربك صفاً لقد جنتموننا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً \* ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً \* يخبر تعالى عن حال يوم القيامة، وما فيه من الأهوال المقلقة، والشدائد المزعجة فقال:

﴿ويوم نستير الجبال﴾ أي: يزيلها عن أماكنها، يجعلها كثيراً، ثم يجعلها كالصهون المنفوش، ثم تضمحل وتتلشى، وتكون هباء منثأ، وتبرز الأرض فتصير قاعاً صافصفاً، لا عوج فيه ولا أمأ، ويحشر الله جميع الخلق على تلك الأرض، فلا يغادر منهم أحداً، بل يجمع الأولين والآخرين من بطون الفلوات، وقعور البحار، ويجمعهم بعدما تفرقوا، ويعيدهم بعدما تمزقوا، خلقاً جديداً، فيعرضون عليه صفاً ليستعرضهم وينظر في أعمالهم، ويحكم فيهم بحكمه العدل، الذي لا جور فيه ولا ظلم، ويقول لهم: ﴿لقد جنتموننا كما خلقناكم أول مرة﴾ أي: بلا مال، ولا أهل، ولا عشيرة، ما معهم إلا الأعمال، التي عملوها، والمكاسب في الخير والشر، التي كسبوها كما قال تعالى: ﴿ولقد جنتموننا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتكم ما حولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء﴾ وقال هنا، مخاطباً للمتكبرين للبعث، وقد شاهدوه عياناً: ﴿بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً﴾ أي: أنكروتم الجزاء على الأعمال، وروعد الله ووعيده، فما قد رأيتموه ودفنتموه، فحينئذ تحضر كُتُبُ الأعمال التي كتبتها الملائكة

الكرام<sup>(١)</sup>، فتظير لها القلوب، وتعظم من وقعها الكروب، وتكاد لها الصم الصلاب تذوب، ويشفق منها المجرمون، فإذا رآها مسطرة عليهم أعمالهم، عُحِصَ عليهم أقوالهم وأفعالهم، قالوا: ﴿يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾ أي: لا يترك خطيئة صغيرة ولا كبيرة، إلا وهي مكتوبة فيه، محفوظة لم ينس منها عمل سر ولا علانية، ولا ليل ولا نهار، ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾ لا يقدرون على إنكاره ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾ فحينئذ يجازون بها، ويقررون بها، ويجزون، ويحق عليهم العذاب، ذلك بما قدمت أيديهم وأن الله ليس بظلام للعبيد، بل هم غير خارجين عن عدله وفضله.

﴿٥٠﴾ ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفنتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً﴾ يخبر تعالى، عن عداوة إبليس لآدم وذريته، وأن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم، إكراماً وتعظيماً، وامثالاً لأمر الله، فامتثلوا ذلك ﴿إلا إبليس كان من الجن، ففسق عن أمر ربه﴾ وقال: ﴿الأسجد لمن خلقت طيناً﴾ وقال: ﴿أنا خير منه﴾ فتبين بهذا عداوته لله ولأبيكم ولكم، فكيف تتخذونه وذريته، أي: الشياطين ﴿أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً﴾ أي: بئس ما اختاروا لأنفسهم من ولاية الشيطان، الذي لا يأمرهم إلا بالفحشاء والمنكر عن ولاية الرحمن، الذي كل السعادة والفلاح والسرور في ولايته. وفي هذه الآية، الحث على اتخاذ الشيطان عدواً، والإغراء بذلك، وذكر السبب الموجب لذلك، وأنه لا يفعل ذلك إلا ظاناً، وأي: ظلم أعظم من ظلم من اتخذ عدوه الحقيقي ولياً، وترك الولي الحميد!!؟

تشتهيه الأنفس وتلذذ الأعين؟ فهذا يعرف توفيق العبد من خذلانه، وريحه من خسارته، ولهذا أخبر تعالى أن المال والبنين، زينة الحياة الدنيا، أي: ليس وراء ذلك شيء، وأن الذي يبقى للإنسان وينفعه ويسره، الباقيات الصالحات، وهذا يشمل جميع الطاعات الواجبة، والمستحبة من حقوق الله، وحقوق عباده، من صلاة، وزكاة، وصدقة، وحج، وعمرة، وتسيح، وتحميد، وتهليل، وتكبير، وقراءة، وطلب علم نافع، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وصلة رحم، وبر والدين، وقيام بحق الزوجات، والمماليك، والبهائم، وجميع وجوه الإحسان إلى الخلق، كل هذا من الباقيات الصالحات، فهذه خير عند الله ثواباً وخيراً أملاً، فثوابها يبقى، ويتضاعف على الآباد، ويؤمل أجرها وبرها ونفعها عند الحاجة، فهذه التي ينبغي أن يتنافس بها المتنافسون، ويستيق إليها العاملون، ويحذ في تحصيلها المجتهدون، وتأمل كيف لما ضرب الله مثل الدنيا وحالها واضمحلالها، ذكر أن الذي فيها نوعان: نوع من زينتها، يتمتع به قليلاً، ثم يزول بلا فائدة تعود لصاحبه، بل ربما لحقته مضرت، وهو

(١) في ب: الأبرار.

قال تعالى: ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾.

وقال تعالى: ﴿إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله﴾.

﴿٥١٦ - ٥٢﴾ ﴿ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً﴾ \* ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم وبينهم مويقاً يقول تعالى: ما أشهدت الشياطين [وهؤلاء المضلين]، ﴿خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم﴾ أي: ما أحضرتهم ذلك، ولا شاورتهم عليه، فكيف يكونون خالقين لشيء من ذلك؟! بل المنفرد بالخلق والتدبير، والحكمة والتقدير، هو الله، خالق الأشياء كلها، المتصرف فيها بحكمته، فكيف يجعل له شركاء من الشياطين، يوالون ويطاعون، كما يطاع الله، وهم لم يخلقوا ولم يشهدوا خلقاً، ولم يعاونوا الله تعالى؟! ولهذا قال: ﴿وما كنت متخذ المضلين عضداً﴾ أي: معاونين، مظاهرين لله على شأن من الشؤون، أي: ما ينبغي ولا يليق بالله، أن يجعل لهم قسطاً من التدبير، لأنهم ساعون في إضلال الخلق والعداوة لربهم، فالاتق أن يقصمهم ولا يدنهم.

ولما ذكر حال من أشرك به في الدنيا، وأبطل هذا الشرك غاية الإبطال، وحكم بجهمل صاحبه وسفه، أخبر عن حالهم مع شركائهم يوم القيامة، وأن الله يقول لهم: ﴿نادوا شركائي بزعمكم أي: على موجب زعمكم الفاسد، وإلا فبالحقيقة ليس لله شريك في الأرض، ولا في السماء، أي: نادوهم، لينفعوكم، ويخلصوكم من الشدائد، فدعوهم فلم يستجيبوا لهم﴾ لأن الحكم والملك يومئذ لله، لا أحد يملك مثقال ذرة من النفع لنفسه ولا لغيره.

﴿وجعلنا بينهم﴾ أي: بين المشركين وشركائهم ﴿مويقاً﴾ أي: مهلكاً،

يفرق بينهم وبينهم، ويبعد بعضهم من بعض، ويتبين حينئذ عداوة الشركاء لشركائهم، وكفرهم بهم، وتبريم منهم، كما قال تعالى: ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾.

﴿٥٢٣﴾ ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً﴾ أي: لما كان يوم القيامة وحصل من الحساب ما حصل، وتميز كل فريق من الخلق بأعمالهم، وحقت كلمة العذاب على المجرمين، فرأوا جهنم قبل دخولها، فانزعجوا واشتد قلقهم لظنهم أنهم مواقعوها، وهذا الظن قال المشركون: إنه بمعنى اليقين، فأيقنوا أنهم داخلوها ﴿ولم يجدوا عنها مصرفاً﴾ أي: معدلاً يعدلون إليه، ولا شافع لهم من دون إذنه، وفي هذا من التخويف والترهيب، ما ترعد له الأفتدة والقلوب.

﴿٥٤٤﴾ ﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شياً جدلاً﴾ يخبر الله تعالى عن عظمة القرآن، وجلالته، وعمومه، وأنه صرف فيه من كل مثل، أي: من كل طريق موصل إلى العلوم النافعة، والسعادة الأبدية، وكل طريق يعصم من الشر والهلاك، ففيه أمثال الحلال والحرام، وجزاء الأعمال، والترغيب والترهيب، والأخبار الصادقة النافعة للقلوب، اعتقاداً، وطمانينة، ونوراً، وهذا مما يوجب التسليم لهذا القرآن وتلقيه بالانقياد والطاعة، وعدم المنازعة له في أمر من الأمور، ومع ذلك، كان كثير من الناس يجادلون في الحق بعد ما تبين، ويجادلون بالباطل ﴿ليدحضوا به الحق﴾ ولهذا قال: ﴿وكان الإنسان أكثر شياً جدلاً﴾ أي: مجادلة ومنازعة فيه، مع أن ذلك غير لائق بهم، ولا عدل منهم، والذي أوجب له ذلك وعدم الإيمان بالله، إنما هو الظلم والعداوة، لا لقصور في بيانه وحجته وبرهانه،

وإلا فلو جاءهم العذاب، وجاءهم ما جاء قبلهم، لم تكن هذه حالهم، ولهذا

قال:

﴿٥٥﴾ ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلاً﴾ أي: ما منع الناس من الإيمان، والحال أن الهدى الذي يحصل به الفرق، بين الهدى والضلال، والحق والباطل، قد وصل إليهم، وقامت عليهم حجة الله، فلم يمنعمهم عدم البيان، بل منعهم الظلم والعدوان عن الإيمان، فلم يبق إلا أن تأتيهم سنة الله، وعادته في الأولين من أنهم إذا لم يؤمنوا عوجلوا بالعذاب، أو يرون العذاب قد أقبل عليهم، ورأوه مقابلة ومعينة، أي: فليخافوا من ذلك، وليتوبوا من كفرهم، قبل أن يكون العذاب الذي لا مرد له.

﴿٥٦﴾ ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزواً﴾ أي: لم ترسل المرسل عبتاً، ولا ليتخذهم الناس أرباباً، ولا ليدعوا إلى أنفسهم، بل أرسلناهم يدعون الناس إلى كل خير، وينهون عن كل شر، ويبشرونهم على امتثال ذلك بالثواب العاجل والأجل، وينذرونهم على معصية ذلك بالعقاب العاجل والأجل، فقامت بذلك حجة الله على العباد، ومع ذلك يابى الظالمون الكافرون، إلا المجادلة بالباطل، ليدحضوا به الحق، فسعوا في نصر الباطل مهما أمكنهم، وفي دحض الحق وإبطاله، واستهزؤوا برسول الله وآياته، وفرحوا بما عندهم من العلم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، ويظهر الحق على الباطل ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾ ومن حكمة الله ورحمته، أن تقيضه المبطلين المجادلين الحق بالباطل، من أعظم الأسباب إلى وضوح الحق وتبين شواهد وأدلتها، وتبين الباطل وفساده، فبضدها تتبين الأشياء.

﴿٥٧ - ٥٩﴾ ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما



ذلك .

ثم أخبر تعالى عن سعة مغفرته ورحمته، وأنه يغفر الذنوب، ويتوب الله على من يتوب، فيستغفده برحمته، ويشمله بإحسانه، وأنه لو أخذ<sup>(١)</sup> العباد على ما قدمت أيديهم من الذنوب، لعجل لهم العذاب، ولكنه تعالى حلیم لا يعجل بالعقوبة، بل يمهّل ولا يهمل، والذنوب لا بد من وقوع آثارها، وإن تأخر عنها مدة طويلة، ولهذا قال :

﴿بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موثلاً﴾ أي : لهم موعد، يمازرون فيه بأعمالهم، لا بد لهم منه، ولا مندوحة لهم عنه، ولا ملجأ، ولا معجدة عنه، وهذه سنته في الأولين والآخرين، أن لا يعاجلهم بالعقاب، بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة، فإن تابوا وأنبأوا، غفر لهم ورحمهم، وأزال عنهم العقاب، وإلا، فإن استمروا على ظلمهم وعنادهم، وجاء الوقت الذي جعله موعداً لهم، أنزل بهم بأسه، ولهذا قال : ﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا﴾ أي : بظلمهم، لا بظلم منا ﴿وجعلنا لمهلكهم موعداً﴾ أي : وقتاً مقدراً، لا يتقدمون عنه ولا يتأخرون.

﴿٦٠ - ٨٢﴾ ﴿وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقياً﴾ فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سرباً \* فلما جاوزا قال لفتاه أتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً \* قال أرأيت إذ أرينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجياً \* قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً \* فوجدنا عبداً من عبادنا أتيناه رحمة من عندنا وعلّمناه من لدنا علماً \* قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً \* قال إنك لن تستطيع معي صبراً \* وكيف نصبر على ما لم

قدمت يده إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبداً \* وربك الخفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موثلاً \* وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً \* يخبر تعالى أنه لا أعظم ظملاً، ولا أكبر جرماً، من عبد ذكّر بآيات الله ويؤمن له الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وخوف ورهب ورعب ورغب، فأعرض عنها، فلم يتذكر بما ذكّر به، ولم يرجع عما كان عليه، ونسي ما قدمت يده من الذنوب، ولم يراقب علام الغيوب، فهذا أعظم ظملاً من المعرض الذي لم تأت آيات الله ولم يذكر بها، وإن كان ظالماً، فإنه أخف<sup>(٢)</sup> ظملاً من هذا، لكون العاصي على بصيرة وعلم، أعظم ممن ليس كذلك، ولكن الله تعالى عاقبه بسبب إعراضه عن آياته ونسيانه لذنوبه، ورضاه لنفسه، حالة الشرم مع علمه بها، أن سد عليه أبواب الهداية بأن جعل على قلبه أكنة، أي : أغشية محكمة تمنعه أن يفقه الآيات وإن سمعتها، فليس في إمكانها الفقه الذي يصل إلى القلب، ﴿وفي آذانهم وقراً﴾ أي : صمماً يمنعهم من وصول الآيات، ومن سماعها على وجه الانتفاع وإذا كانوا بهذه الحالة، فليس لهدايتهم سبيل، ﴿وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبداً﴾ لأن الذي يرجي أن يجيب الداعي للهدى من ليس عالماً، وأما هؤلاء الذين أبصروا ثم عموا، ورأوا طريق الحق حقاً فتركوه، وطريق الضلال ضلالاً فسلكوه، وعاقبهم الله بإقفال القلوب والطبع عليها، فليس في هدايتهم حيلة ولا طريق. وفي هذه الآية من التخويف لمن ترك الحق بعد علمه، أن يحال بينهم وبينه، ولا يتمكن منه بعد ذلك، ما هو أعظم مرهب وزاجر عن

تحط به خبيراً \* قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً \* قال فإن اتبعنني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً \* فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها إلى قوله : ﴿ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً﴾ يخبر تعالى عن نبيه موسى عليه السلام، وشدة رغبته في الخير وطلب العلم، أنه قال لفتاه - أي : خادمه الذي يلازمه في حضره وسفره، وهو «يوشع بن نون» الذي نبأه الله بعد ذلك : ﴿لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين﴾ أي : لا أزال مسافراً وإن طالت علي الشقة، ولحقنتي المشقة، حتى أصل إلى مجمع البحرين، وهو المكان الذي أوحى إليه أنك ستجد فيه عبداً من عباد الله العالمين، عنده من العلم ما ليس عندك، ﴿أو أمضي حقياً﴾ أي : مسافة طويلة، المعنى : أن الشوق والرغبة، حمل موسى أن قال لفتاه هذه المقالة، وهذا عزم منه جازم، فلذلك أمضاه .

﴿فلما بلغا﴾ أي : هو وقتاه ﴿مجمع بينهما نسيا حوتهما﴾ وكان معهما حوت يتزودان منه ويأكلان، وقد وعد أنه متى فقد الحوت فتم ذلك العبد الذي قصدته، فاتخذ ذلك الحوت سبيله، أي : طريقه في البحر سرباً وهذا من الآيات .

قال المفسرون : إن ذلك الحوت الذي كانا يتزودان منه، لما وصلا إلى ذلك المكان، أصابه بلل البحر، فانسرب بإذن الله في البحر، وصار مع حيواناته حياً .

فلما جاوز موسى وقتاه مجمع البحرين، قال موسى لفتاه : ﴿أتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾ أي : لقد تعينا من هذا السفر المجاوز فقط، وإلا فالسفر الطويل الذي وصلا به إلى مجمع البحرين لم يجدا مس التعب فيه، وهذا من الآيات والعلامات الدالة لموسى على وجود مطلبه، وأيضاً فإن

(١) في ب : فإنه أشد، والسياق يدل على ما أتته .

(٢) في الأصل واخذ .

الشوق المتعلق بالوصول إلى ذلك المكان، سهل لهما الطريق، فلما تجاوزا غايتهما وجدا مس التعب، فلما قال موسى لفتاه هذه الفتاة، قال له فتاه: ﴿أرأيت إذ أومينا إلى الصخرة فيأي نسيت الحوت﴾ أي: ألم تعلم حين أوانا الليل إلى تلك الصخرة المعروفة بينهما ﴿فيأي نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان﴾ لأنه السبب في ذلك ﴿وانخذ سبيله في البحر عجبا﴾ أي: لما انسرب في البحر ودخل فيه، كان ذلك من العجائب.

قال المفسرون: كان ذلك المسلك للحوت سرباً، ولموسى وفتاه عجياً، فلما قال له الفتى هذا القول، وكان عند موسى وعد من الله أنه إذا فقد الحوت، وجد الخضر، فقال موسى: ﴿ذلك ما كنا نبغ﴾ أي: نطلب ﴿فارتدا﴾ أي: رجعا ﴿على آثارهما قصصاً﴾ أي: رجعا يقصان أثرهما، إلى المكان الذي نيا فيه الحوت فلما وصلا إليه، وجدا عبداً من عبادنا، وهو الخضر، وكان عبداً صالحاً، لا نبيا على الصحيح.

آتيناه [رحمة من عندنا أي: أعطاه الله رحمة خاصة بها زاد علمه وحسن عمله ﴿وعلمناه﴾] ﴿من لدنا﴾ [أي: من عندنا] علماً، وكان قد أعطي من العلم ما لم يعط موسى، وإن كان موسى عليه السلام أعلم منه بأكثر الأشياء، وخصوصاً في المعلوم الإيمانية والأصولية، لأنه من أولي العزم من المرسلين، الذين فضلهم الله على سائر الخلق، بالعلم والعمل، وغير ذلك، فلما اجتمع به موسى قال له على وجه الأدب والمشاورة، والإخبار عن مطلبه: ﴿هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً﴾ أي: هل أتبعك على أن تعلمني مما علمك الله، ما به أسترشد وأهتدي، وأعرف به الحق في تلك القضايا؟ وكان الخضر، قد أعطاه الله من الإلهام والكرامة، ما به يحصل له الاطلاع على بواطن كثير

من الأشياء التي خفيت، حتى على المكان، سهل لهما الطريق، فلما تجاوزا غايتهما وجدا مس التعب، فلما قال موسى: لا أمتنع من ذلك، ولكنك ﴿لن تستطيع معي صبراً﴾ أي: لا تقدر على اتباعي وملازمتي، لأنك ترى ما لا تقدر على الصبر عليه من الأمور التي ظاهرها المنكر، وباطنها غير ذلك، ولهذا قال: ﴿وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً﴾ أي: كيف تصبر على أمر، ما أحطت بباطنه وظاهره، وعلمت المقصود منه وماله؟

فقال موسى: ﴿ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً﴾ وهذا عزم منه، قبل أن يوجد الشيء المنتحن به، والعزم شيء، ووجود الصبر شيء آخر، فلذلك ما صبر موسى عليه السلام حين وقع الأمر، فحينئذ قال له الخضر: ﴿فإن أتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً﴾ أي: لا تبتدئي بسؤال منك وإنكار، حتى أكون أنا الذي أخبرك بحاله، في الوقت الذي ينبغي إخبارك به، فنهاء عن سؤاله، ووعد أنه يوقفه على حقيقة الأمر.

﴿فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها﴾ أي: اقتلع الخضر منها لوحاً، وكان له مقصود في ذلك سببته، فلم يصبر موسى عليه السلام، لأن ظاهره أنه منكر، لأنه عيب للسفينة، وسبب لغرق أهلها، ولهذا قال موسى: ﴿أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمراً﴾ أي: عظيماً شنيعاً، وهذا من عدم صبره عليه السلام، فقال له الخضر: ﴿ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ أي: فوقع كما أخبرتك، وكان هذا من موسى نسياناً فقال: ﴿لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً﴾ أي: لا تحسر علي الأمر واسمح لي، فإن ذلك وقع على وجه النسيان، فلا تؤاخذني في أول مرة. فجمع بين الإقرار به والعذر منه، وأنه ما ينبغي لك أيها الخضر الشدة على صاحبك، فسمح عنه الخضر.



﴿فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً﴾ أي: صغيراً ﴿فقتله﴾ الخضر، فاشتد بموسى الغضب، وأخذته الحمية الدينية، حين قتل غلاماً صغيراً لم يذنب ﴿قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكراً﴾ أي: نكر مثل قتل الصغير، الذي ليس عليه ذنب، ولم يقتل أحداً؟! وكانت الأولى من موسى نسياناً، وهذه غير نسيان، ولكن عدم صبر، فقال له الخضر معاتباً ومذكراً: ﴿ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً﴾

فقال [له] موسى: ﴿إن سألتك عن شيء﴾ بعد هذه المرة ﴿فلا تصاحبني﴾ أي: فأنت معذور بذلك، ويترك صحبتي ﴿قد بلغت من لدني عذراً﴾ أي: أعذرت مني، ولم تقصر.

﴿فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها﴾ أي: استضافاهم، فلم يضيفوهما ﴿فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض﴾ أي: قد عاب واستهجم ﴿فأتاهم﴾ الخضر أي: بناه وأعادهم جديداً. فقال له موسى: ﴿لو شئت لأخذت عليه أجراً﴾ أي: أهل هذه القرية، لم يضيفونا مع وجوب ذلك عليهم، وأنت تبنيه من دون أجره، وأنت تقدر عليها؟ فحينئذ لم يف موسى عليه السلام بما قال، واستعذر



نسيه في الموضع الذي إليه منتهى قصده .

ومنها : أن ذلك العبد الذي لقيه ، ليس نبياً ، بل عبداً صالحاً ، لأنه وصفه بالعبودية ، وذكر مئة الله عليه بالرحمة والعلم ، ولم يذكر رسالته ولا نبوته ، ولو كان نبياً ، لذكر ذلك كما ذكر غيره .

وأما قوله في آخر القصة : ﴿وما فعلته عن أمري﴾ فإنه لا يدل على أنه نبي ، وإنما يدل على الإلهام والتحديث ، كما يكون لغير الأنبياء ، كما قال تعالى : ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه﴾ و﴿أوحى ربك إلى النحل أن اتخذني من الجبال بيوتاً﴾ .

ومنها : أن العلم الذي يُعَلِّمُه الله [العبادة] <sup>(١)</sup> نوعان :

علم مكتسب يتركه العبد بجده واجتهاده . ونوع علم لدني ، يهبه الله لمن يمن عليه من عباده لقوله : ﴿وعلمناه من لدنا علماً﴾

ومنها : التأدب مع المعلم ، وخطاب المتعلم إياه اللطيف خطاب ، لقول موسى عليه السلام :

﴿هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً﴾ فأخرج الكلام بصورة الملائفة والمشاورة ، وأنتك هل تأذن لي في ذلك أم لا ، وإقراره بأنه يتعلم منه ، بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو الكبير ، الذي لا يظهر للمعلم اقتضاه إلى علمه ، بل يدعي أنه يتعاون هو وإياه ، بل ربما ظن أنه يعلم معلمه ، وهو جاهل جداً ، فالذل للمعلم ، وإظهار الحاجة إلى تعليمه ، من أنفع شيء للمتعلم .

ومنها : تواضع الفاضل للتعلم ممن دونه ، فإن موسى - بلا شك - أفضل من الخضر .

ومنها : تعلم العالم الفاضل للمعلم الذي لم يتمهر فيه ، ممن مهر فيه ، وإن كان دونه في العلم بدرجات كثيرة .

فإن موسى عليه السلام من أولي العزم من المرسلين ، الذين منحهم الله وأعطاهم من العلم ما لم يعط سواهم ، ولكن في هذا العلم الخاص كان عند الخضر ما ليس عنده ، فلهذا حرص على التعلم منه .

فعل هذا ، لا ينبغي لقلب المحدث ، إذا كان قاصراً في علم النحو ، أو الصرف ، أو نحوه من العلوم ، أن لا يتعلمه ممن مهر فيه ، وإن لم يكن محدثاً ولا فقهاً .

ومنها : إضافة العلم وغيره من الفضائل لله تعالى ، والإقرار بذلك ، وشكر الله عليها لقوله :

﴿تعلمن مما علمت﴾ أي : مما علمك الله تعالى .

ومنها : أن العلم النافع ، هو العلم المرشد إلى الخير ، فكل علم يكون فيه رشد وهداية لطرق <sup>(٢)</sup> الخير ، وتحذير عن طريق الشر ، أو وسيلة لذلك ، فإنه من العلم النافع ، وما سوى ذلك ، فإما أن يكون ضاراً ، أو ليس فيه فائدة لقوله : ﴿أن تعلمن مما علمت رشداً﴾

ومنها : أن من ليس له قوة الصبر على صحة العالم والعلم ، وحسن الثبات على ذلك ، أنه يفوته بحسب عدم صبره كثير من العلم <sup>(٣)</sup> ، فمن لا صبر له لا يدرك العلم ، ومن استعمل الصبر ولازمه ، أدرك به كل أمر سعى فيه ، لقول الخضر - يعتذر من موسى بذكر المانع لموسى من الأخذ عنه - إنه لا يصبر معه .

ومنها : أن السبب الكبير لحصول الصبر ، إحاطة الإنسان علماً وخبرة بذلك الأمر الذي أمر بالصبر عليه ، وإلا فالذي لا يدريه ، أو لا يدري غايته ولا نتيجته ، ولا فائدته وثمرته ليس عنده سبب الصبر لقوله : ﴿وكيف تصبر على ما لم تحط به خيراً﴾ . فجعل الموجب لعدم صبره ، عدم إحاطته خيراً بالأمر .

ومنها : الأمر بالتأني والتثبت ، وعدم المبادرة إلى الحكم على الشيء ، حتى يعرف ما يراد منه ، وما هو المقصود .

ومنها : تعليق الأمور المستقبلية التي من أفعال العباد بالمشيئة ، وأن لا يقول الإنسان للشيء : إني فاعل ذلك في المستقبل ، إلا أن يقول : «إن شاء الله» .

ومنها : أن العزم على فعل الشيء ، ليس بمنزلة فعله ، فإن موسى قال : ﴿ستجدني إن شاء الله صابراً﴾ فوطن نفسه على الصبر ولم يفعل .

ومنها : أن المعلم إذا رأى المصلحة في إيزاعه للمتعلم أن يترك الابتداء في السؤال عن بعض الأشياء ، حتى يكون المعلم هو الذي يوقفه عليها ، فإن المصلحة تنبع ، كما إذا كان فهمه قاصراً ، أو نهاه عن الدقيق في سؤال الأشياء التي غيرها أهم منها ، أو لا يدركها ذهنه ، أو يسأل سؤالا ، لا يتعلق في موضوع البحث .

ومنها : جواز ركوب البحر ، في غير الحالة التي يخاف منها .

ومنها : أن الناسي غير مؤاخذ بتسنيانه ، لا في حق الله ، ولا في حقوق العباد ، لقوله : ﴿لا تؤاخذني بما نسيت﴾

ومنها : أنه ينبغي للإنسان أن يأخذ من أخلاق الناس ومعاملاتهم ، المعفو منها ، وما سمحت به أنفسهم ، ولا ينبغي له أن يكلفهم ما لا يطيقون ، أو يشق عليهم ويرهقهم ، فإن هذا مدعاة إلى الثغور منه والسامة ، بل يأخذ المتيسر ليتيسر له الأمر .

ومنها : أن الأمور تجري أحكامها على ظاهرها ، وتعلق بها الأحكام الدنيوية في الأموال والدماء وغيرها ، فإن موسى عليه السلام أنكسر على الخضر خرقة السفينة ، وقتل الغلام ، وأن هذه الأمور ظاهرها أنها من المنكر ، وموسى عليه السلام لا يسعه

(١) زيادة من هامش : ب .

(٢) في ب : لطريق .

(٣) بدلاً من الجملة : (أنه يفوته . . . كثير من العلم) جاء في ب : (أنه ليس بأهل لتلقي العلم) وجاءت هذه الجملة في : أ مشطوبة .

السكوت عنها، في غير هذه الحال التي صحب عليها الخضر، فاستعمل عليه السلام ويأمر إلى الحكم في حالتها العامة، ولم يلتفت إلى هذا العارض، الذي يوجب عليه الصبر، وعدم المبادرة إلى الإنكار.

ومنها: القاعدة الكبيرة الجليلة وهو أنه: «يدفع الشر الكبير بازتكاب الشر الصغير» ويراعي أكبر المصلحتين بتفويت أدناهما، فإن قتل الغلام شر، ولكن بقاءه حتى يفتن أبويه عن دينهما أعظم شراً منه، وبقاء الغلام من دون قتل وعصمته، وإن كان يظن أنه خير، فالخير ببقاء دين أبويه وإيمانها خير من ذلك، فلذلك قتله الخضر، وتحت هذه القاعدة من الفروع والفوائد ما لا يدخل تحت الحصر، فتزاحم المصالح والمفاسد كلها داخل في هذا.

ومنها: القاعدة الكبيرة أيضاً وهي أن: «عمل الإنسان في مال غيره، إذا كان على وجه المصلحة وإزالة المفسدة، أنه يجوز، ولو بلا إذن، حتى ولو ترتب على عمله إتلاف بعض مال الغير» كما حرق الخضر السفينة لتعيب، فتسلم من غضب الملك الظالم. فعلى هذا لو وقع حرق، أو غرق، أو نحوهما في دار إنسان أو ماله، وكان إتلاف بعض المال، أو هدم بعض الدار فيه سلامة للباقي جاز للإنسان، بل شرع له ذلك، حفظاً لمال الغير، وكذلك لو أراد ظالم أخذ مال الخير، ودفع إليه إنسان بعض المال افتداء للباقي جاز، ولو من غير إذن.

ومنها: أن العمل يجوز في البحر، كما يجوز في البر لقوله: «يعملون في البحر» ولم ينكر عليهم عملهم.

ومنها: أن المسكين قد يكون له مال لا يبلغ كفايته، ولا يجرح بذلك عن اسم المسكنة، لأن الله أخبر أن هؤلاء المساكين لهم سفينة.

ومنها: أن القتل من أكبر الذنوب لقوله في قتل الغلام: «لقد جئت شيئاً نكراً».

ومنها: أن القتل قصاصاً غير منكر لقوله: «بغير نفس».

ومنها: أن العبد الصالح يحفظه الله في نفسه، وفي ذريته.

ومنها: أن خدمة الصالحين، أو من يتعلق بهم، أفضل من غيرها، لأنه علل استخراج كنزهما، وإقامة جدارهما، أن أباهما صالح.

ومنها: استعمال الأدب مع الله تعالى في الألفاظ، فإن الخضر أضاف عيب السفينة إلى نفسه، بقوله: «فأردت أن أعيبها». وأما الخير، فأضافه إلى الله تعالى، لقوله: «فأراد ربك أن يبلغنا أشدها ويستخرجنا من رحمته من ربك» كما قال إبراهيم عليه السلام: «وإذا مرضت فهو يشفين» وقالت الجن: «وأننا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً» مع أن الكل بقضاء الله وقدره.

ومنها: أنه ينبغي للمصاحب أن لا يفارق صاحبه في حالة من الأحوال، ويترك صحبته حتى يعتبه، ويعذر منه، كما فعل الخضر مع موسى.

ومنها: أن موافقة المصاحب لصاحبه، في غير الأمور المحذورة، مدعاة وسبب لبقاء الصحبة وتأكدها، كما أن عدم الموافقة سبب لقطع المرافقة.

ومنها: أن هذه القضايا التي أجزاها الخضر هي قدر محض أجزاها الله وجعلها على يد هذا العبد الصالح، ليستدل العباد بذلك على الطاعة في أفضيته، وأنه يقدر على العبد أموراً يكرهها جداً، وهي صلاح دينه، كما في قضية الغلام، أو وهي صلاح دنياه كما في قضية السفينة، فأراهم نموذجاً من لطفه وكرمه، ليعرفوا ويرضوا غاية الرضا بأقداره المكرهه.

﴿٨٣ - ٨٨﴾ «وسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً \* إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً \* فأتبع سبباً \* حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمة ووجد عندها قوماً قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً \* قال أما من ظلم فسوف

نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً \* وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وستقول له من أمرنا يسراً» كان أهل الكتاب أو المشركون، سألوا رسول الله ﷺ عن قصة ذي القرنين، فأمره الله أن يقول: «سأتلو عليكم منه ذكراً» فيه نبأ مفيد، وخطاب عجيب.

أي: سأتلو عليكم من أحواله، ما يتذكر فيه، ويكون عبرة، وأما ما سوى ذلك من أحواله، فلم يتله عليهم. «إنا مكنا له في الأرض» أي: ملكه الله تعالى، ومكنه من النفوذ في أقطار الأرض، واتيادهم له. «وآتيناه من كل شيء سبباً \* فأتبع سبباً» أي: أعطاه الله من الأسباب الموصلة له لما وصل إليه، ما به يستعين على قهر البلدان، وسهولة الوصول إلى أقاصي العمران، وعمل بتلك الأسباب التي أعطاه الله إياها، أي: استعملها على وجهها، فليس كل من عنده شيء من الأسباب يسلكه، ولا كل أحد يكون قادراً على السبب، فإذا اجتمع القدرة على السبب الحقيقي والعمل به، حصل القصور، وإن عدما أو أحدهما لم يحصل.

وهذه الأسباب التي أعطاه الله إياها، لم يخبرنا الله ولا رسوله بها، ولم تتناقلها الأخبار على وجه يفيد العلم، فلماذا لا يسعنا غير السكوت عنها، وعدم الالتفات لما يذكره النقلة للإسرائيليات ونحوها، ولكننا نعلم بالجملة أنها أسباب قوية كثيرة، داخلية وخارجية، بها صار له جند عظيم، ذو عتدٍ وعُدَدٍ ونظام، وبه تمكن من قهر الأعداء، ومن تسهيل الوصول إلى مشارق الأرض ومغاربها وأنحائها، فأعطاه الله ما بلغ به مغرب الشمس، حتى رأى الشمس في مرأى العين، كأنها تغرب في عين حمة، أي: سوداء، وهذا المعتاد لمن كان بينه وبين أفق الشمس الغربي ماء، وأما تغرب في نفس الماء وإن كانت في غاية الارتفاع، ووجد عندها، أي: عند مغربها قوماً «قلنا يا ذا القرنين إما أن

تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً ﴿أي﴾ :  
 إما أن تعذبهم بقتل، أو ضرب، أو أسر  
 ونحوه، وإما أن تحسن إليهم، فحَبَّرَ  
 بين الأمرين، لأن الظاهر أنهم إما كفار  
 أو فساق، أو فيهم شيء من ذلك،  
 لأنهم لو كانوا مؤمنين غير فساق، لم  
 يُرخص له في تعذيبهم، فكان عند ذي  
 القرنين من السياسة الشرعية ما استحق  
 به المدح والثناء، لتوفيق الله له لذلك،  
 فقال: سأجعلهم قسمين: ﴿أما من  
 ظلم﴾ بالكفر ﴿فسوف نعذبه ثم يرد إلى  
 ربه فيعذبه عذاباً نكراً﴾ أي: تحصل له  
 العقوبتان، عقوبة الدنيا، وعقوبة  
 الآخرة، ﴿وأما من آمن وعمل صالحاً  
 فله جزاء الحسنى﴾ أي: فله الجنة  
 والحالة الحسنة عند الله جزاء يوم  
 القيامة، ﴿وستقول له من أمرنا يسراً﴾  
 أي: وستحسن إليه، ولنلطف له  
 بالقول، ونيسر له المعاملة، وهذا يدل  
 على كونه من الملوك الصالحين والأولياء  
 العادلين العالمين، حيث وافق  
 مرضاة الله في معاملة كل أحد، بما  
 يليق بحاله.

﴿ثم أتبع سبباً﴾ ٨٩٨-٩٠٠  
 حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها  
 تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها  
 سبباً \* كذلك وقد أحطنا بما لديه  
 خيراً \* ثم أتبع سبباً \* حتى إذا بلغ  
 بين السدين وجد من دونها قوماً  
 لا يكادون يفقهون قرولاً \* قالوا يا ذا  
 القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون  
 في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على  
 أن تجعل بيننا وبينهم سداً \* قال ما  
 مكنتي فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل  
 بينكم وبينهم ردماً \* أتوني زبر الحديد  
 حتى إذا ساوى بين الصدفين قال  
 انفخوا حتى إذا جعله نارا قال أتوني  
 أفرغ عليه قطراً \* فما استطاعوا أن  
 يظهروه وما استطاعوا له نقباً \* قال  
 هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي  
 جعله دكاء وكان وعد ربي حقاً ﴿أي﴾ :  
 لما وصل إلى مغرب الشمس كُرِّ راجعاً،  
 قاصداً مطلعها، متبعاً للأسباب التي  
 أعطاه الله، فوصل إلى مطلع الشمس  
 ف ﴿وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم

من دونها سبباً﴾ أي: وجدها تطلع على  
 أناس ليس لهم ستر من الشمس، إما  
 لعدم استعدادهم في المساكن، وذلك  
 لزيادة همجيتهم وتوحشهم، وعدم  
 تمذهبهم، وإما لكون الشمس دائمة  
 عندهم، لا تغرب عنهم غروباً يذكر،  
 كما يوجد ذلك في شرقي أفريقيا  
 الجنوبي، فوصل إلى موضع انقطع عنه  
 علم أهل الأرض، فضلاً عن وصولهم  
 إياه بأبدانهم، ومع هذا، فكل هذا  
 بتقدير الله له، وعلمه به، ولهذا قال:  
 ﴿كذلك وقد أحطنا بما لديه خيراً﴾  
 أي: أحطنا بما عنده من الخير  
 والأسباب العظيمة وعلمنا معه، حيثما  
 توجه وسار.

﴿ثم أتبع سبباً حتى إذا بلغ بين  
 السدين﴾ قال المفسرون: ذهب متوجهاً  
 من المشرق، قاصداً للشمال، فوصل  
 إلى ما بين السدين، وهما سدان، كانا  
 سلاسل جبال معروفين في ذلك  
 الزمان، سداً بين يأجوج ومأجوج  
 وبين الناس، وجد من دون السدين  
 قوماً لا يكادون يفقهون قرولاً، لعجمة  
 ألسنتهم، واستجمام أذهانهم وقلوبهم،  
 وقد أعطى الله ذا القرنين من الأسباب  
 العلمية، ما فقه به السنة أولئك القوم  
 وفقههم، وراجعهم وراجعوه،  
 فاشتكوا إليه ضرر يأجوج ومأجوج،  
 وهما: أمتان عظيمتان من بني آدم،  
 فقالوا:

﴿إن يأجوج ومأجوج مفسدون في  
 الأرض﴾ بالقتل وأخذ الأموال وغير  
 ذلك.

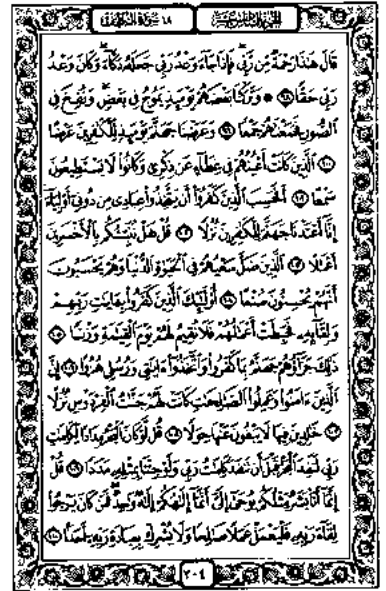
﴿فهل نجعل لك خرجاً﴾ أي: ﴿فهل  
 نجعلاً﴾ على أن نجعل بيننا وبينهم سداً  
 ودل ذلك على عدم اقتدارهم بأنفسهم  
 على بنيان السد، وعرفوا اقتدار ذي  
 القرنين عليه، فبدلوا له أجره ليفعل  
 ذلك، وذكروا له السبب الداعي،  
 وهو: إفسادهم في الأرض، فلم يكن  
 ذو القرنين ذا طمع، ولا رغبة في  
 الدنيا، ولا تاركاً لإصلاح أحوال  
 الرعية، بل كان قصده الإصلاح،  
 فلذلك أجاب طلبتهم لما فيها من  
 المصلحة، ولم يأخذ منهم أجره، وشكر

﴿إنما مكنتي في ربي خيراً﴾ أي: ﴿إنما  
 مكنتي في ربي خيراً﴾ أي: ﴿إنما مكنتي في ربي خيراً﴾  
 ﴿فأعينوني بقوة﴾ أي: ﴿فأعينوني بقوة﴾  
 ﴿أجعل بينكم وبينهم ردماً﴾ أي: ﴿أجعل بينكم وبينهم ردماً﴾  
 ﴿أتوني زبر الحديد﴾ أي: ﴿أتوني زبر الحديد﴾  
 ﴿حتى إذا ساوى بين الصدفين﴾ أي: ﴿حتى إذا ساوى بين الصدفين﴾  
 ﴿قال انفخوا﴾ أي: ﴿قال انفخوا﴾  
 ﴿حتى إذا جعله نارا﴾ أي: ﴿حتى إذا جعله نارا﴾  
 ﴿أتوني أفرغ عليه قطراً﴾ أي: ﴿أتوني أفرغ عليه قطراً﴾  
 ﴿فما استطاعوا أن يظهروه﴾ أي: ﴿فما استطاعوا أن يظهروه﴾  
 ﴿وما استطاعوا له نقباً﴾ أي: ﴿وما استطاعوا له نقباً﴾  
 ﴿قال هذا رحمة من ربي﴾ أي: ﴿قال هذا رحمة من ربي﴾  
 ﴿فإذا جاء وعد ربي﴾ أي: ﴿فإذا جاء وعد ربي﴾  
 ﴿جعله دكاء﴾ أي: ﴿جعله دكاء﴾  
 ﴿وكان وعد ربي حقاً﴾ أي: ﴿وكان وعد ربي حقاً﴾  
 ﴿فما وصل إلى مغرب الشمس﴾ أي: ﴿فما وصل إلى مغرب الشمس﴾  
 ﴿كُرِّ راجعاً﴾ أي: ﴿كُرِّ راجعاً﴾  
 ﴿قاصداً مطلعها﴾ أي: ﴿قاصداً مطلعها﴾  
 ﴿متبعاً للأسباب التي أعطاه الله﴾ أي: ﴿متبعاً للأسباب التي أعطاه الله﴾  
 ﴿فوصل إلى مطلع الشمس﴾ أي: ﴿فوصل إلى مطلع الشمس﴾  
 ﴿فوجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم﴾ أي: ﴿فوجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم﴾

ربه على تمكينه واقتداره، فقال لهم:  
 ﴿ما مكنتي فيه ربي خيراً﴾ أي: بما  
 تبذلون لي وتعطوني، وإنما أطلب منكم  
 أن تعينوني بقوة منكم بأيديكم ﴿أجعل  
 بينكم وبينهم ردماً﴾ أي: مانعاً من  
 عبورهم عليكم.

﴿أتوني زبر الحديد﴾ أي: قطع  
 الحديد. فأعطوه ذلك.  
 ﴿حتى إذا ساوى بين الصدفين﴾  
 أي: الجبلين اللذين بني بينهما السد  
 ﴿قال انفخوا﴾ النار أي: أوقدوها  
 إيقاداً عظيماً، واستعملوا لها المنافع  
 لتشتد، فتذيب النحاس، فلما ذاب  
 النحاس، الذي يريد أن يلقصه بين زبر  
 الحديد ﴿قال أتوني أفرغ عليه قطراً﴾  
 أي: نحاساً مذاباً، فأفرغ عليه القطر،  
 فاستحکم السد استحكاماً هائلاً،  
 وامتنع به من وراءه من الناس، من  
 ضرر يأجوج ومأجوج.

﴿فما استطاعوا أن يظهروه وما  
 استطاعوا له نقباً﴾ أي: فما لهم  
 استطاعة، ولا قدرة على الصعود عليه  
 لارتفاعه، ولا على نقبه لإحكامه  
 وقوته، فلما فعل هذا الفعل الجميل  
 والأثر الجليل، أضاف النعمة إلى مولها  
 وقال: ﴿هذا رحمة من ربي﴾ أي: من  
 فضله وإحسانه علي، وهذه حال  
 الخلفاء الصالحين، إذا من الله عليهم  
 بالنعيم الجليلة، ازداد شكرهم  
 وإقرارهم، واعترفهم بنعمة الله، كما



والأولياء شركاء لله يعبدونهم،  
 ويزعمون أنهم يكونون لهم أولياء،  
 يتجنونهم من عذاب الله، وينيلونهم  
 ثوابه، وهم قد كفروا بالله وبرسله.

يقول الله لهم على وجه الاستفهام  
 الإنكاري المتقرر بطلانه في العقول:  
 ﴿أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا  
 عبادي من دون أوليائهم﴾ أي: لا يكون  
 ذلك ولا يوالي ولي الله معادياً لله أبداً،  
 فإن الأولياء موافقون لله في محبته  
 ورضاه، وسخطه وبغضه، فيكون على  
 هذا المعنى مشابهاً لقوله تعالى: ﴿ويوم  
 يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة  
 أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾ قالوا  
 سبحانه أنت ولينا من دونهم.

فمن زعم أنه يتخذ ولياً لله ولياً له،  
 وهو معاد لله، فهو كاذب، ويحتمل -  
 وهو الظاهر - أن المعنى: أفحسب  
 الكفار بالله، المنايذون لرسله، أن  
 يتخذوا من دون الله أولياء يتصرونهم،  
 ويتنعمونهم من دون الله، ويدفعون  
 عنهم الأذى؟ هذا حسيان باطل، وظن  
 فاسد، فإن جميع المخلوقين، ليس  
 بيدهم من النفع والضرر شيء،  
 ويكون هذا كقولته تعالى: ﴿قل ادعوا  
 الذين زعمتم من دونه فلا يملكون  
 كشف الضر عنكم ولا تحويلاً﴾ ﴿ولا  
 يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة﴾  
 ونحو ذلك من الآيات التي يذكر الله  
 فيها، أن اتخذ من دونه ولياً ينصره  
 ويواليه، ضال خائب الرجاء، غير نائل  
 لبعض مقصوده.

﴿إننا أعتدنا جهنم للكافرين نزلاً﴾  
 أي: ضيافة وقرى، فيبس التنزل  
 نزلهم، وبسنت جهنم ضيافتهم.  
 ﴿١٠٣ - ١٠٦﴾ ﴿قل هل ننبئكم  
 بالأخسرين أعمالاً \* الذين ضل  
 سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون  
 أنهم يحسنون صنعا \* أولئك الذين  
 كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت  
 أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة  
 وزناً \* ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا

في الصور فجمعناهم جمعاً وعرضنا  
 جهنم يومئذ للكافرين عرضاً الذين  
 كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى  
 وكانوا لا يستطيعون سمعاً﴾ أي: إذا  
 نفخ إسرافيل في الصور، أعاد الله  
 الأرواح إلى الأجساد، ثم حشرهم  
 وجمعهم لموقف القيامة، الأولين منهم  
 والآخرين، والكافرين والمؤمنين،  
 ليسألوا ويحاسبوا ويميزون بأعمالهم،  
 فأما الكافرون - على اختلافهم - فإن  
 جهنم جزاؤهم، خالدين فيها أبداً.

﴿١٠١﴾ ولهذا قال: ﴿وعرضنا  
 جهنم يومئذ للكافرين عرضاً﴾ كما قال  
 تعالى: ﴿وبرزت الجحيم للغاوين﴾<sup>(١)</sup>  
 أي: عرضت لهم لتكون مأواهم  
 ومنزلهم، وليحتسروا بأغلالها  
 وسميرها، وحميمها، وزمهريرها،  
 وليذوقوا من العقاب، ما تبكم له  
 القلوب، وتصم الأذان، وهذا أثار  
 أعمالهم، وجزاء أفعالهم، فإنهم في  
 الدنيا ﴿كانت أعينهم في غطاء عن  
 ذكرى﴾ أي: محرضين عن الذكر  
 الحكيم، والقرآن الكريم، وقالوا:  
 ﴿قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه﴾ وفي  
 أعينهم أغطية تمنعهم من رؤية آيات الله  
 النافعة، كما قال تعالى: ﴿وعلى  
 أبصارهم غشاوة﴾.

﴿وكانوا لا يستطيعون سمعاً﴾  
 أي: لا يقدررون على سمع آيات الله  
 الموصلة إلى الإيمان، لبغضهم القرآن  
 والرسول، فإن البغض لا يستطيع أن  
 يلقي سمعه إلى كلام من أبغضه، فإذا  
 انحجبت عنهم طرق العلم والخير،  
 فليس لهم<sup>(٢)</sup> سمع ولا بصر، ولا عقل  
 نافع، فقد كفروا بالله وجحدوا آياته،  
 وكذبوا رسله، فاستحقوا جهنم،  
 وساءت مصيراً.

﴿١٠٢﴾ ﴿أفحسب الذين كفروا  
 أن يتخذوا عبادي من دون أوليائهم﴾  
 إننا أعتدنا جهنم للكافرين نزلاً﴾ وهذا  
 برهان وبيان، لبطلان دعوى المشركين  
 الكافرين، الذين اتخذوا بعض الأنبياء

قال سليمان عليه السلام، لما حضر  
 عنده عرش ملكة سبأ مع البعد  
 العظيم، قال: ﴿هذا من فضل ربي  
 ليبلوني أشكر أم أكفر﴾ بخلاف أهل  
 التجبر والتكبر والعلو في الأرض فإن  
 النعم الكبار تزيدهم أشراً وبطراً.

كما قال قارون - لما آتاه الله من  
 الكنوز، ما إن مفاتحه تنوء بالعصبة  
 أولي القوة - قال: ﴿إنما أوتيته على  
 علم عندي﴾.

وقوله: ﴿فإذا جاء وعد ربي﴾ أي:  
 خروج يأجوج ومأجوج ﴿جمعه﴾  
 أي: ذلك السد المحكم المتقن ﴿كداء﴾  
 أي: دكه فانهدم، واستوى هو  
 والأرض ﴿وكان وعد ربي حقاً﴾.

﴿٩٩﴾ ﴿وتركنا بعضهم يومئذ  
 يموج في بعض﴾ يحتمل أن الضمير،  
 يعود إلى يأجوج ومأجوج، وأنهم إذا  
 خرجوا على الناس - من كثرتهم  
 واستيعابهم للأرض كلها - يموج  
 بعضهم ببعض، كما قال تعالى:  
 ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج  
 وهم من كل حذب يسلمون﴾. ويحتمل  
 أن الضمير يعود إلى الخلائق يوم  
 القيامة، وأنهم يجتمعون فيه فيكثرون  
 ويموج بعضهم ببعض، من الأحوال  
 والزلازل العظام، بدليل قوله: ﴿ونفخ

(١) في النسختين: (وإذا الجحيم برزت) وهو سبق فلم.  
 (٢) في النسختين: له.

وانخذوا آياتي ورسلي هزواً ﴿ أي : قل يا محمد، للناس - على وجه التحذير والإنذار -: هل أخبركم بأخسر الناس أعمالاً على الإطلاق؟ ﴾ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ﴿ أي : بطل واضمحل كل ما عملوه من عمل، يحسبون أنهم محسنون في صنعه، فكيف بأعمالهم التي يعلمون أنها باطلة، وأنها معادة لله ورسله ومعاداة؟! ﴾ فمن هم هؤلاء الذين خسرت أعمالهم، ذ ﴿ خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة؟ ألا ذلك هو الخسران المبين ﴾ .

الفردوس نزلاً \* خالدبن فيها لا يبغون عنها حولا ﴿ أي : إن الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم، وشمل هذا الوصف جميع الدين، عقائده، وأعماله، أصوله، وفروعه الظاهرة والباطنة، فهؤلاء - على اختلاف طبقاتهم من الإيمان والعمل الصالح، لهم جنات الفردوس .

يحتمل أن المراد بجنات الفردوس، أعلى الجنة، وأوسطها، وأفضلها، وأن هذا الثواب لمن كمل الإيمان والعمل الصالح، وهم الأنبياء والمقربون .

﴿ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ﴾ أي : جحدوا الآيات القرآنية والآيات العيانة، الدالة على وجوب الإيمان به وبملائكته، ورسله، وكتبه، واليوم الآخر .

﴿ فحبطت ﴾ بسبب ذلك ﴿ أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ لأن الوزن فائدته، مقابلة الحسنات بالسيئات، والنظر في الراجح منها والمرجوح، وهؤلاء لا حسنات لهم لعدم شرطها، وهو الإيمان، كما قال تعالى : ﴿ ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً ﴾ لكن تعد أعمالهم وتحصى، ويقررون بها، ويميزون بها على رؤوس الأشهاد، ثم يعذبون عليها، ولهذا قال : ﴿ ذلك جزاؤهم ﴾ أي : حبوط أعمالهم، وأنه لا يقام لهم يوم القيامة، ﴿ وزناً ﴾ لحقارتهم وخسرتهم، بكفرهم بآيات الله، واتخاذهم آياته ورسله، هزواً يستهزئون بها، ويستخرون<sup>(١)</sup> منها، مع أن الواجب في آيات الله ورسله، الإيمان التام بها، والتعظيم لها، والقيام بها أتم القيام، وهؤلاء عكسوا القضية، فانعكس أمرهم، وتعمسوا، وانتكسوا في العذاب . ولما بين مآل الكافرين وأعمالهم، بين أعمال المؤمنين ومآلهم فقال :

﴿ ١٠٧ - ١٠٨ ﴾ ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات

﴿ ١٠٩ ﴾ ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً ﴾ أي : قل لهم تخيراً عن عظمة الباري، وسعة صفاته، وأنها لا يحيط العباد بشيء منها : ﴿ لو كان البحر ﴾ أي : هذه الأبحر الموجودة في العالم ﴿ مداداً

على القلوب، فلو علم العباد بعض ذلك النعيم علماً حقيقياً يصل إلى قلوبهم، لطارت إليها قلوبهم بالأشواق، ولتقطعت أرواحهم من ألم الفراق، ولساروا إليها زرافات ووحدانا، ولم يؤثروا عليها دنيا فانية، ولذات منغصة متلاشية، ولم يفوتوا أوقاتاً تذهب ضائعة خاسرة، يقابل كل لحظة منها من النعيم من الحقب آلاف مؤلفة، ولكن الغفلة شملت، والإيمان ضعف، والحلم قل، والإرادة نفذت<sup>(١)</sup>، فكان ما كان، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وقوله : ﴿ خالدبن فيها ﴾ هذا هو تمام النعيم، إن فيها النعيم الكامل، ومن تمامه أنه لا ينقطع ﴿ لا يبغون عنها حولا ﴾ أي : تحولا ولا انتقالاً، لأنهم لا يرون إلا ما يعجبهم ويهيجهم، ويسرهم ويفرحهم، ولا يرون نعيماً فوق ما هم فيه .

﴿ ١٠٩ ﴾ ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً ﴾ أي : قل لهم تخيراً عن عظمة الباري، وسعة صفاته، وأنها لا يحيط العباد بشيء منها : ﴿ لو كان البحر ﴾ أي : هذه الأبحر الموجودة في العالم ﴿ مداداً

ويحتمل أن يراد بها، جميع منازل الجنان، فيشمل هذا الثواب، جميع طبقات أهل الإيمان، من المقربين، والأبرار، والمفتندين، كل بحسب حاله، وهذا أولى المعنيين لمعومه، ولذكر الجنة بلفظ الجمع المضاف إلى الفردوس، ولأن الفردوس يطلق على البستان، المحتوي على الكرم، أو الأشجار المثمرة، وهذا صادق على جميع الجنة، فجنة الفردوس نُزل، وضيافة لأهل الإيمان والعمل الصالح، وأي : ضيافة أجل وأكبر، وأعظم من هذه الضيافة، المحتوية على كل نعيم، للقلوب، والأرواح، والأبدان، وفيها ما تشتهي الأنفس، وتلد الأعين، من المنازل الأنيقة، والرياض الناضرة، والأشجار المثمرة، والطيور المغردة الشجية، والمأكّل اللذيذة، والمشارب الشهية، والنساء الحسان، والخدم، والولدان، والأنهار السارحة، والمناظر الرائقة، والجمال الحسي والمعنوي، والنعمة الدائمة، وأعلى ذلك وأفضله وأجله، التعمم بالقرب من الرحمن وتبيل رضاه، الذي هو أكبر نعيم الجنان، والتمتع برؤية وجهه الكريم، وسماع كلام الرؤوف الرحيم، فليله تلك الضيافة، ما أجلها وأجلها وأدومها وأكملها!!، وهي أعظم من أن يحيط بها وصف أحد من الخلائق، أو تحظر

(٢) كذا في أ، وفي ب: وعت.

(١) في النسخين: ويستخرون.



ومعرفته، والسبب الموصل إليه . وذلك أن الله تعالى اجتنب واصطفى زكريا عليه السلام لرسالته، وخصه بوحيه، فقام بذلك قيام أمثاله من المرسلين، ودعا العباد إلى ربه، وعلمهم ما علمه الله، ونصح لهم في حياته وبعد مماته، كإخوانه من المرسلين ومن اتبعهم، فلما رأى من نفسه الضعف، وخاف أن يموت، ولم يكن أحد ينوب منابه في دعوة الخلق إلى ربهم والنصح لهم، شكوا إلى ربه ضعفه الظاهر والباطن، وناداه نداء خفياً، ليكون أكمل وأفضل وأتم إخلاصاً، فقال:

﴿رب إني وهن العظم مني﴾ أي: وهى وضعف، وإذا ضعف العظم، الذي هو عماد البدن، ضعف غيره، واشتمل الرأس شيباً﴾ لأن الشيب دليل الضعف والكبر، ورسول الموت ورائته ونذيره، فتوسل إلى الله تعالى بضعفه وعجزه، وهذا من أحب الوسائل إلى الله، لأنه يدل على الشُّبْرِي من الخول والقوة، وتعلق القلب بحول الله وقوته .

﴿ولم أكن بدعائك رب شقياً﴾ أي: لم تكن يا رب تردني خائباً ولا محروماً من الإجابة، بل لم تنزل بي حفيباً ولدعائي جيبياً، ولم تنزل أطفافك تنوالياً علي، وإحسانك واصلاً إلي، وهذا توسل إلى الله بإنعامه عليه، وإجابة دعواته السابقة، فسأل الذي أحسن سابقاً، أن يتم إحسانه لاحقاً .

﴿وإني خفت الموالى من ورائي﴾ أي: وإني خفت من يتولى على بني إسرائيل من بعد موتي، أن لا يقوموا بدينك حق القيام، ولا يدعوا عبادك إليك، وظاهر هذا، أنه لم يرفيهم أحداً فيه لياقة للإمامة في الدين، وهذا فيه شفقة زكريا عليه السلام ونصحه، وأن طلبه للولد، ليس كطلب غيره، قصده مجرد المصلحة الدنيوية، وإنما قصده مصلحة الدين، والخوف من ضياعه، ورأى غيره غير صالح لذلك، وكان بيته من البيوت المشهورة في الدين، ومعدن الرسالة، ومظنة للخير، فدعا الله أن يرزقه ولدًا، يقوم بالدين

﴿قل﴾ يا محمد للكفار وغيرهم: ﴿إنما أنا بشر مثلكم﴾ أي: لست بآله، ولا لي شركة في الملك، ولا علم بالغيب، ولا عندي خزائن الله، و ﴿إنما أنا بشر مثلكم﴾ عبد من عبئد ربي، ﴿يوحى إلي إنما الهكم إله واحد﴾ أي: فضلت عليكم بالوحي، الذي يوحى الله إلي، الذي أجله الإخبار لكم: إنما الهكم إله واحد، أي: لا شريك له، ولا أحد يستحق من العبادة مثقال ذرة غيره، وأدعوكم إلى العمل الذي يقربكم منه، وينيلكم ثوابه، ويدفع عنكم عقابه . ولهذا قال:

﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً﴾ وهو الموافق لشرع الله، من واجب ومستحب، ﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ أي: لا يراني بعمله، بل يعمله خالصاً لوجه الله تعالى، فهذا الذي جمع بين الإخلاص والمتابعة، هو الذي ينال ما يرجو ويطلب، وأما من عدا ذلك، فإنه خاسر في دنياه وأخراه، وقد فاته القرب من مولاه ونيل رضاه .

آخر تفسير سورة الكهف، والله الحمد

### تفسير سورة مريم وهي مدنية

﴿١-٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم كهيعص﴾ ذكر رحمة ربك عبده زكريا \* إذ نادى ربه نداء خفياً \* قال رب إني وهن العظم مني واشتمل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً \* وإني خفت الموالى من ورائي وكانت امرأتى عاقراً فهب لي من لدنك ولياً \* يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً \* أي: هذا ذكر رحمة ربك عبده زكريا \* سنقصه عليك، ونفصله تفصيلاً يعرف به حاله نبيه زكريا، وأثاره الصالحة، ومناقبه الجميلة، فإن في قصصها عبرة للمعتبرين، وأسوة للمقتدين، ولأن في تفصيل رحمته لأولياته، وبأي سبب حصلت لهم، مما يدعو إلى محبة الله تعالى، والإكثار من ذكره



لكلمات ربي﴾ أي: وأشجار البلدان أولها إلى آخرها، من أشجار البلدان والبراري، والبحار أقالم، ﴿لننفذ البحر﴾ وتكسرت الأقالم ﴿قبل أن تنفذ كلمات ربي﴾ وهذا شيء عظيم، لا يحيط به أحد .

وفي الآية الأخرى: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾ .

وهذا من باب تقريب المعنى إلى الأذهان، لأن هذه الأشياء مخلوقة، وجمع المخلوقات منقضية متتهية، وأما كلام الله فإنه من جملة صفاته، وصفاته غير مخلوقة، ولا لها حد ولا منتهى، فأبى سعة وعظمة تصورتها القلوب فالله فوق ذلك، وهكذا سائر صفات الله تعالى، كعلمه، وحكمته، وقدرته، ورحمته، فلو جمع علم الخلائق من الأولين والآخرين، أهل السماوات وأهل الأرض، لكان بالنسبة إلى علم العظيم، أقل من نسبة عصفور وقع على حافة البحر، فأخذ بمنقاره من البحر بالنسبة للبحر وعظمته، ذلك بأن له الصفات العظيمة الواسعة الكاملة، وأن إلى ربك المنتهى .

﴿١١٠﴾ ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي إنما الهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ أي:

من بعده، واشتكى أن أمرته عاقراً، أي: ليست تلد أصلاً، وأنه قد بلغ من الكبر عتياً، أي: عمراً يندر معه وجود الشهوة والولد، ﴿فهب لي من لدنك ولياً﴾ وهذه الولاية، ولاية الدين، وميراث النبوة والعلم والعمل، ولهذا قال: ﴿يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً﴾ أي: عبداً صالحاً ترضاه وتعيبه إلى عبادك، والحاصل أنه سأل الله ولداً، ذكراً، صالحاً، يبقى بعد موته، ويكون ولياً من بعده، ويكون نبياً مرضياً عند الله وعند خلقه، وهذا أفضل ما يكون من الأولاد، ومن رحمة الله بعبده أن يرزقه ولداً صالحاً، جامعاً لكلارم الأخلاق ومحامد الشيم، فرحمه ربه، واستجاب دعوته، فقال:

﴿٧٠-١١﴾ ﴿يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً﴾ قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً \* قال كذلك قال ربك هو عليّ هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً \* قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً \* فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيماً \* أي: بشره الله تعالى على يد الملائكة بـ «يحيى» وسماه الله له «يحيى»، وكان اسماً موافقاً لسماء: يحيى حياة حسية، فتم به المنة، ويحيى حياة معنوية، وهي حياة القلب والروح، بالوحي والعلم والدين، ﴿لم نجعل له من قبل سمياً﴾ أي: لم يسم هذا الاسم قبله أحد، ويحتمل أن المعنى: لم نجعل له من قبل مثيلاً ومسامياً، فيكون ذلك بشارة بكماله، واتصافه بالصفات الحميدة، وأنه فاق من قبله، ولكن على هذا الاحتمال، هذا العموم لا بد أن يكون مخصوصاً بإبراهيم، وموسى، ونوح عليهم السلام، ونحوهم، ممن هو أفضل من يحيى قطعاً، فحينئذ لما جاءت البشارة بهذا المولود الذي طلبه، استغرب وتعجب وقال: ﴿رب أنى يكون لي غلام﴾ والحال أن المانع من

وجود الولد، موجود بي وبزوجتي؟ وكأنه وقت دعائه، لم يستحضر هذا المانع لقوة الوارد في قلبه، وشدة الحرص العظيم على الولد، وفي هذه الحال، حين قبلت دعوته، تعجب من ذلك، فأجابه الله بقوله: ﴿كذلك قال ربك هو علي هين﴾ أي: الأمر مستغرب في العادة، وفي سنة الله في الخليفة، ولكن قدرة الله تعالى صالحة لإيجاد الأشياء بدون أسبابها فذلك هين عليه، ليس بأصعب من إيجاد قبل ولم يكن شيئاً.

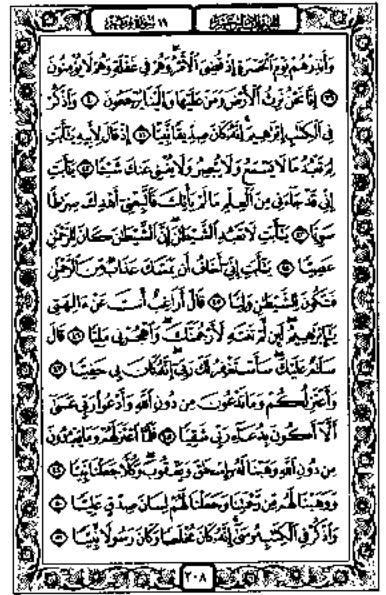
﴿قال رب اجعل لي آية﴾ أي: يطمئن بها قلبي، وليس هذا شكاً في خير الله، وإنما هو، كما قال الخليل عليه السلام: ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ فطلب زيادة العلم، والوصول إلى عين اليقين بعد علم اليقين، فأجابه الله إلى طلبته رحمة به، فـ ﴿قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً﴾ وفي الآية الأخرى ﴿ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا﴾ والمعنى واحد، لأنه تارة يعبر بالليالي، وتارة بالأيام وموداها واحد، وهذا من الآيات العجيبة، فإن منعه من الكلام مدة ثلاثة أيام، وعجزه عنه من غير خرس ولا أفة، بل كان سوياً، لا نقص فيه، من الأدلة على قدرة الله الخارقة للعوائد، ومع هذا، ممنوع من الكلام الذي يتعلق بالأميين وخطابهم، وأما التسبيح والتهليل، والذكر ونحوه، فغير ممنوع منه، ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار﴾ فاطمان قلبه، واستبشر بهذه البشارة العظيمة، وامثل لأمر الله له بالشكر بعبادته وذكره، فعكف في محرابه، وخرج على قومه منه فأوحى إليهم، أي: بالإشارة والرمز ﴿أن سبحوا بكرة وعشيماً﴾ لأن البشارة بـ «يحيى» في حق الجميع، مصلحة دينية.

﴿١٢-١٥﴾ ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً \* وحثانا من لدنا وزكاة وكان تقياً \* وبراً

سكياً والنبى ورحمنا بما نريد من الأمر لعلنا نعلم ما نريد  
 إن ندرت إلا نحن سوياً قلنا أذكركم اليوم ديناً \* قالت  
 يدعوننا نطلبه أو أراهم قد جفت مينا فرياً \*  
 أتأتيتهم من لدنا آياتنا أو لم يأتوا بآياتنا \*  
 أتيتهم آياتنا \* فأجابهم الذين قالوا أكذبنا بآياتنا  
 وآياتنا \* قال رب عذابي الذي آتيتني وأتيتني  
 وآياتنا \* وآياتنا \* وآياتنا \* وآياتنا \* وآياتنا \*  
 وآياتنا \* وآياتنا \* وآياتنا \* وآياتنا \* وآياتنا \*  
 وآياتنا \* وآياتنا \* وآياتنا \* وآياتنا \* وآياتنا \*  
 وآياتنا \* وآياتنا \* وآياتنا \* وآياتنا \* وآياتنا \*  
 وآياتنا \* وآياتنا \* وآياتنا \* وآياتنا \* وآياتنا \*  
 وآياتنا \* وآياتنا \* وآياتنا \* وآياتنا \* وآياتنا \*  
 وآياتنا \* وآياتنا \* وآياتنا \* وآياتنا \* وآياتنا \*  
 وآياتنا \* وآياتنا \* وآياتنا \* وآياتنا \* وآياتنا \*  
 وآياتنا \* وآياتنا \* وآياتنا \* وآياتنا \* وآياتنا \*  
 وآياتنا \* وآياتنا \* وآياتنا \* وآياتنا \* وآياتنا \*  
 وآياتنا \* وآياتنا \* وآياتنا \* وآياتنا \* وآياتنا \*  
 وآياتنا \* وآياتنا \* وآياتنا \* وآياتنا \* وآياتنا \*

بوالديه ولم يكن جباراً عصياً \* وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً \* دل الكلام السابق على ولادة يحيى، وشبابه، وتربيته، فلما وصل إلى حالة يفهم فيها الخطاب أمره الله أن يأخذ الكتاب بقوة، أي: بجهد واجتهاد، وذلك بالاجتهاد في حفظ ألفاظه، وفهم معانيه، والعمل بأوامره ونواهيه، هذا تمام أخذ الكتاب بقوة، فامتثل أمر ربه، وأقبل على الكتاب، فحفظه وفهمه، وجعل الله فيه من الذكاء والفطنة، ما لا يوجد في غيره، ولهذا قال: ﴿وآتيناها الحكم صبياً﴾ أي: معرفة أحكام الله والحكم بها، وهو في حال صغره وصباه، ﴿ورب﴾ آتيناها أيضاً ﴿حثاناً من لدنا﴾ أي: رحمة ورافة، تيسرت بها أموره، وصلحت بها أحواله، واستقامت بها أفعاله.

﴿وزكاة﴾ أي: طهارة من الآفات والذنوب، فطهر قلبه وتركى عقله، وذلك يتضمن زوال الأوصاف المذمومة، والأخلاق الرديئة، وزيادة الأخلاق الحسنة، والأوصاف المحمودة، ولهذا قال: ﴿وكان تقياً﴾ أي: فاعلاً للأمر، تاركاً للمحظور، ومن كان مؤمناً تقياً كان لله ولياً، وكان من أهل الجنة التي أعدت للمتقين، وحصل له من الثواب الدنيوي والأخروي، ما رتبته الله على التقوى. ﴿و﴾ كان أيضاً ﴿براً بوالديه﴾ أي:



وهذا أبلغ ما يكون من العفة، والبعد عن الشر وأسبابه. وهذه العفة - خصوصاً مع اجتماع الدواعي، وعدم المانع - من أفضل الأعمال.

ولذلك أنسى الله عليها فقال: ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا﴾ ﴿والتّي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنتها آية للعالمين﴾ فأعاضها الله بعفتها، ولدأ من آيات الله، ورسولاً من رسله، فلما رأى جبريل منها الروح والحيفة، قال: ﴿إنما أنا رسول ربك﴾ أي: إنما وظيفتي وشغلي تنفيذ رسالة ربي فيك ﴿لأهب لك غلاماً زكياً﴾ وهذه بشارة عظيمة بالولد وزكائه، فإن الزكاه يستلزم تطهيره من الخصال الذميمة، واتصافه بالخصال الحميدة، فتعجبت من وجود الولد من غير أب، فقالت: ﴿أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً﴾ والولد لا يوجد إلا بذلك؟! ﴿قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس﴾ تدل على كمال قدرة الله تعالى، وعلى أن الأسباب جميعها، لا تستقل بالتأثير، وإنما تأثيرها بتقدير الله، فيري عباده خرق العوائد في بعض الأسباب العادية، لثلا يقضوا مع الأسباب، ويقطعوا النظر عن مقدها ومسببها ﴿ورحمة منا﴾ أي: ولنجعله رحمة منا به، وبوالدته، وبالناس.

أما رحمة الله به، فلما خصه الله بوحيه ومنّ عليه بما من به على أولي العزم، وأما رحمة بوالدته، فلما حصل لها من الفخر، والثناء الحسن، والمنافع العظيمة. وأما رحمتها بالناس، فإن أكبر نعمه عليهم، أن بعث فيهم رسولاً، يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، فيؤمنون به، ويطيعونه، وتحصل لهم سعادة الدنيا والآخرة، ﴿وكان﴾ أي: وجود عيسى عليه السلام على هذه الحالة ﴿أمراً مقضياً﴾ قضاء سابقاً، فلا بد من نفوذ هذا التقدير والقضاء، فنفع جبريل عليه السلام في جيها.

انتقل منها إلى ما هو أعجب منها، تدريجاً من الأدنى إلى الأعلى فقال: ﴿واذكر في الكتاب﴾ الكريم ﴿مريم﴾ عليها السلام، وهذا من أعظم فضائلها، أن تذكر في الكتاب العظيم، الذي يتلوه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، تذكر فيه بأحسن الذكر، وأفضل الثناء، جزاء لعملها الفاضل، وسعيها الكامل، أي: واذكر في الكتاب مريم، في حالها الحسنة، حين انتبذت أي: تباعدت عن أهلها ﴿مكاناً شريعياً﴾ أي: مما يلي الشرق عنهم، فالتخذت من دونهم حجاباً أي: سترأ ومانعاً، وهذا التباعد منها، واتخاذ الحجاب،

لتنزول، وتفرد بعبادة ربه، وتقت له في حالة الإخلاص والخضوع والذل لله تعالى، وذلك امتثال منها لقوله تعالى: ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين﴾ يا مريم اقتني لربك واسجدي واركعي مع الراكعين ﴿وقوله﴾: ﴿فأرسلنا إليها روحنا﴾ وهو: جبريل عليه السلام ﴿فتمثل لها بشراً سوياً﴾ أي: كاملاً من الرجال، في صورة جميلة، وهينة حسنة، لا عيب فيه ولا نقص، لكونها لا تحتل رؤيته على ما هو عليه، فلما رآته في هذه الحال، وهي معتزلة عن أهلها، منفردة عن الناس، قد اتخذت الحجاب عن أعز الناس عليها وهم أهلها، خافت أن يكون رجلاً قد تعرض لها بسوء، وطمع فيها، فاعتصمت بربها، واستعادت منه فقالت له: ﴿إني أعوذ بالرحمن منك﴾ أي: ألتجئ به واعتصم برحمته، أن تآلني بسوء، ﴿إن كنت تقياً﴾ أي: إن كنت تخاف الله، وتعمل بتقواه، فترك التعرض لي، فجمعت بين الاعتصام بربها، وبين تخويفه وترهيبه، وأمره بلزوم التقوى، وهي في تلك الحالة الخالية، والشباب، والبعد عن الناس، وهو في ذلك الجمال الباهر، والبشرية الكاملة السوية، ولم ينطق لها بسوء، أو يتعرض لها، وإنما ذلك خوف منها،

لم يكن عاقاً، ولا مسيئاً إلى أبويه، بل كان محسناً إليهما بالقول والفعل.

﴿ولم يكن جباراً عصبياً﴾ أي: لم يكن متجبراً متكبراً عن عبادة الله، ولا مترفعاً على عباد الله، ولا على والديه، بل كان متواضعاً، متذللاً، مطيعاً، أواباً لله على الدوام، فجمع بين القيام بحق الله، وحق خلقه، ولهذا حصلت له السلامة من الله، في جميع أحواله، مبادئها وعواقبها، فلماذا قال: ﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً﴾ وذلك يقتضي سلامته من الشيطان، والشر، والعقاب في هذه الأحوال الثلاثة وما بينها، وأنه سالم من النار والأهوال، ومن أهل دار السلام، فضلوات الله وسلامه عليه وعلى والده وعلى سائر المرسلين، وجعلنا الله من أتباعهم، إنه جواد كريم.

﴿١٦ - ٢١﴾ ﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً﴾ فالتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ﴿قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً﴾ قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ﴿قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً﴾ قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً﴾ لما ذكر قصة زكريا ويحيى، وكانت من الآيات العجيبة،

تقول: ﴿إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً﴾ فلما أشارت إليهم بتكليمه، تعجبوا من ذلك وقالوا: ﴿كيف نكلم من كان في المهد صبياً﴾ لأن ذلك لم تجر به عادة، ولا حصل من أحد في ذلك السن، فحينئذ قال عيسى عليه السلام، وهو في المهد صبي: ﴿إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ فخطابهم بوصفه بالعبودية، وأنه ليس فيه صفة يستحق بها أن يكون إلهاً، أو ابناً للإله، تعالى الله عن قول النصارى المخالفين لعيسى في قوله ﴿إني عبد الله﴾ ومدعون موافقته.

﴿أتاني الكتاب﴾ أي: قضى أن يؤتيني الكتب ﴿وجعلني نبياً﴾ فأخبرهم بأنه عبد الله، وأن الله علمه الكتاب، وجعله من جملة أنبيائه، فهذا من كماله لنفسه، ثم ذكر تكليمه لغيره فقال: ﴿وجعلني مباركاً أينما كنت﴾ أي: في أي مكان، وأي زمان، فالبركة جعلها الله في من تعليم الخير والدعوة إليه، والنهي عن الشر، والدعوة إلى الله في أقواله وأفعاله، فكل من جالسه، أو اجتمع به، نالته بركته، وسعد به مصاحبه.

﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾ أي: أوصاني بالقيام بحقوقه، التي من أعظمها الصلاة، وحقوق عباده، التي أجلها الزكاة، مدة حياتي، أي: فأنا تمثل لوصية ربي، عامل عليها، متفد لها، ووصاني أيضاً، أن أبر والدي فأحسن إليها غاية الإحسان، وأقوم بما ينبغي لها، لشرفها وفضلها، ولكونها والدة لها حق الولادة وتوابعها.

﴿ولم يجعلني جباراً﴾ أي: متكبراً على الله، مترفعاً على عباده ﴿شقياً﴾ في دنياي أو آخراي، فلم يجعلني كذلك بل جعلني مطيعاً له خاضعاً خاشعاً متذلاً، متواضعاً لعباد الله، سعيداً في الدنيا والآخرة، وأنا ومن اتبعني، فلما تم له الكمال، وعامد الحصال قال: ﴿والسلام علي يوم

الناس لا يصدقونها، ولا فيه فائدة، وليكون تبرتها بكلام عيسى في المهد، أعظم شاهد على براءتها، فإن إتيان المرأة بولد من دون زوج، ودعواها أنه من غير أحد، من أكبر الدعاوى، التي لو أقسم عدة من الشهود، لم تصدق بذلك، فجعلت بينه هذا الحارق للمعادة، أمراً من جنسه، وهو كلام عيسى في حال صغره جداً، ولهذا قال تعالى:

﴿٢٧-٣٣﴾ ﴿فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جننت شيئاً فرئياً﴾ يا أخت هارون ما كان أبوك امراً سوء وما كانت أمك بغياً \* فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً \* قال إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً \* وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً \* وبراً بالذي لم يجعلني جباراً شقياً \* والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً \* أي: فلما تелت مريم من نفاستها، أتت بعيسى قومها تحمله، وذلك لعلمها ببراءة نفسها وطهارتها، فأتت غير مبالية ولا مكترثة، فقالوا: ﴿لقد جننت شيئاً فرئياً﴾ أي: عظيماً وخيماً، وأرادوا بذلك البغاء<sup>(١)</sup>، حاشاها من ذلك، ﴿يا أخت هارون﴾ الظاهر، أنه أخ لها حقيقي، فنسبوا إليه، وكانوا يسمون بأسماء الأنبياء، وليس هو هارون بن عمران أخا موسى، لأن بينهما قروناً كثيرة، ﴿ما كان أبوك امراً سوء وما كانت أمك بغياً﴾ أي: لم يكن أبواك إلا صالحين سالمين من الشر، وخصوصاً هذا الشر، الذي يشيرون إليه، وقصدهم: فكيف كنت على غير وصفهما؟ وأنت بما لم يأتها به؟، وذلك أن الذرية - في الغالب - بعضها من بعض، في الصلاح وفسده، فتعجبوا - بحسب ما قام بقلوبهم - كيف وقع منها، فأشارت لهم إليه، أي: كلموه، وإنما أشارت لذلك، لأنها أمرت عند مخاطبة الناس لها، أن

﴿٢٢-٢٦﴾ ﴿فحملت فانتبذت به مكاناً قصياً﴾ فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً \* فنادها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربيك تحتك سرناً \* وهزني إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً \* فكلي واشربي وقري عينا فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً \* أي: لما حملت بعيسى عليه السلام، خافت من الفضيحة، فتباعدت عن الناس ﴿مكاناً قصياً﴾ فلما قرب ولادها، ألقاها المخاض إلى جذع نخلة، فلما ألقاها وجع الولادة، ووجع الانفراد عن الطعام والشراب، ووجع قلبها من حالة الناس، وخافت عدم صبرها، تمت أنها ماتت قبل هذا الحادث، وكانت نسياً منسياً فلا تذكر، وهذا التمني بناء على ذلك المزعج، وليس في هذه الأمانة خير لها ولا مصلحة، وإنما الخير والمصلحة بتقدير ما حصل، فحينئذ سكن الملك روعها وثبت جاشها ونادها من تحتها، لعله في مكان أنزل من مكانها، وقال لها: لا تحزني، أي: لا تحزومي ولا تهتمي، فـ ﴿قد جعل ربيك تحتك سرباً﴾ أي: نهراً تشرابين منه، ﴿وهزني إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً﴾ أي: طرياً لذيداً نافعاً ﴿فكلي﴾ من التمر، ﴿واشربي﴾ من النهر ﴿وقري عينا﴾ بعيسى، فهذا طمأنينتها من جهة السلامة من ألم الولادة، وحصول الأكل والشرب والهنئ.

وأما من جهة قالة الناس، فأمرها أنها إذا رأت أحداً من البشر، أن تقول على وجه الإشارة: ﴿إني نذرت للرحمن صوماً﴾ أي: سكرتاً ﴿فلن أكلم اليوم إنسياً﴾ أي: لا تخاطبهم بكلام لتستريح من قولهم وكلامهم. وكان معروفاً عندهم أن السكوت من العبادات المشروعة، وإنما لم تؤمر بخطابهم في نفي ذلك عن نفسها لأن

(١) كذا في ب، وفي أ: البغي، وما في ب يبدو أنه معدل من البغي فصار (البغاء) هو الأقرب المتوافق مع القصة.

وأقوالهم، ويقولون: ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾ ففي القيامة، يستيقنون حقيقة ما هم عليه.

﴿لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين﴾ وليس لهم عذر في هذا الضلال، لأنهم بين معاند ضال على بصيرة، عارف بالحق صادف عنه، وبين ضال عن طريق الحق، متمكن من معرفة الحق والصواب، ولكنه راض بضلاله وما هو عليه من سوء أعماله، غير ساع في معرفة الحق من الباطل، وتأمل كيف قال: ﴿فويل للذين كفروا﴾ بعد قوله ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم﴾ ولم يقل ﴿فويل لهم﴾ ليعود الضمير إلى الأحزاب، لأن من الأحزاب المختلفين، طائفة أصابت الصواب، ووافقت الحق، فقالت في عيسى: ﴿إنه عبد الله ورسوله﴾ فآمنوا به، واتبعوه، فهؤلاء مؤمنون، غير داخلين في هذا الوعيد، فلماذا خص الله بالوعيد الكافرين.

﴿٣٩-٤٠﴾ ﴿وانذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون﴾ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإنا يرجعون﴾ الإنذار هو: الإعلام بالخوف على وجه التهيب، والإخبار بصفاته، وأحق ما ينذر به ويخوف به العباد، يوم الحسرة حين يقضى الأمر، فيجمع الأولون والآخرون في موقف واحد، ويسألون عن أعمالهم، فمن آمن بالله، واتبع رسله، سعد سعادة لا يشقى بعدها، ومن لم يؤمن بالله واتبع رسله شقاوة لا سعادة<sup>(١)</sup> بعدها، وخسر نفسه وأهله، فحينئذ يتحسر، ويندم ندامة تنقطع منها القلوب، وتنصدع منها الأفئدة، وأي: حسرة أعظم من فوات رضا الله وجنته، واستحقاق سخطه والنار، على وجه لا يتمكن من الرجوع ليستأنف العمل، ولا سبيل له إلى تغيير حاله بالعود إلى الدنيا؟! فهذا قدامهم، والحال أنهم في الدنيا في

ربي وربكم﴾ الذي خلقنا، وصورنا، ونفذ فينا تدبيره، وصرفنا تقديره.

﴿فاعبدوه﴾ أي: أخلصوا له العبادة، واجتهدوا في الإنابة، وفي هذا الإقرار بتوحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، والاستدلال بالأول على الثاني، ولهذا قال: ﴿هذا صراط مستقيم﴾ أي: طريق معتدل، موصل إلى الله، لكونه طريق الرسول وأتباعهم، وما عدا هذا، فإنه من طرق الغي والضلال.

﴿٣٧-٣٨﴾ ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم﴾ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين﴾ لما بين تعالي حال عيسى ابن مريم الذي لا يُشك فيها ولا يمتري، أخبر أن الأحزاب، أي: فرق الضلال، من اليهود والنصارى وغيرهم، على اختلاف طبقاتهم اختلفوا في عيسى عليه السلام، فمن غال فيه وجاف، فمَنهم من قال: إنه الله، ومنهم من قال: إنه ابن الله ومنهم من قال: إنه ثالث ثلاثة ومنهم من لم يجعله رسلاً، بل رماه بأنه ولد بغى كاليهود. وكل هؤلاء أقوالهم باطلة، وأراؤهم فاسدة، مبنية على الشك والحناد، والأدلة الفاسدة، والشبهة الكاسدة، وكل هؤلاء مستحقون للوعيد الشديد، ولهذا قال: ﴿فويل للذين كفروا﴾ بالله ورسله وكتبه، ويدخل فيهم اليهود والنصارى، القائلون بعيسى قول الكفر ﴿من مشهد يوم عظيم﴾ أي: مشهد يوم القيامة، الذي يشهده الأولون والآخرون، أهل السموات وأهل الأرض، الخالق والمخلوق، الممتلئ بالزلازل والأحوال، المشتمل على الجزء بالأعمال، فحينئذ يتبين ما كانوا يخفون ويبدون، وما كانوا يكتُمون.

﴿أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا﴾ أي: ما أسمعهم وما أبصرهم في ذلك اليوم! فيقرون بكفرهم وشركهم

ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً﴾ أي: من فضل ربي وكرمه، حصلت لي السلامة يوم ولادتي، ويوم موتي، ويوم بعثي، من الشر والشيطان والعقوبة، وذلك يقتضي سلامته من الأحوال، ودار الفجار، وأنه من أهل دار السلام، فهذه معجزة عظيمة، وبرهان باهر، على أنه رسول الله، وعبد الله حقاً.

﴿٣٤-٣٦﴾ ﴿ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون﴾ ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ أي: ذلك الموصوف بتلك الصفات، عيسى ابن مريم، من غير شك ولا مريبة، بل قول الحق وكلام الله، الذي لا أصدق منه قبلاً، ولا أحسن منه حديثاً، فهذا الخبر اليقيني عن عيسى عليه السلام، وما قبل فيه مما يخالف هذا، فإنه مقطوع ببطلانه، وغايته أن يكون شكاً من قائله لا علم له به، ولهذا قال: ﴿الذي فيه يمترون﴾ أي: يشكون فيمارون بشكهم، ويجادلون بخرصهم، فمن قائل عنه: إنه الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، تعالي الله عن إفكهم وتقولهم علواً كبيراً، ف﴿ما كان لله أن يتخذ من ولد﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق، لأن ذلك من الأمور المستحيلة، لأنه الغنى الحميد، المالك لجميع الممالك، فكيف يتخذ من عباده ومغاليكه ولداً؟! ﴿سبحانه﴾ أي: تنزهه وتقدس عن الولد والنقص، ﴿إذا قضى أمراً﴾ أي: من الأمور الصغار والكبار، لم يمتنع عليه ولم يستصعب ﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾ فإذا كان قدره ومشيئته نافذاً في العالم العلوي والسفلي، فكيف يكون له ولد؟! وإذا كان إذا أراد شيئاً قال له: ﴿كن فيكون﴾ فكيف يستبعد إيجاده عيسى من غير أب؟! ولهذا أخبر عيسى أنه عبد مربيوب كغيره، فقال: ﴿وان الله

غفلة عن هذا الأمر العظيم لا يحظر بقلوبهم، ولو خطر فعل سبيل الغفلة، قد عمدتهم الغفلة، وشملتهم السكر، فهم لا يؤمنون بالله، ولا يتبعون رسله، قد ألهتهم دنياهم، وحالت بينهم وبين الإيمان شهواتهم المنقضية القانية، فالدنيا وما فيها، من أولها إلى آخرها، ستهذب عن أهلها، ويذهبون عنها، وسيرث الله الأرض ومن عليها، ويرجعهم إليه، فيجازيهم بما عملوا فيها، وما خسروا فيها أو ربحوا، فمن فعل خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

ورفع قدرهم، وأعل أمرهم، بسبب ما قاموا به، من عبادة الله ومحبتة، والإنابة إليه، والقيام بحقوقه، وحقوق العباد، ودعوة الخلق إلى الله، والصبر على ذلك، والمقامات الفاخرة، والمنازل العالية، فذكر الله في هذه السورة جملة من الأنبياء، يأمر الله رسوله أن يذكرهم، لأن في ذكرهم إظهار الشاء على الله وعليهم، وبيان فضله وإحسانه إليهم، وفيه الحث على الإيمان بهم ومحبتهم، والاعتناء بهم، فقال: ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً﴾ جمع الله له بين الصديقية والنبوة.

﴿٤١ - ٥٠﴾ ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً﴾ إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً \* يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً \* يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً \* يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً \* قال أرأيت أنت عن ألهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجنك واهجرني ملياً \* قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان يي حقياً \* وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً \* فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً \* ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق علياً \* أجل الكتب وأفضلها وأعلاها، هذا الكتاب المين، والذكر الحكيم، فإن ذكر فيه الأخبار، وكانت أصدق الأخبار، وأحقها، وإن ذكر فيه الأمر والنهي، كانت أجل الأوامر والنواهي، وأعدلها وأسطها، وإن ذكر فيه الجزاء والوعود والوعيد، كان أصدق الأنبياء وأحقها وأدلها على الحكمة والعدل والفضل، وإن ذكر فيه الأنبياء والمرسلون، كان المذكور فيه أكمل من غيره وأفضل، ولهذا كثيراً ما يبدى ويعيد في قصص الأنبياء، الذين فضلهم على غيرهم،

فالصديق: كثير الصديق، فهو الصادق في أقواله وأفعاله وأحواله، المصدق بكل ما أمر بالتصديق به، وذلك يستلزم العلم العظيم الواصل إلى القلب، المؤثر فيه، الموجب لليقين، والعمل الصالح الكامل، وإبراهيم عليه السلام، هو أفضل الأنبياء كلهم بعد محمد ﷺ، وهو الأب الثالث للطوائف الفاضلة، وهو الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، وهو الذي دعا الخلق إلى الله، وصبر على ما ناله من العذاب العظيم، فدعا القريب والبعيد، واجتهد في دعوة أبيه مهما أمكنه، وذكر الله مراجعته إياه، فقال: ﴿إذ قال لأبيه﴾ مهجناً له عبادة الأوثان: ﴿يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾ أي: لم تعبد أصناماً، ناتعة في ذاتها، وفي أفعالها، فلا تسمع، ولا تبصر، ولا تملك لعابدها نفعاً ولا ضرراً، بل لا تملك لأنفسها شيئاً من النفع، ولا تقدر على شيء من الدفع، فهذا برهان جلي دال على أن عبادة الناقص في ذاته وأفعاله مستقيح عقلاً وشرعاً. ودل بتبنيبه وإشارته، أن الذي يجب ويحسن عبادة من له الكمال، الذي لا ينال العباد نعمة إلا منه، ولا يدفع عنهم نقمة إلا هو، وهو الله تعالى.

﴿يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك﴾ أي: يا أبت لا تحقرني وتقول: إني ابنك، وإن عندك ما ليس

وذكرت من نبي الطور الأمين وقرنته نبياً \* ووهبنا لهم من رحمتنا وأفضلها وأعلاها، هذا الكتاب المين، والذكر الحكيم، فإن ذكر فيه الأخبار، وكانت أصدق الأخبار، وأحقها، وإن ذكر فيه الأمر والنهي، كانت أجل الأوامر والنواهي، وأعدلها وأسطها، وإن ذكر فيه الجزاء والوعود والوعيد، كان أصدق الأنبياء وأحقها وأدلها على الحكمة والعدل والفضل، وإن ذكر فيه الأنبياء والمرسلون، كان المذكور فيه أكمل من غيره وأفضل، ولهذا كثيراً ما يبدى ويعيد في قصص الأنبياء، الذين فضلهم على غيرهم،

عندي، بل قد أعطاني الله من العلم ما لم يعطك، والقصد من هذا قوله: ﴿فاتبعني أهدك صراطاً سوياً﴾ أي: مستقيماً معتدلاً، وهو: عبادة الله وحده لا شريك له، وطاعته في جميع الأحوال، وفي هذا من لطف الخطاب ولينه ما لا يحصى، فإنه لم يقل: يا أبت أنا عالم، وأنت جاهل، أو: ليس عندك من العلم شيء، وإنما أتى بصيغة تقتضي أن عندي وعندك علماً، وأن الذي وصل إلي لم يصل إليك ولم يأتك، فينبغي لك أن تتبع الحجة وتتقاد لها.

﴿يا أبت لا تعبد الشيطان﴾ لأن من عبد غير الله فقد عبد الشيطان، كما قال تعالى: ﴿لم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾.

﴿إن الشيطان كان للرحمن عصياً﴾ فمن اتبع خطواته، فقد اتخذ ولياً وكان عاصياً لله بمنزلة الشيطان. وفي ذكر إضافة العصيان إلى اسم الرحمن، إشارة إلى أن المصاصي تمنع العبد من رحمة الله، وتعلق عليه أبوابها، كما أن الطاعة أكبر الأسباب لنيل رحمته، ولهذا قال: ﴿يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن﴾ أي: بسبب إصرارك على الكفر، وتماديك في الطغيان فتكون للشيطان ولياً﴾ أي: في الدنيا والآخرة، فتتنزل بمنزلة



أدعو الله لك بالهداية والمغفرة، بأن يهديك للإسلام، الذي تحصل به المغفرة، ف ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ أي: رحيماً ورؤوفاً بحالي، معتياً بي، فلم يزل يستغفر الله له رجاء أن يهديه الله، فلما تبين له أنه عدو الله، وأنه لا يفيد فيه شيئاً، ترك الاستغفار له، وتبرأ منه.

وقد أمرنا الله بتابع ملة إبراهيم، فمن اتبع ملته، سلوك طريقه في الدعوة إلى الله، بطريق العلم والحكمة واللين والسهولة، والانتقال من مرتبة إلى مرتبة<sup>(١)</sup>، والصبر على ذلك، وعدم السأمة منه، والصبر على ما ينال الداعي من أذى الخلق بالقول والفعل، ومقابلة ذلك بالصفح والعفو، بل بالإحسان القولي والفعل.

فلما أيس من قومه وأبيه قال: ﴿واعتزلكم وما تدعون من دون الله﴾ أي: أنتم وأصنامكم ﴿وَأُدْعُوا رَبِّي﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة ﴿عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيًّا﴾ أي: عسى الله أن يسمدني بإجابة دعائي، وقبول أعمالي، وهذه وظيفة من أيس عن دعاهم، فاتبعوا أهواءهم، فلم تنجع فيهم المواعظ، فأصروا في طغيانهم يعمهون، أن يشتغل بإصلاح نفسه، ويرجو القبول من ربه، ويمتزل الشر وأهله، ولما كان مفارقة الإنسان لوطنه ومآلفه وأهله وقومه، من أشق شيء على النفس، لأمر كثيرة معروفة، ومنها انفراده عن يتعزز بهم ويتكثر، وكان من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، واعتزل إبراهيم قومه، قال الله في حقه: ﴿فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاً﴾ من إسحق ويعقوب ﴿جعلنا نبياً﴾ فحصل له هبة هؤلاء الصالحين<sup>(٢)</sup> المرسلين إلى الناس، الذين خصهم الله بوحيه، واختارهم لرسالته، واصطفاهم من العالمين.

﴿وهبنا لهم﴾ أي: لإبراهيم وابنيه ﴿من رحمتنا﴾ وهذا يشمل جميع ما وهب الله لهم من الرحمة، من العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والذرية الكثيرة المنتشرة، الذين قد كثر فيهم الأنبياء والصالحون، ﴿وجعلنا لهم لسان صدق علياً﴾ وهذا أيضاً من الرحمة التي وهبها لهم، لأن الله وعد كل محسن، أن ينشر له نساء صادقاً بحسب إحسانه، وهؤلاء من أئمة المحسنين، فنشر الله الثناء الحسن الصادق غير الكاذب، العملي غير الخفي، فذكرهم ملاً للخافقين، والثناء عليهم ومحبتهم، امتلات بها القلوب، وفاضت به الألسنة، فصاروا قدوة للمقتدين، وأئمة للمهتدين، ولا تزال أذكارتهم في سائر العصور، متجددة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

﴿٥١﴾ - ﴿٥٣﴾ \* واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً \* وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً \* وهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً \* أي: واذكر في هذا القرآن العظيم موسى بن عمران، على وجه التبجيل له والتعظيم، والتعريف بمقامه الكريم، وأخلاقه الكاملة، ﴿إِنَّهُ كَانَ مَخْلُصًا﴾ قرىء بفتح اللام، على معنى أن الله تعالى اختاره واستخلصه، واصطفاه على العالمين. وقرىء بكسرهما، على معنى أنه مخلص لله تعالى، في جميع أعماله، وأقواله، ونياته، فوصفه الإخلاص في جميع أحواله، والمعنيين متلازمان، فإن الله أخلصه لإخلاصه، وإخلاصه موجب لاستخلاصه، وأجل حالة يوصف بها العبد، الإخلاص منه، والاستخلاص من ربه، ﴿وكان رسولاً نبياً﴾ أي: جمع الله له بين الرسالة والنبوة، فالرسالة تقتضي تبليغ كلام المرسل، وتبليغ جميع ما جاء به من

الذميمة، وترتع في مراتع الوخيمة، فتدرج الخليل عليه السلام بدعوة أبيه، بالأسهل فالأسهل، فأخبره بعلمه، وأن ذلك موجب لاتباعك إياي، وأنتك إن أطعتني، اعتديت إلى صراط مستقيم، ثم نهاه عن عبادة الشيطان، وأخبره بما فيها من المضار، ثم حذره عقاب الله ونقمته إن أقام على حاله، وأنه يكون ولياً للشيطان، فلم ينتجع هذا الدعاء بذلك الشقي، وأجاب بجواب جاهل وقال: ﴿أرأغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم﴾ فتبجح بآلهته [التي هي]<sup>(٣)</sup> من الحجر والأصنام، ولا م إبراهيم عن رغبته عنها، وهذا من الجهل المفرط، والكفر الوخيم، يتمدح بعبادة الأوثان، ويدعو إليها.

﴿لئن لم تنته﴾ أي: عن شتم آلهتي، ودعوتي إلى عبادة الله ﴿لأرجنك﴾ أي: قتلاً بالحجارة ﴿واهجرني ملياً﴾ أي: لا تكلمني زماناً طويلاً، فأجابه الخليل جواب عباد الرحمن عند خطاب الجاهلين، ولم يشتمه، بل صبر، ولم يقابل أباه بما يكره، وقال: ﴿سلام عليك﴾ أي: منسلم من خطيئتي إياك بالثمن والسب وبما تكره، ﴿سأستغفر لك ربى إنه كان بي حفيًّا﴾ أي: لا أزال

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) في ب: من رتبة إلى رتبة.

(٣) في ب: فحصل له ولهؤلاء الصالحين.

الشرع، دقه وجله. والنبوة تقتضي إجماع الله إليه وتخصيصه بإنزال الوحي إليه، فالنبوة بينه وبين ربه، والرسالة بينه وبين الخلق، بل خصه الله من أنواع الوحي، بأجل أنواعه وأفضلها، وهو: تكليمه تعالى وتقرّبه مناجياً لله تعالى، وبهذا اختص من بين الأنبياء، بأنه كليم الرحمن، ولهذا قال: ﴿ونادينا من جانب الطور الأيمن﴾ أي: الأيمن من موسى في وقت مسيره، أو الأيمن: أي: الأبرك من اليُمن والبركة. ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أن يورك من في النار ومن حولها﴾ و﴿قربناه نجياً﴾ والفرق بين النداء والنجاء، أن النداء هو الصوت الرفيع، والنجاء ما دون ذلك، وفي هذه إثبات الكلام لله تعالى وأنواعه، من النداء، والنجاء، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافاً لمن أنكر ذلك، من الجهمية، والمعتزلة، ومن نحا نحوهم.

للوعد الذي يعقده مع الله أو مع العباد، ولهذا لما وعد من نفسه الصبر على ذبح أبيه [له] <sup>(١)</sup> وقال: ﴿يستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ وفي بذلك ومكّن أباه من الذبح، الذي هو أكبر مصيبة تصيب الإنسان، ثم وصفه بالرسالة والنبوة، التي [هي] أكبر منن الله على عبده، وأهلها <sup>(٢)</sup> من الطبقة العليا من الخلق.

﴿وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة﴾ أي: كان مقيماً لأمر الله على أهله، فيأمرهم بالصلاة المتضمنة للإخلاص للمعبود، وبالزكاة المتضمنة للإحسان إلى العبيد، فأكمل نفسه، وكمل غيره، وخصوصاً أخص الناس عنده وهم أهله، لأنهم أحن بدعوته من غيرهم.

﴿وكان عنده مرضياً﴾ وذلك بسبب امتثاله لمراضي ربه واجتهاده فيما يرضيه، ارتضاه الله وجعله من خواص عباده وأوليائه المقربين، فرضي الله عنه، ورضي [هو] عن ربه.

﴿٥٦- ٥٧﴾ واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً \* ورفعه مكاتاً علياً \* أي: اذكر في الكتب <sup>(٣)</sup> على وجه التعظيم والإجلال، والوصف بصفات الكمال، إدريس إنه كان صديقاً نبياً جمع الله له بين الصديقية، الجامعة للتصديق التام، والعلم الكامل، واليقين الثابت، والعمل الصالح، وبين اصطفايته لوحيه، واختياره لرسالته، ورفعه مكاناً علياً \* أي: رفع الله ذكره في العالمين، ومنزلته بين المقربين، فكان عالي الذكر، عالي المنزلة.

﴿وخروا سجداً وبكياً﴾ أي: خضعوا لآيات الله، وخضعوا لها، وأثرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرغبة، ما أوجب لهم البكاء والإنابة، والسجود لربهم، ولم يكونوا من الذين إذا سمعوا آيات الله خروا عليها صماً وعمياناً.

وفي إضافة الآيات إلى اسمه ﴿الرحمن﴾ دلالة على أن آياته، من رحمة بعباده وإحسانه إليهم، حيث هداهم بها إلى الحق، وبصرهم من العمى، وأنقذهم من الضلالة، وعلمهم من الجهالة.

﴿٥٩- ٦٣﴾ فخلق من بعدهم خلف أضعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً \* إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً \* جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتياً \* لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً \* تلك الجنة التي نورت من عبادنا من كان تقياً \* لما ذكر تعالى هؤلاء الأنبياء

وقوله: ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً﴾ هذا من أكبر فضائل موسى وإحسانه، ونصحه لأخيه هارون، أنه سأل ربه أن يشركه في أمره، وأن يجعله رسولاً مثله، فاستجاب الله له ذلك، ووهب له من رحمة أخاه هارون نبياً. فتبوة هارون تابعة لنبوة موسى عليهما السلام، فساعده على أمره، وأعانته عليه.

﴿٥٤- ٥٥﴾ واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً \* وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً \* أي: واذكر في القرآن الكريم، هذا النبي العظيم، الذي خرج منه الشعب العربي، أفضل الشعوب وأجلها، الذي منهم سيد ولد آدم.

﴿إنه كان صادق الوعد﴾ أي: لا يعد وعداً إلا وفى به، وهذا شامل

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) في ب: وجعله.

(٣) في ب: في الكتاب.



من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴿ والمعاني كلها صحيحة ثابتة، ولكن الاحتمال الأول أولى، بدليل قوله: ﴿إنه كان وعده مأثياً﴾ لا بد من وقوعه، فإنه لا يتخلف الميعاد، وهو أصدق القائلين .

﴿لا يسمعون فيها لغواً﴾ أي: كلاماً لا غياً لا فائدة فيه، ولا ما يؤثم، فلا يسمعون فيها شتماً، ولا عيباً، ولا قولاً فيه معصية الله، أو قولاً مكدرًا، ﴿إلا سلاماً﴾ أي: إلا الأقوال السالمة من كل عيب، من ذكر الله، وتحمية، وكلام سرور، وبشارة، ومطارحة الأحاديث الحسنة بين الإخوان، وسماع خطاب الرحمن، والأصوات الشجعية، من الحور والملائكة والولدان، والنعيمات المطربة، والألفاظ الرخيمة، لأن الدار دار السلام، فليس فيها إلا السلام التام من جميع الوجوه، ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً﴾ أي: أرزاقهم من المأكّل والمشرب، وأنواع اللذات، مستمرة حيثما طلبوا، وفي أي: وقت رغبوا، ومن تمامها ولذتها وحسنها، أن تكون في أوقات معلومة .

﴿بكرة وعشياً﴾ ليعظم وقعها ويتم نفعها، فذلك الجنة التي وصفناها بما ذكر ﴿التي نورث من عبادنا من كان تقياً﴾ أي: نورثها المتقين، ونجعلها منزلهم الدائم، الذي لا يظنون عنه، ولا يبغون عنه جؤلاً، كما قال تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين﴾ .

﴿٦٤ - ٦٥﴾ ﴿وما ننزّل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً﴾ رب السماوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميّاً ﴿استبطن النبي ﷺ جبريل عليه السلام مرة في نزوله إليه فقال له: ﴿لو تأتينا أكثر مما تأتينا﴾ - تشوقاً إليه، وتوحشاً

اسمه ﴿الرحمن﴾ لأنها فيها من الرحمة والإحسان، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب [بشر]. وسماها تعالى رحمة، فقال: ﴿وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾ . وأيضاً ففي إضافتها إلى رحته، ما يدل على استمرار سرورها، وأنها باقية بقاء رحته، التي هي أثرها وموجيها، والعباد في هذه الآية، المراد: عباد إلهيته، الذين عبدوه، والتزموا شرائعه، فصارت العبودية وصفاً لهم كقوله: ﴿وعباد الرحمن﴾ ونحوه، بخلاف عباده المالك فقط، الذين لم يعبدوه، فهؤلاء وإن كانوا عبيداً لربوبيته، لأنه خلقهم ورزقهم وديرهم، فليسوا داخلين في عبيد إلهيته العبودية الاختيارية، التي يمدح صاحبها، وإنما عبوديتهم عبودية اضطرار، لا مدح لهم فيها .

وقوله: ﴿بالغيب﴾ يحتمل أن تكون متعلقة بـ ﴿وعد الرحمن﴾ فيكون المعنى على هذا، أن الله وعدهم إياها وعداً غائباً، لم يشاهدوه ولم يروه، فأمنوا بها، وصدقوا غيبها، وسموا لها سعيها، مع أنهم لم يروها، فكيف لو رأوها، لكانوا أشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبة، وأكثر لها سعيًا، ويكون في هذا، مدح لهم بؤيمانهم بالغيب، الذي هو الإيمان النافع . ويحتمل أن تكون متعلقة بعباده، أي: الذين عبدوه في حال غيبهم وعدم رؤيتهم إياه، فهذه عبادتهم ولم يروه، فلو رأوه، لكانوا أشد له عبادة، وأعظم إنابة، وأكثر حياً، وأجل شوقاً، ويحتمل أيضاً، أن المعنى: هذه الجنات التي وعدها الرحمن عباده، من الأمور التي لا تدرکہا الأرواصف، ولا يعلمها أحد إلا الله، فقيه من التشويق لها، والوصف المجمل، ما يبيح النفوس، ويزعج الساكن إلى طلبها، فيكون هذا مثل قوله: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم

المخلصون﴾ المتبعون لمراضى ربهم، النبيون إليه، ذكر من أتى بعدهم، وبدلوا ما أمروا به، وأنه خلف من بعدهم خلف، رجعوا إلى الخلف والوراء، فأضاعوا الصلاة التي أمروا بالمحافظة عليها وإقامتها، فتهاونوا بها وضيعوها، وإذا ضيموا الصلاة التي هي عماد الدين، وميزان الإيمان والإخلاص لرب العالمين، التي هي أكّد الأعمال، وأفضل الخصال، كانوا لما سواها من دينهم أضيع، وله أرفض، والسبب الداعي لذلك، أنهم اتبعوا شهوات أنفسهم وإراداتها فصارت همهم منصرفه إليها، مقدمة لها على حقوق الله، فنشأ من ذلك التضييع لحقوقه، والإقبال على شهوات أنفسهم، مهما لاحت لهم حصولها، وعلى أي: وجه اتفقت تناولوها .

﴿فسوف يلقون غياً﴾ أي: عذاباً مضاعفاً شديداً، ثم استثنى تعالى فقال: ﴿إلا من تاب﴾ عن الشرك والبدع والمعاصي، فأقلع عنها وندم عليها، وعزم عزمًا جازماً أن لا يعاودها، ﴿وأمن﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ﴿وعمل صالحاً﴾ وهو العمل الذي شرعه الله على السنة رسله، إذا قصد به وجهه، ﴿فأرسلك﴾ الذين جمعوا بين التوبة والإيمان، والعمل الصالح، ﴿يدخلون الجنة﴾ الشتملة على التميم القيم، والعيش السليم، وجوار الرب الكريم، ﴿ولا يظلمون شيئاً﴾ من أعمالهم، بل يجدونها كاملة، موفرة أجورها، مضاعفاً عددها .

ثم ذكر أن الجنة التي وعدهم بدخولها، ليست كسائر الجنات، وإنما هي جنات عدن، أي: جنات إقامة، لا ظعن فيها، ولا جؤول ولا زوال، وذلك لسعتها، وكثرة ما فيها من الحيرات والسرور، والبهجة والخيور .

﴿التي وعد الرحمن عباده بالغيب﴾ أي: التي وعدها الرحمن، أضافها إلى

(١) جعل الشيخ هذه الكلمات بالرفع، وجعل فوق كلمة (المخلصون) بخط صغير كلمة (قطع) وفي هذا إشارة إلى أنه من باب القطع

لضراقة، وليطمئن قلبه بنزوله -  
فأتزل الله تعالى على لسان جبريل :  
﴿وما ننزل إلا بأمر ربك﴾ أي : ليس  
لنا من الأمر شيء، إن أمرنا، ابتدنا  
أمره، ولم نعص له أمراً، كما قال  
عنهم : ﴿لا يعصون الله ما أمرهم  
ويفعلون ما يؤمرون﴾ فنحن عبيد  
مأمورون، ﴿له ما بين أيدينا وما خلفنا  
وما بين ذلك﴾ أي : له الأمور الماضية  
والمستقبلية والحاضرة، في الزمان  
والمكان، فإذا تبين أن الأمر كله لله،  
وأنا عبيد مدبرون، فيبقى الأمر دائراً  
بين : هل تقتضيه الحكمة الإلهية  
يفضده؟ أم لا تقتضيه فيؤخره؟ ولهذا  
قال : ﴿وما كان ربك نسياً﴾ أي : لم  
يكن الله لينسأك ويمملك، كما قال  
تعالى : ﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾ بل لم  
يزل معتنياً بأمورك، مجرباً لك على  
أحسن عوانده الحميلة، وتدبيره  
الحميلة .

أي : فإذا تأخر نزولنا عن الوقت  
المتعاد، فلا يجزئك ذلك ولا يهيك،  
واعلم أن الله هو الذي أراد ذلك، لما  
له من الحكمة فيه، ثم علل إحاطة  
علمه، وعدم نسيانه، بأنه ﴿رب  
السموات والأرض﴾ فربوبيته  
للسموات والأرض، وكونها على  
أحسن نظام وأكمل، ليس فيه غفلة  
ولا إهمال، ولا سُدَي، ولا باطل،  
برهان قاطع على علمه الشامل،  
فلا تشغل نفسك بذلك، بل اشغليها  
بما يفعله ويعود عليك طائله، وهو :  
عبادته وحده لا شريك له، ﴿واصطبر  
لعبادته﴾ أي : اصبر نفسك عليها  
وجاهدتها، وقم عليها أتم القيام  
وأكملها بحسب قدرتك، وفي  
الاشتغال بعبادة الله تسلية للعابد عن  
جميع التعلقات والمشتبهات، كما قال  
تعالى : ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا  
به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا  
لنفتنهم فيه﴾ إلى أن قال : ﴿وأمر أهلك  
بالصلاة واصطبر عليها﴾ الآية . هل  
تعلم له سميأً؟ أي : هل تعلم الله  
مسامياً ومشابهاً ومثلاً من المخلوقين .  
وهذا استفهام بمعنى الثني، المعلوم

والشياطين ثم لنحضرهم حول جهنم  
جثياً \* ثم لننزعن من كل شيعة أهيهم  
أشد على الرحمن عتياً \* ثم لنحن أعلم  
بالذين هم أولى بها صلياً \* أقسم الله  
تعالى وهو أصدق القائلين - ربوبيته،  
ليحشرن هؤلاء المنكرين للبعث، هم  
وشياطينهم فيجمعهم ليقات يوم  
معلوم، \* ثم لنحضرهم حول جهنم  
جثياً \* أي : جائين على ركبهم من شدة  
الأحوال، وكثرة الزلزال، وفضاعة  
الأحوال، منتظرين لحكم الكبير  
المتعال، ولهذا ذكر حكمه فيهم فقال :

﴿ثم لننزعن من كل شيعة أهيهم أشد  
على الرحمن عتياً﴾ أي : ثم لننزعن من  
كل طائفة وفرقة من الظالمين المشتركين  
في الظلم والكفر والعتو أشدهم عتواً،  
وأعظمهم ظلماً، وأكبرهم كفراً،  
فيقدمهم إلى العذاب، ثم هكذا يقدم  
إلى العذاب، الأغلظ إنمأ، فالأغلظ،  
وهم في تلك الحال متلعنون، يلعن  
بعضهم بعضاً، ويقول أخراهم  
لأولاهم : ﴿ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم  
عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف  
ولكن لا تعلمون \* وقالت أولاهم  
لأخراهم فما كان لكم علينا من  
فضل \* وكل هذا تابع لعده وحكمته  
وعلمه الواسع، ولهذا قال : ﴿ثم  
لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً﴾  
أي : علمنا محيط بمن هو أولى صلياً  
بالنار، قد علمناهم، وعلمنا أعمالهم  
واستحقاقها وقسطها من العذاب .

﴿٧١-٧٢﴾ ﴿وإن منكم إلا  
واردها كان على ربك حتماً مقضياً \*  
ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها  
جثياً﴾ وهذا خطاب لسائر الخلائق،  
برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم،  
أنه ما منهم من أحد، إلا سيرد النار،  
حكماً حتمه الله على نفسه، وأرعد به  
عباده، فلا بد من نفوذه، ولا محيد  
عن وقوعه .

واختلف في معنى الورد، فقيل :  
ورودها، حضورها للخلائق كلهم،  
حتى يحصل الانزعاج من كل أحد، ثم  
تبعث، ينجي الله المتقين . وقيل :  
ورودها، دخولها، فتكون على المؤمنين

بالمعقل . أي : لا تعلم له مسامياً  
ولا مشابهاً، لأنه الرب، وغيره  
مربوب، الخالق، وغيره مخلوق، الغني  
من جميع الوجوه، وغيره فقير بالذات  
من كل وجه، الكامل الذي له الكمال  
المطلق من جميع الوجوه، وغيره ناقص  
ليس فيه من الكمال إلا ما أعطاه الله  
تعالى، فهذا برهان قاطع على أن الله هو  
المستحق لإفراذه بالعبودية، وأن عبادته  
حق، وعبادة ما سواه باطل، فهذا أمر  
بعبادته وحده، والاصطبار لها، وعلل  
ذلك بكماله وإفراذه بالعظمة والأسماء  
الحسنى .

﴿٦٦-٦٧﴾ ﴿ويقول الإنسان إإذا  
ماتت لسوف أخرج حياً \* أولاً يذكر  
الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك  
شيئاً﴾ المراد بالإنسان هاهنا، كل منكر  
للبعث، مستبعد لوقوعه، فيقول -  
مستفهماً على وجه النفي والعتاد  
والكفر - ﴿إذا ماتت لسوف أخرج  
حياً﴾ . أي : كيف يعيني الله حياً بعد  
الموت، وبعد ما كنت رميمياً؟! هذا  
لا يكون ولا يتصور، وهذا بحسب  
عقله الفاسد ومقصده السيء، وعتاده  
لرسل الله وكتبه، فلو نظر أدنى نظر،  
وتأمل أدنى تأمل، لرأى استبعاده  
للبعث، في غاية السخافة، ولهذا ذكر  
تعالى برهاناً قاطعاً، ودليلاً واضحاً،  
يعرفه كل أحد على إمكان البعث فقال :  
﴿أولاً يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل  
ولم يك شيئاً﴾ أي : أو لا يلفت نظره،  
ويستذكر حاله الأولى، وأن الله خلقه  
أول مرة، ولم يك شيئاً، فمن قدر على  
خلقه من العدم، ولم يكن شيئاً،  
مذكوراً، أليس بقادر على إنشائه بعد ما  
تمزق، وجمعه بعد ما تفرق؟ وهذا  
كقوله : ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم  
يعيده وهو أهون عليه﴾ .

وفي قوله : ﴿أولاً يذكر الإنسان﴾  
دعوة للنظر، بالدليل العقلي، بألطف  
خطاب، وأن إنكار من أنكرك ذلك،  
مبني على غفلة منه عن حاله الأولى،  
وإلا فلو تذكرها وأحضرها في ذهنه،  
لم ينكر ذلك .

﴿٦٨-٧٠﴾ ﴿فوربك لنحضرنهم

تعالى:

هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير مردأً ﴿٧٤﴾ لما ذكر أنه يمد للظالمين في ضلالهم، ذكر أنه يزيد المهتدين هداية من فضله عليهم ورحمته، والهدى يشمل العلم النافع، والعمل الصالح، فكل من سلك طريقاً في العلم والإيمان والعمل الصالح، زاده الله منه، وسهله عليه ويسره له، ووهب له أموراً آخر، لا تدخل تحت كسبه، وفي هذا دليل على زيادة الإيمان ونقصه، كما قاله السلف الصالح، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ليزداد الذين آمنوا إيماناً﴾ ﴿٧٥﴾ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً.

ويدل عليه أيضاً الواقع، فإن الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، والمؤمنون متفاوتون في هذه الأمور، أعظم تفاوت، ثم قال: ﴿والباقيات الصالحات﴾ أي: الأعمال الباقية، التي لا تنقطع إذا انقطع غيرها، ولا تضمحل، هي الصالحات منها، من صلاة وزكاة، وصوم، وحج، وعمرة، وقراءة، وتسيب، وتكبير، وتحميد، وتعليق، وإحسان إلى المخلوقين، وأعمال قلبية وبدنية، فهذه الأعمال ﴿خير عند ربك ثواباً وخير مردأً﴾ أي: خير عند الله، ثوابها وأجرها، وكثير للعاملين نفعها وردها، وهذا من باب استعمال الفعل التفضيل في غير بابه، فإنه ما ثم غير الباقيات الصالحات، عمل ينفع، ولا يبقى لصاحبه ثوابه ولا ينجع، ومناسبة ذكر الباقيات الصالحات - والله أعلم - أنه لما ذكر أن الظالمين جعلوا أحوال الدنيا من المال والولد، وحسن المقام ونحو ذلك، علامة لحسن حال صاحبها، أخبر هنا أن الأمر ليس كما زعموا، بل العمل الذي هو عنوان السعادة ومنشور الفلاح، هو العمل بما يحبه الله ويرضاه.

﴿٧٧ - ٨٠﴾ ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً﴾

﴿وكم أهلكتنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً﴾ أي: متاعاً، من أوان وفرش، وبيوت، وزخارف، وأحسن رثياً، أي: أحسن مرأى ومنظراً، من غضارة العيش، وسرور اللذات، وحسن الصور، فإذا كان هؤلاء المهلكون أحسن منهم أثاثاً ورثياً، ولم يمنعهم ذلك من حلول العقاب بهم، فكيف يكون هؤلاء، وهم أقل منهم وأذل، معتصمين من العذاب ﴿أفأركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبير؟﴾ وعلم من هذا، أن الاستدلال على خير الآخرة بخير الدنيا من أفسد الأدلة، وأنه من طرق الكفار.

﴿٧٥﴾ ﴿قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً حتى إذا رآوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً﴾ لما ذكر دليلهم الباطل، الدال على شدة عنادهم، وقوة ضلالهم، أخبر هنا، أن من كان في الضلالة، بأن رضيها لنفسه وسعى فيها، فإن الله يمدد منها، ويزيده فيها حباً، عقوبة له على اختيارها على الهدى، قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أراغ الله قلوبهم﴾ ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ ﴿حتى إذا رآوا﴾ أي: القائلون: ﴿أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً﴾ ﴿ما يوعدون إما العذاب﴾ بقتل أو غيره ﴿وإما الساعة﴾ التي هي باب الجزاء على الأعمال ﴿فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً﴾ أي: فحينئذ يتبين لهم بطلان دعواهم، وأنها دعوى مضحكة، ويتيقنون أنهم أهل الشر، وأضعف جنداً. ولكن لا يفيدهم هذا العلم شيئاً، لأنه لا يمكنهم الرجوع إلى الدنيا، فيعملون غير عملهم الأول.

﴿٧٦﴾ ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا

برداً وسلاماً. وقيل: الورد، هو المرور على الصراط، الذي هو على متن جهنم، فيمر الناس على قدر أعمالهم، فمنهم من يمر كليمح البصر، وكالريح، وكأجاويد الخبيل، وكأجاويد الركاب، ومنهم من يمشي، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم من يخطف فيلحق في النار، كل بحسب تقواه، ولهذا قال: ﴿ثم نتجى الذين اتقوا﴾ الله تعالى بفعل المأمور، واجتناب المحذور ﴿ونذر الظالمين﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿فيها جثياً﴾ وهذا بسبب ظلمهم وكفرهم، وجب لهم الخلود، وحق عليهم العذاب، وتقطعت بهم الأسباب.

﴿٧٣ - ٧٤﴾ ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً﴾ ﴿وكم أهلكتنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورثياً﴾ أي: وإذا تتلى على هؤلاء الكفار آياتنا بينات، أي: واضححات الدلالة على وحدانية الله وصدق رسله، توجب لمن سمعها صدق الإيمان وشدة الإيقان، قابلوها بضد ما يجب لها، واستهزؤوا بها وامن بها، واستدلوا بحسن حالهم في الدنيا، على أنهم خير من المؤمنين، فقالوا معارضين للحق: ﴿أي الفريقين﴾ أي: نحن والمؤمنون ﴿خير مقاماً﴾ أي: في الدنيا، من كثرة الأموال والأولاد، وتوفر الشهوات ﴿وأحسن ندياً﴾ أي: مجلساً، أي: فاستنتجوا من هذه المقدمة الفاسدة، أنهم أكثر مالا وأولاداً، وقد حصلت لهم أكثر مطالبهم من الدنيا، ومجالسهم وأنديتهم مزخرفة مزوقة.

والمؤمنون بخلاف هذه الحال، فهم خير من المؤمنين، وهذا دليل في غاية الفساد، وهو من باب قلب الحقائق، وإلا فكثرة الأموال والأولاد، وحسن النظر، كثيراً ما يكون سبباً لهلاك صاحبه، وشقائه، وشره، ولهذا قال

الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً \* كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مداً \* وترثه ما يقول ويأتينا فرداً \* أي: أفلا تتعجب من حالة هذا الكافر، الذي جمع بين كفره بآيات الله ودعواه الكبيرة، أنه سيؤتى في الآخرة مالاً وولداً، أي: يكون من أهل الجنة، هذا من أعجب الأمور، فلو كان مؤمناً بالله وداعى هذه الدعوى، لسهل الأمر.

وهذه الآية - وإن كانت نازلة في كافر معين - فإنها تشمل كل كافر، زعم أنه على الحق، وأنه من أهل الجنة، قال الله توبيخاً له وتكذيباً: ﴿أطلع الغيب﴾ أي: أحاط علمه بالغيب، حتى علم ما يكون، وأن من جملة ما يكون، أنه يؤتى يوم القيامة مالاً وولداً؟ ﴿أم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ أنه نائل ما قاله، أي: لم يكن شيء من ذلك، فعلم أنه مُتَقَوِّلٌ، قائل ما لا علم له به. وهذا التقسيم والترديد، في غاية ما يكون من الإلزام وإقامة الحجة؛ فإن الذي يزعم أنه حاصل له خير عند الله في الآخرة، لا يخلو: إما أن يكون قوله صادراً عن علم بالغيوب المستقبلية، وقد علم أن هذا له وحده، فلا أحد يعلم شيئاً من المستقبلات الغيبية، إلا ما أطلعه الله إليه من رسله.

وإما أن يكون متخذاً عهداً عند الله، بالإيمان به، واتباع رسله، الذي عهد الله لأهله، وأوزع أنهم أهل الآخرة، الناجون الفائزون. فإذا انتهى هذان الأمران، علم بذلك بطلان الدعوى، ولهذا قال تعالى: ﴿كلا﴾ أي: ليس الأمر كما زعم، فليس للمقاتل اطلاع على الغيب، لأنه كافر، ليس عنده من علم الرسل شيء، ولا اتخذ عند الرحمن عهداً، لكفره وعدم إيمانه، ولكنه يستحق ضد ما تَقَوَّلَهُ، وأن قوله مكتوب محفوظ، ليجازى عليه ويعاقب، ولهذا قال: ﴿سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مداً﴾ أي: نزيده من أنواع العقوبات،

كما ازداد من الغي والضلال، ﴿وترثه ما يقول﴾ أي: ترثه ماله وولده، فيستقل من الدنيا فرداً، بلا مال ولا أهل ولا أنصار ولا أعوان ﴿ويأتينا فرداً﴾ فبرى من وخيم العذاب وأليم العقاب، ما هو جزاء أمثاله من الظالمين.

﴿٨٣ - ٨٤﴾ ﴿أم ترأنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا \* فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عداً﴾ وهذا من عقوبة الكافرين أنهم - لالم يعتصموا بالله، ولم يتمسكوا بحبل الله، بل أشركوا به والوا أعداءه، من الشياطين - سلطهم عليهم، وقبضهم لهم، فجعلت الشياطين تؤزهم إلى المعاصي أزا، وتزعجهم إلى الكفر إزعاجاً، فيوسوسون لهم، ويوحون إليهم، ويزينون لهم الباطل، ويقبحون لهم الحق، فيدخل حب الباطل في قلوبهم ويتشرها، فيسمى فيه سمي المحق في حقه، فينصره بجهدته ويحارب عنه، ويجاهد أهل الحق في سبيل الباطل، وهذا كله، جزاء له على توليه من وليه وتوليه لمدوه، جعل له عليه سلطاناً، وإلا فلو آمن بالله، وتوكل عليه، لم يكن له عليه سلطان، كما قال تعالى: ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون.

﴿فلا تعجل عليهم﴾ أي: على هؤلاء الكفار المستعجلين بالعذاب ﴿إنما نعد لهم عداً﴾ أي: أن لهم أياماً معدودة لا يتقدمون عنها ولا يتأخرون، نمهلهم ونحلم عنهم مدة ليراجعوا أمر الله، فإذا لم ينجع فيهم ذلك أخذناهم أخذ عزيز مقتدر.

﴿٨٥ - ٨٧﴾ ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وقدأ \* ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً \* لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ يجيز تعالى عن تفاوت الفريقين المتقين،

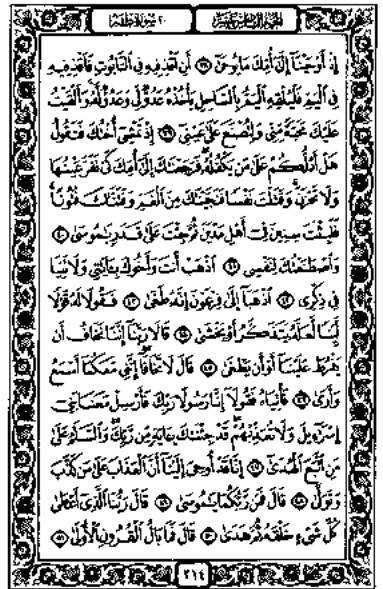
أذيت الذي حشره يبتأ وقال الأوزع ما لا يؤمننا  
أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً \* كلا سنكتب  
ما يقول ونمد له من العذاب مداً \* وترثه ما يقول  
ويأتينا فرداً \* وأفلا تتعجب من حالة هذا الكافر،  
الذي جمع بين كفره بآيات الله ودعواه الكبيرة،  
أنه سيؤتى في الآخرة مالاً وولداً، هذا من أعجب  
الأمور، فلو كان مؤمناً بالله وداعى هذه الدعوى،  
لسهل الأمر. وهذه الآية - وإن كانت نازلة في  
كافر معين - فإنها تشمل كل كافر، زعم أنه على  
الحق، وأنه من أهل الجنة، قال الله توبيخاً له  
وتكذيباً: ﴿أطلع الغيب﴾ أي: أحاط علمه بالغيب،  
حتى علم ما يكون، وأن من جملة ما يكون، أنه  
يؤتى يوم القيامة مالاً وولداً؟ ﴿أم اتخذ عند  
الرحمن عهداً﴾ أنه نائل ما قاله، أي: لم يكن شيء  
من ذلك، فعلم أنه مُتَقَوِّلٌ، قائل ما لا علم له به.  
وهذا التقسيم والترديد، في غاية ما يكون من  
الإلزام وإقامة الحجة؛ فإن الذي يزعم أنه حاصل  
له خير عند الله في الآخرة، لا يخلو: إما أن يكون  
قوله صادراً عن علم بالغيوب المستقبلية، وقد  
علم أن هذا له وحده، فلا أحد يعلم شيئاً من  
المستقبلات الغيبية، إلا ما أطلعه الله إليه من  
رسله. وإما أن يكون متخذاً عهداً عند الله،  
بالإيمان به، واتباع رسله، الذي عهد الله  
لأهله، وأوزع أنهم أهل الآخرة، الناجون  
الفائزون. فإذا انتهى هذان الأمران، علم بذلك  
بطلان الدعوى، ولهذا قال تعالى: ﴿كلا﴾ أي: ليس  
الأمر كما زعم، فليس للمقاتل اطلاع على الغيب،  
لأنه كافر، ليس عنده من علم الرسل شيء، ولا  
اتخذ عند الرحمن عهداً، لكفره وعدم إيمانه،  
لكنه يستحق ضد ما تَقَوَّلَهُ، وأن قوله مكتوب  
محفوظ، ليجازى عليه ويعاقب، ولهذا قال: ﴿سنكتب  
ما يقول ونمد له من العذاب مداً﴾ أي: نزيده  
من أنواع العقوبات، كما ازداد من الغي والضلال،  
﴿وترثه ما يقول﴾ أي: ترثه ماله وولده، فيستقل  
من الدنيا فرداً، بلا مال ولا أهل ولا أنصار ولا  
أعوان ﴿ويأتينا فرداً﴾ فبرى من وخيم العذاب  
وأليم العقاب، ما هو جزاء أمثاله من الظالمين.  
﴿٨٣ - ٨٤﴾ ﴿أم ترأنا أرسلنا الشياطين على  
الكافرين تؤزهم أزا \* فلا تعجل عليهم إنما  
نعد لهم عداً﴾ وهذا من عقوبة الكافرين أنهم -  
للمعتصموا بالله، ولم يتمسكوا بحبل الله، بل  
أشركوا به والوا أعداءه، من الشياطين - سلطهم  
عليهم، وقبضهم لهم، فجعلت الشياطين تؤزهم  
إلى المعاصي أزا، وتزعجهم إلى الكفر إزعاجاً، في  
يوسوسون لهم، ويوحون إليهم، ويزينون لهم  
الباطل، ويقبحون لهم الحق، فيدخل حب الباطل في  
قلوبهم ويتشرها، فيسمى فيه سمي المحق في حقه،  
فينصره بجهدته ويحارب عنه، ويجاهد أهل الحق  
في سبيل الباطل، وهذا كله، جزاء له على توليه  
من وليه وتوليه لمدوه، جعل له عليه سلطاناً،  
وإلا فلو آمن بالله، وتوكل عليه، لم يكن له عليه  
سلطان، كما قال تعالى: ﴿إنه ليس له سلطان على  
الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ إنما سلطانه  
على الذين يتولونه والذين هم به مشركون.

والمجرمين، وأن المتقين له - باتقاء الشرك والبدع والمعاصي - يحشرهم إلى موقف القيامة مكرمين، مبجلين معظمين، وأن مآلهم الرحمن، وقصدهم المنان، وفوداً إليه، والوافد لا بد أن يكون في قلبه من الرجاء، وحسن الظن بالوافد [إليه]، ما هو معلوم، فالمتقون يفدون إلى الرحمن، راجين منه رحمة وعميم إحسانه، والفوز بعطاياه في دار رضوانه، وذلك بسبب ما قدموه من العمل بتقواه، واتباع مرضيه، وأن الله عهد إليهم بذلك الشواب على السنة رسله، فتوجهوا إلى ربهم مطمئنين به، واثقين بفضله.

وأما المجرمون، فإنهم يساقون إلى جهنم ورداً، أي: عطاشاً، وهذا أشنع ما يكون من الحالات، سوقهم على وجه الذل والصغار إلى أعظم سجن وأنفع عقوبة، وهو جهنم، في حال ظمأهم ونصبهم يستغيثون فلا يغاثون، ويدعون فلا يستجاب لهم، ويستشفعون فلا يشفع لهم، ولهذا قال: ﴿لا يملكون الشفاعة﴾ أي: ليست الشفاعة ملكهم، ولا لهم منها شيء، وإنما هي لله تعالى ﴿قل الله الشفاعة جميعاً﴾. وقد أخبر أنه لا تنفعهم شفاعة الشافعين، لأنهم







البرد، ولم يكن عنده ما يتدفأ به في سفره، ﴿فقال لأهله إني أتيت﴾ أي: أبصرت ﴿ناراً﴾ وكان ذلك في جانب الطور الأيمن، ﴿لعملي أتيتكم منها بقبس﴾ تصطلون به ﴿أو أجد على النار هدى﴾ أي: من يهديني الطريق. وكان مطلبه، النور الحسي والهداية الحسية، فوجد ثم النور المعنوي، نور الوحي، الذي تستنير به الأرواح والقلوب، والهداية الحقيقية، هداية الصراط المستقيم، الموصلة إلى جنات النعيم، فحصل له أمر لم يكن في حسابه، ولا خطر بياله.

﴿١١﴾ ﴿فلما أتاهما﴾ أي: النار التي أتتها من بعيد، وكانت - في الحقيقة - نوراً، وهي نار تحرق وتشرق، ويدل على ذلك قوله ﷻ: ﴿حجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره، فلما وصل إليها نودي منها، أي: ناداه الله، كما قال: ﴿ونادينا من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً﴾ ﴿إني أنا ربك فأخضع نفسك لي﴾ إنك بالواد المقدس طوى ﴿أخبره أنه ربه، وأمره أن يستعد وينتهي لمناجاته، ويستم لذلك، ويلقي نعليه، لأنه بالوادي المقدس المطهر العظم، ولو لم يكن من تقديسه، إلا أن الله اختاره لمناجاته

كليمه موسى لكفى، وقد قال كثير من المفسرين: إن الله أمره أن يلقي نعليه، لأنهما من جلد حمراء، فالله أعلم بذلك.

﴿وأنا اخترتك﴾ أي: تخيبرتك واصطفيتك من الناس، وهذه أكبر نعمة ومنة أنعم الله بها عليه، تقتضي من الشكر ما يليق بها، ولهذا قال: ﴿فاستمع لما يوحي﴾ أي: أتى سمعت للذي أرحي إليك، فإنه حقيق بذلك، لأنه أصل الدين ومبداؤه، وعماد الدعوة الإسلامية، ثم بين الذي يوحى به إليه بقوله: ﴿إني أنا الله لا إله إلا أنا﴾ أي: الله المستحق الألوهية المتصف بها، لأنه الكامل في أسمائه وصفاته، المنفرد بأفعاله، الذي لا شريك له ولا مثيل ولا كفو ولا سمي، ﴿فأعبدني﴾ بجميع أنواع العبادة، ظاهرها وباطنها، أصولها وفروعها، ثم خص الصلاة بالذكر وإن كانت داخلة في العبادة، لفضلها وشرقيها، وتضمنها عبودية القلب واللسان والجوارح.

وقوله: ﴿لذكرى﴾ اللام للتعليل أي: أقم الصلاة لأجل ذكرك إياي، لأن ذكره تعالى أجل المقاصد، وهو عبودية القلب، وبه سعادته، فالقلب المعطل عن ذكر الله، معطل عن كل خير، وقد خرب كل الخراب، فشرع الله للعباد أنواع العبادات، التي المقصود منها إقامة ذكره، وخصوصاً الصلاة.

قال الله تعالى: ﴿اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر﴾ أي: ما فيها من ذكر الله أكبر من نبيه عن الفحشاء والمنكر، وهذا التوعيد يقال له توحيد الألوهية، وتوحيد العبادة، فالألوهية وصفه تعالى، والعبودية وصف عبده.

﴿إن الساعة آتية﴾ أي: لا بد من وقوعها ﴿أكاد أخفيها﴾ أي: عن نفسي كما في بعض القراءات، كقوله تعالى: ﴿يسألك الناس عن الساعة قل

إنما علمها عند الله﴾ وقال: ﴿وعنده علم الساعة﴾ فعلمها قد أخفاه عن الخلائق كلهم، فلا يعلمها ملك مقرب، ولا نبي مرسل، والحكمة في إتيان الساعة ﴿لتجزي كل نفس بما تسعى﴾ من الخير والشر، فهي الباب لدار الجزاء ﴿ليجزي الذين أسأوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾.

﴿١٦﴾ ﴿فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى﴾ أي: فلا يصدك ويشغلك عن الإيمان بالساعة، والجزاء، والعمل لذلك، من كان كافراً بها، غير معتقد لوقوعها.

يسعى في الشك فيها والتشكيك، ويجادل فيها بالباطل، ويقسم من الشبه ما يقدر عليه، متبعاً في ذلك هواه، ليس قصده الوصول إلى الحق، وإنما قصاره اتباع هواه، فإياك أن تصغي إلى من هذه حاله، أو تقبل شيئاً من أقواله وأعماله الصادة عن الإيمان بها والسعي لها سعيها، وإنما حذر الله تعالى عن هذه حاله لأنه من أخوف ما يكون على المؤمن بوسوسته وتدجيله<sup>(١)</sup>، وكون النفوس مجبولة على التشبه، والاقتداء بأبناء الجنس، وفي هذا تشبيه وإشارة إلى التحذير عن كل داع إلى باطل، يصد عن الإيمان الواجب، أو عن كماله، أو بوقع الشبهة في القلب، وعن النظر في الكتب المشتملة على ذلك، وذكر في هذا الإيمان به، وعبادته، والإيمان باليوم الآخر، لأن هذه الأمور الثلاثة تحت تم أمر الدين، ونقصه أو فقدته بنقصها، أو نقص شيء منها.

وهذه نظير قوله تعالى في الإخبار عن ميزان سعادة الفرق، الذين أوتوا الكتاب وشقاوتهم: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

وقوله: ﴿فتردى﴾ أي: تهلك وتشقى، إن اتبعت طريق من يصد

(١) كفا في ب، وفي أ: وتدجيله.

عنها، وقوله تعالى:

﴿١٧ - ٢٣﴾ ﴿وما تلك بيمينك

يا موسى \* قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى \* قال ألقها يا موسى \* فآلقها فإذا هي حية تسعى \* قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى \* واضمم يديك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى \* لتريك من آياتنا الكبرى \* .

لما بين الله لموسى أصل الإيمان، أراد أن يبين له ويريه من آياته ما يطمئن به قلبه، وتقر به عينه، ويقوى إيمانه، بتأييد الله له على عدوه فقال: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ هذا، مع علمه تعالى، ولكن لزيادة الاهتمام في هذا الموضوع، أخرج الكلام بطريق الاستفهام، فقال موسى: ﴿هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي﴾ ذكر فيها هاتين المنفعتين، منفعة لجنس آدمي، وهو أنه يعتمد عليها في قيامه ومشيه، فيحصل فيها معونة، ومنفعة للبهائم، وهو أنه كان يرعى الغنم، فإذا رعاها في شجر الخيط ونحوه، هش بها، أي: ضرب الشجر، ليتساقط ورقه، فيرعاها الغنم.

هذا الخلق الحسن من موسى عليه السلام، الذي من آثاره، حسن رعاية الحيوان البهيم، والإحسان إليه دل على عناية من الله له واصطفاء، وتخصيص تقتضيه رحمة الله وحكمته.

﴿ولي فيها مآرب﴾ أي: مقاصد ﴿أخرى﴾ غير هذين الأمرين.

ومن أدب موسى عليه السلام، أن الله لما سأله عما في يمينه، وكان السؤال محتملاً عن السؤال عن عينها، أو منفعتها أجابه بعينها، ومنفعتها فقال الله له: ﴿ألقها يا موسى﴾ فآلقها فإذا هي حية تسعى \* انقلبت بإذن الله ثعباناً عظيماً، فولى موسى هارباً خائفاً، ولم يعقب، وفي وصفها بأنها تسعى، إزالة لوهم يمكن وجوده، وهو أن يظن أنها تحبيل

لا حقيقة، فكونها تسمى يزيل هذا الوهم.

فقال الله لموسى: ﴿خذها ولا تخف﴾ أي: ليس عليك منها بأس.

﴿سنعيدها سيرتها الأولى﴾ أي: هيتها وصفتها، إذ كانت عصا، فامتثل موسى أمر الله إيماناً به وتسلماً، فأخذها، فعادت عصاه التي كان يعرفها هذه - آية - ثم ذكر الآية الأخرى، فقال: ﴿واضمم يديك إلى جناحك﴾ أي: أدخل يديك في جيبك، وضم عليك عضدك، الذي هو جناح الإنسان ﴿تخرج بيضاء من غير سوء﴾ أي: بياضاً ساطعاً، من غير عيب ولا برص ﴿آية أخرى﴾.

قال الله: ﴿فذلك برهانان من ربك إلى فرعون وملئيه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾.

﴿لتريك من آياتنا الكبرى﴾ أي: فعلنا ما ذكرنا، من انقلاب العصا حية تسعى، ومن خروج اليد بيضاء للناظرين، لأجل أن تريك من آياتنا الكبرى، الدالة على صحة رسالتك وحقيقة ما جئت به، فيطمئن قلبك ويزداد علمك، وتثق بوعده الله لك بالحفظ والنصرة، ولتكون حجة وبرهاناً لمن أرسلت إليهم.

﴿٢٤ - ٣٦﴾ ﴿أذهب إلى فرعون

إنه طغى \* قال رب اشرح لي صدري \* ويسر لي أمري \* واحلل عقدة من لساني \* بفقهوا قولي \*

واجعل لي وزيراً من أهلي \* هارون أخي \* أشد به أزري \* وأشركه في أمري \* كي نسبحك كثيراً \* وتذكرك كثيراً \* إنك كنت بنا بصيراً \* قال قد أوتيت سؤلك يا موسى \* لما أوحى الله إلى موسى، ونبأه، وأراه الآيات الباهرات، أرسله إلى فرعون، ملك مصر، فقال: ﴿أذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ أي: تمرد وزاد على الحد في الكفر والفساد والعلو في الأرض، والقهر للضعفاء، حتى إنه ادعى الربوبية والألوهية -

قبحه الله - أي: وطفغيانه سبب لهلاكه، ولكن من رحمة الله وحكمته وعدله، أنه لا يعذب أحداً، إلا بعد قيام الحجج بالرسول، فحيث علم موسى عليه السلام أنه تحمل حملاً عظيماً، حيث أرسل إلى هذا الجبار العنيد، الذي ليس له منازع في مصر من الخلق، وموسى عليه السلام، وحده، وقد جرى منه ما جرى من القتل، فامتثل أمر ربه، وتلقاه بالانسراح والقبول، وسأله المعونة وتيسير الأسباب، التي [هي] (١) من تمام الدعوة، فقال: ﴿رب اشرح لي صدري﴾ أي: وسعه وأفسحه، لأتحمل الأذى القولي والفعل، ولا يتكدر قلبي بذلك، ولا يضيق صدري، فإن الصدر إذا ضاق، لم يصلح صاحبه لهداية الخلق ودعوتهم.

قال الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ وعسى الخلق يقبلون الحق مع اللين وسعة الصدر وانسراحه عليهم.

﴿ويسر لي أمري﴾ أي: سهل علي كل أمر أسلكه وكل طريق أقصده في سبيلك، وهون علي ما أمامي من الشدائد، ومن تيسير الأمر أن يسر للداعي أن يأتي جميع الأمور من أوابها، ويخاطب كل أحد بما يناسب له، ويدعوه بأقرب الطرق الموصلة إلى قبول قوله.

﴿واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي﴾ وكان في لسانه ثقل لا يكاد يفهم عنه الكلام، كما قاله المفسرون، كما قال الله عنه أنه قال: ﴿وأخي هارون هو أفصح مني لساناً﴾ فسأل الله أن يحل منه عقدة، يفقهوا ما يقول فيحصل المقصود التام من المخاطبة والمراجعة والبيان عن المعاني.

﴿واجعل لي وزيراً من أهلي﴾ أي: معبناً (٢) يعاونني، ويؤازرنني، ويساعدني على من أرسلت إليهم، وسأل أن يكون من أهله، لأنه من باب

(٢) في السخين: عوناً.

(١) زيادة من هامش: ب.



الأعداء لله والموسى، ويتربى في أولاده، ويكون قرة عين لمن رآه، ولهذا قال: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ حُبِّي مِنِّي﴾ فكل من رآه أحبه ﴿وَلَتَنْصَحْ عَلَى عَيْنِي﴾ ولتتربى على نظري وفي حفظي وكلامي، وأي: نظر وكفالة، أجل وأكمل، من ولاية البر الرحيم، القادر على إيصال مصالح عبده، ودفع المضار عنه! فلا يتقل من حالة إلى حالة، إلا والله تعالى هو الذي دبر ذلك لمصلحة

موسى، ومن حسن تدبيره، أن موسى لما وقع في يد عدوه، قلقت أمه قلقاً شديداً، وأصبح فؤادها فارغاً، وكادت تخبر به، لولا أن الله نبتها وربط على قلبها، ففي هذه الحالة، حرم الله على موسى المراضع، فلا يقبل ثدي امرأة قط، ليكون ماله إلى أمه فترضعه، ويكون عندها، مطمئنة ساكنة، قريرة العين، فجعلوا يعرضون عليه المراضع، فلا يقبل ثدياً، فجاءت أخت موسى، فقالت لهم: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾.

﴿فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفساً﴾ وهو القبطي، لما دخل المدينة وقت غفلة من أهلها، وجد رجلين يقتتلان، واحد من شيعة موسى، والآخر من عدوه قبطي ﴿فاستغاثه الذي من شيعة على الذي من عدوه فوكزه موسى ففقسى عليه﴾ فدعا الله وسأله المغفرة، فغفر له، ثم فر هارباً لما سمع أن المأطلسيه، يريدون قتله.

فنجاه الله من الغم من عقوبة الذنب، ومن القتل، ﴿وفتناك فتونا﴾ أي: اختبرناك، وبلوناك، فوجدناك مستقيماً في أحوالك أو نقلناك في أحوالك، وأطوارك، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه، ﴿فلبثت سنين في أهل مدين﴾ حين فر هارباً من فرعون وملئه، حين أرادوا قتله، فتوجه إلى مدين، ووصل إليها، وتزوج هناك، ومكث عشر سنين، أو ثمان سنين،

لينفر عنه، ويحتاج مع ذلك أيضاً، أن يتيسر له أمره، فيأتي البيوت من أبوابها، ويدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، يعامل الناس كلاً بحسب حاله، وتعام ذلك، أن يكون لمن هذه صفته، أعوان ووزراء، يساعدونه على مطلوبه، لأن الأصوات إذا كثرت، لا بد أن تؤثر، فلذلك سأل عليه الصلاة والسلام هذه الأمور فأعطيتها.

وإذا نظرت إلى حالة الأنبياء المرسلين إلى الخلق، رأيتهم بهذه الحال، بحسب أحوالهم خصوصاً، خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ، فإنه في الذروة العليا من كل صفة كمال، وله من شرح الصدر، وتيسير الأمر، وفصاحة اللسان، وحسن التعبير والبيان، والأعوان على الحق من الصحابة، فمن بعدهم، ما ليس لغيره.

﴿٣٧ - ٤١﴾ ﴿ولقد مننا عليك مرة أخرى \* إذ أوحينا إلى أمك ما يوحي \* أن أقدفيه في التابوت فاقذفه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له وألقيت عليك حبة مني ولتصنع على عيني \* إذ نمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتونا فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئناك على قدر بنا موسى \* واصطنعتك لنفسك﴾ لما ذكر منته على عبده ورسوله، موسى بن عمران، في الدين، والوحي، والرسالة، وإجابة سؤاله، ذكر نعمته عليه، وقت التربة، والتنقلات في أطواره، فقال: ﴿ولقد مننا عليك مرة أخرى﴾ حيث ألهمنا أمك أن تذفك في التابوت وقت الرضاع، خوفاً من فرعون، لأنه أمر بذيخ أبناء بني إسرائيل، فأخفته أمه، وخافت عليه خوفاً شديداً فذفته في التابوت، ثم ذفته في اليم، أي: شط نيل مصر، فأمر الله اليم، أن يلقيه في الساحل، وقيض أن يأخذه، أعدى

البر، وأحق ببر الإنسان قرابته، ثم عينه بسؤاله فقال: ﴿هارون أخي \* اشد به أزري﴾ أي: قوتي به، وشد به ظهري، قال الله: ﴿سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً﴾ ﴿وأشركه في أمري﴾ أي: في النبوة، بأن يجعله نبياً رسولاً، كما جعلتني.

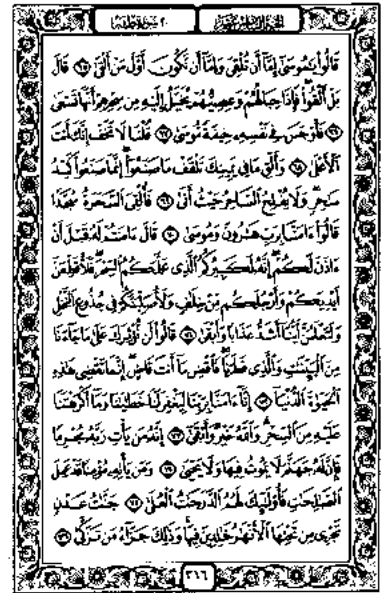
ثم ذكر الفائدة في ذلك فقال: ﴿كي تسبحك كثيراً وتذكرك كثيراً﴾ علم عليه الصلاة والسلام، أن مدار العبادات كلها والدين، على ذكر الله، فسأل الله أن يجعل أخاه معه، يتساعدان ويتعاونان على البر والتقوى، فيكثر منهما ذكر الله من التسبيح والتهايل، وغيره من أنواع العبادات.

﴿إنك كنت بنا بصيراً﴾ تعلم حالنا وضعفنا وعجزنا وانقارنا إليك في كل الأمور، وأنت أبصر بنا من أنفسنا وأرحم، فممن علينا بما سألناك، وأجب لنا فيما دعوناك.

فقال الله: ﴿قد أوتيت سؤالك يا موسى﴾ أي: أعطيت جميع ما طلبت، فسنشرح صدرك، ونيسر أمرك، ونحل عقدة من لسانك، يفقهوا قولك، ونشد عضدك بأخيك هارون، ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾.

وهذا السؤال من موسى عليه السلام، يدل على كمال معرفته بالله، وكمال فطنته ومعرفته للأمر، وكمال نصحه، وذلك أن الداعي إلى الله، المرشد للخلق، خصوصاً إذا كان المدعو من أهل العناد والتكبر والظلمانية<sup>(١)</sup>، يحتاج إلى سعة صدر، وحلم تام، على ما يصيبه من الأذى، ولسان فصيح، يتمكن من التعبير به عن ما يريد، ويقصده، بل الفصاحة والبلاغة لصاحب هذا المقام، من الأزم ما يكون، لسكثرة المراجعات والمراوضات، ولحاجته لتحسين الحق، وتزيينه بما يقدر عليه، ليحبيه إلى النفوس، وإلى تقبيح الباطل وتهجينه،





الدليل القاطع، عدل إلى المشاغبة،  
وحداد عن المقصود فقال لموسى: ﴿فما  
بالقرون الأولى﴾ أي: ما شأنهم،  
وما خيرهم؟ وكيف وصلت بهم  
الحال، وقد سبقونا إلى الإنكار  
والكفر، والظلم، والعناد، ولنا فيهم  
أسوة؟ فقال موسى: ﴿علمها عند ربى  
في كتاب لا يضل ربى ولا ينسى﴾  
أي: قد أحصى أعمالهم من خير  
وشر، وكتبه في كتاب، وهو اللوح  
المحفوظ، وأحاط به علماً وخبراً، فلا  
يضل عن شيء منها، ولا ينسى ما  
علمه منها.

ومضمون ذلك، أنهم قدموا إلى ما  
قدموا، ولاقوا أعمالهم، وسيجازون  
عليها، فلا معنى لسؤالك واستفهامك  
يا فرعون عنهم، فتلك أمة قد خلت،  
لها ما كسبت ولكم ما كسبتم، فإن كان  
الدليل الذي أوردناه عليك، والآيات  
التي أريناها، قد تحققت صدقها  
ويقينها، وهو الواقع، فانقد إلى الحق،  
ودع عنك الكفر والظلم، وكثرة  
الجدال بالباطل، وإن كنت قد شككت  
فيها أو رأيتها غير مستقيمة، فالطريق  
مفتوح وباب البحث غير مغلق، فرد  
الدليل بالدليل، والبرهان بالبرهان،  
ولن تجد لذلك سيلاً، ما دام الملوان.

كيف وقد أخبر الله عنه، أنه  
جحدوا مع استيقانها، كما قال تعالى:  
﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً  
وعلواً﴾ وقال موسى: ﴿لقد علمت ما  
أنزل هؤلاء إلا رب السماوات  
والأرض بصائر﴾ فعلم أنه ظالم في  
جداله، قصده العلو في الأرض.

ثم استطرده في هذا الدليل القاطع،  
بذكر كثير من نعمه وإحسانه  
الضروري، فقال: ﴿الذي جعل لكم  
الأرض مهداً﴾ أي: فراشاً بحالة  
تتمكنون من السكن فيها، والقرار،  
والبناء، والغراس، وإثارتها للازدراع  
وغيره، وذلكها لذلك، ولم يجعلها متعنة  
عن مصلحة من مصالحكم.

﴿وسلك لكم فيها سبلاً﴾ أي: نفذ  
لكم الطرق الموصلة، من أرض إلى  
أرض، ومن قطر إلى قطر، حتى كان  
الآدميون يتمكنون من الوصول إلى  
جميع الأرض بأسهل ما يكون،  
ويتنعمون بأسفارهم، أكثر مما يتنعمون  
بإقامتهم.

﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به  
أزواجا من نبات شتى﴾ أي: أنزل المطر  
﴿فأحيا به الأرض بعد موتها﴾ وأنبت  
بذلك جميع أصناف النوايت على  
اختلاف أنواعها، وتشتت أشكالها،  
وتباين أحوالها، فساقه، وقدره،  
ويسره، رزقاً لنا ولأعنامنا، ولولا ذلك  
لهلك من عليها من آدمي وحيوان،  
ولهذا قال: ﴿كلوا وارعوا أنعامكم﴾  
وسياقها على وجه الامتنان، ليدل ذلك  
على أن الأصل في جميع النوايت على  
الإباحة، فلا يحرم منهم إلا ما كان  
مضراً كالسموم ونحوه.

﴿إن في ذلك لآيات لأولي النهى﴾  
أي: لذوي العقول الرزينة، والأفكار  
المستقيمة على فضل الله وإحسانه،  
ورحمته، وسعة جوده، وتعام عنايته،  
وعلى أنه الرب العبود، المالك  
المحمود، الذي لا يستحق العبادة  
سواه، ولا الحمد والمدح والشأن، إلا  
من امتن بهذه النعم، وعلى أنه على كل  
شيء قدير، فكما أحيا الأرض بعد  
موتها، إن ذلك لمحيي الموتى.

وخص الله أولي النهى بذلك،  
لأنهم المنتفعون بها، الناظرون إليها نظر  
اعتبار، وأما من عداهم، فإنهم بمنزلة  
البهائم السارحة، والأنعام السائمة، لا  
ينظرون إليها نظر اعتبار، ولا تنفذ  
بصائرهم إلى المقصود منها، بل حظهم  
حظ البهائم، يأكلون ويشربون،  
وقلوبهم لاهية، وأجسامهم معرضة.  
﴿وكأين من آية في السماوات  
والأرض يمدرون عليها وهم عنها  
معرضون﴾.

ولما ذكر كرم الأرض، وحسن

أي: قال فرعون لموسى على وجه  
الإنكار: ﴿فمن ربكما يا موسى﴾  
فأجاب موسى بجواب شاف كاف  
واضح، فقال: ﴿ربنا الذي أعطى كل  
شيء خلقه ثم هدى﴾ أي: ربنا الذي  
خلق جميع المخلوقات، وأعطى كل  
مخلوق خلقه اللائق به، الدال على  
حسن صنعه من خلقه، من كبر الجسم  
وصغره وتوسطه، وجميع صفاته، ﴿ثم  
هدى﴾ كل مخلوق إلى ما خلقه له،  
وهذه الهداية العامة<sup>(١)</sup> المشاهدة في  
جميع المخلوقات فكل مخلوق، تجده  
يسعى لما خلق له من المنافع، وفي دفع  
المضار عنه، حتى إن الله تعالى أعطى  
الحيوان البهيم من العقل، ما يتمكن<sup>(٢)</sup>  
به على ذلك.

وهذا كقوله تعالى: ﴿الذي أحسن  
كل شيء خلقه﴾ فالذي خلق  
المخلوقات، وأعطاهما خلقها الحسن،  
الذي لا تقترح العقول فوق حسنه،  
وهدها لمصالحها، هو الرب على  
الحقيقة، فإنكاره إنكار لأعظم الأشياء  
وجوداً، وهو مكابرة ومجاهرة  
بالكذب، فلو قدر أن الإنسان، أنكر  
من الأمور المعلومة ما أنكر، كان  
إنكاره لرب العالمين أكبر من ذلك،  
ولهذا لما لم يمكن فرعون، أن يعاند هذا

(١) في ب: الكاملة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ما يتمكن.

شكرها لما ينزله الله عليها من المطر، وأنها يباذن ربها، تخرج النبات المختلف الأنواع، أخبر أنه خلقنا منها، وفيها يعيدنا إذا متنا فدفنا فيها، ومنها يخرجنا تارة أخرى، فكما أوجدنا منها من العدم، وقد علمنا ذلك وتحققناه، فسيعيدنا بالبعث منها بعد موتنا، ليجازينا بأعمالنا التي عملناها عليها.

وهذان دليلان على إعادة عقليان واضحيان: إخراج النبات من الأرض بعد موتها، وإخراج المكلفين منها في إيجادهم.

﴿٥٦ - ٦١﴾ «ولقد أرى آياتنا كلها فكذب وأبى \* قال أجتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى \* فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى \* قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشركم ضحى \* فتولى فرعون فجمع كيد ثم أتى \* قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افتري \* يخبر تعالى، أنه أرى فرعون من الآيات والعبر والقواطع، جميع أنواعها العيانية، والأفقية والنفسية، فما استقام ولا ارعوى، وإنما كذب وتولى، كذب الخبير، وتولى عن الأمر والنهي، وجعل الحق باطلاً، والباطل حقاً، وجادل بالباطل ليضل الناس، فقال: «أجتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك» زعم أن هذه الآيات التي أراه إياها موسى، سحر وغمويه، المقصود منها إخراجهم من أرضهم، والاستيلاء عليها، ليكون كلامه مؤثراً في قلوب قومه، فإن الطباع تميل إلى أوطانها، ويصعب عليها الخروج منها ومفارتها.

فأخبرهم أن موسى هذا قصده، ليغضوه، ويسموا في محاربتهم، فلنأتينك بسحر مثل سحرك فأمهلتنا، واجعل لنا «موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى» أي: مستو علمنا وعلمك به، أو مكاناً مستوياً معتدلاً ليمكن من رؤية ما فيه.

فقال موسى: «موعدكم يوم

الزينة» وهو عيدهم، الذي يتفرغون فيه ويقطعون شواغلهم، «وأن يحشركم الناس ضحى» أي: يجتمعون كلهم في وقت الضحى، وإنما سأل موسى ذلك، لأن يوم الزينة ووقت الضحى منه يحصل فيه من كثرة الاجتماع، ورؤية الأشياء على حقائقها، ما لا يحصل في غيره، «فتولى فرعون فجمع كيد» أي: جميع ما يقدر عليه، مما يكيد به موسى، فأرسل في مدائنه من يحشركم السحرة الماهرين في سحرم، وكان السحر إذ ذاك متوفراً، وعلمه علماء مرغوباً فيه، فجمع خلقاً كثيراً من السحرة، ثم أتى كل منهما للموعد، واجتمع الناس للموعد.

فكان الجمع حافلاً، حضره الرجال والنساء، والملا، والأشراف، والعوام، والصغار، والكبار، وحضوا الناس على الاجتماع، وقالوا للناس: «هل أنتم مجتمعون \* لعلمنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين» فحين اجتمعوا من جميع البلدان، وعظمهم موسى عليه السلام، وأقام عليهم الحجة، وقال لهم: «ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب» أي: لا تنصروا ما أنتم عليه من الباطل بسحركم وتغالبون الحق، وتفترون على الله الكذب، فيستأصلكم بعذاب من عنده، ويغيب سمعكم وافتراؤكم، فلا تدركون ما تطلبون من النصر والجاه عند فرعون وملئه، ولا تسلمون من عذاب الله، وكلام الحق لا بد أن يؤثر في القلوب، لا جرم ارتفع الخصام والنزاع بين السحرة لما سمعوا كلام موسى، وارتبكوا، ولعل من جملة نزاعهم، الاشتباه في موسى، هل هو على الحق أم لا؟ ولكن هم إلى الآن، ما تم أمرهم، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، «لهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة» فحيث أسروا فيما بينهم النجوى، وأنهم يتفقون على مقالة واحدة، لينجحوا في مقالهم وفعالهم، وليتمسك الناس بدينهم، والنجوى التي أسروها فسرها بقوله: «قالوا إن هذان لساحران يريدان أن

يخرجاكم من أرضكم بسحرهما» كمقالة فرعون السابقة، فإما أن يكون ذلك توافقاً من فرعون والسحرة على هذه المقالة من غير قصد، وإما أن يكون تلقيناً منه لهم مقالته، التي صمم عليها وأظهرها للناس، وزادوا على قول فرعون أن قالوا: «ويذهب بطريقتكم المثل» أي: طريقة السحر حسدكم عليها، وأراد أن يظهر عليكم، ليكون له الفخر والصيت والشهرة، ويكون هو المقصود بهذا العلم، الذي أشغلتهم زمانكم فيه، ويذهب عنكم ما كنتم تأكلون بسببه، وما يتبع ذلك من الرياسة، وهذا حض من بعضهم على بعض على الاجتهاد في مغالبتهم، ولهذا قالوا: «فأجمعوا كيدكم» أي: أظفروه دفعة واحدة متظاهرين متساعدين فيه، متناصرين، متفقاً رأيكم وكلمتكم، «ثم اتوا صفاً» ليكون أمكن لعملكم، وأهيب لكم في القلوب، ولئلا يترك بعضهم بعض مقدوره من العمل، واعلموا أن من أفلح اليوم ونجح وغلب غيره، فإنه المفلح الفائز، فهذا يوم له ما بعده من الأيام، فله ذرهم ما أصلهم في باطلهم، وأشدهم فيه، حيث أتوا بكل سبب وسيلة وممكن، ومكيدة يكيدون بها الحق، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ويظهر الحق على الباطل، فلما تمت مكيدتهم، وانحصر مقصدهم، ولم يبق إلا العمل «قالوا يا موسى إما أن تلقي عصاك» وإما أن تكون أول من ألقى خيره، موهمين أنهم على جزم من ظهورهم عليه بأي: حالة كانت، فقال لهم موسى: «بل القوا» فألقوا حبالهم وعصيتهم، «فإذا حبالهم وعصيتهم يخيل إليه» أي: إلى موسى «من سحرم» البليغ «أنها تسعى» أي: أنها حيات تسعى فلما خيل إلى موسى ذلك، «أوجس في نفسه خيفة موسى» كما هو مقتضى الطبيعة البشرية، وإلا فهو جازم بوعد الله ونصره، «قلنا» له تثبيتاً وتطميناً: «لا تخف إنك أنت الأعلى» عليهم، أي: ستعلم عليهم وتفهرهم، ويذلوها

لك ويخضعوا .

والمنزلة عند الغلبة، وهم حرصوا غاية الحرص، وكادوا أشد الكيد، على غلبتهم لموسى، وكان منهم ما كان، فهل يمكن أن يتصور مع هذا أن يكونوا دبروا هم وموسى واتفقوا على ما صدر؟ هذا من عمل المحال، ثم توعد فرعون السحرة فقال:

﴿فلا تقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ كما يفعل بالحارب الساعي بالفساد، يقطع يده اليمنى، ورجله اليسرى، ﴿ولأصلبنكم في جذوع النخل﴾ أي: لأجل أن تشتهروا وتحتزوا، ﴿ولتعلمن أننا أشد عذاباً وأبقي﴾ يعني بزعمه هو أو الله، وأنه أشد عذاباً من الله وأبقى، قلباً للحقائق، وترهيباً لمن لا عقل له .

ولهذا لما عرف السحرة الحق، ورزقهم الله من العقل ما يدركون به الحقائق، أجابوه بقولهم:

﴿لئن نؤثرك على ما جاءنا من البينات﴾ أي: لئن نختارك وما وعدتنا به من الأجر والتقريب، على ما أرانا الله من الآيات البينات الدالات على أن الله هو الرب المعبود وحده، المعظم المجلل وحده، وأن ما سواه باطل، ونؤثرك على الذي فطرنا وخلقنا، هذا لا يكون ﴿فاقض ما أنت قاض﴾ بما أوعدتنا به من القطع، والصلب، والعذاب .

﴿إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾ أي: إنما توعدنا به غاية ما يكون في هذه الحياة الدنيا، ينتقضي ويذول ولا يضرنا، بخلاف عذاب الله، لمن استمر على كفره، فإنه دائم عظيم .

وهذا كأنه جواب منهم، لقوله: ﴿ولتعلمن أننا أشد عذاباً وأبقي﴾ وفي هذا الكلام، من السحرة، دليل على أنه ينبغي للعاقل، أن يوازن بين لذات الدنيا، ولذات الآخرة، وبين عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة .

﴿إننا أننا برينا ليغفر لنا خطايانا﴾ أي: كفرنا ومعاصينا، فإن الإيمان مكفر للسيئات، والتوبة تجب ما قبلها، وقولهم، ﴿وما أكرهتنا عليه من السحر﴾ الذي عارضنا به الحق، هذا دليل على أنهم غير مختارين في عملهم

﴿وأتق ما في يمينك﴾ أي: عصاك ﴿تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ أي: كيدهم ومكرهم، ليس بشمر لهم ولا ناجح، فإنه من كيد السحرة، الذين يموهون على الناس، ويلبسون الباطل، ويخيلون أنهم على الحق، فألقى موسى عصاه، فتلقفت ما صنعوا كله وأكلته، والناس ينظرون لذلك الصنيع، فعلم السحرة علماً يقيناً أن هذا ليس بسحر، وأنه من الله، فبادروا للإيمان .

﴿فألقي السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون﴾ فوقع الحق وظهر وسطع، وبطل السحر والمكر والكيد، في ذلك المجمع العظيم .

فصارت بيعة ورحمة للمؤمنين، وحنة على المعاندين ف ﴿قال﴾ فرعون للسحرة: ﴿أستتم له قبل أن أذن لكم﴾ أي: كيف أقدمتم على الإيمان من دون مراجعة مني ولا إذن؟

استغرب ذلك منهم، لأدبهم معه، وذللهم، وانقيادهم له في كل أمر من أمورهم، وجعل هذا من ذلك .

ثم استلج فرعون في كفره وطغيانه بعد هذا البرهان، واستخف عقول قومه، وأظهر لهم أن هذه الغلبة من موسى للسحرة، ليس لأن الذي معه الحق، بل لأنه تمالأ هو والسحرة، ومكروا، ودبروا أن يخرجوا فرعون وقومه من بلادهم، فقبل قومه هذا المكر منه، وظنوه صدقاً ﴿فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ مع أن هذه المقالة التي قالها، لا تدخل عقل من له أدنى مسكة من عقل ومعرفة بالواقع، فإن موسى أتى من مدين وحيداً، وحين أتى لم يجتمع بأحد من السحرة ولا غيرهم، بل يبادر إلى دعوة فرعون وقومه، وأراهم الآيات، فأراد فرعون أن يعارض ما جاء به موسى فسعى ما أمكنه، وأرسل في مدائنه من يجمع له كل ساحر عليم .

فجاءوا إليه، ووعدهم الأجر

المقدم، وإنما أكرههم فرعون إكراهاً .

والظاهر - والله أعلم - أن موسى لما وعظهم كما تقدم في قوله: ﴿ويلكم بعباد﴾ أثر معهم، ووقع منهم موقفاً كبيراً، ولهذا تنازعوا بعد هذا الكلام والموعظة، ثم إن فرعون ألزمهم ذلك، وأكرههم على المكر الذي أجروه، ولهذا تكلموا بكلامه السابق قبل إتيانهم، حيث قالوا: ﴿إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما﴾ فجروا على ما سئله لهم، وأكرههم عليه، ولعل هذه التكتة التي قامت بقلوبهم من كراهتهم لمعارضة الحق بالباطل وفعلهم، ما فعلوا على وجه الإغماص، هي التي أثرت معهم، ورحمهم الله بسببها، ووفقه للإيمان والتوبة، ﴿والله خير﴾ بما وعدتنا من الأجر والمنزلة والجاه، وأبقى ثواباً وإحساناً لا ما يقول فرعون: ﴿ولتعلمن أننا أشد عذاباً وأبقى﴾ يريد أنه أشد عذاباً وأبقى .

وجميع ما أتى من قصص موسى مع فرعون، يذكر الله فيه إذا أتى على قصة السحرة، أن فرعون توعدهم بالقطع والصلب، ولم يذكر أنه فعل ذلك، ولم يأت في ذلك حديث صحيح، والجزم بوقوعه أو عدمه، يتوقف على الدليل، والله أعلم بذلك وغيره، ولكن توعدته إياهم بذلك مع اقتداره، دليل على وقوعه، ولأنه لو لم يقع لذكره الله، ولاتفاق الناقلين على ذلك .

﴿٧٤ - ٧٦﴾ ﴿إنه من يأتي ربه مجرمًا فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى﴾ \* ومن يأتيه مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى \* جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدون فيها وذلك جزاء من تزكى \* يخبر تعالى أن من أتاه، وقدم عليه مجرمًا - أي: وصفه الجرم من كل وجه، وذلك يستلزم الكفر - واستمر على ذلك حتى مات، فإن له نار جهنم، الشديد نكالها، العظيمة أغلالها، البعيد قعرها، الأليم حرها وقرها، التي فيها من العقاب ما يذيب

الأكباد والقلوب، ومن شدة ذلك أن المعذب فيها لا يموت ولا يجيأ، لا يموت فيستريح، ولا يجيأ حياة يتلذذ به، وإنما حياته محسوة بعذاب القلب والروح والبدن، الذي لا يقدر قدره، ولا يفتر عنه ساعة، يستغيث فلا يثاغ، ويدعو فلا يستجاب له.

نعم، إذا استغاث، أغيث بماء كالمهل يشوي الوجوه، وإن دعا، أجيب بـ ﴿أخسروا فيها ولا تكلمون﴾. ومن يات ربه مؤمناً به مصداقاً لرسله، متعباً لكتبه ﴿قد عمل الصالحات﴾ الواجبة والمستحبة، ﴿فأولئك لهم الدرجات العلى﴾ أي: المنازل السعاليات، وفي الغرف المزخرفات، واللذات المتواصلات، والأنهار السارحات، والخلود الدائم، والسرور العظيم، فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿وذلك﴾ الشواب، ﴿جزاء من تزكى﴾ أي: تطهر من الشرك والكفر والسوق والعصيان، إما أن لا يفعلها بالكلية، أو يتوب بما فعله منها، وزكى أيضاً نفسه، ونماها بالإيمان والعمل الصالح، فإن للتزكية معنيين، التنقية، وإزالة الخبث، والزيادة بحصول الخير، وسميت الزكاة زكاة، لهذين الأمرين.

﴿٧٧ - ٧٩﴾ ﴿ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فأضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى﴾ فأتىهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم \* وأضل فرعون قومه وما هدى ﴿ لما ظهر موسى بالبراهين على فرعون وقومه، مكث في مصر يدعوهم إلى الإسلام، ويسعى في تخليص بني إسرائيل من فرعون وعذابه، وفرعون في عتو ونفور، وأمره شديد على بني إسرائيل ويريه الله من الآيات والعبر، ما قصه الله علينا

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي هَارُونَ  
الْحَرِيسَ وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٧﴾ وَأَسْرَىٰ  
بِعَثْرَةٍ مِّنْهُمُ الْيَتِيمَ الَّذِي عَشَّرْنَا ﴿٧٨﴾ وَأَسْرَىٰ  
قَوْمَهُ غُصَّةً ﴿٧٩﴾ وَيَتَذَكَّرُ فِي لَيْلٍ مِّنَ اللَّيْلِ  
وَيَسْأَلُ رَبَّهُ عَن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَيَخْلُقُ مَا يَشَاءُ  
وَيَعْلَمُ مَا فِي سُدُورِهِمْ ﴿٨٠﴾ وَتِلْكَ آيَاتُ  
الَّذِي هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨١﴾ وَتِلْكَ  
آيَاتُ الَّذِي هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ  
آيَاتُ الَّذِي هُوَ الْغَنِيُّ الرَّحِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتِلْكَ  
آيَاتُ الَّذِي هُوَ الْغَنِيُّ الرَّحِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتِلْكَ  
آيَاتُ الَّذِي هُوَ الْغَنِيُّ الرَّحِيمُ ﴿٨٥﴾ وَتِلْكَ  
آيَاتُ الَّذِي هُوَ الْغَنِيُّ الرَّحِيمُ ﴿٨٦﴾ وَتِلْكَ  
آيَاتُ الَّذِي هُوَ الْغَنِيُّ الرَّحِيمُ ﴿٨٧﴾ وَتِلْكَ  
آيَاتُ الَّذِي هُوَ الْغَنِيُّ الرَّحِيمُ ﴿٨٨﴾ وَتِلْكَ  
آيَاتُ الَّذِي هُوَ الْغَنِيُّ الرَّحِيمُ ﴿٨٩﴾ وَتِلْكَ  
آيَاتُ الَّذِي هُوَ الْغَنِيُّ الرَّحِيمُ ﴿٩٠﴾

والضلال، وعدم الامتداء بهدي الله، ولهذا قال تعالى: ﴿وأضل فرعون قومه﴾ بما زين لهم من الكفر، وتهجين ما أتى به موسى، واستخفافه إياهم، وما هداهم في وقت من الأوقات، فأوردتهم موارد الغي والضلال، ثم أوردتهم مورد العذاب والنكال.

﴿٨٠ - ٨٢﴾ ﴿يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى \* كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطفوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يجمل عليه غضبي فقد هوى \* وإني لفسفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾ يذكّر تعالى بني إسرائيل بشفقة العظيمة عليهم بإهلاك عدوهم، ومواعيده لموسى عليه السلام بجانب الطور الأيمن، لينزل عليه الكتاب، الذي فيه الأحكام الجليلة، والأخبار الجميلة، فتتم عليهم النعمة الدينية، بعد النعمة الدنيوية، ويذكر منته أيضاً عليهم في النبي، بإنزال المن والسلوى، والرزق الرغد الهني الذي يحصل لهم بلا مشقة، وأنه قال لهم: ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ أي: واشكروه على ما

(١) هنا زيادة في ب: أن يواعد بني إسرائيل ويبدو أنها مشطوبة في أ.

(٢) كذا في ب، وفي أ: الكلمة غير واضحة.

(٣) كذا في ب، وفي أ: بهلاكهم.



ولا يُخَافُ، ولا يُدْعَى إلا هو، لأنه الكامل الذي له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، المحيط علمه بجميع الأشياء، الذي ما من نعمة بالعباد إلا منه، ولا يدفع سوء إلا هو، فلا إله إلا هو، ولا معبود سواه.

﴿٩٩ - ١٠١﴾ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد أتيناك من لدنا ذكراً \* من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً \* خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حلالاً \* يمتن الله تعالى على نبيه ﷺ بما قصه عليه من أنباء السابقين، وأخبار السالفين، كهذه القصة العظيمة، وما فيها من الأحكام وغيرها، التي لا ينكرها أحد من أهل الكتاب، فأنت لم تدرس أخبار الأولين، ولم تتعلم ممن دراهم، فأخبارك بالحق اليقين من أخبارهم، دليل على أنك رسول الله حقاً، وما جئت به صدق، ولهذا قال: ﴿وقد أتيناك من لدنا﴾ أي: عطية نقيصة، ومنحة جزيلة من عندنا. ﴿ذكراً﴾ وهو هذا القرآن الكريم، ذكر للأخبار السابقة واللاحقة، وذكر يتذكر به ما لله تعالى من الأسماء والصفات الكاملة، ويتذكر به أحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء، وهذا مما يدل على أن القرآن مشتمل على أحسن ما يكون من الأحكام، التي تشهد العقول والفطر بحسنها وكمالها، ويذكر هذا القرآن ما أودع الله فيها، وإذا كان القرآن ذكراً للرسول ولأمته، فيجب تلقينه بالقبول والتسليم والانقياد والتعظيم، وأن ينتدى بنوره إلى الصراط المستقيم، وأن يقبلوا عليه بالتعلم والتعليم.

وأما مقابلته بالإعراض، أو ما هو أعظم منه من الإنكار، فإنه كفر لهذه النعمة، ومن فعل ذلك، فهو مستحق للعقوبة، ولهذا قال: ﴿من أعرض عنه﴾ فلم يؤمن به، أو تهاون بأوامره ونواهي، أو بتعلم معانيه الواجبة فإنه يحمل يوم القيامة وزراً \* وهو ذنبه، الذي بسببه أعرض عن القرآن، وأولاه الكفر والهجران، ﴿خالدين فيه﴾ أي:

يا سامري \* قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي \* قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس إليك الذي ظلت عليه عاكفاً لتحرقته ثم لنتسفته في اليم نفساً \* أي: ما شأنك يا سامري، حيث فعلت ما فعلت؟ فقال: ﴿بصرت بما لم يبصروا به﴾ وهو جبريل عليه السلام، على فرس رآه وقت خروجهم من البحر، وغرق فرعون وجنوده على ما قاله المفسرون، فقبضت قبضة من أثر حافر فرسه، فنبذتها على العجل، ﴿وكذلك سولت لي نفسي﴾ أن أقبضها، ثم أنبذها، فكان ما كان، فقال له موسى: ﴿فاذهب﴾ أي: تباعد عني واستأخر مني ﴿فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس﴾ أي: تعاقب في الحياة عقوبة، لا يدنو منك أحد، ولا يمسك أحد، حتى إن من أراد القرب منك، قلت له: لا تمسني، ولا تقرب مني، عقوبة على ذلك، حيث مس ما لم يمس غيره، وأجرى ما لم يجره أحد، ﴿وإن لك موعداً لن تخلفه﴾ فتجازي بعملك، من خير وشر، ﴿وانظر إلى الهلك الذي ظلت عليه عاكفاً﴾ أي: العجل ﴿لتحرقته ثم لنتسفته في اليم نفساً﴾ ففعل موسى ذلك، فلو كان إلهاً، لامتنع بمن يريده بأذى ويسعى له بالإتلاف، وكان قد أشرب العجل في قلوب بني إسرائيل، فأراد موسى عليه السلام إتلافه وهم ينظرون، على وجه لا تمكن إعادته بالإحراق والسحق وذريه في اليم ونسفه، ليزول ما في قلوبهم من حبه، كما زال شخصه، ولأن في إبقائه محنة، لأن في النفوس أقوى داع إلى الباطل، فلما تبين لهم بطلانه، أخبرهم بمن يستحق العبادة وحده لا شريك له، فقال:

﴿٩٨﴾ ﴿إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً﴾ أي: لا معبود إلا وجهه الكريم، فلا يؤله، ولا يُعْبَدُ، ولا يُرْجَى

على بعض الأشياء، من النفع والدفع، بإقدار الله لهم.

﴿٩٠ - ٩٤﴾ ﴿ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري \* قالوا لن نبوح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى \* قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا \* ألا تتبين أفعصيت أمري \* قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي﴾ أي: إن اتخذهم العجل، ليسوا معذورين فيه، فإنه وإن كانت عرضت لهم الشبهة في أصل عبادته، فإن هارون قد نهاهم عنه، وأخبرهم أنه فتنة، وأن ربهم الرحمن، الذي منه النعم الظاهرة والباطنة، الدافع للنقم وأنه أمرهم أن يتبعوه ويعتزلوا العجل، فأبوا وقالوا: ﴿لن نبوح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى﴾

فأقبل موسى على أخيه لاثماً له، وقال: ﴿يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبين﴾ فتخبرني لأبادر للرجوع إليهم؟ ﴿أفصصت أمري﴾ في قولي ﴿اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾.

فأخذ موسى برأس هارون ولحيته، يجره من الغضب والعتب عليه، فقال هارون: ﴿يا ابن أم﴾ تريقق له، وإلا فهو شقيقه ﴿لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي﴾ أمرتني أن أخلفك فيهم، فلو تبعتك، لتركت ما أمرتني بلزومه وخشيت لاثمتك، و ﴿أن تقول فرقت بين بني إسرائيل﴾ حيث تركتهم، وليس عندهم راع ولا خليفة، فإن هذا يفرقهم ويشتت شملهم، فلا تجعلني مع القوم الظالمين، ولا تشمت فينا الأعداء، فندم موسى على ما صنع بأخيه، وهو غير مستحق لذلك ف ﴿قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين﴾ ثم أقبل على السامري.

﴿٩٥ - ٩٧﴾ ف ﴿قال فما خطبك



في وزرهم، لأن العذاب هو نفس الأعمال، تنقلب عذاباً على أصحابها، بحسب صغرها وكبرها.

﴿وساء لهم يوم القيامة حملاً﴾ أي: بس الحمل الذي يحملونه، والعذاب الذي يعذبونه يوم القيامة، ثم استطرد، فذكر أحوال يوم القيامة وأهواله فقال:

﴿١٠٢ - ١٠٤﴾ «يوم ينفخ في الصور ونحشر الجرمين يومئذ زرقاً \* يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً \* نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً»

أي: إذا نفخ في الصور وخرج الناس من قبورهم، كُلُّ على حسب حاله، فالمتقون يحشرون إلى الرحمن وفداً، والجرمون يحشرون زرقاً لأنهم من الخوف والقلق والعتس، يتناجون بينهم، ويتخافتون في قصر مدة الدنيا، وسرعة الآخرة، فيقول بعضهم: ما لبثتم إلا عشرة أيام، ويقول بعضهم غير ذلك، والله يعلم تخافتهم، ويسمع ما يقولون ﴿إذ يقول أمثلهم طريقة﴾ أي: أعدلهم وأقربهم إلى التقدير ﴿إن لبثتم إلا يوماً»

والمقصود من هذا، الندم العظيم، كيف ضيعوا الأوقات القصيرة، وقطعوا ساهين لاهين، معرضين عما ينفعهم، مقبلين على ما يضرهم، فها قد حضر الجزاء، وحق الوعيد، فلم يبق إلا الندم، والدعاء بالويل والثبور.

كما قال تعالى: ﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين \* قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين \* قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون﴾.

﴿١٠٥ - ١١٢﴾ «ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً \* فيدورها قاعاً صاففاً \* لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً \* يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له وخشمت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً \* يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً \* يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً \* وعنت الوجوه

للحجي القيوم وقد خاب من حمل ظلماً \* ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾ يتغير تعال عن أهوال القيامة، وما فيها من الزلازل والقتل، فقال: ﴿ويسألونك عن الجبال﴾ أي: ماذا يصنع بها يوم القيامة، وهل تبقى بحالها أم لا؟ ﴿فقل ينسفها ربي نسفاً﴾ أي: يزيلها ويقلعها من أماكنها فتكون كالعجين وكالرمل، ثم يدكها فيجعلها هباء منبثاً، فتضمحل وتلاشى، ويسويها بالأرض، ويعمل الأرض قاعاً صاففاً، مستوية لا ترى فيه أيها الناظر عوجاً، هذا من تمام استوائها ﴿ولا أمناً﴾ أي: أودية وأماكن منخفضة، أو مرتفعة فتبرز الأرض، وتنتسج للخلائق، ويمدها الله مذ الأديم، فيكونون في موقف واحد، يسمعون الداعي، وينفذهم البصر، ولهذا قال:

﴿يومئذ يتبعون الداعي﴾ وذلك حين يبعثون من قبورهم ويقومون منها، يدعوهم الداعي إلى الحضور والاجتماع للموقف، فيتبعونه مهطعين إليه، لا يلتفتون عنه، ولا يرجعون يمنة ولا يسرة، وقوله: ﴿لا عوج له﴾ أي: لا عوج لدعوة الداعي، بل تكون دعوته حقاً وصدقاً، لجميع الخلق، يسمعون جميعهم، ويصبح بهم أجمعين، فيحضرون لموقف القيامة، خاشعة أصواتهم للرحمن، ﴿فلا تسمع إلا همساً﴾ أي: إلا وطء الأقدام، أو المخافتة سراً بتحريك الشفتين فقط، يملكهم الخشوع والسكون والإنصات، انتظاراً لحكم الرحمن فيهم، وتعتو وجوههم، أي: تذل وتخضع، فترى في ذلك الموقف العظيم، الأغنياء والفقراء، والرجال والنساء، والأحرار والأرقاء، والملوك والسوقة، ساكتين منصتين، خاشعة أبصارهم، خاضعة رقابهم، جاثين على ركبهم، عانية وجوههم، لا يدرون ماذا ينفصل كل منهم به، ولا ماذا

يفعل به، قد اشتغل كُلُّ بنفسه وشأنه، عن أبيه وأخيه، وصديقه وحبيبه ﴿لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ فحيثُذَّ يُحكَّم فيهم الحاكم العدل الديان، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بالحرمان.

والأمل بالرب الكريم، الرحمن الرحيم، أن يري الخلائق منه، من الفضل والإحسان، والعفو والصفح والغفران، ما لا تعبر عنه الألسنة، ولا تتصوره الأفكار، ويتطلع لرحمته إذ ذاك جميع الخلق لما يشاهدونه [فيختص المؤمنون به ورسله بالرحمة] <sup>(١)</sup>، فإن قيل: من أين لكم هذا الأمل؟ وإن شئت قلت: من أين لكم هذا العلم بما ذكر؟

قلنا: لما نعلمه من غلبة رحمته لغضبه، ومن سعة جوده، الذي عم جميع البرايا، ومما نشاهده في أنفسنا وفي غيرنا، من النعم المتواترة في هذه الدار، وخصوصاً في فصل القيامة، فإن قوله: ﴿وخشمت الأصوات للرحمن﴾ ﴿إلا من أذن له الرحمن﴾ مع قوله ﴿الملك يومئذ الحق للرحمن﴾ مع قوله ﷺ: ﴿إن لله مشة رحمة، أنزل لعباده رحمة، بها يتراحمون ويتعاطفون، حتى إن البهيمة ترفع حافرها عن ولدها خشية أن تطأه﴾ - أي: من الرحمة المودعة في قلبها، فإذا كان يوم القيامة، ضمَّ هذه الرحمة إلى تسع وتسعين رحمة، فرحم بها العباد.

مع قوله ﷺ: ﴿لله أرحم عباده من الوالدة بولدها﴾، فقل ما شئت عن رحمته، فإنها فوق ما تقول، وتصور ما شئت، فإنها فوق ذلك، فسبحان من رحم في عدله وعقوبته، كما رحم في فضله وإحسانه ومثوبته، وتعالى من وسعت رحمته كل شيء، وعم كرمه كل حي، وجل من غنَّي عن عباده، رحيم بهم، وهم مفتقرون إليه على الدوام، في جميع أحوالهم، فلا غنى لهم عنه طرفة عين.

وقوله: ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا



يجبر تعالى، أنه أمر آدم وإبليس أن يبصلا إلى الأرض، وأن يتخذوا آدم ربهم، وبنيه<sup>(١)</sup> الشيطان عدوا لهم، فيأخذوا الخذر منه، ويُعدّوا له عُذته ويحاربوه، وأنه سينزل عليهم كتاباً، ويرسل إليهم رسلاً يبينون لهم الطريق المستقيم الموصلة إليه وإلى جنته، ويحذرونهم من هذا العدو المبين، وأنهم أي: وقت جاءهم ذلك الهدى، الذي هو الكتاب والرسول، فإن من اتبعه اتبع ما أمر به، واجتنب ما نهى عنه، فإنه لا يضل في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يشقى فيهما، بل قد هدي إلى صراط مستقيم، في الدنيا والآخرة، وله السعادة والأمن في الآخرة.

وقد نفي عنه الخوف والحزن في آية أخرى، لقوله: ﴿فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾. واتباع الهدى، بتصديق الخبر، وعدم معارضته بالشبه، وامتنال الأمر بأن لا يعارضه بشبهة.

﴿ومن أعرض عن ذكري﴾ أي: كتابي الذي يتذكر به جميع المطالب العالية، وأن يتركه على وجه الإعراض عنه، أو ما هو أعظم من ذلك، بأن يكون على وجه الإنكار له، والكفر به ﴿فإن له معيشتة ضئيلة﴾ أي: فإن جزاءه، أن تجعل معيشتة ضئيلة مشقة، ولا يكون ذلك إلا عذاباً.

وفسرت المعيشة الضئيلة بعذاب القبر، وأنه يضيق عليه قبره، ويحصر فيه ويعذب، جزاء لإعراضه عن ذكر ربه، وهذه إحدى الآيات الدالة على عذاب القبر. والثانية قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم﴾ الآية. والثالثة قوله: ﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر﴾. والرابعة قوله عن آل فرعون: ﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشيا﴾ الآية.

والذي أوجب لمن فسرها بعذاب القبر فقط من السلف، وقصرها على ذلك - والله أعلم - آخر الآية،

التعب والنصب، ولكنه نهاه عن أكل شجرة معينة فقال: ﴿ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ فلم يزل الشيطان يسول لهما، ويزين أكل الشجرة، ويقول: ﴿هل أدلك على شجرة الخلد﴾ أي: الشجرة التي من أكل منها خلد في الجنة. ﴿وملك لا يبلى﴾ أي: لا ينقطع إن أكلت منها، فإنه بصورة ناصح، وتلطف له في الكلام، فاعتبر به آدم، وأكلا من الشجرة فسقط في أيديهما، وسقطت كسوتهما، واتضح معصيتهما، وبدا لكل منهما سواة الآخر، بعد أن كانتا مستورين، وجعلا بمخصفاً على أنفسهما من ورق أشجار الجنة ليسترا بذلك، وأصابهما من الخجل ما الله به عليم.

﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ فبادرا إلى التوبة والإنابة، وقالوا: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ فاجتبه ربه، واختاره، ويسر له التوبة ﴿فتاب عليه وهدى﴾ فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها، ورجع كيد العدو عليه، وبطل مكره، فتمت النعمة عليه وعلى ذريته، ووجب عليهم القيام بها والاعتراف، وأن يكونوا على حذر من هذا العدو المرابط الملازم لهم، ليلاً ونهاراً ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليرجمهما سواء﴾ أي: إنهما إله برآكهم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون.

﴿١٢٣ - ١٢٧﴾ قال الهبط منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فيما يأتيكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى \* ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضئيلة ونحشره يوم القيامة أعمى \* قال رب لم حشرني أعمى وقد كنت بصيراً \* قال كذلك أتتك آياتنا فتستيتها وكذلك اليوم تنسى \* وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه وللعذاب الآخرة أشد وأبقى \*



لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى \* إن لك ألا تجوع فيها ولا تعمرى \* وأنك لا تظلم فيها ولا تضحي \* فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى \* فأكلا منها فبدت لهما سواعهما وطفقا بمخصفاً عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى \* ثم اجتبه ربه فتاب عليه وهدى \*

أي: لما أكمل خلق آدم بيده، وعلمه الأسماء، وفضله، وكرمه، أمر الملائكة بالسجود له، إكراماً وتعظيماً وإجلالاً، فبادروا بالسجود ممتثلين، وكان بينهم إبليس، فاستكبر عن أمر ربه، وامتنع من السجود لآدم وقال: ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ فتبيت حينئذ عداوته البليغة لآدم وزوجه، لما كان عدواً لله، وظهر من حسده، ما كان سبب العداوة، فحذر الله آدم وزوجه منه، وقال: ﴿لا يخرجنكما من الجنة فتشقى﴾ إذا خرجت منها، فإن لك فيها الرزق الهني، والراحة التامة.

﴿إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعمرى، وأنك لا تظلم فيها ولا تضحي﴾ أي: تصيبك الشمس بحرهما، فضمن له استمرار الطعام والشراب، والكسوة، والماء، وعدم





بتعليمهم، ما يصلح الصلاة ويفسدها ويكملها.

﴿واصطبر عليها﴾ أي: على الصلاة بإقامتها، بحدودها وأركانها وآدابها وخشوعها، فإن ذلك مشق على النفس، ولكن ينبغي إكراهها وجهادها على ذلك، والصبر معها دائماً، فإن العبد إذا أقام صلاته على الوجه المأمور به، كان لما سواها من دينه أحفظ وأقوم، وإذا ضيعها كان لما سواها أضع، ثم ضمن تعالى لرسوله الرزق، وأن لا يشغله الاهتمام به عن إقامة دينه، فقال:

﴿نحن نرزقك﴾ أي: رزقك علينا قد تكفلنا به، كما تكفلنا بأرزاق الخلائق كلهم، فكيف بمن قام بأمرنا، واشتغل بذكرنا؟! ورزق الله عام للمتقي وغيره، فينبغي الاهتمام بما يجلب السعادة الأبدية، وهو: التقوى، ولهذا قال: ﴿والعاقبة﴾ في الدنيا والآخرة ﴿للتقوى﴾ التي هي فعل المأمور وترك المنهي، فمن قام بها، كان له العاقبة، كما قال تعالى: ﴿والعاقبة للمتقين﴾.

﴿١٣٣ - ١٣٥﴾ ﴿وقالوا لولا بآتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى﴾ \* لولا أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى \* قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى \* أي: قال المكذبون للرسول ﷺ: هلا بآتينا بآية من ربه؟ يعنون آيات الاقتراح كقولهم: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً \* أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها فتجيراً \* أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً﴾.

وهذا تعنت منهم وعناد وظلم،

فإنهم، هم والرسول، بشر عبيد لله، فلا يليق منهم الاقتراح بحسب أهوائهم، وإنما الذي ينزلها ويختار منها ما يختار بحسب حكمته، هو الله.

ولأن<sup>(١)</sup> قولهم: ﴿لولا أنزل عليه آيات من ربه﴾ يقتضي أنه لم يأتهم بآية على صدقه، ولا بينة على حقه، وهذا كذب واقتراء، فإنه أتى من المعجزات الباهرات، والآيات القاهرات، ما يحصل ببعضه المقصود، ولهذا قال: ﴿أولم تأتهم﴾ إن كانوا صادقين في قولهم، وأنهم يطلبون الحق بدليله، ﴿بينة ما في الصحف الأولى﴾ أي: هذا القرآن العظيم، الصدق لما في الصحف الأولى، من التوراة والإنجيل، والكتب السابقة المطابق لها، المخبر بما أخبرت به، وتصديقه أيضاً مذكور فيها، ومبشر بالرسول بها، وهذا كقوله تعالى:

﴿أولم يكفهم أننا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾ فالآيات تنفع المؤمنين، ويزداد بها إيمانهم وإيقانهم، وأما المعرضون عنها المعارضون لها، فلا يؤمنون بها، ولا ينتفعون بها، إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون \* ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب يروا العاقبة، وإنما الفائدة في سوقها إليهم ومخاطبتهم بها، لتقوم عليهم حجة الله، ولئلا يقولوا حين ينزل بهم العذاب: ﴿لولا أرسلت إلينا رسولا بالعبادة﴾، فما قد جاءكم رسولي ومعه آياتي وبراهيني، فإن كنتم كما تقولون، فصدقوه.

قل يا محمد مخاطباً للمكذبين لك الذين يقولون تربصوا به ريب التنون ﴿قل كل متربص﴾ فتربصوا بي الموت، وأنا أتربص بكم العذاب ﴿قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين﴾ أي: الظفر أو الشهادة ﴿ونحن تربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو

عجيبها وعساقها، فيندمون حيث لا تنفع الندامة، ويعلمون ما هم عليه إذا قدموا في القيامة، وإنما جعلها الله فتنه واختياراً، ليعلم من يقف عندها ويغتر بها، ومن هو أحسن عملاً، كما قال تعالى: ﴿إننا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيم أحسن عملاً \* وإننا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً﴾.

﴿ورزق ربك﴾ العاجل من العلم والإيمان، وحقائق الأعمال الصالحة، والأجل من النعيم المقيم، والعيش السليم في جوار الرب الرحيم ﴿خير﴾ مما متعنا به أزواجاً، في ذاته وصفاته ﴿وأبقي﴾ لكونه لا ينقطع، أكلها دائم وظلها، كما قال تعالى: ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا \* والآخرة خير وأبقي﴾.

وفي هذه الآية، إشارة إلى أن العبد إذا رأى من نفسه طموحاً إلى زينة الدنيا، وإقبالاً عليها، أن يذكرها ما أمامها من رزق ربه، وأن يوازن بين هذا وهذا.

﴿١٣٢﴾ ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى﴾ أي: حث أهلك على الصلاة، وأزعجهم إليها من فرض ونفل. والأمر بالشيء، أمر بجميع ما لا يتم إلا به، فيكون أمراً





السبيل، فلما لم تسلكوه، وسلكتكم غيره من الطرق، التي فيها ضَعْتَكُمْ وَجَسْتُمْ في الدنيا والآخرة وشقاوتكم فيهما، علم أنه ليس لكم معقول صحيح، ولا رأي: رجيح.

وهذه الآية، مصداقها ما وقع، فإن المؤمنين بالرسول، الذين تذكروا بالقرآن، من الصحابة فمن بعدهم، حصل لهم من الرفعة والعلو الباهر، والصبية العظيم، والشرف على الملوك، ما هو أمر معلوم لكل أحد، كما أنه معلوم ما حصل، لأن لم يرفع بهذا القرآن رأساً، ولم يتد به ويتزك به، من المقت والضعفة والتدسية، والشفاوة، فلا سبيل إلى سعادة الدنيا والآخرة إلا بالتذكر بهذا الكتاب.

﴿١١ - ١٥﴾ ﴿وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين﴾ \* فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون \* لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون \* قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين \* فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين \* يقول تعال - محذراً لهؤلاء الظالمين، المكذبين للرسول، بما فعل بالأمم المكذبة لغيره من الرسل - ﴿وكم قصصنا﴾ أي: أهلكنا بعدذاب مستأصل ﴿من قرية﴾ نلفت عن آخرها ﴿وأنشأنا بعدها قوماً آخرين﴾ وأن هؤلاء المهلكين، لما أحسوا بعدذاب الله وعقابه، وياشروهم نزوله، لم يمكن لهم الرجوع، ولا طريق لهم إلى النزوع، وإنما ضربوا الأرض بأرجلهم، ندماً وقلقاً، وتحسراً على ما فعلوا وهربوا من وقوعه، فقبل لهم على وجه الشهكم بهم: ﴿لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم به ومساكنكم لعلكم تسألون﴾ أي: لا يفيدكم الركض والندم، ولكن إن كان لكم اقتدار، فارجعوا إلى ما أترفتم فيه، من اللذات والمشتهيات، ومساكنكم المزخرفات، ودنياكم التي غرتكم وأهتكم، حتى جاءكم أمر الله، فكونوا فيها متمكنين، ولذاتها جاتين، وفي منازلكم مطمئنين

معظمين، لعلكم أن تكونوا مقصودين في أموركم كما كنتم سابقاً، مسؤولين من مطالب الدنيا كحالتكم الأولى، وهيهات، أين الوصول إلى هذا؟ وقد فات الوقت، وحل بهم العقاب والمقت، وذهب عنهم عزهم وشرفهم ودنياهم، وحضرهم ندمهم وتحسروهم؟

ولهذا ﴿قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين﴾ \* فما زالت تلك دعواهم \* أي: الدعاء بالويل والنبور والندم، والإقرار على أنفسهم بالظلم، وأن الله عادل فيما أحل بهم، ﴿حتى جعلناهم حصيداً خامدين﴾ أي: بمنزلة الثبات الذي قد حصد وأتيم، قد خدت منهم الحركات، وسكنت منهم الأصوات، فاحذروا - أيها المخاطبون - أن تستمروا على تكذيب أشرف الرسل، فيحل بكم كما حل بأولئك.

﴿١٦ - ١٧﴾ ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لابين﴾ \* لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إنا كنا فاعلين﴾ \* يخبر تعالى أنه ما خلق السماوات والأرض عبثاً ولا لعباً من غير فائدة، بل خلقها بالحق وللحق، ليستدل بها العباد على أنه الخالق العظيم، المدبر الحكيم، الرحمن الرحيم، الذي له الكمال كله، والحمد كله، والعزة كلها، الصادق في قوله، الصادقة رسله فيما تخبر عنه، وأن القادر على خلقهما مع سعتهما وعظمتها، قادر على إعادة الأجساد بعد موتها، ليجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً﴾ على الفرض والتقدير المحال ﴿لاتخذناه من لدنا﴾ أي: من عندنا ﴿إن كنا فاعلين﴾ ولم نطلعكم على ما فيه عبث ولهو، لأن ذلك نقص ومثل سوء، لا تحب أن نريه إياكم، فالسماوات والأرض اللذان يمرأى منكم على الدوام، لا يمكن أن يكون القصد منهما العبث واللهو، كل هذا تُنزل مع العقول الصغيرة وإقناعها بجميع الوجوه المقتنة، فسبحان الحليم الرحيم،

الحكيم في تنزيله الأشياء منازلها. ﴿١٨ - ٢٠﴾ ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون﴾ \* وله من في السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون \* يستحسون الليل والنهار لا يفترون﴾ \* يخبر تعالى، أنه تكفل بإحقاق الحق وإبطال الباطل، وإن كل باطل قبيح وجوده به، فإن الله ينزل من الحق والعلم والبيان، ما يدمغه فيضمحل، ويتبين لكل أحد بطلانه ﴿فإذا هو زاهق﴾ أي: مضمحل فإن، وهذا عام في جميع المسائل الدينية، لا يورد مبطل شبهة عقلية ولا نقلية، في إحقاق باطل، أو رد حق، إلا وفي أدلة الله، من القواطع العقلية والنقلية، ما يُذهب ذلك القول الباطل ويقمعه، فإذا هو متبين بطلانه لكل أحد.

وهذا يتبين باستقراء المسائل، مسألة مسألة، فإنك تجدتها كذلك ثم قال: ﴿ولكم﴾ أيها الواصفون الله، بما لا يليق به، من اتخاذ الولد والصاحبة، ومن الأنداد والشركاء، حظكم من ذلك، ونصيبكم الذي تدركون ﴿الويل﴾ والندامة والحسرة.

ليس لكم مما قلتم فائدة، ولا يرجع عليكم بعائدة تؤملونها، وتعملون لأجلها، وتسعون في الوصول إليها، إلا عكس مقصودكم، وهو الخيبة والحرام، ثم أخبر أنه له ملك السماوات والأرض وما بينهما، فالكل عبيده ومماليكه، فليس لأحد منهم ملك ولا قسط من الملك، ولا معاونة عليه، ولا يشفع إلا بإذن الله، فكيف يتخذ من هؤلاء آلهة، وكيف يجعل لله منها ولداً؟ فتعالى وتقدس المالك العظيم، الذي خضعت له الرقاب، وذُلَّتْ له الصعاب، وخشعت له الملائكة المقربون، وأذعنوا له بالعبادة الدائمة المستمرة أجمعون، ولهذا قال: ﴿ومن عنده﴾ أي: من الملائكة ﴿لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون﴾ أي: لا يملون ولا يسأمونها، لشدة رغبتهن، وكمال محبتهم، وقوة



لعجزهم وفقدهم، ولكنهم عبيد، قد استحققت أفعالهم وحركاتهم، فليس لهم من التصرف والتدبير في أنفسهم، ولا في غيرهم مثقال ذرة.

ثم رجع إلى تهجين حال المشركين، وأنهم اتخذوا من دونه آلهة فقل لهم موبخاً ومقرعاً: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: حجتكم ودليلكم على صحة ما ذهبتم إليه، ولن يجدوا لذلك سبيلاً، بل قد قامت الأدلة القطعية على بطلانه، ولهذا قال: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعْنِي وَذِكْرٌ مِنْ قِبَلِي﴾ أي: قد انفتحت الكتب والشرائع على صحة ما قلت لكم، من إبطال الشرك، فهذا كتاب الله الذي فيه ذكر كل شيء، بأدلتها العقلية والنقلية، وهذه الكتب السابقة كلها، برهاناً وأدلة لما قلت.

ولما علم أنهم قامت عليهم الحجة والبرهان على بطلان ما ذهبوا إليه علم أنه لا برهان لهم، لأن البرهان القاطع، يبرهن أنه لا معارض له، وإلا لم يكن قطعياً، وإن وجد معارضات، فإنها شبه لا تغني من الحق شيئاً.

وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ أي: وإنما أقاموا على ما هم عليه، تقليداً لأسلافهم يجادلون بغير علم ولا هدى، وليس عدم علمهم الحق لحفاته وغموضه، وإنما ذلك لإعراضهم عنه، وإلا فلو التفتوا إليه أدنى التفات، تبين لهم الحق من الباطل تبيناً واضحاً جليلاً، ولهذا قال: ﴿فَهُمْ مَعْرُضُونَ﴾.

ولما حول تعالى على ذكر المتقدمين، وأمر بالرجوع إليها في بيان هذه المسألة، بيئها أتم تبين في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ فكل الرسل، الذين من قبلك مع كتبهم، زبدة رسالتهم وأصلها، الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وبيان أنه الإله الحق المعبود، وأن عبادة ما سواه باطلة.

﴿٢٦ - ٢٩﴾ ﴿قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ

السفلي، على ما يرى، في أكمل ما يكون من الصلاح والانتظام، الذي ما فيه خلل ولا عيب، ولا ممانعة ولا معارضة، فدل ذلك على أن مدبره واحد، ورب واحد، وإله واحد، فلو كان له مدبران وربان أو أكثر من ذلك، لاختل نظامه، وتقوضت أركانه، فإنهما يتمانعان ويتعارضان، وإذا أراد أحدهما تدبير شيء، وأراد الآخر عدمه، فإنه محال وجود مرادها معاً، ووجود مراد أحدهما دون الآخر، يدل على عجز الآخر وعدم اقتداره، واتفاقهما على مراد واحد في جميع الأمور غير ممكن، فإذا تبين أن القاهر الذي يوجد مراده وحده، من غير مانع ولا مدافع، هو الله الواحد القهار، ولهذا ذكر الله دليل التمانع في قوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذْ أَذْهَبَ كُلَّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سِبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾.

ومنه - على أحد التأويلين - قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذْ لَا يَتَّبِعُونَ إِلَهَ إِلَّا ذِي الْعَرْشِ سِبْحَانَ اللَّهِ تَعَالَى عَمَّا يُقُولُونَ﴾ وعلواً كبيراً ﴿وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿فَسِبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي: تنزهه وتقدس عن كل نقص لكماله وحده، ﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات وأوسعها وأعظمها، فربوبية<sup>(١)</sup> ما دونه من باب أولى، ﴿عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي: الجاحدون الكافرون، من اتخاذ الولد والصاحبة، وأن يكون له شريك بوجه من الوجوه. ﴿لَا يُسَأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لعظمته وعزته، وكمال قدرته، لا يقدر أحد أن يمانعه أو يعارضه، لا يقول، ولا يفعل، ولكمال حكمته ووضعه الأشياء مواضعها وإتقانها، أحسن شيء يقدره العقل، فلا يتوجه إليه سؤال، لأن خلقه ليس فيه خلل ولا إخلال.

﴿وَهُمْ﴾ أي: المخلوقون كلهم ﴿يَسْأَلُونَ﴾ عن أفعالهم وأقوالهم،

أبدانهم. ﴿يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ أي: مستقرين في العبادة والتسبيح في جميع أوقاتهم، فليس في أوقاتهم وقت فارغ منها ولا خال منها، وهم على كثرتهم بهذه الصفة، وفي هذا من بيان عظمتهم وجلالة سلطانه وكمال علمه وحكمته، ما يوجب أن لا يعبد إلا هو، ولا تُصَرَّفَ العبادة لغيره.

﴿٢١ - ٢٥﴾ ﴿أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴿لَا يُسَأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسَأَلُونَ﴾ أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معني وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ لما بين تعالى كمال اقتداره وعظمته، وخضوع كل شيء له، أنكر على المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة من الأرض، في غاية العجز وعدم القدرة ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ استفهام بمعنى النفي، أي: لا يقدرون على نشرهم وحشرهم، يفسرها قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون ﴿فَالْمُشْرِكُ يَعْبُدُ الْمَخْلُوقَ الَّذِي لَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ، وَيَدْعُ الْإِخْلَاصَ لِلَّهِ، الَّذِي لَهُ الْكَمَالُ كُلُّهُ وَيَبْدَهُ الْأَمْرَ وَالنَّفْعَ وَالضَّرَّ، وَهَذَا مِنْ عَدَمِ تَوْفِيقِهِ، وَسُوءِ حِفْظِهِ، وَتَوَفُّرِ جَهْلِهِ، وَشِدَّةِ ظُلْمِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَصْلِحُ الْوُجُودَ، إِلَّا عَلَى إِلَهٍ وَاحِدٍ، كَمَا أَنَّهُ لَمْ يَوْجِدْ إِلَّا رَبَّ وَاحِدٍ.

ولهذا قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا﴾ أي: في السماوات والأرض ﴿آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ في ذاتهما، وفسد من فيهما، من المخلوقات.

وبيان ذلك: أن العالم العلوي

ولبدأ سبحانه بل عباد مكرمون \* لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون \* يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون \* ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين \* يخبر تعالى عن سفاهة المشركين المكذبين لرسول، وأنهم زعموا - قبحهم الله - أن الله اتخذ ولداً فقالوا: الملائكة بنات الله، تعال الله عن قولهم، وأخبر عن وصف الملائكة، بأنهم عبيد مربيون مديرون، ليس لهم من الأمر شيء، وإنما هم مكرمون عند الله، قد أكرمهم الله، وصيرهم من عبيد كرامته ورحمته، وذلك لما خصهم به من الفضائل والتطهير عن الرذائل، وأنهم في غاية الأدب مع الله، والامتثال لأوامره.

فـ ﴿لا يسبقونه بالقول﴾ أي: لا يقولون قولاً مما يتعلق بتدبير المملكة، حتى يقول الله، لكمال أدبهم، وعلمهم بكمال حكمته وعلمه.

﴿وهم بأمره يعملون﴾ أي: مهمأمرهم، امتثلوا لأمره، ومهما دبرهم عليه، فعلوه، فلا يعصونه طرفة عين، ولا يكون لهم عمل بأهواء أنفسهم من دون أمر الله، ومع هذا، فالله قد أحاط بهم علمه، فعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ أي: أمورهم الماضية والمستقبلية، فلا خروج لهم عن علمه، كما لا خروج لهم عن أمره وتدييره.

ومن جزئيات وصفهم بأنهم لا يسبقونه بالقول، أنهم لا يشفعون لأحد بدون إذنه ورضاه، فإذا أذن لهم وارتضى من يشفعون فيه، شفعوا فيه، ولكنه تعالى لا يرضى من القول والعمل إلا ما كان خالصاً لوجهه، متبعاً فيه الرسول. وهذه الآية من أدلة إثبات الشفاعة، وأن الملائكة يشفعون. ﴿وهم من خشيته مشفقون﴾ أي: خائفون ورجلون، قد خضعوا لجلاله،

وعنت وجوههم لعزه وجماله، فلما بين أنه لا حق لهم في الألوهية، ولا يستحقون شيئاً من العبودية بما وصفهم به من الصفات المقتضية لذلك، ذكر أيضاً أنه لا حظ لهم، ولا بمجرد الدعوى، وأن من قال منهم: ﴿إني إله من دون الله﴾ على سبيل الفرض والتنزل ﴿فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين﴾. وأي: ظلم أعظم من ادعاء المخلوق الناقص، الفقير إلى الله من جميع الوجوه، مشاركة الله في خصائص الإلهية والربوبية؟! ﴿٣٠﴾

﴿أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾ أي: أولم ينظر هؤلاء الذين كفروا بربهم، وجحدوا الإخلاص له في العبودية، ما يدلهم دلالة مشاهدة، على أنه الرب المحمود، الكريم المعبود، فيشاهدون السماء والأرض، فيجدونها رتقاً، هذه ليس فيها سحب ولا مطر، وهذه هامة ميتة لا نبات فيها، ففتقناها: السماء بالمطر، والأرض بالنبات، أليس الذي أوجد في السماء السحاب، بعد أن كان الجو صافياً لا قزعة فيه، وأودع فيه الماء الغزير، ثم ساقه إلى بلد ميت؟ قد اغيزت أرجاؤه، وقحط عنه ماؤه، فامطره فيها، فاهتزت وتحركت وريت، وأنبتت من كل زوج بهيج، مختلف الأنواع، متعدد المنافع، [أليس ذلك] <sup>(٣١)</sup> دليلاً على أنه الحق، وما سواه باطل، وأنه محيي الموتى، وأنه الرحمن الرحيم؟ ولهذا قال: ﴿أفلا يؤمنون﴾ أي: إيماناً صحيحاً، ما فيه شك ولا شرك.

ثم عدد تعالى الأدلة الأقوية فقال: ﴿٣١-٣٣﴾ ﴿وجعلنا في الأرض رواسي أن نتبد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون \* وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون \* وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك

﴿٣٠﴾ ﴿ولما زنا بالذين كفروا بآياتنا أن يقولوا أفلا نقول لا اله الا الله الذي يدعونا اليه فليس لهم سكرات﴾ ﴿٣١﴾ ﴿ولما زنا بالذين كفروا بآياتنا أن يقولوا أفلا نقول لا اله الا الله الذي يدعونا اليه فليس لهم سكرات﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿ولما زنا بالذين كفروا بآياتنا أن يقولوا أفلا نقول لا اله الا الله الذي يدعونا اليه فليس لهم سكرات﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿ولما زنا بالذين كفروا بآياتنا أن يقولوا أفلا نقول لا اله الا الله الذي يدعونا اليه فليس لهم سكرات﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿ولما زنا بالذين كفروا بآياتنا أن يقولوا أفلا نقول لا اله الا الله الذي يدعونا اليه فليس لهم سكرات﴾ ﴿٣٥﴾

يسبحون﴾ أي: ومن الأدلة على قدرته وكماله ووحدانيته ورحمته، أنه لما كانت الأرض لا تستقر إلا بالجبال، أرساها بها وأوتدتها، لتلا تمديد بالعباد، أي: لتلا تضطرب، فلا يتمكن العباد من السكون فيها، ولا حرثها، ولا الاستقرار بها، فأرساها بالجبال، فحصل بسبب ذلك من المصالح والمنافع ما حصل، ولما كانت الجبال المتصل بعضها ببعض، قد تنصل اتصالاً كثيراً جداً، فلو بقيت بحالها جبالاً شاخعات، وقُللاً باذخات، لتعطل الاتصال بين كثير من البلدان.

فمن حكمة الله ورحمته، أن جعل بين تلك الجبال فجاجاً سبلاً، أي: طرقاً سهلة لا حُرَّة، لعلهم يهتدون إلى الوصول إلى مطالبهم من البلدان، ولعلهم يهتدون بالاستدلال بذلك على وحدانية المنان.

﴿وجعلنا السماء سقفاً للأرض التي أنتم عليها﴾ محفوظاً من السقوط ﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا﴾ محفوظاً أيضاً من استراق الشياطين للسمع. ﴿وهم عن آياتها معرضون﴾ أي: غافلون لا هون، وهذا عام في جميع آيات السماء، من علوها، وسعتها،

(١) في النسخين: بأنه. (٢) زيادة من هاشم ب.

رسول الله ﷺ، استهزؤا به، وقالوا: ﴿أهذا الذي يذكر آلهتكم﴾ أي: أهذا المحقر بزعمهم، الذي يسب آلهتكم ويذمها ويقع فيها، أي: فلا تبالوا به، ولا تحفظوا به.

هذا استهزؤهم واحتقارهم له، بما هو من كماله، فإنه الأكمل الأفضل، الذي من فضائله ومكارمه، إخلاص

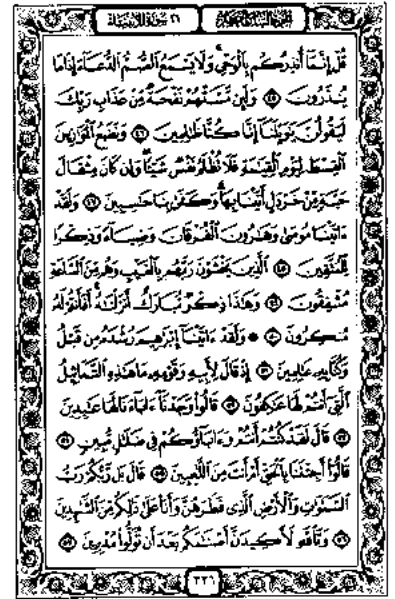
العبادة لله، وذم كل ما يعبد من دونه وتنقصه، وذكر محله ومكانته، ولكن محل الأزدراء والاستهزاء هؤلاء الكفار، الذين جمعوا كل خلق ذميم، ولو لم يكن إلا كفرهم بالرب وجحدهم لرسله، فصاروا بذلك من أخس الخلق وأرذلهم، ومع هذا، فذكرهم للرحمن، الذي هو أعلى جلالهم، كافرون بها، لأنه لا يذكرونه، ولا يؤمنون به إلا وهم مشركون، فذكرهم كفر وشرك، فكيف بأحوالهم بعد ذلك؟ ولهذا قال: ﴿وهم بذكر الرحمن هم كافرون﴾ وفي ذكر اسمه ﴿الرحمن﴾ هنا، بيان لقباحة حالهم، وأنهم كيف قابلوا الرحمن - مسدي النعم كلها، ودافع النقم الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع السوء إلا إياه - بالكفر والشرك.

﴿خلق الإنسان من عجل﴾ أي: خلق عجبوا، يساءر الأشياء، ويستعجل بوقوعها، فالمؤمنون يستعجلون عقوبة الله للكافرين، ويتباطؤون بها، والكافرون يتولون<sup>(١)</sup> ويستعجلون بالعذاب، تكذيباً وعناداً، ويقولون: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ والله تعالى يمهّل ولا يمهّل، ويمهّل، ويجعل لهم أجلاً مؤقتاً إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ ولهذا قال: ﴿سأريكم آياتي﴾ أي: في انتقامي من كفر بي وعصائي ﴿فلا تستعجلون﴾ ذلك، وكذلك الذين كفروا يقولون: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ قالوا هذا القول، اغتراراً، ولما يحق عليهم

والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾ لما كان أعداء الرسول يقولون<sup>(٢)</sup> تربعصوا به رب المتون. قال الله تعالى: هذا طريق مسلوك، ومعبد منهوك، فلم نجعل لبشر ﴿من قبلك﴾ يا محمد ﴿الخلد﴾ في الدنيا، فإذا مت، فسيبل أمثالك، من الرسل والأنبياء والأولياء، وغيرهم.

﴿أفيان مت فهم الخالدون﴾ أي: فهل إذا مت خلدوا بعدك، فليهنهم الخلود إذا إن كان، وليس الأمر كذلك، بل كل من عليها فإن، ولهذا قال: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ وهذا يشمل سائر نفوس الخلائق، وإن هذا كأس لا بد من شربه وإن طال بالعبد المدى، وعمر سنين، ولكن الله تعالى أوجد عباده في الدنيا، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالخير والشّر، بالفنى والمقر، والعز والذل، والحياة والموت، فتنة منه تعالى ليلوهم أيهم أحسن عملاً، ومن يفتتن عند مواقع الفتن ومن ينجو، ﴿وإلينا ترجعون﴾ فتجازيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿ومأربك بظلام للعبيد﴾ وهذه الآية، تدل على بطلان قول من يقول ببقاء الخضر، وأنه غلد في الدنيا، فهو قول لا دليل عليه، ومناقض للأدلة الشرعية.

﴿٣٦ - ٤١﴾ ﴿وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي يذکر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون﴾ ﴿خلق الإنسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون﴾ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين \* لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون \* بل تأتيهم بغتة فتنتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون \* ولقد استهزىء برسول من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون﴾ وهذا من شدة كفرهم، فإن المشركين إذا رأوا



وعظمتها، ولونها الحسن، وإتقانها العجيب، وغير ذلك من المشاهد فيها، من الكواكب الثوابت والسيارات، وشمسها وقمرها النيرات، المتولد عنهما الليل والنهار، وكونهما دائماً في فلكهما سابحين، وكذلك النجوم، فتقوم بسبب ذلك منافع العباد من الحر والبرد، والفصول، ويعرفون حساب عباداتهم ومعاملاتهم، ويستريحون في ليلهم، ويهدؤون ويسكنون، وينتشرون في نهارهم، ويسعون في معاشهم، كل هذه الأمور إذا تدبرها اللبيب، وأمعن فيها النظر، جزم جزمًا لا شك فيه، أن الله جعلها مؤقتة في وقت معلوم، إلى أجل محتم، يقضي العباد منها ما ربه، وتقوم بها منافعهم، وليستمتعوا وينتفعوا، ثم بعد هذا، سنزول وتضمحل، وبفيها الذي أوجدها، ويسكنها الذي حركها، وينتقل المكلفون إلى دار غير هذه الدار، يجدون فيها جزاء أعمالهم، كاملاً موافراً، ويعلم أن المقصود من هذه الدار أن تكون مزرعة لدار القرار، وأنها منزل سفر، لا محل إقامة.

﴿٣٤ - ٣٥﴾ ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفان مت فهم الخالدون﴾ كل نفس ذائقة الموت وتبلوكم بالشّر

(١) في النسختين: يقولون قل تربعصوا.

(٢) في أ الكلمة أقرب إلى أن تكون يقولون وفي ب غير واضحة وكلمة (يتولون) أقرب مناسبة للسياق.



والانقياد والتسليم، وشكر الله على هذه المنحة الجليلة، والقيام بها، واستخراج بركته، بتعلم الفاظه ومعانيه، وأما مقابله بضد هذه الحالة، من الإعراض عنه، والإضراب عنه صفحاً، وإنكاره، وعدم الإيمان به، فهذا من أعظم الكفر وأشد الجهل والظلم، ولهذا أنكر تعالى على من أنكره، فقال: ﴿فَأَنْتُمْ لَمْ تَكُونُوا

٥١ - ٧٣﴾ ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين﴾ إلى آخر هذه القصة، وهو قوله: ﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾ لما ذكر تعالى موسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم وكتابيهما، قال: ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل﴾ أي: من قبل إرسال موسى ومحمد ونزول كتابيهما، فأراه الله ملكوت السموات والأرض، وأعطاه من الرشد، الذي كمل به نفسه، ودعا الناس إليه، ما لم يؤته أحداً من العالمين غير محمد، وأضاف الرشد إليه، لكونه رشداً بحسب حاله وعلو مرتبته، وإلا فكل مؤمن له من الرشد بحسب ما معه من الإيمان. ﴿وكنا به عالمين﴾ أي: أعطيناه رشده، واختصصناه بالرسالة والمحنة، واصطفيناه في الدنيا والآخرة، لعلمنا أنه أهل لذلك، وكفى له، لذكائه وذكائه، ولهذا ذكر محاجته لقومه، ونهيبهم عن الشرك، وتكسير الأصنام، والزمامهم بالحجة، فقال: ﴿إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي مثلتموها، نحتموها بأيديكم، على صور بعض المخلوقات التي أنتم لها عاكفون﴾ مقيمون على عبادتها، ملازمون لذلك، فما هي؟ وأي فضيلة ثبتت لها؟ وأين عقولكم التي ذهبت حتى أفنيتم أوقاتكم بعبادتها؟ والحال أنكم مثلتموها، ونحتموها بأيديكم، فهذا من أكبر العجائب، تعبدون ما تحنون.

والقرآن﴾<sup>(١)</sup>، فأخبر أنه أتى موسى أصلاً، وهارون تبعاً ﴿الفرقان﴾ وهو التوراة الفارقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وأنها ﴿ضياء﴾ أي: نور يهتدي به المهتدون، ويأنم به السالكون، وتعرف به الأحكام، ويميز به بين الحلال والحرام، وينير في ظلمة الجهل والبعد والعمى، ﴿وذكراً للممتقين﴾ يتذكرون به ما ينفعهم وما يضرهم، ويتذكر به الخير والشر، وخص «المتقين» بالذكر، لأنهم المنتفعون بذلك، علماً وعملاً، ثم فسّر المتقين فقال: «الذين يخشون ربهم بالغيب» أي: يخشونه في حال غيبتهم، وعدم مشاهدة الناس لهم، فمع المشاهدة أولى، فيتورعون عما حرم، ويقومون بما أزم، ﴿وهم من الساعة مشفقون﴾ أي: خائفون وجلون، لكمال معرفتهم بربهم، فجمعوا بين الإحسان والخوف، والمطف هنا من باب عطف الصفات المتغايرات، الواردة على شيء واحد وموصوف واحد.

﴿وهذا﴾ أي: القرآن ﴿ذكر مبارك أنزلناه﴾ فرصفه بوصفين جليلين، كونه ذكراً يتذكر به جميع الطالب، من معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، ومن صفات الرسل والأولياء وأحوالهم، ومن أحكام الشرع من العبادات والمعاملات وغيرها، ومن أحكام الجزاء والجنة والنار، فيتذكر به المسائل والدلائل العقلية والنقلية، وسماه ذكراً، لأنه يذكر ما ركزه الله في العقول والفطر، من التصديق بالأخبار الصادقة، والأمر بالحسن عقلاً، والنهي عن القبيح عقلاً، وكونه ﴿مباركاً﴾ يقتضي كثرة خيراته<sup>(٢)</sup> ونمايتها وزيادتها، ولا شيء أعظم بركة من هذا القرآن، فإن كل خير ونعمة، وزيادة دينية أو دنيوية أو أخروية، فإنها بسببه، وأثر عن العمل به، فإذا كان ذكراً مباركاً، وجب تلقينه بالقبول



والسبب، ﴿فلا تظلم نفس﴾ مسلمة أو كافرة ﴿شيئاً﴾ بأن تنقص من حسنتها، أو يزداد في سيئتها.

﴿وإن كان مثقال حبة من خردل﴾ التي أصغر الأشياء وأحقرها، من خير أو شر ﴿آتيناً بها﴾ وأحضرناها، ليجازى بها صاحبها، كقوله: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره.

وقالوا ﴿يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾.

﴿وكفى بنا حاسبين﴾ يعني بذلك نفسه الكريمة، فكفى به حاسباً، أي: عالماً بأعمال العباد، حافظاً لها، مثبتاً لها في الكتاب، عالماً بمقاديرها ومقادير ثوابها وعقابها واستحقاقها، موصلاً للعامل جزاءها.

٤٨ - ٥٠﴾ ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكراً للمتقين﴾ الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون ﴿وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون﴾ كثيراً ما يجمع تعالى بين هذين الكتابين الجليلين، اللذين لم يطرق العالم أفضل منهما، ولا أعظم ذكراً، ولا أبرك، ولا أعظم هدى وبياناً لهما التوراة

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) في النسخين خيره، وغيرت الكلمة لتوافق مع الضمائر التي بعدها.

عبادة الخالق الرازق المدبر؟

وأما الدليل السمعي، فهو المنقول عن الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإن ما جازوا به معصوم، لا يغلط ولا يخبر بغير الحق، ومن أنواع هذا القسم، شهادة أحد من الرسل على ذلك، فلهذا قال إبراهيم: ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذٰلِكُمْ﴾ أي: أن الله وحده المعبود وأن عبادة ما سواه باطل ﴿من الشاهدين﴾ وأي: شهادة بعد شهادة الله أعلى من شهادة الرسل؟ خصوصاً أولي العزم منهم، خصوصاً خليل الرحمن.

ولما بين أن أصنامهم ليس لها من التدبير شيء أراد أن يريهم بالفعل عجزها وعدم انتصارها وليكيد كيداً يحصل به إقرارهم بذلك فلهذا قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ أي: أكسرها على وجه الكيد ﴿بعد أن تولوا مدبرين﴾ عنها إلى عيد من أعيادهم، فلما تولوا مدبرين، ذهب إليها بخفية ﴿فجعلهم جذاذاً﴾ أي: كسراً وقطعاً، وكانت مجموعة في بيت واحد، فكسرها كلها، ﴿إلا كبيراً لهم﴾ أي: إلا صنمهم الكبير، فإنه تركه لمقصد سببته، وتأمل هذا الاحتراز العجيب، فإن كل محقوت عند الله، لا يطلق عليه ألفاظ التعظيم، إلا على وجه إضافته لأصحابه، كما كان النبي ﷺ إذا كتب إلى ملوك الأرض المشركين يقول: ﴿إلى عظيم الفرس﴾ إلى عظيم الروم، ونحو ذلك، ولم يقل ﴿إلى العظيم﴾، وهنا قال تعالى: ﴿إلا كبيراً لهم﴾ ولم يقل: ﴿كبيراً من أصنامهم﴾. فهذا يبين التنبيه له، والاحتراز من تعظيم ما حقره الله، إلا إذا أضيف إلى من عظمه.

وقوله: ﴿لعلهم إليه يرجعون﴾ أي: ترك إبراهيم تكسير صنمهم هذا لأجل أن يرجعوا إليه، ويستملوا حجته، ويلتفتوا إليها، ولا يعرضوا عنها، ولهذا قال في آخرها: ﴿فرجعوا إلى أنفسهم﴾

فحين رأوا ما حل بأصنامهم من الإهانة والخزي ﴿قالوا من فعل هذا بالهتنا إنه لن الظالمين﴾ فرموا إبراهيم

فأجابوا بغير حجة، جواب العاجز، الذي ليس بيده أدنى شبهة، فقالوا: ﴿وجدنا آباءنا﴾ كذلك يفعلون، فسلكتنا سبيلهم، وتبعناهم على عبادتها، ومن المعلوم أن فعل أحد من الخلق سوى الرسل ليس بحجة، ولا تجوز به القدوة، خصوصاً في أصل الدين، وتوحيد رب العالمين، ولهذا قال لهم إبراهيم مظلماً للجميع: ﴿لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين﴾ أي: ضلال بين واضح، وأي: ضلال أبلغ من ضلالهم في الشرك، وترك التوحيد!! أي: فليس ما قلتم، يصلح للتمسك به، وقد اشركتم وإياهم في الضلال الواضح، البين لكل أحد، ﴿قالوا﴾ على وجه الاستغراب لقوله، والاستعظام لما قال، وكيف بادأهم بتفسيهم وتفسيه آياتهم: ﴿أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين﴾ أي: هذا القول الذي قلته، والذي جئتنا به، هل هو حق وجد؟ أم كلام لنا، كلام لاعب مستهزئ، لا يدري ما يقول؟ وهذا الذي أرادوا، وإنما ردوا الكلام بين الأمرين، لأنهم نزلوه منزلة المقرر المعلوم عند كل أحد، أن الكلام الذي جاء به إبراهيم كلام سفيه لا يعقل ما يقول، فرد عليهم إبراهيم رداً بين به وجه سفيهم وقلة عقولهم فقال: ﴿بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين﴾ فجمع لهم بين الدليل العقلي والدليل السمعي.

أما الدليل العقلي، فإنه قد علم كل أحد حتى هؤلاء الذين جادلهم إبراهيم، أن الله وحده الخالق لجميع المخلوقات، من بني آدم، والملائكة، والجن، والبهائم، والسموات، والأرض، المدبر لهن بجميع أنواع التدبير، فيكون كل مخلوق مفضولاً مدبراً متصرفاً فيه، ودخل في ذلك جميع ما عبد من دون الله.

أفيلق عند من له أدنى مسكة من عقل وتمييز، أن يعبد مخلوقاً متصرفاً فيه، لا يملك نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ويدع

بالظلم الذي هم أولى به حيث كسرها ولم يدروا أن تكسيه لها من أفضل مناقبه ومن عدله وتوحيده، وإنما الظالم من اتخذها آلهة، وقد رأى ما يفعل بها ﴿قالوا سمعنا فتى يذكرهم﴾ أي: يعيهم ويذمهم، ومن هذا شأنه لا بد أن يكون هو الذي كسرها أو أن بعضهم سمعه يذكر أنه سيكيدها ﴿يقال له إبراهيم﴾ فلما تحققوا أنه إبراهيم ﴿قالوا فاتوا به﴾ أي: بإبراهيم ﴿على أعين الناس﴾ أي: بمرأى منهم وسمع لعلهم يشهدون ﴿أي: يحضرون ما يصنع بمن كسر آلهتهم، وهذا الذي أراد إبراهيم وقصد أن يكون بيان الحق بمشهد من الناس ليشاهدوا الحق وتقوم عليهم الحجة، كما قال موسى حين وأعد فرعون: ﴿موعدكم يوم الزينة وأن يجسر الناس ضحى﴾ فحين حضر الناس وأحضر إبراهيم قالوا له: ﴿أأنت فعلت هذا﴾ أي: التكسير ﴿بآلهتنا يا إبراهيم﴾ وهذا استفهام تقرير، أي: فما الذي جرأك، وما الذي أوجب لك الإقدام على هذا الأمر؟

فقال إبراهيم والناس شاهدون: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ أي: كسرها غضباً عليها، لما عبدت معه، وأراد أن تكون العبادة منكم لصنمكم الكبير وحده، وهذا الكلام من إبراهيم، القصد منه إلزام الخصم وإقامة الحجة عليه، ولهذا قال: ﴿فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾ وأراد الأصنام المكسرة، أسألوها لم كسرت؟ والصنم الذي لم يكسر، أسألوه لأي: شيء كسرها، إن كان عندهم نطق، فسيجيبونكم إلى ذلك، وأنا وأنتم، وكل أحد يدري أنها لا تنطق ولا تتكلم، ولا تنفع ولا تضر، بل ولا تنصر نفسها عن يريدها بأدى.

﴿فرجعوا إلى أنفسهم﴾ أي: ثابت عليهم عقولهم، ورجعت إليهم أحلامهم، وعلموا أنهم ضالون في عبادتها، وأقروا على أنفسهم بالظلم والشرك، ﴿قالوا إنكم الظالمون﴾ فحصل بذلك المقصود، ولزمتهم

الحجة بإقرارهم أن ما هم عليه باطل، وأن فعلهم كفر وظلم، ولكن لم يستمروا على هذه الحالة، ولكن **«نكسوا على رؤوسهم»** أي: انقلب الأمر عليهم، وانتكست عقولهم، وضلت أحلامهم، فقالوا لإبراهيم: **«لقد علمت ما هؤلاء ينطقون»** فكيف تهكم بنا وتستهزئ بنا وتأمرونا أن نسألها وأنت تعلم أنها لا تتلق؟

فقال إبراهيم - موبخاً لهم ومعلنأ بشرهم على رؤوس الأشهاد، ومبينأ عدم استحقات الهتهم للعبادة - : **«أنتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم»** فلا نفع ولا دفع، **«أنت لكم ولما تعبدون من دون الله»** أي: ما أضلكم وأخسر صفتكم، وما أخسكم، أنتم وما عبدتم من دون الله، إن كنتم تعقلون عرفتم هذه الحال، فلما عدتم العقل، وارتكبت الجهل والضلال على بصيرة، صارت البهائم أحسن حالاً منكم.

فحيث لما أفحمهم، ولم يبينوا حجة، استعملوا قوتهم في معاقبته، **«قالوا حرِّقوه وانصروا الهتهم إن كنتم فاعلين»** أي: اقتلوه أشنع القتل، بالإحراق، غضباً لألهتهم، ونصرة لها. فتمسأ لهم تمسأ، حيث عبدوا من أقروا أنه يحتاج إلى نصرهم، واتخذوه إلهاً، فانتصر الله لخليله لما ألقوه في النار وقال لها: **«كوني برداً وسلاماً على إبراهيم»** فكانت عليه برداً وسلاماً، لم ينله فيها أذى، ولا أحس بمكروه.

**«وأرادوا به كيداً»** حيث عزموا على إحراقه، **«فجعلناهم الأخسرين»** أي: في الدنيا والآخرة، كما جعل الله خليله وأتباعه هم الرابحين المفلحين.

**«ونجيناه ولوياً»** وذلك أنه لم يؤمن به من قومه إلا لوط عليه السلام، قيل: إنه ابن أخيه، فنجاه الله، وهاجر **«إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين»** أي: الشام، فغادر قومه في «بابل» من أرض العراق، **«وقال إني مهاجرٌ إلى ربي إنه**

هو العزيز الحكيم» ومن بركة الشام، أن كثيراً من الأنبياء كانوا فيها، وأن الله اختارها مهاجراً لخليله، وفيها أحد بيوته الثلاثة المقدسة، وهو بيت المقدس. **«ووهبنا له»** حين اعتزل قومه **«إسحاق ويعقوب»** ابن إسحق **«نافلة»** بعدما كبر، وكانت زوجته عاقراً، فبشرته الملائكة بإسحاق، **«ومن وراء إسحاق يعقوب»** ويعقوب هو إسرائيل، الذي كانت منه الأمة العظيمة، وإسماعيل بن إبراهيم، الذي كانت منه الأمة الفاضلة العربية، ومن ذريته سيد الأولين والأخريين. **«وكلا»** من إبراهيم وإسحق ويعقوب **«جعلنا صالحين»** أي: قائمين بحقوقه وحقوق عباده، ومن صلاحهم، أنه جعلهم أئمة يهدون بأمره، وهذا من أكبر نعم الله على عبده أن يكون إماماً يهتدي به المهتدون، ويمشي خلفه السالكون، وذلك لما صبروا، وكانوا بآيات الله يوقنون.

وقوله: **«يهدون بأمرنا»** أي: يهدون الناس بديننا، لا يأمرن بأهواء أنفسهم، بل بأمر الله ودينه، واتباع مرضاته، ولا يكون العبد إماماً حتى يدعو إلى أمر الله.

**«وأوحينا إليهم فعل الخيرات»** يفعلونها ويدعون الناس إليها، وهذا شامل لجميع الخيرات، من حقوق الله وحقوق العباد.

**« وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة»** هذا من باب عطف الخاص على العام، لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ولأن منكملهما كما أمر، كان قائماً بدينه، ومن ضيعهما، كان لما سواهما أضيع، ولأن الصلاة أفضل الأعمال، التي فيها حقه، والزكاة أفضل الأعمال، التي فيها الإحسان لخلقه.

**«وكانوا لنا»** أي: لا لغيرنا **«عابدين»** أي: مديمين على العبادات القلبية والقولية والبدنية في أكثر أوقاتهم، فاستحقوا أن تكون العبادة وصفهم، فاتصفوا بما أمر الله به الخلق، وخلقهم لأجله.

**«٧٤ - ٧٥»** **«ولوياً أتيناها حكماً وعلماً ونجيناها من القرية التي كانت تعمل الخيانت إنهم كانوا قوم سوء فاسقين \* وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين»** هذا ثناء من الله على رسوله (لوط) عليه السلام بالعلم الشرعي، والحكم بين الناس، بالصواب والسادات، وأن الله أرسله إلى قومه، يدعوهم إلى عبادة الله وينهاهم عما هم عليه من الفواحش، فلبث يدعوهم، فلم يستجيبوا له، فقلب الله عليهم ديارهم وعذبهم عن آخرهم، لأنهم **«قوم سوء فاسقين»** كذبوا الداعي، وتوعدوه بالإخراج، ونجى الله لوطاً وأهله، فأمره أن يسري بهم ليلاً، ليعلوا عن القرية، فسروا ونجوا، من فضل الله عليهم ومثته.

**«وأدخلناه في رحمتنا»** التي من دخلها، كان من الأمنين، من جميع المخاوف، النائلين كل خير وسعادة وبر وسرور وثناء، وذلك لأنه من الصالحين، الذين صلحت أعمالهم، وزكت أحوالهم، وأصلح الله فاسدهم والصلاح هو السبب لدخول العبد برحمة الله، كما أن الفساد سبب لحرمانه الرحمة والخير، وأعظم الناس صلاحاً الأنبياء عليهم السلام، ولهذا يصفهم بالصلاح، وقال سليمان عليه السلام: **«وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين»**.

**«٧٦ - ٧٧»** **«ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم \* ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقتناهم أمهمين»** أي: وأذكر عبدنا ورسولنا نوحاً عليه السلام، مثنياً مادحاً، حين أرسله الله إلى قومه، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن الشرك به، ويُنذري فيهم ويعيد، ويدعوهم سراً وجهاراً، وليلاً ونهاراً، فلما رأهم لا يتجع فيهم الوعظ، ولا يفيد لديهم التزجر، نادى ربه وقال: **«رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً»** \* إنك إن تذرهم

بمعلوم إذا أخطأ مع بذل اجتهاده .

ثم ذكر ما خص به كلاً منهما فقال :  
« وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير » وذلك أنه كان من أعبد الناس وأكثرهم لله ذكراً وتسييحاً ومجيداً ، وكان قد أعطاه [الله] من حسن الصوت ورقته ورخامته ، ما لم يؤته أحداً من الخلق ، فكان إذا سبح وأثنى على الله ، جاوبته الجبال الصم والطيور البهيم ، وهذا فضل الله عليه وإحسانه ، فلهاذا قال : « وكنا فاعلين »

« وعلمناه صنعة لبوس لكم » أي : علم الله داود عليه السلام ، صنعة الدروع ، فهو أول من صنعها وعلمها ، وسرت صناعته إلى من بعده ، فالأن الله له الحديد ، وعلمه كيف يسردها ، والفائدة فيها كبيرة ، « لتحصنكم من بأسكم » أي : هي وقاية لكم ، وحفظ عند الحرب واشتداد البأس .

« فهل أنتم شاكرون » نعمة الله عليكم ، حيث أجزاها على يد عبده داود ، كما قال تعالى : « وجعل لكم سراويل تقيكم الحر وسراويل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون » .

يحتمل أن تعليم الله لداود صنعة الدروع وإلانتها أمر خارق للعادة ، وأن يكون - كما قاله المفسرون - : إن الله لأن له الحديد ، حتى كان يعمل به كالعجين والطين ، من دون إذابة له على النار ، ويحتمل أن تعليم الله له ، على جاري العادة ، وأن إلانة الحديد له ، بما علمه الله من الأسباب المعروفة الآن لإذابتها ، وهذا هو الظاهر ، لأن الله امتنَّ بذلك على العباد وأمرهم بشكرها ، ولولا أن صنعته من الأمور التي جعلها الله مقدورة للعباد ، لم يمتن عليهم بذلك ، ويذكر فائدتها ، لأن الدروع التي صنع داود عليه السلام ، متعذر أن يكون المراد أعيانها ، وإنما المنة بالجنس ، والاحتمال الذي ذكره المفسرون ، لا دليل عليه إلا قوله : « وألنا له الحديد » وليس فيه أن الإلانة من دون سبب ، والله أعلم بذلك .

يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً . فاستجاب الله له ، فأغرقهم ، ولم يبق منهم أحد ، ونجى الله نوحاً وأهله ومن معه من المؤمنين في الفلك المشحون ، وجعل ذريته هم الباقين ، ونصره الله على قومه المستهزئين .

﴿ ٧٨ - ٨٢ ﴾ « وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفثت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين \* ففهمناها سليمان وكلاً أتينا حكماً وعلماً وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين \* وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون \* وللسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين \* ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك وكنا لهم حافضين \* أي : واذكر هذين النبيين الكريمين « داود » و « سليمان » مثنياً مبيحاً ، إذ أتاهما الله العلم الواسع ، والحكم بين العباد ، بدليل قوله : « إذ يحكمان في الحرث إذ نفثت فيه غنم القوم » أي : إذ تحاكم إليهما صاحب حرث ، نفثت فيه غنم القوم الآخرين ، أي : رعت ليلاً ، فأكلت ما في أشجاره ، ورعت زرعه ، فقصى فيه داود عليه السلام ، بأن الغنم تكون لصاحب الحرث ، نظراً إلى تفریط أصحابها ، فعاقبهم بهذه العقوبة ، وحكم فيها سليمان بحكم موافق للصواب ، بأن أصحاب الغنم يدفعون غنمهم إلى صاحب الحرث فيتبع بذرها وصفوها ، ويقومون على بستان صاحب الحرث حتى يعود إلى حاله الأولى ، فإذا عاد إلى حاله ، تراثا ورجع كل منهما بماله ، وكان هذا من كمال فهمه وفطنته عليه السلام ، ولهذا قال : « ففهمناها سليمان » أي : فهمناه هذه القضية ، ولا يدل ذلك أن داود لم يفهمه الله في غيرها ، ولهذا خصها بالذكر بدليل قوله : « وكلا » من داود وسليمان « أتينا حكماً وعلماً » وهذا دليل على أن الحاكم قد يصيب الحق والصواب ، وقد يخطئ ذلك ، وليس

وَمِنَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَن يَسْتَدْعِيهِمْ مُّذْمَبِينَ وَعَمَلُهُمْ مُّسْتَقَرًّا مَّا يُكْفَرُونَ ﴿٧٨﴾  
وَمِنَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَن يَسْتَدْعِيهِمْ مُّذْمَبِينَ وَعَمَلُهُمْ مُّسْتَقَرًّا مَّا يُكْفَرُونَ ﴿٧٩﴾  
وَمِنَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَن يَسْتَدْعِيهِمْ مُّذْمَبِينَ وَعَمَلُهُمْ مُّسْتَقَرًّا مَّا يُكْفَرُونَ ﴿٨٠﴾  
وَمِنَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَن يَسْتَدْعِيهِمْ مُّذْمَبِينَ وَعَمَلُهُمْ مُّسْتَقَرًّا مَّا يُكْفَرُونَ ﴿٨١﴾  
وَمِنَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَن يَسْتَدْعِيهِمْ مُّذْمَبِينَ وَعَمَلُهُمْ مُّسْتَقَرًّا مَّا يُكْفَرُونَ ﴿٨٢﴾  
وَمِنَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَن يَسْتَدْعِيهِمْ مُّذْمَبِينَ وَعَمَلُهُمْ مُّسْتَقَرًّا مَّا يُكْفَرُونَ ﴿٨٣﴾  
وَمِنَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَن يَسْتَدْعِيهِمْ مُّذْمَبِينَ وَعَمَلُهُمْ مُّسْتَقَرًّا مَّا يُكْفَرُونَ ﴿٨٤﴾  
وَمِنَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَن يَسْتَدْعِيهِمْ مُّذْمَبِينَ وَعَمَلُهُمْ مُّسْتَقَرًّا مَّا يُكْفَرُونَ ﴿٨٥﴾  
وَمِنَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَن يَسْتَدْعِيهِمْ مُّذْمَبِينَ وَعَمَلُهُمْ مُّسْتَقَرًّا مَّا يُكْفَرُونَ ﴿٨٦﴾  
وَمِنَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَن يَسْتَدْعِيهِمْ مُّذْمَبِينَ وَعَمَلُهُمْ مُّسْتَقَرًّا مَّا يُكْفَرُونَ ﴿٨٧﴾  
وَمِنَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَن يَسْتَدْعِيهِمْ مُّذْمَبِينَ وَعَمَلُهُمْ مُّسْتَقَرًّا مَّا يُكْفَرُونَ ﴿٨٨﴾  
وَمِنَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَن يَسْتَدْعِيهِمْ مُّذْمَبِينَ وَعَمَلُهُمْ مُّسْتَقَرًّا مَّا يُكْفَرُونَ ﴿٨٩﴾  
وَمِنَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَن يَسْتَدْعِيهِمْ مُّذْمَبِينَ وَعَمَلُهُمْ مُّسْتَقَرًّا مَّا يُكْفَرُونَ ﴿٩٠﴾  
وَمِنَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَن يَسْتَدْعِيهِمْ مُّذْمَبِينَ وَعَمَلُهُمْ مُّسْتَقَرًّا مَّا يُكْفَرُونَ ﴿٩١﴾  
وَمِنَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَن يَسْتَدْعِيهِمْ مُّذْمَبِينَ وَعَمَلُهُمْ مُّسْتَقَرًّا مَّا يُكْفَرُونَ ﴿٩٢﴾  
وَمِنَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَن يَسْتَدْعِيهِمْ مُّذْمَبِينَ وَعَمَلُهُمْ مُّسْتَقَرًّا مَّا يُكْفَرُونَ ﴿٩٣﴾  
وَمِنَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَن يَسْتَدْعِيهِمْ مُّذْمَبِينَ وَعَمَلُهُمْ مُّسْتَقَرًّا مَّا يُكْفَرُونَ ﴿٩٤﴾  
وَمِنَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَن يَسْتَدْعِيهِمْ مُّذْمَبِينَ وَعَمَلُهُمْ مُّسْتَقَرًّا مَّا يُكْفَرُونَ ﴿٩٥﴾  
وَمِنَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَن يَسْتَدْعِيهِمْ مُّذْمَبِينَ وَعَمَلُهُمْ مُّسْتَقَرًّا مَّا يُكْفَرُونَ ﴿٩٦﴾  
وَمِنَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَن يَسْتَدْعِيهِمْ مُّذْمَبِينَ وَعَمَلُهُمْ مُّسْتَقَرًّا مَّا يُكْفَرُونَ ﴿٩٧﴾  
وَمِنَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَن يَسْتَدْعِيهِمْ مُّذْمَبِينَ وَعَمَلُهُمْ مُّسْتَقَرًّا مَّا يُكْفَرُونَ ﴿٩٨﴾  
وَمِنَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَن يَسْتَدْعِيهِمْ مُّذْمَبِينَ وَعَمَلُهُمْ مُّسْتَقَرًّا مَّا يُكْفَرُونَ ﴿٩٩﴾  
وَمِنَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَن يَسْتَدْعِيهِمْ مُّذْمَبِينَ وَعَمَلُهُمْ مُّسْتَقَرًّا مَّا يُكْفَرُونَ ﴿١٠٠﴾

« وسليمان الريح » أي : سخرناها « عاصفة » أي : سريعة في مرورها ، « تجري بأمره » حيث ذُبرت امتثلت أمره ، غدوها شهر ورواحها شهر « إلى الأرض التي باركنا فيها » وهي أرض الشام ، حيث كان مقره ، فيذهب على الريح شرقاً وغرباً ، ويكون مأواها ورجوعها إلى الأرض المباركة ، « وكنا بكل شيء عالمين » قد أحاط علمنا بجميع الأشياء ، وعلمنا من داود وسليمان ما أوصلناهما به إلى ما ذكرنا .

« ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك » وهذا أيضاً من خصائص سليمان عليه السلام ، أن الله سخر له الشياطين والعمفارت ، وسلطه على تسخيرهم في الأعمال ، التي لا يقدر على كثير منها غيرهم ، فكان منهم من يغوص له في البحر ، ويستخرج الدر واللؤلؤ وغير ذلك ، ومنهم من يعمل له « محارِب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات » وسخر طائفة منهم لبناء بيت المقدس ومات ، وهم على عمله ، ويقوا بعده سنة ، حتى علموا موته ، كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

« وكنا لهم حافضين » أي : لا يقدر على الامتناع منه وعصيانه ، بل حفظهم الله له ، بقوته وعزته ، وسلطانه .

﴿ ٨٣ - ٨٤ ﴾ « وأيوب إذ نادى





﴿فاستجينا له ونجينا من الغم﴾ أي: الشدة التي وقع فيها .

﴿وكذلك نجى المؤمنين﴾ وهذا وعد وبشارة لكل مؤمن وقع في شدة وغم، أن الله تعالى سينجيه منها، ويكشف عنه ويخفف، لإيمانه كما فعل بـ «يونس» عليه السلام .

﴿٨٩٦ - ٩٠﴾ ﴿وزكريا إذ نادى ربه رب لا تدركني فرداً وأنت خير الوارثين﴾ فاستجنا له وهبنا له يحيى وأصلحنا له وزجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغياً ورهياً وكانوا لنا خاشعين﴾ أي: واذكر عبدنا ورسولنا زكريا، منوهاً بذكره، ناشراً لثاقبه وفضائله، التي من جملتها هذه المنقبة العظيمة التضمنة لنصحته للخلق، ورحمة الله إياه، وأنه ﴿نادى ربه رب لا تدركني فرداً﴾ أي: ﴿قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً﴾ ولم أكن بدعائك رب شقياً﴾ واني خفت الموالى من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياً﴾ يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً﴾ .

من هذه الآيات علمنا أن قوله ﴿رب لا تدركني فرداً﴾ أنه لما تقارب أجله، خاف أن لا يقوم أحد بعده مقامه في الدعوة إلى الله، والنصح لعباد الله، وأن يكون في وقته فرداً، ولا يتخلف من يشفعه ويعينه، على ما قام به، ﴿وأنت خير الوارثين﴾ أي: خير الباقيين، وخير من خلفني بخير، وأنت أرحم بعبادك مني، ولكنني أريد ما يطمئن به قلبي، وتسكن له نفسي، ويجري في موازيني ثوابه، ﴿فاستجنا له وهبنا له يحيى﴾ النبي الكريم، الذي لم يجعل الله له من قبل سماً .

﴿وأصلحنا له وزجه﴾ بعدما كانت عاقراً، لا يصلح رحمها للولادة، فأصلح الله رحمها للحمل لأجل نبيه زكريا، وهذا من فوائد الجليس والقرين الصالح، أنه مبارك على قرينه، فصار يحيى مشتركاً بين الوالدين .

ولما ذكر هؤلاء الأنبياء والمرسلين،

كلاً على انفراد، أثنى عليهم عموماً فقال: ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات﴾ أي: يبادرون إليها ويفعلونها في أوقاتها الفاضلة، ويكملونها على الوجه اللائق الذي ينبغي، ولا يتركون فضيلة يقدرون عليها إلا انتهزوا الفرصة فيها، ﴿ويدعوننا رغياً ورهياً﴾ أي: يسألوننا الأمور المرغوب فيها، من مصالح الدنيا والآخرة، ويتعذرون بنا من الأمور المرهوب منها، من مضار السارين، وهم راغبون راهبون لا غافلون، لاهون ولا مدلون، ﴿وكانوا لنا خاشعين﴾ أي: خاضعين متذللين متضرعين، وهذا لكمال معرفتهم بربهم .

﴿٩١ - ٩٤﴾ ﴿والتي أحصنت فرجها ففخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾ إن هذه أمكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾ وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون﴾ فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون﴾ أي: واذكر مريم عليها السلام مثنياً عليها مينا لقدرها، شاهراً لشرفها فقال: ﴿والتي أحصنت فرجها﴾ أي: حفظته من الحرام وقربانه، بل ومن الحلال، فلم تتزوج لاشتغالها بالعبادة، واستغراق وقتها بالخدمة لربها .

وحين جاءها جبريل في صورة بشر سويّ تامّ الخلق والحسن ﴿قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً﴾ فجازاها الله من جنس عملها، ورزقها ولداً من غير أب، بل نفخ فيها جبريل عليه السلام، فحملت بإذن الله .

﴿وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾ حيث حملت به، ووضعت من دون ميسس أحد، وحيث تكلم في المهمل، وبرأها مما ظن بها المتهمون، وأخبر عن نفسه في تلك الحالة، وأجرى الله على يديه من الخوارق والمعجزات ما هو معلوم، فكانت وابنها آية للعالمين، يتحدث بها جيلاً بعد جيل، ويعتبر بها المعبرون .

ولما ذكر الأنبياء عليهم السلام، قال مخاطباً للناس: و ﴿إن هذه أمكم أمة واحدة﴾ أي: هؤلاء المرسل المذكورون، هم أمكم وأمتكم الذين بهم تأتمون، ويهديم تقتدون، كلهم على دين واحد، وصراط واحد، والرب أيضاً واحد .

ولهذا قال: ﴿وأنا ربكم﴾ الذي خلقتكم، وربيتكم بنعمتي، في الدين والدنيا، فإذا كان الرب واحداً، والنبي واحداً، والدين واحداً، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، بجميع أنواع العبادة كان وظيفتكم والواجب عليكم القيام بها، ولهذا قال: ﴿فاعبدون﴾ فرتب العبادة على ما سبق بالفاء ترتيب المسبب على سببه .

وكان اللائق، الاجتماع على هذا الأمر وعدم التفرق فيه، ولكن البيغي والاعتداء، أبياً إلا الافتراق والتقطع . ولهذا قال: ﴿وتقطعوا أمرهم بينهم﴾ أي: تفرق الأحزاب المنتسبون لاتباع الأنبياء فرقاً، وتشتتوا، كل يدعي أن الحق معه، والباطل مع الفريق الآخر ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ .

وقد علم أن المصيب منهم، من كان سالكاً للدين القويم والصراط المستقيم، مؤتماً بالأنبياء، وسيظهر هذا إذا انكشف الغطاء، وبرح الخفاء، وحشر الله الناس لفصل القضاء، فحيثما يتبين الصادق من الكاذب، ولهذا قال: ﴿كل﴾ من الفرق المتفرقة وغيرهم ﴿إلينا راجعون﴾ أي: فنجازيم أتم الجزاء .

ثم فصل جزاءه فيهم، منطوقاً ومفهوماً، فقال: ﴿فمن يعمل من الصالحات﴾ أي: الأعمال التي شرعتها الرسل، وحشت عليها الكتب ﴿وهو مؤمن﴾ بالله وبرسوله، وما جاؤوا به ﴿فلا كفران لسعيه﴾ أي: لا نضيع سعيه ولا نبطله، بل نضاعفه له أضعافاً كثيرة .

﴿وإنا له كاتبون﴾ أي: مثبتون له في اللوح المحفوظ، وفي الصحف

التي مع الحفظة . أي : ومن لم يعمل من الصالحات ، أو عملها وهو ليس بمؤمن ، فإنه محروم خاسر في دينه ودينه .

﴿٩٥﴾ ﴿٩٥﴾ وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ﴿٩٥﴾ أي : يتمتع على القرى المهلكة المذبذبة الرجوع إلى الدنيا ليستذكروا ما فرطوا فيه ، فلا سبيل إلى الرجوع لمن أهلك وعذب ، فليحذر المخاطبون ، أن يستمروا على ما يوجب الإهلاك فيقع بهم ، فلا يمكن رفعه ، وليقلعوا وقت الإمكان والإدراك .

﴿٩٦ - ٩٧﴾ ﴿٩٦﴾ حتى إذا فتحت بأجوج وأجوج وهم من كل حدب ينسلون ﴿٩٦﴾ واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين ﴿٩٦﴾ هذا تحذير من الله للناس ، أن يقيموا على الكفر والمعاصي ، وأنه قد قرب انفتاح بأجوج وأجوج ، وهما قبيلتان عظيمتان من بني آدم ، وقد سد عليهم ذو القرنين ، لما شكى إليه إفسادهم في الأرض ، وفي آخر الزمان يفتح السد عنهم ، فيخرجون إلى الناس في هذه الحالة والوصف ، الذي ذكره الله ، من كل مكان مرتفع ، وهو الحدب ، ينسلون أي : يسرعون . وفي هذا دلالة على كثرتهم الباهرة ، وإسراعهم في الأرض ، إما بذواتهم ، وإما بما خلق الله لهم من الأسباب التي تقرب لهم البعيد ، وتسهل عليهم الصعب ، وأنهم يقهرون الناس ، ويعلمون عليهم في الدنيا ، وأنه لا يدان لأحد بقتالهم .

﴿٩٧﴾ واقترب الوعد الحق ﴿٩٧﴾ أي : يوم القيامة الذي وعد الله بآياته ، ووعده حق وصدق ، ففي ذلك اليوم ترى أبصار الكفار شاخصة من شدة الأفرع والأهوال المزعجة والقلاقل المقطعة ، وما كانوا يعرفون من جناباتهم وذنوبهم ، وأنهم يدعون بالويل والثبور والندم والحسرة على ما فات ، ويقولون ل : ﴿٩٧﴾ قد كنا في غفلة من هذا ﴿٩٧﴾ اليوم العظيم ، فلم نزل فيها مستغرقين ، وفي

لهو الدنيا متمتعين ، حتى أتانا اليقين ، ووردنا القيامة ، فلو كان يموت أحد من الندم والحسرة ، لانتوا . ﴿٩٧﴾ بل كنا ظالمين ﴿٩٧﴾ اعترفوا بظلمهم وعدل الله فيهم ، فحينئذ يؤمر بهم إلى النار ، هم وما كانوا يجبدون ، ولهذا قال :

﴿٩٨ - ١٠٣﴾ ﴿٩٨﴾ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴿٩٨﴾ أي : لو كان هؤلاء آلهة ما وردوا وكل فيها خالدون ﴿٩٨﴾ لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون ﴿٩٨﴾ إن الذين سبقتم لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴿٩٨﴾ لا يسمعون حسيسها وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون ﴿٩٨﴾ لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم اللاتكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴿٩٨﴾ ، أي : إنكم أيها العابدون مع الله آلهة غيره ﴿٩٨﴾ حصب جهنم ﴿٩٨﴾ أي : وقودها وحطبها ﴿٩٨﴾ أنتم لها واردون ﴿٩٨﴾ وأصنامكم .

والحكمة في دخول الأصنام النار ، وهي حماد لا تعقل ، وليس عليها ذنب ، بيان كذب من اتخذها آلهة ، وليزداد عذابهم ، فلماذا قال : ﴿٩٨﴾ لو كان هؤلاء آلهة ما وردوا ﴿٩٨﴾ وهذا كقوله تعالى : ﴿٩٨﴾ لبيّن لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ﴿٩٨﴾ وكل من العابدون والمعبودين فيها خالدون ، لا يخرجون منها ، ولا يتنقلون عنها .

﴿٩٩﴾ لهم فيها زفير ﴿٩٩﴾ من شدة العذاب ﴿٩٩﴾ وهم فيها لا يسمعون ﴿٩٩﴾ صم بكم عمي ، أو لا يسمعون من الأصوات غير صوتها ، لشدة غلبانها واشتداد زفيرها وتغيظها .

ودخول آلهة المشركين النار ، إنما هو الأصنام ، أو من عبده وهو راض بعبادته ، وأما المسيح ، وعزير ، والملائكة ونحوهم ، ممن عبد من الأولياء ، فإنهم لا يعذبون فيها ، ويدخلون في قوله : ﴿٩٩﴾ إن الذين سبقتم لهم منا الحسنى ﴿٩٩﴾ أي : سبقتم لهم سابقة السعادة في علم الله ، وفي اللوح المحفوظ وفي تسييرهم في الدنيا للسرى والأعمال الصالحة .

﴿١٠١﴾ أولئك عنها ﴿١٠١﴾ أي : عن النار ﴿١٠١﴾ مبعدون ﴿١٠١﴾ فلا يدخلونها ، ولا يكونون قريباً منها ، بل يعدون عنها غاية البعد ، حتى لا يسمعوها حسيسها ، ولا يروا شخصها ، ﴿١٠١﴾ وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ﴿١٠١﴾ من الأكل ، والشارب ، والمناج والمناظر ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، مستمر لهم ذلك ، يزداد حسنة على الأحقاب ، ﴿١٠١﴾ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴿١٠١﴾ أي : لا يقلقهم إذا فزع الناس أكبر فزع ، وذلك يوم القيامة ، حين تقرب النار ، تنفيظ على الكافرين والعاصين فيفزع الناس لذلك الأمر وهؤلاء لا يحزنهم ، لعلمهم بما يقدمون عليه ، وأن الله قد أمنهم عما يخافون ، ﴿١٠١﴾ وتلقاهم اللاتكة ﴿١٠١﴾ إذا بعثوا من قبورهم ، وأتوا على النجائب وقد أنشورهم ، مهنيين لهم قائلين : ﴿١٠١﴾ هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴿١٠١﴾ فلبيّنهم ما وعدكم الله ، ولبعظهم استبشاركم بما أمامكم من الكرامة ، وليكثر فرحكم وسروركم بما أمنكم الله من المخاوف والمكاره .

﴿١٠٤ - ١٠٥﴾ ﴿١٠٤﴾ يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين ﴿١٠٤﴾ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴿١٠٤﴾ يخبر تعالى أنه يوم القيامة يطوي السماوات - على عظيمها واتساعها - كما يطوي الكاتب للسجل أي : الورقة المكتوب فيها ، فتنتشر نجومها ، ويكور شمسها وقمرها ، وتزول عن أماكنها ﴿١٠٤﴾ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴿١٠٤﴾ أي : إعادتنا للخلق ، مثل ابتدائنا لخلقهم ، فكما ابتدأنا خلقهم ولم يكونوا شيئاً ، كذلك نعيدهم بعد موتهم .

﴿١٠٥﴾ وعداً علينا إنا كنا فاعلين ﴿١٠٥﴾ ننفذ ما وعدنا ، لكامل قدرته ، وأنه لا تتعنت منه الأشياء .

﴿١٠٦﴾ ولقد كتبنا في الزبور ﴿١٠٦﴾ وهو الكتاب المزبور ، والمراد : الكتاب المنزلة ، كالتوراة ونحوها ﴿١٠٦﴾ من بعد

الذكر ﴿أي﴾: كتيبه في الكتب المنزلة، بعد ما كتيبنا في الكتاب السابق، الذي هو اللوح المحفوظ، وأم الكتاب الذي توافقه جميع التقادير المتأخرة عنه والكتوب في ذلك: ﴿أن الأرض﴾ أي: أرض الجنة يورثها عبيادي الصالحون ﴿الذين قاموا بالمأمورات، واجتنبوا المنهيات، فهم الذين يورثهم الله الجنات، كقول أهل الجنة: ﴿الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء﴾.

ويعتدل أن المراد: الاستخلاف في الأرض، وأن الصالحين يمكن الله لهم في الأرض، ويوليهم عليها كقوله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا متكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾... الآية.

﴿١٠٦ - ١١٢﴾ ﴿إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين \* وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين \* قل إنما يوحى إليّ أنما الهكم إليه واحد فهل أنتم مسلمون \* فإن تولوا فقل أنذرتكم على سواء وإن أدري أقرب أم بعيد ما توعدون \* إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون \* وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين \* قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون﴾ يشي الله تعالى على كتابه العزيز ﴿القرآن﴾ وبيّن كفايته الثامة عن كل شيء، وأنه لا يستغنى عنه فقال: ﴿إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين﴾ أي: يتبلغون به في الوصول إلى ربهم، وإلى دار كرامته، فيوصلهم إلى أجل المطالب، وأفضل الرغائب. وليس للعابدين، الذين هم أشرف الخلق، وراه غاية، لأنه الكفيل بمعرفة ربهم، بأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وبالإخبار بالغيوب الصادقة، وبال الدعوة لحقائق الإيمان، وشواهد الإيقان، البين للمأمورات كلها، والمنهيات جميعها، المعروف بعبوب النفس والعمل، والطرق التي ينبغي سلوكها في دقيق الدين وجليله، والتحذير من طرق الشيطان وبيان مداخلة على الإنسان، فمن لم يغنه

القرآن فلا أغناه الله، ومن لا يكفيه فلا كفاه الله.

ثم أتى على رسوله الذي جاء بالقرآن، فقال: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ فهو رحمة المهدة لعباده، فالؤمنون به قبلوا هذه الرحمة وشكروها وقاموا بها، وغيرهم كفرها، وبدلوا نعمة الله كفرها، وأبوارحمة الله ونعمته.

﴿قل﴾ يا محمد ﴿إنما يوحى إليّ أنما الهكم إليه واحد﴾ الذي لا يستحق العبادة إلا هو، ولهذا قال: ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ أي: متقادون لعبوديته مستسلمون لألوهيته، فإن فعلوا فليحمدوا ربهم على ما منّ عليهم بهذه النعمة التي فاقت المنز.

﴿فإن تولوا﴾ عن الانقياد لعبودية ربهم، فحذرهم حلول المثلثات، ونزول العقوبة.

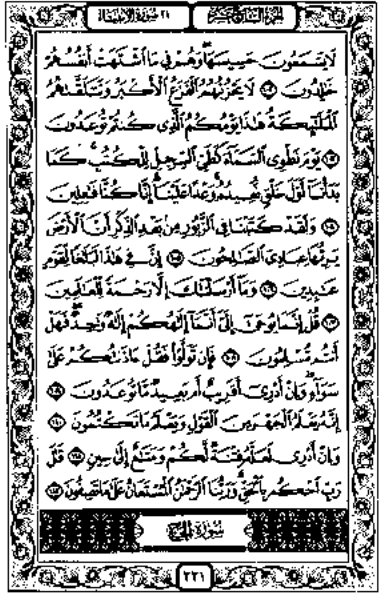
﴿فقل أنذرتكم﴾ أي: أعلمتكم بالعقوبة ﴿على سواء﴾ أي: علمي وعلمكم بذلك مستو، فلا تقولوا - إذا نزل بكم العذاب: ﴿ما جاءنا من بشير ولا نذير﴾ بل الآن، استوى علمي وعلمكم لما أنذرتكم وحذرتكم، وأعلمتكم بمآل الكفر، ولم أكنم عنكم شيئاً.

﴿وإن أدري أقرب أم بعيد ما توعدون﴾ أي: من العذاب، لأن علمه عند الله، وهو بيده، ليس لي من الأمر شيء.

﴿وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين﴾ أي: لعل تأخير العذاب الذي استعجلتموه شر لكم، وأن تمتعوا في الدنيا إلى حين، ثم يكون أعظم لعقوبتكم.

﴿قال رب احكم بالحق﴾ أي: بيننا وبين القوم الكافرين، فاستجاب الله هذا الدعاء، وحكم بينهم في الدنيا قبل الآخرة، بما عاقب الله به الكافرين من وقعة «بدر» وغيرها.

﴿وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون﴾ أي: نسأل ربنا الرحمن،



ونستعين به على ما تصفون، من قولكم سنظهر عليكم، وسيضمحل دينكم، فنحن في هذا، لا نعجب بأنفسنا، ولا نتكل على حولنا وقوتنا، وإنما نستعين بالرحمن، الذي ناصية كل مخلوق بيده، ونرجوه أن يتم ما استعناه به من رحمته، وقد فعل، والله الحمد.

**تفسير سورة الحج قيل:**  
**مكية، وقيل: مدنية**

﴿١ - ٢﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم \* يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد \* يخاطب الله الناس كافة، بأن يتقوا ربهم، الذي رباهم بالنعم الظاهرة والباطنة، فحقيق بهم أن يتقوه، بترك الشرك والفسوق والعصيان، ويمثلوا أوامره مهما استطاعوا.

ثم ذكر ما يعينهم على التقوى، ويحذرهم من تركها، وهو الإخبار بأحوال القيامة، فقال:

﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ لا يقدر قدره، ولا يبلغ كنهه، ذلك بأنها إذا وقعت الساعة، رجفت الأرض وارتجحت، وزلزلت زلزالها،

منهم يومئذ شأن يغنيهم<sup>(١)</sup> . يدعون إلى النار .

وهناك ﴿بعض الظالم على يديه، يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً﴾ يا ويلتى ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً﴾ وتسود حيثذ وجوه وتبيض وجوه، وتنصب الموازين التي يوزن بها مثاقيل الذر، من الخير والشر، وتنتشر صحائف الأعمال وما فيها من جميع الأعمال والأقوال والنيات، من صغير وكبير، وينصب الصراط على متن جهنم، وتزلف الجنة للمتقين، ويرزت الجحيم للغاوين . ﴿إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾ وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثوراً﴾ ويقال لهم : ﴿لا تدعوا اليوم ثوراً واحداً وادعوا ثوراً كثيراً﴾ وإذا نادوا ربهم ليخرجهم منها، قال : ﴿احسبوا فيها ولا تكلمون﴾ . قد غضب عليهم الرب الرحيم، وحضرهم العذاب الأليم، وأيسوا من كل خير، ووجدوا أعمالهم كلها، لم يقدروا منها تقيراً ولا قطميراً .

هذا، والمتقون في روضات الجنات يجيرون، وفي أنواع اللذات يتفكحون، وفيما امتثت أنفُسهم خالدين، فحقيق بالعاقل الذي يعرف أن كل هذا أمامه، أن يُعذَّ له عُذَّتُهُ، وأن لا يلهيه الأمل، فيترك العمل، وأن تكون تقوى الله شعاره، وخوفه ذناره، ومجبة الله وذكره، روح أعماله .

﴿٣ - ٤﴾ ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد﴾ كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضلّه ويهديه إلى عذاب السعير﴾ أي : ومن الناس طائفة وفرقة، سلكوا طريق الضلال، وجعلوا يجادلون بالباطل الحق، يريدون إحقاق الباطل وإبطال الحق، والحال أنهم في غاية الجهل ما عندهم من العلم شيء، وغاية ما عندهم، تقليد أئمة الضلال، من كل شيطان مريد، متمرد على الله وعلى رسله، معاندين لهم، قد شاق الله ورسوله، وصار من الأئمة الذين

يبدعون إلى النار . ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ أي : قدر على هذا الشيطان المريد ﴿أنه من تولاه﴾ أي : اتبعه ﴿فأنه يضلّه﴾ عن الحق، ويجنيه الصراط المستقيم ﴿ويهديه إلى عذاب السعير﴾ وهذا نائب إبليس حقاً، فإن الله قال عنه : ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ فهذا الذي يجادل في الله، قد جمع بين ضلاله بنفسه، وتصديه إلى إضلال الناس، وهو متبع، ومقلد لكل شيطان مريد، ظلّمت بعضها فوق بعض، ويدخل في هذا، جمهور أهل الكفر والبدع، فإن أكثرهم مقلدة، يجادلون بغير علم .

﴿٥ - ٧﴾ ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير \* وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور﴾ يقول تعالى : ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث﴾ أي : شك واشتباه، وعدم علم بوقوعه، مع أن الواجب عليكم أن تصدقوا ربكم، وتصدقوا رسله في ذلك، ولكن إذا أبيتتم إلا الريب، فهاكم دليلاً عقليين تشهدونهما، كل واحد منهما، يدل دلالة قطعية على ما شككتكم فيه، ويزيل عن قلوبكم الريب .

أحدهما : الاستدلال بابتداء خلق الإنسان، وأن الذي ابتدأه سعيده، فقال فيه : ﴿فإننا خلقناكم من تراب﴾ وذلك بخلق أبي البشر آدم عليه السلام، ﴿ثم من نطفة﴾ أي : مني،



وتصدعت الجبال واندكت، وكانت كنيئاً مهيبلاً، ثم كانت هباء منبثاً، ثم انقسم الناس ثلاثة أزواج .

فهناك تنفطر السماء، وتكور الشمس والقمر، وتنتشر النجوم، ويكون من القلائق والبلابل ما تصدع له القلوب، وتجل منه الأفتدة، وتشيب منه الولدان، وتذوب له الصم الصلاب، ولهذا قال : ﴿يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت﴾ مع أنها مجبولة على شدة محبتها لولدها، خصوصاً في هذه الحال، التي لا يعيش إلا بها .

﴿وتضع كل ذات حمل حملها﴾ من شدة الفزع والهول، ﴿وترى الناس سكارى وما هم بسكارى﴾ أي : تحسبهم - أيها الرائي لهم - سكارى من الخمر، وليسوا سكارى .

﴿ولكن عذاب الله شديد﴾ : فلذلك أذهب عقولهم، وفرغ قلوبهم، وملأها من الفزع، وبلغت القلوب الحناجر، وشخصت الأبصار، وفي ذلك اليوم، لا يجزي والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً .

ويومئذ ﴿يفر المرء من أخيه﴾ \* وأمه وأبيه \* وصاحبه وبنيه \* لكل امرئ

(١) صار في هذه الآيات خطأ وتداخل بين آيات سورة المعارج وآيات سورة عبس فأثبت آيات سورة عبس .

وهذا ابتداء أول التخليق، ﴿ثم من علفة﴾ أي: تتقلب تلك النطفة، بإذن الله دماً أحمر، ﴿ثم من مضغة﴾ أي: ينتقل الدم مضغة، أي: قطعة لحم، بقدر ما يمزج، وتلك المضغة تارة تكون ﴿مخلقة﴾ أي: مصور منها خلق الأدمي، ﴿وغير مخلقة﴾ تارة، بأن تغدقها الأرحام قبل تخليقها، ﴿لئلين لكم﴾ أصل نشأتكم، مع قدرته تعال على تكميل خلقه في لحظة واحدة، ولكن لئلين لنا كمال حكمته، وعظيم قدرته، وسعة رحمته.

﴿ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى﴾ أي: ونقر، أي: ينقي في الأرحام من الحمل، الذي لم تغدقه الأرحام، ما نشاء إيقاءه إلى أجل مسمى، وهو مدة الحمل. ﴿ثم نخر جكم﴾ من بطون أمهاتكم ﴿طفلاً﴾ لا تعلمون شيئاً، وليس لكم قدرة، وسخرنا لكم الأمهات، وأجرينا لكم في ثديها الرزق، ثم تنتقلون طوراً بعد طور، حتى تبلغوا أشدكم، وهو كمال القوة والعقل.

﴿ومنكم من يتوفى﴾ من قبل أن يبلغ سن الأشد، ومنكم من يتجاوزه فيريد إلى أزدل العسر، أي: أخسه وأزدله، وهو سن الهرم والتخريف، الذي به يزول العقل ويضمحل، كما زالت باقي القوى، وضعفت.

﴿لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً﴾ أي: لأجل أن لا يعلم هذا العمر شيئاً مما كان يعلمه قبل ذلك، وذلك لضعف عقله، فقوة الأدمي محفوفة بضعفين، ضعف الطفولية ونقصها، وضعف الهرم ونقصه، كما قال تعالى: ﴿الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾ والدليل الثاني، إحياء الأرض بعد موتها، فقال الله فيه: ﴿وترى الأرض هامدة﴾ أي: خاشعة مغبرة لا نبات فيها، ولا خضر، ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت﴾ أي: تحركت بالنبات ﴿ورويت﴾ أي: ارتفعت بعد خشوعها وذلك لزيادة نباتها، ﴿وأنبئت

من كل زوج﴾ أي: صنف من أصناف النبات ﴿بهبج﴾ أي: يبهج الناظرين، ويسر التاملين، فهذان الدليلان القاطعان، يدلان على هذه المطالب الخمسة، وهي هذه.

﴿ذلك﴾ الذي أنشأ الأدمي من ما وصف لكم، وأحيا الأرض بعد موتها، ﴿بأن الله هو الحق﴾ أي: الرب المعبود، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وعبادته هي الحق، وعبادة غيره باطلة، ﴿وأنه يحيي الموتى﴾ كما ابتداء الخلق، وكما أحيا الأرض بعد موتها، ﴿وأنه على كل شيء قدير﴾ كما أشهدكم من بديع قدرته وعظيم صنعته ما أشهدكم.

﴿وأن الساعة آتية لا ريب فيها﴾ فلا وجه لاستبعادها، ﴿وأن الله يبعث من في القبور﴾ فيجازيكم بأعمالكم حسنها وسيئها.

﴿٨ - ٩﴾ ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾ ثاني عطفه ليضلل عن سبيل الله له في الدنيا خزي وتذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴿المجادلة المتقدمة للمقلد، وهذه المجادلة للشيطان المريد، الداعي إلى البدع، فأخبر أنه ﴿يجادل في الله﴾ أي: يجادل رسل الله وأتباعهم بالباطل ليُدحض به الحق، ﴿بغير علم﴾ صحيح ﴿ولا هدى﴾ أي: غير متبوع في جداله هذا من يهديه، لا عقل مرشد، ولا متبوع مهتد، ﴿ولا كتاب منير﴾ أي: واضح بين، أي: فلا له حجة عقلية ولا نقلية، إن هي إلا شهوات، يوحيا إليه الشيطان ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم﴾ ومع هذا ﴿فاني عطفه﴾ أي: لأوي جانبه وعنقه، وهذا كناية عن كبره عن الحق، واحتقاره للخلق، فقد فرح بما معه من العلم غير النافع، واحتقر أهل الحق وما معهم من الحق، ﴿ليضل﴾ الناس، أي: ليكون من دعاة الضلال، ويدخل تحت هذا جميع أئمة الكفر والضلال، ثم ذكر عقوبتهم الدنيوية والأخروية فقال: ﴿له في الدنيا خزي﴾ أي: يفترض هذا في الدنيا قبل الآخرة، وهذا من

﴿بأن الله هو الحق﴾ أي: صنف من أصناف النبات ﴿بهبج﴾ أي: يبهج الناظرين، ويسر التاملين، فهذان الدليلان القاطعان، يدلان على هذه المطالب الخمسة، وهي هذه.

آيات الله العجيبة، فإنك لا تحمد داعياً من دعاة الكفر والضلال، إلا وله من المقت بين العالين، واللعنة، والبغض، والذم، ما هو حقيق به، وكل بحسب حاله.

﴿وتذيقه يوم القيامة عذاب الحريق﴾ أي: تذيقه حرها الشديد، وسعيرها السليغ، وذلك بما قدمت يداه، ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾

﴿١١ - ١٣﴾ ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾ يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد ﴿يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس المشير﴾ أي: ومن الناس من هو ضعيف الإيمان، لم يدخل الإيمان قلبه، ولم تخالطه بشاشته، بل دخل فيه، إما خوفاً، وإما عادة على وجه لا يثبت عند المحن، ﴿فإن أصابه خير اطمأن به﴾ أي: إن استمر رزقه رغداً، ولم يحصل له من المكارة شيء، اطمأن بذلك الخير، لا بيايمانه. فهذا، ربما أن الله يعافيه، ولا يقبض له من الفتن ما ينصرف به عن دينه، ﴿وإن أصابته فتنة﴾ من حصول مكروه، أو زوال محبوب ﴿انقلب على وجهه﴾ أي: ارتد عن دينه، ﴿خسر الدنيا والآخرة﴾ أما في



الدنيا، فإنه لا يحصل له بالردة ما أمله الذي جعل الردة رأساً لماله، وعضواً عما بطن إدراكه، فخاب سعيه، ولم يحصل له إلا ما قسم له، وأما الآخرة، فظاهر، حرم الجنة التي عرضها السماوات والأرض، واستحق النار، ذلك هو الحسرة المبين أي: الواضح البين.

﴿يدعو﴾ هذا الراجع على وجهه من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه، وهذا صفة كل مدعو ومعبود من دون الله، فإنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضرراً، ذلك هو الضلال البعيد الذي قد بلغ في البعد إلى حد النهاية، حيث أعرض عن عبادة النافع الضار، الغني المغني، وأقبل على عبادة مخلوق مثله أو دونه، ليس بيده من الأمر شيء، بل هو إلى حصول ضد مقصوده أقرب، ولهذا قال: ﴿يدعو لمن ضره أقرب من نفعه﴾ فإن ضرره في العقل والبدن والدنيا والآخرة معلوم ﴿لينس المولى﴾ أي: هذا المعبود ﴿ولينس العشير﴾ أي: القرين الملازم على صحبته، فإن المقصود من المولى والعشير، حصول النفع، ودفع الضرر، فإذا لم يحصل شيء من هذا، فإنه مذموم ملوم.

(١) في النسختين: أنهم.

﴿١٤﴾ ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار إن الله يفعل ما يريد﴾ لما ذكر تعالى الجادل بالباطل، وأنه على قسمين، مقلد، وداع، ذكر أن التسمي بالإيمان أيضاً على قسمين، والقسم يدخل الإيمان قلبه كما تقدم، والقسم الثاني: المؤمن حقيقة، صدق ما معه من الإيمان بالأعمال الصالحة، فأخبر تعالى أنه <sup>(١)</sup> يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، وسميت الجنة جنة، لاشتغالها على المنازل والقصور والأشجار والنواب التي تنح من فيها، ويستتر بها من كثرتها، ﴿إن الله يفعل ما يريد﴾ فما أراده تعالى فعله من غير مانع ولا معارض، ومن ذلك، إيصال أهل الجنة إليها، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

﴿١٥﴾ ﴿من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فليظن هل يذهبن كيده ما يغيظ﴾ أي: من كان يظن أن الله لا ينصر رسوله، وأن دينه سيضمحل، فإن النصر من الله ينزل من السماء ﴿فليمدد﴾ ذلك الظان بسبب أي: حبل ﴿إلى السماء﴾ وليرقى إليها ﴿ثم ليقطع﴾ النصر النازل عليه من السماء <sup>(٢)</sup>.

﴿فليظن هل يذهبن كيده﴾ أي: ما يكيد به الرسول، ويعمله من محاربه، والحرص على إبطال دينه، ما يغيظه من ظهور دينه، وهذا استفهام بمعنى النفي [وأنه]، لا يقدر على شفاء غيظه بما يعمله من الأسباب.

ومعنى هذه الآية الكريمة: يا أيها المعادي للرسول محمد ﷺ، الساعي في إطفاء دينه، الذي يظن بجعله، أن سعيه سيفيده شيئاً، اعلم أنك مهما فعلت من الأسباب، وسعيت في كيد الرسول، فإن ذلك لا يذهب غيظك، ولا يشفي كمدك، فليس لك قدرة في ذلك، ولكن سنشير عليك برأيي

تتمكن به من شفاء غيظك، ومن قطع النصر عن الرسول - إن كان ممكناً - اتت الأمر مع بابه، وارتق إليه بأسبابه، اعمد إلى حبل من ليف أو غيره، ثم اعلقه في السماء، ثم اصعد به حتى تصل إلى الأبواب التي ينزل منها النصر، فسدها وأغلقها واقطعها، فبهذه الحال تشفي غيظك، فهذا هو الرأي: والمكيدة، وأما ما سرى هذه الحال فلا يخطر ببالك أنك تشفي بها غيظك، ولو ساعدك من ساعدك من الخلق.

وهذه الآية الكريمة، فيها من الوعد والبشارة بنصر الله لدينه ورسوله وعباده المؤمنين ما لا يخفى، ومن تأييس الكافرين، الذين يريدون أن يطفؤوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره ولو كره الكافرون، أي: وسعوا مهما أمكنهم.

﴿١٦﴾ ﴿وكذلك أنزلناه آيات بينات وأن الله يهدي من يريد﴾ أي: وكذلك لما فصلنا في هذا القرآن ما فصلنا، جعلناه آيات بينات واضحات، ذالات على جميع المطالب والمسائل النافعة، ولكن الهداية بيد الله، فمن أراد الله هدايته، اهتدى بهذا القرآن، وجعله إماماً له وقادة، واستضاء بنوره، ومن لم يرد الله هدايته، فلو جاءته كل آية ما آمن، ولم ينفعه القرآن شيئاً، بل يكون حجة عليه.

﴿١٧ - ٢٤﴾ ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد﴾ ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجيال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء \* هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴿إلى قوله:

(٢) في هامش ب ﴿فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع﴾ النصر عن الرسول.

وهدوا إلى الصراط الحميد ﴿٢٤٩﴾  
 ﴿٢٥٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالصَّلَاةِ  
 الَّتِي كَانَتْ لِلْإِنسَانِ سَوَاءَ التَّكْوِينِ فِيهِ  
 وَالْأَكْبَارِ وَمَنْ يَشِينْ فِيهِ الْعَاصِي يَكْفُرُ بِهِ مِنْ عَذَابِ  
 آيَةِ ﴿٢٥١﴾ قَدْ تَوَسَّأْنَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ  
 فَتَشْرِكُ فِي ذُنُوبِهِمْ مَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنَ الْعَمَلِ أَلْفٌ وَلَا  
 يَرْجِعُونَ ﴿٢٥٢﴾ وَأَذِّنْ لِلَّذِينَ اتَّخَذُوا  
 بَيْتًا وَعَلَىٰ كُلِّ مَسْجِدٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ كُلِّ قَرْيَةٍ  
 يَتَّبِعُونَ سُنَنَ اللَّهِ فِي تَشْرُوقِ الْوُجُوهِ وَالْمَقَامَاتِ  
 عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ الْأَنْفُسَ تَعَفُّوا أَلَمْ يَكُنْ  
 أَعْيُنُهُمْ الْغُصَّةَ ثُمَّ يُنْقَضُوا عَنْهَا وَاللَّغْوُ  
 وَالْجَنَابُ وَقَدَاتُ مَا نُكْتَبُ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ بِمَا كَانُوا  
 يَعْمَلُونَ ﴿٢٥٣﴾ فَذَرِكُوا إِلَى اللَّهِ بَشِيرًا  
 إِنَّ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٥٤﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يَعْزِبْ  
 حُرْمَةَ اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا  
 وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا  
 وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا أَوْلِيَاءَ مِنْهُمُ لَا يَرْجِعُونَ  
 إِلَى اللَّهِ عَاكِفِينَ فِي السَّمَاوَاتِ ﴿٢٥٦﴾ وَالَّذِينَ  
 كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَتَّخِذُونَ الْبَنِي إِسْرَائِيلَ  
 أَوْلِيَاءَ هَؤُلَاءِ عَدُوُّوا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴿٢٥٧﴾

﴿وهدوا إلى صراط الحميد﴾ يخبر تعالى عن طوائف أهل الأرض، من الذين أوتوا الكتاب، من المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين، ومن المجوس، ومن المشركين أن الله سيجمعهم جميعهم ليوم القيامة، ويفصل بينهم بحكمه العدل، ويمجازيم بأعمالهم التي حفظها وكتبها وشهداها، ولهذا قال: ﴿إن الله على كل شيء شهيد﴾ ثم فصل هذا الفصل بينهم بقوله: ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾ كل يدعي أنه الحق. ﴿فالذين كفروا﴾ يشمل كل كافر، من اليهود، والنصارى، والمجوس، والصابئين، والمشركين.

عن سبيل الله ومنع الناس من الإيمان، والصد أيضاً عن المسجد الحرام، الذي ليس ملكاً لهم ولا لأبائهم، بل الناس فيه سواء، المقيم فيه، والطارء إليه، بل صدوا عنه أفضل الخلق محمداً وأصحابه، والحال أن هذا المسجد الحرام، من حرمة واحترامه وعظمته، أن من يرد فيه يلحد بظلم نذقه من عذاب أليم.

فمجرد إرادة الظلم والإلحاد في الحرم، موجب للعذاب، وإن كان غيره لا يعاقب العبد عليه إلا بعمل الظلم، فكيف بمن أتى فيه أعظم الظلم، من الكفر والشرك، والصد عن سبيله، ومنع من يريد به زيارة، فما ظنكم <sup>(١)</sup> أن يفعل الله بهم!! وفي هذه الآية الكريمة، وجوب احترام الحرم، وشدة تعظيمه، والتحذير من إرادة المعاصي فيه وفعلها.

﴿٢٤٩ - ٢٤٦﴾ ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وظهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود﴾ \* وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق \* ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا

﴿قطعت لهم ثياب من نار﴾ أي: يجعل لهم ثياب من قطران، وتشمل فيها النار، ليعمهم العذاب من جميع جوانبهم. ﴿يصب من فوق رؤوسهم الحميم﴾ الماء الحار جداً، يصره به ما في بطونهم من اللحم والشحم والأمعاء، من شدة حره، وعظيم أمره، ﴿ولهم مقامع من حديد﴾ بيد الملائكة الغلاظ الشداد، تضربهم فيها وتقمعهم، ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها﴾ فلا يُفكَّرُ عنهم العذاب، ولا هم ينظرون، ويقال لهم توبيخاً: ﴿ذوقوا عذاب الحريق﴾ أي: المحرق للقلوب والأبدان، ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ ومعلوم أن هذا الوصف لا يصدق على غير المسلمين، الذين آمنوا بجميع الكتب، وجميع الرسل، ﴿يخلون فيها من أساور من ذهب﴾ أي: يُسَوِّرون في أيديهم، رجالهم وتساورهم أساور الذهب.

﴿٢٥٥﴾ ﴿إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه يلحد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾ يخبر تعالى عن شناعة ما عليه المشركون الكافرون بربهم، وأنهم جمعوا بين الكفر بالله ورسوله، وبين الصد

﴿ولباسهم فيها حرير﴾ فتم نعيمهم بذكر أنواع المأكولات اللذيذات المشتمل عليها، لفظ الجنات، وذكر الأنهار السارحات، أنهار الماء واللبين والعسل والخمر، وأنواع اللباس، والخلي الفاخر، وذلك بسبب أنهم

(١) كذا في ب، وفي أ: ظنهم.



قبله وسائل إليه .

ولعله - والله أعلم أيضاً - لفائدة أخرى، وهو: أن الطواف مشروع كل وقت، وسواء كان تابعاً لنسك، أم مستقلاً بنفسه .

﴿ ٣٠ - ٣١ ﴾ ذلك ومن يعظم

حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور \* حنفاً لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴿ ذلك ﴾ الذي ذكرنا لكم من تلکم الأحكام، وما فيها من تعظيم حرمات الله وإجلالها وتكريمها، لأن تعظيم حرمات الله، من الأمور المحبوبة لله، المقربة إليه، التي من عظمها وأجلها، أثابه الله ثواباً جزيلاً، وكانت خيراً له في دينه، ودينه وأخراه عنده .

وحرمات الله: كل ماله حرمة، وأمر باحترامه، بعبادة أو غيرها، كالمناسك كلها، وكالحرم والإحرام، والهدايا، والعبادات التي أمر الله بالقيام بها، فتعظيمها وإجلالها بالقلب، ومحبتها، وتكميل العبودية فيها، غير متهاون، ولا متكاسل، ولا متناقل، ثم ذكر منته وإحسانه بما أحله لعباده، من بيمة الأنعام، من إبل وبقر وغنم، وشرعها من جملة المناسك، التي يتقرب بها إليه، فعظمت منته فيها من الوجهين، ﴿ إلا ما يتلى عليكم ﴾ في القرآن تحريمه من قوله: ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ﴾ الآية، ولكن الذي من رحمة بعباده، أن حرمه عليهم، ومنعهم منه، تركية لهم، وتطهيراً من الشرك به وقول الزور، ولهذا قال: ﴿ فاجتنبوا الرجس ﴾ أي: الخبث القذر ﴿ من الأوثان ﴾ أي: الأنداد، التي جعلتموها آلهة مع الله، فإنها أكبر أنواع الرجس، والظاهر أن ﴿ من ﴾ هنا ليست لبيان الجنس، كما قاله كثير من المفسرين، وإنما هي للتبعض، وأن الرجس عام في جميع المنهيات المحرمات، فيكون

تشوش على المتعبدين، بالصلاة والطواف، وقدم الطواف على الاعتكاف والصلاة، لاختصاصه بهذا البيت، ثم الاعتكاف، لاختصاصه بجنس المساجد .

﴿ وأذن في الناس بالحج ﴾ أي:

أعلمهم به، وأدعهم إليه، وبلغ دانيهم وقاصيهم، فرضه وفضيلته، فإنك إذا دعوتهم، أتوك حجاجاً وغماراً، رجالاً، أي: مشاة على أرجلهم من الشوق، ﴿ وعلى كل ضامر ﴾ أي: ناقه ضامر، تقطع المهام والمنازق، وتواصل السير، حتى تأتي إلى أشرف الأماكن، ﴿ من كل فج عميق ﴾ أي:

من كل بلد بعيد، وقد فعل الخليل عليه السلام، ثم من بعده ابنه محمد ﷺ، فدعيا الناس إلى حج هذا البيت، وأبديا في ذلك وأعدادا، وقد حصل ما وعد الله به، أتاه الناس رجالاً وركباناً من مشارق الأرض ومغاربها، ثم ذكر فوائد زيارة بيت الله الحرام، مرغياً فيه فقال: ﴿ ليشهدوا منافع لهم ﴾ أي: لينالوا ببيت الله منافع دينية، من العبادات الفاضلة، والعبادات التي لا تكون إلا فيه، ومنافع دنيوية، من التكسب، وحصول الأرباح الدنيوية، وكل هذا أمر مشاهد كل يعرفه، ﴿ ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بيمة الأنعام ﴾ وهذا من المنافع الدينية والدنيوية، أي: ليذكروا اسم الله عند ذبح الهدايا، شكراً لله على ما رزقهم منها، ويسرها لهم، فإذا ذبحتموها ﴿ فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ﴾ أي: شديد الفقر، ﴿ ثم ليقضوا تفهم ﴾ أي: يقضوا نسكهم، ويزيلوا الوسخ والأذى، الذي لحقهم في حال الإحرام، ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾ التي أوجبوها على أنفسهم، من الحج، والعمرة والهدايا، ﴿ وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ أي: القديم، أفضل المساجد على الإطلاق، المعتق: من تسلط الجبابرة عليه . وهذا أمر بالطواف، خصوصاً بعد الأمر بالمناسك عموماً، وفضلته، وشرفه، ولكونه المقصود، وما



منها وأطعموا البائس الفقير \* ثم ليقضوا تفهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ﴿ يذكر تعالى عظمة البيت الحرام وجلالته وعظمة بانيه، وهو خليل الرحمن، فقال: ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾ أي: هيأناه له، وأنزلناه إياه، وجعل قسماً من ذريته من سكانه، وأمره الله على طاعة الله، وبناءه هو وابنه إسماعيل، وأمره أن لا يشرك به شيئاً، بأن يخلص لله أعماله، ويبنيه على اسم الله .

﴿ وطهر بيتي ﴾ أي: من الشرك والمعاصي، ومن الأنجاس والأنداس وأضافه الرحمن إلى نفسه، لمشرفه، وفضله، ولتعظيم محبته في القلوب، وتنصب إليه الأئمة من كل جانب، وليكون أعظم لتطهيره وتعظيمه، لكونه بيت الرب للطائفين به والعاكفين عنده، المقيمين لعبادة من العبادات من ذكر، وقراءة، وتعلم علم وتعليمه، وغير ذلك من أنواع القرب، ﴿ والركع السجود ﴾ أي: المصليين، أي: طهره لهؤلاء الفضلاء، الذين همهم طاعة مولاهم وخدمته، والتقرب إليه عند بيته، فهؤلاء لهم الحق، ولهم الإكرام، ومن إكرامهم تطهير البيت لأجلهم، ويدخل في تطهيره، تطهيره من الأصوات اللاغية والمترفعة التي

منهاً عنها عموماً، وعن الأوثان التي هي بعضها خصوصاً، ﴿واجتنبوا قول الزور﴾ أي: جميع الأقوال المحرمات، فإنها من قول الزور الذي هو الكذب، ومن ذلك شهادة الزور فلما نهاهم عن الشرك والرجس وقول الزور.

أمرهم أن يكونوا ﴿حنفاء لله﴾ أي: مقبلين عليه وعلى عبادته، معرضين عما سواه.

﴿غير مشركين به ومن يشرك بالله﴾ فمثلته ﴿فكأنما خر من السماء﴾ أي: سقط منها ﴿فخطفه الطير﴾ بسرعة ﴿أو هوي به الريح في مكان سحيق﴾ أي: بعيد، كذلك المشرك، فالإيمان بمنزلة السماء، محفوظة مرفوعة.

ومن ترك الإيمان، بمنزلة الساقط من السماء، عرضة للأفات والبيات، فإما أن تحطفه الطير فنقطعه أعضاء، كذلك المشرك إذا ترك الاعتصام بالإيمان تحطفته الشياطين من كل جانب، ومزقوه، وأذهبوا عليه دينه ودينه.

﴿٣٢-٣٣﴾ ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب \* لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم جعلها إلى البيت العتيق \* أي: ذلك الذي ذكرنا لكم من تعظيم حرمانه وشعائره، والمراد بالشعائر: أعلام الدين الظاهرة، ومنها المناسك كلها، كما قال تعالى: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ ومنها الهدايا والقربان للبيت، وتقدم أن معنى تعظيمها، إجلالها، والقيام بها، وتكميلها على أكمل ما يقدر عليه العبد، ومنها الهدايا، فتعظيمها باستحسانها واستسمانها، وأن تكون مكملة من كل وجه، فتعظيم شعائر الله صادر من تقوى القلوب، فالعظيم لها يبرهن على تقواه وصحة إيمانه، لأن تعظيمها تابع لتعظيم الله وإجلاله.

﴿لكم فيها﴾ أي: [في] الهدايا ﴿منافع إلى أجل مسمى﴾ هذا في الهدايا المسوقة، من البدن ونحوها، ينتفع بها أربابها، بالركوب، والحلب ونحو ذلك، مما لا يضرها [إلى أجل

مسمى] مقدر، موقت وهو ذبحها إذا وصلت محلها وهو البيت العتيق، أي: الحرم كله [من] وغيرها، فإذا ذبحت، أكلوا منها وأهدوا، وأطعموا البائس الفقير.

﴿٣٤-٣٥﴾ ولكل أمة جعلنا منسكاً ليدذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين \* الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة وما رزقناهم ينفقون \* أي: ولكل أمة من الأمم السالفة جعلنا منسكاً، أي: فاستبقوا إلى الخيرات وتسارعوا إليها، ولنظر أيكم أحسن عملاً، والحكمة في جعل الله لكل أمة منسكاً، لإقامة ذكره، والالتفات لشكوه، ولهذا قال: ﴿ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد﴾ وإن اختلفت أجناس الشرائع، فكلها متفقة على هذا الأصل، وهو ألوهية الله، وإفراده بالعبودية، وترك الشرك به ولهذا قال: ﴿قله أسلموا﴾ أي: انقادوا واستسلموا له لا لغيره، فإن الإسلام له طريق إلى الوصول إلى دار السلام. ﴿وبشر المخبتين﴾ بخير الدنيا والآخرة، والمخبت: الخاضع لربه، المستسلم لأمره، المتواضع لعباده.

ثم ذكر صفات المخبتين فقال: ﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ أي: خوفاً وتعظيماً، فتركوا لذلك المحرمات، لحرفهم ووجلهم من الله وحده، ﴿والصابرين على ما أصابهم﴾ من البأساء والضراء وأنواع الأذى، فلا يجري منهم التسخط لشيء من ذلك، بل صبروا ابتغاء وجه ربه، محتسبين ثوابه، مرتقبين أجره، ﴿والمقيمي الصلاة﴾ أي: الذين جعلوها قائمة مستقيمة كاملة، بأن أدوا اللازم فيها والمستحب، وعبوديتها الظاهرة والباطنة، ﴿وما رزقناهم ينفقون﴾ وهذا يشمل جميع النفقات الواجبة، كالزكاة، والكفارة، والنفقة على الزوجات والماليك، والأقارب، والنفقات المستحبة، كالصدقات بجميع

وجوهها، وأتى بـ ﴿من﴾ المقيدة للتبعض، ليعلم سهولة ما أمر الله به ورغب فيه، وأنه جزء يسير مما رزق الله، ليس للعبد في تحصيله قدرة، لولا تيسير الله له ورزقه إياه. فإياها المرزوق من فضل الله، أنفق ما رزقك الله ينفق الله عليك، ويزدك من فضله.

﴿٣٦-٣٧﴾ والبلد جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون \* لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين \* هذا دليل أن الشعائر عام في جميع أعلام الدين الظاهرة. وتقدم أن الله أخبر أن من تقوى القلوب، وهنا أخبر أن من جملة شعائره، البذل، أي: الإبل، والبقرة، على أحد القولين، فتعظم وتستسمن، وتستحسن، ﴿لكم فيها خير﴾ أي: المهدي وغيره، من الأكل، والصدقة، والانتفاع، والشواب، والأجر، ﴿فاذكروا اسم الله عليها﴾ أي: عند ذبحها قولوا بسم الله وأذبحوها، ﴿صواف﴾ أي: قائمات، بأن تقام على قوائمها الأربع، ثم تعفل يدها اليسرى، ثم تنحر.

﴿فاذا وجبت جنوبها﴾ أي: سقطت في الأرض جنوباً، حين تسلخ، ثم يسقط الجزار جنوبها على الأرض، فحينئذ قد استعدت لأن يذكل منها، ﴿فكلوا منها﴾ وهذا خطاب للمهدي، فيجوز له الأكل من هديه، ﴿وأطعموا القانع والمعتر﴾ أي: الفقير الذي لا يسأل، تقنعاً، وتعففاً، والفقير الذي يسأل، فكل منهما له حق فيهما.

﴿كذلك سخرناها لكم﴾ أي: البلد ﴿لعلكم تشكرون﴾ الله على تسخيرها، فإنه لولا تسخيرها، لم يكن لكم بها طاقة، ولكنه ذلها لكم وسخرها، رحمة بكم وإحساناً إليكم،

فاحدوه .

وقوله : ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحْمَهَا وَلَا دَمَائِهَا﴾ أي : ليس المقصود منها ذبيحتها فقط . ولا ينال الله من لحومها ولا دماؤها شيء ، لكونه الغني الحميد ، وإنما يناله الإخلاص فيها ، والاحتساب ، والنية الصالحة ، ولهذا قال : ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ ففي هذا حثٌّ وترغيب على الإخلاص في النحر ، وأن يكون القصد وجه الله وحده ، لا فخراً ولا رياء ، ولا سمعة ، ولا مجرد عادة ، وهكذا سائر العبادات ، إن لم يقترن بها الإخلاص وتقوى الله ، كانت كالتشوش الذي لا لب فيه ، والجسد الذي لا روح فيه .

﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ أي : تعظموه وتجلوه ، ﴿عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ أي : مقابلة لهديته بإياكم ، فإنه يستحق أكمل الثناء وأجل الحمد ، وأعلى التعظيم ، ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُحْسِنِينَ﴾ بعبادة الله بأن يعبدوا الله ، كأنهم يرونه ، فإن لم يصلوا إلى هذه الدرجة فليعبدوه ، معتقدين وقت عبادتهم اطلاعاً عليهم ، ورؤيته إياهم ، والمحسنيين لعباد الله ، بجميع وجوه الإحسان من نفع مال ، أو علم ، أو جاه ، أو نصح ، أو أمر بمعروف ، أو نهي عن منكر ، أو كلمة طيبة ونحو ذلك ، فالمحسنون لهم البشارة من الله ، بسعادة الدنيا والآخرة وسيحسن الله إليهم ، كما أحسنوا في عبادته ولعباده ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة .

﴿٣٨﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ هذا إخبار ووعد وبشارة من الله ، للذين آمنوا ، أن الله يدافع عنهم كل مكروه ، ويدفع عنهم كل شر - بسبب إيمانهم - من شر الكفار ، وشر وسوسة الشيطان ، وشرور أنفسهم ، وسيئات أعمالهم ، ويحمل عنهم عند نزول المكاره ، ما لا يتحملون ، فيخفف عنهم غاية التخفيف . كل مؤمن له من هذه المدافعة والفضيلة بحسب إيمانه ، فمستقل ومستكثر .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ أي : خائن في أمانته التي حمله الله إياها ، فيبغض حقوق الله عليه ، ويخونها ، ويخون الخلق .

﴿كُفُورٍ﴾ لنعم الله ، يوالي عليه الإحسان ، ويتوالى منه الكفر والعصيان ، فهذا لا يحبه الله ، بل يبغضه ويمقتة ، وسبجازه على كفره وخيائته ، ومفهوم الآية ، أن الله يحب كل أمين قائم بأمانته ، شكور لمولاه .

﴿٣٩﴾ - ﴿٤١﴾ ﴿أَذِّنْ لِلَّذِينَ يِقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز \* الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور \* كان المسلمون في أول الإسلام ممنوعين من قتال الكفار ، وأمورين بالصبر عليهم ، لحكمة إلهية ، فلما هاجروا إلى المدينة ، وأوذوا ، وحصل لهم متعة وقوة ، أذن لهم بالقتال ، قال تعالى : ﴿أَذِّنْ لِلَّذِينَ يِقَاتِلُونَ﴾ يفهم منه أنهم كانوا قبل ممنوعين ، فأذن الله لهم بقتال الذين يُقاتلون ، وإنما أذن لهم ، لأنهم ظلموا ، بمنعهم من دينهم ، وأذيتهم عليه ، وإخراجهم من ديارهم .

﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ فليستصروه ، وليستعنوا به ، ثم ذكر صفة ظلمهم فقال : ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ أي : الجؤوا إلى الخروج بالأذية والفتنة ﴿بِغَيْرِ حَقِّ إِلَّا﴾ أن ذنبهم الذي نقم منهم أعداؤهم ﴿أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أي : إلا أنهم وحّدوا الله ، وعبدوه مخلصين له الدين ، فإن كان هذا ذنباً ، فهو ذنبهم كقوله تعالى : ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وهذا يدل على حكمة الجهاد ، وأن المقصود منه إقامة دين الله ، وذُبُّ الكفار المؤذنين للمؤمنين ، البادئين لهم بالاعتداء ، عن

ظلمهم واعتدائهم ، والتمكن من عبادة الله ، وإقامة الشرائع الظاهرة ، ولهذا قال : ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ في دفع الله بالمجاهدين في سبيله ضرر الكافرين ، ﴿لَهَدَمْتُ صَوَامِعَ وَبِيعَ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدَ﴾ أي : لهدمت هذه المعابد الكبار ، لطوائف أهل الكتاب ، معابد اليهود والنصارى ، والمساجد للمسلمين ، ﴿بِذِكْرِ فِيهَا﴾ أي : في هذه المعابد ﴿اسْمِ اللَّهِ كَثِيراً﴾ تقام فيها الصلوات ، وتتل فيها كتب الله ، ويذكر فيها اسم الله بأنواع الذكر ، فلولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ، لاستولى الكفار على المسلمين ، فخربوا معابدهم ، وفتنوه عن دينهم ، فدل هذا ، أن الجهاد مشروع ، لأجل دفع الصائل والمؤذي ، ومقصود لغيره ، ودل ذلك على أن البلدان التي حصلت فيها الطمأنينة بعبادة الله ، وعمرت مساجدها ، وأقيمت فيها شعائر الدين كلها ، من فضائل المجاهدين وبركتهم ، دفع الله عنها الكافرين ، قال الله تعالى : ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ .

فإن قلت : نرى الآن مساجد المسلمين عامرة لم تحرب ، مع أنها كثير منها إمارة صغيرة ، وحكومة غير منظمة ، مع أنهم لا يدان لهم بقتال من جاورهم من الإفرنج ، بل نرى المساجد التي تحت ولايتهم وسيطرتهم عامرة ، وأهلها آمنون مطمئنون ، مع قدرة ولائهم من الكفار على هدمها ، والله أخبر أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ، لهدمت هذه المعابد ، ونحن لا نشاهد دفعاً .

أجيب بأن هذا السؤال والاستشكال ، داخل في عموم هذه الآية وفرد من أفرادها ، فإن من عرف أحوال الدول الآن ونظامها ، وأنها تعتبر كل أمة وجنس تحت ولايتها ، وداخل في حكمها ، تعتبره عضواً من أعضاء المملكة ، وجزءاً من أجزاء الحكومة ، سواء كانت تلك الأمة

أَنْ يَكْفُرُوا بِاللَّهِ عَدُوًّا لَهُ يَكْفُرُ اللَّهُ بِالْكَاذِبِينَ ﴿٤٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٤٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٤٩﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٥٢﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٥٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٥٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٥٥﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٦٠﴾

فإنه وإن حصل له ملك موقت، فإن عاقبته غير حميدة، فولايته مشؤومة، وعاقبته مذمومة.

﴿٤٢ - ٤٦﴾ \* وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود \* وقوم إبراهيم وقوم لوط \* وأصحاب مدين وكذب موسى فأملت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير \* فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبشر معظلة وقصر مشيد \* أفلم يسيرا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور \* يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: وإن يكذبك هؤلاء المشركون فلست بأول رسول كذب، وليسوا بأول أمة كذبت رسولها \* فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود \* وقوم إبراهيم وقوم لوط \* وأصحاب مدين \* أي: قوم شعيب.

\* وكذب موسى فأملت للكافرين \* المكذبين، فلم أحاجلهم بالعقوبة، بل أمهلتهم، حتى استمروا في طغيانهم يعمهون، وفي كفرهم

أيها المسلمون، بحق الإيمان والعمل الصالح، فقد وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً.

ثم ذكر علامة من ينصره، وبها يعرف، أن من ادعى أنه ينصر الله ويتصر دينه، ولم يتصف بهذا الوصف، فهو كاذب فقال: ﴿الذين إن مكناهم في الأرض﴾ أي: ملكناهم إياها، وجعلناهم المتسلطين عليها، من غير منازع ينازعهم، ولا معارض، ﴿أقاموا الصلاة﴾ في أوقاتها، وحدودها، وأركانها، وشروطها، في الجمعة والجماعات.

﴿وأتوا الزكاة﴾ التي عليهم خصوصاً، وعلى رعييتهم عموماً، أتوا أهلها، الذين هم أهلها، ﴿وأمروا بالمعروف﴾ وهذا يشمل كل معروف حسنه شرعاً وعقلاً، من حقوق الله، وحقوق الأدميين، ﴿ونهاوا عن المنكر﴾ كل منكر شرعاً وعقلاً، معروف قبحه، والأمر بالشيء والنهي عنه يدخل فيه ما لا يتم إلا به، فإذا كان المعروف والمنكر يتوقف على تعلم وتعليم، أجبروا الناس على التعلم والتعليم، وإذا كان يتوقف على تأديب مقدر شرعاً، أو غير مقدر، كأنواع التعزير، قاموا بذلك، وإذا كان يتوقف على جعل أناس متصدين له، لزم ذلك، ونحو ذلك مما لا يتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا به.

﴿وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود \* وقوم إبراهيم وقوم لوط \* وأصحاب مدين﴾ أي: جميع الأمور، ترجع إلى الله، وقد أخبر أن العاقبة للمتقوي، فمن سلطه الله على العباد من الملوك، وقام بأمر الله، كانت له العاقبة الحميدة، والحالة الرشيدة، ومن تسلط عليهم بالجبروت، وأقام فيهم هوى نفسه،

مقتدرة بغيرها أو عُدِّها، أو مالها، أو عملها، أو خدمتها، فتراعي الحكومات مصالح ذلك الشعب، الدينية والدنيوية، وتحشى إن لم تفعل ذلك أن يختل نظامها، وتفقد بعض أركانها، فيقوم من أمر الدين بهذا السبب ما يقوم، خصوصاً المساجد، فإنها - والله الحمد - في غاية الانتظام، حتى في عواصم الدول الكبار.

وتراعي تلك الدول الحكومات المستقلة، نظراً لحواطر رعاياهم المسلمين، مع وجود التحاسد والتباغض بين دول النصارى، الذي أخبر الله أنه لا يزال إلى يوم القيامة، فتبقى الحكومة المسلمة، التي لا تقدر تدافع عن نفسها، سالمة من كثير<sup>(١)</sup> ضررهم، لقيام الحسد عندهم، فلا يقدر أحدهم أن يمد يده عليها، خوفاً من احتماؤها بالأخر، مع أن الله تعالى لا بد أن يربي عباده من نصر الإسلام والمسلمين، ما قد وعده في كتابه.

وقد ظهرت - والله الحمد - أسبابه ليشعر المسلمون بضرورة رجوعهم إلى دينهم والشعور مبدأ العمل<sup>(٢)</sup>، فنحمده ونسأله أن يتم نعمته، ولهذا قال في وعده الصادق المطابق للواقع: ﴿وليئصرن الله من ينصره﴾ أي: يقوم ينصر دينه، مخلصاً له في ذلك، يقاتل في سبيله، لتكون كلمة الله هي العليا. ﴿إن الله لقوي عزيز﴾ أي: كامل القوة، عزيز لا يرام، قد قهر الخلاق، وأخذ بنواصبيهم، فأبشروا، يا معشر المسلمين، فإنكم وإن ضعف عددكم وعددكم، وقوي عند عدوكم وعدتكم<sup>(٣)</sup>، فإن ركنكم القوي العزيز، ومعتمدكم على من خلقكم وخلق ما تعملون، فاعملوا بالأسباب المأمور بها، ثم اطلبوا منه نصركم، فلا بد أن ينصركم.

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ وقوموا،

(١) زيادة من هامش ب.  
 (٢) زيادة من هامش ب.  
 (٣) في أ: وعدتكم، وهو سبق فلم - والله أعلم -



﴿وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾ من طوله، وشدته، وهوله، فسواء أصابهم عذاب في الدنيا، أم تأخر عنهم العذاب، فإن هذا اليوم، لا بد أن يدركهم.

ويحتمل أن المراد: أن الله حليم، ولو استعجلوا العذاب، فإن يوماً عنده كألف سنة مما تعدون، فالمدّة، وإن تطاولتموها، واستعطأتم فيها نزول العذاب، فإن الله يمهل المدد الطويلة ولا يحسل، حتى إذا أخذ الظالمين بعذابه لم يفلتهم.

﴿وكأين من قرية أهلكنا﴾ أي: أمهلنا مدة طويلة ﴿وهي ظالمة﴾ أي: مع ظلمهم، فلم يكن مبادرتهم بالظلم، موجباً لمبادرتنا بالعقوبة، ﴿ثم أخذناها﴾ بالعذاب ﴿وإلى المصير﴾ أي: مع عذابها في الدنيا، سترجع إلى الله، فيمضئها بذنوبها، فلنحذر هؤلاء الظالمون من حلول عقاب الله، ولا يغتروا بالإمهال.

﴿٤٩ - ٥١﴾ ﴿قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين﴾ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم ﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم﴾ (١) يأمر تعالى عبده ورسوله محمداً ﷺ أن يخاطب الناس جميعاً، بأنه رسول الله، حقاً، مبشراً للمؤمنين بشواب الله، منذراً للكافرين والظالمين من عقابه، وقوله: ﴿مبين﴾ أي: بين الإنذار، وهو التخويف مع الإعلام بالخوف، وذلك لأنه أقام البراهين الساطعة على صدق ما أنذروهم به، ثم ذكر تفصيل النذارة والبشارة فقال: ﴿فالذين آمنوا﴾ بقولهم إيماناً صحيحاً صادقاً ﴿وعملوا الصالحات﴾ بجوارحهم ﴿في جنات النعيم﴾ أي: الجنات التي يتنعم بها بأنواع النعيم من المأكّل والمشرب والمناجح والصور والأصوات والنتعم برؤية الرب الكريم وسماع

يزدحم عليه الخلق، لشربهم وشرب مواشيهم، ففقد أهله، وعدم منه الوارد والصادر، وكم من قصر، تعب عليه أهله، فشيده، ورفعوه، وحسنوه، وزخرفوه، فحين جاءهم أمر الله، لم يخش عنهم شيئاً، وأصبح خالياً من أهله، قد صاروا عبدة لمن اعتبر، ومثالا لمن فكر ونظر.

ولهذا دعا الله عباده إلى السير في الأرض، لينظروا، ويعتبروا فقال: ﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾ بأبداهم وقلوبهم ﴿فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾ آيات الله ويتأملون بها مراعٍ عبره، ﴿أو أذان يسمعون بها﴾ أخبار الأمم الماضين، وأبناء القرون المعدنين، وإلا فمجرد نظر العين، وسماع الأذن، وسير البدن الخالي من التفكير والاعتبار، غير مفيد، ولا موصل إلى المطلوب، ولهذا قال: ﴿فإنها لا تعنى الأبصار ولكن تعنى القلوب التي في الصدور﴾ أي: هذا العمى الضار في الدين، عمى القلب عن الحق، حتى لا يشاهده كما لا يشاهد الأعمى المرثيات، وأما عمى البصر، فغايبته بلغة، ومنفعة دنيوية.

﴿٤٧ - ٤٨﴾ ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾ وكأين من قرية أهلكنا وهي ظالمة ثم أخذنا وإلى المصير﴾ أي: يستعجلك هؤلاء المكذوبون بالعذاب، لجهلهم، وظلمهم، وعنادهم، وتعجيزاً لله، وتكذيباً لرسله، ولن يخلف الله وعده، فما وعدهم به من العذاب، لا يد من وقوعه، ولا يمنعم منه مانع، وأما عجلته، والمبادرة فيه، فليس ذلك إليك يا محمد، ولا يستفزك عجلتهم وتعجيزهم إيانا. فإن أمامهم يوم القيامة، الذي يجمع فيه أولهم وآخرهم، ويجازون بأعمالهم، ويقع بهم العذاب الدائم الأليم، ولهذا قال:

وشرهم يزدادون، ﴿ثم أخذتهم﴾ بالعذاب أخذ عزيز مقتدر ﴿فكيف كان تكبير﴾ أي: إنكارى عليهم كفرهم، وتكذيبهم كيف حاله، كان أشد العقوبات، وأفظع المثلات، فمنهم من أغرقه، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من أهلك بالريح العقيم، ومنهم من خسف به الأرض، ومنهم من أرسل عليه عذاب يوم الظلة، فليعتبر بهم هؤلاء المكذوبون، أن يصيبهم ما أصابهم، فإنهم ليسوا خيراً منهم، ولا كتب لهم براءة في الكتب المنزلة من الله، وكم من المذنبين المهلكين أمثال هؤلاء كثير، ولهذا قال: ﴿فكأين من قرية﴾ أي: وكم من قرية ﴿أهلكناها﴾ بالعذاب الشديد، والحزني الدنيوي، ﴿وهي ظالمة﴾ بكفرها بالله وتكذيبها لرسله، لم يكن عقوبتنا لها ظالماً منا، ﴿فهي خاوية على عروشها﴾ أي: فديارهم منهذمة، قصورها، وجدرانها، قد سقطت عروشها، فأصبحت خراباً بعد أن كانت كانت عامرة، وموحشة بعد أن كانت أهلة بأهلها آنسة، ﴿وبئر معطلة وقصر مشيد﴾ أي: وكم من بشر، قد كان

(١) سبق فلم الشيخ - رحمه الله - إلى الآية رقم (٥٦) من هذه السورة فجمع بينها وبين هذه الآية فكتب (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) ثم فسرها بما يوافق الذي كتب، فعدلت الآية وصورتها، وأقيمت التفسير كما هو.





﴿ذلك﴾ صاحب الحكم والأحكام ﴿بأن الله هو الحق﴾ أي: الثابت، الذي لا يزال ولا يزول، الأول الذي ليس قبله شيء، الآخر الذي ليس بعده شيء، كامل الأسماء والصفات، صادق الوعد، الذي وعده حق ولقاؤه حق، ودينه حق، وعبادته هي الحق، النافعة الباقية على الدوام.

﴿وأن ما يدعون من دونه﴾ من الأصنام والأنداد، من الحيوانات والجمادات، ﴿هو الباطل﴾ الذي، هو باطل في نفسه، وعبادته باطلة، لأنها متعلقة بمضمحل فإن، فتبتطل تبعاً لخايتها ومقصودها، ﴿وأن الله هو العلي الكبير﴾ العلي في ذاته، فهو عال على جميع المخلوقات وفي قدره، فهو كامل الصفات، وفي قهره لجميع المخلوقات، الكبير في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته، الذي من عظمته وكبريائه، أن الأرض قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه، ومن كبريائه، أن كرسيه وسع السموات والأرض، ومن عظمته وكبريائه، أن نواصي العباد بيده، فلا يتصرفون إلا بمشيئته، ولا يتحركون ويسكنون إلا بإرادته.

وحقيقة الكبرياء التي لا يعلمها إلا هو، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، أنها كل صفة كمال وجلال وكبرياء وعظمة، فهي ثابتة له، وله من تلك الصفة أجلها وأكملها، ومن كبريائه، أن العبادات كلها، الصادرة من أهل السموات والأرض، كلها المقصود منها، تكبيره وتعظيمه، وإجلاله وإكرامه، ولهذا كان التكبير شعاراً للعبادات الكبار، كالصلاة وغيرها.

﴿٦٣ - ٦٤﴾ ﴿لم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير﴾ له ما في السموات وما في الأرض وإن الله لهو الغني الحميد ﴿هذا حدث منه تعالى، وترغيب في النظر بآياته الدالات على

وحدانيته، وكماله فقال: ﴿لم تر﴾ أي: لم تشاهد ببصرك وبصيرتك ﴿أن الله أنزل من السماء ماء﴾ وهو: المطر، فينزل على أرض خاشعة مجذبة، قد اغبرت أرجاؤها، ويبس ما فيها، من شجر ونبات، فتصبح مخضرة قد اكتست من كل زوج كريم، وصار لها بذلك منظر بهيج، إن الذي أحياها بعد موتها وهو مداهم المحيي الموتى بعد أن كانوا رميماً.

﴿إن الله لطيف خبير﴾ اللطيف الذي يدرك بواطن الأشياء، وخفياتها، وسرائرها، الذي يسوق إلى عبده الخبير، ويدفع عنه الشر<sup>(١)</sup>، بطرق لطيفة تخفي على العباد، ومن لطفه، أنه يري عبده، عزته في انتقامه وكماله اقتداره، ثم يظهر لطفه بعد أن أشرف العبد على الهلاك، ومن لطفه، أنه يعلم مواقع القطر من الأرض، ويذور الأرض في باطنها، فيسوق ذلك الماء إلى ذلك البذر، الذي خفي على علم الخلائق فينبت منه أنواع النباتات، ﴿خبير﴾ بسرائر الأمور، وخبائيا الصدور، وخفايا الأمور.

﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ خلقاً وعبيداً، يتصرف فيهم بملكه وحكمته وكماله اقتداره، ليس لأحد غيره من الأمر شيء.

﴿وإن الله لهو الغني﴾ بذاته الذي له الغنى المطلق التام، من جميع الوجوه، ومن غناه، أنه لا يحتاج إلى أحد من خلقه، ولا يواليهم من ذلة، ولا يتكثر بهم من قلة، ومن غناه، أنه ما اتخذ صاحبة ولا ولداً، ومن غناه، أنه صمد، لا يأكل ولا يشرب، ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه الخلق بوجه من الوجوه، فهو يُطعم ولا يُطعم، ومن غناه، أن الخلق كلهم مقترون عليه، في إيجادهم، وإعدادهم وإمدادهم، وفي دينهم وديانهم، ومن غناه، أنه لو اجتمع من في السموات ومن في الأرض، الأحياء منهم

والأموات، في صعيد واحد، فسأل كل منهم ما بلغت أمنيته، فأعطاهم فوق أمانتهم، ما نقص ذلك من ملكه شيء، ومن غناه، أن يده سخاء بالخير والبركات، الليل والنهار، لم ينزل إفضاله على الأنفاس، ومن غناه وكرمه، ما أودعه في دار كرامته، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿الحميد﴾ أي: المحمود في ذاته، وفي أسمائه، لكونها حسنى، وفي صفاته، لكونها كلها صفات كمال، وفي أفعاله، لكونها دائرة بين العدل والإحسان والرحمة والحكمة، وفي شرعه، لكونه لا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة، الذي له الحمد، الذي يحمل ما في السموات والأرض، وما بينهما، وما شاء بعدها، الذي لا يمحى العباد ثناء على حده، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يشني عليه عباده، وهو المحمود على توفيق من يوفقه، وخذلان من يخذله، وهو الغني في حده، الحميد في غناه.

﴿٦٥ - ٦٦﴾ ﴿لم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يجيئك إن الإنسان لكفور ﴿أي: ألم تشاهد ببصرك وقلبك نعمة ربك السابعة، وأياديه الواسعة، و ﴿أن الله سخر لكم ما في الأرض﴾ من حيوانات، ونبات، وجمادات، فجميع ما في الأرض، مسخر لبني آدم، وحيواناتها، لركوبه، وحمله، وأعماله، وأكله، وأنواع انتفاعه، وأشجارها، وثمارها، يقناتها، وقد سلبت على غرسها واستغلالها، ومعادنها، يستخرجها، وينتفع بها، ﴿والفلك﴾ أي: وسخر لكم الفلك، وهي السفن



﴿عجري في البحر بأمره﴾ تحملكم، وتحمل نهاراتكم، وتوصلكم من عمل إلى عمل، وتستخرجون من البحر حلية تلبسونها، ومن رحمة بكم أنه ﴿يمسك السماء أن تقع على الأرض﴾ فلولا رحته وقدرته، لسقطت السماء على الأرض، فتلقت ما عليها، وهلك من فيها ﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً﴾.

﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ أرحم بهم من والديهم، ومن أنفسهم، ولهذا يريد لهم الخير، ويريدون لها الشر والضر، ومن رحمة، أن سخر لهم ما سخر من هذه الأشياء.

﴿وهو الذي أحياكم﴾ أوجدكم من العدم ﴿ثم يميتكم﴾ بعد أن أحياكم، ﴿ثم يحييكم﴾ بعد موتكم، ليجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ﴿إن الإنسان﴾ أي: جنسه، إلا من عصمه الله ﴿لكفور﴾ نعم الله، كفور بالله، لا يعترف بإحسانه، بل ربما كفر بالبعث وقدرته ربه.

﴿٦٧ - ٧٠﴾ ﴿لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعنك في الأمر وادع إلى ربك إنك لمحل هدى مستقيم﴾ وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون \* الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون \* ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾ يخبر تعالى أنه جعل لكل أمة ﴿منسكاً﴾ أي: معبداً وعبادة، قد تختلف في بعض الأمور، مع اتفاقها على العدل والحكمة، كما قال تعالى: ﴿لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلوكم فيما أتاكم﴾ الآية، ﴿هم ناسكوه﴾ أي: عاملون عليه، بحسب أحوالهم، فلا اعتراض على شريعة من الشرائع، خصوصاً من الأميين أهل الشرك والجهل المبين، فإنه إذا ثبت رسالة الرسول بأدلتها، وجب أن يتلقى جميع ما جاء به بالقبول

والتسليم، وترك الاعتراض، ولهذا قال: ﴿فلا ينازعنك في الأمر﴾ أي: لا ينازعك المكذبون لك، ويعترضون على بعض ما جئتهم به، بعقولهم الفاسدة، مثل منازعتهم في حل الميتة، بقياسهم الفاسد، يقولون: «تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله»، وكقولهم «إنما البيع مثل الربا» ونحو ذلك من اعتراضاتهم، التي لا يلزم الجواب عن أعيانها، وهم منكرون لأصل الرسالة، وليس فيها مجادلة ومحاجة بانفرادها، بل لكل مقام مقال، فصاحب هذا الاعتراض، المنكر لرسالة الرسول، إذا زعم أنه يجادل ليسترشد، يقال له: الكلام معك في إثبات الرسالة وعدمها، وإلا فالانقصار على هذه، دليل أن مقصوده التعنت والتعجيز، ولهذا أمر الله رسوله أن يدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويمضي على ذلك، سواء اعترض المعترضون أم لا، وأنه لا ينبغي أن يثنيك عن الدعوة شيء، لأنك ﴿على هدى مستقيم﴾ أي: معتدل موصل للمقصود، متضمن علم الحق والعمل به، فأنت على ثقة من أمرك، ويقين من دينك، فيوجب ذلك لك الصلابة والمضي لما أمرك به ربك، ولست على أمر مشكوك فيه، أو حديث مفترى، فتقف مع الناس ومع أهوائهم، وآرائهم، ووقوفك اعتراضهم، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿فتوكل على الله إنك على الحق المبين﴾. مع أن في قوله: ﴿إنك لمحل هدى مستقيم﴾ إرشاداً لأجوبة المعترضين على جزئيات الشرع، بالعقل الصحيح، فإن الهدى وصف لكل ما جاء به الرسول، والهدى: ما تحصل به الهداية، من مسائل الأصول والفروع، وهي المسائل التي يعترف حسنيتها وعدلها وحكمتها بالعقل والفترة السليمة، وهذا يعرف بتدبر تفاصيل الأمور والمنهيات.

ولهذا أمره الله بالعدول عن جدالهم في هذه الحالة، فقال: ﴿وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون﴾

أي: هو عالم بمقاصدكم ونياتكم، فمجازيكم عليها في يوم القيامة الذي يحكم الله بينكم فيما كنتم فيه تختلفون، فمن وافق الصراط المستقيم، فهو من أهل النعيم، ومن زاغ عنه، فهو من أهل الجحيم، ومن تمام حكمه، أن يكون حكماً بعلم، فلذلك ذكر إحاطة علمه، وإحاطة كتابه فقال: ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض﴾ لا يخفى عليه منها خافية، من ظواهر الأمور وبواطنها، خفيها وجليها، متقدمها ومتأخرها، أن ذلك العلم المحيط بما في السماء والأرض قد أثبتته الله في كتاب، وهو اللوح المحفوظ، حين خلق الله القلم، قال له: «اكتب» قال: ما أكتب؟ قال: «اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة».

﴿إن ذلك على الله يسير﴾ وإن كان تصوره عندكم لا يحاط به، فالله تعالى يسير عليه أن يحيط علماً بجميع الأشياء، وأن يكتب ذلك في كتاب مطابق للواقع.

﴿٧١ - ٧٢﴾ ﴿ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً وما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير﴾ وإذا تلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا النكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنتم بشرٌ من ذلكم النار وعددها الله الذين كفروا وبش المصير﴾ يذكر تعالى حالة المشركين به، العادلين به غيره، وأن حالهم أقبح الحالات، وأنه لا مستند لهم على ما فعلوه، فليس لهم به علم، وإنما هو تقليد تلقوه عن آباءهم الضالين، وقد يكون الإنسان لا علم عنده بما فعله، وهو - في نفس الأمر - له حجة ما علمها، فأخبر هنا، أن الله لم ينزل في ذلك سلطاناً، أي: حجة تدل عليه وتجوزه، بل قد أنزل البراهين القاطعة على فساده وبطلانه، ثم نرعد الظالمين منهم المعاندين للحق فقال: ﴿وما للظالمين من نصير﴾ ينصرهم من عذاب الله إذا نزل بهم وحل. وهل هؤلاء الذين لا علم لهم بما هم عليه قصد في اتباع



الآيات والهدى إذا جاءهم؟ أم هم راضون بما هم عليه من الباطل؟ ذكر ذلك بقوله: ﴿وَإِذَا تَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ التي هي آيات الله الجليلة، المستلزمة لبيان الحق من الباطل، لم يلتفتوا إليها، ولم يرفعوا بها رأساً، بل «تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر» من بغضها وكرهاتها، ترى وجوههم مغبسة، وأبشارهم مكفهرة، «يكادون بسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا» أي: يكادون يوقعون بهم القتل والضرب البليغ، من شدة بغضهم وبغض الحق وعداوته، فهذه الحالة من الكفار بس الحالة، وشرها بس الشر، ولكن ثم ما هو شر منها، حالتهم التي يؤولون إليها، فلها قال: ﴿قُلْ أَفَأَنْبِيَكُمْ بَشَرٌ مِّنْ ذَلِكُمُ النَّارِ وَعَدَّهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسْسُ الْمَصِيرَ﴾ فهذه شرها طويل عريض، ومكروها وآلامها تزداد على الدوام.

﴿٧٣-٧٤﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِّثْلَ مَا سَمِعْتُمْ لَهُ إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾ ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز ﴿هذا مثل ضربه الله لقيح عبادة الأوثان، وبيان نقصان عقول من عبدها، وضعف الجميع، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ هذا خطاب للمؤمنين والكفار، المؤمنون يزدادون علماً وبصيرة، والكافرون تفرم عليهم الحجة، ﴿ضرب مثل فاستمعوا له﴾ أي: ألقوا إليه أسماعكم، وتفهموا ما احتوى عليه، ولا يصادف منكم قلباً لاهية، وأسماعاً معرضة، بل ألقوا إليه القلوب والأسماع، وهو هذا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ شمل كل ما يُدعى من دون الله، ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ الذي هو من أحقر المخلوقات وأخسها، فليس في قدرتهم خلق هذا المخلوق الضعيف، فما فوقه من باب

أولى، ﴿ولو اجتمعوا له﴾ بل أبلغ من ذلك لو يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ﴿وهذا غاية ما يصير من العجز. ضعف الطالب﴾ الذي هو المعبود من دون الله ﴿والمطلوب﴾ الذي هو الذباب، فكل منهما ضعيف، وأضعف منهما، من يتعلق بهذا الضعيف، وينزله منزلة رب العالمين.

فهذا ما قدر ﴿الله حق قدره﴾ حيث سوى الفقير العاجز من جميع الوجوه، بالغني القوي من جميع الوجوه، سوى من لا يملك لنفسه، ولا لغيره نفعا ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، بمن هو النافع الضار، المعطي المانع، مالك الملك، والمتصرف فيه بجميع أنواع التصريف.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: كامل القوة، كامل العزة، من كمال قوته وعزته، أن نواصي الخلق بيديه، وأنه لا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن، إلا بإرادته ومشئته، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ومن كمال قوته، أنه يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ومن كمال قوته، أنه يبعث الخلق كلهم، أولهم وآخرهم، بصيحة واحدة، ومن كمال قوته، أنه أهلك الجبابرة والأمم العاتية، بشيء يسير، وسوط من عذابه.

﴿٧٥-٧٦﴾ ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور ﴿لما بين تعالي كماله وضعف الأصنام، وأنه المعبود حقاً، بين حالة الرسل، وتميزهم عن الخلق بما تميزوا به من الفضائل فقال: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ أي: يختار ويختي من الملائكة رسلاً، ومن الناس رسلاً، يكونون أزكى ذلك النوع، وأجمعه لصفات المجد، وأحقه بالاصطفاء، فالرسل لا يكونون إلا

صفوة الخلق على الإطلاق، والذي اختارهم واصطفاهم<sup>(١)</sup>، ليس جاهلاً بحقائق الأشياء، أو يعلم شيئاً دون شيء، وإنما المصطفى لهم، السميع، البصير، الذي قد أحاط علمه وسمعته وبصره بجميع الأشياء، فاختياره إياهم، عن علم منه، أنهم أهل لذلك، وأن الوحي يصلح فيهم كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾. ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ أي: هو يرسل الرسل، يدعو الناس إلى الله، فمنهم المحيب، ومنهم الراد لدعوتهم، ومنهم العامل، ومنهم الناكل، فهذا وظيفة الرسل، وأما الجزاء على تلك الأعمال، فمصيرها إلى الله، فلا تعدم منه فضلاً أو عدلاً.

﴿٧٧-٧٨﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَاقْعُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وجهادوا في الله حق جهاده هو اجتنابكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبينا إبراهيم هو ستمكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتمسوا بالله هو مولاكم فنتمم المولى ونعم النصير ﴿يأمر تعالى عباده المؤمنين بالصلاة، وخص منها الركوع

(١) في ب: واجتباهم.

تم تفسير سورة الحج،  
والحمد لله رب العالمين

### تفسير سورة المؤمنون<sup>(١)</sup> وهي مكية

﴿١١ - ١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ \* الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ \* وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ \* وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ \* وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ \* إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ \* فَمَنْ ابْتغىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ \* وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ \* وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ \* أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ \* الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ هذا تنويه من الله، بذكر عباده المؤمنين، وذكر فلاحهم وسعادتهم، وبأي شيء وصلوا إلى ذلك، وفي ضمن ذلك، الحث على الاتصاف بصفاتهم، والترغيب فيها. فليُزَيَّن العبد نفسه وغيره على هذه الآيات، يعرف بذلك ما معه وما مع غيره من الإيمان، زيادة ونقصاً، كثرة وقلّة، فقله: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ أي: قد فازوا وسعدوا ونجحوا، والمؤمنون الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين الذين من صفاتهم الكاملة أنهم ﴿في صلواتهم خاشعون﴾

والخشوع في الصلاة: هو حضور القلب بين يدي الله تعالى، مستحضراً لقربه، فيسكن لذلك قلبه، وتطمئن نفسه، وتسكن حركاته، ويقبل التفاته، متأديباً بين يدي ربه، مستحضراً جميع ما يقوله ويفعله في صلاته، من أول صلاته إلى آخرها، فتنتفي بذلك الوسواس والأفكار الرديئة، وهذا روح الصلاة، والمقصود منها، وهو الذي يكتب للعبد، فالصلاة التي لا خشوع فيها ولا حضور قلب، وإن كانت مجزئة مثاباً عليها، فإن الثواب على

ربما توهم متوهم أن هذا من باب تكليف ما لا يطاق، أو تكليف ما يشق، احترز منه بقوله: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ أي: مشقة وعسر، بل يسره غاية التيسير، وسهله بغاية السهولة، فأولاً ما أمر بالزوم إلا بما هو سهل على النفوس، لا يثقلها ولا يؤودها، ثم إذا عرض بعض الأسباب الموجبة للتخفيف، خفف ما أمر به، إما بإسقاطه، أو إسقاط بعضه. ويؤخذ من هذه الآية، قاعدة شرعية وهي أن المشقة تجلب التيسير، و«الضرورات تبيح المحظورات»، فيدخل في ذلك من الأحكام الفرعية، شيء كثير معروف في كتب الأحكام.

﴿ملة أبيكم إبراهيم﴾ أي: هذه الملة المذكورة، والأوامر الزبورية، ملة أبيكم إبراهيم، التي ما زال عليها، فالزموها واستمسكوا بها.

﴿هو سماكم المسلمين من قبل﴾ أي: في الكتب السابقة، المذكورون ومشهورون، ﴿وفي هذا﴾ أي: هذا الكتاب، وهذا الشرع. أي: ما زال هذا الاسم لكم قديماً وحديثاً، ﴿ليكون الرسول شهيداً عليكم﴾ بأعمالكم خيراً وشرها، وتكونوا شهداء على الناس، لتكونكم خير أمة أخرجت للناس، أمة وسطاً عدلاً خياراً، تشهدون للرسول أنهم بلغوا أممهم، وتشهدون على الأمم أن رسلهم بلغتهم بما أخبركم الله به في كتابه، ﴿فأقيموا الصلاة﴾ بأركانها وشروطها وحدودها، وجميع لوازمها، ﴿وآتوا الزكاة﴾ المفروضة لمستحقيها شكراً لله على ما أولاكم، ﴿وواصموا بالله﴾ أي: امتنعوا به وتوكلوا عليه في ذلك، ولا تتكلموا على حولكم وقوتكم، ﴿هو مولاكم﴾ الذي يتولى أموركم، فيديركم بحسن تدبيره، ويصرفكم على أحسن تقديره، ﴿فنعم المولى ونعم النصير﴾ أي: نعم المولى لمن تولاها، فحصل له مطلوبه ﴿ونعم النصير﴾ لمن استنصره فدفع عنه المكروه.



والسجود، لفضلهما وركنيتهما، وعبادته التي هي قرة العيون، وسلوة القلب المحزون، وأن ربوبيته وإحسانه على العباد، يقتضي منهم أن يخلصوا له العبادة، ويأمرهم بفعل الخير عموماً.

وعلق تعالى الفلاح على هذه الأمور فقال: ﴿لعلكم تفلحون﴾. أي: تفوزون بالمطلوب المرغوب، وتنجون من المكروه المرهوب، فلا طريق للفلاح سوى الإخلاص في عبادة الخالق، والسعي في نفع عيینه، فمن وفق لذلك، فله القدر المأثور من السعادة والنجاح والفلاح.

﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾ والجهاد بذل الوسع في حصول الغرض المطلوب، فالجهاد في الله حق جهاده، هو القيام التام بأمر الله، ودعوة الخلق إلى سبيله بكل طريق موصل إلى ذلك، من نصيحة وتعليم وقتال وأدب وزجر ووعظ، وغير ذلك.

﴿هو اجتياكم﴾ أي: اختاركم - يا معشر المسلمين - من بين الناس، واختار لكم الدين، ورضيه لكم، واختار لكم أفضل الكتب وأفضل الرسل، فقابلوا هذه المنحة العظيمة، بالقيام بالجهاد فيه حق القيام، ولما كان قوله: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾

أن تكون كلها في ملكه، فلو كان له بعضها لم تحمل، لأنها<sup>(١)</sup> ليست مما ملكت يمينه، بل هي ملك له ولغيره، فكما أنه لا يجوز أن يشترك في المرأة الحرة زوجان، فلا يجوز أن يشترك في الأمة المملوكة سيدان.

﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ أي: مراعون لها، ضابطون، حافظون، حريصون على القيام بها وتنفيذها، وهذا عام في جميع الأمانات التي هي حق لله، والتي هي حق للعباد، قال تعالى: ﴿إننا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان﴾ فجميع ما أوجبه الله على عبده أمانة، على العبد حفظها بالقيام التام بها، وكذلك يدخل في ذلك أمانات الأديين، كأمانات الأموال والأسرار ونحوهما، فعلى العبد مراعاة الأمرين، وأداء الأمانتين ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ وكذلك العهد، يشمل العهد الذي بينهم وبين ربهم والذي بينهم وبين العباد، وهي الالتزامات والعقود التي يعقدها العبد، فعليه مراعاتها والوفاء بها، ويجرم عليه التصرف فيها وإهمالها، ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ أي: يداومون عليها في أوقاتها وحدودها وأشراطها وأركانها، فمدحهم بالخشوع بالصلاة، وبالمحافظة عليها، لأنه لا يتم أمرهم إلا بالأمرين، فمن يداوم على الصلاة من غير خشوع، أو على الخشوع من دون محافظة عليها، فإنه مذموم ناقص. ﴿أولئك الموصوفون بتلك الصفات﴾ هم الوارثون ﴿الذين يرثون الفردوس﴾ الذي هو أعلى الجنة ووسطها وأفضلها، لأنهم حلوا من صفات الخير أعلاها وذروتها، أو المراد بذلك جميع الجنة، ليدخل بذلك عموم المؤمنين، على درجاتهم و<sup>(٢)</sup> مراتبهم، كل بحسب حاله، ﴿هم فيها

حسب ما يعقل القلب منها. ﴿والذين هم عن اللغو﴾ وهو الكلام الذي لا خير فيه ولا فائدة، ﴿معرضون﴾ رغبة عنه، وتنزيهاً لأنفسهم، وترفعاً عنه، وإذا مروا باللغو مروا كراماً، وإذا كانوا معرضين عن اللغو، فأعرضهم عن المحرم من باب أولى وأحرى، وإذا ملك العبد لسانه وخزنه - إلا في الخير - كان مالكاً لأمره، كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل حين وصاه بوصايا قال: «ألا أخبرك بملك ذلك كله؟» قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه وقال: «كف عليك هذا»، فالؤمنون من صفاتهم الحميدة، كف الستهم عن اللغو والمحرمات.

﴿والذين هم للزكاة فاعلون﴾ أي: مؤدون لزكاة أموالهم، على اختلاف أجناس الأموال، مزكين لأنفسهم من أدناس الأخلاق ومساوئ الأعمال التي تزكو النفس بتركها وتجنبها، فأحسنوا في عبادة الخالق، في الخشوع في الصلاة، وأحسنوا إلى خلقه بأداء الزكاة.

﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ عن الزنا، ومن تمام حفظها تجب ما يدعوا إلى ذلك، كالنظر واللمس ونحوهما. فحفظوا فروجهم من كل أحد ﴿إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم﴾ من الإماء المملوكات ﴿فإنهم غير ملومين﴾ بقربيما، لأن الله تعالى أحلها.

﴿فمن ابتغى وراء ذلك﴾ غير الزوجة والسرية ﴿فأولئك هم العادون﴾ الذين تعدوا ما أحل الله إلى ما حرمه، التجروؤن على محارم الله وعموم هذه الآية، يدل على تحريم نكاح المتعة، فإنها ليست زوجة حقيقة مقصوداً بقاؤها، ولا مملوكة، وتحريم نكاح المحلل لذلك. ويدل قوله: ﴿أو ما ملكت أيمانهم﴾ أنه يشترط في حل المملوكة،

﴿والذين هم لأمانتهم وعهدهم راعون﴾ أي: مراعون لها، ضابطون، حافظون، حريصون على القيام بها وتنفيذها، وهذا عام في جميع الأمانات التي هي حق لله، والتي هي حق للعباد، قال تعالى: ﴿إننا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان﴾ فجميع ما أوجبه الله على عبده أمانة، على العبد حفظها بالقيام التام بها، وكذلك يدخل في ذلك أمانات الأديين، كأمانات الأموال والأسرار ونحوهما، فعلى العبد مراعاة الأمرين، وأداء الأمانتين ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ وكذلك العهد، يشمل العهد الذي بينهم وبين ربهم والذي بينهم وبين العباد، وهي الالتزامات والعقود التي يعقدها العبد، فعليه مراعاتها والوفاء بها، ويجرم عليه التصرف فيها وإهمالها، ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ أي: يداومون عليها في أوقاتها وحدودها وأشراطها وأركانها، فمدحهم بالخشوع بالصلاة، وبالمحافظة عليها، لأنه لا يتم أمرهم إلا بالأمرين، فمن يداوم على الصلاة من غير خشوع، أو على الخشوع من دون محافظة عليها، فإنه مذموم ناقص. ﴿أولئك الموصوفون بتلك الصفات﴾ هم الوارثون ﴿الذين يرثون الفردوس﴾ الذي هو أعلى الجنة ووسطها وأفضلها، لأنهم حلوا من صفات الخير أعلاها وذروتها، أو المراد بذلك جميع الجنة، ليدخل بذلك عموم المؤمنين، على درجاتهم و<sup>(٢)</sup> مراتبهم، كل بحسب حاله، ﴿هم فيها

خالدون﴾ لا يظعنون عنها، ولا يبعثون عنها جولاً، لاشتمالها على أكمل النعيم وأفضله وأتمه، من غير مكدر ولا متنص. ﴿١٢ - ١٦﴾ ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ﴿ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ ثم إنكم بعد ذلك لميتون ﴿ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾ ذكر الله في هذه الآيات أطوار الأدمي وتنقلاته، من ابتداء خلقه إلى آخر ما يصير إليه، فذكر ابتداء خلق أي النوع البشري آدم عليه السلام، وأنه ﴿من سلالة من طين﴾ أي: قد سلت، وأخذت من جميع الأرض، وبذلك جاء بنوه على قدر الأرض، منهم الطيب والخبث، وبين ذلك، والسهل والحزن، وبين ذلك. ﴿ثم جعلناه﴾ أي: جنس الأديين ﴿نطفة﴾ تخرج من بين الصلب والترائب، فتستقر ﴿في قرار مكين﴾ وهو الرحم، محفظة من الفساد والريح وغير ذلك. ﴿ثم خلقنا النطفة﴾ التي قد استقرت قبلاً ﴿علقة﴾ أي: دماً أحر،

(١) في أ: لأنه، وفي ب: لأن، ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) في ب: في مراتبهم.



جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم  
ظعنكم ويوم إقامتكم ﴿ومنها تأكلون﴾  
أفضل المأكّل من لحم وشحم.

﴿وعليها وعلى الفلك تحملون﴾  
أي: جعلها سفناً لكم في البر، تحملون  
عليها أئفالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه  
إلا يشق الأنفس، كما جعل لكم  
السفن في البحر تحمّلكم، وتحمل  
متاعكم، قليلاً [كان] أو كثيراً، فالذي  
أنعم بهذه النعم، وصنّف أنواع  
الإحسان، وأدر علينا من خيره  
المدرار، هو الذي يستحق كمال  
الشكر، وكمال الشناء، والاجتهاد في  
عبوديته، وأن لا يستعان بنعمه على  
معاصيه.

﴿٢٣ - ٣٠﴾ ﴿ولقد أرسلنا نوحاً  
إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم  
من إله غيره أفلا تتقون﴾ إلى آخر القصة  
وهي قوله ﴿إن في ذلك لآيات وإن كنا  
لمبتليين﴾ يذكر تعالى رسالة عبده  
ورسوله نوح عليه السلام، أول رسول  
أرسله لأهل الأرض، فأرسله إلى  
قومه، وهم يعبدون الأصنام، فأمرهم  
بعبادة الله وحده، فقال: ﴿يا قوم  
اعبدوا الله﴾ أي: اخلصوا له العبادة،  
لأن العبادة لا تصح إلا بإخلاصها.  
﴿مالك من إله غيره﴾ فيه إيصال الوهية  
غير الله، وإثبات الإلهية لله تعالى،  
لأنه الخالق الرازق، الذي له الكمال  
كله، وغيره بخلاف ذلك. ﴿أفلا  
تتقون﴾ ما أنتم عليه من عبادة الأوثان  
والأصنام، التي صورت على صور قوم  
صالحين، فعبدوها مع الله، فاستمر  
على ذلك، يدعوهم سرّاً وجهاراً،  
وليلاً ونهاراً، ألف سنة إلا خمسين  
عاماً، وهم لا يزدادون إلا عتواً  
ونفوراً.

﴿فقال الملأ﴾ من قومه الأشراف  
والسادة المتبعون - على وجه المعارضة  
لنبيهم نوح، والتحذير من اتباعه - :  
﴿ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن  
يتفضل عليكم﴾ أي: ما هذا إلا بشر  
مثلكم، قصده حين ادعى النبوة أن

يزيد عليكم فضيلة، ليكون متبوعاً،  
والأفما الذي يفضله عليكم، وهو من  
جنسكم؟ وهذه المعارضة ما زالت  
موجودة في مكذبي الرسل، وقد  
أجاب الله عنها بجواب شاف، على  
السنة رسله كما في قوله: ﴿قالوا﴾  
أي: لرسلمهم ﴿إن إنتم إلا بشر مثلنا  
تريدون أن تصلبونا عما كان يعبد آباؤنا  
فاترنا بسلطان مبين﴾ قالت لهم  
رسلمهم إن نحن إلا بشر مثلكم،  
ولكن الله يمن على من يشاء من  
عباده ﴿فأخبروا أن هذا فضل الله  
ومتته، فليس لكم أن تحجروا على الله،  
وتمنعوه من إيصال فضله علينا.

وقالوا هنا: ﴿ولو شاء الله لأنزل  
ملائكة﴾ وهذه أيضاً معارضة بالمثيئة  
باطلة، فإنه وإن كان لو شاء أنزل  
ملائكة، فإنه حكيم رحيم، حكمته  
ورحمته تقتضي أن يكون الرسول من  
جنس آدميين، لأن الملائكة لا قدرة  
لهم على مخاطبته، ولا يمكن أن يكون  
إلا بصورة رجل، ثم يعود اللبس  
عليهم كما كان.

وقولهم: ﴿ما سمعنا بهذا﴾ أي:  
بإرسال رسول ﴿في آياتنا الأولين﴾  
وأني حجة في عدم سماعهم إرسال  
رسول في آياتهم الأولين؟ لأنهم لم  
يحيطوا علماً بما تقدم، فلا يجعلوا  
جهلهم حجة لهم، وعلى تقدير أنه لم  
يرسل فيهم رسولاً، فلما أن يكونوا  
على الهدى، فلا حاجة لإرسال  
الرسول إذ ذلك، وإنما أن يكونوا على  
غيره، فليحمدوا ربهم ويشكروه أن  
خصهم بنعمة لم تأت آباءهم،  
ولا شعروا بها، ولا يجعلوا عدم  
الإحسان على غيرهم سبباً لكفرهم  
للإحسان إليهم.

﴿إن هو إلا رجل به جنة﴾ أي:  
مجنون ﴿فتربصوا به﴾ أي: انتظروا به  
﴿حتى حين﴾ إلى أن يأتي الموت.

وهذه الشبهة التي أوردوها<sup>(١)</sup>،  
معارضة لنبوة نبيهم، دالة على شدة  
كفرهم وعنادهم، وعلى أنهم في غاية

الجهل والضلال، فإنها لا تصلح  
للمعارضة بوجه من الوجوه، كما  
ذكرنا، بل هي في نفسها متناقضة  
متعارضة. فقوله: ﴿ما هذا إلا بشر  
مثلكم يريد أن يتفضل عليكم﴾ أثبتوا  
أن له عقلاً يكيدهم به، ليعلوهم  
ويسودهم، ويحتاج - مع هذا - أن  
يخدر منه ثلاثا يفتربه، فكيف يلتزم مع  
قولهم: ﴿إن هو إلا رجل به جنة﴾  
وهل هذا إلا من مثبه ضال، منقلب  
عليه الأمر، قصده الدفع بأي: طريق  
اتفق له، غير عالم بما يقول؟!  
ويأبى الله إلا أن يظهر خزي من عاداه  
وعادى رسله.

فلما رأى نوح أنه لا يفيدهم دعاؤه  
إلا فراراً ﴿قال رب انصرنى بما  
كذبون﴾ فاستنصر ربه عليهم،  
غضباً لله، حيث ضيعوا أمره، وكذبوا  
رسوله وقال: ﴿رب لا تذر على  
الأرض من الكافرين دياراً﴾ إنك إن  
تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا  
فاجراً كفاراً ﴿قال تعالى: ﴿ولقد نادانا  
نوح فلنعم المجيون﴾.

﴿فأوحينا إليه﴾ عند استجابتنا له،  
سبباً ووسيلة للنجاة، قبل وقوع  
أسبابه، ﴿أن اصنع الفلك﴾ أي:  
السفينة ﴿بأعيننا ووحينا﴾ أي: بأمرنا  
لك ومعونتنا، وأنت في حفظنا  
وكلاءتنا بحيث تراك ونسمعك.

﴿فإذا جاء أمرنا﴾ بإرسال الطوفان  
الذي عذبوا به ﴿وفار الثنور﴾ أي:  
فارت الأرض، وتفجرت عيوناً، حتى  
محل النار، الذي لم تجر العادة إلا بعده  
عن الماء، ﴿فأسلك فيها من كل زوجين  
اثنين﴾ أي: أدخل في الفلك من كل  
جنس من الحيوانات، ذكراً وأنثى،  
تبقى مادة النسل لسائر الحيوانات، التي  
اقتضت الحكمة الربانية إيجادها في  
الأرض، ﴿وأهلك﴾ أي: أدخلهم  
﴿إلا من سبق عليه القول﴾ كاتبه،  
﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾ أي:  
لا تدعني أن أنجيهم، فإن القضاء  
والقدر، قد حتم أنهم مفرقون.

بوحيه، وفضله برسالته، وابتلي بعبادة الشجر والحجر.

وهذا نظير قولهم: ﴿قالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر﴾ \* ألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشرك ﴿فلما أنكروا رسالته وردوها، أنكروا ما جاء به من البعث بعد الموت، والمجازاة على الأعمال فقالوا: ﴿أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون﴾ \* هيئات هيئات لما توعدون﴾ أي: بعيد بعيد ما يعدكم به، من البعث، بعد أن تمزقتم وكنتم تراباً وعظاماً، فنظروا نظراً قاصراً، ورأوا هذا بالنسبة إلى قدرهم غير ممكن، ففاسوا قدرة الخالق بقدرهم، تعالى الله. فأنكروا قدرته على إحياء الموتى، وعجزوه غاية التعجيز، ونسوا خلقهم أول مرة، وأن الذي أنشأهم من العدم، فإعادته لهم بعد البلى أهون عليه، وكلاهما هين لديه، فلم لا يتكروا أول خلقهم، ويكابرون المحسوسات، ويقولون: إنا لم نزل موجودين، حتى يسلم لهم إنكارهم للبعث، وينتقلوا معهم إلى الاحتجاج على إثبات وجود الخالق العظيم؟

وهنا دليل آخر، وهو: أن الذي أحيا الأرض بعد موتها، إن ذلك لمحيي الموتى، إنه على كل شيء قدير، ومم دليل آخر، وهو ما أجاب به المنكرين للبعث في قوله: ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب﴾ \* فإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيداً فقال في جوابهم: ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم﴾ أي: في البلى، ﴿وعندنا كتاب حفيظ﴾.

﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا﴾ أي: يموت أناس، ويحيا أناس ﴿وما نحن بمبعوثين﴾ ﴿إن هو إلا رجل به جنة﴾ <sup>(١)</sup> فلهدا أتى بما أتى به، من توحيد الله،

بمبعوثين \* إن هو إلا رجل افتري على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين <sup>(٢)</sup> \* قال رب انصربي بما كذبون \* قال عما قليل ليصبحن نادمين \* فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاة فبعدا للقوم الظالمين \* لما ذكر نوحاً وقومه، وكيف أهلكهم قال: ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾ الظاهر أنهم «نمود» قوم صالح عليه السلام، لأن هذه القصة تشبه قصتهم.

﴿فأرسلنا فيهم رسلاً منهم﴾ من جنسهم، يعرفون نسبه وحسبه وصدقه، ليكون ذلك أسرع لانقيادهم، إذا كان منهم، وأبعد عن اشمزازهم، فدعا إلى ما دعت إليه الرسل أمهم ﴿أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ فكلهم اتفقوا على هذه الدعوة، وهي أول دعوة يدعون بها أمهم، الأمر بعبادة الله، والإخبار أنه المستحق لذلك، والتهمي عن عبادة ما سواه، والإخبار ببطلان ذلك وفساده، ولهذا قال: ﴿أفلا تتقون﴾ ربكم، فتجنبوا هذه الأوثان والأصنام.

﴿وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة، وأترفناهم في الحياة الدنيا﴾ أي: قال الرؤساء الذين جمعوا بين الكفر والمعاندة، وأطغاهم ترفهم في الحياة الدنيا، معارضة لنبيهم، وتكذيباً وتحذيراً منه: ﴿ما هذا إلا بشر مثلكم﴾ أي: من جنسكم ﴿يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون﴾ فما الذي يفضله عليكم؟ فهلا كان ملكاً لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب، ﴿ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون﴾ أي: إن تبعتموه وجعلتموه لكم رئيساً، وهو مثلكم إنكم لمسلوبو العقل، نادمون على ما فعلتم. وهذا من العجب، فإن الخسارة والندامة حقيقة لمن لم يتابعه ولم ينقله. والجهل والسفه العظيم لمن تكبر عن الانقياد لبشر، خصه الله

﴿فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك﴾ أي: علوتم عليها، واستقلت بكم في تيار الأمواج، ولجج اليم، فاحدوا الله على النجاة والسلامة. فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين، وهذا تعليم منه له ولن معه، أن يقولوا هذا شكراً له وحمداً على نجاتهم، من القوم الظالمين في عملهم وعذابهم.

﴿وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين﴾ أي: وبقيت عليكم نعمة أخرى، فادعوا الله فيها، وهي أن يبسر الله لكم منزلاً مباركاً، فاستجاب الله دعاءه، قال الله: ﴿وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ إلى أن قال: ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك﴾ الآية.

﴿إن في ذلك﴾ أي: في هذه القصة ﴿آيات﴾ تدل على أن الله وحده المعبود، وعلى أن رسوله نوحاً صادق، وأن قومه كاذبون، وعلى رحمة الله بعباده، حيث حملهم في صلب أبيهم نوح، في الفلك لما غرق أهل الأرض. والفلك أيضاً من آيات الله، قال تعالى: ﴿ولقد تركناها آية فهل من مدكر﴾ ولهذا جمعها هنا لأنها تدل على عدة آيات ومطالب. ﴿وإن كنا لمبتلين﴾

﴿٣١ - ٤١﴾ ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾ \* فأرسلنا فيهم رسلاً منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون \* وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون \* ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون \* أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون \* هيئات هيئات لما توعدون \* إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن

(١) كتب الشيخ هذه الآية فقال: (إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين) وهذا سبق قلم منه - رحمه الله -، وسيضرها فيما يلي على نحو مما أثبت وقد تركت تفسيره للآيات كما هو.

(٢) ينظر التعليق السابق.

وإثبات المعاد ﴿فترى صوابه حتى حين﴾ أي: ارفعوا عنه العقوبة بالقتل وغيره، احتراماً له، ولأنه مجنون غير مخاذ بما يتكلم به، أي: فلم يبق بزعمهم الباطل مجادلة معه، لصحة ما جاء به، فإنهم قد عرفوا<sup>(١)</sup> بطلانه، وإنما بقي الكلام، هل يوقعون به أم لا؟، فيزعمهم أن عقولهم الرزينة، اقتضت الإبقاء عليه، وترك الإيقاع به، مع قيام الموجب، فهل فوق هذا العناد والكفر غاية؟! ولهذا لما اشتد كفرهم، ولم ينفع فيهم الإنذار، دعا عليهم نبيهم فقال: ﴿رب انصربي بما كذبون﴾ أي: بإهلاكهم، وخزيم الدينوي، قبل الآخرة. ﴿قال﴾ الله مجيباً لدعوته: ﴿عما قليل ليصبحن نادمين﴾ فأخذتهم الصيحة بالحق لا بالظلم والجور، بل بالعدل وظلمهم، أخذتهم الصيحة، فأهلكتهم عن آخرهم.

﴿فجعلناهم غشاة﴾ أي: هشيماً يبساً بمنزلة غشاة السيل الملقى في جنبات الوادي، وقال في الآية الأخرى ﴿إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر﴾.

﴿فبعداً للقوم الظالمين﴾ أي: أتبعوا مع عذابهم، البعد واللجنة والذم من العالمين ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين﴾.

﴿٤٢ - ٤٤﴾ ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين﴾ ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴿ثم أرسلنا رسلنا تنرا كل ما جاء أمة رسولها كذبوه فأتينا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون﴾ أي: ثم أنشأنا من بعد هؤلاء المكذبين المعاندين قروناً آخرين، كل أمة في وقت مسمى، وأجل محدود، لا تتقدم عنه ولا تتأخر، وأرسلنا إليهم رسلاً متتابعة، لعلمهم يؤمنون وينبون، فلم يزل الكفر والتكذيب دأب الأمم العصاة، والكفرة البغاة، كلما جاء أمة رسولها كذبوه، مع أن كل رسول يأتي

من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، بل مجرد دعوة الرسل وشرعهم، يدل على حقيقه ما جاوزوا به، ﴿فأتينا بعضهم بعضاً﴾ بالهلاك، فلم يبق منهم باقية، وتعطلت مساكنهم من بعدهم ﴿وجعلناهم أحاديث﴾ تحدث بهم من بعدهم، ويكونون عبرة للمتقين، ونكالا للمكذبين، وخزياً عليهم مفروناً بعذابهم.

﴿فبعداً لقوم لا يؤمنون﴾ ما أشقاهم!! وتعساً لهم، ما أخسر صفقتهم!!

﴿٤٥ - ٤٩﴾ ﴿ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين﴾ إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوماً عابدين ﴿فقالوا أتؤمنن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون﴾ فكذبوها فكانوا من المهلكين ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب لعلمهم يبتدون﴾ مر على منذ زمان طويل كلام لبعض العلماء لا يحضرنه الآن اسمه، وهو أنه بعد بعث موسى ونزول التوراة، رفع الله العذاب عن الأمم، أي: عذاب الاستئصال، وشرع للمكذبين المعاندين الجهاد، ولم أدر من أين أخذه، فلما تدبرت هذه الآيات، مع الآيات التي في سورة القصص، تبين لي وجهه، أما هذه الآيات، فلأن الله ذكر الأمم المهلكة المتتابعة على الهلاك، ثم أخبر أنه أرسل موسى بعدهم، وأنزل عليه التوراة فيها الهداية للناس، ولا يرد على هذا، إهلاك فرعون، فإنه قبل نزول التوراة، وأما الآيات التي في سورة القصص، فهي صريحة جداً، فإنه لما ذكر هلاك فرعون قال: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلمهم يتذكرون﴾ فهذا صريح أنه آتاه الكتاب بعد هلاك الأمم الباغية، وأخبر أنه أنزله بصائر للناس وهدى ورحمة، ولعل من هذا، ما ذكر الله في سورة «يونس» من قوله:



﴿ثم بعثنا من بعده﴾ أي: من بعد نوح ﴿رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات﴾ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك تطبع على قلوب المعتدين ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون﴾ الآيات والله أعلم.

فقوله: ﴿ثم أرسلنا موسى﴾ بن عمران، كليم الرحمن ﴿وأخاه هارون﴾ حين سأل ربه أن يشركه في أمره فأجاب سؤله.

﴿بآياتنا﴾ الدالة على صدقهما وصحة ما جاء به ﴿وسلطان مبين﴾ أي: حجة بيينة، من قوتها، أن تقهر القلوب، وتسلط عليها لقوتها فتتقاد لها قلوب المؤمنين، وتقوم الحجة البيينة على المعاندين، وهذا كقوله ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات﴾ ولهذا رئيس المعاندين عرف الحق وعاند ﴿فأسأل بني إسرائيل إذ جاءهم﴾ أي: بتلك الآيات البينات ﴿فقال﴾ له ﴿فرعون إني لأظنك يا موسى مسحوراً﴾ ﴿فقال﴾ موسى ﴿قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر، وإني لأظنك يا فرعون مشهوراً﴾ وقال تعال: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ وقال هنا: ﴿ثم أرسلنا موسى



المهلكين ﴿ في الغرق في البحر، وبنو إسرائيل ينظرون.﴾

﴿ ولقد آتينا موسى ﴿ بعدما أهلك الله فرعون، وخلص الشعب الإسرائيلي مع موسى، وتمكن حينئذ من إقامة أمر الله فيهم، وإظهار شعائره، وعده الله أن ينزل عليه التوراة أربعين ليلة، فذهب لميقات ربه، قال الله تعالى ﴿ وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء.﴾. ولهذا قال هنا: ﴿ لعلمهم يهتدون ﴾ أي: بمعرفة تفاصيل الأمر والنهي، والثواب والعقاب، ويعرفون ربهم بأسمائه وصفاته.﴾

ولهذا، الأعمال الصالحة، التي هي صلاح في جميع الأزمنة، قد اتفقت عليها الأنبياء والشرائع، كالأمر بتوحيد الله، وإخلاص الدين له، ومحبته، وخوفه، ورجائه، والبر، والصدق، والوفاء بالعهد، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى الضعفاء والمساكين واليتامى، والحنو والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك من الأعمال الصالحة، ولهذا كان أهل العلم، والكتب السابقة، والعقل، حين بعث الله محمداً ﷺ، يستدلون على نبوته بأجناس ما يأمر به، وينهى عنه، كما جرى له قبله، فإنه إذا أمر بما أمر به الأنبياء، الذين من قبله، ونهى عما نهوا عنه، دل على أنه من جنسهم، بخلاف الكذاب، فلا بد أن يأمر بالشر، وينهى عن الخير.

ولهذا قال تعالى للرسول: ﴿ وإن هذه أممكم أمة ﴾ أي: جماعتكم - يا معشر الرسل - جماعة ﴿ واحدة ﴾ متفقة على دين واحد، وربكم واحد.

﴿ فاتقون ﴾ بامتثال أوامري، واجتناب زواجرى. وقد أمر الله المؤمنين بما أمر به المرسلين، لأنهم بهم يقتنون، وخلفهم يسلكون، فقال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾ فالواجب من كل المنتسبين إلى الأنبياء وغيرهم، أن يمتثلوا لهذا، ويعملوا به، ولكن أبى الظالمون المفسقون إلا عصياناً، ولهذا قال: ﴿ فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً ﴾ أي: تقطع المنتسبون إلى اتباع الأنبياء ﴿ أمرهم ﴾ أي: دينهم ﴿ بينهم زبراً ﴾ أي: قطعاً ﴿ كل حزب بما لديهم

﴿ ولقد آتينا موسى ﴿ بعدما أهلك الله فرعون، وخلص الشعب الإسرائيلي مع موسى، وتمكن حينئذ من إقامة أمر الله فيهم، وإظهار شعائره، وعده الله أن ينزل عليه التوراة أربعين ليلة، فذهب لميقات ربه، قال الله تعالى ﴿ وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء.﴾. ولهذا قال هنا: ﴿ لعلمهم يهتدون ﴾ أي: بمعرفة تفاصيل الأمر والنهي، والثواب والعقاب، ويعرفون ربهم بأسمائه وصفاته.﴾

﴿ ٥٠ ﴾ ﴿ وجعلنا ابن مريم وأمه آمنين ﴾ أي: وامننا على عيسى ابن مريم، وجعلناه وأمه من آيات الله العجيبة، حيث حملته وولده من غير أب، وتكلم في المهد صبياً، وأجرى الله على يديه من الآيات ما أجرى، ﴿ وآتيناهما لى ربوة ﴾ أي: مكان مرتفع، وهذا - والله أعلم - وقت وضعها، ﴿ ذات قرار ﴾ أي: مستقر وراحة ﴿ ومعين ﴾ أي: ماء جار، بدليل قوله: ﴿ قد جعل ربك تحتك ﴾ أي: تحت المكان الذي أنت فيه، لارتفاعه، ﴿ سرياً ﴾ أي: نهراً وهو المعين ﴿ وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنياً ﴾ فكلي واشربي وقرى عيناً.﴾

﴿ ٥١ - ٥٦ ﴾ ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واحملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم ﴾ وإن هذه أممكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴿ فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ فذرهم في غمرتهم حتى حين ﴿ يحسبون أننا نمدمهم به من مال وبين ﴾ نساارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴿ هذا أمر منه تعالى لرسله بأكل الطيبات، التي هي الرزق الطيب الحلال، وشكر الله، بالعمل الصالح، الذي به يصلح القلب والبدن، والدنيا والآخرة. ويحبرهم أنه بما يعملون عليم، فكل عمل عمله، وكل سعى



وأخاه هارون بأياتنا وسلطان مبين \* إلى فرعون وملئيه ﴿ ك هامان ﴾ وغيره من رؤسائهم، ﴿ فاستكبروا ﴾ أي: تكبروا عن الإيمان بالله، واستكبروا على أنبيائه، ﴿ وكانوا قوماً عالين ﴾ أي: وصفهم العلو، والقهر، والفساد في الأرض، فلهذا صدر منهم الاستكبار، ذلك غير مستكثر منهم.

﴿ فقالوا ﴾ كبراً وتبهاً، ومخذيراً لضعفاء العقول، وتمويهاً: ﴿ أنؤمن لبشرين مثلنا ﴾ كما قاله من قبلهم سواء بسواء، تشابهت قلوبهم في الكفر، فتشابهت أقوالهم وأفعالهم، وجحدوا منه الله عليهما بالرسالة.

﴿ وقومهما ﴾ أي: بنو إسرائيل ﴿ لنا عابدون ﴾ أي: معبدون بالأعمال والأشغال الشاقة، كما قال تعالى: ﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبسون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ فكيف نكون تابعين بعد أن كنا متبوعين؟ وكيف يكون هؤلاء رؤساء علينا؟ ونظير قولهم، قول قوم نوح: ﴿ أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾ ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ﴾. من المعلوم أن هذا لا يصلح لدفع الحق، وأنه تكذيب ومعاندة.

ولهذا قال: ﴿ فكذبوا فما كانوا من

الخير، همهم ما يقرهم إلى الله، وإرادتهم مصروفة فيما ينجي من عذابه، فكل خير سمعوا به، أو سنحت لهم الفرصة إليه، انتزهوه وبادروه، قد نظروا إلى أولياء الله وأصفيائه، أمامهم، وبمئة، وبسرة، يسارعون في كل خير، وينافسون في الزلفى عند ربهم، فنافسوه. ولما كان المسابق لغيره المسارع قد يسبق لجدته وتشميره، وقد لا يسبق لتقصيره، أخبر تعالى أن هؤلاء من القسم السابقين فقال:

﴿وهم لها﴾ أي: للخيرات ﴿سابقون﴾ قد بلغوا ذروتها، وتباروا هم والرعييل الأول، ومع هذا، قد سبقت لهم من الله سابقة السعادة، أنهم سابقون. ولما ذكر مسارعتهم إلى الخيرات وسبقهم إليها، ربما وهم وأهم أن المطلوب منهم ومن غيرهم أمر غير مقدور أو متعسر، أخبر تعالى أنه لا يكلف ﴿نفساً إلا وسعها﴾ أي: بقدر ما تسعه، ويفضل من قوتها عنه، ليس مما يستوعب قوتها، رحمة منه وحكمة، لتيسير طريق الوصول إليه، ولتعمر جادة السالكين في كل وقت إليه. ﴿ولدينا كتاب ينطق بالحق﴾ وهو الكتاب الأول، الذي فيه كل شيء، وهو يطابق كل واقع يكون، فلذلك كان حقاً، ﴿وهم لا يظلمون﴾ ينقص من إحسانهم، أو يزداد في عقوبتهم وعصيانهم.

﴿٦٣ - ٦٧﴾ ﴿بيل قلوبهم في غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون﴾ حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون \* لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تصرون \* قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون \* مستكبرين به سامراً تهجرون﴾ يخبر تعالى أن قلوب المكذبين في غمرة من هذا، أي: وسط غمرة من الجهل والظلم، والغفلة والإعراض، تمنعهم من الوصول إلى هذا القرآن، فلا يهتدون به، ولا يصل

أن يضع عليهم عدله، فلا يبقى لهم حسنة، وسوء ظن بأنفسهم، أن لا يكونوا قد قاموا بحق الله تعالى، وخوفاً على إيمانهم من الزوال، ومعرفة منهم برهم، وما يستحقه من الإجلال والإكرام، وخوفهم وإشفاقهم يوجب لهم الكف عما يوجب الأمر المخوف من الذنوب، والتقصير في الواجبات.

﴿والذين هم بآيات ربهم يؤمنون﴾ أي: إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً، ويتفكرون أيضاً في الآيات القرآنية ويتدبرونها، فيبين لهم من معاني القرآن وجلالته واتفاقه، وعدم اختلافه وتناقضه، وما يدعو إليه من معرفة الله وخوفه ورجائه، وأحوال الجزاء، فيحدث لهم بذلك من تفاصيل الإيمان، ما لا يعبر عنه اللسان.

ويتفكرون أيضاً في الآيات الأفقية، كما في قوله: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لآولي الأبصار﴾ إلى آخر الآيات.

﴿والذين هم برهم لا يشركون﴾ أي: لا شركاً جلياً، كاتخاذ غير الله معبوداً، يدعو ويرجوه ولا شركاً خفياً، كالرياء ونحوه، بل هم مخلصون لله، في أقوالهم وأعمالهم وسائر أحوالهم.

﴿والذين يؤتون ما آتوا﴾ أي: يعطون من أنفسهم مما أمروا به، ما آتوا من كل ما يقدرون عليه، من صلاة، وزكاة، وحج، وصدقة، وغير ذلك، ﴿و﴾ مع هذا ﴿قلوبهم وجله﴾ أي: خائفة ﴿أنهم إلى ربهم راجعون﴾ أي: خائفة عند عرض أعمالها عليه، والوقوف بين يديه، أن تكون أعمالهم غير منجية من عذاب الله، لعلمهم برهم، وما يستحقه من أصناف العبادات.

﴿أولئك يسارعون في الخيرات﴾ أي: في ميدان التسارع في أفعال

أي: بما عندهم من العلم والدين ﴿فرحون﴾ يزعمون أنهم المحقون، وغيرهم على غير الحق، مع أن المحق منهم، من كان على طريق الرسل، من أكل الطيبات، والعمل الصالح، وما عداهم فإنهم مبطلون.

﴿فذرهم في غمرتهم﴾ أي: في وسط جهلهم بالحق، ودعواهم أنهم هم ﴿المحقون﴾. ﴿حتى حين﴾ أي: إلى أن ينزل العذاب بهم، فإنهم لا يتفح فيهم وعظ، ولا يفيدهم زجر، وكيف يفيد من يزعم أنه على الحق، ويطمع في دعوة غيره إلى ما هو عليه؟

﴿أيحسبون أننا نمدهم به من مال وينين﴾ تسارع لهم في الخيرات ﴿أي: أيتلون أن زيادتنا إياهم بالأموال والأولاد، دليل على أنهم من أهل الخير والسعادة، وأن لهم خير الدنيا والآخرة؟ وهذا مقدم لهم، ليس الأمر كذلك.

﴿بل لا يشعرون﴾ أننا نملي لهم ونهملهم ونمدهم بالتعم، ليزدادوا إثماً، وليتوفر عقابهم في الآخرة، وليتخطوا بما آتوا ﴿حتى إذا فرحوا بما آتوا أخذناهم بغتة﴾.

﴿٥٧ - ٦٢﴾ ﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾ والذين هم بآيات ربهم يؤمنون \* والذين هم برهم لا يشركون \* والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجله أنهم إلى ربهم راجعون \* أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون \* ولا تكلف نفساً إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون﴾ لما ذكر تعالى الذين جمعوا بين الإساءة والأمن، الذين يزعمون أن عطاء الله إياهم في الدنيا دليل على خيرهم وفضلهم، ذكر الذين جمعوا بين الإحسان والخوف، فقال: ﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾ أي: وجلون، مشفقة قلوبهم كل ذلك من خشية ربهم، خوفاً

يقولون: لا نعرفه، ولا نعرف صدقه، دعونا حتى ننظر حاله ونسأل عنه من له به خبرة، أي: لم يكن الأمر كذلك، فإنهم يعرفون الرسول ﷺ معرفة تامة، صغيرهم وكبيرهم يعرفون منه كل خلق جميل، ويعرفون صدقه وأمانته، حتى كانوا يسمونه قبل البعثة «الأمين» فلم لا يصدقونه، حين جاءهم بالحق العظيم، والصدق المين؟.

﴿أم يقولون به جنة﴾ أي: جنة، فلهذا قال ما قال، والمجننون غير مسموع منه، ولا عبرة بكلامه، لأنه يهذي بالباطل والكلام السخيف.

قال الله في الرد عليهم في هذه المقالة: ﴿بل جاءهم بالحق﴾ أي: بالأمر الثابت، الذي هو صدق وعدل، لا اختلاف فيه ولا تناقض، فكيف يكون من جاء به، به جنة؟! وهلا يكون إلا في أعلى درج الكمال، من العلم والعقل ومكارم الأخلاق، وأيضاً فإن في هذا الانتقال مما تقدم، أي: بل الحقيقة التي منعتم من الإيمان أنه جاءهم بالحق ﴿وأكثرهم للحق كارهون﴾ وأعظم الحق الذي جاءهم به إخلاص العبادة لله وحده، وترك ما يعبد من دون الله، وقد علم كراهتهم لهذا الأمر وتعجبهم منه، فكون الرسول أتى بالحق، وكونهم كارهين للحق بالأصل، هو الذي أوجب لهم التكذيب بالحق لا شكاً ولا تكديماً للرسول، كما قال تعالى: ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ فإن قيل: لم لم يكن الحق موافقاً لأهوائهم لأجل أن يؤمنوا ويسرعوا الانقياد؟ أجاب تعالى بقوله: ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ووجه ذلك أن أهواءهم متعلقة بالظلم والكفر والفساد من الأخلاق والأعمال، فلو تبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض، لفساد التصرف والتدبير المبني على الظلم وعدم العدل،

﴿هجررون﴾ أي: تقولون الكلام الهجر الذي هو القبيح في<sup>(١)</sup> هذا القرآن. فالمكذبون كانت طريقتهم في القرآن، الإعراض عنه، ويوصي بعضهم بعضاً بذلك ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغفلون﴾ وقال الله عنهم: ﴿أفمن هذا الحديث تعجبون \* وتضحكون ولا تبكون \* وأنتم سامدون﴾ ﴿أم يقولون نقوله﴾.

فلما كانوا جامعين لهذه الرذائل، لا جرم حقت عليهم العقوبة، ولما وقعوا فيها، لم يكن لهم ناصر ينصرهم، ولا مغيث ينقذهم، ويويخون عند ذلك بهذه الأعمال الساقطة ﴿أفلم يدبروا القول﴾ أي: أفلا يتفكرون في القرآن ويتأملونه ويتدبرونه، أي: فإنهم لو تدبروه، لأوجب لهم الإيمان، ولمنعهم من الكفر، ولكن الضيعة التي أصابتهم بسبب إعراضهم عنه، ودل هذا على أن تدبر القرآن، يدعو إلى كل خير، ويعصم من كل شر، والذي منعهم من تدبره أن على قلوبهم أظالها.

﴿أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين﴾ أي: أو منعهم من الإيمان، أنه جاءهم رسول وكتاب، ما جاء آباءهم الأولين، فرضوا بسلك طريق آباؤهم الضالين، وعارضوا كل ما خالف ذلك، ولهذا قالوا، هم ومن أشبههم من الكفار، ما أخبر الله عنهم: ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾ فأجابهم بقوله: ﴿قال أولو جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم﴾ فهل تتبعون إن كان قصدكم الحق، فأجابوا بحقيقة أمرهم ﴿قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون﴾.

وقوله: ﴿أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون﴾ أي: أو منعهم من اتباع الحق، أن رسولهم محمداً ﷺ، غير معروف عندهم، فهم منكرون له؟

إلى قلوبهم منه شيء. ﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاً مستوراً \* وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً﴾ فلما كانت قلوبهم في غمرة منه، عملوا بحسب هذا الحال، من الأعمال الكفرية، والمعاندة للشرع، ما هو موجب لعقابهم، ﴿و﴾ لكن ﴿لهم أعمال من دون﴾ هذه الأعمال ﴿هم لها عاملون﴾ أي: فلا يستغفروا عدم وقوع العذاب فيهم، فإن الله يمهلهم ليعملوا هذه الأعمال، التي بقيت عليهم مما كتب عليهم، فإذا عملوها واستوفوها، انتقلوا بشر حالة إلى غضب الله وعقابه.

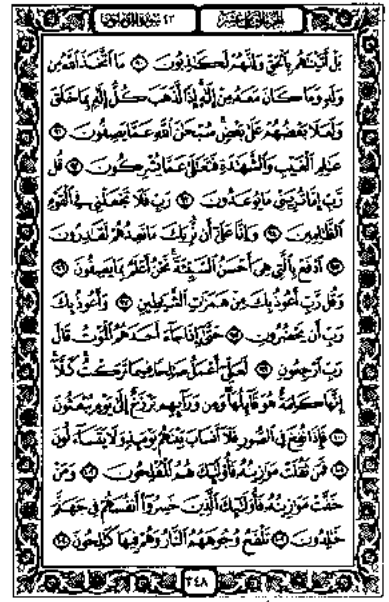
﴿حتى إذا أخذنا مترفيهم﴾ أي: متنعيمهم، الذين ما اعتادوا إلا الترف والرفاهية والنعيم، ولم تحصل لهم المكارة، فإذا أخذناهم ﴿بالعذاب﴾ ووجدوا منه ﴿إذا هم يمارون﴾ يصرخون ويتوجعون، لأنه أصابهم أمر خالف ما هم عليه، ويستغيثون، فيقال لهم: ﴿لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون﴾ وإذا لم تأتكم النصررة من الله، وانقطع عنهم<sup>(٢)</sup> الغوث من جانبه، لم يستطيعوا نصر أنفسهم، ولم ينصرهم أحد.

فكانه قيل: ما السبب الذي أوصلهم إلى هذا الحال؟ قال: ﴿قد كانت آياتي تتلى عليكم﴾ لتؤمنوا بها وتقبلوا عليها، فلم تفعلوا ذلك، بل ﴿كنتم على أعقابكم تنكصون﴾ أي: راجعين القهقري إلى الخلف، وذلك لأن باتباعهم القرآن يتقدمون، وبالإعراض عنه يستأخرون وينزلون إلى أسفل سافلين. ﴿مستكبرين به سامراً هجررون﴾ قال المفسرون معناه: مستكبرين به، الضمير يعود إلى البيت، المعهود عند المخاطبين، أو الحرم، أي: متكبرين على الناس بسببه، تقولون: نحن أهل الحرم، فنحن أفضل من غيرنا وأعل، ﴿سامراً﴾ أي: جماعة يتحدثون بالليل حول البيت

(٢) زيادة من هامش: ب.

(١) كذا في ب، وفي أ: عنه.





السمع \* لتدركوا به السموات، فتنتفعوا في دينكم وديانكم، **﴿والأبصار﴾** لتدركوا بها البصيرات، فتنتفعوا بها<sup>(١)</sup> في مصالحكم.

**﴿والأفئدة﴾** أي: العقول التي تدركون بها الأشياء، وتميزون بها عن البهائم، فلو عدمتم السمع، والأبصار، والعقول، بأن كنتم صماً عمياً بكم ما ماذا تكون حالكم؟ وماذا تفقدون من ضرورياتكم وكمالكم؟ أفلا تشكرون الذي منّ عليكم بهذه النعم، فتقومون بتوحيده وطاعته؟ ولكنكم، قليل شكركم، مع توالي النعم عليكم.

**﴿وهو﴾** تعالى **﴿الذي ذرأكم في الأرض﴾** أي: يثكم في أقطارها، وجهاتها، وسلطكم على استخراج مصالحها ومنافعها، وجعلها كافية لمعيشتكم ومساكنكم، **﴿وإليه تحشرون﴾** بعد موتكم، فيجازيكم بما عملتم في الأرض، من خير وشر، وتحدث الأرض التي كنتم فيها بأخبارها، **﴿وهو﴾** تعالى وحده **﴿الذي يحيي ويميت﴾** أي: المتصرف في الحياة والموت، هو الله وحده، **﴿وليه اختلاف الليل والنهار﴾** أي: تعاقبهما

وتناوبهما، فلو شاء أن يجعل النهار سرمداً، من إله غير الله بأنيكم لليل تسكنون فيه؟ ولو شاء أن يجعل الليل سرمداً، من إله غير الله بأنيكم بضيء أفلا تبصرون؟ **﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾**.

ولهذا قال هنا: **﴿أفلا تعقلون﴾** فتعرفون أن الذي وهب لكم من النعم، السمع، والأبصار، والأفئدة، والذي نشركم في الأرض وحده، والذي يحيي ويميت وحده، والذي يتصرف بالليل والنهار وحده، أن ذلك موجب لكم، أن تخلصوا له العبادة وحده لا شريك له، وتتركوا عبادة من لا ينفع ولا يضر، ولا يتصرف بشيء، بل هو عاجز من كل وجه، فلو كان لكم عقل لم تفعلوا ذلك.

**﴿٨١-٨٣﴾** **﴿بل قالوا مثل ما قال الأولون﴾** قالوا أءذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون \* لقد وعدنا نحن الأولين أي: بل سلك هؤلاء المكذبون مسلك الأولين من المكذبين بالبعث، واستبعدوه غاية الاستبعاد وقالوا: **﴿إذنا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون﴾** أي: هذا لا يتصور، ولا يدخل العقل، بزعمهم.

**﴿لقد وعدنا نحن وأبأؤنا هذا من قبل﴾** أي: ما زلنا نوعد بأن البعث كائن، ونحن وأبأؤنا، ولم نره، ولم يأت بعد، **﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾** أي: قصصهم وأسمارهم، التي يتحدث بها وتلهي، وإلا فليس لها حقيقة، وكذبوا - قبحهم الله - فإن الله أراهم، من آياته أكبر من البعث، ومثله، **﴿خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس﴾**.

**﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم﴾** الآيات **﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها**

الماء اهترت وربت **﴿الآيات﴾** **﴿٨٤-٨٩﴾** **﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون﴾** يقولون **﴿قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم﴾** يقولون **﴿قل أفلا تتقون﴾** **﴿قل من يملك كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون﴾** يقولون **﴿قل فأنى تسحرون﴾** أي: قل لهؤلاء المكذبين بالبعث، العادلين بالله غيره، محتجاً عليهم بما أثبتوه، وأقروا به من توحيد الربوبية، وانفراد الله بها، على ما أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة، وبما أثبتوه من خلق المخلوقات العظيمة، على ما أنكروه من إعادة الموتى، الذي هو أسهل من ذلك.

**﴿لمن الأرض ومن فيها﴾** أي: من هو الخالق للأرض ومن عليها، من حيوان، ونبات، وجماد، وبحار، وأهبار، وجبال، المالك لذلك، المدبر له؟ فإنك إذا سألتهم<sup>(٢)</sup> عن ذلك، لا بد أن يقولوا: الله وحده، فقل لهم إذا أقروا بذلك: **﴿أفلا تذكرون﴾** أي: أفلا ترجعون إلى ما ذكركم الله به، مما هو معلوم عندهم، مستقر في فطرتكم، قد يئبه الإعراض في بعض الأوقات، والحقيقة أنكم إن رجعتم إلى ذاكرتكم، بمجرد التأمل، علمتم أن مالك ذلك، هو المعبود وحده، وأن إلهية من هو ملوك، أبطل الباطل، ثم انتقل إلى ما هو أعظم من ذلك، فقال: **﴿قل من رب السموات السبع﴾** وما فيها من النيرات، والكواكب السيارت، والنوابت **﴿ورب العرش العظيم﴾** الذي هو أعلى المخلوقات وأوسعها وأعظمها، فمن الذي خلق ذلك ودبره، وصرفه بأنواع التدبير؟ **﴿سيقولون الله﴾** أي: سيقرون بأن الله رب ذلك كله.

قل لهم حين يقرون بذلك: **﴿أفلا تتقون﴾** عبادة المخلوقات العاجزة،

(١) كذا في ب، وفي أ: لتدركوا به البصيرات، فتنتفعون به.

(٢) في أ: سألتهم.

وتفتون الرب العظيم، كامل القدرة، عظيم السلطان؟ وفي هذا من لطف الخطاب، من قوله: ﴿أفلا تذكرون﴾ ﴿أفلا تتقون﴾ والوعظ بأداة العرض الجاذبة للقلوب، ما لا يخفى. ثم انتقل إلى إقراءهم بما هو أعم من ذلك كله فقال: ﴿قل من بيده ملكوت كل شيء﴾ أي: ملك كل شيء، من العالم العلوي، والعالم السفلي، ما نبصره، وما لا نبصره؟

و «الملكوت»: صيغة مبالغة، بمعنى الملك. ﴿وهو يبيّر﴾ عباده من الشر، ويدفع عنهم المكاره، ويحفظهم مما يضرهم، ﴿ولا يجار عليه﴾ أي: لا يقدر أحد أن يجير على الله، ولا يدفع الشر الذي قدره الله. بل ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، ﴿سيقولون لله﴾ أي: سيقرون أن الله المالك لكل شيء، المجير، الذي لا يجار عليه.

﴿قل﴾ لهم حين يقرون بذلك، ملزماً لهم، ﴿فأني تسحرون﴾ أي: فأين تذهب عقولكم، حيث عبدتم من علمتم أنهم لا ملك لهم، ولا قسط من الملك، وأنهم عاجزون من جنيح الوجوه، وتركتم الإخلاص للمالك العظيم القادر المدير لجميع الأمور، فالعقول التي دلتكم على هذا، لا تكون إلا مسحورة، وهي - بلا شك - قد سحرها الشيطان، بما زين لهم، وحسن لهم، وقلب الحقائق لهم، فسحر عقولهم، كما سحرت السحرة أعين الناس.

﴿٩٠ - ٩٢﴾ ﴿بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون﴾ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون \* عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون﴾ يقول تعالى: بل أتينا هؤلاء الكاذبين بالحق، المتضمن للصدق في الأخبار، العدل في الأمر والنهي، فما بالهم لا يعترفون به، وهو أحق أن يتبع؟ وليس عندهم

ما يعوضهم عنه، إلا الكذب والظلم، ولهذا قال: ﴿وإنهم لكاذبون﴾.

﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله﴾ كذب يعرف بخبر الله، وخبر رسله، ويعرف بالعقل الصحيح، ولهذا نبه تعالى على الدليل العقلي، على امتناع إلهين فقال: ﴿إذا﴾ أي: لو كان معه إلهة كما يقولون ﴿لذهب كل إله بما خلق﴾ أي: لانفرد كل واحد من الإلهين بمخلوقاته واستقل بها، ولحرص على ممانعة الآخر ومغالبتها، ﴿ولعلا بعضهم على بعض﴾ فالغالب يكون هو الإله، وإلا فمع التماثل لا يمكن وجود العالم، ولا يتصور أن ينتظم هذا الانتظام المدهش للعقول، واعتبر ذلك بالشمس والقمر، والكواكب الثابتة، والسيارة، فإنها منذ خلقت، وهي تجري على نظام واحد، وترتيب واحد، كلها مسخرة بالقدرة، مدبرة بالحكمة لمصالح الخلق كلهم، ليست مقصورة على مصلحة أحد دون أحد، ولن ترى فيها خللاً ولا تناقضاً، ولا معارضة في أدنى تصرف، فهل يتصور أن يكون ذلك، تقدير إلهين زينين!!

﴿سبحان الله عما يصفون﴾ قد نطقت بلسان حالها، وأفهمت ببدیع أشكالها، أن المدير لها إله واحد، كامل الأسماء والصفات، قد افتقرت إليه جميع المخلوقات، في ربوبيتها لها، وفي إلهيتها لها، فكما لا وجود لها ولا دوام إلا بربوبيته، كذلك، لا صلاح لها ولا قوام إلا بعبادته وإفراده بالطاعة، ولهذا نبه على عظمة صفاته بأنموذج من ذلك، وهو علمه المحيط، فقال: ﴿عالم الغيب﴾ أي: الذي غاب عن أبصارنا وعلمنا، من الواجبات والمستحبات والممكنات، ﴿والشهادة﴾ وهو ما نشاهد من ذلك ﴿فتعالى﴾ أي: ارتفع وعظم، ﴿عما يشركون﴾ به، من لا علم عنده، إلا ما علمه الله<sup>(١)</sup>.

﴿٩٣ - ٩٥﴾ ﴿قل رب إني ترينني

ما يوعدون \* رب فلا تجعلني في القوم الظالمين \* وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون﴾ لما أقام تعالى على المكذبين أدلته العظيمة، فلم يلتفتوا لها، ولم يذعنوا لها، حق عليهم العذاب، ووعدها بنزوله، وأرشد الله رسوله أن يقول: ﴿قل رب إني ترينني ما يوعدون﴾ أي: أتى وقت أربيتني عذابهم، وأحضرتني ذلك، ﴿رب فلا تجعلني في القوم الظالمين﴾ أي: اعصمني واحمني، بما ابتليتهم به من الذنوب الموجبة للنقم، واحني أيضاً من العذاب الذي ينزل بهم، لأن العقوبة العامة تعم - عند نزولها - العاصي وغيره، قال الله في تقريب عذابهم: ﴿وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون﴾ ولكن إن أخرناه فلحكمة، وإلا، فقدرتنا صالحة لإيقاعه فيهم.

﴿٩٦ - ٩٨﴾ ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون﴾ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين \* وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾ هذا من مكارم الأخلاق، التي أمر الله رسوله بها فقال: ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة﴾ أي: إذا أساء إليك أعداؤك، بالقول والفعل، فلا تقابلهم بالإساءة، مع أنه يجوز معاقبة المسيء بمثل إساءته، ولكن ادفع إساءتهم إليك بالإحسان منك إليهم، فإن ذلك فضل منك على المسيء، ومن مصالح ذلك، أنه تحف الإساءة عنك، في الحال، وفي المستقبل، وأنه أدعى لجلب السيء إلى الحق، وأقرب إلى ندمه وأسفه، ورجوعه بالتوبة عما فعل، ولتصف العاصي بصفة الإحسان، ويقهر بذلك عدوه الشيطان، وليستوجب الشواب من الرب، قال تعالى: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ وقال تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ وما يلقاها﴾ أي: ما يوفق لهذا الخلق الجميل ﴿إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ

(١) في ب: شطب حرف الجر (من) وغيرت الجملة فصارت (ولا علم عندهم إلا ما علمه الله).

عظيم.

وقوله: ﴿نحن أعلم بما يصفون﴾ أي: بما يقولون من الأقوال التضمنية للكفر والتكذيب بالحق، قد أحاط علمنا بذلك، وقد حملنا عنهم، وأمهلتناهم، وصبرنا عليهم، والحق لنا، وتكذيبهم لنا، فأنت - يا محمد - ينبغي لك أن تصبر على ما يقولون، وتقابلهم بالإحسان، هذه<sup>(١)</sup> وظيفة العبد في مقابلة المسيء من البشر، وأما المسيء من الشياطين، فإنه لا يفيد فيه الإحسان، ولا يدعو حزبه إلا ليكونوا من أصحاب السعير، فالوظيفة في مقابلته، أن يسترشد ما أرشد الله إليه رسوله فقال: ﴿وقل رب أعوذ بك﴾ أي: اعتصم بحولك وقوتك متبرئاً من حولي وقوتي ﴿من همزات الشياطين﴾ وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾ أي: أعوذ بك من الشر الذي يصيبني بسبب مباشرتهم وهمزهم ومستمهم، ومن الشر الذي يسبب حضورهم ووسوستهم، وهذه<sup>(٢)</sup> استعاذة من مادة الشر كله وأصله، ويدخل فيها، الاستعاذة من جميع نزغات الشيطان، ومن مسه ووسوسته، فإذا أعان الله عبده من هذا الشر، وأجاب دعاءه، سلم من كل شر، ووفق لكل خير.

﴿٩٩ - ١٠٠﴾ ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعوني﴾ لعلي عمل صالحاً فيما تركت كلاً إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾ يخبر تعالى عن حال من حضره الموت، من المفرطين الظالمين، أنه يندم في تلك الحال، إذا رأى ماله، وشاهد قبح أعماله فيطلب الرجعة إلى الدنيا، لا للتمتع بلذاتها واقتطاف شهواتها وإنما ذلك يقول:

﴿لعلي أعمل صالحاً فيما تركت﴾ من العمل، وفرطت في جنب الله. ﴿كلاً﴾ أي: لا رجعة له ولا إهمال، قد قضى الله أنهم إليها لا يرجعون،

﴿إنها﴾ أي: مقالته التي تمنى فيها الرجوع إلى الدنيا ﴿كلمة هو قائلها﴾ أي: مجرد قول باللسان، لا يفيد صاحبه إلا الحسرة والندم، وهو أيضاً غير صادق في ذلك، فإنه لو رُدَّ لعاد لما نهي عنه.

﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾ أي: من أمامهم وبين أيديهم برزخ، وهو الحاجز بين السخيتين، فهو هنا: الحاجز بين الدنيا والآخرة، وفي هذا البرزخ، يتنعم المطيعون، ويعذب العاصون، من موتهم إلى يوم يبعثون، أي: فلئمدوا له عُذته، وليأخذوا له أهبة.

﴿١٠١ - ١١٤﴾ ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون \* ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون \* تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون \* ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون \* قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين \* ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون \* قال اخسأوا فيها ولا تكلمون \* إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آتنا فاعفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين \* فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون \* إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون \* قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين \* قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فأسأل العادين \* قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون﴾ يخبر تعالى عن هول يوم القيامة، وما في ذلك اليوم، من المزعجات والمقلقات، وأنه إذا نفخ في الصور نفخة البعث، فحشر الناس أجمعون، ليقات يوم معلوم، أنه يصيبهم من الهول ما ينسيهم أنسابهم، التي هي أقوى الأسباب، فغير

الأنساب من باب أولى، وأنه لا يسأل أحد أحداً عن حاله، لا اشتغاله بنفسه، فلا يدري هل ينجو نجاة لا شقاوة بعدها؟ أو يشقى شقاوة لا سعادة بعدها؟ قال تعالى: ﴿يوم يفر المرء من أخيه \* وأمّه وأبيه \* وصاحبته وبنيه﴾ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه<sup>(٣)</sup>.

وفي القيامة مواضع، يشتد كربها، ويعظم وقعها، كاليزان الذي يميز به أعمال العبد، وينظر فيه بالعدل ما له وما عليه، وتبين فيه مفاصل الذر، من الخير والشر، ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ بأن رجحت حسناته على سيئاته ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ لنجاتهم من النار، واستحقاقهم الجنة، وفوزهم بالثناء الجميل، ﴿ومن خفت موازينه﴾ بأن رجحت سيئاته على حسناته، وأحاطت بها خطيئاته ﴿فأولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ كل خسارة، غير هذه الخسارة، فإنها - بالنسبة إليها - سهلة، ولكن هذه خسارة صعبة، لا يجبر مصابها، ولا يستردك فائتها، خسارة أبدية، وشقاوة سرمدية، قد خسرت نفسه الشريفة، التي يتمكن بها من السعادة الأبدية ففوتها هذا التميم المقيم، في جوار الرب الكريم.

﴿في جهنم خالدون﴾ لا يخرجون منها أبد الأبدين، وهذا الوعيد، إنما هو كما ذكرنا، لمن أحاطت خطيئاته بحسناته، ولا يكون ذلك إلا كافراً، فعلى هذا، لا يحاسب محاسبة من توزن حسناته وسيئاته، فإنهم لا حسنات لهم، ولكن تُعَدُّ أعمالهم وتحصى، فيرقون عليها، ويقرون بها، ويجزون بها، وأما من معه أصل الإيمان، ولكن عظمت سيئاته، فرجحت على حسناته، فإنه وإن دخل النار، لا يخلد فيها، كما دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة.

ثم ذكر تعالى، سوء مصير الكافرين

(١) في الموضعين في السخيتين: هذا.

(٢) في الموضعين في السخيتين: هذا.

(٣) في السخيتين وقع تداخل بين آيات سورة عبس وآيات سورة المعارج فكانت أقرب إلى آيات سورة عبس فأثبتها منها.





صاحبه، وعرض من قارنه ومازجه، ما لا يفعله بقية الذنوب، فأخبر أن الزاني لا يقدم على نكاحه من النساء، إلا أنى زانية، تناسب حاله حالها، أو مشركة بالله، لا تؤمن ببعث ولا جزاء، ولا تلتزم أمر الله، والزانية كذلك، لا ينكحها إلا زان أو مشرك ﴿وحرم ذلك على المؤمنين﴾ أي: حرم عليهم أن ينكحوا زانياً، أو ينكحوا زانية.

ومعنى الآية: أن من اتصف بالزنا، من رجل أو امرأة، ولم يتب من ذلك، أن المقدم على نكاحه، مع تحريم الله لذلك، لا يخلو إما أن لا يكون ملتزماً لحكم الله ورسوله، فذاك لا يكون إلا مشركاً، وإما أن يكون ملتزماً لحكم الله ورسوله، فأقدم على نكاحه مع علمه بزناه، فإن هذا النكاح زنا، والنكاح زان مسافح، فلو كان مؤمناً بالله حقاً، لم يقدم على ذلك، وهذا دليل صريح على تحريم نكاح الزانية حتى تتوب، وكذلك إنكاح الزاني حتى يتوب، فإن مقارنة الزوج لزوجته، والزوجة لزوجها، أشد الاقتربات والازدواجات، وقد قال تعالى: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾ أي: قرناءهم، فحرم الله ذلك، لما فيه من الشر العظيم، وفيه من قلة الغيرة، وإلحاق الأولاد، الذين ليسوا من الزوج، وكون الزاني لا يعفوا بسبب اشتغاله بغيرها، مما بعضه كاف للتحريم<sup>(١)</sup>، وفي هذا دليل أن الزاني ليس مؤمناً، كما قال النبي ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» فهو وإن لم يكن مشركاً، فلا يطلق عليه اسم المدح، الذي هو الإيمان المطلق.

﴿٤ - ٥﴾ «والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون» \* إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم» لما عظم تعال أمر

رحمة منا بالعباد، وحفظناها من كل شيطان ﴿وفرضناها﴾ أي: قدرنا فيها ما قدرنا، من الحدود والشهادات وغيرها، ﴿وانزلنا فيها آيات بينات﴾ أي: أحكاماً جليلة، وأوامر وزواجر، وحكمات عظيمة ﴿لعلكم تذكرون﴾ حين نبين لكم، ونعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.

ثم شرع في بيان تلك الأحكام المشار إليها، فقال:

﴿٢ - ٣﴾ «الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين».

هذا الحكم في الزاني والزانية البكرين، أنهما يجلد كل منهما مئة جلدة، وأما الثيب، فقد دلت السنة الصحيحة المشهورة، أن حده الرجم، ونهانا تعالى أن تأخذنا رأفة [بهما] في دين الله، تمنعنا من إقامة الحد عليهم، سواء رأفة طبيعية، أو لأجل قرابة أو صداقة أو غير ذلك، وأن الإيمان موجب لانتفاء هذه الرأفة المانعة من إقامة أمر الله، فرحمته حقيقة، بإقامة حد الله عليه، فنحن وإن رحمناه لجريان القدر عليه، فلا نرحمه من هذا الجانب، وأمر تعالى أن يحضر عذاب الزانين طائفة، أي: جماعة من المؤمنين، ليستهر ويحصل بذلك الخزي والارتداع، وليشهدوا الحد فعلاً، فإن مشاهدة أحكام الشرع بالفعل، مما يقوى بها العلم، ويستقر بها الفهم، ويكون أقرب لإصابة الصواب، فلا يزداد فيه ولا يتقص، والله أعلم.

﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين﴾ هذا بيان لرذيلة الزنا، وأنه يندس عرض



مع الله آلهة غيره، بلا بينة من أمره ولا برهان يدل على ما ذهب إليه، وهذا قيد ملازم، فكل من دعا غير الله، فليس له برهان على ذلك، بل دلت البراهين على بطلان ما ذهب إليه، فأعرض عنها ظلماً وعناداً، فهذا سيقدم على ربه، فيجازيه بأعماله، ولا ينيله من الفلاح شيئاً، لأنه كافر، ﴿إنه لا يفلح الكافرون﴾ فكفرهم منعهم من الفلاح.

﴿وقل﴾ داعياً لربك مخلصاً له الدين ﴿رب اغفر﴾ لنا حتى نتجنبنا من المكروه، وارحمنا، لتوصلنا برحمتك إلى كل خير. ﴿وأنت خير الراحمين﴾ فكل راحم للعبد، فالله خير له منه، أرحم بعبده من الوالدة بولدها، وأرحم به من نفسه.

تم تفسير سورة المؤمنين،

من فضل الله وإحسانه

تفسير سورة النور  
وهي مدنية

﴿١﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون﴾ أي: هذه ﴿سورة﴾ عظيمة القدر ﴿أنزلناها﴾





لكم شدة الزنا وفضاعته، وفضاعة الغدق به، وأن شرع التوبة من هذه الكبائر وغيرها.

﴿١١ - ٢٦﴾ **﴿إِنَّ السُّلُوكَ جَاؤُوا بِالْإِفْكَ عُصْبَةٌ لَكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾** إلى آخر الآيات وهو قوله: **﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾** لما ذكر فيما تقدم، تعظيم الرُمي بالزنا عموماً، صار ذلك كأنه مقدمة لهذه القصة، التي وقعت على أشرف النساء، أم المؤمنين رضي الله عنها، وهذه الآيات، نزلت في قصة الإفك المشهورة، الثابتة في الصحاح والسنتن والمسانيد.

وحاصلها أن النبي ﷺ، في بعض غزواته، ومعه زوجته عائشة الصديقة بنت الصديق، فانقطع عقدهما فأنحبست في طلبه ورحلوا جملها وهو دجها، فلم يفقدوها، ثم استقل الجيش راحلاً، وجاءت مكانهم، وعلمت أنهم إذا فقدوها، رجعوا إليها فاستمروا في مسيرهم، وكان صفوان بن المعطل السلمى، من أفاضل الصحابة رضي الله عنه، قد عرس في أخريات القوم ونام، فرأى عائشة رضي الله عنها فعرفها، فأناخ راحلته، فركبتها من دون أن يكلمها أو تكلمه، ثم جاء يقودها بعد ما نزل

الجيش في الظهيرة، فلما رأى بعض المتأففين الذين في صحبة النبي ﷺ، في ذلك السفر مجيء صفوان بها في هذه الحال، أشاع ما أشاع، ووشى الحديث، وتلففته الألسن، حتى اغتر بذلك بعض المؤمنين، وصاروا يتناقلون هذا الكلام، وانحبس الوحي مدة طويلة عن الرسول ﷺ.

وبلغ الخبر عائشة بعد ذلك بمدة، فحزنت حزناً شديداً، فأنزل الله تعالى براءتها في هذه الآيات، ووعظ الله المؤمنين، وأعظم ذلك، ووصاهم بالوصايا النافعة. فقلوه تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكَ﴾** أي: الكذب الشنيع، وهو رُمي أم المؤمنين **﴿عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾** أي: جماعة منتسبون إليكم يا معشر المؤمنين، منهم المؤمن الصادق **﴿فِي إِيمَانِهِ وَلَكِنَّهُ اغْتَرَّ بِتُرْوِيجِ الْمُتَأَفِّفِينَ﴾**<sup>(١)</sup> ومنهم المنافق.

**﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾** لما تضمن ذلك تبرئة أم المؤمنين ونزاهتها، والتنويه بذكرها، حتى تناول عموم المدح سائر زوجات النبي ﷺ، ولما تضمن من بيان الآيات المضطر إليها العباد، التي ما زال العمل بها إلى يوم القيامة، فكل هذا خير عظيم، لولا مقالة أهل الإفك لم يحصل ذلك، وإذا أراد الله أمراً جعل له سبباً، ولذلك جعل الخطاب عاماً مع المؤمنين وكلمهم، وأخبر أن قدح بعضهم ببعض كقدح في أنفسهم، ففيه أن المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، واجتماعهم على مصالحهم، كالجسد الواحد، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، فكما أنه يكره أن يقدح أحد في عرضه، فليكره من كل أحد، أن يقدح في أخيه المؤمن، الذي بمنزلة نفسه، وما لم يصل العبد إلى هذه الحالة، فإنه من نقص إيمانه وعدم نصحه.

**﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾** وهذا وعيد للذين جاؤوا بالإفك، وأنهم سيعاقبون على ما قالوا

من ذلك، وقد حد النبي ﷺ منهم جماعة، **﴿والذي تولى كبيره﴾** أي: معظم الإفك، وهو المنافق الخبيث، عبد الله بن أبي بن سلول - لعنه الله - **﴿له عذاب عظيم﴾** ألا وهو الخلود في الدرك الأسفل من النار.

ثم أرشد الله عباده عند سماع مثل هذا الكلام فقال: **﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾** أي: ظن المؤمنون بعضهم ببعض خيراً، وهو السلامة مما رموا به، وأن ما معهم من الإيمان المعلوم، يدفع ما قيل فيهم من الإفك الباطل، **﴿وقالوا﴾** بسبب ذلك الظن **﴿سبحانك﴾** أي: تنزيهاً لك عن كل سوء، وعن أن تبطل أصفياك بالأموال الشنيعة، **﴿هذا أفك مبین﴾** أي: كذب وبهت، من أعظم الأشياء، وأبينها. فهذا من الظن الواجب، حين سماع المؤمن عن أخيه المؤمن، مثل هذا الكلام، وأن يبرئه بلسانه، ويكذب القائل لذلك.

**﴿لَوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾** أي: هلا جاء الرامون على ما رموا به، بأربعة شهداء أي: عدول مرضيين. **﴿فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾** وإن كانوا في أنفسهم قد تيقنوا ذلك، فإنهم كاذبون في حكم الله، لأن الله حرم عليهم التكلم بذلك، من دون أربعة شهود، ولهذا قال: **﴿فأولئك عند الله هم الكاذبون﴾** ولم يقل: **﴿فأولئك هم الكاذبون﴾**، وهذا كله، من تعظيم حرمة عرض المسلم، بحيث لا يجوز الإقدام على رميه، من دون نصاب الشهادة بالصدق.

**﴿لَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾** بحيث شملكم إحسانه فيهما، في أمر دينكم ودنياكم، **﴿لَكُمْ فِيهَا أَفْضَتُمْ﴾** أي: خضتم **﴿فيه﴾** من شأن الإفك **﴿عذاب عظيم﴾** لاستحقاقكم ذلك بما قلتم، ولكن من فضل الله عليكم ورحمته، أن

شرح لكم التوبة، وجعل العقوبة مطهرة للذنوب.

﴿إذ تلقونه بالسنتكم﴾ أي: تلقفونه، ويلقيهم بعضكم إلى بعض، وتسترشون حديثه، وهو قول باطل. ﴿وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم﴾ والأمران محطوران، التكلم بالباطل، والقول بلا علم، ﴿وغمسونه هيناً﴾ فلذلك أقدم عليه من أقدم من المؤمنين الذين تابوا منه، وتطهروا بعد ذلك، ﴿وهو عند الله عظيم﴾ وهذا فيه الزجر البليغ، عن تعاطي بعض الذنوب على وجه التهاون بها، فإن العبد لا يفيد حسبانته شيئاً، ولا يخفف من عقوبة الذنب، بل يضاعف الذنب، ويسهل عليه مواقفته مرة أخرى.

﴿ولولا إذ سمعتموه﴾ أي: وهلا إذ سمعتم - أيها المؤمنون - كلام أهل الإفك ﴿قلتم﴾ منكرين لذلك، معظمين لأمره: ﴿ما يكون لنا أن نتكلم بهذا﴾ أي: ما ينبغي لنا، وما يليق بنا الكلام، بهذا الإفك المبين، لأن المؤمن يمتعه إيمانه من ارتكاب القبائح ﴿هذا يهان﴾ أي: كذب عظيم. ﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله﴾ أي: لتظيره، من زعمي المؤمنين بالفجور، فالله يعظكم وينصحكم عن ذلك، ونعم المواعظ والنصائح من ربنا فيجب علينا مقابلتها بالقبول والإذعان، والتسليم والشكر له، على ما بين لنا ﴿إن الله تعما يعظكم به﴾ - ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ دل ذلك على أن الإيمان الصادق، يمنع صاحبه من الإقدام على المحرمات. ﴿ويبين الله لكم الآيات﴾ المشتملة على بيان الأحكام، والوعظ، والزجر، والترغيب، والترهيب، يوضحها لكم توضيحاً جلياً. ﴿والله عليم﴾ أي: كامل العلم عام الحكمة، فمن علمه وحكمته، أن علمكم من علمه، وإن كان ذلك راجعاً لمصالحكم في كل وقت.

﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة﴾ أي: الأمور الشنيعة المستقبحة المستعظمة، فيحيون أن تشيع الفاحشة ﴿في الذين آمنوا لهم عذاب اليم﴾ أي: موجع للقلب والبدن، وذلك لخشه لإخوانه المسلمين، وحبية الشر لهم، وجراءته على أعراضهم، فإذا كان هذا الوعيد، لمجرد حبة أن تشيع الفاحشة، واستحلاء ذلك بالقلب، فكيف بما هو أعظم من ذلك، من إظهاره، ونقله؟! وسواء كانت الفاحشة، صادرة أو غير صادرة.

وكل هذا من رحمة الله بعباده المؤمنين، وصيانة أعراضهم، كما صان دعاءهم وأموالهم، وأمرهم بما يقتضي المصافاة، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يجب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه. ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ فلذلك علمكم، وبيّن لكم ما تجهلون.

﴿ولولا فضل الله عليكم﴾ قد أحاط بكم من كل جانب ﴿ورحمته﴾ عليكم ﴿وأن الله رؤوف رحيم﴾ لما بين لكم هذه الأحكام والمواعظ، والحكم الجليلة، ولما أمهل من خالف أمره، ولكن فضله ورحمته، وأن ذلك وصفه اللازم أثر لكم من الخير الديني والأخروي، ما لن تحصوه، أو تعدوه.

ولما نهى عن هذا الذنب بخصوصه، نهى عن الذنوب عموماً فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي: طرقة ووساوسه. وخطوات الشيطان، يدخل فيها سائر المعاصي المتعلقة بالقلب، واللسان والبدن، ومن حكمته تعالى، أن بين الحكم، وهو: النهي عن اتباع خطوات الشيطان. والحكمة وهو بيان ما في المنهي عنه، من الشر المقتضي، والداعي لتركه فقال: ﴿ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه﴾ أي: الشيطان ﴿يأمر بالفحشاء﴾ أي: ما تستفحشه العقول والشرائع، من الذنوب

العظيمة، مع ميل بعض النفوس إليه. ﴿والمنكر﴾: هو ما تنكره العقول ولا تعرفه. فالعاصي التي هي خطوات الشيطان، لا تخرج عن ذلك، فهي الله عنها للعباد، نعمة منه عليهم أن يشكروه ويذكروه، لأن ذلك صيانة لهم عن التندس بالذائل والقبائح، فمن إحسانه عليهم، أن نهاهم عنها، كما نهاهم عن أكل السموم القاتلة ونحوها، ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً﴾ أي: ما تطهر من اتباع خطوات الشيطان، لأن الشيطان يسعى هو وجنده، في الدعوة إليها وتحسينها، والنفس ميالة إلى السوء أمارة به، والنفق مستول على العبد من جميع جهاته، والإيمان غير قوي، فلو خلى وهذه الدواعي، ما زكى أحد بالتطهر من الذنوب والسيئات والنماء بفعل الحسنات، فإن الزكاء يتضمن الظهارة والنماء، ولكن فضله ورحمته أوجب أن يتزكى منكم من تركي.

وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكها، أنت وليها ومولاها»، ولهذا قال: ﴿ولكن الله يزكي من يشاء﴾ من يعلم منه أن يزكي بالتزكية، ولهذا قال: ﴿والله سميع عليم﴾.

﴿ولا يأتل﴾ أي: لا يحلف ﴿أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا﴾ كان من جملة الخائفين في الإفك ﴿مسطح بن أثانة﴾ وهو قريب لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان مسطح فقيراً من المهاجرين في سبيل الله، فحلف أبو بكر أن لا ينطق عليه، لقوله الذي قال.

فنزلت هذه الآية، ينهاهم<sup>(١)</sup> عن هذا الحلف المتضمن لقطع الثقة عنه، ويحثه على العفو والصفح، ويعدّه بمغفرة الله إن غفر له، فقال:

حيث قال «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر»، فبسبب الإخلال به، يقع البصر على العورات التي داخل البيوت، فإن البيت للإنسان في ستر عورة ما وراءه، بمنزلة الثوب في ستر عورة جسده.

ومنها: أن ذلك يوجب الريبة من الداخل، ويتهم بالشر سرقاً أو غيرها، لأن الدخول خفية، يدل على الشر، ومنع الله المؤمنين من دخول غير بيوتهم حتى يستأسوا أي: يستأذنوا. سمي الاستئذان استئناساً، لأن به يحصل الاستئناس، ويعدمه تحصل الوحشة، «وتسلموا على أهلها» وصفة ذلك، ما جاء في الحديث: «السلام عليكم، أدخل!»

«ذلكم» أي: الاستئذان المذكور «خير لكم لعلكم تذكرون» لاشتماله على عدة مصالح، وهو من مكارم الأخلاق الواجبة، فإن أذن، دخل المستأذن.

«فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا» أي: فلا تمنعوا من الرجوع، ولا تغضبوا منه، فإن صاحب المنزل، لم يمنعكم حقاً واجباً لكم، وإنما هو متبرع، فإن شاء أذن أو منع، فأنتم لا تأخذ أحدكم الكبير والاشتمزاز من هذه الحال، «هو أذكى لكم» أي: أشد لتطهيركم من السيئات، وتمييزكم بالحسنات. «وإن الله بما تعملون عليم» فيجازي كل عامل بعمله، من كثرة وقلة، وحسن وعدمه، هذا الحكم في البيوت المسكونة، سواء كان فيها متاع للإنسان أم لا، وفي البيوت غير المسكونة، التي لا متاع فيها للإنسان، وأما البيوت التي ليس فيها أهلها، وفيها متاع الإنسان المحتاج للدخول إليه، وليس فيها أحد يتمكن من استئذانه، وذلك كبيوت الكراء وغيرها، فقد ذكرها بقوله:

«ليس عليكم جناح» أي: حرج وإثم، دل على أن الدخول من غير استئذان في البيوت السابقة، أنه محرم،

للخبثيات ﴿أي: كل خبيث من الرجال والنساء، والكلمات والأفعال، مناسب للخبيث، وموافق له، ومقترون به، ومشاكل له، وكل طيب من الرجال والنساء، والكلمات والأفعال، مناسب للطيب، وموافق له، ومقترون به، ومشاكل له، فهذه كلمة عامة وحصر، لا يخرج منه شيء، من أعظم مفرداته، أن الأنبياء - خصوصاً أولي العزم منهم، خصوصاً سيدهم محمد ﷺ، الذي هو أفضل الطيبين من الخلق على الإطلاق لا يناسبهم إلا كل طيب من النساء، فالقدح في عائشة رضي الله عنها بهذا الأمر قدح في النبي ﷺ، وهو المقصود بهذا الإفك، من قصد المنافقين، فمجرد كونها زوجة للرسول ﷺ، يعلم أنها لا تكون إلا طيبة طاهرة من هذا الأمر الفحيح.

فكيف وهي هي!!! صديقة النساء وأفضلهن وأعلمهن وأطيبهن، حبيبة رسول رب العالمين، التي لم ينزل الوحي عليه وهو في لحاف زوجة من زوجاته غيرها، ثم صرح بذلك، بحيث لا يبقى لبطل مقالاً، ولا لشك وشبهة مجالاً، فقال: «أولئك مبرؤون مما يقولون» والإشارة إلى عائشة رضي الله عنها أصلاً، وللمؤمنات المحصنات الغافلات تبعاً ﴿لهم مغفرة﴾ تستغرق الذنوب ﴿ورزق كريم﴾ في الجنة صادر من الرب الكريم.

﴿٢٧ - ٢٩﴾ «يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون» \* فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أذكى لكم والله بما تعملون عليم \* ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون» يرشد الباري عباده المؤمنين، أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم بغير استئذان، فإن في ذلك عدة مفسد: منها ما ذكره الرسول ﷺ،

﴿ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾ إذا عاملتم عبده، بالعمو والصفح، عاملكم بذلك، فقال أبو بكر - لما سمع هذه الآية - بلى، والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع النفقة إلى مسطح، وفي هذه الآية دليل على النفقة على القريب، وأنه لا تترك النفقة والإحسان بمعصية الإنسان، والحث على العفو والصفح، ولو جرى عليه ما جرى من أهل الجرائم.

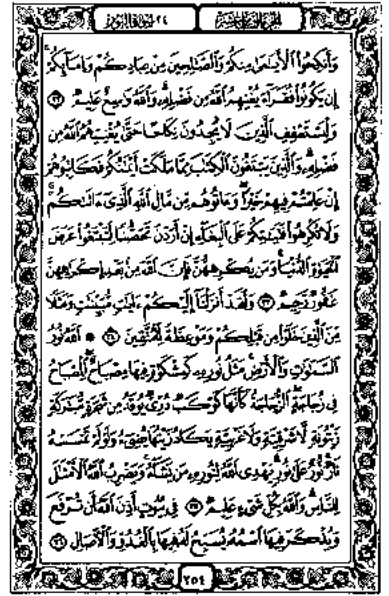
ثم ذكر الوعيد الشديد على رمي المحصنات فقال: ﴿إن الذين يزعمون المحصنات﴾ أي: العفاف عن الفجور ﴿الغافلات﴾ التي لم يحظر ذلك بقلوبهن ﴿المؤمنات﴾ «لعمروا في الدنيا والآخرة» واللعنة لا تكون إلا على ذنب كبير.

وأكد اللعنة بأنها متواصلة عليهم في الدارين ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ وهذا زيادة على اللعنة، أبعدهم عن رحمته، وأحل بهم شدة نقمته.

وذلك العذاب يوم القيامة ﴿يوم تشهد عليهم أئديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾ فكل جارية تشهد عليهم بما عملته، بنطقها الذي أنطق كل شيء، فلا يمكنه الإنكار، ولقد عدل في العباد، من جعل شهودهم من أنفسهم، ﴿يومئذ يوفيهن الله دينهم الحق﴾ أي: جزاءهم على أعمالهم، الجزاء الحق، الذي بالعدل والقسط، يجردون جزاءها موفراً، لم يفقدوا منها شيئاً، ﴿ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾ ويعلمون في ذلك الموقف العظيم، أن الله هو الحق المبين، فيعلمون انحصار الحق المبين في الله تعالى.

فأوصافه العظيمة حق، وأفعاله هي الحق، وعبادته هي الحق، ولقاؤه حق، ووعدته ووعيبه، وحكمه الديني والجزائي حق، ورسله حق، فلا تُم حق، إلا في الله وما من الله. ﴿الخبثيات للخبثيين والخبثيون





عادة، ويحتمل أن المراد بالصالحين الصالحون للزوج المحتاجون إليه<sup>(١)</sup>، من العبيد والإماء، يؤيد هذا المعنى، أن السيد غير مأمور بتزويج مملوكه، قبل حاجته إلى الزواج. ولا يعد إرادة المتعين كليهما، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ﴾ أي: الأزواج والمتزوجين ﴿يَغْنَمُهمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فلا يمنعكم ما تتوهمون، من أنه إذا تزوج، افتقر بسبب كثرة العائلة ونحوه، وفيه حث على التزوج، ووعد للمتزوج بالغنى بعد الفقر.

﴿وَاللهُ وَاسِعٌ﴾ كثير الخير عظيم الفضل ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق فضله الديني والدنيوي أو أحدهما، ممن لا يستحق، فيعطي كل ما علمه واقتضاه حكمه.

﴿وَلَيْسْتَغْفِرُ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يَغْنَمَهمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ هذا حكم العاجز عن النكاح، أمره الله أن يستغف، أن يكف عن المحرم، ويفعل الأسباب التي تكفه عنه، من صرف دواعي قلبه بالإنكار التي تحطّر بإيقاعه فيه، ويفعل أيضاً، كما قال النبي ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء».

وقوله: ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي: لا يقدرّون نكاحاً، إما لفقرهم أو فقر أولياتهم وأسيادهم، أو امتناعهم من تزويجهم [وليس لهم<sup>(٢)</sup>]، من قدرة على إجبارهم على ذلك، وهذا التقدير، أحسن من تقدير من قدر<sup>(٣)</sup> لا يجدون مهر نكاح، وجعلوا المضاف إليه نائباً مناب المضاف، فيان في ذلك محذورين: أحدهما: الحذف في الكلام، والأصل عدم الحذف.

والثاني: كون المعنى قاصراً على من له حالان، حالة غنى بماله، وحالة عدم، فيخرج العبيد والإماء ومن إنكاحه على وليه، كما ذكرنا.

﴿حَتَّى يَغْنَمَهمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وعد

الفلاح إلا بالتوبة، وهي الرجوع مما يكرهه الله، ظاهراً وباطناً، إلى: ما يحبه ظاهراً وباطناً، ودل هذا، أن كل مؤمن محتاج إلى التوبة، لأن الله خاطب المؤمنين جميعاً، وفيه الحث على الإخلاص بالتوبة في قوله: ﴿وتوبوا إلى الله﴾ أي: لا لمقصد غير وجهه، من سلامة من آفات الدنيا، أو رياء وسمعة، أو نحو ذلك من المقاصد الفاسدة.

﴿٣٢-٣٣﴾ ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يَغْنَمُهمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ وليستغف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً واتوهم من مال الله الذي آتاكم ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفورٌ رحيمٌ﴾ يأمر تعالى الأولياء والأسياد، بإنكاح من تحت ولايتهم من الأيما، وهم: من لا أزواج لهم، من رجال، ونساء ثيب، وأبكار، فيجب على القريب وولي التيسيم، أن يزوج من يحتاج للزواج، ممن تجب نفقته عليه، وإذا كانوا مأمورين بإنكاح من تحت أيديهم، كان أمرهم بالنكاح بأنفسهم من باب أولى.

﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ يحتمل أن المراد بالصالحين، صلاح الدين، وأن الصالح من العبيد والإماء - وهو الذي لا يكون فاجراً زانياً - مأمور سيده بإنكاحه، جزاء له على صلاحه، وترغيباً له فيه، ولأن الفاسد بالزنا، منهى عن تزوجه، فيكون مؤيداً للمذكور في أول السورة، أن نكاح الزاني والزانية محرم حتى ينوب، ويكون التخصيص بالصلاح في العبيد والإماء دون الأحرار، لكثرة وجود ذلك في العبيد

الأجانب، وعلل تعالى ذلك، بأنهم لم يظهروا على عورات النساء، أي: ليس لهم علم بذلك، ولا وجدت فيهم الشهوة بعد ودل هذا، أن المميز تستر منه المرأة، لأنه يظهر على عورات النساء.

﴿وَلَا يَضُرُّنَّ بِأَرْجُلِهِمْ لَعَلَّمْ مَا يَخْفَيْنَ مِنْ زِينَتِهِمْ﴾ أي: لا يضرين الأرض بأرجلهم، ليصوت ما عليهن من خلي، كخلاخل وغيرها، فتعلم زينتها بسية، فيكون وسيلة إلى الفتنة.

ويؤخذ من هذا ونحوه، قاعدة سد الوسائل، وأن الأمر إذا كان مباحاً، ولكنه يفضي إلى محرم، أو يناف من وقوعه، فإنه يمنع منه، فالضرب بالرجل في الأرض، الأصل أنه مباح، ولكن لما كان وسيلة لعلم الزينة، منع منه.

ولما أمر تعالى بهذه الأوامر الحسنة، ووصى بالوصايا المستحسنة، وكان لا بد من وقوع تقصير من المؤمن بذلك، أمر الله تعالى بالتوبة، فقال:

﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون﴾ لأن المؤمن يدعو إيمانه إلى التوبة ثم علق على ذلك الفلاح، فقال: ﴿لعلكم تفلحون﴾ فلا سبيل إلى

(١) في النسخين: الصالحين للزوج المحتاجين إليه.

(٢) زيادة من ب يخط مغاير، وقد حذف بعدها حرف (من).

للمستعفف أن الله سيغنيه ويسر له أمره، وأمر له بانتظار الفرج، لئلا يشق عليه ما هو فيه.

وقوله ﴿والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً﴾ أي: من ابتغى وطلب منكم الكتابة، وأن يشتري نفسه، من عبيد وإماء، فأجيبوه إلى ما طلب، وكاتبوه، ﴿إن علمتم فيهم﴾ أي: في الطالبين للكتابة ﴿خيراً﴾ أي: قدرة على التكسب، وصلاًحاً في دينه، لأن في الكتابة تحصيل المصلحتين، مصلحة العتق والحرية، ومصلحة العوض الذي يبذله في فداء نفسه. وربما جد واجتهد، وأدرك لسيده في مدة الكتابة من المال ما لا يحصل في رقه، فلا يكون ضرر على السيد في كتابته، مع حصول عظيم النفع للعبد، فلذلك أمر الله بالكتابة على هذا الوجه أمر إيجاب، كما هو الظاهر، أو أمر استحباب على القول الآخر، وأمر بمعاونتهم على كتابتهم، لكونهم محتاجين لذلك، بسبب أنهم لا مال لهم، فقال: ﴿وآتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾ يدخل في ذلك أمر سيده الذي كاتبه، أن يعطيه من كتابته أو يسقط عنه منها، وأمر الناس بمعونتهم.

ولهذا جعل الله للمكاتبين قسطاً من الزكاة، ورجب في إعطائه بقوله: ﴿من مال الله الذي آتاكم﴾ أي: فكما أن المال مال الله، وإنما الذي بأيديكم عطية من الله لكم ومحض منة، فأحسنوا لعباد الله، كما أحسن الله إليكم.

ومفهوم الآية الكريمة، أن العبد إذا لم يطلب الكتابة، لا يؤمر سيده أن يتدبى بكتابته، وأنه إذا لم يعلم منه خيراً، بأن علم منه عكسه، إما أنه يعلم أنه لا كسب له، فيكون بسبب ذلك كلاً على الناس، ضائعاً، وإما أن يخاف إذا عتق، وصار في حرية نفسه، أن يتمكن من الفساد، فهذا لا يؤمر

بكتابته، بل ينهى عن ذلك لما فيه من المحذور المذكور.

ثم قال تعالى: ﴿ولا تكسروا فتياتكم﴾ أي: إماءكم ﴿على البغاء﴾ أي: أن تكون زانية ﴿إن أردن تحصناً﴾ لأنه لا يتصور إكراهها إلا بهذه الحال، وأما إذا لم ترد تحصناً فإنها تكون بغياً، يجب على سيدها منعها من ذلك، وإنما هذا نهي لما كانوا يستعملونه في الجاهلية، من كون السيد يجبر أمته على البغاء، ليأخذ منها أجره ذلك، ولهذا قال: ﴿لنبتغوا عرض الحياة الدنيا﴾ فلا يليق بكم أن تكون إماءكم خيراً منكم، وأعف عن الزنا، وأنتم تفعلون بهن ذلك، لأجل عرض الحياة، منع قليل يعرض ثم يزول.

فكسبكم النزاهة، والنظافة، والبروءة - بقطع النظر عن ثواب الآخرة وعقابها - أفضل من كسبكم العرض القليل، الذي يكسبكم الرذالة والخسة.

ثم دعا من جرى منه الإكراه إلى التوبة، فقال: ﴿ومن يكرهن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم﴾ فليتنب إلى الله، وليقلع عما صدر منه مما يغضبه، فإذا فعل ذلك، غفر الله ذنوبه، ورحمه كما رحم نفسه بفكاكها من العذاب، وكما رحم أمته بعدم إكراهها على ما يضرها.

﴿٣٤﴾ ﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين﴾ هذا تعظيم وتمجيد لهذه الآيات، التي تلاها على عباده، ليعرفوا قدرها، ويقوموا بحققها فقال: ﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات﴾ أي: واضحات الدلالة، على كل أمر تحتاجون إليه، من الأصول والفروع، بحيث لا يبقى فيها إشكال ولا شبهة، ﴿ور﴾ أنزلنا إليكم أيضاً ﴿مثلاً من الذين خلوا من قبلكم﴾ من أخبار الأولين، الصالح منهم والطالح، وصفة أعمالهم، وما جرى لهم وجرى عليهم تعتبرونه مثلاً ومعتبراً، لمن فعل

مثل أعمالهم أن يجازى مثل ما جوزوا. ﴿وموعظة للمتقين﴾ أي: وأنزلنا إليكم موعظة للمتقين، من الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، يتعظ بها المتقون، فينكفون عما يكره الله إلى ما يحبه الله.

﴿٣٥﴾ ﴿الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجه كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويبضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم﴾ ﴿الله نور السماوات والأرض﴾ الحسي والمعنوي، وذلك نه تعالى بذاته نور، وحجابه - الذي لولا لطفه، لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه - نور، وبه استنار العرش، والكروسي، والشمس، والقمر، والنور، وبه استنارت الجنة.

وكذلك النور المعنوي يرجع إلى الله، فكتابه نور، وشرعه نور، والإيمان والمعرفة في قلوب رسله وعباده المؤمنين نور. فولوا نوره تعالى، لتراكت الظلمات، ولهذا، كل محل يفقد نوره فتمت الظلمة والحصر، ﴿مثل نوره﴾ الذي يهدي إليه، وهو نور الإيمان والقرآن في قلوب المؤمنين، ﴿كمشكاة﴾ أي: كوة ﴿فيها مصباح﴾ لأن الكوة تجمع نور المصباح بحيث لا يتفرق ذلك ﴿المصباح في زجاجة الزجاجه﴾ من صفاتها وبهاؤها ﴿كأنها كوكب دري﴾ أي: مضيء إضاءة الدر. ﴿يوقد﴾ ذلك المصباح، الذي في تلك الزجاجه الدرية ﴿من شجرة مباركة زيتونة﴾ أي: يوقد من زيت الزيتون الذي ناره من أنور ما يكون، ﴿لا شرقية﴾ فقط، فلا تصيبها الشمس آخر النهار، ﴿ولا غربية﴾ فقط، فلا تصيبها الشمس [أولاً] (١)

(١) في النسختين آخر النهار، ولعل الصواب ما أثبت، ثم إن الكلمة معدلة من آخر إلى أول في ب، بقلم مغاير لما كتبت به النسخة.



لكثرة الاشتغال بالبيع على غيره، فهؤلاء الرجال، وإن انجروا، وباعوا، واشتروا، فإن ذلك، لا محذور فيه. لكنه لا تلهيهم تلك، بأن يقدموها ويؤثروها على ﴿ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾ بل جعلوا طاعة الله وعبادته غاية مرادهم، ونهاية مقصدهم، فما حال بينهم وبينها رفضوه.

ولما كان ترك الدنيا شديداً على أكثر النفوس، وحب المكاسب بأنواع التجارات محبوباً لها، ويشق عليها تركه في الغالب، وتتكلف من تقديم حق الله على ذلك، ذكر ما يدعوها إلى ذلك - ترغيباً وترهيباً - فقال: ﴿يُخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ من شدة هولهِ وإزعاجهِ للقلوب والأبدان، فلذلك خافوا ذلك اليوم، فسهل عليهم العمل، وترك ما يشغل عنه، ﴿ليجزئهم الله أحسن ما عملوا﴾ والمراد بأحسن ما عملوا: أعمالهم الحسنة الصالحة، لأنها أحسن ما عملوا، لأنهم يعملون المباحات وغيرها، فالشواوب لا يكون إلا على العمل الحسن، كقوله تعالى: ﴿ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ ﴿ويزيدهم من فضله﴾ زيادة كثيرة عن الجزاء المقابل لأعمالهم، ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ بل يعطيه من الأجر ما لا يبلغه عمله، بل ولا تبلغه أمينته، ويعطيه من الأجر بلا عَدِّ ولا كيل، وهذا كناية عن كثرته جداً.

﴿٣٩-٤٠﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالَهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يَجِبُهَا الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ سَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فُوقًا حَسَابِيَةً وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أو كظلمات في بحر بلبي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور؟ هذان مثلان، ضربهما الله لأعمال الكفار في بطلانها وذهابها سدى وتحسر عامليها منها

بالغدو والأصال \* رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار \* ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب.

أي: يتعدى الله ﴿في بيوت﴾ عظيمة فاضلة، هي أحب البقاع إليه، وهي المساجد. ﴿أذن الله﴾ أي: أمر ووصى ﴿أن ترفع ويذكر فيها اسمه﴾ هذان مجموع أحكام المساجد، فيدخل في رفعها، بناؤها، وكنسها، وتنظيفها من النجاسة والأذى، وصونها عن المجانين والصبغيات الذين لا يتحرزون عن النجاسة، وعن الكافر، وأن تصان عن اللغو فيها، ورفع الأصوات بغير ذكر الله.

﴿ويذكر فيها اسمه﴾ يدخل في ذلك الصلاة كلها، فرضها، ونفلها، وقراءة القرآن، والتسبيح، والتلهيل، وغيره من أنواع الذكر، وتعلم العلم وتعليمه، والمذاكرة فيها، والاعتكاف، وغير ذلك من العبادات التي تفعل في المساجد، ولهذا كانت عمارة المساجد على قسمين: عمارة بنيان، وصيانة لها، وعمارة بذكر اسم الله، من الصلاة وغيرها، وهذا أشرف القسمين، ولهذا شرعت الصلوات الخمس والجمعة في المساجد، وجوباً عند أكثر العلماء، أو استحباباً عند آخرين. ثم مدح تعالى عمارتها بالعبادة فقال: ﴿يسبح له﴾ إخلاصاً ﴿بالغدو﴾ أول النهار ﴿والأصال﴾ آخره ﴿رجال﴾. خص هذين الوقتين

لشرفهما ولتيسر السير فيهما إلى الله وسهولته. ويدخل في ذلك، التسبيح في الصلاة وغيرها، ولهذا شرعت أذكار الصباح والمساء وأورادها عند الصباح والمساء. أي: يسبح فيها الله، رجال، وأبي: رجال، ليسوا ممن يؤثر على ربه دنيا، ذات لذات، ولا تجارة ومكاسب، مشغلة عنه، ﴿لا تلهيهم تجارة﴾ وهذا يشمل كل تكسب يقصد به العوض، فيكون قوله: ﴿ولا بيع﴾ من باب عطف الخاص على العام،

تصبيها الشمس أول النهار وآخره، فتحسن وتطيب، ويكون أصفى لزيته، ولهذا قال: ﴿يكاد زيتها﴾ من صفائه ﴿يضيء ولو لم تمشه نار﴾ فإذا مسته النار، أضاء إضاءة بليغة ﴿نور على نور﴾ أي: نور النار، ونور الزيت.

وروجه هذا المثل الذي ضربه الله، وتطبيقه على حالة المؤمن، ونور الله في قلبه، أن فطرته التي فطر عليها، بمنزلة الزيت الصافي، ففطرته صافية، مستعدة للتعالم الإلهية، والحمل المشروع، فإذا وصل إليه العلم والإيمان، اشتعل ذلك النور في قلبه، بمنزلة اشتعال النار في قتيعة ذلك المصباح، وهو صافي القلب من سوء القصد، وسوء الفهم عن الله، إذا وصل إليه الإيمان، أضاء إضاءة عظيمة، لصفائه من الكدورات، وذلك بمنزلة صفاء الزجاج الدرية، فيجتمع له نور الفطرة، ونور الإيمان، ونور العلم، وصفاء المعرفة، نور على نوره.

ولما كان هذا من نور الله تعالى، وليس كل أحد يصلح له ذلك، قال: ﴿يهدي الله لنوره من يشاء﴾ ممن يعلم زكاه وطهارته، وأنه يزكي معه وينمو. ﴿ويضرب الله الأمثال للناس﴾ ليعقلوا عنه ويفهموا، لطفاً منه بهم، وإحساناً إليهم، وليتضح الحق من الباطل، فإن الأمثال تقرب المعاني العقول من المحسوسة، فيعلمها العباد علماء واضحاً، ﴿والله بكل شيء عليم﴾ فعلمه محيط بجميع الأشياء، فلتعلموا أن ضربه الأمثال، ضرب من يعلم حقائق الأشياء وتفاصيلها، وأنها مصلحة للعباد، فليكن اشتغالكم بتدبرها وتعلمها، لا بالاعتراض عليها، ولا بمعارضتها، فإنه يعلم وأنتم لا تعلمون.

ولما كان نور الإيمان والقرآن أكثر وقوع أسبابه في المساجد، ذكرها منها بها فقال:

﴿٣٦-٣٨﴾ ﴿فِي بُيُوتِ أَذُنِ اللَّهِ أَنْ تَرَفَّعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا





المخلوقات نظر اعتبار وتفكر وتدبر لما أريد بها ومنها، والمعرض الجاهل نظره إليها نظر غفلة، بمنزلة نظر البهائم .

﴿٤٥﴾ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ينسب عباده على ما يشاهدونه، أنه خلق جميع الدواب التي على وجه الأرض، ﴿من ماء﴾ أي: مادتها كلها الماء، كما قال تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ .

فالحوانات التي تتوالد، مادتها ماء التطفة، حين يلمح الذكر الأنثى. والحوانات التي تتولد من الأرض، لا تتولد إلا من الرطوبات المائية، كالحشرات لا يوجد منها شيء، يتولد من غير ماء أبداً، فالمادة واحدة، ولكن الخلقه مختلفة من وجوه كثيرة، ﴿فمنهم من يمشي على بطنه﴾ كالحية ونحوها، ﴿ومنهم من يمشي على رجلين﴾ كالأدميين، وكثير من الطيور، ﴿ومنهم من يمشي على أربع﴾ كبهيمة الأنعام ونحوها. فاختلافها - مع أن الأصل واحد - يدل على نفوذ مشيئة الله، وعموم قدرته، ولهذا قال: ﴿يخلق الله ما يشاء﴾ أي: من المخلوقات، على ما يشاءه من الصفات، ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ كما أنزل المطر على الأرض، وهو لقيح واحد، والأم واحدة، وهي الأرض، والأولاد مختلفو الأصناف والأوصاف ﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد وفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ .

﴿٤٦﴾ ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مَبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: لقد رحمتنا عبادنا، وأنزلنا إليهم آيات بينات، أي: واضحة الدلالة، على جميع المقاصد الشرعية، والآداب المحموده، والمعارف الرشيدة، فاتضح بذلك السبل، وتبين الرشيد من الغي،

والهedy من الضلال، فلم يبق أدنى شبهة لبطل يتعلق بها، ولا أدنى إشكال لمريد الصواب، لأنها تنزيل من كَمَل علمه، وكملت رحمته، وكمل بيانه، فليس بعد بيانه بيان ﴿إيهلك﴾ بعد ذلك ﴿من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾، ﴿والله يهدي من يشاء﴾ ممن سبقت لهم سابقة الحسنی، وقدم الصدق، ﴿إلى صراط مستقيم﴾ أي: طريق واضح مختصر، موصل إليه، وإلى دار كرامته، متضمن العلم بالحق وإثارة والعمل به. عمم البيان من يشاء، فهذا فضله وإحسانه، وما فضل الكريم بممنون وذاك عدله، وقطع الحجة للمحتج، والله أعلم حيث يجعل مواقع إحسانه .

﴿٤٧﴾ - ﴿٥٠﴾ ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ \* وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ \* وَإِنْ يَكُنْ لَهُمْ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ \* أَفَمَنْ قُلُوبِهِمْ مَرْضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِي اللَّهَ عَلَيْهِمْ رَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ يخبر تعالى عن حالة الظالمين، ممن في قلبه مرض وضعف إيمان، أو نفاق وريب وضعف علم، أنهم يقولون بالسننهم، ويلتزمون الإيمان بالله والطاعة، ثم لا يقومون بما قالوا، ويتولى فريق منهم عن الطاعة تَوَلَّى عَظِيمًا، بدليل قوله: ﴿وهم معروضون﴾ فإن التولي، قد يكون له نية عود ورجوع إلى ما تولى عنه، وهذا التولي معرض، لا التفات له، ولا نظر لما تولى عنه، وتجده هذه الحالة مطابقة لخال كثير من يدعي الإيمان والطاعة لله وهو ضعيف الإيمان، تجده لا يقوم بكثير من العبادات، خصوصاً: العبادات التي تشق على كثير من النفوس، كالزكوات، والتفقات الواجبة والمستحبة، والجهاد في سبيل الله، ونحو ذلك .

﴿وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم﴾ أي: إذا صار بينهم وبين أحد

الابصار ﴿أي: ألم تشاهد ببصرك، عظيم قدرة الله، وكيف يزوجي﴾ أي: يسوق ﴿سحاباً﴾ قطعاً متفرقة ﴿ثم يؤلف﴾ بين تلك القطع، فيجعله سحاباً متراكماً، مثل الجبال .

﴿فتسرى السودق﴾ أي: السوايل والمطر، يخرج من خلال السحاب، نقطاً متفرقة، ليحصل بها الانتفاع من دون ضرر، فتعتلى بذلك الغدران، وتتدفق الخللجان، وتسيل الأودية، وتنبت الأرض من كل زوج كريم، وتارة ينزل الله من ذلك السحاب برداً يتلّف ما يصيبه .

﴿فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء﴾ بحسب ما اقتضاه حكمه القدري، وحكمته التي بحمد عليها، ﴿يكاد سنا بركة﴾ أي: يكاد ضوء برق ذلك السحاب، من شدته يذهب بالابصار، أليس الذي أنشأها وساقها لعباده المقتقرين، وأنزلها على وجه يحصل به النفع وينتهي به الضرر، كامل القدرة، نافذ المشيئة، واسع الرحمة؟

﴿يقلب الله الليل والنهار﴾ من حر إلى برد، ومن برد إلى حر، من ليل إلى نهار، ونهار إلى ليل، ويبدل الأيام بين عباده، ﴿إن في ذلك لعبرة لأول الأبصار﴾ أي: لذوي البصائر، والعقول النافذة للأمور المطلوبة منها، كما تنفذ الأبصار إلى الأمور المشاهدة الخسيسة. فالبصير ينظر إلى هذه



قولا وعملا، فلا سبيل لكم إلى الهداية إلا بطاعته، وبدون ذلك، لا يمكن، بل هو محال.

﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾  
أي: تبليغكم البين الذي لا يُبقي لأحد شكاً ولا شبهة، وقد فعل ﷺ، بلغ البلاغ المبين، وإنما الذي يحاسبكم ويجازيكم هو الله تعالى، فالرسول ليس له من الأمر شيء، وقد قام بوظيفته.

﴿٥٥﴾ ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ هذا من أو عاده<sup>(١)</sup> الصادقة، التي شوهد تأويلها ومخبرها، فإنه وعد من قام بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة، أن يستخلفهم في الأرض، يكونون هم الخلفاء فيها، المتصرفين في تدبيرها، وأنه يُمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وهو دين الإسلام، الذي فاق الأديان كلها، ارتضاه لهذه الأمة، لفضلها وشرقها وتعمته عليها، بأن يتمكنوا من إقامته، وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة، في أنفسهم وفي غيرهم، لكون غيرهم من أهل الأديان وسائر الكفار مخلولين ذليلين، وأنه يبدلهم من بعد خوفهم الذي كان الواحد منهم لا يتمكن من إظهار دينه، وما هو عليه إلا بأذى كثير من الكفار، وكون جماعة المسلمين قليلين جداً بالنسبة إلى غيرهم، وقد رماهم أهل الأرض عن قوس واحدة، وبغوا لهم الغوائل.

فوعدهم الله هذه الأمور وقت نزول الآية، وهي لم تشهد الاستخلاف في الأرض والتمكين فيها، والتمكين من إقامة الدين الإسلامي، والأمن التام، بحيث يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً، ولا يخافون أحداً إلا الله، فقام صدر هذه

الأمة، من الإيمان والعمل الصالح بما يفوقون على غيرهم، فمكثهم من البلاد والعباد، وفتحت مشارق الأرض ومغاربها، وحصل الأمن التام والتمكين التام، فهذا من آيات الله العجيبة الباهرة، ولا يزال الأمر إلى قيام الساعة، مهما قاموا بالإيمان والعمل الصالح، فلا بد أن يوجد ما وعدهم الله، وإنما يسלט عليهم الكفار والمنافقين، ويُبدلهم في بعض الأحيان، بسبب إخلال المسلمين بالإيمان والعمل الصالح.

﴿ومن كفر بعد ذلك﴾ التمكين والسلطنة التامة لكم، يا معشر المسلمين، ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ الذين خرجوا عن طاعة الله، وفسدوا، فلم يصلحوا للصالح، ولم يكن فيهم أهلية للخير، لأن الذي ترك الإيمان في حال عزه وقهره، وعدم وجود الأسباب المانعة منه، يدل على فساد نيته، وخبث طويته، لأنه لا داعي له لترك الدين إلا ذلك. ودلت هذه الآية، أن الله قد مكّن من قبلنا، واستخلفهم في الأرض، كما قال موسى لقومه: ﴿ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ وقال تعالى: ﴿ونريد أن نمنن على الذين استضعفوا في الأرض وتجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾ ونمكن لهم في الأرض.

﴿٥٦ - ٥٧﴾ ﴿وأطيعوا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحون﴾ لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض وماؤهم النار ولبئس المصير﴾ يأمر تعالى بإقامة الصلاة، بأركانها وشروطها وأدائها، ظاهراً وباطناً، وبإيتاء الزكاة من الأموال التي استخلف الله عليها العباد، وأعطاهم إياها، بأن يؤتوها الفقراء وغيرهم، ممن ذكرهم الله لمصرف الزكاة، فهذا أكبر الطاعات وأجلها، جامعتان لحقه وحق خلقه، للإخلاص للمعبود، وللإحسان إلى

العبيد، ثم عطف عليهما الأمر العام، فقال: ﴿وأطيعوا الرسول﴾ وذلك بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ ﴿لعلكم﴾ حين تقومون بذلك ﴿ترحون﴾ فمن أراد الرحمة، فهذا طريقها، ومن رجاها من دون إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإطاعة الرسول، فهو مُتمنٍ كاذب، وقد منته نفسه الأمان الكاذبة.

﴿لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض﴾ فلا يغركم ما مئعوا به في الحياة الدنيا، فإن الله، وإن أهملهم فإنه لا يهملهم ﴿تمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾.

ولهذا قال هنا: ﴿وماؤهم النار ولبئس المصير﴾ أي: بشئ المال، مآل الكافرين، مآل الشر والحسرة والعقوبة الأبدية.

﴿٥٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك بين الله لكم الآيات والله عليم حكيم﴾ أمر المؤمنين أن يستأذنتهم عوراتهم، والذين لم يبلغوا الحلم منهم. قد ذكر الله حكمته وأنه ثلاث عورات للمستأذنين عليهم، وقت نومهم بالليل بعد العشاء، وعند انتابهم قبل صلاة الفجر، فهذا - في الغالب - أن التائم يستعمل للنوم في الليل ثوباً غير ثوبه المعتاد، وأما نوم النهار، فلما كان في الغالب قليلاً، قد ينام فيه العبد بثيابه المعتادة، قيده بقوله: ﴿وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة﴾ أي: للقاتلة، وسط النهار.

ففي ثلاثة هذه الأحوال، يكون المالك والأولاد الصغار كغيرهم، لا يُكْتون من الدخول إلا بإذن، وأما





يجوز لهن أن يكشفن وجوههن لأمّن المحذور منها وعليها، ولما كان نفّي الحرج عنهن في وضع الثياب، ربما توهم منه جواز استعمالها لكل شيء، دفع هذا الاحتراز بقوله: «غير متبرجات بزينة» أي: غير مظهرات للناس زينة، من تجمل بثياب ظاهرة، وتستر وجهها، ومن ضرب الأرض برجلها، ليعلم ما تخفي من زيتها، لأن مجرد الزينة على الأنثى، ولو مع تسترها، ولو كانت لا تشتهي يفتن فيها، ويوقع الناظر إليها في الحرج «وأن يستعطفن خبير لهن». والاستعفاف: طلب العفة، بفعل الأسباب المقتضية لذلك، من تزوج وتزكّ لما يخشى منه الفتنة، «والله سميع» لجميع الأصوات «عليم» بالنيات والمقاصد، فليُخذَرْنَ من كل قول وقصد فاسد، ويعلمن أن الله يجازي على ذلك.

﴿٦١﴾ «ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت

أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون» يخبر تعالى عن مثبته على عباده، وأنه لم يجعل عليهم في الدين من حرج بل يسره غاية التيسير، فقال:

«ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج» أي: ليس على هؤلاء جناح، في ترك الأمور الواجبة، التي تتوقف على واحد منها، وذلك كالجهاد ونحوه، مما يتوقف على بصر للأعمى، أو سلامة للأعرج، أو صحة للمريض، ولهذا المعنى العام الذي ذكرناه، أطلق الكلام في ذلك، ولم يقيد، كما قيد قوله: «ولا على أنفسكم» أي: حرج «أن تأكلوا من بيوتكم» أي: بيوت أولادكم، وهذا موافق للحديث الشابت: «أنت ومالك لأبيك»، والحديث الآخر: «إن أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم»، وليس المراد من قوله: «من بيوتكم» بيت الإنسان نفسه، فإن هذا من باب تحصيل الحاصل، الذي ينزه عنه كلام الله، ولأنه نفى الحرج عما يظن أو يتوهم فيه الإثم من هؤلاء المذكورين، وأما بيت الإنسان نفسه فليس فيه أدنى توهم.

﴿أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم، أو بيوت إخوانكم، أو بيوت أخواتكم، أو بيوت أعمامكم، أو بيوت عماتكم، أو بيوت أخوالكم، أو بيوت خالاتكم﴾ وهؤلاء معروفون، «أو ما ملكتم مفاتحه» أي: البيوت التي أنتم متصرفون فيها بوكالة، أو ولاية ونحو ذلك، وأما تفسيرها

بالمملوك، فليس بوجه، لوجهين: أحدهما: أن المملوك لا يقال فيه «ملكتم مفاتحه»، بل يقال: «ما ملكتموه» أو «ما ملكت أيمانكم» لأنهم ما يكون له جملة، لا لمفاتيحه فقط.

والثاني: أن بيوت المالك، غير خارجة عن بيت الإنسان نفسه، لأن المملوك وما ملكه لسيده، فلا وجه لنفي الحرج عنه.

﴿أو صديقكم﴾ وهذا الحرج المنفي عن الأكل<sup>(١)</sup>، من هذه البيوت كل ذلك، إذا كان بدون إذن، والحكمة فيه معلومة من السياق، فإن هؤلاء المسمين<sup>(٢)</sup>، قد جرت العادة والعرف، بالمساحة في الأكل منها، لأجل القرابة القريبة، أو التصرف التام، أو الصداقة، فلو قدر في أحد من هؤلاء عدم المساحة والشح في الأكل المذكور، لم يحز الأكل، ولم يرتفع الحرج، نظراً للحكمة والمعنى.

وقوله: «ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً» فكل ذلك جائز، أكل أهل البيت الواحد جميعاً، أو أكل كل واحد منهم وحده، وهذا نفى للحرج، لا نفى للفضيلة وإلا فالأفضل الاجتماع على الطعام.

﴿فإذا دخلتم بيوتاً﴾ نكرة في سياق الشرط، يشمل بيت الإنسان وبيت غيره، سواء كان في البيت ساكن أم لا، فإذا دخلها الإنسان «فسلموا على أنفسكم» أي: فليسلم بعضكم على بعض، لأن المسلمين كأنهم شخص واحد، من تواددهم، وتراحمهم، وتعاطفهم، فالسلام مشروع لدخول سائر البيوت، من غير فرق بين بيت وبيت، والاستئذان تقدم أن فيه تفصيلاً في أحكامه، ثم مدح هذا السلام فقال: «تحية من عند الله مباركة

(١) في ب: من.

(٢) مراد الشيخ - رحمه الله - فإن بيوت هؤلاء المسمين، كما يبدو - والله أعلم -





من جميع الوجوه؟!!

وكيف يكون له شريك في الملك، ونواصي العباد كلهم بيديه، فلا يتحركون أو يسكنون، ولا يتصرفون إلا بإذنه، فتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فلم يقدره حتى قدره من قال فيه ذلك، ولهذا قال: ﴿وخلق كل شيء﴾

شمل العالم العلوي، والعالم السفلي، من حيواناته، ونباتاته، وجماداته، ﴿فقدره تقديراً﴾ أي: أعطى كل مخلوق منها ما يليق به، ويناسبه من الخلق، وما تقتضيه حكمته من ذلك، بحيث صار كل مخلوق لا يتصور العقل الصحيح أن يكون بخلاف شكله وصورته المشاهدة، بل كل جزء وعضو من المخلوق الواحد، لا يناسبه غير محله الذي هو فيه. قال تعالى: ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ الذي خلق فسوى ﴿والذي قدر فهدى﴾ وقال تعالى: ﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ ولما بين كماله وعظمته، وكثرة إحسانه، كان ذلك مقتضياً لأن يكون وحده المحبوب المألوه المعظم، المفرد بالإخلاص وحده، لا شريك له ناسب أن يذكر بطلان عبادة ما سواه، فقال:

﴿٣﴾ ﴿واتخذوا سن دونه الهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً﴾.

أي: من أعجب العجائب، وأدل الدليل على سفههم، ونقص عقولهم، بل أدل على ظلمهم وجراعتهم على ربهم، أن اتخذوا الهة بهذه الصفة، في كمال العجز، أنها لا تقدر على خلق شيء، بل هم مخلوقون، بل بعضهم مما عملته أيديهم. ﴿ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً﴾ أي: لا قليلاً ولا كثيراً، لأنه نكرة في سياق النفي.

﴿ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً﴾ أي: بعثاً بعد الموت، فأعظم أحكام العقل بطلان إلهيتها، وفسادها وفساد عقل من اتخذها آلهة وشركاء

ولما قيد علمه بأعمالهم، ذكر العموم بعد الخصوص، فقال: ﴿والله بكل شيء عليم﴾

### تفسير سورة الفرقان وهي مكية عند الجمهور

﴿١-٢﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾ الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾ هذا بيان لعظمته الكاملة، وتفردِه ﴿بالوحدانية﴾<sup>(١)</sup> من كل وجه، وكثرة خيراته وإحسانه، فقال: ﴿تبارك﴾ أي: تعظم، وكملت أوصافه، وكثرت خيراته، الذي من أعظم خيراته ونعمه، أن نزل هذا القرآن الفارق بين الحلال والحرام، والهدى والضلال، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، ﴿على عبده﴾ محمد ﷺ الذي كمل مراتب العبودية، وفاق جميع المرسلين، ﴿ليكون﴾ ذلك الإنزال للفرقان على عبده ﴿للعالمين نذيراً﴾ ينذره بأس الله ونقمه، ويبين لهم مواقع رضا الله من سخطه، حتى إن من قبل نذارته وعمل بها، كان من الساجدين في الدنيا والآخرة، الذين حصلت لهم السعادة الأبدية، والملك السرمدي، فهل فوق هذه النعمة وهذا الفضل والإحسان شيء؟ فتبارك الذي هذا من بعض إحسانه وبركاته.

﴿الذي له ملك السماوات والأرض﴾ أي: له التصرف فيها وحده، وجميع من فيها عماليك وعبيد له، مدعوتون لعظمته، خاضعون لربوبيته، فقرأ إلى رحته، الذي ﴿لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك﴾ وكيف يكون له ولد أو شريك، وهو المالك، وغيره مملوك، وهو القاهر، وغيره مقهور، وهو الغني بذاته من جميع الوجوه، والمخلوقون مفتقرون إليه، فقراً ذاتياً



يفعل ذلك وذهب من غير استئذان، فهو وإن خفي عليكم بذهابه على وجه خفي، وهو المراد بقوله: ﴿يتسللون منكم لوأذا﴾ أي: يلدون وقت تسللهم وانطلاقهم بشيء يحجبهم عن العيون، فالله يعلمهم، وسيجازيهم على ذلك أتم الجزاء، ولهذا توعدهم بقوله: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره﴾ أي: يذهبون إلى بعض شؤونهم عن أمر الله ورسوله، فكيف بمن لم يذهب إلى شأن من شؤونه؟! وإنما ترك أمر الله من دون شغل له.

﴿أن نصيبهم فتنة﴾ أي: شرك وشراً أو يصيبهم عذاب اليم﴾.

﴿إلا إن الله ما في السماوات والأرض﴾ ملكاً وعبداً، يتصرف فيهم بحكمه القدري، وحكمه الشرعي. ﴿قد يعلم ما أنتم عليه﴾ أي: قد أحاط علمه بما أنتم عليه، من خير وشر، وعلم جميع أعمالكم، أحصاها علمه، وجرى بها قلمه، وكتبها عليكم الحفظة الكرام الكاتبون.

﴿ويوم يرجعون إليه﴾ في يوم القيامة ﴿فينبئهم بما عملوا﴾ يخبرهم بجميع أعمالهم، دقيقها وجليلها، إخباراً مطابقاً لما وقع منهم، ويستشهد عليهم أعضاءهم، فلا يعدمون منه فضلاً أو عدلاً.



مسحوراً.

مقرنين ﴿أي: عذابهم، وهم في وسطها، جمع في مكان بين ضيق المكان، وتزاحم السكان، وتقربتهم بالسلاسل والأغلال، فإذا وصلوا لذلك المكان النحاس، وحسبوا في أثر حبس ﴿دعوا هنالك ثبوراً﴾ دعوا على أنفسهم بالثبور والخزي والفضيحة، وعلموا أنهم ظالمون معتدون، قد عدل فيهم الخالق، حيث أنزلهم بأعمالهم هذا المنزل، وليس ذلك الدعاء والاستغاثة بنافعة لهم، ولا مغنية من عذاب الله، بل يقال لهم: ﴿لا ندعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً﴾ أي: لو زاد ما قلتم أضعاف أضعاف، ما أفادكم إلا الهم والغم والحزن.

لما بين جزاء الظالمين، ناسب أن يذكر جزاء المتقين فقال:

﴿١٥ - ١٦﴾ ﴿قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاءً ومصيراً \* لهم فيها ما يشاؤون خالدين كان على ربك وعداً مسؤولاً﴾.

أي: قل لهم - مبيناً لسفاهة رأيهم، واختيارهم الضار على النافع -: ﴿أذلك﴾ الذي وصفت لكم من العذاب ﴿خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون﴾ التي زادها تقوى الله، فمن قام بالتقوى، فالله قد وعده إياها، ﴿كانت لهم جزاءً﴾ على تقواهم ﴿ومصيراً﴾ موثلاً يرجعون إليها، ويستقرون فيها، ويخلدون دائماً أبداً.

﴿لهم فيها ما يشاؤون﴾ أي: يطلبون، وتتعلق بهم أمانتهم ومشيئتهم، من الطعام، والمشارب اللذيذة، والملابس الفاخرة، والنساء الجميلات، والقصور العاليات، والجنات، والحداثق المرجحة، والفواكه التي تسر ناظرها وأكلها، من حسناتها وتروعها، وكثرة أصنافها، والأنهار التي تجري في رياض الجنة وسائحتها، حيث شاؤوا يصرفونها، ويفجرونها أنهاراً من ماء غير آسن، وأنهاراً من لبن لم يتغير طعمه، وأنهاراً من خمر لذة للشاربين، وأنهاراً من عسل مصفى، وروائح طيبة، ومسكن

﴿فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً﴾ قالوا أقوالاً متناقضة، كلها جهل وضلال وسفه، ليس في شيء منها هداية، بل ولا في شيء منها أدنى شبهة تدح في الرسالة، فيمجرد النظر إليها وتصورها، يهزم العاقل ببطلانها، ويكفيه عن ردها، ولهذا أمر تعالى بالنظر إليها وتدبرها، والنظر: هل توجب التوقف عن الخزم للرسول بالرسالة والصدق؟ ولهذا أخبر أنه قادر على أن يعطيك خيراً كثيراً في الدنيا فقال: ﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك﴾ أي: خيراً مما قالوا، ثم فسره بقوله: ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً﴾ مرتفعة مزخرفة، فقدرته ومشيئته، لا تقصر عن ذلك، ولكنه تعالى - لما كانت الدنيا عنده في غاية البعد والحقارة - أعطى منها أولياءه ورسله، ما اقتضته حكمته منها، واقتراح أعدائهم بأنهم، هلا رزقوا منها رزقاً كثيراً جداً، ظلم وجراءة.

ولما كانت تلك الأقوال التي قالوها معلومة الفساد، أخبر تعالى أنها لم تصدر منهم لطلب الحق، ولا لاتباع البرهان، وإنما صدرت منهم تعنتاً وظلماً، وتكذيباً بالحق، فقالوا ما بقلوبهم من ذلك، ولهذا قال: ﴿بل كذبوا بالساعة﴾ والمكذب المتعنت، الذي ليس له قصد في اتباع الحق، لا سبيل إلى هدايته، ولا حيلة في مجادلته، وإنما له حيلة واحدة، وهي نزول العذاب به، فلماذا قال: ﴿واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً﴾ أي: ناراً عظيمة، قد اشتد سعيها، وتغيظت على أهلها، واشتد زفيرها. ﴿إذا رآهم من مكان بعيد﴾ أي: قبل وصولهم ووصولها إليهم، ﴿سمعوا لها نغيظاً﴾ عليهم ﴿وزفيراً﴾ تفلت منه الأفئدة، وتتصدع القلوب، ويكاد الواحد منهم يموت خوفاً منها وذعراً، قد غضبت عليهم لغضب خالقها، وقد زاد لهما لزيادة كفرهم وشركهم.

﴿وإذا القوا منها مكاناً ضيقاً



وامتهزاء. ﴿ياكل الطعام﴾ وهدا من خصائص البشر، فهلا كان ملكاً لا يأكل الطعام، ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر، ﴿ويمشي في الأسواق﴾ للبيع والشراء، وهذا - بزعمهم - لا يليق بمن يكون رسولا، مع أن الله قال: ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾.

﴿لولا أنزل إليه ملك﴾ أي: هلا أنزل معه ملك يساعده ويعاونه، ﴿فيكون معه نذيراً﴾ ويزعمهم أنه غير كاف للرسالة، ولا بطوقه وقدرته القيام بها.

﴿أو يلقي إليه كنز﴾ أي: مال مجموع من غير تعب، ﴿أو تكون له جنة يأكل منها﴾ فيستغني بذلك عن مشيه في الأسواق لطلب الرزق.

﴿وقال الظالمون﴾ حملهم على القول، ظلمهم لا اشتباه منهم، ﴿إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً﴾ هذا، وقد علموا كمال عقله، وحسن حديثه، وسلامته من جميع المطاعن. ولما كانت هذه الأقوال منهم، عجيبة جداً، قال تعالى: ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال﴾ وهي: أنه هلاً كان ملكاً، وزالت عنه خصائص البشر؟ أو معه ملك، لأنه غير قادر على ما قال، أو أنزل عليه كنز، أو جعلت له جنة تغنيه عن المشي في الأسواق، أو أنه كان

مزخرقة، وأصوات شجية، تأخذ من حسننها بالقلوب، ومزاورة الإخوان، والتمتع بملقاة الأحياب، وأعلى من ذلك كله، التمتع بالنظر إلى وجه الرب الرحيم، وسماع كلامه، والخطوة بقربه، والسعادة برضاه، والأمن من سخطه، واستمرار هذا النعيم ودوامه، وزيادته على عمر الأوقات، وتعاقب الآتات ﴿كان﴾ دخولها والوصول إليها ﴿على ربك وعداً مسؤولاً﴾ يسأله إياها، عباده المتقون بلسان حالهم، ولسان مقالهم، فأبي: السدائرن المذكورتين خير وأولى بالإيثارة؟ وأي: العاملين، عمال دار الشقاء، أو عمال دار السعادة، أولى بالفضل والعقل والفخر، يا أولى الألباب؟

لقد وضع الحق، واستنار السبيل، فلم يبق للمعصية عذر في تركه الدليل، فنرجوك يا من قضيت على أقوام بالشقاء، وأقوام بالسعادة، أن تجعلنا ممن كتبت لهم الحسنى وزيادة، ونستغث بك اللهم من حالة الأشتياء، ونسألك المعافاة منها.

﴿١٧ - ٢٠﴾ ﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل﴾ قالوا سبحانه ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً ﴿فقد كذبوك بما تقولون فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً﴾ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً ﴿يخبر تعالى عن حالة المشركين وشركاتهم يوم القيامة، وتبزيهم منهم، وبطلان سعيهم، فقال: ﴿ويوم يحشرهم﴾ أي: المكذبين المشركين ﴿وما يعبدون من دون الله فيقول﴾ الله خاطباً للمعبدوين على وجه التقرح لمن عبدهم: ﴿أنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا

السبيل﴾ هل أمرتموهم بعبادتك، وزينت لهم ذلك، أم ذلك من تلقاء أنفسهم؟

﴿قالوا سبحانه﴾ نزهوا الله عن شرك المشركين به، وبرؤوا أنفسهم من ذلك، ﴿ما كان ينبغي لنا﴾ أي: لا يليق بنا، ولا يحسن منا، أن نتخذ من دونك من أولياء نتسولاهم، ونعبدهم وتدعوهم، فإذا كنا محتاجين ومفتقرين إلى عبادتك، متبرئين من عبادة غيرك، فكيف نأمر أحداً بعبادتنا؟ هذا لا يكون. أو، سبحانه عن ﴿أن نتخذ من دونك من أولياء﴾ وهذا كقول المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله، قال سبحانه ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب﴾ ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم الآية.

وقال تعالى: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾ قالوا سبحانه أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ فلما نزهوا أنفسهم، أن يدعوا العبادة غير الله، أو يكونوا أضلوه، ذكروا السبب الموجب لإضلال المشركين فقالوا: ﴿ولكن متعتهم وآباءهم﴾ في لذات الدنيا وشهواتها، ومطالبتها النفسية، ﴿حتى نسوا الذكر﴾ اشتغلاً في لذات الدنيا، واكباباً على شهواتها، فحافظوا على دنياهم، وضيعوا دينهم ﴿وكانوا قوماً بوراً﴾ أي: باشرين لا خير فيهم، ولا يصلحون لصلاح، لا يصلحون إلا للهلاك والبور، فذكروا المانع من اتباعهم الهدى، وهو التمتع في الدنيا، الذي صرفهم عن الهدى، وعدم المتضي للهدى، وهو:

أنهم لا خير فيهم، فإذا عدم المتضي، ووجد المانع، فلا تشاء من شر وهلاك، إلا وجدته فيهم، فلما تبرؤوا منهم، قال الله توبيخاً وتقرحاً للعباديين<sup>(١)</sup>: ﴿فقد كذبوك بما تقولون﴾ إنهم أمرؤكم بعبادتهم، ورضوا فعلكم، وأنهم شفعا لكم عند ربكم، كذبوك في ذلك الزعم، وصاروا من أكبر أعدائكم، فحق عليكم العذاب، ﴿فما تستطيعون صرفاً﴾ للعذاب عنكم بفعلكم، أو بفداء، أو غير ذلك، ﴿ولا نصراً﴾ لعجزكم، وعدم ناصركم. هذا حكم الضالين المقلدين الجاهلين، كما رأيت، أسوأ حكم، وأشر مصير.

وأما المعاند منهم، الذي عرف الحق وصدف عنه، فقال في حقه: ﴿ومن يظلم منكم﴾ بترك الحق ظلماً وعناداً، نذقه عذاباً كبيراً﴾ لا يقادر قدره، ولا يبلغ أمره.

ثم قال تعالى جواباً لقول المكذبين: ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾ ﴿فما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام، وما جعلناهم ملائكة، فلك فيهم أسوة. وأما الغنى والفقر، فهو فتنة، وحكمة من الله تعالى، كما قال: ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة﴾ الرسول فتنة للمرسل إليهم، واختيار للمطيعين من المعاصين<sup>(٢)</sup>، والرسل فتنة بدعوة الخلق، والغنى فتنة للمفقر، والمفقر فتنة للغني، وهكذا سائر أصناف الخلق في هذه الدار، دار الفتنة والابتلاء والاختيار.

والقصد من تلك الفتنة ﴿أنصبرون﴾ فتقومون بما هو وظيفتكم اللازمة الراتبية، فيثيبكم مولاكم<sup>(٣)</sup>، أم لا تصبرون فتستحقون المعاقبة؟

﴿وكان ربك بصيراً﴾ يعلم أحوالكم، ويصطفى من يعلمه يصلح

(٢) كذا في ب، وفي أ: مولاكم.

(٣) كذا في ب، وفي أ: المعاصي.

(١) في ب: للمعاندين.

منه شيء، لأنه لا خير في مقيل أهل النار ومستقرهم، كقوله: ﴿آله خير أما بشر كون﴾.

﴿٢٥ - ٢٩﴾ \* ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً \* الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً \* ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً \* يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً \* لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً \* يخبر تعالى عن عظمة يوم القيامة، وما فيه من الشدة والكروب، ومزعجات القلوب فقال: ﴿ويوم تشقق السماء بالغمام﴾ وذلك الغمام الذي ينزل الله فيه، ينزل من فوق السماوات، فتتفطر له السماوات وتشقق، وتنزل الملائكة كل سماء فيقفون صفاً صفاً، إما صفاً واحداً محيطاً بالخالق، وإما كل سماء، يكونون صفاً، ثم السماء التي تليها صفاً، وهكذا.

القصد أن الملائكة - على كثرتهم وقوتهم - ينزلون محيطين بالخالق، مذعنين لأمر ربهم، لا يتكلم منهم أحد إلا بإذن من الله، فما ظنك بالأدعي الضعيف، خصوصاً الذي يبارز مالكه بالعظائم، وأقدم على مسأخطه، ثم قدم عليه بذنوب وخطايا لم يتب منها، فيحكم فيه الملك الحق بالحكم الذي لا يجور، ولا يظلم مثقال ذرة، ولهذا قال: ﴿وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾ لصعوبته الشديدة، وتحسر أموره عليه، بخلاف المؤمن، فإنه يسير عليه، خفيف الحمل.

﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً \* ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً﴾.

وقوله: ﴿الملك يومئذ﴾ أي: يوم القيامة ﴿الحق للرحمن﴾ لا يبقى لأحد من المخلوقين، مُلكٌ ولا صورة مُلكٍ، كما كانوا في الدنيا، بل قد تساوت الملوك ورعاياهم، والأحرار والعبيد، والأشراف وغيرهم، ومما يرتاح له القلب، وتطمئن به النفس، وينشرح له

الموت، إذا تنزلت عليهم الملائكة، قال الله تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسهم اليوم يميزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾. ثم في القبر، حين يأتيهم منكر ونكير، فيسألهم عن ربهم ودينهم، فلا يجيبون جواباً ينجيهم، فيحلون بهم النقمة، وتزول عنهم بهم الرحمة، ثم يوم القيامة، حين تسوقهم الملائكة إلى النار، ثم يسلمونهم لحزنة جهنم، الذين يتولون عذابهم، ويباشرون عقابهم، فهذا الذي اقترحوه، وهذا الذي طلبوه، إن استمروا على إجرامهم لا بد أن يروه ويلقوه، وحينئذ يتعدون من الملائكة، ويفرون، ولكن لا مفر لهم.

﴿ويقولون حجراً محجوراً﴾ \* يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾.

﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل﴾ أي: أعمالهم التي رجوا أن تكون خيراً وتعبوا فيها، ﴿فجعلناه هباء منثوراً﴾ أي: باطلاً مضمحلاً، قد خسره وحرمو أجره، وعوقبوا عليه، وذلك لفقدته الإيمان، وصدوره عن مكذب لله ورسله، فالعمل الذي يقبله الله، ما صدر عن المؤمن المخلص، المصدق للرسول، المتبع لهم فيه.

﴿٢٤﴾ \* أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾ أي: في ذلك اليوم الهائل، كثير البلبال \* أصحاب الجنة الذين آمنوا بالله، وعملوا صالحاً، واتقوا ربهم \* خير مستقراً من أهل النار \* وأحسن مقيلاً﴾ أي: مستقرهم في الجنة، وراحتهم التي هي القيلولة، هو المستقر النافع، والراحة التامة، لاشتمال ذلك على تمام النعيم، الذي لا يشوبه كدر، بخلاف أصحاب النار، فإن جهنم ساءت مستقراً ومقيلاً وهذا من باب استحسان أفضل التفضيل، فيما ليس في الطرف الآخر

لرسالته، ومختصه بتفضيله، ويعلم أعمالكم فيجازيكم عليها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿٢١ - ٢٣﴾ \* وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً \* يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً \* وقد منا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً﴾ أي: قال المكذبون للرسول، المكذبون بوعد الله ووعيده، الذين ليس في قلوبهم خوف الوعيد، ولا رجاء لقاء الخالق.

﴿لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا﴾ أي: هلا نزلت الملائكة، تشهد لك بالرسالة، وتؤيدك عليها، أو تنزل رسلاً مستقلين، أو نرى ربنا فيكلمنا، ويقول: هذا رسولي فاتبعوه؟ وهذا معارضة للرسول بما ليس بمعارض، بل بالتكبر والعلو والعتو.

﴿لقد استكبروا في أنفسهم﴾ حيث اقترحوا هذا الاقتراح، وتجروؤوا هذه الجراءة، فمن أنتم يا فقراء، وما مساكين، حتى تطلبوا رؤية الله، وتزعموا أن الرسالة متوقف ثبوتها على ذلك؟ وأي: كبر أعظم من هذا؟

﴿واعتوا عتواً كبيراً﴾ أي: قسوا وصلبوا عن الحق قساوة عظيمة، فقلوبهم أشد من الأحجار، وأصلب من الحديد، لا تلين للحق، ولا تصغي للناصحين، فلذلك لم ينجع فيهم وعظ ولا تكدير، ولا اتبعوا الحق حين جاءهم التنذير، بل قابلوا أصدق الخلق وأنصحهم، وآيات الله البيّنات، بالإعراض والتكذيب والمعارضة، فأبي: عتوا أكبر من هذا العتو!!! ولذلك، بطلت أعمالهم واضمحلت، وخسروا أشد الخسران، وحرمو غاية الحرمان.

﴿يوم يرون الملائكة﴾ التي اقترحوا نزولها \* لا بشرى يومئذ للمجرمين \* وذلك أنهم لا يرونها، مع استمرارهم على جرمهم وعتادهم، إلا لعقوبتهم، وحلول البأس بهم، فأول ذلك عند



أضل سبيلاً<sup>(١)</sup> أي: وإذا رآك يا محمد، هؤلاء المكذبون لك، المعاندون لآيات [الله]<sup>(٢)</sup>، المستكبرون في الأرض، استهزؤوا بك واحتقروك، وقالوا - على وجه الاحتقار والاستصغار -: ﴿أهذا الذي بعث الله رسولا﴾ أي: غير مناسب ولا لائق، أن يبعث الله هذا الرجل، وهذا من شدة ظلمهم وعنادهم، وقلوبهم الحقائق، فإن كلامهم هذا يفهم أن الرسول - حاشاه - في غاية الخسة والحفارة، وأنه لو كانت الرسالة لغيره، لكان أنسب.

﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ فهذا الكلام، لا يصدر إلا من أجهل الناس وأضلهم، أو من أعظمهم عنادا، وهو متجاهل، قصده ترويح ما معه من الباطل بالفتح بالحق وبمن جاء به، وإلا فمن تدبر أحوال محمد بن عبد الله ﷺ، وجده رجل العالم وهمامهم، ومقدمهم في العقل، والعلم، واللب، والرزاق، ومكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، والعفة، والشجاعة، والكرم، وكل خلقتي فاضل، وأن المحتقر له، والشائء له، قد جمع من السفه والجهل، والضلال، والتناقض، والظلم، والعدوان، ما لا يجمعه غيره، وحسبه جهلاً وضلالاً، أن يقصد بهذا الرسول العظيم، والهمام الكريم.

والقصود من قدهم فيه واستهزائهم به، تصلبهم على باطلهم، وغروراً لضعفاء العقول<sup>(٣)</sup>، ولهذا قالوا: ﴿إن كاد﴾ هذا الرجل ﴿ليضلنا عن آلهتنا﴾ بأن يجعل الآلهة إلهاً واحداً ﴿لولا أن صبرنا عليها﴾ لأضلنا، زعموا - قبحهم الله - أن الضلال هو التوحيد، وأن الهدى ما هم عليه من الشرك، فلهدنا توأصوا بالصبر عليه. ﴿وانطلق الملا منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم﴾.

وهنا قالوا: ﴿لولا أن صبرنا

الدنيا إلى الصراط المستقيم، وفي الآخرة إلى الوصول إلى جنات النعيم.

﴿٣٥ - ٤٠﴾ ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً﴾ فقلنا اذهبوا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميراً \* وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعدنا للظالمين عذاباً ألماً \* وعاداً وثمود وأصحاب الرّس وقرونا بين ذلك كثيراً \* وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تنبيراً \* ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشوراً﴾ أشار تعالى إلى هذه القصص، وقد بسطها في آيات آخر، ليحذر المخاطبين من استمرارهم على تكذيب رسولهم، فيصيبهم ما أصاب هؤلاء الأمم الذين قريبا منهم، ويعرفون قصصهم بما استفاض واشتهر عنهم.

ومنهم من يرون آثارهم عياناً، يقوم صالح في الحجر، وكالقرية التي أنطرت مطر السوء، بحجارة من سجيل، يمرون عليهم مصبحين، وبالليل في أسفارهم، فإن أولئك الأمم ليسوا شرأ منهم، ورسلم ليسوا خيراً من رسول هؤلاء ﴿أفأركم خير من أولئك أم لكم براءة في الزبر﴾ ولكن الذي منع هؤلاء من الإيمان - مع ما شاهدوا من الآيات - أنهم كانوا لا يرجون بعثاً ولا نشوراً، فلا يرجون لقاء ربهم، ولا يخشون نكاله، فذلك استمروا على عنادهم، وإلا فقد جاءهم من الآيات، ما لا يبقى معه شك ولا شبهة، ولا إشكال، ولا ارتياب.

﴿٤١ - ٤٤﴾ ﴿وإذا رآوك إن يتخذونك إلا هزواً هذا الذي بعث الله رسولا﴾ إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً \* أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً \* أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم



ومعلم، وواعظ، أن يقتدي بربه في تدبيره حال رسوله، كذلك العالم، يدبر أمر الخلق فكلما حدث موجب، أو حصل موسم، أتى بما يناسب ذلك من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والمواظف الموافقة لذلك.

وفيه رد على المتكلمين، من الجهمية ونحوهم، ممن يرى أن كثيراً من نصوص القرآن محمولة على غير ظاهرها، ولها معان غير ما يفهم منها، فإذا - على قولهم - لا يكون القرآن أحسن تفسيراً من غيره، وإنما التفسير الأحسن - على زعمهم - تفسيرهم الذي حرفوا له المعاني تحريفاً.

﴿٣٤﴾ ﴿الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً﴾ يخبر تعالى عن حال الشركين الذين كذبوا رسوله، وسوء مآلهم، وأنهم يحشرون على وجوههم ﴿أشنع مرأى، وأفظع منظر، تسحبهم ملائكة العذاب ويمرونهم إلى جهنم﴾ الجامعة لكل عذاب وعقوبة. ﴿أولئك﴾ الذين بهذه الحالة ﴿شر مكاناً﴾ ممن آمن بالله وصدق رسله، ﴿وأضل سبيلاً﴾ وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل، فيما ليس في الطرف الآخر منه شيء، فإن المؤمنین حسن مكانهم ومستقرهم، واهدوا في





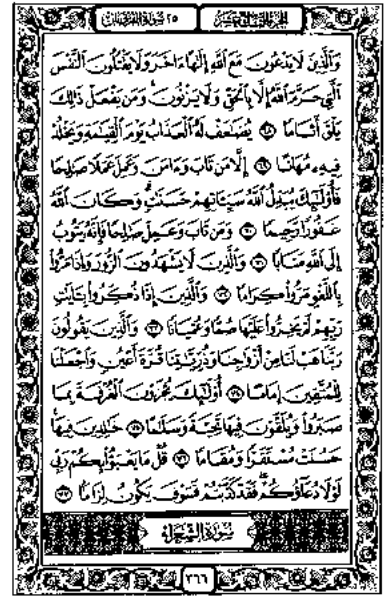
الحق، وعبادة غيره باطلة، لقوله:

﴿٥٥﴾ ﴿ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيراً﴾ أي: يعبدون أصناماً وأموالاً، لا تضر ولا تنفع، ويجعلونها أنداداً لمالك النفع والضرر والعطاء والمنع، مع أن الواجب عليهم، أن يكونوا مقتدين بإرشادات ربهم، ذابنين عن دينه، ولكنهم عكسوا القضية.

﴿وكان الكافر على ربه ظهيراً﴾ فالباطل الذي هو الأثران والأنداد، أعداء الله، فالكافر عاونها وظهرها على ربه، وصار عدواً لربه، مبارزاً له في العداوة والحرب، هذا، وهو الذي خلقه ورزقه، وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة، وليس يخرج عن ملكه وسلطانه وقبضته، والله لم يقطع عنه إحسانه وبره، وهو - بجهله - مستمر على هذه المعادة والبارزة.

﴿٥٦ - ٦٠﴾ ﴿وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً﴾ قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً \* وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً \* الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن الذي لا يئس ولا يمل، ﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً﴾ يخبر تعالى: أنه ما أرسل رسوله محمداً ﷺ، مسيطراً على الخلق، ولا جعله ملكاً، ولا عنده خزان الأشياء، وإنما أرسله ﴿مبشراً﴾ يبشر من أطاع الله، بالثواب العاجل والأجل ﴿ونذيراً﴾ ينذر من عصى الله، بالعقاب العاجل والأجل، وذلك مستلزم لتبيين ما به البشارة، وما تحصل به النذارة، من الأوامر والنواهي، وإنك - يا محمد - لا تسألهم على إبلاغهم القرآن والهدى أجر، حتى يمنعم ذلك من اتباعك، ويتكلفون من الغرامة. ﴿إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ أي: إلا من شاء، أن ينفق نفقة في مرضاة ربه وسبيله، فهذا وإن رغبتكم فيه، فلست

﴿فأسأل به خبيراً﴾ يعني بذلك نفسه الكريمة، فهو الذي يعلم أوصافه وعظمته وجلاله، وقد أخبركم بذلك، وأبان لكم من عظمته، ما تستعدون به من معرفته، فعرفه العارفون، وخضعوا لجلاله، واستكبر عن عبادته الكافرون، واستنكفوا عن ذلك، ولهذا قال: ﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن﴾ أي: وحده، الذي أنعم عليكم بسائر النعم، ودفع عنكم جميع النقم. ﴿قالوا﴾ جحدوا وكفروا: ﴿وما الرحمن﴾ بزعمهم الفاسد، أنهم لا يعرفون الرحمن، وجعلوا من جملة قوادحهم في الرسول، أن قالوا: ينهانا عن اتخاذ آلهة مع الله، وهو يدعو معه إليها آخر، يقول: ﴿يا رحمن﴾ ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ فأسماؤه تعالى كثيرة، لكثرة أوصافه، وتعدد كماله،



به، بل ابدل جهدك في تبليغ ما أرسلت به. ﴿وجاهدهم﴾ بالقرآن ﴿جهاداً كبيراً﴾ أي: لا تبق من مجهودك في نصر الحق وقمع الباطل، إلا بذلته، ولو رأيت منهم من التكذيب والجرأة ما رأيت، فابدل جهدك، واستفرغ رسعك، ولا تياس من هدايتهم، ولا تشرك إبلاغهم لأهوائهم.

﴿٥٣﴾ ﴿وهو الذي مرج البحرين وهذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً﴾ أي: وهو وحده الذي مرج البحرين يلتقيان، البحر العذب، وهي الأنهار السارحة على وجه الأرض، والبحر الملح، وجعل منفعة كل واحد منهما مصلحة للعباد، ﴿وجعل بينهما برزخاً﴾ أي: حاجزاً يحجز من اختلاط أحدهما بالآخر، فتذهب المنفعة المقصودة منهما ﴿وحجراً محجوراً﴾ أي: حاجزاً حصيناً.

﴿٥٤﴾ ﴿وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً﴾ أي: وهو الله وحده لا شريك له، الذي خلق آدمي، من ماء مهين، ثم نشر منه ذرية كثيرة، وجعلهم أنساباً وأصهاراً، متفرقين ومجتمعين، والمادة كلها من ذلك الماء المهين، فهذا يدل على كمال اقتداره، لقوله: ﴿وكان ربك قديراً﴾ ويدل على أن عبادته هي

فكل واحد منها، دل على صفة كمال. **﴿أنجدنا نأمرنا﴾** أي: لمجرد أمرك إيانا. وهذا مبني منهم على التكذيب بالرسول، واستكبارهم عن طاعته، **﴿وزادهم﴾** دعوتهم إلى السجود للرحمن **﴿نفوراً﴾** هرباً من الحق إلى الباطل، وزيادة كفر وشقاء.

**﴿٦١ - ٦٢﴾** **﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً﴾** وهو الذي جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً **﴿كرر تعالى في هذه السورة الكريمة قوله: ﴿تبارك﴾ ثلاث مرات، لأن معناها كما تقدم، أنها تدل على عظمة الباري، وكثرة أوصافه، وكثرة خيرات وإحسانه. وهذه السورة، فيها من الاستدلال على عظمته، وسعة سلطانه، ونفوذ مشيئته، وعموم علمه وقدرته، وإحاطة ملكه في الأحكام الأمرية والأحكام الجزائية وكمال حكمته. وفيها، ما يدل على سعة رحمته، وواسع جوده، وكثرة خيراته، الدينية والدنيوية، ما هو مقتض لتكرار هذا الوصف الحسن، فقال: ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً﴾ وهي النجوم عمومها، أو منازل الشمس والقمر التي تنزلها منزلة منزلة، وهي بمنزلة البروج والقلاع للمدن في حفظها، كذلك النجوم بمنزلة البروج المجرولة للحراسة، فإنها رجوم للشياطين.**

**﴿وجعل فيه سراجاً﴾** فيه النور والحرارة، وهو: الشمس. **﴿وقمراً منيراً﴾** فيه النور، لا الحرارة، وهذا من أدلة عظمته، وكثرة إحسانه، فإن ما فيها من الخلق الباهر، والتدبير المنتظم، والجمال العظيم، دال على عظمة خالقها في أوصافه كلها، وما فيها من المصالح للخلق والمنافع، دليل على كثرة خيراته.

**﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلفاً﴾** أي: يذهب أحدهما، فيخلفه الآخر، هكذا أبداً، لا يجتمعان، ولا يرتفعان، **﴿لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً﴾** أي: لمن أراد أن يتذكر بهما

ويعتبر، ويستدل بهما على كثير من المطالب الإلهية، ويشكر الله على ذلك، **﴿لمن أراد أن يذكر الله ويشكره، وله ورد من الليل أو النهار، فمن فاته وزدّه من أحدهما، أدركه في الآخر، وأيضاً فإن القلوب تتقلب وتنتقل في ساعات الليل والنهار، فيحدث لها النشاط والكسل، والذكر والغفلة، والقبض والبسط، والإقبال والإعراض، فجعل الله الليل والنهار، يتوالى على العباد ويتكرران، ليحدث لهنم الذكر والنشاط، والشكر لله في وقت آخر، ولأن أورااد العبادات، تتكرر بتكرر الليل والنهار، فكلمتا تكرر الأوقات، أحدث للعبد مهمة غير مهمته التي كسلت في الوقت المتقدم، فزاد في تذكرها وشكرها، فوظائف الطاعات بمنزلة سفي الإيمان الذي يمدّه، فلولا ذلك لذوى غرس الإيمان ويبس. فله أتم حمد وأكمل على ذلك.**

ثم ذكر من جملة كثرة خيره، منته على عباده الصالحين، وتوفيقهم للأعمال الصالحات، التي أكسبتهم المنازل العاليات، في غرف الجنات فقال:

**﴿٦٣ - ٧٧﴾** **﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾** والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً \* والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً \* إننا ساءت مستقراً ومقاماً **﴿إلى آخر السورة الكريمة.**

العبودية لله نوعان: عبودية لربوبيته، فهذه يشترك فيها سائر الخلق، مسلمهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، فكلهم عبيد الله مربيون مديرون **﴿إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً﴾** وعبودية لأگوهينه، وعبادته، ورحمته، وهي عبودية أنبيائه، وأوليائه، وهي المراد هنا، ولهذا أضافها إلى اسمه **﴿الرحمن﴾** إشارة إلى أنهم إنما وصلوا إلى هذه الحال بسبب رحمته، فذكر أن صفاتهم أكمل الصفات، ونعوتهم أفضل

النعوت، فوصفهم بأنهم **﴿يمشون على الأرض هوناً﴾** أي: ساكنين متواضعين لله وللخلق، فهذا وصف لهم بالوقار، والسكينة، والتواضع لله ولعباده. **﴿وإذا خاطبهم الجاهلون﴾** أي: خطاب جهل، بدليل إضافة الفعل، وإسناده لهذا الوصف، **﴿قالوا سلاماً﴾** أي: خاطبوهم خطاباً يسلمون فيه من الإنم، ويسلمون من مقابلة الجاهل بجهله. وهذا مدح لهم، بالحلم الكثير، ومقابلة المسيء بالإحسان، والعفو عن الجاهل، ورزاقته العقل الذي أوصلهم إلى هذه الحال.

**﴿والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً﴾** أي: يكثر من صلاة الليل، مخلصين فيها لربهم، متذللين له، كما قال تعالى: **﴿تتجاف جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعا وما رزقناهم ينفقون﴾** فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون **﴿.**

**﴿والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم﴾** أي: ادفعه عنا، بالعصمة من أسبابه، ومغفرة ما وقع منا، مما هو مقتض للعذاب. **﴿إن عذابها كان غراماً﴾** أي: ملازماً لأهلها، بمنزلة ملازمة الغريم لغريمه. **﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾** وهذا منهم، على وجه التضرع لربهم، وبيان شدة حاجتهم إليه، وأنهم ليس في طاقتهم احتمال هذا العذاب، ولتذكروا مئة الله عليهم، فإن صرف الشدة، بحسب شدتها وفظاعتها، يعظم وقعها ويشد الفرح بصرفها.

**﴿والذين إذا أنفقوا﴾** النفقات الواجبة والمستحبة **﴿لم يسرفوا﴾** بأن يزيدوا على الحد، فيدخلوا في قسم التبذير، وإهمال الحقوق الواجبة، **﴿ولم يقتروا﴾** فيدخلوا في باب البخل والشح **﴿وكان﴾** إنفاقهم **﴿بين ذلك﴾** بين الإسراف والتقتير **﴿قواماً﴾** يبدلون في الواجبات من الزكوات، والكفارات، والنفقات الواجبة، وفيما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، من

لا خير فيه، ولا فيه فائدة دينية ولا دنيوية، ككلام السفهاء ونحوهم ﴿سروا كراماً﴾ أي: تزهاوا بأنفسهم وأكرموها عن الخوض فيه، وراوا الخوض فيها، وإن كان لا إثم فيه، فإنه سفة ونقص للإنسانية والمروءة، فربوا بأنفسهم عنه.

وفي قوله: ﴿وإذا مروا باللغو﴾ إشارة إلى أنهم لا يقصدون حضوره ولا سماعه، ولكن عند المصادفة التي من غير قصد، يكرمون أنفسهم عنه.

﴿والذين إذا ذكروا بآيات ربهم﴾ التي أمرهم باستماعها والاهتداء بها، ﴿لم يخروا عليها صماً وعمياناً﴾ أي: لم يقابلوها بالإعراض عنها، والصمم عن سماعها، وصرف النظر والقلوب عنها، كما يفعل من لم يؤمن بها ولم يصدق، وإنما حالهم فيها وعند سماعها، كما قال تعالى: ﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون﴾ يقابلونها بالقبول والافتقار إليها، والانقياد والتسليم لها، وتعبد عندهم أذاناً سامعة، وقلوباً واعية، فيزداد بها إيمانهم، ويتم بها إيمانهم، وتحدث لهم نشاطاً، ويفرحون بها سروراً وغباطاً.

﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا﴾ أي: قرنائنا من أصحاب وأقران وزوجات، ﴿وذرياتنا قررة أعين﴾ أي: تقر بهم أعيننا.

وإذا استقرأنا حالهم وصفاتهم، عرفنا من همهم وعلو مرتبتهم، أنهم لا تقر أعينهم حتى يروههم مطيعين لربهم، عاملين عاملين، وهذا كما أنه دعاء لأزواجهم وذرياتهم في صلاحهم، فإنه دعاء لأنفسهم، لأن نفعه يعود عليهم، ولهذا جعلوا ذلك هبة لهم، فقالوا: ﴿هب لنا﴾ بل دعائهم يعود إلى نفع عموم المسلمين، لأن بصلاح من ذكر، يكون سبباً لصلاح كثير ممن يتعلق بهم، وينتفع بهم.

حسناً﴾ أي: تتبدل أفعالهم وأقوالهم، التي كانت مستعدة لعمل السيئات، تتبدل حسناً، فيتبدل شركهم إيماناً، ومعصيتهم طاعة، وتتبدل نفس السيئات التي عملوها، ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة وإنابة وطاعة تبدل حسناً، كما هو ظاهر الآية.

ورود في ذلك حديث الرجل الذي حاسبه الله ببعض ذنوبه، فعَدَّها عليه، ثم أبدل مكان كل سيئة حسنة فقال: يا رب، إن لي سيئات لا أراها هاهنا والله أعلم.

﴿وكان الله غفوراً﴾ لمن تاب، يغفر الذنوب العظيمة ﴿رحيماً﴾ بعباده حيث دعاهم إلى التوبة بعد مبارزته بالمعاطم، ثم وفقهم لها، ثم قبلها منهم.

﴿ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً﴾ أي: فلْيَعْلَمْ أن توبته في غاية الكمال، لأنها رجوع إلى الطريق الموصل إلى الله، الذي هو عين سعادة العبد وفلاحه، فلْيَخْلِصْ فيها، وليُخْلِصْها من شوائب الأغراض الفاسدة، فالمقصود من هذا، الحث على تكميل التوبة، وإيقاعها على أفضل الوجوه وأجلها، ليقدم على من تاب إليه فوفيه<sup>(١)</sup> أجره، بحسب كمالها.

﴿والذين لا يشهدون الزور﴾ أي: لا يحضرون الزور، أي: القول والفعل المحرم، فيجتنبون جميع المجالس، المشتعلة على الأقوال المحرمة، أو الأفعال المحرمة، كالخوض في آيات الله، والجدال الباطل، والغيبة، والنميمة، والسب، والقذف، والاستهزاء، والغشاه المحرم، وشرب الخمر، وفرش الحبر، والصور، ونحو ذلك، وإذا كانوا لا يشهدون الزور، فمن باب أولى وأحرى، أن لا يقولوه ويفعلوه.

وشهادة الزور داخله في قول الزور، تدخل في هذه الآية بالأولية، ﴿وإذا مروا باللغو﴾ وهو الكلام الذي

غير ضرر ولا ضرار، وهذا من عدلهم واقتصادهم.

﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر﴾ بل يعبدونه وحده، مخلصين له الدين، حنفاء، مقبلين عليه، معرضين عما سواه.

﴿ولا يقتلون النفس التي حرم الله﴾ وهي نفس المسلم، والكافر المعاهد، ﴿إلا بالحق﴾ كقتل النفس بالنفس، وقتل الزاني المحصن، والكافر الذي يجل قتله. ﴿ولا يزنون﴾ بل يحفظون فروجهم ﴿إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم﴾.

﴿ومن يفعل ذلك﴾ أي: الشرك بالله، أو قتل النفس التي حرم الله بغير حق، أو الزنا، فسوف ﴿يلقى أثاماً﴾ ثم فسره بقوله: ﴿يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه﴾ أي: في العذاب ﴿مهاناً﴾ فالوعيد بالخلود، لمن فعلها كلها، ثابت لا شك فيه، وكذا لمن أشرك بالله، وكذلك الوعيد بالعذاب الشديد، على كل واحد من هذه الثلاثة، لكونها إما شرك، وإما من أكبر الكبائر.

وأما خلود القتال والزاني في العذاب، فإنه لا يتناوله الخلود، لأنه قد دلت النصوص القرآنية والسنة النبوية، أن جميع المؤمنين سيخرجون من النار، ولا يخلد فيها مؤمن، ولو فعل من المعاصي ما فعل، ونص تعالى على هذه الثلاثة، لأنها أكبر الكبائر: فالشرك فيه فساد الأديان، والقتل فيه فساد الأبدان، والزنا فيه فساد الأعراس.

﴿إلا من تاب﴾ عن هذه المعاصي وغيرها، بأن أقلع عنها في الحال، وندم على ما مضى له من فعلها، وعزم عزمًا جازماً أن لا يعود، ﴿وأمن﴾ بالله إيماناً صحيحاً، يقتضي ترك المعاصي وفعل الطاعات، ﴿وعمل عملاً صالحاً﴾ بما أمر به الشارع، إذا قصد به وجه الله.

﴿فأولئك يبذل الله سيئاتهم﴾

«واجعلنا للمتقين إماماً» أي :  
أرسلنا يا ربنا إلى هذه الدرجة العالية ،  
درجة الصديقين والأكمل من عباد الله  
الصالحين ، وهي درجة الإمامة في  
الدين ، وأن يكونوا قدوة للمتقين في  
أقوالهم وأفعالهم ، يقتدى بأفعالهم ،  
ويطمأن لأقوالهم ، ويسير أهل الخير  
خلفهم ، فيهدون ويبتدون .

ومن المعلوم ، أن الدعاء ببلوغ  
شيء ، دعاء بما لا يتم إلا به ، وهذه  
الدرجة - درجة الإمامة في الدين -  
لا تتم إلا بالصبر واليقين ، كما قال  
تعالى : «وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا  
لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون» . فهذا  
الدعاء ، يستلزم من الأعمال ، والصبر  
على طاعة الله وعن معصيته وأقداره  
المؤلمة ، ومن العلم التام ، الذي يوصل  
صاحبه إلى درجة اليقين ، خيراً كثيراً ،  
وعطاء جزيلاً ، وأن يكونوا في أعلى ما  
يمكن من درجات الخلق بعد الرسل .

ولهذا ، لما كانت مهمهم ومطالبهم  
عالية ، كان الجزء من جنس العمل ،  
فجازاهم بالمنازل العاليات فقال :  
«أولئك يجزون الغرفة بما صبروا»  
أي : المنازل الرفيعة ، والمساكن الآنية  
الجامعة لكل ما يشتهي وتلذه الأعين ،  
وذلك بسبب صبرهم ، نالوا ما نالوا ،  
كما قال تعالى : «والملائكة يدخلون  
عليهم من كل باب \* سلام عليهم بما  
صبرتم فنعم عقبى الدار» ولهذا قال  
هنا : «ويلقون فيها نعمة وسلاماً» من  
ربهم ، ومن ملائكته الكرام ، ومن  
بعض على بعض ، ويسلمون من جميع  
النفقات والمكدرات .

والحاصل : أن الله وصفهم بالوقار  
والسكينة ، والتواضع له ولعباده ،  
وحسن الأدب ، والحلم ، وسعة  
الخلق ، والعفو عن الجاهلين ،  
والإعراض عنهم ، ومقابلة إساءتهم  
بالإحسان ، وقيام الليل ، والإخلاص  
فيه ، والخوف من النار ، والتضرع  
لربهم أن ينجيهم منها ، وإخراج  
الواجب والمستحب في النفقات ،  
والاقتصاد في ذلك - وإذا كانوا  
مقتصدين في الإنفاق ، الذي جرت

العادة بالتفريط فيه أو الإفراط ،  
فاقتصادهم وتوسطهم في غيره من باب  
أولى - والسلامة من كبائر الذنوب  
والانصاف بالإخلاص لله في عبادته ،  
والعفة عن الدماء والأعراض ، والتوبة  
عند صدور شيء من ذلك ، وأنهم  
لا يحضرون مجالس النكر والفسوق  
القولية والفعلية ، ولا يفعلونها  
بأنفسهم ، وأنهم ينتزهون من اللغو  
والأفعال الردية التي لا خير فيها ،  
وذلك يستلزم مروءتهم وإنسانيتهم  
وكمالهم ، ورفعة أنفسهم عن كل  
خسيس ، قولي وفعلي ، وأنهم يقابلون  
آيات الله بالقبول لها ، والتفهم  
لمعانيها ، والعمل بها ، والاجتهاد في  
تنفيذ أحكامها ، وأنهم يدعون الله تعالى  
بأكمل الدعاء ، في الدعاء الذي  
ينتفعون به ، وينتفع به من يتعلق بهم ،  
وينتفع به المسلمون ، من صلاح  
أزواجهم وذريتهم ، ومن لوازم ذلك ،  
سعيهم في تعليمهم ووعظهم  
ونصحهم ، لأن من حرص على شيء  
ودعا الله فيه ، لا بد أن يكون متسبباً  
فيه ، وأنهم دعوا الله ببلوغ أعلى  
الدرجات الممكنة لهم ، وهي درجة  
الإمامة والصدقية .

فقله ، ما أعلى هذه الصفات ، وأرفع  
هذه الهمم ، وأجل هذه المطالب ،  
وأزكى تلك النفوس ، وأطهر تيك  
القلوب ، وأصفى هؤلاء الصفوة ،  
وأبقى هؤلاء السادة !!

و الله ، فضل الله عليهم ونعمته ،  
ورحمته التي جلتهم ، ولطفه الذي  
أوصلهم إلى هذه المنازل .

و الله ، مئة الله على عباده ، أن بين  
لهم أوصافهم ، ونعت لهم هياتهم ،  
وبين لهم مهمهم ، وأوضح لهم  
أجورهم ، ليشتاقوا إلى الاتصاف  
بأوصافهم ، ويبدلوا جهدهم في ذلك ،  
ويسألوا الذي من عليهم وأكرمهم ،  
الذي فضله في كل زمان ومكان ، وفي  
كل وقت وأوان ، أن يهديهم كما  
هداهم ، ويتولاهم بتربيته الخاصة كما  
تولاهم .

فألهم لك الحمد . وإليك



المشككي ، وأنت المستعان ، وبك  
المستغاث ، ولا حول ولا قوة إلا بك ،  
لا نملك لأنفسنا نفعاً ولا ضرراً ، ولا  
نقدر على مقال ذرة من الخير إن لم يسر  
ذلك لنا ، فإننا ضعفاء عاجزون من كل  
وجه .

نشهد أنك إن وكلتنا إلى أنفسنا طرفة  
عين ، وكلتنا إلى ضعف وعجز  
وخطيئة ، فلا نشق يا ربنا إلا برحمتك  
التي بها خلقتنا ورزقتنا ، وأنعمت علينا  
بما أنعمت من النعم الظاهرة والباطنة ،  
وصرفت عنا من النقم ، فأرحمنا رحمة  
تغنيننا بها عن رحمة من سواك ، فلا  
خاب من سألك ورجاك .

ولما كان الله تعالى ، قد أضاف  
هؤلاء العباد إلى رحمته ، واختصهم  
بعبوديته لشرفهم وفضلهم ، ربما توهم  
متوهم ، أنه وأيضاً غيرهم ، فلم  
لا يدخل في العبودية ؟

فأخبر تعالى ، أنه لا يبالي ولا يعبا  
بغير هؤلاء ، وأنه لولا دعاؤكم إياه  
دعاء العبادة ودعاء المسألة ، ما عبأ بكم  
ولا أحبكم فقال : «قل ما يعبا بكم رب  
لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون  
لزاماً» أي : عذاباً يلزمكم ، لزوم  
الغريم لغريمه ، وسوف يحكم الله  
بينكم وبين عباده المؤمنين .

تم تفسير سورة الفرقان ،  
فله الحمد والشاء والشكر أبداً

حي، العزيز الذي أهلك الأشقياء بأنواع العقوبات، الرحيم بالسعداء، حيث أنجاهم من كل شر وبلاء.

﴿١٠ - ٦٨﴾ «وإذ نادى ريبك موسى أن ات القوم الظالمين ﴿ إلى آخر القصة قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ \* وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿ أعاد الباري تعالى قصة موسى وثأها في القرآن ما لم يشن غيرها، لكونها مشتملة على حكم عظيمة وعبر، وفيها نبأه مع الظالمين والمؤمنين، وهو صاحب الشريعة الكبرى، وصاحب التوراة أفضل الكتب بعد القرآن، فقال: واذكر حالة موسى الفاضلة، وقت نداء الله إياه، حين كلمه ونبأه وأرسله، فقال:

﴿أَنْ اتَّيْتُ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ تَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ، وَعَلَوْا عَلَىٰ أَهْلِهِا، وادعى كبيرهم الربوية، ﴿قوم فرعون ألا يتقون﴾ أي: قل لهم، بلين قول، ولطف عبارة ﴿ألا تتقون﴾ الله الذي خلقكم ورزقكم، فتركوا ما أنتم عليه من الكفر.

فقال موسى عليه السلام، معتذراً من ربه، ومبنيًا لعذره، وسائلاً له المعونة على هذا الحمل الثقيل: ﴿قال رب إني أخاف أن يكذبون \* ويضيق صدري ولا ينطق لساني﴾.

فقال: ﴿رب اشرح لي صدري \* ويسر لي أمري \* واحلل عقدة من لساني \* يفقهوا قولي \* واجعل لي وزيراً من أهلي \* هارون أخي﴾ ﴿فأرسل إلى هارون﴾ فأجاب الله طلبته، ونبأ أخاه هارون كما نبأه ﴿فأرسله معي رده﴾ أي: معاوناً لي على أمري أن يصدقوني.

﴿ولهم علي ذنب﴾ أي: في قتل القبطي ﴿فأخاف أن يقتلون﴾.

﴿قال كلا﴾ أي: لا يتمكنون من قتلك، فإننا سنجعل لك سلطاناً، فلا يصلون إليك باياتنا أنتم ومن اتبعكمما الغالبون. ولهذا لم يتمكن فرعون من قتل موسى، مع منافذته له غاية المنايذة، وتسفيه رأيه، وتضليله وقومه، ﴿فأذهبنا بآياتنا﴾ الدالة على

﴿ألا يكونوا مؤمنين﴾ أي: فلا تفعل، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، فإن الهداية بيد الله، وقد أدبت ما عليك من التبليغ، وليس فوق هذا القرآن المبين آية حتى نزلها ليؤمنوا [ها]، فإنه كاف شاف، لمن يريد الهداية، ولهذا قال: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمُ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ﴾ أي: من آيات الاقتراح، ﴿فظلت أعناقهم﴾ أي: أعناق المكذبين ﴿لها خاضعين﴾ ولكن لا حاجة إلى ذلك، ولا مصلحة فيه، فإنه إذ ذاك الوقت، يكون الإيمان غير نافع، وإنما الإيمان النافع، الإيمان بالغيب، كما قال تعالى: ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك لا يقع نفساً إيمانها﴾ الآية.

﴿وما يأتيهم من ذكر من الرحمن عذبت﴾ يأمرهم وينهاهم، ويذكرهم ما ينفعهم ويضرهم. ﴿إلا كانوا عنه معرضين﴾ بقلوبهم وأبدانهم، هذا إعراضهم عن الذكر المحدث، الذي جرت العادة، أنه يكون موقعه أبلغ من غيره، فكيف بإعراضهم عن غيره، وهذا، لأنهم لا خير فيهم، ولا تنجع فيهم المواعظ، ولهذا قال: ﴿فقد كذبوا﴾ أي: بالحق، وصار التكذيب لهم سحبة، لا تتغير ولا تتبدل، ﴿فسيأتهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون﴾ أي: سيفع بهم العذاب، ويحل بهم ما كذبوا به، فإنهم قد حقت عليهم كلمة العذاب. قال الله منبهاً على التفكر الذي يرفع صاحبه: ﴿أولم يروا إلى الأرض كم آتينا فيها من كل زوج كريم﴾ من جميع أصناف النباتات، حسنة النظر، كريمة في نفعها، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ على إحياء الله الموتى بعد موتهم، كما أحيا الأرض بعد موتها ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ كما قال تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾.

﴿وإن ربك لهو العزيز﴾ الذي قد قهر كل مخلوق، ودان له العالم العلوي والسفلي، ﴿الرحيم﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، ووصل جوده إلى كل



### تفسير سورة الشعراء وهي مكية عند الجمهور

﴿١ - ٩﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ \* لعلك باعع نفسك ألا يكونوا مؤمنين \* إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين \* وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين \* فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون \* أولم يروا إلى الأرض كم آتينا فيها من كل زوج كريم \* إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين \* وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ يشير الباري تعالى إشارة تدل على التعظيم لآيات الكتاب المبين البين الواضح، الدال على جميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، بحيث لا يبقى عند الناظر فيه شك ولا شبهة فيما أخبر به أو حكم به، لوضوحه ودلالته على أشرف المعاني، وارتباط الأحكام بحكمها، وتعليقها بمناسبتها، فكان رسول الله ﷺ ينذر به الناس، ويهدي به الصراط المستقيم، فيهندي بذلك عباد الله المتقون، ويعرض عنه من كتب عليه الشقاء، فكان يحزن حزناً شديداً على عدم إيمانهم، حرصاً منه على الخير، ونصحاء لهم.

فلهنا قال تعالى عنه: ﴿لعلك باعع نفسك﴾ أي: مهلكها وشاق عليها،











من سلامته بما ذكر، اتصافه بأخداها، من الإخلاص والعلم واليقين ومحبة الخير وتزيينه في قلبه، وأن تكون إرادته ومحبة تابعة لمحبة الله، وهو تبعاً لما جاء عن الله، ثم ذكر من صفات ذلك اليوم العظيم، وما فيه من الشواب والعقاب فقال: ﴿وَأزلفت الجنة﴾ أي: قربت ﴿للمتقين﴾ ربهم، الذين امتثلوا أوامره، واجتنبوا زواجره، واتقوا سخطه وعقابه.

﴿وبرزت الجحيم﴾ أي: برزت واستعدت بجميع ما فيها من العذاب، ﴿للساوين﴾ الذين أضعوا في معاصي الله، وتجرؤوا على محارمه، وكذبوا ورسله، وردوا ما جاؤوهم به من الحق ﴿وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون﴾ من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرونكم بأنفسهم أي: فلم يكن من ذلك من شيء، وظهر كذبهم وخزيهم، ولاحت خسارتهم وفضيحتهم، وبان ندمهم، وضل سعيهم. ﴿فكفيوا فيها﴾ أي: ألقوا في النار ﴿هم﴾ أي: ما كانوا يعبدون، ﴿والغاوون﴾ العابدون لها، ﴿وجنود إبليس أجمعون﴾ من الإنس والجن، الذين أزهم إلى المعاصي أژأ، وتسلط عليهم بشرتهم وعدم إيمانهم، فصاروا من دعواته، والساعين في مرضاته، وهم ما بين داع لطاعته، ومجيب لهم، ومقلد لهم على شركهم.

﴿قالوا﴾ أي: جنود إبليس الغاوون، لأصنامهم وأوثانهم التي عبدوها: ﴿فإن الله إن كنا لفي ضلال مبين﴾ إذ نسويكم برب العالمين في العبادة والمحبة، والخوف والرجاء، وندعوكم كما ندعوه، فتبين لهم حيثئذ: ضلالهم، وأقروا بعدك الله في عقوبتهم، وأنها في عملها، وهم لم يسووه برب العالمين، إلا في العبادة، لا في الخلق، بدليل قولهم: ﴿رب العالمين﴾ إنهم مقرون أن الله رب العالمين كلهم، الذين من جملتهم أصنامهم وأوثانهم.

﴿وما أضلنا﴾ عن طريق الهدى والرشد، ودعانا إلى طريق النبي

لا تقصدون أنفسكم وأباؤكم على معارضتها، فدل على اشتراككم في الضلال، وترككم طريق الهدى والرشد. قال الله تعالى: ﴿وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان﴾ الآيات.

ثم دعا عليه السلام ربه فقال: ﴿رب هب لي حكماً﴾ أي: علماً كثيراً، أعرف به الأحكام، والحلال والحرام، وأحكم به بين الأنام، ﴿والحقني بالصالحين﴾ من إخوانه الأنبياء والمرسلين.

﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ أي: اجعل لي ثناء صدق، مستمر إلى آخر الدهر. فاستجاب الله دعاءه، فوهب له من العلم والحكم، ما كان به من أفضل المرسلين، وألحقه بإخوانه المرسلين، وجعله محبوباً مقبولاً، معظماً مثقياً عليه، في جميع الملل، في كل الأوقات.

قال تعالى: ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ سلام على إبراهيم \* إنا كذلك نجزي المحسنين \* إنه من عبادنا المؤمنين \*.

﴿واجعلني من ورثة جنة النعيم﴾ أي: من أهل الجنة، التي يورثهم الله إياها، فأجاب الله دعاءه، فرفع منزلته في جنات النعيم.

﴿واغفر لأبي إنه كان من الضالين﴾ وهذا الدعاء، بسبب الوعد الذي قال لأبيه: ﴿استغفر لك رب إنه كان بي حفيماً﴾ قال تعالى: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم﴾ ﴿ولا تخزي يوم يبعثون﴾ أي: بالتوبيخ على بعض الذنوب، والعقوبة عليها والفضيحة، بل أسعدني في ذلك اليوم الذي ﴿لا ينفع﴾ فيه ﴿مال ولا بنون﴾ إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ فهذا الذي ينفعه عندك، وهذا الذي ينجو به من العقاب، ويستحق جزيل الثواب.

والقلب السليم، معناه الذي سلم من الشرك والشك ومحبة الشر والإصرار على البدعة والذنوب، ويلزم

هؤلاء ينطقون﴾ أي: هذا أمر متقرر من حالها، لا يقبل الإشكال والشك، فلجؤوا إلى تقليد آباؤهم الضالين، فقالوا: ﴿بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ فتبعناهم على ذلك، وسلطنا سبيلهم، وحافظنا على عاداتهم، فقال لهم إبراهيم: أنتم وأباؤكم، كلكم خصوم في هذا الأمر، والكلام مع الجميع واحد.

﴿أفرأيتم ما كنتم تعبدون﴾ أنتم وأباؤكم الأقدمون \* فإنهم عدو لي \* فليضروني بأدنى شيء من الضرر، وليكيدوني فلا يقدرّون.

﴿إلا رب العالمين﴾ الذي خلقني فهو يهدين﴾ هو المنفرد بنعمة الخلق ونعمة الهداية، للمصالح الدينية والدنيوية، ثم خصص منها بعض الضروريات فقال: ﴿والذي هو يطعمني ويسقين \* وإذا مرضت فهو يشفين \* والذي يميّتي ثم يميين \* والذي أطعم أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾

فهذا هو وحده المنفرد بذلك، فيجب أن يفرد بالعبادة والطاعة، وتترك هذه الأصنام، التي لا تخلق، ولا تهدي، ولا تمرض، ولا تشفي، ولا تطعم، ولا تسقي، ولا تحمي، ولا تحيي، ولا تنفع عابديها بكشف الكروب، ولا مغفرة الذنوب.

فهذا دليل قاطع، وحنة باهرة،

والفسق، ﴿إلا المجرمون﴾ وهم الأئمة الذين يدعون إلى النار، ﴿فما لنا﴾ حينئذ ﴿من شافعين﴾ يشفعون لنا، لينفذننا<sup>(١)</sup> من عذابه، ﴿ولا صديق حميم﴾ أي: قريب مصاف، ينفعنا بأدنى نفع، كما جرت العادة بذلك في الدنيا، فأيسوا من كل خير، وألبسوا بما كسبوا، وغموا العودة إلى الدنيا ليعملوا صالحاً.

﴿فلو أن لنا كرة﴾ أي: رجعة إلى الدنيا، وإعادة إليها ﴿فنتكون من المؤمنين﴾ لنسلم من العقاب، ونستحق الثواب، هيئات هيئات، قد حيل بينهم وبين ما يشتهون، وقد غلقت منهم الرهون.

﴿إن في ذلك﴾ الذي ذكرنا لكم ووصفنا ﴿آية﴾ لكم ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ مع نزول الآيات.

﴿١٠٥ - ١٢٢﴾ كذبت قوم نوح المرسلين ﴿إلى آخر القصة﴾. يذكر تعالى، تكذيب قوم نوح لرسولهم نوح، وما رد عليهم وردوا عليه، وعاقبة الجميع، فقال: ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ جميعهم، وجعل تكذيب نوح كتكذيب جميع المرسلين، لأنهم كلهم اتفقوا على دعوة واحدة، وأخبار واحدة، فتكذيب أحدهم، تكذيب بجميع ما جاؤوا به من الحق، كذبوه ﴿إذ قال لهم أخوهم﴾ في النسب ﴿نوح﴾ وإنما ابتعث الله الرسل من نسب من أرسل إليهم، لئلا يشتمزوا من الانتقباد له، ولأنهم يعرفون حقيقته، فلا يحتاجون أن يبحثوا عنه، فقال لهم مخاطباً باللفظ خطاب - كما هي طريقة الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم - ﴿ألا تتقون﴾ الله تعالى، فنتركون ما أنتم مقيمون عليه من عبادة الأوثان، وتخلصون العبادة لله وحده، ﴿إني لكم رسول أمين﴾ فكونه رسولاً إليهم بالخصوص، يوجب لهم تلقي ما أرسل به إليهم، والإيمان به، وأن يشكروا الله تعالى على أن خصهم بهذا

الرسول الكريم، وكونه أميناً، يقتضي أنه لا يتقول على الله، ولا يزيد في حبه ولا ينقص، وهذا يوجب لهم التصديق بخبره والطاعة لأمره.

﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ فيما أمركم به وأنهاكم عنه، فإن هذا هو الذي يترتب على كونه رسولاً إليهم، أميناً، فذلك رتبة بالفاء الدالة على السبب، فذكر السبب الموجب، ثم ذكر انتفاء المانع، فقال: ﴿وما أسألكم عليه من أجر﴾ فتكفلون من المجرم الثقيل، ﴿إن أجرينى إلا على رب العالمين﴾ أرجو بذلك القرب منه، والثواب الجزيل، وأما أنتم فمعي، ومنتهى إرادتي منكم، النصح لكم وسلوكم الصراط المستقيم.

﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ كرر ذلك عليه السلام لتكريره دعوة قومه، وطول مكثه في ذلك، كما قال تعالى: ﴿فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً﴾ وقال: ﴿رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً﴾ فلم يزدحم دعائي إلا فراراً ﴿الآيات﴾. فقالوا رداً لدعوته، ومعارضة له بما ليس يصلح للمعارضة: ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾ أي: كيف تتبعك ونحن لا نرى أتباعك إلا أسافل الناس وأرذلهم وسقطهم. بهذا يعرف تكبرهم عن الحق، وجهلهم بالحقائق، فإنهم لو كان قصدهم الحق، لقالوا - إن كان عندهم إشكال وشك في دعوته - بئس لنا صحة ما جئت به بالطرق الموصلة إلى ذلك، ولو تأملوا حق التأمل، لعلموا أن أتباعه، هم الأعلون، خيار الخلق، أهل العقول الرزينة، والأخلاق الفاضلة، وأن الأرذل، من سلب خاصية عقله، فاستحسن عبادة الأبحار، ورضي أن يسجد لها ويدعوها، وأبى الانتقباد لدعوة الرسل الكمل. وبمجرد ما يتكلم أحد الخصمين في الكلام الباطل، يعرف فساد ما عنده، يقطع

إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا مِنْ بَشَرٍ إِلَّا جَاءَهُ نُوْحٌ مِّنْ قَبْلِهِ بِآيَاتِنَا لِيُنذِرَ فَمَا يَعْتَدِلُ ﴿١٠٦﴾ وَإِلَّا يَرْجُوكُم مِّنْ أَهْلِ الْأَنْبِيَاءِ ﴿١٠٧﴾ وَإِنَّمَا يَسْتَأْذِنُ سَبِيحَ الْأَشْجَرِ ﴿١٠٨﴾ فِي الْبَيْتِ الْمَقْدِسِ ﴿١٠٩﴾ وَأَمَّا إِلَهُ الْأَطْيَافِ ﴿١١٠﴾ فَإِنَّهُ لَا يَرَىٰ شَيْئًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن يَّرَىٰ إِلَهُ الْغُيُوبِ ﴿١١١﴾ وَإِنَّمَا تَأْتِي السُّحُورَ فِي الْبُحْرِ ﴿١١٢﴾ وَتَأْتِي السُّحُورَ فِي الْبُحْرِ ﴿١١٣﴾ وَتَأْتِي السُّحُورَ فِي الْبُحْرِ ﴿١١٤﴾ وَتَأْتِي السُّحُورَ فِي الْبُحْرِ ﴿١١٥﴾ وَتَأْتِي السُّحُورَ فِي الْبُحْرِ ﴿١١٦﴾ وَتَأْتِي السُّحُورَ فِي الْبُحْرِ ﴿١١٧﴾ وَتَأْتِي السُّحُورَ فِي الْبُحْرِ ﴿١١٨﴾ وَتَأْتِي السُّحُورَ فِي الْبُحْرِ ﴿١١٩﴾ وَتَأْتِي السُّحُورَ فِي الْبُحْرِ ﴿١٢٠﴾

النظر عن صحة دعوى خصمه، فقوم نوح لما سمعنا عنهم، أنهم قالوا في ردهم دعوة نوح: ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾ فبنوا على هذا الأصل، الذي كل أحد يعرف فساده رد دعوته - عرفنا أنهم ضالون مخطؤون، ولو لم نشاهد من آيات نوح ودعوته العظيمة، ما يفيد الجزم واليقين بصدقه وصحة ما جاء به.

فقال نوح عليه السلام: ﴿وما علمي بما كانوا يعملون﴾ إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون ﴿أي: أعمالهم وحسابهم على الله، إنما على التبليغ، وأنتم دعوهم عنكم، إن كان ما جئتكم به الحق، فاتفقوا له، وكل له عمله.

﴿وما أنا بطارد المؤمنين﴾ كأنهم - قبحهم الله - طلبوا منه أن يطردهم عنه، تكبراً وتجبيراً، ليؤمنوا، فقال: ﴿وما أنا بطارد المؤمنين﴾ فإنهم لا يستحقون الطرد والإهانة، وإنما يستحقون الإكرام القولي والفعلي، كما قال تعالى: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾.

﴿إن أنا إلا نذير مبين﴾ أي: ما أنا إلا منذر ومبلغ عن الله، ومجتهد في نصح العباد، وليس لي من الأمر شيء، إن الأمر إلا لله.



بعززه أعداءه، فأغرقهم بالطوفان  
﴿الرحيم﴾ بأوليائه، حيث نجى نوحاً  
ومن معه، من أهل الإيمان.

﴿١٢٣ - ١٤٠﴾ كذبت عاد  
المرسلين ﴿إلى آخر القصة﴾ أي: كذبت  
القبيلة السامة عاداً، رسولهم هوداً،  
وتكذبتهم له تكذيب لغيره، لاتفاق  
الدعوة.

﴿إذ قال لهم أخوهم﴾ في النسب  
﴿هود﴾ بلطف وحسن خطاب: ﴿ألا  
تتقون﴾ الله، فنتركون الشرك وعبادة  
غيره، ﴿إني لكم رسول أمين﴾ أي:   
أرسلني الله إليكم، رحمة بكم، واعتناء  
بكم، وأنا أمين، تعرفون ذلك مني،  
رتب على ذلك قوله: ﴿فاتقوا الله  
وأطيعون﴾ أي: أدوا حق الله تعالى،  
وهو التقوى، وأدوا حقني، بطاعتي  
فيما أمركم به وأنهاكم عنه، فهذا  
موجب لأن تتبعوني وتطيعوني، وليس  
ثم مانع يمنعكم من الإيمان، فلست  
أسألكم على تبليغي إياكم ونصحي لكم  
أجراً، حتى تستثقلوا ذلك المنعم. ﴿إن  
أجري إلا على رب العالمين﴾ الذي  
رباهم بنعمه، وأدرّ عليهم فضله  
وكرمه، خصوصاً ما ربّني به أوليائه  
وأنبياؤه.

﴿أتبنون بكل ريع﴾ أي: مدخل  
بين الجبال ﴿آية﴾ أي: علامة  
﴿تعمشون﴾ أي: يفعلون ذلك عتياً لغير  
فائدة تعود بمصالح دينكم ودنياكم.

﴿وتتخذون مصانع﴾ أي: بركاباً  
ومجايل للمياه ﴿لعلكم تحلّدون﴾ والحال  
أنه لا سبيل إلى الخلود لأحد.

﴿وإذا بطشتم﴾ بالخلق ﴿بطشتم  
جبارين﴾ قتلاً وضرباً، وأخذ أموال.  
وكان الله تعالى قد أعطاهم قوة  
عظيمة، وكان الواجب عليهم أن  
يستميئوا بقوتهم على طاعة الله،  
ولكنهم فخرُوا واستكبروا، وقالوا:  
﴿من أشد منا قوة﴾ واستعملوا قوتهم  
في معاصي الله، وفي العبث والسفه،  
فلذلك نهاهم نبيهم عن ذلك.

﴿فاتقوا الله﴾ واتركوا شرككم  
وبطركم ﴿وأطيعون﴾ حيث علمتم أني  
رسول الله إليكم، أمين ناصح،

﴿واتقوا الذي أمركم﴾ أي: أعطاكم  
﴿بما تعلمون﴾ أي: أمركم بما  
لا يجهل ولا ينكر من الإنعام،  
﴿أمركم بأنعام﴾ من إيل وبقر وغنم  
﴿وبنين﴾ أي: وكثرة نسل، كثير  
أموالكم، وكثير أولادكم، خصوصاً  
الذكور، أفضل القسمين.

هذا تذكيرهم بالنعم، ثم ذكرهم  
حلول عذاب الله، فقال: ﴿إني أخاف  
عليكم عذاب يوم عظيم﴾ أي: إني -  
من شفقتي عليكم ويري بكم - أخاف  
أن ينزل بكم عذاب عظيم، إذا نزل  
لا يرد، إن استمريتم على كفركم  
وبغيكم.

فقالوا معاندين للحق مكذبين  
لنبيهم: ﴿سواء علينا أوعظت أم لم  
تكن من الواعظين﴾ أي: الجميع على  
حد سواء، وهذا غاية العتو، فإن قوماً  
بلغت بهم الحال إلى أن صارت  
مواعظ الله، التي تذيب الجبال الصم  
الصلاب، وتتصدع لها أفئدة أولي  
الألباب، وجودها وعدمها - عندهم -  
على حد سواء، تقوم انتهى ظلمهم،  
واشتد شقاؤهم، وانقطع الرجاء من  
هدايتهم، ولهذا قالوا: ﴿إن هذا إلا  
خلق الأولين﴾ أي: هذه الأحوال  
والنعم، ونحو ذلك، عادة الأولين،  
تارة يستغنون، وتارة يفتقرون، وهذه  
أحوال الدهر، لا أن هذه عن ومنح  
من الله تعالى، وابتلاء لعباده ﴿وما  
نحن بمعذبين﴾ وهذا إنكار منهم  
للبعث، أو تنزل مع نبيهم وتبكم به،  
إننا على فرض أننا نبعث، فإننا كما  
أدرت علينا النعم في الدنيا، كذلك  
لا تزال مستمرة علينا إذا بعثنا.

﴿فكذبوه﴾ أي: صار التكذيب  
سجية لهم وخلقاً، لا يردعهم عنه  
رأع. ﴿فأهلكناهم﴾ بريح صرصر  
عانية \* سخرها عليهم سبع ليال  
وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها  
صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية.

﴿إن في ذلك لآية﴾ على صدق نبينا  
هود عليه السلام، وصحة ما جاء به،  
وبطلان ما عليه قومه، من الشرك  
والجبروت، ﴿وما كان أكثرهم

فاستمر نوح عليه الصلاة والسلام  
على دعوتهم ليلاً ونهاراً، سرّاً وجهاراً،  
فلم يزدادوا إلا نفوراً، و ﴿قالوا لنن  
لم تنته يا نوح﴾ من دعوتك إيانا، إلى الله  
وحده ﴿لنتكونن من المرجومين﴾ أي:  
لنقتلك شر قتلة، بالرمي بالحجارة،  
كما يقتل الكلب. فتبأ لهم، ما أقبح  
هذه المقابلة، يقابلون الناصح الأمين  
الذي هو أشفق عليهم من أنفسهم،  
بشر مقابلة. لا جرم لما انتهى ظلمهم،  
واشتد كفرهم، دعا عليهم نبيهم بدعوة  
أحاطت بهم، فقال: ﴿رب لا تذر على  
الأرض من الكافرين دياراً﴾ الآيات.  
وهنا ﴿قال رب إن قومي كذبون \*  
فانفخ بinni وبينهم فتحاً﴾ أي: أهلك  
الباغي منا، وهو يعلم أنهم البيغة  
الظلمة، ولهذا قال: ﴿وننجني ومن  
معي من المؤمنين﴾ فأنجيتنا ومن  
معه في السفلك ﴿أي: السفينة  
المشحون﴾ من الخلق والحيوانات،  
﴿ثم أفرقنا بعد﴾ أي: بعد نوح، ومن  
معه من المؤمنين ﴿الباقين﴾ أي: جميع  
قومه.

﴿إن في ذلك﴾ أي: نجاة نوح  
وأبناعه، وإهلاك من كذبه ﴿لاية﴾ دالة  
على صدق رسلنا، وصحة ما جاؤوا  
به، وبطلان ما عليه أعداؤهم المكذبون  
بهم.  
﴿وإن ربك لهُو العزيز﴾ الذي قهر





وقد أجابت عنها الرسل بقولهم :  
 ﴿إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله  
 بمن على من يشاء من عباده﴾ .  
 ﴿وإن نظنك لمن الكاذبين﴾ وهذا  
 جراءة منهم وظلم وقول زور ، قد  
 انطوا على خلافه ، فإنه ما من رسول  
 من الرسل ، واجه قومه ودعاهم ،  
 وجادلهم وجادلوه ، إلا وقد أظهر الله  
 على يديه من الآيات ، ما به يتيقنون  
 صدقه وأمانته ، خصوصاً شعيباً عليه  
 السلام ، الذي يسمى خطيب الأنبياء ،  
 لحسن مراجعته قومه ، ومجادلتهم بالنبي  
 هي أحسن ، فإن قومه قد تيقنوا  
 صدقه ، وأن ما جاء به حق ، ولكن  
 إخبارهم عن ظن كذبه كذب منهم .

العامل ، ولا يَمُتْر عنهم العذاب ساعة ،  
 ولا هم ينظرون .  
 ﴿إن في ذلك لآية﴾ دالة على صدق  
 شعيب ، وصحة ما دعا إليه ، وبتلان  
 رد قومه عليه ، ﴿وما كان أكثرهم  
 مؤمنين﴾ مع رؤيتهم الآيات ، لأنهم  
 لا زكاه فيهم ، ولا خير لديهم ﴿وما  
 أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ .

﴿وإن ربك لهو العزيز﴾ الذي امتنع  
 بقوته عن إدراك أحد ، وقهر كل  
 مخلوق . ﴿الرحيم﴾ الذي الرحمة  
 وصفه ، ومن آثارها ، جمع الخيرات في  
 الدنيا والآخرة ، من حين أوجد الله  
 العالم إلى ما نهاية له . ومن عزته ، أن  
 أهلك أعداءه حين كذبوا رسله ، ومن  
 رحمته ، أن نجى أوليائه ومن اتبعهم من  
 المؤمنين .

﴿١٩٢ - ٢٠٣﴾ ﴿وإنه لتنزيل رب  
 العالمين﴾ نزل به الروح الأمين \* على  
 قلبك لتكون من المنذرين \* بلسان  
 عربي مبين \* وإنه لفي زبر الأولين \*  
 أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني  
 إسرائيل \* ولو نزلناه على بعض  
 الأعجمين \* فقرأه عليهم ما كانوا به  
 مؤمنين \* كذلك سلكناه في قلوب  
 المجرمين \* لا يؤمنون به حتى يروا  
 العذاب الآليم \* فبآياتهم بغتة وهم  
 لا يشعرون \* فيقولوا هل نحن  
 منظرون \* لما ذكر قصص الأنبياء مع  
 أممهم ، وكيف دعوهم ، و [ما] ردوا  
 عليهم به ، وكيف أهلك الله  
 أعداءهم ، وصارت لهم عاقبة .

ذكر هذا الرسول الكريم ، والنبي  
 المصطفى العظيم ، وما جاء به من  
 الكتاب ، الذي فيه هداية لأولي  
 الألباب ، فقال : ﴿وإنه لتنزيل رب  
 العالمين﴾ فالذي أنزله ، فاطر الأرض  
 والسماوات ، المربي جميع العالم ،  
 العلوي والسفلي ، وكما أنه رباهم  
 بهدياتهم لمصالح دنياهم وأبدانهم ، فإنه  
 يربيهم أيضاً ، بهدياتهم لمصالح دينهم  
 وأخراهم ، ومن أعظم ما رباهم به ،  
 إنزال هذا الكتاب الكريم ، الذي

يفغضبه ، من الكفر والمعاصي ، ﴿إني  
 لكم رسول أمين﴾ يترتب على ذلك ،  
 أن تتقوا الله وتطيعون ، وكانوا - مع  
 شركهم - يخشون المكابيل والموازن ،  
 فذلك قال لهم : ﴿أوفوا الكيل﴾ أي :  
 أتموه وأكملوه ﴿ولا تكونوا من  
 المخسرين﴾ الذين ينقصون الناس  
 أموالهم ويسلبونها بخس المكيال  
 والميزان ، ﴿وزنوا بالقسطاس  
 المستقيم﴾ أي : بالميزان العادل ، الذي  
 لا يعيل ، ﴿واتقوا الذي خلقكم  
 والجبلسة الأولين﴾ أي : الخليفة  
 الأولين ، فكما انفرد بخلقكم ، وخلق  
 من قبلكم من غير مشارك له في ذلك ،  
 فأفردوه بالعبادة والترديد ، وكما أنعم  
 عليكم بالإيجاد والإمداد بالنعم ،  
 فقابلوه بشكره .

قالوا له ، مكذبين له ، رادّين لقوله :  
 ﴿إنما أنت من المسحورين﴾ فأنت تهذي  
 وتتكلم كلام المسحور ، الذي غايته أن  
 لا يؤخذ به .  
 ﴿وما أنت إلا بشر مثلنا﴾ فليس  
 فيك فضيلة اختصاصت بها علينا ، حتى  
 تدعونا إلى اتباعك ، وهذا مثل قول من  
 قبلهم ومن بعدهم ، ممن عارضوا  
 الرسل بهذه الشبهة ، التي لم يزالوا  
 يدلون بها ويصولون ، ويفترون عليها ،  
 لانفاقهم على الكفر ، وتشابه قلوبهم .

طول المدة. القصد أن الحذر، من وقوع العذاب، واستحقاقهم له. وأما تعجيله أو تأخير، فلا أهمية تحته، ولا جدوى عنده.

﴿٢٠٨-٢١٢﴾ ﴿وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون﴾ \* ذكرى وما كنا ظالمين \* ﴿وما تنزلت به الشياطين﴾ \* وما ينبغي لهم وما يستطيعون \* ﴿إنهم عن السمع لمعزولون﴾ \* يخبر تعالى عن كمال عدله في إهلاك الكاذبين، وأنه ما أوقع بقرية هلاكاً وعذاباً، إلا بعد أن يعذر منهم، ويبعث فيهم النذر بالآيات البينات، ويدعونهم إلى الهدى، وينهونهم عن الردى، ويذكروهم بآيات الله، ويتنبهونهم على أيامه في نعمه ونعمه.

﴿ذكرى﴾ لهم وإقامة حجة عليهم. ﴿وما كنا ظالمين﴾ فنهلك القرى قبل أن ننذرهم، ونأخذهم وهم غافلون عن النذر، كما قال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ \* ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾.

ولما بين تعالى كمال القرآن وجلالته، نزهه عن كل صفة نقص، وحماه - وقت نزوله، وبعد نزوله - من شياطين الجن والإنس، فقال: ﴿وما تنزلت به الشياطين﴾ \* وما ينبغي لهم أي: لا يليق بحالهم ولا يناسبهم ﴿وما يستطيعون﴾ \* ذلك. ﴿إنهم عن السمع لمعزولون﴾ \* قد أبعدوا عنه، وأعدت لهم الرجوم لحفظه، ونزل به جبريل أقوى الملائكة، الذي لا يقدر شيطان أن يفكره، أو يحوم حول ساحته، وهذا كقوله: ﴿إننا نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون﴾.

﴿٢١٣-٢١٦﴾ ﴿فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين﴾ \* وأنذر عشيرتك الأقربين \* واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين \* ﴿فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون﴾ \* بنهى تعالى رسوله أصلاً، وأمته أسوة له في ذلك، عن دعاء غير الله، من جميع المخلوقين، وأن ذلك موجب للعذاب الدائم، والعقاب السرمدى، لكونه

أفصح الخلق، وأقدرهم على التعبير عن المقاصد، بالعبارات الواضحة وأنصحهم، وليبادروا إلى التصديق به، وتلقيه بالتسليم والقبول، ولكن تكذيبهم له عن غير شبهة، إن هو إلا محض الكفر والعناد، وأمر قد توارثته الأمم المكذبة، فلهذا قال: ﴿كذلك سلكتنا في قلوب المجرمين﴾ \* أي: أدخلنا التكذيب، وأنظمتنا في قلوب أهل الإجرام، كما يدخل السلك في الإبرة، فتشربته، وصار وصفاً لها، وذلك بسبب ظلمهم وجرمهم، فلذلك ﴿لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم﴾ \* على تكذيبهم، ﴿فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ \* أي: يأتيهم على حين غفلة، وعدم إحساس منهم، ولا استشعار بنزوله، ليكون أبلغ في عقوبتهم والنتكال بهم.

﴿فيقولوا﴾ \* إذ ذلك: ﴿هل نحن منظرون﴾ \* أي: يظلمون أن يُنظروا ويمهلوا، والحال إنه قد فات الوقت، وحل بهم العذاب الذي لا يرفع عنهم، ولا يقتر ساعة.

﴿٢٠٤-٢٠٧﴾ ﴿أفبعذابنا يستمعجلون﴾ \* أفرأيت إن متعناهم سنين \* ثم جاءهم ما كانوا يوعدون \* ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾ \* يقول تعالى: ﴿أفبعذابنا الذي هو العذاب الأليم العظيم، الذي لا يستهان به ولا يحسقر، ﴿يستعجلون﴾ \* فما الذي غرهم؟ هل فيهم قوة وطاقة للصبر عليه؟ أم عندهم قوة يقدرون على دفعه أو رفعه إذا نزل؟ أم يُعجزوننا ويظنون أننا لا نقدر على ذلك؟

﴿أفرأيت إن متعناهم سنين﴾ \* أي: أفرأيت إذا لم نستعجل عليهم بإنزال العذاب، وأمهلناهم عدة سنين يتمتعون في الدنيا ﴿ثم جاءهم ما كانوا يوعدون﴾ \* من العذاب.

ما أغنى عنهم ما كانوا يتمتعون \* من اللذات والشهوات، أي: أي: شيء نخفي عنهم وتفيدهم، وقد مضت، وبطلت، واضمحلت، وأعقبت تبعاتها، وضرع لهم العذاب عند

اشتمل على الخير الكثير، والبر الغزير، وفيه من الهداية لمصالح الدارين، والأخلاق الفاضلة، ما ليس في غيره، وفي قوله: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ \* من تعظيمه وشدة الاهتمام فيه، من كونه نزل من الله، لا من غيره، مقصوداً فيه نفعكم وهدايتكم، ﴿نزل به الروح الأمين﴾ \* وهو جبريل عليه السلام، الذي هو أفضل الملائكة وأقوامهم، ﴿الأمين﴾ الذي قد أمن أن يزيد فيه أو ينقص.

﴿على قلبك﴾ \* يا محمد ﴿لتكون من المنذرين﴾ \* تهدي به إلى طريق الرشاد، وتنذر به عن طريق النقي.

﴿بلسان عربي﴾ \* وهو أفضل الألسنة، بلغة من نعت إليهم، ويأثر دعوتهم أصلاً، اللسان البين الواضح. وتأمل كيف اجتمعت هذه الفضائل الفاضلة في هذا الكتاب الكريم، فإنه أفضل الكتب، نزل به أفضل الملائكة، على أفضل الخلق، على أفضل بضعة فيه وهي قلبه، على أفضل أمة أخرجت للناس، بأفضل الألسنة وأفصحها وأوسعها، وهو اللسان العربي المبين.

﴿وإنه لفي زبر الأولين﴾ \* أي: قد بشرت به كتب الأولين وصدقته، وهو لما نزل يطبق ما أخبرت به، صدقها، بل جاء بالحق وصدق المرسلين.

﴿أولم يكن لهم آية﴾ \* على صحته، وأنه من الله ﴿أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾ \* الذي قد انتهى إليهم العلم، وصاروا أعلم الناس، وهم أهل الصننف، فإن كل شيء يحصل به اشتباه، يرجع فيه إلى أهل الخبرة والدراية، فيكون قولهم حجة على غيرهم، كما عرف السحرة الذين مهروا في علم السحر، صدق معجزة موسى، وأنه ليس بسحر، فنقول الجاهلين بعد هذا لا يؤبه به.

﴿ولو نزلناه على بعض الأعجمين﴾ \* الذين لا يفقهون لسانهم، ولا يقدرين على التعبير لهم كما ينبغي ﴿فقراء﴾ \* عليهم ما كانوا به مؤمنين ﴿يقولون: ما نفقه ما يقول، ولا ندري ما يدعو إليه، فليحمدوا ربهم، أن جاءهم على لسان

ورفعها، وأعجب بعمله، فهل هذا إلا من جهله، وتزيين الشيطان وخدمه له، ولهذا قال الله لرسوله: ﴿فإن عصوك في أمر من الأمور، فلا تتبرأ منهم، ولا تترك معاملتهم، بخفض الجناح، ولين الجانب، بل تبرأ من عملهم، فمظهم عليه وانصحهم، وابدل قدرتك في ردهم عنه وتوتيتهم منه، وهذا لدفع، احتراز وهم من يشترهم، أن قوله: ﴿واخفض جناحك للمؤمنين، يقتضي الرضاء بجميع ما يصدر منهم، ما داموا مؤمنين، فدفع هذا بهذا، والله أعلم.

﴿٢٢١ - ٢٢٧﴾ ﴿هل أنبتكم على من تنزل الشياطين \* تنزل على كل أفك أئيم \* يلقون السمع وأكثرهم كاذبون \* والشعراء يتبهم الغاؤون \* ألم تر أنهم في كل واد يهيمون \* وأنهم يقولون ما لا يفعلون \* إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون \* هذا جواب لمن قال من مكذبي الرسول: إن محمداً ينزل عليه شيطان. وقول من قال: إنه شاعر، فقال: ﴿هل أنبتكم﴾ أي: أخبركم الخبر الحقيقي الذي لا شك فيه ولا شبهة، على من تنزل الشياطين، أي: بصفة الأشخاص، الذين تنزل عليهم الشياطين. ﴿تنزل على كل أفك أئيم﴾ أي: كذاب، كثير القول للزور، والإفك بالباطل، ﴿أئيم﴾ في فعله، كثير المعاصي، هذا الذي تنزل عليه الشياطين، وتناسب حاله حالهم؟

﴿يلقون﴾ عليه ﴿السمع﴾ الذي يسترقونه من السماء، ﴿وأكثرهم كاذبون﴾ أي: أكثر ما يلقون إليه كذب<sup>(١)</sup>، فيصدق واحدة، ويكذب معها مئة، فيختلط الحق بالباطل، ويضمحل الحق بسبب قلته، وعدم علمه. فهذه<sup>(٢)</sup> صفة الأشخاص الذين تنزل عليهم الشياطين، وهذه صفة وحيهم له.

وأما محمد ﷺ، فحاله مباينة لهذه الأحوال أعظم مباينة، لأنه الصادق الأمين، البار الراشد، الذي جمع بين برّ القلب وصدق اللهجة ونزاهة الأفعال

﴿ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة وماواه النار﴾ والنهي عن الشيء أمرٌ بضده، فالنهي عن الشرك، أمرٌ بإخلاص العباداة لله وحده لا شريك له، عبة، وخوفاً، ورجاء، ودلاً، وإنابة إليه في جميع الأوقات. ولما أمره بما فيه كمال نفسه، أمره بتكميل غيره، فقال: ﴿وأندر عشيرتك الأقربين﴾ الذين هم أقرب الناس إليك، وأحقهم بإحسانك الديني والدنيوي، وهذا لا يتنافى أمره بإنذار جميع الناس، كما إذا أمر الإنسان بعموم الإحسان، ثم قيل له «أحسن إلى قرابتك»، فيكون هذا خصوصاً<sup>(٣)</sup> دالاً على التأكيد وزيادة الحق، فامتثل ﷺ هذا الأمر الإلهي، فدعى سائر بطون قريش، فعمم وخصص، وذكرهم ووعظهم، ولم يبتئ ﷺ من مقدوره شيئاً، من نصحهم وهدايتهم إلا فعله، فاهتدى من اهتدى، وأعرض من أعرض، ﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾ بلين جانبك، ولطف خطابك لهم، وتوددك وتحبيك إليهم، وحسن خلقك والإحسان التام بهم، وقد فعل ﷺ ذلك، قال تعالى: ﴿فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر﴾ فهذه أخلاقه ﷺ، أكمل الأخلاق، التي يحصل بها من المصالح العظيمة ودفع المضار ما هو مشاهد. فهل يليق بمؤمن بالله ورسوله، ويدعي اتباعه والافتداء به، أن يكون كلاً على المسلمين، شرس الأخلاق، شديد الشكيمة عليهم، غليظ القلب، فظ القول، فظيعه؟ [لو] إن رأى منهم معصية أو سوء أدب، هجرهم ومقتهم وأبغضهم، لا لين عنده، ولا أدب لديه، ولا توفيق، قد حصل من هذه المعاملة من المفاسد، وتعطيل المصالح ما حصل، ومع ذلك تمهده معتقراً لمن اتصف بصفات الرسول الكريم، قد رماه بالنفاق والمداينة، وقد كمل نفسه

﴿٢١٧ - ٢٢٠﴾ ﴿ونوكل على العزيز الرحيم \* الذي يراك حين تقوم \* وتقلبك في الساجدين \* إنه هو السميع العليم﴾ أعظم مساعد للعبد على القيام بما أمر به، الاعتماد على ربه، والاستعانة بمولاه على توفيقه للقيام بالأمور، فلذلك أمر الله تعالى بالتوكل عليه، فقال: ﴿وتوكل على العزيز الرحيم﴾ والتوكل هو اعتماد القلب على الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار، مع ثقته به، وحسن ظنه بحصول مطلوبه، فإنه عزيز رحيم، بعزته يقدر على إيصال الخير ودفع الشر عن عبده، ويرحمته به يفعل ذلك. ثم نبهه على الاستعانة باستحضار قرب الله، والنزول في منزل الإحسان فقال: ﴿الذي يراك حين تقوم \* وتقلبك في الساجدين﴾ أي: يراك في هذه العباداة العظيمة، التي هي الصلاة، وقت قيامك وتقلبك راعياً وساجداً خصها بالذكر، لفضلها وشرورها، ولأن من استحضر فيها قرب ربه، خشع ذل، وأكملها، وتكملها يكمل سائر عمله، ويستعين بها على جميع أموره.

﴿إنه هو السميع﴾ لسائر الأصوات، على اختلافها وتشتتها وتنوعها، ﴿العليم﴾ الذي أحاط بالظواهر والبواطن، والغيب

(١) وفي ب: الخصوص.

(٢) في النسخين: كذاباً.

(٣) في النسخين: هذا.







الجيب، فتخرج بيضاء في جملة تسع آيات، تذهب بها وتدعو فرعون وقومه، ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ فسقوا بشركهم وعتوهم وعلوهم على عباد الله، واستكبارهم في الأرض بغير الحق.

فذهب موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه، ودعاهم إلى الله تعالى، وأراههم الآيات. ﴿فلما جاءهم آياتنا مبصرة﴾ مضيئة، تدل على الحق، ويبصر بها كما تبصر الأبصار بالشمس. ﴿قالوا هذا سحر مبين﴾ لم يكفهم مجرد القول بأنه سحر، بل قالوا: ﴿مبين﴾ ظاهر لكل أحد. وهذا من أعجب العجائب، الآيات المبصرة، والأنوار الساطعات، تعمل من أبين الخزعبلات وأظهر السحرا هل هذا إلا من أعظم المكابرة، وأوقع السفطة.

﴿وجحدوا بها﴾ أي: كفروا بآيات الله، جاحدين لها، ﴿واستيقنتها أنفسهم﴾ أي: ليس جحدهم مستنداً إلى الشك والريب، وإنما جحدهم مع علمهم ويقينهم<sup>(١)</sup> بصحتها ﴿ظلماً﴾ منهم لحق ربهم ولأنفسهم، ﴿وعلواً﴾ على الحق وعلى العباد، وعلى الاتقياء للرسول، ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ أسوأ عاقبة، دمرهم الله وغرقتهم في البحر، وأخزاهم، وأورث مساكنهم المستضعفين من عباده.

﴿١٥ - ٤٤﴾ ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾ وورث سليمان داود ﴿إلى آخر القصة. يذكر في هذا القرآن، وينوه بمنته على داود وسليمان ابنه، بالعلم الواسع الكثير، بدليل التنكير، كما قال تعالى: ﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفثت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين﴾ ففهمناها سليمان

وكلا آتينا حكماً وعلماً﴾ الآية. ﴿وقال﴾ شاكرين لربهما منته الكبرى بتعليمهما: ﴿الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾ فحمداً الله على جعلهما من المؤمنين، أهل السعادة، وأنهم كانوا من خواصهم.

ولا شك أن المؤمنين أربع درجات: الصالحون، ثم فوقهم الشهداء، ثم فوقهم الصديقون، ثم فوقهم الأنبياء، وداود وسليمان، من خواص الرسل، وإن كانوا دون درجة أولي العزم [الخمسة]، لكنهم من جملة الرسل الفضلاء الكرام، الذين نوه الله بذكرهم، ومدحهم في كتابه مدحاً عظيماً، فحمداً الله على بلوغ هذه المنزلة، وهذا عنوان سعادة العبد، أن يكون شاكراً لله على نعمه الدينية والدينية، وأن يرى جميع النعم من ربه، فلا يفخر بها ولا يعجب بها، بل يرى أنها تستحق عليه شكراً كثيراً، فلما مدحهما مشتركين، خص سليمان بما خصه به، لكون الله أعطاه ملكاً عظيماً، وصار له من الماجريات ما لم يكن لأبيه، صلى الله عليهما وسلم، فقال: ﴿ورث سليمان داود﴾ أي: ورث علمه ونبوته، فانضم علم أبيه إلى علمه، فلعله تعلم من أبيه ما عنده من العلم، مع ما كان عليه من العلم وقت أبيه، كما تقدم من قوله ففهمناها سليمان، وقال شكراً لله، وتيجحاً بإحسانه، وتحدثاً بنعمته: ﴿بما أيها الناس علمنا منطق الطير﴾ فكان عليه الصلاة [والسلام] يفقه ما تقول وتتكلم به، كما راجع الهدمد وراجع، وكما فهم قول النملة للتمل كما يأتي، وهذا لم يكن لأحد غير سليمان عليه الصلاة والسلام.

﴿وأوتينا من كل شيء﴾ أي: أعطانا الله من النعم، ومن أسباب الملك، ومن السلطنة والقهر، ما لم يؤت

إني وكنت آتياً عليهم وأوتيت من كل شيء ولما عرض عليهم ﴿وكنت آتياً عليهم وأوتيت من كل شيء﴾ ﴿وقال﴾ شاكرين لربهما منته الكبرى بتعليمهما: ﴿الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾ فحمداً الله على جعلهما من المؤمنين، أهل السعادة، وأنهم كانوا من خواصهم. ﴿وقال﴾ شاكرين لربهما منته الكبرى بتعليمهما: ﴿الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾ فحمداً الله على جعلهما من المؤمنين، أهل السعادة، وأنهم كانوا من خواصهم.

أحداً من الآدميين، ولهذا دعا ربه فقال: ﴿وهب<sup>(٢)</sup> لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي﴾ فسخر الله له الشياطين، يعملون له كل ما شاء، من الأعمال التي يعجز عنها غيرهم، وسخر له الريح، غدوها شهر ورواحها شهر.

﴿إن هذا﴾ الذي أعطانا الله وفضلنا واختصنا به ﴿لهو الفضل المبين﴾ الواضح الجلي، اعترف أكمل اعتراف بنعمة الله تعالى.

﴿وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون﴾ أي: جمع له جنوده الكثيرة الهائلة المتنوعة، من بني آدم، ومن الجن والشياطين، ومن الطيور فهم يوزعون، يدبرون، ويرد أولهم على آخرهم، وينظمون غاية التنظيم في سيرهم ونزولهم، وحلهم وترحالهم قد استعد لذلك، وأعد له عدته، وكل هذه الجنود مؤثرة بأمره، لا تقدر على عصيانه، ولا تتمرد عنه، قال تعالى: ﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك﴾ أي: أعط بغير حساب، فسار بهذه الجنود الضخمة في بعض أسفاره<sup>(٣)</sup>.

﴿حتى إذا اتوا على وادي النمل

(١) في ب: يتقهم.

(٢) في النسختين: فقال: (رب هب) وهو خطأ.

(٣) في أ: في بعض في.



والجبروت . والرسل منزهون عن ذلك .

وقال شاكراً لله الذي أوصله إلى هذه الحال : ﴿رب أوزعني﴾ أي : ألهمني ووفقني ﴿أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي﴾ فإن النعمة على الوالدين نعمة على الولد . فسأل ربه التوفيق للقيام بشكر نعمته ، الدينية والدنيوية ، عليه وعلى والديه ، ﴿وإن أحمل صالحاً تركض﴾ أي : ووفقني أن أحمل صالحاً تركض ، لكونه موافقاً لأمرك ، مخلصاً فيه ، سالماً من المفسدات والمنقصات ، ﴿وادخلني برحمتك﴾ التي منها الجنة ﴿في﴾ جملة ﴿عبادك الصالحين﴾ فإن الرحمة جمولة للصالحين على اختلاف درجاتهم ومنزلاتهم . فهذا نموذج ذكره الله من حالة سليمان عند سماع خطاب النملة ونداءها .

ثم ذكر نموذجاً آخر من مخاطبته للطير ، فقال : ﴿وتفقد الطير﴾ دل هذا على كمال عزمه وحزمه ، وحسن تنظيمه لجنوده ، وتدييره بنفسه للأمور الصغار والكبار ، حتى إنه لم يحمل هذا الأمر ، وهو تفقد الطيور ، والنظر : هل هي موجودة كلها ، أم مفقود منها شيء ؟ وهذا هو المعنى للآية . ولم يصنع شيئاً من قال : إنه تفقد الطير ، لينظر أين الهدهد منها<sup>(١)</sup> ، ليدله على بعد الماء وقربه ، كما زعموا عن الهدهد ، أنه يبصر الماء تحت الأرض الكثيفة ، فإن هذا القول لا يدل عليه دليل ، بل الدليل العقلي واللفظي دال على بطلانه ، أما العقلي ، فإنه قد عرف بالمعادة والتجارب والمشاهدات ، أن هذه الحيوانات كلها ، ليس منها شيء يبصر هذا البصر الخارق للعادة ، ينظر الماء تحت الأرض الكثيفة ، ولو كان كذلك ، لذكره الله ، لأنه من أكبر الآيات .

وأما الدليل اللفظي ، فلو أريد هذا المعنى ، لقال : ﴿وطلب الهدهد لينظر له الماء ، فلما فقده قال ما قال﴾ أو ﴿فتش عن الهدهد﴾ ، أو : ﴿بحث عنه﴾ ونحو

ذلك من العبارات ، وإنما تفقد الطير ، لينظر المحاضر منها والقائب ، ولزومها للمراكز والمواضع التي عينها لها . وأيضاً فإن سليمان عليه السلام ، لا يحتاج ولا يضطر إلى الماء ، بحيث يحتاج لهندسة الهدهد ، فإن عنده من الشياطين والعفاريت ، ما يحفرون له الماء ، ولو بلغ في العمق ما بلغ . وسخر الله له الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، فكيف - مع ذلك - يحتاج إلى الهدهد؟!

وهذه التفسير التي توجد ، وتشتهر بها أقوال ، لا يعرف غيرها ، تنقل هذه الأقوال عن بني إسرائيل مجردة ، ويفضل الناقل عن مناقضتها للمعاني الصحيحة ، وتطبيقها على الأقوال ، ثم لا تزال تتناقل ، وينقلها المتأخر مسلماً للمتقدم ، حتى يظن أنها الحق ، فيقع من الأقوال الردية في التفسير ما يقع ، واللييب الفطن ، يعرف أن هذا القرآن الكريم ، العربي المبين ، الذي خاطب الله به الخلق كلهم ، عالمهم وجاهلهم ، وأمرهم بالتفكير في معانيه ، وتطبيقها على أفاضه العربية المعروفة المعاني ، التي لا تجهلها العرب العرباء ، وإذا وجد أقوالاً منتقولة عن غير رسول الله ﷺ ، ردها إلى هذا الأصل ، فإن وافقت قبلها ، لكون اللفظ دالاً عليها ، وإن خالفت لفظاً ومعنى ، أو لفظاً أو معنى ، ردها وجزم ببطلانها ، لأن عنده أصلاً معلوماً مناقضاً لها ، وهو ما يعرفه من معنى الكلام ودلالته .

والشاهد ، أن تفقد سليمان عليه السلام للطير ، وفقده الهدهد ، يدل على كمال حزمه وتدييره الملك بنفسه ، وكمال فطنته ، حتى فقد هذا الطائر الصغير ﴿فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين﴾ أي : هل عدم رؤيتي إيها ، لقلته فطنتي به ، لكونه خفياً بين هذه الأمم الكثيرة؟ أم على بابها ، بأن كان غائباً من غير إذني ولا أمرتي؟ . فحيتذ تفيظ عليه وتوعده ، فقال :

قالت نملة ﴿ منبهة لرفقتها وبني جنسها : ﴿يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾ فنصحت هذه النملة ، وأسمنت النمل ، إما بنفسها ، ويكون الله قد أعطى النمل أسماً خارقاً للعادة ، لأن التنبية للنمل ، الذي قدمه الوادي بصوت نملة واحدة ، من أعجب العجائب . وإما بأنها أخبرت من حولها من النمل ، ثم سرى الخبر من بعضهم لبعض حتى بلغ الجميع ، وأمرتهن بالخبر ، والطريق في ذلك ، وهو دخول مساكنهن .

وعرفت حالة سليمان وجنوده ، وعظمة سلطانه ، واعتذرت عنهم ، أنهم إن حطموكم ، فليس عن قصد منهم ولا شعور ، فسمع سليمان عليه الصلاة والسلام قولها وفهمه ، ﴿فتبسم ضاحكاً من قولها﴾ إعجاباً منه بفصاحتها<sup>(٢)</sup> ونصحها ، وحسن تعبيرها . وهذا حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، الأدب الكامل ، والتعجب في موضعه ، وأن لا يبلغهم الضحك إلا إلى التبسم ، كما كان الرسول ﷺ يجل ضحكه التبسم ، فإن القهقهة تدل على خفة العقل وسوء الأدب . وعدم التبسم والعجب مما يتعجب منه ، يدل على شراسة الخلق

(٢) في ب: منه .

(١) في ب: بنصح أمته .

﴿لأعذبه عذاباً شديداً﴾ دون القتل،  
 ﴿أو لأذبحه أو ليأتييني سلطان مبین﴾  
 أي: حجة واضحة على تخلفه، وهذا  
 من كمال ورعه وإنصافه، أنه لم يقسم  
 على مجرد عقوبته بالعذاب أو القتل،  
 لأن ذلك لا يكون إلا من ذنب،  
 وغيبته قد تحتمل أنها لعذر واضح،  
 فلذلك استثناه، لورعه وفطنته.

﴿تمكث غير بعيد﴾ ثم جاء، وهذا  
 يدل على هيبته<sup>(١)</sup> جنوده منه، وشدة  
 ائتمارهم لأمره، حتى إن هذا الهدهد،  
 الذي خلفه العذر الواضح، لم يقدر على  
 التخلف زمناً كثيراً، ﴿فقال﴾  
 لسليمان: ﴿أحطت بما لم تحط به﴾  
 أي: عندي من العلم علم ما أحطت  
 به، على علمك الواسع، وعلو درجتك  
 فيه، ﴿وجئتك من سبأ﴾ القبيلة  
 المعروفة في اليمن ﴿بنياً يقين﴾ أي:  
 خير متيقن.

ثم فسر هذا النبا فقال: ﴿إني  
 وجدت امرأة تملكهم﴾ أي: تملك قبيلة  
 سبأ، وهي امرأة، ﴿وأوتيت من كل  
 شيء﴾ أي: يؤتاه الملوك، من الأموال،  
 والأسلح، والجنود، والحصون،  
 والقلاع، ونحو ذلك. ﴿ولها عرش  
 عظيم﴾ أي: كرسي ملكها الذي تجلس  
 عليه، عرش هائل، وعظم العروش  
 تدل على عظمة المملكة وقوة السلطان  
 وكثرة رجال الشورى.

﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس  
 من دون الله﴾ أي: هم مشركون  
 يعبدون الشمس. ﴿وزين لهم الشيطان  
 أعمالهم﴾ فرأوا ما هم عليه هو الحق،  
 ﴿فهم لا يمتدنون﴾ لأن الذي يرى أن  
 الذي عليه حق، لا مطمع في هدايته  
 حتى تغير عقيدته.

ثم قال: ﴿الآ﴾ أي: هلا  
 ﴿يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في  
 السماوات والأرض﴾ أي: يعلم الخفي  
 الخبيء، في أقطار السماوات، وأثناء  
 الأرض، من صفار المخلوقات،  
 وينور النباتات، وخفايا الصدور،  
 ويخرج خبء الأرض والسما، بإنزال

المطر، وإنبات النبات، ويخرج خبء  
 الأرض عند النفخ في الصور وإخراج  
 الأموات من الأرض، ليجازيهم  
 بأعمالهم ﴿ويعلم ما تحفون وما  
 تعملون﴾.

﴿الله لا إله إلا هو﴾ أي: لا تنبغي  
 العبادة، والإنابة، والذل، والحب، إلا  
 له، لأنه المألوه، لما له من الصفات  
 الكاملة، والنعم المرجية لذلك. ﴿رب  
 العرش العظيم﴾ الذي هو سقف  
 المخلوقات، ووسع الأرض  
 والسموات، فهذا الملك عظيم  
 السلطان، كبير الشأن، هو الذي يذل  
 له ويخضع، ويسجد له ويركع، فسلم  
 الهدهد حين ألقى إليه هذا النبا  
 العظيم، وتعجب سليمان كيف خفي  
 عليه.

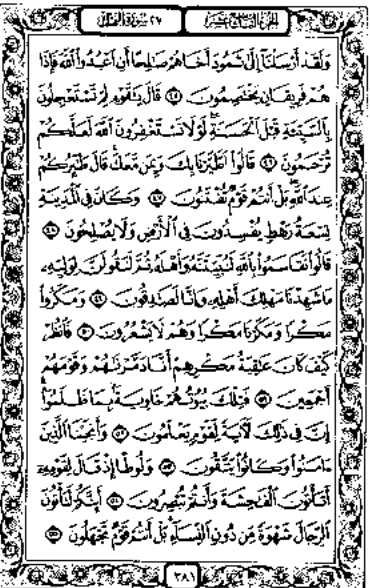
وقال مثبِتاً لكمال عقله ووراثته:

﴿سننظر أصدقت أم كنت من  
 الكاذبين﴾ اذهب بكتابي هذا ﴿وسياتي  
 نصه﴾ فألقه إليهم ثم تول عنهم ﴿أي:  
 استأخر غير بعيد﴾ فإنظر ماذا  
 يرجعون ﴿إليك وما يتراجعون به.

فذهب به فألقاه عليها، فقالت  
 لقومها: ﴿إني ألقى إلى كتاب كريم﴾  
 أي: جليل المقدار، من أكبر ملوك  
 الأرض.

ثم بينت مضمونه فقالت: ﴿إنه من  
 سليمان وإنه بسم الله الرحمن  
 الرحيم﴾ ﴿ألا تعملوا علي وآتوني  
 مسلمين﴾ أي: لا تكونوا فوقي، بل  
 اخضعوا تحت سلطاني، وانقادوا  
 لأوامري، وأقبلوا إلي مسلمين.

وهذا في غاية الوجازة مع البيان  
 التام، فإنه تضمن نهيهم عن العلو  
 عليه، والبقاء على حالهم التي هم  
 عليها، والانقياد لأمره، والدخول  
 تحت طاعته، وعيئتهم إليه، ودعوتهم  
 إلى الإسلام، وفيه استحباب ابتداء  
 الكتب بالبسملة كاملة، وتقديم الاسم  
 في أول عنوان الكتاب، فمن حزمها  
 وعقلها، أن جمعت كبار دولتها ورجال  
 مملكتها، وقالت: ﴿يا أيها الملأ أفتوني



في أمري﴾ أي: أخبروني، ماذا نجيه  
 به؟ وهل ندخل تحت طاعته ونقاد؟ أم  
 ماذا نفعل؟ ﴿ما كنت قاطعة أمراً حتى  
 تشهدون﴾ أي: ما كنت مستنبدة بأمر  
 دون رأيكم ومشورتكم.

﴿وقالوا نحن أولو قوة وأولو بأس  
 شديد﴾ أي: إن رددت عليه قوله، ولم  
 تدخل في طاعته، فإننا أقوياء على  
 القتال، فكأنهم مالوا إلى هذا الرأي،  
 الذي لو تم لكان فيه دمارهم، ولكنهم  
 أيضاً لم يستقروا عليه، بل قالوا:  
 ﴿الأمر إليك﴾ أي: الرأي: ما رأيت،  
 لعلهم يعقلوا وحزمها، ونصحها لهم  
 ﴿فانظري﴾ نظر فكر وتدبر ﴿ماذا  
 تأمرين﴾.

فقالت لهم - مقنعة لهم عن رأيهم،  
 ومبينة سوء مغية القتال - ﴿إن الملوك  
 إذا دخلوا قرية أفسدوها﴾ قتلاً،  
 وأسراً، ونهباً لأموالها، وتخريباً  
 لبياراتها، ﴿وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾  
 أي: جعلوا الرؤساء السادة أشرف  
 الناس من الأدلن، أي: فهذا رأي:  
 غير شديد، وأيضاً، فلست بمطبعة له  
 قبل الاختيار وإرسال من يكشف عن  
 أحواله ويتدبرها، وحينئذ نكون على  
 بصيرة من أمرنا، فقالت: ﴿وإني  
 مرسله إليهم بهدية فناظرة بم يرجع  
 المرسلون﴾ منه. هل يستمر على رأيه

(١) كذا في ب، وفي أ: هية.

لعلها ﴿أهتدي﴾ للصواب، ويكون عندها ذكاء وفطنة تليق بملكها ﴿أم تكون من الذين لا يهتدون﴾.

﴿فلما جاءت قادمة على سليمان، عرض عليها عرشها، وكان عهدا به، قد خلفته في بلدها، و ﴿قيل لها أهلكنا عرشك﴾ أي: أنه استقر عندنا أن لك عرشاً عظيماً، فهل هو كهذا العرش الذي أحضرناه لك؟ ﴿قالت كأنه هو﴾ وهذا من ذكائها وفطنتها، لم تقل «هو» لوجود التغيير فيه والتذكير، ولم تنف أنه هو، لأنها عرفتته، فأنت بلفظ محتمل للأمرين، صادق على الحالين، فقال سليمان متعجباً من هدايتها وعقلها، وشاكراً لله أن أعطاه أعظم منها: ﴿وأوتينا العلم من قبلها﴾ أي: الهداية، والعقل، والحزم، من قبل هذه الملكة، ﴿وكننا مسلمين﴾ وهي الهداية النافعة الأصلية.

ويحتمل أن هذا من قول ملكة سبأ: ﴿وأوتينا العلم عن ملك سليمان وسلطانه، وزيادة اقتداره، من قبل هذه الحالة التي رأينا فيها قدرته على إحضار العرش من المسافة البعيدة، فأذعنا له، وجئنا مسلمين له، خاضعين لسلطانه﴾.

قال الله تعالى: ﴿وصدّها ما كانت تعبد من دون الله﴾ أي: عن الإسلام، وإلا، فلها من الذكاء والفطنة ما به تعرف الحق من الباطل، ولكن العقائد الباطلة تذهب بصيرة القلب ﴿إنها كانت من قوم كافرين﴾ فاستمرت على دينهم، وانفراد الواحد عن أهل الدين، والعادة المستمرة بأمر يراه بعقله من ضلالهم وخطنهم، من أتدر ما يكون، فلهدا لا يستغرب بقاؤها على الكفر، ثم إن سليمان أراد أن ترى من سلطانه ما يبهز العقول، فأمرها أن تدخل الصرح، وهي المجلس المرتفع المتسع، وكان مجلساً من قوارير، تجري تحتها الأنهار.

﴿قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة﴾ ماء، لأن القوارير شخافة،

﴿أنا أتيتك به قبل أن تقوم من مقامك وإن عليه لقوي أمين﴾ والظاهر أن سليمان إذ ذاك في الشام، فيكون بينه وبين سبأ نحو مسيرة أربعة أشهر، شهران ذهاباً، وشهران إياباً، ومع ذلك، يقول هذا العفريت: أنا التزم بالمجيء به، على كبره وثقله وبعده، قبل أن تقوم من مجلسك الذي أنت فيه. والمتعاد من المجالس الطويلة، أن تكون معظم الضحى، نحو ثلث يوم، هذا نهاية المعتاد، وقد يكون دون ذلك، أو أكثر، وهذا الملك العظيم، الذي عند أحاد رعيته هذه القوة والقدرة، وأبلغ من ذلك أن ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب﴾: قال المفسرون: هو رجل عالم صالح، عند سليمان يقال له: «أصف بن برخيا» كان يعرف اسم الله الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى.

﴿أنا أتيتك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ بأن يدعو الله بذلك الاسم، فيحضر حالاً، وأنه دعا الله فحضر. فالله أعلم [أهل هذا المراد أم أن عنده علماً من الكتاب يقتدر به على جلب البعيد وتحصيل الشديد] <sup>(١)</sup>.

﴿فلما رآه سليمان﴾ مستقراً عنده ﴿حمد الله تعالى على إقداره وملكه، وتيسير الأمور له، و ﴿قال هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر﴾ أي: ليختبرني بذلك. فلم يغتر عليه السلام بملكه وسلطانه وقدرته، كما هو دأب الملوك الجاهلين، بل علم أن ذلك اختبار من ربه، فخاف أن لا يقوم بشكر هذه النعمة، ثم بين أن الشكر لا ينتفع الله به، وإنما يرجع نفعه إلى صاحبه، فقال: ﴿ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم﴾ غني عن أعماله، كريم، كثير الخير، يعم به الشاكر والكافر، إلا أن شكر نعمه داع للمزيد منها، وكفرها داع لزوالها، ثم قال لمن عنده: ﴿نكروا لها عرشها﴾ أي: غيرهه بزيادة ونقص، ونحو ذلك ﴿تنظر﴾ مختبرين



وقوله؟ أم تحدهه الهدية، وتبدل فكرته، وكيف أحواله وجوده؟

فأرسلت له هدية مع رسل من عقلاء قومها، وذوي الرأي: منهم، ﴿فلما جاء سليمان﴾ أي: جاءه الرسل بالهدية ﴿قال﴾ منكرأ عليهم ومتغظاً على عدم إجابتهم: ﴿أتمدون بمال فما آتاني الله خبير بما آتاكم﴾ فليست تقع عندي موقعاً، ولا أفرح بها، قد أغتاني الله عنها، وأكثر على النعم، ﴿بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾ لحبكم للدنيا، وقلة ما بأيديكم بالنسبة لما أعطاني الله.

ثم أوصى الرسول من غير كتاب، لما رأى من عقله، وأنه سيتقل كلامه على وجهه، فقال: ﴿ارجع إليهم﴾ أي: بهديتكم ﴿فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم﴾ أي: لا طاقة لهم ﴿بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون﴾ فرجع إليهم، وأبلغهم ما قال سليمان، وتجهزوا للمسير إلى سليمان، وعلم سليمان أنهم لا بد أن يسيروا إليه، فقال لمن حضره من الجن والإنس: ﴿أبيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين﴾ أي: لأجل أن تنصرف فيه قبل أن يسلموا، فتكون أموالهم محترمة، ﴿قال عفريت من الجن والعفريت: هو القوي النشيط جداً:

يرى الماء الذي تحتها، كأنه بذاته يجري، ليس دونه شيء، «وكشفت عن ساقبها» للخياضة، وهذا أيضاً من عقلها وأدبها، فإنها لم تمتنع من الدخول للمحل الذي أمرت بدخوله، لعلمها أنها لم تستدع إلا للإكرام، وأن ملك سليمان وتنظيمه، قد بناه على الحكمة، ولم يكن في قلبها أدنى شك من حالة السوء، بعد ما رأت ما رأت.

فلما استعدت للخوض قيل لها: «إنه صرح بمرد» أي: مملس «من قوارير» فلا حاجة منك لكشف الساقين. فحيث لا وصلت إلى سليمان، وشاهدت ما شاهدت، وعلمت نيوته ورسالته، تابت ورجعت عن كفرها، و «قالت رب إنني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين»

فهذا ما قصه الله علينا من قصة ملكة سبأ، وما جرى لها مع سليمان، وما عدا ذلك من الفروع المولدة، والقصص الإسرائيلية، فإنه لا يتعلق بالتفسير لكلام الله، وهو من الأمور التي يقف الجزم بها، على الدليل المعلوم المعصوم، والنقولات في هذا الباب كلها، أو أكثرها، ليس كذلك، فالجزم كل الجزم، الإعراض عنها، وعدم إدخالها في التفسير، والله أعلم.

﴿٤٥ - ٥٣﴾ «ولقد أرسلنا إلى نمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون» إلى آخر القصة. يخبر تعالى أنه أرسل إلى نمود القبيلة المعروفة، أخاهم في النسب صالحاً، وأنه أمرهم أن يعبدوا الله وحده، ويتركوا الأنداد والأوثان، «فإذا هم فريقان يختصمون» منهم المؤمن، ومنهم الكافر، وهم معظمهم.

«قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة» أي: لم تبادر فعمل السيئات وتحرضون عليها، قبل فعل الحسنات، التي بها تحسن أحوالكم وتصلح أموركم الدينية والدنيوية؟ والحال أنه لا موجب لكم إلى الذهاب

لصفعل السيات؟ «لولا تستغفرون الله» بأن تتوبوا من شرككم وعصيانكم، وتدعوه أن يغفر لكم، «لعلكم ترحمون» فإن رحمة الله تعالى قريب من المحسنين، والتائب من الذنوب، هو من المحسنين.

«قالوا» لنبيهم صالح، مكذبين ومعارضين: «اطيرنا بك وبمن معك» زعموا - فبحهم الله - أنهم لم يروا على وجه صالح خيراً، وأنه هو ومن معه من المؤمنين، صاروا سبباً لنزع بعض مطالبهم الدنيوية، فقال لهم صالح: «طائركم عند الله» أي: ما أصابكم إلا بذنوبكم، «بل أنتم قوم نفتنون» بالسراء والضراء، والخير والشر، لينظر هل تفلحون وتتوبون، أم لا؟ فهذا دأبهم في تكذيب نبيهم وما قبلوه به.

«وكان في المدينة» التي فيها صالح، الجامعة لعظم قومه «تسعة رهسط يفسسدون في الأرض ولا يصلحون» أي: وصفهم الإفساد في الأرض، ولا لهم قصد ولا فعل بالإصلاح، قد استعدوا المعادة صالح والطعن في دينه، ودعوة قومهم إلى ذلك، كما قال تعالى: «فاتقوا الله وأطيعون» ولا تطيعوا أمر المسرفين \* الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون».

فلم يزالوا بهذه الحال الشنيعة، حتى إنهم من عداوتهم «تفاسموا» فيما بينهم، كل واحد أقسم للآخر: «لنبيته وأهله» أي: تأتيه ليلاً، هو وأهله، فلقتلهم، «ثم لنقول لوليه» إذا قام علينا، وادعى علينا أننا قتلناه، ننكر ذلك، وتنفيه ونحلف «إننا لصادقون» فتواطؤوا على ذلك، «ومكروا مكراً» دبوا أمرهم على قتل صالح وأهله، على وجه الخفية، حتى لمن قومهم، خوفاً من أوليائه، «ومكروا مكراً» بنصر نبينا صالح عليه السلام، وتيسير أمره، وإهلاك قومه المكذبين «وهم لا يشعرون»



«فانظر كيف كان عاقبة مكروهم» هل حصل مقصودهم؟ وأدركوا بذلك المكر مطلوبهم، أم انتقض عليهم الأمر، ولهذا قال: «أنادمرناهم وقومهم أجمعين» أهلكناهم، واستأصلنا شافتهم، فجاءتهم صيحة عذاب، فأهلكوا عن آخرهم.

«فتلك بيوتهم خاوية» قد تهدمت جدرانها على سقفوها، وأوحشت من ساكنيها، وعطلت من نازليها، «بما ظلموا» أي: هذا عاقبة ظلمهم وشركهم بالله، وبغيهم في الأرض. «إن في ذلك لآية لقوم يعلمون» الحقائق، ويتدبرون وقائع الله، في أولياته وأعدائه، فيعتبرون بذلك، ويعلمون أن عاقبة الظلم الدمار والهلاك، وأن عاقبة الإيمان والعدل النجاة والفوز.

ولهذا قال: «وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون» أي: أنجينا المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وكانوا يتقون الشرك بالله والمعاصي، ويعملون بطاعته وطاعة رسله.

﴿٥٤ - ٥٨﴾ «ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون» إلى آخر القصة. أي: واذكر عبدنا ورسولنا لوطاً، ونبيه الفاضل، حين قال

(١) في ب: لنايتهم.

وهباته وعذله، وحكمته في عقوبته  
المكذبين وتعذيب الظالمين، وسلم أيضاً  
على عباده، الذين تخيرهم واصطفاهم  
على العالمين، من الأنبياء والمرسلين،  
وصفوة الله من العالمين، وذلك لرفع  
ذكرهم، وتنوياً بقدرهم، وسلامتهم  
من الشر والأدناس، وسلامة ما قالوه  
في ربهم من النقائص والعيوب.

﴿الله خير مما يشركون﴾ وهذا  
استفهام قد تقرر وعرف، أي: الله  
الرب العظيم، كامل الأوصاف، عظيم  
اللطاف، خير أم الأصنام والأوثان  
التي عبدها معه، وهي ناقصة من كل  
وجه، لا تنفع ولا تضر، ولا تملك  
لأنفسها ولا لعبادها مثقال ذرة من  
الخير، فالله خير مما يشركون.

ثم ذكر تفاصيل ما به يعرف ويتبين  
أنه الإله المعبود، وأن عبادته هي الحق،  
وعبادته [أما] سواه هي الباطل، فقال:

﴿٦٠﴾ ﴿أَن سَخِلَ لِلْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ  
مَاءً فَاتَّبَعْنَاهُ بِحَدَائِقِ اللَّهِ لِيُؤْتِنَا  
شَجَرًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِلِئَالِهِمْ لَآتِيئٌ  
بِعَدْلٍ ۗ﴾

أي: من خلق السماوات وما فيها،  
من الشمس والقمر والنجوم والملائكة،  
والأرض وما فيها، من جبال وبحار  
أنهار وأشجار وغير ذلك؟

﴿وانزل لكم﴾ أي: لأجلكم ﴿من  
السماء ماء فأنبئتنا به حدائق﴾ أي:  
بساتين ﴿ذات بهجة﴾ أي: حسن  
منظر، من كثرة أشجارها وتنوعها،  
وحسن ثمارها، ﴿ما كان لكم أن تنتوا  
شجرها﴾ لولا مئة الله عليكم بإنزال  
المطر. ﴿إله مع الله﴾ فعل هذه  
الأفعال، حتى يعبد معه ويشرك به؟،  
﴿بل هم قوم يعدلون﴾ به غيره،  
ويسوون به سواه، مع علمهم أنه  
وحده خالق العالم العلوي والسفلي،  
ومنزّل الرزق.

﴿٦١﴾ ﴿أَتَمَنَّا جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا  
وَجَعَلَ خَلَالَهَا أَنْهَارًا ۗ وَجَعَلَ لَهَا رِوَاسِيًا

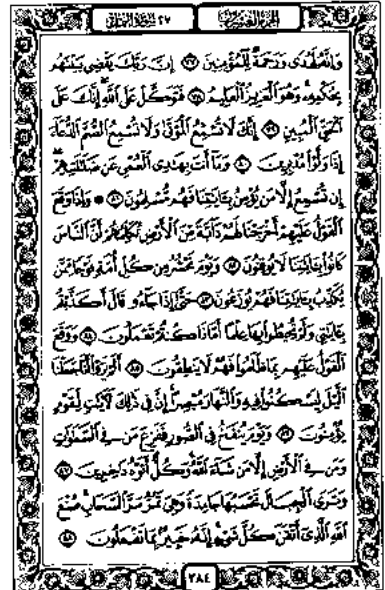
فكانه قيل: ما نعمتم منهم، وما  
ذنبهم الذي أوجب لهم الإخراج،  
فقالوا: ﴿إنهم أناس يتظهرون﴾ أي:  
يتنزهون عن اللواط وأديار الذكور.  
فحبهم الله، جعلوا أفضل الحسنات  
بمنزلة أقيح السيئات، ولم يكتفوا  
بمعصيتهم لنبيهم فيما وعظهم به،  
حتى وصلوا إلى إخراجهم، والبلاء  
موكّل بالمنطق، فهم قالوا:  
﴿أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس  
يتظهرون﴾.

ومفهوم هذا الكلام: دوأنتم  
متلونون بالخبيث والقذر، المقتضي  
لنزول العقوبة بقريبتكم، ونجاة من  
خرج منها.

ولهذا قال تعالى: ﴿فأنجيناه وأهلكه  
إلا أمراته قدرناها من الغابرين﴾ وذلك  
لما جاءت الملائكة في صورة أضياف،  
وسمع بهم قومه، فجاؤوا إليه يريدونهم  
بالشر، وأغلق الباب دونهم، واشتد  
الأمر عليه، ثم أخبرته الملائكة عن  
جلية الحال، وأنهم جاؤوا لاستنقاذه  
وأخراجه من بين أظهرهم، وأنهم  
يريدون إهلاكهم، وأن مرعدهم  
الصبح، وأمروه أن يسري بأهله ليلاً،  
إلا أمرته فإنه سيصيبها ما أصابهم،  
فخرج بأهله ليلاً، فنجوا، وصبحهم  
العذاب، فقلب الله عليهم ديارهم،  
وجعل أعلاها أسفلها، وأمطر عليهم  
حجارة من سجيل منضود، مسومة  
عند ربك.

ولهذا قال هنا: ﴿وأمطرنا عليهم  
مطراً فساء مطر المنزرين﴾ أي: بشس  
المطر مطرهم، ونس العذاب عذابهم،  
لأنهم أنذروا وخوفوا، فلم يتزجروا ولم  
يرتدعوا، فأحل الله بهم عقابه  
الشديد.

﴿٥٩﴾ ﴿قل الحمد لله وسلام على  
عباده الذين اصطفى الله خير أم ما  
يشركون﴾ أي: قل الحمد لله الذي  
يستحق كمال الحمد والمدح والشناء،  
لكمال أوصافه، وجميل معرفته،



لقومه - داعياً لهم إلى الله وناصحاً -  
﴿أتأتون الفاحشة﴾ أي: الفعله  
الشنعاء، التي تستفحشها العقول  
والفطر، وتستفحشها الشرائع ﴿وأنتم  
تبصرون﴾ ذلك، وتعلمون فبحة،  
فعاندم، واركتبتم ذلك، ظلماً منكم  
وجراً على الله.

ثم فسر تلك الفاحشة، فقال:  
﴿إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون  
النساء﴾ أي: كيف توصلتم إلى هذه  
الحال، صارت شهوتكم للرجال،  
وأديارهم محل الغاظة والتخو والخبيث،  
وتركتم ما خلق الله لكم من النساء،  
من المحال الطيبة، التي جبلت النفوس  
إلى الميل إليها وأنتم انقلب عليكم  
الأمر، فاستحسنتم القبيح، واستفحشتم  
الحسن، ﴿بل أنتم قوم تجهلون﴾  
متجاوزون لحدود الله، متجزؤون على  
محارمه.

﴿فما كان جواب قومه﴾ قبول  
ولا انزجار، ولا تذكر وادكار، إنما  
كان جوابهم المعارضة والمناقضة،  
والتوعد لنبيهم الناصح ورسولهم  
الأمين، بالإجلاء عن وطنه، والتشريد  
عن بلده. فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴿إِلَّا  
أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ  
قَرْيَتِكُمْ﴾

(١) سبق قلم الشيخ - رحمه الله - فذهب إلى آية الأعراف فكتب: ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ وفسرها على هذا، فصححت الآية، وأقيمت التفسير كما هو.

وجعل بين البحرين حاجزاً إله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ﴿٦١﴾ أي: هل الأصنام والأوثان، الناقصة من كل وجه، التي لا فعل منها ولا رزق ولا نفع، خير؟ أم الله الذي ﴿جعل الأرض قراراً﴾ يستقر عليها العباد ويتمكنون من السكنى، والحرق، والبناء، والذهب، والإياب. ﴿وجعل خلالها أنهاراً﴾ أي: جعل في خلال الأرض، أنهاراً يتنفع بها العباد، في زروعهم وأشجارهم، وشربهم وشرب مواشيتهم.

﴿وجعل لها رواسي﴾ أي: جبالاً ترسيها وتثبتها، لتلائم، وتكون أوتاداً لها، لتلا تضررب. ﴿وجعل بين البحرين البحر المالح والبحر العذب﴾ حاجزاً يمنع من اختلاطهما، فنفوت المنفعة المقصودة من كل منهما، بل جعل بينهما حاجزاً من الأرض، جعل مجرى الأنهار في الأرض مبعدة عن البحار، فيحصل منها مقاصدها ومصالحها، ﴿إله مع الله﴾ فعل ذلك، حتى يعدل به الله ويشرك به معه. ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ فيشركون بالله، تقليداً لرؤسائهم، وإلا فلو علموا حق العلم، لم يشركوا به شيئاً.

﴿٦٢﴾ ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض إله مع الله قليلاً ما تذكرون﴾ أي: هل يجيب المضطر، الذي أفلقتة الكروب، وتعسر عليه المطلوب، واضطر للخلاص مما هو فيه، إلا الله وحده؟ ومن يكشف السوء، أي: البلاء والشر والنقمة، إلا الله وحده؟ ومن يجعلكم خلفاء الأرض، يمكنكم منها، ويمد لكم بالرزق، ويوصل إليكم نعمه، وتكونون خلفاء من قبلكم، كما أنه سيميتكم، وبأبي يقوم بعدكم، إله مع الله يفعل هذه الأفعال؟ لا أحد يفعل مع الله شيئاً من ذلك، حتى يقراركم أيها المشركون، ولهذا كانوا إذا مسهم الضر، دعوا الله مخلصين له الدين، لعلمهم أنه وحده المقتر على دفعه وإزالته، ﴿قليلاً ما

تذكرون﴾ أي: قليل تذكركم وتدبركم للأمر، التي إذا تذكروها ادكرتم ورجعتم إلى الهدى، ولكن الغفلة والإعراض شامل لكم، فلذلك ما أرويتم ولا اهتديتم.

﴿٦٣﴾ ﴿أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته إله مع الله تعالى الله عما يشركون﴾ أي: من هو الذي يهديكم حين تكونون في ظلمات البر والبحر، حيث لا دليل، ولا معلم يرى، ولا وسيلة إلى النجاة إلا هديته لكم، وتيسيره الطريق، وجعل ما جعل لكم من الأسباب التي تهتدون بها، ﴿ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾ أي: بين يدي المطر، فيرسلها، فتثير السحاب، ثم تولفه، ثم تجمعها، ثم تلقحها، ثم تدره، فيستبشر بذلك العباد، قبل نزول المطر. ﴿إله مع الله﴾ فعل ذلك؟ أم هو وحده، الذي انفرد به؟ فلم أشركتم معه غيره، وعبدتم سواه؟ ﴿تعالى الله عما يشركون﴾ تعاضم وتنزه وتقدس عن شركهم ونسويتهم به غيره.

﴿٦٤﴾ ﴿أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض إله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ أي: من هو الذي يبدأ الخلق، وينشئ المخلوقات، ويبتدي خلقها، ثم يعيد الخلق يوم البعث والنشور؟ ومن يرزقكم من السماء والأرض، بالمطر والنبات؟ ﴿إله مع الله﴾ يفعل ذلك، ويقدر عليه؟ ﴿قل هاتوا برهانكم﴾ أي: حججتكم ودليلكم على ما قلتم ﴿إن كنتم صادقين﴾ وإلا، فتقدير أنكم تقولون: إن الأصنام لها مشاركة له، في شيء من ذلك، فذلك مجرد دعوى، صدقوها بالبرهان، وإلا، فاعرفوا أنكم مبطلون، لا حجة لكم، فارجموا إلى الأدلة القينية والبراهين القطعية الدالة على أن الله هو المنفرد بجميع التصرفات، وأنه المستحق أن تصرف له جميع أنواع العبادات.

﴿٦٥-٦٨﴾ ﴿قل لا يعلم من في

فهذه الغيوب ونحوها، اختص الله بعلمها، فلم يعلمها ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وإذا كان هو المنفرد بعلم ذلك، المحيط علمه بالسرائر والبواطن والخفايا، فهو الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ثم أخبر تعالى عن ضعف علم المكذبين بالآخرة، منتقلاً من شيء إلى ما هو أبلغ منه، فقال:

﴿وما يشعرون﴾ أي: وما يدرون ﴿أيان يبعثون﴾ أي: متى البعث والنشور، والقيام من القبور، أي: فلذلك لم يستعدوا، ﴿بل أذرك علمهم في الآخرة﴾ أي: بل ضعف، وقُلْ ولم يكن يقيناً، ولا علماً واصلاً إلى القلب، وهذا أقل وأدنى درجة للعلم، ضعفه ووهائه، بل ليس عندهم علم، ولا ضعيف، وإنما هم في شك منها﴾ أي: من الآخرة، والشك زال به العلم، لأن العلم بجميع مراتبه، لا يجامع الشك، ﴿بل هم منها﴾ أي: من الآخرة ﴿عمون﴾ قد عميت عنها بصائرهم، ولم يكن في قلوبهم من وقوعها ولا احتمال، بل أنكروها واستبعدوها، ولهذا قال: ﴿وقال الذين كفروا إذا كنا تراباً وأبأؤنا إنا لمخرجون﴾ أي: هذا بعيد غير ممكن، قاسوا قدرة كامل القدرة بقدرهم الضعيفة، ﴿لقد وعدنا هذا﴾ أي: البعث ﴿نحن وأبأؤنا من قبل﴾ أي:



معانيه، فهو لاء تحصل لهم به الهداية إلى الصراط المستقيم، والرحمة المتضمنة للسعادة والفوز والفلاح.

﴿٧٨﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ

بحكمه وهو العزيز العليم﴾ أي: إن الله تعالى سيفصل بين المتخاصمين، وسيحكم بين المختلفين، بحكمه العدل، وقضائه القسط، فالأمر وإن حصل فيها اشتباه في الدنيا بين المختلفين، لحفاء الدليل، أو لبعض المقاصد، فإنه سيبين فيها الحق المطابق للواقع، حين يحكم الله فيها، ﴿وهو العزيز﴾ الذي قهر الخلائق فأذعنوا له، ﴿العليم﴾ بجميع الأشياء ﴿العليم﴾ بأقوال المختلفين، وعن ماذا صدرت، وعن غاياتها ومقاصدها، وسيجازي كلا بما علمه فيه.

﴿٧٩-٨١﴾ ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ

إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ \* إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْوَعْدَ وَلَا تَسْمَعُ الْوَعْدَ إِذَا لَوْا مَدِيرِينَ \* وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمِيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: اعتمد على ربك في جلب المصالح ودفع المضار، وفي تبليغ الرسالة، وإقامة الدين، وجهاد الأعداء. ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ الواضح، والذي على الحق، يدعو إليه، ويقوم بنصرته، أحق من غيره بالتوكل، فإنه يسمى في أمر مجزوم به، معلوم صدقه، لا شك فيه ولا مرية. وأيضاً، فهو حق في غاية البيان، لا خفاء به ولا اشتباه، وإذا قمت بما حملت، وتوكلت على الله في ذلك، فلا يضرك ضلال من ضل، وليس عليك هداهم، فلهذا قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْوَعْدَ وَلَا تَسْمَعُ الْوَعْدَ﴾ أي: حين تدعوهم وتناديهم، وخصوصاً ﴿إِذَا لَوْا مَدِيرِينَ﴾ فإنه يكون أبلغ في عدم إسماعهم.

﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمِيِّ عَنْ

ضَلَالَتِهِمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. ﴿إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: هؤلاء الذين ينفادون لك، الذين يؤمنون

لهم وقوع ما استعجلوه: ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَكُمْ﴾ أي: قرب منكم، وأوشك أن يقع بكم بعض الذي تستعجلون﴾ من العذاب.

﴿٧٣-٧٥﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَلدُّ فَضْلٌ

عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ \* وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تَكُنْ صُدُورُهُمْ وَمَا يَعْلَنُونَ \* وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مَبِينٍ \* يَنْبِئُ عِبَادَهُ، عَلَى سَعَةِ جُودِهِ، وَكَثْرَةِ أَفْضَالِهِ، وَيُخَبِّرُهُمْ عَلَى شُكْرِهِمَا، وَمَعَ هَذَا، فَأَكْثَرُ النَّاسِ قَدْ أَعْرَضُوا عَنِ الشُّكْرِ، وَاسْتَغْلَوْا بِالنِّعَمِ عَنِ الْمُنْعَمِ.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تَكُنْ﴾ أي: تنطوي عليه ﴿صُدُورُهُمْ وَمَا يَعْلَنُونَ﴾ فليحذروا من عالم السرائر والظواهر، وليراقبوه.

﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خفية، وسر من أسرار العالم العلوي والسفلي، ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مَبِينٍ﴾ قد أحاط ذلك الكتاب بجميع ما كان ويكون إلى أن تقوم الساعة، فكل حادث يحدث جلي أو خفي، إلا وهو مطابق لما كتب في اللوح المحفوظ.

﴿٧٦-٧٧﴾ ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ

يَقْضَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ \* وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا خبر عن هيمنة القرآن، على الكتب السابقة، وتفصيله وتوضيحه، لما كان فيها قد وقع فيه اشتباه واختلاف عند بني إسرائيل، فنقضه هذا القرآن نقضاً زال به الإشكال، وبيّن الصواب من المسائل المختلف فيها. وإذا كان بهذه المثابة، من الجلالة والوضوح، وإزالة كل خلاف، وفصل كل مشكل، كان أعظم نعم الله على العباد، ولكن ما كل أحد يقابل النعمة بالشكر. ولهذا بين أن نفعه ونوره وهده، مخصص بالمؤمنين، فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ﴾ من الضلالة والغنى والشبه ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ تتلج له صدورهم، وتستقيم به أمورهم الدينية والدنيوية ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ به، المصدقين له، المتلقين له بالقبول، المقبلين على تدبيره، المتفكرين في

فلم يجئنا، ولا رأينا منه شيئاً. ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: قصصهم وأخبارهم، التي تقطع بها الأوقات، وليس لها أصل، ولا صدق فيها.

فانتقل في الإخبار عن أحوال هؤلاء المكذبين بالإخبار أنهم لا يدرون متى وقت الآخرة، ثم الإخبار بضعف علمهم فيها، ثم الإخبار بأنه شك، ثم الإخبار بأنه عسى، ثم الإخبار بإنكارهم لذلك واستجادهم وقوعه.

أي: وبسبب هذه الأحوال ترسل خوف الآخرة من قلوبهم، فأقدموا على معاصي الله، وسهل عليهم تكذيب الحق، والتصديق بالباطل، واستحلوا الشهوات على القيام بالعبادات، ففسدوا دينهم وأخراهم.

﴿٦٩﴾ ﴿ثُمَّ نَبِّهَهُمْ عَلَىٰ صَدَقِ مَا

أَخْبَرْتَهُم بِهِ الرَّسُلَ، فَقَالَ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ فلا تجدون مجرماً قد استمر على إجرامه، إلا وعاقبته شر عاقبة، وقد أحل الله به من الشر والعقوبة ما يليق بحاله.

﴿٧٠-٧٢﴾ ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ

وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ \* وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ \* قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي: لا تحزن يا محمد على هؤلاء المكذبين، وعدم إيمانهم، فإنك لو علمت ما فيهم من الشر، وأنهم لا يصلحون للخير، لم تأس ولم تحزن، ولا يضق صدرك، ولا تقلق نفسك بمكرهم، فإن مكرهم سيعود عاقبته عليهم، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ ويقول المكذبون بالمعاد، وبالخلق الذي جاء به الرسول، مستعجلين للعذاب: ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذا من سفاهة رأيهم وجهلهم، فإن وقوعه ووقته، قد أجله الله بأجله، وقدره بقدر، فلا يدل عدم استعجاله على بعض مطلوبهم.

ولكن - مع هذا - قال تعالى محذراً

بآيات الله، وينقادون لها بأعمالهم واستسلامهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

﴿٨٢﴾ ﴿وإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: إذا وقع على الناس القول الذي حُثِّمَهُ اللهُ وفرض وقته. ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً خَارِجَةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أو دابة من دواب الأرض، ليست من السماء، وهذه الدابة ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ أي: تكلم العباد أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون، أي: لأجل أن الناس، ضعف علمهم وبقينهم بآيات الله، فأظهر الله هذه الدابة، من آيات الله العجيبة، ليبين للناس ما كانوا فيه يمترون.

وهذه الدابة، هي الدابة المشهورة، التي تخرج في آخر الزمان، وتكون من أشرطة الساعة، كما تكاثرت بذلك الأحاديث، لأول بيات دليل يدل على كقيبتها، ولا من أي: نوع هي، وإنما دلت الآية الكريمة على أن الله يخرجها للناس، وأن هذا التكليم منها خارق للموائد المألوفة، وأنه من الأدلة على صدق ما أخبر الله به في كتابه، والله أعلم<sup>(١)</sup>.

﴿٨٣ - ٨٥﴾ ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ مِّنْ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ \* حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوا قَالَ أَكْذِبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ \* وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ يخبر تعالى عن حالة المكذبين في موقف القيامة، وأن الله يجمعهم، ويحشر من كل أمة من الأمم فوجاً وطائفة ﴿مِمَّنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يجمع أولهم على آخرهم، وآخرهم على أولهم، ليعمهم السؤال والتوبيخ واللوم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوا﴾ وحضروا، قال لهم موبخاً ومقراً: ﴿أَكْذِبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا﴾ العلم، أي: الواجب عليكم التوقف حتى ينكشف لكم الحق، وأن لا تتكلموا إلا بعلم، فكيف كذبتهم بأمر لم تحيطوا به علماً؟ ﴿أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يسألهم عن علمهم، وعن عملهم، فيجد علمهم تكديباً بالحق، وعملهم لغير الله، أو على غير سنة رسولهم.

﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا﴾ أي: حقت عليهم كلمة العذاب بسبب ظلمهم الذي استمروا عليه، وتوجهت عليهم الحجة، ﴿فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ لأنه لا حجة لهم.

﴿٨٦﴾ ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَا فِيهِ وَالنَّهَارَ مَبْصُورًا إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: ألم يشاهدوا هذه الآية العظيمة، والنعمة الجسيمة، وهو تسخير الله لهم الليل والنهار، هذا بظلمته، ليسكنوا فيه ويستريحوا من التعب، ويستمدوا للعمل، وهذا بضيائه، لينتشروا فيه في معاشهم وتصرفاتهم. ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ على كمال وحدانية الله وسبوح نعمته.

﴿٨٧ - ٩٠﴾ ﴿وَيَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ فَفُزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَنفُوسٍ دَاخِرِينَ \* وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمْرٌ مِّمَّنَ السَّحَابِ صَنَعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ \* مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّنْ فَزَعٍ يَوْمِئِذٍ آمِنُونَ \* وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكَيْتٌ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يخوف تعالى عباده، ما أمامهم من يوم القيامة، وما فيه من المحن والكروب، ومزعجات القلوب، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ فَفُزِعَ﴾ بسبب النفخ فيه ﴿مَن

مَن يَكْفُرُ بِالْحَسَنَةِ فَهُوَ كَمَا يَكْفُرُ بِهَا وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمْرٌ مِّمَّنَ السَّحَابِ صَنَعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ \* وَمَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّنْ فَزَعٍ يَوْمِئِذٍ آمِنُونَ \* وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكَيْتٌ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

سورة القصص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
مَآ تَدْرِكُهُ لَیْلَةٌ إِلَّا جَاءَهَا مَلَائِكَةٌ مِّنَ السَّمَاءِ بِحُجْرٍ مَُّسْكُورٍ أُولَٰئِكَ حُسْعُ اللَّهِ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لَأَجْرٌ كَثِيرٌ وَلَا يَزِيدُهُمْ فِيهِمْ إِلَّا حُسْنًا  
مَّا تَدْرِكُهُ لَیْلَةٌ إِلَّا جَاءَهَا مَلَائِكَةٌ مِّنَ السَّمَاءِ بِحُجْرٍ مَُّسْكُورٍ أُولَٰئِكَ حُسْعُ اللَّهِ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لَأَجْرٌ كَثِيرٌ وَلَا يَزِيدُهُمْ فِيهِمْ إِلَّا حُسْنًا

في السماوات ومن في الأرض﴾ أي: انزعجوا وارتاعوا، وماج بعضهم ببعض، خوفاً مما هو مقدمة له. ﴿إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ ممن أكرمه الله وثبته، وحفظه من الفزع، ﴿وَكُلُّ مَن خَلَقَ عِنْدَ النَّفْخِ فِي الصُّورِ﴾ أتوه داخرين ﴿صَاغِرِينَ ذَلِيلِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنْ كَلَّمْنَا مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا أَنِّي الرَّحْمَنُ عَبْدًا﴾. فصي ذلك اليوم، يشاوي الرؤساء والمرؤوسون، في الذل والخضوع للملك الملك.

ومن قوله أنك ﴿تَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً﴾ لا تفقد شيئاً منها، وتظنها باقية على الحال الممهودة، وهي قد بلغت منها الشدائد والأحوال كل مبلغ، وقد تفتت، ثم تضمحل، وتكون هباء منبثاً. ولهذا قال: ﴿وَهِيَ تَمْرٌ مِّمَّنَ السَّحَابِ﴾ من حفتها، وشدت ذلك الخوف وذلك ﴿صَنَعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

ثم بين كيفية جزائه فقال: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ اسم جنس يشمل كل حسنة، قولية أو فعلية أو قلبية ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ هذا أقل التفضيل<sup>(٢)</sup>.

(١) ما بين القوسين المركبين زيادة من هاشم أبخط الشيخ - رحمه الله - وفي ب زيادة أخرى، يبدو أنها بخرطة - رحمه الله - هي: (لم يذكر الله ورسوله كيفية هذه الدابة، وإنما ذكر أثرها، والمقصود منها، وأنها من آيات الله تكلم الناس كلاماً خارقاً للعادة حين يقع القول على الناس، وحين يمترون بآيات الله فنكون حجة وبرهاناً للمؤمنين وحجة على المعاندین).  
(٢) سبق قلم الشيخ إلى آية الأنعام ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ وعليه فسرها.

الفاظه ومعانيه، فهذا الذي علي وقد أديته، ﴿فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه﴾ نفعه يعود عليه، وشمرته عائدة إليه ﴿ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين﴾ وليس بيدي من الهداية شيء.

المجلد السادس من تفسير الكرمي الرحمن في تفسير كلام الصالحين، من متن الله على الفقير إلى العبد المحمدي، عبده وابن عبده وابن أمته: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن محمدي، غفر الله له وأمين.

**تفسير سورة القصص وهي مكية**

﴿١-٥١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم طسم \* تلك آيات الكتاب المبين \* نزلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون﴾ إلى آخر القصة. ﴿تلك﴾ الآيات المستحقة

للمتعظيم والتفخيم ﴿آيات الكتاب المبين﴾ لكل أمر يحتاج إليه العباد، من معرفة ربهم، ومعرفة حقوقه، ومعرفة أوليائه وأعدائه، ومعرفة وقائعه وأيامه، ومعرفة ثواب الأعمال، وجزاء العمال، فهذا القرآن قد بينها غاية التبیین، وجلاها للعباد ووضحها.

من جملة ما أبان، قصة موسى وفرعون، فإنه أبداها، وأعادها في عدة مواضع، وبسطها في هذا الموضع فقال: ﴿نزلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق﴾. فإن نبأها غريب، وخبرها عجيب.

﴿لقوم يؤمنون﴾ فالإيم يساق الخطاب، ويوجه الكلام، حيث إن معهم من الإيمان ما يقبلون به على تدبر ذلك، وتلقيه بالقبول والاعتناء بمواقف العبر، ويزدادون إيماناً ويقيناً، وخيراً إلى خيرهم، وأما من عداهم، فلا يستفيدون منه إلا إقامة الحججة عليهم، وصانه الله عنهم، وجعل بينهم وبينه حجاباً أن يفقهوه، فأول هذه القصة ﴿إن فرعون عللني الأرض﴾ في ملكه وسلطانه وجنوده وجبروته، فصار من أهل العلو فيها، لا من الأعلىين فيها. ﴿وجعل أهلها

﴿وقل الحمد لله﴾ الذي له الحمد في الأولى والآخرة، ومن جميع الخلق، خصوصاً أهل الاختصاص والصفوة من عباده، فإن الذي ينبغي أن يقع منهم من الحمد والشناء على ربهم، أعظم مما يقع من غيرهم لرفعة درجاتهم، وكمال قربهم منه، وكثرة خيراته عليهم.

﴿سيريكم آياته فتعرفونها﴾ معرفة تدلكم على الحق والباطل، فلا بد أن يريكم من آياته ما تستشيرون به في الظلمات. ﴿لهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾ ﴿وما ريك بغافل عما تعملون﴾ بل قد علم ما أنتم عليه من الأعمال والأحوال، وعلم مقدار جزاء تلك الأفعال، وسيحكم بينكم حكماً تحمدونه عليه، ولا يكون لكم حجة بوجه من الوجوه عليه.

تم تفسير سورة النمل بفضل الله وإيادته وتيسيره ونسأله تعالى أن لا تزال الطافه ومعونته مستمرة علينا، وواصله منه إلينا، فهو أكرم الأكرمين، وخير الراحمين، وموصل النقطتين، وموجب السائلين، ميسر الأمور العسيرة، وفتاح أبواب بركاته، ومجزئ في جميع الأوقات هيئاته، ميسر القرآن للمتذكرين، ومسهل طرقه وأبوابه للمقبلين، وممد مائدة خيراته وميراثه للمتفكرين، والحمد لله رب العالمين.

وصل الله على محمد وآله وصحبه وسلم. على يد جاسمعه وعمليه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله



﴿وهم من فرغ يومئذ آمنون﴾ أي: من الأمر الذي فرغ الخلق لأجله آمنون، وإن كانوا يفرعون معهم.

﴿ومن جاء بالسيف﴾ اسم جنس، يشمل كل سببة ﴿فكبت وجوههم في النار﴾ أي: ألقوا في النار على وجوههم، ويقال لهم: ﴿هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾

﴿٩١-٩٣﴾ ﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين \* وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين \* وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ريك بغافل عما تعملون﴾ أي: قل لهم يا محمد ﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة﴾ أي: مكة المكرمة التي حرمها وأنعم على أهلها، فيجب أن يقابلوا ذلك بالشكر والقبول. ﴿وله كل شيء﴾ من العلويات والسفليات، أتى به لئلا يتوهم اختصاص ربوبيته بالبيت وحده. ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾<sup>(١)</sup> أي: أبادر إلى الإسلام، وقد فعل ﷺ، فإنه أول هذه الأمة إسلاماً، وأعظمها استسلاماً، ﴿و﴾ أمرت أيضاً ﴿أن أتلو﴾ عليكم القرآن ﴿لتهتدوا به وتقتنوا وتعلموا﴾

(١) سبق قلم الشيخ - رحمه الله - فكتب: ﴿وأمرت أن أكون أول المسلمين﴾ وعلى هذا فشر الآية.

شيعاً أي: طوائف متفرقة، يتصرف فيهم بشهوته، وينفذ فيهم ما أراد من قهره وسلطوته.

﴿يستضعف طائفة منهم﴾ وتلك الطائفة، هم بنو إسرائيل، الذين فضلهم الله على العالمين، الذين له أن يكرمهم ويذلهم، ولكنه استضعفهم، بحيث إنه رأى أنهم لا منعة لهم عنهم مما أرادهم فيهم، فصار لا يبالي بهم، ولا يهتم بشأنهم، وبلغت به الحال إلى أنه يذبح أبناءهم ويستحیی نساءهم ﴿خوفاً من أن يكثروا، فيغمروه في بلاده، ويصير لهم الملك.

﴿إنه كان من المفسدين﴾ الذين لا قصد لهم في إصلاح الدين، ولا إصلاح الدنيا، وهذا من إفساده في الأرض.

﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض﴾ بأن نزيل عنهم مواد الاستضعاف، ونهلك من قاومهم، ونخذل من ناوهم. ﴿ونجعلهم أئمة﴾ في الدين، وذلك لا يحصل مع الاستضعاف، بل لا بد من تمكين في الأرض، وقدرة تامة، ﴿ونجعلهم للوارثين﴾ للأرض، الذين لهم العاقبة في الدنيا قبل الآخرة. ﴿ونمكن لهم في الأرض﴾ فهذه الأمور كلها، قد تعلق بها إرادة الله، وجرت بها مشيئته، ﴿و﴾ كذلك نريد أن نري فرعون وهامان ﴿وزيره﴾ وجنودهما التي بها صالوا وجالوا، وعلوا وبغوا ﴿منهم﴾ أي: من هذه الطائفة المستضعفة. ﴿ما كانوا يحذرون﴾ من إخراجهم من ديارهم، ولذلك كانوا يسعون في قمعهم، وكسر شوكتهم، وتقتيل أبنائهم، الذين هم محل ذلك، فكل هذا قد أراده الله، وإذا أراد أمراً سهلاً أسبابه، ونهج طريقه، وهذا الأمر كذلك، فإنه قدز وأجرى من الأسباب - التي لم يشعر بها لا أولياؤه ولا أعداؤه - ما هو سبب موصل إلى هذا المقصود، فأقول ذلك، لما أوجد الله رسوله

موسى، الذي جعل استنقاذ هذا الشعب الإسرائيلي على يديه وبسببه، وكان في وقت تلك المخافة العظيمة، التي يذبحون بها الأبناء، أوحى إلى أمه أن ترضعه، ويمكث عندها.

﴿فإذا خفت عليه﴾ بأن أحسست أحداً تخافين عليه منه أن يوصله إليهم، ﴿فألقه في اليم﴾ أي: نيل مصر، في وسط تابوت مغلق، ﴿ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ فيشرها بأنه سيرده عليها، وأنه سيكبر ويسلم من كيدهم، ويعمله الله رسولا.

وهذا من أعظم البشائر الجليلة، وتقديم هذه البشائر لام موسى، ليطمئن قلبها، ويسكن روعها، فإنها خافت عليه، وفعلت ما أمرت به، ألقته في اليم، فساقه الله تعالى حتى ﴿التقطه آل فرعون﴾ فصار من لقطهم، وهم الذين باشروا وجدانه، ﴿ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ أي: لتكون العاقبة والمآل من هذا الالتقاط، أن يكون عدواً لهم وحزناً يحزنهم، بسبب أن الحذر لا ينفع من القدر، وأن الذي خافوا منه من بني إسرائيل، قبض الله أن يكون زعيمهم، يترى تحت أيديهم، وعلى نظرهم، ويكفالتهم.

وعند التدبير والتأمل، نجد في طي ذلك من المصالح لبني إسرائيل، ودفع كثير من الأمور الفادحة بهم، ومنع كثير من التعدييات قبل رسالته، بحيث إنه صار من كبار الملكة.

وبالطبع، إنه لا بد أنه يحصل منه مدافعة عن حقوق شعبه هذا، وهو هو ذو الهممة العالية والغيرة المثوقة، ولهذا وصلت الحال بذلك الشعب المستضعف - الذي بلغ بهم الذل والإهانة إلى ما قص الله علينا بعضه - أن صار بعض أفرادها، ينازع ذلك الشعب القاهر العالي في الأرض، كما سيأتي بيانه.

وهذا مقدمة للظهور، فإن الله تعالى

وَأَلْقَى لُقْمًا فِي الْيَمِّ فَأَخَذْتَهُ مِثْكَارًا وَعَلِمَ أَنَّهُ نَجِيُّ  
الْحَيِيِّينَ ﴿ وَتَحَلَّى الْكُوَيْتَةَ عَلَى عَيْنٍ عَمْرٍوسَ  
مَعَهَا ﴿ وَكَانَ فِي وَقْتِ تِلْكَ الْمَخَافَةِ الْعَظِيمَةِ  
الَّتِي يَذْبَحُونَ بِهَا الْأَبْنَاءَ، أَوْحَى إِلَى أُمِّهِ  
أَنْ تَرْضِعَهُ، وَيَمْكُثَ عِنْدَهَا. ﴿ فَإِذَا خِفْتَ عَلَيْهِ  
أَنَّ أَحْسَسْتَ أَحَدًا تَخَافِينَ عَلَيْهِ مِنْهُ أَنْ يُوَصِّلَهُ  
إِلَيْهِمْ، ﴿ فَأَلْقِهِ فِي الْيَمِّ ﴾ أَيْ: نَيْلِ مِصْرَ، فِي  
وَسْطِ تَابُوتٍ مَغْلُوقٍ، ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي  
إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ فَيُشْرُهَا  
بِأَنَّهَا سَيُرَدُّ عَلَيْهَا، وَأَنَّهَا سَيُكَبَّرُ وَيُسَلِّمُ  
مِنْ كَيْدِهِمْ، وَيَعْمَلُهُ اللَّهُ رَسُولًا. وَهَذَا مِنْ  
أَعْظَمِ الْبَشَائِرِ الْجَلِيلَةِ، وَتَقْدِيمِ هَذِهِ  
الْبَشَائِرِ لَامِ مُوسَى، لِيَطْمَئِنَّ قَلْبُهَا، وَيَسْكُنَ  
رُوعُهَا، فَإِنَّهَا خَافَتْ عَلَيْهِ، وَفَعَلَتْ مَا  
أَمَرْتُ بِهَا، أَلْقَيْتُهُ فِي الْيَمِّ، فَسَاقَهُ اللَّهُ  
تَعَالَى حَتَّى ﴿الْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ فَصَارَ مِنْ  
لِقْطِهِمْ، وَهُمُ الَّذِينَ بَاشَرُوا وَجْدَانَهُ، ﴿ لِيَكُونَ  
لَهُمْ عَدُوًّا وَحِزْنًا ﴾ أَيْ: لِتَكُونَ الْعَاقِبَةُ  
وَالْمَآلُ مِنْ هَذَا الْإِلْتِقَاطِ، أَنَّ يَكُونَ عَدُوًّا  
لَهُمْ وَحِزْنًا يَحْزِنُهُمْ، بِسَبَبِ أَنَّ الْحِذْرَ لَا  
يَنْفَعُ مِنَ الْقَدْرِ، وَأَنَّ الَّذِي خَافُوا مِنْهُ مِنْ  
بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَبِضَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ زَعِيمَهُمْ،  
يَتَرَى تَحْتَ أَيْدِيهِمْ، وَعَلَى نَظَرِهِمْ، وَيَكْفُلْتَهُمْ.

من سنته الجارية، أن جعل الأمور تمسي على التدرج شيئاً فشيئاً، ولا تأتي دفعة واحدة.

وقوله: ﴿إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين﴾ أي: فأردنا أن نعاقبهم على خطئهم <sup>(١)</sup> ونكيدهم جزاء على مكرمهم وكيدهم.

فلما التقطه آل فرعون، حزن الله عليه امرأة فرعون الفاضلة الجليلة المؤمنة «آسية» بنت مزاحم «وقالت» هذا الولد «قرة عين لي ولك لا تقتلوه» أي: أبقه لنا، ليقربه أعيننا، ونسره في حياتنا.

«عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً» أي: لا نخلو، إما أن يكون بمنزلة الخدم، الذين يسعون في نفعنا وخدمتنا، أو نرقبه منزلة أعلى من ذلك، نجعله ولداً لنا، ونكرمه، ونحله.

فقدر الله تعالى، أنه نفع امرأة فرعون، التي قالت تلك المقالة، فإنه لما صار قرة عين لها، وأحبت حباً شديداً، فلم يزل لها بمنزلة الولد الشفيق حتى كبر ونبأه الله وأرسله، فبادرت إلى الإسلام والإيمان به، رضي الله عنها وأرضاها.

قال الله تعالى عن هذه المراجعات



منعه من قبول ثدي امرأة، فأخرجوه إلى السوق رحمة به، ولعل أحداً يطلبه، فجماعت أخته، وهو بتلك الحال **﴿فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون﴾**

وهذا جُلّ غرضهم، فإنهم أحبوه حباً شديداً، وقد منعه الله من المراضع فخافوا أن يموت، فلما قالت لهم أخته تلك المقالة، المشتملة على الترهيب في أهل هذا البيت، بتمام حفظه وكفالتها، والنصح له، بادروا إلى إيجابتها، فأعلمتهم ودلتهم على أهل هذا البيت.

**﴿فرددناه إلى أمه﴾** كما وعدناها بذلك **﴿كي تفر عينها ولا تحزن﴾** بحيث إنه تربي عندها على وجه تكون فيه أمانة مطمئنة، تفرح به، وتأخذ الأجرة الكثيرة على ذلك، **﴿ولتعلم أن وعد الله حق﴾** فأريناها بعض ما وعدناها به عياناً، ليطمئن بذلك قلبها، ويزداد إيمانها، ولتعلم أنه سيحصل وعد الله في حفظه ورسالته، **﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾** فإذا رأوا السبب متشوشاً، شوش ذلك إيمانهم، لعدم علمهم الكامل، أن الله تعالى يجعل المحن الشاقة والعقبات الشاقة، بين يدي الأمور العالية والمطالب الفاضلة، فاستمر موسى عليه الصلاة والسلام عند آل فرعون، يتربى في سلطانهم، ويركب مراكبهم، ويلبس ملابسهم، وأمه بذلك مطمئنة، قد استقر أنها أمه من الرضاع، ولم يستنكر ملازمته إياها وحتوها عليه.

وتأمل هذا اللطف، وصيانة نبي موسى من الكذب في منطقه، وتيسير الأمر، الذي صار به التعلق بينه وبينها، الذي بان للناس أنه هو الرضاع، الذي بسببه يسميها أمًا، فكان الكلام الكثير منه ومن غيره في ذلك كله صدقاً وحقاً.

**﴿ولما بلغ أشده﴾** من القوة والعقل واللب، وذلك نحو أربعين سنة في الغالب، **﴿واستوى﴾** كملت فيه تلك الأمور، **﴿أتيناها﴾** حكماً وعلماً **﴿أي﴾** حكماً يعرف به الأحكام الشرعية، ويحكم به بين الناس، وعلماً كثيراً.

**﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾** في عبادة الله، المحسنين لخلق الله، نعطيهم علماً وحكماً بحسب إحسانهم، ودل هذا على كمال إحسان موسى عليه السلام.

**﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها﴾** إما وقت القائلة، أو غير ذلك من الأوقات التي بها يغفلون عن الانتشار. **﴿فوجد فيها رجلين يقتتلان﴾** أي: يتخاصمان ويتضاربان **﴿هذا من شيعته﴾** أي: من بني إسرائيل **﴿وهذا من عدوه﴾** القبط.

**﴿فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه﴾** لأنه قد اشتهر، وعلم الناس أنه من بني إسرائيل، واستغاثه لموسى، دليل على أنه بلغ موسى عليه السلام مبلغاً يخاف منه، ويرجى من بيت الملكة والسلطان.

**﴿فكرهه موسى﴾** أي: وكز الذي من عدوه، استجابة لاستغاثته الإسرائيلي، **﴿فقضى عليه﴾** أي: أماته من تلك الوكزة، لشدتها وقوة موسى. فندم موسى عليه السلام على ما جرى منه، و **﴿قال هذا من عمل الشيطان﴾** أي: من تزيينه وسوسته، **﴿إنه عدو مضل مبين﴾** فلذلك أجزيت ما أجزيت بسبب عدوانته البينة، وحرصه على الإضلال.

ثم استغفر ربه **﴿قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي﴾** فغفر له إنه هو الغفور الرحيم **﴿خصوصاً للمخبتين، المبادرين للإنباء والثبوة، كما جرى من موسى عليه السلام﴾**.

**﴿قال﴾** موسى **﴿رب بما أنعمت علي﴾** بالثبوة والمغفرة والنعيم الكثيرة، **﴿فلن أكون ظهيراً﴾** أي: معيناً ومساعداً **﴿للمجرمين﴾** أي: لا أعين أحداً على معصية، وهذا وعد من موسى عليه السلام، بسبب منة الله عليه، أن لا يعين مجرماً، كما فعل في قتل القبطي. وهذا يفيد أن النعم تقضي من العبد فعل الخير وترك الشر.

**﴿ذ﴾** لما جرى منه قتل الذي هو من عدوه **﴿أصبح في المدينة خائفاً**

والمقاولات] في شأن موسى: **﴿وهم لا يشعرون﴾** ما جرى به القلم، ومضى به القدر، من وصوله إلى ما وصل إليه، وهذا من لطفه تعالى، فإنهم لو شعروا، لكان لهم وله شأن آخر.

ولما فقدت موسى أمه، حزنت حزناً شديداً، وأصبح فؤادها فارغاً من القلق الذي أزعجها، على مقتضى الحالة البشرية، مع أن الله تعالى نهاها عن الحزن والخوف، وورعها برده.

**﴿إن كادت لتبدي به﴾** أي: بما في قلبها **﴿لولا أن ربطنا على قلبها﴾** فحبتها، فصبرت، ولم تبد به. **﴿لنكون﴾** بذلك الصبر والثبات **﴿من المؤمنين﴾** فإن العبد إذا أصابته مصيبة فصبر وثبت، ازداد بذلك إيمانه، ودل ذلك على أن استمرار الجزع مع العبد، دليل على ضعف إيمانه.

**﴿وقالت﴾** أم موسى **﴿لأخته قصيه﴾** أي: اذهبي [فقصي الأثر عن أخيك وابحثي عنه من غير أن يحس بك أحد أو يشعروا بمقصودك فذهبت تقصه] **﴿فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون﴾** أي: أبصرته على وجه، كأنها مارة لا قصد لها فيه.

وهذا من تمام الحزم والحذر، فإنها لو أبصرته، وجاءت إليهم قاصدة، لظنوا بها أنها هي التي ألفتها، فربما عزموا على ذبحه، عقوبة لأهله. ومن لطف الله بموسى وأمه، أن

يترقب هل يشعر به آل فرعون أم لا؟ وإنما خاف، لأنه قد علم، أنه لا يتجرأ أحد على مثل هذه الحال سوى موسى من بني إسرائيل.

فبينما هو على تلك الحال ﴿فإذا الذي استنصره بالأمس﴾ على عدوه ﴿يستصرخه﴾ على قبطي آخر. ﴿قال له موسى﴾ مويخا له على حاله ﴿إنك لغوي مبين﴾ أي: بين الغواية، ظاهر الجراءة، ﴿فلما أن أراد أن يبطش﴾ موسى ﴿بإلذي هو عدو لهما﴾ أي: له وللمخاصم المستصرخ، أي: لم يزل اللجاج بين القبطي والإسرائيلي، وهو يستغيث بموسى، فأخذته الحمية، حتى هم أن يبطش بالقبطي، ﴿قال له القبطي زاجراً له عن قتله﴾: أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض، لأن من أعظم آثار الجبار في الأرض، قتل النفس بغير حق.

﴿وما تريد أن تكون من المصلحين﴾ وإلا، فلو أردت الإصلاح لحلت بيني وبينه من غير قتل أحد، فانكف موسى عن قتله، وازعوى لوعظه وزجره، وشاع الخبر بما جرى من موسى في هاتين القضيتين، حتى تراود ملا فرعون وفرعون على قتله، وتشاوروا على ذلك، وقبض الله ذلك الرجل الناصح، وبادرهم إلى الإخبار لموسى بما اجتمع عليه رأي ملئهم. فقال: ﴿وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى﴾ أي: ركضاً على قدميه من نصحه لموسى، وخوفه أن يقعوا به قبل أن يشعر، فـ ﴿قال يا موسى إن الملا بأثمرون﴾ أي: يتشاورون فيسك ﴿ليقتلوك فاخرج﴾ عن المدينة ﴿إني لك من الناصحين﴾ فامتثل نصحه، ﴿فخرج منها خائفاً يترقب﴾ أن يوقع به القتل، ودعا الله، و ﴿قال رب نجني من القوم الظالمين﴾ فإنه قد تاب من ذنبه وفعله غضباً من غير قصد منه للقتل، فتوعدهم له ظلم منهم وجراءة.

﴿ولما توجه تلقاء مدين﴾ أي: قاصداً بوجهه مدين، وهو جنوبي

فلسطين، حيث لا ملك لفرعون، ﴿قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾ أي: وسط الطريق المختصر، الموصل إليها بسهولة ورفق، فهده الله سواء السبيل، فوصل إلى مدين.

﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون﴾ مواشيه، وكانوا أهل ماشية كثيرة ﴿ووجد من دونهم آي: من دون تلك الأمة﴾ امرأتين تودان ﴿غنمهما عن حياض الناس، لعجزهما عن مزاحمة الرجال وبلحهم، وعدم مروءتهم عن السقي لهما.

﴿قال لهما موسى﴾ ما خطبكما؟ أي: ما شأنكما بهذه الحالة، ﴿قالنا لا نسقي حتى يصدر الرعاء﴾ أي: قد جرت العادة أنه لا يحصل لنا سقي حتى يصدر الرعاء مواشيه، فإذا خلا لنا الجوسقينا، ﴿وأبونا شيخ كبير﴾ أي: لا قوة له على السقي، فليس فينا قوة نقتدر بها، ولا لنا رجال يزاحمون الرعاء. ففرق لهما موسى عليه السلام ورحهما ﴿فسقى لهما﴾ غير طالب منهما الأجرة، ولا له قصد غير وجه الله تعالى، فلما سقى لهما، وكان ذلك وقت شدة حر، وسط النهار، بدليل قوله: ﴿ثم تولى إلى الظل﴾ مستريحاً لذلك الظلال بعد التعب.

﴿فقال﴾ في تلك الحالة، مستزقاً ربه ﴿رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير﴾ أي: إني مفتقر للخير الذي تسوقه إلي وتيسره لي. وهذا سؤال منه بحاله، والسؤال بالحال أبلغ من السؤال بلسان المقال، فلم يزل في هذه الحالة داعياً ربه متملقاً.

وأما المرأتان، فذهبتا إلى أبيهما، وأخبرتاه بما جرى، فأرسل أبوهما إحداهما إلى موسى، فجاهته ﴿ثمسي على استحيا﴾ وهذا يدل على كرم عنصرها، وخلقها الحسن، فإن الحياة من الأخلاق الفاضلة، وخصوصاً في النساء.

ويدل على أن موسى عليه السلام، لم يكن فيما فعله من السقي لهما بمنزلة الأجير والخدام الذي لا يستحي منه عادة، وإنما هو عزيز النفس، رأته من

﴿فلما سقى موسى الأجر وسكن بأهلها﴾ ما كنت أحب الأجر كما قال لهما أنتما إني أتيتك نكاحاً ليس يتحصن بهما من أوجدة من الأجر كما كنت تعلمون ﴿فلما أتتهن فرس من شوطي الواد الأيمن في القفة﴾ أي: في القفة من الشجرة أن تمشوا في القفة أمهت من العيون ﴿وأن أنى معك فلتان لهما من حكاها مائة﴾ أي: مائة من قرونها ﴿ثم سقى أولادها﴾ إله من الأجر ﴿أسقتهن في حياض تخرج ينحدر من غير مشورة منكم﴾ أي: جناحك من الأجر فلتانها من مكان من ذلك إلى رؤسك ولا يكون لهما أن يقرن قرونها ﴿فلما رأين أن ذلك ينحدر فلتانها أن ينحدرن﴾ وأبى حياضها هو الصالح من لسانها فأرسله نساء ربه ما يصرفني إلى أهلك أن يصحركون ﴿قال سقتهن عندك بأية واحدة وعمل أصحاً من ذلكا فترسوا إلى كتابنا أن تروا أن تسمعنا القليلين﴾

حسن خلقه ومكارم أخلاقه، ما أوجب لها الحياة منه، فـ ﴿قالت له: إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾ أي: لا ليمن عليك، بل أنت الذي ابتدأنا بالإحسان، وإنما قصده أن يكافئك على إحسانك، فأجابها موسى.

﴿فلما جاءه وقص عليه القصص﴾ من ابتداء السبب الموجب لهربه، إلى أن وصل إليه ﴿قال له مسكناً روعه، جابراً قلبه: لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾ أي: ليذهب خوفك وروعك، فإن الله نجاك منهم، حيث وصلت إلى هذا المحل، الذي ليس لهم عليه سلطان.

﴿قالت إحداهما﴾ أي: إحدى ابنته ﴿بأبى استأجره﴾ أي: اجعله أجيراً عندك، يرعى الغنم ويسقيها، ﴿إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾ أي: إن موسى أولى من استأجر فإنه جمع القوة والأمانة، وخير أجير استأجر، من جمعهما، أي: القوة والقدرة على ما استأجر عليه، والأمانة فيه بعدم الخيانة، وهذان الوصفان، ينبني اعتبارهما في كل من يتولى للإنسان عملاً، بإجارة أو غيرها.

فإن الخلل لا يكون إلا بفقد أحدهما أو فقد إحداهما، وأما اجتماعهما، فإن العمل يتم ويكمل، وإنما قالت ذلك، لأنها شاهدت من قوة موسى عند

على ما نقول وكيل ﴿حافظ يراقبنا، ويعلم ما تعافدنا عليه.

وهذا الرجل، أبو المرأتين، صاحب مدين، ليس بشعيب النبي المعروف، كما اشتهر عند كثير من الناس، فإن هذا قول لم يبدل عليه دليل، وغاية ما يكون، أن شعيباً عليه السلام، قد كانت بلده مدين، وهذه القضية جرت في مدين، فأين الملازمة بين الأمرين. وأيضاً، فإنه غير معلوم أن موسى أدرك زمان شعيب، فكيف بشخصه؟! ولو كان ذلك الرجل شعبياً، لذكره الله تعالى، ولسمته المرأتان، وأيضاً فإن شعبياً عليه الصلاة والسلام، قد أهلك الله قومه بتكذيبهم إياه، ولم يسبق إلا من آمن به، وقد أعاد الله المؤمنين أن يرضوا لبنتي نبيهم، بمنعهما عن الماء، وصد ماشيتهما، حتى يأتيهما رجل غريب، فيحسن إليهما، ويسقي ماشيتهما، وما كان شعيب ليرضى أن يرعى موسى عنده ويكون خادماً له، وهو أفضل منه وأعلى درجة، والله أعلم، إلا أن يقال: هذا قبل نبوة موسى فلا منافاة وعلى كل حال لا يعتمد على أنه شعيب النبي بغير نقل صحيح عن النبي ﷺ<sup>(١)</sup>.

فإن قوله: ﴿أقبل﴾ يقتضي الأمر بإقباله، ويجب عليه الامتثال، ولكن قد يكون إقباله، وهو لم يزل الأمر المخوف، فقال: ﴿ولا تخف﴾ أمر له بشيئين، إقباله، وأن لا يكون في قلبه خوف، ولكن يبقى احتمال، وهو أنه قد يقبل وهو غير خائف، ولكن لا تحصل له الوقاية والأمن من المكروه، فقال: ﴿إنك من الآمنين﴾ فحيث اندفع المحذور من جميع الوجوه، فأقبل موسى عليه السلام غير خائف ولا مرعوب، بل مطمئن، وانقأ بخير ربه، قد ازداد إيمانه، وتم يقينه، فهذه آية أراه الله إياها قبل ذهابه إلى فرعون، ليكون على يقين تام، فيكون<sup>(٢)</sup> أجره وأقوى وأصلب، ثم أراه الآية الأخرى فقال: ﴿اسلك يدك﴾ أي: أدخلها ﴿في جيبك﴾ فخرج بيضاء من غير سوء ﴿فسلكتها وأخرجها﴾ كما ذكره الله تعالى.

﴿واضمم إليك جناحك من الرهب﴾ أي: ضم جناحك وهو عضدك إلى جنبك يزول عنك الرهب والخوف. ﴿فذانك﴾ انقلاب العصا حية، وخروج اليد بيضاء من غير سواد ﴿برهاتان من ربك﴾ أي: حجتان قاطعتان من الله، ﴿إلى فرعون وملئه﴾ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴿فلا يكفهم﴾ مجرد الإنذار وأمر الرسول إياهم، بل لا بد من الآيات الباهرة، إن نعمت.

ف﴿قال﴾ موسى عليه السلام،

على ما نقول وكيل ﴿حافظ يراقبنا، ويعلم ما تعافدنا عليه.

وهذا الرجل، أبو المرأتين، صاحب مدين، ليس بشعيب النبي المعروف، كما اشتهر عند كثير من الناس، فإن هذا قول لم يبدل عليه دليل، وغاية ما يكون، أن شعيباً عليه السلام، قد كانت بلده مدين، وهذه القضية جرت في مدين، فأين الملازمة بين الأمرين. وأيضاً، فإنه غير معلوم أن موسى أدرك زمان شعيب، فكيف بشخصه؟! ولو كان ذلك الرجل شعبياً، لذكره الله تعالى، ولسمته المرأتان، وأيضاً فإن شعبياً عليه الصلاة والسلام، قد أهلك الله قومه بتكذيبهم إياه، ولم يسبق إلا من آمن به، وقد أعاد الله المؤمنين أن يرضوا لبنتي نبيهم، بمنعهما عن الماء، وصد ماشيتهما، حتى يأتيهما رجل غريب، فيحسن إليهما، ويسقي ماشيتهما، وما كان شعيب ليرضى أن يرعى موسى عنده ويكون خادماً له، وهو أفضل منه وأعلى درجة، والله أعلم، إلا أن يقال: هذا قبل نبوة موسى فلا منافاة وعلى كل حال لا يعتمد على أنه شعيب النبي بغير نقل صحيح عن النبي ﷺ<sup>(١)</sup>.

﴿فلما قضى موسى الأجل﴾ يحتمل أنه قضى الأجل الواجب، أو الزائد عليه، كما هو الظن بموسى ووفاته، اشتاق إلى الوصول إلى أهله والدة وعشيرته ووطنه، وعلم من طول المدة، أنهم قد تناسوا ما صدر منه. ﴿سار بأهله﴾ قاصداً مصر، ﴿آتس﴾ أي: أبصر ﴿من جانب الطور نارا﴾ قال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعل آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴿وكان قد أصابهم البرد، وتأهوا الطريق.

﴿٣٠﴾ فلما أتاه نودي ﴿يا موسى﴾ إننا الله رب العالمين ﴿فأخبره﴾ بألوهيته وربوبيته، ويلزم من ذلك، أن



السقي لهما ونشاطه، ما عرفت به قوته، وشاهدت من أمانته وديانته، وأنه رحهما في حالة لا يرجى نفعهما، وإنما قصد [بذلك] وجه الله تعالى، ﴿قال﴾ صاحب مدين لموسى: ﴿إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تاجرني﴾ أي: تصير أجيراً عندي ﴿ثماني حجج﴾ أي: ثماني سنين. ﴿فإن أتممت عشرأ فمن عندك﴾ نزع منك، لا شيء واجب عليك. ﴿وما أريد أن أشق عليك﴾ فأحتم عشر السنين، أو ما أريد أن أستأجرك لأكلفك أعمالاً شاقة، وإنما أستأجرك لعمل سهل يسير لا مشقة فيه ﴿سنجدني إن شاء الله من الصالحين﴾ فرغبه في سهولة العمل، وفي حسن المعاملة، وهذا يدل على أن الرجل الصالح، ينبغي له أن يحسن خلقه مهما أمكنه، وأن الذي يطلب منه، أبلغ من غيره.

ف﴿قال﴾ موسى عليه السلام - عجيباً له فيما طلب منه -: ﴿ذلك ببني وبينك﴾ أي: هذا الشرط، الذي أنت ذكرت، رضيت به، وقد تم فيما بيني وبينك. ﴿أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي﴾ سواء قضيت الشمانى الواجبة، أم تبرعت بالزائد عليها ﴿والله

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ليكون.





الذي أنزله على موسى، فيه بصائر للناس، أي: أمور يبصرون بها ما ينفعهم وما يضرهم، فتقوم الحججة على العاصي، وينتفع بها المؤمن، فتكون رحمة في حقه، وهداية له إلى الصراط المستقيم، ولهذا قال: ﴿وهدى ورحمة لعلمهم يذكرون﴾.

ولما قص الله على رسوله ما قص، من هذه الأخبار الغيبية، تبه العباد على أن هذا خير إلهي محض، ليس للرسول طريق إلى علمه إلا من جهة الوحي، ولهذا قال: ﴿وما كنت بجانب الغربي﴾ أي: بجانب الطور الغربي وقت فضائنا لموسى الأمر، ﴿وما كنت من الشاهدين﴾ على ذلك، حتى يقال: إنه وصل إليك من هذا الطريق، ﴿ولكننا أنشأنا قروناً فنتاولو عليهم العمر﴾ فاندرس العلم ونسيت آياته، فبعثناك في وقت اشتدت الحاجة إليك وإلى ما علمناك وأوحينا إليك. ﴿وما كنت ثاوياً﴾ أي: مقيماً ﴿في أهل مدين تنلو عليهم آياتنا﴾ أي: تعلمهم وتتعلم منهم، حتى أخبرت بما أخبرت من شأن موسى في مدين، ﴿ولكننا كنا مرسلين﴾ أي: ولكن ذلك الخبير الذي جئت به عن موسى، أثار من آثار إرسالنا إياك، ووحي لا سبيل لك إلى علمه بدون إرسالنا.

فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴿كانت أشد العواقب وأخسرها عاقبة أعقبتها العقوبة الدنيوية المستمرة، المتصلة بالعقوبة الأخروية.

﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار﴾ أي: جعلنا فرعون وملاه من الأئمة الذين يقتدى بهم ويمشى خلفهم إلى دار الخزي والشقاء. ﴿ويوم القيامة لا ينصرون﴾ من عذاب الله، فهم أضعف شيء، عن دفعه عن أنفسهم، وليس لهم من دون الله من ولي ولا نصير.

﴿وأنبئناهم في هذه الدنيا لعنة﴾ أي: وأنبئناهم زيادة في عقوبتهم وخزيهم، في الدنيا لعنة يلعنون، ولهم عند الخلق الشقاء والقت والذم، وهذا أمر مشاهد، فهم أئمة للمؤمنين في الدنيا ومقدمتهم، ﴿ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ بالمعدين، المستقرة أفعالهم. الذين اجتمع عليهم مقت الله، ومقت خلقه، ومقت أنفسهم.

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ وهو التوراة ﴿من بعد ما أهلكنا القرون الأولى﴾ الذين كان خاتمهم في الإهلاك العام، فرعون وجنوده. وهذا دليل على أنه بعد نزول التوراة، انقطع الهلاك العام، وشرع جهاد الكفار بالسيف.

﴿بصائر للناس﴾ أي: كتاب الله،

وإنذاره للعرب لا ينفي أن يكون مرسلًا لغيرهم، فإنه عربي، والقرآن الذي أنزل عليه عربي، وأول من باشر بدعوته العرب، فكانت رسالته إليهم أصلاً، ولغيرهم تبعاً، كما قال تعالى: ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس﴾ ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾.

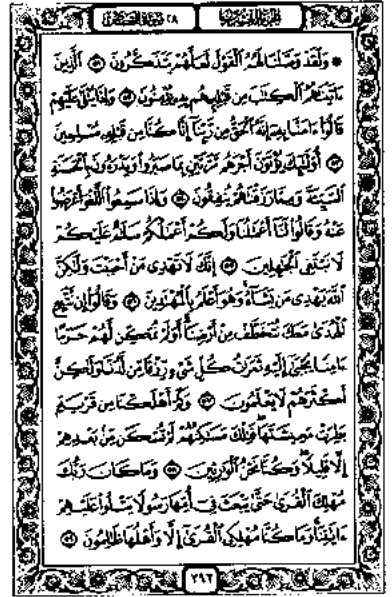
﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم﴾ من الكفر والمعاصي ﴿فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً ففتتح آياتك ونكون من المؤمنين﴾ أي: فأرسلناك يا محمد، لدفع حاجتهم، وقطع مقاتلهم.

﴿فلما جاءهم الحق﴾ الذي لا شك فيه ﴿من عندنا﴾ وهو القرآن، الذي أوحيناه إليك ﴿قالوا﴾ مكذبين له، ومعترضين بما ليس يعترض به: ﴿لولا أوتي مثل ما أوتي موسى﴾ أي: أنزل عليه كتاب من السماء جملة واحدة. أي: فأما ما دام ينزل متفرقاً، فإنه ليس من عند الله. وأي: دليل في هذا؟ وأي: شبهة أنه ليس من عند الله حين نزل مفرقاً؟

بل من كمال هذا القرآن، واعتناء الله بمن أنزل عليه، أن نزل متفرقاً، ليثبت الله به فؤاد رسوله، ويحصل زيادة الإيمان للمؤمنين ﴿ولا بأنوثك بمثل إلا جنتك بالحق وأحسن تفسيراً﴾. وأيضاً، فإن قياسهم على كتاب موسى، قياس قد نقضوه،

﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾ موسى، وأمرناه أن يأتي القوم الظالمين، ويبلغهم رسالتنا، ويربهم من آياتنا وعجايبنا ما قصصنا عليك. والمقصود: أن الماجريبات التي جرت لموسى عليه الصلاة والسلام في هذه الأماكن، فقصصنا كما هي، من غير زيادة ولا نقص، لا يخلو من أحد أمرين:

إما أن تكون حضرتهما وشاهدتهما، أو ذهبت إلى محالها فتعلمتها من أهلها، فحيث قد لا يبدل ذلك على أنك رسول الله، إذ الأمور التي يجبر بها عن شهادة ودراسة، من الأمور المشتركة غير المختصة بالأنبياء، ولكن هذا قد علمت وتيقن أنه ما كان وما صار، فأولياؤك وأعداؤك يعلمون عدم ذلك.



فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴿كانت أشد العواقب وأخسرها عاقبة أعقبتها العقوبة الدنيوية المستمرة، المتصلة بالعقوبة الأخروية.

﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار﴾ أي: جعلنا فرعون وملاه من الأئمة الذين يقتدى بهم ويمشى خلفهم إلى دار الخزي والشقاء. ﴿ويوم القيامة لا ينصرون﴾ من عذاب الله، فهم أضعف شيء، عن دفعه عن أنفسهم، وليس لهم من دون الله من ولي ولا نصير.

﴿وأنبئناهم في هذه الدنيا لعنة﴾ أي: وأنبئناهم زيادة في عقوبتهم وخزيهم، في الدنيا لعنة يلعنون، ولهم عند الخلق الشقاء والقت والذم، وهذا أمر مشاهد، فهم أئمة للمؤمنين في الدنيا ومقدمتهم، ﴿ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ بالمعدين، المستقرة أفعالهم. الذين اجتمع عليهم مقت الله، ومقت خلقه، ومقت أنفسهم.

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ وهو التوراة ﴿من بعد ما أهلكنا القرون الأولى﴾ الذين كان خاتمهم في الإهلاك العام، فرعون وجنوده. وهذا دليل على أنه بعد نزول التوراة، انقطع الهلاك العام، وشرع جهاد الكفار بالسيف.

﴿بصائر للناس﴾ أي: كتاب الله،

الأمور، خصوصاً إذا كانوا مظلومين، كما استنقذ الله أمة بني إسرائيل، الأمة الضعيفة، من أسر فرعون وملئه، ومكنهم في الأرض، وملكهم بلادهم.

ومنها: أن الأمة ما دامت ذليلة مقهورة لا تأخذ حقها ولا تتكلم به، لا يقوم لها أمر دينها، [ولا دنياها] (٣٢) ولا يكون لها إمامة فيه.

ومنها: لطف الله بأم موسى، وعيونه عليها المصيبة بالبشارة، بأن الله سيرد إليها ابنها، ويجعله من المرسلين.

ومنها: أن الله يقدر على عبده بعض المشاق، لينيله سروراً أعظم من ذلك، أو يدفع عنه شراً أكثر منه، كما قدر على أم موسى ذلك الحزن الشديد، والههم البليغ، الذي هو وسيلة إلى أن يصل إليها ابنها، على وجه تظلمن به نفسها، وتقر به عينها، وتردد به غبطة وسروراً.

ومنها: أن الحرف الطبيعي من الخلق، لا يتنافى الإيمان ولا يزيله، كما جرى لأم موسى لموسى من تلك المخاوف.

ومنها: أن الإيمان يزيد وينقص، وأن من أعظم ما يزيد به الإيمان، ويتم به اليقين، الصبر عند المزعجات، والتثبيت من الله عند المقلقات، كما قال تعالى: ﴿لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين﴾ أي: ليزداد إيمانها بذلك ويظمن قلبها.

ومنها: أن من أعظم نعم الله على عبده، و [أعظم] معونة للعبد على أموره، تثبيت الله إياه، وربط جاشه وقلبه عند المخاوف، وعند الأمور المذلة، فإنه بذلك يتمكن من القول الصواب، والفعل الصواب، بخلاف من استمر قلقه وروعه وانزعاجه، فإنه يضيع فكره، ويذهل عقله، فلا ينتفع بنفسه في تلك الحال.

ومنها: أن العبد - ولو عرف أن القضاء والقدر ووعد الله نافذ لا بد منه - فإنه لا يهمل فعل الأسباب التي

من هذا وصفه؟! ولكن ظلمه وعدوانه، وعدم محبته للحق، هو الذي أوجب له: أن يبقى على ضلاله ولا يهديه الله، فلهذا قال: ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي: الذين صار الظلم لهم وصفاً والعناد لهم نعتاً، جاءهم الهدى فرفضوه، وعرض لهم الهدى فتيعوه، سدوا على أنفسهم أبواب الهداية وطرقها، وفتحوا عليهم أبواب الغواية وسبلها، فهم في غيهم وظلمهم يعمهون، وفي شقاقتهم وهلاكهم يترددون.

وفي قوله: ﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم﴾ دليل على أن كل من لم يستجب للرسول، وذهب إلى قول مخالف لقول الرسول، فإنه لم يذهب إلى هدى، وإنما ذهب إلى هوى.

﴿ولقد وصلنا لهم القول﴾ أي: تابعناه وواصلناه، وأنزلناه شيئاً فشيئاً، رحمة بهم ولطفاً ﴿لعلهم يتذكرون﴾ حين تتكرر عليهم آياته، وتنزل عليهم بيناته وقت الحاجة إليها. فصار نزوله متفرقاً رحمة بهم، فلم اعتراضوا بما هو من مصالحهم؟

### فصل في ذكر بعض الفوائد والعبر في هذه القصة العجيبة

فمنها أن آيات الله تعالى وعبره، وأيامه في الأمم السابقة، إنما يستفيد بها ويستنير المؤمنون، فعلى حسب إيمان العبد تكون عبرته، وإن الله تعالى إنما يسوق القصص لأجلهم، وأما غيرهم، فلا يعبا الله بهم، وليس لهم منها نور وهدى.

ومنها: أن الله تعالى إذا أراد أمراً هيباً أسبابه، وأتى بها شيئاً فشيئاً بالتدرج، لا دفعة واحدة.

ومنها: أن الأمة المستضعفة، ولو بلغت في الضعف ما بلغت، لا ينبغي لها أن يستولي عليها الكسل عن طلب حقها، ولا الإياس من ارتقائها إلى أعلى

فكيف يقيسونه على كتاب كفروا به ولم يؤمنوا؟ ولهذا قال: ﴿أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا ساحران تظاهرا﴾ أي: القرآن والتوراة، تعاونا في سحرهما وإضلال الناس ﴿وقالوا إنا بكل كافرون﴾ فثبت بهذا أن القوم يريدون إبطال الحق بما ليس ببرهان، وينقضونه بما لا ينقض، ويقولون الأقوال المتناقضة المختلفة، وهذا شأن كل كافر. ولهذا صرح أنهم كفروا بالكتابين والرسولين، ولكن هل كفرهم بهما طلباً للحق، واتباعاً لأمر عندهم خير منهما، أم مجرد هوى؟

قال تعالى ملزماً لهم بذلك: ﴿فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما﴾ أي: من التوراة والقرآن ﴿أتبعه إن كنتم صادقين﴾ ولا سبيل لهم ولا لغيرهم أن يأتوا بمثلهما، فإنه ما طرقت العالم منذ خلقه الله، مثل هذين الكتابين، علماً، وهدى، وبياناً، ورحمة للخلق، وهذا من كمال الإنصاف من الداعي أن قال: أنا مقصودي الحق والهدى والرشد، وقد جئتكم بهذا الكتاب المشتمل على ذلك، الموافق لكتاب موسى، فيجب علينا جميعاً الإذعان لهما واتباعهما، من حيث كونهما هدى وحقاً، فإن جئتموني بكتاب من عند الله هو أهدى منهما اتبعته، وإلا فلا أترك هدى وحقاً قد علمته لغير هدى وحق (٣٣).

﴿فإن لم يستجيبوا لك﴾ فلم يأتوا بكتاب أهدى منهما ﴿فاعلم أنما يتبعون أهواءهم﴾ أي: فاعلم أن تركهم اتباعك، ليسوا ذاهبين إلى حق يعرفونه، ولا إلى هدى، وإنما ذلك مجرد اتباع لأهوائهم. ﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾ فهذا من أضل الناس، حيث عرض عليه الهدى والصرط المستقيم، الموصول إلى الله وإلى دار كرامته، فلم يلتفت إليه ولم يقبل عليه، ودعاه هواه إلى سلوك الطرق الموصلة إلى الهلاك والشقاء (٣٤)، فاتبعه وترك الهدى، فهل أحد أضل

(٣) زيادة من هامش: ب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: الشقاق.

(١) كذا في ب، وفي أ: لغيره حق.

**[يعمل] للإنسان، أن يكون قوياً أميناً.**  
ومنها: أن من مكارم الأخلاق، أن يُحَسِّن خلقه لأجيريه وخادمه، ولا يشق عليه بالعمل، لقوله: ﴿وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين﴾.

ومنها: جواز عقد الإجارة وغيرها من العقود من دون إسهاد، لقوله: ﴿والله على ما نقول وكيل﴾.

ومنها: ما أجرى الله على يد موسى من الآيات البينات، والمعجزات الظاهرة، من الحية، وانقلاب يده بيضاء من غير سوء، ومن عصمة الله لموسى وهارون، من فرعون، ومن الفرق.

ومنها: أن من أعظم العقوبات أن يكون الإنسان إماماً في الشر، وذلك بحسب معارضته لآيات الله وبيئاته، كما أن من أعظم نعمة أنعم الله بها على عبده، أن يجعله إماماً في الخير هادياً مهدياً.

ومنها: ما فيها من الدلالة على رسالة محمد ﷺ، حيث أخبر بذلك تفصيلاً مطابِقاً، وتأصيلاً موافقاً، قصه قصاً، صدق به المرسلين، وأيد به الحق المبين، من غير حضور شيء من تلك الوقائع، ولا مشاهدة لموضع واحد من تلك المواضع، ولا تلاوة درس فيها شيئاً من هذه الأمور، ولا مجالسة أحد من أهل العلم، إن هو إلا رسالة الرحيم الرحمن، ووحى أنزله عليه الكريم المنان، لينذر به قوماً جاهلين، وعن النذر والرسول غافلين.

فصلوات الله وسلامه، على من مجرد خيره بنبي، أنه رسول الله، ومجرد أمره ونهيه بينه العقول الثيرة، أنه من عند الله، كيف وقد تطابق على صحة ما جاء به وصدقه خبر الأولين والآخرين، والشرع الذي جاء به من رب العالمين، وما جُبل عليه من الأخلاق الفاضلة التي لا تناسب ولا تصلح إلا لأعلى الخلق درجة، والنصر المبين لدينه وأمته، حتى بلغ دينه مبلغ

ترتكب الأخف منهما والأسلم، كما أن موسى، لما دار الأمر بين بقاءه في مصر ولكنه يقتل، أو يذهب<sup>(١)</sup> إلى بعض البلدان البعيدة التي لا يعرف الطريق إليها، وليس معه دليل [يدل] له غير ربه، ولكن هذه الحالة أقرب للسلامة من الأولى، فتبعها موسى.

ومنها: أن الناظر في العلم عند الحاجة إلى التكلم فيه، إذا لم يترجح عنده أحد القولين، فإنه يستهدي ربه، ويسأله أن يهديه الصواب من القولين، بعد أن يقصد بقلبه الحق ويبحث عنه، فإن الله لا يخيب من هذه حاله. كما خرج موسى تلقاء مدين فقال: ﴿عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾.

ومنها: أن الرحمة بالخلق، والإحسان على من يعرف ومن لا يعرف، من أخلاق الأنبياء، وأن من الإحسان سقي الماشية الماء، وإعانة العاجز.

ومنها: استحباب الدعاء بتبيين الحال وشرحها، ولو كان الله عالماً بها، لأنه تعالى، يجب تضرع عبده وإظهار ذله ومسكته، كما قال موسى: ﴿رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير﴾.

ومنها: أن الحياة - خصوصاً من الكرام - من الأخلاق المدوحة. ومنها: المكافأة على الإحسان لم يزل دأب الأمم السابقين.

ومنها: أن العبد إذا فعل العمل لله تعالى، ثم حصل له مكافأة عليه من غير قصد بالقصد الأول، أنه لا يلام على ذلك، كما قبل موسى مجازاة صاحب مدين عن معروفه الذي لم يتبع له، ولم يستشرف بقلبه على عوض.

ومنها: مشروعية الإجارة، وأنها تجوز على رعاية الفئمة ونحوها، مما لا يقدر العمل، وإنما مرده العرف.

ومنها: أنه تجوز الإجارة بالمنفعة، ولو كانت المنفعة بضعاً.

ومنها: أن خطية الرجل لا يثبتته الرجل الذي يتخيره لا يلام عليه.

ومنها: أن خير أجبر وعامل

أمر بها، ولا يكون ذلك منافياً لإيمانه بخير الله، فإن الله قد وعد أم موسى أن يرده عليها، ومع ذلك، اجتهدت على رده، وأرسلت أخته لتقصه وتطلبه.

ومنها: جواز خروج المرأة في حوائجها، وتكليمها للرجال من غير محذور، كما جرى لأخت موسى وابنتي صاحب مدين.

ومنها: جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع، والدلالة على من يفعل ذلك.

ومنها: أن الله من رحمته بعبده الضعيف الذي يريد إكرامه، أن يريه من آياته، ويشهده من بيئاته، ما يزيد به إيمانه، كما رد الله موسى على أمه، لتعلم أن وعد الله حق.

ومنها: أن قتل الكافر الذي له عهد بعقد أو عرف لا يجوز، فإن موسى عليه السلام عد قتل القبطي الكافر ذنباً، واستغفر الله منه.

ومنها: أن الذي يقتل النفوس بغير حق يُعد من الجبارين الذين يفسدون في الأرض.

ومنها: أن من قتل النفوس بغير حق، وزعم أنه يريد الإصلاح في الأرض، وتبويب أهل المعاصي، فإنه كاذب في ذلك، وهو مفسد كما حكى الله قول القبطي: ﴿إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين﴾ على وجه التقرر له، لا الإنكار.

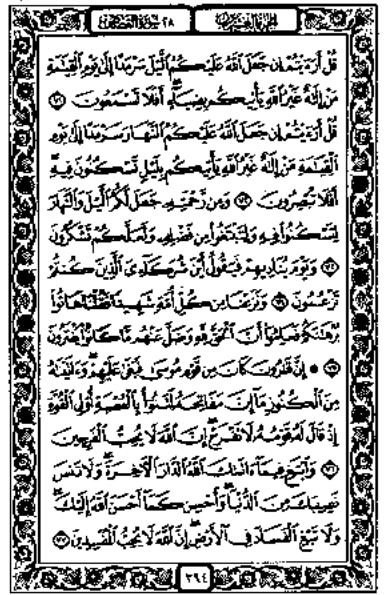
ومنها: أن إخبار الرجل غيره بما قيل فيه، على وجه التحذير له من شر يقع فيه، لا يكون ذلك نسيمة - بل قد يكون واجباً - كما أخبر ذلك الرجل لموسى، ناصحاً له ومخبراً.

ومنها: أنه إذا خاف القتل والتلف في الإقامة، لا يلقي يده إلى التهلكة، ولا يستسلم لذلك، بل يذهب عنه، كما فعل موسى.

ومنها: أنه عند تراحم المفسدين، إذا كان لا بد من ارتكاب أحدهما، أنه

(١) كذا في ب، وفي أ: ويذهب.





﴿وما كنا مهلكي القرى إلا أهلها ظالمون﴾ بالكفر والمعاصي، مستحقون للعقوبة. والحاصل: أن الله لا يعذب أحداً إلا بظلمه، وإقامة الحجة عليه.

﴿٦٠ - ٦١﴾ ﴿وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون﴾ \* آمن وعدناه وعداً حسناً فهو لآقيه كمن تمتعنا متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾ هذا حصص من الله لعباده على الزهد في الدنيا وعدم الاغترار بها، وعلى الرغبة في الآخرة، وجعلها مقصود العبد ومطلوبه، ويخبرهم أن جميع ما أوتيه الخلق، من الذهب، والفضة، والحيوانات، والأمتعة، والنساء، والسنن، والمأكّل، والمشارب، واللذات، كلها متاع الحياة [الدنيا] وزينتها، أي: يتمتع به وقتاً قصيراً، متاعاً قاصراً، محشواً بالمنغصات، محزواً بالقصص.

ويزين به زماناً يسيراً، للفخر والرياء، ثم يزول ذلك سريعاً، وينقضي جميعاً، ولم يستفد صاحبه منه إلا الحسرة والتدم، والحقية والحمران.

﴿وما عند الله﴾ من التعميم القيم، والعيش السليم ﴿خير وأبقى﴾ أي: أفضل في وصفه وكميته، وهو دائم أبداً، مستمر سرمداً.

﴿أفلا تعقلون﴾ أي: أفلا يكون لكم عقول، بما تزنون أي: الأمور<sup>(١)</sup> أول بالإشارة، وأي: الدارين أحق للعمل لها، فدل ذلك أنه بحسب عقل العبد، يؤثر الأخرى على الدنيا، وأنه ما أثر أحد الدنيا إلا لتقص في عقله، ولهذا نبه العقول على الموازنة بين عاقبة مؤثر الدنيا ومؤثر الآخرة، فقال: ﴿آمن وعدناه وعداً حسناً فهو لآقيه﴾ أي: هل يستوي مؤمن ساع للأخرة سعيها، قد عمل على وعد ربه له، بالشواب الحسن، الذي هو الجنة، وما فيها من التعميم العظيم، فهو لآقيه من

الأمكن، قد حف بها الخوف من كل جانب، وأهلها غير آمنين ولا مطمئنين، فليخمدوا بهم على هذا الأمن التام، الذي ليس فيه غيرهم، وعلى الرزق الكثير، الذي يبيح إليهم من كل مكان، من الثمرات والأطعمة والبضائع، ما به يرتزقون ويتوسعون.

وليتنبهوا هذا الرسول الكريم، لئتم لهم الأمن والرخد، وإباهم وتكذيبه، والبطر بنعمة الله، فيبدلوا من بعد أمنهم خوفاً، وبعد عزهم ذلاً، وبعد غناهم فقراً، ولهذا توعدهم بما فعل بالأمم قبلهم، فقال:

﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها﴾ أي: فخرت بها وألتهتها، واشتغلت بها عن الإيمان بالرسول، فأهلكهم الله، وأزال عنهم النعمة، وأحل بهم العقوبة. ﴿فذلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً﴾ لتوالي الهلاك والتلف عليهم، وإجاحتها من بعدهم.

﴿وكننا نحن الوارثين﴾ للعباد، نمتهم، ثم ترجع إلينا جميع ما تمتعناهم به من النعم، ثم نعيدهم<sup>(٢)</sup> إلينا فنجازيم بأعمالهم.

ومن حكمته ورحمته أن لا يعذب الأمم بمجرد كفرهم قبل إقامة الحجة عليهم، بإرسال الرسل إليهم، ولهذا قال: ﴿وما كان ربك مهلك القرى﴾ أي: بكفرهم وظلمهم ﴿حتى يبعث في أمها﴾ أي: في القرية والمدينة التي إليها يرجعون، ونحوها يترددون، وكل ما حولها ينتجعها، ولا تخفى عليه أخبارها.

﴿رسولاً يتلو عليهم آياتنا﴾ الدالة على صحة ما جاء به، وصدق ما دعاهم إليه، فيبلغ قوله قاصيهم ودانيهم، بخلاف بعث الرسل في القرى البعيدة، والأطراف النائية، فإن ذلك مظنة الخفاء والجفاء، والمدن الأمهات مظنة الظهور والانتشار، وفي الغالب أنهم أقل جفاء من غيرهم.

بطرت معيشتها فذلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وكننا نحن الوارثين \* وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا أهلها ظالمون \* يخبر تعالى أن المكذبين من قريش وأهل مكة، يقولون للرسول ﷺ: ﴿إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا﴾ بالقتل والأسر ونهب الأموال، فإن الناس قد عادوك وخالفوك، فلو تابعناك لتعرضنا لمعاداة الناس كلهم، ولم يكن لنا بهم طاقة.

وهذا الكلام منهم، يدل على سوء الظن بالله تعالى، وأنه لا ينصر دينه، ولا يعلي كلمته، بل يمكن الناس من أهل دينه، فيسومونهم سوء العذاب، وظنوا أن الباطل سيعلو على الحق.

قال الله مبيناً لهم حالة هم بها دون الناس وأن الله اختصهم بها، فقال: ﴿أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجيب إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا﴾ أي: أولم نجعلهم متمكين [ممكنين] في حرم يكثره المتابون، ويقصده الزائرون، قد احترمه البعيد والقريب، فلا يهاج أهله، ولا ينتقصونه بقليل [ولا كثيراً].

والحاصل أن كل ما حولهم من

(١) كذا في ب، وفي آ: ثم نعيدهم إلينا فنجازيمهم، وهو خطأ ظاهر من النسخ.

(٢) في ب: الأميين.

غير شك ولا ارتياب، لأنه وعد من كريم صادق الوعد، لا يخلف الوعد، لعبد قام بمرضاته وجانب سخطه، ﴿كمن تمتناه متاع الحياة الدنيا﴾ فهو يأخذ فيها ويعطي، ويأكل ويشرب، ويتمتع كما تتمتع البهائم، قد اشتغل بديناه عن آخرته، ولم يرفع يهدي الله رأساً، ولم يتفقد للمرسلين، فهو لا يزال كذلك، لا يتزود من دنياه إلا الخسار والهلاك.

﴿ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾ للحساب، وقد علم أنه لم يقدم خيراً لنفسه، وإنما قدم جميع ما يضره، وانتقل إلى دار الجزاء بالأعمال، فما ظنكم إلى ما يصير إليه؟ وما تحسبون ما يصنع به؟ فليختر العاقل لنفسه، ما هو أولى بالاختيار، وأحق الأمرين بالإيتار.

﴿٦٢ - ٦٦﴾ ﴿ويوم يناديهم فيقول أبن شركاتي الذين كنتم تزعمون﴾ قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغويتنا أغويتناهم كما غويتنا تيرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون \* وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون \* ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين \* فعميت عليهم الأنبياء يومئذ فهم لا يتساءلون﴾ هذا إخبار من الله تعالى، عما يسأل عنه الخلائق يوم القيامة، وأنه يسألهم عن أصول الأشياء، وعن عبادة الله وإجابة رسله، فقال: ﴿ويوم يناديهم﴾ أي: ينادي من أشركوا به شركاء يعبدونهم، ويرجون نعمهم، ودفع الضر عنهم، فيناديهم، ليبين لهم عجزها وضلالهم، ﴿فيقول أبن شركاتي﴾ وليس لله شريك، ولكن ذلك بحسب زعمهم وافترائهم، ولهذا قال: ﴿الذين كنتم تزعمون﴾ فأين هم، بذرائعهم، وأين نعمهم وأين دفعهم؟

ومن المعلوم أنه<sup>(١)</sup> يتبين لهم في تلك الحال، أن الذي عبدوه ورجوه باطل، مضمحل في ذاته، وما رجوا

منه، فيقرّون على أنفسهم بالضلالة والغواية، ولهذا ﴿قال الذين حق عليهم القول﴾ الرؤساء والقادة، في الكفر والشر، مقرين بغوايتهم وإغوائهم: ﴿ربنا هؤلاء﴾ التابعون ﴿الذين أغويتنا أغويتناهم كما غويتنا﴾ أي: كلنا قد اشترك في الغواية، وحق عليه كلمة العذاب.

﴿تيرأنا إليك﴾ من عبادتهم، أي: نحن برآء منهم ومن عملهم. ﴿ما كانوا إيانا يعبدون﴾ وإنما كانوا يعبدون الشياطين.

﴿وقيل﴾ لهم: ﴿ادعوا شركاءكم﴾ على ما أملتكم فيهم من النفع فأمرؤا بدعائهم في ذلك الوقت الحرج، الذي يضطر فيه العابد إلى من عبده.

﴿فدعوهم﴾ ليتفرغهم، أو يدفعوهم عنهم من عذاب الله من شيء. ﴿فلم يستجيبوا لهم﴾ فلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين مستحقين للعقوبة، ﴿ورأوا العذاب﴾ الذي سيحل بهم عياناً، بأبصارهم بعدما كانوا مكذّبين به منكرين له.

﴿لو أنهم كانوا يهتدون﴾ أي: لما حصل عليهم ما حصل، ولهدوا إلى صراط الجنة، كما اهتدوا في الدنيا، ولكن لم يهتدوا، فلم يهتدوا.

﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾ هل صدقتموهم، ﴿واجبتموهم﴾ أم كذبتموهم وخالفتموهم؟

﴿فعميت عليهم الأنبياء يومئذ فهم لا يتساءلون﴾ أي: لم يجيروا عن هذا السؤال جواباً، ولم يهتدوا إلى الصواب.

ومن المعلوم أنه لا ينجلي في هذا الموضوع إلا التصريح بالجواب الصحيح، المطابق لأحوالهم، من أننا أجبناهم بالإيمان والانتقاد، ولكن لما علموا تكذيبهم لهم وعنادهم لأمرهم، لم ينطقوا بشيء، ولا يمكن أن يتساءلوا ويتراجعوا بينهم في ماذا

يحييون به، ولو كان كذباً.

﴿٦٧﴾ ﴿فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المقبلين﴾ لما ذكر تعالى سؤال الخلق عن معبودهم وعن رسولهم، ذكر الطريق الذي ينجو به العبد من عقاب الله تعالى، وأنه لا نجاة إلا لمن اتصف بالتوبة من الشرك والمعاصي، وآمن بالله فعبده، وآمن برسله فصدقهم، وعمل صالحاً متعباً فيه للرسول، ﴿فعسى أن يكون﴾ من جمع هذه الخصال ﴿من المقبلين﴾ الناجحين بالطلب، الناجحين من المهروب، فلا سبيل إلى الفلاح بدون هذه الأمور.

﴿٦٨ - ٧٠﴾ ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون﴾ وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون \* وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون﴾ هذه الآيات، فيها عموم خلقه لسائر المخلوقات، ونفوذ مشيئته بجميع البريات، وانفراده باختيار من يختاره ويختصه، من الأشخاص، والأوامر، (والأزمان) والأماكن، وأن أحداً<sup>(٢)</sup> ليس له من الأمر والاختيار شيء، وأنه تعالى منزّه عن كل ما يشركونه به، من الشريك، والظهير، والعوين، والولد، والصاحبة، ونحو ذلك، مما أشرك به المشركون، وأنه العالم بما أكتنه الصدور وما أعلنته، وأنه وحده المعبود المحمود في الدنيا والآخرة، على ما له من صفات الجلال والجمال، وعلى ما أسداه إلى خلقه من الإحسان والإفضال.

وأنه هو الحاكم في الدارين، في الدنيا، بالحكم القدري، الذي أثره جميع ما خلق وذراً، والحكم الديني، الذي أثره جميع الشرائع، والأوامر والنواهي.

وفي الآخرة يحكم بحكمه القدري والجزائي، ولهذا قال: ﴿إليه

ترجعون ﴿ فيجازي كلًّا منكم بعمله، من خير وشر.﴾

﴿٧١-٧٣﴾ ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون \* قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكتون فيه أفلا تبصرون \* ومن رحمة جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ هذا امتنان من الله على عباده، يدعوهم به إلى شكره، والقيام بعبوديته وحقه، أنه جعل لهم من رحمة النهار ليتبغوا من فضل الله، وينتشروا لطلب أرزاقهم ومعايشهم في ضيائه، والليل ليهدؤوا فيه ويسكنوا، وتستريح أبدانهم وأنفسهم من تعب التصرف في النهار، فهذا من فضله ورحمته بعباده.

فهل أحد يقدر على شيء من ذلك؟ فلو جعل ﴿عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون﴾ مواعظ الله وآياته سماع فهم وقبول وانقياد، ولو جعل ﴿عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكتون فيه أفلا تبصرون﴾ مواقع العبر، ومواضع الآيات، فتستتير بصائرهم، وتسلكون الطريق المستقيم.

وقال في الليل: ﴿أفلا تسمعون﴾ وفي النهار ﴿أفلا تبصرون﴾ لأن سلطان السمع أبلغ في الليل من سلطان البصر، وعكسه النهار. وفي هذه الآيات، تنبيه إلى أن العبد ينبغي له أن يتدبر نعم الله عليه، ويتبصر فيها، ويقيسها بحال عدمها، فإنه إذا وازن بين حالة وجودها، وبين حالة عدمها، تنبه عقله لموضع المنّة، بخلاف من جرى مع العوائد، ورأى أن هذا أمر لم يزل مستمراً، ولا يزال. وعمي قلبه عن الشناء على الله، بنعمه، ورؤية افتقاره إليها في كل وقت، فإن هذا لا يحدث له فكرة شكراً ولا ذكراً.

﴿٧٤-٧٥﴾ ﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون \* ونزغنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فاعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي: ويوم ينادي الله المشركين به، العادلين به وغيره، الذين يزعمون أن له شركاء، يستحقون أن يعبدوا، وينضعون ويضرون، فإذا كان يوم القيامة، أراد الله أن يظهر جرائمهم وكذبهم في زعمهم وتكذيبهم<sup>(١)</sup> لأنفسهم ف ﴿يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ أي: بزعمهم، لا بنفس الأمر، كما قال: ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾.

فإذا حضروا وإياهم، نزع ﴿من كل أمة﴾ من الأسم المكدبة ﴿شهاداً﴾ يشهد على ما جرى في الدنيا، من شركهم واعتقادهم، وهؤلاء بمنزلة المتخين.

أي: انتخبنا من رؤساء المكذبين من يتصدى للخصومة عنهم، والمجادلة عن إخوانهم، ومن هم وإياهم على طريق واحد، فإذا برزوا للمحاكمة ﴿فقلنا هاتوا برهانكم﴾ حججتكم ودليلكم على صحة شرككم، هل أمرناكم بذلك؟ هل أمرتكم رسل؟ هل وجدتم ذلك في شيء من كتب؟ هل فيهم أحد يستحق شيئاً من الإلهية؟ هل ينفعونكم أو يدفعون عنكم من عذاب الله أو يغنون عنكم؟ فليضلوا إذا [إن] كان فيهم أهلية<sup>(٢)</sup>، وليروكم إن كان لهم قدرة، ﴿فاعلموا﴾ حيثذ بطلان قولهم وفساده، و ﴿أن الحق لله﴾ تعالى، قد توجهت عليهم الخصومة، وانقطعت حججهم، وأفلجت حجة الله، ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ من الكذب والإفك، اضمحل وتلاشى وعدم، وعلموا أن الله قد عدل فيهم، حيث لم يضع العقوبة إلا بمن استحقها واستأهلها.

﴿٧٦-٨٢﴾ ﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم﴾ إلى آخر القصة. يخبر تعالى عن حالة قارون وما [فعل] وفعل به ونصح ووعظ، فقال: ﴿إن قارون كان من قوم موسى﴾ أي: من بني إسرائيل، الذين فضلوا على العالمين، وفاقوهم في زمانهم، وامتن الله عليهم بما امتن به، فكانت حالهم مناسبة للاستقامة، ولكن قارون هذا، بغى على قومه وطفى، بما أوتيه من الأموال العظيمة المطغية. ﴿وآتيناه من الكتوز﴾ أي: كنوز الأموال شيئاً كثيراً، ﴿ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة﴾ [أولي القوة] والعصبة من العشرة إلى التسعة إلى السبعة، ونحو ذلك. أي: حتى إن مفاتيح خزان أمواله لتثقل الجماعة القوية عن حملها، هذه المفاتيح، فما ظنك بالخزان؟ ﴿إذ قال له قومه﴾ ناصحين له محذرين له عن الطغيان: ﴿لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين﴾ أي: لا تفرح بهذه الدنيا العظيمة، وتفتخر بها، وتلهيك عن الآخرة، فإن الله لا يحب الفرحين بها، المكين على محبتها.

﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة﴾ أي: قد حصل عندك من وسائل الآخرة ما ليس عند غيرك من الأموال، فابتغ بها ما عند الله، وتصدق ولا تقتصر على مجرد نيل الشهوات، وتحصيل اللذات، ﴿ولا تنس نصيحتك من الدنيا﴾ أي: لا نامرك أن تتصدق بجميع مالك وتبقي ضائعاً، بل أنفق لأخرتك، واستمتع بدنياك استمتاعاً لا يثلم دينك، ولا يضر بأخرتك، ﴿وأحسن﴾ إلى عباد الله ﴿كما أحسن الله﴾ عليك بهذه الأموال، ﴿ولا تبغ الفساد في الأرض﴾ بالتكبر والعمل بمعاصي الله والاشتغال بالنعم عن التمسك، ﴿إن الله لا يحب المفسدين﴾ بل يعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

فـ ﴿قال﴾ قارون - راداً لنصيحتهم، كافرًا لنعمة ربه - ﴿إنما

(١) كذا في ب، وفي أ: وتكذيب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: فيهم إلهية.







﴿ولا تدع مع الله إلهاً آخر﴾ بل أخلص لله عبادتك، فإنه ﴿لا إله إلا هو﴾ فلا أحد يستحق أن يؤته ويحب ويعبد، إلا الله الكامل الباقي الذي ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ وإذا كان كل شيء هالكا مضمحلاً، سواه فعبادة الهالك الباطل باطلة بطلان غايتها، وفساد نهايتها. ﴿له الحكيم﴾ في الدنيا والآخرة ﴿وإليه﴾ لا إلى غيره ﴿ترجعون﴾ فإذا كان ما سوى الله باطلاً هالكا، والله هو الباقي، الذي لا إله إلا هو، وله الحكيم في الدنيا والآخرة، وإليه مرجع الخلائق كلهم، يجازيهم بأعمالهم، تعين على مَنْ له عقل، أن يعبد الله وحده لا شريك له، ويعمل لما يقربه ويدنيه، ويحذر من سخطه وعقابه، وأن يقدم على ربه غير تائب، ولا مقلع عن خطئه وذنوبه.

تم تفسير سورة القصص  
- وه الحمد والشاء  
والمجد دائماً أبداً -

### تفسير سورة العنكبوت وهي مكية

﴿١-٣﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ \* أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون \* ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴿يغير تعال عن [تمام] حكمته، وأن حكمته لا تقتضي أن كل مَنْ قال «إنه مؤمن» وادعى لنفسه الإيمان، أن يبقوا في حالة يسلمون فيها من الفتن والمحن، ولا يعرض لهم ما يشوش عليهم إيمانهم وفروعه، فإنهم لو كان الأمر كذلك، لم يتميز الصادق من الكاذب، والمحق من المبطّل، ولكن سنته وعادته في الأولين وفي هذه الأمة، أن يبتليهم بالسراء والضراء، والمسر واليسر، والمنشط والمكره، والغنى والفقر، وإدالة الأعداء عليهم في بعض الأحيان، ومجاهدة الأعداء بالقول

والعمل ونحو ذلك من الفتن، التي ترجع كلها إلى فتنة الشبهات المعارضة للعقيدة، والشهوات المعارضة للإرادة، فمن كان عند ورود الشبهات يثبت إيمانه ولا يتزلزل، ويدفعها<sup>(١)</sup> بما معه من الحق وعند ورود الشهوات الموجبة والداعية إلى المعاصي والذنوب، أو الصارفة عن ما أمر الله به ورسوله، يعمل بمقتضى الإيمان، ويجاهد شهوته، دل ذلك على صدق إيمانه ووصته.

ومن كان عند ورود الشبهات تؤثر في قلبه شكاً وربباً، وعند اعتراض الشهوات تصرفه إلى المعاصي أو تصدفه عن الواجبات، دل ذلك على عدم صحة إيمانه وصدفه.

والناس في هذا المقام درجات لا يحصيها إلا الله، فمستقل ومستكثر، فنسأل الله تعالى أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يثبت قلوبنا على دينه، فالابتلاء والامتحان للنفوس بمنزلة الكبير، يخرج خبيثها وطيبها.

﴿٤﴾ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: أحسب الذين همهم فعل السيئات وارتيكاب الجنائيات، أن أعمالهم ستهمل، وأن الله سيففل عنهم، أو يفوتونه، فلذلك أقدموا عليها، وسهل عليهم عملها؟

﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: ساء حكمهم، فإنه حكم جائر، لنضمنه إنكار قدرة الله وحكمته، وأن لديهم قدرة يمتعون بها من عقاب الله، وهم أضعف شيء وأعجزه.

﴿٥-٦﴾ ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ \* ومن جاهد فإنما يجاهد نفسه إن الله لغني عن العالمين ﴿يعني: يا أيها المحب لربه، المشتاق لقربه ولقائه، المسارع في مرضاته، أبشر بقرب لقاء الحبيب، فإنه آت، وكل آت إنما هو قريب، فتزود للقائه، وسر نحوه،

وَأَنْ يَرَى تَأْتِيَهُمُ الْمَوْتُ وَلَهُمْ عَمَلٌ سَيِّئٌ لَيُصِغِرَنَّ عَنْ مَرَاتِبِهِمْ فَذَلِيلًا يَدْعُونَ إِلَى مَوْتِهِمْ وَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١١﴾ وَتَجَنَّبُوا الْعَيْنَ الَّتِي لَا يَرَى مَعَهَا وَلَا يَحْسَبُ أَنَّ ذَلِكَ لِشَرِّكَهِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا جُعِلَ قَوْلُكُمْ خَطْبًا عَامًّا إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَكْمًا وَإِنَّ كِتَابَ اللَّهِ لَآتٍ وَإِنَّكُمْ لَمُحْسَبُونَ ﴿١٢﴾ وَأَنْ يَرَى تَأْتِيَهُمُ الْمَوْتُ وَلَهُمْ عَمَلٌ سَيِّئٌ لَيُصِغِرَنَّ عَنْ مَرَاتِبِهِمْ فَذَلِيلًا يَدْعُونَ إِلَى مَوْتِهِمْ وَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٣﴾ وَتَجَنَّبُوا الْعَيْنَ الَّتِي لَا يَرَى مَعَهَا وَلَا يَحْسَبُ أَنَّ ذَلِكَ لِشَرِّكَهِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا جُعِلَ قَوْلُكُمْ خَطْبًا عَامًّا إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَكْمًا وَإِنَّ كِتَابَ اللَّهِ لَآتٍ وَإِنَّكُمْ لَمُحْسَبُونَ ﴿١٤﴾ وَإِنَّ كِتَابَ اللَّهِ لَآتٍ وَإِنَّكُمْ لَمُحْسَبُونَ ﴿١٥﴾ وَإِنَّ كِتَابَ اللَّهِ لَآتٍ وَإِنَّكُمْ لَمُحْسَبُونَ ﴿١٦﴾ وَإِنَّ كِتَابَ اللَّهِ لَآتٍ وَإِنَّكُمْ لَمُحْسَبُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنَّ كِتَابَ اللَّهِ لَآتٍ وَإِنَّكُمْ لَمُحْسَبُونَ ﴿١٨﴾ وَإِنَّ كِتَابَ اللَّهِ لَآتٍ وَإِنَّكُمْ لَمُحْسَبُونَ ﴿١٩﴾ وَإِنَّ كِتَابَ اللَّهِ لَآتٍ وَإِنَّكُمْ لَمُحْسَبُونَ ﴿٢٠﴾

مستصحباً الرجاء، مؤملاً الوصول إليه، ولكن، ما كل مَنْ يُدْعِي يُعْطَى بدعواه، ولا كل مَنْ تمنى يعطى ما تمناه، فإن الله سميع للأصوات، عليم بالنيات، فمن كان صادقاً في ذلك أنه ما يرجو، ومن كان كاذباً لم تنفعه دعواه، وهو العليم بمن يصلح لحبه ومن لا يصلح.

﴿ومن جاهد﴾ نفسه وشيطانه، وعدوه الكافر، ﴿فإنما يجاهد لنفسه﴾ لأن نفعه راجع إليه، وثمرته عائدة إليه، والله غني عن العالمين، لم يأمرهم بما أمرهم به لينتفع به، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلاً عليهم.

وقد علم أن الأوامر والنواهي يحتاج المكلف فيها إلى جهاد، لأن نفسه تتناقل بطبعها عن الخير، وشيطانه ينهاه عنه، وعدوه الكافر يمنعه من إقامة دينه، كما ينبغي، وكل هذا معارضات تحتاج إلى مجاهدات وسعي شديد.

﴿٧﴾ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿يعني أن الذين من الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح، سيكفر الله عنهم سيئاتهم، لأن الحسنات يذهب بها السيئات، ولنجزينهم أحسن الذي

(١) كذا في ب وفي أ: ويدفعه.



كانوا يعملون ﴿٨﴾ وهي أعمال الخير، من واجبات ومستحبات، فهي أحسن ما يعمل العبد، لأنه يعمل المباحات أيضاً، وغيرها.

﴿٨﴾ ﴿٨﴾ ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جهادك للشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعمهما إلى مرجعكم فأنبتكم بما كنتم تعملون ﴿٩﴾ أي: وأمرنا الإنسان، ووصيته بوالديه حسناً، أي: ببرهما والإحسان إليهما، بالقول والعمل، وأن يحافظ على ذلك، ولا يعقهما ويسيء إليهما في قوله وعمله.

﴿٩﴾ وإن جهادك للشرك بي ما ليس لك به علم ﴿٩﴾ وليس لأحد علم بصحة الشرك بالله، وهذا تعظيم لأمر الشرك، ﴿٩﴾ فلا تطعمهما إلى مرجعكم فأنبتكم بما كنتم تعملون ﴿٩﴾ فأجازيكم بأعمالكم، فبروا والديكم وقدموا طاعتكما، إلا على طاعة الله ورسوله، فإنها مقدمة على كل شيء.

﴿٩﴾ ﴿٩﴾ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين ﴿١٠﴾ أي: من آمن بالله وعمل صالحاً، فإن الله وعده أن يدخله الجنة في جملة عباده الصالحين، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، كل على حسب درجته ومرتبته عند الله، فالإيمان

الصحيح والعمل الصالح عنوان على سعادة صاحبه، وأنه من أهل الرحمن، والصالحين من عباد الله تعالى.

﴿١٠﴾ ﴿١٠﴾ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذي في الله جعل فئة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين ﴿١١﴾ وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ﴿١٢﴾ لما ذكر تعالى أنه لا بد أن يمتحن من ادعى الإيمان، ليظهر الصادق من الكاذب، بين تعالى أن من الناس فريقاً لا صبر لهم على المحن، ولا ثبات لهم على بعض الزلازل، فقال: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذي في الله﴾ بضرب، أو أخذ مال، أو تعبير، ليرتد عن دينه، وليراجع الباطل، ﴿جعل فئة الناس كعذاب الله﴾ أي: يجعلها صادة له عن الإيمان والثبات عليه، كما أن العذاب صاذاً عما هو سببه.

﴿١١﴾ ﴿١١﴾ ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم ﴿١١﴾ لأنه موافق للهوى، فهذا الصنف من الناس من الذين قال الله فيهم: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾.

﴿١٢﴾ ﴿١٢﴾ أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين ﴿١٢﴾ حيث خبركم بهذا الفريق، الذي حاله كما وصف لكم، فتعرفون بذلك كمال علمه وسعة حكمته.

﴿١٣﴾ ﴿١٣﴾ وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ﴿١٣﴾ أي: فلذلك قلنا نحننا وابتلاء، ليظهر علمه فيهم، فيجازيهم بما ظهر منهم، لا بما يعلمه بمجرد، لأنهم قد يحتاجون على الله، أنهم لو ابتلوا لبتلوا.

﴿١٤﴾ ﴿١٤﴾ وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون ﴿١٥﴾

وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴿١٦﴾ يخبر تعالى عن افتراء الكفار ودعوتهم للمؤمنين إلى دينهم، وفي ضمن ذلك، تحذير المؤمنين من الاغترار بهم والوقوف في مكرهم، فقال: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا﴾ فاتركوا دينكم أو بعضه واتبعونا في ديننا، فإننا نضمن لكم الأمر ولنحمل خطاياكم ﴿١٦﴾. وهذا الأمر ليس بأيديهم، فلماذا قال: ﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء﴾ لا قليل ولا كثير. فهذا التحمل، ولو رضي به صاحبه، فإنه لا يفيد شيئاً، فإن الحق لله، والله تعالى لم يمكن العبد من التصرف في حقه إلا بأمره وحكمه، وحكمه أن لا تزر وازرة وزر أخرى.

ولما كان قوله: ﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء﴾ قد يتوهم منه أيضاً، أن الكفار الداعين إلى كفرهم - ونحوهم ممن دعا إلى باطله - ليس عليهم إلا ذنبهم الذي ارتكبه، دون الذنب الذي فعله غيرهم، ولو كانوا متسببين فيه، قال: [مخبراً عن هذا الوهم] ﴿١٦﴾ ﴿١٦﴾ وليحملن أثقالهم ﴿١٧﴾ أي: أثقال ذنوبهم التي عملوها ﴿١٧﴾ وأثقالاً مع أثقالهم ﴿١٧﴾ وهي الذنوب التي يسببهم ومن جرائمهم، فالذنب الذي فعله التابع [لكل من التابع]، والتبوع حصته منه، هذا لأنه فعله وباشره، والتبوع [لأنه] تسبب في فعله ودعا إليه، كما أن الحسنه إذا فعلها التابع له أجرها بالباشرة، وللداعي أجره بالتسبب. ﴿وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون﴾ من الشر وتزيينه، [وقولهم] ﴿١٧﴾ ﴿١٧﴾ ولنحمل خطاياكم ﴿١٧﴾.

﴿١٤﴾ ﴿١٤﴾ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الظوفان وهم ظالمون ﴿١٥﴾ فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين ﴿١٦﴾ يخبر تعالى عن حكمه وحكمته في عقوبة ﴿١٧﴾ الأمم المكذبة،

(٣) في ب: عقوبات.

(٢) كذا في ب، وفي أ: وقوله.

(١) زيادة من هامش: ب.

وأن الله أرسل عبده ورسوله نوحاً عليه الصلاة والسلام إلى قومه، يدعوهم إلى التوحيد وإفراد الله بالعبادة، والنهي عن الأنداد والأصنام، ﴿فلت فيههم﴾ نبياً داعياً ﴿الف سنة إلا خمسين عاماً﴾ وهو لا يبني بدعوتهم، ولا يفتر في نصيحهم، يدعوهم ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، فلم يرشدوا ولم يهتدوا، بل استمروا على كفرهم وطغيانهم، حتى دعا عليهم نبيهم نوح عليه الصلاة والسلام، مع شدة صبره وحلمه واحتماله، فقال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ ﴿فأخذهم الطوفان﴾ أي: الماء الذي نزل من السماء بكثرة، ونبع من الأرض بشدة ﴿وهم ظالمون﴾ مستحقون للعقاب.

﴿فأنجيناه وأصحاب السفينة﴾ الذين ركبوا معه، أهله ومن آمن به. ﴿وجعلناها﴾ أي: السفينة، أو قصة نوح ﴿آية للعالمين﴾ يعتبرون بها، على أن من كذب الرسل، آخر أمره الهلاك، وأن المؤمنين سيجعل الله لهم من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً.

وجعل الله أيضاً السفينة، أي: جنسها آية للعالمين، يعتبرون بها رحمة ربهم، الذي قيض لهم أسبابها، ويسر لهم أمرها، وجعلها تحملهم وعمل متاعهم من محل إلى محل ومن قطر إلى قطر.

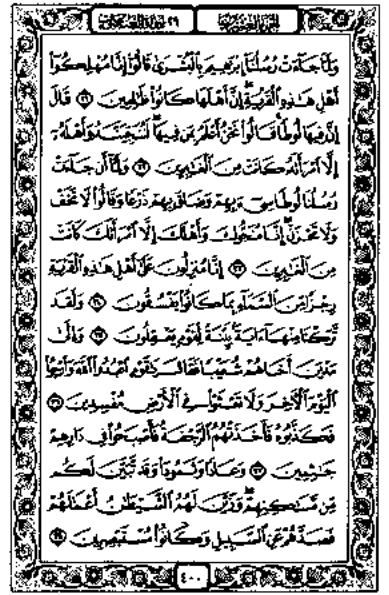
﴿١٦ - ٢٢﴾ ﴿وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ إنما تعبدون من دون الله آوثاناً وتخلقون فكأنما إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون ﴿ وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ أولم يروا كيف بيدي الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله خلقكم من نسيء النشأة الآخرة إن الله على كل

شيء قدير ﴿ يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون ﴾ وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴿ يذكر تعالى أنه أرسل خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى قومه، يدعوهم إلى الله، فقال [لهم]: ﴿اعبدوا الله﴾ أي: وحده، وأخلصوا له العبادة، وامثلوا ما أمركم به، ﴿ واتقوه﴾ أن يغضب عليكم، فيعذبكم، وذلك بترك ما يغضبه من المعاصي، ﴿ ذلكم﴾ أي: عبادة الله وتقواه ﴿ خير لكم﴾ من ترك ذلك، وهذا من باب إطلاق ﴿افعل التفضيل﴾ بما ليس في الطرف الآخر منه شيء، فإن ترك عبادة الله، وترك تقواه، لا خير فيه بوجه، وإنما كانت عبادة الله وتقواه خيراً للناس، لأنه لا سبيل إلى نيل كرامته في الدنيا والآخرة إلا بذلك، وكل خير يوجد في الدنيا والآخرة، فإنه من آثار عبادة الله وتقواه. ﴿ إن كنتم تعلمون﴾ ذلك، فاعلموا الأمور وانظروا ما هو أول بالإشارة، فلما أمرهم بعبادة الله وتقواه، نهاهم عن عبادة الأصنام، وبين لهم نقصها وعدم استحقاقها للعبودية، فقال: ﴿ إنما تعبدون من دون الله آوثاناً وتخلقون فكأنما تحتونها وتخلقونها بأيديكم، وتخلقون لها أسماء الألهة، وتختلفون الكذب بالأمر بعبادتها والتمسك بذلك، ﴿ إن الذين تدعون من دون الله﴾ في نقصه، وأنه ليس فيه ما يدعو إلى عبادته، ﴿ لا يملكون لكم رزقاً﴾ فكأنه قيل: قد بان لنا أن هذه الأوثان مخلوقة ناقصة، لا تملك نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وأن من هذا وصفه، لا يستحق أدنى أدنى مثقال مثقال مثقال ذرة من العبادة والتأله، والقلوب لا بد أن تطلب معبوداً تأله وتسأله حوائجها، فقال - حاثاً لهم على من يستحق العبادة - ﴿ فابتغوا عند الله الرزق﴾ فإنه هو

المسر له، المقدر، المجيب لدعوة من دعاه في أمر دينه ودنياه<sup>(١)</sup>، ﴿ واعبدوه﴾ وحده لا شريك له، لكونه الكامل النافع الضار، المنفرد بالتدبير، ﴿ واشكروا له﴾ وحده، لكون جميع ما وصل ويصل إلى الخلق من النعم فتمه، وجميع ما اندفع ويندفع من النقم عنهم فهو الدافع لها ﴿ إليه ترجعون﴾ يجازيكم على ما عملتم، وينتقم بما أسرتهم وأعلنتم، فاحذروا القدوم عليه وأنتم على شرككم، وارغبوا فيما يقربكم إليه، ويشيكم - عند القدوم - عليه. ﴿ أولم يروا كيف بيدي الله الخلق ثم يعيده﴾ يوم القيامة ﴿ إن ذلك على الله يسير﴾ كما قال تعالى: ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾.

﴿ وما لك من عند الله حيلة ﴾ ﴿ أولم يروا كيف بدأ الخلق ثم الله خلقهم من نسيء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير ﴾ ﴿ يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون ﴾ ﴿ وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء ﴾ ﴿ وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ ﴿ يذكر تعالى أنه أرسل خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى قومه، يدعوهم إلى الله، فقال [لهم]: ﴿ اعبدوا الله ﴾ أي: وحده، وأخلصوا له العبادة، وامثلوا ما أمركم به، ﴿ واتقوه ﴾ أن يغضب عليكم، فيعذبكم، وذلك بترك ما يغضبه من المعاصي، ﴿ ذلكم ﴾ أي: عبادة الله وتقواه ﴿ خير لكم ﴾ من ترك ذلك، وهذا من باب إطلاق ﴿ افعل التفضيل ﴾ بما ليس في الطرف الآخر منه شيء، فإن ترك عبادة الله، وترك تقواه، لا خير فيه بوجه، وإنما كانت عبادة الله وتقواه خيراً للناس، لأنه لا سبيل إلى نيل كرامته في الدنيا والآخرة إلا بذلك، وكل خير يوجد في الدنيا والآخرة، فإنه من آثار عبادة الله وتقواه. ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ ذلك، فاعلموا الأمور وانظروا ما هو أول بالإشارة، فلما أمرهم بعبادة الله وتقواه، نهاهم عن عبادة الأصنام، وبين لهم نقصها وعدم استحقاقها للعبودية، فقال: ﴿ إنما تعبدون من دون الله آوثاناً وتخلقون فكأنما تحتونها وتخلقونها بأيديكم، وتخلقون لها أسماء الألهة، وتختلفون الكذب بالأمر بعبادتها والتمسك بذلك، ﴿ إن الذين تدعون من دون الله ﴾ في نقصه، وأنه ليس فيه ما يدعو إلى عبادته، ﴿ لا يملكون لكم رزقاً ﴾ فكأنه قيل: قد بان لنا أن هذه الأوثان مخلوقة ناقصة، لا تملك نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وأن من هذا وصفه، لا يستحق أدنى أدنى مثقال مثقال مثقال ذرة من العبادة والتأله، والقلوب لا بد أن تطلب معبوداً تأله وتسأله حوائجها، فقال - حاثاً لهم على من يستحق العبادة - ﴿ فابتغوا عند الله الرزق ﴾ فإنه هو

المسر له، المقدر، المجيب لدعوة من دعاه في أمر دينه ودنياه<sup>(١)</sup>، ﴿ واعبدوه﴾ وحده لا شريك له، لكونه الكامل النافع الضار، المنفرد بالتدبير، ﴿ واشكروا له﴾ وحده، لكون جميع ما وصل ويصل إلى الخلق من النعم فتمه، وجميع ما اندفع ويندفع من النقم عنهم فهو الدافع لها ﴿ إليه ترجعون﴾ يجازيكم على ما عملتم، وينتقم بما أسرتهم وأعلنتم، فاحذروا القدوم عليه وأنتم على شرككم، وارغبوا فيما يقربكم إليه، ويشيكم - عند القدوم - عليه. ﴿ أولم يروا كيف بيدي الله الخلق ثم يعيده﴾ يوم القيامة ﴿ إن ذلك على الله يسير﴾ كما قال تعالى: ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾.



بإرساله إليهم، وإنما كان مجاوبتهم له شر مجاوبة.

﴿قالوا اقتلوه أو حرقوه﴾ أشنع القتل، وهم أناس مقتدرون، لهم السلطان، فألقوه في النار ﴿فأنجاه الله﴾ منها

﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ فيعلمون صحة ما جاءت به الرسل، ويرؤمهم ونصحهم، ويظلمون قول من خالفهم وناقضهم، وأن المعارضين للرسل كأنهم تواصوا وحث بعضهم بعضاً على التكذيب.

﴿وقال﴾ لهم إبراهيم في جملة ما قاله من نصحه: ﴿إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا﴾ أي: غاية ذلك، مودة في الدنيا تنتقطع وتضمحل، ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً﴾ أي: يتبرأ كل من العابدين والمعبودين من الآخر ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ فكيف تتعلقون بمن يعلم أنه يتبرأ من عابديه ويلعنهم؟ ﴿و﴾ أن ما أرى الجميع، العابدين والمعبودين ﴿السنار﴾ وليس أحد ينصرهم من عذاب الله، ولا يدفع عنهم عقابه.

﴿٢٦ - ٢٧﴾ ﴿فأمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم﴾ ووهبت له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ أي: لم يزل إبراهيم عليه الصلاة والسلام يدعو قومه، وهم مستمرون على عنادهم، إلا أنه آمن له بدعوته لوط، الذي نبأه الله، وأرسله إلى قومه كما سيأتي ذكره.

﴿وقال﴾ إبراهيم حين رأى أن دعوة قومه لا تفيدهم شيئاً: ﴿إني مهاجر إلى ربي﴾ أي: هاجر أرض السوء، ومهاجر إلى الأرض المباركة، وهي الشام، ﴿إنه هو العزيز﴾ أي: الذي له القوة، وهو يقدر على هدايتكم، ولكنه حكيم ما اقتضت حكمته ذلك، ولما اعتزلهم وفارقهم، وهم بحالهم، لم

لا تحسبوا أنه مغفول عنكم، أو معجزون لله في الأرض ولا في السماء، فلا تغرنكم قدرتكم وما زينت لكم أنفسكم وخذتكم، من النجاة من عذاب الله، فليسلم بمعجزين الله في جميع أقطار العالم.

﴿وما لكم من دون الله من ولي﴾ يتولاكم، فيحصل لكم مصالح دينكم ودنياكم، ﴿ولا نصير﴾ ينصركم، فيدفع عنكم الكارحة.

﴿٢٣﴾ ﴿والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يمشوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم﴾ يخبر تعالى من هم الذين زال عنهم الخير، وحصل لهم الشر، وأنهم الذين كفروا به ويرسله، وبما جاؤوهم به، وكذبوا بقاءه الله، فليس عندهم إلا الدنيا، فلذلك قدموا على ما أقدموا عليه من الشرك والمعاصي، لأنه ليس في قلوبهم ما يخوفهم من عاقبة ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿أولئك يشسوا من رحمتي﴾ أي: فلذلك لم يعملوا سبباً واحداً يحصلون به الرحمة، وإلا لو طعموا في رحمة، لعملوا لذلك أعمالاً، والإياس من رحمة الله من أعظم المحاذير، وهو نوعان:

إياس الكفار منها، وتركهم جميع سبب يقربهم منها، وإياس العصاة، بسبب كثرة جناباتهم وأوحشتهم، فملك قلوبهم، فأحدث لها الإياس، ﴿وأولئك لهم عذاب أليم﴾ أي: مؤلم موجب. وكان هذه الآيات معترضات بين كلام إبراهيم عليه السلام لقومه، وردد عليهم عليه، والله أعلم بذلك.

﴿٢٤ - ٢٥﴾ ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً وماؤكم النار وما لكم من ناصرين﴾ أي: فما كان مجاوبة قوم إبراهيم إبراهيم حين دعاهم إلى ربه قبول دعوته، والاهتداء بنصحه، ورؤية نعمة الله عليهم

إليهم وقت موتهم الصغرى - النوم - وقد هجم عليهم الليل بظلامه، فسكنت منهم الحركات، وانقطعت منهم الأصوات، وصاروا في فرشهم وماواهم كالميتين، ثم إنهم لم يزالوا على ذلك طول ليلهم، حتى انفلق الإصباح، فانتبهوا من رقبتهم، وبعثوا من موتهم، قائلين: الحمد لله الذي أحياناً بعدما أماتنا وإليه النشور. ولهذا قال: ﴿ثم الله﴾ بعد الإعادة ﴿ينشئ النشأة الآخرة﴾ وهي النشأة التي لا تقبل موتاً ولا نوماً، وإنما هو الخلود والدوام في إحدى الدارين. ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ فقدرته تعالى لا يعجزها شيء، وكما قدر بها على ابتداء الخلق، فقدرته على الإعادة من باب أول وأخرى.

﴿يعذب من يشاء ويرحم من يشاء﴾ أي: هو المنفرد بالحكم الجزائي، وهو إثابة الطامنين ورحمتهم، وتعذيب المعاصين والتنكيل بهم. ﴿وإليه تقلبون﴾ أي: ترجعون إلى الدار، التي بها تجري عليكم أحكام عذابه ورحته، فاكتسبوا في هذه الدار، ما هو من أسباب رحمة من الطاعات، وابتعدوا من أسباب عذابه، وهي المعاصي.

﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء﴾ أي: يا هؤلاء الكاذبون، التجرؤن على المعاصي،

يذكر الله عنهم أنه أهلكهم بعذاب، بل ذكر امتزاله إياهم، وهجرته من بين أظهرهم.

فأما ما يذكر في الإسرائيليات، أن الله تعالى فتح على قومه باب البعوض، فشرب دماءهم، وأكل لحومهم، وأتلفهم عن آخرهم، فهذا يتوقف الجزم به على الدليل الشرعي، ولم يوجد، فلو كان الله استأصلهم بالعذاب لذكره كما ذكر إهلاك الأمم المكتوبة، ولكن لعل من أسرار ذلك، أن الخليل عليه السلام من أرحم الخلق وأفضلهم [وأحلمهم] وأجلهم، فلم يدع على قومه كما دعا غيره، ولم يكن الله ليحري بسببه عذاباً عاماً.

وما يدل على ذلك، أنه راجع الملائكة في إهلاك قوم لوط، وجادلهم، ودافع عنهم، وهم ليسوا قومه، والله أعلم بالخال.

«ووهبنا له إسحاق ويعقوب» أي: بعدما هاجر إلى الشام «وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب» فلم يأت بعده نبي إلا من ذريته، ولا نزل كتاب إلا على ذريته، حتى ختموا بالنبي محمد ﷺ وعليهم أجمعين.

وهذا [من] أعظم المناقب والمفاخر، أن تكون مواد الهداية والرحمة والسعادة والفلاح في ذريته، وعلى أيديهم اهتدى المهتدون، وأمن المؤمنون، وصلح الصالحون. «وأتيناه أجره في الدنيا» من الزوجة الجميلة فائقة الجمال، والرزق الواسع، والأولاد، الذين بهم قرت عينه، ومعرفة الله ومحبته، والإنابة إليه.

«وإنه في الآخرة لمن الصالحين» بل هو ومحمد صل الله عليهما وسلم أفضل الصالحين على الإطلاق، وأعلامهم منزلة، فجمع الله له بين سعادة الدنيا والآخرة.

﴿٢٨ - ٣٥﴾ «ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين \* أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في

ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين \* قال رب انصرنى على القوم المفسدين» إلى آخر القصة. تقدم أن لوطاً عليه السلام آمن لإبراهيم، وصار من المهتدين به، وقد ذكروا أنه ليس من ذرية إبراهيم، وإنما هو ابن أخي إبراهيم.

فقوله تعالى: «وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب» وإن كان عاماً، فلا يناقض كون لوط نبياً رسولاً وهو ليس من ذريته، لأن الآية جيء بها لسياق المدح والثناء على الخليل، وقد أخبر أن لوطاً اهتدى على يديه، ومن اهتدى على يديه أكمل ممن اهتدى من ذريته بالنسبة إلى فضيلة الهادي، والله أعلم.

فأرسل الله لوطاً إلى قومه، وكانوا مع شركهم، قد جمعوا بين فعل الفاحشة في الذكور، وتقطع السبيل، وفشو المنكرات في مجالسهم، فنصحهم لوط عن هذه الأمور، وبين لهم قباحها في نفسها، وما تؤول إليه من العقوبة البليغة، فلم يرعوا ولم يذكروا. «فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين»

فأيس منهم نبيهم، وعلم استحقاقهم العذاب، وجزع من شدة تكذيبهم له، فدعا عليهم و «قال رب انصرنى على القوم المفسدين» فاستجاب الله دعاءه، فأرسل الملائكة لإهلاكهم، فمروا بإبراهيم قبل، وبشروه بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، ثم سألهم إبراهيم أين يريدون؟ فأخبروه أنهم يريدون إهلاك قوم لوط، فجعل يراجعهم ويقول: «إن فيها لوطاً» فقالوا له: «لنتجينه وأهله إلا أمرأته كانت من الغابرين» ثم مضوا حتى أتوا لوطاً، فسأه بجيئهم، وضاق بهم ذرعاً، بحيث إنه لم يعرفهم، وظن أنهم من جملة أبناء السبيل الضيوف، فخاف عليهم من

قومه، فقالوا له: «لا تخف ولا تحزن» وأخبروه أنهم رسل الله. «إننا منجوك وأهلك إلا أمرأتك كانت من الغابرين \* إننا منزلون على أهل هذه القرية رجلاً» أي: عذاباً «من السماء بما كانوا يفسقون» فأمره أن يسري بأهله ليلاً، فلما أصبحوا، قلب الله عليهم ديارهم، فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل متتابعة حتى أبادتهم وأهلكتهم، فصاروا سَمَراً من الأسمار، وعبرة من العبر، «ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون» أي: تركنا من ديار قوم لوط، آثاراً بينة لقوم يعقلون العبر بقلوبهم، [يفتتفون بها]، كما قال تعالى: «وإنكم لتمرون عليهم مصبحين \* وبالليل أفلا تعقلون».

﴿٣٦ - ٣٧﴾ «وإلى مدين أخاهم شعيباً فقال يا قوم اعبدوا الله وارجو اليوم الآخر ولا تعشوا في الأرض مفسدين \* فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين» أي: «وإلى مدين» إلى مدين القبيلة المعروفة المشهورة «شعيباً» فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، والإيمان بالبعث ورجائه، والعمل له، ونهاهم عن الإنساد في الأرض، ببخس المكابيل والموازين، والسعي بقطع الطرق، فكذبوه فأخذهم عذاب الله «فأصبحوا في دارهم جاثمين»

﴿٣٨ - ٤٠﴾ «وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين \* وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين \* فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أؤذنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أفرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» أي: وكذلك ما فعلنا بعاد وثمود، وقد علمتم قصصهم، وتبين لكم بشيء

تشاهدونه بأبصاركم من مساكنهم وآثارهم التي بانوا عنها، وقد جاءتهم رسلكم بالآيات البينات، المفيدة للبصيرة، فكذبوهم وجادلوهم.

﴿وزئنت لهم الشيطان أعمالهم﴾ حتى ظنوا أنها أفضل مما جاءتهم به الرسل، وكذلك قارون، وفرعون، وهامان، حين بعث الله إليهم موسى بن عمران، بالآيات البينات، والبراهين الساطعات، فلم ينقادوا، واستكبروا في الأرض، [على عباد الله فأذلوهم، وعلى الحق فردوه فلم يقدرُوا على النجاء حين نزلت بهم العقوبة] ﴿وما كانوا سابقين﴾ الله، ولا فاتنين، بل سلّموا واستسلموا.

﴿فكلاً﴾ من هؤلاء الأمم المكذبة أخذنا بذنبه﴾ على قدره، ويعقوبة مناسبة له، ﴿فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾ أي: عذاباً يحصبهم، كقوم عاد، حين أرسل الله عليهم الريح العقيم، و﴿سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾.

﴿ومنهم من أخذته الصيحة﴾ كقوم صالح، ﴿ومنهم من خسفنا به الأرض﴾ كقارون، ﴿ومنهم من أفرقنا﴾ كفرعون وهامان وجنودهما.

﴿وما كان الله﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق به تعالى أن يظلمهم لكمال عدله، وغناه التام عن جميع الخلق. ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ منعوها حقها التي هي بصدده، فإنها مخلوقة لعبادة الله وحده، فهؤلاء وضموها في غير موضعها، وأشغلوها بالشهوات والمعاصي، فضروها غاية الضرر، من حيث ظنوا أنهم يتفموننا.

﴿٤١ - ٤٣﴾ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون \* إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم \* وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون \* هذا مثل ضربه الله لمن عبد معه غيره، يقصد به التتمز والتقوي والنعف، وأن

الأمر بخلاف مقصوده، فإن مثله كمثل العنكبوت، اتخذت بيتاً يقيمها من الحر والبرد والآفات، ﴿وإن أوهن البيوت﴾ أضعفها وأوهاها ﴿لبيت العنكبوت﴾. فالعنكبوت من الحيوانات الضعيفة، وبيتها من أضعف البيوت، فما ازدادت باتخاذها إلا ضعفاً، كذلك هؤلاء الذين يتخذون من دونه أولياء، فقراء عاجزون من جميع الوجوه، وحين اتخذوا الأولياء من دونه يتعززون بهم ويستنصرونهم، ازدادوا ضعفاً إلى ضعفهم، ووهناً إلى وهنهم.

فإنهم اتكلوا عليهم في كثير من مصالحهم، وألقوا عليهم، وتخلوا هم عنها، على أن أولئك سيقومون بها، فخذلوهم، فلم يحصلوا منهم على طائل، ولا أنالوهم من معرفتهم أقل نائل.

فلو كانوا يعلمون حقيقة العلم، حالهم وحال من اتخذوهم، لم يتخذوهم، ولتبرؤوا منهم، وتولوا الرب القادر الرحيم، الذي إذا تولاه عبده وتوكل عليه، كفاه مؤونة دينه وديناه، وازداد قوة إلى قوته، في قلبه وفي بدنه وحاله وأعماله.

ولما بين نهاية ضعف آلهة المشركين، ارتقى من هذا إلى ما هو أبلغ منه، وأنها ليست بشيء، بل هي مجرد أسماء سموها، وظنون اعتقدوها، وعند التحقيق، يتبين للعاقل بطلانها وعدمها، ولهذا قال: ﴿إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء﴾ أي: إنه تعالى يعلم - وهو عالم الغيب والشهادة - أنهم ما يدعون من دون الله شيئاً موجوداً، ولا إلهاً له حقيقة، كقولته تعالى: ﴿إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ وقوله: ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾.

﴿وهو العزيز الحكيم﴾ الذي له القوة جميعاً، التي قهر بها جميع المخلوقات، ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، الذي أحسن كل

شيء خلقه، وأتقن ما أمره.

﴿وتلك الأمثال نضربها للناس﴾ أي: لأجلهم ولانتفاعهم وتعليمهم، لكونها من الطرق الموضحة للعلوم، ولأنها تقرب الأمور المعقولة بالأمور المحسوسة، فيتضح المعنى المطلوب بسببها، فهي مصلحة لعموم الناس.

﴿و﴾ لكن ﴿ما يعقلها﴾ بفهمها وتدبرها، وتطبيقها على ما ضربت له، وعقلها في القلب ﴿إلا العالمون﴾ أي: أهل العلم الحقيقي، الذين وصل العلم إلى قلوبهم.

وهذا مدح للأمثال التي يضربها، وحثٌ على تدبرها وتعقلها، ومدح لمن يعقلها، وأنه عنوان على أنه من أهل العلم، فعلم أن من لم يعقلها ليس من العالمين.

والسبب في ذلك، أن الأمثال التي يضربها الله في القرآن، إنما هي للأمور الكبار، والمطالب العالية، والمسائل الجلية، فأهل العلم يعرفون أنها أهم من غيرها، لاعتناء الله بها، وحثه عباده على تعقلها وتدبرها، فيبذلون جهدهم في معرفتها.

وأما من لم يعقلها، مع أهميتها، فإن ذلك دليل على أنه ليس من أهل العلم، لأنه إذا لم يعرف المسائل المهمة، فعدم معرفته غيرها من باب أولى وأحرى. ولهذا، أكثر ما يضرب الله الأمثال في أصول الدين ونحوها.

﴿٤٤﴾ ﴿خلق الله السماوات والأرض بالحق إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾ أي: هو تعالى المفرد بخلق السماوات، على علوها وارتفاعها وسعتها وحسنها وما فيها من الشمس والقمر والكواكب والملائكة، والأرض وما فيها من الجبال والبحار والبراري والقفار والأشجار ونحوها، وكل ذلك خلقه بالحق، أي: لم يخلقها عبثاً ولا سدى، ولا لغير فائدة، وإنما خلقها، ليقوم أمره وشرعه، ولتتم نعمته على عباده، وليروا من حكمته وقهره وتدبيره، ما يلهيهم على أنه وحده معبودهم وعبوبهم والنهيم. ﴿إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾ على كثير من

المطالب الإيمانية، إذا تدبرها المؤمن رأى ذلك فيها عياناً.

﴿٤٥﴾ **﴿اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأتم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون﴾** يأمر تعالى بتلاوة وحيه وتنزيله، وهو هذا الكتاب العظيم، ومعنى تلاوته اتباعه، بامثال ما يأمر به، واجتناب ما ينهى عنه، والاهتداء بهداه، وتصديق أخباره، وتدبر معانيه، وتلاوة ألفاظه، فصار تلاوة لفظه جزء المعنى وبعضه، وإذا كان هذا معنى تلاوة الكتاب، علم أن إقامة الدين كله، داخله في تلاوة الكتاب. فيكون قوله: **﴿وأتم الصلاة﴾** من باب عطف الخاص على العام، لفضل الصلاة وشرها، وأثارها الجميلة، وهي **﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾**.

والفحشاء: كل ما استعظم واستفحش من المعاصي التي تشبهها النفوس. والمنكر: كل معصية تنكرها العقول والفطر.

ووجه كون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، أن العبد المقيم لها، التتم لأركانها وشروطها وخشوعها، يستنير قلبه، ويتطهر فؤاده، ويزداد إيمانه، وتقوى رغبته في الخير، وتقل أو تعدم رغبته في الشر، فبالضرورة، مداومتها والحفاظة عليها على هذا الوجه، تنهى عن الفحشاء والمنكر، فهذا من أعظم مقاصدها وثمراتها. وثم في الصلاة مقصود أعظم من هذا وأكبر، وهو ما اشتملت عليه من ذكر الله، بالقلب واللسان والبدن. فإن الله تعالى، إنما خلق الخلق<sup>(١)</sup> لعبادته، وأفضل عبادة تقع منهم الصلاة، وفيها من عباديات الجوارح كلها، ما ليس في غيرها، ولهذا قال: **﴿ولذكر الله أكبر﴾**.

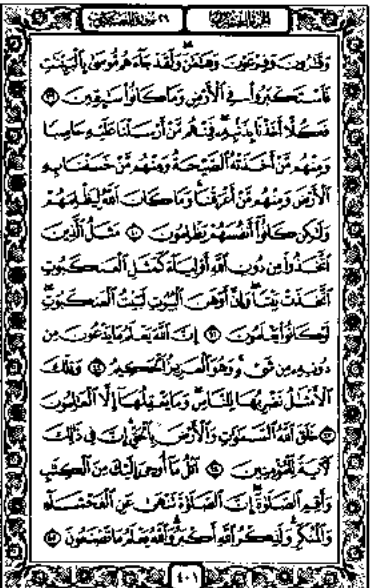
ويحتمل أنه لما أمر بالصلاة ومدحها، أخبر أن ذكره تعالى خارج

الصلاة أكبر من الصلاة، كما هو قول جمهور المفسرين، لكن الأول أولى، لأن الصلاة أفضل من الذكر خارجها، ولأنها - كما تقدم - بنفسها من أكبر الذكر.

**﴿والله يعلم ما تصنعون﴾** من خير وشر، فيجازيكم على ذلك أكمل الجزاء وأوفاه.

﴿٤٦﴾ **﴿ولا يجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آتانا بالذي أنزل علينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾** ينهى تعالى عن مجادلة أهل الكتاب، إذا كانت من غير بصيرة من المجادل، أو بغير قاعدة مرضية، وأن لا يجادلوا إلا بالتي هي أحسن، بحسن خلق ولطف ولين كلام، ودعوة إلى الحق وتحسينه، ورد عن الباطل وتوجيهه، بأقرب طريق موصل لذلك، وأن لا يكون القصد منها مجرد المجادلة والمغالبة وحب العلو، بل يكون القصد بيان الحق وهداية الخلق، إلا من ظلم من أهل الكتاب، بأن ظهر من قصده وحاله، أنه لا إرادة له في الحق، وإنما يجادل على وجه المشاغبة والمغالبة، فهذا لا فائدة في جداله، لأن المقصود منها ضائع.

**﴿وقولوا آتانا بالذي أنزل علينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد﴾** أي: ولنتكن مجادلتكم لأهل الكتاب مبنية على الإيمان بما أنزل إليكم وأنزل إليهم، وعلى الإيمان برسولكم ورسولهم، وعلى أن الإله واحد، ولا تكن مناظرتكم إليهم [على وجه] يحصل به<sup>(٢)</sup> الفدح في شيء من الكتب الإلهية، أو بأحد من الرسل، كما يفعله الجاهل عند مناظرة الخصوم، يقدم بجميع ما معهم، من حق وباطل، فهذا ظلم وخروج عن الواجب وآداب النظر، فإن الواجب أن يرد ما مع الخصم من الباطل، ويقبل ما معه من الحق، ولا يرد الحق لأجل قوله، ولو كان كافراً. وأيضاً، فإن بناء



مناظرة أهل الكتاب، على هذا الطريق، فيه إلزام لهم بالإقرار بالقرآن، وبالرسول الذي جاء به، فإنه إذا تكلم في الأصول الدينية التي اتفقت عليها الأنبياء والكتب، وتقررت عند المتناظرين، وثبتت حقائقها عندهما، وكانت الكتب السابقة والمرسلون مع القرآن ومحمد ﷺ، قد بينتها ودلت عليها وأخبرت بها، فإنه يلزم التصديق بالكتب كلها، والرسل كلهم، وهذا من خصائص الإسلام.

فأما أن يقال: نؤمن بما دل عليه الكتاب الفلاني، دون الكتاب الفلاني وهو الحق الذي صدق ما قبله، فهذا ظلم وجور، وهو يرجع إلى قوله بالتكذيب، لأنه إذا كذب القرآن الدال عليها، المصدق لما بين يديه من التوراة، فإنه مكذب لما زعم أنه به مؤمن.

وأيضاً، فإن كل طريق تثبت به<sup>(٣)</sup> نبوة أي: نبي كان، فإن مثلها وأعظم منها، دالة على نبوة محمد ﷺ، وكل شبهة يقدم بها في نبوة محمد ﷺ، فإن مثلها أو أعظم منها، يمكن توجيهها إلى نبوة غيره، فإذا ثبت بطلانها في غيره، فثبوت بطلانها في حقه ﷺ أظهر وأظهر.

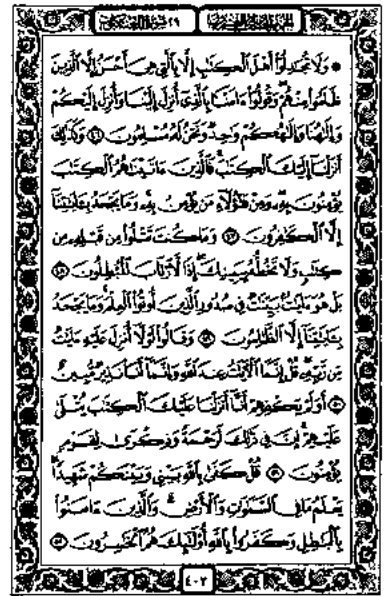
وقوله: **﴿ونحن له مسلمون﴾** أي: مفقودون مستسلمون لأمره. ومن آمن

(٣) وفي ب: بها.

(٢) في أ: بها.

(١) في ب: العباد.





والأ، فكل مَنْ له قصد صحيح، فإنه لا بد أن يؤمن به، لما اشتمل عليه من البينات، لكل مَنْ له عقل، أو القى السمع وهو شهيد.

وما يدل على صحته، أنه جاء به هذا النبي الأمين، الذي عرف قومه صدقه وأمانته ومدخله ومخرجه وسائر أحواله، وهو لا يكتب بيده خطأ، ولا يقرأ خطأ مكتوباً، فإتيانه به في هذه الحال، من أظهر البينات القاطعة، التي لا تقبل الارتياب، أنه من عند الله العزيز الحميد، ولهذا قال: ﴿وما كنت تتلو﴾ أي: تقرأ ﴿من قبله من كتاب ولا تحطه بيمينك إذا﴾ لو كنت بهذه الحال ﴿لارتاب المبطلون﴾

فقالوا: تعلمه من الكتب السابقة، أو استنسخه منها، فأما وقد نزل على قلبك، كتاباً جليلاً، تحديت به الفصحاء والبلغاء، الأعداء الألداء، أن يأتوا بمثله، أو بسورة من مثله، فعجزوا غاية العجز، بل ولا حدثهم أنفسهم بالعارضة، لعلمهم ببلاغته وفصاحته، وأن كلام أحد من البشر، لا يبلغ أن يكون مجارياً له أو على منواله، ولهذا قال:

﴿٤٩﴾ ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد باياتنا إلا الظالمون﴾.

أي: ﴿بل﴾ هذا القرآن ﴿آيات بينات﴾ لا خفيات، ﴿في صدور الذين أوتوا العلم﴾ وهم سادة الخلق، وعقلاؤهم، وأولو الألباب منهم، والكمل منهم.

فإذا كان آيات بينات في صدور أمثال هؤلاء، كانوا حجة على غيرهم، وإنكار غيرهم لا يضر، ولا يكون ذلك إلا ظلماً، ولهذا قال: ﴿وما يجحد باياتنا إلا الظالمون﴾ لأنه لا يجحدها إلا جاهل تكلم بغير علم، ولم يقتد بأهل العلم، وهو متمكن من معرفته على حقيقته، وإما متجاهل عرف أنه حق فعانده، وعرف صدقه فخالفه.

﴿٥٠ - ٥٢﴾ ﴿وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين﴾ \* أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾ \* قل كفى بالله بئني وبينكم شهيداً يعلم ما في السماوات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون﴾ \* أي: واعترض هؤلاء الظالمون المكذبون للرسول ولما جاء به، واقترحوا عليه نزول آيات عينوها، كقولهم: ﴿وقالوا لن تؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ الآيات. فتعيب الآيات ليس عندهم، ولا عند الرسول ﷺ، فإن في ذلك تدبيراً مع الله، وأنه لو كان كذلك، وليس وينبغي<sup>(١)</sup> أن يكون كذلك، وليس لأحد من الأمور شيء. ولهذا قال: ﴿قل إنما الآيات عند الله﴾ إن شاء أنزلها أو منعها ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾ وليس لي مرتبة فوق هذه المرتبة.

وإذا كان القصد بيان الحق من الباطل، فإذا حصل المقصود - بأي طريق - كان اقتراح الآيات المعينات على ذلك ظلماً وجوراً، وتكبيراً على الله وعلى الحق.

بل لو قدر أن تنزل تلك الآيات، ويكون في قلوبهم أنهم لا يؤمنون بالحق إلا بها، كان ذلك ليس بليمان، وإنما ذلك شيء وافق أهواءهم، فأمنوا، لا لأنه حق، بل لتلك الآيات.

فأي فائدة حصلت في إنزالها على التقدير الفرضي؟

ولما كان المقصود بيان الحق، ذكر تعال طريقه، فقال: ﴿أولم يكفهم﴾ في علمهم بصدقك وصدق ما جئت به ﴿أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم﴾ وهذا كلام مختصر جامع، فيه من الآيات البينات، والدلالات الباهرات، شيء كثير، فإنه كما تقدم إتيان الرسول به بمجرد وهو أمي، من أكبر الآيات على صدقه.

به، واتخذها لها، وأمن بجميع كتبه ورسله، وانقاد لله واتبع رسله، فهو السعيد، ومن انحرف عن هذا الطريق، فهو الشقي.

﴿٤٧ - ٤٨﴾ ﴿وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد باياتنا إلا الكافرون﴾ \* وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تحطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون﴾ أي: ﴿وكذلك أنزلنا إليك﴾ يا محمد، هذا ﴿الكتاب الكريم، المبين كل نبأ عظيم، الداعي إلى كل خلق فاضل، وأمر كامل، المصدق للكتب السابقة، المخبر به الأنبياء الأقدمون﴾.

﴿فالذين آتيناهم الكتاب﴾ فعرّفوه حق معرفته، ولم يداخلهم حسد وهوى. ﴿يؤمنون به﴾ لأنهم تيقنوا صدقه، بما لديهم من الموافقات، وبما عندهم من البشارات، وبما تميزوا به من معرفة الحسن والقبيح، والصدق والكذب.

﴿ومن هؤلاء﴾ الموجودين ﴿من يؤمن به﴾ إيماناً على بصيرة، لا عن رغبة ولا رهبة. ﴿وما يجحد باياتنا إلا الكافرون﴾ الذين دأبهم الجحود للحق والعناد له. وهذا حصر لمن كفر به، أنه لا يكون من أحد قصده متابعة الحق،

على مقصودهم، فأهانهم<sup>(٧)</sup> الله، وقتل كبارهم، واستوعب جملة أشرارهم، ولم يبق فيهم بيت إلا أصابته تلك المصيبة، فأناهم العذاب من حيث لم يمتسبوا، ونزل بهم وهم لا يشعرون.

هذا، وإن لم ينزل عليهم العذاب الديني، فإن أماسهم العذاب الأخروي، الذي لا يخلص منهم أحد منه، سواء عوجل بعذاب الدنيا أو أمهل.

﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾  
ليس لهم عنها معدل ولا منصرف، قد أحاطت بهم من كل جانب، كما أحاطت بهم ذنوبهم وسيئاتهم وكفرهم، وذلك العذاب، هو العذاب الشديد.

﴿يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون﴾ فإن أعمالكم انقلبت عليكم عذاباً، وشملكم العذاب كما شملكم الكفر والذنوب.

﴿٥٦ - ٥٩﴾ ﴿يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياني فاعبدون \* كل نفس ذائقة الموت ثم إني أترجعون \* والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين \* الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون﴾ يقول تعالى: ﴿يا عبادي الذين آمنوا﴾ بي وصدقوا رسولي ﴿إن أرضي واسعة فإياني فاعبدون﴾ فإذا تعذرت عليكم عبادة ربكم في أرض، فارتحلوا منها إلى أرض أخرى، حيث كانت العبادة لله وحده، فأماكن العبادة ومواضعها، واسعة، والمعبود واحد، والموت لا يد أن ينزل بكم ثم ترجعون إلى ربكم، فيجازي من أحسن عبادته وجمع بين الإيمان والعمل الصالح بإزالة الغرف العالية، والمنازل الأنيقة الجامعة لا تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، وأتم فيها خالدون.

فلتكفيكم هذه الشهادة الجليلة من الله، فإن وقع في قلوبكم أن شهادته - وأتم لم تسمعوه ولم تروه - لا تكفي دليلاً، فإنه ﴿يعلم ما في السماوات والأرض﴾. ومن جملة معلوماته حالي وحالكم، ومقالي لكم<sup>(٥)</sup> فلو كنت متقولاً عليه، مع علمه بذلك، وقدرته على عقوبتي، لكان قدحاً في علمه وقدرته وحكمته كما قال تعالى: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل \* لأخذنا منه باليمين \* ثم لقطعنا منه الوتين﴾.

﴿والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون﴾ حيث هم خسروا الإيمان بالله وملانكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وحيث فاتهم النعيم المقيم، وحيث حصل لهم في مقابلة الحق الصحيح كل باطل قبيح، وفي مقابلة النعيم كل عذاب أليم، فخسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

﴿٥٣ - ٥٥﴾ ﴿يستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون \* يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين \* يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون﴾ يخبر تعالى عن جهل المكذبين للرسول وما جاء به، وأتهم يقولون - استعجالاً للعذاب، وزيادة تكذيب - ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟﴾

يقول تعالى: ﴿ولولا أجل مسمى﴾ مضروب لنزوله، ولم يأت بعد، ﴿لجاءهم العذاب﴾ بسبب تعجزهم لنا وتكذيبهم الحق، فلو أخذناهم بجهلهم، لكان كلامهم أسرع ليلاتهم وعقوبتهم، ولكن - مع ذلك - فلا يستطيعون<sup>(٦)</sup> نزوله، فإنه سيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون. فوقع كما أخبر الله تعالى، لما قدموا كـ «بدر» بطرين مفاخرين، ظانين أنهم قادرون

ثم عجزهم عن معارضته، وتحديه إياهم<sup>(١)</sup>، آية أخرى، ثم ظهوره، وبروزه جهراً علانية، يتلى عليهم، ويقال: هو من عند الله، قد أظهره الرسول، وهو في وقت قل فيه أنصاره، وكثر مخالفوه وأعداؤه، فلم يخفه، ولم يثن ذلك عزمه، بل صرح به على رؤوس الأشهاد، ونادى به بين الحاضر والباد، بأن هذا كلام ربي، فهل أحد يقدر على معارضته، أو ينطق بمبارته أو يستطيع مجارته؟

ثم إخباره عن قصص الأولين، وأنباء السابقين<sup>(٢)</sup>، والغيوب المتقدمة والتأخرة، مع مطابقته للواقع.

ثم هيمنته على الكتب المتقدمة وتصحيحه للصحيح، ونفي ما أدخل فيها من التحريف والتبديل، ثم هدايته لسواء السبيل، في أمره ونهيه، فما أمر بشيء فقال العقل «لئنه لم يأمر به»، ولا نهى عن شيء فقال العقل: «لئنه لم ينه عنه»، بل هو مطابق للمعدل والميزان، والحكمة المعقولة لذوي البصائر والعقول أتم مسابقة إرشاداته وهداياته وأحكامه لكل حال وكل زمان بحيث لا تصلح الأمور إلا به<sup>(٣)</sup>.

فجميع ذلك يكفي من أراد تصديق الحق، وعمل على طلب الحق، فلا كفى الله من لم يكفه القرآن، ولا شفى الله من لم يشفه الفرقان، ومن اهتدى به واكتفى، فإنه خير له<sup>(٤)</sup>، فلذلك قال: ﴿إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾ وذلك لما يحصلون فيه من العلم الكثير، والخير الغزير، وتزكية القلوب والأرواح، وتطهير العقائد، وتكميل الأخلاق، والفتوحات الإلهية، والأسرار الربانية.

﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً﴾ فأنا قد استشهدته، فإن كنت كاذباً، أحل بي ما به تعتبرون، وإن كان إنما يؤيدني وينصري ويسير لي الأمور،

(٧) في النسخين: فأهانهم، ولعلها كا

أثبت والله أعلم.

(٤) في ب: فإنه رحمة له وخير.

(٥) كذا في ب، وفي أ: ومقالكم.

(٦) كذا في ب، وفي أ: يستعجلون.

(١) في ب: وتحديهم إياه.

(٢) في ب: السابقين.

(٣) زيادة من هامش: ب.

ف ﴿نعم﴾ تلك المنازل، في جنات النعيم ﴿أجر العاملين﴾ لله، ﴿الذين صبروا﴾ على عبادة الله ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ في ذلك. فصبرهم على عبادة الله، يقتضي بذل الجهد والطاقة في ذلك، والمحاربة العظيمة للشيطان، الذي يدعوهم إلى الإخلال بشيء من ذلك.

وتوكلهم، يقتضي شدة اعتمادهم على الله، وحسن ظنهم به، أن يحقق ما عزموا عليه من الأعمال ويكملها، ونص على التوكل، وإن كان داخلاً في الصبر، لأنه يحتاج إليه في كل فعل وترك مأمور به، ولا يتم إلا به.

﴿٦٠﴾ ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم﴾ أي: الباري تبارك وتعالى، قد تكفل بأرزاق الخلائق كلها، قويهم وعاجزهم، فكم ﴿من دابة﴾ في الأرض، ضعيفة القوى، ضعيفة العقل. ﴿لا تحمل رزقها﴾ ولا تدخره، بل لم تزل، لا شيء معها من الرزق، ولا يزال الله يسخر لها الرزق، في كل وقت بوقته.

﴿الله يرزقها وإياكم﴾ فكلكم عيال الله، القائم برزقكم، كما قام بخلقكم وتديبيركم، ﴿وهو السميع العليم﴾ فلا يخفى عليه خافية، ولا تهلك دابة من عدم الرزق بسبب أنها خافية عليه.

كما قال تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾.

﴿٦١ - ٦٣﴾ ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون﴾ \* الله ييسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم \* ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد

موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون﴾ هذا استدلال على المشركين المكذبين بتوحيد الإلهية والعبادة، وإلزام لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية، فأنتم لو سألتهم من خلق السموات والأرض، ومن نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، ومن يديه تدبير جميع الأشياء؟ ﴿ليقولن الله﴾ وحده، ولأعترفوا بعجز الأوثان ومن عبده مع الله على شيء من ذلك.

فأعجب لإفكهم وكذبيهم، وعدولهم إلى من أقرؤا بعجزه، وأنه لا يستحق أن يدبر شيئاً، وسجل عليهم بعدم العقل، وأنهم السفهاء، ضعفاء الأحلام، فهل تجد أضعف عقلاً وأقل بصيرة، ممن أتى إلى حجر، أو قبر ونحوه، وهو يدري أنه لا ينفع ولا يضر، ولا يخلق ولا يرزق، ثم صرف له خالص الإخلاص، وصافي العبودية، وأشركه مع الرب، الخالق الرازق، النافع الضار.

وقل: الحمد لله الذي بين الهدى من الضلال، وأوضح بطلان ما عليه المشركون، ليحذره الموقنون. وقل: الحمد لله، الذي خلق العالم العلوي والسفلي، وقام بتدبيرهم ورزقهم، ووسط الرزق على من يشاء، وضيقه على من يشاء، حكمة منه، ولعلمه بما يصلح عباده وما ينبهي لهم.

﴿٦٤ - ٦٩﴾ ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ \* فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون \* ليكفروا بما أتيناهم وليتبعوا فسوف يعلمون \* أولم يروا أننا جعلنا حراماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم أقبال باطل يؤمنون ويتنعم الله يكفرون \* ومن أظلم ممن افترى على

الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه اليس في جهنم مثوى للكافرين \* والذين جاهدوا فبنا لهمدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾ يخبر تعالى عن حالة الدنيا والآخرة، وفي ضمن ذلك، التزهيد في الدنيا والتشويق للآخرة، فقال: ﴿وما هذه الحياة الدنيا﴾ في الحقيقة ﴿إلا لهو ولعب﴾ تلهو بها القلوب، وتلعب بها الأبدان، بسبب ما جعل الله فيها من الزينة واللذات، والشهوات الخالية للقلوب المرصدة، الباهجة للعيون الغافلة، الفرحة للنفوس المبطلّة الباطلة، ثم تزول سريعاً، وتنقضي جميعاً، ولم يحصل منها محبة إلا على الندم والحسرة والحسران.

وأما الدار الآخرة، فإنها دار ﴿الحيوان﴾ أي: الحياة الكاملة، التي من لوازمها، أن تكون أبدان أهلها في غاية القوة، وقواهم في غاية الشدة، لأنها أبدان وقوى خلقت للحياة، وأن يكون موجوداً فيها كل ما تكمل به الحياة، وتم به اللذات، من مفرحات القلوب، وشهوات الأبدان، من المأكّل، والمشرب، والمناعج، وغير ذلك، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿لو كانوا يعلمون﴾ لما أتوا الدنيا على الآخرة، ولو كانوا يعقلون لما رغبوا عن دار الحيوان، ورغبوا في دار اللهو واللعب، فدل ذلك على أن الذين يعلمون، لا بد أن يؤثروا الآخرة على الدنيا، لما يعلمونه من حالة الدارين.

ثم ألزم تعالى المشركين بإخلاصهم لله تعالى، في حالة الشدة، عند ركوب البحر وتلاطم أمواجه وخوفهم الهلاك، يتركون إذا أمدادهم، ويخلصون الدعاء لله وحده لا شريك له، فلما زالت عنهم الشدة، ونجى<sup>(١)</sup> من أخلصوا له الدعاء إلى البر، أشركوا به من لا نجاهم من شدة، ولا أزال<sup>(٢)</sup> عنهم مشقة. فهلا أخلصوا لله الدعاء في حال

(١) في ب: حال.

(٢) كذا في ب، وفي أ: نجاهم.

(٣) كذا في ب، وفي أ: زال.

الرخاء والشدة، واليسر والعسر، ليكونوا مؤمنين به حقاً، مستحقين ثوابه، مندفعاً عنهم عقابه.

ولكن شركهم هذا بعد نعمتنا عليهم، بالنجاة من البحر، ليكون عاقبتهم كفر ما آتيناهم، ومقابلة النعمة بالإساءة، وليكملوا نعمتهم في الدنيا، الذي هو كتمتع الأنعام، ليس لهم هم إلا بطونهم وفروجهم.

فسوف يعلمون حين ينتقلون من الدنيا إلى الآخرة، شدة الأسف واليأس المعقوبة.

ثم امتن عليهم بحرمه الآمن، وأنهم أهله في أمن وسعة ورزق، والناس من حولهم يتخطفون ويخافون، أفلا يعبدون الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف.

﴿أبنايا باطل يؤمنون﴾ وهو ما هم عليه من الشرك، والأقوال، والأفعال الباطلة. ﴿وبنعمتة الله﴾ هم يكفرون ﴿فما زين ذهب عقولهم، وانسلخت أحلامهم حيث آثروا الضلال على الهدى، والباطل على الحق، والشقاء على السعادة، وحيث كانوا أظلم الخلق.﴾

﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ فنسب ما هو عليه من الضلال والباطل إلى الله، ﴿أو كذب بالحق لما جاءه﴾ على يد رسوله محمد ﷺ.

ولكن هذا الظالم العنيد، أمامه جهنم ﴿ليس في جهنم مثوى للكافرين﴾ يؤخذ بها منهم الحق، ويحزرون بها، وتكون منزلهم الدائم، الذين لا يخرجون منه.

﴿والذين جاهدوا فينا﴾ وهم الذين هاجروا في سبيل الله، وجاهدوا أعداءهم، وبذلوا جهودهم في اتباع مرضاته، ﴿لنهديهم سبلنا﴾ أي: الطرق الموصلة إلينا، وذلك لأنهم حسنون.

﴿وان الله لخبير المحسنين﴾ بالمعنى

والنصر والهداية. دل هذا، على أن أخرى الناس بموافقة الصراب أهل الجهاد، وعلى أن من أحسن فيما أمر به أمناه الله ويسر له أسباب الهداية، وعلى أن من جد واجتهد في طلب العلم الشرعي، فإنه يحصل له من الهداية والمعونة على تحصيل مطلوبه أمور إلهية، بخارجة عن مدرك اجتهاده، وتيسر له أمر العلم، فإن طلب العلم الشرعي من الجهاد في سبيل الله، بل هو أحد نوعي الجهاد، الذي لا يقوم به إلا أخصوا الخلق، وهو الجهاد بالقول واللسان، للكفار والمنافقين، والجهاد على تعليم أمور الدين، وعلى رد نزاع المخالفين للحق، ولو كانوا من المسلمين.

ثم تفسير سورة المنكوت

بحمد الله وعونه

### تفسير سورة الزوم

وهي مكية

﴿١ - ٧﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ألم﴾ غلبت الروم \* في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفليون \* في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون \* بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم \* وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون \* يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون \* كانت الفرس والروم في ذلك الوقت من أقوى دول الأرض، وكان يكون بينهما من الحروب والقتال، ما يكون بين الدول المتوازنة.

وكانت الفرس مشركين يعبدون النار، وكانت الروم أهل كتاب ينتسبون إلى التوراة والإنجيل، وهم أقرب إلى المسلمين من الفرس، فكان المؤمنون يحبون غلبتهم وظهورهم على الفرس، وكان المشركون - لا اشتراكهم والفرس في الشرك - يحبون ظهور الفرس على الروم.

﴿١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ألم﴾ غلبت الروم \* في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفليون \* في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون \* بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم \* وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون \* يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون \* كانت الفرس والروم في ذلك الوقت من أقوى دول الأرض، وكان يكون بينهما من الحروب والقتال، ما يكون بين الدول المتوازنة.

فظهر الفرس على الروم، فغلبوهم غالباً لم يحط بملكهم، بل بأدنى أرضهم، وفرح بذلك مشركو مكة، وحزن المسلمون، فأخبرهم الله ووعدهم <sup>(١)</sup> أن الروم ستغلب الفرس.

﴿في بضع سنين﴾ تسع، أو ثمان، ونحو ذلك، بما لا يزيد على العشر، ولا ينقص عن الثلاث، وأن غلبة الفرس للروم، ثم غلبة الروم للفرس، كل ذلك بمشيئته وقدره، ولهذا قال: ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد﴾ فليس الغلبة والنصر لمجرد وجود الأسباب، وإنما هي لا بد أن يقترب بها القضاء والقدر.

﴿ويومئذ﴾ أي: يوم يغلب الروم الفرس ويقهروهم ﴿يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء﴾ أي: يفرحون بانتصارهم على الفرس، وإن كان الجميع كفاراً، ولكن بعض الشر أهون من بعض، ويجزى يومئذ المشركون.

﴿وهو العزيز﴾ الذي له العزة التي فخر بها الخلائق أجمعين، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء. ﴿الرحيم﴾ بعباده المؤمنين، حيث يقض لهم من الأسباب التي تسعدهم وتنصرهم، ما

ويعلموا بساحته [وهذه الأمور لو قارنها الإيمان وبنيت عليه لأنحمرت الرقي العالي، والحياة الطيبة، ولكنها لما بني كثير، منها على الإلحاد لم تثمر إلا هبوط الأخلاق وأسباب الفناء والتدمير<sup>(١)</sup> .

﴿وهم عن الآخرة هم غافلون﴾<sup>(٨-١٠)</sup> ﴿أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس يلقاء ربهم لكافرون﴾ \* أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ \* ثم كان عاقبة الذين أسأوا السواى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤون﴾<sup>(١٠)</sup> أي: أفلم يتفكر هؤلاء المكذبون لرسول الله ولقائه ﴿في أنفسهم﴾ فإن في أنفسهم آيات يعرفون<sup>(١١)</sup> بها، أن الذي أوجدهم من عدم، سيعيدهم بعد ذلك، وأن الذي نقلهم أطواراً من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى آدمي، قد نفخ فيه الروح، إلى طفل، إلى شاب، إلى شيخ، إلى هرم، غير لائق أن يتركهم سدى مهملين، لا يهتمون ولا يؤمرون، ولا يهابون ولا يعاقبون .

﴿ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ [أي] ليلوكم أيكم أحسن عملاً . ﴿وأجل مسمى﴾ أي: مؤقت بقاؤها إلى أجل تنقضي به الدنيا، ونجى به القيامة، وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات .

﴿وإن كثيراً من الناس يلقاء ربهم لكافرون﴾<sup>(١٢)</sup> لذلك لم يستعدوا للقاءه، ولم يصدقوا رساله التي أخبرت به، وهذا الكفر عن غير دليل، بل الأدلة القاطعة، قد دلت على البعث والجزاء،

﴿وإن كثيراً من الناس يلقاء ربهم لكافرون﴾<sup>(١٢)</sup> لذلك لم يستعدوا للقاءه، ولم يصدقوا رساله التي أخبرت به، وهذا الكفر عن غير دليل، بل الأدلة القاطعة، قد دلت على البعث والجزاء،

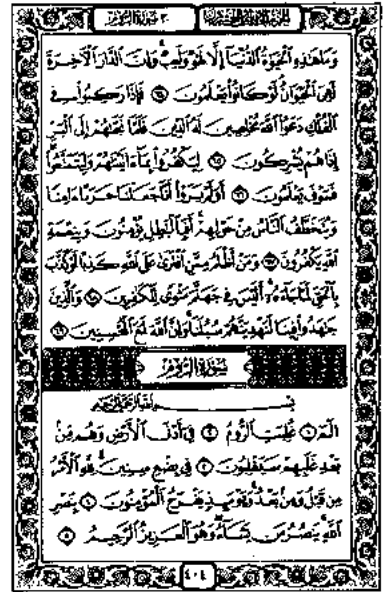
أسباب وجوده، ويتيقنون عدم الأمر الذي لم يشاهدوا له من الأسباب المتقضية لوجوده شيئاً، فهم واقفون مع الأسباب، غير ناظرين إلى مسببها، المتصرف فيها .

﴿وهم عن الآخرة هم غافلون﴾<sup>(٨)</sup> قد توجهت قلوبهم وأهواؤهم وإراداتهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها، فعملت لها وسعت، وأقبلت بها وأدبرت، وغفلت عن الآخرة، فلا الجنة تشتاق إليها، ولا النار تخافها وتخشاها، ولا القيام بين يدي الله ولقائه يروعها ويزعجها، وهذا علامة الشقاء، وعنوان الغفلة عن الآخرة .

ومن العجب أن هذا القسم من الناس، قد بلغت بكثير منهم الغفلة والذكاء في ظاهر الدنيا، إلى أمر يجير العقول ويدهش الألباب .

وأظهروا من المعجائب الذرية<sup>(١٣)</sup> والكهربائية، والمراكب البرية والبحرية والهوائية، ما فاقوا به وبرزوا، وأعجبوا بعقولهم، ورأوا غيرهم عاجزاً عما أقدرهم الله عليه، فنظروا إليهم بعين الاحتقار والازدراء، وهم مع ذلك، أبلد الناس في أمر دينهم، وأشدهم غفلة عن آخرتهم، وأقلهم معرفة بالعواقب، قد راهم أهل البصائر النافذة، في جهلهم يتخطون، وفي ضلالهم يعمهون، وفي باطلهم يترددون<sup>(١٤)</sup> . نسوا الله فأنساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون .

ثم<sup>(١٥)</sup> نظرنا إلى ما أعطاهم الله وأقدرهم عليه، من الأفكار الدقيقة في الدنيا وظواهرها، و[ما] حرموا من العقل العالي، فعرفوا<sup>(١٦)</sup> أن الأمر لله، والحكم له في عياده، وإن هو إلا توفيقه وخذلانه، فخافوا<sup>(١٧)</sup> ربهم وسألوه أن يتم لهم ما وهبهم، من نور العقول والإيمان، حتى يصلوا إليه،



لا يدخل في الحساب .

﴿وعد الله لا يخلف الله وعده﴾<sup>(١٨)</sup> فتيقنوا ذلك، واجزموا به، واعلموا أنه لا بد من وقوعه .

فلما نزلت هذه الآيات، التي فيها هذا الوعد، صدق بها المسلمون، وكفر بها المشركون، حتى تراهن بعض المسلمين وبعض المشركين على مدة سنين عيونها، فلما جاء الأجل، الذي ضربه الله، انتصر الروم على الفرس، وأجلبوهم من بلادهم التي أخذوها منهم، وتحقق وعد الله .

وهذا من الأمور الغيبية التي أخبر بها الله قبل وقوعها، ووجدت في زمان من أخبرهم الله بها، من المسلمين والمشركين . ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾<sup>(١٩)</sup> أن ما وعد الله به حق، فلذلك يوجد فريق منهم يكذبون بوعد الله، ويكذبون بآياته، وهؤلاء الذين لا يعلمون، أي: لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها، وإنما يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا﴾<sup>(٢٠)</sup> فينظرون إلى الأسباب، ويجزمون بوقوع الأمر الذي في رأيهم اعتقدت

(٧) كذا في ب، وفي أ: يعرف .

(٤) في ب: عدلت إلى: لعرفوا .

(١) كذا في ب، وفي أ: التارية .

(٥) في ب: عدلت إلى ولخافوا .

(٢) كذا في ب، وفي أ: يتردون .

(٦) زيادة من هامش ب، لم يتضح أصلها

(٣) هكذا في النسختين، وقد شطبت

وقد نقلته من طبعة السلفية .

الكلمة في ب، وجعل بدلها (ولو) .





عظمته، ونفوذ مشيئته، وقوة اقتداره، وجبل صنعه، وسعة رحمته وإحسانه، فقال: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب﴾ وذلك بخلق أصل النسل، آدم عليه السلام، ﴿ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ أي: الذي خلقكم من أصل واحد ومادة واحدة<sup>(١)</sup> وبشك في أقطار الأرض [وأرجائها ففي ذلك آيات على أن الذي أنشأكم من هذا الأصل وبشك في أقطار الأرض]<sup>(٢)</sup> هو الرب العبود، الملك المحمود، والرحيم الودود، الذي سيعيدكم بالبعث بعد الموت.

﴿ومن آياته﴾ الدالة على رحمته وعنايته بعباده، وحكمته العظيمة، وعلمه المحيط، ﴿أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ تناسبكم وتناسبونهم، وتشاكلكم وتشاكلونهم، ﴿لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ بما رتب على الزواج من الأسباب الجالبة للمودة والرحمة.

فحصل بالزوجة الاستمتاع واللذة، والمنفعة بوجود الأولاد وتربيتهم، والسكون إليها، فلا تجهد بين أحد في الغالب، مثل ما بين الزوجين من المودة والرحمة، ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ يُعمِلون أفكارهم، ويتدبرون آيات الله، وينتقلون من شيء إلى شيء.

﴿٢٢﴾ ﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف السنتكم وألوانكم﴾ إن في ذلك لآيات للعالمين ﴿والعالمون﴾ هم أهل العلم، الذين يفهمون العبر، ويتدبرون الآيات. والآيات في ذلك كثيرة: فمن آيات خلق السماوات والأرض وما فيها، أن ذلك دال على عظمة سلطان الله وكمال اقتداره، الذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة،

وكمال حكمته، لما فيها من الإتيان، وسعة علمه، لأن الخالق لا بد أن يعلم ما خلقه ﴿ألا يعلم من خلق﴾ وعموم رحمته وفضله، لما في ذلك من المنافع الجليلة، وأنه المرید، الذي يختار ما يشاء، لما فيها من التخصيصات والزيايا، وأنه وحده، الذي يستحق أن يعبد ويوحد، لأنه المنفرد بالخلق، فيجب أن يفرد بالعبادة، فكل هذه أدلة عقلية، نبه الله العقول إليها، وأمرها بالفكر واستخراج العبرة منها.

﴿و﴾ كذلك في ﴿اختلاف السنتكم وألوانكم﴾ على كثرتكم وتباينكم مع أن الأصل واحد، ومخرج الحروف واحدة، ومع ذلك لا تجهد صوتين متفقين من كل وجه، ولا لوتين متشابهين من كل وجه، إلا وتجد من الفرق بين ذلك ما به يحصل التمييز. وهذا دال على كمال قدرته، ونفوذ مشيئته.

﴿ومن﴾<sup>(٣)</sup> عنايته بعباده ورحمته بهم، أن قدر ذلك الاختلاف، لتتلاقح النشابه فيحصل الاضطراب، ويفوت كثير من المقاصد والمطالب.

﴿٢٣﴾ ﴿ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾ أي: سماع تدبر وتعقل للمعاني والآيات في ذلك. إن ذلك دليل على رحمة الله تعالى، كما قال: ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ وعلى تمام حكمته، إذ حكمته اقتضت سكون الخلق في وقت، ليستريحوا به<sup>(٤)</sup> ويستجموا<sup>(٥)</sup>، وانتشارهم في وقت، لمصالحهم الدينية والدنيوية، ولا يتم ذلك إلا بتعاقب الليل والنهار عليهم، والمنفرد بذلك، هو المستحق للعبادة.

﴿٢٤﴾ ﴿ومن آياته بريككم البرق

النبات من الأرض البتة، والسنبلة من الحبة، والشجرة من النواة، والفرخ من البيضة، والمؤمن من الكافر، ونحو ذلك.

﴿ويخرج الميت من الحي﴾ بعكس المذكور ﴿ويحيي الأرض بعد موتها﴾ فينزل عليها المطر وهي ميتة هامدة، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ﴿وكذلك تخرجون﴾ من قبوركم.

فهذا دليل قاطع، وبرهان ساطع، أن الذي أحيا الأرض بعد موتها، فإنه يحيي الأموات، فلا فرق في نظر العقل بين الأمرين، ولا موجب لاستبعاد أحدهما مع مشاهدة الآخر.

﴿٢٠ - ٢١﴾ ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ هذا شروع في تعداد آياته الدالة على انفرادة بالإلهية، وكمال

(١) زيادة بخط المؤلف من هامش أ.

(٢) زيادة من ب.

(٣) زيادة يقتضيا السياق.

(٤) زيادة من أ.

(٥) الكلمة غير واضحة في النسختين وكأنها (ويجموا) وقد زيد عليها في نسخة ب حرفان فصارت يستجموا.

خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴿أي: ومن آياته، أن ينزل عليكم المطر، الذي تحيا به البلاد والعباد، ويريكم قبل نزوله مقدماته، من الرعد والبرق، الذي يخاف ويطمع فيه.

﴿إن في ذلك لآيات﴾ [دالة] على عموم إحسانه، وسعة علمه، وكمال إتقانه، وعظيم حكمته، وأنه يجيي الموتى، كما أحيا الأرض بعد موتها. ﴿لقوم يعقلون﴾ أي: لهم عقول، تعقل بها ما تسمعه، وتراه وتحفظه، وتستدل به على ما جعل دليلاً عليه.

﴿٢٥ - ٢٧﴾ ﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون \* وله من في السماوات والأرض كل له قانتون \* وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ أي: ومن آياته العظيمة، أن قامت السماوات والأرض واستقرتا، وثبتتا بأمره فلم تنزلزلا، ولم تسقط السماء على الأرض، فقدرته العظيمة، التي بها أسك السماوات والأرض أن تزولا، يقدر بها أنه إذا دعا الخلق دعوة من الأرض، إذا هم يخرجون ﴿خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس﴾.

﴿وله من في السماوات والأرض﴾ الكل خلقه وبماليكه، المتصرف فيهم من غير منازع ولا معاون ولا معارض، وكلهم قانتون لجلاله، خاضعون لكماله.

﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو﴾ أي: الإعادة للخلق بعد موتهم ﴿أهون عليه﴾ من ابتداء خلقهم، وهذا بالنسبة إلى الأذهان والعقول، فإذا كان قادراً على الابتداء الذي تقرون به، كانت<sup>(١)</sup> قدرته على الإعادة التي أهون أولى وأولى.

ولما ذكر من الآيات العظيمة ما به

يعتبر المعتبرون، ويتذكر المؤمنون ويتبصر المهتدون، ذكر الأمر العظيم والمطلب الكبير، فقال: ﴿وله المثل الأعلى في السماوات والأرض﴾ وهو كل صفة كمال، والكمال من تلك الصفة، والمحبة، والإنابة التامة الكاملة في قلوب عباده المخلصين، والذكر الجليل، والعبادة منهم. فالمثل الأعلى، هو وصفه الأعلى، وما ترتب عليه.

ولهذا كان أهل العلم يستعملون في حق الباري قياس الأول، فيقولون: كل صفة كمال في المخلوقات، فخالقها أحق بالانصاف بها، على وجه لا يشاركه فيها أحد، وكل نقص في المخلوق ينزه عنه، فتزبه الخالق عنه من باب أولى وأحرى.

﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي: له العزة الكاملة، والحكمة الواسعة، فعزته، أوجد بها المخلوقات وأظهر الأمور، وحكمته، أنقذ بها ما صنعه وأحسن فيها ما شرعه.

﴿٢٨ - ٢٩﴾ ﴿ضرب لكم مثلاً﴾ من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون \* بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين﴾ هذا مثل ضربه الله تعالى، لقيح الشرك وتهجينه، مثلاً من أنفسكم، لا يحتاج إلى حل وترحال، وإعمال الجمال.

﴿هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم﴾ أي: هل أحد من عبيدكم وإمائكم الأرقاء يشارككم في رزقكم، وترون أنكم وهم فيه على حد سواء.

﴿تخافونهم كخيفتكم أنفسكم﴾ أي: كالأحرار الشركاء في الحقيقة، الذين يخاف من قسمه، واختصاص كل شيء بحاله؟

ليس الأمر كذلك، فإنه ليس أحد مما ملكت أيمانكم شريكاً لكم فيما

رزقكم الله تعالى.

هذا، ولستم الذين خلقتهم وهم ورزقتهم، وهم أيضاً بمالك مثلكم، فكيف ترضون أن تجعلوا لله شريكاً من خلقه، وتجعلونه بمنزلة، وعديلاً له في العبادة، وأنتم لا ترضون مساواة بمالكم لكم؟

هذا من أعجب الأشياء، ومن أدل شيء على [سفه]<sup>(٢)</sup> من اتخذ شريكاً مع الله، وأن ما اتخذ باطل مضمحل، ليس مساوياً لله، ولا له من العبادة شيء.

﴿كذلك نفصل الآيات﴾ بتوضيحها بأمثلتها ﴿لقوم يعقلون﴾ الخفايا ويعرفون، وأما من لا يعقل، فلو فصلت له الآيات، وبيّنت له البيّنات، لم يكن له عقل يبصر به ما تبين، ولا لب يعقل به ما توضح، فأهل العقول والألباب، هم الذين يساق إليهم الكلام، ويوجه الخطاب.

وإذا علم من هذا المثال، أن من اتخذ من دون الله شريكاً يعبده ويتوكل عليه في أموره، فإنه ليس معه من الحق شيء، فما الذي أوجب له الإقدام على أمر باطل، توضح له بطلانه وظهر برهانه؟ [لقد]<sup>(٣)</sup> أوجب لهم ذلك اتباع الهوى، فلهاذا قال: ﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم﴾ هويت أنفسهم الناقصة، التي ظهر من نقصانها ما تعلق به هواها، أمراً يجزم العقل بفساده، والفطر برده، بغير علم دلهم عليه، ولا برهان قادم إليه.

﴿فمن يهدي من أضل الله﴾ أي: لا تمجّبوا من عدم هدايتهم، فإن الله تعالى أضلهم بظلمهم، ولا طريق لهادية من أضل الله، لأنه ليس أحد معارضاً لله، أو منازعاً له في ملكه.

﴿وما لهم من ناصرين﴾ ينصرونهم حين تحق عليهم كلمة العذاب، وتقطع بهم الوصل والأسباب.

﴿٣٠ - ٣٢﴾ ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم



وباطل، فيكونون مشاهبين بذلك للمشركين في التفرق، بل الدين واحد، والرسول واحد، والإله واحد.

وأكثر الأمور الدينية، وقع فيها الإجماع بين العلماء والأئمة، والأخوة الإيمانية، قد عقدها الله وربطها أتم ربط، فما بال ذلك كله يُلغى، ويُبنى التفرق والشقاق بين المسلمين على مسائل خفية، أو فروع خلافية، يضل بها بعضهم بعضاً، ويتميز بها بعضهم عن بعض؟

فهل هذا إلا من أكبر نزغات الشيطان وأعظم مقاصده، التي كاد بها للمسلمين؟

وهل السعي في جمع كلمتهم، وإزالة ما بينهم من الشقاق، المبني على ذلك الأصل الباطل، إلا من أفضل الجهاد في سبيل الله، وأفضل الأعمال القربة إلى الله؟

ولما أمر تعالى بالإنابة إليه - وكان الأمور بها، هي الإنابة الاختيارية، التي تكون في حالي العسر واليسر، والسعة والضيق - ذكر الإنابة الاضطرارية، التي لا تكون مع الإنسان إلا عند ضيقه وكرهه، فإذا زال عنه الضيق، نبذها وراء ظهره، وهذه غير نافعة، فقال:

﴿٣٣ - ٣٥﴾ «وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون \* ليكفروا بما أتيناهم فمنتموا فسوف تعلمون \* أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون».

«وإذا مس الناس ضر» مرض، أو خوف من هلاك، ونحوه. «دعوا ربهم منيبين إليه» ونسوا ما كانوا به يشركون في تلك الحال، لعلمهم أنه لا يكشف الضر إلا الله.

«ثم إذا أذقهم منه رحمة» شفاهم من مرضهم، وأمنهم من خوفهم، «إذا فريق منهم» يقضون تلك الإنابة

الناس لا يعلمون» فلا يتعرفون الدين القيم، وإن عرفوه لم يسلكوه.

«منيبين إليه واتقوه» وهذا تفسير لإقامة الوجه للدين، فإن الإنابة إنابة القلب وانجذاب دواعيه لمراضي الله تعالى.

ويلزم من ذلك، حمل (٢) البدن بمقتضى ما في القلب، فنشل ذلك العبادات الظاهرة والباطنة، ولا يتم ذلك إلا بتترك المعاصي الظاهرة والباطنة، فلذلك قال: «واتقوه» فهذا يشمل فعل المأمورات وترك المنهيات. وخص من المأمورات الصلاة، لكونها تدعو إلى الإنابة والتقوى، لقوله تعالى: «وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر» فهذا إعانتها على التقوى.

ثم قال: «ولذكر الله أكبر» فهذا حثها على الإنابة.

وخص من المنهيات أصلها، والذي لا يقبل معه عمل، وهو الشرك، فقال: «ولا تكونوا من المشركين» لكون الشرك مضاداً للإنابة، التي روحها الإخلاص من كل وجه.

ثم ذكر حالة المشركين مهجناً لها ومقبحاً، فقال: «من الذين فرقوا دينهم» مع أن الدين واحد، وهو إخلاص العبادة لله وحده، وهؤلاء المشركون فرقوه، منهم من يعبد الأوثان والأصنام، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الأولياء والصالحين، ومنهم يهود، ومنهم نصارى.

ولهذا قال: «وكانوا شيعاً» أي: كل فرقة من فرق الشرك تألفت وتمصبت، على نصر ما معها من الباطل، ومناذبة غيرهم ومحاربتهم.

«كل حزب بما لديهم» من العلوم المخالفة لعلوم الرسل «فرحون» به، يحكمون لأنفسهم بأنه الحق، وأن غيرهم على باطل، وفي هذا تحذير للمسلمين من تشتتهم وتفرقهم فرقاً، كل فريق يتعصب لما معهم من حق

ولكن أكثر الناس لا يعلمون \* منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين \* من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون» يأمر تعالى بالإخلاص له في جميع الأحوال، وإقامة دينه، فقال: «فأقم وجهك» أي: انصبه ووجهه إلى الدين الذي هو الإسلام، والإيمان، والإحسان، بأن تتوجه بقلبك، وقصدك، وبدنك إلى (١) إقامة شرائع الدين الظاهرة، كالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج ونحوها. وشرائعه الباطنة، كالحمية، والخوف، والرجاء، والإنابة، والإحسان في الشرائع الظاهرة والباطنة، بأن تعبد الله فيها كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك.

وخص الله إقامة الوجه، لأن إقبال الوجه تبع لإقبال القلب، ويرتب على الأمرين سغى البدن، ولهذا قال: «حنيئاً» أي: مقبلاً على الله في ذلك، معرضاً عما سواه.

وهذا الأمر الذي أمرناك به، هو «فطرة الله التي فطر الناس عليها» ووضع في عقولهم حسنها، واستفحاح غيرها، فإن جميع أحكام الشرع، الظاهرة والباطنة، قد وضع الله في قلوب الخلق كلهم، الميل إليها، فوضع في قلوبهم محبة الحق، وإيثار الحق، وهذا حقيقة الفطرة.

ومن خرج عن هذا الأصل، فلعارض عرض لفطرته أفسدها، كما قال النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

«لا تبدل خلق الله» أي: لا أحد يبدل خلق الله، فيجعل المخلوق على غير الوضع الذي وضعه الله. «ذلك» الذي أمرنا به «الدين القيم» أي: الطريق المستقيم الموصل إلى الله، وإلى كرامته، فإن من أقام وجهه للدين حنيئاً، فإنه سالك الصراط المستقيم، في جميع شرائعه وطرقه، «ولكن أكثر

(٢) في ب: عمل.

(١) كذا في ب، وفي أ: على.

التي صدرت منهم، ويشركون به مَنْ لا دفع عنهم ولا أغنى، ولا أفقر ولا أغنى، وكل هذا كفر بما أتاهم الله وَمَنْ به عليهم، حيث أنجاهم، وأنقذهم من الشدة، وأزال عنهم المشقة، فهلاً قابلوا هذه النعمة الجليلة، بالشكر والدوام على الإخلاص له في جميع الأحوال؟

﴿أم أنزلنا عليهم سلطاناً﴾ أي: حجة ظاهرة ﴿نهور﴾ أي: ذلك السلطان، ﴿بتكلم بما كانوا به يشركون﴾ ويقول لهم: اثبتوا على شرككم، واستمروا على شككم، فإن ما أنتم عليه هو الحق، وما دعتكم الرسل إليه باطل.

فهل ذلك السلطان موجود عندهم، حتى يوجب لهم شدة التمسك بالشرك؟ أم البراهين العقلية والسمية، والكتب السماوية، والرسل الكرام، وسادات الأنام، قد نبهوا أشد النهي عن ذلك، وحذروا من سلوك طرقه الموصلة إليه، وحكموا بفساد عقل ودين من ارتكبه؟

فشرك هؤلاء بغير حجة ولا برهان، وإنما هو أهواء النفوس، ونزغات الشيطان.

﴿٣٦ - ٣٧﴾ ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصيبهم سبئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون﴾ \* أولم يروا أن الله ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ يخبر تعالى عن طبيعة أكثر الناس، في حال الرخاء والشدة، أنهم إذا أذاقهم الله منه رحمة، من صحة، وغنى، ونصر ونحو ذلك، فرحوا بذلك فرح بطر، لا فرح شكر وتبجح بنعمة الله.

﴿وإن تصيبهم سبئة﴾ أي: حال تسوؤهم، وذلك ﴿بما قدمت أيديهم﴾ من المعاصي. ﴿إذا هم يقنطون﴾ يياسون من زوال ذلك الفقر والمرض، ونحوه. وهذا جهل منهم وعدم معرفة.

﴿أولم يروا أن الله ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ فالقنوط بعدما علم أن الخير والشر من الله، والرزق، سمته

وضيقه من تقديره، ضائع ليس له محل. فلا تنظر أيها العاقل لمجرد الأسباب، بل اجعل نظرك لمسبها، ولهذا قال: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ فهم الذين يعتبرون بسط الله لمن يشاء وقبضه، ويعرفون بذلك، حكمة الله ورحمته وجوده، وجذب القلوب لسؤاله في جميع مطالب الرزق.

﴿٣٨ - ٣٩﴾ ﴿فأت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجهه الله وأولئك هم المفلحون﴾ \* وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجهه الله فأولئك هم المضعفون﴾ أي: فأعط القريب منك - على حسب قربه وحاجته - حقه الذي أوجبه الشارع، أو حضض عليه، من النفقة الواجبة، وللصدقة، والهدية، والبر، والسلام، والإكرام، والعفو عن زلته، والمسامحة عن هفونه. وكذلك [آت] المسكين، الذي أسكنه الفقر والحاجة، ما تنزله به حاجته، وتدفع به ضرورته، من إطعامه وسقيه وكسوته.

﴿وابن السبيل﴾ الغريب المنقطع به في غير بلده، الذي في مظنة شدة الحاجة، لأنه لا مال معه، ولا كسب قد دبر نفسه به [أي] سفره، بخلاف الذي في بلده، فإنه وإن لم يكن له مال، ولكن لا بد - في الغالب - أن يكون في حرفة، أو صناعة ونحوها تسد حاجته، ولهذا جعل الله في الزكاة حصة للمسكين وابن السبيل.

﴿ذلك﴾ أي: إيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل ﴿خير للمدين يريدون﴾ بذلك العمل ﴿وجه الله﴾ أي: خير غزير، وثواب كثير، لأنه من أفضل الأعمال الصالحة، والنفق المتعدي، الذي وافق محله المقرون به الإخلاص.

فإن لم يرد به وجه الله، لم يكن خيراً للمُعطي، وإن كان خيراً ونفعاً للمُعطى كما قال تعالى: ﴿لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف



أو إصلاح بين الناس﴾. مفهومها، أن هذه المثبتات خير لنفعها المتعدي، ولكن مَنْ يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله، فسوف نؤتيه أجراً عظيماً.

وقوله: ﴿وأولئك﴾ الذين عملوا هذه الأعمال وغيرها لوجه الله ﴿هم المفلحون﴾ الفائزون بشواب الله، الناجون من عقابه.

ولما ذكر العمل الذي يقصد به وجهه، [من النفقات] ذكر العمل الذي يقصد به مقصد دنيوي، فقال: ﴿وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس﴾ أي: ما أعطيتم من أموالكم الزائدة عن حوائجكم، وقصدكم بذلك أن يربو، أي: يزيد في أموالكم، بأن تعطوها لمن تطمعون أن يعاوضكم عنها بأكثر منها، فهذا العمل لا يربو أجره عند الله، لكونه معدوم الشرط، الذي هو الإخلاص. ومثل ذلك العمل الذي يراد به الزيادة في الجاه، والرياء عند الناس، فهذا كله لا يربو عند الله.

﴿وما آتيتم من زكاة﴾ أي: مال يطهركم من الأخلاق الرذيلة، ويظهر أموالكم من البخل بها، ويزيد في دفع حاجة المُعطى. ﴿تريدون﴾ بذلك ﴿وجه الله فأولئك هم المضعفون﴾ أي: المضعف لهم الأجر، الذين تربو نفقاتهم عند الله، ويربها الله لهم، حتى تكون شيئاً كثيراً.



أي: استعملن الفساد في البر والبحر، أي: فساد معاشهم ونقصها، وحلول الآفات بها، وفي أنفسهم من الأمراض والوباء، وغير ذلك، وذلك بسبب ما قدمت أيديهم من الأعمال الفاسدة، المفسدة بطبيعتها.

هذه المذكورة **﴿ليذيقهم بعض الذي عملوا﴾** أي: ليعلموا أنه المجازي على الأعمال، فعجل لهم نموذجاً من جزاء أعمالهم في الدنيا **﴿لعلهم يرجعون﴾** عن أعمالهم، التي أثرت لهم من الفساد ما أثرت، فتصلح أحوالهم، ويستقيم أمرهم.

فسيحان من أنعم ببلاده، وتفضل بعقوبته، وإلا فلو أذاهم جميع ما كسبوا، ما ترك على ظهرها من دابة.

**﴿٤٢﴾** **﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين﴾** والأمر بالسير في الأرض، يدخل فيه السير بالأبدان<sup>(٢)</sup>، والسير في القلوب، للنظر والتأمل بعواقب المتقدمين.

**﴿كان أكثرهم مشركين﴾** تجدون عاقبتهم شر العواقب، ومآلهم شر مآل، عذاب استأصلهم، وذم لعن من خلق الله يستعصم، وخزي يتواصل، فاحذروا أن تفعلوا فعالهم، يخذى بكم حدوهم، فإن عدل الله وحكمته في كل زمان ومكان.

**﴿٤٣ - ٤٥﴾** **﴿فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون﴾** \* من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون \* ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنه لا يحب الكافرين **﴿أي: أقبل بقلبك، وتوجه بوجهك، واسع بيدك، لإقامة الدين القيم المستقيم، فنفذ أوامره ونواهيه بجد واجتهاد، وقم بوظائفه الظاهرة والباطنة، وبادر زمانك وحياتك وشبابك،﴾** من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله **﴿وهو يوم القيامة، الذي إذا جاء لا يمكن رده، ولا يرجأ العاملون**

أن يستأنفوا<sup>(٣)</sup> العمل، بل فرغ من الأعمال، لم يبق إلا أجزاء العمال. **﴿يومئذ يصدعون﴾** أي: ينفرون عن ذلك اليوم، ويصدرون أشتاتاً متفاوتين، ليُزوا أعمالهم.

**﴿٤٤﴾** **﴿من كفر﴾** منهم **﴿فعلبه كفره﴾** ويعاقب هو بنفسه، لا تزر وازرة وزر أخرى **﴿ومن عمل صالحاً﴾** من الحقوق التي لله، أو التي للعباد، الواجبة والمستحبة، **﴿فلأنفسهم﴾** لا لغيرهم **﴿يمهدون﴾** أي: يهيئون، ولأنفسهم يعمرون آخرتهم، ويستعدون للفوز بمنازلتها وغرفاتها، ومع ذلك، جزاؤهم ليس مقصوراً على أعمالهم، بل يجزيهم الله من فضله الممدود، وكرمه غير المحدود، ما لا تبلغه أعمالهم. وذلك لأنه أحبهم، وإذا أحب الله عبداً صب عليه الإحسان صباً، وأجزل له العطايا الفاخرة، وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة.

وهذا بخلاف الكافرين، فإن الله لما أبغضهم ومقتهم، عاقبهم وعذبهم، ولم يزدهم كما زاد من قبلهم، فللهذا قال: **﴿إنه لا يحب الكافرين﴾**.

**﴿٤٦﴾** **﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾** أي: ومن الأدلة الدالة على رحمته وبعثه الموتى، وأنه الإله المعبود، والملك المحمود، **﴿أن يرسل الرياح﴾** أمام المطر **﴿مبشرات﴾** بإنارتها للسحاب ثم جمعها، فتبشر بذلك النفوس قبل نزوله.

**﴿وليذيقكم من رحمته﴾** فينزل عليكم من رحمته مطراً، تحيا به البلاد والعباد، وتذوقون من رحمته ما تعرفون أن رحمته هي النقطة للعباد والجنالية لأرزاقهم، فتشتاقون إلى الإكثار من الأعمال الصالحة، الفاتحة لخزائن الرحمة.

**﴿ولتجري الفلك﴾** في البحر

ودل قوله: **﴿وما اتبتم من زكاة﴾** أن الصدقة مع اضطرار من يتعلق بالمتفق، أو مع دين عليه لم يقضه، ويقدم عليه الصدقة، أن ذلك ليس بزكاة يؤجر عليه العبد، ويرد تصرفه شرعاً، كما قال تعالى في الذي يمدح: **﴿الذي يؤدي ماله يتزكى﴾** فليس مجرد إيتاء المال خيراً، حتى يكون بهذه الصفة، وهو: أن يكون على وجه يتزكى به المؤمن.

**﴿٤٠﴾** **﴿الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون﴾** يخبر تعالى أنه وحده المنفرد بخلقكم ورزقكم، وإماتتكم وإحيائكم، وأنه ليس أحد من الشركاء التي يدعوهم المشركون، من يشارك الله في شيء من هذه الأشياء.

فكيف يشركون بمن انفرد بهذه الأمور، من ليس له تصرف فيها بوجه من الوجوه؟! فسيحانه وتعالى، وتقدس وتنزهه، وعلا عن شركهم، فلا يضره ذلك، وإنما وبالهم<sup>(١)</sup> عليهم.

**﴿٤١﴾** **﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾**

(١) في ب: وباله. (٢) كذا في ب، وفي أ: في الأبدان. (٣) في ب: ليشتأنفوا.



لم يُمكنوا، فإنه فات وقت الإعذار، فلا تقبل معذرتهم، ﴿ولا هم يستعتبون﴾ أي: يزال غضبهم والعتاب عنهم.

﴿٥٨ - ٦٠﴾ ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ولئن جتهدم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون﴾ كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون ﴿فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفك الذين لا يوقنون﴾ أي: ﴿ولقد ضربنا﴾ لأجل عنايتنا ورحمتنا ولطفنا وحسن تعليمنا ﴿للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ تنضح به الحقائق، وتعرف به الأمور، وتنقطع به الحجة. وهذا عام في الأمثال، التي يضرها الله؛ في تقريب الأمور المعقولة بالمحسوسة. وفي الإخبار بما سيكون، وجلاء حقيقته، ﴿حتى﴾ كأنه وقع.

ومنه في هذا الموضع، ذكر الله تعالى، ما يكون يوم القيامة وحالة المجرمين فيه، وشدة أسفهم، وأنه لا يقبل منهم عذر ولا عتاب.

ولكن أبى الظالمون الكافرون، إلا معاندة الحق الواضح، ولهذا قال: ﴿ولئن جتهدم بآية﴾ أي: آية، تدل على صحة ما جئت به ﴿ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون﴾ أي: قالوا للحق: إنه باطل. وهذا من كفرهم وجراءتهم، وطبع الله على قلوبهم، وجهلهم المفرط، ولهذا قال: ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون﴾ فلا يدخلها خير، ولا يدرك الأشياء على حقيقتها، بل ترى الحق باطلاً، والباطل حقاً.

﴿فاصبر﴾ على ما أمرت به، وعلى دعوتهم إلى الله، ولو رأيت منهم إعراضاً، فلا يصدك ذلك.

﴿إن وعد الله حق﴾ أي: لا شك فيه، وهذا مما يعين على الصبر، فإن العبد إذا علم أن عمله غير ضائع، بل سيجده كاملاً، هان عليه ما يلقاه من

اعتذار منهم لعله ينفعهم العذر، واستقصار لمدة الدنيا.

ولما كان قولهم كذباً لا حقيقة له، قال تعالى: ﴿كذلك كانوا يؤفكون﴾ أي: ما زالوا - وهم في الدنيا - يؤفكون عن الحقائق، ويأتفكون الكذب، ففي الدنيا، كذبوا الحق الذي جاءتهم به المرسلون، وفي الآخرة، أنكروا الأمر المحسوس، وهو اللبث الطويل في الدنيا، فهذا خلقهم القبيح، والمعبد يبعث على ما مات عليه.

﴿وقال الذين أوتوا العلم والإيمان﴾ أي: من الله عليهم بهما، وصارا وصفاً لهم، العلم بالحق، والإيمان المستلزم إشار الحق، وإذا كانوا عاملين بالحق، مؤثرين له، لزم أن يكون قولهم مطابقاً للواقع، مناسباً لأحوالهم.

فلهذا قالوا الحق: ﴿لقد لبثتم في كتاب الله﴾ أي: في قضاائه وقدره، الذي كتبه الله عليكم، وفي حكمه ﴿إلى يوم البعث﴾ أي: عمرتم عمراً يتذكر فيه المتذكر، ويتدبر فيه المتدبر، ويعتبر فيه المعتبر، حتى صار البعث ووصلتم إلى هذه الحال.

﴿فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾ فلذلك أنكروتموه في الدنيا، وأنكرتم إقامتكم في الدنيا وقتاً تتمكنون فيه من الإنابة والتوبة، فلم يزل الجهل شعاركم، وآثاره من التكذيب والحسار فثاركم.

﴿فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم﴾ فإن كذبوا وزعموا أنهم ما قامت عليهم الحجة، أو ما تمكنوا من الإيمان، ظهر كذبهم، بشهادة أهل العلم والإيمان، وشهادة جلودهم وأيديهم وأرجلهم، وإن طلبوا الإعذار وأنهم يردون ولا يعودون لما نفوا عنه،



ذلك في غاية الضعف، وعدم القوة والقدرة. ثم ما زال الله يزيد في قوته شيئاً فشيئاً، حتى بلغ سن الشباب واستوت قوته، وكملت قواه الظاهرة والباطنة، ثم انتقل من هذا الطور، ورجع إلى الضعف والشيبة والهرم. ﴿يخلق ما يشاء﴾ بحسب حكمته. ومن حكمته، أن يري العبد ضعفه، وأن قوته محفوفة بضعفين، وأنه ليس له من نفسه إلا النقص، ولولا تقوية الله له، لما وصل إلى قوة وقدرة، ولو استمرت قوته في الزيادة، لطفى وبغى وعتا.

وليعلم العباد كمال قدرة الله التي لا تزال مستمرة، يخلق بها الأشياء، ويدير بها الأمور ولا يلحقها إعياء ولا ضعف ولا نقص بوجه من الوجوه.

﴿٥٥ - ٥٧﴾ ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون﴾ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴿فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون﴾ يخبر تعالى عن يوم القيامة، وسرعة مجيئه، وأنه إذا قامت الساعة يقسم المجرمون ﴿يا الله أنهم﴾ ما لبثوا ﴿في الدنيا إلا ساعة﴾ وذلك

المكارة، ويسر عليه كل عسير، واستقل من عمله كل كثير.

﴿ولا يستخفك الذين لا يوقنون﴾ أي: قد ضعف إيمانهم، وقل يقينهم، فخفت لذلك أحلامهم، وقل صبرهم، فإياك أن يستخفك هؤلاء، فإنك إن لم تجعلهم<sup>(١)</sup> منك على بال وتغدر منهم، وإلا استخفوك وحلوك على عدم الشيبات على الأوامر والنواهي، والنفس تساعدكم على هذا، وتطلب التشبه والموافقة<sup>(٢)</sup>، وهذا مما يدل على أن كل مؤمن موقن رزين العقل، يسهل عليه الصبر، وكل ضعيف اليقين ضعيف [العقل]<sup>(٣)</sup> خفيه.

فالأول بمنزلة اللب، والآخر بمنزلة القشور. فإله المستعان.

**تفسير سورة لقمان وهي مكية**

﴿١-٥﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ \* تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ \* هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ \* الَّذِينَ يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون \* أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ يشير تعالى إشارة دالة على التعظيم إلى ﴿آيات الكتاب الحكيم﴾ أي: آياته محكمة، صدرت من حكيم خبير.

من إحكامها، أنها جاءت بأجل الألفاظ وأفصحها وأبينها، الدالة على أجل المعاني وأحسنها. ومن إحكامها، أنها محفوظة من التغيير والتبديل، والزيادة والنقص والتحريف.

ومن إحكامها: أن جميع ما فيها من الأخبار<sup>(٤)</sup> السابقة واللاحقة، والأمور الغيبية كلها، مطابقة للواقع، مطابق لها الواقع، لم يخالفها كتاب من الكتب الإلهية، ولم يخبر بخلافها نبي من الأنبياء أولم يأت ولن يأتي علم محسوس ولا معقول صحيح يناقض ما دلت

عليه<sup>(٥)</sup>.

ومن إحكامها: أنها ما أمرت بشيء، إلا وهو خالص المصلحة أو راجحها، ولا نهت عن شيء، إلا وهو خالص المفسدة أو راجحها، وكثيراً ما يجمع بين الأمر بالشيء مع ذكر [حكيمته]<sup>(٦)</sup> فائدته، والنهي عن الشيء مع ذكر مضرته.

ومن إحكامها: أنها جمعت بين الترغيب والترهيب، والوعظ بالبلغ، الذي تعدل به النفوس الخيرة وتحتكم، فتعمل بالحزم.

ومن إحكامها: أنك تجرد آياته المتكررة، كالكقصص، والأحكام، ونحوها، قد اتفقت كلها وتواطأت، فليس فيها تناقض ولا اختلاف. فكلما ازداد بها البصير تدبراً، وأعمل فيها العقل تفكيراً، اتبره عقله، وذهل لبه، من التوافق والتواطؤ، وجزم جزماً لا يمتري فيه، أنه تنزيل من حكيم حميد.

ولكن - مع أنه حكيم - يدعو إلى كل خلق كريم، وينهى عن كل خلق لثيم، أكثر الناس محرومون الاهتداء به، معرضون عن الإيمان والعمل به، إلا من وفقه الله تعالى وعصمه، وهم المحسنون في عبادة ربهم والمحسنون إلى الخلق.

فإنه ﴿هدى﴾ لهم، يهديهم إلى الصراط المستقيم، ويحذرهم من طرق الجحيم، ﴿ورحمة﴾ لهم، تحصل لهم به السعادة في الدنيا والآخرة، والخير الكثير، والشواب الجزيل، والفرح والسرور، ويندفع عنهم الضلال والشقاء.

ثم وصف المحسنين بالعلم التام، وهو اليقين الموجب للعمل والخوف من عقاب الله، فيسترون معاصيه، ووصفهم بالعمل، وخص من العمل عمليين فاضلين: الصلاة المشتملة على الإخلاص ومناجاة الله تعالى، والتعبد العام للقلب واللسان والجوارح المعينة

**تفسير سورة لقمان**

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
 الت ﴿١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ \* وَذَكَرْنَا  
 لِلنَّبِيِّينَ الْقُرْآنَ بِحُجْرٍ مِنْ السَّمَاءِ وَوَلَّوْنَاكَ الْكِتَابَ  
 بِالذِّكْرِ هُمْ يَفْقَهُونَ \* أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ  
 هُمُ الْمفلحُونَ \* وَمَنْ أَلْمَزَ مِنْ قَوْمِي فَهُوَ يَوْمَئِذٍ لِيَدٍ  
 عَزِيزَةٍ \* مَا كَانَ يَنْتَظِرُ مِنْ رَبِّهِمْ إِلاَّ الْيَقِينَ \* لَمْ يَكُنْ لَهُ  
 شَيْءٌ مِمَّا يَدْعُونَ بِتِلْكَ آيَاتِهِ إِلاَّ أَنْ يَقُولَ سُبْحَانَ رَبِّيَ  
 إِنَّهُ يَشَاءُ مَا كَانَ لِيَظُنُّ أَنْ يَكُونَ كَذَّابًا \* إِنَّ  
 الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الذِّكْرَ وَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ذَلِكَ  
 لَكَرِهُوا أَنْ يُؤْتُواهُ وَأَمَّا الذِّكْرُ فَهُوَ عَزِيزٌ \* عَلَى الَّذِينَ  
 يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَالشَّكْكِ الْكَبِيرِ \* أَنْ يَرَوْهُ  
 وَعَدَّ عَسَافًا وَمَنْ يَدْعُ بِهِمْ فَهُوَ مِنَ الْمُغْوِينَ \* إِنَّ  
 رَبَّهُمْ كَانَ عَلَى بَابِهِمْ وَبَابِهِمْ وَبَابِهِمْ وَبَابِهِمْ  
 وَمَنْ يَدْعُ بِهِمْ فَهُوَ مِنَ الْمُغْوِينَ \* هَذَا عَقْلٌ لَوْ كَانَ فِي سَائِغِ  
 عَقْلِ الْبَشَرِ مِنْ قَوْمِهِ لَوْ أَنَّ الْعَالَمِينَ فِي شَكْلِ قَوْمِهِمْ

على سائر الأعمال، والزكاة التي تزكي صاحبها من الصفات الرذيلة، وتنفع أخاه المسلم، وتسد حاجته، وبين بها أن العبد يؤثر عبية الله على عبته للمال، فيخرجه محبوه من المال لما هو أحب إليه، وهو طلب مرضاة الله.

فـ ﴿أولئك﴾ هم المحسنون، الجامعون بين العلم التام والعمل ﴿على هدى﴾ أي: عظيم، كما يفيدته التنكير، وذلك الهدى حاصل لهم، وواصل إليهم ﴿من ربهم﴾ الذي لم يزل يرببهم بالنعيم، ويدفع عنهم النقم.

وهذا الهدى الذي أوصله إليهم، من تربيته الخاصة بأوليائه، وهو أفضل أنواع التربية. ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ الذين أدركوا رضا ربهم، وثوابه الدنيوي والآخرى، وسلموا من سخطه وعقابه. وذلك لسلكهم طريق الفلاح، الذي لا طريق له غيرها.

ولما ذكر تعالى المهتدين بالقرآن، المقبلين عليه، ذكر من أعرض عنه، ولم يرفع به رأساً، وأنه عوقب على ذلك، بأن تعرض عنه كل باطل من القول، فترك أعلى الأقوال، وأحسن الحديث، واستبدل به أسفل قول وأقبحه، فلذلك قال:

﴿٦٦-٩﴾ ﴿ومن الناس من يشتري

(٥) زيادة من: ب.

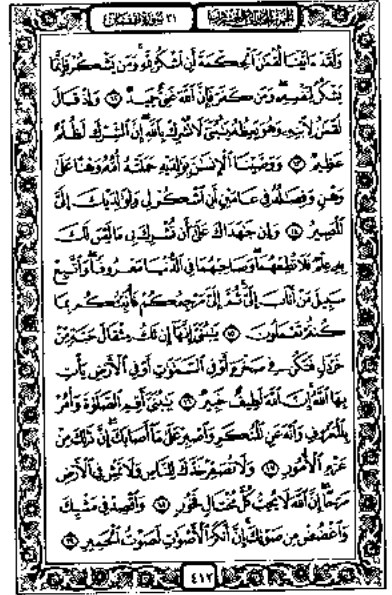
(٦) زيادة من: ب.

(٣) زيادة من: ب.

(٤) في: الأحكام والتصويب من: ب.

(١) كذا في ب وفي أ: تجعل.

(٢) كذا في ب وفي أ: والمرافقة.



عن الحديث النافع، والعمل النافع، والحق المبين، والصرط المستقيم.

ولا يتم له هذا، حتى يفتح في الهدى والحق، ويتخذ آيات الله هزواً ويسخر بها ويمن جاء بها، فإذا جمع بين مدح الباطل والترغيب فيه، والقدح في الحق والاستهزاء به وبأهله، أضل من لا علم عنده، وخدعه بما يوحيه إليه من القول الذي لا يميزه ذلك الضال ولا يعرف حقيقته.

﴿أولئك لهم عذاب مهين﴾ بما ضلوا وأضلوا، واستهزؤوا [بآيات الله] <sup>(١)</sup> وكذبوا الحق الواضح، ولهذا قال: ﴿وإذا نزل عليه آياتنا ليؤمن بها وينقاد لها﴾، ﴿ولى مستكبراً﴾ أي: أدير إديار مستكبر عنها، راذ لها، ولم تدخل قلبه ولا أثرت فيه، بل أدير عنها ﴿كان لم يسمعها﴾ بل ﴿كان في أذنيه وقراً﴾ أي: صمماً لا تصل إليه الأصوات، فهذا لا حيلة في هدايته.

﴿فبشره﴾ بشارة تؤثر في قلبه الحزن والغم، وفي بشرته السوء والظلمة والغيرة. ﴿بعذاب أليم﴾ مؤلم لقلبه وليدنه، لا يقادر قدره، ولا يدري بعظيم أمره، وهذه بشارة أهل الشر، فلا نَعَمَتِ البشارة.

وأما بشارة أهل الخير فقال: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ جمعوا بين عبادة الباطن بالإيمان، والظاهر بالإسلام، والعمل الصالح.

﴿لهم جنات النعيم﴾ بشارة لهم بما قدموه، وقرئ لهم بما أسلفوه. ﴿خالدين فيها﴾ أي: في جنات النعيم، نعيم القلب والروح والبدن.

﴿وعند الله حقاً﴾ لا يمكن أن يتخلف ولا يغير ولا يتبدل. ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ كامل العزة، كامل الحكمة، من عزته وحكمته، وفق من وفق، وخذل من خذل، بحسب ما اقتضاه علمه فيهم وحكمته.

﴿١٠ - ١١﴾ ﴿خلق السماوات بغير عمد ترونها﴾ والقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل

دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم \* هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين﴾ يتلو تعالى على عباده آثاراً من آثار قدرته، وبدائع من بدائع حكمته، ونعماً من آثار رحته، فقال: ﴿خلق السماوات﴾ السبع، على عظمها، وسعتها، وكنافتها، وارتفاعها الهائل. ﴿بغير عمد ترونها﴾ أي: ليس لها عمد، ولو كان لها عمد لرؤيت، وإنما استقرت واستسكت، بقدرة الله تعالى.

﴿وألقي في الأرض رواسي﴾ أي: جيالاً عظيمة، ركزها في أرجائها وأنحائها، لئلا ﴿تميد بكم﴾ فلولا الجبال الراسيات لمادت الأرض، ولما استقرت بساكنيتها.

﴿وبث فيها من كل دابة﴾ أي: نشر في الأرض الواسعة من جميع أصناف الدواب، التي هي مسخرة لبني آدم، ومصالحهم ومنافعهم. ولما بشها في الأرض، علم تعالى أنه لا بد لها من رزق تعيش به، فأنزل من السماء ماء مباركاً، ﴿فأنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ المنظر، نافع مبارك، فرتعت فيه الدواب المنبثشة، وسكن إليه كل حيوان.

﴿هذا﴾ أي: خلق العالم العلوي والسفلي، من جماد، وحيوان، وسوق أرزاق الخلق إليهم. ﴿خلق الله﴾ وحده لا شريك له، كل مقر بذلك حتى أنتم ما معشر المشركين.

﴿فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾ أي: الذين جعلتموهم له شركاء، تدعونهم وتعبدونهم، يلزم على هذا، أن يكون لهم خلق كخلقه، ورزق كرزقه، فإن كان لهم شيء من ذلك فأروني، ليصح ما ادعيتهم فيهم من استحقاق العبادة.

ومن المعلوم أنهم لا يقدر أن يروه شيئاً من الخلق لها، لأن جميع المذكورات، قد أقرروا أنها خلق الله وحده، ولا ثم شيء يعلم غيرها،

لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين \* وإذا نزل عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً فبشره بعذاب أليم \* إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم \* خالدون فيها وعند الله حقاً وهو العزيز الحكيم

أي: ﴿ومن الناس من﴾ هو محروم مخذول ﴿يشترى﴾ أي: يختار ويرغب رغبة من يبذل الثمن في الشيء. ﴿لهو الحديث﴾ أي: الأحاديث الملهية للقلوب، الصادرة لها عن أجل مطلوب. فدخل في هذا، كل كلام محرم، وكل لغو وباطل، وهذيان من الأقوال المرغبة في الكفر والفسوق والعصيان، ومن أقوال الرادين على الحق، المجادلين بالباطل ليدحضوا به الحق، ومن غيبة، ونميمة، وكذب، وشتم، وسب، ومن غناء ومزامير شيطان، ومن الماجريات الملهية، التي لا نفع فيها في دين ولا دنيا.

فهذا الصنف من الناس، يشترى لهر الحديث عن هدي الحديث ﴿ليضل﴾ الناس ﴿بغير علم﴾ أي: بعدما ضل بفعله، أضل غيره، لأن الإضلال ناشئ عن الضلال.

وإضلاله في هذا الحديث، صده

فثبت عجزهم عن إثبات شيء لها تستحق به أن تعبد.

ولكن عبادتهم إياها عن غير علم وبصيرة، بل عن جهل وضلال، ولهذا قال: ﴿بئيل الظالمون في ضلال مبين﴾ أي: جئل واضح حيث عبدوا من لا يملك نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وتركوا الإخلاص للخالق الرازق المالك لكل الأمور.

﴿١٢ - ١٩﴾ ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حيد \* وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾ إلى آخر القصة. يجبر تعالى عن امتنانه على عبده الفاضل لقمان، بالحكمة، وهي العلم [بالحق] <sup>(١)</sup> على وجهه وحكمته، فهي العلم بالأحكام، ومعرفة ما فيها من الأسرار والإحكام، فقد يكون الإنسان عالماً ولا يكون حكيماً.

وأما الحكمة، فهي مستلزمة للعلم، بل وللعمل، ولهذا فسرت الحكمة بالعلم النافع والعمل الصالح.

ولما أعطاه الله هذه النعمة العظيمة، أمره أن يشكره على ما أعطاه، ليبارك له فيه، وليزيده من فضله، وأخبره أن شكر الشاكرين، يعود نفعه عليهم، وأن من كفر فلم يشكر الله، عاد وبال ذلك عليه. والله غني [عنه] <sup>(٢)</sup> حيد فيما يقدره ويقضيه على من خالف أمره، فغناه تعالى، من لوازم ذاته، وكونه حيداً في صفات كماله، حيداً في جميل صنعه، من لوازم ذاته، وكل واحد من الوصفين صفة كمال، واجتماع أحدهما إلى الآخر زيادة كمال إلى كمال.

واختلف المفسرون، هل كان لقمان نبياً، أو عبداً صالحاً؟ والله تعالى لم يذكر عنه إلا أنه أتاه الحكمة، وذكر بعض ما يدل على حكمته في وعظه لابنه، فذكر

أصول الحكمة وقواعدها الكبار، فقال: ﴿وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه﴾

أو قال له قولاً به يعظه بالأمر والنهي، المقرون بالترغيب والترهيب، فأمره بالإخلاص، ونهاه عن الشرك، وبين له السبب في ذلك فقال: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ ووجه كونه عظيماً، أنه لا أظفَع وأبشع من سُوءِ المخلوق من تراب بمالك الرقاب، وسُوءِ الذي لا يملك من الأمر شيئاً بمن له الأمر كله، وسُوءِ الناقص الفقير من جميع الوجوه بالرب الكامل الغني من جميع الوجوه، وسُوءِ مَنْ لم يُعَمِّ بمثقال ذرة [من النعم] <sup>(٣)</sup> بالذي ما باخلاق من نعمة في دينهم ودنياهم وأخراهم وقلوبهم وأبدانهم إلا منه، ولا يصرف السوء إلا هو، فهل أعظم من هذا الظلم شيء!!؟

وهل أعظم ظلماً ممن خلقه الله لعبادته وتوحيده، فذهب بنفسه الشريفة، [فجعلها في أخس المراتب] <sup>(٤)</sup> جعلها عابدة لمن لا يسوي شيئاً، فظلم نفسه ظلماً كبيراً.

ولما أمر بالقيام بحقه، بترك الشرك الذي من لوازمه القيام بالتوحيد، أمر بالقيام بحق الوالدين، فقال: ﴿ووصينا الإنسان﴾ أي: عهدنا إليه، وجعلناه وصية عنده، سنأله عن القيام بها، وهل حفظها أم لا؟ فوصيناه ﴿بوالديه﴾ وقلنا له: ﴿اشكركي﴾ بالقيام بعبوديتي وأداء حقوقي، وأن لا تستعين بنعمي على معصيتي، ﴿ولو الديك﴾ بالإحسان إليهما بالقول اللين، والكلام اللطيف، والفعل الجميسل، والتواضع لهما ﴿واكرامهما﴾ <sup>(٥)</sup> وإجلالهما، والقيام بمؤنتهما، واجتناب الإساءة إليهما من كل وجه، بالقول والفعل.

فوصيناه بهذه الوصية، وأخبرناه أن ﴿إلى المصير﴾ أي: سنرجع أيها الإنسان إلى مَنْ وصاك وكلفك بهذه

الحقوق، فيسألك: هل قمت بها، فيثيبك الثواب الجزيل؟ أم صيغتها، فيعاقبك العقاب الويل؟

ثم ذكر السبب الموجب لبر الوالدين في الأم، فقال: ﴿حملته أمه وهنا على وهن﴾ أي: مشقة على مشقة، فلا تزال تلاقي المشاق، من حين يكون نطفة، من السوحم، والمرض، والضعف، والثقل، وتغير الحال، ثم وجع الولادة، ذلك الوجع الشديد.

ثم ﴿فصاله في عامين﴾ وهو ملازم لحضانه أمه وكفالتها ورضاعها، أمما يحسن بمن تحمل على ولده هذه الشدائد مع شدة الحب، أن يؤكد على ولده، ويوصي إليه بتمام الإحسان إليه؟

﴿وإن جاهدك﴾ أي: اجتهد والداك ﴿على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾ ولا تظن أن هذا داخل في الإحسان إليهما، لأن حق الله مقدم على حق كل أحد، و﴿لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق﴾.

ولم يقل: ﴿وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فمعهما﴾، بل قال: ﴿فلا تطعهما﴾ أي: بالشرك، وأما برهما، فاستمر عليه، ولهذا قال: ﴿وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾ أي: صحبة إحسان إليهما بالمعروف، وأما اتباعهما وهما بحالة الكفر والمعاصي، فلا تتبعهما.

﴿واتبع سبيل من أناب إلى﴾ وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله، المستسلمون لربهم، النبيون إليه.

واتباع سبيلهم، أن يسلك مسلكتهم في الإنابة إلى الله، التي هي التجاذب دواعي القلب وإراداته إلى الله، ثم يتبعها سعي البدن، فيما يرضي الله ويقرب منه.

﴿ثم إلى مرجعكم﴾ الطائع والمعاصي والمنيب، وغيره ﴿فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾ فلا يخفى على الله من أعمالهم خافية.

(٥) زيادة من: ب.

(٣) زيادة من: ب.

(٤) زيادة من: ب.

(١) زيادة من: ب.

(٢) زيادة من: ب.



﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي إِذَا نَكَرْتُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ التي هي أصغر الأشياء وأحقرها، ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ أي: في وسطها ﴿أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ﴾ في أي: جهة من جهاتها ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ لسعة علمه، وقام خبرته، وكمال قدرته، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: لطف في علمه وخبرته، حتى أطلع على البواطن والأسرار، وخفايا القفار والبحار.

والمقصود من هذا، الحث على مراقبة الله والعمل بطاعته مهما أمكن، والترهيب من عمل القبيح، قل أو كثر.

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ حثه عليها، وخصها لأنها أكبر العبادات البدنية، ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وذلك يستلزم العلم بالمعروف ليأمر به، والعلم بالمنكر لينهى عنه.

والأمر بما لا يتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا به، من الرفق، والصبر، وقد صرح به في قوله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ ومن كونه فاعلاً لما يأمر به، كافاً لما ينهى عنه، فتضمن هذا، تكميل نفسه بفعل الخير وترك الشر، وتكميل غيره بذلك، بأمره ونهي.

ولما علم أنه لا بد أن يبئس إذا أمر ونهى، وأن في الأمر والنهي مشقة على النفوس، أمره بالصبر على ذلك، فقال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ﴾ الذي وعظ به لقمان ابنه ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: من الأمور التي يعزم عليها ويهتم بها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم.

﴿وَلَا تُصَغِّرْ حَدْكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: لا تَجْمَلْ وتعييب بوجهك للناس، تكبراً عليهم وتعاضلاً.

﴿وَلَا تَمَسَّ فِي الْأَرْضِ مِرْحَاً﴾ أي: بطراً، فخرّاً بالنعم، ناسياً للنعم، معجباً بنفسك. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْقَائِلِينَ﴾ في نفسه وهيبته وتعاضله

﴿فَخُورٌ﴾ بقوله.

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي: امش متواضعاً مستكيناً، لا مَشِيَّ البطر والتكبر، ولا مشي التماوت.

﴿وَإِعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ أدباً مع الناس ومع الله، ﴿إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾ أي: أنفطعها وأبشعها ﴿لِصَوْتِ الْحَمِيرِ﴾ فلو كان في رفع الصوت البليغ فائدة ومصلحة، لما اختص بذلك الحمار، الذي قد علمت خسته وبلادته.

وهذه الوصايا التي وصى بها لقمان لابنه، تجمع أمهات الحكم، وتستلزم ما لم يذكر منها، وكل وصية يقرن بها ما يدعو إلى فعلها إن كانت أمراً، وإلى تركها إن كانت نهياً.

وهذا يدل على ما ذكرنا في تفسير الحكمة، أنها العلم بالأحكام وجكوبها ومناسباتها، فأمره بأصل الدين، وهو التوحيد، ونهاه عن الشرك، وبيّن له الموجب لتركه، وأمره ببر الوالدين، وبيّن له السبب الموجب ليرهما، وأمره بشكره وشكرهما، ثم احترز بأن محل برهما وامتنال أوامرهما ما لم يأمر بمعصية، ومع ذلك فلا يعقهما، بل يحسن إليهما، وإن كان لا يطيعهما إذا جاهدها على الشرك. وأمره بمراقبة الله، وخوفه القدام عليه، وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الخير والشر إلا أتى بها.

ونهاه عن التكبر، وأمره بالتواضع، ونهاه عن البطر والأشر والمرح، وأمره بالسكون في الحركات والأصوات، ونهاه عن ضد ذلك.

وأمره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة، وبالصبر اللذين يسهل بهما كل أمر، كما قال تعالى: ﴿فَحَقِّقْ يَمُنْ أَوْصِيَ بِهَذَا الْوَصَايَا، أَنْ يَكُونَ غَصُوصاً بِالْحِكْمَةِ، مشهوراً بها. ولهذا من مثله الله عليه وعلى سائر عباده، أن قصص عليهم من حكمته، ما يكون لهم به أسوة حسنة.

﴿٢٠ - ٢١﴾ ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ \* وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ اللَّهَ وَمَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آيَاتٍ أُولُو كُنُوزٍ مَغْنُومِينَ يَمْتَنُّونَ عَلَى عِبَادِهِ نِعْمَهُ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى شُكْرِهِا وَرُؤْيَيْتَهَا، وَعَدِمَ الْغَفْلَةَ عَنْهَا فَقَالَ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ أي: تشاهدوا وتبصروا بأبصاركم وقلوبكم، ﴿أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من الشمس والقمر والنجوم، كلها مخبرات لنفع العباد.

﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الحيوانات والأشجار والزرع، والأنهار والمعادن ونحوها، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾.

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: عنكم وغمركم نعمه الظاهرة والباطنة التي نعلم بها، والتي تخفى علينا، نعم الدنيا، ونعم الدين، حصول المنافع، ودفع المضار، فوظيفتكم أن تقوموا بشكر هذه النعم، بمحبة النعم والخضوع له، وصرفها في الاستعانة على طاعته، وأن لا يستعان بشيء منها على معصيته.

﴿وَلَكِنْ مَعَ تَوَالِي هَذِهِ النِّعَمِ، مِنَ النَّاسِ مَنْ﴾ لم يشكرها، بل كفرها وكفر بمن أنعم بها، ووجد الحق الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله، فجعل ﴿يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ أي: يجادل عن الباطل ليحرض به الحق، ويدفع به ما جاء به الرسول من الأمر بعبادة الله وحده، وهذا المجادل على غير بصيرة، فليس جداله عن علم، فيترك شأنه، ويسمح له في الكلام ﴿وَلَا هُدًى﴾ يقتدي به بالهتدين ﴿وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [غير مبين للحق فلا محقول ولا منقول ولا اقتداء بالهتدين] <sup>(١)</sup> وإنما جداله في الله مبني

(١) كذا في: ب، وزاد في: أ قوله تعالى: فخور.

(٢) زيادة من: ب.

على تقليد آباء غير مهتدين، بل ضالين مضلين.

ولهذا قال: ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله على أيدي رسله، فإنه الحق، ويبئت لهم أدلته الظاهرة﴾ قالوا ﴿معارضين ذلك: ﴿بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا﴾ فلا نترك ما وجدنا عليه آباءنا لقول أحد، كأننا من كان.

قال تعالى في الرد عليهم وعلى آباءهم: ﴿أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير﴾ فاستجاب له أبائهم، ومشوا خلفه، وصاروا من تلاميذ الشيطان، واستولت عليهم الحيرة.

فهل هذا موجب لاتباعهم لهم ومشيههم على طريقتهم، أم ذلك يرهيبهم من سلوك سبيلهم، وينادي على ضلالهم وضلال من اتبعهم.

وليس دعوة الشيطان لاتباعهم ولهم، محبة لهم ومودة، وإنما ذلك عداوة لهم ومكر بهم، وبالْحَقِيقَةُ أتباعه من أعدائه، الذين تمكن منهم وظفر بهم، وقرت عينه باستحقاقهم عذاب السعير بقبول دعوته.

﴿٢٢ - ٢٤﴾ ﴿ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإن إلى الله عاقبة الأمور﴾ ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فنتبئهم بما عملوا إن الله عليهم بذات الصدور ﴿نمتهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾ ﴿ومن يسلم وجهه إلى الله﴾ أي: ينضج له وينقاد له بفعل الشرائع مخلصاً له دينه. ﴿وهو محسن﴾ في ذلك الإسلام بأن كان عمله مشروعا، قد اتبع فيه الرسول ﷺ.

أو: ومن يسلم وجهه إلى الله، بفعل جميع العبادات، وهو محسن فيها، بأن يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه.

أو ومن يسلم وجهه إلى الله، بالقيام بحقوقه، وهو محسن إلى عباد الله، قائم بحقوقهم.

والعاني متلازمة، لا فرق بينها إلا

من جهة [اختلافاً] <sup>(١)</sup> مورد اللفظتين، وإلا فكلها متفقة على القيام بجميع شرائع الدين، على وجه تقبل به وتكمل، فمن فعل ذلك فقد أسلم ﴿واستمسك بالعروة الوثقى﴾ أي: بالعروة التي من تمسك بها، توثق ونجا، وسلم من الهلاك، وفاز بكل خير.

ومن لم يسلم وجهه لله أو لم يحسن لم يستمسك بالعروة الوثقى، وإذا لم يستمسك بالعروة الوثقى، لم يكن ثم إلا الهلاك واليوار. ﴿وإلى الله عاقبة الأمور﴾ أي: رجوعها وموتها ومتهاها، فيحكم في عبادته، ويمارزهم بما آلت إليه أعمالهم، ووصلت إليه عواقبهم، فليستعدوا لذلك الأمر.

﴿ومن كفر فلا يحزنك كفره﴾ لأنك أدبت ما عليك، من الدعوة والبلاغ، فإذا لم ينته، فقد وجب أجرك على الله، ولم يبق للحزن موضع على عدم اهتدائه، لأنه لو كان فيه خير لهداه الله.

ولا تحزن أيضاً، على كونهم تجرؤوا عليك بالعداوة ونبذوك المحاربة، واستمروا على فيهم وكفرهم، ولا تتحرق عليهم بسبب أنهم ما يودروا بالعذاب.

فإن ﴿إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا﴾ من كفرهم وعداوتهم، وسعيهم في إطفاء نور الله وأذى رسله.

﴿إن الله عليهم بذات الصدور﴾ التي ما نطق بها الناطقون، فكيف بما ظهر، وكان شهادة!!!

﴿نمتهم قليلاً﴾ في الدنيا، ليزداد إثمهم، ويتوفر عذابهم، ﴿ثم نضطرهم﴾ أي: [نلجئهم] <sup>(٢)</sup> إلى عذاب غليظ﴾ أي: انتهى في عظمه وكبره وفضاعته وألله وشدته.

﴿٢٥ - ٢٨﴾ ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ الله ما في السماوات والأرض إن الله

(٢) زيادة من: ب.

(١) زيادة من: ب.



هو الغني الحميد \* ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم \* ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير \* أي: ولئن سألت هؤلاء المشركين المكذبين بالحق ﴿من خلق السماوات﴾ لعلوا أن أصنامهم ما خلقت شيئاً من ذلك، وليادروا بقولهم الله الذي خلقهما وحده.

﴿قل﴾ لهم ملزم ما لهم، ومحتاجاً عليهم بما أقروا به، على ما أنكروا: ﴿الحمد لله﴾ الذي بين النور، وأظهر الاستدلال عليكم من أنفسكم، فلو كانوا يعلمون، لجزموا أن المنفرد بالخلق والتدبير، هو الذي يفرد بالعبادة والتوحيد.

ولكن ﴿أكثرهم لا يعلمون﴾ فلذلك أشركوا به غيره، ورضوا بتناقض ما ذهبوا إليه، على وجه الحيرة والشك، لا على وجه البصيرة، ثم ذكر في هاتين الآيتين نموذجاً من سعة أوصافه، ليدعو عباده إلى معرفته ومحبته وإخلاص الدين له.

فذكر عموم ملكه، وأن جميع ما في السماوات والأرض - وهذا شامل لجميع العالم العلوي والسفلي - أنه ملكه، يتصرف فيهم بأحكام الملك



﴿والبحر يمدد من بعده سبعة أبحر﴾ وأعماله، فإذا تصور العقل ذلك، عرف أن المثل الذي ضربه الله لكلامه، ليدرك العباد شيئاً منه، وإلا، فالأمر أعظم وأجل.

ثم ذكر جلاله عزته وكمال حكمته فقال: ﴿إن الله عزيز حكيم﴾ أي: له العزة جميعاً، الذي ما في العالم العلوي والسفلي من القوة إلا منه، أعطاهما للمخلوق، فلا حول ولا قوة إلا به، ويعزته قهر الخلق كلهم وتصرف فيهم وديبرهم، وبحكمته خلق الخلق، وابتدأه بالحكمة، وجعل غايته والمقصود منه الحكمة، وكذلك الأمر والنهي وجد بالحكمة، وكانت غايته المقصودة الحكمة، فهو الحكيم في خلقه وأمره.

ثم ذكر عظمة قدرته وكمالها، وأنه لا يمكن أن يتصورها العقل، فقال: ﴿ما خلقكم ولا بمشكم إلا كنفس واحدة﴾ وهذا شيء يعجز العقول، إن خلق جميع الخلق - على كثرتهم وبعثهم بعد موتهم، بعد تفرقهم في لمحة واحدة - كخلق نفسه واحداً، فلا وجه لاستبعاد البعث والتشور والجزاء على الأعمال، إلا الجهل بعظمة الله وقوة قدرته.

ثم ذكر عموم سمعه لجميع السموات، ويصره لجميع المصبرات، فقال: ﴿إن الله سميع بصير﴾

﴿٢٩٩ - ٣٠﴾ ﴿ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير﴾ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير، وهذا فيه أيضاً، انفراد بالتصرف والتدبير، وسعة تصرفه بإيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، أي: إدخال أحدهما على الآخر، فإذا دخل أحدهما ذهب الآخر.

وتسخيره للشمس والقمر، يجريان بتدبير ونظام، لم يختل منذ خلقهما،

مداداً يستمد بها، لتكسرت تلك الأقلام، ولفسي ذلك المداد، ولم تنفذ كلمات الله تعالى، وهذا ليس مبالغاً لا حقيقة له، بل لما علم تبارك وتعالى أن العقول تنقاصر عن الإحاطة ببعض صفاته، وعلم تعالى أن معرفته لعباده أفضل نعمة أنعم بها عليهم، وأجل منقبة حصلوها، وهي لا يمكن على وجهها، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله، فنبههم تعالى تنبيهاً تستنير به قلوبهم، وتشرح له صدورهم، ويستدلون بما وصلوا إليه إلى ما لم يصلوا إليه، ويقولون كما قال أفضلهم وأعلمهم بربه: ﴿لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك﴾، وإلا، فالأمر أجل من ذلك وأعظم.

وهذا التمثيل، من باب تقريب المعنى، الذي لا يطاق الوصول إليه إلا الأفهام والأذهان، والآلأنسجار، وإن تضاعفت على ما ذكر أضعافاً كثيرة، والبحور لو امتدت<sup>(١)</sup> بأضعاف مضاعفة، فإنه يتصور نفاذها واقتضاؤها، لكونها مخلوقة.

وأما كلام الله تعالى، فلا يتصور نفاذه، بل دلنا الدليل الشرعي والعقلي، على أنه لا نفاذ له ولا منتهى، وكل شيء ينتهي إلا الباري وصفاته ﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾.

وإذا تصور العقل حقيقة أوليته تعالى وأخريته، وأنه كل ما فرضه الذهن من الأزمان السابقة، مهما تسلسل الفرض والتقدير، فهو تعالى قبل ذلك إلى غير نهاية، وأنه مهما فرضه الذهن والعقل، من الأزمان المتأخرة، وتسلسل الفرض والتقدير، وساعد على ذلك من ساعد بقلبه ولسانه، فالله تعالى بعد ذلك إلى غير غاية ولا نهاية.

والله في جميع الأوقات يحكم، ويتكلم، ويقول، ويفعل كيف أراد، وإذا أراد لا مانع له من شيء من أقواله

القدرية، وأحكامه الأمرية، وأحكامه الجزائية، فكلهم عبيد ممالك، مديرون مسخرون، ليس لهم من الملك شيء، وأنه واسع الغنى، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه أحد من الخلق. ﴿ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون﴾.

وأن أعمال النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين لا تنفع الله شيئاً وإنما تنفع عامليها، والله غني عنهم وعن أعمالهم، ومن غناه، أن أغناهم وأقتانهم في دنياهم وأخراهم.

ثم أخبر تعالى عن سعة حده، وأن حده من لوازم ذاته، فلا يكون إلا حميداً من جميع الوجوه، فهو حميد في ذاته، وهو حميد في صفاته، فكل صفة من صفاته، يستحق عليها أكمل حمد وأتمه، لكونها صفات عظمة وكمال، وجميع ما فعله وخلقه يحمد عليه، وجميع ما أمر به ونهى عنه يحمد عليه، وجميع ما حكم به في العباد وبين العباد، في الدنيا والآخرة، يحمد عليه.

ثم أخبر عن سعة كلامه وعظمة قوله، بشرح يبلغ من القلوب كل مبلغ، وتنبهر له العقول، وتغير فيه الأنفذة، وتسيح في معرفته أولو الأبواب والبصائر، فقال: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾ يكتب بها

(١) في ب: مذت.

ليقيم بذلك من مصالح العباد ومنافعهم، في دينهم ودنياهم، ما به يعتبرون ويستفهمون.

و «كل» منهما «يجري إلى أجل مسمى» إذا جاء ذلك الأجل، انقطع جرياتها، وتعطل سلطانيهما، وذلك في يوم القيامة، حين تكور الشمس، ويخسف القمر، وتنتهي دار الدنيا، وتبتلىء الدار الآخرة.

وأن الله بما تعملون «من خير وشر» خير «لا يخفى عليه شيء من ذلك، وسيجازيكم على تلك الأعمال، بالشواب للمطيعين، والعقاب للعاصين.

و «ذلك» الذي بين لكم من عظمته وصفاته، ما بين «بأن الله هو الحق» في ذاته وفي صفاته، ودينه حق، ورسله حق، ووعدته حق، ووعيده حق، وعبادته هي الحق.

وأن ما يدعون من دونه الباطل «في ذاته وصفاته، فلولا إبداع الله له لما وجد، ولولا إمداده لما بقي، فإذا كان باطلاً، كانت عبادته أبطل وأبطل.

وأن الله هو المولى «بذاته، فوق جميع مخلوقاته، الذي علت صفاته، أن يقاس بها صفات أحد من الخلق، وعلا على الخلق فقهرهم، «الكبير» الذي له الكبرياء في ذاته وصفاته، وله الكبرياء في قلوب أهل السماء والأرض.

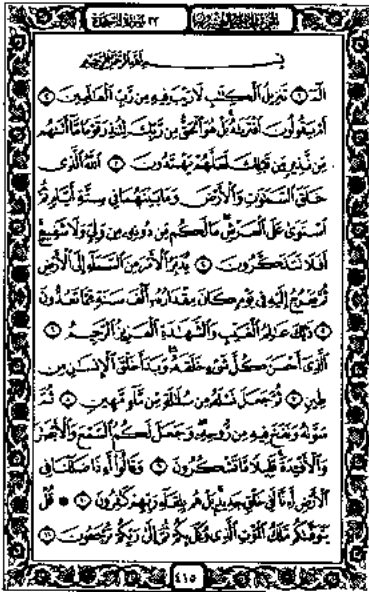
٣١ - ٣٢ «ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليربكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور \* وإذا غشيهم موج كالكظليل دعوا الله خلعين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل خنثار كفور» أي: ألم تر من آثار قدرته ورحمته وعنايته بعباده، أن سخر البحر، تجري فيه الفلك بأمره القدري

(١) زيادة من: ب.

(٢) في ب: كالظليل.

(٣) زيادة من: ب.

(٤) كذا في ب، وزاد في أ: قوله تعالى: «كفور».



فلفت النظر في هذا لهذا اليوم المهيل، مما يقوي العبد ويسهل عليه تقوى الله، وهذا من رحمة الله بالعباد، بأمرهم بتقواه التي فيها سعادتهم، ويعدهم عليها الثواب، ويحذرهم من العقاب، ويزعجهم إليه بالمواعظ والمخوفات، فلك الحمد يا رب العالمين.

«إن وعد الله حق» فلا تمتروا فيه، ولا تعملوا عمل غير المصدق، فلهذا قال: «فلا تفرنكم الحياة الدنيا» بزينتها وزخارفها وما فيها من الفتن والمحن.

«ولا يفرنكم بالله الفرور» الذي هو الشيطان، الذي ما زال يخدع الإنسان ولا يغفل عنه في جميع الأوقات، فإن لله على عباده حقاً، وقد وعدهم موعداً يجازيهم فيه بأعمالهم، وهل وفوا حقه أم قصروا فيه.

وهذا أمر يجب الاهتمام به، وأن يجعله العبد نصب عينيه، ورأس مال تجارته التي يسمى إليه.

ومن أعظم العوائق عنه والقواطع دونه، الدنيا الفتانة، والشيطان

«إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور» فهم المنتفعون بالآيات، صبار على الضراء، شكور على السراء، صبار على طاعة الله وعن معصيته وعلى أفقاره، شكور لله على نعمه الدينية والدنيوية.

وذكر تعالى حال الناس عند ركوبهم البحر وغشيان الأمواج كالظليل (١) فوقهم، أنهم يخلصون الدعاء [للله] (٢) والعبادة: «فلما نجاهم إلى البر» انقسموا فريقين:

فرقة مقتصدة، أي: لم تقم بشكر الله على وجه الكمال، بل هم مذنبون ظالمون لأنفسهم.

وفرقة كافرة بنعمة الله، جاحدة لها، ولهذا قال: «وما يجحد بآياتنا إلا كل خنثار» (٤) أي: غدار، ومن غدره أنه عاهد ربه، لئن أنجيتنا من البحر وشدته، لنكونن من الشاكرين، فغدر، ولم يف بذلك، «كفور» يتعم الله. فهل يليق بمن نجاهم الله من هذه الشدة، إلا القيام التام بشكر نعم الله؟

«٣٣» «يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تفرنكم الحياة الدنيا ولا يفرنكم بالله الفرور» يأمر تعالى الناس بتقواه، التي هي امتثال أوامره وترك زواجره، ويستلقتهم لحشية يوم القيامة، اليوم الشديد، الذي فيه كل أحد لا يحمه إلا نفسه، ف «لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً» لا يزيد في حسناته ولا ينقص من سيئاته، قد تم على كل عبد عمله، وتحقق عليه جزاؤه.

ريك ﴿ أنزله رحمة للعباد ﴾ لتتذرع قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك ﴿ أي : هم في حال ضرورة وفاقه لإرسال الرسول وإنزال الكتاب ، لعدم النذير ، بل هم في جهلهم يعمهون ، وفي ظلمة ضلالهم يترددون ، فأنزلنا الكتاب عليك ﴿ لعلمهم يتدون ﴾ من ضلالهم ، فيعرفون الحق فيثرونه .

وهذه الأشياء التي ذكرها الله ، كلها مناقضة لتكذيبهم له ، وإنما تقتضي منهم الإيمان والتصديق التام به ، وهو كونه ﴿ من رب العالمين ﴾ وأنه ﴿ الحق ﴾ والحق مقبول على كل حال ، وأنه ﴿ لا ريب فيه ﴾ بوجه من الوجوه ، فليس فيه ما يوجب الريبة ، لا بخبر لا يطابق للواقع <sup>(٢)</sup> ، ولا بخفاء واشتباه معانيه ، وأنهم في ضرورة وحاجة إلى الرسالة ، وأن فيه الهداية لكل خير وإحسان .

﴿ ٤ - ٩ ﴾ ﴿ الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾ \* يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ \* ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ﴾ الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾ ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته بخلق ﴿ السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ﴾ أولها يوم الأحد وآخرها الجمعة ، مع قدرته على خلقها بلحظة ، ولكنه تعالى رفيع حكيم .

﴿ ثم استوى على العرش ﴾ الذي هو سقف المخلوقات ، استواء يليق بجلاله . ﴿ ما لكم من دونه من ولي ﴾ يتولاكم في أموركم فينتفعكم ﴿ ولا شفيع ﴾ يشفع لكم إن توجه عليكم العقاب .

بالأرحام ربه : هل هو ذكر أم أنثى ؟ فيقضي الله ما يشاء .

﴿ وما تدري نفس ماذا تكسب فداً ﴾ من كسب دينها ودينها ، ﴿ وما تدري نفس بأي : أرض تموت ﴾ بل الله تعالى هو المختص بعلم ذلك جميعه .

ولما خصص هذه الأشياء ، عمم علمه بجميع الأشياء فقال : ﴿ إن الله عليم خبير ﴾ محيط بالظواهر والبواطن ، والخبائيا والنجاسات ، ومن حكمته التامة ، أن أخفى علم هذه الخمسة عن العباد ، لأن في ذلك من المصالح ما لا يخفى على من تدبر ذلك .

تم تفسير سورة لقمان  
بفضل الله وعونه ، والحمد لله

### تفسير سورة السجدة وهي مكية

﴿ ١ - ٣ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم آمَنَ ﴾ \* تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ \* أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتتذرع قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلمهم يبتلون ﴾ يخبر تعالى أن هذا الكتاب الكريم ، أنه تنزيل نزل من رب العالمين ، الذي رباهم بنعمته .

ومن أعظم ما رباهم به ، هذا الكتاب ، الذي فيه كل ما يصلح أحوالهم ، ويتسم أخلاقهم ، وأنه لا ريب فيه ولا شك ولا امتراء ، ومع ذلك قال المكذبون للرسول الظالمون في ذلك : افتراه محمد ، واختلقه من عند نفسه ، وهذا من أكبر الجراءة على إنكار كلام الله ، ورمي محمد ﷺ ، بأعظم الكذب ، وقدرة الخلق على كلام مثل كلام الخالق .

وكل واحد من هذه من الأمور العظام ، قال الله - راداً على من قال : افتراه - ﴿ بل هو الحق ﴾ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد . ﴿ من



الموسوس المسؤل ، فنهى تعالى عباده أن تغرهم الدنيا أو يغرهم بالله الغرور يعلمهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴿ .

﴿ ٣٤ ﴾ ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيب ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب فداً وما تدري نفس بأي : أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾ قد تقرر أن الله تعالى أحاط بعلمه بالغيب والشهادة ، والظواهر والبواطن ، وقد يطلع الله عباده على كثير من الأمور الغيبية ، وهذه [الأمور] <sup>(١)</sup> الخمسة ، من الأمور التي طوى علمها عن جميع المخلوقات ، فلا يعلمها نبي مرسل ، ولا ملك مقرب ، فضلاً عن غيرهما ، فقال : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ أي : يعلم متى مرساها ، كما قال تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يعلمها لوقتها إلا هو ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بعتة ﴾ الآية .

﴿ وينزل الغيب ﴾ أي : هو المنفرد بإنزاله ، وعلم وقت نزوله .

﴿ ويعلم ما في الأرحام ﴾ فهو الذي أنشأ ما فيها ، وعلم ما هو ، هل هو ذكر أم أنثى ، ولهذا يسأل الملك الموكل

(٢) في ب : بخبر غير مطابق للواقع .

(١) زيادة من : ب .



وافق غنياً أو فقيراً، قريباً أو بعيداً، ولكن الأجر يتفاوت بتفاوت النفع، فهذا عملهم.

وأما جزاؤهم، فقال: ﴿فلا تعلم نفس﴾ يدخل فيه جميع نفوس الخلق، لكونها نكرة في سياق النفي. أي: فلا يعلم أحد ﴿ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ من الخير الكثير، والنعيم الغزير، والفرح والسرور، واللذة والحبور، كما قال تعالى على لسان رسوله: ﴿أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر﴾.

فكما صلوا في الليل ودعوا، وأخفوا العمل، جازاهم من جنس عملهم، فأخفي أجرهم، ولهذا قال: ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾

﴿١٨ - ٢٠﴾ ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستونون﴾ أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون \* وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾ يبه تعالى العقول على ما تقرر فيها، من عدم تساوي المتفاوتتين المتباينين، وأن حكمته تقتضي عدم تساويهما، فقال: ﴿أفمن كان مؤمناً﴾ قد عمّر قلبه بالإيمان، وانقادت جوارحه لشرائعه، واقتضى إيمانه آثاره وموجباته، من ترك مساخط الله، التي <sup>(١)</sup> يضر وجودها بالإيمان.

﴿كمن كان فاسقاً﴾ قد خرب قلبه وتعطل من الإيمان، فلم يكن فيه وازع ديني، فأسرعت جوارحه بموجبات الجهل والظلم، من كل إثم ومعصية، وخرج بفسقه عن طاعة الله.

أفيستوي هذان الشخصان؟

﴿لا يستونون﴾ عقلاً وشرعاً، كما لا يستوي الليل والنهار، والضيء والظلمة، وكذلك لا يستوي ثوابهما في الآخرة.

﴿أما الذين آمنوا وعملوا

لا يستكبرون \* تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً وما رزقناهم ينفقون \* فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾ لما ذكر تعالى الكافرين بآياته، وما أعد لهم من العذاب، ذكر المؤمنين بها، ووصفهم، وما أعد لهم من الثواب، فقال: ﴿إنما يؤمن بآياتنا﴾ [أي: إيماناً حقيقياً، من يوجد منه شواهد الإيمان، وهم: ﴿الذين إذا ذكروا﴾ بآيات ربهم فتليت عليهم آيات القرآن، وأنتهم النصائح على أيدي رسل الله، ودُعوا إلى التذكر، سمعوا فقبلوها، وانقادوا، و﴿خروا سجداً﴾ أي: خاضعين لها، خضوع ذكر الله، وفرح بمعرفته.

﴿وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون﴾ لا بقلوبهم، ولا بأبدانهم، فيمتنعون من الانقياد لها، بل متواضعون لها، قد تلقوها بالقبول، والتسليم، وقابلوها بالاشراح والتسليم، وتوصلوا بها إلى مرضاة الرب الرحيم، واهتدوا بها إلى الصراط المستقيم.

﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ أي: ترتفع جنوبهم، وتترجع عن مضاجعها اللذيذة، إلى ما هو الذعندهم منه وأحب إليهم، وهو الصلاة في الليل، ومناجاة الله تعالى.

ولهذا قال: ﴿يدعون ربهم﴾ أي: في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، ودفع مضارهما. ﴿خوفاً وطمعاً﴾ أي: جامعين بين الوصفين، خوفاً أن ترد أعمالهم، وطمعاً في قبولها، خوفاً من عذاب الله، وطمعاً في ثوابه.

﴿وما رزقناهم﴾ من الرزق، قليلاً كان أو كثيراً ﴿ينفقون﴾ ولم يذكر قيد النفقة، ولا المنفق عليه، ليدل على العموم، فإنه يدخل فيه، النفقة الواجبة، كالزكوات، والكفارات، ونفقة الزوجات والأقارب، والنفقة المستحبة في وجوه الخير، والنفقة والإحسان المالي خير مطلقاً، سواء



ثبوتاً لا تغير فيه.

﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ فهذا الوعد لا بد منه، ولا محيد عنه، فلا بد من تقدير أسبابه من الكفر والمعاصي.

﴿فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ أي: يقال للمجرمين الذين ملكهم الذل، وسألوا الرجعة إلى الدنيا، ليستردكوا ما فاتهم، قد فات وقت الرجوع ولم يبق إلا العذاب، فذوقوا العذاب الأليم بما نسيتم لقاء يومكم هذا، وهذا النسيان نسيان ترك، أي: بما عرضتم عنه وتركتم العمل له، وكأنكم غير قادمين عليه ولا ملاقيه.

﴿إننا نسيانكم﴾ أي: تركناكم بالعذاب، جزاء من جنس عملكم، فكما نسيتم نسيتم، ووذوقوا عذاب الخلد﴾ أي: العذاب غير المنقطع، فإن العذاب إذا كان له أجل وغاية، كان فيه بعض التفتيس والتخفيف، وأما عذاب جهنم - أعادنا الله منه - فليس فيه روح راحة، ولا انقطاع لعذابهم فيها. ﴿بما كنتم تعملون﴾ من الكفر والفسوق والمعاصي.

﴿١٥ - ١٧﴾ ﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم

(١) زيادة من: ب.

(٢) كذا في ب وفي أ: الذي.

الصالحات من فروض ونوافل ﴿فلهم جنات المأوى﴾ أي: الجنات التي هي مأوى اللذات، ومعدن الخيرات، ومحل الأفراس، ونعيم القلوب والنفوس والأرواح، ومحل الخلود، وجوار الملك المعبود، والمتمتع بقربه، والنظر إلى وجهه، وسماع خطابه.

﴿نزلاً﴾ لهم، أي: ضيافة وقربى ﴿بما كانوا يعملون﴾ فأعمالهم التي تفضل الله بها عليهم، هي التي أروستهم لتلك المنازل العالية، التي لا يمكن التوصل إليها ببذل الأموال، ولا بالجنود والخدم، ولا بالأولاد، بل ولا بالنفوس والأرواح، ولا يتقرب إليها بشيء أصلاً، سوى الإيمان والعمل الصالح.

﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النار﴾ أي: مقرهم ومحل خلودهم، النار التي جمعت كل عذاب وشقاء، ولا يفتقر عنهم العقاب ساعة.

﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها﴾ فكلما حدثتهم إرادتهم بالخروج ليلوغ العذاب منهم كل مبلغ، ردوا إليها، فذهب عنهم روح ذلك الفرج، واشتد عليهم الكرب.

﴿وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾ فهذا عذاب النار، الذي يكون فيه مقرهم ومأواهم، وأما العذاب الذي قبل ذلك، ومقدمة له وهو عذاب البرزخ، فقد ذكر بقوله:

﴿٢١﴾ ﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون﴾

أي: ولنذيقن الفاسقين المكذبين نموذجاً من العذاب الأدنى، وهو عذاب البرزخ، فنذيقهم طرفاً منه قبل أن يموتوا، إما بعذاب بالقتل ونحوه، كما جرى لأهل بدر من المشركين، وإما عند الموت، كما في قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسهم اليوم تجزون عذاب الهون﴾ ثم

يكمل لهم العذاب الأدنى في برزخهم.

وهذه الآية من الأدلة على إثبات عذاب القبر، ودلائلها ظاهرة، فإنه قال: ﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى﴾ أي: بعض وجزء منه، فدل على أن ثم عذاباً أدنى قبل العذاب الأكبر، وهو عذاب النار.

ولما كانت الإذاعة من العذاب الأدنى في الدنيا، قد لا يتصل بها الموت، فأخبر تعالى أنه يذيقهم ذلك لعلهم يرجعون إليه ويتوبون من ذنوبهم كما قال تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس لنذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾.

﴿٢٢﴾ ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون﴾ أي: لا أحد أظلم وأزيد تعدياً، ممن ذكر بآيات ربه، التي أوصلها إليه ربه، الذي يريد تربيته، وتكميل نعمته عليه على يد رسله، تأمره وتذكره مصالحه الدينية والدنيوية، وتنهاه عن مضاره الدينية والدنيوية، التي تقتضي أن يقابلها بالإيمان والتسليم، والانقياد والشكر، فقابلها هذا الظالم بضد ما ينبغي، فلم يؤمن بها ولا اتبعها، بل أعرض عنها وتركها وراء ظهره، فهذا من أكبر المجرمين، الذين يستحقون شديد العقاب، ولهذا قال: ﴿إنا من المجرمين منتقمون﴾.

﴿٢٣ - ٢٥﴾ ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرة من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرائيل \* وجعلناه منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون \* إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ لما ذكر تعالى آياته التي ذكرها عباده، وهو القرآن، الذي أنزله على محمد ﷺ، ذكر أنه ليس يبديع من الكتب، ولا من جاء به بغريب من الرسل، فقد أتى الله موسى الكتاب الذي هو التوراة المصدقة للقرآن، التي

قد صدقها القرآن، فتطابق حقيهما، وثبت برهانهما، ﴿فلا تكن في مرة من لقائه﴾ لأنه قد تواردت أدلة الحق وبيناته، فلم يبق للشك والمرة محل.

﴿وجعلناه﴾ أي: الكتاب الذي آتينا موسى ﴿هدى لبني إسرائيل﴾ يبتدون به في أصول دينهم وفروعه<sup>(١)</sup>، وشرائعه موافقة لذلك الزمان في بني إسرائيل.

وأما هذا القرآن الكريم، فجعله الله هداية للناس كلهم، لأنه هداية للخلق، في أمر دينهم ودنياهم إلى يوم القيامة، وذلك لكماله وعلوه ﴿وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم﴾.

﴿وجعلنا منهم﴾ أي: من بني إسرائيل ﴿أئمة يهدون بأمرنا﴾ أي: علماء بالشرع وطرق الهداية، مهتدين في أنفسهم، يهدون غيرهم بذلك الهدى، فالكتاب الذي أنزل إليهم هدى، والمؤمنون به منهم على قسمين: أئمة يهدون بأمر الله، وأتباع مهتدون بهم.

والقسم الأول أرفع الدرجات بعد درجة النبوة والرسالة، وهي درجة الصديقين، وإنما نالوا هذه الدرجة العالية بالصبر على التعلم والتعليم، والدعوة إلى الله، والأذى في سبيله، وكفوا أنفسهم عن جاحها في المعاصي واسترسالها في الشهوات.

﴿وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ أي: وصلوا في الإيمان بآيات الله إلى درجة اليقين، وهو العلم التام الموجب للعمل، وإنما وصلوا إلى درجة اليقين، لأنهم تعلموا تعليماً صحيحاً، وأخذوا المسائل عن أدلتها المقيدة لليقين.

فما زالوا يتعلمون المسائل، ويستدلون عليها بكثرة الدلائل، حتى وصلوا لذلك، فبالصبر واليقين نُكُل الإمامة في الدين.

وتم مسائل اختلاف فيها بنو إسرائيل، منهم من أصاب فيها الحق، ومنهم من أخطأ خطأ أو عمداً، والله تعالى ﴿يفصل بينهم يوم القيامة فيما

(١) في السخطين: وفروعه، ولعل الصواب - والله أعلم - ما أثبت.



ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً \* وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً \* أي: يا أيها الذي من الله عليه بالنسبة، واختصه بوحيه، وفضله على سائر الخلق، اشكر نعمة ربك عليك باستعمال تقواه، التي أنت أولى بها من غيرك، والذي يجب عليك منها أعظم من سواك، فامتثل أوامره ونواهيته، وبلغ رسالاته، وأذ إلى عياده وحيه، وابدل النصيحة للخلق.

ولا يصدنك عن هذا المقصود صاد، ولا يردك عنه راد، فلا تطع كل كافر قد أظهر العداوة لله ورسوله، ولا منافق قد استبطن التكذيب والكفر، وأظهر ضده.

فهؤلاء هم الأعداء على الحقيقة، فلا تطعمهم في بعض الأمور، التي تنقض التقوى وتناقضها، ولا تتبع أهواءهم، يضلوك عن الصواب.

﴿و﴾ لكن اتبع ما يوحى إليك من ربك فإنه هو الهدى والرحمة، وأزج بذلك ثواب ربك، فإنه بما تعملون خبير، يجازيكم بحسب ما يعلمه منكم من الخير والشر.

فإن وقع في قلبك، أنك إن لم تطعمهم في أهوائهم المضلة، حصل عليك منهم ضرر، أو حصل نقص في هداية الخلق، فادفع ذلك عن نفسك، واستعمل ما يقاومه ويقاوم غيره، وهو التوكل على الله، بأن تعتمد على ربك اعتماداً من لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، في سلامتك من شرهم، وفي إقامة الدين الذي أمرت به، وثق بالله في حصول ذلك الأمر على أي حال كان.

﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ توكل إليه الأمور، فيقوم بها وبما هو أصلح للعبد، وذلك لعلمه بمصالح عبده، من حيث لا يعلم العبد، وقدرته على إيصالها إليه، من حيث لا يقدر عليها العبد، وأنه أرحم بعبده من نفسه، ومن والديه، وأرأف به من كل أحد،

بصر الرجال، وإنما نظروا إلى ذلك نظر الغفلة، وبجرد العادة، فلم يوقفوا للخير.

﴿٢٨ - ٣٠﴾ ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين \* قل يوم الفتح لا يفتح الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينتظرون \* فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون \* أي: يستعجل المجرمون بالعذاب الذي وعدوا به على التكذيب، جهلاً منهم ومعاندة.

﴿ويقولون متى هذا الفتح﴾ الذي يفتح بيننا وبينكم، بتعدينا على زعمكم ﴿إن كنتم﴾ أيها الرسل ﴿صادقين﴾ في دعواكم.

﴿قل يوم الفتح﴾ الذي يحصل به عقابكم، لا تستفيدون به شيئاً، فلو كان إذا حصل، حصل إبهالككم، لتستدركوا ما فاتكم، حين صار الأمر عندكم يقيناً، لكان لذلك وجه، ولكن إذا جاء يوم الفتح، انقضى الأمر، ولم يبق للمحنة محل ف لا يتفتح الذين كفروا إيمانهم، لأنه صار إيمان ضرورة، ﴿ولا هم ينتظرون﴾ أي: يمهلون، فيؤخر عنهم العذاب، فيستدركون أمرهم.

﴿فأعرض عنهم﴾ لا وصل خطابهم إلى حالة الجهل واستعجال العذاب. ﴿وانتظر﴾ الأمر الذي يحمل بهم، فإنه لا بد منه، ولكن له أجل، إذا جاء منتظرون، بك رب المنون، ومتربصون بكم دوائر السوء، والعاقبة للتقوى.

تم تفسير سورة السجدة بحول الله ومثله فله تعالى كمال الحمد والثناء والمجد

### تفسير سورة الأحزاب وهي مدنية

﴿١ - ٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً \* واتبع ما يوحى إليك من

كانوا فيه يختلفون﴾ وهذا القرآن يقص على بني إسرائيل بعض الذي يختلفون فيه، فكل خلاف وقع بينهم، ووجد في القرآن تصديق لأحد القولين، فهو الحق، وما عداه مما خالفه باطل.

﴿٢٦ - ٢٧﴾ ﴿أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون \* أولم يروا أننا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً نأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون﴾ يعني: أولم يتبين لهؤلاء المكذبين للرسول، ويهدهم إلى الصواب. ﴿كم﴾ أهلكنا من قبلهم من القرون الذين سلكوا مسلكهم، يمشون في مساكنهم، فيشاهدونها عياناً، كقوم هود وصالح، وقوم لوط.

﴿إن في ذلك لآيات﴾ يستدل بها على صدق الرسل التي جاءتهم، وبطلان ما هم عليه من الشرك والشر، وعلى أن من فعل مثل فعلهم، ففعل بهم كما فعل بأشباعه من قبل. وعلى أن الله تعالى مجازي العباد، وباعثهم للحشر والتناد. ﴿أفلا يسمعون﴾ آيات الله فيعونها فيفتنون بها، فلو كان لهم سمع صحيح وعقل رجيح، لم يقيموا على حالة<sup>(١)</sup> يجزم بها بالهلاك.

﴿أولم يروا﴾ بأبصارهم نعمتنا وكمال حكمتنا ﴿أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز﴾ التي لا نبات فيها، فيسوق الله المطر الذي لم يكن قبل موجوداً فيها، فيفرغه فيها من السحاب أو من الأنهار. ﴿فنخرج به زرعاً﴾ أي: نباتاً مختلف الأنواع ﴿نأكل منه﴾ أنعامهم، وهو نبات البهائم، ﴿وأنفسهم﴾ وهو طعام آدميين.

﴿أفلا يبصرون﴾ تلك المنة، التي أحيا الله بها البلاد والعباد، فيستبصرون فيهتدون بذلك البصر وتلك البصيرة، إلى الصراط المستقيم، ولكن غلب عليهم العمى، واستولت عليهم الغفلة، فلم يبصروا في ذلك

(١) كذا في ب، وفي أ: على حالة لم يجزم، والصواب - والله أعلم - حذف لم.





﴿ولكن﴾ يؤخذكم بما ﴿تعمدت قلوبكم﴾ من الكلام بما لا يجوز. ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ غفر لكم ورحمكم، حيث لم يعاقبكم بما سلف، وسمح لكم بما أخطأتم به، ورحمكم حيث بين لكم أحكامه التي تصلح دينكم وديانكم، فله الحمد تعالى.

﴿٦﴾ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفًا كان ذلك في الكتاب مسطوراً يخبر تعالى المؤمنين خيراً يعرفون به حالة الرسول ﷺ ومرتبته، فيعاملونه بمقتضى تلك الحالة، فقال: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ أقرب ما للإنسان، وأولى ما له نفسه، فالرسول أولى به من نفسه، لأنه عليه الصلاة والسلام، بذل لهم من النصح والشفقة والرفقة، ما كان به أرحم الخلق وأرأفهم، فرسول الله أعظم الخلق مئة عليهم من كل أحد، فإنه لم يصل إليهم مثقال ذرة من الخير، ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر، إلا على يديه وبسيه.

فذلك، وجب عليه أنه إذا تعارض مراد النفس، أو مراد أحد من الناس،

مع مراد الرسول، أن يقدم مراد الرسول، وأن لا يعارض قول الرسول بقول أحد، كائناً من كان، وأن يفدوه بأنفسهم وأموالهم وأولادهم، ويقدموا محبته على محبة الخلق كلهم، ولا يقولوا حتى يقول، ولا يتقدموا بين يديه.

وهو ﷺ أب للمؤمنين، كما في قراءة بعض الصحابة، يربيههم كما يربي الوالد أولاده.

فترتب على هذه الأبوة، أن كان نساؤه أمهاتهم، أي: في الحرمة والاحترام والإكرام، لا في الخلوة والحرمية، وكان هذا مقدمة لما سأتى في قصة زيد بن حارثة، الذي كان قبل يدعى: يزيد بن محمد، حتى أنزل الله ﴿ما كان محمد أباً أحد من رجالكم﴾ فقطع نسبه وانتسابه منه، فأخبر في هذه الآية، أن المؤمنين كلهم أولاد للرسول، فلا مزية لأحد عن أحد وإن انقطع عن أحدهم انتساب الدعوة، فإن النسب الإيماني لم ينقطع عنه، فلا يجوز ولا يأسف.

وترتب على أن زوجات الرسول أمهات المؤمنين، أمهن لا يحملن لأحد من بعده، كما الله صرح<sup>(١)</sup> بذلك: ﴿ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً﴾.

﴿وأولوا الأرحام﴾ أي: الأقارب، قربوا أو بعدوا ﴿بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ [أي: <sup>(٢)</sup> في حكمه، فيرتب بعضهم بعضاً، ويرب بعضهم بعضاً، فهم أولى من الخلف والنصرة. والأدعياء الذين كانوا من قبل يروثن هذه الأسباب، دون ذوي الأرحام، فقطع تعالى التوارث بذلك وجعله للأقارب، لطفاً منه وحكمة، فإن الأمر لو استمر على العادة السابقة، لحصل من الفساد والشر والتحيل لحرمان الأقارب من الميراث شيء كثير.

﴿من المؤمنين والمهاجرين﴾ أي: سواء كان الأقارب مؤمنين مهاجرين وغير مهاجرين، فإن ذوي الأرحام مقدمون في ذلك، وهذه الآية حجة

على ولاية ذوي الأرحام في جميع الولايات، كولايات النكاح والمال، وغير ذلك.

﴿إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً﴾ أي: ليس لهم حق مفروض، وإنما هو بإرادتكم، إن شئتم أن تبرعوا لهم تبرعاً وتعطوهم معروفاً منكم، ﴿كان﴾ ذلك الحكم المذكور ﴿في الكتاب مسطوراً﴾ أي: قد سطر وكتب وقدره الله، فلا بد من فؤده.

﴿٧ - ٨﴾ ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ لیسأل الصادقين عن صدقهم وأمد للكافرين عذاباً اليماً﴾ يخبر تعالى أنه أخذ من النبيين عموماً، ومن أولي العزم - وهم هؤلاء الخمسة المذكورون - خصوصاً، ميثاقهم الغليظ وعهدهم الثقيل المؤكد، على القيام بدين الله والجهاد في سبيله، وأن هذا سبيل قد مشى الأنبياء المتقدمون، حتى ختموا بسيدهم وأفضلهم، محمد ﷺ، وأمر الناس بالافتداء بهم.

وسيسأل الله الأنبياء وأتباعهم عن هذا العهد الغليظ، هل وفوا فيه وصدقوا؟ فيثيبهم جنات النعيم؟ أم كفروا، فيعذبهم العذاب الأليم؟ قال تعالى: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾.

﴿٩ - ١١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريثاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً﴾ \* إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا \* هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزلاً شديداً﴾ يذكر تعالى عباده المؤمنين نعمته عليهم، ويحثهم على شكرها، حين جاءتهم جنود أهل مكة والحجاز من فوقهم، وأهل نجد من أسفل منهم، وتعاقدوا

(١) في: ب: كما يصرح بذلك. (٢) زيادة من: ب.

والحال أنهم قد عاهدوا الله من قبل لا يولون الأديار وكان عهد الله مسؤولاً سيئاً لهم عن ذلك العهد، فيجدهم قد نقضوه، فما ظنهم إذا برهم؟

﴿١٦﴾ ﴿قُلْ لَهُمْ، لائماً على فرارهم، وغيراً أنهم لا يفيدهم ذلك شيئاً﴾ لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل ﴿فلو كنتم في بيوتكم، لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾.

والأسباب تنفع، إذا لم يعارضها القضاء والقدر، فإذا جاء القضاء والقدر، تلاشى كل سبب، وبطلت<sup>(٦)</sup> كل وسيلة ظنها الإنسان تنجيه.

﴿وإذا﴾ حين فررتم لتسلموا من الموت والقتل، ولتتعموا في الدنيا فإنكم ﴿لا تتمعون إلا قليلاً﴾ متاعاً لا يسرى فراركم، وتركم أمر الله، وتوفيتكم على أنفسكم التمتع الأبدي، في النعيم السرمدي.

ثم بين أن الأسباب كلها لا تغني عن العبد شيئاً إذا أَرَادَ الله بسوء، فقال: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ﴾ أي: يَمْنَعُكُمْ ﴿مَنْ اللهُ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً﴾ أي: شراً، ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ فإنه هو المعطي المانع، الضار النافع، الذي لا يأتي بالخير إلا هو، ولا يدفع السوء إلا هو.

﴿ولا يجدون لهم من دون الله ولياً﴾ يتولاهم، فيجلب لهم النفع<sup>(٧)</sup> ﴿ولا نصيراً﴾ أي: ينصرهم، فيدفع عنهم المضار.

فَلَيَسْتَلِيمُوا طَاعَةَ الْمُنْفَرِدِ بِالْأُمُورِ كُلِّهَا، الَّذِي نَفَذَتْ مَشِيئَتَهُ، وَمَضَى قَدْرَهُ، وَلَمْ يَنْفَعْ مَعَ تَرْكِ وِلَايَتِهِ وَنَصْرَتِهِ وَوَلِيٍّ وَلَا نَاصِرٍ.

ثم توعد تعالى المخذلين المعوقين، وعهددهم فقال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمَعْقُوقِينَ مِنْكُمْ﴾ عن الخروج لن لهم<sup>(٨)</sup> يخرجوا ﴿وَالْقَاتِلِينَ إِخْوَانَهُمْ﴾ الذين خرجوا:

شُرهم، فقالت هذه الطائفة: ﴿يا أهل يثرب﴾ يريدون: ﴿يا أهل المدينة﴾، فنادوهم باسم الوطن النسيء<sup>(٩)</sup> [عن التسمية]<sup>(١٠)</sup>، فيه إشارة إلى أن الدين والأخوة الإيمانية، ليس له في قلوبهم قدر، وأن الذي حملهم على ذلك، مجرد الخنور الطبيعي.

﴿يا أهل يثرب لا مقام لكم﴾ أي: في موضعكم الذي خرجتم إليه خارج المدينة، وكانوا عسكروا دون الخندق وخارج المدينة، ﴿فارجعوا﴾ إلى المدينة، فهذه الطائفة تحذل عن الجهاد، وتبين أنهم لا قوة لهم بقتال عدوهم، ويأمرهم بترك القتال، فهذه الطائفة أشتر الطوائف وأضرها، وطائفة أخرى دونهم، أصابهم الجبن والجزع، وأحبوا أن ينحزلوا عن الصفوف، فجعلوا يعتذرون بالأعذار الباطلة، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا حَوْرَةٌ﴾ أي: عليها الخطر، ونحن غُيِّبْنَا عنها، فَأَذَّنْ لَنَا نَارِجِعَ إِلَيْهَا، فَحَرَسَهَا، وَهِيَ كَذِبَةٌ فِي ذَلِكَ.

﴿وما هي بعورة إن يريدون﴾ أي: ما قصدهم ﴿إلا فراراً﴾ ولكن جعلوا هذا الكلام وسيلة وعذراً. ﴿لهم﴾<sup>(١١)</sup> فهو لاء قل إيمانهم، وليس له ثبوت عند اشتداد المحن.

﴿ولو دخلت عليهم﴾ المدينة ﴿من أقطارها﴾ أي: لو دخل الكفار إليها من نواحيها، واستولوا عليها - لا كان ذلك - ﴿ثم﴾ سنل هؤلاء ﴿الفتنة﴾ أي: الانقلاب عن دينهم، والرجوع إلى دين المستولين الثغليين ﴿لأنوها﴾ أي: لأعطوها مبادرين.

﴿وما تلبثوا بها إلا يسيراً﴾ أي: ليس لهم منعة ولا تصلب على الدين، بل بمجرد ما تكون الدولة للأعداء، يعطونهم ما طلبوا، ويوافقونهم على كفرهم، هذه حالهم.

وتعاهدوا على استئصال الرسول والصحابة، وذلك في وقعة الخندق.

ومالأنهم [طوائف]<sup>(١٢)</sup> اليهود الذين حوَالِي الْمَدِينَةِ، فَجَاوَزُوا بِجُنُودٍ عَظِيمَةٍ وَأَسْمٍ كَثِيرَةٍ.

وخذق رسول الله ﷺ على المدينة، فحصرها المدينة، واشتد الأمر، وبلغت القلوب الحناجر، حتى بلغ الظن من كثير من الناس كل مبلغ، لما رأوا من الأسباب المستحكمة، والشدائد الشديدة، فلم يزل الحصار على المدينة مدة طويلة، والأمر كما وصف الله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا﴾ أي: الظنون السيئة، أن الله لا ينصر دينه ولا يتم كلمته.

﴿هنالك ابتلي المؤمنون﴾ هذه الفتنة العظيمة ﴿وزلزلوا زلزلاً شديداً﴾ بالخوف والقلق والجوع، لتبين إيمانهم، ويزيد إيقانهم، فظهر - والله الحمد - من إيمانهم وشدة يقينهم، ما فاقوا فيه الأولين والأخريين.

وعندما اشتد الكرب، وتفاقت الشدائد، صار إيمانهم عين اليقين، ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾.

وهنالك تبين نفاق المنافقين، وظهر ما كانوا يضمرون، قال تعالى:

﴿١٢﴾ ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

وهذه عادة المنافق عند الشدة والمحنة، لا يثبت إيمانه، وينظر بعقله القاصر، إلى الحالة القاصرة<sup>(١٣)</sup>، ويصدق ظنه.

﴿وإذ قالت طائفة﴾ من المنافقين، بعدما جزعوا وقل صبرهم، صاروا أيضاً من المخذلين، فلا صبروا بأنفسهم، ولا تركوا الناس من

(٦) في ب: المنافع.

(٧) زيادة من: ب.

(٨) زيادة من: ب.

(٩) كذا في ب، وفي أ: بطل.

(١٠) زيادة من: ب.

(١١) في ب: الحاضرة.

(١٢) زيادة من: ب.

﴿عَلَّمَ لِيْنَا﴾ أي: ارجعوا، كما تقدم من قولهم: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾.

وهم مع تعويقهم وتخذيْلهم ﴿لَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ﴾ القتال والجهاد بأنفسهم ﴿إِلَّا قَلِيْلًا﴾ فهم أشد الناس حرصاً على التخلف، لعدم الداعي لذلك من الإيمان والصبر، ووجود المقتضي للرجوع، من النفاق وعدم الإيمان.

﴿أَشْحَةٌ عَلَيْكُمْ﴾ بأبدانهم عن القتال، وأموالهم عند النفقة فيه، فلا يجاهدون بأموالهم وأنفسهم. ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ نظر المشفي عليه ﴿مِنَ الْمَوْتِ﴾ من شدة الحزن الذي خلع قلوبهم، والقتل الذي أهْلهم، وخوفاً من إيجارهم على ما يكرهون من القتال.

﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾ وصاروا في حال الأمن والطمأنينة، ﴿سَلْقُوكُمْ بِالسُّنَّةِ﴾ أي: خاطبوكم وتكلموا معكم بكلام حديد، ودعواى غير صحيحة.

وحين سمعهم، تظنهم أهل الشجاعة والإقدام، ﴿أَشْحَةٌ عَلَى الْخَيْرِ﴾ الذي يراد منهم، وهذا شر ما في الإنسان، أن يكون شحيحاً بما أمر به، شحيحاً بما له أن يتفقه في وجهه، شحيحاً في بدنه أن يجاهد أعداء الله، أو يدعو إلى سبيل الله، شحيحاً بجاهه، شحيحاً بعلمه ونصيحته ورايه.

﴿أُولَئِكَ﴾ الذين بتلك الحالة ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ بسبب عدم إيمانهم أحبط الله أعمالهم، ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

وأما المؤمنون، فقد وقاهم الله شع أنفسهم، ووفقه لبذل ما أمروا به، من بذل لأبدانهم في القتال في سبيله، وإعلاء كلمته، وأموالهم للنفقة في طرق الخير، وجاههم وعلمهم. ﴿يُحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أي:

يظنون أن هؤلاء الأحزاب، الذين تحزبوا على حرب رسول الله ﷺ وأصحابه لم يذهبوا حتى يستأصلوهم، فخاب ظنهم، وبطل حسبانهم.

﴿وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابَ﴾ مرة أخرى ﴿يُودُوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَأِكُمْ﴾ أي: لو أتى الأحزاب مرة ثانية مثل هذه المرة، وذو هؤلاء المنافقون، أنهم ليسوا في المدينة ولا في القرب منها، وأنهم مع الأعراب في البادية، يستخبرون عن أخباركم، ويسألون عن أنبئكم، ماذا حصل عليكم؟

فتبأ لهم، وبعداً فليسوا من بيال<sup>(١)</sup> بحضورهم ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيْلًا﴾ فلا نبألوهم، ولا تأسوا عليهم.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسُوةٌ حَسَنَةٌ﴾ حيث حضر الهيجاء بنفسه الكريمة، وبأشرف موقف الحرب، وهو الشريف الكامل، البطل الباسل، فكيف تشحون بأنفسكم عن أمر جاد رسول الله ﷺ بنفسه فيه؟!!

فتأسوا به في هذا الأمر وغيره. واستدل الأصوليون في هذه الآية، على الاحتجاج بأفعال الرسول ﷺ، وأن الأصل، أن أمته أسرته في الأحكام، إلا ما دلّ الدليل الشرعي على الاختصاص به.

فالأسوة نوعان: أسوة حسنة، وأسوة سيئة.

فالأسوة الحسنة في الرسول ﷺ، فإن المتأسى به، سالك الطريق الموصل إلى كرامة الله، وهو الصراط المستقيم. وأما الأسوة بغيره إذا خالفه، فهو الأسوة السيئة، كقول الكفار<sup>(٢)</sup> حين دعتهم الرسل للمتأسى [بهم]<sup>(٣)</sup>: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾.

وهذه الأسوة الحسنة، إنما يسلكها ويوفق لها، مَنْ كان يرجو الله واليوم الآخر، فإن ما معه<sup>(٤)</sup> من الإيمان،

وخوف الله، ورجاء ثوابه، وخوف عقابه، يمه على المتأسى بالرسول ﷺ.

لما ذكر حالة المنافقين عند الخوف، ذكر حال المؤمنين، فقال: ﴿وَمَا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ﴾ الذين تحزبوا، ونزلوا منازلهم، وانتهى الخوف، ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَمَا يَأْتِكُمْ مِثْلَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِبِينَ﴾ يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله إلا إن نصر الله قريب.

﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ فإنا رأينا ما أخبرنا به ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ ذلك الأمر ﴿إِلَّا إِيمَانًا﴾ في قلوبهم ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ في جوارحهم، وانقياداً لأمر الله.

ولما ذكر أن المنافقين عاهدوا الله، لا يولون الأديبار، ونقضوا ذلك العهد، ذكر وفاء المؤمنين به، فقال: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أي: وفوا به، وأتموه، وأكملوه، فبذلوا مهجهم في مرضاته، وسبّلوا أنفسهم في طاعته.

﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ أي: إرادته ومطلوبه وما عليه من الحق، فقتل في سبيل الله، أو مات مؤدياً لحقه لم ينقضه شيئاً.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ﴾ تكميل ما عليه، فهو شارع في قضاء ما عليه، وفاء نجه ولما يكمله، وهو في رجاء تكميله، ساع في ذلك مجد.

﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ كما بذل غيرهم، بل لم يزلوا على العهد، لا يلوون ولا يتغيرون، فهؤلاء الرجال على الحقيقة، ومن<sup>(٥)</sup> عداهم فصورهم صور رجال، وأما الصفات فقد قصرت عن صفات الرجال.

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي: بسبب صدقهم، في أقوالهم وأحوالهم، ومعاملتهم مع الله، واستواء ظاهرهم وباطنهم، قال الله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ

(٥) في أ: وما عداهم، ولعل الصواب

ما أثبت.

(٣) زيادة من: ب.

(٤) في ب: فإن ذلك ما معه.

(١) في ب: بئالي.

(٢) في ب: المشركين.

صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً الآية.

أي: قدرنا ما قدرنا من هذه الفتن والمحن والزلازل، ليتبين الصادق من الكاذب، فيجزى الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين الذين تغيرت قلوبهم وأعمالهم عند حلول الفتن، ولم يفوا بما عاهدوا الله عليه.

﴿إن شاء﴾ تعذيبهم، بأن لم يشأ هدايتهم، بل علم أنهم لا خير فيهم فلم يوفقهم.

﴿أو يتوب عليهم﴾ بأن يوفقهم للتوبة والإنابة، وهذا هو الغالب على كرم الكريم، ولهذا ختم الآية باسمين دالين على المغفرة والفضل والإحسان فقال: ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾ غفوراً لذنوب المسرفين على أنفسهم، ولو أكثروا من العصيان إذا أتوا بالتائب. ﴿رحيماً﴾ بهم، حيث وفقهم للتوبة، ثم قبلها منهم وستر عليهم ما اجترحوه.

﴿وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً﴾ أي: ردهم خائبين، لم يحصل لهم الأمر الذي كانوا حنقين عليه، مختاطين قادرين [عليه]<sup>(١)</sup> جازمين، بأن لهم الدائرة، قد غرتهم جموعهم، وأعجبوا بتحزيمهم، وفرحوا بقدومهم وعُدوهم.

فأرسل الله عليهم ريحاً عظيمة، وهي<sup>(٢)</sup> ريح الصبا، فزعزعت مراكزهم، وقوّضت خيامهم، وكفّأت قدرهم وأزعجتهم، وضربهم الله بالريح، فانصرفوا بغيظهم، وهذا من نصر الله لعباده المؤمنين.

﴿وكفى الله المؤمنين القتال﴾ بما صنع لهم من الأسباب العادية والفدرية، ﴿وكان الله قوياً عزيزاً﴾ لا يغال به أحد إلا غلب، ولا يستنصره أحد إلا غلب، ولا يعجزه أمر أراد، ولا ينضع أهل القوة والعزة قوتهم وعزتهم، إن لم ينعم بقوته وعزته.

﴿وأنزله الذين ظاهروهم﴾ أي: عاونوهم ﴿من أهل الكتاب﴾ أي: اليهود ﴿من صيّا صيبهم﴾ أي: أنزلهم من حصونهم، نزولاً مظهوراً بهم، معمولين تحت حكم الإسلام.

﴿وقذف في قلوبهم الرعب﴾ فلم يقموا على القتال، بل استسلموا وخضعوا وذلوا. ﴿فريقاً تقتلون﴾ وهم الرجال المقاتلون ﴿وتأسرون فريقاً﴾ من عداهم من النساء والصبيان.

﴿وأورثكم﴾ أي: غنمكم ﴿أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها﴾ أي: أرضاً كانت من قبل، من شرفها وعزتها عند أهلها، لا تتمكنون من وطنها، فمكتكم الله وحذلمهم، وغنمتم أموالهم، وقتلتموهم وأسرموهم.

﴿وكان الله على كل شيء قديراً﴾ لا يعجزه شيء، ومن قدرته قدر لكم ما قدر.

وكانت هذه الطائفة من أهل الكتاب، هم بنو قريظة من اليهود، في قرية خارج المدينة غير بعيد، وكان النبي ﷺ حين<sup>(٣)</sup> هاجر إلى المدينة ووادعهم وهادتهم، فلم يقاتلهم ولم يقاتلوه، وهم باقون على دينهم، لم يغير عليهم شيئاً.

فلما رأوا يوم الخندق الأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله وكرتهم، وقلة المسلمين، وظننوا أنهم سيستأصلون الرسول والمؤمنين، وساعد على ذلك [تدجيل]<sup>(٤)</sup> بعض رؤسائهم عليهم، فنقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ ومالؤوا المشركين على قتاله.

فلما حذل الله المشركين، تفرغ رسول الله ﷺ لقتالهم، فحاصروهم في حصنهم، فنزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه، فحكم فيهم، أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى

بنا المؤمنين بجال صفة قوامنا عهدنا والله عتيقنا ونهملنا  
فصاح قريظونهم نحن سبطنا وما لنا لا نؤيدوا ﴿١﴾ لينزوا  
الله الصلوات بصدقة وفضل من المؤمنين إن شاء  
أزويج عليهم الله كان غفوراً رحيماً ﴿٢﴾ وورد الله الذين  
كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ﴿٣﴾ وأرسل الله قوياً عزيزاً  
بنا أهل الصلوات من سبطنا وما لنا لا نؤيدوا ﴿٤﴾ وأرسل الله قوياً  
ويزيد قوتهم وأمرهم وأمرهم ﴿٥﴾ وأرسل الله قوياً  
عز قوتهم ﴿٦﴾ وأرسل الله قوياً عز قوتهم ﴿٧﴾ وأرسل الله قوياً  
القوة التي لا تقهرها القوة التي لا تقهرها ﴿٨﴾ وأرسل الله قوياً  
سبطنا جيلاً ﴿٩﴾ وأرسل الله قوياً عز قوتهم ﴿١٠﴾ وأرسل الله قوياً  
القوة التي لا تقهرها القوة التي لا تقهرها ﴿١١﴾ وأرسل الله قوياً  
لما التفت يميني ونسكت أن ذلك على الله وسبحان

ذرائعهم، وتغنم أموالهم.

فأنم الله لرسوله والمؤمنين المنة، وأسبغ عليهم النعمة، وأقر أعينهم بخذلان من اتخذ من أعدائهم، وقتل من قتلوا، وأسرى من أسروا، ولم يزل لطف الله بعباده المؤمنين مستمراً.

﴿٢٨-٢٩﴾ ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحاً جيلاً \* وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أضد للمحسنات منكن أجراً عظيماً﴾ لما اجتمع نساء رسول الله ﷺ عليه في الغيرة، وطلبن منه النفقة والكسوة، طلبن منه أمراً لا يقدر عليه في كل وقت، ولم يزلن في طلبهن منفقات، في مرادهن متعتات، فسئ ذلك على الرسول، حتى وصلت به الحال إلى أنه لى منهن شهراً.

فأراد الله أن يسهل الأمر على رسوله، وأن يرفع درجة زوجاته، ويذهب عنهن كل أمر ينقص أجرهن، فأمر رسوله أن يخبرهن<sup>(٥)</sup> فقال: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا﴾ أي: ليس لكن في غيرها مطلب، وصرتن ترضين لوجودها،

(٥) في أ: يخبرهن.

(٣) زيادة من: ب.

(٤) زيادة من: ب.

(١) زيادة من: ب.

(٢) في أ: وهو، ولعل الصواب ما أنته.



يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً \* ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً ﴿

لما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، ذكر مضاعفة أجرهن، ومضاعفة وزرهن وإثمهن لو جرى منهن، ليزداد حزنهن، وشكرهن الله تعالى، فجعل من أتى منهن بفاحشة ظاهرة لها العذاب ضعفين .

﴿ومن يقنت منكن﴾ أي: تطيع ﴿الله ورسوله وتعمل صالحاً﴾ قليلاً أو كثيراً، ﴿نؤتها أجرها مرتين﴾ أي: مثل ما نعطي غيرها مرتين، ﴿وأعتدنا لها رزقاً كريماً﴾ وهي الجنة، ففتنن الله ورسوله، وعملن صالحاً، فعلم بذلك أجرهن .

﴿٣٢ - ٣٤﴾ يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً \* وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطمنن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويظهركم تطهيراً \* واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً ﴿ يقول تعالى: ﴿يا نساء النبي﴾ خطاب لهن كلهن ﴿لستن كأحد من النساء﴾ إن اتقيتن ﴿الله﴾، فإنكن بذلك تفقن النساء، ولا يلحقكن أحد من النساء، فكمعلن التفقير بجميع وسائلها ومقاصدها .

فلهدأ أرشدهن إلى قطع وسائل المحرم، فقال: ﴿فلا تخضعن بالقول﴾ أي: في مخاطبة الرجال، أو بحيث يسمعون فتلن في ذلك، وتتكلمن بكلام رقيق يدعو ويطمع ﴿الذي في قلبه مرض﴾ أي: مرض شهوة الزنا، فإنه مستعد، ينظر أدنى محرک يحرکه، لأن قلبه غير صحيح، ﴿فإن القلب

منها: الاعتناء برسوله وغيرته عليه، أن يكون بحالة يشق عليه كثرة مطالب زوجته الدنيوية .

ومنها: سلامته ﷺ بهذا التخيير من تبعة حقوق الزوجات، وأنه يبقى في حرية نفسه، إن شاء أعطى، وإن شاء منع ﴿ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له﴾ .

ومنها: تنزيهه عن لو كان فيهن من تؤثر الدنيا على الله ورسوله والدار الآخرة عنها، وعن مقارنتها .

ومنها: سلامة زوجته رضي الله عنهن عن الإثم والتعرض لسخط الله ورسوله .

فحسم الله بهذا التخيير عنهن التسخط على الرسول، الموجب لسخطه، المسخط لربه، الموجب لعقابه .

ومنها: إظهار رفعتهن وعلو درجتهم، وبيان علو مهمهن، أن كان الله ورسوله والدار الآخرة مرادهن ومقصودهن، دون الدنيا وحطامها .

ومنها: استعدادهن بهذا الاختيار، للأمر الخيار، للوصول إلى خيار درجات الجنة، وأن يكن زوجاته في الدنيا والآخرة .

ومنها: ظهور المناسبة بينه وبينهن، فإنه أكمل الخلق، وأراد الله أن تكون نساؤه<sup>(١)</sup> كاملات مكملات، طيبات مطيبات ﴿الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات﴾ .

ومنها: أن هذا التخيير داع، وموجب للقتناع التي يطمئن لها القلب، وينشرح لها الصدر، ويزول عنهن جشع الحرص، وعدم الرضا الموجب لقلق القلب واضطرابه، وهمه وغمه .

ومنها: أن يكون اختيارهن هذا، سبباً لزيادة أجرهن ومضاعفته، وأن يكن بمرتبة ليس فيها أحد من النساء، ولهذا قال: ﴿يا نساء النبي من

﴿٣٠ - ٣١﴾ ﴿يا نساء النبي من

وتغضبن لفقدها، فليس لي فيكن أرب وحاجة، وأئن بهذه الحال .

﴿فنعالمين أمتعن﴾ شيئاً مما عندي من الدنيا ﴿وأسرحن﴾ أي: أفارقن ﴿سراحاً جميلاً﴾ من دون مغاضبة ولا مشاققة، بل بسعة صدر، وانشرح بال، قبل أن تبلغ الحال إلى ما لا ينبغي .

﴿وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة﴾ أي: هذه الأشياء مرادكن، وغاية مقصودكن، وإذا حصل لكُن الله ورسوله والجنة، لم تبالين بسعة الدنيا وضيقها، ويسرها وعسرها، وقعتن من رسول الله بما تيسر، ولم تطلبن منه ما يشق عليه، ﴿فإن الله أهد للمحسنات منكن أجراً عظيماً﴾ رتب الأجر على وصفهن بالإحسان، لأنه السبب الموجب لذلك، لا لكونهن زوجات للرسول، فإن مجرد ذلك لا يكفي، بل لا يفيد شيئاً مع عدم الإحسان، فخيرهن رسول الله ﷺ في ذلك، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة كلهن، ولم يتخلف منهن واحدة، رضي الله عنهن .

وفي هذا التخيير فوائد عديدة:

أي: فاحمدوا ربكم واشكروا على هذه الأوامر والنواهي، التي أخبركم بمصلحتها وأنها محض مصلحتكم، لم يرد الله أن يجعل عليكم بذلك حرجاً ولا مشقة، بل لتتذكروا نفوسكم، ولتطهر أخلاقكم، وتحسن أعمالكم، ويعظم بذلك أجركم.

ولما أمرهن بالعمل الذي هو فعل وترك، أمرهن بالعلم، وبيّن لهن طريقه، فقال: ﴿وَأذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ والمراد بآيات الله، القرآن. والحكمة، أسراره. أو سنة رسوله. وأمرهن بذكره، يشمل ذكر لفظه، بتلاوته، وذكر معناه، بتدبره والتفكير فيه، واستخراج أحكامه وحكمه، وذكر العمل به وتأويله. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ يدرك أسرار<sup>(١)</sup> الأمور، وخفايا الصدور، وخبايا السماوات والأرض، والأعمال التي تبين وتسر.

فلطفه وخبرته، يقتضي حثهن على الإخلاص وإسرار الأعمال، ومجازاة الله على تلك الأعمال.

ومن معاني «اللطيف» الذي يسوق عبده إلى الخير، ويعصمه من الشر، بطرق خفية لا يشعر بها، ويسوق إليه من الرزق ما لا يدرىه، ويريه من الأسباب التي تكرهها النفوس ما يكون ذلك طريقاً<sup>(٢)</sup> [له] إلى أعلى الدرجات وأرفع المنازل.

﴿٣٥﴾ ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّانِعِينَ وَالصَّانِعَاتِ وَالْحَافِظِينَ فَرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا

إذا رأى من نفسه هذه الحالة، وأنه يهش<sup>(٣)</sup> لفعل المحرم عندما يرى أو يسمع كلام من يهواه، ويجد دواعي طمعه قد انصرفت إلى الحرام، فلْيَعْرِفْ أن ذلك مرض.

فَلْيَجْتَهِدْ فِي إِضَاعَفِ هَذَا الْمَرَضِ وَحَسْمِ الْخَوَاطِرِ الرَّدِيَةِ، وَمُجَاهَدَةِ نَفْسِهِ عَلَى سَلَامَتِهَا مِنْ هَذَا الْمَرَضِ الْخَطِرِ، وَسُؤَالِ اللَّهِ الْعِصْمَةَ وَالتَّوْفِيقَ، وَأَنْ ذَلِكَ مِنْ حِفْظِ الْفَرْجِ الْمَأْمُورِ بِهِ.

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أي: اقررن فيها، لأنه أسلم وأحفظ لكنن، ﴿وَلَا تَبْرَجْنَ﴾ تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴿أَي: لَا تَكْثُرْنَ الْخُرُوجَ مِنْجَمَلَاتٍ أَوْ مَطْبِئِيَّاتٍ، كَمَا دَا أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى، الَّذِينَ لَا عِلْمَ عِنْدَهُمْ وَلَا دِينَ، فَكُلِّ هَذَا دَفْعٌ لِلشَّرِّ وَأَسْبَابُهُ.

ولما أمرهن بالتقوى عموماً، ويجزئيات من التقوى، نص عليها [لحاجة]<sup>(٤)</sup> النساء إليها، كذلك أمرهن بالطاعة، خصوصاً الصلاة والزكاة، اللتان يجتاهجهما ويضطر إليهما كلياً أحدهما، وهما أكبر العبادات، وأجل الطاعات، وفي الصلاة الإخلاص للمعبود، وفي الزكاة الإحسان إلى العبيد.

ثم أمرهن بالطاعة عموماً، فقال: ﴿وَأَطِيعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يدخل في طاعة الله ورسوله، كل أمر أمر به أمر إيجاب أو استحباب.

﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ﴾ بأمركن بما أمركن به، ونهيكن بما<sup>(٥)</sup> نهاكن عنه، ﴿لِيَذْهَبَ عَنْكُمُ الرِّجْسُ﴾ أي: الأذى والشر والخبث، يا أهل البيت ويظهركم تطهيراً حتى تكونوا طاهرين مطهرين.

الصحيح<sup>(٦)</sup>، ليس فيه شهوة لما حرم الله، فإن ذلك لا تكاد تميله ولا تحركه الأسباب، لصحة قلبه وسلامته من المرض.

بخلاف مريض القلب، الذي لا يتحمل ما يتحمل الصحيح، ولا يصبر على ما يصبر عليه، فأدنى سبب يوجد، يدفعه إلى الحرام، يجيب دعوته، ولا يتعاضى عليه، فهذا دليل على أن الرسائل لها أحكام المقاصد. فإن الخضوع بالقول واللين فيه، في الأصل مباح، ولكن لما كان وسيلة إلى المحرم، منع منه، ولهذا ينبغي للمرأة في مخاطبة الرجال، أن لا تلين لهم القول.

ولما نهاهن عن الخضوع في القول، وربما توهم أنهن مأمورات بإغلاظ القول، دفع هذا بقوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ أي: غير غليظ ولا جاف، كما أنه ليس بلين خاضع.

وتأمل كيف قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ ولم يقل: ﴿فَلَا تَلِينَنَّ بِالْقَوْلِ﴾ وذلك لأن النهي عنه القول اللين، الذي فيه خضوع المرأة للرجل، وانكسارها عنده، والخاضع هو الذي يطمع فيه، بخلاف من تكلم كلاماً لينا ليس فيه خضوع، بل ربما صار فيه ترفع وقهر للخصم، فإن هذا لا يطمع فيه خصمه، ولهذا مدح الله رسوله باللين، فقال: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ﴾ وقال موسى وهارون: ﴿أَذْهَبْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ فقولاه قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى.

ودل قوله: ﴿فِي طَمَعِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ مع أمره بحفظ الفرج وثباته على الحافظين لغرورهم والحافظات، ونهيه عن قربان الزنا، أنه ينبغي للعبد

- (١) زيادة من: ب، لا يستقيم الكلام بدونها.
- (٢) كذا في: ب، وفي: أ: يشتهي، والأثر ما أثبت.
- (٣) زيادة من: ب.
- (٤) في: ب: عتاً.
- (٥) في: ب: سراتر.
- (٦) زيادة من: ب.



عظيماً ﴿٣٦﴾ لما ذكر تعالى ثواب زوجات الرسول ﷺ وعقابهن [لو قدر عدم الامتثال] (١) وأنه ليس مثلهن أحد من النساء، ذكر بقية النساء غيرهن.

ولما كان حكمهن والرجال واحداً، جعل الحكم مشتركاً، فقال: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ وهذا في الشرائع الظاهرة، إذا كانوا قاطنين بها. ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ وهذا في الأمور الباطنة، من عقائد القلب وأعماله.

﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ أي: المطيعين لله ولرسوله ﴿وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ﴾ في مقالهم وفعالهم ﴿وَالصَّادِقَاتِ﴾ والصابرين ﴿على الشدائد والمصائب﴾ والصابرات والحاشعين ﴿في جميع أحوالهم، خصوصاً في عباداتهم، خصوصاً في صلواتهم﴾ ﴿وَالْحَاشِعَاتِ﴾ والمتصدقين ﴿فرضاً ونفلاً﴾ ﴿وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾ شمل ذلك الفرض والنفل. ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾ عن الزنا ومقدماته ﴿وَالْحَافِظَاتِ﴾ ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ أي: [٢] في أكثر الأوقات، خصوصاً أوقات الأوراد المفيدة، كالصباح والمساء، وأدبار الصلوات المكتوبات ﴿وَالذَّاكِرَاتِ﴾.

﴿أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أي: لهؤلاء الموصوفين بتلك الصفات الجميلة، والمناقب الجليلة، التي هي ما بين اعتقادات، وأعمال قلوب، وأعمال جوارح، وأقوال لسان، ونفع متعد وقاصر، وما بين أفعال الخير، وترك الشر، الذي من قام بهن، فقد قام بالدين كله، ظاهره وباطنه، بالإسلام والإيمان والإحسان. فجازاهم على عملهم بالغفرة

لذنوبهم، لأن الحسنات يذهبن السيئات. ﴿وَأَجْراً عظيماً﴾ لا يقدر قدره، إلا الذي أعطاه، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، نسأل الله أن يجعلنا منهم.

﴿٣٦﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مبيناً﴾ أي: لا ينبغي ولا يليق ممن اتصف بالإيمان، إلا الإسراع في مرضاة الله ورسوله، والهرب من سخط الله ورسوله، وامتثال أمرهما، واجتناب نهيهما، فلا يليق بمؤمن ولا مؤمنة ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ من الأمور، وحثماً به والأمر به ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أي: الخيار، هل يفعلونه أم لا؟ بل يعلم المؤمن والمؤمنة، أن الرسول أولى به من نفسه، فلا يجعل بعض أهواء نفسه حجاً بينه وبين أمر الله ورسوله.

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مبيناً﴾ أي: بيناً، لأنه ترك الصراط المستقيم الموصلة إلى كرامة الله، إلى غيرها من الطرق الموصلة للعذاب الأليم، فذكر أولاً السبب الموجب لعدم معارضته أمر الله ورسوله، وهو الإيمان، ثم ذكر المانع من ذلك، وهو التخويف بالضلال، الدال على العقوبة والتكال.

﴿٣٧﴾ ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَ لِلْكِفَى لَأَنْ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾

وكان سبب نزول هذه الآيات، أن الله تعالى أراد أن يشرع شرعاً عاماً للمؤمنين، أن الأدعياء ليسوا في حكم الأبناء حقيقة، من جميع الوجوه وأن أزواجهم لا جناح على من تبناهم نكاحهن.

وكان هذا من الأمور المعتادة، التي لا تكاد تزول إلا بحادث كبير، فأراد أن يكون هذا الشرع قولاً من رسوله وفعلاً، وإذا أراد الله أمراً جعل له سبباً، وكان زيد بن حارثة يدعى زيد بن محمد قد تبناه النبي ﷺ، فصار يدعى إليه حتى نزل: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ﴾ فقيل له: زيد بن حارثة.

وكانت تحت زينة بنت جحش، ابنة عمه رسول الله ﷺ، وقد كان قد وقع في قلب الرسول، لو طلقها زيد، لتزوجها، فقدر الله أن يكون بينها وبين زيد ما اقتضى أن جاء زيد بن حارثة يستأذن النبي ﷺ في فراقها.

قال الله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: بالإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالعتق (٣)، حين جاءك مشاوراً في فراقها: فقلت له ناصحاً ومخبراً بمصلحته (٤)، مع وقوعها في قلبك: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ أي: لا تفارقها، واصبر على ما جاءك منها، ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ تعالى في أمورك عامة، وفي أمر زوجك خاصة، فإن التقوى تحت على الصبر وتأمر به.

﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾ والذي أخفاه، أنه لو طلقها زيد لتزوجها ﷺ.

﴿وتخشى الناس﴾ في عدم إبداء ما في نفسك ﴿والله أحق أن تخشاه﴾ (٥) وأن لا تباليهم شيئاً، ﴿فلما قضى زيد منها وطراً﴾ أي: طابت نفسه، ورجب عنها، وفارقها. ﴿زوّجناك﴾ وإنما

(١) زيادة من: ب.

(٢) زيادة من: ب.

(٣) في هامش ب: والإرشاد والتعليم.

(٤) في هامش ب: مقدماً لها على رغبتك.

(٥) في هامش ب: فإن خشية جالبة لكل خير، [مانعة] من كل شر (مع أن كلمة مانعة غير واضحة في الأصل).

فعلنا ذلك لفائدة عظيمة، وهي:  
 ﴿لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم﴾ حيث أروك تزوجت زوج زيد بن حارثة، الذي كان من قبل يتسبب إليك.

ولما كان قوله: ﴿لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم﴾ عاماً في جميع الأحوال وكان من الأحوال، ما لا يجوز ذلك، وهي قبل انقضاء وطره منها، قيد ذلك بقوله: ﴿إذا قضاوا منهاهن وأمر الله مفعولاً أي: لا بد من فعله، ولا عائق له ولا مانع.

وفي هذه الآيات المشتملات على هذه القصة فوائد، منها: الشناء على زيد بن حارثة، وذلك من وجهين: أحدهما: أن الله سماه في القرآن، ولم يسم من الصحابة باسمه غيره.

والثاني: أن الله أخبر أنه أنعم عليه، أي: بنعمة الإسلام والإيمان. وهذه شهادة من الله له أنه مسلم مؤمن، ظاهرراً وباطناً، وإلا فلا وجه لتخصيصه بالنعمة، لولا أن المراد بها النعمة الخاصة.

ومنها: أن المتق في نعمة المتق. ومنها: جواز تزوج زوجة الذمي، كما صرح به. ومنها: أن التعليم الفعلي أبلغ من القول، خصوصاً إذا اقترن بالقول، فإن ذلك نور على نور.

ومنها: أن المحبة التي في قلب العبد، تغير زوجته وملوكته ومخارمه، إذا لم يقترن بها محذور، لا يأثم عليها العبد، ولو اقترن بذلك أميته، أن لو طلقها زوجها لتزوجها من غير أن يسمى في فرقة بينهما، أو يتسبب بأي سبب كان، لأن الله أخبر أن الرسول ﷺ أخفى ذلك في نفسه.

ومنها: أن الرسول ﷺ قد بلغ البلاغ المبين، فلم يدع شيئاً مما أوحى إليه إلا وبلغه، حتى هذا الأمر، الذي فيه عتابه.

وهذا يدل على أنه رسول الله، ولا يقول إلا ما أوحى إليه، ولا يريد تعظيم نفسه.

ومنها: أن المستشار مؤتمن، يجب عليه - إذا استشير في أمر من الأمور - أن يشير بما يعلمه أصلح للمستشير<sup>(١)</sup>، ولو كان له حظ نفس، فتقدم مصلحة المستشار على هوى نفسه وحرصه.

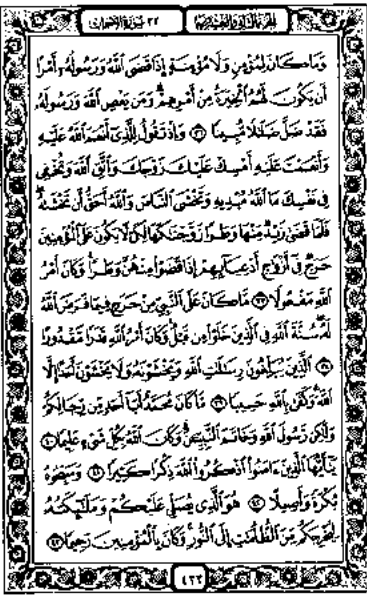
ومنها: أن من الرأي: الحسن لمن استشار في فراق زوجته أن يؤمر بإسماها مهما أمكن صلاح الحال، فهو أحسن من الفرقة.

ومنها: [أنه يتعين]<sup>(٢)</sup> أن يقدم العبد خشية الله على خشية الناس، وأنها أحق منها وأولى.

ومنها: فضيلة زينب رضي الله عنها أم المؤمنين، حيث تولى الله تزويجها من رسوله ﷺ، من دون خطبة ولا شهود، ولهذا كانت تفتخر بذلك على أزواج رسول الله ﷺ، وتقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات.

ومنها: أن المرأة إذا كانت ذات زوج، لا يجوز نكاحها، ولا السعي فيه وفي أسبابه، حتى يقضي زوجها وطره منها، ولا يقضي وطره، حتى تنقضي عدتها، لأنها قبل انقضاء عدتها، وهي في عصمتها، أو في حقه الذي له وطر إليها، ولو من بعض الوجوه.

﴿٣٨ - ٣٩﴾ ﴿ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً ﴿هذا دفع لطمع من طعن في الرسول ﷺ، في كثرة أزواجه، وأنه طعن بما لا مطعن فيه، فقال: ﴿ما كان على النبي من حرج﴾ أي: إثم وذنوب. ﴿فيما فرض الله له﴾ أي: قدر له من الزوجات، فإن هذا قد أباحه الله للأنبياء قبله، ولهذا قال:



﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾ أي: لا بد من وقوعه. ثم ذكر من هم الذين من قبل قد خلوا، وهذه سنتهم وعاداتهم، وأنهم ﴿الذين يبلغون رسالات الله﴾ فيتلون على العباد آيات الله وحججه وبراهينه، ويدعونهم إلى الله ﴿ويخشونه﴾ وحده لا شريك له ﴿ولا يخشون أحداً﴾ إلا الله.

فإذا كان هذا سنة في الأنبياء المعصومين، الذين وظيفتهم قد أدوها وقاموا بها أتم القيام، وهو دعوة الخلق إلى الله، والخشية منه وحده، التي تقتضي فعل كل مأمور، وترك كل محظور، دل ذلك على أنه لا نقص فيه بوجه.

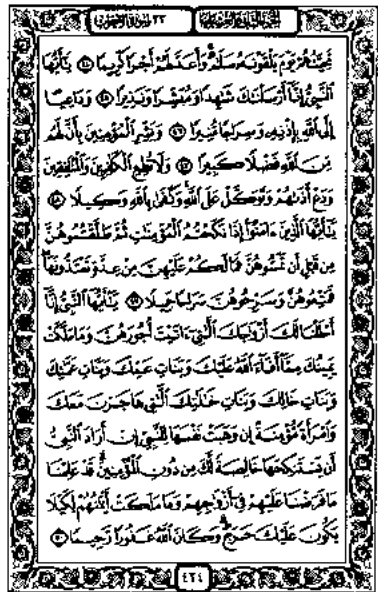
﴿وكفى بالله حسيباً﴾ بحاسباً عباده، مراقباً أعمالهم. وعلم من هذا، أن النكاح من سنن المرسلين.

﴿٤٠﴾ ﴿ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً﴾ أي: لم يكن الرسول ﴿محمد﴾ أباً أحد من رجالكم ﴿أباً الأمة﴾ فقطع انتساب زيد بن حارثة منه، من هذا الباب.

ولما كان هذا التنفي عاماً في جميع الأحوال، إن حمل ظاهر اللفظ على

(١) كذا في ب، وفي أ: للمستشار، ولعل الصواب ما أثبت - والله أعلم -.

(٢) زيادة من: ب.



ويستجيب مداومة ذلك في جميع الأوقات، على جميع الأحوال، فإن ذلك عبادة يسبق بها العامل وهو مستريح، وداع إلى عبادة الله ومعرفته، وعون على الخير، وكف اللسان عن الكلام الفحش.

﴿وسبحوه بكرة وأصيلاً﴾ أي: أول النهار وآخره، لفضلها وشرفها، وسهولة العمل فيها.

﴿هو الذي يصل عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ أي: من رحمته بالمؤمنين ولطفه بهم، أن جعل من صلاته عليهم وثنائه، وصلاة ملائكته ودعائهم، ما يخرجهم من ظلمات

الذنوب والجهل، إلى نور الإيمان والتوفيق والعلم والعمل، فهذه أعظم نعمة أنعم بها على العباد الطائعين، تستدعي منهم شكرها، والإكثار من ذكر الله، الذي لطف بهم ورحمهم، وجعل حلة عرشه أفضل الملائكة، ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا فيقولون: ﴿ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فأغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم﴾ \* ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آياتهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم \* وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم.

فهذه رحمته ونعمته عليهم في الدنيا.

وأما رحمته بهم في الآخرة، فأجل رحمة، وأفضل ثواب، وهو الفوز برضا ربهم ونجته، واستماع كلامه الجليل، ورؤية وجهه الجميل، وحصول الأجر الكبير، الذي لا يدري ولا يعرف كنهه، إلا من أعطاهم إياه، ولهذا قال: ﴿نحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً﴾.

﴿٤٥-٤٨﴾ ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً \*

وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً \* وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً \* ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾ هذه الأشياء التي وصف الله بها رسوله محمداً ﷺ، هي المقصود من رسالته وزيدتها وأصولها التي اختص بها، وهي خمسة أشياء: أحدها: كونه ﴿شاهداً﴾ أي: شاهداً على أمته بما عملوه من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿لنكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئناك على هزلاء شهداء﴾ ﴿فهو ﷺ شاهد عدل مقبول.

الثاني، والثالث: كونه ﴿مبشراً ونذيراً﴾ وهذا يستلزم ذكر المبشر والنذر، وما يبشر به وينذر، الموجه لذلك.

فالمبشر هم: المؤمنون المتقون، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، وترك المعاصي، لهم البشري في الحياة الدنيا، بكل ثواب دنيوي وديني، رتب على الإيمان والتقوى، وفي الآخرة بالنعيم المقيم.

وذلك كله يستلزم ذكر تفصيل المذكور، من تفاصيل الأعمال، وخصال التقوى، وأنواع الثواب.

والمُنذر، هم: المجرمون الظالمون، أهل الظلم والجهل، لهم النذارة في الدنيا، من العقوبات الدنيوية والدينية المرتبة على الجهل والظلم، وفي الآخرة، بالعقاب الويل، والمذاب الطويل.

وهذه الجملة تفصيلها، ما جاء به ﷺ من الكتاب والسنة، المشتمل على ذلك.

الرابع: كونه ﴿داعياً إلى الله﴾ أي: أرسله الله يدعو الخلق إلى ربهم، ويسوقهم<sup>(٢)</sup> لكرامته، ويأمرهم بعبادته التي خلقوا لها، وذلك يستلزم استقامته على ما يدعو إليه، وذكر تفاصيل ما يدعو إليه، بتعريفهم لربهم

ظاهره، أي: لا أبوة نسب، ولا أبوة ادعاء، وقد كان تقرر فيما تقدم أن الرسول ﷺ أب للمؤمنين كلهم، وأزواجه أمهاتهم، فاحتز أن يدخل في هذا النوع بعموم النهي المذكور، فقال: ﴿ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾ أي: هذه مرتبته مرتبة المطاع المتبوع، المهتدى به، المؤمن له، الذي يجب تقديم محبته على محبة كل أحد، الناصح الذي لهم، أي: للمؤمنين، من بره أو نصحه<sup>(١)</sup>، كأنه أب لهم.

﴿وكان الله بكل شيء عليماً﴾ أي: قد أحاط علمه بجميع الأشياء، ويعلم حيث يجعل رسالاته، ومن يصلح لفضله ومن لا يصلح.

﴿٤١-٤٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً \* وسبحوه بكرة وأصيلاً \* هو الذي يصل عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً \* نحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً﴾ يأمر تعالى المؤمنين بذكره ذكراً كثيراً، من تهليل وتحميد وتسبيح وتكبير وغير ذلك، من كل قول فيه قربة إلى الله، وأقل ذلك، أن يلازم الإنسان أرواد الصباح والمساء، وأديار الصلوات الخمس، وعند العوارض والأسباب.

(٢) في ب: يشوقهم.

(١) زيادة من: ب.

الطلاق بعد النكاح، فدل على أنه قبل ذلك لا محل له.

وإذا كان الطلاق الذي هو فرقة تامة وتحريم تام، لا يقع قبل النكاح، فالتحريم الناقص، لظهار أو إيلاء ونحوه، من باب أولى وأحرى، أن لا يقع قبل النكاح، كما هو أصح قولي العلماء.

ويدل على جواز الطلاق، لأن الله أخبر به عن المؤمنين، وعلى وجه لم يلهمهم عليه ولم يؤنيهم، مع تصدير الآية بخطاب المؤمنين.

وعلى جوازه قبل المسيس، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن﴾ وعلى أن المطلقة قبل الدخول لا عدة عليها، بل بمجرد طلاقها يجوز لها التزوج، حيث لا مانع، وعلى أن عليها العدة بعد الدخول.

وهل المراد بالدخول والخسيس الوطء، كما هو مجمع عليه؟ أو وكذلك الخلو، ولو لم يحصل معها وطء، كما أفتى بذلك الخلفاء الراشدون، وهو الصحيح. فمن دخل عليها، وطئها أم لا، إذا خلاها، وجب عليها العدة.

وعلى أن المطلقة قبل المسيس تمتع على الموسع قدره، وعلى المقتر قدره، ولكن هذا إذا لم يفرض لها مهر، فإن كان لها مهر مفروض، فإنه إذا طلق قبل الدخول تنصّف المهر، وكفى عن المتعة، وعلى أنه ينبغي لمن فارق زوجته قبل الدخول أو بعده، أن يكون الفراق جيلاً، يحمّد فيه كل منهما الآخر.

ولا يكون غير جميل، فإن في ذلك من الشر المرتب عليه، من قدح كل منهما بالآخر شيء كثير.

وعلى أن العدة حق للزوج، لقوله: ﴿فما لكم عليهن من عدة﴾ دل مفهومه، أنه لو طلقها بعد المسيس، كان له عليها عدة أو على أن المفارقة

يستعينون على سلوك الصراط المستقيم، وهذا من جملة حكم الشرع، كما أن من حكمه، أن يذكر في مقام الترهيب، العقوبات المرتبة على ما يرهّب منه، ليكون عوناً على الكف عما حرّم الله.

ولما كان ثمّ طائفة من الناس، مستعدة للقيام بصد الداعين إلى الله من الرسل وأتباعهم، وهم المنافقون، الذين أظهروا الموافقة في الإيمان، وهم كفرة فجرة في الباطن، والكفار ظاهراً وباطناً، نهي الله رسوله عن طاعتهم، وحذره ذلك، فقال: ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ أي: في كل أمر يصد عن سبيل الله، ولكن لا يقتضي هذا أذاهم، لبل لا تطعمهم ﴿ودع أذاهم﴾<sup>(٢٢)</sup> فإن ذلك جالب لهم، وداع إلى قبول الإسلام، وإلى كف كثير من أذيتهم له ولأهله، ﴿وتوكل على الله﴾ في إتمام أمرك، وخذلان عدوك، ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ وتوكل إليه الأمور المهمة، فيقوم بها ويسهلها على عبده.

﴿٤٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فتموهن وسرحوهن سراحاً جيلاً﴾ يخبر تعالى المؤمنين، أنهم إذا نكحوا المؤمنات، ثم طلقوهن من قبل أن يمسوهن، فليس عليهن في ذلك عدة يعتدنها<sup>(٢٣)</sup> أزواجهن عليهن، وأمرهم بتمتعيهن<sup>(٢٤)</sup> بهذه الحالة، بشيء من متاع الدنيا، الذي يكون فيه جبر خفاطهم، لأجل فراقهن، وأن يفارقوهن فراقاً جيلاً، من غير خصاصة ولا مشاقمة ولا مطالية، ولا غير ذلك.

ويستدل بهذه الآية، على أن الطلاق لا يكون إلا بعد النكاح. فلو طلقها قبل أن ينكحها، أو علق طلاقها على نكاحها، لم يقع، لقوله: ﴿إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن﴾ فعمل

بصفاته القدسة، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، وذكر أنواع العبودية، والدعوة إلى الله بأقرب طريق موصل إليه، وإعطاء كل ذي حق حقه، وإخلاص الدعوة إلى الله، لا إلى نفسه وتعظيمها، كما قد يعرض ذلك لكثير من النفوس في هذا المقام، وذلك كله بإذن الله تعالى له في الدعوة وأمره وإرادته وقدره.

الخامس: كونه ﴿سراجاً منيراً﴾ وذلك يقتضي أن الخلق في ظلمة عظيمة، لا نور يتبدى به في ظلماتها، ولا علم يستدل به في جهالاتها<sup>(٢٥)</sup>، حتى جاء الله بهذا النبي الكريم، فأضاء الله به تلك الظلمات، وعلم به من الجهالات، وهدى به ضلالاً إلى الصراط المستقيم.

فأصبح أهل الاستقامة قد وضع لهم الطريق، فمشوا خلف هذا الإمام وعرفوا به الخير والشر، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، واستأروا به لمعرفة معبودهم، وعرفوه بأوصافه الحميدة، وأفعاله السديدة، وأحكامه الرشيدة.

وقوله: ﴿ويُسرّ المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً﴾ ذكر في هذه الجملة البشر، وهم المؤمنون، وعند ذكر الإيمان بمفرده، تدخل فيه الأعمال الصالحة.

وذكر البشر به، وهو الفضل الكبير، أي: العظيم الجليل، الذي لا يقادر قدره، من النصر في الدنيا، وهداية القلوب، وغفران الذنوب، وكشف الكرب، وكثرة الأرزاق الدائرة، وحصول النعم السارة، والفوز برضا ربهم وثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه.

وهذا مما ينشط العاملين، أن يذكر لهم من ثواب الله على أعمالهم، ما به

(١) كذا في ب، وفي أ: جهاتها.

(٢) زيادة من: ب.

(٣) كذا في السخين ولعل الصواب تعددا.

(٤) كذا في ب، وفي أ: بنمنهن.

يزل متصفاً بالمغفرة والرحمة، وينزل على عباده من مغفرته ورحمته وجوده وإحسانه، ما اقتضته حكمته، ووجدت منهم أسبابه.

﴿٥١﴾ ﴿ترجي من تشاء منهم وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليماً حليماً﴾ وهذا أيضاً من توسعة الله على رسوله ورحمته به، أن أباح له ترك القسم بين زوجاته على وجه الوجوب، وأنه إن فعل ذلك فهو تبرع منه، ومع ذلك، فقد كان ﷺ يجتهد في القسم بينهن في كل شيء، ويقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك».

فقال هنا: ﴿ترجي من تشاء منهم﴾ [أي: تؤخر من أردت من زوجاتك فلا تؤويها إليك، ولا تبئت عندها] ﴿٥١﴾، ﴿وتؤوي إليك من تشاء﴾ أي: تضمها وتبئت عندها.

﴿و﴾ مع ذلك لا يتعين هذا الأمر ﴿من ابتغيت﴾ أي: تؤويها ﴿فلا جناح عليك﴾ والمعنى أن الخيرة بيدك في ذلك كله [وقال كثير من المفسرين إن هذا خاصٌ بالوهابات له أن يرجي من يشاء ويؤوي من يشاء، أي: إن شاء قبل من وهبت نفسها له وإن شاء لم يقبلها والله أعلم] ﴿٥١﴾.

ثم بين الحكمة في ذلك فقال: ﴿ذلك﴾ أي: التوسعة عليك، وكون الأمر راجعاً إليك وبيدك، وكون ما جاء منك إليهن تبرعاً منك ﴿أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتن كلهن﴾ لعلمهن أنك لم تترك واجبا، ولم تفرط في حق لادم.

النساء، فإنه لا يباح من الأقارب من النساء، غير هؤلاء الأربع، وما عداهن من الفروع مطلقاً، والأصول مطلقاً، وفروع الأب والأم، وإن نزلوا، وفروع من فوقهم لصلبه، فإنه لا يباح.

وقوله: ﴿اللاتي هاجرن معك﴾ قيد لحل هؤلاء للرسول، كما هو الصواب من القولين في تفسير هذه الآية، وأما غيره عليه الصلاة والسلام، فقد علم أن هذا قيد لغير الصحة.

﴿و﴾ أحللتنا لك ﴿امرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي﴾ بمجرد هبتها نفسها.

﴿إن أراد النبي أن يستنكحها﴾ أي: هذا تحت الإرادة والرغبة، ﴿خالصة لك من دون المؤمنين﴾ يعني: بإباحة أن يتزوجوا امرأة بمجرد هبتها نفسها لهم.

﴿قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم﴾ أي: قد علمنا ما على المؤمنين، وما يحل لهم، وما لا يحل من الزوجات وملك اليمين. وقد علمناهم بذلك، وبيننا فرائضه.

فما في هذه الآية، مما يخالف ذلك، فإنه خاص لك، لكون الله جعله خطاباً للرسول وحده بقوله: ﴿يا أيها النبي إنا أحللتنا لك﴾ إلى آخر الآية.

وقوله: ﴿خالصة لك من دون المؤمنين﴾ وأباحت لك يا أيها النبي ما لم نبح لهم، ووسعنا لك ما لم نوسع على غيرك، ﴿لكيلا يكون عليك حرج﴾ وهذا من زيادة اعتناء الله تعالى برسوله ﷺ.

﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي: لم

بالوفاء تعتد مطلقاً لقوله: ﴿ثم طلقتموهن﴾ الآية ﴿٥١﴾.

وعلى أن من عدا غير المدخول بها، من الفارقات من الزوجات، بموت أو حياة، عليهن العدة.

﴿٥٠﴾ ﴿يا أيها النبي إنا أحللتنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما آفاه الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً رحيماً﴾ يقول تعال، تمتنا على رسوله بإحلاله له ما أحل مما يشترك هو والمؤمنون، وما يفرد به ويختص: ﴿يا أيها النبي إنا أحللتنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن﴾ أي: أعطيتهن مهرهن، من الزوجات، وهذا من الأمور المشتركة بينه وبين المؤمنين [فإن المؤمنين] ﴿٥٠﴾، كذلك يباح لهم ما [٥١] أتوهن أجورهن من الأزواج.

﴿و﴾ كذلك أحللتنا لك ﴿وما ملكت يمينك﴾ أي: الإماء التي ملكت ﴿مما آفاه الله عليك﴾ من غنيمة الكفار من عبيدهم، والأحرار من لهن زوج منهم، ومن لا زوج لهن، وهذا أيضاً مشترك.

وكذلك من المشترك، قوله: ﴿وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك﴾ شمل العم والعمة، والخال والخالة، القريبين والبعيدين، وهذا حصر المحللات.

يؤخذ من مفهومه أن ما عداهن من الأقارب غير محلل، كما تقدم في سورة

(١) زيادة من: ب.

(٢) زيادة من: ب.

(٣) كذا في أ، وفي ب: من.

(٤) في ب: الموهوبة.

(٥) زيادة من ب.

(٦) زيادة من هامش (ب) وفي بعض الكلمات عدم وضوح وتم تصويبها من طبعة السلفية.

«والله يعلم ما في قلوبكم» أي: ما يعرض لها عند أداء الحقوق الواجبة والمستحبة، وعند المزاومة في الحقوق، فلذلك شرع لك التسوسمة يا رسول الله، لتطمئن قلوب زوجاتك.

«وكان الله عليمًا حلِيمًا» أي: واسع العلم، كثير الحلم. ومن علمه، أن شرع لكم ما هو أصح لأموركم، وأكثر لأجوركم. ومن حلمه، أن لم يعاقبكم بما صدر منكم، وما أصرت عليه قلوبكم من الشر.

﴿٥٢﴾ «لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيبًا» وهذا شكر من الله، الذي لم يزل شكورًا للزوجات رسوله، رضي الله عنهن، حيث اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، أن رحمن، وقصر رسوله عليهن، فقال: «لا يحل لك النساء من بعد» زوجاتك الموجودات «ولا أن تبدل بهن من أزواج» أي: ولا تطلق بعضهن، فتأخذ بدلها.

فحصل بهذا أمنهن من الضرائر، ومن الطلاق، لأن الله قضى أنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، لا يكون بينه وبينهن فرقة.

«ولو أعجبك حسنهن» أي: حسن غيرهن، فلا يحل لك «إلا ما ملكت يمينك» أي: السراي، فذلك جائز لك، لأن المملوكات في كراهة الزوجات، لسن بمنزلة الزوجات في الإضرار للزوجات. «وكان الله على كل شيء رقيبًا» أي: مراقبًا للأمر، وعالمًا بما إليه تزول، وقائمًا بتدبيرها على أكمل نظام وأحسن إحكام.

﴿٥٣ - ٥٤﴾ «يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤدي

النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهم وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدًا إن ذلكم كان عند الله عظيمًا \* إن تبدوا شيئًا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليمًا» يأمر تعالى عباده المؤمنين بالتأدب مع رسول الله ﷺ في دخول بيوته، فقال: «يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام» أي: لا تدخلوها بغير إذن للدخول فيها لأجل الطعام. وأيضاً لا تكونوا «ناظرين إناه» أي: منتظرين ومتأنين لانتظار نضجه، أو سعة صدر بعد الفراغ منه. والمعنى: أنكم لا تدخلوا بيوت النبي إلا بشرطين:

الإذن لكم بالدخول، وأن يكون جلوسكم بمقدار الحاجة، ولهذا قال: «ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث» أي: قبل الطعام وبعده.

ثم بين حكمة النهي وفائدته فقال: «إن ذلكم» أي: انتظاركم الزائد على الحاجة، «كان يؤدي النسيء» أي: يتكلف منه ويشق عليه حبسكم إياه عن شؤون بيته، واشتغاله فيه «فيستحي منكم» أن يقول لكم: «اخرجوا» كما هو جاري العادة، أن الناس - وخصوصاً أهل الكرم منهم - يستحيون أن يخرجوا الناس من مساكنهم، «و» لكن «الله لا يستحي من الحق».

فالأمر الشرعي، ولو كان يتوهم أن في تركه أدباً وحياءً، فإن الحزم كل الحزم، اتباع الأمر الشرعي، وأن يجزم أن ما خالفه ليس من الأدب في شيء. والله تعالى لا يستحي أن يأمركم بما فيه الخير لكم، والرفق لرسوله كائنًا ما كان.

فهذا أدبهم في الدخول في بيوته،

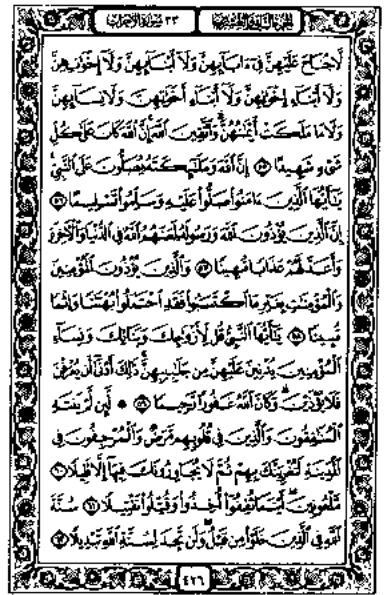
«من من شأنه يشهد ويحيا بالدين من شأنه ولا يشهد ولا يحيا» وكان ذلك أدباً لا يشهد ولا يحيا ولا يشهد ولا يحيا» «يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان عند الله عظيمًا \* إن تبدوا شيئًا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليمًا» يأمر تعالى عباده المؤمنين بالتأدب مع رسول الله ﷺ في دخول بيوته، فقال: «يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام» أي: لا تدخلوها بغير إذن للدخول فيها لأجل الطعام. وأيضاً لا تكونوا «ناظرين إناه» أي: منتظرين ومتأنين لانتظار نضجه، أو سعة صدر بعد الفراغ منه. والمعنى: أنكم لا تدخلوا بيوت النبي إلا بشرطين:

وأما أدبهم معه في خطاب زوجاته، فإنه إما أن يحتاج إلى ذلك، أم لا يحتاج إليه، فإن لم يحتاج إليه فلا حاجة إليه، والأدب تركه، وإن احتج إليه، كان يُسألن متاعاً، أو غيره من أواني البيت أو نحوها، فإنهن يُسألن «من وراء حجاب» أي: يكون بينكم وبينهن ستر يستر عن النظر، لعدم الحاجة إليه.

فصار النظر إليهن ممنوعاً بكل حال، وكلامهن فيه التفصيل الذي ذكره الله، ثم ذكر حكمة ذلك بقوله: «ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهم» لأن أبعاد عن الريبة، وكلما بعد الإنسان عن الأسباب الداعية إلى الشر، فإنه أسلم له، وأطهر لقلبه.

فلهذا، من الأمور الشرعية التي بين الله كثيراً من تفاصيلها، أن جميع وسائل الشر وأسبابه ومقدماته ممنوعة، وأنه مشروع البعد عنها بكل طريق.

ثم قال كلمة جامعة وقاعدة عامة: «وما كان لكم» يا معشر المؤمنين، أي: غير لائق ولا مستحسن منكم، بل هو أقبح شيء «أن تؤذوا رسول الله» أي: أذية قولية أو فعلية، بجميع ما يتعلق به، «ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدًا» هذا من جملة ما يؤديه، فإنه ﷺ له مقام التعظيم والرفعة والإكرام، ونزوح زوجاته



[بعده] <sup>(١)</sup> نحل هذا المقام.

وأيضاً، فإنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، والزوجية باقية بعد موته، فلذلك لا يحل نكاح زوجاته بعده لأحد من أمته. **﴿إن ذلكم كان عند الله عظيماً﴾** وقد امتثلت هذه الأمة هذا الأمر، واجتنبت ما نهى الله عنه منه، والله الحمد والشكر.

ثم قال تعالى: **﴿إن تبدوا شيئاً﴾** أي: تظهروه **﴿أو تخفوه﴾** فإن الله كان بكل شيء عليماً **﴿يعلم ما في قلوبكم وما أظهرتموه، فيجازيكم عليه﴾**.

**﴿٥٥﴾ ﴿لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا نساءهن ولا ما ملكت أيمانهن واثقين الله إن الله كان على كل شيء شهيداً﴾** لما ذكر أمهن لا يسألن متاعاً إلا من وراء حجاب، وكان اللفظ عاماً [لكل أحد] <sup>(٢)</sup>، احتيج أن يستثنى منه هؤلاء المذكورون من المحارم، وأنه **﴿لا جناح عليهن﴾** في عدم الاحتجاب عنهم.

ولم يذكر فيها الأعمام والأخوال، لأنهن إذا لم يحتجبن عنهن عماتهن ولا <sup>(٣)</sup> خالاتهن، من أبناء الإخوة والأخوات، مع رفعتهن عليهم، فعدم

احتجابهن عن عمهن وخالهن من باب أولي، ولأن منطوق الآية الأخرى، المصرحة بذكر العم والخال مقدمة، على ما يفهم من هذه الآية.

وقوله: **﴿ولا نساءهن﴾** أي: لا جناح عليهن ألا يحتجبن عن نساءهن، أي: اللاتي من جنسهن في الدين، فيكون ذلك مخرجاً لنساء الكفار، ويحتمل أن المراد جنس النساء، فإن المرأة لا تحتجب عن المرأة. **﴿ولا ما ملكت أيمانهم﴾** ما دام العبد في ملكها جميعه.

ولما رفع الجناح عن هؤلاء، شرط فيه وفي غيره لزوم تقوى الله، وأن لا يكون في محذور شرعي، فقال: **﴿واثقين الله﴾** أي: استعملن تقواه في جميع الأحوال **﴿إن الله كان على كل شيء شهيداً﴾** يشهد أعمال العباد، ظاهرها وباطنها، ويسمع أنوالهم، ويرى حركاتهم، ثم يجازيم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

**﴿٥٦﴾ ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾** وهذا فيه تنبيه على كمال رسول الله ﷺ، ورفعة درجته، وعلو منزلته عند الله وعند خلقه، ورفع ذكره. و **﴿إن الله﴾** تعال **﴿وملائكته يصلون﴾** عليه، أي: يشني الله عليه بين الملائكة، وفي الملائكة الأعلى، لمحبتته تعالى له، وتثني عليه الملائكة المقربون، ويدعون له ويتضرعون.

**﴿يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾** اقتداء بالله وملائكته، وجزاء له على بعض حقوقه عليكم، وتكميلاً لإيمانكم، وتعظيماً له ﷺ، ومحبة وإكراماً، وزيادة في حسناتكم، وتكفيراً من سيئاتكم وأفضل هبات الصلاة عليه عليه الصلاة والسلام، ما علم به أصحابه: **﴿اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد**

مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وهذا الأمر بالصلاة والسلام عليه مشروع في جميع الأوقات، وأوجه كثير من العلماء في الصلاة.

**﴿٥٧﴾ - ﴿٥٨﴾ ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً﴾** والذي يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً، لما أمر تعالى بتعظيم رسوله ﷺ، والصلاة والسلام عليه، نهى عن أذيته، وتوعد عليها فقال: **﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله﴾** وهذا يشمل كل أذية، قولية أو فعلية، من سب وشتم، أو تنقص له أو لدينه، أو ما يعود إليه بالأذى. **﴿لعنهم الله في الدنيا﴾** أي: أبعدهم وطردهم، ومن لعنهم [في الدنيا] <sup>(٤)</sup>، أنه يحتم قتل من شتم الرسول ﷺ وآذاه.

**﴿والآخرة وأعد لهم عذاباً اليماً﴾** جزاء له على آذاه، أن يؤذى بالعذاب الاليم، فآذية الرسول ليست كآذية غيره، لأنه - ﷺ - لا يؤمن العبد بالله، حتى يؤمن برسوله ﷺ. وله من التعظيم الذي هو من لوازم الإيمان، ما يقتضي ذلك أن لا يكون مثل غيره.

وإن كانت آذية المؤمنين عظيمة، وإثمها عظيماً، ولهذا قال فيها: **﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا﴾** أي: بغير جنابة منهم موجبة للأذى **﴿فقد احتملوا﴾** على ظهورهم **﴿بهتاناً﴾** حيث آذوهم بغير سبب **﴿وإثماً مبيناً﴾** حيث تعدوا عليهم، وانتهكوا حرمة أمر الله باحترامها.

ولهذا كان سب آحاد المؤمنين موجباً للتعزير، بحسب حالته وعلو مرتبته، فتعزير من سب الصحابة أبلغ، وتعزير من سب العلماء وأهل الدين أعظم من غيرهم.

**﴿٥٩﴾ - ﴿٦٢﴾ ﴿يا أيها النبي قل**

(١) زيادة من: ب. (٢) زيادة من: ب. (٣) في ب: بدون (لا) وهو الأقرب. (٤) في ب: يتحتم.

لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدينن عليهن من جلابيهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذنين وكان الله غفوراً رحيماً \* لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً \* ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً \* سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً \* هذه الآية التي تسمى آية الحجاب، فأمر الله نبيه أن يأمر النساء عموماً، ويبدأ بزوجاته وبناته، لأنهن أكد من غيرهن، ولأن الأمر [لغيره]<sup>(١)</sup> ينبغي أن يبدأ بأهله قبل غيرهم، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا﴾.

أن «يدينن عليهن من جلابيهن» وهن اللاتي يكن فوق الثياب من ملحفة وخمار ورداء ونحوه، أي: يغطين بها وجوههن وصدورهن.

ثم ذكر حكمة ذلك، فقال: ﴿ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذنين﴾ دل على وجود أدنية إن لم يحتججن، وذلك لأنهن إذا لم يحتججن، ربما ظن أنهن غير عفيفات، فيتعرض لهن من في قلبه مرض فيؤذنين، وربما استهين بهن، وظن أنهن إماء، فتهاون بهن من يريد الشر. فالاحتجاب حاسم لمطامع الطامعين فيهن.

﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ حيث غفر لكم ما سلف ورحمكم، بأن بين لكم الأحكام، وأوضح الحلال والحرام، فهذا سد للباب من جهتهن.

وأما من جهة أهل الشر فقد توعدهم بقوله: ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض﴾ أي: مرض شك أو شهوة والمرجفون في المدينة أي: المخوفون المرهبون الأعداء، المحدثون<sup>(٢)</sup> بكثرتهم وقوتهم، وضعف

المسلمين:

ولم يذكر المعمول الذي ينتهون عنه، ليعم ذلك كل ما توحى به أنفسهم إليهم وتوسوس به وتدعو إليه من الشر، من التعريض بسبب الإسلام وأهله، والإرجاف بالمسلمين، وتوهين قواهم، والتعرض للمؤمنات بالسوء والفاحشة، وغير ذلك من المعاصي الصادرة من أمثال هؤلاء.

﴿لنغرينك بهم﴾ أي: نامرك بعقوبتهم وقتالهم، ونسلطك عليهم، ثم إذا فعلنا ذلك، لا طاقة لهم بك، وليس لهم قوة ولا امتناع، ولهذا قال: ﴿ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً﴾ أي: لا يجاورونك في المدينة إلا قليلاً، بأن تقتلهم أو تنفيهم.

وهذا فيه دليل لنفي أهل الشر، الذين يتضرر بإقامتهم بين أظهر المسلمين، فإن ذلك أحسم للشر وأبعد منه، ويكفونون «ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً» أي: مبعدين أين «وجدوا، لا يحصل لهم أمن، ولا يقر<sup>(٣)</sup> لهم قرار، يخشون أن يقتلوا، أو يجسوا، أو يعاقبوا.

﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل﴾ أن من تمادى في العصيان، وتمجرأ على الأذى، ولم ينته منه، فإنه يعاقب عقوبة بليغة. ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ أي: تغييراً، بل سنة الله تعالى وعادته جارية مع الأسباب المقتضية لأسبابها<sup>(٤)</sup>.

﴿٦٣ - ٦٨﴾ ﴿يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً﴾ إن الله لمن الكافرين وأعد لهم سعيراً \* خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً \* يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول \* وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا

بنتك التي تحب الساعة قل إنما علمها عند الله ولا يدريك لعل الساعة تكون قريباً ﴿٦٣﴾ ﴿إن الله لمن الكافرين وأعد لهم سعيراً﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ ﴿٦٨﴾

وكبراءنا فاضلونا السيلاً \* ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً﴾ أي: يستخبرك الناس عن الساعة استعجالاً لها، وبعضهم تكذيباً لوقوعها، وتعجيزاً للذي أخير بها. ﴿قل﴾ لهم: ﴿إنما علمها عند الله﴾ أي: لا يعلمها إلا الله، فليس لي ولا لغيري بها علم، ومع هذا، فلا<sup>(٥)</sup> تستبطؤوها.

﴿وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً﴾ ومجرد مجيء الساعة، قريباً وبعداً، ليس تحته نتيجة ولا فائدة، وإنما النتيجة والخسار والريح، والشقا<sup>(٦)</sup> والسعادة، هل يستحق العبد العذاب، أو يستحق الثواب؟ فهذه سأخبركم بها، وأصف لكم مستحقها.

فوصف مستحق العذاب، ووصف العذاب، لأن الوصف المذكور منطبق على هؤلاء المكذبين بالساعة، فقال: ﴿إن الله لعن الكافرين﴾ [أي: <sup>(٨)</sup> الذين صار الكفر دأبهم وطريقتهم الكفر بالله وبرسوله، وبما جازوا به من عند الله، فأبعدهم في الدنيا والآخرة من رحمته، وكفى بذلك عقاباً، وأعد لهم سعيراً﴾ أي: ناراً موقدة، تسمر

(٦) كذا في ب، وفي أ: قد.

(٧) في ب: والشقاوة.

(٨) زيادة من: ب.

(٤) كذا في ب، وفي أ: ولا يقر.

(٥) كذا في النسختين ولعله والله أعلم المقتضية لمسيباتها.

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) في ب: المتحدثون.

(٣) في ب: حيث.



القول الموافق للصواب، أو المقارب له عند تعذر اليقين، من قراءة، وذكر، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وتعلم علم وتعليمه، والحرص على إصابة الصواب، في المسائل العلمية، وسلوك كل طريق موصل لذلك، وكل وسيلة تعين عليه.

ومن القول السديد، لين الكلام ولطفه في مخاطبة الأنام، والقول المتضمن للنصح والإشارة بما هو الأصلح.

ثم ذكر ما يترتب على تقواه، وقول القول السديد فقال: **﴿يصلح لكم أعمالكم﴾** أي: يكون ذلك سبباً لصلاحها وطريقاً لقبولها، لأن استعمال التقوى، تتقبل به الأعمال كما قال تعالى: **﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾**.

ويوق فيه الإنسان للعمل الصالح، ويصلح الله الأعمال [أيضاً] بحفظها عما يفسدها، وحفظ ثوابها ومضاعفتها، كما أن الإخلال بالتقوى والقول السديد، سبب لفساد الأعمال وعدم قبولها، وعدم ثمرتها آثارها عليها.

**﴿ويغفر لكم﴾** أيضاً **﴿ذنوبكم﴾** التي هي السبب في هلاككم، فالتقوى تستقيم بها الأمور، ويندفع بها كل عذور ولهذا قال: **﴿ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾**

**﴿٧٢-٧٣﴾** **﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾** ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً **﴿يعظم تعالى شأن الأمانة التي اتتمن الله عليها المكلفين، التي هي امتثال الأوامر، واجتناب المحارم، في حال السر والخفية، كحال العلانية، وأنه**

مستحقون للعقاب، أرادوا أن يشتفوا عن أصلوهم، فقالوا: **﴿ربنا أتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيراً﴾** فيقول الله لكل ضعف، فكلكم اشتركتم في الكفر والمعاصي، فتشتركون في العقاب، وإن تفاوت عذاب بعضكم على بعض بحسب تفاوت الجرم.

**﴿٦٩﴾** **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً﴾** يحذر تعالى عباده المؤمنين عن أذية رسولهم محمد ﷺ، النبي الكريم، الرؤوف الرحيم، فيقابلوه بضد ما يجب له من الإكرام والاحترام، وأن لا يتشبهوا بحال الذين آذوا موسى بن عمران، كلیم الرحمن، فبرأه الله مما قالوا من الأذية، أي: أظهر الله لهم براءته.

والحال أنه عليه الصلاة والسلام، ليس محل التهمة والأذية، فإنه كان وجيهاً عند الله، مقرباً لديه، من خواص المرسلين، ومن عباده المخلصين، فلم يجرهم ما له من الفضائل عن أذيته والتعرض له بما يكره، فاحذروا أيها المؤمنون، أن تتشبهوا بهم في ذلك، والأذية المشار إليها هي قول بني إسرائيل لموسى <sup>(١)</sup> لما رأوا شدة حياته وتستره عنهم: **﴿إنه ما يمنعه من ذلك إلا أنه أدره﴾** أي: كبير الخصيتين، واشتهر ذلك عندهم، فأراد الله أن يبرئه منهم، فاغسل يوماً، ووضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه، فأمر موسى عليه السلام في طلبه، فمزمه على مجالس بني إسرائيل، فزأوه أحسن خلق الله، فزال عنه ما رموه به.

**﴿٧٠-٧١﴾** **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً﴾** يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً **﴿يأمر تعالى المؤمنين بتقواه، في جميع أحوالهم، في السر والعلانية، ويخص منها، ويندب للقول السديد، وهو**



في أحاسنهم، ويبلغ العذاب إلى أفئدتهم، ويخلدون في ذلك العذاب الشديد، فلا يخرجون منه، ولا يفتر عنهم ساعة.

ولا يمدون لهم ولياً فيعطيهم ما طلبوه **﴿ولا نصيراً﴾** يدفع عنهم العذاب، بل قد تحل عنهم الولي والنصير، وأحاط بهم عذاب السمير، وبلغ منهم مبلغاً عظيماً، ولهذا قال: **﴿يوم تقلب وجوههم في النار﴾** فيذوقون حرها، ويشتد عليهم أمرها، ويتحسرون على ما أسلفوا.

**﴿يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول﴾** فسلمنا من هذا العذاب، واستحققتنا كالمطيعين جزيل الثواب. ولكن أمنية فات وقتها، فلم تقدم إلا حسرة وندماً، وهماً، وغناً، والمأ.

**﴿وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءتنا﴾** وقلدناهم على ضلالهم، **﴿فأضلونا السبيلاً﴾**

كقوله تعالى: **﴿ويوم بعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً﴾** يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً **﴿لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني﴾** الآية.

ولما علموا أنهم هم وكبراءهم





من الشرك، والزنا، والربا، والظلم في الدعاء والأموال والأعراض.

وهذه متقبة لأهل العلم وفضيلة، وعلامة لهم، وأنه كلما كان العبد أعظم علماً وتصديقاً بأخبار ما جاء به الرسول، وأعظم معرفة بحكم أوامره ونواهي، كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجة على ما جاء به الرسول، احتج الله بهم على المكذبين المعاندين، كما في هذه الآية وغيرها.

﴿٧-٩﴾ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينتكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد \* أفترى على الله كذباً أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد \* أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء إن في ذلك لآية لكل عبد منيب \* أي: ﴿وقال الذين كفروا﴾ على وجه التكذيب والاستهزاء والاستبعاد، وذكر وجه الاستبعاد.

أي: قال بعضهم لبعض: ﴿هل ندلكم على رجل ينتكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد﴾ يعنون بذلك الرجل، رسول الله ﷺ، وأنه رجل أتى بما يستغرب منه، حتى صار - بزعمهم - فرجة يتفرجون عليه، وأعجوبة يستخرون منه، وأنه كيف يقول: ﴿إنكم مبعوثون﴾ بعدما مزقكم البلي، وتفرقت أوصالكم، واضمحلتم أعضاؤكم؟! فهذا الرجل الذي يأتي بذلك، هل ﴿أفترى على الله كذباً﴾ فتجراً عليه وقال ما قال، ﴿أم به جنة﴾؟ فلا يستغرب منه، فإن الجنون فتون، وكل هذا منهم، على وجه العناد والظلم، ولقد علموا أنه أصدق خلق الله وأعظمهم، ومن علمهم، أنهم أبدوا وأعادوا في معاداتهم، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في صد الناس عنه، فلو كان كاذباً مجنوناً لم ينبغ لكم

لإيمانهم. ﴿أولئك لهم مغفرة﴾ لذنوبهم، بسبب إيمانهم وعملهم، يندفع بها كل شر وعقاب. ﴿ورزق كريم﴾ بإحسانهم، يحصل لهم به كل مطلوب ومرغوب وأمنية.

﴿والذين سمعوا في آياتنا معاجزين﴾ أي: سمعوا فيها كفرةً بها، وتمجيزاً لمن جاء بها، وتمجيزاً لمن أنزلها، كما عجزوه في الإعادة بعد الموت. ﴿أولئك لهم عذاب من رجز اليم﴾ أي: مؤلم لأبدانهم وقلوبهم.

﴿٦﴾ ﴿ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾ لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث، وأنهم يرون ما أنزل على رسوله ليس بحق، ذكر حالة الموقنين من العباد، وهم أهل العلم، وأنهم يرون ما أنزل الله على رسوله من الكتاب، وما اشتمل عليه من الأخبار هو الحق، أي: الحق منحصر فيه، وما خالفه وناقضه فإنه باطل، لأنهم وصلوا من العلم إلى درجة اليقين.

ويرون أيضاً أنه في أوامره ونواهي ﴿يهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾ وذلك أنهم جزموا بصدق ما أخبر به من وجهه كثيرة: من جهة علمهم بصدق من أخبر به، ومن جهة موافقته للأمر الواقعة، والكتب السابقة، ومن جهة ما يشاهدون من أخبارها، التي تقع عياناً، ومن جهة ما يشاهدون من الآيات العظيمة الدالة عليها في الآفاق وفي أنفسهم ومن جهة موافقتها لما دلت عليه أسماؤه تعالى وأوصافه.

ويرون في الأوامر والنواهي، أنها تهدي إلى الصراط المستقيم، المتضمن للأمر بكل صفة تزكي النفس، وتنمي الأجر، وتفيد العامل وغيره، كالصدق، والإخلاص، ورسر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى عموم الخلق، ونحو ذلك. وتنتهي عن كل صفة قبيحة، تدنس النفس، وتغبط الأجر، وتوجب الإثم والوزر،

فأمر الله رسوله أن يرد قولهم ويطلبه، ويقسم على البعث، وأنه سيأتيهم، واستدل على ذلك بدليل من أمر به، لزمه أن يصدق بالبعث ضرورة، وهو علمه تعالى الواسع العام، فقال: ﴿عالم الغيب﴾ أي: الأمور الغائبة عن أبصارنا وعن علمنا، فكيف بالشهادة؟! ثم أكد علمه فقال: ﴿لا يغرب﴾ أي: لا يغيب عن علمه ﴿مشقال ذرة في السموات ولا في الأرض﴾ أي: جميع الأشياء بذواتها وأجزائها، حتى أصغر ما يكون من الأجزاء، وهو المثاقيل منها.

﴿ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾ أي: قد أحاط به علمه، وجرى به قلمه، وتضمنه الكتاب المبين، الذي هو اللوح المحفوظ، فالذي لا يخفى عن علمه مشقال الذرة فما دونه، في جميع الأوقات، ويعلم<sup>(١)</sup> ما تنقص الأرض من الأموات، وما يبقى من أجسادهم، قادر على بعثهم، من باب أول، وليس بعثهم بأعجب من هذا العلم المحيط.

ثم ذكر المقصود من البعث، فقال: ﴿ليجزى الذين آمنوا﴾ بفلوهم، صدقوا الله، وصدقوا رسوله تصديقاً جازماً، ﴿وعملوا الصالحات﴾ تصديقاً

(١) كذا في ب، وفي أ: وعلم.

لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون؟

ولما ذكر ما امتنن به عليه وعلى آله، أمره بشكوره، وأن يعملوا صالحاً، ويراقبوا الله تعالى فيه، بإصلاحه وحفظه من المفسدات، فإنه بصير بأعمالهم، مطلع عليهم، لا يخفى عليه منها شيء.

﴿١٢ - ١٤﴾ وللسليمان الريح

غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير \* يعملون له ما يشاء من محارب وثمانيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعلموا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور \* فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبئت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين \* لما ذكر فضله على داود عليه السلام، ذكر فضله على ابنه سليمان عليه الصلاة والسلام، وأن الله سخر له الريح تجري بأمره وتخمله، وتحمل جميع ما معه، وتقطع المسافة البعيدة جداً في مدة يسيرة، فتسير في اليوم مسيرة شهرين. ﴿غدوها شهر﴾ أي: أول النهار إلى الزوال ﴿ورواحها شهر﴾ من الزوال، إلى آخر النهار ﴿وأسلنا له عين القطر﴾ أي: سخرنا له عين النحاس، وسهلنا له الأسباب في استخراج ما يستخرج منها من الأواني وغيرها.

وسخر الله له أيضاً الشياطين والجن، لا يقدر أن يستعصوا عن أمره، ﴿ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير﴾ وأعمالهم<sup>(١)</sup>، كل ما شاء سليمان عملوه، ﴿من محارب﴾ وهو كل بناء يعقد وتحكم به، الابنية، فهذا فيه ذكر الابنية الفخمة، ﴿وثمانيل﴾ أي: صور الحيوانات والجمادات، من إتقان صنعتهن،

لأن النبي مقبل إلى ربه، قد توجهت إراداته وهماته لربه، ورجع إليه في كل أمر من أموره، فصار قريباً من ربه، ليس له هم إلا الاشتغال بمرضاته، فيكون نظره للمخلوقات نظر فكرة وعبرة، لا نظر غفلة غير نافلة.

﴿١٠ - ١١﴾ ولقد آتينا داود منا فضلاً جبالاً من ذهب وألنا له الحديد \* أن اصمم سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير \* أي: ولقد مننا على عبدنا ورسولنا داود عليه الصلاة والسلام، وآتيناه فضلاً من العلم النافع، والعمل الصالح، والتسليم الدينية والدنيوية، ومن نعمه عليه، ما خصه به من أمره تعالى الجمادات، كالجبال والحيوانات، من الطيور، أن تؤوب معه، وتزجج التسبيح بحمد ربه مجاوبة له، وفي هذا من النعمة عليه، أن كان ذلك من خصائصه التي لم تكن لأحد قبله ولا بعده، وأن ذلك يكون منهضاً له ولغيره على التسبيح إذا رأوا هذه الجمادات والحيوانات تتجاوب بتسبيح ربه وتمجيده وتكبيره وتحميده، كان ذلك مما يبيح على ذكر الله تعالى.

ومنها: أن ذلك - كما قال كثير من العلماء - أنه طرب لصوت داود، فإن الله تعالى قد أعطاه من حسن الصوت ما فاق به غيره، وكان إذا زجج التسبيح والتهليل والتحميد بذلك الصوت الرخيم الشجي المطرب، طرب كل من سمعه، من الإنس والجن، حتى الطيور والجمال، وسبحت بحمد ربه.

ومنها: أنه لعله ليحصل له أجر تسبيحها، لأنه سبب ذلك، وتسبح تبعاً له.

ومن فضله عليه، أن ألان له الحديد، ليعمل الدروع السابغات، وعلمه تعالى كيفية صنعه، بأن يقدره في السرد، أي: يقدره حلقاً، ويصنعه كذلك، ثم يدخل بعضها ببعض. قال تعالى: ﴿وعلمناه صنعة لبوس

- يا أهل العقول غير الزاكية - أن تصغوا لما قال، ولا أن تحتفلوا بدعوته، فإن المجنون، لا ينبغي للعاقل أن يلفت إليه نظره، أو يبلغ قوله منه كل مبلغ.

ولولا عنادكم وظلمكم، لبادرتم لإجابته، ولبيتم دعوته، ولكن ما تخسني الآيات والسندر عن قوم لا يؤمنون، ولهذا قال تعالى: ﴿بل الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ ومنهم الذين قالوا تلك المقالة، ﴿في العذاب والضلال البعيد﴾ أي: في الشقاء العظيم، والضلال البعيد، الذي ليس بقريب من الصواب، وأي: شقاء وضلال، أبلغ من إنكارهم لقدرة الله على البعث، وتكذيبهم لرسوله الذي جاء به، واستهزأوا به، وجزمهم بأن ما جاءوا به هو الحق، فأروا الحق باطلاً، والباطل والضلال حقاً وهدى.

ثم نيههم على الدليل العقلي، الدال على عدم استبعاد البعث، الذي استبعده، وأنهم لو نظروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض فأروا من قدرة الله فيهما ما يبهر العقول، ومن عظمت ما يذهل العلماء الفحول، وأن خلقهما وعظمتها وما فيهما من المخلوقات أعظم من إعادة الناس - بعد موتهم - من قبورهم، فما الحامل لهم على ذلك التكذيب، مع التصديق بما هو أكبر منه؟ نعم، ذاك خير غيبي إلى الآن، ما شاهدوه، فلذلك كذبوا به.

قال الله: ﴿إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء﴾ أي: من العذاب، لأن الأرض والسماء تحت تدبيرنا، فإن أمرناهما لم يستعصيا، فاحذروا إصراركم على تكذيبكم، فنعاقبكم أشد العقوبة. ﴿إن في ذلك﴾ أي: خلق السماوات والأرض وما فيهما من المخلوقات ﴿آية لكل عبد منيب﴾.

فكلما كان العبد أعظم إتابة إلى الله، كان انتقاعه بالآيات أعظم،

(١) كذا في ب، وفي أ: وأعماله.

ولهذا قال: ﴿بلدة طيبة ورب غفور﴾ ومنها: أن الله لما علم احتياجهم في تجارتهم ومكاسبهم إلى الأرض المباركة - الظاهر أنها: لقرى صنعاء قاله غير واحد من السلف، وقيل إنها الشام - هيأ لهم من الأسباب ما به يتيسر وصولهم إليها بغاية السهولة، من الأمن، وعدم الخوف، وتواصل القرى بينهم وبينها، بحيث لا يكون عليهم مشقة بحمل الزاد والمزاد.

ولهذا قال: ﴿وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير﴾ أي: [سيراً] مقدراً يعرفونه ويحكمون عليه، بحيث لا يتيهون عنه ﴿الليالي وأياماً آمنتين﴾ أي: مطمئنتين في السير، في تلك الليالي والأيام، غير خائفين. وهذا من تمام نعمة الله عليهم، أن أمنهم من الخوف.

فأعرضوا عن التَّعْمِ، وعن عبادته، وبطروا النعمة وملوها، حتى إنهم طلبوا وتمنوا، أن تتباعد أسفارهم بين تلك القرى التي كان السير فيها متيسراً.

﴿وظلموا أنفسهم﴾ بكفرهم بالله وبنعمته، فعاقبهم الله تعالى بهذه النعمة التي أطفقتهم، فأبأدها عليهم، فأرسل عليها سيل العرم، أي: السيل المتوعر، الذي خرب سددهم، وأتلف جناتهم، وخرَّب بساتينهم، فتبدلت تلك الجنات ذات الحدائق المعجبة، والأشجار المثمرة، وصار بدلها أشجار لا نفع فيها، ولهذا قال: ﴿وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذوات أكل﴾ أي: شيء قليل من الأكل الذي لا يقع منهم موقعاً ﴿خط وأثل وشيء من سدر قليل﴾ وهذا كله شجر معروف، وهذا من جنس عملهم.

فكما بدلوا الشكر الحسن بالكفر القبيح، بدلوا تلك لنعمة بما ذكر، ولهذا قال: ﴿ذلك جزيتاهم بما كفروا وهل تجازي إلا الكفور﴾ أي: وهل تجازي جزاء العقوبة - بدليل السياق - إلا من كفر بالله وبطر النعمة؟ فلما أصابهم ما أصابهم تفرقوا

عليهم سيل العرم وبذلناهم بجنتيهم جنتين ذوات أكل خط وأثل وشيء من سدر قليل \* ذلك جزيتاهم بما كفروا وهل تجازي إلا الكفور \* وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنتين \* فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك آيات لكل صبار شكور \* ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين \* وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك وربك على كل شيء حفيظ \* سبأ قبيلة معروفة في أداني اليمن، ومسكنهم بلدة يقال لها «مأرب»، ومن نعم الله ولطفه بالناس عموماً، وبالعرب خصوصاً، أنه قص في القرآن أخبار المهلكين والمعاقبين، ممن كان يهاور العرب ويشاهد آثاره ويتناقل الناس أخباره، ليكون ذلك أدعى إلى التصديق، وأقرب للموعظة فقال: ﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم﴾ أي: محلهم الذي يسكنون فيه ﴿آية﴾ والآية هنا: ما أدرَّ الله عليهم من التَّعْمِ، وصرَف عنهم من النَّعْمِ، الذي يقتضي ذلك منهم، أن يعبدوا الله ويشكروه. ثم فسَّر الآية بقوله: ﴿جنتان عن يمين وشمال﴾ وكان لهم واد عظيم، تأتيه سيول كثيرة، وكانوا بنوا سداً محكماً، يكون عجماً للماء، فكانت السيول تأتيه، فيجتمع هناك ماء عظيم، فيفرفونه على بساتينهم، التي عن يمين ذلك الرادي وشماله. وتُغَلِّل لهم تلك الجنتان العظيمنتان، من الثمار ما يكفيهم، ويحصل لهم به الغبطة والسرور، فأمرهم الله بشكر نعمه التي أدرَّها عليهم من وجوه كثيرة، منها: هاتان الجنتان اللتان غالب أوقاتهم منها.

ومنها: أن الله جعل بلدهم بلدة طيبة، لحسن هوائها، وقلَّة وخمها، وحصول الرزق الرغد فيها.

ومنها: أن الله تعالى وعدهم - إن شكروه - أن يغفر لهم ويرحمهم،

وقدرتهم على ذلك وعملهم لسليمان، ﴿وجفان كالجواب﴾ أي: كالبرك الكبار، يعملونها لسليمان للطعام، لأنه يحتاج إلى ما لا يحتاج إليه غيره، ﴿و﴾ يعملون له قدوراً رأسيات لا تزول عن أماكنها، من عظمها.

فلما ذكر منته عليهم، أمرهم بشكرها، فقال: ﴿اعملوا آل داود﴾ وهم داود وأولاده وأهله، لأن الميَّة على الجميع، وكثير من هذه المصالح عائد لكلهم. ﴿شكراً﴾ لله على ما أعطاهم، ومقابلة لما أولاهم. ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ فأكثرهم لم يشكروا الله تعالى على ما أولاهم من نعمه، ودفع عنهم من النَّعْمِ.

والشكر: اعتراف القلب بمنة الله تعالى، وتلقيها افتقاراً إليها، وصرافها في طاعة الله تعالى، وصرافها عن المعصية.

فلم يزل الشياطين يعملون لسليمان عليه الصلاة والسلام كل بناء، وكانوا قد موهوا على الإنس، وأخبروهم أنهم يعلمون الغيب ويطلعون على المكنونات، فأراد الله تعالى أن يُرِي العباد كذبهم في هذه الدعوى، فمكثوا يعملون على عملهم، وقضى الله الموت على سليمان عليه السلام، وأتكا على عصاه وهي المنسأة، فصاروا إذا مروا به وهو متكئ عليها، ظنوه حياً، وهاجوه.

فغدوا على عملهم كذلك سنة كاملة على ما قيل، حتى سلطت دابة الأرض على عصاه، فلم تزل ترعاها، حتى ياد وسقط، فسقط سليمان عليه السلام وتفرقت الشياطين وتبينت الإنس أن الحق: ﴿لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾ وهو العمل الشاق عليهم، فلو علموا الغيب، لعلموا موت سليمان، الذي هم أحرص شيء عليه، ليسلموا بما هم فيه.

﴿١٥ - ٢١﴾ ﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور \* فأعرضوا فأرسلنا





من السماوات والأرض فإنهم لا بد أن يقرؤا أنه الله، ولشئ لم يقرؤا ف **﴿قل الله﴾** فإنك لا تجد من يدفع هذا القول، فإذا تبين أن الله وحده الذي يرزقكم من السماوات والأرض، وينزل لكم المطر، وينبت لكم النبات، ويفجر لكم الأنهار، ويطلع لكم من ثمار الأشجار، وجعل لكم الحيوانات جميعها، لنفعمكم ورزقكم، فلم تعبداً معه من لا يرزقكم شيئاً، ولا يفيدكم نفعاً؟

وقوله: **﴿وإننا أو إناكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾** أي: إحدى الطائفتين منا ومنكم، على الهدى، مستعجلة عليه، أو في ضلال مبين، منغمرة فيه، وهذا الكلام يقوله من تبين له الحق واتضح له الصواب، وجزم بالحق الذي هو عليه وبطلان ما عليه خصمه.

أي: قد شرحنا من الأدلة الواضحة عننا وعندكم، ما به يعلم علماً يقيناً لا شك فيه، من الحق منا ومن المبطل، ومن المهتدي ومن الضال؟ حتى إنه يصير التعمين بعد ذلك لا فائدة فيه، فإنك <sup>(١)</sup> إذا وازنت بين من يدعو إلى عبادة الخالق لسائر المخلوقات، المتصرف فيها بجميع أنواع التصرفات، المسدي جميع النعم، الذي رزقهم وأوصل إليهم كل نعمة، ودفع عنهم كل نقمة، الذي له الحمد كله والمملك كله، وكل أحد من الملائكة فما دوتهم خاضعون لهيبته، متذللون لعظمته، وكل الشعفاء تحافه، لا يشفع أحد منهم عنده إلا بإذنه العلي الكبير، في ذاته وأوصافه وأفعاله، الذي له كل كمال، وكل جلال، وكل جمال، وكل حمد وثناء ومجد، يدعو إلى التقرب لمن هذا شأنه، وإخلاص العمل له، وينهى عن عبادة من سواه، وبين من يتقرب إلى أوثان وأصنام وقبور، لا تخليق ولا ترزق، ولا تملك لأنفسها ولا لمن عبدها، نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً

ومن علوه، أن حكمه تعالى يعلو، وتدعنه له النفوس، حتى نفوس التكرين والمشركين.

وهذا المعنى أظهر، وهو الذي يدل عليه السياق، ويحتمل أن الضمير يعود إلى الملائكة، وذلك أن الله تعالى إذا تكلم بالوحي سمعته الملائكة، فصعقوا وخرروا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، وإذا زال الصعق عن قلوب الملائكة، وزال الفرع، فيسأل بعضهم بعضاً عن ذلك الكلام الذي صعقوا منه: ماذا قال ربكم؟ فيقول بعضهم لبعض: قال الحق، إما إجمالاً، لعلمهم أنه لا يقول إلا حقاً، وإما أن يقولوا: قال كذا وكذا، للكلام الذي سمعوه منه، وذلك من الحق.

فيكون المعنى على هذا: أن المشركين الذين عبدوا مع الله تلك الآلهة، التي وصفنا لكم عجزها ونقصها، وعدم نفعها بوجه من الوجوه، كيف صدقوا وصرخوا عن إخلاص العبادة للرب العظيم، العلي الكبير، الذي - من عظمته وجلاله - أن الملائكة الكرام والمقربين من الخلق، يبلغ بهم الخضوع والصعق عند سماع كلامه هذا المبلغ، ويقرون كلهم لله، أنه لا يقول إلا الحق.

فما بال هؤلاء المشركين، استكبروا عن عبادة من هذا شأنه، وعظمة ملكه وسلطانه. فتعال العلي الكبير عن شرك المشركين وإفكهم وكذبهم.

**﴿٢٤ - ٢٧﴾** **﴿قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله وإننا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾** قل لا تسألون عما أجرنا ولا نسال عما تعملون \* قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتح العليم \* قل أروني الذين أحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز الحكيم \* يأمر تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يقول لمن أشرك بالله ويسأله عن حجة شركه: **﴿من يرزقكم**

والعجب، أن المشرك استكبر عن الانقياد للرسول بزعمه <sup>(١)</sup> أنهم بشر، ورضي أن يعبد ويدعو الشجر والحجر، استكبر عن الإخلاص للملك الرحمن الديان، ورضي بعبادة من ضمه أقرب من نفعه، طاعة لأعدى عدو له وهو الشيطان.

وقوله: **﴿حتى إذا فرغ عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير﴾** يحتمل أن الضمير في هذا الموضع يعود إلى المشركين، لأنهم مذكورون في اللفظ، والقاعدة في الضمائر، أن تعود إلى أقرب مذكور، ويكون المعنى: إذا كان يوم القيامة، وفرغ عن قلوب المشركين، أي: زال الفرع، وسئلوا حين رجعت إليهم عقولهم، عن حالهم في الدنيا، وتكذيبهم للحق الذي جاءت به الرسل، أنهم يقولون أن ما هم عليه من الكفر والشرك باطل، وأن ما قال الله وأخبرت به عنه رسله، هو الحق فبدا لهم ما كانوا يخفون من قبل وعلموا أن الحق لله، واعترفوا بذنوبهم.

**﴿وهو العلي﴾** بذاته، فوق جميع مخلوقاته وقهره لهم وعلو قدره، بما له من الصفات العظيمة، جليلة المقدار **﴿الكبير﴾** في ذاته وصفاته.

(١) في النسختين: بزعمهم، ولعل الأقرب - والله أعلم - ما أثبت.

(٢) ورد في الهامش هنا: فعل الشرط.

الإجابة لما اقترحوه على الرسول،  
موجباً لرد دعوته .

فكما اقترحوه، استعجالهم العذاب  
الذي أنذرهم به، فقال: ﴿ويقولون  
متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ وهذا  
ظلم منهم. فأى: ملازمة بين صدقه  
وبين الإخبار بوقت وقوعه؟ وهل هذا  
إلا رد للحق، وسفه في العقل؟ أليس  
النذير [في أمر] في أحوال الدنيا، لو  
جاء قوماً يعلمون صدقه ونصحه،  
ولهم عدو ينتهز الفرصة منهم ويعدو  
لهم، فقال لهم: تركت عدوكم قد  
سار، يريد اجتياحكم واستئصالكم.  
فلو قال بعضهم: إن كنت صادقاً،  
فاخبرنا بأية ساعة يصل إلينا، وأين  
مكانه الآن؟ فهل يعد هذا القائل  
عاقلاً، أم يحكم بسفهه وجنونه؟

هذا، والمخبر يمكن صدقه وكذبه،  
والعدو قد يبدو له غيرهم، وقد تنحل  
عزيمته، وهم قد يكون بهم منعة  
يدافعون بها عن أنفسهم، فكيف بمن  
كذب أصدق الخلق، المعصوم في  
خبره، الذي لا ينطق عن الهوى،  
بالعذاب اليقين، الذي لا مدفع له ولا  
ناصر منه؟! أليس رد خبره بحجة عدم  
بيانه وقت وقوعه من أسفه السفه!!

﴿قل﴾ لهم - مخبراً بوقت وقوعه  
الذي لا شك فيه - : ﴿لكم ميعاد يوم  
لا تستأخرون عنه ساعة ولا  
تستقدمون﴾ فاحذروا ذلك اليوم،  
وأعدوا له عدته .

﴿٣١- ٣٣﴾ ﴿وقال الذين كفروا  
لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه  
ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم  
يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول  
الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا  
أنتم لكننا مؤمنين﴾ قال الذين  
استكبروا للذين استضعفوا أنحن  
صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل  
كنتم مجرمين﴾ وقال الذين استضعفوا  
للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار  
إذ تأمرنا أن نكفر بالله ونجعل له

لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون  
هؤلاء شعاونا عند الله قل أنبتون الله  
بما لا يعلم﴾ الآية ﴿وما يتبع الذين  
يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون  
إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾ .

وكذلك خواص خلقه من الأنبياء  
 والمرسلين، لا يعلمون له شريكاً، فيا  
أيها المشركون أروني الذين ألحقتم  
بزعمكم الباطل بالله ﴿شركاء﴾ .

وهذا السؤال لا يمكنهم الإجابة  
عنه، ولهذا قال: ﴿كلا﴾ أي:  
ليس لله شريك، ولا ند، ولا ضد.  
﴿بل هو الله﴾ الذي لا يستحق التالفة  
والتعبد إلا هو ﴿المعزى﴾ الذي فهر كل  
شيء، فكل ما سواه فهو مقهور مسخر  
مدبر . ﴿الحكيم﴾ الذي أتمن ما خلقه،  
وأحسن ما شرعه، ولو لم يكن في  
حكمته في شرعه إلا أنه أمر بتوحيد  
وإخلاص الدين له، وأحب ذلك،  
وجعله طريقاً للنجاة، ونهى عن الشرك  
به واتخاذ الأنداد من دونه، وجعل ذلك  
طريقاً للشقاء والهلاك، لكفى<sup>(١)</sup> بذلك  
برهاناً على كمال حكمته، فكيف،  
وجمع ما أمر به ونهى عنه مشتمل على  
الحكمة!!

﴿٢٨ - ٣٠﴾ ﴿وما أرسلناك إلا  
كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر  
الناس لا يعلمون﴾ ويقولون متى هذا  
الوعد إن كنتم صادقين \* قل لكم  
ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا  
تستقدمون﴾ يخبر تعالى أنه ما أرسل  
رسوله ﷺ، إلا يبشر جميع الناس  
بثواب الله، ويخبرهم بالأعمال المرجوة  
لذلك، وينذرهم عقاب الله، ويخبرهم  
بالأعمال الموجبة له، فليس لك من  
الأمر شيء، وكل ما اقترح عليك أهل  
التكذيب والعناد، فليس من وظيفتك،  
إنما ذلك بيد الله تعالى، ﴿ولكن أكثر  
الناس لا يعلمون﴾ أي: ليس لهم علم  
صحيح، بل إما جهال، أو معاندون لم  
يعملوا بعلمهم، فكانهم لا علم لهم .  
ومن عدم علمهم، جعلهم عدم

ولا حياة ولا نشوراً، بل هي جمادات  
لا تعقل ولا تسمع دعاء عابديها، ولو  
سمعت ما استجاب لهم، ويوم القيامة  
يكفرون بشركهم، ويثبرأون منهم،  
ويتلاعنون بينهم، ليس لهم قسط من  
الملك، ولا شركة فيه، ولا إعانة فيه،  
ولا لهم شفاعة يستقلون بها دون الله،  
فهو يدعو من هذا وصفه، ويتقرب إليه  
مهتماً أمكنه، ويعادي من أخلص  
الدين لله ويحاربه، ويكذب رسل الله  
الذين جاؤوا بالإخلاص لله وحده،  
تبيين<sup>(٢)</sup> لك أي: الفريقين، المهتدي من  
الضال، والشقي من السعيد؟ ولم يحتاج  
إلى أن يعين لك ذلك، لأن وصف  
الحال أوضح من لسان المقال .

﴿قل﴾ لهم ﴿لا تسألون عتاً  
أجرنا، ولا نسأل عات تعملون﴾ أي:  
كل منا ومنكم له عمله أنتم  
﴿لا تسألون﴾ عن إجرامنا وذنوبنا لو  
أذنبنا، ونحن لا نسأل عن أعمالكم،  
فليكن المقصود منا ومنكم طلب  
الحقائق، وسلوك طريق الإنصاف،  
ودعوا ما كنا نعمل، ولا يكن مانعاً  
لكم من اتباع الحق، فإن أحكام الدنيا  
تجري على الظواهر، ويتبع فيها الحق  
ويجتنب الباطل، وأما الأعمال، فلها  
دار أخرى، يحكم فيها أحكام  
الحاكمين، ويفصل بين المختصمين،  
أعدل العادلين .

ولهذا قال: ﴿قل﴾ يجمع بيننا ربنا ثم  
يفتح بيننا﴾ أي: يحكم بيننا حكماً،  
يتبين به الصادق من الكاذب،  
والمستحق للشواب من المستحق  
للعقاب، وهو خير الفاتحين .

﴿قل﴾ لهم يا أيها الرسول، ومن  
ناب منابك: ﴿أروني الذين ألحقتم به  
شركاء﴾ أي: أين هم؟ وأين السبيل  
إلى معرفتهم؟ وهل هم في الأرض، أم  
في السماء؟ فإن عالم الغيب والشهادة  
قد أخبرنا أنه ليس في الوجود له  
شريك .  
﴿وسعبدون من دون الله ما

(١) ورد في الهامش هنا: جواب الشرط .

(٢) كذا في ب، وفي أ: يكفى، ولعل الصواب ما أثبت .



أنداداً وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴿٣٤﴾ لما ذكر تعالى أن ميعاد المستعجلين بالعذاب لا بد من وقوعه عند حلول أجله، ذكر هنا حالهم في ذلك اليوم، وأنك لو رأيت حالهم إذا وقفوا عند ربهم، واجتمع الرؤساء والأنبياء في الكفر والضلال، لرأيت أمراً عظيماً وهولاً جسيماً، ورأيت كيف يتراجع، ويرجع بعضهم إلى بعض القول، ف ﴿يقول الذين استضعفوا﴾ وهم الأتباع ﴿للذين استكبروا﴾ وهم القادة: ﴿لولا أنتم لكنا مؤمنين﴾ ولكنكم خلثتم بيننا وبين الإيمان، وزينتم لنا الكفر [ان]، فبتعنناكم على ذلك، ومقصودهم بذلك أن يكون العذاب على الرؤساء دونهم.

﴿قال الذين استكبروا للذين استضعفوا﴾ مستهين لهم وتخبرين أن الجميع مشتركون في الجرم: ﴿أنحن صدقناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم﴾ أي: بقوتنا وقهرنا لكم. ﴿بل كنتم مجرمين﴾ أي: مختارين للإجرام، لستم مقهورين عليه، وإن كنا قد زينا لكم، فما كان لنا عليكم من سلطان.

﴿وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾ أي: بل الذي دهانا منكم، ووصل إلينا من إضلالكم، ما دبرتموه من المكر، في الليل والنهار، إذ تحشنون لنا الكفر وتدعوننا إليه، وتقولون: إنه الحق، وتقذحون في الحق وتهجنونه وترجمون أنه الباطل، فما زال مكركم بنا وكيدكم إيانا، حتى أغريتمونا وقتلتمونا.

فلم تفد تلك المراجعة بينهم شيئاً إلا تبري بعضهم من بعض، والندامة العظيمة، ولهذا قال: ﴿وأسروا الندامة لما رأوا العذاب﴾ أي: زال عنهم ذلك الاحتجاج الذي احتج به بعضهم على بعض لينجو من العذاب، وعلم أنه ظالم مستحق له، فندم كل منهم غاية الندم، وغنى أن لو كان على الحق،

[وأنه] ترك الباطل الذي أوصله إلى هذا العذاب، سراً في أنفسهم، لخوفهم من الفضيحة في إقرارهم على أنفسهم. وفي بعض مواقف القيامة، وعند دخولهم النار، يظهر ذلك الندم جهراً.

﴿ويوم بعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً﴾ يا ويلستي ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً﴾ الآيات.

﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾ فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴿وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا﴾ بغلون كما يغل المسجون الذي سيهان في سجنه كما قال تعالى: ﴿إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون﴾ في الحميم ثم في النار يسجرون ﴿الآيات.

﴿هل يجزون﴾ في هذا العذاب والتكال، وتلك الأغلال الثقال ﴿إلا ما كانوا يعملون﴾ من الكفر والفسوق والعصيان.

﴿٣٤-٣٩﴾ ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمسلمين ﴿قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون ﴿والذين يسمعون في آياتنا معاجزين أولئك في العذاب محضرون﴾ قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴿يخبر تعالى عن حالة الأمم الماضية المكذبة للرسل، أنها كحال هؤلاء الحاضرين المكذبين لرسولهم محمد ﷺ، وأن الله إذا أرسل رسولا في قرية من القرى كفر به مترفوها، وأبطرتهم نعمتهم وفخروا بها.

﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً﴾ أي: ممن اتبع الحق ﴿وما نحن بمعذبين﴾ أي: أولاً، لساناً بمعبوثين،

فإن بُعثنا، فالذي أعطانا الأموال والأولاد في الدنيا، سيعطينا أكثر من ذلك في الآخرة ولا يعذبنا.

فأجابهم الله تعالى، بأن بسط الرزق وتضييقه، ليس دليلاً على ما زعمتم، فإن الرزق تحت مشيئة الله، إن شاء بسطه لعبده، وإن شاء ضيقه.

وليسست الأموال والأولاد بالنبي تقرب إلى الله زلفى وتدني إليه، وإنما الذي يقرب منه زلفى، الإيمان بما جاءت به المرسلون، والعمل الصالح الذي هو من لوازم الإيمان، فأولئك لهم الجزاء عند الله تعالى مضاعفاً، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، لا يعلمها إلا الله، ﴿وهم في الغرفات آمنون﴾ أي: في المنازل العاليات المرتفعات جداً، ساكنين فيها مطمئنين، آمنون من المكدرات والمنقصات، لما هم فيه من اللذات وأنواع المشتهيات، وآمنون من الخروج منها والخزن فيها.

وأما الذين سعوا في آياتنا على وجه التعجيز لنا ولرسلنا، والتكذيب، ف ﴿أولئك في العذاب محضرون﴾.

﴿٣٩﴾ ثم أعاد تعالى أنه ﴿يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له﴾ ليرتب عليه قوله: ﴿وما أنفقتم من شيء﴾ نفقة واجبة أو مستحبة، على قريب، أو جار، أو مسكين، أو يتيم، وغير ذلك، ﴿فهو﴾ تعالى ﴿يخلفه﴾ فلا تتوهموا أن الإنفاق مما ينقص الرزق، بل وعد بالخلف للمنفق، الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴿وهو خير الرازقين﴾ فاطلبوا الرزق منه، واسموا في الأسباب التي أمركم بها.

﴿٤٠-٤٢﴾ ﴿ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴿قال يوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضراً وتقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون﴾ ﴿ويوم يحشرهم جميعاً﴾ أي: العابدين لغير الله





وعداهم، وظهر الحق وسطع، وبطل الباطل وانقمع، وذلك بسبب بيان **«علام الغيوب»** الذي يعلم ما تنطوي عليه القلوب من الوسواس والشبه، ويعلم ما يقابل ذلك ويدفعه من الحجج.

فيعلم بها عباده، وبينها لهم، ولهذا قال: **«قل جاء الحق»** أي: ظهر وبان، وصار بمنزلة الشمس، وظهر سلطانه. **«وما يبديء الباطل وما يعيد»** أي: اضمحل وبطل أمره، وذهب سلطانه، فلا يبديء ولا يعيد.

ولما تبين الحق بما دعا إليه الرسول، وكان المكذبون له يرمونه بالضلال، أخبرهم بالحق ووضحه لهم، وبين لهم عجزهم عن مقاومته، وأخبرهم أن رميهم له بالضلال ليس بضائر الحق شيئاً، ولا دافع ما جاء به.

وأنه إن ضل - وحاشاه من ذلك، لكن على سبيل التنزل في المجادلة - فإنما يضل على نفسه، أي: ضلاله قاصر على نفسه، غير متعد إلى غيره.

**«وإن اهتديت»** فليس ذلك من نفسي وحوالي وقوتي، وإنما هديتي بما **«يوحي إلي ربي»** فهو مادة هدياتي، كما هو مادة هداية غيري. إن ربي **«سميع»** للأقوال والأصوات كلها **«قريب»** عن دعائه وسأله وعبده.

**«٥١ - ٥٤»** **«ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب \* وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد \* وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيث من مكان بعيد \* وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياهم من قبل إنهم كانوا في شك مريب»** يقول تعالى: **«ولو ترى»** أيها الرسول، **«مَنْ قام مقامك، حال هؤلاء المكذابين، إذ فزعوا»** حين رأوا العذاب، وما أخبرتهم به الرسل، وما كذبوا به، لرأيت أمراً هائلاً، ومنظراً مفضعاً، وحالة منكرة، وشدة شديدة، وذلك حين يحق عليهم العذاب.

الخلق، أدباً، وسكينة، وتواضعاً، ووقاراً، لا يكون [إلا] لأرزن الرجال عقلاً.

ثم [إذا] تأملوا كلامه الفصيح، ولفظه المليح، وكلماته التي تملأ القلوب أمناً وإيماناً، وتزكي النفوس، وتطهر القلوب، وتبعث على مكارم الأخلاق، وتحت على محاسن الشيم، وترهب<sup>(٢)</sup> عن مساوي الأخلاق وورذائلها، إذا تكلم رفته العيون، هيبة وإجلالاً وتعظيماً.

فهل هذا يشبه هذيان المجانين وعريتهم، وكلامهم الذي يشبه أحوالهم!!!

فكل مَنْ تدبر أحواله، ومقصده استعمال هل هو رسول الله أم لا؟ سواء تفكر وحده أو مع غيره، جزم بأنه رسول الله حقاً، وتبني صدقاً، خصوصاً المخاطبين، الذي هو صاحبهم يعرفون أول أمره وآخره.

وتم مانع للنفوس آخر من اتباع الداعي إلى الحق، وهو أنه يأخذ أموال مَنْ يستجيب له، ويأخذ أجرة على دعوته. فبيّن الله تعالى نزاهة رسوله ﷺ عن هذا الأمر، فقال: **«قل ما سألتكم من أجر»** أي: على اتباعكم للحق **«فهو لكم»** أي: فأشهدكم أن ذلك الأجر - على التقدير - أنه لكم، **«إن أجرتي إلا على الله وهو على كل شيء شهيد»** أي: يحيط علمه بما أدمر إليه، فلو كنت كاذباً، لأخذني بعقوبته، وشهد أيضاً على أعمالكم، سيحفظها عليكم، ثم يجازيكم بها.

ولما بيّن البراهين الدالة على صحة الحق وبطلان الباطل، أخبر تعالى أن هذه سنته وعادته أن **«يقذف بالحق»** على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، لأنه بيّن من الحق في هذا الموضع، ورد به أقوال المكذابين، ما كان عبيرة للمعتبرين، وأية للمتأملين.

فإنك كما ترى، كيف اضمحلت أقوال الكذابين، وتبين كذبهم

**«قل»** يا أيها الرسول، لهؤلاء المكذبين المعاندين، المتصددين لرد الحق وتكذيبه، والقدح بمن جاء به: **«إنما أعظكم بواحدة»** أي: بخصلة واحدة، أشير عليكم بها، وأنصح لكم في سلوكها، وهي طريق نصف، لست أدعوكم بها إلى اتباع قولي، ولا إلى ترك قولكم من دون موجب لذلك، وهي: **«أن تقوموا لله مثنى وفردى»** أي: تنهضوا بهمة ونشاط، وقصد لاتباع الصواب، وإخلاص لله، مجتمعين، ومتباحثين في ذلك، ومتناظرين، وفردى، وكل واحد يخاطب نفسه بذلك.

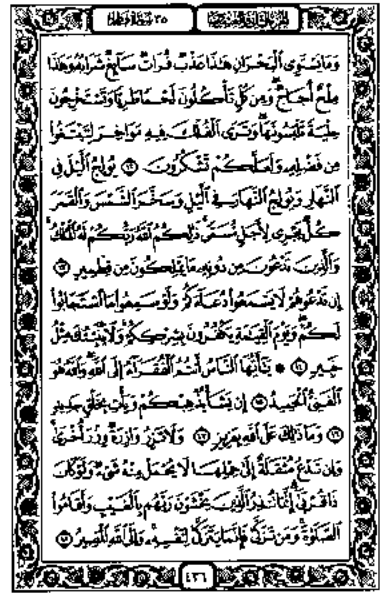
فإذا قمتم لله مثنى وفردى، استعملتم فكركم وأحلتموه، وتدبرتم أحوال رسولكم، هل هو مجنون، فيه صفات المجانين من كلامه، وهيئته، وصفته؟ أم هو نبي صادق، منزه لكم ما يضركم، مما أمامكم من العذاب الشديد؟

فلو قبلوا هذه الموعظة واستعملوها، لتبين لهم أكثر من غيرهم، أن رسول الله ﷺ ليس بمجنون، لأن هيئاته<sup>(١)</sup> ليست كهيئات المجانين، في خنقهم، واختلاجهم، ونظرهم، بل هيئته أحسن الهيئات، وحركاته أجل الحركات، وهو أكمل

(٢) في ب: وتزجر.

(١) في ب: هيته.





السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور ﴿٨﴾ أي : يا مَنْ يريد العزة، اطلبها ممن هي بيده، فإن العزة بيد الله، ولا تنال إلا بطاعته، وقد ذكرها بقوله : ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ من قراءة وتسييح وتحميد وتهليل، وكل كلام حسن طيب، فيسرفع إلى الله ويعرض عليه، ويشي الله على صاحبه بين الملا الأعلى، ﴿والعمل الصالح﴾ من أعمال القلوب وأعمال الجوارح ﴿يرفعه﴾ الله تعالى إليه أيضاً، كالكلم الطيب.

وقيل : والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب، فيكون رفع الكلم الطيب بحسب أعمال العبد الصالحة، فهي التي ترفع كلمه الطيب، فإذا لم يكن له عمل صالح، لم يرفع له قول إلى الله تعالى، فهذه الأعمال التي ترفع إلى الله تعالى، ويرفع الله صاحبها ويعزه.

وأما السيئات فإنها بالعكس، يريد صاحبها الرفعة بها، ويمكر ويكيد ويعود ذلك عليه، ولا يزداد إلا إهانة ونزولاً، ولهذا قال : ﴿والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد﴾ يهانون فيه غاية الإهانة. ﴿ومكر أولئك هو يبور﴾ أي : يهلك ويضمحل، ولا يفيدهم شيئاً، لأنه مكر بالباطل، لأجل الباطل.

﴿١١﴾ ﴿والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا يُنقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾ يذكر تعالى خلقه الآدمي، وتنقله في هذه الأطوار، من تراب إلى نطفة وما بعدها.

﴿ثم جعلكم أزواجاً﴾ أي : لم يزل ينقلكم، طوراً بعد طور، حتى أوصلكم إلى أن كنتم أزواجاً، ذكراً يتزوج أنثى، ويراد بالزواج، الذرية والأولاد، فهو وإن كان النكاح من الأسباب فيه، فإنه مقترن بقضاء الله وقدره وعلمه، ﴿وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه﴾ وكذلك أطوار الآدمي، كلها بعلمه وقضائه.

الأعمال ﴿الصالحات لهم مغفرة﴾ لذنوبهم، يزول بها عنهم الشر والمكروه ﴿أجر كبير﴾ يحصل به المطلوب.

﴿٨﴾ ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون﴾ يقول تعالى : ﴿أفمن زين له عمله السييء القبيح، زين له الشيطان، وحسنه في عينه. ﴿فرآه حسناً﴾ أي : كمن هداه الله إلى الصراط المستقيم والدين القويم، فهل يستوي هذا وهذا؟ فالأول : عمل السيء، ورأى الحق باطلاً، والباطل حقاً.

والثاني : عمل الحسن، ورأى الحق حقاً، والباطل باطلاً، ولكن الهداية والإضلال بيد الله تعالى، ﴿فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم﴾ أي : على الضالين الذين زين لهم سوء أعمالهم، وصددهم الشيطان عن الحق ﴿حسرات﴾ فليس عليك إلا البلاغ، وليس عليك من هداهم شيء، والله ﴿هو﴾ الذي يجازيهم بأعمالهم ﴿إن الله عليم بما يصنعون﴾

﴿٩﴾ ﴿والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور﴾ يخبر تعالى عن كمال اقتداره، وسعة جوده، وأنه ﴿أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت﴾ فأنزله الله عليها ﴿فأحيينا به الأرض بعد موتها﴾.

فحييت البلاد والعباد، وارتفعت الحيوانات، ورتعت في تلك الخيرات، ﴿كذلك﴾ الذي أحيا الأرض بعد موتها، ينشر الله الأموات من قبورهم، بعدما مرقهم البلى، فيسوق إليهم مطراً، كما ساقه إلى الأرض الميتة، فينزله عليهم فتحيا الأجساد والأرواح من القبور، ويأتون للقيام بين يدي الله ليحكم بينهم، ويفصل بحكمه العدل.

﴿١٠﴾ ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون

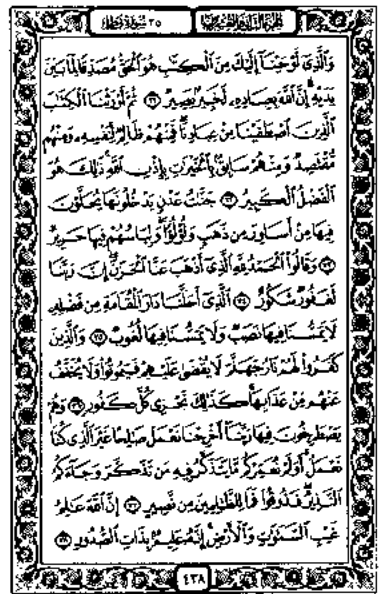
وعد الله﴾ بالبعث والجزاء على الأعمال، ﴿حق﴾ أي : لا شك فيه، ولا مرية، ولا تردد، قد دلت على ذلك الأدلة السمعية والبراهين العقلية، فإذا كان وعده حقاً، فتهبوا له، وبادروا أوقاتكم الشريفة بالأعمال الصالحة، ولا يقطعكم عن ذلك قاطع، ﴿فلا تفرنكم الحياة الدنيا﴾ بلذاتها وشهواتها ومطالبها النفسية، فتلهيكم عما خلقتم له، ﴿ولا يفرنكم بالله الغرور﴾ الذي هو ﴿الشیطان﴾ الذي هو عدوكم في الحقيقة ﴿فالتخذوه عدواً﴾ أي : لتكن منكم عداوته على بال، ولا تهملوا معاربتة كل وقت، فإنه يراكم وأنتم لا ترونه، وهو دائماً لكم بالمرصاد.

﴿إنما يدهو حزيه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ هذا غاية ومقصوده فمن تبعه، أن يهان غاية الإهانة بالعذاب الشديد.

ثم ذكر أن الناس انفسموا بحسب طاعة الشيطان وعدمها إلى قسمين، وذكر جزاء كل منهما، فقال : ﴿الذين كفروا﴾ أي : جحدوا ما جاءت به الرسل، ودلت عليه الكتب ﴿لهم عذاب شديد﴾ في نار جهنم، شديد في ذاته ووصفه، وأهم خالدون فيها أبداً.

﴿والذين آمنوا﴾ بقلوبهم، بما دعا إلى الإيمان به ﴿وعملوا﴾ بمقتضى ذلك الإيمان، بجوارحهم،





ووصفهم ، وأنهم فقراء إلى الله من جميع الوجوه :

فقراء في إيجادهم ، فلولا إيجادهم إياهم ، لم يوجدوا .

فقراء في إعدادهم بالقوى والأعضاء والجوارح ، التي لولا إعداده إياهم [بها] ، لما استعدوا لأي : عمل كان .

فقراء في إمدادهم بالأقوات والأرزاق والنعم الظاهرة والباطنة ، فلولا فضله وإحسانه وتيسيره الأمور ، لما حصل [لهم] من الرزق والشعم شيء .

فقراء في صرف النقم عنهم ، ودفع المكاره ، وإزالة الكروب والشدائد .

فلولا دفعه عنهم ، وتفريجه لكرباتهم ، وإزالته لعسرهم ، لاستمرت عليهم المكاره والشدائد .

فقراء إليه في تربيتهم بأنواع التربية وأجناس التدبير .

فقراء إليه ، في تألههم له ، وحبهم له ، وتعبدهم ، وإخلاص العبادة له تعالى ، فلولا يوقفهم لذلك لهلكوا ، وفسدت أرواحهم وقلوبهم وأحوالهم .

فقراء إليه ، في تحليمهم ما لا يعلمون ، وعملهم بما يصلحهم ، فلولا تعليمه لم يتعلموا ، ولولا توفيقه لم يصلحوا .

فهم فقراء بالذات إليه ، بكل معنى ، وبكل اعتبار ، سواء شعروا ببعض أنواع الفقر أم لم يشعروا ، ولكن الموقف منهم ، الذي لا يزال يشاهد فقره في كل حال من أمور دينه ودنياه ، ويتضرع له ، ويسأله أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين ، وأن يعينه على جميع أموره ، ويستصحب هذا المعنى في كل وقت ، فهذا أحرى بالإعانة النامة من ربه وإلهه ، الذي هو أرحم به من الوالدة بولدها .

﴿والله هو الغني الحميد﴾ أي : الذي له الغنى التام من جميع الوجوه ، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه خلقه ، ولا ينتقر إلى شيء مما ينتقر إليه الخلق ، وذلك لكمال صفاته ، وكونها كلها صفات كمال ، ونعوت وجلال .

ومن غناه تعالى ، أن أغنى الخلق في الدنيا والآخرة ، الحميد في ذاته ، غنيا ، وأفعاله لأنها فضل وإحسان وعدل وحكمة ورحمة ، وفي أوامره ونواهيه ، فهو الحميد على ما فيه ، وعلى ما منه ، وهو الحميد في غناه [الغني في هذه] .

﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾ يحتمل أن المراد : إن يشأ يذهبكم أي الناس ويأت بغيركم من الناس ، أطوع لله منكم ، ويكون في هذا تهديد لهم بالهلاك والإبادة ، وأن مشيئته غير قاصرة عن ذلك .

ويحتمل أن المراد بذلك ، إثبات البعث والنشور ، وأن مشيئة الله تعالى نافذة في كل شيء ، وفي إعادتك بعد موتكم خلقاً جديداً ، ولكن لذلك الوقت أجل قدره الله ، لا يتقدم عنه ولا يتأخر .

﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾ أي : بممتنع ، ولا معجز له .

ويدل على المعنى الأخير ، ما ذكره بعده في قوله : ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ أي : في يوم القيامة كل أحد يجازى بعمله ، ولا يحمل أحد ذنب أحد . ﴿وإن تدع مثقلة﴾ أي : نفس مثقلة بالخطايا والذنوب ، تستغيث بمن يحمل عنها بعض أوزارها ﴿لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾ فإنه لا يحمل عن قريب ، فليست حال الآخرة بمنزلة حال الدنيا ، يساعد الحميم حميمه ، والصديق صديقه ، بل يوم القيامة ، يتمنى العبد أن يكون له حق على أحد ، ولو على والديه وأقاربه .

﴿إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة﴾ أي : هؤلاء الذين يقبلون التذارة ويتنعمون بها ، أهل الخشية لله بالغيب ، أي : الذين يخشونه في حال السر والعلانية ، والمشهد والمغيب ، وأهل إقامة الصلاة ، بحدودها وشروطها وأركانها وواجباتها وخشوعها ، لأن الخشية لله تستدعي من العبد العمل بما يخشى من تضييعه العقاب ، والهرب مما يخشى من ارتكابه

ومع هذا ﴿إن تدعوهم﴾ لا يسمعوك لأنهم ما بين جناد وأموات وملائكة مشغولين بطاعة ربهم . ﴿ولو سمعوا﴾ على وجه الفرض والتقدير ﴿ما استجابوا لكم﴾ لأنهم لا يملكون شيئاً ، ولا يرضى أكثرهم بعبادة من عبده ، ولهذا قال : ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ أي : يتبرؤون منكم ، ويقولون : ﴿سبحانك أنت ولينا من دونهم﴾ .

﴿ولا ينشك مثل غبير﴾ أي : لا أحد ينشك ، أصدق من الله العليم الخبير ، فاجزم بأن هذا الأمر ، الذي نأى به كأنه رأي عين ، فلا تشك فيه ولا تتر . فتضمنت هذه الآيات ، الأدلة والبراهين الساطعة ، الدالة على أنه تعالى المألوه المعبود ، الذي لا يستحق شيئاً من العبادة سواه ، وأن عبادة ما سواه باطلة متعلقة بباطل ، لا تفيد عابده شيئاً .

﴿١٥ - ١٨﴾ ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد \* إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد \* وما ذلك على الله بعزيز \* ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير﴾ يخاطب تعالى جميع الناس ، ويخبرهم بحالهم

العذاب، والصلاة تدعو إلى الخير،  
وتنهي عن الفحشاء والمنكر.

﴿وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾  
أي: وَمَنْ زَكَّىٰ نَفْسَهُ بِالتَّنْقِيهِ مِنَ  
العيوب، كالرياء والكبر، والكذب  
والغش، والمكر والخداع والنفاق،  
ونحو ذلك من الأخلاق الرذيلة، وتحلَّى  
بالأخلاق الجميلة، من الصدق،  
والإخلاص، والتواضع، ولين  
الجانب، والنصح للعباد، وسلامة  
الصدر من الحقد والحسد وغيرهما من  
مساوئ الأخلاق، فإن تزكيتك يعود  
نفعها إليه، ويصل مقصودها إليه،  
ليس يضيع من عمله شيء.

﴿وإلى الله المصير﴾ فيجازي  
الخالق على ما أسلفوه، ويحاسبهم على  
ما قدموه وعملوه، ولا يغادر صغيرة  
ولا كبيرة إلا أحصاها.

﴿١٩٩ - ٢٤﴾ ﴿وما يستوي الأعمى  
والبصير \* ولا الظلمات ولا النور \*  
ولا الظل ولا الحرور \* وما يستوي  
الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من  
يشاء وما أنت بسمع من في القبور \*  
إن أنت إلا نذير \* إنا أرسلناك بالحق  
بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها  
نذير﴾ يخبر تعالى أنه لا يتساوى  
الأضداد في حكمة الله، وفيما أودعه  
في فطر عباده، ﴿وما يستوي الأعمى  
فاقد البصر﴾ والبصير \* ولا الظلمات  
ولا النور \* ولا الظل ولا الحرور \*  
وما يستوي الأحياء ولا الأموات \*  
فكما أنه من المقرر عنكم، الذي  
لا يقبل الشك، أن هذه المذكورات  
لا تتساوى، فكذاك فلتعلموا أن عدم  
تساوي المتضادات المعنية أولى وأولى.

فلا يستوي المؤمن والكافر، ولا  
المهتدي والضال، ولا العالم والجاهل،  
ولا أصحاب الجنة وأصحاب النار،  
ولا أحياء القلوب وأمواتها، فبين هذه  
الأشياء من التفاوت والفرق ما  
لا يعلمه إلا الله تعالى، فإذا علمت  
المراتب، وميزت الأشياء، وبان الذي  
ينبغي أن يتنافس في تحصيله من ضده،  
فليختر الحازم لنفسه ما هو أولى به  
وأحقها بالإيثار.

﴿إن الله يسمع من يشاء﴾ سماع  
فهم وقبول، لأنه تعالى هو الهادي  
الموفق ﴿وما أنت بمسمع من في  
القبور﴾ أي: أموات القلوب، أو كما  
أن دعاءك لا يفيد سكان القبور شيئاً،  
كذلك لا يفيد المعرض المعاند شيئاً،  
ولكن وظيفتك النذارة، وإبلاغ ما  
أرسلت به، قبل منك أم لا.

ولهذا قال: ﴿إن أنت إلا نذير \*  
إنا أرسلناك بالحق﴾ أي: مجرد إرسالنا  
إياك بالحق، لأن الله تعالى بعثك على  
حين فترة من الرسل، وطموس من  
السبل، واندراس من العلم، وضرورة  
عظيمة إلى بعثك، فبعثك الله رحمة  
للعالمين.

وكذلك ما بعثناك به من الدين  
القيوم، والصرراط المستقيم، حق لا  
باطل، وكذلك ما أرسلناك به، من هذا  
القرآن العظيم، وما اشتمل عليه من  
الذكر الحكيم، حق وصدق.  
﴿بشيراً﴾ لمن أطاعك، بشواب الله  
العاجل والأجل، ﴿ونذيراً﴾ لمن  
عصاك، بعقاب الله العاجل والأجل،  
ولست يبدع من الرسل.

فما ﴿من أمة﴾ من الأمم الماضية  
والقرون الخالية ﴿إلا خلا فيها نذير﴾  
يقيم عليهم حجة الله ﴿للهلك من  
هلك عن بيته ويحيا من حي عن بيته﴾.

﴿٢٥ - ٢٦﴾ ﴿وإن يكذبوك فقد  
كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم  
بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير \* ثم  
أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير﴾  
أي: وإن يكذبك أيها الرسول، هؤلاء  
المشركون، فلست أول رسول كُذِّب،  
﴿فقد كُذِّب الذين من قبلهم جاءتهم  
رسلهم بالبينات﴾ الدالات على الحق،  
وعلى صدقهم فيما أخبروهم به،  
﴿وبالزبر﴾ أي: الكتب المكتوبة،  
المجموع فيها كثير من الأحكام،  
﴿والكتاب المنير﴾ أي: المضيء في  
أخباره الصادقة، وأحكامه العادلة،  
فلم يكن تكذيبهم إياهم ناشئاً عن  
استيهاء، أو قصور بما جاءتهم به  
الرسل، بل بسبب ظلمهم وعنادهم.

﴿٢٦﴾ ﴿ثم أخذت الذين كفروا﴾

بأنواع العقوبات ﴿فكيف كان نكير﴾  
عليهم؟ كان أشد النكير وأعظم  
التنكيل، فإياكم وتكذيب هذا الرسول  
الكريم، فيصيبكم كما أصاب أولئك،  
من العذاب الأليم والحزني الوخم.

﴿٢٧ - ٢٨﴾ ﴿ألم تر أن الله أنزل  
من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات  
مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض  
وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود \*  
ومن الناس الدواب والأنعام مختلف  
ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده  
العلماء إن الله عزيز غفور﴾ يذكر تعالى  
خلقه للأشياء المتضادات، التي أصلها  
واحد ومادتها واحدة، وفيها من  
التفاوت والفرق ما هو مشاهد  
معروف، ليدل العباد على كمال قدرته  
وبديع حكمته.

فمن ذلك: أن الله تعالى أنزل من  
السماء ماء، فأخرج به من الثمرات  
المختلفات، والنباتات المتنوعة، ما  
هو مشاهد للناظرين، والماء واحد،  
والأرض واحدة.

ومن ذلك: الجبال التي جعلها الله  
أوتاداً للأرض، تجدها جبالاً مشتبكة،  
بل جبلاً واحداً، وفيها ألوان متعددة،  
فيها جدد بيض، أي: طرائق بيض،  
وفيها طرائق صفر وحمر، وفيها غرابيب  
سود، أي: شديدة السواد جداً.

ومن ذلك: السناس والدواب  
والأنعام، فيها من اختلاف الألوان  
والأوصاف والأصوات والهيات، ما  
هو مرئي بالأبصار، مشهود للنظار،  
والكل من أصل واحد ومادة واحدة.

فتفارقها دليل عقلي على مشيئة الله  
تعالى، التي خصصت ما خصصت  
منها، بلونه، ووصفه، وقدرة الله  
تعالى حيث أوجدها كذلك، وحكمته  
ورحمته، حيث كان ذلك الاختلاف  
وذلك التفاوت، فيه من المصالح  
والمنافع، ومعرفة الطرق، ومعرفة  
الناس بعضهم بعضاً، ما هو معلوم.

وذلك أيضاً، دليل على سعة  
علم الله تعالى، وأنه يبعث من في  
القبور، ولكن الغافل ينظر في هذه  
الأشياء وغيرها نظر غفلة لا تحدث له



ولهذا، ما زال الله يرسل الرسل رسولاً بعد رسول، حتى ختمهم بمحمد ﷺ، فجاء بهذا الشرع، الذي يصلح لمصالح الخلق إلى يوم القيامة، ويتكفل بما هو الخير في كل وقت.

ولهذا، لما كانت هذه الأمة أكمل الأمم عقولاً، وأحسنهم أفكاراً، وأرقهم قلوباً، وأزكاهم أنفساً، اصطفاهم الله تعالى، واصطفى لهم دين الإسلام، وأورثهم الكتاب المهيمن على سائر الكتب، ولهذا قال: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾ وهم هذه الأمة. ﴿فمنهم ظالم لنفسه﴾ بالمعاصي، [التي] هي دون الكفر. ﴿ومنهم مقتصد﴾ مقتصر على ما يجب عليه، تارك للمحرم. ﴿ومنهم سابق بالخيرات﴾ أي: سارع فيها واجتهد، فسبق غيره، وهو المؤدي للمفرائض، المكثر من النوافل، التارك للمحرم والمكروه.

فكلهم اصطفاه الله تعالى، لورثة هذا الكتاب، وإن تفاوتت مراتبهم، وتميزت أحوالهم، فلكل منهم قسط من وراثته، حتى الظالم لنفسه، فإن ما معه من أصل الإيمان، وعلوم الإيمان، وأعمال الإيمان، من وراثته الكتاب، لأن المراد بوراثته الكتاب، وراثته علمه وعمله، ودراسة ألفاظه، واستخراج معانيه.

وقوله: ﴿بإذن الله﴾ راجع إلى السابق بالخيرات، لثلاثي عشر عمله، بل ما سبق إلى الخيرات إلا بتوفيق الله تعالى ومعونته، فينبغي له أن يشتمل بشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه.

﴿ذلك هو الفضل الكبير﴾ أي: وراثته الكتاب الجليل لمن اصطفى تعالى من عباده، هو الفضل الكبير، الذي جميع النعم بالنسبة إليه، كالعدم، فأجل النعم على الإطلاق، وأكبر الفضل، وراثته هذا الكتاب.

ثم ذكر جزاء الذين أورثهم كتابه فقال: ﴿جنات عدن يدخلونها﴾ أي:

وذكر أنهم حصل لهم ما رجوه فقال: ﴿لِيوفيهم أجورهم﴾ أي: أجور أعمالهم، على حسب قلتها وكثرتها، وحسنها ووعدها، ﴿ويؤيدهم من فضله﴾ زيادة عن أجورهم. ﴿إنه غفور شكور﴾ غفر لهم السيئات، وقبل منهم القليل من الحسنات.

﴿٣١ - ٢٥﴾ ﴿والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصداقاً لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير﴾ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير ﴿جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيهاحرير﴾ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ﴿الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب﴾ يذكر تعالى أن الكتاب الذي أوحاه إلى رسوله ﴿هو الحق﴾ من كثرة ما اشتمل عليه من الحق، كأن الحق منحصر فيه، فلا يكن في قلبكم حرج منه، ولا تتبرموا منه، ولا تستهينوا به، فإذا كان هو الحق، لزم أن كل ما دل عليه من المسائل الإلهية والغيبية وغيرها، مطابق لما في الواقع، فلا يجوز أن يراد به ما يخالف ظاهره وما دل عليه.

﴿مُصَدِّقاً لما بين يديه﴾ من الكتاب والرسول، لأنها أخبرت به، فلما وجد وظهر، ظهر به صدقها، فهي بشرت به وأخبرت، وهو صدقها، ولهذا لا يمكن أحد أن يؤمن بالكتب السابقة، وهو كافر بالقرآن أبداً، لأن كفره به ينقض إيمانه بها، لأن من جملة أخبارها الخبر عن القرآن، ولأن أخبارها مطابقة لأخبار القرآن.

﴿إن الله بعباده لخبير بصير﴾ فيعطي كل أمة وكل شخص، ما هو اللائق بحاله. ومن ذلك، أن الشرائع السابقة لا تليق إلا بوقتها وزمانها،

التذكر، وإنما ينتفع بها مَنْ يخشى الله تعالى، ويعلم بفكره الصائب وجه الحكمة فيها.

ولهذا قال: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ فكل مَنْ كان بالله أعلم، كان أكثر له خشية، وأوجبت له خشية الله، الانكفاف عن المعاصي، والاستعداد للقاء مَنْ يحشاه، وهذا دليل على فضيلة العلم، فإنه داع إلى خشية الله، وأهل خشيته هم أهل كرامته، كما قال تعالى: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه﴾.

﴿إن الله عزيز﴾ كامل العزة، ومن عزته خلق هذه المخلوقات المتضادات. ﴿غفور﴾ لذنوب الثائنين.

﴿٢٩ - ٣٠﴾ ﴿إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور﴾ ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور ﴿إن الذين يتلون كتاب الله﴾ أي: يتبعونه في أوامره فيمتثلونها، وفي نواهيه فيتركونها، وفي أخباره فيصدقونها ويعتقدونها، ولا يقدمون عليه ما خالفه من الأقوال، ويتلون أيضاً ألفاظه، بدراسته، ومعانيه، بتتبعها واستخراجها.

ثم خص من التلاوة بعد ما عم، الصلاة التي هي عماد الدين، ونور المسلمين، وميزان الإيمان، وعلامة صدق الإسلام، والنفقة على الأقارب والمساكين واليتامى وغيرهم، من الزكاة والكفارات والصدقات.

﴿سراً وعلانية﴾ في جميع الأوقات ﴿يرجون﴾ [بذلك] ﴿تجارة لن تبور﴾ أي: لن تكسد وتفسد، بل تجارة، هي أجل التجارات وأعلماها وأفضلها، ألا وهي رضا ربهم، والفوز بجزييل ثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه، وهذا فيه أنهم يخلصون<sup>(١)</sup> بأعمالهم، وأنهم لا يرجون بها من المقاصد السيئة والنيات الفاسدة شيئاً.

جنات مشتملات على الأشجار، والظل، والظليل، والحدائق الحسنة، والأنهار المتدفقة، والقصور العالية، والمنازل المزخرفة، في أبدا لا يزول، وعيش لا يتفد.

والعدن «الإقامة» جنات عدن أي: جنات إقامة، أضافها للإقامة، لأن الإقامة والخلود وصفها ووصف أهلها.

﴿يَجْلُونَ فِيهَا مِنْ أَسْوَرٍ مِنْ ذَهَبٍ﴾ وهو الخلي الذي يجعل في اليدين، على ما يجيئون، ويرون أنه أحسن من غيره، الرجال والنساء في الحلية في الجنة سواء. ﴿وَيَجْلُونَ فِيهَا لِنُؤُودٍ﴾ ينظم في ثيابهم وأجسادهم. ﴿وَلِيَأْسَمُ فِيهَا حَرِيرٍ﴾ من سندس، ومن إستبرق أخضر.

﴿وَيَوْمَ لَا تَمُوتُ نَعِيمُهُمْ، وَكَمَلَتْ لَدَيْهِمْ﴾ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ﴿وَهَذَا يَشْمَلُ كُلَّ حَزْنٍ، فَلَا حَزْنَ يَعْزُضُ لَهُمْ بِسَبَبِ نَقْصٍ فِي جِهَالِهِمْ، وَلَا فِي طَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ، وَلَا فِي لَذَاتِهِمْ وَلَا فِي أَجْسَادِهِمْ، وَلَا فِي دَوَامِ لَبِثِهِمْ، فَهَمَّ فِي نَعِيمٍ مَا يَرُونَ عَلَيْهِ مَزِيدًا، وَهُوَ فِي تَزَايُدِ أَبَدِ الْأَبَادِ.

﴿إِنَّ رَبَّنَا لِغَفُورٍ﴾ حيث غفر لنا الزلات ﴿شُكُورٍ﴾ حيث قبل منا الحسنات وضاعفتها، وأعطانا من فضله ما لم تبلغه أعمالنا ولا أمانينا، فبمخرفته نجوا من كل مكروه ومرهوب، وبشكره وفضله حصل لهم كل مرغوب محبوب.

﴿الَّذِي أَحْلَانَا﴾ أي: أنزلنا نزول حلول واستقرار، لا نزول معبر واعتبار. ﴿دَارِ الْمَقَامَةِ﴾ أي: الدار التي تدوم فيها الإقامة، والدار التي يرغب في المقام فيها، لكثرة خيراتها، وتوالي مسراتها، وزوال كدوراتها، وذلك الإحلال ﴿مَنْ فَضَلَهُ﴾ علينا وكرمه، لا بأعمالنا، فلولا فضله، لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه.

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا﴾

فيها لغوب ﴿أَي: لَا تَعْبُ فِي الْأَبْدَانِ وَلَا فِي الْقَلْبِ وَالْقَوَى، وَلَا فِي كَثْرَةِ التَّمَتُّعِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَجْعَلُ أَبْدَانَهُمْ فِي نَشْأَةٍ كَامِلَةٍ، وَيَهَيِّئُ لَهُمْ مِنْ أَسْبَابِ الرَّاحَةِ عَلَى الدَّوَامِ، مَا يَكُونُونَ بِهَذِهِ الصَّفَةِ، بِحَيْثُ لَا يَمَسُّهُمْ نَصَبٌ وَلَا لُغُوبٌ، وَلَا هَمٌّ وَلَا حُزْنٌ.

ويدل على أنهم لا يتألمون في الجنة، لأن النوم فائدتته زوال التعب، وحصول الراحة به، وأهل الجنة بخلاف ذلك، ولأنه موت أصغر، وأهل الجنة لا يموتون، جعلنا الله منهم، بمنه وكرمه.

﴿٣٦ - ٣٧﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ وهم يصطرحون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أولم نعلمكم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴿لَا ذَكَرَ تَعَالَىٰ حَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَنَعِيمِهِمْ، ذَكَرَ حَالِ أَهْلِ النَّارِ وَعَذَابِهِمْ فَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَي: جَحَدُوا مَا جَاءَتْهُمْ بِهِ رُسُلُهُمْ مِنْ الْآيَاتِ، وَأَنْكَرُوا لِقَاءَ رَبِّهِمْ.

﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ يعذبون فيها أشد العذاب، وأبلغ العقاب. ﴿لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بالموت ﴿فَيَمُوتُوا﴾ فيستريحوا، ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ فشددة العذاب وعظمه، مستمر عليهم في جميع الآتات واللحظات.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ وهم يصطرحون فيها ﴿أَي: يَصْرُخُونَ وَيَتَصَايِحُونَ وَيَسْتَفْشِحُونَ وَيَقُولُونَ: رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فاعترفوا بذنبهم، وعرفوا أن الله عدل فيهم، ولكن سألوا الرجعة في غير وقتها، فيقال لهم: ﴿أُولَئِكَ نَجْزِيكُمْ مَأْمُومًا﴾ أي: دهرأ وعمراً ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ أي: يتمكن فيه من أراد التذكر من العمل، متعانك في

الدينيا، وأدرنا عليكم الأرزاق، وقبضنا لكم أسباب الراحة، ومددنا لكم في العمر، وتابعنا عليكم الآيات، وأوصلنا إليكم النذر، وابتليناكم بالسراء والضراء، لتتبيوا إلينا وترجعوا إلينا، فلم ينجع فيكم إنذار، ولم تفد فيكم موعظة، وأخرنا عنكم العقوبة، حتى إذا انقضت أجلكم وتمت أعماركم، ورحلتكم عن دار الإمكان بأشرف الحالات، ووصلتم إلى هذه الدار دار الجزاء على الأعمال، سألتهم الرجعة؟ هيهات هيهات، فات وقت الإمكان، وغضب عليكم الرحيم الرحمن، واشتد عليكم عذاب النار، ونسيكم أهل الجنة، فامكثوا فيها خالدين مخلدين، وفي العذاب مهانين، ولهذا قال: ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ ينصرهم فيخرجهم منها، أو يخفف عنهم من عذابها.

﴿٣٨﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ الْغَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ لما ذكر تعالى جزاء أهل الدارين، وذكر أعمال الفريقين، أخبر تعالى عن سعة علمه تعالى، وإطلاعه على غيب السماوات والأرض، التي غابت عن أبصار الخلق وعن علمهم، وأنه عالم بالسرائر، وما تنطوي عليه الصدور من الخير والشر والزكاه وغيره، فيعطي كلما ما يستحقه، وينزل كل أحد منزلته.

﴿٣٩﴾ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا مُقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ يجبر تعالى عن كمال حكمته ورحمته بعباده، أنه قدر بقضائه السابق، أن يجعل بعضهم يخلف بعضاً في الأرض، ويرسل لكل أمة من الأمم النذر، فينظر كيف يعملون، فمن كفر بالله وبما جاءت به رسله، فإن كفره عليه، وعليه إثمه وعقوبته، ولا يحمل عنه أحد، ولا يزداد الكافر بكفره إلا مقت ربه له وبغضه إياه، وأي: عقوبة أعظم

من مقت الرب الكريم؟!

﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً﴾ أي: يخسرون أنفسهم وأهليهم وأعمالهم ومنازلهم في الجنة، فالكافر لا يزال في زيادة من الشقاء والخسران، والخزي عند الله وعند خلقه والحرمان.

﴿٤٠﴾ ﴿قل أرايتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً﴾ يقول تعالى مُعْجِزاً لآلهة المشركين، ومبيناً نقصها، وبطلان شركهم من جميع الوجوه.

﴿قل﴾ يا أيها الرسول لهم: ﴿أرايتم﴾ أي: أخبروني عن شركائكم الذين تدعون من دون الله هل هم مستحقون للدعاء والعبادة، فـ ﴿أروني ماذا خلقوا﴾ [من الأرض] هل خلقوا بحراً أم خلقوا جبلاً أو خلقوا [حيواناً، أو خلقوا جاداً؟ سيقرن أن الخالق لجميع الأشياء هو الله تعالى، أم لشركائكم شركة في السموات] في خلقها وتبويرها؟ سيقولون: ليس لهم شركة.

فإذا لم يخلقوا شيئاً، ولم يشاركوا الخالق في خلقه، فلم عبدوهم ودعوتوهم مع إقراركم بعجزهم؟ فانتفى الدليل العقلي على صحة عبادتهم، ودل على بطلانها.

ثم ذكر الدليل السمعي، وأنه أيضاً منتف، فلهذا قال: ﴿أم آتيناهم كتاباً﴾ يتكلم بما كانوا به يشركون، يأمرهم بالشرك وعبادة الأوثان. ﴿فهم﴾ في شركهم ﴿على بينة﴾ من ذلك الكتاب الذي نزل عليهم في صحة الشرك؟

ليس الأمر كذلك؟ فإنهم ما نزل عليهم كتاب قبل القرآن، ولا جاءهم نذير قبل رسول الله محمد ﷺ، ولو قدر نزول كتاب إليهم، وإرسال رسول إليهم، وزعموا أنه أمرهم بشركهم، فإنا نجزم بكذبهم، لأن الله قال: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا

نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ فالرسول والكتب، كلها متفقة على الأمر بإخلاص الدين لله تعالى، ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾.

فإن قيل: إذا كان الدليل العقلي والنقلي قد دل على بطلان الشرك، فما الذي حمل المشركين على الشرك، وفيهم ذور العقول والذكاء والفتنة؟

أجاب تعالى بقوله: ﴿بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً﴾ أي: ذلك الذي مشوا عليه، ليس لهم فيه حجة، فإنما ذلك توصية بعضهم لبعض به، وتزيين بعضهم لبعض، واقتداء المتأخر بالتقدم الضال، وأمانى مآها الشيطان، وزين لهم [سوء] أعمالهم، فنشأت في قلوبهم، وصارت صفة من صفاتها، فمسر زوالها، وتعرس انفصالها، فحصل ما حصل من الإقامة على الكفر والشرك الباطل المضمحل.

﴿٤١﴾ ﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته، وتعام رحمته، وسعة حلمه ومغفرته، وأنه تعالى يمسك السماوات والأرض عن الزوال، فإنهما لو زالتا أمسكهما أحد من الخلق، ولمعجزت قدرهم وقواهم عنهما.

ولكنه تعالى، قضى أن يكونا كما وجدا، ليحصل للخلق القرار، والنفع والاعتبار، وليعلموا من عظيم سلطانه وقوة قدرته، ما به تمتلئ قلوبهم له إجلالاً وتعظيماً، ومحبة وتكريماً، وليعلموا كمال حلمه ومغفرته، بإمهال المذنبين، وعدم معاجلته للعاصين، مع أنه لو أمر السماء لحصبتهم، ولو أذن للأرض لابتلعتهم، ولكن وسعتهم مغفرته، وحلمه، وكرمه ﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾

﴿٤٢ - ٤٣﴾ ﴿واقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما

زادهم إلا نفوراً \* استكباراً في الأرض ومكر السيء ولا يجيئ المكر السيء إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن نجد لسنة الله تبديلاً ولن نجد لسنة الله تحويلاً﴾ أي: وأقسم هؤلاء، الذين كذبوك يا رسول الله، قسماً اجتهدوا فيه بالإيمان الغليظة: ﴿لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم﴾ أي: أهدى من اليهود والنصارى [أهل الكتب]، فلم يفوا بتلك الإقسامات والعهود.

﴿فلما جاءهم نذير﴾ لم يهتدوا، ولم يصيروا أهدى من إحدى الأمم، بل لم يدموا على ضلالهم الذي كان، بل ﴿ما زادهم﴾ ذلك ﴿إلا نفوراً﴾ زيادة ضلال وبغي وعناد.

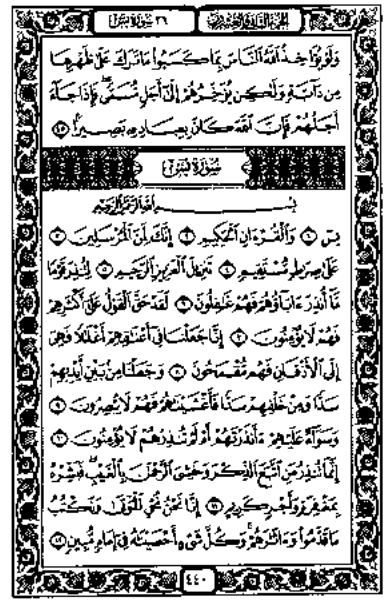
وليس إقسامهم المذكور، لقصد حسن، وطلب للحق، وإلا لوقفوا له، ولكنه صادر عن استكبار في الأرض على الخلق وعلى الحق، وبهجة في كلاسهم هذا، يريدون به المكر والخذاع، وأنهم أهل الحق، الحريصون على طلبه، فيغتر به المغترون، ويمشي خلفهم المقنتون.

﴿ولا يجيئ المكر السيء﴾ الذي مقصوده مقصود سيئ، ومآله وما يرمي إليه سيئ، باطل ﴿إلا بأهله﴾ فمكرهم إنما يعود عليهم، وقد أبان الله لعباده في هذه المقالات وتلك الإقسامات، أنهم كذبة في ذلك مزورون، فاستبان خزيم، وظهرت فضيحتهم، وتبين قصدهم السيئ، فعاد مكرهم في نحوهم، ورد الله كيدهم في صدورهم.

فلم يبق لهم إلا انتظار ما يحل بهم من العذاب، الذي هو سنة الله في الأولين، التي لا تبدل ولا تغير، أن كل من سار في الظلم والعتاد والاستكبار على العباد، أن يحل به نقمته، وتسلب عنه نعمته، فليترقب هؤلاء، ما فعل بأولئك.

﴿٤٤ - ٤٥﴾ ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا





رؤوسهم إلى فوق، ﴿فهم مقمحون﴾ أي: رافعو رؤوسهم من شدة الجبل الذي في أعناقهم، فلا يستطيعون أن يخفضوها.

﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً﴾ أي: حاجزاً يحجزهم عن الإيمان، ﴿فهم لا يبصرون﴾ قد غمهم الجهل والشقاء من جميع جوانبهم، فلم تدف فيهم النذارة. ﴿وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم ننذرهم لا يؤمنون﴾ وكيف يؤمن من طبع على قلبه، ورأى الحق باطلاً والباطل حقاً؟! والقسم الثاني: الذين قبلوا النذارة، وقد ذكرهم بقوله: ﴿إنما تنذر﴾ أي:

إنما تنفع نذارتك، ويتعظ بنصحك ﴿من أتبع الذكر﴾ [أي: من قصده اتباع الحق وما ذكر به، ﴿وخشي الرحمن بالغيب﴾ أي: من اتصف بهذين الأمرين، القصد الحسن في طلب الحق، وخشية الله تعالى، فهم الذين ينتفعون برسالتك، ويزكرون بتعليمك، وهذا الذي وفق لهذين الأمرين ﴿فيشره بمغفرة﴾ لذنوبه، ﴿وأجر كريم﴾ لأعماله الصالحة، ونيته الحسنة.

﴿إنما نحن نحيي الموتى﴾ أي: نبعثهم بعد موتهم لنجازيمهم على الأعمال، ﴿ونكتب ما قدموا﴾ من الخير والشر، وهو أعمالهم التي عملوها وباشروها في حال حياتهم، ﴿وأنا نرهم﴾ وهي آثار الخير وأثار الشر، التي كانوا هم السبب في إيجادها في حال حياتهم وبعد وفاتهم، وتلك الأعمال التي نشأت من أفعالهم وأفعالهم وأحوالهم، فكل خير عمل به أحد من الناس، بسبب علم العبد وتعليمه ونصحه، أو أمره بالمعروف، أو نهيه عن المنكر، أو علم أودعه عند المتعلمين، أو في كتب ينتفع بها في حياته وبعد موته، أو عمل خيراً، من صلاة أو زكاة أو صدقة أو إحسان، فاقنتى به غيره، أو عمل مسجداً، أو محلاً من المحال التي يرتفق بها الناس،

وما أشبه ذلك، فإنها من آثاره التي تكتب له، وكذلك عمل الشر.

ولهذا: ﴿من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة﴾.

وهذا الموضع، يبين لك علو مرتبة الدعوة إلى الله والهداية إلى سبيله بكل وسيلة وطريق موصل إلى ذلك، ونزول درجة الداعي إلى الشر الإمام فيه، وأنه أسفل الخليفة، وأشدهم جرماً، وأعظمهم إثماً.

﴿وكل شيء﴾ من الأعمال والنيات وغيرها ﴿أحصيناه في إمام مبین﴾ أي: كتاب هو أم الكتب وآلية مرجع الكتب، التي تكون بأيدي الملائكة، وهو اللوح المحفوظ.

﴿١٣﴾ - ﴿٣٠﴾ ﴿واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون﴾ إلى آخر القصة. أي: واضرب لهؤلاء المكذبين برسالتك، الرادين لدعوتك، مثلاً يعتبرون به، ويكون لهم موعظة إن وفقوا للخير، وذلك المثل: أصحاب القرية، وما جرى منهم من التكذيب لرسول الله، وما جرى عليهم من عقوبته ونكاله.

وتعيين تلك القرية، لو كان فيه فائدة، لعينها الله، فالتعرض لذلك وما أشبهه من باب التكلف والتكلم بلا علم، ولهذا إذا تكلم أحد في مثل هذا تجد عنده من الخبط والخلط والاختلاف الذي لا يستقر له قرار، ما تعرف به أن طريق العلم الصحيح، الوقوف مع الحقائق، وترك التعرض لما لا فائدة فيه، وبذلك تزكو النفس، ويزيد العلم، من حيث يظن الجاهل أن زيادته بذكر الأقوال التي لا دليل عليها، ولا حجة عليها ولا يحصل منها من الفائدة إلا تشويش الذهن واعتياد الأمور المشكوك فيها. والشاهد أن هذه القرية جعلها الله مثلاً للمخاطبين. ﴿إذ جاءها

من الكتب، عامدين الرسل، قد عمتهم الجهالة، وغمرتهم الضلالة، وأضحكوا عليهم وعلى سفههم عقول العالمين، فأرسل الله إليهم رسولا من أنفسهم، يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، فينذر العرب الأميين، ومن لحق بهم من كل أمي، ويذكر أهل الكتب بما عندهم من الكتب، فنعمة الله به على العرب خصوصاً، وعلى غيرهم عموماً. ولكن هؤلاء الذين بعثت فيهم لإنذارهم بعدما أنذرتهم، انقسموا قسمين: قسم رد لما جئت به، ولم يقبل النذارة، وهم الذين قال الله فيهم ﴿لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون﴾ أي: نفذ فيهم القضاء والمشيئة، أنهم لا يزالون في كفرهم وشركهم، وإنما حق عليهم القول بعد أن عرض عليهم الحق فرفضوه، فحينئذ عوقبوا بالطبع على قلوبهم.

وذكر الموانع من وصول الإيمان لقبولهم، فقال: ﴿إنما جعلنا في أعناقهم أغلالاً﴾ وهي جمع «غل» و «الغل»: ما يغلق به العنق، فهو للعنق بمنزلة القيد للرجل، وهذه الأغلال التي في الأعناق<sup>(١)</sup>، عظيمة قد وصلت إلى أذقانهم ورفعت

(١) كذا في ب، وفي أ: الأذقان.





أوجد الله هذه الشمار، غير محتاجة لطبخ ولا شوي، تؤخذ من أشجارها، فتؤكل في الحال. ﴿أفلا يشكرون﴾ من ساق لهم هذه النعم، وأسبغ عليهم من جوده وإحسانه، ما به تصلح أمور دينهم ودنياهم، أليس الذي أحياها الأرض بعد موتها، فأنتبت فيها الزروع والأشجار، وأودع فيها لذيذ الشمار، وأظهر ذلك الجنى من تلك العصفون، وفجر الأرض اليابسة الميتة بالعيون، بقادر على أن يحيي الموتى؟ بل، إنه على كل شيء قدير.

﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها﴾ أي: الأصناف كلها، ﴿وما تنبت الأرض﴾ فنوع فيها من الأصناف ما يعسر تعداده. ﴿ومن أنفسهم﴾ فنوعهم إلى ذكر وأنثى، وفأوت بين خلقهم وخلقهم، وأوصافهم الظاهرة والباطنة. ﴿وما لا يعلمون﴾ من المخلوقات التي قد خلقت وغابت عن علمنا، والتي لم يتخلق بعد، فسبحانه وتعالى أن يكون له شريك، أو ظهير، أو عوين، أو وزير، أو صاحبة، أو ولد، أو سجي، أو شبيه، أو مثيل في صفات كماله ونعمته وجلاله، أو يعجزه شيء يريد.

﴿٣٧-٤٠﴾ ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون﴾ والنسج تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴿والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم﴾ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴿أي: ﴿وآية لهم﴾ على نفوذ مشيئة الله، وكمال قدرته، وإحيائه الموتى بعد موته. ﴿الليل نسلخ منه النهار﴾ أي: نزيل الضياء العظيم الذي طبق الأرض، فبدله بالظلمة، ونحلها عنه ﴿فإذا هم مظلمون﴾ وكذلك نزيل هذه الظلمة، التي عمتهم وشملتهم، فتطلع الشمس، فتضيء الأقطار، وينتشر الخلق لمعاشهم ومصالحهم، ولهذا قال: ﴿والشمس تجري لمستقر

﴿٣١-٣٢﴾ ﴿الم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم اليهم لا يرجعون﴾ وإن كل ما جمع لدينا محضرون ﴿يقول تعالى: ألم ير هؤلاء ويعتبروا بمن قبلهم من القرون المكذبة، التي أهلكها الله تعالى وأوقع بها عقابها، وأن جميعهم قد باد وهلك، فلم يرجع إلى الدنيا، ولن يرجع إليها، وسيعيد الله الجميع خلقاً جديداً، ويبعثهم بعد موتهم، ومحضرون بين يديه تعالى، ليحكم بينهم بحكمه العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة، ﴿وإن تك حسنة يضاعفها، ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾.

﴿٣٣-٣٦﴾ ﴿وآية لهم الأرض مليئة أحييناها وأخرجنا منها حياً فمنه يأكلون﴾ وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ﴿ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون﴾ سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون ﴿أي: ﴿وآية لهم﴾ على البعث والنشور، والقيام بين يدي الله تعالى للجزاء على الأعمال، هذه ﴿الأرض الميتة﴾ أنزل الله عليها المطر، فأحياها<sup>(١)</sup> بعد موتها، وأخرجنا منها حياً فمنه يأكلون ﴿من جميع أصناف الزروع، ومن جميع أصناف النبات، التي تأكله أنعامهم، وجعلنا فيها﴾ أي: في تلك الأرض الميتة ﴿جنات﴾ أي: بساتين، فيها أشجار كثيرة، وخصوصاً النخيل والأعناب، اللذان هما أشرف الأشجار، ﴿وفجرنا فيها﴾ أي: في الأرض ﴿من العيون﴾

جعلنا في الأرض تلك الأشجار، والنخيل والأعناب، ﴿ليأكلوا من ثمره﴾ قوتاً وفاكهة، وأذماً ولذة، ﴿و﴾ الحال أن تلك الثمار ﴿ما عملته أيديهم﴾ وليس لهم فيه صنع، ولا عمل، إن هو إلا صنعة أحكم الحاكمين، وخير الرازقين، وأيضاً فلم تعمله أيديهم، بطبخ ولا غيره، بل

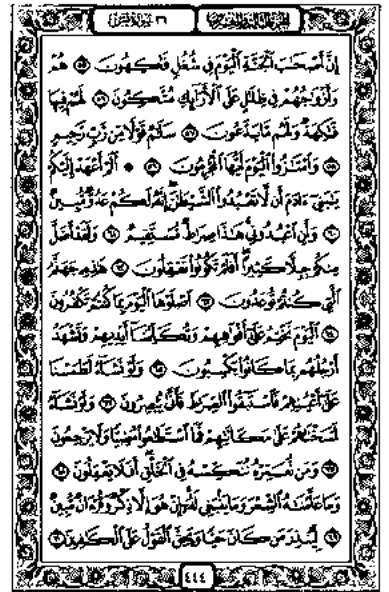
بأنواع الثوبات والمسرات، أي: لو وصل علم ذلك إلى قلوبهم، لم يقيموا على شركهم.

قال الله في عقوبة قومه: ﴿وما أنزلنا على قومه﴾ من بعده من جند من السماء ﴿أي: ما احتجنا أن نتكلف في عقوبتهم، فننزل جنداً من السماء لإتلافهم، ﴿وما كنا منزلين﴾ لعدم الحاجة إلى ذلك، وعظمة اقتدار الله تعالى، وشدة ضعف بني آدم، وأنهم أدنى شيء يصيبهم من عذاب الله يكفيهم. ﴿إن كانت﴾ أي: كانت عقوبتهم ﴿إلا صيحة واحدة﴾ أي: صوتاً واحداً، تكلم به بعض ملائكة الله، ﴿فإذا هم خامدون﴾ قد تقطعت قلوبهم في أجوافهم، وانزعجوا لتلك الصيحة، فأصبحوا خامدين، لا صوت ولا حركة، ولا حياة بعد ذلك العتو والاستكبار، ومقابلة أشرف الخلق بذلك الكلام القبيح، وتجبرهم عليهم.

قال الله متوجعاً للعباد: ﴿يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن﴾ أي: ما أعظم شقاءهم، وأطول عناءهم، وأشد جهلهم، حيث كانوا بهذه الصفة القبيحة، التي هي سبب لكل شقاء وعذاب ونكال!!







معارضين للحق، محتجين بالمشيئة: ﴿أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إلا في ضلال مين، حيث تأمرونا بذلك.

وهذا مما يدل على جهلهم العظيم، أو تجاهلهم الوخيم، فإن المشيئة ليست حجة لمعاصي أبدا، فإنه وإن كان ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فإنه تعال مكن العباد، وأعطاهم من القوة ما يقدرون على فعل الأمر واجتناب النهي، فإذا تركوا ما أمروا به، كان ذلك اختياراً منهم، لا جبراً لهم وقهراً.

﴿ويقولون﴾ على وجه التكذيب والاستعجال: ﴿مضى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ قال الله تعال: لا يستبعدوا ذلك، فإنه [عن] قريب ﴿ما ينظرون إلا صيحة واحدة﴾ وهي نفخة الصور ﴿تأخذهم﴾ أي: تصيبهم ﴿وهم يخلصون﴾ أي: وهم لا هون عنها، لم تحظر على قلوبهم في حال خصومتهم، وتشاجرهم بينهم، الذي لا يوجد في الغالب إلا وقت الغفلة، وإذا أخذتهم وقت غفلتهم، فإنهم لا ينظرون ولا يمهلون ﴿فلا يستطيعون توصية﴾ أي: لا قليلة ولا كثيرة ﴿ولا إلى أهلهم يرجعون﴾

﴿٥١-٥٤﴾ ﴿ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون﴾ قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون \* إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون \* فالיום لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ النفخة الأولى، هي نفخة الفزع والموت، وهذه نفخة البعث والنشور، فإذا نفخ في الصور، خرجوا من الأجداث والقبور، ينسلون إلى ربهم، أي: يسرعون للحضور بين يديه، لا يتمكنون من التأني والتأخر، وفي تلك الحال، يحزن المكذبون، ويظهرون الحسرة والندم، ويقولون:

﴿يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا﴾ أي: من رقدتنا في القبور، لأنه ورد في بعض الأحاديث، أن لأهل القبور رقدة قبيل النفخ في الصور، فيجابون، فيقال [لهم]: ﴿هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾ أي: هذا الذي وعدكم الله به، ووعدتكم به الرسل، فظهر صدقهم رأياً عين.

ولا تحسب أن ذكر الرحمن في هذا الموضع، لمجرد الخبر عن وعده، وإنما ذلك للإخبار بأنه في ذلك اليوم العظيم، سيرون من رحمته ما لا ينظر على الظنون، ولا حسب به الحاسبون، كقوله: ﴿الملك يومئذ الحق للرحمن﴾ ﴿وخشعت الأصوات للرحمن﴾ ونحو ذلك، مما يذكر اسمه الرحمن في هذا.

﴿إن كانت﴾ البعثة من القبور ﴿إلا صيحة واحدة﴾ ينفخ فيها إسرائيلي في الصور، فتحيا الأجساد، ﴿فإذا هم جميع لدينا محضرون﴾ الأولون والآخرون، والإنس والجن، ليحاسبوا على أعمالهم.

﴿فالיום لا تظلم نفس شيئاً﴾ لا ينقص من حسناتها، ولا يزداد في سيئاتها، ﴿ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ من خير أو شر، فمن وجد خيراً فليحمد الله على ذلك، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

﴿٥٥-٥٨﴾ ﴿إن أصحاب الجنة﴾ اليوم في شغل فاكهون \* هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون \* لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون \* سلام قولاً من رب رحيم﴾ [لما ذكر تعال] أن كل أحد لا يجازي إلا ما عمله، ذكر جزاء الفريقين، فبدأ بجزاء أهل الجنة، وأخبر أنهم في ذلك اليوم ﴿في شغل فاكهون﴾ أي: في شغل مفكه للنفس، مُبْدِل لها، من كل ما تمراه النفوس، وتلذذه العيون، ويتمناه التمتنون.

ومن ذلك افتتاض العذارى الجميلات، كما قال: ﴿هم وأزواجهم﴾ من الحور العين، اللاتي قد

الغرق، و [لهذا] نبههم على نعمته عليهم حيث<sup>(١)</sup> أنجاهم مع قدرته على ذلك، فقال: ﴿وإن نشأ نفرقهم فلا صريح لهم﴾ أي: لا أحد يصرخ لهم فيعاونهم على الشدة، ولا يزيل عنهم المشقة، ﴿ولا هم ينفذون﴾ مما هم فيه، ﴿إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين﴾ حيث لم نفرقهم، لطفاً بهم، وتميماً لهم إلى حين، لعلهم يرجعون، أو يستدركون ما فرط منهم.

﴿وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم﴾ أي: من أحوال البرزخ والقيامة، وما في الدنيا من العقوبات لعلكم ترحمون﴾ عرضوا عن ذلك، فلم يرفعوا به رأساً، ولو جاءهم كل آية، ولهذا قال: ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين﴾. وفي إضافة الآيات إلى ربهم، دليل على كمالها ووضوحها، لأنه ما أبين من آية من آيات الله، ولا أعظم بياناً.

وإن من جملة تربية الله لعباده، أن أوصل إليهم الآيات التي يستدلون بها على ما يتفهم في دينهم وديناهم.

﴿وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله﴾ أي: من الرزق الذي من به الله عليكم، ولو شاء لسلبكم إياه، ﴿قال الذين كفروا للذين آمنوا﴾

كانوا يكسبون ﴿أي: تشهد عليهم أعضاؤهم بما عملوه، وينطقها الذي أنطق كل شيء﴾.

﴿ولو نشاء لطمسنا على أعينهم﴾ بأن نذهب أبصارهم، كما طمسنا على نطقهم. ﴿فاستبقوا الصراط﴾ أي: فبادروا إليه، لأنه الطريق إلى الوصول إلى الجنة، ﴿فأنى يبصرون﴾ وقد طمسنا أبصارهم.

﴿ولو نشاء لمسخناهم على مكائهم﴾ أي: لأذهبنا حركتهم ﴿فما استطاعوا مضياً﴾ إلى الأمام ﴿ولا يرجعون﴾ إلى ورائهم ليعبدوا عن النار. والمعنى: أن هؤلاء الكفار، حقت عليهم كلمة العذاب، ولم يكن بد من عقابهم.

وفي ذلك الموطن، ما تم إلا النار قد برزت، وليس لأحد نجاة إلا بالعبور على الصراط، وهذا لا يستطيعه إلا أهل الإيمان، الذين يمشون في نورهم، وأما هؤلاء، فليس لهم عند الله عهد في النجاة من النار؛ فإن شاء طمس أعينهم وأبى حركتهم، فلم يبتدوا إلى الصراط لو استبقوا إليه وبادروه، وإن شاء أذهب حراكهم فلم يستطيعوا التقدم ولا التأخر. المقصود: أنهم لا يعبرونه، فلا تحصل لهم النجاة.

﴿٦٨﴾ ﴿ومن نعلمه ننكسه في الخلق أفلا يعقلون﴾ يقول تعالى: ﴿ومن نعلمه من بني آدم ننكسه في الخلق﴾ أي: يعود إلى الحالة التي ابتدأ حالة الضعف، ضعف العقل، وضعف القوة. ﴿أفلا يعقلون﴾ أن الأدمي ناقص من كل وجه، فينداركوا قوتهم وعقولهم، فيستعملونها في طاعة ربهم.

﴿٦٩ - ٧٠﴾ ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾ لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ﴿ينزه تعالى نبيه محمداً ﷺ عما رماه به المشركون، من أنه شاعر، وأن الذي جاء به شعر فقال: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾ أن يكون شاعراً، أي: هذا من

المجرمون ﴿أي: تميزوا عن المؤمنين، وكونوا على حدة، ليوبخهم ويقرعهم على رؤوس الأشهاد قبل أن يدخلهم النار، فيقول لهم: ﴿لم أعهد إليكم﴾ أي: أمركم وأوصيكم، على السنة رسلي، [وأقول لكم]: ﴿يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان﴾ أي: لا تطيعوه؟ وهذا التوبيخ، يدخل فيه التوبيخ عن جميع أنواع الكفر والمعاصي، لأنها كلها طاعة للشيطان وعبادة له، ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ فحذرتكم منه غاية التحذير، وأذرتكم عن طاعته، وأخبرتكم بما يدعوكم إليه، ﴿و﴾ أمرتكم ﴿أن اعبدوني﴾ بامثال أوامري وترك زواجري، ﴿هذا﴾ أي: عبادتي وطاعتي، ومعصية الشيطان ﴿صراط مستقيم﴾ فعلوم الصراط المستقيم وأعماله ترجع إلى هذين الأمرين، أي: فلم تحفظوا عهدي، ولم تعملوا بوصيتي، فواليتم عدوكم، ذ ﴿أضل منكم جيلاً كثيراً﴾ أي: خلقاً كثيراً. ﴿أفلم تكونوا تعقلون﴾ أي: فلا كان لكم عقل يأمركم بموالاته ويحكم ووليكم الحق، ويزجركم عن اتخاذ أعدى الأعداء لكم ولياً، فلو كان لكم عقل صحيح لما تعلمت ذلك، فإذا أظعن الشيطان، وعاديتم الرحمن، وكذبتم بلقائه، ووردتم القيامة دار الجزاء، وحق عليكم القول بالعذاب ف ﴿هذه جهنم التي كنتم توعدون﴾ وتكذبون بها، فانظروا إليها عياناً، فهناك تنزعج منهم القلوب، وتزوغ الأبصار، ويحصل الفرع الأكبر.

ثم يكمل ذلك، بأن يؤمر بهم إلى النار، ويقال لهم: ﴿اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون﴾ أي: ادخلوها على وجه تصلاكم، ويغيط بكم حرها، ويبلغ منكم كل مبلغ، بسبب كفركم بآيات الله، وتكذيبكم لرسول الله.

قال الله تعالى في بيان وصفهم الفظيع في دار الشقاء: ﴿اليوم نختم على أفواههم﴾ بأن نجعلهم خرساً فلا يتكلمون، فلا يقدرّون على إنكار ما عملوه من الكفر والتكذيب. ﴿وتكلمنا أيديهم﴾

جمعن حسن الوجوه والأبدان وحسن الأخلاق. ﴿ففي ظلال على الأراك﴾ أي: على السرر المزينة باللباس الزخرف الحسن. ﴿متكئون﴾ عليها، اتكأ على كمال الراحة والطمأنينة واللذة.

﴿لهم فيها فاكهة﴾ كثيرة، من جميع أنواع الثمار اللذيذة، من عنب وتين ورمان، وغيرها، ﴿ولهم ما يدهون﴾ أي: يطالبون، فمهما طلبوه وتمنوه أدركوه.

ولهم أيضاً ﴿سلام﴾ حاصل لهم ﴿من رب رحيم﴾ ففي هذا كلام الرب تعالى لأهل الجنة وسلامه عليهم، وأكده بقوله: ﴿قولاً﴾ وإذا سلم عليهم الرب الرحيم، حصلت لهم السلامة التامة من جميع الوجوه، وحصلت لهم التحية، التي لا تحية أعلى منها، ولا نعيم مثلها، فما ظنك بتحية ملك الملوك، الرب العظيم، الرؤوف الرحيم، لأهل دار كرامته، الذي أحل عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبداً، فلولا أن الله تعالى قنر أن لا يموتوا، أو نزول قلوبهم عن أماكنها من الفرح والبهجة والسرور، لحصل ذلك.

فترجو ربنا أن لا يحرمنا ذلك النعيم، وأن يمتعنا بالنظر إلى وجهه الكريم.

﴿٥٩ - ٦٧﴾ ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴿وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم﴾ ولقد أضل منكم جيلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ﴿هذه جهنم التي كنتم توعدون﴾ اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون ﴿ولو نشاء لمسخناهم على مكائهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون﴾ لما ذكر تعالى جزاء المتقين، ذكر جزاء المجرمين ﴿و﴾ أنهم يقال لهم يوم القيامة ﴿امتازوا اليوم أيها

جنس المحال أن يكون شاعراً، لأنه رشيد مهتد، والشعراء غاؤون، يتبعهم الغاؤون، ولأن الله تعالى حسم جميع الشبه التي يتعلّق بها الضالون على رسوله، فحسم أن يكون يكتب أو يقرأ، وأخبر أنه ما علمه الشعر وما ينبغي له، **﴿إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾** أي: ما هذا الذي جاء به إلا ذكر يتذكر به أولو الألباب، جميع المطالب الدينية، فهو مشتمل عليها أتم اشتمال، وهو يذكر العقول، ما ركز الله في فطرها من الأمر بكل حسن، والنهي عن كل قبيح.

**﴿وقرآن مبين﴾** أي: مبين لما يطلب بيانه. ولهذا حذف المعمول، ليدلّ على أنه مبين لجميع الحق، بأدلته التفصيلية والإجمالية، والباطل وأدلة بطلانه، أنزله الله كذلك على رسوله.

**﴿لينذر من كان حياً﴾** أي: حي القلب واعيه، فهو الذي يزكو على هذا القرآن، وهو الذي يزداد من العلم منه والعمل، ويكون القرآن لقلبه بمنزلة المطر للأرض الطيبة الزاكية. **﴿ويحق القول على الكافرين﴾** لأنهم قامت عليهم به حجة الله، وانقطع احتجاجهم، فلم يبق لهم أدنى عذر وشبهة يُدّلون بها.

**﴿٧١- ٧٣﴾** **﴿أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون﴾** وذلكنا لهم فمنا ركوبهم ومنها يأكلون \* ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون؟ يأمر تعالى العباد بالنظر إلى ما سخر لهم من الأنعام وذلكها، وجعلهم مالكين لها، مطاوعة لهم في كل أمر يريدونه منها، وأنه جعل لهم فيها منافع كثيرة من حملهم وحمل أبقالهم ومحملهم وأمتعتهم من محل إلى محل، ومن أكلهم منها، وفيها دفاء، ومن أوبارها وأشعارها وأصوافها أثاثاً ومتاعاً إلى حين، وفيها زينة وجمال، وغير ذلك من المنافع المشاهدة منها، **﴿أفلا**

يشكرون﴾ الله تعالى الذي أنعم بهذه الشّحم، ويخلصون له العبادة ولا يتمتعون بها تمتعاً خالياً من العبادة والفكرة.

**﴿٧٤- ٧٥﴾** **﴿واتخذوا من دون الله آلهة لهم ينصرون﴾** لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون؟ هذا بيان لبطلان آلهة المشركين، التي <sup>(١)</sup> اتخذوها مع الله تعالى، ورجوا نصرها وشفعها، فإنها في غاية العجز **﴿لا يستطيعون نصرهم﴾** ولا أنفسهم ينصرون، فإذا كانوا لا يستطيعون نصرهم، فكيف ينصرونهم؟ والنصر له شرطان: الاستطاعة **﴿والقدرة﴾** <sup>(٢)</sup>، فإذا استطاع، يبقى: هل يريد نصرة من عبده أم لا؟ فتفتي الاستطاعة، ينفي الأمرين كليهما.

**﴿وهم لهم جند محضرون﴾** أي: محضرون هم وهم في العذاب، ومتبرئ بعضهم من بعض، أفلا تبرأوا في الدنيا من عبادة هؤلاء، وأخلصوا العبادة للذي بيده الملك والنفع والضّر، والعتاء والمنع، وهو الولي النصير؟

**﴿٧٦﴾** **﴿فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يملنون﴾** أي: فلا يحزنك يا أيها الرسول، قول المكذبين، والمراد بالقول: ما دل عليه السياق، كل قول يقدهون فيه في الرسول، أو فيما جاء به.

أي: فلا تشغل قلبك بالحزن عليهم **﴿إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون﴾** فنجازيم على حسب علمنا بهم، وإلا فقولهم لا يضرك شيئاً.

**﴿٧٧- ٨٣﴾** **﴿أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾** وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم \* قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم \* الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون \*  
 (١) كذا في ب، وفي أ: الذي.  
 (٢) زيادة من هامش ب، ويبدو - والله أعلم - أن الشرطين هما: الاستطاعة والإرادة، وبقية كلام الشيخ - رحمه الله - يدل على ذلك.

أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم \* إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون \* فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون؟ هذه الآيات الكريمات، فيها [ذكر] شبهة منكري البعث، والجواب عنها بأنهم جواب وأحسنه وأوضحه، فقال تعالى: **﴿أولم ير الإنسان﴾** المنكر للبعث والشك فيه، أمرأ يفيد اليقين التام بوقوعه، وهو ابتداء خلقه **﴿من نطفة﴾** ثم تنقله في الأطوار شيئاً فشيئاً، حتى كبر وشب، وتم عقله واستتب، **﴿فإذا هو خصيم مبين﴾** بعد أن كان ابتداء خلقه من نطفة، فلينظر التفاوت بين هاتين الحالتين، وليعلم أن الذي أنشأه من العدم، قادر على أن يعيده بعدما تفرق وتمزق، من باب أولى.

**﴿وضرب لنا مثلاً﴾** لا ينبغي لأحد أن يضربه، وهو قياس قدرة الخالق بقدرة المخلوق، وأن الأمر المستبعد على قدرة المخلوق مستبعد على قدرة الخالق.

فسر هذا المثل [بقوله]: **﴿قال﴾** ذلك الإنسان **﴿من يحيي العظام وهي رميم﴾** أي: هل أحد يحييها؟ استفهام إنكار، أي: لا أحد يحييها بعدما بليت وتلاشت.

هذا وجه الشبهة والمثل، وهو أن هذا أمر في غاية البعد على ما يعهد من قدرة البشر، وهذا القول الذي صدر من هذا الإنسان غفلة منه، ونسيان لا يتبادر لخلقته، فلو فطن لخلقته بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً فوجد عياناً، لم يضرب هذا المثل.

فأجاب تعالى عن هذا الاستبعاد بجواب شاف كاف، فقال: **﴿قل﴾** يحييها الذي أنشأها أول مرة \* وهذا بمجرد تصوره، يعلم به علماً يقيناً لا شبهة فيه، أن الذي أنشأها أول مرة





﴿ولهم عذاب واصب﴾ أي: دائم، معد لهم، لتمردهم عن طاعة ربهم.

ولولا أنه [تعالى] استثنى، لكان ذلك دليلاً على أنهم لا يستمعون شيئاً أصلاً، ولكن قال: ﴿إلا من خطف الخطفة﴾ أي: إلا من تلقف من الشياطين الردة، الكلمة الواحدة على وجه الخفية والسرقة، ﴿فأبتمه شهاب ثاقب﴾ تارة يدركه قبل أن يوصلها إلى أولياته، فيقطع خير السماء، وتارة يجبر بها قبل أن يلركه الشهاب، فيكذبون معها مئة كذبة يروجونها بسبب الكلمة التي سمعت من السماء.

ولما بين هذه المخلوقات العظيمة قال: ﴿فاستفهم﴾ أي: اسأل منكري خلقهم بعد موتهم، ﴿أهم أشد خلقاً﴾ أي: إيجادهم بعد موتهم، أشد خلقاً وأشق؟ ﴿أم من خلقنا﴾ من [هذه] المخلوقات؟ فلا يد أن يقرؤا أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس.

فيلزمهم إذا الإقرار بالبعث، بل لو رجعوا إلى أنفسهم وفكروا فيها، لعلموا أن ابتداء خلقهم من طين لازب، أصعب عند الفكر من إنشأهم بعد موتهم، ولهذا قال: ﴿إننا خلقناهم من طين لازب﴾ أي: قوي شديد كقوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من

صلصالٍ من حمأ مسنون﴾.

﴿١٢ - ٢١﴾ ﴿بل عجبنا

ويستخرون \* وإذا ذكروا لا يذكرون \* وإذا رأوا آية يستسخرون \* وقالوا إن هذا إلا سحر مبين \* أمذا مننا وكنا تراباً وعظاماً إنا لمبعوثون \* أو آياتنا الأولون \* قل نعم وأنتم داخرون \* فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون \* وقالوا

يا ويلنا هذا يوم الدين \* هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون﴾ ﴿بل عجبنا﴾ يا أيها الرسول وأياها الإنسان، من تكذيب من كذب بالبعث، بعد أن أريتهم من الآيات العظيمة والأدلة المستقيمة، وهو حقيقة محل عجب واستغراب، لأنه مما لا يقبل الإنكار، ﴿و﴾ أعجب من إنكارهم وأبلغ منه، أنهم ﴿يستخرون﴾ من جاء بالخبر عن البعث، فلم يكفهم مجرد الإنكار، حتى زادوا السخرية بالقول الحق.

﴿و﴾ من العجب أيضاً أنهم ﴿إذا ذكروا﴾ ما يعرفون في فطرتهم وعقولهم، وفطنوا له، وألفت نظرهم إليه ﴿لا يذكرون﴾ ذلك، فإن كان جهلاً، فهو من أدل الدلائل على شدة بلائهم العظيمة، حيث ذكروا ما هو مستقر في الفطر، معلوم بالعقل، لا يقبل الإشكال، وإن كان تجاهلاً وعتاداً، فهو أعجب وأغرب.

ومن العجب [أيضاً] أنهم إذا أقيمت عليهم الأدلة، وذكروا الآيات التي يرضع لها فحول الرجال واليئاب الآباء، يسخرون منها ويعجبون. ومن العجب أيضاً، قولهم للحق لما جاءهم: ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾ فجعلوا أعلى الأشياء وأجلها، وهو الحق، في رتبة أخس الأشياء وأحقها.

ومن العجب أيضاً، قياسهم قدرة رب الأرض والسماوات، على قدرة آدمي الناقص من جميع الوجوه، فقالوا استبعاداً وإنكاراً: ﴿إذا مننا وكنا تراباً وعظاماً إنا لمبعوثون \* أو آياتنا

الأولون﴾

ولما كان هذا منتهى ما عندهم، وغاية ما لديهم، أمر الله رسوله أن يجيبهم بجواب مشتمل على ترهيبهم<sup>(١)</sup>، فقال: ﴿قل نعم﴾ ستبعثون، أنتم وآبائكم الأولون ﴿وأنتم داخرون﴾ ذليلون صاغرون، لا تمتنعون، ولا تستعصون على قدرة الله.

﴿فإنما هي زجرة واحدة﴾ ينفخ إسرافيل فيها في الصور ﴿فإذا هم مبعوثون من قبورهم﴾ ينظرون﴾ كما ابتدء خلقهم، بعثوا بجميع أجزائهم، حفاة عراة غرلاً، وفي تلك الحال، يظهرون الندم والحزني والحسار، ويدعون بالويل والبور.

﴿وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين﴾ فقد أقرؤا بما كانوا في الدنيا به يستهزؤون.

فيقال لهم: ﴿هذا يوم الفصل﴾ بين العباد فيما بينهم وبين ربهم من الحقوق، وفيما بينهم وبين غيرهم من الخلق.

﴿٢٢ - ٢٦﴾ ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون \* من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم \* وقومهم إتهم مسؤولون \* ما لكم لا تناصرون \* بل هم اليوم مستسلمون﴾ أي: إذا أحضروا يوم القيامة، وعابنوا ما به يكذبون، ورأوا التي بها كانوا يكذبون، فيقال: ﴿احشروا الذين ظلموا﴾ أنفسهم بالكفر والشرك والمعاصي، ﴿وأزواجهم﴾ الذين من جنس عملهم، كل يضم إلى من يجانسه في العمل.

﴿وما كانوا يعبدون \* من دون الله﴾ من الأصنام والأنداد التي زعموها، فاجمعوهم جميعاً فاهدوهم إلى صراط الجحيم﴾ أي: سوقوهم سوقاً عنيفاً إلى جهنم، وبعد ما يتبعين أمرهم إلى النار، ويعرفون أنهم من أهل

دار البوار، يقال: «وقفوه» قبل أن توصلوهم إلى جهنم [إنهم مسؤولون] عما كانوا يفترونه في الدنيا، ليظهر على رؤوس الأشهاد كذبهم وفضيحتهم.

يقال لهم: «مالكم لا تناصرون؟» أي: ما الذي جرى عليكم اليوم؟ وما الذي طرفكم لا ينصر بعضكم بعضاً، ولا يغيب بعضكم بعضاً، بعدما كنتم تزعمون في الدنيا، أن آلهتكم ستدفع عنكم العذاب وتغيثكم وتشفع لكم عند الله، فكأنهم لا يسيبون هذا السؤال، لأنهم قد علاهم الذل والصغار، واستسلموا لعذاب النار، وخشعوا وخضعوا وأبلسوا، فلم ينطقوا.

ولهذا قال: «بل هم اليوم مستسلمون».

﴿٢٧ - ٣٩﴾ «وأقبل بعضهم على بعض يتسألون» قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين \* قالوا بل لم تكونوا مؤمنين \* وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين \* فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون \* فأغويناكم إنا كنا غاوين \* فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون \* إنا كذلك نفعل بالمجرمين \* إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله فدعوا إليها، وأمروا بترك إلهة ما سواه يستكبرون \* عنها وعلى من جاء بها \* ويقولون \* معارضة لها: «إنا لتاركوا آلها» التي لم نزل نعبدها نحن وآبائنا ﴿١﴾ قول ﴿شاعر مجنون﴾ يعنون محمداً ﷺ. فلم يكفهم - قبحهم الله - الإعراض عنه، ولا مجرد تكذيبه، حتى حكموا عليه بأظلم الأحكام، وجعلوه شاعراً مجنوناً، وهم يعلمون أنه لا يعرف الشعر والشعراء، ولا وصفه وصفهم، وأنه أعقل خلق الله، وأعظمهم رأياً.

ولهذا قال تعالى، ناقضاً لقولهم: ﴿بل جاء﴾ محمد ﴿بالحق﴾ أي: بحجته حق، وما جاء به من الشرع والكتاب حق. ﴿وصدق المرسلين﴾ [أي: وحجته صدق المرسلين] فلولا حجته وإرساله لم يكن الرسل صادقين، فهو آية ومعجزة لكل رسول قبله، لأنهم أخبروا به وبشروا، وأخذ الله عليهم العهد والميثاق، لئن جاءهم ليؤمنن به

﴿و﴾ الحال أنه «ما كان لنا عليكم من سلطان» أي: قهر لكم على اختيار الكفر ﴿بل كنتم قوماً طاغين﴾ متجاوزين للحد (١).

﴿فحق علينا﴾ نحن وإياكم ﴿إنا لذائقون﴾ العذاب، أي: حق علينا قدر ربنا وقضاؤه، أنا وإياكم صندوق العذاب، ونشترك في العقاب ﴿فذلك﴾ ذلك ﴿أغويناكم إنا كنا غاوين﴾ أي: دعوناكم إلى طريقتنا التي نحن عليها، وهي الغواية، فاستجبتم لنا، فلا تلوونا ولوموا أنفسكم.

قال تعالى: ﴿فإنهم يومئذ﴾ أي: يوم القيامة ﴿في العذاب مشتركون﴾ وإن تفاوتت مفايير عذابهم بحسب

جرمهم، كما اشتركوا في الدنيا على الكفر، اشتركوا في الآخرة بجزائه، ولهذا قال: ﴿إنا كذلك نفعل بالمجرمين﴾ ثم ذكر أن إجرامهم قد بلغ الغاية وجاوز النهاية، فقال: ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله فدعوا إليها، وأمروا بترك إلهة ما سواه يستكبرون﴾ عنها وعلى من جاء بها.

﴿ويقولون﴾ معارضة لها: ﴿إنا لتاركوا آلها﴾ التي لم نزل نعبدها نحن وآبائنا ﴿١﴾ قول ﴿شاعر مجنون﴾ يعنون محمداً ﷺ. فلم يكفهم - قبحهم الله - الإعراض عنه، ولا مجرد تكذيبه، حتى حكموا عليه بأظلم الأحكام، وجعلوه شاعراً مجنوناً، وهم يعلمون أنه لا يعرف الشعر والشعراء، ولا وصفه وصفهم، وأنه أعقل خلق الله، وأعظمهم رأياً.

ولهذا قال تعالى، ناقضاً لقولهم: ﴿بل جاء﴾ محمد ﴿بالحق﴾ أي: بحجته حق، وما جاء به من الشرع والكتاب حق. ﴿وصدق المرسلين﴾ [أي: وحجته صدق المرسلين] فلولا حجته وإرساله لم يكن الرسل صادقين، فهو آية ومعجزة لكل رسول قبله، لأنهم أخبروا به وبشروا، وأخذ الله عليهم العهد والميثاق، لئن جاءهم ليؤمنن به

مأكل ولا شاربون ﴿١﴾ من ذر النجم مستسلمون ﴿٢﴾ وأولئك الذين  
على نصر سكتون ﴿٣﴾ قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ﴿٤﴾  
قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ﴿٥﴾ وما كان لنا عليكم من سلطان ﴿٦﴾  
بل كنتم قوماً طاغين ﴿٧﴾ فحق علينا ﴿٨﴾ إنا لذائقون ﴿٩﴾  
فذلك ﴿١٠﴾ أغويناكم إنا كنا غاوين ﴿١١﴾ أي: دعوناكم إلى  
طريقتنا التي نحن عليها، وهي الغواية، فاستجبتم لنا، فلا  
تلوونا ولوموا أنفسكم ﴿١٢﴾ قال تعالى: ﴿فإنهم يومئذ﴾ أي:  
يوم القيامة ﴿في العذاب مشتركون﴾ وإن تفاوتت مفايير  
عذابهم بحسب جرمهم، كما اشتركوا في الدنيا على الكفر،  
اشتركوا في الآخرة بجزائه، ولهذا قال: ﴿إنا كذلك نفعل  
بالمجرمين﴾ ثم ذكر أن إجرامهم قد بلغ الغاية وجاوز  
النهاية، فقال: ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله  
فدعوا إليها، وأمروا بترك إلهة ما سواه يستكبرون﴾ عنها  
وعلى من جاء بها. ﴿ويقولون﴾ معارضة لها: ﴿إنا لتاركوا  
آلها﴾ التي لم نزل نعبدها نحن وآبائنا ﴿١﴾ قول ﴿شاعر  
مجنون﴾ يعنون محمداً ﷺ. فلم يكفهم - قبحهم الله -  
الإعراض عنه، ولا مجرد تكذيبه، حتى حكموا عليه بأظلم  
الأحكام، وجعلوه شاعراً مجنوناً، وهم يعلمون أنه لا  
يعرف الشعر والشعراء، ولا وصفه وصفهم، وأنه أعقل  
خلق الله، وأعظمهم رأياً.

ولينصرنه، وأخذوا ذلك على أمهم، فلما جاء ظهر صدق الرسل الذين قبله، وتبين كذب من خالفهم، فلو قدر عدم حجته، وهم قد أخبروا به، لكان ذلك قادحاً في صدقهم.

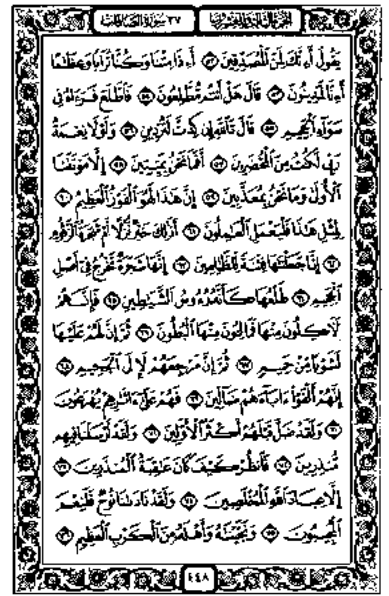
وصدق أيضاً المرسلين، بأن جاء بما جاؤوا به، ودعا إلى ما دعوا إليه، وآمن بهم، وأخبر بصحة رسالتهم ونبوتهم وشرعهم.

ولما كان قولهم السابق: ﴿إنا لذائقون﴾ قولاً صادراً منهم، يحتمل أن يكون صدقاً أو غيره، أخبر تعالى بالقول الفصل الذي لا يحتمل غير الصدق واليقين، وهو الخير الصادر منه تعالى، فقال: ﴿إنكم لذائقوا العذاب الأليم﴾ أي: المؤلم الموجه، ﴿ومسأ تجزون﴾ في إذاعة العذاب الأليم ﴿إلا ما كنتم تعملون﴾ فلم نظلمكم، وإنما عدلنا فيكم؟

ولما كان هذا الخطاب لفظه عاماً، والمراد به الشركون، استثنى تعالى المؤمنين فقال:

﴿٤٠ - ٤٩﴾ ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ أولئك لهم رزق معلوم \* فواكه وهم مكرمون \* في جنات النعيم \* على سرر متقابلين \* بظاف عليهم بكأس من معين \* بيضاء لذة للشاربين \* لا فيها غول ولا هم عنها

(١) كنا في ب، وفي أ: للحق.



الفاخرة، المزخرفة الجميلة، فهم متكئون عليها على وجه الراحة والطمانينة والفرح. ﴿متقابلين﴾ فيما بينهم، قد صفت قلوبهم ومحبتهم فيما بينهم، ونعموا باجتماع بعضهم مع بعض، فإن مقابلة وجوههم، تدل على تقابل قلوبهم، وتآدب بعضهم مع بعض، فلم يستدبره أو يجعله إلى جانبه، بل من كمال السرور والأدب ما دل عليه ذلك التقابل.

﴿يطاف عليهم بكأس من معين﴾ أي: يتردد الولدان المستعدون لخدمتهم بالأشربة اللذيذة، بالكاسات الجميلة المنظر، المترعة من الرحيق المختوم بالمسك، وهي كاسات الخمر.

وتلك الخمر، تخالف خمر الدنيا من كل وجه، فإنها في لونها ﴿بيضاء﴾ من أحسن الألوان، وفي طعمها ﴿لذة للشاربين﴾ يتلذذ شاربها بها وقت شربها وبعده، وأنها سالمة من غول العقل وذهابه ونزفه ونزف مال صاحبا، وليس فيها صداع ولا كدر، فلما ذكر طعامهم وشربهم وبجالسهم وعموم النعيم وتفاصيله داخله في قوله: ﴿جنات النعيم﴾.

لكن فصل هذه الأشياء لتعلم فنتشاق النفوس إليها، ذكر أزواجهم فقال: ﴿وعندهم قاصرات الطرف عين﴾ أي: وعند أهل دار النعيم، في محلاتهم القريبة، حور حسان، كاملات الأوصاف، قاصرات الطرف، إما أنها قصرت طرفها على زوجها، لعفتها وعدم مجاوزته لغيره، ولجمال زوجها وكماله، بحيث لا تطلب في الجنة سواه، ولا ترغب إلا به، وإما لأنها قصرت طرف زوجها عليها، وذلك يدل على كمالها وجمالها الفائق، الذي أوجب لزوجها أن يقصر طرفه عليها، وقصر الطرف أيضاً، يدل على قصر النفس والمحبة عليها، وكلا المعنيين محتمل، وكلاهما صحيح، و [كل] هذا يدل على جمال الرجال والنساء في الجنة، ومحبة بعضهم بعضاً، محبة لا يطمح إلى غيره، وشدة عفتهم كلهم، وأنه لا حسد فيها ولا تباضح

ولا تشاحن، وذلك لانتفاء أسبابه. ﴿عين﴾ أي: جنان العين جيلاتها، ملاح الحدق، ﴿كأنهن﴾ أي: الحور ﴿بيض مكنون﴾ أي: مستور، وذلك من حسنهن وصفاتهن وكون ألوانهن أحسن الألوان وأبهاها، ليس فيه كدر ولا شين.

﴿٥٠ - ٦١﴾ ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتسألون﴾ قال قائل منهم إن كان لي قرين ﴿يقول إنك لمن المصدقين﴾ إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أأنا لمدينون ﴿قال هل أنتم مطعون﴾ فاطلع قرأه في سواء الجحيم ﴿قال تالله إن كنت لثريدين﴾ ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين ﴿أفما نحن بميتين﴾ إلا موتنا الأولى وما نحن بمعذبين ﴿إن هذا ليهو الفوز العظيم﴾ مثل هذا فليعمل العاملون ﴿لما ذكر تعالى نعيمهم وقام سرورهم، بالآكل والمشرب، والأزواج الحسان، والمجالس الحسنة، ذكر تذاكرهم فيما بينهم، ومطاراتهم للأحداث عن الأمور الماضية، وأنهم ما زالوا في المحادثة والتساؤل، حتى أفضى ذلك بهم، إلى أن قال قائل منهم: ﴿إني كان لي قرين﴾ في الدنيا ينكر البعث، ويلومني على تصديقي به، و ﴿يقول﴾ لي ﴿إنك لمن المصدقين﴾ إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أأنا لمدينون﴾ أي: مجازون بأعمالنا؟ أي: كيف تصدق بهذا الأمر البعيد، الذي في غاية الاستغراب، وهو أننا إذا تمزقنا فصرنا تراباً وعظاماً، أننا نبعث ونعاد، ثم نحاسب ونجازى بأعمالنا؟!!!

أي: يقول صاحب الجنة لإخوانه: هذه قصتي، وهذا خبري، أنا وقريبي، ما زلت أنا مؤمناً مصدقاً، وهو ما زال مكذباً منكراً للبعث، حتى متنا، ثم بعثنا، فوصلت أنا إلى ما ترون من النعيم الذي أخبرنا به الرسل، وهو لا شك أنه قد وصل إلى العذاب. ف ﴿هل أنتم مطعون﴾ لتنظر إليه، فنزداد غبطة وسروراً بما نحن فيه، ويكون ذلك رأيي عين؟ والظاهر من حال أهل الجنة، وسرور بعضهم

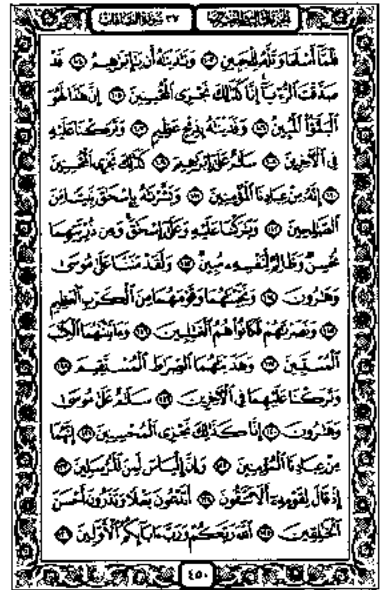
ببعضهم \* وعندهم قاصرات الطرف عين \* كأنهن بيض مكنون \*.

يقول تعالى: ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ فإنهم غير ذائقي العذاب الأليم، لأنهم أخلصوا لله الأعمال، فأخلصهم، واختصهم برحمته، وجاد عليهم بلطفه، ﴿أولئك لهم رزق معلوم﴾ أي: غير مجهول، وإنما هو رزق عظيم جليل، لا يجهل أمره، ولا يبلغ كنهه، فسره بقوله: ﴿فواكه﴾ من جميع أنواع الفواكه التي تنفكه بها النفس، للذتها في لونها وطعمها. ﴿وهم مكرمون﴾ لا مهانون محتقرون، بل معظمون مجلبون موقرون، قد أكرم بعضهم بعضاً، وأكرمتهم الملائكة الكرام، وصاروا يدخلون عليهم من كل باب، ويثوبهم ببلوغ أهنأ الثواب، وأكرمهم أكرم الأكرمين، وجاد عليهم بأنواع الكرامات، من نعيم القلوب والأرواح والأبدان، ﴿في جنات النعيم﴾ أي: الجنات التي النعيم وصفها، والسرور نعتها، وذلك لما جمعتها، بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وسلمت من كل غلج بنعيمها، من جميع المكدرات والنخصات.

ومن كرامتهم عند ربهم، وإكرام بعضهم بعضاً، أنهم على ﴿سرور﴾ وهي المجالس المرتفعة، المزينة بأنواع الأكسية







ينذرونهم عن غيبهم وضلالهم،  
﴿فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾  
كانت عاقبتهم الهلاك والحزني  
والفضيحة، فليحذر هؤلاء أن يستمروا  
على ضلالهم، فيصيبيهم مثل ما  
أصابهم.

ولما كان المنذرون لبسوا<sup>(١)</sup> كلهم  
ضالين، بل منهم من آمن وأخلص  
الدين لله، استثناء الله من الهلاك  
فقال: ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ أي:  
الذين أخلصهم الله، وخصهم برحمته  
لإخلاصهم، فإن عواقبهم صارت  
حيدة.

ثم ذكر أمثودجا من عواقب الأمم  
المكذبين، فقال:

﴿٧٥-٨٢﴾ ﴿ولقد نادانا نوح  
فلنم الجيبون \* ونجيناه وأهله من  
الكراب العظيم \* وجعلنا ذرية هم  
الباقين \* وتركنا عليه في الآخرين \*  
سلام على نوح في العالمين \* إنا كذلك  
نجزي المحسنين \* إنه من عبادنا  
المؤمنين \* ثم أغرقنا الآخرين﴾ يخبر  
تعالى عن عبده ورسوله نوح عليه  
السلام أول الرسل، أنه لما دعا قومه  
إلى الله تلك المدة الطويلة، فلم يزددهم  
دعاه إلا فرارا، أنه نادى ربه فقال:  
﴿رب لا تدر على الأرض من الكافرين  
ديارا﴾ الآية.

وقال: ﴿رب انصرنى على القوم  
المفسدين﴾ فاستجاب الله له، ومدح  
تعالى نفسه فقال: ﴿فلننم الجيبون﴾  
لدعاء الداعين، وسمع تبتلهم  
وتضرعهم، أجابه إجابة طابق ما  
سأل، نجاه وأهله من الكراب العظيم،  
وأغرق جميع الكافرين، وأبقى نسله  
وذريته متسللين، فجميع الناس من  
ذرية نوح عليه السلام، وجعل له ثناء  
حسنا مستمرا إلى وقت الآخرين،  
وذلك لأنه عمن في عبادة الخالق،  
عمن إلى الخلق، وهذه سُنَّته تعالى في  
المحسنين، أن ينشر لهم من الثناء على  
حسب إحسانهم.

ودل قوله: ﴿إنه من عبادنا  
المؤمنين﴾ أن الإيمان أرفع منازل  
العباد، وأنه مشتمل على جميع شرائع  
الدين وأصوله وفروعه، لأن الله مدح  
به خواص خلقه.

﴿٨٣-١١٣﴾ ﴿وان من شيعته  
لإبراهيم﴾ إلى آخر القصة، أي: وإن  
من شيعه نوح عليه السلام، ومن هو  
على طريقته في النبوة والرسالة، ودعوة  
الخلق إلى الله، وإجابة الدعاء، إبراهيم  
الخليل عليه السلام. ﴿إذ جاء ربه  
بقلب سليم﴾ من الشرك والشبه،  
والشهوات المانعة من تصور الحق  
والعمل به، وإذا كان قلب العبد  
سليما، سلم من كل شر، وحصل له  
كل خير، ومن سلامته، أنه سليم من  
غش الخلق وحسدهم، وغير ذلك من  
مساوىء الأخلاق، ولهذا نصح الخلق  
في الله، وبدأ بأبيه وقومه، فقال: ﴿إذ  
قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون﴾ هذا  
استفهام بمعنى<sup>(٢)</sup> الإنكار، وإلزام لهم  
بالحجة.

﴿إفكأ آلهة دون الله تريدون﴾ أي:  
أتعبدون لمن دونه آلهة كذبا، ليست  
بآلهة، ولا تصلح للعبادة، فما ظنكم  
برب العالمين أن يفعل بكم وقد عبدتم  
معه غيره؟ وهذا ترهيب لهم بالجزاء  
بالعقاب على الإقامة على شركهم.  
وما الذي ظننتم برب العالمين، من

النقص حتى جعلتم له أندادا وشركاء.  
فأراد عليه السلام أن يكسر  
أصنامهم ويتمكن من ذلك، فانتهاز  
الفرصة في حين غفلة منهم لما ذهبوا إلى  
عبد من أعبادهم، فخرج معهم ﴿فنظر  
نظرة في النجوم \* فقال إني سقيم﴾.

في الحديث الصحيح: ﴿لم يكذب  
إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات:  
قوله: ﴿إني سقيم﴾ وقوله: ﴿بل فعله  
كبيرهم هذا﴾ وقوله عن زوجته ﴿إنها  
أختي﴾، والقصد أنه تخلف عنهم، ليم  
له الكيد بألقتهم ﴿ف﴾ لهذا ﴿تولوا عنه  
مديرين﴾ فلما وجد الفرصة، ﴿فراغ  
إلى آلقتهم﴾ أي: أسرع إليها على وجه  
الخبية والمراوغة، ﴿فقال﴾ متكهما بها  
﴿إلا تأكلون \* ما لكم لا تنطقون﴾

أي: فكيف يليق أن تُعبد، وهي أنقص  
من الحيوانات التي تأكل أو تكلم؟ فهذه  
جماد لا تأكل ولا تكلم. ﴿فراغ عليهم  
ضربا باليمين﴾ أي: جعل يضربها  
بقوته ونشاطه، حتى جعلها جذادا، إلا  
كبيراً لهم، لعلهم إليه يرجعون،  
﴿فأقبلوا إليه يرفون﴾ أي: يسرعون  
ويهرعون، أي: يريدون أن يوقعوا به،  
بعدما بحثوا وقالوا: ﴿من فعل هذا  
بالهنا إنه لمن الظالمين﴾.

وقيل لهم: ﴿سمعنا فتى يذكرهم  
يقال له إبراهيم﴾ يقول: ﴿تالله لا أكيدن  
أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين﴾  
فويخوه ولا موه، فقال: ﴿بل فعله  
كبيرهم هذا فاسألوه إن كانوا  
ينطقون \* فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا  
إنكم أنتم الظالمون \* ثم نكسوا على  
رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء  
ينطقون \* قال أتعبدون من دون الله  
ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم﴾  
الآية. و ﴿قال﴾ هنا: ﴿أتعبدون ما  
تحتون﴾ أي: تحتونه بأيديكم  
وتصنعونه؟ فكيف تعبدونهم، وأنتم  
الذين صنعتموهم، وتتركون  
الإخلاص لله؟ الذي ﴿خلقكم وما  
تعملون﴾ قالوا ابناؤه ببنائنا﴾ أي:  
عاليا مرتفعا، وأوقدوا فيها النار

(٢) في ب: على وجه.

(١) كذا في: ب، وفي أ: ليس.

﴿فالتفوه في الجحيم﴾ جزء على ما فعل من تكبير الكهتهم.

﴿فأرادوا به كيداً﴾ ليقتلوه أشنع قتلة ﴿فجعلناهم الأسفلين﴾ رد الله كيدهم في نحورهم، وجعل النار على إبراهيم برداً وسلاماً.

﴿و﴾ لما فعلوا فيه هذا الفعل، وأقام عليهم الحجة، وأعذر منهم، ﴿قال إني ذاهب إلى ربي﴾ أي: مهاجر إليه، قاصد إلى الأرض المباركة أرض الشام. ﴿سهيدين﴾ يدلني إلى ما فيه الخير لي، من أمر ديني ودنياي، وقال في الآية الأخرى: ﴿وأعزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوري عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقياً﴾.

﴿رب هب لي﴾ ولداً يكون ﴿من الصالحين﴾ وذلك عندما آيس من قومه ولم يَز فيهم خيراً، دعا الله أن يهب له غلاماً صالحاً ينفع الله به في حياته وبعد مماته، فاستجاب الله له وقال: ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾ وهذا إسماعيل عليه السلام بلا شك، فإنه ذكر بعده البشارة [بإسحاق]؛ ولأن الله تعالى قال في بشرناه بإسحاق ﴿فبشرناها﴾ بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴿فدل على أن إسحاق غير الذبيح، ووصف الله إسماعيل عليه السلام بالحلم، وهو ينضمّن الصبر، وحسن الخلق، وسعة الصدر، والعفو عن جنى﴾.

﴿فلما بلغ﴾ الغلام ﴿معه السعي﴾ أي: أدرك أن يسمى معه، وبلغ سنّاً يكون في الغالب أحب ما يكون لوالديه، قد ذهبت مشقته، وأقبلت منفعت، فقال له إبراهيم عليه السلام: ﴿إني أرى في المنام أني أذبحك﴾ أي: قد رأيت في النوم والرؤيا، أن الله يأمرني بذبحك، ورؤياً<sup>(١)</sup> الأنبياء وحي، ﴿فانظر ماذا ترى﴾ فإن أمر الله تعالى لا بد من تنفيذه، ﴿قال﴾ إسماعيل صابراً محتسباً، مرضياً لربه، وباراً بوالده: ﴿يا أبت افعل ما تؤمر﴾ أي: [امض] لما أمرك الله ﴿ستجدني إن﴾

شاء الله من الصابرين﴾ أخبر أباه أنه موطن نفسه على الصبر، وقرن ذلك بمشيئة الله تعالى، لأنه لا يكون شيء بدون مشيئة الله تعالى.

﴿فلما أسلما﴾ أي: إبراهيم وابنه إسماعيل، جازماً بقتل ابنه وثمرة فؤاده، امتثالاً لأمر ربه، وخوفاً من عقابه، والابن قد وطن نفسه على الصبر، وهانت عليه في طاعة ربه، ورضا والده، ﴿وئله للعجين﴾ أي: تلّ إبراهيم إسماعيل على جبينه، ليضعه فيذبحه، وقد انكب لوجهه لئلا ينظر وقت الذبح إلى وجهه.

﴿ونسألهن﴾ في تلك الحال المزعجة، والأمر المدهش: ﴿أن يا إبراهيم﴾ قد صدقت ﴿أي: قد فعلت ما أمرت به، فإنك وطنت نفسك على ذلك، وفعلت كل سبب، ولم يبق إلا إمرار السكين على حلقه، ﴿إننا كذلك نجزي المحسنين﴾ في عبادتنا، المقدمين رضانا على شهوات أنفسهم.

﴿إن هذا﴾ الذي امتحنا به إبراهيم عليه السلام ﴿لهو البلاء المبين﴾ أي: الواضح، الذي تبين به صفاء إبراهيم، وكمال محبته لربه وخلته، فإن إسماعيل عليه السلام لما وهبه الله لإبراهيم، أحبه حباً شديداً، وهو خليل الرحمن، والخلّة أعلى أنواع المحبة، وهو منصب لا يقبل المشاركة ويقضي أن تكون جميع أجزاء القلب متعلقة بالمحجوب، فلما تعلقت شعبة من شعب قلبه بآبته إسماعيل، أراد تعالى أن يصفى وُدّه ويختبر خلته، فأمره أن يذبح من زاحم حيث حبّ ربه، فلما قدم حب الله، وآثره على هواه، وعزم على ذبحه، وزال ما في القلب من المزاحم، بقي الذبح لا فائدة فيه، فلهذا قال: ﴿إن هذا هو البلاء المبين﴾ وفديناه بذبح عظيم ﴿أي: صار بدله ذبح من الغنم عظيم، ذبحه إبراهيم، فكان عظيماً من جهة أنه كان فداء لإسماعيل، ومن جهة أنه من جملة العبادات الجليلة، ومن جهة أنه كان قرباناً وسقّة إلى يوم

القيامة.

﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ سلاماً على إبراهيم ﴿أي: وأبقينا عليه ثناء صادقاً في الآخرين، كما كان في الأولين، فكل وقت بعد إبراهيم عليه السلام، فإنه [فيه] محبوب معظم مثني عليه.

﴿سلام على إبراهيم﴾ أي: تحيته عليه كقول: ﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى﴾.

﴿إننا كذلك نجزي المحسنين﴾ في عبادة الله، ومعاملته خلقه، أن نفرح عنهم الشدائد، ونجعل لهم العاقبة والثناء الحسن.

﴿إنه من عبادنا المؤمنين﴾ بما أمر الله بالإيمان به، الذين بلغ بهم الإيمان إلى درجة اليقين، كما قال تعالى: ﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين﴾.

﴿١١٢﴾ ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾ هذه البشارة الثانية بإسحاق، الذي من ورائه يعقوب، فبشر بوجوده وبقائه، ووجود ذريته، وكونه نبياً من الصالحين، فهي بشارات متعددة.

﴿وباركنا عليه وعلى إسحاق﴾ أي: أنزلنا عليهما البركة، التي هي النمو والزيادة في علمهما وعمليهما وذريتهما، فنشر الله من ذريتهما ثلاث أسم عظيمة: أمة العرب من ذرية إسماعيل، وأمة بني إسرائيل، وأمة الروم من ذرية إسحاق. ﴿ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾ أي: منهم الصالح والطالح، والمعادل والظالم الذي تبين ظلمه بكرمه وشركه، ولعل هذا من باب دفع الإيهام، فإنه لما قال: ﴿وباركنا عليه وعلى إسحاق﴾ اقتضى ذلك البركة في ذريتهما، وأن من تمام البركة، أن تكون الذرية كلهم محسنين، فأخبر الله تعالى أن منهم محسناً وظالماً، والله أعلم.

﴿١١٤ - ١٢٢﴾ ﴿ولقد مننا على﴾

أي: من ربه مغاضباً له، ظاناً أنه لا يقدر عليه، ويجبسه في بطن الحوت، ولم يذكر الله ما غاضب عليه، ولا ذنبه الذي ارتكبه، لعدم فائدتنا بذكره، وإنما فائدتنا بما ذكرنا عنه أنه أذنب، وعاقبه الله مع كونه من الرسل الكرام، وأنه نجاه بعد ذلك، وأزال عنه الملام، وقبض له ما هو سبب صلاحه.

فلما أتى لجأ ﴿إلى الفلك المشحون﴾ بالركاب والأمتعة، فلما ركب مع غيره، والفلك شاحن، نقلت السفينة، فاحتاجوا إلى إلقاء بعض الركبان، وكانهم لم يجدوا لأحد مزية في ذلك، فافترعوا على أن من قرع وغلب، ألقى في البحر عدلاً من أهل السفينة، وإذا أراد الله أمراً هياً أسبابه.

فلما اقتنعوا أصابت القرعة يونس ﴿فكان من المدحضين﴾ أي: المغلوبيين، فألقى في البحر ﴿فالتقمه الحوت وهو﴾ وقت التقامة ﴿مليماً﴾ أي: فاعل ما يلام عليه، وهو مغاضبه لربه.

﴿فلولا أنه كان من المسبحين﴾ أي: في وقته السابق بكثرة عبادته لربه وتسبيحه وتحميده، وفي بطن الحوت حيث قال: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إنني كنت من الظالمين﴾.

﴿ولبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ أي: لكانت مقبرته، ولكن بسبب تسبيحه وعبادته لله، نجاه الله تعالى، وكذلك ينجي الله المؤمنين عند وقوعهم في الشدائد. ﴿فنبذناه بالعماء﴾ بأن قذفه الحوت من بطنه بالعماء، وهي الأرض الخالية العارية من كل أحد، بل ربما كانت عارية من الأشجار والظلال. ﴿وهو سقيم﴾

أي: قد سقم ومرض، بسبب حبسه في بطن الحوت، حتى صار مثل الفرخ المعوط من البيضة.

﴿وأنبأنا عليه شجرة من يقطين﴾ تظله بظلها الظليل، لأنها بادرة باردة الظلال، ولا يسقط عليها ذباب، وهذا من لطفه به وبره.

في العذاب، ولم يذكر لهم عقوبة دنيوية. ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ أي: الذين أخلصهم الله ومن عليهم باتباع نبيهم، فإنهم غير محضرين في العذاب، وإنما لهم من الله جزيل الثواب. ﴿وتركنا عليه﴾ أي: على إلياس ﴿في الآخرين﴾ ثناء حسناً، ﴿سلام على إن ياسين﴾ أي: تحية من الله ومن عباده عليه.

﴿إننا كذلك نجزي المحسنين﴾ إنه من عبادنا المؤمنين ﴿فأثنى الله عليه كما أثنى على إخوانه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين﴾.

﴿١٣٣ - ١٣٨﴾ ﴿وإن لسوطاً لمن المرسلين﴾ إذ نجيتاه وأهله أجمعين ﴿إلا عجوزاً في الغابرين﴾ ثم دمرونا الآخرين ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين﴾ وبالليل أفلا تعقلون ﴿وهذا ثناء منه تعالى على عبده ورسوله لوط، بالنبوة والرسالة، ودعوته إلى الله قومه، وتهميمهم عن الشرك وفعل الفاحشة، فلما لم ينتهوا، نجاه الله وأهله أجمعين، فسروا ليلاً فنجوا﴾.

﴿إلا عجوزاً في الغابرين﴾ أي: الباقين المعذبين، وهي زوجة لوط لم تكن على دينه. ﴿ثم دمرونا الآخرين﴾ بأن قلبنا عليهم ديارهم ﴿فجعلنا عليها سافلها، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود﴾ حتى همدوا وخذلوا.

﴿وإنكم لتمرون عليهم﴾ أي: على ديار قوم لوط ﴿مصبحين﴾ وبالليل أي: في هذه الأوقات يكثرت ترددكم إليها ومروركم بها، فلم تقبل الشك والمرية. ﴿أفلا تعقلون﴾ الآيات والعبير، وتنزجرون عما يوجب الهلاك؟

﴿١٣٩ - ١٤٨﴾ ﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾ إلى آخر القصة. وهذا ثناء منه تعالى على عبده ورسوله يونس بن متى، كما أثنى على إخوانه المرسلين، بالنبوة والرسالة، والدعوة إلى الله، وذكر تعالى عنه، أنه عاقبه عقوبة دنيوية، أنجاه منها بسبب إيمانه وأعماله الصالحة، فقال: ﴿إذ أبق﴾

موسى وهارون﴾ إلى آخر القصة يذكر تعالى مثته على عبديه ورسوله موسى وهارون ابني عمران، بالنبوة والرسالة، والدعوة إلى الله تعالى، ونجاتهما وقومهما من عدوهما فرعون، ونصرهما عليه، حتى أغرقه الله وهم ينظرون، وإنزال الله عليهما الكتاب المستبين، وهو التوراة التي فيها الأحكام والمواعظ وتفصيل كل شيء، وأن الله هداهما الصراط المستقيم، بأن شرع لهما ديناً ذا أحكام وشرائع مستقيمة موصلة إلى الله، ومن عليهما بسلوكة.

﴿وتركنا عليهما في الآخرين﴾ سلاماً على موسى وهارون ﴿أي: أبقى عليهما ثناء حسناً، وتحية في الآخرين، ومن باب أولى وأحرى في الأولين﴾ ﴿إننا كذلك نجزي المحسنين﴾ ﴿إنهما من عبادنا المؤمنين﴾.

﴿١٣٢ - ١٣٣﴾ ﴿وإن إلياس لمن المرسلين﴾ إذ قال لقومه ألا تتقون ﴿أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين﴾ الله ربكم ورب آبائكم الأولين ﴿فكذبوه فإنهم لمحضرون﴾ إلا عباد الله المخلصين ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ سلام على إن ياسين ﴿إننا كذلك نجزي المحسنين﴾ إنه من عبادنا المؤمنين ﴿يمدح تعالى عبده ورسوله إلياس عليه الصلاة والسلام، بالنبوة والرسالة، والدعوة إلى الله، وأنه أمر قومه بالتقوى وعبادة الله وحده، ونهاهم عن عبادتهم صنماً لهم يقال له «بعل»، وتركهم عبادة الله، الذي خلق الخلق، وأحسن خلقهم، ورباهم فأحسن تربيتهم، وأدب عليهم النعم الظاهرة والباطنة، وأنكم كيف تركتم عبادة الله من هذا شأنه، إلى عبادة صنم لا يضر ولا ينفع، ولا يخلق ولا يرزق، بل لا يأكل ولا يتكلم؟! وهل هذا إلا من أعظم الضلال والسفه والغي؟!

﴿فكذبوه﴾ فيما دعاهم إليه، فلم ينقادوا له، قال الله متوعداً لهم: ﴿فإنهم لمحضرون﴾ أي: يوم القيامة



أقوالهم الشيعة التي وصفوه بها، نزه نفسه عنها فقال: ﴿سبحان ربك﴾ أي: تنزه وتعالى ﴿رب العزة﴾ [أي: الذي عز فقهر كل شيء، واعتز عن كل سوء يصفونه به، ﴿وسلام على المرسلين﴾ لسلامتهم من الذنوب والآفات، وسلامة ما وصفوا به فاطر الأرض والسموات.

والحمد لله رب العالمين ﴿الآلف واللام للاستغراق، فجميع أنواع الحمد من الصفات الكاملة العظيمة، والأفعال التي ربي بها العالمين، وأدب عليهم فيها النعم، وصرف عنهم بها النقم، ودبرهم تعالى في حركاتهم وسكنوتهم، وفي جميع أحوالهم، كلها لله تعالى، فهو المقدس عن النقص، المحمود بكل كمال، المحبوب المعظم، ورسله سالون مسلم عليهم، ومن اتبعهم في ذلك له السلامة في الدنيا والآخرة. [وأعداؤه لهم الهلاك والعطب في الدنيا والآخرة<sup>(١)</sup>.

#### تم تفسير سورة الصافات

في ٦ شوال سنة ١٣٤٣ هـ على يد جامعه وكاتبه: عبد الرحمن بن ناصر السعدي وصلى الله على سيدنا محمد وسلم تسليماً والحمد لله الذي بنعمته

#### تم الصالحات

المجدد السابع من تفسير الكرمي المصنف في تفسير آيات القرآن لجامعه: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين

### تفسير سورة ص وهي مكية

فهدي الله من هدى لهذا، وأبى الكافرون به وبمن أنزله، وصار معهم ﴿عزة وشقاق﴾ عزة وامتناع عن الإيمان به، واستكبار وشقاق له، أي: شاقة ومخاصمة في رده وإبطاله، وفي القدح بمن جاء به.

فتوعدهم بإهلاك القرون الماضية المكذبة بالرسول، وأنهم حين جاءهم الهلاك، نادوا واستغاثوا في صرف العذاب عنهم ولكن ﴿لات حين مناص﴾ أي: وليس الوقت وقت خلاص مما وقعوا فيه، ولا فرج لما أصابهم، فليخز هؤلاء أن يدوموا على عزتهم وشقاقهم، فيصيبيهم ما أصابهم.

﴿١١ - ١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ص والقرآن ذي الذكر﴾ بل الذين كفروا في عزة وشقاق ﴿كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص﴾ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾ وانطلق الملائمة أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا



الأولين، لأخلصنا لله العبادة، بل لكنا المخلصين على الحقيقة.

وهم كذبة في ذلك، فقد جاءهم أفضل الكتب فكفروا به، فعلم أنهم متمردون على الحق، ﴿فسوف يعلمون﴾ العذاب حين يقع بهم، ولا يحسبوا أيضاً أنهم في الدنيا غالبون، بل قد سبقت كلمة الله التي لا مرد لها ولا مخالف لها لعباده المرسلين وجنده المفلحين، أنهم الغالبون لغيرهم، المنصورون من ربهم نصراً عزيزاً، يتمكنون فيه من إقامة دينهم، وهذه بشارة عظيمة لمن اتصف بأنه من جند الله، بأن كانت أحواله مستقيمة، وقاتل من أمر بقتالهم، أنه غالب منصور.

ثم أمر رسوله بالإعراض عمّن عاندوا ولم يقبلوا الحق، وأنه ما بقي إلا انتظار ما يجلب بهم من العذاب، ولهذا قال: ﴿وأبصرهم فسوف يبصرون﴾ من يجلب به النكال، فإنه سيحل بهم. ﴿فيذا نزل بساحتهم﴾ أي: نزل عليهم، وقریباً منهم ﴿فساء صباح المنذرين﴾ لأنه صباح الشر والعقوبة والاستئصال. ثم كرز الأمر بالثبوت عليهم، وتهديدهم بوقوع العذاب.

ولما ذكر في هذه السورة كثيراً من



وسبيل الله إن الذين يصلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب لما ذكر تعالى أنه أتى نبيه داود الفصل في الخطاب بين الناس، وكان معروفاً بذلك مقصوداً، ذكر تعالى نبأ خصمين اختصما عنده في قضية جعلهما الله فتنه لداود، وموعظة لخلل ارتكبه، فتاب الله عليه وغفر له، وقبض له هذه القضية، فقال لنبيه

محمد ﷺ: ﴿وهل أتاك نبأ الخصم﴾ فإنه نبأ عجيب ﴿إذ تسؤروا﴾ على داود المحراب: أي: عمل عبادته من غير إذن ولا استئذان، ولم يدخلوا عليه مع باب، فلذلك لما دخلوا عليه بهذه الصورة، فرغ منهم وخاف، فقالوا له:

نحن خصمان فلا تخف وبغى بعضنا على بعض بالظلم فاحكم بيننا بالحق: أي: بالعدل، ولا تمل مع أحدنا ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط

والمقصود من هذا، أن الخصمين قد عرف أن قصدهما الحق الواضح الصرف، وإذا كان ذلك، فسيقصمان عليه نيابهما بالحق، فلم يشتمز نبي الله داود من وعظهما له، ولم يؤنبهما.

فقال أحدهما: ﴿إن هذا أخي﴾ نص على الأخوة في الدين أو النسب أو الصداقة، لاقتضائها عدم البغى، وأن بغية الصادر منه أعظم من غيره. ﴿له تسع وتسعون نعجة﴾ أي: زوجة، وذلك خير كثير، يوجب عليه الفئاعة بما آتاه الله. ﴿ولي نعجة واحدة﴾ فطمع فيها ﴿فقال أكفئنيها﴾ أي: دعها لي، وخلصها في كفالتني. ﴿وعزني في الخطاب﴾ أي: غلبني في القول، فلم يزل يي حتى أدرکہا أو كاد.

فقال داود - لما سمع كلامه - ومن المعلوم من السياق السابق من كلامهما، أن هذا هو الواقع، فلهذا لم يحتاج أن يتكلم الآخر، فلا وجه للاعتراض بقول القائل: ﴿لم حکم داود قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر؟﴾

ومن أعظم العابدين، نبي الله داود عليه الصلاة والسلام ﴿ذا الأيدي﴾ أي: القوة العظيمة على عبادة الله تعالى، في يده وقلبه. ﴿إنه أواب﴾ أي: رجوع إلى الله في جميع الأمور بالإجابة إليه، بالحب والتأله، والخوف والرجاء، وكثرة التصرع والدعاء، رجوع إليه عندما يقع منه بعض الخلل، بالإقلاع والتوبة النصوح.

ومن شدة إنابته لربه وعبادته، أن سخر الله الجبال معه، تسبح معه بحمد ربه ﴿بالعشي والإشراق﴾ أول النهار وآخره.

﴿و﴾ سخر الطير عشورة معه مجموعة كل من الجبال والطيور، لله تعالى ﴿أواب﴾ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يا جبال أوبي معه والطيور﴾ فهذه مئة الله عليه بالعبادة، ثم ذكر منته عليه بالملك العظيم فقال: ﴿وشددنا ملكه﴾ أي: قوته بما أعطيناه من الأسباب وكثرة العدد والعدد التي بها قوى الله ملكه، ثم ذكر منته عليه بالعلم، فقال: ﴿وآتيناه الحكمة﴾ أي: النبوة والعلم العظيم، ﴿وقضل الخطاب﴾ أي: الخصوصات بين الناس.

﴿٢٦ - ٢٦﴾ ﴿وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب﴾ إذ دخلوا على داود ففرغ منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط \* إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفئنيها وعزني في الخطاب \* قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلفاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأتاب \* فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب \* يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن



وتستأصلهم إن أقاموا على ما هم عليه.

﴿١٦ - ١٧﴾ ﴿وقالوا ربنا عجل لنا

قطناً قبل يوم الحساب \* اصبر على ما يقولون﴾ أي: قال هؤلاء المكذوبون، من جهلهم ومعاندتهم الحق، مستعجلين للعذاب: ﴿ربنا عجل لنا قطناً﴾ أي: قسطنا وما قسم لنا من العذاب عاجلاً ﴿قبل يوم الحساب﴾ وجئوا في هذا القول، وزعموا أنك يا محمد، إن كنت صادقاً، فعلامه صدقك أن تأتينا بالعذاب، فقال لرسوله: ﴿اصبر على ما يقولون﴾ كما صبر من قبلك من الرسل، فإن قولهم لا يضر الحق شيئاً، ولا يضرونك في شيء، وإنما يضررون أنفسهم.

﴿١٧ - ٢٠﴾ ﴿وإذكر عبدنا داود ذا الأيدي إنه أواب﴾ إننا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق \* والطيور عشورة كل له أواب \* وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب لما أمر الله رسوله بالصبر على قومه، أمره أن يستعين على الصبر بالعبادة لله وحده، ويتذكر حال العابدين، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها﴾.

(١) كذا في ب، وفي الأصل: ذو الأيدي.

(٢) في النسختين: فسيقصون.

أنه بحسب لب الإنسان وعقله يحصل له التذكر والانفتاح بهذا الكتاب.

﴿٣٠ - ٤٠﴾ ﴿ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب﴾ \* إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد \* فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب \* عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب \* ردوها علي فططق مسحاً بالسوق والأعتاق \* ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب \* قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب \* فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب \* والشياطين كل بناء وغواص \* وآخرين مقرنين في الأصفاد \* هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب \* وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب \* لما أتى تعال على داود، وذكر ما جرى له ومنه، أنشئ على ابنه سليمان عليهما السلام فقال: ﴿ووهبنا لداود سليمان﴾ \* أي: أنعمنا به عليه، وأقرنا به عينه.

﴿ينم العبد﴾ سليمان عليه السلام، فإنه انصف بما يوجب المدح، وهو ﴿إنه أواب﴾ \* أي: رجأع إلى الله في جميع أحواله، بالتأله والإنابة، والمحبة والذكر والدعاء والتضرع، والاجتهاد في مرضاة الله، وتقديمها على كل شيء.

ولهذا، لما عرضت عليه الخيل الجياد السبق الصافنات، أي: التي من وصفها الصفون، وهو رفع إحدى قوائمها عند الوقوف، وكان لها منظرٌ رائع، وجمال معجب، خصوصاً للمحتاج إليها كالمملوك، فما زالت تُعرض عليه حتى غابت الشمس في الحجاب، فألهته عن صلاة المساء وذكره، فقال ندماً على ما مضى منه، وتقرباً إلى الله بما ألهاه عن ذكره، وتقديم حب الله على حب غيره: ﴿إني أحببت حب الخير﴾ \* وضمن «أحببت» معنى «آثرت» أي: آثرت حب الخير، الذي هو المال عموماً، وفي هذا الموضع المراد الخيل. ﴿عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب﴾

النار \* أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار \* كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾ \* يخبر تعال عن تمام حكمته في خلقه السماوات والأرض، وأنه لم يخلقهما باطلاً، أي: عبثاً ولعاً من غير فائدة ولا مصلحة. ﴿ذلك ظن الذين كفروا﴾ \* برهم، حيث ظنوا ما لا يليق بجلاله. ﴿فويل للذين كفروا من النار﴾ \* فإنها التي تأخذ الحق منهم، وتبلغ منهم كل مبلغ.

وإنما خلق الله السماوات والأرض بالحق وللحق، فخلقهما ليعلم العباد كمال علمه وقدرته وسعة سلطانه، وأنه تعال وحده المعبود، دون من لم يخلق مشقال ذرة من السماوات والأرض، وأن البعث حق، وسيفصل الله بين أهل الخير والشر.

ولا يظن الجاهل بحكمة الله أن يسوي الله بينهما في حكمه، ولهذا قال: ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾ \* هذا غير لائق بحكمتنا وحكمنا.

﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك﴾ \* فيه خير كثير، وعلم غزير، فيه كل هدى من ضلالة، وشفاء من داء، ونور يستضاء به في الظلمات، وكل حكم يحتاج إليه المكلفون، وفيه من الأدلة القطعية على كل مطلوب، ما كان به أجل كتاب طرق العالم منذ أنشأ الله.

﴿ليدبروا آياته﴾ \* أي: هذه الحكمة من إنزاله، ليتدبر الناس آياته، فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها، فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة، تدرك بركته وخيره، وهذا يدل على الخشوع على تدبر القرآن، وأنه من أفضل الأعمال، وأن القراءة المشتملة على التدبر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود.

﴿وليتذكر أولوا الألباب﴾ \* أي: أولو العقول الصحيحة، يتذكرون بتدبرهم لها كل علم ومطلوب، فدل هذا على

﴿لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه﴾ \* وهذه عادة الخلقاء والقرناء الكثير منهم، فقال: ﴿وإن كثيراً من الخلقاء ليبقي بعضهم على بعض﴾ \* لأن الظلم من صفة النفوس. ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ \* فإن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح، يمنعهم من الظلم. ﴿وقليل ما هم﴾ \* كما قال تعال: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ \* ﴿وظن داود﴾ \* حين حكم بينهما ﴿أنما فتناه﴾ \* أي: اختبرناه ودبرنا عليه هذه القضية ليتبينه ﴿فاستغفر ربه﴾ \* لما صدر منه، ﴿وخز راکماً﴾ \* أي: ساجداً ﴿وأنا﴾ \* الله تعال بالتوبة النصوح والعبادة.

﴿ففقرنا له ذلك﴾ \* الذي صدر منه، وأكرمته الله بأنواع الكرامات، فقال: ﴿وإن له عندنا لزلفى﴾ \* أي: منزلة عالية، وقربة منا، ﴿وحسن مآب﴾ \* أي: مرجع.

وهذا الذنب الذي صدر من داود عليه السلام، لم يذكره الله لعدم الحاجة إلى ذكره، فالتعرض له من باب التكلف، وإنما الفائدة ما قصه الله علينا من لطفه به وتوبته وإنابته، وأنه ارتفع عمله، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها.

﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ \* تنفذ فيها القضايا الدينية والدنيوية، ﴿فاحكم بين الناس بالحق﴾ \* أي: العدل، وهذا لا يتمكن منه، إلا بعلم بالواجب، وعلم بالواقع، وقدرة على تنفيذ الحق، ﴿ولا تتبع الهوى﴾ \* فتميل مع أحد، لقراءة أو صداقة أو محبة، أو بغض للآخر ﴿فيضلك﴾ \* الهوى ﴿عن سبيل الله﴾ \* ويخرجك عن الصراط المستقيم، ﴿إن الذين يضلون عن سبيل الله﴾ \* خصوصاً المتعمدين منهم، ﴿لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾ \* فلو ذكروه ووقع خوفه في قلوبهم، لم يميلوا مع الهوى الفاتن.

﴿٢٧ - ٢٩﴾ ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من



بربه، وتقر عينه بعبادته، وتعينه على الإخلاص في جميع أموره.

ومنها: أنه ينبغي استعمال الأدب في الدخول على الحكام وغيرهم، فإن الخصمين لما دخلا على داود في حالة غير معتادة ومن غير الباب المعهود، فزع منهم، واشتد عليه ذلك، ورآه غير لائق بالخالق.

ومنها: أنه لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق سواء أدب الخصم وفعله ما لا ينبغي.

ومنها: كمال حلم داود عليه السلام، فإنه ما غضب عليهما حين جاءه غير استئذان، وهو الملك، ولا اتهرهما ولا ويغهما.

ومنها: جواز قول المظلوم لمن ظلمه «أنت ظلمتني» أو «يا ظالم» ونحو ذلك أو «باغ علي» لقولهما: «خصمان يفي بعضنا على بعض».

ومنها: أن الموعوظ والمنصوح، ولو كان كبير القدر، جليل العلم، إذا نصحه أحد أو وعظه، لا يخضب ولا يشمتز، بل يبادره بالقبول والشكر، فإن الخصمين نصحا داود فلم يشمتز ولم يغضب، ولم يشته ذلك عن الحق، بل حكم بالحق الصرف.

ومنها: أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب، وكثرة العلاقات الدنيوية المالية، موجبة للتعادي بينهم، وبغبي بعضهم على بعض، وأنه لا يرد عن ذلك إلا استعمال تقوى الله، والصبر على الأمور، بالإيمان والعمل الصالح، وأن هذا من أقل شيء في الناس.

ومنها: أن الاستغفار والعبادة، خصوصاً الصلاة، من مكفرات الذنوب، فإن الله رتب مغفرة ذنب داود على استغفاره وسجوده.

ومنها: إكرام الله لعبده داود وسليمان، بالقرب منه، وحسن الثواب، وأن لا يظن أن ما جرى لهما من نقص لدرجتهما عند الله تعالى، وهذا من تمام لطفه بعباده المخلصين، أنه إذا غفر لهم وأزال أثر ذنوبهم، أزال الآثار المترتبة عليه كلها، حتى ما يقع في

ومنها: أن الله تعالى يمدح ويمجد القوة في طاعته، قوة القلب واليد، فإنه يحصل منها من آثار الطاعة وحسنها وكثرتها، ما لا يحصل مع الوهن وعدم القوة، وأن العبد ينبغي له تعاطي أسبابها، وعدم الركون إلى الكسل والبطالة المخلة بالقوى المضعفة للنفس.

ومنها: أن الرجوع إلى الله في جميع الأمور، من أوصاف أنبياء الله وخواص خلقه، كما أثنى الله على داود وسليمان بذلك، فليقتد بهما المتقون، وليهتد بهداهم السالكون، «أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده».

ومنها: ما أكرم الله به نبيه داود عليه السلام، من حسن الصوت العظيم، الذي جعل الله بسببه الجبال الصم، والطيور البهيم، ويجاونه إذا رجع صوته بالتسيح، ويسبحن معه بالعشي والإشراق.

ومنها: أن من أكبر نعم الله على عبده، أن يرزقه العلم النافع، ويعرف الحكم والفصل بين الناس، كما امتن الله به على عبده داود عليه السلام.

ومنها: اعتناء الله تعالى بأنبيائه وأصفيائه عندما يقع منهم بعض الخلل بفنتته إياهم وابتلائهم بما به يزول عنهم التحذير، ويعودون إلى أكمل من حالتهم الأولى، كما جرى لداود وسليمان عليهما السلام.

ومنها: أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون من الخطأ فيما يبلغون عن الله تعالى، لأن مقصود الرسالة لا يحصل إلا بذلك، وأنه قد يجري منهم بعض مقتضيات الطبيعية من المعاصي، ولكن الله يتداركهم ويأدرهم بلطفه.

ومنها: أن داود عليه السلام [كان] في أغلب أحواله لازماً محرابه لخدمة ربه، ولهذا تسور الخصمان عليه المحراب، لأنه كان إذا خلا في محرابه لا يأتيه أحد، فلم يجعل كل وقته للناس، مع كثرة ما يرد عليه من الأحكام، بل جعل له وقتاً يخلو فيه

«رذوها علي» فردوها «فطفت» فيها «مسحاً بالسوق والأعناق» أي: جعل يعقرها بسيفه، في سوقها وأعناقها.

«ولقد فتنا سليمان» أي: ابتليناه واختبرناه بذهاب ملكه وانفصاله عنه بسبب خلل اقتضته الطبيعة البشرية، «والقينا على كرسيه جسداً» أي: شيطاناً قضى الله وقدر أن يجلس على كرسي ملكه، ويتصرف في الملك في مدة فتنة سليمان، «ثم أناب» سليمان إلى الله تعالى وتاب.

ذ «قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب» فاستجاب الله له وغفر له، ورد عليه ملكه، وزاده ملكاً لم يحصل لأحد من بعده، وهو تسخير الشياطين له، ينون ما يريد، ويغوصون له في البحر، يستخرجون الدر والحلي، ومن عصاه منهم قرنه في الأصفاة وأوقته.

وقلنا له: «هذا عطاؤنا» فقرأ به عيناً «فامتن» على من شئت، «أو أمسك» من شئت «بغير حساب» أي: لا حرج عليك في ذلك ولا حساب، لعلمة تعالى بكمال عدله، وحسن أحكامه، ولا تحسبن هذا لسليمان في الدنيا دون الآخرة، بل له في الآخرة خير عظيم، ولهذا قال: «وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب» أي: هو من المقربين عند الله المكرمين بأنواع الكرامات لله.

### فصل فيما تبين لنا من الفوائد والحكم في قصة داود وسليمان عليهما السلام

فمنها: أن الله تعالى يقص على نبيه محمد ﷺ أخبار من قبله، ليثبت فؤاده وتطمئن نفسه، ويذكر له من عباداتهم وشدة صبرهم وإتابتهم، ما يشوقه إلى منافستهم، والتقرب إلى الله الذي تقربروا له، والصبر على أذى قومه، ولهذا - في هذا الموضوع - لما ذكر الله ما ذكر من أذية قومه وكلامهم فيه وفيما جاء به، أمره بالصبر، وأن يذكر عبده داود فيسئل به.

قلوب الخلق، فإنهم إذا علموا ببعض ذنوبهم، وقع في قلوبهم نزولهم عن درجتهم الأولى، فأزال الله تعالى هذه الآثار، وما ذاك بعزيز على الكريم الغفار.

ومنها: أن الحكم بين الناس مرتبة دينية، تولاها رسل الله وخواص خلقه، وأن وظيفة القائم بها الحكم بالحق ومجانبة الهوى، فالحكم بالحق يقتضي العلم بالأمر الشرعية، والعلم بصورة القضية المحكوم بها، وكيفية إدخالها في الحكم الشرعي، فالجاهل بأحد الأمرين لا يصلح للحكم، ولا يحل له الإقدام عليه.

ومنها: أنه ينبغي للحاكم أن يحذر الهوى، ويجعله منه على يال، فإن النفوس لا تخلو منه، بل يجاهد نفسه بأن يكون الحق مقصوده، وأن يلقي عنه وقت الحكم كل محبة أو بغض لأحد الخصمين.

ومنها: أن سليمان عليه السلام من فضائل داود، ومن منن الله عليه حيث وهبه له، وأن من أكبر نعم الله على عبده، أن يهب له ولداً صالحاً، فإن كان عالماً، كان نوراً على نور.

ومنها: ثناء الله تعالى على سليمان ومدحه في قوله: ﴿نعم العبد إنه أواب﴾.

ومنها: كثرة خير الله وبره بعبده، أن يمن عليهم بصالح الأعمال ومكازم الأخلاق، ثم يشي عليهم بها، وهو المتفضل الوهاب.

ومنها: تقديم سليمان محبة الله تعالى على محبة كل شيء.

ومنها: أن كل ما أشغل العبد عن الله، فإنه مشؤوم مذموم، فليُفَارِقْهُ وَلْيُتَّقِمْ عَلَى مَا هُوَ أَنْفَعُ لَهُ.

ومنها: القاعدة المشهورة ﴿مَنْ تَرَكَ شَيْئاً لَهِ عِوَضَهُ اللهُ خَيْراً مِنْهُ﴾ فسليمان عليه السلام عقر الجياد الصافيات المحبوبة للنفوس، تقدماً لمحبة الله، فعوضه الله خيراً من ذلك، بأن سخر له الريح الرخاء اللينة، التي تجري بأمره إلى حيث أراد وقصد، غنوها شهر

ورواحها شهر، وسخر له الشياطين، أهل الاقتدار على الأعمال التي لا يقدر عليها الآدميون.

ومنها: أن تسخير الشياطين لا يكون لأحد بعد سليمان عليه السلام.

ومنها: أن سليمان عليه السلام، كان ملكاً نبياً، يفعل ما أراد، ولكنه لا يريد إلا العدل، بخلاف النبي العبد، فإنه تكون إرادته تابعة لأمر الله، فلا يفعل ولا يترك إلا بالأمر، كحال نبينا محمد ﷺ، وهذه الحال أكمل.

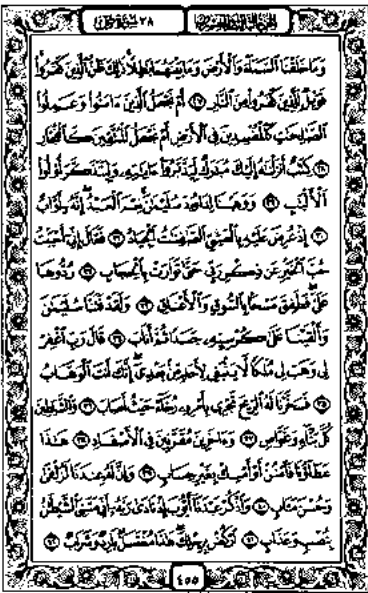
﴿٤١ - ٤٤﴾ ﴿وإذ ذكر عبدنا أيوب

إذا نادى ربه أي مسني الشيطان بنصب وعذاب \* اركض برجلك هذا مفصل بارد وشراب \* ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب \* وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحثث إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب﴾ أي: ﴿وإذ ذكر﴾ في هذا الكتاب ذي الذكر ﴿عبدنا أيوب﴾ بأحسن الذكر، وأثن عليه بأحسن الثناء، حين أصابه الضر، فصبر على ضره، فلم يشك لغير ربه، ولا لجأ إلا إليه.

﴿نادى ربه﴾ داعياً، وإليه لا إلى غيره شاكياً، فقال: ربّ ﴿أي مسني الشيطان بنصب وعذاب﴾ أي: بأمر مشق متعب معذب، وكان سلب على جسده فنفتح فيه حتى تفرح، ثم تقيح بعد ذلك واشتد به الأمر، وكذلك هلك أهله وماله.

فقيل له: ﴿اركض برجلك﴾ أي: اضرب الأرض بها، لينبع لك منها عين تغتسل منها وتشرب، فيذهب عنك الضر والأذى، ففعل ذلك، فذهب عنه الضر، وشفاه الله تعالى.

﴿ووهبنا له أهله﴾ قيل: إن الله تعالى أحياهم له ﴿ومثلهم معهم﴾ في الدنيا، وأغناه الله، وأعطاه مالا عظيماً ﴿رحمة منا﴾ بعبدنا أيوب، حيث صبر فأثبناه من رحمتنا ثواباً عاجلاً وأجلاً. ﴿وذكرى لأولي الأسباب﴾ أي: وليتذكر أولو العقول بحالة أيوب ويعتبروا، فيعلموا أن من صبر على الضر، أن الله تعالى يشبهه ثواباً عاجلاً



وأجلاً، ويستجيب دعواه إذا دعاه.

﴿وخذ بيدك ضغثاً﴾ أي: حزمة شماريخ ﴿فاضرب به ولا تحثث﴾.

قال المفسرون: وكان في مرضه وضره قد غضب على زوجته في بعض الأمور، فحلف: لئن شفاه الله ليضربها مائة جلدة، فلما شفاه الله، وكانت امرأته سالحة محسنة إليه، رحمها الله ورحمه، فأفاته أن يضربها بضعت فيه مائة شمراخ ضربة واحدة، فيبر في يمينه.

﴿إننا وجدناه﴾ أي: أيوب ﴿صابراً﴾ أي: ابتليناه بالضر العظيم، فصبر لوجه الله تعالى. ﴿نعم العبد﴾

الذي كمل مراتب العبودية، في حال السراء والضراء، والشدة والرخاء. ﴿إنه أواب﴾ أي: كثير الرجوع إلى الله، في مطالبه الدينية والدنيوية، كثير الذكر لربه والدعاء، والمحبة والتأله.

﴿٤٥ - ٤٧﴾ ﴿وإذ ذكر عبادنا

إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار \* إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار \* وإنا هم عندنا لمن المصطفين الأخيار﴾ يقول تعالى: ﴿وإذ ذكر عبادنا﴾ الذين أخلصوا لنا العبادة ذكراً حسناً، ﴿إبراهيم﴾ الخليل ﴿وإسماعيل﴾ ابنه ﴿إسحق﴾ ابنه ابنه ﴿يعقوب أولي الأيدي﴾ أي: القوة على عبادة الله تعالى ﴿والأبصار﴾ أي:



أصناف العذاب، يعذبون بها ويجزون بها.

وعند تواردهم على النار يشتم بعضهم بعضاً، ويقول بعضهم لبعض: ﴿هذا فوج مقتحم معكم﴾ النار ﴿لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار﴾.

﴿قالوا﴾ أي: الفوج المقبل المقتحم: ﴿بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه﴾ أي: العذاب ﴿لنا﴾ بدعوتكم لنا، وفتنتكم وإضلالكم وتسبيكم. ﴿فبئس القرار﴾ قرار الجميع، قرار السوء والشر.

ثم دعوا على المغرورين لهم ف ﴿قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار﴾. وقال في الآية الأخرى: ﴿قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾.

﴿وقالوا﴾ وهم في النار: ﴿مالنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار﴾ أي: كنا نزعهم من الأشرار، المستحقين لعذاب النار، وهم المؤمنون، تفقدتهم أهل النار - فبئس الله - هل يرونهم في النار؟ ﴿أفئذناهم سخرى أم زاغت عنهم الأبصار﴾ أي: عدم رؤيتنا لهم دائر بين أمرين:

إما أننا غالطون في عدنا إياهم من الأشرار، بل هم من الأخيار، وإنما كلامنا لهم من باب السخرية والاستهزاء بهم، وهذا هو الواقع، كما قال تعالى لأهل النار: ﴿إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمتنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين﴾ فاتخذوهم سخرى حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون﴾.

والأمر الثاني: أنهم لعلهم زاغت أبصارنا عن رؤيتهم معنا في العذاب، وإلا فهم معنا معذبون ولكن تجاوزتهم أبصارنا، فيحتمل أن هذا الذي في قلوبهم، فتكون العقائد التي اعتقدوها في الدنيا، وكثرة ما حكموا لأهل الإيمان بالنار، تمكنت من قلوبهم، وصارت صيغة لها، فدخلوا النار وهم بهذه الحالة، فقالوا ما قالوا.

ويحتمل أن كلامهم هذا كلام تمويه، كما موهوا في الدنيا، موهوا حتى في النار، ولهذا يقول أهل الأعراف لأهل النار: ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾.

قال تعالى مؤكداً ما أخبر به، وهو أصدق القائلين: ﴿إن ذلك﴾ الذي ذكرت لكم ﴿لحق﴾ ما فيه شك ولا مرية ﴿فخاصم أهل النار﴾.

﴿٦٥ - ٨٨﴾ ﴿قل إنما أنا نذير

وما من إله إلا الله الواحد القهار \* رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار \* قل هو نبي عظيم \* أنتم عنه معرضون \* ما كان لي من علم بالملا الأعلى إذ يختمون \* إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين \* إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين \* فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين \* فسجد الملائكة كلهم أجمعون \* إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين \* قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي استكبرت أم كنت من العالين \* قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين \* قال فأخرج منها فيئتك رجيم \* وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين \* قال رب فأظنني إلى يوم يبعثون \* قال فيئتك من المنظرين \* إلى يوم الوقت المعلوم \* قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين \* إلا عبادك منهم المخلصين \* قال فالحق والحق أقول \* لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين \* قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلمين \* إن هو إلا ذكر للعالمين \* ولتعلمن نبأه بعد حين﴾ ﴿قل﴾ يا أيها الرسول لهؤلاء المكذبين، إن طلبوا منك ما ليس لك ولا بيدك: ﴿إنما أنا نذير﴾ هذا نهاية ما عندي، وأما الأمر فليله تعالى، ولكني أمركم وأنهاكم، وأحثكم على الخير وأزجركم عن الشر فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها. ﴿وما من إله

إلا الله﴾ أي: ما أحد يؤله ويعبد بحق إلا الله ﴿الواحد القهار﴾. هذا تقرير لألوهيته، هذا البرهان القاطع، وهو وحدته تعالى، وقهره لكل شيء، فإن القهر ملازم للوحدة، فلا يكون قهارين متساويين في قهرهما أبداً، فالذي يقهر جميع الأشياء هو الواحد الذي لا نظير له، وهو الذي يستحق أن يُعبد وحده، كما كان قاهراً وحده، وقرر ذلك أيضاً بتوحيد الربوبية فقال: ﴿رب السماوات والأرض وما بينهما﴾ أي: خالقهما، ومربيهما، ومدبرها ﴿بجميع أنواع التدابير﴾. ﴿العزيز﴾ الذي له القوة، التي بها خلق المخلوقات العظيمة. ﴿الغفار﴾ لجميع الذنوب، صغيرها وكبيرها، لمن تاب إليه وأقنع منها.

فهذا الذي يجب ويستحق أن يعبد، دون من لا يخلق ولا يرزق، ولا يضر ولا ينفع، ولا يملك من الأمر شيئاً، وليس له قوة الاقترار، ولا بيده مغفرة الذنوب والأوزار.

﴿قل﴾ لهم، مخوفاً ومخذراً، ومنهضاً لهم ومنذراً: ﴿هو نبي عظيم﴾ أي: ما أنبأكم به من البعث والنشور والجزاء على الأعمال، خبر عظيم ينبيئني الاهتمام الشديد بشأنه، ولا ينبيئني إغفاله، ولكن ﴿أنتم عنه معرضون﴾ كأنه ليس أمامكم حساب ولا عقاب ولا ثواب، فإن شككتهم في قولي، وامترتيم في خبري، فإني أخبركم بأخبار لا علم لي بها ولا درستها في كتاب، فإخباري بها على وجهها، من غير زيادة ولا نقص، أكبر شاهد لصدقي، وأدل دليل على حق ما جئتكم به، ولهذا قال: ﴿ما كان لي من علم بالملا الأعلى﴾ أي: الملائكة ﴿إذ يختمون﴾ لولا تعليم الله إياي، وإجازه إلي، ولهذا قال: ﴿إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين﴾ أي: ظاهراً النذارة، جليها، فلا نذير أبليغ من نذارته ﷺ.

ثم ذكر اختصاص الملائكة الأعلى فقال: ﴿إذ قال ربك للملائكة﴾ على وجه الإخبار ﴿إني خالق بشرأ من طين﴾ أي: مادته من طين ﴿فإذا سويته﴾ أي: سويت جسمه وتم، ﴿ونفخت فيه من روحي فقموا له ساجدين﴾ فوطئ الملائكة الكرام أنفسهم على ذلك، حين يتم خلقه ونفخ الروح فيه، امتثالاً لربه، وإكراماً لآدم عليه السلام، فلما تم خلقه في بدنه وروحه، وامتنح الله آدم والملائكة في العلم، وظهر فضله عليهم، أمرهم الله بالسجود. فسجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس لم يسجد ﴿استكبر﴾ عن أمر ربه، واستكبر على آدم ﴿وكان من الكافرين﴾ في علم الله تعالى.

ذ ﴿قال﴾ الله موبخاً ومعاتباً: ﴿ما منك أن تسجد لما خلقت بيدي﴾ أي: شرفته وكرمه واختصاصته بهذه الخبيصة، التي اختص بها عن سائر الخلق، وذلك يفترض عدم التكبر عليه.

﴿استكبرت﴾ في امتناعك ﴿أم كنت من العالين﴾.

﴿قال﴾ إبليس معارضاً لربه ومناقضاً: ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾. وبزعمه أن عنصر النار خير من عنصر الطين، وهذا من القياس الفاسد، فإن عنصر النار مادة الشر والفساد، والعلو والطيش والخفة وعنصر الطين مادة الرزاة والتواضع، وإخراج أنواع الأشجار والنباتات، وهو يغلب النار ويطفئها، والنار تحتاج إلى مادة تقوم بها، والطين قائم بنفسه، فهذا قياس شيخ القوم، الذي عارض به الأمر الشفاهي من الله، قد تبين غاية بطلانه وفساده، فما بالك بأقيسة التلاميذ الذين عارضوا الحق بأقيستهم؟ فإنها كلها أعظم بطلاناً وفساداً من هذا القياس.

ذ ﴿قال﴾ الله له: ﴿فاخرج منها﴾ أي: من السماء والمحل الكريم. ﴿فإنك رجيم﴾ أي: مبعد مدحور. ﴿وان عليك لعنتي﴾ أي: طردني

وإبعادي ﴿إلى يوم الدين﴾ أي: دائماً أبداً.

﴿قال رب فأظنني إلى يوم يبعثون﴾ لشدة عداوته لآدم وذريته، ليتمكن من إغواء من قدر الله أن يغويه.

ذ ﴿قال﴾ الله مجيباً لدعوته، حيث اقتضت حكمته ذلك: ﴿فإنك من المنظرين﴾ إلى يوم الوقت المعلوم حين تستكمل الذرية، يتم الامتحان.

فلما علم أنه مُنظر، بادي ربه، من خبثه، بشدة العداوة لربه ولآدم وذريته فقال: ﴿فبِعزتك لأغوينهم أجمعين﴾ يحتمل أن الباء للقسمة، وأنه أقسم بعزة الله ليغوينهم كلهم أجمعين.

﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ علم أن الله سيحفظهم من كيد.

ويحتمل أن الباء للاستعانة، وأنه لما علم أنه عاجز من كل وجه، وأنه لا يضل أحداً إلا بمشيئة الله تعالى، فاستعان بعزة الله على إغواء ذرية آدم هذا، وهو عدو الله حقاً.

ونحن ياربنا العاجزون المقصرون، المقرون لك بكل نعمة، ذرية من شرفته وكرمه، فنستعين بعزتك العظيمة وقدرتك، ورحمتك الواسعة لكل مخلوق، ورحمتك التي أوصلت إلينا بها ما أوصلت من النعم الدينية والدنيوية، وصرفت بها عنا ما صرفت من النقم، أن تعيننا على معاربتة وعداوتة، والسلامة من شره وشركه، ونحسن الظن بك أن تحبب دعاءنا، ونؤمن بوعدك الذي قلت لنا: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾ فقد دعوناك كما أمرتنا، فاستجب لنا كما وعدتنا. ﴿إنك لا تخلف الميعاد﴾.

﴿قال﴾ الله تعالى ﴿فالحق والحق أقول﴾ أي: الحق وصفي، والحق قولي ﴿لأملأن جهنم منك وتمن تبعك منهم أجمعين﴾ فلما بين الرسول للناس الدليل ووضح لهم السبيل قال الله له:

﴿قل ما أسألكم عليه﴾ أي: على دعائي إياكم ﴿من أجر وما أنا من المتكلفين﴾ أدعي أمراً ليس لي، وأقفو ما ليس لي به علم، لا أتبع إلا ما يوحى إلي.

﴿إن هو﴾ أي: هذا الوحي والقرآن ﴿إلا ذكر للعالمين﴾ يتذكرون به كل ما ينفعهم من مصالح دينهم ودنياهم، فيكون شرفاً ورفعة للعاملين به، وإقامة حجة على المعاندين.

فهذه السورة العظيمة، مشتملة على الذكر الحكيم، والنبأ العظيم، وإقامة الحجج والبراهين، على من كذب بالقرآن وعارضه، وكذب من جاء به، وإخبار عن عباد الله المخلصين، وجزاء الثقلين والطاغين. فلماذا أقسم في أولها بأنه ذو الذكر، ووصفه في آخرها بأنه ذكر للعالمين.

وأكثر التذكير بها فيما بين ذلك، كقوله: ﴿واذكر عبدنا﴾ - ﴿واذكر عبادنا﴾ - ﴿رحمة من عندنا وذكرى﴾ - ﴿هذا ذكر﴾.

اللهم علمنا منه ما جهلنا، وذكرنا منه ما نسينا، نسيان غفلة ونسيان ترك. ﴿ولتعلمن نبأه﴾ أي: خبره ﴿بعد حين﴾ وذلك حين يقع عليهم العذاب وتقطع عنهم الأسباب.

تم تفسير سورة ص بمنه تعالى وعونه.

### تفسير سورة الزمر وهي مكية

﴿١ - ٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فأصيد الله مخلصاً له الدين \* ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار﴾ يخبر تعالى عن عظمة القرآن، وجلالة من تكلم به ونزل منه، وأنه نزل من الله العزيز الحكيم، أي: الذي وصفه الأئوهية للمخلوق، وذلك لعظمته وكماله، والعزة التي قهر بها كل مخلوق، وذل له كل شيء، والحكمة في خلقه وأمره.

فالقرآن نازل عن هذا وصفه، والكلام وصف للمتكلم، والوصف يتبع الموصوف، فكما أن الله تعالى



رأى من آياته العظيمة، ثم تاب وأناب.

ومن عزته أن ﴿خلقكم من نفس واحدة﴾ على كثرتكم وانتشاركم، في أنحاء الأرض، ﴿ثم جعل منها زوجها﴾ وذلك ليسكن إليها وتسكن إليه، وتتم بذلك النعمة. ﴿وانزل لكم من الأنعام﴾ أي: خلقها بقدر نازل منه، رحمة بكم. ﴿ثمانية أزواج﴾ وهي التي ذكرها في سورة الأنعام ﴿ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين﴾ ﴿ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين﴾.

وخصها بالذكر، مع أنه أنزل لمصالح عبادته من البهائم غيرها، لكثرة نفعها، وعموم مصالحها، ولشرفها، ولاختصاصها بأشياء لا يصلح غيرها، كالأضحية والهدي والعقيقة، ووجوب الزكاة فيها، واختصاصها بالدية.

ولما ذكر خلق أينا وأما، ذكر ابتداء خلقنا، فقال: ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق﴾ أي: طوراً بعد طور، وأنتم في حال لا يد خلقكم تمسك، ولا عين تنظر إليكم، وهو قدر ربكم في ذلك المكان الضيق ﴿في ظلمات ثلاث﴾ ظلمة البطن، ثم ظلمة الرحم، ثم ظلمة المشيمة، ﴿ذلكم﴾ الذي خلق السموات والأرض، وسخر الشمس والقمر، وخلقكم وخلق لكم الأنعام والنعم ﴿الله ربكم﴾ أي: المألوه المعبود، الذي رباكم ووبركم، فكما أنه الواحد في خلقه وتربيته لا شريك له في ذلك، فهو الواحد في ألوهيته لا شريك له، ولهذا قال: ﴿لا إله إلا هو فأنسى تصرفون﴾ بعد هذا البيان ببيان استحقاقه تعالى للإخلاص وحده إلى عبادة الأوثان، التي لا تدبر شيئاً، وليس لها من الأمر شيء.

﴿إن تكفروا فإن الله غني عنكم﴾ لا يضره كفركم، كما لا ينتفع بطاعتكم، ولكن أمره ونهيه لكم محض فضله وإحسانه عليكم. ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾ لكمال إحسانه بهم،

مفهوراً، ولكان له إدلال على أبيه ومناسبة منه.

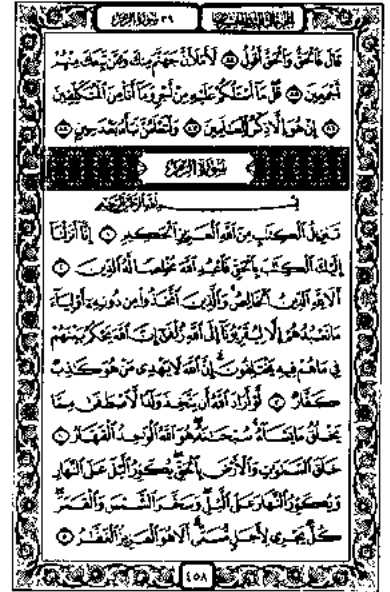
ووحده تعالى وفهره متلازمان، فالواحد لا يكون إلا فهاراً، والقهار لا يكون إلا واحداً، وذلك ينفي الشركة له من كل وجه.

﴿٥ - ٧﴾ ﴿خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى إلا هو العزيز الغفار﴾ خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنسى تصرفون \* إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليهم بذات الصدور \* يجبر تعالى أنه ﴿خلق السموات والأرض﴾ أي: بالحكمة والصلحة، وليأمر العباد وينهاهم، وينبئهم ويعاقبهم.

﴿يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل﴾ أي: يدخل كلا منهما على الآخر، ويجعله محله، فلا يجتمع هذا وهذا، بل إذا أنسى أحدهما انعزل الآخر عن سلطانه.

﴿وسخر الشمس والقمر﴾ بتسخير منظم، وسير مقنن. ﴿كل من الشمس والقمر﴾ يجري متأثراً عن تسخيرته تعالى ﴿لأجل مسمى﴾ وهو انقضاء هذه الدار وخرابها، فيخرب الله آلتها وشمسها وقمرها، وينشئ الخلق نشأة جديدة ليستقروا في دار القرار، الجنة أو النار.

﴿الآ هو العزيز﴾ الذي لا يغال، القاهر لكل شيء، الذي لا يستعصي عليه شيء، الذي من عزته أوجد هذه المخلوقات العظيمة، وسخرها تجري بأمره. ﴿الغفار﴾ لذنوب عباده التوابين المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾. الغفار لمن أشرك به بعدما



يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار. ﴿إن الله لا يهدي﴾ أي: لا يوفق للهداية إلى الصراط المستقيم ﴿من هو كاذب كفار﴾ أي: وصفه الكذب أو الكفر، بحيث تأتبه المواعظ والآيات، ولا يزول عنه ما اتصف به، ويريه الله الآيات، فيجدها ويكفر بها ويكذب، فهذا أتى له الهدى وقد سد على نفسه الباب، وعوقب بأن طبع الله على قلبه، فهو لا يؤمن!!

﴿٤﴾ ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً لأصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار﴾ أي: ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً﴾ كما زعم ذلك من زعمه، من سفهاء الخلق. ﴿لأصطفى﴾ مما يخلق ما يشاء أي: لأصطفى بعض مخلوقاته التي يشاء اصطفاؤه، واختصه لنفسه، وجعله بمنزلة الولد، ولم يكن حاجة إلى اتخاذ الصاحبة. ﴿سبحانه﴾ عما ظنه به الكافرون، أو نسبه إليه الملحدون. ﴿هو الله الواحد القهار﴾ أي: الواحد في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته، وفي أفعاله، فلا شبيه له في شيء من ذلك، ولا مماثل، فلو كان له ولد، لانتفى أن يكون شبيهاً له في وحدته، لأنه بعضه، وجزء منه.

القهار لجميع العالم العلوي والسفلي، فلو كان له ولد لم يكن

وعلمه أن الكفر يشقيهم شقاوة لا يسعدون بعدها، ولأنه خلقهم لعبادته، فهي الغاية التي خلق لها الخلق، فلا يرضى أن يدعوا ما خلقهم لأجله.

﴿وإن تشكروا﴾ الله تعالى بتوحيده، وإخلاص الدين له ﴿يرضه لكم﴾ لرحمته بكم، ومحبه للإحسان عليكم، ولعلمكم ما خلقكم لأجله.

وكما أنه لا يتضرر بشرككم، ولا ينتفع بأعمالكم وتوحيدكم، كذلك كل أحد منكم له عمله، من خير وشر ﴿ولا تسزروا زرة ووزر أخرى﴾ ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم﴾ في يوم القيامة ﴿فنبشكم بما كنتم تعملون﴾ إخباراً أحاط به علمه، وجري عليه قلمه، وكتبته عليكم الحفظة الكرام، وشهدت به عليكم الجوارح، فيجازي كلاً منكم ما يستحقه.

﴿إنه علمم بذات الصدور﴾ أي: بنفس الصدور، وما فيها من وصف برٍّ أو فجور، والمقصود من هذا، الإخبار بالجزاء بالعدل التام.

﴿٨﴾ ﴿وإذا مسَّ الإنسان ضرر دعا ربه نيباً إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار﴾ يخبر تعالى عن كرمه بعبدته وإحسانه وبره، وقلة شكر عبده، وأنه حين يمسه الضر، من مرض أو فقر، أو وقوع في كربة تخر أو غيره، أنه يعلم أنه لا ينجي في هذا الحال إلا الله، فيدعوه متضرعاً نيباً، ويستغيث به في كشف ما نزل به ويلج في ذلك.

﴿ثم إذا خوله﴾ الله ﴿نعمة منه﴾ بأن كشف ما به من الضر والكربة، ﴿نسي ما كان يدعو إليه من قبل﴾ أي: نسي ذلك الضر الذي دعا الله لأجله، ومر كأنه ما أصابه ضر، واستمر على شركه.

﴿وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله﴾ أي: ليضل بنفسه، ويضل غيره، لأن الإضلال فرع عن الضلال،

فأتى بالملزوم ليدل على اللازم. ﴿قل﴾ لهذا العاني، الذي بذل نعمة الله كفاً: ﴿تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار﴾ فلا يغنيك ما تتمتع به إذا كان المال النار.

﴿أفرأيت إن متعناهم سنين﴾ ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ﴿ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾.

﴿٩﴾ ﴿أمن هو قانت أتاء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب﴾ هذه مقابلة بين العامل بطاعة الله وغيره، وبين العالم والجاهل، وأن هذا من الأمور التي تقرر في العقول تبيينها، وعلم علماً يقيناً تفاوتها، فليس المعرض عن طاعة ربه، المتبع لهواه، كمن هو قانت، أي: مطيع لله بأفضل العبادات وهي الصلاة، وأفضل الأوقات وهو أوقات الليل، فوصفه بكثرة العمل وأفضله، ثم وصفه بالخوف والرجاء، وذكر أن متعلق الخوف عذاب الآخرة، على ما سلف من الذنوب، وأن متعلق الرجاء، رحمة الله، فوصفه بالعمل الظاهر والباطن.

﴿قل هل يستوي الذين يعلمون﴾ ربهم ويعلمون دينه الشرعي ودينه الجزائي، وما له في ذلك من الأسرار والحكم ﴿والذين لا يعلمون﴾ شيئاً من ذلك؟ لا يستوي هؤلاء ولا هؤلاء، كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلام، والماء والنار.

﴿إنما يتذكر﴾ إذا ذكروا ﴿أولو الألباب﴾ أي: أهل العقول الزكية الذكية، فهم الذين يؤثرون الأعلى على الأدنى، فيؤثرون العلم على الجهل، وطاعة الله على مخالفته، لأن لهم عقولاً ترشدهم للنظر في العواقب، بخلاف من لا لب له ولا عقل، فإنه يتخذ لإله هواه.

﴿١٠﴾ ﴿قل يا عباد الذي آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة﴾ إنما يوفى



الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ أي: قل منادياً لأشرف الخلق، وهم المؤمنون، أمراً لهم بأفضل الأوامر، وهي التقوى، ذاكراً لهم السبب الموجب للتقوى، وهو ربوبية الله لهم وإنعامه عليهم، المقتضي ذلك منهم أن يتقوه، ومن ذلك ما من الله عليهم به من الإيمان فإنه موجب للتقوى، كما تقول: أيها الكريم تصدق، وأنها الشجاع قاتل.

وذكر لهم الثواب المنشط في الدنيا فقال: ﴿للذين أحسنوا في هذه الدنيا﴾ بعبادة ربهم لهم ﴿حسنة﴾ وورق واسع، ونفس مطمئنة، وقلب منشرح، كما قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلننجينه حياة طيبة﴾.

﴿وأرض الله واسعة﴾ إذا منعمت من عبادته في أرض، فهاجروا إلى غيرها، تعبدون فيها ربكم، وتتمكنون من إقامة دينكم.

ولما قال: ﴿للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾ كان لبعض النفوس مجال في هذا الموضع، وهو أن النص عام، أنه كل من أحسن فله في الدنيا حسنة، فما بال من آمن في أرض يضطهد فيها ويمتهن، لا يحصل له ذلك، دفع هذا الظن بقوله: ﴿وأرض الله واسعة﴾

وهنا بشارة نص عليها النبي ﷺ بقوله: ﴿لا تزال طائفة من أمتي على



عباده إلى التقوى، وزاجر عما يوجب العذاب. فسيحان من رحم عباده في كل شيء، وسهل لهم الطرق الموصلة إليه، وحشهم على سلوكها، ورغبتهم بكل مرغبت تشاقق له النفوس وتطمئن له القلوب، وحذرتهم من العمل لغيره<sup>(١)</sup> غاية التحذير، وذكر لهم الأسباب الزاجرة عن تركه.

﴿١٧ - ١٨﴾ ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادَ \* الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمْ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ لما ذكر حال المجرمين ذكر حال النبيين وثوابهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ والمراد بالطاغوت في هذا الموضع، عبادة غير الله، فاجتنبوا في عبادتها. وهذا من أحسن الاحتراز من الحكيم العليم، لأن المدح إنما يتناول المجتنب لها في عبادتها.

﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ بعبادته وإخلاص الدين له، فانصرفت دواعيهم من عبادة الأصنام إلى عبادة الملك العلام، ومن الشرك والمعاصي إلى التوحيد والطاعات، ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ التي لا يقادر قدرها، ولا يعلم وصفها، إلا من أكرمهم بها، وهذا شامل للبشرى في الحياة الدنيا بالثناء الحسن، والرؤيا الصالحة، والعناية الربانية من الله، التي يرون في خلالها، أنه يريد لإكرامهم في الدنيا والآخرة، ولهم البشيرة في الآخرة عند الموت، وفي القبر، وفي القيامة، وخاتمة البشرى ما يبشروهم به الرب الكريم، من دوام رضوانه وبره وإحسانه وحلول أمانه في الجنة.

ولما أخبر أن لهم البشرى، أمره الله ببشارتهم، وذكر الوصف الذي استحقوا به البشارة فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ \* الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ﴾ وهذا جنس يشمل كل قول، فهم يستمعون جنس القول ليميزوا بين ما ينبئ إشارته

فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون، أي: ﴿قل﴾ يا أيها الرسول للناس: ﴿إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين﴾ في قوله في أول السورة: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾

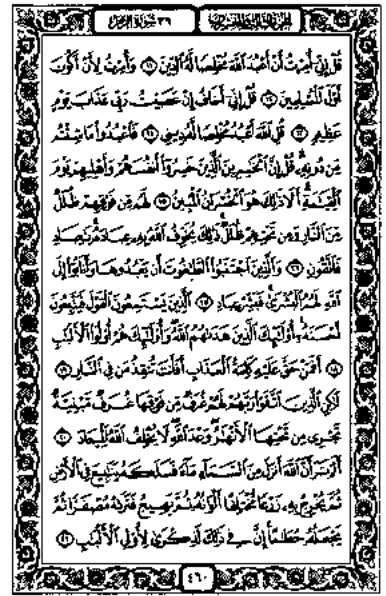
﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ لأنني الداعي الهادي للخلق إلى ربهم، فيقتضي أني أول من ائتمر بما أمر به، وأول من أسلم، وهذا الأمر لا بد من إيقاعه من محمد ﷺ، وعن زعم أنه من أتباعه، فلا بد من الإسلام في الأعمال الظاهرة، والإخلاص لله في الأعمال الظاهرة والباطنة.

﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي﴾ في ما أمرني به من الإخلاص والإسلام. ﴿عذاب يوم عظيم﴾ يجلد فيه من أشرك، ويعاقب فيه من عصى. ﴿قل الله أعبد مخلصاً له ديني﴾ فاعبدوا ما شئتم من دونه، كما قال تعالى: ﴿قل يا أيها الكافرون \* لا أعبدون ما أعبدون \* ولا أنا عابدٌ ما عبدتم \* ولا أنتم عابدون ما أعبد \* لكم دينكم ولي دين﴾.

﴿قل إن الخاسرين﴾ حقيقة هم ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ حيث حرموا الثواب، واستحققت بسببهم وخيم العقاب ﴿وأهلهم يوم القيامة﴾ أي: فرق بينهم وبينهم، واشتد عليهم الحزن، وعظم الحسرة. ﴿ألا ذلك هو الخسران المبين﴾ الذي ليس مثله خسران، وهو خسران مستمر، لا ربح بعده، بل ولا سلامة.

ثم ذكر شدة ما يحصل لهم من الشقاء فقال: ﴿لهم﴾ من فوقهم ظلل من النار، أي: قطع عذاب كالسحاب العظيم ﴿ومن تحتهم ظلل﴾

﴿ذلك﴾ الوصف الذي وصفنا به عذاب أهل النار، سوط يسوق الله به عباده إلى رحته، ﴿يَجُوزُ﴾ الله به عباده يا عباد فاتقون، أي: جعل ما أعده لأهل الشقاء من العذاب داع يدعو



الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك، تشير إليه هذه الآية، وترمي إليه من قريب، وهو أنه تعالى أخبر أن أرضه واسعة، فمهما مُنعت من عبادته في موضع فهاجروا إلى غيرها، وهذا عام في كل زمان ومكان، فلا بد أن يكون لكل مهاجر، ملجأ من المسلمين يلجأ إليه، وموضع يتمكن من إقامة دينه فيه.

﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ وهذا عام في جميع أنواع الصبر، الصبر على أقدار الله المؤلدة فلا يتسخطها، والصبر عن معاصيه فلا يرتكبها، والصبر على طاعته حتى يؤديها، فوعد الله الصابرين أجرهم بغير حساب، أي: بغير حد ولا عد ولا مقدار، وما ذلك إلا لفضيلة الصبر وعمله عند الله، وأنه معين على كل الأمور.

﴿١١ - ١٦﴾ ﴿قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين \* وأمرت أن أكون أول المسلمين \* قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم \* قل الله أعبد مخلصاً له ديني \* فاعبدوا ما شئتم من دونه قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين \* لهم من

ما ينبغي اجتنابه، فهذا من حزمهم وعقلهم أنهم يتبعون أحسنه، وأحسنه على الإطلاق كلام الله وكلام رسوله، كما قال في هذه السورة: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً﴾ الآية. وفي هذه الآية نكتة، وهي: أنه لما أخبر عن هؤلاء المدوحين أنهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه، كأنه قيل: هل من طريق إلى معرفة أحسنه حتى نتصف بصفات أولى الألباب، وحتى نعرف أن من أثره علمنا أنه من أولى الألباب؟

قيل: نعم، أحسنه ما نص الله عليه ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً﴾ الآية.

﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله﴾ لأحسن الأخلاق والأعمال ﴿وأولئك هم أولو الألباب﴾ أي: العقول الزاكية.

ومن لبهم وحزمهم، أنهم عرفوا الحسن من غيره، وآثروا ما ينبغي إشارته على ما سواه، وهذا علامة للعقل، بل لا علامة للعقل سوى ذلك، فإن الذي لا يميز بين الأقوال، حسنها وقبيحها، ليس من أهل العقول الصحيحة، أو الذي يميز، لكن غلبت شهوته عقله، فبقي عقله تابعاً لشهوته فلم يؤثر الأحسن، كان ناقص العقل.

﴿١٩٩ - ٢٠﴾ ﴿أنمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار \* لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد﴾ أي: أفمن وجبت عليه كلمة العذاب باستمراره على غيبه وعناده وكفره، فإنه لا حيلة لك في هدايته، ولا تقدر تنقذ من في النار لا عمالة، لكن الغنى كل الغنى، والفوز كل الفوز، للمتقين الذين أعد لهم من الكرامة وأنواع النعيم ما لا يقادر قدره.

﴿لهم عُرْفٌ﴾ أي: منازل عالية

مزخرقة، من حسنها وبهائنها وصفائها، أنه يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، ومن علوها وارتفاعها، [أنها] ترى كما يرى الكوكب الغابر في الأفق الشرقي أو الغربي، ولهذا قال: ﴿من فوقها غرف﴾ أي: بعضها فوق بعض ﴿مبنية﴾ بذهب وفضة، وملاطها المسك الأذفر.

﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ المتدفقة، المسقية للبياتين الزاهرة والأشجار الطاهرة، فتقل بأنواع الثمار اللذيذة، والفاكهة الضيجة.

﴿وعد الله لا يخلف الله الميعاد﴾ وقد وعد المتقين هذا الثواب، فلا بد من الوفاء به، فليوفوا بخصال التقوى، ليوفيهم أجورهم.

﴿٢١﴾ ﴿الم تر أن الله أنزل من السماء ماء فلعله ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يبيح فتراه مصفراً ثم يجعله حطاباً إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب﴾ يذكر تعالى أولي الألباب، ما أنزله من السماء من الماء، وأنه سلكه ينابيع في الأرض، أي: أودعه فيها ينبوعاً يستخرج بسهولة ويسر، ﴿ثم يخرج به زرعا مختلفاً ألوانه﴾ من بر وذرة، وشعير وأرز، وغير ذلك. ﴿ثم يبيح﴾ عند استكمالها، أو عند حدوث آفة فيه ﴿فتراه مصفراً ثم يجعله حطاباً﴾ متكسراً ﴿إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب﴾ يذكرون به عناية ربهم ورحمته بعباده، حيث يسر لهم هذا الماء، وخرزته بخزائن الأرض تبعاً لمصالحهم. ويذكرون به كمال قدرته، وأنه يحيي الموتى، كما أحيا الأرض بعد موتها، ويذكرون به أن الفاعل لذلك هو المستحق للعبادة.

اللهم اجعلنا من أولى الألباب، الذين نوهت بذكرهم، وهديتهم بما أعطيتهم من العقول، وأريتهم من أسرار كتابك وبديع آياتك ما لم يصل إليه غيرهم، إنك أنت الوهاب.

﴿٢٢﴾ ﴿أنمن شرح الله صدره

﴿١٩٩﴾ ﴿أنمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار \* لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد﴾ أي: أفمن وجبت عليه كلمة العذاب باستمراره على غيبه وعناده وكفره، فإنه لا حيلة لك في هدايته، ولا تقدر تنقذ من في النار لا عمالة، لكن الغنى كل الغنى، والفوز كل الفوز، للمتقين الذين أعد لهم من الكرامة وأنواع النعيم ما لا يقادر قدره.

﴿لهم عُرْفٌ﴾ أي: منازل عالية

للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين﴾ أي: أنيسستوي من شرح الله صدره للإسلام، فانسح لتلقي أحكام الله والعمل بها، منشرحاً قرير العين، على بصيرة من أمره، وهو المراد بقوله: ﴿فهو على نور من ربه﴾ كمن ليس كذلك، بدليل قوله: ﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله﴾ أي: لا تلين لكتابيه، ولا تتذكر آياته، ولا تطمئن بذكره، بل هي معرضة عن ربه، ملتفتة إلى غيره، فهؤلاء لهم الويل الشديد، والشر الكبير.

﴿أولئك في ضلال مبين﴾ وأي: ضلال أعظم من ضلال من أعرض عن ربه، ومن كل السعادة في الإقبال عليه، وقسا قلبه عن ذكره، وأقبل على كل ما يضره!!

﴿٢٣﴾ ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلودهم الذين يحشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضل الله فماله من هاد﴾ يخبر تعالى عن كتابه الذي نزله أنه ﴿أحسن الحديث﴾ على الإطلاق، فأحسن الحديث كلام الله، وأحسن الكتب المنزلة من كلام الله هذا القرآن، وإذا كان هو الأحسن، علم أن الفاظه

﴿٢٤ - ٢٦﴾ **﴿أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون﴾** كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون **﴿فأذاقهم الله الحزني في الحياة الدنيا وللعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعثمون﴾** أي: أفيستوي هذا الذي هداه الله، ووقفه لسلك الطريق الموصل لدار كرامته، كمن كان في الضلال واستمر على عناده حتى قدم القيامة، فجاءه العذاب العظيم فجعل يتقي بوجهه الذي هو أشرف الأعضاء، وأدنى شيء من العذاب يؤثر فيه، فهو يتقي فيه سوء العذاب لأنه قد غلّت يده ورجلاه، **﴿وقيل للظالمين﴾** أنفسهم بالكفر والمعاصي، توبيخاً وتذكيراً: **﴿ذوقوا ما كنتم تكسبون﴾**

**﴿كذب الذين من قبلهم﴾** من الأمم كما كذب هؤلاء، **﴿فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾** جاءهم في غفلة أول نهار، أو هم قائلون، **﴿فأذاقهم الله﴾** بذلك العذاب الحزني في الحياة الدنيا، فافتضحوا عند الله وعند خلقه **﴿وللعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾** فليحذر هؤلاء من المقام على التكذيب، فيصيبهم ما أصاب أولئك من التعذيب.

﴿٢٧ - ٣١﴾ **﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون﴾** قرأنا عربياً غير ذي عوج لعلمهم يتقون **﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾** إنك ميت وإني ميتون **﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾** يخبر تعالى أنه ضرب في القرآن من جميع الأمثال، أمثال أهل الخير وأمثال أهل الشر، وأمثال التوحيد والشرك، وكل مثل يقرب حقائق الأشياء، والحكمة في ذلك **﴿لعلمهم يتذكرون﴾** عندما نوضح لهم الحق فيعملون ويعلمون.

**﴿قرأنا عربياً غير ذي عوج﴾** أي: جعلناه قرأناً عربياً، واضح الالفاظ،

الأشجار، فكما أن الأشجار كلما بعد عنها بسقي الماء نقصت، بل ربما نلت، وكلما تكرر سقيها حسنت وأثمرت أنواع الثمار النافعة، فكذلك القلب يحتاج دائماً إلى تكرر معاني كلام الله تعالى عليه، وأنه لو تكرر عليه المعنى مرة واحدة في جميع القرآن، لم يقع منه موقعاً، ولم تحصل النتيجة منه، ولهذا سلكت في هذا التفسير هذا المسلك الكريم، اقتداء بما هو تفسير له، فلا نجد فيه الحوالة على موضع من المواضع، بل كل موضع نجد تفسيره كامل المعنى، غير مراعٍ لما مضى مما يشبهه، وإن كان بعض المواضع يكون أبسط من بعض وأكثر فائدة، وهكذا ينبغي للقارئ للقرآن، التدبر لمعانيه، أن لا يدع التدبر في جميع المواضع منه، فإنه يحصل له بسبب ذلك خير كثير ونفع غزير.

ولما كان القرآن العظيم بهذه الجلالة والعظمة، أثر في قلوب أولي الألباب المهتدين، فلهذا قال تعالى: **﴿نقشهم منه جلود الذين يخشون ربهم﴾** لما فيه من التخويف والترهيب المزعج، **﴿ثم نلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾** أي: عند ذكر الرجاء والترغيب، فهو تارة يرضهم لعمل الخير، وتارة يرمهم من عمل الشر.

**﴿ذلك﴾** الذي ذكره الله من تأثير القرآن فيهم **﴿هدى الله﴾** أي: هداية منه لعباده، وهو من جملة فضله وإحسانه عليهم، **﴿يهدي به﴾** أي: بسبب ذلك **﴿من يشاء﴾** من عباده. ويحتمل أن المراد بقوله: **﴿ذلك﴾** أي: القرآن الذي وصفناه لكم.

**﴿هدى الله﴾** الذي لا طريق يوصل إلى الله إلا منه **﴿يهدي به من يشاء من عباده﴾** من حسن قصده، كما قال تعالى: **﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام﴾**.

**﴿ومن يضل الله فما له من هادٍ﴾** لأنه لا طريق يوصل إليه إلا توفيقه والتوفيق للإقبال على كتابه، فإذا لم يحصل هذا، فلا سبيل إلى الهدى، وما هو إلا الضلال المبين والشقاء.



أفصح الالفاظ وأوضحها، وأن معانيه، أجل المعاني، لأنه أحسن الحديث في لفظه ومعناه، متشابهاً في الحسن والانتلاف وعدم الاختلاف بوجه من الوجوه. حتى إنه كلما تدبره التدبر، وتفكر فيه المتفكر، رأى من اتفاهه، حتى في معانيه الغامضة، ما يبهر الناظرين، ويجزم بأنه لا يصدر إلا من حكيم عليم، هذا المراد بالشابه في هذا الموضع.

وأما في قوله تعالى: **﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾** فالمراد بها، التي تشبه على فهم كثير من الناس، ولا يزول هذا الاشتباه إلا بردها إلى المحكم، ولهذا قال: **﴿منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾** فجعل التشابه لبعضه، وهنا جعله كله متشابهاً، أي: في حسنه، لأنه قال: **﴿أحسن الحديث﴾** وهو سور وآيات، والجميع يشبه بعضه بعضاً كما ذكرنا.

**﴿متشابهات﴾** أي: تشبه في القصص والأحكام، والوعد والوعيد، وصفات أهل الخير، وصفات أهل الشر، وتشبه في أسماء الله وصفاته، وهذا من جلالته وحسنه، فإنه تعالى لما علم احتياج الخلق إلى معانيه المركبة للقلوب، المكملة للأخلاق، وأن تلك المعاني للقلوب، بمنزلة الماء لسقي

سهل المعاني، خصوصاً على العرب. **﴿ضرب ذي هوج﴾** أي: ليس فيه خلل ولا نقص بوجه من الوجوه، لا في ألفاظه ولا في معانيه، وهذا يستلزم كمال اعتداله واستقامته كما قال تعالى: **﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً﴾** فيماً.

**﴿لعلهم يتقون﴾** الله تعالى، حيث سهلنا عليهم طرق التقوى العلمية والعملية، بهذا القرآن العربي المستقيم، الذي ضرب الله فيه من كل مثل.

ثم ضرب مثلاً للشرك والتوحيد فقال: **﴿ضرب الله مثلاً رجلاً﴾** أي: عبداً **﴿فيه شركاء متشاكسون﴾** فهم كثيرون، وليسوا متفقين على أمر من الأمور وحالة من الحالات حتى تتمكن راحته، بل هم متشاكسون متنازعون فيه، كل له مطلب يريد تنفيذه ويريد الآخر غيره، فما تظن حال هذا الرجل مع هؤلاء الشركاء المتشاكسين؟

**﴿ورجلاً مسلماً لرجل﴾** أي: خالصاً له، قد عرف مقصود سيده، وحصلت له الراحة التامة. **﴿هل يستويان﴾** أي: هذان الرجلان **﴿مثلاً﴾**؟ لا يستويان.

كذلك المشرك، فيه شركاء متشاكسون، يدعو هذا، ثم يدعو هذا، فنتراه لا يستقر له قرار، ولا يطمئن قلبه في موضع، والموخذ مخلص لربه، قد خلصه الله من الشركة لغيره، فهو في أتم راحة وأكمل طمأنينة، ف **﴿هل يستويان مثلاً الحمد لله﴾** على تبيين الحق من الباطل، وإرشاد الجهال. **﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾**

**﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾** أي: كلكم لا بد أن يموت **﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفان مت فهم الخالدون﴾**.

**﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾** فيما تنازعتم فيه، فيفصل بينكم بحكمه العادل، ويميزي كلأ ما عمله **﴿أحصاه الله ونسوه﴾**.

**﴿٣٢-٣٥﴾** **﴿فمن أظلم ممن**

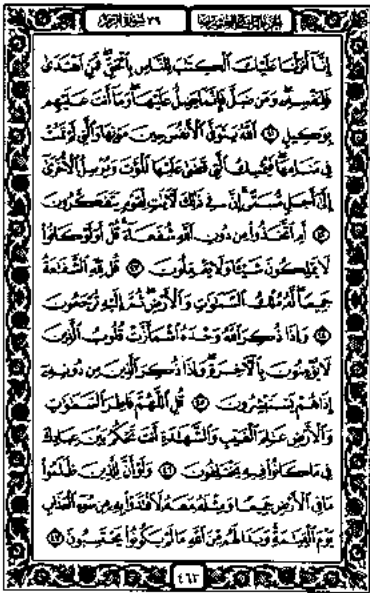
كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه **﴿ليس في جهنم مثوى للكافرين﴾** \* والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون \* لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين \* ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويميزهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون \* يقول تعالى، محذراً وخبرياً: أنه لا أظلم وأشد ظلاماً **﴿من كذب على الله﴾** إما بنسبه إلى ما لا يليق بجلاله، أو بادعاء النبوة، أو الإخبار بأن الله تعالى قال كذا، أو أخبر بكذا، أو حكم بكذا وهو كاذب، فهذا داخل في قوله تعالى: **﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾** إن كان جاهلاً، وإلا فهو أشنع وأشنع،

**﴿وكذب بالصدق إذ جاءه﴾** <sup>(١)</sup> أي: ما أظلم ممن جاءه الحق المؤيد بالبينات فكذبه، فتكذيبه ظلم عظيم منه، لأنه رد الحق بعدما تبين له، فإن كان جامعاً بين الكذب على الله والتكذيب بالحق، كان ظلاماً على ظلم. **﴿ليس في جهنم مثوى للكافرين﴾** يحصل بها الاستشفاء منهم، وأخذ حق الله من كل ظالم وكافر. **﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾**.

ولما ذكر الكاذب المكذب وجناتيه وعقوبته، ذكر الصادق المصدق وثوابه، فقال: **﴿والذي جاء بالصدق﴾** في قوله وعمله، فدخل في ذلك الأنبياء ومن قام مقامهم، ممن صدق فيما قاله عن خير الله وأحكامه، وفيما فعله من خصال الصدق.

**﴿وصدق به﴾** أي: بالصدق لأنه قد يجيء الإنسان بالصدق، ولكن قد لا يصدق به، بسبب استكباره، أو احتقاره لمن قاله وأتى به، فلا بد في المدح من الصدق والتصديق، فصدقه يدل على علمه وعدله، وتصديقه يدل على تواضعه وعدم استكباره.

**﴿أولئك﴾** أي: الذين وفقوا للجمع بين الأمرين **﴿هم المتقون﴾** فإن جميع خصال التقوى ترجع إلى الصدق بالحق



والتصديق به.

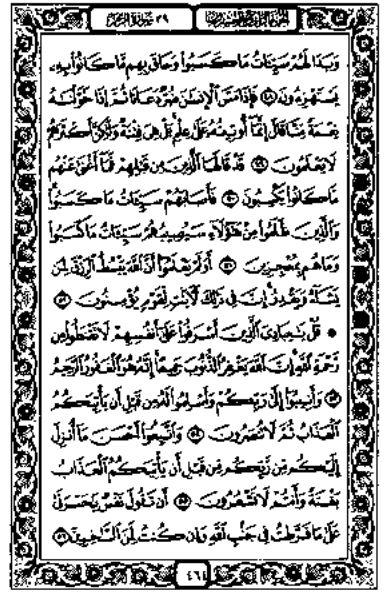
**﴿لهم ما يشاؤون عند ربهم﴾** من الشواب، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فكل ما تعلقت به إرادتهم ومشيئتهم، من أصناف اللذات والمشتبهات، فإنه حاصل لهم، معد مهياً، **﴿ذلك جزاء المحسنين﴾** الذين يعبدون الله كأنهم برونه، فإن لم يكونوا برونه فإنه يراهم **﴿المحسنين﴾** إلى عباد الله.

**﴿ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويميزهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون﴾** عمل الإنسان له ثلاث حالات:

إما أسوأ، أو أحسن، أو لا أسوأ ولا أحسن.

والقسم الأخير قسم المباحات وما لا يتعلق به ثواب ولا عقاب، والأسوأ، المعاصي كلها، والأحسن، الطاعات كلها، فهذا التفصيل يبين معنى الآية، وأن قوله: **﴿ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا﴾** أي: ذنوبهم الصغار، بسبب إحسانهم وتقواهم، **﴿ويميزهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون﴾** أي: بحسناتهم كلها.

**﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾**.



٣٦-٣٧ ﴿اليس الله بكاف عبده﴾ ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فماله من هاد \* ومن يهد الله فماله من مضل اليس الله بعزيز ذي انتقام ﴿اليس الله بكاف عبده﴾ أي: اليس من كرمه وجوده، وعنايته بعبده، الذي قام بعبوديته، وامتنل أمره واجتنب نهيهِ، خصوصاً أكمل الخلق عبودية لربه، وهو محمد ﷺ، فإن الله تعالى سيكفيه في أمر دينه ودينياه، ويدفع عنه من نأواه بسوء.

﴿ويخوفونك بالذين من دونه﴾ من الأصنام والأنداد أن تنالك بسوء، وهذا من غيرهم وضلالهم.

﴿ومن يضلل الله فماله من هاد \* ومن يهد الله فماله من مضل﴾ لأنه تعالى الذي بيده الهداية والإضلال، وهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. ﴿اليس الله بعزيز﴾ له العزة الكاملة التي فخر بها كل شيء، ويعزته يكفي عبده ويدفع عنه مكرهم. ﴿ذي انتقام﴾ ممن عصاه، فاحذروا موجبات نعمته.

٣٨ ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضرٍ هل من كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل من ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون﴾

أي: ولئن سألت هؤلاء الضلال الذين يخوفونك بالذين من دونه، وأقمت عليهم دليلاً من أنفسهم، فقلت: ﴿من خلق السماوات والأرض﴾ لم يثبتوا لألهتهم من خلقها شيئاً. ﴿ليقولن الله﴾ الذي خلقها وحده. ﴿قل﴾ لهم مقرأ عجز ألهمهم، بعدما تبينت قدرة الله: ﴿أفرأيتم﴾ أي: أخبروني ﴿ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضرٍ﴾ أي ضرر كان.

﴿هل من كاشفات ضرره﴾ بإزالته بالكلية، أو بتخفيفه من حال إلى حال؟ ﴿أو أرادني برحمة﴾ يوصل إلي بها منقعة في ديني أو دنياي. ﴿هل من ممسكات رحمته﴾ ومانعاتها عني؟ سيقولون: لا يكشفون الضر ولا يمسكون الرحمة.

قل لهم بعدما تبين الدليل القاطع على أنه وحده المعبود، وأنه الخالق للمخلوقات، النافع الضار وحده، وأن غيره عاجز من كل وجه عن الخلق والنفع والضرر، مستجلباً كفايته، مستدفعاً مكرهم وكيدهم: ﴿قل﴾ حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون﴾ أي: عليه يعتمد المعتدون في جلب مصالحهم ودفع مضارهم، فالذي بيده - وحده - الكفاية هو حسبي، سيكفيني كل ما أمني وما لا أهتم به.

٣٩-٤٠ ﴿قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون﴾ من يأتيه عذاب يخزيه ويميل عليه عذاب مقيم﴾ أي: ﴿قل﴾ لهم يا أيها الرسول: ﴿يا قوم اعملوا على مكانتكم﴾ أي: على حالتكم التي رضيتموها لأنفسكم، من عبادة من لا يستحق من العبادة شيئاً ولا له من الأمر شيء.

﴿إني عامل﴾ على ما دعوتكم إليه، من إخلاص الدين لله تعالى وحده. ﴿فسوف تعلمون﴾ لن العاقبة و ﴿من يأتيه عذاب يخزيه﴾ في الدنيا، و﴿يميل عليه﴾ في الآخرة ﴿عذاب مقيم﴾ لا يحول عنه ولا يزول، وهذا تهديد عظيم لهم، وهم يعلمون أنهم المستحقون للعذاب المقيم، ولكن

الظلم والعناد حال بينهم وبين الإيمان.

٤١ ﴿إنا أنزلنا عليك الكتاب ضل فإنتما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل﴾ يخبر تعالى أنه أنزل على رسوله الكتاب المشتمل على الحق، في أخباره وأوامره ونواهيهِ، الذي هو مادة الهداية، وبلاغ لمن أراد الوصول إلى الله وإلى دار كرامته، وأنه قامت به الحجة على العالمين.

﴿فمن اهتدى﴾ بتوره واتبع أوامره ﴿ف﴾ إن نفع ذلك يعود إلى نفسه ﴿ومن ضل﴾ بعدما تبين له الهدى ﴿فإنتما يضل عليها﴾ لا يضر الله شيئاً. ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها، وتجيبرهم على ما تشاء، وإنما أنت مبلغ تؤدي إليهم ما أمرت به.

٤٢ ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ يخبر تعالى أنه المتفرد بالتصرف بالعباد، في حال يقظتهم ونومهم، وفي حال حياتهم وموتهم، فقال: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾ وهذه الوفاة الكبرى، وفاة الموت.

وإخباره أنه يتوفى الأنفس وإضافة الفعل إلى نفسه، لا يتفاني أنه قد وكل بذلك ملك الموت وأعوانه، كما قال تعالى: ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم﴾. ﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يقرطون﴾ لأنه تعالى يضيف الأشياء إلى نفسه، باعتبار أنه الخالق المدبر، ويضيفها إلى أسبابها، باعتبار أن من سنته تعالى وحكمته أن جعل لكل أمر من الأمور سبباً.

وقوله: ﴿والتي لم تمت في منامها﴾ وهذه الموتة الصغرى، أي: ويمسك النفس التي لم تمت في منامها، ﴿فيمسك﴾ من هاتين النفسين النفس التي قضى عليها الموت، وهي نفس

مَنْ كَانَ مَاتَ، أَوْ قُضِيَ أَنْ يَمُوتَ فِي مَنَامِهِ .

﴿ويرسل﴾ النفس ﴿الأخرى إلى أجل مسمى﴾ أي: إلى استكمال رزقها وأجلها. ﴿إن في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون﴾ على كمال اقتداره، وإحيائه الموتى بعد موتهم.

وفي هذه الآية دليل على أن الروح والنفس جسم قائم بنفسه، يخالف جوهره جوهر البدن، وأنها مخلوقة مدبرة، يتصرف الله فيها في الوفاة والإمساك والإرسال، وأن أرواح الأحياء والأموات تتلاقى في البرزخ، فتجتمع فتتحدث، فيرسل الله أرواح الأحياء، ويمسك أرواح الأموات.

﴿٤٣ - ٤٤﴾ ﴿أَمْ تَخْلَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ سُفْمَاءَ قُلُوبِ أُولَئِكَ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْلَمُونَ﴾ قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السماوات والأرض ثم إليه ترجعون ﴿ينكر تعالى على مَنْ اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ سُفْمَاءَ يَتَعَلَّقُ بِهِمْ وَيَسْأَلُهُمْ رِيبَئِهِمْ - مِيباً جَهْلُهُمْ، وَأَنَّهُ لَا تَسْتَحِقُّ شَيْئاً مِنَ الْعِبَادَةِ - ﴿أُولَئِكَ كَانُوا﴾ أي: مَنْ اتَّخَذَ مِنَ الشُّفْعَاءِ ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً﴾ أي: لا مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، بل ليس لهم عقل يستحقون أن يمدحوا به، لأنها جادات من أحجار وأشجار وصور وأموات، فهل يقال: إن لمن اتخذها عقلاً؟ أم هو من أضل الناس وأجهلهم وأعظمهم ظلماً؟

﴿قل﴾ لهم: ﴿الله الشفاعة جميعاً﴾ لأن الأمر كله لله وكل شفيع فهو بخافه، ولا يقدر أن يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فإذا أراد رحمة عبده، أذن للشفيع الكريم عنده أن يشفع، رحمة بالانئين. ثم قرر أن الشفاعة كلها له بقوله: ﴿له ملك السماوات والأرض﴾ أي: جميع ما فيهما من الدوات والأفعال والصفات. فالواجب أن تطلب الشفاعة عن يملكها، وتخلص له العبادة. ﴿ثم إليه ترجعون﴾ فيجازي المخلص له بالشواب الجزيل، ومَنْ

أشرك به بالعذاب الويل.

﴿٤٥ - ٤٦﴾ ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ قل اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يختلفون ﴿يذكر تعالى حالة المشركين، وما الذي اقتضاه شركهم أنهم﴾ إذا ذكر الله ﴿توحيداً له، وأمر بإخلاص الدين له، وترك ما يعبد من دونه، أنهم يشتمزون وينفرون، ويكروهون ذلك أشد الكراهة.

﴿وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ، وَدَعَا الدَّاعِيَ إِلَى عِبَادَتِهَا وَمَدْحِهَا، ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بذلك، فرحاً بذكر معبوداتهم، ولكون الشرك موافقاً لأهوائهم، وهذه الحال أشد الحالات وأشنعها، ولكن موعدهم يوم الجزاء. فهناك يؤخذ الحق منهم، وينظر: هل تنفعهم آلهتهم التي كانوا يدعون من دون الله شيئاً؟

ولهذا قال: ﴿قل اللهم فاطر السماوات والأرض﴾ أي: خالقهما ومديرهما، ﴿عالم الغيب﴾ الذي غاب عن أبصارنا وعلمنا، ﴿والشهادة﴾ الذي نشاهده.

﴿أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون﴾ وإن من أعظم الاختلاف اختلاف الموحدين المخلصين القائلين: إن ما هم عليه هو الحق، وإن لهم الحسنى في الآخرة دون غيرهم، والمشركين الذين اتخذوا من دونك الأنداد والأوثان، وسووا فيك مَنْ لَا يَسْرَى شَيْئاً، وَتَنْقُصُوكَ غَايَةَ التَّنْقِصِ، وَاسْتَبْشَرُوا عِنْدَ ذِكْرِ آلِهَتِهِمْ، وَاشْتَمَزُوا عِنْدَ ذِكْرِكَ، وَزَعَمُوا مَعَ هَذَا أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ وَغَيْرِهِمْ عَلَى الْبَاطِلِ، وَأَنَّ لَهُمُ الْحَسَنَى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ . وقد أخبرنا بالفصل بينهم بعدها

بقوله: ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعتم لهم نيباً من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم﴾ يصهر به ما في بطونهم والجلود ﴿ولهم مقامع من حديد﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجْلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسَهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ .

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ ﴿إنه مَنْ يَشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ ففي هذه الآية، بيان عموم خلقه تعالى وعموم علمه، وعموم حكمه بين عبادته، فقدرته التي نشأت عنها المخلوقات، وعلمه المحيط بكل شيء، دال على حكمه بين عبادته وبعثهم، وعلمه بأعمالهم، خيرها وشرها، وبمقادير جزائنها، وخلقها دال على علمه ﴿ألا يعلم مَنْ خَلَقَ﴾ .

﴿٤٧ - ٤٨﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَاقْتَدُوا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَلَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ ﴿وبدلاً لهم سيئات ما كسبوا وحق بهم ما كانوا به يستهزؤون﴾ لما ذكر تعالى أنه الحاكم بين عبادته، وذكر مقالة المشركين وشناعتهم، كأن النفوس تشوقت إلى ما يفعل الله بهم يوم القيامة، فأخبر أن لهم ﴿سوء العذاب﴾ أي: أشده وأفظعه، كما قالوا أشد الكفر وأشنعه، وأنهم على - الفرض والتقدير - لو كان لهم ما في الأرض جميعاً، من ذهبها وفضتها ولؤلؤها وحيواناتها وأشجارها وزروعها وجميع أوائها وأثاثها ومثله معه، ثم بدلوه يوم القيامة ليقتدوا به من العذاب وينجوا منه، ما قبل منهم، ولا أغنى عنهم من عذاب الله شيئاً، ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون﴾ ﴿إلا مَنْ أتى الله بقلب سليم﴾ .

﴿وبدلاً لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون﴾ أي: يظنون من السخط العظيم، والمقت الكبير، وقد كانوا

يزيلها ولا سبيل يصرفها، فتبفون بسبب ذلك مصرين على العصيان، متزودين ما يغضب عليكم الرحمن، ولكن اعرفوا ربكم بأسمائه الدالة على كرمه وجوده، واعلموا أنه يغفر الذنوب جميعاً، من الشرك، والقتل، والزنا، والربا، والظلم، وغير ذلك من الذنوب الكبار والصغار. **﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾** أي: وصفه المغفرة والرحمة، وصفان لازمان ذاتيان، لا تنفك ذاته عنهما، ولم تزل آثارهما سارية في الوجود، ماثلة للموجود، تسح يده من الخيرات آناء الليل والنهار، ويوالي النعم على العباد والفواضل في السر والجاهار، والعطاء أحب إليه من المنع، والرحمة سبقت الغضب وغلبته، ولكن لمغفرته ورحمته ونيلهما أسباب إن لم يأت بها العبد، فقد أغلق على نفسه باب الرحمة والمغفرة، أعظمها وأجلها، بل لا سبب لها غيره، الإجابة إلى الله تعالى بالتوبة النصوح، والدعاء والتضرع والتأله والتعبد، فهلم إلى هذا السبب الأجل، والطريق الأعظم، ولهذا أمر تعالى بالإجابة إليه، والمبادرة إليها فقال: **﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾** بقلوبكم **﴿وَأَسْلُمُوا لَهُ﴾** بجوارحكم، إذا أفردت الإجابة، دخلت فيها أعمال الجوارح، وإذا جمع بينهما، كما في هذا الموضع، كان المعنى ما ذكرنا.

وفي قوله: **﴿إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ﴾** دليل على الإخلاص، وأنه من دون إخلاص، لا تفيد الأعمال الظاهرة والباطنة شيئاً. **﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ﴾** مجيئاً لا يدفع **﴿ثُمَّ لَا تَنْصُرُونَ﴾**. فكانه قيل: ما هي الإجابة والإسلام؟ وما جزئياتها وأعمالها؟

فأجاب تعالى بقوله: **﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾** مما أمركم من الأعمال الباطنة، كمحبة الله، وخشيته، وخوفه، ورجائه، والنصح لعباده، وعبة الخير لهم، وترك ما يضاد ذلك.

ومن الأعمال الظاهرة، كالصلاة،

ولما ذكر أنهم اغتروا بالمال، وزعموا - بجهلهم - أنه يدل على حسن حال صاحبه، أخبرهم تعالى، أن رزقه لا يدل على ذلك، وأنه **﴿يَسِطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾** من عباده، سواء كان صالحاً أو طالحاً **﴿وَيَسْخَرُ﴾** الرزق، أي: يضيقه على مَنْ يشاء، صالحاً أو طالحاً، فرزقه مشترك بين البرية، والإيمان والعمل الصالح يخص به خير البرية. **﴿إِنْ فِي ذَلِكَ، لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾** أي: بسط الرزق وقضه، لعلمهم أن مرجع ذلك، عائد إلى الحكمة والرحمة، وأنه أعلم بحال عبده، فقد يضيّق عليهم الرزق لطفاً بهم، لأنه لو بسطه لبغوا في الأرض، فيكون تعالى مراعيّاً في ذلك صلاح دينهم الذي هو مادة سعادتهم وفلاحهم، والله أعلم.

**﴿٥٣ - ٥٩﴾** **﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾** وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون \* واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون \* أن تقول نفس يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين \* أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين \* أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين \* بل قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين \* يخبر تعالى عباده المسرفين بسعة كرمه، ويحثهم على الإجابة قبل أن لا يمكنهم ذلك فقال: **﴿قُلْ﴾** يا أيها الرسول ومن قام مقامه من الدعاة لدين الله، مخبراً للعباد عن ربهم: **﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾** باتباع ما تدعوهم إليه أنفسهم من الذنوب، والسمي في مسأخذ غلام الغيوب.

**﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾** أي: لا تياسوا منها، فتلغوا بأيديكم إلى التهلكة، وتقولوا قد كثرت ذنوبنا وتراكمت عيوبنا، فليس لها طريق

يحكمون لأنفسهم بغير ذلك. **﴿وَيَدُلُّهُمْ سُبُلَاتٍ مَا كَسَبُوا﴾** أي: الأمور التي تسوؤهم، بسبب صنيعهم وكسبهم. **﴿وَحَقَّ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾** من الوعيد والعذاب الذي نزل بهم، وما حل عليهم العقاب.

**﴿٤٩ - ٥٢﴾** **﴿فَإِذَا مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ النَّاسِ نِعْمَةً وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْهَا جَدٌّ﴾** إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون \* قد قالها الذين من قبلهم فما أعتى عنهم ما كانوا يكسبون \* فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين \* أولم يعلموا أن الله ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ\* يخبر تعالى عن حالة الإنسان وطبيعته، أنه حين يمسه ضر، من مرض أو شدة أو كرب، **﴿دَعَانَا﴾** ملحاً في تفریح ما نزل به **﴿ثُمَّ إِذَا خَوْلَانَهُ نِعْمَةً مَنَّا﴾** فكشفنا ضره وأزلنا مشقته، عاد بربه كافراً، والمعروف منكراً، و **﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيته عَلَىٰ عِلْمٍ﴾** أي: علم من الله، أي له أهل، وأني مستحق له، لأني كريم عليه، أو على علم مني بطرق تحصيله.

قال تعالى: **﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾** يبلي الله به عباده، لينظر مَنْ يشكره ممن يكفره. **﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾** لذلك يعدون الفتنة منحة، ويشتهي عليهم الخير المحض، بما قد يكون سبباً للخير أو للشر.

قال تعالى: **﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾** أي: قولهم **﴿إِنَّمَا أُوتِيته عَلَىٰ عِلْمٍ﴾** فما زالت متواردة عند المكذبين، لا يقرون بنعمة ربهم، ولا يرون له حقاً، فلم يزل دأبهم حتى أهلكوا، ولم يغن عنهم ما كانوا يكسبون **﴿حِينَ جَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾**.

**﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا﴾** والسيئات في هذا الموضع: العقوبات، لأنها تسوء الإنسان وتحزنه. **﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيَّصِبُهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا﴾** فليسوا خيراً من أولئك، ولم يكتب لهم براءة في الزبر.

والزكاة والصيام، والحج، والصدقة، وأنواع الإحسان، ونحو ذلك، مما أمر الله به، وهو أحسن ما أنزل إلينا من ربنا، فالتبجح لأوامر ربه في هذه الأمور ونحوها هو المنتيب المسلم، ﴿من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون﴾ وكل هذا حثٌ على المبادرة وانتهاز الفرصة.

ثم حذرهم ﴿أن لا يستمروا على غفلتهم، حتى يأتيهم يوم يندمون فيه، ولا تنفع الندامة، و ﴿تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله﴾ أي: في جانب حقه، ﴿وإن كنت في الدنيا لمن الساخرين﴾ في إتيان الجزاء، حتى رأيت عياناً.

﴿أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين﴾ و «لو» في هذا الموضع للتمني، أي: ليت أن الله هداني فأكون متقياً له، فأسلم من العقاب وأستحق الثواب، وليست «لو» هنا شرطية، لأنها لو كانت شرطية، لكانوا محتجين بالقضاء والقدر على ضلالهم، وهو حجة باطلة، ويوم القيامة تضمحل كل حجة باطلة.

﴿أو تقول حين ترى العذاب وتهمز بوروده ﴿لو أن لي كوزة﴾ أي: رجعة إلى الدنيا لكنت من المحسنين﴾. قال تعالى: إن ذلك غير ممكن ولا مفيد، وإن هذه أمانى باطلة لا حقيقة لها، إذ لا يتجدد للعبد لو رُدَّ، بيان بعد البيان الأول.

﴿بلى قد جاءتك آياتي﴾ الدالة دلالة لا يمتري فيها على الحق ﴿فكذبت بها واستكبرت﴾ عن اتباعها ﴿وكننت من الكافرين﴾ سؤال الرد إلى الدنيا، نوع عبث، ﴿ولو رددوا لعادوا لما نها عنه وإنهم لكاذبون﴾.

﴿٦٠ - ٦١﴾ ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾ ويتعجب الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يميزون، يخبر تعالى عن خزي الذين كذبوا عليه، وأن وجوههم يوم القيامة مسودة كأنها الليل البهيم، يعرفهم بذلك أهل الموقف،

فالحق أبلغ واضح كأنه الصبح، فكما سؤدوا وجه الحق بالكذب، سود الله وجوههم، جزاء من جنس عملهم.

فلهم سواد الوجوه، ولههم العذاب الشديد في جهنم، ولهذا قال: ﴿ليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾ عن الحق، وعن عبادة ربهم، الفسترين عليه؟ بلى والله، إن فيها لعقوبة وخزياً وسخطاً، يبلغ من التكبرين كل مبلغ، ويؤخذ الحق منهم بها.

والكذب على الله يشمل الكذب عليه بائخاذ الشريك والولد والصاحبة، والإخبار عنه بما لا يليق بجلاله، أو ادعاء النبوة، أو القول في شرعه بما لم يقاه، والإخبار بأنه قاله وشرعه.

ولما ذكر حالة التكبرين، ذكر حالة المتقين، فقال: ﴿وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم﴾ أي: بنجاتهم، وذلك لأن معهم آلة النجاة، وهي تقوى الله تعالى، التي هي العدة عند كل هول وشدة. ﴿لا يمسهم السوء﴾ أي: العذاب الذي يسوزهم ﴿ولا هم يميزون﴾ نفى عنهم مباشرة العذاب وخوفه، وهذا غاية الأمان.

فلهم الأمن التام، يصحبهم حتى يوصلهم إلى دار السلام، فحينئذ يأمنون من كل سوء ومكروه، وتجري عليهم نضرة النعيم، ويقولون: ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور﴾.

﴿٦٢ - ٦٣﴾ ﴿الله خالق كل شيء

وهو على كل شيء وكيل \* له مقابلد السماوات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون﴾ يخبر تعالى عن عظمتهم وكمالهم، الموجب لحسran من كفر به فقال: ﴿الله خالق كل شيء﴾ هذه العبارة وما أشبهها، مما هو كثير في القرآن، تدل على أن جميع الأشياء - غير الله - مخلوقة، ففيها رد على كل من قال بتقديم بعض المخلوقات، كالفلاسفة القائلين يقدم الأرض والسماوات، وكالقائلين يقدم الأرواح، ونحو ذلك من أقوال أهل الباطل، المتضمنة تعطيل الخالق عن خلقه.

﴿الله خالق كل شيء﴾ الله خالق كل شيء، وهو على كل شيء وكيل \* له مقابلد السماوات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون﴾ يخبر تعالى عن عظمتهم وكمالهم، الموجب لحسran من كفر به فقال: ﴿الله خالق كل شيء﴾ هذه العبارة وما أشبهها، مما هو كثير في القرآن، تدل على أن جميع الأشياء - غير الله - مخلوقة، ففيها رد على كل من قال بتقديم بعض المخلوقات، كالفلاسفة القائلين يقدم الأرض والسماوات، وكالقائلين يقدم الأرواح، ونحو ذلك من أقوال أهل الباطل، المتضمنة تعطيل الخالق عن خلقه.

وليس كلام الله من الأشياء المخلوقة، لأن الكلام صفة المتكلم، والله تعالى بأسمائه وصفاته أول ليس قبله شيء، فأخذ أهل الاعتزال من هذه الآية ونحوها أنه مخلوق، من أعظم الجهل، فإنه تعالى لم يزل بأسمائه وصفاته، ولم يحدث له صفة من صفاته، ولم يكن معطلاً عنها بوقت من الأوقات، والشاهد من هذا، أن الله تعالى أخبر عن نفسه الكريمة أنه خالق لجميع العالم العلوي والسفلي، وأنه على كل شيء وكيل، والوكالة النامة لا بد فيها من علم الوكيل بما كان وكيلاً عليه، وإحاطته بتفاصيله، ومن قدرة تامة على ما هو وكيل عليه، ليتمكن من التصرف فيه، ومن حفظ لما هو وكيل عليه، ومن حكمة، ومعرفة بوجوه التصرفات، ليصرفها ويدبرها على ما هو الأليق، فلا تنم الوكالة إلا بذلك كله، فما نقص من ذلك فهو نقص فيها.

ومن المعلوم المنقرد، أن الله تعالى منزه عن كل نقص في صفة من صفاته، فأخبره بأنه على كل شيء وكيل، يدل على إحاطة علمه بجميع الأشياء، وكمال قدرته على تدبيرها، وكمال تدبيره، وكمال حكمته التي يضع بها الأشياء مواضعها.

﴿٦٣﴾ ﴿له مقابلد السماوات والأرض﴾ أي: مفاتيحها، علماً



فسوا هذا المخلوق الناقص بالخالق الرب العظيم، الذي من عظمته الباهرة، وقدرته القاهرة، أن جميع الأرض يوم القيامة قبضة للرحمن، وأن السماوات - عل سعتها وعظمتها - مطويات بيمينه، فلا عظمة حق عظمته من سوى به غيره، ولا أظلم منه.

﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ أي: تنزه وتعاظم عن شركهم به.

﴿٦٨ - ٧٠﴾ ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾

وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون ﴿٦٨﴾ ووفيت كل نفس ما عملت وهو أهل بما فعلون ﴿٦٩﴾ لما خوفهم تعالى من عظمته، خوفهم بأحوال يوم القيامة، ورغبهم ورقبهم فقال: ﴿ونفخ في الصور﴾ وهو قرن عظيم، لا يعلم عظمته إلا خالقه، ومن أطلعه الله على علمه من خلقه، فينفخ فيه إسرائيلي عليه السلام، أحد الملائكة المقربين، وأحد حملة عرش الرحمن.

﴿فصعق﴾ أي: غشي أو مات، على اختلاف القولين: ﴿من في السماوات ومن في الأرض﴾ أي: كلهم، لما سمعوا نفخة الصور أزعجتهم من شدتها وعظمتها، وما يعلمون أنها مقدمة له. ﴿الإمن﴾ شاه الله ﴿من ثبته الله عند النفخة، فلم يصعق، كالشهداء أو بعضهم، وغيرهم. وهذه النفخة الأولى، نفخة الصعق ونفخة الفرع.

﴿ثم نفخ فيه﴾ النفخة الثانية نفخة البحث ﴿فإذا هم قيام ينظرون﴾ أي: قد قاموا من قبورهم لبعثهم وحسابهم، قد تمت منهم الحلقة الجسدية والأرواح، وشخصت أبصارهم ﴿ينظرون﴾ ماذا يفعل الله بهم.

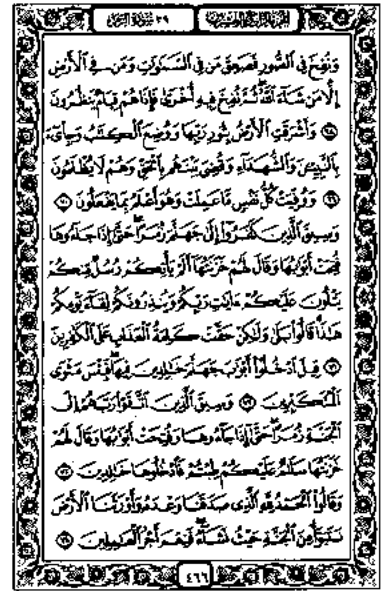
﴿وأشرقت الأرض بنور ربها﴾ علم من هذا، أن الأنوار الموجودة تذهب يوم القيامة وتضمحل، وهو كذلك، فإن الله أخبر أن الشمس تكور،

من كل وجه، لا ينفع ولا يضر، لم تأمروني بذلك، وذلك لأن الشرك بالله محبط للأعمال، مفسد للأحوال، ولهذا قال: ﴿ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك﴾ من جميع الأنبياء ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ هذا مفرد مضاف، يعم كل عمل، ففي نبوة جميع الأنبياء، أن الشرك محبط لجميع الأعمال، كما قال تعالى في سورة الأنعام - لا عدد كثيراً من أنبيائه ورسوله قال عنهم: ﴿ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾.

﴿ولتكونن من الخاسرين﴾ دينك وأخرتك، فبالشرك تحبط الأعمال، ويستحق العقاب والنكال.

ثم قال: ﴿بل الله فاعبد﴾ لا أخبر أن الجاهلين يأمرونه بالشرك، وأخبر عن شناعته، أمره بالإخلاص فقال: ﴿بل الله فاعبد﴾ أي: أخلص له العبادة وحده لا شريك له، ﴿وكن من الشاكرين﴾ الله على توفيقه على النعم فكما أنه تعالى يشكر على النعم الدنيوية، كصحة الجسم وعافيته، وحصول الرزق وغير ذلك، كذلك يُشكر ويُثنى عليه بالنعم الدينية، كالتوفيق للإخلاص، والتقوى، بل ينعم الدين، هي النعم على الحقيقة، وفي تدبر أنها من الله تعالى والشكر لله عليها، سلامة من آفة العجب التي تعرض لكثير من العاملين، بسبب جهلهم، وإلا، فلو عرف العبد حقيقة الحال، لم يعجب بنعمة تستحق عليه زيادة الشكر.

﴿٦٧﴾ ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ يقول تعالى: وما قدر هؤلاء المشركون ربه حق قدره، ولا عظموه حق تعظيمه، بل فعلوا ما يناقض ذلك، من إشراكهم به من هو ناقص في أوصافه وأفعاله، فأوصافه ناقصة من كل وجه، وأفعاله ليس عنده نفع ولا ضرر، ولا عطاء ولا منع، ولا يملك من الأمر شيئاً.



وتدبيراً، ف ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا محسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده، وهو العزيز الحكيم﴾. فلما بين من عظمته ما يقتضي أن تمتلئ القلوب له إجلالاً وإكراماً، ذكر حال من عكس القضية فلم يقدره حق قدره، فقال: ﴿والذين كفروا بآيات الله﴾ الدالة على الحق اليقين والصراف المستقيم، ﴿أولئك هم الخاسرون﴾ خسروا ما به تصلح القلوب من التأله والإخلاص لله، وما به تصلح الألسن من إشغالها بذكر الله، وما تصلح به الجوارح من طاعة الله، وتعرضوا عن ذلك كل مفسد للقلوب والأبدان، وخسروا جنات النعيم، وتعرضوا عنها بالعذاب الأليم.

﴿٦٤ - ٦٦﴾ ﴿قل أنفسير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون﴾ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴿بل الله فاعبدوا﴾ ﴿قل﴾ يا أيها الرسول لهؤلاء الجاهلين، الذين دعوك إلى عبادة غير الله: ﴿أنفسير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون﴾ أي: هذا الأمر صدر من جهلكم، وإلا فلو كان لكم علم بأن الله تعالى الكامل من جميع الوجوه، مسدي جميع النعم، هو المستحق للعبادة، دون من كان ناقصاً

بها، الدالة على الحق اليقين بأوضح البراهين.

﴿وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾  
أي: وهذا يوجب عليكم اتباعهم  
والحذر من عذاب هذا اليوم،  
باستعمال تقواه، وقد كانت حالكم  
بخلاف هذه الحال؟

﴿قالوا﴾ مقرين بذنبيهم، وأن  
حجة الله قامت عليهم: ﴿بلى﴾ قد  
جاءتنا رسل ربنا بآياته وبيناته، ويتنوأ  
لنا غاية التبيين، وحذرونا من هذا  
اليوم. ﴿ولكن حقت كلمة العذاب  
على الكافرين﴾ أي: بسبب كفرهم  
وجبت عليهم كلمة العذاب، التي هي  
لكل من كفر بآيات الله، وجحد ما  
جاءت به المرسلون، فاعترفوا بذنبيهم  
وقيام الحجة عليهم.

﴿ف﴾ قيل لهم على وجه الإهانة  
والإذلال: ﴿ادخلوا أبواب جهنم﴾ كل  
طائفة تدخل من الباب الذي يناسبها  
ويوافق عملها. ﴿خالدين فيها﴾ أبداً،  
لا يظعنون عنها، ولا يفتر عنهم  
العذاب ساعة ولا ينظرون. ﴿فبئس  
مثوى المتكبرين﴾ أي: بسن المقر، النار  
مقرهم، وذلك لأنهم تكبروا على  
الحق، فجازاهم الله من جنس  
عملهم، بالإهانة والذل والخزي.

ثم قال عن أهل الجنة: ﴿وسيق  
الذين اتقوا ربهم﴾ بتوحيده والعمل  
بطاعته، سوق إكرام وإعزاز، يحشرون  
وفداً على النجائب. ﴿إلى الجنة زمراً﴾  
فرحين مستبشرين، كل زمرة مع الزمرة  
التي تناسب عملها وتشاكله. ﴿حتى  
إذا جاؤوها﴾ أي: وصلوا لتلك  
الرحاب الرحبية والمنازل الأنيقة،  
وهب عليهم ريحها ونسيمها، وأن  
خلودها ونعيمها. ﴿وفتحت﴾ لهم  
﴿أبوابها﴾ فتح إكرام، لكرام الخلق،  
ليكرموا فيها. ﴿وقال لهم خزنتها﴾  
تهنئة لهم وترحيباً: ﴿سلام عليكم﴾  
أي: سلام من كل آفة وشر حال  
عليكم. ﴿طيبتم﴾ أي: طابت قلوبكم  
بمعرفة الله ومحبه وخشيته، وألستكم  
بذكره، وجوارحكم بطاعته. ﴿ف﴾  
بسبب طيبكم ﴿ادخلوها خالدين﴾

وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى  
ولكن حقت كلمة العذاب على  
الكافرين \* قيل ادخلوا أبواب جهنم  
خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين \*  
وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً  
حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال  
لهم خزنتها سلام عليكم طيبتم  
فادخلوها خالدين \* وقالوا الحمد لله  
الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا  
من الجنة حيث نشاء فنعم أجر  
العاملين \* وترى الملائكة حافين من  
حول العرش يسبحون بحمد ربهم  
وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب  
العالمين \* لما ذكر تعالى حكمه بين  
عباده، الذين جمعهم في خلقه ورزقه  
وتدبيره، واجتماعهم في الدنيا،  
واجتماعهم في موقف القيامة، فرقمهم  
تعالى عند جزائهم، كما افترقوا في  
الدنيا بالإيمان والكفر، والتقوى  
والفجور، فقال: ﴿وسيق الذين كفروا  
إلى جهنم﴾ أي: سوقاً عنيفاً، يضربون  
بالبسيط الموجهة، من الزبانية الغلاظ  
الشداد، إلى شر محبس وأفظع موضع،  
وهي جهنم التي قد جمعت كل عذاب،  
وحضرها كل شقاء، وزال عنها كل  
سرور، كما قال تعالى: ﴿يوم يُدعون  
إلى نار جهنم دعا﴾ أي: يدفعون إليها  
دفعاً، وذلك لامتاعهم من دخولها.

وساقون إليها ﴿زمراً﴾ أي: فرقاً  
متفرقة، كل زمرة مع الزمرة التي  
تناسب عملها، وتشاكل سعيها، يلعن  
بعضهم بعضاً، ويبراً بعضهم من  
بعض. ﴿حتى إذا جاؤوها﴾ أي:  
وصلوا إلى ساحتها ﴿فتحت﴾ لهم  
أي: لأجلهم ﴿أبوابها﴾ لقدومهم  
وقرى لتزولهم.

﴿وقال لهم خزنتها﴾ مهئين لهم  
بالشقاء الأبدي، والعذاب السرمدي،  
وموبخين لهم على الأعمال التي  
أوصلتهم إلى هذا المحل الفظيع: ﴿ألم  
يأتكم رسل منكم﴾ أي: من جنسكم  
تعرفونهم وتعترفون صلقتهم،  
وتتمكنون من التلقي عنهم؟ ﴿يتلون  
عليكم آيات ربكم﴾ التي أرسلهم الله

والقمر مجسفاً، والنجوم تندثر،  
ويكون الناس في ظلمة، فتشرق عند  
ذلك الأرض بنور ربها، عندما يتجلى  
وينزل للفصل بينهم، وذلك اليوم  
يجعل الله للخلق قوة، وينشئهم نشأة  
تَقْوُونَ على أن لا يحرقهم نوره،  
ويتمكنون أيضاً من رؤيته، وإلا،  
فنوره تعالى عظيم، لو كشفه، لأحرق  
سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من  
خلقه.

﴿ووضع الكتاب﴾ أي: كتاب  
الأعمال ودبرانه، وضع ونشر، ليقراً  
ما فيه من الحسنات والسيئات، كما قال  
تعالى: ﴿ووضع الكتاب فتترى  
المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا  
ربتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة  
ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما  
عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾.  
ويقال للعامل من تمام العدل  
والإنصاف: ﴿أقرأ كتابك كفى بنفسك  
اليوم عليك حسيباً﴾.

﴿وجيء بالنبئين﴾ لیسألوا عن  
التبليغ، وعن أمهم، ويشهدوا عليهم.  
﴿والشهداء﴾ من الملائكة، والأعضاء  
والأرض. ﴿وقضى بينهم بالحق﴾  
أي: العدل التام والقسط العظيم، لأنه  
حساب صادر عن لا يظلم مثقال ذرة،  
ومن هو محيط بكل شيء، وكتابه الذي  
هو اللوح المحفوظ، محيط بكل ما  
عملوه، والحفظ الكرام، والذين  
لا يعصون ربهم، قد كتبت عليهم ما  
عملوه، وأعدت الشهداء قد شهدوا على  
ذلك الحكم، فحكم بذلك من يعلم  
مقادير الأعمال ومقادير استحقاقها  
للثواب والعقاب، فيحصل حكم يقر  
به الخلق، ويعترفون لله بالحمد  
والعدل، ويعرفون به من عظمت  
وعلمه وحكمته ورحمته ما لم يحظر  
بقلوبهم، ولا تعبر عنه ألسنتهم،  
ولهذا قال: ﴿ووفيت كل نفس ما  
عملت وهو أعلم بما يفعلن﴾.

﴿٧١ - ٧٥﴾ ﴿وسيق الذين كفروا  
إلى جهنم زمراً حتى إذا جاؤوها فتحت  
أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل  
منكم يتلون عليكم آيات ربكم

وأما إخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلية، فهي من تعليم العليم لعباده.

وأما إخبار عن نعيمه العظيمة، وآلائه الجسيمة، وما يوصل إلى ذلك من الأوامر، فذلك يدل عليه قوله: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾.

وأما إخبار عن نعيمه الشديدة، وعمّا يوجبها ويقتضيها من المعاصي، فذلك يدل عليه قوله: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾.

وأما دعوة للمذنبين إلى التوبة والإنابة، والاستغفار، فذلك يدل عليه قوله: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾.

وأما إخبار بأنه وحده المألوه المعبود، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على ذلك، والحث عليه، والنهي عن عبادة ما سوى الله، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على فسادها، والترهيب منها، فذلك يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

وأما إخبار عن حكمه الجزائي العدل، وثواب المحسنين، وعقاب العاصين، فهذا يدل عليه قوله: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

فهذا جميع ما يشتمل عليه القرآن من المطالب العاليات.

﴿٤٤-٦﴾ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد \* كذبت قبيلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب \* وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار\* يجير تبارك وتعالى أنه ما يجادل في آياته إلا الذين كفروا والمراد بالمجادلة هنا، المجادلة لرد آيات الله ومقابلتها بالباطل، فهذا من صنيع الكفار، وأما المؤمنون، فيخضعون لئله تعالى الذي يليق الحق ليدحض به الباطل، ولا ينبغي للإنسان أن يفتخر بحالة الإنسان الدنيوية، ويظن أن إعطاء الله إياه في الدنيا، دليل على محبته له وأنه على الحق، ولهذا قال: ﴿فَلا يغررك

اليوم العظيم﴾ حافين من حول العرش\* أي: قد قاموا في خدمة ربهم، واجتمعوا حول عرشه، خاضعين لجلاله، معترفين بكماله، مستغرقين بجماله. ﴿يسبحون بحمد ربهم﴾ أي: يتزهدون عن كل ما لا يليق بجلاله، مما نسب إليه المشركون وما لم ينسبوا.

﴿وقضي بينهم﴾ أي: بين الأولين والآخرين من الخلق ﴿بالحق﴾ الذي لا اشتباه فيه ولا إنكار، ممن عليه الحق. ﴿وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ لم يذكر القائل من هو، ليدل ذلك على أن جميع الخلق نطقوا بحمد ربهم وحكمته على ما قضى به على أهل الجنة وأهل النار، حمد فضل وإحسان، وحمد عدل وحكمة.

تم تفسير سورة الزمر بحمد الله وعونه

### تفسير سورة المؤمن مكية

﴿١-٣﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حَمْدٌ \* تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم \* غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير﴾ يجبر تعالى عن كتابه العظيم، بأنه صادر ومنزل من الله المألوه المعبود، لكماله وانفراده بأفعاله، ﴿العزيز﴾ الذي قهر بعزته كل مخلوق، ﴿العليم﴾ بكل شيء، ﴿غافر الذنب﴾ للمذنبين ﴿وقابل التوب﴾ من التائبين، ﴿شديد العقاب﴾ على من تجرأ على الذنوب ولم يتب منها، ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ أي: التفضل والإحسان الشامل.

فلما قرر ما قرر من كماله، وكان ذلك موجباً لأن يكون وحده المألوه الذي تخلص له الأعمال، قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ﴾.

ووجه المناسبة بذكر نزول القرآن من الله، الموصوف بهذه الأوصاف، أن هذه الأوصاف مستلزمة لجميع ما يشتمل عليه القرآن من المعاني.

فإن القرآن: إما إخبار عن أسماء الله وصفاته وأفعاله، وهذه

لأنها الدار الطيبة، ولا يليق بها إلا الطيبون.

وقال في النار: ﴿فتحت أبوابها﴾ وفي الجنة: ﴿وفتحت﴾ بالواو، إشارة إلى أن أهل النار، بمجرد وصولهم إليها، فتحت لهم أبوابها من غير إنظار ولا إمهال، وليكون فتحها في وجوههم، وعلى وصولهم، أعظم لحرها، وأشد لعذابها.

وأما الجنة، فإنها الدار العالية الغالية، التي لا يوصل إليها ولا ينالها كل أحد، إلا مَنْ أتى بالوسائل الموصلة إليها، ومع ذلك، فيحتاجون لدخولها لشفاعة أكرم الشفعاء عليه، فلم تفتح لهم بمجرد ما وصلوا إليها، بل يستشفعون إلى الله بمحمد ﷺ حتى يشفع، فيشفعه الله تعالى.

وفي الآيات دليل على أن النار والجنة لهما أبواب تفتح وتغلق، وأن لكل منهما خزنة، وهما الداران الخالصتان اللتان لا يدخل فيهما إلا مَنْ استحقهما، بخلاف سائر الأمكنة والدور.

﴿وقالوا﴾ عند دخولهم فيها واستقرارهم، حامدين ربهم على ما أولاهم ومنّ عليهم وهداهم: ﴿الحمد لله الذي صدقنا وعده﴾ أي: وعدنا الجنة على السنة رسله، إن آمنا وصلحنا، فوق لنا بما وعدنا، وأنجز لنا ما مآنا. ﴿وأورثنا الأرض﴾ أي: أرض الجنة ﴿فتسوا﴾ من الجنة حيث نشاء﴾ أي: تنزل منها أي: مكان شئنا، وتتناول منها أي: نعيم أردنا، ليس ممنوعاً عنا شيء نريده. ﴿فتنم أجر العاملين﴾ الذين اجتهدوا بطاعة ربهم، في زمن قليل منقطع، فنالوا بذلك خيراً عظيماً باقياً مستمراً.

وهذه الدار التي تستحق المدح على الحقيقة، التي يكرم الله فيها خواص خلقه، ورضيها الجواد الكريم لهم نزلاً، وبنى أعلاها وأحسنها، وغرسها بيده، وحشاشها من رحمته وكرامته ما بيعضه يفرح الحزين، ويوزل الكندر ويتم الصفاء.

﴿وترى الملائكة﴾ أيها الراعي ذلك



تفضل بالأسباب ومسبباتها .

وتضمن ذلك، أن المقارن من زوج وولد وصاحب، يسعد بقربته، ويكون اتصاله به سبباً لخير يحصل له، خارج عن عمله وسبب عمله كما كانت الملائكة تدعو للمؤمنين ولمن صلح من آباءهم وأزواجهم وذرياتهم، وقد يقال: إنه لا بد من وجود صلاحهم لقوله: ﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾ فحيثما يكون ذلك من نتيجة عملهم، والله أعلم.

﴿١٠-١٢﴾ **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ينادون لفت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون﴾** قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل \* **﴿ذلكم بأنه إذا دُعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به ثؤمنا فالحكم لله العلي الكبير﴾** يخبر تعالى عن الضيحة والخزبي الذي يصيب الكافرين، وسؤالهم الرجعة، والخروج من النار، وامتناع ذلك عليهم وتوبيخهم، فقال: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** أطلقه ليشمل أنواع الكفر كلها، من الكفر بالله، أو بكتبه، أو برسله، أو باليوم الآخر، حين يدخلون النار، ويقرون أنهم مستحقونها، لما فعلوه من الذنوب والأوزار، فيمقتون أنفسهم لذلك أشد المقت، ويغضبون عليها غاية الغضب، فينادون عند ذلك، ويقال لهم: **﴿لَقَدْ لَعَنَّ اللَّهُ﴾** أي: إياكم **﴿إذ دُعُونَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾** أي: حين دعتكم الرسل وأتباعهم إلى الإيمان، وأقاموا لكم من البينات ما تبين به الحق، فكفرتهم وزهدتم في الإيمان الذي خلقكم الله له، وخرجتم من رحمته الواسعة، فمقتكم وأبغضكم، فهذا أكبر من مقتكم أنفسكم **﴿أي: فلم يزل هذا المقت مستمراً عليكم، والسخط من الكريم خالاً بكم، حتى آلت بكم الحال إلى ما آلت، فاليوم حل عليكم غضب الله وعقابه، حين نال المؤمنون رضوان الله وثوابه، فتمنوا الرجوع، و﴿قالوا ربنا أمتنا اثنتين﴾** يريدون المودة الأولى وما بين النفتختين على ما قيل، أو العدم

واجتهدوا اجتهاد المحيين، ومن العمال الذين هم المؤمنون، الذين يجيبهم الله تعالى من بين خلقه، فسائر الخلق المكلفين يبغضهم الله إلا المؤمنين منهم، فمن حبه الملائكة لهم دعوا الله، واجتهدوا في صلاح أحوالهم، لأن الدعاء للشخص من أدل الدلائل على محبته، لأنه لا يدعو إلا لمن يجبه.

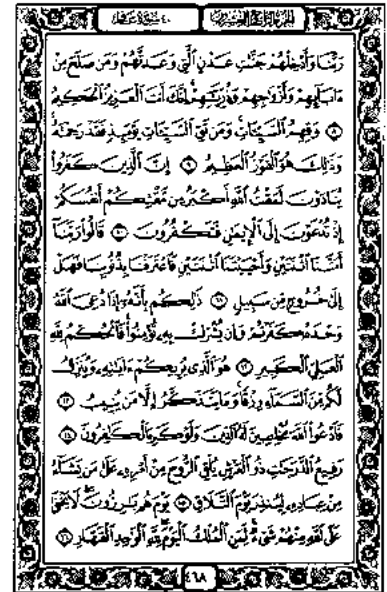
وتضمن ما شرحه الله وفصله من دعائهم بعد قوله: **﴿يستغفرون للذين آمنوا﴾** التنبية اللطيف على كيفية تدبير كتابه، وأن لا يكون التدبير مقتصراً على مجرد معنى اللفظ بمفرده، بل ينبغي له أن يتدبر معنى اللفظ، فإذا فهمه فهماً صحيحاً على وجهه، نظر بعقله إلى ذلك الأمر والطرق الموصلة إليه وما لا يتم إلا به وما يتوقف عليه، وجزم بأن الله أراد، كما يجزم أنه أراد المعنى الخاص، الدال عليه اللفظ.

والذي يوجب له الجزم بأن الله أراد أمران: أحدهما: معرفته وجزمه بأنه من نوايع المعنى والمتوقف عليه.

الثاني: علمه بأن الله بكل شيء عليم، وأن الله أمر عباده بالتدبير والتفكر في كتابه.

وقد علم تعالى ما يلزم من تلك المعاني. وهو المخبر بأن كتابه هدى ونور وتبيان لكل شيء، وأنه أفضح الكلام وأجله إيضاحاً، فبذلك يحصل للعبد من العلم العظيم والخير الكثير، بحسب ما وفقه الله له وقد كان في تفسيرنا هذا، كثير من هذا من به الله علينا.

وقد يخفى في بعض الآيات مأخذه على غير التأمل صحيح الفكرة، ونسأله تعالى أن يفتح علينا من خزائن رحمته ما يكون سبباً لصلاح أحوالنا وأحوال المسلمين، فليس لنا إلا التعلق بكرمه، والتوسل بإحسانه، الذي لا تزال تنقلب فيه في كل الآتات، وفي جميع اللحظات، ونسأله من فضله، أن يقينا شر أنفسنا المانع والمروق لوصول رحمته، إنك الكريم الوهاب، الذي



**﴿فقد رحمته﴾** لأن رحمتك لم تزل مستمرة على العباد، لا يمنعها إلا ذنوب العباد وسيئاتهم، فمن وقته السيئات وافته للحسنات وجزائها الحسن. **﴿وذلك﴾** أي: زوال المحذور برواية السيئات، وحصول المحبوب بحصول الرحمة، **﴿هو الفوز العظيم﴾** الذي لا فوز مثله، ولا يتنافس المتنافسون بأحسن منه.

وقد تضمن هذا الدعاء من الملائكة كمال معرفتهم بربهم، والتوسل إلى الله بأسمائه الحسنى، التي يجب من عباده التوسل بها إليه، والدعاء بما يناسب ما دعوا الله فيه، فلما كان دعاؤهم بحصول الرحمة، وإزالة أثر ما اقتضته النفوس البشرية التي علم الله نقصها واقتضاءها لما اقتضته من المعاصي، وتحو ذلك من المبادئ والأسباب التي قد أحاط الله بها علماً، توسلوا بالرحيم العليم.

وتضمن كمال أدبهم مع الله تعالى بإقرارهم بربوبيته لهم الربوبية العامة والخاصة، وأنه ليس لهم من الأمر شيء، وإنما دعاؤهم لربهم صدر من فقير بالذات من جميع الوجوه، لا يذلي على ربه بحالة من الأحوال، إن هو إلا فضل الله وكرمه وإحسانه.

وتضمن موافقتهم لربهم تمام الموافقة، بمحبة ما يجبه من الأعمال التي هي العبادات التي قاموا بها،

الذي يحزنون على غير ما كسبت لأهل القوم تبارك الله  
 سريع الحساب ﴿١٠﴾ وأوردتهم يوم الآخرة إلى القلوب  
 التي لم تكن لهم حظاً من الظالمين من جسد ولا من جسد  
 بلعاق ﴿١١﴾ بتدبيره العظيم والذين آمنوا وأتوا بالهدى  
 والله يقدر على ما يريد والذين آمنوا وأتوا بالهدى  
 ﴿١٢﴾ إن الله هو السميع العليم ﴿١٣﴾ أول آية من آيات  
 الأجر على من آمن بالله واليوم الآخر وكان من قبله  
 كافرين ﴿١٤﴾ أول آية من آيات الأجر على من آمن بالله  
 ﴿١٥﴾ أول آية من آيات الأجر على من آمن بالله  
 ﴿١٦﴾ أول آية من آيات الأجر على من آمن بالله  
 ﴿١٧﴾ أول آية من آيات الأجر على من آمن بالله  
 ﴿١٨﴾ أول آية من آيات الأجر على من آمن بالله  
 ﴿١٩﴾ أول آية من آيات الأجر على من آمن بالله  
 ﴿٢٠﴾ أول آية من آيات الأجر على من آمن بالله

القصد لله تعالى في جميع العبادات  
 الواجبة والمستحبة، حقوق الله وحقوق  
 عباده. أي: أخلصوا لله تعالى في كل  
 ما تدنيونه به وتقربون به إليه.

﴿ولو كره الكافرون﴾ لذلك،  
 فلا تبالوا بهم، ولا يشنكم ذلك عن  
 دينكم، ولا تأخذكم بالله لومة لائم،  
 فإن الكافرين يكرهون الإخلاص لله  
 وحده غاية الكراهة، كما قال تعالى:  
 ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب  
 الذين لا يؤمنون بالآخرة، وإذا ذكر  
 الذين من دونه إذا هم يستهترون﴾.

ثم ذكر من جلاله وكماله ما يقتضي  
 إخلاص العبادة له، فقال: ﴿رفيع  
 الدرجات ذو العرش﴾ أي: العلي  
 الأعلى، الذي استوى على العرش  
 واختص به، وارتفعت درجاته ارتفاعاً  
 باين به مخلوقاته، وارتفع به قدره،  
 وجلت أوصافه، وتعالى ذاته، أن  
 يتقرب إليه إلا بالعمل الزكي الطاهر  
 المطهر، وهو الإخلاص، الذي يرفع  
 درجات أصحابه ويقربهم إليه،  
 ويعلمهم فوق خلقه، ثم ذكر نعمته على  
 عباده بالرسالة والوحي، فقال: ﴿يلقي  
 الروح﴾ أي: الوحي الذي للأرواح  
 والقلوب بمنزلة الأرواح للأجساد،  
 فكما أن الجسد بدون الروح لا يجيا  
 ولا يعيش، فالروح والقلب بدون  
 روح الوحي لا يصلح ولا يفلح، فهو  
 تعالى ﴿يلقي الروح من أمره﴾ الذي فيه

عباده، بتبيين الحق من الباطل، بما  
 يبري عباده من آياته النفسية والأفاقية  
 والقرآنية، الدالة على كل مطلوب  
 مقصود، الموضحة للهدى من  
 الضلال، بحيث لا يبقى عند الناظر  
 فيها والتأمل لها أدنى شك في معرفة  
 الحقائق، وهذا من أكبر نعمه على  
 عباده، حيث لم يبق الحق مشتبهاً،  
 ولا الصواب ملتبساً، بل نوع  
 الدلالات ووضع الآيات، ليهلك من  
 هلك عن بينة، وبجها من حي عن بينة  
 وكلما كانت المسائل أجمل وأكبر، كانت  
 الدلائل عليها أكثر وأيسر، فانظر إلى  
 التوحيد لما كانت مسألته من أكبر  
 المسائل، بل أكبرها، كثرت الأدلة  
 عليها العقلية والنقلية وتنوعت،  
 وضرب الله لها الأمثال وأكثر لها من  
 الاستدلال، ولهذا ذكرها في هذا  
 الموضع، ونبه على جملة من أدلتها  
 فقال: ﴿فادعوا الله مخلصين له  
 الدين﴾

ولما ذكر أنه يبري عباده آياته، نبه على  
 آية عظيمة فقال: ﴿وينزل لكم من  
 السماء رزقاً﴾ أي: مطراً، به ترتزقون  
 وتمشون أنتم وبهائمكم، وذلك يدل  
 على أن النعم كلها منه، فمنه نعم  
 الدين، وهي المسائل الدينية والأدلة  
 عليها، وما يتبع ذلك من العمل بها.  
 والنعم الدنيوية كلها، كالنعم الناشئة  
 عن الغيث، الذي تحيا به البلاد  
 والعباد. وهذا يدل دلالة قاطعة أنه  
 وحده هو المعبود، الذي يتعين إخلاص  
 الدين له، كما أنه - وحده - المتعم.

﴿وما يتذكر﴾ بالآيات حين يذكر  
 بها ﴿إلا من ينسب﴾ إلى الله تعالى،  
 بالإقبال على عبته وحشيته وطاعته  
 والتضرع إليه، فهذا الذي يستفح  
 بالآيات، وتصير رحمة في حقه، ويزداد  
 بها بصيرة.

ولما كانت الآيات تشرح التذکر،  
 والتذکر يوجب الإخلاص لله، رتب  
 الأمر على ذلك بالفاء الدالة على السببية  
 فقال: ﴿فادعوا الله مخلصين له الدين﴾  
 وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء  
 المسألة، والإخلاص معناه: تخلص

المحض قبل إيمانهم، ثم أمانتهم بعدما  
 أوجدتهم، وأوحيتنا اثنتين الحياة  
 الدنيا والحياة الأخرى، فاحترقنا  
 بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل: أي:  
 تحسروا وقالوا ذلك، فلم يقد ولم  
 ينجع، ويخوفا على عدم فعل أسباب  
 النجاة، فقيل لهم: ﴿ذلكم بأنه إذا  
 دهمي الله وحده﴾ أي: إذا دعسي  
 لتوحيده، وإخلاص العمل له، ونهي  
 عن الشرك به ﴿كفرتم﴾ به واشمأزت  
 لذلك قلوبكم ونفرتم غاية النفور.  
 ﴿وإن يشرك به تؤمنوا﴾ أي: هذا الذي  
 أنزلكم هذا المنزل، وبوأكم هذا المقبل  
 والمحل، أنكم تكفرون بالإيمان،  
 وتؤمنون بالكفر، ترضون بما هو شر  
 وفساد في الدنيا والآخرة، وتكرهون  
 ما هو خير وصلاح في الدنيا والآخرة.  
 تؤثرون سبب الشقاوة والذل  
 والغضب، وتزهدون بما هو سبب  
 الفوز والفلاح والظفر ﴿وإن يروا سبيل  
 الرشدا لا يتخذوه سبيلاً، وإن يروا  
 سبيل الغي يتخذوه سبيلاً﴾.

﴿فالحكم لله العلي الكبير﴾ العلي:  
 الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه،  
 علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر  
 ومن علو قدره، كمال عدله تعالى،  
 وأنه يضع الأشياء مواضعها،  
 ولا يساوي بين المتقين والفجار.

﴿الكبير﴾ الذي له الكبيرياء  
 والعظمة والمجد، في أسمائه وصفاته  
 وأفعاله المنتزه عن كل آفة وعيب  
 ونقص، فإذا كان الحكم له تعالى، وقد  
 حكم عليكم بالخلود الدائم، وحكمه  
 لا يغير ولا يبطل.

﴿١٣-١٧﴾ هو الذي يريكم  
 آياته وينزل لكم من السماء رزقاً وما  
 يتذكر إلا من ينسب \* فادعوا الله  
 مخلصين له الدين ولو كره الكافرون \*  
 رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح  
 من أمره على من يشاء من عباده لينذر  
 يوم التلاق \* يوم هم بارزون لا يخفى  
 على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله  
 الواحد القهار \* اليوم تجزى كل نفس  
 بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع  
 الحساب \* يذكر تعالى نعمه العظيمة على

الصدر ﴿٢٠﴾ مما لم يبينه العبد لغيره، فإله تعال يعلم ذلك الخفي، فغيره من الأمور الطاهرة من باب أولى وأحرى.

﴿والله يقضي بالحق﴾ لأن قوله حق، وحكمه الشرعي حق، وحكمه الجزائي حق وهو المحيط علماً وكتابة وحفظاً بجميع الأشياء، وهو المنزه عن الظلم والنقص وسائر العيوب، وهو الذي يقضي قضاءه القلدي، الذي إذا شاء شيئاً كان وما لم يشأ لم يكن، وهو الذي يقضي بين عباده المؤمنين والكافرين في الدنيا، ويفصل بينهم بفتح ينصر به أولياءه وأحبابه.

﴿والذين يدعون من دونه﴾ وهذا شامل لكل ما عبد من دون الله ﴿لا يقضون بشيء﴾ لعجزهم وعدم إرادتهم للخير واستطاعتهم لفعله.

﴿إن الله هو السميع﴾ لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات. ﴿البصير﴾<sup>(١)</sup> بما كان وما يكون، وما ينصر وما لا ينصر، وما يعلم العباد وما لا يعلمون.

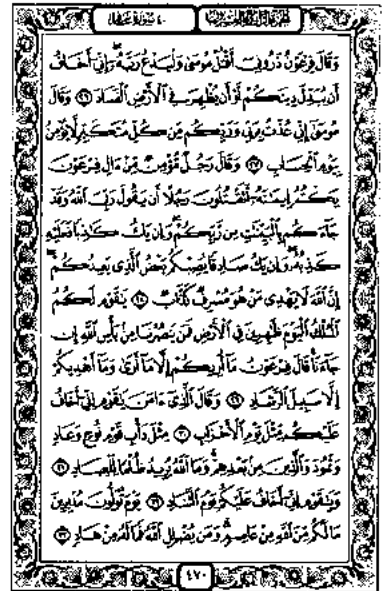
قال في أول هاتين الآيتين ﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾ ثم وصفنا هذه الأوصاف الاقتضية للاستعداد لذلك اليوم العظيم، لاشتمالها على الترهيب والترهيب.

﴿٢١-٢٢﴾ ﴿أولم يسيروا في الأرض﴾ فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ﴿ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب﴾ يقول تعالى: ﴿أولم يسيروا في الأرض﴾ أي: بقلوبهم وأبدانهم، سير نظر واعتبار، وتفكر في الآثار، ﴿فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم﴾ من المكذبين، فسيجدونها شر العواقب، عاقبة الهلاك والدمار والحزني والفضيحة، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء في العُدَد والغُدَد وكبر الأجسام. ﴿و﴾ أشد آثاراً في

ولم يبق إلا الأعمال الصالحة أو السيئة؟ الملك ﴿الله الواحد القهار﴾ أي: المنفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا شريك له في شيء منها بوجه من الوجوه. ﴿القهار﴾ لجميع المخلوقات، الذي دانت له المخلوقات وذلت وخضعت، خصوصاً في ذلك اليوم الذي عننت فيه الوجوه للحمي القيوم، يومئذ لا تكلم نفس إلا بإذنه، ﴿اليوم تحزى كل نفس بما كسبت﴾ في الدنيا، من خير وشر، قليل وكثير. ﴿لا ظلم اليوم﴾ على أحد، بزيادة في سيئاته، أو نقص من حسناته. ﴿إن الله سريع الحساب﴾ أي: لا تستبطنوا ذلك اليوم، فإنه أت، وكل أت قريب. وهو أيضاً سريع المحاسبة لعباده يوم القيامة، لإحاطة علمه وكمال قدرته.

﴿١٨-٢٠﴾ ﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾ إذ القلوب لدى الحناجر كاطمين ما للظالمين من حميم ولا شميع يطاع \* يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور \* والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير ﴿يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ﴾: ﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾ أي: يوم القيامة التي قد أزفت وقربت، وأن الوصول إلى أهوالها وقلاقلها وزلازلها، ﴿إذ القلوب لدى الحناجر﴾ أي: قد ارتفعت وبقيت أفئدتهم هواء، ووصلت القلوب من الروح والكرب إلى الحناجر، شاخصة أبصارهم. ﴿كاظمين﴾ لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً، وكاظمين على ما في قلوبهم من الروح الشديد والمزعجات الهائلة.

﴿ما للظالمين من حميم﴾ أي: قريب ولا صاحب، ﴿ولا شميع يطاع﴾ لأن الشفعاء لا يشفعون في الظالم نفسه بالشرك، ولو قدرت شفاعتهم، فإله تعال لا يرضى شفاعتهم، فلا يقبلها. ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ وهو النظر الذي يخفيه العبد من جليسه ومقارنه، وهو نظر المسارقة، ﴿وما تخفي



نفع العباد ومصالحهم.

﴿على من يشاء من عباده﴾ وهم الرسل الذين فضلهم الله واختصهم الله لوجه ودعوة عباده.

والفائدة في إرسال الرسل، هو تحصيل سعادة العباد في دينهم ودنياهم وآخرتهم، وإزالة الشقاوة عنهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم، ولهذا قال: ﴿لينذر﴾ منلقى الله إليه الوحي ﴿يوم التلاق﴾ أي: يخوف العباد بذلك، ويحثهم على الاستعداد له بالأسباب المنجية مما يكون فيه.

وسماه «يوم التلاق»، لأنه يلتقي فيه الخالق والمخلوق، والمخلوقون بعضهم مع بعض، والعاملون وأعمالهم وجزاؤهم.

﴿يوم هم بارزون﴾ أي: ظاهرون على الأرض، قد اجتمعوا في صعيد واحد، لا عوج ولا أمث فيه، يسمعون الداعي وينفذهم البصر.

﴿لا يخفى على الله منهم شيء﴾ لا من ذواتهم ولا من أعمالهم، ولا من جزاء تلك الأعمال.

﴿لمن الملك اليوم﴾ أي: من هو المالك لذلك اليوم العظيم، الجامع للأولين والآخرين، أهل السماوات وأهل الأرض، الذي انقطعت فيه الشركة في الملك، وتقطعت الأسباب،

(١) في النسخين (العليم) وهو خطأ فالوارد في الآية: (البصير).

وَلَقَدْ جَاءتْكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ فَخَرَبْتُمْ عَنْهَا خُبْرًا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾  
 وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ فَسَقُوا وَعِيبُهُمْ عَلَيْهِمْ عَلَىٰ لَعْنَتِنَا فَعَسَىٰ أَعْْيُنُكُمْ أَلْفَسُوفَةٌ ﴿١٧٧﴾  
 وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ فَسَقُوا وَعِيبُهُمْ عَلَيْهِمْ عَلَىٰ لَعْنَتِنَا فَعَسَىٰ أَعْْيُنُكُمْ أَلْفَسُوفَةٌ ﴿١٧٨﴾  
 وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ فَسَقُوا وَعِيبُهُمْ عَلَيْهِمْ عَلَىٰ لَعْنَتِنَا فَعَسَىٰ أَعْْيُنُكُمْ أَلْفَسُوفَةٌ ﴿١٧٩﴾  
 وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ فَسَقُوا وَعِيبُهُمْ عَلَيْهِمْ عَلَىٰ لَعْنَتِنَا فَعَسَىٰ أَعْْيُنُكُمْ أَلْفَسُوفَةٌ ﴿١٨٠﴾  
 وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ فَسَقُوا وَعِيبُهُمْ عَلَيْهِمْ عَلَىٰ لَعْنَتِنَا فَعَسَىٰ أَعْْيُنُكُمْ أَلْفَسُوفَةٌ ﴿١٨١﴾  
 وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ فَسَقُوا وَعِيبُهُمْ عَلَيْهِمْ عَلَىٰ لَعْنَتِنَا فَعَسَىٰ أَعْْيُنُكُمْ أَلْفَسُوفَةٌ ﴿١٨٢﴾  
 وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ فَسَقُوا وَعِيبُهُمْ عَلَيْهِمْ عَلَىٰ لَعْنَتِنَا فَعَسَىٰ أَعْْيُنُكُمْ أَلْفَسُوفَةٌ ﴿١٨٣﴾  
 وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ فَسَقُوا وَعِيبُهُمْ عَلَيْهِمْ عَلَىٰ لَعْنَتِنَا فَعَسَىٰ أَعْْيُنُكُمْ أَلْفَسُوفَةٌ ﴿١٨٤﴾  
 وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ فَسَقُوا وَعِيبُهُمْ عَلَيْهِمْ عَلَىٰ لَعْنَتِنَا فَعَسَىٰ أَعْْيُنُكُمْ أَلْفَسُوفَةٌ ﴿١٨٥﴾  
 وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ فَسَقُوا وَعِيبُهُمْ عَلَيْهِمْ عَلَىٰ لَعْنَتِنَا فَعَسَىٰ أَعْْيُنُكُمْ أَلْفَسُوفَةٌ ﴿١٨٦﴾  
 وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ فَسَقُوا وَعِيبُهُمْ عَلَيْهِمْ عَلَىٰ لَعْنَتِنَا فَعَسَىٰ أَعْْيُنُكُمْ أَلْفَسُوفَةٌ ﴿١٨٧﴾  
 وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ فَسَقُوا وَعِيبُهُمْ عَلَيْهِمْ عَلَىٰ لَعْنَتِنَا فَعَسَىٰ أَعْْيُنُكُمْ أَلْفَسُوفَةٌ ﴿١٨٨﴾  
 وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ فَسَقُوا وَعِيبُهُمْ عَلَيْهِمْ عَلَىٰ لَعْنَتِنَا فَعَسَىٰ أَعْْيُنُكُمْ أَلْفَسُوفَةٌ ﴿١٨٩﴾  
 وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ فَسَقُوا وَعِيبُهُمْ عَلَيْهِمْ عَلَىٰ لَعْنَتِنَا فَعَسَىٰ أَعْْيُنُكُمْ أَلْفَسُوفَةٌ ﴿١٩٠﴾

قصدوا، أهلكتهم الله وأبادهم عن آخرهم.

وتدبر هذه النكتة التي يكثُر مرورها بكتاب الله تعالى: إذا كان السياق في قصة معينة أو على شيء معين، وأراد الله أن يحكم على ذلك المعين بحكم، لا يختص به ذكر الحكم، وعلقه على الوصف العام ليكون أعم، وتندرج فيه الصورة التي سبق الكلام لأجلها، وليندفع الإيهام باختصاص الحكم بذلك المعين.

فلهذا لم يقل «وما كيدهم إلا في ضلال»، بل قال: «وما كيد الكافرين إلا في ضلال»

و «قال فرعون» متكبراً متجبراً مغرراً لقومه السفهاء: «ذروني أقتل موسى وليدع ربه» أي: زعم - قبحه الله - أنه لولا مراعاة خواطر قومه لقتله، وأنه لا يمنعه من دعاه ربه، ثم ذكر الحامل له على إرادة قتله، وأنه نصح لقومه، وإزالة للشك في الأرض فقال: «إني أخاف أن يبدل دينكم» الذي أنتم عليه «أو أن يظهر في الأرض الفساد». وهذا من أعجب ما يكون، أن يكون شر الخلق ينصح الناس عن اتباع خير الخلق هذا من التمويه والترويع، الذي لا يدخل إلا عقل من قال الله فيهم: «فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين».

وقال موسى حين قال فرعون تلك المقالة الشنيعة التي أوجبها له طغيانه، واستعان فيها بقوته واقتداره، مستعمياً بربه: «إني خذت بربي وربكم» أي: امتنعت بربوبية التي دير بها جميع الأمور «من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب» أي: يجعله تكبره وعدم إيمانه بيوم الحساب على الشر والفساد، يدخل فيه فرعون وغيره، كما تقدم قريباً في القاعدة، فمنعه الله تعالى بلطفه من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، وقبض له من الأسباب ما اندفع به عنه شر فرعون

الأرض من البناء والفرس، وقوة الآثار تدل على قوة المؤثر فيها وعلى تمنعه بها. «فأخذهم الله» بعقوبته يذنبهم حين أصروا واستمروا عليها، «إنه قوي شديد العقاب» فلم تغرن قوتهم عند قوة الله شيئاً، بل من أعظم الأمم قوة، قوم عاد الذين قالوا: «من أشد منا قوة» أرسل الله إليهم ريحاً أضعفت قواهم، ودمرتهم كل تدمير.

ثم ذكر نموذجاً من أحوال المكذبين بالرسول، وهو فرعون وجنوده فقال:

﴿٢٣-٤٦﴾ «ولقد أرسلنا نوسى بآياتنا وسلطان مبين» إلى آخر القصة.

﴿٢٣﴾ أي: «ولقد أرسلنا» إلى جنس هؤلاء المكذبين «موسى» ابن عمران، «بآياتنا» العظيمة، الدالة دلالة قطعية، على حقيقة ما أرسل به، وبطلان ما عليه من أرسل إليهم من الشرك وما يتبعه. «وسلطان مبين» أي: حجة بيّنة، تتسلط على القلوب فتدفع لها، كالحية والمعصا ونحوهما من الآيات البينات، التي أيد الله بها موسى، ومكّته بما دعا إليه من الحق.

والمبعوث إليهم «فرعون وهامان» وزيره «وقارون» الذي كان من قوم موسى، فبغى عليهم بماله، وكلهم ردوا عليه أشد الرد «فقالوا ساحر كذاب» «فلما جاءهم بالحق من عندنا» وأيد الله بالمعجزات الباهرة، المرجحة لتمام الإذعان، لم يقابلوها بذلك، ولم يكفهم مجرد الترك والإعراض، بل ولا إنكارها ومعارضتها بباطلهم، بل وصلت بهم الحال الشنيعة إلى أن «قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحبوا نساءهم وما كيد الكافرين» حيث كادوا هذه المكيدة، وزعموا أنهم إذا قتلوا أبناءهم، لم يقووا، ويقوا في رقبهم وتحت عبيدوتهم.

فما كيدهم إلا في ضلال، حيث لم يتم لهم ما قصدوا، بل أصابهم ضد ما

وملته.

ومن جملة الأسباب، هذا الرجل المؤمن، الذي من آل فرعون، من بيت المملكة، لا بد أن يكون له كلمة مسموعة، وخصوصاً إذا كان يظهر موافقتهم ويكتم إيمانه، فإنهم يراعونه في الغالب ما لا يراعونه لو خالفهم في الظاهر، كما منع الله رسوله محمداً ﷺ بعمه أبي طالب من فريش، حيث كان أبو طالب كبيراً عندهم، موافقاً لهم على دينهم، ولو كان مسلماً لم يحصل منه ذلك النع.

فقال ذلك الرجل المؤمن الموفق العاقل الحازم، مقبحاً فعل قومه، وشناعة ما عزموا عليه: «أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله» أي: كيف تستحلون قتله، وهذا ذنبه وجرمه، أنه يقول ربي الله، ولم يكن أيضاً قولاً مجرداً عن البينات، ولهذا قال: «وقد جاءكم بالبينات من ربكم» لأن بينته اشتهرت عندهم اشتهاراً علم به الصغير والكبير، أي: فهذا لا يوجب قتله.

فهلاً أبطلتم قبل ذلك ما جاء به من الحق، وقابلتم البرهان ببرهان يرده، ثم بعد ذلك نظرتم: هل يحل قتله إذا ظهرتم عليه بالحجة أم لا؟ فأما وقد ظهرت حجته، واستعلى برهانه،



ولا يوفق للصراف المستقيم، أي: وقد رأيت ما دعا موسى إليه من الحق، وما هداه الله إلى بيانه من البراهين العقلية والحوارق السماوية، فالذي اهتدى هذا الهدى لا يمكن أن يكون مسرفاً ولا كاذباً، وهذا دليل على كمال علمه وعقله ومعرفته بربه.

ثم حذر قومه ونصحهم، وخوفهم عذاب الآخرة، ونهاهم عن الاعتزاز بالملك الظاهر، فقال: ﴿يا قوم لكم الملك اليوم﴾ أي: في الدنيا ﴿ظاهرين في الأرض﴾ على رعييتكم، تنفدون فيهم ما شئتم من التدبير، فهيبكم حصل لكم ذلك وتم، ولن ينم، ﴿فمن ينصرنا من بأس الله﴾ أي: عذابه ﴿إن جاءنا﴾؟ وهذا من حسن دعوته، حيث جعل الأمر مشتركاً بينه وبينهم بقوله: ﴿فمن ينصرنا﴾ وقوله: ﴿إن جاءنا﴾ لفهمهم أنه ينصح لهم كما ينصح لنفسه، ويرضى لهم ما يرضى لنفسه.

ف قال فرعون: محارصاً له في ذلك، ومغرراً لقومه أن يتبعوا موسى: ﴿ما أرىكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾ وصدق في قوله: ﴿ما أرىكم إلا ما أرى﴾ ولكن ما الذي رأي؟

رأى أن يستخف قومه فيتابعوه، ليقم بهم رياسته، ولم يز الحق معه، بل رأى الحق مع موسى، وجحد به مستيقناً له.

وكذب في قوله: ﴿وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾ فإن هذا قلب للحق، فلو أمرهم باتباعه اتباعاً مجرداً على كفره وضلاله، لكان الشر أهون، ولكنه أمرهم باتباعه، وزعم أن في اتباعه اتباع الحق وفي اتباع الحق، اتباع الضلال.

وقال الذي آمن: ﴿مكرراً دعوة قومه، غير أيس من هدايتهم، كما هي حالة الدعوة إلى الله تعالى، لا يزالون يدعون إلى ربهم، ولا يردهم عن ذلك راد، ولا يشبههم عتو من دعوته عن تكرار الدعوة، فقال لهم: ﴿يا قوم إنني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب﴾ يعني

• ويقفه ما لا يحصى من الآيات والبراهين العقلية والحوارق السماوية، فالذي اهتدى هذا الهدى لا يمكن أن يكون مسرفاً ولا كاذباً، وهذا دليل على كمال علمه وعقله ومعرفته بربه.

• ثم حذر قومه ونصحهم، وخوفهم عذاب الآخرة، ونهاهم عن الاعتزاز بالملك الظاهر، فقال: ﴿يا قوم لكم الملك اليوم﴾ أي: في الدنيا ﴿ظاهرين في الأرض﴾ على رعييتكم، تنفدون فيهم ما شئتم من التدبير، فهيبكم حصل لكم ذلك وتم، ولن ينم، ﴿فمن ينصرنا من بأس الله﴾ أي: عذابه ﴿إن جاءنا﴾؟ وهذا من حسن دعوته، حيث جعل الأمر مشتركاً بينه وبينهم بقوله: ﴿فمن ينصرنا﴾ وقوله: ﴿إن جاءنا﴾ لفهمهم أنه ينصح لهم كما ينصح لنفسه، ويرضى لهم ما يرضى لنفسه.

ف قال فرعون: محارصاً له في ذلك، ومغرراً لقومه أن يتبعوا موسى: ﴿ما أرىكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾ وصدق في قوله: ﴿ما أرىكم إلا ما أرى﴾ ولكن ما الذي رأي؟

رأى أن يستخف قومه فيتابعوه، ليقم بهم رياسته، ولم يز الحق معه، بل رأى الحق مع موسى، وجحد به مستيقناً له.

وكذب في قوله: ﴿وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾ فإن هذا قلب للحق، فلو أمرهم باتباعه اتباعاً مجرداً على كفره وضلاله، لكان الشر أهون، ولكنه أمرهم باتباعه، وزعم أن في اتباعه اتباع الحق وفي اتباع الحق، اتباع الضلال.

وقال الذي آمن: ﴿مكرراً دعوة قومه، غير أيس من هدايتهم، كما هي حالة الدعوة إلى الله تعالى، لا يزالون يدعون إلى ربهم، ولا يردهم عن ذلك راد، ولا يشبههم عتو من دعوته عن تكرار الدعوة، فقال لهم: ﴿يا قوم إنني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب﴾ يعني

فيبينكم وبين حل قتلته مفاوز تنقطع بها أعتاق المطي.

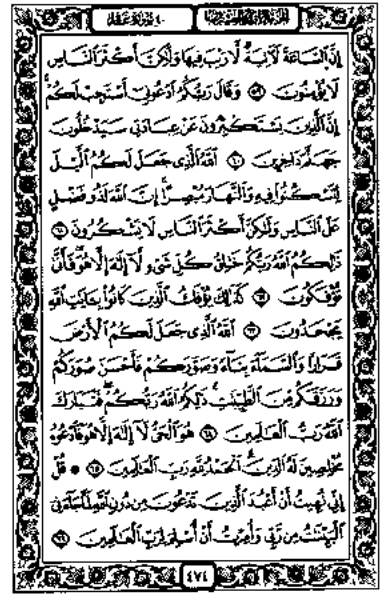
ثم قال لهم مقالة عقلية تقنع كل عاقل، بأي: حالة قدرت، فقال: ﴿وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذي يعدكم﴾ أي: موسى بين أمرين، إما كاذب في دعوته أو صادق فيها، فإن كان كاذباً فكذبه عليه، وضرره مختص به، وليس عليكم في ذلك ضرر حيث امتنعتم من إجابته وتصديقه، وإن كان صادقاً وقد جاءكم بالبينات، وأخبركم أنكم إن لم تجيبوه عذبكم الله عذاباً في الدنيا وعذاباً في الآخرة، فإنه لا بد أن يصيبكم بعض الذي يعدكم، وهو عذاب الدنيا.

وهذا من حسن عقله، ولطف دفعه عن موسى، حيث أتى بهذا الجواب الذي لا تشويش فيه عليهم، وجعل الأمر دائراً بين تلك الحالتين، وعلى كل تقدير فقتله سفه وجهل منكم.

ثم انتقل رضي الله عنه وأرضاه وغفر له ورحمه - إلى أمر أعلى من ذلك، وبيان قرب موسى من الحق فقال: ﴿إن الله لا يهدي من هو مسرف﴾ أي: متجاوز الحد بترك الحق والإقبال على الباطل. ﴿كذاب﴾ بنسبته ما أسرف فيه إلى الله، فهذا لا يهديه الله إلى طريق الصواب، لا في مدلوله ولا في دليله،

ولقد جاءكم يوسف بن يعقوب عليهما السلام من قبل إتيان موسى، بالبينات الدالة على صدقه، وأمركم بعبادة ربكم وحده لا شريك له، ﴿فما





ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة، ولا نشوراً.

﴿وإن مردنا إلى الله تعالى فسيجازي كل عامل بعمله.﴾ وأن المسرفين هم أصحاب النار، وهم الذين أسرفوا على أنفسهم بالتجزؤ<sup>(١)</sup> على ربهم، بمعاصيه والكفر به، دون غيرهم.

فلما نصحهم وحذّره وأنذرهم، ولم يطيعوه ولا وافقوه، قال لهم: ﴿فتذكرون ما أقول لكم﴾ من هذه النصيحة، وسترون مغبة عدم قبولها حين يحمل بكم العقاب، وتحرمون جزيل الثواب.

﴿وأفوض أمري إلى الله﴾ أي: ألجأ إليه وأعتصم، وألقي أموري كلها لديه، وأتوكل عليه في مصالحه ودفع الضرر الذي يصيبني منكم أو من غيركم. ﴿إن الله بصير بالعباد﴾ يعلم أحوالهم وما يستحقون، يعلم حالي وضعفي فيمنعني منكم ويكفيني شركم، ويعلم أحوالكم فلا تتصرفون إلا بإرادته ومشيته، فإن سلطكم علي، فبحكمة منه تعالى، وعن إرادته ومشيته صدر ذلك.

﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا﴾ أي: وقى الله القوي الرحيم، ذلك الرجل المؤمن الموفق، عقوبات ما مكر فرعون

وأهله، من إرادة إهلاكه وإتلافه، لأنه بادأهم بما يكرهون، وأظهر لهم الموافقة التامة لموسى عليه السلام، ودعاهم إلى ما دعاهم إليه موسى، وهذا أمر لا يتملونه، وهم الذين لهم القدرة إذ ذاك، وقد أغضبهم واشتد حنقهم عليه، فأرادوا به كيداً، فحفظه الله من كيدهم ومكرهم وانقلب كيدهم ومكرهم، على أنفسهم، ﴿وحاق بالآل فرعون سوء العذاب﴾ أغرقهم الله تعالى في صيحة واحدة عن آخرهم.

وفي البرزخ ﴿النار يمرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ فهذه العقوبات الشنيعة، التي تحمل بالمكذبين لرسل الله، المعاندين لأمره.

﴿٤٧-٥٠﴾ ﴿وإذ يتحاجون في النار فيقول الضمفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار﴾ قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد \* وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب \* قالوا أولم تك تأتيناكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال \* يخبر تعالى عن محاسن أهل النار، وعتاب بعضهم بعضاً، واستغاثتهم بخزنة النار، وعدم الفائدة في ذلك فقال: ﴿وإذ يتحاجون في النار﴾ يخرج التابعون بإغواء المتبوعين، ويتبرأ المتبوعون من التابعين، ﴿فيقول الضمفاء﴾ أي: الأتباع للقادة ﴿للذين استكبروا﴾ على الحق، ودعوههم إلى ما استكبروا لأجله. ﴿إنا كنا لكم تبعاً﴾ أنتم أغويتمونا وأضللتمونا وزيتم لنا الشرك والشرك، ﴿فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار﴾ أي: ولو قليلاً.

﴿قال الذين استكبروا﴾ مبينين لعجزهم ونفوذ الحكم الإلهي في الجميع: ﴿إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد﴾ وجعل لكل قسطه من العذاب، فلا يزداد في ذلك ولا ينقص

منه، ولا يغير ما حكم به الحكيم.

﴿وقال الذين في النار﴾ من المستكبرين والضعفاء ﴿لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب﴾ لعله تحصل بعض الراحة، ف ﴿قالوا﴾ لهم مويخين ومبشرين أن شفاعتهم لا تنفعهم، ودعاهم لا يفيدهم شيئاً: ﴿أولم تك تأتيناكم رسلكم بالبينات﴾ التي تبيّن بها الحق والصراط المستقيم، وما يقرب من الله وما يبعد منه؟

﴿قالوا بلى﴾ قد جاؤونا بالبينات، وقامت علينا حجة الله البالغة، فقلنا وعاندا الحق بعدماً تبين. ﴿قالوا﴾ أي: الخزنة، لأهل النار، متبرئين من الدعاء لهم والشفاعة: ﴿فادعوا﴾ أنتم ولكن هذا الدعاء، هل يعني شيئاً أم لا؟

قال تعالى: ﴿وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ أي: باطل لاغ، لأن الكفر محبط لجميع الأعمال، صاذا لإجابة الدعاء.

﴿٥١-٥٢﴾ ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار، لما ذكر عقوبة آل فرعون في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة، وذكر حالة أهل النار الفظيعة، الذين تابذوا رسله وحاربوه، قال: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾ أي: بالحجة والبرهان والنصر، وفي الآخرة بالحكم لهم، ولأتباعهم بالثواب، ولن حاربهم بشدة العقاب.

﴿يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم﴾ حين يعتذرون ﴿ولهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ أي: الدار السيئة التي تسوء نازلها.

﴿٥٣-٥٥﴾ ﴿ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب﴾ هدى وذكرى لأولي الألباب \* فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار﴾ لما ذكر





وعناقتهم والسلاسل يسحبون \* في الحميم ثم في النار يسجرون \* ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون \* من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً كذلك يضل الله الكافرين \* ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفرحون \* ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فيس مئوى المتكبرين \* ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله الواضحة الآية متعجباً من حالهم الشنيعة . «أنى يَصْرَفُونَ» أي : كيف ينعدلون عنها؟ وإلى أي : شيء يذهبون بعد البيان التام؟ هل يجادلون آيات بيّنات تعارض آيات الله؟ لا والله . أم يجادلون شبهاً توافق أهواءهم ، ويصولون بها لأجل باطلهم؟ فيس ما استبدلوا واختاروا لأنفسهم بتكذيبهم بالكتاب الذي جاءهم من الله ، وبما أرسل الله به رسوله ، الذين هم خير الخلق وأصدقهم ، وأعظمهم عقولاً ، فهؤلاء لا جزاء لهم سوى النار الحامية ، ولهذا توعدهم الله بعذابها فقال : «فسوف يعلمون \* إذ الأغلال في أعناقهم» التي لا يستطيعون معها حركة . «والسلاسل» التي يقرون بها هم وشياطينهم «يسحبون \* في الحميم» أي : الماء الذي اشتد غليانه وحره . «ثم في النار يسجرون» يوقد عليهم اللهب العظيم فيصلون بها ، ثم يويخون على شرهم وكذبهم .

ويقال «لهم أين ما كنتم تشركون \* من دون الله» هل نعوكم أو دفعوا عنكم بعض العذاب؟ «قالوا ضلوا عنا» أي : غابوا ولم يحضروا ، ولو حضروا لم ينفعوا ، ثم إنهم أنكروا فقالوا : «بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً» يحتمل أن مرادهم بذلك الإنكار ، وظنوا أنه ينفعهم ويفيدهم ، ويحتمل - وهو الأظهر - أن مرادهم بذلك الإقرار على بطلان إلهية ما كانوا يعبدون ، وأنه ليس لله شريك في الحقيقة ، وإنما هم ضالون مخطئون بعبادة معدوم الإلهية ، ويدل على هذا قوله تعالى : «كذلك يضل الله

تدعون من دون الله» من الأوثان والأصنام ، وكل ما عبد من دون الله . ولست على شك من أمري ، بل على يقين وبصيرة ، ولهذا قال : «لما جاءني البيّنات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين» بقلبي ولساني وجوارحي ، بحيث تكون منقاداً لطاعته ، مستسلمة لأمره ، وهذا أعظم مأمور به على الإطلاق ، كما أن النهي عن عبادة ما سواه أعظم منهي عنه على الإطلاق ، ثم قرر هذا التوحيد بأنه الخالق لكم ، والمطور خلقتكم ، فكما خلقتكم وحده فاعبدوه وحده ، فقال : «هو الذي خلقكم من تراب» وذلك بخلقه أصلكم وأبيكم آدم عليه السلام . «ثم من نطفة» وهذا ابتداء خلق سائر النوع الإنساني ما دام في بطن أمه ، فنبهه بالابتداء على بقية الأطوار ، من العلقه ، فالمنضغة ، فالعظام ، فنضج الروح ، «ثم يخرجكم طفلاً» ثم هكذا تنتقلون في الخلق الإلهية حتى تبلغوا أشدكم من قوة العقل والبدن ، وجميع قواه الظاهرة والباطنة . «ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل» بلوغ الأشد «ولتبلغوا» هذه الأطوار المقدره إلى أجل مسمى تنتهي عنده أعماركم . «ولعلكم تعقلون» أحوالكم ، فتعلمون أن المطور لكم في هذه الأطوار كامل الاقتدار ، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له ، وأنكم ناقصون من كل وجه .

«هو الذي يحيي ويميت» أي : هو المنفرد بالإحياء والإماتة ، فلا تموت نفس بسبب أو يغير سبب ، إلا بإذنه . «وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير» . «فإذا قضى أمراً» جليلاً أو حقيراً «فإنما يقول له كن فيكون» لا ردي ذلك ، ولا مشوية ، ولا تمنع . «٦٦ - ٦٨» «قل إنني نهييت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البيّنات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين \* هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلاً مسمى ولعلكم تعقلون \* هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون» لما ذكر الأمر بإخلاص العبادة لله وحده ، وذكر الأدلة على ذلك والبيّنات ، صرح بالنهي عن عبادة ما سواه فقال : «قل» يا أيها النبي «إنني نهييت أن أعبد الذين

ومشرب ، ومنكح ، وملبس ، ومنظر ، وسمع ، وغير ذلك من الطيبات التي يسرها الله لعباده ، ويسر لهم أسبابها ، ومنعمهم من الخبائث التي تضادها ، وتضر أيدانهم وقلوبهم وأديانهم ، «ذلكم» الذي دبر الأمور وأنعم عليكم بهذه النعم «الله ربكم» «فبارك الله رب العالمين» أي : تعاطم وكثر خيرته وإحسانه ، الربى جميع العالمين بنعمه .

«هو الحي» الذي له الحياة الكاملة التامة ، المستلزمة لما تستلزمه من صفاته الذاتية ، التي لا تتم حياته إلا بها ، كالسمع ، والبصر ، والقدرة ، والعلم ، والكلام ، وغير ذلك من صفات كماله ونعوت جلاله .

«لا إله إلا هو» أي : لا معبود بحق إلا وجهه الكريم . «فادعوه» وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة «مخلصين له الدين» أي : اقتصدوا بكل عبادة ودعاء وعمل وجه الله تعالى ، فإن الإخلاص هو المأمور به ، كما قال تعالى : «وما أمرنا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء» .

«الحمد لله رب العالمين» أي : جميع المحامد والمدائح والثناء ، بالقول كتنطق الخلق بذكره ، والفعل كعبادتهم له ، كل ذلك لله تعالى وحده لا شريك له ، لكماله في أوصافه وأفعاله ، وتمام نعمه .

«٦٦ - ٦٨» «قل إنني نهييت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البيّنات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين \* هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلاً مسمى ولعلكم تعقلون \* هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون» لما ذكر الأمر بإخلاص العبادة لله وحده ، وذكر الأدلة على ذلك والبيّنات ، صرح بالنهي عن عبادة ما سواه فقال : «قل» يا أيها النبي «إنني نهييت أن أعبد الذين

تتكفرون ﴿ يمتن تعالى على عباده بما جعل لهم من الأنعام التي بها جملة من الإنعام :

منها : منافع الركوب عليها والحمل .

ومنها : منافع الأكل من لحومها والشرب من ألبانها .

ومنها : منافع الدفء ، واتخاذ الآلات والأمتعة من أصوافها وأربابها وأشعارها ، إلى غير ذلك من المنافع .

﴿ ولتسلبنوا عليها حاجة في صدوركم ﴾ من الوصول إلى الأوطان البعيدة ، وحصول السرور بها ، والفرح عند أهلها . ﴿ وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ أي : على الرواحل البرية والفلك البحرية يحملكم الله الذي سخرها وهبها لها ما هبها من الأسباب التي لا تتم إلا بها .

﴿ ويريكم آياته ﴾ الدالة على وحدانيته وأسمائه وصفاته ، وهذا من أكبر نعيمه ، حيث أشهد عباده آياته الشفعية ، وآياته الأفقية ، ونعمته الباهرة ، وعددها عليهم ، ليعرفوه ويشكروه ويذكروه .

﴿ فأي آيات الله تنكرون ﴾ أي : أي آية من آياته لا تعترفون بها ؟ فإنكم قد تقرر عندهم ، أن جميع الآيات والنعم من الله تعالى ، فلم يبق للإنكار علة ، ولا للإعراض عنها موضع ، بل أوجبت لذوي الألباب بذل الجهد ، واستفراغ الوسع ، للاجتهد في طاعته والتبذل في خدمته والانقطاع إليه .

﴿ ٨٢ - ٨٥ ﴾ ﴿ أفلم يسروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون \* فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن \*

فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين \* فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك

والآخرة ، ولهذا قال : ﴿ فيما نرى بعض الذي نعدهم ﴾ في الدنيا فذاك ﴿ أو نتوفيتك ﴾ قبل عقوبتهم ﴿ فإلينا يرجعون ﴾ فنجازيم بأعمالهم ، ﴿ فلا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون ﴾ . ثم سلأه وصبره بذكر إخوانه المرسلين فقال :

﴿ ٧٨ ﴾ ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون ﴾ أي : ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً ﴾ كثيرين إلى قومهم ، يدعوهم ويصبرون على أذاهم . ﴿ منهم من قصصنا عليك ﴾ خيرهم ﴿ ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ . وكل الرسل مدبرون ، ليس بيدهم شيء من الأمر .

وما كان لأحد منهم ﴿ أن يأتي بآية ﴾ من الآيات السمعية والعقلية ﴿ إلا بإذن الله ﴾ أي : بمشيئته وأمره ، فاقترح المقترح على الرسل الإتيان بالآيات ، ظلم منهم وتمت وتكذيب ، بعد أن أيدهم الله بالآيات الدالة على صدقهم وصحة ما جاؤوا به . ﴿ فإذا جاء أمر الله ﴾ بالفصل بين الرسل وأعدائهم ، والفتح . ﴿ قضي ﴾ بينهم ﴿ بالحق ﴾ الذي يقع الموقع ، ويوافق الصواب بإنجاه الرسل وأتباعهم ، وإهلاك الكاذبين ، ولهذا قال : ﴿ وخسر هنالك ﴾ أي : وقت القضاء المذكور ﴿ المبطلون ﴾ الذين وصفهم الباطل ، وما جاؤوا به من العلم والعمل باطل ، وغابتهم المقصودة لهم باطلة ، فلنختر هؤلاء المخاطبون أن يستمروا على باطلهم فيخسروا كما خسر أولئك ، فإن هؤلاء لا خير منهم ، ولا لهم براءة في الكتب بالنجاة .

﴿ ٧٩ - ٨١ ﴾ ﴿ الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون \* ولكم فيها منافع ولنبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون \* ويريكم آياته فأي آيات الله

الكافرين ﴾ أي : كذلك الضلال الذي كانوا عليه في الدنيا ، الضلال الواضح لكل أحد ، حتى إنهم بأنفسهم يقرون ببطلانه يوم القيامة ، ويتبين لهم معنى قوله تعالى : ﴿ وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن ﴾ ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ ويوم القيامة يكفرون بشرككم ﴾ ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ﴾ الآيات .

ويقال لأهل النار ﴿ ذلكم ﴾ العذاب الذي نوع عليكم ﴿ بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتمتم تفرحون ﴾ أي : تفرحون بالباطل الذي أنتم عليه ، وبالعلوم التي خالفتكم بها علوم الرسل وتفرحون على عباد الله ، بغياً وعدواناً وظلماً وعصياناً ، كما قال تعالى في آخر هذه السورة : ﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ﴾ .

وكما قال قوم قارون له : ﴿ لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ﴾ .

وهذا هو الفرح المذموم الموجب للعقاب ، بخلاف الفرح المدح الذي قال الله فيه : ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ وهو الفرح بالعلم النافع والعمل الصالح .

﴿ ادخلوا أبواب جهنم ﴾ كل طبقة من طبقاتها على قدر عمله . ﴿ خالدين فيها ﴾ لا يخرجون منها أبداً ﴿ فبئس مثوى المتكبرين ﴾ مثوى يتخزون فيه ويهانون ويحسبون ويعذبون ويترددون بين حرها وزمهريرها .

﴿ ٧٧ ﴾ ﴿ فاصبر إن وعد الله حق فيما نرى بعض الذي نعدهم أو نتوفيتك فإلينا يرجعون ﴾ أي : ﴿ فاصبر ﴾ يا أيها الرسول على دعوة قومك وما يتالك منهم من أذى ، واستمع على صبرك بإيمانك ﴿ إن وعد الله حق ﴾ سينصر دينه ، ويغلي كلمته ، وينصر رسله في الدنيا والآخرة ، واستمع على ذلك أيضاً ، يتوقع العقوبة بأعدائك في الدنيا

الكافرون ﴿يحث تعالى المكذبين لرسولهم على السير في الأرض بأبدانهم وقلوبهم وسؤال العالمين. ﴿فینظروا﴾ نظر فكر واستدلال، لا نظر غفلة وإهمال.

﴿كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ من الأمم السالفة، كعاد وثمود وغيرهم، ممن كانوا أعظم منهم قوة وأكثر أموالاً وأشد آثاراً في الأرض من الأبنية الحصينة، والخراس الأنيفة، والزروع الكثيرة ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ حين جاءهم أمر الله، فلم تغني عنهم قوتهم، ولا اقتدوا بأموالهم، ولا تحصنوا بحصونهم.

ثم ذكر جرمهم الكبير فقال: ﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ من الكتب الإلهية، والخوارق العظيمة، والعلم النافع المبين، للهدى من الضلال، والحق من الباطل ﴿فرحوا بما عندهم من العلم﴾ المناقض لدين الرسل.

ومن المعلوم، أن فرحهم به يدل على شدة رضاهم به وتمسكهم، ومعادة الحق الذي جاءت به الرسل، وجعل باطلهم حقاً، وهذا عام لجميع العلوم التي نوقض بها ما جاءت به الرسل، ومن أحقها بالدخول في هذا، علوم الفلسفة، والمنطق اليوناني، الذي رذت به كثير من آيات القرآن، ونقصت قدره في القلوب، وجعلت أدلته اليقينية القاطعة أدلة لفظية لا تفيد شيئاً من اليقين، ويقدم عليها عقول أهل السفة والباطل، وهذا من أعظم الإلحاد في آيات الله والمعارضة لها والمناقضة والله المستعان.

﴿وحاق بهم﴾ أي: نزل ﴿ما كانوا به يستهزؤون﴾ من العذاب. ﴿فلما رأوا بأسنا﴾ أي: عذابنا، أقرروا حيث لا ينفعهم الإقرار ﴿قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين﴾ من الأصنام والأوثان، وتبرأنا من كل ما خالف الرسل من علم أو عمل. ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا

بأسنا﴾ أي: في تلك الحال، وهذه ﴿سنة الله﴾ وعادته ﴿التي خلت في عباده﴾ أن المكذبين حين ينزل بهم بأس الله وعقابه إذا آمنوا، كان إيمانهم غير صحيح، ولا منجياً لهم من العذاب، وذلك لأنه إيمان ضرورة قد اضطروا إليه، وإيمان مشاهدة، وإنما الإيمان النافع الذي ينجي صاحبه، هو الإيمان الاختياري، الذي يكون إيماناً بالغيب، وذلك قبل وجود قرائن العذاب.

﴿وخسر هنالك﴾ أي: وقت الإهلاك وإذاعة البأس ﴿الكافرون﴾ دينهم ودينامهم وأخراهم، ولا يكفي مجرد الخسارة في تلك الدار، بل لا بد من خسران يشقي في العذاب الشديد، والخلود فيه، دائماً أبداً.

ثم تفسير سورة المؤمن بحمد الله ولفظه وموعته، لا بعولنا وقوتنا، فله الشكر والثناء

### تفسير سورة فصلت (١) مكية

﴿١-٨﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ حم ﴿تنزيل من الرحمن الرحيم﴾ كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ﴿بشيراً ونذيراً فاعرض أكثرهم فهم لا يسمعون﴾ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا قمر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما الوحي إله واحد﴾ فاستقيموا إليه واستخفروه وويل للمشركين ﴿الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالأخرة هم كافرون﴾ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴿يغير تعالى عباده أن هذا الكتاب الجليل والقرآن الجميل ﴿تنزيل﴾ صادر من الرحمن الرحيم﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، الذي من أعظم رحمته وأجلها إنزال هذا الكتاب، الذي حصل به من العلم والهدى والنور والشفاء والرحمة والخير الكثير، ما هو

### سورة فصلت (١) مكية

بسم الله الرحمن الرحيم  
حم ﴿تنزيل من الرحمن الرحيم﴾ كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ﴿بشيراً ونذيراً فاعرض أكثرهم فهم لا يسمعون﴾ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا قمر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما الوحي إله واحد﴾ فاستقيموا إليه واستخفروه وويل للمشركين ﴿الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالأخرة هم كافرون﴾ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴿يغير تعالى عباده أن هذا الكتاب الجليل والقرآن الجميل ﴿تنزيل﴾ صادر من الرحمن الرحيم﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، الذي من أعظم رحمته وأجلها إنزال هذا الكتاب، الذي حصل به من العلم والهدى والنور والشفاء والرحمة والخير الكثير، ما هو

من أجل يتجه على العباد، وهو الطريق للسعادة في الدارين.

ثم أتى على الكتاب بتمام البيان فقال: ﴿فصلت آياته﴾ أي: فصل كل شيء من أنواعه على حدته، وهذا يستلزم البيان التام، والتفريق بين كل شيء، وتمييز الحقائق. ﴿قرآناً عربياً﴾ أي: باللغة الفصحى أكمل اللغات، فصلت آياته وجعل عربياً. ﴿لقوم يعلمون﴾ أي: لأجل أن يتبين لهم معناه كما تبين لفظه، ويوضح لهم الهدى من الضلال، والنعى من الرشاد.

وأما الجاهلون الذين لا يزيدهم الهدى إلا ضلالاً، ولا البيان إلا عمى فهؤلاء لم يسق الكلام لأجلهم، ﴿وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾.

﴿بشيراً ونذيراً﴾ أي: بشيراً بالشواب العاجل والآجل، ونذيراً بالعقاب العاجل والآجل، وذكر تفصيلهما، وذكر الأسباب والأوصاف التي تحصل بها البشارة والنذارة، وهذه الأوصاف للكتاب، مما يوجب أن يتلقى بالقبول والإذعان والإيمان والعمل به، ولكن أعرض أكثر الخلق عنه إعراض المستكبرين، ﴿فهم



دخان فقال لها وللأرض اثنيًا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين \* فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العظيم \* ينكر تعالى ويعجب من كفر الكافرين به، الذين جعلوا معه أنداداً يشركونهم معه، ويبدلون لهم ما يشاؤون من عباداتهم، ويسوونهم بالرب العظيم، الملك الكريم، الذي خلق الأرض الكريمة العظيمة في يومين، ثم دحاهها في يومين، بأن جعل فيها رواسي من فوقها، ترسيها عن الزوال والتزلزل وعدم الاستقرار، فكمثل خلقها، ودحاهها، وإخراج أقطابها، وتوابع ذلك \* في أربعة أيام سواء للمساكين \* عن ذلك، فلا يبتك مثل خبير، فهذا الخبر الصادق الذي لا زيادة فيه ولا نقص.

ثم \* بعد أن خلق الأرض \* استوى \* أي: قصد \* إلى خلق السماء وهي دخان \* قد ثار على وجه الماء، \* فقال لها \* ولما كان هذا التخصيص يوهم الاختصاص، عطف عليه بقوله: \* وللأرض اثنيًا طوعاً أو كرهاً \* أي: انقادا لأمرى طائعتين أو مكرهتين، فلا يد من نفوذ. \* قالتا أتينا طائعين \* ليس لنا إرادة تخالف إرادتك. \* فقضاهن سبع سموات في يومين \* فتم خلق السموات والأرض في ستة أيام أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، مع أن قدرة الله ومشينته صالحة لخلق الجميع في لحظة واحدة، ولكن مع أنه قدير، فهو حكيم رفيق، فمن حكمته ورقفه، أن جعل خلقها في هذه المدة المقطرة.

واعلم أن ظاهر هذه الآية، مع قوله تعالى في النزاعات، لما ذكر خلق السموات قال: \* والأرض بعد ذلك دحاهها \* يظهر منها التعارض، مع أن كتاب الله لا تعارض فيه ولا اختلاف.

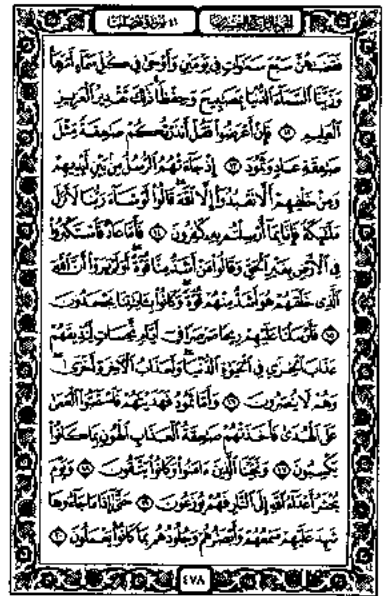
والجواب عن ذلك ما قاله كثير من السلف، أن خلق الأرض وصورتها

بتصديق الخبر الذي أخبر به، واتباع الأمر واجتناب النهي، هذه حقيقة الاستقامة، ثم الدوام على ذلك، وفي قوله: \* إليه \* تنبيه على الإخلاص، وأن العامل ينبغي له أن يجعل مقصده وغايته التي يعمل لأجلها، الوصول إلى الله، وإلى دار كرامته، فبذلك يكون عمله خالصاً صالحاً نافعاً، وبفواته يكون عمله باطلاً.

ولما كان العبد - ولو حرص على الاستقامة - لا بد أن يحصل منه خلل بتقصير بمأمور، أو ارتكاب منهي، أمره بدواء ذلك بالاستغفار المتضمن للتوبة فقال: \* واستغفروه \* ثم توعد من ترك الاستقامة فقال: \* وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة \* أي: الذين عبدوا من دونه من لا يملك نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وندسوا أنفسهم، فلم يزكوها بتوحيد ربهم والإخلاص له، ولم يصلوا ولا زكوا، فلا إخلاص للخالق بالتوحيد والصلاة، ولا نفع للمخلق بالزكاة وغيرها. \* وهم بالأخرة هم كافرون \* أي: لا يؤمنون بالبعث ولا بالجنة والنار، فلذلك لما زال الخوف من قلوبهم، أقدموا على ما أقدموا عليه مما يضرهم في الآخرة.

ولما ذكر الكافرين ذكر المؤمنين، ووصفهم وجزاءهم، فقال: \* إن الذين آمنوا \* بهذا الكتاب، وما اشتمل عليه مما دعا إليه من الإيمان، وصدقوا بإيمانهم بالأعمال الصالحة الجامعة للإخلاص، والتابعة. \* لهم أجر \* أي: عظيم \* غير ممنون \* أي: غير مقطوع ولا نافذ، بل هو مستمر مدى الأوقات، متزايد على الساعات، مشتمل على جميع اللذات والمشتبهات.

٩ - ١٢ \* قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين \* وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين \* ثم استوى إلى السماء وهي



لا يسمعون \* له سماع قبول وإجابة، وإن كانوا قد سمعوه سماعاً تقوم عليهم به الحجة الشرعية.

وقالوا \* أي: هؤلاء المعرضون عنه، مبينين عدم انتفاعهم به، بسد الأبواب الموصلة إليه: \* قلوبنا في أكنة \* أي: أغطية مغطاة مما تدعوها إليه وفي آذاننا وقر \* أي: صمم فلا نسمع لك \* ومن بيننا وبينك حجاب \* فلا نراك.

القصد من ذلك، أنهم أظهروا الإعراض عنه من كل وجه، وأظهروا بغضه والرضا بما هم عليه، ولهذا قالوا: \* فاعمل لنا عاملون \* أي: كما رضيت بالعمل بدينك، فإننا راضون كل الرضا بالعمل في ديننا، وهذا من أعظم الخذلان، حيث رضوا بالضلال عن الهدى، واستبدلوا الكفر بالإيمان، وابعوا الآخرة بالدينا.

قل \* لهم يا أيها النبي: \* إنما أنا بشرٌ مثلكم يوحي إلي \* أي: هذه صفتي ووظيفتي، أني بشرٌ مثلكم، ليس بيدي من الأمر شيء، ولا عندي ما تستعجلون به، وإنما فضلتني الله عليكم وميزني وخصني بالوحي الذي أرحاه إلي وأمرني باتباعه ودعوتكم إليه.

فاستقيموا إليه \* أي: اسلكوا الصراط الموصل إلى الله تعالى،

متقدم على خلق السماوات كما هنا، ودحي الأرض بأن ﴿أخرج منها ماءها ومرعاها﴾ والجبال أرساها ﴿متأخر عن خلق السماوات كما في سورة النازعات، ولهذا قال فيها: ﴿والأرض بعد ذلك دحها﴾ \* أخرج منها﴾ إلى آخره ولم يقل: ﴿والأرض بعد ذلك خلقها﴾.

وقوله: ﴿وأوحى في كل سماء أمرها﴾ أي: الأمر والتدبير اللائق بها، التي اقتضته حكمة أحكم الحاكمين. ﴿وزئنا السماء الدنيا بمصابيح﴾ هي النجوم يستنار بها ويستدي، وتكون زينة وجالاً للسماء ظاهراً، وجالاً لها باطناً، يجعلها رجوماً للشياطين، لئلا يسترق السمع فيها. ﴿ذلك﴾ المذكور، من الأرض وما فيها، والسماء وما فيها ﴿تقدير العزيز العليم﴾ الذي عزته قهز بها الأشياء ودبرها، وخلق بها المخلوقات. ﴿العليم﴾ الذي أحاط علمه بالمخلوقات والغائب والشاهد.

فَتَرَكُ الْمُشْرِكِينَ الْإِخْلَاصَ لِهَذَا الرَّبِّ الْعَظِيمِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، الَّذِي انْقَادَتِ الْمَخْلُوقَاتُ لِأَمْرِهِ وَنَفَذَتْ فِيهَا قُدْرَهُ مِنْ أَعْجَبِ الْأَشْيَاءِ، وَاتَّخَذَهُمْ لَهُ أَنْدَاداً يَسُوونَهُمْ بِهِ، وَهُمْ نَاقِصُونَ فِي أَوْصَافِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ أَعْجَبُ وَأَعْجَبُ، وَلَا دَوَاءَ لَهُؤَلَاءِ إِنْ اسْتَمَرَّ إِعْرَاضُهُمْ، إِلَّا الْعُقُوبَاتِ الدُّنْيَوِيَّةُ وَالْآخِرِيَّةُ، فَهَذَا خَوْفُهُمْ بِقَوْلِهِ:

﴿١٣ - ١٤﴾ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ \* إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون ﴿

أي: فإن أعرض هؤلاء المكذبون بعدما بين لهم من أوصاف القرآن الحميدة، ومن صفات الإله العظيم ﴿فقل أنذرتكم صاعقة﴾ أي: عذاباً يستأصلكم ويبتاحكم، ﴿مثل صاعقة

عاد وثمود﴾ القبيلتين المعروفتين، حيث اجتاحهم العذاب، وحل عليهم وبيل العقاب، وذلك بظلمهم وكفرهم.

حيث ﴿جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم﴾ أي: يتبع بعضهم بعضاً متوالين، ودعوتهم جميعاً واحدة. ﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾ أي: يأمرون بالإخلاص لله، وينهونهم عن الشرك، فردوا رسالتهم وكذبوهم، و ﴿قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة﴾ أي: وأما أنتم فيشر مثلنا ﴿فإنما بما أرسلتم به كافرون﴾ وهذه الشبهة لم تنزل متواترة بين المكذبين (من الأمم<sup>١١</sup>)، وهي من أوهى الشبه، فإنه ليس من شرط الإرسال أن يكون المرسل ملكاً، وإنما شرط الرسالة، أن يأتي الرسول بما يدل على صدقه، فليفتخروا إن استطاعوا بصدقهم بقادح عقلي أو شرعي، ولن يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً.

﴿١٥ - ١٦﴾ ﴿فَمَا عَادَ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُمْحَدُونَ﴾ \* فأرسلنا عليهم رجماً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشزى وهم لا ينصرون ﴿ هذا تفصيل لقصة هاتين الأمتين، عاد وثمود. ﴿فأما عاد﴾ فكانوا - مع كفرهم بالله، وجحدهم بآيات الله، وكفرهم برسله - مستكبرين في الأرض، قاهرين لمن حولهم من العباد، ظالمين لهم، قد أعجبتهم قوتهم. ﴿وقالوا من أشد منا قوة﴾ تعالى رداً عليهم بما يعرفه كل أحد: ﴿أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة﴾ فلولا خلقه إياهم، لم يوجدوا فلو نظروا إلى هذه الحال نظراً صحيحاً، لم يغتبروا بقوتهم، فعاقبهم الله عقوبة تناسب قوتهم التي اغتروا بها.



﴿فأرسلنا عليهم رجماً صرصراً﴾ أي: رجماً عظيماً، من قوتها وشدتها، لها صوت مزعج، كالرعد القاصف. فسخرها الله عليهم ﴿سبع ليال ونمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم اعجاز نخل خاوية﴾ ﴿نحسات﴾ فدمرتهم وأهلكتهم، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم. وقال هنا: ﴿لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا﴾ الذي اختزوا به وافتضحوا بين الخليقة. ﴿وللعذاب الآخرة أشزى وهم لا ينصرون﴾ أي: لا يمنعون من عذاب الله، ولا يمنعون أنفسهم.

﴿١٧ - ١٨﴾ ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً صَاعِقَةَ الْعَذَابِ الْهَوْنِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ \* وأما ثمود وهم القبيلة المعروفة الذين سكنوا الحجر وحواليه، الذين أرسل الله إليهم صالحاً عليه السلام، يدعوهم إلى توحيد ربهم، وينهاهم عن الشرك وآتاهم الله الناقة آية عظيمة، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم، يشربون لبنها يوماً، ويشربون من الماء يوماً، وليسوا ينفقون عليها، بل تأكل من أرض الله، ولهذا قال هنا: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أي:

(١) في النسختين (بالأم).

من المعتبين ﴿يخبر تعال عن أعدائه، الذين بارزوه بالكفر به وبآياته، وتكذيب رسله ومعادتهم وعاريتهم، وحالهم الشنيعة حين يحشرون، أي: يجمعون.﴾ إلى النار فهم يوزعون﴾ [أي: يرد أولهم على آخرهم، ويتبع آخرهم أولهم، ويساقون إليها سوقاً عتيفاً، لا يستطيعون امتناعاً، ولا ينصرون أنفسهم ولا هم ينصرون، ﴿حتى إذا ما جاؤوها﴾ أي: حتى إذا وردوا على النار، وأرادوا الإنكار، أو أنكروا ما عملوه من المعاصي، ﴿شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم﴾ عموم بعد خصوص. ﴿بما كانوا يعملون﴾ أي: شهد عليهم كل عضو من أعضائهم، فكل عضو يقول: أنا فعلت كذا وكذا يوم كذا وكذا. وخص هذه الأعضاء الثلاثة، لأن أكثر الذنوب إنما تقع بها أو بسببها.

﴿فإن يصبروا فالنار مثوى لهم﴾ فلا جلدٌ عليها ولا صبر، وكل حالة قُدر إمكان الصبر عليها، فالنار لا يمكن الصبر عليها، وكيف الصبر على نار قد اشتد حرها، وزادت على نار الدنيا بسبعين ضعفاً، وعظم غليان حيمها، وزاد نين صديدها، وتضاعف برد زهريرها وعظمت سلاسلها وأغللالها، وكبرت مقامعها، وغلظ خُرَائبها، وزال ما في قلوبهم من رحمتهم، وختم ذلك سخط الجبار، وقوله لهم حين يدعونه ويستغيثون: ﴿اخشوا فيها ولا تكلمون﴾.

﴿وإن يستعجبوا﴾ أي: يظلموا أن يزال عنهم العتب ويرجعوا إلى الدنيا ليستأنفوا العمل. ﴿فما هم من المعتبين﴾ لأنه ذهب وقته، وعمروا ما يعمر فيه من تذكروا وجاءهم النذير وانقطعت حججهم مع أن استعجابهم كذب منهم ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾.

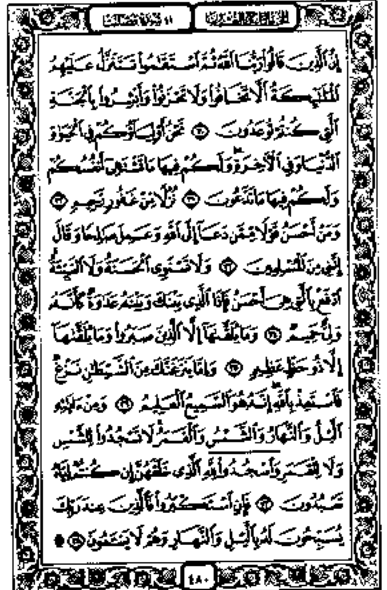
﴿٢٥﴾ ﴿وقيضنا لهم قرآنا فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين﴾ أي: وقيضنا لهؤلاء الظالمين الجاحدين للحق ﴿قرآنا﴾ من الشياطين، كما قال تعال: ﴿لم تر آتانا رسلانا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً﴾ أي: ترعجهم إلى المعاصي وتحثهم عليها، بسبب ما زينوا ﴿لهم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ فالدنيا زخرفوها بأعينهم، ودعوههم إلى لذاتها وشهواتها المحرمة حتى افتتنوا، فأقدموا على معاصي الله، وسلوكوا ما شاؤوا من محاربة الله ورسله، والآخرة يتعدوها

من المعتبين ﴿يخبر تعال عن أعدائه، الذين بارزوه بالكفر به وبآياته، وتكذيب رسله ومعادتهم وعاريتهم، وحالهم الشنيعة حين يحشرون، أي: يجمعون.﴾ إلى النار فهم يوزعون﴾ [أي: يرد أولهم على آخرهم، ويتبع آخرهم أولهم، ويساقون إليها سوقاً عتيفاً، لا يستطيعون امتناعاً، ولا ينصرون أنفسهم ولا هم ينصرون، ﴿حتى إذا ما جاؤوها﴾ أي: حتى إذا وردوا على النار، وأرادوا الإنكار، أو أنكروا ما عملوه من المعاصي، ﴿شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم﴾ عموم بعد خصوص. ﴿بما كانوا يعملون﴾ أي: شهد عليهم كل عضو من أعضائهم، فكل عضو يقول: أنا فعلت كذا وكذا يوم كذا وكذا. وخص هذه الأعضاء الثلاثة، لأن أكثر الذنوب إنما تقع بها أو بسببها.

﴿فإذا شهدت عليهم عاتبوها، وقالوا لجلودهم﴾ هذا دليل على أن الشهادة تقع من كل عضو كما ذكرنا: ﴿لم شهدتم علينا﴾ ونحن ندافع عنكم؟ ﴿قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء﴾، فليس في إمكاننا الامتناع عن الشهادة حين أنطقنا الذي لا يستعصي عن مشيئته أحد.

﴿وهو خلقكم أول مرة﴾ فكما خلقكم بذواتكم وأجسامكم، خلق أيضاً صفاتكم، ومن ذلك الإنطاق. ﴿وليه ترجعون﴾ في الآخرة، فيجزئكم بما عملتم، ويحتمل أن المراد بذلك، الاستدلال على البعث بالخلق الأول، كما هو طريقة القرآن.

﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم﴾ أي: وما كنتم تحتفون عن شهادة أعضائكم عليكم، ولا تحاذرون من ذلك. ﴿ولكن ظننتم﴾ بإقدامكم على المعاصي ﴿أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون﴾ فلذلك صدر منكم ما صدر، وهذا الظن، صار سبب هلاكهم وشقائهم ولهذا قال: ﴿وذلك ظنكم الذي ظننتم



هداية بيان، وإنما نص عليهم، وإن كان جميع الأمم المهلكة، قد قامت عليهم الحجة وحصل لهم البيان، لأن آية ثمود آية باهرة، قد رآها صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنشاهم، وكانت آية مبصرة، فلهذا خصهم بزيادة البيان والهدى.

ولكنهم - من ظلمهم وشرهم - استحبوا العمى - الذي هو الكفر والضلال - على الهدى - الذي هو العلم والإيمان - فأخذهم العذاب بما كانوا يكسبون لا ظلماً من الله لهم. ﴿ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ أي: نجى الله صالحاً عليه السلام ومن اتبعه من المؤمنين الثقلين للمشرك والمعاصي.

﴿١٩ - ٢٤﴾ ﴿ويوم يحشر أهداء الله إلى النار فهم يوزعون﴾ حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ﴿وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون﴾ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ﴿وذلك ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾ فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعجبوا فما هم

عليهم وأنسروهم ذكرها، وربما أوقعوا عليهم الشبه بعدم وقوعها، فترحل خوفها من قلوبهم، فقادوهم إلى الكفر والبعد والمعاصي.

وهذا التسلط والتفويض من الله للمكذبين الشياطين، بسبب إعراضهم عن ذكر الله وآياته، وجحودهم الحق كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَفِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فُجُورًا قَرِينٌ﴾ وإني لبيدوهم عن السبيل ويمسبونهم مهتدون.

﴿وحق عليهم القول﴾ أي: وجب عليهم، ونزل القضاء والقدر بعذابهم ﴿في﴾ جملة ﴿أمم قد خلت من قبلهم من الجبن والإنس إنهم كانوا خاسرين﴾ لأديانهم وأخرتهم، ومن خسر، فلا بد أن يذل ويشقى ويمذب.

﴿٢٦ - ٢٩﴾ ﴿وقال الذين كفروا لا نسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾ فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون \* ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا يأتينا يحسدون \* وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلنا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين﴾ يخبر تعالى عن إعراض الكفار عن القرآن وتواصيهم بذلك، فقال: ﴿وقال الذين كفروا لا نسمعوا لهذا القرآن﴾ أي: أعرضوا عنه بأسماعكم، وإياكم أن تلتفتوا، أو تصغروا إليه ولا إلا من جاء به، فإن اتفق أنكم سمعتموه، أو سمعتم الدعوة إلى أحكامه، ف ﴿الغوا فيه﴾ أي: تكلموا بالكلام الذي لا فائدة فيه، بل فيه المضرة، ولا تمكثوا - مع قدرتكم - أحداً يملك عليكم الكلام به وتلاوة ألفاظه ومعانيه، هذا لسان حالهم ولسان مقالهم في الإعراض عن هذا القرآن، ﴿لعلكم﴾ إن فعلتم ذلك ﴿تغلبون﴾ أو هذه<sup>(١)</sup> شهادة من الأعداء، وأوضح الحق ما شهدت به الأعداء، فإنهم لم يحكموا بغلبتهم لن

جاء بالحق إلا في حال الإعراض عنه والتواصي بذلك، ومفهوم كلامهم، أنهم إن لم يلغوا فيه، بل استمعوا إليه، وألقوا أذهانهم، أنهم لا يغلبون، فإن الحق غالب غير مغلوب، يعرف هذا أصحاب الحق وأعداؤه.

ولما كان هذا ظلماً منهم وعناداً، لم يبق فيهم مطمع للهداية، فلم يبق إلا عذابهم ونكالهم، ولهذا قال: ﴿فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينهم أسوأ الذي كان يعملون﴾ وهو الكفر والمعاصي، فإنها أسوأ ما كانوا يعملون، لكنهم يعملون المعاصي وغيرها، فالجزاء بالمعقوبة، إنما هو على عمل الشر<sup>(٢)</sup>، ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾.

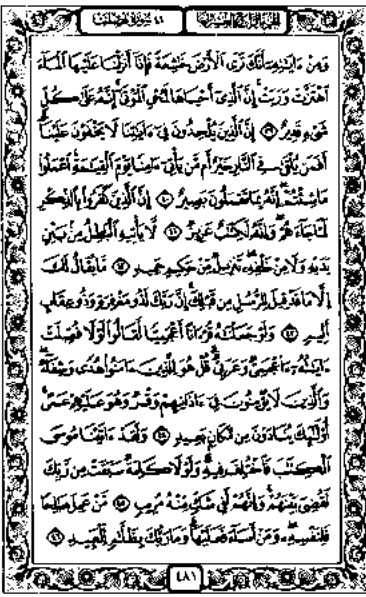
﴿ذلك جزاء أعداء الله﴾ الذين حاربوه وحاربوا أولياءه بالكفر والتكذيب والمجادلة والمجادلة. النار لهم فيها دار الخلد﴾ أي: الخلود الدائم، الذي لا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا هم يصرون، وذلك ﴿جزاء بما كانوا يأتينا يحسدون﴾ فإنها آيات واضحة، وأدلة قاطعة مفيدة لليقين، فأعظم الظلم وأكبر العناد جحدوا والكفر بها.

﴿وقال الذين كفروا﴾ أي: الأتباع منهم، بدليل ما بعده، على وجه الحق على من أضلهم: ﴿ربنا أرنا اللذين أضلنا من الجن والإنس﴾ أي: الصنفين اللذين قادانا إلى الضلال والعذاب، من شياطين الجن وشياطين الإنس، الدعاة إلى جهنم. ﴿نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين﴾ أي: الأذلين المهانين كما أضلونا وفتنونا، وصاروا سبباً لنزولنا. ففي هذا، بيان حق بعضهم على بعض، وتبري بعضهم من بعض.

﴿٣٠ - ٣٢﴾ ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ننزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ يعثوبهم في الدنيا عن الشر، ويقبحونه في قلوبهم، ويدعون الله لهم، ويشيرونهم عند المصائب والمخاوف، وخصوصاً عند الموت وشدة، والقبر وظلمته، وفي القيامة وأهلها، وعلى الصراط، وفي الجنة يهنئونهم بكرامة ربهم، ويدخلون

(٢) في (ب) (الترك).

(١) في النسختين (وهذا).



ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون \* نزلاً من غفور رحيم﴾ يخبر تعالى عن أوليائه، وفي ضمن ذلك تنشيطهم والحث على الاقتداء بهم فقال: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ أي: اعترفوا ونطقوا ورضوا بربوبية الله تعالى، واستسلموا لأمره، ثم استقاموا على الصراط المستقيم، علماً وعملاً، فلهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

﴿تنزل عليهم الملائكة﴾ الكرام، أي: يتكرر نزولهم عليهم، مبشرين لهم عند الاحتضار. ﴿ألا تخافوا﴾ على ما يستقبل من أمرهم، ﴿ولا تحزنوا﴾ على ما مضى، فنفروا عنهم المكروه الماضي والمستقبل، ﴿وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ فإنها قد وجبت لكم وثبتت، وكان وعد الله مفعولاً، ويقولون لهم أيضاً مشبتين لهم ومبشرين: ﴿نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ يعثوبهم في الدنيا على الخير، ويزنونهم لهم، ويرهبونهم عن الشر، ويقبحونه في قلوبهم، ويدعون الله لهم، ويشيرونهم عند المصائب والمخاوف، وخصوصاً عند الموت وشدة، والقبر وظلمته، وفي القيامة وأهلها، وعلى الصراط، وفي الجنة يهنئونهم بكرامة ربهم، ويدخلون

وحسينه، ومجادلة أعدائه بالتي هي أحسن، والنهي عما يضاذه من الكفر والشرك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن الدعوة إلى الله، تحجيبه إلى عبادته بذكر تفاصيل نعمه، وسعة جوده، وكمال رحمته، وذكر أوصاف كماله، ونعوت جلاله.

ومن الدعوة إلى الله، الترغيب في اقتباس العلم والهدى من كتاب الله وسنة رسوله، والحث على ذلك بكل طريق موصل إليه، ومن ذلك، الحث على مكارم الأخلاق، والإحسان إلى عموم الخلق، ومقابلة المسيء بالإحسان، والأمر بصلة الأرحام، وبر الوالدين.

ومن ذلك، الوعظ لعموم الناس، في أوقات المواسم والمصوارض والمصائب، بما يناسب ذلك الحال، إلى غير ذلك مما لا تنحصر أفرادها، مما يشمل الدعوة إلى الخير كله، والترهيب من جميع الشر.

ثم قال تعالى: ﴿وعمل صالحاً﴾ أي: مع دعوته الخلق إلى الله، بادر هو بنفسه، إلى امتثال أمر الله، بالعمل الصالح، الذي يرضي ربه. ﴿وقال إنني من المسلمين﴾ أي: المتقادين لأمره، السالكين في طريقه، وهذه المرتبة، تمامها للصديقين، الذين عملوا على تكميل أنفسهم وتكميل غيرهم، وحصلت لهم الورثة التامة من الرسل، كما أن من أشرف الناس قولاً، من كان من دعاة الضالين<sup>(١)</sup> السالكين لسبيله.

وبين هاتين المرتبتين المتباينتين، التي ارتفعت إحداها إلى أعلى عليين، ونزلت الأخرى إلى أسفل سافلين، مراتب لا يعلمها إلا الله، وكلها معمورة بالخلق ﴿ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون﴾.

﴿٣٤ - ٣٥﴾ ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾

فإذا صبر الإنسان نفسه، وامتثل أمر ربه، وعرف جزيل الثواب، وعلم أن مقابلته للمسيء بجنس عمله لا يفيد شيئا، ولا يزيد العداوة إلا شدة، وأن إحسانه إليه ليس بواضع قدره، بل من تواضع لله رفعه، هان عليه الأمر، وفعل ذلك مثلثاً مستحلياً له.

﴿وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾

﴿٣٣﴾ ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً ولم يكن من دعاة الضالين﴾

﴿٣٤﴾ ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾

﴿٣٥﴾ ﴿وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾

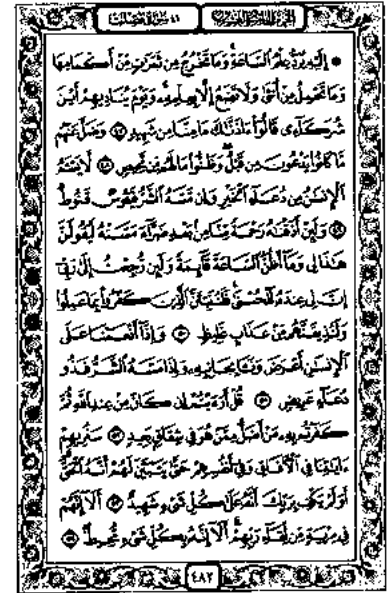
﴿٣٦﴾ ﴿وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾

﴿٣٧﴾ ﴿وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾

﴿٣٨﴾ ﴿وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾

﴿٣٩﴾ ﴿وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾

﴿٤٠﴾ ﴿وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾



عليهم من كل باب ﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ ويقولون لهم أيضاً: ﴿ولكم فيها﴾ أي: في الجنة ﴿ما تشتهي أنفسكم﴾. قد أعد وهبىء. ﴿ولكم فيها ما تدعون﴾ أي: تطالبون من كل ما تتعلق به إرادتكم وتطلبونه من أنواع اللذات والمشتهيات، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿نزلاً من غفور رحيم﴾ أي: هذا الثواب الجزيل، والنعم القيم، نُزِّلَ وضيافة ﴿من غفور﴾ غفر لكم السيئات، ﴿رحيم﴾ حيث وفقكم لفعل الحسنات ثم قبلها منكم. فمغفرته أزال عنكم المحذور، وبرحمته أنالكم المطلوب.

﴿٣٣﴾ ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾ هذا استفهام بمعنى النفي المقرر أي: لا أحد أحسن قولاً. أي: كلاماً وطريقة، وحالة ﴿ممن دعا إلى الله﴾ بتعليم الجاهلين، ووعظ الغافلين والمعرضين، ومجادلة الباطلين بالأمر بعبادة الله بجميع أنواعها، والحث عليها وتحسينها مهما أمكن، والزجر عما نهى الله عنه، وتقييده بكل طريق يوجب تركه، خصوصاً من هذه، الدعوة إلى أصل دين الإسلام

ظاهرة وباطنه، وسيجازهه على الحاده بما كان يعمل، ولهذا قال: ﴿أمنن يلقى في النار﴾ مثل الملحد بآيات الله ﴿خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة﴾ من عذاب الله مستحقاً لثوابه؟ من المعلوم أن هذا خير .

لما تبين الحق من الباطل، والطريق المنجي من عذابه من الطريق المهلك قال: ﴿اعملوا ما شئتم﴾ إن شئتم فاسلكوا طريق الرشد الموصلة إلى رضا ربكم وجنته، وإن شئتم فاسلكوا طريق الغي المسخطة لربكم، الموصلة إلى دار الشقاء .

﴿إنه بما تعملون بصير﴾ يجازيكم بحسب أحوالكم وأعمالكم، كقوله تعالى: ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ .

ثم قال تعالى: ﴿إن الذين كفروا بالذكر﴾ أي: يمحذون القرآن الكريم المذكر للعباد جميع مصالحهم الدينية والدينية والأخرية، المغلي لقدر من اتبعه، ﴿لما جاءهم﴾ نعمة من ربهم على يد أفضل الخلق وأكملهم. ﴿ووالحال﴾ إنه لكتاب جامع لأوصاف الكمال ﴿عزيز﴾ أي: منيع من كل من أراد به تحريف أو سوء، ولهذا قال: ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ أي: لا يقربه شيطان من شياطين الإنس والجن، لا بسرقة، ولا بإدخال ما ليس منه به، ولا بزيادة ولا نقص، فهو محفوظ في تنزيله، محفوظه أفاضه ومعانيه، قد تكفل من أنزله بحفظه كما قال تعالى: ﴿إننا نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون﴾ .

﴿تنزيل من حكيم﴾ في خلقه وأمره، يضع كل شيء موضعه، وينزلها منازلها. ﴿حميد﴾ على ما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وعلى ما له من العدل والإفضال، فلهاذا كان كتابه مشتقاً على تمام الحكمة، وعلى تحصيل المصالح والمنافع، ودفع المقاسد والمفاسد، التي يحمده عليها.

﴿٤٣﴾ ﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل لرسل من قبلك إن ربك ل ذو مغفرة

اعبده وحده لأنه الخالق العظيم، ودعوا عبادة ما سواه من المخلوقات، وإن كبر جرمه وكثرت مصالحه، فإن ذلك ليس منه، وإنما هو من خالقه تبارك وتعالى. ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ فخصوه بالعبادة وإخلاص الدين له .

﴿فإن استكبروا﴾ عن عبادة الله تعالى، ولم ينقادوا لها، فإنهم لن يضروا الله شيئاً، والله غني عنهم، وله عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولهذا قال: ﴿فالتذين عند ربك﴾ يعني: الملائكة المقربين ﴿يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون﴾ أي: لا يملون من عبادته، لقوتهم وشدة الداعي القوي منهم إلى ذلك .

﴿ومن آياته﴾ الدالة على كمال قدرته، وانفراذه بالملك والتدبير والوحدانية، ﴿أنك ترى الأرض خاشعة﴾ أي: لا نبات فيها ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء﴾ أي: المطر ﴿اهتزت﴾ أي: تحركت بالنبات ﴿وريت﴾ ثم: أنبتت من كل زوج بهيج، فيحيي به العباد والبلاد .

﴿إن الذي أحياها﴾ بعد موتها وهوودها، ﴿لمحي الموتى﴾ من قبورهم إلى يوم بعثهم، وشورهم ﴿إنه على كل شيء قدير﴾ فكما لم تعجز قدرته على إحياء الأرض بعد موتها، لا تعجز عن إحياء الموتى .

﴿٤٠ - ٤٢﴾ ﴿إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا﴾ فمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير \* إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز \* لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد الإلحاد في آيات الله: الميل بها عن الصواب بأي وجه كان: إما بإنكارها وجحودها، وتكذيب من جاء بها، وإما بتحريفها وتصريفها عن معناها الحقيقي، وإثبات معاني لها ما أرادها الله منها .

فتوعد تعالى من ألحد فيها بأنه لا يخفى عليه، بل هو مطلع على

لكونها من خصال خواص الخلق، التي ينال بها العبد الرفعة في الدنيا والآخرة، التي هي من أكبر خصال مكارم الأخلاق .

﴿٣٥ - ٣٩﴾ ﴿وما ينزعك من الشيطان نزغ فاستعد بالله إنه هو السميع العليم﴾ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون \* فإن استكبروا فالتذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون \* ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحي الموتى إنه على كل شيء قدير \* لما ذكر تعالى ما يقابل به العدو من الإنس، وهو مقابلة إسمائه بالإحسان، ذكر ما يدفع به العدو الجئي، وهو الاستعاذة بالله والاحتماء من شره، فقال: ﴿وما ينزعك من الشيطان نزغ﴾ أي: أي وقت من الأوقات، أحسست بشيء من نزغات الشيطان، أي: من وساوسه وتزيينه للشهر، وتكسيبه من الخير، وإصابة بعض الذنوب، وإطاعة له ببعض ما يأمر به فاستعد بالله \* أي: أسأله، مفقراً إليه، أن يعيدك ويعصمك منه، ﴿إنه هو السميع العليم﴾ فإنه يسمع قولك وتضرعك، ويعلم حالك واضطرارك إلى عصمته وحمايته .

ثم ذكر تعالى أن ﴿من آياته﴾ الدالة على كمال قدرته، ونفوذ مشيئته، وسعة سلطانه، ورحمته بعباده، وأنه الله وحده لا شريك له ﴿الليل والنهار﴾: هذا بمنفعة ضيائه وتصرف العباد فيه، وهذا بمنفعة ظلمته، وسكون الخلق فيه. ﴿والشمس والقمر﴾ اللذان لا تستقيم معاش العباد ولا أبدانهم ولا أبدان حيواناتهم إلا بهما، وبهما من المصالح ما لا يحصى عدده .

﴿لا تسجدوا للشمس ولا للقمر﴾ فإنهما مدبران مسخران مخلوقان. ﴿واسجدوا لله الذي خلقهن﴾ أي:

نفعه وثوابه في الدنيا والآخرة، ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلِيَهَا﴾ ضرره وعقابه في الدنيا والآخرة، وفي هذا حثٌّ على فعل الخير وترك الشر، وانتفاع العاملين بأعمالهم الحسنة، وضررهم بأعمالهم السيئة، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى. ﴿وَمَا رِبِكْ بِظِلَامٍ لِلْمَبِيدِ﴾ قِيْحَمْلُ أَحَدًا فَوْقَ سَيَاتِهِمْ.

﴿٤٧ - ٤٨﴾ ﴿إِلَيْهِ يَرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ آيُنُ شُرَكَائِي قَالُوا أَدْنَاكَ مَا مَنَا مِنْ شَهِيدٍ \* وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ هذا إخبار عن سعة علمه تعالى واختصاصه بالعلم الذي لا يطلع عليه سواه فقال: ﴿إِلَيْهِ يَرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: جميع الخلق ترد علمها إلى الله تعالى، ويقرون بالعجز عنه، الرسل، والملائكة، وغيرهم.

﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي: وعانها الذي تخرج منه، وهذا شامل لثمرات جميع الأشجار التي في البلدان والبراري، فلا تخرج ثمرة شجرة من الأشجار، إلا وهو يعلمها علماً تفصيلاً.

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ﴾ من بني آدم وغيرهم، من أنواع الحيوانات، إلا بعلمه ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ أنثى حملها إلا بعلمه. فكيف سوى المشركون به تعالى من لا علم عنده ولا سمع ولا بصر؟

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي: المشركين به يوم القيامة توبيخاً وإظهاراً لكذبهم، فيقول لهم: ﴿آيُنُ شُرَكَائِي﴾ الذين زعمتم أنهم شركائي، فعبدتوهم وجادلتهم على ذلك، وعاديتهم الرسل لأجلهم؟ ﴿قَالُوا﴾ مقرين بظلمة إبليسهم وشركتهم مع الله: ﴿أَدْنَاكَ مَا مَنَا مِنْ شَهِيدٍ﴾ أي: أعلمناك ياربنا، واشهد علينا أنه ما منا أحد يشهد بصحة إلهيتهم وشركتهم، فكلنا الآن قد رجعنا إلى بطلان عبادتنا، وتبرأنا منها، ولهذا قال: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ﴾ من دون الله، أي:

هدى وشفاء﴾ أي: يهديهم لطريق الرشد والصراف المستقيم، ويعلمهم من العلوم النافعة ما به تحصل الهداية النامة وشفاء لهم من الأسقام البدنية والأسقام القلبية، لأنه يزجر عن مساوئ الأخلاق وأقبح الأعمال، ويحث على التوبة النصوح التي تغسل الذنوب وتشفى القلب.

﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالقرآن ﴿فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أي: صمم عن استماعه وإعراض، ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أي: لا يبصرون به رُشداً، ولا يتدون به، ولا يزيدهم إلا ضلالاً فإنهم إذا ردوا الحق، ازدادوا عمى إلى عماهم، وغياً إلى غيهم.

﴿أُولَئِكَ ينادون من مكان بعيد﴾ أي: ينادون إلى الإيمان ويدعون إليه فلا يستجيبون، بمنزلة الذي ينادي وهو في مكان بعيد، لا يسمع داعياً ولا يجيب منادياً. والمقصود: أن الذين لا يؤمنون بالقرآن، لا ينتفعون به، ولا يبصرون بنوره، ولا يستفيدون منه خيراً، لأنهم سدوا على أنفسهم أبواب الهدى، بإعراضهم وكفرهم.

﴿٤٥ - ٤٦﴾ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ لَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِرْيَبٌ \* مِنْ عَمَلٍ صَالِحاً فَلَنْفُسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلِيَهَا وَمَا رَبُّكَ بِظِلَامٍ لِلْمَبِيدِ﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ﴾ كما آتيناك الكتاب، فصنع به الناس ما صنعوا معك، اختلفوا فيه: فممنهم من آمن به واهتدى وانتفع، ومنهم من كذبه ولم ينتفع به، وإن الله تعالى، لولا حلمه وكلمته السابقة بتأخير العذاب إلى أجل مستمى لا يتقدم عليه ولا يتأخر ﴿لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بمجرد ما يتميز المؤمنون من الكافرين، بإهلاك الكافرين في الحال، لأن سبب الهلاك قد وجب وحق. ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِرْيَبٌ﴾ أي: قد بلغ بهم إلى الريب الذي يفلتقهم، لذلك كتبوه وجحدوه.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً﴾ وهو العمل الذي أمر الله به ورسوله ﴿فَلَنْفُسِهِ﴾

وذو عقاب اليم﴾ أي: ﴿مَا يَقَالُ لَكَ﴾ أيها الرسول من الأقوال الصادرة من كذبك وعاندك ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرَّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي: من جنسها، بل ربما إنهم تكلموا بكلام واحد، كتعجب جميع الأمم المكذبة للرسل، من دعوتهم إلى الإخلاص لله وعبادته وحده لا شريك له، وردهم هذا بكل طريق يقدرون عليه، وقولهم: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾.

واقتراحهم على رسلهم الآيات، التي لا يلزمهم الإتيان بها، ونحو ذلك من أقوال أهل التكذيب، لما تشابهت قلوبهم في الكفر تشابهت أقوالهم، وصبر الرسل عليهم السلام على آذاهم وتكذيبهم، فاصبر كما صبر من قبلك.

ثم دعاهم إلى التوبة والإتيان بأسباب المغفرة، وحثهم من الاستمرار على النبي فقال: ﴿إِنَّ رَبِّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ أي: عظيمة، يحورها كل ذنب لمن أقطع وتاب ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لمن أصر واستكبر.

﴿٤٤﴾ ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ الْأَعْجَمِيَّ وَعَرَبِيَّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِي لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يخبر تعالى عن فضله وكرمه، حيث أنزل كتابه عربياً، على الرسول العربي، بلسان قومه، ليبين لهم، وهذا مما يوجب لهم زيادة الاعتناء به، والتلقي له والتسليم، وأنه لو جعله قرآناً أعجمياً بلغة غير العرب، لاعترض المكذبون وقالوا: ﴿لَوْلَا فَصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أي: هلا بينت آياته، ووضحت وفسرت. ﴿أَلْعَجَمِيَّ وَعَرَبِيَّ﴾ أي: كيف يكون محمد عربياً، والكتاب أعجمي؟ هذا لا يكون فنفي الله تعالى كل أمر يكون فيه شبهة لأهل الباطل عن كتابه، ووصفه بكل وصف يوجب لهم الانقياد، ولكن المؤمنون الموقنون انتفعوا به، وارتفعوا، وغيرهم بالعكس من أحوالهم.

ولهذا قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا

فإن قلت، أو شككتهم بصحته وحقيقته، فسقيم الله لكم ويريك من آياته في الآفاق، كآليات التي في السماء وفي الأرض، وما يحدثه الله تعالى من الحوادث العظيمة الدالة للمستصير على الحق.

﴿وفي أنفسهم﴾ عما اشتملت عليه أبدانهم من بديع آيات الله وعجائب صنعته، وباهر قدرته، وفي حلول العقوبات والمثالات في المكذبين، ونصر المؤمنين. ﴿حتى يتبين لهم﴾ من تلك الآيات، بياناً لا يقبل الشك ﴿أنه الحق﴾ وما اشتمل عليه حق.

وقد فعل تعالى، فإنه أرى عباده من الآيات ما به تبين لهم أنه الحق، ولكن الله هو الموفق للإيمان من شاء، والخاذل لمن يشاء.

﴿أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾ أي: أولم يكفهم على أن القرآن حق، ومن جاء به صادق، بشهادة الله تعالى، فإنه قد شهد له بالتصديق، وهو أصدق الشاهدين، وأيده ونصره نصراً متصمناً لشهادته القولية عند من شك فيها.

﴿ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم﴾ أي: في شك من البعث والقيامة، وليس عندهم دار سوى الدار الدنيا، فلذلك لم يعملوا للآخرة، ولم يلتفتوا لها. ﴿ألا إنه بكل شيء محيط﴾ علماً وقدره وعزة.

تم تفسير سورة السجدة

- بته تعالى -

### تفسير سورة الشورى هكينة

﴿١ - ٩﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم \* عسق \* كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم \* له ما في السموات وما في الأرض وهو العلي العظيم \* تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم \* والذين اتقوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم

ثم قال تعالى: ﴿ولئن أذناه﴾ أي: الإنسان الذي لا يسام من دعاء الخير، وإن مسه الشر فيؤوس قنوط ﴿رحمة﴾ أي: بعد ذلك الشر الذي أصابه، بأن عافاه الله من مرضه، أو أغناه من فقره، فإنه لا يشكر الله تعالى، بل يبغى ويطنى، ويقول: ﴿هذاني﴾ أي: أتاني لأني له أهل وأنا مستحق له ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾ وهذا إنكار منه للبعث، وكفر للنعمة والرحمة التي أذاقها الله له. ﴿ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾ أي: على تقدير إتيان الساعة، وأني سأرجع إلى ربي، إن لي عنده للحسنى، فكما حصلت لي النعمة في الدنيا، فإنها ستحصل لي في الآخرة وهذا من أعظم الجراءة والقول على الله بلا علم، فلماذا توعدته الله بقوله: ﴿فلننبئ الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ﴾ أي: شديد جداً.

﴿٤٩ - ٥١﴾ ﴿لا يسأم الانسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيؤوس قنوط \* ولئن أذناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن للساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ \* وإذا أنمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض﴾ هذا إخبار عن طبيعة الانسان من حيث هو، وعدم صبره وجلده، لا على الخير ولا على الشر، إلا من نقله الله من هذه الحال إلى حال الكمال، فقال: ﴿لا يسأم الانسان من دعاء الخير﴾ أي: لا يمل دائماً من دعاء الله، في الغنى والمال والولد، وغير ذلك من مطالب الدنيا، ولا يزال يعمل على ذلك، ولا يفتن بقليل ولا كثير منها، فلو حصل له من الدنيا ما حصل، لم يزل طالباً للزيادة.

﴿وإن مسه الشر﴾ أي: المكروه، كالمرض والفقر وأنواع البلايا ﴿فيؤوس قنوط﴾ أي: يئس من رحمة الله تعالى، ويظن أن هذا البلاء هو القاضي عليه بالهلاك، ويتشوش من إتيان الأسباب على غير ما يجب ويطلب. إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات، فإنهم إذا أصابهم الخير والنعمة والمحاب، شكروا الله تعالى، وخافوا أن تكون نعم الله عليهم استدرجاً وإمهالاً، وإن أصابتهم مصيبة في أنفسهم وأموالهم وأولادهم صبروا، ورجوا فضل ربهم، فلم يئأسوا.

﴿٥٢ - ٥٤﴾ ﴿قل أرايتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد \* سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد \* ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط﴾ أي: ﴿قل﴾ لهؤلاء المكذبين بالقرآن المسارعين إلى الكفران ﴿أرايتم إن كان﴾ هذا القرآن ﴿من عند الله﴾ من غير شك ولا ارتياب، ﴿ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد﴾ أي: معاندة الله ولرسوله، لأنه تبين لكم الحق والصواب، ثم عدلتم عنه، لا إلى حق، بل إلى باطل وجهل، فإذا تكونون أضل الناس وأظلمهم.



أمكن من أنواع الثقبات، ويتولى عباده عموماً بتدبيره ونفوذ القدر فيهم، ويتولى عباده المؤمنين خصوصاً، بإخراجهم من الظلمات إلى النور، وتربيتهم بلطفه، وإعانتهم في جميع أمورهم.

﴿وهو يحيى الموتى وهو على كل شيء قدير﴾ أي: هو المتصرف بالإحياء والإماتة، ونفوذ المشيئة والقدرة، فهو الذي يستحق أن يعبد وحده لا شريك له.

﴿١٠ - ١٢﴾ ﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب﴾ فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذركم فيه ليس كمثل شيء وهو السميع البصير \* له مقاليد السماوات والأرض ببسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم﴾ يقول تعالى: ﴿وما اختلفتم فيه من شيء﴾ من أصول دينكم وفروعه، مما لم تتفقوا عليه ﴿فحكمه إلى الله﴾ يرد إلى كتابه، وإلى سنة رسوله، فما حكمه به فهو الحق، وما خالف ذلك فيباطل. ﴿ذلكم الله ربي﴾ أي: فكما أنه تعالى الرب الخالق الرازق المدير، فهو تعالى الحاكم بين عباده بشرعه في جميع أمورهم.

ومفهوم الآية الكريمة، أن اتفاق الأمة حجة قاطعة، لأن الله تعالى لم يأمرنا أن نرد إليه إلا ما اختلفنا فيه، فما اتفقنا عليه، يكفي اتفاق الأمة عليه، لأنها معصومة عن الخطأ، ولا بد أن يكون اتفاقها موافقاً لما في كتاب الله وسنة رسوله.

وقوله: ﴿عليه توكلت﴾ أي: اعتمدت بقلبي عليه في جلب المنافع ودفع المضار، واثقاً به تعالى في الإسعاف بذلك. ﴿والإله أنيب﴾ أي: أتوجه بقلبي وبدني إليه، وإلى طاعته وعبادته.

وهذان الأصلان، كثيراً ما يذكرهما الله في كتابه، لأنهما يحصل بمجموعهما كمال العبد، ويفوته

معرفته ومحبته وتعظيمه وإجلاله وإكرامه، وصرف جميع أنواع العبودية الظاهرة والباطنة له تعالى، وأن من أكبر الظلم وأفحش القول، اتخاذ أنداد لله من دونه، ليس بيدهم نفع ولا ضرر، بل هم مخلوقون مفتقرون إلى الله في جميع أحوالهم، ولهذا عقبه بقوله: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء﴾ يتولونهم بالعبادة والطاعة، كما يعبدون الله ويعطيونه، فإنما اتخذوا الباطل، وليسوا بأولياء على الحقيقة. ﴿الله حفيظ عليهم﴾ يحفظ عليهم أعمالهم، فيجازيهم بخيرها وشرها. ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ فنسأل عن أعمالهم، وإنما أنت مبلغ أديت وظيفتك.

ثم ذكر منته على رسوله وعلى الناس، حيث أنزل الله ﴿قرآناً عربياً﴾ بين الألفاظ والمعاني ﴿لتنذر أم القرى﴾ وهي مكة المكرمة ﴿ومن حولها﴾ من قرى العرب، ثم يسري هذا الإنذار إلى سائر الخلق. ﴿وتنذر﴾ الناس ﴿يوم الجمع﴾ الذي يجمع الله به الأولين والآخرين، وتجبرهم أنه ﴿لا ريب فيه﴾ وأن الخلق ينقسمون فيه فريقين ﴿فريق في الجنة﴾ وهم الذين آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين، ﴿وفريق في السمير﴾ وهم أصناف الكفرة المكذبين.

﴿٨﴾ ﴿و﴾ مع هذا ﴿لو شاء الله﴾ لجعل الناس، أي: جعل الناس ﴿أمة واحدة﴾ على الهدى، لأنه القادر الذي لا يمتنع عليه شيء، ولكنه أراد أن يدخل في رحمته من شاء من خواص خلقه.

وأما الظالمون الذين لا يصلحون لصالح، فإنهم محرومون من الرحمة، ف﴿ما لهم﴾ من دون الله ﴿ومن ولي﴾ يتولاهم، فيحصل لهم المحيوب ﴿ولا نصير﴾ يدفع عنهم المكروه.

والذين ﴿اتخذوا من دونه أولياء﴾ يتولونهم بعبادتهم إياهم، فقد غلطوا أفتح غلط، فالله هو الولي الذي يتولاه عبده بعبادته وطاعته، والتقرب إليه بما

بوكيل \* وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السمير \* ولو شاء الله لجلعهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير \* أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي وهو يحيى الموتى وهو على كل شيء قدير﴾ يجبر تعالى أنه أوحى هذا القرآن العظيم إلى النبي الكريم، كما أوحى إلى من قبله من الأنبياء والمرسلين، فقيه بيان فضله، بإزالة الكتب، وإرسال الرسل، سابقاً ولاحقاً، وأن عمداً ﷺ ليس يبلغ من الرسل، وأن طريقته طريقة من قبله، وأحواله تناسب أحوال من قبله من المرسلين. وما جاء به يشابه ما جاؤوا به، لأن الجميع حق وصدق، وهو تنزيل من اتصف بالألوهية والعزة العظيمة والحكمة البالغة، وأن جميع العالم العلوي والسفلي ملكه وتمت تدبيره القدرى والشريعى.

وأنه ﴿العلي﴾ بذاته، وقدره، وفهره. ﴿العظيم﴾ الذي من عظمته ﴿تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن﴾ على عظمها وكونها جاداً، ﴿والملائكة﴾ الكرام المقربون خاضعون لعظمته، مستكينون لعزته، مذعنون ببروبيته. ﴿يُسَبِّحون بحمد ربهم﴾ ويعظمونه عن كل نقص، ويصفونه بكل كمال، ﴿ويستغفرون لمن في الأرض﴾ عما يصدر منهم، مما لا يليق بعظمة ربهم وكبريائه، مع أنه تعالى هو ﴿الغفور الرحيم﴾ الذي لولا مغفرته ورحمته، لعاجل الخلق بالعقوبة المستأصلة.

وفي وصفه تعالى بهذه الأوصاف، بعد أن ذكر أنه أوحى إلى الرسل كلهم عموماً، وإلى محمد - صلى الله عليه وسلم - جمعين - خصوصاً، إشارة إلى أن هذا القرآن الكريم، فيه من الأدلة والبراهين، والآيات الدالة على كمال البارئ تعالى، ووصفه بهذه الأسماء العظيمة الموجبة لامتلاء القلوب من



ولكنهم لم يتبعوه، بل اتبعوا أهواءهم، واتخذوا دينهم لهواً ولعباً.

﴿وقل﴾ لهم عند جدالهم ومناظرتهم: ﴿أمنت بما أنزل الله من كتاب﴾ أي: لتكن مناظرتك لهم مبنية على هذا الأصل العظيم، الدال على شرف الإسلام وجلالته وهيمنته على سائر الأديان، وأن الدين الذي يزعم أهل الكتاب أنهم عليهم جزء من الإسلام، وفي هذا إرشاد إلى أن أهل الكتاب إن ناظروا مناظرة مبنية على الإيمان ببعض الكتب، أو ببعض الرسل دون غيره، فلا يسلم لهم ذلك، لأن الكتاب الذي يدعو إلى، والرسول الذي ينتسبون إليه، من شرطه أن يكون مصدقاً بهذا القرآن وبين جاء به، فكتابنا ورسولنا لم يأمرنا إلا بالإيمان بموسى وعيسى والتوراة والإنجيل، التي أخبر بها وصدق بها، وأخبر أنها مصدقة له ومقررة بصحته.

وأما مجرد التوراة والإنجيل، وموسى وعيسى، الذين لم يوصفوا لنا، ولم يوافقوا لكتابنا، فلم يأمرنا بالإيمان بهم.

وقوله: ﴿وأمرت لأعدل بينكم﴾ أي: في الحكم فيما اختلفتم فيه، فلا تمنعني عداوتكم وبغضكم، يا أهل الكتاب من العدل بينكم، ومن العدل في الحكم، بين أهل الأقوال المختلفة، من أهل الكتاب وغيرهم، أن يقبل ما معهم من الحق، ويرد ما معهم من الباطل، ﴿الله ربنا وربكم﴾ أي: هو رب الجميع، لستم بأحق به منا. ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ من خير وشر ﴿لا حجة بيننا وبينكم﴾ أي: بعدما تبينت الحقائق، واتضح الحق من الباطل، والهدى من الضلال، لم يبق للجدال والمنازعة محل، لأن المقصود من الجدال، إنما هو بيان الحق من الباطل، ليهتدي الراشد، ولتقوم الحجة على الغاوي، وليس المراد بهذا أن أهل الكتاب لا يجادلون، كيف والله يقول: ﴿ولا يجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾ وإنما المراد ما ذكرنا.

وإليه المصير﴾ لما أمر تعالى باجتماع المسلمين على دينهم، ونهاهم عن التفرق، أخبرهم أنكم لا تغتروا بما أنزل الله عليكم من الكتاب، فإن أهل الكتاب لم يفرقوا حتى أنزل الله عليهم الكتاب الموجب للاجتماع، ففعلوا ضد ما يأمر به كتابهم، وذلك كله بغياً وعدواناً منهم، فلاهم تباعضوا وغمسادوا، وحصلت بينهم المشاحنة والعداوة، فوقع الاختلاف، فاحذروا أيها المسلمون أن تكونوا مثلهم.

﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ أي: بتأخير العذاب القاصي ﴿إلى أجل مسمى لقضي بينهم﴾ ولكن حكمته وحلمه، اقتضى تأخير ذلك عنهم. ﴿وإن الذين أورشوا الكتاب من بعدهم﴾ أي: الذين ورثوهم وصاروا خلفاً لهم من ينتسب إلى العلم منهم ﴿لضي شك منه مريب﴾ أي: لضي اشتباه كثير يوقع في الاختلاف، حيث اختلف سلفهم بغياً وعدواناً، فإن خلفهم اختلفوا شكاً وارتياباً، والجميع مشتركون في الاختلاف المذموم.

﴿فلذلك فادع﴾ أي: فللذين القويم والصراط المستقيم، الذي أنزل الله به كتابه وأرسل رسله، فادع إليه أمتك وحضهم عليه، وجاهد عليه من لم يقبله، ﴿واستمق﴾ بنفسك ﴿كما أمرت﴾ أي: استقامة موافقة لأمر الله، لا تفرط ولا إفراط، بل امتثالاً لأوامر الله واجتناباً لنواهيه، على وجه الاستمرار على ذلك، فأمره بتكميل نفسه بلزوم الاستقامة، وتكميل غيره بالدعوة إلى ذلك.

ومن المعلوم أن أمر الرسول ﷺ أمر لامت إذا لم يرد تخصيص له.

﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ أي: أهواء المنحرفين عن الدين، من الكفرة والمنافقين إما بتابعهم على بعض دينهم، أو بترك الدعوة إلى الله، أو بترك الاستقامة، فإنك إن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين، ولم يقل: ﴿ولا تتبع دينهم﴾ لأن حقيقة دينهم الذي شرعه الله لهم، هو دين الرسل كلهم،



﴿الله يجتبي إليه من يشاء﴾ أي: يختار من خليفته من يعلم أنه يصلح للاجتهاد لرسالته وولايته ومنه أن اجتنبى هذه الأمة وفضلها على سائر الأمم، واختار لها أفضل الأديان وخيرها.

﴿ويهدي إليه من ينيب﴾ هذا السبب الذي من العبد، يتوصل به إلى هداية الله تعالى، وهو إنيابته لربه، وانجذاب دواعي قلبه إليه، وكونه قاصداً وجهه، فحسن مقصد العبد مع اجتهاده في طلب الهداية، من أسباب التيسير لها، كما قال تعالى: ﴿يهدى به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام﴾.

وفي هذه الآية، أن الله ﴿يهدى إليه من ينيب﴾ مع قوله: ﴿واتبع سبيل من أناب إلى﴾ مع العلم بأحوال الصحابة رضي الله عنهم، وشدة إنيابتهم، دليل على أن قولهم حجة، خصوصاً الخلفاء الراشدين، رضي الله عنهم أجمعين.

﴿١٤ - ١٥﴾ ﴿وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم وإن الذين أورشوا الكتاب من بعدهم لضي شك منه مريب﴾ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل أمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا

والأحكام والحكم، داخله في الميزان الذي أنزله الله تعالى ووضعه بين عباده، ليزنوا به ما أشبهه من الأمور، ويعرفوا به صدق ما أخبر به وأخبرت رسله، فما خرج عن هذين الأمرين عن الكتاب والميزان مما قيل إنه حجة أو برهان أو دليل أو نحو ذلك من العبارات، فإنه باطل متناقض، قد فسدت أصوله، وانهدمت مبانيه وفروعه، يعرف ذلك من خبر المسائل وماخذها، وعرف التمييز بين راجع الأدلة من مرجوحها، والفرق بين الحجج والشبه، وأما من اغتر بالحجج المقاطعة، والبراهين الساطعة، فهؤلاء المجادلون للحق من بعد ما تبين حججتهم داحضة أي: باطلة مدفوعة عند ربهم لأنها مشتملة على رد الحق وكل ما خالف الحق، فهو باطل.

﴿الله يجمع بيننا وإليه المصير﴾ يوم القيامة، فيجزى كلا بعمله، وتبين حينئذ الصادق من الكاذب.

﴿١٦﴾ ﴿والذين يجاجون في الله من بعد ما استجيب له حججتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد﴾ وهذا تقرير لقوله: لا حجة بيننا وبينكم، فأخبر هنا أن ﴿الذين يجاجون في الله﴾ بالحجج الباطلة، والشبه المتناقضة من بعد ما استجيب له أي: من بعد ما استجاب لله أولو الأسباب والعقول، لما بين لهم من الآيات القاطعة، والبراهين الساطعة، فهؤلاء المجادلون للحق من بعد ما تبين حججتهم داحضة أي: باطلة مدفوعة عند ربهم لأنها مشتملة على رد الحق وكل ما خالف الحق، فهو باطل.

﴿وعليهم غضب﴾ لعصيانهم وإعراضهم عن حجج الله وبياناته وتكذيبها. ﴿ولهم عذاب شديد﴾ هو أثر غضب الله عليهم، فهذه عقوبة كل مجادل للحق بالباطل.

﴿١٧ - ١٨﴾ ﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب﴾ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق إلا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد﴾ لما ذكر تعالى أن حججه واضحة بيّنة، بحيث استجاب لها كل من فيه خير، ذكر أصلها وقاعدتها، بل جميع الحجج التي أوصلها إلى العباد، فقال: ﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان﴾ فالكتاب هو هذا القرآن العظيم، نزل بالحق، واشتمل على الحق والصدق واليقين، وكله آيات بيّنات، وأدلة واضحات، على جميع المطالب الإلهية والعقائد الدينية، فجاء بأحسن المسائل وأوضح الدلائل.

وأما الميزان، فهو العدل والاعتبار بالقياس الصحيح والعقل الرجيع، فكل الدلائل العقلية، من الآيات الآفاقية والنفسية، والاعتبارات الشرعية، والمناسبات والحلل،

ثم قال تعالى مخوفاً للمستعجلين لقيام الساعة المتكرين لها، فقال: ﴿وما يدريك لعل الساعة قريب﴾ أي: ليس بمعلوم بعدها، ولا متى تقوم، فهي في كل وقت متوقع وقوعها، مخوف وجبتها. ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها﴾ عناداً وتكذيباً، وتعجيزاً لربهم. ﴿والذين آمنوا مشفقون منها﴾ أي: خائفون، لإيمانهم بها، وعلمهم بما تشتمل عليه من الجزاء بالأعمال، وخوفهم، لعرفتهم بربهم، أن لا تكون أعمالهم منجية لهم ولا مسعدة، ولهذا قال: ﴿ويعلمون أنها الحق﴾ الذي لا مرية فيه، ولا شك يعتريه ﴿إلا إن الذين يمارون في الساعة﴾ أي: بعدما اتروا فيها، ماروا الرسل وأتباعهم بإثباتها فهم في شقاق بعيد، أي: معاندة ومخاصمة غير قريبة من الصواب، بل في غاية البعد عن الحق، وأتى بعد أبعد ممن كذب بالدار التي هي الدار على الحقيقة، وهي الدار التي خلقت للبقاء الدائم والخلود السرمد، وهي دار الجزاء التي يظهر الله فيها عدله وفضله وإنما هذه الدار بالنسبة إليها، كراكب قال في ظل شجرة ثم راح وتركها، وهي دار عبور وعر، لا محل استقرار.

﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب﴾ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق إلا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد﴾ لما ذكر تعالى أن حججه واضحة بيّنة، بحيث استجاب لها كل من فيه خير، ذكر أصلها وقاعدتها، بل جميع الحجج التي أوصلها إلى العباد، فقال: ﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان﴾ فالكتاب هو هذا القرآن العظيم، نزل بالحق، واشتمل على الحق والصدق واليقين، وكله آيات بيّنات، وأدلة واضحات، على جميع المطالب الإلهية والعقائد الدينية، فجاء بأحسن المسائل وأوضح الدلائل.

فصدقوا بالدار المضمحلة الفانية، حيث رأوها وشاهدوها، وكذبوا بالدار الآخرة، التي تواترت بالإخبار عنها الكنتب الإلهية، والرسل الكرام وأتباعهم، الذين هم أكمل الخلق عقولاً، وأغزرهم علماً، وأعظمهم فطنةً وفهماً.

﴿١٩ - ٢٠﴾ ﴿الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز﴾ من كان يريد حوت الآخرة نزله في حرته ومن كان يريد حوت الدنيا نوته منها وماله في الآخرة من نصيب﴾ يخبر تعالى بلطفه بعباده ليعرفوه ويعجبوه، ويتعرضوا للطفه وكرمه، واللطف من أوصافه تعالى معناه: الذي يدرك الضمائر والسرائر، الذي يوصل عباده - وخصوصاً المؤمنين - إلى ما فيه الخير لهم من حيث لا يعلمون ولا يحتسبون.

فمن لطفه بعبده المؤمن، أن هداه إلى الخير هداية لا تخطر بباله، بما يسر له من الأسباب الداعية إلى ذلك، من فطرته على محبة الحق والانقياد له وإيزاعه تعالى لملائكته الكرام، أن يشنوا عباده المؤمنين، ويحوشهم على الخير، ويلقوا في قلوبهم من تزيين الحق ما يكون داعياً لاتباعه.

ومن لطفه أن أمر المؤمنين بالعبادات الاجتماعية، التي بها تقوى عزائمهم وتنبعث همهم، ويحصل منهم التنافس



على الخير والرغبة فيه، واقتداء بعضهم ببعض.

ومن لطفه، أن قبض لعبده كل سبب يعوقه ويجول بينه وبين المعاصي، حتى إنه تعالى إذا علم أن الدنيا والمال والرياسة ونحوها مما يتنافس فيه أهل الدنيا، تقطع عبده عن طاعته، أو تحمله على الغفلة عنه، أو على معصية صرفها عنه، وقدر عليه رزقه، ولهذا قال هنا: ﴿يرزق من يشاء﴾ بحسب اقتضاء حكمته ولطفه ﴿وهو القوي العزيز﴾ الذي له القوة كلها، فلا حول ولا قوة لأحد من المخلوقين إلا به، الذي دانت له جميع الأشياء.

ثم قال تعالى: ﴿ومن كان يريد حرث الآخرة﴾ أي: أجرها وثوابها، فأمن بها وصدق، وسمى لها سعيها ﴿تزد له في حرثه﴾ بأن نضاعف عمله وجزاءه أضعافاً كثيرة، كما قال تعالى: ﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾ ومع ذلك، فنصيبه من الدنيا لا بد أن يأتيه.

﴿ومن كان يريد حرث الدنيا﴾ بأن: كانت الدنيا هي مقصوده وغاية مطلوبه، فلم يقدم لآخرته، ولا رجا ثوابها، ولم يحش عقابها. ﴿نؤوته منها﴾ نصيبه الذي قسم له، ﴿وما له في الآخرة من نصيب﴾ قد حرم الجنة ونعيمها، واستحق النار وجحيمها.

وهذه الآية، شبيهة بقوله تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون﴾. إلى آخر الآيات.

﴿٢١ - ٢٣﴾ ﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم وإن الظالمين لهم عذاب أليم﴾ ترى الظالمين مشفقين بما كسبوا وهو واقع بهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير \* ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسألكم عليه أجرأ إلا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور \* يجيز تعالى أن المشركين اتخذوا شركاء يوالونهم ويشترون هم وإياهم في الكفر وأعماله، من شياطين الإنس، الدعاة إلى الكفر ﴿شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾ من الشرك والبدع، وتحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم الله ونحو ذلك مما اقتضته أهواؤهم.

مع أن السدين لا يكون إلا ما شرعه الله تعالى، ليدين به العباد ويتقربوا به إليه، فالأصل الحجر على كل أحد أن يشرع شيئاً ما جاء عن الله وعن رسوله، فكيف هؤلاء الفسقة المشركين هم وأباؤهم على الكفر.

﴿ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم﴾ أي: لسوا الأجل المسسى الذي ضربه الله فاصلاً بين الطوائف المختلفة، وأنه سيؤخرهم إليه، لقضي بينهم في الوقت الحاضر بسعادة الحق وإهلاك المظل، لأن المقتضى للإهلاك موجود، ولكن أمامهم العذاب الأليم في الآخرة، هؤلاء وكل ظالم.

وفي ذلك اليوم ﴿تتري الظالمين﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿مشفقين﴾ أي: خائفين وجلين ﴿بما كسبوا﴾ أن يعاقبوا عليه.

ولما كان الخائف قد يقع به ما أشفق منه وخافه، وقد لا يقع، أخبر أنه ﴿واقع بهم﴾ العقاب الذي خافوه،

لأنهم أتوا بالسبب التام الموجب للعقاب، من غير معارض، من توبة ولا غيرها، ووصلوا موضعاً فات فيه الانتظار والإمهال.

﴿والذين آمنوا﴾ بقلوبهم بالله وكتبه ورسله وما جاؤوا به، ﴿وعملوا الصالحات﴾ يشمل كل عمل صالح من أعمال القلوب، وأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات، فهؤلاء ﴿في روضات الجنات﴾ أي: الروضات المضافة إلى الجنات، والمضاف يكون بحسب المضاف إليه، فلا تسأل عن بهجة تلك الرياض المونة، وما فيها من الأنهار المتدفقة، والفياض العسبية، والمناظر الحسنة، والأشجار المثمرة، والطيور المغردة، والأصوات الشجية المطربة، والاجتماع بكل حبيب، والأخذ من المعاشرة والمنازمة بأكمل نصيب، رياض لا تزداد على طول المدى إلا حسناً وبهاء، ولا يزداد أهلها إلا اشتياقاً إلى لذاتها ووداداً، ﴿لهم ما يشاؤون﴾ فيها، أي: في الجنات، فمهما أرادوا فهو حاصل، ومهما طلبوا حصل، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿ذلك هو الفضل الكبير﴾ وهل فوز أكبر من الفوز برضا الله تعالى، والتنعم بقربه في دار كرامته؟

﴿ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي: هذه البشارة العظيمة، التي هي أكبر البشائر على الإطلاق، بشر بها الرحيم الرحمن، على يد أفضل خلقه لأهل الإيمان والعمل الصالح، فهي أجل الغايات، والوسيلة الموصلة إليها أفضل الوسائل.

﴿قل لا أسألكم عليه﴾ أي: على تبليغي إياكم هذا القرآن ودعوتكم إلى أحكامه. ﴿أجرأ﴾ فلست أريد أخذ أموالكم، ولا التولي عليكم والترأس، ولا غير ذلك من الأغراض ﴿إلا المودة في القربى﴾.

بجئتم أن المراد: لا أسألكم عليه أجرأ إلا أجرأ واحداً هو لكم، وعائد نفعه إليكم، وهو أن تودوني وتحبوني

في القرابة، أي: لأجل القرابة. ويكون على هذا المودة الزائدة على مودة الإيمان، فإن مودة الإيمان بالرسول، وتقديم محبته على جميع المحاب بعد محبة الله، فرض على كل مسلم، وهؤلاء طلب منهم زيادة على ذلك أن يجوه لأجل القرابة، لأنه ﷺ، قد باشر بدعوته أقرب الناس إليه، حتى إنه قيل: إنه ليس في بطون قريش أحد، إلا ولرسول الله ﷺ، فيه قرابة.

ويحتمل أن المراد بالإمودة الله تعالى الصادقة، وهي التي يصحبها التقرب إلى الله، والتوسل بطاعته الدالة على صحتها وصدقها، ولهذا قال: ﴿إلا المودة في القربى﴾ أي: في التقرب إلى الله، وعلى كلا القولين، فهذا الاستثناء دليل على أنه لا يسألهم عليه أجراً بالكلية، إلا أن يكون شيئاً يعود نفعه إليهم، فهذا ليس من الأجر في شيء، بل هو من الأجر منه لهم ﷺ، كقوله تعالى: ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ وقولهم: ﴿ما لفلان ذنب عندك، إلا أنه محسن إليك﴾.

﴿ومن يقترف حسنة﴾ من صلاة، أو صوم، أو حج، أو إحسان إلى الخلق ﴿نزذله فيها حسناً﴾ بأن يشرح الله صدره، وييسر أمره، وتكون سبباً للتوفيق لعمل آخر، ويزداد بها عمل المؤمن، ويرتفع عند الله وعند خلقه، ويحصل له الثواب العاجل والأجل.

﴿إن الله غفور شكور﴾ يغفر الذنوب العظيمة ولو بلغت ما بلغت عند التوبة منها، ويشكر على العمل القليل بالأجر الكثير، فيمغفرته يغفر الذنوب ويستر العيوب، ويشكره يتقبل الحسنات ويضاعفها أضعافاً كثيرة.

﴿٢٤﴾ ﴿أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ الله نختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور﴾ يعني أم يقول الكاذبون للرسول ﷺ جرأة منهم وكذباً: ﴿افترى على الله كذباً﴾ فزمك بأشنع الأمور وأبجحها، وهو الافتراء

على الله بادعاء النبوة والنسبة إلى الله ما هو بريء منه، وهم يعلمون صدقك وأمانتك، فكيف يتجرؤون على هذا الكذب الصراح؟

بل تجرؤوا بذلك على الله تعالى، فإنه قدح في الله، حيث مكنتك من هذه الدعوة العظيمة، المنتظمة - على موجب زعمهم - أكبر الفساد في الأرض، حيث مكنته الله من التصريح بالدعوة، ثم بنسبتهإ إليه، ثم يؤيده بالمعجزات الظاهرات، والأدلة القاهرات، والنصر المبين، والاستيلاء على من خالفه، وهو تعالى قادر على حسم هذه الدعوة من أصلها ومادتها، وهو أن يختم على قلب الرسول ﷺ فلا يعي شيئاً ولا يدخل إليه خير، وإذا ختم على قلبه انحسم الأمر كله وانقطع.

فهذا دليل قاطع على صحة ما جاء به الرسول، وأقوى شهادة من الله له على ما قال، ولا يوجد شهادة أعظم منها ولا أكبر، ولهذا من حكمته ورحمته، وسنته الجارية، أنه يححو الباطل ويزيله، وإن كان له صولة في بعض الأوقات، فإن عاقبته الاضمحلال.

﴿ويحق الحق بكلماته﴾ الكونية، التي لا تغير ولا تبدل، ووعده الصادق، وكلماته الدينية التي تحقق ما شرعه من الحق، وتثبت في القلوب، وتبصر أولي الألباب، حتى إن من جملة إحقاقه تعالى الحق، أن يقبض له الباطل ليقاومه، فإذا قاومه، صال عليه الحق ببراهينه وبيئاته، فظهر من نوره وهدهد ما به يضمحل الباطل وينتقم، ويتبين بطلانه لكل أحد، ويظهر الحق لكل الظهور لكل أحد.

﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ أي: بما فيها، وما اتصفت به من خير وشر، وما أكتنه ولم يئده.

﴿٢٥- ٢٨﴾ ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تعملون﴾ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد \* ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في

الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير \* وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد﴾ هذا بيان لكمال كرم الله تعالى وسعة جوده ونظام لطفه، بقبول التوبة الصادرة من عباده حين يقلعون عن ذنوبهم ويندمون عليها، ويعزمون على أن لا يعاودوها إذا قصدوا بذلك وجه ربه، فإن الله يقبلها بعدما انعقدت سبباً للهلاك، ووقوع العقوبات الدنيوية والدينية.

﴿ويعفو عن السيئات﴾ ويمحوها، ويمحو أثرها من العيوب، وما اقتضته من العقوبات، ويعود التائب عنده كريماً، كأنه ما عمل سوءاً قط، ويحبه ووقفه لما يقربه إليه.

ولما كانت التوبة من الأعمال العظيمة، التي قد تكون كاملة بسبب تمام الإخلاص والصدق فيها، وقد تكون ناقصة عند نقصهما، وقد تكون فاسدة إذا كان القصد منها بلوغ غرض من الأغراض الدنيوية، وكان عمل ذلك القلب الذي لا يعلمه إلا الله، ختم هذه الآية بقوله: ﴿ويعلم ما تعملون﴾ فالله تعالى دعا جميع العباد إلى الإنابة إليه والتوبة من التقصير، فانقسموا - بحسب الاستجابة له - إلى قسمين: مستجيبين وصفهم بقوله: ﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي: يستجيبون لرهب ما دعاهم إليه وينقادون له ويلبسون دعوته، لأن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح يجعلهم على ذلك، فإذا استجابوا له، شكر الله لهم، وهو الغفور الشكور.

وزادهم من فضله توفيقاً ونشاطاً على العمل، وزادهم مضاعفة في الأجر زيادة عن ما تستحقه أعمالهم من الثواب والفوز العظيم.

وأما غير المستجيبين لله وهم المعاندون الذين كفروا به ويرسله، فـ ﴿لهم عذاب شديد﴾ في الدنيا والآخرة، ثم ذكر أن من لطفه بعباده، أنه لا يوسع عليهم الدنيا سعة، تضر بأديانهم فقال: ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض﴾ أي: لغفلوا

عن طاعة الله، وأقبلوا على التمتع بشهوات الدنيا، فأوجبت لهم الإكباب على ما تشتهي نفوسهم، ولو كان معصية وظلماً.

﴿ولكن ينزل بقدر ما يشاء﴾ بحسب ما اقتضاه لطفه وحكمته ﴿إنه بعباده خبير بصير﴾ كما في بعض الآثار أن الله تعالى يقول: «إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الغنى، ولو أنقرته لأنسه ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته لأنسه ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الصحة، ولو أمرضته لأنسه ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا المرض ولو عافيته لأنسه ذلك، إني أدبر أمر عبادي بعلمي بما في قلوبهم، إني خبير بصير».

﴿وهو الذي ينزل الغيث﴾ أي: المطر الغزير الذي به يغيث البلاد والعباد، ﴿من بعد ما قنطوا﴾ وانقطع عنهم مدة ظنوا أنه لا يأتيهم، وأيسروا وعملوا لذلك الجذب أعمالاً، فينزل الله الغيث ﴿وينشئ﴾ به ﴿رحمة﴾ من إخراج الأقوات للآدميين وبناتهم، فيقع عندهم موقعا عظيما، ويستبشرون بذلك ويفرحون. ﴿وهو الولي﴾ الذي يتولى عباده بأنواع التدبير، ويتولى القيام بمصالح دينهم ودنياهم. ﴿الحميد﴾ في ولايته وتدييره، الحميد على ما له من الكمال، وما أوصله إلى خلقه من أنواع الإفضال.

﴿٢٩﴾ ﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير﴾ أي: ومن أدلة قدرته العظيمة، وأنه سيحيي الموتى بعد موتهم، ﴿خلق﴾ هذه ﴿السماوات والأرض﴾ على عظمهما وسعتهما، الدال على قدرته وسعة سلطانه، وما فيهما من الإتمام والإحكام دال على حكمته وما فيهما من المنافع والمصالح دال على رحمته، وذلك يدل على أنه المستحق لأنواع العبادة كلها، وأن إلهية ما سواه باطلة.

﴿وما بث فيهما﴾ أي: نشر في السماوات والأرض من أصناف الدواب التي جعلها الله مصالح ومانع لعباده. ﴿وهو على جمعهم﴾ أي: جمع الخلق بعد موتهم لموقف القيامة ﴿إذا يشاء قدير﴾ فقدرة ومشيته صالحان لذلك، ويتوقف وقوعه على وجود الخبير الصادق، وقد علم أنه قد تواترت أخبار المرسلين وكتبهم بوقوعه.

﴿٣٠ - ٣١﴾ ﴿وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ وما أنتم بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴿يغير تعالى، أنه ما أصاب العباد من مصيبة في أبدانهم وأموالهم وأولادهم وفيما يجيرون ويكون عزيزا عليهم، إلا بسبب ما قدمته أيديهم من السيئات، وأن ما يعفو الله عنه أكثر، فإن الله لا يظلم العباد، ولكن أنفسهم يظلمون ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهورها من دابة﴾. وليس إهمالا منه تعالى تأخير العقوبات ولا عجزاً.

﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض﴾ أي: معجزين قدرة الله عليكم، بل أنتم عاجزون في الأرض، ليس عندكم امتناع عما ينفذه الله فيكم. ﴿وما لكم من دون الله من ولي﴾ يتولاكم، فيحصل لكم المنافع ﴿ولا نصير﴾ يدفع عنكم المضار.

﴿٣٢ - ٣٥﴾ ﴿ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام﴾ إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴿أو يوقهن بما كسبوا ويعف عن كثير﴾ ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص ﴿أي: ومن أدلة رحمته وعنايته بعباده ﴿الجوار في البحر﴾ من السفن، والمراكب النارية والشرعية، التي من عظمها ﴿كالأعلام﴾ وهي الجبال الكبار، التي سخر لها البحر العجاج، وحفظها من التظام الأمواج، وجعلها تحملكم وتحمل أمتعتكم الكثيرة، إلى البلدان والأقطار البعيدة، وسخر لها من الأسباب ما كان معونة

على ذلك.

ثم تنه على هذه الأسباب بقوله: ﴿إن يشأ يسكن الريح﴾ التي جعلها الله سبباً لشيئها، ﴿فيظللن﴾ أي: الجوار ﴿رواكد﴾ على ظهر البحر، لا تتقدم ولا تتأخر، ولا ينتقض هذا بالمراكب النارية، فإن من شرط مشيها وجود الريح.

وإن شاء الله تعالى أوبق الجوار بما كسب أهلها، أي: أغرقها في البحر وأتلفها، ولكنه يحلم ويعفو عن كثير. ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ أي: كثير الصبر على ما تكرهه نفسه ويشق عليها، فيكرهها عليه، من مشقة طاعة، أو ردع داع إلى معصية، أو ردع نفسه عند المصائب عن التسخط، ﴿شكور﴾ في الرخاء وعند النعم، يعترف بنعمة ربه ويخضع له، ويصرفها في مرضاته، فهذا الذي ينتفع بآيات الله.

وأما الذي لا صبر عنده، ولا شكر له على نعم الله، فإنه مفرض أو معاند لا ينتفع بالآيات.

ثم قال تعالى: ﴿ويعلم الذين يجادلون في آياتنا﴾ ليطلوها بباطلهم. ﴿ما لهم من محيص﴾ أي: لا ينقذهم مقدما حل بهم من العقوبة.

﴿٣٦ - ٣٩﴾ ﴿فما أوتيتهم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ والذي يجتنبون كباثر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴿والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم وما رزقناهم ينفقون﴾ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ﴿هذا تزيهد في الدنيا وترغيب في الآخرة، وذكر الأعمال الموصلة إليها فقال: ﴿فما أوتيتهم من شيء﴾ من ملك ورياسة، وأموال وبنين، وصحة وعافية بدنية. ﴿فمتاع الحياة الدنيا﴾ لذة منقصة منقطة. ﴿وما عند الله﴾ من الثواب الجزيل، والأجر الجليل، والنعيم المقيم ﴿خير﴾ من لذات الدنيا، خيرية لا نسبة بينهما ﴿وأبقى﴾

لأنه نعيم لا منقص فيه ولا كدر، ولا انتقال.

ثم ذكر لمن هذا الشواب فقال: **«للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون»** أي: جمعوا بين الإيمان الصحيح، المستلزم لأعمال الإيمان الظاهرة والباطنة، وبين التوكل، الذي هو الآلة لكل عمل، فكل عمل لا يصحبه التوكل فغير تام، وهو الاعتماد بالقلب على الله في جلب ما يحبه العبد، ودفع ما يكرهه مع الثقة به تعالى.

**«والذين يمتحنون كباائر الإثم والفواحش»** والفرق بين الكباائر والفواحش - مع أن جميعهما كباير - أن الفواحش هي الذنوب الكبار التي في النفوس داع إليها، كالزنا ونحوه، والكباائر ما ليس كذلك، هذا عند الاقتران، وأما مع أفراد كل منهما عن الآخر فإن الآخر يدخل فيه.

**«وإذا ما غضبوا هم يغفرون»** أي: قد تخلقوا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، فصار الحلم لهم سجية، وحسن الخلق لهم طبيعة حتى إذا أغضبهم أحد بمقاله أو فعاله، كظموا ذلك الغضب فلم ينفذوه، بل غفروه، ولم يقابلوا المسيء إلا بالإحسان والعفو والصفح.

فترتب على هذا العفو والصفح، من المصالح ودفع المفسد في أنفسهم وغيرهم شيء كثير، كما قال تعالى: **«ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم»** وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم.

**«والذين استجابوا لربهم»** أي: اتقادوا لطاعته، ولتبرًا دعوته، وصار قصدهم رضوانه، وغايتهم الفوز بقربه.

ومن الاستجابة لله، إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فلذلك عطفهما على ذلك، من باب عطف العام على الخاص، الدال على شرفه وفضله فقال: **«وأقاموا الصلاة»** أي: ظاهرها وباطنها، فرضها ونفلها. **«ومما رزقناهم ينفقون»** من النفقات

الواجبة، كالزكاة والنفقة على الأقارب ونحوهم، والمستحبة، كالصدقات على عموم الخلق.

**«وأمرهم»** الديني والدنيوي **«شورى بينهم»** أي: لا يستبد أحد منهم برأيه في أمر من الأمور المشتركة بينهم، وهذا لا يكون إلا فرعاً عن اجتماعهم وتوافقهم وتواددهم وتحاببهم وكمال عقولهم، أهم إذا أرادوا أمراً من الأمور التي تحتاج إلى إعمال الفكر والرأي: فيها، اجتمعوا لها وتشاوروا ويحثوا فيها، حتى إذا تبينت لهم المصلحة، انتهزوها وبادروها، وذلك كالرأي: في العزو والجهاد، وتولية الموظفين لإمارة أو قضاء، أو غيره، وكالبحث في المسائل الدينية عموماً، فإنها من الأمور المشتركة، والبحث فيها لبيان الصواب مما يحبه الله، وهو داخل في هذه الآية.

**«والذين إذا أصابهم البغي»** أي: وصل إليهم من أعدائهم **«هم يتصرون»** لقوتهم وعزتهم، ولم يكونوا أذلاء عاجزين عن الانتصار.

فوصفهم بالإيمان، والتوكل على الله، واجتناب الكباير والفواحش الذي تكفر به الصغائر، والانتقياد التام، والاستجابة لربهم، وإقامة الصلاة، والإنفاق في وجوه الإحسان، والمشاورة في أمورهم، والقوة والانتصار على أعدائهم، فهذه خصال الكمال قد جمعوها، ويلزم من قيامها فيهم، فعل ما هو دونها، وانتفاء ضدها.

**«٤٠ - ٤٣»** **«وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يوجب الظالمين»** \* ولن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل \* إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم \* ولن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور \* ذكر الله في هذه الآية، مراتب العقوبات، وأنها على ثلاث مراتب: عدل وفضل وظلم.

فمرتبة العدل، جزاء السيئة بسيئة مثلها، لا زيادة ولا نقص، فالنفس



بالنفس، وكل جارية بالجارحة المائلة لها، والمال يضمن بمثله.

ومرتبة الفضل: العفو والإصلاح عن المسيء، ولهذا قال: **«فمن عفا وأصلح فأجره على الله»** يجوز أجره عظيماً، وثواباً كثيراً، وشرط الله في العفو الإصلاح فيه، ليدل ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يليق العفو عنه، وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته، فإنه في هذه الحال لا يكون مأموراً به.

وفي جعل أجر العافي على الله ما يهيج على العفو، وأن يعامل العبد الخلق بما يجب أن يعامله الله به، فكما يجب أن يعفو الله عنه، فليتغف عنهم، وكما يجب أن يساعده الله، فليساعدهم، فإن الجزاء من جنس العمل.

وأما مرتبة الظلم فقد ذكرها بقوله: **«إنه لا يوجب الظالمين»** الذين يجنون على غيرهم ابتداءً، أو يقابلون الجاني بأكثر من جنايته، فالزيادة ظلم.

**«ولمن انتصر بعد ظلمه»** أي: انتصر ممن ظلمه بعد وقوع الظلم عليه **«فأولئك ما عليهم من سبيل»** أي: لا حرج عليهم في ذلك.

ودل قوله: **«والذين إذا أصابهم البغي»** وقوله: **«ولمن انتصر بعد ظلمه»** أنه لا بد من إصابة البغي والظلم ووقوعه.

وأما إرادة البغي على الغير، وإرادة



عذاب الله لم يدفع عنهم. ﴿وَمَنْ يَضِللِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ يحصل به هدايته، فهؤلاء ضلوا حيث زعموا في شركائهم النفع ودفع الضر، فتبين حينئذ ضلالهم.

﴿٤٧ - ٤٨﴾ ﴿استجيبوا الربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير﴾ فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيفاً إن عليك إلا البلاغ وإنما إذا أذنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور﴾ يأمر تعالى عباده بالاستجابة له، بامتنال ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، وبالمبادرة بذلك وعدم التسويف، من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي إذا جاء لا يمكن رده واستدراك الغائت، وليس للعبد في ذلك اليوم ملجأ يلجأ إليه، فيفوت ربه، ويهرب منه.

بل قد أحاطت الملائكة بالخلق من خلفهم، ونهوا ﴿بما معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾ وليس للعبد في ذلك اليوم نكير لما افتقره وأجرمه، بل لو أنك لتشهدت عليه جوارحه.

وهذه الآية ونحوها، فيها ذم الأمل، والأمر بانتهاز الفرصة في كل عمل يعرض للعبد، فإن للتأخير آفات.

﴿فإن أعرضوا﴾ عما جنتهم به بعد البيان التام ﴿فما أرسلناك عليهم حفيفاً﴾ تحفظ أعمالهم وتسال عنها، ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾ فإذا أدبت ما عليك، فقد وجب أجرك على الله، سواء استجابوا أم أعرضوا، وحسابهم على الله الذي يحفظ عليهم صغير أعمالهم وكبيرها، وظاهرها وباطنها.

ثم ذكر تعالى حالة الإنسان، وأنه إذا أذاه الله رحمة، من صحة بدن، ورزق رغد، وجاه ونحوه ﴿فرح بها﴾ أي: فرح فرحاً مقصوراً عليها، لا يتعداها، ويلزم من ذلك طمأنينته بها، وإعراضه عن المنجم.

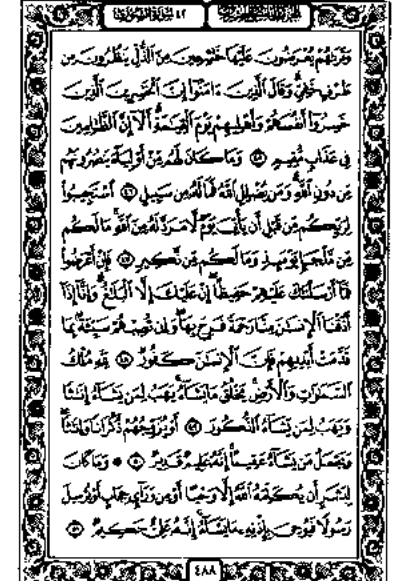
﴿٤٤ - ٤٦﴾ ﴿ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل﴾ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة إلا إن الظالمين في عذاب مقسيم \* وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ومن يضلل الله فما له من سبيل﴾ يخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية والإضلال، وأنه ﴿من يضلل الله﴾ بسبب ظلمه ﴿فما له من ولي من بعده﴾ يتولى أمره ويهديه.

﴿وترى الظالمين لما رأوا العذاب﴾ مرأى ومنظراً فظيماً، صعباً شنيعاً، يظهرون الندم العظيم، والحزن على ما سلف منهم، و﴿يقولون هل إلى مرد من سبيل﴾ أي: هل لنا طريق أو حيلة إلى رجوعنا إلى الدنيا، لنعمل غير الذي كنا نعمل، وهذا طلب للأمر المحال الذي لا يمكن.

﴿وتراهم يعرضون عليها﴾ أي: على النار ﴿خاشعين من الذل﴾ أي: ترى أجسامهم خاشعة للذل الذي في قلوبهم، ﴿ينظرون من طرف خفي﴾ أي: ينظرون إلى النار مسارقة وشزراً، من هبتها وخوفها.

﴿وقال الذين آمنوا﴾ حين ظهرت عواقب الخلق، وتبين أهل الصدق من غيرهم: ﴿إن الخاسرين﴾ على الحقيقة ﴿الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾ حيث فوتوا أنفسهم جزيل الثواب، وحصلوا على أليم العقاب وفرق بينهم وبين أهليهم، فلم يجتمعوا بهم، آخر ما عليهم. ﴿الإن الظالمين﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿في عذاب مقسيم﴾ أي: في سوائه ووسطه، منخمرين لا يخرجون منه أبداً، ولا يفر عنهم وهم فيه مبلسون.

﴿وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله﴾ كما كانوا في الدنيا يمتنون بذلك أنفسهم، ففي القيامة يتبين لهم ولغيرهم أن أسبابهم التي أمروها تقطعت، وأنه حين جاءهم



ظلمه من غير أن يقع منه شيء، فهذا لا يجازى بمثله، وإنما يؤدب تأديباً يردعه عن قول أو فعل صدر منه.

﴿إنما السبيل﴾ أي: إنما تتوجه الحجة بالعقوبة الشرعية ﴿على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق﴾ وهذا شامل للظلم والبغي على الناس، في دنائهم وأموالهم وأعراضهم. ﴿أولئك لهم عذاب أليم﴾ أي: موجه للقلوب والأبدان، بحسب ظلمهم وبغيتهم.

﴿ولن نصبر﴾ على ما يناله من أذى الخلق ﴿وغفر﴾ لهم، بأن سمح لهم عما يصدر منهم، ﴿إن ذلك لمن هزم الأمور﴾ أي: لمن الأمور التي حث الله عليها وأكدها، وأخير أنه لا يلقاها إلا أهل الصبر والحظوظ العظيمة، ومن الأمور التي لا يوفق لها إلا أولو العزائم والههم، وذوو الألباب والبصائر.

فإن ترك الانتصار للنفس بالقول أو الفعل، من أشق شيء عليها، والصبر على الأذى، والصفح عنه، ومغفرته، ومقابلته بالإحسان، أشق وأشق، ولكنه يسير على من يسره الله عليه، وجاهد نفسه على الاتصاف به، واستئمان الله على ذلك، ثم إذا ذاق العبد حلاوته، ووجد آثاره، تلقاه برحب الصدر، وسعة الخلق، والتلذذ فيه.

فقير، وإن شراً فشر. تم تفسير سورة الشورى، والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، على تيسيره وتسهيله.

### تفسير سورة الزخرف مكية

﴿١٥ - ٥﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حَتْمٌ \* وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ \* إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ \* وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدِينًا لِعَلِيٍّ حَكِيمٍ \* أَفَنْضِرُ بَعْدَ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ هذا قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين وأطلق، ولم يذكر المتعلق، ليدل على أنه مبين لكل ما يحتاج إليه العباد من أمور الدنيا والدين والأخرة.

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ هذا المقسم عليه، أنه يجعل بأفصح اللغات وأوضحها وأبينها، وهذا من بيانه. وذكر الحكمة في ذلك فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ألفاظه ومعانيه لتيسرها وقربها من الأذهان.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: هذا الكتاب ﴿لَدِينًا﴾ في الملأ الأعلى في أعلى الرتب وأفضلها ﴿لِعَلِيٍّ حَكِيمٍ﴾ أي: لعلني في قدره وشرفه وعمله، حكيم فيما يشتمل عليه من الأوامر والنواهي والأخبار، فليس فيه حكم مخالف للحكمة والعدل والميزان.

ثم أخبر تعالى أن حكمته وفضله يقتضي أن لا يترك عباده مهملًا، لا يرسل إليهم رسولاً، ولا ينزل عليهم كتاباً، ولو كانوا مسرفين ظالمين فقال:

﴿أَفَنْضِرُ بَعْدَ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ أي: أفنمعرض عنكم، ونترك إنزال الذكر إليكم، ونضرب عنكم صفحاً، لأجل إعراضكم، وعدم انقيادكم له؟ بل تنزل عليكم الكتاب، ونوضح لكم فيه كل شيء، فإن آمنتم به واهتديتم، فهو من توفيقكم، وإلا قامت عليكم الحجة، وكنتم على بينة من أمركم.

﴿٦٥ - ٨﴾ ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيِّينَ فِي الْأَوَّلِينَ \* وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا

إرسال ملك، ولا مخاطبة منه شفاهاً. ﴿أَوْ﴾ يكلمه منه شفاهاً، لكن ﴿مِن وَّرَاءِ حِجَابٍ﴾ كما حصل لموسى بن عمران، كليم الرحمن.

﴿أَوْ﴾ يكلمه الله بواسطة الرسول الملكي، ف﴿يُرْسِلُ رَسُولًا﴾ كجبريل أو غيره من الملائكة.

﴿فَيُوحِي بِأُذُنِهِ﴾ أي: بإذن ربه، لا بمجرد هواه، ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى على الذات، على الأوصاف، عظيمها، على الأفعال، قد قهر كل شيء، ودانت له المخلوقات. حكيم في وضعه كل شيء في موضعه، من المخلوقات والشرائع.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ حين أوحينا إلى الرسل قبلك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّن أَمْرِنَا﴾ وهو هذا القرآن الكريم، سماه روحاً، لأن الروح يجيا به الجسد، والقرآن تجيا به القلوب والأرواح، وتجيا به مصالح الدنيا والدين، لما فيه من الخير الكثير والعلم الغزير.

وهو محض مثة الله على رسوله وعباده المؤمنين، من غير سبب منهم، ولهذا قال: ﴿مَا كُنْتُ تَقْدِيرِي﴾ أي:

قبل نزوله عليك ﴿مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أي: ليس عندك علم بأخبار الكتب السابقة، ولا لإيمان وعمل بالشرائع الإلهية، بل كنت أمياً لا تحط ولا تقرأ، فجاءك هذا الكتاب الذي ﴿جَعَلْنَاهُ نُورًا نُّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّن عِبَادِنَا﴾ يستضيئون به في ظلمات الكفر والبدع، والأهواء المردية، ويعرفون به الحقائق، ويهتدون به إلى الصراط المستقيم.

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: تبيته لهم وتوضحه، وتيسره وترغبهم فيه، وتنهاهم عن ضده، وترهبهم منه، ثم فسر الصراط المستقيم فقال:

﴿صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الصراط الذي نصبه الله لعباده، وأخبرهم أنه موصل إليه وإلى دار كرامته، ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ أي: ترجع جميع أمور الخير والشر، فيجازى كلاً بحسب عمله، إن خيراً

﴿وإن تصيبهم سئنة﴾ أي: مرض أو فقر، أو نحوها ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ لِأَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ أي: طبيعته كفران النعمة السابقة، والتسخط لما أصابه من السئنة.

﴿٤٩ - ٥٠﴾ ﴿لِلَّهِ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثَانًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَوْرَ \* أَوْ يَزْوَجُهُمْ ذَكَرًا وَإِنثَانًا لِّمَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ هذه الآية فيها الإخبار عن سعة ملكه تعالى، ونفوذ تصرفه في الملك في الخلق ما يشاء، والتدبير لجميع الأمور، حتى إن تدبيره تعالى، من عمومه، أنه يتناول المخلوقة عن الأسباب التي يباشرها العباد، فإن النكاح من الأسباب لولادة الأولاد، فالله تعالى هو الذي يعطيهم من الأولاد ما يشاء.

فمن الخلق من يهب له إنثاء، ومنهم من يهب له ذكورا، ومنهم من يزوجه، أي: يجمع له ذكورا وإنثاء، ومنهم من يجعله عقيماً لا يولد له.

﴿وَإِنَّهُ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ على كل شيء، فيصرف بعلمه وإتقانه الأشياء، ويقدرته في مخلوقاته.

﴿٥١ - ٥٢﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَّرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِي بِأُذُنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ \* وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّن أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نُّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّن عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَشَهِيدٌ لِّإِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ \*

صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور﴾ لما قال الكاذبون لرسول الله، الكافرون بالله: ﴿لَوْلَا يَكْلِمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ من كبرهم وتجبرهم، رد الله عليهم بهذه الآية الكريمة، وأن تكليمه تعالى لا يكون إلا لخواص خلقه، للأنبياء والمرسلين، وصفوته من العالمين، وأنه يكون على أحد هذه الأوجه.

إما ﴿أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ وَحْيًا﴾ بأن يلقي الوحي في قلب الرسول، من غير

كانوا به يستهزؤون \* فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومضى مثل الأولين \* يقول تعالى: إن هذه سنننا في الخلق، أن لا نتركهم هملًا، فكم \* أرسلنا من نبي في الأولين \* يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ولم يزل التكذيب موجوداً في الأمم.

وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزؤون \* جحدًا لما جاء به، وتكبراً على الحق.

فأهلكنا أشد \* من هؤلاء \* بطشاً \* أي: قوة وأنملاً وأتاراً في الأرض، \* ومضى مثل الأولين \* أي: مضت أمثالهم وأخبارهم، وبيننا لكم منها ما فيه عبرة ومزدجر عن التكذيب والإنكار.

٩ - ١٤ \* ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم \* الذي جعل لكم الأرض مهدياً وجعل لكم فيها سبلًا لعلكم تهتدون \* والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون \* والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون \* لتستوتوا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استوتبتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين \* وإنا إلى ربنا لنقلبون \* يخبر تعالى عن المشركين، أنك لو سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن \* الله وحده لا شريك له، العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات، العليم بظواهر الأمور وبواطنها، وأوائلها وأواخرها، فإذا كانوا مقرنين بذلك، فكيف يجعلون له الولد والصاحبة والشريك؟! وكيف يشركون به من لا يخلق ولا يرزق، ولا يميت ولا يحيي!؟

ثم ذكر أيضاً من الأدلة الدالة على كمال نعمته واقتداره، بما خلقه لعباده من الأرض التي مهدها وجعلها قراراً للعباد، يتمكنون فيها من كل ما يريدون.

وجعل لكم فيها سبلًا \* أي:

جعل منافذ بين سلاسل الجبال المتصلة، تنفذون منها إلى ما وراءها من الأقطار. \* لعلكم تهتدون \* في السير في الطرق ولا تضيعون، ولعلكم تهتدون أيضاً في الاعتبار بذلك والادكار فيه.

والذي نزل من السماء ماء بقدر \* لا يزيد ولا ينقص، ويكون أيضاً بمقدار الحاجة، لا ينقص بحيث لا يكون فيه نفع، ولا يزيد بحيث يضر العباد والبلاد، بل أغاث به العباد، وأنقذ به البلاد من الشدة، ولهذا قال: \* فأنشرنا به بلدة ميتاً \* أي: أحييناها بعد موتها، \* كذلك تخرجون \* أي: فكما أحيا الأرض الميتة الهامدة بالماء، كذلك يجيئكم بعدما تستكملون في البرزخ، ليجازيكم بأعمالكم.

والذي خلق الأزواج كلها \* أي: الأصناف جميعها، مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون، من ليل ونهار، وحر وبرد، وذكر وأنثى، وغير ذلك. \* وجعل لكم من الفلك \* أي: تركيبون \* و \* من الأنعام ما تركيبون \* لتستوتوا على ظهوره \* وهذا شامل لظهور الفلك وظهور الأنعام، أي: لتستقروا عليها، \* ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استوتبتم عليه \* بالاعتراف بالنعمة لمن سخرها، والشأن عليه تعالى بذلك، ولهذا قال: \* وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين \* أي: لولا تسخيره لنا ما سخر من الفلك، والأنعام، ما كنا مطيقين لذلك وقادرين عليه، ولكن من لطفه وكرمه تعالى، سخرها وذلَّلها ويسر أسبابها.

والمقصود من هذا، بيان أن الرب الموصوف بما ذكره، من إفاضة النعم على العباد، هو الذي يستحق أن يعبد، ويصلى له ويسجد.

١٥ - ٢٥ \* وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين \* أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم

بالبين \* وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم \* أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين \* وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم سكتب شهدتهم ويسألون \* وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا بخرصون \* أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستسكرون \* بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون \* وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون \* قال أولو جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون \* فانقمنا منهم فانظر كيف كان عقاب المكذبين \* يخبر تعالى عن شناعة قول المشركين، الذين جعلوا لله تعالى ولداً، وهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له كفواً أحد، وإن ذلك باطل من عدة أوجه:

منها: أن الخلق كلهم عباده، والعبودية تنافي الولادة.

ومنها: أن الولد جزء من والده، والله تعالى بائن من خلقه، مبين لهم في صفاته وتعبوت جلاله، والولد جزء من الوالد، فمحال أن يكون لله تعالى ولد.

ومنها: أنهم يزعمون أن الملائكة بنات الله، ومن المعلوم أن البنات أدون الصنفين، فكيف يكون لله البنات، ويصطنفهم بالبين، ويفضلهم بها؟! فإذا يكونون أفضل من الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ومنها: أن الصنف الذي نسبوه لله، وهو البنات، أدون الصنفين، وأكرههما لهم، حتى إنهم من كراهتهم لذلك \* إذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً \* من كراهته وشدة بغضه، فكيف يجعلون لله ما يكرهون؟

ومنها: أن الأنثى ناقصة في

وصفها، وفي منطقتها وبيانها، ولهذا قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ يَنْشَأُ فِي الْحَلِيَّةِ﴾ أي: يجعل فيها، لنقص جماله، فيجمل بأمر خارج عنه؟ ﴿وهو في الخصام﴾ أي: عند الخصام الموجب لإظهار ما عند الشخص من الكلام، ﴿غير مبین﴾ أي: غير مبين لحجته، ولا مفسح عما احتوى عليه ضميره، فكيف ينسبون لله تعالى؟

ومنها: أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الله إنثاءً، فتجرؤوا على الملائكة، العباد المقربين، ورفوهم عن مرتبة العبادة والذل، إلى مرتبة الشراكة لله، في شيء من خواصه، ثم نزلوا بهم عن مرتبة الذكورية إلى مرتبة الأنوثة، فسبحان من أظهر تناقض من كذب عليه وعاند رسله.

ومنها: أن الله رد عليهم بأنهم لم يشهدوا خلق الله لملائكته، فكيف يتكلمون بأمر من المعلوم عند كل أحد، أنه ليس لهم به علم؟ ولكن لا بد أن يسألوا عن هذه الشهادة، وستكتب عليهم، ويعاقبون عليها. وقوله تعالى: ﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾ فاحتجوا على عبادتهم الملائكة بالمشيئة، وهي حجة لم يزل المشركون يطرقونها، وهي حجة باطلة في نفسها، عقلاً وشرعاً. فكل عاقل لا يقبل الاحتجاج بالقدر، ولو سلكه في حالة من أحواله لم يثبت عليها قدمه.

وأما شرعاً، فإن الله تعالى أبطل الاحتجاج به، ولم يذكره عن غير المشركين به المكذبين لرسله، فإن الله تعالى قد أقام الحجة على العباد، فلم يبق لأحد عليه حجة أصلاً، ولهذا قال هنا: ﴿ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون﴾ أي: يتخرصون تخرصاً لا دليل عليه، ويتخبطون خبط عشواء.

ثم قال: ﴿أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون﴾ يخبرهم بصحة أفعالهم، وصدق أقوالهم؟ ليس الأمر كذلك، فإن الله أرسل محمداً نذيراً إليهم، وهم لم يأتهم نذير غيره، أي:

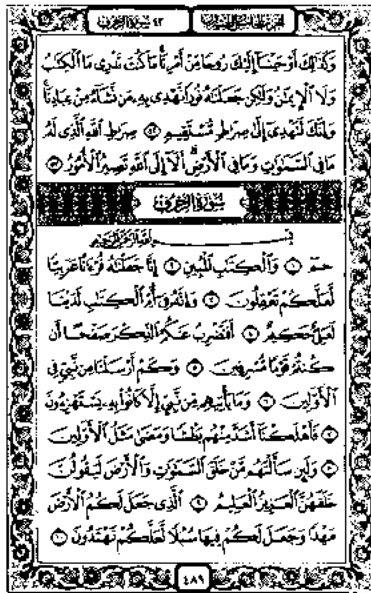
فلا عقل ولا نقل، وإذا اتفى الأمران، فلا ثم إلا الباطل. نعم، لهم شبهة من أوهى الشبهة، وهي تقليد آباؤهم الضالين، الذين ما زال الكفرة يردون بتقليدهم دعوة الرسل، ولهذا قال هنا: ﴿يل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾ أي: على دين وملة ﴿وإنا على آثارهم مهتدون﴾ أي: فلا نتبع ما جاء به محمد ﷺ.

﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها﴾ أي: متعموها، وملؤها الذين أطفنهم الدنيا، وغرهم الأموال، واستكبروا على الحق. ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾ أي: فهؤلاء ليسوا ببدء منهم، وليسوا بأول من قال هذه المقالة.

وهذا الاحتجاج من هؤلاء المشركين الضالين، بتقليدهم لآبائهم الضالين، ليس المقصود به اتباع الحق والهدى، وإنما هو تعصب محض، يراد به نصرة ما معهم من الباطل.

ولهذا كل رسول يقول لمن عارضه بهذه الشبهة الباطلة: ﴿أولو جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم﴾ أي: فهل تتبعوني لأجل الهدى؟ ﴿قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ فعلم بهذا، أنهم ما أرادوا اتباع الحق والهدى، وإنما قصدهم اتباع الباطل والهوى. ﴿فانتقمنا منهم﴾ بتكذيبهم الحق، وردهم إياه بهذه الشبهة الباطلة. ﴿فانظر كيف كان عاقبة المكذبين﴾ فليحذر هؤلاء أن يستمروا على تكذيبهم، فيصيهم ما أصابهم.

﴿٢٦ - ٣٢﴾ ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون﴾ إلا الذي فطرني فإنه سيهدين \* وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون \* بل تمتع هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين \* ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون \* وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم \* أ هم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفقنا ببعضهم فوق



بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾ يخبر تعالى عن ملة إبراهيم الخليل عليه السلام، الذي ينتسب إليه أهل الكتاب والمشركون، وكلهم يزعم أنه على طريقته، فأخبر عن دينه الذي ورثه في ذريته فقال: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه الذين اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونهم ويتقربون إليهم:

﴿إنني براء مما تعبدون﴾ أي: مبعوض له، محنتب معاد لأهله، ﴿إلا الذي فطرني﴾ فإني أتولاه، وأرجو أن يهديني للعلم بالحق والعمل به، فكما فطرني وديرتي بما يصلح بدني ودينابي، فسيهدين﴾ لما يصلح ديني وأخوتي.

﴿وجعلها﴾ أي: هذه الخصلة الحميدة، التي هي أم الخصال وأساسها، وهي إخلاص العبادة لله وحده، والتبني من عبادة ما سواه.

﴿كلمة باقية في عقبه﴾ أي: ذريته ﴿لعلهم﴾ إليها يرجعون لشهرتها عنه، وتوصيته لذريته، وتوصية بعض بنيه - كإسحاق ويعقوب - لبعض، كما قال تعالى: ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾ إلى آخر الآيات.

فلم تزل هذه الكلمة موجودة في ذريته عليه السلام حتى دخلهم الترف والطفانيان.

السفهاء والمجانين؟

فكيف يجعل مثل هذا عظيماً؟ أم كيف يفضل على خاتم الرسل وسيد ولد آدم ﷺ؟ ولكن الذين كفروا لا يعقلون.

وفي هذه الآية تنبيه على حكمة الله تعالى في تفضيل الله بعض العباد على بعض في الدنيا ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا﴾ أي: ليسخر بعضهم بعضاً، في الأعمال والحرف والصنائع.

فلو تساوى الناس في الغنى، ولم يحتاج بعضهم إلى بعض، لتعمطلت كثير من مصالحهم ومنافعهم.

وفيها دليل على أن نعمته الدينية خيرٌ من النعمة الدنيوية كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

﴿٣٣- ٣٥﴾ ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوبِتَهُمْ سَفَافًا مِّنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ وليبوتهم أيواباً وسرراً عليها يتكثون \* وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين \* يخبر تعالى بأن الدنيا لا تسوى عنده شيئاً، وأنه لولا لطفه ورحمته بعباده، التي لا يقدم عليها شيئاً، لوسّع الدنيا على الذين كفروا توسيعاً عظيماً، ولجعل ﴿ليبوتهم سَفَافًا مِّنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ أي: درجاً من فضة ﴿عليها يظهرون﴾ على سطوحهم.

﴿وليبوتهم أيواباً وسرراً عليها يتكثون﴾ من فضة، ولجعل لهم ﴿زخرفاً﴾ أي: لزخرف لهم دنياهم بأنواع الزخارف، وأعطاهم ما يشتهون، ولكن منعه من ذلك رحمته بعباده خوفاً عليهم من التسارع في الكفر وكثرة المعاصي بسبب حب الدنيا، ففي هذا دليل على أنه يمنع العباد بعض أمور الدنيا متعاً عاماً أو خاصاً لمصالحهم، وأن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة، وأن كل هذه المذكورات متاع الحياة الدنيا، منغصة، مكدرة، فانية، وأن الآخرة عند الله تعالى خير للمتقين لربهم بامتثال أوامره

لرحمة الله، ويدهم تديريها، فيعطون النبوة والرسالة من يشاؤون، ويمتنعوا ممن يشاؤون؟

﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾ أي: في الحياة الدنيا، ﴿و﴾ الحال أن رحمة ربك خير مما يجمعون من الدنيا.

فإذا كانت معاش العباد وأرزاقهم الدنيوية بيد الله تعالى، هو الذي يقسمها بين عباده، فييسط الرزق على من يشاء، ويضيقه على من يشاء، بحسب حكمته، فرحمته الدينية، التي أعلاها النبوة والرسالة، أولى وأحرى أن تكون بيد الله تعالى، فالله أعلم حيث يجعل رسالته.

فعلم أن اقتراحهم ساقط لاغ، وأن التدبير للأمور كلها، دينها ودينيها، بيد الله وحده. هذا إقناع لهم، من جهة غلظهم في الاقتراح، الذي ليس في أيديهم منه شيء، إن هو إلا ظلم منهم ورد للحق.

وقولهم: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ لو عرفوا حقائق الرجال، والصفات التي بها يعرف علو قدر الرجل، وعظم منزلته عند الله وعند خلقه، لعلموا أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ، هو أعظم الرجال قدراً، وأعلاهم فخراً، وأكملهم عقلاً، وأغزهم علماً، وأجلهم رأياً وعزماً وحزماً، وأكملهم خلقاً، وأوسعهم رحمة، وأشدهم شفقة، وأهداهم وأتقاهم.

وهو قطب دائرة الكمال، وإليه المنتهى في أوصاف الرجال، ألا وهو رجل العالم على الإطلاق، يعرف ذلك أولياؤه وأعداؤه، فكيف يفضل عليه المشركون من لم يشم مثقال ذرة من كماله؟!، ومن جرمه ومنتهى حقه، أن جعل إلهه الذي يعبده ويدعوه ويتقرب إليه، صنماً، أو شجراً، أو حجراً، لا يضر ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع، وهو كل على مولاه، يحتاج لمن يقوم بمصالحه، فهل هذا إلا من فعل



فقال تعالى: ﴿بل متعت هؤلاء وآبأهم﴾ بأنواع الشهوات، حتى صارت هي غايتهم ونهاية مقصودهم، فلم نزل يتربى حبها في قلوبهم، حتى صارت صفات راسخة، وعقائد متأصلة. ﴿حتى جاءهم الحق﴾ الذي لا شك فيه ولا مرية ولا اشتباه. ﴿ورسول مبين﴾ أي: بين الرسالة، قامت أدلة رسالته قياماً باهراً، بأخلاقه ومعجزاته، وبما جاء به، وبما صدق به المرسلين، وبنفس دعوته ﷺ.

﴿ولما جاءهم الحق﴾ الذي يوجب على من له أدنى دين ومعقول أن يقبله وينقاد له. ﴿قالوا هذا سحر وإنا به كافرون﴾ وهذا من أعظم المعاندة والمشاققة، فإنهم لم يكتفوا بمجرد الإعراض عنه، بل ولا جحده، فلم يرضوا حتى قدحوا به قدحاً شنيعاً، وجعلوه بمنزلة السحر الباطل، الذي لا يأتي به إلا أخيب الخلق وأعظمهم افتراء، والذي حملهم على ذلك، طغيانهم بما متعهم الله به وآبأهم.

﴿وقالوا﴾ مقترحين على الله بعقولهم الفاسدة: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ أي: معظم عندهم، مبتجل من أهل مكة، أو أهل الطائف، كالوليد بن المغيرة ونحوه، ممن هو عندهم عظيم.

قال الله رداً لاقتراحهم: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾ أي: أهم الحزان





عليه، ويذكركم الشر ويرهبكم عنه،  
«وسوف تسألون» عنه، هل قمتم به  
فارتفعتم وانفعتم، أم لم تقوموا به  
فيكون حجة عليكم، وكفراً منكم بهذه  
النعمة؟

«واسأل من أرسلنا من قبلك من  
رسلنا أجمعنا من دون الرحمن آلهة  
يعبدون» حتى يكون للمشركين نوع  
حجة، يتبعون فيها أحداً من الرسل،  
فإنك لو سألتهم واستخبرتهم عن  
أحوالهم، لم تجد أحداً منهم يدعو إلى  
اتخاذ إله آخر مع الله مع أن كل  
الرسل، من أولهم إلى آخرهم، يدعون  
إلى عبادة الله، وحده لا شريك له.  
قال تعالى: «ولقد بعثنا في كل أمة  
رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا  
الطاغوت» وكل رسول بعثه الله،  
يقول لقومه: اعبدوا الله ما لكم من إله  
غيره، فدل هذا، أن المشركين ليس لهم  
مستند في شركهم، لا من عقل  
صحيح، ولا نقل عن الرسل.

﴿٤٦ - ٥٦﴾ «ولقد أرسلنا موسى  
بآياتنا إلى فرعون وملئه» إلى آخر  
القصة<sup>(١)</sup> إلى آخر القصة. لما قال تعالى:  
«واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا  
أجمعنا من دون الرحمن آلهة يعبدون»  
بين تعالى حال موسى ودعوته، التي  
هي أشهر ما يكون من دعوات الرسل،

ولأن الله تعالى أكثر من ذكرها في  
كتابه، فذكر حاله مع فرعون، فقال:  
«ولقد أرسلنا موسى بآياتنا» التي دلت  
دلالة قاطعة على صحة ما جاء به،  
كالعصا، والحية، وإرسال الجراد،  
والقمل، إلى آخر الآيات.

«إلى فرعون وملئه» فقال إني رسول  
رب العالمين، فدعاهم إلى الإقرار  
بربهم، ونهاهم عن عبادة ما سواه،  
«فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها  
يضحكون» أي: ردوها وأنكروها،  
واستهزؤوا بها، ظلماً وعلواً، فلم يكن  
لقصور بالآيات، وعدم وضوح فيها،  
ولهذا قال: «وما نزيه من آية إلا هي  
أكبر من أختها» أي: الآية المتأخرة  
أعظم من السابقة، «وأخذناهم  
بالعذاب» كالجراد، والقمل.  
والضفادع، والدم، آيات مفصلات.  
«لعلهم يرجعون» إلى الإسلام،  
ويذعنون له، ليزول شركهم وشرهم.

«وقالوا» عندما نزل عليهم  
العذاب: «يا أيها الساحر» يعنون  
موسى عليه السلام، وهذا، إما من  
باب التهكم به، وإما أن يكون هذا  
الخطاب عندهم مدحاً، فتضرعوا إليه  
بأن خاطبوه بما يخاطبون به من يزعمون  
أنهم علماءهم، وهم السحرة، فقالوا:  
«يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد  
عندك» أي: بما خصك الله به،  
وفضلك به، من الفضائل والمناقب، أن  
يكشف عنا العذاب «إننا لمهنتون» إن  
كشف الله عنا ذلك، «فلما كشفنا  
عنهم العذاب إذا هم ينكتون» أي: لم  
يفوا بما قالوا، بل غدروا، واستمروا  
على كفرهم. وهذا كفره تعالى:  
«فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد  
والقمل والضفادع والدم آيات  
مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً  
مجرمين» ولما وقع عليهم الرجز قالوا  
يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك  
لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك  
ولنرسلن معك بني إسرائيل» فلما  
كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه

إذا هم ينكتون».

«وينادي فرعون في قومه قال»  
مستعجباً بإباطله، قد غره ملكه، وأطناه  
ماله وجنوده: «يا قوم اليس لي مُلكٌ  
بعضر» أي: أليس المالك لذلك،  
المتصرف فيه، «وهذه الأنهار تجري من  
تحتي» أي: الأنهار المنسحبة من النيل،  
في وسط القصور والبساتين. «أفلا  
تبصرون» هذا الملك الطويل العريض،  
وهذا من جهله البليغ، حيث افتخر  
بأسر خارج عن ذاته، ولم يفخر  
بأوصاف حميدة، ولا أفعال سديدة.

«أم أنا خير من هذا الذي هو  
مهين» يعني - قبحه الله - بالمهين،  
موسى بن عمران، كليم الرحمن، وهو  
الوجه عند الله، أي: أنا العزيز، وهو  
الذليل المهان المحقر، فأينا خير؟ «و»  
مع هذا فلا «يكاد يبين» عما في  
ضميره بالكلام، لأنه ليس يفصيح  
اللسان، وهذا ليس من العيوب في  
شيء، إذا كان يبين ما في قلبه، ولو  
كان تقيلاً عليه الكلام.

ثم قال فرعون: «فلولا ألقي عليه  
أسورة من ذهب» أي: فهلا كان  
موسى بهذه الحالة، أن يكون مزيناً  
مجملاً بالحلي والأساور؟ «أو جاء معه  
اللائكة مقترنين» يعاونونه على  
دعوته، ويؤيدونه على قوله.

«فاستخف قومه فاطاعوه» أي:  
استخف عقولهم بما أبدى لهم من هذه  
الشبه، التي لا تسمن ولا تغني من  
جوع، ولا حقيقة تحتها، وليست دليلاً  
على حق ولا على باطل، ولا تروج إلا  
على ضعفاء العقول.

فأني: دليل يدل على أن فرعون  
حق، لكون مُلك مصر له، وأنهاره  
تجري من تحته؟

وأي: دليل يدل على بطلان ما جاء  
به موسى، لقلعة أنبأه، وثقل لسانه،  
وعدم تحلية الله له، ولكنه لقي ملاً  
لا معقول عندهم، فنهما قال اتبعوه،  
من حق وباطل. «إنهم كانوا قوماً  
فاسقين» فبسبب فسقهم، قبض لهم







فهم أول الناس تركاً له وإنكاراً له ويُعداً منه، فلو كان على هذا للرحمن ولد وهو الحق، لكان محمد بن عبد الله، أفضل الرسل أول من عبده، ولم يسبقه إليه المشركون.

ويحتمل أن معنى الآية: لو كان للرحمن ولد، فأننا أول العابدين لله، ومن عبادتي لله، إثبات ما أثبتته، ونفي ما نفاه، فهذا من العبادة الصولية الاعتقادية، ويلزم من هذا، لو كان حقاً، لكانت أول مثبت له، فعلم بذلك بطلان دعوى المشركين وفسادها، عقلاً ونقلاً. «سبحان رب السماوات والأرض رب العرش عما يصفون» من الشريك والظهير، والعوين والولد، وغير ذلك، مما نسبته إليه المشركون. «فذرهم يخوضوا ويلعبوا» أي: يخوضوا بالباطل، ويلعبوا بالمحال، فعلموهم ضارة غير نافعة، وهي الخوض والبحث بالعلوم التي يمارضون بها الحق وما جاءت به الرسل، وأعمالهم لعب وسفاهة، لا تزي الفؤوس، ولا تثمر المعارف.

ولهذا تورعدهم بما أمامهم من يوم القيامة فقال: «حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون» فسيعلمون فيه ماذا حصلوا، وما حصلوا عليه من الشقاء الدائم، والعذاب المستمر.

«٨٤-٨٩» وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله وهو الحكيم العليم \* وتبارك الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون \* ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون \* ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون \* وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون \* فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون \* يخبر تعالى، أنه وحده المألوه المعبود في السماوات والأرض فأهل السماوات كلهم، والمؤمنون من أهل الأرض، يعبدونه، ويعظمونه، ويحضرهم

سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون يقول تعالى: أم أبرم المكذبون بالحق الماندون له «أمرأ» أي: كادوا كيداً، ومكروا للحق ولئن جاء بالحق، ليدحضوه، بما موهوا من الباطل الزخرف الزوق، «فإننا مبرمون» أي: محكمون أمرأ، ومدبرون تدبيراً يعلو تدبيرهم، وينقضه ويبطئه، وهو ما قَبِضَهُ اللهُ مِنَ الْأَسْبَابِ وَالْأَدْلَةَ لِإِحْقَاقِ الْحَقِّ وَإِبْطَالِ الْبَاطِلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ».

«أم يحسبون» بجهلهم وظلمهم «أنا لا نسمع سرهم» الذي لم يتكلموا به، بل هو سر في قلوبهم «ونجواهم» أي: كلامهم الخفي الذي يتناجون به، أي: فلذلك أقدموا على المعاصي، وظنوا أنها لا تبعة لها ولا مجازاة على ما خفي منها.

فرد الله عليهم بقوله: «بلى» أي: إننا نعلم سرهم ونجواهم، «ورسلنا» الملائكة الكرام، «لديهم يكتبون» كل ما عملوه، وسيحفظ ذلك عليهم، حتى يردوا القيامة، فيجدوا ما عملوا حاضراً، ولا يظلم ربك أحداً.

«٨١-٨٣» «قل إن كان للرحمن ولد فأننا أول العابدين» سبحان رب السماوات والأرض رب العرش عما يصفون \* فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون \* أي: قل يا أيها الرسول الكريم، للذين جعلوا لله ولداً، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له كفواً أحد.

«قل إن كان للرحمن ولد فأننا أول العابدين» لذلك الولد، لأنه جزء من والده، وأنا أولى الخلق انقياداً للأمر المحبوبة لله، ولكنني أول المنكرين لذلك، وأشدهم له نفياً، فعلم بذلك بطلانه، فهذا احتجاج عظيم عند من عرف أحوال الرسل، وأنه إذا علم أنهم أكمل الخلق، وأن كل خير فهم أول الناس سبقاً إليه وتكميلاً له، وكل شر

والشمار اللذيذة تأكلون» (١) ولما ذكر نعيم الجنة، عقبه بذكر عذاب جهنم، فقال:

«٧٤-٧٨» «إن الجحيم في عذاب جهنم خالدون \* لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون \* وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين \* ونادوا يا مالك ليقتض علينا ربك قال إنكم ماكثون \* لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون».

«إن الجحيم» الذين أجرموا بكفرهم وتكذيبهم «في عذاب جهنم» أي: متفرون فيه، محيط بهم العذاب من كل جانب، «خالدون» فيه، لا يخرجون منه أبداً، و «لا يفتر عنهم» العذاب ساعة، بإذنته، ولا بتهورين عذابه، «وهم فيه مبلسون» أي: آيسون من كل خير، غير راجين للفرج، وذلك أنهم ينادون ربهم فيقولون: «ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون» قال اخسؤوا فيها ولا تكلمون وهذا العذاب العظيم، بما قدمت أيديهم، وبما ظلموا به أنفسهم، والله لم يظلمهم ولم يعاقبهم بلا ذنب ولا جرم.

«ونادوا» وهم في النار، لعلهم يحصل لهم استراحة، «يا مالك ليقتض علينا ربك» أي: ليمنتنا فنستريح، فإنا في عذاب شديد، وعذاب غليظ، لا صبر لنا عليه ولا جلد. ف «قال» لهم مالك خازن النار - حين طلبوا منه أن يدعو الله لهم أن يقضي عليهم - «إنكم ماكثون» أي: مقيمون فيها، لا تخرجون عنها أبداً، فلم يحصل لهم ما قصدوه، بل أجابهم بنقيض قصدهم، وزادهم غماً إلى غمهم، ثم وبخهم بما فعلوا، فقال: «لقد جئناكم بالحق» الذي يوجب عليكم أن تتبعوه فلو تبعتموه، لفترتم وسعدتم، «ولكن أكثركم للحق كارهون» فلذلك شققتهم شقاوة لا سعادة بعدها. «٧٩-٨٠» «أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون» أم يحسبون أننا لا نسمع

(١) ما بين الحاصرتين جاء في نسخة (أ) مقدماً على تفسير الآية السابقة (وتلك الجنة التي أوردتموها بما كنتم تعملون).

لجلاله، ويفتقرون لكماله.

﴿تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ ﴿والله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً﴾.

فهو تعالى المألوه المعبود، الذي يألهه الخلائق كلهم، طائعتين مختارين، وكارهين. وهذه كقوله تعالى: ﴿وهو الله في السماوات وفي الأرض﴾ أي: ألوهيته ومحبتة فيهما. وأما هو فهو فوق عرشه، بائن من خلقه، متوحد بجلاله، متمجد بكماله، ﴿وهو الحكيم﴾ الذي أحكم ما خلقه، وأتقن ما شرعه، فما خلق شيئاً إلا للحكمة، ولا شرع شيئاً إلا لحكمة، وحكمه القلدي والشرعي والجزائي مشتمل على الحكمة. ﴿العليم﴾ بكل شيء، يعلم السر وأخفى، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في العالم العلوي والسفلي، ولا أصغر منها ولا أكبر.

﴿وتبارك الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما﴾ تبارك بمعنى تعالى وتعاظم، وكثر خيره، واتسعت صفاته، وعظم ملكه. ولهذا ذكر سعة ملكه للسماوات والأرض وما بينهما، وسعة علمه، وأنه بكل شيء عليم، حتى إنه تعالى، انفراد يعلم كثير من الغيوب، التي لم يطلع عليها أحد من الخلق، لا نبي مرسل، ولا ملك مقرب، ولهذا قال: ﴿وعنده علم الساعة﴾ قدم الظرف، ليفيد الحصر، أي: لا يعلم متى تجيء الساعة إلا هو، ومن تمام ملكه وسعته، أنه مالك الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿وإليه ترجعون﴾ أي: في الآخرة فيحكم بينكم بحكمه العدل، ومن تمام ملكه، أنه لا يملك أحد من خلقه من الأمر شيئاً، ولا يقدم على الشفاعة عنده أحد إلا بإذنه.

﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة﴾ أي: كل من دعي من دون الله، من الأنبياء والملائكة

وغيرهم، لا يملكون الشفاعة، ولا يشفعون إلا بإذن الله، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، ولهذا قال: ﴿إلا من شهد بالحق﴾ أي: نطق بلسانه، مقراً بقلبه، عالماً بما شهد به، ويشترط أن تكون شهادته بالحق، وهو الشهادة لله تعالى بالوحدانية، ولرسله بالنبوة والرسالة، وصحة ما جاؤوا به، من أصول الدين وفروعه، وحقائقه وشرائعه، فهؤلاء الذين تنفع فيهم شفاعة الشافعين، وهؤلاء الناجون من عذاب الله، الحائزون لثوابه. ثم قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾ أي: ولئن سألت المشركين عن توحيد الربوبية، ومن هو الخالق، لأقروا أنه الله وحده لا شريك له.

﴿فأنى يؤفكون﴾ أي: فكيف يصرفون عن عبادة الله والإخلاص له وحده؟! فأقرواهم بتوحيد الربوبية، يلزمهم به الإقرار بتوحيد الألوهية، وهو من أكبر الأدلة على بطلان الشرك.

﴿وتسليه يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون﴾ هذا معطوف على قوله: ﴿وعنده علم الساعة﴾ أي: وعنده علم قبله، أي: الرسول ﷺ، شاكياً لربه تكذيب قومه، متحزناً على ذلك، متحسراً على عدم إيمانهم، فالله تعالى عالم بهذه الحال، قادر على معاجلتهم بالعقوبة، ولكنه تعالى حلیم، يمهل العباد ويستأنس بهم، لعلمهم يتوبون ويرجعون، ولهذا قال:

﴿فاصفح عنهم وقل سلام﴾ أي: اصفح عنهم ما يأتيك من أذيتهم القولية والفعلية، واعف عنهم، ولا يبدر منك لهم إلا السلام الذي يُقابل به أولو الألباب والبصائر الجاهلين، كما قال تعالى عن عباده الصالحين: ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون﴾ أي: خطاباً بمقتضى جهلهم ﴿قالوا سلاماً﴾ فامتثل ﷺ لأمر ربه، وتلقى ما يصدر إليه من قومه وغيرهم من الأذى، بالعفر والصفح، ولم يقابلهم عليه إلا بالإحسان إليهم والخطاب

الجميل.

فصلوات الله وسلامه على من خصه الله بالخلق العظيم، الذي قُضِلَ به أهل الأرض والسماء، وارتفع به أعلى من كواكب الجوزاء.

وقوله: ﴿فسوف يعلمون﴾ أي: عُبْ ذنوبهم، وعاقبة جرمهم.

تم تفسير سورة الزخرف

### تفسير سورة الدخان مكية

﴿١٦-١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم \* والكتاب المبين \* إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين \* فيها يفرق كل أمر حكيم \* أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين \* رحمة من ربك إنه هو السميع العليم \* رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين \* لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين \* بل هم في شك يلعبون \* فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين \* يغشى الناس هذا عذاب اليم \* ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون \* أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين \* ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون \* إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون \* يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون﴾ هذا قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين لكل ما يحتاج إلى بيانه، أنه أنزله ﴿في ليلة مباركة﴾ أي: كثيرة الخير والبركة، وهي ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر، فأنزل أفضل الكلام بأفضل الليالي والأيام، على أفضل الأنام، بلغة العرب الكرام، لينذر به قوما عمتهم الجهالة، وغلبت عليهم الشقاوة، فيستضيؤوا بتوراه، ويقتبسوا من هداه، ويسيروا وراءه، فيحصل لهم الخير الدنيوي، والخير الآخروي، ولهذا قال: ﴿إنا كنا منذرين \* فيها﴾ أي: في تلك الليلة الفاضلة التي نزل فيها القرآن ﴿يفرق كل أمر حكيم﴾ أي: يفصل ويميز، ويكتسب كل أمر قلدي وشرعي حكم الله به، وهذه الكتابة والفرقان،

الذي يكون في ليلة القدر، أحد<sup>(١)</sup> الكتابات التي تكتب وتغيز، فتطابق الكتاب الأول، الذي كتب الله به مقادير الخلاق وأجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وأحوالهم، ثم إن الله تعالى قد وكل ملائكة تكتب ما سيجري على العبد وهو في بطن أمه، ثم وكلهم بعد وجوده إلى الدنيا، وكل به كراماً كاتين، يكتبون ويحفظون عليه أعماله، ثم إنه تعالى يقدر في ليلة القدر ما يكون في السنة، وكل هذا من تمام علمه، وكمال حكمته، وإتقان حفظه، واعتناؤه تعالى بخلقه ﴿أمرأ من عندنا﴾

والآخرين، مريبهم بالنعم، الدافع عنهم النقم.

فلما قرر تعالى روبيته وألوهيته، بما يوجب العلم التام ويدفع الشك، أخطر أن الكافرين مع هذا البيان ﴿في شك يلمبون﴾ أي: منغمرون في الشكوك والشبهات، غافلون عما خلقوا له، قد اشتغلوا باللعب الباطل، الذي لا يجدي عليهم إلا الضرر، ﴿فارتقب﴾ أي: انتظر فيهم العذاب، فإنه قد قرب وأن أوانه، ﴿يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ يغشى الناس﴾ أي: يعمهم ذلك الدخان، ويقال لهم: ﴿هذا عذاب أليم﴾

أي: هذا الأمر الحكيم، أمر صادر من عندنا، ﴿إنا كنا مرسلين﴾ للرسول، ومنزليين للكتب، والرسول يبلغ أوامر المرسل، وتحبیر بأقداره، ﴿رحمة من ربك﴾ أي: إن إرسال المرسل وإنزال الكتب، التي أفضلها القرآن، رحمة من رب العباد بالعباد، فما رحم الله عباده برحمة أجل من هدايتهم بالكتب والرسول، وكل خير ينالونه في الدنيا والآخرة، فإنه من أجل ذلك وسببه، ﴿إنه هو السميع العليم﴾ أي: يسمع جميع الأصوات، ويعلم جميع الأمور الظاهرة والباطنة، وقد علم تعالى ضرورة العباد إلى رسله وكتبه، فرحمهم بذلك، ومنّ عليهم، فله تعالى الحمد والمنة والإحسان.

واختلف المفسرون في المراد بهذا الدخان، فقيل: إنه الدخان الذي يغشى الناس ويعمهم حين تقرب النار من المجرمين في يوم القيامة، وأن الله توعدهم بعذاب يوم القيامة، وأمر نبيه أن ينتظر بهم ذلك اليوم.

ويؤيد هذا المعنى، أن هذه الطريقة هي طريقة القرآن في توعدهم بالكفر والتأني بهم، وترهيبهم بذلك اليوم وعذابه، وتسلية الرسول والمؤمنين بالانتظار بمن آذاهم، ويؤيده أيضاً، أنه قال في هذه الآية: ﴿أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين﴾ وهذا يقال يوم القيامة للكفار، حين يطلبون الرجوع إلى الدنيا، فيقال: قد ذهب وقت الرجوع.

﴿رب السماوات والأرض وما بينهما﴾ أي: خالق ذلك ومدبره، والمتصرف فيه بما يشاء.

وقيل: إن المراد بذلك، ما أصاب كفار قريش حين امتنعوا من الإيمان، واستكبروا على الحق، فدعا عليهم النبي ﷺ، فقال: ﴿اللهم أعني عليهم بسنتين كسني يوسف﴾، فأرسل الله عليهم الجوع العظيم، حتى أكلوا الميتات والمعظام، وصاروا يرون الذي بين السماء والأرض كهيئة الدخان، وليس به، وذلك من شدة الجوع.

﴿إن كنتم موقنين﴾ أي: عالمين بذلك علماً مفيداً لليقين، فاعلموا أن الرب للمخلوقات هو إلهها الحق، ولهذا قال: ﴿لا إله إلا هو﴾ أي: لا معبود إلا وجهه، ﴿بمجي ويميت﴾ أي: هو المتصرف وحده بالإحياء والإماتة، وسيجمعكم بعد موتكم فيجزئكم بعملكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ﴿ربكم ورب آبائكم الاولين﴾ أي: رب الاولين

فيكون - على هذا - قوله: ﴿يوم تأتي السماء بدخان﴾ أن ذلك بالنسبة

(١) في النسخين (أحد) ولعل الصواب (أحدى).



إلى أبحارهم وما يشاهدون، وليس بدخان حقيقة.

ولم يزالوا بهذه الحالة حتى استرحوا رسول الله ﷺ، وسألوه أن يدعو الله لهم، أن يكشفه الله عنهم، فدعا به، فكشفه الله عنهم، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون﴾ إخبار بأن الله سيصرفه عنكم وتوعد لهم أن يعودوا إلى الاستكبار والتكذيب، وإخبار بوقوعه فوقه، وأن الله سيعاقبهم بالبطشة الكبرى، قالوا: وهي وقعة بدر، وفي هذا القول نظر ظاهر.

وقيل: إن المراد بذلك، أن ذلك من أشرار الساعة، وأنه يكون في آخر الزمان دخان يأخذ بأنفاس الناس، ويصيب المؤمنين منهم كهيئة الدخان، والقول هو الأول، وفي الآية احتمال أن المراد بقوله: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ يغشى الناس هذا عذاب أليم \* ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون \* أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين \* ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون \* أن هذا كله يكون يوم القيامة، وأن قوله تعالى: ﴿إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون﴾ يوم نبطش البطشة الكبرى

فرعون داخلين فيه، أمره الله تعالى أن يلتطم عليهم، فغرقوا عن آخرهم، وتركوا ما متعوا به من الحياة الدنيا، وأورثه الله بني إسرائيل، الذين كانوا مستعبدين لهم، ولهذا قال: ﴿كم تركوا من جنات وعيون \* وزروع ومقام كريم \* ونعمة كانوا فيها فاكهين \* كذلك وأورثناها﴾ أي: هذه النعمة المذكورة ﴿وقوماً آخرين﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾.

﴿فما يكت عليهم السماء والأرض﴾ أي: لما أتلفهم الله وأهلكهم، لم تيك عليهم السماء والأرض، أي: لم تحزن عليهم، ولم يؤمن على فراقهم، بل كل استبشر بهلاكهم وتلفهم، حتى السماء والأرض، لأنهم ما خلفوا من آثارهم إلا ما يسود وجوههم، ويوجب عليهم اللعنة والمقت من العالمين.

﴿وما كانوا منظرين﴾ أي: مهملين عن العقوبة، بل اصطلمتهم في الحال. ثم امتنَّ تعالى على بني إسرائيل، فقال: ﴿ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين﴾ الذي كانوا فيه ﴿من فرعون﴾ إذ يذبح أبناءهم، ويستحبي نسائهم.

﴿إنه كان عالياً﴾ أي: مستكبراً في الأرض بغير الحق، ﴿من السرفين﴾ المتجاوزين لحدود الله، المنجرتين على محارمه.

﴿ولقد اخترناهم﴾ أي: اصطفيناهم واتقيناهم ﴿على علم﴾ منا بهم، وباستحقاقهم لذلك الفضل ﴿على العالمين﴾ أي: عالمي زمانهم ومن قبلهم وبعدهم حتى أتى الله بأمة محمد ﷺ، ففضلوا العالمين كلهم، وجعلهم الله خير أمة أخرجت للناس، وامتدَّ عليهم بما لم يمتدَّ به على غيرهم.

﴿وأوتيناهم﴾ أي: بني إسرائيل ﴿من الآيات﴾ الباهرة، والمعجزات الظاهرة، ﴿ما فيه بلاء مبين﴾ أي:

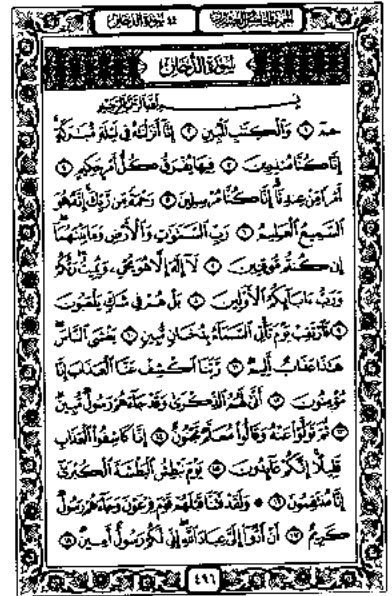
واستعبدوهم بغير حق، فأرسلوهم ليعبدوا ربهم، ﴿إني لكم رسول أمين﴾ أي: رسول من رب العالمين، أمين على ما أرسلني به، لا أكتممكم منه شيئاً، ولا أزيد فيه ولا أنقص، وهذا يوجب تمام الانقياد له.

﴿وإن لا تعملوا عمل الله﴾ بالاستكبار عن عبادته، والعلو على عباد الله، ﴿إني أتاكم بسلطان مبين﴾ أي: بحجة بينة ظاهرة، وهو ما أتى به من المعجزات الباهرات، والأدلة القاهرات، فكذبوه وهما بقتله، فلجأ بالله من شرهم، فقال: ﴿وإن عذت بربي وربكم أن ترجحون﴾ أي: تقتلونني أشر القتلات، بالرجح بالحجارة.

﴿وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون﴾ أي: لكم ثلاث مراتب: الإيمان بي، وهو مقصودي منكم، فإن لم تحصل منكم هذه المرتبة، فاعتزلوني، لا علي ولا لي، فاكفوني شركم، فلم تحصل منهم المرتبة الأولى ولا الثانية، بل لم يزالوا متمردين عاتين على الله، محاربين لنبيه موسى عليه السلام، غير متمكين له من قومه بني إسرائيل، ففدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون﴾ أي: قد أجزموا جرماً، بوجوب تعجيل العقوبة.

فأخبر عليه السلام بحالهم، وهذا دعاء بالحال، التي هي أبلغ من المقال، كما قال عن نفسه عليه السلام ﴿رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير﴾ فأمره الله أن يسري بعباده ليلاً، وأخبره أن فرعون وقومه سيتبعونه، ﴿وواترك البحر رهوا﴾ أي: بحاله وذلك أنه لما سرى موسى ببني إسرائيل كما أمره الله، ثم تبعهم فرعون، فأمر الله موسى أن يضرب البحر، فضربه، فصار اثني عشر طريقاً، وصار الماء من بين تلك الطرق كالجبال العظيمة، فسلكه موسى وقومه.

فلما خرجوا منه، أمره الله أن يتركه رهوا، أي: بحاله، ليسلكه فرعون وجنوده ﴿إنهم جند مغرقون﴾ فلما تكامل قوم موسى خارجين منه، وقوم



إننا منتقمون﴾ أن هذا ما وقع لقريش كما تقدم.

وإذا نزلت هذه الآيات على هذين المعنيين، لم تجد في اللفظ ما يمنع من ذلك.

بل تجدها مطابقة لهما أمم المطابقة، وهذا الذي يظهر عندي ويترجح، والله أعلم.

﴿١٧ - ٢٣﴾ ﴿ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون﴾ إلى آخر القصة<sup>(١)</sup> لما ذكر تعالى تكذيب من كذب الرسول محمداً ﷺ، ذكر أن لهم سلفاً من المكذبين، فذكر قصتهم مع موسى، وما أحل الله بهم، ليرتدع هؤلاء المكذبون عن ما هم عليه، فقال: ﴿ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون﴾ أي: ابتليناهم واختبرناهم بإرسال رسولنا موسى بن عمران إليهم، الرسول الكريم، الذي فيه من الكرم ومكارم الأخلاق ما ليس في غيره، ﴿أن أدوا إلي عباد الله﴾ أي: قال لفرعون وملته: أدوا إلي عباد الله، يعني بهم: بني إسرائيل، أي: أرسلوهم، وأطلقوهم من عذابكم وسومكم إياهم سوء العذاب، فإنهم عشيري، وأفضل العالمين في زمانهم.

وأنتم قد ظلمتموهم،

(١) في نسخة (ب) ذكر الآيات كاملة.



واضحات، على صدق هذا القرآن العظيم، وصحة ما اشتمل عليه من الحكم والأحكام، ودالات أيضاً على ما لله تعالى من الكمال، وعلى البعث والنشور.

ثم قسم تعالى الناس، بالنسبة إلى الانتفاع بآياته وعدمه، إلى قسمين:

قسم يستدلون بها، ويتفكرون بها، ويتفهمون فيرتفعون، وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، إيماناً تاماً، وصل بهم إلى درجة اليقين، فزكى منهم العقول، وازدادت به معارفهم وألبابهم وعلومهم.

وقسم يسمع آيات الله سمعاً تقوم به الحجة عليهم، ثم يعرض عنها ويستكبر، كأنه ما سمعها، لأنها لم تترك قلبه، ولا طهرته، بل بسبب استكباره عنها ازداد طغيانه.

وأنه إذا علم من آيات الله شيئاً اتخذها هزواً، فتوعده الله تعالى بالويل فقال:

﴿ويل لكل أفكك أثيم﴾ أي: كذاب في مقاله، أثيم في فعالة.

وأخبر أن له عذاباً أليماً، وأن من ورائهم جهنم تكفي في عقوبتهم البليغة.

وأنه ﴿لا يبغي عنهم ما كسبوا﴾ من الأموال ﴿ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء﴾ يستنصرون بهم فخذلوهم، أحوج ما كانوا إليهم لو نفعوا.

فلما بين آياته القرآنية والعبادية، وأن الناس فيها على قسمين، أخبر أن القرآن المشتمل على هذه المطالب العالية، أنه هدى، فقال: ﴿هذا هدى﴾ وهذا وصف عام لجميع القرآن، فإنه يهدي إلى معرفة الله تعالى، بصفاته المقدسة، وأفعاله الحميدة، ويهدي إلى معرفة رسله، وأوليائه، وأعدائه، وأوصافهم، ويهدي إلى الأعمال الصالحة ويدعو إليها، ويبين الأعمال السيئة وينهى عنها، ويهدي إلى بيان الجزاء على الأعمال، ويبين الجزاء الدنيوي والأخروي، فالتهدون اهتدوا به، فأفلحوا وسعدوا، ﴿والذين كفروا

﴿لعلهم يتذكرون﴾ ما فيه نفعهم يفعلونه، وما فيه ضررهم فيتركونه.

﴿فارتقب﴾ أي: انتظر ما وعدك ربك من الخير والنصر، ﴿إنهم مرتقبون﴾ ما يجلبهم من العذاب، وفرق بين الارتقابين: رسول الله وأتباعه يرتقبون الخير في الدنيا والآخرة، وضدهم يرتقبون الشر في الدنيا والآخرة.

تم تفسير سورة الدخان،  
ولله الحمد والمنة

### تفسير سورة الجاثية مكية

﴿١١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم﴾ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم \* إن في السماوات والأرض آيات للمؤمنين \* وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون \* واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحياه به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون \* تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق نبأ: حديث بعد الله وآياته يؤمنون \* ويل لكل أفكك أثيم \* يسمع آيات الله تتل عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم \* وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين \* من ورائهم جهنم ولا يبغي عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم \* هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم \* يخبر تعالى خيراً يتضمن الأمر بتعظيم القرآن والاعتناء به، أنه ﴿تنزيل﴾ ﴿من الله﴾ المألوه المعبود، لما اتصف به من صفات الكمال، وانفرد به من النعم، الذي له العزة الكاملة والحكمة التامة، ثم أيد ذلك بما ذكره من الآيات الأفقية والفضية، من خلق السماوات والأرض، وما بث فيهما من الدواب، وما أودع فيهما من المنافع، وما أنزل الله من الماء، الذي يحيي به الله البلاد والعباد.

فهذه كلها آيات بينات، وأدلة



بجار الطرف في حسنهن، وينهر العقل بجمالهن، وينخلب القلب لجمالهن، ﴿عين﴾ أي: ضمام العين حسابها.

﴿يدعون فيها﴾ أي: الجنة ﴿بكل فاكهة﴾ مما له اسم في الدنيا، ومما لا يوجد له اسم، ولا نظير في الدنيا، فمهما طلبوه من أنواع الفاكهة وأجناسها، أحضر لهم في الخال، من غير تعب ولا كلفة، ﴿أمين﴾ من انقطاع ذلك، وأمين من مضرتهم، وأمين من كل مكدر، وأمين من الخروج منها والموت، ولهذا قال: ﴿لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾ أي: ليس فيها موت بالكلية، ولو كان فيها موت يستثنى، لم يستثن الموتة الأولى، التي هي الموتة في الدنيا، فنتم لهم كل محبوب مطلوب، ﴿ووقاهم عذاب الجحيم﴾ فضلاً من ربك ﴿أي: حصول النعيم وانفداع العذاب عنهم، من فضل الله عليهم وكرمه، فإنه تعالى هو الذي وفقهم للأعمال الصالحة، التي بها نالوا خير الآخرة، وأعطاهم أيضاً ما لم تبلغه أعمالهم، ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾ وأي: فوز أعظم من نيل رضوان الله وجنته، والسلامة من عذابه وسخطه؟

﴿فإنما يسرناه﴾ أي: القرآن ﴿بلسانك﴾ أي: سهلناه بلسانك الذي هو أفصح الألسنة على الإطلاق وأجلها، فيسر به لفظه، وتيسر معناه.

بآيات ربهم ﴿ الواضحة القاطعة، التي لا يكفر بها إلا من اشتد ظلمه، وتضاعف طغيانه، ﴿ لهم عذاب من رجز أليم ﴾

﴿ ١٢ - ١٣ ﴾ ﴿ الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴿ يخبر تعالى بفضله على عباده وإحسانه إليهم، بتسخير البحر لسير المراكب والسفن بأمره وتيسيره، ﴿ لتبتغوا من فضله ﴾ بأنواع التجارات والمكاسب، ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ الله تعالى، فإنكم إذا شكرتموه، زادكم من نعمه وأثابكم على شكركم أجراً جزيلاً.

﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ﴾ أي: من فضله وإحسانه، وهذا شامل لأجرام السموات والأرض، ولما أودع الله فيهما، من الشمس والقمر، والكواكب، والثواب، والسيارات، وأنواع الحيوانات، وأصناف الأشجار والشمرات، وأجناس المعادن، وغير ذلك مما هو معدٌ لمصالح بني آدم، ومصالح ما هو من ضروراته، فهذا يوجب عليهم أن يبذلوا غاية جهدهم في شكر نعمته، وأن تغلغل أفكارهم في تدبر آياته وحكمه، ولهذا قال: ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ وجملة ذلك أن خلقها وتدبيرها وتسخيرها، دالٌ على نفوذ ميثقة الله، وكمال قدرته، وما فيها من الأحكام والإتقان، وبديع الصنعة، وحسن الخلق، دالٌ على كمال حكمته وعلمه، وما فيها من السعة والعظمة والكثرة، دالٌ على سعة ملكه وسلطانه، وما فيها من التخصيصات والأشياء المتضادات، دليل على أنه الفعال لما يريد، وما فيها من المنافع، والمصالح الدينية والدنيوية، دليل على سعة رحمته، وشمول فضله وإحسانه، وبديع لطفه

﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ﴾ أي: من فضله وإحسانه، وهذا شامل لأجرام السموات والأرض، ولما أودع الله فيهما، من الشمس والقمر، والكواكب، والثواب، والسيارات، وأنواع الحيوانات، وأصناف الأشجار والشمرات، وأجناس المعادن، وغير ذلك مما هو معدٌ لمصالح بني آدم، ومصالح ما هو من ضروراته، فهذا يوجب عليهم أن يبذلوا غاية جهدهم في شكر نعمته، وأن تغلغل أفكارهم في تدبر آياته وحكمه، ولهذا قال: ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ وجملة ذلك أن خلقها وتدبيرها وتسخيرها، دالٌ على نفوذ ميثقة الله، وكمال قدرته، وما فيها من الأحكام والإتقان، وبديع الصنعة، وحسن الخلق، دالٌ على كمال حكمته وعلمه، وما فيها من السعة والعظمة والكثرة، دالٌ على سعة ملكه وسلطانه، وما فيها من التخصيصات والأشياء المتضادات، دليل على أنه الفعال لما يريد، وما فيها من المنافع، والمصالح الدينية والدنيوية، دليل على سعة رحمته، وشمول فضله وإحسانه، وبديع لطفه

﴿ ١٦ - ١٧ ﴾ ﴿ ثم قال تعالى: ﴿ ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين ﴾ وآتيناهم

بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ أي: ولقد أنعمنا على بني إسرائيل نعماً لم تحصل لغيرهم من الناس، وآتيناهم ﴿ الكتاب ﴾ أي: التوراة والإنجيل، و ﴿ الحكم ﴾ بين الناس، و ﴿ النبوة ﴾ التي امتازوا بها، وصارت النبوة في ذرية إبراهيم عليه السلام، أكثرهم من بني إسرائيل، ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ من المأكول والمشرب والملابس، وإنزال المن والسلوى عليهم، ﴿ وفضلناهم على العالمين ﴾ أي: على الخلق بهذه النعم، ويخرج من هذا العموم اللفظي، هذه

﴿ ١٤ - ١٥ ﴾ ﴿ قل للذين آمنوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴿ يخبر تعالى بفضله على عباده وإحسانه إليهم، بتسخير البحر لسير المراكب والسفن بأمره وتيسيره، ﴿ لتبتغوا من فضله ﴾ بأنواع التجارات والمكاسب، ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ الله تعالى، فإنكم إذا شكرتموه، زادكم من نعمه وأثابكم على شكركم أجراً جزيلاً.

﴿ ١٦ - ١٧ ﴾ ﴿ ثم قال تعالى: ﴿ ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين ﴾ وآتيناهم

بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ أي: ولقد أنعمنا على بني إسرائيل نعماً لم تحصل لغيرهم من الناس، وآتيناهم ﴿ الكتاب ﴾ أي: التوراة والإنجيل، و ﴿ الحكم ﴾ بين الناس، و ﴿ النبوة ﴾ التي امتازوا بها، وصارت النبوة في ذرية إبراهيم عليه السلام، أكثرهم من بني إسرائيل، ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ من المأكول والمشرب والملابس، وإنزال المن والسلوى عليهم، ﴿ وفضلناهم على العالمين ﴾ أي: على الخلق بهذه النعم، ويخرج من هذا العموم اللفظي، هذه

﴿ ١٦ - ١٧ ﴾ ﴿ ثم قال تعالى: ﴿ ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين ﴾ وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ أي: ولقد أنعمنا على بني إسرائيل نعماً لم تحصل لغيرهم من الناس، وآتيناهم ﴿ الكتاب ﴾ أي: التوراة والإنجيل، و ﴿ الحكم ﴾ بين الناس، و ﴿ النبوة ﴾ التي امتازوا بها، وصارت النبوة في ذرية إبراهيم عليه السلام، أكثرهم من بني إسرائيل، ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ من المأكول والمشرب والملابس، وإنزال المن والسلوى عليهم، ﴿ وفضلناهم على العالمين ﴾ أي: على الخلق بهذه النعم، ويخرج من هذا العموم اللفظي، هذه

﴿ ١٦ - ١٧ ﴾ ﴿ ثم قال تعالى: ﴿ ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين ﴾ وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ أي: ولقد أنعمنا على بني إسرائيل نعماً لم تحصل لغيرهم من الناس، وآتيناهم ﴿ الكتاب ﴾ أي: التوراة والإنجيل، و ﴿ الحكم ﴾ بين الناس، و ﴿ النبوة ﴾ التي امتازوا بها، وصارت النبوة في ذرية إبراهيم عليه السلام، أكثرهم من بني إسرائيل، ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ من المأكول والمشرب والملابس، وإنزال المن والسلوى عليهم، ﴿ وفضلناهم على العالمين ﴾ أي: على الخلق بهذه النعم، ويخرج من هذا العموم اللفظي، هذه

﴿ ١٦ - ١٧ ﴾ ﴿ ثم قال تعالى: ﴿ ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين ﴾ وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ أي: ولقد أنعمنا على بني إسرائيل نعماً لم تحصل لغيرهم من الناس، وآتيناهم ﴿ الكتاب ﴾ أي: التوراة والإنجيل، و ﴿ الحكم ﴾ بين الناس، و ﴿ النبوة ﴾ التي امتازوا بها، وصارت النبوة في ذرية إبراهيم عليه السلام، أكثرهم من بني إسرائيل، ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ من المأكول والمشرب والملابس، وإنزال المن والسلوى عليهم، ﴿ وفضلناهم على العالمين ﴾ أي: على الخلق بهذه النعم، ويخرج من هذا العموم اللفظي، هذه

﴿ ١٦ - ١٧ ﴾ ﴿ ثم قال تعالى: ﴿ ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين ﴾ وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ أي: ولقد أنعمنا على بني إسرائيل نعماً لم تحصل لغيرهم من الناس، وآتيناهم ﴿ الكتاب ﴾ أي: التوراة والإنجيل، و ﴿ الحكم ﴾ بين الناس، و ﴿ النبوة ﴾ التي امتازوا بها، وصارت النبوة في ذرية إبراهيم عليه السلام، أكثرهم من بني إسرائيل، ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ من المأكول والمشرب والملابس، وإنزال المن والسلوى عليهم، ﴿ وفضلناهم على العالمين ﴾ أي: على الخلق بهذه النعم، ويخرج من هذا العموم اللفظي، هذه

﴿ ١٦ - ١٧ ﴾ ﴿ ثم قال تعالى: ﴿ ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين ﴾ وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ أي: ولقد أنعمنا على بني إسرائيل نعماً لم تحصل لغيرهم من الناس، وآتيناهم ﴿ الكتاب ﴾ أي: التوراة والإنجيل، و ﴿ الحكم ﴾ بين الناس، و ﴿ النبوة ﴾ التي امتازوا بها، وصارت النبوة في ذرية إبراهيم عليه السلام، أكثرهم من بني إسرائيل، ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ من المأكول والمشرب والملابس، وإنزال المن والسلوى عليهم، ﴿ وفضلناهم على العالمين ﴾ أي: على الخلق بهذه النعم، ويخرج من هذا العموم اللفظي، هذه

(١) في أ: هذه الجملة غير واضحة وفيها شطب وتصويه من: ب.





﴿٢٣ - ٢٦﴾ ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون﴾ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون \* وإذا تلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا اتوا بآياتنا إن كنتم صادقين \* قل الله يجيبكم ثم يمتيتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ يقول تعالى: ﴿أفرأيت﴾ الرجل الضال الذي ﴿اتخذ إلهه هواه﴾ فما هو به سلكه، سواء كان يرضي الله أو يسخطه. ﴿وأضله الله على علم﴾ من الله تعالى، أنه لا تليق به الهداية، ولا يزكو عليها. ﴿وختم على سمعه﴾ فلا يسمع ما ينفعه، ﴿وقلبه﴾ فلا يعي الخير، ﴿وجعل على بصره غشاوة﴾ تمنعه من نظر الحق، ﴿فمن يهديه من بعد الله﴾ أي: لا أحد يهديه، وقد سد الله عليه أبواب الهداية، وفتح له أبواب الغواية، وما ظلمه الله، ولكن هو ظلم نفسه، وتسبب لمنع رحمة الله عليه ﴿أفلا تذكرون﴾ ما ينفعكم فتسلكونه، وما يضركم فتجتنبونه.

﴿وقالوا﴾ أي: متكرو البيعت ﴿ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾ أي: إن هي إلا عادات، وجزئي على رسوم الليل والنهار، يموت أناس، ويحيا أناس، وما مات فليس يرجع إلى الله، ولا يجازيه بعمله.

وقولهم هذا صادر عن غير علم ﴿إن هم إلا يظنون﴾ فأنكرو المعاد وكذبوا الرسل الصادقين، من غير دليل لهم على ذلك ولا برهان.

إن هي إلا ظنون، واستبعدادات خالية عن الحقيقة، ولهذا قال تعالى: ﴿وإذا تلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا اتوا بآياتنا إن كنتم صادقين﴾ وهذا جراءة منهم على الله،

﴿٢٠﴾ ﴿هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون﴾ أي: ﴿هذا﴾ القرآن الكريم والذكر الحكيم ﴿بصائر للناس﴾ أي: يحصل به التبصرة في جميع الأمور للناس، فيحصل به الانتفاع للمؤمنين، والهدى والرحمة.

﴿لقوم يوقنون﴾ فيهدون به إلى الصراط المستقيم، في أصول الدين وفروعه، ويحصل به الخير والسرور، والسعادة في الدنيا والآخرة، وهي الرحمة، فتزكو به نفوسهم، وتزداد به عقولهم، ويزيد به إيمانهم ويقينهم، وتقوم به الحجة على من أصر وعاند.

﴿٢١﴾ ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون﴾ أي: أم حسب المسيؤون، المكشرون من الذنوب، المقصرون في حقوق ربهم.

﴿أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ بأن قاموا بحقوق ربهم، واجتنبوا مسأخطه، ولم يزالوا مؤثرين رضاه على هوى أنفسهم؟ أي: أحسبوا أن يكونوا ﴿سواء﴾ في الدنيا والآخرة؟ ساء ما ظنوا وحسبوا، وساء ما حكموا به، فإنه حكم يخالف حكمة أحكم الحاكمين، وخير العادلين، ويناقض العقول السليمة، والفطر السقيمة، ويضاد ما نزلت به الكتب، وأخبرت به الرسل، بل الحكم الواقع القطعي، أن المؤمنين العاملين الصالحات، لهم النصر والفلاح والسعادة والشواب، في العاجل والأجل، كل على قدر إحسانه، وأن المسيئين لهم الغضب والإهانة، والعذاب والشقاء، في الدنيا والآخرة.

﴿٢٢﴾ ﴿وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون﴾ أي: خلق الله السموات والأرض بالحكمة، وليعبد وحده لا شريك له، ثم يجازي بعد ذلك من أمرهم بعبادته، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة، هل شكروا الله تعالى، وقاموا بالأمور؟ أم كفروا، فاستحقوا جزاء الكفور؟

الاختلاف، وإنما جعلهم على الاختلاف البغي من بعضهم على بعض، والظلم.

﴿إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ فيميز المحق من المبطل، والذي حمله على الاختلاف، الهوى أو غيره.

﴿١٨ - ١٩﴾ ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾ إنهم لن يفتنوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين﴾ أي: ثم شرعنا لك شريعة كاملة تدعو إلى كل خير، وتنهاى عن كل شر، من أمرنا الشرعي ﴿فاتبعها﴾ فإن في اتباعها السعادة الأبدية، والصلاح والفلاح، ﴿ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾ أي: الذين تكون أهويتهم غير تابعة للعلم، ولا ماشية خلفه، وهم كل من خالف شريعة الرسول ﷺ هواه وإرادته، فإنه من أهواء الذين لا يعلمون.

﴿إنهم لن يفتنوا عنك من الله شيئاً﴾ أي: لا يفتنونك عند الله، فيحصلوا لك الخير، ويدفعوا عنك الشر، إن اتبعتهم على أهوائهم، ولا تصلح أن توافقهم وتواليهم، فإنك وإياهم متباينون، وبعضهم ولي لبعض ﴿والله ولي المتقين﴾ يخرجهم من الظلمات إلى النور، بسبب تقواهم وعملهم بطاعته.

حيث اقترحوا هذا الاقتراح، وزعموا أن صدق رسل الله متوقف على الإتيان بأبائهم، وأنهم لو جاؤوهم بكل آية لم يؤمنوا، إلا إن تبعتمهم الرسل على ما قالوا وهم كذبة فيما قالوا، وإنما قصدهم دفع دعوة الرسل، لا بيان الحق، قال تعالى: ﴿قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجممعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ وإلا فلو وصل العلم باليوم الآخر إلى قلوبهم، لعملوا له أعمالاً وعبؤوا له.

﴿٢٧ - ٢٧﴾ ﴿وَاللَّهُ مَلِيكُ

السموات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ ينسف البيطلون \* وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون \* هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون \* فأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين \* وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي التي عليكم فاستكبرتم وكنتم قومًا مجرمين \* وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين \* وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون \* وقيل اليوم نسناكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا وما أركم النار وما لكم من ناصرين \* ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً وغرتمكم الحياة الدنيا فالويلم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون \* فليل الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين \* وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم \* يغير تعالي عن سعة ملكه، وانفراد بالتصرف والتدبير في جميع الأوقات، وأنه «يوم تقوم الساعة» ويجمع الخلائق لموقف القيامة، يحصل الخسار على الميطلين، الذين أتوا بالباطل ليدحضوا به الحق، وكانت أعمالهم باطلة، لأنها متعلقة بالباطل، فبطلت في يوم القيامة، اليوم الذي تستبين به الحقائق، واضمحلت عنهم، وفاتهم الثواب، وحصلوا على

الأيام المقاب.

ثم وصف تعالي شدة يوم القيامة وهوله ليحذره العباد، ويستعد له العباد، فقال: ﴿وترى﴾ أي الرائي لذلك اليوم ﴿كل أمة جاثية﴾ على ركبها خوفاً وذعراً، وانتظاراً لحكم الملك الرحمن.

﴿كل أمة تدعى إلى كتابها﴾ أي: إلى شريعة نبيهم الذي جاءهم من عند الله، وهل قاموا بها فيحصل لهم الثواب والنجاة؟ أم ضيعوها فيحصل لهم الخسران؟ فأمة موسى، وشريعة موسى، وأمة عيسى كذلك، وأمة محمد كذلك، وهكذا غيرهم، كل أمة تدعى إلى شرعها الذي كلفت به، هذا أحد الاحتمالات في الآية، وهو معنى صحيح في نفسه، غير مشكوك فيه، ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿كل أمة تدعى إلى كتابها﴾ أي: إلى كتاب أعمالها، وما سطر عليها من خير وشر، وأن كل أحد يجازى بما عمله بنفسه، كقوله تعالي: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾.

ويحتمل أن المعنيين كليهما مراد من الآية، ويدل على هذا قوله: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾ أي: هذا كتابنا الذي أنزلنا عليكم، يفصل بينكم بالحق الذي هو العدل، ﴿إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ فهذا كتاب الأعمال، ولهذا فصل ما يفعله الله بالفريضة فقال: ﴿فأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات﴾ إيماناً صحيحاً، وصدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة، من واجبات ومسحبات، ﴿فيدخلهم ربهم في رحمته﴾ التي محلها الجنة، وما فيها من النعيم المقيم، والعيش السليم، ﴿ذلك هو الفوز المبين﴾ أي: المفاض والنجاة والربح، والفلاح الواضح البين، الذي إذا حصل للعبد، حصل له كل خير، واندفع عنه كل شر.

﴿وأما الذين كفروا﴾ بالله، فيقال لهم توبيخاً وتقريعاً: ﴿أفلم تكن آياتي تنزل عليكم﴾ وقد دلتم على ما فيه صلاحكم، ونهتكم عما فيه ضرركم، وهي أكبر نعمة وصلت إليكم، لو

إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين. فهذه حالهم في الدنيا، وحال البحث الإنكار له، ورذ قول من جاء به. قال تعالي: ﴿وبدا لهم سيئات ما عملوا﴾ أي: وظهر لهم يوم القيامة عقوبات أعمالهم، ﴿وحاق بهم﴾ أي: نزل ﴿ما كانوا به يستهزؤون﴾ أي: نزل بهم العذاب، الذي كانوا في الدنيا يستهزؤون به ويوقعه ويمن جاء به. ﴿وقيل اليوم نسناكم﴾ أي: نترككم في العذاب ﴿كما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ فإن الجزاء من جنس العمل، ﴿وما أركم النار﴾ أي: هي مقركم ومصيركم، ﴿وما لكم من ناصرين﴾ ينصرونكم من عذاب الله، ويدفعون عنكم عقابه.

﴿ذلكم﴾ الذي حصل لكم من العذاب ﴿ب﴾ سبب ﴿أنكم اتخذتم آيات الله هزواً﴾ مع أنها موجبة للجد والاجتهاد، وتلقيها بالسرور والاستبشار والفرح.

﴿وغرتمكم الحياة الدنيا﴾ بزخارفها ولذاتها وشهواتها، فاطمأنتم إليها، وعملتكم لها، وتركتكم العمل للدار الباقية.

﴿فالويلم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون﴾ أي: ولا يمهلون، ولا يردون إلى الدنيا ليعملوا صالحاً. ﴿فليل الحمد﴾ كما ينبغي لجلاله وعظيم سلطانه ﴿رب السموات ورب الأرض رب العالمين﴾ أي: له الحمد على ربوبيته لسائر الخلائق، حيث خلقهم ورباهم، وأنعم عليهم بالنعيم الظاهرة والباطنة، ﴿وله الكبرياء في السموات والأرض﴾ أي: له الجلال والعظمة والمجد.

فالحمد فيه الشناء على الله بصفات الكمال، ومحبه تعالي وإكرامه،

سيجدون ثوابها في تلك الدار كاملاً  
موقراً.

أقام تعالى الأدلة الدالة على تلك  
الدار، وأذاق العباد نموذجاً من الثواب  
والعقاب العاجل، ليكون أدعى لهم إلى  
طلب المحسوب، والهرب من  
المهوب، ولهذا قال هنا: ﴿ما خلقنا  
السموات والأرض وما بينهما إلا  
بالحق﴾ أي: لا عبثاً ولا سدى، بل  
ليعرف العباد عظمة خالقهما،  
ويستدلوا على كماله، ويعلموا أن الذي  
خلقهما على عظمهما، قادر على أن  
يعيد العباد بعد موتهم للجزاء، وأن  
خلقهما بقاءهما مقدر إلى ﴿أجل  
مسمى﴾.

ثم ذكر انتفاء الدليل النقلى، فقال:  
﴿اتنوني بكتاب من قبل هذا﴾ الكتاب  
يدعو إلى الشرك، ﴿أو آثارة من علم﴾  
موروث عن الرسل يأمر بذلك. من  
المعلوم أنهم عاجزون أن يأتوا عن أحد  
من الرسل ببديل يدل على ذلك، بل  
نجزم ونتيقن أن جميع الرسل دعوا إلى  
توحيد ربهم، ونهوا عن الشرك به،  
وهي أعظم ما يؤثر عنهم من العلم،  
قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة  
رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا  
الطاغوت﴾ وكل رسول قال لقومه:  
﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾  
فعلم أن جدال المشركين في شركهم،  
غير مستندين فيه على برهان ولا دليل،  
وإنما اعتمدوا على ظنون كاذبة، وأراء  
كاسدة، وعقول فاسدة.

يدلُّك على فسادها استقرار  
أحوالهم، ونتبع علومهم وأعمالهم،  
والنظر في حال من أفنوا أعمارهم  
بعبادته، هل أفادهم شيئاً في الدنيا أو  
في الآخرة؟ ولهذا قال تعالى: ﴿ومن  
أضل لمن يدعو من دون الله من  
لا يستجيب له إلى يوم القيامة﴾ أي:  
مدة مقامه في الدنيا، لا ينتفع به  
بمشقة ذرة، ﴿وهم عن دعواتهم  
غافلون﴾ لا يسمعون منهم دعاء،  
ولا يجيبون لهم نداء، هذا حالهم في  
الدنيا، ويوم القيامة يكفرون بشركهم.  
﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء﴾  
يلعن بعضهم بعضاً، ويترأى بعضهم من  
بعض ﴿وكانوا بعبادتهم كافرين﴾.

﴿٧٠ - ١٠﴾ ﴿وإذا تنلى عليهم آياتنا  
بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم  
هذا سحر مبين﴾ أم يقولون افتراء قل  
إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً  
هو أعلم بما نفيضون فيه كفى به شهيداً  
يبني وبينكم وهو الغفور الرحيم ﴿قل  
ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما

سيجدون ثوابها في تلك الدار كاملاً  
موقراً.

أقام تعالى الأدلة الدالة على تلك  
الدار، وأذاق العباد نموذجاً من الثواب  
والعقاب العاجل، ليكون أدعى لهم إلى  
طلب المحسوب، والهرب من  
المهوب، ولهذا قال هنا: ﴿ما خلقنا  
السموات والأرض وما بينهما إلا  
بالحق﴾ أي: لا عبثاً ولا سدى، بل  
ليعرف العباد عظمة خالقهما،  
ويستدلوا على كماله، ويعلموا أن الذي  
خلقهما على عظمهما، قادر على أن  
يعيد العباد بعد موتهم للجزاء، وأن  
خلقهما بقاءهما مقدر إلى ﴿أجل  
مسمى﴾.

فلما أخبر بذلك - وهو أصدق  
القائلين وأقام الدليل، وأثار السبيل  
أخبر - مع ذلك - أن طائفة من الخلق  
قد أبوا إلا إعراضاً عن الحق، وصدوقاً  
عن دعوة الرسل، فقال: ﴿والذين  
كفروا عما أنذروا معرضون﴾، وأما  
الذين آمنوا، فلما علموا حقيقة الحال  
قبلوا وصايا ربهم، وتلقوها بالقبول  
والتسليم، وقابلوها بالانقياد  
والتعظيم، ففازوا بكل خير، واندفع  
عنهم كل شر.

﴿٤ - ٦﴾ ﴿قل أرايتم ما تدعون  
من دون الله أروني ماذا خلقوا من  
الأرض أم لهم شرك في السموات  
اتنوني بكتاب من قبل هذا أو آثارة من  
علم إن كنتم صادقين﴾ ومن أضل ممن  
يدعو من دون الله من لا يستجيب له  
إلى يوم القيامة وهم عن دعواتهم  
غافلون ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم  
أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ أي:  
﴿قل﴾ لهؤلاء الذين أشركوا بالله،  
أوثاناً وأنداداً، لا تملك نفصاً  
ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة  
ولا نشوراً، قل لهم - مبيئاً عجز  
أوثانهم، وأنها لا تستحق شيئاً من  
العبادة -: ﴿أروني ماذا خلقوا من  
الأرض أم لهم شرك في السموات﴾.  
هل خلقوا من أجرام السموات  
والأرض شيئاً؟ هل خلقوا جبالاتاً؟ هل  
أجروا أنهاراً؟ هل نشروا حيواناتاً؟ هل

والكبرياء فيها عظمته وجلاله،  
والعبادة مبنية على ركنين، عبة الله،  
والذل له، وهما ناشئان عن العلم  
بمحامد الله وجلاله وكبريائه.

﴿وهو العزيز﴾ القاهر لكل شيء،  
﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء  
مواضعها، فلا يشرع ما يشرعه إلا  
لحكمة ومصلحة، ولا يخلق ما يخلقه  
إلا لفائدة ومنفعة.

تم تفسير سورة الأحقاف، والله الحمد  
والنعمة والفضل

### تفسير سورة الأحقاف مكية

﴿١ - ٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن  
الرحيم حم﴾ تنزيل الكتاب من الله  
العزيز الحكيم ﴿ما خلقنا السموات  
والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل  
مسمى والذين كفروا عما أنذروا  
معرضون﴾ هذا نداء منه تعالى على كتابه  
العزيز وتعظيم له، وفي ضمن ذلك  
إرشاد العباد إلى الاهتداء بنوره،  
والإقبال على تدبر آياته، واستخراج  
كنوزه.

ولما بين إنزال كتابه المتضمن للأمر  
والنهى، ذكر خلقه السموات  
والأرض، فجمع بين الخلق والأمر،  
﴿إلا له الخلق والأمر﴾ كما قال تعالى:  
﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن  
الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن﴾  
وكما قال تعالى: ﴿ينزل الملائكة بالروح  
من أمره على من يشاء من عباده أن  
أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون﴾ خلق  
السموات والأرض بالحق ﴿فالله تعالى  
هو الذي خلق المكلفين، وخلق  
مساكنهم، وسخر لهم ما في  
السموات وما في الأرض، ثم أرسل  
إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه،  
وأمرهم ونهاهم، وأخبرهم أن هذه  
الدار دار أعمال وعمر للعامل، لا دار  
إقامة لا يرحل عنها أهلها، وأنهم  
سيتقلون منها إلى دار الإقامة والقرار،  
وموطن الخلود والدوام، وإنما  
أعمالهم التي عملوها في هذه الدار،

يفعل بي ولا يكتم إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين \* قل أرايتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فأمس واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين \* أي : وإذا تتلى على المكذبين ﴿آياتنا بينات﴾ بحيث تكون على وجه لا يمتري بها، ولا يشك في وقوعها وحقها، لم تقدمهم خيراً، بل قامت عليهم بذلك الحجة، ويقولون من إنكهم وافتراهم ﴿للحق لما جاءهم هذا سحر مبين﴾ أي : ظاهر لا شك فيه، وهذا من باب قلب الحقائق، الذي لا يروج إلا على ضعفاء العقول، وإلا فين الحق الذي جاء به الرسول ﷺ،

وبين السحر من المنافاة والمخالفة، أعظم مما بين السماء والأرض، وكيف يقاس الحق - الذي علا وارتفع ارتفاعاً على الأفلاك، وفاق بضوئه ونوره نور الشمس، وقامت الأدلة الأقفية والنفسية عليه، وأقرت به وأذعن أولو البصائر والعقول الرزينة - بالباطل الذي هو السحر، الذي لا يصدر إلا من ضال ظالم خبيث النفس، خبيث العمل؟! فهو مناسب له وموافق لحاله، وهل هذا إلا من البهرجة؟

﴿أم يقولون افتراه﴾ أي : افتري محمد هذا القرآن من عند نفسه، فليس هو من عند الله.

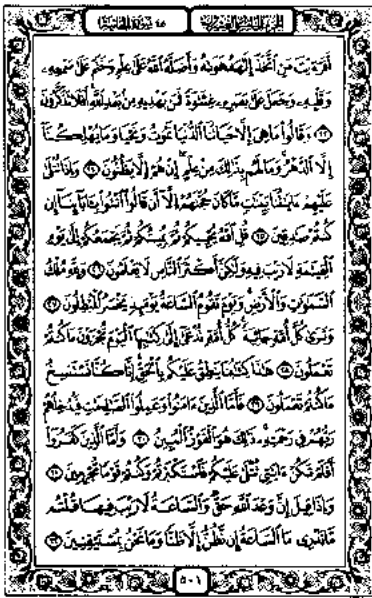
﴿قل﴾ لهم : ﴿إن افتريته﴾ فالله علي قادر وبما تفيضون فيه عالم، فكيف لم يعاقبني على افترائي الذي زعيتم؟

فهل ﴿تملكون لي من الله شيئاً﴾ إن أرادني الله بضر، أو أرادني برحمة ﴿كفي به شهيداً بيني وبينكم﴾ فلو كنت متقولاً عليه، لأخذ مني باليمين، ولعاقبني عقاباً يراه كل أحد، لأن هذا أعظم أنواع الافتراء لو كنت متقولاً، ثم دسهم إلى التوبة مع ما صدر منهم من معاندة الحق ومخاصمته، فقال : ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ أي : فتوبوا إليه، وأقلعوا عما أنتم فيه، يغفر لكم ذنوبكم، ويرحمكم، فيوفقكم للخير، ويشيكم جزيل الأجر.

﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل﴾ أي : لست بأول رسول جاءكم، حتى تستغربوا رسالتي وتستكبروا دعوتي، فقد تقدم من الرسل والأنبياء من وافقت دعوتي دعوتهم، فلاي : شيء تنكر رسالتي؟ ﴿وما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾ أي : لست إلا بشراً، ليس بيدي من الأمر شيء، والله تعالى هو المتصرف بي وبكم، الحاكم علي وعليكم، ولست إلا بالشيء من عندي، ﴿وما أنا إلا نذير مبين﴾ فإن قبلتم رسالتي، وأجبتهم دعوتي، فهو حظكم ونصيبكم في الدنيا والآخرة، وإن رددتم ذلك علي فحسابكم على الله، وقد أنذرتكم، ومن أنذر فقد أعذر.

﴿قل أرايتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فأمس واستكبرتم﴾ أي : أخبروني، لو كان هذا القرآن من عند الله، وشهد على صحته الموقنون من أهل الكتاب، الذين عندهم من الحق ما يعرفون أنه الحق، فأمنوا به واهتدوا، فتطابقت أنباء الأنبياء وأنباعهم النبلاء، واستكبرتم أيما الجهلاء الأغبياء، فهل هذا إلا أعظم الظلم وأشد الكفر؟ ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ ومن الظلم الاستكبار عن الحق بعد التمكن منه.

﴿١١ - ١٢﴾ ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم \* ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين﴾ أي : قال الكفار بالحق معاندين له، ورايين لدعوته : ﴿لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾ أي : ما سبقنا إليه المؤمنون، أي : لكننا أول مبادر به، وسابق إليه، وهذا من البهرجة في مكان، فأني دليل يدل على أن علامة الحق سبق المكذبين به للمؤمنين؟ هل هم أزرى نفوساً؟ أم أكمل عقولاً؟ أم الهدى بأيديهم؟ ولكن هذا الكلام الذي صدر منهم، يُعزَّون به أنفسهم



بمثلة من لم يقدر على الشيء، ثم طفق يذمه، ولهذا قال : ﴿وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم﴾ أي : هذا السبب الذي دعاهم إليه، أنهم لما لم يهتدوا بهذا القرآن، وقامهم أعظم المواهب، وأجل الرغائب، قدحوا فيه بأنه كذب، وهو الحق الذي لا شك فيه، ولا امتراء يعتريه، الذي قد وافق الكتب السماوية خصوصاً، أكملها وأفضلها بعد القرآن، وهي التوراة التي أنزلها الله على موسى ﴿إماماً ورحمة﴾ أي : يقتدي بها بنو إسرائيل، ويهتدون بها، فيحصل لهم خير الدنيا والآخرة.

﴿وهذا القرآن﴾ كتاب مصدق ﴿للكتب السابقة، شهد بصدقها، وصدقها، بموافقته لها، وجعله الله لساناً عربياً﴾ ليسهل تناوله، ويتيسر تذكره، ﴿لينذر الذين ظلموا﴾ أنفسهم بالكفر والفسوق والعصيان، إن استمروا على ظلمهم بالعذاب الويل، ويشير المحسنين في عبادة الخالق، وفي نفع المخلوقين، بالثواب الجزيل، في الدنيا والآخرة، ويذكر الأعمال التي يتذر عنها، والأعمال التي يبشر بها.

﴿١٣ - ١٤﴾ ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون \* أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون﴾ أي : إن الذين أقروا بربهم، وشهدوا له بالوحداية، والتزموا طاعته

غيرها. ﴿وتجاوز عن سيناتهم﴾ في جملة ﴿أصحاب الجنة﴾ فحصل لهم الخير والمحبوب، وزال عنهم الشر والمكروه.

﴿وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾ أي: هذا الوعد الذي وعدناهم هو وعد صادق من أصدق القائلين، الذي لا يخلف الميعاد.

﴿١٧ - ١٩﴾ ﴿والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين \* أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين \* ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون﴾ لما ذكر تعالى حال الصالح البار لوالديه، ذكر حال العاق، وأنها شر الحالات، فقال: ﴿والذي قال لوالديه﴾ إذ دعوا<sup>(١)</sup> إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وخوفه الجزاء.

وهذا أعظم إحسان يصدر من الوالدين لولدهما، أن يدعوها إلى ما فيه سعاده الأبدية، وفلاحه السرمدى، فقابلهما بأقبح مقابلة، فقال: ﴿أف لكما﴾ أي: تبا لكما ولما جتما به.

ثم ذكر وجه استبعاده وإنكاره لذلك فقال: ﴿أتعدانني أن أخرج﴾ من قبري إلى يوم القيامة ﴿وقد خلت القرون من قبلي﴾ على التكذيب، وسلفوا على الكفر، وهم الأئمة المقتدى بهم لكل كفور وجهول ومعاند؟ ﴿وهما﴾ أي: والدهاء ﴿يستغيثان الله﴾ عليه، ويقولان له: ﴿ويلك آمن﴾ أي: يبذلان غاية جهدهما، ويسعيان في هدايته أشد السعي، حتى إنهما - من حرصهما عليه - أنهما يستغيثان الله

له، استغاثة الفريق، ويسألانه سؤال الشريك، ويمدلان ولدهما، ويتوجعان له، وبينان له الحق، فيقولان: ﴿إن وعد الله حق﴾ ثم يقيمان عليه من الأدلة ما أمكنهما، ولدهما لا يزداد

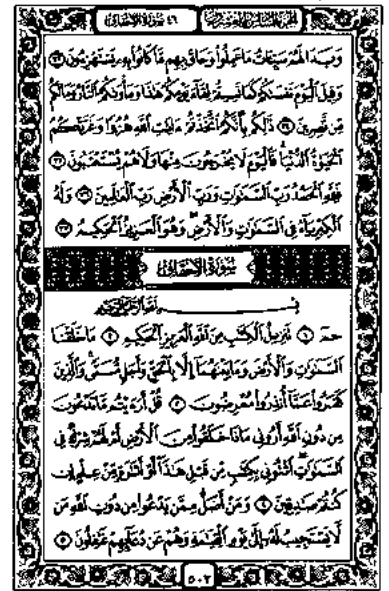
وما قاسته من المكاره وقت حملها، ثم مشقة ولادتها المشقة الكبيرة، ثم مشقة الرضاع وخدمة الحضانه، وليست المذكورات مدة سيرة، ساعة أو ساعتين، وإنما ذلك مدة طويلة قدرها ﴿ثلاثون شهراً﴾: للحمل تسعة أشهر ونحوها، والباقي للرضاع، هذا الغالب.

ويستدل هذه الآية مع قوله: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾ أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، لأن مدة الرضاع - وهي ستان - إذا سقطت منها الستان، بقي ستة أشهر، مدة للحمل، ﴿حتى إذا بلغ أشده﴾ أي: نهاية قوته وشبابه، وكمال عقله، ﴿ويبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني﴾ أي: ألهمني ووفقني ﴿أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي﴾ أي: نعم الدين، ونعم الدنيا، وشكره بصرف النعم في طاعة مسديها وموليها، ومقابلته بمثته، بالاعتراف والعجز عن الشكر، والاجتهاد في الشفاء بها على الله، والنعم على الوالدين، نعم على أولادهم وذريتهم، لأنهم لا بد أن ينالهم منها ومن أسبابها وأثارها، خصوصاً نعم الدين، فإن صلاح الوالدين بالعلم والعمل، من أعظم الأسباب لصلاح أولادهم.

﴿وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾ بأن يكون جامعاً لما يصلحه، سالماً عما يفسده، فهذا العمل الذي يرضاه الله ويقبله، ويشيب عليه. ﴿وأصلح لي في ذريتي﴾ لما دعا نفسه بالصلاح، دعا لذريته أن يصلح الله أحوالهم، وذكر أن صلاحهم يعود نفعه على والديهم، لقوله: ﴿وأصلح لي﴾.

﴿إني تبست إليك﴾ من الذنوب والمعاصي، ورجعت إلى طاعتك ﴿وإني من المسلمين﴾.

﴿أولئك﴾ الذين ذكرت أوصافهم ﴿الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا﴾ وهو الطاعات، لأنهم يعملون أيضاً



وداموا على ذلك، و ﴿استقاموا﴾ مدة حياتهم ﴿فلا خوف عليهم﴾ من كل شر أمامهم، ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما خلفوا وراءهم، ﴿أولئك أصحاب الجنة﴾ أي: أهلها الملائمون لها، الذين لا يبغون عنها حولاً، ولا يريدون بها بدلاً، ﴿خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون﴾ من الإيمان بالله، المقتضي للأعمال الصالحة التي استقاموا عليها.

﴿١٥ - ١٦﴾ ﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهراً حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبست إليك وإني من المسلمين \* أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا وتجاوز عن سيناتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾ هذا من لطفه تعالى بعباده وشكره للوالدين، أن وصى الأولاد وعهد إليهم أن يحسنوا إلى والديهم بالقرول اللطيف، والكلام اللين، وبذل المال والنفقة، وغير ذلك من وجوه الإحسان.

ثم نبه على ذكر السبب الموجب لذلك، فذكر ما تحملته الأم من ولدها

إلا عتواً ونفوراً، واستكباراً عن الحق وقدحاً فيه، ﴿فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي: إلا منقول من كتب المتقدمين، ليس من عند الله، ولا أوحاه الله إلى رسوله، وكل أحد يعلم أن محمداً ﷺ أنبي لا يكتب ولا يقرأ، ولا تعلم من أحد، فمن أين يتعلمه؟ وأنى للخلق أن يأتيوا بمثل هذا القرآن ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً؟

﴿أولئك الذين﴾ بهذه الحالة الذميمة ﴿حقت عليهم القول﴾ أي: حقت عليهم كلمة العذاب ﴿في﴾ جملة ﴿أمم﴾ قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ﴿على الكفر والتكذيب، فسيدخل هؤلاء في غمارهم، وسيفرون في تيارهم.

﴿إنهم كانوا خاسرين﴾ والخسران فوات رأس مال الإنسان، وإذا فقد رأس مائه، فالأرباح من باب أولى وأحرى، فهم قد فاتهم الإيمان، ولم يحصلوا على شيء من النعيم، ولا سلموا من عذاب الجحيم ﴿ولكل﴾ من أهل الخير وأهل الشر درجات مما عملوا ﴿أي: كل على حسب مرتبته من الخير والشر، ومنازلهم في الدار الآخرة على قدر أعمالهم، ولهذا قال: ﴿وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون﴾ بأن لا يزداد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم.

﴿٢٠﴾ ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون﴾ يذكر تعالى حال الكفار عند عرضهم على النار حين يويخون ويفرعون، فيقال لهم: ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا﴾ حيث اطمأنتم إلى الدنيا، واغترتم بلذاتها، ورضيتم بشهواتها، وألهمتكم طبيباتها عن السعي لأخرتكم، وتمتعتم تمتع الأنعام السارحة فهي حظكم من آخرتكم، ﴿فاليوم تجزون عذاب الهون﴾ أي:

العذاب الشديد، الذي يهينكم ويفضحكم بما كنتم تقولون على الله غير الحق، أي: تنسبون الطريق الضالة التي أنتم عليها إلى الله، وإلى حكمه، وأنتم كذبة في ذلك، ﴿وبما كنتم تفسقون﴾ أي: تتكبرون عن طاعته، فجمعوا بين قول الباطل، والعمل بالباطل، والكذب على الله بسنته إلى رضاه، والقدح في الحق، والاستكبار عنه، فغروقوا أشد العقوبة.

﴿٢١-٢٦﴾ ﴿وإذ ذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف﴾ إلى آخر القصة<sup>(١)</sup> أي: ﴿وإذ ذكر﴾ بالثناء الجميل ﴿أخا عاد﴾ وهو هود عليه السلام، حيث كان من الرسل الكرام، الذين نزلهم الله تعالى بالدعوة إلى دينه، وإرشاد الخلق إليه.

﴿إذ أنذر قومه﴾ وهم عاد ﴿بالأحقاف﴾ أي: في منازلهم المعروفة بالأحقاف، وهي: الرمال الكثيرة في أرض اليمن. ﴿وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه﴾ فلم يكن بدءاً منهم ولا مخالفاً لهم، قاتلاً لهم: ﴿الأتعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ فأمرهم بعبادة الله، الجامعة لكل قول سديد وعمل حيد، ونهاهم عن الشرك والتشديد، وخوفهم - إن لم يطيعوه - العذاب الشديد، فلم تغد فيهم تلك الدعوة. ﴿قالوا أجتئتنا لثأفكنا عن آلهتنا﴾ أي: ليس لك من القصد، ولا معك من الحق، إلا أنك حسدتنا على آلهتنا، فأردت أن تصرفنا عنها.

﴿فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ وهذا غاية الجهل والعداوة. ﴿قال إنما العلم عند الله﴾ فهو الذي بيده أزمة الأمور ومقاليدها، وهو الذي يأتيكم بالعذاب إن شاء. ﴿وإلنكم ما أرسلت به﴾ أي: ليس علي إلا البلاغ المبين، ﴿ولكنني أراكم قوماً تجهلون﴾ فلذلك صدر منكم ما صدر من هذه الجراءة الشديدة، فأرسل الله عليهم

﴿فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم﴾ قد تلفت مواشيهم وأموالهم وأنفسهم. ﴿كذلك نجزي القوم المجرمين﴾ بسبب جرمهم وظلمهم، هذا مع أن الله تعالى قد أدر عليهم النعم العظيمة، فلم يشكروه، ولا ذكروه، ولهذا قال: ﴿ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه﴾ أي: مكناهم في الأرض، يتناولون طبيباتها، ويتمتعون بشهواتها،

العذاب العظيم، وهي الرياح التي دمرتهم وأهلكتهم، ولهذا قال: ﴿فلما رأوه﴾ أي: العذاب ﴿عارضاً مستقبلاً أودبتهم﴾ أي: معترضاً كالسحاب، قد أقبل على أودبتهم التي تسيل، فتسقي نوابيهم، ويشربون من آبارها وغدرانها.

﴿قالوا﴾ مستبشرين: ﴿هذا عارض ممطرنا﴾ أي: هذا السحاب سيمطرنا. قال تعالى: ﴿بل هو ما استعجلتم به﴾ أي: هذا الذي جنيتم به على أنفسكم، حيث قلتم: ﴿فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ ﴿ريح فيها عذاب أليم﴾ تدمر كل شيء، تمر عليه من شدتها ونحسها.

فسلطها الله عليهم ﴿سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ [بأسر ربها] أي: بإذنه ومشيئته. ﴿فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم﴾ قد تلفت مواشيهم وأموالهم وأنفسهم. ﴿كذلك نجزي القوم المجرمين﴾ بسبب جرمهم وظلمهم، هذا مع أن الله تعالى قد أدر عليهم النعم العظيمة، فلم يشكروه، ولا ذكروه، ولهذا قال: ﴿ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه﴾ أي: مكناهم في الأرض، يتناولون طبيباتها، ويتمتعون بشهواتها،

(١) في ب: ذكر الآيات كاملة إلى قوله تعالى: ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾.



أصل للإنجيل، وعمدة لبني إسرائيل في أحكام الشرع، وإنما الإنجيل متم ومكمل ومغير لبعض الأحكام.

﴿مصدقاً لما بين يديه يهدي﴾ هذا الكتاب الذي سنعناه ﴿إلى الحق﴾ وهو الصواب في كل مطلوب وخير، ﴿وإلى طريق مستقيم﴾ موصل إلى الله، وإلى جنته، من العلم بالله، وبأحكامه الدينية، وأحكام الجزاء.

فلما مدحوا القرآن وبينوا عمله ومرتبته، دعوههم إلى الإيمان به، فقالوا: ﴿يا قومنا أجبوا داعي الله﴾ أي: الذي لا يدعوا إلا إلى ربه، لا يدعوكم إلى غرض من أغراضه ولا هوى، وإنما يدعوكم إلى ربكم، ليثيبكم، ويزيل عنكم كل شر ومكروه، ولهذا قالوا: ﴿ينظر لكم من ذنوبكم ويحرمكم من عذاب اليم﴾ وإذا أجازهم من العذاب الأليم، فما ثم بعد ذلك إلا التعميم، فهذا جزء من أجاب داعي الله.

﴿ومن لا يحب داعي الله فليس بمعجز في الأرض﴾ فإن الله على كل شيء قدير، فلا يفوته هارب، ولا يغالبه مغالب. ﴿وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين﴾ وأي ضلال أبلغ من ضلال من نادته الرسل، ووصلت إليه النذر بالآيات البينات، والحجج المتواترات، فأعرض واستكبر!!؟

﴿٣٣﴾ ﴿أولم يسروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يمي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير﴾ هذا استدلال منه تعالى على الإعادة بعد الموت، بما هو أبلغ منها، وهو أنه الذي خلق السماوات والأرض، على عظيمهما ومعنتهما وإتقان خلقهما، من دون أن يكثر بذلك، ولم يقني بخلقهن تكيف تعجزه إعادتهن بعد موتكم، وهو على كل شيء قدير!!؟

﴿٣٤-٣٥﴾ ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ فاصبر كما صبر أولو العزم

العرب، كعاد وثمود ونحوهم، وأن الله تعالى صرف لهم الآيات، أي: نوعها من كل وجه، ﴿لعلمهم يرجعون﴾ عما هم عليه من الكفر والتكذيب، فلما لم يؤمنوا، أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، ولم تفهمهم الهتهم التي يدعون من دون الله من شيء، ولهذا قال هنا: ﴿فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة﴾ أي: يتقربون إليهم، ويتألهونهم لرجاء نفعهم.

﴿بل ضلوا عنهم﴾ فلم يجيبوهم، ولا دفعوا عنهم، ﴿وذلك إفكهم وما كانوا يفترون﴾ من الكذب، الذي يمتنون به أنفسهم، حيث يزعمون أنهم على الحق، وأن أعمالهم ستنتفعهم، فضلت وبطلت.

﴿٢٩-٣٢﴾ ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين﴾ قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم \* يا قومنا أجبوا داعي الله وأمنوا به يفقر لكم من ذنوبكم ويحرمكم من عذاب اليم \* ومن لا يحب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين﴾ كان الله تعالى قد أرسل رسوله محمداً ﷺ إلى الخلق، إنسهم وجنهم، وكان لا يد من إبلاغ الجميع لدعوة النبوة والرسل.

فالإنس، يمكنه عليه الصلاة والسلام دعوتهم وإنذارهم، وأما الجن، فصرفهم الله إليه بقدرته، وأرسل إليهم ﴿نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا﴾ أي: وصى بعضهم بعضاً بذلك، ﴿فلما قضي﴾ وقد وعوه، وأثر ذلك فيهم ﴿ولوا إلى قومهم منذرين﴾ نصحاً منهم لهم، وإقامة لحجة الله عليهم، وقبضهم الله معونة لرسوله ﷺ في نشر دعوته في الجن.

﴿قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى﴾ لأن كتاب موسى

وعمرناهم عمراً، يتذكر فيه من تذكر، ويتعظ فيه المهتدي، أي: ولقد مكنا عاداً كما مكناكم يا هؤلاء المخاطبون، أي: فلا تحسبوا أن ما مكناكم فيه مختص بكم، وأنه سيدفع عنكم من عذاب الله شيئاً، بل غيركم أعظم منكم تمكيناً، فلم تخن عنهم أموالهم ولا أولادهم ولا جنودهم من الله شيئاً.

﴿وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة﴾ أي: لا قصور في أسماعهم ولا أبصارهم ولا أذهانهم، حتى يقال إنهم تركوا الحق جهلاً منهم، وعدم تمكن من العلم به، ولا خلل في عقولهم، ولكن التوفيق بيد الله. ﴿فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء﴾ لا قليل ولا كثير، وذلك بسبب أنهم ﴿يجحدون آيات الله﴾ الدالة على توحيده وإفراده بالعبادة.

﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ أي: نزل بهم العذاب الذي يكذبون بوقوعه، ويستهزؤون بالرسل الذين حذروهم منه.

﴿٢٧-٢٨﴾ ﴿ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلمهم يرجعون﴾ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون﴾ يحذر تعالى مشركي العرب وغيرهم، بإهلاك الأمم المكذبين، الذين هم حول ديارهم، بل كثير منهم في جزيرة

﴿ وَأَنْذَرْنَا قَارِئَهُمْ إِذْ كَانُوا كَالْحَمِيمِ ﴾ وَالْحَمِيمُ الْكَافِرُ الْغَاطِيَةُ عِنْدَ عَرْضِهِمْ عَلَى النَّارِ الَّتِي كَانُوا يَكْتُمُونَ بِهَا، وَأَنْهُمْ يُوْبِحُونَ، وَيَقَالُ لَهُمْ: ﴿ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ﴾ فَقَدْ حَضَرْتُمُوهُ وَشَاهَدْتُمُوهُ عَيْنًا؟ ﴿ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا ﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ، وَتَبَيَّنَ كَذِبُهُمْ ﴿ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أَي: عَذَابًا لَزِيمًا دَائِمًا، كَمَا كَانَ كَفْرُكُمْ صِفَةً لَزِيمَةً.

ثم أمر تعالى رسوله أن يصبر على أذية المكذبين المعادين له، وأن لا يزال داعياً لهم إلى الله، وأن يقتدي بصبر أولي العزم من المرسلين، سادات الخلق، أولي العزائم والهمم العالية، الذين عظم صبرهم، وتم يقينهم، فهم أحق الخلق بالأسوة بهم، والقصور لأنارهم، والاهتداء بمنازمهم.

فامتثل ﷺ لأمر ربه، فصبر صبراً لم يصبره نبي قبله، حتى رماه المعادون له عن قوس واحدة، وقاموا جميعاً بصدده عن الدعوة إلى الله، وفعلوا ما يمكنهم من المعاداة والمحاربة، وهو ﷺ لم يزل صادعاً بأمر الله، مقيماً على جهاد أعداء الله، صابراً على ما يناله من الأذى، حتى مكَّن الله له في الأرض، وأظهر دينه على سائر الأديان، وأتمه على الأمم، فصل الله عليه وسلم تسليماً.

وقوله: ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾ أَي: لهؤلاء المكذبين المستعجلين للعذاب، فإن هذا من جهلهم وحقهم، فلا يَسْتَعْجَلُكَ بِهِمْ، ولا يَحْمِلُكَ مَا تَرَى مِنْ اسْتَعْجَالِهِمْ عَلَى أَنْ تَدْعُوَ اللَّهَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ، فَإِنَّ كُلَّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ، وَ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يَوْعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا ﴾ فِي الدُّنْيَا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ﴿ فَلَا يَمِيزُكَ تَمَتُّعُهُمْ الْقَلِيلَ وَهُمْ صَائِرُونَ إِلَى الْعَذَابِ الْوَبِيلِ ﴾.

﴿ بَلَاغٌ ﴾ أَي: هذه الدنيا، متاعها وشهواتها ولذاتها بلغة منقصة، ودفع وقت حاضر قليل.

أوهذا القرآن العظيم، الذي بَيَّنَّا لَكُمْ فِيهِ الْبَيَانَ التَّامَ، بَلَاغٌ لَكُمْ، وَزَادَ

إلى الدار الآخرة، ونعم الزاد والبلغة، زاد يوصل إلى دار النعيم، ويعصم من العذاب الأليم، فهو أفضل زاد يتزوده الخلائق، وأجل نعمة أنعم الله بها عليهم.

﴿ فَهَلْ يَهْلِكُ ﴾ بالعقوبات ﴿ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴾ أَي: الذين لا خير فيهم، وقد خرجوا عن طاعة ربه، ولم يقولوا الحق الذي جاءهم به الرسل. وأعذر الله لهم وأنذرهم، فبعد ذلك إذ يستمرون على تكذيبهم وكفرهم، نسأل الله العصمة.

آخر تفسير سورة الأحقاف،  
والحمد لله رب العالمين

**تفسير سورة القتال، وهي مدنية**

والأعمال التي في نصر الباطل لما كانت باطلة، كانت الأعمال لأجلها باطلة.

﴿ وَأَمَّا ﴾ والذين آمنوا ﴿ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُلِهِ عَمُومًا، وَعَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ خُصُوصًا، ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ بِأَنْ قَامُوا بِمَا عَلَيْهِمْ مِنْ حَقُوقِ اللَّهِ، وَحَقُوقِ الْعِبَادِ الْوَاجِبَةِ وَالْمُسْتَحَبَّةِ.

﴿ كَفَرٌ ﴾ الله ﴿ عَنْهُمْ سِيئَاتِهِمْ ﴾ صغارها وكبارها، وإذا كُفِّرَتْ سِيئَاتِهِمْ، نَجَّوْا مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. ﴿ وَأَصْلَحَ بِالْهَمِّ ﴾ أَي: أَصْلَحَ دِينَهُمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَقُلُوبَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ، وَأَصْلَحَ ثَوَابُهُمْ، بِتَمَتُّعِهِ وَتَرْكِيئَتِهِ، وَأَصْلَحَ جَمِيعَ أَحْوَالِهِمْ، وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ: ﴿ اتَّبَعُوا الْحَقَّ ﴾ الَّذِي هُوَ الصِّدْقُ وَالْيَقِينُ، وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ هَذَا الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ، الصَّادِرُ مِنْ رَبِّهِمْ ﴿ الَّذِي رِيَاهِمُ بِنِعْمَتِهِ، وَدَبَّرَهُمْ بِلَطْفِهِ فَرِيَاهِمُ تَعَالَى بِالْحَقِّ فَاتَّبَعُوهُ، فَصَلَحَتْ أُمُورُهُمْ، فَلَمَّا كَانَتْ الْغَايَةَ الْقَصُودَةَ لَهُمْ، مُتَعَلِّقَةً بِالْحَقِّ النَّسُوبِ إِلَى اللَّهِ الْبَاقِي الْحَقِّ الْمَبِينِ، كَانَتْ الْوَسِيلَةَ صَالِحَةً بَاقِيَةً، بَاقِيًا ثَوَابُهَا.

﴿ ١ - ٣ ﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سِيئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بِالْهَمِّ \* ذَلِكَ بَانَ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ \* هَذِهِ الْآيَاتُ مُشْتَمَلَاتٌ عَلَى ذِكْرِ ثَوَابِ الْمُؤْمِنِينَ وَعِقَابِ الْعَاصِينَ، وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ، وَدَعْوَةُ الْخَلْقِ إِلَى الْاِعْتِبَارِ بِذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وَهَؤُلَاءِ رُؤْسَاءُ الْكُفْرِ، وَأَتَمَّةُ الضَّلَالِ، الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَأَيَّاتِهِ، وَالصِّدْقِ لِأَنْفُسِهِمْ وَغَيْرِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، الَّتِي هِيَ الْإِيمَانُ بِمَا دَعَتْ إِلَيْهِ الرَّسُلُ وَاتَّبَاعَهُ.

فهؤلاء ﴿ أَضْلُ ﴾ الله ﴿ أَعْمَالِهِمْ ﴾ أَي: أبطلها وأشقاهم بسببها، وهذا يشمل أعمالهم التي عملوها ليكيدوا بها الحق وأولياء الله، أن الله جعل كيدهم في نحوهم، فلم يدركوا عما قصدوا شيئاً، وأعمالهم التي يرجون عليها، والسبب في ذلك أنهم اتبعوا الباطل، وهو كل غاية لا يراد بها وجه الله من عبادة الأصنام والأوثان،

﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ حيث بَيَّنَّ لهم تعالى أهل الخير وأهل الشر، وذكر لكل منهم صفة يفرقون بها ويتمييزون ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مِنْ حَيٍّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾.





﴿٤-٦﴾ فإذا لقيتم الذين كفروا  
فضرب الرقاب حتى إذا اخذتكم  
فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء  
حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو  
بشاء الله لانتصر منهم ولكن ليلو  
بعضكم ببعض والذين قتلوا في  
سبيل الله فلن يضل أعمالهم \*  
سيهديهم ويصلح بالهم \* ويدخلهم  
الجنة عرفها لهم يقول تعالى - مرشداً  
عباده إلى ما فيه صلاحهم، ونصرهم  
على أعدائهم - ﴿فإذا لقيتم الذين  
كفروا﴾ في الحرب والقتال،  
فاصدقوهم القتال، واضربوا منهم  
الأعناق، حتى تشخوهم وتكسروا  
شوكتهم وتبطلوا شرتهم، فإذا فعلتم  
ذلك، ورأيتم الأسر أولى وأصلح،  
﴿فشدوا الوثاق﴾ أي: الرباط، وهذا  
احتياط لأسرهم لئلا يهربوا، فإذا شد  
منهم الوثاق اطمان المسلمون من هربهم  
ومن شرهم، فإذا كانوا تحت أسرهم،  
فأنتم بالخيار بين المن عليهم،  
وإطلاقهم بلا مال ولا فداء، وإما أن  
تفدوهم بأن لا تطلقوهم حتى يشتروا  
أنفسهم، أو يشتريهم أصحابهم بمال،  
أو بأسير مسلم عندهم.

وهذا الأمر مستمر ﴿حتى تضع  
الحرب أوزارها﴾ أي: حتى لا يبقى  
حرب، وتبقون في المسألة والمهادنة،  
فإن لكل مقام مقالاً، ولكل حال  
حكماً، فالحال المتقدمة، إنما هي إذا

كان قتال وحرب .  
فإذا كان في بعض الأوقات،  
لا حرب فيه لسبب من الأسباب،  
فلا قتل ولا أسر .

﴿ذلك﴾ الحكم المذكور في ابتلاء  
المؤمنين بالكافرين، ومداولة الأيام  
بينهم، وانتصار بعضهم على بعض  
﴿ولو يشاء الله لانتصر منهم﴾ فإنه  
تعالى على كل شيء قدير، وقادر على أن  
لا ينتصر الكفار في موضع واحد  
أبدأً، حتى يبئد المسلمون خضراءهم .

﴿ولكن ليلو بعضكم ببعض﴾  
ليقوم سوق الجهاد، ويثبت بذلك  
أحوال العباد، الصادق من الكاذب،  
وليؤمن من آمن إيماناً صحيحاً عن  
بصيرة، لا إيماناً مبنياً على متابعة أهل  
الغلبة، فإنه إيمان ضعيف جداً،  
لا يكاد يستمر لصاحبه عند المحن  
والبلايا .

﴿والذين قتلوا في سبيل الله﴾ لهم  
نواب جزيل، وأجر جميل، وهم الذين  
قاتلوا من أمروا بقتالهم، لتكون  
كلمة الله هي العليا .

فهؤلاء لن يضل الله أعمالهم،  
أي: لن يحبطها ويبطلها، بل يتقبلها  
وينيها لهم، ويظهر من أعمالهم  
نتائجها، في الدنيا والآخرة .

﴿سيهديهم﴾ إلى سلوك الطريق  
الموصلة إلى الجنة، ﴿ويصلح بالهم﴾  
أي: حالهم وأمورهم، وثوابهم يكون  
صالحاً كاملاً لا نكد فيه ولا تنغيص  
بوجه من الوجوه .

﴿ويدخلهم الجنة عرفها لهم﴾ أي:  
عرفها أولاً، بأن شوّفهم إليها، ونعتها  
لهم، وذكر لهم الأعمال الموصلة  
إليها، التي من جعلتها القتل في سبيله،  
ووقفهم للقيام بما أمرهم به ورغبهم  
فيه، ثم إذا دخلوا الجنة، عرفهم  
منزلهم، وما احتوت عليه من النعيم  
المقيم، والعيش السليم .

﴿٧-٩﴾ يا أيها الذين آمنوا إن  
تنصروا الله ينصركم ويثبت  
أقدامكم \* والذين كفروا فتعسا لهم  
وأضل أعمالهم \* ذلك بأنهم كرهوا ما  
أنزل الله فأحبط أعمالهم ﴿هذا أمرته

تعالى للمؤمنين، أن ينصروا الله بالقيام  
بدينه، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه،  
والقصد بذلك وجه الله، فإنهم إذا  
فعلوا ذلك، نصرهم الله وثبت  
أقدامهم، أي: يربط على قلوبهم  
بالصبر والطمأنينة والثبات، ويصبر  
أجسامهم على ذلك، ويعينهم على  
أعدائهم، فهذا وعد من كريم صادق  
الوعد، أن الذي ينصره بالأقوال  
والأفعال سينصره مولاه، ويبسر له  
أسباب النصر، من الثبات وغيره .

وأما الذين كفروا بربهم، ونصروا  
الباطل، فإنهم في تعس، أي: انتكاس  
من أمرهم وخذلان .

﴿وأضل أعمالهم﴾ أي: أبطل  
أعمالهم التي يكيّدون بها الحق، فرجع  
كيدهم في نحورهم، وبطلت أعمالهم  
التي يزعمون أنهم يريدون بها  
وجه الله .

ذلك الإضلال والتعس للذين  
كفروا، بسبب أنهم ﴿كرهوا ما  
أنزل الله﴾ من القرآن الذي أنزله الله،  
صلاً للعبياد، وفلاحاً لهم، فلم  
يقبلوه، بل أبغضوه وكرهوه، ﴿فأحبط  
أعمالهم﴾

﴿١٠-١١﴾ ﴿أفلم يسيروا في  
الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين  
من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين  
أمثالها \* ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا  
وأن الكافرين لا مولى لهم﴾ أي: أفلا  
يسير هؤلاء المكذوبين بالرسول ﷺ،  
﴿فينظروا كيف كان عاقبة الذين من  
قبلهم﴾ فإنهم لا يجدون عاقبتهم إلا  
شر العواقب، فإنهم لا يلتفتون يمنة  
ولا يسيرة إلا وجدوا ما حولهم، قد  
بادوا وهلكوا، واستأصلهم التكذيب  
والكفر، فحمدوا، ودمر الله عليهم  
أموالهم وديارهم، بل دمر أعمالهم  
ومكرهم، وللكافرين في كل زمان  
ومكان، أمثال هذه العواقب الوخيمة،  
والعقوبات الذميمة .

وأما المؤمنون، فإن الله تعالى  
ينجيهم من العذاب، ويجزل لهم كثير  
الثواب .

﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا﴾





ففي هذا الحث على الاستعداد قبل مفاجأة الموت، فإن موت الإنسان قيام ساعته.

﴿١٩﴾ ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم﴾ العلم لا بد فيه من إقرار القلب ومعرفة، بمعنى ما طلب منه علمه، وتعامه أن يعمل بمقتضاه.

وهذا العلم الذي أمر الله به - وهو العلم بتوحيد الله - فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد، كائنًا من كان، بل كل مضطر إلى ذلك. والطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا هو أمور: أحدها بل أعظمها: تدبر أسمائه وصفاته، وأفعاله الدالة على كماله وعظمته وجلالته<sup>(١)</sup>، فإنها توجب بذل الجهد في التأمله، والتعبد للرب الكامل الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال.

الثاني: العلم بأنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية.

الثالث: العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب به ومحبه، والتأله له وحده لا شريك له. الرابع: ما نراه ونسمعه من الثواب لأولياته القائمين بتوحيده من النصر والنعم العاجلة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به، فإن هذا دافع إلى العلم، بأنه تعالى وحده المستحق للعبادة كلها.

الخامس: معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عبدت مع الله، واتخذت آلهة، وأنها ناقصة من جميع الوجوه، فقيرة بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، ولا ينصرون من عبدهم، ولا يتفنونهم بمقال ذرة، من جلب خير أو دفع شر، فإن العلم بذلك يوجب العلم بأنه لا إله إلا هو وبطلان إلهية ما سواه.

السادس: اتفاق كتب الله على

ذلك، وتواطؤها عليه. السابع: أن خواص الخلق، الذين هم أكمل الخليفة أخلاقاً وعقولا، ورأياً وصواباً، وعلماً - وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون - قد شهدوا به بذلك.

الثامن: ما أقامه الله من الأدلة الأفقية والفضوية، التي تدل على التوحيد أعظم دلالة، وتنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعته، وبديع حكمته، وغرائب خلقه.

فهذه الطرق التي أكثر الله من دعوة الخلق بها إلى أنه لا إله إلا الله، وأبداها في كتابه وأعادها عند تأمل العبد في بعضها، لا بد أن يكون عنده يقين وعلم بذلك، فكيف إذا اجتمعت وتواطأت واتفقت، وقامت أدلة التوحيد من كل جانب، فهناك يرسخ الإيمان والعلم بذلك في قلب العبد، بحيث يكون كالجبال الرواسي، لا تترزله الشبه والخيالات، ولا يزداد - على تكرر الباطل والشبه - إلا نمواً وكمالاً.

هذا، وإن نظرت إلى الدليل العظيم، والأمر الكبير - وهو تدبر هذا القرآن العظيم، والتأمل في آياته - فإنه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد ويحصل به من تفاصيله وجملة ما لا يحصل في غيره.

وقوله: ﴿واستغفر لذنبك﴾ أي: اطلب من الله المغفرة لذنبك، بأن تفعل أسباب المغفرة من التوبة والدعاء بالمغفرة، والخسرات الماحية، وترك الذنوب والعفو عن الجرائم. ﴿و﴾ استغفر أيضاً للمؤمنين والمؤمنات، فإنهم - بسبب إيمانهم - كان لهم حق على كل مسلم ومسلمة.

ومن جملة حقوقهم أن يدعو لهم بالاستغفار لهم المتضمن لإزالة الذنوب وعقوباتها عنهم، فإن من لوازم ذلك النصح لهم، وأن يجب لهم من الخير ما

أسماعهم، ووعته قلوبهم، وانقادت له جوارحهم، ولكنهم يعكس هذه الحال، ولهذا قال: ﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم﴾ أي: ختم عليها، وسد أبواب الخير التي تصل إليها بسبب اتباعهم أهواءهم، التي لا يهتدون فيها إلا الباطل.

ثم بين حال المهتدين، فقال: ﴿والذين اهتدوا﴾ بالإيمان والانتقاد، واتباع ما يرضي الله ﴿زادهم هدى﴾ شكراً منه تعالى لهم على ذلك، ﴿وأتاهم تقواهم﴾ أي: وفقهم للخير، وحفظهم من الشر، فذكر للمهتدين جزامين: العلم النافع، والعمل الصالح.

﴿١٨﴾ ﴿فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم﴾ أي: فهل ينظر هؤلاء المكذبون أو ينتظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة؟ أي: فجأة، وهم لا يشعرون ﴿فقد جاء أشراطها﴾ أي: علاماتها الدالة على قربها.

﴿فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم﴾ أي: من أين لهم، إذا جاءتهم الساعة وانقطعت آجالهم أن يتذكروا ويستعتبروا؟ قد فات ذلك، وذهب وقت التذكر، فقد عمروا ما يتذكر فيه من تذكركم، وجاءهم التنذير.

(١) في ب: وجلاله.

وقول معروف ﴿أي: فأولى لهم أن يمتثلوا الأمر الحاضر المحتم عليهم، ويجمعوا عليه مهمهم، ولا يطلبوا أن يشرع لهم ما هو شاق عليهم، ويلفحروا بعافية الله تعالى وعفوه.

﴿فلماذا عزم الأمر﴾ أي: جاءهم الأمر جد، وأمر محتم، ففي هذه الحال لو صدقوا الله بالاستعانة به، وبذل الجهد في امثاله ﴿لكان خيرا لهم﴾ من حالهم الأولى، وذلك من وجوه:

منها: أن العبد ناقص من كل وجه، لا قدرة له إلا إن أعانه الله، فلا يطلب زيادة على ما هو قائم بصدده. ومنها: أنه إذا تعلقت نفسه

بمحبة لنفسه، ويكره لهم من الشر ما يكره لنفسه، ويأمرهم بما فيه الخير لهم، وينهاهم عما فيه ضررهم، ويعفو عن مساوئهم ومعائبهم، ويحرص على اجتماعهم اجتماعاً تتألف به قلوبهم، ويزول ما بينهم من الأحقاد الفضية للمعادة والشفاق، الذي به تكثر ذنوبهم ومعاصيهم.

﴿والله يعلم متقلبكم﴾ أي: تصرفاتكم وحركاتكم، وذهابكم ومجيئكم، ﴿ومشاوكم﴾ الذي به تستقرون، فهو يعلمكم في الحركات والسكنات، فيجازيكم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

﴿٢٠ - ٢٣﴾ ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر الغشي عليه من الموت فأولى لهم \* طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم \* فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم \* أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴿ يقول تعالى: ﴿ويقول الذين آمنوا﴾ استعجالاً ومبادرة للأوامر الشاقة: ﴿لولا نزلت سورة﴾ أي: فيها الأمر بالقتال.

﴿٢٠ - ٢٣﴾ ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر الغشي عليه من الموت فأولى لهم \* طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم \* فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم \* أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴿ يقول تعالى: ﴿ويقول الذين آمنوا﴾ استعجالاً ومبادرة للأوامر الشاقة: ﴿لولا نزلت سورة﴾ أي: فيها الأمر بالقتال.

﴿فإذا أنزلت سورة محكمة﴾ أي: ملزم العمل بها، ﴿وذكر فيها القتال﴾ الذي هو أشق شيء على النفوس، لم يثبت ضعفه الإيمان على امثال هذه الأوامر، ولهذا قال: ﴿رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر الغشي عليه من الموت﴾ من كراحتهم لذلك، وشدة عليهم.

وهذا كقوله تعالى: ﴿لم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾.

ثم نديهم تعالى إلى ما هو الأليق بحالهم، فقال: ﴿فأولى لهم \* طاعة

ومنها: أن العبد المؤمل للأمال المستقبلية، مع كسله عن عمل الوقت الحاضر، شبيه بالثنائي الذي يجزم بقدرته، على ما يستقبل من أموره، فأحرى به أن يخذل ولا يقوم بما هم به ووطن نفسه<sup>(١)</sup> عليه، فالذي ينبغي أن يجمع العبد همه وفكرته ونشاطه على وقته الحاضر، ويؤدي وظيفته بحسب قدرته، ثم كلما جاء وقت استقبله بنشاط وهمة عالية مجتمعة غير متفرقة، مستعينا بربه في ذلك، فهذا حرطي بالتوفيق والتشديد في جميع أموره.

ثم ذكر تعالى حال الثولي عن طاعة ربه، وأنه لا يتولى إلى خير، بل إلى شر، فقال: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ أي: فهما أمران، إما التزام لطاعة الله، وامتنال لأوامره، فتم الخير والرشد والفلاح، وإما إعراض عن ذلك، وتولي عن طاعة الله، فما ثم إلا الفساد في الأرض بالعمل بالمعاصي وقطيعة الأرحام.

﴿أولئك الذين﴾ أفسدوا في

﴿٢٤﴾ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴿أي: فهل يتدبر هؤلاء المعرضون لكتاب الله، ويتأملونه حق التأمل، فإنهم لو تدبروه، لدلّهم على كل خير، ولحذّرهم من كل شر، ولأل قلوبهم من الإيمان، وأفشدتهم من الإيقان، ولأوصلهم إلى المطالب العالية، والمواهب الغالية، ولبيّن لهم الطريق الموصلة إلى الله، وإلى جنته ومكملاتها ومفسدها، والطريق الموصلة إلى العذاب، وبأي شيء تحذر، ولعرفهم بربهم، وأسمائه وصفاته وإحسانه، ولشوقهم إلى الثواب الجزيل، ورهبهم من العقاب الويليل.

﴿٢٤﴾ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴿أي: فهل يتدبر هؤلاء المعرضون لكتاب الله، ويتأملونه حق التأمل، فإنهم لو تدبروه، لدلّهم على كل خير، ولحذّرهم من كل شر، ولأل قلوبهم من الإيمان، وأفشدتهم من الإيقان، ولأوصلهم إلى المطالب العالية، والمواهب الغالية، ولبيّن لهم الطريق الموصلة إلى الله، وإلى جنته ومكملاتها ومفسدها، والطريق الموصلة إلى العذاب، وبأي شيء تحذر، ولعرفهم بربهم، وأسمائه وصفاته وإحسانه، ولشوقهم إلى الثواب الجزيل، ورهبهم من العقاب الويليل.

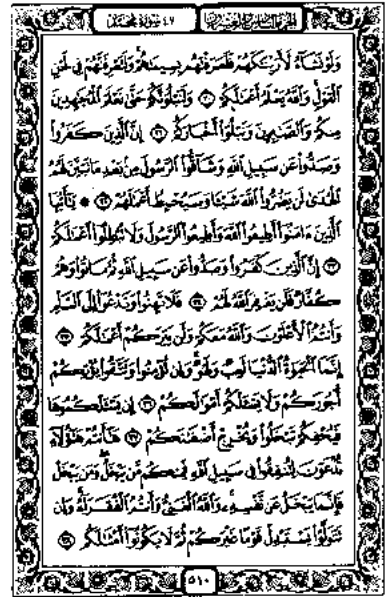
﴿٢٤﴾ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴿أي: فهل يتدبر هؤلاء المعرضون لكتاب الله، ويتأملونه حق التأمل، فإنهم لو تدبروه، لدلّهم على كل خير، ولحذّرهم من كل شر، ولأل قلوبهم من الإيمان، وأفشدتهم من الإيقان، ولأوصلهم إلى المطالب العالية، والمواهب الغالية، ولبيّن لهم الطريق الموصلة إلى الله، وإلى جنته ومكملاتها ومفسدها، والطريق الموصلة إلى العذاب، وبأي شيء تحذر، ولعرفهم بربهم، وأسمائه وصفاته وإحسانه، ولشوقهم إلى الثواب الجزيل، ورهبهم من العقاب الويليل.

﴿٢٤﴾ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴿أي: فهل يتدبر هؤلاء المعرضون لكتاب الله، ويتأملونه حق التأمل، فإنهم لو تدبروه، لدلّهم على كل خير، ولحذّرهم من كل شر، ولأل قلوبهم من الإيمان، وأفشدتهم من الإيقان، ولأوصلهم إلى المطالب العالية، والمواهب الغالية، ولبيّن لهم الطريق الموصلة إلى الله، وإلى جنته ومكملاتها ومفسدها، والطريق الموصلة إلى العذاب، وبأي شيء تحذر، ولعرفهم بربهم، وأسمائه وصفاته وإحسانه، ولشوقهم إلى الثواب الجزيل، ورهبهم من العقاب الويليل.

﴿٢٤﴾ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴿أي: فهل يتدبر هؤلاء المعرضون لكتاب الله، ويتأملونه حق التأمل، فإنهم لو تدبروه، لدلّهم على كل خير، ولحذّرهم من كل شر، ولأل قلوبهم من الإيمان، وأفشدتهم من الإيقان، ولأوصلهم إلى المطالب العالية، والمواهب الغالية، ولبيّن لهم الطريق الموصلة إلى الله، وإلى جنته ومكملاتها ومفسدها، والطريق الموصلة إلى العذاب، وبأي شيء تحذر، ولعرفهم بربهم، وأسمائه وصفاته وإحسانه، ولشوقهم إلى الثواب الجزيل، ورهبهم من العقاب الويليل.

﴿٢٤﴾ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴿أي: فهل يتدبر هؤلاء المعرضون لكتاب الله، ويتأملونه حق التأمل، فإنهم لو تدبروه، لدلّهم على كل خير، ولحذّرهم من كل شر، ولأل قلوبهم من الإيمان، وأفشدتهم من الإيقان، ولأوصلهم إلى المطالب العالية، والمواهب الغالية، ولبيّن لهم الطريق الموصلة إلى الله، وإلى جنته ومكملاتها ومفسدها، والطريق الموصلة إلى العذاب، وبأي شيء تحذر، ولعرفهم بربهم، وأسمائه وصفاته وإحسانه، ولشوقهم إلى الثواب الجزيل، ورهبهم من العقاب الويليل.

(١) في ب: وتوعد نفسه، وكذلك كانت في أ من قبل ثم شطبها الشيخ - رحمه الله - وعذّلها إلى: وطن نفسه.



فلا يدخلها خير أبداً؟ هذا هو الواقع .

﴿٢٥ - ٢٨﴾ **﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾** \* ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم \* فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم \* ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم﴾ يخبر تعالى عن حالة المرتدين عن الهدى والإيمان على أعقابهم إلى الضلال والكفران، ذلك لا عن دليل دلهم ولا برهان، وإنما هو تسويل من عدوهم الشيطان وتزيين لهم، وإملاء منه لهم: **﴿يَعْدَهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعْدَهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾** .

وذلك أنهم قد تبين لهم الهدى، فزهدوا فيه ورفضوه، و **﴿قالوا للذين كرهوا ما نزل الله﴾** من البارزين العداوة لله ولرسوله **﴿سنطيعكم في بعض الأمر﴾** أي: الذي يوافق أهواءهم، فلذلك عاقبهم الله بالضلال، والإقامة على ما يوصلهم إلى الشقاء الأبدي، والعذاب السرمدي .

**﴿والله يعلم إسرارهم﴾** فلذلك فضحهم، وبينها لعباده المؤمنين، لئلا يغتروا بها .

**﴿فكيف﴾** ترى حالهم الشنيعة، ورؤيتهم المظيعة **﴿إذا توفتهم**

الملائكة﴾ الموكلون بقبض أرواحهم، **﴿يضربون وجوههم وأدبارهم﴾** باقاع الشديدة؟!

**﴿ذلك﴾** العذاب الذي استحقوه ونالوه **﴿ب﴾** سبب **﴿أنهم اتبعوا ما أسخط الله﴾** من كل كفر وفسوق وعصيان .

**﴿وكرهوا رضوانه﴾** فلم يكن لهم رغبة فيما يقربهم إليه، ولا يذنبهم منه، **﴿فأحبط أعمالهم﴾** أي: أبطلها وأذهبها، وهذا بخلاف من اتبع ما يرضي الله وكره سخطه، فإنه سيكفر عنه سيئاته، ويضعاف أجره ونوابه .

﴿٢٩ - ٣١﴾ **﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾** \* ولو شاء لأريناكمهم فلعرفتهم بسيماهم \* ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم \* ولتبلونكم حتى تعلم الجاهدين منكم والصابرين وتبيلوا أخباركم﴾ يقول تعالى: **﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾** من شبهة أو شهوة، بحيث تخرج القلب عن حال صحته واعتداله، أن الله لا يخرج ما في قلوبهم من الأضغان والعداوة للإسلام وأهله؟ هذا ظن لا يليق بحكمة الله، فإنه لا بد أن يميز الصادق من الكاذب، وذلك بالابتلاء بالمحن، التي من ثبت عليها، ودام إيمانه فيها، فهو المؤمن حقيقة، ومن رذته على عقبيه فلم يصبر عليها، وحين آتاه الامتحان، جزع وضعف إيمانه، وخرج ما في قلبه من الضغن، وتبين نفاقه، هذا مقتضى الحكمة الإلهية، مع أنه تعالى قال: **﴿ولو نشاء لأريناكمهم فلعرفتهم بسيماهم﴾** أي: بعلاماتهم التي هي كالرسم في وجوههم .

**﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾** أي: لا بد أن يظهر ما في قلوبهم، ويتبين بقلبات المستتهم، فإن الألسن مغارف القلوب، يظهر منها ما في القلوب من الخير والشر **﴿والله يعلم أعمالكم﴾** فيجازيكم عليها .

ثم ذكر أعظم امتحان يمتحن به عباده، وهو الجهاد في سبيل الله،

فقال: **﴿ولتبلونكم﴾** أي: نختبر إيمانكم وصبركم، **﴿حتى تعلم الجاهدين منكم والصابرين وتبيلوا أخباركم﴾** فمن امتثل أمر الله وجاهد في سبيل الله لنصر دينه وإعلاء كلمته فهو المؤمن حقاً، ومن تكاسل عن ذلك، كان ذلك نقصاً في إيمانه .

﴿٣٢﴾ **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرُّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يُضْرَبُوا اللَّهُ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾** هذا وعيد شديد لمن جمع أنواع الشر كلها، من الكفر بالله، وصد الخلق عن سبيل الله الذي نصبه موصلاً إليه .

**﴿وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى﴾** أي: عاندوه وخالفوه عن عمد وعناد، لا عن جهل وغي وضلال، فإنهم **﴿لن يضروا الله شيئاً﴾** فلا ينقص به ملكه .

**﴿وسيحبط أعمالهم﴾** أي: مساعيتهم التي بذلوها في نصر الباطل، بأن لا تثمر لهم إلا الخيبة والخسران، وأعمالهم التي يرجون بها الثواب، لا تقبل لعدم وجود شرطها .

﴿٣٣﴾ **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرُّسُولَ وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾** يأمر تعالى المؤمنين بأمر به تتم أمورهم، وتحصل سعادتهم الدنيوية والدنيوية، وهو طاعته وطاعة رسوله في أصول الدين وفروعه، والطاعة هي امتثال الأمر، واجتناب النهي على الوجه المأمور به بالإخلاص وتمام المثابرة .

وقوله: **﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾** يشمل النهي عن إبطالها بعد عملها، بما يفسدها، من من بها وإعجاب، وفخر وسمعة، ومن عمل بالمعاصي التي تضمحل معها الأعمال، ويحبط أجزؤها، ويشمل النهي عن إفسادها حال وقوعها بقطعها، أو الإتيان بمفسد من مفسداتها .

فبطلات الصلاة والصيام والحج ونحوها، كلها داخلية في هذا، ومنهي عنها، ويستدل الفقهاء بهذه الآية على تحريم قطع الفرض، وكرهه قطع



ثم قال: ﴿ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه﴾ لأنه حرم نفسه ثواب الله تعالى، وفاته خير كثير، ولن يضر الله بترك الإنفاق شيئاً.

فإن الله هو ﴿الغني وأنتم الفقراء﴾ محتاجون إليه في جميع أوقاتكم، لجميع أموركم.

﴿وإن تتولوا﴾ عن الإيمان بالله، وامتنال ما يأمركم به ﴿يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ في التولي، بل يطيعون الله ورسوله، ويحيون الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾.

تم تفسير سورة القتال،  
والحمد لله رب العالمين

### تفسير سورة الفتح وهي مدنية

﴿١-٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً \* ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً \* وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾

هذا الفتح المذكور هو صلح الحديبية، حين صد المشركون رسول الله ﷺ لما جاء معتمراً في قصة طويلة، صار آخر أمرها أن صالحهم رسول الله ﷺ على وضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين، وعلى أن يعتمر من العام المقبل، وعلى أن من أراد أن يدخل في عهد قريش وحلفهم دخل، ومن أحب أن يدخل في عهد رسول الله ﷺ وعقده فعل.

وبسبب ذلك لما أمن الناس بعضهم بعضاً، اتسعت دائرة الدعوة لدين الله عز وجل، وصار كل مؤمن بأي محل كان من تلك الأقطار، يتمكن من ذلك، وأمكن الحرير على الوقوف على حقيقة الإسلام، فدخل الناس في تلك المدة في دين الله أفواجا، فلذلك سماه الله فتحاً، ووصفه بأنه فتح مبين أي: ظاهر جلي، وذلك لأن المقصود

في فتح بلدان المشركين إعزاز دين الله، وانتصار المسلمين، وهذا حصل بذلك<sup>(١)</sup> الفتح، ورتب الله على هذا الفتح عدة أمور، فقال: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ وذلك - والله أعلم - بسبب ما حصل بسببه من الطاعات الكثيرة، والدخول في الدين بكثرة، وبما تحمّل ﷺ من تلك الشروط التي لا يصبر عليها إلا أولو العزم من المرسلين، وهذا من أعظم مناقبه وكراماته ﷺ، أن غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

﴿ويتم نعمته عليك﴾ بإعزاز دينك، ونصرك على أعدائك، واتساع كلمتك، ﴿ويهديك صراطاً مستقيماً﴾ تنال به السعادة الأبدية، والفلاح السرمدي.

﴿وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾ أي: قوياً لا يتضعف فيه الإسلام، بل يحصل الانتصار التام، وقمع الكافرين، وذلمهم ونقصهم، مع توفر قوى المسلمين ونموهم، ونمو أموالهم.

ثم ذكر آثار هذا الفتح على المؤمنين، فقال: ﴿٤-٦﴾ ﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم والله جنود السماوات والأرض وكان الله عليماً حكيماً \* ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً \* ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً﴾.

يجري تعالى عن يمينه على المؤمنين بإنزال السكينة في قلوبهم، وهي السكون والطمأنينة، والثبات عند نزول المحن المقلقة، والأمور الصعبة، التي تشوش القلوب، وتزعج الألباب، وتضعف النفوس، فمن

نعمة الله على عبده في هذه الحال أن يشبته ويربط على قلبه، وينزل عليه السكينة، لينتقى هذه المشقات بقلب ثابت ونفس مطمئنة، فيستعد بذلك لإقامة أمر الله في هذه الحال، فيزداد بذلك إيمانه، ويتم إيقانه، فالصحابة رضي الله عنهم لما جرى ما جرى بين رسول الله ﷺ والمشركين، من تلك الشروط التي ظاهرها أنها غضاضة عليهم، وحط من أقدارهم، وتلك لا تكاد تصبر عليها النفوس، فلما صبروا عليها ووطنوا أنفسهم لها، ازدادوا بذلك إيماناً مع إيمانهم. وقوله: ﴿والله جنود السماوات والأرض﴾ أي:

جميعها في ملكه، وتحت تدييره وفهره، فلا يظن المشركون أن الله لا يصبر دينه ونبيه، ولكنه تعالى عليم حكيم، ففتنضي حكمته المداولة بين الناس في الأيام، وتأخير نصر المؤمنين إلى وقت آخر. ﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم﴾ فهذا أعظم ما يحصل للمؤمنين، أن يحصل لهم المرغوب المطلوب بدخول الجنات، ويزيل عنهم المحذور بتكفير السيئات. ﴿وكان ذلك﴾ الجزء المذكور للمؤمنين ﴿عند الله فوزاً عظيماً﴾ فهذا ما يفعل بالمؤمنين في ذلك الفتح المبين.

وأما المنافقون والمنافقات، والمشركون والمشركات، فإن الله يعذبهم بذلك، ويريم ما يسوؤهم؛ حيث كان مقصودهم خذلان المؤمنين، وظنوا بالله الظن السوء، أنه لا ينصر دينه، ولا يُعلي كلمته، وأن أهل الباطل، ستكون لهم الدائرة على أهل الحق، فأدار الله عليهم ظنهم، وكانت دائرة السوء عليهم في الدنيا، ﴿وغضب الله عليهم﴾ بما اقترفوه من المحاذة لله ولرسوله، ﴿ولعنهم﴾ أي: أبعدهم وأقصاهم عن رحمته ﴿وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً﴾.

﴿٧﴾ ﴿والله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ كرر

الإخبار بأن له ملك السماوات والأرض وما فيهما من الجنود، ليعلم العباد أنه تعالى هو المعز المذل، وأنه سينصر جنوده المنسوبة إليه، كما قال تعالى: ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾ ﴿وكان الله عزيزاً﴾ أي: قوياً غالباً، قاهراً لكل شيء، ومع عزته وقوته فهو حكيم في خلقه وتديبه، يجري على ما تقتضيه حكمته وإتقانه.

﴿٨٠-٩﴾ ﴿إننا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾ لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً﴾ أي: ﴿إننا أرسلناك﴾ أيها الرسول الكريم ﴿شاهداً﴾ لا متك بما فعلوه من خير وشر، وشاهداً على المقالات والمسائل، حقها وباطلها، وشاهداً لله تعالى بالوحدانية والانفراد بالكمال من كل وجه، ﴿ومبشراً﴾ من أطاعك وأطاع الله بالثواب الدنيوي والديني والأخروي، ومنذراً من عصى الله بالعقاب العاجل والآجل، ومن تمام البشارة والندارة، بيان الأعمال والأخلاق التي يبشر بها وينذر، فهو البين للخير والشر، والسعادة والشقاوة، والحق من الباطل، ولهذا رتب على ذلك قوله: ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله﴾ أي: بسبب دعوة الرسول لكم، وتعليمه لكم ما ينفعكم، أرسلناه لتقوموا بالإيمان بالله ورسوله، المستلزم ذلك لطاعتها في جميع الأمور.

﴿وتعزروه وتوقروه﴾ أي: تعزروا الرسول ﷺ وتوقروه أي: تعظموه وتحملوه، وتقوموا بحقوقه، كما كانت له المنة العظيمة بركابكم، ﴿وتسبحوه﴾ أي: تسبحوا لله ﴿بكرة وأصيلاً﴾ أول النهار وآخره، فذكر الله في هذه الآية الحق المشترك بين الله وبين رسوله، وهو الإيمان بهما، والمختص بالرسول، وهو التعزير والتوقير، والمختص بالله، وهو التسبيح له والتقديس بصلاة أو غيرها.

﴿١٠﴾ ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى

بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾ هذه المبايعات التي أشار الله إليها هيبيعة الرضوان التي بايع الصحابة رضي الله عنهم فيها رسول الله ﷺ على أن لا يفروا عنه، فهي عقد خاص، من لوازمه أن لا يفروا، ولو لم يبق منهم إلا القليل، ولو كانوا في حال يجوز الفرار فيها، فأخبر تعالى: أن الذين يبايعوك حقيقة الأمر أنهم ﴿يبايعون الله﴾ ويعقدون العقد معه، حتى إنه من شدة تأكده أنه قال: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ أي: كأنهم بايعوا الله وصافحوه بتلك المبايعات، وكل هذا لزيادة التأكيد والتقوية، وحملهم على الوفاء بها، ولهذا قال: ﴿فمن نكث﴾ فلم يف بما عاهد الله عليه ﴿فإنما ينكث على نفسه﴾ أي: لأن وبال ذلك راجع إليه، وعقوبته وأصله له، ﴿ومن أوفى بما عاهد عليه الله﴾ أي: أتى به كاملاً موفراً، ﴿فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾ لا يعلم عظمه وقدره إلا الذي آتاه إياه.

﴿١١-١٣﴾ ﴿سب قولك﴾ المتخلفون من الأعراب شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً \* بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً وزيّن ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً \* ومن لم يؤمن بالله ورسوله فلنا اعتدنا للكافرين سميراً﴾ يذم تعالى المتخلفين عن رسوله، في الجهاد في سبيله، من الأعراب الذين ضعف إيمانهم، وكان في قلوبهم مرض، وسوء ظن بالله تعالى، وأنهم سيعترفون بأن أموالهم وأهلهم شغلتهم عن الخروج في الجهاد، وأنهم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يستغفر لهم، قال الله تعالى: ﴿يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾ فإن طلبهم الاستغفار من رسول الله ﷺ يدل على ندمهم وإقرارهم على أنفسهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنزَلْنَا الْقُرْآنَ بِالْحَقِّ وَاللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ وَإِنَّا لَنَرُّوكم وَعِبادُكُمُ الْمَسْكُونَةَ ﴿٢﴾ وَنُصِرْكُمْ وَتَكْفُرْكُمْ بِقَوْلِ كَافِرٍ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي قَرَأَ السُّورَةَ عَلَى الْقَوْمِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤﴾ إِنَّهُمْ لَمِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٥﴾ وَكَانَ اللَّهُ غَافِقًا كَاتِبًا ﴿٦﴾ لِيُحِيطَ الْغَايِبِينَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ قَوْمِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يَا كَافِرِينَ ﴿٩﴾ عَمَلُكُمْ سِجْنَةٌ وَمَنْ أَدْرَاكَ عَذَابَ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿١٠﴾ وَتَلَا تَتَّبِعُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ لَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ الظَّالِمِينَ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ سُبُلَ الَّذِينَ أَدْرَأُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الْعَذَابُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾

بالذنوب، وأنهم تخلفوا تخلفاً يحتاج إلى توبة واستغفار، فلو كان هذا الذي في قلوبهم، لكان استغفار الرسول نافعاً لهم، لأنهم قد تابوا وأنبأوا، ولكن الذي في قلوبهم، أنهم إنما تخلفوا لأنهم ظنوا بالله ظن السوء.

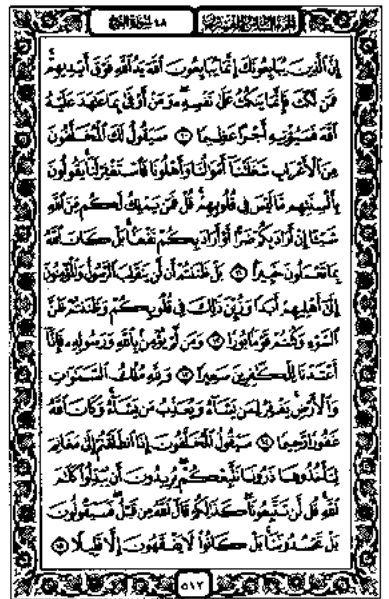
فظنوا ﴿أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً﴾ أي: إنهم سيقتلون ويستأصلون، ولم يزل هذا الظن يزين في قلوبهم، ويطمئنون إليه، حتى استحكمت، وسبب ذلك أمران:

أحدهما: أنهم كانوا ﴿قوماً بوراً﴾ أي: هلكي، لا خير فيهم، فلو كان فيهم خير لم يكن هذا في قلوبهم.

الثاني: ضعف إيمانهم ويقينهم بوعد الله، ونصر دينه، وإعلاء كلمته، ولهذا قال: ﴿ومن لم يؤمن بالله ورسوله﴾ أي: فإنه كافر مستحق للعقاب، ﴿فلنا اعتدنا للكافرين سميراً﴾.

﴿١٤﴾ ﴿وإنه ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي: هو تعالى المنفرد بملك السماوات والأرض، يتصرف فيهما بما يشاء من الأحكام القدريّة، والأحكام الشرعية، والأحكام الجزائية، ولهذا ذكر حكم الجزاء المرتب على الأحكام الشرعية، فقال: ﴿يغفر لمن يشاء﴾ وهو من قام





بما أمره الله به «ويعذب من يشاء»  
 ممن تهاون بأمر الله، «وكان الله غفوراً  
 رحيماً» أي: وصفه اللازم الذي  
 لا ينفك عنه المغفرة والرحمة، فلا يزال  
 في جميع الأوقات يغفر للمذنبين،  
 ويتجاوز عن الخطائين، ويتقبل توبة  
 التائبين، وينزل خيره المردار، آناه الليل  
 والنهار.

﴿١٥﴾ «سيقول المخلفون إذا  
 انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا  
 تتبعكم يريدون أن يبذلوا كلام الله قل  
 لن نتبعونكم كذلك قال الله من قبل  
 فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا  
 لا يفقهون إلا قليلاً» لما ذكر تعالى  
 المخلفين وذهمهم، ذكر أن من عقوبتهم  
 الدنيوية، أن رسول الله ﷺ وأصحابه  
 إذا انطلقوا إلى غنائم لا قتال فيها  
 ليأخذوها، طلبوا منهم الصحبة  
 والمشاركة، ويقولون: «ذرونا تتبعكم  
 يريدون» بذلك «أن يبذلوا كلام الله»  
 حيث حكم بعقوبتهم، واختصاص  
 الصحابة المؤمنين بتلك الغنائم، شرعاً  
 وقدرأ. «قل» لهم «لن نتبعوننا  
 كذلك قال الله من قبل» إنكم  
 محرمون منها بما جئتم على أنفسكم،  
 وبما تركتم القتال أول مرة.

«فسيقولون» مجيبين لهذا الكلام،  
 الذي منعوا به عن الخروج: «بل  
 تحسدوننا» على الغنائم، هذا منتهى  
 علمهم في هذا الموضع، ولو فهموا

رشدهم، لعلموا أن حرمانهم بسبب  
 عصيانهم، وأن المعاصي لها عقوبات  
 دنيوية ودينية، ولهذا قال: «بل كانوا  
 لا يفقهون إلا قليلاً».

﴿١٦ - ١٧﴾ «قل للمخلفين من  
 الأعراب استدعون إلى قوم أولي بأس  
 شديد فتقاتلواهم أو يسلمون فإن تطيعوا  
 يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تولوا كما  
 توليتهم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً \*  
 ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج  
 حرج ولا على المريض حرج ومن  
 يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري  
 من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبها  
 عذاباً أليماً» لما ذكر تعالى أن المخلفين من

الأعراب يتخلفون عن الجهاد في  
 سبيله، ويعتذرون بغير عذر، وأنهم  
 يطلبون الخروج معهم إذا لم يكن شركة  
 ولا قتال، بل لمجرد الغنمة، قال تعالى  
 محتثاً لهم: «قل للمخلفين من  
 الأعراب استدعون إلى قوم أولي بأس  
 شديد» أي: سيدعوكم الرسول ومن  
 تاب منابه من الخلفاء الراشدين  
 والأئمة، وهؤلاء القوم فارس والروم  
 ومن نحنا نحوهم وأشبههم.

«فتقاتلواهم أو يسلمون» أي: إما هذا  
 وإما هذا، وهذا هو الأمر الواقع،  
 فإنهم في حال قتالهم ومقاتلتهم  
 لأولئك الأقرام، إذ كانت شدتهم  
 وبأسهم معهم، فإنهم في تلك الحال  
 لا يقبلون أن يبذلوا الجزية، بل إما أن  
 يدخلوا في الإسلام، وإما أن يقاتلوا  
 على ما هم عليه، فلما أثنخهم  
 المسلمون، وضعفوا وذلوا، ذهب  
 بأسهم، فصاروا إما أن يسلموا، وإما  
 أن يبذلوا الجزية، «فإن تطيعوا»  
 الداعي لكم إلى قتال هؤلاء  
 «يؤتكم الله أجراً حسناً» وهو الأجر  
 الذي رتبته الله ورسوله على الجهاد في  
 سبيل الله، «وإن تولوا كما توليتهم من  
 قبل» عن قتال من دعاكم الرسول إلى  
 قتاله، «يعذبكم عذاباً أليماً» ودلت  
 هذه الآية على فضيلة الخلفاء  
 الراشدين، الداعين لجهاد أهل البأس  
 من الناس، وأنه تجب طاعتهم في  
 ذلك.

ثم ذكر الأعداء التي يعذر بها العبد  
 عن الخروج إلى الجهاد، فقال: «ليس  
 على الأعمى حرج ولا على الأعرج  
 حرج ولا على المريض حرج» أي: في  
 التخلف عن الجهاد لعذرهم المانع.

«ومن يطع الله ورسوله» في  
 امتثال أمرها، واجتنب نهيها  
 «يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار»  
 فيها ما تشبه الأضس، وتلد الأعين،  
 «ومن يتول» عن طاعة الله ورسوله  
 «يعذبها عذاباً أليماً» فالسعادة كلها في  
 طاعة الله، والشقاوة في معصيته  
 ومخالفته.

﴿١٨ - ٢١﴾ «لقد رضي الله عن  
 المؤمن إذ يباعدونك تحت الشجرة فعلم  
 ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم  
 وأثابهم فتحاً قريباً \* ومغانم كثيرة  
 يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً \*  
 وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها  
 فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس  
 عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهدىكم  
 صراطاً مستقيماً \* وأخرى لم تقدروا  
 عليها قد أحاط الله بها وكان الله على  
 كل شيء قديراً» يجيز تعالى بفضل  
 ورحمته، برضاه عن المؤمنين إذ يباعدون  
 الرسول ﷺ تلك المباينة التي بيضت  
 وجوههم، واكتسبوا بها سعادة الدنيا  
 والآخرة، وكان سبب هذه البيعة -  
 التي يقال لها «بيعة الرضوان» لرضا الله  
 عن المؤمنين فيها، ويقال لها «بيعة أهل  
 الشجرة» - أن رسول الله ﷺ لما دار  
 الكلام بينه وبين المشركين يوم الحديبية  
 في شأن حجته، وأنه لم يجرى لقتال  
 أحد، وإنما جاء زائراً هذا البيت،  
 معظماً له، فبيعت رسول الله ﷺ  
 عثمان بن عفان لمكة في ذلك، فجاء  
 خبر غير صادق، أن عثمان قتله  
 المشركون، فجمع رسول الله ﷺ من  
 معه من المؤمنين، وكانوا نحواً من ألف  
 وخمس مئة، فباعدوه تحت شجرة على  
 قتال المشركين، وأن لا يفروا حتى  
 يموتوا، فأخبر تعالى أنه رضي عن  
 المؤمنين في تلك الحال، التي هي من  
 أكبر الطاعات وأجل القربات، «فعلم  
 ما في قلوبهم» من الإيمان، «فأنزل





ولم نجىء لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه، فقال النبي ﷺ: «فروحوا إذا»، فراحوا، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش، فخذوا ذات اليمين»، فوالله ما شعر بهم خالد، حتى إذا هو بغبرة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش.

وسار النبي ﷺ، حتى إذا كان بالشبية التي يهبط عليهم منها، بركت راحلته، فقال الناس: حل حل، فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»، ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمان الله إلا أعطيتهمها»، ثم زجرها، فوثبت به، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية، على ثمد قليل الماء، إنما يتبرضه الناس تبرضاً، فلم يلبث الناس أن تزحوه، فشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش.

فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوها فيه، قال: فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنها، وفزعت قريش لنزوله عليهم، فأحب رسول الله ﷺ أن يبعث إليهم رجلاً من أصحابه، فدعا عمر بن الخطاب لبعثه إليهم، فقال: يا رسول الله، ليس بمكة أحد من بني كعب يغضب لي، إن أوديت، فأرسل عثمان بن عفان، فإن عشيرته بها، وإنه مبلغ ما أردت.

فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان، فأرسله إلى قريش، وقال: «أخبرهم أن لم تأت لقتال، إنما جئنا عُمَّاراً، وادعهم إلى الإسلام».

وأمره أن يأتي رجلاً بمكة مؤمنين، ونساء مؤمنات، فيدخل عليهم ويبشرهم بالفتح، ويجبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة، حتى لا يستخفى فيها بالإيمان، فانطلق

عشرة مئة، قال: يرحه الله وهم، وهو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مئة، قلت: وقد صح عن جابر القولان، وضح عنه أنهم نحروا عام الحديبية سبعين بدنة، البدنة عن سبعة، فقيل له: كم كنتم؟ قال: ألفاً وأربع مئة، بخيلنا ورجلنا، يعني: فارسهم وراجلهم.

والقلب إلى هذا أميل، وهو قول البراء بن عازب، ومعقل بن يسار، وسلمة بن الأكوع، في أصح الروايتين، وقول المسيب بن حزن، قال شعبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن أبيه: كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفاً وأربع مئة، وغلط غلطاً بيئاً من قال: كانوا سبع مئة، وعذره<sup>(١)</sup> أنهم نحروا يومئذ سبعين بدنة، والبدنة قد جاء أجزاءها عن سبعة أو عشرة، وهذا لا يدل على ما قاله هذا القائل، فإنه قد صرح بأن البدنة كانت في هذه الغزوة عن سبعة، فلو كانت السبعون عن جميعهم، لكانوا أربع مئة وتسعين رجلاً، وقد قال بتمام الحديث بعينه، أنهم كانوا ألفاً وأربع مئة.

### فصل

فلما كانوا بذئ الخليفة، قلده رسول الله ﷺ السهلي وأشعره، وأحرم بالعمرة، وبعث عيناً له بين يديه من خزاعة، يخبره عن قريش، حتى إذا كانوا قريباً من عُسفان، أتاه عينه، فقال: إني قد تركت كعب بن لؤي، قد جمعوا لك الأحابيش، وجمعوا لك جوعاً، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت.

واستشار النبي ﷺ أصحابه: أترون أن نميل إلى ذراري هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم، فإن قعدوا قعدوا موتورين محزونين، وإن نجوا تكن عنقاً قطعها الله، أم ترون أن نؤم البيت؟ فمن صدنا عنه قاتلناه؟ قال أبو بكر: الله ورسوله أعلم، إنما جئنا معتمرين،

كالزعر الذي أخرج شطأه، فأزره فاستغلظ، ولهذا قال: «ليفيظ بهم الكفار» حين يرون اجتماعهم وشدتهم على دينهم، وحين يتصادمون هم وهم في معارك الزوال، ومعامع القتال.

«وعهد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا» فالصحابة رضي الله عنهم، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، قد جمع الله لهم بين المغفرة، التي من لوازمها وقاية شرور الدنيا والآخرة، والأجر العظيم في الدنيا والآخرة.

ولنستق قصة الحديبية بطولها، كما ساقها الإمام شمس الدين ابن القيم في «الهدى النبوي»، فإن فيها إعانة على فهم هذه السورة، وتكلم على معانيها وأسرارها، قال - رحمه الله تعالى -:

### فصل في قصة الحديبية

قال نافع: كانت سنة ست في ذي القعدة، وهذا هو الصحيح، وهو قول الزهري، وقاتادة، وموسى بن عقبة، ومحمد بن إسحاق وغيرهم.

وقال هشام بن عروة، عن أبيه: خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية في رمضان، وكانت في شوال، وهذا وهم، وإنما كانت غزاة الفتح في رمضان. قال أبو الأسود عن عروة: إنها كانت في ذي القعدة على الصواب.

وفي الصحيحين عن أنس، أن النبي ﷺ اعتمر أربع عمر، كلهن في ذي القعدة، فذكر منهن عمرة الحديبية، وكان معه ألف وخمس مئة، هكذا في الصحيحين عن جابر، وعنه فيهما: كانوا ألفاً وأربع مئة، وفيهما، عن عبد الله بن أبي أوفى: كنا ألفاً وثلاث مئة، قال قتادة: قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الجماعة الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مئة، قال: قلت: فإن جابر بن عبد الله قال: كانوا أربع

كلمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة على رأس النبي ﷺ، ومعه السيف، وعليه المغفر فكلما أهوى عروة إلى لحية النبي ﷺ، ضرب يده بنعل السيف، وقال: أحر يدك عن لحية رسول الله ﷺ، فرفع عروة رأسه، وقال: من ذا؟ قال: المغيرة بن شعبة، فقال: أي: غدر، أولست أسعى في غدرك؟ وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية، فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فليست منه في شيء».

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب رسول الله ﷺ، فوالله ما تنخم النبي ﷺ نخامة، إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها جلده ووجهه. وإذا أمرهم ابتدروا إلى أمره، وإذا توضعوا، كادوا يقتتلون على رؤسهم، وإذا تكلم، خفضوا أصواتهم عنده، وما يجذون إليه النظر، تعظيماً له.

فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أي: قوم، والله لقد وفدت على الملوك، على كسرى، وقيصصر، والتجاشي، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه، ما يعظم أصحاب محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضعوا كادوا يقتتلون على رؤسهم، وإذا تكلم، خفضوا أصواتهم عنده، وما يجذون إليه النظر تعظيماً له، وقد عرض عليكم خطة رشداً فاقبلوها.

فقال رجل من بني كنانة: دعوني آتة، فقالوا: آتة.

فلما أشرف على النبي ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له»، فبعثوها فاستقبله القوم يلبون، فلما رأى ذلك، قال: سبحان الله، لا ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت.

فرجع إلى أصحابه، فقال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، وما أرى أن يصدوا عن البيت فقام مكرز بن

عن رسول الله ﷺ، وكان أول من بايعه، أبو سنان الأسدي، وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرات، في أول الناس، وأوسطهم، وآخرهم.

فبينما هم كذلك، إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي، في نفر من خزاعة، وكانوا عيبة نصح لرسول الله ﷺ، من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي، وعامر بن لؤي، نزلوا أعداد مياه الحديبية، معهم العوذ الطافيل، وهم مقاتلون، وصادوك عن البيت.

قال رسول الله ﷺ: «إننا لم نجيء لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضررت بهم، فإن شاوروا أمادهم ويخلوا بيني وبين الناس، وإن شاوروا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن أبوا إلا القتال، فوالذي نفسي بيده، لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، أو لينفذن الله أمره»، قال بديل: سأبلغهم ما تقول.

فانطلق حتى أتى قريشاً، فقال: إني قد جئتكم من عند هذا الرجل، وسمعت يقول قولاً، فإن شئتم عرضته عليكم، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن نتحدثنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي: منهم: هات ما سمعته، قال: سمعته يقول كذا وكذا، فقال عروة بن مسعود الثقفي: إن هذا قد عرض عليكم خطة رشداً، فاقبلوها، ودعوني آتة، فقالوا: آتة، فأتاه، فجعل يكلمه، فقال له النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل، فقال له عروة عند ذلك: أي: محمد، أ رأيت لو استأصلت قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاحت أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فوالله إني لأرى وجوهاً، وأرى أوباشاً من الناس، خليفاً أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات، أنحن نفر عنه وندعه؟ قال: من ذا؟ قال: أبو بكر، قال: أما والذي نفسي بيده، لو لا يد كانت لك عندي لم أجرك بها، لأجيتك.

وجعل يكلم النبي ﷺ، وكلما

عثمان، فمر على قريش ببلدح، فقالوا: أين تريد؟ فقال: بعثني رسول الله ﷺ أَدْعُوكم إلى الله وإلى الإسلام، ونخبركم أنا لم نأت لقتال، وإنما جئنا غمّاراً، قالوا: قد سمعنا ما تقول، فانفذ لحاجتك.

وقام إليه أبيان بن سعيد بن العاص، فرحب به، وأسرج فرسه، فحمل عثمان على الفرس، فأجازه، وأردفه أبيان حتى جاء مكة، وقال المسلمون قبل أن يرجع عثمان: خلص عثمان قبلنا إلى البيت طراف به، فقال رسول الله ﷺ: «ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون»، فقالوا: وما يمنعه يا رسول الله وقد خلص؟ قال: «ذاك ظني به، أن لا يطوف بالكعبة حتى نطوف معه»، واختلط المسلمون بالشركيين في أمر الصلح، فرمى رجل من أحد الفريقين رجلاً من الفريق الآخر، وكانت معركة، وتراموا بالنبل والحجارة، وصاح الفريقان كلاهما، وارتعن كل واحد من الفريقين بمن فيه، وبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل، فدعا إلى البيعة.

فثار المسلمون إلى رسول الله ﷺ، وهو تحت الشجرة، فبايعوه على أن لا يفروا، فأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه، وقال: «هذه عن عثمان»، ولما تمت البيعة، رجع عثمان، فقال له المسلمون: اشفت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت، فقال: بشما ظننتم بي، والذي نفسي بيده، لو مكثت بها ستة، ورسول الله ﷺ بمقيم بالحديبية، ما طفت بها حتى يطوف بها رسول الله ﷺ ولقد دعيتي قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت، فقال المسلمون: رسول الله ﷺ، كان أعلمنا بالله، وأحسننا ظناً.

وكان عمر أخذ بيد رسول الله ﷺ للبيعة تحت الشجرة، فبايعه المسلمون كلهم إلا الجند بن قيس، وكان معقل بن يسار، أخذ بغصنها يرفعه

حفص، وقال: دعوني آتة، فقالوا: آتته، فلما أشرف عليهم، قال النبي ﷺ: «هذا مكرز بن حفص، وهو رجل فاجر»، فجعل يكلم رسول الله ﷺ، فبينما هو يكلمه، إذ جاء سهيل بن عمرو، فقال النبي ﷺ: «قد سهل لكم من أمركم»، فقال: هات، اكتب بيننا وبينك كتاباً، فدعا الكاتب، فقال: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: أما الرحمن، فوالله ما ندري ما هو، ولكن اكتب: «باسمك اللهم»، كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال النبي ﷺ: «اكتب باسمك اللهم».

ثم قال: «اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»، فقال سهيل: فوالله لو نعلم أنك رسول الله، ما صدناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فقال النبي ﷺ: «إني رسول الله وإن كذبتُموني، اكتب: محمد بن عبد الله»، فقال النبي ﷺ: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به»، فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة، ولكن لك من العام القيل، فكتب.

فقال سهيل: على أن لا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك، إلا رددته علينا.

فقال المسلمون: سبحان الله، كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟

فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل يرسف في قيوده، قد خرج من أسفل مكة، حتى رمى نفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما قاضيتك عليه، أن ترده، فقال النبي ﷺ: «إنما لم نقض الكتاب بعد»، فقال: فوالله إذا لا أصلحك على شيء أبداً، فقال

النبي ﷺ: «فأجزه لي»، فقال: ما أنا بمجيزه، فقال: «بلي فاعمل»، قال: ما أنا بفاعل، قال مكرز: قد أجزناه. فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين، أريد إلى المشركين وقد جئت مسلماً، ألا ترون ما لقيت؟ وكان قد عذب في الله عذاباً شديداً.

قال عمر بن الخطاب: والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ، فأثبت النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله أأست نبي الله؟ قال: «بلى». قلت: أألسنا على الحق، وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى». فقلت: علام نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا؟ فقال: «إني رسول الله، وهو ناصري، ولست أعصيه»، قلت: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، فأخبرتكم أنك تأتيه العام؟» قلت: لا، قال: «فإنك آتية ومطوف به».

قال: فأثبت أبا بكر، فقلت له كما قلت لرسول الله ﷺ، ورد عليه أبو بكر كما رد عليه رسول الله ﷺ، سواء، وزاد: فاستمسك بفرزه حتى تموت، فوالله إنه لعل الحق، قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً.

فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله ﷺ: «قوموا وانحروا، ثم احلقوا»، فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ثلاث مرات، فلما لم يبق منهم أحد، قام فدخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت: يا رسول الله أحب ذلك؟ أخرج، ثم لا تكلم أحداً كلمة حتى تحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلق لك، فقام فخرج، فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأى الناس ذلك، قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يخلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً، ثم جاءت نسوة مؤمنات، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٌ﴾ حتى بلغ ﴿بِعَصْمِ الْكُوفَرِ﴾ فطلق عمر



يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية، والأخرى صفوان بن أمية، ثم رجع إلى المدينة. وفي مرجعه أنزل الله عليه: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ إلى آخرها، فقال عمر: أفتح هو يا رسول الله؟ فقال: «نعم»، فقال الصحابة: هنيئاً لك يا رسول الله، فما لنا؟

فأنزل الله عز وجل: ﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين﴾ الآية. انتهى.

وهذا آخر تفسير سورة الفتح والله الحمد والمئة

أوصل الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه. نقلته من خط المفسر رحمه الله وعفا عنه، وكان الفراغ من كتابته في ١٣ ذي الحجة ١٣٤٥ ووصل الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين آمين. بقلم الفقير إلى ربه سليمان بن حمد العبد الله البسام. غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين. وصل الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات<sup>(١)</sup>

المجلد الثامن من تفسير التكميم الكريم الرحمن في تفسير كلام العتقان من به الله على عبده وابن عبده وابن أمته، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعد.



**تفسير سورة الحجرات وهي مدنية**

﴿١ - ٣﴾ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**  
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ  
 ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبِطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾  
 إِنَّ الَّذِينَ يَخْضِعُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾  
 هَذَا مَتَّضِعٌ لِلأَدَبِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَالتَّعْظِيمُ لَهُ، وَاحْتِرَامُهُ، وَإِكْرَامُهُ، فَأَمْرُ [اللَّهِ] بِعِبَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا يَقْتَضِيهِ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، مِنْ امْتِنَالِ أَوْامِرِ اللَّهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، وَأَنْ يَكُونُوا مَاشِينَ خَلْفَ أَوْامِرِ اللَّهِ، مُتَّبِعِينَ لِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي جَمِيعِ أَسْوَرِهِمْ، وَ[أَنْ] لَا يَتَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلَا يَقُولُوا حَتَّى يَقُولَ، وَلَا يَأْمُرُوا حَتَّى يَأْمُرَ، فَإِنَّ هَذَا حَقِيقَةُ الأَدَبِ الوَاجِبِ مَعَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَهُوَ عُنْوَانُ سَعَادَةِ الْعَبِيدِ

وفلاحه، وبفواته تقوته السعادة الأبدية والنعيم السرمدى، وفي هذا، النهي [الشديد] عن تقديم قول غير الرسول ﷺ على قوله، فإنه متى استبان سنة رسول الله ﷺ، ووجب اتباعها، وتقديمها على غيرها، كائناً ما كان<sup>(١)</sup>.

ثم أمر الله بتقواه عموماً، وهي كما قال طلق بن حبيب: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله، تخشى عقاب الله.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أي: لجميع الأصوات في جميع الأوقات، في خفي المواضع والجهات، ﴿عَلِيمٌ﴾ بالظواهر والباطن، والسوابق واللواحق، والواجبات والمستحيلات والممكنات<sup>(٢)</sup>.

وفي ذكر الاسمين الكريمين - بعد النهي عن التقدم بين الله ورسوله والأمر بتقواه - حث على امتثال تلك الأوامر الحسنة، والآداب المستحسنة، وترهيب عن عدم الامتثال<sup>(٣)</sup>.

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ وهذا أدب مع رسول الله ﷺ في خطابه، أي: لا يرفع المخاطب له صوته معه فوق صوته، ولا يجهر له بالقول، بل يخفض الصوت، ويخاطبه بأدب ولين، وتعظيم وتكريم، وإجلال وإعظام، ولا يكون الرسول كأحدهم، بل يميزوه في خطابهم، كما تميز عن غيره في وجوب حقه على الأمة، ووجوب الإيمان به، والحب الذي لا يتم الإيمان إلا به، فإن في عدم القيام بذلك محذوراً، وخشية أن يحبط عمل

العبد وهو لا يشعر، كما أن الأدب معه من أسباب [حصول الثواب و] قبول الأعمال.

ثم مدح من غضض صوته عند رسول الله ﷺ، بأن الله امتحن قلوبهم للتقوى أي: ابتلاها واختبرها، فظهرت نتيجة ذلك، بأن صلحت قلوبهم للتقوى، ثم وعدهم المغفرة لذنوبهم المتضمنة لزوال الشر والمكروه، والأجر العظيم، الذي لا يعلم وصفه إلا الله تعالى، وفي الأجر العظيم وجود المحبوب<sup>(٤)</sup>، وفي هذا دليل على أن الله يمتحن القلوب، بالأمر والنهي والمحسن، فمن لازم أمر الله، واتباع رضاه، وسارع إلى ذلك، وقدمه على هواه، تمحض وتمحص للتقوى، وصار قلبه صالحاً لها ومن لم يكن كذلك، علم أنه لا يصلح للتقوى.

﴿٤ - ٥﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم ﴿٤﴾ نزلت هذه الآيات الكريمات في أناس من الأعراب، الذين وصفهم الله تعالى بالجفاء، وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، قدموا وافدين على رسول الله ﷺ، فوجدوه في بيته وحجرات نسائه، فلم يصبروا ويتأدبوا حتى يخرج، بل نادوه: يا محمد يا محمد [أي: أخرج إلينا]، فذمهم الله بعدم العقل، حيث لم يعقلوا عن الله الأدب مع رسوله واحترامه، كما أن من العقل وعلامته استعمال الأدب.

فأدب العبد، عنوان عقله، وأن الله يريد به الخير، ولهذا قال: ﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم﴾ أي: غفور لما صدر عن عباده من الذنوب والإخلال بالأدب، رحيم بهم، حيث لم يعاجلهم بذنوبهم بالعقوبات والمثالات.

(١) في ب: من كان.  
 (٢) في ب: والجاترات.  
 (٣) في ب: عن ضده.  
 (٤) في ب: وفيه حصول كل محبوب.

﴿٦٦﴾ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴿ وهذا أيضاً من الآداب التي على أولي الأبواب التأدب بها واستعمالها، وهو أنه إذا أخبرهم فاسق بخبر ينبتوا في خيره، ولا يأخذوه بمجرداً، فإن في ذلك خطراً كبيراً، ووقوعاً في الإثم، فإن خيره إذا جعل بمنزلة خبر الصادق العدل، حكم بموجب ذلك ومقتضاه، فحصل من تلف النفوس والأموال بغير حق بسبب ذلك الخير ما يكون سبباً للندامة، بل الواجب عند خبر الفاسق، التثبت والتبين، فإن دلت الدلائل والقرائن على صدقه، عمل به وصدق، وإن دلت على كذبه، كُذِّب ولم يعمل به، ففيه دليل على أن خبر الصادق مقبول، وخبر الكاذب مردود، وخبر الفاسق متوقف فيه كما ذكرنا، ولهذا كان السلف يقبلون روايات كثير [من] الخوارج، المعروفين بالصدق، ولو كانوا فاسقاً.

﴿٧٧-٨﴾ واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون \* فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم ﴿ أي: ليكون لديكم معلوماً أن رسول الله ﷺ يبين أظهركم، وهو الرسول الكريم، البار، الراشد، الذي يريد بكم الخير وينصح لكم، وتريدون لأنفسكم من الشر والمفصرة ما لا يوافقكم الرسول عليه، ولو يطيعكم في كثير من الأمر لشق عليكم وأعنتكم، ولكن الرسول يرشدكم، والله تعالى يحب إليكم الإيمان ويزينه في قلوبكم، بما أودع الله في قلوبكم من محبة الحق وإيثاره، وبما ينصب على الحق من الشواهد والأدلة الدالة على صحته،

وقبول القلوب والفطر له، وبما يفعله تعالى بكم من توفيقه للإجابة إليه، ويكره إليكم الكفر والفسوق أي: الذنوب الكبار، والعصيان: هي ما دون ذلك من الذنوب<sup>(١)</sup>، بما أودع في قلوبكم من كراهة الشر، وعدم إرادة فعله، وبما نصبه من الأدلة والشواهد على فساده وعدم قبول الفطر له، وبما يجعله الله من الكراهة في القلوب له<sup>(٢)</sup>

﴿أولئك﴾ أي: الذين زين الله الإيمان في قلوبهم، وحبه إليهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ﴿هم الراشدون﴾ أي: الذين صلحت علومهم وأعمالهم، واستقاموا على الدين القويم، والصرط المستقيم.

وضدهم الغاؤون، الذين حبيب إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وكره إليهم الإيمان، والذنب ذنبهم، فإنهم لما فسقوا طبع الله على قلوبهم، ولما زاغوا أزاغ الله قلوبهم، ولما لم يؤمنوا بالحق لما جاءهم أول مرة، قلب الله أفئدتهم.

وقوله: ﴿فضلاً من الله ونعمة﴾ أي: ذلك الخير الذي حصل لهم، هو بفضل الله عليهم وإحسانه، لا بحولهم وقوتهم.

﴿والله عليم حكيم﴾ أي: عليم بمن يشكر النعمة فيوفقه لها، ممن لا يشكرها، ولا تليق به، فيضع فضله حيث تقتضيه حكمته.

﴿٩٠-٩١﴾ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بفت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين \* إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴿ هذا متضمن لنهي المؤمنين [عن] أن يبغى بعضهم على بعض، ويقاتل<sup>(٣)</sup> بعضهم بعضاً، وأنه

إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين، فإن على غيرهم من المؤمنين أن يتلافوا هذا الشر الكبير، بالإصلاح بينهم، والتوسط بذلك على أكمل وجه يقع به الصلح، ويسلكوا الطريق الموصلة إلى ذلك، فإن صلحتا فيها ونعمت، وإن بفت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ﴿ أي: ترجع إلى ما حد الله ورسوله، من فعل الخير وترك الشر، الذي من أعظمه

الافتتال، [وقوله] ﴿فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل﴾ هذا أمر بالصلح، وبالعدل في الصلح، فإن الصلح قديوجد، ولكن لا يكون بالعدل، بل بالظلم والحيف على أحد الخصمين، فهذا ليس هو الصلح المأمور به، فيجب أن لا يراعى أحدهما لقربة، أو وطن، أو غير ذلك من المقاصد والأغراض، التي توجب العدول عن العدل، ﴿إن الله يحب المقسطين﴾ أي: العادلين في حكمهم بين الناس وفي جميع الولايات التي تولوها، حتى إنه قد يدخل في ذلك عدل الرجل في أهله وعياله في أدائه حقوقهم، وفي الحديث الصحيح: ﴿المقسطون عند الله على منابر من نور الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا﴾.

﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ هذا عقد عقده الله بين المؤمنين، أنه إذا وجد من أي: شخص كان في مشرق الأرض ومغربها، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فإنه أخ للمؤمنين، أخوة توجب أن يحب له المؤمنون ما يحبون لأنفسهم، ويكرهون له ما يكرهون لأنفسهم، ولهذا قال النبي ﷺ أمراً بحقوق الأخوة الإيمانية: (لا تخاسدوا، ولا تتناجشوا، ولا تباغضوا، ولا يبيع أحدكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المؤمن أخو المؤمن،

(١) في ب: أي: الذنوب الصغار.

(٢) في ب: وبما يجعل الله في القلوب من الكراهة له.

(٣) في ب: ويقتل.



لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره<sup>(١)</sup>.

وقال **عنه**<sup>(٢)</sup>: «المؤمن للمؤمنين كالبنين يشد بعضهم بعضاً» **عنه** بين أصابعه.

ولقد أمر الله ورسوله بالقيام بحقوق المؤمنين بعضهم لبعض، وبما يحصل التألف والتوادد والتواصل بينهم، كل هذا تأييد لحقوق بعضهم على بعض، فمن ذلك، إذا وقع الاقتتال بينهم، الموجب لفرق القلوب وتباغضها [وتدابرها]، فيصلح المؤمنون بين إخوانهم، ويسمعوا فيما به يزول شأنهم.

ثم أمر بالتقوى عموماً، ورتب على القيام بحقوق المؤمنين ويتقوى الله، الرحمة [فقال: ﴿لعنكم ترهون﴾]، وإذا حصلت الرحمة حصل خير الدنيا والآخرة، ودل ذلك على أن عدم القيام بحقوق المؤمنين من أعظم حواجب الرحمة.

وفي هاتين الآيتين من الفوائد، غير ما تقدم: أن الاقتتال بين المؤمنين متاف للأخوة الإيمانية، ولهذا كان من أكبر الكبائر، وأن الإيمان والأخوة الإيمانية لا تزول مع وجود القتال كغيره من الذنوب الكبار التي دون الشرك، وعلى ذلك مذهب أهل السنة والجماعة، وعلى وجوب الإصلاح بين المؤمنين بالعدل، وعلى وجوب قتال البغاة حتى يرجعوا إلى أمر الله، وعلى أنهم لو رجعوا لغير أمر الله، بأن رجعوا على وجه لا يجوز الإقرار عليه والتزامه، أنه لا يجوز ذلك، وأن أموالهم معصومة، لأن الله أباح دماءهم وقت استمرارهم على بغيتهم خاصة، دون أموالهم.

﴿١١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قومٌ من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساءٌ من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾ وهذا أيضاً من حقوق المؤمنين بعضهم على بعض، أن ﴿لا يسخر قومٌ من قوم﴾ بكل كلام، وقول، وفعل دال على تحقير الأخ المسلم، فإن ذلك حرام لا يجوز، وهو دال على إعجاب الساخر بنفسه، وعسى أن يكون المسخور به خيراً من الساخر، كما هو<sup>(٣)</sup> الغالب والواقع، فإن السخرية لا تقع إلا من قلبٍ عملي من مساوىء الأخلاق، مُتَحَلِّ بكل خلق ذميم، ولهذا قال النبي **عنه**: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم».

ثم قال: ﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾ أي: لا يعيب بعضكم على بعض، واللمز بالقول، والهمز بالفعل، وكلاهما منهي عنه حرام، متوعد عليه بالنار.

كما قال تعالى: ﴿ويلٌ لكل همزة لمزة﴾ الآية، وسمى الأخ المؤمن<sup>(٤)</sup> نفساً لأخيه، لأن المؤمن ينبغي أن يكون هكذا حالهم كالجسد الواحد، ولأنه إذا همز غيره، أوجب للغير أن همزه، فيكون هو المتسبب لذلك.

﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾ أي: لا يعير أحدكم أخاه، ويلقبه بلقب ذم يكره أن يطلق عليه<sup>(٥)</sup>، وهذا هو التنابز، وأما الألقاب غير المذمومة، فلا تدخل في هذا.

﴿بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾ أي: بئسما تبدلتكم عن الإيمان والعمل بشرائعه، وما تقتضيه بالإعراض عن أوامره ونواهيه، باسم الفسوق والعصيان، الذي هو التنازب بالألقاب.

﴿ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾ فهذا [هو] الواجب على العبد، أن يتوب إلى الله تعالى، ويخرج من حق أخيه المسلم، باستحلاله والاستغفار، والمدح له مقابلة [على] ذمه.

﴿ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾ فالناس قسمان: ظالم لنفسه غير تائب، وتائب مفلح، ولا ثم قسم ثالث غيرها.

﴿١٢﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثمٌ ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله نواب رحيم﴾ نهي تعالى عن كثير من الظن السوء<sup>(٦)</sup> بالمؤمنين، ذ ﴿إن بعض الظن إثم﴾ وذلك كالظن الخالي من الحقيقة والقرينة، وكظن السوء، الذي يقترون به كثير من الأقوال، والأفعال المحرمة، فإن بقاء ظن السوء بالقلب، لا يقتصر صاحبه على مجرد ذلك، بل لا يزال به، حتى يقول ما لا ينبغي، ويفعل ما لا ينبغي، وفي ذلك أيضاً إساءة الظن بالمسلم، وبغضه وعداوته المأمور بخلاف ذلك منه.

﴿ولا تجسسوا﴾ أي: لا تفتشوا عن عورات المسلمين، ولا تتبعوها، واتركوا<sup>(٧)</sup> المسلم على حاله، واستعملوا التغافل عن أحواله<sup>(٨)</sup>، التي إذا فتشت ظهر منها ما لا ينبغي.

(١) في ب: أورد الشيخ الحديث كما يلي: (لا تعاسدوا ولا تناحشوا ولا تباعضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، ولا يكذب) متفق عليه.

(٢) في ب: وفيها عن النبي **عنه**.

(٣) في ب: وهو الغالب.

(٤) في ب: المسلم.

(٥) في ب: بلقب يكره أن يقال فيه.

(٦) في ب: السيء.

(٧) في ب: ودعوا.

(٨) في ب: عن زلاته.

فزة، بل يوفيكم إياها أكمل ما تكون لا تفقدون منها صغيراً ولا كبيراً، ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي: غفور لمن تاب إليه وأتاب، رحيم به، حيث قبل توبته.

﴿إنما المؤمنون﴾ أي: على الحقيقة ﴿الذين آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا في سبيل الله﴾ أي: من جمعوا بين الإيمان والجهاد في سبيله، فإن من جاهد الكفار، دل ذلك على الإيمان التام في القلب، لأن من جاهد غيره على الإسلام، والقيام بشرائعه، فجهاده لنفسه على ذلك، من باب أولى وأحرى؛ ولأن من لم يقو على الجهاد، فإن ذلك دليل على ضعف إيمانه، وشرط تعالي في الإيمان عدم الريب، وهو الشك، لأن الإيمان النافع هو الجزم اليقيني بما أمر الله بالإيمان به، الذي لا يعتريه شك بوجه من الوجوه.

وقوله: ﴿وأولئك هم الصادقون﴾ أي: الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الجميلة، فإن الصدق دعوى كبيرة في كل شيء يدعى يحتاج صاحبه إلى حجة وبرهان، وأعظم ذلك دعوى الإيمان الذي هو مدار السعادة، والفوز الأبدي، والفلاح السرمدي، فمن ادعاه وقام بواجباته ولوازمه، فهو الصادق المؤمن حقاً، ومن لم يكن كذلك، علم أنه ليس بصادق في دعواه، وليس لدعواه فائدة، فإن الإيمان في القلب لا يطلع عليه إلا الله تعالى.

فإثباته ونفيه من باب تعليم الله بما في القلب، وهذا سوء أدب، وظن بالله، ولهذا قال: ﴿قل أتعلمون الله يدبنيكم والله يعلم ما في السموات وما في الأرض﴾ \* والله بكل شيء عليم \* وهذا شامل للأشياء كلها، التي من جملتها ما في القلوب من الإيمان والكفران، والبر والفجور، فإنه تعالى يعلم ذلك كله ويجازي عليه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

هذه حالة من أحوال من ادعى لنفسه الإيمان وليس به، فإنه إما أن

وفي هذه الآية دليل على أن معرفة الأنساب مطلوبة مشروعة، لأن الله جعلهم شعوباً وقبائل لأجل ذلك.

﴿١٤ - ١٨﴾ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم \* وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم \* إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون \* قل أتعلمون الله يدبنيكم والله يعلم ما في السموات وما في الأرض والله بكل شيء عليم \* يمينون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين \* إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون \* يخبر تعالي عن مقالة الأعراب الذين دخلوا في الإسلام في عهد رسول الله ﷺ دخولاً من غير بصيرة، ولا قيام بما يجب ويتقصيه الإيمان، أنهم ادعوا مع هذا وقالوا: آمنا أي: إيماناً كاملاً، مستوفياً لجميع أموره هذا موجب هذا الكلام، فأمر الله رسوله أن يرد عليهم، فقال: ﴿قل لم تؤمنوا﴾ أي: لا تدعوا لأنفسكم مقام الإيمان، ظاهراً وباطناً، كاملاً.

﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾ أي: دخلنا في الإسلام، واقتصروا على ذلك.

﴿و﴾ السبب في ذلك، أنه ﴿لما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ وإنما أتممت خوفاً أو رجاءً أو نحو ذلك، مما هو السبب في إيمانكم، فلذلك لم تدخل بشاشة الإيمان في قلوبكم، وفي قوله: ﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ أي: وقت هذا الكلام الذي صدر منكم، فكان فيه إشارة إلى أحوالهم بعد ذلك، فإن كثيراً منهم، من الله عليهم بالإيمان الحقيقي، والجهاد في سبيل الله، ﴿وإن تطيعوا الله ورسوله﴾ بفعل خير، أو ترك شر ﴿لا يلتكم من أعمالكم شيئاً﴾ أي: لا ينقصكم منها مثقال

﴿ولا يغضب بعضكم بعضاً﴾ والغيبة كما قال النبي ﷺ: «ذكرك أخاك بما يكره ولو كان فيه».

ثم ذكر مثلاً منضراً عن الغيبة، فقال: ﴿عجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾ شبه أكل لحم ميتاً المكره للنفوس [غاية الكراهة] باغتيابه، فكما أنكم تكرهون أكل لحمه، وخصوصاً إذا كان ميتاً، فاقد الروح، فكذلك أفلتكرهوا غيبته وأكل لحمه حياً.

﴿واتقوا الله إن الله نواب رحيم﴾ والتواب الذي يأذن بتوبة عبده فيوقفه لها، ثم يتوب عليه بقبول توبته، رحيم بعباده، حيث دعاهم إلى ما ينفعهم، وقيل منهم التوبة، وفي هذه الآية دليل على التحذير الشديد من الغيبة، وأن الغيبة من الكبائر، لأن الله شبهها بأكل لحم الميت، وذلك من الكبائر.

﴿١٣﴾ ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ يخبر تعالي أنه خلق بني آدم من أصل واحد، وجنس واحد، وكلهم من ذكر وأنثى، ويرجعون جميعهم إلى آدم وحواء، ولكن الله [تعالى] بث منهما رجالاً كثيراً ونساءً، وفرقهم، وجعلهم شعوباً وقبائل أي: قبائل صغاراً وكباراً، وذلك لأجل أن يتعارفوا، فإنهم لو استقل كل واحد منهم بنفسه، لم يحصل بذلك التعارف الذي يترتب عليه التناصر والتعاون والتوارث، والقيام بحقوق الأقارب، ولكن الله جعلهم شعوباً وقبائل، لأجل أن تحصل هذه الأمور وغيرها مما يتوقف على التعارف، ولحقوق الأنساب، ولكن الكرم بالتقوى، فأكرمهم عند الله أتقاهم، وهو أكثرهم طاعة وإنكفافاً عن المعاصي، لا أكثرهم قرابة وقوماً، ولا أكثرهم نسباً، ولكن الله تعالي عليم خبير، يعلم من يقوم منهم بتقوى الله ظاهراً وباطناً، ممن يقوم بذلك ظاهراً لا باطناً، فيجازي كلا بما يستحق.

### تفسير سورة ق وهي مكية

ضعف عقولهم، بمنزلة المجنون الذي يستغرب كلام العاقل، وبمنزلة الجبان الذي يتعجب من لقاء الفارس للفرسان، وبمنزلة البخيل الذي يستغرب سخاء أهل السخاء، فأبي: ضرر يلحق من تعجب من هذه حاله؟ وهل تعجبه إلا دليل على زيادة ظلمه وجهله؟ وإما أن يكونوا متعجبين، على وجه يعلمون خطاهم فيه، فهذا من أعظم الظلم وأشنعه.

ثم ذكر وجه تعجبهم، فقال: ﴿أإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجح بعيد﴾ ففاسروا قدرة من هو على كل شيء قدير، الكامل من كل وجه، بقدرة العبد الفقير العاجز من جميع الوجوه، وقاسوا الجاهل الذي لا علم له، بمن هو بكل شيء عليم، الذي يعلم ما تنقص الأرض من أجسادهم مدة كتابه الذي هو عنده محفوظ عن التغيير والتبديل، كل ما يجري عليهم في حياتهم وماتهم، وهذا استدلال بكمال علمه، وسعته التي لا يحيط بها إلا هو، على قدرته على إحياء الموتى.

﴿٥﴾ ﴿بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريع﴾ أي: ﴿بل﴾ كلامهم الذي صدر منهم، إنما هو عناد وتكذيب للحق الذي هو أعلى أنواع الصدق ﴿لما جاءهم فهم في أمر مريع﴾ أي: مختلط مشته، لا يثبتون على شيء، ولا يستقر لهم قرار، وتارة يقولون عنك إنك ساحر، وتارة مجنون، وتارة شاعر، وكذلك جعلوا القرآن عضيض، كل قال فيه ما اقتضاه رأيه الفاسد، وهكذا كل من كذب بالحق، فإنه في أمر مختلط، لا يدري له وجهة<sup>(١)</sup> ولا قرار، [فتسرى أموره مناقضة مؤتلفة] كما أن من اتبع الحق

﴿١-٤﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ق والقرآن المجيد \* بل عجبا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب \* إذا متنا وكنا تراباً ذلك رجح بعيد \* قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ﴾ يقسم تعالى بالقرآن المجيد أي: وسيع المعاني عظيمها، كثير الوجوه كثير البركات، جزيل المبرات. والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها، وأحق كلام يوصف بهذا، هذا القرآن، الذي قد احتوى على علوم الأولين والآخرين، الذي حوى من الفصاحة أكملها، ومن الألفاظ أجزلها، ومن المعاني أعمها وأحسنها، وهذا موجب لكامل اتباعه [وسرعة] الانقياد له، وشكر الله على المنة به.

ولكن أكثر الناس لا يقدر نعم الله قدرها، ولهذا قال تعالى: ﴿بل عجبا﴾ أي: المكذبون للرسول ﷺ، ﴿أن جاءهم منذر منهم﴾ أي: ينذرهم ما يضرهم، ويأمرهم بما ينفعهم، وهو من جنسهم، يمكنهم التلقي عنه، ومعرفة أحواله وصدقه. فتعجبوا من أمر لا ينبغي لهم التعجب منه، بل يتعجب من عقل من تعجب منه.

﴿فقال الكافرون﴾ الذين حلهم كفرهم وتكذيبهم، لا نقص بذكائهم وآرائهم<sup>(٥)</sup>

﴿هذا شيء عجيب﴾ أي: مستغرب، وهم في هذا الاستغراب بين أمرين:

إما صادقون في [استغرابهم] و[تعجبهم، فهذا يدل على غاية جهلهم،

يكون ذلك تعامياً لله، وقد علم أنه عالم بكل شيء، وإما أن يكون قصدهم بهذا الكلام اثمة على رسوله، وأنهم قد بذلوا له [وتبرعوا] بما ليس من مصالحهم، بل هو من حظوظه الدنيوية، وهذا تجمل بما لا يحمل، وفخر بما لا ينبغي لهم أن يفتخروا على رسوله به<sup>(١)</sup>، فإن المنة لله تعالى عليهم، فكما أنه تعالى يمن<sup>(٢)</sup> عليهم بالخلق والرزق، والنعم الظاهرة والباطنة، فمنته عليهم هدايتهم إلى الإسلام، ومنته عليهم بالإيمان، أعظم<sup>(٣)</sup> من كل شيء، ولهذا قال تعالى: ﴿يؤمنون عليك أن أسلموا قل لا تنموا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾

﴿إن الله يعلم غيب السماوات والأرض﴾ أي: الأمور الخفية فيهما، التي تخفى على الخلق، كالذي في لبح البحار، ومهامم القفار، وما جئته الليل أو وازاه النهار، يعلم فطرات الأمطار، وحيات الرمال، ومكنونات الصدور، وخبايا الأمور.

﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾.

﴿والله بصير بما تعملون﴾ يحصي عليكم أعمالكم، ويوفيككم [بأها، ويجازيكم عليها بما تقتضيه رحمته الواسعة وحكمته البالغة].

ثم تفسير سورة الحجرات، بعون الله ومنه وجوده وكرمه، فلك اللهم من الحمد أكمله وأتمه، ومن الجود أفضله وأعمه<sup>(٤)</sup>

(١) في ب: لا ينبغي لهم الفخر به على رسوله.

(٢) في ب: هو الماء.

(٣) في ب: أفضل.

(٤) في ب: يعد قوله وكرمه: والحمد لله.

(٥) كذا في ب، وفي أ: لا نقص بقولهم وعقولهم.

في ب: وجه.

أحد، وأنه الذي لا تنبغي العبادة والذل [والحب] إلا له تعالى.

وما فيها من إحياء الأرض بعد موتها، دليل على إحياء الله الموتى، ليجازيهم بأعمالهم، ولهذا قال: ﴿وَأَحْيَا بِهِ بَلَدَهُ مِثْلًا كَذَلِكَ الْخُرُوجِ﴾.

ولما ذكرهم هذه الآيات السماوية والأرضية، خوَّفهم أخذات الأمم، وألا يستمروا على ما هم عليه من التكذيب، فيصيبهم ما أصاب إخوانهم من المكذبين، فقال:

﴿١٢ - ١٥﴾ ﴿كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس ونموذ \* وعاد وفرعون وإخوان لوط \* وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد \* أقمينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد﴾ أي: كذب الذين من قبلهم من الأمم رسلهم الكرام وأنبياءهم العظام، ك: نوح؛ كذبه قومه [ونموذ كذبوا صالحاً] <sup>(١٢)</sup>، وعاد كذبوا هوداً، وإخوان لوط كذبوا لوطاً، وأصحاب الأيكة كذبوا شعيباً، وقوم تبع، وتبع كل ملك ملك اليمن في الزمان السابق قبل الإسلام <sup>(١٣)</sup> فقوم تبع كذبوا الرسول الذي أرسله الله إليهم، ولم يخبرنا الله من هو ذلك الرسول، وأي: تُبع من النبابعة، لأنه - والله أعلم - كان مشهوراً عند العرب لكونهم من العرب العرباء، الذين لا تحفى ماجرياتهم على العرب خصوصاً مثل هذه الحادثة العظيمة.

فهؤلاء كلهم كذبوا الرسل، الذين أرسلهم الله إليهم، فحق عليهم وعيد الله وعقوبته، ولستم أيها المكذوبون لمحمد ﷺ خيراً منهم، ولا

الفواكه اللذيذة، من العنب والرمان والأترج والتفاح، وغير ذلك من أصناف الفواكه، ومن النخيل الباسقات أي: الطوال، التي يطول <sup>(١٤)</sup> نفعها وترتفع إلى السماء حتى تبلغ مبلغاً لا يبلغه كثير من الأشجار، فتخرج من الطلع النضيد، في قنوانها ما هو رزق للعباد قوتاً وأدماً وفاكهة، يأكلون منه ويدخرون، هم ومواسيهم وكذلك ما يخرج الله بالمطر، وما هو أثره من الأنهار التي على وجه الأرض، والتي تحتها من حب الحصيد، أي: من الزرع المحصود، من بُر وشعير، وذرة، وأرز، ودخن وغيره.

فإن في النظر في هذه الأشياء ﴿تبصرة﴾ يتبصر بها من عمى الجهل، ﴿وذكرى﴾ يتذكر بها ما ينفع في الدين والدنيا، ويتذكر بها ما أخبر الله به، وأخبرت به رسله، وليس ذلك لكل أحد، بل ﴿لكل عبد منيب﴾ إلى الله أي: مقبل عليه بالحب والخوف والرجاء، وإجابة داعيه، وأما المكذب أو المعرض، فما تعني الآيات والتندر عن قوم لا يؤمنون.

وحاصل هذا، أن ما فيها من الخلق الباهر، والشدة والقوة، دليل على كمال قدرة الله تعالى، وما فيها من الحسن والإتقان، وبيدع الصنعة، وبيدع الخلق <sup>(١٥)</sup>، دليل على أن الله أحكم الحاكمين، وأنه بكل شيء عليم، وما فيها من المنافع والمصالح للعباد، دليل على رحمة الله التي وسعت كل شيء، وجوده الذي عم كل حي، وما فيها من عظم الخلق وبيدع النظام، دليل على أن الله تعالى هو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له كفواً

وصدق به، قد استقام أمره، واعتدل سبيله، وصدق فعله قبله.

﴿٦٦ - ١١﴾ ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج \* والأرض مددناها والقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج \* تبصرة وذكرى لكل عبد منيب \* ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد \* والنخل باسقات لها طلع نضيد \* رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميثاً كذلك الخروج﴾ لما ذكر تعالى حالة المكذبين وما ذمهم به، دعاهم إلى النظر في آياته <sup>(١٦)</sup> الأفقية، كي يعتبروا، ويستدلوا بها على ما جعلت أدلة عليه، فقال: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم﴾ أي: لا يحتاج ذلك النظر إلى كلفة وشدة رحل، بل هو في غاية السهولة، فينظرون ﴿كيف بنيناها﴾ قبة مستوية الأرجاء، ثابتة البناء، مزينة بالنجوم الخنس، والجوار الكنس، التي ضربت من الأفق إلى الأفق في غاية الحسن والملاحة، لا تبرى فيها عيباً، ولا فروجاً، ولا خلالاً، ولا إخلالاً.

قد جعلها الله سقفاً لأهل الأرض، وأودع فيها من مصالحهم الضرورية ما أودع.

﴿١١﴾ إلى ﴿الأرض كيف مددناها﴾ ووسعناها، حتى أمكن كل حيوان السكون فيها والاستقرار <sup>(١٧)</sup>، والاستعداد لجميع مصالحه، وأرساها بالحيال، لتستقر من التزلزل والتلويح، ﴿وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾ أي: من كل صنف من أصناف النبات التي تسر ناظرها، وتعجب مبصرها، وتقر عين راسقها، لأكل بني آدم، وأكل بهائمهم ومنافعهم، وخص من تلك المنافع بالذكر، الجفان المشتعلة على

(١) كذا في ب، وفي أ: آيات الله.

(٢) كذا في ب، وفي أ: القرار.

(٣) كذا في ب، وفي أ: التي يستمر نفعها، ويطول حتى تبلغ مبلغاً لا يبلغ إليه.

(٤) كذا في ب، وفي أ: وعجيب الخلق.

(٥) زيادة من هاشم ب.

(٦) كذا في ب، وفي أ: وقوم تبع وهو كل ملك ملك اليمن في الزمان السابق يقال له تبع.

رسلهم أكرم على الله من رسولكم، فاحذروا جرمهم، لئلا يصيبكم ما أصابهم.

ثم استدلت تعالي بالخلق الأول - وهو المنشأ الأول<sup>(١)</sup> - على الخلق الآخر، وهو النشأة الآخرة.

فكما<sup>(٢)</sup> أنه الذي أوجدهم بعد العدم، كذلك يعيدهم بعد موتهم وصبرورثهم إلى الرفات [الرمم، فقال: ﴿أفعبينا﴾ أي: أفعجزنا وضعفت قدرتنا ﴿بالخلق الأول﴾؟ ليس الأمر كذلك، فلم نعجز ونغني عن ذلك، وليسوا في شك من ذلك، وإنما هم في ليس من خلق جديد هذا الذي شكوا فيه، والتبس عليهم أمره، مع أنه لا محل لليس فيه، لأن الإعادة أهون من الابتداء، كما قال تعالي: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾.

﴿١٦-١٨﴾ ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ \* إذ يتلقى المتلقين عن اليمين وعن الشمال قعيد \* ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد \* يخبر تعالي أنه المتفرد بخلق<sup>(٣)</sup> جنس الإنسان، ذكورهم وإناثهم، وأنه يعلم أحواله وما يسره، ويوسوس في صدره<sup>(٤)</sup>، وأنه أقرب إليه من حبل الوريد، الذي هو أقرب شيء إلى الإنسان، وهو العرق<sup>(٥)</sup> المكتنف لثغرة النحر، وهذا مما يدعو الإنسان إلى مراقبة خالقه، المطلع على ضميره وباطنه، القريب منه<sup>(٦)</sup> في جميع

أحواله، فيستحيي منه أن يراه حيث نراه، أو يفقده حيث أمره، وكذلك ينبغي له أن يجعل الملائكة الكرام الكاتبين منه على بال، فيجلهم ويوقرهم، ويحذر أن يفعل أو يقول ما يكتب عنه، مما لا يرضي رب العالمين، ولهذا قال: ﴿إذ يتلقى المتلقين﴾ أي: يتلقين عن اليمين وعن الشمال، يكتب السئات، وكل منهما ﴿عتيد﴾ بذلك متهييء لعمله الذي أعد له، ملازم له<sup>(٧)</sup> ﴿ما يلفظ من قول﴾ خير أو شر ﴿إلا لديه رقيب عتيد﴾ أي: مراقب له، حاضر لحاله، كما قال تعالي: ﴿وإن عليكم لحافظين﴾ \* كراماً كاتبين \* يعلمون ما تعملون﴾.

﴿١٩-٢٢﴾ ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد﴾ \* ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد \* وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد \* لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ أي: ﴿وجاءت﴾ هذا الغافل المكذب بآيات الله ﴿سكرة الموت بالحق﴾ الذي لا مرد له ولا مناص، ﴿ذلك ما كنت منه تحيد﴾ أي: تتأخر وتنكص<sup>(٨)</sup> عنه، ﴿ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد﴾ أي: اليوم الذي يلحق الظالمين ما أوعدهم الله به من العقاب، والمؤمنين ما وعدهم به من الثواب، ﴿وجاءت كل نفس معها سائق﴾ يسوقها إلى موقف القيامة، فلا

يمكنها أن تتأخر عنه، ﴿وشهيد﴾ يشهد عليها بأعمالها، خيرها وشرها، وهذا يدل على اعتناء الله بالعباد، وحفظه لأعمالهم، ومجازاته لهم بالعدل، فهذا الأمر، مما يجب أن يجعله العبد منه على بال، ولكن أكثر الناس غافلون، ولهذا قال: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا﴾ أي: يقال للمعرض المكذب يوم القيامة هذا الكلام توبيخاً، ولوماً وتعنيفاً أي: لقد كنت مكذباً بهذا، تاركاً للعمل له فالآن ﴿كشفنا عنك غطاءك﴾ الذي غطى قلبك، فكشرك نومك، واستمر<sup>(٩)</sup> إعراضك، ﴿فبصرك اليوم حديد﴾ ينظر ما يزعجه ويروعه من أنواع العذاب والنكال.

أو هذا خطاب من الله للمعبد فإنه في الدنيا في غفلة<sup>(١٠)</sup> عما خلق له، ولكنه يوم القيامة ينتبه ويذوق عنه وسنه، ولكنه في وقت لا يمكنه أن يتدارك الفارط، ولا يستدرك الفائت، وهذا كله تحوير من الله للعباد، وترهيب بذكر ما يكون على المكذبين في ذلك اليوم العظيم.

﴿٢٣-٢٩﴾ ﴿وقال قرينه هذا ما لدي عتيد﴾ \* ألقيا في جهنم كل كفار عنيد \* متاع للخير معتد مريب \* الذي جعل مع الله إلهاً آخر فآلقياه في العذاب الشديد \* قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد \* قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد \* ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد﴾ يقول تعالي: ﴿وقال قرينه﴾ أي: قرين هذا المكذب

(١) في ب: النشأة الأولى.

(٢) كذا في ب، وفي أ: وأنه كما أنه.

(٣) كذا في ب، وفي أ: أنه الذي خلق.

(٤) في ب: وتوسوس به نفسه.

(٥) في ب: العظم.

(٦) في ب: إليه.

(٧) في ب: لذلك.

(٨) كذا في ب، وفي أ: تحيد.

(٩) كذا في ب، وفي أ: ودام.

(١٠) كذا في ب، وفي أ: أنه في غفلة في الدنيا.



﴿٢٨-٤٠﴾ ﴿ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب﴾ \* فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب \* ومن الليل فسبحه وأدبار السجود \* وهذا إخبار منه تعالى عن قدرته العظيمة، ومشيئته الشافذة، التي أوجد بها أعظم

المخلوقات ﴿السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام﴾ أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، من غير تعب ولا نصب، ولا لغوب، ولا إعياء، فالذي أوجدنا - على كبرها وعظمتها - قادر على إحياء الموتى، من باب أولى وأحرى، ﴿فاصبر على ما يقولون﴾ من الدم لك والتكذيب بما جئت به، واشتغل عنهم واله بطاعة ربك وتسبيحه، أول النهار وآخره، وفي أوقات الليل، وأدبار الصلوات. فإن ذكر الله تعالى مُسَلِّ للنفوس، مؤنس لها، مُهَوِّن للصبر.

﴿٤١-٤٥﴾ ﴿واستمع يوم ينادى المناد من مكان قريب﴾ \* يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج \* إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير \* يوم تشقق الأرض عنهم سراهاً ذلك حشرٌ علينا يسير \* نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ أي: ﴿واستمع﴾ بقلبك، نداء المنادي وهو إسماعيل عليه السلام، حين يتفخ في الصور ﴿من مكان قريب﴾ من الخلق<sup>(٤)</sup> ﴿يوم يسمعون الصيحة﴾ أي: كل الخلائق يسمعون تلك الصيحة المزعجة المهولة ﴿بالحق﴾ الذي لا شك فيه ولا امتراء.

﴿ذلك يوم الخروج﴾ من القبور، الذي انفرد به القادر على كل شيء، ولهذا قال: ﴿إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير﴾ \* يوم تشقق الأرض

أي: ثواب يمد لهم به الرحمن الرحيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأعظم ذلك وأجله وأفضله، النظر إلى وجه الله الكريم، والتمتع بسماع كلامه، والتنعيم بقربه، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم.

﴿٣٦-٣٧﴾ ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا في البلاد هل من محيص﴾ \* إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ يقول تعالى - مخوفاً للمشركين المكذبين للرسول -: ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن﴾ أي: أمم كثيرة هم أشد من هؤلاء بطشاً أي: قوة وأثراً في الأرض.

ولهذا قال: ﴿فنقبوا في البلاد﴾ أي: بنوا الحصون المنيعة والمنازل الرفيعة، وغرسوا الأشجار، وأجروا الأنهار، وزرعوا، وعمروا، ودمروا، فلما كذبوا رسل الله، وجحدوا آيات الله، أخذهم الله بالعقاب الأليم، والعذاب الشديد، و ﴿هل من محيص﴾ أي: لا مفر لهم من عذاب الله حين نزل بهم ولا منقذ، فلم تغن عنهم قوتهم، ولا أموالهم، ولا أولادهم، ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب﴾ أي: قلب عظيم حيّ ذكي زكي، فهذا إذا ورد عليه شيء من آيات الله، تذكر بها، وانتفع فارتفع<sup>(٥)</sup>، وكذلك من ألقى سمعه إلى آيات الله، واستمعها استماعاً يسترشد به، وقلبه ﴿شهيد﴾ أي: حاضر، فهذا له أيضاً ذكرى ومرعظة، وشفاء وهدى.

وأما المعرض، الذي لم يلق<sup>(٦)</sup> سمعه إلى الآيات، فهذا لا تفيده شيئاً، لأنه لا يقبل عنده، ولا تقتضي حكمة الله هداية من هذا وصفه ونعمته.



خشية الله في حال غيبه أي: مغيبه عن أعين الناس، وهذه هي الخشية الحقيقية، وأما خشيته في حال نظر الناس وحضورهم، فقد تكون رياء وسمعة، فلا تدل على الخشية، وإنما الخشية النافعة، خشية الله في الغيب والشهادة ويحتمل أن المراد بخشية الله بالغيب كالمراد بالإيمان بالغيب وأن هذا مقابل للشهادة حيث يكون الإيمان والخشية ضرورياً لا اختيارياً حيث يعاين العذاب وتأتي آيات الله وهذا هو الظاهر<sup>(١)</sup>.

﴿وجاء بقلب منيب﴾ أي: وصفه الإجابة إلى مولاه، وانجذاب نواحيه إلى مرضيه، ويقال لهؤلاء الأتقياء الأبرار: ﴿ادخلوها بسلام﴾ أي: دخولا مقروناً بالسلامة من الآفات والشور، مأموناً فيه جميع مكاره الأمور، فلا انقطاع لنعيمهم ولا كدر ولا تنغيص، ﴿ذلك يوم الخلود﴾ الذي لا زوال له ولا موت، ولا شيء من المكدرات، ﴿لهم ما يشاؤون فيها﴾ أي: كل ما تعلقت به مشيئتهم فهو حاصل فيها ولهم فوق ذلك ﴿مزيد﴾

(١) من قوله: ويحتمل إلى: هذا هو الظاهر ليس في ب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: وارفع.

(٣) في ب: لم يصح.

(٤) في ب: من الأرض.

عنهم ﴿ أي : عن الأموات ﴾ .

المكذبون، ويعرض عن العمل له العاملون .

والمراد بالذاريات : هي الرياح التي تنزروا في هبوبها ﴿ ذروا ﴾ بلينها، ولطفها، وقوتها، وإزعاجها، ﴿ والحاملات وقرأ ﴾ السحاب، تحمل الماء الكثير، الذي ينفع الله به البلاد والعباد، ﴿ والجاريات يسرا ﴾ : النجوم التي تجري على وجه اليسر والسهولة، فتزين بها السماوات، ويمتد بها في ظلمات البر والبحر، وينتفع بالاعتبار بها، ﴿ والمقصات أمراً ﴾ : الملائكة التي تقسم الأمر وتدبره بإذن الله، فكل منهم قد جعله الله على تدبير أمر من أمور الدنيا وأمر الآخرة، لا يتمدى ما قدر له وما حُدِّدَ ورسم، ولا ينقص منه .

﴿ ٧ - ٩ ﴾ ﴿ والسماء ذات الحجب ﴾ إنكم لفي قول مختلف \* يؤفك عنه من أفك ﴿ أي : والسماء ذات الطرائق الحسنة، التي تشبه حجب الرمال، ومياه الغدران، حين يحركها النسيم، ﴿ إنكم ﴾ أيها المكذبون لمحمد ﷺ، ﴿ لفي قول مختلف ﴾ منكم من يقول ساحر، ومنكم من يقول كاهن، ومنكم من يقول مجنون، إلى غير ذلك من الأقوال المختلفة، الدالة على حيرتهم وشكهم، وأن ما هم عليه باطل، ﴿ يؤفك عنه من أفك ﴾ أي : يصرف عنه من الإيمان، وانصرف قلبه عن أدلة الله اليقينية وبراهينه، واختلاف قولهم دليل على فساده وبطلانه، كما أن الحق الذي جاء به محمد ﷺ، متفق [يصدق] بعضه بعضاً] لا تناقض فيه ولا اختلاف، وذلك دليل على صحته، وأنه من عند الله ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ .

﴿ ١٠ - ١٤ ﴾ ﴿ قتل الخراصون ﴾ الذين هم في غمرة ساهون \* يسألون أيان يوم الدين \* يوم هم على النار يفتنون \* ذوقوا فنتنكم هذا الذي كنتم به تستعجلون ﴿ يقول تعالى : ﴿ قتل

﴿ سراعاً ﴾ أي : يسرعون لإجابة الداعي لهم إلى موقف القيامة، ﴿ ذلك حشر علينا يسير ﴾ أي : هيئ ﴿ على الله، يسير لا تعب فيه ولا كلفة، ﴿ نحن أعلم بما يقولون ﴾ لك عما يمزرك من الأذى، وإذا كنا أعلم بذلك، فقد علمت كيف اعتناؤنا بك، وتيسيرنا لأمرنا، ونصرنا لك على أعدائك، فليرح قلبك، ولتطمئن نفسك، ولتعلم أننا أرحم بك وأرفق من نفسك، فلم يبق لك إلا انتظار وعد الله، والتأسي بأولي العزم من رسل الله، ﴿ وما أنت عليهم بجبار ﴾ أي : مسلط عليهم ﴿ إنما أنت منذر ولكل قوم هاد ﴾ ولهذا قال : ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ والتذكير [هو] تذكير ما تقرر في العقول والفطر، من حجة الخير وإيثاره وفعله، ومن بغض الشر ومجانبته، وإنما يتذكر بالتذكير من يخاف وعيد الله، وأما من لم يخف الوعيد ولم يؤمن به، فهذا فائدة تذكيره إقامة الحجة عليه، لئلا يقول : ﴿ ما جاءنا من بشير ولا نذير ﴾ .

آخر تفسير سورة ق، والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً

تفسير سورة الناريات  
مكية

﴿ ١٦ - ٦ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم والذاريات ذروا ﴾ فالحاملات وقرأ \* فالجاريات يسراً \* فالمقصات أمراً \* إنما توعدون لصادق \* وإن الدين لواقع ﴿ هذا قسم من الله الصادق في قبيله، هذه المخلوقات العظيمة التي جعل الله فيها من المصالح والمنافع ما جعل على أن وعده صادق، وأن الدين الذي هو يوم الجزاء والمحاسبة على الأعمال، لواقع لا محالة، ما له من دافع، فإذا أخبر به الصادق العظيم وأقسم عليه، وأقام الأدلة والبراهين عليه، فلم يكذب به

(١) في ب : عن الخلاق .



الخراصون ﴿ أي : قاتل الله الذين كذبوا على الله، وجحدوا آياته، وخاضوا بالباطل، ليدحضوا به الحق، الذين يقولون على الله ما لا يعلمون، الذين هم في غمرة ﴾ أي : في لجة من الكفر والجهل والضلال، ﴿ ساهون ﴾ ﴿ يسألون ﴾ على وجه الشك والتكذيب أيان يبعثون أي : متى يبعثون، مستعدين لذلك، فلا تسأل عن حالهم وسوء ما لهم ﴿ يوم هم على النار يفتنون ﴾ أي : يعذبون بسبب ما انطوا عليه من خبث الباطن والظاهر، ويقال [لهم] : ﴿ ذوقوا فنتنكم ﴾ أي : العذاب والنار، الذي هو أثر ما افتتوا به، من الابتلاء الذي صيرهم إلى الكفر والضلال، ﴿ هذا ﴾ العذاب، الذي وصلتكم إليه، [هو] ﴿ الذي كنتم به تستعجلون ﴾ فالآن تمسعوا بأنواع العقاب والنكال، والسلاسل والأغلال، والسخط والوبال .

﴿ ١٥ - ١٩ ﴾ ﴿ إن المقفين في جنات وعبون ﴾ آخذين ما أتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين \* كانوا قليلاً من الليل ما يهجمون \* وبالأسحار هم يستغفرون \* وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ﴿ يقول تعالى في ذكر ثواب المقفين وأعمالهم، التي أوصلتهم ﴿ إلى

(٣) في ب : وصلوا بها .

(٢) في ب : سهل .



أموالهم حق\* واجب ومستحب  
للسائل والمحروم\* أي: للمحتاجين  
الذين يطلبون من الناس، والذين  
لا يطلبون منهم<sup>(١)</sup>.

﴿٢٠-٢٣﴾ ﴿وفي الأرض آيات  
للموقنين\* وفي أنفسكم أفلا  
تبصرون\* وفي السماء رزقكم وما  
توعدون\* فوبرب السماء والأرض إنه  
لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾ يقول  
تعالى - داعياً عباده إلى التفكر  
والاعتبار -: ﴿وفي الأرض آيات  
للموقنين﴾ وذلك شامل لنفس  
الأرض، وما فيها من جبال وبحار  
وأهوار وأشجار ونبات، تدل المتفكر  
فيها، المتأمل لمعانيها، على عظمة  
خالقها، وسعة سلطانه، وعميم  
إحسانه، وإحاطة علمه بالظواهر  
والباطن. وكذلك في نفس العبد من  
العبر والحكمة والرحمة ما يدل على  
أن الله وحده الأحد<sup>(٢)</sup> الفرد الصمد،  
وأنه لم يخلق الخلق سدى.

وقوله: ﴿وفي السماء رزقكم﴾  
أي: مائة رزقكم من الأمطار،  
وصنوف الأقدار، الرزق الديني  
والدنيوي، ﴿وما توعدون﴾ من الجزاء  
في الدنيا والآخرة، فإنه ينزل من  
عند الله كسائر الأقدار، فلما بين  
الآيات ونه عليها تنبيهاً ينتبه به الذكي  
الليبي، أقسم تعالى على أن وعده  
وجزائه حق، وشبه ذلك بأظهر الأشياء  
[لنا] وهو النطق، فقال: ﴿فوبرب  
السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم  
تنطقون﴾ فكما لا تشكون في  
نطقكم، فكذلك لا ينبغي الشك في  
البعث بعد الموت<sup>(٣)</sup>.

﴿٢٤-٢٧﴾ ﴿هل أتاك حديث  
ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه

الوجه، ولما نهي عنه، بالانزجار  
عنه لله، على أكمل وجه، فإن الذي  
أعطاهم الله من الأوامر والنواهي هو  
أفضل العطايا، التي حقها أن تتلقى  
بالشكر [الله] عليها والانتقاد.

والمعنى الأول ألصق بسباق الكلام،  
لأنه ذكر وصفهم في الدنيا، وأعمالهم  
بقوله: ﴿إنهم كانوا قبل ذلك﴾ الوقت  
الذي وصلوا به إلى النعيم ﴿محسنين﴾  
وهذا شامل لإحسانهم بعبادة ربهم،  
بأن يعبدوه كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا  
يروونه، فإنه يراهم، وللإحسان إلى  
عباد الله ببذل النفع والإحسان، من  
مال، أو علم، أو جاه، أو نصيحة، أو  
أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو  
غير ذلك من وجوه الإحسان<sup>(٤)</sup>،  
وطرق الخيرات.

حتى إنه يدخل في ذلك، الإحسان  
بالقول، والكلام اللين، والإحسان إلى  
المساكين، والبهايم المملوكة وغير  
المملوكة<sup>(٥)</sup>، ومن أفضل أنواع  
الإحسان في عبادة الخالق، صلاة  
الليل، الدالة على الإخلاص، وتواطؤ  
القلب واللسان، ولهذا قال: ﴿كانوا﴾  
أي: المحسنون ﴿قليلاً من الليل ما  
يجعون﴾ أي: كان هجوعهم أي:  
نومهم بالليل قليلاً، وأما أكثر الليل،  
فإنهم قانتون لربهم، ما بين صلاة،  
وقراءة، وذكر، ودعاء، وتضرع،  
﴿وبالأسحار﴾ التي هي قبيل الفجر  
﴿هم يستغفرون﴾ الله تعالى، فمدوا  
صلاتهم إلى السحر، ثم جلسوا في  
خاتمة قيامهم بالليل، يستغفرون الله  
تعالى، استغفار المذنب لذنبه،  
وللاستغفار بالأسحار فضيلة  
وخصيصة ليست لغيره، كما قال تعالى  
في وصف أهل الإيمان والطاعة: ﴿والمستغفرين بالأسحار﴾ ﴿وفي



ذلك الجزاء: ﴿إن المقين﴾ أي: الذين  
كانت التقوى شعارهم، وطاعة الله  
دثارهم، ﴿في جنات﴾ مشتملات على  
جميع [أصناف] الأشجار والفواكه التي  
يوجد لها نظير في الدنيا، والتي  
لا يوجد لها نظير، مما لم تنظر العيون  
إلى مثله، ولم تسمع الآذان، ولم يحظر  
على قلوب العباد<sup>(٦)</sup>، ﴿وعيون﴾  
سارحة، تشرب منها البساتين،  
ويشرب بها عباد الله، يفجرونها  
تفجيراً، ﴿آخذين ما آتاهم ربهم﴾  
يحتمل أن المعنى أن أهل الجنة قد  
أعطاهم مولاهم جميع مناهم، من جميع  
أصناف النعيم، فأخذوا ذلك، راضين  
به، قد قرت به أعينهم، وفرحت به  
نفوسهم، ولم يطلبوا منه بدلاً، ولا  
يبغون عنه حولا، وكل قد ناله من  
النعيم ما لا يطلب عليه المزيد،  
ويحتمل أن هذا وصف المقين في  
الدنيا، وأنهم آخذون ما آتاهم الله، من  
الأوامر والنواهي أي: قد تلقوها  
بالرحب واتسراح الصدر، متقادين لما  
أمر الله به، بالامتثال على أكمل

(١) في ب: قلب بشر.

(٢) في ب: من وجوه البر.

(٣) كذا في ب، وفي أ: التي تملك والتي لا تملك.

(٤) في ب: والذين لا يسألونهم.

(٥) في ب: أن الله واحد أحد.

(٦) في ب: فكذلك ينبغي أن لا يعتركم الشك في البعث والجزاء.

### فصل في بعض ما تضمنته هذه القصة من الحكم والأحكام

منها: أن من الحكمة، قص الله على عباده نبأ الأخيار والفجار، ليعتبروا بحالهم<sup>(٣٦)</sup>، وأين وصلت بهم الأحوال.

ومنها: فضل إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، حيث ابتدأ الله قصته بما يدل على الاهتمام بشأنها، والاعتناء بها.

ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن إبراهيم الخليل، الذي أمر الله هذا النبي<sup>(٣٧)</sup> وأمته، أن يتبعوا ملته، وساقها الله في هذا الموضع، على وجه المدح له والثناء.

ومنها: أن الضيف يكرم بأنواع الإكرام، بالقول والفعل، لأن الله وصف أضياف إبراهيم بأنهم مكرمون أي: أكرمهم إبراهيم، ووصف الله ما صنع بهم من الضيافة قولاً وفعلاً، ومكرمون أيضاً عند الله تعالى.

ومنها: أن إبراهيم عليه السلام، قد كان بيته مأوى للطارقين والأضياف، لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان، وإنما سلكوا طريق الأدب في الابتداء بالسلام<sup>(٣٨)</sup>، فرد عليهم إبراهيم سلاماً أكمل من سلامهم وأتم، لأنه أتى به جملة اسمية دالة على الثبوت والاستقرار.

ومنها: مشروعية تعرف من جاء إلى الإنسان، أو صار له فيه نوع اتصال، لأن في ذلك فوائد كثيرة.

ومنها: أدب إبراهيم ولطفه في الكلام، حيث قال: ﴿قوم منكرون﴾ ولم يقل: «أنكرتكم» [وبين اللفظين من الفرق ما لا يخفى].

ومنها: المبادرة إلى الضيافة والإسراع بها، لأن خير البر عاجله [ولهذا يبادر إبراهيم بإحضار قرى أضيافه].

ومنها: أن الذبيحة الحاضرة، التي

معه النساء، ومع ذلك، فأنا عقيم، غير صالح رحمي للولادة أصلاً، فتم مانعان، كل منهما مانع من الولد، وقد ذكرت المانع الثالث في سورة هود بقولها: ﴿وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب﴾.

﴿قالوا كذلك قال ربك﴾ أي: الله الذي قدر ذلك وأمضاه، فلا عجب في قدرة الله تعالى ﴿إنه هو الحكيم العليم﴾ أي: الذي يضع الأشياء مواضعها، وقد وسع كل شيء علماً فسلموا لحكمه، واشكروه على نعمته.

قال لهم إبراهيم عليه السلام: ﴿فما خطبكم أيها المرسلون﴾ الآيات، أي: ما شأنكم وما تريدون؟ لأنه استنصر<sup>(٣٩)</sup> أنهم رسل، أرسلهم الله لبعض الشؤون المهمة.

﴿٣٢﴾ ﴿قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾ وهم قوم لوط، قد أجرموا، أشركوا بالله، وكذبوا رسلهم، وأتوا الفاحشة الشنعاء التي ما سبقهم إليها أحد من العالمين.

﴿لنرسل عليهم حجارة من طين \* مسؤمة عند ربك للمسرفين﴾ أي: معلمة، على كل حجر منها سمة صاحبه<sup>(٤٠)</sup>، لأنهم أسرفوا وتجاوزوا الحد، فجعل إبراهيم يجادلهم في قوم لوط، لعل الله يدفع عنهم العذاب، فقال الله: ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتاهم عذاب غير مردود﴾.

﴿فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين \* فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾ وهم بيت لوط عليه السلام، إلا امرأته، فإنها من المهلكين.

﴿وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم﴾ يعتبرون بها ويعلمون أن الله شديد العقاب، وأن رسله صادقون مصدرقون.

فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون \* فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين \* فقربه إليهم قال ألا تأكلون \* فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم \* فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم \* قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم \* [قال فما خطبكم أيها المرسلون \* قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين \* لنرسل عليهم حجارة من طين \* مسوقة عند ربك للمسرفين \* فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين \* فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين \* وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم] يقول تعالى: ﴿هل أتاك﴾ أي: أما جاءك ﴿حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾ ونيابهم الغريب العجيب، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، وأمرهم بالمرور على إبراهيم، فجأزوه في صورة أضياف.

﴿إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال﴾ عجباً لهم ﴿سلام﴾ أي: عليكم ﴿قوم منكرون﴾ أي: أنتم قوم منكرون، فأحب أن تعرفوني بأنفسكم، ولم يعرفهم إلا بعد ذلك.

ولهذا راغ إلى أهله أي: ذهب سريعاً في خفية، ليحضر لهم قراهم، ﴿فجاء بعجل سمين \* فقربه إليهم﴾ وعرض عليهم الأكل، ف ﴿قال ألا تأكلون \* فأوجس منهم خيفة﴾ حين رأى أيديهم لا تصل إليه، ﴿قالوا لا تخف﴾ وأخبروه بما جاؤوا له ﴿وبشروه بغلام عليم﴾ وهو إسحاق عليه السلام، فلما سمعت المرأة البشارة ﴿أقبلت﴾ فرحة مستبشرة ﴿في صرة﴾ أي: صيحة ﴿فصكت وجهها﴾ وهذا من جنس ما يجري من النساء عند السرور [ونحوه] من الأقوال والأفعال المخالفة للطبيعة والعادة، ووقالت عجوز عقيم: أي: أتى لي الولد، وأنا عجوز، قد بلغت من السن، ما لا تلد

(٥) في ب: في ابتداء السلام.

(٣) في ب ليعتبروا بهم.

(١) كذا في ب، وفي أ: علم.

(٢) في ب على كل حجر اسم صاحبه.

قد أعدت لغير الضيف الحاضر<sup>(١)</sup>، إذا جعلت له، ليس فيها أقل إهانة، بل ذلك من الإكرام، كما فعل إبراهيم عليه السلام، وأخبر الله أن ضيفه مكرمون.

ومنها: ما من الله به على خليله إبراهيم، من الإكرام الكثير، وكون ذلك حاضراً عنده<sup>(٢)</sup>، وفي بيته معداً، لا يحتاج إلى أن يأتي به<sup>(٣)</sup> من السوق أو الجيران، ولا غير ذلك.

ومنها: أن إبراهيم، هو الذي خدم أضيافه، وهو خليل الرحمن، وكبير<sup>(٤)</sup> من ضييف الضييفان.

ومنها: أنه قرّبه إليهم في المكان الذي هم فيه، ولم يجعله في موضع، ويقول لهم: «تفضلوا، أو اتوا إلي» لأن هذا يسر عليهم وأحسن.

ومنها: حسن ملاطفة الضيف في الكلام اللين، خصوصاً عند تقديم الطعام إليه، فإن إبراهيم عرض عليهم عرضاً لطيفاً، وقال: «ألا تأكلون» ولم يقل: «كلوا» ونحوه من الألفاظ، التي غيرها أولى منها، بل أتى بأداة العرض، فقال: «ألا تأكلون» فيبني للمقتدي به أن يستعمل من الألفاظ الحسنة، ما هو المناسب واللائق بالحال، كقوله لأضيافه: «ألا تأكلون» أو: «ألا تتفضلون علينا وتشرفوننا وتحسنون إلينا»، ونحوه.

ومنها: أن من خاف من الإنسان<sup>(٥)</sup> لسبب من الأسباب، فإن عليه أن يزيل عنه الخوف، ويذكر له ما يؤمن روعه، ويسكن جأشه، كما قالت الملائكة لإبراهيم [لما خافهم]: «لا تخف» وأخبروه بتلك البشارة السارة بعد الخوف منهم.

ومنها: شدة فرح سارة امرأة إبراهيم، حتى جرى منها ما جرى، من صك وجهها، وصريرها غير

المهودة.

ومنها: ما أكرم الله به إبراهيم وزوجته سارة، من البشارة بغلام عليم.

﴿٣٨ - ٤٠﴾ وقوله تعالى: ﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسُلطان مبين \* فتولى بركته وقال ساحرٌ أو مجنون \* فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم﴾ أي: ﴿وفي موسى﴾ وما أرسله الله به إلى فرعون وملئيه بالآيات البينات، والمعجزات الظاهرات، آية للذين يخافون العذاب الأليم، فلما أتى موسى<sup>(٦)</sup> بذلك السلطان المبين، فتولى فرعون ﴿بركته﴾ أي: أعرض بجانيه عن الحق ولم يلتفت إليه، وقدح فيه أعظم القدح، فقالوا: ﴿ساحرٌ أو مجنون﴾ أي: إن موسى، لا يخلو إما أن يكون ساحراً وما أتى به شعبذة<sup>(٧)</sup> ليس من الحق في شيء، وإما أن يكون مجنوناً لا يواخذ بما صدر منه لعدم عقله.

هذا، وقد علموا؛ خصوصاً فرعون، أن موسى صادق، كما قال تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوًّا﴾ وقال موسى لفرعون: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض [بصائر] الآية﴾، ﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم﴾ أي: مذنب طاغ، عات على الله، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر.

﴿٤١ - ٤٢﴾ ﴿وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم \* ما تذر من شيء أنت عليه إلا جعلته كالريم﴾ أي: ﴿وفي عاد﴾ القبيلة المعروفة آية عظيمة<sup>(٨)</sup>، إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم، أي: التي لا خير فيها، حين كذبوا نبيهم هوداً عليه السلام، ﴿ما تذر من شيء أنت عليه إلا جعلته

كالريم﴾ أي: كالرمم البالية، فالذي أهلكتهم على قوتهم وبطشهم، دليل على [كمال] قوته واقتداره، الذي لا يعجزه شيء، المنتقم من عصاه.

﴿٤٣ - ٤٥﴾ ﴿وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين \* فتعوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون \* فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين﴾ أي: ﴿وفي ثمود﴾ آية عظيمة، حين أرسل الله إليهم صالحاً عليه السلام، فكذبوه وعاندوه، وبعث الله له الناقة آية مبصرة، فلم يزددهم ذلك إلا عتوا وتفوراً.

فقيل ﴿لهم تمتعوا حتى حين﴾ فتعوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة﴾ أي: الصيحة العظيمة المهلكة ﴿وهم ينظرون﴾ إلى عقوبتهم بأعينهم، ﴿فما استطاعوا من قيام﴾ ينجون به من العذاب، ﴿وما كانوا منتصرين﴾ لأنفسهم.

﴿٤٦﴾ ﴿وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قومًا فاسقين﴾ أي: وكذلك ما فعل الله بقوم نوح، حين كذبوا نوحاً عليه السلام وفسقوا عن أمر الله، فأرسل الله عليهم السماء والأرض بماء المهنم، فأغرقهم الله تعالى [عن آخرهم]، ولم يبق من الكافرين دياراً، وهذه عادة الله وستة فيمن عصاه.

﴿٤٧ - ٥١﴾ ﴿والسما بنيناها بأييد وإنا لموسمون \* والأرض فرشناها فنعم الماهدون \* ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون \* فقروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين \* ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إنى لكم منه نذير مبين﴾ يقول تعالى مبيناً لقدرته العظيمة: ﴿والسما بنيناها﴾ أي: خلقناها وأنقأها، وجعلناها سقفاً للأرض وما عليها.

﴿بأييد﴾ أي: قوة وقدرة عظيمة

(٨) في ب: تقديم وتأخير في هذا الكلام.

(٦) كذا في ب، مصححة في الهامش، وفي أ: فلما أتى فرعون.

(٧) في ب: إما أن يكون ما أتى به سحراً وشعبذة.

(١) كذا في ب، وفي أ: الخاص.

(٢) في ب: لديه.

(٣) كذا في ب، وفي أ: أن يستلقه.

(٤) في ب: وسيد.

(٥) في ب: من أحد.

الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم<sup>(١)</sup> وكذلك المؤمنون، لما تشابهت قلوبهم بالإذعان للحق وطلبه والسعي فيه، يادروا إلى الإيمان برسولهم وتعظيمهم وتوقيرهم وخطابهم بالخطاب اللائق بهم.

﴿٥٤ - ٥٥﴾ فتقول عنهم فما أتت بملوم \* وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴿ يقول تعالى أمراً رسولاً بالإعراض عن المعرضين المكذبين: ﴿فتقول عنهم﴾ أي: لا تبال بهم ولا تؤاخذهم، وأقبل على شأنك.

فليس عليك لوم في ذنبهم، وإنما عليك البلاغ، وقد أديت ما حملت، وبألت ما أرسلت به.

﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ والتذكير نوعان: تذكير بما لم يعرف تفصيله، مما عرف بحمله بالفطر والعقول<sup>(٢)</sup>، فإن الله فطر العقول على حجة الخبير وإشاره، وكرامة الشر والزهد فيه، وشرعه موافق لذلك، فكل ما أمر به ونهى من الشرع، فإنه من التذكير، وتمام التذكير، أن يذكر ما في الأمور به، من الخير والحسن والمصالح، وما في المنهي عنه من المضار.

والنوع الثاني من التذكير: تذكير بما هو معلوم للمؤمنين، ولكن انسحبت عليه الغفلة والذهول، فيذكرون لذلك، ويكرر عليهم ليرسخ في أذهانهم، وينتبهوا ويعملوا بما تذكروه من ذلك، وليحدث لهم نشاطاً وهمة، توجب لهم الانتفاع والارتفاع.

وأخبر الله أن الذكرى تنفع المؤمنين، لأن ما معهم من الإيمان والخشية والإنابة واتباع رضوان الله، يوجب لهم أن تنفع فيهم الذكرى، وتقع منهم الموعظة موقعها، كما قال تعالى: ﴿فذكر إن نفعت الذكرى \* سيذكر من يخشى \* ويتجنبها

المراد<sup>(٣)</sup> والمطلوب. وسمى الله الرجوع إليه فراراً، لأن في الرجوع لغيبه أنواع المخاوف والمكاره، وفي الرجوع إليه أنواع المحاب والأمن [والسرور] والسعادة والفوز، فيفز العبد من قضائه وقدره إلى قضائه وقدره، وكل من خفت منه فررت منه إلا الله تعالى، فإنه بحسب الخوف منه يكون الفرار إليه، ﴿إني لكم منه نذير مبين﴾ أي: منذر لكم من عذاب الله، وخوف بين النذارة، ﴿ولا تجعلوا مع الله الهاً آخر﴾ هذا من الفرار إلى الله، بل هذا أصل الفرار إليه أن يفر العبد من اتخاذ آلهة غير الله من الأوثان والأنداد والقبور، وغيرها، مما عبد من دون الله، ويخلص العبد لربه العبادة والخوف والرجاء والدعاء والإنابة.

﴿٥٢ - ٥٣﴾ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون \* أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴿ يقول الله مسلياً لرسوله ﷺ عن تكذيب المشركين بالله، المكذبين له، القائلين فيه من الأقوال الشنيعة ما هو منزه عنه، وأن هذه الأقوال ما زالت دأباً وعادة للمجرمين المكذبين للرسول، فما أرسل الله من رسول إلا رماه قومه بالسحر أو الجنون.

يقول الله تعالى: هذه الأقوال التي صدرت منهم - الأولين والآخرين - هل هي أقوال تواصوا بها، ولقن بعضهم بعضاً بها؟

فلا يستغرب - بسبب ذلك - اتفاقهم عليها: ﴿أم هم قوم طاغون﴾ تشابهت قلوبهم وأعمالهم بالكفر والطفیان، فتشابهت أقوالهم الناشئة عن طغيانهم؟ وهذا هو الواقع، كما قال تعالى: ﴿وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال

﴿وإنا لموسمون﴾ لأرجانها وأنجائها، وإنا لموسمون [أيضاً] على عبادنا بالرزق الذي ما ترك الله دابة في مهامه القفار، ولجج البحار، وأقطار العالم العلوي والسفلي، إلا وأوصل إليها من الرزق، ما يكفيها، وساق إليها من الإحسان ما يغنيها.

فسبحان من عم بجوده جميع المخلوقات، وتبارك الذي وسعت رحمته جميع البريات، ﴿والأرض فرشناها﴾ أي: جعلناها فراشاً للخلق، يتمكنون فيها من كل ما تتعلق به مصالحهم، من مساكن وغراس وزرع وحرث وجلوس، وسلوك للطرق الموصلة إلى مقاصدهم ومآربهم، ولما كان الفراش قد يكون صالحاً للانتفاع من كل وجه، وقد يكون من وجه دون وجه، أخبر تعالى أنه مهدها أحسن مهاد، على أكمل الوجوه وأحسنها، وأتى على نفسه بذلك، فقال: ﴿نعم الماهدون﴾ الذي مهد لعباده ما اقتضته [حكيمته و] رحمته وإحسانه، ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾ [أي: صنفين]، ذكر وأنى، من كل نوع من أنواع الحيوانات، ﴿لعلكم تذكرون﴾ [لنعم الله التي أنعم بها عليكم]<sup>(٤)</sup> في تقدير ذلك، وحكيمته حيث جعل ما هو السبب لبقاء نوع الحيوانات كلها، لنقوموا بتنميتها وخدمتها وتربيتها، فيحصل من ذلك ما يحصل من المنافع.

فلما دعا العباد إلى النظر لآياته الموجبة لخشيته والإنابة إليه، أمر بما هو المقصود من ذلك، وهو الفرار إليه أي: الفرار بما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه، ظاهراً وباطناً، فرار من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الغفلة إلى ذكر الله، فمن استكمل هذه الأمور، فقد استكمل الدين كله وقد زال عنه المرهوب، وحصل له نهاية

(١) كذا في ب، وفي أ: نعمة الله عليكم.

(٢) في ب: غاية المراد.

(٣) كذا في ب، وفي أ: مما عرف بالفطر والعقول مجمله.

(٤) كذا في ب، وفي أ: ما.

كلم الله عليه نبيه موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، وأوحى إليه ما أوحى من الأحكام، وفي ذلك من المنة عليه وعمل أمته، ما هو من آيات الله العظيمة، ونعمه التي لا يقدر العباد لها على عد ولا ثمن.

﴿وكتاب مسطور﴾ يحتتمل أن المراد به اللوح المحفوظ، الذي كتب الله به كل شيء،، ويحتتمل أن المراد به القرآن الكريم، الذي هو أفضل كتاب<sup>(١)</sup>، أنزله الله محتويًا على نبي الأولين والآخرين، وعلوم السابقين واللاحقين.

وقوله: ﴿في رق﴾ أي: ورق ﴿منشور﴾ أي: مكتوب مسطر، ظاهر غير خفي، لا تحفى حاله على كل عاقل بصير.

﴿والبيت المعمور﴾ وهو البيت الذي فوق السماء السابعة، المعمور مدى الأوقات بالملائكة الكرام، الذي يدخله كل يوم سبعون ألف ملك [يتعدون فيه لربهم ثم]، لا يعودون إليه إلى يوم القيامة وقيل: إن البيت المعمور هو بيت الله الحرام، المعمور بالطائفين والمصلين والذاكرين كل وقت، وبالوفود إليه بالحج والعمرة.

كما أقسم الله به في قوله: ﴿وهذا البلد الأمين﴾ وحقين بيت أفضل بيوت الأرض، الذي قصده بالحج والعمرة، أحد أركان الإسلام، ومبانيه العظام، التي لا يتم إلا بها، وهو الذي بناه إبراهيم وإسماعيل، وجعله الله مثابة للناس وأمنًا، أن يقسم الله به، ويبين من عظمت ما هو اللاتق به وبحرمته.

﴿والسقف المرفوع﴾ أي: السماء، التي جعلها الله سقفًا للمخلوقات، وبناء للأرض، تستمد منها أنوارها، ويقتدى بعلاقتها ومنازلها، وينزل الله منها المطر والرحمة وأنواع الرزق.

﴿والبحر المسجور﴾ أي: المملوء

منهم أحد، ويعلم ما تنقص الأرض منهم، فسبحان القوي المتين.

﴿٥٩ - ٦٠﴾ ﴿فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون﴾ فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون ﴿أي: وإن للذين ظلموا وكذبوا<sup>(٢)</sup> محمداً ﷺ من العذاب والنكال﴾ ذنوباً ﴿أي: نصيباً وقسطاً، مثل ما فعل بأصحابهم من أهل الظلم والتكذيب.

﴿فلا يستعجلون﴾ بالعذاب، فإن سنة الله في الأمم واحدة، فكل مكذب يدوم على تكذيبه من غير توبة وإنابة، فإنه لا بد أن يقع عليه العذاب، ولو تأخر عنه مدة، ولهذا توعدهم الله بيوم القيامة، فقال: ﴿فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون﴾ وهو يوم القيامة، الذي قد وعدوا فيه بأنواع العذاب والنكال والسلاسل والأغلال، فلا مغيب لهم، ولا منقذ من عذاب الله تعالى [نعوذ بالله منه].

### تفسير سورة الطور، مكية

﴿١٦ - ١٧﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والطور والطور﴾ وكتاب مسطور ﴿في رق منشور﴾ والبيت المعمور ﴿والسقف المرفوع﴾ والبحر المسجور ﴿إن عذاب ربك لواقع﴾ ماله من دافع ﴿يوم تمور السماء موراً﴾ وتسير الجبال سيراً ﴿فويل يومئذ للمكذبين﴾ الذين هم في خوض يلعبون ﴿يوم يدعون إلى نار جهنم دعا﴾ هذه النار التي كنتم بها تكذبون ﴿أنسحر هذا أم أنتم لا تبصرون﴾ اصلوها فاصيروا أو لا تصيروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴿يقسم تعالى بهذه الأمور العظيمة، المشتملة على الحكم الجليلة، على البعث والجزاء للمتقين والمكذبين، فأقسم بالطور الذي هو الجبل الذي

الأشقى﴾ وأما من ليس له معه إيمان ولا استعداد لقبول التذكير، فهذا لا ينفع تذكيره، بمنزلة الأرض السبخة التي لا يفيدها المطر شيئاً، وهؤلاء الصنف، لو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

﴿٥٦ - ٥٨﴾ ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ﴿إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ هذه الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعوون إليها، وهي عبادته المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عمن سواه، وذلك يتضمن<sup>(٣)</sup> معرفته تعالى، فإن تمام العبادة، متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه، كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم.

فما يريد منهم من رزق وما يريد أن يطعموه، تعالى الله الغني المغني عن الحاجة إلى أحد بوجه من الوجوه، وإنما جميع الخلق فقراء إليه، في جميع حوائجهم ومطالبهم، الضرورية وغيرها، ولهذا قال: ﴿إن الله هو الرزاق﴾ أي: كثير الرزق، الذي ما من دابة في الأرض ولا في السماء إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، ﴿ذو القوة المتين﴾ أي: الذي له القوة والقدرة كلها، الذي أوجد بها الأجرام العظيمة، السفلية والعلوية، وبها تصرف في الظواهر والبيواطن، ونفذت مشيئته في جميع البريات، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يعجزه هارب، ولا يخرج عن سلطانه أحد، ومن قوته أنه أوصل رزقه إلى جميع العالم، ومن قدرته وقوته أنه يبعث الأموات بعدما مزقهم الليل، وعصفت بترابهم<sup>(٤)</sup> الرياح، وابتلعتهم الطيور والسباع، وتفرقوا وتمزقوا في مهام القفار، ولحج البحار، فلا يقوته

(١) في ب: وذلك متوقف.

(٢) في ب: بتكذيبهم.

(٢) في ب: عصفت بهم.

(٤) في ب: الكتب.

ماء، قد سجره الله، ومنعه من أن يفيض على وجه الأرض، مع أن مقتضى الطبيعة، أن يغمر وجه الأرض، ولكن حكمته اقتضت أن يمنعه عن الجريان والفيضان، ليعيش من على وجه الأرض، من أنشراح الخيران وقيل: إن المراد بالسجور، الموقد الذي يوقد [ناراً] يوم القيامة، فيصير ناراً تُلظي، ممثلاً على عظمته وسعته من أصناف العذاب.

هذه الأشياء التي أقسم الله بها، مما يدل على أنها من آيات الله وأدلة توحيده، وبراهين قدرته، وبعثه السموات، ولهذا قال: **﴿إن عذاب ربك لواقع﴾** أي: لا بد أن يقع، ولا يخلف الله وعده وقيله.

**﴿ما له من دافع﴾** يدفعه، ولا مانع يمنعه، لأن قدرة الله تعالى لا يقالها مغالب، ولا يفوتها هارب، ثم ذكر وصف ذلك اليوم، الذي يقع فيه <sup>(١)</sup> العذاب، فقال: **﴿يوم تمور السماء موراً﴾** أي: تدور السماء وتضطرب، وتدوم حركتها بانزعاج وعدم سكون، **﴿وتسير الجبال سيراً﴾** أي: تزول عن أماكنها، وتسير كسير السحاب، وتتلون كالعين المنفوش، وتبث بعد ذلك [حتى تصير] مثل الهباء، وذلك كله لعظم هول يوم القيامة، وفظاعة ما فيه من الأمور المزعجة، والزلازل المقلقة، التي أزججت هذه الأجرام العظيمة، فكيف بالأدمي الضعيف!

**﴿قويل يومئذ للمكذبين﴾** والويل: كلمة جامعة لكل عقوبة وحزن وعذاب وخوف، ثم ذكر وصف المكذبين الذين استحقوا به الويل، فقال: **﴿الذين هم في خوض يلعبون﴾** أي: خوض في الباطل ولعب به. فعلموهم ويحوتهم بالعلوم الضارة التضمنة للتكذيب

بالحق، والتصديق بالباطل، وأعمالهم أعمال أهل الجهل والسفه واللعب، بخلاف ما عليه أهل التصديق والإيمان من العلوم النافعة، والأعمال الصالحة.

**﴿يوم يدعون إلى نار جهنم دعا﴾** أي: يوم يدعون إليها دفعا، ويساقون إليها سوقاً عنيفاً، ويمجرون على وجوههم، ويقال لهم توبيخاً ولوماً: **﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾** فالיום ذوقوا عذاب الخلد الذي لا يبلغ قدره، ولا يوصف أمره.

**﴿أنسحر هذا أم أنتم لا تبصرون﴾** يحتمل أن الإشارة إلى النار والعذاب، كما يدل عليه سياق الآية أي: لما رأوا النار والعذاب قيل لهم من باب التقرير: **﴿أهنا سحر لا حقيقة له، فقد رأيتموه، أم أنتم في الدنيا لا تبصرون﴾** أي: لا بصيرة لكم ولا علم عندهم، بل كنتم جاهلين بهذا الأمر، لم تقم عليكم الحجة؟ والجواب انتفاء الأمرين:

أما كونه سحراً، فقد ظهر لهم أنه أحق الحق، وأصدق الصدق، المخالف <sup>(٢)</sup> للسحر من جميع الوجوه، وأما كونهم لا يبصرون، فإن الأمر بخلاف ذلك، بل حجة الله قد قامت عليهم، ودعتهم الرسل إلى الإيمان بذلك، وأقامت من الأدلة والبراهين على ذلك، ما يجعله من أعظم الأمور البرهنة الواضحة الجلية.

ويحتمل أن الإشارة [بقوله: **﴿أنسحر هذا أم أنتم لا تبصرون﴾**] إلى ما جاء به الرسول ﷺ من الحق المبين، والصرط المستقيم أي: هذا الذي جاء به عمده ﷺ سحر أم عدم بصيرة بكم، حتى اشته عليكم الأمر، وحقيقة الأمر أنه أوضح من كل شيء وأحق الحق،

وأن حجة الله قامت عليهم <sup>(٣)</sup>. **﴿اصلوها﴾** أي: ادخلوا النار على وجه تحيط بكم، وتستوعب جميع أبدانكم <sup>(٤)</sup>، وتطلع على أفئدتكم.

**﴿فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم﴾** أي: لا يفيدكم الصبر على النار شيئاً، ولا يتأسى بعضكم ببعض، ولا يخفف عنكم العذاب، وليست <sup>(٥)</sup> من الأمور التي إذا صبر العبد عليها هانت مشقتها وزالت شدتها.

وإنما فعل بهم ذلك، بسبب أعمالهم الخبيثة وكسبهم، [ولهذا قال] **﴿إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾**.

**﴿١٧ - ٢٠﴾** **﴿إن المتقين في جنات ونعيم﴾** فأكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم \* كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون \* متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين \* لما ذكر تعالى عقوبة المكذبين، ذكر نعيم المتقين، ليجمع بين الترغيب والترهيب، فتكون القلوب بين الخوف والرجاء، فقال: **﴿إن المتقين﴾** لربهم، الذين اتقوا سخطه وعذابه، بفعل أسبابه من امتثال الأوامر واجتناب النواهي.

**﴿في جنات﴾** أي: بساتين، قد اكتست رياضها من الأشجار المتنفة، والأنهار التدفقة، والقصور المحدقة، والمنازل الزخرفة، **﴿ونعيم﴾** [وهذا] شامل لنعيم القلب والروح والبدن، **﴿فأكهين بما آتاهم ربهم﴾** أي: معجيين به، متمتعين على وجه الفرح والسرور بما أعطاهم الله من النعيم الذي لا يمكن وصفه، ولا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين، ووقاهم عذاب الجحيم، فرزقهم الحبيب،

(١) كذا في ب، وفي أ: يقع به.

(٢) في ب: المعاني.

(٣) بعد قوله والصرط المستقيم جاءت العبارة في ب مختلفة عما في أ، وهذا نص ما في ب: (أي: أتصور من له عقل أن يقول عنه: إنه سحر، وهو أعظم الحق وأجله، ولكن لعدم بصيرتهم قالوا فيه ما قالوا).

(٤) في ب: (وتشمل أبدانكم).

(٥) كذا في ب، وفي أ: وليس.

والأمر الثالث، وهو أن كلامهم فيها سلام طيب طاهر، مسر للنفوس، مفرح للقلوب، يتعاشرون أحسن عشرة، ويتنادمون أطيب الندامة، ولا يسمعون من ربه، إلا ما يقر أعينهم، ويدل على رضاه عنهم [وجبه لهم].

﴿ويطوف عليهم غلمان لهم﴾ أي: خدم شباب ﴿كانهم لؤلؤ مكنون﴾ من حسنهم وبياتهم، يدورون عليهم بالخدمة وقضاء ما يحتاجون إليه<sup>(٥)</sup>، وهذا يدل على كثرة نعيمهم وسعته، وكمال راحتهم.

﴿واقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ عن أمور الدنيا وأحوالها. ﴿قالوا﴾ في [ذكر] بيان الذي أوصلهم إلى ما هم فيه من الخبرة والسرور: ﴿إننا كنا قبل﴾ أي: في دار الدنيا ﴿في أهلنا مشفقين﴾ أي: خائفين وجلين، فتركتنا من خوفه الذنوب، وأصلحنا لذلك السيوب.

﴿فمن الله علينا﴾ بالهداية والتوفيق، ﴿ورقانا عذاب السموم﴾ أي: العذاب الحار الشديد حره.

﴿إننا كنا من قبل ندعوه﴾ أن يقينا عذاب السموم، ويوصلنا إلى النعيم، وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة أي: لم نزل نتقرب إليه بأنواع القربات<sup>(٦)</sup>، وندعوه في سائر الأوقات، ﴿إنه هو البز الرحيم﴾ فمن برّه بنا ورحمته إيانا، أنالنا رضاه والجنة، وورقانا سخطه والنار.

﴿٢٩ - ٤٣﴾ ﴿فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون﴾ أم يقولون شاعر تترىص به رب المنون ﴿قل تریصوا فإني معكم من التریصین﴾ أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون ﴿أم يقولون نقول به بل لا یؤمنون﴾ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾ أم خلقوا السماوات والأرض بل لا یوفنون ﴿

ولا تأثیم﴾ ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ﴿واقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ قالوا ﴿إننا كنا قبل في أهلنا مشفقين﴾ فمن الله علينا وورقانا عذاب السموم ﴿إننا كنا من قبل ندعوه إنه هو البز الرحيم﴾ وهذا من تمام نعيم أهل الجنة، أن الحق الله [بهم] ذريتهم الذين اتبعوهم بإيمان أي: الذين لحقوهم بالإيمان الصادر من آياتهم، فصارت الذرية تبعاً لهم بالإيمان، ومن باب أولى إذا تبعتهم ذريتهم بآياتهم الصادر منهم أنفسهم، فهؤلاء المذكورون، يلحقهم الله بمنزل آياتهم في الجنة وإن لم يبلغوها، جزاء لآياتهم، وزيادة في ثوابهم، ومع ذلك، لا ينقص الله الآباء من أعمالهم شيئاً، ولما كان ربما توهم متوهم أن أهل النار كذلك، يلحق الله بهم أبناءهم وذريتهم، أخبر أنه ليس حكم الدارين حكماً واحداً، فإن النار دار العدل، ومن عدله تعالى أن لا يعذب أحداً إلا بذنب، ولهذا قال: ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾ أي: مرتين بعمله، فلا تزر وازرة وزر أخرى، ولا يعمل على أحد ذنب أحد. هذا اعتراض من فوائده إزالة الوهم المذكور.

وقوله: ﴿وأمددناهم﴾ أي: أمددنا أهل الجنة من فضلنا الواسع ورزقنا العميم، ﴿بفأكهة﴾ من العنب والرمان والتفاح، وأصناف الفواكه اللذيذة الزائدة على ما به يتقنون، ﴿ولحم مما يشتهون﴾ من كل ما طلبوه واشتهته أنفسهم، من لحم الطير وغيرها.

﴿ينازعون فيها كأساً﴾ أي: تدور كأسات الرحيق والخمر عليهم، ويتعاطونها فيما بينهم، وتطوف عليهم الولدان المخلدون بأكواب وأباريق وكأس ﴿لا لغو فيها ولا تأثيم﴾ أي: ليس في الجنة كلام لغو، وهو الذي لا فائدة فيه ولا تأثيم، وهو الذي فيه إثم ومعصية، وإذا انتفى الأمران، ثبت

ونجاهم من المهوب، لما فعلوا ما أحبه الله، وجانبوا ما يسخطه وبأناه.

﴿كلوا واشربوا﴾ أي: بما تشتهي أنفسكم، من [أصناف] المأكّل والمشرب اللذيذة، ﴿هنياً﴾ أي: متهتين بنلك المأكّل والمشرب<sup>(٧)</sup> على وجه الفرح والسرور والبهجة والحبور.

﴿بما كنتم تعملون﴾ أي: نلتهم ما نلتهم بسبب أعمالكم الحسنة، وأقوالكم المستحسنة، ﴿متكئين على سرر مصفوفة﴾ الاتكاء: هو الجلوس على وجه التمكن والراحة والاستقرار، والسرر: هي الأرائك المزينة بأنواع الزينة من اللباس الفاخر والفرش الزاهية.

ووصف الله السرر بأنها مصفوفة، ليدل ذلك على كثرتها، وحسن تنظيمها، واجتماع أهلها وسرورهم، بحسن معاشرتهم، ولطف كلام بعضهم لبعض<sup>(٨)</sup>، فلما اجتمع لهم من نعيم القلب والروح والبدن ما لا يحظر بالبال، ولا يدور في الخيال، من المأكّل والمشرب [اللذيذة]، والمجالس الحسنة الأنيفة، لم يبق إلا التمتع بالنساء اللاتي لا يتم سرور بدوئهن<sup>(٩)</sup>، فذكر الله أن لهم من الأزواج أكمل النساء أوصافاً وخلقاً وأخلاقاً، ولهذا قال: ﴿وزوجناهم بحور عين﴾ وهن النساء اللواتي قد جمعن من جمال الصورة الظاهرة وبهايتها، ومن الأخلاق الفاضلة، ما يوجب أن يمiron بحسنهن الناظرين، ويسلبن عقول العالمين، وتكاد الأفئدة أن تطيش<sup>(١٠)</sup> شوقاً إليهن، ورغبة في وصالهن، والعيين: حسان الأعين مليحاتها، التي صفا بياضها وسوادها.

﴿٢١ - ٢٨﴾ ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين﴾ وأمددناهم بفأكهة ولحم مما يشتهون ﴿ينازعون فيها كأساً لا لغو فيها

(٥) في ب: وقضاء أشغالهم.

(٦) في ب: العبادات.

(٣) في ب: إلا بهن.

(٤) في ب: تطير.

(١) في ب: متهتين بذلك على وجه.

(٢) في ب: وملاطفه بعضهم بعضاً.









أسري به، من آيات الله العظيمة، وأنه تيقنه حقاً بقلبه ورؤيته، هذا [هو] الصحيح في تأويل الآية الكريمة، وقيل: إن المراد بذلك رؤية الرسول ﷺ لربه ليلة الإسراء، وتكليمه إياه، وهذا اختيار كثير من العلماء ورحمهم الله، فأثبتوا بهذا رؤية الرسول ﷺ لربه في الدنيا، ولكن الصحيح القول الأول، وأن المراد به جبريل عليه السلام، كما يدل عليه السياق، وأن محمداً ﷺ رأى جبريل في صورته الأصلية [التي هو عليها] مرتين، مرة في الأفق الأعلى، تحت السماء الدنيا كما تقدم، المرة الثانية فوق السماء السابعة ليلة أسري برسول الله ﷺ، ولهذا قال: «ولقد رآه نزلة أخرى» أي: رأى محمد جبريل مرة أخرى، نازلاً إليه.

﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ من الجنة والنار، وغير ذلك من الأمور التي رآها ﷺ ليلة أسري به.

﴿١٩ - ٢٥﴾ «أفرايتم اللات والعزى \* ومناة الثالثة الأخرى \* ألكم الذكر وله الأنثى \* تلك إذا قسمة ضيزى \* إن هي إلا أسماء سئمتوها \* أنتم وآباءكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يسعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى \* أم للإنسان ما تمنى \* فلله الآخرة والأولى﴾ لما زكّى تعالَى ما جاء به محمد ﷺ من الهدى ودين الحق، والأمر بعبادة الله وتوحيده، ذكر بطلان ما عليه المشركون من عبادة من ليس له من أوصاف الكمال شيء، ولا ترفع ولا تضر، وإنما هي أسماء فارغة عن المعنى، سماها المشركون هم وآباؤهم الجهال الضلال، ابتدعوا لها من الأسماء الباطلة التي لا تستحقها، فخذعوا بها أنفسهم وغيرهم من الضلال، فالآلهة التي بهذه الحال، لا تستحق مقال ذرة من العبادة، وهذه الأنداد التي سموها بهذه الأسماء، زعموا أنها مشتقة من أوصاف هي متصفة بها، فسموا «اللات» من «الإله» المستحق للعبادة، و«العزى» من «العزيز»، و«مناة» من «المنان»، إلحاداً في أسماء الله وتجريراً على الشرك به، وهذه أسماء متجردة

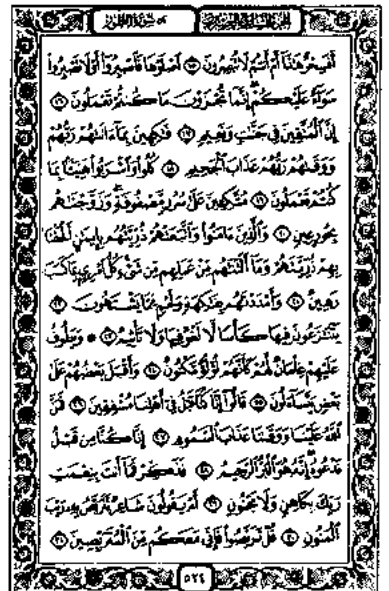
عن أي: وما تجاوز البصر، وهذا كمال الأدب منه صلوات الله وسلامه عليه، أن قام مقاماً أقامه الله فيه، ولم يقصر عنه ولا تجاوزه ولا حاد عنه، وهذا أكمل ما يكون من الأدب العظيم، الذي فاق فيه الأولين والآخرين، فإن الإحلال يكون بأحد هذه الأمور: إما أن لا يقوم العبد بما أمر به، أو يقوم به على وجه التفريط، أو على وجه الإفراط، أو على وجه الخيطة يميناً وشمالاً، وهذه الأمور كلها منتفية عنه ﷺ.

﴿عند سدرة المنتهى﴾ وهي شجرة عظيمة جداً، فوق السماء السابعة، سميت سدرة المنتهى، لأنه ينتهي إليها ما يعرج من الأرض، وينزل إليها ما ينزل من الله، من الوحي وغيره، أو لانتهاء علم الخلق<sup>(٣)</sup> إليها أي: لكونها فوق السموات والأرض، فهي المنتهى في علوها<sup>(٤)</sup>، أو لتغير ذلك، والله أعلم.

فراى محمد ﷺ جبريل في ذلك المكان، الذي هو محل الأرواح العلوية الزاكية الجميلة، التي لا يقربها شيطان ولا غيره من الأرواح الخبيثة.

عند تلك الشجرة «جنة المأوى» أي: الجنة الجامعة لكل نعيم، بحيث كانت محلاً تنشهي إليه<sup>(٥)</sup> الأمان، وترغب فيه الإرادات، وتآري إليها الرغبات، وهذا دليل على أن الجنة في أعلى الأماكن، وفوق السماء السابعة.

﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾ أي: يغشاها من أمر الله، شيء عظيم لا يعلم وصفه إلا الله عز وجل. ﴿ما زاع البصر وما طغى﴾ أي: ما زاع يمتد ولا يسرة عن مقصوده ﴿وما



﴿وهو بالأفق الأعلى﴾ أي: أفق السماء الذي هو أعلى من<sup>(١)</sup> الأرض، فهو من الأرواح العلوية، التي لا تنالها الشياطين ولا يتمكنون من الوصول إليها.

﴿ثم دنا﴾ جبريل من النبي ﷺ، لإيصال الوحي إليه.

﴿فتدل﴾ عليه من الأفق الأعلى ﴿فكان﴾ في قربه منه ﴿قاب قوسين﴾ أي: قدر قوسين، والقوس معروف، ﴿أو أدنى﴾ أي: أقرب من القوسين، وهذا يدل على كمال المباشرة<sup>(٢)</sup> للرسول ﷺ بالرسالة، وأنه لا واسطة بينه وبين جبريل عليه السلام.

﴿فأوحى﴾ الله بواسطة جبريل عليه السلام ﴿إلى عبده﴾ محمد ﷺ ﴿ما أوحى﴾ أي: الذي أوحاه إليه من الشرع العظيم، والتبأ المستقيم.

﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ أي: اتفق فؤاد الرسول ﷺ ورؤيته على الوحي الذي أوحاه الله إليه، وتواطأ عليه سمعه وقلبه وبصره، وهذا دليل على كمال الوحي الذي أوحاه الله إليه، وأنه تلقاه منه تلقياً لا شك فيه ولا شبهة ولا ريب، فلم يكذب فؤاده ما رأى بصره، ولم يشك بذلك. ويحتمل أن المراد بذلك ما رأى ﷺ ليلة

(٥) كذا في ب، وفي أ: إليها.

(٣) في ب: علم المخلوقات.

(٤) كذا في ب، وفي أ: علوها.

(١) كذا في ب، وفي أ: الأعلى على.

(٢) في ب: مباشرة.

عن المعاني، فكل من له أدنى مسكة من عقل، يعلم بطلان هذه الأوصاف فيها.

﴿الكلم الذكر وله الأثنى﴾ أي: أتعملون لله البنات بزعمكم، ولكن البنون؟

﴿تلك إذا قسمة ضيزى﴾ أي: ظالة جائرة، [وأي ظلم أعظم من قسمة] تقتضي تفضيل العبد المخلوق على الخالق؟ [تعالى عن قولهم علواً كبيراً].

وقوله: ﴿إن هي إلا أسماء سميتوهما أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ أي: من حجة وبرهان على صحة مذهبكم، وكل أمر ما أنزل الله به من سلطان، فهو باطل فاسد، لا يتخذ ديناً، وهم - في أنفسهم - ليسوا بمتبعين لبرهان، يتيقنون به ما ذهبوا إليه، وإنما دلهم على قولهم، الظن الفاسد، والجهل الكاسد، وما تجواه أنفسهم من الشرك والبدع المرافقة لأهويتهم، والحال أنه لا موجب لهم يقتضي اتباعهم الظن، من فقد العلم والهدى، ولهذا قال تعالى: ﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ أي: الذي يرشدهم في باب التوحيد والنبوة، وجميع المطالب التي يحتاج إليها العباد، فكلها قد بينها الله أكمل بيان وأوضحه، وأدله على المقصود، وأقام عليه من الأدلة والبراهين، ما يوجب لهم ولغيرهم اتباعه، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة من بعد البيان والبرهان، وإذا كان ما هم عليه، غايته اتباع الظن، وغايتة الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي، فالبقاء على هذه الحال، من أسف السفه، وأظلم الظلم، ومع ذلك يمتنون الأمانى، ويفترون بأنفسهم.

ولهذا أنكرتعالى على من زعم أنه يحصل له ما تمنى وهو كاذب في ذلك، فقال: ﴿أم للإنسان ما تمنى﴾ فقله الآخرة والأولى﴾ فيعطي منهما من يشاء، ويمنع من يشاء، فليس الأمر تابعاً لأمانيتهم، ولا موافقاً لأهوائهم.

﴿٢٦﴾ ﴿وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ يقول تعالى منكرأعلى من عبد غيره من الملائكة وغيرهم، وزعم أنها تنفعه وتشفع له عند الله يوم القيامة: ﴿وكم من ملك في السماوات﴾ من الملائكة المقربين، وكرام الملائكة، ﴿لا تغني شفاعتهم شيئاً﴾ أي: لا تفيد من دعاها وتعلق بها ورجاها، ﴿إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ أي: لا بد من اجتماع الشرطين: إذنه تعالى في الشفاعة، ورضاه عن المشفوع له. ومن المعلوم المتقرر، أنه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجه الله، موافقاً فيه صاحبه الشريعة، فالشركون إذاً لا نصيب لهم من شفاعة الشافعين، وقد سدوا على أنفسهم رحمة أرحم الراحمين.

﴿٢٧ - ٣٠﴾ ﴿إن السذج بسن لا يؤمنون بالآخرة ليسئون الملائكة تسمية الأثنى \* وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً \* فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا \* ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى﴾ يعني ان المشركين بالله المكذبين لرسله، الذين لا يؤمنون بالآخرة، وبسبب عدم إيمانهم بالآخرة تجرؤوا على ما تجرؤوا عليه، من الأقوال، والأفعال المحادة لله ولرسوله، من قولهم: «الملائكة بنات الله»، فلم يتزهاوا بهم عن الولادة، ولم يكرموا الملائكة ويجلوهن عن تسميتهم إياهم إنثاءً، والحال أنه ليس لهم بذلك علم، لا عن الله، ولا عن رسوله، ولا دلت على ذلك الفطر والعقول، بل العلم كله دال على نقيض قولهم، وأن الله منزه عن الأولاد والصاحبة، لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وأن الملائكة كرام مقربون

﴿٢٨﴾ ﴿ولم يخلقنا من نار ولا من ماء﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿ولم يخلقنا من طين ولا من حمأة﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿ولم يخلقنا من دماء ولا من عرق ولا من لبن ولا من حليب ولا من لبن ولا من لبن ولا من لبن﴾ ﴿٣١﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٤١﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٥١﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٦١﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٧١﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٨١﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٩١﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾ ﴿١٠٠﴾ ﴿ولم يخلقنا من عرق ولا من عرق ولا من عرق ولا من عرق﴾

إلى الله، قائمون بخدمته لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ والمشركون<sup>(١)</sup> إنما يتبعون في ذلك القول القبيح، وهو<sup>(٢)</sup> الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً، فإن الحق لا يد فيه من اليقين المستفاد من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة.

ولما كان هذا دأب هؤلاء المذكورين أنهم<sup>(٣)</sup> لا غرض لهم في اتباع الحق، وإنما غرضهم ومقصودهم، ما تنهوا نفوسهم، أمر الله رسوله بالأعراض عن تولى عن ذكره، الذي هو الذكر الحكيم، والقرآن العظيم، والنبأ الكريم، فأعرض عن العلوم النافعة، ولم يرد إلا الحياة الدنيا، فهذا منتهى إرادته، ومن المعلوم أن العبد لا يعمل إلا للشيء الذي يريد، فسميتهم مقصور على الدنيا ولذاتها وشهواتها، كيف حصلت حصولها، وبأي طريق سحبت ابتدروها، ﴿ذلك مبلغهم من العلم﴾ أي: هذا منتهى علمهم وغايتته، وأما المؤمنون بالآخرة، المصدقون بها، أولو الأبواب والعقول، فهمتهم وإرادتهم للدار الآخرة، وعلومهم أفضل العلوم وأجلها، وهو العلم المأخوذ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والله تعالى أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، عن لا يستحق

(١) كذا في ب، وفي أ: وهم.

(٢) كذا في ب، وفي أ: إلا.

(٣) كذا في ب، وفي أ: أنه.

موجود مشاهد منكم حين أنشاكم<sup>(٤)</sup> الله من الأرض، وإذا كنتم في بطون أمهاتكم، ولم يزل موجوداً فيكم، وإن كان الله تعالى قد أوجد فيكم قوة على ما أمركم به، ولكن الضعف لم يزل، فلعلمه تعالى بأحوالكم هذه، ناسبت الحكمة الإلهية والجود الرباني، أن يتعمدكم برحمته ومغفرته وعفوه، ويغفركم بإحسانه،

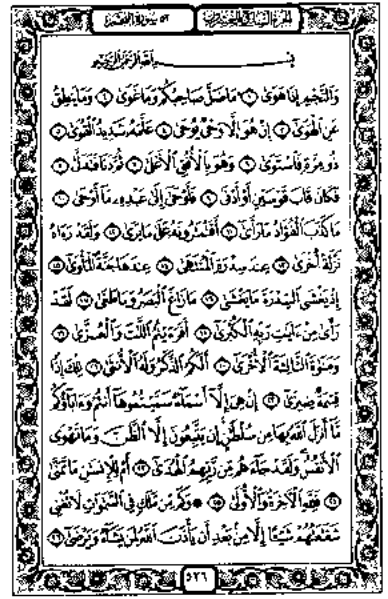
ويزيل عنكم الجرائم والمآثم، خصوصاً إذا كان العبد مقصوده مرضاة ربه في جميع الأوقات، وسعيه فيما يقرب إليه في أكثر الآتات، وفراره من الذنوب التي يتمت بها عند مولاه، ثم تقع منه الغلظة بعد الغلظة، فإن الله تعالى أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين<sup>(٥)</sup>، أرحم بعباده من الوالدة بولدها، فلا بد لمثل هذا أن يكون من مغفرة ربه قريباً وأن يكون الله له في جميع أحواله مجيباً، ولهذا قال تعالى: ﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾ أي: تحبسون الناس بطهارتها على وجه التمدح<sup>(٦)</sup>.

﴿هو أعلم بمن اتقى﴾ أفان التقوى، محلها القلب، والله هو المطلع عليه، المجازي على ما نبيه من برّ وتقوى، وأما الناس، فلا يغنون عنكم من الله شيئاً.

﴿٣٢-٣٣﴾ ﴿أنرايت الذي تولى \* وأعطى قليلاً وأكدى \* أعنده علم الغيب فهو يرى \* أم لم ينبا بما في صحف موسى \* وإبراهيم الذي وفى \* ألا تزر وازرة وزر أخرى \* وأن ليس للإنسان إلا ما سعى \* وأن سعيه سوف يرى \* ثم يجزاه الجزاء الأوفى \* وأن إلى ربك المنتهى \* وأنه هو أضحك وأبكى \* وأنه هو آتات وأحيا \* وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى \* من نطفة إذا تمنى \* وأن

من أعمال الشر بالعقوبة البليغة<sup>(١)</sup>.  
﴿ويجزى الذين أحسنوا﴾ في عبادة الله تعالى، وأحسنوا إلى خلق الله، بأنواع المنافع ﴿بالحسنى﴾ أي: بالحالة الحسنة في الدنيا والآخرة، وأكبر ذلك وأجله رضا ربه، والفوز بتعيم الجنة<sup>(٢)</sup>.

ثم ذكر وصفهم فقال: ﴿الذين يحببتون كباثر الإثم والفواحش﴾ أي: يفعلون ما أمرهم الله به من الواجبات، التي يكون تركها من كباثر الذنوب، ويتركون المحرمات الكبار، كالزنا، وشرب الخمر، وأكل الربا، والقتل، ونحو ذلك من الذنوب العظيمة، ﴿إلا اللطم﴾ وهي الذنوب الصغار، التي لا يصر صاحبها عليها، أو التي يلم بها العبد، المرة بعد المرة، على وجه الندرة والقلّة، فهذه ليس مجرد الإقدام عليها مخرجاً للعبد من أن يكون من المحسنين، فإن هذه مع الإتيان بالواجبات وترك المحرمات، تدخل تحت مغفرة الله التي وسعت كل شيء، ولهذا قال: ﴿إن ربك واسع المغفرة﴾ فلولا مغفرته لهلكت البلاد والعباد، ولولا عفوه وحلمه لسقطت السماء على الأرض، ولما ترك على ظهرها من دابة. ولهذا قال النبي ﷺ: ﴿الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن، ما اجتنبت الكبائر﴾، [أوقوله]: ﴿هو أعلم بكم إذ أنشاكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم﴾ أي: هو تعالى أعلم بأحوالكم كلها، وما جبلكم عليه، من الضعف والخور، عن كثير مما أمركم الله به، ومن كثرة الدواعي إلى بعض<sup>(٣)</sup> المحرمات، وكثرة الجواذب إليها، وعدم الموانع القوية، والضعف



ذلك فيكله إلى نفسه، ويخذه، فيضل عن سبيل الله، ولهذا قال تعالى: ﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى﴾ فيضع فضله حيث يعلم المحل اللائق به.

﴿٣١-٣٢﴾ ﴿و الله ما فني السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أسأقوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى \* الذين يحببتون كباثر الإثم والفواحش إلا اللطم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشاكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ يخبر تعالى أنه مالك الملك، المفرد بملك الدنيا والآخرة، وأن جميع من في السماوات والأرض ملك لله، يتصرف فيهم تصرف الملك العظيم، في عييده وماليكه، ينفذ فيهم قدره، ويجزي عليهم شرعه، ويأمرهم وينهاهم، ويجزيهم على ما أمرهم به ونهاهم [عنه]، فيثيب المطيع، ويعاقب العاصي، ليجزي الذين أسأقوا العمل السيئات من الكفر فما دونه بما عملوا

(١) في ب: الفظفة.

(٢) في ب: والفوز بالجنة وما فيها من التعيم.

(٣) في ب: إلى فعل.

(٤) في ب: حين أخرجكم.

(٥) في ب: وأجود الأجودين.

(٦) كذا في ب، وفي أ: تطهرونها، وتخبرون الناس بذلك على وجه التمدح.

«وأنه خلق الزوجين» فسر الزوجين<sup>(٤)</sup> بقوله: «الذكر والأنثى» وهذا اسم جنس شامل لجميع الحيوانات، ناطقتها وبهيبتها، فهو المنفرد بخلقها، «من نطفة إذا تمى» وهذا من أعظم الأدلة على كمال قدرته وانفراد العزة العظيمة، حيث أوجد تلك الحيوانات، صغيرها كبيرها من نطفة ضعيفة<sup>(٥)</sup> من ماء مهين، ثم نماها وكملمها، حتى بلغت ما بلغت، ثم صار الآدمي منها إما إلى أدنى الحالات في أسفل سافلين، ولهذا استدل بالبداية على الإعادة، فقال: «وأن عليه النشأة الأخرى» فيعيد العباد من الأجداث، ويجمعهم ليوم الميقات، ويجازيهم على الحسنات والسيئات، «وأنه هو أغنى وأقنى» أي: أغنى العباد بتيسير أمر معاشهم من التجارات وأنواع المكاسب، من الحرف وغيرها، وأقنى أي: أفاد عباده من الأموال بجميع أنواعها، ما يصيرون به مقتنين لها، ومالكين لكثير من الأعيان، وهذا من نعمه على عباده أن جميع النعم منه تعالى<sup>(٦)</sup>، وهذا يوجب للعباد أن يشكروه، ويعبدوه وحده لا شريك له، «وأنه هو رب الشعري» وهي النجم المعروف بالشعري العبور، المسماة بالمرزم، وخصها الله بالذكر، وإن كان رب كل شيء، لأن هذا النجم مما عُبِد في الجاهلية، فأخبر تعالى أن جنس ما يعبد المشركون مريبوب مدير مخلوق، فكيف تتخذ إلهاً مع الله<sup>(٧)</sup>، «وأنه أهلك عاداً الأولى» وهم قوم هود عليه السلام، حين كذبوا

وإحسانه الخليفة كلها، وتحمده الله عليه، حتى إن أهل النار ليدخلون النار، وإن قلوبهم مملوءة من حمد ربهم، والإقرار له بكمال الحكمة ومقت أنفسهم، وأنهم الذين أوصلوا أنفسهم وأوردوها شر الموارد، وقد استدل بقوله تعالى: «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى» من يرى أن القُرْب لا يفيد<sup>(٨)</sup> إهداؤها للأحياء ولا للأموات قالوا لأن الله قال: «وأن ليس للإنسان ما سعى» فوصول سعي غيره إليه مناف لذلك، وفي هذا الاستدلال نظر، فإن الآية إنما تدل على أنه ليس للإنسان إلا ما سعى بنفسه، وهذا حق لا خلاف فيه، وليس فيها ما يدل على أنه لا ينتفع بسعي غيره، إذا أهداه ذلك الغير له، كما أنه ليس للإنسان من المال إلا ما هو في ملكه وتحت يده، ولا يلزم من ذلك، أن لا يملك ما وهبه له الغير من ماله الذي يملكه.

وقوله: «وأن إلى ربك المنتهى» أي: إليه تنتهي الأمور، وإليه تصير الأشياء والخلائق بالبعث والنشور، وإلى الله المنتهى في كل حال، فإنه ينتهي العلم والحكم، والرحمة وسائر الكمالات، «وأنه هو أضحك وأبكى» أي: هو الذي أوجد أسباب الضحك والبكاء، وهو الخير والشر، والفرح والسرور والهم والحزن، وهو سبحانه له الحكمة البالغة في ذلك، «وأنه هو أمات وأحياء» أي: هو المنفرد بالإيجاد والإعدام، والذي أوجد الخلق وأمرهم ونهاهم، سعيدهم بعد موتهم، ويجازيهم بتلك الأعمال التي عملوها في دار الدنيا،

عليه النشأة الأخرى» إلى آخر السورة يقول تعالى: «أفرأيت» قبح حالة من أمر بعبادة ربه وتوحيده، فتولى عن ذلك وأعرض عنه؟

فإن سمحت نفسه ببعض الشيء، القليل، فإنه لا يستمر عليه، بل يبخل ويكدي ويمنع.

فإن المعروف ليس سجيبة له وطبيعة<sup>(٩)</sup>، بل طبيعته التولي عن الطاعة، وعدم الثبوت على فعل المعروف، ومع هذا، فهو يزكي نفسه، وينزلها غير منزلتها التي أنزلها الله بها.

«أعنده علم الغيب فهو يرى» الغيب ويخبر به، أم هو متقول على الله، متجري على الجمع بين الإساءة والتزكية<sup>(١٠)</sup>، كما هو الواقع، لأنه قد علم أنه ليس عنده علم من الغيب، وأنه لو قدر أنه ادعى ذلك فالإخبارات القاطعة عن علم الغيب التي على يد النبي المعصوم، تدل على نقيض قوله، وذلك دليل على بطلانه.

«أم لم ينبا» هذا المدعي «بما في صحف موسى \* وإبراهيم الذي وفى» أي: قام بجمع ما ابتلاه الله به، وأمره به من الشرائع وأصول الدين وفروعه، وفي تلك الصحف أحكام كثيرة من أهمها ما ذكره الله بقوله: «ألا تزر وازرة وزر أخرى \* وأن ليس للإنسان إلا ما سعى» أي: كل عامل له عمله الحسن والسيئ، فليس له من عمل غيره وسعيهم شيء، ولا يتحمل أحد عن أحد ذنباً، «وأن سعيه سوف يرى» في الآخرة فيميز حسنه من سيئه، «ثم يميزه الجزاء الأولى» أي: المستكمل لجميع العمل الحسن الخالص بالسيئ، والسيئ الخالص بالسوئ، والمشوب بحسبه، جزاء تقر بعمله

(١) في ب: فإن الإحسان ليس سجيبة له وطبعاً.

(٢) فتجري عليه جامع بين المحذورين الإساءة والتزكية.

(٣) في ب: لا يجوز.

(٤) في ب: فسرهما.

(٥) كذا في ب، وفي أ: قليلة.

(٦) في ب: وهذا من نعمه تعالى أن أخبرهم أن جميع النعم منه.

(٧) في ب: فكيف تتخذ مع الله آلهة.

غافلون عنه، لاهون عن تدبيره، وهذا من قلة عقولكم وأديانكم، فلو عبدتم الله وطلبتهم رضاه في جميع الأحوال لما كنتم بهذه المثابة التي بأنف منها أولو الألياب، ولهذا قال تعالى: ﴿فاسجدوا لله واهبطوا﴾ الأمر بالسجود لله خصوصاً، ليدل ذلك على فضله<sup>(١)</sup>، وأنه سر العبادة ولها، فإن لبها الخضوع لله<sup>(٢)</sup> والخضوع له، والسجود هو أعظم حالة يخضع بها العبد<sup>(٣)</sup>، فإنه يخضع قلبه وبدنه، ويجعل أشرف أعضائه على الأرض المهينة موضع وطء الأقدام.

ثم أمر بالعبادة عموماً، الشاملة لجميع ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

ثم تفسير سورة النجم، والحمد لله الذي لا نحصي نناة عليه، بل هو كما أننى على نفسه، وفوق ما ينشئ عليه عباده، وصلى الله على محمد وسلم تسليماً كثيراً.

### تفسير سورة اقتربت مكية

﴿١ - ٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم اقتربت الساعة وانشق القمر \* وإن يروا آية يمرضوا ويقولوا سحر مستمر \* وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستنكر \* ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مردج \* حكمة بالغة فما نفثي النذر \* يجبر تعالى أن الساعة وهي القيامة اقتربت وأن أوانها، ورحان وقت مجيئها، ومع ذلك، فهؤلاء المكذبون لم يزوالوا مكذبين بها، غير مستعدين لنزولها، ويريم الله من الآيات العظيمة الدالة على وقوعها ما يؤمن على

ألم يأت بالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد؟ ألم يهلك الله من كذب من قبله من الرسل الكرام؟ فما الذي يمنع العذاب عن المكذبين لمحمد سيد المرسلين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين؟

﴿أزفت الأزفة﴾ أي: قريت القيامة، ودنا وقتها، وبانت علاماتها، ليس لها من دون الله كاشفة﴾ أي: إذا أتت القيامة وجاءهم العذاب الموعود به.

ثم توعد المنكرين لرسالة الرسول محمد ﷺ، المكذبين لما جاء به من القرآن الكريم، فقال: ﴿أفمن هذا الحديث تعجبون؟﴾ أي: أفمن هذا الحديث الذي هو خير الكلام وأفضله وأشرفه تتمجبون منه، وتعملونه من الأمور المخالفة للعادة الخارقة للأمور [والحقائق] المعروفة؟ هذا من جهلهم وضلالهم وعنادهم، وإلا فهو الحديث الذي إذا حدث صدق، وإذا قال قولاً فهو القول الفصل الذي ليس بالهزل، وهو القرآن<sup>(٤)</sup> العظيم، الذي لو أنزل على جبل لرأته خاشعاً متصدعاً من خشية الله، الذي يزيد ذوي الأحلام رأياً وعقلاً، وتسديداً وثباتاً، وإيماناً وقيناً والذي<sup>(٥)</sup> ينبغي العجب من عقل من تعجب منه، وسفهوه وضلاله.

﴿وتضحكون ولا تبكون﴾ أي: تستعملون الضحك والاستهزاء به، مع أن الذي ينبغي أن تتأثر منه النفوس، وتلين له القلوب، وتبكي له العيون، سماعاً لأمره ونهييه، وإصغاء لوعده ووعيدته، والنفثات لأخباره الحسنة الصادقة، ﴿وأنتم سامدون﴾ أي:

هوداً، فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية، ﴿وثمود﴾ قوم صالح عليه السلام، أرسله الله إلى ثمود فكذبوه، فبعث الله إليهم<sup>(٦)</sup> الناقة آية، فمقرها وكذبوه، فأهلكهم الله تعالى، ﴿فما أبقى﴾ منهم أحداً، بل أهلكهم الله عن آخرهم<sup>(٧)</sup>، ﴿وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى﴾ من هؤلاء الأمم، فأهلكهم الله وأغرقهم في اليم، ﴿والمؤتفة﴾ وهم قوم لوط عليه السلام ﴿أهوى﴾ أي: أصابهم الله بعذاب ما عذب به أحداً من العالمين، قلب أسفل ديارهم أعلاها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل، ولهذا قال: ﴿فغشاها ما غشى﴾ أي: غشها من العذاب الأليم الوخيم ما غشى أي: شيء عظيم لا يمكن وصفه، ﴿فبأي: آلاء ربك تتمارى﴾ أي: فبأي: نعم الله وفضله تشك أيها الإنسان؟ فإن نعم الله ظاهرة لا تقبل الشك بوجه من الوجوه، فما بالعباد من نعمة إلا منه تعالى، ولا يدق النعم إلا هو.

﴿هذا نذير من النذر الأولى﴾ أي: هذا الرسول القرشي الهاشمي محمد بن عبد الله، ليس بيدع من الرسل، بل قد تقدمه من الرسل السابقين، ودعوا إلى ما دعا إليه، فلأي: شيء تنكر رسالته؟ وبأي: حجة تبطل دعوته؟

أليست أخلاقه [أعلا] أخلاق الرسل الكرام، أليست دعوته إلى كل خير والنهي عن كل شر؟<sup>(٨)</sup>

(١) في ب: لهم.

(٢) في ب: بل أبادهم عن آخرهم.

(٣) في ب: ليس يدعو إلى كل خير، وينهي عن كل شر.

(٤) في ب: القرآن.

(٥) في ب: بل الذي.

(٦) في ب: يدل على فضله.

(٧) في ب: فإن روحها الخشوع لله.

(٨) في أ: القلب، وفي ب: الكلمة غير واضحة، وقد جعلتها العبد لمناسبة الكلمة للسياق لقوله فيما بعد: (قلبه وبدنه).

مثله البشر، فمن أعظم الآيات الدالة على صحة ما جاء به محمد بن عبد الله ﷺ، أنه لما طلب منه المكذوبون أن يريهم من خوارق العادات ما يدل على [صحة ما جاء به] وصدقته، أشار ﷺ إلى القمر بإذن الله تعالى، فانتش فلقنتين، فلقة على جبل أبي قبيس، وفلقة على جبل قبيعان، والمشركون وغيرهم يشاهدون هذه الآية الكبرى<sup>(١)</sup> الكائنة في العالم العلوي، التي لا يقدر الخلق على التصويه بها والتخييل، فشاهدوا أمراً ما رأوا مثله، بل ولم يسمعوا أنه جرى لأحد من المرسلين قبله نظيره، فانبهروا لذلك، ولم يدخل الإيمان في قلوبهم، ولم يرد الله بهم خيراً، ففزعوا إلى بهتهم وطفغيانهم، وقالوا: سحرنا محمد، ولكن علامة ذلك أنكم تسألون من قدم<sup>(٢)</sup> إليكم من السفر، فإنه وإن قدر على سحركم، لا<sup>(٣)</sup> يقدر أن يسحر من ليس مشاهداً مثلكم، فسألوا كل من قدم، فأخبرهم بوقوع ذلك، فقالوا: «سحر مستمر» سحرنا محمد وسحر غيرنا، وهذا من البهت الذي لا يروج إلا على أسفه الخلق وأضلهم عن الهدى والعقل، وهذا ليس إنكاراً منهم لهذه الآية وحدها، بل كل آية تأتيهم، فإنهم مستعدون لمقابلتها بالباطل<sup>(٤)</sup> والرد لها، ولهذا قال: «وإن يروا آية يعرضوا» ولم يعد الضمير على انشقاق القمر فلم يقل: «وإن يروها بل قال: «وإن يروا آية يعرضوا» وليس قصدهم اتباع الحق والهدى، وإنما قصدهم اتباع الهوى، ولهذا قال: «وكذبوا واتبعوا أهواءهم» كقوله تعالى: «فإن لم

يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم» فإنه لو كان قصدهم اتباع الهدى، لأمّنوا قطعاً، واتبعوا محمداً ﷺ، لأنه أراهم الله على يديه<sup>(٥)</sup> من البيئات والبراهين والحجج القواطع، ما دل على جميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، وكل أمر مستقر<sup>(٦)</sup> أي: إلى الآن، لم يبلغ الأمر غايته ومنتهاه، وسيصير الأمر إلى آخره، فالصدق يتقلب في جنات النعيم، ومغفرة الله ورضوانه، والكذب يتقلب في سخط الله وعذابه، خالداً مخلداً أبداً.

وقال تعالى - مبيناً أنهم ليس لهم قصد صحيح، ولا اتباع للهدى - : «ولقد جاءهم من الأنبياء» أي: الأخبار السابقة واللاحقة والمعجزات الظاهرة «ما فيه مزدجر» أي: زاجر يزرعهم عن غيهم وضلالهم، وذلك «حكمة» منه تعالى «بالغة» أي: لتقوم حجته على المخالفين<sup>(٧)</sup>، ولا يبقى لأحد على الله حجة بعد الرسل، «فما نغني النذر» كقوله تعالى: «ولو جاءتهم كل آية لا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم».

﴿٦ - ٨﴾ «فتول عنهم يوم يدعو الداع إلى شيء نكر \* خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر \* مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر» يقول تعالى لرسوله ﷺ: قد بان أن المكذبين لا حيلة في هداهم، فلم يبق إلا الإعراض عنهم والتولي عنهم، [فقال: «فتول عنهم» وانتظر بهم يوماً عظيماً وهولاً جسيماً، وذلك حين

إذ أولئك لا يؤمنون بالآخرة يسعون للثبوت كما تسيب الأخطى  
 ﴿ وما لله يومئذ علم إذ يسعون إلا الظن كما الظن لا يثبت  
 من الحق شيئاً ﴾ فأمرهم من قول من ذكره وأمرهم  
 إلا الخيرة الدنيا ﴿ ذلك سئلهم من أولئك هؤلاء  
 من صلاتهم وسبلهم وقولهم من أعتدى ﴾ وقوماني  
 التوبين وإلى الأرض فوجي الذين أشقوا بما عملوا فوجي  
 الذين أسخطوا الحقن ﴿ الذين يحسبون صحتهم إلا بشر  
 ما لا يحسدون إلا الله من ذلك وهم الكفرة هؤلاء كذا  
 أتوا كذبوا الأرض ما أشقوا لبعثنا بطوناً منكم  
 فلا تذكروا المشركين هؤلاء من الحق ﴿ أولئك الذين تولوا  
 ﴿ وأعلن قبيلاً لا يملكه أعينهم والقب قهرون ﴿ أم  
 ربياً على صلب موسى ﴿ فذكرهم الذي ولا ﴿ الأند  
 ورة وقد ألقى ﴿ وألهم الإنسان ما نسى ﴿ ولا نسيت  
 سورة ﴿ فوجي الخيرة الأولى ﴿ وأنزلنا الكتاب  
 ﴿ وأنه هؤلاء منكم وأبكم ﴿ وأنه هؤلاء منكم وأبكم ﴿

«يدعو الداع» إسرافيل عليه السلام إلى شيء نكر ﴿ أي: إلى أمر فطرح تنكره الخليفة، فلم تر منظراً أظفح ولا أوجع منه، فينفخ إسرافيل نفخة، يخرج بها الأموات من قبورهم لموقف القيامة، «خشعاً أبصارهم» أي: من الهول والفرع الذي وصل إلى قلوبهم، فنخضت وذلت، وخشعت لذلك أبصارهم.

«يخرجون من الأجداث» وهي القبور، «كأنهم» من كثرتهم، وروجان بعضهم ببعض «جراد منتشر» أي: مبعوث في الأرض، متكاثر جداً، «مهطعين إلى الداع» أي: مسرعين لإجابة النداء الداعي<sup>(٨)</sup>، وهذا يدل على أن الداعي يدعوهم ويأمرهم بالحضور لموقف القيامة، فيلبون دعوته، ويسرعون إلى إجابته، «يقول الكافرون» الذين قد حضر عذابهم: «هذا يوم عسر» كما قال تعالى «على الكافرين غير يسير»

(١) في ب: العظيمة.  
 (٢) في ب: من ورد.  
 (٣) في ب: لم.  
 (٤) في ب: بالكذب.  
 (٥) كذا في النسختين والمراد ظاهر وهو أن الله أراهم على يديه.  
 (٦) في ب: العالمين.  
 (٧) كذا في ب، وفي أ: مسرعين لنداء الداعي.



ونهاراً، وسراً وجهاراً، فلم يزداهم ذلك إلا عناداً وطغياناً، وقدحاً في نبيهم، ولهذا قال هنا: ﴿فكذبوا هبنا وقالوا مجنون﴾ لزعيمهم أن ما هم عليه وأباؤهم من الشرك والضلال هو الذي يدل عليه العقل، وأن ما جاء به نوح عليه الصلاة والسلام جهل وضلال، لا يصدر إلا من المجانين، وكذبوا في ذلك، وقلبوا الحقائق الثابتة شرعاً وعقلاً، فإن ما جاء به هو الحق الثابت، الذي يرشد العقول النيرة المستقيمة، إلى الهدى والنور والرشد، وما هم عليه جهل وضلال مبين، [وقوله]: ﴿وازدجر﴾ أي: زجره قومه وعنفوه عندما دعاهم إلى الله تعالى، فلم يكفهم - قبحهم الله - عدم الإيمان به، ولا تكذيبهم إياه، حتى أوصلوا إليه من أذيتهم ما قدروا عليه، وهكذا جميع أعداء الرسل، هذه حالهم مع أنبيائهم، فعند ذلك دعا نوح ربه [فقال]: ﴿أني مغلوب﴾ لا قدرة لي على الانتصار منهم، لأنه لم يؤمن من قومه إلا القليل النادر، ولا قدرة لهم على مقاومة قومهم، ﴿فاننصر﴾ اللهم لي منهم، وقال في الآية الأخرى: ﴿رب لا تدرك الأرض من الكافرين ديناراً﴾ الآيات، فأجاب الله سؤاله، وانتصر له من قومه، قال تعالى: ﴿فتفتحنا أبواب السماء بماء منهمر﴾ أي: كثير جداً متتابع، ﴿وفجرتنا الأرض عيوناً﴾ فجعلت السماء ينزل منها من الماء شيء خارق للعادة، وتفجرت الأرض كلها، حتى الثنور الذي لم تحجر العادة بوجود الماء فيه، فضلاً عن كونه منبعاً للماء، لأنه موضع النار.

ويحتمل أن المراد: أننا أهلكتنا قوم نوح، وفعلنا بهم ما فعلنا من العذاب والحزني، جزاء لهم على كفرهم وعنادهم، وهذا متوجه على قراءة من قرأها بفتح الكاف، ﴿ولقد تركناها آية فهل من مدكر﴾ أي: ولقد تركنا قصة نوح مع قومه آية يتذكر بها المتذكرون، على أن من عصى الرسل وعانداهم أهلكته الله بعقاب عام شديد، أو أن الضمير يعود إلى السفينة وجنسها، وأن أصل صنعتها تعليم من الله لعبده<sup>(١)</sup> نوح عليه السلام، ثم أبقى الله تعالى صنعتها وجنسها بين الناس ليدل ذلك على رحمة بخلقه وعنايته، وكمال قدرته، وبديع صنعتته، ﴿فهل من مدكر﴾؟ أي: فهل متذكر<sup>(٢)</sup> للآيات، فخلق ذهنه وفكرته لما يأتيه منها، فإنها في غاية البيان والبسرة؟ ﴿فكيف كان عقابي ونذري﴾ أي: فكيف رأيت أيها المخاطب عذاب الله الأليم وإنذاره الذي لا يبقى لأحد عليه حجة.

﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ أي: ولقد يسرنا وسهلنا هذا

﴿فكذبوا هبنا وقالوا مجنون﴾ لزعيمهم أن ما هم عليه وأباؤهم من الشرك والضلال هو الذي يدل عليه العقل، وأن ما جاء به نوح عليه الصلاة والسلام جهل وضلال، لا يصدر إلا من المجانين، وكذبوا في ذلك، وقلبوا الحقائق الثابتة شرعاً وعقلاً، فإن ما جاء به هو الحق الثابت، الذي يرشد العقول النيرة المستقيمة، إلى الهدى والنور والرشد، وما هم عليه جهل وضلال مبين، [وقوله]: ﴿وازدجر﴾ أي: زجره قومه وعنفوه عندما دعاهم إلى الله تعالى، فلم يكفهم - قبحهم الله - عدم الإيمان به، ولا تكذيبهم إياه، حتى أوصلوا إليه من أذيتهم ما قدروا عليه، وهكذا جميع أعداء الرسل، هذه حالهم مع أنبيائهم، فعند ذلك دعا نوح ربه [فقال]: ﴿أني مغلوب﴾ لا قدرة لي على الانتصار منهم، لأنه لم يؤمن من قومه إلا القليل النادر، ولا قدرة لهم على مقاومة قومهم، ﴿فاننصر﴾ اللهم لي منهم، وقال في الآية الأخرى: ﴿رب لا تدرك الأرض من الكافرين ديناراً﴾ الآيات، فأجاب الله سؤاله، وانتصر له من قومه، قال تعالى: ﴿فتفتحنا أبواب السماء بماء منهمر﴾ أي: كثير جداً متتابع، ﴿وفجرتنا الأرض عيوناً﴾ فجعلت السماء ينزل منها من الماء شيء خارق للعادة، وتفجرت الأرض كلها، حتى الثنور الذي لم تحجر العادة بوجود الماء فيه، فضلاً عن كونه منبعاً للماء، لأنه موضع النار.

﴿فكذبوا هبنا وقالوا مجنون﴾ لزعيمهم أن ما هم عليه وأباؤهم من الشرك والضلال هو الذي يدل عليه العقل، وأن ما جاء به نوح عليه الصلاة والسلام جهل وضلال، لا يصدر إلا من المجانين، وكذبوا في ذلك، وقلبوا الحقائق الثابتة شرعاً وعقلاً، فإن ما جاء به هو الحق الثابت، الذي يرشد العقول النيرة المستقيمة، إلى الهدى والنور والرشد، وما هم عليه جهل وضلال مبين، [وقوله]: ﴿وازدجر﴾ أي: زجره قومه وعنفوه عندما دعاهم إلى الله تعالى، فلم يكفهم - قبحهم الله - عدم الإيمان به، ولا تكذيبهم إياه، حتى أوصلوا إليه من أذيتهم ما قدروا عليه، وهكذا جميع أعداء الرسل، هذه حالهم مع أنبيائهم، فعند ذلك دعا نوح ربه [فقال]: ﴿أني مغلوب﴾ لا قدرة لي على الانتصار منهم، لأنه لم يؤمن من قومه إلا القليل النادر، ولا قدرة لهم على مقاومة قومهم، ﴿فاننصر﴾ اللهم لي منهم، وقال في الآية الأخرى: ﴿رب لا تدرك الأرض من الكافرين ديناراً﴾ الآيات، فأجاب الله سؤاله، وانتصر له من قومه، قال تعالى: ﴿فتفتحنا أبواب السماء بماء منهمر﴾ أي: كثير جداً متتابع، ﴿وفجرتنا الأرض عيوناً﴾ فجعلت السماء ينزل منها من الماء شيء خارق للعادة، وتفجرت الأرض كلها، حتى الثنور الذي لم تحجر العادة بوجود الماء فيه، فضلاً عن كونه منبعاً للماء، لأنه موضع النار.

﴿فالتقى الماء﴾ أي: ماء السماء والأرض ﴿على أمر﴾ من الله له بذلك، ﴿تدفقاً﴾ أي: قد كتبه الله في الأزل وقضاه، عقوبة لهؤلاء الظالمين الطاغين، ﴿وجعلناه على ذات



[مفهوم ذلك أنه يسير سهل على المؤمنين]<sup>(١)</sup>

﴿٩ - ١٧﴾ ﴿كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر﴾ فعدا ربه أي مغلوب فانتصر \* ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر \* وفجرتنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر \* وجعلناه على ذات ألواح ودسر \* تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر \* ولقد تركناها آية فهل من مدكر \* فكيف كان عقابي ونذر \* ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر \* لما ذكر تبارك وتعالى حال المكذبين لرسوله، وأن الآيات لا تنفع فيهم، ولا تجدي عليهم شيئاً، أنذرهم وخوفهم بعقوبات الأمم الماضية المكذبة للرسل، وكيف أهلكتهم الله وأحل بهم عقابه.

فذكر قوم نوح، أول رسول بعثه الله إلى قوم يعبدون الأصنام، فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فامتنعوا عن ترك الشرك وقالوا: ﴿لا تدرن آلهتكم ولا تدرن وداً ولا سواعاً﴾ ولا يخوت ويموق ونسراً \* ولم يزل نوح يدعوهم إلى الله ليلاً

(٣) في ب: ولا صد عن ذلك صاد.  
(٤) في ب: لرسوله.  
(٥) في ب: فهل من متذكر.

(١) زيادة من هامش: ب.  
(٢) كذا في ب، وفي أ: رشدت أسرها.

القرآن الكريم، ألفاظه للحفاظ والأداء، ومعانيه للفهم والعلم، لأنه أحسن الكلام لفظاً، وأصدق معنى، وأبينه تفسيراً، فكل من أقبل عليه يسر الله عليه مطلوبه غاية التيسير، وسهله عليه، والذكر شامل لكل ما يتذكر به العاملون من الحلال والحرام، وأحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء والمواظب والصبر، والعقائد النافعة والأخبار الصادقة، ولهذا كان علم القرآن حفظاً وتفسيراً، أسهل العلوم، وأجلها على الإطلاق، وهو العلم النافع الذي إذا طلبه العبد أعين عليه، قال بعض السلف عند هذه الآية: هل من طالب علم فيُعان [عليه]؟ ولهذا يدعو الله عباده إلى الإقبال عليه والتذكر بقونه: ﴿فهل من مذكر﴾.

﴿١٨ - ٢٢﴾ كذبت عادٌ فكيف كان عذابي ونذر \* إنا أرسلنا عليهم ربماً صرصراً في يوم نحس مستمر \* تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر \* فكيف كان عذابي ونذر \* ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر \* وعباده هي القبيلة المعروفة باليمن، أرسل الله إليهم هوداً عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته، فكذبوه، فأرسل الله عليهم ﴿ربماً صرصراً﴾ أي: شديدة جداً، ﴿في يوم نحس﴾ أي: شديد العذاب والشقاء عليهم، ﴿مستمر﴾ عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً، ﴿تنزع الناس﴾ من شدتها، فترفعهم إلى جو السماء، ثم تدفعهم بالأرض فتهلكهم، فيصبحون ﴿كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾ أي: كأن جشهم بعد هلاكهم مثل جذوع النخل الخاوي الذي أصابته (١) الريح فسقط على الأرض، فما آمن الخلق على الله إذا عصوا أمره، ﴿فكيف كان عذابي ونذري﴾ كان [والله] العذاب الأليم، والندارة التي ما أبقت لأحد عليه حجة، ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ كرر تعالى ذلك رحمة بعباده

وعناية بهم، حيث دعاهم إلى ما يصلح دينهم وأخراهم.

﴿٢٣ - ٣٢﴾ كذبت ثمود بالنذر \* فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذا لقي ضلال وسمر \* اللقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر \* سيعلمون عدداً من الكذاب الأشر \* إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فانقلبهم واصطبر \* ونبتهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر \* فنادوا صاحبيهم فتعاطى فمقر \* فكيف كان عذابي ونذر \* إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر \* ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر \* أي: كذبت ثمود وهم القبيلة المعروفة المشهورة في أرض الحجر، نبههم صالحاً عليه السلام، حين دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأنذرهم العقاب إن هم خالفوه، فكذبوه واستكبروا عليه، وقالوا - كثيراً ونبيها - : ﴿أبشراً منا واحداً نتبعه﴾ أي: كيف نتبع بشراً، لا ملكاً منا، لا من غيرنا، ممن هو أكبر عند الناس منا، ومع ذلك فهو شخص واحد - إنا إذا﴾ أي: إن اتبعناه وهو بهذه الحال ﴿لقي ضلال وسمر﴾ أي: إنا لضالون أشقياء، وهذا الكلام من ضلالهم وشقائهم، فإنهم أنكفأوا أن يتبعوا رسولا من البشر، ولم يأنفوا أن يكونوا عابدين للشجر والحجر والصور ﴿اللقي الذكر عليه من بيننا﴾ أي: كيف يخصه الله من بيننا وينزل عليه الذكر؟ فأى: مزية خصه من بيننا؟ وهذا اعتراض من المكذبين على الله، لم يزالوا يدلون به، ويصرلون ويحولون ويردون به دعوة الرسل، وقد أجاب الله عن هذه الشبهة بقول الرسل لأجمعهم: ﴿قالت رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده﴾ فالرسل من الله عليهم بصفات وأخلاق وكمالات، بها صلحوا لرسالات ربهم والاختصاص بوحية،

ومن رحمته وحكمته أن كانوا من البشر، فلو كانوا من الملائكة لم يمكن البشر أن يتلقوا عنهم، ولو جعلهم من الملائكة لتعاجل الله المكذبين لهم بالعقاب العاجل.

﴿٣٣﴾ كذبت ثمود بالنذر \* فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذا لقي ضلال وسمر \* اللقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر \* سيعلمون عدداً من الكذاب الأشر \* إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فانقلبهم واصطبر \* ونبتهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر \* فنادوا صاحبيهم فتعاطى فمقر \* فكيف كان عذابي ونذر \* إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر \* ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر \* أي: كذبت ثمود وهم القبيلة المعروفة المشهورة في أرض الحجر، نبههم صالحاً عليه السلام، حين دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأنذرهم العقاب إن هم خالفوه، فكذبوه واستكبروا عليه، وقالوا - كثيراً ونبيها - : ﴿أبشراً منا واحداً نتبعه﴾ أي: كيف نتبع بشراً، لا ملكاً منا، لا من غيرنا، ممن هو أكبر عند الناس منا، ومع ذلك فهو شخص واحد - إنا إذا﴾ أي: إن اتبعناه وهو بهذه الحال ﴿لقي ضلال وسمر﴾ أي: إنا لضالون أشقياء، وهذا الكلام من ضلالهم وشقائهم، فإنهم أنكفأوا أن يتبعوا رسولا من البشر، ولم يأنفوا أن يكونوا عابدين للشجر والحجر والصور ﴿اللقي الذكر عليه من بيننا﴾ أي: كيف يخصه الله من بيننا وينزل عليه الذكر؟ فأى: مزية خصه من بيننا؟ وهذا اعتراض من المكذبين على الله، لم يزالوا يدلون به، ويصرلون ويحولون ويردون به دعوة الرسل، وقد أجاب الله عن هذه الشبهة بقول الرسل لأجمعهم: ﴿قالت رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده﴾ فالرسل من الله عليهم بصفات وأخلاق وكمالات، بها صلحوا لرسالات ربهم والاختصاص بوحية،

ومن رحمته وحكمته أن كانوا من البشر، فلو كانوا من الملائكة لم يمكن البشر أن يتلقوا عنهم، ولو جعلهم من الملائكة لتعاجل الله المكذبين لهم بالعقاب العاجل.

والمقصود بهذا الكلام الصادر من ثمود لنبههم صالح، تكذيبه، ولهذا حكموا عليه بهذا الحكم الجائر، فقالوا: ﴿بل هو كذاب أشر﴾ أي: كثير الكذب والشر، فغضبهم الله ما أسفه أحلامهم وأظلمهم، وأشدهم مقابلة للصادقين الناصحين بالخطاب الشنيع، لا جرم عاقبهم الله حين اشتد طغيانهم، فأرسل الله الناقة التي هي من أكبر النعم عليهم، آية من آيات الله، ونعمة يجتلبون من ضرعها (٢) ما يكفيهم أجمعين، ﴿فتنة لهم﴾ أي: اختباراً منه لهم وامتحاناً ﴿فارتقبهم واصطبر﴾ أي: اصبر على دعوتك إياهم، وارتقب ما يحمل بهم، أو ارتقب هل يؤمنون أو يكفرون؟ ﴿ونبتهم أن الماء قسمة بينهم﴾ أي: أخبرهم أن الماء أي: موردهم الذي يستعذبونه، قسمة بينهم وبين الناقة، لها شرب يوم ولهم شرب يوم آخر معلوم، ﴿كل شرب محتضر﴾ أي: يحضره من كان قسمته، ويحظر على من

(١) في ب: اقتلعه. (٢) في ب: درها.



من العير ما لم يشهد عليه أحداً غيرهم<sup>(٣)</sup>، فكذبوا بآيات الله كلها، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر، فأغرقهم في اليم هو وجنوده<sup>(٤)</sup>.

والمراد من ذكر هذه القصص تحذير [الناس و] المكذبين لمحمد ﷺ، ولهذا قال: ﴿أَكْفَارَكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيَّتِكُمْ﴾ أي: هؤلاء الذين كذبوا أفضل الرسل، خير من أولئك المكذبين، الذين ذكر الله هلاكهم وما جرى عليهم؟ فإن كانوا خيراً منهم، أمكن أن ينجوا من العذاب، ولم يصبهم ما أصاب أولئك الأشرار، وليس الأمر كذلك، فإنتهم إن لم يكونوا شراً منهم، فليسوا بخير منهم، ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزَّبْرِ﴾ أي: أم أعطاكم الله عهداً وميثاقاً في الكتب التي أنزلها على الأنبياء، فتعتقدون حينئذ أنكم الناجون بإخبار الله ووعده؟ وهذا غير واقع، بل غير ممكن عقلاً وشرعاً، أن تكتب براءتهم في الكتب الإلهية التضامنة للعدل والحكمة، فليس من الحكمة نجات أمثال هؤلاء المعاندين المكذبين، لأفضل الرسل وأكرمهم على الله، فلم يبق إلا أن يكون بهم قوة يتصرفون بها، فأخبر تعالى أنهم يقولون: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ﴾ قال تعالى مبيناً لضعفهم، وأنهم مهزومون: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ فوقع كما أخير، هزم الله جمعهم الأكبر يوم بدر، وقتل من<sup>(٥)</sup> صناديدهم وكبرائهم ما ذلوا به<sup>(٦)</sup>، ونصر الله دينه ونبيه وحزبه المؤمنين. ومع ذلك، فلهم موعد يجمع به أولهم وآخرهم، ومن أصيب في الدنيا منهم، ومن متع بلذاته، ولهذا قال: ﴿بِلِلسَانِهِ مَوْعَدَهُمْ﴾ الذي يجازون به، ويؤخذ منهم الحق بالقسط، ﴿وَالسَّاعَةَ أَهْمَى أَمْرٌ﴾ أي:

عن الشرك والفاحشة التي ما سبقهم بها أحد من العالمين، فكذبوه واستمروا على شركهم وقبائحهم، حتى إن الملائكة الذين جاؤوه بصورة أضياف حين سمع بهم قوم لوط، جاؤوهم<sup>(١)</sup> مسرعين، يريدون إيقاع الفاحشة فيهم، لعنهم الله وقبحهم، وراودوه عنهم، فأمر الله جبريل عليه السلام، فطمس أعينهم بجناحه، وأنذرهم نبيهم بطشة الله وعقوبت ﴿فَتَمَارَوْا بِالْبُذْرِ﴾ ولقد صبهم بكرة عذاب مستقر ﴿قلب الله عليهم ديارهم، وجعل أسفلها أعلاها، وتتبعهم بحجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك للمسرفين، ونجى الله لوطاً وأهله من الكرب العظيم، جزاء لهم على شكرهم لربهم، وعبادته وحده لا شريك له.

﴿٤١- ٥٥﴾ ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ﴾ كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر \* أكفاركم خير من أوليكم أم لكم براءة في الزبر \* أم يقولون نحن جميع منتصر \* سيهزم الجمع ويولون الدبر \* بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر \* إن المجرمين في ضلال وسمر \* يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا من سقر \* إنا كل شيء خلقناه بقدر \* وما أمرنا إلا واحدة كليم بالبصر \* ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مذكر \* وكل شيء فعلوه في الزبر \* وكل صغير وكبير مستطر \* إن المتقين في جنات ونهر \* في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾ أي: ﴿ولقد جاء آل فرعون﴾ أي: فرعون وقومه ﴿النذر﴾ فأرسل الله إليهم موسى الكليم، وأيده بالآيات الباهرات، والمعجزات القاهرات<sup>(٢)</sup>، وأشهدهم

ليس بقسمة له.

﴿ننادوا أصحابهم﴾ الذي باشر عقربها، الذي هو أشقى القبيلة ﴿فتعاطى﴾ أي: انقاد لما أمره به من عقربها ﴿فمقر﴾ فكيف كان عذابي ونذر، كان أشد عذاب، أرسل الله عليهم صيحة ورجفة أهلكتهم عن آخرهم، ونجى الله صالحاً ومن آمن معه، ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾.

﴿٢٣- ٤٠﴾ ﴿كذبت قوم لوط بالنذر﴾ إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجيتناهم بسحر \* نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر \* ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر \* ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر \* ولقد صبهم بكرة عذاب مستقر \* فذوقوا عذابي ونذر \* ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ أي: ﴿كذبت قوم لوط﴾ لوطاً عليه السلام، حين دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم

- (١) في ب: جاءوا.
- (٢) في ب: بالآيات البيئات، والمعجزات الباهرات.
- (٣) في ب: ما لم يشهد غيرهم.
- (٤) في ب: فأغرقه وجنوده في اليم.
- (٥) في ب: وقتلت.
- (٦) في ب: فأذلوا.

أعظم وأشق، وأكبر من كل ما يتوهم، أو يدور بالبال (١).

﴿إن المجرمين﴾ أي: الذين أكثروا من فعل الجرائم، وهي الذنوب العظيمة من الشرك وغيره، من المعاصي ﴿في ضلال وسعر﴾ أي: هم ضالون في الدنيا، ضلّال عن العلم، وضلال عن العمل، الذي ينجيهم من العذاب، ويوم القيامة في العذاب الأليم، والشار التي تتسعر بهم، وتشتعل في أجسامهم، حتى تبلغ أفتدثهم، ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم﴾ التي هي أشرف ما بهم من الأعضاء، وألها أشد من ألم غيرها، فيهانون بذلك ويخزون، ويقال لهم: ﴿ذوقوا مس سقر﴾ أي: ذوقوا ألم النار وأسفها وغيظها ولهبها.

﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ وهذا شامل للمخلوقات والعوالم العلوية والسفلية، أن الله تعالى وحده خلقها لا خالق لها سواه، ولا مشارك له في خلقها (٢)، وخلقها بقضاء سبق به علمه، وجرى به قلمه، بوقتها ومقدارها، وجميع ما اشتملت عليه من الأوصاف، وذلك على الله يسير، فلماذا قال: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ فإذا أراد شيئاً قال له كن فيكون كما أراد، كلمح البصر، من غير ممانعة ولا صعوبة.

﴿ولقد أهلكتنا أشياعكم﴾ من الأمم السابقين الذين عملوا كما عملتم، وكذبوا كما كذبتهم ﴿فهل من مدكر﴾ أي: متذكر يعلم أن سنة الله في الأولين والآخرين واحدة، وأن حكمته كما اقتضت إهلاك أولئك الأشرار، فإن هؤلاء مثلهم، ولا فرق بين الفريقين. ﴿وكل شيء فعلوه في الزبر﴾ أي: كل ما فعلوه من خير وشر مكتوب عليهم في الكتب القدورية ﴿وكل صغير وكبير مستنظر﴾ أي: مسطر مكتوب، وهذا حقيقة القضاء

والقدر، أن جميع الأشياء كلها، قد علمها الله تعالى، وسطرها عنده في اللوح المحفوظ، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

﴿إن المتقين﴾ الله، بفعل أوامره وترك نواهيه، الذين اتقوا الشرك والكبائر والصغائر.

﴿في جنات ونهر﴾ أي: في جنات النعيم، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من الأشجار البانعة، والأنهار الجارية، والقصور الرفيعة، والمنازل الأنيفة، والمأكول والمشرب اللذيذة، والخور الحسن، والروضات البهية في الجنان، وروضان الملك الديان، والفوز بقره، ولهذا قال: ﴿في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾ فلا تسأل بعد هذا عما يعطيهم ربهم من كرامته وجوده، ويمدهم به من إحسانه ومنته، جعلنا الله منهم، ولا حرمنا خيراً ما عنده بشر ما عندنا.

تم تفسير سورة اقتربت،  
وشه الحمد والشكر

### تفسير سورة الرحمن [وهي] مكية

﴿١٣ - ١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ \* الرحمن \* علم القرآن \* خلق الإنسان \* علمه البيان \* الشمس والقمر بحسبان \* والنجم والشجر يسجدان \* والسماء رفعها ووضع الميزان \* ألا تطغوا في الميزان \* وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان \* والأرض وضعها للأنام \* فيها فاكهة والتخل ذات الأقسام \* والحسب ذو المصصف والريحان \* فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ هذه السورة الكريمة الجليلة، افتتحها باسمه «الرحمن» الدال على سعة

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَّا رِجْزًا مَّعْلُومًا﴾ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاكُمْ فَهَلْ مِنْكُمْ مَنْ يَنْصُرُ﴾ ﴿ذُكِّرْتُمْ وَمَعْلُومًا فِي الزُّبُرِ﴾ ﴿وَلَقَدْ صَبَّرَكُمُوهَا وَتَمَنَّاهُ﴾ ﴿فِي الْقُورِ﴾ ﴿وَجَنَّاتٍ مِنْ دُونِهَا﴾ ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُنْتَوِرٍ﴾

#### سورة الرحمن

الرَّحْمٰنُ الرَّحِيْمُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْوَكْرَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَلْقَى الْوِزْنَ بِالْقِيسِ ﴿٩﴾ لِأَنْتُمْ الْبَرَّانِ ﴿١٠﴾ وَالْأَنْصَابُ وَاصْفَى الْبُرْجَانَ ﴿١١﴾ فِيهَا كُوفٌ وَأَنْصَابٌ ﴿١٢﴾ ذَاتُ الْأُكْتَامِ ﴿١٣﴾ وَالنَّخْلُ وَالسُّؤْدُ وَالصِّبْغُ وَالْحَمْدُ سِدْرًا ﴿١٤﴾ بُنْيَانٍ ﴿١٥﴾ الْآيَاتُ كِتَابًا ﴿١٦﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مِمَّا صَلَّوْا بِهِ الْفِكَارَ ﴿١٧﴾ وَعَلَّمَ الْجَبَلُ الْكَلِمَانَ ﴿١٨﴾ فَأَنْزَلَ مِنْ سَمَاءٍ آيَاتٍ نَزْلًا مُسْتَقِيمًا ﴿١٩﴾

رحمته، وعموم إحسانه، وجزيل بره، وواسع فضله، ثم ذكر ما يدل على رحمته وأثرها الذي أوصله الله إلى عباده من النعم الدينية والدينية أو الأخروية وبعد كل جنس ونوع من نعمه، بينه الثقلين لشكره، ويقول: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾.

فذكر أنه ﴿علم القرآن﴾ أي: علم عباده ألفاظه ومعانيه، ويسرها على عباده، وهذا أعظم منة ورحمة رحم بها عباده، حيث أنزل عليهم قرآناً عربياً بأحسن ألفاظ، وأحسن تفسير، مشتمل على كل خير، زاجر عن كل شر

﴿خلق الإنسان﴾ في أحسن تقويم، كامل الأعضاء، مستوفي الأجزاء، بحكم البناء، قد اتقن البديع تعالى (٣) الحيوانات، بأن ﴿علمه البيان﴾ أي: التبيين عما في ضميره، وهذا شامل للتعليم المنطقي والتعليم الخطي، فالبيان الذي ميز الله به الأدمي على غيره من أجل نعمه، وأكبرها عليه، ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ أي: خلق الله الشمس والقمر، وسخرهما يجريان بحساب مقنن، وتقدير مقدر،

(١) في ب: في الخيال.

(٢) في ب: خلقه.

(٣) في ب: قد اتقن الباري تعالى البديع خلقه.



﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ أي : اجعلوه قائماً بالعدل، الذي تصل إليه مقدرتكم وإمكانتكم، ﴿وَلَا تَحْسُرُوا الْمِيزَانَ﴾ أي : لا تنقصوه وتعملوا بوضه، وهو الجور والظلم والطغيان، ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ الله على ما كانت عليه من الكشافة والاستقرار واختلاف [أوصافها و] أحوالها ﴿لِلْأَنَامِ﴾ أي : للمخلوق، لكي يستقروا عليها، وتكون لهم مهاداً وفرشاً يبتون بها، ويمرحون ويفرسون ويمحرون ويسلكون سبلها فجاجاً، ويستغفون بمعادنها وجميع ما فيها، مما تدعو إليه حاجتهم، بل ضرورتهم.

ثم ذكر ما فيها من الأقوات الضرورية، فقال: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ وهي جميع الأشجار التي تثمر الثمرات التي يتفكه بها العباد، من العنب والتين والرمان والتفاح، وغير ذلك، ﴿وَالنَّخْلَ ذَاتَ الْأَكْمَامِ﴾ أي : ذات الوعاء الذي ينفلق عن القنوان التي تخرج شيئاً فشيئاً حتى تتم، فتكون قوتاً يؤكل ويدخر، يتزود منه المقيم والمسافر، وفاكهة لذيذة من أحسن الفواكه، ﴿وَالْحَبَّ ذُو الْعَصْفِ﴾ أي : ذو الساق الذي يداس، فينتفع بتبينه للأنعام وغيرها، ويدخل في ذلك حب السبر والشعير والبنزة [والأرز] والدخن، وغير ذلك، ﴿وَالرِّيحَانَ﴾ يحتمل أن المراد بذلك جميع الأرزاق التي يأكلها آدميون، فيكون هذا من باب عطف العمام على الخاص، ويكون الله قد امتنّ على عباده بالقوت والرزق، عموماً وخصوصاً، ويحتمل أن المراد بالريحان، الريحان المعروف، وأن الله امتنّ على عباده بما يسره في الأرض من أنواع الروائح الطيبة والمشام الفاخرة، التي تسر الأرواح

رحمة بالعباد، وعناية بهم، وليقوم بذلك من مصالحهم ما يقوم، ويعرف العباد عدد السنين والحساب، ﴿وَالنَّجْمَ وَالشَّجَرَ يَسْجُدَانِ﴾ أي : نجوم السماء، وأشجار الأرض، تعرف ربهما وتسجد له، وتطيع وتمتدح<sup>(١)</sup>، وتتناقذ لما سخرها له من مصالح عباده ومنافعهم، ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ سقفاً للمخلوقات الأرضية، ووضع الله الميزان أي : العدل بين العباد، في الأقوال والأفعال، وليس المراد به الميزان المعروف وحده، بل هو كما ذكرنا، يدخل فيه الميزان المعروف، والمكيال الذي تكامل به الأشياء والمقادير، والمساحات التي تضبط بها المجهولات، والحقائق التي يفصل بها بين المخلوقات، ويقام بها العدل بينهم، ولهذا قال: ﴿أَلَا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ أي : أنزل الله الميزان، لئلا تتجاوزوا الحد في الميزان، فإن الأمر لو كان يرجع إلى عقولكم وآرائكم، لحصل من الخلل ما الله به عليم، ولفسدت السماوات والأرض.

﴿١٤ - ١٦﴾ ثم قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ وخلق الجنان من مارج من نار \* فبأي : آلاء ربكما تكذبان . وهذا من نعمه تعالى على عباده، حيث أراهم [من] آثار قدرته وبديع صنعته، أن ﴿خلق﴾ أبا الإنس وهو آدم عليه السلام ﴿من صلصال كالفخار﴾ أي : من طين مبلول، قد أحكم به وأتقن، حتى جف، فصار له صلصلة وصوت يشبه صوت الفخار الذي طبخ على النار<sup>(٢)</sup>، ﴿وخلق الجنان﴾ أي : أبا الجن، وهو إبليس اللعين<sup>(٣)</sup> ﴿من مارج من نار﴾ أي : من لهب النار الصافي، أو الذي قد خالطه الدخان، وهذا يدل على شرف عنصر آدمي المخلوق من الطين والتراب، الذي هو محل الرزاة والثقل والمنافع، بخلاف عنصر الجنان وهو النار، التي هي محل الخفة والطييش والشر والفساد . ولا بين خلق الشقلين ومادة ذلك<sup>(٤)</sup>، وكان ذلك منةً منه [تعالى]

(١) في ب : وتضع.

(٢) في ب : فكلمنا مر بقوله: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ قالوا.

(٣) في ب : فهكذا يبنغي.

(٤) في ب : وهو الطين المشوي.

(٥) في ب : لعنه الله.

(٦) كذا في ب، وفي أ: مادة التقلين.

في الأزل وقضاها، لا يزال تعالى يفضيها وينفذها في أوقاتها التي اقتضته حكمته، وهي أحكامه الدينية التي هي الأمر والنهي، والقدرية التي يجريها على عباده مدة مقامهم في هذه الدار، حتى إذا تمت [هذه] الخليفة وأفناهم الله تعالى<sup>(١)</sup>، وأراد تعالى أن ينفذ فيهم أحكام الجزاء، ويريمهم من عدله وفضله وكثرة إحسانه، ما به يعرفونه ويوحده، ونقل المكلفين من دار الابتلاء والامتحان إلى دار الحيوان.

وفرح حينئذ لتنفيذ هذه الأحكام، التي جاء وقتها، وهو المراد بقوله: ﴿٣١-٣٢﴾ **سنتفرغ لكم أيها الثقلان \* فيأي: آلاء ربكما تكذبان** أي: سنتفرغ لحسابكم ومجازاتكم بأعمالكم التي عملتموها في دار الدنيا.

﴿٣٣﴾ **يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان** أي: إذا جمعهم الله في موقف القيامة، أخبرهم بعجزهم وضعفهم، وكمال سلطانه، ونفوذ مشيئته وقدرته، فقال معجزاً لهم: **يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض** أي: تجدون منفذاً مسلماً تخرجون به عن ملك الله وسلطانه، **فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان** أي: لا تخرجون عنه إلا بقوة وتسلط منكم، وكمال قدرة، وأتى لهم ذلك، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً؟! ففي ذلك الموقف لا يتكلم أحد إلا بإذنه، ولا تسمع إلا همساً، وفي ذلك الموقف يستوي الملوك والممالك، والرؤساء والمرؤسون، والأغنياء والفقراء.

﴿٢٦-٢٨﴾ **كل من عليها فان \* ويبسقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام \* فيأي: آلاء ربكما تكذبان** أي: كل من على الأرض، من إنس وجن، ودواب، وسائر المخلوقات، يفتى ويموت ويبسقى ويبسقى الحي الذي لا يموت **ذو الجلال والإكرام** أي: ذو العظمة والكبرياء والمجد، الذي يعظم ويبجل ويجل لأجله، والإكرام الذي هو سعة الفضل والجود، والداعي لأن يكرم أوليائه وخواص خلقه بأنواع الإكرام، الذي يكرمه أوليائه ويجلونه، **ويعظمونه** ويحبونه، وينيبون إليه ويعبدونه، **فيأي: آلاء ربكما تكذبان**.

﴿٢٩-٣٠﴾ **يسأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن \* فيأي: آلاء ربكما تكذبان** أي: هو الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، وهو واسع الجود والكرم، فكل الخلق مفتقرون إليه، يسألونه جميع حوائجهم، بحالهم ومقالهم، ولا يستغنون عنه طرفه عين ولا أقل من ذلك، وهو تعالى **كل يوم هو في شأن** يعني فقيراً، ويجبر كسيراً، ويعطي قوماً، ويمنع آخرين، ويميت ويحيي، ويرفع ويخفض، لا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلظه المسائل، ولا يبرمه إلهام الملحين، ولا طول مسألة السائلين، فسبحان الكريم الوهاب، الذي عمت مواهبه أهل الأرض والسماوات، وعم لطفه جميع الخلق في كل الآنات واللحظات، وتعالى الذي لا يمنعه من الإعطاء معصية العاصين، ولا استغناء الفقراء الجاهلين به وبكرمه، وهذه الشؤون التي أخبر أنه تعالى كل يوم هو في شأن، هي تقاديره وتدابيره التي قدرها

على عباده<sup>(١)</sup>، قال: **فيأي: آلاء ربكما تكذبان**.

﴿١٧-١٨﴾ **رب المشرقين ورب المغربين \* فيأي: آلاء ربكما تكذبان** أي: هو تعالى رب كل ما أشرقت عليه الشمس والقمر، والكواكب النيرة، وكل ما غربت عليه، **أوكل ما كانا فيه** فهي تحت<sup>(٢)</sup> تدبيره وربوبيته، وثناها هنا لإرادة العموم مشرقى الشمس شتاءً وصيفاً، ومغربها كذلك<sup>(٣)</sup>.

﴿١٩-٢١﴾ **مرج البحرين يلتقيان \* بينهما برزخ لا يبغيان \* فيأي: آلاء ربكما تكذبان** المراد بالبحرين: البحر العذب، والبحر المالح، فهما يلتقيان كلاهما، فيصب العذب في البحر المالح، ويختلطان ويمتزجان، ولكن الله تعالى جعل بينهما برزخاً من الأرض، حتى لا يبغي أحدهما على الآخر، ويحصل النفع بكل منهما، فالعذب منه يشربون وتشرب أشجارهم وزروعهم، والمالح به يطيب الهواء ويتولد الحوت والسماك، واللؤلؤ والمرجان، ويكون مستقراً مسخراً للفسن والمراكب، ولهذا قال:

﴿٢٤-٢٥﴾ **وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام \* فيأي: آلاء ربكما تكذبان**.

أي: وسخر تعالى لعباده السفن الجوارى، التي تمخر البحر وتشقه بإذن الله، التي ينشئها الآدميون، فتكون من كبرها وعظمتها كالأعلام، وهي الجبال العظيمة، فيركبها الناس، ويحملون عليها أمتعتهم وأنواع تجارتهم، وغير ذلك مما تدعو إليه حاجتهم وضرورتهم، وقد حفظها حافظ السماوات والأرض، وهذه من نعم الله الجليلة، فلذلك قال: **فيأي: آلاء ربكما تكذبان**.

(١) في ب: عليهم.

(٢) فالجميع تحت..

(٣) في ب: وثناها هنا باعتبار مشارفها شتاءً وصيفاً والله أعلم.

(٤) كذا في ب، وفي أ: وأنى الله الخلق.

أهل الجنة وجلسهم عليها، وأنهم متكثرون عليها، [أي: ] جلوس تمكن واستقرار [وراحة]، كجلوس من الملوك على الأسرة، وتلك الفرش، لا يعلم وصفها وحسنها إلا الله عز وجل، حتى إن بطائنها التي تلي الأرض منها، من إستبرق، وهو أحسن الحرير وأفخره، فكيف بظواهرها التي تلي بشرتهم؟! (١)

﴿وجنى الجنين دان﴾ الجنى هو الثمر المستوي أي: وثمر هاتين الجنتين قريب التناول، يناله القائم والقاعد والمضطجع.

﴿فيهن قاصرات الطرف﴾ أي: قد قصرن طرفهن على أزواجهن، من حسنهن وجمالهن، وكمال محبتهن لهن، وقصرن أيضاً طرف أزواجهن عليهن، من حسنهن وجمالهن ولذة وصلهن،

﴿لم يطمثن إنس قبلهن ولا جان﴾ أي: لم ينلهن قبلهن أحد من الإنس والجن، بل هن أبكار عرب، متحبات إلى أزواجهن، بحسن التبعل والتخنج والملاحة والدلال، ولهذا قال:

﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ وذلك لصفائهن وجمال منظرهن وبهائهن، ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ أي: هل جزاء من أحسن في عبادة الخالق ونفع عبده، إلا أن يحسن إليه بالشواب الجزيل، والفوز الكبير،

والنعيم المقيم، والعيش السليم، فهاتان الجنتان العاليتان للمقربين، ﴿ومن دونهما جنتان﴾ من فضة بنيانها وأتيتها وحليتها وما فيها لأصحاب اليمين، وتلك الجنتان ﴿مدهامتان﴾ أي: سوداوان من شدة الخضرة التي هي أثر الري.

﴿٦٦﴾ ﴿فيهما عينان نضاختان﴾ أي: فوارتان، ﴿فيهما فاكهة﴾ من جميع أصناف الفواكه، وأخصها النخل والرمان، اللذان فيهما من المنافع ما فيهما، ﴿فيهن﴾ أي: في الجنات كلها ﴿خيرات حسان﴾ أي: خيرات

أن تظهر للخلق حجته البالغة، وحكمته الجليلة.

﴿٤٣- ٤٥﴾ هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون \* يطوفون بينها وبين حميم أن \* فبأي: الآء ريكما تكذبان﴾ أي: يقال للمكذبين بالوعد والوعد حين تسعر الجحيم: ﴿هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون﴾ فليهنهم تكذبيهم بها، وليذوقوا من عذابها ونكالتها وسعيرها وأغلالها، ما هو جزاء لتكذبيهم (٢)، ﴿يطوفون بينها﴾ أي: بين أطباق الجحيم ولهبها ﴿وبين حميم أن﴾ أي: ماء حار جداً قد انتهى حره، وزمهير قد اشتد برده

وفره، ﴿فبأي: آلاء ريكما تكذبان﴾ ولما ذكر ما يفعل بالمجرمين، ذكر جزاء التقيين الخائفين، فقال:

﴿٤٦- ٦٥﴾ ﴿ولن خاف مقام ربه جنتان \* فبأي: الآء ريكما تكذبان﴾ إلى آخر السورة.

أي: وللذي خاف ربه وقيامه عليه، فترك ما نهي عنه، وفعل ما أمره به، له جنتان من ذهب أتيتها وحليتها وبنيانها وما فيهما، إحدى الجنتين جزاء على ترك النهيات، والأخرى على فعل الطاعات، ومن أوصاف تلك الجنتين أنهما ﴿ذواتا أفنان﴾ أي: فيهما من ألوان النعيم المتنوعة نعيم الظاهر والباطن ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر (٣) أن (٤) فيهما الأشجار الكثيرة الزاهرة ذوات الغصون الناعمة، التي فيها الثمار البانعة الكثيرة اللذيذة، أو ذوات أنواع وأصناف من جميع أصناف النعيم وأنواعه جمع فن، أي: صنف.

وفي تلك الجنتين ﴿عينان تجريان﴾ يفجرونها على ما يريدون ويشتهون، ﴿فيهما من كل فاكهة﴾ من جميع أصناف الفواكه ﴿زوججان﴾ أي: صنفان، كل صنف له لذة ولون، ليس للزوج الآخر، ﴿متكئين على فرش بطائنها من إستبرق﴾ هذه صفة فرش

﴿٣٧﴾ ﴿فإذا انشقت السماء﴾ [أي] يوم القيامة من شدة الأهوال، وكثرة البلبال، وترادف الأرجال، فانشفت شمسها وقمرها، وانثرت نجومها، ﴿فكانت﴾ من شدة الحرق والانزعاج ﴿وردة كالدهان﴾ أي: كانت كالمهل والرصاص المذاب ونحوه ﴿فبأي: آلاء ريكما تكذبان \* فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ أي: سؤال استعلام بما وقع، لأنه تعالى عالم الغيب والشهادة والماضي والمستقبل، ويريد أن يجازي العباد بما علمه من أحوالهم، وقد جعل لأهل الخير والشر يوم القيامة علامات يعرفون بها، كما قال تعالى: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾

﴿٤١﴾ وقال هنا: ﴿يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ أي: فيؤخذ بنواصي المجرمين وأقدامهم، فيلقون في النار ويسحبون فيها، وإنما يسألهم تعالى سؤال توبيخ وتقدير بما وقع منهم، وهو أعلم به منهم، ولكنه تعالى يريد

﴿١﴾ في ب: في ذلك اليوم.

﴿٢﴾ في ب: ذكر منه بذلك.

﴿٣﴾ في ب: جزاء لهم على تكذيبهم.

﴿٤﴾ زيادة من هاشم: ب.

(٥) كذا في ب، وفي أ: أي.

(٦) في ب: التي يباشرون.



الطرف لم يطمئنه إنس قبلهم ولا جان ﴿ وقال في الآخرين ﴾ : ﴿ حور مقصورات في الخيام ﴾ وقد علم التفاوت بين ذلك .

وقال في الأولين <sup>(١)</sup> : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ فدل ذلك أن الأولين جزاء المحسنين ، ولم يقل ذلك في الأخيرتين .

ومجرد تقديم الأولين على الآخرين ، يدل على فضلها .

فهذه الأوجه يعرف فضل الأولين على الآخرين ، وأنها معدتان للمقربين من الأنبياء ، والصدّيقين ، وخوادم عباد الله الصالحين ، وأن الآخرين معدتان لعموم المؤمنين ، وفي كل من الجنات [المذكورات] ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وفيهن ما تشبهه الأنفس وتلذ الأعين ، وأهلها في غاية الراحة والرضا والطمأنينة وحسن المأوى ، حتى إن كلاً <sup>(٢)</sup> منهم لا يرى أحداً أحسن حالاً منه ، ولا أعلى من نعيمه [الذي هو فيه] . ولما ذكر سعة فضله وإحسانه ، قال : ﴿ تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام ﴾ أي : تعاطم وكثر خيره ، الذي له الجلال الباهر ، والمجد الكامل ، والإكرام لأوليائه .

تم تفسير سورة الرحمن  
ولله الحمد والشكر  
والثناء الحسن

**تفسير سورة الواقعة**  
**[وهي] مكية**

﴿ ١٢ - ١ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم إذا وقعت الواقعة \* ليس لوقعتها كاذبة \* خافضة رافعة \* إذا رجت الأرض رجاً \* وبست الجبال بساً \* فكانت هباء منبثاً \* وكنتم أزواجاً ثلاثة \* فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة \* وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة \* والسابقون \* والسابقون السابقون \* أولئك السابقون \* أولئك السابقون \* أولئك السابقون \* في ب : كل واحد منهم .

الأخلاق حسان الأوجه ، فجمع بين جمال الظاهر والباطن ، وحسن الخلق والمخلق ، ﴿ حور مقصورات في الخيام ﴾ أي : محبوسات في خيام اللؤلؤ ، قد نهبان وأعددن أنفسهن لأزواجهن ، ولا ينفي ذلك خروجهن في البساتين ورياض الجنة ، كما جرت العادة لبنت الملوك ونحوهن [المخدرات] الحفريات ، ﴿ لم يطمئنه إنس قبلهم ولا جان ﴾ أي : آلاء ربكما تكذبان \* متكئين على رفرف خضر \* أي : أصحاب هاتين الجنة ، متكأهم على الرفرف الأخضر ، وهي الفرش التي فوق <sup>(١)</sup> المجالس العالية ، التي قد زادت على مجالسهم ، فصار لها رفرقة من وراء مجالسهم ، لزيادة البهاء وحسن المنظر ، ﴿ وعبري حسان ﴾ العبري : نسبة لكل منسوج نسجاً حسناً فاخراً ، ولهذا وصفها بالحسن الشامل ، لحسن الصنعة وحسن المنظر ، وتعممة للمس ، وهاتان الجنة دون الجنة الأوليين ، كما نص الله على ذلك بقوله : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ وكما وصف الأولين بعدة أوصاف لم يصف بها الآخرين ، فقال في الأولين : ﴿ فيهما عينان تجريان ﴾ وفي الآخرين : ﴿ عينان نضاختان ﴾ . ومن المعلوم الفرق بين الجارية والنضاخة .

وقال في الأولين : ﴿ ذواتا أفنان ﴾ ولم يقل ذلك في الآخرين .

وقال في الأولين : ﴿ فيهما من كل فاكهة زوجان ﴾ وفي الآخرين : ﴿ فيهما فاكهة ونخل ومران ﴾ وقد علم ما بين الوصفين من التفاوت .

وقال في الأولين : ﴿ متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان ﴾ ولم يقل ذلك في الأخيرتين ، بل قال : ﴿ متكئين على رفرف خضر وعبري حسان ﴾

وقال في الأولين ، في وصف نساتهم وأزواجهم : ﴿ فيهن قاصرات

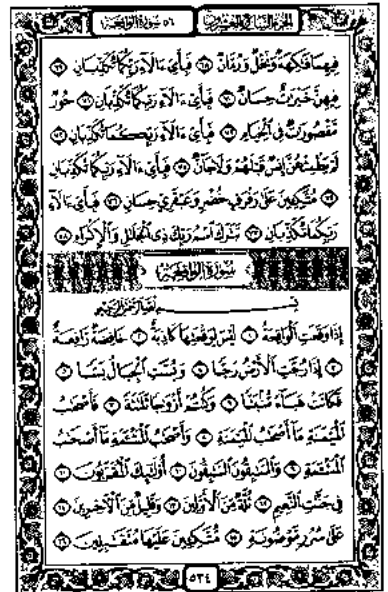
السابقون \* أولئك المقربون \* في في جنات النعيم ﴾ يخبر تعالى بحال الواقعة التي لا بد من وقوعها ، وهي القيامة التي ليس لوقعتها كاذبة \* أي : لا شك فيها ، لأنها قد تظاهرت عليها الأدلة العقلية والسمعية ، ودلت عليها حكمته تعالى ، ﴿ خافضة رافعة ﴾ أي : خافضة لأناس في أسفل سافلين ، رافعة لأناس في أعلى عليين ، أو خفضت بصوتها فأسمعت القريب ، ورفعت فأسمعت البعيد . ﴿ إذا رجّت الأرض رجاً ﴾ أي : حسركت واضطربت ، ﴿ وبست الجبال بساً ﴾ أي : فتتت ، ﴿ فكانت هباء منبثاً ﴾ فأصبحت الأرض ليس عليها جبل ولا معلم ، قاعاً صفصفاً ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً ، ﴿ وكنتم ﴾ أيها الخلق ﴿ أزواجاً ثلاثة ﴾ أي : انقسمتم ثلاث فرق بحسب أعمالكم الحسنة والسينة ، ثم فصل أحوال الأزواج الثلاثة ، فقال : ﴿ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ﴾ تعظيم لشأنهم ، وتقخير لأحوالهم ، ﴿ وأصحاب المشأمة ﴾ أي : الشمال ، ﴿ ما أصحاب المشأمة ﴾ تهويل لحالهم .

﴿ والسابقون السابقون \* أولئك

(١) في ب : تحت .

(٢) كذا في ب ، وفي أ : الأخيرتين ويبدو أنه سبق فلم .





العين في الأنتى، من أعظم الأدلة على حسنها وجمالها.

﴿كأشبال اللؤلؤ المكنون﴾ أي: كأنهن لؤلؤ الأبيض الرطب الصافي البهي، المستور عن الأعين والريح والشمس، الذي يكون لونه من أحسن الألوان، الذي لا عيب فيه بوجه من الوجوه، وكذلك الحور العين، لا عيب فيهن [بوجه]، بل هن كاملات الأوصاف، جميلات الثموت.

فكل ما تأملته منها لم تجد فيه إلا ما يسر الحاطر<sup>(١)</sup> ويروق الناظر، وذلك النعيم المعد لهم ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ فكما حسنت منهم الأعمال، أحسن الله لهم الجزاء، ووفر لهم الفوز والنعيم.

﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً﴾ أي: لا يسمعون في جنات النعيم كلاماً يلغي، ولا يكون فيه فائدة، ولا كلاماً يؤثم صاحبه، ﴿إلا قليلاً سلاماً﴾ أي: إلا كلاماً طيباً، وذلك لأنها دار الطيبين، ولا يكون فيها إلا كل طيب، وهذا دليل على حسن أدب أهل الجنة في خطابهم فيما بينهم، وأنه أطيب كلام، وأسره للنفوس<sup>(٢)</sup>، وأسلمه من كل لغو وإثم، نسأل الله من فضله.

﴿٢٧﴾ ثم ذكر تعميم أصحاب اليمين<sup>(٣)</sup>، فقال: ﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين﴾ أي: شأنهم عظيم، وحالهم جسيم، ﴿في سدر مخضود﴾ أي: مقطوع ما فيه من الشوك والأغصان [الرديئة] المضرة، مجعول مكان ذلك الثمر الطيب، وللسدر من الخواص، الظل الظليل، وراحة الجسم فيه، ﴿وطلع منضود﴾ والطلع معروف، وهو شجر [كبار] يكون بالبادية، تنضد أغصانه من الثمر اللذيذ الشهى، ﴿وما مسكوب﴾ أي: كثير

مخلدون﴾ أي: يدور على أهل الجنة للمخدمة وقضاء حوائجهم، ولدان صفار الأسنان، في غاية الحسن والبهاء، ﴿كأنهم لؤلؤ مكنون﴾ أي: مستور، لا يناله ما يغيره، مخلوقون لللبقاء والخلد، لا يهرمون ولا يتغيرون، ولا يزيدون على أسنانهم، ويدورون عليهم بأية شراهم ﴿بأكواب﴾ وهي التي لا عرى لها، ﴿وأباريق﴾: الأواني التي لها عرى، ﴿وكأس من معين﴾ أي: من خمر لذيذ المشرب، لا آفة فيها، ﴿لا يصدعون عنها﴾ أي: لا تصدعهم رؤوسهم كما تصدع خمرة الدنيا رأس شاربها.

ولا هم عنها ينزفون، أي: لا تنزف عقولهم، ولا تذهب أحلامهم منها، كما يكون لخمّر الدنيا.

والحاصل: أن جميع<sup>(٤)</sup> ما في الجنة من أنواع النعيم الموجود جنسه في الدنيا، لا يوجد في الجنة فيه آفة، كما قال تعالى: ﴿فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى﴾ وذكر هنا خمر الجنة، ونفى عنها كل آفة توجد في الدنيا.

﴿وفاكهة مما يتخيرون﴾ أي: مهما تخيروا، وراق في أعينهم، واشتهته نفوسهم، من أنواع الفواكه الشهية، والجنى اللذيذ، حصل لهم على أكمل وجه وأحسنه، ﴿ولحم طير مما يشتهون﴾ أي: من كل صنف من الطيور يشتهونه، ومن أي: جنس من لحمه أرادوا، وإن شاذوا مشوباً، أو طيبخاً، أو غير ذلك.

﴿وحور عين﴾ كأشبال اللؤلؤ المكنون﴾ أي: ولهم حور عين، والحوراء: التي في عيناها كحل وملاحة، وحسن وبهاء، والعين: حسان الأعين وضخامها<sup>(٥)</sup>، وحسن

المقربون﴾ أي: السابقون في الدنيا إلى الخيرات، هم السابقون في الآخرة لدخول الجنات.

أولئك الذين هذا وصفهم، المقربون عند الله، في جنات النعيم، في أعلى عليين، في المنازل العاليات، التي لا منزلة فوقها، وهؤلاء المذكورون ﴿ثلة من الأولين﴾ أي: جماعة كثيرون من المتقدمين من هذه الأمة وغيرهم.

﴿١٤﴾ ﴿وقليل من الآخرين﴾ وهذا يدل على فضل صدر هذه الأمة في الجملة على متأخريها، لكون المقربين من الأولين أكثر من التأخرين، والمقربون هم خواص الخلق، ﴿على سرر موضونة﴾ أي: مرمولة بالذهب والفضة، واللؤلؤ والجوهر، وغير ذلك من [الحلي] الزينة، التي لا يعلمها إلا الله تعالى، ﴿متكئين عليها﴾ أي: على تلك السرر، جلوس تمكن وطمانينة وراحة واستقرار. ﴿متقابلين﴾ وجه كل منهم إلى وجه صاحبه، من صفاء قلوبهم، وحسن أدبهم، وتقابل قلوبهم.

﴿١٧﴾ ﴿يطوف عليهم ولدان

- (١) في ب: كل.
- (٢) كذا في ب، وفي أ: ضخام الأعين.
- (٣) في ب: القلب.
- (٤) في ب: للقلوب.
- (٥) في ب: ثم ذكر ما أعد لأصحاب اليمين.





وبأي: سبب دهيم، فتقولون: ﴿بل نحن محرومون﴾ فأحدوا الله تعالى حيث زرعه الله لكم، ثم أبواه وكماله لكم، ولم يرسل عليه من الآفات ما به تحرمون نفعه وخيره.

﴿٦٨ - ٧٠﴾ ﴿أفرايتم الماء الذي تشربون﴾ \* أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون \* لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون﴾ لما ذكر تعالى نعمته على عباده بالطعام، ذكر نعمته عليهم بالشراب العذب الذي منه يشربون، وأنهم لولا أن الله يسره وسهله، لما كان لكم سبيل إليه، وأنه الذي أنزله من المزن، وهو السحاب والمطر، ينزله الله تعالى فيكون منه الأنهار الجارية على وجه الأرض وفي بطنها، ويكون منه القدران المتدفقة، ومن نعمته أن جعله عذياً فراتاً تسيغه النفوس، ولو شاء لجعله ملحاً أجاجاً مكروهاً للنفوس. لا يتبعه ﴿فلولا تشكرون﴾ الله تعالى على ما أنعم به عليكم.

﴿٧١ - ٧٤﴾ ﴿أفرايتم النار التي توروون﴾ \* أنتم أنشأتم شجرها أم نحن المنشؤون \* نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين \* فسبح باسم ربك العظيم﴾ وهذه نعمة تدخل في الضروريات التي لا غنى للخلق عنها، فإن الناس محتاجون إليها في كثير من أمورهم وحوائجهم، فقررهم تعالى بالنار التي أوجدها في الأشجار، وأن الخلق لا يقدرون أن ينشؤوا شجرها، وإنما الله تعالى الذي أنشأها من الشجر الأخضر، فإذا هي نار توقد بقدر حاجة العباد، فإذا فرغوا من حاجتهم، أطفئوها وأخذوها.

﴿نحن جعلناها تذكرة﴾ للمعباد بنعمة ربهم، وتذكرة بنار جهنم التي أعدها الله للعاصين، وجعلها سوطاً يسوق به عباده إلى دار النعيم، ﴿ومتاعاً للمقوين﴾ أي: [المتتبعين أو] المسافرين وخص الله المسافرين لأن نفع المسافرين بذلك أعظم من غيره، ولعل

للتناسل، ولهذا أحالهم الله تعالى على الاستدلال<sup>(١)</sup> بالنشأة الأولى على النشأة الأخرى، فقال: ﴿ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون﴾ أن القادر على ابتداء خلقكم، قادر على إعادتكم.

﴿٦٢ - ٦٧﴾ ﴿أفرايتم ما ما تحرثون﴾ \* أنتم تزرعونوه أم نحن الزارعون \* لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلمتم تكفهمون \* إنا لمفرمون \* بل نحن محرومون﴾ وهذا امتنان منه على عباده، يدعوهم به إلى توحيده وعبادته والإنابة إليه، حيث أنعم عليهم بما يسره لهم من الحرث للزروع والثمار، فتخرج من ذلك من الأقوات والأرزاق والنفوأكه، ما هو من ضروراتهم وحاجاتهم ومصالحهم، التي لا يقدرون أن يمحسوها، فضلاً عن شكرها وأداء حقها، فقررهم بمنته، فقال: ﴿أنتم تزرعونوه أم نحن الزارعون﴾ أي: أنتم أخرجتموه نباتاً من الأرض؟ أم أنتم الذين نمتيموه؟ أم أنتم الذين أخرجتم سنبله وثمره حتى صار حباً حصيداً وثمرأ نضيجاً؟ أم الله الذي انضرد بذلك وحده، وأنعم به عليكم؟ وأنتم غاية ما تعملون أن تحرثوا الأرض وتشقوها وتلقوا فيها البذر، ثم بعد ذلك لا علم عندكم بما يكون بعد ذلك، ولا قدرة لكم على أكثر من ذلك ومع ذلك، فنبههم على أن ذلك الحرث معرض للأخطار لولا حفظ الله وإبقاؤه لكم بلغة ومتاعاً إلى حين، فقال ﴿لو نشاء لجعلناه﴾ أي: الزرع المحرث وما فيه من الثمار ﴿حطاماً﴾ أي: فتاتاً متحطماً، لا نفع فيه ولا رزق، ﴿فظلمتم﴾ أي: فصرتم بسبب جملة حطاماً، بعد أن تعيتم فيه وأنفقتم النفقات الكثيرة ﴿تفكهمون﴾ أي: تندمون وتحسرون على ما أصابكم، ويزول بذلك فرحكم وسروركم وتفكهمكم، فتقولون: ﴿إنا لمفرمون﴾ أي: إنا قد نقصنا وأصابنا مصيبة اجتاحتنا. ثم تعرفون بعد ذلك من أين أتيتم،

الضيافة التي قدموها لأنفسهم، وآتروها على ضيافة الله لأوليائه.

قال تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً﴾ \* خالدين فيها لا يبغون عنها حولا﴾.

ثم ذكر الدليل العقلي على البعث، فقال: ﴿نحن خلقناكم فلولا تصدقون﴾ أي: نحن الذين أوجدناكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، من غير عجز ولا تعب، أفليس القادر على ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ بل إنه على كل شيء قدير، ولهذا ويخهم على عدم تصديقهم بالبعث، وهم يشاهدون ما هو أعظم منه وأبلغ.

﴿٥٨ - ٦٢﴾ ﴿أفرايتم ما تمنون﴾ \* أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون \* نحن قلدنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين \* على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون \* ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون﴾ أي: أفرايتم ابتداء خلقكم من النبي الذي تمنون، فهل أنتم خالقون ذلك النبي وما ينشأ منه؟ أم الله تعالى الخالق الذي خلق فيكم من الشهوة وأنتها من الذكر والأنثى، وهدي كلا منهما لما هنالك، وجب بين الزوجين، وجعل بينهما من المودة والرحمة ما هو سبب

(١) في ب: بالاستدلال.

ولا يخفى، بل يصدع به ويعلن .  
وقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾ أي: يجعلون مقابلة منه الله عليكم بالرزق التكذيب والكفر لنعمة الله، فتقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، وتضيفون النعمة لغير مسديها وموليها، فهلا شكرتم الله تعالى على إحسانه، إذ أنزله الله إليكم ليزيدكم من فضله، فإن التكذيب والكفر داع لرفع النعم وحلول النقم .

﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم \* وأنتم حيثئذ تنظرون \* ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون﴾ أي: فهلا إذا بلغت الروح الحلقوم، وأنتم تنظرون المحتضر في هذه الحالة، والحال أنا نحن أقرب إليه منكم، يعلمنا وملائكتنا، ولكن لا تبصرون، ﴿فلولا إن كنتم غير مدينين﴾ أي: فهلا إذا كنتم تزعمون، أنكم غير مبموئين ولا محاسبين ومجازين، ترجعون الروح إلى بدنها ﴿إن كنتم صادقين﴾ وأنتم تقرون أنكم عاجزون عن ردها إلى موضعها، فحيثئذ إما أن تقروا بالحق الذي جاءكم به محمد ﷺ، وإما أن تعاندوا وتعلم حالكم وسوء مالكم .

﴿٨٨ - ٩٦﴾ ﴿فأما إن كان من المقربين \* فروح وريحان وجنة نعيم \* وأما إن كان من أصحاب اليمين \* فسلام لك من أصحاب اليمين \* وأما إن كان من المكذبين الضالين \* فنزل من حميم \* وتصلية جحيم \* إن هذا لهو حق اليقين \* فسبح باسم ربك العظيم﴾ ذكر الله تعالى أحوال الطوائف الثلاث: المقربين، وأصحاب اليمين، والمكذبين الضالين، في أول السورة في دار القرار .

ثم ذكر أحوالهم في آخرها عند الاحتضار والموت، فقال: ﴿فأما إن كان﴾ الميت ﴿من المقربين﴾ وهم الذين أدوا الواجبات والمستحبات، وتركوا

مكتوب في اللوح المحفوظ، معظم عند الله وعند ملائكته في الملا الأعلى .

ويحتمل أن المراد بالكتاب المكتون، هو الكتاب الذي بأيدي الملائكة الذين ينزلهم الله بوحيه وتنزيله<sup>(١)</sup>، وأن المراد بذلك أنه مستور عن الشياطين، لا قدرة لهم<sup>(٢)</sup> على تغييره، ولا الزيادة والنقص منه واستراقه، ﴿لا يمسه إلا المطهرون﴾ أي: لا يمسه القرآن إلا الملائكة الكرام، الذين طهرهم الله تعالى من الآفات والذنوب والعيوب، وإذا كان لا يمسه إلا المطهرون، وأن أهل الخبث والشياطين، لا استطاعة لهم، ولا يدان إلى مسه، دلت الآية بتبيينها<sup>(٣)</sup>، على أنه لا يجوز أن يمسه القرآن إلا طاهر، كما ورد بذلك الحديث، ولهذا قيل أن الآية خير بمعنى النهي أي: لا يمسه القرآن إلا طاهر .

﴿تنزيل من رب العالمين﴾ أي: إن هذا القرآن الموصوف بتلك الصفات الجليلة هو تنزيل رب العالمين، الذي يربي عباده بنعمة الدينية والدنيوية، ومن أجل تربية ربي بها عباده، أنزله هذا القرآن، الذي قد اشتمل على مصالح الدارين، ورحم الله به العباد رحمة لا يقدرون لها شكوراً، وما يجب عليهم أن يقوموا به<sup>(٤)</sup> ويعلموه ويدعوا إليه ويصدقوا به، ولهذا قال: ﴿أفبهذا الحديث أنتم مدهنون﴾ أي: أفبهذا الكتاب العظيم والذكر الحكيم أنتم تدهنون أي: تحتفون وتدلسون خرفاً من الخلق وعارهم وألسنتهم؟ هذا لا ينبغي ولا يليق، وإنما يليق أن يداهن بالحديث الذي لا يثق صاحبه منه .

وأما القرآن الكريم، فهو الحق الذي لا يغالَب به مغالِب إلا غلب، ولا يصول به صائل إلا كان العالی على غيره، وهو الذي لا يداهن به

السبب في ذلك، لأن الدنيا كلها دار سفر، والعبد من حين ولد فهو مسافر إلى ربه، فهذه النار، جعلها الله متاعاً للمسافرين في هذه الدار، وتذكرة لهم بدار القرار، فلما بين من نعمه ما يوجب الشناء عليه من عباده وشكروه وعبادته، أمر بتسبيحه وتحميده<sup>(٥)</sup>، فقال: ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ أي: نزه ربك العظيم، كامل الأسماء والصفات، كثير الإحسان والخيرات، واحده بقلبك ولسانك وجوارحك، لأنه أهل لذلك، وهو المستحق لأن يُشكر فلا يُكفر، ويُذكر فلا يُنسى، ويُطاع فلا يُعصى .

﴿٧٥ - ٨٧﴾ ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم \* وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ إنه لقرآن كريم \* في كتاب مكنون \* لا يمسه إلا المطهرون \* تنزيل من رب العالمين \* أفبهذا الحديث أنتم مدهنون \* وتعملون رزقكم أنكم تكذبون \* فلولا إذا بلغت الحلقوم \* وأنتم حيثئذ تنظرون \* ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون \* فلولا إن كنتم غير مدينين \* ترجعونها إن كنتم صادقين﴾ أقسم تعالى بالنجوم ومواقعها أي: مساقطها في مغاربا، وما يحدث الله في تلك الأوقات، من الحوادث الدالة على عظمته وكبريائه وتوحيده، ثم عظم هذا القسم به، فقال: ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ وإنما كان القسم عظيماً، لأن في النجوم وجرياتها، وسقوطها عند مغاربا، آيات وعبراً لا يمكن حصرها، وأما القسم عليه، فهو إثبات القرآن، وأنه حق لا ريب فيه، ولا شك يعتريه، وأنه كريم أي: كثير الخير، غزير العلم، فكل خير وعلم، فإنما يستفاد من كتاب الله ويستنبط منه، ﴿في كتاب مكنون﴾ أي: مستور عن أعين الخلق، وهذا الكتاب المكتون هو اللوح المحفوظ أي: إن هذا القرآن

(١) كذا في ب، وفي أ: عليهم به أن

(٢) كذا في ب، وفي أ: لها .

(٣) في ب: وتعظيمه .

يقوموا به .

(٤) في ب: تبيهاً .

(٥) في ب: لوجه ورسالته .

المحرمات والمكروهات<sup>(١)</sup> وفضل  
المباحات، ﴿فإن لهم﴾ روح﴾ أي:  
راحة وطمانينة، وسرور وبهجة،  
ونعيم القلب والروح، ﴿وريجان﴾  
وهو اسم جامع لكل لذة بدنية، من  
أنواع المأكّل والمشرب وغيرهما،  
وقيل: الريجان هو الطيب المعروف،  
فيكون تعبيراً بنوع الشيء عن جنسه  
العام<sup>(٢)</sup>.

﴿وجنة نعيم﴾ جامعة للآمرين  
كليهما، فيها ما لا عين رأت،  
ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب  
بشر، فيبشر المقيرون عند الاحتضار  
بهذه البشارة، التي تكاد تطير منها  
الأرواح من الفرح والسرور.

كما قال تعالى: ﴿إن الذين قالوا  
ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم  
الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا  
وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون \*  
نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي  
الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم  
ولكم فيها ما تدعون \* نزلاً من غفور  
رحيم﴾.

وقد أول قوله<sup>(٣)</sup> تبارك تعالى:  
﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي  
الآخرة﴾ أن هذه البشارة المذكورة هي  
البشرى في الحياة الدنيا.

[وقوله: ﴿وأما إن كان من  
أصحاب اليمين﴾ وهم الذين أداوا  
الواجبات وتركوا المحرمات، و [إن]  
حصل منهم التقصير في بعض الحقوق  
التي لا تخل بتوحيدهم وإيمانهم،  
﴿فإن﴾ يقال لأحدهم: ﴿سلام لك من  
أصحاب اليمين﴾ أي: سلام حاصل  
لك من إخوانك أصحاب اليمين أي:  
يسلمون عليه ويحيونه عند وصوله  
إلهم ولقائهم له، أو يقال له: سلام  
لك من الآفات والبليات والعذاب،  
لأنك من أصحاب اليمين، الذين

سلموا من الذنوب الموقفات.

﴿وأما إن كان من المكذبين  
الضالين﴾ أي: الذين كذبوا بالحق  
وضلوا عن الهدى، ﴿فنزل من  
حميم \* وتصلية جحيم﴾ أي:  
ضياقتهم يوم قدمهم على ربهم تصلية  
الجحيم التي تحيط بهم، وتصل إلى  
أنفُسهم، وإذا استغاثوا من شدة  
العطش والظمأً ﴿يغاثوا بماء كالمهل  
يشوي الوجوه يشس الشراب وساءت  
مرتقفا﴾.

﴿إن هذا﴾ الذي ذكره الله تعالى،  
من جزاء العباد بأعمالهم، خيرها  
وشرها، وتفصيل ذلك ﴿لهو حق  
اليقين﴾ أي: الذي لا شك فيه  
ولا مرية، بل هو الحق الثابت الذي  
لا يدمن وقوعه، وقد أشهد الله عباده  
الأدلة القواطع على ذلك، حتى صار  
عند أولي الألباب كأنهم ذائقون له  
مشاهدون له<sup>(٤)</sup>، فحمدوا الله تعالى  
على ما خصهم به من هذه النعمة  
العظيمة والمنحة الجسيمة.

ولهذا قال تعالى: ﴿فسبح باسم  
ربك العظيم﴾ فسبحان ربنا العظيم،  
وتعالى وتنزه عما يقول الظالمون  
الجاحدون علواً كبيراً.  
والحمد لله رب العالمين همداً كثيراً  
طيباً مباركاً فيه.

[تم تفسير سورة الواقعة]

### تفسير سورة الحديد وهي مكية

﴿١ - ٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن  
الرحيم سبحانه﴾ الله ما في السماوات  
والأرض وهو العزيز الحكيم \* له ملك  
السماوات والأرض يحيي ويميت وهو  
على كل شيء قدير \* هو الأول  
والآخر والظاهر والباطن وهو بكل  
شيء عليم \* هو الذي خلق

السماوات والأرض في ستة أيام ثم  
استوى على العرش يعلم ما يلج في  
الأرض وما يخرج منها وما ينزل من  
السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين  
ما كنتم والله بما تعملون بصير \* له  
ملك السماوات والأرض وإلى الله  
ترجع الأمور \* يولج الليل في النهار  
ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات  
الصدور ﴿يخبر تعالى عن عظمته  
وجلاله وسعة سلطانه، أن جميع ما في  
السماوات والأرض من الحيوانات  
الناطقة والصامتة وغيرها، [الجمامد]  
تسبح بحمد ربها، وتنزه عما لا يليق  
بجلاله، وأنها قانتة لربها، متفاداة  
لعزته، قد ظهرت فيها آثار حكمته،  
ولهذا قال: ﴿وهو العزيز الحكيم﴾  
فهذا فيه بيان عموم افتقار المخلوقات  
العلوية والسفلية لربها، في جميع  
أحوالها، وعموم عزته وقهره للأشياء  
كلها، وعموم حكمته في خلقه وأمره،  
ثم أخبر عن عموم ملكه، فقال: ﴿له  
ملك السماوات والأرض يحيي  
ويميت﴾ أي: هو الخالق لذلك،  
الرازق المدبر لها بقدرته ﴿وهو على كل  
شيء قدير﴾.

﴿هو الأول﴾ الذي ليس قبله  
شيء، ﴿والآخر﴾ الذي ليس بعده  
شيء، ﴿والظاهر﴾ الذي ليس فوقه  
شيء، ﴿والباطن﴾ الذي ليس دونه  
شيء.

﴿وهو بكل شيء عليم﴾ قد أحاط  
علمه بالظواهر والباطن، والسرائر  
والخفايا، والأمور المتقدمة والتأخرة.

﴿هو الذي خلق السماوات  
والأرض في ستة أيام﴾ أولها يوم  
الأحد وآخرها يوم الجمعة ﴿ثم استوى  
على العرش﴾ استواء يليق بجلاله،  
فوق جميع خلقه، ﴿يعلم ما يلج في  
الأرض﴾ من حب وحيوان ومطر،

(١) في ب: ﴿فأما إن كان من المقيرين﴾ أي: إن كان الميت من المقيرين إلى الله المقربين إليه بأداء الواجبات والمستجابات، وترك  
المحرمات والمكروهات.

(٢) في ب: فيكون من باب التعبير بنوع الشيء عن جنسه.

(٣) في ب: فسر.

(٤) في ب: مشاهدون لحقيقته.

وغير ذلك .

﴿وما يخرج منها﴾ من نباتٍ وشجر وحيوان وغير ذلك، ﴿وما ينزل من السماء﴾ من الملائكة والأقنار والأرزاق .

﴿وما يخرج فيها﴾ من الملائكة والأرواح، والأدعية والأعمال، وغير ذلك .

﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ كقوله : ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا﴾ .

وهذه المعية، معية العلم والاطلاع، ولهذا توعد ووعد على المجازاة بالأعمال بقوله : ﴿والله بما تعملون بصير﴾ أي : هو تعالى بصير بما يصدر منكم من الأعمال، وما صدرت عنه تلك الأعمال، من بر وفجور، فمجازيكم عليها، وحافظها عليكم، ﴿له ملك السماوات والأرض﴾ ملكاً وخلقاً وعبداً، يتصرف فيهم بما شاء من أوامره القدورية والشرعية، الجارية على الحكمة الربانية، ﴿والى الله ترجع الأمور﴾ من الأعمال والحعمال، فيعرض عليه العباد، فيميز الخبيث من الطيب، ويمجزي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته .

﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ أي : يدخل الليل على النهار، فيغشيهم الليل بظلامه، فيسكنون ويهدؤون، ثم يدخل النهار على الليل، فيزول ما على الأرض من الظلام، ويضيء الكون، فيتحرك العباد، ويقومون إلى مصالحهم ومعاشهم، ولا يزال الله يكور الليل على النهار، والنهار على الليل، ويداول بينهما، في الزيادة والنقص، والطول والقصر، حتى تقوم بذلك الفصول، وتستقيم الأزمنة، ويحصل من المصالح ما يحصل بذلك، فتبارك الله رب العالمين، وتعالى الكريم الجواد، الذي

أنعم على عباده بالنعم الظاهرة والباطنة، ﴿وهو عليهم بذات الصدور﴾ أي : بما يكون في صدور العالمين، فيوفق من يعلم أنه أهل لذلك، ويخذل من يعلم أنه لا يصلح لهدايته<sup>(١)</sup> .

﴿٧- ١١﴾ ﴿آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير﴾ وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا برسومكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين \* هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور

وإن الله بكم لرؤوف رحيم \* وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله والله مبررات السماوات والأرض لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير \* من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم﴾ يأمر تعالى عباده بالإيمان به وبرسوله وبما جاء به، وبالنفقة في سبيله، من الأموال التي جعلها الله في أيديهم واستخلفهم عليها، لينظر كيف يعملون، ثم لما أمرهم بذلك، رغبهم وحثهم عليه بذكر ما رتب عليه من الثواب، فقال : ﴿فالذين آمنوا منكم وأنفقوا﴾ أي : جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله، والنفقة في سبيله، لهم أجر كبير، أعظمه [وأجله] رضا ربهم، والفوز بدار كرامته، وما فيها من النعيم المقيم، الذي أعدّه الله للمؤمنين والمجاهدين، ثم ذكر [السبب] الداعي لهم إلى الإيمان، وعدم المانع منه، فقال : ﴿وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا برسومكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين﴾ أي :

وما الذي يمنعكم من الإيمان، والخال أن الرسول حمداً ﷺ أفضل الرسل وأكرم داع دعا إلى الله يدعوكم، فهذا مما يوجب المبادرة إلى إجابة دعوته،



والتلبية والإجابة للحق الذي جاء به، وقد أخذ عليكم العهد والميثاق بالإيمان إن كنتم مؤمنين، ومع ذلك، من لطفه وعنايته بكم، أنه لم يكف بمجرد دعوة الرسول الذي هو أشرف العالم، بل أيدّه بالمعجزات، ودلّكم على صدق ما جاء به بالآيات البينات، فلماذا قال : ﴿هو الذي ينزل على عبده آيات بينات﴾ أي : ظاهرات تدل أهل العقول على صدق كل ما جاء به<sup>(٢)</sup>، وأنه حق اليقين، ﴿ليخرجكم﴾ بإرسال الرسول إليكم، وما أنزله الله على يده من الكتاب والحكمة .

﴿من الظلمات إلى النور﴾ أي : من ظلمات الجهل والكفر، إلى نور العلم والإيمان، وهذا من رحمته بكم وورافته، حيث كان أرحم بعباده من الوالدة بولدها ﴿وإن الله بكم لرؤوف رحيم﴾

﴿١٠﴾ ﴿وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله والله مبررات السماوات والأرض﴾ أي : وما الذي يمنعكم من النفقة في سبيل الله، وهو طرق الخير كلها، ويوجب لكم أن تبخلوا، ﴿وهو الحال أنه ليس لكم شيء، بل﴾ مبررات السماوات والأرض﴾ فجميع الأموال ستنقل من أيديكم أو تنقلون

(١) كذا في ب، وفي أ وتخذل من يعلمه لا يصلح .

(٢) في ب : على صحة جميع ما جاء به .



بثروهم منه نقص وقدح في الفضول، احترز تعالى من هذا بقوله: ﴿وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ أي: الذين أسلموا وقاتلوا وأنفقوا من قبل الفتح وبعده، كلهم وعده الله الجنة، وهذا يدل على فضل الصحابة [كلهم]، رضي الله عنهم، حيث شهد الله لهم بالإيمان، ووعدهم الجنة، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازي كلًا منكم على ما يعلمه من عمله، ثم حث على النفقة في سبيله، لأن الجهاد متوقف على النفقة فيه، وبذل الأموال في التجهيز له، فقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ وهي النفقة [الطيبة] التي تكون خالصة لوجه الله، موافقة لمرضاة الله، من مال حلال طيب، طيبة به نفسه، وهذا من كرم الله تعالى [حيث] سماه قرضاً، والمال ماله، والعبد عبده، ووعد بالمضاعفة عليه أضعافاً كثيرة، وهو الكريم الوهاب، وتلك المضاعفة محلها وموضعها يوم القيامة، يوم كل يتبين فقره، ويحتاج إلى أقل شيء من أجزاء الحسن، ولذلك قال:

﴿١٢ - ١٥﴾ «يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم يشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم \* يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فاضرب بيهتم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب \* ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرركم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور \* فالיום لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ماؤاكم النار هي مولاكم وبئس المصير \* يقول تعالى - مبيناً لفضل الإيمان واعتباط أهله به يوم القيامة - : «يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم» أي: إذا

كان يوم القيامة، وكورت الشمس، وخسف القمر، وصار الناس في الظلمة، ونصب الصراط على متن جهنم، فحيث ترى المؤمنين والمؤمنات، يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، فيمشون بأيمانهم ونورهم في ذلك الموقف الهائل الصعب، كل على قدر إيمانه، ويمشرون عند ذلك بأعظم بشارة، فيقال: ﴿بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم﴾ فله ما أحلى هذه البشارة بقلوبهم، وألذها لنفوسهم، حيث حصل لهم كل مطلوب [محبوب]، ونجوا من كل شر ومرهوب، فإذا رأى المنافقون نور المؤمنين يمشون به<sup>(١)</sup>، وهم قد طغىء نورهم وبقوا في الظلمات حائرين، قالوا للمؤمنين: «انظرونا نقتبس من نوركم» أي: أهلونا لننال من نوركم ما نمشي به، لننجو من العذاب، فـ «قيل لهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً» أي: إن كان ذلك ممكناً، والحال أن ذلك غير ممكن، بل هو من المحالات، «فضرب بين المؤمنين والمنافقين» بسور<sup>(٢)</sup> أي: حافظ منيع، وحصن حصين، «له باب باطنه فيه الرحمة» وهو الذي يلي المؤمنين، «وظاهره من قبله العذاب» وهو الذي يلي المنافقين، فينادي المنافقون المؤمنين، فيقولون لهم تضرعاً وترحماً: «ألم نكن معكم» في الدنيا نقول: «لا إله إلا الله»، ونصلي ونصوم ونجاهد، ونعمل مثل عملكم؟

«قالوا بلى» كنتم معنا في الدنيا، وعلمتم [في الظاهر] مثل عملنا، ولكن أعمالكم أعمال المنافقين، من غير إيمان ولا نية [صادقة] صالحة، بل «فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم» أي: شككتهم في خبر الله الذي لا يقبل شكاً، «وغرركم الأماني» الباطلة، حيث<sup>(٣)</sup> تميمت أن تنالوا مثال المؤمنين، وأنتم غير موقنين، «حتى

عنها، ثم يعود الملك إلى ملكه تبارك وتعالى، فاعتنموا الإنفاق ما دامت الأموال في أيديكم، وانتهزوا الفرصة، ثم ذكر تعالى تفاضل الأعمال بحسب الأحوال والحكمة الإلهية، فقال: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا﴾ المراد بالفتح هنا هو فتح الحديدية، حين جرى من الصلح بين الرسول وبين قريش مما هو أعظم الفتوحات التي حصل بها نشر الإسلام، واختلاط المسلمين بالكافرين، والدعوة إلى الدين من غير معارض، فدخل الناس من ذلك الوقت في دين الله أفواجاً، واعتز الإسلام عزاً عظيماً، وكان المسلمون قبل هذا الفتح لا يقدر على الدعوة إلى الدين في غير البيعة التي أسلم أهلها، كالمدينة وتوابعها، وكان من أسلم من أهل مكة وغيرها من ديار المشركين يؤذى ويخاف، فلذلك كان من أسلم قبل الفتح وأنفق وقاتل، أعظم درجة وأجرأ وثواباً ممن لم يسلم ويقاتل وينفق إلا بعد ذلك، كما هو مقتضى الحكمة، ولذلك كان السابقون وفضلوا الصحابة، غالبهم أسلم قبل الفتح، ولما كان التفضيل بين الأمور قد

(١) في ب: يمشون بنورهم.

(٢) كذا في ب، وفي أ: التي.







بالتفح بالمال في سبيل الله.

والصديقون هم الذينكملوا مراتب الإيمان والعمل الصالح، والعلم النافع، واليقين الصادق، والشهداء هم الذين قاتلوا في سبيل الله [لإعلاء كلمة الله، وبذلوا أنفسهم وأموالهم] فقتلوا، وأصحاب الجحيم هم الكفار الذين كذبوا بآيات الله.

وبقي قسم ذكرهم الله في سورة فاطر، وهم المقتصدون الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات، إلا أنهم حصل منهم تقصير ببعض حقوق الله وحقوق عباده، فهؤلاء مآلهم الجنة، وإن حصل لهم عقوبة ببعض ما فعل.

﴿٢٠ - ٢١﴾ ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور \* سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ يخبر تعالى عن حقيقة الدنيا وما هي عليه، ويبين غايتها وغاية

أهلها، بأنها لعب ولهو، تلعب بها الأبدان، وتلهو بها القلوب، وهذا مصداقه ما هو موجود وواقع من أبناء الدنيا، فإنك تجدهم قد قطعوا أوقات أعمارهم بلهو القلوب، والغفلة عن ذكر الله<sup>(١)</sup>، وعماً أمامهم من الوعد والوعيد، وتراهم قد اتخذوا دينهم لعباً ولهواً، بخلاف أهل اليقظة وعَمَّال الآخرة، فإن قلوبهم معمورة بذكر الله، ومعرفته ومحبته، وقد أشغلوا أوقاتهم بالأعمال التي تقرهم إلى الله، من النفع القاصر والمتعدي.

[وقوله]: ﴿وزينة﴾ أي: تزيّن في اللباس والطعام والشراب، والمراكب والدور والقصور والجاه. [وغير ذلك] ﴿وتفاخر بينكم﴾ أي: كل واحد من أهلها يريد مفاخرة الآخر، وأن يكون هو الغالب في أمورها، والذي له الشهرة في أحوالها، ﴿وتكاثر في الأموال والأولاد﴾ أي: كل يريد أن يكون هو الكاثر لغيره في المال والولد، وهذا مصداقه، وقوعه من محبّي الدنيا والمطمئنين إليها.

بخلاف من عرف الدنيا وحقيقتها، فجعلها معبراً ولم يجعلها مستقراً، فننافس فيما يقربه إلى الله، واتخذ الوسائل التي توصله إلى الله<sup>(٢)</sup>، وإذا رأى من يكائره وينافسه بالأموال والأولاد، نافسه بالأعمال الصالحة.

ثم ضرب للدنيا مثلاً بغيث نزل على الأرض، فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها، وأعجب نباته الكفار، الذين قصرُوا همهم ونظرهم إلى الدنيا<sup>(٣)</sup> جاءها من أمر الله [ما أتلفها] فهاجت وبيست، فعادت على حالها الأولى، كأنه لم ينبت فيها خضراء، ولا زوّي لها مرأى أنيق، كذلك الدنيا، بينما هي زاهية لصاحبها زاهرة، مهما أراد من مطالبها حصل، ومهما توجه لأمر من أمورها وجد أبوابه مفتحة، إذ أصابها القدر بما

أذهبها<sup>(٤)</sup> من يده، وأزال تسلطه عليها، أو ذهب به عنها، فرحل منها صفر اليدين، لم يتزود منها سوى الكفن، فتباً لمن أضحت هي غاية أميته ولها عمله وسعيه.

وأما العمل للآخرة فهو الذي ينفع، ويدخر لصاحبه، ويصحب العبد على الأبد، ولهذا قال تعالى: ﴿وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان﴾ أي: حال الآخرة، ما تجلّو من هذين الأمرين: إما العذاب الشديد في نار جهنم، وأغلالها وسلاسلها وأهوالها لمن كانت الدنيا هي غايته ومنتهى مطلبه، فتجراً على معاصي الله، وكذب بآيات الله، وكفر بأنعم الله.

وأما مغفرة من الله للسيئات، وإزالة للعقوبات، ورضوان من الله، يحل من أحله<sup>(٥)</sup> به دار الرضوان لمن عرف الدنيا، وسعى للآخرة سعيها.

فهذا كله مما يدعو إلى الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ أي: إلا متاع يتمتع به ويتمتع به، ويستدفع به الحاجات، لا يعتد به ويطمئن إليه إلا أهل العقول الضعيفة الذين يغروهم بالله الغرور.

ثم أمر بالسابقة إلى مغفرة الله ورضوانه وجنته، وذلك يكون بالسعي بأسباب المغفرة، من التوبة النصوح، والاستغفار النافع، والبعد عن الذنوب ومظانها، والمسابقة إلى رضوان الله بالعمل الصالح، والحرص على ما يرضي الله على الدوام، من الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى الخلق بجميع وجوه النفع، ولهذا ذكر الله الأعمال الموجبة لذلك، فقال: ﴿وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله﴾ والإيمان بالله ورسله<sup>(٦)</sup>، يدخل فيه أصول الدين وفروعه، ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾ أي: هذا

(٥) في ب: من أحله عليه.

(٦) كذا في ب، وفي أ: ورسوله.

(٣) في ب: همهم ونظرهم.

(٤) في ب: فأذهبها.

(١) في ب: بلهو قلوبهم وغفلتهم.

(٢) في ب: إلى ذلك.

﴿والميزان﴾ وهو العدل في الأقوال والأفعال، والدين الذي جاءت به الرسل، كله عدل وقسط في الأوامر والنواهي وفي معاملات الخلق، وفي الجنائيات والقصاص والحدود [والموارث وغير ذلك]، وذلك ﴿ليقوم الناس بالقسط﴾ قياماً بدين الله، وتحصيلاً لمصالحهم التي لا يمكن حصرها وعدها، وهذا دليل على أن الرسل متفقون في قاعدة الشرع، وهو القيام بالقسط، وإن اختلفت أنواع العدل، بحسب الأزمنة والأحوال، ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾ من آلات الحرب، كالسلاح والدروع وغير ذلك.

﴿ومنافع للناس﴾ وهو ما يشاهد من نفعه في أنواع الصناعات والحرف، والآواني والآلات الحثرت، حتى إنه قلَّ أن يوجد شيء إلا وهو يحتاج إلى الحديد.

﴿وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب﴾ أي: ليقم تعالى سوق الامتحان بما أنزله من الكتاب والحديد، فيتبين من ينصره وينصر رسله في حال الغيب، التي ينفع فيها الإيمان قبل الشهادة، التي لا فائدة بوجود الإيمان فيها، لأنه حينئذ يكون ضرورياً.

﴿إن الله قوي عزيز﴾ أي: لا يعجزه شيء، ولا يقوته هارب، ومن قوته وعزته أن أنزل الحديد الذي منه الآلات القوية، ومن قوته وعزته أنه قادر على الانتصار من أعدائه، ولكنه يتبلى أوليائه بأعدائه، ليعلم من ينصره بالغيب، وقرن تعالى في هذا<sup>(١)</sup> الموضوع بين الكتاب والحديد، لأن بهذين الأمرين ينصر الله دينه، ويعلي كلمته بالكتاب الذي فيه الحجة والبرهان والسيف الناصر بإذن الله، وكلاهما قيامه بالعدل والقسط، الذي يستدل به على حكمة الباري وكماله،

إذا حوّلناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة.

﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾ أي: يجمعون بين الأمرين الذميين، اللذين كل منهما كاف في الشر البخل: وهو منع الحقوق الواجبة، ويأمرون الناس بذلك، فلم يكفهم بخلهم، حتى أمروا الناس بذلك، وحثّوهم على هذا الخلق الذميمة بقولهم وفعلهم، وهذا من إعراضهم عن طاعة ربهم وتوليهم عنها، ﴿ومن يتول﴾ عن طاعة الله فلا يضر إلا نفسه، ولن يضر الله شيئاً، ﴿فإن الله هو الغني الحميد﴾ الذي غناه من لوازم ذاته، الذي له ملك السموات والأرض، وهو الذي أغنى عباده وأقتاهم، الحميد الذي له كل اسم حسن، ووصف كامل، وفعل جميل، يستحق أن يمدح عليه ويشى ويعظم.

﴿٢٥ - ٢٧﴾ ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز﴾ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فجعلناهم مهتدين وكثير منهم فاسقون \* ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة ورهيبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فاتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون﴾ يقول تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات﴾ وهي الأدلة والشواهد والعلامات الدالة على صدق ما جاؤوا به وحقيقته.

﴿وأنزلنا معهم الكتاب﴾ وهو اسم جنس يشمل سائر الكتب التي أنزلها الله لهداية الخلق وإرشادهم، ما ينفعهم في دينهم ودنياهم،

الذي بيناه لكم، وذكرنا لكم فيه الطرق الموصلة إلى الجنة، والطرق الموصلة إلى النار، وأن فضل الله بالشواهد الجزيل والأجر العظيم<sup>(٢)</sup>، من أعظم منته على عباده وفضله. ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ الذي لا يحصى ثناء عليه، بل هو كما أنتم على نفسه، وفوق ما يشئ عليه عبادة.

﴿٢٢ - ٢٤﴾ ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير﴾ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور \* الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد﴾ يقول تعالى مخبراً عن عموم فضائه وقدره: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم﴾ وهذا شامل لعموم المصائب التي تصيب الخلق، من خير وشر، فكلها قد كتبت في اللوح المحفوظ، صغيرها وكبيرها، وهذا أمر عظيم لا تحيط به العقول، بل تذهل عنده أفئدة أولي الألباب، ولكنه على الله يسير، وأخبر الله عباده بذلك لأجل أن تقرقر هذه القاعدة عندهم، ويبسوا عليها ما أصابهم من الخير والشر، فلا يأسوا ويحزنوا على ما فاتهم، مما طمحت له أنفسهم وتشوفوا إليه، لعلهم أن يكون ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ، لا بد من نفوذه ووقوعه، فلا سبيل إلى دفعه، ولا يفرحوا بما آتاهم الله فرح بظن وأشر، لعلهم أنهم ما أدركوه بحولهم وقوتهم، وإنما أدركوه بفضل الله ومثته، فيشتغلوا بشكر من أولى النعم ودفع النقم، ولهذا قال: ﴿والله لا يحب كل مختال فخور﴾ أي: متكبر فظ غليظ، معجب بنفسه، فخور بنعم الله، ينسبها إلى نفسه، وتطخيه وتلهيه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ثم

(١) في ب: وأن ثواب الله بالأجر الجزيل، والثواب الجميل.

(٢) في ب: أحد من خلقه.

(٣) في ب: بهذا.

﴿ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾ أي: يعطيكم علماً وهدياً ونوراً تمشون به في ظلمات الجهل، ويخفف لكم السيئات.

﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ فلا يستكثر<sup>(١)</sup> هذا الثواب على فضل ذي الفضل العظيم، الذي عم فضله أهل السماوات والأرض، فلا يتجلى مخلوق من فضله طرفة عين ولا أقل من ذلك. [وقوله] ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله﴾ أي: بينا لكم فضلنا وإحساننا لمن آمن إيماناً عاماً، واتقى الله، وأمن برسوله، لأجل أن أهل الكتاب يكون لديهم علم<sup>(٢)</sup> بأنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله أي: لا يحجرون على الله بحسب أهوائهم وعقولهم الفاسدة، فيقولون: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾ ويتمنون على الله الأمانى الفاسدة، فأخبر الله تعالى أن المؤمنين برسوله محمد ﷺ، المتقين لله، لهم كفلان من رحمة، ونور، ومغفرة، رغباً على أنوف أهل الكتاب، وليعلموا ﴿أن الفضل بيد الله يؤتية من يشاء﴾ ممن اقتضت حكمته تعالى أن يؤتية من فضله، ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ [الذي لا يقادر قدره].

تم تفسير سورة الحديد،  
والله الحمد والمنة، والحمد لله

### تفسير سورة قد سمع الله وهي مدنية

﴿١-٤﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير﴾ الذين يظهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وإن الله لعفو غفور﴾ الذين يظهرون من نسائهم ثم يهودون لما قالوا فتحرير

تعالى، ومع ذلك ﴿فما رعوها حق رعايتها﴾ أي: ما قاموا بها ولا أدوا حقوقها، فقصروا من وجهين: من جهة ابتداءهم، ومن جهة عدم قيامهم بما فرضه على أنفسهم.

فهذه الحال هي الغالب من أحوالهم.

ومنهم من هو مستقيم على أمر الله، ولهذا قال: ﴿فأتينا الذين آمنوا منهم أجرهم﴾ أي: الذين آمنوا بمنهم بمحمد ﷺ، مع إيمانهم ببعسى، كل أعطاه الله على حسب إيمانه ﴿وكثير منهم فاسقون﴾

﴿٢٨-٢٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وأمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويفغر لكم والله غفور رحيم﴾ لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتية من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ وهذا الخطاب، يحتمل أنه [خطاب] لأهل الكتاب الذين آمنوا بعموسى وعيسى عليهما السلام، يأمرهم أن يعملوا بمقتضى إيمانهم، بأن يتقوا الله فيتركوا معاصيه، ويؤمنوا برسوله محمد ﷺ، وأنهم إن فعلوا ذلك أعطاهم الله ﴿كفلين من رحمته﴾ أي: نصيبين من الأجر نصيب على إيمانهم بمحمد ﷺ

ويحتمل أن يكون الأمر عاماً يدخل فيه أهل الكتاب وغيرهم، وهذا الظاهر، وأن الله أمرهم بالإيمان، والتقوى الذي يدخل فيه جميع الدين، ظاهره وباطنه، أصوله وفروعه، وأنهم إن امتثلوا هذا الأمر العظيم، أعطاهم الله ﴿كفلين من رحمته﴾ لا يعلم وصفهما وقدرهما إلا الله تعالى أجر على الإيمان، وأجر على التقوى، أو أجر على امتثال الأوامر، وأجر على اجتناب النواهي، أو أن الثنية المراد بها تكرار الإيتاء مرة بعد أخرى.

وكمال شريعته التي شرعها على ألسنة رسله.

ولما ذكر نبوة الأنبياء عموماً، ذكر من خواصهم النبيين الكريمين نوحاً وإبراهيم اللذين جعل الله النبوة والكتاب في ذريتهما، فقال: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب﴾ أي: الأنبياء المتقدمين والمتأخرين كلهم من ذرية نوح وإبراهيم عليهما السلام، وكذلك الكتب كلها نزلت على ذرية هذين النبيين الكريمين، ﴿فمنهم﴾ أي: ممن أرسلنا إليهم الرسل ﴿مهتد﴾ بدعوتهم، متقاد لأمرهم، مسترشد بهداهم.

﴿وكثير منهم فاسقون﴾ أي: خارجون عن [طاعة الله و] طاعة الرسل والأنبياء<sup>(١)</sup>، كما قال تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾.

﴿ثم قفينا﴾ أي: أتبعنا ﴿على آثارهم برسلانا وقفينا ببعسى ابن مريم﴾ خصص الله عيسى عليه السلام؛ لأن السياق مع النصارى، الذين يزعمون اتباع عيسى عليه السلام، ﴿وأتيناها الإنجيل﴾ الذي هو من كتب الله الفاضلة، ﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة﴾ كما قال تعالى: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين وربهاً وأنهم لا يستكبرون﴾ الآيات.

ولهذا كان النصارى ألين من غيرهم قلوباً، حين كانوا على شريعة عيسى عليه السلام.

﴿ورهبانية ابتدعوها﴾ والرهبانية: العبادة، فهم ابتدعوا من عند أنفسهم عبادة، ووظفوها على أنفسهم، والتمزموا لوازم ما كتبها الله عليهم ولا فرضها، بل هم الذين التزموا بها من تلقاء أنفسهم، قصدهم بذلك رضا الله

(٢) في ب: لأجل أن يكون عند أهل

الكتاب علم.

(١) في ب: طاعة رسله.

(٢) في ب: فلا يستغرب كثرة.





الوقوف فيها، فيجب أن لا تتعدى ولا يقصر عنها.

﴿وللكافرين عذاب أليم﴾.

وفي هذه الآيات عدة أحكام:

منها: لطف الله بعباده واعتناؤه بهم، حيث ذكر شكوى هذه المرأة المصابة، وأزالها ورفع عنها البلوى، بل رفع البلوى بحكمه العام لكل من ابتلي بمثل هذه القضية.

ومنها: أن الظهار مختص بتحرير الزوجة، لأن الله قال: ﴿من نسأهم﴾ فلو حرم أمته، لم يكن [ذلك] ظهاراً، بل هو من جنس تحريم الطعام والشراب، نجب فيه كفارة اليمين فقط.

ومنها: أنه لا يصح الظهار من امرأة قبل أن يتزوجها، لأنها لا تدخل في نسائه وقت الظهار، كما لا يصح طلاقها، سواء نجز ذلك أو علقه.

ومنها: أن الظهار محرم، لأن الله سماه منكراً [من القول] وزوراً.

ومنها: تنبيه الله على وجه الحكم وحكمته، لأن الله تعالى قال: ﴿ما هن أمهاتهم﴾.

ومنها: أنه يكره للرجل أن ينادي زوجته ويسميتها<sup>(١)</sup> باسم محارمه،

كقوله: «يا أمي»، «يا اختي» ونحوه، لأن ذلك يشبه المحرم.

ومنها: أن الكفارة إنما تجب بالعود لما قال المظاهر، على اختلاف القولين السابقين، لا بمجرد الظهار.

ومنها: أنه يجزى في كفارة الرقية، الصغير والكبير، والذكر والأنثى، لإطلاق الآية في ذلك.

ومنها: أنه يجب إخراجها إن<sup>(٢)</sup> كانت عتقاً أو صياماً قبل المسيس، كما قيده الله، بخلاف كفارة الإطعام، فإنه يجوز المسيس والوطء في أثنائها.

ومنها: أنه لعل الحكمة في وجوب الكفارة قبل المسيس، أن ذلك أدعى لإخراجها، فإنه إذا اشتاق إلى الجماع، وعلم أنه لا يمكن من ذلك إلا بعد الكفارة، بادر لإخراجها.

ومنها: أنه لا بد من إطعام ستين مسكيناً، فلو جمع طعام ستين مسكيناً، ودفعتها لواحد أو أكثر من ذلك، دون الستين لم يجز ذلك، لأن الله قال: ﴿فإطعام ستين مسكيناً﴾.

﴿٥٥﴾ إن الذين يهادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بيّنات وللكافرين عذاب مهين﴾ عمادة الله ورسوله: مخالفتها ومعصيتها خصوصاً في الأمور القطعية، كمحاددة الله ورسوله بالكفر، ومعاداة أولياء الله.

وقوله: ﴿كبتوا كما كبت الذين من قبلهم﴾ أي: أذلوا وأهينوا كما فعل بمن قبلهم، جزاء وفاقاً.

وليس لهم حجة على الله، فإن الله قد قامت حجته البالغة على الخلق، وقد أنزل من الآيات البيّنات والبراهين ما يبين الحقائق ويوضح المقاصد، فمن اتبعها وعمل عليها، فهو من المهتدين الفائزين، ﴿وللكافرين﴾ بها ﴿عذاب مهين﴾ أي: يهينهم ويذلهم، كما تكبروا عن آيات الله، أهانهم وأذلهم.

﴿٦٧﴾ يوم يبعثهم الله جميعاً

فينبئهم بما علموا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد \* ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابمهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا

يقول الله تعالى: يوم يبعث الله الخلق جميعاً﴾ فيجازيهم بأعمالهم﴾ فينبئهم بما عملوا﴾ من خير وشر، لأنه علم ذلك وكتبه في اللوح المحفوظ، وأمر الملائكة الكرام الحفظة بكتابته، هذا

﴿و﴾ العاملون قد نسوا ما عملوه، والله أحصى ذلك.

﴿والله على كل شيء شهيد﴾ بالظواهر<sup>(٣)</sup> والسرائر، والخبيايا والخفايا، ولهذا أخبر عن سعة علمه وإحاطته بما في السماوات والأرض من دقيق وجليل.

وأنه ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابمهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا﴾ والمراد بهذه المعية معية العلم والإحاطة بما تتاجوا به وأسروه فيما بينهم، ولهذا قال: ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ ثم قال تعالى:

﴿٨٠-٩﴾ ألم تر إلى الذين نهاوا عن النجوى ثم يعودون لما نهاوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وإذ جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير \* يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتهم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إليه تحشرون﴾ النجوى هي التناجي بين اثنين فأكثر، وقد تكون في الخير، وتكون في الشر.

فأمر تعالى المؤمنين أن يتناجوا بالبر، وهو اسم جامع لكل خير وطاعة،

(٢) في ب: على الظواهر.

(٢) في ب: إذا.

(١) في ب: ويدعوها.



استحوذ عليهم الشيطان فأنسأهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان إلا إن حزب الشيطان هم الكاسرون ﴿يخبر تعالى عن شناعة حال المنافقين الذين يتولون الكافرين، من اليهود والتصارى وغيرهم ممن غضب الله عليهم، ونالوا من لعنة الله أوفى نصيب، وأنهم ليسوا من المؤمنين ولا من الكافرين، ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾.

فليسوا مؤمنين ظاهراً وباطناً لأن باطنهم مع الكفار، ولا مع الكفار ظاهراً وباطناً، لأن ظاهرهم مع المؤمنين، وهذا وصفهم الذي نتعهم الله به، والحال أنهم يخلفون على ضده الذي هو الكذب، فيخلفون أنهم مؤمنون، وهم يعلمون<sup>(٢)</sup> أنهم ليسوا مؤمنين، فجزاء هؤلاء الخونة الفجرة الكذبة، أن الله أعد لهم عذاباً شديداً، لا يقادر قدره، ولا يعلم وصفه، إنهم ساء ما كانوا يعملون، حيث عملوا بما يسخط الله<sup>(٣)</sup>، ويوجب عليهم العقوبة واللعنة، ﴿اتخذوا إيمانهم جنة﴾ أي: ترساً ورقاية، يتقون بها من لوم الله ورسوله والمؤمنين، فبسبب ذلك صدوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، وهي الصراط الذي من سلكه أفضى به إلى جنات النعيم، ومن صد عنه فليس إلا الصراط المرصل إلى الجحيم، ﴿فلهم عذاب مهين﴾ حيث استكبروا عن الإيمان بالله والانقياد لآياته، أهانهم بالعباد السرمدي، الذي لا يُقتر عنهم ساعة ولا هم يُنظرون، ﴿لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً﴾ فلا تدفع<sup>(٤)</sup> عنهم شيئاً من العذاب، ولا تحصل لهم قسطاً من الثواب، ﴿أولئك أصحاب النار﴾ الملازمون لها، الذين لا يخرجون عنها، و ﴿هم فيها خالدون﴾ ومن عاش على شيء مات عليه، فكما أن المنافقين في الدنيا يسموهون على

الأدب مع الرسول والإكرام له، وأمرهم تعالى أن يقوموا بالمأمورات الكبار المقصودة بنفسها، فقال: ﴿فإذ لم تفعلوا﴾ أي: لم يبن عليكم تقديم الصدقة، ولا يكفي هذا، فإنه ليس من شرط الأمر أن يكون هيناً على العبد، ولهذا قيده بقوله: ﴿وتاب الله عليكم﴾ أي: عفا لكم عن ذلك، ﴿فأتبعوا الصلاة﴾ بأركانها وشروطها، وجميع حدودها ولوازمها، ﴿وأتوا الزكاة﴾ المفروضة في أموالكم إلى مستحقها.

وهاتان العبادتان هما أم العبادات البدنية والمالية، فمن قام بهما على الوجه الشرعي، فقد قام بحقوق الله وحقوق عباده، ولهذا قال بعده: ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ وهذا أشمل ما يكون من الأوامر.

ويدخل في ذلك طاعة الله (وطاعة) رسوله بامتنال أوامرهما واجتناب نواهيهما، وتصديق ما أخبرا به، والوقوف عند حدود الله<sup>(١)</sup>.

والعبارة في ذلك على الإخلاص والإحسان، ولهذا قال: ﴿والله خبير بما تعملون﴾ فيعلم تعالى أعمالهم، وعلى أي: وجه صدرت، فيجازيهم على حسب علمه بما في صدورهم.

﴿١٤ - ١٩﴾ ﴿لم نر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويخلفون على الكذب وهم يعلمون﴾ أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون \* اتخذوا إيمانهم جنة فصلوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين \* لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون \* يوم يبعثهم الله جميعاً فيخلفون له كما يخلفون لكم ويمسبون أنهم على شيء إلا أنهم هم الكاذبون \*

(٢) كذا في ب، وفي أ: يتسخطه.

(٤) في ب: أي لا تدفع.



تعملون ﴿يأمر تعالى المؤمنين بالصدقة، أمام مناجاة رسوله محمد ﷺ تاديباً لهم وتعليماً، وتعظيماً للرسول ﷺ، فإن هذا التعظيم خير للمؤمنين وأطهر أي: بذلك يكثر خيركم وأجركم، وتحصل لكم الطهارة من الأذناس، التي من جهلستها ترك احترام الرسول ﷺ والأدب معه بكثرة المناجاة التي لا ثمرة تحتها، فإنه إذا أمر بالصدقة بين يدي مناجاته صار هذا ميزاناً لأن كان حريصاً على الخير والعلم، فلا يبالي بالصدقة، ومن لم يكن له حرص ولا رغبة في الخير، وإنما مقصوده مجرد كثرة الكلام، فيتكف بذلك عن الذي يشق على الرسول، هذا في السواجد للصدقة، وأما الذي لا يجد الصدقة، فإن الله لم يضيّق عليه الأمر، بل عفا عنه وسأعه، وأباح له المناجاة بدون تقديم صدقة لا يقدر عليها.

ثم لما رأى تبارك وتعالى شفقة المؤمنين ومشقة الصدقات عليهم عند كل مناجاة، سهل الأمر عليهم، ولم يؤاخذهم بترك الصدقة بين يدي المناجاة، وبقي التعظيم للرسول والاحترام بحاله لم ينسخ، لأن هذا الحكم من باب المشروع لتغييره، ليس مقصوداً لنفسه، وإنما المقصود هو

(١) في ب: حدود الشرع.

(٢) في ب: والحال.

المؤمنين، ويحلفون لهم أنهم مؤمنون، فإذا كان يوم القيامة ويعتشم الله جميعاً، حلفوا الله كما حلفوا للمؤمنين، ويحسبون في حلفهم هذا أنهم على شيء، لأن كفرهم ونفاقهم وعقائدهم الباطلة، لم تزل ترسخ في أذهانهم شيئاً فشيئاً، حتى غرتهم وظنوا أنهم على شيء يعتقد به، ويعلق عليه الثواب، وهم كاذبون في ذلك، ومن المعلوم أن الكذب لا يروج على عالم الغيب والشهادة، وهذا الذي جرى عليهم من استحواذ الشيطان الذي استولى عليهم، وزين لهم أعمالهم، وأنساهم ذكر الله، وهو العدو المبين، الذي لا يريد بهم إلا الشر، ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾.

وهذا هو الإيمان على الحقيقة، الذي وجدت ثمرته والمقصود منه، وأهل هذا الوصف هم الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان أي: رسمه وثبته وغرسه غرساً، لا يتزلزل ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك.

وهم الذين قواهم الله بروح منه أي: بوحبه ومعونته، ومدده الإلهي وإحسانه الرباني.

وهم الذين لهم الحياة الطيبة في هذه الدار، ولهم جنات النعيم في دار القرار، التي فيها من كل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وتختار، ولهم أكبر النعيم وأفضله، وهو أن الله يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبداً، ويرضون عن ربهم بما يعطيهم من أنواع الكرامات، ووافر المثوبات، وجزيل الهبات، ورفيع الدرجات بحيث لا يرون فرق ما أعطاهم مولاهم غاية، ولا فوqe نهاية<sup>(٢)</sup>.

وأما من يزعم أنه يؤمن بالله واليوم الآخر، وهو مع ذلك مُؤاَد لأعداء الله، محب لمن ترك الإيمان<sup>(٣)</sup> وراء ظهره، فإن هذا إيمان زُعمي لا حقيقة له، فإن كل أمر لا يدل من برهان يصدقه، فمسجد الدعوى لا تفيد شيئاً ولا يصدق صاحبها.

تم تفسير قد سمع الله،

بحمد الله وعونه وتسديده،

والحمد لله رب العالمين، وصلّى الله

على محمد وسلم تسليماً

﴿٢٠-٢١﴾ ﴿إن الذين يجادلون الله ورسوله أولئك في الأذنين﴾ كتب الله لأهلين أنا ورسلي إن الله قوي عزيز، هذا وعد ووعد، وعيد لمن حاد الله ورسوله بالكفر والمعاصي، أنه مخذول مذلول، لا عاقبة له حميدة، ولا راية له منصوره.

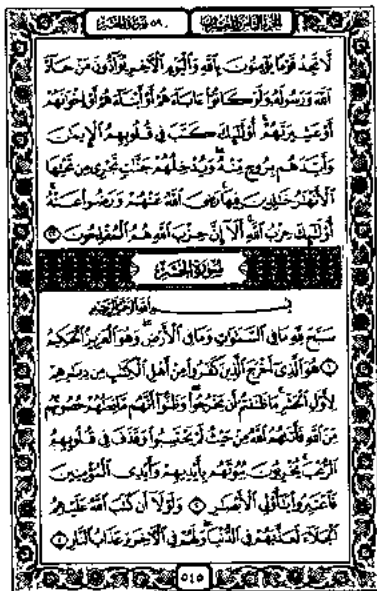
ووعد لمن آمن به وبرسله، واتبع ما جاء به المرسلون، فصار من حزب الله المفلحين، أن لهم الفتح والنصر والغلبة في الدنيا والآخرة، وهذا وعد لا يخلف ولا يُعْثَر، فإنه من الصادق القوي العزيز الذي لا يحجزه شيء يريده.

﴿٢٢﴾ ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا

(١) في ب: إيمانه.

(٢) في ب: ولا وراه.

(٣) في ب: لمن نبذ.

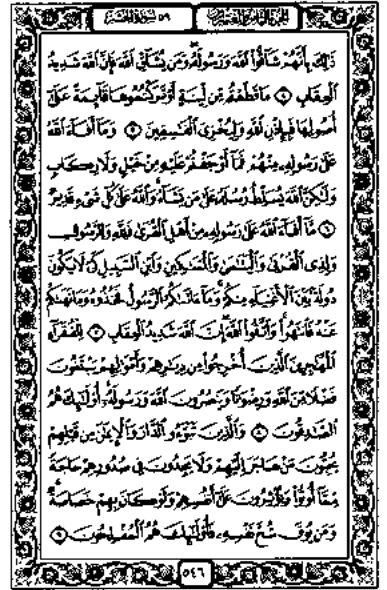


**تفسير سورة العنكبوت**  
**[وهي مدنية]**

﴿١-٧﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم \* هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيومهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ إلى آخر القصة.

هذه السورة تسمى «سورة بني النضير» وهم طائفة كبيرة من اليهود في جانب المدينة، وقت بعثة النبي ﷺ فلما بعث النبي ﷺ وهاجر إلى المدينة، كفروا به في جملة من كفر من اليهود، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة هادن سائر طوائف اليهود الذين هم جيرانه في المدينة، فلما كان بعد [وقعة] بدر بسنة أشهر أو نحوها، خرج إليهم النبي ﷺ، وكلمهم أن يعينوه في دية الكلابيين الذين قتلهم عمرو بن أمية الضمري، فقالوا: نفعل يا أبا القاسم، اجلس هاهنا حتى نقضي حاجتك، فخلا بعضهم ببعض،





وسؤل لهم الشيطان الشقاء الذي كتب عليهم، فتأمروا بقتله ﷺ، وقالوا: أيكم يأخذ هذه الرحى فيصعد فيلقها على رأسه يشدخه بها؟ فقال أشقاها عمرو بن جحاش: أنا، فقال لهم سلام بن مشكم: لا تفعلوا، فوالله ليُخَيَّرَنَ بما هممت به، وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه، وجاء الوحي على الفور إليه من ربه بما هموا به، فنهض مسرعاً، فتوجه إلى المدينة، ولحقه أصحابه، فقالوا: نهضت ولم تشعر بك، فأخبرهم بما هممت به. وبعث إليهم رسول الله ﷺ: «أن أخرجوا من المدينة ولا تسكنوني بها، وقد أجلتكم عشراً، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه».

فأقاموا أياماً يتجهزون، وأرسل إليهم المنافق عبد الله بن أبي [بن سلول]: (أن لا تخرجوا من دياركم، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دونكم، وتصركم قريظة وحلفائكم من غطفان).

وطمع رئيسهم خبي بن أخطب فيما قال له، وبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إننا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك.

فكبر رسول الله ﷺ وأصحابه،

ونهبوا إليهم، وعلي بن أبي طالب يعمل اللواء.

فأقاموا على حصونهم بربون بالنبل والحجارة، واعتزلتهم قريظة، وحاتهم ابن أبي وحلفائهم من غطفان، فحاصروهم رسول الله ﷺ، وقطع نخلهم وحرَّق، فأرسلوا إليه: نحن نخرج من المدينة، فأنزلهم على أن يخرجوا منها بنفوسهم وذرايعهم، وأن لهم ما حملت إيلهم إلا السلاح، وقبض رسول الله ﷺ الأموال والسلاح.

وكانت بنو النضير خالصة لرسول الله ﷺ لنوائبه ومصالح المسلمين، ولم يغمسها، لأن الله أفاءها عليه، ولم يوجب المسلمون عليها بخيل ولا ركاب، وأجلاهم إلى خيبر وفيهم خبي بن أخطب كبيرهم، واستولى على أرضهم وديارهم، وقبض السلاح، فوجد من السلاح حسين درعا، وخسين بيضة، وثلاثمائة وأربعين سيفاً، هذا حاصل قصتهم كما ذكرها أهل السير.

فافتتح تعالى هذه السورة بالإخبار أن جميع من في السماوات والأرض تسبح بحمد ربه، وتنزهه عما لا يليق بجلاله، وتعبده وتخصع لجلاله<sup>(١)</sup>، لأنه العزيز الذي قد قهر كل شيء، فلا يمتنع عليه شيء، ولا يستعصي عليه مستعصي<sup>(٢)</sup>، الحكيم في خلقه وأمره، فلا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يشرع ما لا مصلحة فيه، ولا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته، ومن ذلك نصر الله لرسوله ﷺ على الذين كفروا من أهل الكتاب من بني النضير حين غدروا برسوله، فأخرجهم من ديارهم وأوطانهم التي ألقوها وأحبوها.

وكان إخراجهم منها أول حشر وجلاء كتبه الله عليهم على يد رسوله محمد ﷺ، فجلوا إلى خيبر، ودلت الآية الكريمة أن لهم حشراً وجلاء غير هذا، فقد وقع حين أجلاهم النبي ﷺ

من خيبر، ثم عمر رضي الله عنه، [أخرج بقينهم منها].

﴿ما فلننتم﴾ أيها المسلمون ﴿إن يخرجوا﴾ من ديارهم، لحصانتها ومنعتها وعزهم فيها.

﴿وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله﴾ فأعجبوا بها وغرّبهم، وحسبوا أنهم لا يُنالون بها، ولا يقدر عليها أحد، وقدّر الله تعالى وراء ذلك كله، لا تغني عنه الحصون والقلاع، ولا تحدي فيهم القوة والدفاع.

ولهذا قال: ﴿فأناهم الله من حيث لم يحتسبوا﴾ أي: من الأمر والباب، الذي لم<sup>(٣)</sup> يخطر ببالهم أن يؤثروا منه، وهو أنه تعالى ﴿قذف في قلوبهم الرعب﴾ وهو الخوف الشديد، الذي هو جند الله الأكبر، الذي لا يضع معه عدوّ ولا عدّة، ولا قوة ولا شدة، فالأمر الذي يمتسبونه ويظنون أن الخلل يدخل عليهم منه إن دخل هو الحصون التي تحصنوا بها، واطمأنت نفوسهم إليها، ومن وثق بغير الله فهو مخذول، ومن ركن إلى غير الله فهو عليه وبال<sup>(٤)</sup>، فأناهم أمر سماوي نزل على قلوبهم، التي هي محل الثبات والصبير، أو الخور والضعف، فأزال الله قوتها وشدتها، وأورثها ضعفاً وخوراً وجبناً، لا حيلة لهم ولا منعة معه<sup>(٥)</sup>، فصار ذلك عوناً عليهم، ولهذا قال: ﴿يخرجون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين﴾ وذلك أنهم صالحوا النبي ﷺ على أن لهم ما حملت الإبل.

فنقضوا لذلك كثيراً من سقوفهم التي استحسنتوها، وسلطوا المؤمنين بسبب بغيتهم على إخراب ديارهم وهدم حصونهم، فهم الذين جنوا على أنفسهم، وصاروا من أكبر عون عليها، ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ أي: البصائر الساقطة، والعقول الكاملة، فإن في هذا معتبراً يعرف به صنع الله تعالى في المعاندين للحق، المنيعين لأهوائهم، الذين لم تنفعهم

(٥) في ب: لا حيلة لهم في دفعه نصار.

(٣) كذا في ب، وفي أ: لا.

(٤) في ب: كان وبالاً عليه.

(١) في ب: لعظته.

(٢) في ب: عير.



الموجب لجعله تعالى الأموال أموال والهجرة .

وقوله : ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ أي : ومن أوصاف الأنصار التي فاقوا بها غيرهم ، وتميزوا بها على من سواهم ، الإيثار ، وهو أكمل أنواع الجود ، وهو الإيثار بمحاب النفس من الأموال وغيرها ، وبذلها للغير مع الحاجة إليها ، بل مع الضرورة والخصاصة ، وهذا لا يكون إلا من خلق زكي ، ومحبة الله تعالى مقدمة على محبة شهرات النفس ولذاتها ، ومن ذلك قصة الأنصاري الذي نزلت الآية بسببه ، حين أثر ضيفه بطعامه وطعام أهله وأولاده وباتوا جوعاً ، والإيثار عكس الأثرة ، فالإيثار محمود ، والأثرة مذمومة ، لأنها من خصال البخل والشح ، ومن رُزق الإيثار فقد وثي شح نفسه ﴿ومن يُوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ ووقاية شح النفس ، يشمل وقايتها الشح في جميع ما أمر به ، فإنه إذا وثي العبد شح نفسه ، سمحت نفسه بأوامر الله ورسوله ، ففعلها طائعاً متقادماً ، منشراحاً بها صدره ، وسمحت نفسه بتركه ما نهى الله عنه ، وإن كان محبوباً للنفس ، تدعو إليه وتطلع إليه ، وسمحت نفسه ببذل الأموال في سبيل الله وابتغاء مرضاته ، وبذلك يحصل الفلاح والفوز ، بخلاف من لم يوق شح نفسه ، بل ابتلي بالشح بالخير ، الذي هو أصل الشر ومادته ، فهذان<sup>(١)</sup> الصنفان الفضائلان الزكيان هم الصحابة الكرام والأئمة الأعلام ، الذين حازوا من السوابق والفضائل والمناقب ما سبقوا به من بعدهم ، وأدركوا به من قبلهم ، فصاروا أعيان المؤمنين ، وسادات المسلمين ، وقادات المتقين<sup>(٢)</sup> .

وخسب من بعدهم من الفضل أن يسير خلفهم ، ويأتهم بهداهم ، ولهذا ذكر الله من اللاحقين من هو مؤتم بهم وسائر خلفهم فقال : ﴿والذين جاؤوا من بعدهم﴾ أي : من بعد المهاجرين

الموجب لجعله تعالى الأموال أموال الفيء لمن قدره اله ، وأنهم حقيقون بالإعانة ، مستحقون لأن تجعل لهم ، وأنهم ما بين مهاجرين قد هجروا المحيبيات والمثوفات ، من الديار والأوطان والأحباب والخلان والأموال ، رغبة في الله ونصرة لدين الله ، ومحبة لرسول الله ، فهؤلاء هم الصادقون الذين عملوا بمقتضى إيمانهم ، وصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة والعبادات الشاقة ، بخلاف من ادعى الإيمان وهو لم يصدق به بالجهد والهجرة وغيرهما من العبادات ، وبين أنصار وهم الأوس والخزرج الذين آمنوا بالله ورسوله طوعاً ومحبة واختياراً ، وأووا رسول الله ﷺ ، ومنعوه من الأحمر والأسود ، وتبوؤوا دار الهجرة والإيمان حتى صارت موثلاً ومرجعاً يرجع إليه المؤمنون ، ويلجأ إليه المهاجرون ، ويسكن بحماه المسلمون إذ كانت البلدان كلها بلدان حرب وشرك وشر ، فلم يزل أنصار الدين تأوي إلى الأنصار ، حتى انتشر الإسلام وقوي ، وجعل يزيد شيئاً فشيئاً ، وينمو قليلاً قليلاً ، حتى فتحوا القلوب بالعلم والإيمان والقرآن ، والبلدان بالسيف واللسان .

الذين من جملة أوصافهم الجميلة أنهم ﴿يحبون من هاجر إليهم﴾ وهذا لمحبتهم لله ورسوله ، أحبوا أحبابه ، وأحبوا من نصر دينه .

﴿ولا أتوا﴾ أي : لا يجسدون المهاجرين على ما أتاهم الله من فضله وخصمه به من الفضائل والمناقب التي هم أهلها ، وهذا يدل على سلامة صدورهم ، وانتفاء الغل والحقد والحسد عنها .

ويدل ذلك على أن المهاجرين أفضل من الأنصار ، لأن الله قدمهم بالذكر ، وأخبر أن الأنصار لا يجسدون في صدورهم حاجة مما أتوا ، فدل على أن الله تعالى أتاهم ما لم يؤت الأنصار ولا غيرهم ، ولأنهم جمعوا بين النصرة



المنقطع بهم في غير أوطانهم .

وإنما قدر الله هذا التقدير ، وحصر الضيء في هؤلاء المصين لـ ﴿كمي لا يكون دولة﴾ أي : مداراة واختصاصاً ﴿بين الأغنياء منكم﴾ فإنه لو لم يقدره ، لتداولته الأغنياء الأقباء ، ولما حصل لغيرهم من العاجزين منه شيء ، وفي ذلك من الفساد ما لا يعلمه إلا الله ، كما أن في اتباع أمر الله وشرعه من المصالح ما لا يدخل تحت الحصر ، ولذلك أمر الله بالقاعدة الكلية والأصل العام ، فقال : ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ وهذا شامل لأصول الدين وفروعه ، ظاهره وباطنه ، وأن ما جاء به الرسول يتعين على العباد الأخذ به واتباعه ، ولا تحل مخالفته ، وأن نص الرسول على حكم الشيء كنص الله تعالى ، لا رخصة لأحد ولا عثرة في تركه ، ولا يجوز تقديم قول أحد على قوله ، ثم أمر بتقواه التي بها عمارة القلوب والأرواح [والدنيا والآخرة] ، وبها السعادة الدائمة والفوز العظيم ، وبإصاعتها الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي ، فقال : ﴿واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ على من ترك التقوى ، وآثر اتباع الهوى .

﴿٨٥﴾ ثم ذكر تعالى الحكمة والسبب

(٢) كذا في ب ، وفي أ : المؤمنين .

(١) كذا في ب ، وفي أ : فهؤلاء .

الإدبار عن القتال والنصرة، ولا يحصل لهم نصر من الله.

والسبب الذي أوجب لهم ذلك<sup>(٦١)</sup>، أنكم - أيها المؤمنون - «أشد رهبة في صدورهم من الله» فخافوا منكم أعظم مما يخافون الله، وقدموا مخافة المخلوق الذي لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضرراً، على مخافة الخالق، الذي بيده الضر والنفع، والعطاء والمنع.

«ذلك بأنهم قوم لا يفقهون» مراتب الأمور، ولا يعرفون حقائق الأشياء، ولا يتصورون العواقب، وإنما الفقه كل الفقه، أن يكون خوف الخالق ورجاؤه وعبته مقدمة على غيرها، وغيرها تبعاً لها.

«١٤» «لا يقاتلونكم جميعاً» أي: في حال الاجتماع «إلا في قرى محصنة أو من وراء جسر» أي: لا يشنون لقتالكم<sup>(٦٢)</sup> ولا يعزمون عليه، إلا إذا كانوا متحصنين في القرى، أو من وراء الجدر والأسوار.

فإنهم إذ ذاك ربما يحصل منهم امتناع، اعتماداً [على] حصونهم وجدرهم، لا شجاعة بأنفسهم، وهذا من أعظم الذم، «بأسهم بينهم شديد» أي: بأسهم فيما بينهم شديد، لا أفة في أبدانهم ولا في قوتهم، وإنما الأفة في ضعف إيمانهم وعدم اجتماع كلمتهم، ولهذا قال: «تحسبهم جميعاً» حين تراهم مجتمعين ومتظاهرين.

«و» لكن «قلوبهم شتى» أي: متباغضة متفرقة منشقة.

«ذلك» الذي أوجب لهم اتصافهم بما ذكر «بأنهم قوم لا يعقلون» أي: لا عقل عندهم، ولا لب، فإنهم لو

كمال رحمة الله وشدة رأفته وإحسانه بهم، الذي من جلته، بل من أجله، توفيقهم للقيام بحقوق الله وحقوق عباده.

فهؤلاء الأصناف الثلاثة هم أصناف هذه الأمة، وهم المستحقون للنفي الذي مصرفه راجع إلى مصالح الإسلام.

وهؤلاء أهله الذين هم أهله، جعلنا الله منهم، بمنه وكرمه.

ثم تعجب تعالى من حال المنافقين الذين طمّعوا إخوانهم من أهل الكتاب، في نصرتهم وموالاتهم على المؤمنين، وأنهم يقولون لهم: «لئن أخرجتم لتخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً» أي: لا نطيع في عدم نصرتكم أحداً يعدلنا أو يحوفنا، «وإن قوتكم لتنصرونكم والله يشهد إنهم لكاذبون» في هذا الوعد الذي غروا به إخوانهم، ولا يستكثروا هذا عليهم، فإن الكذب وصفهم، والغرور والخداع مقارنهم، والنفاق والجبن يصحبهم، ولهذا كذبهم [الله] بقوله، الذي وجد غيره كما أخبر الله به، ووقع طبق ما قال، فقال: «لئن أخرجوا» من ديارهم جلاء ونفياً «لا يخرجون معهم» لمحبتهم للأوطان، وعدم صبرهم على القتال، وعدم وفائهم بوعدهم<sup>(٦٣)</sup>.

«ولئن قوتلوا لا ينصرونهم» بل يستولي عليهم الجبن، ويملكهم الفشل، ويخذلون إخوانهم، أحوج ما كانوا إليهم.

«ولئن نصرهم» على الفرض والشقدير<sup>(٦٤)</sup> «ليولن الأدبار ثم لا ينصرون» أي: ليحصل منهم

والأنصار «يقولون» على وجه النصح لأنفسهم ولسائر المؤمنين «ربنا اضفر لنا وإخواننا الذين سبقونا بالإيمان»

وهذا دعاء شامل لجميع المؤمنين، السابقين من الصحابة، ومن قبلهم ومن بعدهم، وهذا من فضائل الإيمان أن المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض، ويدعو بعضهم لبعض، بسبب المشاركة في الإيمان المقتضي لعقد الأخوة بين المؤمنين<sup>(٦٥)</sup>، التي من فروعها أن يدعو بعضهم لبعض، وأن يحب بعضهم بعضاً.

ولهذا ذكر الله في الدعاء نفي الغل عن القلب، الشامل لقليل الغل وكثيره<sup>(٦٦)</sup>، الذي إذا انتفى ثبت ضده، وهو المحبة بين المؤمنين والموالات والنصح، ونحو ذلك مما هو من حقوق المؤمنين.

فوصف الله من بعد الصحابة بالإيمان، لأن قولهم: «سبقونا بالإيمان» دليل على المشاركة في الإيمان<sup>(٦٧)</sup>، وأنهم تابعون للصحابة في عقائد الإيمان وأصوله، وهم أهل السنة والجماعة، الذين لا يصدق هذا الوصف التام إلا عليهم، ووصفهم بالانفراد بالذنوب والاستغفار منها، واستغفار بعضهم لبعض، واجتهادهم في إزالة الغل والحقد عن قلوبهم لإخوانهم المؤمنين، لأن دعاهم بذلك مستلزم لما ذكرناه، ومتضمن لمحبة بعضهم بعضاً، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، وأن ينصح له حاضراً وغائباً، حياً وميتاً، ودلت الآية الكريمة [على] أن هذا من جملة حقوق المؤمنين بعضهم لبعض، ثم ختموا دعاهم باسمين كريمين، دالين على

(١) كذا في ب، وفي أ: للمؤمنين.

(٢) في ب: لقليله وكثيره.

(٣) في ب: المشاركة فيه.

(٤) في ب: بالوعد.

(٥) كذا في ب، وفي أ: على ضرب المثل.

(٦) في ب: حملهم على ذلك.

(٧) في ب: على قتالكم.

العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقداه، فإن رأى زللاً تداركه بالإفلاق عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصراً في أمر من أوامر الله، بذل جهده واستعان بربه في تكميله وتتميمه، وإتقانه، ويقايس بين من الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياة بلا محالة.

والحرمان كل الحرمان، أن ينقل العبد عن هذا الأمر، ويشابه قوماً نسوا الله وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه، وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها، فلم ينجحوا، ولم يحصلوا على طائل، بل أنساهم الله مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعها وفوائدها، فصار أمرهم فرطاً، فرجعوا بخسارة الدارين، وغبنوا غبناً لا يمكنهم تداركه، ولا يجبر كسره، لأنهم هم الفاسقون، الذين خرجوا عن طاعة ربهم وأوضاعوا في معاصيه، فهل يستوي من حافظ على تقوى الله ونظر لما قدم لغده، فاستحق جنات النعيم، والعيش السليم - مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين - ومن غفل عن ذكر الله، ونسي حقوقه، فشقي في الدنيا، واستحق العذاب في الآخرة، فالأولون هم الفائزون، والآخرون هم الخاسرون.

ولما بين تعالى لعباده ما بين، وأمرهم<sup>(١)</sup> ونهاهم في كتابه العزيز، كان هذا موجباً لأن يبادروا إلى ما دعاهم إليه وحثهم عليه، ولو كانوا في القسوة وصلابة القلوب كالجبال الرواسي، فإن هذا القرآن لو أنزله على جبل لرأيت خاشعاً متصدعاً من خشية الله أي: لكمال تأثيره في القلوب، فإن مواظب القرآن أعظم المواظب على الإطلاق، وأوامره ونواهيه محتوية على الحكم والمصالح المقرونة بها، وهي من أسهل شيء على

خالدين فيها﴾ كما قال تعالى: ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ ﴿وذلك جزاء الظالمين﴾ الذين اشتركوا في الظلم والكفر، وإن اختلفوا في شدة العذاب وقوته، وهذا دأب الشيطان مع كل أوليائه، فإنه يدعوهم ويدلهم إلى ما يضرهم بفرور، حتى إذا وقعوا في الشباك، وحاقت بهم أسباب الهلاك، تبرا منهم وتخلى عنهم.

واللوم كل اللوم على من أطاعه، فإن الله قد حذر منه وأذر، وأخبر بمقاصده وغاياته ونهايته، فالقدم على طاعته عاص على بصيرة لا عذر له.

﴿١٨ - ٢١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون \* لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون \* لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيت خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يوجه الإيمان ويقتضيه من لزوم تقواه، سرراً وعلانية، في جميع الأحوال، وأن يراعوا ما أمرهم الله به من أوامره وشرائعه وحدوده، وينظروا ما لهم وما عليهم، وماذا حصلوا عليه من الأعمال التي تنفعهم أو تضرهم في يوم القيامة، فإنهم إذا جعلوا الآخرة نصب أعينهم وقيلة قلوبهم، واهتموا بالمقام بها، اجتهدوا في كثرة الأعمال الموصلة إليها، وتصفيتها من القواطع والمعوقات التي توقفهم عن السير أو تعوقهم أو تصرفهم، وإذا علموا أيضاً أن الله خبير بما يعملون، لا تخفى عليه أعمالهم، ولا تضيع لديه ولا ييسلها، أوجب لهم الجهد والاجتهاد.

وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة

كانت لهم عقول، لأثروا الفاضل على المفضول، ولما رضوا لأنفسهم بأبخس الخطتين، ولكانت كلمتهم مجتمعة، وقلوبهم مؤتلفة، فبذلك يتناصرون ويتعاضدون، ويتعاونون على مصالحهم ومنافعهم الدينية والدنيوية.

مثل هؤلاء المخدولين من أهل الكتاب، الذين انتصر الله لرسوله منهم، وأذاقهم الخزي في الحياة الدنيا، وعدم نصر من وعدهم بالمعونة ﴿كمثل الذين فن قبليهم قريباً﴾ وهم كفار قريش الذين زين لهم الشيطان أعمالهم، وقال: ﴿لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم قلما تراءت الفتنان نكص على عقبه﴾ [وقال إنى بريء منكم إنى أرى ما لا ترون] الآية.

فغرتهم أنفسهم، وغرهم من غرهم، الذين لم ينفعوهم ولم يدفعا عنهم العذاب، حتى أتوا ﴿بذراً﴾ بفخرهم وخيلائهم، ظانين أنهم مدركون برسول الله والمؤمنين أمانهم.

فنصر الله رسوله والمؤمنين عليهم، فقتلوا كبارهم وصناديدهم، وأسروا من أسروا منهم، وفر من فر، وذاقوا بذلك وبال أمرهم وعاقبة شركهم وبغيهم، هذا في الدنيا، ﴿ولهم﴾ في الآخرة عذاب النار، ومثل هؤلاء المنافقين الذين غروا إخوانهم من أهل الكتاب ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر﴾ أي: زين له الكفر وحسنه ودعاه إليه، فلما اغتر به وكفر، وحصل له الشقاء، لم ينفعه الشيطان الذي تولاه ودعاه إلى ما دعاه إليه، بل تبرا منه و ﴿قال إنى بريء منك إنى أخاف الله رب العالمين﴾ أي: ليس لي قدرة على دفع العذاب عنك، ولست بمغتر عنك مثقال ذرة من الخير، ﴿فكان عاقبتهم﴾ أي: الداعي الذي هو الشيطان، والمدعو الذي هو الإنسان حين أطاعه ﴿أنهم في النار





النبي ﷺ بشأنه، فأرسل إلى المرأة قبل وصولها وأخذ منها الكتاب.

وعاتب حاطباً، فاعتذر رضي الله عنه بعدد قبله النبي ﷺ، وهذه الآيات فيها النهي الشديد عن موالاته الكفار من المشركين وغيرهم، وإلقاء المودة إليهم، وأن ذلك مناف للإيمان، ومخالف لمة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ومناقض للعقل الذي يوجب الحذر كل الحذر من العدو، الذي لا يبقى من مجهوده في العداوة شيئاً، ويستنزح الفرصة في إيصال الضرر إلى عدوه، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا! أَعْمَلُوا بِمَقْتَضَىٰ إِيمَانِكُمْ، مِن لَّوَايَةٍ مِّن قَام بِالْإِيمَانِ، وَمَعَادَاة مِّن عَادَاهُ، فَإِنَّهُ عَدُوٌّ لِّلْمُؤْمِنِينَ .﴾

فلا تتخذوا عدو الله ﴿وعدوكم أولياء تلحقون إليهم بالمودة﴾ أي: تسارعون في مودتهم وفي السعي بأسبابها، فإن المودة إذا حصلت، تبعها النصر والموالات، فخرج العبد من الإيمان، وصار من جملة أهل الكفران، وانفصل عن أهل الإيمان.

وهذا المتخذ للكافر ولياً، عادم المروءة أيضاً، فإنه كيف يوالي أعدى أعدائه الذي لا يريد له إلا الشر، ويخالف ربه ووليه الذي يريد به الخير، ويأمره به، ويحسه عليه؟! وما يدعو المؤمن أيضاً إلى معاداة الكفار، أنهم قد كفروا بما جاء المؤمنين من الحق، ولا أعظم من هذه المخالفة والمشاقة، فإنهم قد كفروا بأصل دينكم، وزعموا أنكم ضلال على غير هدى.

والحال أنهم كفروا بالحق الذي لا شك فيه ولا مريبة، ومن رد الحق فمحال أن يوجد له دليل أو حجة تدل على صحة قوله، بل مجرد العلم بالحق<sup>(١)</sup>، يدل على بطلان قول من رده وفساده.

ومن عداوتهم البليغة أنهم

﴿يخرجون الرسول وإياكم﴾ أيها المؤمنون من دياركم، ويشردونكم من أوطانكم، ولا ذنب لكم في ذلك عندهم، إلا أنكم تؤمنون بالله ربكم الذي يتعين على الخلق كلهم القيام بعبوديته، لأنه رباهم، وأنعم عليهم بالنعمة الظاهرة والباطنة، وهو الله تعالى.

فلما عرضوا عن هذا الأمر، الذي هو أوجب الواجبات، وقمت به، عادوكم، وأخرجوكم - من أجله - من دياركم، فأني دين، وأني مروءة وعقل، يبقى مع العبد إذا والى الكفار الذين هذا وصفهم في كل زمان أو مكان؟! ولا يمتنع منه إلا خوف، أو مانع قوي.

﴿إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيل الله، وابتغاه مرضاتى﴾ أي: إن كان خروجكم مقصودكم به الجهاد في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله، وابتغاء مرضاة الله<sup>(٢)</sup>، فاعملوا بمقتضى هذا، من موالاته أولياء الله ومعاداة أعدائه، فإن هذا هو الجهاد في سبيله<sup>(٣)</sup>، وهو من أعظم ما يتقرب به التقربون إلى ربهم ويتخون به رضاه.

﴿تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلمت﴾ أي: كيف تسرون المودة للكافرين وتخفونها، مع علمكم أن الله عالم بما تخفون وما تعلنون؟!، فهو وإن خفي على المؤمنين، فلا يخفى على الله تعالى، وسيجازي العباد بما يعلمه منهم من الخير والشر، ﴿ومن يفعله منكم﴾ أي: موالاته الكافرين بعدما حذرهم الله منها ﴿فقد ضل سواه السبيل﴾ لأنه سلك مسلكاً مخالفاً للشرع وللعقل والمروءة الإنسانية.

ثم بين تعالى شدة عداوتهم، تهيباً للمؤمنين على عداوتهم، ﴿إن يتفقوكم﴾ أي: يجيدوكم، وتسخر لهم الفرصة في أذاكم، ﴿يكونوا لكم

من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبتنا وإليك المصير \* ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم \* لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد \* عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم \* لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين \* إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾ ذكر كثير من المفسرين، [رحمهم الله]، أن سبب نزول هذه الآيات الكريمات في قصة حاطب بن أبي بلتعة، حين غزا النبي ﷺ غزوة الفتح، فكتب حاطب إلى قريش<sup>(١)</sup> يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، ليتخذ بذلك بداً عندهم لا [شكاً] و[نفاقاً]، وأرسله مع امرأة، فأخبر

(١) في ب: إلى المشركين من أهل مكة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: مجرد رد الحق.

(٣) في ب: وابتغاء رضاه.

(٤) في ب: هذا من أعظم الجهاد في سبيله.

أعداء ﴿ظاهرين﴾ ويبسطوا إليكم أيديهم ﴿بالتقتل والضرب، ونحو ذلك.

﴿وألستهم بالسوء﴾ أي: بالقول الذي يسوء، من شتم وغيره، ﴿وودوا لو تكفرون﴾ فإن هذا غاية ما يريدون منكم.

فإن احتججتهم وقلتم: نوالي الكفار لأجل القرابة والأموال، فلن تغني عنكم أموالكم ولا أولادكم من الله شيئاً. ﴿والله بما تعملون بصير﴾ فلذلك حذركم من موالاة الكافرين الذين تضرركم مواليتهم، قد كان لكم يا معشر المؤمنين ﴿أسوة حسنة﴾ أي: قدوة صالحة واتمام ينفعكم، ﴿في إبراهيم والذين معه﴾ من المؤمنين، لأنكم قد أمرتم أن تتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً، ﴿إذ قالوا للقومهم إنا برآء منكم وما تعبدون من دون الله﴾ أي: إذ تبرأ إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين، من قومهم المشركين ومما يعبدون من دون الله.

ثم صرحوا بعداوتهم غاية التصريح، فقالوا: ﴿كفرنا بكم وبداء﴾ أي: ظهر وبان ﴿بيننا وبينكم العداوة والبغضاء﴾ أي: البغض بالقلوب، وزوال مودتها، والعداوة بالأبدان، وليس لتلك العداوة والبغضاء وقت ولا حد، بل ذلك ﴿أبدأ﴾ ما دمت مستميرين على كفركم ﴿حتى تؤمنوا بالله وحده﴾ أي: فإذا آمنتم بالله وحده، زالت العداوة والبغضاء، وانقلبت مودة وولاية، فلکم أيها المؤمنون أسوة [حسنة] في إبراهيم ومن معه في القيام بالإيمان والتوحيد، والقيام بلوازم ذلك ومقتضياته، وفي كل شيء تعبدوا به لله وحده، ﴿إلا﴾ في خصلة واحدة وهي ﴿قول إبراهيم لأبيه﴾ أزر المشرك، الكافر المعاند، حين دعاه إلى الإيمان والتوحيد، فامتنع، فقال إبراهيم: ﴿لأستغفرن لك﴾ والحال أني لا ﴿أملك لك من الله من شيء﴾ لكنني أدع ربي عسى أن لا أكون

بدعاء ربي شقيماً، فليس لكم أن تفتدوا بإبراهيم في هذه الحالة التي دعا بها للمشرك، فليس لكم أن تدعوا للمشركين، وتقولوا: إنا في ذلك متبعون لملة إبراهيم، فإن الله ذكر عذر إبراهيم في ذلك بقوله: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم﴾.

ولكم أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه، حين دعوا الله وتوكلوا عليه وأتابوا إليه، واعترفوا بالعجز والتقصير، فقالوا: ﴿ربنا عليك توكلنا﴾ أي: اعتمدنا عليك في جلب ما ينفعنا ودفع ما يضرنا، ووثقنا بك يا ربنا في ذلك.

﴿واليك أنبأنا﴾ أي: رجعنا إلى طاعتك ومرضااتك وجميع ما يقرب إليك، فنحن في ذلك ساعون، وبفعل الخيرات محتدون، ونعلم أنا إليك نصير، فسنستعد للقدوم عليك، ونعمل ما يقربنا الزلفى إليك<sup>(١)</sup>، ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا﴾ أي: لا تسلطهم علينا بذنوبنا، فيفتنونا ويمنوننا مما يقدرون عليه من أمور الإيمان، ويفتنون أيضاً بأنفسهم، فإنهم إذا رأوا لهم الغلبة، ظنوا أنهم على الحق وأنا على الباطل، فازدادوا كفراً وطغياناً، ﴿واغفر لنا﴾ ما اقترنا من الذنوب والسيئات، وما قصرنا به من المأمورات، ﴿ربنا إنك أنت العزيز﴾ القاهر لكل شيء، ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأنبياء مواضعها، فيعزتك<sup>(٢)</sup> وحكمتك انصرتنا على أعدائنا، واغفر لنا ذنوبنا، وأصلح عيوننا.

ثم كرر الحث [لهم] على الاقتداء بهم، فقال: ﴿لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة﴾ وليس كل أحد تسهل عليه هذه الأسوة، وإنما تسهل على من ﴿كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ فإن الإيمان واحتساب الأجر والثواب، يسهل على العبد كل عسير، ويقبل لديه

كل كثير، ويوجب له الاكثار من الاقتداء بعباد الله الصالحين، والأنبياء والمرسلين، فإنه يرى نفسه مفتقراً ومضطراً إلى ذلك غاية الاضطراب.

﴿ومن يتول﴾ عن طاعة الله والتأسي برسول الله، فلن يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئاً، ﴿فإن الله هو الغني﴾ الذي له الغنى التام [المطلق] من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى أحد من خلقه [بوجوه]، ﴿الحميد﴾ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فإنه محمود على ذلك كله.

ثم أخبر تعالى أن هذه العداوة التي أمر الله بها المؤمنين للمشركين، ووصفهم بالقيام بها أنهم ما داموا على شركهم وكفرهم، وأنهم إن انتقلوا إلى الإيمان، فإن الحكم يدور مع عقلته، فإن المودة<sup>(٣)</sup> الإيمانية ترجع، فلا تياسوا أيها المؤمنون من رجوعهم إلى الإيمان، ف ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة﴾ سببها رجوعهم إلى الإيمان، ﴿والله قدير﴾ على كل شيء، ومن ذلك هداية القلوب وتقليبها من حال إلى حال، ﴿والله غفور رحيم﴾ لا يتعاضمه ذنب أن يغفره، ولا يكبر عليه عيب أن يستره، ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾ وفي هذه الآية إشارة ويشارة إلى إسلام بعض المشركين، الذين كانوا إذ ذاك أعداء للمؤمنين، وقد وقع ذلك، والله الحمد والمنة.

ولما نزلت هذه الآيات الكريمة، المهيجة على عداوة الكافرين، وقعت من المؤمنين كل موقع، وقاموا بها أتم القيام، وتأثموا من صلة بعض أقاربهم المشركين، وظنوا أن ذلك داخل فيما نهى الله عنه، فأخبرهم الله أن ذلك لا يدخل في المحرم، فقال: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب

(٢) كذا في ب، وفي أ: فمن عزتك. (٣) في ب: والمودة.

(١) في ب: ما يزلنا إليك.



المسطين ﴿١﴾ أي: لا ينهاكم الله عن البر والصلة، والمكافأة بالمعروف، والقسط للمشركين، من أقاربكم وغيرهم، حيث كانوا يحال لم يتصبا لقتالكم في الدين والإخراج من دياركم، فليس عليكم جناح أن تصلوهم، فإن صلتم في هذه الحالة، لا محذور فيها ولا مفسدة<sup>(١)</sup>، كما قال تعالى عن الأبوين المشركين إذا كان ولدهما مسلماً: ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾.

[وقوله]: ﴿إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين﴾ أي: لأجل دينكم، عداوة لدين الله ولمن قام به، ﴿وأخرجوكم من دياركم وظاهروا﴾ أي: عاونوا غيرهم ﴿على إخراجكم﴾ نهاكم الله ﴿أن تولوهم﴾ بالوادة والنصرة، بالقول والفعل، وأما بركم وإحسانكم، الذي ليس بتول للمشركين، فلم ينهاكم الله عنه، بل ذلك داخل في عموم الأمر بالإحسان إلى الأقارب وغيرهم من آدميين، وغيرهم.

﴿ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾ وذلك الظلم يكون بحسب التولي، فإن كان تولى تاماً، صار<sup>(٢)</sup> ذلك كفراً مخرجاً عن دائرة الإسلام، وتحت ذلك من المراتب ما هو غليظ، وما هو دون ذلك.

﴿١٠ - ١١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وأنوهن ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر وأسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله بحكم بينكم والله عليم

حكيم \* وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتهم فآتوا الذين ذهبوا أزواجهم مثل ما أنفقوا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾ لما كان صلح الحديبية، صالح النبي ﷺ المشركين، على أن من جاء منهم إلى المسلمين مسلماً، أنه يرد إلى المشركين، وكان هذا لفظاً عاماً، [مطلقاً] يدخل في عمومه النساء والرجال، فأما الرجال، فإن الله لم ينه رسوله عن ردهم إلى المشركين وفاء بالشرط وتتميماً للصلح الذي هو من أكبر المصالح، وأما النساء، فلما كان ردهن فيه مفسد كثيرة، أمر الله المؤمنين إذا جاءهم المؤمنات مهاجرات، وشكوا في صدق إيمانهن، أن يمتحنوهن ويختبروهن، بما يظهر به صدقهن، من إيمان مغلطة وغيرها، فإنه يتمثل أن يكون إيمانها غير صادق بل رغبة في زوج أو بلد أو غير ذلك من المقاصد الدنيوية.

فإن كن بهذا الوصف، تعين ردهن وفاء بالشرط، من غير حصول مفسدة، وإن امتحنوهن فوجدن صادقات، أو علموا ذلك منهن من غير امتحان، فلا يرجعوهن إلى الكفار، ﴿لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن﴾ فهذه مفسدة كبيرة في ردهن راعاها الشارع، وراعى أيضاً الوفاء بالشرط، بأن يعطوا الكفار أزواجهن ما أنفقوا عليهن من المهر وتوابعه عوضاً عنهن، ولا جناح حيثن على المسلمين أن ينكحوهن ولو كان لهن أزواج في دار الشرك، ولكن بشرط أن يؤتوهن أجورهن من المهر والنفقة، وكما أن المسلمة لا تحل للكافر، فكذلك الكافرة لا تحل للمسلم أن يمسكها ما دامت على كفرها، غير أهل الكتاب، ولهذا قال تعالى: ﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾ وإذا نهى عن الإمساك

بعصمتها<sup>(٣)</sup>، فالنهي عن ابتداء تزويجها أولى، ﴿وأسألوا ما أنفقتم﴾ أيها المؤمنون، حين ترجع زوجاتكم مرتدات إلى الكفار، فإذا كان الكفار يأخذون من المسلمين نفقة من أسلمت من نسائهم، استحق المسلمون أن يأخذوا مقابلة ما ذهب من نسائهم<sup>(٤)</sup> إلى الكفار، وفي هذا دليل على أن خروج البضع من الزوج متقوم، فإذا أسد مفسد نكاح امرأة رجل، برضاع أو غيره، كان عليه ضمان المهر، وقوله: ﴿ذلكم الحكم الذي ذكره الله وبينه لكم بحكمه﴾ أي: ﴿والله عليم حكيم﴾ فيعلم تعالى، ما يصلح لكم من الأحكام، ويشرع لكم ما تقتضيه الحكمة<sup>(٥)</sup>.

وقوله: ﴿وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار﴾ بأن ذهبن مرتدات ﴿فعاقبتهم فآتوا الذين ذهبوا أزواجهم مثل ما أنفقوا﴾ كما تقدم أن الكفار إذا كانوا يأخذون بدل ما يفوت من أزواجهن إلى المسلمين، فمن ذهبت زوجته من المسلمين إلى الكفار وفاتت عليه، لزم أن يعطيه المسلمون من الغنيمة بدل ما أنفق<sup>(٦)</sup>.

﴿واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾ فإيمانكم بالله يقتضي منكم أن تكونوا ملازمين للتقوى على الدوام.

﴿١٢﴾ ﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبأيعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين بهتاناً يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم﴾ هذه الشروط المذكورة في هذه الآية تسمى «ببايعت النساء» اللاتي [كن] يبأيعن على إقامة الواجبات المشتركة، التي تجب على الذكور والنساء في جميع الأوقات.

- (١) في ب: ولا تبعة.  
 (٢) في ب: كان ذلك.  
 (٣) كذا في ب، وفي أ: بعصمتها.  
 (٤) في ب: زوجاتهم.  
 (٥) في ب: وبينه لكم حكم الله بينه لكم ووضحه.  
 (٦) في ب: فيشرعه بحسب حكمته ورحمته.

بحمد الله ويعبدونه ويسألونه حوائجهم، ﴿وهو العزيز﴾ الذي قهر الأشياء بعزته وسلطانه، ﴿الحكيم﴾ في خلقه وأمره، ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ لم تقولون ما لا تفعلون، أي: لم تقولون الخير وتحثون عليه، وربما تحذرون به وأنتم لا تفعلونه، وتنهون عن الشر وربما نهتهم أنفسكم عنه، وأنتم متلوثون به ومتصفون به، فهل تليق بالمؤمنين هذه الحالة الذميمة؟ أم من أكبر المقت عند الله أن يقول العبد ما لا يفعل؟ ولهذا ينبغي للأمر بالخير أن يكون أول الناس إليه مبادرة، وللنهي عن الشر أن يكون أبعد الناس منه، قال تعالى: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾ وقال شعيب عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أتاكم عنه﴾.

﴿٤﴾ ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾ هذا حث من الله لعباده على الجهاد في سبيله وتعليم لهم كيف يصنعون وأنه ينبغي لهم أن يصفوا في الجهاد صفاً متراصاً متساوياً، من غير خلل يقع (٨) في الصفوف، وتكون صفوفهم على نظام وترتيب به تحصل المساواة بين المجاهدين والتعاضد وإزهاق العدو وتنشيط بعضهم بعضاً، ولهذا كان النبي ﷺ إذا حضر القتال، صف أصحابه، ورتبهم في مواقفهم، بحيث لا يحصل اتكال بعضهم على بعض، بل تكون كل طائفة منهم مهتمة بمركزها وقائمة بوظيفتها، وبهذه الطريقة تتم الأعمال ويحصل الكمال.

﴿٥﴾ ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم

أصحاب القبور﴾ أي: يا أيها المؤمنون، إن كنتم مؤمنين بربكم، ومتبعين لرضاه ومجانبيين لسخطه، ﴿لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم﴾ وإنما غضب عليهم لكفرهم، وهذا شامل لجميع أصناف الكفار. ﴿قد يشوا من الآخرة﴾ أي: قد حرموا من خير الآخرة، فليس لهم منها نصيب، فاحذروا أن تولوهم فتوافقوهم على شرهم وكفرهم (٩)، فتحرموا خير الآخرة كما حرموا.

[وقوله: ﴿كما يشك الكفار من أصحاب القبور﴾ حين أفضوا إلى الدار الآخرة، ووقفوا على حقيقة الأمر (٦)، وعلموا علم اليقين أنهم لا نصيب لهم منها. ويحتمل أن المعنى: قد يشوا من الآخرة أي: قد أنكروها وكفروا بها، فلا يستغرب حيثئذ منهم الإقدام على مسأخذ الله وموجبات عذابه وإيأسهم من الآخرة، كما ينس الكفار المنكرون للبعث في الدنيا من رجوع أصحاب القبور إلى الله تعالى.

تم تفسير سورة المنتحة،  
والحمد لله رب العالمين

### تفسير سورة الصف [وهي] مدنية

﴿١-٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم سبحانه الله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم﴾ \* يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون \* كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون، وهذا بيان لعظيمته تعالى وقهره، وذو جميع الخلق (٧) له تبارك وتعالى، وأن جميع من في السموات والأرض يسبحون

وأما الرجال، فيتفاوت ما يلزمهم بحسب أحوالهم ومراتبهم وما يتعين عليهم، فكان النبي ﷺ يحتثل ما أمره الله به، فكان إذا جاءت النساء يبایعنه، والتزمن بهذه الشروط يبایعهن، وجبر قلوبهن، واستغفر لهن الله، فيما يحصل منهن من التقصير (١١)، وأدخلهن في جملة المؤمنين بأن ﴿لا يشركن بالله شيئاً﴾ بأن يفردن الله [وحده] بالعبادة.

﴿ولا يقتلن أولادهن﴾ كما يجري لئساء الجاهلية الجاهلاء.

﴿ولا يزنین﴾ كما كان ذلك موجوداً كثيراً في البغايا وذوات الأخدان، ﴿ولا يأتين بهتاناً يفترينه بين أيديهن وأرجلهن﴾ والبهتان: الافتراء على الغير أي: لا يفترين بكل حال، سواء تعلقت بهن وأزواجهن (١٢)، أو سواء تعلق ذلك بغيرهم، ﴿ولا يعصينك في معروف﴾ أي: لا يعصينك في كل أمر تأمرهن به، لأن أمرك لا يكون إلا بمرعوف، ومن ذلك طاعتهم [لك] في النهي عن النسيحة، وشق الثياب، وخش الوجوه، والدعاء بدعاء (١٣) الجاهلية.

﴿فبایعهن﴾ إذا التزمن بجميع ما ذكر.

﴿واستغفر لهن الله﴾ عن تقصيرهن، وتطبيعاً لحواظرهن، ﴿إن الله غفور﴾ أي: كثير المغفرة للعاصين، والإحسان إلى الذنبيين التائبين، ﴿رحيم﴾ وسعت رحمته كل شيء، وعم إحسانه البرايا.

﴿١٣﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم قد يشوا من الآخرة كما ينس الكفار من

(١) كذا في ب، وفي أ: يحصل من التقصير منهن.

(٢) في ب: يل.

(٣) في ب: مع أزواجهن.

(٤) في ب: بدعوى.

(٥) في ب: وشركهم.

(٦) في ب: وشاهدوا.

(٧) في ب: الخلق له.

(٨) في ب: يحصل.

الدالة على أنه هو، وأنه رسول الله [حَقاً].

﴿قالوا﴾ معاندين للحق مكذبين له ﴿هذا سحر مبين﴾ وهذا من أعجب العجائب، الرسول الذي [قد] وضحت رسالته، وصارت أُتِيَتْ من شمس النهار، يجعل ساحراً يُبَيِّنُ سحره، فهل في الخذلان أعظم من هذا؟ وهل في الافتراء أعظم <sup>(٥)</sup> من هذا الافتراء، الذي نفى عنه ما كان معلوماً من رسالته، وأثبت له ما كان أبعد الناس منه؟

﴿ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب﴾ بهذا وغيره، والحال أنه لا عذر له، وقد انقطعت حجته، لأنه ﴿يدعى إلى الإسلام﴾ ويبين له ببراهينه وبيئاته، ﴿وأنه لا يهدي القوم الظالمين﴾ الذين لا يزالون على ظلمهم مستقيمين، لا ترددهم عنه موعظة، ولا يزجرهم بيان ولا يرهان، خصوصاً هؤلاء الظلمة الفاتمين بمقابلة الحق ليردوه، ولينصروا الباطل، ولهذا قال الله عنهم: ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأقواهم﴾ أي: بما يصدر منهم من المقالات الفاسدة، التي يردون بها الحق، وهي <sup>(٦)</sup> لا حقيقة لها، بل تزيد البصير معرفة بما هم عليه من الباطل ﴿وأنه﴾ متم نوره ولو كره الكافرون ﴿أي﴾: قد تكفل الله بنصر دينه، وإتمام الحق الذي أرسل به رسله، وإشاعة <sup>(٧)</sup> نوره على سائر الأقطار، ولو كره الكافرون، وبذلوا بسبب كراهتهم كل سبب يتوصلون <sup>(٨)</sup> به إلى إطفاء نور الله فأنهم مغلوبون.

وصاروا بمنزله من ينسخ عين

مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين \* ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين \* يريدون ليطفئوا نور الله بأقواهم والله متم نوره ولو كره الكافرون \* هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴿ يقول تعالى مخبراً عن عناد بني إسرائيل المتقدمين، الذين دعاهم عيسى ابن مريم، وقال لهم: ﴿يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم﴾ أي: أرسلني الله لأدعوكم إلى الخير وأنهاكم عن الشر، [وأيدني بالبراهين الظاهرة]، وبما يدل على صدقي، كوني ﴿مصدقاً لما بين يدي من التوراة﴾ أي: جئت بما جاء به موسى من التوراة والشرائع السماوية، ولو كنت مدعياً للنبوة، لجئت بغير ما جاءت به المرسلون، ومصدقاً لما بين يدي من التوراة أيضاً، أنها أخبرت بي وبشرت، فجئت وبعثت مصداقاً لها ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ وهو: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب النبي الهاشمي.

فعميسى عليه الصلاة والسلام كالأنبياء <sup>(٩)</sup>، يصدق بالنبي السابق، ويمش بالنبى اللاحق، بخلاف الكذابين، فإنهم يناقضون الأنبياء أشد مناقضة، ويخالفونهم في الأوصاف والأخلاق، والأمر والنهي ﴿فلما جاءهم﴾ محمد ﷺ الذي بشر به عيسى ﴿بالبينات﴾ أي: الأدلة الواضحة،

لم تؤذوني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴿ [أي: ] ﴿وإذ قال موسى لقومه﴾ موبخاً لهم على صنيعهم، ومقرعاً لهم على أذيتهم، وهم يعلمون أنه رسول الله: ﴿لم تؤذوني﴾ بالأقوال والأفعال ﴿وقد تعلمون أني رسول الله إليكم﴾

والرسول من حقه الإكرام والإعظام، والانتفاء <sup>(١٠)</sup> بأوامره، والابتدار لحكمه.

وأما أذية الرسول الذي إحسانه إلى الخلق فوق كل إحسان بعد إحسان الله، ففي غاية الوقاحة والجرأة والزيف عن الصراط المستقيم، الذي قد علموه وتركوه، ولهذا قال: ﴿فلما زاغوا﴾ أي: انصرفوا عن الحق بقصدهم ﴿أزاغ الله قلوبهم﴾ عقوبة لهم على زيفهم الذي اختاروه لأنفسهم ورضوه لها، ولم يوفقههم الله للهدى، لأنهم لا يلبق بهم الخير، ولا يصلحون إلا للشر، ﴿وأنه﴾ لا يهدي القوم الفاسقين ﴿أي﴾: الذين لم يزل الفسق وصفاً لهم، لا <sup>(١١)</sup> لهم قصد في الهدى، وهذه الآية الكريمة تفيد أن إضلال الله لعباده، ليس ظمناً منه، ولا حجة لهم عليه، وإنما ذلك بسبب منهم، فإنهم الذين أغلقوا على أنفسهم باب الهدى بعدما عرفوه، فيجازيهم بعد ذلك بالإضلال <sup>(١٢)</sup> والزيف الذي لا حيلة لهم في دفعه وتقليب القلوب [عقوبة لهم وعدلاً منه بهم] كما قال تعالى: ﴿ونقلب أقدارهم وأبصارهم﴾ كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴿

﴿٦ - ٩﴾ ﴿وإذ قال عيسى ابن

(١) في ب: والقيام.

(٢) في ب: ليس.

(٣) كذا في ب، وفي أ: بالضلال.

(٤) في ب: كسائر الأنبياء.

(٥) في ب: أبلغ.

(٦) كذا في ب، وفي أ: التي.

(٧) في ب: وإظهار.

(٨) في ب: كل ما قدروا عليه مما يتوصلون.



الجليل الجميل، الذي أنشأ دار النعيم، وجعل فيها من الجلال والجمال ما يبهر عقول الخلق ويأخذ بأفئدتهم.

وتعالى من له الحكمة التامة، التي من جعلتها، أن الله لو أرى الخلائق الجنة حين خلقها<sup>(٦٦)</sup>، ونظروا إلى ما فيها من النعيم لما تخلف عنها أحد، ولما هناهم العيش في هذه الدار المنغصة، المشروب نعيمها بالمها، وسرورها<sup>(٦٧)</sup> بترحها.

وسميت الجنة جنة عدن، لأن أهلها مقيمون فيها، لا يخرجون منها أبداً، ولا يغفون عنها حولا، ذلك الثواب الجزيل، والأجر الجميل، الفوز العظيم، الذي لا فوز مثله، فهذا الثواب الأخرى.

وأما الثواب الدنيوي لهذه التجارة، فذكره بقوله: «وأخرى تحبونها» أي: ويحصل لكم خصلة أخرى تحبونها، وهي: «نصر من الله» [لكم] على الأعداء، يحصل به العز والفرح، «وفتح قريب» تتسع به دائرة الإسلام، ويحصل به الرزق الواسع، فهذا جزاء المؤمنين المجاهدين، وأما المؤمنون من غير أهل الجهاد، [إذا قام غيرهم بالجهاد]<sup>(٦٨)</sup> فلم يؤسهم الله تعالى من فضله وإحسانه، بل قال: «وبشر المؤمنين» أي: بالثواب العاجل والآجل، كل على حسب إيمانه، وإن كانوا لا يبلغون مبلغ المجاهدين في سبيل الله، كما قال النبي ﷺ: «إن

في الجنة مئة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعدتها الله للمجاهدين في سبيله»<sup>(٦٩)</sup>

ثم قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصاراً لله» [أي: بالأنوال والأفعال، وذلك بالقيام بدين الله، والحرص على إقامته<sup>(٧٠)</sup> تنفيذه على الغير، وجهاد من عانده وتابذه بالأبدان والأموال، ومن نصر الباطل بما يزعمه من العلم ورد الحق، بدحض حجته، وإقامة الحججة عليه، والتحذير منه.

ومن نصر دين الله، تعلم كتاب الله وسنة رسوله، والحث على ذلك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.] ثم هيح الله المؤمنين بالافتداء بمن قبلهم من الصالحين بقوله: «كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله» أي: قال لهم عارضا ومنهضاً<sup>(٧١)</sup> من يعاونني ويقوم معي في نصرتي لدين الله، ويدخل مدخلي ويخرج مخرجي؟

فابتدر الحواريون، فقالوا: «نحن أنصار الله» فمضى عيسى عليه السلام على أمر الله ونصر دينه، هو ومن معه من الحواريين، «فأمنت طائفة من بني إسرائيل» بسبب دعوة عيسى والحواريين، «وكفرت طائفة» منهم، فلم يتقادوا لدعوتهم، فجاهد المؤمنون الكافرين، «فأبدنا الذين آمنوا على عدوهم» أي: قوتناهم ونصرناهم عليهم.

«فأصبحوا ظاهرين» عليهم وقاهرين [لهم]، فأنتم يا أمة محمد



عليين، يترأههم أهل الجنة كما يترأى الكوكب الدرّي في الأفق الشرقي أو الغربي، وحتى إن بناه الجنة بعضه من لبن ذهب [وبعضه من] لبن فضة، وخيامها من اللؤلؤ والمرجان، وبعض المنازل من الزمرد والجواهر الملونة بأحسن الألوان، حتى إنهما من صفاتها يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، وفيها من الطيب والحسن ما لا يأتي عليه وصف الواسفين، ولا خطر على قلب أحد من العالمين، لا يمكن أن يدركوه حتى يروه، ويتمتعوا بحسنه وتفرد أعينهم به، ففي تلك الحالة، لولا أن الله خلق أهل الجنة، وأنشأهم نشأة كاملة لا تقبل العدم، لأوشك أن يموتوا من الفرح، فسبحان من لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يشئ عليه عبادته<sup>(٧٢)</sup>، وتبارك

(١) في ب: أحد من خلقه.

(٢) في ب: أنه لو رأى العباد الجنة.

(٣) في ب: وفرحها.

(٤) زيادة من هامش ب.

(٥) في ب جاء بدلاً من هذا الحديث ما يلي: [كما قال النبي ﷺ: (من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً، وجبت له الجنة) فحجب لها أبو سعيد الخدري - راوي الحديث - فقال: أعدنا عليّ يا رسول الله، فأعادها عليه ثم قال: (وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض) فقال: وما هي يا رسول الله قال: (الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله) رواه مسلم.

(٦) في ب: تنفيذه.

(٧) في ب: قال لهم منها.

كونوا أنصار الله ودعاة دينه، ينصركم الله كما نصر من قبلكم، ويظهركم على عدوكم. ثمت والله الحمد<sup>(١)</sup>

**تفسير سورة الجمعة**  
**[وهي] مدنية**

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يسبح لله ما في السموات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم﴾ أي: يسبح لله وينقاد لأمره، ويتألهه ويعبده، جميع ما في السموات والأرض، لأنه الكامل الملك، الذي له ملك العالم العلوي والسفلي، فالجميع ممالكه وتحت تدبيره، ﴿القدوس﴾ المعظم، المنزه عن كل آفة ونقص، ﴿العزيز﴾ الفاهر للأشياء كلها، ﴿الحكيم﴾ في خلقه وأمره.

فهذه الأوصاف العظيمة مما تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

﴿٢-٤﴾ ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم \* ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ المراد بالأميين: الذين لا كتاب عندهم، ولا أثر رسالة من العرب وغيرهم، ممن ليسوا من أهل الكتاب، فامتن الله تعالى عليهم منة عظيمة أعظم من منته على غيرهم، لأنهم عادمون للعلم والخير، وكانوا في ضلال مبين، يتعبدون للأشجار والأصنام والأحجار، ويتخلقون بأخلاق السباع الضارية، يأكل قويم ضعيفهم، وقد كانوا في غاية الجهل بعلوم الأنبياء،

فبعث الله فيهم رسولا منهم، يعرفون نسه وأوصافه الجميلة وصدقه، وأنزل عليه كتابه، ﴿يتلوا عليهم آياته﴾ القاطعة المرجبة للإيمان واليقين، ﴿ويزكيهم﴾ بأن يحثهم على الأخلاق الفاضلة، ويفصلها لهم، ويزجرهم عن الأخلاق الرذيلة، ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ أي: علم القرآن<sup>(٢)</sup>

وعلم السنة، الشتمل ذلك علوم الأولين والآخرين، فكانوا بعد هذا التعليم والتزكية منه أعلم الخلق، بل كانوا أئمة أهل العلم والدين، وأكمل الخلق أخلاقاً، وأحسنهم هدياً وسمناً، اهدوا بأنفسهم، وهدوا غيرهم، فصاروا أئمة المهتدين، وهداة المؤمنين<sup>(٣)</sup>، فلكه عليهم بيعته هذا الرسول ﷺ أكمل نعمة، وأجل منحة، وقوله: ﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم﴾ أي: وامتن على آخرين من غيرهم أي: من غير الأميين، ممن يأتي بعدهم، ومن أهل الكتاب، لما يلحقوا بهم أي: فيمن يباشروا دعوة الرسول، ويحتمل أنهم لما يلحقوا بهم في الفضل، ويحتمل أن يكونوا لما يلحقوا بهم في الزمان، وعلى كل، فكل المعنيين صحيح، فإن الذين بعث الله فيهم رسوله وشاهدوه وباشروا دعوته، حصل لهم من الخصائص والفضائل ما لا يمكن أحداً أن يلحقهم فيها، وهذا من عزته وحكمته، حيث لم يشرك عباده هماً ولا سدى، بل ابتمت فيهم الرسل، وأمرهم ونهاهم، وذلك من فضل الله العظيم، الذي يؤتيه من يشاء من عباده، وهو أفضل من نعمته عليهم بعافية البدن وسعة الرزق، وغير ذلك من النعم الدنيوية، فلا أعظم من نعمة الدين التي هي مادة الفوز، والسعادة الأبدية.



﴿٥-٨﴾ ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا﴾ بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين \* قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء الله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين \* ولا يتمونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين \* قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ لما ذكر الله منته على هذه الأمة، الذين ابتمت فيهم النبي الأمي، وما خصهم الله به من الزايات والمناقب، التي لا يلحقهم فيها أحد وهم الأمة الأمية الذين فاقوا الأولين والآخرين، حتى أهل الكتاب، الذين يزعمون أنهم العلماء الربانيون والأخبار المتقدمون، ذكر أن الذين حملهم الله التوراة من اليهود وكذا النصراري، وأمرهم أن يتعلموها ويعملوا بما فيها<sup>(٤)</sup>، وأنهم لم يحملوها ولم يقوموا بما حملوا به، أنهم لا فضيلة لهم، وأن مثلهم كمثل الحمار الذي يحمل فوق ظهره أسفارا

(١) في ب: تم تفسيرها والحمد لله رب العالمين.  
(٢) في ب: علم الكتاب.  
(٣) في ب: وقادة المتقين.  
(٤) كذا في ب، وفي أ: باشروا.  
(٥) في ب: ويعملوا بها.

الدين، فقد خسر الخسارة الحقيقية، من حيث ظن أنه يربح، وهذا الأمر بترك البيع مؤقت مدة الصلاة، **﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض لطلب المكاسب والتجارات، ولما كان الاشتغال في التجارة مظنة الغفلة عن ذكر الله، أمر الله بالإكثار من ذكره، فقال: ﴿واذكروا الله كثيراً﴾ أي: في حال قيامكم وقعودكم وعلى جنوبكم، لعلكم تفلحون﴾** فإن الإكثار من ذكر الله أكبر أسباب الفلاح.

**﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها﴾** أي: خرجوا من المسجد حرصاً على ذلك اللهو و [تلك] التجارة، وتركوا الخير، **﴿وتركوا قائماً﴾** تحطّب الناس، وذلك: [في] يوم جمعة بينما النبي ﷺ يحطّب الناس، إذ قدم المدينة عبر تحمل تجارة، فلما سمع الناس بها وهم في المسجد، انفضوا من المسجد، وتركوا النبي ﷺ يحطّب استعجالاً لما لا ينبغي أن يستعجل له، وترك آداب، **﴿قل ما عند الله﴾** من الأجر والثواب، لمن لازم الخير وصبر نفسه على عبادة ربه.

**﴿خيرٌ من اللهو ومن التجارة﴾** التي، وإن حصل منها بعض المقاصد، فإن ذلك قليل منغص، مفوت لخير الآخرة، وليس الصبر على طاعة الله مفوتاً للرزق، فإن الله خير الرازقين، فمن اتقى الله رزقه من حيث لا يحسب.

وفي هذه الآيات فوائد عديدة: منها: أن الجمعة فريضة على جميع المؤمنين، يجب عليهم السعي لها، والمبادرة والاهتمام بشأنها.

ومنها: أن الخطبتين يوم الجمعة فريضتان<sup>(١)</sup> يجب حضورهما، لأنه فسر الذكر هنا بالخطبتين، فأمر الله بالضي إليه والسعي له.

ومنها: مشروعية النداء ليوم الجمعة والأمر به.

ومنها: النهي عن البيع والشراء بعد

التحدي الذي جعله الله دليلاً على صدقهم إن تمنوه، وكذبهم<sup>(٢)</sup> إن لم يتمنوه، ولما لم يقع منهم مع الإعلان لهم بذلك، علم أنهم عالمون ببطلان ما هم عليه وفساده، ولهذا قال: **﴿ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم﴾** من الذنوب والمعاصي التي يستوحشون من الموت من أجلها، **﴿والله عليم بالظالمين﴾** فلا يمكن أن يخفى عليه من ظلمهم شيء، هذا وإن كانوا لا يتمنون الموت بما قدمت أيديهم، ويفرون<sup>(٣)</sup> منه [غاية الفرار]، فإن ذلك لا ينجيهم، بل لا بد أن يلاقيهم الموت الذي قد حتمه الله على العباد وكتبه عليهم.

ثم بعد الموت واستكمال الأجال، يرد الخلق كلهم يوم القيامة إلى عالم الغيب والشهادة، فينبئهم بما كانوا يعملون، من خير وشر، قليل وكثير.

**﴿٩ - ١١﴾** **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾** فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتسوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون \* وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوا قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين﴾ يأمر تعال عباده المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة والمبادرة إليها، من حين ينادى لها والسعي إليها، والمراد بالسعي هنا: المبادرة إليها والاهتمام لها، وجعلها أهم الأشغال، لا العَدْوُ الذي قد نهى عنه عند المضي إلى الصلاة، وقوله: **﴿وفروا البيع﴾** أي: اتركوا البيع، إذا نودي للصلاة، وامضوا إليها.

فإن ذلكم خير لكم من اشتغالكم بالبيع، وتفويتكم الصلاة الفريضة التي هي من أكد الفروض.

**﴿إن كنتم تعلمون﴾** أن ما عند الله خير وأبقى، وأن من آثر الدنيا على



من كتب العلم، فهل يستفيد ذلك الحمار من تلك الكتب التي فوق ظهره؟ وهل يلحق به فضيلة بسبب ذلك؟ أم حظه منها حملها فقط؟ فهذا مثل علماء اليهود<sup>(٤)</sup>، الذين لم يعملوا بما في التوراة، الذي من أجله وأعظمه الأمر باتباع محمد ﷺ، والبشارة به، والإيمان بما جاء به من القرآن، فهل استفاد من هذا وصفه من التوراة إلا الخيبة والحسرة وإقامة الحجة عليه؟ فهذا المثل مطابق لأحوالهم.

بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله الدالة على صدق رسولنا وصدق ما جاء به.

**﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾** أي: لا يرشدهم إلى مصالحهم ما دام الظلم لهم وصفاً والعناد لهم نعتاً، ومن ظلم اليهود وعنادهم، أنهم يعلمون أنهم على باطل، ويزعمون أنهم على حق، وأنهم أولياء الله من دون الناس.

ولهذا أمر الله رسوله، أن يقول لهم: إن كنتم صادقين في زعمكم أنكم على الحق، وأولياء الله: **﴿فتمنوا الموت﴾** وهذا أمر خفيف، فإنهم لو علموا أنهم على حق لما توفقوا عن هذا

(١) في ب: علماء أهل الكتاب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: أو كذبهم.

(٣) في ب: بل يفرون.

(٤) في ب: فريضة.

نداء الجمعة، وتحريم ذلك، وما ذلك إلا لأنه يفوت الواجب ويشغل عنه، فدل ذلك على أن كل أمر ولو كان مباحاً في الأصل، إذا كان ينشأ عنه نفوت واجب، فإنه لا يجوز في تلك الحال.

ومنها: الأمر بحضور الخطبتين<sup>(١)</sup> يوم الجمعة، وذم من لم يحضرهما، ومن لازم ذلك الإنصات لهما.

ومنها: أنه ينبغي للعبد القبل على عبادة الله، وقت دواعي النفس لحضور اللهو [والتجارات] والشهوات، أن يذكرها بما عند الله من الخيرات، وما لمؤثر رضاه على هواه.

تم تفسير سورة الجمعة،  
والله الحمد والثناء<sup>(٢)</sup>

### تفسير سورة المنافقين<sup>(٣)</sup> مدنية

﴿٦-١﴾ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون \* اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون \* ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون \* وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون \* وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوآؤا رؤوسهم وآرأيتهم يصدون وهم مستكبرون \* سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين \* لما قدم النبي ﷺ المدينة، وكثر المسلمون في المدينة واعتز

الاسلام بها<sup>(٤)</sup>، صار أناس من أهلها من الأوس والخزرج، يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ليقى جامهم، وتحقق دماؤهم، وتسلم أموالهم، فذكر الله من أوصافهم ما به يعرفون، لكي يخذل العباد منهم، ويكونوا منهم على بصيرة، فقال: ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا﴾ على وجه الكذب: ﴿نشهد إنك لرسول الله﴾ وهذه الشهادة من المنافقين على وجه الكذب والتناق، مع أنه لا حاجة لشهادتهم في تأكيد رسوله، فإن الله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ في قولهم ودعواهم، وأن ذلك ليس بحقيقة منهم.

﴿اتخذوا أيمانهم جنة﴾ أي: ترساً يترسون بها من نسبتهم إلى النفاق.

فصدوا عن سبيله بأنفسهم، وصدوا غيرهم عن يخفى عليه حالهم، ﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ حيث أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وأقسموا على ذلك وأوهموا صدقهم، ﴿ذلك﴾ الذي زين لهم التناق ﴿ب﴾ سبب أنهم لا يثبتون على الإيمان.

بل آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم بحيث لا يدخلها الخير أبداً، فهم لا يفقهون ما ينفعهم، ولا يعون ما يعود بمصالحهم، وإذا رأيتم تعجبك أجسامهم من روائها ونضارتها، وإن يقولوا تسمع لقولهم﴾ أي: من حسن منطقتهم تستلذ لاستماعه، فأجسامهم وأقوالهم معجبة، ولكن ليس وراء ذلك من الأخلاق الفاضلة والهدى الصالح، شيء، ولهذا قال: ﴿كأنهم خشب مسندة﴾ لا منفعة فيها، ولا ينال منها إلا الضرر الحض، ﴿يحسبون كل

﴿اتخذوا أيمانهم جنة﴾ أي: ترساً يترسون بها من نسبتهم إلى النفاق. ﴿فصدوا عن سبيله﴾ أي: منعوا عن سبيله بأنفسهم، وصدوا غيرهم عن يخفى عليه حالهم، ﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ حيث أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وأقسموا على ذلك وأوهموا صدقهم، ﴿ذلك﴾ الذي زين لهم التناق ﴿ب﴾ سبب أنهم لا يثبتون على الإيمان. ﴿فصدوا عن سبيله﴾ أي: منعوا عن سبيله بأنفسهم، وصدوا غيرهم عن يخفى عليه حالهم، ﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ حيث أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وأقسموا على ذلك وأوهموا صدقهم، ﴿ذلك﴾ الذي زين لهم التناق ﴿ب﴾ سبب أنهم لا يثبتون على الإيمان.

صيحة عليهم﴾ وذلك لجبنهم وفزعهم وضعف قلوبهم، والريب الذي في قلوبهم<sup>(٥)</sup> يخافون أن يطلع عليهم.

فهؤلاء هم العدو على الحقيقة، لأن العدو البارز التميز أهون من العدو الذي لا يشعر به، وهو غادع مكر، يزعم أنه ولي، وهو العدو المبين، فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾ أي: كيف يصرفون عن الدين الإسلامي بعدما تبين أدلته واتضح معالمه، إلى الكفر الذي لا يفيدهم إلا الخسار والشقاء ﴿وإذا قيل﴾ لهؤلاء المنافقين ﴿تعالوا يستغفر لكم رسول الله﴾ عما صدر منكم، لتحسن أحوالكم، وتقبل أعمالكم، امتنعوا من ذلك أشد الامتناع، و ﴿لوآؤا رؤوسهم﴾ امتناعاً من طلب الدعاء من الرسول، ﴿ورأيتهم يصدون﴾ عن الحق بغضاً له ﴿وهم مستكبرون﴾ عن اتباعه بغياً وعناداً، فهذه حالهم عندما يدعون إلى طلب الدعاء من الرسول، وهذا من لطف الله وكرامته لرسوله، حيث لم يأتوا إليه، فيستغفر لهم، فإنه

(١) كذا في ب، وفي أ: الخطبة.

(٢) في ب: بمن الله وعونه والحمد لله رب العالمين.

(٣) كذا في النسخين.

(٤) في ب: وكثر الإسلام فيها وعز.

(٥) وفي ب: وضعف قلوبهم وربيبها.





بما تعملون ﴿١﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإكثار من ذكره، فإن في ذلك الريح والفلاح، والخيرات الكثيرة، وينهاهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن ذكره، فإن عجة المال والأولاد مجبولة عليها أكثر النفوس، فتقدمها على محبة الله، وفي ذلك الحسارة العظيمة، ولهذا قال تعالى: ﴿ومن يفعل ذلك﴾ أي: يلهه ماله وولده، عن ذكر الله ﴿فأولئك هم الخاسرون﴾ للسعادة الأبدية، والنعيم المقيم، لأنهم آثروا ما يفنى على ما يبقى، قال تعالى: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم﴾ وقوله: ﴿وانفقوا مما رزقناكم﴾ يدخل في هذا، النفقات الواجبة، من الزكاة والكفارات (٤)، ونفقة الزوجات، والماليك، ونحو ذلك، والنفقات المستحبة، كبدل المال في جميع المصالح، وقال: ﴿عما رزقناكم﴾ ليدل ذلك على أنه تعالى، لم يكلف العباد من النفقة ما يعتهم ويشق عليهم، بل أمرهم بإخراج جزء (٥) مما رزقهم الله الذي يسره لهم (٦) ويسر لهم أسبابه.

فليشكروا الذي أعطاهم، بمواساة إخوانهم المحتاجين، وليبادروا بذلك، الموت الذي إذا جاء، لم يمكن العبد أن يأتي بمثقال ذرة من الخير، ولهذا قال: ﴿من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول﴾ متحسراً على ما فرط في وقت الإمكان، سائلاً الرجعة التي هي محال: ﴿رب لولا أخرجتني إلى أجل قريب﴾ أي: لأتدارك ما فرطت فيه، ﴿فأصدق﴾ من مالي، ما به أنجز من العذاب، وأستحق به جزيل الثواب، ﴿وأكن من الصالحين﴾ باداء المأمورات كلها، واجتناب النهيات، ويدخل في هذا، الحج وغيره، وهذا السؤال والتسني، قد فات وقته، ولا يمكن تداركه، ولهذا قال: ﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها﴾ المحتوم لها ﴿والله

خذلان الدين، وأذية المسلمين، مثل هذه الدعوى، التي لا تروح إلا على من لا علم له بحقائق الأمور (١)، ولهذا قال الله رداً لقولهم: ﴿والله خزائن السموات والأرض﴾ فيوتي الرزق من يشاء، ويمنعه من يشاء، ويسر الأسباب لمن يشاء، ويعسرها على من يشاء، ﴿ولكن المنافقين لا يفقهون﴾ فلذلك قالوا تلك المقالة، التي مضمونها أن خزائن الرزق في أيديهم، ونعت مشيتهم.

﴿يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأزهر منها الأذل﴾ وذلك في غزوة المريسيع، حين صار بين بعض المهاجرين والأنصار بعض كلام كدر الخواطر، ظهر حيثئذ نفاق المنافقين، وأظهروا ما في نفوسهم (٢).

وقال كبيرهم عبد الله بن أبي ابن سلول: ما مثلنا ومثل هؤلاء - يعني المهاجرين - إلا كما قال القائل: «غذ كلبك يأكلك» (٣).

وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ﴿ليخرجن الأزهر منها الأذل﴾ بزعمه أنه هو وإخوانه من المنافقين الأعزون، وأن رسول الله ومن معه (٤) هم الأذلون، والأمر بعكس ما قال هذا النافق، فلماذا قال [تعالى]: ﴿والله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ فهم الأعداء، والمنافقون وإخوانهم من الكفار [هم] الأذلاء. ﴿ولكن المنافقين لا يعلمون﴾ [ذلك] فلذلك زعموا أنهم الأعداء، اغتراراً بما هم عليه من الباطل، ثم قال تعالى:

﴿٩ - ١١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهمكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾ وانفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرجتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها﴾ والله خير

سواء استغفر لهم أم لم يستغفر لهم فلن يخفر الله لهم، وذلك لأنهم قوم فاسقون، خارجون عن طاعة الله، مؤثرون للكفر على الإيمان، فلذلك لا ينفع فيهم استغفار الرسول، لو استغفر لهم كما قال تعالى: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ ﴿إن الله لا يهدي القوم الفاسقين﴾.

﴿٧ - ٨﴾ ﴿هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا والله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون﴾ يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأزهر منها الأذل والله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴿وهذا من شدة عداوتهم للنبي ﷺ والمسلمين، لما رأوا اجتماع أصحابه وأتلائفهم، ومسارعتهم في مرضاة الرسول ﷺ، قالوا بزعمهم الفاسد:

﴿لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا﴾ فإنهم - بزعمهم - لولا أسرار المنافقين ونفقاتهم عليهم، لما اجتمعوا في نصرة دين الله، وهذا من أعجب العجيب، أن يدعي هؤلاء المنافقون الذين هم أحرص الناس على

(١) في ب: بالحقائق.  
 (٢) في ب: وتبين ما في قلوبهم.  
 (٣) في ب: سنن كلبك.  
 (٤) في ب: ومن اتبعه.  
 (٥) كذا في ب، وفي أ: الكفارة.  
 (٦) كذا في ب، وفي أ: أمرهم بجزء.

خبير بما تعملون» من خير وشر، فيجازيكم على ما علمه منكم، من النيات والأعمال.

تم تفسير سورة المنافقين،  
وله الحمد

### تفسير سورة التغابن [وهي] مكية

﴿١-٤﴾ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَسْبِحُ اللَّهَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ \* هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ \* خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ \* يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرَوْنَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بَذَاتِ الصُّدُورِ \* هَذِهِ آيَاتُ [الْكَرِيمَاتِ]، مُشْتَمَلَاتٌ عَلَى جَمَلَةٍ كَثِيرَةٍ وَاسِعَةٍ، مِنْ أَوْصَافِ الْبَارِي الْعَظِيمَةِ، فَذَكَرَ كَمَالَ أَلْوَهِيَّتِهِ تَعَالَى، وَسَعَةَ عَنَانِهِ، وَافْتِقَارَ جَمِيعِ الْخَلَائِقِ إِلَيْهِ، وَتَسْبِيحَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِحَمْدِ رَبِّهَا، وَأَنَّ الْمَلِكُ كُلَّهُ اللَّهُ، فَلَا يُخْرِجُ مَخْلُوقٌ عَنِ مَلِكِهِ، وَالْحَمْدُ كُلُّهَا لَهُ، حَمْدٌ عَلَى مَا لَهُ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ، وَحَمْدٌ عَلَى مَا أَوْجَدَهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَحَمْدٌ عَلَى مَا شَرَعَهُ مِنَ الْأَحْكَامِ، وَأَسَدَاءُ مِنَ النَّعَمِ.

وقدرته شاملة، لا يخرج عنها موجود، فلا يعجزه شيء، يريد، وذكر أنه خلق العباد، وجعل منهم المؤمن والكافر، فإيمانهم وكفرهم كله بقضاء الله وقدره، وهو الذي شاء ذلك منهم، بأن جعل لهم قدرة وإرادة، بها يتمكنون من كل ما يريدون من الأمر والنهي، «والله بما تعملون بصير» فلما ذكر خلق الإنسان المكلف المأمور المنهي، ذكر خلق باقي المخلوقات، فقال: «خلق السماوات

والأرض» أي: أجزأهما، [وجميع] ما فيها فأحسن خلقهما، «بالحق» أي: بالحكمة والغاية المقصودة له تعالى، «وصوركم فأحسن صوركم» كما قال تعالى: «لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم» فالإنسان أحسن المخلوقات صورة، وأبهاها منظراً. «وإليه المصير» أي: المرجع يوم القيامة، فيجازيكم على إيمانكم وكفركم، ويسألكم عن النعم والتعظيم، الذي أولاكموه<sup>(١)</sup>، هل قمتم بشكره، أم لم تقوموا بشكره؟ ثم ذكر عموم علمه، فقال: «يعلم ما في السماوات والأرض» أي: من السررات والظواهر، والغيب والشهادة. «ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليهم بذات الصدور» أي: بما فيها من الأسرار الطيبة، والخبايا الخبيثة، والنيات الصالحة، والمقاصد الفاسدة، فإذا كان عليماً بذات الصدور، تعين على العاقل البصير، أن يحرص ويجتهد في حفظ باطنه، من الأخلاق الرذيلة، واتصافه بالأخلاق الجميلة.

﴿٥-٦﴾ «أَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ \* ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشْرًا يَدُونَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ \* لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مِنْ أَوْصَافِ الْكَمَالَةِ الْعَظِيمَةِ، مَا بِهِ يَعْرِفُ وَيَعْبُدُ، وَيَبْذُلُ الْجُهْدَ فِي مَرْضَاتِهِ، وَتَجْتَنِبُ مَسَاحِظَهُ، أُخْبِرَ بِمَا فَعَلَ بِالْأُمَّمِ السَّابِقِينَ، وَالْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ، الَّذِينَ لَمْ تَزَلْ أَنْبَأُهُمْ بِتَحَدُّثِهَا بِالنَّاسِخُونَ، وَيُخْبِرُهَا الصَّادِقُونَ، وَأَنَّهُمْ حِينَ جَاءَهُمُ الرِّسَالُ<sup>(٢)</sup> بِالْحَقِّ، كَذَّبُوهُمُ وَعَادَوْهُمُ، فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ وَبَالَ أَمْرِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَأَخْرَجَهُمُ فِيهَا، «وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» فِي [الدَّارِ] الْآخِرَةِ، وَلِهَذَا ذَكَرَ السَّبَبَ فِي هَذِهِ الْعُقُوبَةِ، فَقَالَ: «ذَلِكَ» النِّكَالَ وَالْوَبَالَ، الَّذِي أَحْلَلْنَاهُ بِهِمُ

بأنهم «كانت تأتيتهم رسلهم بالبينات» أي: بالآيات الواضحات، الدالة على الحق والباطل، فاستمروا واستكبروا على رسلهم، فقالوا: «أبشر يدوننا» أي: فليس لهم فضل علينا، ولاي: شيء خصهم الله دوننا، كما قال في الآية الأخرى: «قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده» فهم حجروا فضل الله ومنته على أنبيائه أن يكونوا رسلاً للمخلوق، واستكبروا عن الانقياد لهم، فابتلوا بعبادة الأحجار والأشجار ونحوها «فكفروا» بالله «وتولوا» عن طاعة الله، «واستغنى الله» عنهم، فلا يبالي بهم، ولا يضره ضلالهم شيئاً، «والله غني حيد» أي: هو الغني، الذي له الغنى التام المطلق، من جميع الوجوه، الحميد في أقواله وأفعاله وأوصافه.

﴿٧﴾ «زَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِبُعْدِهِمْ أَلَّا يُجِزَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَذَابَهُمْ إِنَّ كَيْدَ الْكَافِرِينَ لَا يَصِلُهُمْ اللَّهُ بِعُزْرِهِمْ هَدًى وَلَا يَهْدِي اللَّهُ الْكَافِرِينَ» فأمر أشرف خلقه أن يقسم بربه على بعثهم، وجزائهم بأعمالهم الخبيثة، وتكذيبهم بالحق، «وذلك على الله يسير» فإنه وإن كان عسيراً، بل متعذراً بالنسبة إلى الخلق، فإن قواهم كلهم لو اجتمعت<sup>(٣)</sup> على إحياء ميت [واحد]، ما قدروا على ذلك.

وأما الله تعالى، فإنه إذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون، قال تعالى: «ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم ينظرون».

﴿٨﴾ «فَأَمْنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْتُمْ عَلَىٰ الْحُدُودِ أَنْتُمُ الْمُؤْمِنُونَ» الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير» لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث، وأن ذلك [منهم] موجب كفرهم بالله وآياته، أمر بما يعصم من الهلكة

قلبه، فاطمأن ولم ينزعج عند المصائب، كما يجري لمن<sup>(٤)</sup> لم يهد الله قلبه، بل يرزقه الله الثبات عند ورودها<sup>(٥)</sup>

والقيام بموجب الصبر، فيحصل له بذلك ثواب عاجل، مع ما يدخر الله له يوم الجزاء من الثواب<sup>(٦)</sup>، كما قال تعالى: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ وعلم من هذا أن من لم يؤمن بالله عند ورود المصائب، بأن لم يلحظ قضاء الله وقدره، بل وقف مع مجرد الأسباب، أنه يتخذ، ويكلمه الله إلى نفسه، وإذا وكل العبد إلى نفسه، فالنفس ليس عندها إلا الجزع والهلع، الذي هو عقوبة عاجلة على العبد، قيل عقوبة الآخرة، على ما فرط في واجب الصبر. هذا ما يتعلّق بقوله: ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾ في مقام المصائب الخاص، وأما ما يتعلّق بها من حيث العموم اللفظي، فإن الله أخبر أن كل من آمن أي: الإيمان بالمأمور به من<sup>(٧)</sup> الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وصدق إيمانه بما يقتضيه الإيمان من القيام بواجباته، أن هذا السبب الذي قام به العبد أكبر سبب لهداية الله له في أحواله وأقواله وأفعاله<sup>(٨)</sup>، وفي علمه وعمله.

وهذا أفضل جزاء يعطيه الله لأهل الإيمان، كما قال تعالى في الأخبار: أن المؤمنين يشبههم الله<sup>(٩)</sup> في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

وأصل الثبات: ثبات القلب وصبره، ويقينه عند ورود كل فتنة، فقال: ﴿يشبه الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ فأهل الإيمان أهدى الناس قلبياً، وأثبتهم عند المزعجات والمقلقات، وذلك لما معهم من الإيمان.

[وقوله: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا

وأنتهم هم الخاسرون، فكانه قيل: بأي: شيء يحصل الفلاح والشفاء والنعيم والعذاب؟

فذكر تعالى أسباب ذلك بقوله: ﴿ومن يؤمن بالله﴾ [أي: إيماناً تاماً شاملاً لجميع ما أمر الله بالإيمان به، ويعمل صالحاً] من الفرائض والتوابع، من أداء حقوق الله وحقوق عباده. **﴿يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار﴾** فيها ما تشبيهه الأنفس، وتلد الأعين، وتختاره الأرواح، وتحن إليه القلوب، ويكون نهاية كل مرغوب، **﴿خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾** **﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾** أي: كفروا [بها] من غير مستند شرعي ولا عقلي، بل جاءت الأدلة والبيئات، فكذبوا بها، وعاندوا ما دلت عليه.

**﴿أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير﴾** لأنها جمعت كل يؤس وشدة، وشفاء وعذاب.

**﴿١١ - ١٣﴾** **﴿ما أصاب من مصيبة إلا باذن الله﴾** ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم \* **﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإنما على رسولنا البلاغ المبين﴾** \* الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون **﴿** يقول تعالى: **﴿ما أصاب من مصيبة إلا باذن الله﴾** وهذا عام لجميع المصائب، في النفس، والمال، والولد، والأحباب، ونحوهم، فجميع ما أصاب العباد فيقضاء الله وقدره، قد سبق بذلك علم الله [تعالى]، وجرى به قلمه، ونفذت به مشيئته، واقتضته حكمته، والشأن كل الشأن، هل يقوم العبد بالوظيفة التي عليه في هذا المقام، أم لا يقوم بها؟ فإن قام بها، فله الثواب الجزيل، والأجر الجميل، في الدنيا والآخرة، فإذا آمن أنها من عند الله، فرضي بذلك، وسلم لأمره، هدى الله

والشفاء، وهو الإيمان بالله ورسوله وكتابه<sup>(١١)</sup>، وبسماه الله نوراً، فإن النور<sup>(١٢)</sup> ضد الظلمة، وما في الكتاب الذي أنزله الله من الأحكام والشرائع والأخبار، أنوار يتدى بها في ظلمات الجهل المذلّمة، ويمشى بها في حندس الليل البهيم، وما سوى الاهتداء بكتاب الله، فهي علوم ضررها أكثر من نفعها، وشرها أكثر من خيرها، بل لا خير فيها ولا نفع، إلا ما وافق ما جاءت به الرسل، والإيمان بالله ورسوله وكتابه، يقتضي الجزم التام، واليقين الصادق بها، والعمل بمقتضى ذلك التصديق، من امتثال الأوامر، واجتناب المناهي<sup>(١٣)</sup>، **﴿والله بما تعملون خبير﴾** فيجازيكم بأعمالكم الصالحة والسئنة.

**﴿٩ - ١٠﴾** **﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع﴾** ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم \* **﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير﴾** يعني: اذكروا يوم الجمع الذي يجمع الله به الأولين والآخرين، ويقفهم موقفاً هائلاً عظيماً، وينبهم بما عملوا، فحينئذ يظهر الفرق والتفاوت بين الخلائق، ويؤفّع أقوام إلى أعلى عليين، في الغرف العاليات، والمنازل الرفيعة، المشتعلة على جميع اللذات والشهوات، ويخفض أقوام إلى أسفل سافلين، محل الهم والغم، والحزن، والعذاب الشديد، وذلك نتيجة ما قدموه لأنفسهم، وأسلفوه أيام حياتهم، ولهذا قال: **﴿ذلك يوم التغابن﴾**.

أي: يظهر فيه التغابن والتفاوت بين الخلائق، ويفضن المؤمنون الفاسقين، ويعرف المجرمون أنهم على غير شيء،

(٨) في ب: في أقواله وأفعاله وجميع أحواله.

(٩) في ب: كما قال تعالى مخبراً أنه يشبّه المؤمنين.

(٤) في ب: من.

(٥) كذا في ب، وفي أ: عندها.

(٦) في ب: من الأجر العظيم.

(٧) في ب: وهو.

(١١) في ب: الإيمان به، ورسوله، وكتابه.

(١٢) في ب: لأن النور.

(١٣) في ب: التواهي.

الرسول ﴿أي﴾: في امتثال أمرهما، واجتناب نهيهما، فإن طاعة الله وطاعة رسوله، مدار السعادة، وعنوان الفلاح، ﴿فإن توليتم﴾ [أي] عن طاعة الله وطاعة رسوله، ﴿فإنما على رسولنا البلاغ المبين﴾ أي: يبلغكم ما أرسل به إليكم، بلاغاً بين لكم ويتضح وتقوم<sup>(١)</sup> به عليكم الحججة، وليس بيده من هدايتكم، ولا من حسابكم من شيء، وإنما يحاسبكم على القيام بطاعة الله وطاعة رسوله، أو عدم ذلك، عالم الغيب والشهادة.

﴿الله لا إله إلا هو﴾ أي: هو المستحق للعبادة والألوهية، فكل معبود سواه فيباطل، ﴿وهي الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي: فليتمتعوا<sup>(٢)</sup> عليه في كل أمر ناهبهم، وفيما يريدون القيام به، فإنه لا يتيسر أمر من الأمور إلا بالله، ولا سبيل إلى ذلك<sup>(٣)</sup> إلا بالاعتماد على الله، ولا يتم الاعتماد على الله، حتى يحسن العبد ظنه بربه، ويشق به في كفايته الأمر الذي اعتمد عليه به، وبحسب إيمان العبد يكون توكله، فكلما قوي الإيمان قوي التوكل<sup>(٤)</sup>.

﴿١٤ - ١٥﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم﴾ إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجرٌ عظيم ﴿هذا تحذير من الله للمؤمنين، من الاعتزاز بالأزواج والأولاد، فإن بعضهم عدو لكم، والعدو هو الذي يريد لك الشر، ووظيفتك الحذر من هذا وصفه<sup>(٥)</sup>، والنفس مجبولة على محبة الأزواج والأولاد، فتصح تعالى عباده أن توجب لهم هذه المحبة الانقياد لمطالب الأزواج والأولاد، ولو كان فيها ما فيها من المحذور الشرعي<sup>(٦)</sup>، ورغبتهم في امتثال أوامره، وتقديم

مرضاته بما عنده من الأجر العظيم المشتمل على المطالب العالية والمحاب الغالية: وأن يؤثروا الآخرة على الدنيا الغانية المنفضية، ولما كان النهي عن طاعة الأزواج والأولاد، فيما هو ضرر على العبد، والتحذير من ذلك، قد يوهم الغلظة عليهم وعقابهم، أمر تعالى بالحذر منهم، والصفح عنهم والعفو، فإن في ذلك من المصالح ما لا يمكن حصره، فقال: ﴿وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم﴾ لأن الجزء من جنس العمل.

فمن عفا الله عنه، ومن صفح الله عنه، ومن غفر الله له، ومن عامل الله فيما يجب، وعامل عباده كما يحبون ويفعلهم، نال محبة الله ومحبة عباده، واستوثق له أمره.

﴿١٦ - ١٨﴾ ﴿فأتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم \* عالم النسيب والشهادة العزيز الحكيم ﴿بأمر تعالى بتقواه، التي هي امتثال أوامره واجتناب نواهيه، ويقيد<sup>(٧)</sup> ذلك بالاستطاعة والقدرة.

فهذه الآية تدل على أن كل واجب عجز عنه العبد، أنه يسقط عنه، وأنه إذا قدر على بعض الأمور وعجز عن بعضها، فإنه يأتي بما يقدر عليه، ويسقط عنه ما يعجز عنه، كما قال النبي ﷺ: ﴿إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم﴾.

ويدخل تحت هذه القاعدة الشرعية من الفروع، ما لا يدخل تحت الحصر، وقوله: ﴿واسمعوا﴾ أي: اسمعوا ما يعظكم الله به، وما يشرعه لكم من الأحكام، واعلموا ذلك وانقادوا له، ﴿وأطيعوا﴾ الله ورسوله في جميع



أموركم، ﴿وانفقوا﴾ من النفقات الشرعية الواجبة والمستحبة، يكن ذلك الفعل منكم خيراً لكم في الدنيا والآخرة، فإن الخير كله في امتثال أوامر الله تعالى، وقبول نصائحه، والانقياد لشرعه، والشركه، في مخالفة ذلك.

ولكن ثم آفة تمنع كثيراً من الناس، من النفقة المأمور بها، وهو الشح المجبولة عليه أكثر النفوس، فإنها تشح بالمال، وتحب وجوده، وتكره خروجه من اليد غاية الكراهة.

فمن وقاه الله شر نفسه بأن سمحت نفسه بالإنفاق النافع لها ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ لأنهم أدركوا المطلوب، ونجوا من الرهوب، بل لعل ذلك شامل لكل ما أمر به العبد، ونهي عنه، فإنه إن كانت نفسه شحيحة، لا تنقاد لما أمرت به، ولا تخرج ما قبلها، لم يفلح، بل خسر الدنيا والآخرة، وإن كانت نفسه نفساً سمحة مطمئنة منسجمة لشرع الله، طالبة لرضا الله، فإنها ليس بينها وبين فعل ما كلفت به إلا العلم به، ووصول معرفته إليها، والبصيرة بأنه مَرْضٍ لله

(١) في ب: بلاغاً بيناً واضحاً تقوم.  
 (٢) كذا في ب، وفي أ: يتمتعوا.  
 (٣) كذا في ب، وفي أ: لذلك.  
 (٤) في ب: يكون توكله قوة وضعفاً.  
 (٥) في ب: هذه صفته.  
 (٦) في ب: التي فيها محذور شرعي.  
 (٧) في ب: وقيد.







ضرر ولا مشقة، وذلك راجع إلى الحرف، ﴿وإن كن﴾ أي: المطلقات ﴿أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يرضعن﴾ أي: يرضعن حملهن، وذلك لأجل الحمل الذي في بطنها، إن كانت بانثاً، ولها ولحملها إن كانت رجعية، ومنتهى النفقة حتى يرضعن حملهن<sup>(٣)</sup>، فإذا وضمن حملهن، فإما أن يرضعن أولادهن أو لا، ﴿فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن﴾ المسماة لهن، إن كان مسمى، وإلا فأجر المشل، ﴿واستمروا بينكم بمعروف﴾ أي: ليأمر كل واحد من الزوجين ومن غيرها الآخر بالمعروف، وهو كل ما فيه منفعة ومصلحة في الدنيا والآخرة، فإن الغفلة عن الائتمار بالمعروف، يحصل فيه<sup>(٤)</sup> من الشر والضرر، ما لا يعلمه إلا الله، وفي الائتمار تعاون على البر والتقوى، وبما يناسب هذا المقام، أن الزوجين عند الفراق وقت العدة، خصوصاً إذا ولد لهما<sup>(٥)</sup> ولد في الغالب يحصل من التنازع والتشاجر لأجل النفقة عليها وعلى الولد مع الفراق، الذي في الغالب ما يصدر إلا عن بغض، ويتأثر منه البغض شيء كثير<sup>(٦)</sup>.

﴿ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً﴾ أي: يندفع عنه المحذور، ويحصل له المطلوب.

أجلهن﴾ أي: عدتهن ﴿أن يضمن حملهن﴾ أي: جميع ما في بطونهن، من واحد، ومتعدد، ولا عبرة حينئذ بالأشهر ولا غيرها، ﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً﴾ أي: من اتقى الله تعالى، بشره الأمور، وسهل عليه كل عسير. ﴿ذلك﴾ [أي: الحكمة الذي بينه الله لكم] ﴿أمر الله أنزله إليكم﴾ لتمشوا عليه، ﴿وتأتمروا﴾ وتقوموا به وتعظموه.

﴿٦ - ٧﴾ ﴿اسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضييقا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يرضعن حملهن فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى﴾ لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق بما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ تقدم أن الله نهى عن إخراج المطلقات عن البيوت، وهنا أمر بإسكانهن، وقدر الإسكان<sup>(٧)</sup> بالمعروف، وهو البيت الذي يسكنه مثله ومثلها، بحسب رُجد الزوج وعسره، ﴿ولا تضاروهن لتضييقا عليهن﴾ أي: لا تضاروهن عند سكنانهن بالقول أو الفعل، لأجل أن يملن، فيخرجن من البيوت قبل تمام العدة، فتكونوا أنتم المخرجين لهن، وحاصل هذا أنه نهى عن إخراجهن، ونهاهن عن الخروج، وأمر بسكنانهن، على وجه لا يحصل عليهن

ثلاثة أشهر واللاتي لم يضمن أولات الأحمال أجلهن أن يضمن حملهن ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً \* ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً \* لما ذكر تعالى أن الطلاق المأمور به يكون لعدة النساء، ذكر تعالى العدة، فقال:

﴿واللاتي يسنن من الحيض من نسائكم﴾ بأن كن يضمن، ثم ارتفع حيضهن، لكبر أو غيره، ولم يزوج رجوعه، فإن عدتها ثلاثة أشهر، جعل لكل شهر، مقابلة حيضة.

﴿واللاتي لم يضمن﴾ أي: الصفار السلائي لم يسنن الحيض بعد، والبالغات<sup>(٨)</sup> اللاتي لم ياتهن حيض بالكلية، فإنهن كالأيسات، عدتهن ثلاثة أشهر، وأما اللاتي يضمن، فذكر الله عدتهن في قوله: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾. [وقوله:] ﴿وأولات الأحمال

فكل منهما يؤمر بالمعروف، والمعاشرة الحسنة، وعدم المشاقة والمخاصمة<sup>(٩)</sup>، وينصح على ذلك.

﴿وإن تعاسرتم﴾ بأن لم تنفقوا<sup>(١٠)</sup> على إرضاعها لولدها، فلترضع<sup>(١١)</sup> له أخرى غيرها ﴿فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتن بالمعروف﴾ وهذا حيث كان الولد يقبل ثدي غير أمه، فإن لم يقبل إلا ثدي أمه، تعبت لإرضاعه،

﴿٦ - ٧﴾ ﴿اسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضييقا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يرضعن حملهن فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى \* لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق بما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ تقدم أن الله نهى عن إخراج المطلقات عن البيوت، وهنا أمر بإسكانهن، وقدر الإسكان<sup>(٧)</sup> بالمعروف، وهو البيت الذي يسكنه مثله ومثلها، بحسب رُجد الزوج وعسره، ﴿ولا تضاروهن لتضييقا عليهن﴾ أي: لا تضاروهن عند سكنانهن بالقول أو الفعل، لأجل أن يملن، فيخرجن من البيوت قبل تمام العدة، فتكونوا أنتم المخرجين لهن، وحاصل هذا أنه نهى عن إخراجهن، ونهاهن عن الخروج، وأمر بسكنانهن، على وجه لا يحصل عليهن

- (١) في ب: أو البالغات.
- (٢) في ب: إسكانهن.
- (٣) في ب: إلى وضع الحمل.
- (٤) في ب: فيها.
- (٥) في ب: بينهما.
- (٦) في ب: الذي لا يحصل في الغالب إلا مقروناً بالبغض فيتأثر من ذلك شيء كثير.
- (٧) في ب: والمنازعة.
- (٨) في ب: بأن لم يتفق الزوجان.
- (٩) في ب: فسترضع له أخرى.







﴿فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير﴾ أي: الجميع أعوان للرسول، مظاهرون، ومن كان هؤلاء أعوانه<sup>(٥)</sup>، فهو المنصور، وغيره من بناوته مخذول<sup>(٦)</sup>، وفي هذا أكبر فضيلة وشرف لسيد المرسلين، حيث جعل الباري نفسه [الكريمة]، وخواص خلقه، أعواناً لهذا الرسول الكريم.

وهذا فيه من التحذير للزوجتين الكريمتين ما لا يخفى، ثم خوفهما أيضاً بحالة تشق على النساء غاية المشقة، وهو الطلاق، الذي هو أكبر شيء عليهن، فقال: ﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن﴾ أي: فلا ترفعن عليه، فإنه لو طلقكن، لم يضيع<sup>(٧)</sup> عليه الأمر، ولم يكن مضطراً إليكن، فإنه سيلقن<sup>(٨)</sup>، ويبدله الله أزواجاً خيراً منكن، ديناً وجالاً، وهذا من باب التعليق الذي لم يوجد، ولا يلزم وجوده، فإنه ما طلقهن، ولو طلقهن، لكان ما ذكره الله من هذه الأزواج الفاضلات، الجامعات بين الإسلام، وهو القيام بالشرائع الظاهرة، والإيمان، وهو: القيام بالشرائع الباطنة، من العفائد وأعمال القلوب.

القنوت هو دوام الطاعة واستمرارها، «تائبات» عما يكرهه الله، فوصفهن بالقيام بما يحبه الله، والتوبة عما يكرهه الله، «تائبات وأبكاراً» أي: بعضهن تيب، وبعضهن أبكار، ليتنوع<sup>(٩)</sup> فيما يحب، فلما سمعن رضي الله عنهن هذا التخويف والتأديب، بادرن إلى رضارسول الله ﷺ، فكان هذا

أو أراد الحنث، فعليه هذه الكفارة المذكورة، وقوله: ﴿والله مولاكم﴾ أي: متولي أموركم، ومريكم أحسن تربية، في أمور دينكم ودنياكم، وما به يندفع عنكم الشر، فلذلك فرض لكم تحلة إيمانكم، لتبرأ ذمكم، ﴿وهو المعلم الحكيم﴾ الذي أحاط علمه بظواهركم وبواطنكم، وهو الحكيم في جمع ما خلقه وحكم به، فلذلك شرع لكم من الأحكام، ما يعلم أنه موافق لمصالحكم، ومناسب لأحوالكم.

﴿وقوله﴾: [﴿وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً﴾] قال كثير من المفسرين: هي حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، أسر لها النبي ﷺ حديثاً، وأمر أن لا تخبر به أحداً، فحدثت به عائشة رضي الله عنها، وأخبره الله بذلك الخبر الذي أذاعته، فعرفها ﷺ ببعض ما قالت، وأعرض عن بعضه، كرمأ منه ﷺ وحلماً، ف «قالت»: له: «من أنبأك هذا» الخبر الذي لم يخرج منأ؟ «قال نبأني المعلم الحبير» الذي لا تخفى عليه خافية، يعلم السر وأخفى، [وقوله]: [﴿إن تنوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما﴾] الخطاب للزوجتين الكريمتين من أزواجه ﷺ عائشة وحفصة رضي الله عنهما، كانتا سبباً لتحريم النبي ﷺ على نفسه ما يحبه، فعرض الله عليهما التوبة، وعاتبهما على ذلك، وأخبرهما أن قلوبهما<sup>(١٠)</sup> قد صغت أي: مالت وانحرفت عما ينبغي لهن، من الورع والأدب مع الرسول ﷺ واحترامه، وأن لا يشققن عليه، ﴿وإن تطاهرا عليه﴾ أي: تعاونا<sup>(١١)</sup> على ما يشق عليه، ويستمر هذا الأمر منكن،

تبنتني﴾ بذلك التحريم «مرضاة أزواجك والله غفور رحيم﴾ هذا تصريح بأن الله قد غفر لرسوله، ورفع عنه اللوم، ورحمه، وصار ذلك التحريم الصادر منه سبباً لشرع حكم عام لجميع الأمة، فقال تعالى حاكماً حكماً عاماً في جميع الأيمان: ﴿قد فرض الله لكم تحلة إيمانكم﴾<sup>(١٢)</sup> أي: قد شرع لكم، وقدر ما به تنحل إيمانكم قبل الحنث، وما به الكفارة<sup>(١٣)</sup> بعد الحنث، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا﴾ إلى أن قال: ﴿فكفارتها إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، ذلك كفارة إيمانكم إذا حلفتم﴾.

فكل من حرم حلالاً عليه، من طعام أو شراب أو سرية، أو حلف يميناً بالله، على فعل أو ترك، ثم حث

- (١) في ب: فقال تعالى: ﴿قد فرض الله لكم تحلة إيمانكم﴾ وهذا عام في جميع إيمان المؤمنين.
- (٢) في ب: وما به تكفر.
- (٣) في ب: أن قلوبكما.
- (٤) في ب: تعاونا.
- (٥) في ب: أنصاره.
- (٦) في ب: وغيره أن بناوته فهو مخذول.
- (٧) في ب: لا يضيع.
- (٨) في ب: سيجد.

ما هم عليه من أنواع الضلال، وجهادهم بالسلاح والقتال لمن أبى أن يجيب دعوة الله ويتقاد لحكمه، فإن هذا يجاهد ويغفل له، وأما المرتبة الأولى، فتكون بالتي هي أحسن، فالكفار والمنافقون لهم عذاب في الدنيا، بتسليط الله لرسوله وحزبه [عليهم و] على جهادهم وقتالهم، وعذاب النار في الآخرة وبئس المصير، الذي يصير إليها كل شقي خاسر.

﴿١٠ - ١٢﴾ ﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين \* وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين \* ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين﴾ هذان المثالان اللذان ضربهما الله للمؤمنين والكافرين، ليبين لهم أن اتصال الكافر بالمؤمن وقربه منه لا يفيد شيئاً، وأن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئاً مع قيامه بالواجب عليه.

فكان في ذلك إشارة وتحذيراً لزوجات النبي ﷺ عن المعصية، وأن اتصالهن به ﷺ لا ينفعهن شيئاً مع الإساءة، فقال:

﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا﴾ أي: المرأتان ﴿تحت عبدين من عبادنا صالحين﴾ وهما نوح ووط عليهما السلام.

﴿فخانتاهما﴾ في الدين، بأن كانتا على غير دين زوجيهما، وهذا هو المراد بالخيانة، لا خيانة النسب والفراش، فإنه ما بغت امرأة نبي قط، وما كان الله ليجعل امرأة أحد من أنبيائه

لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ أي: يوبخ أهل النار يوم القيامة بهذا التوبيخ، فيقال لهم: ﴿يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم﴾ [أي: فإنه ذهب وقت الاعتذار، وزال نفعه، فلم يبق الآن إلا الجزاء على الأعمال، وأنتم لم تقدموا إلا الكفر بالله، والتكذيب بآياته، وحقارة رسله وأوليائه.

﴿٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسمى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا آثم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير﴾ قد أمر الله بالتوبة النصوح في هذه الآية، ووعد عليها بتكفير السيئات، ودخول الجنات، والفوز والفلاح، حين يسمى المؤمنون يوم القيامة بنور إيمانهم، ويمشون بضيائه، ويتمتعون بروحه وراحته، ويشفقون إذا طفت الأنوار، التي تعطى المنافقين، ويسألون الله، أن يتمم<sup>(٨)</sup> لهم نورهم، فيستجيب الله دعوتهم، ويوصلهم ما<sup>(٩)</sup> معهم من النور واليقين، إلى جنات النعيم، وجوار الرب الكريم، وكل هذا من آثار التوبة النصوح.

والمراد بها: التوبة العامة الشاملة للذنوب كلها، التي عقدها العبد لله، لا يريد بها إلا وجهه<sup>(٨)</sup> والقرب منه، ويستمر عليها في جميع أحواله.

﴿٩﴾ ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلق عليهم وماوهم جهنم وبئس المصير﴾ يأمر [الله] تعالى نبيه ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين، والإغلاظ عليهم في ذلك، وهذا شامل لجهادهم بإقامة الحججة [عليهم ودعوتهم] بالموعظة الحسنة<sup>(٩)</sup>، وإبطال

الوصف منطبقاً عليهن، فصرن أفضل نساء المؤمنين، وفي هذا دليل على أن الله لا يختار لرسوله ﷺ إلا أكمل الأحوال وأعلى الأمور، فلما اختار الله لرسوله بقاء نسائه المذكورات معه دل على أنهن خير النساء وأكملهن.

﴿٦﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويقعلون ما يؤمرون﴾ أي: يا من آمن بالله عليهم بالإيمان، قوموا بلوازمه وشروطه.

﴿قوا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾ موصوفة بهذه الأوصاف الفظيعة، ووقاية الأنفس بالزمامها أمر الله، والقيام بأمره امتثالاً، ونهيه اجتناباً، والتوبة عما يسخط الله ويوجب العذاب، ووقاية الأهل [والأولاد]، بتأديبهم وتعليمهم، وإجبارهم على أمر الله، فلا يسلم العبد إلا إذا قام بما أمر الله به في نفسه، وفيما يدخل<sup>(١١)</sup> تحت ولايته من الزوجات والأولاد وغيرهم ممن هو تحت ولايته وتصرفه.

ووصف الله النار بهذه الأوصاف، ليزجر عباده عن التهاون بأمره، فقال: ﴿وقودها الناس والحجارة﴾ كما قال تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾. ﴿عليها ملائكة غلاظ شداد﴾ أي: غليظة أخلاقهم، عظيم<sup>(١٢)</sup> انتهازمهم، يفرعون بأصواتهم، ويخيفون<sup>(١٣)</sup> بصرهم، ويبتون أصحاب النار بقوتهم، ويمثلون<sup>(١٤)</sup> فيهم أمر الله، الذي حثم عليهم العذاب<sup>(١٥)</sup> وأوجب عليهم شدة العقاب، ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويقعلون ما يؤمرون﴾ وهذا فيه أيضاً مدح للملائكة الكرام، وانقيادهم لأمر الله، وطاعتهم له في كل ما أمرهم به.

﴿٧﴾ ﴿يا أيها الذين كفروا

(١) في ب: وفيمن يدخل.

(٢) في ب: شديد.

(٣) في ب: ويزعجون.

(٤) في ب: ويفدون.

(٥) في ب: بالعذاب.

(٦) في ب: يتم.

(٧) في ب: بما.

(٨) في ب: إلا وجه الله.

(٩) كذا في ب، وفي أ: بإقامة الحججة

والموعظة الحسنة.

ملك الدنيا، ﴿الذي خلق سبع سماوات طباقاً﴾ أي: كل واحدة فوق الأخرى، ولسن طبقة واحدة، وخلقها في غاية الحسن والإتقان، ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ أي: خلل ونقص.

وإذا انتفى النقص من كل وجه، صارت حسنة كاملة، متناسبة من كل وجه، في لونها وهيئتها وارتفاعها، وما فيها من الشمس والقمر والكواكب النيرات، الثوابت منهن والسيارات. ولما كان كمالها معلوماً، أمر [الله] تعالى بتكرار النظر إليها والتأمل في أركانها، قال:

﴿فارجع البصر﴾ أي: أعده إليها، ناظراً معتبراً ﴿هل ترى من فطور﴾ أي: نقص واختلال، ﴿ثم ارجع البصر كرتين﴾ والمراد بذلك: كثرة التكرار ﴿ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾ أي: عاجزاً عن أن يرى خلاً أو فطوراً، ولو حرص غاية الحرص.

ثم صرح بذكر حسنها، فقال: ﴿٥٥ - ١٠﴾ ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير﴾ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ﴿إذا لقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور﴾ تكاد تميز من الفيض كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ﴿قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير﴾ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير

أي: ولقد جملنا ﴿السماء الدنيا﴾ التي ترونها وتليكم، ﴿بمصابيح﴾ وهي النجوم، على اختلافها في النور والضياء، فإنه لولا ما فيها من النجوم، لكان سقفاً مظلماً، لا حسن فيه ولا جمال.

ولكن جعل الله هذه النجوم زينة

في كمال العلم والعمل.

تمت لله الحمد

### تفسير سورة الملك [وهي] مكية

﴿١ - ٤﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير﴾ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور ﴿الذي خلق سبع سماوات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور﴾ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾ أي: تعاضم وتعالى، وكثر خيره، وعم إحسانه، من عظمته أن بيده ملك العالم العلوي والسفلي، فهو الذي خلقه، ويتصرف فيه بما شاء، من الأحكام القدورية، والأحكام الدينية، التابعة لحكمته، ومن عظمته، كمال قدرته التي يقدرها على كل شيء، وبها أوجد ما أوجد من المخلوقات العظيمة، كالسماوات والأرض.

وخلق الموت والحياة أي: قدر لعباده أن يجيهم ثم يميتهم ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ أي: أخلصه وأصوبه، فإن<sup>(١)</sup> الله خلق عباده، وأخرجهم لهذه الدار، وأخبرهم أنهم سيقبلون منها، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالشهوات المعارضة لأمره، فمن انقاد لأمر الله وأحسن العمل، أحسن الله له الجزاء في الدارين، ومن مال مع شهوات النفس، ونبذ أمر الله، فله شر الجزاء.

﴿وهو العزيز﴾ الذي له العزة كلها، التي قهر بها جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقات.

﴿الغفور﴾ عن السيئ والمقصرين والمذنبين، خصوصاً إذا تابوا وأنابوا، فإنه يغفر ذنوبهم، ولو بلغت عنان السماء، ويستر عيوبهم، ولو كانت

بغياً، ﴿فلم يغنيا﴾ أي: نوح ولو ط ﴿عنهما﴾ أي: عن أمر أيهما ﴿من الله شيئاً وقيل﴾ لهما ﴿ادخلا النار مع الداخلين﴾.

﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون﴾ وهي آسية بنت مزاحم رضي الله عنها، ﴿إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين﴾ فوصفها الله بالإيمان والتضرع لربها، وسؤالها لربها أجل المطالب، وهو دخول الجنة، ومجاورة الرب الكريم، وسؤالها أن ينجيها الله من فتنه فرعون وأعماله الخبيثة، ومن فتنه كل ظالم، فاستجاب الله لها، فعاشت في إيمان كامل، وثبات تام، ونجاة من الفتن، ولهذا قال النبي ﷺ: ﴿كامل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام﴾. [وقوله: ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها﴾ أي: صانته وحفظته عن الفاحشة، لكمال ديانتها، وعفتها، ونزاهتها.

﴿فتفخنا فيه من روحنا﴾ بأن نفخ جبريل [عليه السلام] في جيب درعها، فوصلت نفخته إلى مريم، فجاء منها عيسى ابن مريم [عليه السلام]، الرسول الكريم والسيد العظيم.

﴿وصدقت بكلمات ربها وكتبه﴾ وهذا وصف لها بالعلم والمعرفة، فإن التصديق بكلمات الله، يشمل كلماته الدينية والقدورية، والتصديق بكتبه، يقتضي معرفة ما به يحصل التصديق، ولا يكون ذلك إلا بالعلم والعمل، [ولهذا قال] ﴿وكانت من القانتين﴾ أي: المطيعين لله، المتدومين على طاعته<sup>(١)</sup> بخشية وخشوع، وهذا وصف لها بكمال العمل، فإنها رضي الله عنها صديقة، والصديقية:

(١) في ب: أي المتدومين على

للسماء [وجمالات]، ونوراً وهداية يبتدى بها في ظلمات البر والبحر، ولا ينافي إخباره أنه زين السماء الدنيا بمصابيح، أن يكون كثير من النجوم فوق السماوات السبع، فإن السماوات شفافة، وبذلك تحصل الزينة للسماء الدنيا، وإن لم تكن الكواكب فيها، **﴿وجملناها﴾** أي: المصابيح **﴿رجوماً للشياطين﴾** الذين يريدون استراق خبر السماء، فجعل الله هذه النجوم حراسة للسماء عن تلف الشياطين أخبار الأرض، فهذه الشهب التي ترمى من النجوم، أعدها الله في الدنيا للشياطين، **﴿واعتدنا لهم﴾** في الآخرة

**﴿وقالوا﴾** معترفين بعدم أهليتهم للهدى والرشاد: **﴿لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾** فنفاوا عن أنفسهم طرق الهدى، وهي السمع لما أنزل الله، وجاءت به الرسل، والعقل الذي ينفع صاحبه، ويوقفه على حقائق الأشياء، وإيثار الخير، والانزجار عن كل ما عاقبته ذميمة، فلا سمع لهم! ولا عقل، وهذا بخلاف أهل اليقين والعرفان، وأرباب الصدق والإيمان، فإنهم أبدوا إيمانهم بالأدلة السمعية، فسمعوا ما جاء من عند الله، وجاء به رسول الله علماً ومعرفة وعملاً.

**﴿عذاب السعير﴾** لأنهم تمردوا على الله، وأضلوا عباده، ولهذا كان أتباعهم من الكفار مثلهم، قد أعد الله لهم عذاب السعير، فلماذا قال: **﴿وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير﴾** الذي يهان به أهله<sup>(١)</sup> غاية الهوان، **﴿إذا ألقي فيها﴾** على وجه الإهانة والذل **﴿سمعوا لها شهيقاً﴾** أي: صوتاً عالياً فظيماً، **﴿تكاد تميز من الغيظ﴾** أي: تكاد على اجتماعها أن يفارق بعضها بعضاً، وتقطع من شدة غيظها على الكفار، فما ظنك ما تفعل بهم، إذا حصلوا فيها؟! ثم ذكر توبيخ الخزنة لأهلها، فقال: **﴿كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير﴾** أي: حالكم هذا واستحقاقكم النار، كأنكم لم تحبوا عنها، ولم تحذروكم النذر منها، **﴿قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير﴾** فجمعوا بين تكذيبهم الخاص، والتكذيب العام بكل ما أنزل الله ولم يكفهم ذلك، حتى أعلنوا بضلال الرسل التنذرين وهم الهداة المهتدون، ولم يكتفوا بمجرد الضلال، بل جعلوا ضلالهم ضلالاً كبيراً، فأبى عناد وتكبر وظلم يشبه هذا؟

والأدلة العقلية: المعرفة للهدى من الضلال، والحسن من القبيح، والخير من الشر، وهم - في الإيمان - بحسب ما من الله عليهم به من الاقتداء بالعقول والمنقول، فسيحان من يختص بفضله من يشاء، ويمن على من يشاء من عباده، ويخذل من لا يصلح للخير.

قال تعالى عن هؤلاء الداخلين للنار، المعترفين بظلمهم وعنادهم: **﴿١١﴾** **﴿فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير﴾** أي: بعبادتهم وخسارة وشقاء. فما أشقاهم وأرداهم، حيث فاتهم ثواب الله، وكانوا ملازمين للسعير، التي تستعر في أبدانهم، وتطلع على أفئدتهم!

**﴿١٢﴾** **﴿إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير﴾** لما ذكر حالة الأشقياء الفجار، ذكر حالة السعداء الأبرار<sup>(٢)</sup>، فقال: **﴿إن الذين يخشون ربهم بالغيب﴾** أي: في جميع أحوالهم، حتى في الحالة التي لا يطلع عليهم فيها إلا الله، فلا يقدمون على معاصيه، ولا يقصرون فيما أمر به<sup>(٣)</sup>، **﴿لهم مغفرة﴾** لذنوبهم، وإذا غفر الله ذنوبهم، وقاهم شرها، وقاهم عذاب

(١) في ب: التي يهان بها أهلها.  
(٢) في ب: ذكر وصف الأبرار السعداء.  
(٣) في ب: ولا يقصرون عما أمرهم به.



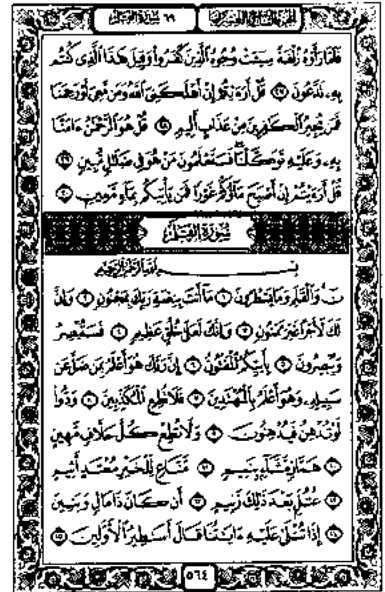
الحكيم، ولهم أجر كبير وهو ما أعده الله لهم في الجنة، من النعيم المقيم، والملك الكبير، واللذات [المواصلات] والمشتهيات، والقصور [المنازل] العاليات، والحدود الحسان، والخدم والولدان.

وأعظم من ذلك وأكبر رضا الرحمن، الذي يحله الله على أهل الجنان<sup>(٤)</sup>.

**﴿١٣ - ١٤﴾** **﴿وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور﴾** \* ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير؟ هذا إخبار من الله بسعة علمه، وشمول لطفه، فقال: **﴿وأسروا قولكم أو اجهروا به﴾** أي: كلها سواء لديه، لا يخفى عليه منها خافية، ف **﴿إنه عليم بذات الصدور﴾** أي: بما فيها من النيات والإرادات، فكيف بالأقوال والأفعال، التي تسمع وترى؟! ثم قال - مستدلاً بدليل عقلي على علمه -: **﴿ألا يعلم من خلق﴾** فمن خلق الخلق وأتقنه وأحسنه، كيف لا يعلمه؟! **﴿وهو اللطيف الخبير﴾** الذي لطف علمه وخبره، حتى أدرك السرائر والضمائر، والخبائيا والحقايا والغيوب، وهو الذي **﴿يعلم السر**

(٤) في ب: الذي يحله على ساكني الجنان.

(٤) في ب: الذي يحله على ساكني الجنان.



﴿٢٠ - ٢١﴾ \* أمن هذا الذي هو جنّد لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور \* أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور ﴿ يقول تعالى للعتاة النافرين عن أمره، المعرضين عن الحق:

نذير \* ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان تكبير ﴿ هذا تهديد ووعيد لمن استمر في طغيانه وتعديه، وعصيانه الموجب للنكال وحلول العقوبة، فقال: ﴿الأمتم من في السماء﴾ وهو الله تعالى، العلي على خلقه.

﴿أمن هذا الذي هو جنّد لكم ينصركم من دون الرحمن﴾ أي: ينصركم إذا أراد بكم الرحمن سوءاً، فيدفعه عنكم؟ أي: من الذي ينصركم على أعدائكم غير الرحمن؟ فإنه تعالى هو الناصر المعز المذل، وغيره من الخلق لو اجتمعوا على نصر عبد، لم ينعوه مثقال ذرة، على أي عدو كان، فاستمرار الكافرين على كفرهم، بعد أن علموا أنه لا ينصرهم أحد من دون الرحمن، غرور وسفّه.

﴿أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور﴾ بكم وتضطرب، حتى تتلفكم وتهلككم (١)

﴿أم أمتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً﴾ أي: عذاباً من السماء يعصبكم، وينتقم الله منكم ﴿فستعلمون كيف نذير﴾ أي: كيف يأتيكم ما أنذرتكم به الرسل والكتب، فلا تحسبوا أن أمتمكم من الله أن يعاقبكم بعقاب من الأرض ومن السماء ينفعكم، فستجدون عاقبة أمركم، سواء طال عليكم الزمان (٢) أو قصر، فإن من قبلكم، كذبوا كما كذبتم، فأهلكهم الله تعالى، فانظروا كيف إنكار الله عليهم، عاجلهم بالعقوبة الدنيوية قبل عقوبة الآخرة، فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم.

﴿أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه﴾ أي: الرزق كله من الله، فلو أمسك عنكم رزقه، فمن الذي يرسله لكم؟ فإن الخلق لا يقدر على رزق أنفسهم، فكيف بغيرهم؟ فالرازق المنعم، الذي لا يصيب العباد نعمة إلا منه، هو الذي يستحق أن يفرد بالعبادة، ولكن الكافرون ﴿لجوا﴾ أي: استمروا ﴿في عتو﴾ أي: قسوة وعدم لين للحق ﴿ونفور﴾ أي: شرود عن الحق.

﴿١٩﴾ ﴿أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير﴾ وهذا عتاب وحث على النظر إلى حالة الطير التي سخرها الله، وسخر لها الجو والهواء، تصف فيه أجنحتها للطيّان، وتقبضها للوقوع، فتظل سابحة في الجو، مترددة فيه بحسب إرادتها وحاجتها.

﴿٢٢﴾ ﴿أمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم﴾ أي: أي الرجلين أهدى؟ من كان تاتها في الضلال، غارقاً في الكفر قد انتكس قلبه، فصار الحق عنده باطلاً، والباطل حقاً؟ ومن كان عالماً بالحق، مؤثراً له، عاملاً به، يمشي على الصراط المستقيم في أقواله وأعماله وجميع أحواله؟ فبمجرد النظر إلى حال هذين الرجلين، يعلم الفرق بينهما، والمهتدي من الضال منهما، والأحوال أكبر شاهد من الأقوال.

﴿ما يمسكهن إلا الرحمن﴾ فإنه الذي سخر لهن الجو، وجعل أجسادهن وخلقتهن (٣) في حالة مستعدة للطيّان، فمن نظر في حالة الطير واعتبر فيها، دلته على قدرة البارئ وعنايته الربانية، وأنه الواحد الأحد، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ﴿إنه بكل شيء بصير﴾ فهو المدير لعباده بما يليق بهم، وتقضيه حكمته.

﴿٢٣ - ٢٦﴾ ﴿قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾ قل هو

وأخفى ﴿ ومن معاني اللطيف، أنه الذي يلفظ بعبده ووليه، فيسوق إليه البر والإحسان من حيث لا يشعر، ويعصمه من الشر من حيث لا يحتسب، ويرقيه إلى أعلى المراتب بأسباب لا تكون من [العبد] على بال، حتى إنه يذيقه المكار، ليتوصل بها إلى المحاب الجليلة، والمقامات النبيلة.

﴿١٥﴾ ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾ أي: هو الذي سخر لكم الأرض وذلّلها، لتدركوا منها كل ما تملقت به حاجتكم، من غرس وبناء وحرث، وطرق يتوصل بها إلى الأقطار النائية والبلدان الشاسعة، ﴿فامشوا في مناكبها﴾ أي: لطلب الرزق والمكاسب.

﴿وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾ أي: بعد أن تنتقلوا من هذه الدار التي جعلها الله امتحاناً، وبلغت بتبليغ بها إلى الدار الآخرة، تبعثون بعد موتكم، وتمشرون إلى الله، ليجازيكم بأعمالكم الحسنة والسنة.

﴿١٦ - ١٨﴾ ﴿الأمتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور﴾ أم أمتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف

(١) في ب: حتى تهلكوا وتتلفوا. (٢) في ب: الأمد. (٣) في ب: وجعل أجسادها وخلقتها.

الذي ذرأكم فسي الأرض وإليه تمحرون \* ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين \* قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين \* يقول تعالى - مبيناً أنه المعبود وحده، وداعياً عباده إلى شكره، وإفراده بالعبادة - : ﴿قل هو الذي أنشأكم﴾ أي : أوجدكم من العدم، من غير معاون له ولا مظاهر، ولما أنشأكم، كمل لكم الوجود بالسمع والأبصار والأفتدة، التي هي أنفع أعضاء البدن<sup>(١)</sup>، وأكمل القوى الجسمانية، ولكنه<sup>(٢)</sup> مع هذا الإنعام ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ الله، قليل منكم الشاكر، وقليل منكم الشكر.

﴿قل هو الذي ذرأكم في الأرض﴾ أي : ينكم في أقطارها، وأسكنكم في أرجائها، وأمركم، ونهاكم، وأسدى عليكم من النعم، ما به تنتفمون، ثم بعد ذلك يمشركم ليوم القيامة، ولكن هذا الوعد بالجزء، ينكره هؤلاء المعاندون ﴿ويقولون﴾ تكذياً:

﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ جعلوا علامة صدقهم أن يخبروا<sup>(٣)</sup> بوقت مجيئه، وهذا ظلم وعناد، فإنما العلم عند الله لا عند أحد من الخلق، ولا ملازمة بين صدق هذا الخبر وبين الإخبار بوقته، فإن الصدق يعرف بأدلته، وقد أقام الله من الأدلة والبراهين على صحته ما لا يبقى معه أدنى شك لمن ألقى السمع وهو شهيد.

﴿٢٧ - ٣٠﴾ ﴿فلناراه زلفاً﴾ سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذي كنتم به تدعون \* قل أرايتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمتنا فمن ينجي الكافرين من عذاب اليم \* قل هو الرحمن أمتنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين \* قل أرايتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين﴾ يعني أن محل تكذيب الكفار وغرورهم به حين كانوا في الدنيا، فإذا

كان يوم الجزاء، وأراو العذاب منهم ﴿زلفاً﴾ أي : قريباً، ساءهم ذلك وأظعمهم، وقلقل أفئدتهم، فتغيرت لذلك وجوههم، ووبخوا على تكذيبهم، وقيل لهم هذا الذي كنتم به تكذبون، فالיום رأيتموه عياناً، وانجل لكم الأمر، وتقطعت بكم الأسباب ولم يبق إلا مباشرة العذاب.

ولما كان المكذبون للرسول ﷺ، الذين يردون دعوته، ينتظرون هلاكه، وينربصون به ريب المنون، أمره الله أن يقول لهم: أنتم<sup>(٤)</sup> وإن حصلت لكم أمانيكم<sup>(٥)</sup>، وأهلكني الله ومن معي، فليس ذلك ينافع لكم شيئاً، لأنكم كفرتم بآيات الله، واستحققت العذاب، فمن ينجيكم من عذاب اليم قد تحتم وقوعه بكم؟ فإذا، تعبككم وحرصكم على هلاككم غير مفيد، ولا مجد عنكم شيئاً.

ومن قولهم، إنهم على هدى، والرسول على ضلال، أعادوا في ذلك وأبدوا، وجادلوا عليه وقاتلوا، فأمر الله نبيه أن يخبر عن حاله وحال أتباعه، ما به يتبين لكل أحد هداهم وتقواهم، وهو أن يقولوا: ﴿أمتنا به وعليه توكلنا﴾ والإيمان يشمل التصديق الباطن، والأعمال الباطنة والظاهرة، ولما كانت الأعمال، وجودها وكمالها، متوقفة على التوكل، خص الله التوكل من بين سائر الأعمال، وإلا فهو داخل في الإيمان، ومن جملة لوازمه كما قال تعالى: ﴿وعلى الله فتركلوا إن كنتم مؤمنين﴾ فإذا كانت هذه حال الرسول وحال من اتبعه، وهي الحال التي تعين للفلاح، وتتوقف عليها السعادة، وحالة أعدائه بضدها، فلا إيمان [لهم] ولا توكل، علم بذلك من هو على هدى، ومن هو في ضلال مبين.



ثم أخبر عن انفراده بالنعم، خصوصاً بلاء الذي جعل الله منه كل شيء حياً، فقال: ﴿قل أرايتم إن أصبح ماؤكم غوراً﴾ أي : غائراً ﴿فمن يأتيكم بماء معين﴾ تشربون منه، وتسقون أنعامكم وأشجاركم وزروعكم؟ وهذا استفهام بمعنى النفي أي : لا يقدر أحد على ذلك غير الله تعالى.

تمت والله الحمد<sup>(٦)</sup>

**تفسير سورة ن وهي مكية**

﴿١ - ٧﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ن والقلم وما يسطرون \* ما أنت بنعمة ربك بمجنون \* وإن لك لأجراً غير ممنون \* وإنك لملئ خلق عظيم \* فستبصر ويبصرون \* بأيكم الفتون \* إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ يقسم تعالى بالقلم، وهو اسم جنس شامل للأقلام، التي تكتب بها [أنواع] العلوم، ويسطر بها المنثور والمنظوم، وذلك أن القلم وما يسطرون به من أنواع الكلام، من آيات الله العظيمة، التي تستحق أن يقسم الله بها، على

(٦) في ب: تم تفسير سورة الملك والحمد لله.

(٣) في ب: أن يخبروهم.

(٤) في ب: إنكم.

(٥) في ب: أمانيكم.

(١) في ب: وهذه الثلاثة هي أفضل أعضاء البدن.

(٢) في ب: ولكنكم.



فلولا استثنيتكم فقلتم: «إن شاء الله»، وجعلتم مشيبتكم تابعة لمشيئة الله، لما جرى عليكم ما جرى، فقالوا: ﴿سبحان ربنا إنا كنا ظالمين﴾ أي: استدركوا بعد ذلك، ولكن بعدما وقع العذاب على جنتهم، الذي لا يرفع، ولكن لحل تسيبهم هذا، وإقرارهم على أنفسهم بالظلم، يتفهم في تخفيف الإثم ويكون توبة، ولهذا ندعوا تدامة عظيمة، ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتسلاومون﴾ فيما أجروه وفعلوه،

﴿قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين﴾ أي: تجاوزين للحد في حق الله وحق عباده، ﴿عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون﴾ فهم رجوا الله أن يبدلهم خيراً منها، ووعدوا أنهم سيرغبون إلى الله، ويلحون عليه في الدنيا، فإن كانوا كما قالوا، فالظاهر أن الله أبدلهم في الدنيا خيراً منها، لأن من دعا الله صادقاً، ورغب إليه ورجاه، أعطاه سؤلَه.

قال تعالى مبيناً<sup>(٤١)</sup> ما وقع: ﴿كذلك العذاب﴾ [أي: العذاب الذي يسلب الله العبد الشيء الذي طغى به وبغى، وأثر الحياة الدنيا، وأن يزيد عنه، أحوج ما يكون إليه].

﴿وللعذاب الآخرة أكبر﴾ من عذاب الدنيا ﴿لو كانوا يعلمون﴾ فإن من علم ذلك، أوجب له الانزعاج عن كل سبب يوجب العذاب ويحصل العقاب<sup>(٤٥)</sup>.

﴿٣٤ - ٤١﴾ ﴿إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم﴾ أفنجل المسلمين كالمجرمين \* ما لكم كيف تحكمون \* أم لكم كتاب فيه تدرسون \* إن لكم فيه ما لا تخبرون \* أم لكم إيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم ما تحكمون \* سلمهم بذلك زعيم \* أم لهم شركاء فليأتوا بشركتهم إن كانوا صادقين﴾ يخبر تعالى بما أعده للمتقين للكفر والمعاصي، من أنواع

اغترار أصحاب الجنة، الذين هم فيها شركاء، حين زهت ثمارها وأبنتت أشجارها، وأن وقت صرامها، وحزموا أنها في أيديهم وطوع أمرهم، [وأأنه] ليس ثم مانع يمنعهم منها، ولهذا أقسموا وحلقوا من غير استثناه، أنهم سيصرمونها أي: يجذونها مصبحين، ولم يدروا أن الله بالمرصاد، وأن العذاب سيخلفهم عليها، ويأدرهم إليها.

﴿فطاف عليها طائف من ربك﴾ أي: عذاب نزل عليها ليلاً ﴿وهم نائمون﴾ فأبادها وأتلفها ﴿فأصبحت كالصريم﴾ أي: كالليل المظلم، ذهبت الأشجار والشمار، وهذا وهم لا يشعرون بهذا الواقع الملم، ولهذا تنادوا فيما بينهم لما أصبحوا يقول بعضهم لبعض: ﴿اغدوا على حرتكم إن كنتم صارمين﴾ فانتطلقوا قاصدين له<sup>(٤٢)</sup> ﴿وهم يتخافتون﴾ فيما بينهم، ولكن يمنع حق الله، ويقولون: ﴿لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين﴾ أي: بكروا قبل انتشار الناس، وتواصوا مع ذلك، بمنع الفقراء والمساكين، ومن شدة حرصهم وبخلهم، أنهم يتخافتون بهذا الكلام مخافة، خوفاً أن يسمعهم أحد، فيخبر الفقراء. ﴿وغدوا﴾ في هذه الحالة الشنيعة، والقسوة، وعدم الرحمة ﴿على حرد قادرين﴾ أي: على إمساك ومنع حق الله، جازمين بقدرتهم عليها، ﴿فلما رأوها﴾ على الوصف الذي ذكر الله كالصريم، ﴿قالوا﴾ من الحيرة والانزعاج. ﴿إنا لضالون﴾ [أي: تائهون] عنها، لعلها غيرها، فلما تحققوها، ورجعت إليهم عقولهم، قالوا: ﴿بل نحن محرمون﴾ منها، فعرفوا حيثشذ أنه عقوبة، ف ﴿قال أوسطهم﴾ أي: أعدلهم وأحسنهم طريقة: ﴿ألم أقل لكم لولا تسبحون﴾ أي: تنزهون الله عما لا يليق به، ومن ذلك، ظنكم أن قدرتكم مستقلة،

ينتج منها الخير، بل أخلاقه أقبح الأخلاق، ولا يرجى منه فلاح، له زمنة أي: علامة في الشر يعرف بها.

وحاصل هذا، أن الله تعالى نبه عن طاعة كل حلاف كذاب، خسيس النفس، سييء الأخلاق، خصوصاً الأخلاق المتضمنة للإعجاب بالنفس، والتكبر عن الحق وعلى الخلق، والاحتقار للناس، كالغيبة والنميمة، والظعن فيهم، وكثرة المعاصي.

وهذه الآيات - وإن كانت نزلت في بعض المشركين، كالوليد بن المغيرة أو غيره، لقوله عنه: ﴿أن كان ذامال وبين﴾ إذا تلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾ أي: لأجل كثرة ماله وولده، طغى واستكبر عن الحق، ودفعه حين جاءه، وجعله من جملة أساطير الأولين، التي يمكن صدقها وكذبتها - فإنها عامة في كل من اتصف بهذا الوصف، لأن القرآن نزل لهدياية الخلق كلهم، ويدخل فيه أول الأمة وآخرهم، وربما نزل بعض الآيات في سبب أو في شخص من الأشخاص، لتتضح به القاعدة العامة، ويعرف به أمثال الجزئيات الداخلة في القضايا العامة.

ثم توعد تعالى من جرى منه ما وصف الله، بأن الله سيسمه على خرطوم<sup>(٤٣)</sup> في العذاب، ولعذبه عذاباً ظاهراً، يكون عليه سمة وعلامة، في أشق الأشياء عليه، وهو وجهه.

﴿١٧ - ٣٣﴾ ﴿إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين﴾ ولا يستنون \* فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون﴾ إلى آخر القصة يقول تعالى: إنا بلونا هؤلاء المكذبين بالخير وأمهلتناهم، وأمددناهم بما شئنا من مال وولد، وطول عمر، ونحو ذلك، مما يوافق أهوامهم، لا لكرامتهم علينا، بل ربما يكون استدراجاً لهم من حيث لا يشعرون<sup>(٤٤)</sup>، فاغترارهم بذلك نظير

(٥) في ب: كل سبب يوجب العقاب

ويحرم الثواب.

(٢) في ب: لها.

(٤) في ب: معظماً.

(١) في ب: على الخرطوم.

(٢) في ب: من حيث لا يعلمون.



﴿أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثفلون﴾ أي: ليس لتفورهم عنك، وعدم تصديقهم لما جئت به، سبب يوجب لهم ذلك، فإنك تعلمهم، وتدعوهم إلى الله، لمحضر مصلحتهم، من غير أن تطلبهم من أموالهم مغزماً ينقل عليهم.

﴿أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾ ما كان عندهم من الغيوب، وقد وجدوا فيها أنهم على حق، وأن لهم الثواب عند الله، فهذا أمر ما كان، وإنما كانت حالهم حال معاند ظالم، فلم يبق إلا الصبر لأذاهم، والتحمل لما يصدر منهم، والاستمرار على دعوتهم، ولهذا قال: ﴿فاصبر لحكم ربك﴾ أي: لما حكم به شرعاً وقدرأ، فالحكم القدري، يصبر على المؤذي منه، ولا يتلصق بالسخط والجزع، والحكم الشرعي، يُقَابَل بالقبول والتسليم، والالتقياد التام لأمره.

وقوله: ﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾ وهو يونس بن متى، عليه الصلاة والسلام أي: ولا تشابه في الحال التي أوصلته، وأوجبت له الانحسار في بطن الحوت، وهو عدم صبره على قومه الصبر المطلوب منه، وذهابه مغاضباً لربه، حتى ركب في البحر، فافتقر أهل السفينة حين نقلت بأهلها أيهم يلتمون لكي تحف بهم، فوَقعت القرعة عليه، فالتقمه الحوت وهو مليم، [وقوله] ﴿إذ نادى وهو مكظوم﴾ أي: وهو في بطنها قد كظمت عليه، أو نادى وهو مغتمٌ مهتم، بأن قال: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾. فاستجاب الله له، وفدقته الحوت من بطنها بالعراء وهو سقيم، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين، ولهذا قال هنا: ﴿لولا أن تداركه نعماً من ربه لنبذ

يسجدون لله، طوعاً واختياراً، ويذهب الفجار والمنافقون ليسجدوا فلا يقدرّون على السجود، وتكون ظهورهم كصياصي البقر، لا يستطيعون الانحناء، وهذا الجزء من جنس عملهم، فإنهم كانوا يدعون في الدنيا إلى السجود لله وتوحيده وعبادته وهم سالون، لا علة فيهم، فيستكبرون عن ذلك ويبأبون، فلا تسأل يومئذ عن حالهم وسوء مآلهم، فإن الله قد سخط عليهم، وحقت عليهم كلمة العذاب، وتقطعت أسبابهم، ولم تضعف الندامة ولا الاعتذار يوم القيامة، ففي هذا ما يزعج القلوب عن المقام على المعاصي، و [يوجب] التدارك مدة الإمكان.

ولهذا قال تعالى ﴿٤٤ - ٥٢﴾ ﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون \* وأمل لهم إن كيدي متين \* أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثفلون \* أم عندهم الغيب فهم يكتبون \* فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم \* لولا أن تداركه نعماً من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم \* فاجتبه ربه فجعله من الصالحين \* وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون \* وما هو إلا ذكر للعالمين﴾ أي: دعني والمكذبين بالقرآن العظيم، فإن علي جزاءهم، ولا تستعجل لهم، ف ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ فتمدهم بالأموال والأولاد، وتمدهم في الأرزاق والأعمال، ليغفروا ويستمروا على ما يضرهم، فإن هذا من كيد الله لهم، وكيد الله لأعدائه، متين قوي، يبلغ من ضررهم وعذابهم فوق كل مبلغ<sup>(٤٤)</sup>.

التعظيم والعيش السليم في جوار أكرم الأكرمين، وأن حكمته تعالى لا تقتضي أن يجعل المسلمين<sup>(٤٥)</sup> القانتين لربهم، المتقادين لأوامره، المتبعين لمراضيه كالمجرمين الذين أضعفوا في معاصيه، والكفر بآياته، ومعاندة رسله، ومغاربة أوليائه، وأن من ظن أنه يسويهم في الثواب، فإنه قد أساء الحكم، وأن حكمه حكم باطل، ورأيه<sup>(٤٦)</sup> فاسد، وأن المجرمين إذا ادعوا ذلك، فليس لهم مستند، لا كتاب فيه يدرسون [ويتلون] أنهم من أهل الجنة، وأن لهم ما طلبوا وتحجروا.

وليس لهم عند الله عهد ويمين بالغة إلى يوم القيامة أن لهم ما يحكمون، وليس لهم شركاء وأعوان على إدراك ما طلبوا، فإن كان لهم شركاء وأعوان فلياتوا بهم إن كانوا صادقين، ومن المعلوم أن جميع ذلك منتف، فليس لهم كتاب، ولا لهم عهد عند الله في النجاة، ولا لهم شركاء يعينونهم، فعلم أن دعواهم باطلة فاسدة، وقوله: ﴿سلهم أيهم بذلك زعيم﴾ أي: أيهم الكفيل بهذه الدعوى الفاسدة، فإنه لا يمكن التصدي بها ولا الزعامة فيها<sup>(٤٧)</sup>.

﴿٤٢ - ٤٣﴾ ﴿يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون \* خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالون﴾ أي: إذا كان يوم القيامة، وانكشف فيه من الفلاقل [والزلازل] والأحوال ما لا يدخل تحت الوهم، وأتى الباري لفصل القضاء بين عبادته ومجازاتهم، فكشف عن ساقه الكريمة التي لا يشبهها شيء، ورأى الخلائق من جلال الله وعظمته ما لا يمكن التعبير عنه، فحيث يدعون إلى السجود لله، فيسجد المؤمنون الذين كانوا

(١) في ب: المتقين.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ورأي.

(٣) في ب: بهذه الدعوى التي تبين بطلانها فإنه لا يمكن أحداً أن يتصدر بها، ولا يكون زعيماً فيها.

(٤) في ب: وعقوبتهم كل مبلغ.

بالعراء ﴿أي: لطرخ في العراء، وهي الأرض الخالية وهو مذموم﴾ ولكن الله <sup>(١)</sup> تعمد به رحمة، فبذوه ممدوح، وصارت حاله أحسن من حاله الأولى، ولهذا قال: ﴿فاجتبه ربه﴾ أي: اختاره واصطفاه ونقاه من كل كدر، ﴿فجعل من الصالحين﴾ أي: الذين صلحت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم، [وأحوالهم] فامتثل نبينا محمد ﷺ أمر ربه، فصر لحكم ربه صبراً لا يدركه فيه أحد من العالمين.

فجعل الله له العاقبة ﴿والعاقبة للمتقين﴾ ولم يدرك أعداؤه فيه إلا ما يسوؤهم، حتى إنهم حرصوا على أن يزلقوه بأبصارهم أي: يصيبوه <sup>(٢)</sup> بأعينهم، من حسدهم وغيظهم وحقهم، هذا منتهى ما قدروا عليه من الأذى الفعلي، والله حافظه وناصره، وأما الأذى القولي، فيقولون فيه أقوالاً، بحسب ما توحى إليهم قلوبهم، فيقولون تارة «مجنون»، وتارة «ساحر»، وتارة «شاعر».

قال تعالى: ﴿وما هو إلا ذكر للعالمين﴾ أي: وما هذا القرآن الكريم، والذكر الحكيم، إلا ذكر للعالمين، يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم. تم تفسير سورة القلم، والحمد لله رب العالمين

### تفسير سورة العاقبة وهي مكية

﴿١-٨﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ما العاقبة \* ما العاقبة \* وما أدراك ما العاقبة \* كذبت ثمود وعاد بالقارعة \* فأما ثمود فأهلكوا بالظاغية \* وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية \* سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل

خاوية \* فهل ترى لهم من باقية﴾ ﴿العاقبة﴾ من أسماء يوم القيامة، لأنها تحق وتنزل بالخلق، وتظهر فيها حقائق الأمور، ونجات الصدور، فعظم تعالى شأنها وفتحها، بما كزره من قوله: ﴿العاقبة﴾ \* ما العاقبة \* وما أدراك ما العاقبة﴾ فإن لها شأنًا عظيمًا، وهولاً جسيماً، [ومن عظمتها أن الله أهلك الأمم المكذبة بها بالعذاب العاجل] <sup>(٣)</sup>، ثم ذكر نموذجاً من أحوالها الموجودة في الدنيا المشاهدة فيها، وهو ما <sup>(٤)</sup> أحله من العقوبات البليغة بالأمر العاتية، فقال: ﴿كذبت ثمود﴾ وهم القبيلة المشهورة، سكان الحجر، الذين أرسل الله إليهم رسوله صالحاً عليه السلام، بنهاهم عما هم عليه من الشرك، ويأمرهم بالتروحيد، فردوا دعوتهم وكذبوه، وكذبوا ما أخبرهم به من يوم القيامة، وهي القارعة التي تفرغ الخلق بأهوالها، وكذلك عاد الأولى، سكان حضرموت، حين بعث الله إليهم رسوله هوداً عليه الصلاة والسلام، يدعوهم إلى عبادة الله [وحده]، فكذبوه، وكذبوا بما أخبر <sup>(٥)</sup> به من البعث، فأهلك الله الطائفتين بالهلاك العجل <sup>(٦)</sup>: ﴿فأما ثمود فأهلكوا بالظاغية﴾ وهي الصيحة العظيمة الفظيعة، التي انصدعت منها قلوبهم، وزهقت لها أرواحهم فأصبحوا موتى لا يرى إلا مساكنهم وجثثهم، ﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر﴾ أي: قوية شديدة الهبوب، لها صوت أبلغ من صوت الرعد [القاصف]، ﴿عاتية﴾ ﴿أي: عنت على خزائنها، على قول كثير من المفسرين، أو عنت على عاد، وزادت على الحد كما هو الصحيح، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً﴾ أي: نحسا وشرأ فظيماً عليهم، فدمرتهم وأهلكتهم، ﴿فترى القوم فيها

﴿٩-١٢﴾ ﴿وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخطاة﴾ \* فصصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية \* إنا لما طغيا الماء حملناكم في الجارية \* لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية﴾ وكذلك غير هاتين الأمتين الطاغيتين، عاد وثمود، جاء غيرهم من الطغاة العتاة، كفرعون مصر، الذي أرسل الله إليه عبده ورسوله موسى [ابن عمران] عليه الصلاة والسلام، وأراه من الآيات البينات، ما تيمنون بها الحق، ولكن جحدوا وكفروا، ظلماً وعلواً، وجاء من قبله من المكذبين، ﴿والمؤتفكات﴾ أي: قرى قوم لوط، الجميع جاؤوا بالخطاة﴾ أي: بالفعل الطاغية، وهي <sup>(٧)</sup> الكفر والتكذيب، والظلم والمعاندة، وما انضم إلى ذلك من أنواع الفواحش <sup>(٨)</sup> والفسوق، ﴿فصصوا رسول ربهم﴾ وهذا اسم جنس أي: كل من هؤلاء كذب <sup>(٩)</sup> الرسول الذي أرسله الله إليهم. فأخذ الله الجميع أخذة رابية﴾ أي: زائدة على الحد والمقدار، الذي يحصل به هلاكهم، ومن جملة أولئك، قوم نوح، أغرقهم الله في اليم حين طغى الماء على وجهه [الأرض، وعلا على مواضعها الرفيعة.

وامتنن الله على الخلق الموجودين بعدهم أن الله حملهم ﴿في الجارية﴾ وهي السفينة في أصلاب آبائهم وأسماهم، الذين نجاهم الله، فاهدوا الله واشكروا الذي نجاكم

- (٧) في ب: هو.  
(٨) في ب: المعاصي.  
(٩) في ب: كذبوا.

- (٤) كذا في ب، وفي أ: ومما.  
(٥) في ب وأنكروا ما أخبر به.  
(٦) في ب: العاجل.

- (١) كذا في ب، وفي أ: ولكنه.  
(٢) كذا في ب، وفي أ: أي: يصيبهم.  
(٣) من هاشم أ.

حين أهلك الطاغين، واعتبروا بآياته الدالة على توحيدِهِ، ولهذا قال: ﴿لنجعلها﴾ أي: الجارية، والمراد جنسها، لكم ﴿تذكرة﴾ تذكركم أول سفينة صنعت، وما قصتها، وكيف نجى الله عليها من آمن به واتبع رسوله، وأهلك أهل الأرض كلهم، فإن جنس الشيء مذكر بأصله.

وقوله: ﴿وتعيبها أذن واعية﴾ أي: تغفلها أولو الألباب، ويعرفون المقصود منها ووجه الآية بها.

وهذا بخلاف أهل الإعراض والغفلة، وأهل البلادة وعدم الفطنة، فإنهم ليس لهم انتفاع بآيات الله، لعدم وعيهم عن الله، وفكرهم بآيات الله<sup>(١)</sup>.

﴿١٣ - ١٨﴾ وقوله: ﴿فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة﴾ وحلت الأرض والجيال فدكتا دكة واحدة \* فيومئذ وقعت الواقعة \* وانشقت السماء فهي يومئذ واهية \* والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية \* يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية\* لما ذكر ما فعله تعالى بالكلذين لرسله، وكيف جازاهم وعجل لهم العقوبة في الدنيا، وأن الله نجى الرسل وأتباعهم، كان هذا مقدمة لذكر الجزاء الأخروي، وتوفية الأعمال كاملة يوم القيامة، فذكر الأمور الهائلة التي تقع أمام القيامة، وأن أول ذلك أنه ينفخ إسرافيل ﴿في الصور﴾ إذا تكاملت الأجساد نابئة، ﴿نفخة واحدة﴾ فتخرج الأرواح، فتدخل كل روح في جسدها، فإذا الناس قيام لرب العالمين.

﴿وحملت الأرض والجيال فدكتا دكة واحدة﴾ أي: فتنتت الجبال

واضحلت، وخلطت بالأرض، ونسفت على الأرض، فكان الجميع قاعاً صافصفاً، لا ترى فيها عرجاً ولا أمناً، هذا ما يصنع بالأرض وما عليها، وأما ما يصنع بالسماء، فإنها تضطرب وتمور وتتشفق ويتغير لونها، وتبي بعد تلك الصلابة والقوة العظيمة، وما ذلك إلا لأمر عظيم أزعجها، وكرب جسيم هائل أرهاها وأضعفها.

﴿والمملك﴾ أي: الملائكة الكرام ﴿على أرجائها﴾ أي: على جوانب السماء وأركانها، خاضعين لربهم، مستكينين لعظمته.

﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ أملاك في غاية القوة، إذا أتى للفصل بين العباد، والقضاء بينهم بعدله وقسطه وفضله، ولهذا قال: ﴿يومئذ تعرضون﴾ على الله ﴿لا تخفى منكم خافية﴾ لا من أجسامكم وأجسادكم<sup>(٢)</sup>، ولا من أعمالكم [وصفاتكم]، فإن الله تعالى عالم الغيب والشهادة.

ويجسر العباد حفاةً غرلاً، في أرض مستوية، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، فيحتد بجازيهم بما عملوا، ولهذا ذكر كيفية الجزاء، فقال:

﴿١٩ - ٢٤﴾ ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابي﴾ أي: ظننت أني ملاق حسابي \* فهو في عيشة راضية \* في جنة عالية \* قطوفها دانية \* كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ وهؤلاء هم أهل السعادة، يُعطون كتبهم التي فيها أعمالهم الصالحة بأيامهم، تمييزاً لهم، وتنويهاً بشأنهم، ورفعاً لمقدارهم،

ويقول أحدهم عند ذلك من الفرح والسرور، ومجة أن يطلع الخلق على ما من الله عليه به من الكرامة: ﴿هاؤم اقرؤوا كتابي﴾ أي: دونكم كتابي فاقرؤوه، فإنه يبشر بالجنات، وأنواع الكرامات، ومغفرة الذنوب، وستر العيوب، والذي أوصلني إلى هذه الحال، ما من الله به علي من الإيمان بالبعث والحساب، والاستعداد له، بالممكن من العمل، ولهذا قال: ﴿إني ظننت أني ملاق حسابي﴾ أي: أبقت، فالظن هنا - بمعنى اليقين، فهو في عيشة راضية﴾ أي: جامعة لما تشتهيهِ الأنفس، وتلد الأعين، وقد رضوها، ولم يختاروا عليها غيرها. ﴿في جنة عالية﴾ المنازل والقصور، عالية المحل. ﴿قطوفها دانية﴾ أي: ثمرها وجزانها، من أنواع الفواكه، قريبة، سهلة تناول على أهلها، ينالها أهلها، قياماً وعوداً ومتكئين، ويقال لهم إكراماً: ﴿كلوا واشربوا﴾ أي: من كل طعام لذيق، وشراب شهيق، ﴿هنيئاً﴾ أي: تاماً كاملاً، من غير مكدر ولا منغص.

وذلك الجزاء حصل لكم ﴿بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ من الأعمال الصالحة - وترك الأعمال السيئة<sup>(٣)</sup> - من صلاة، وصيام، وصدقة، وحج، وإحسان إلى الخلق، وذكر الله، وإجابة إليه.

فالأعمال جعلها الله سبباً لدخول الجنة، ومادة لنعيمها، وأصلاً لسعادتها.

﴿٢٥ - ٣٧﴾ ﴿وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابي \* ولم أدر ما حسابي \* يا ليتها كانت القاضية \* ما أغنى عني مالي \* هلك عني سلطاني \* خذوه فغلوه﴾ ثم

(١) في ب: وتفكرهم بآياته.

(٢) في ب: لا من أجسادكم وذواتكم.

(٣) هكذا في المخطوطتين وقد جاءت جملة: (ترك الأعمال السيئة) بين جملة (الأعمال الصالحة) وتفصيل تلك الأعمال فصار في الكلام نوع إيهام مما دفع إلى تأخير جملة: وترك... في الطبقات السابقة، وقد جعلت الكلام كما هو مع الإشارة إلى أنها جملة معترضة.



### تفسير سورة سأل سائل وهي هكية

﴿١-٧﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ \* لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ \* مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ \* تَمْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ \* فَأَصْبَرَ صَبْرًا جَمِيلًا \* إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا \* وَنَاهٍ قَرِيبًا \* يَقُولُ تَعَالَى مِثْنًا لِجَهْلِ الْمُعَانِدِينَ، وَاسْتَعْجَالِهِمْ عَذَابَ اللَّهِ، اسْتِهْزَاءً وَتَعْتَأًا وَتَعْجِيزًا:

﴿سأل سائل﴾ أي: دعا داع، واستفتح مستفتح ﴿بعذاب واقع﴾ للكافرين ﴿ليس له دافع﴾ من الله ﴿من الله﴾ أي: ليس لهذا العذاب الذي استعجل به من استعجل، من متمردي المشركين، أحد يدفعه قبل نزوله، أو يرفعه بعد نزوله، وهذا حين دعا الضمر بن الحارث القرشي أو غيره من المشركين<sup>(١)</sup>، فقال: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ إلى آخر الآيات.

فالعذاب لا بد أن يقع عليهم من الله، فإما أن يعجل لهم في الدنيا، وإما أن يؤخر عنهم إلى الآخرة<sup>(٢)</sup>، فلو عرفوا الله تعالى، وعرفوا عظمته، وسعة سلطانه، وكمال أسمائه وصفاته، لما استعجلوا ولا استسلموا وتأدبوا، ولهذا أخبر تعالى من عظمتهم ما يصاد أقوالهم القبيحة، فقال: ﴿ذِي الْمَعَارِجِ \* تَمْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ أي: ذو العلو والجلال والمعظمة، والتدبير لسائر الخلق، الذي تخرج إليه الملائكة بما دبرها<sup>(٣)</sup> على تدبيره، وتخرج إليه الروح، وهذا اسم جنس يشمل الأرواح كلها، برّها وفاجرها، وهذا عند الوفاة، فإما الأبرار، فتخرج أرواحهم إلى الله، فيؤذن لها من سماء

﴿وإنه﴾ أي: القرآن الكريم ﴿لندكرة للمتقين﴾ يتذكرون به مصالح دينهم وديانهم، فيعرفونها، ويعملون عليها، يذكروهم العقائد الدينية، والأخلاق المرضية، والأحكام الشرعية، فيكونون من العلماء الربانيين، والعباد العارفين، والأئمة المهديين، ﴿وإننا لتعلمن أن منكم مكذبين﴾ به، وهذا فيه تهديد ووعيد للمكذبين، فإنه سيعاقبهم على تكذيبهم بالعقوبة البليغة، ﴿وإنه لحسرة على الكافرين﴾ فإنهم لما كفروا به، ورأوا ما وعدهم به، تحسروا إذ لم يهتدوا به، ولم ينقادوا لأمره، ففاتهم الشواب، وحصلوا على أشد العذاب، وتقطعت بهم الأسباب.

﴿وإنه لحق اليقين﴾ أي: أعلى مراتب العلم، فإن أعلى مراتب العلم اليقين وهو العلم الثابت، الذي لا يتزلزل ولا يزول.

واليقين مراتبه ثلاثة، كل واحدة أعلى مما قبلها:

أولها: علم اليقين، وهو العلم المستفاد من الخبر.

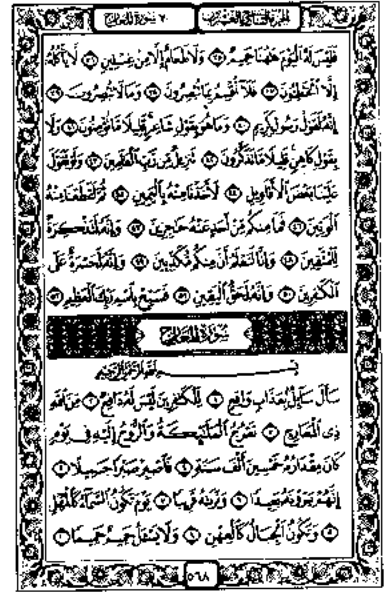
ثم عين اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة البصر.

ثم حق اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة الذوق والمباشرة.

وهذا القرآن الكريم، بهذا الوصف، فإن ما فيه من العلوم المؤيدة بالبراهين القطعية، وما فيه من الحقائق والمعارف الإيمانية، يحصل به لمن ذاقه حق اليقين.

﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ أي: نزهه عما لا يليق بجلاله، وقُدسه بذكر أوصاف جلالة وجماله وكماله.

تم تفسير سورة الحاقة، والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، على كماله وأفضاله وعدله.



البشر<sup>(١)</sup>، بل هو كلام دال على عظمة من تكلم به، وجماله أوصافه، وكمال تربيته لعباده، وعلوه فوق عباده، وأيضاً، فإن هذا ظن منهم بما لا يليق بالله وحكمته فإنه لو نقول عليه<sup>(٢)</sup> وانترى ﴿بعض الأقاويل﴾ الكاذبة، ﴿لأخذنا منه باليمين﴾ ثم لقطعنا منه الوتين، وهو عرق متصل بالقلب، إذا انقطع، مات<sup>(٣)</sup> منه الإنسان، فلو قدر أن الرسول - حاشا وكلا - تقول على الله، لماجله بالعقوبة، وأخذه أخذ عزيز مقتدر، لأنه حكيم، على كل شيء قدير، فحكمته تقتضي أن لا يحهل الكاذب عليه، الذي يزعم أن الله أباح له دماء من خالفه وأموالهم، وأنه هو وأتباعه لهم النجاة، ومن خالفه فله الهلاك.

فإذا كان الله قد أيد رسوله بالمعجزات، وبرهن على صدق ما جاء به بالآيات البينات، ونصره على أعدائه، ومكنه من نواصيهم، فهو أكبر شهادة منه على رسالته، وقوله: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ أي: لو أهلكه، ما امتنع هو بنفسه، ولا قدر أحد أن يمنعه من عذاب الله.

(١) في ب: بما جعلها.

(٤) في ب: المكذبين.

(٥) في ب: وإما أن يدخر لهم في الآخرة.

(١) في ب: قولاً للبشر.

(٢) في ب: علينا.

(٣) في ب: هلك.



بالتدابير الإلهية، والشؤون في الخليفة<sup>(١)</sup>.

في ذلك اليوم الذي مقداره خسون ألف سنة من طوله وشدته، لكن الله تعالى يخففه على المؤمن.

وقوله: ﴿فاصبر صبراً جميلاً﴾ أي: اصبر على دعوتك لقومك صبراً جميلاً، لا تضجر فيه ولا ملل، بل استمر على أمر الله، وادع عباده إلى توحيده، ولا يستعك عنهم ما ترى من عدم انقيادهم، وعدم رغبتهم، فإن في الصبر على ذلك خيراً كثيراً، إنهم يرونه بعيداً \* ونراه قريباً \* الضمير يعود إلى البعث، الذي يقع فيه عذاب الساتلين بالعذاب أي: إن حالهم حال المنكر له، أو الذي غلبت عليه الشقرة والسكره، حتى تباعد جميع ما أمامه من البعث والنشور، والله يراه قريباً، لأنه رفيق حلیم لا يعجل، ويعلم أنه لا بد أن يكون، وكل ما هو آت فهو قريب.

ثم ذكر أهوال ذلك اليوم وما يكون فيه، فقال:

﴿٨- ١٨﴾ \* يوم تكون السماء كالمهل \* وتكون الجبال كالعهن \* ولا يسأل حميم حميماً \* يصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ بنيه \* وصاحبه وأخيه \* وفصيلته التي تؤويه \* ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيهم \* كلا إنها لظلى \* نزاعة للشوى \* ندعو من أدبر وتولى \* وجمع فأوعى

أي: ﴿يوم﴾ القيامة، تقع فيه هذه الأمور العظيمة فـ ﴿تكون السماء كالمهل﴾ وهو الرصاص المذاب، من تشققها، وبلوغ الهول منها كل مبلغ.

﴿٩﴾ \* وتكون الجبال كالعهن \* وهو الصوف المنفوش، ثم تكون بعد ذلك هباء منثوراً، فتضمحل، فإذا كان هذا القلق والانزعاج لهذه الأجرام الكبيرة الشديدة، فما ظنك بالبعيد

إلى سماء، حتى تنتهي إلى السماء التي فيها الله عز وجل، فتحبِّي ربها وتسلم عليه، وتحظي بقربه، وتبتهج بالدنو منه، ويحصل لها منه الشفاء والإكرام، والبر والإعظام.

وأما أرواح الفجار، فتعرج، فإذا وصلت إلى السماء استأذنت فلم يؤذن لها، وأعيدت إلى الأرض.

ثم ذكر المسافة التي تعرج إلى الله فيها الملائكة والأرواح<sup>(٢)</sup>، وأنها تعرج في يوم بما يسر لها من الأسباب، وأعانها عليه من اللطافة والخفة وسرعة السير، مع أن تلك المسافة على السير المعتاد مقدار خمسين ألف سنة، من ابتداء العروج إلى وصولها، ما أخذ لها، وما تنتهي إليه من الملاء الأعلى، فهذا الملك العظيم، والعالم الكبير، علويه وسفله، جميعه قد تولى خلقه وتديره، العلي الأعلى، فعلم أحوالهم الظاهرة والباطنة، وعلم مستقرهم ومستودعهم، وأوصلهم من رحمة وبره ورزقه<sup>(٣)</sup>، ما عمهم وشملهم، وأجرى عليهم حكمه القدري، وحكمه الشرعي، وحكمه الجزائي.

فيؤسأ لأقوام جهلوا عظمتهم، ولم يقدره حق قدره، فاستعجلوا بالعذاب على وجه التعجيز والامتحان، وسبحان الحلیم الذي أمهلهم وما أمهلهم، وأذوه فصر عليهم، وعافاهم ورزقهم.

هذا أحد الاحتمالات في تفسير هذه الآية [الكريمة]، فيكون هذا العروج والصعود في الدنيا، لأن السياق الأول يدل على هذا.

ويحتمل أن هذا في يوم القيامة، وأن الله تبارك وتعالى يظهر لعباده في يوم القيامة، من عظمتهم وجلاله وكبريائه، ما هو أكبر دليل على معرفته، مما يشاهدونه من عروج الأملاك والأرواح، صاعدة ونازلة،

الضعيف الذي قد أثقل ظهره بالذنوب والأوزار؟

أليس حقيقاً، أن ينخلع قلبه وينزعج لبه، ويذهل عن كل أحد؟ ولهذا قال: ﴿ولا يسأل حميم حميماً \* يصرونهم﴾ أي: يشاهد الحميم، وهو القريب حميمه، فلا يبقى في قلبه متسع لسؤال حميمه عن حاله، ولا فيما يتعلق بعشرتيم ومودتهم، ولا يمه إلا نفسه، ﴿يود المجرم﴾ الذي حق عليه العذاب ﴿لو يفتدي من عذاب يومئذ بنيه \* وصاحبه﴾ أي: زوجته وأخيه \* وفصيلته \* أي: قرابته ﴿التي تؤويه﴾ التي جرت عاداتها في الدنيا أن تتناصر ويعين بعضها بعضاً، ففي يوم القيامة، لا ينفع أحد أحداً، ولا يشفع أحد إلا بإذن الله.

بل لو يفتدي [المجرم المستحق للعذاب] بجميع ما في الأرض ثم ينجيهم لم ينفعه ذلك.

﴿كلا﴾ أي: لا حيلة ولا مناص لهم، قد حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون<sup>(٤)</sup>، وذهب نفع الأقارب والأصدقاء.

(١) في ب: تعرج فيها الملائكة والروح إلى الله.

(٢) في ب: وإحصانه.

(٣) في ب: والشؤون الربانية.

(٤) في ب: قد حقت عليهم كلمة ربك.

إليها ومسها، ممن لا يجوز له ذلك، ويتركون أيضاً، وسائل المحرمات الداعية لفعل الفاحشة.

﴿إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم﴾ أي: سرياتهم ﴿فإنهم غير ملومين﴾ في وطنهم، في المحل الذي هو محل الحرث، ﴿فمن ابتغى وراء ذلك﴾ أي: غير الزوجة وملك اليمين، ﴿فأولئك هم العادون﴾ أي: المتجاوزون ما أحل الله إلى ما حرم الله، ودلت هذه الآية على تحريم [نكاح] المتعة، لكونها غير زوجة مقصودة، ولا ملك يمين.

﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ أي: مراعون لها، حافظون مجتهدون على أداؤها والوفاء بها، وهذا شامل لجميع الأمانات التي بين العبد وبين ربه، كالتكاليف السرية، التي لا يطلع عليها إلا الله، والأمانات التي بين العبد وبين الخلق، في الأموال والأسرار، وكذلك العهد، شامل للعهد الذي عاهد عليه الله، والعهد الذي عاهد عليه الخلق، فإن العهد يسأل عنه العبد، هل قام به ووفاه، أم رفضه وخانه فلم يقم به؟

﴿والذين هم بشهادتهم قائمون﴾ أي: لا يشهدون إلا بما يعلمونه، من غير زيادة ولا نقص ولا كتمان، ولا يحاي فيها قريباً ولا صديقاً ونحوه، ويكون القصد بها<sup>(٢٢)</sup> وجه الله.

قال تعالى: ﴿واقموا الشهادة لله﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾.

﴿والذين هم على صلاتهم يحافظون﴾ بمدوامتها على أكمل وجوها، ﴿أولئك﴾ أي: الموصوفون بتلك الصفات ﴿في جنات مكرمون﴾ أي: قد أوصل الله لهم من الكرامة والتعظيم المقيم ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون.

مكرمون ﴿وهذا الوصف للإنسان من حيث هو وصف طبيعته الأصلية، أنه هلوع. وفسر الهلوع بأنه: ﴿إذا مسه الشر جزوعاً﴾ فيجزع إن أصابه فقر أو مرض، أو ذهب محبوب له، من مال أو أهل أو ولد، ولا يستعمل في ذلك الصبر والرضا بما قضى الله، ﴿وإذا مسه الخير منوعاً﴾ فلا ينفق عما آتاه الله، ولا يشكر الله على نعمه وبره، فيجزع في الضراء، ويمنع في السراء. ﴿إلا المصلين﴾ الموصوفين بتلك الأوصاف، فإنهم إذا مسهم الخير شكروا الله، وأنفقوا عما حولهم الله، وإذا مسهم الشر صبروا واحتسبوا.

وقوله: [في وصفهم] ﴿الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ أي: مداومون عليها في أوقاتها بشروطها ومكملاتها.

وليسوا كمن لا يفعلها، أو يفعلها وقتاً دون وقت، أو يفعلها على وجه ناقص. ﴿والذين في أموالهم حق معلوم﴾ من زكاة وصدقة ﴿للسائل﴾ الذي يتعرض للسؤال، ﴿والمحروم﴾ وهو المسكين الذي لا يسأل الناس فيعطوه، ولا يظن له، فيتصدق عليه. ﴿والذين يصدقون بيوم الدين﴾

أي: يؤمنون بما أخبر الله به، وأخبرت به رسله، من الجزاء والبعث، ويتيقنون ذلك، فيستعدون للأخرة، ويسعون لها سعيها. والتصديق بيوم الدين، يلزم منه التصديق بالرسول، وبما جاؤوا به من الكتب.

﴿والذين هم من عذاب ربهم مشفقون﴾ أي: خائفون وجلون، فيتركون لذلك كل ما يقرههم من عذاب الله. ﴿إن عذاب ربهم غير مأمون﴾ أي: هو العذاب الذي يخشى ويحذر.

﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ فلا يبطؤون بها وطأ محرماً، من زنى، أو لواط، أو وطء في دبر، أو حيض، ونحو ذلك، ويحفظونها أيضاً من النظر



﴿إنها لظئ \* نزاعة للشوى﴾ أي: للأعضاء الظاهرة والباطنة من شدة عذابها<sup>(٢١)</sup>

﴿تدعوا﴾ إليها<sup>(٢٢)</sup> ﴿من أدبر وتولى \* وجع فأوعى﴾ أي: أدبر عن اتباع الحق وأعرض عنه، فليس له فيه غرض، وجمع الأموال بعضها فوق بعض وأوعاها، فلم ينفق منها فإن النار تدعوهم إلى نفسها، وتستعد للالتهاب

٣٣٠  
﴿١٩ - ٣٥﴾ ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً \* إذا مسه الشر جزوعاً \* وإذا مسه الخير منوعاً \* إلا المصلين \* الذين هم على صلاتهم دائمون \* والذين في أموالهم حق معلوم \* للسائل والمحروم \* والذين يصدقون بيوم الدين \* والذين هم من عذاب ربهم مشفقون \* إن عذاب ربهم غير مأمون \* والذين هم لفروجهم حافظون \* إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين \* فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون \* والذين هم لعهدهم راعون \* والذين هم بشهادتهم قائمون \* والذين هم على صلاتهم يحافظون \* أولئك في جنات

(٢) في ب: تدعو إلى نفسها.

(٣) في ب: القصد بإقامتها.

(١) في ب: أي: النار التي تنظي تنزع من شدتها للأعضاء الظاهرة والباطنة.

وحاصل هذا، أن الله وصف أهل السعادة والخير بهذه الأوصاف الكاملة، والأخلاق الفاضلة، من العبادات البدينية، كالصلاة، والصدقة، والعبادات المالية، وغيرها، والأعمال القلبية، كخشية الله الداعية لكل خير، والعبادات الفاضلة، والمعاندة النافعة، والأخلاق الفاضلة، ومعاملة الله، ومعاملة خلقه، أحسن معاملة من إنصافهم، وحفظ عهودهم وأسرارهم<sup>(١)</sup>، والعفة التامة بحفظ الفروج عما يكره الله تعالى.

﴿٣٦- ٣٩﴾ **﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مَهْطَعِينَ \* عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ \* أَطْمَعُ كُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ \* كَلَّا إِنَّا خَلَقْتَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾** يقول تعالى، مبيناً اغترار الكافرين: **﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مَهْطَعِينَ﴾** أي: مسرعين **﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾** أي: قطعاً متفرقة، وجماعات متوزعة<sup>(٢)</sup>، كل منهم بما لديه فرح.

**﴿أَطْمَعُ كُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾** بأي: سبب أطمعهم، وهم لم يقدموا سوى الكفر، والجنود برب العالمين، ولهذا قال: **﴿كَلَّا﴾** [أي: ] ليس الأمر بأمانتهم، ولا إدراك ما يشتهون بقوتهم.

**﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾** أي: من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب، فهم ضعفاء، لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

﴿٤٠- ٤٤﴾ **﴿فَلَا أَسْأَلُكَ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَنَقَادِرُونَ \* عَلَّ أَنْ يُبَدَّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ \* فَلَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يَأْتِيَ الْيَوْمَ الَّذِي يَوْمَعُونَ \* يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاحًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نَصَبٍ يَوْفُضُونَ \* خَاشِعَةَ أَبْصَارِهِمْ تَرَهَقْتَهُمْ ذُلَّةَ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يَوْمَعُونَ﴾** هذا إقسام منه تعالى بالمشارق والمغرب، للشمس والقمر

والكواكب، لما فيها من الآيات الباهرات على البعث، وقدرته على تبديل أمثالهم، وهم بأعيانهم، كما قال تعالى: **﴿وَنَنْشُوكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ﴾** **﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾** أي: ما أحد يسبقنا ويفوتنا ويعجزنا إذا أردنا أن نعيده، فإذا تقرّر البعث والجزاء، واستمروا على تكذيبهم، وعدم انقيادهم لآيات الله **﴿فَلَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾** أي: يخوضوا بالأحوال الباطلة، والمعاندة الفاسدة، ويلعبوا بدينهم، ويأكلوا ويشربوا، ويتمتعوا **﴿حَتَّى يَأْتِيَ الْيَوْمَ الَّذِي يَوْمَعُونَ﴾** فإن الله قد أعد لهم فيه من النكال والربال ما هو عاقبة خرضهم ولعبهم.

ثم ذكر حال الخلق حين يلاقون يومهم<sup>(٣)</sup> الذي يوعدون، فقال: **﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾** أي: القبور، **﴿سِرَاحًا﴾** مجيبين لدعوة الداعي، مهطعين إليها **﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نَصَبٍ يَوْفُضُونَ﴾** أي: [كأنهم إلى عُلَم] يؤمّنون ويسرعون<sup>(٤)</sup> أي: فلا يتمكّنون من الاستعصاء للداعي، والالتواء لنداء المنادي، بل يأتون أذلاء مههورين للقيام، بين يدي رب العالمين. **﴿خَاشِعَةَ أَبْصَارِهِمْ تَرَهَقْتَهُمْ ذُلَّةً﴾** وذلك أن الذلّة والفلت قد ملك قلوبهم، واستولى على أفئدتهم، فخشعت منهم الأبصار، وسكنت منهم الحركات، وانقطعت الأصوات. فهذه الحال والمآل، هو يومهم **﴿الَّذِي كَانُوا يَوْمَعُونَ﴾** ولا بد من الوفاء بوعد الله **﴿وَتَمَّتْ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ﴾**.

### تفسير سورة نوح عليه السلام وهي مكية

﴿١- ٢٨﴾ **﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ إِلَىٰ آخِرِ السُّورَةِ لَمْ يَذْكُرِ اللَّهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ سِوَىٰ قِصَّةِ نُوحٍ وَحْدَهَا لِطَوْلِ لَيْثٍ فِي قَوْمِهِ، وَتَكَرَّرَ دَعْوَتُهُ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَنَبِيهِ عَنِ الشِّرْكِ، فَأَخْبِر**

تعالى أنه أرسله<sup>(٥)</sup> إلى قومه، رحمة بهم وإنذاراً لهم من عذاب الله الأليم، خوفاً من استمرارهم على كفرهم، فيهلكهم الله هلاكاً أبدياً، ويعذبهم عذاباً سرمدياً، فامثل نوح عليه السلام لذلك، وابتدر لأمر الله، فقال: **﴿يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾** أي: واضح النذارة بيننا، وذلك لتوضيحه ما أنذر به وما أنذر عنه، وبأي: شيء تحصل النجاة، بين جميع ذلك بياناً شافياً، فأخبرهم وأمرهم بزيادة ما يأمرهم به<sup>(٦)</sup>، فقال: **﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقَوْهُ﴾** وذلك بإفراده تعالى بالتوحيد والعبادة، والبعد عن الشرك وطرقه ووسائله، فإنهم إذا اتقوا الله غفر ذنوبهم، وإذا غفر ذنوبهم، حصل لهم النجاة من العذاب، والفوز بالشواب، **﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾** أي: يمتعكم في هذه الدار، ويدفع عنكم الهلاك إلى أجل مسمى أي: مقدر [البقاء في الدنيا] بقضاء الله وقدره [إلى وقت محدد]، وليس المتأخر أبداً، فإن الموت لا بد منه، ولهذا قال: **﴿إِنْ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُونَ﴾** كنتم تعلمون، لما كفرتم بالله، وعاندتم الحق، فلم يبيحوا لدعوته، ولا انقادوا لأمره، فقال شاكياً لربه: **﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا \* فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾** أي: نفوراً عن الحق وإعراضاً، فلم يبق لذلك فائدة، لأن فائدة الدعوة أن يحصل جميع المقصود أو بعضه، **﴿وَإِنِّي كَلِمًا دَعْوَتُهُمْ لَتُغْفَرَ لِيهِمْ﴾** أي: لأجل أن يستجيبوا، فإذا استجابوا، غفرت لهم، فكان هذا محض مصلحتهم، ولكنهم أبوا إلا تمادياً على باطلهم، ونفوراً عن الحق، **﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾** حذر سماع ما يقول لهم نبيهم نوح عليه السلام، **﴿وَاسْتَعْصَبُوا لِيَابِهِمْ﴾** أي: تغطوا بها غطاء يغشاهم، بعداً عن الحق وبخساً له، **﴿وَاصْرُؤُوا﴾** على كفرهم وشرهم، **﴿وَاسْتَكْبَرُوا﴾** على

(٥) في ب: أنه أرسل نوحاً.

(٦) في ب: وأمرهم بأصل ذلك.

(٣) في ب: اليوم.

(٤) في ب: ويقصدون.

(١) في ب: وحفظ حقوقهم وأماناتهم.

(٢) في ب: متنوعة.



الحق ﴿استكباراً﴾ فشرهم ازداد، وخيرهم بعد.

﴿ثم إني دعوتهم جهاراً﴾ أي: بسمع منهم كلهم، ﴿ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً﴾ كل هذا حرص ونصح، وإيتائهم بكل باب يظن أن يحصل منه المقصود<sup>(١)</sup>، ﴿فقلت استغفروا ربكم﴾ أي: اتركوا ما أنتم عليه من الذنوب، واستغفروا الله منها.

﴿إنه كان غفاراً﴾ كثير المغفرة لمن تاب واستغفر، فرغبهم بمغفرة الذنوب، وما يترتب عليها من حصول الثواب، واندفاع العقاب.

ورغبهم أيضاً بخير الدنيا العاجل، فقال: ﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ أي: مطراً متتابعاً، يروي الشباب والوهاد، ويعيي البلاد والعباد.

﴿ويمددكم بأموال وبنين﴾ أي: يكثر أموالكم التي تدركون بها ما تطلبون من الدنيا وأولادكم، ﴿ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾ وهذا من أبلغ ما يكون من لذات الدنيا ومطالبها.

﴿مال لكم لا ترجون لله وقاراً﴾ أي: لا تخافون الله عظمة، وليس الله عندكم قدر، ﴿وقد خلقكم أطواراً﴾ أي: خلقاً [من] بعد خلق، في بطن الأم، ثم في الرضاع، ثم في سن الطفولية، ثم التمييز، ثم الشباب، إلى آخر ما وصل إليه الخلق<sup>(٢)</sup>، فالذي انفرد بالخلق والتدبير البديع، متعين أن يفرد بالعبادة والتوحيد، وفي ذكر ابتداء خلقهم تنبيه لهم على الإقرار بالمعاد، وأن الذي أنشأهم من العدم قادر على أن يعيدهم بعد موتهم.

واستدل أيضاً عليهم بخلق السماوات التي هي أكبر من خلق الناس، فقال: ﴿ألم تتروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً﴾ أي:

كل سماء فوق الأخرى، ﴿وجعل القمر فيهن نوراً﴾ لأهل الأرض ﴿وجعل الشمس سراجاً﴾.

فيه تنبيه على عظم خلق هذه الأشياء، وكثرة النافع في الشمس والقمر الدالة على رحمة وسعة إحسانه، فالعظيم الرحيم، يستحق أن يعظم ويحب ويعبد ويخاف ويرجى، ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتاً﴾ حين خلق أباكم آدم وأنتم في صلبه، ﴿ثم يعيدكم فيها﴾ عند الموت ﴿ويخرجكم إخراجاً﴾ للبعث والنشور، فهو الذي يملك الحياة والموت والنشور، ﴿والله جعل لكم الأرض بساطاً﴾ أي: مبسوطة مهياة للارتفاع بها، ﴿لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً﴾ فلولاً أنه بسطها، لا أمكن ذلك، بل ولا أمكنهم حرثها وغرسها وزرعها، والبناء، والسكون على ظهرها.

﴿قال نوح﴾ شكياً لربه: إن هذا الكلام والوعظ والتذكير ما نجع فيه ولا أفاد: ﴿إنهم عصوني﴾ فيما أمرهم به ﴿واتبعوا من لم يزدده ماله وولده إلا خساراً﴾ أي: عصروا الرسول الناصح الدال على الخير، واتبعوا الملال والأشراف الذين لم تزددهم أموالهم ولا أولادهم إلا خساراً أي: هلاكاً وتفويتاً للأرباح، فكيف بمن انقاد لهم وأطاعهم؟! ﴿ومكروا مكراً كباراً﴾ أي: مكراً كبيراً بليغاً في معانلة الحق.

﴿وقالوا﴾ لهم داعين إلى الشرك مزينين له: ﴿لا تذرنا آلهتنا﴾ فدعوهم إلى التعصب على ما هم عليه من الشرك، وأن لا يدعوا ما عليه آباؤهم الأقدمون، ثم عينوا آلهتهم، فقالوا: ﴿ولا تذرنا وداً ولا سواهاً ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾ وهذه أسماء رجال صالحين، لما ماتوا، زين الشيطان لقومهم أن يصوروا صورهم، لينشطوا - بزعمهم - على الطاعة إذا

رأوها، ثم طال الأمد، وجاء غير أولئك فقال لهم الشيطان: إن أسلافكم يعبدونهم، ويتوسلون بهم، وبهم يسقون المطر، فعبدوهم، ولهذا أوصى رؤسائهم للتابعين لهم، أن لا يدعوا عبادة هذه الآلهة<sup>(٣)</sup>.

﴿وقد أضلوا كثيراً﴾ أي: وقد أضل الكبار والرؤساء بدعوتهم كثيراً من الخلق، ﴿ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً﴾ أي: لو كان ضلالهم عند دعوتهم إياهم بحق، لكان مصلحة، ولكن لا يزيدون بدعوة الرؤساء إلا ضلالاً أي: فلم يبق عمل لنجاحهم ولا لصلاحهم، ولهذا ذكر الله عذابهم وعقوبتهم الدنيوية والأخروية، فقال:

﴿عما خطيئاتهم أفرقوا﴾ في اليوم الذي أحاط بهم ﴿فأدخلوا ناراً﴾ فذهبت أجسادهم في العرق، وأرواحهم للنار والحرق، وهذا كله بسبب خطيئاتهم، التي اتاهم نبيهم نوح ينذرهم عنها، ويخبرهم بشؤمها ومغيبتها، فرفضوا ما قال، حتى حل بهم النكال، ﴿فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً﴾ ينصرونهم حين نزل بهم الأمر الأمر، ولا أحد يقدر يعارض القضاء والقدر.

﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ يدور على وجه الأرض، وذكر السبب في ذلك، فقال: ﴿إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يسلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾ أي: بقاؤهم مفسدة محضة، لهم ولغيرهم، وإنما قال نوح - عليه السلام - ذلك، لأنه مع كثرة مخالطته إياهم، ومزاولته لأخلاقهم، علم بذلك نتيجة أعمالهم، لا جرم أن الله استجاب دعوته<sup>(٤)</sup>، فأغرقهم أجمعين، ونجى نوحاً ومن معه من المؤمنين.

﴿رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل

(١) في ب: بكل طريق يظن به حصول المقصود.

(٢) في ب: ثم إلى آخر ما يصل إليه الخلق.

(٣) في ب: هذه الأصنام.

(٤) في ب: فلماذا استجاب الله له دعوته.





﴿إنما أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾  
 أي: أُوحدُه وحده لا شريك له،  
 وأخلع ما دونه من الأنداد والأوثان،  
 وكل ما يتخذه المشركون من دونه.

﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾  
 فإني عبد ليس لي من الأمر ولا من التصرف شيء.

﴿٢٢﴾ ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يَجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾  
 أي: لا أحد أستجير به يتقضي من عذاب الله، وإذا كان الرسول الذي هو أكمل الخلق، لا يملك ضراً ولا رشداً، ولا يمنع نفسه من الله [شيثاً] إن أراد بسوءه، فغيره من الخلق من باب أول وأحرى، ﴿ولن أجد من دونه ملتحداً﴾  
 أي: ملجأً ومنتصراً ﴿إلا بلاغاً من الله ورسالته﴾  
 أي: ليس لي مزية على الناس، إلا أن الله خصني بإبلاغ رسالته ودعوة الخلق إلى الله، وبهذا<sup>(١)</sup> تقوم الحجة على الناس.

﴿ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً﴾  
 وهذا المراد به المعصية الكفرية، كما قيدتها النصوص الأخر المحكمّة.

وأما مجرد المعصية، فإنه لا يوجب الخلود في النار، كما دلت على ذلك آيات القرآن، والأحاديث عن النبي ﷺ، وأجمع عليه سلف الأمة وأئمة هذه الأمة.

﴿حتى إذا راوا ما يوعدون﴾  
 أي: شاهده عياناً، وجزموا أنه واقع بهم، ﴿فسيعلمون﴾  
 في ذلك الوقت حقيقة المعرفة ﴿من أضعف ناصراً وأقل عدداً﴾  
 حين لا ينصرهم غيرهم ولا أنفسهم ينتصرون، وإذا يحشرون فرادى كما خلقوا أول مرة، ﴿قل﴾ لهم إن سألوكم [فقالوا] متى هذا الوعد؟ ﴿إن أدري أقرب ما توعدون أم يعمل له ربي أمداً﴾  
 أي: غاية طويلة، فعلم ذلك عند الله، ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً﴾  
 من الخلق، بل انفرد بعلم الضمائر والأسرار والغيب، ﴿إلا

وعرفنا هدايته وإرشاده، أثر في قلوبنا ف ﴿أمتنا به﴾.

ثم ذكروا ما يرغب المؤمن فقالوا: ﴿فمن يؤمن بربه﴾  
 إيماناً صادقاً ﴿فلا يخاف بخساً ولا رهقاً﴾  
 أي: لا نقصاً ولا طغياناً ولا أذى يلحقه<sup>(١)</sup>، وإذا سلم من الشر حصل له الخير، فالإيمان سبب داع إلى حصول كل خير وانشاء كل شر.

﴿وإننا منا المسلمون ومنا القاسطون﴾  
 أي: الجاثرون، العادلون عن الصراط المستقيم.

﴿فمن أسلم فالوكلت محرواً رشداً﴾  
 أي: أصابوا طريق الرشد، الموصل لهم إلى الجنة ونعيمها، ﴿وأسأ القاسطون فكانوا لجهنم حطباً﴾  
 وذلك جزاء على أعمالهم، لا ظلم من الله لهم، فلهم ﴿لو استقاموا على الطريقة﴾  
 المثلى ﴿لأسقيناهم ماء غدقاً﴾  
 أي: هنيئاً مريئاً، ولم يمنعه ذلك إلا ظلمهم وعدوانهم. ﴿لنفتنهم فيه﴾  
 أي: لنختبرهم فيه ونمتحنهم، ليظهر الصادق من الكاذب.

﴿ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً﴾  
 أي: من أعرض عن ذكر الله، الذي هو كتابه، فلم يتبعه ويتقده له، بل غفل عنه ولهي، يسلكه عذاباً صعداً أي: شديداً بليغاً.

﴿وإن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً﴾  
 أي: لا دعاء عبادة، ولا دعاء مسألة، فإن المساجد التي هي أعظم محال العبادة، مبنية على الإخلاص لله، والخضوع لعظمته، والاستكانة لعزته، ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه﴾  
 أي: يسأله ويتعبده له ويقرأ القرآن كاد الجن من تكاثرهم عليه أن يكونوا عليه لبيداً أي: متلبدين متراكمين، حرصاً على سماع ما جاء به من الهدى.

﴿قل﴾ لهم يا أيها الرسول، مبيئاً حقيقة ما تدعو إليه:

﴿رصداً﴾  
 أي: مرصداً له، معداً لإتلافه وإحراقه أي: وهذا له شأن عظيم، ونبأ جسيم، وجزموا أن الله تعالى أراد أن يحدث في الأرض حادثاً كبيراً، من خير أو شر، فلهذا قالوا: ﴿وإننا لا ندرى أشراً أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً﴾  
 أي: لا بد من هذا أو هذا، لأنهم رأوا الأمر تغير عليهم تغيراً أنكروه، فعرّفوا بفظنتهم، أن هذا الأمر يريد الله، ويحدثه في الأرض، وفي هذا بيان لأدهم، إذ أضافوا الخير إلى الله تعالى، والشّر حدّثوا فاعله تأديباً مع الله.

﴿وإننا منا الصالحون ومنا دون ذلك﴾  
 أي: فساق وفجار وكفار، ﴿كننا طرائق قندا﴾  
 أي: فرقاً متنوعة، وأهواء متفرقة، كل حزب بما لديهم فرحون.

﴿وإننا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً﴾  
 أي: وأنا في وقتنا الآن تبين لنا كمال قدرة الله وكمال عجزنا، وأن نواصيتنا بيد الله، فلن نعجزه في الأرض ولن نعجزه إن هربنا وسعينا بأسباب الفرار والخروج عن قدرته، لا ملجأً منه إلا إليه، ﴿وإننا لما سمعنا الهدى﴾  
 وهو القرآن الكريم، الهادي إلى الصراط المستقيم،

(١) في ب: فقالوا: ﴿فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً﴾  
 أي: من آمن به إيماناً صادقاً فلا عليه نقص ولا أذى يلحقه.

(٢) في ب: ودعوة خلقه إليه وبذلك.



من ارتضى من رسول ﴿١﴾ أي : فإنه يجبره بما اقتضت حكمته أن يجبره به ، وذلك لأن الرسل ليسوا كغيرهم ، فإن الله أيدهم بتأييد ما أيده أحداً من الخلق ، وحفظ ما أوحاه إليهم حتى يبلغوه على حقيقته ، من غير أن تتخبطهم الشياطين ، ولا <sup>(٢)</sup> يزيديا فيه أو ينقصوا ، ولهذا قال : ﴿ فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ﴾ أي : يحفظونه بأمر الله ؛ ﴿ ليعلم ﴾ بذلك ﴿ أن قد أبلغوا رسالات ربهم ﴾ بما جملة لهم من الأسباب ، ﴿ وأحاط بما لديهم ﴾ أي : بما عندهم ، وما أسروه وأعلنوه ، ﴿ وأحصى كل شيء عدداً ﴾ .

وفي هذه السورة فوائد كثيرة : منها : وجود الجن ، وأنهم مكلفون مأمورون مكلفون منهيون ، مجازون بأعمالهم ، كما هو صريح في هذه السورة .  
ومنها : أن رسول الله ﷺ رسولٌ إلى الجن ، كما هو رسول إلى الإنس <sup>(٣)</sup> ، فإن الله صرف نعر الجن ليستمعوا ما يوحى إليه ويبخلوا قومهم .  
ومنها : ذكاء الجن ومعرفتهم بالحق ، وأن الذي ساقهم إلى الإيمان هو ما تحققوه من هداية القرآن ، وحسن أدبهم في خطابهم .  
ومنها : اعتناء الله برسوله ، وحفظه لما جاء به ، فحين ابتدأت بشائر نبوته ، والسماء محروسة بالنجوم ، والشياطين قد هربت عن أماكنها ، وأزعجت عن مراصدها ، وأن الله رحم به الأرض وأهلها رحمة ما يقدر لها قدر ، وأراد بهم ربهم رشداً ، فأراد أن يظهر من دينه وشرعه ومعرفته في الأرض ، ما يتجهج

مع الله .  
ومنها : أن علوم الغيب قد انفرد الله بعلمها ، فلا يعلمها أحد من الخلق ، إلا من ارتضاه الله وخصه <sup>(٤)</sup> بعلم شيء منها .  
تم تفسير سورة قل أوحى إلي ،  
و لله الحمد <sup>(٥)</sup>

وفي هذه السورة فوائد كثيرة :  
منها : وجود الجن ، وأنهم مكلفون مأمورون مكلفون منهيون ، مجازون بأعمالهم ، كما هو صريح في هذه السورة .  
ومنها : أن رسول الله ﷺ رسولٌ إلى الجن ، كما هو رسول إلى الإنس <sup>(٣)</sup> ، فإن الله صرف نعر الجن ليستمعوا ما يوحى إليه ويبخلوا قومهم .  
ومنها : ذكاء الجن ومعرفتهم بالحق ، وأن الذي ساقهم إلى الإيمان هو ما تحققوه من هداية القرآن ، وحسن أدبهم في خطابهم .  
ومنها : اعتناء الله برسوله ، وحفظه لما جاء به ، فحين ابتدأت بشائر نبوته ، والسماء محروسة بالنجوم ، والشياطين قد هربت عن أماكنها ، وأزعجت عن مراصدها ، وأن الله رحم به الأرض وأهلها رحمة ما يقدر لها قدر ، وأراد بهم ربهم رشداً ، فأراد أن يظهر من دينه وشرعه ومعرفته في الأرض ، ما يتجهج

المزمل : المتغطى بثيابه كالمدثر ، وهذا

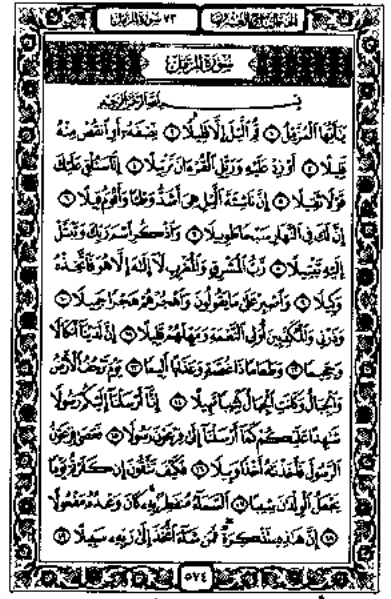
الوصف حصل من رسول الله ﷺ حين أكرمه الله برسالته ، وابتدأه بإنزال الوحيه بإرسال جبريل إليه ، فرأى أمراً لم ير مثله ، ولا يقدر على الثبات له إلا المسلمون ، فاعتراه في ابتداء ذلك <sup>(٦)</sup> النزاع حين رأى جبريل عليه السلام ، فأتى إلى أهله ، فقال : « زملوني زملوني » وهو ترعد فرائصه ، ثم جاءه جبريل ، فقال : « اقرأ » ، فقال : « ما أنا بقارىء » ، فغطه حتى بلغ منه الجهد ، وهو يعالجه على القراءة ، فقرأ ﷺ ، ثملقى الله عليه الثبات ، وتابع عليه الوحي ، حتى بلغ مبلغاً ما بلغه أحد من المرسلين .

فسبحان الله ، ما أعظم التفاوت بين ابتداء نبوته ونهايتها ، ولهذا خاطبه الله بهذا الوصف الذي وجد منه في أول أمره .  
فأمره هنا بالعبادات المتعلقة به ، ثم أمره بالصبر على أذية أعدائه <sup>(٧)</sup> ، ثم أمره بالصدع بأمره ، وإعلان دعوتهم إلى الله ، فأمره هنا بأشرف العبادات ، وهي الصلاة ، وأكد الأوقات

**تفسير سورة المزمل  
[وهي] مكية**

﴿ ١١ - ١ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها المزمل \* قم الليل إلا قليلاً \* نصفه أو انقص منه قليلاً \* أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً \* إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً \* إن ناشئة الليل هي أشد وطناً وأقوم قيلاً \* إن لك في النهار سبحاً طويلاً \* واذكر اسم ربك وتستل إليه تسبيلاً \* رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً \* واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرأً جميلاً \* وذري والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً \* المزمل : المتغطى بثيابه كالمدثر ، وهذا

(١) في ب : من غير أن تقر به الشياطين فلا .  
(٢) في ب : مبعوث إلى الجن كما هو مبعوث إلى الإنس .  
(٣) في ب : من الخطأ والظلم .  
(٤) في ب : واختصه .  
(٥) في ب : تم تفسيرها والحمد لله رب العالمين .  
(٦) في ب : فاعتراه عند ذلك .  
(٧) في ب : على أذية قومه .



وأفضلها، وهو قيام الليل.

ومن رحمته تعالى، أنه لم يأمره بقيام الليل كله، بل قال: ﴿قم الليل إلا قليلاً﴾ ثم قدر ذلك، فقال: ﴿نصفه أو انقص منه﴾ أي: من النصف ﴿قليلاً﴾ بأن يكون الثلث ونحوه ﴿أو زد عليه﴾ أي: على النصف، فيكون الثلثين ونحوها.

﴿ورتل القرآن ترتيلاً﴾ فإن ترتيل القرآن به يحصل التدبير والتفكير، وتحريك القلوب به، والتعبيد بآياته، والنهيز والاستعداد التام له، فإنه قال: ﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾ أي: نوحى إليك هذا القرآن الثقيل أي: العظيمة معانيه، الجليلة أوصافه، وما كان بهذا الوصف، حقيق أن يتعبأ له، ويرتل، ويتفكر فيما يشتمل عليه. ثم ذكر الحكمة في أمره بقيام الليل، فقال: ﴿إن ناشئة الليل﴾ أي: الصلاة فيه بعد النوم ﴿هي أشد وطأ وأقوم قبلاً﴾ أي: أقرب إلى تحصيل مقصود القرآن، يتواطأ على القرآن القلب واللسان، وتقل الشواغل،

ويفهم ما يقول، ويستقيم له أمره، وهذا بخلاف النهار، فإنه لا يحصل به هذا القصد<sup>(٣)</sup>، ولهذا قال: ﴿إن لك في النهار سبأً طويلاً﴾ أي: تردداً على حوائجك ومعاشك، يوجب اشتغال القلب، وعدم تفرغه التفرغ التام، ﴿واذكر اسم ربك﴾ شامل لأنواع الذكر كلها ﴿وتبئل إليه تبتيلاً﴾ أي: انقطع إلى الله تعالى، فإن الانقطاع إلى الله والإنابة إليه، هو الانفصال بالقلب عن الخلائق، والانصاف بمحبة الله، وكل ما يقرب إليه، ويدني من رضاه.

﴿رب المشرق والمغرب﴾ وهذا اسم جنس يشمل المشرق والمغرب [كلها]، فهو تعالى رب المشرق والمغرب، وما يكون فيها من الأنوار، وما هي مصلحة له من العالم العلوي والسفلي، فهو رب كل شيء وخالقه ومدبره.

﴿لا إله إلا هو﴾ أي: لا معبود إلا وجهه الأعلى، الذي يستحق أن ينحس بالمحبة والتعظيم، والإجلال والتكريم، ولهذا قال: ﴿فأتخذه وكيلاً﴾ أي: حافظاً ومدبراً لأمورك كلها.

فلما أمره الله بالصلاة خصوصاً، وبالذكر عموماً، وذلك يحصل للعبد ملكة قوية في تحمل الأثقال، وفعل الثقيل<sup>(٤)</sup> من الأعمال، أمره بالصبر على ما يقول فيه المعاندون له ويسبونهم، وأن يمضي على أمر الله، لا يصد عنه صادم، ولا يردده راد، وأن يسجرهم هجرأً جيلاً، وهو الهجر حيث اقتضت المصلحة الهجر الذي لا أذية فيه، فيقابلهم<sup>(٥)</sup> بالهجر والإعراض عنهم وعن أقوالهم التي تؤذيه، وأمره

بجدالهم بالتي هي أحسن. ﴿وفرنى والمكذبين﴾ أي: اتركني وإياهم، فسأتقم منهم، وإن أهملتهم فلا أهملهم، وقوله: ﴿أولي النعمة﴾ أي: أصحاب النعمة والغنى، الذين طغوا حين وسع الله عليهم من رزقه، وأمدهم من فضله كما قال تعالى: ﴿كل إن الإنسان ليطغى﴾ أن رآه استغنى، ثم توعدهم بما عنده من العقاب، فقال:

﴿١٢ - ١٤﴾ ﴿إن لدينا أنكالا وجحيماً \* وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً \* يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً﴾ أي: إن عندنا ﴿أنكالا﴾ أي: عذاباً شديداً، جعلناه تنكيلاً للذي لا يزال مستمراً على الذنوب<sup>(٦)</sup>. ﴿وجحيماً﴾ أي: ناراً حامية ﴿وطعاماً ذا غصة﴾ وذلك لمرارته وشاعته، وكراهة طعمه وريحه الخبيث المنتن، ﴿وعذاباً أليماً﴾ أي: موجعاً مفضعاً، وذلك ﴿يوم ترجف الأرض والجبال﴾ من الهول العظيم، ﴿وكانت الجبال﴾ الراسيات الصم الصلاب ﴿كثيباً مهيلاً﴾ أي: بمنزلة الرمل المنهال المنتثر، ثم إنها تيس بعد ذلك، فتكون كالهباء المنثور.

﴿١٥ - ١٦﴾ ﴿إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا \* فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وببلاً﴾ يقول تعالى: اهدوا وبيكم على إرسال هذا النبي الأمي العربي البشير النذير، الشاهد على الأمة بأعمالهم، واشكروه وقوموا بهذه النعمة الجليلة، وإياكم أن تكفروها، فتعصوا رسولكم، فتكونوا كفرعون حين أرسل الله إليه موسى بن عمران، فدعاه إلى الله، وأمره بالتوحيد، فلم يصدق، بل عصاه،

(١) في ب: حصول.  
 (٢) في ب: عليه.  
 (٣) في ب: فإنه لا تحصل به هذه المقاصد.  
 (٤) في ب: وفعل المشق.  
 (٥) في ب: بل يعاملهم.  
 (٦) في ب: على ما يغضب الله.

فأخذه الله أخذاً وبيلاً أي: شديداً بليغاً.

﴿١٧- ١٨﴾ فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً \* السماء منقطر به كان وعده مفعولاً أي: فكيف يحصل لكم الفكاك والنجاة من يوم القيامة، اليوم المهيل أمره، العظيم قدره<sup>(١)</sup>، الذي يشيب الولدان، وتذوب له الجمادات العظام، فتفطر به السماء وتنتشر به نجومها ﴿كان وعده مفعولاً﴾ أي: لا بد من وقوعه، ولا حائل دونه.

﴿١٩﴾ إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ﴿أي﴾: إن هذه الموعدة التي نبأ الله بها من أحوال يوم القيامة وأهواله<sup>(٢)</sup>، تذكرة يتذكر بها المتقون، ويتزجر بها المؤمنون، ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ أي: طريقاً موصلاً إليه، وذلك باتباع شرعه، فإنه قد أبانه كل البيان، وأوضحه غاية الإيضاح، وفي هذا دليل على أن الله تعالى أقدر العباد على أفعالهم، ومكنتهم منها، لا كما يقوله الجبرية: إن أفعالهم تقع بغير مشيئتهم، فإن هذا خلاف النقل والعقل.

﴿٢٠﴾ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقروا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وقرءوا الله قرضاً حسناً وما تقدموا لأنفسكم من خير غير مجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴿ذكر الله في أول هذه السورة أنه أمر رسوله بقيام نصف الليل، أو ثلثه أو ثلثيه، والأصل أن أمته أسوة له في الأحكام، وذكر في

هذا الموضع، أنه امتثل ذلك هو وطائفة معه من المؤمنين.

ولما كان تحرير الوقت المأمور به مشقة على الناس، أخبر أنه سهل عليهم في ذلك غاية التسهيل، فقال: ﴿والله يقدر الليل والنهار﴾ أي: يعلم مقاديرهما وما يمضي منهما ويبقى.

﴿علم أن لن تحصوه﴾ أي: [لن] تعرفوا مقداره من غير زيادة ولا نقص، لكون ذلك يستدعي اتباعاً وعناء زائداً أي: فحذف عنكم، وأمركم بما تيسر عليكم، سواء زاد على القدر أو نقص، ﴿فاقرءوا ما تيسر من القرآن﴾ أي: مما تعرفون ومما لا يشق عليكم، ولهذا كان المصلي بالليل مأموراً بالصلاة ما دام نشيطاً، فإذا فتر أو كسل أو نعس، فليسترح، ليأتي الصلاة بطمأنينة وراحة.

ثم ذكر بعض الأسباب المناسبة للتخفيف، فقال: ﴿علم أن سيكون منكم مرضى﴾ يشق عليهم صلاة لثلي الليل أو نصفه أو ثلثه، فليصل المريض المتسهل عليه<sup>(٣)</sup>، ولا يكون أيضاً مأموراً بالصلاة قائماً عند مشقة ذلك، بل لو شقت عليه الصلاة النافلة، فله تركها [وله أجر ما كان يعمل صحيحاً]. ﴿وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله﴾ أي: وعلم أن منكم مسافرين يسافرون للتجارة، ليستغنوا عن الخلق، ويتكففوا عن الناس<sup>(٤)</sup> أي: فالمسافر، حاله تناسب التخفيف، ولهذا خفف عنه في صلاة الغرض، فأببح له جمع الصلاتين في وقت واحد، وقصر الصلاة الرباعية.

وكذلك ﴿آخرون يقاتلون في سبيل الله فاقروا ما تيسر منه﴾ فذكر تعالى تخفيفين، تخفيفاً للصحيح المقيم يراعي فيه نشاطه، من غير أن يكلف عليه تحرير الوقت، بل يتحرى الصلاة الفاضلة، وهي ثلث الليل بعد نصفه



الأول.

وتخفيفاً للمريض أو المسافر، سواء كان سفره للتجارة، أو لعبادة، من قتال أو جهاد، أو حج، أو عمرة، ونحو ذلك<sup>(٥)</sup>، فإنه أيضاً يراعى ما لا يكلفه، فله الحمد والثناء، الذي ما جعل على الأمة في الدين<sup>(٦)</sup> من حرج، بل سهل شرعه، وراعى أحوال عباده ومصالح دينهم وأبدانهم وديانهم.

ثم أمر العباد بعبادتين، هما أمر العبادات وعمادها: إقامة الصلاة، التي لا يستقيم الدين إلا بها، وإيتاء الزكاة التي هي برهان الإيمان، وبها تحصل المواساة للفقراء والمساكين، ولهذا قال:

﴿وأقيموا الصلاة﴾ بأركانها، وشروطها، ومكملاتها، ﴿واقربوا الله قرضاً حسناً﴾ أي: خالصاً لوجه الله، من نية صادقة، وتشبيهاً من النفس، ومال طيب، ويدخل في هذا، الصدقة الواجبة والمستحبة، ثم حث على عموم الخير وأفعاله، فقال: ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً﴾ المحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

(٦) في ب: حيث لم يجعل علينا في الدين.

(٤) في ب: ويتكففوا عنهم.  
(٥) في ب: أو لعبادة من جهاد أو حج أو غيره.

(١) في ب: خطره.  
(٢) في ب: وأهوالها.  
(٣) في ب: ما يسهل عليه.

المعروفة، وأنه مأمور بتطهيرها عن [جميع] النجاسات، في جميع الأوقات، خصوصاً في الدخول في الصلوات، وإذا كان مأموراً بتطهير الظاهر، فإن طهارة الظاهر من تمام طهارة الباطن.

﴿والرجز فاهجر﴾ يحتمل أن المراد بالرجز الأصنام والأوثان، التي عبدت مع الله، فأمره بتركها، والبراءة منها وما نسب إليها من قول أو عمل.

ويحتمل أن المراد بالرجز أعمال الشر كلها وأقواله، فيكون أمراً له بشرك الذنوب، صغيرها وكبيرها<sup>(١)</sup>، ظاهرها وباطنها، فيدخل في ذلك الشرك وما دونه.

﴿ولا تمنن تستكثر﴾ أي: لا تمنن على الناس بما أسديت إليهم من النعم الدينية والدينية، فتكثر<sup>(٢)</sup> بتلك المنة، وترى لك [الفضل] عليهم بإحسانك المنة، بل أحسن إلى الناس مهما أمكنتك، وأنس [عندهم] إحسانك، ولا تطلب أجره إلا من الله تعالى، واجعل من أحسنت إليه وغيره على حد سواء.

وقد قيل: إن معنى هذا، لا تعطي أحداً شيئاً، وأنت تريد أن يكافئك عليه بأكثر منه، فيكون هذا خاصاً بالنبي ﷺ.

﴿ولربك فاصبر﴾ أي: احتسب بصبرك، واقصد به وجه الله تعالى، فامتثل رسول الله ﷺ لأمره، وبادر إليه، فأنذر الناس، وأوضح لهم بالآيات البيّنات جميع المطالب الإلهية، وعظم الله تعالى، ودعا الخلق إلى تعظيمه، وطهر أعماله الظاهرة والباطنة من كل سوء، وهجر كل ما يبعد عن الله<sup>(٣)</sup> من الأصنام وأهلها، والشر وأهله، وله المنة على الناس - بعد منة الله - من غير أن يطلب منهم

يتغمده الله برحمته ومغفرته، فإنه هالك.

تم تفسير سورة المزمل<sup>(٢)</sup>

### تفسير سورة المدثر [وهي] مكية

﴿١ - ٧﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها المدثر \* قم فأنذر \* وربك فكبر \* وثيابك فطهر \* والرجز فاهجر \* ولا تمنن تستكثر \* ولربك فاصبر﴾ تقدم أن المزمل والمدثر بمعنى واحد، وأن الله أمر رسوله ﷺ، بالاجتهاد في عبادة الله القاصرة والمتعدية، فتقدم هناك الأمر له بالعبادات الفاضلة القاصرة، والصبر على أذى قومه، وأمره هنا بإعلان الدعوة<sup>(٣)</sup>، والصدع بالإنذار، فقال: ﴿قم﴾ [أي] بجِد ونشاط ﴿فأنذر﴾ الناس بالأقوال والأفعال، التي يحصل بها القصور، وبيان حال النذر عنه، ليكون ذلك أدعى لشركه، ﴿وربك فكبر﴾ أي: عظمه بالتوحيد، واجعل قصدك في إنذارك وجه الله، وأن يعظمه العباد ويقوموا بعبادته.

﴿وثيابك فطهر﴾ يحتمل أن المراد بثيابه، أعماله كلها، وبتطهيرها تخليصها والنصح بها، وإيقاعها على أكمل الوجوه، وتنقيتها عن المبطلات والفسدات، والمنقصات من شرك ورياء، [ونفاق]، وعجب، وتكبر، وغفلة، وغير ذلك، مما يؤمر العبد باجتنابه في عبادته.

ويدخل في ذلك تطهير الثياب من النجاسة، فإن ذلك من تمام التطهير للأعمال خصوصاً في الصلاة، التي قال كثير من العلماء: إن إزالة النجاسة عنها شرط من شروط الصلاة.

ويحتمل أن المراد بثيابه، الثياب



وليعلم أن مثقال ذرة من الخير في هذه الدار، يقابله أضعاف أضعاف الدنيا، وما عليها في دار النعيم المقيم، من اللذات والشهوات، وأن الخير والبر في هذه الدنيا، مادة الخير والبر في دار القرار، وبذره وأصله وأساسه، فوا أسفاه على أوقات مضت في الغفلات، وواحسرتاه على أزمان تفضت بغير الأعمال الصالحات، وواغوثاه من قلوب لم يؤثر فيها وعظ بارئها، ولم يتجع فيها تشويق من هو أرحم بها منها<sup>(٤)</sup>.

قلك اللهم الحمد، وإليك المشتكى، وبك المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا بك.

﴿واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ وفي الأمر بالاستغفار بعد الحث على أفعال الطاعة والخير، فائدة كبيرة، وذلك أن العبد ما يخلو من التقصير فيما أمر به، إما أن لا يفعله أصلاً أو يفعله على وجه ناقص، فأمر بتوقيع ذلك بالاستغفار، فإن العبد يذنب أثناء الليل والنهار، فمتى لم

(١) في ب: أرحم بها من نفسها.

(٢) في ب: تم تفسيرها والحمد لله.

(٣) في ب: بالإعلان بالدعوة.

(٤) في ب: صغارها وكبارها.

(٥) في ب: فتستكثر.

(٦) في ب: وهجر كل ما يبعد من دون الله وما يبعد منه.



على ذلك<sup>(١)</sup> جزاءه ولا شكوراً، وصبر لله أكمل صبر، فصبر على طاعة الله، وعن معاصي الله، وعلى أقدار الله المؤلمة<sup>(٢)</sup>، حتى فاق أولي العزم من المرسلين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

﴿٨- ١٠﴾ ﴿فإذا نقر نسي التاقور \* فذلك يومئذ يوم عسير \* على الكافرين غير يسير﴾ أي: فإذا انفج في الصور للقيام من القبور، وجمع الخلق<sup>(٣)</sup> للبعث والنشور. ﴿فذلك يومئذ يوم عسير﴾ لكثرة أهواله وشدائده ﴿على الكافرين غير يسير﴾ لأنهم قد أسروا من كل خير، وأيقنوا بالهلاك والبوارج.

ومفهوم ذلك أنه على المؤمنين يسير، كما قال تعالى: ﴿يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾.

﴿١١- ٣١﴾ ﴿ذري ومن خلقت وحيداً \* وجعلت له مالا ممدوداً \* وبينت شهوداً \* ومهدت له تمهيداً \* ثم يطعم أن أزيد \* كلاً إنه كان لآياتنا عتيداً \* سألهم صعوداً \* إنه فكر وقدر \* فقتل كيف قدر \* ثم قتل كيف قدر \* ثم نظر \* ثم عبس وبسر \* ثم أدبر واستكبر \* فقال إن هذا إلا سحر يؤثر \* إن هذا إلا قول البشر \* سأصليه سقر \* وما أدراك ما سقر \* لا تبقي ولا تذر \* لواحة للبشر \* عليها تسعة عشر \* وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً كذلك يضل الله من

يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكري للبشر﴾ هذه الآيات، نزلت في الوليد بن المغيرة، معاند الحق، والمبارز لله ولمسوله بالمحاربة والمشاقة، فذمه الله ذمًا لم يذمه<sup>(٤)</sup> غيره، وهذا جزاء كل من عاند الحق ونابذه، أن له الحزبي في الدنيا، ولعذاب الآخرة أخزى، فقال:

﴿ذري ومن خلقت وحيداً \* أي: خلقتك منفرداً، بلا مال ولا أهل، ولا غيره، فلم أزل أنميه وأربيه<sup>(٥)</sup>، وجعلت له مالا ممدوداً﴾ أي: كثيراً ﴿و﴾ جعلت له ﴿بينين﴾ أي: ذكوراً ﴿شهوداً﴾ أي: دانماً حاضرين عنده، على الدوام [يتمتع بهم، ويقضي بهم حوائجه، ويستنصر بهم.

﴿ومهدت له تمهيداً﴾ أي: مكتته من الدنيا وأسبابها، حتى انقادت له مطالبه، وحصل على<sup>(٦)</sup> ما يشتهي ويسريده، ﴿ثم﴾ مع هذه النعم والإمدادات ﴿يطمع أن أزيد﴾ أي: يطمع أن ينال نعيم الآخرة كما نال نعيم الدنيا. ﴿كلاً﴾ أي: ليس الأمر كما طمع، بل هو بخلاف مقصوده ومطلوبه، وذلك لأنه ﴿كان لآياتنا عتيداً﴾ أي: معانداً، عرفها ثم أنكرها، ودعته إلى الحق فلم ينقد لها ولم يكفه أنه عرض وتولى عنها، بل جعل يحاربها ويسمى في إبطالها، ولهذا قال عنه:

﴿إنه فكر﴾ [أي: في نفسه، وقدر] ما ذكر فيه، ليقول قولاً يبطل به القرآن.

﴿فقتل كيف قدر \* ثم قتل كيف قدر﴾ لأنه قدر أمراً ليس في طوره، وتُسَوَّر على ما لا يتاله هو و [لا] أمثاله، ﴿ثم نظر﴾ ما يقول، ﴿ثم

عبس وبسر﴾ في وجهه، وظاهره نفرة عن الحق وبغضاً له، ﴿ثم أدبر﴾ أي: تولى ﴿واستكبر﴾ نتيجة سعيه الفكري والعملي والقبولي، أن قال: ﴿إن هذا إلا سحر يؤثر \* إن هذا إلا قول البشر﴾ أي: ما هذا كلام الله، بل كلام البشر، وليس أيضاً كلام البشرك الأخبار، بل كلام الفجار منهم والأشرار، من كل كاذب سحار.

فتنبأ له، ما أبعد من الصواب، وأحراه بالخسارة والتباب!!

كيف يدور في الأذهان، أو يتصوره ضمير كل إنسان، أن يكون أعلى الكلام وأعظمه، كلام الرب العظيم، الماجد الكريم، يشبه كلام المخلوقين الفقراء الناقصين!!

أم كيف يتجرأ هذا الكاذب العتيد، على وصفه كلام المبدى المعيد<sup>(٧)</sup>.

فما حفه إلا العذاب الشديد والنكال، ولهذا قال تعالى:

﴿سأصليه سقر \* وما أدراك ما سقر \* لا تبقي ولا تذر﴾ أي:

(١) في ب: أن يطلب عليهم بذلك.

(٢) في ب: وصبر لربه أكمل صبر، فصبر على طاعة الله وعن معاصيه، وصبر على أقداره المؤلمة.

(٣) في ب: الخلائق.

(٤) في ب: لم يذمه به غيره.

(٥) في ب: أربيه، وأعطيه.

(٦) في ب: وحصل له.

(٧) في ب: على وصفه بهذا الوصف لكلام الله تعالى.



فرت من قسورة \* بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشرة \* كلا بل لا يخافون الآخرة \* كلا إنه تذكرة \* فمن شاء ذكره \* وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة \* **﴿كلا﴾** هنا بمعنى: حقاً، أو بمعنى «ألا» الاستفاحية، فأقسم تعالى بالقمر، وبالليل وقت إدياره، والنهار وقت إسفاره، لاشتمال المذكورات على آيات الله العظيمة، الدالة على كمال قدرة الله وحكمته، وسعة سلطانه، وعموم رحمته، وإحاطة علمه والمقسم عليه قوله: **﴿إنها﴾** أي: النار

**﴿لإحدى الكبرى﴾** أي: لإحدى العقائت الطامة والأمور الهامة، فإذا أعلمناكم بها، وكنتم على بصيرة من أمرها، فمن شاء متمم أن يتقدم، فيعمل بما يقربه من ربه، ويدينه من رضاه، ويزلفه من دار كرامته، أو يتأخر (عما خلق له) عما يحبه الله (ويرضاه)، فيعمل بالمعاصي، ويتقرب إلى نار جهنم، كما قال تعالى: **﴿وقل﴾** الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر الآية.

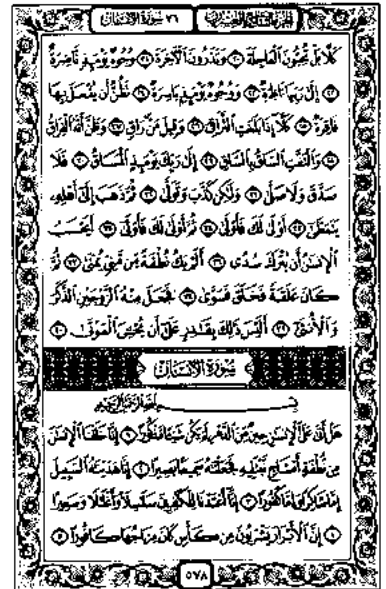
**﴿كل نفس بما كسبت﴾** من أعمال السوء وأفعال الشر، **﴿رهية﴾** بها موقفة بسعيها، قد ألزم عقبتها، وغل في رقبته، واستوجبت به العذاب، **﴿إلا أصحاب اليمين﴾** فإنهم لم يرتبوا، بل أطلقوا وفرحوا **﴿في جنات يتساءلون﴾** عن المجرمين **﴿أي﴾** في جنات قد حصل لهم بها جميع مطلوباتهم، وتمت لهم الراحة والطمأنينة، حتى أقبلوا يتساءلون، فأفضت بهم المحادثة، أن سألوا عن المجرمين، أي: حال وصلوا إليها، وهل وجدوا ما وعدهم الله تعالى؟

فقال بعضهم لبعض: «هل أنتم مطمئنون عليهم»، فاطلعوا عليهم في وسط الجحيم يعذبون، فقالوا لهم: **﴿ما سلككم في سقر﴾** أي: أي شيء أدخلكم فيهما؟ وبأي ذنب استحققتنهما؟ ف**﴿قالوا﴾** لك من

كل وقت، وكل مسألة من مسائل الدين، ودفع الشكوك والأوهام التي تعرض في مقابلة الحق، فجعل ما أنزله الله على رسوله محصلاً لهذه الفوائد<sup>(١)</sup> الجليلة، ومميزاً للكاذبين من الصادقين، ولهذا قال: **﴿وليقول﴾** الذين في قلوبهم مرض **﴿أي﴾** شك وشبهة ونفاق. **﴿والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾** وهذا على وجه الخيرة والشك، والكفر منهم بآيات الله، وهذا وذاك من هداية الله لمن يهديه، وإضلاله لمن يضل، ولهذا قال:

**﴿كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾** فمن هداه الله، جعل ما أنزله الله على رسوله رحمة في حقه، وزيادة في إيمانه ودينه، ومن أضله، جعل ما أنزله على رسوله زيادة شقاء عليه وحيرة، وظلمه في حقه، والواجب أن يتلقى ما أخبر الله به ورسوله بالتسليم، فإنه لا يعلم جنود ربك من الملائكة وغيرهم **﴿إلا هو﴾** فإذا كنتم جاهلين بجنوده، وأخبركم بها العليم الخبير، فعليكم أن تصدقوا خبره، من غير شك ولا ارتياب، **﴿وما هي إلا ذكرى للبشر﴾** أي: وما هذه الموعظة والتذكير مقصوداً به العث واللعب، وإنما المقصود به، أن يتذكر [به] البشر ما يفعلونه، وما يضرهم فيكونه.

**﴿٣٢-٥٦﴾** **﴿كلا والقمر﴾** والليل إذ أدبر \* والصبح إذا أسفر \* إنها لإحدى الكبر \* نذيراً للبشر \* لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر \* كل نفس بما كسبت رهية \* إلا أصحاب اليمين \* في جنات يتساءلون \* عن المجرمين \* ما سلككم في سقر \* قالوا لم نك من المصلين \* ولم نك نطمع المسكين \* وكنا نخوض مع الخائضين \* وكنا نكذب بيوام الدين \* حتى آتانا اليقين \* فما تنفهم شفاعة الشافعين \* فما لهم عن التذكرة معرضين \* كأنهم حمر مستنقرة \*



لا تبقى من الشدة، ولا على العذب شيئاً إلا ويلفته، **﴿لواحة للبشر﴾** أي: تلوحهم [وتصليهم] في عذابها، وتقلتهم بشدة حرها وقرفها.

**﴿عليها تسعة عشر﴾** من الملائكة، خزنة لها، غلاظ شداد، لا يعصون الله ما أمرهم، ويقبلون ما يؤمرون.

**﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة﴾** وذلك لشدة قوتهم.

**﴿وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا﴾** يحتمل أن المراد: إلا لعذابهم وعقابهم في الآخرة، ولزيادة تكاليفهم فيها، والعذاب يسمى فتنة، كما قال تعالى: **﴿يوم هم على النار يفتنون﴾** [ويحتمل أن المراد: أنا ما أخبرناكم

بعدهم، إلا لتعلم من يصدق ومن يكذب، ويدل على هذا، ما ذكره بعده في قوله: **﴿ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً﴾** فإن أهل الكتاب، إذا وافق ما عندهم وطابقه، ازداد يقينهم بالحق، والمؤمنون كلما أنزل الله آية، فآمنوا بها وصدقوا، ازداد إيمانهم، **﴿ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون﴾** أي: ليزول عنهم الريب والشك، وهذه مقاصد جليلة، يعنى بها أولو الألباب، وهي السعي في اليقين، وزيادة الإيمان في

[ولا زائدة] وإنما أي بها للاستفتاح والاهتمام بما بعدها، وكثرة الإتيان بها مع البين، لا يستغرب الاستفتاح بها، وإن لم تكن في الأصل موضوعة للاستفتاح.

فالمقسم به في هذا الموضع، هو المقسم عليه، وهو البعث بعد الموت، وقيام الناس من قبورهم، ثم وقوفهم ينتظرون ما يحكم به الرب عليهم، ﴿ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾ وهي جميع النفوس الخيرة والفاجرة، سُمّيت «اللوامة» لكثرة ترددها وتلومها، وعدم ثبوتها على حالة من أحوالها، ولأنها عند الموت تلوم صاحبها على ما عملت<sup>(١)</sup>، بل نفس المؤمن تلوم صاحبها في الدنيا على ما حصل منه، من تفریط أو تقصير في حق من الحقوق، أو غفلة، فجمع بين الأقسام بالجزاء، وعلى الجزاء، وبين مستحق الجزاء.

ثم أخير مع هذا، أن بعض المعاندين يكذب بيوم القيامة، فقال: ﴿يحسب الإنسان أن لن نجتمع عظامه﴾ بعد الموت، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قال من يجبي العظام وهي رميم﴾؟ فاستبعد من جهله وعدوانه قدرة الله على خلق عظامه التي هي عماد البدن، فرد عليه بقوله: ﴿بل قادرين على أن نسوي بنانه﴾ أي: أطراف أصابعه وعظامه، المستلزم ذلك لخلق جميع أجزاء البدن، لأنها إذا وجدت الأنامل والبنان، فقد تمت خلقة الجسد، وليس إنكاره لقدرة الله تعالى قصوراً بالدليل الدال على ذلك، وإنما [وقوع] ذلك منه أن قصده وإرادته أن يكذب<sup>(٢)</sup> بما أمامه من البعث. والفجور: الكذب مع التعمد.

جاءتهم الآيات البينات التي تبين الحق وتوضحه، فلو كان فيهم خير لأمنوا، ولهذا قال: ﴿كلا﴾ أن نعطيهم ما طلبوا، وهم ما قصدوا بذلك إلا التعجيز، ﴿بل لا يخافون الآخرة﴾ فلو كانوا يخافونها، لما جرى منهم ما جرى.

﴿كلا إنه تذكرة﴾ الضمير إما أن يعود على هذه السورة، أو على ما اشتملت عليه [من] هذه الموعظة، ﴿فمن شاء ذكره﴾ لأنه قد بين له السبيل، ووضح له الدليل.

﴿وما يذكرون إلا أن يشاء الله﴾ فإن مشيئته<sup>(٣)</sup> نافذة عامة، لا يخرج عنها حادث قليل ولا كثير، ففيها رد على القدرة، الذين لا يدخلون أفعال العباد تحت مشيئة الله، والجبرية، الذين يزعمون أنه ليس للعبد مشيئة، ولا فعل حقيقة، وإنما هو مجبور على أفعاله، فأثبت تعالى للعباد مشيئة حقيقة، وفعلاً، وجعل ذلك تابعاً لمشيئته، ﴿هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾ أي: هو أهل أن يتقى ويعبد، لأنه الإله الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وأهل أن يعترف لمن اتقاه واتبع رضاه.

تم تفسير سورة المدثر،  
و لله الحمد<sup>(٤)</sup>

### تفسير سورة القيامة [وهي] مكية

﴿١-٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم لا أقسم بيوم القيامة﴾ ولا أقسم بالنفس اللوامة \* يحسب الإنسان أن لن نجتمع عظامه \* بل قادرين على أن نسوي بنانه \* بل يريد الإنسان ليفجر أمامه \* يسأل أتبان يوم القيامة \* ليست «لا» [ها] هنا نافية،

المصلين \* ولم تك تطعم المسكين﴾ فلا إخلاص للمعبود، [ولا إحسان] ولا نفع للخلق المحتاجين.

﴿وكنا نخوض مع الخائضين﴾ أي: نخوض بالباطل، ونجادل به الحق، ﴿وكنا نكذب بيوم الدين﴾ هذا آثار الخوض بالباطل، [وهو] التكذيب بالحق، ومن أحق الحق، يوم الدين، الذي هو محل الجزاء على الأعمال، وظهور ملك الله وحكمه العدل لسان الخلق.

فاستمرينا على هذا المذهب الفاسد<sup>(٥)</sup> ﴿حتى أتانا اليقين﴾ أي: الموت، فلما ماتوا على الكفر تعذرت حينئذ عليهم الخيل، وانسدت في وجوههم باب الأمل، ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ لأنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى، وهؤلاء لا يرضى الله أعمالهم<sup>(٦)</sup>.

فلما بين الله مآل المخالفين، ورهب ما<sup>(٧)</sup> يفعل بهم، عطف على الوجودين بالعتاب واللوم، فقال: ﴿فما لهم عن التذكرة معرضين﴾ أي: صادين غافلين عنها.

﴿كأنهم﴾ في نفرتهم الشديدة متها ﴿حمر مستفزة﴾ أي: كأنهم حمر وحش نفرت فنفر بعضها بعضاً، فزاد عدوها، ﴿فرت من قسورة﴾ أي: من صائد ورام يريد لها، أو من أسد ونحوه، وهذا من أعظم ما يكون من النفور عن الحق، ومع هذا الإعراض وهذا النفور، يدعون الدعوى الكبار.

ف ﴿يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منسرة﴾ نازلة عليه من السماء، يزعم أنه لا يتقاد للحق إلا بذلك، وقد كذبوا، فإنهم لو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، فإنهم

(١) في ب: الباطل.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ولا يرضى أعمالهم.

(٣) في ب: وبين ما يفعل بهم.

(٤) في ب: فإن مشيئة الله.

(٥) في ب: تمت لله الحمد والمنة.

(٦) في ب: على ما فعلت.

(٧) في ب: لأن إرادته وقصده التكذيب.

ثم ذكر أحوال القيامة فقال :

﴿٧٥-١٥﴾ ﴿فإذا برق البصر \*

وخسف القمر \* وجمع الشمس والقمر \* يقول الإنسان يومئذ أين المفر \* كلا لا وزر \* إلى ربك يومئذ المستقر \* نبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر \* بل الإنسان على نفسه بصيره \* ولو ألقى معاذيره \*.

أي : إذا كانت القيامة برقت الأبصار من الهول العظيم، وشخصت فلا تطرف كما قال تعالى : ﴿إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار \* مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء﴾ و﴿وخسف القمر﴾ أي : ذهب نوره وسلطانه، و﴿وجمع الشمس والقمر﴾ وهما لم يجتمعا منذ خلقهما الله تعالى، فيجمع الله بينهما يوم القيامة، ويخسف القمر، وتكرر الشمس، ثم يقذفان في النار، ليرى العباد أنهما عبدان مسخران، وليرى من عبدهما أنهم كانوا كاذبين .

﴿يقول الإنسان﴾ حين يرى تلك القلائل المزعجات : ﴿أين المفر؟﴾ أي : أين الخلاص والفرار مما طرقتنا وأصابنا<sup>(١)</sup>؟

﴿كلا لا وزر﴾ أي : لا ملجأ لأحد دون الله، ﴿إلى ربك يومئذ المستقر﴾ لسائر العباد، فليس في إمكان أحد أن يستتر أو يهرب عن ذلك الموضع، بل لا بد من إيقافه ليجزى بعمله، ولهذا قال : ﴿نبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾ أي : بجميع عمله الحسن والسيئ، في أول وقته وآخره، ونبأ بخبر لا يتكره، ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾ أي : شاهداً ومحاسباً، ﴿ولو ألقى معاذيره﴾ فإنها معاذير لا تقبل، ولا تقابل ما يقرر به العبد<sup>(٢)</sup>، فيُقرُّ به، كما قال تعالى :

﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ .

فالعبد وإن أنكر، أو اعتذر عما عمله، فإتكاره واعتذاره يفيدانه شيئاً، لأنه يشهد عليه سمعه وبصره وجميع جوارحه بما كان يعمل، ولأن استغنايه قد ذهب وقته وزال نفعه : ﴿فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون﴾ .

﴿١٦-١٩﴾ ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به \* إن علينا جمعه وقرآنه \* فإذا قرأناه فاتبع قرآنه \* ثم إن علينا بيانه﴾ كان النبي ﷺ إذا جاءه جبريل بالوحي، وشرح في تلاوته عليه، يأمره النبي ﷺ من الحرص قبل أن يفرغ، وتلاه مع تلاوة جبريل إياه، فنهاه الله عن هذا، وقال : ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه﴾ .

وقال هنا : ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾ ثم ضمن له تعالى أنه لا بد أن يحفظه ويقرأه، ويجمعه الله في صدره، فقال : ﴿إن علينا جمعه وقرآنه﴾ فالحرص الذي في خاطرك، إنما الداعي له حذر الفوات والنسيان، فإذا ضمنه الله لك، فلا موجب لذلك .

﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾ أي : إذا كمل جبريل قراءة ما أوحى الله<sup>(٣)</sup> إليك، فحينئذ اتبع ما قرأه وأقرأه .

﴿ثم إن علينا بيانه﴾ أي : بيان معانيه، فوعده بحفظ لفظه وحفظ معانيه، وهذا أصل ما يكون، فامتثل ﷺ لأدب ربه، فكان إذا تلا عليه جبريل القرآن بعد هذا، أنصت له، فإذا فرغ قرأه .

وفي هذه الآية أدب لأخذ العلم، أن لا يبادر المتعلم المعلم قبل أن يفرغ من<sup>(٤)</sup> المسألة التي شرع فيها، فإذا فرغ منها سأله عما أشكل عليه، وكذلك إذا

كان في أول الكلام ما يوجب الرد أو الاستحسان، أن لا يبادر برده أو قبوله، حتى يفرغ من ذلك الكلام، ليتبين ما فيه من حق أو باطل، وليفهمه فهماً يتمكن به من الكلام عليه .

وفيها : أن النبي ﷺ كما بين للامة ألفاظ الوحي، فإنه قد بين لهم معانيه .

﴿٢٠-٢٥﴾ ﴿كلا بل تحبون العاجلة \* وتذرون الآخرة \* وجوه يومئذ ناضرة \* إلى ربها ناظرة \* ووجوه يومئذ باسرة \* تظن أن يفعل بها فاقرة﴾ أي : هذا الذي أوجب لكم الغفلة والإعراض عن وعظ الله وتذكيره أنكم ﴿تحبون العاجلة﴾ وتسمعون فيما يحصلها، وفي لذاتها وشهواتها، وتؤثرونها على الآخرة، فتذرون العمل لها، لأن الدنيا نعيمها ولذاتها عاجلة، والإنسان مولع بحب العاجل، والآخرة متأخر ما فيها من النعيم المقيم، فلذلك غفلتم عنها وتركتموها، كأنكم لم تخلقوا لها، وكأن هذه الدار هي دار القرار، التي تبذل فيها نفائس الأعمار، ويسعى لها آناء الليل والنهار، وبهذا انقلبت عليكم الحقيقة، وحصل من الخسار ما حصل .

فلو آثرتم الآخرة على الدنيا، ونظرتم للمواقب نظر البصير العاقل لأنجحتكم، وريحتم ريحاً لا خسارة معه، وفزتم فوزاً لا شقاء بصحبه .

ثم ذكر ما يدعو إلى إشار الآخرة، ببيان حال أهلها وتفاوتهم فيها، فقال في جزاء المؤمنين للآخرة على الدنيا : ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ أي : حسنة بهية، لها روتق ونور، مما هم فيه من نعيم القلوب، وبهجة النفوس، ولذة الأرواح، ﴿إلى ربها ناظرة﴾ أي : تنظر إلى ربها<sup>(٥)</sup> على حسب مراتبهم : منهم

- (١) في ب : والفكك مما طرقتا وألم بنا .
- (٢) في ب : بل يقرر بعلمه .
- (٣) في ب : إذا أكمل جبريل ما يوحي إليك .
- (٤) في ب : أن لا يبادر المتعلم للمعلم قبل أن يفرغ المعلم .
- (٥) في ب : أي ينظرون إلى ربهم .

خلق الإنسان هذه [وطوره إلى] الأطوار المختلفة ﴿بقادر على أن يحيي الموتى﴾ بل إنه على كل شيء قدير .

تم تفسير سورة القيامة ، والله الحمد والمنة ، وذلك في ١٦ صفر سنة ١٣٤٤<sup>(٧)</sup>

المجلد التاسع من تفسير الكريم الرحمن في تفسير القرآن لتعامه الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر عبد الله السعدي غفر الله له ولوالديه والصلوات على من.

### تفسير سورة هل أتى على الإنسان وهي مكية

﴿١ - ٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً \* إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً \* إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾ ذكر الله في هذه السورة الكريمة أول حالة الإنسان ومبتدأها ومتوسطها ومنتهاها .

فذكر أنه مر عليه دهرٌ طويل ، وهو الذي قبل وجوده ، وهو معدوم بل ليس مذكوراً .

ثم لما أراد الله تعالى خلقه ، خلق [أباه] آدم من طين ، ثم جعل نسله متسلسلاً ﴿من نطفة أمشاج﴾ أي : ماء مهين مستقذر ﴿نبتليه﴾ بذلك ، لنعلم هل يرى حاله الأول ، ويتفطن لها أم يسأها وتغره نفسه؟

فأنشأه الله ، وخلق له القوى الباطنة والظاهرة ، كالسمع والبصر ، وسائر الأعضاء ، فأعطاها له وجعلها سالمة يتمكن بها من تحصيل مقاصده .

ثم أرسل إليه الرسل ، وأنزل عليه الكتب ، وهداه الطريق الموصلة

ولكن القضاء والقدر ، إذا حتم وجاء فلا مرد له ، ﴿وظن أنه الفراق﴾ للدنيا .

﴿والنفت الساق بالساق﴾ أي : اجتمعت الشدائد والنفت ، وعظم الأمر وصعب الكرب ، وأريد أن تخرج الروح التي ألفت البدن<sup>(٨)</sup> ولم تنزل معه ، فتساق إلى الله تعالى ، حتى يجازيها بأعمالها ، ويقررها بفعالها .

فهذا الزجر ، [الذي ذكره الله] يسوق القلوب إلى ما فيه نجاتها ، ويزجرها عما فيه هلاكها . ولكن المعاند الذي<sup>(٩)</sup> لا تنفع فيه الآيات ، لا يزال مستمراً على بغيه وكفره وعناده .

﴿فلا صدق﴾ أي : لا آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ﴿ولا صلي﴾ ولكن كذب ﴿بالحق في مقابلة التصديق﴾ ، ﴿وتولى﴾ عن الأمر والنهي ، هذا وهو مطمئن قلبه ، غير خائف من ربه ، بل يذهب ﴿إلى أهله يتمطى﴾ أي : ليس على باله شيء ، ترعده بقوله : ﴿أول لك فأولى﴾ ثم أول لك فأولى ﴿وهذه كلمات وعيد ، كررها لتكرير وعيده ، ثم ذكر الإنسان بخلق الأول ، فقال : ﴿أيجسب الإنسان أن يترك سدى﴾ أي : معطلاً<sup>(١٠)</sup> ، لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يُشأب ولا يُعاقب؟ هذا حسيان باطل ، وظن بالله بغير ما يليق بحكمته .

﴿ألم يك نطفة من مني يمى﴾ ثم كان ﴿بعد المنى﴾ علقة ﴿أي : دماً ، فخلق﴾ الله منها الحيوان وسواه أي : أتقنه وأحكمه ، ﴿فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾ أليس ذلك الذي

من ينظره كل يوم بكرة وعشيا ، ومنهم من ينظره كل جمعة مرة واحدة ، فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم ، وجماله الباهر ، الذي ليس كمثل شيء ، فإذا رآه نسوا ما هم فيه من النعيم ، وحصل لهم من اللذة والسرور ما لا يمكن التعبير عنه ، ونضرت وجوههم ، وازدادوا جمالاً إلى جمالهم ، فتنال الله الكريم أن يجعلنا معهم .

وقال في المؤثرين العاجلة على الآجلة : ﴿وجوه يومئذ باسرة﴾ أي : معبسة ومكدرة<sup>(١١)</sup> ، خاشعة ذليلة ﴿نظن أن يفضل بها فاقرة﴾ أي : عقوبة شديدة ، وعذاب أليم ، فلذلك تغيرت وجوههم وعبت .

﴿٢٦ - ٤٠﴾ ﴿كلا إذا بلغفت التراقي \* وقيل من راق \* وظن أنه الفراق \* والنفت الساق بالساق \* إلى ربك يومئذ المساق \* فلا صدق ولا صلي \* ولكن كذب وتولى \* ثم ذهب إلى أهله يتمطى \* أولى لك فأولى \* ثم أول لك فأولى \* ألم يك نطفة من مني يمى \* ثم كان علقة فخلق فسوى \* فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى \* ألبس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾ يعظ تعالى عباده ، بذكر حال المحتضر عند الساق<sup>(١٢)</sup> ، وأنه إذا بلغت روحه التراقي ، وهي العظام المكتنفة لشجرة النحر ، فحينئذ يشتد الكرب ، ويطلب كل وسيلة وسبب ، يظن أن يحصل به الشفاء والراحة ، ولهذا قال : ﴿وقيل من راق﴾ أي : من يرقيه ، من الرقية ، لأنهم انقطعت آمالهم من الأسباب العادية ، فلم يبق إلا الأسباب الإلهية<sup>(١٣)</sup> .

(١) في ب : كدرة .

(٢) في ب : بذكر المحتضر حال الساق .

(٣) في ب : فتعلقوا بالأسباب الإلهية .

(٤) في ب : أن تخرج الروح من البدن الذي ألفت .

(٥) كذا في ب ، وفي أ : التي .

(٦) في ب : أي مهملاً .

(٧) في ب : والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وسلم .

إلى الله<sup>(١)</sup>، ورغبه فيها، وأخبره بما له عند الوصول إلى الله.

ثم أخبره بالطريق الموصلة إلى الهلاك، ورهبه منها، وأخبره بما له إذا سلكها، وابتلاه بذلك، فانقسم الناس إلى شاكركلنعمه الله عليه، قائم بما حمله الله من حقوقه، وإلى كفور لنعمة الله عليه، أنعم الله عليه بالنعم الدينية والدنيوية، فردها، وكفر بربه، وسلك الطريق الموصلة إلى الهلاك.

ثم ذكر تعالى حال الفريقين عند الجزاء فقال:

﴿٤ - ٢٢﴾ **﴿إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً﴾** إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً إلى آخر الثواب أي: إنا هيأنا وأرصدنا لمن كفر بالله، وكذب رسله، وتجراً على المعاصي **﴿سلاسل﴾** في نار جهنم، كما قال تعالى: **﴿ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه﴾**.

**﴿وأغلالاً﴾** تغل بها أيديهم إلى أعناقهم ويوتقون بها.

**﴿وسعيراً﴾** أي: ناراً تستعر بها أجسامهم، وتحرق بها أبدانهم، **﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها، ليذوقوا العذاب﴾** وهذا العذاب دائم لهم أبداً، مخلدون فيه سرمداً.

وأما **﴿الأبرار﴾** وهم الذين برت قلوبهم بما فيها من محبة الله ومعرفته، والأخلاق الجميلة، فبرت جوارحهم<sup>(٢)</sup>، واستعملوها بأعمال البر، أخبر أنهم **﴿يشربون من كأس﴾** أي: شراب لذيذ من خمر قد مزج بكافور أي: خلط بكافور، ليبرده ويكسر حدته، وهذا الكافور [في غاية اللذة]، قد سلم من كل مكسر ومنغص، موجود في كافور الدنيا،

فإن الآفة الموجودة في الأسماء التي ذكر الله أنها في الجنة وهي في الدنيا تعدم في الآخرة<sup>(٣)</sup>.

كما قال تعالى: **﴿في سدر مخضود﴾** وطلح منضود **﴿وأزواج مطهرة﴾** لهم دار السلام عند ربهم **﴿وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين﴾**.

**﴿عينا يشرب بها عباد الله﴾** أي: ذلك الكأس اللذيذ الذي يشربون به، لا يخافون نفاذه، بل له مادة لا تنقطع، وهي عين دائمة الفيضان والجريان، يفجرها عباد الله تفجييراً، أنى شأوا، وكيف أرادوا، فإن شأوا صرفوها إلى البساتين الزاهرات، أو إلى الرياض الناضرات، أو بين جوانب القصور والمسكن المزخرفات، أو إلى أي: جهة يرونها من الجهات الموقفات.

وقد ذكر<sup>(٤)</sup> جملة من أعمالهم في أول هذه السورة، فقال: **﴿يوفون بالنذر﴾** أي: بما ألزموا به أنفسهم لله من النذور والمعاهدات، وإذا كانوا يوفون بالنذر، وهو لم يجب<sup>(٥)</sup> عليهم، إلا بإيجابهم على أنفسهم، كان فعلهم وقيامهم بالفروض الأصلية، من باب أولى وأحرى، **﴿ويحافون يوماً كان شره مستطيراً﴾** أي: منتشرأفاشياً، فحافوا أن ينالهم شره، فتركوا كل سبب موجب لذلك، **﴿ويطمعون الطعام على حبه﴾** أي: وهم في حال يحبون فيها المال والطعام، لكنهم قدموا محبة الله على محبة نفوسهم، ويتحرون في إطعامهم أول الناس وأحوجهم، **﴿مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾**.

ويصدقون بإنفاقهم وإطعامهم وجهه الله تعالى، ويقولون بلسان الحال: **﴿إنما نطعمكم لوجه الله﴾** لا تريد منكم جزاء ولا شكوراً **﴿أي:**

لا جزاء مالياً، ولا ثناء قولياً.

**﴿إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً﴾** أي: شديد الجهمة والشر **﴿قمطيراً﴾** أي: ضنكاً ضيقاً، **﴿فوقاهم الله شر ذلك اليوم﴾** فلا يجزئهم الفزع الأكبر، وتلقاهم الملائكة [هذا يومكم الذي كنتم توعدون].

**﴿ولقاهم﴾** أي: أكرمهم وأعطاهم **﴿نضرة﴾** في وجوههم **﴿وسروراً﴾** في قلوبهم، فجمع لهم بين نعيم الظاهر والباطن، **﴿وجزاهم بما صبروا﴾** على طاعة الله، فعملوا ما أمكنهم منها، وعن معاصي الله، فتركوها، وعلى أقدار الله المؤلة، فلم يتسخطوها، **﴿جنة﴾** جامعة لكل نعيم، سالمة من كل مكدر ومنغص، **﴿وححريراً﴾** كما قال [تعالى]: **﴿ولباسهم فيها حريراً﴾** ولعل الله إنما خص الحرير، لأنه لباسهم الظاهر، الدال على حال صاحبه.

**﴿متكئين فيها على الأرائك﴾** الاتكاء: التمكن من الجلوس، في حال الرفاهية والطمأنينة [الراحة]، والأرائك هي السرر التي عليها لباس المزين، **﴿لا يرون فيها﴾** أي: في الجنة **﴿شمساً﴾** يضرهم حرها، **﴿ولا زمهرياً﴾** أي: برداً شديداً، بل جميع أوقاتهم في ظل ظليل، لا حر ولا برد، بحيث تلتذ به الأجساد، ولا تتألم من حر ولا برد.

**﴿ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً﴾** أي: قربت ثمراتها من مريدتها تقريباً ينالها، وهو قائم، أو قاعد، أو مضطجع.

ويطاف على أهل الجنة أي: يدور [عليهم] الخدم والولدان<sup>(٦)</sup> **﴿بآنية من فضة﴾** وأكواب كانت قواريرا \* قوارير من فضة **﴿أي: مادتها من فضة،**

(١) في ب: الطريق الموصلة إليه وبينها.

(٢) في ب: أعمالهم.

(٣) في ب: الموجودة في الدنيا تعدم من الأسماء التي ذكرها الله في الجنة.

(٤) في ب: ثم ذكر.

(٥) في ب: الذي هو غير واجب.

(٦) في ب: **﴿ويطاف عليهم﴾** أي: يلور الولدان والخدم على أهل الجنة.



على الهدى ﴿أعد لهم عذاباً أليماً﴾  
[بظلمهم وعدوانهم].

تم تفسير سورة الإنسان،  
ولله الحمد والمنة<sup>(٤)</sup>

### تفسير سورة المرسلات وهي مكية

﴿١٥ - ١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ والمرسلات عرفاً \* فالعاصفات عصفاً \* والناشرات نشرأ \* فالغارات فرقاً \* فالملقيات ذكراً \* عدراً أو نلراً \* إنما توعدون لواقع \* فإذا النجوم طمست \* وإذا الجبال نسفت \* وإذا الرسل أقتت \* لأي: يوم أجت \* ليوم الفصل \* وما أدراك ما يوم الفصل \* ويل يومئذ للمكذبين﴾ أقسم تعالى على البعث والجزاء بالأعمال<sup>(٥)</sup>، بالمرسلات عرفاً، وهي الملائكة التي يرسلها الله تعالى بشئونه القدرية وتدبير العالم، وبشئونه الشرعية ووجه إلى رسله.

و ﴿عرفاً﴾ حال من المرسلات أي: أرسلت بالعرف والحكمة والمصلحة، لا بالنكر والعبث.

﴿فالعاصفات عصفاً﴾ وهي [أيضاً] الملائكة التي يرسلها الله تعالى، وصفها بالمبادرة لأمره، وسرعة تنفيذ أوامره، كالريح العاصف، أو: أن العاصفات، الرياح الشديدة، التي يسرع هبوبها، ﴿والناشرات نشرأ﴾ بمحتمل أنها الملائكة<sup>(٦)</sup>، تنشر ما دبرت على نشره، أو أنها السحاب التي ينشر بها الله الأرض، فيحييها بعد موتها، ﴿فالملقيات ذكراً﴾ هي الملائكة، تلقي أشرف الأوامر، وهو الذكر الذي

﴿٢٨﴾ ثم استدلل عليهم وعلى بعثهم بدليل عقلي، وهو دليل الابتداء، فقال: ﴿نحن خلقناهم﴾ أي: أوجدناهم من العدم، ﴿وشدنا أسرههم﴾ أي: أحكمنا خلقتهم بالأعصاب، والعروق، والأوتار، والقوى الظاهرة والباطنة، حتى تم الجسم واستكمل، وتمكن من كل ما يريد، فالذي أوجدهم على هذه الحالة، قادر على أن يعيدهم بعد موتهم لجزائهم، والذي نقلهم في هذه الدار إلى هذه الأطوار، لا يليق به أن يتركهم سدى، لا يؤمرون، ولا ينهون، ولا يثابون، ولا يعاقبون، ولهذا قال:

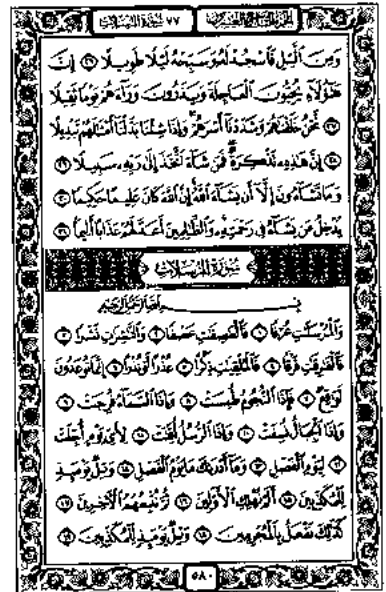
﴿بدلنا أمثالهم تبديلاً﴾ أي: أنشأناكم للبعث نشأة أخرى، وأعدناكم بأعيانكم، وهم بأنفسهم أمثالهم.

﴿إن هذه تذكرة﴾ أي: يتذكر بها المؤمن، فينتفع بما فيها من التخويف والترغيب.

﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ أي: طريقاً موثقاً إليه، فالله يبين الحق والهدى، ثم يجيز الناس بين الاهتداء بها أو النفور عنها، مع قيام الحجة عليهم<sup>(٧)</sup>، ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾ فإن مشيئة الله نافذة، ﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾ فله الحكمة في هداية المهتدي، وإضلال الضال.

﴿يدخل من يشاء في رحمته﴾ فيختصه بعنايته، ويوفقه لأسباب السعادة ويهديه لطرقتها.

﴿والظالمين﴾ الذين اختاروا الشقاء



المكشوبات وما يتبعها من التواقل، والذكر، والتسبيح، والتسهيل، والتكبير في هذه الأوقات.

﴿ومن الليل فاسجد له﴾ أي: أكثر [له] من السجود، ولا يكون ذلك إلا بالإكثار من الصلاة<sup>(٨)</sup>.

﴿وسبحه ليلاً طويلاً﴾ وقد تقدم تقييد هذا المطلق بقوله: ﴿يا أيها المزمل﴾ ثم الليل إلا قليلاً الآية<sup>(٩)</sup>: [وقوله] ﴿إن هؤلاء﴾ أي: المكذبين لك أيها الرسول بعدما بينت لهم الآيات، ورجعوا ورهبوا، ومع ذلك، لم يبدف فيهم ذلك شيئاً، بل لا يزالون يؤثرون ﴿العاجلة﴾ ويطمنون إليها، ﴿ويصدرون﴾ أي: يتركون العمل ويميلون ﴿وراءهم﴾ أي: أمامهم ﴿يوماً قليلاً﴾ وهو يوم القيامة، الذي مقداره خمسون ألف سنة مما تعدون، وقال تعالى: ﴿يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾.

فكانهم ما خلقوا إلا للدنيا والإقامة فيها.

(١) في ب: وذلك متضمنٌ لكثرة الصلاة.

(٢) في ب: أكمل الآيات ﴿نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه﴾.

(٣) في ب: إقامة للحجة ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

(٤) في ب: تمت ولله الحمد.

(٥) في ب: على الأعمال.

(٦) في ب: يحتمل أن المراد بها الملائكة.





والأشربة اللذيذة، **«هنيئاً»** أي: من غير منغص ولا مكدر، ولا يتم هناؤه، حتى يسلم الطعام والشراب من كل آفة ونقص، وحتى يجزوا أنه غير منقطع ولا زائل، **«بما كنتم تعملون»** فاعمالكم هي السبب الموصل لكم إلى هذا النعيم<sup>(١)</sup> المقيم، وهكذا كل من أحسن في عبادة الله وأحسن إلى عباد الله، ولهذا قال: **«إنا كذلك نجزي المحسنين \* ويل يومئذ للمكذبين»** ولو لم يكن لهم من هذا الويل إلا فوات هذا النعيم، لكفى به حرماناً وخسراناً<sup>(٢)</sup>.

**﴿٤٦ - ٥٠﴾ «كلوا وامتعوا قليلاً إنكم مجرمون \* ويل يومئذ للمكذبين \* وإذ قيل لهم اركعوا لا يركعون \* ويل يومئذ للمكذبين \* فيأي: حديث بعده يؤمنون»** هذا تهديد ووعيد للمكذبين، أنهم وإن أكلوا في الدنيا وشربوا وامتعوا باللذات، وغفلوا عن القربات، فإنهم مجرمون، يستحقون ما يستحقه المجرمون، فستقطع عنهم اللذات، وتبقى عليهم التبعات، ومن إجرامهم أنهم إذا أمروا بالصلاة التي هي أشرف العبادات، وقيل لهم: **«اركعوا»** امتعوا من ذلك.

فأي إجرام فوق هذا؟ وأي تكذيب يزيد على هذا؟!!

**«ويل يومئذ للمكذبين»** ومن الويل عليهم أنهم تنسد عليهم أبواب التوفيق، ومجرمون كل خير، فإنهم إذا كذبوا هذا القرآن الكريم، الذي هو أعلى مراتب الصدق واليقين على الإطلاق.

**«فيأي: حديث بعده يؤمنون»** أبايائل الذي هو كاسمه، لا يقوم عليه شبهة فضلاً عن الدليل؟ أم بكلام كل مشرك كذاب أفاك مين؟ فليس بعد النور المبين إلا دياجي

هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين \* فإن كان لكم كيد فكيدون \* ويل يومئذ للمكذبين \* أي: هذا اليوم العظيم الشديد على المكذبين، لا ينطقون فيه من الخوف والوجل الشديد، **«ولا يؤذن لهم فيمتدرون»** أي: لا تقبل معذرتهم، ولو اعتذروا: **«فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون»**.

**«هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين»** لفصل بينكم، ونحكم بين الخلائق، **«فإن كان لكم كيد»** تقدرون على الخروج من ملكي، وتنجون به من عذابي، **«فكيدون»** أي: ليس لكم قدرة ولا سلطان، كما قال تعالى: **«يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان»**.

ففي ذلك اليوم، تبطل حيل الظالمين، ويضمحل مكرمهم وكيدهم، ويستسلمون لعذاب الله، ويبين لهم كذبهم في تكذبيهم **«ويل يومئذ للمكذبين»**

**﴿٤١ - ٤٥﴾ «إن المتقين في ظلال وعيون \* وفواكه مما يشتهون \* كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون \* إنا كذلك نجزي المحسنين \* ويل يومئذ للمكذبين»** لما ذكر عقوبة المكذبين، ذكر ثواب<sup>(٣)</sup> المحسنين، فقال: **«إن المتقين»** [أي: للتكذيب، المتصفين بالتصديق في أقوالهم وأفعالهم وأعمالهم، ولا يكونون كذلك إلا بأدائهم الواجبات، وتركهم المحرمات.

**«في ظلال»** من كثرة الأشجار المتنوعة، الزاهية البهية. **«وعيون»** جارية من السلسبيل، والرحيق وغيرها، **«وفواكه مما يشتهون»** أي: من خيار الفواكه وطيبها، ويقال لهم: **«كلوا واشربوا»** من المأكّل الشهية،



خلاله ثلاث شعب أي: قطع من النار أي: تتعاوره وتتواربه وتجتمع به.

**«لا ظليل»** ذلك الظل أي: لا راحة فيه ولا طمأنينة، **«ولا يغني»** من مكث فيه **«من اللهب»** بل اللهب قد أحاط به، بمنة ويسرة ومن كل جانب، كما قال تعالى: **«لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل»**.

**«لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين»**.

ثم ذكر عظم شرر النار، الدال على عظمتها وفظاعتها وسوء منظرها، فقال:

**«إنها ترمي بشرور كالقصر \* كأنه جالة صفر»** وهي السود التي تضرب إلى لون فيه صفرة، وهذا يدل على أن النار مظلمة، لهيها وجرها وشرورها، وأنها سوداء، كريمة المرأى<sup>(٤)</sup>، شديدة الحرارة، نسأل الله العافية منها [من الأعمال القربة منها].

**«ويل يومئذ للمكذبين»**  
**﴿٣٥ - ٤٠﴾ «هذا يوم لا ينطقون \* ولا يؤذن لهم فيعتدون \* ويل يومئذ للمكذبين \***

(٤) في ب: حرناً وحرماناً.

(٣) في ب: إلى جنات النعيم.

(١) في ب: كريمة المنظر.

(٢) في ب: ثواب.



﴿٣١-٣٦﴾ ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ

مفازاً \* حدائق وأعتاباً \* وكواعب أتراباً \* وكأساً دهاقاً \* لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاياً \* جزاءً من ربك عطاءً حساباً﴾ لما ذكر حال المجرمين، ذكر مآل المتقين، فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ أي<sup>(١)</sup>: الذين اتقوا سخط ربهم، بالتمسك بطاعته، والانكفاف عما يكرهه<sup>(٢)</sup> فلمهم مفاز ومنجى، ويُعَدُّ عن النار، وفي ذلك المفاض لهم هذا الجزاء، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أي: لا يؤمنون بالبعث، ولا أن الله يجازي الخلق بالخير والشر، فلذلك أهملوا العمل للأخرة.

﴿وَكَلِّبُوا بآيَاتِنَا كَذِبًا﴾ أي: كذبوا بها تكذيباً واضحاً صريحاً وجاءتهم البينات فعاندوها.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ من قليل وكثير، وخير وشر ﴿أَحْصِيْنَاهُ كِتَابًا﴾ أي: كتبناه<sup>(٣)</sup> في اللوح المحفوظ، فلا يخشى المجرمون أننا عذبناهم بذنوب لم يعملوها، ولا يحسبوا أنه يضع من أعمالهم شيء، أو ينسى منها مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمَجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ لِمَا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَقْدَرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

﴿فَلذُوقُوا﴾ أيها المكذبون هذا العذاب الأليم والحزني الدائم ﴿فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ وكل وقت وحين يزداد عذابهم [وهذه الآية أشد الآيات في شدة عذاب أهل النار أجارنا الله منها].

﴿فَلذُوقُوا﴾ أيها المكذبون هذا العذاب الأليم والحزني الدائم ﴿فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ وكل وقت وحين يزداد عذابهم [وهذه الآية أشد الآيات في شدة عذاب أهل النار أجارنا الله منها].

﴿فَلذُوقُوا﴾ أيها المكذبون هذا العذاب الأليم والحزني الدائم ﴿فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ وكل وقت وحين يزداد عذابهم [وهذه الآية أشد الآيات في شدة عذاب أهل النار أجارنا الله منها].

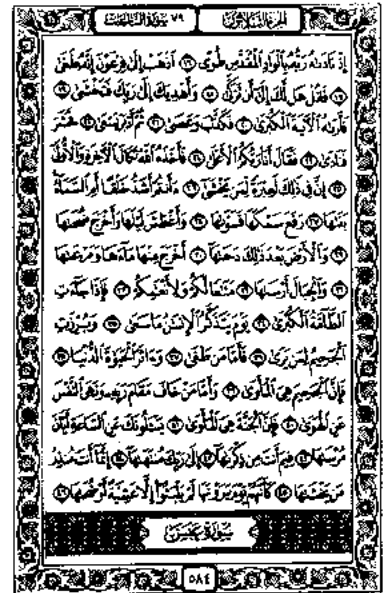
﴿إِلَّا حِسَابًا﴾ أي: ماء حاراً، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم، ﴿وَعَسَاقًا﴾ وهو صديد أهل النار، الذي هو في غاية الشتن، وكرامة المذاق، وإنما استحقوا هذه العقوبات الفظيعة جزاءً لهم ووفقاً على ما عملوا من الأعمال الموصلة إليهم، لم يظلمهم الله، ولكن ظلموا أنفسهم، ولهذا ذكر أعمالهم، التي استحقوا بها هذا الجزاء، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أي: لا يؤمنون بالبعث، ولا أن الله يجازي الخلق بالخير والشر، فلذلك أهملوا العمل للأخرة.

﴿وَكَلِّبُوا بآيَاتِنَا كَذِبًا﴾ أي: كذبوا بها تكذيباً واضحاً صريحاً وجاءتهم البينات فعاندوها.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ من قليل وكثير، وخير وشر ﴿أَحْصِيْنَاهُ كِتَابًا﴾ أي: كتبناه<sup>(٣)</sup> في اللوح المحفوظ، فلا يخشى المجرمون أننا عذبناهم بذنوب لم يعملوها، ولا يحسبوا أنه يضع من أعمالهم شيء، أو ينسى منها مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمَجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ لِمَا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَقْدَرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

﴿فَلذُوقُوا﴾ أيها المكذبون هذا العذاب الأليم والحزني الدائم ﴿فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ وكل وقت وحين يزداد عذابهم [وهذه الآية أشد الآيات في شدة عذاب أهل النار أجارنا الله منها].

﴿فَلذُوقُوا﴾ أيها المكذبون هذا العذاب الأليم والحزني الدائم ﴿فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ وكل وقت وحين يزداد عذابهم [وهذه الآية أشد الآيات في شدة عذاب أهل النار أجارنا الله منها].



حيماً وعساقاً \* جزاءً وفاقاً \* إنهم كانوا لا يرجون حساباً \* وكذبوا بآياتنا كذاياً \* وكل شيء أحصيناه كتاباً \* فلذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة الذي يتساءل عنه المكذبون، ويحده المعاندون، أنه يوم عظيم، وأن الله جعله ﴿مِيقَاتًا﴾ للخلق ﴿يَنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ ويجري فيه من الزعازع والقلاقل ما يشيب له الوليد، وتنزع له القلوب، فتسير الجبال، حتى تكون كالهباء الميثوث، وتشقق<sup>(١)</sup> السماء حتى تكون أبواباً، ويفصل الله بين الخلائق بحكمه الذي لا يجور، وتوقد نار جهنم التي أرصدها الله وأعددها للطاغين، وجعلها مشرى لهم ومآباً، وأنهم يلبثون فيها أحقاباً كثيرة، و«الحقبة» على ما قاله كثير من المفسرين: ثمانون سنة. وهم إذا وردوها<sup>(٢)</sup> ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ أي: لا ما يبرد

(١) في ب: وتشقق.

(٢) في ب: فإذا وردوها.

(٣) في ب: أثبتناه.

(٤) كنا في ب، وفي أ: فقال: إن المتقين.

(٥) في ب: عن مصيبته.

(٦) كنا في ب، وفي أ: وهي الناهد التي لم ينكسر لديها من شبابها ونضارتها وقوتها.

(٧) في ب: أعدل ما يكون من الشباب.

(٨) في ب: وجعلها سبباً للوصول إلى كرامته.

تعالى :

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ الآيات .

فإن وجد خيراً فليحمد الله، وإن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه، ولهذا كان الكفار يتنمون الموت من شدة الحسرة والندم .  
نسأل الله أن يعافينا من الكفر والشرك كله، إنه جواد كريم .

تم تفسير سورة عم،  
والحمد لله رب العالمين

### تفسير سورة التازعات وهي مكية

﴿١ - ١٤﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم والتازعات غرقاً \* والناشطات نشطاً \* والسابحات سبحاً \* فالسابقات سبقاً \* فالملدبرات أمراً \* يوم ترجف الراجفة \* تتبهما الرادفة \* قلوب يومئذ واجفة \* أبصارها خاشعة \* يقولون أئنا لمدردون في الحافرة \* إذا كنا عظماً نخرة \* قالوا تلك إذا كرة خاسرة \* فإنما هي زجرة واحدة \* فإذا هم بالساهرة \* هذه الإقسامات بالملائكة الكرام، وأفعالهم الدالة على كمال انقيادهم لأمر الله، وإسراعهم في تنفيذ أمره، يحتمل أن المقسم عليه، الجزاء والبعث، بدليل الإتيان بأحوال القيامة بعد ذلك، ويحتمل أن المقسم عليه والمقسم به متحذان، وأنه أتم على الملائكة، لأن الإيمان بهم أحد أركان الإيمان الستة، ولأن في ذكر أفعالهم هنا ما يتضمن الجزاء الذي تتولاه الملائكة عند الموت وقبله وبعده، فقال: «والنازعات غرقاً»: وهم الملائكة التي تنزع الأرواح بقوة، وتفرق في نزعها حتى تخرج الروح، فتجازى بعملها .

﴿٣٧ - ٤٠﴾ «رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطاباً \* يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً \* ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً \* إنا أنذرناكم عذاباً قريباً يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً \* أي: الذي أعطاهم هذه العطايا هو ربهم رب السماوات والأرض الذي خلقها ودبرها الرحمن الذي وسعت كل شيء، فرباهم ورحمهم، ولطف بهم، حتى أدركوا ما أدركوا .

ثم ذكر عظمته وملكوته العظيم يوم القيامة، وأن جميع الخلق كلهم ذلك اليوم ساكنون لا يتكلمون، و «لا يملكون منه خطاباً» إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً، فلا يتكلم أحد إلا بهذين الشرطين: أن يأذن الله له في الكلام، وأن يكون ما تكلم به صواباً، لأن «ذلك اليوم» هو الحق الذي لا يروج فيه الباطل، ولا ينفع فيه الكذب، وفي ذلك اليوم يقوم الروح وهو جبريل عليه السلام، الذي هو أشرف الملائكة<sup>(١)</sup>، والملائكة أيضاً يقوم الجميع صفاً خاضعين لله «لا يتكلمون» إلا بما أذن لهم الله به<sup>(٢)</sup> .  
فلما رغب ورهب، وبشر وأنذر، قال:

«فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً» أي: عملاً، وقدم صدق يرجع إليه يوم القيامة .

«إنا أنذرناكم عذاباً قريباً» لأنه قد أرف مقبلاً، وكل ما هو آت فهو قريب .

«يوم ينظر المرء ما قدمت يداه» أي: هذا الذي يسمه ويفزع إليه، فلينظر في هذه الدنيا إليه<sup>(٣)</sup>، كما قال

(١) في ب: أفضل الملائكة .

(٢) في ب: إلا ياذنه .

(٣) في ب: فلينظر في هذه الدار ما قدم لدار القرار .

(٤) في ب: لئلا تسترقة .

(٥) في ب: الذين جعلهم الله يدبرون كثيراً من أمور العالم .



«والناشطات نشطاً»: وهم الملائكة أيضاً، تجتذب الأرواح بقوة ونشاط، أو أن التنزع يكون لأرواح المؤمنين، والنشط لأرواح الكفار .

«والسابحات»: أي: الترددات في الهواء صعوداً ونزولاً «سبحاً» فالسابقات «سبحاً» لغيرها «سبحاً» فتبادر لأمر الله، وتسبح الشياطين في إيصال السوحسى إلى رسل الله حتى لا تسترقه<sup>(٤)</sup> .

«فالملدبرات أمراً»: الذين وكلهم الله أن يدبروا كثيراً من أمور العالم<sup>(٥)</sup> العلوي والسفلي، من الأمطار، والنبات، والأشجار، والرياح، والبحار، والأجنة، والحيوانات، والجنة، والنار أو غير ذلك [يوم ترجف الراجفة] وهي قيام الساعة، «تتبهما الرادفة» أي: الرجفة الأخرى التي تردفها وتأتي تلؤها، «قلوب يومئذ واجفة» أي: موجفة ومنزعجة من شدة ما ترى وتسمع .

«أبصارها خاشعة» أي: ذليلة حقيرة، قد ملك قلوبهم الخوف،

يخشى الله، هو الذي ينتفع بالآيات والعرش، فإذا رأى عقوبة فرعون، عرف أن كل من تكبر وعصى، وبارز الملك الأعلى، عاقبه في الدنيا والآخرة، وأما من ترحلت خشية الله من قلبه، فلو جاءته كل آية لم يؤمن [بها].

﴿٢٧ - ٢٣﴾ ﴿أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها﴾ \* رفع سمكها فسواها \* وأغطش ليلها وأخرج ضحاها \* وأخرج منها ماءها ومرعاها \* والجبال أرساها \* متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ يقول تعالى مبيناً دليلاً واضحاً لتكري البعث ومستعدي إعادة الله للأجساد:

﴿أنتم﴾ أيها البشر ﴿أشد خلقاً أم السماء﴾ ذات الجرم العظيم، والخلق القوي، والارتفاع الباهر ﴿بناها﴾ الله، ﴿رفع سمكها﴾ أي: جرمها وصورتها، ﴿فسواها﴾ بإحكام وإتقان يبحر العقول، ويذهل الألباب، ﴿وأغطش ليلها﴾ أي: أظلمه، فعمت الظلمة [جميع] أرجاء السماء، فأظلم وجه الأرض، ﴿وأخرج ضحاها﴾ أي: أظهر فيه النور العظيم، حين أتى بالشمس، فامتد<sup>(٢٣)</sup> الناس في مصالح دينهم ودنياهم.

﴿والأرض بعد ذلك﴾ أي: بعد خلق السماء ﴿دحاها﴾ أي: أودع فيها منافعها.

وفسر ذلك بقوله: ﴿أخرج منها ماءها ومرعاها \* والجبال أرساها﴾ أي: نبثها في الأرض.

فدخني الأرض بعد خلق السماء، كما هو نص هذه الآيات [الكريمة].

وأما خلق نفس الأرض، فمتقدم على خلق السماء كما قال تعالى: ﴿قل إنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين﴾ إلى أن قال: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا

والأولى \* إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾ يقول [الله] تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿هل أتاك حديث موسى﴾ وهذا الاستفهام عن أمر عظيم متحقق وقوعه.

أي: هل أتاك حديثه ﴿إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى﴾ وهو المحل الذي كلمه الله فيه، وامتحن عليه بالرسالة، واختصه بالوحي والاجتهاد<sup>(٢٤)</sup> فقال له: ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ أي: فانه عن طغيانه وشركه وعصيانه، يقول لين، وخطاب لطيف، لعله ﴿يتذكر أو يخشى﴾

﴿فقل﴾ له: ﴿هل لك إلى أن تزكى﴾ أي: هل لك في خصلة حميدة، وعمدة جميلة، يتنافس فيها أولو الألباب، وهي أن تزكى نفسك وتطهرها من دنس الكفر والطغيان، إلى الإيمان والعمل الصالح؟

﴿وأهديك إلى ربك﴾ أي: أدلك عليه، وأبين لك مواقع رضاه، من مواقع سخطه.

﴿فتخشى﴾ الله إذا علمت الصراط المستقيم، فامتنع فرعون بما دعاه إليه موسى.

﴿فأراه الآية الكبرى﴾ أي: جنس

الآية الكبرى، فلا ينافي تعددها

﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾

ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين.

﴿فكذب﴾ بالحق ﴿وعصى﴾ الأمر،

﴿ثم أدير يسمى﴾ أي: يجتهد في

مبارزة الحق ومحاربته، ﴿فحشر﴾ جنوده أي: جمعهم ﴿فنادى﴾ فقال

لهم: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ فأذعنوا له،

وأقروا بباطله حين استخفهم، ﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾

أي: صارت عقوبته<sup>(٢٥)</sup> دليلاً وزاجراً، ومبينة لعقوبة الدنيا والآخرة، ﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾ فإن من



وأذهل أفئدتهم الفزع، وغلب عليهم التأسف [واستولت عليهم] الحسرة.

يقولون أي: الكفار في الدنيا، على وجه التكذيب: ﴿إذا كنا عظاما نخرة﴾ أي: بالية فنانا.

﴿قالوا تلك إذا كزخة خاسرة﴾ أي: استبعدوا أن يعنهم الله ويعيدهم بعدما كانوا عظاماً نخرة، جهلاً [منهم] بقدرة الله، وتجزؤا عليه.

قال الله في بيان سهولة هذا الأمر عليه: ﴿فإنما هي زجرة واحدة﴾ ينفخ فيها في الصور.

فإذا الخلائق كلهم ﴿بالساهرة﴾ أي: على وجه الأرض، قيام ينظرون، فيجمعهم الله ويقضي بينهم بحكمه العدل ويجازيهم.

﴿١٥ - ٢٦﴾ ﴿هل أتاك حديث

موسى﴾ إذ ناداه ربه بالواد المقدس

طوى﴾ اذهب إلى فرعون إنه طغى \* فقل

هل لك إلى أن تزكى \* وأهديك

إلى ربك فتخشى \* فأراه الآية

الكبرى \* فكذب وعصى \* ثم أدير

يسمى \* فحشر فنادى \* فقال أنا

ربكم الأعلى \* فأخذه الله نكال الآخرة

(١) في ب: وابتغته بالوحي واجتهاء.

(٢) في ب: أي جعل الله عقوبته.

(٣) في ب: فانتشر.

طامعين»<sup>(١)</sup>.

فالذي خلق السماوات العظام وما فيها من الأنوار والأجرام، والأرض الكثيفة الغبراء، وما فيها من ضروريات الخلق ومنافعهم، لا بد أن يبعث الخلق المكلفين، فيجازيهم على أعمالهم، فمن أحسن فله الحسن، ومن أساء فلا يلومن إلا نفسه، ولهذا ذكر بعد هذا القيام الجزاء<sup>(٢)</sup>، فقال:

﴿٣٤-٤١﴾ ﴿فإذا جاءت الطامة الكبرى \* يوم يتذكر الإنسان ما سعى \* ويرزت الجحيم لمن يرى \* فأما من طفئ \* وأثر الحياة الدنيا \* فإن الجحيم هي المأوى \* وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى \* فإن الجنة هي المأوى﴾ أي: إذا جاءت القيامة الكبرى، والشدة العظمى، التي يهون عندها كل شدة، فحينئذ يذهل الوالد عن ولده، والصاحب عن صاحبه [وكل عجب عن حبيبه]. و ﴿يتذكر الإنسان ما سعى﴾ في الدنيا، من خير وشر، فيتمنى زيادة مثقال ذرة في حسناته، ويغتمه ويحزن لزيادة مثقال ذرة في سيئاته.

ويعلم إذ ذاك أن مادة ربحه وخسرانه ما سعه في الدنيا، وينقطع كل سبب ووصلة كانت في الدنيا، سوى الأعمال.

﴿ويرزت الجحيم لمن يرى﴾ أي: جعلت في البراز، ظاهرة لكل أحد، قد برزت<sup>(٣)</sup> لأهلها، واستعدت لأخذهم، منتظرة لأمر ربها.

﴿فأما من طفئ﴾ أي: جاوز الحد، بأن تجرأ على المعاصي الكبار، ولم يقتصر على ما حده الله.

﴿وأثر الحياة الدنيا﴾ على الآخرة،

فصار سعيه لها، ووقته مستغرقاً في حظوظها وشهواتها، ونسي الآخرة وترك العمل لها.

﴿فإن الجحيم هي المأوى﴾ [له] أي: المقر والسكن لمن هذه حاله، ﴿وأما من خاف مقام ربه﴾ أي: خاف القيام عليه وبجاراته بالعدل، فأثر هذا الخوف في قلبه. فنهى نفسه عن هواها الذي يقيدها<sup>(٤)</sup> عن طاعة الله، وصار هواه تبعاً لما جاء به الرسول، وجاهد الهوى والشهوة الصاذين عن الخير، ﴿فإن الجنة﴾ [المنتحلة على كل خير وسرور ونعيم] ﴿هي المأوى﴾ لمن هذا وصفه.

﴿٤٢-٤٦﴾ ﴿يسألونك عن الساعة إيانا مرساها \* فبم أنت من ذكراها \* إلى ربك منتهاها \* إنما أنت منذر من يخشاها \* كأنهم يوم يرونها \* يلبيشوا إلا عشية أو ضحاها﴾ أي: يسألك المتعنتون المكذبون بالبعث ﴿عن الساعة﴾ متى وقوعها و ﴿إيانا مرساها﴾ فأجابهم الله بقوله: ﴿فبم أنت من ذكراها﴾ أي: ما الفائدة لك ولهم في ذكرها ومعرفة وقت مجيئها؟ فليس تحت ذلك نتيجة، ولهذا لما كان علم العباد للساعة ليس لهم فيه مصلحة دينية ولا دنيوية، بل المصلحة في خفائه عليهم، طوى علم ذلك عن جميع الخلق، واستأثر بعلمه فقال: ﴿إلى ربك منتهاها﴾ أي: إليه ينتهي علمها، كما قال في الآية الأخرى: ﴿يسألونك عن الساعة إيانا مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يجلبها لوقتها إلا هو نقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾<sup>(٥)</sup>

﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾ أي:

إنما نذرتك [نفعها] لمن يخشى عبي الساعة، ويخاف الوقوف بين يديه، فهم الذين لا يهتم سوى الاستعداد لها والعمل لأجلها.

وأما من لا يؤمن بها، فلا يبالي به ولا يتعنته، لأنه تعنت مبني على العناد والتكذيب، وإذا وصل إلى هذه الحال، كان الإجابة عنه عبثاً، ينزه الحكيم عنه [تحت] والحمد لله رب العالمين.

### تفسير سورة عبس وهي مكية

﴿١-١٠﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم عبس وتولى \* أن جاءه الأعمى \* وما يدريك لعله يزكى \* أو يذكر فتنفعه الذكرى \* أما من استغنى \* فأنت له تصدى \* وما عليك ألا يزكى \* وأما من جاءك يسعى \* وهو يخشى \* فأنت عنه تلهى﴾ وسبب نزول هذه الآيات الكريمات، أنه جاء رجل من المؤمنين أعمى يسأل النبي ﷺ ويتعلم منه.

وجاءه رجل من الأغنياء، وكان ﷺ حريصاً على هداية الخلق، فقال [وأصغى] إلى الغني، وصد عن الأعمى الفقير، رجاء لهداية ذلك الغني، وطمعاً في تزكيتة، فعاتبه الله بهذا العتاب اللطيف، فقال: ﴿عبس﴾ [أي: في وجهه] ﴿وتولى﴾ في بدنه، لأجل عبي الأعمى له، ثم ذكر الفائدة في الإقبال عليه، فقال: ﴿وما يدريك لعله﴾ أي: الأعمى ﴿يزكى﴾؟ أي: يتطهر عن الأخلاق الرذيلة، ويتصف بالأخلاق الجميلة؟

﴿أو يدكر فتنفعه الذكرى﴾؟ أي: يتذكر ما ينفعه، فيعمل<sup>(٦)</sup> بتلك الذكرى.

(١) وقع هنا سبق فلم من الشيخ - رحمه الله - فقال: إلى أن قال ﴿ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات﴾ وصراب ذلك ما أثبت.

(٢) في ب: ذكر بعد هذا قيام الساعة ثم الجزاء.

(٣) في ب: هبت.

(٤) في ب: الذي يصدها.

(٥) وردت الآية ناقصة في وسطها من نسخة (أ) ووردت ناقصة من آخرها من نسخة ب فأتممتها.

(٦) في ب: فينتفع.

الأشجار الكثيرة الملتفة، ﴿وفاكهة وأبنا﴾ الفاكهة: ما يتفكه فيه الإنسان، من تين وعنب وخوخ ورمان، وغير ذلك.

والأب: ما تأكله البهائم والأنعام، ولهذا قال: ﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ التي خلقها الله وسخرها لكم، فمن نظر في هذه النعم، أوجب له ذلك شكر ربه، وبذل الجهد في الإنابة إليه، والإقبال على طاعته، والتصديق بأخباره.

﴿٣٣ - ٤٢﴾ ﴿فإذا جاءت

الصاخة \* يوم يفر المرء من أخيه \* وأمه وأبيه \* وصاحته وبنيه \* لكل امرئ من يومئذ مما كان يفتن به نفسه \* فاعلم أن يَوْمَئِذٍ يَصْحَكَ مَسْتَبْشِرًا \* ووجوه يومئذ عليها غبرة \* ترهقها

قترة \* أولئك هم الكفرة الفجرة﴾

أي: إذا جاءت صيحة القيامة، التي

تصيح لهولها الأسماع، وتزعج لها

الأفتدة يومئذ، مما يرى الناس من

الأهوال وشدة الحاجة لسالف

الأعمال، ﴿يفر المرء﴾ من أعز الناس

إليه، وأشفقهم لديه، ﴿من أخيه \*

وأمه وأبيه \* وصاحته﴾ أي: زوجته

﴿وبنيه﴾ وذلك لأنه ﴿لكل امرئ

منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ أي: قد

أشغلته نفسه، واهتم لفكاكها، ولم يكن

له التفات إلى غيرها، فحينئذ ينقسم

الخلق إلى فريقين: سعداء وأشقياء،

فأما السعداء، فوجوههم ﴿يومئذ﴾

﴿مفسرة﴾ أي: قد ظهر فيها السرور

والبهجة، من ما عرفوا من نجاتهم،

وفوزهم بالنعيم، ﴿صاححة \* ضاحكة

مستبشرة \* ووجوه﴾ الأشياء ﴿يومئذ

عليها غبرة \* ترهقها﴾ أي: تشاها

﴿قترة﴾ فهي سوداء مظلمة مدلهمة،

قد أيست من كل خير، وعرفت

شقاءها وهلاكها.

﴿أولئك﴾ الذين بهذا الوصف ﴿هم

الكفرة الفجرة﴾ أي: الذين كفروا

بنعمة الله، وكذبوا بآيات الله،

ونجروا على عماره.

﴿بأيدي سفرة﴾: وهم الملائكة الذين هم السفراء بين الله وبين عباده، ﴿كرام﴾ أي: كثيري الخير والبركة، ﴿بررة﴾ قلوبهم - أعمالهم.

وذلك كله حفظ من الله لكتابه، أن جعل السفراء فيه إلى الرسل الملائكة الكرام الأقوياء الأتقياء، ولم يجعل للشياطين عليه سيلاً، وهذا مما يوجب الإيمان به وتلقيه بالقبول، ولكن مع هذا أبقى الإنسان إلا كفوراً، ولهذا قال تعالى: ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾

لنعمة الله، وما أشد معاندته للحق بعدما تبين، وهو ما هو؟ هو من أضعف الأشياء، خلقه الله من ماء مهين، ثم قدر خلقه، وسواه بشراً سوياً، وأتقن قواه الظاهرة والباطنة.

﴿ثم السبيل يسره﴾ أي: يسر له

الأسباب الدينية والدنيوية، وهذه

السبيل، [وبينه] وامتحنه بالأمر

والنهي، ﴿ثم أماته فأقبره﴾ أي: أكرمه

بالدفن، ولم يجعله كسائر الحيوانات

التي تكون جيفها على وجه الأرض،

﴿ثم إذا شاء أنشره﴾ أي: بعثه بعد

موته للجزاء، فالله هو المنفرد بتدبير

الإنسان وتصريفه هذه التصاريف، لم

يشاركه فيه مشارك، وهو - مع هذا -

لا يقوم بما أمره الله، ولم يقض ما

فرضه عليه، بل لا يزال مقصراً تحت

الطلب.

ثم أرشده تعالى إلى النظر والتفكير

في طعامه، وكيف وصل إليه بعدما

تكررت عليه طبقات عديدة، ويسره

له، فقال: ﴿فلينظر الإنسان إلى

طعامه \* أنا صببنا الماء صباً﴾ أي:

أنزلنا المطر على الأرض بكثرة، ﴿ثم

شققتنا الأرض﴾ للنبات ﴿شقاً \* فأنبتنا

فيها﴾ أصنافاً مصنفة من أنواع الأطعمة

اللذيذة، والأقوات الشبيهة ﴿حباً﴾

وهذا شامل لسائر الحبوب على اختلاف

أصنافها، ﴿وعنباً وقضباً﴾: وهو

القت، ﴿وزيتوناً ونخلاً﴾ وخض هذه

الأربعة لكثرة فوائدها ومنافعها.

﴿وحدائق غلباً﴾ أي: بساتين فيها

وهذه فائدة كبيرة، هي المقصودة من بعثة الرسل، ووعظ الرعايا، وتذكير المذكورين، فأقبال على من جاء بنفسه مفتقراً لذلك منك<sup>(١)</sup>، هو الأليق الواجب، وأما تصديقك وتعرضك لللفظي المستغني الذي لا يسأل ولا يستفتي لعدم رغبته في الخير، مع تركك من هو أهم منه، فإنه لا ينبغي لك، فإنه ليس عليك أن لا بزكى، فلو لم يتزك، فلست بمحاسب على ما عمله من الشر.

فدل هذا على القاعدة المشهورة،

أنه: «لا يترك أمر معلوم لأمر موهوم،

ولا مصلحة متحققة لمصلحة متوهمة»،

وأنه ينبغي الإقبال على طالب العلم،

الفتقر إليه، الحريص عليه أزيد من

غيره.

﴿١١ - ٣٢﴾ ﴿كلا إنها تذكرة \* فمن شاء ذكره \* في صحف

مكرمة \* مرفوعة مطهرة \* بأيدي

سفرة \* كرام بررة \* قتل الإنسان ما

أكفره \* من أي: شيء خلقه \* من

نطفة خلقه فقدره \* ثم السبيل

يسره \* ثم أماته فأقبره \* ثم إذا شاء

أنشره \* كلا ما يقض ما أمره \* فلينظر

الإنسان إلى طعامه \* أنا صببنا

الماء صباً \* ثم شققنا الأرض شقاً \* فأنبتنا

فيها حباً \* وعنباً وقضباً \* وزيتوناً

ونخلاً \* وحدائق غلباً \* وفاكهة وأبنا \* متاعاً

لكم ولأنعامكم﴾

يقول تعالى: ﴿كلا إنها تذكرة﴾ أي:

حقاً إن هذه الموعظة تذكرة من الله،

يذكر بها عباده، ويبين لهم في كتابه ما

يحتاجون إليه، ويبين الرشد من الغي،

فإذا تبين ذلك ﴿فمن شاء ذكره﴾ أي:

عمل به، كقوله تعالى: ﴿وقل الحق من

ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء

فليكفر﴾.

ثم ذكر محل هذه التذكرة وعظيمها

ورفع قدرها، فقال: ﴿في صحف

مكرمة \* مرفوعة﴾ القدر والرتبة

﴿مطهرة﴾ [من الآفات] وعن أن تالها

أيدي الشياطين أو يسترقوها، بل هي

(١) في ب: مفتقراً لذلك مقبلاً.

نسأل الله العفو والعافية، إنه جواد كريم [والحمد لله رب العالمين].

**تفسير سورة التكوير**  
**[وهي] مكية**

﴿١- ١٤﴾ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** إذا الشمس كورت \* وإذا النجوم انكدرت \* وإذا الجبال سيرت \* وإذا العشار عطلت \* وإذا الوحوش حشرت \* وإذا البحار سجرت \* وإذا النفوس زوجت \* وإذا المؤمنة سئلت \* بأي: ذنب قتلت \* وإذا الصحف نشرت \* وإذا السماء كشطت \* وإذا المحجيم سمعت \* وإذا الجنة أزلقت \* علمت نفس ما أحضرت \* أي: إذا حصلت هذه الأمور الهائلة، تميز الخلق، وعلم كل أحد ما قدمه لأخرته، وما أحضره فيها من خير وشر، وذلك إذا كان يوم القيامة تكور الشمس أي: تجمع وتلف، ويحسف القمر، ويلقيان في النار، **﴿وإذا النجوم انكدرت﴾** أي: تغيرت، وتساقطت<sup>(١)</sup> من أفلاكها، **﴿وإذا الجبال سيرت﴾** أي: صارت كشيئاً مهيباً، ثم صارت كالعهن المنفوش، ثم تغيرت وصارت هباء منبأً، وسيرت عن أماكنها، **﴿وإذا العشار عطلت﴾** أي: عطل الناس حينئذ نفائس أموالهم التي كانوا يهتمون لها ويراعونها في جميع الأوقات، فجاءهم ما يذهلهم عنها، فنبه بالعيشار، وهي النوق التي تتبعها أولادها، وهي أنفس أموال العرب إذ ذلك عندهم، على ما هو في معناها من كل نفيس. **﴿وإذا الوحوش حشرت﴾** أي: جمعت ليوم القيامة، ليقتنص الله من بعضها لبعض، ويرى العباد كمال عدله، حتى إنه ليقتنص من القرناء للجماء<sup>(٢)</sup>، ثم يقول لها: كوني تراباً. **﴿وإذا البحار سجرت﴾** أي:

أوقدت فصارت - على عظمها - ناراً تتوقد.

**﴿وإذا النفوس زوجت﴾** أي: قرن كل صاحب عمل مع نظيره، فجمع الأبرار مع الأبرار، والفجار مع الفجار، وزوج المؤمنون بالخور العين، والكافرون بالشياطين، وهذا كقوله تعالى: **﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً﴾** وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً **﴿أحشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾**.

**﴿وإذا المؤمنة سئلت﴾** وهي التي كانت إجمالية الجاهلاء تفعله من دفن البنات وهن أحياء من غير سبب، إلا خشية الفقر، فتسأل: **﴿بأي: ذنب قتلت﴾** ومن المعلوم أنها ليس لها ذنب، ففي هذا توبيخ وتقريع لقاتلها<sup>(٣)</sup>.

**﴿وإذا الصحف﴾** المشتلة على ما عمله العاملون من خير وشر **﴿نشرت﴾** وفرقت على أهلها، فأخذ كتابه بيمينه، وأخذ كتابه بشماله، أو من وراء ظهره.

**﴿وإذا السماء كشطت﴾** أي: أزيلت، كما قال تعالى: **﴿يوم تشقق السماء بالغمام﴾** يوم نظري السماء كطبي السجل للكتب **﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه﴾**.

**﴿وإذا المحجيم سمعت﴾** أي: أوقد عليها فاستمرت، والتهمت النهاباً لم يكن لها قبل ذلك، **﴿وإذا الجنة أزلقت﴾** أي: قُرِبت للممتقين، **﴿علمت نفس﴾** أي: كل نفس، لإتيانها في سياق الشرط.

**﴿ما أحضرت﴾** أي: ما حضر لديها من الأعمال [التي قدمتها] كما قال تعالى: **﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾**. وهذه الأوصاف التي وصف الله بها يوم القيامة، من الأوصاف التي تزعج لها القلوب، وتشتد من أجلها



الكروب، وترتعد الفرائص، وتعم المخاوف، وتحث أولي الأسباب للاستعداد لذلك اليوم، وترجرهم عن كل ما يوجب اللوم، ولهذا قال بعض السلف: من أراد أن ينظر ليوم القيامة كأنه رأى عين، فليتدبر سورة **﴿إذا الشمس كورت﴾**.

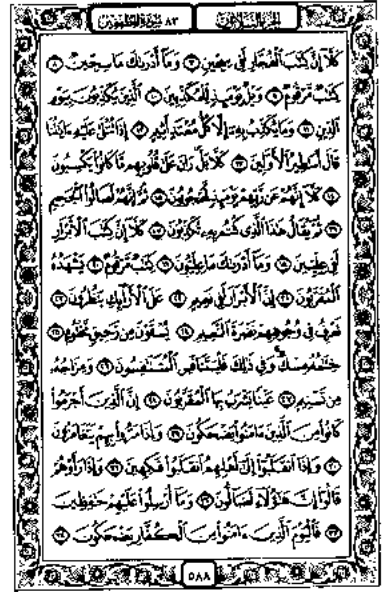
﴿١٥- ٢٩﴾ **﴿قُلْ أَقْسَمُ بِالخُسْفِ﴾** الجوار الكس \* والليل إذا عسعس \* والصبح إذا تنفس \* إنه لقول رسول كريم \* ذي قوة عند ذي العرش مكين \* مطاع ثم أمين \* وما صاحبكم بمجنون \* ولقد رآه بالأفق المبين \* وما هو على الغيب بضين \* وما هو بقول شيطان رجيم \* فإين تذهبون \* إن هو إلا ذكر للعالمين \* لمن شاء منكم أن يستقيم \* وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين **﴿أقسم تعال﴾** بالخفس **﴿وهي الكواكب التي تخمس أي: تتأخر عن سير الكواكب المعناد إلى جهة المشرق، وهي النجوم السبعة السيارة: «الشمس»، و«القمر»، و«الزهرة»، و«المشتري»، و«المريخ»، و«زحل»، و«عطارد»، فهذه السبعة**

(١) في ب: وتناثرت.

(٢) في ب: حتى إنه يقتنص للشاة الجماء من الشاة القرناء.

(٣) في ب: ولكن هذا فيه توبيخ وتقريع لقاتلها.





لها سيران .

سير إلى جهة المغرب مع باقي الكواكب والأفلاك<sup>(١)</sup>، وسير معاكس لهذا من جهة المشرق تختص به هذه السبعة دون غيرها .

فأقسم الله بها في حال خنوسها أي : تأخرها، وفي حال جريانها، وفي حال كتوسها أي : استتارها بالنهار، ويحتمل أن المراد بها جميع النجوم الكواكب السيارة وغيرها .

﴿والليل إذا عسعس﴾ أي : أدير، وقيل : أقبل، ﴿والصبح إذا تنفس﴾ أي : بانت<sup>(٢)</sup> علامته الصبح، وانشق النور شيئاً فشيئاً حتى يستكمل وتطلع الشمس، وهذه آيات عظام، أقسم الله بها على علو سند القرآن<sup>(٣)</sup> وجلالته، وحفظه من كل شيطان رجيم، فقال : ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ وهو جبريل عليه السلام، نزل به من الله تعالى، كما قال تعالى : ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ نزل به الروح الأمين \* على قلبك لتكون من المنذرين ﴿

ووصفه الله بالكريم لكرم أخلاقه،

وكثرة خصاله الحميدة، فإنه أفضل الملائكة، وأعظمهم رتبة عند ربه، ﴿ذي قوة﴾ على ما أمره الله به .

ومن قوته أنه قلب ديار قوم لوط بهم فأهلكهم .

﴿عند ذي العرش﴾ أي : جبريل مقرب عند الله، له منزلة رفيعة، وخصيصة من الله اختصه بها، ﴿مكنين﴾ أي : له مكانة ومنزلة فوق منازل الملائكة كلهم .

﴿مطاع ثم﴾ أي : جبريل مطاع في الملا الأعلى، لديه<sup>(٤)</sup> من الملائكة المقربين جنود، نافذ فيهم أمره، مطاع رأيه، ﴿أمين﴾ أي : ذو أمانة وقيام بما أمر به، لا يزيد ولا ينقص، ولا يتعدى ما حذله، وهذا [كله] يدل على شرف القرآن عند الله تعالى، فإنه بعث به هذا الملك الكريم، الموصوف بتلك الصفات الكاملة . والعادة أن الملوك لا ترسل الكريم عليها إلا في أهم المهمات، وأشرف الرسائل .

ولما ذكر فضل الرسول الملكي الذي جاء بالقرآن، ذكر فضل الرسول البشري الذي نزل عليه القرآن، ودعا إليه الناس، فقال : ﴿وما صاحبكم﴾ وهو محمد ﷺ ﴿بمجنون﴾ كما يقوله أعداؤه الكاذبون برسالته، الثقلون عليه من الأقوال، التي يريدون أن يطفؤوا بها ما جاء به ما شاؤوا وقدروا عليه، بل هو أكمل الناس عقلاً، وأجزلهم رأياً، وأصدقهم لهجة .

﴿ولقد رآه بالأفق المبين﴾ أي : رأى محمد ﷺ جبريل عليه السلام بالأفق البين، الذي هو أعلى ما يلوح للبصر .

﴿وما هو على الغيب بضنين﴾ أي : وما هو على ما أوحاه الله إليه بمتهم

يزيد فيه أو ييقص أو يكتم بعضه، بل هو ﷺ أمين أهل السماء وأهل الأرض، الذي بلغ رسالات ربه البلاغ المبين، فلم يشح بشيء منه، عن غني ولا فقير، ولا رئيس ولا مرؤوس، ولا ذكر ولا أنثى، ولا حضري ولا بدوي، ولذلك بعثه الله في أمة أمية، جاهلة جهلاء، فلم يمت ﷺ حتى كانوا علماء ربانيين، وأخباراً متفوسين، إليهم الغاية في العلوم، وإليهم المنتهى في استخراج الدقائق والفهوم، وهم الأساتذة، وغيرهم قصاره أن يكون من تلاميذهم .

﴿وما هو بقول شيطان رجيم﴾ لما ذكر جلالة كتابه<sup>(٥)</sup> وفضله يذكر الرسولين الكريمين، اللذين وصل إلى الناس على أيديهما، وأثنى الله عليهما بما أثنى، دفع عنه كل آفة ونقص مما يقدح في صدقه، فقال : ﴿وما هو بقول شيطان رجيم﴾ أي : في غاية البعد عن الله وعن قربه، ﴿فأين تذهبون﴾ أي : كيف يخطر هذا ببالكم، وأين عزبت عنكم أذهانكم؟ حتى جعلتم الحق الذي هو في أعلى درجات الصدق بمنزلة الكذب، الذي هو أنزل ما يكون [وأرذل] وأسفل الباطل؟ هل هذا إلا من انقلاب الحقائق .

﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ يتذكرون به ربه، وما له من صفات الكمال، وما ينزه عنه من النقص والذاتل [والأمثال]، ويتذكرون به الأوامر والنواهي وحكمها، ويتذكرون به الأحكام القدرية والشرعية والجزائية، وبالجملة، يتذكرون به مصالح الدارين، وينالون بالعمل به السعادات .

﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾ بعدما

- (١) في ب : مع سائر الكواكب والفلك .
- (٢) في ب : الكواكب .
- (٣) في ب : بدت .
- (٤) في ب : أقسم الله عليها لقوة سند القرآن .
- (٥) في ب : لأنه .
- (٦) كذا في ب، وفي أ : جلالت .

تبين الرشد من الغي، والهدى من الضلال.

﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ أي: فمشيئته نافذة، لا يمكن أن تعارض أو تمنع.

وفي هذه الآية وأمثالها، رد على فرقتي القدرة النفاة، والقدرة المجبرة كما تقدم مثلها [والله أعلم والحمد لله].

تفسير سورة الانفطار  
[وهي] مكية

﴿١٥ - ٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم إذا السماء انفطرت \* وإذا الكواكب انتثرت \* وإذا البحار فجرت \* وإذا القبور بعثرت \* علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾ أي: إذا انشقت السماء وانفطرت، وانتثرت<sup>(١)</sup> نجومها، وزال جمالها، وفجرت البحار فصارت بحراً واحداً، وبعثرت القبور بأن أخرجت<sup>(٢)</sup> ما فيها من الأموات، وحشروا للموقف بين يدي الله للجزاء على الأعمال.

فحينئذ ينكشف الغطاء، ويزول ما كان خفياً، وتعلم كل نفس ما معها من الأرباح والخسران، هنالك بعض الظالم على يديه إذا رأى أعماله باطلة، وميزانه قد خف، والظالم قد تداعت إليه، والسيئات قد حضرت لديه، وأيقن بالشقاء الأبدى والسعذاب السرمدي<sup>(٣)</sup>.

و [هنالك] يفوز المتقون، المقدمون لصالح الأعمال بالفوز العظيم، والتعظيم المقيم، والسلامة من عذاب الجحيم.

﴿٦٢ - ١٢﴾ ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم \* الذي خلقك فسواك فعدلك \* في أي: صورة ما شاء ركبك \* كلابل تكذبون

بالدين \* وإن عليكم لحافظين \* كراماً كاتبين \* يعلمون ما تعملون﴾ يقول تعالى معاتباً للإنسان المقصر في حق ربه، المتجريء على مساخطه<sup>(٤)</sup>: ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم﴾ أيها الإنسان منك في حقوقه؟ أم احتقاراً منك لعذابه؟ أم عدم إيمان منك بجزائه؟

أليس هو ﴿الذي خلقك فسواك﴾ في أحسن تقويم؟ ﴿فعدلك﴾ وركبك تركيباً قوياً معتدلاً، في أحسن الأشكال، وأجمل الهيئات، فهل يليق بك أن تكفر نعمة المنعم، أو تجحد إحسان المحسن؟

إن هذا إلا من جهلك وظلمك وعنادك وغشمك، فاجد الله أن لم يجعل صورتك صورة كلب أو حمار، أو نحوهما من الحيوانات [فلهذا قال تعالى ﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾

[وقوله]: ﴿كلابل تكذبون بالدين﴾ أي: مع هذا الوعظ والتذكير، لا تزالون مستمرين على التكذيب بالجزاء.

وأنتم لا بدان تحاسبوا على ما عملتم، وقد أقام الله عليكم ملائكة كراماً يكتبون أقوالكم وأفعالكم ويعلمون أفعالكم، ودخل في هذا أفعال القلوب، وأفعال الجوارح، فاللائق بكم أن تكرمهم وتحملوهم وتعترموهم.

﴿١٣ - ١٩﴾ ﴿إن الأبرار لفي نعيم \* وإن الفجار لفي جحيم \* يصلونها يوم الدين \* وما هم عنها بفاتنين \* وما أدراك ما يوم الدين \* ثم ما أدراك ما يوم الدين \* يوم لا تحملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله﴾ المراد بالأبرار، القائمون بحقوق الله وحقوق عباده، الملائمون



للبر، في أعمال القلوب وأعمال الجوارح، فهؤلاء جزاؤهم النعيم في القلب والروح والبدن، في دار الدنيا [وفي دار] البرزخ و[في] دار القرار.

﴿وإن الفجار﴾ الذين قصرُوا في حقوق الله وحقوق عباده، الذين فجرت قلوبهم، ففجرت أعمالهم ﴿لفي جحيم﴾ أي: عذاب أليم، في دار الدنيا و [دار] البرزخ و[في] دار القرار يصلونها﴾ ويعذبون [بها] أشد العذاب ﴿يوم الدين﴾ أي: يوم الجزاء على الأعمال.

﴿وما هم عنها بفاتنين﴾ أي: بل هم ملازمون لها، لا يخرجون منها. ﴿وما أدراك ما يوم الدين﴾ ثم ما أدراك ما يوم الدين﴾ ففي هذا تهويل لذلك اليوم الشديد الذي يحير الأذهان.

﴿يوم لا تحملك نفس لنفس شيئاً﴾ ولو كانت لها قريحة [أو حبيبة] مصافية، فكل مشغول بنفسه لا يطلب الفكاك لغيرها. ﴿والأمر يومئذ لله﴾ فهو الذي يفصل بين العباد، ويأخذ للمظلوم حقه من ظالمه [والله أعلم].

(١) في ب: وتناثرت.

(٢) في ب: بأن أخرج.

(٣) في ب: إذا رأى ما قدمت بدها وأيقن بالشقاء الأبدى والعذاب السرمدي.

(٤) في ب: المقصر في حقه المتجريء على معاصيه.

أولى بهذا الوعيد من المطففين .

﴿لفي سجين﴾ ثم فسر ذلك بقوله :  
﴿وما أدراك ما سجين﴾ \* كتاب  
مرقوم ﴿أي : كتاب مذكور فيه  
أعمالهم الخبيثة، والسجين : المحل  
الضيق الضنك، و «سجين» ضد  
«عين» الذي هو محل كتاب الأبرار،  
كما سيأتي .

وقد قيل : إن «سجين» هو أسفل  
الأرض السابعة، مأوى الفجار  
ومستقرهم في معادهم .

﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ ثم بين  
المكذبين بأنهم <sup>(١٠)</sup> ﴿الذين يكذبون  
بأيام الدين﴾ : أي : يوم الجزاء، يوم  
يدين الله فيه الناس بأعمالهم .

﴿وما يكذب به إلا كل معتد﴾ على  
عامر الله، متعد من الخلال إلى الخرام .

﴿أثيم﴾ : أي : كثير الإثم، فهذا  
الذي يحمله عدوانه على التكذيب،  
ويجعله [عدوانه على التكذيب ويوجب  
له] كبره رد الحق، ولهذا ﴿إذا تتلى عليه  
آياتنا﴾ الدالة على الحق، و [أعلى] صدق  
ما جاءت به رسله، كذبا  
وعاندها، ﴿وقال﴾ : هذا «أساطير  
الأولين» : أي : من ترهات المتقدمين،  
وأخبار الأمم الغابرين، ليس من  
عند الله تكبراً وعناداً .

وأما من أنصف، وكان مقصوده  
الحق المبين، فإنه لا يكذب بيوم  
الدين، لأن الله قد أقام عليه من الأدلة  
القاطعة، والبراهين الساطعة، ما يجعله  
حق اليقين، وصار لقلوبهم مثل  
الشمس للأبصار <sup>(١١)</sup>، بخلاف من ران  
على قلبه كسبه، وغطته معاصيه، فإنه  
محبوب عن الحق، ولهذا جوزي على  
ذلك، بأن حجب عن الله، كما  
حجب قلبه في الدنيا عن آيات الله،  
﴿ثم إنهم﴾ مع هذه العقوبة البليغة  
﴿لصالوا الجحيم﴾ ثم يقال لهم توبيخاً

ودلت الآية الكريمة، على أن  
الإنسان كما يأخذ من الناس الذي له،  
يجب عليه أن يعطيهم كل ما لهم من  
الأموال والمعاملات، بل يدخل في  
[عموم هذا] <sup>(١٢)</sup> الحجج والمقاتلات، فإنه  
كما أن المناظرين قد جرت العادة أن  
كل واحد [منهما] يحرص على ماله من  
الحجج، فيجب عليه أيضاً أن يبين ما  
لخصمه من الحجج <sup>(١٣)</sup> [التي  
لا يعلمها]، وأن ينظر في أدلة خصمه  
كما ينظر في أدلته هو، وفي هذا  
الموضع يعرف إنصاف الإنسان من  
تصبه واعتسافه، وتواضعه من كبره،  
وعقله من سفهه، نسأل الله التوفيق  
لكل خير .

ثم توعد تعالى المطففين، وتعجب  
من حالهم وإقامتهم على ما هم عليه،  
فقال : ﴿ألا يظن أولئك أنهم  
مبعوثون﴾ \* ليوم عظيم \* يوم يقوم  
الناس لرب العالمين ﴿فألذي جرأهم  
على التطفيف عدم إيمانهم باليوم  
الأخر، وإلا فلو آمنوا به، وعرفوا أنهم  
يقومون بين يدي الله، يحاسبهم <sup>(١٤)</sup> على  
القليل والكثير، لأقلعوا عن ذلك  
وتابوا منه .

﴿٧٧ - ١٧﴾ ﴿كلا إن كتاب الفجار  
لفي سجين﴾ \* وما أدراك ما سجين \*  
كتاب مرقوم \* ويل يومئذ  
للمكذبين \* الذي يكذبون بيوم  
الدين \* وما يكذب به إلا كل معتد  
أثيم \* إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير  
الأولين \* كلاب ران على قلوبهم ما  
كانوا يكسبون \* كلا إنهم عن ربهم  
يومئذ لمحجوبون \* ثم إنهم لصالوا  
الجحيم \* ثم يقال هذا الذي كنتم به  
تكذبون ﴿يقول تعالى﴾ : ﴿كلا إن كتاب  
الفجار﴾ [وهذا شامل لكل فاجر] من  
أنواع الكفرة والمنافقين، والفاسقين



### تفسير سورة المطففين وهي مكية <sup>(١)</sup>

﴿١ - ٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم  
ويل للمطففين﴾ \* الذين إذا اکتالوا على  
الناس يستوفون \* وإذا كالوهم أو  
وزنوهم يخسرون \* ألا يظن أولئك  
أنهم مبعوثون \* ليوم عظيم \* يوم  
يقوم الناس لرب العالمين﴾ ﴿ويل﴾  
كلمة عذاب، ووعيد <sup>(٢)</sup> ﴿للمطففين﴾  
وفسر الله المطففين بقوله <sup>(٣)</sup> ﴿الذين إذا  
اكتالوا على الناس﴾ : أي : أخذوا منهم  
وفاة عما ثبت لهم قبلهم يستوفونه  
كاملاً من غير نقص .

﴿وإذا كالوهم أو وزنوهم﴾ : أي :  
إذا أعطوا الناس حقهم، الذي  
للناس <sup>(٤)</sup> عليهم بكيل أو وزن،  
﴿يخسرون﴾ : أي : ينقصونهم ذلك، إما  
بمكيال وميزان ناقصين، أو بعدم ملء  
المكيال والميزان، أو نحو ذلك، فهذا  
سرقه [لأموال] الناس <sup>(٥)</sup>، وعدم  
إنصاف [لهم] منهم .

وإذا كان هذا الوعيد <sup>(٦)</sup> على الذين  
يبخسون الناس بالمكيال والميزان،  
فالذي يأخذ أموالهم قهراً أو سرقة،

(١) في ب : وهي مكية .

(٢) في ب : وعقاب .

(٣) في ب : بأنهم .

(٤) في ب : لهم .

(٥) كذا في ب، وفي أ : سرقة للناس .

(٦) في ب : وعيداً .

(٧) في ب : يدخل في ذلك .

(٨) في ب : الحجة .

(٩) في ب : أنهم سيقومون بين يدي الله

فيحاسبهم .

(١٠) في ب : ثم بينهم بقوله

(١١) في ب : وصار لبصائرهم بمنزلة

الشمس للأبصار .

وتقريباً: ﴿هذا الذي كتم به تكذبون﴾ فذكر لهم ثلاثة أنواع من العذاب: عذاب الجحيم، وعذاب التوبيخ، واللوم.

وعذاب الحجاب من رب العالمين، المتضمن لسخطه وغضبه عليهم، وهو أعظم عليهم من عذاب النار، ودل مفهوم الآية، على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وفي الجنة، ويتلذذون بالنظر إليه أعظم من سائر اللذات، ويتهجون بخطابه، ويفرحون بقربه، كما ذكر الله ذلك في عدة آيات من القرآن، وتواتر فيه النقل عن رسول الله.

وفي هذه الآيات، التحذير من الذنوب، فإنها تزين على القلب وتغويه شيئاً فشيئاً، حتى ينطمس نوره، وتموت بصيرته، فتقلب عليه الحقائق، فيرى الباطل حقاً، والحق باطلاً، وهذا من بعض <sup>(١)</sup> عقوبات الذنوب.

﴿١٨ - ٢٧﴾ \* كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين \* وما أدراك ما عليون \* كتاب مرقوم \* يشهده المقربون \* إن الأبرار لفي نعيم \* على الأرائك ينظرون \* تعرف في وجوههم نضرة النعيم \* يسقون من رحيق مختموم \* ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون \* ومزاجه من نعيم \* لما ذكر أن كتاب الفجار في أسفل الأمكنة وأضيقتها، ذكر أن كتاب الأبرار في أعلاها وأوسعها، وأفسحها وأن كتابهم المرقوم \* يشهده المقربون \* من الملائكة الكرام، وأرواح الأنبياء، والصديقين والشهداء، ويُسْوَه الله بذكرهم في الملأ الأعلى، و «عليون» اسم لأعلى الجنة، فلما ذكر كتابهم، ذكر أنهم في نعيم، وهو اسم جامع لنعيم القلب والروح والبدن، ﴿على الأرائك﴾ أي: [على] السرر المزينة بالفرش الحسن.

﴿ينظرون﴾ إلى ما أعد الله لهم من

النعيم، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم، ﴿تعرف﴾ أيها الناظر إليهم ﴿في وجوههم نضرة النعيم﴾ أي: بهاء النعيم <sup>(٢)</sup> ونضارته ورويقه، فإن توالي اللذة والسرور <sup>(٣)</sup>، يكسب الوجه نوراً وحسناً وبهجة.

﴿يسقون من رحيق﴾ وهو من أطيب ما يكون من الأشربة وألذها، ﴿مختموم﴾ ذلك الشراب، ﴿ختامه مسك﴾ يحتمل أن المراد مختموم عن أن يداخله شيء ينقص لذته، أو يفسد طعمه، وذلك الختام الذي ختم به مسك.

ويحتمل أن المراد أنه [الذي] يكون في آخر الإناء، الذي يشربون منه الرحيق حثالة، وهي المسك الأذفر، فهذا الكدر منه، الذي جرت العادة في الدنيا أنه يراق، يكون في الجنة بهذه المثابة، ﴿وفي ذلك﴾ النعيم المقيم، الذي لا يعلم مقداره وحسنه إلا الله، ﴿فليتنافس المتنافسون﴾ أي: يتسابقوا في المبادرة إليه والأعمال الموصلة إليه، فهذا أولى ما بذلت فيه نفائس الأنفاس، وأحرى ما تزاومت للوصول إليه فحول الرجال.

﴿٢٧ - ٢٨﴾ \* ومزاج هذا الشراب من تسنيم، وهي عين \* يشرب بها المقربون \* صيفاً، وهي أعلى أشربة الجنة على الإطلاق، فلذلك كانت خالصة للمقربين، الذين هم أعلى الخلق منزلة، وممزوجة لأصحاب اليمين أي: مخلوطة بالرحيق وغيره من الأشربة اللذيذة.

﴿٢٩ - ٣٦﴾ \* إن الذين أجمعوا كانوا من الذين آمنوا يضحكون \* وإذا مروا بهم يتغامزون \* وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين \* وإذا رآهم قالوا إن هؤلاء لضالون \* وما أرسلوا عليهم حافظين \* فالיום الذين آمنوا من الكفار يضحكون \* على الأرائك ينظرون \* هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون \* لما ذكر تعالى جزاء المجرمين

وجزاء المؤمنين <sup>(٤)</sup>، و ﴿ذكر﴾ ما بينهما من التفاوت العظيم، أخبر أن المجرمين كانوا في الدنيا يسخرون بالمؤمنين، ويستهزؤون بهم، ويضحكون منهم، ويتغامزون بهم عند مرورهم عليهم، احتقاراً لهم وازدراء، ومع هذا تراهم مطمئنين، لا ينظر الخوف على بالهم، ﴿وإذا انقلبوا إلى أهلهم﴾ صباحاً أو مساءً ﴿انقلبوا فكهين﴾ أي: مسرورين مغتضبين <sup>(٥)</sup>، وهذا من أعظم <sup>(٦)</sup> ما يكون من الاعتزاز، أنهم جمعوا بين غيبة الإساءة والأمن <sup>(٧)</sup> في الدنيا، حتى كأنهم قد جاءهم كتاب من الله وعهد، أنهم من أهل السعادة، وقد حكموا لأنفسهم أنهم أهل الهدى، وأن المؤمنين ضالون، افتراء على الله، وتجرواً على القول عليه بلا علم.

قال تعالى: ﴿وما أرسلوا عليهم حافظين﴾ أي: وما أرسلوا وكلاء على المؤمنين ملزمين بحفظ أعمالهم، حتى يحرصوا على رعيهم بالضلال، وما هذا منهم إلا تعنت وعناد وتلاعب، ليس له مستند ولا برهان، ولهذا كان جزاؤهم في الآخرة من جنس عملهم، قال تعالى: ﴿فالיום﴾ أي: يوم القيامة، ﴿الذين آمنوا من الكفار يضحكون﴾ حين يرونهم في غمرات العذاب يتقبلون، وقد ذهب عنهم ما كانوا يفترون، والمؤمنون في غاية الراحة والطمأنينة ﴿على الأرائك﴾ وهي السرر المزينة، ﴿ينظرون﴾ إلى ما أعد الله لهم من النعيم، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم.

﴿هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون﴾ أي: هل جوزوا من جنس عملهم؟ فكما ضحكوا في الدنيا من المؤمنين ورموهم بالضلال، ضحك المؤمنون منهم في الآخرة، ورأوهم <sup>(٨)</sup> في العذاب والنكال، الذي هو عقوبة الغي والضلال.

(١) في ب: من أعظم.

(٢) في ب: أي بهاء.

(٣) في ب: فإن توالي اللذات

(٤) في ب: وهذا أشد.

(٥) في ب: مع الأمن.

(٦) في ب: حين رأوهم.

والمسرات والأفراح.

(٤) في ب: المحسنيين.

(٥) كذا في ب، وفي أ: مغبوطين.

نعم، ثوبوا ما كانوا يفعلون، عدلاً من الله وحكمة، والله عليم حكيم.

### تفسير سورة الانشقاق وهي مكية

﴿١٥ - ١﴾ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** إذا السماء انشقت \* وأذنت لربها وحقت \* وإذا الأرض مدت \* وألقت ما فيها وتخلت \* وأذنت لربها وحقت \* يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه \* فأما من أوتي كتابه بيمينه \* فسوف يحاسب حساباً يسيراً \* وينقلب إلى أهله مسروراً \* وأما من أوتي كتابه وراء ظهره \* فسوف يدعو ثوراً \* ويصلى سعيراً \* إنه كان في أهله مسروراً \* إنه ظن أن لن يمور \* بلى إن ربه كان به بصيراً \* يقول تعالى مبيهاً لما يكون في يوم القيامة من تغير الأجرام العظام: ﴿إذا السماء انشقت﴾ أي: انفطرت وتمايز بعضها من بعض، وانتشرت نجومها، وحسفت بشمسها وقمرها.

﴿وأذنت لربها﴾ أي: استمعت لأمره، وألقت سمعها، وأصاحت لخطابه، وحق لها ذلك، فإنها مسخرة مدبرة تحت مسخر ملك عظيم، لا يعصى أمره، ولا يخالف حكمه.

﴿وإذا الأرض مدت﴾ أي: رجفت وارتجت، ونسفت عليها جبالها، ودك ما عليها من بناء ومعلم، فسويت، ومدها الله تعالى مد الأديم، حتى صارت واسعة جداً، تسع أهل الموقف على كثرتهم، فتصير قاعاً صافصفاً لا ترى فيه عوجاً ولا أمناً.

﴿وألقت ما فيها﴾ من الأموات والكنوز.

﴿وتخلت﴾ منهم، فإنه ينفخ في الصور، فتخرج الأموات من الأجداث إلى وجه الأرض، وتخرج الأرض كنوزها، حتى تكون كالأسطوان العظيم، يشاهده الخلق، ويتحسرون

على ما هم فيه يتنافسون، ﴿وأذنت لربها وحقت \* يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾ أي: إنك ساع إلى الله، وعامل بأوامره ونواهي، ومتقرب إليه إما بالخير وإما بالشر، ثم تلاقي الله يوم القيامة، فلا تعدم منه جزءاً بالفضل إن كنت سعيداً، أو بالعدل إن كنت شقيماً<sup>(١)</sup>. ولهذا ذكر تفصيل الجزاء، فقال: ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه \* وهم أهل السعادة.

﴿٨﴾ **فَسَوْفَ يَحْسَبُ حِسَاباً** يسيراً \* وهو العرض اليسير على الله، فيقره الله بذنوبه، حتى إذا ظن العبد أنه قد هلك، قال الله [تعالى]: له: ﴿إني قد سترتها عليك في الدنيا، فأنا سترها لك اليوم﴾.

﴿وينقلب إلى أهله﴾ في الجنة ﴿مسروراً﴾ لأنه نجا من العذاب وفاز بالثواب، ﴿وأما من أوتي كتابه وراء ظهره﴾ أي: بشماله من خلفه<sup>(٢)</sup>.

﴿فسوف يدعو ثوراً﴾ من الخزي والفضيحة، وما يجد في كتابه من الأعمال التي قدمها ولم يتب منها، ﴿ويصلى سعيراً﴾ أي: تحيط به السعير من كل جانب، ويقلب على عذابها، وذلك لأنه في الدنيا ﴿كان في أهله مسروراً﴾ لا يخطر البعث على ياله، وقد أساء، ولم<sup>(٣)</sup> يظن أنه راجع إلى ربه وموقوف بين يديه.

﴿بلى إن ربه كان به بصيراً﴾ فلا يحسن أن يتركه سدى، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب.

﴿٢٥ - ١٦﴾ **فَلَا أَقْسَمُ** بالشفق \* والليل وما وسق \* والقمر إذا اتسق \* لتركبن طبقاً عن طبق \* فما لهم لا يؤمنون \* وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون \* بل الذين كفروا يكذبون \* والله أعلم بما يوعون \* فيشرهم بعذاب اليم \* إلا

الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون﴾ أقسم في هذا الموضع بآيات الليل، فأقسم بالشفق الذي هو بقية نور الشمس، الذي هو مفتتح الليل، ﴿والليل وما وسق﴾ أي: احتوى عليه من حيوانات وغيرها، ﴿والقمر إذا اتسق﴾ أي: امتلأ نوراً بإبداره، وذلك أحسن ما يكون وأكثر منافع، والمقسم عليه قوله: ﴿لتركبن﴾ [أي: أيها الناس ﴿طبقاً عن طبق﴾ أي: أطواراً متعددة وأحوالاً متباينة، من النطفة إلى العلقة، إلى المصغة، إلى نفخ الروح، ثم يكون وليداً وطفلاً، ثم يميزاً، ثم يجري عليه قلم التكليف، والأمر والنهي، ثم يموت بعد ذلك، ثم يعث ويجازى بأعماله، فهذه الطبقات المختلفة الجارية على العبد، دالة على أن الله وحده هو العبود، الموحد، المدبر لعباده بحكمته ورحمته، وأن العبد فقير عاجز، تحت تدبير العزيز الرحيم، ومع هذا، فكثير من الناس لا يؤمنون ﴿وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون﴾ أي: لا يخضعون للقرآن، ولا يتقادون لأوامره ونواهي، ﴿بل الذين كفروا يكذبون﴾ أي: يعاندون الحق بعدما تبين، فلا يستغرب عدم إيمانهم وعدم انقيادهم للقرآن، فإن المكذب بالحق عناداً، لا حيلة فيه، ﴿والله أعلم بما يوعون﴾ أي: بما يعملونه ويتوون سرراً، والله يعلم سرهم وجهرهم، وسيجازيهم بأعمالهم، ولهذا قال: ﴿فيشرهم بعذاب اليم﴾ وسميت البشارة بشارة، لأنها تؤثر في البشرة سروراً أو غماً.

فهذه حال أكثر الناس، التكذيب بالقرآن، وعدم الإيمان [به].

ومن الناس فريق هداهم الله، فأمنوا بالله، وقبلوا ما جاءهم به الرسل، فأمنوا وعملوا الصالحات.

فهؤلاء لهم أجر غير ممنون أي: غير

(١) في ب: جزء بالفضل أو العدل، بالفضل إن كنت سعيداً، وبالعدو إن كنت شقيماً.

(٢) في ب: من وراء ظهره.

(٣) في ب: ولا.

مقطوع، بل هو أجرد دائم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

تم تفسير السورة ولله الحمد

### تفسير سورة البروج وهي مكية

﴿١ - ٢٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ \* وَالْيَوْمِ الْوَعْدِ \* وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ \* قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ \* النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ \* إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ \* وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ \* وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ \* الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ \* إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ الْحَرِيقِ \* إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ \* إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ \* إِنَّهُ هُوَ بِيَدِي وَعِيبُدُ \* وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ \* ذُو الْعَرْشِ الْجَبِيدِ \* فَعَالِمٌ لَا يُرِيدُ \* هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ \* فِرْعَوْنُ وَثَمُودُ \* بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ \* وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ حَاسِدٌ \* بَلِ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ \* فِي لَوْحٍ مَحْضُوفٍ \* ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ أي: [ذات] المنازل المشتملة على منازل الشمس والقمر، والكواكب المنتظمة في سيرها، على أكمل ترتيب ونظام دال على كمال قدرة الله تعالى ورحمته، وسعة علمه وحكمته.

﴿وَالْيَوْمِ الْوَعْدِ﴾ وهو يوم القيامة، الذي وعد الله الخلق أن يجمعهم فيه، ويضم فيه أولهم وآخرهم، وقاصيهم ودانيهم، الذي

لا يمكن أن يتغير، ولا يخلف الله العباد.

﴿وشاهد ومشهود﴾ وشمل هذا كل من اتصف بهذا الوصف أي: مُتَبَصِّرٌ ومُبَصَّرٌ، وحاضر ومَحْضُورٌ، وراءٍ ومُرْتَبِيٌّ.

والمقسم عليه، ما تضمنه هذا القسم من آيات الله الباهرة، وحكمه الظاهرة، ورحمته الواسعة، وقيل: إن المقسم عليه قوله: ﴿قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ﴾ وهذا دعاء عليهم بالهلاك.

و «الأخدود»: الحفر التي تحفر في الأرض.

وكان أصحاب الأخدود هؤلاء قومًا كافرين، ولديهم قوم مؤمنون، فراودهم للدخول<sup>(١)</sup> في دينهم، فامتنع المؤمنون من ذلك، فسق الكافرون أخدوداً (في الأرض)، وقذفوا فيها النار، وقعدوا حولها، وفتنوا المؤمنين، وعرضوهم عليها، فمن استجاب لهم أطلقوه، ومن استمر على الإيمان قذفوه في النار، وهذا في غاية المحاربة لله ولحزبه المؤمنين، ولهذا لعنهم الله وأهلكهم وتوعدهم فقال: ﴿قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ﴾ ثم فسر الأخدود بقوله: ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ﴾ إذ هم عليها قعود \* وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود \* وهذا من أعظم ما يكون من التجبر وقساوة القلب، لأنهم جمعوا بين الكفر بآيات الله ومعاندتها، ومحاربة أهلها وتعذيبهم بهذا العذاب، الذي تنفطر منه القلوب، وحضورهم إياهم عند إفتانهم فيها، والحال أنهم ما تقموا من المؤمنين إلا خصلة<sup>(٢)</sup> يمدحون عليها، وبها سعادتهم، وهي أنهم كانوا يؤمنون بالله العزيز الحميد أي: الذي له



العزة التي قهر بها كل شيء، وهو حميد في أقواله وأوصافه وأفعاله.

﴿الذي له ملك السماوات والأرض﴾ خلقاً وعبيداً، يتصرف فيهم تصرف المالك بملكه<sup>(٣)</sup>، ﴿والله على كل شيء شهيد﴾ علماً وسمعاً وبصراً، أفلا خاف هؤلاء المتصدرون على الله، أن يبطش بهم العزيز المقتدر، أو ما علموا أنهم جميعهم ممالئك لله<sup>(٤)</sup>، ليس لأحد على أحد سلطة، من دون إذن المالك؟ أو خفي عليهم أن الله محيط بأعمالهم، مجاز لهم على فعالهم<sup>(٥)</sup>؟ كلا إن الكافر في غرور، والظالم في جهل وعمى<sup>(٦)</sup> عن سواء السبيل.

ثم وعدهم وأوعدهم، وعرض عليهم التوبة، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ الْحَرِيقِ﴾ أي: العذاب الشديد المحرق.

قال الحسن رحمه الله: انظروا إلى هذا الكرم والجود، هم قتلوا أوليائه

(١) في ب: على الدخول.

(٢) في ب: حالة.

(٣) في ب: يتصرف فيهم بما يشاء.

(٤) في ب: أفلا خاف هؤلاء المتصدرون عليه أن يأخذهم العزيز المقتدر، أو ما علموا كلهم أنهم ممالئك لله.

(٥) في ب: مجازيهم عليها.

(٦) في ب: والجاهل في عمى وضلال.

والله لا معاون لإرادته، ولا مانع له عما أراد.

ثم ذكر من أفعاله الدالة على صدق ما جاءت به رسله، فقال: ﴿هل أتاك حديث الجنود \* فرعون وشمود﴾ وكيف كذبوا المرسلين، فجعلهم الله من المهلكين، ﴿بل الذين كفروا في تكذيب﴾ أي: لا يزالون مستمرين على التكذيب والعتاد، لا تنفع فيهم الآيات، ولا تُجدي لديهم العظات، ﴿والله من وراءهم محيط﴾ أي: قد أحاط بهم علماً وقدره، كقوله: ﴿إن ربك ليالمرصد﴾ فيه الوعيد الشديد للكافرين، من عقوبة من هم في قبضته، وتحت تدبيره. ﴿بل هو قرآن مجيد﴾ أي: وسيع المعاني عظيمها، كثير الخير والعلم، ﴿في لوح محفوظ﴾ من التغيير والزيادة والنقص، ومخفوظ من الشياطين، وهو اللوح المحفوظ الذي قد أثبت الله فيه كل شيء.

وهذا يدل على جلالة القرآن وجزالته، ورفعة قدره عند الله تعالى، والله أعلم.

تم تفسير السورة

### تفسير سورة الطارق وهي مكية

﴿١٧ - ١٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والسماء والطارق \* وما أدراك ما الطارق \* النجم الثاقب \* إن كل نفس لما عليها حافظ \* فلينبظر الإنسان مم خلق \* خلق من ماء دافق \* يخرج من بين الصلب والترائب \* إنه على رجعه لقادر \* يوم تبلى السرائر \* فما له من قوة ولا ناصر \* والسماء ذات الرجوع \* والأرض ذات الصدع \* إنه لقول فصل \* وما هو بالهزل \* إنهم يكدون كيذاً \* وأكد كيذاً \* فهل الكافرين أمهلهم رويداً﴾ يقول [الله] تعالى: ﴿والسماء والطارق﴾.

ثم فسر الطارق بقوله: ﴿النجم

ولهذا كانت محبته أصل العبودية، وهي المحبة التي تقدم جميع المحاب وتغلبها، وإن لم يكن غيرها تبعاً لها، كانت عذاباً على أهلها، وهو تعال الودود، الودء لأحبابه، كما قال تعالى: ﴿يحبهم ويحبونه﴾ والمودة هي المحبة الصافية، وفي هذا سر لطيف، حيث قرن الودود بالفغور، ليدل ذلك على أن أهل الذنوب إذا تابوا إلى الله وأتوا، غفر لهم ذنوبهم وأحبهم، فلا يقال: بل تغفر ذنوبهم، ولا يرجع إليهم الود، كما قاله بعض الغالطين.

بل الله أفرح بتوبة عبده حين يتوب، من رجل له راحلة، عليها طعامه وشرابه وما يصلحه، فأصلها في أرض فلاة مهلكة، فأيس منها، فاضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت، فبينما هو على تلك الحال، إذا راحلته على رأسه، فأخذ بخطامها، فالله أعظم فرحاً بتوبة العبد من هذا براحلته، وهذا أعظم فرح يقدر.

فله الحمد والشانه، وصفو الوداد، ما أعظم بره، وأكثر خيره، وأغزر إحسانه، وأوسع امتنانه!! ﴿ذو العرش المجيد﴾ أي: صاحب العرش العظيم، الذي من عظمته، أنه وسع السماوات والأرض والكرسي، فهي بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاة في فلاة، بالنسبة لسائر الأرض، وخص الله العرش بالذكر، لعظمته، ولأنه أخص المخلوقات بالقرب منه تعالى، وهذا على قراءة الجبر، يكون «المجيد» نعتاً للعرش، وأما على قراءة الرفع، فإن «المجيد» نعتٌ لله<sup>(١)</sup>، والمجد سعة الأوصاف وعظمتها.

﴿فعال لما يريد﴾ أي: مهما أراد شيئاً فعله، إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، وليس أحد فعالاً لما يريد إلا الله.

فإن المخلوقات، ولو أرادت شيئاً، فإنه لا بد لإرادتها من معاون وممانع،



وأهل طاعته، وهو يدعوهم إلى التوبة. ولما ذكر عقوبة الظالمين، ذكر ثواب المؤمنين، فقال: ﴿إن الذين آمنوا﴾ بقلوبهم ﴿وعملوا الصالحات﴾ بجوارحهم ﴿لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير﴾ الذي حصل به الفوز<sup>(٢)</sup> برضا الله ودار كرامته.

﴿إن بطش ربك لشديد﴾ أي: إن عقوبته لأهل الجرائم والذنوب العظام [القوية] شديدة، وهو بالمرصاد للظالمين، كما قال الله تعالى: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾.

﴿إنه هو يبدئ ويعيد﴾ أي: هو المنفرد بإبداء الخلق وإعادته، فلا مشارك له في ذلك<sup>(٣)</sup>، وهو الغفور الذي يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب، ويعفو عن السيئات لمن استغفره وأناب.

﴿الودود﴾ الذي يحبه أحبابه محبة لا يشبهها شيء، فكما أنه لا يشابهه شيء في صفات الجلال والجمال، والمعاني والأفعال، فمحبيته في قلوب خواص خلقه، التابعة لذلك، لا يشبهها شيء من أنواع المحاب،

(١) في ب: حصل لهم الفوز.

(٢) في ب: فلا يشاركه في ذلك مشارك.

(٣) في ب: فإنه يكون نعتاً لله.



الثاقب ﴿أي: المضيء، الذي يثقب نوره، فيخرق السماوات فينفذ حتى يرى في الأرض﴾، والصحيح أنه اسم جنس يشمل سائر النجوم الثواقب .  
وقد قيل: إنه «زحل» الذي يخرق السماوات السبع وينفذ فيها<sup>(١)</sup>، فيرى منها .

وسمي طارقاً، لأنه يطرق ليلاً، والمقسم عليه قوله: ﴿إن كل نفس لما عليها حافظ﴾ يحفظ عليها أعمالها الصالحة والسيئة، وستجازى بعملها المحفوظ عليها، ﴿فلينبظر الإنسان مم خلق﴾ أي: فليتدبر خلقته ومبدأه، فإنه مخلوق ﴿من ماء دافق﴾ وهو المني الذي يخرج من بين الصلب والترائب ﴿يحتمل أنه من بين صلب الرجل وترائب المرأة، وهي ندياها . ويحتمل أن المراد المني الدافق، وهو مني الرجل، وأن محله الذي يخرج منه ما بين صلبه وترائبه، ولعل هذا أولى، فإنه إنما وصف الله به الماء الدافق، والذي يحس [به] ويشاهد دفعه، هو مني الرجل، وكذلك لفظ الترائب فإنها تستعمل في الرجل، فإن الترائب للرجل، بمنزلة الثديين للأنثى، فلو أريدت الأنثى، لقال: «من بين الصلب والثديين»، ونحو ذلك، والله أعلم .

فالذي أوجد الإنسان من ماء دافق، يخرج من هذا الموضع الصعب، قادر على رجعه في الآخرة، وإعادته للبعث والنشور [والجزء]، وقد قيل: إن معناه، أن الله على رجوع الماء المدفوق في الصلب لقادر، وهذا - وإن كان المعنى صحيحاً - فليس هو المراد من الآية، ولهذا قال بعده: ﴿يوم تبلى السرائر﴾ أي: تختبر سراير الصدور، ويظهر ما كان في القلوب من خير وشر على صفحات الوجوه قال تعالى: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ ففي الدنيا، تنكتم كثير من الأمور، ولا تظهر عياناً للناس، وأما في القيامة، فيظهر برُّ الأبرار، وفجور الفجار،

وتصير الأمور علانية، ﴿فماله من قوة﴾ يدفع بها عن نفسه<sup>(٢)</sup>، ﴿ولا ناصر﴾ خارجي<sup>(٣)</sup> ينتصر به، فهذا القسم على حالة العاملين وقت عملهم وعند جزائهم .

ثم أقسم قسماً ثانياً على صحة القرآن، فقال: ﴿والسما ذات الراجع﴾ \* والأرض ذات الصدع﴾ أي: ترجع السماء بالمطر كل عام، وتنصدع الأرض للنبات، فيعيش بذلك آدميون والبهائم، وترجع السماء أيضاً بالأنذار والشؤون الإلهية كل وقت، وتنصدع الأرض عن الأموات، ﴿إنه﴾ أي: القرآن ﴿لقول فصل﴾ أي: حق وصدق، بيّن واضح .

﴿وما هو بالهزل﴾ أي: جد ليس بالهزل، وهو القول الذي يفصل بين الطوائف والمقاتلات، وتنفصل به الخصومات .

﴿إنهم﴾ أي: المكذابين للرسول ﷺ، وللقرآن ﴿يكيدون كيدا﴾ ليدفعوا بكيدهم الحق، ويؤيدوا الباطل، ﴿وأكيد كيدا﴾ لإظهار الحق، ولو كره الكافرون، ولدفع ما جاؤوا به من الباطل، ويعلم بهذا من الغالب، فإن الآدمي أضعف وأحقق من أن يغالب القوي العليم في كيد، ﴿فمهمل الكافرين أمهلهم رويدا﴾ أي: قليلاً، فسيعلمون عاقبة أمرهم، حين ينزل بهم العقاب .

تم تفسير سورة الطارق، والحمد لله رب العالمين

**تفسير سورة سبج وهي مكية**

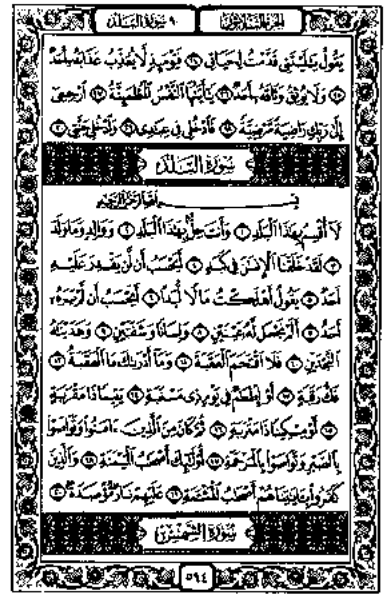
﴿١٩ - ١٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم سبج اسم ريك الأعلى \* الذي خلق فسوى \* والذي قدر فهدى \* والذي أخرج المرعى \* فجعله غثاء أحوى \* مستقرتك فلا تنسى \* إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى \*

وتيسرك لليسرى \* فذكر إن نعمت الذكرى \* سيذكر من يخشى \* ويتجنبها الأشقى \* الذي يصل النار الكبرى \* ثم لا يموت فيها ولا يحيى \* قد أفلح من تزكى \* وذكر اسم ربه فصلى \* بل تؤثرون الحياة الدنيا \* والآخرة خير وأبقى \* إن هذا لفي الصحف الأولى \* صحف إبراهيم وموسى \* يأمر تعالى بتسبيحه المتضمن لذكره وعبادته، والخضوع لجلاله، والاستكانة لعظمته، وأن يكون تسبيحاً، يلين بعظمة الله تعالى، بأن تذكر أسماءه الحسنى العالية على كل اسم بمعناها الحسن العظيم<sup>(٤)</sup>، وتذكر أعماله التي منها أنه خلق المخلوقات فسواها، أي: أتقنها وأحسن خلقها، ﴿والذي قدر﴾ تقديرأ، تتبعه جميع المقدرات ﴿فهدي﴾ إلى ذلك جميع المخلوقات .

وهذه الهداية العامة، التي مضمونها أنه هدى كل مخلوق لمصلحته، وتذكر فيها نعمه الدنيوية، ولهذا قال فيها: ﴿والذي أخرج المرعى﴾ أي: أنزل من السماء ماء فأنبث به أنواع<sup>(٥)</sup> النبات والعشب الكثير، فرتع فيها الناس والبهائم وكل حيوان<sup>(٦)</sup>، ثم بعد أن

(١) في ب: ويضفا . (٢) في ب: من خارج . (٣) في ب: معناها العظيم الجليل . (٤) في ب: أضاف . (٥) في ب: وجميع الحيوانات . (٦) في ب: أي من نفسه يدفع بها





استكمل ما قدر له من الشباب، ألوى نباته، ووضوح عشب، فجعله غشاء أحوى ﴿أي: أسود أي: جعله هشياً ريمياً، ويذكر فيها نمعه الدنيئة، ولهذا امتنَّ الله بأصلها ومنشأها﴾<sup>(١)</sup>، وهو القرآن، فقال: ﴿سفترك فلا تسمى﴾ أي: سنحفظ ما أوحينا إليك من الكتاب، ونوعه قلبك، فلا تنسى منه شيئاً، وهذه بشارة كبيرة من الله لعبده ورسوله محمد ﷺ، أن الله سيعلمه علماً لا ينساه، ﴿إلا ما شاء الله﴾ مما اقتضت حكمته أن ينسبكه لمصلحة بالغة، ﴿إنه يعلم الجهر وما يخفى﴾ ومن ذلك أنه يعلم ما يصلح عباده أي: فلذلك يُشرع ما أراد، ويحكم بما يريد<sup>(٢)</sup>، ﴿وتيسرك لليسرى﴾ وهذه أيضاً بشارة كبيرة<sup>(٣)</sup>، أن الله ييسر رسوله ﷺ لليسرى في جميع أموره، ويعمل شرعه ودينه يسراً<sup>(٤)</sup>.

﴿فذكر﴾ بشرع الله وآياته ﴿إن نعت الذكرى﴾ أي: ما دامت الذكرى مقبولة، والموعظة مسموعة، سواء

حصل من الذكرى جميع المقصود أو بعضه.

ومفهوم الآية أنه إن لم تنفع الذكرى، بأن كان التذكير يزيد في الشر، أو ينقص من الخير، لم تكن الذكرى مأموراً بها، بل منهيأ عنها، فالذكرى ينقسم الناس فيها قسمين: متفعلون وغير متفعلين.

فأما المتفعلون، فقد ذكرهم بقوله: ﴿سيذكر من يخشى﴾ الله تعالى، فإن خشية الله تعالى، وعلمه بأن سيجازيه على أعماله<sup>(٥)</sup>، توجب للبعد الانكشاف عن المعاصي<sup>(٦)</sup> والسعي في الخيرات.

وأما غير المتفعلين، فذكرهم بقوله: ﴿ويتجنبها الأشقى﴾ الذي يصلى النار الكبرى ﴿وهي النار الموقدة، التي تطلع على الأنفذة، ثم لا يموت فيها ولا يحيى﴾ أي: يعذب عذاباً أليماً، من غير راحة ولا استراحة، حتى إنهم يتنون الموت فلا يحصل لهم، كما قال تعالى: ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها﴾.

﴿قد أفلح من تزكى﴾ أي: قد فاز وريح من طهر نفسه ونقاها من الشرك والظلم ومساوئ الأخلاق، ﴿وذكر اسم ربه فصلاً﴾ أي: اتصف بذكر الله، وانصيح به قلبه، فأوجب له ذلك العمل بما يرضي الله، خصوصاً الصلاة، التي هي ميزان الإيمان، فهذا معنى الآية الكريمة، وأما من فسر قوله: ﴿تزكى﴾ بمعنى أخرج زكاة الفطر، وذكر اسم ربه فصل، أنه صلاة العيد، فإنه وإن كان داخلًا في اللفظ وبعض جزئياته، فليس هو المعنى وحده.

﴿بل تؤثر الحياة الدنيا﴾ أي: تقدمونها على الآخرة، وتختارون نعيمها

المنفص المكدر الزائل على الآخرة، ﴿والآخرة خير وأبقى﴾ وللآخرة خير من الدنيا في كل وصف مطلوب، وأبقى لكونها دار خلد وبقاء وصفاء، والدنيا دار فناء، فالؤمن العاقل لا يختار الأردأ على الأجود، ولا يبيع لذة ساعة، بترحة الأبد، فحب الدنيا وإيثارها على الآخرة رأس كل خطيئة، ﴿إن هذا﴾ المذكور لكم في هذه السورة المباركة، من الأوامر الحسنة، والأخبار المستحسنة ﴿لפי الصحف الأولى﴾ صحف إبراهيم وموسى ﴿اللذين هما أشرف المرسلين، سوى﴾ النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

فهذه أوامر في كل شريعة، لكونها عائدة إلى مصالح الدارين، وهي مصالح في كل زمان ومكان. تم تفسير سورة سح، وه الحمد

**تفسير سورة الغاشية وهي مكية**

﴿١٦-١٧﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم هل أتاك حديث الغاشية \* وجوه يومئذ خاشعة \* عاملة ناصبة \* تصلى ناراً حامية \* تسقى من عين آنية \* ليس لهم طعام إلا من ضريع \* لا يسمن ولا يغني من جوع \* وجوه يومئذ ناعمة \* لسميها راضية \* في جنة عالية \* لا تسمع فيها لاغية \* فيها عين جارسة \* فيها سرور مرفوعة \* وأكواب موضوعة \* ونمارق مصفوفة \* وزواجر مبثوثة \* يذكر تعالى أحوال يوم القيامة وما فيها من الأهوال الطامة، وأنها تغشى الخلائق بشدائدتها، فيجازون بأعمالهم، ويتميزون [إلى] فريقين: فريقاً في الجنة، وفريقاً في السعير.

- (١) في ب: وماداتها.
- (٢) كذا في ب، وفي أ: يحكم بما أراد، ويحكم بما يريد.
- (٣) في ب: أخرى.
- (٤) كذا في ب، وفي أ: يسيراً.
- (٥) في ب: والعلم بمجازاته على الأعمال.
- (٦) في ب: الانكشاف عما يكرهه الله.
- (٧) في ب: بعد.

فأخبر عن وصف كلا الفريقين، فقال في [وصف] أهل النار: ﴿وجوه يومئذ﴾ أي: يوم القيامة ﴿خاشعة﴾ من الذل والفضيحة والخزي.

﴿عاملة ناصبة﴾ أي: تابعة في العذاب، تجر على وجوهها، وتخشى وجوههم النار.

ويحتمل أن المراد [بقوله]: ﴿وجوه يومئذ خاشعة﴾ \* عاملة ناصبة في الدنيا لكونهم في الدنيا أهل عبادات وعمل، ولكنه لما عدم شرطه وهو الإيمان، صار يوم القيامة هباءً مثوراً، وهذا الاحتمال وإن كان صحيحاً من حيث المعنى، فلا يدل عليه سياق الكلام، بل الصواب القطر بع هو الاحتمال الأول، لأنه قيده بالظرف، وهو يوم القيامة، ولأن المقصود هنا بيان وصف أهل النار عموماً، وذلك الاحتمال جزء قليل من أهل النار بالنسبة إلى أهلها<sup>(١)</sup>؛ ولأن الكلام في بيان حال الناس عند غشيان العاشية، فليس فيه تعرض لأحوالهم في الدنيا.

وقوله: ﴿تصل ناراً حامية﴾ أي: شديداً حرها، تحيط بهم من كل مكان، ﴿تسقى من عين آنية﴾ أي: حارة شديدة الحرارة ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشري الوجوه﴾ فهذا شرابهم.

وأما طعامهم، فـ ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾ \* لا يسمن ولا يغني من جوع وذلك أن المقصود من الطعام أحد أمرين: إما أن يسد جوع صاحبه ويزيل عنه ألمه، وإما أن يسمن بدنه من الهزال، وهذا الطعام ليس فيه شيء من هذين الأمرين، بل هو طعام في غاية المرارة والسنن والخسة، نسأل الله العافية.

وأما أهل الخير، فوجوههم يوم

القيامة ﴿ناعمة﴾ أي: قد جرت عليهم نضرة النعيم، فنضرت أبدانهم، واستنارت وجوههم، وسروا غاية السرور، ﴿لسعيها﴾ الذي قدمته في الدنيا من الأعمال الصالحة، والإحسان إلى عباد الله، ﴿راضية﴾ إذ وجدت ثوابه مدخراً مضاعفاً، فحملت عقابه، وحصل لها كل ما تمنته، وذلك أنها ﴿في جنة﴾ جامعة لأنواع النعيم كلها، ﴿عالية﴾ في علوها ومنازلها، فمحلها في أعلى علين، ومنازلها مساكن عالية، لها غرف ومن فوق الغرف غرف مبنية يشرفون منها على ما أعد الله لهم من الكرامة.

﴿قطوفها ذاتية﴾ أي: كثيرة الفواكه اللذيذة، المثمرة بالثمار الحسنة، السهلة التناول، بحيث يتألونها على أي حال كانوا، لا يحتاجون أن يصعدوا شجرة، أو يستعصي عليهم منها ثمرة.

﴿لا تسع فيها﴾ أي: الجنة ﴿لاغية﴾ أي: كلمة لغو وباطل، فضلاً عن الكلام المحرم، بل كلامهم كلام حسن [نافع] مشتمل على ذكر الله تعالى، وذكر نعمه المتواترة عليهم، و [عل] الآداب المستحسنة<sup>(٢)</sup> بين التعاشرين، الذي يسر القلوب، ويشرح الصدور.

﴿فيها عين جارية﴾ وهذا اسم جنس أي: فيها العيون الجارية التي يفجرونها ويصرفونها كيف شاؤوا، وأنى أرادوا.

﴿فيها سرر مرفوعة﴾ و «السرر» جمع «سرير»، وهي المجالس المرتفعة في ذاتها، وبما عليها من القرش اللينة الوطنية.

﴿وأكواب موضوعة﴾ أي: أوإن ممتلئة من أنواع الأشربة اللذيذة، قد وضعت بين أيديهم، وأعدت لهم، وصارت تحت طلبهم واختيارهم،

يطوف بها عليهم الولدان المخلدون. ﴿ونمارق مصفوفة﴾ أي: وسائد من الحرير والإستبرق وغيرها مما لا يعلمه إلا الله، قد صفت للجلوس والاتكاء عليها، وقد أريحوا عن أن يضعوها، وتصفوها بأنفسهم.

﴿١٦﴾ ﴿وزرابي مبنوثة﴾ والزرابي [هي]: البسط الحسان، مبنوثة أي: ملوثة بها مجالسهم من كل جانب.

﴿١٧ - ٢٦﴾ ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾ \* وإلى السماء كيف رفعت \* وإلى الجبال كيف نصبت \* وإلى الأرض كيف سطحت \* فذكر إنما أنت مذكر \* لست عليهم بمسيطر \* إلا من تولى وكفر \* فيعذبه الله العذاب الأكبر \* إن إلنا إياهم \* ثم إن علينا حسابهم ﴿ يقول تعالى حقاً للذين لا يصدقون الرسول ﷺ، ولغيرهم من الناس، أن يتفكروا في مخلوقات الله الدالة على توحيدِهِ: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾ أي: [ألا] ينظرون إلى خلقها البديع، وكيف سخرها الله للعباد، وذلكها لنافعهم الكثيرة التي يضفرون إليها.

﴿وإلى الجبال كيف نصبت﴾ بهينة باهرة، حصل بها استقرار الأرض<sup>(٣)</sup> وثباتها عن الاضطراب، وأودع الله فيها من المنافع [الجليلة] ما أودع.

﴿وإلى الأرض كيف سطحت﴾ أي: مدت مدداً واسعاً، وسهلت غاية التسهيل، ليستقر الخلائق<sup>(٤)</sup> على ظهرها، ويتمكنوا من حرثها وغراسها، والنبات فيها، وسلوك الطرق الموصلة<sup>(٥)</sup> إلى أنواع المقاصد فيها.

واعلم أن تسطيحها لا يتنافى أنها كرة مستديرة، قد أحاطت الأفلاك فيها من جميع جوانبها، كما دل على ذلك

(١) في ب: جزء قليل بالنسبة إلى أهل النار.

(٢) في ب: الحنة.

(٣) في ب: الاستقرار للأرض.

(٤) في ب: العباد.

(٥) في ب: طرقها.

الشديدة، والعتو والتجبر، ﴿التي لم يخلق مثلها﴾ أي: مثل عاد ﴿في البلاد﴾ أي: في جميع البلدان [في القوة والشدة]، كما قال لهم نبيهم هود عليه السلام: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون﴾.

﴿وتمود الذين جابوا الصخر بالواد﴾ أي: وادي القرى، نحرتا بقوتهم الصخور، فاتخذوها مساكن، ﴿وفرعون ذي الأوتاد﴾ أي: [ذي] الجنود الذين بُنيتوا ملكه، كما ثبت الأوتاد ما يراد إمساكه بها، ﴿الذين طغوا في البلاد﴾ هذا الوصف عائد إلى عاد وتمدود وفرعون ومن تبعهم، فإنهم طغوا في بلاد الله، وأدوا عباد الله، في دينهم وديناهم، ولهذا قال: ﴿فاكثروا فيها الفساد﴾ وهو العمل بالكفر وسُخِّبَهُ، من جميع أجناس المعاصي، وسعوا في محاربة الرسل وصد الناس عن سبيل الله، فلما بلغوا من العتو ما هو موجب لهلاكهم، أرسل الله عليهم من عذابه ذنوباً وسوط عذاب، ﴿إن ريك لبالمرصاد﴾ لمن عصاه <sup>(٥)</sup> يمهله قليلاً، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

﴿١٥ - ٢٠﴾ ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرم من \* وأما إذا ما ابتلاه فقدّر عليه رزقه فيقول ربي أهانن \* كلا بل لا تكرمون البيتيم \* ولا تحاضون على طعام المسكين \* وتأكلون التراث أكلاً لما \* وتحبون المال حباً جماً﴾ يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنه جاهل ظالم، لا علم له بالعواقب، يظن الحالة التي تقع فيه تستمر ولا تزول، ويظن أن إكرام الله في الدنيا وإنعامه عليه يدل على كرامته عنده وقربه منه، وأنه إذا ﴿قدّر عليه رزقه﴾ أي: ضيقه، فصار بقدر قوته لا يفضل منه، أن هذا إهانة من الله

وإقبال النهار، من الآيات الدالة على كمال قدرة الله تعالى، وأنه وحده المدير <sup>(٤)</sup> لجميع الأمور، الذي لا تنبني العبادة إلا له، ويقع في الفجر صلاة فاضلة معظمة، يحسن أن يقسم الله بها، ولهذا أقسم بعده بالليالي العشر، وهي على الصحيح: ليالي عشر رمضان، أو [عشر] ذي الحجة، فإنها ليال مشتملة على أيام فاضلة، ويقع فيها من العبادات والقربات ما لا يقع في غيرها.

وفي ليالي عشر رمضان ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر، وفي نهارها، صيام آخر رمضان الذي هو ركن من أركان الإسلام.

وفي أيام عشر ذي الحجة، الوقوف بعرفة، الذي يغفر الله فيه لعباده مغفرة يميز لها الشيطان، فما زُيِّنَ الشيطان أحقر ولا أدر منه في يوم عرفة، لما يرى من تنزُّل الأملأك والرحمة من الله لعباده، ويقع فيها كثير من أفعال الحج والعمرة، وهذه أشياء معظمة، مستحقة لأن يقسم الله بها.

﴿والليل إذا يسر﴾ أي: وقت سريانه وإرخائه ظلامه على العباد، فيسكنون ويستريحون ويطمئنون، رحمة منه تعالى وحكمة.

﴿هل في ذلك﴾ المذكور ﴿تسم لذي حجر﴾ أي: [لذي] عقل؟ نعم، بعض ذلك يكفي، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

﴿٦ - ١٤﴾ ﴿الم تر كيف فعل ربك بعاد \* إرم ذات العماد \* التي لم يخلق مثلها في البلاد \* وتمود الذين جابوا الصخر بالواد \* وفرعون ذي الأوتاد \* الذين طغوا في البلاد \* فاكثروا فيها الفساد \* فصب عليهم ريبك سوط عذاب \* إن ريبك لبالمصاد﴾ يقول تعالى: ﴿الم تر﴾ بقلبك وبصيرتك كيف فعل بهذه الأمم الطاغية، وهي ﴿إرم﴾ القبيلة المعروفة في اليمن ﴿ذات العماد﴾ أي: القوة

النقل والعقل والحس والملاحظة، كما هو مذكور معروف عند أكثر الناس، خصوصاً في هذه الأزمنة، التي وقف الناس على أكثر أوجانها بما أعطاهم الله من الأسباب المقرية للبعيد، فإن التسطیح إنما ينافي كروية الجسم الصغير جداً، الذي لو سطح لم يبق له استدارة تذكر.

وأما جسم الأرض الذي هو في غاية الكبر والسعة <sup>(٦)</sup>، فيكون كروياً مسطحاً، ولا يتناقى الأمران، كما يعرف ذلك أرباب الخبرة.

﴿فذكر إنما أنت مذكر﴾ أي: ذكر الناس وعظهم، وأنذرهم وبشّره، فإنك مبعوث لدعوة الخلق إلى الله وتذكيرهم، ولم تبعث مسيطراً عليهم، مسلطاً موكلاً بأعمالهم، فإذا قتت بما عليك، فلا عليك بعد ذلك لوم، كقوله تعالى: ﴿وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيده﴾.

وقوله: ﴿إلا من تولى وكفر﴾ أي: لكن من تولى عن الطاعة وكفر بالله ﴿فيعذبه الله العذاب الأكبر﴾ أي: الشديد الدائم، ﴿إن إلينا إيابهم﴾ أي: رجوع الخلق <sup>(٧)</sup>، وجمعهم في يوم القيامة.

﴿ثم إن علينا حسابهم﴾ فنحاسهم على ما عملوا من خير وشر.

آخر تفسير سورة الغاشية، والحمد لله رب العالمين

### تفسير سورة الفجر وهي مكية

﴿١ - ٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والفجر \* وليال عشر \* والشفع والوتر \* والليل إذا يسر \* هل في ذلك قسم لذي حجر \* الظاهر أن المقسم به هو المقسم عليه، وذلك جائز مستعمل، إذا كان أمراً ظاهراً مُهْماً، وهو كذلك في هذا الموضع. فأقسم تعالى بالفجر، الذي هو آخر الليل ومقدمة النهار، لما في إدبار الليل

(١) في ب: كثير.

(٢) في ب: الخلاق.

(٥) في ب: لمن يعصيه.

(٢) في ب: الذي هو كبير جداً واسع.

(٤) في ب: وأنه تعالى هو المدير.





أن لن يقدر عليه أحدك<sup>(١)</sup> ويطغى ويفتخر بما أنفق من الأموال على شهوات نفسه، فـ ﴿يقول أهلكت مالا لبدا﴾ أي: كثيراً، بعضه فوق بعض.

وسمى الله تعالى الإنفاق في الشهوات والمعاصي إهلاكاً، لأنه لا ينتفع المتفق بما أنفق، ولا يعود عليه من إنفاقه إلا الندم والخسار والتعب والقلّة، لا كمن أنفق في مرضاة الله في سبيل الخير، فإن هذا قد تاجر مع الله، وربح أضعاف أضعاف ما أنفق.

قال الله متوعداً هذا الذي يفخر بما أنفق في الشهوات: ﴿أحسب أن لم يره أحدك<sup>(٢)</sup> أي: أحسب<sup>(٣)</sup> في فعله هذا، أن الله لا يراه ويحاسبه على الصغير والكبير؟

بل قد رآه الله، وحفظ عليه أعماله، ووكل به الكرام الكاتبين، لكل ما عمله من خير وشر.

ثم قرره بنعمه، فقال: ﴿لم نجعل له عينين \* ولساناً وشفهتين﴾ للجمال والبصر والنطق، وغير ذلك من المنافع الضرورية فيها، فهذه نعم الدنيا، ثم قال في نعم العرين: ﴿وهديناه النجدين﴾ أي: طريقي الخير والشر، بينا له الهدى من الضلال، والرشد من الغي.

فهذه المنن الجزيلة، تقتضي من العبد أن يقوم بحقوق الله، ويشكر الله على نعمه، وأن لا يستعين بها على معاصيه<sup>(٤)</sup>، ولكن هذا الإنسان لم يفعل ذلك.

﴿١١﴾ ﴿فلا اقتحم العقبة﴾ أي: لم يقتحمها وعبر عليها، لأنه متبع لشهوته<sup>(٥)</sup>.

وهذه العقبة شديدة عليه، ثم نسر [هذه] العقبة بقوله: ﴿فك رقبة﴾ أي:

فكها من الرق، بعثتها أو مساعدتها على أداء كتابتها، ومن باب أول فكك الأسير المسلم عند الكفار.

﴿أو إطعام في يوم ذي مسغبة﴾

أي: جماعة شديدة، بأن يطعم وقت الحاجة أشد الناس حاجة، ﴿ويتجأ ذا مغبة﴾ أي: جامعاً بين كونه يتجأ، فقيراً ذا قرابة، ﴿أو مسكيناً ذا مترية﴾ أي: قد لزق بالتراب من الحاجة والضرورة، ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾ أي: آمنوا بقلوبهم بما يجب الإيمان به، وعملوا الصالحات

بجوارحهم من كل قول<sup>(٦)</sup> وفعل واجب أو مستحب، ﴿وتواصوا بالصبر﴾ على طاعة الله وعن معصيته، وعلى أقدار الله المؤلّة بأن يحث بعضهم بعضاً على الاتقياد لذلك، والإتيان به كاملاً منشرحاً به الصدر، مطمئنة به النفس.

﴿وتواصوا بالمرحمة﴾ للخلق، من إعطاء محتاجهم، وتعليم جاهلهم، والقيام بما يحتاجون إليه من جميع الوجوه، ومساعدتهم على الصالح الدينية والدينيوية، وأن يجب لهم ما يجب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، أولئك الذين قاموا بهذه الأوصاف، الذين وفقهم الله لاقتحام هذه العقبة ﴿أولئك أصحاب الميمنة﴾

لأنهم أدوا ما أمر الله به من حقوقه وحقوق عباده، وتركوا ما نهوا عنه، وهذا عنوان السعادة وعلامتها. ﴿والذين كفروا بآياتنا﴾ بأن نيزوا هذه الأمور وراء ظهورهم، فلم يصدقوا بالله، [ولا آمنوا به]، ولا عملوا صالحاً، ولا رحوا عباد الله، ﴿والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة﴾ عليهم ناز مؤصدة<sup>(٧)</sup> أي: مخلقة، في عمد مددة،

الأمين، الذي هو مكة المكرمة، أفضل البلدان على الإطلاق، خصوصاً وقت حلول الرسول ﷺ فيها، ﴿ووالد وما ولد﴾ أي: آدم وذريته.

والقسم عليه قوله: ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ يحتمل أن المراد بذلك ما يكابده ويقاسيه من الشدائد في الدنيا، وفي البرزخ، ويوم يقوم الأشهاد، وأنه ينبغي له أن يسعى في عمل يريحه من هذه الشدائد، ويوجب له الفرح والسرور الدائم.

وإن لم يفعل، فإنه لا يزال يكابد العذاب الشديد أيد الأياد.

ويحتمل أن المعنى: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، وأقوم خلقة، مقدر<sup>(٨)</sup> على التصرف والأعمال الشديدة، ومع ذلك، [فإنه] لم يشكر الله على هذه النعمة [العظيمة]، بل بطر بالعافية وتجبّر على خالقه، فحسب بجهله وظلمه أن هذه الحال ستدوم له، وأن سلطان تصرفه لا ينزعزل، ولهذا قال تعالى: ﴿أحسب

(١) في ب: يقدر.

(٢) في ب: أيقظن.

(٣) في ب: على معاصي الله.

(٤) في ب: لهواه.

(٥) سبق قلم الشيخ فزاد في الآية ﴿وعملوا الصالحات﴾ فحذفت الزيادة في الآية وأبقيت التفسير.

(٦) في ب: فدخل في هذا كل قول.

الخلق حيثئذ من الانتفاع بها، بجميع وجوه<sup>(٢)</sup> الانتفاع.

﴿ونفس وما سواها﴾ يحتمل أن المراد نفس سائر المخلوقات الحيوانية، كما يؤيد هذا العموم، ويحتمل أن المراد بالإقسام بنفس الإنسان المكلف، بدليل ما يأتي بعده.

وعلى كُلِّ، فالنفس آية كبيرة من آياته التي حقيقةً بالإقسام بها<sup>(٣)</sup>، فإنها في غاية اللطف والخفة، سريعة التنقل [والحركة] والتغير والتأثر والانفعالات النفسية، من الهم، والإرادة، والقصد، والحب، والبغض، وهي التي لولاها لكان البدن مجرد تمثال لا فائدة فيه، وتسويتها على هذا الوجه<sup>(٤)</sup> آية من آيات الله العظيمة.

وقوله: ﴿قد أفلح من زكاه﴾ أي: طهر نفسه من الذنوب، ونقاها من العيوب، ورقاها بطاعة الله، وعلأها بالعلم النافع والعمل الصالح.

﴿وقد خاب من دساها﴾ أي: أخفى نفسه الكريمة، التي ليست حقيقة بقمعها وإخفائها، بالتدنس بالردائل، والذنوب من العيوب والافتراق للذنوب، وترك ما يكملها وينميها، واستعمال ما يشينها ويدسيها.

﴿كذبت ثمود بطغواها﴾ أي: بسبب طغيانها وترفعها عن الحق، وعترها على رسل الله<sup>(٥)</sup>، ﴿إذ اتبعث أشقاه﴾ أي: أشقى القبيلة، [أومراً] «قدار بن سالف» لعقرها حين اتفقوا على ذلك، وأمره فأقتر لهم.

﴿فقال لهم رسول الله﴾ صالح عليه السلام محذراً: ﴿ناقة الله وسقياها﴾ أي: احذروا عقر ناقة الله، التي جعلها لكم آية عظيمة، ولا تقابلوا نعمة الله عليكم بسقْي لبيتها أن تعقروها، فكذبوا نبيهم صالحاً ﴿فعقروها، فدمدم عليهم ربهم بذنبيهم﴾ أي: دمر عليهم وعمهم بعقابه، وأرسل عليهم الصيحة من

قدمت من ورائها، لثلا تنفتح أبوابها، حتى يكونوا في ضيق وهم وشدة [والحمد لله].

### تفسير سورة الشمس وضحاها وهي مكية

﴿١- ١٥﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالشَّمْسُ وَالشَّمْسُ وَضَحَاها \* وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاها \* وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَاها \* وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاها \* وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَّاها \* وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَّاها \* وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا \* فَأَلْهَمْهَا فُجُورَها \* وَنَقْوَاهَا \* قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا \* وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا \* كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا \* إِذِ اتَّبَعَتْ أَشْجَاهَا \* فَقَالَ لَهُمُ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا \* فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدمدم عليهم ربهم بذنبيهم فسواها \* وَلَا يَخَفُ عِقَابَها \* أَقْسَمُ تَعَالَى بِهذه الآيات العظيمة، على النفس المفلحة، وغيرها من النفوس الفاجرة، فقال:

﴿والشمس وضحاها﴾ أي: نورها، ونعمها الصادر منها، ﴿والقمر إذا تلاها﴾ أي: تبعها في المنازل والنور، ﴿والنهار إذا جلاها﴾ أي: جلى ما على وجه الأرض وأوضحه، ﴿والليل إذا يشاها﴾ أي: يثنى وجه الأرض، فيكون ما عليها مظلماً.

فتعاقب الظلمة والضياء، والشمس والقمر، على هذا العالم، بانتظام وإتقان، وقيام<sup>(١)</sup> لمصالح العباد، أكبر دليل على أن الله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه المعبود وحده، الذي كل معبود سواه فيأطل.

﴿والسما وما بناها﴾ يحتمل أن «ما» موصولة، فيكون الإقسام بالسما وبانيها، الذي هو الله تبارك وتعالى، ويحتمل أنها مصدرية، فيكون الإقسام بالسما وبانيها، الذي هو غاية ما يقدر من الأحكام والإتقان والإحسان، ونحو ذلك قوله: ﴿والأرض وما طحاها﴾ أي: مدها ووسعها، فتمكن

(١) كذا في ب، وفي أ: وانتظام.

(٢) في ب: أوجه.

(٣) في ب: يحق الإقسام بها.

(٤) في ب: على ما هي عليه.

(٥) في ب: على رسولهم.

(٦) في ب: في العقوبة.



فوقهم، والرجفة من تحتهم، فأصبحوا جائئين على ركبهم، لا تجد منهم داعياً ولا مجيباً.

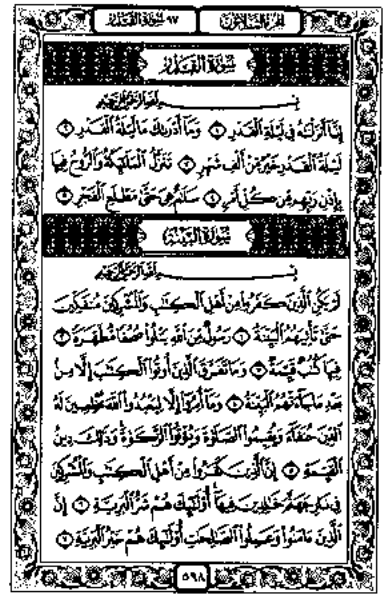
﴿فسواها﴾ عليهم أي: سوى بينهم بالعقوبة<sup>(٦)</sup> ﴿ولا يخاف عِقابها﴾ أي: تبعثها.

وكيف يخاف من هو قاهر، لا يخرج عن قهره وتصرفه مخلوق، الحكيم في كل ما قضاه وشرعه؟

تمت والله الحمد

### تفسير سورة الليل وهي مكية

﴿١- ٢١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى \* وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى \* وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى \* إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى \* فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى \* وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى \* فَسَنبَرِهِ لِلْيسرى \* وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى \* وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى \* فَسَنبَرِهِ لِلْعُسرى \* وَمَا يَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى \* إِنَّ عَلَيْنَا لِلْهُدَى \* وَإِنْ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى \* فإندرتكم ناراً تَلْظَى \* لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى \* الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى \* وَسَيَجْزِيها الْآتَى \* الَّذِي يُوْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى \* وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى \* إِلَّا ابْتِغَاءَ



العقائد الحسنة، ﴿فسيئره للمصري﴾ أي: للحالة العسرة، والحصل الذميمة، بأن يكون ميسراً للشر أينما كان، ومقيضاً له أفعال المعاصي، نسأل الله العافية.

﴿وما يعني عنه ماله﴾ الذي أطفاه واستغنى به، ويخل به إذا هلك ومات، فإنه لا يصحبه إلا عمله الصالح<sup>(١)</sup>.

وأما ماله [الذي لم يخرج منه الواجب] فإنه يكون وبالاً عليه، إذ لم يقدم منه لآخرته شيئاً.

﴿إن علينا للهدى﴾ أي: إن الهدى المستقيم طريقه، يوصل إلى الله، ويدي من رضاه، وأما الضلال، فطرق مسدودة عن الله، لا توصل صاحبها إلا للعباد الشديد.

﴿وإن لنا للأخرة والأولى﴾ ملكاً وتصرفاً، ليس له فيهما مشارك، فليرغب الراغبون إليه في الطلب، ولينقطع رجاؤهم عن المخلوقين، ﴿فأنذرتكم ناراً تلتقي﴾ أي: تستمر وتتوقد، ﴿لا يصلها إلا الأشتى﴾ \* الذي كذب، بالخبير ﴿وتولى﴾ عن الأمر.

﴿وسيجنبها الأتقى﴾ الذي يؤتي ماله يتزكى، بأن يكون قصده به تزكية نفسه، وتطهيرها من الذنوب والعيوب<sup>(٥)</sup>، قاصداً به وجه الله تعالى، فدل هذا على أنه إذا تضمن الإنفاق المستحب ترك واجب، كدين وبنفقة ونحوهما، فإنه غير مشروع، بل تكون عطيته مردودة عند كثير من العلماء، لأنه لا يتزكى بفعل مستحب يفوت عليه الواجب.

﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى﴾ أي: ليس لأحد من الخلق على هذا الأتقى نعمة تجزى إلا وقد كافأها،

بحسب تفاوت نفس الأعمال ومقدارها والنشاط فيها، وبحسب الغاية المقصودة بتلك الأعمال، هل هو وجه الله الأعلى الباقي؟ فيبقى السعي له<sup>(٢)</sup> ببقائه، ويتنفع به صاحبه، أم هي غاية مضمحلة فانية، فيبطل السعي ببطلانها، ويضمحل باضمحلها؟

وهذا كل عمل يقصد به غير وجه الله تعالى، بهذا الوصف، ولهذا فضل الله تعالى العاملين، ووصف أعمالهم، فقال: ﴿فأما من أعطى﴾ [أي] ما أمر به من العبادات المالية، كالزكوات، والكفارات والنفقات، والصدقات، والإنفاق في وجوه الخير، والعبادات البدنية كالصلاة، والصوم ونحوهما.

والمرتبة منهما، كالحج والعمرة، [ونحوهما] ﴿واتقى﴾ ما نهى عنه، من المحرمات والمعاصي، على اختلاف أجناسها.

﴿وصدق بالحسنى﴾ أي: صدق به إلا إله إلا الله وما دلت عليه، من جميع العقائد الدينية، وما ترتب عليها من الجزاء الأخروي.

﴿فسيئره للمصري﴾ أي: نسهل عليه أمره، وتجعله ميسراً له<sup>(٣)</sup> كل خير، ميسراً له ترك كل شر، لأنه أتى بأسباب التيسير، فيسر الله له ذلك.

﴿وأما من بخل﴾ بما أمر به، فترك الإنفاق الواجب والمستحب، ولم تسمح نفسه بأداء ما وجب لله، ﴿واستغنى﴾ عن الله، فترك عبوديته جانباً، ولم ير نفسه مفتقرة غاية الافتقار إلى ربه، الذي لا نجاة لها ولا فوز ولا فلاح، إلا بأن يكون هو محبها ومعبودها، الذي تقصده وتتوجه إليه، ﴿وكذب بالحسنى﴾ أي: بما أوجب الله على العباد التصديق به من

وجه ربه الأعلى \* ولسوف يرضى هذا قسم من الله بالزمان الذي تقع فيه أفعال العباد على تفاوت أحوالهم، فقال: ﴿والليل إذا يغشى﴾ [أي: بجم] الخلق بظلامه، فيسكن كل إلى مأواه ومسكنه، ويستريح العباد من الكد والتعب، ﴿والنهار إذا تجلى﴾ للخلق، فاستضاءوا بنوره، وانتشروا في مصالحهم، ﴿وما خلق الذكر والأنثى﴾ إن كانت «ما» موصولة، كان إقساماً بنفسه الكريمة الموصوفة، بأنه<sup>(١)</sup> خالق الذكور والإناث، وإن كانت مصدرية، كان قسماً يخلقه للذكر والأنثى، وكمال حكمته في ذلك أن خلق من كل صنف من الحيوانات التي يريد بقاءها ذكراً وأنثى، ليبقى النوع ولا يضمحل، وقاد كلا منهما إلى الآخر بسلسلة الشهوة، وجعل كلا منهما مناسباً للآخر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقوله: ﴿إن سعيكم لشتى﴾ هذا [هو] المقسم عليه أي: إن سعيكم أيها المكلفون لتفاوت تفاوتاً كثيراً، وذلك

(١) في ب: يكونه.

(٢) في ب: العمل له.

(٣) في ب: أي يسر له أمره، وتجعله سهلاً عليه.

(٤) في ب: فإنه لا يصحب الإنسان إلا عمله الصالح.

(٥) في ب: والأنداس.

رباك وورعك، بل لم يزل يربيك أحسن تربية، ويعليك درجة بعد درجة.

﴿وما قلا﴾ ك الله أي: ما أبغضك منذ أحبك، فإن نفي الضد دليل على ثبوت ضده، والنفي المحض لا يكون مدحاً، إلا إذا تضمن ثبوت كمال، فهذه حال الرسول ﷺ الماضية والحاضرة، أكمل حال وأتمها، محبة الله له واستمرارها، وترقيته في درج<sup>(٢)</sup> الكمال، ودوام اعتناء الله به.

وأما حاله المستقبل، فقال: ﴿وللاخرة خير لك من الأولى﴾ أي: كل حالة متأخرة من أحوالك، فإن لها الفضل على الحالة السابقة.

فلم يزل ﷺ يصعد في درج المعالي<sup>(٣)</sup>، ويمكن له الله دينه، وينصره على أعدائه، ويسدد له أحواله، حتى مات، وقد وصل إلى حال لا يصل<sup>(٤)</sup> إليها الأولون والآخرون، من الفضائل والنعم، وقرّة العين، وسرور القلب.

ثم بعد ذلك، لا تسأل عن حاله في الآخرة، من تفاصيل الإكرام، وأنواع الإنعام، ولهذا قال: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ وهذا أمر لا يمكن التعبير عنه بغير هذه العبارة الجامعة الشاملة.

ثم امتن عليه بما يعلمه من أحواله<sup>(٥)</sup> [الخاصة] فقال: ﴿إلم يجدك يتيماً فأوى﴾ أي: وجدك لا أم لك، ولا أب، بل قد مات أبوه وأمه وهو لا يدبر نفسه، فأواه الله، وكفله جده عبد المطلب، ثم لما مات جده كفله الله عمه أبا طالب، حتى أيده الله بنصره وبالؤمنين.

﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ أي: وجدك لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان، فعلمك ما لم تكن تعلم، ووفقك لأحسن الأعمال والأخلاق.

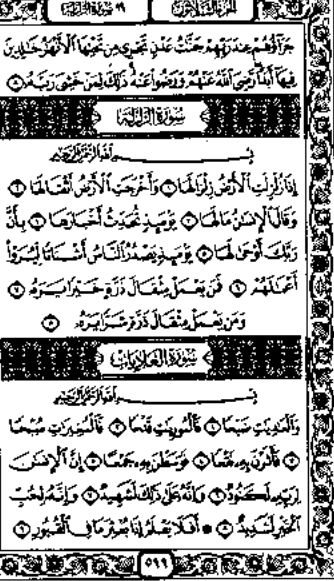
وربما بقي له الفضل والمثمة على الناس، فتحمض عبداً لله، لأنه رقيق إحسانه وحده، وأما من بقي<sup>(١)</sup> عليه نعمة للناس لم يجزها ويكافئها، فإنه لا بد أن يترك للناس، ويقبل لهم ما ينقص [إخلاصه].

وهذه الآية، وإن كانت متناولة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، بل قد قيل إنها نزلت في سببه، فإنه - رضي الله عنه - ما لأحد عنده من نعمة تجزى، حتى ولا رسول الله ﷺ، إلا نعمة الرسول التي لا يمكن جزاؤها، وهي [نعمة] الدعوة إلى دين الإسلام، وتعليم الهدى ودين الحق، فإن الله ورسوله المنة على كل أحد، منة لا يمكن لها جزاء ولا مقابلة، فإنها متناولة لكل من اتصف بهذا الوصف الفاضل، فلم يبق لأحد عليه من الخلق نعمة تجزى، فبقيت أعماله خالصة لوجه الله تعالى.

ولهذا قال: ﴿إلا ابتغاء وجهه ربه الأعلى﴾ \* ولسوف يرضى ﴿هذا الأتقى بما يعطيه الله من أنواع الكرامات والثوبات، والحمد لله رب العالمين.

### تفسير سورة والضحي وهي مكية

﴿١-١١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والضحي \* واللليل إذا سحى \* ما ودعك ربك وما قلى \* وللاخرة خير لك من الأولى \* ولسوف يعطيك ربك فترضى \* إلم يجدك يتيماً فأوى \* ووجدك ضالاً فهدى \* ووجدك عائلاً فأغنى \* فأما اليتيم فلا تقهر \* وأما بنعمة ربك فحدث \* أقسم تعال بالنهار إذا انتشر ضياؤه بالضحي، وبالليل إذا سحى وادلهمت ظلمته، على اعتناء الله برسوله ﷺ فقال: ﴿ما ودعك ربك﴾ أي: ما تركك منذ اعنتى بك، ولا أهملك منذ



﴿ووجدك عائلاً﴾ أي: فقيراً ﴿فأغنى﴾ بما فتح الله عليك<sup>(٦)</sup> من البلدان، التي جيبت لك أموالها وخراجها.

فالذي أزال عنك هذه النقائص، سيزيل عنك كل نقص، والذي أوصلك إلى الغنى، وأواك ونصرك وهداك، قابل نعمته بالشكران.

[ولهذا قال]: ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾ أي: لا تسيء معاملته، ولا يضق صدرك عليه، ولا تنهره، بل أكرمه، وأعطه ما تيسر، وأصنع به كما تحب أن يصنع بولدك من بعدك.

﴿وأما السائل فلا تنهر﴾ أي: لا يصدر منك إلى السائل كلام<sup>(٧)</sup> يقتضي رده عن مطلوبه، بنهر وشراسة خلق، بل أعطه ما تيسر عندك أو رده بمعروف [واحسان].

وهذا يدخل فيه السائل للمال، والسائل للعلم، ولهذا كان المعلم مأموراً بحسن الخلق مع المتعلم، ومباشرة بالإكرام والتحنن عليه، فإن في ذلك معونة له على مقصده، وإكراماً لمن كان يسمى في نفع العباد والبلاد.

(٧) في ب: لا يصدر منك كلام

للسائل.

(٤) في ب: ما وصل.

(٥) كذا في ب، وفي أ: الأحوال.

(٦) في ب: فأغناك الله بما فتح عليك.

(١) في ب: بقيت.

(٢) في ب: درجات.

(٣) في ب: درجات.



فرغت من الصلاة وأكملتها، فانصب في الدعاء، وإلى ربك فارغب في سؤال مطالبك .  
واستدل من قال بهذا القول، على مشروعية الدعاء والذكر عقب الصلوات المكتوبات، والله أعلم بذلك تمت والله الحمد .

### تفسير سورة التين وهي مكية

﴿١-٨﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ \* وَطُورِ سِينِينَ \* وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ \* لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ \* ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ \* إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلِمُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ \* فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ الْبَلَدَيْنِ \* أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ ﴿التين﴾ هو التين المعروف، وكذلك ﴿الزيتون﴾ أقسم بهاتين الشجرتين، لكثرة منافع شجرهما وثمرهما، ولأن سلطانهما في أرض الشام، محل نبوة عيسى ابن مريم عليه السلام .

﴿وطور سينين﴾ أي: طور سيناء، محل نبوة موسى ﷺ، ﴿وهذا البلد الأمين﴾ وهي مكة المكرمة، محل نبوة محمد ﷺ. فأقسم تعالى بهذه المواضع المقدسة، التي اختارها وابتعث منها أفضل النبوات<sup>(٢)</sup> وأشرفها .

والمقسم عليه قوله: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ أي: تام الخلق، متناسب الأعضاء، منتصب القامة، لم يفقد مما يحتاج إليه ظاهر أو باطناً شيئاً، ومع هذه النعم العظيمة، التي ينفي منه القيام بشكرها، فأكثر الخلق منحرفون عن شكر النعم، مشتغلون باللهم واللعب، قد رضوا لأنفسهم بأسافل الأمور، وسفاسف الأخلاق، فردهم الله في أسفل سافلين أي: أسفل النار، موضع العصاة المتمردين على ربهم، إلا من من الله عليه بالإيمان والعمل الصالح، والأخلاق الفاضلة العالية، ﴿فلهم﴾

﴿الذي أنقض﴾ أي: أثقل ﴿ظهرك﴾ كما قال تعالى: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾. ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ أي: أعلينا قدرك، وجعلنا لك الثناء الحسن العالي، الذي لم يصل إليه أحد من الخلق، فلا يذكر الله إلا ذكر معه رسوله ﷺ، كما في الدخول في الإسلام، وقسي الأذان والإقامة والخطب، وغير ذلك من الأمور التي أعل الله بها ذكر رسوله محمد ﷺ.

وله في قلوب أمته من المحبة والإجلال والتعظيم ما ليس لأحد غيره، بعد الله تعالى، فجزاه الله عن أمته أفضل ما جزى نبياً عن أمته .

وقوله: ﴿فإن مع العسر يسراً﴾ إن مع العسر يسراً، بشارة عظيمة، أنه كلما وجد عسر وصعوبة، فإن اليسر يقارنه ويصاحبه، حتى لو دخل العسر جحر ضب لدخل عليه اليسر فأخرجه، كما قال تعالى: ﴿سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ وكما قال النبي ﷺ: ﴿إن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسراً﴾.

وتعريف «العسر» في الآيتين، يدل على أنه واحد، وتنكير «اليسر» يدل على تكراره، فلن يغلب عسر يسرين . وفي تعريفه بالألف واللام، الدالة على الاستفراق والعموم يدل على أن كل عسر - وإن بلغ من الصعوبة ما يبلغ - فإنه في آخره التيسير ملازم له .

ثم أمر الله رسوله أصلاً، والمؤمنين تبعاً، بشكوه والقيام بواجب نعمه، فقال: ﴿فإذا فرغت فانصب﴾ أي: إذا فرغت من أشغالك، ولم يبق في قلبك ما يعوق، فاجتهد في العبادة والدعاء .

﴿وإلى ربك﴾ وحده ﴿فارغب﴾ أي: أعظم الرغبة في إجابة دعائك وقبول عبادتك<sup>(٣)</sup>.

ولا تكن ممن إذا فرغوا وتفرغوا لعبوا وأعرضوا عن ربهم وعن ذكره، فتكون من الخاسرين .

وقد قيل: إن معنى قوله: فإذا



﴿وأما بنعمة ربك﴾ [وهذا يشمل] النعم الدينية والدنيوية ﴿فحدث﴾ أي: أثن على الله بها، وخصصها بالذكر إن كان هناك مصلحة .

وإلا فحدث بنعم الله على الإطلاق، فإن التحدث بنعمة الله داع لشكرها، وموجب لتحيب القلوب إلى من أنعم بها، فإن القلوب مجبولة على محبة المحسن .

### تفسير سورة ألم نشرح لك صدرك [وهي مكية

﴿١-٨﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ \* وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ \* ظَهَرَكَ \* وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ \* فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا \* إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا \* فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَب \* وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَب﴾ يقول تعالى - ممتناً على رسوله -: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ أي: نوسع لشرائع الدين والدعوة إلى الله، والانصاف بمكارم الأخلاق، والإقبال على الآخرة، ونسهيل الحيرات، فلم يكن ضيقاً حرجياً، لا يكاد ينقاد لخير، ولا تكاد تجده منسبطاً .

﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ أي: ذنبك

(٢) في ب: أفضل الأنبياء وأشرفهم .

(١) في ب: دعواتك .

فامتنع، وقال: «ما أنا بقارىء» فلم يزل به حتى قرأ. فأنزل الله عليه: «اقرأ باسم ربك الذي خلق» عموم الخلق، ثم خص الإنسان، وذكر ابتداء خلقه «من علق» فالذي خلق الإنسان واعتنى بتدبيره، لا بد أن يدبره بالأمم والنهي، وذلك بإرسال الرسول إليهم<sup>(١)</sup>، وإنزال الكتب عليهم، ولهذا ذكر<sup>(٢)</sup> بعد الأمر بالقراءة، خلقه<sup>(٣)</sup> للإنسان.

ثم قال: «اقرأ وربك الأكرم» أي: كثير الصفات واسمها، كثير الكرم والإحسان، واسع الجود، الذي من كرمه أن علم بالعلم<sup>(٤)</sup>. و «علم بالقلم» \* علم الإنسان ما لم يعلم. فإنه تعالى أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئاً، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، ويسر له أسباب العلم.

فعلمه القرآن، وعلمه الحكمة، وعلمه بالقلم، الذي به تحفظ العلوم، وتضبط الحقوق، وتكون رسلاً للناس تنوب مناب خطابهم، فلهذا الحمد والمنة، الذي أنعم على عباده بهذه النعم التي لا يقدرون لها على جزاء ولا شكور، ثم من عليهم بالغنى وسعة الرزق، ولكن الإنسان - لجهله وظلمه - إذا رأى نفسه غنياً، طغى وبغى، وتجبر عن الهدى، ونسى أن إلى ربه الرجعى، ولم يخف الجزاء، بل ربما وصلت به الحال أنه يترك الهدى بنفسه، ويدعو [غيره] إلى تركه، فينهى عن الصلاة التي هي أفضل أعمال الإيمان. يقول الله لهذا المتمرّد العاتى: «أرأيت» أيها الناهي للعبد إذا صل [إن كان] العبد المصلي «على الهدى» العلم بالحق والعمل به، «أو أمر» غيره «بالتقوى».

فهل يحسن أن ينهى من هذا وصفه؟ ليس نبيه من أعظم المحادّة لله والمحاربة للحق؟ فإن النهي لا يتوجه إلا لمن هو في نفسه على غير الهدى، أو كان يأمر غيره بخلاف التقوى.

بذلك المنازل العالية، و «أجر غير ممنون» أي: غير مقطوع، بل لذات متوافرة، وأفراح متواترة، ونعم متكاثرة، في أيدي لا يزول، ونعيم لا يحول، أكلها دائم وظلها، «فما يكذبك بعد بالدين» أي: أي شيء يكذبك أيها الإنسان بيوم الجزاء على الأعمال، وقد رأيت من آيات الله الكثيرة ما به يحصل لك اليقين، ومن نعمه ما يوجب عليك أن لا تكفري بشيء مما أخبرك به، «اليس الله بأحكم الحاكمين» فهل تفتنضي حكيمته أن يترك الخلق سدى لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون؟

أم الذي خلق الإنسان أطواراً بعد أطوار، وأوصل إليهم من النعم والخير والبر ما لا يحصونه، ورباهم التربية الحسنة، لا بد أن يعيدهم إلى دار هي مستقرهم وغيبتهم، التي إليها يقصدون، ونحوها يؤمرون. تمت والله الحمد.

### تفسير سورة اقرأ [وهي] مكية

﴿١-١٩﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم اقرأ باسم ربك الذي خلق \* خلق الإنسان من علق \* اقرأ وربك الأكرم \* الذي علم بالقلم \* علم الإنسان ما لم يعلم \* كلا إن الإنسان ليطغى \* أن رآه استغنى \* إن إلى ربك الرجعى \* أرأيت الذي ينهى \* عبداً إذا صلى \* أرأيت إن كان على الهدى \* أو أمر بالتقوى \* أرأيت إن كذب وتولى \* ألم يعلم بأن الله يرى \* كلا لئن لم ينته لنسفمن بالناصية \* ناصية كاذبة خاطئة \* فليدع ناديه \* سندع الزبانية \* كلا لا تطعه واسجد واقترب \* هذه السورة أول السور القرآنية نزولاً على رسول الله ﷺ.

فإنها نزلت عليه في مبادئ النبوة، إذ كان لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، فجاء جبريل عليه الصلاة والسلام بالرسالة، وأمره أن يقرأ،

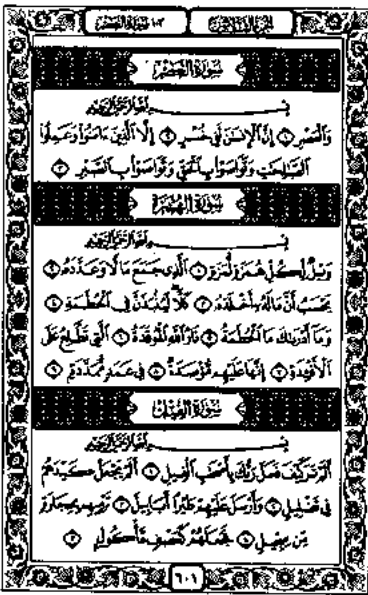
(١) في ب: بإرسال الرسل.

(٢) في ب: ولهذا أتى.

(٣) في ب: بخلق.

(٤) في ب: بأنواع العلوم.

(٥) في ب: العذاب.



«أرأيت إن كذب» الناهي بالحق، «وتولى» عن الأمر، أما يخاف الله ويخشى عقابه؟ ألم يعلم بأن الله يرى؟ ما يعمل ويفعل؟

ثم توعده إن استمر على حاله، فقال: «كلا لئن لم ينته» عما يقول ويفعل «لنسفنن بالناصية» أي: لناخذن بناصيته، أخذاً عنيفاً، وهي حقيقة بذلك، فإنها «ناصية كاذبة خاطئة» أي: كاذبة في قولها، خاطئة في فعلها.

«فليدع» هذا الذي حق عليه العقاب<sup>(٥)</sup> «ناديه» أي: أهل مجلسه وأصحابه ومن حوله، ليعينوه على ما نزل به، «سندعوا الزبانية» أي: خزنة جهنم، لأخذة وعقوبته، فلينظر أي: الفريقين أقوى وأقدر؟ فهذه حالة الناهي وما توعده من العقوبة، وأما حالة المنهي، فأمره الله أن لا يصغي إلى هذا الناهي ولا ينقاد لنتهيه، فقال: «كلا لا تطعه» [أي]: فإنه لا يأمر إلا بما فيه خسارة الدارين، «واسجد» لربك «واقترب» منه في السجود وغيره من أنواع الطاعات والقربات، فإنها كلها تُدنى من رضاه وتقرب منه.

وهذا عام لكل ناه عن الخير ومنهي

﴿ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ أي: تعادل من فضلها ألف شهر، فالعمل الذي يقع فيها، خير من العمل في ألف شهر [خالية منها]، وهذا عما تتحير فيه<sup>(١)</sup> الألباب، وتندعش له العقول، حيث من نبارك وتعالى على هذه الأمة الضعيفة القوة والقوى، بليلة يكون العمل فيها يقابل ويزيد على ألف شهر، عمر رجل معمر عمراً طويلاً، نيفاً وثمانين سنة.

﴿تنزل الملائكة والروح فيها﴾ أي: يكثر نزولهم فيها ﴿من كل أمر﴾ \* سلام هي﴾ أي: سائلة من كل آفة وشر، وذلك لكثرة خيرها، ﴿حتى مطلع الفجر﴾ أي: مبتدأها من غروب الشمس ومنتهاها طلوع الفجر<sup>(٢)</sup>.

وقد تواترت الأحاديث في فضلها، وأنها في رمضان، وفي العشر الأواخر منه، خصوصاً في أوتارها، وهي باقية في كل سنة إلى قيام الساعة.

ولهذا كان النبي ﷺ يعتكف ويكثر من التعمد في العشر الأواخر من رمضان، رجاء ليلية القدر [وإنه أعلم].

### تفسير سورة لم يكن وهي مدنية

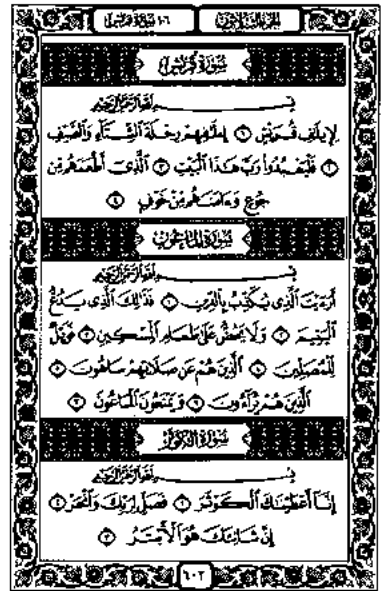
ولهذا قال عنها: ﴿فيها﴾ أي: في تلك الصحف ﴿كتب قيمة﴾ أي: أخبار صادقة، وأوامر عادلة تهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، فإذا جاءتهم هذه البيعة، فحيثما يتبين طالب الحق ممن ليس له مقصد في طلبه، فيهلك من هلك عن بيعة، ويحيى من حي عن بيعة.

وإذا لم يؤمن أهل الكتاب لهذا الرسول وينقادوا له، فليس ذلك ببدع من ضلالهم وعنادهم، فإنهم ما تفرقوا واختلفوا وصاروا أحزاباً ﴿إلا من بعد ما جاءتهم البيعة﴾ التي توجب لأهلها الاجتماع والاتفاق، ولكنهم لرداعتهم ونذاتهم، لم يزدعهم الهدى إلا ضلالاً، ولا البصيرة إلا عمى، مع أن الكتب كلها جاءت بأصل واحد ودين واحد، فما أمروا في سائر الشرائع إلا أن يعبدوا ﴿الله مخلصين له الدين﴾ أي:

﴿١٠ - ٨﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البيعة﴾ رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة ﴿فيها كتب قيمة﴾ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البيعة ﴿وما أسروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك

(٢) كذا في ب، وفي أ: تنتهي من غروب الشمس إلى طلوع الفجر.

(٥) في ب: الأوقات.



عنه، وإن كانت نازلة في شأن أبي جهل حين نهي رسول الله ﷺ عن الصلاة، وعيبت به<sup>(١)</sup> وأذاه. تمت والله الحمد

### تفسير سورة القدر وهي مكية

﴿١٠ - ٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم إنا أنزلناه في ليلة القدر \* وما أدراك ما ليلة القدر \* ليلة القدر خير من ألف شهر \* تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر \* سلام هي حتى مطلع الفجر﴾ يقول تعالى مبيناً لفضل القرآن وعلو قدره: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ كما قال تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ وذلك أن الله [تعالى]، ابتدأ بإنزاله<sup>(٢)</sup> في رمضان [في] ليلة القدر، ورحم الله بها العباد رحمة عامة، لا يقدر العباد لها شكراً.

وسميت ليلة القدر، لعظم قدرها وفضلها عند الله، ولأنه يقدر فيها ما يكون في العام من الأجال والأرزاق والمقادير القدرية.

ثم فتح شأنها، وعظم مقدارها، فقال: ﴿وما أدراك ما ليلة القدر﴾ أي: فإن شأنها جليل، وخطرها عظيم،

(١) في ب: وعذبه.

(٢) في ب: ابتدأ بإنزال القرآن.

(٣) كذا في ب، وفي أ: به.

الأشياء، [وجوزي عليها] فما فوق ذلك من باب أولى وأخرى، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تُوَدِّعُ أَنْ يُبْنَاهَا وَيُنْهَى أَمْدًا بَعِيدًا﴾ [ووجدوا ما عملوا حاضراً].

وهذه الآية فيها غاية الترغيب في فعل الخير ولو قليلاً، والترهيب من فعل الشر ولو حقيراً.

### تفسير سورة العاديات وهي مكية

﴿١١ - ١٠﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالْعَادِيَاتِ صَبْحًا \* فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا \* فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا \* فَأَثَرُنَّ بِهِ نَقْمًا \* فَوسطنَ بِهِ جَمْعًا \* إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ \* وَإِنَّ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ \* وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ \* أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَافِعًا فِي الْقُبُورِ \* وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ \* إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ خَبِيرٌ \* أَقْسَمُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِالْخَلْقِ، لَمَا فِيهَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْبَاهِرَةِ، وَنِعْمَةِ الظَّاهِرَةِ، مَا هُوَ مَعْلُومٌ لِلْخَلْقِ.

وأقسم [تعالى] بها في الخصال التي لا يشاركها [فيه] غيرها من أنواع الحيوانات، فقال: ﴿وَالْعَادِيَاتِ صَبْحًا﴾ أي: العاديات عدواً بليغاً قوياً، يصدر عنه الضجج، وهو صوت نفسها في صدرها عند اشتداد العدو<sup>(٥)</sup>. ﴿فَالْمُورِيَاتِ﴾ بحوافرهن ما يظان عليه من الأحجار ﴿قَدْحًا﴾ أي: تقدح<sup>(٦)</sup> النار من صلاة حوافرهن [وقوتن] إذا عدون، ﴿فَالْمُغِيرَاتِ﴾ على الأعداء ﴿صُبْحًا﴾ وهذا أمر أغلبي، أن الغارة تكون صباحاً، ﴿فَأَثَرُنَّ بِهِ﴾ أي: بعدوهن وغارتن ﴿نَقْمًا﴾ أي: غباراً، ﴿فَوسطنَ بِهِ﴾ أي: يراكيهن ﴿جَمْعًا﴾ أي: توسطن به جموع الأعداء، الذين أغار عليهم.

والمقسم عليه قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ أي: لمنوع للخير الذي

### تفسير سورة إذا زلزلت<sup>(٧)</sup> وهي مدنية

﴿٨ - ١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا \* وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا \* وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا \* يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا \* بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا \* يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ \* فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ \* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ يخبر تعالى عما يكون يوم القيامة، وأن الأرض تتزلزل وترجف وترنح، حتى يسقط ما عليها من بناء وعلم<sup>(٨)</sup>.

فتندك جبالها، وتُسَوَّى تلالها، وتكون قاعاً صفصفاً لا عوج فيه ولا أمّ.

﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أي: ما في بطنها، من الأموات والكنوز، ﴿وقال الإنسان﴾ إذا رأى ما عراها من الأمر العظيم مستعظماً لذلك: ﴿مَا لَهَا؟ أَي: أَي شيء عرض لها؟﴾

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أي: تشهد على العاملين بما عملوا على ظهرها من خير وشر، فإن الأرض من جملة الشهود الذين يشهدون على العباد بأعمالهم، ذلك ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [أي] وأمرها أن تخبر بما عمل عليها، فلا تعصي لأمره<sup>(٩)</sup>.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ﴾ من موقف القيامة، حين يقضي الله بينهم ﴿أَشْتَاتًا﴾ أي: فرقا متفارتين. ﴿ليروا أعمالهم﴾ أي: ليرىهم الله ما عملوا من الحسنات والسيئات، ويرىهم جزاء مؤفراً.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ \* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ وهذا شامل عام للخير والشر كله، لأنه إذا رأى مثقال الذرة، التي هي أحقر

قاصدين بالباطنة وجه الله، وطلب الزلفي لديه، ﴿حَفَافًا﴾ أي: معرضين [مائلين] عن سائر الأديان المخالفة لدين التوحيد. وخص الصلاة والزكاة، [بالذكر] مع أنهما داخلان في قوله: ﴿لِيُعْبَدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ لفضلهما وشرهما، وكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع شرائع الدين.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي: التوحيد والإخلاص في الدين، هو ﴿دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ أي: الدين المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، وما سواه فطرق موصلة إلى الجحيم.

ثم ذكر جزاء الكافرين بعدما جاءتهم البينة، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ قد أحاط بهم عذابها، واشتد عليهم عقابها، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يفتر عنهم العذاب، وهم فيها ملبسون، ﴿أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ لأنهم عرفوا الحق وتركوه، وخسروا الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ لأنهم عبدوا الله وعرفوه، وفازوا بنعيم الدنيا والآخرة، ﴿جَزَاءُهمْ عِنْدَ رَبِّهمْ جَنَّاتٌ عِدْنُ﴾ أي: جنات إقامة، لا ظعن فيها ولا رحيل، ولا طلب لغاية فوقها، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ خالدون فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه، ﴿فرضي عنهم بما قاموا به من مرضاه، ورضوا عنه، بما أعد لهم من أنواع الكرامات وجزيل الثريات﴾ ذلك ﴿الجزء الحسن لمن خشى ربه﴾ أي: لمن خاف الله، فأحجم عن معاصيه، وقام بواجباته<sup>(١٠)</sup>.

[تمت والحمد لله]

(١) في ب: بما أوجب عليه.

(٢) في ب: الزلزلة.

(٣) في ب: ومثقل.

(٤) كذا في ب، وفي أ: ولا تستعصي.

(٥) في ب: عنوها.

(٦) في ب: تنقدح.

عليه لربه<sup>(١)</sup>.

فطبيعة [الإنسان] وجبلته، أن نفسه لا تسمح بما عليه من الحقوق، فتؤديها كاملة موفرة، بل طبيعتها الكسل والمنع لما عليه من الحقوق المالية والبدينية، إلا من هداه الله وخرج عن هذا الوصف إلى وصف السماح بأداء الحقوق، ﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾ أي: إن الإنسان على ما يعرف من نفسه من المنع والكند لشاهد بذلك، لا يجحده ولا ينكره، لأن ذلك أمرٌ بيّن واضح. ويحتمل أن الضمير عائد إلى الله تعالى أي: إن العبد لربه لكنود، والله شهيد على ذلك، ففيه الوعيد، والتهديد الشديد، لمن هو لربه كنود، بأن الله عليه شهيد.

﴿وإنه﴾ أي: الإنسان ﴿الحب الخير﴾ أي: المال ﴿لشديد﴾ أي: كثير الحب للمال.

وحبه لذلك، هو الذي أرجب له ترك الحقوق الواجبة عليه، قدم شهوة نفسه على حق<sup>(٢)</sup> ربه، وكل هذا لأنه قصر نظره على هذه الدار، وغفل عن الآخرة، ولهذا قال حائلاً على خوف يوم الوعيد:

﴿أفلا يعلم﴾ أي: هلاً يعلم هذا المنتر ﴿إذا بعثر ما في القبور﴾ أي: أخرج الله الأموات من قبورهم، لحشرهم ونشورهم.

﴿وحُصِّل ما في الصدور﴾ أي: ظهر وبان [ما فيها] ما استتر في الصدور من كمان الخير والشر، فصار السر علانية، والباطن ظاهراً، وبان على وجوه الخلق نتيجة أعمالهم.

﴿إن ربهم بهم يومئذ لخبير﴾ أي: مطلع على أعمالهم الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية، ويمجازيهم عليها. وخص خبره<sup>(٣)</sup> بذلك اليوم، مع أنه خبير بهم في كل وقت، لأن المراد

بذلك، الجزاء بالأعمال<sup>(٤)</sup>، الناشئ عن علم الله وإطلاعه.

### تفسير سورة القارعة [وهي] مكية

﴿١١ - ١١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم القارعة \* ما القارعة \* وما أدراك ما القارعة \* يوم يكون الناس كالفرش المبثوث \* وتكون الجبال كالعهن المنفوش \* فأما من ثقلت موازينه \* فهو في عيشة راضية \* وأما من خفت موازينه \* فأهه هاوية \* وما أدراك ما هي \* نازحاً حامية﴾  
﴿القارعة﴾ من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك، لأنها تقزع الناس وتزعجهم بأهوالها، ولهذا عظم أمرها وفخمه بقوله: ﴿القارعة \* ما القارعة \* وما أدراك ما القارعة \* يوم يكون الناس﴾ من شدة الفزع والهول، ﴿كالفرش المبثوث﴾ أي: كالجراد المنتشر، الذي يموج بعضه في بعض، والفرش: هي الحيوانات التي تكون في الليل، يموج بعضها ببعض لا تدري أين توجه، فإذا أوقد لها نار تهاقت إليها لضعف إدراكها، فهذه حال الناس أهل العقول، وأما الجبال الصم الصلاب، فتكون ﴿كالعهن المنفوش﴾ أي: كالصوف المنفوش، الذي يقي ضعيفاً جداً، تطير به أدنى ريح، قال تعالى: ﴿ونرى الجبال نحبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾ ثم بعد ذلك تكون هباء منثوراً، فتضمحل ولا يبقى منها شيء يشاهد، فحينئذ تنصب الموازين، وينقسم الناس قسمين: سعداء وأشقياء، ﴿فأما من ثقلت موازينه﴾ أي: رجحت حسناته على سيئاته ﴿فهو في عيشة راضية﴾ في جنات النعيم.

﴿وأما من خفت موازينه﴾ بأن لم

تكن له حسنات تقاوم سيئاته، ﴿فأهه هاوية﴾ أي: مأواه ومسكنه النار، التي من أسمائها الهاوية، تكون له بمنزلة الأم الملازمة كما قال تعالى: ﴿إن عذابها كان غراماً﴾.

وقيل: إن معنى ذلك، فأم دماغه هاوية في النار أي: يلقى في النار على رأسه.

﴿وما أدراك ما هي﴾ وهذا تعظيم لأمرها، ثم فسرها بقوله هي: ﴿نار حامية﴾ أي: شديدة الحرارة، قد زادت حرارتها على حرارة نار الدنيا سبعين ضعفاً. نستجير بالله منها.

### تفسير سورة الهالك التكاثر وهي مكية

﴿٨ - ١١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الهالك التكاثر \* حتى زرم المقابر \* كلا سوف تعلمون \* ثم كلا سوف تعلمون \* كلا لو تعلمون علم اليقين \* لترون الجحيم \* ثم لترونها عين اليقين \* ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾ يقول تعالى موبخاً عباده عن اشتغالهم عما خلقوا له من عبادته وحده لا شريك له، ومعرفته، والإنابة إليه، وتقديم محبته على كل شيء: ﴿الهاكم﴾ عن ذلك المذكور ﴿التكاثر﴾ ولم يذكر التكاثر به، ليشمل ذلك كل ما يتكاثر به التكاثر. ويفتخر به المفتخرون، من التكاثر في الأموال، والأولاد، والأنصار، والجنود، والخدم، والجاه، وغير ذلك مما يقصد منه مكاترة كل واحد للآخر، وليس المقصود به الإخلاص لله تعالى<sup>(٥)</sup>.

فاستمرت غفلتكم ولهوتكم [وتشاغلكم] [حتى زرم المقابر] فانكشف لكم حينئذ الغطاء، ولكن

(١) في ب: لله عليه.

(٢) في ب: على رضا ربه.

(٣) في ب: خبرهم.

(٤) في ب: المراد بهذا الجزاء على الأعمال.

(٥) في ب: وليس المقصود منه وجه الله.

بعدها تعذر عليكم استئنافه .

ودل قوله : ﴿ حتى زرتم المقابر ﴾ أن البرزخ دارٌ مقصودٌ منها النفوذ إلى الدار الباقية<sup>(١)</sup> ، لأن الله سماهم زائرين ، ولم يسمهم مقيمين .

فدل ذلك على البعث والجزاء بالأعمال<sup>(٢)</sup> ، في دار باقية غير فانية ، ولهذا توعدهم بقوله : ﴿ كلا سوف تعلمون ﴾ ثم كلا سوف تعلمون \* كلاً لو تعلمون علم اليقين ﴾ أي : لو تعلمون ما أمامكم علماً يصل إلى القلوب ، لما ألهاكم التكاثر ، ولبادرتم إلى الأعمال الصالحة .

ولكن عدم العلم الحقيقي ، صيركم إلى ما ترون ، ﴿ لترون الجحيم ﴾ أي : لتردن القيامة ، فلترون الجحيم التي أعدّها الله للكافرين .

﴿ ثم لترونها عين اليقين ﴾ أي : رؤية بصرية ، كما قال تعالى : ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾ .

﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ الذي تنعمتم به في دار الدنيا ، هل قمتم بشكره ، وأديتم حق الله فيه ، ولم تستعينوا به على معاصيه ، فينعمكم نعيماً أعلى منه وأفضل .

أم اغتررتم به ، ولم تقوموا بشكره ؟ بل ربما استعتمتم به على معاصي الله ، فيعاقبكم على ذلك ، قال تعالى : ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون ﴾ الآية .

### تفسير سورة العصر [وهي] مكية

﴿ ١ - ٣ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم والعصر \* إن الإنسان لفي خسر \* إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا

بالصبر ﴾ أقسم تعالى بالعصر ، الذي هو الليل والنهار ، محل أفعال العباد وأعمالهم أن كل إنسان خاسر ، والخاسر ضد الربح .

والخسار مراتب متعددة متفاوتة :

قد يكون خساراً مطلقاً ، كحال من خسر الدنيا والآخرة ، وفاته النعيم ، واستحق الجحيم .

وقد يكون خاسراً من بعض الوجوه دون بعض ، ولهذا عمم الله الخسار لكل إنسان ، إلا من اتصف بأربع صفات :

الإيمان بما أمر الله بالإيمان به ، ولا يكون الإيمان بدون العلم ، فهو فرغ عنه لا يتم إلا به .

والعمل الصالح ، وهذا شامل لأفعال الخير كلها ، الظاهرة والباطنة ، المتعلقة بحق الله وحق عباده<sup>(٣)</sup> ، الواجبة والمستحبة .

والتواصي بالحق ، الذي هو الإيمان والعمل الصالح أي : يوصي بعضهم بعضاً بذلك ، ويحثه عليه ، ويرغبه فيه .

والتواصي بالصبر على طاعة الله ، وعن معصية الله ، وعلى أقدار الله المؤلمة .

فبالأميرين الأولين يكمل الإنسان<sup>(٤)</sup> نفسه ، وبالأمرين الأخيرين يكمل غيره ، ويتكامل الأمور الأربعة ، يكون الإنسان قد سلم من الخسار ، وفاز بالربح [العظيم] .

### تفسير سورة الهمزة وهي مكية

﴿ ١ - ٩ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ويل لكل همزة لمزة \* الذي جمع مالا وعدده \* يحسب أن ماله أخلده \* كلا ليتبذرن في الحطمة \* وما أدراك ما الحطمة \* نار الله الموقدة \* التي تطلع على الأفئدة \* إنها عليهم مؤصدة \*

في عمده ممددة ﴾ ﴿ ويل ﴾ أي : وعيد ، وويل ، وشدة عذاب ﴿ لكل همزة لمزة ﴾ الذي يميز الناس بفعله ، ويلزمهم بقوله ، فالهماز : الذي يعيب الناس ، ويظمن عليهم بالإشارة والفعل ، واللاماز : الذي يبيهم بقوله .

ومن صفة هذا الهماز اللماز ، أنه لا هم له سوى جمع المال وتعديده والغنطة به ، وليس له رغبة في إنفاقه في طرق الخيرات وصلة الأرحام ، ونحو ذلك ، ﴿ يحسب ﴾ بجعله ﴿ أن ماله أخلده ﴾ في الدنيا ، فلذلك كان كده وسعيه كله في تنمية ماله ، الذي يظن أنه ينمي عمره ، ولم يدرك أن البخل يقصف الأعمار ، ويحرب السديار ، وأن البر يزيد في العمر .

﴿ كلا ليتبذرن في الحطمة \* وما أدراك ما الحطمة ﴾ تعظيم لها ، وهويل لشأنها .

ثم فسرها بقوله : ﴿ نار الله الموقدة ﴾ التي وقودها الناس والحجارة ﴿ التي ﴾ من شدتها ﴿ تطلع على الأفئدة ﴾ أي : تنفذ من الأجسام إلى القلوب .

ومع هذه الحرارة البليغة هم محبوسون فيها ، قد أيسروا من الخروج منها ، ولهذا قال : ﴿ إنها عليهم مؤصدة ﴾ أي : مغلقة ، ﴿ في عمده ﴾ من خلف الأبواب ﴿ ممددة ﴾ لئلا يخرجوا منها ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ﴾ .

[نعوذ بالله من ذلك ونسأله العفو والعافية] .

### تفسير سورة الفيل وهي مكية

﴿ ١ - ٥ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل \* ألم يجعل كيدهم في تضليل \* وأرسل عليهم طيراً أبابيل \* فجعلهم بحجارة من سجيل \* فجعلهم

(٤) في ب : البعد .

(٣) في ب : يحرق الله وحرق عباده .

(١) في ب : الآخرة .

(٢) في ب : على الأعمال .

ولهذا أمرهم الله بالشكر، فقال: ﴿فليمبدوا رب هذا البيت﴾ أي: ليوحده ويخلصه والى العبادة، ﴿الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ فرغد الرزق والأمن من المخاوف، من أكبر النعم الدنيوية، الموجبة لشكر الله تعالى.

﴿٧﴾ ﴿ويمنعون الماعون﴾ أي: يمنعون إعطاء الشيء، الذي لا يضر إعطاؤه على وجه العارية، أو الهبة، كالإتاء، والدلو، والفأس، ونحو ذلك، مما جرت العادة ببذلها والسماحة به<sup>(٧)</sup>.

فهؤلاء - لشدة حرصهم - يمنعون الماعون، فكيف بما هو أكثر منه.

وفي هذه السورة، الخث على إكسرام<sup>(٨)</sup> التيسيم، والمسكين، والتحفيز على ذلك، ومراعاة الصلاة، والمحافظة عليها، وعلى الإخلاص [فيها] في جميع الأعمال. والخث على [فعل المعروف] وبذل الأمور الخفيفة، كعارية الإتياء والدلو والكتاب، ونحو ذلك، لأن الله ذم من لم يفعل ذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، والحمد لله رب العالمين.

### تفسير سورة الكوثر وهي مكية

﴿١-٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر﴾ فصل لربك وانحر \* إن شانك هو الأثر ﴿ يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ممتناً عليه: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ أي: الخير الكثير، والفضل الغزير، الذي من جلته، ما يعطيه الله لنبيه ﷺ يوم القيامة، من النهر الذي يقال له «الكوثر»، ومن الحوض<sup>(٩)</sup>. طوله شهر، وعرضه شهر، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، آتيته كنجوم<sup>(١٠)</sup> السماء في

فلك اللهم الحمد والشكر على نعمك الظاهرة والباطنة، وخص الله بالربوبية البيت<sup>(١١)</sup>، لفضله وشرفه، ولا فهو رب كل شيء.

### تفسير سورة الماعون وهي مكية

﴿١-٧﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم أرأيت الذي يكذب بالدين \* فذلك الذي يدع اليتيم \* ولا يحض على طعام المسكين \* فويل للمصلين \* الذين هم عن صلاتهم ساهون \* الذين هم يראؤون \* ويمنعون الماعون﴾ يقول تعالى ذاماً لمن ترك حرقه وحقوق عباده: ﴿أرأيت الذي يكذب بالدين﴾ أي: بالبعث والجزاء، فلا يؤمن بما جاءت به الرسل.

﴿فذلك الذي يدع اليتيم﴾ أي: يدعه يمتنق وشدة، ولا يرحمه لقساوة قلبه، ولأنه لا يرجو ثواباً، ولا يخشى<sup>(١٢)</sup> عقاباً.

﴿ولا يحض﴾ غيره. ﴿على طعام المسكين﴾ ومن باب أولى أنه بنفسه لا يطعم المسكين، ﴿فويل للمصلين﴾ أي: الملتزمون<sup>(١٣)</sup> لإقامة الصلاة، ولكنهم ﴿هن صلاتهم ساهون﴾ أي: مضيعون لها، تاركون لوقتها، مفترتون لأركانها<sup>(١٤)</sup>، وهذا لعدم اهتمامهم بأمر الله حيث ضيعوا الصلاة، التي هي أهم الطاعات وأفضل القربات، والسهو عن الصلاة، هو الذي يستحق صاحبه الذم واللوم<sup>(١٥)</sup>، وأما السهو في

كعصف مأكول﴾ أي: أما رأيت من قدرة الله وعظيم شأنه، ورحته بعباده، وأدلة توحيدده، وصدق رسوله محمد ﷺ، ما فعله الله بأصحاب الفيل، الذين كادوا يبتئ الحرام وأرادوا إخرابه، فتنجسوا لأجل ذلك، واستصحبوا معهم القبلة لهدمه، وجازوا بجمع لا قيل للعرب به، من الحشة والبمن، فلما انتهوا إلى قرب مكة، ولم يكن بالعرب مدافعة، وخرج أهل مكة من مكة خوفاً على أنفسهم منهم، أرسل الله عليهم طيراً أبابيل أي: متفرقة، تحمل حجارة عمدة من سجيل، فرمتهم بها، وتبعقت قاصيهم ودانيهم، فخذلوا وهمدوا، وصاروا كعصف مأكول، وكفى الله شرهم، ورد كيدهم في نحورهم، [وقصنتهم معروفة مشهورة] وكانت تلك السنة التي ولد فيها رسول الله ﷺ، فصارت من جملة إلهامات دعوته، ومقدمات<sup>(١٦)</sup> رسالته، فلهذا الحمد والشكر.

### تفسير سورة لإيلاف قريش وهي مكية

﴿١-٤﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم لإيلاف قريش \* لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف \* فليمبدوا رب هذا البيت \* الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ قال كثير من المفسرين: إن الجار والمجرور متعلق بالسورة التي قبلها أي: فعلنا ما فعلنا بأصحاب الفيل لأجل قريش وأمنهم، واستقامة مصالحهم، وانتظام رحلتهم في الشتاء لليمن، والصيف للشام، لأجل التجارة والملكاب.

فأهلك الله من أرادهم بسوء، وعظم أمر الحرم وأهله في قلوب العرب، حتى احترموهم، ولم يعترضوا لهم في أي: سفر أرادوا،

(٩) كذا في ب، وفي أ: ومن الحوض

الذي يقال له: الكوثر.

(١٠) في ب: عدد نجوم السماء.

(٥) في ب: مخلون بأركانها.

(٦) في ب: الذم والوعيد.

(٧) في ب: يبذله والسماح به.

(٨) في ب: إطعام.

(١) في ب: أدلة.

(٢) في ب: الربوبية بالبيت.

(٣) في ب: يخاف.

(٤) كذا في ب، وفي أ: الذين ملتزمون.

دين ﴿ كما قال تعالى: ﴿ قل كل يعمل  
على شاكلته ﴾ أنتم بريئون مما أعمل  
وأنا بريء مما تعملون ﴾ .

### تفسير سورة النصر وهي مدنية<sup>(١)</sup>

﴿ ١ - ٣ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن  
الرحيم إذا جاء نصر الله والفتح \*  
ورأيت الناس يدخلون في دين الله  
أفواجا \* فسبح بحمد ربك واستغفره  
إنه كان توابا ﴾ في هذه السورة  
الكريمة، بشارة وأمر لرسوله عند  
حصولها، وإشارة وتنبه على ما يترتب  
على ذلك .

فالبشارة هي البشارة بنصر الله  
لرسوله، وفتحه مكة، ودخول الناس  
في دين الله أفواجا، بحيث يكون كثير  
منهم من أهله وأنصاره، بعد أن كانوا  
من أعدائه، وقد وقع هذا المبشر به،  
وأما الأمر بعد حصول النصر والفتح،  
فأمر الله رسوله أن يشكر ربه على  
ذلك، ويسبح بحمده ويستغفره، وأما  
الإشارة، فإن في ذلك إشارتين: إشارة  
لأن يستمر النصر لهذا الدين<sup>(٢)</sup>،  
ويزداد عند حصول التسييح بحمد الله  
واستغفاره من رسوله، فإن هذا من  
الشكر، والله يقول: ﴿ لئن شكرتم  
لأزيدنكم ﴾ وقد وجد ذلك في زمن  
الخلفاء الراشدين وبعدهم في هذه  
الامة لم يزل نصر الله مستمرا، حتى  
وصل الإسلام إلى ما لم يصل إليه دين  
من الأديان، ودخل فيه ما لم يدخل في  
غيره، حتى حدث من الامة من مخالفة  
أمر الله ما حدث، فابتلاههم الله<sup>(٣)</sup>  
بتفرق الكلمة، وتشتت الأمر، فحصل  
ما حصل .

[ومع هذا] فلهذه الامة، وهذا  
الدين، من رحمة الله ولطفه، ما لا

كثرتها واستنارتها، من شرب منه شربة  
لم يظما بعدها أبدا .

ولما ذكر منته عليه، أمره بشكرها  
فقال: ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ خص  
هاتين العبادتين بالذكر، لأنهما من  
أفضل العبادات وأجل القربات .

ولأن الصلاة تتضمن الخضوع [في]  
القلب والجوارح لله، وتقلها في أنواع  
العبودية، وفي النحر تقرب إلى الله  
بأفضل ما عند العبد من النحائر،  
وأخراج للمال الذي جبلت النفوس  
على محبته والشح به .

﴿ إن شائشك ﴾ أي: مبنضك  
وذامك ومتنقصك ﴿ هو الأثر ﴾ أي:  
المقطوع من كل خير، مقطوع العمل،  
مقطوع الذكر .

وأما محمد ﷺ، فهو الكامل حقاً،  
الذي له الكمال الممكن في حق  
المخلوق، من رفع الذكر، وكثرة  
الأنصار والأتباع ﷺ .

### تفسير سورة الكافرون

﴿ ١ - ٦ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن  
الرحيم قل يا أيها الكافرون \* لا أعبد  
ما تعبدون \* ولا أنا عابد ما عبدتم \*  
ولا أنتم عابدون ما أعبد \* لكم دينكم  
ولي دين ﴾ أي: قل للكافرين معلنا  
ومصرحاً ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ أي:  
تبرأ مما كانوا يعبدون من دون الله،  
ظاهراً وباطناً .

﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ لعدم  
إخلاصكم لله في عبادته<sup>(١)</sup>، فعبادتكم  
له المقترنة بالشرك لا تسمى عبادة، ثم  
كرر ذلك ليدل الأول على عدم وجود  
الفاعل، والثاني على أن ذلك قد صار  
وصفاً لازماً .

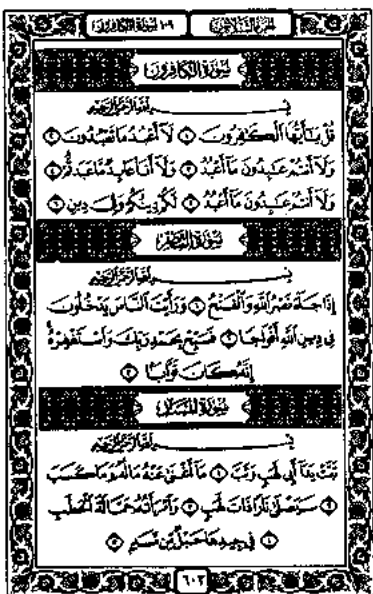
ولهذا ميز بين الفريقين، وفصل بين  
الطائفتين، فقال: ﴿ لكم دينكم ولي

(١) في ب: إخلاصكم في عبادتكم لله .

(٢) في ب: وهي مكة .

(٣) في ب: إشارة أن النصر يستمر للدين .

(٤) في ب: فابتلوا .



يخطر بالبال، أو يدور في الخيال  
وأما الإشارة الثانية، فهي الإشارة  
إلى أن أجل رسول الله ﷺ قد قرب  
ودنا، ووجه ذلك أن عمره عمر فاضل  
أقسم الله به .

وقد عهد أن الأمور الفاضلة تحتم  
بالاستغفار، كالصلاة والحج، وغير  
ذلك .

فأمر الله لرسوله بالحمد والاستغفار  
في هذه الحال، إشارة إلى أن أجله قد  
انتهى، فليستعد وينتهي للقاء ربه،  
ويحتم عمره بأفضل ما يجده  
صلوات الله وسلامه عليه .

فكان ﷺ يتأول القرآن، ويقول  
ذلك في صلاته، يكثر أن يقول في  
ركوعه وسجوده: « سبحانك اللهم  
وبحمدك، اللهم اغفر لي » .

### تفسير سورة تبت [وهي] مكية

﴿ ١ - ٣ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن  
الرحيم تبت يدا أبي لهب وتب \* ما  
أغنى عنه ماله وما كسب \* سيصلى



وزوجها، متقلدة في عنقها حبلاً من مسد، وعلى كل، ففي هذه السورة، آية باهرة من آيات الله، فإن الله أنزل هذه السورة، وأبو لهب وامرأته لم يهلكا، وأخبر أنهما سيُعذبان في النار ولا بد، ومن لازم ذلك أنهما لا يسلمان، فوقع كما أخبر عالم الغيب والشهادة.

### تفسير سورة الإخلاص [وهي] مكية

﴿١-٤﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ \* اللَّهُ الصَّمَدُ \* لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ \* لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ \* أَي: ﴿قُلْ﴾ قولاً جازماً به، معتقداً له، عارفاً بمعناه، ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أَي: قد انحصرت فيه الأحدية، فهو الأحد المنفرد بالكمال، الذي لا الأسماء الحسنی، والصفات الكاملة العليا، والأفعال القدسة، الذي لا نظير له ولا مثيل.

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ أَي: المقصود في جميع الحوائج. فأهل العالم العلوي والسفلي مفتقرون إليه غاية الافتقار، يسألونه حوائجهم، ويرغبون إليه في مهماتهم، لأنه الكامل في أوصافه، العليم الذي قد كمل في علمه، الخليم الذي قد كمل في حلمه، الرحيم الذي [كمل في رحمته الذي] وسعت رحمته كل شيء، وهكذا سائر أوصافه، ومن كماله أنه ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ لِكَمَالِ غِنَاهُ، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ لَا فِي أَسْمَائِهِ وَلَا فِي أَوْصَافِهِ، وَلَا فِي أَعْمَالِهِ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فهذه السورة مشتملة على توحيد الأسماء والصفات.

### تفسير سورة الفلق [وهي] مكية

﴿١-٥﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ \* مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ \* مِنْ شَرِّ إِذَا وَقَبَ \* مِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ \* مِنْ شَرِّ الْوَيْدِ وَالْحَاوِيِ وَالْبُذِّ \* وَأَعْتَصَمُ بِرَبِّ الْفَلَقِ \* أَي: فالق الحب والنوى، وقالق الإصباح.

﴿مَنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ وهذا يشمل جميع ما خلق الله، من إنس، وجن، وحيوانات، فيستعاض بخالفها من الشر الذي فيها، ثم خص بعدد عم، فقال: ﴿وَمَنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أَي: من شر ما يكون في الليل، حين يغشى الناس، وتنتشر فيه كثير من الأرواح الشريرة، والحيوانات المؤذية.

﴿وَمَنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ أَي: ومن شر السواحر، اللاتي يستعن على سحرهن بالثفت في العقد، التي يعقدنها على السحر.

﴿وَمَنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ والحاسد: هو الذي يجب زوال النعمة عن المحسود فيسمى في زوالها بما يقدر عليه من الأسباب، فاحتيج إلى الاستعاذة بالله من شره، وإبطال كيده، ويدخل في الحاسد العالين، لأنه لا تصدر العين إلا من حاسد شرير الطبع، خبيث النفس، فهذه السورة، تضمنت الاستعاذة من جميع أنواع الشر، عموماً وخصوصاً.

ودلت على أن السحر له حقيقة يخشى من ضرره، ويستعاض بالله منه ﴿وَمَنْ أَهْلَهُ﴾.

### تفسير سورة الناس [وهي مدنية<sup>(١)</sup>]

﴿١-٦﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ \* مَلِكِ النَّاسِ \* إِلَهِ النَّاسِ \* مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ \* الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ \* مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ \* وهذه السورة مشتملة على الاستعاذة

برب الناس ومالكهم وإلههم، من الشيطان الذي هو أصل الشرور كلها وماذمتها، الذي من فتنته وشره، أنه



ناراً ذات لهب \* وامرأته حمالة الحطب \* في جيدها حبيل من مسد \* أبو لهب هو عم النبي ﷺ، وكان شديد العداوة [والأذية] للنبي ﷺ، فلا فيه دين، ولا حية للقرابة - قُبِحَ اللهُ - فذمَّ اللهُ بهذا الذم العظيم، الذي هو خزي عليه إلى يوم القيامة، فقال:

﴿تبت يدا أبي لهب﴾ أَي: خسرت يده، وشقي ﴿وتب﴾ فلم يربح، ﴿ما أغنى عنه ماله﴾ الذي كان عنده وأطفاه، ولا ما كسبه فلم يرد عنه شيئاً من عذاب الله إذ نزل به، ﴿سيصلى﴾ ناراً ذات لهب ﴿أبي﴾: ستحيط به النار من كل جانب، هو ﴿وامرأته حمالة الحطب﴾.

وكانت أيضاً شديدة الأذية لرسول الله ﷺ تتعاون هي وزوجها على الإنم والعدوان، وتلقي الشر، وتسعى غاية ما تقدر عليه في أذية الرسول ﷺ وتجمع على ظهرها من الأوزار بمنزلة من يجمع حطباً، قد أعد له في عنقه حبلاً ﴿من مسد﴾ أَي: من ليف.

أو أنها تحمل في النار الحطب على

يوسوس في صدور الناس، فيحسن  
[لهم] الشر، ويريم إياه في صورة  
حسنة، وينشط إراداتهم لفعله، ويقبح  
لهم الخير وينشطهم عنه، ويريم إياه في  
صورة غير صورته، وهو دائماً بهذه  
الحال يوسوس ويختس أي: يتأخر إذا  
ذكر العبد ربه واستعان به على دفعه .  
فينبغي له أن [يستعين و] يستعيد  
ويتعصم بربوبية الله للناس كلهم .

وأن الخلق كلهم داخلون تحت  
الربوبية والملك، فكل دابة هرأخذ  
بناصيتها .

وبألوهيته التي خلقهم لأجلها، فلا  
تتم لهم إلا بدفع شر عدوهم، الذي  
يريد أن يقتطمعهم عنها ويحول بينهم

وبينها، ويريد أن يجعلهم من حزبه  
ليكونوا من أصحاب السعير،  
والوسواس كما يكون من الجن يكون  
من الإنس، ولهذا قال: ﴿من الجنة  
والناس﴾ .

والحمد لله رب العالمين أولاً  
وآخراً، وظاهراً وباطناً .

ونسأله تعالى أن يتم نعمته، وأن  
يعفو عنا ذنباً لنا حالت<sup>(١)</sup> بيننا وبين  
كثير من بركاته، وخطايا وشهوات  
ذهبت بقلوبنا عن تدبر آياته .

ونرجوه ونأمل منه أن لا يجرنا خير  
ما عنده بشر ما عندنا، فإنه لا يبأس  
من روح الله إلا القوم الكافرون، ولا

يقنط من رحمته إلا القوم الضالون .  
وصلى الله وسلم على رسوله محمد  
وعلى آله وصحبه أجمعين، صلاة  
وسلاماً دائماً متواصلين أبداً  
الأوقات، والحمد لله الذي بنعمته تتم  
الصالحات .

تم تفسير كتاب الله بعونه وحسن  
توفيقه، على يد جامعه وكتابه،  
عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله  
المعروف بابن سعدي، غفر الله له  
ولوالديه وجميع المسلمين، وذلك في  
غرة ربيع الأول من سنة أربع وأربعين  
وثلاثمائة وألف من هجرة محمد ﷺ<sup>(٢)</sup>

(١) في ب: ذنوبنا التي حالت.

(٢) في ب: ووقع النقل في شعبان ١٣٤٥ رينا تقبل منا واعف إنك أنت الغفور الرحيم.

## الملاحق

١- أصول وكتليات من أصول التفسير وكتلياته لا يستغني عنها المفسر للقرآن.

٢- تفسير الآيات التي اختلفت فيها النسختان..



## أصول وكليات

من أصول التفسير وكلياته لا يستغني عنها المفسر للقرآن<sup>(١)</sup>

النكرة في سياق النفي، أو سياق النهي، أو الاستفهام، أو سياق الشرط، نعم، وكذلك المفرد المضاف يعم، وأمثلة ذلك كثيرة.

فمتى وجدت نكرة واقعة بعد المذكورات، أو وجدت مفرداً مضافاً إلى معرفة، فأثبت جميع ما دخل في ذلك اللفظ، ولا تعتبر سبب النزول وحده، فإن «العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب». وينبغي أن تنزل جميع الحوادث والأفعال الواقعة، والتي لا تزال تحدث، على العمومات القرآنية، فبذلك تعرف أن القرآن تبيان لكل شيء، وأنه لا يحدث حادث، ولا يستجد أمر من الأمور، إلا وفي القرآن بيانه وتوضيحه.

ومن أصوله أن الألف واللام الداخلة على الأوصاف، وعلى أسماء الأجناس، تُفيد استغراق جميع ما دخلت عليه من المعاني.

ومن كليات القرآن، أنه يدعوا إلى توحيد الله ومعرفته، بذكر أسماء الله، وأوصافه، وأفعاله الدالة على تفرد بالوحدانية، وأوصاف الكمال، وإلى أنه الحق، وعبادته هي الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل، ويبين نقص كل ما عُبد من دون الله من جميع الوجوه.

ويدعو إلى صحة ما جاء به الرسول محمد ﷺ وصدقه، ببيان أحكامه، وتعمامه، وصدق إخباراته كلها، وحسن أحكامه. ويبين ما كان عليه الرسول ﷺ، من الكمال البشري الذي لا يلحقه فيه أحد من الأولين والآخرين، ويتحدهم بأن يأتيوا بمثل ما جاء به إن كانوا صادقين.

ويقرر ذلك بشهادته تعالى بقوله وفعله وإقراره إياه، وتصديقه له بالحجة والبرهان، وبالنصر والظهور، وبشهادة أهل العلم المنصفين. ويقابل بين ما جاء به من الحق في أخباره وأحكامه، وبين ما كان عليه أعداؤه، والمكذبون به، من الكذب في أخبارهم، والباطل في أحكامهم، كما يقرر ذلك بالمعجزات المتنوعة.

ويقرر الله المعاد بذكر كمال قدرته، وخلقِه للسموات والأرض، اللتين هما أكبر من خلق الناس، وبأن الذي بدأ الخلق قادر على إعادته من باب أولى، وبأن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى. ويذكر أيضاً أيامه في الأمم، ووقوع المثلث التي شاهدها الناس في الدنيا، وأنها نموذج من جزاء الآخرة.

ويدعو جميع المبطلين من الكفار والمشركين والملحدين بذكر محاسن الدين، وأنه يهدي للتي هي أقوم، في عقائده وأخلاقه وأعماله، وبيان ما لله من العظمة والربوبية، والنعم العظيمة. وأن من تفرد بالكمال المطلق، والنعم كلها، هو الذي لا تصلح العبادة إلا له، وأن ما عليه المبطلون، إذا مُيزَ وحقق وُجد شراً وباطلاً، وعواقبه وخيمة.

ومن أصول التفسير، إذا فهمت ما دلّت عليه الآيات الكريمة من المعاني مطابقة وتضمناً، فاعلم أن لوازم هذه المعاني، وما لا تتم إلا به، وشروطها وتوابعها، تابعة لذلك المعنى، فما لا يتم الخبر إلا به،

(١) هذه الخاتمة جعلها الشيخ - رحمه الله - في آخر الجزء الخامس لما طبع في حياته، وقد جعلتها في خاتمة التفسير.

فهو تابع للخبر، وما لا يتم الحكم إلا به، فهو تابع للحكم، وأن الآيات التي يُفهم منها التعارض والتناقض، ليس فيها تناقض ولاتعارض، بل يجب حمل كل منها على الحالة المناسبة للاتقة بها. وأن حذف المتعلقات، من مفعولات وغيرها، يدل على تعميم المعنى، لأن هذا من أعظم فوائد الحذف، وأنه لا يجوز حذف ما لا يدل عليه السياق اللفظي، والقرينة الحالية، كما أن الأحكام المقيدة بشروط أو صفات تدل على أن تلك القيود، لا بد منها في ثبوت الحكم.

إذا أمر الله بشيء كان ناهياً عن ضده، وإذا نهى عن شيء كان أمراً بضده، وإذا أثنى على نفسه بنفي شيء من النقائص؛ كان إثباتاً للكمال المنافي لذلك النقص. وكذلك إذا أثنى على رسله وأوليائه ونزههم عن شيء من النقائص، فهو مدح لهم بما يضاد ذلك النقص، ومثله نفي النقائص عن دار النعيم، يدل على إثبات ضد ذلك.

ومن الكليات؛ أنه إذا وضع الحق وظهر ظهوراً جلياً، لم يبق للمجادلات العلمية والمعارضات العملية محل، بل تبطل المعارضات، وتضمحل المجادلات.

ما نفاه القرآن؛ فإما أن يكون غير موجود، أو أنه موجود، ولكنه غير مفيد ولانافع. الموهوم لا يدفع المعلوم، والمجهول لا يعارض المحقق، وما بعد الحق إلا الضلال.

ذكر الله في القرآن الإيمان والعمل الصالح في مواضع كثيرة رتب عليهما من الجزاء العاجل والآجل والآثار الحميدة شيئاً كثيراً، فالإيمان هو: التصديق الجازم، بما أمر الله ورسوله بالتصديق به، المتضمن لأعمال الجوارح.

والعمل الصالح هو: القيام بحقوق الله، وحقوق عباده، وكذلك أمر الله بالتقوى، ومدح المتقين، ورتب على التقوى حصول الخيرات، وزوال المكروهات. والتقوى الكاملة: امتثال أمر الله وأمر رسوله، واجتناب نهيهما وتصديق خبرهما.

وإذا جمع الله بين التقوى والبر ونحوه، كانت التقوى اسماً لتوفي جميع المعاصي، والبر اسماً لفعل الخيرات، وإذا أفرد أحدهما، دخل فيه الآخر.

وذكر الله الهدى المطلوب في مواضع كثيرة، وأثنى على المهتدي، وأخبر أن الهدى بيده، وأمرنا بطلبه منه، وبالسعي في كل سبب يحصل الهدى، وذلك شامل لهداية العلم والعمل.

فالمهتدي: من عرف الحق، وعمل به، وضده الغي والضلال، فمن عرف الحق ولم يعمل به فهو الغاوي، ومن جهل الحق فهو الضال.

أمر الله بالإحسان، وأثنى على المحسنين، وذكر ثوابهم المتنوع في آيات كثيرة. وحقيقة الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وأن تبذل ما تستطيعه من النفع المالي والبدني والقولي إلى المخلوقين.

وأمر بالإصلاح وأثنى على المصلحين، وأخبر أنه لا يضيع ثوابهم وأجرهم.

والإصلاح هو: أن تسعى في إصلاح عقائد الناس وأخلاقهم. وجميع أحوالهم، بحيث تكون على غاية ما يمكن من الصلاح، وأيضاً يشمل إصلاح الأمور الدينية، والأمور الدنيوية، وإصلاح الأفراد والجماعات، وضد هذا الفساد.

والإنساد، قد نهى عنه، وذم المفسدين، وذكر عقوباتهم المتعددة، وأخبر أنه لا يصلح أعمالهم الدينية والدنيوية.

أثنى الله على اليقين، وعلى الموقنين، وأنهم هم المنتفعون بالآيات القرآنية، والآيات الأفقية.

واليقين أخص من العلم، فهو: العلم الراسخ، المثمر للعمل والطمأنينة.

أمر الله بالصبر، وأثنى على الصابرين، وذكر جزاءهم العاجل والأجل في عدة آيات، نحو تسمين موضعاً، وهو يشمل أنواعه الثلاثة: الصبر على طاعة الله، حتى يؤديها كاملة من جميع الوجوه، والصبر عن محارم الله حتى ينهى نفسه الأمانة بالسوء عنها. والصبر على أقدار الله المؤلمة، فيتلقاها بصبر وتسليم، غير متسخط في قلبه ولا بدنه ولا لسانه.

وكذلك أثنى الله على الشكر، وذكر ثواب الشاكرين، وأخبر أنهم أرفع الخلق في الدنيا والآخرة. وحقيقة الشكر هو: الاعتراف بجميع نعم الله، والشناء على الله بها، والاستعانة بها على طاعة المتعم.

وذكر الله الخوف والخشية، في مواضع كثيرة. أمر به، وأثنى على أهله، وذكر ثوابهم، وأنهم المتتفون بالآيات، التاركون للمحرمات.

وحقيقة الخوف والخشية: أن يخاف العبدُ مقامه بين يدي الله، ومقامه عليه، فينهي نفسه بهذا الخوف عن كل ما حرم الله.

والرجاء: أن يرجو العبد رحمة الله العامة، ورحمته الخاصة به. فيرجو قبول ما تفضل الله عليه به من الطاعات، وغفران ما تاب منه من الزلات، ويعلق رجاءه بربه في كل حال من أحواله.

وذكر الله الإنابة في مواضع كثيرة، وأثنى على المتنبين، وأمر بالإنابة إليه. وحقيقة الإنابة: انجذاب القلب إلى الله، في كل حالة من أحواله، ينبى إلى ربه عند النعماء بشكره، وعند الضراء بالتضرع إليه، وعند مطالب النفوس الكثيرة بكثرة دعائه في جميع مهماته، وينيب إلى ربه، باللهج بذكره في كل وقت.

[والإنابة أيضاً: الرجوع إلى الله، بالتوبة من جميع المعاصي، والرجوع إليه في جميع أعماله وأقواله، فيعرضها على كتاب الله، وستة رسوله ﷺ، فتكون الأعمال والأقوال، موزونة بميزان الشرع<sup>(١)</sup>].

أمر تعالى بالإخلاص، وأثنى على المخلصين، وأخبر أنه لا يقبل إلا العمل الخالص. وحقيقة الإخلاص: أن يقصد العامل بعمله وجه الله وحده وثوابه. وضده: الرياء، والعمل للأغراض النفسية.

نهى الله عن التكبر، وذم الكبر والمتكبرين، وأخبر عن عقوباتهم العاجلة والأجلة. والتكبر هو: رد الحق، واحتقار الخلق، وضد ذلك التواضع، فقد أمر به، وأثنى على أهله، وذكر ثوابهم، فهو قبول الحق ممن قاله، وأن لا يحتقر الخلق، بل يرى فضلهم، ويحب لهم ما يحب لنفسه. العدل، هو: أداء حقوق الله، وحقوق العباد.

والظلم: عكسه، فهو يشمل ظلم العبد لنفسه بالمعاصي والشرك وظلم العباد في دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

الصدق، هو: استواء الظاهر والباطن في الاستقامة على الصراط المستقيم، والكذب بخلاف ذلك. حدود الله هي: محارمه، وهي التي يقول فيها «تلك حدود الله فلا تقربوها»، ويراد بها ما أباحه الله وحلله، وقدره، وفرضه، فيقول فيها «تلك حدود الله فلا تعتدوها».

الأمانة هي: الأمور التي يؤتمن عليها العبد. فيشمل ذلك أداء حقوق الله، وخصوصاً الخفية، وحقوق خلقه كذلك.

العهود والعقود، يدخل فيها التي بينه وبين الله، وهو: القيام بعبادة الله مخلصاً له الدين، والتي بينه وبين العباد من المعاملات ونحوها.

(١) ما بين القوسين في هامش النسخة بخط مغاير لخط الشيخ - رحمه الله -

الحكمة والقوام فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي .  
والإسراف والتبذير، مجاوزة الحد في الإنفاق. والتقتير والبخل عكسه: التقتير في النفقات الواجبة.  
المعروف: اسم جامع لكل ما عرف حسنه ونفعه شرعاً وعقلاً، والمنكر عكسه.  
الاستقامة: لزوم طاعة الله، وطاعة رسوله على الدوام.  
مرض القلب هو: اعتلاله، وهو نوعان: مرض شكوك في الحق، ومرض شهوة للأموال المحرمة.  
النفاق: إظهار الخير، وإبطان الشر، فيدخل فيه النفاق الاعتقادي والنفاق العملي.  
القرآن، كله مُحكَّمٌ، وأحكمت آياته من جهة موافقتها للحكمة، وأن أخباره أعلى درجات الصدق،  
وأحكامه في غاية الحسن. وكله متشابه، من جهة اتفاهه في البلاغة والحسن، وتصديق بعضه لبعض وكمال  
اتفاهه.

ومنه محكم ومتشابه، من جهة أن متشابهه ما كان فيه إجمال أو احتمال لبعض المعاني. ومحكمه،  
واضح مبین صريح في معناه، إذا رُدَّ إليه المتشابه، اتفق الجميع، واستقامت معانيه.  
معية الله التي ذكرها في كتابه، نوعان:

معية العلم والإحاطة، وهي: المعية العامة، فإنه مع عباده أينما كانوا.  
ومعية خاصة، وهي: معيته مع خواص خلفه بالنصرة، واللفظ، والتأييد.  
الدعاء والدعوة، يشمل دعاء العبادة، فيدخل فيه كل عبادة أمر الله بها ورسوله.  
ودعاء المسألة، وهو: سؤال الله جلب المنافع، ودفع المضار.  
الطيبات: اسم جامع لكل طيب نافع، من العقائد، والأخلاق، والأعمال، والمأكُل، والمشارب  
والمكاسب. والخبيث ضد ذلك.

وقد يراد بالخبيث: الرديء، وبالطيب: الخيار كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ مِنْ طِبْيَاتِ مَا  
كَسَبْتُمْ، وَمَا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾<sup>(١)</sup>.  
النفقة، تشمل النفقة الواجبة: كالزكاة، والكفارة، ونفقة النفس، والعائلة، والمماليك، والنفقة  
المستحبة: كالنفقة في جميع طرق الخير.

التوكل على الله والاستعانة به، قد أمر الله بها، وأثنى على المتوكلين في آيات كثيرة.  
وحقيقة ذلك: قوة اعتماد القلب على الله في جلب المصالح، ودفع المضار الدينية والدنيوية، مع  
الثقة به في حصول ذلك.

العقل النهي مدحه الله وأثنى على أهله، وأخبر أنهم هم المتضعون بالآيات. هو: الذي يفهم، ويعقل  
الحقائق النافعة، ويعمل بها، ويعقل صاحبه عن الأمور الضارة، ولذلك قيل له: جبر، ولُب، ونهى، لأنه  
يحجر صاحبه وينهاه عما يضره.

العلم هو: معرفة الهدى بدليله، فهو معرفة المسائل النافعة المطلوبة، ومعرفة أدلتها وطرقها، التي  
تهدي إليها.

والعلم النافع هو: العلم بالحق والعمل به، وضده الجهل.  
لفظ «الامة» في القرآن على أربعة أوجه: يراد به «الطائفة من الناس» وهو الغالب. ويراد به «المدة»،

(١) لم يتم الشيخ - رحمه الله - الآية، وتامها يتضح مراده، وتامها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَيْبَةَ مِنَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ لَسْتُمْ مَأْخُذِينَ إِلَّا أَنْ  
تَمُوتُوا فِيهِ وَعِلْمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.



ويراد به «الدين» و«الملة»، ويراد به «الإمام» في الخير.

لفظ «استوى» في القرآن على ثلاثة أوجه: إن عُذِّيَ به «على» كان معناه العلو والارتفاع، «ثم استوى على العرش»

وإن عُذِّيَ به «إلى» فمعناه قصد، كقوله: «ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات».

وإن لم يُعَدَّ بشيء، فمعناه «كَمَل»، كقوله تعالى «ولما بلغ أشده واستوى».

«الثوية» ورد في آيات كثيرة الأمر بها، ومدح التائبين وثوابهم، وهي: الرجوع عما يكرهه الله ظاهراً وباطناً، إلى ما يحبه الله ظاهراً وباطناً.

الصراط المستقيم، الذي أمر الله بلزومه وأثنى على المستقيمين عليه، هو: الطريق المعتدل الموصل إلى رضوان الله وثوابه، وهو متابعة النبي ﷺ في أقواله وأفعاله وكل أحواله.

الذكر لله الذي أمر به، وأثنى على الذاكرين، وذكر جزاءهم العاجل والآجل هو: عند الإطلاق، يشمل جميع ما يقرب إلى الله: من عقيدة، أو فكر نافع، أو خلق جميل، أو عمل قلبي أو بدني، أو ثناء على الله، أو تسيح ونحوه، أو تعلم أحكام الشرع الأصولية والفروعية، أو ما يعين على ذلك، فكله داخل في ذكر الله.

### فصل

وقد تكرر كثير من أسماء الله الحسنى في القرآن بحسب المناسبات، والحاجة داعية إلى التنبيه إلى معانيها الجامعة، فنقول:

قد تكرر اسم «الرب» في آيات كثيرة.

و«الرب»: هو العربي جميع عباده بالتدبير وأصناف النعم. وأخص من هذا تربيته لأصفيائه بإصلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم. ولهذا كثر دعاؤهم له بهذا الاسم الجليل، لأنهم يطلبون منه هذه التربية الخاصة.

«الله»: هو المألوه المعبود، ذو الأكوهية والعبودية على خلقه أجمعين، لما اتصف به من صفات الأكوهية التي هي صفات الكمال.

«الملك، المالك»: الذي له الملك فهو الموصوف بصفة الملك، وهي صفات العظمة والكبرياء، والقهر والتدبير، الذي له التصرف المطلق في الخلق والأمر والجزاء، وله جميع العالم العلوي والسفلي، كلهم عبيد ومماليك، ومضطرون إليه.

«الواحد، الأحد»: وهو الذي توحد بجميع الكمالات، بحيث لا يشاركه فيها مشارك. ويجب على العبيد توحيده، عقلاً، وقولاً، وعملاً، بأن يعترفوا بكماله المطلق، وتفرد بالوحدانية، ويفردوه بأنواع العبادة.

«الصمد»: وهو الذي تقصده الخلائق كلها في جميع حاجاتها، وضرورتها وأحوالها، لما له من الكمال المطلق في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله.

«المليم، الخبير»: وهو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والأسرار والإعلان، وبالواجبات والمستحيلات والممكنات، وبالعالم العلوي والسفلي، وبالماضي والحاضر والمستقبل، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء.

«الحكيم»: وهو الذي له الحكمة العليا في خلقه وأمره، الذي أحسن كل شيء خلقه «ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون». فلا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يشرع شيئاً سدى، الذي له الحكم في الأولى والآخرة، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك، فيحكم بين عباده، في شرعه، وفي قدره وجزائه.

والحكمة: وضع الأشياء مواضعها، وتنزيلها منازلها.

«الرحمن، الرحيم، البر، الكريم، الجواد، الرؤوف، الوهاب».

هذه الأسماء تتقارب معانيها، وتدل كلها على اتصاف الرب بالرحمة، والبر، والجود، والكرم، وعلى سعة رحمته وموابه، التي عم بها جميع الوجود، بحسب ما تقتضيه حكمته.، وخص المؤمنين منها بالنصيب الأوفر، والحظ الأكمل، قال تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون﴾ الآية. والنعم والإحسان، كله من آثار رحمته، وجوده، وكرمه. وخيرات الدنيا والآخرة، كلها من آثار رحمته.

«السميع» لجميع الأصوات، باختلاف اللغات على تفنن الحاجات.

«البصير» الذي يُبصر كل شيء وإن دُقَّ وصغر، فيبصر ديبب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء. ويُبصر ما تحت الأرضين السبع، كما يبصر ما فوق السموات السبع. وأيضاً سميع بصير بمن يستحق الجزاء بحسب حكمته، والمعنى الأخير يرجع إلى الحكمة.

«الحميد» في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، فله من الأسماء أحسنها، ومن الصفات أكملها، ومن الأفعال أتمها وأحسنها، فإن أفعاله تعالى دائرة بين الفضل والعدل.

«المجيد، الكبير، العظيم، الجليل» وهو الموصوف بصفات المجد، والكبرياء، والعظمة، والجلال، الذي هو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأجل وأعلى. وله التعظيم والإجلال في قلوب أوليائه وأصفيائه، قد ملئت قلوبهم من تعظيمه وإجلاله، والخضوع له والتذلل لكبريائه.

«العفو، المغفور، الغفار» الذي لم يزل، ولا يزال بالعفو معروفاً، وبالعفوان والصفتح عن عباده موصوفاً، كل أحد مضطر إلى عفوهِ ومغفرته، كما هو مضطر إلى رحمته وكرمه، وقد وعد بالمغفرة والعفو لمن أتى بأسبابها، قال تعالى: ﴿واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾

«التواب» الذي لم يزل يتوب على التائبين، ويغفر ذنوب المنيبين، فكل من تاب إلى الله توبة نصوحاً، تاب الله عليه، فهو التائب على التائبين أولاً بتوفيقهم للتوبة والإقبال بقلوبهم إليه، وهو التائب عليهم بعد توبتهم قبولاً لها، وعفواً عن خطاياهم.

«القدوس، السلام» أي: المعظم المنزه عن صفات النقص كلها، وأن يماثله أحد من الخلق، فهو المنزه عن جميع العيوب، والمنزه عن أن يقاربه أو يماثله أحد في شيء من الكمال «ليس كمثله شيء» «ولم يكن له كفواً أحد» «هل تعلم له سمياً» «فلا تجعلوا الله أنداداً»

فالقدوس كالسلام، يغيان كل نقص من جميع الوجوه، ويتضمنان الكمال المطلق من جميع الوجوه، لأن النقص إذا انتهى ثبت الكمال كله.

«العلي الأعلى» وهو الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه، علو الذات، وعلو القدر والصفات، وعلو القهر. فهو الذي على المرش استوى، وعلى الملك احتوى. وبجميع صفات العظمة والكبرياء والجلال والجمال وغاية الكمال اتصف، وإليه فيها المستهى.

«العزیز» الذي له العزة كلها: عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع. فاستنع أن يناله أحد من المخلوقات، وقهر جميع الموجودات، ودانت له الخليفة وخضعت لعظمته.

«القوي، المتين» هو في معنى العزيز.

«الجبار» هو بمعنى العلي الأعلى، وبمعنى القهار، وبمعنى «الرؤوف» الجابر للقلوب المنكسرة، وللضعيف العاجز، ولمن لا ذبه ولجأ إليه.

«المتكبر» عن السوء والنقص والعيوب، لعظمته وكبريائه.

«الخالق، الباري»، المصور» الذي خلق جميع الموجودات وبرأها وسوّأها بحكمته، وصورها بحمده وحكمته، وهو لم يزل ولا يزال على هذا الوصف العظيم.

«المؤمن» الذي أتى على نفسه بصفات الكمال، وبكمال الجلال والجمال، الذي أرسل رسله وأنزل كتبه بالآيات والبراهين، وصدق رسله بكل آية وبرهان، يدل على صدقهم وصحة ما جاؤوا به.

«المهيمن»: المطلع على خفايا الأمور وخبايا الصدور، الذي أحاط بكل شيء علماً.

«القدير» كامل القدرة، بقدرته أوجد الموجودات، وبقدرته ذبّرها، وبقدرته سوّأها وأحكمها، وبقدرته يحيي ويميت، ويمت العباد للجزاء، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، الذي إذا أراد شيئاً قال له «كن فيكون»، وبقدرته يقلب القلوب، ويصرفها على ما يشاء ويريد.

«اللطيف» الذي أحاط علمه بالسرائر والخفايا، وأدرك الخبايا والباطن والأمور الدقيقة، اللطيف بعباده المؤمنين، الموصل إليهم مصالحهم بلطفه وإحسانه، من طرق لا يشعرون بها، فهو بمعنى «الخبير» وبمعنى «الرؤوف».

«الحسيب» هو العليم بعباده، كافي المتوكلين، المجازي لعباده بالخير والشر، بحسب حكمته وعلمه بديق أعمالهم وجليلها.

«الرقيب» المطلع على ما أكتته الصدور، القائم على كل نفس بما كسبت، الذي حفظ المخلوقات وأجرأها على أحسن نظام وأكمل تدبير.

«الحفيظ» الذي حفظ ما خلقه، وأحاط علمه بما أوجده، وحفظ أوليائه من وقوعهم في الذنوب والهلكات، ولطف بهم في الحركات والسكنات، وأحصى على العباد أعمالهم وجزأها.

«المحيط» بكل شيء علماً، وقدرة، ورحمة، وقهراً.

«القهار» لكل شيء، الذي خضعت له المخلوقات، وذلت لمزته وقوته وكمال اقتداره.

«المُقيت» الذي أوصل إلى كل موجود ما به يقتات، وأوصل إليها أرزاقها وصرّفها كيف يشاء بحكمته وحمده.

«الوكيل» المتولي لتدبير خلقه بعلمه وكمال قدرته وشمول حكمته، الذي تولى أوليائه، فيسرههم لليسرى، وجنبهم العسرى، وكفاهم الأمور. فمن اتخذه وكيلاً كفاه ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾.

«ذو الجلال والإكرام» أي: ذو العظمة والكبرياء، وذو الرحمة والجود، والإحسان العام والخاص، المكرم لأوليائه وأصفياه، الذين يجلونهم ويعظمونه ويحبونه.

«الودود» الذي يحب أنبياءه ورسله وأتباعهم، ويحبونه، فهو أحب إليهم من كل شيء، قد امتلأت قلوبهم من محبته، ولهجت ألسنتهم بالثناء عليه، وانجذبت أفئدتهم إليه وداً وإخلاصاً وإنابة من جميع الوجوه.

«الفتاح» الذي يحكم بين عباده بأحكامه الشرعية، وأحكامه القدرية، وأحكام الجزاء، الذي فتح بلفظه بصائر الصادقين، وفتح قلوبهم لمعرفة ومحبته والإنابة إليه، وفتح لعباده أبواب الرحمة والأرزاق المتنوعة، وسبب لهم الأسباب التي يتالون بها خير الدنيا والآخرة ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾

«الرزاق» لجميع عباده، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها. ورزقه لعباده نوعان:

رزق عام، شمل البرّ والفاجر، والأولين والآخرين، وهو رزق الأبدان.

ورزق خاص وهو رزق القلوب، وتغذيتها بالعلم والإيمان.

والرزق الحلال الذي يعين على صلاح الدين، وهذا خاص بالمؤمنين، على مراتبهم منه، بحسب ما تقتضيه حكمته ورحمته.

«الحكم، العدل» الذي يحكم بين عباده في الدنيا والآخرة بعدله وقسطه. فلا يظلم مثقال ذرة، ولا يحتمل أحداً وزر أحد، ولا يجازي العبد بأكثر من ذنبه ويؤدي الحقوق إلى أهلها، فلا يدع صاحب حقٍ إلا أوصل إليه حقه، وهو العدل في تديره وتقديره ﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾.

«جامع الناس» ليوم لاريب فيه، وجامع أعمالهم وأرزاقهم، فلا يترك منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وجامع ما تفرق واستحال من الأموات الأولين والآخرين، بكمال قدرته، وسعة علمه.

«الحي القيوم» كامل الحياة والقائم بنفسه. القيوم لأهل السموات والأرض، القائم بتدبيرهم وأرزاقهم، وجميع أحوالهم، فالحي: الجامع لصفات الذات، والقيوم: الجامع لصفات الأفعال.

«النور» نور السموات والأرض، الذي نور قلوب العارفين بمعرفته والإيمان به، ونور أئنتهم بهديته، وهو الذي أنار السموات والأرض بالأنوار التي وضعها، وحجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

«بديع السموات والأرض» أي: خالقهما ومبدعهما، في غاية ما يكون من الحسن والخلق البديع، والنظام العجيب المحكم.

«القباض الباسط» يقبض الأرزاق والأرواح، ويسط الأرزاق والقلوب، وذلك تبع لحكمته ورحمته.

«المعطي، المانع» لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، فجميع المصالح والمنافع منه تطلب، وإليه يرغب فيها، وهو الذي يعطيها لمن يشاء، ويمنعها من يشاء بحكمته ورحمته.

«الشهيد» أي: المطلع على جميع الأشياء. سمع جميع الأصوات خفيها وجليها، وأبصر جميع الموجودات دقيقها وجليها صغيرها وكبيرها، وأحاط علمه بكل شيء، الذي شهد لعباده وعلى عباده بما عملوه.

«المبدئ، المعيد» قال تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده﴾، ابتداء خلقهم ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، ثم يعيدهم ليجزي الذين أحسنوا بالحسنى، ويجزي المسيئين بإساءتهم. وكذلك هو الذي يبدأ إيجاد المخلوقات شيئاً فشيئاً، ثم يعيدها كل وقت.

«الفعال لما يريد» وهذا من كمال قوته ونفوذ مشيئته وقدرته، أن كل أمر يريد يفعله بلا مانع ولا معارض، وليس له ظهير ولا عوين، على أي أمر يكون، بل إذا أراد شيئاً قال له «كن فيكون». ومع أنه الفعال لما يريد، فإرادته تابعة لحكمته وحمده، فهو موصوف بكمال القدرة، ونفوذ المشيئة، وموصوف بشمول الحكمة، لكل ما فعله ويفعله.

«الغني، المغني» فهو الغني بذاته، الذي له الغنى التام المطلق، من جميع الوجوه والاعتبارات لكماله، وكمال صفاته، فلا يظنق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن أن يكون إلا غنياً، لأن غناه من لوازم ذاته، كما لا يكون إلا خالقاً، قادراً، رازقاً، محسناً، فلا يحتاج إلى أحدٍ بوجه من الوجوه، فهو الغني، الذي بيده خزائن السموات والأرض، وخزائن الدنيا والآخرة. المغني جميع خلقه غنى عاماً، والمغني لخواص خلقه بما أفاض على قلوبهم من المعارف الربانية والحقائق الإيمانية.

«الحليم» الذي يذُر على خلقه النعم الظاهرة والباطنة، مع معاصيهم وكثرة زلاتهم، فيحلم عن مقابلة المعاصين بعصيانهم، ويستعتبهم كي يتوبوا، ويمهلهم كي ينيبوا.

«الشاكِر، الشكور» الذي يشكر القليل من العمل، ويفخر الكثير من الزلل. ويضاعف للمخلصين أعمالهم بغير حساب، ويشكر الشاكِرين، ويذكر من ذكره، ومن تقرب إليه بشيء من الأعمال الصالحة،

تقرب الله منه أكثر.

«القريب، المجيب» أي: هو تعالى القريب من كل أحد، وقربه تعالى نوعان: قرب عام من كل أحد، بعلمه، وخبرته، ومراقبته، ومشاهدته، وإحاطته. وقرب خاص، من عابديه، وسائليه، ومحبيه، وهو قرب لا تدرك له حقيقة، وإنما تعلم آثاره، من لطفه بعبده، وعنايته به، وتوفيقه وتسديده. ومن آثاره الإجابة للداعين، والإنابة<sup>(١)</sup> للعبدين، فهو المجيب إجابة عامة للداعين مهما كانوا، وأين كانوا، وعلى أي حال كانوا كما وعدهم بهذا الوعد المطلق، وهو المجيب إجابة خاصة للمستجيبين له المتقادين لشرعه، وهو المجيب أيضاً للمضطرين، ومن انقطع رجاؤهم من المخلوقين وتوي تعلقهم به طمعاً ورجاء وخوفاً.

«الكافي» عباده جميع ما يحتاجون ويضطرون إليه، الكافي كفاية خاصة من آمن به، وتوكل عليه، واستمد منه حوائج دينه ودنياه.

«الأول، والآخر، والظاهر، والباطن».

قد فسرها النبي ﷺ تفسيراً جامعاً واضحاً، فقال: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء».

«الواسع» الصفات والنعمت ومتعلقاتها، بحيث لا يخصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه. واسع العظمة والسلطان والملك، واسع الفضل والإحسان، عظيم الجود والكرم.

«الهادي، الرشيد» أي: الذي يهدي ويرشد عباده إلى جميع المنافع، وإلى دفع المضار، ويعلمهم ما لا يعلمون، ويهديهم لهداية التوفيق والتسديد، ويلهمهم التقوى، ويجعل قلوبهم منية إليه متقادة لأمره.

وللرشيد معنى بمعنى الحكيم، فهو الرشيد في أقواله وأفعاله، وشرائعه كلها خير ورشد وحكمة، ومخلوقاته مشتملة على الرشد.

«الحق» في ذاته وصفاته، فهو واجب الوجود، كامل الصفات والنعمت، وجوده من لوازم ذاته، ولا وجود لشيء من الأشياء إلا به. فهو الذي لم يزل ولا يزال بالجلال والجمال والكمال موصوفاً، ولم يزل ولا يزال بالإحسان معروفاً.

فقله حق، وفعله حق، ولقاؤه حق، ورسله حق، وكتبه حق، ودينه هو الحق، وعبادته وحده لا شريك له هي الحق، وكل شيء ينسب إليه فهو حق. «ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير»

«وقل الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر» «فماذا بعد الحق إلا الضلال» «قل جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً»

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم إلى يوم الدين.

قال ذلك وكتبه العبد الفقير إلى ربه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر السعدي غفر الله له ولوالديه، ومشايخه، وأحبابه، وجميع المسلمين آمين.

(١) كذا في الأصل ولعلها: (الإنباء) والله أعلم.



فلما بين تعالى هذه الأحكام الجليلة بين الزوجين، أتى على أحكامه وعلى بيانه لها وتوضيحه، وهوافتتها للعقول السليمة، وأن القصد من بيانه لعباده، أن يعقلوا عنه ما بينه، فيعقلونها حفظاً، وفهماً، وعملاً بها، فإن ذلك من تمام عقلها.

﴿٢٤٣﴾ ﴿الم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ أي: ألم تسمع بهذه القصة العجيبة الجارية على من قبلكم من بني إسرائيل، حيث حل الوفاء بديارهم، فخرجوا بهذه الكثرة، فرأوا من الموت، فلم ينجم الفرار، ولا أغنى عنهم من وقوع ما كانوا يحذرون، فعاملهم بنقض مقصودهم، وأماتهم الله عن آخرهم، ثم تفضل عليهم، فأحياهم، إما بدعوة نبي، كما قاله كثير من المفسرين، وإما بغير ذلك.

ولكن ذلك، بفضله وإحسانه، وهو لا زال فضله على الناس، وذلك موجب لشكرهم لنعم الله بالاعتراف بها وصرافها في مرضاة الله، ومع ذلك فأكثر الناس قد قصرُوا بواجب الشكر.

وفي هذه القصة، عبرة بأنه على كل شيء تقدير، وذلك آية محسوسة على البعث، فإن هذه القصة معروفة منقولة، نقلاً متواتراً عند بني إسرائيل ومن اتصل بهم، ولهذا أتى بها تعالى، بأسلوب الأمر الذي قد تقرر عند المخاطبين.

ويحتمل أن هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم خوفاً من الأعداء، وجيناً عن لقائهم، ويؤيد هذا أن الله ذكر بعدها الأمر بالقتال وأخبر عن بني إسرائيل أنهم كانوا مخرجين من ديارهم وأبنائهم.

وعلى الاحتمالين فإن فيها ترغيباً في الجهاد، وترهيباً من التفاعد عنه، وأن ذلك لا يعني عن الموت شيئاً. ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾.

﴿٢٤٤-٢٤٥﴾ ﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾ من ذا الذي يفرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾ جمع الله بين الأمر بالقتال في سبيله بالمال والبدن لأن الجهاد لا يقوم إلا بالأميرين، وحث على الإخلاص فيه، بأن يقاتل العبد، لتكون كلمة الله هي العليا، فإن الله

كان على الزوجة، أن تترخص حولاً كاملاً، ثم نسخ بأربعة أشهر وعشر.

ويجيبون عن تقدم الآية الناسخة، أن ذلك تقدم في الوضع، لا في الزول، لأن شرط النسخ أن يتأخر عن المنسوخ، وهذا القول لا دليل عليه.

ومن تأمل الآيتين، اتضح له أن القول الآخر في الآية، هو الصواب، وأن الآية الأولى في وجوب التريص أربعة أشهر وعشراً، على وجه التخصيم على المرأة، وأما في هذه الآية فإنها وصية لأهل الميت، أن يبقوا زوجة ميتهم عندهم، حولاً كاملاً، جبراً لخاطرهما، وبراءً بينتهم، ولهذا قال: ﴿وصية لأزواجهم﴾، أي: وصية من الله لأهل الميت، أن يستوصوا بزوجته، ويمتوها ولا يخرجوها.

فإن رغبت أقامت في وصيتها، وإن أحببت الخروج فلا حرج عليها، ولهذا قال: ﴿فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن﴾، أي: من التجمل واللباس. لكن الشرط، أن يكون بالمعروف، الذي لا يخرجها عن حدود الدين والاعتبار، وختم الآية بهذين الاسمين العظيمين، الدالين على كمال العزة، وكمال الحكمة، لأن هذه أحكام صدرت عن عزته، ودلت على كمال حكمته، حيث وضعها في مواضعها اللائقة بها.

﴿٢٤١-٢٤٢﴾ ﴿وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين﴾ كذلك بين الله لكم آياته لعلكم تتعلمون﴾ لما بين في الآية السابقة، إمتاع المفارقة بالموت، ذكر هنا أن كل مطلقة، فلها على زوجها، أن يمتعها ويمعطيها ما يناسب حاله وحالتها، وأنه حق، إنما يقوم به المتقون، فهو من خصال التقوى الواجبة أو المستحبة.

فإن كانت المرأة لم يسم لها صداق، وطلقها قبل الدخول، فتقدم أنه يجب عليه بحسب يساره وإعساره.

وإن كان مسمى لها، فتعاطها نصف المسمى.

وإن كانت مدخولاً بها، صارت المتعة مستحبة، في قول جمهور العلماء. ومن العلماء من أوجب ذلك، استدلالاً بقوله: ﴿حقاً على المتقين﴾، والأصل في الحق أنه واجب، خصوصاً وقد أضافه إلى المتقين، وأصل التقوى واجبة.

﴿٢٣٨-٢٣٩﴾ ثم قال تعالى: ﴿حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾ فإن خفتم فرجالاً أو ركبانا فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ يأمر تعالى بالمحافظة ﴿على الصلوات﴾ عموماً، وعلى ﴿الصلوة الوسطى﴾ وهي العصر خصوصاً.

والمحافظة عليها: أداؤها بوقتها، وشروطها، وأركانها، وخشوعها، وجميع ما لها، من واجب ومستحب.

وبالمحافظة على الصلوات، تحصل المحافظة على سائر العبادات، وتقيد النهي عن الفحشاء والمنكر، خصوصاً إذا أكملها كما أمر بقوله: ﴿وقوموا لله قانتين﴾، أي: ذليلين مخلصين خاشعين، فإن القنوت دوام الطاعة مع الخشوع،

﴿٢٣٩﴾ وقوله: ﴿فإن خفتم﴾ حذف المتعلين، ليعم الخوف من العدو، والسبع، وفوات ما يتضرر العبد بوقته فصولاً، ﴿رجالاً﴾ ماشين على أرجلكم.

﴿أو ركبانا﴾ على الخيل والإبل، وسائر المركوبات، وفي هذه الحال، لا يلزمه الاستقبال، فهذه صفة صلاة المعذور بالخوف، فإذا حصل الأمن، صلى صلاة كاملة.

ويدخل في قوله: ﴿فإذا أمنتم فاذكروا الله﴾ تكميل الصلوات، ويدخل فيه أيضاً، الإكثار من ذكر الله، شكره له على نعمة الأمن وعلى نعمة التعليم، لما فيه سعادة العبد.

وفي الآية الكريمة، فضيلة العلم، وأن على من علمه الله ما لم يكن يعلم الإكثار من ذكر الله.

وفيه الإشعار أيضاً أن الإكثار من ذكره، سبب لتعليم علوم أخر، لأن الشكر مفرون بالמיד.

ثم قال تعالى: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم﴾.

﴿٢٤٠﴾ اشتهر عند كثير من المفسرين، أن هذه الآية الكريمة، نسختها الآية التي قبلها وهي قوله تعالى: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتريصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾، وأن الأمر

﴿سميع﴾ للأقوال، وإن خفيت، ﴿عليم﴾ بما تحتوي عليه القلوب من النيات الصالحة وضدها.

وأيضاً، فإنه إذا علم المجاهد في سبيله، أن الله سميع عليم، هان عليه ذلك، وعلم أنه بعينه ما يتحمل المتحملون من أجله، وأنه لا يد أن يمددهم بعونه ولطفه.

وتأمل هذا الحث اللطيف على النفقة، وأن المنفق قد أفرض الله المليء الكريم، ووعده المضاعفة الكثيرة، كما قال تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنثت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾.

ولما كان المنافع الأكبر من الإنفاق خوف الإملاق، أخبر تعالى أن العنتى والفقر بيد الله، وأنه يقض الرزق على من يشاء، ويبسطه على من يشاء، فلا يتأخر من يريد الإنفاق خوف الفقر، ولا يظن أنه ضائع، بل مرجع العباد كلهم إلى الله، فيجد المنفقون والماملون أجرهم عنده مدخراً، أحوج ما يكونون إليه، ويكون له من الوقع العظيم، ما لا يمكن التعبير عنه.

والمراد بالفقرى الحسن: هو ما جمع أوصاف الحسن، من النية الصالحة، وسماحة النفس، بالنفقة، ووقوعها في محلها وأن لا يتبعها المنفق من ولا أذى؛ ولا مبطلاً ومتغصاً.

﴿٢٤٦﴾ ﴿ألم تر إلى المملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعت لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله﴾ إلى آخر القصة. يقص الله تعالى هذه القصة على الأمة، ليعتبروا وليرغبوا في الجهاد، ولا يتكلموا عنه، فإن الصابرين صارت لهم العواقب الحميدة في الدنيا والآخرة، والتاكليين خسروا الأمرين.

فأخبر تعالى أن أهل الرأي من بني إسرائيل وأصحاب الكلمة النافذة؛ تراودوا في شأن الجهاد، واتفقوا على أن يظنوا من نبيهم أن يعين لهم ملكاً؛ لينقطع النزاع بينهم، وتحصل الطاعة التامة، ولا يبقى لقاتل مقال.

وأن نبيهم خشي أن طلبهم هذا، مجرد كلام لا فعل معه، فأجابوا نبيهم بالمزم

الجازم، وأنهم التزموا ذلك التزاماً تاماً، وأن القتال متعين عليهم، حيث كان وسيلة لاسترجاع ديارهم؛ ورجوعهم إلى مفردهم ووطنهم.

﴿٢٤٧﴾ وأنه عتق لهم نبيهم طالوت ملكاً، يقودهم في هذا الأمر الذي لا بد له من قائد يحسن القيادة، وأنهم استغربوا تعيينه لطالوت، وثم من هو أحق منه بيتاً وأكثر مالاً.

فأجابهم نبيهم: إن الله اختاره عليهم؛ بما آتاه الله من قوة العلم بالسياسة؛ وقوة الجسم، اللذين هما آلة الشجاعة والنجدة، وحسن التدبير، وأن الملك ليس بكثرة المال؛ ولا يكون صاحبه ممن كان الملك والسيادة في بيوتهم، فالله يؤتي ملكه من يشاء.

﴿٢٤٨﴾ ثم لم يكتف ذلك النبي الكريم بإقناعهم بما ذكره؛ من كفاءة طالوت؛ واجتماع الصفات المطلوبة فيه حتى قال لهم: ﴿إن آية ملكه أن يأتبكم التابوت فيه سكينه من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون﴾، وكان هذا التابوت قد استولت عليه الأعداء.

فلم يكتفوا بالصفات المعنوية في طالوت، ولا بتعيين الله له على لسان نبيهم، حتى يؤيد ذلك هذه المعجزة، ولهذا قال: ﴿إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾، فحينئذ سلموا وانقادوا.

﴿٢٤٩﴾ فلما ترأس فيهم طالوت، وجندهم، ورتبهم، وفصل بهم إلى قتال عدوهم، وكان قد رأى منهم من ضعف العزائم والهمم، ما يحتاج إلى تمييز الصابرين من التاكليين، فقال: ﴿إن الله مبتليكم بنهر﴾ تمرن عليه وقت حاجة إلى الماء.

﴿فمن شرب منه فليس مني﴾، أي: لا يتبعني؛ لأن ذلك برهان على قوة صبره، ووفور جزعه، ﴿ومن لم يطعمه فإنه مني﴾ لصدقه وصبره، ﴿إلا من اغترف غرفة بيده﴾، أي: فإنه مسامح فيها.

فلما وصلوا إلى ذلك النهر وكانوا محتاجين إلى الماء، شربوا كلهم منه ﴿إلا قليلاً منهم﴾ فإنهم صبروا ولم يشربوا.

﴿فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا﴾ أي: التاكليون أو الذين عبروا:

﴿لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾.

فإن كان القاتلون هم التاكليين، فهذا قول يبررون به نكولهم، وإن كان القاتلون هم الذين عبروا مع طالوت، فإنه حصل معهم نوع استضعاف لأنفسهم، ولكن شجعهم على الثبات والإقدام أهل الإيمان الكامل حيث قالوا: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾ بعونه وتأييده، ونصره، ففتوا، وصبروا لقتال عدوهم جالوت وجنوده.

﴿٢٥٠﴾ ﴿وقتل داود﴾ و﴿جالوت﴾ وحصل بذلك الفتح والنصر على عدوهم.

﴿وآتاه الله﴾، أي: داود ﴿المسلك والحكمة﴾ النبوة والعلوم النافعة، وآتاه الله الحكمة وفصل الخطاب.

﴿٢٥١﴾ ثم بين تعالى، فائدة الجهاد فقال: ﴿ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ باستيلاء الكفرة والفجار، وأهل الشر والفساد.

﴿ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ حيث لطف بالمؤمنين، ودافع عنهم وعن دينهم، بما شرعه وبما قدره.

﴿٢٥٢﴾ فلما بين هذه القصة قال لرسوله ﷺ: ﴿فلك آيات الله تتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين﴾.

ومن جملة الأدلة على رسالته، هذه القصة، حيث أخبر بها وحياً من الله، مطابقاً للواقع، وفي هذه القصة عبر كثيرة للأمة.

منها: فضيلة الجهاد في سبيله، وفوائده، وثمراته، وأنه السبب الوحيد في حفظ الدين، وحفظ الأوطان، وحفظ الأبدان والأموال، وأن المجاهدين، ولو شقت عليهم الأمور، فإن عواقبهم حميدة كما أن التاكليين، ولو استراحوا قليلاً، فإنهم سيعتبون طويلاً.

ومنها: الانتداب لرياسة من فيه كفاءة، وأن الكفاءة ترجع إلى أمرين: إلى العلم الذي هو علم السياسة والتدبير، وإلى القوة التي يتفد بها الحق، وأن من اجتمع فيه الأمران فهو أحق من غيره.

ومنها: الاستدلال بهذه القصة على ما قاله العلماء، أنه ينبغي للأمير للجيش،



فيه المعاوضات بالبيع ونحوه، ولا التبرعات، ولا الشفاعات، فكل أحد يقول: ما قدمت لحياتي.

فتنتفح الأسباب كلها، إلا الأسباب المتعلقة بطاعة الله والإيمان به، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا، وهم في الغرفات آمنون﴾، ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً﴾.

ثم قال تعالى: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾، وذلك لأن الله خلقهم لعبادته، ورزقهم وعافاهم، ليستعينوا بذلك على طاعته، فخرجوا عما خلقهم الله له، وأشركوا بالله، ما لم ينزل به سلطاناً، واستعانوا بنعمه على الكفر، والفسوق، والمصيان، فلم يبقوا للعدل موضعاً، فلهدأ حصر الظلم المطلق فيهم.

﴿٢٥٥﴾ ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم﴾ أخير ﷺ أن هذه الآية أعظم آيات القرآن، لما احتوت عليه من معاني التوحيد والعظمة، وسمة الصفات للباري تعالى.

فأخبر أنه ﴿الله﴾ الذي له جميع معاني الألوهية، وأنه لا يستحق الألوهية والعبودية إلا هو، فالوهية غيره، وعبادة غيره باطلة.

وأنه ﴿الحي﴾ الذي له جميع معاني الحياة الكاملة، من السمع والبصر، والقدرة، والإرادة، وغيرها، والصفات الذاتية.

كما أن ﴿القيوم﴾ تدخل فيه جميع صفات الأفعال، لأنه القيوم الذي قام بنفسه، واستغنى عن جميع مخلوقاته، وقام بجميع الموجودات، فأوجدتها وأبقاها، وأمدّها بجميع ما تحتاج إليه في وجودها وبقيائها.

ومن كمال حياته وقيوميته، أنه

المهد صبيّاً، وأيده بروح القدس، أي: بروح الإيمان.

فجعل روحانيته فائقة روحانية غيره، فحصل له بذلك القوة والتأييد، وإن كان أصل التأييد بهذه الروح عاماً لكل مؤمن، بحسب إيمانه، كما قال: ﴿وأيدهم بروح منه﴾، لكن ما لميسى أعظم مما لغيره، لهذا خصه الله بالذكر.

وقيل: إن روح القدس - هنا - جبريل، أيدّه الله بإعانه وموازرتّه، لكن المعنى هو الأول.

ولما أخبر عن كمال الرسل، وما أعطاهم من الفضل والخصائص، وأن دينهم واحد، ودعوتهم إلى الخير واحدة، وكان موجب ذلك ومقتضاه، أن تجتمع الأمم على تصديقهم، والالتقاد لهم، لما أتاهم من البينات التي على مثلها يؤمن البشر، لكن أكثرهم انحرفوا عن الصراط المستقيم، ووقع الاختلاف بين الأمم.

فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، ووقع لأجل ذلك الاقتتال الذي هو موجب الاختلاف والتعادي، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى، فما اختلفوا، ولو شاء الله أيضاً - بعدما وقع الاختلاف الموجب للاقتتال - ما اقتتلوا.

ولكن حكمته، اقتضت جريان الأمور على هذا النظام بحسب الأسباب، ففي هذه الآية أكبر شاهد على أنه تعالى، يتصرف في جميع الأسباب المقتضية لمسبباتها، وأنه إن شاء أبقاها، وإن شاء منعهما، وكل ذلك تبع لحكمته وحده، فإنه فعال لما يريد، فليس لإرادته ومشيئته ممانع ولا معارض ولا معاون.

﴿٢٥٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون﴾ بحثُ الله المؤمنين على النفقات، في جميع طرق الخير؛ لأن حذف المعمول، يفيد التعميم، ويذكرهم نعمته عليهم، بأنه هو الذي رزقهم، ونوع عليهم النعم، وأنه لم يأمرهم بإخراج جميع ما في أيديهم، بل أتى بـ «من» الدالة على التمييز، فهذا مما يدعوهم إلى الإنفاق.

ومما يدعوهم أيضاً إخبارهم أن هذه النفقات، مدخرة عند الله في يوم لا نفيد

أن يتفقدوا عند فصولها، فيمنع من لا يصلح للقتال، من رجال وخيل وركاب، لضعفه، أو ضعف صبره، أو لتخذيذه، أو خوف الضرر بصحته، فإن هذا القسم ضرر محض على الناس.

ومنها: أنه يبني عند حضور البأس، تقوية المجاهدين، وتشجيعهم، وحثهم على القوة الإيمانية، والانتكال الكامل على الله، والاعتماد عليه، وسؤال الله التثبيت، والإعانة على الصبر والنصر على الأعداء.

ومنها: أن العزم على القتال والجهاد غير حقيقته، فقد يهزم الإنسان، ولكن عند حضوره، تنحل عزيمته، ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ: «أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد».

فهؤلاء الذين عزموا على القتال، وأتوا بكلام يدل على العزم المصمم، لما جاء الوقت، تكسر أكثرهم، ويشبه هذا قوله ﷺ: «وأسألك الرضا بعد القضاء؛ لأن الرضا بعد وقوع القضاء المكروه للنفوس، هو الرضا الحقيقي».

﴿٢٥٣﴾ وقوله تعالى ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾ يخبر الباري أنه فاوت بين الرسل في الفضائل الجليلة، والتخصيصات الجميلة، بحسب ما من الله به عليهم، وقاموا به من الإيمان الكامل، واليقين الراسخ، والأخلاق المالئة، والأداب السامية، والدعوة، والتعليم، والنفع العميم.

فمنهم من اتخذ خليلاً، ومنهم من كلمه تكليماً، ومنهم من رفعه فوق الخلائق درجات.

وجميعهم لا سبيل لأحد من البشر إلى الوصول إلى فضلهم الشامخ.

وخصّ عيسى ابن مريم أنه أتاه البينات الدالة على أنه رسول الله حقاً، وعبد صدقاً، وأن ما جاء به من عند الله كله حق، فعمله يبرى الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله، وكلم الناس في

﴿ لا تأخذنه سنة ﴾، أي: نعامس  
﴿ ولا نوم ﴾؛ لأن السنة والنوم، إنما  
يعرضان للمخلوق، الذي يمتريه الضعف،  
والعجز، والانحلال، ولا يعرضان لذى  
العظمة والكبرياء والجلال.

وأخبر أنه مالك جميع ما في السموات  
والأرض، فكلهم عبيد لله ممالك،  
لا يخرج أحد منهم عن هذا الطور، ﴿ إن  
كل من في السموات والأرض إلا آتي  
الرحمن عبداً ﴾، فهو المالك لجميع  
الممالك، وهو الذي له صفات الملك  
والتصرف، والسلطان، والكبرياء.

ومن تمام ملكه أنه لا ﴿ يشفع عنده ﴾  
أحد ﴿ إلا بإذنه ﴾، فكل الوجهاء والشعفاء  
عبيد له ممالك، لا يقدمون على شفاعته  
حتى يأذن لهم. ﴿ قل لله الشفاعة جميعاً،  
له ملك السموات والأرض ﴾، والله لا يأذن  
لأحد أن يشفع إلا فيمن ارتضى،  
ولا يرتضى إلا توحيد، واتباع رسله،  
فمن لم يتصف بهذا، فليس له في الشفاعة  
نصيب.

ثم أخبر عن علمه الواسع المحيط، وأنه  
يعلم ما بين أيدي الخلائق، من الأمور  
المستقبلية، التي لا نهاية لها ﴿ وما  
خلفهم ﴾ من الأمور الماضية التي لا حد  
لها، وأنه لا تخفى عليه خافية ﴿ يعلم  
خاتمة الأعين وما تخفي الصدور ﴾.

وأن الخلق لا يحيط أحد بشيء من  
علم الله ومعلوماته ﴿ إلا بما شاء ﴾ منها  
وهو ما أظلمهم عليه من الأمور الشرعية  
والقدرية، وهو جزء يسير جداً مضمحل  
في علوم الباري ومعلوماته، كما قال أعلم  
الخلق به، وهم الرسل والملائكة: ﴿ سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ﴾.

ثم أخبر عن عظيمته وجلاله، وأن  
كرسيه، وسع السموات والأرض، وأنه قد  
حفظهما ومن فيهما من العوالم بالأسباب  
والنظامات، التي جعلها الله في  
المخلوقات.

ومع ذلك فـ ﴿ لا يؤوده ﴾، أي: ينقله  
حفظهما، لكمال عظمته، واقتداره، وسعة  
حكيمته في أحكامه.

﴿ وهو العلي ﴾ بذاته، على جميع  
مخلوقاته، وهو العلي بعظمة صفاته، وهو  
العلي الذي قهر المخلوقات، ودانت له  
الموجودات، وخضعت له الصعاب،

وذلت له الرقاب.

﴿ العظيم ﴾ الجامع، لجميع صفات  
العظمة والكبرياء، والمجد والبهاء، الذي  
تجبه القلوب، وتعظمه الأرواح، ويعرف  
العارفون أن عظمة كل شيء، وإن جلت  
عن الصفة، فإنها مضمحلة في جانب  
عظمة العلي العظيم.

فآية احتوت على هذه المعاني التي هي  
اجل المعاني، يحق أن تكون أعظم آيات  
القرآن، ويحق لمن قرأها، متدبراً متفهماً،  
أن يستلهم قلبه من اليقين والعرفان  
والإيمان، وأن يكون محفوظاً بذلك من  
شورور الشيطان.

﴿ ٢٥٦ ﴾ ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين  
الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت  
ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى  
لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾ هذا بيان  
لكمال هذا الدين الإسلامي.. وأنه لكمال  
براهينه، واتضح آياته، وكونه هو دين  
العقل والعلم، ودين الفطرة والحكمة،  
ودين الصلاح والإصلاح، ودين الحق  
والرشد، فلكماله وقبول الفطرة له،  
لا يحتاج إلى الإكراه عليه؛ لأن الإكراه  
إنما يقع على ما تنفر عنه القلوب، ويتنافى  
مع الحقيقة والحق، أو لما تخفى براهينه  
وآياته، وإلا فمن جاءه هذا الدين، وردده  
ولم يقبله، فإنه لعناده.

فإنه قد تبين الرشد من الغي، فلم يبق  
لأحد عذر ولا حجة، إذا رده ولم يقبله،  
ولا منافاة بين هذا المعنى، وبين الآيات  
الكثيرة الموجبة للجهاد، فإن الله أمر  
بالمقاتل ليكون الدين كله لله، ولدفع اعتداء  
المعتدين على الدين.

وأجمع المسلمون على أن الجهاد ماضٍ  
مع البر والفاجر، وأنه من الضروري  
المستمر الجهاد القرآني والجهاد الفعلي.

فمن ظن من المفسرين أن هذه الآية  
تنافي آيات الجهاد، فجزم بأنها منسوخة  
فقوله ضعيف، لفظاً ومعنى، كما هو  
واضح بين لمن تدبر الآية الكريمة، كما  
نهينا عليه.

ثم ذكر الله انقسام الناس إلى قسمين:  
قسم آمن بالله وحده لا شريك له،  
وكفر بالطاغوت - وهو كل ما يتنافى  
الإيمان بالله من الشرك وغيره -، فهذا قد  
استمسك بالعروة الوثقى، التي لا انفصام  
لها، بل هو مستقيم على الدين الصحيح،

حتى يصل به إلى الله؛ وإلى دار كرامته.  
ويؤخذ القسم الثاني، من مفهوم الآية،  
أن من لم يؤمن بالله، بل كفر به، وأمن  
بالطاغوت، فإنه هالك هلاكاً أبدياً،  
ومعذب عذاباً سرمدياً.

وقوله: ﴿ والله سميع ﴾، أي: لجميع  
الأصوات، باختلاف اللغات، على تفرق  
الحاجات، وسميع لدعاء الداعين،  
وخضوع المتضرعين.

﴿ عليم ﴾ بما أكنته الصدور، وما خفي  
من خفايا الأمور، فيجازى كل أحد بحسب  
ما يعلمه، من نيته وعمله.

﴿ ٢٥٧ ﴾ ﴿ الله ولي الذين آمنوا  
يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين  
كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من  
النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار  
هم فيها خالدون ﴾ هذه الآية مترتبة على  
الآية التي قبلها، فالسابقة هي الأساس،  
وهذه هي الثمرة.

فأخبر تعالى أن الذين آمنوا بالله،  
وصدقوا بإيمانهم، بالقيام بواجبات  
الإيمان، وترك كل ما يتنافى، أنه وليهم،  
يتولاهم بولايته الخاصة، ويتولى تربيتهم،  
فيخرجهم من ظلمات الجهل والكفر  
والمعاصي والغفلة والإعراض، إلى نور  
العلم واليقين والإيمان، والطاعة والإقبال  
الكامل على ربهم، وينور قلوبهم بما يقذفه  
فيها من نور الوحي والإيمان، وييسرهم  
لليسرى، ويجنبهم العسرى.

وأما الذين كفروا، فإنهم لما تولوا غير  
وليهم، ولأمر الله ما تولوا لأنفسهم،  
وخذلهم، وركلهم إلى رعاية من تولاهم،  
ممن ليس عنده نفع ولا ضرر، فأضلّوهم  
وأشقوقهم، وحرصهم هداية العلم النافع  
والعمل الصالح، وحرصهم السعادة،  
وصارت النار مثواهم، خالدين فيها  
مخلدين.

اللهم تولنا فيما بيننا توليت.

﴿ ٢٥٨ ﴾ ﴿ ألم تر إلى الذين حاج  
إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال  
إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا  
أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي  
بالنفس من المشرق فأت بها من المغرب  
فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم  
الظالمين ﴾ يقص الله علينا من أنباء الرسل  
والسالفين، ما به تبيين الحقائق، وتقوم  
البراهين المتنوعة على التوحيد.

فأخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام حيث حجاج هذا الملك الجبار، وهو نمرود<sup>(١)</sup> البابلي، المعطل المنكر لرب العالمين، وانتدب لمقاومة إبراهيم الخليل ومحاجته في هذا الأمر، الذي لا يقبل شكاً، ولا إشكالاً، ولا ريباً، وهو توحيد الله وربوبيته، الذي هو أجل الأمور وأوضحها.

ولكن هذا الجبار، غره ملكه وأطفاه، حتى وصلت به الحال إلى أن فناه، وحجاج إبراهيم الرسول العظيم، الذي أعطاه الله من العلم واليقين، ما لم يعط أحداً من الرسل، سوى محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال إبراهيم مناظراً له: ﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾، أي: هو المقفود بالخلق والتدبير، والإحياء والإماتة، فذكر من هذا الجنس أظهرها، وهو الإحياء والإماتة، فقال ذلك الجبار مبهتاً: ﴿أنا أحيي وأميت﴾، وعن ذلك أنه اقتل من أردت قتله، وأستقي من أردت استبقاه.

ومن المعلوم أن هذا نمويه وتزوير، وحيدة عن المقصود، وأن المقصود أن الله تعالى هو الذي تعهد بإيجاد الحياة في المخلوقات، وردها على السموات، وأنه هو الذي بيت العباد والحيوانات بأجلها، بأسباب ربطها وبغير أسباب.

فلما رآه الخليل مموهاً تمويهاً، ربما راج على الهمج الرعاع، قال إبراهيم - ملزماً له بتصديق قوله إن كان كما يزعم: ﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق، فأت بها من المغرب، فبهت الذي كفر﴾، أي: وقف، وانقطعت حجته، واضمحلت شبهته.

وليس هذا من الخليل انتقلاً من دليل إلى آخر، وإنما هو التزام لنمرود، بطرد دليله إن كان صادقاً، وأتى بهذا الذي لا يقبل الترويج والتزوير والتنويه. فجميع الأدلة: السمعية، والعقلية، والفطرية، قد قامت شاهدة بتوحيد الله، معترفة بانفراد الخلق والتدبير، وأن من هذا شأنه، لا يستحق العبادة إلا هو، وجميع الرسل متفقون على هذا الأصل العظيم، ولم ينكره إلا معاند مكابر، مسائل لهذا الجبار المتيد، فهذا من أدلة التوحيد.

﴿٢٥٩-٢٦٠﴾ ثم ذكر أدلة كمال القدرة والبعث والجزاء، فقال: ﴿أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لعماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير \* وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيماً واعلم أن الله عزيز حكيم﴾.

هذان دليلان عظيمان، محسوسان في الدنيا قبل الآخرة، على البعث والجزاء، واحذ أجزاء الله على يد رجل شك في البعث على الصحيح، كما تدل عليه الآية الكريمة، والآخر على يد خليله إبراهيم.

كما أجرى دليل التوحيد السابق على يده، فهذا الرجل مر على قرية قد دمرت تدميراً، وخوت على عروشها، قد مات أهلها وخربت عمارتها، فقال - على وجه الشك والاستبعاد -: ﴿أنى يحيي هذه الله بعد موتها؟﴾، أي: ذلك بعيد، وهي في هذه الحال، يعني: وغيرها مثلها، بحسب ما قام بقلبه تلك الساعة.

فأراد الله رحمته ورحمة الناس، حيث أماته الله مائة عام، وكان معه حمار، فأماته معه، ومعه طعام وشراب، فأبقاهما الله بحالهما كل هذه المدد الطويلة، فلما مضت الأعوام المائة، بعثه الله، فقال: ﴿كم لبثت؟ قال: لبثت يوماً أو بعض يوم﴾، وذلك بحسب ما ظنه، فقال الله: ﴿بل لبثت مائة عام﴾، والظاهر أن هذه المجاوبة على يد بعض الأنبياء الكرام.

ومن تمام رحمة الله به وبالناس، أنه أراه الآية عياناً، ليقتنع بها، فبعدما عرف أنه ميت قد أحياه الله، قيل له: ﴿فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه﴾، أي: لم يتغير في هذه المدد الطويلة، وذلك من آيات قدرة الله، فإن الطعام والشراب -

﴿٢٦٠﴾ وأما البهتان الآخر، فإن إبراهيم قال طالباً من الله، أن يريه كيف يحيي الموتى، فقال الله له: ﴿أولم تؤمن﴾ ليزيل الشبهة عن خليله.

﴿قال﴾ إبراهيم: ﴿بلى﴾ يا رب، قد آمنت أنك على كل شيء قدير، وأنت يحيي الموتى، وتجازي العباد، ولكن أريد

﴿حليم﴾ مع كمال غناه، وسعة عطايه، يحلم عن العاصين، ولا يعاجلهم بالعقوبة، بل يعافهم ويرزقهم، ويدبر عليهم خيره، وهم مبارزون له بالمعاصي.

﴿٢٦٤-٢٦٦﴾ ثم نهى أشد النهي عن المن والأذى، وضرب لذلك مثلاً، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثلته كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين \* ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأثت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فظل والله بما تعملون بصير \* أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصاراً فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ ضرب الله في هذه الآيات ثلاثة أمثلة: للمتفق ابتغاء وجهه، ولم يتبع نفقته مناً ولا أذى، وللمن أتبعها مناً وأذى، وللمرائي.

﴿٢٦٥﴾ فأما الأول، فإنه لما كانت نفقته مقبولة مضاعفة، لصدورها عن الإيمان والإخلاص التام ﴿ابتغاه مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم﴾، أي: ينفقون، وهم ثابتون على وجه الساحة والصدق، فمثل هذا العمل ﴿كمثل جنة بربوة﴾، وهو المكان المرتفع، لأنه يتيسر للرياح والشمس، والماء فيها غزير.

فإن لم يصبها ذلك الرابل الغزير، حصل ظل كاف، لطيب منبتها، وحسن أرضها، وحصول جميع الأسباب الموفرة لنموها وازدهارها وإثمارها. ولهذا آتت أكلها ضعفين﴾، أي: متضاعفاً.

وهذه الجنة التي على هذا الوصف، هي أعلى ما يطلب الناس، فهذا العمل الفاضل بأعلى المنازل.

﴿٢٦٦﴾ وأما من أنفق لله، ثم أتبع نفقته مناً وأذى، أو عمل عملاً، فأتى بمبطل لذلك العمل، فهذا مثله مثال صاحب هذه الجنة، لكن سلط عليها ﴿إعصار﴾ وهو الريح الشديدة ﴿فيه نار فاحترقت﴾، وله ذرية ضعفاء، وهو

دفع الحاجات، والإعانة على الخير والطاعات، فهذه النفقات مضاعفة، هذه المضاعفة بسببماتة إلى أضعاف أكثر من ذلك، ولهذا قال: ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾، وذلك بحسب ما يقوم بقلب المنفق، من الإيمان، والإخلاص التام، وفي ثمرات نفقته ونفعها، فإن بعض طرق الخيرات يترتب على الإنفاق فيها منافع متسلسلة، ومصالح متنوعة، فكان الجزء من جنس العمل.

ثم أيضاً ذكر ثواباً آخر للمتفقين أموالهم في سبيله، نفقة صادرة، مستوفية لشروطها، منتفية موانعها، فلا يتبعون المنفق عليه مناً منهم عليه، وتعداداً للنعم، وأذية له، قولية أو فعلية. فهؤلاء ﴿لهم أجرهم عند ربهم﴾ بحسب ما يعلمه منهم، وبحسب نفقاتهم ونفعها، وبفضله الذي لا تناله، ولا تصل إليه صدقاتهم.

﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾، فنفي عنهم المكروه الماضي، بنفي الحزن، والمستقبل بنفي الخوف عليهم، فقد حصل لهم المحبوب، واندمع عنهم المكروه.

﴿٢٦٣﴾ ﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم﴾ ذكر الله أربع مراتب للإحسان: المرتبة العليا: النفقة الصادرة عن نية سالحة، ولم يتبعها المنفق مناً ولا أذى.

ثم يليها قول المعروف، وهو: الإحسان القولي بجميع وجوهه، الذي فيه سرور المسلم، والاعتذار من السائل إذا لم يوافق عنده شيئاً، وغير ذلك من أقوال المعروف.

والثالثة: الإحسان بالعمو والمغفرة، عن أسماء إليك، بقول أو فعل.

وهذان أفضل من الرابطة، وخير منها وهي التي يتبعها المتصدق الأذى للمعطي، لأنه كدر إحسانه وفعل خيراً وشراً.

فالخير المحض - وإن كان مفضلاً - خير من الخير الذي يخالطه شر، وإن كان فاضلاً، وفي هذا التحذير العظيم لمن يؤذي من تصدق عليه، كما فعله أهل اللؤم والنحوق والجهل.

﴿والله﴾ تعالى ﴿غني﴾ عن صدقاتهم، وعن جميع عبادته.

أن يطمئن قلبي، وأصل إلى درجة عين اليقين.

فأجاب الله دعوته، كرامة له، ورحمة بالعباد، ﴿قال﴾: فخذ أربعة من الطير ﴿ولم يبين أي الطيور هي، فالآية حاصلة بأي نوع منها، وهو المفسود، ﴿فصمرهن إليك﴾ أي: ضمهن، واذبحهن، ومزقهن.

﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً، ثم ادعهن، يأتينك سعيًا واعلم أن الله عزيز حكيم﴾.

ففعل ذلك، وفرق أجزاءهن على الجبال، التي حوله، ودعاهن بأسمائهن، فأقبلن إليه، أي: سريعات، لأن السعي: السرعة، وليس المراد أنهن جنس على قوائمهن، وإنما جنس طائرات، على أكمل ما يكون من الحياة.

وخض الطيور بذلك، لأن إحياءهن أكمل وأوضح من غيرهن.

وأيضاً أزال في هذا كل وهم، ربما يعرض للنفوس المبطلطة، فجعلهن متعددات أربعة، ومزقهن جميعاً، وجعلهن على رؤوس الجبال، ليكون ذلك ظاهراً علناً، يشاهد من قرب ومن بعد، وأنه نحاها عن كثير، لئلا يظن أن يكون عملاً حيلة من الحيل، وأيضاً أمره أن يدعوهن فجنس مسرعات.

فصارت هذه الآية أكبر برهان على كمال عزة الله وحكمته. وفيه تبيه على أن البعث فيه يظهر لعباد كمال عزة الله وحكمته وعظمته وسعة سلطانه، وتمام عدله وفضله.

﴿٢٦١-٢٦٢﴾ ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة منبثت سح سابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ هذا حث عظيم من الله لعباده في إنفاق أموالهم في سبيله، وهو طريقه الموصل إليه، فيدخل في هذا إنفاقه في ترقية العلوم النافعة، وفي الاستعداد للجهاد في سبيله، وفي تجهز المجاهدين وتجهيزهم، وفي جميع المشاريع الخيرية النافعة للمسلمين.

ويلي ذلك الإنفاق على المحتاجين، والفقراء والمساكين.

وقد يجتمع الأمران، فيكون في النفقة

ضعيف قد أصابه الكبر.

فهذه الحال من أقطع الأحوال، ولهذا صدر هذا المثل بقوله: ﴿أبود أحدكم﴾، إلى آخرها بالاستفهام المتشعر عند المخاطبين فظاعته، فإن تلقها دفعة واحدة، بعد زهاء أشجارها، وإيناع ثمارها، مصيبة كبرى.

ثم حصول هذه الفاجعة - وصاحبها كبير قد ضعف عن العمل، وله ذرية ضعفاء، لا مساعدة منهم له، ومؤنتهم عليه - فاجعة أخرى، فصار صاحب هذا المثل، الذي عمل لله، ثم أبطل عمله بمناف له، يشبه حال صاحب الجنة، التي جرى عليها ما جرى، حين اشتدت ضرورته إليها.

المثل الثالث: الذي يراي الناس، وليس معه إيمان بالله، ولا احتساب لثوابه، حيث شبه قلبه بالصفوان، وهو الحجر الأملس، عليه تراب يظن الرائي أنه إذا أصابه المطر، أتت كما تثبت الأراضي الطيبة، ولكنه كالحجر، الذي أصابه الوايل الشديد، فأذهب ما عليه من التراب، وتركه صلباً.

وهذا مثل مطابق لقلب المرابي، الذي ليس فيه إيمان، بل هو قاس لا يلبس ولا يخشع.

فهذا أعماله ونفقاته لا أصل لها، تؤسس عليه، ولا غاية لها، تنتهي إليها، بل ما عمله، فهو باطل، لعدم شرطه.

والذي قبله باطل بعد وجود الشرط، لوجود المانع، والأول مقبول مضاعف، لوجود شرطه الذي هو الإيمان والإخلاص والنيات، وانتفاء الموانع المفسدة.

وهذه الأمثال الثلاثة، تنطبق على جميع العاملين، فليزّن العبد نفسه وغيره بهذه الموازين العادلة، والأمثال المطابقة: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس، وما يعقلها إلا العالمون﴾.

﴿٢٦٧ - ٢٦٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض ولا تبصموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد﴾ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم﴾ يحث الباري عباده على الإنفاق مما كسبوا في التجارات، ومما أخرج لهم من الأرض،

من الحبوب والشمار، وهذا يشمل زكاة النقدين، والعروض كلها، المعونة للبيع والشراء، والخارج من الأرض، من الحبوب والشمار، ويدخل في عمومها القرض والفضل.

وأمر تعالى أن يقصدوا الطيب منها، ولا يقصدوا الخبيث، وهو الرديء الدون، يحملونه لله، ولو بذله لهم من لهم حق عليه، لم يرتضوه ولم يقبلوه إلا على وجه المغاضاة والإعراض.

فالواجب إخراج الروسط من هذه الأشياء، والكمال إخراج العالي، والمنعرج إخراج الرديء، فإن هذا لا يجزىء عن الواجب، ولا يحصل فيه الثواب التام في المنسوب.

﴿واعلموا أن الله غني حميد﴾، فهو غني عن جميع المخلوقين، وهو الغني عن نفقات المنفقين، وعن طاعات الطائمين، وإنما أمرهم بها، وحشهم عليها، لتفهمهم، ومحض فضله وكرمه عليهم.

ومع كمال غناه، وسعة عطايه، فهو الحميد فيما يشعره لعباده من الأحكام الموصلة لهم إلى دار السلام.

وحميد في أفعاله، التي لا تخرج عن الفضل والعدل والحكمة، وحميد الأوصاف، لأن أوصافه كلها محاسن وكمالات، لا يبلغ العباد كنهها، ولا يدركون وصفها.

﴿٢٦٨﴾ فلما حشهم على الإنفاق الناقص، ونهاهم عن الإسك الضار، بين لهم أنهم بين داعيين:

داعي الرحمن، يدعوهم إلى الخير، ويهدمهم عليه الخير، والفضل والثواب العاجل والأجل، وإخلاف ما أنفقوا.

وداعي الشيطان، الذي يحشهم على الإسك ويخوفهم، إن أنفقوا أن يفتنوا، فمن كان مجيباً لداعي الرحمن، وأنفق مما رزقه الله، فليبشر بمغفرة الذنوب، وحصول كل مطلوب، ومن كان مجيباً لداعي الشيطان، فإنه إنما يدعو حزبه، ليكونوا من أصحاب السعير، فليختر العيد أي الأمرين اليق به.

ورخم الآية بأنه ﴿واسع عليم﴾، أي: واسع الصفات، كثير الهيات، عليم بمن يستحق المضاعفة من العاملين، وعليم بمن هو أهل، فيوفقه لفضل الخيرات، وترك المنكرات.

﴿٢٦٩﴾ ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾ لما ذكر أحوال المنفقين للأموال، وأن الله أعطاهم، ومن عليهم بالأموال التي يدركون بها النفقات في الطرق الخيرية، ويتألون بها المقامات السنية، ذكر ما هو أفضل من ذلك، وهو أنه يعطي الحكمة من يشاء من عباده، ومن أراد بهم خيراً من خلقه.

والحكمة هي العلوم النافعة، والمعارف الصائبة، والمعقول المسددة، والألباب الرزينة، وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال.

وهذا أفضل العطايا، وأجل الهبات، ولهذا قال: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾؛ لأنه خرج من ظلمة الجهالات إلى نور الهدى، ومن حقق الاعتراف في الأقوال والأفعال، إلى إصابة الصواب فيها، وحصول السداد، ولأنه كمل نفسه بهذا الخير العظيم، واستمد لنع الخلق أعظم نفع، في دينهم ودنياهم.

وجميع الأمور لا تصلح إلا بالحكمة، التي هي وضع الأشياء مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها، والإقدام في محل الإقدام والإحجام في موضع الإحجام.

ولكن ما يتذكر هذا الأمر العظيم، وما يعرف قدر هذا المعطاء الجسيم. ﴿إلا أولو الألباب﴾ وهم أهل المعقول الرافية، والأحلام الكاملة، فهم الذين يعرفون النافع فيعملونه، والضار فيتركونه.

وهذان الأمران، وهما بذل النفقات المالية، وبذل الحكمة العلمية، أفضل ما تقرب به المتقربون إلى الله، وأعلى ما وصلوا به إلى أجل الكرامات.

وهما اللذان ذكرهما النبي ﷺ بقوله: ﴿لا حسد إلا في الثنتين، رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يعلمها الناس﴾.

﴿٢٧٠ - ٢٧١﴾ ﴿وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار﴾ إن تبدأ الصدقات فتعماً هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير﴾ يخبر تعالى، أنه مهما أنفق المتفقون أو تصدق المتصدقون، أو نذر التاذرون، فإن الله يعلم ذلك.

ويتضمن التذكير لهم بالإخلاص.

وكرر علمه - تعالى - بنفقاتهم، لإعلامهم أنه لا يصعب عنده مثقال ذرة: ﴿وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾.

﴿٢٧٢-٢٧٤﴾ ﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ يعني أنه ينبغي أن تنحروا بصدقاتكم للفقراء، الذين حبسوا أنفسهم في سبيل الله، وعلى طاعته، وليس لهم إرادة في الاكتساب، أو ليس لهم قدرة عليه، وهم يتعففون، إذا رأهم الجاهل ظن أنهم أغنياء ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾، فهم لا يسألون بالكليّة، وإن سألوا اضطرباً، لم يلحفوا في السؤال.

فهذا الصنف من الفقراء، أفضل ما وضعت فيهم النفقات لدفع حاجتهم، وإعانة لهم على مقصدهم وطريق الخير، وشكراً لهم على ما اتصفوا به من الصبر، والنظر إلى الخالق، لا إلى الخلق.

﴿٢٧٤﴾ ومع ذلك، فالإنفاق في طرق الإحسان وعلى المحاريج حشماً كانوا، فإنه خير وأجر، وثواب عند الله، ولهذا قال تعالى: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

فإن الله يظلمهم بظلمه يوم لا ظل إلا ظله، وإن الله ينيلهم الخيرات ويدفع عنهم الأحزان والخوف والكربيات.

وقوله: ﴿فلهم أجرهم عند ربهم﴾، أي: كل أحد منهم بحسب حاله.

وتخصيص ذلك، بأنه عند ربهم، يدل على شرف هذه الحال، ووقوعها في الموقع الأكبر، كما في الحديث الصحيح: ﴿إن العبد ليتصدق بالتمرّة من كسب طيب فيقبلها الجبار بيده، فيريها لأحدكم كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل العظيم﴾.

﴿٢٧٥-٢٨١﴾ ﴿الذين يأكلون الربوا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما

ومضمون الإخبار بعلمه، يدل على الجزاء، وأن الله لا يضيع عنده مثقال ذرة، ويعلم ما صدرت عنه، من نيات صالحّة، أو سيئة، وأن الظالمين الذين يمتنون ما أوجب الله عليهم، أو يقتحمون ما حرم عليهم، ليس لهم من دونه أنصار، ينصرونهم ويمعنونهم، وأنه لا بد أن تقع بهم العقوبات.

﴿٢٧١﴾ وأخبر أن الصدقة إن أبدأها المتصدق، فهي خير، وإن أخفأها، وسلمها للفقير، كان أفضل، لأن الإخفاء على الفقير، إحسان آخر.

وأيضاً فإنه يدل على قوة الإخلاص، وأحد السبعة الذين يظلمهم الله في ظله: من تصدق بصدقة فأخفأها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه.

وفي قوله: ﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ فائدة لطيفة، وهو أن إخفاءها خير من إظهارها، إذا أعطيت للفقير.

فأما إذا صرفت في مشروع خيري، لم يكن في الآية، ما يبدل على فضيلة إخفائها، بل هنا قواعد الشرع، تدل على مراعاة المصلحة، فربما كان الإظهار خيراً، لحصول الأسوة والافتداء، وتنشيط النفوس على أعمال الخير.

وقوله: ﴿ويكفر عنكم من سيئاتكم﴾ في هذا: أن الصدقات يجتمع فيها الأمان:

حصول الخير، وهو: كثرة الحسنات والشواب والأجر، ودفع الشر والبلاء الديني والأخروي، بتكفير السيئات.

﴿والله بما تعملون خبير﴾، فيجازي كلّ عمله، بحسب حكمته.

﴿٢٧٢﴾ ﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلا تنفكوا وما تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقون من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ أي: إنما عليك - أيها الرسول - البلاغ، وحث الناس على الخير، وزجرهم عن الشر، وأما الهداية، فييد الله تعالى.

ويخبرهم عن المؤمنين حقاً، أنهم لا ينفقون إلا لطلب مرضاة ربهم، واحتساب ثوابه، لأن إيمانهم يدعوهم إلى ذلك، فهذا خير وتركيبه للمؤمنين،

البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ ﴿يحقّ الله الربا ويؤري الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم﴾ ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين﴾ ﴿فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون﴾ ﴿إن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ ﴿اتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ ﴿لما ذكر الله حالة المنفقين وما لهم من الله، من الخيرات، وما يكفر عنهم، من الذنوب والنخطيئات، ذكر الظالمين أهل الربا والمعاملات الخبيثة، وأخبر أنهم يجازون بحسب أعمالهم، فكما كانوا في الدنيا في طلب المكاسب الخبيثة كالمجانين، عوقبوا في البرزخ والقيامة، أنهم لا يقومون من قبورهم، إلى يوم بعثهم وتشورهم﴾ ﴿إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾، أي: من الجنون والصرع.

وذلك عقوبة، وخزي وفضيحة لهم، وجزاء لهم على مראياتهم ومجاهرتهم بقولهم: ﴿إنما البيع مثل الربا﴾، فجمعوا - بجراعتهم - بين ما أحل الله، وبين ما حرّم الله، واستباحوا بذلك الربا.

ثم عرض تعالى العقوبة على المرابين وغيرهم، فقال: ﴿فمن جاءه موعظة من ربه﴾، بيان مقرون به الوعد والوعيد.

﴿فانتهى﴾ عما كان يتعاطاه من الربا ﴿فله ما سلف﴾ مما تجرأ عليه وتاب منه.

﴿وأمره إلى الله﴾ فيما يستقبل من زمانه، فإن استمر على توبته، فإنه لا يضيع أجر المحسنين.

﴿ومن عاد﴾ بعد بيان الله وتذكيره وتوعده لأكل الربا ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ في هذا أن الربا موجب لدخول النار والخلود فيها، وذلك لشناعته، ما لم يمنع من الخلود مانع الإيمان.

عليهم \* وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أؤتمن أمأنته وليتق الله ربه ولا تكتنوا الشهادة ومن يكتنمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم\* .

احتوت هاتان الآيتان، على إرشاد الباري عباده في معاملاتهم إلى حفظ حقوقهم بالطرق النافعة والإصلاحات التي لا يقترح العقلاء أعلى ولا أكمل منها، فإن فيها فوائد كثيرة .

منها: جواز المعاملات في الديون، سواء كانت ديون سلم أو شراء مؤجلاً ثمنه، فكله جائز؛ لأن الله أخبر به عن المؤمنين، وما أخبر به عن المؤمنين، فإنه من مقتضيات الإيمان وقد أقرهم عليه الملك الديان .

ومنها: وجوب تسمية الأجل في جميع المديونات وحلول الإجازات .

ومنها: أنه إذا كان الأجل مجهولاً، فإنه لا يحل، لأنه غرر وخطر، فيدخل في الميسر .

ومنها: أمره تعالى بكتابة الديون . وهذا الأمر قد يجب، إذا وجب حفظ الحق، كالذي للمعدي عليه ولأبيه، كأموال اليتامى، والأوقاف، والوكلاء، والأمناء، وقد يقارب الوجوب، كما إذا كان الحق متحفظاً للمعدي، فقد يقوى الوجوب وقد يقوى الاستحباب، بحسب الأحوال المتفضية لذلك .

وعلى كل حال، فالكتابة من أعظم ما تحفظ بها هذه المعاملات المؤجلة، لكثرة النسيان، ولوقوع المغالطات، وللاحتراز من الخونة الذين لا يخشون الله تعالى .

ومنها: أمره تعالى للكاتب أن يكتب بين المتعاملين بالعدل، فلا يعمل مع أحدهما لقرابة ولا غيرها، ولا على أحدهما لمدارة ونحوها .

ومنها: أن الكتابة بين المتعاملين من أفضل الأعمال، ومن الإحسان إليهما، وفيها حفظ حقوقهما، وبراءة ذمهما كما أمره الله بذلك، فليحسب الكاتب بين الناس هذه الأمور، ليحظى بنواها .

ومنها: أن الكاتب لا بد أن يكون عارفاً بالعدل، معروفاً بالعدل؛ لأنه إذا لم يكن عارفاً بالعدل لم يتمكن منه، وإذا لم يكن معتمراً عدلاً عند الناس رصياً، لم تكن كتابته معتبرة، ولا حاصلها بها المقصود، الذي هو حفظ الحقوق .

الناس بأخذ الربا ﴿ولا تظلمون﴾ ببخسكم رؤوس أموالكم .

فكل من تاب من الربا، فإن كانت معاملات سالفة، فله ما سلف، وأمره منظور فيه، وإن كانت معاملات موجودة، وجب عليه أن يقتصر على رأس ماله، فإن أخذ زيادة، فقد تجرأ على الربا .

وفي هذه الآية، بيان لحكمة الربا، وأنه يتضمن الظلم للمحتاجين بأخذ الزيادة، وتضاعف الربا عليهم، وهو واجب إنظارهم .

﴿٢٨٠﴾ وللهذا قال: ﴿وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة﴾، أي: وإن كان الذي عليه الدين محسراً، لا يقدر على الوفاء، وجب على غريمه أن ينظره إلى ميسرة .

وهو يجب عليه إذا حصل له وفاء بأي طريق مباح، أن يوفي ما عليه .

وإن تصدق عليه غريمه - بإسقاط الدين كله أو بعضه - فهو خير له، ويهون على العبد، التزام الأمور الشرعية، واحتساب المعاملات الربوية، والإحسان إلى الممسرين، علمه بأن له يوماً يرجع فيه إلى الله، ويوفيه عمله، ولا يظلمه مثقال ذرة، كما ختم هذه الآية بقوله:

﴿٢٨١﴾ ﴿واتقوا يوماً ترحمون فيه إلى الله، ثم توفي كل نفس ما كسبت، وهم لا يظلمون﴾ .

﴿٢٨٢-٢٨٣﴾ ثم قال تعالى: ﴿بإيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبغض منه شيئاً فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونوا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجل ذلك أتمط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن فعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء

وهذا من جملة الأحكام التي تنوقف على وجود شروطها، وانتفاء موانعها، وليس فيها حجة للمخارج، كغيرها من آيات الوعيد .

فالواجب أن تصدق جميع نصوص الكتاب والسنة، فيؤمن العبد بما تواترت به النصوص، من خروج من في قلبه أدنى متقال حبة خردل من الإيمان، من النار . ومن استحقاق هذه الموبقات لدخول النار، إن لم يتب منها .

﴿٢٧٦﴾ ثم أخبر تعالى أنه يحق مكاسب المرابين، ويربي صدقات المنفقين، عكس ما يتبادر لأذهان كثير من الخلق، أن الإنفاق ينقص المال وأن الربا يزيد، فإن مادة الرزق وحصول ثمراته من الله تعالى، وما عند الله لا ينال إلا بطاعته وامتثال أمره .

فالتجريء على الربا، يعاقبه بنقص مقصوده، وهذا مشاهد بالتجربة، ﴿ومن أصدق من الله قيلاً﴾ .

﴿والله لا يحب كل كفار أثيم﴾، وهو الذي كفر نعمة الله، ووجد مئة ربه، وأثم بإصراره على معاصيه .

ومفهوم الآية، أن الله يحب من كان شكوراً على التمعن، ناشياً من المأثم والذنوب .

﴿٢٧٧﴾ ثم أدخل هذه الآية بين آيات الربا، وهي قوله: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾، الآية . لبيان أن أكبر الأسباب لاجتباب ما حرم الله من المكاسب الربوية تكميل الإيمان وحقوقه، خصوصاً إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وإن الزكاة إحسان إلى الخلق، ينافي تعاطي الربا، الذي هو ظلم لهم، وإساءة عليهم .

﴿٢٧٨﴾ ثم وجه الخطاب للمؤمنين، وأمرهم أن يتقوه، ويذروا ما بقي من معاملات الربا، التي كانوا يتعاملونها قبل ذلك، وأنهم إن لم يفعلوا ذلك، فإنهم محاربون لله ورسوله، وهذا من أعظم ما يدل على شناعة الربا، حيث جعل المصز عليه، محارباً لله ورسوله .

﴿٢٧٩﴾ ثم قال: ﴿وإن تبتم﴾ يعني من المعاملات الربوية .

﴿فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون﴾

للأداء، وأن القيام بالشهادة من أفضل الأعمال الصالحة، كما أمر الله بها، وأخبر عن نفعها ومصالحها.

ومنها: أنه لا يحل الإصرار بالكاتب، ولا بالشهيد، بأن يدعي في وقت أو حالة، تضرهما.

وكما أنه نهى لأهل الحقوق والمتعاملين، وأن يضار الشهود والكاتب، فإنه أيضاً نهى للكاتب والشهيد، أن يضار المتعاملين أو أحدهما.

وفي هذا أيضاً أن الشاهد والكاتب - إذا حصل عليهما ضرر في الكتابة والشهادة - أنه يسقط عنهما الرجوب.

وفيها التنبيه على أن جميع المحسنين الفاعلين للمعروف، لا يحل إضرارهم، وتحميلهم ما لا يطيقون، ف «هل جزاء الإحسان إلا الإحسان»؟

وكذلك على من أحسن وفعل معروفًا، أن يتمم إحسانه بترك الإصرار القولي والفعلية بمن أوقع به المعروف، فإن الإحسان لا يتم إلا بذلك.

ومنها: أنه لا يجوز أخذ الأجرة على الكتابة والشهادة، حيث وجبت، لأنه حق أوجه الله على الكاتب والشهيد، ولأنه من مضارة المتعاملين.

ومنها: التنبيه على المصالح والغوائد المترتبة على العمل بهذه الإرشادات الجليلة، وأن فيها حفظ الحقوق والعدل، وقطع التنازع والسلامة من النسيان والذهول، ولهذا قال: «لذلكم أقط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا»، وهذه مصالح ضرورية للعباد.

ومنها: أن تعلم الكتابة من الأمور الدينية، لأنها وسيلة إلى حفظ الدين والدنيا وسبب للإحسان.

ومنها: أن من خصه الله بنعمة من النعم، يحتاج الناس إليها، فمن تمام شكر هذه النعمة، أن يمرد بها على عباد الله، وأن يقضي بها حاجتهم، لتعميل الله النهي عن الامتناع عن الكتابة، بتذكير الكاتب بقوله: «كما علمه الله»، ومع هذا: اضمن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته.

ومنها: أن الإصرار بالشهود والكاتب، فسوق بالإنسان، فإن الفسوق هو الخروج عن طاعة الله إلى معصيته، وهو يزيد وينقص، ويتعسر، ولهذا لم يقل: «فأتم فساق» أو «فاسقون»، بل قال: «فإنه

ومنها: الإرشاد إلى الإشهاد في البيع، فإن كانت في المديونات، فحكمها حكم الكتابة كما تقدم، لأن الكتابة هي كتابة الشهادة، وإن كان البيع بيعاً حاضراً، فينبغي الإشهاد فيه، ولا حرج فيه بترك الكتابة، لكثرة وحصول المشقة فيه.

ومنها: الإرشاد إلى إشهاد رجلين عدلين، فإن لم يمكن، أو تعذر، أو تعسر، فرجل وامرأتان، وذلك شامل لجميع المعاملات، ببيع الإدارة، وبيع الديون، وتوابعها من الشروط والوثائق وغيرها.

وإذا قيل: قد ثبت أنه ﷺ قضى بالشاهد الواحد مع اليمين، والآية الكريمة ليس فيها إلا شهادة رجلين، أو رجل وامرأتين، قيل: الآية الكريمة، فيها إرشاد البارئ عباده إلى حفظ حقوقهم، ولهذا أتى فيها بكامل الطرق، وأقواها، وليس فيها ما يناهى ما ذكره النبي ﷺ من الحكم بالشاهد واليمين.

فياب حفظ الحقوق في ابتداء الأمر، يرشد فيه العبد إلى الاحتراز والتحفظ التام، وباب الحكم بين المتنازعين، ينظر فيه إلى المرجحات والبيّنات، بحسب حالها.

ومنها: أن شهادة المرأتين، قائمة مقام الرجل الواحد، في الحقوق الدنيوية، وأما في الأمور الدينية - كالرواية والفتوى - فإن المرأة فيه، تقوم مقام الرجل، والفرق ظاهر بين البابين.

ومنها: الإرشاد إلى الحكمة في كون شهادة المرأتين عن شهادة الرجل، وأنه لضعف ذكورة المرأة غالباً، وقوة حافظة الرجل.

ومنها: أن الشاهد لو نسي شهادته، فذكره الشاهد الآخر، فذكر أنه لا يضر ذلك النسيان، إذا زال بالتذكير لقوله: «أن تصل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى»، ومن باب أولى، إذا نسي الشاهد، ثم ذكر من دون تذكير، فإن الشهادة مدارها على العلم واليقين.

ومنها: أن الشهادة لا بد أن تكون عن علم ويقين، لا عن شك، فمتى صار عند الشاهد ريب في شهادته - ولو غلب على ظنه - لم يحل له أن يشهد إلا بما يعلم.

ومنها: أن الشاهد ليس له أن يمتنع، إذا دعي للشهادة، سواء دعي للتحمل أو

ومنها: أن من تمام الكتابة والعدل فيها، أن يحسن الكاتب الإنشاء، والألفاظ المختارة في كل معاملة بحسبها، وللعرف في هذا المقام، اعتبار عظيم.

ومنها: أن الكتابة من نعم الله على العباد التي لا تستقيم أمورهم الدينية ولا الدنيوية إلا بها، وأن من علمه الله الكتابة، فقد تفضل عليه بفضل عظيم، فمن تمام شكره لنعمة الله تعالى، أن يقضي بكتابه حاجات العباد، ولا يستنح من الكتابة، ولهذا قال: «ولا ياب كاتب أن يكتب كما علمه الله».

ومنها: أن الذي يكتبه الكاتب، هو اعتراف من عليه الحق، إذا كان يحسن التعبير عن الحق الذي عليه، فإن كان لا يحسن ذلك - لصغره، أو سفهه، أو جنونه، أو خرسه، أو عدم استطاعته - أملى عنه وليه، وقام وليه في ذلك مقامه. ومنها: أن الاعتراف من أعظم الطرق، التي تثبت بها الحقوق، حيث أمر الله تعالى أن يكتب الكاتب، ما أملى عليه من عليه الحق.

ومنها: ثبوت الولاية على القاصرين، من الصغار والمجانين، والسفهاء ونحوهم.

ومنها: أن الولي يقوم مقام مولى، في جميع اعترافاته المتعلقة بحقوقه.

ومنها: أن من أمته في معاملة، وفوضته فيها، فقله في ذلك مقبول، وهو نائب منابك، لأنه إذا كان الولي على القاصرين ينوب منابهم، فالذي وليته باختيارك وفوضت إليه الأمر، أولى بالقبول، واعتبار قوله وتقديمه على قولك عند الاختلاف.

ومنها: أنه يجب على الذي عليه الحق - إذا أملى على الكاتب - أن يتقي الله، ولا يبخس الحق الذي عليه، فلا ينقصه في قدره، ولا في وصفه، ولا في شرط من شروطه، أو قيد من قيوده، بل عليه أن يعترف بكل ما عليه من متعلقات الحق، كما يجب ذلك إذا كان الحق على غيره له، فمن لم يفعل ذلك، فهو من المطففين الباخسين.

ومنها: وجوب الاعتراف بالحقوق الجليلة والحقوق الخفية، وأن ذلك من أعظم خصال التقوى، كما أن ترك الاعتراف بها من سواقض التقوى ونواقصها.



فسوق بكم﴾ فبقدر خروج العبد عن طاعة ربه، فإنه يحصل به من الفسوق، بحسب ذلك.

واستدل بقوله تعالى: ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ أن تقوى الله، وسيلة إلى حصول العلم، وأوضح من هذا قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن نتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾، أي: علماً تفرقون به بين الحقائق، والحق والباطل.

ومنها: أنه كما أنه من العلم النافع، تعليم الأمور الدينية المتعلقة بالعبادات، فمته أيضاً، تعليم الأمور الدنيوية المتعلقة بالمعاملات، فإن الله تعالى، حفظ على العباد أمور دينهم وديانهم، وكتابه العظيم فيه بيان كل شيء.

﴿٢٨٣﴾ ومنها: مشروعية الوثيقة بالحقوق، وهي الرهن والضمانات، التي تكفل للمعد حصوله حقه، سواء عامل برأ أو فاجراً، أميناً أو خائناً، فكم في الوثائق من حفظ حقوق، وانقطاع منازعات.

ومنها: أن تمام الوثيقة في الرهن، أن يكون مقبوضاً، ولا يدل ذلك على أنه لا يصح الرهن إلا بالقبض، بل التقييد بكون الرهن مقبوضاً، يدل على أنه قد يكون مقبوضاً، تحصل به الثقة التامة، وقد لا يكون مقبوضاً، فيكون ناقصاً.

ومنها: أنه يستدل بقوله: ﴿فرهان مقبوضة﴾ أنه إذا اختلف الراهن والمرتهن في مقدار الدين الذي به الرهن، أن القول قول المرتهن، صاحب الحق، لأن الله جعل الرهن وثيقة به، فلولا أنه يقبل قوله في ذلك، لم تحصل به الوثيقة لعدم الكتابة والشهود.

ومنها: أنه يجوز التعامل بغير وثيقة، ولا شهود، لقوله: ﴿فإن أمن بعضهم بعضاً، فليؤد الذي اتمن أمانته﴾، ولكن في هذه الحال يحتاج إلى التقوى والخوف من الله، وإلا فصاحب الحق مخاطر في حقه، ولهذا أمر الله في هذه الحال، من عليه الحق، أن يتقي الله ويؤدي أمانته.

ومنها: أن من اتتمته معاملته، فقد عمل معه معروفًا عظيمًا، ورضي بدينه وأمانته، فيتأكد على من عليه الحق، أداء الأمانة من الجهتين: أداء لحق الله، وامتنالاً لأمره، ووفاء بحق صاحبه، الذي رضي بأمانته، ووثق به.

ومنها: تحريم كتم الشهادة، وأن كاتمها قد أثم قلبه، الذي هو ملك الأعضاء، وذلك لأن كتمها، كالشهادة بالباطل والزور، فيها ضياع الحقوق، وفساد المعاملات، والإثم المتكرر في حقه، وحق من عليه الحق.

وأما تقييد الرهن بالسفر - مع أنه يجوز حضراً وسفراً - فللحاجة إليه لعدم الكتاب والشهد.

وختم الآية بأنه ﴿عليم﴾ بكل ما يعمله العباد، كالترغيب لهم في المعاملات الحسنة، والترهيب من المعاملات السيئة.

﴿٢٨٤﴾ ﴿لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ يخبر تعالى، بمسوم ملكه لأهل السماء والأرض، وإحاطة علمه بما أبداه العباد، وما أخفوه في أنفسهم، وأنه سيحاسبهم به، فيغفر لمن يشاء، وهو المنيب إلى ربه، الأواب إليه ﴿إنه كان للأوابين غفوراً﴾.

ويعذب من يشاء، وهو المصّر على المعاصي، في باطنه وظاهره.

وهذه الآية لا تنافي الأحاديث الواردة في العفو، عما حدث به العبد نفسه، ما لم يحمل أو يتكلم، فتلك الخطرات التي تحدث بها النفوس، التي لا يتصف بها العبد ولا يصمم عليها، وأما هنا فهي العزائم المصممة، والأوصاف الثابتة في النفوس، أوصاف الخير، وأوصاف الشر، ولهذا قال: ﴿ما في أنفسكم﴾، أي: استقر فيها وثبت، من العزائم والأوصاف.

وأخبر أنه ﴿على كل شيء قدير﴾، فمن تمام قدرته، محاسبة الخلائق، وإيصال ما يستحقونه من الثواب والعقاب.

﴿٢٨٥ - ٢٨٦﴾ ﴿أمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرنا ربنا وإليك المصير﴾ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ ثبت عنه ﷺ

أن من قرأ هاتين الآيتين في ليلته كفتاه، أي: من جميع الشرور، وذلك لما احتوتنا عليه من المعاني الجليلة، فإن الله أمر في أول هذه السورة الناس بالإيمان، بجميع أصوله في قوله: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا﴾، الآية.

وأخبر في هذه الآية، أن الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين، آمنوا بهذه الأصول العظيمة، وجميع الرسل، وجميع الكتب، ولم يصنعوا صنيع من آمن ببعض، وكفر ببعض، كحالة المنحرفين من أهل الأديان المنحرفة.

وفي قرآن المؤمنين بالرسول ﷺ، والإخبار عنهم جميعاً بخبر واحد، شرف عظيم للمؤمنين.

وفيه أنه ﷺ مشارك للامة في توجبه الخطاب الشرعي له، وقيامه التام به، وأنه فاق المؤمنين، بل فاق جميع المرسلين في القيام بالإيمان وحقوقه.

وقوله: ﴿وقالوا سمعنا وأطعنا﴾، هذا التزام من المؤمنين، عام لجميع ما جاء به النبي ﷺ من الكتاب والسنة، وأنهم سمعوه سماع قبول وإذعان وانقياد، ومضمون ذلك تضرعهم إلى الله في طلب الإعانة على القيام به، وأن الله يغفر لهم ما قصروا فيه من الواجبات، وما ارتكبه من المحرمات، وكذلك تضرعوا إلى الله في هذه الأدعية الثامنة، والله تعالى قد أجاب دعاءهم على لسان نبيه ﷺ فقال: ﴿فعلت﴾.

فهذه الدعوات مقبولة من مجموع المؤمنين قطعاً، ومن أفرادهم؛ إذا لم يمنع من ذلك مانع في الأفراد، وذلك أن الله رفع عنهم المؤاخذه في الخطأ والنسيان، وأن الله سهل عليهم شرعه غاية التسهيل، ولم يحملهم من المشاق، والأصار، والأغلال، ما حمله على من قبلهم، ولم يحملهم نوح طاعتهم، وقد غفر لهم ورحمهم، ونصرهم على القوم الكافرين.

فنسأل الله تعالى، بأسمائه وصفاته، وبما من به علينا من التزام دينه، أن يحقق لنا ذلك، وأن ينجز لنا ما وعدنا على لسان نبيه، وأن يصلح أحوال المؤمنين.

ويؤخذ من هنا قاعدة التيسير، ونفي الحرج في أمور الدين كلها. وقاعدة العفو عن النسيان والخطأ، في

غاية الصراحة والبيان، يردون إليها المشتبه، الذي تحصل فيه الحيرة لناقص العلم، وناقص المعرفة.

فيردون المشابه إلى المحكم، فيعود كله محكماً، ويقولون: ﴿أنا به كل من عند ربنا وما يذكر﴾ للأموار النافعة، والعلوم الصائبة ﴿إلا أولوا الأبواب﴾، أي: أهل العقول الرزينة.

ففي هذا دليل على أن هذا، من علامة أولي الأبواب، وأن أنواع المشابه، من أوصاف أهل الآراء السقيمة، والعقول الواهية، والقصود البتة.

وقوله: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾: إن أريد بالتأويل معرفة عاقبة الأمور، وما تنتهي وتؤول إليه، تعيين الوقوف على ﴿إلا الله﴾ حيث هو تعالى المتفرد بالتأويل بهذا المعنى، وإن أريد بالتأويل: معنى التفسير، ومعرفة معنى الكلام، كان العطف أولى، فيكون هذا مدحاً للراسخين في العلم، أنهم يعلمون كيف يتزولون نصوص الكتاب والسنة، محكمها ومشاهاها.

ولما كان المقام مقام انقسام إلى منحرفين ومستقيمين، دعوا الله تعالى أن يشهدهم على الإيمان، فقالوا: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا﴾، أي: لا تملأها عن الحق إلى الباطل.

﴿بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة﴾، تصلح بها أحوالنا ﴿إنك أنت الوهاب﴾، أي: كثير الفضل والهبات.

وذلك أن الله تعالى ذكر عن الراسخين، أنهم يسألونه أن لا يزيغ قلوبهم، بعد إذ هداهم، وقد أخبر في آيات آخر الأسباب التي بها تزيغ قلوب أهل الانحراف، وأن ذلك بسبب كسبهم، كقوله: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾، ﴿ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم﴾.

﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾.

فالعيد إذا تولى عن ربه، ووالى عدوه، ورأى الحق، فصدف عنه، ورأى الباطل فاختره، ولله أن الله ما تولى نفسه، وأزاغ قلبه، عقوبة له على زيفه، وما ظلمه الله، ولكنه ظلم نفسه، فلا يلم إلا نفسه الأثارة بالسوء، والله أعلم.

﴿٩٩﴾ ﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد﴾ هذا

﴿٥٥﴾ ومن تمام قيومته تعالى، أن علمه محيط بالخلائق ﴿لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾ حتى ما في بطون الحوامل.

﴿٦٦﴾ فهو ﴿الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾ من ذكر وانثى، وكامل الخلق وناقصه، منتقلين في أطوار خلقته وبديع حكمته، فمن هذا شأنه مع عباده، واعتناؤه العظيم بأحوالهم، من حين أنشأهم إلى منتهم أمورهم لا مشارك له في ذلك - فيتعين أنه لا يستحق العبادة إلا هو.

﴿٧٦﴾ ﴿إلا إله إلا هو العزيز﴾ الذي قهر الخلائق بقوته، واعتز عن أن يوصف بنقص أو ينعت بدم ﴿الحكيم﴾ في خلقه وشرعه.

﴿٧٧﴾ ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب﴾ من أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون أنا به كل من عند ربنا وما يذكر ﴿إلا أولوا الأبواب﴾ ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾ يخبر تعالى عن عظمته، وكمال قيومته، أنه هو الذي تفرد بإنزال هذا الكتاب العظيم، الذي لم يوجد - ولن يوجد - له نظير أو مقارب في هدايته، وبلاغته وإعجازه، وإصلاحه للخلق، وأن هذا الكتاب يحتوي على المحكم الواضح المعاني البين، الذي لا يشتبه بغيره، ومنه آيات متشابهات، تحتمل بعض المعاني، ولا يتعين منها واحد من الاحتمالين بمجردهما، حتى تضم إلى المحكم.

فالذين في قلوبهم مرض وزيغ، وانحراف، لسوء قصدهم، يتبعون المشابه منه، فيستدلون به على مقالاتهم الباطلة، وآرائهم الزائفة، طلباً للفتنة، وتحريفاً لكتابه، وتأويلاً له على مشاربهم ومذاهبهم ليضلوا ويضلوا.

وأما أهل العلم الراسخون فيه، الذين وصل العلم واليقين إلى أفئدتهم، فأثمر لهم العمل والمعارف - فيعلمون أن القرآن كله من عند الله، وأنه كله حق، محكمه ومتشابهه، وأن الحق لا يتناقض ولا يختلف.

فلعلمهم أن المحكمات، معناها في

العبادات، وفي حقوق الله تعالى. وكذلك في حقوق الخلق من جهة رفع المأثم، وتوجه الذم.

وأما وجوب ضمان المتلفات، خطأ أو نسياناً، في النفوس والأموال، فإنه مرتب على الإلتفاف بغير حق، وذلك شامل لحالة الخطأ والنسيان، والمعد. تم تفسير سورة البقرة، وه الحمد والثناء، وصلى الله على محمد وسلم.

## تفسير سورة آل عمران وهي مدنية

﴿١ - ٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ألم \* الله لا إله إلا هو الحي القيوم \* نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل \* من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام \* إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء \* هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم \* ألم \* من الحروف التي لا يعلم معناها إلا الله.

﴿٢ - ٣﴾ فأخبر تعالى أنه ﴿الحي﴾ كامل الحياة، ﴿القيوم﴾ القائم بنفسه، المقيم لأحوال خلقه، وقد أقام أحوالهم الدينية، وأحوالهم الدنيوية والقدرية، فأنزل على رسوله محمد ﷺ الكتاب بالحق، الذي لا ريب فيه، وهو مشتمل على الحق ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ من الكتب، أي: شهد بما شهدت به، ووافقها، وصدق من جاء بها من المرسلين.

وكذلك ﴿أنزل التوراة والإنجيل﴾. ﴿٤﴾ ﴿من قبل﴾ هذا الكتاب ﴿هدى للناس﴾.

وأكمل الرسالة وختمها بمحمد ﷺ، وكتابه العظيم الذي هدى الله به الخلق، من الضلالات، واستنقذهم به من الجهالات، وفرق به بين الحق والباطل، والسعادة والشقاوة، والصرط المستقيم، وطرق الجحيم، فالذين آمنوا به واعتدوا، حصل لهم به الخير الكثير، والشواب العاجل والأجل.

﴿إن الذين كفروا بآيات الله﴾ التي بينها في كتابه وعلى لسان رسوله ﴿لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام﴾ ممن عصاه.

الراسخون في العلم، أهل العلم والإيمان، يتوسلون إلى ربهم بإيمانهم، لمغفرة ذنوبهم، ووقايتهم عذاب النار، وهذا من الوسائل التي يحبها الله، أن يتوسل العبد إلى ربه، بما من به عليه من الإيمان والأعمال الصالحة، إلى تكميل نعم الله عليه، بحصول الثواب الكامل، واندفاع العقاب.

﴿١٧﴾ ثم وصفهم بأجمل الصفات: بالصبر الذي هو حبس النفوس على ما يحبه الله، طلباً لمرضاته، يصبرون على طاعة الله، ويصبرون عن معاصيه، ويصبرون على أقداره المؤلمة.

وبالصديق بالأقوال والأحوال، وهو استواء الظاهر والباطن، وصدق العزيمة على سلوك الصراط المستقيم، وبالفتوت الذي هو دوام الطاعة، مع مصاحبة الخشوع والخضوع، وبالفتقات في سبيل الخيريات، وعلى الفقراء، وأهل الحاجات، وبالإستغفار، خصوصاً وقت الأسحار، فإنهم مداؤ الصلاة إلى وقت السحر، فجلسوا يستغفرون الله تعالى.

﴿١٨﴾ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم هذه أجل الشهادات الصادرة من الملك العظيم، ومن الملائكة، وأهل العلم، على أجل مشهود عليه، وهو توحيد الله، وقيامه بالقسط، وذلك يتضمن الشهادة على جميع الشرع، وجميع أحكام الجزاء.

فإن الشرع والدين، أصله وقاعدته، توحيد الله وإفراجه بالعبودية، والاعتراف بانفراده، بصفات المحظمة والكبرياء، والمجد، والعز، والقدرة، والجلال، ويسمعت الجود، والبر والرحمة، والإحسان، والجمال، وبكمال المطلق الذي لا يحصي أحد من الخلق، أن يحيطوا بشيء منه، أو يبلغوه، أو يصلوا إلى الشئاء عليه، والعبادات الشرعية، والمعاملات وتوابعها، والأمر والنهي، كله عدل وقسط، لا ظلم فيه ولا جور، بوجه من الوجوه، بل هو في غاية الحكمة والإحكام، والجزاء على الأعمال الصالحة والسيئة، كله قسط وعدل.

﴿قل أي شيء أكبر شهادة؟ قل الله﴾، فتوحيد الله، ودينه، وجزاؤه، قد ثبت

بحسب الأسباب الحسية - الأمر بالعكس. ﴿١٤ - ١٥﴾ ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَ حَسَنِ الْمَآبِ \* قُلْ أَزْيَبْكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد﴾ أخبر تعالى في هاتين الآيتين، عن حالة الناس في إثارة الدنيا على الآخرة، وبين التفاوت العظيم، والفرق الجسيم بين الدارين، فأخبر أن الناس زُيِّنَتْ لهم هذه الأمور، فرمقوها بالأبصار، واستحلوها بالقلوب، وعكفت على لذاتها النفوس، كل طائفة من الناس تنيل إلى نوع من هذه الأنواع، قد جعلوها هي أكبر همهم، ومبلغ علمهم، وهي - مع هذا - متاع قليل، منقضى في مدة يسيرة.

فهذا ﴿متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾.

﴿١٥﴾ ثم أخبر عن ذلك بأن المتقين لله، القائمين بعبوديته، لهم خير من هذه اللذات، فلهم أصناف الخيريات، والنعيم المقيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولهم رضوان الله الذي هو أكبر من كل شيء.

ولهم الأزواج المطهرة، من كل أفة ونقص، جميلات الأخلاق، كأمالات الخلائق، لأن النفي يستلزم ضده، فتطهيرها من الآفات، مستلزم لوصفها بالكمالات.

﴿والله بصير بالعباد﴾ فيسير كل منهم لما خلق له، أما أهل السعادة، فيسيرهم للعمل لهذه الدار الباقية، ويأخذون من هذه الحياة الدنيا، ما يعينهم على عبادة الله وطاعته، وأما أهل الشقاوة والإعراض، فيقتضهم لعمل أهل الشقاوة، ويرضون بالحياة الدنيا، ويطمنون بها، ويتخذونها قراراً.

﴿١٦ - ١٧﴾ ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمَّا فَاغُرُّ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقَنَا عَذَابَ النَّارِ \* الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالسَّحَابِ﴾ أي: هؤلاء

من تمة كلام الراسخين في العلم، وهو يتضمن الإقرار بالبعث والجزاء، واليقين التام، وأن الله لا بد أن يوقع ما وعده به، وذلك يستلزم موجه ومقتضاه، من العمل والاستعداد لذلك اليوم، فإن الإيمان بالبعث والجزاء، أصل صلاح القلوب، وأصل الرغبة في الخير، والرغبة من الشر، للذين هما أساس الخيرات.

﴿١٠ - ١١﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار \* كَذَابُ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذِبُوا بآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لما ذكر يوم القيامة، ذكر أن جميع من كفر بالله، وكذب رسول الله، لا بد أن يدخلوا النار ويصلوها، وأن أموالهم وأولادهم، لن تغني عنهم شيئاً من عذاب الله، وأنه سيجري عليهم في الدنيا من الأخذات والعقوبات، ما جرى على فرعون وسائر الأمم المكذبة بآيات الله ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ وعجل لهم العقوبات الدنيوية، متصلة بالعقوبات الآخورية.

﴿والله شديد العقاب﴾، فإياكم أن تستهونا بعقابه، فيهنو عليكم الإقامة على الكفر والتكذيب.

﴿١٢ - ١٣﴾ ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ وَنَحْشُهُمْ إِلَى جَهَنَّمَ وَيَشْسُ الْمَهَاد \* قَدْ كَانَتْ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ الْبَنَاتِ فَتَةَ تَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِيهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ وهذا خبر ويشري للمؤمنين، وتخويف للكافرين، أنهم لا بد أن يغلبوا في هذه الدنيا، وقد وقع كما أخبر الله، فغلبوا غلبة لم يكن لها مثل ولا نظير.

وجعل الله تعالى ما وقع في بدر من آياته الدالة على صدق رسوله، وأنه على الحق، وأعداءه على الباطل، حيث التقت فتنان، فئة المؤمنين لا يبلغون إلا ثلاث مئة وبضعة عشر رجلاً مع قلة عددهم، وفئة الكافرين، يناهزون الألف، مع استعدادهم التام في السلاح وغيره، فأيد الله المؤمنين بنصره، فهزمهم بإذن الله، ففي هذا عبرة لأهل البصائر.

فلولا أن هذا هو الحق الذي إذا قابل الباطل أزهقه واضمححل الباطل لكان -

ثبوتاً لا ريب فيه، وهو أعظم الحقائق وأوضحها، وقد أقام الله على ذلك من البراهين، والأدلة ما لا يمكن إحصاؤه وعده.

وفي هذه الآية فضيلة العلم والعلماء؛ لأن الله خصهم بالذكر، من دون البشر، وقرن شهادتهم بشهادته، وشهادة ملائكته، وجعل شهادتهم من أكبر الأدلة والبراهين على توحيدِه ودينه وجزائه، وأنه يجب على المكلفين قبول هذه الشهادة العادلة الصادقة.

وفي ضمن ذلك: تعديلهم، وأن الخلق تبع لهم، وأنهم هم الأئمة المتبوعون، وفي هذا من الفضل والشرف، وعلو المكانة، ما لا يقدر قدره.

﴿١٩﴾ ﴿إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾ يخبر تعالى ﴿إن الدين عند الله﴾، أي: الدين الذي لا دين لله سواه، ولا مقبول غيره، هو ﴿الإسلام﴾، وهو الانقياد لله وحده، ظاهراً وباطناً بما شرعه على ألسنة رسله، قال تعالى: ﴿ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين﴾، فمن دان بغير دين الإسلام، فهو لم يدين الله حقيقة، لأنه لم يسلك الطريق الذي شرعه على ألسنة رسله.

ثم أخبر تعالى، أن أهل الكتاب يعلمون ذلك، وإنما اختلفوا، فانحرفوا عنه عناداً وبغياً، وإلا لقد جاءهم العلم المقتضي لعدم الاختلاف، المرجب للزوم الدين الحقيقي.

ثم لما جاءهم محمد ﷺ عرفوه حق المعرفة، ولكن الحسد والبغى والكفر بآيات الله، هي التي صدتهم عن اتباع الحق.

﴿ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾، أي: فلينتظروا ذلك فإنه أت، وسيجزئهم الله بما كانوا يعملون.

﴿٢٠﴾ ﴿فإن حآجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأمين أسلمتم فإن أسلموا فقد اعتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾ لما بين أن الدين الحقيقي عنده الإسلام، وكان أهل الكتاب قد

شافهوا النبي ﷺ بالمجادلة، وقامت عليهم الحججة، فمأندوها، أمره الله تعالى عند ذلك، أن يقول ويعلن: أنه قد أسلم وجهه، أي: ظاهره وباطنه، لله، وأن من اتبعه كذلك، قد وافقوه على هذا الإذعان الخالص.

وأن يقول للناس كلهم، من أهل الكتاب، والأمين، أي: الذين ليس لهم كتاب، من العرب وغيرهم: إن أسلمتم فأنتم على الطريق المستقيم، والهدى والحق، وإن توليتم فحسابكم على الله، وأنا ليس علي إلا البلاغ، وقد أبليتكم وأقمت عليكم الحججة.

﴿٢١ - ٢٢﴾ ﴿إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب الأليم﴾ أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ﴿أي الذين جمعوا بين هذه الشرور: الكفر بآيات الله، وتكذيب رسل الله، والجنابة العظيمة على أعظم الخلق حقاً على الخلق وهم الرسل، وأئمة الهدى، الذين يأمرون الناس بالقسط، الذي اتفقت عليه الأديان والمعول.

﴿٢٣﴾ ﴿فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتاً وهم لا يشعرون﴾ واستحقاقوا العذاب الأليم، وليس لهم ناصر من عذاب الله، ولا منقذ من عقوبته.

﴿٢٤ - ٢٥﴾ ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعوون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون﴾ ذلك بأنهم قالوا لن تسنا النار إلا أياماً معدودات وعزهم في دينهم ما كانوا يفترون ﴿فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ أي: ألا تنتظر وتعجب من هؤلاء ﴿الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾، و ﴿يدعون إلى كتاب الله﴾ الذي يصدق ما أنزله على رسله.

﴿ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون﴾ عن اتباع الحق، فكأنه قيل: أي داع دعاهم إلى هذا الإعراض، وهم أحق بالاتباع، وأعرفهم بحقيقة ما جاء به محمد ﷺ؟ فذكر لذلك سببين:

أمنهم، وشهادتهم الباطلة لأنفسهم بالتجاة، وأن النار لا تمسهم إلا أياماً

معدودة حدودها بحسب أمواتهم الفاسدة، كأن تدبير الملك راجع إليهم، حيث قالوا: ﴿لئن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾، ومن المعلوم أن هذه أماني باطلة، شرعاً وعقلاً.

والسبب الثاني: أنهم لما كذبوا بآيات الله وافتروا عليه، زين لهم الشيطان سوء عملهم، واغترتوا بذلك، وتراءى لهم أنه الحق، عقوبة لهم على إعراضهم عن الحق، فهؤلاء كيف يكون حالهم - إذا جمعهم الله يوم القيامة، ووفى العاملين ما عملوا، وجرى عدل الله في عبادِه، فهناك لا تسأل عما يصلون إليه من العقاب، وما يفوتهم من الخير والثواب، وذلك بما كسبت أيديهم: ﴿وما ريك بظلام للعبيد﴾.

﴿٢٦ - ٢٧﴾ ﴿قل اللهم مالك الملك تزيتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب﴾ يأمر تعالى نبيه ﷺ أصلاً، وغيره تبعاً - أن يقول عن ربه، معلناً بفرده بتصريف الأمور، وتدبير العالم العلوي والسفلي، واستحقاقه باختصاصه بالملك المطلق، والتصريف المحكم، وأنه يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء.

فليس الأمر بأماني أهل الكتاب، ولا غيرهم، بل الأمر أمر الله، والتدبير له، فليس له معارض في تدبيره، ولا معارون في تقديره، وأنه كما أنه المتصرف بمدولة الأيام بين الناس، فهو المتصرف بنفس الزمان.

﴿٢٧﴾ ﴿تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل﴾ أي: يدخل هذا على هذا، ويحل هذا محل هذا، ويزيد في هذا، ما ينقص من هذا، ليقيم بذلك مصالح خلقه.

ويخرج الحي من الميت، كما يخرج الزروع والأشجار المتنوعة من بذورها، والمؤمن من الكافر، والميت من الحي.

كما يخرج الجيوب والنوى، والزروع والأشجار، والبيضة من الطائر، فهو الذي

يخرج المتضادات، بعضها من بعض، وقد انقادت له جميع العناصر<sup>(١)</sup>.

وقوله ﴿بيدك الخير﴾، أي: الخير كله منك، ولا يأتي بالحسنات والخيرات إلا الله، وأما الشر، فإنه لا يضاف إلى الله تعالى، لا وصفاً، ولا اسماً، ولا فعلاً، ولكنه يدخل في مفعولاته، ويندرج في فضائه وقدره.

فالخير والشر، كله داخل في القضاء والقدر، فلا يقع في ملكه إلا ما شاءه، ولكن الشر لا يضاف إلى الله، فلا يقال: ﴿بيدك الخير والشر﴾، بل يقال: ﴿بيدك الخير﴾ كما قاله الله، وقاله رسوله.

وأما استدراك بعض المفسرين حيث قال: «وكذلك الشر بيد الله فإنه وهم محض، ملحظهم، حيث ظنوا أن تخصيص الخير بالذكر، ينافي قضاءه وقدره العام، وجوابه ما فصلنا.

وقوله: ﴿وترزق من تشاء بخير حساب﴾، وقد ذكر الله في غير هذه الآية الأسباب التي يُنال بها رزقه كقوله: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾.

فعلى العباد أن لا يظلموا الرزق، إلا من الله، ويسعوا فيه بالأسباب التي يسرها الله وأياها.

﴿٢٨﴾ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير﴾ هذا نهي من الله، وتحذير للمؤمنين، أن يتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فإن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، والله وليهم.

﴿ومن يفعل ذلك التولي، فليس من الله في شيء﴾، أي: فهو بريء من الله، والله بريء منه، كقوله تعالى: ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾.

وقوله: ﴿إلا أن تقوا منهم تقاة﴾، أي: إلا أن تخافوا على أنفسكم في إيداء العداوة للكافرين، فلکم - في هذه الحال - الرخصة في المسالمة والمهادنة، لا في التولي الذي هو محبة القلب، الذي

تبعه النصرة.

﴿ويحذركم الله نفسه﴾، أي: فخافوه واخشوه، وقدموا خشيته على خشية الناس، فإنه هو الذي يتولى شؤون العباد، وقد أخذ بنواصيهم، وإليه يرجعون وسيصيرون إليه، فيجازي من قدم خوفه ورجاه، على غيره بالشواب الجزيل، ويعاقب الكافرين، ومن تولاهم بالعذاب الويل.

﴿٢٩ - ٣٠﴾ ﴿قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض والله على كل شيء قدير﴾ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد﴾ يخبر تعالى بإحاطة علمه بما في الصدور، سواء أخفاه العباد، أو أبدوه، كما أن علمه محيط بكل شيء، في السماء والأرض، فلا تخفى عليه خافية.

ومع إحاطة علمه، فهو العظيم القدير على كل شيء، الذي لا يستع عن إرادته موجود.

﴿٣٠﴾ ولما ذكر لهم من عظمت وسعة أوصافه، ما يوجب للعباد أن يراقبوه في كل أحوالهم، ذكر لهم أيضاً، داعياً آخر إلى مراقبته وتقواه، وهو أنهم كلهم صاترون إليه، وأعمالهم - حينئذ، من خير وشر - محضرة.

فحينئذ يفتبط أهل الخير، بما قدموا لأنفسهم، وينحسر أهل الشر إذا وجدوا ما عملوه محضراً ويودون أن بينهم وبينه أمداً بعيداً.

فلذا عرف العبد أنه ساع إلى ربه، وكادح في هذه الحياة، وأنه لا بد أن يلاتي ربه، ويلاقي سعيه، أوجب له أخذ الحذر، والتوقي من الأعمال التي توجب الفضيحة والمعقبة، والاستعداد بالأعمال الصالحة، التي توجب السعادة والمثوبة، ولهذا قال تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾، وذلك بما يبدي لكم من أوصاف عظمته، وكمال عدله وشدة نكاله، ومع شدة عقابه، فإنه رؤوف رحيم.

ومن رافته ورحمته، أنه خوف العباد،

وزجرهم عن الشقي والفساد، كما قال تعالى - لما ذكر العقوبات -: ﴿ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون﴾، فرأفته ورحمته، سهلت لهم الطرق، التي ينالون بها الخيرات، ورأفته ورحمته، حذرتهم من الطرق التي تفضي بهم إلى المكروهات.

فنسأله تعالى أن يتمم علينا إحسانه بسلوك الصراط المستقيم، والسلامة من الطرق، التي تفضي بسالكها إلى الجحيم.

﴿٣١ - ٣٢﴾ ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم﴾ قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين﴾ هذه الآية هي الميزان، التي يعرف بها من أحب الله حقيقة، ومن ادعى ذلك دعوى مجردة، فعلاحة محبة الله، اتباع محمد ﷺ، الذي جعل متابعتها وجميع ما يدعو إليه، طريقاً إلى محبته ورضوانه، فلا تنال محبة الله ورضوانه وثوابه، إلا بتصديق ما جاء به الرسول من الكتاب والسنة وامتنال أمرهما، واجتناب نهيهما.

فمن فعل ذلك، أحبه الله، وجزاه جزء العبيد، وغفر له ذنوبه، وستر عليه عيوبه، فكأنه قيل: ومع ذلك، فما حقيقة اتباع الرسول وصفتها؟

﴿٣٢﴾ فأجاب بقوله: ﴿قل أطيعوا الله والرسول﴾ بامتنال الأمر، واجتناب النهي، وتصديق الخير، ﴿فإن تولوا﴾ عن ذلك، فهذا هو الكفر، والله لا يحب الكافرين﴾.

﴿٣٣ - ٣٤﴾ ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾ ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم﴾ إلى آخر القصة.

الله تعالى من عباده أصفياء، بصطفيتهم ويختارهم، ويمن عليهم بالفضائل العالية، والنعوت السامية، والعلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والخصائص المتنوعة، فذكر هذه البيوت الكبار، وما احتوت عليه من كمال الرجال، الذين حازوا أوصاف الكمال، وأن الفضل والخير، تسلسل في ذراريتهم وشمل ذكورهم ونسائهم، وهذا

(١) قدم الشيخ - رحمه الله - هذا الجزء من الآية، وقد أثرت إيقاه على ما هو عليه، مع التني إلى هذا التقديم.

وأخره، فنعم من الكلام في هذه المدة، فكان في هذا، مناسبة لحصول الولد من بين الشيخ الكبير، والمرأة العاقر.

وكونه لا يقدر على مخاطبة الآدميين، ولسانه منطلق بذكر الله، وتسيبته، آية أخرى.

فحينئذ حصل له الفرح والاستبشار، وشكر الله، وأكثر من الذكر والتسبيح بالشايب والأبكار.

وكان هذا المولود من بركات مريم بنت عمران، على زكريا، فإن ما من الله به عليها، من ذلك الرزق الهنيئ، الذي يحصل بغير حساب، ذكره وهيجه على التضرع والسؤال، والله تعالى هو المتفضل بالسبب والمسبب، ولكنه يقدر أموراً محبوبة على يد من يجه، ليرفع الله قدره، ويعظم أجره.

﴿٤٢﴾ ثم عاد تعالى إلى ذكر مريم، وأنها بلغت في العبادة والكمال، مبلغاً عظيماً، فقال تعالى: ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك﴾، أي: اختارك، ووهب لك من الصفات الجلية، والأخلاق الجميلة.

﴿وطهرتك﴾ من الأخلاق الرذيلة، ﴿واصففاك على نساء العالمين﴾، ولهذا قال ﷺ: «كامل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء، كفضل الشريد على سائر الطعام».

﴿٤٣﴾ فنادتها الملائكة عن أمر الله لها بذلك، لتختبئ بنعم الله، وتشكر الله، وتقوم بحقوقه، وتشتغل بخدمته، ولهذا قالت الملائكة: ﴿يا مريم اقنتي لربك﴾، أي: أكثري من الطاعة، والخضوع والخشوع لربك، وأديمي ذلك ﴿واسجدي واركعي مع الرَّاكِعِينَ﴾، أي: صلي مع المصلين، فقامت بكل ما أمرت به، وبرزت، وفاقته في كمالها.

ولما كانت هذه القصة وغيرها من أكبر الأدلة على رسالة محمد ﷺ، حيث أخبر بها مفصلة محققة، لا زيادة فيها ولا نقص، وما ذاك إلا لأنه وحي من الله العزيز الحكيم، لا يتعلم من الناس - قال تعالى -: ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم﴾، حيث جاءت بها أمها،

من أجل منه وأفضل مواقع جوده وكرمه. ﴿والله سميع عليم﴾ يعلم من يستحق الفضل والتفضيل، فيضع فضله حيث اقتضت حكمته.

﴿٣٤ - ٣٦﴾ فلما قرر عظمة هذه البيوت، ذكر قصة مريم وابنها عيسى ﷺ، وكيف تسلسلا من هذه البيوت الفاضلة، وكيف تنقلت بهما الأحوال، من ابتداء أمرهما إلى آخره، وأن امرأة عمران، قالت - متضرعة إلى ربها، متقرية إليه بهذه القرية التي يحبها، التي فيها تعظيم بيته وملازمة طاعته -: ﴿إني نذرت لك ما في بطني محرراً﴾، أي: خادماً لبيت العبادة، المشحون بالمحبين.

فكانت بشارته بهذا النبي الكريم، تتضمن البشارة بـ «عيسى» ابن مريم، والتصديق له، والشهادة له بالرسالة.

فهذه الكلمة من الله، كلمة شريفة، اختص الله بها عيسى ابن مريم، وإلا فهي من جملة كلماته التي أوجد بها المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب، ثم قال له كن فيكون﴾.

وقوله: ﴿وسيداً وحسوراً﴾، أي: هذا المشر به وهو يحيى، سيد من فضلاء الرسل وكرامهم: «والحضور»، قيل: هو الذي لا يولد له، ولا شهوة له في النساء، وقيل: هو الذي عصم وحفظ من الذنوب والشهوات الضارة، وهذا اليق المعين.

﴿ونبياً من الصالحين﴾، الذين بلغوا في الصلاح ذروته العالية.

﴿٤٠﴾ ﴿قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر؟!﴾، فهذا مانعان، فمن أي طريق - يا رب - يحصل لي ذلك، مع ما ينافي ذلك؟!.

﴿قال كذلك الله يفعل ما يشاء﴾، فإنه - كما اقتضت حكمته جريان الأمور بأسبابها المعروفة، فإنه قد يخرق ذلك، لأنه الفعال لما يريد، الذي قد انقادت الأسباب لقدرته، ونفذت فيها مشيئته وإرادته، فلا يتعاصى على قدرته شيء من الأسباب، ولو بلغت في القوة، ما بلغت.

﴿٤١﴾ ﴿قال رب اجعل لي آية﴾ ليحصل السرور والاستبشار، وإن كنت - يا رب - متيقناً ما أخبرتنني به، ولكن النفس تفرح، ويطمئن القلب إلى مقدمات الرحمة واللفظ.

﴿قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا﴾، ﴿و﴾ في هذه المدة «أذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار». أول النهار

كان في هذا الكلام، نوع تضرع منها، وانكسار نفس حيث كان نذرها بناء على أنه يكون ذكراً، يحصل منه من القوة والخدمة والقيام بذلك، ما يحصل من أهل القوة، والأنى بخلاف ذلك، فحسر الله قلبها، وتقبل الله نذرها، وصارت هذه الأنى، أكمل وأتم من كثير من الذكور، بل من أكثرهم، وحصل بها من المقاصد أعظم مما يحصل بالذكر، ولهذا قال:

﴿فتقبلنا مريم بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً﴾، أي: ربيت تربية عجيبة، دينية، أخلاقية، أدبية، كملت بها أحوالها، وصلحت بها أقوالها وأفعالها، ونما فيها كمالها، ويسر الله لها زكريا كائلاً.

وهذا من منة الله على العبد، أن يجعل من يتولى تربيته من الكاملين المصلحين. ﴿٣٧ - ٣٩﴾ ثم إن الله تعالى أكرم مريم وزكريا، حيث يسر لمريم من الرزق الحاصل بلا كد ولا تعب، وإنما هو كرامة أكرمها الله به.

إذ ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب﴾ وهو محل العبادة، وفيه إشارة إلى كثرة صلاتها وملازمتها لمحرابها، ﴿وجد عندها رزقاً﴾، هينئاً معداً.

﴿قال يا مريم أنى لك هذا؟ قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾.

﴿قال يا مريم أنى لك هذا؟ قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾.

﴿قال يا مريم أنى لك هذا؟ قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾.

فاختصموا أيهم يكفلها، لأنها بنت إمامهم ومقدمهم، وكلهم يريد الخير والأجر من الله، حتى وصلت بهم الخصومة إلى أن اقرعوا عليها، فألقوا أقلامهم مقترعين، فأصابت القرعة زكريا، رحمة من الله به وبها.

فأنت - يا أيها الرسول - لم تحضر تلك الحالة لتعرفها، فتصفا على الناس، وإنما الله نياك بها، وهذا هو المقصود الأعظم من سياق القصص أنه يحصل بها العبرة، وأعظم العبر، الاستدلال بها على التوحيد والرسالة، والبحث وغيرها من الأصول الكبار.

﴿٤٥﴾ ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين﴾، أي: له الرجاء، والجاه العظيم في الدنيا والآخرة عند الخلق.

ومع ذلك فهو - عند الله - من المقربين، الذين هم أقرب الخلائق إلى الله، وأعلاهم درجة، وهذه إشارة لا يشبهها شيء من البشارات.

ومن تمام هذه الإشارة أنه: ﴿يكلم الناس في المهدي﴾، فيكون تكليمه آية من آيات الله، ورحمة منه بأه وبإبناؤه، ﴿ور﴾ كذلك يكلمهم ﴿كهلاً﴾، أي: في حال كهولة، وهذا تكليم النبوة والدعوة والإرشاد.

فكلامه في المهدي، فيه آيات وبراهين على صدقه ونبوته، وبراهين أمه مما يظن بها من الظنون البينة، وكلامه في كهولته، فيه نفعه العظيم للخلق، وكونه واسطة بينهم وبين ربهم، في وحيه، وتبليغ دينه وشرعه.

ومع ذلك فهو ﴿من الصالحين﴾ الذين أصلح الله قلوبهم بمعرفته وحيه، وألستهم بالثناء عليه وذكره، وجوارحهم بطاعته وخدمته.

﴿٤٧﴾ ﴿قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسنني بشر﴾، وهذا من الأمور المستغربة ﴿قال كذلك الله يخلق ما يشاء﴾ ليعلم العباد أنه على كل شيء قدير، وأنه لا ممانع لإرادته.

﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ ويعلمه الكتاب، أي: جنس الكتب السابقة، والحكم بين الناس،

ويعطيه النبوة.

﴿٤٩﴾ ﴿ور﴾ يجعله رسولاً إلى بني إسرائيل، ويؤيده بالآيات البينات، والأدلة القاهرة حيث قال: ﴿أنى قد جئتكم بآية من ربكم﴾ تلذكم أنى رسول الله حقاً.

وذلك ﴿أنى﴾ أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وأبرىء الأكمه، وهو ممسوح العينين، الذي فقد بصره وعينيه، ﴿والأبرص، وأحيى الموتى بإذن الله، وأنبتكم بما تأكلون وما تدرخون في بيوتكم إن في ذلك للمذكور﴾ لآية لكم إن كنتم مؤمنين. ومصداقاً لما بين يدي من التوراة، فأيدته الله بجنسين من الآيات والبراهين الخوارق المستغرمة التي لا يمكن لغير الأنبياء الإتيان بها، والرسالة والدعوة، والدين الذي جاء به، وأنه دين التوراة، ودين الأنبياء السابقين، وهذا أكبر الأدلة على صدق الصادقين.

فإنه لو كان من الكاذبين، لخالف ما جاءت به الرسل، ولناقضهم في أصولهم وفروعهم، فعلم بذلك أنه رسول الله، وأن ما جاء به حق لا ريب فيه.

وأيضاً فقوله: ﴿ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾، أي: ولأخفف عنكم بعض الأصار، والأغلال.

﴿٥١﴾ ﴿فانقروا الله وأطيعون﴾ إن الله ربي وربكم فاعبدوه، وهذا ما يدعو إليه جميع الرسل، عبادة الله وحده لا شريك له، وعلماهم.

وهذا هو الصراط المستقيم الذي من يسلكه أوصله إلى جنات النعيم، فحينئذ اختلفت أحزاب بني إسرائيل في عيسى، فمنهم من آمن به واتبعه، ومنهم من كفر به وكذبه، ورى أمه بالفاحشة كاليهود.

﴿٥٢﴾ ﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر﴾ والاتفاق على رد دعوته، ﴿قال﴾: نادياً لبني إسرائيل على مؤازرته ﴿من أنصاري إلى الله، قال الحواريون﴾، أي: الأنصار.

﴿نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد أنا مسلمون﴾، وهذا من منة الله عليهم، وعلى عيسى، حيث أنهم هؤلاء الحواريين، الإيمان به، والانقياد لطاعته،

والنصرة لرسوله. ﴿٥٣﴾ ﴿ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول﴾، وهذا التزام تام للإيمان، بكل ما أنزل الله، واطاعة رسوله.

﴿فأكتبنا مع الشاهدين﴾ لك بالوحدانية، ولنيك بالرسالة، ولديك بالحق والصدق.

﴿٥٤﴾ ﴿وأما من أحس عيسى منهم الكفر وهم جمهور بني إسرائيل، فإنهم ﴿مكروا﴾ بعيسى ﴿ومكر الله﴾ بهم، ﴿والله خير الماكرين﴾، فأنفقوا على قتله وصلبه، وشبه لهم شبه عيسى.

﴿٥٥﴾ ﴿فقبضوا على من شبه لهم به، وقال الله لعيسى: ﴿إني متوفيك ورافعتك إلي ومطهرتك من الذين كفروا﴾، فرفعه الله إليه، وطهره من الذين كفروا، وصلبوا من قتلوه، طائنين أنه عيسى، وياقوا بالإثم العظيم.

وسيتول عيسى ابن مريم، في آخر هذه الأمة حكماً عادلاً، يقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويشيع ما جاء به محمد ﷺ، ويعلم الكاذبون غرورهم وخداعهم، وأنهم مفرورون مخدوعون.

وقوله: ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾، المراد بمن اتبعه: الطائفة التي آمنت به، ونصرهم الله على من انحرف عن دينه.

ثم لما جاءت أمة محمد ﷺ، فكانوا هم أتباعه حقاً، فأيدهم الله ونصرهم على الكفار كلهم، وأظهرهم بالدين الذي جاءهم به محمد ﷺ: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض﴾، الآية.

ولكن حكمة الله عادلة، فإنها اقتضت أن من تمسك بالدين، نصره الله النصر السبين، وأن من ترك أمره ونهيه، ونبذ شرعه، وتجرا على معاصيه، إنه يعاقبه ويسلط عليه الأعداء، ﴿والله عزيز حكيم﴾.

وقوله: ﴿ثم إلي مرجعكم، فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾.

﴿٥٦-٥٧﴾ ﴿فقد بين ما يفعله بهم، فقال: ﴿فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين﴾ وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب

الظالمين».

وهذا الجزء عام لكل من اتصف بهذه الأوصاف، من جميع أهل الأديان السابقة. ثم لما بعث سيد المرسلين، وخاتم النبيين، ونسخ رسالته، الرسلات كلها، ونسخ دينه، جميع الأديان، صار التمسك بغير هذا الدين، من الهالكين.

﴿٥٨﴾ وقوله تعالى: ﴿ذلك نلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم﴾. أي: هذا القرآن العظيم، الذي فيه نيا الأولين والآخرين، والأنبياء والمرسلين - هو آيات الله البينات، وهو الذي يذكر العباد كل ما يحتاجونه، وهو الحكيم المحكم، صادق الأخبار، حسن الأحكام.

﴿٥٩-٦٢﴾ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون \* الحق من ربك فلا تكن من الممتريين \* فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبنائكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا ونفسيك ثم نبهل فنجعل لعنة الله على الكافرين \* إن هذا لهر الفصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم \* لما ذكر قصة مريم وعيسى ونباهاما الحق، وأنه عبد أنعم الله عليه، وأن من زعم أن فيه شيئاً من الإلهية، فقد كذب على الله، وكذب جميع أنبيائه، وكذب عيسى ﷺ، فإنه الشبهة التي عرضت لمن اتخذها إلهاً، شبهة باطلة، فلو كان لها وجه صحيح، لكان آدم أحق منه، فإن خلق من دون أم ولا أب، ومع ذلك، فاتفق البشر كلهم، على أنه عبد من عباد الله، فدعوى إلهية عيسى، بكونه خلق من أم بلا أب، دعوى من أبطل الدعاوى.

﴿٦٠﴾ وهذا هو الحق الذي لا ريب فيه، أن عيسى - كما قال عن نفسه: ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾، وكان قد قدم على النبي ﷺ وقد نصارى نجران، وقد تصلبوا على باطلهم، بعدما أقام عليهم النبي ﷺ البراهين بأن عيسى عبد الله ورسوله، حيث زعموا إلهية.

﴿٦١﴾ فوصلت به وبهم الحال، إلى أن أمره الله تعالى أن يباهلهم، فإنه قد

اتضح لهم الحق، ولكن العناد والتمصب متعامم منه.

فدعاهم رسول الله ﷺ إلى المباشلة، بأن يحضر هو وأهله وأبنائه، وهم يحضرون بأهلهم وأبنائهم، ثم يدعون الله تعالى، أن ينزل عفونه ولعمته على الكاذبين، فتشارروا هل يجيونه إلى ذلك؟

فاتفق رأيهم أن لا يجيوه، لأنهم عرفوا أنه نبي الله حقاً، وأنهم - إن باهلوه - هلكوا، هم وأولادهم وأهلهم، فصالحوه وبذلوا له الجزية، وطلبوا منه المودعة والمهادنة.

فأجابهم ﷺ ولم يرحبهم، لأنه حصل المقصود من وضوح الحق، وتبين عنادهم حيث صمموا على الامتناع عن المباشلة، وذلك يبرهن على أنهم كانوا ظالمين.

﴿٦٢﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿إن هذا لهر الفصص الحق﴾، أي: الذي لا ريب فيه، ﴿وإن الله لهر العزيز﴾، الذي فهر بقدرته وقوته جميع الموجودات، وأذعنت له سكان الأرض والسماوات.

ومع ذلك فهو «الحكيم» الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها<sup>(١)</sup>.

﴿٦٤﴾ ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ هذه الآية الكريمة، كان النبي ﷺ يكتب بها إلى ملوك أهل الكتاب، وكان يقرأ أحياناً في الركعة الأولى من سنة الفجر: ﴿قولوا آمنا بالله﴾، الآية.

ويقراء بها في الركعة الأخيرة من سنة الصبح، لاشتغالها على الدعوة إلى دين واحد، قد اتفق عليه الأنبياء والمرسلون، واحتوت على توحيد الإلهية المبني على عبادة الله وحده، لا شريك له، وأن يعتقد أن البشر وجميع الخلق كلهم في طور البشرية، لا يستحق منهم أحد شيئاً من خصائص الربوبية، ولا من نعوت الإلهية.

فإن انقاد أهل الكتاب وغيرهم إلى هذا فقد اهدوا.

﴿٦٥﴾ ﴿إن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا

مسلمون﴾، كقوله تعالى: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ إلى آخرها.

﴿٦٥-٦٨﴾ ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجونني إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ما أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون \* ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين \* إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين﴾ كانت الأديان كلها، اليهود والنصارى، والمشركون، وكذلك المسلمون كلهم، يدعون أنهم على ملة إبراهيم.

فأخبر الله تعالى أن أولى الناس به، محمد ﷺ وأتباعه، وأنواع الخليل، قبل محمد ﷺ.

وأما اليهود والنصارى، والمشركون فإبراهيم بري، منهم، ومن ولايتهم، لأن دينه، الحنيفية السمحة، التي فيها الإيمان بجميع الرسل، وجميع الكتب، وهذه خصيصة المسلمين.

وأما دعوى اليهود والنصارى، أنهم على ملة إبراهيم، فقد علم أن اليهودية والنصرانية، التي هم يدعون أنهم عليها، لم تؤسس إلا بعد الخليل.

فكيف يحاجون في هذا الأمر، الذي يعلم به كذبهم واقتراؤهم؟! فبهم حاجوا فيما لهم به علم، فكيف يحاجون في هذه الحالة؟ فهنا قبل أن ينظر ما احتوى عليه قولهم من البطلان، يعلم فساد دعواهم.

وفي هذه الآية دليل على أنه لا يحل للإنسان أن يقول أو يجادل فيما لا علم له به.

وقوله: ﴿والله ولي المؤمنين﴾، فكلمة قوي إيمان العبد، تولاها الله بطلعه، ويسره ليسرى، وجبه العسرى.

﴿٦٩-٧٤﴾ ﴿ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون \* يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون \* يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل



ذلك، ويصرحون بالكذب على الله، وهم يعلمون حالهم وسوء مغيبهم.

﴿٧٩-٨٠﴾ ﴿٧٩﴾ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ﴿٨٠﴾ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أياً أمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴿٨١﴾ أي: يمتنع ويستحيل كل الاستحالة لبشر من الله عليه بالوحي والكتاب والنبوة، وأعطاه الحكم الشرعي - أن يأمر الناس بعبادته، ولا بعبادة النبيين والملائكة واتخاذهم أرباباً، لأن هذا هو الكفر، فكيف، وقد بعث بالإسلام المنافي للكفر من كل وجه، فكيف يأمر بضده؟!!

هذا من المستنح، لأن حاله وما هو عليه، وما من الله به عليه من الفضائل والخصائص، تقتضي العبودية الكاملة، والخضوع التام لله الواحد القهار.

وهذا جواب لوفد نجران، حين نمدى بهم الغرور، ووصلت بهم الحال والكبر، أن قالوا: أتأمرنا - يا محمد - أن نعبدك؟ حين أمرهم بعبادة الله وطاعته، فينب البارئ انتفاء ما قالوا، وأن كلامهم وكلام أمثالهم في هذا ظاهر البطلان.

﴿٨١-٨٢﴾ ﴿٨١﴾ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴿٨٢﴾ فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴿٨٣﴾ هذا إخبار منه تعالى أنه أخذ عهد النبيين وميثاقهم كلهم، بسبب ما أعطاهم ومن به عليهم، من الكتاب والحكمة، المقتضي للقيام التام، بحق الله وتوفيقته، أنه إن جاءهم رسول مصدق لما معهم، بعث بما بعثوا به من التوحيد والحق والقسط والأصول التي اتفقت عليها الشرائع، أنهم يؤمنون به، وينصرونه.

فأقرروا على ذلك، واعترفوا، والتزموا وأشهدهم، وشهد عليهم، وتوعد من خالف هذا الميثاق.

وهذا أمر عام بين الأنبياء أن جميعهم طريقتهم واحد، وأن دعوة كل واحد منهم، قد اتفقا وتماهدوا عليها، وعموم ذلك أنه أخذ على جميعهم الميثاق، بالإيمان،

الكثير، يؤده إليك، ومنهم طائفة خونة، يخونك في أقل القليل، ومع هذه الخيانة الشنيعة، فإنهم يتأولون بالأعذار الباطلة فيقولون: ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾، أي: ليس علينا جناح إذا خانهم واستبحنا أموالهم، لأنهم لا حرمة لهم.

قال تعالى: ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ أن عليهم أشد الحرج، فجمعوا بين الخيانة وبين احتقار العرب، وبين الكذب على الله، وهم يعلمون ذلك، ليسوا كمن فعل ذلك جهلاً وضلالاً.

ثم قال تعالى: ﴿بلى﴾، أي: ليس الأمر كما قالوا.

فإنه ﴿من أوفى بعهده واتقى﴾، أي: قام بحقوق الله، وحقوق خلقه، فإن هذا هو النقي، والله يجبه.

أي: ومن كان بخلاف ذلك، فلم يف بعهده وعقوده، التي بينه وبين الخلق، ولا قام بتقوى الله، فإن الله يمقته، وسيجازهه على ذلك أعظم النكال.

﴿٧٧﴾ ﴿٧٧﴾ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ﴿٧٨﴾ أي: إن الذين يشترون الدنيا بالدن، فيختارون الحطام القليل من الدنيا، ويتوسلون إليها بالإيمان الكاذبة، واليهود المنكوفة، فهؤلاء ﴿لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾، أي: قد حق عليهم سخط الله، ووجب عليهم عقابه، وحرماً ثوابه، ونعماً من التزكية، وهي التطهير.

بل يردون القيامة، وهم مشلونون بالجرائم، متدنون بالذنوب العظام.

﴿٧٨﴾ ﴿٧٨﴾ وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴿٧٩﴾ أي: وإن من أهل الكتاب فريقاً هم محرفون لكتاب الله، يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب، وهذا يشمل التحريف اللفظي، والتحريف المعنوي.

ثم هم - مع هذا التحريف الشنيع - يوهمون أنه من الكتاب، وهم كذبة في

وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ﴿٨٠﴾ وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النار واكفروا آخروه لعلمهم يرجعون ﴿٨١﴾ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله أن يوتي أحد مثل ما أوثيمت أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴿٨٢﴾ يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴿٨٣﴾ هذا من منة الله على هذه الأمة، حيث أخبرهم بمكرو أعدائهم من أهل الكتاب، وأنهم - من حرصهم على إضلال المؤمنين - ينوعون المكدرات الخيثة.

فقال طائفة منهم: ﴿آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار﴾، أي: أوله، وارجعوا عن دينهم آخر النهار، فإنهم - إذا رأوكم راجعين، وهم يعتقدون فيكم العلم استرابوا بدينهم، وقالوا: لولا أنهم رأوا فيه ما لا يحببهم، ولا يوافق الكتب السابقة، لم يرجعوا.

هذا مكروهم، والله تعالى هو الذي يهدي من يشاء، وهو الذي بيده الفضل، يختص به من يشاء، فخصصكم - يا هذه الأمة - بما لم يخص به غيركم.

ولم يدر هؤلاء الماكرون أن دين الله حق، وإذا وصلت حقيقته إلى القلوب، لم يزد صاحبها - على طول المدى - إلا إيماناً وقيناً.

ولم تزد الشبهة، إلا تمسكاً بدينه، وحمداً لله، وثناء عليه حيث من به عليه. وقولهم: ﴿أن يوتي أحد مثل ما أوثيمت أو يحاجوكم عند ربكم﴾، يعني: أن الذي حملهم على هذه الأعمال المنكرة، المحسد والبغي، وخشية الاحتجاج عليهم.

كما قال تعالى: ﴿وذكر كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً، حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾، الآية.

﴿٧٥-٧٦﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿٧٦﴾ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴿٧٧﴾ بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين ﴿٧٨﴾ يخبر تعالى عن أهل الكتاب، أن منهم طائفة آمناء، بحيث لو أمنت على قناطر من القنود، وهي المال

والنصرة لمحمد ﷺ.

فمن ادعى أنه من أتباعهم، فهذا دينهم الذي أخذته الله عليهم، وأقروا به واعترفوا.

فمن تولى عن اتباع محمد، ممن يزعم أنه من أتباعهم، فإنه فاسق خارج عن طاعة الله، مكذب للرسول الذي يزعم أنه من أتباعه، مخالف لطريقه.

وفي هذا إقامة الحجة والبرهان، على كل من لم يؤمن بمحمد ﷺ من أهل الكتب والأديان، وأنه لا يمكنهم الإيمان برسولهم، الذين يزعمون أنهم أتباعهم، حتى يؤمنوا بإمامهم وخاتمهم ﷺ.

﴿٨٣- ٨٥﴾ «أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإلى يرجعون» \* قل أسأ بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون \* ومن يتبغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين» \* قد تقدم في سورة البقرة أن هذه الأصول التي هي أصول الإيصال التي أمر الله بها هذه الأمة، قد اتفقت عليها الكتب والرسول، وأنها هي الفرض الموجه لكل أحد، وأنها هي الدين والإسلام الحقيقي، وأن من ابغى غيرها، فعلمه مردود، وليس له دين يعول عليه.

فمن زهد عنه، ورغب عنه، فأين يذهب؟ إلى عبادة الأشجار والأحجار والثيران؟ أو إلى اتخاذ الأحبار والرهبان والصلبيان، أو إلى التعطيل لرب العالمين؟، أو إلى الأديان الباطلة، التي هي من رعي الشياطين؟ وهؤلاء كلهم - في الآخرة - من الخاسرين.

﴿٨٦- ٩١﴾ «كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين» \* أولئك جزأؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين \* خالدن فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون \* إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم \* إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن نقبل تربتهم وأولئك هم الضالون \* إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملة - الأرض ذهباً ولو افتدى به هذا

أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين» \* يعني: أنه يبعد كل البعد، أن يهدي الله قوماً عرفوا الإيمان، ودخلوا فيه، وشهدوا أن الرسول حق، ثم ارتدوا على أعقابهم، ناكسين ناكسين؛ لأنهم عرفوا الحق فرفضوه.

ولأن من هذه الحالة وصفه، فإن الله يعاقبه بالانتكاس، وانقلاب القلب جزء له، إذ عرف الحق فتركه، والباطل فأثروه، فولاه الله ما تولى لنصفه.

فهؤلاء «عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» خالدن في اللعنة والعذاب «لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون» إذا جاءهم أمر الله لأن الله، عمرهم ما يتذكر فيه من تذكر، وجاءهم النذير.

ثم إنه تعالى استثنى من هذا الوعيد، الثانيين من كفرهم وذنوبهم، المصلحين لعبوبهم، فإن الله يغفر لهم ما قدموه، ويعفو عنهم ما أسلفوه.

﴿٩١﴾ «ولكن من كفر وأصر على كفره، ولم يزد إلا كفراً حتى مات على كفره، فهؤلاء هم الضالون عن طريق الهدى، السالكون لطريق الشقاء، وقد استحقوا بهذا العذاب الأليم، فليس لهم ناصر من عذاب الله، ولو بذلوا ملة الأرض ذهباً ليفتدوا به، لم يتفهم شيئاً، فعياداً بالله من الكفر وفروعه.

﴿٩٢﴾ «لن تتلوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم» \* يعني: لن تتلوا وتذكروا البر، الذي هو اسم جامع للخيرات، وهو الطريق الموصل إلى الجنة، حتى تنفقوا مما تحبون، من أطيب أموالكم وأزكاها.

فإن النفقة من الطيب المحبوب للنفوس، من أكبر الأدلة على سماحة النفس، واتصافها بمكارم الأخلاق، ورحمتها ورفقتها.

ومن أدل الدلائل على محبة الله، وتقديم محبته على محبة الأموال، التي جبلت النفوس على قوة التعلق بها، فمن أثر محبة الله على محبة نفسه، فقد بلغ الذروة العليا من الكمال، وكذلك من أتقى الطيبات، وأحسن إلى عباد الله، أحسن الله إليه ووفقه أعمالاً وأخلاقاً، لا تحصل بدون هذه الحالة.

وأيضاً فمن قام بهذه النفقة على هذا

الوجه، كان قيامه ببقية الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة، من طريق الأولى والأحرى، ومع أن النفقة من الطيبات، هي أكمل الحالات، فمهما أتقى العبد من نفقة قليلة أو كثيرة من طيب أو غيره، فإن الله به عليه.

وسيجزي كل متفق، بحسب عمله، سيجزيه في الدنيا بالخلف العاجل، وفي الآخرة بالتعظيم الآجل.

﴿٩٣- ٩٤﴾ «كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأنزلنا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين» \* فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون» \* من جملة الأمور التي قدح فيها اليهود بنسبة عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم، أنهم زعموا أن النسخ باطل، وأنه لا يمكن أن يأتي نبي يخالف النبي الذي قبله.

فكذبهم الله بأسر يعرفونه، فإنهم يعترفون بأن جميع الطعام - قبل نزول التوراة - كان حلالاً لبني إسرائيل، إلا أشياء يسيرة حرّمها إسرائيل، وهو: يعقوب عليه السلام - على نفسه ومنعها إياه لمرض أصابه.

ثم إن التوراة، فيها من التحريمات التي نسخت، ما كان حلالاً قبل ذلك شيء كثير. قل لهم - إن أنكروا ذلك -: «فأنزلنا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين» \* بزعمكم أنه لا نسخ ولا تحليل ولا تحريم.

وهذا من أبلغ الحجج، أن يحتج على الإنسان بأمر يفعله ويعترف به ولا ينكره، فإن انقاد للحق، فهو الواجب، وإن أبى ولم ينفذ بعد هذا البيان، تبين كذبه وافتراؤه، وظلمه وعلان ما هو عليه، وهو الواقع من اليهود.

﴿٩٥﴾ «قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين» \* أي: قل صدق الله في كل ما قاله، ومن أصدق من الله قليلاً وحديثاً، وقد بيّن في هذه الآيات، من الأدلة على صحة رسالة محمد ﷺ، وبراهين دعوته، ويطلان ما عليه المنحرفون من أهل الكتاب، الذين كذبوا رسوله، وردوا دعوته، فقد صدق الله في ذلك، وأتقن عباده على ذلك، ببراهين وحجج، تنصّد لها الجبال، وتخضع لها الرجال.

عظيم ﴿ هذه الآيات فيها حث الله عباده المؤمنين أن يقوموا بشكر نعمه العظيمة، بأن يتقوه حتى تقواه، وأن يقوموا بطاعته، وترك معصيته، مخلصين له بذلك، وأن يفيموا دينهم، ويستمسكوا بحبله الذي أوصله إليهم، وجعله السبب بينهم وبينه، وهو دينه وكتابه، والاجتماع على ذلك وعدم التفرق، وأن يستديموا ذلك إلى الممات.

وذكرهم ما هم عليه قبل هذه النعمة، وهو: أنهم كانوا أعداء متفرقين، فجمعهم بهذا الدين، وألف بين قلوبهم، وجعلهم إخواناً، وكانوا على شفا حفرة من النار، فأنقذهم من الشقاء، ونهج بهم طريق السعادة.

﴿ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ إلى شكر الله والتمسك بحبله، وأمرهم بتتبع هذه الحالة، والسبب الأقوى الذي يتمكنون به من إقامة دينهم، بأن يتصدى منهم طائفة يحصل فيها الكفاية.

﴿ يدعون إلى الخير ﴾ وهو الدين، أصوله، وفروعه وشرائعه.

﴿ ويسأرون بالمعروف ﴾ وهو ما عرف حسنه شرعاً وعقلاً.

﴿ وينهون عن المنكر ﴾ وهو ما عرف قبحه شرعاً وعقلاً.

﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ المذكورون لكل مطلوب، التاجون من كل مرهوب.

ويندخل في هذه الطائفة أهل العلم والتعليم، والمتصدون للخطابة وعظ الناس، عموماً وخصوصاً، والمحتسبون الذين يقومون بإلزام الناس بإقامة الصلوات، وإيتاء الزكاة، والقيام بشرائع الدين، وينهونهم عن المنكرات.

فكل من دعا الناس إلى خير على وجه العموم، أو على وجه الخصوص، أو قام بنصيحة عامة أو خاصة، فإنه داخل في هذه الآية الكريمة.

ثم نهام عن سلوك مسلك المتفرقين، الذين جاءهم الدين والبيئات، الموجب لقيامهم به، واجتماعهم، فتفرقوا واختلفوا وصاروا شيعاً، ولم يصدر ذلك عن جهل

النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم - ويخ المعاندين منهم بكفرهم بآيات الله، وصددهم الخلق عن سبيل الله، لأن عوامهم تبع لعلمائهم، والله تعالى يعلم أحوالهم وسيجازيهم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

﴿ ١٠٠ - ١٠١ ﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾ وكيف تكفرون وأنتم تلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يحتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ﴿ لما أقام الحجج على أهل الكتاب، ووبخهم بكفرهم وعنادهم، حذر عباده المؤمنين عن الاعتزاز بهم، وبين لهم أن هذا الفريق منهم، حريصون على إضراركم وردكم إلى الكفر بعد الإيمان.

ولكن - والله الحمد - أنتم - يا مشر المؤمنين - بعدما مرَّ الله عليكم بالدين، رأيتم آياته ومحاسنه ومنافيه وفضائله، وفيكم رسول الله الذي أرشدكم إلى جميع مصالحكم، واعتصمتم بالله وبجبله، الذي هو دينه - يستحيل أن يردوكم عن دينكم، لأن الدين الذي بني على هذه الأصول والذعام الثابتة الأساس، المشرفة الأنوار، تنجذب إليه الأفئدة، ويأخذ بمجامع القلوب، ويوصل العباد إلى أجل غاية، وأفضل مطلوب.

﴿ ومن يحتصم بالله ﴾، أي: يتوكل عليه، ويحتمي بحمائه، ﴿ فقد هُدي إلى صراط مستقيم ﴾، وهذا فيه الحث على الاعتصام به، وأنه السبيل إلى السلامة والهداية.

﴿ ١٠٢ - ١٠٥ ﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيئات وأولئك لهم عذاب

فحين عند ذلك على الناس كلهم، اتباع ملة إبراهيم، من توحيد الله وحده لا شريك له، وتصديق كل رسول أرسله الله، وكل كتاب أنزله، والإعراض عن الأديان الباطلة المنحرفة.

فإن إبراهيم كان معرضاً عن كل ما يخالف التوحيد، متبرئاً من الشرك وأهله.

﴿ ٩٦ - ٩٧ ﴾ ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدياً للعالمين ﴾ في آيات بيئات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴿ يخبر تعالى بعظمة بيته الحرام، وأنه أول البيوت التي وضعها الله في الأرض لعبادته، وإقامة ذكره، وأن فيه من البركات، وأنواع الهدايات، وتنوع المصالح والمنافع للعالمين - شيء كثير، وفضل غزير، وأن فيه آيات بيئات، تذكر بمقامات إبراهيم الخليل، وتنقلاته في الحج، ومن بعده تذكر بمقامات سيد الرسل وإمامهم.

وفيه الأمن<sup>(١)</sup> الذي من دخله كان آمناً قدراً، مؤمناً شرعاً ودينياً.

فلما احتوى على هذه الأمور التي هذه مجملاتها، وتكثر تفصيلاتها - أوجب الله حجه على المكلفين المستطيعين إليه سبيلاً، وهو الذي يقدر على الوصول إليه بأي مركوب يناسبه، وزاد بتزوده، ولهذا أتى بهذا اللفظ الذي يمكنه تطبيقه على جميع المركوبات الحادثة، والتي ستحدث.

وهنا من آيات القرآن، حيث كانت أحكامه صالحة لكل زمان وكل حال، ولا يمكن الصلاح التام بدونها، فمن أذن لذلك وقام به، فهو من المهتدين المؤمنين، ومن كفر، فلم يلتزم حج بيته، فهو خارج عن الدين، ومن كفر، فإن الله غني عن العالمين.

﴿ ٩٨ - ٩٩ ﴾ ﴿ قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون ﴾ قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون ﴿ لما أقام فيما تقدم، الحجج على أهل الكتاب - مع أنهم قبل ذلك، يعرفون

(١) مراد المؤلف - رحمه الله - في أي من الحرم: الأمن وقد غيرت الكلمة في المطبوع إلى: وفيه الحرم الذي من دخله.

وضلال، وإنما صدر عن علم وقصد سيء، وبغى من بعضهم على بعض، ولهذا قال: ﴿وأولئك لهم عذاب عظيم﴾.

﴿١٠٦-١٠٧﴾ ثم بيّن متى يكون هذا العذاب العظيم، وبمسهم هذا العذاب الأليم، فقال: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون.

بخير تعالى، بتفاوت الخلق يوم القيامة، في السعادة والشقاوة، وأنه تبيض وجوه أهل السعادة، الذين آمنوا بالله، وصدقوا رسله، وامتلأوا أمره، واجتنبوا نهيه، وأن الله تعالى، يدخلهم الجنات ويفيض عليهم أنواع الكرامات، وهم فيها خالدون.

وتسود وجوه أهل الشقاوة، الذين كذبوا رسله، وعصوا أمره، وفرقوا دينهم شيعاً وأنهم يويخون، فيقال لهم: ﴿أكفرتم بعد إيمانكم﴾، فكيف اخترتم الكفر على الإيمان؟! ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾.

﴿١٠٨-١٠٩﴾ ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾ والله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور﴾ يشني تعالى، على ما قصه على نبيه من آياته، التي حصل بها الفرقان بين الحق والباطل، وبين أولياء الله وأعدائه، وما أعد لهؤلاء من الثواب، وللآخرين من العقاب، وأن ذلك مقتضى فضله وعدله، وحكمته، وأنه لم يظلم عباده، ولم يقصم من أعمالهم، أو يعذب أحداً بغير ذنبه، أو يحمل عليه وزر غيره.

﴿١١٠-١١١﴾ ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب وأكثرهم الفاسقون﴾ لأن يرضوكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون﴾ هذا إخبار من الله تعالى أن اليهود ضربت عليهم الذلة، فهم خائفون أينما شققوا، ولا يؤمنهم شيء إلا معاهدة، وسبب يأسون به، يرضخون لأحكام الإسلام، ويعترفون بالجزية.

﴿١١٢﴾ ﴿ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحيل من الله وحيل من الناس وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ هذا إخبار من الله تعالى أن اليهود ضربت عليهم الذلة، فهم خائفون أينما شققوا، ولا يؤمنهم شيء إلا معاهدة، وسبب يأسون به، يرضخون لأحكام الإسلام، ويعترفون بالجزية.

﴿١١٣-١١٤﴾ ﴿يسوا سوءاً من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين﴾ لما ذكر الله المتحرفين من أهل الكتاب، بيّن حالة المستقيمين منهم، وأن منهم أمة مقيمين لأصول الدين وفروعه.

﴿١١٥﴾ ﴿يسوا سوءاً من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وهو جميع الشر. كما قال تعالى: ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾.

﴿١١٦﴾ ﴿يسوا سوءاً من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين﴾ لما ذكر الله المتحرفين من أهل الكتاب، بيّن حالة المستقيمين منهم، وأن منهم أمة مقيمين لأصول الدين وفروعه.

﴿١١٧﴾ ﴿يسوا سوءاً من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين﴾ لما ذكر الله المتحرفين من أهل الكتاب، بيّن حالة المستقيمين منهم، وأن منهم أمة مقيمين لأصول الدين وفروعه.

﴿١١٨﴾ ﴿يسوا سوءاً من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين﴾ لما ذكر الله المتحرفين من أهل الكتاب، بيّن حالة المستقيمين منهم، وأن منهم أمة مقيمين لأصول الدين وفروعه.

﴿١١٩﴾ ﴿يسوا سوءاً من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين﴾ لما ذكر الله المتحرفين من أهل الكتاب، بيّن حالة المستقيمين منهم، وأن منهم أمة مقيمين لأصول الدين وفروعه.

﴿١٢٠﴾ ﴿يسوا سوءاً من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين﴾ لما ذكر الله المتحرفين من أهل الكتاب، بيّن حالة المستقيمين منهم، وأن منهم أمة مقيمين لأصول الدين وفروعه.

﴿١٢١﴾ ﴿يسوا سوءاً من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين﴾ لما ذكر الله المتحرفين من أهل الكتاب، بيّن حالة المستقيمين منهم، وأن منهم أمة مقيمين لأصول الدين وفروعه.

﴿١٢٢﴾ ﴿يسوا سوءاً من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين﴾ لما ذكر الله المتحرفين من أهل الكتاب، بيّن حالة المستقيمين منهم، وأن منهم أمة مقيمين لأصول الدين وفروعه.

﴿١٢٣﴾ ﴿يسوا سوءاً من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين﴾ لما ذكر الله المتحرفين من أهل الكتاب، بيّن حالة المستقيمين منهم، وأن منهم أمة مقيمين لأصول الدين وفروعه.

﴿١٢٤﴾ ﴿يسوا سوءاً من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين﴾ لما ذكر الله المتحرفين من أهل الكتاب، بيّن حالة المستقيمين منهم، وأن منهم أمة مقيمين لأصول الدين وفروعه.

﴿١٢٥﴾ ﴿يسوا سوءاً من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين﴾ لما ذكر الله المتحرفين من أهل الكتاب، بيّن حالة المستقيمين منهم، وأن منهم أمة مقيمين لأصول الدين وفروعه.

﴿١٢٦﴾ ﴿يسوا سوءاً من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين﴾ لما ذكر الله المتحرفين من أهل الكتاب، بيّن حالة المستقيمين منهم، وأن منهم أمة مقيمين لأصول الدين وفروعه.

﴿١٢٧﴾ ﴿يسوا سوءاً من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين﴾ لما ذكر الله المتحرفين من أهل الكتاب، بيّن حالة المستقيمين منهم، وأن منهم أمة مقيمين لأصول الدين وفروعه.

﴿١٢٨﴾ ﴿يسوا سوءاً من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين﴾ لما ذكر الله المتحرفين من أهل الكتاب، بيّن حالة المستقيمين منهم، وأن منهم أمة مقيمين لأصول الدين وفروعه.

(١) قد يشكل - على القارئ - هذا الموضوع إذ هو عن ملك اليهود لفلسطين مع أن الشيخ آلف التفسير قبل ذلك، ولكن هذه الجملة الموضوعية بين الفوسين المرتكين زيادة من هامش النسخة، لعل الشيخ كتبها بعد سنين من كتابته التفسير، والله أعلم.

لتقصده رضا الله، وطلب ثوابه.

﴿١١٦- ١١٧﴾ **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ**

تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ مثل ما يتفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ربح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون﴾ **﴿يُبَيِّنُ تَعَالَى: أَنْ** الكفار، الذين كفروا بآيات الله، وكذبوا رسله، أنه لا يتغذهم من عذاب الله منقذ، ولا يتغصم نافع، ولا يشفع لهم عند الله شافع، وأن أموالهم وأولادهم، التي كانوا يعدونها للشهداء والمكاهرة، لا تفيدهم شيئاً، وأن نفعاتهم التي أنفقوها في الدنيا، لنصر باطلهم، ستضمحل.

وأن مثلها **﴿كَمِثْلٍ﴾** حرث أصابته **﴿رَبِحٍ﴾** شديدة **﴿فِيهَا صِرٌّ﴾**، أي: برد شديد، أو نار محرقة، فأهلكت ذلك الحرث، وذلك بظلمهم فلم يظلمهم الله وعاقبهم بغير ذنب، وإنما ظلموا أنفسهم.

وهذه كفوفه تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا** ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، فيسيفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغفلون.

﴿١١٨- ١١٩﴾ **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**

لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خيلاً ردوا ما عتتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون﴾ **﴿هَا أَنْتُمْ** أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيط قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور إن تمسكتم حسنة تؤمكم وإن تمسكتم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما تعملون محيط﴾ هذا تحذير من الله لعباده عن ولاية الكفار، واتخاذهم بطانة، أو خصيصة وأصدقاء، يسرون إليهم، ويفضون لهم بأسرار المؤمنين، فوضع لعباده المؤمنين، الأمور الموجبة للبراهة من اتخاذهم بطانة بأنهم لا يألونكم خيلاً، أي: هم حريصون غير مقصرين، في إيصال الضرر بكم، وقد بدت البغضاء من كلامهم، وقللت استنتهم، وما تخفي صدورهم، من البغضاء والعداوة، أكبر مما ظهر لكم من أقوالهم وأفعالهم.

فإن كانت لكم فهومٌ وعقول، فقد وضع الله لكم أمرهم.

وأيضاً، فما الموجب لمحبتهم واتخاذهم أولياء وبطانة، وقد تعلمون منهم الانحراف العظيم في الدين وفي مقابلة إحصانكم؟

فأنتم مستقيمون على أديان الرسل، تؤمنون بكل رسول أرسله الله، وبكل كتاب أنزله الله، وهم يكفرون بأجل الكتب، وأشرف الرسل، وأنتم تبذلون لهم من الشفقة والمحبة، ما لا يكافئونكم على أقل القليل منه. فكيف تحبونهم، وهم لا يحبونكم، وهم يداهنونكم ويتفقونكم، فإذا لقوكم قالوا آمنا، وإذا خلوا مع بني جنسهم، عضوا عليكم الأنامل، من شدة الغيظ والبغض لكم ولدينكم.

قال تعالى: **﴿قُلْ مَوْتُوا بغيظكم﴾**، أي: سترون من عز الإسلام وذال الكفر ما يسوؤكم، وتموتون بغيظكم، فلن تدرؤوا شفاء ذلك بما تصدقون.

**﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ** بذات الصدور، فلذلك **﴿يُبَيِّنُ** لعباده المؤمنين، ما تطوي عليه صدور أعداء الدين من الكفار والمنافقين.

**﴿إِنْ تَمَسَّكُمُ** حسنة﴾ عز ونصر وعافية وخير **﴿تَوْهَمٍ﴾** وإن تصيبكم سيئة﴾ من إدالة العدو، أو حصول بعض المصائب الدنيوية **﴿يَفْرَحُوا** بها﴾، وهذا وصف العدو الشديد عداوته.

لما بين تعالى شدة عداوتهم، وشرح ما هم عليه من الصفات الخبيثة، أمر عباده المؤمنين بالصبر، ولزوم التقوى، وأنهم إذا قاموا بذلك، فلن يضرهم كيد أعدائهم شيئاً، فإن الله محيط بهم وبأعمالهم ويمكثهم، التي يكيدونكم فيها.

وقد وعدكم عند القيام بالتقوى، أنهم لا يضرؤنكم شيئاً، فلا تشكوا في حصول ذلك.

﴿١٢١- ١٢٣﴾ **﴿وَإِذَا غَدَوْتُمْ**

أهلك تيؤء المؤمنين مقاعد للقتال﴾، إلى آخر القصة. وذلك يوم **﴿أَحَدٍ﴾** حين خرج ﷺ بالمسلمين، حين وصل المشركون - بجمعهم - إلى قريب من **﴿أَحَدٍ﴾**. فنزلهم ﷺ منازلهم، ورتبهم في مقاعدهم، ونظمهم تنظيمًا عجيباً، يدل على كمال رأيه وبراعته الكاملة في فنون السياسة والحرب، كما كان كاملاً في كل المقامات.

**﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ** عليم﴾، لا يخفى عليه شيء من أموركم.

**﴿إِذْ هَمَّتْ** طانفتان منكم أن تفشلا﴾ وهم بنو سلمة وبنو حارثة، لكن تولاهما الباري بلفظه ورعايته وتوفيقه.

**﴿وَعَلَى اللَّهِ** فليتوكل المؤمنون﴾ فإنهم إذا توكلوا عليه، كفاهم وأعانهم، وعصمهم من وقوع ما يضرهم، في دينهم ودنياهم.

وفي هذه الآية ونحوها، وجوب التوكل وأنه على حسب إيمان العبد، يكون توكله، والتوكل هو اعتماد العبد على ربه في حصول منافعه، ودفع مضاره، فلما ذكر حالهم في **﴿أَحَدٍ﴾** وما جرى عليهم من المصيبة، أدخل فيها تذكيرهم بنصره، ونعمته عليهم يوم **﴿بَدْرٍ﴾** ليكونوا شاكرين لربه، وليخفف هذا هذا، فقال: **﴿وَلَقَدْ**

نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾ في عددكم وعدادكم، فكانوا ثلاثمائة، وبضعة عشر، في قلة ظهر، ورتانة سلاح، وأعدائهم يناهزون الأئف، في كمال العدة والسلاح.

**﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ** لعلكم تشاركون﴾ الذي أنعم عليكم بنصره.

**﴿إِذْ تَقُولُ﴾** مبشراً **﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾** شيئاً **﴿لِجَنَّتَانِهِمْ﴾**: **﴿الَّذِينَ يَكْفِيكُمُ** أن يمدكم بركم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين﴾ **﴿بَلَى إِنْ** تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا﴾، أي: من حيلتهم هذه بهذا الوجه.

**﴿يَمْدُدْكُمْ** بركم بخمسة آلاف من الملائكة موسمين﴾، أي: معلمين علامة الشجعان.

واختلف الناس، هل كان هذا الإمداد حصل فيه من الملائكة، مباشرة للقتال، كما قاله بعضهم، أو أن ذلك تبييت من الله لعباده المؤمنين، وإلقاء الرعب في قلوب المشركين كما قاله كثير من المفسرين.

ويدل عليه قوله: **﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ** إلا بشرى لكم ولطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾، وفي هذا أن الأسباب لا يعتمد عليها العبد، بل يعتمد على الله.

وإنما الأسباب وتوفرها، فيها طمأنينة للقلوب، وثبات على الخير.

**﴿لَيَقْطَعُ** طرفاً من الذين كفروا أو يكتهم فينقلبوا خائبين﴾، أي: نصر الله لعباده المؤمنين، لا يعدو أن يكون قطعاً لطرف

اللازمة، كمال المغفرة والرحمة، ووجود مقتضياتهما في الخلق والأمر، يغفر للثانين، ويرحم من قام بالأسباب الموجبة للرحمة، قال تعالى: ﴿وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾.

تم الجزء المجلد الأول من تيسير الرحيم الرحمن في تفسير القرآن بخط مؤلفه عبد الرحمن الناصر بن سعدي ٩ ربيع أول ١٣٤٣ غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم وبيته المجلد الثاني أوله يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا.

وهؤلاء الذين دعوت عليهم، أيها الرسول، أو استجدت فلاحهم وهدايتهم، إن شاء الله تاب عليهم، ووقفهم للدخول في الإسلام، وقد فعل، فإن أكثر أولئك هدامهم الله فأسلموا.

وإن شاء عذبهم، فإنهم ظالمون، مستحقون لعقوبات الله وعذابه.

﴿١٢٩﴾ ﴿والله ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم﴾ يخبر تعالى، أنه هو المتصرف في العالم العلوي والسفلي، وأنه يتوب على من يشاء، فيغفر له، ويخذل من يشاء، فيعذبه.

﴿والله غفور رحيم﴾ فمن صفته

من الكفار، أو يتقلبوا بغيظهم، لم ينالوا خيراً، كما أرحمهم يوم الخندق، بعدما كانوا قد أنوا على حرد قادين، أرحمهم الله بغيظهم خائبين.

﴿١٢٨﴾ ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾ لما أصيب ﷺ يوم أحد وكسرت ربايعته، وشج في رأسه، جعل يقول: «كيف يفلح قوم، شجوا وجه نبيهم، وكسروا ربايعته»، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وبين أن الأمر كله لله، وأن الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء، لأنه عبد من عبيد الله، والجميع تحت عبودية ربه، مدبرون لا مدبرون.

## فهرس أسماء السور

٦٩٢	تفسیر سورة یس	٣٩	تفسیر سورة الفاتحة
٧٠٠	تفسیر سورة الصافات	٤٠	تفسیر سورة البقرة
٧٠٩	تفسیر سورة ص	١٢١	تفسیر سورة آل عمران
٧١٧	تفسیر سورة الزمر	١٦٣	تفسیر سورة النساء
٧٣١	تفسیر سورة المؤمن (غافر)	٢١٨	تفسیر سورة المائدة
٧٤٤	تفسیر سورة فصلت	٢٥٠	تفسیر سورة الأنعام
٧٥٢	تفسیر سورة الشوری	٢٨٣	تفسیر سورة الأعراف
٧٦٢	تفسیر سورة الزخرف	٣١٥	تفسیر سورة الأنفال
٧٧١	تفسیر سورة الدخان	٣٢٨	تفسیر سورة براءة (التوبة)
٧٧٥	تفسیر سورة الجاثیة	٣٥٧	تفسیر سورة یونس
٧٧٩	تفسیر سورة الأحقاف	٣٧٦	تفسیر سورة هود
٧٨٤	تفسیر سورة القتال (محمد ﷺ)	٣٩٣	تفسیر سورة یوسف
٧٩١	تفسیر سورة الفتح	٤١٢	تفسیر سورة الرعد
٧٩٩	تفسیر سورة الحجرات	٤٢١	تفسیر سورة إبراهیم
٨٠٣	تفسیر سورة ق	٤٢٩	تفسیر سورة الحجر
٨٠٨	تفسیر سورة الذاریات	٤٣٥	تفسیر سورة النحل
٨١٣	تفسیر سورة الطور	٤٥٣	تفسیر سورة بنی اسرائیل (الإسراء)
٨١٨	تفسیر سورة النجم	٤٦٩	تفسیر سورة الکهف
٨٢٣	تفسیر سورة اقتریت (الانشقاق)	٤٨٩	تفسیر سورة مریم
٨٢٨	تفسیر سورة الرحمن	٥٠١	تفسیر سورة طه
٨٣٢	تفسیر سورة الواقعة	٥١٨	تفسیر سورة الأنبیاء
٨٣٧	تفسیر سورة الحديد	٥٣٢	تفسیر سورة الحج
٨٤٣	تفسیر سورة قد سمع الله (المجادلة)	٥٤٧	تفسیر سورة المؤمنون
٨٤٨	تفسیر سورة الحشر	٥٦١	تفسیر سورة النور
٨٥٤	تفسیر سورة الممتحنة	٥٧٧	تفسیر سورة الفرقان
٨٥٨	تفسیر سورة الصف	٥٨٩	تفسیر سورة الشعراء
٨٦٢	تفسیر سورة الجمعة	٦٠١	تفسیر سورة النمل
٨٦٤	تفسیر سورة المنافقون	٦١١	تفسیر سورة القصص
٨٦٦	تفسیر سورة التغابن	٦٢٦	تفسیر سورة العنکبوت
٨٦٩	تفسیر سورة الطلاق	٦٣٦	تفسیر سورة الروم
٨٧٢	تفسیر سورة التحريم	٦٤٦	تفسیر سورة لقمان
٨٧٥	تفسیر سورة الملك (تبارک)	٦٥٣	تفسیر سورة السجدة
٨٧٨	تفسیر سورة ن (القلم)	٦٥٧	تفسیر سورة الأحزاب
٨٨٢	تفسیر سورة الحاقه	٦٧٤	تفسیر سورة سبأ
٨٨٥	تفسیر سورة سأل سائل (المعارج)	٦٨٤	تفسیر سورة فاطر

- ٩٢٩ . . . تفسير سورة ألم نشرح لك صدرك (الشرح) . . . ٨٨٨ . . . . . تفسير سورة نوح
- ٩٢٩ . . . . . تفسير سورة التين . . . . . ٨٩٠ . . . . . تفسير سورة قل أوحى إلي (الجن)
- ٩٣٠ . . . . . تفسير سورة اقرأ (العلق) . . . . . ٨٩٢ . . . . . تفسير سورة المزمل
- ٩٣١ . . . . . تفسير سورة القدر . . . . . ٨٩٥ . . . . . تفسير سورة المدثر
- ٩٣١ . . . . . تفسير سورة لم يكن (البينة) . . . . . ٨٩٨ . . . . . تفسير سورة القيامة
- ٩٣٢ . . . . . تفسير سورة إذا زلزلت (الزلزلة) . . . . . ٩٠٠ . . . . . تفسير سورة الإنسان (الدهر)
- ٩٣٢ . . . . . تفسير سورة العاديات . . . . . ٩٠٣ . . . . . تفسير سورة المرسلات
- ٩٣٣ . . . . . تفسير سورة الفارعة . . . . . ٩٠٦ . . . . . تفسير سورة عمّ (النبا)
- ٩٣٣ . . . . . تفسير سورة الهاكم التكاثر (التكاثر) . . . . . ٩٠٨ . . . . . تفسير سورة عبس
- ٩٣٤ . . . . . تفسير سورة العصر . . . . . ٩١٠ . . . . . تفسير سورة التكويز
- ٩٣٤ . . . . . تفسير سورة الهمزة . . . . . ٩١٢ . . . . . تفسير سورة الانفطار
- ٩٣٤ . . . . . تفسير سورة الفيل . . . . . ٩١٤ . . . . . تفسير سورة المطففين
- ٩٣٥ . . . . . تفسير سورة لإيلاف قريش (قريش) . . . . . ٩١٥ . . . . . تفسير سورة الانشقاق
- ٩٣٥ . . . . . تفسير سورة الماعون . . . . . ٩١٨ . . . . . تفسير سورة البروج
- ٩٣٥ . . . . . تفسير سورة الكوثر . . . . . ٩١٩ . . . . . تفسير سورة الطارق
- ٩٣٦ . . . . . تفسير سورة الكافرون . . . . . ٩٢٠ . . . . . تفسير سورة سبح (الأعلى)
- ٩٣٦ . . . . . تفسير سورة النصر . . . . . ٩٢١ . . . . . تفسير سورة الغاشية
- ٩٣٦ . . . . . تفسير سورة نبت (اللهب) . . . . . ٩٢٣ . . . . . تفسير سورة الفجر
- ٩٣٧ . . . . . تفسير سورة الإخلاص . . . . . ٩٢٤ . . . . . تفسير سورة لا أفسم بهذا البلد (البلد)
- ٩٣٧ . . . . . تفسير سورة الفلق . . . . . ٩٢٦ . . . . . تفسير سورة والشمس وضحاها (الشمس)
- ٩٣٧ . . . . . تفسير سورة الناس . . . . . ٩٢٦ . . . . . تفسير سورة الليل
- ٩٢٨ . . . . . تفسير سورة الضحى . . . . . ٩٢٨ . . . . . تفسير سورة الضحى